



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر  
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَفُتْنَا فِي الْقَوْمِ الْخَاسِرِينَ

مختصر  
الأمم

في  
تفسير كتابي الله المنزلي

١-٥

المعروف أحمد علي بابي

القرآن البشري

هذا الكتاب هو منسوخ من كتابي الله المنزلي وهو منسوخ من كتابي الله المنزلي وهو منسوخ من كتابي الله المنزلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب عليه السلام

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

|     |  |
|-----|--|
| ٥   | الفهرس                                 |
| ١١  | مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل |
| ١١  | اشارة                                  |
| ١١  | الجزء الاول                            |
| ١١  | اشارة                                  |
| ١٢  | ١. سورة الفاتحة                        |
| ٢٠  | ٢. سورة البقرة                         |
| ١٤٩ | ٣. سورة آل عمران                       |
| ٢١٩ | ٤. سورة النساء                         |
| ٢٩٠ | ٥. سورة المائدة                        |
| ٣٤١ | الجزء الثانى                           |
| ٣٤١ | ٦. سورة الأنعام                        |
| ٣٩٦ | ٧. سورة الاعراف                        |
| ٤٥٦ | ٨. سورة الانفال                        |
| ٤٧٨ | ٩. سورة التوبة                         |
| ٥٢٦ | ١٠. سورة يونس                          |
| ٥٥١ | ١١. سورة هود                           |
| ٥٨٧ | ١٢. سورة يوسف                          |
| ٦٢٠ | ١٣. سورة الرعد                         |
| ٦٣٤ | ١٤. سورة ابراهيم                       |
| ٦٤٨ | ١٥. سورة الحجر                         |
| ٦٦١ | الجزء الثالث                           |
| ٦٦١ | ١٦ سورة النحل                          |

|      |                  |
|------|------------------|
| ٦٩٤  | ١٧ سورة الإسراء  |
| ٧٢٨  | ١٨ سورة الكهف    |
| ٧٥٩  | ١٩ سورة مريم     |
| ٧٧٥  | ٢٠ سورة طه       |
| ٧٩٨  | ٢١ سورة الأنبياء |
| ٨٢٢  | ٢٢ سورة الحج     |
| ٨٤٢  | ٢٣ سورة المؤمنون |
| ٨٦٠  | ٢٤ سورة التور    |
| ٨٨٠  | ٢٥ سورة الفرقان  |
| ٨٩٩  | ٢٦ سورة الشعراء  |
| ٩٢٥  | ٢٧ سورة التمل    |
| ٩٤٢  | ٢٨ سورة القصص    |
| ٩٦٥  | ٢٩ سورة العنكبوت |
| ٩٨٤  | ٣٠ سورة الزوم    |
| ٩٩٩  | الجزء الرابع     |
| ٩٩٩  | ٣١ سورة لقمان    |
| ١٠١١ | ٣٢ سورة السجدة   |
| ١٠١٨ | ٣٣ سورة الأحزاب  |
| ١٠٤٦ | ٣٤ سورة سبأ      |
| ١٠٦٢ | ٣٥ سورة فاطر     |
| ١٠٧٧ | ٣٦ سورة يس       |
| ١١٠١ | ٣٧ سورة صافات    |
| ١١٢٥ | ٣٨ سورة ص        |
| ١١٤٥ | ٣٩ سورة الزمر    |

- ١١٦٩ ..... سورة غافر .٤٠
- ١١٩٠ ..... سورة فصلت .٤١
- ١٢٠٦ ..... سورة الشورى .٤٤
- ١٢٢٣ ..... سورة الزخرف .٤٣
- ١٢٤٠ ..... سورة الدخان .٤٤
- ١٢٤٧ ..... سورة الجاثية .٤٥
- ١٢٥٦ ..... سورة الأحقاف .٤٦
- ١٢٦٧ ..... سورة محمد .٤٧
- ١٢٧٨ ..... سورة الفتح .٤٨
- ١٢٩١ ..... سورة الحجرات .٤٩
- ١٣٠٣ ..... سورة ق .٥٠
- ١٣١٢ ..... سورة الذاريات .٥١
- ١٣٢٢ ..... سورة الطور .٥٢
- ١٣٣٢ ..... الجزء الخامس
- ١٣٣٢ ..... سورة النجم .٥٣
- ١٣٤٥ ..... سورة القمر .٥٤
- ١٣٥٦ ..... سورة الرحمن .٥٥
- ١٣٦٩ ..... سورة الواقعة .٥٦
- ١٣٨١ ..... سورة الحديد .٥٧
- ١٣٩٣ ..... سورة المجادلة .٥٨
- ١٤٠٣ ..... سورة الحشر .٥٩
- ١٤١٥ ..... سورة الممتحنة .٦٠
- ١٤٢٣ ..... سورة الصف .٦١
- ١٤٢٧ ..... سورة الجمعة .٦٢

- ١٤٣١ ..... سورة المنافقون .٦٣
- ١٤٣٦ ..... سورة التغابن .٦٤
- ١٤٤٠ ..... سورة الطلاق .٦٥
- ١٤٤٦ ..... سورة التحريم .٦٦
- ١٤٥١ ..... سورة الملك .٦٧
- ١٤٦٦ ..... سورة الحاقّة .٦٩
- ١٤٧٤ ..... سورة المعارج .٧٠
- ١٤٧٩ ..... سورة نوح .٧١
- ١٤٨٤ ..... سورة سورة الجن .٧٢
- ١٤٩٢ ..... سورة المزمل .٧٣
- ١٤٩٧ ..... سورة المدثر .٧٤
- ١٥٠٦ ..... سورة القيامة .٧٥
- ١٥١٢ ..... سورة الإنسان .٧٦
- ١٥١٨ ..... سورة المرسلات .٧٧
- ١٥٢٤ ..... سورة النبأ .٧٨
- ١٥٣٢ ..... سورة النازعات .٧٩
- ١٥٣٨ ..... سورة عبس .٨٠
- ١٥٤٤ ..... سورة التكوير .٨١
- ١٥٥٠ ..... سورة الإنفطار .٨٢
- ١٥٥٣ ..... سورة المطفيين .٨٣
- ١٥٦٠ ..... سورة الانشقاق .٨٤
- ١٥٦٤ ..... سورة البروج .٨٥
- ١٥٦٨ ..... سورة الطارق .٨٦
- ١٥٧١ ..... سورة الأعلى .٨٧



٨٨. سورة الغاشية ..... ١٥٧٤
٨٩. سورة الفجر ..... ١٥٧٨
٩٠. سورة البلد ..... ١٥٨٤
٩١. سورة الشمس ..... ١٥٨٨
٩٢. سورة الليل ..... ١٥٩١
٩٣. سورة الضحى ..... ١٥٩٤
٩٤. سورة الشرح ..... ١٥٩٧
٩٥. سورة التين ..... ١٥٩٩
٩٦. سورة العلق ..... ١٦٠٠
٩٧. سورة القدر ..... ١٦٠٥
٩٨. سورة البينة ..... ١٦٠٧
٩٩. سورة الزلزلة ..... ١٦٠٩
١٠٠. سورة العاديات ..... ١٦١١
١٠١. سورة القارعة ..... ١٦١٣
١٠٢. سورة التكاثر ..... ١٦١٥
١٠٣. سورة العصر ..... ١٦١٦
١٠٤. سورة الهمزة ..... ١٦١٨
١٠٥. سورة الفيل ..... ١٦٢١
١٠٦. سورة قريش ..... ١٦٢٣
١٠٧. سورة الماعون ..... ١٦٢٤
١٠٨. سورة الكوثر ..... ١٦٢٥
١٠٩. سورة الكافرون ..... ١٦٢٧
١١٠. سورة النصر ..... ١٦٢٩
١١١. سورة المسد ..... ١٦٣٠

١١٢. سورة الاخلاص ..... ١٦٣٢
١١٣. سورة الفلق ..... ١٦٣٦
١١٤. سورة الناس ..... ١٦٣٨
- تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية ..... ١٦٤٠

## مختصر الامثل في تفسير كتاب الله المنزل

## إشارة

عنوان و نام پديدآور : مختصر الامثل في تفسير كتاب الله المنزل/ناصر مكارم شيرازي

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ١٤٢٨

مشخصات ظاهري : ج

وضعيت فهرست نویسی : در انتظار فهرستنویسی

شماره کتابشناسی ملی : ١١٤٨٣٩٣

## الجزء الاول

## إشارة

مقدمة:

إنّ القرآن الكريم يمثّل أعظم رأسمال في حياتنا نحن المسلمين ففي هذا الكتاب السماوي كل شيء يتصل بحياء الإنسان الدنيوية والأخروية من معارف، وأحكام، ومنهج حياة، وسياسة إسلامية، وطريقة معنوية في حركة الفرد نحو مقام القرب الإلهي وغير ذلك. على هذا الأساس فإنّ وظيفة كل مسلم تكمن في التعرف أكثر فأكثر على مضامين هذا الكتاب الإلهي، هذا من جهة ... ومن جهة أخرى فإنّ صوت الإسلام- بعد الصحوة الإسلامية التي يشهدها المسلمون وخاصة بعد الثورة الإسلامية في إيران- قد ملأ آفاق العالم، وأثار فضول غير المسلمين ورغبتهم في الإطلاع أكثر على أسرار ومعارف هذا السفر السماوي. ولهذا السبب ترتفع من كل مكان أصوات تطالب بترجمة وتفسير القرآن الكريم بمختلف اللغات الحيّة في العالم، وبالرغم من قصور حركة الاستجابة لهذه المطالبات على مستوى الواقع، إلّا أننا يجب علينا السعي بجديّة لتكون على مستوى الأمل والطموح في عملية الاستجابة وتحقيق هذه المطالبات.

ولحسن الحظ فإنّ حضور القرآن الكريم في حركة حياة المسلمين الفردية والاجتماعية في العالم، وخاصة في أجواء بلدنا إيران، يزداد ويشد يوماً بعد آخر، وعدد القراء الكبار والحافظين الأجلاء والمفسرين العارفين في مجتمعنا والحمد لله، ليس بالقليل، وقد صار فرع التفسير في الحوزة العلمية في قم أحد الفروع التخصصية المهمة في الدراسات العلمية في الحوزة التي تحظى باستقبال واسع من قبل الطلاب وصار درس التفسير من الدروس الرسمية في الحوزة وأحد موارد الامتحان فيها، ومن هنا جاء «التفسير الأمثل» لعبّر عن استجابة طبيعية لهذه المرحلة، وهي تفسير يميّز بالوضوح والمرونة والسهولة وفي ذات الوقت عميق المضامين دقيق المحتويات وناظر في معارفه لما يعيشه المسلمون من مسائل وتحديات يفرضها الواقع الاجتماعي والحضاري في حركة الحياة. ولعل من عوامل استقبال الناس الواسع لهذا التفسير هو ما تقدم من توجّه الناس في العصر الحاضر للقرآن الكريم.

وبالرغم من أنّ جهوداً كبيرة بذلت ولمدة خمسة عشر سنة، لإخراج هذا التفسير إلى حيز الوجود وبمشاركة مجموعة من الفضلاء الأعداء في الحوزة العلمية في قم وهم حجج الإسلام السادة: محمد رضا الآشتياني، محمد جعفر الإمامي، داود الالهامي، أسد الله الإيماني، عبدالرسول الحسنی، السيد حسن الشجاعی، السيد نور الله الطباطبائي، محمود عبداللهي، محسن قراءتي،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦

محمد محمدي الاشتهااردي، ومساهمة الاخوة الأفاضل الاستاذ محمد على آذرشب، الشيخ محمد رضا آل صادق، الاستاذ خالد توفيق

عيسى السيد محمّد الهاشمي، الاستاذ قصي هاشم فاخر، الاستاذ أسد مولوي، الشيخ مهدي الأنصاري، والسيد أحمد القبانجي، والشيخ هاشم الصالحى فى تنقيح هذا السفر الجليل.

ولكن الاستقبال الواسع، الذى حظى به هذا التفسير من قبل مختلف شرائح المجتمع الإسلامى بما فيهم خواننا أهل السنّة، قد أزال جميع الاتعاب المذكورة وغرس فى قلوب الأعداء الأمل بأن يقع هذا العمل مورد قبول ورضا الله تبارك وتعالى.

\*\*\* وبعد طبع ونشر «التفسير الأمثل» طلب الكثير من الناس العمل على نشر خلاصة لهذا التفسير القيم، ولرغبتهم فى التعرف على مضمون إجمالى للآيات الكريمة وبنفقات أقل وفى ذات الوقت يستفاد من هذه الخلاصة بعنوان متن دراسى فى عملية التفسير. هذا الطلب المتكرر دعانا للتفكير فى القيام بتخليص جميع هذه الدورة التفسيرية المكوّنة من ١٥ جزءاً فى خمسة أجزاء، ولكن هذا العمل لم يكن باليسير وقد استغرق التحضير ودراسة جميع تفاصيله مدّة من الزمان حتى أخذ حجّة الإسلام الشيخ الفاضل أحمد على بابائى - دامت تأييداته - على عهده إنجاز هذا المشروع المهم.

وبدورى فقد كنت أقوم بعملية الاشراف ومطالعة ما كتب فضيلته باستمرار وأبدي ملاحظاتي بالمقدار اللازم فى الموارد التى تحتاج إلى إلفات نظر وتذكير، وبالجملة فأنا اعتقد أن هذا العمل - وبحمد الله - هو عمل قيم ومثمر ويتضمّن شرحاً وافياً للآيات الشريفة من جهه، وتفسيراً مختصراً لمن يروم قراءة تفسيرية سريعة للقرآن الكريم، وقد سمى «مختصر الأمثل».

وإذا أتقدم بالشكر والتقدير للجهود التى بذلها فضيلة الشيخ فى هذا السبيل، فكلى أمل فى أن يقع هذه الخلاصة، التى تتضمن مقتطفات مهمّة وحساسة من التفسير الكبير، مورد قبول أصحاب الخبرة وعامة الناس من أهل القرآن ويكون هذا الجهد ذخيرتنا جميعاً يوم القيامة.

ونسأل الله سبحانه أن يوفّق كل العاملين على إعلاء راية القرآن فى العالم ويسدّد خطاهم وينصرهم على أعدائهم. ونسأله جلّ وعلا- أن يوفّق العلماء والمفكرين الواعين الملتزمين إلى قيادة هذا التحرك الإسلامى المتصاعد فى كل أرجاء العالم الإسلامى، قيادة أصلية قائمه على هدى القرآن الكريم والسنّة الشريفة، إنّه تعالى سميع مجيب.

قم - الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازى

مختصر الأمثل، ج ١، ص: ٧

## ١. سورة الفاتحة

خصائص السورة: لهذه السورة مكانة متميزة بين سائر سور القرآن الكريم، وتتميز بالخصائص التالية:

١- سياق السورة: تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن فى لحنها وسياقها، شاء الله فى هذه السورة أن يعلم عباده طريقة خطابهم له ومناجاتهم إياه.

تبدأ هذه السورة بحمد الله والثناء عليه، وتستمر فى إقرار الإيمان بالمبدأ والمعاد «بالله ويوم القيامة»، وتنتهى بالتضرع والطلب.

٢- سورة الحمد أساس القرآن: فى تفسير العياشى أن النبى صلى الله عليه وآله قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «يا جابر! ألا اعلمك أفضل سورة أنزلها الله فى كتابه؟ فقال له جابر: بلى بأبى أنت وامى يا رسول الله، علمنيها. فعلمه الحمد ام الكتاب. ثم قال: «يا جابر ألا اخبرك عنها؟ قال:

بلى بأبى أنت وامى، فأخبرني فقال: «هى شفاء من كل داء، إلّا السام، والسام الموت».

وفى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «والذى نفسى بيده ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلاً، هى ام الكتاب وهى السبع المثاني، وهى مقسومة بين الله وبين عبده ولعبده ما سأل».

«الام»: يعنى هنا الأساس والجذر، ولعل ابن عباس ينطلق من هذا الفهم إذ يقول:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨

«إن لكل شيء أساساً... وأساس القرآن الفاتحة» (١).

وفى تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أيما مسلم قرأ فاتحة الكتاب اعطى من الأجر كأنما قرأ ثلثي القرآن واعطى من الأجر كأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة».

٣- سورة الحمد شرف النبي صلى الله عليه وآله: يتحدث القرآن الكريم عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهية لرسوله الكريم، ويقرنها بكل القرآن إذ يقول: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» (٢).

٤- التأكيد على تلاوة هذه السورة: تلاوة هذه السورة تبعث الروح والإيمان والصفاء في النفوس، وتقرب العبد من الله، وتبعده عن ارتكاب الذنوب والانحرافات، ولذلك كانت ام الكتاب صاعقة على رأس (إبليس) كما ورد في تفسير نور الثقلين عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «رأى إبليس أربع رئات، أولهن يوم لعن، وحين اهبط إلى الأرض، وحين بعث محمد - صلى الله عليه وآله - على حين فترة من الرسل، وحين انزلت ام الكتاب».

محتوى السورة: يمكن تقسيم هذه السورة، من جهة أخرى إلى قسمين: قسم يختص بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمن حاجات العبد. وإلى هذا التقسيم يشير الحديث الشريف في عيون الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«قال الله عز وجل: قَسَمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَنَصَفْتُهَا لِي وَنَصَفْتُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

إذا قال العبد: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قال الله جلّ جلاله: بدأ عبدى باسمى وحق على أن أتمم له اموره وبارك له فى أحواله.

فإذا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». قال الله جلّ جلاله: حمدنى عبدى وعلم أنّ النعم التى له من عندى، وأنّ البلايا التى دفعت عنه فبتطوّلى، اشهدكم أنّى اضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا.

وإذا قال: «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قال الله جلّ جلاله: شهد لى عبدى أنّى الرحمن الرحيم، اشهدكم لاؤفرن من رحمتى حظّه ولأجزلن من عطائى نصيبه.

(١) تفسير مجمع البيان، بداية سورة الحمد.

(٢) سيأتى تفسير «سبعاً من المثاني» فى ذيل الآية (٨٧) من سورة الحجر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩

فإذا قال: «مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ». قال الله تعالى: اشهدكم كما اعترف بأنى أنا مالك يوم الدين لأسهلن يوم الحساب حسابيه، ولأتقبلن حسناته، ولأتجاوزن عن سيئاته.

فإذا قال العبد: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ». قال الله عز وجل: صدق عبدى، إياى يعبد اشهدكم لأثيبنه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه فى عبادته لى.

فإذا قال: «وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». قال الله تعالى: بى استعان عبدى، وإلى إتجأ، اشهدكم لأعيننه على أمره، ولأغيشنه فى شدائده ولأخذن بيده يوم نوابه.

فإذا قال: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ». إلى آخر السورة، قال الله عز وجل: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل وقد استجبت لعبدى وأعطيته ما أمّل وآمنته ممّا منه وجل».

لماذا سميت فاتحة الكتاب؟ «فاتحة الكتاب» اسم اتخذته هذه السورة فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله كما يبدو من الأخبار والأحاديث المنقولة عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

وهذه المسألة تفتح نافذة على مسألة مهمة من المسائل الإسلامية، وتلقى الضوء على قضية جمع القرآن، وتوضح أن القرآن يُجمع بالشكل الذي عليه الآن في زمن الرسول صلى الله عليه وآله، خلافاً لما قيل بشأن جمع القرآن في عصر الخلفاء، فسورة الحمد ليست أول سورة في ترتيب النزول حتى تسمى بهذا الاسم، ولا يوجد دليل آخر لذلك، وتسميتها بفاتحة الكتاب يرشدنا إلى أن القرآن قد جمع في زمن الرسول صلى الله عليه وآله بهذا الترتيب الذي هو عليه الآن.

وثمة أدلة أخرى تؤيد حقيقة جمع القرآن بالترتيب الذي بأيدينا اليوم في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وبأمره.

روى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ: يا عليّ! القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة فانطلق عليّ فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه في بيته وقال: لا أرتدى حتى أجمعه».

وهنا يثار سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النبي صلى الله عليه وآله، وفي الجواب نقول: إن ما روى بشأن جمع القرآن على يد الإمام علي عليه السلام بعد عصر الرسول، لم يكن جمعاً للقرآن وحده، بل هو مجموعة تتضمن القرآن وتفسيره وأسباب نزول الآيات وما شابه ذلك مما يحتاجه الفرد لفهم كلام الله العزيز.

كما يؤكد (حديث الثقلين) المروي في المصادر الشيعية والسنية، حيث أوصى رسول

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠

الله صلى الله عليه وآله بوديعته: كتاب الله وعترته، أن القرآن كان قد جمع في مجموعة واحدة في عصر الرسول الأعظم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل مهم ذي قيمة باسم كبير من رجالها أي أن أصحاب المؤسسة يبدأون العمل باسم تلك الشخصية، ولكن أليس من الأفضل أن يبدأ العمل في اطروحة أريد لها البقاء والخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟

فصفة الخلود والأبدية يختص بها الله تعالى من بين سائر الوجودات، ومن هنا ينبغي أن يبدأ كل شيء باسمه وتحت ظله وبالاستمداد منه ولذلك كانت البسملة أول آية في القرآن الكريم.

والبسملة لا ينبغي أن تنحصر في اللفظ والصورة، بل لابد أن تتعدى ذلك إلى الارتباط الواقعي بمعناها، وهذا الارتباط يخلق الإتجاه الصحيح ويصون من الانحراف، ويؤدي حتماً إلى نتيجة مطلوبة مباركة، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «كل أمر ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو أبت» (١).

وفي تفسير الميزان عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «... وينبغي الإتيان به عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك به».

وبعبارة موجزة: فإن بقاء العمل وخلوده يتوقف على إرتباطه بالله.

من هنا كانت الآية الأولى التي أنزلها الله على نبيه الكريم تحمل أمراً لصاحب الرسالة أن يبدأ مهمته الكبرى باسم الله: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» (٢).

ولذلك أيضاً فإن نوحاً عليه السلام حينما أراد أن يركب السفينة في ذلك الطوفان العجيب، ويمخر عباب الأمواج الهادرة، ويواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه يطلب من أتباعه

(١) بحار الأنوار ٧٣ / ٣٠٥.

(٢) سورة العلق / ١.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١

أن يرددوا البسملة في حركات السفينة وسكناتها: «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُزْسِيهَا» (١).

وسليمان عليه السلام يبدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» (٢).

وانطلاقاً من هذا المبدأ تبدأ كل سور القرآن بالبسملة، كى يتحقق هدفها، وهو الأصل المتمثل بهداية البشرية نحو السعادة، ويحالفها التوفيق من البداية إلى ختام المسيرة. وتنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لأنها تبدأ بإعلان الحرب على مشركى مكة وناكثى الإيمان، وإعلان الحرب لا ينسجم مع وصف الله بالرحمن الرحيم.

وطبيعى أن البدء باسم الله الذى تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، والعزم، والثقة، والاندفاع، والصمود والأمل أمام الصعاب والمشاكل، والإخلاص والنزاهة فى الحركة.

والإمام الصّادق عليه السلام قال: «ولربما ترك فى افتتاح أمر بعض شيعتنا بسم الله الرحمن الرحيم فيمتحنه الله بمكروه ويتبته على شكر الله تعالى والثناء عليه ويمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه قول بسم الله» (٣).

بحوث

١- هل البسملة جزء من السورة؟ أجمع علماء الشيعة على أن البسملة جزء من سورة الحمد وكل سور القرآن، وكتابتها فى مطالع السور أفضل شاهد على ذلك، لأننا نعلم أن النصّ القرآنى مصون عن أية إضافة، وذكر البسملة معمول به منذ زمن النبى صلى الله عليه وآله.

أضف إلى ذلك، أن سيرة المسلمين جرت دوماً على قراءة البسملة فى مطالع السور لدى تلاوة القرآن، وثبت بالتواتر قراءة النبى لها، وكيف يمكن أن تكون أجنبيّة عن القرآن والنبى والمسلمون يواظبون على قراءتها لدى تلاوتهم القرآن.

والمسألة واضحة إلى درجة كبيرة حتى روى صاحب السنن الكبرى: صلّى معاوية بالمدينة صلاة فلم يقرأ البسملة، فلما سلم ناداه من شهد ذلك من المهاجرين من كل مكان، يا معاوية! أسرقت أم نسيت؟

٢- لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى: إن كلمة «اسم» هى أول ما تطالعنا فى البسملة من

(١) سورة هود / ٤١.

(٢) سورة النمل / ٣٠.

(٣) بحار الأنوار ٧٣ / ٣٠٥.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢

كلمات، وهو فى رأى علماء اللغة من «السموّ» على وزن «العلوّ»، ومعناه الإرتفاع.

وبعد كلمة الإسم نلتقى بكلمة «الله» وهى أشمل أسماء ربّ العالمين، فكل إسم ورد لله فى القرآن الكريم وسائر المصادر الإسلامية يشير إلى جانب معين من صفات الله، والإسم الوحيد الجامع لكل الصفات والكمالات الإلهية أو الجامع لكل صفات الجلال والجمال هو «الله».

ولذلك اعتبرت بقية الإسماء صفات لكلمة «الله» مثل: «الغفور» و «الرحيم» و «السميع» و «العليم» و «البصير» و «الرزاق» و «ذوالقوة» و «المتين» و «الخالق» و «البارى» و «المصوّر».

فكلمة «الله» هى وحدها الجامعة، ومن هنا اتخذت هذه الكلمة صفات عديدة فى آية كريمة واحدة، حيث يقول تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» (١).

وأحد شواهد جامعيتها هذا الاسم أن الإيمان والتوحيد لا يمكن إعلانه إلاّ بعبارة «لا إله إلاّ الله»، وعبارة (لا إله إلاّ القادر ... أو إلاّ الخالق

... أو إلَّا الرزاق) لا تفي بالغرض.

٣- الرحمة الإلهية الخاصة والعامّة: المشهور بين جماعة من المفسرين أنّ صفة «الرّحمن» تشير إلى الرحمة الإلهية العامّة، وهي تشمل الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنيين والمسيئين، فرحمته تعمّ المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات. وصفه «الرّحيم» إشارة إلى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قد استحقوها بإيمانهم وعملهم الصالح، وحُرم منها المنحرفون والمجرمون.

لذلك فإنّ صفة «الرّحمن» ذكرت بصورة مطلقة في القرآن الكريم ممّا يدل على عموميتها، لكن صفة «الرّحيم» ذكرت أحياناً مقيدة، لدلالاتها الخاصّة، كقوله تعالى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» (٢). وأحياناً أخرى مطلقة كما في هذه السورة.

وفي الكافي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «والله إله كل شيء الرّحمن بجميع خلقه، والرّحيم بالمؤمنين خاصة». لم لم ترد بقية صفات الله في البسملة؟ في البسملة ذكرت صفتان لله فقط هما:

الرحمانية والرحيمية، فما هو السبب؟

(١) سورة الحشر/ ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب/ ٤٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣

الجواب يتضح لو عرفنا أنّ كل عمل ينبغي أن يبدأ بالاستمداد من صفة تعم آثارها جميع الكون وتشمل كل الموجودات، وتنقذ المستغيثين في اللحظات الحساسة.

هذه حقيقة يوضحها القرآن في الآية (١٥٦) من سورة الأعراف إذ يقول: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ».

ومن جانب آخر نرى الأنبياء وأتباعهم يتوسلون برحمة الله في المواقف الشديدة الحاسمة. فقوم موسى تضرعوا إلى الله أن ينقذهم من تجرّ فرعون وظلمه، وتوسلوا إليه برحمته فقالوا: «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ» (١).

وبشأن هود وقومه، يقول القرآن: «فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» (٢).

فإنّ أفعال الله تقوم أساساً على الرحمة، والعقاب له طابع استثنائي لا ينزل إلّا في ظروف خاصّة، كما نقرأ في دعاء الجوشن الكبير المروية عن آل بيت رسول الله: «يا من سبقت رحمته غضبه».

فالمجموعة البشرية السائرة على طريق الله ينبغي أن تقيم نظام حياتها على هذا الأساس أيضاً، وأن تقرن مواقفها بالرحمة والمحبة، وأن تترك العنف إلى المواضع الضرورية.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) العالم مغمور في رحمته تعالى: بعد البسملة، يأتي أول واجبات العباد وهو أن يستحضر دوماً مبدأ عالم الوجود، ونعمه اللامتناهية، هذه النعم التي تحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا إلى معرفة الله من جهة، وتدفعنا على طريق العبودية من جهة أخرى.

وعندما نقول أنّ النعم تشكّل دافعاً ومحركاً على طريق العبودية، لأنّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على إنعامه.

من هنا فإنّ علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون في بحوثهم الأولية لهذا العلم إلى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمراً فطرياً وعقلياً دافعاً إلى معرفة الله سبحانه.

وإنّما قلنا إنّ النعم تهدينا إلى معرفة الله، لأنّ أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفة سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، وخاصة ما يرتبط بوجود النعم في حياة الإنسان.



(١) سورة يونس / ٨٦.

(٢) سورة الأعراف / ٧٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤

ومما تقدم نفهم لماذا ابتدأت سورة الحمد بعبارة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

«الحمد» في اللغة: الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أي حينما يؤدي شخص عملاً طيباً عن وعي، أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لأعمال الخير فإننا نحمده ونثنى عليه. ولو علمنا أن الألف واللام في (الحمد) هي لاستغراق الجنس، لعلمنا أن كل حمد وثناء يختص بالله سبحانه دون سواه.

فتناؤنا على الآخرين ينطلق من ثنائنا عليه تعالى، لأن مواهب الواهبين كالأنبياء في هدايتهم للبشر، والمعلمين في تعليمهم، والكرماء في بذلهم وعطائهم، والأطباء في علاجهم للمرضى وتطبيبهم للمصابين، إنما هي في الأصل من ذاته المقدسة.

وهكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، والسحب بأقطارها، والأرض ببركاتها، كل ذلك منه سبحانه، ولذلك فكل الحمد له. جدير بالذكر أن الحمد ليس بداية كل عمل فحسب، بل هو نهاية كل عمل أيضاً كما يعلمنا القرآن. يقول سبحانه في الآية (١٠) من سورة يونس عن أهل الجنة: «دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

أمّا كلمة «رب»: فهي في الأصل بمعنى مالك وصاحب الشيء الذي يهتم بتربيته واصلاحه. وكلمة «عالمين»: جمع «عالم» والعالم: مجموعة من الموجودات المختلفة وحين تجمع بصيغة «عالمين» فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

وفي تفسير نور الثقلين عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في تفسير «رب العالمين» قال:

«رب العالمين وهم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات».

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) إِنَّ صَفْتِي «الرَّحْمَنُ» و «الرَّحِيمُ» تتكرران في البسملة والحمد، «والملتزمون» بذكر البسملة في السورة يكررون هاتين الصفتين في صلواتهم اليومية الواجبة ثلاثين مرة، وكذلك في الحمد وبذلك يصفون الله برحمته ستين مرة يومياً. وهذا في الواقع درس لكل جماعة بشرية سائرة على طريق الله، وتواقفه للتخلق بأخلاق الله، أنه درس يبعد البشرية عن تلك الحالات التي شهدتها تاريخ الرق في ظل القياصرة والأكاسرة والفرعنة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) الإيمان بيوم القيامة: في هذه السورة تلفت الأنظار إلى أصل مهم آخر من اصول الإسلام، هو يوم القيامة: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» وبذلك يكتمل محور المبدأ والمعاد، الذي يعتبر أساس كل إصلاح أخلاقي واجتماعي في وجود الإنسان.

إنّ تعبير «مالك» يوحي بسيطرة الله التامة وهيمنته المستحكمة على كل شيء وعلى كل فرد في ذلك اليوم، حيث تحضر البشرية في تلك المحكمة الكبرى للحساب، وتقف أمام مالكةا الحقيقي للحساب، وترى كل ما فعلته وقاتله، بل وحتى ما فكرت به، حاضراً، فلا يضيع أي شيء - مهما صغر - ولا ينسى، والإنسان - وحده - يحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج كل سئته استنّها في الأرض أو مشروع أقامه.

ومالكية الله في ذلك اليوم دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا للأشياء في هذا العالم، فملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل ووثائق، وينفسخ بموجب تعامل آخر ووثائق أخرى، لكن ملكية الله لعالم الكون ملكية حقيقية. وعبارة أخرى: مالكية الله نتيجة خالقيته وربوبيته، فالذي خلق الموجودات ورعاها وربّاه، وأفاض عليها الوجود لحظة بلحظة، هو المالك الحقيقي للموجودات.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا الله بأنه «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» بينما هو مالك الكون كله؟ والجواب هو أن الله مالك لعالم الدنيا والآخرة، لكن مالكيته ليوم القيامة أبرز وأظهر، لأنّ الإرتباطات المادية والملكيات الاعتبارية تتلاشى كلها في ذلك اليوم، وحتى

الشفاعة لا تتم يومئذ إلا بأمر الله: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» (١).

إن الإيمان بيوم القيامة، وبتلك المحكمة الإلهية الكبرى التي يخضع فيها كل شيء للإحصاء الدقيق، له الأثر الكبير في ضبط الإنسان أمام الزلّات، ووقايته من السقوط في المنحدرات، وأحد أسباب قدرة الصلاة على النهي عن الفحشاء والمنكر هو أنّها تذكّر الإنسان بالمبدأ المطّلع على حركاته وسكناته وتذكره أيضاً بمحكمة العدل الإلهي الكبرى.

وفي تفسير نور الثقلين عن علي بن إبراهيم: كان علي بن الحسين عليه السلام: «إذا قرأ «مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ» يكرّرها حتى يكاد أن يموت».

(١) سورة الانفطار / ١٩.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦

أمّا تعبير «يَوْمِ الدِّينِ» فحيثما ورد في القرآن فهو يعني يوم القيامة، وتكرر ذلك في أكثر من عشرة مواضع من كتاب الله العزيز، وفي الآيات (١٧ إلى ١٩) من سورة الانفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأما سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدين، فلأنّ يوم القيامة يوم الجزاء، و«الدين» في اللغة: «الجزاء»، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففي ذلك اليوم تُكشف السرائر ويُحاسب الناس عمّا فعلوه بدقة، ويرى كل فرد جزاء ما عمله صالحاً أم طالحاً.

وفي تفسير مجمع البيان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «ملك يوم الدين يعني يوم الحساب». و«الدين» استناداً إلى هذه الرواية يعني (الحساب).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) الإنسان بين يدي الله: في هذه الآية يستشعر الإنسان - بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة الله في نفسه - حضوره بين يدي الله ... يخاطبه ويناجيه، يتحدث إليه أوّلاً عن تعبه، ثم يستمد العون منه وحده دون سواه: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

فالآيات السابقة تحدّثت عن توحيد الذات والصفات، وهذه الآية تتحدّث عن توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

فتوحيد العبادة: يعني الاعتراف بأنّ الله سبحانه هو وحده اللائق بالعبادة والطاعة والخضوع، وبالتشريع دون سواه، كما يعني تجنب أي نوع من العبودية والتسليم لغير ذاته المقدسة.

وتوحيد الأفعال: هو الإيمان بأنّ الله هو المؤثر الحقيقي في العالم (لا مؤثر في الوجود إلا الله). وهذا لا يعني إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسببات، بل يعني الإيمان بأنّ تأثير الأسباب، إنّما كان بأمر الله.

وثمره هذا الاعتقاد أنّ الإنسان يصبح معتمداً على «الله» دون سواه، ويرى أنّ الله هو القادر العظيم فقط، ويرى ما سواه شبحاً لا حول له ولا قوة، وهو وحده سبحانه اللائق بالإتكال والاعتماد عليه في كل الامور. وهذا التفكير يحرر الإنسان من الإنشداد إلى أي موجود من الموجودات، ويربطه بالله وحده. إنّ كلمة «نعبد» و«نستعين» بصيغة الجمع تشير إلى أنّ العبادة - خاصة الصلاة - تقوم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧

على أساس الجمع والجماعة، وعلى العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة، حتّى حين يقف متضرّعاً بين يدي الله، فما بالك في المجالات الاخرى.

وهذا الاتجاه في العبادة يعني رفض الإسلام لكل ألوان الفردية والإنزال.

الاستعانة به تعالى في كل الامور: يواجه الإنسان في مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (في نفسه)، وخارجية (في مجتمعه)، ويحتاج في مقاومة هذه القوى المضادة إلى العون والمساعدة، ومن هنا يلزم على الإنسان عندما ينهض صباحاً أن يكرر عبارة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ليعترف بعبوديته لله سبحانه، وليستمد العون منه في مسيرته الطويلة الشاقة، وعندما يجنّ عليه الليل لا يستسلم للرقاد

إلّا بعد تكرار هذه العبارة أيضاً، والإنسان المستعين حقاً، هو الذى تتضاءل أمام عينيه كل القوى المتجبرة المتغترسة، وكل الجواذب المادية الخادعة، وذلك ما لا يكون إلّا حينما يرتفع الإنسان إلى مستوى القول:

«إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١).

السير على الصراط المستقيم: بعد أن يقرّ الإنسان بالتسليم لرب العالمين، ويرتفع إلى مستوى العبودية لله والاستعانة به تعالى، يتقدم هذا العبد بأول طلب من بارئه، وهو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطهر والخير، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، ليهبه الله نعمة الهداية كما وهبه جميع النعم الأخرى.

فالإنسان فى هذه المرحلة مؤمن طبعاً وعارف بربه، لكنه معرّض دوماً بسبب العوامل المضادة إلى سلب هذه النعمة والانحراف عن الصراط المستقيم.

ثمّة سؤال يتبادر إلى الإذهان عن سبب طلبنا من الله الهداية إلى الصراط المستقيم، ترى هل نحن ضالون كى نحتاج إلى هذه الهداية؟ وكيف يصدر مثل هذا الأمر عن المعصومين وهم نموذج الإنسان الكامل؟

وفى الجواب نقول: أولاً: إنّ الإنسان معرض فى كل لحظة إلى خطر التعثر والانحراف عن مسير الهداية ولهذا كان على الإنسان تفويض أمره إلى الله، والإستمداد منه فى تثبيت قدمه

(١) سورة الأنعام / ١٦٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨

على الصراط المستقيم. ثانياً: إنّ الهداية هى السير على طريق التكامل، حيث يقطع فيه الإنسان تدريجياً مراحل النقصان ليصل إلى المراحل العليا.

ومما تقدم نفهم سبب تضرع حتى الأنبياء والأئمة عليهم السلام لله تعالى ليهديهم «الصَّراطِ الْمُسْتَقِيمِ» فالكمال المطلق لله تعالى، وجميع ما سواه يسيرون على طريق التكامل، فما الغرابة فى أن يطلب المعصومون من ربهم درجات عليا.

ولمزيد من التوضيح نذكر الحديث التالى:

فى معانى الأخبار عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال فى تفسير «إِهْدِنَا الصَّراطِ الْمُسْتَقِيمِ»: «يعنى أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّى إلى محبتك، والمبلغ إلى جنتك، والمانع من أن تتبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك».

ما هو الصراط المستقيم؟ هذا الصراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم هو دين التوحيد والالتزام بأوامر الله، ولكنه ورد فى القرآن بتعابير مختلفة.

فهو الدين القيم ونهج إبراهيم عليه السلام ونفى كل أشكال الشرك كما جاء فى الآية (١٦١) من سورة الأنعام: «قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». فهذه الآية الشريفة عرّفت الصراط المستقيم من ناحية ايدولوجية.

إنّ «الراغب» يقول فى مفرداته فى معنى الصراط: إنّ الطريق المستقيم، فكلمة الصراط تتضمن معنى الاستقامة ووصفه بالمستقيم كذلك تأكيد على هذه الصفة.

خطان منحرفان: إنّ هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور فى الآية السابقة، إنّ صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهى بسبب سوء فعالهم وزيف قلوبهم، ولا الضائعين التائهيّن عن جادة الحق والهدى.

بحثنان

١- من هم «الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»؟ الذين أنعم الله عليهم، تبيينهم الآية (٦٩) من سورة النساء إذ يقول: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩

نحن- إذن- في سورة الحمد نطلب من الله- صباحاً ومساءً- أن يجعلنا في خط هذه المجاميع الأربعة: خط الأنبياء، وخط الصديقين، وخط الشهداء، وخط الصالحين، ومن الواضح أن علينا أن نهض في كل مرحلة زميتة بمسؤوليتنا ونؤدى رسالتنا.

٢- من هم «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»، ومن هم «الضَّالِّينَ»؟ يستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أن «المغضوب عليهم» أسوأ وأحط من «الضالين» أي إن الضالين هم التائهون عن الجادة، والمغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، ولذلك استحقوا لعن الله وغضبه.

في الآية (٦) من سورة الفتح يقول تعالى: «وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ».

«الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ». إذن يسلكون- إضافة إلى كفرهم- طريق اللجاج والعناد ومعاداة الحق، ولا يألون جهداً في توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الإلهية.

«نهاية تفسير سورة الحمد»

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١

## ٢. سورة البقرة

محتوى السورة: هذه السورة تتميز بشمولها لمبادئ العقيدة ولكثير من الأحكام العملية (العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية). ففي هذه السورة:

١- موضوعات حول التوحيد ومعرفة الخالق، عن طريق استنطاق أسرار الكون.

٢- جولات في عالم المعاد والبعث والنشور مقرونة بأمثلة حسية، مثل قصة إبراهيم عليه السلام وإحياء الطير، وقصة عزيز عليه السلام.

٣- آيات ترتبط بإعجاز القرآن وأهميته كتاب الله العزيز.

٤- سرد مطول حول وضع اليهود والمنافقين ومواقفهم المعادية للقرآن والإسلام وشدة ضررهم في هذا المجال.

٥- استعراض لتاريخ الأنبياء وخاصة إبراهيم وموسى عليهما السلام.

٦- بيان لأحكام إسلامية مختلفة مثل: الصلاة، والصوم، والجهاد، والحج، والقبلة، والزواج والطلاق، والتجارة والدين، والربا، والإنفاق، والقصاص، وتحريم بعض الأطعمة والأشربة، والقمار، وذكر نبذة من أحكام الوصية وأمثالها.

وأما تسميتها بالبقرة، فمأخوذة من قصة بقره بنى إسرائيل، التي سيأتي شرحها في الآيات (٧٣-٦٧) إن شاء الله.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢

فضيلة السورة: في تفسير مجمع البيان: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله أي سور القرآن أفضل؟ قال:

«البقرة». قيل: أي آية البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسي».

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقة، وهي أن ما ذكر من ثواب وفضيلة وجزاء لتلاوة بعض السور والآيات الخاصة، لا يعنى- إطلاقاً- قراءتها بشكل أورد، ولا الإكتفاء بتريدها ألفاظها، بل التلاوة للفهم، والفهم من أجل التفكير، والتفكير لغرض العمل.

صحيح أن قراءة القرآن عمل مثاب عليه في أي حال من الأحوال، لكن الثواب الأساس يترتب على التلاوة المقرونة بالتفكير والعمل.

الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) تحقيق في الحروف المقطعة في القرآن: تسع وعشرون سورة من سور القرآن تبدأ

بحروف مقطعة، وهذه الحروف من أسرار القرآن، وذكر المفسرون لها تفاسير عديدة.

جدير بالذكر أن التاريخ لم يحدثنا أن عرب الجاهلية والمشركين عابوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وجود هذه الحروف المقطعة في القرآن، ولم يتخذوا منها وسيلة للظعن والإستهزاء، وهذا يشير إلى أنهم لم يكونوا جاهلين تماماً بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا عدداً من التفاسير باعتبار مسنديتها وانسجامها مع آخر الدراسات في هذا المجال، وسنذكر هذه التفاسير بالتدرج في بداية هذه السورة، وسورة آل عمران، وسورة الأعراف، إن شاء الله. ونبدأ الآن بأهمها:

هذه الحروف إشارة إلى أن هذا الكتاب السماوي، بعظمته وأهميته التي حيرت فصحاء العرب وغير العرب، وتحدث الجن والإنس في عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة في تناول الجميع.

ومع أن القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتداولة، فإن ما فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ إلى القلب والروح، ويملاً النفس بالرضا والإعجاب، ويفرض احترامه على الأفكار والعقول.

وكما أن الله تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزة معقدة محيرة، وكأنواع الطيور الجميلة الرائقة، والأحياء المتنوعة، والنباتات والزهور المختلفة، وكما أننا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣

نتج من هذا التراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائية المتداولة، موضوعات ومعان سامية، في قوالب لفظية جميلة، وعبارات موزونة، وأسلوب خاص، وهذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل وعبارات شبيهة بالقرآن.

الأدب في العصر الجاهلي: من المهم أن نذكر هنا أن العصر الجاهلي كان عصرًا ذهيباً للأدب العربي. فالوثائق المتوفرة بأيدينا تشير إلى أن العرب الحفاه الجفاه الجاهليين، كانوا يتمتعون بذوق أدبي رفيع. وكان للأدب سوق رائجة تدل على اهتمام العرب بلغتهم وآدابهم، و (سوق عكاظ) وأمثالها من الأسواق الأدبية تعكس هذا الاهتمام بوضوح.

والسوق المذكور كان يشهد - إضافة إلى المعاملات الاقتصادية والقضايا الاجتماعية - حركة أدبية تعرض خلالها أفضل مقطوعات الشعر والنثر، ويتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، وكانت القصيدة الفائزة تعدّ فخراً كبيراً للشاعر ولقبيلته.

في مثل هذا العصر من الانتعاش الأدبي، يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله، ولكنهم عجزوا.

الشاهد الناطق على هذا المنحى من تفسير الحروف المقطعة، حديث في تفسير البرهان عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا هذا سحر مبین، تقوله، فقال الله: «الم \* ذَلِكَ الْكِتَابُ» أي يا محمّد، هذا الكتاب الذي أنزلته عليك هو الحروف المقطعة التي منها الف ولام وميم، وهو بلغتك وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم».

بعد البسملة وذكر الآية الأولى من سورة البقرة يقول تعالى: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَآرِيبَ فِيهِ».

وقوله: «لَآرِيبَ فِيهِ» ليس إدعاء، بل تقرير لحقيقة قرآنية مشهودة، وهي أن القرآن يشهد بذاته على حقانيته.

ومن المشهود أن مَرَّ العصور وكرَّ الدهور لم يقلل من طراوة القرآن، بل إن حقائق القرآن، ازدادت وضوحاً بتطور العلوم وبانكشاف أسرار الكائنات، وكلما ازداد العلم تكاملاً ازدادت آيات القرآن جلاءً وسطوعاً.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤

بحثنان

١- ما هي الهداية؟ كلمة «الهداية» لها عدّة معانى في القرآن الكريم، وكلها تعود أساساً إلى معنيين:

أ) الهداية التكوينية: وهي قيادة رب العالمين لموجودات الكون، وتتجلى هذه الهداية في نظام الخليقة والقوانين الطبيعية المتحكمة في الوجود.

ب) الهداية التشريعية: وهي التي تتم عن طريق الأنبياء والكتب السماوية، وعن طريقها يرتفع الإنسان في مدارج الكمال.

٢- لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟ واضح أن القرآن هداية للبشرية جمعاء، فلماذا خصت الآية الكريمة المتقين بهذه الهداية؟ السبب هو أن الإنسان لا يتقبل هداية الكتب السماوية ودعوة الأنبياء، ما لم يصل إلى مرحلة معينة من التقوى (مرحلة التسليم أمام الحق وقبول ما ينطبق مع العقل والفطرة).

الأرض السبخة لا- تنمر وإن هطل عليها المطر آلاف المرات، وساحة الوجود الإنساني لا تتقبل بذر الهداية ما لم يتم تطهيرها من اللجاج والتعصب والعناد، ولذلك قال سبحانه في كتابه العزيز أنه: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ».

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) آثار التقوى في روح الإنسان وبدنه: في بداية هذه السورة قسم القرآن الناس حسب إرتباطهم بخط الإسلام على ثلاثة أقسام:

١- المتقون: وهم الذين قبلوا الإسلام في جميع أبعاده.

٢- الكافرون: ويقعون في النقطة المقابلة للمتقين، ويعترفون بكفرهم، ولا يابون أن يظهروا عداهم للإسلام في القول والعمل.

٣- المنافقون: ولهم وجهان، فهم مسلمون ظاهراً أمام المسلمين، وكفار أمام أعداء الدين، وشخصيتهم الأصلية هي الكفر طبعاً وإن تظاهروا بالإسلام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥

المجموعة الثالثة تضر بالإسلام- دون شك- أكثر من المجموعة الثانية، ولذلك فإن القرآن يقابلهم بشدة أكثر كما سنرى.

الآيات المذكورة تدور حول المجموعة الاولى، وتطرح خصائصهم في خمسة عناوين هي:

١- الإيمان بالغيب: «الغيب والشهود» نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، وعالم الغيب هو ما وراء الحس. لأن «الغيب» في الأصل يعنى ما بطن وخفى، وقيل عن عالم ما وراء المحسوسات «غيب» لخفائه عن حواسنا.

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الاولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، وبين منكرى الخالق والوحى والقيامة، ومن هنا كان الإيمان بالغيب أول سمة ذكرت للمتقين.

«المؤمنين بالغيب» يعتقدون أن خالق عالم الوجود غير متناه في العلم والقدرة والإدراك، وأنه أزلى وأبدي.

وأن الموت ليس بمعنى العدم والفناء، بل هو نافذة تطل على عالم أوسع وأكبر.

بينما الإنسان المادى يعتقد أن عالم الوجود محدود بما نلمسه ونراه، وأن العالم وليد مجموعة من القوانين الطبيعية العمياء الخالية من أى هدف أو تخطيط أو عقل أو شعور، والإنسان جزء من الطبيعة ينتهى وجوده بموته.

ما أكبر الهوة التى تفصل بين هاتين الرؤيتين للكون والحياة.

الرؤية الاولى تربى صاحبها على أن ينشد الحق والعدل والخير ومساعدة الآخرين، والثانية، لا تقدم لصاحبها أى مبرر على ممارستها الامور.

من هنا يسود فى حياة المؤمنين الحقيقيين التفاهم والإخاء والطهر والتعاون، بينما تهيمن على حياة الماديين روح الاستعمار والاستغلال وسفك الدماء والنهب والسلب، وهذه الرؤية المادية تقمصت فى عصرنا الصفات العلمية والتقدمية والتطورية. ولهذا السبب نرى القرآن يتخذ من «الإيمان بالغيب» نقطة البداية فى التقوى.

٢- الإرتباط بالله: الصفة الاخرى للمتقين هى أنهم: «يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ».

«الصِّيَالَةَ» باعتبارها رمز الارتباط بالله، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ما وراء الطبيعة على إرتباط دائم بالخالق العظيم، فهم لا يحنون رؤوسهم إلا أمام الله، ولا يستسلمون إلا لرب السماوات والأرض.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٦

مثل هذا الإنسان يشعر أنه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ أنه منح لياقه الحديث مع رب العالمين، وهذا الإحساس الوجداني أكبر عامل في تربية الموجد البشري.

٣- الإرتباط بالناس: المتقون- إضافة إلى إرتباطهم الدائم بالخالق- لهم إرتباط وثيق ومستمر بالمخلوقين، ومن هنا كانت الصفة الثالثة التي يبينها لهم القرآن أنهم «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».

يلاحظ أن القرآن لا يقول: ومن أموالهم ينفقون، بل يقول: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» وبذلك وسع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية والمعنوية.

فالمثقفون لا ينفقون أموالهم فحسب، بل ينفقون من علمهم ومواهبهم العقلية وطاقاتهم الجسمية ومكانتهم الاجتماعية، وبعبارة اخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقع الجزاء منه.

٤- الإيمان بالأنبياء عليهم السلام: الخاصة الرابعة للمتقين الإيمان بجميع الأنبياء وبرسالاتهم الإلهية، «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ». وفي هذا التعبير القرآني إشارة إلى أن المتقين يؤمنون بأن الأديان الإلهية ليست وسيلة للتفرقة والنفاق، بل على العكس وسيلة للإرتباط وعامل للشد بين أبناء البشر.

٥- الإيمان بيوم القيامة: آخر صفة في هذه السلسلة من الصفات التي قررها القرآن للمتقين: «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

إنهم يوقنون بأن الإنسان لم يخلق هملاً وعبثاً. فالخلقة عينت للكائن البشري مسيرة تكاملية لا تنتهي إطلاقاً بموته.

المتقون يقرّون بأن عدالة الله المطلقة تنتظر الجميع، ولا شيء من أعمال البشر في هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

الإيمان بيوم القيامة له أثر عميق في تربية الإنسان، يهبه الشجاعة والشهامة، لأن أسمى وسام يتقلده الإنسان في هذا العالم هو وسام «الشهادة» على طريق هدف مقدس إلهي، والشهادة أحب شيء للإنسان المؤمن، وبداية لسعادته الأبدية.

الإيمان بيوم القيامة يصون الإنسان من ارتكاب الذنوب. فكلما قوى الإيمان قلت الذنوب.

آخر آية في هذا البحث تشير إلى النتيجة التي يتلقاها المؤمنون المتصفون بالصفات

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧

الخمس المذكورة. تقول: «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وقد ضمن رب العالمين لهؤلاء هدايتهم وفلاحهم.

واستعمال حرف (على) في عبارة «عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» يوحي بأن الهداية الإلهية مثل سفينة يركبها هؤلاء المتقون لتوصلهم إلى السعادة والفلاح.

واستعمال كلمة «هدى» في حالة نكرة يشير إلى عظمة الهداية التي شملهم الله بها.

وجملة «هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يفيد الإنحصار كما يذكر علماء البلاغة، أي إن الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين.

ما هي حقيقة التقوى؟ التقوى من الوقاية، أي الحفظ والصيانة، وهي عبارة اخرى جهاز الكبح الداخلي الذي يصون الإنسان أمام طغيان الشهوات.

إن حالة التقوى والضبط المعنوي من أوضح آثار الإيمان بالله واليوم الآخر، ومعيار فضيلة الإنسان وافتخاره، ومقياس شخصيته في الإسلام، حتى أضحت الآية الكريمة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ» «١» شعاراً إسلامياً خالداً.

جدير بالذكر أن التقوى ذات شعب وفروع، منها التقوى المالية والاقتصادية، والتقوى الاجتماعية والسياسية والتقوى الجنسية ....

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) المجموعة الثانية: الكفار المعاندون: هذه المجموعة تقف في النقطة المقابلة تماماً للمتقين، والآيات المذكورتان بيننا باختصار صفات هؤلاء. الآية الاولى تقول: إِنَّ الْإِنذَارَ لَا يَجْدِي نَفْعًا مَعَ هَؤُلَاءِ، فَهَم مَتَعَتُونَ فِي كَفَرِهِمْ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». بعكس الطائفة الاولى المستعدة لقبول الحق لدى أول ومضة.

هذه المجموعة غارقة في ضلالها وترفض الإنصياح للحق حتى لو اتضح لديها، لأنهم يفتقدون الأرضية اللازمة لقبول الحق والاستسلام له.

الآية الثانية تشير إلى سبب هذا اللجاج والتعصب وتقول: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى

(١) سورة الحجرات / ١٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨

سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» ولذلك استحقوا أن يكون «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

الإنسان قابل للهداية طبعاً- إن لم يصل إلى هذه المرحلة- مهما بلغ به الضلال، أما حينما يبلغ في درجة يفقد معها حس التشخيص «فلات حين نجاه» لأنه افتقد أدوات الوعي والفهم، ومن الطبيعي أن يكون في إنتظاره عذاب عظيم.

بحوث

١- سلب قدرة التشخيص ومسألة الجبر: أول سؤال يطرح في هذا المجال يدور حول مسألة الجبر، التي قد تتبادر إلى الأذهان من قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ». فهذا الختم يفيد بقاء هؤلاء في الكفر إجباراً، دون أن يكون لهم اختيار في الخروج من حالتهم هذه، أليس هذا بجبر؟

القرآن الكريم يجب على هذه التساؤل ويقول: إِنَّ هَذَا الْخَتْمَ وَهَذَا الْحِجَابَ هُمَا نَتِيجَةُ إِصْرَارِ هَؤُلَاءِ وَلِجَاهِهِمْ وَتَعَتَّتِهِمْ أَمَامَ الْحَقِّ، واستمرارهم في الظلم والطغيان والكفر، يقول تعالى: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ» (١). هذه الحالة التي تصيب الإنسان، هي رد فعل لأعمال الإنسان نفسه.

من المظاهر الطبيعية في الوجود البشري، أن الإنسان لو تعود على انحراف واستأنس به، يتخذ في المرحلة الاولى ماهية ال «حالة» ثم يتحول إلى «عادة» وبعدها يصبح «ملكة» وجزء من تكوين الإنسان حتى يبلغ أحياناً درجة لا يستطيع الإنسان أن يتخلى عنها أبداً. لكن الإنسان إختار طريق الانحراف هذا عن علم ووعي، ومن هنا كان هو المسؤول عن عواقب أعماله، دون أن يكون في المسألة جبر، تماماً مثل شخص فقاً عينيه وسدّ أذنيه عمداً، كى لا يسمع ولا يرى.

ولو رأينا أن الآيات تنسب الختم وإسدال الغشاوة إلى الله، فذلك لأن الله هو الذى منح الانحراف مثل هذه الخاصية. (تأمل بدقة).

٢- الختم على القلوب: في الآيات المذكورة وآيات اخرى عبر القرآن عن عملية سلب حس التشخيص والإدراك الواقعي للأفراد بالفعل «ختم» وأحياناً بالفعل «طبع» و «ران».

في اللغة «خَتَمَ» الإناء بمعنى سدّه بالطين أو غيره، وأصلها من وضع الختم على الكتب

(١) سورة النساء / ١٥٥.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩

والأبواب كى لا تُفتح، والختم اليوم مستعمل في الإستيثاق من الشىء والمنع منه كختم سندات الأملاك والرسائل السريّة الهامة. و «طبع» بمعنى ختم أيضاً.



أمّا «ران» فمن «الرين» وهو صدادٌ يعلو الشيء الجليّ، واستعمل القرآن هذه الكلمة في حديثه عن قلوب الغارقين في أحوال الفساد والرزيلة: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١).

المهم أنّ الإنسان ينبغي أن يكون حذراً لدى صدور الذنب منه، فيسارع إلى غسله بماء التوبة والعمل الصالح، كي لا يتحول إلى صفة ثابتة مختم عليها في القلب.

٣- المقصود من «القلب» في القرآن: لماذا نسب إدراك الحقائق في القرآن إلى القلب، بينما القلب ليس بمركز للإدراك بل مضخة لدفع الدم إلى البدن؟

أنّ القلب في القرآن له معانٍ متعددة منها:

١- بمعنى العقل والإدراك كقوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» (٢).

٢- بمعنى الروح والنفس كقوله سبحانه: «وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» (٣).

٣- بمعنى مركز العواطف كقوله: «سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» (٤).

لمزيد من التوضيح نقول: في وجود الإنسان مركزان قويان هما:

أ) مركز الإدراك، ويتكون من الدماغ وجهاز الأعصاب.

ب) مركز العواطف، وهو عبارة عن هذا القلب الصنوبري الواقع في الجانب الأيسر من الصدر، والمسائل العاطفية تؤثر أول ما تؤثر على هذا المركز.

حينما نواجه مصيبة فإننا نحس بثقلها على هذا القلب الصنوبري، وحينما يغمرنا الفرح فإننا نحس بالسرور والإنشراح في هذا المركز (لاحظ بدقة).

صحيح أنّ المركز الأصلي للإدراك والعواطف هو الروح والنفس الإنسانية، لكن المظاهر

(١) سورة المطففين / ١٤.

(٢) سورة ق / ٣٧.

(٣) سورة الأحزاب / ١٠.

(٤) سورة الأنفال / ١٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠

وردود الفعل الجسمية لها مختلفة. ردود فعل الفهم والإدراك تظهر أولاً في جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفية كالحب والبغض والخوف والسكينة والفرح والهّم تظهر في القلب بشكل واضح، ويحسها الإنسان في هذا الموضوع من الجسم.

مما تقدم نفهم سبب إرتباط المسائل العاطفية في القرآن بالقلب (العضو الصنوبري المخصوص)، وإرتباط المسائل العقلية بالقلب (أى: العقل أو الدماغ).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

(٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا

إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ

(١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ (١٦) المجموعة الثالثة: المنافقون: الإسلام واجه في عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تكن تملك الإخلاص اللازم للإيمان، ولا

القدرة اللازمة للمعارضة. هذه المجموعة المذبذبة المصابة بازدواج الشخصية كان تشخيصهم صعباً لأنهم متظاهرون بالإسلام، غير أن القرآن بين بدقة مواصفاتهم وأعطى للمسلمين في كل القرون والأعصار معايير حية لمعرفةهم. الآيات المذكورة قبلها بينت في مطلعها الخط العام للنفاق والمنافقين «١»: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ».

(١) «المنافق»: مشتقة من «النفق» وهو الطريق النافذ في الأرض المحفور فيها للإستتار أو الفرار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعاً من الشطارة والدهاء «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا». بينما لا يشعر هؤلاء أنهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، ويبددون بانحرافهم هذا طاقتهم، ولا يجنون من ذلك إلا الخسران والعذاب الإلهي. «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

في الآية التالية يبين القرآن أن النفاق في حقيقته نوع من المرض، فإن الإنسان السالم له وجه واحد فقط، وفي ذاته انسجام تام بين الروح والجسد، لأن الظاهر والباطن، والروح والجسم، يكمل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمناً فالإيمان يتجلى في كل وجوده، وإذا كان منحرفاً فظاهره وباطنه يدلان على انحرافه.

وازدواجية الجسم والروح مرض آخر وعلة إضافية. إنه نوع من التضاد والانفصال في الشخصية الإنسانية: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ».

وبما أن سنة الله في الكون اقتضت أن يتيسر الطريق لكل سالك، وأن تتوفر سبل التقدم لكل من يجهد في وضع قدمه على الطريق. فقد أضاف القرآن قوله: «فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا».

وبما أن الكذب رأس مال المنافقين، يبررون به ما في حياتهم من متناقضات، ولهذا أشار القرآن في ختام الآية إلى هذه الحقيقة: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، وتذكر أولاً أنهم يتشددون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب والفساد: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَاتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ\* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ».

ذكرنا سابقاً أن الإنسان، لو تمادى في الغي والضلال، يفقد قدرة التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، ويصبح الذنب والاثم جزءاً من طبيعته. والمنافقون أيضاً بإصرارهم على انحرافهم يتطبعون بخط النفاق، وتترأى لهم أعمالهم بالتدريج وكأنهم أعمال إصلاحية، وتغدو بصورة طبيعة ثانية لهم.

علامتهم الاخرى: إعتدادهم بأنفسهم واعتقادهم أنهم ذووا عقل وتدبير، وأن المؤمنين سفهاء وبسطاء: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ».

وهكذا تنقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الإنصياع للحق وإتباع الدعوة الإلهية سفاهة، بينما يرون شيطنتهم وتذبذبهم تعقلاً ودراية! غير أن الحقيقة عكس ما يرون: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ». أليس من السفاهة أن يضيع الإنسان

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢

وحده شخصيته، ويتجه نحو ازدواجية الشخصية وتعدد الشخصيات في ذاته، ويهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب والتآمر والتخريب، وهو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟! العلامة الثالثة لهؤلاء، هي تلونهم بألوان معينة تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين ولأعدائهم من الشياطين: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ».

وبلهجة قوية حاسمة يرد القرآن الكريم على هؤلاء ويقول: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «١».

الآية الأخيرة توضح المصير الأسود المظلم لهؤلاء المنافقين، وخسارتهم في سيرتهم الحياتية الضالة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَلَةَ

بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تَجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

إن ازدواجية الشخصية، والتضاد بين المحتوى الداخلي والسلوك الخارجي في وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة في أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم الفردي والاجتماعي.

سعة معنى النفاق: النفاق في مفهومه الخاص صفة اولئك الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، لكن النفاق له معنى عام واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر والباطن، وكل افتراق بين القول والعمل، من هنا قد يوجد في قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف» (٢).

الحديث لا يدور هنا طبعاً عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذى فى قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفة، وخاصة بشكل رياء، كما جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الرياء شجرة لا تثمر إلا للشرك الخفى وأصلها النفاق» (٣).

(١) «يعمهون»: من «العمه» أى التردد فى الأمر، وأيضاً بمعنى عمى القلب والبصيرة بسبب التحير.

(٢) بحار الأنوار ٦٩ / ١٠٨ / ٨.

(٣) بحار الأنوار ٦٩ / ٣٠٠ / ٣٧.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣

خداع الضمير: الآية المذكورة تشير بوضوح إلى حقيقة خداع الضمير والوجدان، وأن الإنسان المنحرف الملوث كثيراً ما يعمد إلى خداع نفسه ووجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، ويصبح بالتدريج مقتنعاً بأن قبائحه ليست عملاً انحرافياً، بل هى أعمال إصلاحية «إنما نخنن مصلحون». وبذلك يخدعون أنفسهم ويستمررون فى غيهم.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّكُمْ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَزْجَعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعِيدٌ وَبَرَقَ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين: بعد أن بين القرآن صفات المنافقين وخصائصهم، يقدم مثالين متحركين لتجسيم وضعهم:

١- «مَثَلُهُمْ» المنافقين «كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» فى ليله مظلمه، كى يهتدى بها فى الطريق ويبلغ مقصده، «فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ».

لقد ظن هؤلاء أنهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانيات إنارة محدودة، ولكن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوية، أو بسبب نفاد الوقود، وظلوا حائرين لا يهتدون سبيلاً.

ثم تضيف الآية الكريمة أن هؤلاء فقدوا كل وسيلة لدرك الحقائق: «صُمُّكُمْ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَزْجَعُونَ».

هذا النور الضعيف المؤقت، إما أن يكون إشارة إلى الضمير والفترة التوحيدية، أو إشارة إلى الإيمان الأولى لهؤلاء المنافقين حيث اسدلت عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى والتعصب المقيت واللجاج والعداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل إلى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤

«ظلمات» فى التعبير القرآنى.

هذا التشبيه يوضح واحدة من حقائق النفاق، وهى أن عمر النفاق والتذبذب لا يدوم طويلاً، قد يستطيع المنافقون لمدة قصيرة أن

يتمتعوا بمصونية الإسلام والإيمان، وبصداقة الكفار سرّاً، لكن هذه الحالة مثل شعله ضعيفة معرضة لألوان العواصف، سرعان ما تنطفئ، ويظهر الوجه الحقيقي للمنافقين. ٢- في المثل الثاني صور القرآن حياة المنافقين بشكل ليلته ظلماء مخوفة خطيرة، يهطل فيها مطر غزير، وينطلق من كل ناحية منها نور يكاد يخطف الأبصار، ويملأ الجو صوت مهيب مرعب يكاد يمزق الآذان، وفي هذا المناخ القلق ضلّ مسافرٌ طريقه، وبقي في بلقع فسيح لا ملجأ فيه ولا ملاذ، لا يستطيع أن يحتسى من المطر الغزير، ولا من الرعد والبرق، ولا يهتدى إلى طريق لشدة الظلام. هذه الصورة يرسمها القرآن على النحو التالي: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَرِيذَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ \* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا».

هؤلاء يحسّون كل لحظة بخطر، لأنهم يطؤون صحراء لا جبال فيها ولا أشجار تحميهم من خطر الرعد والبرق والصواعق. نعم، هؤلاء حيارى مضطربون، لا يجدون طريقاً يسلكونه، ولا دليلاً يهتدون به، خطر صوت الرعد يهدد أسماعهم، ونور البرق يكاد يذهب بأبصارهم «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». هذه الآيات- وإن كانت تتحدث عن المنافقين في عصر نزول الوحي- تمتد لتشمل كل المنافقين في التاريخ، لأن خطّ النفاق يقف دوماً بوجه الخط الثوري الصادق الصحيح، ونحن نرى بأعيننا اليوم مدى انطباق ما يقوله القرآن على منافقي عصرنا بدقة. نرى حيرتهم وخوفهم واضطرابهم، ونرى تعاستهم وبؤسهم وانفضاحهم تماماً مثل تلك المجموعة المسافرة الهائمة في صحراء مقفرة وفي ليلته ظلماء موحشة.

أمّا بشأن الفرق بين المثاليين: إن قوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي ...» يصور حالة المنافقين الذين انخرطوا في صفوف المؤمنين عن اعتقاد حقيقي، ثم تزعموا واتجهوا نحو النفاق. أمّا قوله: «كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...» فيمثل حالة المنافقين الذين كانوا منذ البداية في صف النفاق، ولم يؤمنوا بالله قط.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) فيما سبق من آيات كتاب الله سبحانه تبيّن ثلاث مجموعات هي: مجموعة المتّقين، ومجموعة الكافرين، ومجموعة المنافقين. أمّا الآيات المذكورة فدعت الناس إلى انتخاب طريق المجموعة الاولى وإلى عبادة الله الواحد الأحد. يقول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

١- قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» تكرر في القرآن عشرين مرّة تقريباً، وهو نداء عام شامل يشير إلى أن القرآن لا يختص بعنصر أو قبيلة أو طائفة أو فئة خاصة، بل يوجه دعوته إلى البشرية عامة لعبادة الله، وللثورة على كل ألوان الشرك والانحراف عن طريق التوحيد.

٢- يركّز القرآن، في دعوته إلى عبادة الله وإلى شكر الله، على نعمة خلق البشر، وهي نعمة تتجلى فيها قدرة الله كما يتجلى فيها علم الله وحكمته.

٣- نتيجة هذه العبادة هي التقوى: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» فعباداتنا لا تزيد الله عظمة وجلالاً، كما أن إعراضنا عن العبادة لا ينقص من عظمة الله شيئاً، هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوى.

٤- عبارة «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» لعلها ردّ على استدلال المشركين الذين برروا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم والآية الكريمة تشير بهذه العبارة إلى أن الله الواحد الأحد، خالق البشر وخالق آبائهم، وكل شرك يعترى المسيرة البشرية في حاضرها وسالفها هو انحراف عن الخط الصحيح.

نعم الأرض والسما: الآية التالية استعرضت قسماً آخر من النعم الإلهية التي تستحق الشكر، ذكرت أولاً خلق الأرض: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

الْأَرْضَ فِرَاشًا».

إنّ تعبير «فراش» بصوّر بشكل رائع مفهوم الاستقرار والاستراحة.

في تفسير نور الثقلين هذه الحقيقة يعبر عنها الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام مفسراً هذه

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦

الآية إذ يقول: «جعلها ملائمةً بطباعكم، موافقةً لأجسادكم ولم يجعلها شديدةً الحماة والحرارة فتحرقكم ولا شديدةً البرودة فتجمدكم ولا شديد طيب الريح فتصدع هاماتكم ولا شديد التتن فتعطبكم ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وأبنتكم وقبور موتاكم ... فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم». ثم تتعرض الآية إلى نعمة السماء فتقول: «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً».

كلمة «سما» وردت في القرآن بمعان مختلفة، وكلها تشير إلى العلو، وأحد معاني السماء «جو الأرض» وهو المقصود في الآية الكريمة، وجو الأرض هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سمكها عدّة مئات من الكيلومترات.

هذه الطبقة الهوائية مثل سقف شفاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، ولو لم يكن هذا السقف لتعرضت الأرض دوماً إلى رشق الشهب والنيازك السماوية المتناثرة، ولما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب.

بعد ذلك تطرقت الآية إلى نعمة المطر: «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». ماءً يحيى الأرض ويخرج منها الثمرات.

ثم تشير الآية إلى نعمة الثمرات التي تخرج من بركة الأمطار لتكون رزقاً لبنى البشر «فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ».

وإخراج الثمرات مدعاة للشكر على رحمة رب العالمين لعباده، ومدعاة للإذعان بقدره رب العالمين في إخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتاً للإنسان والحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

«الأنداد»: جمع «نَد» على وزن ضدّ، وهو الشبيه والشريك. وبعبارة أدق: ندّ الشيء ونديده مشاركة في جوهره، وذلك ضرب من المماثلة، أي المماثلة في جوهر الذات.

الشرك في أشكال مختلفة: إنّ الشرك بالله لا ينحصر باتخاذ الأوثان الحجرية والخشبية آلهة من دون الله كما يفعل الوثنيون، بل إنّ للشرك معنى أوسع، وبشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء لها نفس تأثير الله في الحياة هو نوع من الشرك. وهذا ما يعبر عنه ابن عباس إذ يقول: «الأنداد هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي. ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧

البط في الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت! وقول الرجل: لولا الله وفلان ... هذا كله به شرك» (١).

مثل هذه التعابير التي يشم منها رائحة الشرك رائجة - مع الأسف - بين سواد المسلمين وغير لائقة بالشخص الموحّد، كقولهم: اعتمادى على الله وعليك!

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) القرآن معجزة خالدة: ظاهرة الكفر والنفاق، تنشأ أحياناً عن عدم فهم محتوى النبوة ومعجزة الرسول صلى الله عليه وآله، والآيات التي نحن بصددنا تعالج هذه المسألة، وتركز على المعجزة القرآنية الخالدة كى تزيل كل شك وترديد فى رساله نبي الخاتم صلى الله عليه وآله. تقول الآية: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ».

وبهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله، كى يكون عجزهم دليلاً واضحاً على أصالة هذا الوحي السماوى وعلى الجانب الإلهى للرسالة والدعوة.

ولأجل أن يؤكد هذا التحدى دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

كلمة «شهداء» تشير إلى الفئة التي كانت تساعدهم في رفض رسالة النبي صلى الله عليه وآله وعبارة «مَنْ دُونَ اللَّهِ» إشارة إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسورة قرآنية ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإلى قدرة الله وحده على ذلك.

وعبارة «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تستهدف حثهم على قبول هذا التحدى، ومفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذن لإثبات ادعائكم.

من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الإثارة ويقول: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ». وهذه النار ليست حديث مستقبل، بل هي واقع قائم: «أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

(١) تفسير في ظلال القرآن ١/ ٥٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨

جمع من المفسرين قالوا: إِنَّ المقصود بالحجارة: الأصنام الحجرية، واستشهدوا لذلك بالآية (٩٨) من سورة الأنبياء: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ».

ويبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أن نار جهنم تستعر من داخل الناس والحجارة، ولا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أن العلم الحديث أثبت أن كل أجسام العالم تنطوى فى أعماقها على نار عظيمة.

وفى الآيتى (٦ و ٧) من سورة الهمزة يقول تعالى: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ» الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَادَةِ». خلافاً لنيران هذا العالم التى تنفذ من الخارج إلى الداخل.

بحثنان

١- لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزة؟ «المعجزة»- كما هو واضح من لفظها- عمل خارق يأتى به النبى ويعجز عن الإتيان به الآخرون.

على النبى صاحب المعجزة أن يتحدى الناس بمعجزته، وأن يعلن لهم أن معجزته دليل على صدق دعواه.

٢- القرآن معجزة نبي الأكرم الخالدة: القرآن كتاب يسمو على أفكار البشر، هذا الكتاب الكريم يعتبر- بين معاجز النبى صلى الله عليه وآله- أقوى سند حى على نبوة الرسول الخاتم، لأنه معجزة «ناطقة» و «خالدة» و «عالمية» و «معنوية».

أما أنه معجزة «ناطقة» فإن معاجز الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أى أنها كانت بحاجة إلى وجود النبى لكى يتحدث للناس عن معجزته ويتحداهم بها، ومعاجز النبى الخاتم- عدا القرآن- هى من هذا اللون، أما القرآن فمعجزة ناطقة، لا يحتاج إلى تعريف، يدعو

لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين ويدينهم ويخرج منتصراً من ساحه التحدى، وهو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم فى عصر الرسالة، أنه دين ومعجزة، أنه قانون، ووثيقة تثبت إلهية القانون.

أمياً الخلود والعالمية: فإن القرآن حطم سدود «الزمان والمكان» فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، وما لا يرتبط بزمان أو مكان فإنه يحوى عناصر الدوام والخلود وسعة دائرته العالمية، وبديهي أن الدين العالمى الخالد بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أما الصفة «المعنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر إلى معاجز الأنبياء السابقين، ونرى أنها

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩

كانت غالباً «جسمية» مثل: شفاء الأمراض الجسمية المستعصية، وتحدث الطفل فى المهده ...

وكانت تتجه نحو تسخير الأعضاء البدنية. أما القرآن، فيسخر القلوب والنفوس، ويبعث فيها الإعجاب والإكبار، إنه يتعامل مع الأرواح والأفكار والعقول البشرية، وواضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ

قَبِيلٌ وَآتُوا بِهِ مُشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) خصائص نعم الجنة: آخر آية في بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، وهذه الآية تحدثت عن مصير المؤمنين، كى تتضح الحقيقة أكثر بالمقارنة بين الصورتين، على الطريقة القرآنية في التوضيح. فى المقطع الأول تقول الآية: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

نعلم أن البساتين التى تفتقد الماء الدائم، وتسقى بين حين وحين ليس لها حظ كبير من النظارة، فالنظارة تطفح على البساتين التى تمتلك ماء سقى دائم مستمر لا ينقطع أبداً، ومثل هذه البساتين لا يعترىها جفاف ولا تهددها شح ماء. وهذه هى بساتين الجنة. وبعد الإشارة إلى ثمار الجنة المتنوعة تقول الآية: «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ». ثم تقول الآية: «وَأْتُوا بِهِ مُشَابِهًا». أى متشابهاً فى الجودة والجمال، فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الأخرى.

وآخر نعمة تذكرها الآية هى: «أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ» من كل أدران الروح والقلب والجسد.

أحد منغصات نعم الدنيا زوالها، ومن هنا فلا- تكون هذه النعم عادة باعثة على السعادة والإطمئنان، أما نعم الجنة ففيها السعادة والطمأنينة لأنها خالدة لا يعترىها الزوال والفناء، وإلى هذه الحقيقة تشير الآية فى خاتمتها وتقول: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». بحثان

١- الأزواج المطهرة: مما يلفت النظر فى هذه الآية أن الوصف الوحيد الذى استعمله

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠

القرآن لمدمح الأزواج فى جنات النعيم هو أنها «مطهرة»، وهى إشارة إلى أول شرط فى الزوجة هو «الطهر»، وكل ما سواه من الشروط والأوصاف ثانوى. فى حديث عن الإمام الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال للناس: إياكم وخضراء الدمن. قيل: يا رسول الله! وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسنة فى منبت السوء» (١).

٢- النعم المادية والمعنوية فى الجنة: ذكر القرآن الكريم أنواع النعم المادية فى الجنة، ولكنه ذكر إلى جانب هذه النعم المادية نعماً أهم منها هى النعم المعنوية كقوله تعالى فى الآية (٧٢) من سورة التوبة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

سبب التزول

ذكر الطبرسى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أن الله لما ضرب المثلين قبل هذه الآية للمنافقين، يعنى قوله «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا» وقوله «أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ» قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال. فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال آخرون: عند نزول الآيات التى تضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون ويسخرون، فقال الله تعالى: يا محمد إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا.

التفسير

هل الله يضرب المثل؟ الفقرة الأولى من الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا».

المثال وسيلة لتجسيد الحقيقة حين يقصد المتحدث بيان ضعف المدعى وتحقيره فإن

بلاغه الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كما يتضح ضعف اولئك. في الآية (٧٣) من سورة الحج، مثلاً يقول سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ».

وما المقصود من «فَمَا فَوْقَهَا»؟ للمفسرين في هذه آيات:

الأول: «فوقها» في الصغر، لأنَّ المقام مقام بيان صغر المثال، وهذا مستعمل في الحوار اليومي، نسمع مثلاً رجل يقول لآخر: ألا تستحي أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟ فيجيب الآخر: لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لأبذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا في الصغر.

الثاني: «فوقها» في الكبير. أي: إنَّ الله يضرب الأمثال بالصغير وبالكبير، حسب مقتضى الحال. لكن الرأي الأول يبدو أنسب.

ثم تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ». فهؤلاء، بإيمانهم وتقواهم، بعيدون عن اللجاجة والعناد والحقد للحقيقة. «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا». فيجيبهم الله بعبارة قصيرة تحسم الموقف وتقول: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ».

هداية الله وإضلاله: الهداية والضلالة- في المفهوم القرآني- لا- يعينان الإجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطيء، بل إنَّ الهداية- المفهومة من الآيات المتعددة- تعنى توفر سبل السعادة، والإضلال: يعنى زوال الأرضية المساعدة للهداية، دون أن يكون هناك إجبار في المسألة.

توفر السبل (الذى نسميه التوفيق)، وزوال هذه السبل (الذى نسميه سلب التوفيق)، هما نتيجة أعمال الإنسان نفسه. فلو منح الله فرداً توفيق الهداية، أو سلب من أحد هذا التوفيق، فإنما ذلك نتيجة الأعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاك.

الفاسقون: هم المنحرفون عن طريق العبودية، لأنَّ الفسق في اللغة إخراج النوى من التمر، ثم انتقل إلى الخروج عن طريق الله.

مختصر الامثال، ج ١، ص: ٤٢

الخاسرون الحقيقيون: هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن ضلال هذه الفئة، وتذكر لهم ثلاث صفات:

١- إِنْهُمْ «يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ».

هؤلاء لهم مع الله عهود ومواثيق، مثل عهد التوحيد، وعهد الربوبية، وعهد عدم اتباع الشيطان وهوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، وتمردوا على أوامر الله، واتبعوا أهواءهم وما أَرَادَ الشيطان لهم.

طبيعة هذا العهد: كل موهبة يمنحها الله للإنسان يصحبها عهد طبيعي بين الله والإنسان، موهبة العين يصحبها عهد يفرض على الإنسان أى يرى الحقائق، وموهبة الأذن تنطوي على عهد مدون في ذات الخلق يفرض الاستماع إلى نداء الحق ... وبهذا يكون الإنسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطرية المودعة في نفسه، أو استخدم الطاقات الموهوبة له في مسير منحرف.

الفاسقون: ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الإلهية، أو جميعها.

٢- الصفة الاخرى لهؤلاء الفاسقين هي أَنَّهُمْ: «يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ».

الآية تتحدث عن قطع الفاسقين لكل إرتباط أمر الله به أن يوصل، بما في ذلك رابطة الرحم، رابطة الصداقة، والروابط الاجتماعية، والرابطة بهداه البشرية إلى الله، والإرتباط بالله.

٣- علامة الفاسقين الثالثة هي الفساد: «وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ».

وتؤكد الآية في الخاتمة أنَّ «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».



وأى خسران أكبر من تبيد كل القوى المادية والمعنوية المودعة في الإنسان الزامية لإسعاده، وإهدارها على طريق الشقاوة والتعاسة والانحراف؟

أهمية صلة الرحم في الإسلام: الآية المذكورة أعلاه، وإن تحدثت عن كل إرتباط أمر الله به أن يوصل، إلا أن الإرتباط الرحمي دون شك أحد مصاديقها البارزة.

لقد أعار الإسلام اهتماماً بالغاً بصلة الرحم وبالتوحد إلى الأهل والأقارب، ونهى بشدة عن قطع الإرتباط بالرحم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣

رسول الله صلى الله عليه وآله يصور أهمية صلة الرحم بقوله: «صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الأعمار وإن كان أهلها غير أختار» (١).

الإسلام مارس هذه العملية على النحو الأكمل في بناء المجتمع الإسلامي القوى الشامخ، وأمر بإصلاح الوحدات الاجتماعية، والكائن الإنساني لا يأبى عادة أن ينصاع إلى مثل هذه الأوامر اللازمة لتقوية إرتباط أفراد الأسرة، لاشتراك هؤلاء الأفراد في الرحم والدم. وواضح أن المجتمع يزداد قوة وعظمه كلما ازداد التماسك والتعاون والتعاقد في الوحدات الاجتماعية الصغيرة المتمثلة بالأسرة، وإلى هذه الحقيقة قد يشير الحديث الشريف: «صلة الرحم تعمر الديار».

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) نعمه الحياة: القرآن في الآيتين يكمل الأدلة التي أوردها في الآيتين (٢١ و ٢٢) من هذه السورة حول معرفة الله. القرآن يبدأ في أدلته من نقطة لا تقبل الإنكار، ويركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد وغموض، ويقول: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ».

وفي هذه العبارة تذكير للإنسان بما كان عليه قبل الحياة ... لقد كان ميتاً تماماً مثل الأحجار والأخشاب ولم يكن فيه أى أثر للحياة، لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، وبنعمة الشعور والإدراك.

إن لغز الحياة لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدم هائل في حقل العلم والمعرفة. لكن السؤال يبقى قائماً بحاله: كيف يكفر الإنسان بالله وينسب هذه الحياة بتعقيدها وغموضها وأسرارها إلى صنع الطبيعة العمياء الصماء الفاقدة لكل شعور وإدراك؟

من هنا نقول إن ظاهرة الحياة في عالم الطبيعة أعظم سند لإثبات وجود الله تعالى،

(١) بحار الأنوار ٧١ / ٩٤.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤

والقرآن يركز في الآية المذكورة على هذه المسألة بالذات. بعد التذكير بهذه النعمة، تؤكد الآية على دليل واضح آخر وهو «الموت» «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ».

نعم ... إن خالق الحياة هو خالق الموت أيضاً، وإلى ذلك تشير الآية (٢) من سورة الملك:

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَتْيَكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

بعد أن ذكرت الآية هذين الدليلين الواضحين على وجود الله، تناولت المعاد والحياة بعد الموت: «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ».

وفي نهاية الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». والمقصود بالرجوع هو الرجوع إلى نعم الله تعالى يوم القيامة.

بعد ذكر نعمه الحياة والإشارة إلى مسألة المبدأ والمعاد، تشير الآية إلى واحدة أخرى من النعم الإلهية السابقة وتقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا».

وبهذا تعين الآية قيمة الإنسان في هذه الأرض، وسيادته على ما فيها من موجودات.

وفي القرآن آيات اخرى تؤكد على مكانة الإنسان السامية، وتوضح أن هذا الكائن هو الهدف النهائي من خلق كل موجودات الكون.

وتعود الآية إلى ذكر أدلة التوحيد وتقول: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

الفعل «استوى»: من «الإستواء» وهو التسلط والإحاطة الكاملة والقدرة على الخلق والتدبير.

السموات السبع: الأصح في رأينا أن المقصود بالسموات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. ويستفاد من آيات اخرى أن كل

الكرات والسيارات المشهودة هي جزء من السماء الاولى، وثمة ستة عوالم اخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم، وهذه

العوالم السبعة هي التي عبر عنها القرآن بالسموات السبع.

في الآية (١٢) من سورة فصلت، يقول تعالى: «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ».

وفي الآية (٦) من سورة الصافات، يقول أيضاً: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ».

ويتضح من هاتين الآيتين أن ما نراه وما يتكون منه عالم الأفلاك هو جزء من السماء الاولى، وما وراء هذه السماء ست سماوات اخرى

ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ

لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ

أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) الإنسان خليفة الله في الأرض: الآيات السابقة

ذكرت أن الله سبحانه خلق ما في الأرض جميعاً للإنسان، وفي الآيات (٣٠-٣٩) تركيز على ثلاث مسائل أساسية هي:

١- إخبار الله ملائكته بشأن خلافة الإنسان في الأرض.

٢- أمر الله تعالى ملائكته بإكرام وتعظيم الإنسان الأول.

٣- شرح وضع آدم وحياته في الجنة، والحوادث التي أدت إلى خروجه من الفردوس، ثم توبة آدم، وحياته هو وذريته في الأرض.

الآيات المذكورة تتحدث عن المرحلة الاولى، حين شاء الله أن يخلق على ظهر الأرض موجوداً، يكون فيها خليفته، ويحمل أشعة من

صفاته، وتسمو مكانته على مكانة الملائكة.

وبهذه المناسبة تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».

والخليفة: هو النائب عن الغير، أما هذا الغير الذي ينوب الإنسان عنه هو خليفة الله ونائبه على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثير

من المحققين. لأن سؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذي قد يفسد في الأرض ويسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لأن نيابة الله

في الأرض لا تتناسب مع الفساد وسفك الدماء.

ثم تذكر الآية سؤال الملائكة الذي وجهوه لرب العالمين مستفسرين لا معترضين:

«قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ».

الله سبحانه أجاب الملائكة جواباً مغلقاً اتضح في المراحل التالية: «قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦

الملائكة يعلمون أن الهدف من الخلق هو العبودية والطاعة، وكانوا يرون في أنفسهم مصداقاً كاملاً لذلك، فهم في العبادة غارقون.

ولذلك فهم - أكثر من غيرهم - للخلافة لائقون، غير عالمين أن بين عبادة الإنسان الملىء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوسوس

الشیطانية، والمغريات الدنيوية وبين عبادتهم - وهم خالون من كل هذه المؤثرات - بون شاسع. فأين عبادة هذا الموجود الغارق وسط

الأمواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التي تعيش على ساحل آمن؟!

ماذا تعرف الملائكة من ابناء آدم أمثال محمد صلى الله عليه و آله و ابراهيم ونوح وموسى وعيسى والأئمة من أهل البيت عليهم السلام وعباد الله الصالحين والشهداء والمضحون من الرجال والنساء الذين قدموا وجودهم على مذبح العشق الإلهي، والذين تساوى ساعة من تفكيرهم سنوات متمادية من عبادة الملائكة؟

الملائكة في بودقة الاختبار: كان آدم يملك - بفضل الله - قابلية خارقة لفهم الحقائق.

وشاء الله أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

هذا العلم بالكون وبأسرار الموجودات وخواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعاً.

في تفسير العياشي عن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» ماذا علمه؟ قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علمه».

كما منح الله آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للأشياء أسماء، وبذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها، وهذه نعمة كبرى.

«ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَتُبْنُونَ بِأَسْمَاءٍ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». وأمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لأنهم لم يملكو هذه القدرة العلمية التي منحها الله لآدم، «قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

وحان الدور لآدم كي يشرح أسماء الموجودات وأسرارها أمام الملائكة: «قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهنا اتضح للملائكة أن هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧

جواب على سؤالين: ويبقى سؤالان في هذا المجال، الأول يدور حول تعليم الله لآدم، كيف تم ذلك؟ ولو قدر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لنالوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم ولا تمتلكها الملائكة؟

أما بشأن كيفية التعليم فالجواب هو أن هذا التعليم تكويني، أي إن الله أودع هذا العلم في وجود آدم بالقوة، ودفعه خلال مدة قصيرة إلى المرحلة الفعلية.

إطلاق كلمة «تعليم» في القرآن على «التعليم التكويني» ورد في موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (١). وواضح أن الله سبحانه علم الإنسان البيان في مدرسة الخلق، أي منحه الكفاءة والخصائص الفطرية اللازمة للبيان والكلام.

أما الشطر الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أن الملائكة كانت لهم خلقه خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقى كل هذه العلوم. إنهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، وهذه الحقيقة فهمها الملائكة وتقبلوها بعد أن مروا بتلك التجربة المذكورة في الآية. ولعلمهم اعتقدوا في البداية أنهم يحملون الكفاءة اللازمة لهذا الهدف، لكن الله بين لهم الفرق بين كفاءتهم وكفاءة آدم بتجربة تعليم الأسماء.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) آدم عليه السلام في الجنة: ينتقل القرآن إلى فصل آخر من موضوع عظمة الإنسان ويقول:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

لو أمعنا النظر في آيات القرآن الكريم لألفينا أن موضوع السجود لآدم جاء بعد اكتمال خلقه الإنسان مباشرة، وقبل امتحان الملائكة.

إن الآيه المذكورة تقرير قرآني واضح صريح لشرف الإنسان وعظمه مكانته، فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.

(١) سورة الرحمن / ٤.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨

حقاً، إن هذا الموجود، اللائق لخلافه الله على الأرض، والمؤهل لهذا الشوط الكبير من التكامل وتربية أبناء عظام كالأنبياء وخاصة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله يستحق كل احترام.

نحن نشعر بالتعظيم والتكريم لمن حوى بعض العلوم وعلم شيئاً من القوانين والمعادلات العلمية، فكيف حال الانسان الأول مع كل تلك العلوم والمعارف الزاخرة عن عالم الوجود؟

بحثنان

١- لماذا أبى إبليس؟ «الشیطان» اسم جنس شامل للشیطان الأول ولجميع الشياطين. أما «إبليس» فاسم علم للشیطان الذي وسوس لآدم. وإبليس - كما صرح القرآن - ما كان من جنس الملائكة وإن كان في صفوفهم، بل كان من طائفة الجن، وهي مخلوقات مادية. باعته على الإمتناع عن السجود كبر وغرور وتعصب خاص استولى عليه حيث اعتقد أنه أفضل من آدم، ولا ينبغي أن يصدر له أمر بالسجود لآدم.

كفر إبليس كان يعود إلى نفس السبب أيضاً، فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الإلهي، وبذلك لم يعص فحسب، بل انحرف عقائدياً. وهكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته وطاعته نتيجة كبره وغروره. وهكذا تكون دوماً نتيجة الكبر والغرور. وعبارة «كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» تشير إلى أن إبليس كان قبل صدور الأمر الإلهي إليه بالسجود، قد انفصل عن مسير الملائكة وطاعة الله، وأسرى في نفسه الإستكبار والجحود.

٢- هل كان السجود لله أم لآدم؟ لا شك أن السجود يعني «العبادة» لله، إذ لا معبود غير الله، وتوحيد العبادة يعني أن لا نعبد إلا الله. من هنا فإن الملائكة لم يؤدوا لآدم يعني «سجده عبادة» قطعاً، بل كان السجود لله من أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء في عيون الأخبار عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم فأودعنا صلبه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا وإكراماً وكان سجودهم لله تعالى عبودية، ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه».

بعد هذا المشهد ومشهد اختبار الملائكة، أمر آدم وزوجه أن يسكنا الجنة، كما جاء في قوله تعالى: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩

هَذِهِ الشَّجَرَةَ» (١).

يستفاد من آيات القرآن أن آدم خُلق للعيش على هذه الأرض، لكن الله شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنة، وهي روضة خضراء موفورة النعمة في هذا العالم.

لعل مرحلة مكوث آدم في الجنة كانت مرحلة تحضيرية لعدم ممارسه آدم للحياة على الأرض وصعوبة تحمل المشاكل الدنيوية بدون مقدمه، ومن أجل تأهيل آدم لتحمل مسؤوليات المستقبل، ولتفهمه أهمية حمل هذه المسؤوليات والتكاليف الإلهية في تحقيق سعادته، ولإعطائه صورة عن الشقاء الذي يستتبع اهمال هذه التكاليف، ولتنبيهه بالمحظورات التي سيواجهها على ظهر الأرض.

ينبغي أن ينضج آدم عليه السلام في هذا الجو إلى حد معين، وأن يعرف أصدقاءه وأعداءه، ويتعلم كيف يعيش على ظهر الأرض، نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التي تؤهله للحياة على ظهر الأرض.

وهنا رأى «آدم» نفسه أمام أمر إلهي يقضى بعدم الاقتراب من الشجرة، لكن الشيطان أبى إلأ أن ينفذ بقسمه في إغواء آدم وذريته. تقول الآية بعد ذلك: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ».

نعم. اخرجنا من الجنة حيث الراحة والهدوء وعدم الألم والتعب والعناء، على أثر وسوسة الشيطان. وصدر لهما الأمر الإلهي بالهبوط: «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ». وهنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، وأخرج من الجوّ الهادي الملى بنعم الجنة بسبب استسلامه لوسوسة الشيطان، وهبط في جوّ مفعم بالتعب والمشقة والعناء، مع أن آدم كان نبياً ومعصوماً، فإنّ الله يؤاخذ الأنبياء بترك الأولى - كما سنرى - كما يؤاخذ باقى الأفراد على ذنوبهم، وهو عقاب شديد تلقاه آدم جزاء عصيانه.

بحوث

١- ما هي جنّة آدم؟ يبدو أنّ الجنة التي مكث فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن

(١) «الرغد»: على وزن الصمد يعنى الكثير والواسع والهنىء؛ وعبارة «حيث شئتما» تعنى: من أى مكان شئتما في الجنة، أو من أى نوع شئتم من فاكهه الجنة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠

مختصر الامثل ج ١ ٩٩

الجنة التي وعد بها المتقون، بل كانت من جنان الدنيا، وصقعاً منعماً خلّاباً من أصقاع الأرض. ودليلنا على ذلك: أولاً: الجنة الموعودة في القيامة نعمه خالده، والقرآن ذكر مراراً خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها. ثانياً: إبليس الملعون ليس له طريق للجنة، وليس لوسوسته مكان هناك. ثالثاً: وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات تصرح بذلك.

في الكافي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه سئل عن جنّة آدم، فقال: «جنّة من جنات الدنيا، يطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً».

من هذا يتضح أنّ هبوط آدم ونزوله إلى الأرض لم يكن مكانياً بل مقامياً، أى أنّه هبط من مكانته السامية ومن تلك الجنة المزدانة.

٢- المقصود من الشيطان في القرآن: كلمة الشيطان من مادة «شطن» و«الشاطن» هو الخبيث والوسيع، والشيطان تطلق على الموجود المتمرد العاصي، إنساناً كان أو غير إنسان، وتعنى أيضاً الروح الشريرة البعيدة عن الحق. وبين كل هذه المعانى قدر مشترك.

والشيطان اسم جنس عام، وإبليس اسم علم خاص، وبعبارة أخرى، الشيطان كل موجود مؤذٍ مغوٍ طاغٍ متمرد، إنساناً كان أم غير إنسان، وإبليس اسم الشيطان الذي أعوى آدم وبتربص هو وجنده الدوائر بأبناء آدم دوماً.

من مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن يفهم أنّ كلمة الشيطان تطلق على الموجود المؤذى المضر المنحرف الذي يسعى إلى بثّ الفرقه والفساد والاختلاف، مثل قوله تعالى:

«إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ» (١).

والاستعمال القرآني لكلمة شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الإلهية، كقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» (٢).

كلمة الشيطان اطلقت على إبليس أيضاً بسبب فساده وإنحرافه.

٣- لماذا خلق الشيطان؟ يثار أحياناً سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوى، وفي الجواب نقول:

(١) سورة المائدة/ ٩١.

(٢) سورة الأنعام/ ١١٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١

أولاً: لم يخلق الله الشيطان، شيطاناً، والدليل على ذلك وجوده بين ملائكة الله وعلى الفطرة الطاهرة، لكنه بعد تحرره أساء التصرف، وعزم على الطغيان والتمرد، إنه إذن خلق طاهراً، وسلك طريق الانحراف مختاراً.

ثانياً: وجود الشيطان لا يسبب ضرراً للأفراد المؤمنين، ولطلاب طريق الحق، في منظار نظام الخليقة، بل إنه وسيلة لتقدمهم وتكاملهم، إذ إن التطور والتقدم يتم من خلال صراع الأضداد.

فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) عودة آدم عليه السلام إلى الله: بعد حادثه وسوسة إبليس، وصدور الأمر الإلهي لآدم بالخروج من الجنة، فهم آدم أنه ظلم نفسه، وهنا أخذ آدم يفكر في تلافى خطئه، فاتجه بكل وجوده إلى بارئه وهو نادم أشد الندم، وأدركته رحمة الله في هذه اللحظات كما تقول الآية: «فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«التوبة» في اللغة بمعنى «العودة» وهي في التعبير القرآني، بمعنى العودة عن الذنب، إن نسبت إلى المذنب، وإن نسبت كلمة التوبة إلى الله فتعني عودته سبحانه إلى الرحمة التي كانت مسلوبة عن العبد المذنب. ولذلك فهو تعالى «تواب» في التعبير القرآني.

على أي حال، لقد حدث ما لا ينبغي أن يحدث- أو ما ينبغي أن يحدث- وقُبلت توبة آدم. لكن الأثر الوضعي للهبوط في الأرض لم يتغير، كما يذكر القرآن: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ\* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

الكلمات التي تلقاها آدم: تعددت الآراء في تفسير «الكلمات» التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه. المعروف أنها الكلمات المذكورة في الآية (٢٣) من سورة الأعراف: «قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». وقال آخرون أن المقصود من الكلمات هذا الدعاء:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاعْفُ عَنِّي يَا خَيْرَ الْغَافِرِينَ».

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَارْحَمْنِي يَا خَيْرَ الرَّاحِمِينَ».

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَتُبَّ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وفي روايات وردت عن طرق أهل البيت عليهم السلام أن المقصود من «الكلمات» أسماء أفضل مخلوقات الله وهم: محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين- عليهم أفضل الصلاة والسلام- وآدم توسل بهذه الكلمات ليطلب العفو من رب العالمين فعفا عنه.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) ذكر النعم الإلهية: لما كانت قصة بني إسرائيل ابتداء من تحررهم من السيطرة الفرعونية واستخلافهم في الأرض، ومروراً بنسيان العهد الإلهي، وانتهاء بسقوطهم في حضيض الانحراف والعذاب والمشقة، تشبه إلى حد كبير قصة آدم. يوجه القرآن خطابه إلى بني إسرائيل ويقول: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ».

الأوامر الثلاثة التي تذكرها الآية الكريمة وهي: تذكر النعم الإلهية، والوفاء بالعهد، والخوف من الله، تشكل المنهج الإلهي الكامل للبشرية.

ميثاق بنى إسرائيل: ميثاق بنى إسرائيل الإلهي يتكون من اثني عشر بنداً، عشر منها ذكرت في آيتي (٨٣ و ٨٤) من هذه السورة، وبنان ذكرها في الآية الكريمة: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» (١).  
وهما: الإيمان بالأنبياء ومؤازرتهم.

(١) سورة المائدة/ ١٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣

جملة «إِيَّيْ فَارْهَبُونِ» تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة في طريق الوفاء بالعهد الإلهي، وعلى الخوف من الله وحده دون سواه، وهذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل «إِيَّاي» على جملة «فارهبون». و آمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مَصِيدًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)  
سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: «كان حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود، لهم مأكله على اليهود في كل سنة، فكرهوا بطلانها بأمر النبي صلى الله عليه وآله فحرفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره فذلك الثمن الذي اريد في الآية».

التفسير

جشع اليهود: الآيات المذكورة أعلاه تتطرق إلى تسعة من بنود العهد الذي أخذه الله على بنى إسرائيل. يقول تعالى: «وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مَصِيدًا لِمَا مَعَكُمْ». فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب، أي أن البشائر التي زفتها التوراة والكتب السماوية الأخرى بشأن النبي الخاتم، والأوصاف التي ذكرتها لهذا النبي والكتاب السماوي تنطبق على محمد صلى الله عليه وآله وعلى القرآن المنزل عليه. فلماذا لا تؤمنون به؟!

ثم يقول سبحانه: «وَلَمَّا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ». أي: لا عجب أن يكون المشركون والوثنيون في مكة - كفاراً بالرسالة، بل العجب في كفركم، لأنكم أهل الكتاب، وكتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النبي، وكنتم لذلك تترقبون ظهوره. المقطع الثالث من الآية يقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا».

في المقطع الرابع تقول الآية: «وَإِيَّاي فَاتَّقُونِ». والخطاب موجه إلى زعماء اليهود الذين يخشون أن ينقطع رزقهم، وأن يثور المتعصبون اليهود ضدهم، وتطلب منهم أن يخشوا الله وحده، أي أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه. في البند الخامس من هذه الأوامر ينهى الله سبحانه عن خلط الحق بالباطل: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤

وفي البند السادس ينهى عن كتمان الحق: «وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

البند السابع والثامن والتاسع من هذه الأوامر يبينه قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ».

إن الآية لم تقل «أدوا الصلاة» بل قالت: «أقيموا الصلاة». وهذا الحث يحمل الفرد مسؤولية خلق المجتمع المصلي ومسؤولية جذب الآخرين نحو الصلاة.

إن تعبير «أقيموا» إشارة إلى إقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد، وأهم أركان كمال الصلاة حضور القلب والفكر لدى الله سبحانه، وتأثير الصلاة على المحتوى الداخلي للإنسان.

هذه الأوامر الأخيرة تتضمن: أولاً بيان إرتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثم إرتباطه بالمخلوق (الزكاة)، وبعد ذلك إرتباط المجموعة البشرية مع بعضها على طريق الله.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) الآية الأولى من الآيات التي يدور حولها بحثنا خطاب لعلماء اليهود، وبخهم الله تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر الناس بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وترك أنفسهم في ذلك. لذلك كانت الآية تحمل توبيخاً لهذا العمل: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

منهج الدعاة إلى الله يقوم على أساس العمل أولاً ثم القول، فالداعية إلى الله يبلغ عمله قبل قوله، كما جاء عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم» (١).

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم وتفرق عامة الناس عنهم، إن اعترفوا برسالة خاتم الأنبياء ولذلك حرفوا ما ورد بشأن صفات نبي الخاتم في التوراة.

والقرآن يحث على الاستعانة بالصبر والصلاة للتغلب على الأهواء الشخصية والميول

(١) بحار الأنوار ٥ / ١٩٨.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥

النفسية، فيقول في الآية التالية: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ». ثم يؤكد أن هذه الاستعانة ثقيلة لا ينهض بعينها إلا الخاشعون: «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ».

وفي الآية الأخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». «يظنون»: من مادة «ظنّ» وقد تأتي بمعنى اليقين. وفي هذا الموضع تعني الإيمان واليقين القطعي. لأن الإيمان بقاء الله والرجوع إليه، يحيى في قلب الإنسان حالة الخشوع والخشية والإحساس بالمسؤولية، وهذا أحد آثار تربية الإنسان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد ماثلاً دوماً أمام مشهد المحكمة الكبرى، وتدفعه إلى النهوض بالمسؤولية وإلى الحق والعدل.

بحثن

١- ما هو لقاء الله؟ عبارة «لقاء الله» وردت مراراً في القرآن الكريم، وتعني بأجمعها الحضور على مسرح القيامة، من البديهي أن المقصود بلقاء الله ليس هو اللقاء الحسي، كلقاء أفراد البشر مع بعضهم، لأن الله ليس بجسم، ولا يحده مكان، ولا يرى بالعين، بل المقصود مشاهدة آثار قدرة الله وجزائه وعقابه ونعمه وعذابه على ساحة القيامة. أو إن المقصود الشهود الباطني والقلبي، لأن الإنسان يصل درجة كأنه يرى الله ببصيرته أمامه، بحيث لا يبقى في نفسه أي شك وترديد.

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس في هذه الدنيا.

هذا الشهود الباطني ينجلي للجميع يوم القيامة، ولا يبقى أحد إلا وقد آمن إيماناً قاطعاً، لوضوح آثار عظمة الله وقدرته في ذلك اليوم.

٢- سبيل التغلب على الصعاب: ثمة منطلقان أساسيان للتغلب على الصعاب والمشاكل، أحدهما داخلي، والآخر خارجي.

أشارت الآية إلى هذين المنطلقين بعبارة «الصبر» و «الصلاة». فالصبر هو حالة الصمود والاستقامة والثبات في مواجهة المشاكل، والصلاة هي وسيلة الإرتباط بالله حيث السند القوي المكين.

روى الطبرسي في تفسير مجمع البيان في تفسير هذه الآية: وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا حزنه أمر استعان بالصلاة والصوم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦



وروى أيضاً عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غم من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو الله فيها، أما سمعت الله تعالى يقول: واستعينوا بالصبر والصلوة».   
 يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَمَّا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) أوهام اليهود: في هذه الآيات خطاب آخر إلى بني إسرائيل فيه تذكير بنعم الله: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ». هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداءً من الهداية والإيمان، وانتهاءً بالنجاة من فرعون ونيل العظمة والاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم إلى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهي نعمة مركبة من نعم مختلفة، وتقول: «وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التي كانوا يتصورون بموجبها أن الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنهم قادرين على دفع فدية وبدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة في هذه الحياة الدنيا. القرآن يخاطبهم ويقول: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَمَّا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

الحاكم أو القاضي في تلك المحكمة الإلهية، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما في الآتي (٨٨ و ٨٩) من سورة الشعراء يقول تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ\* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

إن الآية المذكورة من سورة البقرة، تشير في الواقع إلى ما يجري من محاولات في هذه الحياة الدنيا لإنقاذ المذنب من العقاب. ففي الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامه عن إنسان مذنب لإنقاذه من العقاب، أما في الآخرة فإنه: «لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا». وربما يلجأ المذنب في هذه الحياة إلى الشفاعة لينقذوه مما ينتظره من الجزاء ويوم القيامة «... لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧

وإذا لم توجد الشفاعة، يتقدم الإنسان في الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهو بدل الشيء من جنسه، أما في الآخرة ف «لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ». وإذا لم تنفع الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ أصحابه لينصروه ويخلصوه من الجزاء، وفي الآخرة لا يقوم بإنقاذهم أحد «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

القرآن الكريم يؤكد أن الاصول الحاكمة على قوانين الجزاء يوم القيامة تختلف كلياً عما هو السائد في هذه الحياة، فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، هو الإيمان والتقوى والاستعانة بلطف الباري تعالى.

تاريخ الشرك وتاريخ المنحرفين من أهل الكتاب، ملئ بأفكار خرافية تدور حول محور التوسل بمثل الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة للفرار من العقاب الاخرى.

ذكر صاحب تفسير المنار بعض العادات المصرية التي لا تزال يعمل بها باسم الدين وهي من إرث قدماء الوثنيين، كاعطائهم لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمونه «اجرة المعدي» أي اجرة نقله إلى الجنة.

ثم ذكر المكفرات التي يعتقدونها اليهود كقربان الإثم وقربان الخطيئة وقربان السلامة والمحرفة والإكفاء ممن لم يجد القربان بحمامتين يكفر بهما عن ذنبه.

القرآن ومسألة الشفاعة: «١» العقاب الإلهي في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا ينزل بساحة الإنسان دون شك من أجل الانتقام، بل إن العقوبات الإلهية تشكل عنصر الضمان في تنفيذ القوانين، وتؤدي في النتيجة إلى تقدم الإنسان وتكامله، من هنا يجب الإحترار عن أي شيء يضعف من قوة عنصر الضمان هذا، كي لا تنتشر بين الناس الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب.

من جهة أخرى، لا يجوز غلق باب العودة والإصلاح بشكل كامل في وجه المذنبين، بل يجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم وللعودة إلى الله وإلى الطهر والتقوى.

«الشفاعة» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل. إنها وسيلة لعودة المذنبين والملوثين بالخطايا، وبمعناها الخاطئ تشجع على ارتكاب الذنوب.

اولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخاطئ لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه

(١) «الشفاعة»: من «الشفع» بمعنى «الزوج» و «ضم الشيء إلى مثله» يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد» ثم اطلقت على انضمام الفرد الأقوى والأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٨

المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالوساطات التي تقدم إلى السلاطين والحكام الظالمين. وثمة مجموعة كالمهايين استندوا إلى الآية الكريمة: «لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ». فأنكروا الشفاعة تماماً، دون الالتفات إلى سائر الآيات في هذا المجال.

الشروط المختلفة للشفاعة: آيات الشفاعة تصرح أن مسألة الشفاعة في مفهوم الإسلام مقيدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطيئة التي يستشفع المذنب لها، وتحدد تارة اخرى الشخص المشفوع له، كما تفيد من جهة اخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقي للشفاعة وعن فلسفتها.

ثمّة ذنوب كالظلم مثلاً خارجة عن دائرة الشفاعة حيث يقول القرآن: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» (١).

كما أن الشفاعة - وطبقاً للآية (٢٨) من سورة الأنبياء - لا تشمل إلا أولئك المرتقين إلى درجة «الإرتضاء» وإلى درجة الالتزام بالعهد الإلهي حيث يقول القرآن: «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» (٢).

الإرتضاء، واتخاذ العهد، يعينان على المستوى اللغوي (وكذلك ما ورد من الروايات في تفسير هذه الآيات): الإيمان بالله والحساب والميزان والثواب والعقاب، والإعتراف بالحسنات والسيئات، وبما أنزل الله، إيماناً عميقاً في الفكر، ظاهراً في العمل ... إيماناً يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا يؤمنون بأية قيمة إنسانية، ويدفعه إلى إعادة النظر في منهج حياته.

وبشأن الشفاعة ذكر القرآن لهم شرطاً في قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ» (٣). من هنا فالمشفوع له أيضاً ينبغي أن يسلك طريق الحق في القول والعمل، كى يكون له إرتباط بالشفيع، وهذا الإرتباط الضروري بين الشفيع والمشفوع له يعتبر بدوره عاملاً بنّاءاً في تعبئة الطاقات على طريق الحق.

(١) سورة غافر / ١٨.

(٢) سورة مريم / ٨٧.

(٣) سورة الزخرف / ٨٦.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٩

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) نعمه الحرية: في هذه الآية إشارة إلى نعمه كبيرة اخرى، من بها الله سبحانه على بنى إسرائيل، وهي نعمه تحريرهم من برائن الظالمين: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ».

القرآن عبّر بكلمة «البلاء» عما كان ينزل ببني إسرائيل من عذاب يتمثل في قتل الذكور واستخدام الإناث لخدمة آل فرعون.

و «البلاء»: يعنى الإمتحان، فالحوادث والمصائب التي نزلت ببني إسرائيل كانت بمثابة الإمتحان لهم، كما قد يأتي البلاء بمعنى العقاب، لأن بنى إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمه ربهم، فكان ما أصابهم من آل فرعون عقاباً على كفرانهم.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمى ذبح الأبناء واستحياء النساء عذاباً، ولو عرفنا أن استحياء النساء يعنى استبقائهن، وتركهن أحياء،

لا نضح لنا أن القرآن يشير إلى أن مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضاً مثل عذاب القتل، وهذا المعنى يشير إليه الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام إذ يقول: «فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين» (١).

عملية الإمامة كانت شاملة للذكور والإناث مع اختلاف في ممارسة هذه العملية، وفي عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإمامة أيضاً بأساليب أخرى، وذلك عن طريق قتل روح الرجولة في الذكور، ودفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

النجاة من آل فرعون: الآية السابقة أشارت إلى نجاة بنى إسرائيل من براثن الفرعونيين، وهذه الآية توضح طريقه النجاة: «وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

قضية غرق آل فرعون في البحر ونجاة بنى إسرائيل وردت في سور عديدة مثل سورة الأعراف الآية (١٢٦)، وسورة الأنفال الآية (٥٤)، وسورة الإسراء الآية (١٠٣)، وسورة

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٠

الشعراء الآية (٦٣ و ٦٦)، وسورة الزخرف الآية (٥٥)، والدخان الآية (١٧) وما بعدها.

في هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، أما هذه الآية فاكتفت بالإشارة إلى هذه النعمة الإلهية في معرض دعوة بنى إسرائيل إلى قبول الرسالة الخاتمة.

الهدف من تذكير بنى إسرائيل بهذا الحدث الذي بدأ بخوف شديد وانتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشكر وللسير على طريق الرسالة الإلهية المتمثلة في دين النبي الخاتم.

كما أنه تذكير للبشرية بالامداد الإلهي الذي يشمل كل أمة سائرة بجد وإخلاص على طريق الله.

وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) أكبر انحرافات بنى إسرائيل: في هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بنى إسرائيل، وعلى أكبر انحراف أصيوا به في تاريخهم الطويل، وهو الانحراف عن مبدأ التوحيد، والاتجاه إلى عبادة العجل، وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيف نتيجة إغواء الغاوين، وتحذير لهم من تكرار هذه التجربة في مواجهة الدين الخاتم: «وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» وهي ليالي افتراق موسى عن قومه، «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

شرح هذا المقطع من تاريخ بنى إسرائيل سيأتي في سورة الأعراف الآية (١٤٢) وما بعدها، وفي سورة طه الآية (٣٦) وما بعدها.

في الآية التالية يقول سبحانه: «ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وبعد إشارة إلى ما جاء بنى إسرائيل من هداية تشريعية: «وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة على بنى إسرائيل: «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦١

قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«البارئ»: هو الخالق، وفي الكلمة إشارة إلى أن هذا الأمر الإلهي بالتوبة الشديدة صادر عن خلقكم، وعمّن هو أعرف بما يضركم

وينفعكم.

ذنب عظيم وتوبة فريدة: لا- شك أن عبادة عجل السامرى لم تكن مسألة هينة، لأن بنى إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيهم موسى عليه السلام ثم نسوا ذلك دفعه، وخلال فترة قصيرة من غياب النبی انحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلهى. ومن هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة وتقضى هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعى لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقه تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به- هو نفسه- من عذاب القتل. وجاء فى الأخبار أن موسى أمر فى ليله ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم فى البعض الآخر.

ولعلك تسأل عن السبب فى قساوة هذه التوبة ولماذا لم يقبل الله تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إن السبب فى شدة هذا الحكم يعود إلى عظمة الذنب الذى ارتكبه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعجزات، وإلى أن هذا الذنب يهدد وجود الدعوة ومستقبلها لأن أصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن اختزالها فى التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعنى انهيار جميع اللبنة الفوقية والمباني الحضارية للدين، فلو تساهل موسى عليه السلام مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سبته فى الأجيال القادمة، خاصة وأن بنى إسرائيل كانوا على مر التاريخ قوماً متعنتين لجوجين. ولا بد إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط فى هاوية الشرك.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٢

طلب عجيب: هاتان الآيتان تذكران بنى إسرائيل بنعمة إلهية أخرى، كما توضحان فى الوقت نفسه روح اللجاج والعناد فى هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب إلهى، وما شملهم الله به من رحمة بعد ذلك العقاب. تقول الآية الاولى «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً».

هذا الطلب قد ينم عن جهل بنى إسرائيل، لأن إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدى حواسه، ولذلك يرمى إلى أن يرى الله بعينه.

أو قد يحكى هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التى يتميزون بها دوماً.

عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا- يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهرة هذه لا- تطيق رؤية كثير من مخلوقات الله، فما بالك برؤية الله سبحانه نزلت الصاعقة على الجبل وصحبها برق شديد ورعد مهيب وزلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدة الخوف: «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

اغتم موسى لما حدث بشدة، لأن هلاك سبعين نفرًا من كبار بنى إسرائيل، قد يوفر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضجة بوجه نبيهم، لذلك تضرع موسى إلى الله أن يعيدهم إلى الحياة، فقبل طلبه وعادوا إلى الحياة: «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

هذه الآية تشير ضمناً إلى إمكان «الرجعة»، أى الرجوع إلى هذه الحياة الدنيا بعد الموت، لأن وقوعها فى مورد يدل على إمكان الوقوع فى موارد أخرى.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) النعم المتنوعة: بعد أن نجا بنو إسرائيل من الفرعونيين، تذكر الآيات (٢٣- ٢٩) من سورة المائدة، أن بنى إسرائيل امروا لأن يتجهوا إلى

أرض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء عصوا هذا الأمر، وأصروا على عدم الذهاب مادام فيها قوم جبارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ» (١).

(١) سورة المائدة / ٢٤.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٣

تألم موسى لهذا الموقف ودعا ربه: «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (١). فكتب عليهم التيه أربعين عاماً في صحراء سيناء.

مجموعة من التائبين ندمت على ما فعلته أشد الندم، وتضرعت إلى الله، فشمّل الله سبحانه بنى إسرائيل ثانية برحمته، وأنزل عليهم نعمه التي تشير الآية إلى بعضها: «وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ».

والظل له أهمية كبرى لمن يطوى الصحراء طيلة النهار وتحت حرارة الشمس اللافحة، خاصة أن مثل هذا الظل لا يضيق الفضاء على الإنسان ولا يمنع عنه هبوب النسيم.

وإضافة إلى الظل فإن الله سبحانه وفر لبنى إسرائيل بعد تيههم الطعام الذي كانوا في أمس الحاجة إليه خلال أربعين عاماً خلت من ضياعهم: «وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوٰى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ».

لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

بحوث

١- المن والسلوى: «المن» شيء كالظل فيه حلاوة يسقط من الشجر و«السلوى» يعنى التسلى، وقال بعض اللغويين وجمع من المفسرين إنه «طائر».

احتمل بعض المفسرين أن يكون «المن» نوعاً من العسل الطبيعي حصل عليه بنو إسرائيل في الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه. وهذا التفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراة والإنجيل) حيث جاء: «الأراضى المقدسة معروفة بكثرة أنواع الأوراد والأزهار، ومن هنا فإن مجاميع النحل تبنى خلاياها في أخاديد الصخور وعلى أغصان الأشجار وثنايا بيوت الناس، بحيث يستطيع أفقر الناس أن يتناول العسل» (٢).

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين إنه العسل، وأجمع الباقون على أنه نوع من الطير، كان يأتي على شكل أسراب كبيرة إلى تلك الأرض، وكان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها.

في النصوص المسيحية تأييد لهذا الرأي حيث ورد في تفسير على العهدين ما يلي: «إعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من أفريقيا، فتنجس إلى الشمال، وفي جزيرة كبرى

(١) سورة المائدة / ٢٥.

(٢) قاموس الكتاب المقدس / ٦١٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٤

وحدها يصطاد من هذا الطائر ١٦ ألفاً في الفصل الواحد ... هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، وخليج العقبة والسويس، ويدخل شبه جزيرة سيناء. وبعد دخوله لا يستطيع أن يطير في ارتفاعات شاهقة لشدة ما لاقاه من تعب وعناء في الطريق، فيطير على ارتفاع منخفض ولذلك يمكن اصطاده بسهولة» (١). يستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف في تلك الأرض.

٢- لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟ عبرت الآية الكريمة عن نعمته تقديم المن والسلوى بالإنزال، وليس الإنزال دائماً إرسال الشيء من مكان عال، كقوله تعالى: «وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» (٢).

واضح أن الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال في مثل هذه المواضع:

إما أن يكون «نزولاً مقامياً»، أي نزولاً من مقام أسمى إلى مقام أدنى.

أو أن يكون من «الإنزال» بمعنى الضيافة، يقال أنزلت فلاناً: أي أضفته، والنزل (على وزن رُسِيل) ما يعد للنازل من الزاد، ومنه قوله تعالى: «فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ» (٣). وقوله سبحانه:

«خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (٤).

وتعبير «الإنزال» للمن والسلوى، قد يشير إلى أن بنى إسرائيل كانوا ضيوف الله في الأرض، فاستضافهم بالمن والسلوى.

٣- ما هو الغمام؟ قيل: الغمام والسحاب بمعنى واحد، وقيل الغمام هو السحاب الأبيض، وذكروا في وصفه أنه أبرد من السحاب وأرق، والغمام في الأصل من الغم وهو تغطية الشيء، وسمى الغمام بهذا الاسم لأنه يغطي صفحة السماء، وسمى الهَمَّ غمًا بهذا الاسم لأنه يحجب القلب (٥).

(١) قاموس الكتاب المقدس / ٤٨٣.

(٢) سورة الزمر / ٦.

(٣) سورة الواقعة / ٩٣.

(٤) سورة آل عمران / ١٩٨.

(٥) تفسير روح المعاني ١/ ٢٦٣؛ والمفردات للراغب، مادة «غم».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٥

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) عناد بنى إسرائيل: وهنا نصل إلى مقطع جديد من حياة بنى إسرائيل، يرتبط بورودهم الأرض المقدسة. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ» «القرية»: كل مكان يعيش فيه جمع من الناس، ويشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافاً لمعناها الراجح المعاصر. والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ». أي:

حِطَّ عَنَّا خَطَايَانَا، «نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

«حِطَّةٌ»: في اللغة، تأتي بمعنى التناثر والمراد منها في هذه الآية الشريفة، إلهنا نطلب منك أن تحط ذنوبنا وأوزارنا.

والآية تنتهي بعبارة: «وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ». أي: إن المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافة إلى غفران الخطايا.

والقرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بنى إسرائيل حتى في ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوا بعبارة أخرى فيها معنى السخرية والاستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ». وكانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب الله حيث يقول: «فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

«الرجز»: أصله الاضطراب ومنه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

وفي مجمع البيان: إن الرجز يعنى العذاب عند أهل الحجاز ويروى عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله بشأن مرض الطاعون: «إنه رجز عذب به بعض الامم قبلكم».

ومن هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» في بعض الروايات أنه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بني إسرائيل وأهلك جمعاً منهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٦

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطراباً في المشى والكلام، وهذا يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماماً. ومن الملفت للنظر أيضاً أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل «عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» فقط، ولم يشمل جميع بني إسرائيل.

والآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن الله تعالى، هي أن الذنب حينما يتعمق في المجتمع ويصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهي.

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبُهُمْ كُفُورًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) انفجار العيون في الصحراء: تذكير آخر بنعمة أخرى من نعم الله على بني إسرائيل: وهذا التذكير تشير إليه كلمة «إذ» المقصود منها (واذكروا إذ)، وهذه النعمة أغدقها الله عليهم، حين كان بنو إسرائيل في أمس الحاجة إلى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى عليه السلام من الله عز وجل الماء: «وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ» فتقبل الله طلبه، وأمر نبيه أن يضرب الحجر بعصاه: «فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» بعدد قبائل بني إسرائيل.

وكل عين جرت نحو قبيلة بحيث أن كل قبيلة كانت تعرف العين التي تخصها «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبُهُمْ».

كثرت الأقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون.

قال بعض المفسرين: إن هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطلّة على الصحراء وتدل جملة «انفجرت» الواردة في الآية (١٦٠) من سورة الأعراف على أن المياه جرت قليلة أولاً، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بني إسرائيل مع مواشيهم ودوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية لكن الحادث هنا مقرون بالإعجاز.

لقد من الله على بني إسرائيل بإنزال المن والسلوى، وفي هذه المرة يمنّ عليهم بالماء الذي يعز في تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٧

وفي هذه العبارة حثّ لهم على ترك العناد وإيذاء الأنبياء، وأن يكون هذا أقل شكرهم لله على هذه النعم.

الفرق بين العتو والإفساد: نهى الله سبحانه بني إسرائيل عن الفساد بفعل «لَاتَعْنُوا» من العتو وهو شدة الفساد. وبهذا يكون معنى «لا تعنوا» هو معنى «المفسدين» ولكنه مع تأكيد أشد.

وقد تشير عبارة النهي بأجمعها إلى حقيقة بدء الفساد من نقطة صغيرة، واتساعها واشتدادها بعد ذلك. أي تبدأ بالفساد وتنتهي بالعتو في الأرض وهو شدة الفساد واتساعه.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) المطالبة بالأطعمة المتنوعة: بعد أن شرحت الآيات السابقة نعم الله على بني إسرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم وكفرانهم بهذه النعم الكبرى. تتحدث الآية أولاً عن مطالبه بني إسرائيل نبيهم بأطعمة متنوعة بدل الطعام الواحد (المن والسلوى): «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا».

فخاطبهم موسى «قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ».

ويضيف القرآن: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

إنَّ المقصود من كلمة «مصر» في الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة، وقوله سبحانه: «أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ». أي: إنكم الآن تعيشون في هذه الصحراء ضمن إطار مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٨

منهج للاختبار وبناء الذات، وليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، إذهبوا إلى المدن حيث التنوع في المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور. التنوع وطبيعة الإنسان: التنوع هو - دون شك - من متطلبات البشر، فلم إذن توجه اللوم والتقريع إلى بنى إسرائيل حين طلبوا الخضروات والخيار والفوم والعدس والبصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟! الجواب يتضح لو علمنا أن الحياة الإنسانية تقوم على أساس حقائق هامة لا يمكن التخلي عنها، هي الإيمان والطهر والتقوى والتحرر، وقد تمر الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام والشراب واللذائذ الأخرى، وهنا تصبح الجماعة أمام خيارين، إما أن تنغمس في اللذات وتترك قيمها وشرافها، أو تضحى بلذاتها من أجل إنسانيتها وكرامتها. بنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

ولابد من الإشارة إلى أن حقيقة حب التنوع استغلها الطامعون والمستعمرون دوماً، ليدفعوا الشعوب إلى هاوية حياة استهلاكية شهوانية هابطة، يعيش الأفراد فيها بين المعلن والمضجع، ناسين شخصيتهم الإنسانية، وغافلين عن النير الذي يطوق أعناقهم. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) القانون العام للنجاة: بعد عرض لمقاطع من تاريخ بنى إسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاماً في التقييم وفق المعايير الإلهية، وهذا المبدأ ينص على أن الإيمان والعمل الصالح هما أساس تقييم الأفراد، وليس للتظاهر والتصنع قيمة في ميزان الله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (١).

(١) «الصابئين»: كانوا في الأصل أتباع أحد الأنبياء وإن اختلف المحققون في تعيين نبيهم، وعدد هؤلاء قليل وهم في حالة إنقراض. مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٩

تساؤل هام: بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التي نحن بصددنا وسيلة لبث شبهة مفادها أن العمل بأي دين من الأديان الإلهية له أجر عند الله، وليس من اللازم أن يعتنق اليهودي أو النصراني الإسلام، بل يكفي أن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً. الجواب: نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، والكتاب العزيز يقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» (١). كما أن القرآن ملئ بالآيات التي تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، وتلك الشبهة تعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقي للآية الكريمة. ونذكر تفسيرين لها من أوضح وأنسب ما ذكره المفسرون:

١- لو عمل اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان السماوية بما جاء في كتبهم، لآمنوا حتماً بالنبي صلى الله عليه وآله لأن بشارات الظهور وعلامات النبي وصفاته مذكورة في هذه الكتب السماوية.

٢- هذه الآية تجيب على سؤال عرض لكثير من المسلمين في بداية ظهور الإسلام، يدور حول مصير آبائهم وأجدادهم الذين لم يدر كوا عصر الإسلام، ترى، هل سيؤخذون على عدم إسلامهم وإيمانهم؟ الآية المذكورة نزلت لتقول إن كل امه عملت في عصرها بما جاء به نبيها من تعاليم السماء وعملت صالحاً؛ فإنها ناجية، ولا خوف على أفراد تلك الامه ولا هم يحزنون.

فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، والمسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبي الإسلام. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ



اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) الإلتزام بالميثاق: هاتان الآيتان تطرحان مسألة أخذ ميثاق بنى إسرائيل بشأن العمل بالتوراة، ثم نقضهم للميثاق: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ». والطور جبل

(١) سورة آل عمران / ٨٥.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٠

وسياتى ذكره. وقلنا لكم: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ». واجعلوا التوراة دوماً نصب أعينكم:

«وَأَذْكُرُوا مِمَّا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». لكنكم نقضتم الميثاق وجعلتموه وراء ظهوركم: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَمَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

هذا الميثاق عبارة عن: توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء، هذه المواد وردت في التوراة كذلك. من الآية (١٢) لسورة المائدة يتضح أيضاً أن الله أخذ ميثاق بنى إسرائيل أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويساندوهم، وأن ينفقوا في سبيل الله. وفي هذه الآية ضمان للقوم بدخول الجنة إن عملوا بهذا الميثاق.

بحوث

١- رفع جبل الطور: أما بشأن كيفية رفع جبل الطور في قوله تعالى: «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ». يقول الطبرسى عن أبى زيد: حدث هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالألواح، فقال لقومه: جئتكم بالألواح وفيها التوراة والحلال والحرام فاعملوا بها. قالوا: ومن يقبل قولك؟! فأرسل الله عز وجل الملائكة حتى نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به وإلا أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا لله تعالى ملاحظين الجبل (أى وهم ينظرون إلى الجبل من طرف خفى)، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شقّى وجوههم.

الطبرسى - كما ذكرنا - وجمع من المفسرين، يذهبون إلى أن جبل الطور رفع فوق رؤوس بنى إسرائيل بأمر الله لايجاد الظل عليهم. ويحتمل أيضاً أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بأمر الله على أثر زلزال شديد أو صاعقه، ومّرت فوق رؤوسهم في لحظات، فرأوها وتصوروا أنها ستسقط عليهم.

٢- الإلتزام والإرهاب: مسألة رفع الجبل فوق بنى إسرائيل لتهديدهم عند أخذ الميثاق تثير سؤالاً بشأن إمكان تحقيق الإلتزام عن طريق التخويف والإرهاب.

هناك من قال: إن رفع الجبل فوقهم لا ينطوى على إرهاب وتخويف أو إكراه، لأن أخذ الميثاق بالإكراه لا قيمة له.

الأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندين المتمردين على الرضوخ للحق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧١

بالقوة. وهذا الإرغام مؤقت هدفه كسر أنفتهم وعنادهم وغرورهم، ومن ثم دفعهم للفكر الصحيح، كى يؤدّوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة واختيار.

على أى حال، هذا الميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الاعتقادي، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالإكراه.

٣- خذوا تعاليم السماء بقوة: خاطب الله سبحانه بنى إسرائيل فقال: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ». وعن هذه الآية سئل الإمام جعفر بن

محمّد الصادق عليه السلام عن المقصود من القوة في هذه الآية: أبقوة بالأبدان أم بقوة في القلوب؟ قال: «بهما جميعاً».

وهذا الأمر الإلهى يتجه إلى كل أتباع الأديان الإلهية في كل زمان ومكان، ويطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية والقوى المعنوية معاً، لصيانة خط التوحيد وإقامة حاكمية الله في الأرض.

وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) عصاة يوم السبت: هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان - كالأيات السابقة - عن روح العصيان والتمرد المتغلغلة في اليهود، والتصاقهم الشديد بالمسائل المادية: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» (١).  
«فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا». أى: جعلناها عبرة لتلك الامم ولأمم تليها «وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

ملخص الحادثة التي تشير إليها الآية: «أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَمْرُ الْيَهُودِ أَنْ يَسْتَبُوا - أى أن يقطعوا أعمالهم - يوم السبت، وهذا الأمر شمل طبعاً أولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الأسماك، وشاء الله أن يختبر هؤلاء، فكثرت الأسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت في بقية الأيام. طفق هؤلاء يتحايلون لصيد الأسماك يوم السبت.  
فعاقبهم الله على عصيانهم ومسخهم على هيئة حيوان» (٢).

(١) «خسأ»: طرد وزجر، ويستعمل لطرده الكلب، وللطرد المقرون بالإستهانة يقال: إخسأه.

(٢) راجع التفاصيل لدى توضيح الآيات (١٦٣-١٦٦) من سورة الأعراف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٢

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّمَّا ذُلُولٌ تُبَيِّرُ الْأَرْضَ وَلَمَّا تَشِيْقَى الْحَرْثُ مُسَلِّمَةٌ لَمَّا شِيْقَى فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَمَذْبُوحُهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَاتَلْتُم نَفْسًا فَادَارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) قصة بقرة بنى إسرائيل: هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة اخرى من حوادث تاريخ بنى إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه في الآيات السابقة.

الحادثة (كما يبينها القرآن وكتب التفسير) على النحو التالي: قتل شخص من بنى إسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل. حدث بين قبائل بنى إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة اتهم الاخرى بالقتل، توجهوا إلى موسى ليقضى بينهم، فما كانت الأساليب الاعتيادية ممكنة في هذا القضاء، وما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سترتب عليها من فتنة بين بنى إسرائيل. لجأ موسى - بإذن الله - إلى طريقه إعجازيه لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة. يقول سبحانه في هذه الآيات: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٣

لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا».

«قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ». أى: إن الإستهزاء من عمل الجاهلين، وأنبياء الله مبرؤون من ذلك.

بعد أن أيقنوا جدية المسألة، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ». وعبارة «رَبِّكَ» تتكرر في خطاب بنى إسرائيل لموسى، وتنطوي على نوع من إساءة الأدب والسخرية، وكأن رب موسى غير ربهم!

موسى عليه السلام أجابهم: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَلْفَارِضِ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ». أى: إنها لا كبيرة هرمه ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: «فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ».

لكن بنى إسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِهَا».

أجابهم موسى: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ». أى: إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

ولم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصروا على لجاجهم، وضيّقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم. عادوا و «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ». طالبين بذلك مزيداً من التوضيح، متذرعين بالقول: «إِنَّ الْبَقْرَةَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ». أجابهم موسى: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَأَذُولُ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ». أى: ليست من النوع المذلل لحرث الأرض وسقيها.

«مُسَلَّمَةٌ» من العيوب كلها.

«لَا شَيْءَ فِيهَا». أى: لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: «قَالُوا لَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ». «فَدَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ». أى: أنهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخص الحادث بآيتين: «وَأِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا». أى: فاختلفتم في القتل وتدافعتم فيه. «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

«فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا». أى: اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كى يحيى ويخبركم بقاتله. «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

وبعد هذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بنى إسرائيل، بل بقيت على قسوتها وغلظتها وجفافها. «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً».

إنها أشد قسوة من الحجارة، لأن بعض الحجارة تنفجر منها الأنهار، أو تنبع منها المياه أو

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٤

تسقط من خوف الله: «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ». لكن قلوب بنى إسرائيل أشد قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفه ولا علم، ولا تنبع منها قطرة حب، ولا تخفف من خوف الله. والله عالم بما تنطوى عليه القلوب وما تفعله الأيدي: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

العبر في هذه القصة: هذه القصة لها دلالات على قدرة الله اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد.

إضافة إلى ما سبق، هذه القصة تعلمنا أننا ينبغي أن لا نتزمت ولا نتشدد في الامور كى لا يتشدد الله معنا.

ولعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغه هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل. «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِ هُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٧٧)»

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان روى عن الإمام أبى جعفر محمّد بن على الباقر عليه السلام أنه قال: «كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتوطنين، إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما فى التوراة من صفة محمّد، فنهاهم كبراًوهم عن ذلك، وقالوا: لا تخبروهم بما فى التوراة من صفة محمّد فيحاجوكم به عند ربكم فنزلت هذه الآية».

التفسير

لا أمل فى هؤلاء: كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بنى إسرائيل، وفى هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحو المسلمين ويقول لهم: لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصرون على تحريف الحقائق ونكران ما عقولهم «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٥

كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهذه عظة للمسلمين، ودفع لما قد يعتريهم من بأس نتيجة عدم استطاعتهم إقناع اليهود وجذبهم إلى الدين الجديد.

الآية التالية تلقي الضوء على حقيقة مرة أخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة وتقول: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضِّهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ويتضح من الآية أن إيمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفاً إلى درجة أنهم تصوروا الله مثل إنسان عادي، وظنوا أنهم إذا أخفوا شيئاً عن المسلمين فسيخفى عن الله أيضاً. لذلك تقول الآية التالية بصراحة: «أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ». وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَمَّا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّاءً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: عمد جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات نبي الخاتم في التوراة من أجل صيانة مصالحهم، واستمرار الأموال التي كانت تتدفق عليهم سنوياً من جهلة اليهود. فعند ظهور النبي صلى الله عليه وآله غيروا ما ذكر من صفاته في التوراة وأبدلوا بصفات أخرى على العكس منها، كي يمؤهوا الأمر على الاميين الذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النبي في التوراة، فمتى ما سألوا علماءهم عن هذا النبي الجديد قرؤوا لهم الآيات المحرفة من التوراة لإقناعهم بهذه الطريقة.

التفسير

خطبة اليهود في استغلال الجهلة: بعد الحديث عن إنحرافات اليهود في الآيات السابقة قسّمت هاتان الآيتان اليهود إلى مجموعتين: اميين وعلماء ماكرين. عن المجموعة الاولى يقول تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ». مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٦

«الاميون»: جمع امي، والامّي غير الدارس، وسمّوا بذلك لأنهم في معلوماتهم كما ولدتهم امهاتهم، أو لشدة تعلق امهاتهم بهم، صعب عليهم فراقهم جهلاً، ومنعهم من الذهاب إلى المدرسة. والأمانى جمع امية، ولعل الآية تشير هنا إلى الإمتيازات الموهومة التي كان ينسبها اليهود لأنفسهم، كقولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ» (١).

ومن المحتمل أيضاً أن يكون المقصود من الأمانى، الآيات المحرفة التي كان علماء اليهود يشيعونها بين الاميين من الناس.

ثمة مجموعة أخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، وإلى هؤلاء يشير القرآن: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّاءً قَلِيلاً».

«فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ».

«وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ».

وقد أورد بعض المفسرين حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية وفيه ملاحظات هامة:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّابما يسمعون من علمائهم، فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا، يقلدون علماءهم - إلى أن قال - فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة، وتسوية من جهة، أمّا من حيث الاستواء فإنّ الله ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما ذمّ عوامهم، وأمّا من حيث افتراقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصّراح، وأكل الحرام، والرشاء وتغيير الأحكام، واضطروا بقلوبهم إلى أن من فعل ذلك فهو فاسق، لا يجوز أن يصدّق على الله، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله، فلذلك ذمّهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، والعصبيّة الشديدة، والتكالب على الدنيا وحرمانها، فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم، فأمر من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّابعض فقهاء الشيعة لا كلّهم، فإنّ من ركب من القبائح والفواحش مراكب علماء العامّة، فلا تقبلوا منهم عنّا شيئاً، ولا كرامه، وإنّما

كثر التخليط فيما يتحمل عنا أهل البيت لذلك، لأن الفسقة يتحملون عنا

(١) سورة المائدة/ ١٨.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٧

فيحرفونه بأسره لجهلهم، ويضعون الأشياء على غير وجهها لقلّة معرفتهم وآخرون يتعمدون الكذب علينا» (١).  
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ  
كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) غرور وادعاء فارغ: يشير القرآن الكريم هنا إلى واحدة  
من إدعاءات اليهود الدالة على غرورهم، هذا الغرور الذي يشكل الأساس لكثير من انحرافات هؤلاء القوم: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا  
أَيَّامًا مَعْدُودَةً». ثم تجيبهم الآية بأسلوب مُفحِم: «قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».   
اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأن عنصرهم متفوق على سائر الأجناس البشرية، وأن مذنبهم لن يدخلوا جهنم سوى أيام قليلة.  
إدعاء اليهود المذكور في الآية الكريمة لا ينسجم مع أي منطق.

الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقي، وتفهمهم أن مزاعمهم هذه إما أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذه عند الله،  
ولا يوجد مثل هذا العهد، أو أن تكون من افترائهم الكذب على الله.

ثم تبين الآية التالية قانوناً عاماً يقوم على أساس المنطق وتقول: «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ».

وهذا القانون عام يشمل المذنبين من كل فئه وقوم.

وبشأن المؤمنين الأتقياء، فهناك قانون عام شامل تبينه الآية التالية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ».

بحوث

١- كسب السيئة: الكسب والإكتساب: الحصول على الشيء عن إرادة واختيار، من هنا

(١) وسائل الشيعة ١٨/ ٩٤ (كتاب القضاء، باب عدم جواز تقليد غير المعصوم).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٨

عبارة «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً» إشارة إلى اولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم وانتخاب، وتعبير الآية بكلمة «كَسَبَ» قد يكون إشارة  
إلى المحاسبة الخاطئة العاجلة التي يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظاناً أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعاً، ويتحمل بتركه خسارة. ٢-  
إحاطة الخطيئة: الخطيئة تستعمل غالباً في الذنوب التي لا يرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت في هذه الآية بمعنى الذنوب الكبيرة  
أو بمعنى آثار الذنب في قلب الإنسان وروحه.

مفهوم إحاطة الخطيئة يعني إنغماس الفرد في الذنب إلى درجة يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

٣- عنصرية اليهود: نفهم من الآيات الكريمة أن روح التمييز العنصري لدى اليهود، التي هي مبعث كثير من مشاكل الساحة العالمية  
اليوم، كانت راسخة لدى اليهود منذ تلك الأيام، وكانوا يعتقدون بوجود تفوق وامتياز لعنصر بني إسرائيل على سائر الأجناس البشرية  
الآخري، ولا زالت هذه الذهنية سائدة لدى هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنين على أسلافهم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم،  
وهذا التعصب العنصري هو الأساس الذي تقوم عليه الدولة الصهيونية الغاصبة اليوم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٩

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هُوَآءٍ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِنْ يَأْتُواكُمْ أُسَارَىٰ فَتَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) الناكثون: تقدم ذكر ميثاق بني إسرائيل، والقرآن يندد في هذه الآيات بشدة باليهود لنقضهم هذه العهود، ويتوعدهم

نتيجة لهذا النقص بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة. بنود هذا العهد الذي أقر به بنو إسرائيل:

١- التوحيد وإخلاص العبودية لله «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

٢- الإحسان إلى الوالدين: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

٣- الإحسان إلى الأقارب واليتامى والفقراء: «وَذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ».

٤- التعامل الصحيح مع الآخرين: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا».

٥- إقامة الصلاة: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ».

٦- إيتاء الزكاة: «وَآتُوا الزَّكَاةَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٠

ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق وعدم وفائهم بالعهد: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ».

٧- عدم سفك الدماء: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ».

٨- عدم إخراج بني جلدتكم من ديارهم: «وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ».

٩- إفداء الأسرى، أى بذل المال لتحريرهم من الأسر (وهذا البند نفهمه من عبارة «أَفْتُوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» وسيأتى ذكرها).

ثم تذكر الآية إقرار القوم بالميثاق: «ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ».

ثم يتعرض القرآن إلى نقض بني إسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم وتشريد بعضهم الآخر:

«ثُمَّ أَنْتُمْ هُوَآءٍ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ». ويشير القرآن إلى تعاون بعضهم ضد البعض الآخر: «تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ».

ثم يشير إلى تناقض هؤلاء في مواقفهم، إذ يحاربون بني جلدتهم ويخرجونهم من ديارهم، ثم يقدونهم إن وقعوا في الأسر: «وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسَارَىٰ فَتَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ».

فهم يفادونهم استناداً إلى أوامر التوراة، بينما يشردونهم ويقتلونهم خلافاً لما أخذ الله عليهم من ميثاق: «أَفْتُوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ».

ومن الطبيعي أن يكون هذا الانحراف سبباً لانحطاط الإنسان في الدنيا والآخرة: «فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ».

وإنحرافات أية امه من الامم لا بد أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أحصاها عليهم بدقة: «وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

الآية الأخيرة تشير إلى تخبط بني إسرائيل وتناقضهم في مواقفهم، والمصير الطبيعي الذي ينتظرهم نتيجة لذلك: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا

الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

بِحِثَان

١- إشارة تاريخية: في الآيات إشارة لتناقض بني إسرائيل في مواقف بعضهم من البعض الآخر. قيل في ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد اخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، واخذ عليهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨١

الميثاق إن أسر بعضهم بعضاً أن يفادوهم، فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فأمنوا بالفداء ففدوا وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوهم».

وفي تفسير مجمع البيان روى في المعنى بهذه الآية عن ابن عباس: «أن قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج فافترقا فكانت النضير مع الخزرج وكانت قريظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا اسراها تصديقاً لما في التوراة، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنه ولا ناراً ولا قيامه ولا كتاباً، فأبأ الله تعالى اليهود بما فعلوه». وهكذا سقط اليهود وغيرهم من أهل العناد في مثل هذه التناقضات في حياتهم لانحرافهم عن خط العبودية التامة لله تعالى.

٢- منهج البقاء وعوامل السقوط: الآيات الكريمة في معرض حديثها عن بني إسرائيل تطرح سنناً كونية في بقاء الشعوب وانحطاطها. أهم عامل لبقاء الامية ورفعتها وعزتها في المنظار القرآني، اعتماد الامه على قوة الله وقدرته الأبدية وخضوعها له وحده دون سواه وخشيته وحده دون غيره: «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

ومن عوامل البقاء أيضاً التلاحم الاجتماعي بين أفراد الامه، وهذا ما يعبر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذى القربى، ثم بعد ذلك إلى عامة أفراد المجتمع من الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس. إزالة التمييز الطبقي ورفع الهوية السحيقة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء في المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، ومن عوامل بقاء المجتمع أيضاً ورفعته.

أمياً عوامل السقوط فهي عبارة عن تفكك البنية الاجتماعية، ونشوب النزاعات والحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، واستضعاف بعضهم بعضاً. «لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ...».

ثم الإزدواجية في الالتزام بأحكام الله تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآتية الذاتية الضيقة، فيلتزموا بالقوانين التي تحفظ لهم منافعهم الشخصية، ويتركوا القوانين النافعة للمجتمع «أَفْتَوْمُنُونَ بِنِعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِنِعْضِ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٢

هذه هي الأسباب والعلل في تكامل وانحطاط الامم والحضارات في منظور القرآن.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) القلوب المغلفة: الحديث في هاتين الآيتين عن بني إسرائيل، وإن كانت المفاهيم والمعايير التي تطرحها الآيتان عامة وشاملة. تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ». ثم تذكر بعثة الأنبياء بعد موسى مثل داود وسليمان ويوشع وزكريا ويحيى ...

«وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ». وتشير إلى بعثة عيسى: «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». لكن تعامل بني إسرائيل كان مع كل هؤلاء الأنبياء قائماً على أساس نزعات هوى النفس: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ».

وكان موقفهم إما اغتيال شخصيه النبي أو شخص النبي: «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ». لو كان اغتيال الشخصية كافياً لتحقيق أهدافهم

الدينئة اكتفوا بذلك، وإن لم يكن كافياً سفكوا دمه!

الآية التالية تذكر ما كانوا يقولونه باستهزاء مقابل دعوة الأنبياء لهم أو دعوة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ». و «الغلف»: جمع «أغلف» أى مغلف.

نعم، إنها كذلك مغلفة وبعيدة عن نفوذ النور الإلهي إليها، لأن أصحابها لعنوا بعد التمادي في الكفر: «بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ».

الآية تبين حقيقة هامة هي: إن الإنغماس في الأهواء يبعد الفرد عن الله، ويسدل الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقة تجد لها طريقاً إلى نفسه.

بحثنان

١- ما هو روح القدس؟ للمفسرين آراء مختلفة في معنى روح القدس:

أ) قالوا إنه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إن الله أيد عيسى بجبرائيل.

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك، والجانب الروحي في

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٣

الملائكة أمر واضح، وإطلاق كلمة «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، وإضافة الروح إلى «القدس» إشارة إلى طهر هذا الملك وقداسته الفائقة.

ب) وقيل: إن «روح القدس» هو القوة الغيبية التي أيدت عيسى عليه السلام وبهذه القوة الخفية الإلهية كان عيسى يحيى الموتى.

هذه القوة الغيبية موجودة طبعاً بشكل أضعف في جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم، وهذا الإمداد الإلهي هو الذى يعين الإنسان في أداء الطاعات وتحمل الصعاب، ويقيه من السقوط في الذنوب والزلات.

٢- قلوب غافلة محجوبة: كان اليهود في المدينة يقفون بوجه الدعوة، ويمتنعون عن قبولها، ويتذرعون لذلك بمختلف الحجج، والآية التي نحن بصددتها تشير إلى واحدة من ذرائعهم.

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ» ولا ينفذ إليها قول!

كانوا يقولون ذلك عن استهزاء، غير أن القرآن أيد مقالتهم، فكفرهم ونفاقهم اسدل على قلوبهم حجب من الظلمات والذنوب، وابتعدوا عن رحمة الله، «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ».

وهذه مسألة تطرحها في الآية (١٥٥) من سورة النساء حيث يقول تعالى: «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

سبب التزل

روى العياشى في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كانت اليهود تجد في كتبها أن مهاجر (مكان هجرة) محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين (جبل) غير واحد، فخرجوا يطلبون الموضوع، فمروا بجبل يقال له حداد، فقالوا: حداد واحد سواء، ففترقوا عنده. فنزل بعضهم بتيما و بعضهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٤

بفدك و بعضهم بخبير، فاشتاق الذين بتيما إلى بعض إخوانهم، فمّر بهم أعرابي من قيس فتكادوا منه (أى استأجروا إبله) وقال لهم:



أمر بكم ما بين غير واحد، (فعلمو أنهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فأذنا (أخبرنا) بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال: ذلك غير، وهذا احد، فنزلوا عن ظهر إبلة، وقالوا له: قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت. وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخبير: إنا قد أصبنا الموضع فلهتموا إلينا. فكتبوا إليهم إنا قد استقرت بنا الدار واتخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإذا كان ذلك فما أسرعنا إليكم، واتخذوا بأرض المدينة أموالاً. فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تبعاً فغزاهم، فتحصنوا منه، فحاصرهم ثم أمنهم، فنزلوا عليه. فقال لهم: إني قد استطبت بلادكم، ولا أرانى إلأ مقيماً فيكم.

فقالوا له: ليس ذلك لك، إنها مهاجر نبى، وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك. فقال لهم: فإني مخلف فيكم من اسرتى من إذا كان ذلك ساعده ونصره، فخلف حين تراهم الأوس والخزرج. فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا. فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله آمنت الأنصار وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» إلى آخر الآية.

التفسير

كفروا بما دعوا الناس اليه: هذه الآيات تتحدث أيضاً عن اليهود ومواقفهم، هؤلاء هاجروا ليتخذوا من يثرب سكناً بعد أن وجدوا فيها ما يشير إلى أنها أرض الرسول المرتقب، وبقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النبى الذى بشرت به التوراة، كما كانوا ينتظرون الفتح والنصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النبى، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرسول وعن الرسالة: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهكذا تستطيع الأهواء والمصالح الشخصية أن تقف بوجه طالب الحقيقة، مهما كان الفرد عاشقاً لهذه الحقيقة وتوافقاً للوصول إليها فيتركها ويعرض عنها، بل تستطيع الأهواء أيضاً أن تحول هذا الفرد إلى عدو لدود لهذه الحقيقة.

ما أشد خساراً هؤلاء اليهود، تركوا أوطانهم وهاموا فى الأرض بحثاً عن علامات أرض الرسالة، ثم ها هم خسروا كل شىء، وباعوا أنفسهم بأسوأ ثمن: «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٥

لقد ضيعوا كل شىء وكانهم أرادوا أن يكون النبى الموعود من بنى إسرائيل، ولهذا تألموا من نزول القرآن على غيرهم، بل ممن شاءه الله: «أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيْنَا أَنْ يَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

ولذلك شملهم غضب الله المتوالى: «فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

«باءو»: بمعنى رجعوا- وأقاموا فى المكان- وهنا تعنى استحقاقهم لعذاب الله، فكأنهم عادوا وهم محملون بهذا الغضب الإلهى، أو كأنهم اتخذوا موقفاً يغضب الله.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون على أمل ظهور النبى المنقذ، قبل دعوة موسى وقبل دعوة النبى الخاتم صلى الله عليه وآله وكان موقفهم من الرسولين الكريمين واحداً، هو النكول والإعراض، واستحقوا غضب الله وسخطه مرة بعد اخرى.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَوْلًا سَمِعْنَا وَعَصِيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ نَبِيٌّ مَّا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) العصية القومية لدى اليهود: يشير القرآن مرة اخرى إلى عصية اليهود القومية ويقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ».

فهم لم يؤمنوا بالإنجيل ولا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصرية والمصلحية، فيجرون على رفض الدعوة التى جاءت تصديقاً لما معهم فى التوراة: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ». ويكشف القرآن زيف ادعائهم مرة اخرى حين يقول لهم: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ

أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». هؤلاء يدعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الأنبياء؟

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٦

ويعرض القرآن وثيقه اخرى لإدانة اليهود ولكشف زيف إدعائهم فيقول: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

ما هذا الانحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءكم البيّنات إن كنتم في إيمانكم صادقين!

في الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقه إدانة اخرى، فيشير إلى مسألة ميثاق جبل الطور ويقول: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا».

وما كان عصيانهم إلا عن انغماس في حب الدنيا الذي تمثل في حب عجل السامري الذهبي: «وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» ولذا نسوا الله عز وجل؟ كيف يجتمع الإيمان بالله مع قتل انبيائه وعبادة العجل ونقض العهود والمواثيق الإلهية المؤكدة؟ أجل «قُلْ بِئْسَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إيمانكم إن كنتم مؤمنين».

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) فئة مغرورة: يبدو من تاريخ اليهود - مضافاً لما أخبر القرآن عنه - أن هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة متميزة في العنصر، ومتفوقة على سائر الأجناس البشرية، وكانوا يعتقدون أن الجنة خلقت لهم لا لسواهم، وأن نار جهنم لن تمسهم، وأنهم أبناء الله وخاصته، وأنهم يحملون جميع الفضائل والمحاسن.

والقرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جواباً دامغاً إذ يقول: «قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

لقد كان اليهود يهدفون من كلامهم هذا وأن الجنة خالصة لنا دون سائر الناس: أو أن النار لا تمسنا إلا أياماً معدودات - إلى توهين إيمان المسلمين وتخدير عقائدهم.

في الآية التالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: «وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٧

قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

هؤلاء يعلمون ما في ملف أعمالهم من وثاق سوداء ومن صحائف إدانته، والله عليم بكل ذلك، ولذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض وحرصهم الشديد على المال والمتاع:

«وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِ». وتذكر الآية أن حرصهم هذا يفوق حرص الذين أشركوا: «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا».

المشركون ينبغي أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال والمتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الإدعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون.

وبلغ شغفهم بالدنيا أنه «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفاً من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذي يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، ولا يغير من مصيره شيئاً «وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ». إذ كل شيء محصى لدى الله، ولا يعزب عن عمله شيء «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

بحوث

١- ما هو المراد من الأعوام الألف: المقصود من الأعوام الألف في قوله تعالى: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ». ليس هذا العدد

المعروف، والعرب لم تكن تعرف أنذاك عدداً أكبر من الألف، ولم يكن لما يزيد على الألف اسم عند العرب، ولذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة.

٢- علّة ورود كلمة «الحياة» نكرة في الآية: تنكير الحياة في تعبير الآية «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ» تفيد الإستهانة والتحقير. أى إن هؤلاء حريصون حتّى على أنفه حياة وأرخصها وأشقاها، ويفضلونها على الآخرة.

٣- إفرزات العنصرية: كان التعصب العنصرى وراء كثير من الحروب والمآسى التي حدثت على الساحة البشرية خلال جميع عصور التاريخ، واليهود يحتلون دون شك مكان الصدارة بين العنصرين المتعصبين على مر التاريخ.

لقد دفعتهم عنصريتهم لأن يحتكروا حتى تعاليم موسى، ويزيلوا عنصر الدعوة من دينهم، كى لا يعتنق تعاليمهم أحد غيرهم. التعصب العنصرى شعبه من الشرك، ولذلك حاربه الإسلام بشدة، مؤكداً أن كل أبناء البشر من أب واحد وام واحدة، ولا تمايز إلبالتقوى والعمل الصالح.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٨

٤- عوامل الخوف من الموت: أكثر الناس يخافون من الموت، وخوفهم هذا يعود إلى عاملين:

أ) الخوف من الفناء والعدم، فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمراراً لحياتهم، ومن الطبيعى أن يخاف الإنسان من الفناء، وهذا الخوف يلاحق هؤلاء حتى فى أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها إلى علقم فى أفواههم.

ب) الخوف من العقاب، ومثل هذا الخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون أن يحين حينهم وهم مثقلون بالآثام والأوزار، فينالوا جزاءهم، ولذلك يودّون أن تتأخر ساعة انتقالهم إلى العالم الآخر.

الأنبياء العظام أحيوا فى القلوب الإيمان باليوم الآخر، وبذلك أبعثوا شبح الفناء والإنعدام من الأذهان، وبينوا أن الموت انتقال إلى حياة أبدية خالدة منعمّة.

من جهة اخرى دعا الأنبياء إلى العمل الصالح، كى يتعد الإنسان عن الخوف من العقاب، ولكى يزول عن القلوب والأذهان كل خوف من الموت.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)

سبب النزول

جاء فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: كان سبب نزول هذه الآية ما روى أن ابن سوريا وجماعة من يهود أهل فدك، لما قدم النبى صلى الله عليه وآله المدينة، سأله فقالوا: يا محمد! كيف نومك فقد اخبرنا عن نوم النبى الذى أتى فى آخر الزمان؟ فقال: «تنام عيناى وقلبى يقظان». قالوا: صدقت يا محمد... قالوا: فأخبرنا عن ربك ما هو؟ فأنزل الله سبحانه «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» إلى آخر السورة. فقال له ابن سوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك: أى ملكك يأتىك بما ينزل الله عليك؟ قال: «جبريل». قال ابن سوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذى يأتىك لآمنّا بك.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٩

التفسير

قوم جدلون: سبب نزول الآية الكريمة يبين طبيعة العناد واللجاج والجدل فى اليهود، إبتداء من زمان موسى عليه السلام ومروراً بعصر خاتم الأنبياء وحتى يومنا هذا. حجتهم فى هذا الموضوع المذكور فى الآية ثقل التكاليف التى يأتى بها جبرائيل، والقرآن الكريم يصرح- فى الآية (٦) من سورة التحريم- بأن الملائكة ينفذون أوامر الله ولا ينحرفون عن طاعته: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ».

القرآن يجيب عن ذريعة هؤلاء: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ». وما جاء به جبرائيل يصدق ما نزل فى

الكتب السماوية السابقة: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ». وهو إضافة إلى كل هذا: «وَهَدَىٰ وَبُشِّرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ».

الآية التالية تؤكد نفس هذا الموضوع تأكيداً مقروناً بالتهديد وتقول: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ».

مشيرة بذلك إلى أن موقف الإنسان من الله وملائكته ورسله ومن جبرائيل وميكائيل، لا يقبل التفكيك، وأن الموقف المعادى من أحدهم هو معاداة للآخرين.

جبريل وميكايل: ورد اسم جبريل ثلاث مرات، واسم ميكايل مرة واحدة في القرآن الكريم (١) ويستفاد من الآيات أنهما ملكان مقربان من ملائكة الله تعالى.

وهناك أحاديث تدور حول ظهور جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النبي، وكان في المدينة ينزل على صورة (حية الكلبى) وهو رجل جميل الطلعة.

يستفاد من سورة النجم أن النبي صلى الله عليه وآله شاهد جبرائيل مرتين على هيئته الأصلية (٢).

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

(١). اسم «جبريل» ورد مرتين في هذه الآيات و مرة في سورة التحريم الآية (٤) و اسم «ميكايل» لم يرد إلا في هذا الموضع من القرآن.

(٢). أعلام القرآن / ٢٧٧.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٠

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إن ابن سوريا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا محمد! ما جئنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبعك لها. فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

الناكثون من اليهود: الآية الأولى تشير إلى الآيات والعلامات والدلائل الكافية الواضحة التي توفرت لدى رسول الله صلى الله عليه وآله و آله وتؤكد أن المعرضين عن هذه الآيات البينات أدركوا في الواقع حقانية الدعوة، لكنهم هبوا للمعارضة مدفوعين بأغراضهم الشخصية:

«وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ».

ثم يتطرق القرآن إلى صفة مجموعة من اليهود، وهي صفة النكول ونقض العهود والمواثيق، وكأنها صفة تاريخية تلازمهم على مر العصور: «أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

لقد أخذ الله ميثاقهم في جانب الطور أن يعملوا بالتوراة لكنهم نقضوا الميثاق، وأخذ منهم الميثاق أن يؤمنوا بالنبي الخاتم المذكور عندهم في التوراة فلم يؤمنوا به.

الآية الأخيرة تؤكد بصراحة أكثر على هذا الموضوع: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

كان أخبار اليهود يبشرون الناس قبل البعثة النبوية بالرسول الموعود ويزكرون لهم علاماته وصفاته، فلما بعث نبي الإسلام، أعرضوا عما جاء في كتابهم، وكانهم لم يروا ولم يقرأوا ما ذكرته التوراة في هذا المجال.

بحثنان

١- واضح أن تعبير «النزول» أو «الإنزال» بشأن القرآن الكريم لا يعنى الانتقال المكانى من الأعلى إلى الاسفل وأن الله مثلاً فى السماء وأنزل القرآن إلى الأرض، بل التعبير يشير إلى علو مكانة رب العالمين.

٢- القرآن فى حديثه عن اليهود لا- يوبّخ الجميع بسبب ذنوب الأكثرية، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «أكثر» ليصون حق الأقلية المؤمنة المتقية، وطريقة القرآن هذه فى حديثه عن الامم درس لنا كى لا نحيد فى أحاديثنا ومواقفنا عن الحق والحقيقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩١

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبِيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) سليمان وسحرة بابل: يفهم من الأحاديث أن مجموعة من الناس مارست السحر فى عصر النبى سليمان عليه السلام فأمر سليمان بجمع كل أوراقهم وكتاباتهم، واحتفظ بها فى مكان خاص. بعد وفاة سليمان عمدت جماعة إلى إخراج هذه الكتابات، وبدأوا بنشر السحر وتعليمه، واستغلت فته هذه الفرصة فأشاعت أن سليمان لم يكن نبياً أصلاً.

مجموعة من بنى إسرائيل سارت مع هذه الموجه ولجأت إلى السحر، وتركت التوراة.

عندما ظهر النبى الخاتم صلى الله عليه وآله وجاءت آيات القرآن مؤيدة لنبوته سليمان، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمد يقول: سليمان نبى وهو ساحر!

وجاءت الآية ترد على مزاعم هؤلاء وتنفى هذه التهمة الكبرى عن سليمان عليه السلام «١».

الآية الاولى إذن تكشف فضيحة اخرى من فضائح اليهود وهى إتهامهم لنسبى الله بالسحر والشعوذة، تقول الآية عن هؤلاء القوم: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ».

المقصود بكلمة «الشياطين» قد يكون الطغاة من البشر أو من الجن أو من كليهما.

ثم تؤكد الآية على نفى الكفر عن سليمان: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ».

(١) سيرة ابن هشام ١٩٢/٢؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٢

فسليمان عليه السلام لم يلجأ إلى السحر، ولم يحقق أهدافه عن طريق الشعوذة: «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» «١». هؤلاء اليهود لم يستغلوا ما تعلموه من سحر الشياطين فحسب، بل أساءوا الاستفادة أيضاً من تعليمات هاروت وماروت: «وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ».

هاروت وماروت ملكان إلهيان جاء إلى الناس فى وقت راج السحر بينهم وابتلوا بالسحرة والمشعوذين، وكان هدفهما تعليم الناس سبل إبطال السحر، وكما أن إحباط مفعول القنبلة يحتاج إلى فهم لطريقة فعل القنبلة، كذلك كانت عملية إحباط السحر تتطلب تعليم الناس اصول السحر، ولكنهما كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط فى الفتنة بعد تعلم السحر: «وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ».

وسقط اولئك اليهود فى الفتنة، وتوغلوا فى انحرافهم، فزعموا أن قدرة سليمان لم تكن من النبوة، بل من السحر والسحرة، وهذا هو دأب المنحرفين دائماً، يحاولون تبرير انحرافاتهم بإتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ينجحوا فى هذا الاختبار الإلهى، فأخذوا العلم من الملكين واستغلوه على طريق الإفساد لا الإصلاح، لكن قدرة الله فوق

قدرتهم وفوق قدره ما تعلموه: «فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ».

لقد تهافتوا على إقتناء هذا المتاع الدنيوي وهم عالمون بأنه يصادر آخرتهم «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» (٢). لقد باعوا شخصيتهم الإنسانية بهذا المتاع الرخيص «وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

لقد أضعوا سعادتهم وسعادة مجتمعهم عن علم ووعي، وغرقوا في مستنقع الكفر والانحراف «وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

بحثنان

١

- قصّة هاروت وماروت: شاع السحر في أرض بابل وأدى إلى إخراج الناس

(١) «السحر»: نوع من الأعمال الخارقة للعادة، تؤثر في وجود الإنسان، وهو أحياناً نوع من المهارة والخفة في الحركة وإيهام للأنظار كما إنه أحياناً ذو طابع نفسى خيالى.

(٢) «الخلق»: يعنى الخلق، وقد يعنى الحظ والنصيب وهذا هو معنى الكلمة في الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٣

وازعاجهم، فبعث الله ملكين بصورة البشر، وأمرهما أن يعلما الناس طريقة إحباط مفعول السحر، ليتخلصوا من شر السحرة. كان الملكان مضطرين لتعليم الناس اصول السحر، باعتبارها مقدمة لتعليم طريقة إحباط السحر، واستغلت مجموعة هذه الاصول، فانخرطت في زمرة الساحرين، وأصبحت مصدر أذى للناس. الملكان حذرا الناس - حين التعليم - من الوقوع في الفتنة، ومن السقوط في حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثر في مجموعة منهم (١).

٢- لا قدرة لأحد على عمل دون إذن الله: نفهم من قول الله في هذه الآيات أن السحرة ما كانوا قادرين على إنزال الضرر بأحد دون إذن الله سبحانه، وليس في الأمر «جبر» ولا إرغام، بل إن هذا المعنى يشير إلى مبدأ أساس في التوحيد، وهو أن كل القوى في هذا الكون تنطلق من قدرة الله تعالى، النار إذ تحرق إنما تحرق بإذن الله، والسكين إذ تقطع إنما تقطع بأمر الله، لا يمكن للساحر أن يتدخل في عالم الخليفة خلافاً لإرادة الله.

كل ما نراه من آثار وخواص إنما هي آثار وخواص جعلها الله سبحانه للموجودات المختلفة، ومن هذه الموجودات من يحسن الاستفادة من هذه الهبة الإلهية ومنهم من يسيء الاستفادة منها. و «الاختيار» الذى منحه الله للإنسان إنما هو وسيلة لإختباره وتكامله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا نُنْظَرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: لما قدم سبحانه نهى اليهود عن السحر، عقبه بالنهى عن إطلاق هذه اللفظة فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَقُولُوا رَاعِنَا» كان المسلمون يقولون: يا رسول الله! راعنا. أى استمع منا. فحرّفت اليهود هذه اللفظة، فقالوا: يا محمّد! راعنا. وهم يلحدون إلى الرعونته يريدون به النقيصة والوقية فلما عوتبوا قالوا: نقول كما يقول

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة ١٢ / ١٠٦.

المسلمون، فهى الله عن ذلك «لَاتَقُولُوا رَاعِنَا» «وَقُولُوا انظُرْنَا».

التفسير

لا- توفروا للأعداء فرصة الطعن: الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمَّا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

مما سبق من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أن على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصة الطعن بهم، وأن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعته يسيئون بها إلى الجماعة المسلمة.

حين يشدد الإسلام إلى هذا الحد في هذه المسألة البسيطة، فإن تكليف المسلمين في المسائل الكبرى واضح، عليهم في مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، وأن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون من الداخل والخارج للإساءة إلى سمعة الإسلام والمسلمين.

الآية التالية تكشف عن حقيقة ما يكفه مجموعة من أهل الكتاب والمشركون من حقد وعداء للجماعة المؤمنة: «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»، وسواء ود هؤلاء أم لم يودوا فرحمه الله لها سنه إلهية ولا تخضع للميول والأهواء: «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

الحاقدون لم يطيقوا أن يروا ما شمل الله المسلمين من فضل ونعمة، وما من عليهم من رسالة عظيمة، ولكن فضل الله عظيم.

مغزى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»: أكثر من ثمانين موضعاً خاطب الله المسلمين في كتابه الكريم بهذه العبارة، وكل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت في المدينة، ولا وجود لهذه العبارة في الآيات المكية، ولعل ذلك يعود إلى تشكل الجماعة المسلمة في المدينة، وإلى ظهور المجتمع الإسلامى بعد الهجرة. ولذلك خاطب الله الجماعة المؤمنة بعبارة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»، وهذا الخطاب يتضمن إشارة إلى ميثاق التسليم الذى عقده الجماعة المسلمة مع ربها بعد الإيمان به، وهذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة والانصياع لأوامر رب العالمين، والاستجابة لما يأتى بعد هذه العبارة من أحكام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٥

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا مَوْلَىٰ (١٠٧) الغرض من النسخ: الآية الاولى تشير أيضاً إلى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضد المسلمين. كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحياناً قائلين لهم إن الدين دين اليهود وأن القبلة قبله اليهود، ولذلك فإن نبيكم يصلى تجاه قبلتنا (بيت المقدس)، وحينما نزلت الآية (١٤٤) من هذه السورة وتغيرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس إلى مكة، غير اليهود طريقة تشكيكهم، وقالوا: لو كانت القبلة الاولى هى الصحيحة، فلم هذا التغيير؟

وإذا كانت القبلة الثانية هى الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة- إذن- باطلة.

القرآن الكريم فى هذه الآية يرد على هذه المزاعم وينير قلوب المؤمنين، ويقول: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» (١). وليس مثل هذا التغيير على الله بعسير «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة الله سبحانه وتعالى وحاكميته فى السماوات والأرض وفى الأحكام، فهو البصير بمصالح عباده: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». وفى هذه العبارة من الآية أيضاً تثبيت لقلوب المؤمنين، كى لا تتزلزل أمام حملات التشكيك هذه، وتستمر الآية فى تعميق هذا التثبيت، مؤكدة أن المجموعة المؤمنة ينبغى أن تعتمد على الله وحده، وتستند إلى قوته وقدرته دون سواه، فليس فى هذا الكون سند حقيقى سوى الله سبحانه: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

سبب النزول

روى عن ابن عباس أنه قال: إن رافع بن حرملة، ووهب بن زيد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله:

(١) «النسخ»: في اللغة الإزالة، وفي الاصطلاح تغيير حكم شرعى واحلال حكم آخر محله.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٦

إتينا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهاراً تتبعك ونصدقك. فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

حجج واهية: هذا الآية الكريمة، وإن كانت تخاطب مجموعة من المسلمين ضعاف الإيمان أو المشركين إلا أنها ترتبط أيضاً بمواقف اليهود.

لعل هذا السؤال وجه إلى الرسول بعد تغيير القبلة، وبعد حملات التشكيك التي شنها اليهود بين المسلمين وغير المسلمين، والله سبحانه في هذه الآية الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الأسئلة السخيفة: «أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ». مثل هذا العمل إعراض عن الإيمان واتجاه نحو الكفر، ولذلك قالت الآية: «وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ». الإسلام طبعاً لا يمنع طرح الأسئلة العلمية والمنطقية، ولا يحول دون طلب المعجزة من أجل إثبات صحة الدعوة، لأن مثل هذه الأسئلة والطلبات هي طريق الإدراك والفهم والإيمان.

القرآن الكريم ينبه في هذه الآية بأن المجموعة البشرية التي لا تسلك طريق العقل والمنطق في استئثارها ومطالبتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) حسد وعناد: كثير من أهل الكتاب وخاصة اليهود لم يكتفوا بإعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودون أن يرتد المسلمون عن دينهم، ولم يكن ذلك إلا عن حسد يستعر في أنفسهم، تقول الآية: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٧

وأمام هذه المواقف الدنيئة والنظرات الضيقة والآمال التافهة والنوايا الخبيثة التي تحملها الفئة الكافرة، يحدد الإسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الأفق وبعد النظرة «فاعفوا واصفحوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». إن «أمر الله» في هذه الآية يعنى «أمر الجهاد» ولعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية.

الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز إرتباط الإنسان بالله، وإيتاء الزكاة وهي أيضاً رمز التكافل بين أبناء الأمة المسلمة، وكلاهما ضروريان لتحقيق الانتصار على العدو: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ».

ثم تؤكد الآية على خلود العمل الصالح وبقائه: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ». والله سبحانه عالم بالسرائر، ويعلم دوافع الأعمال، ولا يضيع عنده أجر العاملين «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

بحثنان

١- «اصفحوا»: من «صفح» وصفح الشيء عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر، والأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لكن عطفها على «فاعفوا» يفهم أنه أمر بالإعراض لا عن جفاء بل عفو وسماح.

٢- عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» قد تشير إلى أن الله قادر أن ينصر المسلمين على أعدائهم بطرق غيبية، ولكن طبيعة حياة البشر



والكون قائمة على أن الأعمال لا تتم إلا بالتدرج وبعد توفر المقدمات.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) احتكار الجنة: القرآن في هاتين الآيتين يشير إلى ادعاء آخر من الادعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود والنصارى: «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى . ثم يجيبهم جواباً رادعاً قائلاً: «تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٨

ثم تخاطب الآية رسول الله وتقول: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لا قيمة له، وأنه مجرد امنية تخامر أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الأساس لدخول الجنة على شكل قانون عام: «بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ». ومن هنا فالمشمولون بهذا القانون هم في ظلال رحمة الله «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

ذكر عبارة «وَهُوَ مُحْسِنٌ» بعد طرح مسألة التسليم، إشارة إلى أن صفة الإحسان ليست طارئة في نفوس المؤمنين، بل هي خصلة نافذة في أعماق هؤلاء.

ونفى الخوف والحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأن هؤلاء يخافون الله دون سواه، بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل يخشون أموراً خرافية موهومة تقلقهم وتقض مضاجعهم.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وآله أتتهم أخبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء، وجد نبوة عيسى وكفر بالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست اليهود على شيء، وجد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

تعصب وتناقض: فيما مر بنا من آيات رأينا جانباً من الادعاءات الفارغة التي أطلقها جمع من اليهود والنصارى، ورأينا أن هذه الادعاءات الفارغة تستتبعها روح احتكارية ضيقة، ثم وقوع في التناقضات. تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ».

ثم تضيف الآية: «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ». أي: إن هؤلاء لديهم الكتاب الذي يستطيع أن ينير لهم الطريق في هذه المسائل، ومع ذلك ينطلقون في أحكامهم من التعصب واللجاج والعناد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٩

ثم تقول الآية: «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ». ثم اختتمت الآية بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت في هذه الدنيا، فهي لا تخفى في الآخرة حيث تنكشف كل الأوراق:

«فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أن الآية نزلت في قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله دخول مكة والمسجد الحرام.

التفسير

أظلم الناس: سبب النزول توضّح أن الآية تتحدث عن اليهود والنصارى والمشرّكين.

القرآن يقول لهؤلاء جميعاً ولكل من يسلك طريقاً مشابهاً لهؤلاء: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَوَّغَى فِيهَا خِرَابَهَا». ثم تقول الآية: «أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ». أى: إنّ المسلمين والموحدين ينبغي أن يكونوا على درجة من القوة والمقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم إلى هذه الأماكن المقدسة. والآية تبيّن بعد ذلك العقاب الذى ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين الله وعباده: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ اليهود أنكروا تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس فنزلت الآية رداً عليهم.

التفسير

الآية السابقة تحدثت عن الظالمين الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، وهذه الآية تواصل موضوع الآية السابقة، فتقول: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج ١ ١٤٩

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ». تؤكد هذه الآية أن منع الناس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية الله، فشرق هذا العالم وغربه لله سبحانه، فالله سبحانه وتعالى لا يحده مكان، ولذلك تقول الآية بعد ذلك: «إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

فلسفة القبلة: الله موجود فى كل جهة ومكان، فلماذا وجب الإتجاه نحو القبلة فى الصلاة؟

واضح أن الإتجاه نحو القبلة لا يعنى تحديد ذات البارى تعالى فى مكان وفى جهة، بل إنّ الإنسان موجود مادى، ولا بد أن يصلى باتجاه معين، ثم إنّ ضرورة الوحدة والتنسيق فى صفوف المسلمين تفرض اتجاههم فى الصلاة نحو قبله واحدة، وإلا ساد الهرج والفضوى، وتفرقت الصفوف وتشتتت.

أضف إلى ذلك أن الكعبة التى جعلت قبله للمسلمين بقعة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحيد، والإتجاه نحوها يوقظ فى النفوس ذكريات المسيرة التوحيدية.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهٗ بَلْ لَهٗ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهٗ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) خرافات اليهود والنصارى والمشرّكين: المسيحيون وجمع من اليهود والمشرّكون تبّنوا عقيدة تافهة بشأن اتخاذ الله ابناً. الآية الكريمة التى نحن بصدها ذكرت هذا المعتقد المنحرف تقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً». ثم تجيب عليهم أولاً بتنزيه الله عن هذه النسبة:

«سُبْحَانَهٗ». فما حاجة الله إلى الولد؟ هل هو محتاج إلى المساعدة أو إلى بقاء النسل؟ نعم، لا يمكن نسبة أى إحتياج إلى الله «بَلْ لَهٗ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وجميع الكون خاضع له «كُلٌّ لَهٗ قَانِتُونَ».

وليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالقها ... بل مبدعها أى موجدتها دون إحتياج إلى مادة أولية فى هذا الإيجاد: «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ما حاجة الله إلى الولد وهو النافذ الإرادة في جميع الموجودات؟ «وإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». والمراد من عبارة «كُنْ فَيَكُونُ» هي الإرادة التكوينية لله تعالى وحاكميته في الخليقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠١

دلائل نفى الولد: نسبة الولد إلى الله سبحانه، هي دون شك وليده سذاجة فكرية، قائمه على أساس مقارنة كل شيء بالوجود البشري المحدود. الإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله. ومن جهة اخرى هو ذو قوة محدودة تضعف بالتدرج، ويحتاج لذلك - وخاصة في فترة الشيخوخة - إلى من يساعده في أعماله. وهو أيضاً ينطوى على عواطف وحب للأنيس، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس في حياة الإنسان، والولد يليب هذه الحاجة. واضح أن كل هذه الامور لا يمكن أن تجد لها مفهوماً بشأن الله سبحانه، وهو خالق عالم الوجود والقادر على كل شيء، وهو الأزلي الأبدى.

أضف إلى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسماً والله منزّه عن ذلك.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) حجج اخرى: بمناسبة ذكر حجج اليهود في الآيات السابقة، تتحدث الآية عن حجج مجموعة اخرى من المعاندين ويبدو أنهم المشركون العرب فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ».

والقرآن يجب على هذه الطلبات التافهة قائلاً: «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ». لو أن هؤلاء يستهدفون حقاً إدراك الحقيقة، ففي هذه الآيات النازلة على رسول الله صلى الله عليه وآله دلاله واضحة بينه على صدق أقواله، فما الداعي إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! وما معنى الإصرار على أن يكلمهم الله مباشرة؟! الآية التالية تخاطب النبي صلى الله عليه وآله وتبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا». فمسؤولية الرسول بيان الأحكام الإلهية، وتقديم المعاجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغي أن تقتصر بتبشير المهتمين وإنذار العاصين وهذه مسؤوليتك أيها الرسول،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٢

وأما الفئه التي لا تدعن للحق بعد كل هذه الآيات فانت غير مسؤول عنها: «وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ».

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

أسباب النزول

في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أن يهود المدينة ونصارى نجران، كانوا يرجون أن يصلى النبي صلى الله عليه وآله إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وآيسو أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله «وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ الْآيَةَ لتعلن للنبي أنه لا يرضى كل فرقه منهم إلا أن يتبع ملتهم أى: قبلتهم.

وبشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفة، ففي تفسير مجمع البيان عن ابن عباس:

نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة وكانوا أربعين رجلاً، إثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا. وقيل: هم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام، وشعبة بن عمرو، وتمام بن يهودا، وأسد واسيد ابني كعب وابن يامين.

## التفسير

إرضاء هذه المجموعة محال: الآية السابقة رفعت المسؤولية عن النبي صلى الله عليه وآله إزاء الضالين المعاندين. والآية أعلاه تواصل الموضوع السابق وتخاطب الرسول بأن لا- يحاول عبثاً في كسب رضا اليهود والنصارى لأنه: «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ».

واجبك أن تقول لهم: «إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى . هدى الله هو الهدى البعيد عن الخرافات وعن الأفكار التافهة التي تفرزها عقول الجهال.

ثم تقول الآية: «وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٣

وبعد أن ذم القرآن الفئة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد بولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضموا تحت راية الرسالة الخاتمة: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ [أى: بالتفكير والتدبر ثم العمل به أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ]». أى: يؤمنون بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

## بحوث

١- سؤال عن عصمة الأنبياء: العبارة القرآنية: «وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ» قد تثير سؤالاً بشأن عصمة الأنبياء، فهل يمكن للنبي صلى الله عليه وآله وهو معصوم- أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟

في الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تكررت في القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الأنبياء لأنها- من جهة- جملة شرطية والجملة الشرطية لا تدل على تحقق الشرط.

ومن جهة اخرى، عصمة الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالاً، بل المعصوم له قدرة على ارتكاب الذنب، ولم يسلب منه الإختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب وإن اتجه إلى النبي صلى الله عليه وآله ولكن قد يكون موجهاً إلى الناس جميعاً.

٢- للإسترضاء حدود: صحيح أن الإنسان الرسالي يجب أن يسعى بأخلاقه إلى جذب الأعداء إلى صفوف الدعوة، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين الذين يتحركون في مخالفتهم من موقع الغفلة والمرونة، أمراً الموقف تجاه المعاندين المتصلين فينبغي أن يكون غير ذلك، ولا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لابد من الإعراض عنهم وتركهم.

٣- حق التلاوة: عبّر القرآن عن الفئة المهتدية من أهل الكتاب بأنهم «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»، وهو تعبير عميق.

في تفسير الميزان عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيها، ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه، وتلاوة سورة ودرس أعشاره وأخماسه «١»، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ»

(١) المقصود من الأعشار والأخماس تقسيمات القرآن.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٤

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عِدْلٌ وَلَا نَفْعُهَا شِفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) مَرَّةً أُخْرَى يَتَّجِعُ الْخَطَابُ الْإِلَهِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَذْكُرَهُمُ بِالنِّعْمِ الَّتِي أَحْيَوْا بِهَا، فَتَقُولُ الْآيَةُ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ». أى: على كل من كان يعيش

في ذلك الزمان.

كل نعمة تقترن بمسئولية، وتقترن بالتزام وتكليف إلهي جديد، ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَاتَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا». «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ». أى:

غرامه أو فديته، «وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةُ» إلّا بإذن الله، ولا يستطيع أحد غير الله أن يساعد أحداً «وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ».

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) الإمامة قمة مفخرة إبراهيم عليه السلام: هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبي الله الكبير إبراهيم عليه السلام وعن بناء الكعبة وأهميته هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

والهدف من هذه الآيات - وعددها ثمانية عشرة آية - ثلاثة أمور:

أولاً: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التي ستطرح بعد ذلك.

ثانياً: لفضح إدعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم.

ثالثاً: لتفهم مشركى العرب أيضاً ببعدهم عن منهج النبي الكبير محطم الأصنام، والزرد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم وبين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أولاً: «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ». وبعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير: «قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

وهنا تمنى إبراهيم عليه السلام أن يستمر خط الإمامة من بعده، وأن لا يبقى محصوراً بشخصه «قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي». لكن الله أجابه: «قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٥

وقد استجيب طلب إبراهيم عليه السلام في استمرار خط الإمامة في ذريته، لكن هذا المقام لا يناله إلّا الطاهرون المعصومون من ذريته لا غيرهم.

بحوث

١- المقصود من «الكلمات»: من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التي وضعها الله على عاتق إبراهيم عليه السلام وهي عبارة عن: أخذ ولده إلى المذبح والاستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر الله سبحانه.

إسكان الزوج والولد في واد غير ذى زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

النهوض بوجه عبدة الأصنام وتحطيم الأصنام، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية، ثم إلقاءه في وسط النيران، وثباته ورباطة جأشه في كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام والإبتعاد عن الوطن، والاتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... وأمثالها (١).

كان كل واحد من هذه الاختبارات ثقيلًا وصعبًا حقًا، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعاً، وأثبت لياقته لمقام «الإمامة».

٢- من هو الإمام؟ يتبين من الآية الكريمة التي نحن بصددتها، أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم عليه السلام بعد كل هذه الاختبارات، تفوق منزلة النبوة والرسالة.

روى في الكافي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُ إِمَامًا، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الْأَشْيَاءَ، قَالَ: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قَالَ: فَمِنْ عَظَمَتِهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» قَالَ: لَا

يكون السفيه إمام التقى».

٣- الفرق بين النبوة والإمامة والرسالة: يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن المعصومين، أن حملة المهمات من قبل الله تعالى لهم منازل مختلفة:

(١) روى عن ابن عباس أنه استخرج اختبارات إبراهيم من أربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعاً (تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث)، وخلصتها ما ذكرناه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٦

(أ) منزلة النبوة: أى إستلام الوحي من الله، فالنبي هو الذى ينزل عليه الوحي، وما يستلمه من الوحي يعطيه للناس إن طلبوا منه ذلك.  
(ب) منزلة الرسالة: وهى منزلة إبلاغ الوحي، ونشر أحكام الله، وتربية الأفراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرسول إذن هو المكلف بالسعى فى دائرة مهمته لدعوة الناس إلى الله وتبليغ رسالته، وبذل الجهد لتغيير فكرى عقائدى فى مجتمعه.  
(ج) منزلة الإمامة: وهى منزلة قيادة البشرية، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام الله عملياً عن طريق إقامة حكومه إلهية وإستلام مقاليد الأمور اللازمة.

بعبارة اخرى، مهمة الإمام تنفيذ الأوامر الإلهية، بينما تقتصر مهمة الرسول على تبليغ هذه الأوامر.

٤- من الظالم؟ المقصود من «الظلم» فى التعبير القرآنى: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، وقد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، ويقع فى النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشيء فى محله.  
فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشيء فى غير مكانه المناسب.

ولما كانت منزلة الإمامة والقيادة الظاهرية والباطنية للبشرية منزلة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإن لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص. لذلك نرى أئمة آل البيت عليهم السلام يثبتون بهذه الآية تعين الخلافة بعد النبى مباشرة لعلى عليه السلام وإنحصارها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام فى الجاهلية، وعلى عليه السلام وحده لم يسجد لصنم. وأتى ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟ ألم يقل لقمان لابنه: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (١).

٥- تعيين الإمام من قبل الله: من الآية مورد البحث نفهم ضمناً أن الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معيناً من قبل الله سبحانه، لما يلى:

أولاً: الإمامة ميثاق إلهي، وطبيعى أن يكون التعيين من قبل الله، لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانياً: الأفراد الذين تلبسوا بعنوان الظلم، ومارسوا فى حياتهم لحظة ظلم بحق أنفسهم أو بحق الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلاً، لا يليقون للإمامة، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوماً.

(١) سورة لقمان/ ١٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٧

وهل يعلم ذلك فى نفوس الأفراد إلاًلله؟

ولو أردنا بهذا المعيار أن نعين خليفته لرسول الله صلى الله عليه وآله فلا يمكن أن يكون غير على عليه السلام.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَآتَيْنَا دَاوُدَ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَدِّقًا وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) عظمت بيت الله: بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم عليه السلام فى الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمت الكعبة التى وضع قواعدها إبراهيم عليه السلام فهى تبدأ بالتذكير بعبارة «وَإِذْ» أى:

اذكروا: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا».

«المثابة»: من الثوب، أى عودة الشىء إلى حالته الاولى، ولما كانت الكعبة مركزاً يتجه إليه الموحدون كل عام، فهى محل لعودة جسمية وروحية إلى التوحيد والفترة الاولى، ومن هنا كانت مثابة.

الكعبة- طبقاً للآية أعلاه- ملاذ وبيت آمن، والإسلام وضع الأحكام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب وإراقة دماء، وليس أفراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة أيضاً فى هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمصها بسوء.

وهذه الصفة للبيت هى استجابة لأحد مطالب إبراهيم عليه السلام من ربه.

ثم تضيف الآية: «وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا».

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بشأن تطهير البيت للطائفتين والمجاورين والمصلين: «وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

والتطهير: تعنى تطهير هذا البيت ظاهرياً ومعنوياً من كل تلويث.

بيت الله: وصفت الكعبة بأنها بيت الله، وعبرت الآية عن الكعبة ب «بيتي»، وواضح أن الله ليس بجسم، ولا يحده بيت، ولا يحتاج إلى ذلك، وهذه الإضافة هى «إضافة تشريفية» تبين قدسية الشىء الذى ينسب إلى الله، ولذلك كان شهر رمضان «شهر الله» وكانت الكعبة «بيت الله».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٨

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) إبراهيم يدعو ربه: فى هذه الآية توجه إبراهيم إلى ربه بطليبن هامين لسكنه هذه الأرض المقدسة، أشرنا إلى أحدهما فى الآية السابقة. القرآن يذكر بما قاله إبراهيم: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا».

والطلب الآخر هو: «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وهكذا يطلب إبراهيم «الأمن» أولاً، ثم «المواهب الاقتصادية»، إشارة إلى أن الاقتصاد السالم لا يتحقق إلا بعد الأمن الكامل.

والله سبحانه استجاب لإبراهيم طلبه الثانى أيضاً، ولكنه «قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا» فى الدنيا، «ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» فى الحياة الآخرة.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) إبراهيم يبنى الكعبة: نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أن بيت الكعبة كان موجوداً قبل إبراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. وهذه الآية تدل على أن بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجته وابنه الرضيع إلى مكة. وتقول الآية ٩٦ من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» ومن المؤكد أن عبادة الله وإقامته أماكن العبادة لم تبدأ فى زمن إبراهيم، بل كانت منذ أن خلق الإنسان على ظهر هذه الأرض.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٩

عبارة الآية الاولى من الآيات محل البحث تؤكد هذا المعنى، إذ تقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فإبراهيم وإسماعيل قد رفعا قواعد البيت التى كانت موجودة.

فى الآيتين التاليتين يتضرع إبراهيم وإسماعيل إلى رب العالمين بخمسة طلبات هامة.

قالا أولًا: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ».

ثم أضافا: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ».

وطلبا تفهم طريق العبادة: «وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا»، ليعبدا الله حق عبادته.

ثم طلبا التوبة: «وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

الآية الأخيرة تضمنت الطلب الخامس، وهو هداية الذرية: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَهُمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

ولعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» في أن الكتاب يعنى الكتب السماوية، والحكمة تعنى العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة في الأحكام، وهى التى يعلمها النبى أيضاً.

بحوث

١- هدف بعثة الأنبياء: فى الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم وإسماعيل من الله ظهور نبى الإسلام، يذكران ثلاثة أهداف لبعثته:

الأول: تلاوة آيات الله على الناس، أى إيقاظ الأفكار والأرواح فى ظل الآيات الإلهية المبشرة والمنذرة.

«يتلو» من تلا، أى اتبع الشىء بالشىء، وسميت «التلاوة» كذلك لأنها قراءة وفق تتبع ونظم. هى مقدمة لليقظة والإعداد والتعليم والتربية.

الثانى: «تعليم الكتاب والحكمة» ولا تتحقق التربية إلّا بالتعليم.

ولعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» فى أن الكتاب يعنى الكتب السماوية، والحكمة تعنى العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة فى الأحكام، وهى التى يعلمها النبى أيضاً.

الثالث: «التزكية» وهو الهدف الأخير.

«التزكية»: فى اللغة هى الإنماء، وهى التطهير أيضاً.

وبذلك يتلخص الهدف النهائى من بعثة الأنبياء فى دفع الإنسان على مسيرة التكامل «العلمى» و «العملى».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٠

٢- هل «التعليم» مقدم أم «التربية»؟ فى أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية والتعليم باعتبارهما هدف الأنبياء، وفى ثلاثة مواضع منها قُدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ١٥١- آل عمران، ١٦٤- الجمعة، ٢). وفى موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آية بحثنا).

ونعلم أن التربية لا تتم إلّا بالتعليم. لذلك حين يتقدم التعليم على التربية فى الآية فإنما ذلك بيان للتسلسل المنطقى الطبيعى لهما، وفى المواضع التى تقدمت فيها التربية، فقد يكون ذلك إشارة إلى أنها الهدف، لأن الهدف الأصلى هو التربية، وما عداها مقدمة لها.

٣- النبى من الناس: تعبير «منهم» فى الآية «وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ» يشير إلى أن القادة البشرية ينبغى أن يكونوا بشراً بنفس صفات البشر الغريزية، كى يكونوا القدوة اللائقة فى الجوانب العملية، ومن الطبيعى أنهم - لو كانوا من غير البشر - ما استطاعوا إدراك حاجات الناس والمشكلات العويصة الكامنة لهم فى حياتهم، ولا أمكنهم أن يكونوا قدوة واسوة لهم.

وَمَنْ يَزْعَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

إبراهيم الإنسان النموذج: الآيات السابقة ألقى الضوء على جوانب من شخصية إبراهيم عليه السلام فتحدثت عن بعض خدماته وطلباته الشاملة للجوانب المادية والمعنوية. من مجموع ما مر نفهم أن الله سبحانه شاء أن يكون هذا النبى، شيخ الموحدين وقدوة الرسالين، على مر العصور. لذلك تقول الآية الاولى من آيات بحثنا هذا: «وَمَنْ يَزْعَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ». أليس من السفاهة أن يعرض الإنسان عن مدرسة الطهر والنقاء والفضيلة والعقل وسعادة الدنيا والآخرة، ويتجه إلى طريق الشرك والكفر والفساد وضياع



العقل والانحراف عن الفطرة وفقدان الدين والدنيا؟

ثم تضيف الآية: «وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ».

الآية التالية تؤكد على صفة أخرى من صفات إبراهيم التي هي في الواقع أساس بقیة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١١

صفاته العظيمة وتقول: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

ووصیه إبراهيم بنیه فی أواخر أيام حياته تجسید آخر لهذه الحیاة الشامخة: «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ». فكل من إبراهيم

ويعقوب وصيا أبناءهما بالقول: «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ».

لعل القرآن الكريم، بنقله وصية إبراهيم، يريد أن يقول للإنسان إنه مسؤول عن مستقبل أبنائه، عليه أن يهتم بمستقبلهم المعنوي قبل أن يهتم بمستقبلهم المادي.

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَآلِهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

سبب النزول

في تفسير الصافي: إن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: أأنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟ فنزلت.

التفسير

كما رأينا في سبب النزول، وظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً، كان جمع من منكرى الإسلام ينسبون ما لا ينبغي نسبته إلى النبي

يعقوب، والقرآن يرد عليهم بالقول: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ». هذا الذي نسبوه إليه ليس بصحيح، بل الذي حدث

آنذاك «إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي».

في الجواب: «قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

آخر آية في بحثنا، تجيب على توهم آخر من توهمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون إلى مفاخر الآباء والأجداد وقرب منزلة

أسلافهم من الله تعالى، فلا يرون بأساً في انحرافهم هم طائفة منهم ناجون بوسيلة أولئك الأسلاف. يقول القرآن: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٢

وبذلك أرادت الآية أن توجه أنظار هؤلاء إلى أعمالهم وسلوكهم وأفكارهم، وتصرفهم عن الإنغماس في الافتخار بالماضين.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ

إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ

نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(١٣٧)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إن عبد الله بن سوريا وكعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وجماعة من اليهود ونصارى أهل

نجران خاصموا أهل الإسلام. كل فرقة تزعم أحق بدين الله من غيرها، فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل

الكتب. وقالت النصارى: نبينا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا أفضل الكتب، وكل فريق منهما قال للمؤمنين: كونوا على ديننا، فأنزل الله

تعالى هذه الآية.

التفسير

نحن على حق لا- غيرنا: التمحور والإنغماس في الذاتية يؤدي إلى أن يحتكر الإنسان الحق لنفسه، ويعتبر الآخرين على باطل، ويسعى إلى أن يجرحهم إلى معتقداته. الآية الاولى تتحدث عن مجموعة من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، ونقلت عنهم القول: «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا». فيرد عليهم القرآن مؤكداً أن الأديان المحرفة لا تستطيع إطلاقاً أن تهدي الإنسان: «قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

الآية التالية تأمر المسلمين أن «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

لا يجوز أن نطلق من محور الذاتية في الحكم على هذا النبي أو ذاك، بل يجب أن ننظر إلى مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٣

الأنبياء بمنظار رسالي، ونعتبرهم جميعاً رسل رب العالمين ومعلمي البشرية، قد أدى كل منهم دوره في مرحلة تاريخية معينة، وكان هدفهم واحداً، وهو هداية الناس في ظل التوحيد الخالص والحق والعدالة.

ثم يضيف القرآن قائلاً: «فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ».

ولو تخلى هؤلاء عن عنصريه وذاتياتهم، وآمنوا بجميع أنبياء الله فقد اهتدوا أيضاً، وإلا فقد ضلوا سواء السبيل.

ثم تثبت الآية على قلوب المؤمنين وتبعث فيهم الثقة والطمأنينة بالقول: «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ» لأقوالهم «العليم» بمؤامراتهم. صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) التخلي عن غير صبغة الله: بعد الدعوة التي وجهتها الآيات السابقة لإتباع الأديان بشأن انتهاج طريق جميع الأنبياء، أول آية في بحثنا تأمرهم جميعاً بترك كل صبغة، أي دين، غير «صِبْغَةَ اللَّهِ». ثم تضيف الآية: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً». أي: لا أحسن من الله صبغة، «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» في إتباع مله إبراهيم التي هي صبغة الله.

ذكر المفسرون أن النصراري دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم في ماء أصفر اللون، ويسمونه غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيراً للمولود من الذنب الذاتي الموروث من آدم!

القرآن يرفض هذا المنطق الخاوي ويقول: من الأفضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهرية الخرافية المفرقة وتصطبغوا بصبغة الله لتطهروا وروحك.

كان اليهود وغيرهم يحتاجون المسلمين بصور شتى، كانوا يقولون: إن جميع الأنبياء

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٤

مبعوثون منا، وإن ديننا أقدم الأديان، وكتابنا أعرق الكتب السماوية. القرآن يرد على كل هذه الأقاويل ويقول: «قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ».

واعلموا أيضاً أن لا امتياز لأحد على غيره إلا بالأعمال، وكل شخص رهن أعماله «وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ».

مع فارق، هو إن كثيراً منكم يشركون في توحيدهم: «وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ».

الآية التالية تجيب على واحد آخر من هذه الإدعاءات الفارغة وتقول: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى».

ثم تجيب الآية عن هذا الإدعاء بشكل رائع فتقول: «قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ».

فالله أعلم أنهم ما كانوا يهوداً ولا نصارى.

وقد تعلمون أنتم وإن كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم وتثبيت تهمة وذنوب، وكتمان للحقيقة «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ».

اعلموا أنه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

في آخر آية من الآيات التي نحن بصددنا يقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودين الجدليين:

افترضوا أن إدعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لأنه «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

تغيير القبلة: هذه الآية وآيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الإسلامي، كان له آثاره الكبيرة في المجتمع آنذاك. رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم صوب (بيت المقدس) بأمر ربه مدة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة في مكة، وبضعه أشهر في المدينة بعد الهجرة. ثم تغيرت القبلة، وأمر الله المسلمين أن يصلوا تجاه (الكعبة).

لم يكف اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الاعتراضات: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا» (١).

(١) «السفهاء»: جمع «سفيه» أطلقت في الأصل على من خفت حركة جسمه، وقيل: زمام سفيه، أى كثير الإضطراب خفيف الوزن. ثم استعملت الكلمة في خفة النفس لنقصان العقل في الامور الدينية والدنيوية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٥

بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الاولى هي الصحيحة فلم هذا التغيير؟

الله سبحانه يجب على هذا الاعتراض، فأمر رسوله أن «قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فليس للمكان قداسة ذاتية، إنما يكتسب قداسته بإذن الله، وكل مكان ملك لله، والمهم هو الطاعة والاستسلام لرب العالمين. تغيير القبلة في الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الإلهي، وكل مرحلة خطوة على الصراط المستقيم نحو الهداية الإلهية.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيْطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) الامة الوسط: هذه الآية تشير إلى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أولاً: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيْطًا». أى كما جعلنا القبلة وسطاً، كذلك جعلناكم امة في حالة اعتدال.

أما سبب كون قبلة المسلمين قبله وسطاً، فلأن النصارى- الذين يعيش معظمهم في غرب الكرة الأرضية- يولون وجوههم صوب الشرق تقريباً حين يتجهون إلى قبلتهم في بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح، واليهود- الذين يتواجدون غالباً في الشامات وبابل- يتجهون نحو الغرب تقريباً حين يقفون تجاه بيت المقدس.

أما «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين في المدينة تجاه الجنوب، وبين المشرق والمغرب، وفي خط وسط.

والهدف من ذلك: «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا».

و «شهادة» الامة المسلمة على الناس، و «شهادة» النبي على المسلمين، قد تكون إشارة إلى الاسوء والقُدوة، لأن الشاهد ينتخب من بين أزكى الناس وأمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآني أن الامة المسلمة نموذجية بما عندها من عقيدة ومنهج، كما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرد نموذجي بين أبناء الامة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٦

ثم تشير الآية إلى سر آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ».

ثم تضيف الآية: «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ».

لولا الهداية الإلهية، لما وجدت في نفس الإنسان روح التسليم المطلق أمام أوامر الله.

وأمام وسوسة الأعداء المضللين والأصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون في صحته ما سبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ».

أسرار تغيير القبلة: لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بيتاً لأصنام المشركين، فقد امر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت المقدس، ليتحقق الانفصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين.

وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، حدث الانفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأغرق مركز للأنبيا.

ومن الطبيعي أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس اولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوي لقوميتهم، وأن يستثقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبلتهم الاولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحول وُضعوا في بوتقة الاختبار، لتخليصهم مما علق في نفوسهم من آثار الشرك، ولتنقطع كل انشاداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) كل الوجوه شطر الكعبة: هذه الآية تشير إلى الأمر الإلهي بتغيير القبلة وتقول: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٧

ذكرت الرواية أن هذا الأمر الإلهي نزل في لحظة حساسة ملفتة للأنظار، حين كان الرسول والمسلمون يؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبرائيل بذراع الرسول صلى الله عليه وآله وأدار وجهه نحو الكعبة. وتذكر الرواية أن صفوف المسلمين تغيرت على أثر ذلك، وترك النساء مكانهن للرجال وبالعكس.

إن تغيير القبلة من علامات نبى الخاتم المذكورة في الكتب السابقة، فقد كان أهل الكتاب على علم بأن النبى المبعوث «يصلى إلى القبلتين». لذلك تضيف الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ».

ثم تقول الآية: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ». فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء في كتبهم بشأن تغيير قبلة نبى الخاتم، ويستغلون هذه الحادثة لإثارة ضجة بوجه المسلمين، بدل أن يتخذوها دليلاً على صدق دعوى النبى، سيلاقون جزاء أعمالهم، والله ليس بغافل عن أعمالهم ونياتهم.

إن ضرورة إتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعتماداً على تطور علم الهيئة وعلم الجغرافيا والفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الإسلامية الاولى، لأن معرفة جهة القبلة في مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسرة من دون معرفة بهذه العلوم.

وَلَيْسَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ مَا يَجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) لا- يرضون بأى ثمن: مر بنا في تفسير الآية السابقة أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شبهة حول النبى، بل إنه من دلائل صحته دعواه، فأهل الكتاب قد قرأوا عن صلاة النبى الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق. لذلك تقول الآية: «وَلَئِنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ».

ثم تضيف الآية: «وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتَهُمْ». أى: إن هؤلاء لا يستطيعون مهما افعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرة أخرى قبله المسلمين، فهذه هى القبلة الثابتة النهائية.

ثم تقول الآية: «وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَبْلَةَ بَعْضٍ».

لا النصرى بتابعين قبله اليهود، ولا اليهود بتابعين قبله النصرى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٨

ولمزيد من التأكيد والحسم ينذر القرآن النبى ويقول: «وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ». الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتُمِينَ (١٤٧) يعرفون حق المعرفة ولكن... استمراراً لحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب ولجاجهم، تقول الآية: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ».

إنهم يعرفون النبى صلى الله عليه وآله واسمه وعلاماته من خلال كتبهم الدينية، «وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهناك طبعاً فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات والعلامات فى نبى الأكرم، مثل عبد الله بن سلام وهو من علماء اليهود، ونقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به منى بابنى».

ثم تؤكد الآية ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن أحكام الإسلام بشكل عام: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتُمِينَ». أى المترددين.

وبهذه العبارة تثبت الآية فؤاد النبى، وتنهيه عن أى ترديد أمام افتراءات الأعداء بشأن تغيير القبلة وغيرها، وإن جند هؤلاء الأعداء كل طاقاتهم للمحاربة.

المخاطب فى الآية وإن كان شخص النبى صلى الله عليه وآله ولكن الهدف هو تربية البشرية كما ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أن النبى المتصل بالوحى الإلهى لا يعتريه تردد، لأنّ الوحى بالنسبة له ذو جانب حسى وعين اليقين.

لكل امه قبله: هذه الآية الكريمة تردّ على الضجة التى أثارها اليهود حول تغيير القبلة وتقول: «وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا».

كان للأنبياء على مرّ التاريخ وجهات عديدة يولّونها، وليست القبلة كاصول الدين لا تقبل التغيير، فلا تطيلوا الحديث فى أمر القبلة، وبدل ذلك «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» لأنّ معيار القيمة الوجودية للإنسان هى أعمال البرّ والخير.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٩

ثم تتغير لهجة الآية إلى نوع من التحذير والتهديد لأولئك المفترين، والتشجيع للمحسنين فتقول: «أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا» فى تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كل جزء عمله.

وقد يخال بعض أن جمع الناس لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات التراب المتناثرة لترتدى ثانية حلّة الحياة؟! لذلك تجيب الآية بالقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا لِلَّهِ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَإِلَّاتِي نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) الخوف من الله فقط: هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة ونتائجها. الآية الاولى تأمر النبى عليه السلام وتقول: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ» من أية مدينة، وأية ديار «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». ولمزيد من التأكيد تقول الآية: «وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».

وتنتهى الآية بتهديد المتأمرين: «وَمَا لِلَّهِ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام فى أى مكان: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ».

صحيح أن هذه العبارة القرآنية تخاطب النبي صلى الله عليه وآله لكنها تقصد دون شك مخاطبة عامة المسلمين، ولمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين وتقول: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

ثم تشير الآية إلى ثلاث مسائل هامة:

١- إجماع المعارضين- تقول الآية: «لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً».

قبل تغيير القبلة كانت ألسنة المعارضين من اليهود والمشركين تقذف المسلمين بالتهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٠

والحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النبي الموعود يصلى إلى قبلتين، وهذه العلامة غير متوفرة في محمّد صلى الله عليه وآله والمشركون يعترضون على النبي قائلين: كيف ترك محمّد الكعبة وهو يدعى أنه بعث لإحياء ملة إبراهيم. هذا التغيير أنهى كل هذه الاعتراضات. لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم، وأن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآية: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

٢- عندما وصفت الآية هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفاً في نفوس البعض لذلك قالت الآية: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي».

وهذه الفقرة من الآية تطرح أصلاً عاماً أساسياً من اصول التربية التوحيدية الإسلامية، هو عدم الخوف من أى شىء سوى الله.

٣- وآخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو إتمام النعمة: «وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَادْكُرُونِي أَدْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) مهمة رسول الله: ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أن أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على الناس وهدايتهم، والآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة إلى أن تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التي أنعمها الله عليكم، بل من عليكم بنعم كثيرة «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ».

وكلمة «منكم» قد تعني أن الرسول بشر مثلكم، والإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربى البشر وقدوتهم وأن يتحسس آمالهم وآلامهم، وتلك نعمة كبرى أن يكون الرسول بشراً «منكم».

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن إلى أربع نعم عادت على المسلمين ببركة هذا النبي صلى الله عليه وآله:

١- «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا». «يتلو»: من «التلاوة» أى من إتيان الشىء متوالياً، والإتيان بالعبارات المتوالية (وبنظام صحيح) هى التلاوة. النبي صلى الله عليه وآله إذن يقرأ عليكم آيات

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢١

الله متتالية، لتنفذ إلى قلوبكم، ولإعداد أنفسكم إلى التعليم والتربية.

٢- «وَيُزَكِّيكُمْ». «التركية»: هو الزيادة والإنماء، أى إن النبي بفضل آيات الله يزيدكم كمالاً مادياً ومعنوياً، ويزيل ألوان الرذائل التي كانت تغمر مجتمعكم فى الجاهلية.

٣- «وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ». التعليم طبعاً مقدم بشكل طبيعى على التربية، ولكن القرآن- كما ذكرنا- يقدم التربية فى مواضع تأكيداً على أنها هى الهدف النهائى.

إن الكتاب إشارة إلى آيات القرآن والوحي الإلهى النازل على النبي بشكل إعجازى والحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب والسنة معاً، أما استعمالها القرآنى مقابل «الكتاب» (كما فى هذه الآية) فيشير إلى أنها «السنة» لا غير.

٤- «وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». وهذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب والحكمة

لكن القرآن عاد فأكد ذلك في فقرة مستقلة تنبيهاً على أن الأنبياء لم يكونوا قادة أخلاقيين واجتماعيين فحسب، بل كانوا هداة طريق العلم والمعرفة، وبدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الإنسانية.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهية في الآية، تذكر الآية التالية أن هذه النعم تستدعي الشكر، وبالاستفادة الصحيحة من هذه النعم يؤدي الإنسان حق شكر البارئ تعالى:

«فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ».

واضح أن عبارة «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» تشير إلى أصل تربوي وتكويني، أي اذكروني ...

اذكروا الذات المقدسة التي هي معدن الخيرات والحسنات والمبرات ولتطهر أرواحكم وأنفسكم.

كذلك المقصود من «الشكر وعدم الكفران» استثمار كل نعمة في محلها وعلى طريق نفس الهدف الذي خلقت له، كي يؤدي ذلك إلى زيادة الرحمة الإلهية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَ لَمَّا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَمْ تَشْعُرُونَ (١٥٤)

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس بشأن نزول الآية الثانية أنها نزلت في قتلى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٢

بدر، وقتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وكانوا يقولون: مات فلان. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

الشهداء أحياء: الآيات السابقة عرضت مفاهيم التعليم والتربية والذكر والشكر، وفي الآية الاولى من آيتي بحثنا دار الحديث حول الصبر الذي لا تتحقق المفاهيم السابقة بدونه.

تقول الآية أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ».

واجهوا المشاكل والصعاب بهاتين القوتين فالنصر حليفكم: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

خلفاً لما يتصور بعض الناس «الصبر» لا- يعني تحمل الشقاء وقبول الذلة والإستسلام للعوامل الخارجية، بل الصبر يعنى المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث.

الموضوع الآخر الذي أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام إلى جانب الصبر هو «الصلاة». في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان على عليه السلام إذا هاله شيء فزع إلى الصلاة ثم تلا هذه الآية «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ».

فالآية أعلاه تطرح مبدئين هامين: الأول الاعتماد على الله، ومظهره الصلاة؛ والآخر الاعتماد على النفس، وهو الذي عبرت عنه الآية بالصبر.

وبعد ذكر الصبر والاستقامة تتحدث الآية التالية عن خلود الشهداء، الذين يجسدون أروع نماذج الصابرين على طريق الله. تقول الآية: «وَلَمَّا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ». ثم تؤكد هذا المفهوم ثانية بالإستدراك. «بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَمْ تَشْعُرُونَ».

في كل حركة- أساساً- تزوى مجموعة محبة للعافية، وتبتعد عن الامة الثائرة، ولا تكتفى هي بالتعاس والتكاسل، بل تسعى إلى تشييط عزائم الآخرين وبث الرخوة والتماهل في المجتمع.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفئة كراراً ويؤنبهم بشدة.

هذه الآية تثبت بوضوح بقاء الروح والحياة البرزخية للبشر (الحياة بعد الموت وقبل البعث). سنفصل الحديث في هذا الموضوع عند

تناولنا الآية (١٦٩) من سورة آل عمران.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)  
مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٣

الدنيا دار اختبار إلهي: بعد ذكر مسألة الشهادة في سبيل الله، والحياء الخالدة للشهداء، تعرضت هذه الآية للاختبار الإلهي العام، ولمظاهره المختلفة، باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ». ولما كان الانتصار في هذه الاختبارات، لا يتحقق إلّا في ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ». فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات، لا غيرهم.

الآية التالية تعرّف الصابرين وتقول: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

الإقرار التام بالعبودية المطلقة لله، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنّه سبحانه مالكننا ومالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إياها، وإن استوجبت المصلحة أخذها منا، وفي المنحة والمحنة مصلحة لنا.

والإلتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى الله سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياء، وبأن نقص المواهب المادية ووفورها عرض زائل، ووسيلة لإرتقاء الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة في عبارة «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» له الأثر الكبير في تعميق روح المقاومة والاستقامة والصبر في النفس.

وآخر آية في بحثنا هذا، تتحدث عن الألفاظ الإلهية الكبرى، التي تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الإلهية: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ».

هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، في مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والأخطار، لذلك تقول الآية: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ».

بحوث

١- لماذا الإختبار الإلهي؟ أول ما يتبادر للذهن في هذا المجال هو سبب هذا الإختبار، فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجعله عنهم. فهل أنّ الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الإختبار لعباده، وهو العالم بكل الخفايا والأسرار؟ وهل هناك شيء خفي عنه حتى يظهر له بهذا الإمتحان؟

والجواب أنّ مفهوم الإختبار الإلهي يختلف عن الإختبار البشري.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٤

إختباراتنا البشرية تستهدف رفع الإبهام والجهل، والإختبار الإلهي قصده «التربية». في أكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الإختبار الإلهي، باعتباره سنة كونية لا تنقص من أجل تفجير الطاقات الكامنة ونقلها من القوة إلى الفعل وبالتالي فالإختبار الإلهي من أجل تربية العباد. يقول سبحانه في الآية (١٥٤) من سورة آل عمران: «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ويقول أمير المؤمنين على عليه السلام في بيان سبب الإختبارات الإلهية: «... وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب» (١).

أي: أنّ الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلا بد أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، والله يختبر عباده ليتجلى ما يضمرونه في أعمالهم، ولكي تنتقل قابلياتهم من القوة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

٢- الإختبار الإلهي عام: نظام الحياة في الكون نظام تكامل وتربية، وكل الموجودات الحية تطوى مسيرة تكاملها، حتى الأشجار تعبر



عن قابلياتها الكامنة بالأثمار، من هنا فإن كل البشر، حتى الأنبياء، مشمولون بقانون الاختبار الإلهي كي تنجلي قدراتهم. الإمتحانات تشمل الجميع ولا يجرى عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن الله عبده بالخير وبوفور النعمة. ٣- عوامل النجاح في الإمتحان: هنا يتعرض الإنسان لاستفهام آخر، وهو أنه إذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للإمتحان الإلهي، فما هو السبيل لأحراز النجاح والتوفيق في هذا الامتحان؟ القرآن يعرض هذه السبل في القسم الأخير من آية بحثنا وفي آيات أخرى:

(أ) أهم عامل للانتصار أشارت إليه الآية بعبارته: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ». فالآية تبشر بالنجاح أولئك الصابرين المقاومين، ومؤكده أن الصبر رمز الانتصار.

(ب) الإلتفات إلى أن نكبات الحياة ومشاكلها مهما كانت شديدة وقاسية فهي مؤقتة وعابرة وهذا الإدراك يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابراً وسحابه صيف، وهذا المعنى تضمنته عبارة: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٩٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٥

إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان أن المشركين كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وقد وضعوا على الصفا صنماً يقال له «أساف» وعلى المروة صنماً يقال له «نائلة» وكان المشركون إذا طافوا بهما مسحوهما فتحرج المسلمون عن الطواف بهما لأجل الصنمين. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر: هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق في ذهن المسلمين ونفوسهم من رواسب بشأن الصفا والمروة كما مر في سبب النزول، وتقول للمسلمين: «إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ». ومن هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هي: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا». لا- ينبغي أن تكون أعمال المشركين الجاهليين عاملاً على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، وعلى تقليل شأن وقديسه هذين المكانين. ثم تقول الآية أخيراً: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ».

فالله يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيراً، وهو سبحانه عالم بسرائرهم، يعلم من تعلق قلبه بهذه الأصنام ومن تبرأ منها. بحثان

١- الصفا والمروة: الصفا والمروة اسمان لجبلين صغيرين في مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، في الضلع الشرقي للمسجد، في الجهة التي يقع فيها الحجر الأسود ومقام إبراهيم.

«الشعائر»: جمع شعيرة أي العلامة، وشعائر الله أي العلامات التي تذكر الإنسان بالله، وتعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسة. «اعتمر»: أي أدى العمرة، والعمرة في الأصل الملحقات الإضافية في البناء، وفي الشريعة تطلق على الأعمال الخاصة، التي يؤديها المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها في العمرة المفردة، وبينها وبين أعمال الحج أوجه اشتراك واقتراق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٦

٢- من أسرار السعي بين الصفا والمروة: إبراهيم عليه السلام بلغه الكبر ولم يُرزق ولداً، فدعى ربه أن لا يتركه فرداً، فاستجاب له، ورزقه من جاريته هاجر ولداً سماه «إسماعيل».

لم تستطع «سارة» زوجته الاولى أن تطبق الحالة الجديدة، وقد رزق إبراهيم ولدًا من غيرها، فأمر الله إبراهيم أن يهاجر بالطفل والأم إلى مكة حيث الأرض القاحلة المجربة آنذاك، ويسكنهما هناك.

امثل إبراهيم أمر ربه، وذهب بهما إلى صحراء مكة وأسكنهما في تلك الأرض، وهم بالرجوع، فضجت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع في مثل هذه الأرض؟

بكاء هاجر ومعه بكاء الطفل الرضيع هز إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربه قائلاً: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (١). ثم ودع زوجته وطفله بحزن وألم عميقين.

لم يمض وقت طويل حتى نفذ طعام الام وماؤها، وجف لبنها، بكاء الطفل أضرم في نفس الأم نارًا، ودفعها لأن تبحث بقلق واضطراب عن الماء، اتجهت أولًا إلى جبل «الصفاء» فلم تجد للماء أثرًا، لفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسرت إليه فوجدته سرابًا، ثم رأت عند المروة بريقًا لدى الصفا أسرع إليه فما وجدت شيئًا، وهكذا جالت سبع مرات بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء، وفي النهاية، وبعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجليه فجأة عين زمزم، فشرب الطفل وامه ونجيا من الموت المحقق.

في الصفا والمروة درس في التضحية بكل غال ونفيس، حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ والعقيدة.

السعي بينهما يعلمنا أن نعيش دائماً أمل النجاح والانتصار.

السعي بين الصفا والمروة يقول لنا: اعرفوا قدر نعمة هذا الدين وهذا المركز التوحيدى، فثمّة أفراد حفظوا الشريعة وشعائرها لنا بدمائهم على مر التاريخ.

من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس والمشاعر فى النفوس، أمر الله الحجيج أن يسعوا سبع مرات بين الصفا والمروة.

(١) سورة إبراهيم / ٣٧.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٧

أضف إلى ما تقدم أن السعى يقضى على كبر الإنسان وغروره، فلا أثر للتبختر والتصنع فى السعى، بل لابد من قطع هذه المسافة ذهاباً ومجيئاً مع كافة الناس، وبنفس لباس الناس، وبهرولة أحياناً! ولذلك ورد فى الروايات أن السعى إيقاظ للمتكبرين.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

سبب النزول

فى الدر المنثور عن ابن عباس قال: سأل «معاذ بن جبل» و «سعد بن معاذ» و «خارجة بن زيد» نفراً من أحبار يهود عن بعض ما فى التوراة (قد ترتبط بظهور النبى الخاتم) فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم فأنزل الله فىهم «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» الآية.

التفسير

حرمة كتمان الحق: الآية- وإن خاطبت كما فى سبب النزول، علماء اليهود- غير محدودة بمخاطبيها، بل تبين حكماً عاماً بشأن كاتمي الحق. الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدة وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك فى كتمان علامات النبوة والبشائر بالنبى الخاتم صلى الله عليه و آله بل يشمل كتمان كل حقيقة تستطيع أن تدفع الناس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

ولما كان القرآن كتاب هداية، فإنه لا يغلق منافذ الأمل والتوبة أمام الأفراد، ولا يقطع أملهم فى العودة مهما ارتكسوا فى الذنوب،

لذلك تبين الآية التالية طريق النجاة من هذا الذنب الكبير وتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

ومن الملفت للنظر، أن الله لم يقل أنه يقبل التوبة ممن تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضاً أتوب عليه، وهذه دالة على كثرة محبة الله وسبق عطفه على عباده التائبين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٨

كتمان الحق في الأحاديث: حملت الأحاديث بشدة أيضاً على كاتمي الحق، فروى في المجمع عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجحيم يوم القيامة بلجام من نار».

ونعيد هنا القول أن ابتلاء الناس بمسألة والحاجة إلى بيانها يحل محل السؤال، وبيان الحقائق في هذه الحالة واجب.

وذكر الطبرسي في الاحتجاج: قيل لأمر المؤمنين عليه السلام: من خير خلق الله بعد أئمة الهدى ومصابيح الدجى؟ قال: «العلماء إذا صلحوا». قيل: فمن شر خلق الله بعد إبليس وفرعون و...؟ قال: «العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق، وفيهم قال الله عز وجل: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَمَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا: تحدثت الآيات السابقة عن نتيجة كتمان الحقائق، وهذه الآيات تكمل الموضوع السابق، وتتناول جزاء الذين يواصلون طريق الكفر والكتمان والعناد إلى آخر عمرهم. تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

هؤلاء أيضاً مثل كاتمي الحق، مستحقون لعنة الله والملائكة وجميع الناس، مع اختلاف هو أن هؤلاء المصرين على الكفر حتى نهاية حياتهم لا رجعة لهم طبعاً ولا توبة.

ثم تقول الآية التالية إن هؤلاء الكفار المصرين على كفرهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم: «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

ولما كان التوحيد ينهي كل هذه المصائب، فالآية الثالثة تطرح هذا الأصل وتقول:

«وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ».

ثم تؤكد هذا الأصل وتقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذلك تصف الآية الله بأنه: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ». لتقول إن الله الذي يسع كل الموجودات، برحمته العامة والمؤمنين برحمته الخاصة، هو اللائق بالعبودية لا الموجودات المحتاجة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٩

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِنَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) مظاهر عظمة الله في الكون: آخر آية في المبحث الماضي دارت حول توحيد الله، وهذه الآية تقدم الدليل على وجود الله ووحدانيته.

قبل أن ندخل في تفسير الآية، لابد من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم والإنسجام» فهو دليل على وجود العلم والمعرفة، وأينما كان «التنسيق» فهو دليل على الوحدة، من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم والإنسجام في الكون من جهه، والتنسيق ووحدة العمل فيه من جهه اخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم والقدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

بعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير الآية، هذه الآية الكريمة تشير إلى ستة أقسام من آثار النظم الموجود في عالم الكون، وكل واحد منها آية تدل على وحدانية المبدأ الأكبر.

١- «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

يقول العلم لنا اليوم: إن في السماء آلاف مؤلفة من المجرات، ومنظومتنا الشمسية جزء من واحدة من المجرات، وفي مجرتنا وحدها مئات الملايين من الشمس والنجوم الساطعة، وحسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون بمليارات الموجودات الحية.

حقاً ما أعظم هذا الكون! وما أعظم قدره خالقه!

٢- «وَاخْتَلَفِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ».

من الدلائل الاخرى على ذاته المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهار، والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد في الآخر، وما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، وتكامل النباتات وسائر الأحياء في ظل هذا التكامل.

٣- «وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ».

الإنسان يمتدح عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغيرة، مستخدماً هذه السفن للسفر ولتقل المتاع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٠

٤- «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ».

من مظاهر قدرة الله وعظمته المطر الذي يحيى الأرض، فتهتز بركته وتنمو فيها النباتات وتحيا الدواب بحياة هذه النباتات، وكل هذه الحياة تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لا حياة فيها.

٥- «وَتَضْرِيحُ الرِّيحِ» لا على سطح البحار والمحيطات لحركة السفن فحسب، بل على الجبال والهضاب والسهول أيضاً لتلقيح النباتات فتخرج لنا ثمارها الياض.

٦- «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». والسحب المتركمة في أعالي الجو، المحملة بمليارات الأطنان من المياه خلافاً لقانون الجاذبية، والمتحركة من نقطة إلى أخرى دون ايجاد خطر، من مظاهر عظمة الله سبحانه.

وكل تلك العلامات والمظاهر «لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» لا للغافلين الصم البكم العمى.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) أئمة الكفر يتبرأون من أتباعهم: تناولت الآيات السابقة دلائل وجود الله سبحانه وإثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر نظام الكون. وهذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، وساروا على طريق الشرك والوثنية وتعدد الآلهة... عن أولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيماً أمام الآلهة المزيفة، ويتعشقونها ويشغفون بها حباً لا يليق إلا بالله سبحانه مصدر كل الكمالات وواهب جميع النعم. تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً» (١).

(١) «الأنداد»: جمع «ند» وهو (المثل)، وقال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه في الجوهر، أي إن المشركين كانوا يعتقدون بأن هذه الأنداد تحمل الصفات الإلهية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣١

ولم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ».

«وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ». لأنهم أصحاب عقل وإدراك، فلا- يستوى من يحب عن عقل وبصيرة، ومن يحب عن جهل وخرافة وتخييل.

حب المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، وحب المشركين سطحى تافه لا بقاء له ولا استمرار. لذلك تقول الآية: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ». لرأوا سوء فعلهم وسوء عاقبتهم.

فى هذه اللحظات تزول حجب الجهل والغرور والغفلة من أمام أعينهم، وحين يرون أنفسهم دون ملجأ أو ملاذ، يتجهون إلى قادتهم ومعبوديهم، ولات حين ملاذ بغير الله «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ».

واضح أن المعبودين هنا ليسوا الأصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاة الجابرة الذين استعبدوا الناس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء والطاعة.

هؤلاء الغافلون المغفلون حين يرون ما حلّ بهم يمتنون أنفسهم: «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا» لكنها امنية لا تتحقق.

ثم تقول الآية: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

لكنها حسرة غير نافعة... فالיום يوم الجزاء وليس يوم تلافى الأخطاء.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنها نزلت فى ثقيف وخزاعة وبنى عامر بن صعصعة وبنى مدلج لما حزموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة، فنهاهم الله عن ذلك.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٢

التفسير

خطوات الشيطان: ذمّت الآيات السابقة الشرك والمشركين، وأحد أنواع الشرك إيكال أمر التقنين والتشريع وتقرير الحلال والحرام إلى غير الله. الآية أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانياً وقالت: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

تكرر فى القرآن طلب الاستفادة من الأطعمة، وورد الطلب عادة مقيداً بالحلال وبالطيب. و «الحلال»: ما أبيض تناوله والطيب ما طاب ووافق الطبع السليم، و يقابله «الخبث» الذى يشمأز منه الإنسان.

و «الخطوات»: جمع «خطوة» وهى المرحلة التى يقطعها الشيطان للوصول إلى هدفه وللتعزير بالناس.

عبارة «لَمَّا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» تكررت خمس مرات فى القرآن الكريم، وكانت فى موضعين بشأن الاستفادة من الأطعمة والرزق الإلهى، وهى تحذير من استهلاك هذه النعم الإلهية فى غير موضعها، وحث على الاستفادة منها على طريق العبودية والطاعة لا الفساد والطغيان فى الأرض.

عبارة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» تكررت فى القرآن الكريم عشر مرات بعد الحديث عن الشيطان، كى تحفز الإنسان، وتجعله متأهباً لمجابهة هذا العدو اللدود الظاهر.

الآية التالية تؤكد على عداوة الشيطان، وعلى هدفه المتمثل فى شقاء الإنسان، وتقول:

«إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

منهج الشيطان يتلخص فى ثلاثة أبعاد هى: السوء والفحشاء والتقول على الله.

«الفحشاء»: من «الفحش» وهو كل عمل خارج عن حد الاعتدال ويشمل كل المنكرات والقبايح المبطنة والعلنية.

الإنحرافات التدريجية: عبارة «خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» قد تشير إلى مسألة تروبية دقيقة، وهى أن الإنحرافات تدخل ساحة الإنسان بشكل

تدرجى. وساوس الشيطان تدفع بالفرد على هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط، وليست هذه طريقة الشيطان الأصلية فحسب، بل كل الأجهزة الشيطانية تنفذ خططها المشؤومة على شكل «خطوات» لذلك يحذر القرآن كثيراً من اتخاذ الخطوة الاولى على طريق الإنزلاق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٣

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَمَّا يَعْقِلُونَ (١٧١) التقليد الأعمى: تشير الآية إلى منطق المشركين الواهى فى تحريم ما أحل الله، أو عبادة الأوثان وتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا». ويدين القرآن هذا المنطق الخرافى، القائم على أساس التقليد الأعمى لعادات الآباء والأجداد، فيقول: «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لَا يَهْتَدُونَ». أى: إن إتباع الآباء صحيح لو أنهم كانوا على طريق العقل والهداية.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، ولم يكونوا قد اهدتوا بمن يعلم وهذا اللون من التقليد الأعمى هو السبب فى تخلف البشرية لأنه تقليد الجاهل للجاهل.

الآية التالية تبين سبب تعصب هؤلاء وإعراضهم عن الإنصياح لقول الحق تقول:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً». تقول الآية: إن مثلك فى دعوة هؤلاء المشركين إلى الإيمان ونبذ الخرافات والتقليد الأعمى كمن يصيح بقطع الغنم (لإنقاذهم من الخطر) ولكن الأغنام لا تدرك منه سوى أصوات غير مفهومة. ثم تضيف الآية لمزيد من التأكيد والتوضيح أن هؤلاء «صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَمَّا يَعْقِلُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْتَلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَمَّا عَادَ فَلِمَا إِثْمٌ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) الطيبات والخبائث: القرآن ينهج اسلوب التأكيد والتكرار بأشكال مختلفة فى معالجته للانحرافات المزمنة، وفى هذه الآيات عودة إلى مسألة تحريم المشركين فى الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل، مع فارق هو أن الخطاب يتجه فى هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع الناس. تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٤

رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». هذه النعم الطيبة المحللة المتناسبة مع الفطرة الإنسانية السليمة قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟ الآية التالية تبين بعض ألوان الأطعمة المحرمة، وتقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْتَلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ».

ولما كانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلى تناول الأطعمة المحرمة حفظاً لحياته، فقد استثنت الآية هذه الحالة وقالت: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَمَّا عَادَ فَلِمَا إِثْمٌ عَلَيْهِ».

ومن أجل أن تقطع الآية الطريق أمام من يتذرع بالإضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و «لا عاد». و «الباغى»: هو الطالب، والمراد هنا طالب اللذة و «العادى»: هو المتجاوز للحد، أى المتجاوز حد الضرورة، فالرخصة هنا إذن لمن لا يريد اللذة فى تناول هذه الأطعمة، ولا يتجاوز حد الضرورة اللازمة لنجاته من الموت.

وفى الختام تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي حَرَّمَ تِلْكَ الْأَطْعَمَةَ أَبَاحَ تَنَاوُلِهَا فِي مَوَارِدِ الضَّرُورَةِ بِرَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ. إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَ الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

## سبب النزول

المعنى في هذه الآية أهل الكتاب بإجماع المفسرين؛ إلا أنها متوجهة على قول كثير منهم إلى جماعة قليلة من اليهود وهم علماءهم ككعب بن الأشرف وحيى بن أخطب وكعب بن أسد. وكانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا ويرجون كون النبي منهم. فلما بعث من غيرهم خافوا زوال ما كلفتهم فغيروا صفة فأنزل الله تعالى هذه الآية.

## التفسير

إدائه كتمان الحق مرة أخرى: هذه الآيات تأكيد على ما مر في الآية (١٥٩) بشأن كتمان

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٥

الحق. الآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ».

هذه الهدايا والعطايا التي ينالونها من هذا الطريق نيران محرقة تدخل بطونهم.

ثم تتعرض الآية إلى عقاب معنوي سينال هؤلاء أشد من العقاب المادي، وتقول: «وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يستفاد من هذه الآية والآية التالية أن واحدة من أعظم المواهب الإلهية في الآخرة أن يكلم الله المؤمنين تطفأ بهم. أى: إن المؤمنين سينالون في الآخرة نفس المنزلة التي نالها أنبياء الله في الدنيا وأية لذة أعظم من هذه اللذة!

بديهي أن تكليم الله عباده بمعنى أنه بقدرته الواسعة يخلق في الفضاء أمواجاً صوتية خاصة قابلة للسمع والإدراك، (كما كلم الله موسى عند جبل الطور)، أو أنه يتكلم مع خاصة عباده بلسان القلب عن طريق الإلهام.

وقد يسأل سائل عن تكليم الله المجرمين يوم القيامة، استناداً إلى ما ورد في الآيات كقوله تعالى: «قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» (١).

والجواب: أن المقصود من التكليم في آيات بحثنا، هو تكليم عن لطف وحب واحترام، لا عن تحقير وطرده وعقوبة فذلك من أشد الجزاء.

الآية التالية تحدد وضع هذه المجموعة وتبين نتيجة صفقتها الخاسرة وتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ». فهؤلاء خاسرون من ناحيتين: من ناحية تركهم الهداية واختيار الضلالة، ومن ناحية حرمانهم من رحمة الله واستحقاقهم بدل ذلك العقاب الإلهي، وهذه مبادله لا يقدم عليها إنسان عاقل. لذلك تتحدث الآية عن هؤلاء بلغة التعجب وتقول: «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ».

آخر آية في بحثنا تقول إن ذلك التهديد والوعيد بالعذاب لكاتمي الحق، يعود إلى أن الله أنزل القرآن بالدلائل الواضحة، حتى لم تبق شبهة لأحد: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ».

مع ذلك فإن زمرة محرقة تعمد إلى كتمان الحقائق صيانة لمصالحها، وتثير الإختلاف في الكتاب السماوي لتصيد في الماء العكر.

(١) سورة المؤمنون / ١٠٨.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٦

مثل هؤلاء الذين يثيرون الإختلاف في الكتاب السماوي بعيدون عن الحقيقة: «وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ».

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

## سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: لما حولت القبلة وكثر الخوض في نسخها وصار كأنه لا يراعى بطاعة الله إلا التوجه للصلاة وأكثر اليهود

والنصارى ذكرها، أنزل الله سبحانه هذه الآية.

التفسير

أساس البر: مَرَّبْنَا الْحَدِيثَ عَنِ الضَّجَّةِ الَّتِي أُثِيرَتْ بَيْنَ اِعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ الْجَدِيدِ بِشَأْنِ تَغْيِيرِ الْقِبْلَةِ. الْآيَةُ أَعْلَاهُ تَخَاطَبَ هَؤُلَاءِ وَتَقُولُ: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

ثم يبين القرآن أهم أصول البر والإحسان وهي ستة، فيقول: «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ». ثم تذكر الآية الإنفاق بعد الإيمان وتقول: «وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ». إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، لأنَّ حب المال موجود بدرجات متفاوتة في كل القلوب، وعبارة «عَلَى حُبِّهِ» إشارة إلى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للإنفاق رغم هذا الحب للمال من أجل رضا الله سبحانه.

والأصل الثالث من أصول البر إقامة الصلاة: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ». والصلاة إن أداها الفرد بشروطها وحدودها وباخلاص وخضوع تصده عن كل ذنب وتدفعه نحو كل سعادة وخير.

والأصل الرابع: أداء الزكاة والحقوق المالية الواجبة: «وَأَتَى الزَّكَاةَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٧

فالآية سبق أن ذكرت الإنفاق المستحب، وهنا تذكر الإنفاق الواجب. بعض الناس يكثر من المستحبات في الإنفاق ويتساهل في الواجب، وبعضهم يلتزم بالواجب فقط ولا ينفق درهماً في إيثار. والمحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون في المجالين معاً. الخامس من الاصول: الوفاء بالعهد: «وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا»، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الاجتماعية، وترك الوفاء بالعهد من الذنوب التي تزلزل الثقة وتوهن عرى العلاقات الاجتماعية.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ثلاث لم يجعل الله عزَّ وجلَّ لأحد فيهنَّ رخصةً: أداء الأمانة إلى البرِّ والفاجر والوفاء بالعهد للبرِّ والفاجر وبرِّ الوالدين برِّين كانا أو فاجرين».

الأساس السادس والأخير من اسس البرِّ في نظر الإسلام: الصبر «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ حَالِ الْفَقْرِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالصَّرَاءِ حَالِ الْمَرَضِ وَحِينَ الْبَأْسِ حَالِ الْقِتَالِ مَعَ الْأَعْدَاءِ» (١).

ثم تؤكد الآية على أهمية الاسس الستة وعلى عظمة من يتحلَّى بها، فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

صدقهم يتجلى في انطباق أعمالهم وسلوكهم مع إيمانهم ومعتقداتهم، وتتجلى تقواهم في إلتزامهم بواجبهم تجاه الله وتجاه المحتاجين والمحرومين وكل المجتمع الإنساني.

والملفت للنظر أنَّ الصفات الست المذكورة تشمل الاصول الاعتقادية والأخلاقية والمناهج العملية.

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت هذه الآية في حنين من العرب لأحدهما طُول على الآخر وكانوا يتزوجون نساءهم بغير مهور وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا

(١) «البأساء»: من البؤس وهو الفقر؛ و«الصَّراء»: تعنى الألم والمرض؛ و«حين البأس»: أي حين الحرب.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٨

الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك حتى جاء الإسلام، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

في القصاص حياة: الآيات السابقة طرحت المنهج الإسلامي في «البر»، وهنا يقدم القرآن الكريم - وهكذا في الآيات التالية - مجموعة



من الأحكام الإسلامية، إكمالاً لبيان المنهج الإسلامي في الحياة. تبدأ هذه الأحكام من مسألة حفظ حرمة الدماء، وهي مسألة هامة في الحياة الاجتماعية، فتنفى العادات والتقاليد الجاهلية، وتقول للمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ .

«القصاص»: من «قَصَّ» يقال قَصَّ أثره: أى تلاه شيئاً بعد شىء، ومنه القصاص لأنه يتلو أصل الجناية ويتبعه، وقيل هو أن يفعل بالثاني مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، ومنه أخذ القصاص كأنه يتبع آثارهم شيئاً بعد شىء.

الآية كما ذكرنا تستهدف بيان الموقف الصحيح من المجرم، ولفظ القصاص يدل على إنزال عقوبة بالمجرم مماثلة لما ارتكبه هو، لكن الآية لا تكتفى بذلك، بل بينت التفاصيل فقالت:

«الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى .

ثم تبين الآية أن القصاص، حق لأولياء المقتول، وليس حكماً إلزامياً، فإن شاؤوا أن يعفوا ويأخذوا الدية، وإن شاؤوا ترك الدية فلهم ذلك، وتقول: «فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ». فبعد تبدل حكم القصاص عند عفو أولياء المقتول إلى دية «فَاتَّبَعَ بِالْمَعْرُوفِ».

أى: فعل العافى إتباع بالمعروف، وهو أن لا يُشدد في طلب الدية وينظر من عليه الدية «وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ». أى: على المعفو عنه أن يبادر إلى دفع الدية عند الإمكان وأن لا يماطل.

ثم تؤكد الآية على ضرورة الالتزام بحدود ما أقره الله، وعدم تجاوز هذه الحدود: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وهذا الأمر بالقصاص وبالعفو يشكل تركيباً انسانياً منطقياً، فهو من جهة يدين التقاليد السائدة في الجاهلية الاولى والجاهليات التالية إلى يومنا هذا القاضية بالانتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

ومن جهة اخرى، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ على احترام الدم وردع القاتلين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٩

ومن جهة ثالثة، لا يحق للطرفين بعد العفو وأخذ الدية التعدى، خلافاً للجاهليين الذين كانوا يقتلون القاتل أحياناً حتى بعد العفو وأخذ الدية.

الآية التالية قصيرة العبارة وافرة المعنى، تجيب على كثير من الأسئلة المطروحة في حقل القصاص، ويقول: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

هذه الآية تبين أن القصاص ليس انتقاماً، بل السبيل إلى ضمان حياة الناس.

هل انتقص قانون القصاص المرأة؟ قد يظن البعض أن قانون القصاص الإسلامي قد انتقص المرأة حين قرر أن «الرجل» لا يقتل «بالمرأة»، أى إن الرجل - قاتل المرأة - لا يقتص منه.

وليس الأمر كذلك، ومفهوم الآية لا- يعنى عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل يجوز لأولياء المقتولة أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف دية.

ولمزيد من التوضيح نقول: الرجال يتحملون غالباً مسؤوليات إعالة الاسرة، ويؤمنون نفقاتها الاقتصادية، ولا يخفى الفرق بين أثر غياب الرجل وغياب المرأة على العائلة اقتصادياً، ولو لم يراع هذا الفرق لأصيبت عائلة المقتص منه بأضرار مالية، ولوقعت في حرج اقتصادى،

ودفع نصف الدية يحول دون تزلزل تلك العائلة اقتصادياً.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ

عَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) الوصية بالمعروف: الآيات السابقة ذكرت تشريع القصاص، وهذه الآيات تذكر تشريع الوصية، باعتباره جزءاً من

النظام المالى، وتذكر بأسلوب الحكم الإلزامى فتقول:

«كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ».

ثم تضيف الآية أن هذه الوصية كتبت «حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ».

جاء في الآية الكريمة بشأن كتابة الوصية كونها «حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» من هنا قيل إنها مستحبة استحباباً مؤكداً، ولو كانت واجبة لقات الآية «حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٠

يلفت النظر أن الآية الكريمة عبرت عن المال بكلمة «خير» فقالت: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا».

وهذا يعنى أن الإسلام يعتبر الثروة المستحصلة عن طريق مشروع، والمستخدمة على طريق تحقيق منافع المجتمع ومصالحه خيراً وبركة. هذا التعبير يشير ضمناً إلى مشروعية الثروة، لأن الأموال غير المشروعة ليست خيراً بل شراً وبالاً.

تقييد الوصية «بِالْمَعْرُوفِ» إشارة إلى أن الوصية ينبغي أن تكون موافقة للعقل من كل جهة، لأن «المعروف» هو المعروف بالحسين لدى العقل. يجب أن تكون الوصية متعلقة في مقدارها وفي نسبة توزيعها، دون أن يكون فيها تمييز، ودون أن تؤدى إلى نزاع وإنحراف عن اصول الحق والعدالة.

حين تكون الوصية جامعة للخصائص المذكورة فهي محترمة ومقدسة، وكل تبديل وتغيير فيها محظور وحرام. لذلك تقول الآية التالية: «فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ».

ولا يظن المحرفون المتلاعبون أن الله غافل عما يفعلون، كلاً «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولعل هذه الآية تشير إلى أن تلاعب «الوصى» (وهو المسؤول عن تنفيذ الوصية) لا يصادر أجر الموصى. فالموصى ينال أجره، والإثم على الوصى المحرف في كميته الوصية أو كفيته أو في أصلها.

بين القرآن فيما سبق الأحكام العامة للوصية، وأكد على حرمة كل تبديل فيها، ولكن في كل قانون استثناء، والآية الثالثة من آيات بحثنا هذا تبين هذا الاستثناء وتقول: «فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

الإستثناء يرتبط بالوصية المدونة بشكل غير صحيح، وهنا يحق للوصى أن ينه الموصى على خطئه إن كان حياً، وأن يعدل الوصية إن كان ميتاً.

عبرت الآية «بالجنف» عن الانحرافات التي تصيب الموصى في وصيته عن سهو، و «بالإثم» عن الانحرافات العمدية.

عبارة «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تشير إلى ما قد يقع فيه الوصى من خطأ غير عمدى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤١

عندما يعدل الوصية المنحرفة وتقول: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفُو عَنِ مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ».

بحثان

١- فلسفة الوصية: الإرث يوزع حسب القانون الإسلامى بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، وقد يكون بين الأقارب والأصدقاء والمعارف من له حاجة ماسة إلى المال، ولكن لا سهم له في قانون الإرث، وقد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر إلى المال من بقية الورثة.

من هنا وضع الإسلام قانون الوصية إلى جانب قانون الإرث، وأجاز للمسلم أن يتصرف في ثلث أمواله (بعد الوفاة) بالشكل الذى يرشد لملء هذا الفراغ.

أضف إلى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته الخيرات التي ما اتيح له أن يعملها في حياته، ومنطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيرى.

النصوص الإسلامية أكدت على ضرورة الوصية كثيراً، من ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما ينبغي لامرئ مسلم أن

بيت ليلة إلووصيته تحت رأسه» (١).

والمقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها وتهيتها طبعاً.

وفي رواية اخرى: «من مات بغير وصية مات ميتة جاهلية» (٢).

٢- العدالة في الوصية: في الروايات الإسلامية تأكيد وافر على «عدم الجور» و «عدم الضرر» في الوصية، يستفاد منها جميعاً أنّ تعدى الحدود الشرعية المنطقية في الوصية عمل مذموم ومن كبائر الذنوب.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام: «من عدل في وصيته كان كمن تصدق بها في حياته ومن جار في وصيته لقي الله عز وجل يوم القيامة وهو عنه معرض» (٣).

والجور في الوصية هو الوصية بأكثر من الثلث، وحرمان الورثة من حقهم المشروع، أو التمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية.

(١) وسائل الشيعة ١٣ / ٣٥٢.

(٢) وسائل الشيعة ١٣ / ٣٥٢.

(٣) وسائل الشيعة ١٣ / ٣٥٩.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) الصوم مدرسة التقوى: في سياق طرح مجموعة من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآيات أحكام واحدة من أهم العبادات، وهي عبادة الصوم، وبلهجة مفعمة بالتأكيد قالت الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

ثم تذكر الآية مباشرة فلسفة هذه العبادة التربوية، في عبارة قليلة الألفاظ، عميقة المحتوى، وتقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

الآية التالية تنجس أيضاً إلى التخفيف من تعب الصوم وتقول: «أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ» فالفريضة لا تحتل إلا مساحة صغيرة من أيام السنة.

ثم تقول: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ». فالمرضى والمسافر معفوان من الصوم، وعليهما أن يقضيا صومهما في أيام اخرى.

ثم تصدر الآية عفواً عن الطاعنين في السن، وعن المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، وترفع عنهم فريضة الصوم ليدفعوا بدلها كفارة، فتقول: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَسْكِينٍ» (١).

(١) «يطيقونه»: من «الطوق» وهو الحلقة التي تلتقى على العنق، أو توجد عليه بشكل طبيعي (كطوق الحمام) ثم أطلقت الكلمة على نهاية الجهد والطاقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٣

ثم يقول الآية: «فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ». أى من تطوع للإطعام أكثر من ذلك فهو خير له.

وأخيراً تبين الآية حقيقة هي: «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

والآية يدل على تأكيد آخر على فلسفة الصوم، وعلى أن هذه العبادة- كسائر العبادات- لا تزيد الله عظمة أو جلالاً، بل تعود كل فوائدها على الناس.

آخر آية في بحثنا نتحدث عن زمان الصوم وبعض أحكامه ومعطياته تقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ» هو الشهر الذي فرض فيه الصيام.

وهو «الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ». أى: معيار معرفة الحق والباطل.

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر والمريض وتقول: «فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ».

والقرآن بهذا التكرار يفهم المسلمين أن الصوم في حالة السلام والحضر حكم إلهي والإفطار في حال السفر والمرض حكم إلهي أيضاً لا تجوز مخالفته.

وفي آخر الآية إشارة أخرى إلى فلسفة تشريع الصوم، تقول: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». فالصوم- وإن كان على الظاهر نوعاً من التضييق والتحديد- مؤداه راحة الإنسان ونفعه على الصعيدين المادى والمعنوى.

ثم تقول الآية: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ». أى: يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهراً، فذلك ضرورى لتربيته جسمه ونفسه، لذلك وجب على المريض والمسافر أن يقضى ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدة، وحتى الحائض- التى اعفيت من قضاء الصلاة- غير معفوة عن قضاء الصوم.

والعبارة الأخيرة من الآية تقول: «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

لتكبروه على ما وفر لكم من سبل الهداية، ولتشكروه على ما أنعم عليكم.

بحوث

١- الآثار التربوية والاجتماعية والصحية للصوم: من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الإنسان و «تقوية» إرادته و «تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكف عن الطعام والشراب على الرغم من جوعه وعطشه وهكذا عليه أن يكف عن ممارسة العمل الجنسي، ليثبت عملياً أنه ليس بالحيوان الأسير بين المعلف

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٤

والمضجع، وأنه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجامحة وعلى أهوائه وشهواته. الأثر الروحي والمعنوى للصوم يشكّل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.

والصوم يرفع الإنسان من عالم البهيمية إلى عالم الملائكة وعبارة «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» تشير إلى هذه الحقائق.

وهكذا الحديث المعروف: «الصوم جنة من النار» «١» يشير إلى هذه الحقائق.

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ بَاباً يَدْعَى الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُ فِيهَا إِلَّا الصَّائِمُونَ» «٢».

الأثر الاجتماعى للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواة بين أفراد المجتمع.

سأل الإمام الصادق عليه السلام عن علة الصيام، فقال: «إِنَّمَا فَرَضَ اللَّهُ الصَّيَامَ لِيَسْتَوِيَ بِهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْغَنَى لَمْ يَكُنْ لِيَجِدْ مَسَّ الْجُوعِ فَيَرْحَمُ الْفَقِيرَ لِأَنَّ الْغَنَى كَلَّمَا أَرَادَ شَيْئاً قَدَرَ عَلَيْهِ فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسَوِيَ بَيْنَ خَلْقِهِ وَأَنْ يَذِيقَ الْغَنَى مَسَّ الْجُوعِ وَالْأَلْمَ لِيَرِقَّ عَلَى الضَّعِيفِ وَيَرْحَمَ الْجَائِعَ» «٣».

الآثار الصحية للصوم: أهمية «الإمساك» فى علاج الأمراض ثابتة فى الطب القديم والحديث. لأن العامل فى كثير من الأمراض الإسراف فى تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائية الزائدة تتراكم فى الجسم على شكل مواد دهنية وتدخل هى والمواد السكرية فى الدم، وهذه المواد الزائدة وسط صالح لتكاثر أنواع الميكروبات والأمراض، وفى هذه الحالة يكون الإمساك أفضل طريق لمكافحة هذه الأمراض، وللقضاء على هذه المزابل المتراكمة فى الجسم.

الصوم يحرق الفضلات والقمامات المتراكمة فى الجسم، وهو فى الواقع عملية تطهير شاملة للبدن، إضافة إلى أنه استراحة مناسبة

لجهاز الهضم وتنظيف له.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «صوموا تصحوا» (٤).

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً «المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء» (٥).

٢- الصوم في الامم السابقة: يظهر من النصوص الموجودة في التوراة والإنجيل، أن

(١) بحار الأنوار ٩٣ / ٢٥٦.

(٢) بحار الأنوار ٩٣ / ٢٥٢.

(٣) وسائل الشيعة ٣ / ٧ (أول كتاب الصوم).

(٤) بحار الأنوار ٩٣ / ٢٥٥.

(٥) بحار الأنوار ٥٩ / ٢٩٠.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٥

الصوم كان موجوداً بين اليهود والنصارى، وكانت الامم الاخرى تصوم في أحزانها وماسيها.

ويظهر من التوراة أن موسى عليه السلام صام أربعين يوماً، و كان اليهود يصومون لدى التوبة والتضرع إلى الله. السيد المسيح عليه

السلام صام أيضاً أربعين يوماً كما يظهر من «الإنجيل».

بهذا نستطيع أن نجد في نصوص الكتب الدينية القديمة (حتى بعد تحريفها) شواهد على ما جاء في القرآن الكريم: «كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ».

٣- امتياز شهر رمضان: هذا الشهر- إنما اختير شهراً للصوم- لأنه يمتاز عن بقية الشهور. والقرآن الكريم يبين مزية هذا الشهر في الآية الكريمة بأنه «الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ».

وفي الروايات الإسلامية أن كل الكتب السماوية: «التوراة» و «الإنجيل» و «الزبور» و «الصحف» و «القرآن» نزلت في هذا الشهر، فهو إذن شهر تربية وتعليم.

٤- قاعدته «لا- حرج»: آيات بحثنا فيها إشارة إلى أن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، وهذه الإشارة تدور طبعاً هنا حول موضوع الصوم وفوائده وحكم المسافر والمريض، لكن أسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الأحكام الإسلامية، ويصير منها سنداً لقاعدة «لا حرج» المعروفة.

هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين الإسلام على المشقة، وإن أدى حكم إسلامي إلى حرج ومشقة، فإنه يرفع عنه مؤقتاً، ولذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء، والصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن سائلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت الآية.

التفسير

سلاح اسمه الدعاء: بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامة من الأحكام الإسلامية،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٦

تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الإرتباط بين العباد والمعبود سبحانه. هذه الآية تخاطب النبي صلى الله عليه وآله

وتقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ».

إنه أقرب مما تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١).

ثم تقول الآية: «أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا». إذن «فَلَيْسَتْ جِيبُوا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ».

ويلفت النظر في الآية، أن الله سبحانه أشار إلى ذاته المقدسة سبع مرات، وأشار إلى عباده سبعا! مجسداً بذلك غاية لطفه وقربه وإرتباطه بعباده.

الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والإنسان- عن طريق الدعاء- يزداد إرتباطاً بالله تعالى، وكما أن كل العبادات ذات أثر تربوي كذلك الدعاء له مثل هذا الأثر.

والقائلون أن الدعاء تدخل في أمر الله وأن الله يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الإلهية تغدق على الإنسان حسب استعداده وكفاءته ولياقته، وكلما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن عند الله عز وجل منزلة لا تنال إلا بمسأله».

ويقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها» (٢).

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

(١) سورة ق / ١٦.

(٢) آئين زندگي (فارسي) / ١٥٦.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٧

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان أن الأكل كان محرماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان، وكان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له مطعم بن جبير ... شيخاً ضعيفاً، وكان صائماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حُرِّمَ عَلَيَّ الأكل في هذه الليلة. فلما أصبح حضر حفر الخندق فاغمر عليه، فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله فرق له.

وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان، فأنزل الله هذه الآية فأحل النكاح بالليل في شهر رمضان، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر.

التفسير

رخصة في أحكام الصوم: مر بنا في سبب نزول الآية أن النكاح كان محرماً في ليالي شهر رمضان إضافة إلى نهاره، وأن الأكل والشرب كانا محرمين في الليل أيضاً بعد النوم، ولعل ذلك كان اختباراً للجيل الإسلامي الأول وإعداداً له كي يتقبل أحكام الصوم الثابتة. الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام إسلامية في حقل الصوم والإعتكاف. تقول أولاً: «أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ» (١).

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: «هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ».

واللباس يحفظ الجسم من الحر والبرد وأنواع الأخطار من جهة، ويستر عيوب الجسم من جهة أخرى، أضف إلى أنه زينة للإنسان، وتشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

ثم يبين القرآن سبب تغيير هذا القانون الإلهي ويقول: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ». فالله سبحانه وسع عليكم الأمر وخففه، وجعل فيه رخصة بلطفه ورحمته، كي لا تتلوثوا بالذنوب.

«فَالَّذِينَ بَشِرُوا هُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ».

ثم تبين الآية الحكم الثاني وتقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ». وتبين الآية الحكم الثالث: «ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ».

(١) «الرفث»: هو الحديث المكشوف عن المسائل الجنسية، واستعير لمعنى الجماع كما في الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٨

هذه الجملة تأكيد على حظر الأكل والشرب والنكاح في أيام شهر رمضان للصائمين، وتشير إلى أن الحظر يبدأ من طلوع الفجر وينتهي عند الليل.

تطرح الآية بعد ذلك الحكم الرابع وتقول: «وَلَمَّا تَبَشَّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عِيَافُونَ فِي الْمَسَاجِدِ». هذا الحكم يرتبط بالاعتكاف، وهو شبيه بالاستثناء من الحكم السابق، ففي الاعتكاف الذي لا تقل مدته عن ثلاثة أيام، لا يحق للمعتكف الصائم أن يباشر زوجته لا في الليل ولا في النهار.

في ختام الآية عبارة تشير إلى كل ما ورد فيها من أحكام تقول: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا». لأن الإقتراب من الحدود يبعث على الوسوسة، وقد يدفع الإنسان إلى تجاوز الحدود والوقوع في الذنب.

نعم، «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

التقوى هي الأول والآخر: في أول آية ترتبط بأحكام الصوم ورد ذكر التقوى على أنها الهدف النهائي للصوم، وفي آخر آية أيضاً وردت عبارة «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» وهذا يؤكد أن كل مناهج الإسلام وسيلة لتربية الروح والتقوى والفضيلة والإرادة والإحساس بالمسؤولية.

«وَلَمَّا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) المبادئ الأولية للإقتصاد الإسلامي: هذه الآية الكريمة تشير إلى أحد الاصول المهمة والكلية للاقتصاد الإسلامي الحاكمة على مجمل المسائل الاقتصادية، بل يمكن القول إن جميع أبواب الفقه الإسلامي في دائرة الاقتصاد تدخل تحت هذه القاعدة وهو قوله تعالى: مختصر الامثل ج ١ ١٦٩

«وَلَمَّا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ».

إن مفهوم الآية عام يستوعب كل تصرف في أموال الآخرين من غير الطريق المشروع مشمولاً لهذا النهي الإلهي، وكذلك فإن جميع المعاملات التي لا تتضمن هدفاً سليماً ولا تركز على أساس عقلائي فهي مشمولة لهذه الآية.

والملفت للنظر أن بعض المفسرين قالوا: إن جعل هذه الآية مورد البحث بعد آيات الصوم (آيات ١٨٢-١٨٧) علامة على وجود نوع من الارتباط بينهما، فهناك نهى عن الأكل والشرب من أجل أداء عبادة إلهية، وهنا نهى عن أكل أموال الناس بالباطل الذي يعتبر أيضاً نوع من الصوم ورياضة للنفوس، فهما في الواقع فرعان لأصل التقوى. تلك

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٤٩

التقوى التي وردت في الآية بعنوان الهدف النهائي للصوم «١».

إن التعبير (الأكل) يعطى معنى واسعاً حيث يشمل كل أنواع التصرفات، أي أنه تعبير كناية عن أنواع التصرفات، و (الأكل) هو أحد المصدايق البارزة له.

ثم يشير في ذيل الآية إلى نموذج بارز لأكل المال بالباطل والذي يتصور بعض الناس أنه حق وصحيح لأنهم أخذوه بحكم الحاكم

يقول: «وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وباء الرشوة: من الأوبئة الاجتماعية التي ابتلى بها البشر منذ أقدم العصور وباء الإرتشاء، وكانت هذه الظاهرة المرضية دوماً من موانع إقامة العدالة الاجتماعية ومن عوامل جزّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سُنّت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم.

ولهذا شدد الإسلام على مسألة الرشوة وأدانها وقبحها واعتبرها من الكبائر.

جدير بالذكر أن قبح الرشوة قد يدفع بالراشيين إلى أن يغطوا رشوتهم بقناع من الأسماء الأخرى كالهديء ونظائرها، ولكن هذه التغطية لا تغير من ماهية العمل شيئاً، والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرمة غير مشروعة.

وهذا «الأشعث بن قيس» يتوسل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت أمير المؤمنين على عليه السلام أملاً في أن يستعطف الإمام تجاه قضية رفعها إليه، ويسمى ما قدمه هدية، فيأتيه جواب الإمام صارماً قاطعاً، قال عليه السلام: «هبتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟ ... والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله في نملء أسلبها جلب شعيرة ما فعلته وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تفضمها ما لعلني ولنعم يفنى ولذء لا تبقى» (٢).

ذم الإسلام الرشوة حتى أن أحد الولاة تسلم بعنوان هدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «هلا- جلست في دارك لتأتيك هدية؟» (٣)

أين المسلمون اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل حقيقي عملي في الحياة؟!

(١) تفسير في ظلال القرآن ١/ ٢٥٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

(٣) الإمام على عليه السلام صوت العدالة الإنسانية ١/ ١٨٤.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٠

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبُرْ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبُرَّ مِنَ اتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله! إن اليهود يكثرن مسألتنا عن الأهل. فأنزل الله تعالى هذه الآية، لتقول إن للأهل فوائد مادية ومعنوية في نظام الحياة الإنسانية.

التفسير

كما اتضح من سبب نزول هذه الآية الشريفه من أن جماعة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن الهلال وما يحصل عليه من تغييرات متدرجة وعن أسبابها ونتائجها، فيجيب القرآن الكريم على سؤالهم بقوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ». «أهل»: جمع «هلال» ويعنى القمر في الليلة الأولى والثانية من الشهر.

ثم تقول الآية: «قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ».

فما يحصل عليها من تغييرات منتظمة تدريجية، يجعل منها تقويماً طبيعياً يساعد الناس على تنظيم امورهم الحيوية القائمة على التوقيت وتحديد الزمن، وكذلك على تنظيم امور عباداتهم المحددة بزمان معين كالحج والصوم، والهلال هو المرجع في تعيين هذا الزمان، وبالاستهلال ينظم الناس امور عبادتهم وشؤون دنياهم.

من امتيازات قوانين الإسلام أن أحكامه قائمة عادة على المقاييس الطبيعية لأن هذه المقاييس متوفرة لدى جميع الناس، ولا يؤثر عليها



مرور الزمان شيئاً.

ثم إن القرآن أشار في ذيل هذه الآية وبمناسبة الحديث عن الحج وتعيين موسمه بواسطة الهلال الذي ورد في أول الآية، إلى إحدى عادات الجاهليين الخرافية في مورد الحج ونهت الآية الناس عن ذلك، حيث تقول: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

وهذه الآية لها معنى أوسع وأشمل، وذلك أن الإنسان عندما يقدم على أى عمل من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥١

الأعمال سواء كان دينياً أو دنيوياً لا بد له من أن يرده من طريق صحيح لا من الطرق المنحرفة، فالعبادة في الحج أيضاً لا بد أن يبدأ الإنسان بها في الوقت المقرر وتعيينه بواسطة الهلال.

جملة «وَلَيْسَ الْبِرُّ» يمكنها أن تكون إشارة إلى نكتة لطيفة أخرى أيضاً وهي أن سؤالكم عن الأهلّة بدل سؤالكم عن المعارف الدينية بمثابة من يترك الدخول إلى داره من الباب الأصلي ثم يرده من ظهر البيت فهو عمل مستقبح ومستهجن.

أسئلة مختلفة من رسول الله صلى الله عليه وآله: وردت في (١٥) مورد من الآيات القرآنية جملة «يسئلونك» وهذه علامة على أن الناس يسألون من رسول الله صلى الله عليه وآله مسائل مختلفة كراماً ومراراً، والملفت للنظر أن رسول الله صلى الله عليه وآله مضافاً إلى أنه لا ينزعج من هذه الأسئلة، فإنه يستقبلهم بصدر رحب، ويجب على أسئلتهم من خلال الآيات القرآنية.

إن السؤال هو أحد حقوق الناس في مقابل القادة، وهذا الحق مشروع حتى للأعداء أيضاً، فيمكنهم طرح أسئلتهم بشكل معقول. فالسؤال مفتاح حل المشكلات. والسؤال بؤابة العلوم. والسؤال وسيلة انتقال المعارف المختلفة.

وأساساً فإن طرح الأسئلة المختلفة في كل مجتمع علامة على التحرك الفكري والحضارى والثقافى للناس، ووجود كل هذه الأسئلة في عصر النبى صلى الله عليه وآله هو علامة على تحرك أفكار الناس في ذلك المحيط ضمن تعليمات القرآن الكريم والدين الإسلامى.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَآخِرُ جُوهْمُ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُواكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُواكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: هذه أول آية نزلت في القتال، فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» الذى أجاز جهاد وقتال جميع المشركين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٢

التفسير

القرآن أمر في هذه الآية الكريمة بمقاتلة الذين يشهرون السلاح بوجه المسلمين. تقول الآية: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ». عبارة «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» توضح الهدف الأساسى من الحرب فى المفهوم الإسلامى، فالحرب ليست للإنتقام ولا للعلو فى الأرض والتزعم، ولا- للاستيلاء على الأراضى، ولا- للحصول على الغنائم، وهذا الهدف المقدس يضع بصماته على جميع أبعاد الحرب فى الإسلام ويصنع كيفة الحرب وكميتها ونوع السلاح والتعامل مع الأسرى وأمثال ذلك بصيغة «فى سبيل الله».

ثم توصى الآية الشريفة بضرورة رعاية العدالة حتى فى ميدان القتال وفى مقابل الأعداء وتقول: «وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ». أجل، فالحرب فى الإسلام لله وفى سبيل الله، ولا يجوز أن يكون فى سبيل الله اعتداء ولا عدوان، لذلك يوصى الإسلام برعاية كثير

من الاصول الخلقية في الحرب، وهو ما تفتقر إليه حروب عصرنا أشد الإفتقار.

الإمام علي عليه السلام يقول لأفراد جيشه وذلك قبل شروع القتال في صفين: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة اخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تُصيبيوا مُعوراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين امراءكم» (١).

في الآية التالية التي تعتبر مكملة للأمر الصادر في الآية السابقة تتحدث هذه الآية بصراحة أكثر وتقول: إن هؤلاء المشركين هم الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وصبوا عليهم ألوان الأذى والعذاب، فيجب على المسلمين أن يقتلوهم أينما وجدوهم، وأن هذا الحكم هو بمثابة دفاع عادل ومقابلة بالمثل، لأنهم قاتلوكم وأخرجوكم من مكة «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ». ثم يضيف الله تعالى: «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ».

«الفتنة»: من «فتن» تعنى وضع الذهب في النار للكشف عن درجة جودته وإصالته،

(١) نهج البلاغة، الرسالة ١٤.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٣

فلهذا استعملت في كل مورد يكون فيه نوع من الشدة، مثل الامتحان الذي يقترن عادةً بالشدة ويتزامن مع المشكلات، والعذاب أيضاً نوع آخر من الشدة، وكذلك المكر والخديعة التي تتخذ عادةً بسبب أنواع الضغوط والشدائد، وكذلك الشرك وإيجاد المانع في طريق إيمان الناس حيث يتضمن كل ذلك نوع من الشدة والضغط.

وأن عبادة الأوثان وما يتولد منها من أنواع الفساد الفردي والاجتماعي كانت سائدة في أرض مكة المكرمة حيث لوّث بذلك الحرم الإلهي الآمن، فكان فسادها أشد من القتل فلذلك تقول هذه الآية مورد البحث مخاطبةً المسلمين: لا ينبغي لكم ترك قتال المشركين خوفاً من سفك الدماء فإن عبادة الأوثان أشد من القتل.

ثم تشير الآية إلى مسألة اخرى في هذا الصدد فتقول: إن على المسلمين أن يحترموا المسجد الحرام دائماً وأبداً، ولذلك لا ينبغي قتال الكفار عند المسجد الحرام، إلا أن يبدؤوكم بالقتال «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ». «فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ». لأنهم عندما كسروا حرمة هذا الحرم الإلهي الآمن فلا معنى للسكوت حينئذ ويجب مقابلتهم بشدة لكي لا يسيئوا الاستفادة من قداسة الحرم وإحترامه.

ولكن بما أن الإسلام في منهجه التربوي للناس يقرن دائماً الإنذار بالبشارة معاً، والثواب والعقاب كذلك، لكي يؤثر في المسلمين تأثيراً سليماً، فلذلك فسح المجال في الآية التالية للعودة والتوبة فقال: «فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». الآية التالية تشير إلى هدف الجهاد في الإسلام وتقول: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ». ثم تضيف: فإن ترك هؤلاء المشركون عقائدهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة فلا تتعرضوا لهم «فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ الظَّالِمِينَ». وحسب الظاهر ذكر في هذه الآية ثلاثة أهداف للجهاد وهي:

١- إزالة الفتنة.

٢- محو الشرك وعبادة الأوثان.

٣- التصدي للظلم والعدوان.

مسألة الجهاد في الإسلام: إن الحكام الطواغيت والفراعنة وأمثالهم من النمروديين

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٤

والقارونيين الذين يعترضون دائماً على دعوة الأنبياء الإصلاحية ويقفون بوجهها ولا يرضون إلا بإزالة الدين الإلهي من الوجود يتضح

أن على المؤمنين والمتدينين في الوقت الذي يعتمدون على العقل والمنطق والأخلاق في تفاعلهم الإجتماعي مع الآخرين عليهم أن يتصدوا لهؤلاء الظالمين والظواغيت ويشقوا طريقهم بالجهاد وتحطيم هذه الموانع والعوائق التي يقيمها حكام الجور في طريقهم. وأساساً فإنّ الجهاد هو قانون عام في عالم الأحياء، فجميع الكائنات الحية تجاهد عوامل الفناء من أجل بقائها.

وإنّ من افتخاراتنا نحن المسلمين أنّ ديننا يقرن المسائل الدينية بالحكومة ويعتمد على الجهاد كأحد أركان المنظومة العقائدية لهذا الدين، غاية الأمر يجب ملاحظة أهداف هذا الجهاد الإسلامي، وهذا هو الذي يفصل بيننا وبين الآخرين.

وكما تقدم في الآيات أعلاه أنّ الجهاد في الإسلام يتعقب عدة أهداف مباحة:

١- الجهاد من أجل إطفاء الفتن: وبعبارة أخرى الجهاد الابتدائي من أجل التحرير، فنحن نعلم أنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل على البشرية شرائع وبرامج لسعادة البشر وتحريرهم وتكاملهم وإيصالهم إلى السعادة والرفاه، وأوجب على الأنبياء عليهم السلام أن يبلغوا هذه الشرائع والإرشادات إلى الناس، فلو تصور أحد الأفراد أو طائفة من الناس أنّ إبلاغ هذه الشرائع للناس سوف يعيقه عن نيل منافعه الشخصية وسعى لإيجاد الموانع ووضع العصى في عجلات الدعوة الإلهية، فللأنبياء الحق في إزالة هذه الموانع بطريقة المسالمة أولاً وإلاً فعليهم استخدام القوة في إزالة هذه الموانع عن طريق الدعوة لنيل الحرية في التبليغ ولتحرير الناس من قيود الأسر والعبودية الفكرية والاجتماعية.

٢- الجهاد الدفاعي: إنّ جميع القوانين السماوية والبشرية تبيح للفرد أو الجماعة الدفاع عن النفس والاستفادة مما وسعهم من قوة في هذا السبيل، ويسمى مثل هذا الجهاد ب (الجهاد الدفاعي) ومن ذلك غزوة الأحزاب واحد ومؤتة وتبوك وحنين ونظائرهما من الحروب الإسلامية التي لها جنبه دفاعية.

٣- الجهاد لحماية المظلومين: إنّ حماية المظلومين في مقابل عدوان الظالمين هو أصل في الإسلام يجب مراعاته، حتى لو أدى الأمر إلى الجهاد واستخدام القوة، فالإسلام لا يرضى للمسلمين الوقوف متفرجين على ما يرد على المظلومين في العالم، وهذا الأمر من الأوامر المهمة في الشريعة الإسلامية المقدسة التي تحكى عن حقانية هذا الدين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٥

٤- الجهاد من أجل دحر الشرك وعبادة الأوثان: الإسلام يدعوا البشرية إلى اعتناق الدين الخاتم الأكمل وهو يحترم مع ذلك حرية العقيدة، وبذلك يُعطى أهل الكتاب الفرصة الكافية للتفكير في أمر إعتناق الرسالة الخاتمة، فإن لم يقبلوا بذلك فإنه يعاملهم معاملة الأقلية المعاهدة (أهل الذمة) ويتعايش معهم تعايشاً سلمياً ضمن شروط خاصة بسيطة وميسورة، لكن الشرك والوثنية ليسا بدين ولا عقيدة ولا يستحقان الإحترام، بل هما نوع من الخرافة والحمق والانحراف ونوع من المرض الفكري والأخلاقي الذي ينبغي أن يستأصل مهما كلف الثمن.

ومما تقدم من ذكر أهداف الجهاد يتضح أنّ الإسلام أقام الجهاد على اسس منطقية وعقلية، ولكننا نعلم أنّ أعداء الإسلام وخاصة القائمون على الكنيسة والمستشرقين المغرضين سعوا كثيراً لتحريف الحقائق ضد مسألة الجهاد الإسلامي، واتّهموا الإسلام باستعمال الشدة والقوة والسيوف من أجل تحميل الإيمان به وتهجّموا كثيراً على هذا القانون الإسلامي.

والظاهر أنّ خوفهم وهلعهم إنّما هو من تقدم الإسلام المضطرد في العالم بسبب معارفه السامية وبرنامجه السليم، ولهذا سعوا لإعطاء الإسلام صبغة موحشة كيما يتمكنوا من الوقوف أمام انتشار الإسلام.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعْتدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) احترام الأشهر الحرم والمقابلة بالمثل: كان المشركون على علم بأنّ الإسلام يحضر الحرب في الأشهر الحرم (ذى القعدة وذى الحجة ومحرم ورجب) لذلك أرادوا أن يشنوا هجوماً مبالغاً على المسلمين في هذه الأشهر الحرم متجاهلين حرمتها ظانين أنّ المسلمين ممنوعون من المواجهة. الآية الكريمة تكشف مؤامرة المشركين وتحمل المسلمين مسؤولية مواجهة العدوان حتى في

الأشهر الحُرْم فتقول الآية: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ». أى:

أنَّ الأعداء لو كسروا حرمة واحترام هذه الأشهر الحُرْم وقاتلوكم فيها فلکم الحق أيضاً فى المقابلة بالمثل، لأنَّ «وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٦

«حُرْمَات»: جمع «حرمة» وتعنى الشىء الذى يجب حفظه واحترامه، وقيل للحرم: حرم لأنه مكان محترم ولا يجوز هتكه، ويقال الأعمال الممنوعة والقبیحة حرام لهذا السبب، كى لا تخامر أذهان المشركين فكرة انتهاك حرمة هذه الشهور.

ثم تشرع الآية حكماً عاماً يشمل ما نحن فيه وتقول: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

فالإسلام - وخلافاً للمسيحية الحالية التى تقول (إذا لطمك شخص على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) «١» - لا يقول بمثل هذا الحكم المنحرف الذى يبعث على جرأة المعتدى وتطاول الظالم، وحتى المسيحيين فى هذا الزمان لا يلتزمون مطلقاً بهذا الحكم أيضاً، ويردون على كل عدوان مهما كان قليلاً بعدوان أشد، وهذا أيضاً مخالف لدستور الإسلام فى الرد، فالإسلام يقول: يجب التصدى للظالم والمعتدى، ويُعطى الحق للمظلوم والمعتدى عليه المقابلة بالمثل، فالاستسلام فى منطق الإسلام يعنى الموت، والمقاومة والتصدى هى الحياة.

وقوله تعالى «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» إشارة إلى أن الله لا يهمل المتقى فى خضم المشكلات، بل يعينه ويرعاه.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) هذه الآية تكتمل ما مر من آيات الجهاد فكما أن الجهاد بحاجة إلى الرجال المخلصين والمجربين كذلك بحاجة إلى المال والثروة أى بحاجة إلى الاستعداد البدنى والمعنوى والمعدات الحربية، صحيح أن العامل الحاسم فى تقرير مصير الحرب هو الرجال بالدرجة الاولى، ولكن الجندى بحاجة إلى أدوات الحرب (أعم من السلاح والأدوات ووسائل النقل والغذاء والوسائل الصحية) فإنه بدونها لا يمكنه أن يفعل شيئاً. من هنا أوجب الإسلام تأمين وسائل الجهاد مع الأعداء، ومن ذلك ما ورد فى الآية أعلاه حيث تأمر بصراحة: «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ».

وهذا المعنى يتأكد خاصة فى عصر نزول هذه الآيات حيث كان المسلمون فى شوق شديد إلى الجهاد كما يحدثنا القرآن عن اولئك الذين أتوا النبى يطلبون منه السلاح ليشاركوا

(١) انجيل متى الباب ٥، الرقم ٣٩-٤٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٧

فى ساحة الجهاد وإذ لم يجدوا ذلك عادوا مهمومين محزونين «تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» «١».

فعبارة «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» بالرغم من أنها واردة فى ترك الإنفاق فى الجهاد الإسلامى، ولكن مفهومها واسع يشمل موارد اخرى كثيرة، منها أن الإنسان ليس له الحق فى اتخاذ الطرق الخطرة للسفر (سواء من الناحية الأمنية أو بسبب العوامل الجوية أو غير ذلك) دون أن يتخذ لنفسه الاحتياطات اللازمة لذلك، كما لا يجوز له تناول الغذاء الذى يحتمل قوياً أن يكون مسموماً وحتى أن يرد ميدان القتال والجهاد دون تخطيط مدروس، ففى جميع هذه الموارد الإنسان مسؤول عن نفسه فيما لو ألقى بها فى الخطر بدون عذر مقبول.

وتصور بعض الجهلاء من أن كل ألوان الجهاد الابتدائى هو إلقاء النفس فى التهلكة وحتى أنهم أحياناً يعتبرون قيام سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام فى كربلاء مصداق لهذه الآية، وهذا ناشىء من الجهل المطبق وعدم درك مفهوم الآية الشريفة، لأنَّ إلقاء النفس بالتهلكة يتعلق بالموارد التى لا يكون فيها الهدف أثنى من النفس وإلا فلا بد من التضحية بالنفس حفاظاً على ذلك الهدف

المقدس كما صنع الإمام الحسين عليه السلام وجميع الشهداء في سبيل الله كذلك.

وفي آخر الآية أمر بالإحسان ويقول: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

أمّا ما هو المراد بالإحسان هنا؟ فهناك عدة احتمالات في كلمات المفسرين، منها: أن المراد هو حسن الظن بالله (فلا تظنوا أن إنفاقكم هذا يؤدي إلى الاختلال في معاشكم)، والآخر هو الاقتصاد والاعتدال في مسألة الإنفاق، واحتمال ثالث هو دمج الإنفاق مع حسن الخلق للمحتاجين بحيث يتزامن مع البشاشة وإظهار المحبة وتجنب أي لون من ألوان المنه والأذى للشخص المحتاج، ولا مانع من أن يكون المراد في مفهوم الآية جميع هذه المعاني الثلاث.

الإنفاق مانع عن انهيار المجتمع: إن هذه الآية بالرغم من أنها وردت في ذيل آيات الجهاد، ولكنها تبين حقيقة كلية واجتماعية، وهي أن الإنفاق بشكل عام سبب لنزاهة المجتمع من المفاسد المدمرة، لأنه حينما يترك أفراد المجتمع الإنفاق وتتراكم الثروة في أحد أقطاب

(١) سورة التوبة / ٩٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٨

المجتمع تنشأ طبقه محرومة بائسة، ولا يلبث أن يحدث انفجار عظيم فيه يحرق الأثرياء وثروتهم ويتضح من ذلك إرتباط الإنفاق بابعاد التهلكة. ومن هنا فالإنفاق يعود بالخير على الأثرياء قبل أن يصيب خيره المحرومين، لأن تعديل الثروة يصون الثروة كما قال الإمام على عليه السلام: «حصنوا أموالكم بالزكاة» (١).

وَأْتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) بعض أحكام الحج المهمة: في هذه الآية ذكرت أحكام كثيرة:

١- في مطلع الآية تأكيداً على أن أعمال العمرة والحج ينبغي أن تكون لله وطلب مرضاته فقط «وَأْتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ». من هنا لا ينبغي أن يشوب أعمال الحج تيه أخرى غير الدافع الإلهي وكذلك الإتيان بالعمل العبادي هذا كاملاً وتاماً بمقتضى جملة «وَأْتُمُوا».

٢- ثم إن الآية تشير إلى الأشخاص الذين لا يحالفهم التوفيق لأداء مناسك الحج والعمرة بعد لبس ثياب الإحرام بسبب المرض الشديد أو خوف العدو وأمثال ذلك، فتقول:

«فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ». فمثل هذا الشخص عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدى ويخرج بذلك من إحرامه.

٣- ثم إن الآية الشريفة تشير إلى أمر آخر من مناسك الحج فتقول: «وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ».

٤- ثم تقول الآية: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ».

«نُسُكٍ»: في الأصل جمع «نسيكة» بمعنى حيوان مذبوح، وهذه المفردة جاءت بمعنى

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٦.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٩

العبادة أيضاً. هذا الاصطلاح يأتي في أعمال الحج و «نسيكة» بمعنى «ذبيحة».

إن مثل هذا الشخص مخيراً بين ثلاث أمور (الصوم والصدقة أو ذبح شاة).

٥- ثم تضيف الآية: «فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ».

وهذه إشارة إلى أنه يجب الذبح في حج التمتع ولا- فرق في هذا الهدى بين أن يكون من الإبل أو من البقر أو من الضأن دون أن يخرج من الإحرام.

٦- ثم إن الآية تبيين حكم الأشخاص غير القادرين على ذبح الهدى في حج التمتع فتقول:

«فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ». فعلى هذا فلو لم يجد الإنسان أضحية أو أن وضعه المالى لا يطبق ذلك فيجب عليه جبران ذلك بصيام عشرة أيام.

إن التعبير بكلمة (كاملة) إشارة إلى أن صوم الأيام العشرة محل الهدى بشكل كامل، ولهذا ينبغي للحجاج أن يطمأنوا لذلك وأن جميع ما يترتب على الأضحية من ثواب وبركة سوف يكون من نصيبهم أيضاً.

٧- ثم إن الآية الشريفة تتعرض إلى بيان حكم آخر وتقول: «ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». فعلى هذا لا يكون لأهل مكة أو الساكنين في أطرافها حج التمتع، فوظيفته حج القران أو الأفراد (وتفصيل هذا الموضوع مذكور في الكتب الفقهية).

وبعد بيان هذه الأحكام السبعة تأمر الآية في ختامها بالتقوى وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». ولعل هذا التأكيد يعود إلى أن الحج عبادة إسلامية هامة ولا ينبغي للمسلمين التساهل في أداء مناسكه وأن ذلك سيؤدى إلى اضرار كثيرة، وأحياناً يسبب فساد الحج وزوال بركاته المهمة.

بحثان

١- أهمية الحج بين الواجبات الإسلامية: يُعتبر الحج من أهم العبادات التي شُرعت في الإسلام ولها آثار وبركات كثيرة جداً، فهو مصدر عظمة الإسلام وقوة الدين واتحاد المسلمين، والحج هو الشعيرة العبادية التي ترعب الأعداء وتضخ في كل عام دمًا جديداً في شرايين المسلمين.

والحج هو تلك العبادة التي أسماها أمير المؤمنين عليه السلام ب (علم الإسلام وشعاره) وقال عنها في وصيته في الساعات الأخيرة من حياته: «اللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ لَا تُخْلَوْهُ مَا بَقِيتُمْ فَإِنَّهُ إِنْ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٠

تُرِكَ لَمْ تُنَاطَرُوا» (١). أى أن البلاء الإلهي سيشملكم دون إمهال. ٢- أقسام الحج: لقد قسم الفقهاء العظام وبإلهام من الآيات والأحاديث الشريفة عن النبي وآله: الحج إلى ثلاثة أقسام: حج التمتع، حج القران، وحج الأفراد.

أما حج التمتع فيختص بمن كان على مسافة ٤٨ ميلاً فصاعداً من مكة (١٦ فرسخ وما يعادل ٩٦ كيلومتر تقريباً)، وأما حج القران والإفراد فيتعلقان بمن كان أدنى من هذه الفاصلة. ففي حج التمتع يأتي الحاج بالعمرة أولاً، ثم يحل من إحرامه وبعد ذلك يأتي بمراسم الحج في أيامه المخصصة، ولكن في حج القران والأفراد يبدأ أولاً بأداء مراسم الحج، ثم بعد الانتهاء منها يشرع بمناسك العمرة مع تفاوت أن الحاج في حج القران يأتي ومعه هديه، أما في حج الأفراد فلا هدى فيه.

الْحِجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحِجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحِجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَمَاذُكُرُوا اللَّهُ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) تواصل هذه الآيات الشريفة بيان أحكام الحج وزيارة بيت الله الحرام وتقرر طائفة من التشريعات الجديدة:

١- تقول الآية: «الْحِجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ».

والمراد بهذه الأشهر: هي شوال، ذى القعدة، ذى الحجة.

٢- ثم تأمر الآية الكريمة فيمن أحرم إلى الحج وشرع بأداء مناسك الحج وتقول: «فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحِجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحِجِّ».

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧، وصية الإمام لابنيه الحسن والحسين عليهما السلام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦١

«رفث»: بالأصل بمعنى الكلام والحديث المتضمن ذكر بعض الامور القبيحة أعم من الامور الجنسية أو مقدماتها، ثم بات كناية عن الجماع.

«فسوق»: بمعنى الذنب والخروج من طاعة الله.

و «جدال»: تأتي بمعنى المكالمة المقرونة بالنزاع، وهي في الأصل بمعنى شدّ الحبل ولّفه، ومن هنا استعملت في الجدال بين اثنين، لأنّ كلّاً منهما يشدّ الكلام ويحاول إثبات صحة رأيه ونظره.

وهكذا ينبغي أن تكون أجواء الحج طاهرة من التمتع الجنسية وكذلك من الذنوب والجدال العقيم وأمثال ذلك، لأنها أجواء عبادية تتطلب الإخلاص وترك اللذائذ المادية وتقتبس روح الإنسان من ذلك المحيط الطاهر قوة جديدة تسوقها إلى عالم آخر بعيداً عن عالم المادة، وفي نفس الوقت تقوى الالفه والاتحاد والاتفاق والاخوة بين المسلمين باجتنب كل ما ينافي هذه الامور.

٣- بعد ذلك تعقب الآية وتبين المسائل المعنوية للحج وما يتعلق بالإخلاص وتقول:

«وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ».

وهذا أول لطف إلهي يناله الصالحون، فالمرحلة الأولى من لذة الإنسان المؤمن هي إحساسه بأنّ ما يعمله في سبيل الله إنّما هو بعين الله، ويا لها لذة.

وتضيف الآية: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» .

والعبارة تنطوي على توعية المسلمين بالنسبة لعطاء الحج المعنوي وتفتح أبصارهم على ما في ساحة الحج من معان عميقة تشدّ الإنسان بتاريخ الرسل والأنبياء وبمشاهد تضحية إبراهيم بطل التوحيد، وبمظاهر عظمة الله سبحانه ممّا لا يوجد في مكان آخر، ولا بد للحاج أن يستلهم من هذه الساحة زاداً يعينه على مواصلة مسيرته نحو الله فيما بقي من عمره.

«وَأَتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ».

الآية التالية ترفع بعض الإشتباهات في مسألة الحج وتقول: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ».

لقد كان التعامل الاقتصادي بكافه ألوانه محضوراً في موسم الحج عند الجاهليين، وكانوا يعتقدون ببطلان الحج إذا اقترن بالنشاط الاقتصادي، فالآية مورد البحث تعلن بطلان هذا الحكم الجاهلي وتؤكد أنه لا مانع من التعامل الاقتصادي والتجاري في موسم الحج،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٢

وتسمح بابتغاء فضل الله في هذا الموسم عن طريق العمل والكد. وهذا مضافاً إلى أن سفر المسلمين من كل فج عميق إلى بيت الله الحرام لعقد مؤتمر الحج العظيم يستطيع أن يكون منطلقاً لتحرك اقتصادي عام في المجتمعات الإسلامية.

ثم تعطف الآية الشريفة على ما تقدم من مناسك الحج وتقول: «فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ».

ثم تقول الآية في حديثها هذا: «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ». فهذا المقطع يتضمّن أمراً بالإفاضة أي بالإندفاع والحركة من المشعر الحرام إلى أرض منى.

ففي نهاية الآية تُعطى أمراً بالاستغفار والتوبة وتقول: «وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

ففي هذا المقطع من الآيات إشارة إلى ثلاث مواقف من مواقف الحج (عرفات) وهي صحراء وتقع على بعد ٢٠ كيلومتراً تقريباً من مكة، ثم الوقوف ب (المشعر الحرام أو المزدلفة) والثالث أرض (منى وهي محل ذبح الأضاحي ورمي الجمرات وحلّ الإحرام وأداء

مناسك العيد.

بحثنان

١- أول موقف للحجيج: تقدم أن حجاج بيت الله الحرام يتجهون بعد أداء مناسك العمرة نحو أداء مناسك الحج، وأول موقف يقفون فيه هو في «عرفات»، وفي سبب تسمية هذه الأرض بهذا الاسم هي أن هذه الأرض المشرفة التي تبدأ منها أولى مراحل الحج محيط مناسب جداً لمعرفة الله تعالى. والحاج في هذا الموقف يشعر حقاً بانشداد روحى ومعنوى لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

الحجيج في هذه الأرض القاحلة متجمعون بشكل واحد وبزى واحد، قد هربوا من بريق الحياة وزخرفها وصخبها وضجيجها ولاذوا بهذه الأرض المشرفة المفعمة بذكرات الرسائل السماوية، حيث يحمل نسيمها نداء جبرائيل وصوت الخليل ودعوة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وصحبه المجاهدين، وتنطق أرضها بصور الجهاد والتضحية والإنقطاع إلى الله على مر التاريخ، كأن هذه الأرض نافذة تشرف على عالم ما وراء الطبيعة، يرتوى فيها الإنسان من منهل العرفان، وينساق مع تسبيح الخليقة العام، بل يعود أيضاً إلى ذاته التي انفصل عنها زمناً طويلاً فيعرف نفسه، نعم إنها «عرفات» وما أجمل هذا الاسم!

٢- درس الوحدة والاتحاد: جاء في بعض الروايات الشريفة أن قبائل قريش كانت

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٣

ترى لنفسها مكانة دينية خاصة بين العرب، ومن هنا فإنهم تركوا الوقوف في عرفات لأنها خارج الحرم المكي.

الآية الكريمة تبطل كل هذه الأوهام وتأمّر بوقوف الحجاج جميعاً في عرفات، ثم التحرك منها نحو المشعر الحرام.

والأمر بالاستغفار في ختام الآية حتّى على ترك تلك الأوهام والأفكار الجاهلية، والاتجاه نحو تعلم دروس الحج في المساواة.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسَابِ (٢٠٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان روى عن الإمام الباقر عليه السلام: إن الجاهليين كانوا إذا فرغوا من الحج، يجتمعون هناك، ويعدّون مفاخر آبائهم وماثرهم ويذكرون أيامهم القديمة وأيديهم الجسمية، فأمرهم سبحانه أن يذكره مكان ذكرهم آبائهم في هذا الموضع.

التفسير

هذه الآيات توصل الأبحاث المتعلقة بالحج في الآيات السابقة. الآية الأولى من الآيات محل البحث تقول: «فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا».

وليس المراد من هذه العبارة أنكم اذكروا أسلافكم وأذكروا الله كذلك، بل هو إشارة إلى هذه الحقيقة بأنكم تذكرون أسلافكم من أجل بعض الخصال والمواهب الحميدة، فلماذا لا تذكرون الله تعالى ربّ السماوات والأرض والرازق والواهب لجميع هذه النعم في العالم وهو منبع ومصدر جميع الكمالات وصفات الجلال والجمال.

«ذكر الله» في هذه الآية يشمل جميع الأذكار الإلهية بعد أداء مناسك الحج.

بعد ذلك يوضح القرآن طبيعة مجموعتين من الناس وطريقته تفكيرهم ... مجموعة لا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٤

تفكر إلّا بمصالحها المادية ولا تتجه في الدعاء إلى الله إلّا من هذه المنطلقات المادية فتقول:

«فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ». والمجموعة الثانية تتحدث عنهم الآية بقولها: «وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».



وهذه الفقرات من الآيات محل البحث تشير إلى هاتين الطائفتين وأن الناس في هذه العبادة العظيمة على نوعين.

أما ما المراد من «الحسنة»؟ فقد ورد في تفسير مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«من اوتى قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجاً مؤمنة تعينه على أمر دنياه واخراه فقد اوتى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووُقي عذاب النار».

وواضح أن الحسنه هذا له مفهوم واسع بحيث يشمل جميع المواهب المادية والمعنوية، وما ورد في الرواية أعلاه فهو بيان لأبرز المصاديق لا حصر الحسنه بهذه المصاديق.

وفي آخر آية إشارة إلى الطائفة الثانية (الذين طلبوا من الله الحسنه في الدنيا والآخرة) فتقول: «أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

وفي الحقيقة هذه الآية تقع في النقطة المقابلة للجملة الأخيرة من الآية السابقة «وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ».

وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) هذه الآية آخر آية وردت في بيان مناسك الحج وإبطال السنن الجاهلية في المفخرات الموهومة بالنسبة للأسلاف فتوصى المسلمين (بعد مراسم العيد) أن يذكروا الله تعالى:

«وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ».

أما المراد من «أذكار» فقد ورد في الأحاديث الإسلامية أنها تعني تلاوة التكبيرات التالية بعد خمسة عشر صلاة في هذه الأيام (ابتداء من صلاة الظهر من يوم العيد حتى صلاة الصبح من اليوم الثالث عشر) وهي «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٥

الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام».

ثم تشير الآية إلى هذا الحكم الشرعي: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى . وهذا التعبير إشارة إلى نوع من التخخير في أداء ذكر الله بين يومين أو ثلاثة أيام.

وفي نهاية الآية نلاحظ أمراً كلياً بالتقوى حيث تقول الآية: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إلى أن المناسك الروحانية في الحج تطهر الإنسان من الذنوب السابقة كيوم ولدته أمه، ولكن عليكم تقوى الله والحذر من الوقوع في الذنب مرة أخرى.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَيْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) سبب النزول

في تفسير روح المعاني: نزلت في الأحنس بن شريق الثقفي: أقبل إلى النبي صلى الله عليه وآله في المدينة فأظهر له الإسلام وأعجب النبي صلى الله عليه وآله ذلك منه وقال: إنما جئت أريد الإسلام والله تعالى يعلم إنني لصادق. ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وآله فمر بزرع من المسلمين وحرر فأحرق الزرع وعقر الحمر (وبهذا أظهر ما في باطنه من النفاق).

التفسير

الآية الأولى تشير إلى بعض المنافقين حيث تقول: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ».

«ألد»: تأتي بمعنى ذو العداوة الشديدة؛ و «خصام»: لها معنى مصدرى وهو الخصومة والعداوة.

ثم تضيف الآية التالية بعض العلامات الباطنية لعداوة مثل هذا الإنسان وهي: «وَ إِذَا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٦

تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِنَفْسِهِ لَدَيْهَا وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَمَّيْحُ الْقَسَادِ». أجل لأنّ هؤلاء لو كانوا صادقين في إيمانهم وإظهارهم المحبة لما أفسدوا في الأرض مطلقاً، فبالرغم من أنّ ظاهرهم المحبة الخالصة إلّا أنّهم في الباطن أشد الناس قساوة ووحشية. «حرث»: بمعنى الزراعة؛ «نسل»: بمعنى الأولاد وتُطلق أيضاً على أولاد الإنسان وغير الإنسان.

إنّ التعبير «يُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» كلام مختصر وجامع لكل المصاديق حيث يشمل الإفساد والتخريب بالنسبة للأموال والنفوس في المجتمع البشري.

والآية الأخرى تضيف: «وإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ» (١). فتشتعل في قلبه نيران التعصب واللجاج وتجزه إلى المعصية والإثم.

فمثل هذا الشخص لا يستمع إلى نصيحة الناصحين ولا يهتم للإنذارات الإلهية، بل يستمر على عناده وإرتكابه للآثام والمنكرات مغروراً، فلا يكون جزاؤه إلّا النار، ولذلك يقول في نهاية الآية: «فَحَشِبُهُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ». وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) سبب النزول

روى الثعلبي في تفسيره: لما أراد النبي صلى الله عليه وآله الهجرة إلى الغار خلف علياً عليه السلام لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خروج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار وقال له: «يا علي! أتشح ببرد الحضرى ثم نم على فراشى فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله تعالى». ففعل ما أمره، فأوحى عزّ وجلّ إلى جبرئيل وميكائيل: أنى قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيتكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختر كل منهما الحياة فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: ألا كنتما مثل علي بن أبى طالب آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فترلا فكان

(١) «العزّة»: فى مقابل الذلّة فى الأصل، ولكن هنا ورد بمعنى الغرور والنخوة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٧

جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبرئيل يقول: بخّ بخّ من مثلك يا بن أبى طالب؟ يباهى الله تبارك وتعالى بك ملائكته. فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة فى شأن على بن أبى طالب عليه السلام: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ» الآية. ولهذا سُمّيت هذه الليلة التاريخية بليلة المبيت).

ويقول (أبو جعفر الإسكافى) كما جاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد ٣ الصفحة ٢٧٠: «إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملة».

التفسير

بالرغم من أنّ الآية محل البحث تتعلق كما ورد فى سبب النزول بحادثه هجرة النبي صلى الله عليه وآله وتضحية الإمام على عليه السلام ومبيته على فراش النبي، ولكنّ مفهومها ومحتواها الكلى - كما فى سائر الآيات القرآنية - عام وشامل، وأنها تقع فى النقطة المقابلة للآيات السابقة التى تتحدّث عن المنافقين. تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ». إنّ جملة «وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ» قد تكون إشارة إلى أنّ الله عزّ وجلّ فى الوقت الذى هو رحيم ورؤوف بالعباد هو الذى يشترى الأنفس بأغلى الأثمان وهو رضوان الله تعالى عن الإنسان.

ومما يستلفت النظر أنّ البائع هو الإنسان، والمشتري هو الله تعالى، والبضاعة هى النفس، وثمنها هو رضوان الله تعالى، فى حين نرى فى موارد اخرى أنّ ثمن مثل هذه المعاملات هو الجنة الخالدة والنجاة من النار.

فهذه الآيه ومع الالتفات إلى سبب النزول المذكور آنفاً تعد أعظم الفضائل للإمام على عليه السلام الواردة في اكثر المصادر الإسلامية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) بعد الإشارة إلى الطائفتين (المؤمنين المخلصين والمنافقين المفسدين) في الآيات السابقة مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٨

تدعو هذه الآيات الكريمة كل المؤمنين إلى السلم والصلح وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً». يستفاد من مفهوم هذه الآيه أن السلام لا يتحقق إلّا في ظل الإيمان.

واضح أن الاطر المادية الأرضية (من اللغة والعنصر و...) هي عوامل تفرقه بين أفراد البشر وبحاجة إلى حلقة إتصال محكمة تربط بين قلوب الناس.

ويسلموا لجميع ثم تضيف الآيه: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

«خطوات»: جمع «خطوة» وهنا تكررت هذه الحقيقة من أن الانحراف عن الصلح والعدالة، والتسليم لإرادة الأعداء ودوافع العداوة والحرب وسفك الدماء يبدأ من مراحل بسيطة وينتهي بمراتب حادة وخطرة.

وتتضمن جملة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» برهاناً ودليلاً حياً حيث تقول أن عداة الشيطان للإنسان ليس بأمر خفى مستتر، فهو منذ بداية خلق آدم أقسم أن يبذل جهده لإغواء جميع البشر إلّا المخلصين الذين لا ينالهم مكر الشيطان، فمع هذا الحال كيف يمكن التغافل عن وسوسة الشيطان.

الآيه التالية إنذار لجميع المؤمنين حيث تقول: «فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فلو انحرقتم وسرتم مع وساوس الشيطان على خلاف مسار الصلح والسلام فإنكم لا تستطيعون بذلك الفرار من العدالة الإلهية.

المنهج بين والطريق بين والهدف بين، ومعلوم من هنا لا عذر لمن يزل عن الطريق، فلو انحرقتم فأنتم المقصرون، فاعلموا أن الله قادر حكيم لا يستطيع أحد أن يفر من عدالته.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) قد يبدو للوهلة الاولى أن في هذه الآيه الكريمة نوعاً من الإبهام والتعقيد، لكن ذلك يزول عند إمعان النظر بتعبيراتها. الآيه تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله وتقول: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٦٩

يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ» «١».

والمراد من جملة «قضى الأمر» الوارد في الآيه هي نزول العذاب الإلهي على الكفار المعاندين لأن ظاهر الآيه يتعلق بهذه الحياة الدنيا. وفي نهاية الآيه تقول: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» الامور المتعلقة بإرسال الأنبياء ونزول الكتب السماوية وتبيين حقائق يوم القيامة والحساب والجزاء والثواب والعقاب وكلها تعود إليه.

استحاله رؤية الله: لا شك أن الرؤية الحسية لا تكون إلّا للأجسام التي لها لون ومكان وتأخذ حيز من الفراغ، فعلى هذا لا معنى لرؤية الله تعالى الذي هو فوق الزمان والمكان.

إن الذات المقدسة يستحيل رؤيتها بهذه العين لا في الدنيا ولا في الآخرة، والأدلة العقلية على هذه المسألة واضحة إلى درجة أنه لا حاجة لشرحها وبيانها.

وطبعاً لا شك في إمكانية رؤية الله تعالى بعين القلب، سواء في هذه الدنيا أو في عالم آخر، ومن المسلم أن ذاته المقدسة في يوم القيامة لها ظهور أقوى وأشد من ظهورها في هذا العالم مما يستدعي أن تكون المشاهدة أقوى.

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) تشير هذه الآية إلى أحد مصاديق الآيات السابقة، لأنَّ الحديث في الآيات السابقة كان يدور حول المؤمنين والكافرين والمنافقين، وأنَّ الكافرين كانوا يتجاهلون آيات الله وبراهينه الواضحة ويتذرعون بمختلف الحجج والمعاذير، وبني إسرائيل مصداق واضح لهذا المعنى، وتقول الآية: «سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ».

ولكنهم تجاهلوا وتغافلوا عن هذه الآيات والعلامات الواضحة وأنفقوا المواهب الإلهية والنعم الربانية في موارد مذمومة ومنحرفة، ثم تقول الآية: «وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا

(١) «ظلل»: جمع «ظلة» يقال لكل شيء يصنع ظلًا، و «غامم»: بمعنى السحاب.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٠

مختصر الامثل ج ١، ص: ٢٠٠

جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

والمراد من «تبدیل النعمة» هو استخدام الإمكانيات والطاقات والمصادر المادية والمعنوية الموهوبة على طريق تخريبي انحرافي وممارسة الظلم والطغيان.

ولا تنحصر مسأله تبديل النعمة والمصير المؤلم لها ببني إسرائيل.

فالعالم المتطور صناعياً يعاني اليوم من هذه المأساة الكبرى، فمع وفور النعم والطاقات لدى الإنسان المعاصر وفوراً لم يسبق له مثيل في التاريخ نجد صوراً شتى من تبديل النعم وتسخيرها بشكل فضيع في طريق الإبادة والفناء بسبب ابتعادهم عن التعاليم الإلهية للأنبياء، حيث حوَّروا هذه النعم إلى أسلحة مدمرة من أجل بسط سيطرتهم الظالمة واستعمارهم للبلدان الأخرى، وبذلك جعلوا من الدنيا مكاناً غير آمن، وجعلوا الحياة الدنيا غير آمنة من كل ناحية.

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: نزلت الآية في أبي جهل وغيره من رؤساء قريش، بسطت لهم الدنيا وكانوا يسخرون من قوم من المؤمنين، فقراء، مثل عبد الله بن مسعود، وعمار وبلال وخباب ويقولون: لو كان محمد نبياً لاتبعه أشرفنا.

التفسير

الكافرون عبيد الدنيا: نزول الآية طبقاً للرواية المذكورة بشأن رؤساء قريش لا يمنع أن تكون مكتملة لموضوع الآية السابقة بشأن اليهود وأن نستنتج منها قاعدة كلية. تقول الآية:

«زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا». ولذلك أفقدهم الغرور والتكبر شعورهم.

«وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» في حين أن المؤمنين والملتقين في أعلى عليين في الجنة، وهؤلاء في دركات الجحيم «وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

لأنَّ المقامات المعنوية تتخذ صور عينية في ذلك العالم، ويكتسب المؤمنون درجات أسمى من هؤلاء، وكأنَّ هؤلاء يسرون في أعماق الأرض بينما يعلو الصالحون في أعالي السماء، وليس ذلك بعجيب «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وهذه بشارة للمؤمنين الفقراء وإنذار وتهديد للأغنياء والأثرياء المغرورين.

وكون ذلك الرزق الإلهي بدون حساب للمؤمنين إشارة إلى أن الثواب والمواهب الإلهية

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧١

ليست بمقدار أعمالنا إطلاقاً، بل هي مطابقة لكرمه ولطفه، ونعلم أن كرمه ولطفه ليس لهما حدود ونهاية.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) بعد بيان حال المؤمنين والمنافقين والكفار في الآيات السابقة شرع القرآن الكريم في هذه الآية في بحث اصولي جامع بالنسبة لظهور الدين وأهدافه والمراحل المختلفة التي مر بها. في البداية تقول الآية: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً».

فتبدأ هذه الآية ببيان مراحل الحياة البشرية وكيفية ظهور الدين لإصلاح المجتمع بواسطة الأنبياء وذلك على مراحل:

المرحلة الاولى: مرحلة حياة الإنسان الابتدائية حيث لم يكن للإنسان قد ألفت الحياة الاجتماعية، ولم تبرز في حياته التناقضات والاختلافات، وكان يعبد الله تعالى استجابةً لنداء الفطرة ويؤدي له فرائض البسيطة، وهذه المرحلة يحتمل أن تكون في الفترة الفاصلة بين آدم ونوح عليهما السلام.

المرحلة الثانية: وفيها اتخذت حياة الإنسان شكلاً اجتماعياً، ولا بد أن يحدث ذلك لأنه مفطور على التكامل، وهذا لا يتحقق إلا في الحياة الاجتماعية.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة التناقضات والاصطدامات الحتمية بين أفراد المجتمع البشري بعد استحكام وظهور الحياة الاجتماعية، وهذه الاختلافات سواء كانت من حيث الإيمان والعقيدة، أو من حيث العمل وتعيين حقوق الأفراد والجماعات تحتم وجود قوانين لرعاية وحل هذه الاختلافات، ومن هنا نشأت الحاجة الماسة إلى تعاليم الأنبياء وهدايتهم.

المرحلة الرابعة: وتتميز ببعث الله تعالى الأنبياء لإنقاذ الناس، حيث تقول الآية:

«فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٢

فمع الإلتفات إلى تبشير الأنبياء وإنذارهم يتوجه الإنسان إلى المبدأ والمعاد ويشعر أن وراءه جزاءً على أعماله فيحس أن مصيره مرتبط مباشرةً بتعاليم الأنبياء وما ورد في الكتب السماوية من الأحكام والقوانين الإلهية لحل التناقضات والتزاعات المختلفة بين أفراد البشر، لذلك تقول الآية: «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ».

المرحلة الخامسة: هي التمسك بتعاليم الأنبياء وما ورد في كتبهم السماوية لإطفاء نار الخلافات والتزاعات المتنوعة (الاختلافات الفكرية والعقائدية والاجتماعية والأخلاقية).

المرحلة السادسة: واستمر الوضع على هذا الحال حتى نفذت فيهم الوسوس الشيطانية وتحركت في أنفسهم الأهواء النفسانية، وبهذا تقول الآية بعد ذلك: «وَمَا اختلفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

المرحلة السابعة: الآية الكريمة بعد ذلك تقسم الناس إلى قسمين، القسم الأول المؤمنون الذين ينتهجون طريق الحق والهداية ويتغلبون على كل الاختلافات بالاستنارة بالكتب السماوية وتعليم الأنبياء، فتقول الآية: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ». في حين أن الفاسقين والمعاندين ما كثون في الضلالة والاختلاف.

وختام الآية تقول: «وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». وهذه الفقرة إشارة إلى حقيقة ارتباط مشيئة الله تعالى بأعمال الأفراد، فجميع الأفراد الراغبون في الوصول إلى الحقيقة يهديهم الله تعالى إلى صراط مستقيم ويزيد في وعيهم وهدايتهم وتوفيقهم في الخلاص من الاختلافات والمشاجرات الدنيوية مع الكفار وأهل الدنيا ويرزقهم السكينة والاطمئنان، ويبين لهم طريق النجاة والاستقامة. يستفاد من الآية أعلاه أن بداية انبثاق الدين بمعناه الحقيقي كانت مقترنة مع ظهور المجتمع البشري بمعناه الحقيقي، من هنا نفهم سبب كون نوح أول انبياء اولوا العزم وأول أصحاب الشريعة والرسالة لا آدم.

يَسْأَلُونَكَ مِمَّا دَا يُنْفِقُونَ قُلْ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرِ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالتَّيَّمَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ

(٢١٥) عَلِيمٌ

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن الآية نزلت يوم الخندق لما اشتدت المخافة وحوصر المسلمون

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٣

في المدينة فدعاهم الله إلى الصبر ووعدهم بالنصر.

التفسير

يبدو من الآية الكريمة أن جماعة من المسلمين كانت ترى أن إظهار الإيمان بالله وحده كاف لدخولهم الجنة، ولذلك لم يوطنوا أنفسهم على تحمل الصعاب والمشاق ظانين أنه سبحانه هو الكفيل بإصلاح امورهم ودفع شر الأعداء عنهم.

الآية ترد على هذا الفهم الخاطيء فتقول: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ».

وبما أنهم كانوا في غاية الإستقامة والصبر مقابل تلك الحوادث والمصائب، وكانوا في غاية التوكل وتفويض الأمر إلى اللطف الإلهي، فلذلك تعقب الآية: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ».

إن الآية أعلاه تحكى إحدى السنن الالهية في الأقوام البشرية جميعاً، وتندر المؤمنين في جميع الأزمنة والأعصار أنهم ينبغي عليهم لنيل النصر والتوفيق والمواهب الاخرية أن يتقبلوا الصعوبات والمشاكل ويبدلوا التضحيات في هذا السبيل، وإن هذه المشاكل والصعوبات ما هي إلا امتحان وتربية للمؤمنين ولتمييز المؤمن الحقيقي عن المتظاهر بالإيمان.

كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: أن الآية نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير، فقال يا رسول الله! بماذا أتصدق؟ وعلى من أتصدق؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

التفسير

يتعرض القرآن الكريم في آيات عديدة إلى الإنفاق والبذل في سبيل الله، وحث المسلمين بطرق عديدة على الإنفاق والأخذ بيد الضعفاء، وهذه الآية تتناول مسألة الإنفاق من جانب آخر، فثمة سائل عن نوع المال الذي ينفقه، ولذلك جاء تعبير الآية بهذا الشكل: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٤

وفي الجواب بينت الآية نوع الإنفاق، ثم تطرقت أيضاً إلى الأشخاص المستحقين للنفقة.

بشأن المسألة الاولى: ذكرت الآية كلمة «خير» لتبين بشكل جامع شامل ما ينبغي أن ينفقه الإنسان، وهو كل عمل ورأسمال وموضوع يشتمل على الخير والفائدة للناس، وبذلك يشمل كل رأسمال مادي ومعنوي مفيد. وبالنسبة للمسألة الثانية: أي موارد الإنفاق - فتذكر الآية أولاً الأقربين وتخص الوالدين بالذكر، ثم اليتامى ثم المساكين، ثم أبناء السبيل، ومن الواضح أن الإنفاق للأقربين - إضافة إلى ما يتركه من آثار تترتب على كل إنفاق - يوطد عرى القرابة بين الأفراد.

«وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ». لعل في هذه العبارة من الآية إشارة إلى أنه يحسن بالمنفقين أن لا يصروا على اطلاع الناس على أعمالهم، ومن الأفضل أن يسروا انفاقهم تأكيداً لإخلاصهم في العمل، لأن الذي يجازى على الاحسان عليهم بكل شيء، ولا يضع عنده سبحانه عمل عامل من البشر.

الآية السابقة تناولت مسألة الإنفاق بالأموال، وهذه الآية تدور حول التضحية بالدم والنفس في سبيل الله، فالآيتان يقترن موضوعهما في

ميدان التضحية والفداء، فتقول الآية:

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ».

التعبير بكلمة «كُتِبَ» إشارة إلى حتمية هذا الأمر الإلهي ومقطوعيته.

«كره» وإن كان مصدراً إلا أنه استعمل هنا باسم المفعول يعنى مكروه، فالمراد من هذه الجملة أن الحرب مع الأعداء في سبيل الله أمر مكروه وشديد على الناس العاديين، لأن الحرب تقترب بتلف الأموال والنفوس وأنواع المشقات والمصائب، وأما بالنسبة لعشاق الشهادة في سبيل الحق ومن له قدم راسخ في المعركة فالحرب مع أعداء الحق بمثابة الشراب العذب للعطشان، ولا شك في أن حساب هؤلاء يختلف عن سائر الناس وخاصة في بداية الإسلام.

ثم تشير هذه الآية الكريمة إلى مبدأ أساس حاكم في القوانين التكوينية والتشريعية الإلهية وتقول: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ».

مختصر الامثل، ج 1، ص: 175

وعلى العكس من تجب الحرب وطلب العافية وهو الأمر المحبوب لكم ظاهراً، إلا أنه «وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ».

ثم تضيف الآية وفي الختام: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَمَّا تَعْلَمُونَ». فهنا يؤكد الخالق جلّ وعلا- بشكل حاسم أنه لا ينبغي لأفراد البشر أن يحكموا أذواقهم ومعارفهم في الامور المتعلقة بمصيرهم، لأن علمهم محدود من كل جانب ومعلوماتهم بالنسبة إلى مجهولاتهم كقطرة في مقابل البحر.

فهؤلاء الناس لا يحق لهم مع الإلتفات إلى علمهم المحدود أن يتعرضوا على علم الله اللامحدود ويعترضوا على أحكامه الإلهية، بل يجب أن يعلموا يقيناً أن الله الرحمن الرحيم حينما يُشَرِّع لهم الجهاد والزكاة والصوم والحج فكل ذلك لما فيه خيرهم وصلاحهم. ثم إن هذه الحقيقة تعمق في الإنسان روح الانضباط والتسليم أمام القوانين الإلهية وتؤدي إلى توسعه آفاق إدراكه إلى أبعد من دائرة محيطه المحدود وتربطه بالعالم اللامحدود يعنى علم الله تعالى.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزُدَّوَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اِسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية من المسلمين وأمر عليهم عبدالله بن جحش الأسدي- وهو ابن عمه النبي- وذلك قبل بدر بشهرين، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة- وهي أرض بين مكة

مختصر الامثل، ج 1، ص: 176

والطائف- فوجدوا بها عمرو بن الحضرمي في غير تجارة لقريش في آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى، وهو رجب- من الأشهر الحرم- فاخصم المسلمون فقال قائل منهم: هذه غرة من عدو وغنم رزقتموه ولا ندرى أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا. وقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام ولا نرى أن تستحلوه لطمع أشفيتم عليه. فغلب على الأمر الذي يريدون عرض الحياة الدنيا، فشدوا على ابن الحضرمي فقتلوه وغنموا غيره فبلغ ذلك كفار قريش. وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المشركين والمسلمين وذلك أول فيء أصابه المسلمون فركب وفد كفار قريش حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: أيحل القتال في الشهر الحرام؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

نزلت الآية الثانية في قصة عبدالله بن جحش وأصحابه لما قاتلوا في رجب، وقتل واقد السهمي ابن الحضرمي فظن قوم أنهم إن أسلموا من الإثم فليس لهم أجر، فأنزل الله سبحانه الآية فيهم بالوعد.

التفسير

الآية الاولى تتصدى للجواب عن الأسئلة المرتبطة بالجهاد والاستثناءات في هذا الحكم الإلهي فتقول الآية: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ». ثم تعلن الآية حرمة القتال وأنه من الكبائر «قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ». أى إثم كبير.

وبهذا يُمضى القرآن الكريم بجديّة السنّة الحسنه التي كانت موجودة منذ قديم الأزمان بين العرب الجاهليين بالنسبة إلى تحريم القتال في الأشهر الحرم (رجب، ذى القعدة، ذى الحجة، محرم).

ثم تضيف الآية أنّ هذا القانون لا يخلو من الاستثناءات، فلا ينبغي السماح لبعض المجموعات الفاسدة لاستغلال هذا القانون في إشاعة الظلم والفساد، فعلى الرغم من أنّ الجهاد حرام في هذه الأشهر الحرم، ولكن الصد عن سبيل الله والكفر به وهتك المسجد الحرام وإخراج الساكنين فيه وأمثال ذلك أعظم إثماً وجراً عند الله «وَصِدُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسِيحُ الْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ».

ثم تضيف الآية بأنّ إيجاد الفتنة والسعى في إضلال الناس وحرهم عن سبيل الله ودينه أعظم من القتل «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» لأنّ القتل ما هو إلآجناية على جسم الإنسان،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٧

والفتنة جناية على روح الإنسان وإيمانه «١».

ثم إنّ الآية تحذر المسلمين أن لا يقعوا تحت تأثير الإعلان الجاهلي للمشركين، لأنهم لا يقنعون منكم إلآبترككم لدينكم إن استطاعوا «وَلَمَّا يَزُولُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا». فينبغي على هذا الأساس أن تقفوا أمامهم بحزم وقوة ولا- تعتنوا بوسوساتهم وأراجيفهم حول الأشهر الحرم.

ثم تنذر الآية المسلمين وتحذرهم من الإرتداد عن دين الله: «وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

فما أشد عقاب المرتد عن الإسلام، لأنّ ذلك يبطل كلما قدّمه الفرد من عمل صالح ويستحق بذلك العذاب الإلهي الأبدى.

الآية التالية تشير إلى النقطة المقابلة لهذه الطائفة، وهم المؤمنون المجاهدون وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

أجل، فهذه الطائفة التي يتحلّى أفرادها بهذه الصفات الثلاث المهمة (الإيمان والهجرة والجهاد) قد يركبون خطأ بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم (كما صدر ذلك من عبدالله بن جحش الوارد في سبب النزول) إلآأنّ الله تعالى يغفر لهم زلتهم بلطفه ورحمته.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا فِي خَوَانِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْصِلِ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

سبب النزول

نزلت في جماعة من الصحابة أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر، فإنها

(١) قدمنا بحثاً مفصلاً عن معنى «الفتنة» في ذيل الآية (١٩١) من هذه السورة المبحوثة.



مذهبة للعقل مسلبة للمال. وعن سبب نزول الآية الثانية فقد ورد في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام وفي تفسير مجمع البيان قال ابن عباس: لما أنزل الله «وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (١). و «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا» (٢). إنطلق كل من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه واشتد ذلك عليهم فسألوا عنه، فنزلت هذه الآية.

التفسير

الآية الاولى تُجيب عن سؤالين حول الخمر والقمار «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ».

«الخمر»: بمعنى كل مايع مسكر، سواء اخذ من العنب أو الزبيب أو التمر أو شىء آخر، بالرغم من أن الوارد في اللغة أسماء مختلفة لكل واحد من أنواع المشروبات الكحولية.

«الميسر»: من مادة (اليسر) وإنما سمي بذلك لأن المقامر يستهدف الحصول على ثروة بيسر ودون عناء.

ثم تقول الآية في الجواب: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا».

وبناء على ذلك، فكل إنسان عاقل لا يقدم على الإضرار بنفسه كثيراً من أجل نفع ضئيل.

السؤال الثالث المذكور في الآية محل البحث هو السؤال عن الإنفاق فتقول الآية:

«وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْو».

«العفو» يُطلق على مصاديق مختلفة منها: المغفرة والصفح وإزالة الأثر، الحد الوسط بين شيئين، المقدار الإضافى لشىء، وأفضل جزء من الثروة.

ويمكن أن يكون العفو في الآية هو المعنى الأول، أى الصّح عن أخطاء الآخرين، وبذلك يكون معنى الآية الكريمة: أنفقوا الصّح والمغفرة فهو أفضل الإنفاق.

ولا يبعد هذا الاحتمال لو أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع شبه الجزيرة العربية عامة وخاصة مكة والمدينة محل نزول القرآن من حيث هيمنته روح التنافر والعداء والحقد بين الناس، والجواب بهذا المعنى لا يتنافى مع سؤالهم بشأن الإنفاق المالى، لأنهم قد يسألون عن

(١) سورة الإسراء / ٣٤.

(٢) سورة النساء / ١٠.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٩

موضوع كان ينبغي أن يسألوا عن أهم منه، والقرآن يستثمر فرصه سؤالهم المعبر عن استعدادهم للسمع والقبول ليحييهم بما هو أهم وألزم، وهذا من شؤون الفصاحة والبلاغة حيث يترك سؤالهم ليتناول موضوعاً أهم.

وأخيراً يقول تعالى في ختام الآية: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

ويذكر بدون فصل في الآية التالية المحور الأصلي للتفكير ويقول: «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

إن الإنسان إضافة إلى وجوب التسليم أمام أوامر الله يجب أن يُطيع هذه الأوامر عن تفكير وتعقل لا عن اتباع أعمى، وبعبارة أخرى أن الإنسان يجب عليه بموازاة الطاعة العملية أن يسعى إلى فهم أسرار روح الأحكام الإلهية.

ثم تذكر الآية السؤال الرابع وجوابه وتقول: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِحْوَانُكُمْ». وعلى هذا الأساس فالقرآن يوصى المسلمين بعدم إهمال اليتامى، فإن الإعراض عن تحمل مسؤوليتهم وتركهم وشأنهم أمر مذموم.

ثم تضيف الآية: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ». أجل، إن الله مطلع على نياتكم ويعلم من يقصد السوء بالاستفادة من أموال اليتامى ليحيف عليهم ومن هو مخلص لهم.

والفقرة الأخيرة من الآية تؤكد بأن الله تعالى قادر على أن يُضَيِّقَ ويشدّد عليكم برعاية اليتامى مع فصل أموالهم عن أموالكم، لكن الله لا يفعل ذلك أبداً، لأنه عزيز وحكيم، ولا داعي لأن يُضَيِّقَ على عباده «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمِيَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا أَعْجَبَكُمْ أَوْلَيْكُمْ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيَّنُّ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

سبب النزول

في تفسير القرطبي: نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي، بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله مكة سرّاً ليُخرج رجلاً من أصحابه؛ وكانت له بمكة امرأة يحبها في الجاهلية يقال لها (عناق) فجاءته؛ فقال لها: إن الإسلام حرم ما كان في الجاهلية؛ قالت: فتزوجني؛ قال: حتى أستاذن رسول الله صلى الله عليه وآله فأتى النبي صلى الله عليه وآله فاستأذنه فنهاه عن التزوج بها؛ لأنه كان مسلماً وهي مشركة. مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٠

## التفسير

هذه الآية وطبقاً لسبب النزول المذكور أعلاه بمثابة جواب عن سؤال آخر حول الزواج مع المشركين فتقول: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ». ثم تضيف مقاييسه وجدائيه فتقول: «وَلَأَمِيَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا أَعْجَبْتُمْ». لأن الهدف من الزواج ليس هو اللذة الجنسية فقط، فالمرأة شريكه عمر الإنسان ومربية لأطفاله وتشكل قسماً مهماً من شخصيته، فعلى هذا الأساس كيف يصح استقبال الشرك وعواقبه المشؤومة لاقتراانه بجمال ظاهري ومقدار من الأموال والثروة. ثم إن الآية الشريفة تقرّر حكماً آخر وتقول: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا أَعْجَبْتُمْ». وبهذا الترتيب منع الإسلام من زواج المرأة المؤمنة مع الرجل المشرك كما منع نكاح الرجل المؤمن من المرأة المشركة حتى أن الآية رجحت العبد المؤمن أيضاً على الرجال المشركين من أصحاب النفوذ والثروة والجمال الظاهري، لأن هذا المورد أهم بكثير من المورد الأوّل وأكثر خطورة، فتأثير الزوج على الزوجة أكثر عادةً من تأثير الزوجة على زوجها. وفي ختام الآية تذكر دليل هذا الحكم الإلهي لزيادة التفكير والتدبر في الأحكام وتقول: «أَوْلَيْكُمْ [أى المشركين يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ]». ثم تضيف الآية: «وَبَيَّنُّ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

أشار في «تفسير في ظلال القرآن» إلى نكتة ظريفه، وهي أن هذه الآية و (٢١) آية أخرى تأتي بعدها تبين الأحكام المتعلقة بتشكيل الاسرة في أبعادها المختلفة، وفي هذه الآيات بين القرآن الكريم اثني عشر حكماً شرعياً:

- ١- يتضمن النهي عن زواج المسلم بمشركة، ٢- يتعلق بالنهي عن مباشرة النساء في المحيض، ٣- حكم الأيمان بصفه عامه- تمهيداً للحديث عن الإيلاء والطلاق- ويربط حكم الأيمان بالله وتقواه، ٤- حكم الإيلاء ويتبعه حكم الطلاق، ٥- حكم عدّه المطلقة، ٦- حكم عدد الطلقات، ٧- حكم الإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان بعد الطلاق، ٨- حكم الرضاعة والاسترضاع والأجر، ٩- الحكم بعدّه المتوفى عنها زوجها، ١٠- حكم التعريض بخطبة النساء في أثناء العدّه، ١١- حكم المطلقة قبل الدخول في حاله ما إذا فرض لها مهر وفي

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨١

حاله ما إذا لم يفرض، ١٢- حكم المتعة للمتوفى عنها زوجها وللمطلقة.

وهذه الأحكام مع مجمل الإرشادات الأخلاقية في هذه الآيات تبين أن مسأله تشكيل الاسرة هو نوع من العبادة لله تعالى ويجب أن يكون مقروناً بالتفكير والتدبر.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي سِتُّمٌ وَقَدُّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

سبب النزول

ذكر في تفسير ابن كثير ذيل الآية مورد البحث: إن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فأنزل الله عز وجل «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ...».

وذكر قطب الدين الراوندى في فقه القرآن: قيل: كانوا في الجاهلية يجتنبون مؤاكله الحائض ومشاربتها حتى كانوا لا يجالسونها في بيت واحد فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك واستعلموا ذلك أوجب هو أم لا؟ فنزلت الآية.

التفسير

أحكام النساء في العادة الشهرية: في الآية الاولى نلاحظ سؤال آخر عن العادة الشهرية للنساء، فتقول الآية: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدَى». وتضيف بلافاصلة:

«فَاعْتَرَلُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ».

لأن الجماع في أيام الحيض، فهو إضافة إلى ما فيه من اشمزاز، ينطوى على أذى وضرر ثبت لدى الطب الحديث، ومن ذلك احتمال تسبب عقم الرجل والمرأة، وإيجاد محيط مناسب لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسية مثل السفلس والتهابات الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة، ودخول مواد الحيض المليئة بمكروبات الجسم في عضو الرجل، وغير ذلك من الأضرار المذكورة في كتب الطب، لذلك ينصح الأطباء باجتناب الجماع في هذه الحالة.

جملة «يَطْهُرْنَ» بمعنى طهارة النساء من دم الحيض وأما جملة «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» تعنى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٢

الغسل من الحيض. فعلى هذا الأساس وطبقاً للجملة الاولى تكون المقاربة الجنسية بعد انتهاء دم الحيض جائزة حتى لو لم تغتسل وأما الجملة الثانية فتعنى أنها ما لم تغتسل فلا يجوز مقاربتها. وعلى هذا فالآية لا تخلو من إبهام ولكن مع الالتفات إلى أن الجملة الثانية تفسير للجملة الاولى ونتيجة لها (ولهذا اعطفت بفاء التفریع) فالظاهر أن (تَطَهَّرْنَ) أيضاً بمعنى الطهارة من دم الحيض وبذلك تجوز المقاربة الجنسية بمجرد الطهارة من العادة الشهرية وهذا هو ما ذهب إليه الفقهاء العظام في الفقه وأفتوا بحلية المقاربة الجنسية بعد الطهارة من الحيض حتى قبل الغسل ولكن لا شك في أن الأفضل أن تكون بعد الغسل.

الفقرة الثانية من الآية تقول: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ». أى: أن يكون الجماع من حيث أمر الله وقد تكون هذه الفقرة تأكيداً لما قبلها، أى أتوا نساءكم في حالة النقاء والطهر فقط لا في غير هذه الحالة.

الآية الثانية إشارة لطيفة إلى الغاية النهائية من العملية الجنسية فتقول: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي سِتُّمٌ».

في هذه الآية الكريمة شبّهت النساء بالمزرعة وقد يثقل هذا التشبيه على بعض، ويتساءل لماذا شبّه الله نصف النوع البشرى بهذا الشكل؟

ولو أمعنا النظر في قوله سبحانه لوجدنا فيه إشارة رائعة لبيان ضرورة وجود المرأة في المجتمع الإنساني، فالمرأة بموجب هذا التعبير ليست وسيلة لإطفاء الشهوة، بل وسيلة لحفظ حياة النوع البشرى.

«وَقَدُّمُوا لِنَفْسِكُمْ». هذا الأمر القرآنى يشير إلى أن الهدف النهائي من الجماع ليس هو الاستمتاع باللذة الجنسية، فالمؤمنون يجب أن يستثمروا على طريق تربية أبناء صالحين، وأن يقدموا هذه الخدمة التربوية المقدسة ذخيرة لأخراهم، وبذلك يؤكد القرآن على رعاية الدقة في انتخاب الزوجة كى تكون ثمرة الزواج إنجاب أبناء صالحين وتقديم هذه الذخيرة الاجتماعية الإنسانية الكبرى.

وفي ختام هذه الآية تأمر بالتقوى وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٣

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُضِلُّوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَاكُنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف أن يدخل على ختنه ولا يكلمه، ولا يصلح بينه وبين امرأته فكان يقول إنني حلفت بهذا فلا يحل لي أن أفعله، فنزلت الآية.

التفسير

لا ينبغي القسم قدر المستطاع: كما قرأنا في سبب النزول أن الآيتين أعلاه ناظرتان إلى سوء الاستفادة من القسم، فكانت هذه مقدمة إلى الأبحاث التالية في الآيات الكريمة عن الإيلاء والقسم وترك المقاربة الجنسية. في الآية الأولى يقول تعالى: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُضِلُّوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وفي الآية التالية نلاحظ تكمله لهذا الموضوع وأن القسم لا ينبغي أن يكون مانعاً من أعمال الخير فتقول: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَاكُنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ». أي عن إرادته وإختيار.

في هذه الآية يشير الله تعالى إلى نوعين من القسم:

الأول: القسم اللغو الذي لا أثر له، ولا يُعبأ به، وهذا النوع من القسم يتردد على ألسن بعض الناس دون التفات، ويكررونه في كلامهم عن عادة لهم، فإن العمل بهذا القسم غير واجب ولا كفارة عليه، لأنه لم يكن عن عزم وإرادته.

النوع الثاني: القسم الصادر عن إرادته وعزم، أو بالتعبير القرآني هو القسم الداخل في إطار كسب القلب، ومثل هذا القسم معتبر ويجب الالتزام به ومخالفته ذنب موجب للكفارة.

لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٤

القسم على ترك وطء الزوجة أو الإيلاء «١» تقليد جاهلي كان شائعاً بين العرب، واستمر معمولاً به عند المسلمين الجدد قبل نزول حكم الطلاق.

كان الرجل في الجاهلية - حين يغضب على زوجته - يقسم على عدم وطئها، فيشدد عليها بهذه الطريقة الفضة، لا هو يطلق سراحها بالطلاق لتتزوج من رجل آخر، ولا يعود إليها بعد هذا القسم ليصالحها ويعايشها وطبعاً لا يواجه الرجل غالباً صعوبة في ذلك لأنه يتمتع بعدة زوجات.

الآية الكريمة وضعت لهذه القضية حداً، فذكرت أن الرجل يستطيع خلال مدة أقصاها أربعة أشهر أن يتخذ قراراً بشأن زوجته: إما أن يعود عن قسمه ويعيش معها، أو يطلقها ويحلى سبيلها. «لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ».

والغاية من الامهال أربعة أشهر هو إعطاء الفرصة للزوج ليفكر في أمره مع زوجته وينقذها من هذا الحال. ثم تضيف: «فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». أي إن عادوا وجدوا الله غفوراً رحيماً، والعبارة تدل أيضاً أن العودة عن هذا القسم ليس ذنباً، بالرغم من ترتب الكفارة عليه.

«وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». أي فلا مانع من ذلك مع توفر الشروط اللازمة.

وفيما لو أهمل الزوج كلا الطريقتين ولم يختر أحدهما، فلم يرجع إلى الحياة الزوجية السليمة، ولم يطلق، ففي هذه الصورة يتدخل حاكم الشرع ويأمر بالقاء الزوج في السجن، ويشدد عليه حتى يختار أحدهما، وينقذ الزوجة من حالتها المعلقة.

وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكِ إِنْ أَرَادُوا إِضْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) كان الكلام في الآية السابقة عن الطلاق، وهنا تذكر الآية بعض أحكام الطلاق وما يتعلق به حيث ذكرت خمسة أحكام له في هذه الآية. في البداية ذكرت الآية عدّة الطلاق:

(١) «إيلاء»: من مادة «الو» بمعنى القدرة والعزم، وبما أن القسم نموذج من هذا المعنى ولذا اطلق على الطلاق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٥

«وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ».

وبما أن الطلاق يشترط فيه أن تكون المرأة في حالة الطهر الذي لم يجامعها زوجها فيه فيحسب ذلك الطهر مرة واحدة، وبعد أن ترى المرأة دم الحيض مرة وتطهر منه حينئذ تتم عدتها بمجرد أن ينتهي الطهر الثالث وتشرع ولو للحظة في العادة، فيجوز لها حينئذ الزواج. الحكم الثاني المستفاد من هذه الآية هو قوله تعالى: «وَلَمَّا يَحِلُّ لَّهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

الإسلام قرّر أن تكون المرأة بنفسها هي المرجع في معرفة بداية العدّة ونهايتها حيث إن المرأة نفسها أعلم بذلك من الآخرين. الحكم الثالث المستفاد من الآية هو أن للزوج حق الرجوع إلى زوجته في عدّة الطلاق الرجعي، فتقول الآية: «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكِ إِنْ أَرَادُوا إِضْلَاحًا». وبهذا يستطيع الزوج استئناف علاقته الزوجية بدون تشريفات خاصة إذا كانت المرأة في عدّة الطلاق الرجعي، فإذا قصد الرجوع يتحصل بمجرد كلمة أو عمل يصدر منه بهذا القصد.

ثم تبين الآية حكماً رابعاً وتقول: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ». وعلى هذا كما أن للرجال حقوقاً على النساء، فكذلك للنساء حقوق على الرجال أيضاً، فيجب عليهم مراعاتها، لأن الإسلام اهتم بالحقوق بصورة متعادلة ومتقابلة. وكلمة «بالمعروف» التي تأتي بمعنى الأعمال الحسنة المعقولة والمنطقية تكررت في هذه السلسلة من الآيات اثنا عشر مرة (من الآية مورد البحث إلى الآية ٢٤١) كيما تحذّر النساء والرجال من عاقبة سوء الاستفادة من حقوق الطرف المقابل وعليهم إحترام هذه الحقوق والاستفادة منها في تحكيم العلاقة الزوجية وتحصيل رضا الله تعالى.

يوجد الاختلافات الكبيرة بين الجنسين على صعيد القوى الجسمية والروحية، ولهذا السبب كانت إدارة الأسرة بعهد الرجل ومقام المعاونة بعهد المرأة، وعلى أي حال فلا يكون هذا التفاوت مانعاً من تفوق بعض النساء من الجهات المعنوية والعلمية والتقوائية على كثير من الرجال.

وأخيراً تقول الآية: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» وهذا إشارة إلى أن الحكمة الإلهية والتدبير الرباني يستوجبان أن يكون لكل شخص في المجتمع وظائف وحقوق معينة من قبل قانون الخلقة ويتناسب مع قدراته وقابلياته الجسمية والروحية، وبذلك فإن الحكمة الإلهية

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٦

تستوجب أن تكون للمرأة في مقابل الوظائف والمسؤوليات الملقاة على عاتقها حقوقاً مسلّمة كيما يكون هناك تعادل بين الوظيفة والحق.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَمَّا جُنَّحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَيْتُمْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

سبب النزول

في تفسير المجمع البيان: جاءت امرأة إلى إحدى زوجات النبي فشكت أن زوجها يطلقها ويسترجعها، يضارها بذلك. وكان الرجل

فى الجهالية إذا طلق امرأته، ثم راجعها قبل أن تنقضى عدتها كان له ذلك، وإن طلقها ألف مرة؛ لم يكن للطلاق عندهم حد، فذكرت ذلك لرسول الله، فنزلت الطلاق مرتان.

التفسير

ذكرنا فى تفسير الآية السابقة إن الإسلام قرّر قانون (العدة) و (الرجوع) لإصلاح وضع الاسرة ومنع تشتتها وتمزقها، لكن بعض المسلمين الجدد استغلوا هذا القانون كما كانوا عليه فى الجاهلية، وعمدوا إلى التضييق على الزوجة بتطليقها المرة بعد الاخرى والرجوع إليها قبل انتهاء العدة، وبهذه الوسيلة ضيقوا الخناق على النساء.

هذه الآية تحول بين هذا السلوك المنحط وتقرّر أن الطلاق والرجوع مشروعان لمرة، أما إذا تكرر الطلاق للمرة الثالثة فلا رجوع، والطلاق الأخير هو الثالث، والمراد من عبارة «الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ» هو أن الطلاق الذى يمكن معه الرجوع مرتان والطلاق الثالث لا رجوع بعده. وتضيف الآية: «فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ».

فعلى هذا يكون الطلاق الثالث هو الأخير لا رجعة فيه. وبعبارة اخرى: أن المحبة والحنان المتقابل بين الزوجين يمكن إعادتهما فى المرتين السابقتين وتعود المياه إلى مجاريها، وفى غير هذه الصورة إذا تكرر منه الطلاق فى المرة الثالثة فلا يحق له الرجوع إلّا بشرائط معينة تأتى فى الآية التالية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٧

إن المراد من التسريح بإحسان أن يؤدى للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائى، ولا يسعى الإضرار بها عملاً وقولاً بأن يعيها فى غيابها أو يتهمها بكلمات رخيصة ويسقط شخصيتها وسمعتها أمام الناس، وبذلك يحرمها من إمكانية الزواج المجدد، فكما أن الصلح والرجوع إلى الزوجة يجب أن يكون بالمعروف والإحسان والمودّة، فكذلك الانفصال النهائى يجب أن يكون مشفوعاً بالإحسان أيضاً، ولهذا تضيف الآية الشريفة: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا».

فعلى هذا الأساس لا يستطيع الزوج عند الانفصال النهائى أن يأخذ ما أعطاه من مهرها شيئاً، وهذا المعنى أحد مصاديق التسريح بإحسان.

وتستطرق الآية إلى ذكر مسألة «طلاق الخلع» وتقرّر أنه فى حالة واحدة تجوز استعادة المهر وذلك عند رغبة المرأة نفسها بالطلاق حيث تقول الآية: «إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ». ثم تضيف: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ». أى الفدية أو التعويض الذى تدفعه المرأة للتخلص من الرابطة الزوجية، هذه الحالة تختلف عن الاولى فى أن الطالب للفرقة هى المرأة نفسها ويجب عليها دفع الغرامة والتعويض للرجل الذى يريد ويطلب بقاء العلفة الزوجية، وبذلك يتمكن الزوج بهذه الغرامة والفدية أن يتزوج مرة اخرى ويختار له زوجة ثانية.

وفى ختام الآية تشير إلى مجمل الأحكام الواردة فيها وتقول: «تَلَمَّكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَمَّا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان، وتفسير روح المعانى أيضاً: جاءت امرأة رفاعه بن وهب القرظى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: إننى كنت عند رفاعه فطلقنى فبّت طلاقى فتزوجنى عبد الرحمن بن الزبير وما معه الأمل هُدبته التوب (وإنه طلقنى قبل أن يمسينى) فتبسم النبى صلى الله عليه وآله فقال:

«أتريدى أن ترجعى إلى رفاعه؟ لا، حتى يذوق عُسَيْلَتَكَ، وتذوقى عُسَيْلَتَهُ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٨

التفسير

جاء في الآية السابقة إجمالاً أنّ للمرأة وللرجل بعد الطلاق الثاني أحد أمرين: إما أن يتصالحا ويرجعا إلى الحياة الزوجية، وإما أن ينفصلا انفصالاً نهائياً. هذه الآية حكمها حكم الفقرة التابعة لمادة قانونية. فهذه الآية تقول إنّ حكم الانفصال حكم دائم، إلا إذا اتخذت المرأة زوجاً آخر، وطلّقها بعد الدخول بها، فعندئذ لها أن ترجع إلى زوجها الأول إذا رأيا أنّهما قادران على أن يعيشا معاً ضمن حدود الله.

ويستفاد من الروايات عن أئمة الدين أنّ لهذا الزواج الثاني شرطين، أولاً: أن يكون هذا الزواج دائماً، والثاني: أن يتبع عقد الزواج الإتصال الجنسي.

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعْظُمُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) تستمر هذه الآية في تبيان الأحكام التي أقرها الإسلام للطلاق، لكي لا تهمل حقوق المرأة وحرمتها. تقول الآية: ما دامت العدة لم تنته وحتى في آخر يوم من أيامها، فإن للرجل أن يصلح زوجته ويعيدها إليه في حياة زوجية حميمة: «فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

وإذا لم تتحسن الظروف بينهما فيطلق سراحها «أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

ولكن كل رجوع أو تسريح يجب أن يكون في جو من الإحسان والمعروف وأن لا يخالطه شيء من روح الانتقام.

ثم تشير الآية إلى المفهوم المقابل لذلك وتقول: «وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ».

هذه الجملة تفسير لكلمة «معروف» أي أنّ الرجوع يجب أن يكون على أساس من الصفاء والوئام، وذلك لأنّ الجاهليين كانوا يتخذون من الطلاق والرجوع وسيلة للانتقام، ولهذا يقول القرآن بلهجة قاطعة: إنّ استرجاع الزوجة يجب أن لا يكون رغبة في الإيذاء والإعتداء، إذ أنّ ذلك - فضلاً عن كونه ظلماً للزوجة - ظلم للزوج أيضاً.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٩

ثم يحذّر القرآن الجميع: «وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا».

هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى حال الأشخاص الذين يستغلون الأحكام الشرعية لتبرير مخالفاتهم ويتمسكون بالظواهر من أجل بعض الحيل الشرعية، فالقرآن يعتبر هذا العمل نوع من الاستهزاء بآيات الله، ومن ذلك نفس مسألة الزواج والطلاق والرجوع في زمان العدة بنية الانتقام وإلحاق الضرر بالمرأة والتظاهر بأنه يستفيد من حقه القانوني.

فعلى هذا لا ينبغي الإغماض عن روح الأحكام الإلهية والتمسك فقط بالظواهر الجامدة لها، فلا ينبغي إتخاذ آيات الله ملعبة بيد هؤلاء، فإنه يُعتبر ذنب عظيم ويترتب عليه عقوبة أليمة.

ثم تضيف الآية: «وَ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعْظُمُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

هذه تحذيرات من أجل أن تعلموا: أولاً: أنّ الله تعالى عدّ تلك التصرفات من خرافات وتقاليد الجاهلية الشنيعة بالنسبة إلى الزواج والطلاق وغير ذلك، فأنفذكم منها وأرشدكم إلى أحكام الإسلام الحياتية، فينبغي أن تعرفوا قدر هذه النعمة العظيمة وتودّوا حقها، و ثانياً: بالنسبة إلى حقوق المرأة ينبغي أن لا تسيئوا إليها بالاستفاده من موقعيتكم، ويجب أن تعلموا أنّ الله تعالى مطلع حتى على نياتكم.

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُمُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في معقل بن يسار عضل اخته جملاء أن ترجع إلى الزواج الأول وهو عاصم بن عدى فإنه كان طلقها وخرجت من العدة ثم أراد أن يجتمعا بعقد آخر، فمنعها من ذلك، فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٠

التفسير

فصم قيد آخر من قيود أسر النساء: ذكرنا في البحوث السابقة كيف كانت النسوة يعشن في أسر العادات الجاهلية، وكيف كن تحت سيطرة الرجال دون أن يعنى أحد برغبتهن ورأيهن. واختيار الزوج كان واحداً من قيود ذلك الأسر، إذ أن رغبة المرأة وإرادتها لم يكن لها أى تأثير فى الأمر، فحتى من كانت تتزوج زوجاً رسمياً ثم تطلق لم يكن لها حق الرجوع ثانية بمحض إرادتها، بل كان ذلك منوطاً برغبة وليها أو أوليائها، وكانت ثمة حالات يرغب فيها الزوجان بالعودة إلى الحياة الزوجية بينهما، ولكن أولياء المرأة كانوا يحولون دون ذلك تبعاً لمصالحهم أو لتخيلاتهم وأوهامهم.

إلا أن القرآن أदान هذه العادة، ورفض أن يكون للأولياء مثل هذا الحق، إذ إن الزوجين - وهما ركنا الزواج الأصليان، إذا توصيلا إلى إتفاق بالعودة بعد الانفصال - يستطيعان ذلك دون أن يكون لأحد حق الاعتراض عليهما. تقول الآية: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

ويتبين من هذه الآية أن الثيبات - أى اللواتى سبق لهن الزواج ثم طلقن أو مات أزواجهن - إذا شئن الزواج ثانية فلا يلزمهن موافقة أوليائهن أبداً.

ثم تضيف الآية وتحذر ثانية وتقول: «ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ». ثم من أجل التأكيد أكثر تقول: «ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

يشير هذا المقطع من الآية إلى أن هذه الأحكام قد شرعت لمصلحتكم غاية الأمر أن الأشخاص الذين ينتفعون بها هم الذين لهم أساس عقائدى من الإيمان بالله والمعاد ولا يتبعون أهواءهم.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩١

أحكام الرضاع السبعة: هذه الآية فى الواقع استمرار للأبحاث المتعلقة بمسائل الزواج والحياة الزوجية، وتبحث مسألة مهمة هى مسألة (الرضاع)، وتذكر عبارات مقتضبة، وفى نفس الوقت ذات معنى عميق، الجزئيات المتعلقة بالرضاع المختلفة، فهناك على العموم سبعة أحكام فى هذا الباب:

١- تقول الآية فى أولها: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ».

«والدات»: جمع (والدة) وهى فى اللغة بمعنى الام، ولكن كلمة الام لها معنى أوسع وهى قد تطلق على الوالدة وعلى الجدة أى والدة الوالدة، وقد تعنى أصل الشىء وأساسه.

وفى هذا المقطع من الآية نلاحظ أن حق الإرضاع خلال سنتى الرضاعة يعود للام، فهى التى لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدة وأن تعتنى به، وعلى الرغم من أن (الولاية) على الأطفال الصغار قد اعطيت للأب، فإن تخصيصها بحق الحضانه والرعايه والرضاعة يعتبر حقاً ذا جانبين، فهو يرضع حال الطفل كما يرضع حال الام.



٢- ليس من الضروري أن تكون مدة رضاعه الطفل سنتين حتماً، إنما السنتان لمن يريد أن يقضى دوره رضاعه كامله «لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ». ولكن للام أن تقلل من هذه الفترة حسب مقتضيات صحة الطفل وسلامته.

٣- نفقة الام في الطعام واللباس، حتى عند الطلاق أثناء فترة الرضاعه تكون على والد الطفل، لكي تتمكن الام من الإنصراف إلى العناية بطفلها وإرضاعه مرتاحه البال وبدون قلق. «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

هنا تعبير «المولود له» بدلاً من «الأب» يستلقت الإنباه، ولعله جاء لاستثارة عواطف الابوة فيه في سبيل حثه على أداء واجبه. أى أنه إذا كان قد وضع على عاتقه الإنفاق على الوليد وامه خلال هذه الفترة فذلك لأن الطفل ابنه وثمره فؤاده وليس غريباً عنه.

إن الإتيان بقيد «المعروف» يشير إلى أن طعام الام ولباسها ينبغي أن يكونا من اللائق بها والمتعارف عليه، فلا يجوز التقشير ولا الإسراف.

ولرفع كل غموض محتمل تشير الآية إلى أن على كل أب أن يؤدى واجبه على قدر طاقته «لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا».

٤- لا يحق لأى من الوالدين أن يجعلوا من مستقبل وليدهما ومصيره أمراً مرتبطاً بما قد يكون بينهما من اختلافات، حيث لا يؤمن معه أن تتعرض روحه الوليد بضربه لا يمكن تفادى آثارها. «لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ». على الأب أن يحذر انتزاع الوليد

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٢

من أحضان امه خلال فترة الرضاعه فيعتدى بذلك على حق الام في حضانه وليدها، كما أن على الام التي اعطيت هذا الحق أن لا تستغله وأن لا تتذرع بمختلف الأعذار الموهومه للتصل من إرضاع وليدها، أو أن تحرم الأب من رؤيه طفله. ٥- ثم تبين الآية حكماً آخر يتعلق بما بعد وفاة الأب فتقول: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ».

يعنى أن الورثه يجب عليهم تأمين احتياجات الام في مرحله الرضاعه للطفل.

٦- وتتحدث الآية أيضاً عن مسأله فطام الطفل عن الرضاعه وتجعله بعهدة كل من الأبوين على الرغم مما جاء في الآيات السابقه من تحديد فترة الرضاعه، إلا أن للأبوين أن يفطما الطفل وقت ما يشاء ان حسب ما تقتضيه صحة الطفل وسلامته الجسميه، وتقول الآية: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا».

٧- أحياناً تمتنع الام من حضانه الطفل وممارسه حقها في إرضاعه ورعايته أو أنه يوجد هناك مانع حقيقى لذلك، ففي هذه الصوره يجب التفكير في حل هذه المسأله ولهذا تقول الآية: «وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَمَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُمْ مَاءَ أَنْثَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ».

وعلى هذا الأساس لا مانع من اختيار مرضعه بدل الام بعد توافق الطرفين بشرط أن هذا الأمر لا يسبب إهدار حقوق الام بالنسبه إلى المده الفائتة من الرضاعه.

وفى الختام تحذر الآية الجميع وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فلا ينبغي للاختلافات التي تحصل بين الزوجين أن تؤدى إلى إيقاد روح الإنتقام فيهما حيث يعرض مستقبلهما ومستقبل الطفل إلى الخطر، فلا بد أن يعلم الجميع بأن الله تعالى يراقب أعمالهم بدقه.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) و لما جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْيَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَغْزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٣

خرافات تبث على تعاسة المرأة: إن واحدة من المشاكل الرئيسيه في حياة المرأة هي الزواج بعد موت زوجها. إن احترام الحياة

الزوجية بعد موت أحد الزوجين أمر فطري، بحيث نجد في مختلف القبائل تقاليداً وطقوساً خاصة بهذا الموضوع على الرغم من أن بعض هذه العادات كانت تبلغ حد الإفراط الذي يقيد المرأة بقيود ثقيلة تبلغ حد القضاء على حياتها احتراماً لذكرى زوجها الراحل، كقيام بعض القبائل بحرق المرأة بعد موت زوجها، أو بدفنها حية معه في قبره، وبعض آخر كانوا يحرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، وفي بعض القبائل كان على المرأة أن تقضى بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمه سوداء قدره وفي ملابس رثة بعيدة عن كل نظافة أو زينة أو اغتسال. إلا أن الآية المذكورة تلغى كل هذه الخرافات، ولكنها تحافظ على احترام الحياة الزوجية بإقرار العدة.

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

وبما أن أولياء وأقرباء المرأة يتدخلون أحياناً في أمرها أو يأخذون بمصالحهم بنظر الاعتبار في زواجها المجدد تقول الآية في ختامها: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ». وسيجازى كل شخص بما عمله من أعمال سيئة أو حسنة.

وحسب ما وصلنا من أئمة المسلمين فإن على الأرامل في هذه الفترة أن يحافظن على مظاهر الحزن، أي ليس لهن أن يتزينن مطلقاً، بل ينبغي التجرد من كل زينة، ولا شك أن فلسفة المحافظة على هذه العدة توجب ذلك أيضاً.

وإنه مما يلفت النظر أن الأحكام الإسلامية بشأن العدة تأمر المرأة بالتزام العدة حتى وإن لم يكن هناك أي احتمال بأن تكون حاملاً. الآية الثانية تشير إلى أحد الأحكام المهمة للنساء في العدة (بمناسبة البحث عن عدة الوفاة في الآيات السابقة) فتقول: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَّا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا». فهذه الآية تبيح للرجال أن يخاطبوا النساء اللواتي في عدة الوفاة بالكناية أو الإضمار في النفس «أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ» وهذا الحكم في الواقع من أجل الحفاظ على حرمة الزواج السابق من جهة، وكذلك لا يحرم الأرملة من حقها في تعيين مصيرها من جهة أخرى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٤

ومن الطبيعي أن تفكر المرأة في مصيرها بعد وفاة زوجها، وكذلك يفكر بعض الرجال بالزواج بهنّ للشروط اليسيرة السهلة في الزواج بالأرامل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا تَزِرْ مَوْءَاظُهُ النَّكَاحَ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ». فمن المسلم أن الشخص إذا عقد على المرأة في عدتها يقع العقد باطلاً، بل إنه إذا أقدم على هذا العمل عالمياً بالحرمة فإن هذه المرأة ستحرم عليها أبداً.

وبعد ذلك تعقب الآية: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ».

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَتَعَوَّهْنَ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) في هاتين الآيتين نلاحظ أحكاماً أخرى للطلاق استمرراً للأبحاث السابقة. تقول الآية في البداية: «لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً» (١). وهذا يعني جواز طلاق النساء قبل المقاربة الجنسية وقبل تعيين المهر، وهذا في صورة ما إذا علم الرجل أو كلا الزوجين بعد العقد وقبل المواقعة أنهما لا يستطيعان استمرار الحياة الزوجية هذه، فمن الأفضل أن يتفارقا في هذا الوقت بالذات، لأن الطلاق في المراحل اللاحقة سيكون أصعب.

ثم تبين الآية حكماً آخر في هذا المجال وتقول: «وَتَعَوَّهْنَ». أي: يجب أن تمنح المرأة هدية تناسب شؤونها فيما لو جرى الطلاق قبل المضاجعة وقبل تعيين المهر، ولكن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار قدرة الزوج المالية في هذه الهدية، ولذلك تعقب الآية الشريفة بالقول:

«عَلَى الْمُوسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ». أى: أن الهدية

(١) «مس»: بمعنى الملامسة وهنا كناية عن الجماع؛ و «فريضة»: بمعنى الواجب وهنا جاءت بمعنى المهر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٥

لا بد أن تكون بشكل لائق وبعيدة عن الإسراف والبخل، ومناسبة لحال المهدى والمهدى إليه.

ولما كان لهذه الهدية أثر كبير للقضاء على روح الانتقام وفى الحيلولة دون إصابة المرأة بعقد نفسه بسبب فسخ عقد الزواج، فإن الآية تعتبر هذا العمل من باب الإحسان «حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ». أى أن يكون ممزوجاً بروح الإحسان واللطف.

الملاحظة الأخرى فى هذه الآية هى أن القرآن يعبر عن الهدية التى يجب أن يعطيها الرجل للمرأة باسم (متاع) فالمتاع فى اللغة هو كل ما يستمتع به المرء ويستمتع به، ويطلق غالباً على غير النقود، لأن الأموال لا يمكن التمتع بها مباشرة، بل لابد أولاً من تبديلها إلى متاع، ولهذا كان تعبير القرآن عن الهدية بالمتاع.

ولهذا العمل أثر نفسى خاص، فكثيراً ما يحدث أن تكون الهدية من المأكل أو الملبس ونظائرها مهما كانت زهيدة الثمن أثر بالغ فى نفوس المهدى إليهم لا يبلغه أبداً أثر الهدية النقدية، لذلك نجد أن الروايات الواصلة إلينا عن أئمة الأطهار: تذكر هذه الهدايا بصورة مأكل أو ملبس أو أرض زراعية.

وتحدث الآية التالية عن حالة الطلاق الذى لم يسبقه المضاجعة ولكن بعد تعيين المهر فتبين أن الحكم فى هذا اللون من الطلاق الذى يكون قبل المضاجعة وبعد تعيين المهر يوجب على الزوج دفع نصف المهر المعين «وإن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ».

وهذا هو الحكم القانونى لهذه المسألة، فيجب دفع نصف المهر إلى المرأة بدون أية نقيصة ولكن الآية تتناول الجوانب الأخلاقية والعاطفية وتقول: «إِلَّا أَنْ يَغْفُونَ أَوْ يَغْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدُ النِّكَاحِ».

أجل، فإن الآية فى الجملة التالية تقول: «وَأَنْ تَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

جملة «وَأَنْ تَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» تبين جانباً آخر من واجبات الزوج الإنسانية وهو أن يظهر الزوج التنازل والكرم فلا يسترجع شيئاً من المهر إن كان قد دفعه وإن لم يكن دفعه بعد فمن الأفضل دفعه كاملاً متنازلاً عن النصف الذى هو من حقه، وذلك لأن المرأة التى تنفصل عن زوجها بعد العقد تواجه صدمة نفسية شديدة ولا شك أن تنازل الرجل عن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٦

حقه من المهر لها يكون بمثابة البلسم لجرحها.

ونلاحظ تأكيداً فى سياق الآية الشريفة على أصل (المعروف) و (الإحسان) فحتى بالنسبة إلى الطلاق والانفصال لا ينبغى أن يكون مقترناً بروح الانتقام والعداوة، بل ينبغى أن يتم على أساس السماحة والإحسان بين الرجل والمرأة.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان (وفى الدر المنثور أيضاً) عن زيد بن ثابت: إن النبى صلى الله عليه وآله كان يصلى بالهاجرة «١» وكانت أثقل الصلوات على أصحابه، فلا يكون وراءه إلماً الصف أو الصفان، فقال: «لقد هممت أن أحرق على قوم لا يشهدون الصلاة بيوتهم». فنزلت هذه الآية.

التفسير

أهمية الصلاة وخاصة الوسطى: بما أن الصلاة أفضل وسيلة مؤثرة تربط بين الإنسان وخالقه، لذلك ورد التأكيد في آيات القرآن الكريم عليها، ومن ذلك ما ورد في الآية محل البحث حيث تقول: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ». المراد من «الصَّلَاةِ الْوُسْطَى» هي صلاة الظهر والتأكيد على هذه الصلاة كان بسبب حرارة الجو في الصيف، أو بسبب انشغال الناس في امور الدنيا والكسب فلذلك كانوا لا يعيرون لها أهمية.

وفي الآية الثانية تؤكد على أن المسلم لا ينبغي له ترك الصلاة حتى في أصعب الظروف والشرائط كما في ميدان القتال، غاية الأمر أن الكثير من شرائط الصلاة في هذا الحال تكون غير لازمة كالإتجاه نحو القبلة وأداء الركوع والسجود بالشكل الطبيعي، ولذا تقول الآية:

«فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا».

سواء كان الخوف في حال الحرب أو من خطر آخر، فإن الصلاة يجب أداءها بالإيماء والإشارة للركوع والسجود، سواء كنتم مشاة أو راكبين.

(١) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٧

«فَإِذَا أَمِنتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». ففي هذه الصورة، أي في حالة الأمان يجب عليكم أداء الصلاة بالصورة الطبيعية مع جميع آدابها وشرائطها.

ومن الواضح أن أداء الشكر لهذا التعليم الإلهي للصلاة في حالة الأمن والخوف هو العمل على وفق هذه التعليمات.

فالآية توضح أن إقامة الصلاة والإرتباط بين العبد وخالقه يجب أن يتحقق في جميع الظروف والحالات، وبهذا تتحصل نقطة ارتكاز للإنسان واعتماده على الله.

وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) تعود هذه الآيات لتذكر بعض مسائل الزواج والطلاق والامور المتعلقة بها وفي البداية تتحدث عن الأزواج الذين يتوسدون فراش الاحتضار ولهم زوجات فتقول: «وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ». أي أن الأشخاص من المسلمين إذا حانت ساعة وفاتهم وبقيت زوجاتهم على قيد الحياة فينبغي أن يوصوا بأزواجهم في النفقة والسكن في ذلك البيت لمدة سنة كاملة، وهذا طبعاً في صورة ما إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها ولم تخرج خارج البيت، ولهذا تضيف الآية: «فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ». كأن يخترن زوجاً جديداً، فلا مانع من ذلك ولا إثم عليكم ولكن يسقط حقها في النفقة والسكنى.

وفي ختام الآية تشير إلى أنه لا- ينبغي التخوف من عاقبة خروج النسوة، فتقول بأن الله قادر على فتح أبواب اخرى أمامهن بعد وفاة الأزواج فلو حدثت مشكله في البيت ولحقت بها مصيبه فإن ذلك سيكون لحكمه حتماً لأن الله تعالى عزيز حكيم: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

فلو أغلق باباً بحكمته فسوف يفتح اخرى بلطفه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٨

يعتقد الكثير من المفسرين أن هذه الآية قد نسخت بالآية (٢٣٤) من هذه السورة التي سبق بيانها وفيها ورد أن عدّة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام وعلى الرغم من أن تلك الآية تأتي قبل هذه الآية من حيث الترتيب ولكننا نعلم أن الآيات في السورة لم ترتب بحسب

نزولها بل قد نجد آيات متأخرة في النزول وضعت متقدمة في الترتيب.

في الآية الثانية يبين القرآن الكريم حكماً آخر من أحكام الطلاق ويقول: «وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَمَتِّينَ». أى أن المتقين يجب عليهم تقديم هدية لائقه للنساء المطلقات.

وبالرغم من أن ظاهر الآية يشمل جميع النساء المطلقات، ولكن بقرينة الآية (٢٣٦) السابقة نفهم أن هذا الحكم يختص بمورد النسوة التي لم يقرّر لهنّ مهر بعد وقوع الطلاق قبل الوطء.

إنّ هذه الهدية- وطبق الروايات الواردة من الأئمة المعصومين عليهم السلام- تُعطى إلى المرأة بعد تمام العدة والإفتراق الكامل لا في عدة الطلاق الرجعي. وبعبارة أخرى: أنّ هذه الهدية ليست وسيلة للعودة، بل للوداع النهائي.

وفي آخر آية من الآيات مورد البحث والتي هي آخر آية من الآيات المتعلقة بالطلاق تقول: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في أهل داوردان قرية قبل واسط، وقع فيهم طاعون فخرجوا هاربين فأماهم الله. قيل: إنّ ملكاً من ملوك بنى اسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فخرجوا فعسكروا. ثم جنبوا وكرهوا الموت، فاعتلوا وقالوا: إنّ الأرض التي نأتيها بها الوباء فلا- نأتيها حتى ينقطع منها الوباء! فأرسل الله عليهم الموت، فلما رأوا أنّ الموت كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً من الموت. فلما رأى الملك ذلك قال: اللهم ربّ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٩

يعقوب وإله موسى، قد ترى معصية عبادك فأرهم آية من أنفسهم حتى يعلموا أنّهم لا يستطيعون الفرار منك! فأماهم الله جميعاً وأما دوابهم وأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخت وأروحت أجسادهم.

قالوا: وأتى على ذلك مدّة حتى بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت أوصالهم فمّر عليهم حزيل «١» وجعل يتفكر فيهم متعجباً منهم. فأوحى الله إليه: يا حزيل تريد أن أريك آية وأريك كيف احبى الموتى؟ قال: نعم. فأحياهم الله تعالى.

التفسير

هذه الآية تشير إشارة عابرة ولكنها معبرة عن قصة أحد الأقوام السالفة التي انتشر بين أفرادها مرض خطير وموحش بحيث هرب الآلاف منهم من ذلك المكان فتقول الآية: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ».

ثم إنّ الآية أشارت إلى عاقبتهم فقالت: «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» لتكون قصة موتهم وحياتهم مرّة أخرى عبرة للآخرين.

ومن الواضح أنّ المراد من «موتوا» هو أمر الله التكويني الحاكم على كل حيّ في عالم الوجود. أى إنّ الله تعالى أوجد أسباب هلاكهم فماتوا جميعاً في وقت قصير، وهذه أشبه بالأمر الذي ورد في الآية (٨٢) من سورة يس: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

وجملة «ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» إشارة إلى عودتهم إلى الحياة بعد موتهم إستجابة لدعاء (حزيل النبي عليه السلام) كما ذكرنا في سبب نزول الآية، ولما كانت عودتهم إلى الحياة مرّة أخرى من النعم الإلهية البينة (نعمه لهم ونعمة لبقية الناس للعبرة) ففي ختام الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ». فليست نعمة الله وألطفه وعنايته تنحصر بهؤلاء، بل لجميع الناس.

العالم الشيعي المعروف ب «الصدوق» استدلل بهذه الآية على القول بالرجعة وقال: (إنّ من معتقداتنا الرجعة) أى رجوع طائفة من الناس الذين ماتوا في الأزمنة الغابرة إلى هذه الدنيا مرّة أخرى، ويمكن كذلك أن تكون هذه الآية دليلاً على المعاد وإحياء الموتى

يوم القيامة.

(١) قيل: إن حزقيال هو ثالث خلفاء بنى إسرائيل بعد موسى (تفسير مجمع البيان).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٠

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان في سبب نزول الآية الثانية: إن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من تصدق بصدقة فله مثلها في الجنة». فقال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله إن لي حديقتين إن تصدقت بإحدهما فإن لي مثلها في الجنة؟ قال: «نعم». قال: وأم الدحداح معي؟ قال: «نعم». قال:

والصبيه معي؟ قال: «نعم». فتصدق بأفضل حديقته فدفعها إلى رسول الله. فنزلت الآية، فضاعف الله له صدقته ألفي ألف وذلك قوله: «أَضْعَافًا كَثِيرَةً».

التفسير

هذه الآيات تشرع في حديثها عن الجهاد. في البداية تقول الآية: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». يسمع أحاديثكم ويعلم نياتكم ودوافعكم النفسية في الجهاد.

ثم يضيف القرآن في الآية التالية: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً». أي: ينفق من الأموال التي رزقه الله تعالى إياها في طريق الجهاد وحماية المستضعفين والمعوزين. فعلى هذا يكون إقراض الله تعالى بمعنى المصارف التي ينفقها الإنسان في طريق الجهاد.

وفي ختام الآية يقول: «وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وتشير الآية إلى أنه لا تتصوروا إن الإنفاق والبذل سوف يؤدي إلى قلة أموالكم، لأن سعة وضيق ارزاقكم بيد الله.

لماذا ورد التعبير بالقرض؟ لقد ورد التعبير بالقرض في مورد الإنفاق في عدة آيات قرآنية، وهذا من جهة يحكى عظيم لطف الله بالنسبة لعباده، وأهميه مسألة الإنفاق من جهة أخرى.

يقول الإمام على عليه السلام في نهج البلاغة الخطبة (١٨٣): «واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠١

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعِيدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَنْ تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسِطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا

أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَ انْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَ لَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٢

مختصر الامثل ج ١ ٢٣٩

اليهود الذين كانوا قد استضعفوا تحت سلطة الفراعنة استطاعوا أن ينجوا من وضعهم المأساوي بقيادة موسى عليه السلام الحكيمه حتى بلغوا القوة والعظمة. لقد أنعم الله على اليهود ببركة نبيهم الكثير من النعم بما فيها «صندوق العهد»، إلا أن تلك النعم والانتصارات أثارت في اليهود الغرور شيئاً فشيئاً، وأخذوا بمخالفة القوانين، وأخيراً اندحروا على أيدي الفلسطينيين وخسروا قوتهم ونفوذهم بخسارتهم صندوق العهد.

استمرت حالهم على هذا سنوات طوالاً، إلى أن أرسل إليهم الله نبياً اسمه «اشموئيل» لإنقاذهم وهدايتهم، فتجمع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم وكانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً وأميراً لكي يتوحدوا تحت لوائه، ويحاربوا العدو متحدين يداً ورأياً، لاستعادة عزتهم الضائعة.

فتوجه اشموئيل إلى الله يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا «طالوت» ملكاً عليهم.

التفسير

في أول آية يخاطب الله تعالى نبيه الكريم ويقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

«الملاء»: هم الجماعة يجتمعون على رأى فيملأون العيون رواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وجلالاً ولذلك يقال لأشراف كل قوم (الملاء) لأنهم بما لهم من مقام ومنزله يملأون العين.

وعلى الرغم من أن الجماعة المذكورة كانت تريد أن تدفع العدو المعتدى الذي أخرجهم من أرضهم ويعيدوا ما اخذ منهم، فقد وُصفت تلك الحرب بأنها في سبيل الله، وبهذا يتبين أن ما يساعد على تحرير الناس وخلصهم من الأسر ورفع الظلم والعدوان يعتبر في سبيل الله.

ولما كان نبيهم يعرف فيهم الضعف والخوف قال لهم: يمكن أن يصدر إليكم الأمر للجهاد فلا تطيعون «قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا».

ولكنهم قالوا: كيف يمكن أن نتملص من محاربة العدو الذي أجلانا عن أوطاننا وفرق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٣

بيننا وبين أبنائنا «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا» وبذلك أعلنوا وفاءهم وتمسكهم بالعهد.

ومع ذلك فإن هذا الجمع من بنى إسرائيل لم يمنعهم اسم الله ولا أمره ولا الحفاظ على استقلالهم والدفاع عن وجودهم ولا تحرير أبنائهم من نقض العهد، ولذلك يقول القرآن مباشرة بعد ذلك: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

وذكر صاحب تفسير روح المعاني (والتفسير الكبير أيضاً) أن عدده من بقى مع طالوت (٣١٣ نفر) بعدد جيش الإسلام يوم بدر.

وعلى كل حال فإن نبيهم أجابهم على طلبهم التزاماً منه بواجبه وجعل عليهم طالوت ملكاً بأمر من الله تعالى: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا».

يظهر من كلمة «ملكاً» أن طالوت لم يكن قائداً للجيش فحسب، بل كان ملكاً على ذلك المجتمع.

ومن هنا بدأت المخالفات والاعتراضات وقال بعضهم: «قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنْ

المال».

وهذا هو أول اعتراض ونقض في العهد من قبل بنى إسرائيل لنيبهم مع أنه قد صرح لهم أن الله هو اختار طالوت، وفي الواقع أنهم اعترضوا على الله تعالى.

غير أن القرآن الكريم يشير إلى الجواب القاطع على هذا الاعتراض إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ». وهذا يعنى أولاً: أن هذا الاختيار هو اختيار الله تعالى؛ وثانياً: إنكم على خطأ كبير في تشخيص شرائط القيادة، لأن النسب الرفيع والثروة الكبيرة ليستا امتيازين للقائد إطلاقاً لأنهما من الامتيازات الاعتبارية الخارجية، أما العلم والمعرفة وكذلك القوة الجسمية فهما امتيازان واقعيان ذاتيان حيث يلعبان دوراً مهماً في شخصية القائد.

ثم تضيف الآية: «وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى شرط ثالث للقائد، وهو توفير الله تعالى الإمكانيات وآليات القيادة ووسائل الحكم.

الآية التالية تبين أن بنى إسرائيل لم يكونوا قد اطمأنوا كل الاطمئنان إلى أن طالوت مبعوث من الله تعالى لقيادتهم على الرغم من أن نيهم صرح بذلك لهم ولهذا طلبوا منه

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٤

الدليل، فكان جوابه أن الدليل سيكون مجيء التابوت أو صندوق العهد إليهم: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ». إن التابوت هو الصندوق الذى وضعت فيه ام موسى ابنها موسى وألقته فى اليم، وبعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر وأتوا به إليه وأخرجوا موسى منه، ظل الصندوق فى بيت فرعون ثم وقع بأيدى بنى إسرائيل، فكانوا يحترمونونه ويتبركون به.

موسى عليه السلام وضع فيه الألواح المقدسة- التى تحمل على ظهرها أحكام الله- ودرعه وأشياء اخرى تخصه وأودع كل ذلك فى أواخر عمره لدى وصيه يوشع ابن نون.

وبهذا ازدادت أهمية هذا الصندوق عند بنى إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم كلما نشبت حرب بينهم وبين الأعداء، ليصعد معنوياتهم. ولكن بعد هبوط التزاماتهم الدينية وغلبة الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق.

واشموئيل - كما تذكر الآية- وعدهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلاً على صدق قوله.

«فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ».

هذه الفقرة من الآية تبين أن الصندوق كما قلنا كان يحتوى على أشياء تضىف السكينة على بنى إسرائيل وترفع معنوياتهم فى الحوادث المختلفة.

«تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ».

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟ جاء فى التاريخ أنه عندما وقع صندوق العهد بيد عبدة الأصنام فى فلسطين وأخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال بعضهم: ما هذه المصائب إلا بسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم وديارهم، ولما لم يرض أحد بالقيام بالمهمة اضطروا إلى ربط الصندوق ببقرتين وأطلقوهما فى الصحراء، واتفق هذا فى الوقت الذى تم فيه نصب طالوت ملكاً على بنى إسرائيل. وأمر الله الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو مدينة اشموئيل. وعندما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من الله على اختيار طالوت ملكاً عليهم.

وعليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بنى إسرائيل.

ويستفاد مما تقدم أنه بالرغم من ثبوت مسألة القيادة الإلهية لطالوت بالأدلة والمعاجز الإلهية، فهناك بعض الأفراد لضعف إيمانهم لم يسلموا إلى هذا الحق، وقد ظهرت هذه الحقيقة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٥



على أعمالهم العبادية، ومن ذلك تشير الجملة الأخيرة في هذه الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ».

ثم إن بنى إسرائيل رضخوا لقيادة طالوت فصنع منهم جيوشاً كثيرةً وساروا إلى القتال، وهنا تعرض بنى إسرائيل لاختبار عجيب ومن الأفضل أن نجمع تلك الأحداث ومجريات الامور من القرآن نفسه حيث يقول: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهْرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ» (١).

ويتضح في هذه الموارد الإمتحان الكبير الذي تعرض له بنو إسرائيل وهو المقاومة الشديدة للعطش وكان هذا الامتحان ضرورياً لجيش طالوت وخاصة مع سوابق هذا الجيش السيئة في بعض الحروب السابقة لأذ الانتصار يتوقف على مقدار الانضباط وقدرة الإيمان والاستقامة في مقابل الأعداء والطاعة لأوامر القيادة.

وشرب الأكرثية كما قلنا في سرد الحكاية وكما جاء بإيجاز في الآية.

وهكذا جرت التصفية الثانية في جيش طالوت، وكانت التصفية الاولى عندما نادى المنادى للاستعداد للحرب وطلب الجميع بالاشتراك في الجهاد إلاً الذين كانت لهم الترامات تجارية أو عمرانية أو نظائرها.

«فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَطَاقَةٌ لَّنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ».

تفيد هذه الآية أن تلك القلة التي نجحت في الامتحان هي وحدها التي تحركت معه، ولكن عندما خطر لهؤلاء القلة أنهم مقدمون على مواجهة جيش جزار وقوى، ارتفعت أصواتهم بالتباكي على قلة عددهم، وهكذا بدأت المرحلة الثالثة في التصفية.

«قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلقُوا اللَّهَ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ». إن «يظنون» هنا تعنى يعلمون، أى أنهم على يقين من قيام يوم القيامة.

في الآية التالية يذكر القرآن الكريم موضوع المواجهة الحاسمة بين الجيشين ويقول: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

«برزوا»: من مادة «بروز» بمعنى الظهور، فعندما يستعد المحارب للقتال ويتجه إلى

(١) «جنود»: جمع «جند» في الأصل بمعنى الأرض الكثيره الأحجار والمتراكمه الصخور ثم اطلقت على كل شىء متراكم وعادةً تأتي بمعنى الجيش الكبير.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٦

الميدان يقال أنه برز للقتال، وإذا طلب القتال من الأعداء يقال أنه طلب مبارزاً. إن طالوت وجنوده طلبوا من الله العلى القدير ثلاثة امور، الأول: الصبر والاستقامة، الثانى: أن يثبت أقدامهم حتى لا يُرْجِح الفرار على القرار، الثالث: من الامور التي طلبها جيش طالوت هو «وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» وهو فى الواقع الهدف الأسمى من الجهاد وينفذ النتيجة النهائية للصبر والاستقامة وثبات الأقدام. ومن المسلم أن الله تعالى سوف لا يترك عبادة هؤلاء لوحدهم أمام الأعداء مع قلة عددهم وكثرة جيش العدو، ولذلك تقول الآية التالية: «فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ».

وكان داود فى ذلك الوقت شاباً صغير السن وشجاعاً فى جيش طالوت. أن داود كان ماهراً فى قذف الحجارة بالقلاب حيث وضع فى قلبه حجراً أو اثنين ورماه بقوة وبمهارة نحو جالوت، فأصاب الحجر جبهته بشده فصرعه فى الوقت، فتسرب الخوف إلى جميع أفراد جيشه، فانهزموا بسرعة أمام جيش طالوت، وكان الله تعالى أراد أن يظهر قدرته فى هذا المورد وأن الملك العظيم والجيش الجزار لا يستطيع الوقوف أمام شاب مراهق مسلح بسلاح ابتدائى لا قيمة له.

تضيف الآية: «وَأَتَيْتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». وعلى الرغم من أن الآية لا تقول أن داود هذا هو داود النبى والد سليمان عليهما السلام ولكن جملة «وَأَتَيْتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» تدل على أنه وصل إلى مقام النبوة.

وفى ختام الآية إشارة إلى قانون كلى فتقول: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ». وهذه الآيات بشارة للمؤمنين الذين يقفون فى مواقع أمامية من مواجهة الطواغيت والجبابرة فينتظرون نصره الله لهم. و آخر آية فى هذا البحث تقول: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

تشير هذه الآية إلى القصص الكثيرة التى وردت فى القرآن بشأن بنى إسرائيل وأن كلاً منها دليل على قدرة الله وعظمته ومنزهة عن كل خرافة واسطورة (بالحق) حيث نزلت على نبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكانت إحدى دلائل صدق نبوته وأقواله. مختصر الامثال، ج ١، ص: ٢٠٧

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) دور الأنبياء فى حياة البشر: هذه الآية تشير إلى درجات الأنبياء ومراتبهم وجانباً من دورهم فى حياة المجتمعات البشرية، تقول الآية: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ».

«مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ». هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، وواضح أن المقصود بالآية موسى عليه السلام المعروف باسم «كليم الله». ثم تضيف الآية: «وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ». ومع الإلتفات إلى الآية أشارت إلى التفاصل بين الأنبياء بالدرجات والمراتب، فيمكن أن يكون المراد فى هذا التكرار إشارة إلى أنبياء معينين وعلى رأسهم نبي الإسلام الكريم لأن دينه آخر الأديان وأكملها.

أو أن المقصود من بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم إذ يقول سبحانه فى الآية التالية: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ». أى: لو شاء الله ما أخذت امم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها. «وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». أى أننا وهبنا عيسى عليه السلام براهين واضحة مثل شفاء المرضى المزمنين وإحياء الموتى والمعارف الدينية السامية.

أما المراد من (روح القدس) هو جبرائيل حامل الوحي الإلهي. وتشير الآية كذلك إلى وضع الامم والأقوام السالفة بعد الأنبياء والاختلافات التى جرت بينهم فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ».

فمقام الأنبياء وعظمتهم لن يمنعا من حصول الاختلافات والإقتتال والحرب بين أتباعهم لأنها سنّة إلهية أن جعل الله الإنسان حراً ولكنه أساء الاستفادة من هذه الحرية: «وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ».

ثم تؤكد الآية أن الله تعالى قادر على منع الاختلافات بين الناس بالإرادة التكوينية وبالجب، ولكنه يفعل ما يريد وفق الحكمة المنسجمة مع تكامل الإنسان ولذلك تركه مختاراً

مختصر الامثال، ج ١، ص: ٢٠٨

«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

ولا شك فى أن بعض الناس أساء استخدام هذه الحرية، ولكن وجود الحرية فى المجموع يعتبر ضرورياً لتكامل الإنسان لأن التكامل الإجبارى لا يُعدّ تكاملاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) الإنفاق من أهم أسباب النجاة يوم القيامة: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الامم الماضية وجهاد حكوماتها الإلهية والاختلافات التى حدثت بعد الأنبياء عليهم السلام تخاطب هذه الآية المسلمين وتشير إلى أحد الواجبات المهمة عليهم التى تسبب فى تقوية بنيتهم الدفاعية وتوحد كلمتهم فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ».

جملة «مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ» لها مفهوم واسع حيث يشمل الإنفاق الواجب والمستحب وكذلك الإنفاق المعنوى كالتعليم وأمثال ذلك، ولكن

مع الإنفقات إلى التهديد الوارد في ذيل الآية لا يبعد أن يكون المراد به الإنفاق الواجب يعنى الزكاة وأمثالها، مضافاً إلى أن الإنفاق الواجب هو الذى يعزّز بيت المال ويقوم كيان الحكومة.

ثم تضيف الآية: «مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَأَيُّعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ» (١).

«وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ». لأنهم بتركهم الإنفاق والزكاة يظلمون أنفسهم ويظلمون الناس.

إن الكفر فى الآية يعنى التمرد والعصيان والتخلف عن إطاعة أمر الله.

اللَّهُ لَمَّا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَمَّا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

(١) «خُلَّةٌ»: مأخوذة من مادة «خلل» بمعنى الفاصلة بين شيئين وبما أن المحبّة والصدقة تحل فى وجود الإنسان وروحه وتملاً الفواصل لذا اطلقت هذه المفردة على الصدقة العميقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٩

آية الكرسي من أهم آيات القرآن: يكفى لبيان أهمية وفضيلة هذه الآية ما جاء فى تفسير مجمع البيان عن ابى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «يا أبا المنذر! أى آية فى كتاب الله أعظم؟» قلت: الله لا- إله إلا هو الحى القيوم. قال: فضرب فى صدرى، ثم قال: «لِيَهَيْئَكَ الْعِلْمَ. والذى نفس محمد بيده! إن لهذه الآية للساناً وشفعتين، تقدس الملك عند ساق العرش».

وفى حديث آخر فى المجمع عن على عليه السلام قال سمعت رسول الله يقول: «... سيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسي. يا على! إن فيها لخمسين كلمة فى كل كلمة خمسون بركة».

وروى فى المجمع عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ آية الكرسي مرّة، صرف الله عنه ألف مكروه من مكاره الدنيا وألف مكروه من مكاره الآخرة، أيسر مكروه الدنيا الفقر وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر».

وعن فى المجمع أبى عبد الله عليه السلام قال: «إن لكل شىء ذرورة وذروة القرآن آية الكرسي».

تبدأ الآية بذكر الذات المقدسة ومسألة التوحيد فى الأسماء الحسنى والصفات العليا لله عزّ وجلّ فتقول: «اللَّهُ لَمَّا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ».

«اللَّهُ»: يعنى الذات الواحدة الجامعة لصفات الكمال، إنّه خالق عالم الوجود.

«الحى»: من كانت فيه حياة، وهذه الصفة المشبهة كمثلياتها تدلّ على الدوام والاستمرار، وحياة الله حياة حقيقية لأنّ حياته عين ذاته وليس عارضة عليه مأخوذة من غيره، فى الآية (٥٨) من سورة الفرقان يقول: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ».

«القيوم»: صيغة مبالغة من القيام. لذلك فالكلمة تدلّ على الوجود الذى قيامه بذاته، وقيام كل الكائنات بوجوده.

ويتضح من هذا أن «قيوم» هى فى الواقع أساس كل صفات الفعل، وعليه فإنّ صفات الخالق والرازق والهادى والمحيى وأمثالها تتجمع كلها فى «القيوم».

وفى الحقيقة أنّ (الحى) يشمل جميع الصفات الإلهية كالعلم والقدرة والسميع والبصير وأمثال ذلك، و (القيوم) تتحدث عن احتياج جميع المخلوقات إليه، ولذا قيل أنّ الاسم الأعظم الإلهى هو مجموع هاتين الصفتين.

ثم تضيف الآية: «لَمَّا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». «سنه»: عبارة عن النوم العارض للعين ولكن عندما يتوغل كثيراً فى الإنسان ويتعمق ويعرض على العقل فيقال له (نوم).

وتشير هذه الآية إلى حقيقة استمرار فيض اللطف الإلهى وديمومته وعدم انقطاعه عن وجوده لحظة واحدة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٠

«لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». لا يكون هناك قيام بشؤون العالم بغير ملكية السماوات والأرض وما فيها، لذلك فهذه الآية - بعد ذكر قيومية الله - تشير إلى حقيقة كون العالم كله ملك خاص لله، وأن كل تصرف يحدث فيه فبأمر منه.

من الواضح أن التقيد بهذا يعتبر في الواقع عاملاً مهماً من عوامل التربية، إذا اعتقد الإنسان أنه ليس المالك الحقيقي لما يملك وإنما هو يتصرف به لفترة قصيرة من الزمن، فسيمتنع - دون شك - عن الإعتداء على حقوق الآخرين وعن الحرص والطمع والاحتكار والبخل وأمثالها مما يتولد في الإنسان نتيجة التصاقه بالدنيا، فيكون ذلك مدعاً لتربيته تربية تجعله قانعاً بحقوقه المشروعة.

«مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». وهذا رد على ادعاء المشركين الذين يقولون إننا نعبد الأوثان لتكون شفعاءنا عند الله كما ورد في الآية (٣) من سورة الزمر: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .

وهذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكاري، أي ما من أحد يتقدم بشفاعته إليه إلا بإذنه.

هذه الآية تكمل معنى قيومية الله ومالكيته المطلقة لجميع ما في عالم الوجود.

«يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». بعد الإشارة إلى الشفاعته في الآية السابقة، وإلى أن هذه الشفاعته لا تكون إلا بإذن الله، تأتي هذه

الجملة لبيان سبب ذلك فتقول إن الله عالم بماضى الشفعاء ومستقبلهم، وبما خفى عليهم أيضاً.

وعلى هذا فإن الله محيط بكل أبعاد الزمان والمكان فكل عمل حتى الشفاعته يجب أن تكون بإذنه.

وفي ثامن صفة مقدسة تقول الآية: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ».

ومن هذه الفقرة من الآية يستفاد أمرين:

الأول: أنه لا أحد يعلم شيئاً بذاته، فجميع العلوم والمعارف البشرية إنما هي من الله تعالى.

والآخر: هو أن الله تعالى قد يضع بعض العلوم الغيبية في متناول من يشاء من عباده فيطلعهم على ما يشاء من أسرار الغيب.

وفي تاسع وعاشر صفة إلهية تقول الآية: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١١

وفي الصفة الحادية عشر والثانية عشر تقول الآية: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

وعلى هذا أن العرش حكومه الله وقدرته يهيمن على السموات والأرض جميعاً وأن كرسى علمه يحيط بكل هذه العوالم، وما من شيء يخرج عن نطاق حكمه ونفوذه علمه. أي أن الله الذي هو أرفع وأعلى من كل شبيهه وشريكه، ومنزه عن كل نقص وعيب، وهو

العظيم اللامحدود، لا يصعب عليه أي عمل ولا يتعبه حفظ عالم الوجود وتديره، ولا يغفل عنه أبداً، وعلمه محيط بكل شيء.

بل يستفاد من بعض الروايات أن الكرسى أوسع بكثير من السموات والأرض. فقد جاء في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه

السلام قوله: «ما السموات والأرض عند الكرسى إلا كحلقة خاتم في فلاة، وما الكرسى عند العرش إلا كحلقة في فلاة».

لم يتوصل العلم البشري بعد لمعرفة وكشف الستار عن هذا المعنى.

إن جميع الروايات التي اوردت فضيلة آية الكرسى وعبرت عنها بآية الكرسى تدل على أنها آية واحدة لا أكثر.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في رجل من الأنصار يدعى أبا الحصين. وكان له ابنان، فقدم تجار الشام إلى المدينة، يحملون الزيت.

فلما أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبي الحصين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا ومضيا إلى الشام. فأخبر أبو الحصين رسول الله

صلى الله عليه وآله، فأنزل الله تعالى «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ».

التفسير

إن آية الكرسي هي مجموعة من توحيد الله تعالى وصفاته الجمالية والجلالية التي تشكل أساس الدين، وبما أنها قابلة للأستدلال العقلي في جميع المراحل وليست هناك حاجة للإجبار والإكراه تقول هذه الآية: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». «الرشد»: لغوياً تعني الهداية للوصول إلى الحقيقة، بعكس (الغي) التي تعني الانحراف عن الحقيقة والإبتعاد عن الواقع. مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٢

وهذه الآية رد حاسم على الذين يتهمون الإسلام بأنه توسل أحياناً بالقوة وبحدّ السيف والقدرة العسكرية في تقدمه وإنتشاره. ثم إن الآية الشريفة تقول كنتيجة لما تقدم: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لِأَنَّهَا لَهَا». «الطاغوت»: صيغة مبالغة من طغيان، بمعنى الإعتداء وتجاوز الحدود، ويطلق على كل ما يتجاوز الحد، لذلك فالطاغوت هو الشيطان والصنم والمعتدى والحاكم الجبار والمتكبر، وكل معبود غير الله، وكل طريق لا ينتهي إلى الله. والمقصود بالطاغوت هو كل متعدّد للحدود وكل مذهب منحرف ضال.

«وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». الإشارة في نهاية الآية إلى الحقيقة القائلة إن الكفر والإيمان ليسا من الامور الظاهرية، لأن الله عالم بما يقوله الناس علانية- وفي الخفاء- وكذلك هو عالم بما يكتنه الناس في ضمائرهم وقلوبهم.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ فِي الظُّلُمَاتِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) بعد أن أشير في الآيات السابقة إلى مسألة الإيمان والكفر وإتضح الحق من الباطل والطريق المستقيم عن الطريق المنحرف توضّح هذه الآية الكريمة إستكمالاً للموضوع أن لكل من المؤمن والكافر قائداً وهدايا فتقول: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا». فهم يسيرون في ظل هذه الولاية من الظلمات إلى النور: «يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

ثم تضيف الآية إن أولياء الكفار هم الطاغوت (الأوثان والشيطان والحاكم الجائر وأمثال ذلك) فهؤلاء يسوقونهم من النور إلى الظلمات: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ فِي الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» ولهذا السبب «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٣

تعقيباً على الآية السابقة التي تناولت هداية المؤمنين بواسطة نور الولاية والهداية الإلهية، وضلال الكافرين لإتباعهم الطاغوت، يذكر الله تعالى في هذه الآية: عدة شواهد لذلك، وأحد ما ورد في الآية أعلاه وهي تتحدث عن الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وأحد الجبارين في زمانه ويدعى (نمرود) فتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ». وتعقب الآية بجملة اخرى تشير فيها إلى الدافع الأساس لها وتقول: إن ذلك الجبار تملكه الغرور والكبر وأسكره الملك «أَنْ آتَيْهِ اللَّهُ الْمُلْكَ».

وما أكثر الأشخاص الذين نجدهم في الحالات الطبيعية أفراد معتدلين ومؤمنين، ولكن عندما يصلون إلى مقام أو ينالون ثروة فإنهم ينسون كل شيء ويسحقون كل المقدسات.

وتضيف الآية أن ذلك الجبار سأل إبراهيم عن ربه: من هو الإله الذي تدعوني إليه؟ «إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ». الواقع أن أعظم قضية في العالم هي قضية الخلق، يعنى قانون الحياة والموت الذي هو أوضح آية على علم الله وقدرته. ولكن نمرود الجبار إتخذ طريق المجادله والفسطه وتزييف الحقائق لإغفال الناس والملا من حوله فقال: إن قانون الحياة والموت بيدي «قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ».

ومن أجل إثبات هذه الدعوى الكاذبة استخدم حيلة كما ورد في الرواية المعروفة حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر، ثم قال لإبراهيم والحضار:

أرايتم كيف أحيى واميت.

ولكن إبراهيم قدّم دليلاً آخر لإحباط هذه الحيلة وكشف زيف المدعى بحيث لا يمكنه بعد ذلك من إغفال الناس فقال: «قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ» وهنا ألقم هذا المعاند حجراً «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». وبهذا اسقط في يدي العدو المغرور، وعجز عن الكلام أمام منطلق إبراهيم عليه السلام الحي، وهذا أفضل طريق لاسكات كل عدو عنيد.

ويتضح ضمناً من جملة «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أنّ الهداية والضلالة بالرغم من أنّهما من أفعال الله تعالى، إلّا أنّ مقدماتهما بيد العباد، فارتكاب الآثام من قبيل الظلم والجور والمعاصي المختلفة تشكّل على القلب والبصيرة حُجُباً مظلمة تمنع من ادراك الحقائق على حقيقتها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٤

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَيَّرْ لَكَ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لِحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) هذه الآية تقصّ حكاية أحد الأنبياء القدما، وهي من الشواهد الحيّة على مسألة البعث. الآية تشير إلى حكاية رجل سافر على حماره ومعه طعام وشراب، فمرّ بقرية قد تهدّمت وتحولت إلى أنقاض تتخلّلها عظام أهاليها النخرة، وإذ رأى هذا المشهد المروع قال:

كيف يقدر الله على إحياء هؤلاء الأموات؟

عند ذلك أماته الله مدة مائة سنة، ثم أحياه مرّة أخرى وسأله: كم تظنّ أنّك بقيت في هذه الصحراء؟ فقال وهو يحسب أنّه بقي سويّات: يوماً أو أقل، فخاطبه الله بقوله: بل بقيت هنا مائة سنة، انظر كيف أنّ طعامك وشرابك طوال هذه المدة لم يصبه أيّ تغيير بإذن الله. ولكن لكي تؤمن بأنك قد أمضيت مائة سنة كاملة هنا انظر إلى حمارك الذي تلاشى ولم يبق منه شيء بموجب نواميس الطبيعة، بخلاف طعامك وشرابك، ثم انظر كيف إنّنا نجمع أعضائه ونحييه مرّة أخرى، فعندما رأى كل هذه الامور أمامه قال: «أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». أي: إنّني الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصورة مجسّمه أمامي.

ومن هذا النبي الذي تحدثت عنه هذه الآية؟ جاء في تفسير مجمع البيان: إنّ أشهر الأقوال: إنّ «العزيز» ويؤيده حديث عن الإمام الصادق عليه السلام.

نعود إلى تفسير الآية: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا».

هذه الآية تكمله للآية السابقة التي دارت حول التوحيد، هذه الآية والآيات التالية تجسّد مسألة المعاد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٥

«عروش»: جمع عرش وهنا تعني السقف؛ و «خاوية»: في الأصل بمعنى خالية ولكنها هنا كناية عن الخراب والدمار وعليه فإنّ قوله «وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» تعني أنّ دور تلك القرية كانت كلها خربة، فقد هوت سقوفها ثم انهارت الجدران عليها وهذا هو الخراب التام.

«فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ». إنّ ظاهر الآية يدل على أنّ النبي قد فارق الحياة، وبعد مائة سنة استأنف الحياة مرّة أخرى، ولا شك أنّ موتاً وحياء كهذين هما من خوارق العادات، وإن لم يكن مستحيلاً، وعلى كل حال فإنّ الحوادث الخارقة للعادة في القرآن ليست منحصرة بهذه الحادثة بحيث نعلم إلى تأويلها.

«قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». يسأل الله نبيه في هذه الآية عن المدة التي قضاها في النوم، فيتردد في الجواب بين قضائه يوماً كاملاً أو جزءاً من اليوم، ويستفاد من هذا التردد أنّ الساعة التي أماته الله فيها تختلف عن الساعة التي أحياه فيها من ساعات

النهار، كأن تكون إمامته قد حدثت مثلاً قبل الظهر، واعيد إلى الحياة بعد الظهر، لذلك انتابه الشك إن كان قد نام يوماً كاملاً بلبه ونهاره، أم أنه لم ينم سوى بضع ساعات من النهار، ولهذا بعد أن قال إنه قضى يوماً، راوده الشك فقال: «أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». ولكنه ما لبث أن سمع الله يقول له: «بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامًا».

ثم أن الله تعالى أمر نبيه بأن ينظر إلى طعامه الذي كان معه من جهة، وينظر إلى مركوبه من جهة أخرى ليطمئن إلى واقعية الأمر فالأول بقي سالماً تماماً، أما الثاني فتلاشى وأصبح رميماً، ليعلم قدرة الله على حفظ الأشياء القابلة للفساد خلال هذه الأعوام ويدرك من جهة أخرى مرور الزمان على وفاته: «فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَيَّرْ لَكَ». أي أن الله القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسخ والفساد كالطعام والشراب، قادر أيضاً على إحياء الموتى بيسر، فإبقاء الطعام والشراب نوع من إدامة الحياة لهذه المواد السريعة التفسخ وعملية الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتى.

«وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ». إن الآيات التالية تشير إلى أن حماره قد تلاشى تماماً بمضي الزمان ولولا ذلك لما كان هناك ما يشير إلى انقضاء مائة سنة.

«وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ». أي أن حكايتك هذه ليست آية لك وحدك، بل هي كذلك للناس جميعاً.

«وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا». واضح أن العظام المقصودة هي

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٦

عظام حماره المتلاشى، لا عظام أهل القرية لما في ذلك من انسجام مع الآيات السابقة.

«فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». عندما اتضحت كل هذه المسائل للنبي المذكور قال إنه يعلم أن الله قادر على كل شىء.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيُطْمِئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصِرْهُنَّ إِلَىٰكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) تجل آخر للمعاد في هذه الدنيا: يذكر القرآن الكريم حول مسألة المعاد بعد قصته عزير قصته أخرى عن إبراهيم عليه السلام ليكمل البحث، ويذكر معظم المفسرين والمؤرخين في تفسير هذه الآية الرواية التالية:

روى في الكافي (وفي تفسير العياشي أيضاً) عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: لما رأى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض التفت ... فرأى جيفة على ساحل البحر بعضها في الماء وبعضها في البر تجيء سباع البحر فتأكل ما في الماء ثم ترجع فيشتمل على بعض فيأكل بعضها بعضاً وتجيء سباع البر فتأكل منها فيشتمل بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً فعند ذلك تعجب إبراهيم عليه السلام مما رأى وقال: يا رب أرنى كيف تحيي الموتى؟

هذه أمم يأكل بعضها بعضاً. قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي. يعني حتى أرى هذا كما رأيت الأشياء كلها. قال: خذ أربعة من الطير فقطعن وأخلطهن كما اختلطت هذه الجيفة في هذه السباع التي أكل بعضها بعضاً فخلط ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً فلما دعاهن أجبنه وكانت الجبال عشرة، قال: وكانت الطيور: الديك، والحمامة، والطاووس والغراب.

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى .

سبق أن قلنا إن هذه الآية تكمله للآية السابقة في موضوع البعث، يفيد تعبير «أَرِنِي كَيْفَ ...» أنه طلب الرؤية والشهود عياناً لكيفية حصول البعث لا البعث نفسه.

«قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيُطْمِئِنَّ قَلْبِي».

كان من الممكن أن يتصور بعضهم أن طلب إبراهيم عليه السلام هذا إنما يدل على تزلزل إيمان

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٧

إبراهيم عليه السلام ولإزالة هذا التوهم أوحى إليه السؤال: «أولم تؤمن؟» لكي يأتي جوابه موضحاً الأمر، ومزيباً كل التباس قد يقع فيه البعض في تلك الحادثة، لذلك أجاب إبراهيم عليه السلام: «بلى ولكن ليطمئن قلبي».

«قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا».

«صرهن»: من «الصَّور» أى التقطيع، أو الميل، أو النداء، ومعنى التقطيع أنسب. أربعة من الطير واذبحهن وقطعهن واخلطهن.

لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجاً من البعث وعودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها.

وبذلك قام إبراهيم بهذا العمل وعندما دعاهن تجمعت أجزائهن المتناثرة وتركبت من جديد وعادت إلى الحياة، وهذا الأمر أوضح

لإبراهيم عليه السلام أن المعاد يوم القيامة سيكون كذلك على شكل واسع وبمقياس كبير جداً.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

(٢٦١) تعتبر مسألة الإنفاق إحدى أهم المسائل التي أكد عليها الإسلام والقرآن الكريم، والآية أعلاه هي أول آية في مجموعة الآيات

الكريمة من سورة البقرة التي تتحدث عن الإنفاق، ولعل ذكرها بعد الآيات المتعلقة بالمعاد من جهة أن أحد الأسباب المهمة للنجاة

في الآخرة هو الإنفاق في سبيل الله. تقول الآية الشريفة: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ

سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ». فيكون المجموع المتحصل من حبة واحدة سبعمائة حبة، وتضيف الآية بأن ثواب هؤلاء لا ينحصر بذلك: «وَاللَّهُ

يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ».

وذلك باختلاف التيات ومقدار الإخلاص في العمل وفي كميته وكميته. ولا عجب في هذا الثواب الجزيل لأن رحمة الله تعالى

واسعة وقدرته شاملة وهو مطلع على كل شيء «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

الإنفاق ومشكلة الفوارق الطبقيّة: بالتدقيق في آيات القرآن الكريم يتضح أن واحداً من الأهداف التي يسعى لها الإسلام هو إزالة هذه

الفوارق غير العادلة الناشئة من الظلم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٨

الاجتماعى بين الطبقتين الغنية والفقيرة، ورفع مستوى معيشة الذين لا يستطيعون رفع حاجاتهم الحيوية ولا توفير حد أدنى من

متطلباتهم اليومية دون مساعدة الآخرين.

وللوصول إلى هذا الهدف وضع الإسلام برنامجاً واسعاً يتمثل بتحريم الربا مطلقاً، وبوجوب دفع الضرائب الإسلامية كالزكاة والخمس،

والحث على الإنفاق، والقرض الحسن، والمساعدات المالية المختلفة، وأهم من هذا كله هو إحياء روح الأخوة الإنسانية في الناس.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

الإنفاق المقبول: الآية السابقة بينت أهمية الإنفاق في سبيل الله بشكل عام، ولكن هذه الآية بينت بعض شرائط هذا الإنفاق (ويستفاد

ضمناً من عبارات هذه الآية أن الإنفاق هنا لا يختص بالإنفاق في الجهاد). تقول الآية: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا

يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا ... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (١).

يستفاد بوضوح من هذه الآية أن الإنفاق في سبيل الله لا يكون مقبولاً عند الله تعالى إذا تبعته المنه وما يوجب الأذى والألم للمعوزين

والمحتاجين، وعليه فإن من ينفق ماله في سبيل الله ولكنه يمن به على من ينفق عليه، أو ينفقه بشكل يوجب الأذى للآخرين فإنه يحبط

ثوابه وأجره بعمله هذا.

بل لعل المنه التي يمن بها عليه ونظرة التحقير التي ينظر بها إليه ذات أضرار باهضة يفوق ثمنها ما أنفقه من مال.

«لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ». تظمن هذه الآية المنفقين أن أجرهم محفوظ عند الله لكي يواصلوا هذا الطريق بثقة ويقين، فما كان عند الله

باق ولا ينقص منه شيء، بل أن عبارة (ربهم) قد تشير إلى أن الله تعالى سيزيد في أجرهم وثوابهم.

في تفسير البرهان، ذيل الآية مورد البحث، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو



مَنْ عَلَيْهِ فَقَدْ أَبْطَلَ صَدَقَتَهُ».

(١) «مَنْ»: بمعنى حجر الميزان المعروف ثم اطلقت على النعم المهمة التي يلاحظ فيها الجانب العملي «ومنن الله تعالى من هذا القبيل» وإن كان الملحوظ فيها الجانب اللفظي كانت قبضته جذاً وفي الآية أعلاه وردت بهذا المعنى الثاني.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٩

قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) هذه الآية تكمل ما بحثته الآية السابقة في مجال ترك المنّة والأذى عند الإنفاق والتصدق فتقول: إن الكلمة الطيبة للسائلين والمحتاجين والصفح عن أذاهم أفضل من الصدقة التي يتبعها الأذى: «قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ».

ويجب أن يكون معلوماً أن ما تنفقوه في سبيل الله فهو في الواقع ذخيرة لكم لإنقاذكم ونجاتكم لأن الله تعالى غير محتاج إليكم وإلى أموالكم وحليم في مقابل جهالاتكم «وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ».

روى في تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردوا عليه بوقار ولين إما ببذل يسير أو رد جميل، فإنه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرونكم كيف صنيعكم فيما حوّلكم الله تعالى».

في هذا الحديث يبين رسول الله صلى الله عليه وآله جانباً من آداب الإنفاق. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ائْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) دوافع الإنفاق ونتائجها: في هاتين الآيتين نهى للمؤمنين عن المنّ والأذى عند إنفاقهم في سبيل الله، لأن ذلك يحبط أعمالهم، ثم يضرب القرآن مثلاً للإنفاق المقترن بالمنّ والأذى، ومثلاً آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص والعواطف الإنسانية.

يقول تعالى في المثال الأول: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ...» (١).

(١) قيل: إن حزقيل هو ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى (تفسير مجمع البيان).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٠

تصوّر قطعة حجر صلد تغطيه طبقة خفيفة من التراب، وقد وضعت في هذا التراب بذور سليمة، ثم عرض الجميع للهواء الطلق وأشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب والبذور وبعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته وصلابته التي لا تنفذ فيها الجذور، وهذا ليس لأن أشعة الشمس والهواء الطلق والمطر كان لها تأثير سيء، بل لأن البذر لم يزرع في المكان المناسب، ظاهر حسن وباطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه، قشره خارجية من التربة لا تعين على نمو النبات الذي يتطلب الوصول إلى الأعماق لتتغذى الجذور.

ويشبه القرآن الإنفاق الذي يصاحبه الرياء والمنّة والأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التي تغطي الصخرة الصلدة والتي لا نفع فيها، بل أنها بمظهرها تخدع الزارع وتذهب بأعباءه أدراج الرياح، هذا هو المثل الذي ضربه القرآن في الآية الأولى للإنفاق المرئى الذي يتبعه المنّ والأذى.

وفي نهاية الآية يقول تعالى: «وَاللَّهُ لَيَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ». وهو إشارة إلى أن الله تعالى سوف يسلبهم التوفيق والهداية، لأنهم أقدموا على الرياء والمنّة والأذى بأقدامهم، واختاروا طريق الكفر باختيارهم ومثل هذا الشخص لا يليق بالهداية.

في الآية التالية نقرأ مثلاً جَمِلاً آخر يقع في النقطة المقابلة لهذه الطائفة من المنفقين، وهؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بدافع من الإيمان والإخلاص فتقول الآية:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ».

تصوّر هذه الآية مزرعة خضراء يانعها تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل الهواء الطلق وأشعة الشمس الوفرة والمطر الكثير النافع، وإذا لم يهطل المطر الوابل ينزل الطل وهو المطر الخفيف وذرات الهباب ليحافظ على طراوة المزرعة ولطافتها، فتكون النتيجة أنّ مزرعة كهذه تعطى ضعف ما تعطى المزارع الأخرى، فهذه الأرض فضلاً عن كونها خصبة بحيث يكفيها الطل والمطر الخفيف ناهيك عن المطر الغزير لإيناع حاصلها، وفضلاً عن كونها تستفيد كثيراً من الهواء الطلق وإشعة الشمس وتلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها على مرتفع تكون في مأمن من السيول.

فالآية الشريفة تريد أن تقول: إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لتمكّن الإيمان واليقين في قلوبهم وأرواحهم هم أشبه بتلك المزرعة ذات الحاصل الوافر المفيد والتمين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢١

وفي ختام الآية تقول: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». فهو سبحانه يعلم ما إذا كان الدافع على هذا الإنفاق إلهياً مقترناً بالمحبة والإحترام، أو للرياء المشفوع بالمنة والأذى.

أَيُّوْدُ أَحِدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) هنا يضرب القرآن مثلاً آخر يبين حاجة الإنسان الشديدة إلى الأعمال الصالحات يوم القيامة، وكيف أنّ الرياء والمن والأذى تؤثر على الأعمال الصالحات فتزِيل بركتها.

يتجسّد هذا التمثيل في صاحب مزرعة مخضرة ذات أشجار متنوعة كالنخيل والأعناب، وتجرى فيها المياه بحيث لا تتطلب السقي، لكن السنون نالت من صاحبها وتحلّق حوله أبناءه الضعفاء، وليس ثمة ما يقيم أودهم سوى هذه المزرعة، فإذا جفّت فلن يقدر هو ولا أبناؤه على إحيائها، وفجأة تهب عاصفة محرقة فتحرقها وتبيدها، في هذه الحالة ترى كيف يكون حال هذا العجوز الهرم الذي لا يقوى على الإرتزاق وتأمين معيشته ومعيشة أبنائه الضعفاء؟ وما أعظم أحزانه وحسراته!

«أَيُّوْدُ أَحِدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ» (١).

إنّ حال اولئك الذين يعملون عملاً صالحاً ثم يحبطونه بالرياء والمن والأذى أشبه بحال من تعب وعانى كثيراً حتى إذا حان وقت اقتطاف النتيجة ذهب كل شيء ولم يبق سوى الحسرات والآهات. وتضيف الآية: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

لما كان منشأ كل تعاسة وشقاء - وعلى الأخص كل عمل أحمق كالمن على الناس - هو عدم إعمال العقل والتفكير في الأمور، فإنّ الله في ختام الآية يحثّ الناس على التعمق في التفكير في آياته: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

(١) «الإعصار»: ريح تثير الغبار وهي تهب من اتجاهين مختلفين بحيث إنها تتجه من الأرض عمودياً إلى السماء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّها نزلت في أقوام لهم أموال من ربا في الجاهلية، وكانوا يتصدّقون منها

فنهاهم الله عن ذلك وأمر بالصدقة من الطيب الحلال.

التفسير

الأموال التي يمكن إنفاقها: هذه الآية تبيّن نوعي الأموال التي يمكن أن تنفق في سبيل الله. في بداية الآية يأمر الله المؤمنين أن ينفقوا من (طيبات) أموالهم. أي الأموال الجيدة النافعة والتي لا شبهة فيها من حيث حليتها. «وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ».

تقول هذه الآية: إننا وضعنا مصادر الثروة هذه تحت تصرفكم، لذلك ينبغي أن لا تمتنعوا عن إنفاق خير ما عندكم في سبيل الله. «وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» (١).

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التي لا قيمة لها أو الساقطة التي لم تعد تنفعهم في شيء، إن هذا النوع من الإنفاق لا هو يربّي روح المنفق، ولا هو يرتق فتقاً لمحتاج، بل لعله إهانة له وتحقير، فجاءت هذه الآية تنهى بصراحة عن هذا.

الآية تشير إلى فكرة عميقة وهي أن للإنفاق في سبيل الله طرفين، فالمحتاجون في طرف، والله في طرف آخر، فإذا اختير المال المنفق من زهيد الأشياء ففي ذلك إهانة لمقام الله العزيز الذي لم يجده المنفق جديراً بطيبات ما عنده كما هو إهانة للذين يحتاجونه، وهم ربما يكونون من ذوى الدرجات الإيمانية السامية، وعندئذ يسبّب لهم هذا المال الرديء الألم والعذاب النفسى.

وفي ختام الآية يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ». أي لا تنسوا أن الله لا حاجة به

(١) «تيمّم»: في الأصل بمعنى القصد أى شيء وجاءت هنا بهذا المعنى واطلقت هذه الكلمة على التيمم لأن الإنسان يقصد الاستفادة من التراب الطاهر كما يقول القرآن: «فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا» (سورة النساء/ ٤٣).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٣

لإنفاقكم فهو غني من كل جهة، بل أن جميع المواهب والنعم تحت أمره وفي دائرة قدرته، ولذلك فهو حميد ومستحق للثناء والحمد، لأنه وضع كل هذه النعم بين أيديكم.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) مكافحة موانع الإنفاق: تشير الآية هنا وتعقيباً على آيات الإنفاق إلى أحد الموانع المهمة للإنفاق، وهو الوسوس الشيطانية، فتقول الآية في هذا الصدد: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ».

ويقول لكم: لا- تنسوا مستقبل أطفالكم وتدبروا في غدكم، وأمثال هذه الوسوس المضلة، ومضافاً إلى ذلك يدعوكم إلى الإثم وإرتكاب المعصية: «وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ».

«الفحشاء»: تعنى كل عمل قبيح وشنيع، ويكون المراد به في سياق معنى الآية البخل وترك الإنفاق في كثير من الموارد حيث يكون نوع من المعصية والإثم، لأن الإنفاق وإن بدأ في الظاهر أنه أخذ، ولكنه في الواقع عطاء لرؤوس أموالهم مادياً ومعنوياً.

جاء في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أن في الإنفاق شيئين من الله وشيئين من الشيطان، فاللذان من الله هما غفران الذنوب والسعة في المال، واللذان من الشيطان هما الفقر والأمر بالفحشاء».

«وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا». وعليه فإن المقصود بالمغفرة هو غفران الذنوب، والمقصود بالفضل هو إزدياد رؤوس الأموال بالإنفاق.

«وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». في هذا إشارة إلى أن لله قدرة واسعة وعلماً غير محدود، فهو قادر على أن يفى بما يعد، ولا شك أن المرء يطمئن إلى هذا الوعد، لا كالوعد الذي يعده الشيطان المخادع الضعيف الذي يجز المرء إلى العصيان، فالشيطان ضعيف وجاهل بالمستقبل، ولذلك ليس وعده سوى الضلال والتحريض على الإثم.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) مع الالتفات إلى ما تقدم في الآية

السابقة التي تحدثت عن تخويف الشيطان من الفقر ووعد الرحمن بالمغفرة والفضل الإلهي، ففي هذه الآية مورد البحث دار الحديث عن الحكمة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٤

والمعرفة والعلم لأن الحكمة فقط هي التي يمكنها التفريق والتمييز بين هذين الدافعين الرحمانى والشيطانى وتدعوا الإنسان إلى ساحل المغفرة والرحمة الإلهية وترك الوسوس الشيطانية وعدم الإعتناء بالتخويف من الفقر. فتقول الآية: «يُؤْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ». وقد ذكر لكلمة «الحكمة» معان كثيرة منها (المعرفة والعلم بأسرار العالم) ومنها (العلم بحقائق القرآن) و (الوصول إلى الحق بالقول والعمل) و (معرفة الله تعالى) و (أنها النور الإلهي الذي يميز بين وسوس الشيطان وإلهامات الرحمان).

والظاهر هو أن الحكمة تأتي بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الامور بما فيها النبوة التي هي نوع من العلم والإطلاع والإدراك. «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا».

رغم أن واهب الحكمة هو الله فإن اسمه لم يرد في هذه الآية وإنما بنى الفعل للمجهول «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ». «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ».

«التذكر»: هو حفظ العلوم والمعارف في داخل الروح، والألباب جمع لب وهو قلب كل شيء ومركزه، ولهذا قيل العقل اللب.

تقول هذه الفقرة من الآية إن أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق ويتذكرونها، رغم أن جميع الناس ذو عقل - عدا المجانين - فلا يوصفون جميعاً بأولى الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشققون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنَّ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) تحدثت الآيات السابقة عن الإنفاق وبذل المال في سبيل الله، وأن ينفق الشخص ذلك المال من الطيب دون الخبيث، وأن يكون مشفوعاً بالمحبة والإخلاص وحسن الخلق، أما في

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٥

هاتين الآيتين أعلاه فيدور الحديث عن كيفية الإنفاق وعلم الله تعالى بذلك. فيقول الله تعالى في الآية الأولى: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا».

تقول الآية: إن كل ما تنفقونه في سبيل الله سواء كان قليلاً أو كثيراً، جيداً أم رديئاً، من حلال إكتسب أم من حرام، مخلصاً كان في نيته أم مرئياً، إتبعه المن والأذى أم لم يتبعه، أكان الإنفاق ممّا أوجب الله تعالى عليه أم ممّا أوجب الإنسان على نفسه بنذر وشبهه، فإن الله تعالى يعلم تفاصيله ويثب عليه أو يعاقب.

وفي الختام تقول الآية: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ».

«الظالمين»: هنا إشارة إلى المحتركين والبخلاء والمرائين والذين ينفقون بالمن والأذى، فإن الله تعالى لا ينصرهم، وسوف لا ينفقهم ما أنفقوا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

أجل هؤلاء ليس لهم ناصر في الدنيا ولا شفيع في الآخرة، وهذه النتيجة من الخصائص المترتبة على الظلم والجور بأي صورة كان. ويستفاد من هذه الآية ضمناً مشروعياً النذر ووجوب العمل بمؤداه.

في الآية الثانية إشارة إلى كيفية الإنفاق من حيث السر والعلن فتقول: «إِنَّ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ».

وسوف يعفو الله عنكم بذلك: «وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

وقد جاء في بعض الأحاديث أن الإنفاق الواجب يفضل فيه الإظهار، والمستحب يفضل فيه الإخفاء.

هنالك أحاديث كثيرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفي كتب أهل السنة. من ذلك ما روى في

تفسير مجمع البيان: «صدقة السرّ تطفىء غضب الربّ وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار».

يستفاد من جملة «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» هو أنّ الله عالم بما تنفقون سواء أكان علانية أم سرّاً كما أنّه عالم بنياتكم وأغراضكم من إعلان إنفاقكم ومن إخفائه.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ (٢٧٢)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٤

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان المسلمون يمتنعون عن الصدقة على غير أهل دينهم، فأنزله الله تعالى هذه الآية.

التفسير

تحدثت الآيات السابقة عن مسألة الإنفاق في سبيل الله بشكل عام، ولكن في هذه الآية الحديث عن جواز الإنفاق على غير المسلمين، بمعنى أنّه لا ينبغي ترك الإنفاق على المساكين والمحتاجين من غير المسلمين حتى تشتدّ بهم الأزمّة والحاجة فيعتقوا الإسلام بسبب ذلك.

تقول الآية: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ». فلا يصحّ أن تجبرهم على الإيمان وترك الإنفاق عليهم نوع من الإجبار على دخولهم إلى الإسلام وهذا الأسلوب مرفوض ورغم أنّ المخاطب في هذه الآية الشريف هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلا أنّه في الواقع يستوعب كل المسلمين.

ثم تضيف الآية: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» ومن تكون له اللياقة للهداية.

فبعد هذا التذكّر تستمر الآية في بحث فوائد الإنفاق في سبيل الله فتقول: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ». وفي آخر عبارة من هذه الآية الكريمة نلاحظ تأكيداً أكثر على مقدار الإنفاق وكيفيته حيث تقول الآية: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ».

يعنى أنّكم لا ينبغي أن تتصوروا أنّ إنفاقكم سيعود عليكم بربح قليل، بل إنّ جميع ما أنفقتم وتنفقون سيعود إليكم كاملاً، وذلك في اليوم الذي تحتاجون إليه بشدة، فعلى هذا لا تترددوا في الإنفاق أبداً.

ولكن لا ينبغي أن يتصور أنّ نتائج الإنفاق اخرية فحسب، بل إنّ له منافع في هذه الدنيا أيضاً مادية ومعنوية.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «نزلت الآية في أصحاب الصفة وهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٧

نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر يأوون إليهم، فجعلوا أنفسهم في المسجد، وقالوا: نخرج في كل سرية يبعثها رسول الله فحثّ الناس عليهم، وكان الرجل إذا أكل وعنده فضل، أتاهم به إذا أمسى».

التفسير

خير مواضع الإنفاق: يبيّن الله في هذه الآية أفضل مواضع الإنفاق وهي التي تتّصف بالصفات التالية:

١- «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أي الذين شغلتهم الأعمال الهامة كالجهاد ومحاربة العدو، وتعليم فنون الحرب، وتحصيل العلوم الاخرى عن العمل في سبيل الحصول على لقمة العيش كأصحاب الصفة الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف «١».

ثم للتأكيد تضيف الآية: «لَا يَشِيءُ تَطِيْعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ». أى الذين لا يقدرّون على الترحال لكسب العيش بالسفر إلى القرى والمدن الاخرى حيث تتوفر نعم الله تعالى، وعليه فإنّ القادرين على كسب معيشتهم يجب أن يتحمّلوا عناء السفر فى سبيل ذلك وأن لا يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلا إذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد فى سبيل الله.

٢- الذين «يَحْسَبُ بِهِمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ». هؤلاء الذين لا يعرف الآخرون شيئاً عن بواطن امورهم ولكنهم - لما فيهم من عفة النفس والكرامة - يظنون أنّهم من الأغنياء.

ولكن هذا لا- يعنى أنّهم غير معروفين. لذا تضيف الآية: «تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ». فإنّ على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدركها العارفون، فلون وجناتهم ينبىء عما خفى من أسرارهم.

٣- والثالث من صفات هؤلاء أنّهم لا يصرون فى الطلب والسؤال: «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» (٢). أى أنّهم لا يشبهون الفقراء الشحاذين الذين يلحون فى الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلاً عن الإلحاف، فالإلحاح فى السؤال شيمه ذوى الحاجات العاديين وهؤلاء ليسوا عاديين.

(١) «حصر»: بمعنى الحبس والمنع والتضييق و جاءت هنا بمعنى جميع الامور التى تمنع الإنسان من تأمين معاشه.

(٢) «الحاف»: من مادة «لحاف» بمعنى الغطاء المعروف، واطلق على الاصرار فى السؤال لانه يغطى قلب الشخص المقابل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٨

«وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ». فى هذه الآية حثّ على الإنفاق وعلى الأخص الإنفاق على ذوى النفوس العزيزة الأبيّة، لأنّ المنفقين إذا علموا أنّ الله عالم بما ينفقون حتى وإن كان سراً وأنّه سوف يشيهم على ذلك، فسترداد رغبتهم فى هذا العمل الكبير. الاستجداء بدون حاجة حرام: إنّ أحد الذنوب الكبيرة هو السؤال والاستجداء والطلب من الناس من دون حاجة، لذلك وقد ورد فى روايات متعددة النهى عن هذا العمل بشدة، وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحَلُّ لِغَنَى». الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

سبب النزول

جاء فى تفسير العياشى عن أبى اسحاق، قال: كان لعلّى بن أبى طالب عليه السلام أربعة دراهم لم يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وآله فقال: «يا على ما حملك على ما صنعت؟» قال: «إنجاز موعود الله». فأنزل الله «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً» الآية (١).

التفسير

فى هذه الآية يدور الحديث أيضاً عن مسألة اخرى مما يرتبط بالإنفاق فى سبيل الله وهى الكيفيات المتنوعة والمختلفة للإنفاق، فتقول الآية: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

ومن الواضح أنّ إنتخاب أحد هذه الطرق المختلفة يتم مع رعاية الشرائط الأفضل للإنفاق، يعنى أنّ المنفق يجب عليه مراعاة الجوانب الأخلاقية والاجتماعية فى إنفاقه الليلي أو النهارى العلنى أو السرى.

ويمكن أن يكون تقديم الليل على النهار والسرى على العلانية فى الآية مورد البحث إشارة

(١) ورد مضمون هذا الحديث فى كتب تفسير أهل السنّة أيضاً، وينقله صاحب (الدّر المنثور) عن ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن عساکر ومجاهد. ويرى البعض أنّ علماء الشيعة بالاتفاق وأكثر علماء السنّة ذهبوا إلى أنّ هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب عليه السلام وفى علماء السنّة: الواحدى، الثعلبى، مجاهد، السّدى، الكلبي، أبى صالح، على بن حرب الطائى، القشيري، الثمالي،

الماوردي، ابن أبي الحديد وغيرهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٩

إلى أن صدقة السر أفضل إلا أن يكون هناك موجب لإظهاره رغم أنه لا ينبغي نسيان الإنفاق على كل حال.

ومن المسلم أن الشيء الذي يكون عند الله (وخاصة بالنظر إلى صفة الربوبية الناظرة إلى التكامل والنمو) لا يكون شيئاً قليلاً وغير ذا قيمة، بل يكون متناسباً مع أطاف الله تعالى وعناياته التي تتضمن بركات الدنيا وكذلك حسنات الآخرة والقرب إلى الله تعالى.

ثم تضيف الآية: «وَلَمَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَمَّا هُمْ يَخْزَنُونَ». لأنهم يعلمون أنهم يازاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل الله وبركات إنفاقهم الفردية والاجتماعية والأخلاقية في الدنيا والآخرة.

اللَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِئُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ (٢٧٧) في الآيات التي مضت كان الكلام على الإنفاق وبذل المال لمساعدة المحتاجين وفي سبيل رفاة المجتمع، وفي هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذي يقف في الجهة المضادة للإنفاق.

يقول تعالى: «اللَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ» (١).

فالآية تشبه المرابي بالمصروع أو المجنون الذي لا يستطيع الإحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبط في خطواته. أي أن الذين يقومون في الدنيا قياماً غير متعقل وغير متوازن يخالطه اكتناز جنوني للثروة سسيحشرون يوم القيامة كالمجانين.

(١) «يتخبطه»: من مادة «الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشي أو القيام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٠

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا». هذه الآية تبين منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجارة والربا؟ ويقصدون أن كليهما يمثلان معاملة تبادل بتراضى الطرفين واختيارهما.

يقول القرآن جواباً على ذلك: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» ولم يزد في ذلك شرحاً وتفصيلاً، ربما لوضوح الإختلاف. «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ».

تقول الآية إن من بلغته نصيحة الله بتحريم الربا وأتعظ فله الأرباح التي أخذها من قبل «أي أن القانون ليس رجعيًا» لأن القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل والاضطرابات في حياة الناس، ولذلك فإن القوانين تنفذ عادةً من تاريخ سنّها.

وهذا لا- يعني بالطبع أن للمرابين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدينين بعد نزول الآية، بل المقصود إباحة ما جنوه من أرباح قبل نزول الآية.

ثم يقول: «وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ». أي أن النظر إلى أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلى الله، وإن كان ظاهر الآية يدل على أن مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير واضح، ولكن بالتوجه إلى الآية السابقة نفهم أن القصد هو العفو، ويظهر من هذا أن إثم الربا من الكبر بحيث إن حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

«وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». أي أن من يواصل تعاطى الربا على الرغم من كل تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذاباً أليماً في النار دائماً.

إن العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن بالله، لكن الآية تعد المصيرين على الربا بالخلود في النار، ذلك لأنهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين الله، ويلجئون في ارتكاب الإثم، وهذا دليل على عدم صحّة إيمانهم، وبالتالي فهم يستحقون الخلود في النار.

ثم إن الآية التالية تبين الفرق بين الربا والصدقة وتقول: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ».

ثم يضيف: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ». يعنى الذين تركوا ما فى الصدقات من منافع طيبة والتمسوا طريق الربا الذى يوصلهم إلى نار جهنم.

«المحق»: النقصان التدريجى؛ و «الربا»: هو النمو التدريجى.

فالقرآن يقول إن الله يسوق رؤوس الأموال الربوية إلى الفناء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣١

وبالمقابل، فالأشخاص الذين يتقدمون إلى المجتمع بقلوب مليئة بالعواطف الإنسانية وينفقون من رؤوس أموالهم و ثرواتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبة الناس وعواطفهم عموماً، وأموال هؤلاء فضلاً عن عدم تعرضها لأى خطر تنمو بالتعاون العام نمواً طبيعياً، وهذا ما يعنيه القرآن بقوله: «وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ».

«الكفار»: من الكفور، بوزن فجور، وهو المغرق فى نكران الجميل والكفر بالنعمة، و «الأثيم»: هو الموجل فى ارتكاب الآثام.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى أن المرابين بتركهم الإنفاق والإقراض والبذل فى سبيل رفع الحاجات العامة يكفرون بما أغدق الله عليهم من النعم، بل أكثر من ذلك يسخرون هذه النعم على طريق الإثم والظلم والفساد، ومن الطبيعى أن الله لا يحب أمثال هؤلاء.

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

مقابل المرابين الأثمين الكافرين بأنعم الله، هناك اناس من المؤمنين تركوا حب الذات، وأحيوا عواطفهم الفطرية، وارتبطوا بالله بإقامة الصلاة، وأسرعوا لمعونة المحتاجين بدفع الزكاة، وبذلك يحولون دون تراكم الثروة وظهور الاختلاف الطبقي المؤدى إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند الله ويرون نتائج أعمالهم فى الدنيا والآخرة.

ثم إن هؤلاء لا يعرفون القلق والحزن، ولا يهددهم الخطر الذى يتوجه إلى المرابين من قبل ضحاياهم فى المجتمع.

وأخيراً فإنهم يعيشون فى اطمئنان تام «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٢

سبب النزول

فى تفسير القمى: كان سبب نزولها أنه لما أنزل الله تعالى (الذين يأكلون الربا) فقام خالد بن الوليد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله! ربا أبى فى ثقيف، وقد أوصانى عند موته بأخذه فأنزل الله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ».

التفسير

فى الآية الاولى يخاطب الله المؤمنين ويأمرهم بالتقوى ثم يأمرهم أن يتنازلوا عما بقى لهم فى ذمة الناس من فوائد ربوية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

يلاحظ أن الآية بدأت بذكر الإيمان بالله واختتمت بذكره، مما يدل بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان بالله.

«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

تعتبر فى هذه الآية لهجة السياق القرآنى، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح وتعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكل شدة، وتذهرهم بلهجة صارمة أنهم إذا واصلوا عملهم الربوى ولم يستسلموا لأوامر الله فى الحق والعدل واستمروا فى امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا- يسع رسول الله صلى الله عليه وآله إلما أن يتوسل بالقوة لإيقافهم عند حدّهم وإخضاعهم للحق، وهذا بمثابة إعلان الحرب عليهم، وهى الحرب التى تنطلق من قانون: «فَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» (١).

يستفاد من هذه الآية أن للحكومة الإسلامية أن تتوسل بالقوة لمكافحة الربا.

«وَإِن تُبْتِغُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَاتُظْلَمُونَ وَلَا تَظْلَمُونَ».



أما إذا تبتم ورجعتم عن غيكم وتركتم تعاطى الربا فلکم أن تتسلّموا من الناس المدینین لکم رؤوس أموالکم فقط «بغير ربح». وهذا قانون عادل تماماً لأنه يحول دون أن تظلموا الناس ودون أن يصيبكم ظلم. إنّ تعبير «لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» وإن كان قد جاء بشأن المرابين ولكنه شعار إسلامي

(١) سورة الحجرات / ٩.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٣

واسع وعميق. يعنى أنّ المسلمين بقدر ما يجب عليهم تجنّب الظلم، يجب عليهم كذلك أن لا يستسلموا للظلم ولو قلّ الذين يتحمّلون الظلم لقلّ الظالمون أيضاً. «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة».

استكمالاً لبيان حق الدائن في الحصول على رأسماله «بدون ربح» تبين الآية هنا حقاً من حقوق المدین إذا كان عاجزاً عن الدفع، فضلاً عن عدم جواز الضغط عليه وفرض فائدة جديدة عليه كما كانت الحال في الجاهلية، فهو حقيق بأن يمهل مزيداً من الوقت لتسديد أصل الدين عند القدرة والإستطاعة.

«وَأَنْ تَصِيحُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». وهذه في الواقع خطوة أبعد من المسائل الحقوقية، أي أنّها مسألة أخلاقية وإنسانية تكمل البحث الحقوقى المتقدم، تقول الآية للدائنين أنّ الأفضل من كل ما سبق بشأن المدین العاجز عن الدفع هو أن يخطو الدائن خطوة إنسانية كبيرة فيتنازل للمدين عما بقى له بذمته، فهذا خير عمل إنسانى يقوم به، وكل من يدرك منافع هذا الأمر يؤمن بهذه الحقيقة. من المؤلف في القرآن أنه بعد بيان تفاصيل الأحكام وجزئيات الشريعة الإسلامية يطرح تذكيراً عاماً شاملاً يؤكد به ما سبق قوله، لكي تنفذ الأحكام السابقة نفوذاً جيداً في العقل والنفس.

لذلك فإنّه في هذه الآية يذكر الناس بيوم القيامة ويوم الحساب والجزاء، ويحدّثهم من اليوم الذى ينتظرهم حيث يوضع أمام كل امرئ جميع أعماله دون زيادة ولا- نقصان، وكل ما حفظ في ملفّ عالم الوجود يسلم إليه دفعة واحدة، عندئذ تهوله النتائج التى تنتظره، ولكن ذلك حصيلة ما زرعه بنفسه وما ظلمه فيه أحد، إنّما هو نفسه ظلم نفسه «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

ومما يلفت النظر أنّ تفسير «الدرّ المثور» ينقل بطرق عديدة أنّ هذه الآية هي آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يُستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

إنّ للربا أثراً أخلاقياً سيئاً جداً في نفسيّة المدین ويثير في قلبه الكره والضغينة، ويفصم عرى التعاون الاجتماعى بين الأفراد والملل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٤

في الأحاديث الإسلامية إشارة إلى آثار الربا الأخلاقية السيئة وردت في جملة قصيرة عن علة تحريم الربا عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنما حرّم الله عزّ وجلّ الربا لكي لا يمتنع الناس من اصطناع المعروف» (١).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَاحِبًا أَوْ كَاتِبًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَنْ تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) تدوين الأوراق التجارية:

بعد أن شنّ القرآن على الربا والاحتكار والبخل حرباً شعواء، وضع تعليمات دقيقة لتنظيم الروابط التجارية والاقتصادية، لكي تنمو

رؤوس الأموال نموّاً طبيعياً دون أن تعثرها عوائق أو تتباها خلافات ومنازعات.

تضع هذه الآية التي هي أطول آيات القرآن تسعة عشر بنداً من التعليمات التي تنظم الشؤون المالية، نذكرها على التوالي:

١- إذا أقرض شخصاً أو عقد صفقة، بحيث كان أحدهما مديناً، فلكي لا يقع أيّ

(١) وسائل الشيعة ١٢/٤٢٣/٤ (الباب ١ من أبواب الربا).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٥

سوء تفاهم واختلاف في المستقبل، يجب أن يكتب بينهما العقد بتفاصيله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ». هذه الآية تشمل جميع المعاملات التي فيها دين يبقى في ذمة المدين، بما في ذلك القرض.

٢- لكي يطمئن الطرفان على صحة العقد ويأمنوا احتمال تدخل أحدهما فيه، فيجب أن يكون الكاتب شخصاً ثالثاً: «وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ».

٣- على كاتب العقد أن يقف إلى جانب الحق وأن يكتب الحقيقة الواقعة «بِالْعَدْلِ».

٤- يجب على كاتب العقد، الذي وهبه الله علماً بأحكام كتابة العقود وشروط التعامل، أن لا يمتنع عن كتابة العقد، بل عليه أن يساعد طرفي المعاملة في هذا الأمر الاجتماعي: «وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ».

٥- على أحد الطرفين أن يملأ تفاصيل العقد على الكاتب ولكن أيّ الطرفين؟ تقول الآية: المدين الذي عليه الحق: «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ».

٦- على المدين عند الإملاء أن يضع الله نصب عينيه، فلا يترك شيئاً إلقاله ليكتبه الكاتب: «وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً».

٧- إذا كان المدين واحداً ممن تنطبق عليه صفة «السفيه» وهو الخفيف العقل الذي يعجز عن إدارة أمواله ولا يميز بين ضرره ومنفعته، أو «الضعيف» القاصر في فكره والضعيف في عقله المجنون، أو «الأبكم والأصم» الذي لا يقدر على النطق، فإنّ لوليه أن يملأ العقد فيكتب الكاتب بموجب إملائه: «فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَأَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَثِيه».

٨- على «الولي» في الإملاء والاعتراف بالدين، أن يلتزم العدل وأن يحافظ على مصلحة موكله وأن يتجنب الابتعاد عن الحق: «فَلْيُمْلِلْ وَثِيه بِالْعَدْلِ».

٩- بالإضافة إلى كتابة العقد، على الطرفين أن يستشهدا بشاهدين: «وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ» (١).

١٠ و ١١- يجب أن يكون الشاهدان بالغين ومسلمين وهذا يستفاد من عبارة «مِن رِّجَالِكُمْ». أي ممن هم على دينكم.

(١) قال بعض إن التفاوت بين «شاهد» و «شاهد»: هو أنّ الشاهد يقال لمن حضر الواقعة حتى يمكنه أن يشهد عليها، والشاهد هو الذي يؤدّي الشهادة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٦

١٢- يجوز اختيار شاهدين من النساء وشاهد من الرجال: «فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ».

١٣- لا بد أن يكون الشاهدان موضع ثقة: «مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ». يتبين من هذه الآية أنّ الشهود يجب أن يكونوا ممن يطمأن إليهم من جميع الوجوه، وهذه هي «العدالة» التي وردت في الأخبار أيضاً.

١٤- وإذا كان الشاهدان من الرجال، فلكل منهما أن يشهد منفرداً، أمّا إذا كانوا رجلاً واحداً وامرأتين، فعلى المرأتين أن تدليا بشهادتهما معاً لكي تذكر إحداها الاخرى إذا نسيت شيئاً أو أخطأت فيه.

أمّا سبب اعتبار شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، فهو لأنّ المرأة كائن عاطفي وقد تقع تحت مؤثرات خارجية، لذلك فوجود

امرأة اخرى معها يحول بينها وبين التأثير العاطفي وغيره: «أَنْ تَصِلَ إِحْدَيْهُمَا فَتَذَكَّرَ إِحْدَيْهُمَا الْأُخْرَى .

١٥- ويجب على الشهود إذا دُعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير ولا تهاون كما قال: «وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا».

وهذا من أهم الأحكام الإسلامية ولا يقوم القسط والعدل إلّاه.

١٦- تجب كتابة الدين سواء أكان الدين صغيراً أو كبيراً، لأن الإسلام يريد أن لا يقع أي نزاع في الشؤون التجارية، حتى في العقود

الصغيرة التي قد تجزّ إلى مشاكل كبيرة: «وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ». والسأم هو الملل من أمر لكثرة لبثه.

وتشير الآية هنا إلى فلسفة هذه الأحكام، فنقول إن الدقة في تنظيم العقود والمستندات تضمن من جهة تحقيق العدالة، كما أنّها تطمئن

الشهود من جهة أخرى عند أداء الشهادة، وتحول من جهة ثالثة دون ظهور سوء الظن بين أفراد المجتمع: «ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ

لِلشَّهَادَةِ وَأَذْنَىٰ آلًا تَزْتَابُونَ».

١٧- إذا كان التعاقد نقداً فلا ضرورة للكتابة: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا».

١٨- في المعاملات النقدية وإن لم تحتج إلى كتابة عقد، لابد من شهود: «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ».

١٩- وآخر حكم تذكره الآية هو أنه ينبغي ألا يصيب كاتب العقد ولا الشهود أي ضرر

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٧

بسبب تأييدهم الحق والعدالة: «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ».

ثم تقول الآية إنه إذا آذى أحد شاهداً أو كاتباً لقوله الحق فهو إثم وفسوق يخرج المرء من مسيرة العبادة لله: «وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ

بِكُمْ».

وفي الختام، وبعد كل تلك الأحكام، تدعو الآية الناس إلى التقوى وإمتثال أمر الله:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ». ثم تقول إن الله يعلمكم كل ما تحتاجونه في حياتكم المادية والمعنوية:

«وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ». وهو يعلم كل مصالح الناس ومفاسدهم ويقرّر ما هو الصالح لهم: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

إن جملة «وَاتَّقُوا اللَّهَ» وجملة «وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» رغم أنّهما ذكرتا في الآية بصورة مستقلة وقد عطف إحداهما على الأخرى، ولكن

إقترانهما معاً إشارة إلى الارتباط الوثيق بينهما، ومفهوم ذلك هو أن التقوى والورع وخشية الله لها أثر عميق في معرفة الإنسان وزيادة

علمه وإطلاعه.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا

الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) هذه الآية تكمل البحث في الآية السابقة وتشتمل على أحكام أخرى:

١- عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك في سفر، عندئذ على المدين أن يضع شيئاً عند الدائن

باسم الرهن لكي يطمئن الدائن: «وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ».

قد يبدو من ظاهر الآية لأول وهلة أن تشريع «قانون الرهن» يختص بالسفر، ولكن بالنظر إلى الجملة التالية وهي «وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا»

يتبين أن القصد هو بيان نموذج لحالة لا يمكن الوصول فيها إلى كاتب وعليه فللطرفين أن يكتفيا بالرهن حتى في موطنهما.

٢- يجب أن يبقى الرهن عند الدائن حتى يطمئن «فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ».

٣- جميع هذه الأحكام- من كتابة العقد واستشهاد الشهود وأخذ الرهن- تكون في حالة عدم وجود ثقة تامة بين الجانبين وإلّا فلا

حاجة إلى كتابة عقد وعلى المدين أن يحترم ثقة الدائن به، فيسدّد دينه في الوقت المعين وأن لا ينسى تقوى الله: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم

بَعْضًا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٨

فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ». ٤- على الذين لهم علم بما للآخرين من حقوق في المعاملات أو في غيرها، إذا دعوا للإدلاء

بشهادتهم أن لا يكتموها لأن كتمان الشهادة من الذنوب الكبيرة «وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ».

طبعي أن الشهادة تجب علينا إذا لم يستطع الآخرون إثبات الحق بشهادتهم، أما إذا ثبت الحق فيسقط وجوب الإدلاء بالشهادة عن الآخرين، أي أن أداء الشهادة واجب كفائي.

وبما أن كتمان الشهادة والإمتناع عن الإدلاء بها يكون من أعمال القلب، فقد نسب هذا الإثم إلى القلب، فقال: «فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» ومرة أخرى يؤكد في ختام الآية ضرورة ملاحظة الأمانة وحقوق الآخرين: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) هذه تكملة للجمله الأخيرة في الآية السابقة وتقول: «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». ولهذا السبب فهو يعلم جميع أفعال الإنسان الظاهرية منها والباطنية «وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ».

يعنى لا ينبغي لكم أن تتصوروا أن أعمالكم الباطنية مثل كتمان الشهادة والذنوب القلبية الاخرى سوف تخفى على الله تعالى الحاكم على الكون بأجمعه والمالك للسموات والأرض، فإنه لا يخفى عليه شيء، فلا عجب إذا قيل أن الله تعالى يحاسبكم على ذنوبكم القلبية ويجازيكم عليها: «فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ».

في ختام الآية تقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». فهو عالم بكل شيء يجرى في هذا العالم، وقادر أيضاً على تشخيص اللياقات والملكات، وقادر أيضاً على مجازات المتخلفين.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَنْفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٩

علائم الإيمان وطريقه: لقد شرعت سورة البقرة بيان بعض المعارف الإسلامية والاعتقادات الحقّة واختتمت بهذه المواضيع أيضاً كما في الآية أعلاه والآية التي بعدها، وبهذا تكون بدايتها ونهايتها متوافقة ومنسجمة.

وقد ذكر بعض المفسرين في تفسير بحر المحيط في سبب نزول هذه الآية أنه لما نزل «وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية، أشفقوا منها ما تقرر الأمر على أن قالوا سمعنا وأطعنا فرجعوا إلى التضرع والاستكانة فمدحهم الله وأثنى عليهم وقدم ذلك بين يدي رفقهم بهم وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر وهذه ثمرة الطاعة والإنقطاع إلى الله تعالى كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلّة والمسكنة والجلاء إذ قالوا سمعنا وعصينا وهذه ثمرة العصيان والتمرد على الله أعادنا الله تعالى من نقمه.

في البداية تقول: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ». فهذا المعنى وهذه الخصيصة تعتبر من إمتيازات الأنبياء الإلهيين جميعاً بأنهم مؤمنون بما جاءوا به إيماناً قاطعاً، فلا شك ولا شبهة في قلوبهم عن معتقداتهم، فقد آمنوا بها قبل الآخرين واستقاموا وصبروا عليها قبل الآخرين.

ثم تضيف الآية الكريمة: «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَنْفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ». وهذه الجمله الأخيرة من كلام المؤمنين أنفسهم، حيث يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين وشرائعهم.

ثم تضيف الآية أن المؤمنين مضافاً إلى إيمانهم الراسخ والجامع فإنهم في مقام العمل أيضاً كذلك: «وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

وبهذا يتناغم الإيمان بالمبدأ والمعاد مع الالتزام العملي بجميع الأحكام الشرعية والدساتير الإلهية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٠

مختصر الامثل ج ١ ٢٧٩

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَنَا طَاقَةً لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) كما تقدم في تفسير الآية السابقة أن هاتين الآيتين تتعلقان بالأشخاص الذين استوحشوا من تعبير الآية السابقة في أن الله تعالى مطلع على نياتهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها فقالوا: لا أحد منا يصفو قلبه عن الوسوسة والخاطرات القلبية. فالآية الحاضرة تقول: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

إن كل الأحكام يمكن تقييدها وتفسيرها بهذه الآية حيث تتحدّد في إطار قدرة الإنسان.

ثم تضيف الآية: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ».

فالآية تنبه الناس إلى مسؤولياتهم وعواقب أعمالهم، وتفند الأساطير التي تبرىء بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسؤولين عن أعمال الآخرين دون دليل.

«رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا».

لما كان المؤمنون يعرفون أن مصيرهم يتحدّد بما كسبت أيديهم من أعمال صالحة أو سيئة بموجب قانون «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» لذلك يتضرعون ويخاطبون الله بلفظ «الرب» الذي يوحى بمعاني اللطف في النشأة والتربية قائلين: إذا كنا قد أذنبنا بسبب النسيان أو الخطأ، فاغفر لنا ذنوبنا برحمتك الواسعة وجنّبنا العقاب.

وعليه فإن النسيان الناشئ عن التساهل يوجب العقاب.

فالخطأ يقال عادة في الامور التي تقع لغفلة من الإنسان وعدم إنتباه منه، أما النسيان فهو أن يتجه الإنسان للقيام بعمل ما ولكنه ينسى كيف يقوم بذلك.

«رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا». «الإصر»: عقد الشيء

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤١

وحبسه. وتطلق على الحمل الثقيل الذي يمنع المرء من الحركة.

وفي هذا المقطع من الآية يطلب المؤمنون من الله تعالى طلبين: الأول أن يرفع عنهم الفروض الثقيلة التي قد تمنع الإنسان من إطاعة الله، وهذا هو ما ورد (في الكافي) على لسان النبي صلى الله عليه وآله بشأن التعاليم الإسلامية، إذ قال: «بعثني (الله تعالى) بالحنيفية السهلة السمحة».

وفي الطلب الثاني يريدون منه أن يعفيهم من الإمتحانات الصعبة والعقوبات التي لا تطاق «وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَنَا طَاقَةً لَنَا بِهِ».

إنّ المؤمنين طلبوا من الله أن يزيل الآثار التكوينية والطبيعية لزللهم عن أرواحهم ونفوسهم. وفي المرحلة الثالثة يطلبون «رحمته الواسعة» التي تشمل كل شيء.

«أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

وفي آخر دعواهم يخاطبون الله على أنه مولاهم الذي يتعهدهم بالرعاية والتربية ويطلبون منه أن يمنحهم الفوز والانتصار على الأعداء.

«نهاية تفسير سورة البقرة»

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٣

### ٣. سورة آل عمران

محتوى السورة:

١- إنّ قسماً مهمّاً من هذه السورة يرتبط بمسألة التوحيد وصفات الله والمعاد والمعارف الإسلامية الأخرى.

٢- وقسم آخر منها يتعلق بمسألة الجهاد وأحكامه المهمة والدقيقة، وكذلك الدروس المستفادة من غزوتي بدر واحد.

٣- وفي قسم من هذه السورة يدور الحديث حول سلسلة من الأحكام الإسلامية في ضرورة وحدة صفوف المسلمين وفريضة الحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولي والتبري ومسألة الأمانة والإنفاق في سبيل الله وترك الكذب وضرورة الاستقامة والصبر في مقابل الأعداء والمشكلات والامتحانات الإلهية المختلفة وذكر الله على كل حال.

٤- وتطرقت هذه السورة إلى تكلمة للأبحاث التي تتحدث عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام وقصة مريم وكرامتها ومنزلتها عند الله وكذلك المؤامرات التي كان يحوكها أتباع الديانة اليهودية والمسيحية ضد الإسلام والمسلمين.

فضيلة تلاوة هذه السورة: روى في تفسير مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة آل عمران اعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٤

وفي تفسير نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ البقرة وآل عمران جانا يوم القيامة يظلمه على رأسه مثل الغماتين أو مثل الغيابتين».

الم (١) اللَّهُ لِمَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت أوائل السورة إلى نيف وثمانين آية في وفد نجران «١»، وكانوا ستين راكباً، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم، وصاحب مشورتهم الذي لا يصدر عن إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم، وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم. وكان قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنو له الكنائس، لعلمه واجتهاده.

فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبريات، جُلبت وأردية في جمال رجال بلخريث بن كعب، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا فصلوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت الصحابة: يا رسول الله! هذا في مسجدك؟ فقال رسول الله: «دعوهم فصلوا إلى المشرق». فتكلم السيد والعاقب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وآله «أسلما». قالوا: قد أسلما قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاءً كما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير». قالوا: إن لم يكن ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى. فقال لهما النبي صلى الله عليه وآله: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟» قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه

(١) «نجران»: منطقة في جبال اليمن الشمالية على بعد نحو عشرة منازل من صنعاء، وتسكنها قبائل همدان التي كان لها في الجاهلية صنم باسم «يعوق».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٥

الفناء؟ قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء ويحفظه ويرزقه؟» قالوا:

بلى. قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟» قالوا: لا. قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟» قالوا: بلى. قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلماً علم؟» قالوا:

لا. قال: «إِنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيسَى فِي الرَّحْمِ كَيْفَ شَاءَ وَرَبَّنَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يُحَدِّثُ». قالوا:

بلى. قال: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيسَى حَمَلْتَهُ امَّةٌ كَمَا تَحْمِلُ الْمَرْأَةُ، ثُمَّ وَضَعْتَهُ كَمَا تَضَعُ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا، ثُمَّ عُذِّي كَمَا يُعْذِي الصَّبِيُّ، ثُمَّ كَانَ يَطْعَمُ وَيَشْرَبُ وَيُحَدِّثُ؟» قالوا: بلى. قال: «فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا كَمَا زَعَمْتُمْ؟» فسكتوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ صَدْرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إِلَى بَضْعِ وَثْمَانِينَ آيَةً.

التفسير

فيما يتعلق بالحروف المقطعة في القرآن، سبق الحديث عنها في بداية سورة البقرة فلا موجب لتكرار ذلك. في الآية الثانية يقول تعالى: «اللَّهُ لِلَّهِ إِلَهًا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

سبق أن شرحنا هذه الآية في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

الآية التي تليها تخاطب نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وتقول: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الَّذِي فِيهِ دَلَالٌ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةُ، وَهُوَ يَتطَابَقُ تَمَامًا مَعَ مَا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْكَتَبُ السَّابِقَةُ (التوراة والإنجيل) التي بَشَّرْتَ بِهِ وَقَدْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» (١).

ثم تضيف الآية: «مَنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ».

وبعد إتمام الحجة بنزول الآيات الكريمة من الله تعالى وشهادة الفطرة والعقل على صدق دعوة الأنبياء، فلا سبيل للمخالفين سوى العقوبة، ولذلك تقول الآية محل البحث بعد ذكر حقانية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والقرآن المجيد: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».

ومن أجل أن لا يتوهم أحد أو يشك في قدرة الله تعالى على تنفيذ تهديداته تضيف الآية: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ».

«عزیز»: في اللغة بمعنى كل شيء صعب وغير قابل للنفوذ، ولذلك يقال للأرض الصعبة العبور (عزاز) وكذلك يطلق على كل أمر يصعب الحصول عليه لقلته وندرته (عزیز) وكذلك تطلق هذه الكلمة على الشخص القوى والمقتدر الذي يصعب التغلب عليه أو

(١) «الحق»: هو الموضوع الثابت المكين الذي لا باطل فيه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٦

يستحيل التغلب عليه، وكلما أطلقت كلمة (عزیز) على الله تعالى يراد بها هذا المعنى، أي أنه لا أحد يقدر على التغلب عليه، وأن كل المخلوقات خاضعة لمشيئته وإرادته.

إِنَّ اللَّهَ لَمَّا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) علم الله وقدرته المطلقة: هاتان الآيتان تكملان الآيات السابقة. في البداية تقول الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ».

فكيف يمكن أن يخفى عن أنظاره شيء من الأشياء في حين أنه حاضر وناظر في كل مكان، فلا يخلو منه مكان؟! وبما أن وجوده غير محدود، فلا يخلو منه مكان معين، ولهذا فهو أقرب إلينا من كل شيء حتى من أنفسنا، وفي نفس الوقت الذي يتنزّه فيه الله تعالى عن المكان والمحل، فإنه محيط بكل شيء.

ثم تبين الآية التالية واحدة من علم وقدره الله تعالى الرائعة، بل هي إحدى روائع عالم الخلق ومظهر بارز لعلم الله وقدرته المطلقة حيث تقول الآية: «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ». ثم تضيف: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

إنه لأمر عجيب ومحيّر حقاً أن يصوّر الله الإنسان وهو في رحم أمه صوراً جميلة ومتنوعة في أشكالها ومواهبها وصفاتها وغرائزها.

وهذه الآية تؤكد أن المعبود الحقيقي ليس سوى الله القادر الحكيم الذي يستحق العبادة، فلماذا إذن يختارون مخلوقات كالمسيح عليه

السلام ويعبدونها؟! السلام

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)

سبب النزول

جاء في تفسير نور الثقلين نقلاً عن كتاب «معاني الأخبار» حديث عن الإمام الباقر عليه السلام ما مضمونه: أن نفراً من اليهود ومعهم «حبي بن أخطب» وأخوه، جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٧

واحتجوا بالحروف المقطعة «الم» وقالوا: بموجب حساب الحروف الأبجدية، فإن الألف في الحساب الأبجدي تساوى الواحد، واللام تساوى ٣٠، والميم تساوى ٤٠، وبهذه فإن فترة بقاء امتك لا تزيد على إحدى وسبعين سنة! ومن أجل أن يلجمهم رسول الله صلى الله عليه وآله تساءل وقال ما معناه: لماذا حسبت «الم» وحدها؟ ألم تروا أن في القرآن «المص» و «الر» ونظائرها من الحروف المقطعة، فإذا كانت هذه الحروف تدل على مدة بقاء امتي، فلماذا لا تحسبونها كلها؟ (مع أن القصد من هذه الحروف أمر آخر) وعندئذ نزلت هذه الآية.

التفسير

المحكم والمتشابه في القرآن: تقدم في الآيات السابقة الحديث عن نزول القرآن بعنوان أحد الدلائل الواضحة والمعجزات البينة لنبوة الرسول صلى الله عليه وآله ففي هذه الآية تذكر أحد مختصات القرآن وكيفية بيان هذا الكتاب السماوي العظيم للمواضيع والمطالب في البداية: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ». أي: آيات صريحة وواضحة والتي تعتبر الأساس والأصل لهذا الكتاب السماوي «هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ». ثم إن هناك آيات أخرى غامضة بسبب علو مفاهيمها وعمق معارفها أو لجهات أخرى «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ».

هذه الآيات المتشابهة إنما ذكرت لاختبار العلماء الحقيقيين وتميزهم عن الأشخاص المعاندين اللجوجين الذين يطلبون الفتنة، فلذلك تضيف الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ» (١). فيفسرون هذه الآيات المتشابهة وفقاً لأهواءهم كيما يضلوا الناس ويشبهوا عليهم.

«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ».

ثم تضيف الآية: أن هؤلاء أي الراسخون في العلم بسبب دركهم الصحيح لمعنى المحكمات والمتشابهات «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا». أجل «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ».

من هذه الآية نستنتج أن آيات القرآن قسماً: قسم معانيها واضحة جداً بحيث لا يمكن إنكارها ولا إساءة تأويلها وتفسيرها، وهذه هي الآيات «المحكمات» وقسم آخر مواضيعها رقيقة المستوى أو أنها تدور حول عوالم بعيدة عن متناول أيدينا، كعلم الغيب، وعالم يوم القيامة، وصفات الله، بحيث إن معرفة معانيها النهائية وإدراك كنه أسرارها

(١) «زيع»: في الأصل بمعنى الانحراف عن الخط المستقيم والتمايل إلى جهة، والزيع في القلب بمعنى الانحراف العقائدي عن صراط المستقيم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٨

يستلزم مستوى عالياً من العلم، وهذه هي الآيات «المتشابهات».

المنحرفون والشواذ من الناس يسعون لاستخدام إبهام هذه الآيات لتفسيرها بحسب أهوائهم وبخلاف الحق، لكي يثيروا الفتنة بين



الناس ويضلوهم عن الطريق المستقيم، بيد أن الله والراسخين في العلم يعرفون أسرار هذه الآيات ويشرحونها للناس. رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لِمَا رَزَيْتَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) النجاة من الزيغ: بالنظر لاحتمال أن تكون الآيات المتشابهات وأسرارها موضع زلل الناس، فإن الراسخين في العلم المؤمنين يلجأون إلى ربهم إضافة إلى استعمال رأسمالهم العلمى فى إدراك حقيقة الآيات. وهذا ما تبينه هاتان الآيتان على لسان الراسخين فى العلم، وتقولان إن الراسخين فى العلم والمفكرين من ذوى البصيرة لا يفتأون يراقبون أرواحهم وقلوبهم لئلا ينحرفوا نحو الطرق الملتوية، فيطلبون لذلك العون من الله، فالغرور العلمى يخرج بعض العلماء عن مسيرهم إلى متاهات الضلال، لأنهم لا يلتفتون إلى عظمة الخلق والخالق وتفاهة ما عندهم من علم، فيحرمون من هداية الله، أما العلماء المؤمنون فيقولون: «رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ».

وليس أشد تأثيراً فى السيطرة على الميول والأفكار من الاعتقاد بيوم القيامة والمعاد، إن الراسخين فى العلم يصححون أفكارهم عن طريق الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، ويحولون دون التأثير بالميول والأحاسيس المتطرفة التى تؤدى إلى الزلل، ونتيجة لذلك يستقيمون على الصراط المستقيم بأفكار سليمة ودون عائق، نعم هؤلاء هم القادرون على الاستفادة من آيات الله كل الاستفادة. «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَأَرْزِبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

فى الحقيقة تشير الآية الاولى إلى إيمان هؤلاء الكامل «بالمبدأ»، وتشير الآية الثانية إلى إيمانهم الراسخ «بالمعاد». إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٩

بعد بيان مواقف الكفار والمنافقين والمؤمنين من الآيات «المحكمات» و «المتشابهات» فى الآيات السابقة، تقول هذه الآية: إذا كان الكفار المعاندون يحسبون أنهم بثرواتهم وأبنائهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم فى الآخرة فهم على خطأ كبير، فهذه الوسائل قد يكون لها تأثيرها المؤقت فى هذه الدنيا، ولكنها عند الله لن يكون لها أى تأثير، لا فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة، لذلك ينبغي ألا يغتر الإنسان بهذه الامور فتحمله على ارتكاب الإثم، وإلا فإنه يصلى ناراً سيكون هو حطبها. «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

يفيد هذا التعبير أن نار الجحيم مستعرة بوجود المذنبين، وهؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها ولهبها. ثم تشير الآية إلى نموذج من الامم السالفة التى كانت قد اوتيت الثروة الإنسانية والمادية الكثيرة، ولم تستطيع هذه الثروة أن تكون مانع من هلاكهم. «كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

هذا فى الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لكى يعتبروا بمصير الفراعنة والأقوام السالفة، ويصححوا أعمالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُونَ وَتَحْسُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)

سبب التزلزل

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى اليهود لما قتل الكفار بيدرو وهزموا، قالت اليهود: إنه النبى الامى الذى بشرنا به موسى، ونجده فى كتابنا بنعته وصفته، وأنه لا ترد له رايه. ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة اخرى.

فلما كان يوم احد ونكب أصحاب رسول الله، شكوا وقالوا: لا والله ما هو به. فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا. وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة لم تنقض، فنقضوا ذلك العهد قبل أجله، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فى ستين راكباً، فوافقهم وأجمعوا أمرهم على رسول الله لتكون كلمتنا واحدة، ثم رجعوا إلى المدينة. فأنزل الله فيهم هذه الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٠

التفسير

مع ما تقدم في سبب النزول يتضح أن الكفار المغرورين بأموالهم وأولادهم، وعددهم وعدتهم يتوقعون هزيمة الإسلام، ولكن القرآن الكريم يصرح في هذه الآية بأنهم سيُغلبون، ويخاطب النبي صلى الله عليه وآله بأن يخبرهم بذلك وأن عاقبتهم في الدنيا والآخرة ليست سوى الهزيمة والذل والعذاب الأليم: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُّغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبُنْسِ الْمِهَادُ» (١). هناك أخبار غيبية كثيرة في القرآن الكريم تعتبر من أدلة عظمته وإعجازه والآية أعلاه واحدة من هذه الأخبار الغيبية. وفي هذه الآية يبشّر الله نبيه صلى الله عليه وآله بالانتصار على جميع الأعداء.

ولم تمض فترة طويلة حتى تحققت نبوءة الآية وهزم يهود المدينة «بنو قريضة وبنو النضير» وفي خيبر - أهم معقل من معقلهم - اندحروا وتلاشت قواهم كما هُزم المشركون في فتح مكة هزيمة نكراء. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ التَّقَاتِ فَتَهُ تَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت هذه الآية في قصة بدر، وكان المسلمون ٣١٣ رجلاً على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر؛ ٧٧ رجلاً من المهاجرين و ٢٣٦ رجلاً من الأنصار، وكان صاحب لواء رسول الله والمهاجرين علي بن أبي طالب عليه السلام وصاحب راية الأنصار سعد بن عباد. وكانت الإبل في جيش رسول الله ٧٠ بعيراً، والخيول فرسين: فرس للمقداد بن أسود وفرس لمرثد بن أبي مرثد وكان معهم من السلاح ستة أدرع، وثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، في وجه عدو يزيد عدده على الألف، وكانت خيلهم مائة فرس، وجميع من استشهد يومئذ ١٤ رجلاً من المهاجرين و ٨ من الأنصار في مقابل ٧٠ قتيلًا و ٧٠ أسيراً من الأعداء وعادوا إلى المدينة تزيّنهم أكاليل النصر.

(١) «مهاد»: بمعنى المكان المهيأ، كما يقول الراغب، وهي في الأصل من مادة (مَهْد) وهو محل استراحة الطفل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥١

التفسير

تعقيباً على الآيات السابقة التي حذر القرآن فيها الكافرين من الإغترار بالمال والأبناء والأتباع، جاءت هذه الآية شاهداً حياً على هذا الأمر، فتدعوهم إلى الاعتبار بما جرى في معركة بدر التاريخية. «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ التَّقَاتِ». كيف لا تكون لهم عبرة وهم يرون أن جيشاً صغيراً لا يملك شيئاً من العدّة سوى الإيمان الراسخ ينتصر على جيش يفوقه أضعافاً في العدد والعدّة. «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ». تقول الآية: إن الكفار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم، أي أنهم إذا كانوا ٣١٣ شخصاً كان الكفار يرونهم أكثر من ٦٠٠ شخص، ليزيد من خوفهم، وكان هذا أحد أسباب هزيمة الكفار. «وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ». تشير الآية إلى حقيقة أن الله ينصر من يشاء. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» (١). في ختام الآية يؤكد سبحانه أن الذين وهبوا البصيرة بحيث يرون الحقائق كما هي، يعتبرون بهذا الانتصار الذي أحرزه اناس مؤمنون، ويدركون أن أساس هذا الانتصار هو الإيمان ... الإيمان وحده.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) تعقيباً على الآيات السابقة التي اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقي للإنسان - لا المال والبنين والأنصار - تشير هذه الآية إلى حقيقة أن الزوجة والأبناء والأموال إنما هي ثروات تنفع في الحياة المادية هذه، ولكنها لا يمكن

أن تشكّل هدف الإنسان الأصيل، صحيح أنه بغير هذه الوسائل لا يمكن السير في طريق السعادة والتكامل المعنوي، إلّا أن الاستفادة منها في هذا السبيل شيء وحبها وعبادتها- بغير أن تكون مجرد وسيلة يستفاد منها- شيء آخر.

(١) «عبرة»: في الأصل من مادة «عبر» بمعنى الانتقال من مرحلة إلى أخرى أو من مكان إلى آخر، ويقال لدمع العين «عبرة» على وزن «حسرة» لأنه يعبر من العين، ويقال للكلمات التي تمر من خلال اللسان والاذن «عبارات» أيضاً، وكذلك يقال للحوادث «عبرة» لأجل أن الإنسان عند ما يراها يعلم بمخلفاتها من الحقائق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٢

«زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبِّ الشَّهَوَاتِ ...» (١). إن التفسير الذي يبدو صحيحاً هو أن الله هو الذي زين للناس ذلك عن طريق الخلق والفضة والطبيعة الإنسانية.

إن الله هو الذي جعل حبّ الأبناء والثروة في جبلته الإنسان لكي يختبره ويسير به في طريق التربية والتكامل كما- في الآية (٧) من سورة الكهف- يقول القرآن: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَشْحَارِ (١٧) هذه الآية توضّح الخط البياني الصاعد لتكامل الحياة الإنسانية الذي اشير إليه في الآية السابقة، تقول الآية: هل اخبركم بحياة أرفع وأسمى من هذه الحياة المادية المحدودة في الدنيا، تلك الحياة فيها كل ما في هذه الحياة من النعم لكنها صورتها الكاملة الخالية من أي نقص وعيب خاصة بالمتقين. «قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ».

بساتينها، لا كبساتين الدنيا، لا ينقطع الماء عن الجريان بجوار أشجارها: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

ونعمها دائمة أبدية، لا كنعيم الدنيا السريعة الزوال: «خَالِدِينَ فِيهَا».

نساؤها خلافاً لكثير من غواني هذه الدنيا، ليس في أجسامهن ولا أرواحهن نقطة ظلام وخبث: «وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ».

كل هذا بانتظار المتقين. وأسمى من ذلك كله، النعم المعنوية التي تفوق كل تصور وهي: «رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ».

وتخبر الآية المؤمنين أنهم إذا امتنعوا عن اللذائذ غير المشروعة والأهواء الطاغية

(١) «الشهوات»: جمع شهوة، أي حبّ شيء من الأشياء حباً شديداً، ولكنها في هذه الآية بمعنى المشتبهات.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٣

الممزوجة بالمعصية، فإنهم سيفوزون في الآخرة بلذائذ مشابهة ولكن بمستوى أرفع وخالية من كل نقص وعيب إلّا أن هذا لا يعنى حرمان النفس من لذائذ الحياة الدنيا التي لهم أن يتمتعوا بها بصورة مشروعة. «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا».

في هذه الآية والآية التي بعدها نتعرف على المتقين الذين كانوا في الآية السابقة مشمولين بنعم الله العظيمة في العالم الآخر، فتعدان ستّ صفات من صفاتهم الممتازة:

١- إنهم يتوجهون إلى الله بكل جوارحهم والإيمان يضيء قلوبهم ولذلك يحسون بمسؤولية كبيرة في كل أعمالهم ويخشون عقاب أعمالهم خشية شديدة فيطلبون مغفرته والنجاه من النار: «فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

٢- مثابرون صابرون ذوو همّة، ومقاومون عند مواجهتهم الحوادث في مسيرة إطاعتهم لله وتجنبهم المعاصي، وعند ابتلائهم بالشدائد

الفردية والاجتماعية «الصَّابِرِينَ».

٣- صادقون ومستقيمون وما يعتقدون به في الباطن يعملون به في الظاهر ويتجنبون النفاق والكذب والخيانة والتلوث «وَالصَّادِقِينَ».

٤- في طريق العبودية لله خاضعون ومتواضعون ومواظبون على ذلك «وَالْقَانِتِينَ» (١).

٥- لا- ينفقون من أموالهم فحسب، بل ينفقون من جميع ما لديهم من النعم المادية والمعنوية في سبيل الله، فيعالجون بذلك أدواء المجتمع «وَالْمُنْفِقِينَ».

٦- في أواخر الليل وعند السحر، أي عندما يسود الهدوء والصفاء وحين يغط الغافلون في نوم عميق وتهدأ ضوضاء العالم المادي، يقوم ذوو القلوب الحية اليقظة، ويذكرون الله ويطلبون المغفرة منه وهم ذائبون في نور الله وجلاله، وتلهج كل ذرة من وجودهم بتوحيده سبحانه «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ».

روى في تفسير البرهان عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «من قال في آخر الوتر في السحر: استغفر الله وأتوب إليه، سبعين مرة، ودام على ذلك سنة كتبه الله من المستغفرين بالأسحار».

(١) «قانتين»: من مادة «قنوت» بمعنى الخضوع أمام الله وأيضاً بمعنى المداومة على الطاعة والعبودية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٤

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَمَّا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) تعقيباً على البحث في الآيات السابقة حول المؤمنين الحقيقيين، تشير هذه الآية إلى بعض أدلة التوحيد ومعرفة الله فتقول بأن الله تعالى يشهد بوحدانيته (من خلال إيجاد النظام الكوني العجيب)، كما تشهد الملائكة، ويشهد بعد ذلك العلماء والذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم والمعرفة: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَمَّا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ».

هذه الآية من الآيات التي كانت موضع اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله دائماً وكان يرددها في مواضع مختلفة.

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) «الدين»: في الأصل بمعنى الجزاء والثواب، ويطلق على «الطاعة» والإنقياد للأوامر، و«الدين» في الاصطلاح: مجموعة العقائد والقواعد والآداب التي يستطيع الإنسان بها بلوغ السعادة في الدنيا، وأن يخطو في المسير الصحيح من حيث التربية والأخلاق الفردية والاجتماعية.

«الإسلام»: يعنى التسليم وهو هنا التسليم لله وعلى ذلك، فإن معنى «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»: إن الدين الحقيقي عند الله هو التسليم لأوامره وللحقيقة، في الواقع لم تكن روح الدين في كل الأزمنة سوى الخضوع والتسليم للحقيقة.

وإنما أطلق اسم الإسلام على الدين الذي جاء به الرسول الأكرم لأنه أرفع الأديان.

ثم إن الآية تذكر علة الاختلاف الديني على الرغم من الوحدة الحقيقية للدين الإلهي وتقول: «وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

فعلى هذا إن الاختلاف ظهر أولاً: بعد العلم والإطلاع على الحقائق، وثانياً: كانت الدوافع لذلك هي الظلم والطغيان والحسد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٥

فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله مثلاً- بالإضافة إلى أن المعجزات والدلائل الواضحة في نصوص دينه تؤكد صدقه- وردت أوصافه وعلاماته في الكتب السماوية السابقة التي بقي قسم منها في أيدي اليهود والنصارى، ولذلك بشر علماءهم بظهوره قبل ظهوره، ولكنهم بعد أن بُعث رأوا مصالحهم في خطر، فأنكروا كل ذلك، يحدوهم الظلم والحسد والطغيان.

«وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

هذا بيان لمصير أمثال هؤلاء الذين لا يعترفون بآيات الله، إنهم سوف يتلقون نتائج عملهم هذا، فالله سريع في تدقيق حساباتهم. المراد من «آيات الله» في هذه الآية ما يشمل جميع آياته وبراهينه وكتبه السماوية، ولعلها تشمل أيضاً الآيات التكوينية في عالم الوجود.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) «المحاجه»: أن يسعى كل واحد في رد الآخر عن حجته ومحجته دفاعاً عن عقيدته. من الطبيعي أن يقوم أتباع كل دين بالدفاع عن دينهم، ويرون أن الحق بجانبهم، لذلك يخاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: قد يحاورك أهل الكتاب (اليهود والنصارى...) فيقولون إنهم قد أسلموا بمعنى أنهم قد استسلموا للحق، وربما هم يصرون على ذلك، كما فعل مسيحيو نجران مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلاية لا- تطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتجنب محاورتهم ومحاجتهم، بل تأمره أن يسلك سبيلاً آخر وذلك عندما يبلغ الحوار منتهاه فعليه لكي يهديهم ويقطع الجدل والخصام أن يقول لهم: إنني وأتباعي قد أسلمنا لله وأتبعنا الحق «فإن حاجوك فقل أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ».

ثم يسأل أهل الكتاب والمشركين إن كانوا هم أيضاً قد أسلموا لله وأتبعوا الحق فعليهم أن يخضعوا للمنطق: «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا».

فإذا لم يستسلموا للحقيقة المعروضة أمامهم، فإنهم لا يكونون قد أسلموا لله. عندئذ لا تمضي

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٦

في مجادلته، لأن الكلام في هذه الحالة لا تأثير له وما عليك إلا أن تبلغ الرسالة لا غير:

«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ»، ومن الواضح أن المراد ليس هو التسليم اللساني والادعائي، بل التسليم الحقيقي والعمل في مقابل الحق. وفي الختام يقول: «وَاللَّهُ بِصَيْرٍ بِالْعِبَادِ». فهو سبحانه يعلم المدعى من الصادق وكذلك اغراض ودوافع المتحاجين، ويرى أعمالهم الحسنة والقيحة ويجازي كل شخص بعمله.

يتضح من هذه الآية بكل جلاء أن أسلوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن أسلوب فرض الفكرة والعقيدة، بل كان أسلوبه السعي إلى توضيح الحقائق أمام الناس ثم يتركهم وشأنهم لكي يتخذوا قرارهم في اتباع الحق بأنفسهم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) تعقياً للآية السابقة التي تضمنت أن اليهود والنصارى والمشركين كانوا يجادلون رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يستسلمون للحق، ففي الآية الأولى إشارة إلى بعض علامات هذا الأمر حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ».

وتشير هذه الآية في البداية إلى ثلاث ذنوب كبيرة وهي الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير الحق وقتل الذين يدعون إلى العدالة ويدافعون عن أهداف الأنبياء، وكل واحد من هذه الذنوب يكفي لوحده لجعل الإنسان معانداً ومتصلاً بكفره وعدم تسليمه للحق، بل يسعى لخلق كل صوت يدعو إلى الحق.

ثم إن الآية تشير إلى ثلاثة عقوبات مترتبة على ارتكاب هذه الذنوب، ففي البداية تشير الآية: «فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

ثم تقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» فلو فرض أنهم عملوا بعض الأعمال الصالحة فإنها ستمحى وتزول بسبب الذنوب الكبيرة التي يرتكبونها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٧

والثالث أن الآية تقول: «وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» فلا أحد يحميهم من العقوبات الإلهية التي تنتظرهم ولا أحد يشفع لهم في ذلك اليوم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فِرْيَقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا وكانا ذوى شرف فيهم، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، ورجوا أن يكون عند رسول الله رخصة في أمرهما، فعرفوا أمرهما إلى رسول الله، فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أوفى، وبحرى بن عمرو: جرت عليهما يا محمد، ليس عليهما الرجم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «بيني وبينكم التوراة». قالوا: أنصفتنا. قال: «فمن أعلمكم بالتوراة؟» قالوا: رجل أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا. فأرسلوا إليه فقدم المدينة، وكان جبرائيل قد وصفه لرسول الله، فقال له رسول الله: «أنت ابن صوريا؟» قال: نعم. قال: «أنت أعلم اليهود؟» قال: كذلك يزعمون. قال: فدعا رسول الله بشيء من التوراة فيها الرجم مكتوب، فقال له: «إقرأ». فلما أتى على آية الرجم، وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها. فقال ابن سلام: يا رسول الله! قد جاوزها. وقام إلى ابن صوريا، ورفع كفه عنها، ثم قرأ على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى اليهود، بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا، وقامت عليهما البينة رجما، وإن كانت المرأة حبلية، انتظر بها حتى تضع ما في بطنها. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله باليهودين فرجما. فغضب اليهود لذلك. فأنزل الله تعالى هذه الآية (١).

(١) في التوراة الموجودة حالياً، في سفر اللاويين في الفصل العشرين، الجملة العاشرة، نقراً ما يلي: «إذا زنا أحد بامرأة غيره، أى بامرأة جاره (مثلاً) يجب قتل الزانى والزانية». على الرغم من أن الرجم نفسه لم يرد، فقد ورد العقاب بالموت، وربما يكون التصريح بالرجم قد ورد في النسخة التي كانت موجودة على عهد رسول الله.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٨

التفسير

هذه الآيات تصرح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسلون بالتبريرات والأسباب الواهية لتفادى إجراء حدود الله، مع أن كتابهم كان صريحاً في بيان حكم الله بغير إبهام، وقد دُعوا للخضوع للحكم الموجود في كتابهم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ».

ولكن عصيانهم كان ظاهراً ومصحوباً بالإعراض والطغيان واتخاذ موقف المعارض لأحكام الله: «ثُمَّ يُتَوَلَّى فِرْيَقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ». يمكن الاستنتاج من «أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ» أن ما كان بين أيدي اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل لم يكن كاملاً، بل كان قسم منهما بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويين قد ضاع أو حُرف.

وفي الآية الثانية شرح سبب عصيانهم وتمردهم، وهو أنهم كانوا يحملون فكرة خاطئة عن كونهم من عنصر ممتاز، وهم اليوم أيضاً يحملون هذه الفكرة الباطلة الواضحة في كتاباتهم الدالة على الاستعلاء العنصرى.

كانوا يظنون أن لهم علاقة خاصة بالله سبحانه، حتى أنهم سموا أنفسهم «أبناء الله» كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود والنصارى في الآية (١٨) من سورة المائدة قولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ». وبناءً على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانة تجاه العقوبات الربانية، وكانوا ينسبون ذلك إلى الله نفسه. لذلك كانوا يعتقدون أنهم لن يعاقبوا على ذنوبهم يوم القيامة إلا أياماً معدودات: «قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ».

هذه الإمتيازات الكاذبة المصطنعة، التي أسبغوها على أنفسهم ونسبوها إلى الله، صارت شيئاً فشيئاً جزءاً من معتقداتهم بحيث إنهم

اغترّوا بها وراحوا يخالفون أحكام الله ويخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأه لا مزيد عليها «وَعَزَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٩

وتدحض الآية الثالثة كل هذه الخيالات الباطلة وتقول: لا شك أن هؤلاء سوف يلاقون يوماً يجتمع فيه البشر أمام محكمة العدل الإلهي فيتسلم كل فرد قائمة أعماله، ويحصدون ناتج ما زرعه، ومهما يكن عقابهم فهم لا يُظلمون لأن ذلك هو حاصل أعمالهم «فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّارْتِيَبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ ألم يكفه المدينة ومكة حتى طمع في الروم وفارس؟ ونزلت هذه الآية.

التفسير

دار الكلام في الآيات السابقة حول المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يخضون أنفسهم بالعهز وبالمملك، وكيف أنهم كانوا يرون أنفسهم في غنى عن الإسلام. فنزلت هاتان الآيتان تفنيدان مزاعمهم الباطلة. يقول تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ».

إن المالك الحقيقي للأشياء هو خالقها، وهو الذي يعطي لمن يشاء الملك والسلطان، أو يسلبهما ممن يشاء، فهو الذي يعز، وهو الذي يذل، وهو القادر على كل هذه الامور: «وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». ولا حاجة للقول بأن مشيئة الله في هذه الآيات لا تعني أنه يعطي بدون حساب ولا موجب، أو يأخذ بدون حساب ولا موجب، بل إن مشيئته مبنية على الحكمة والنظام ومصحة عالم الخلق وعالم الإنسانية عموماً، وبناءً على ذلك فإن أي عمل يقوم به إنما هو خير عمل وأصحّه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٦٠

إن مشيئة الله هي نفسها عالم الأسباب، إنما الاختلاف في كيفية استفادتنا من عالم الأسباب هذا. في الآية التالية ولتأكيد حاكمية الله المطلقة على جميع الكائنات تضيف الآية:

١- «تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ».

وبهذا تذكر الآية بعض المصاديق البارزة على قدرة الله تعالى، ومنها مسألة التغيير التدريجي لليل والنهار، بمعنى أن الليل يقصر مدته في النصف من السنة وهو ما عثر عنه بدخوله في النهار بينما يطول الليل ويقصر النهار في النصف الثاني من السنة وهو دخول وولوج النهار في الليل وكذلك اخراج الموجودات الحية من الميتة وبالعكس وكذلك الرزق الكثير الذي يكون من نصيب بعض الأشخاص دون بعض كلها من علائم قدرته المطلقة.

«الولوج»: بمعنى الدخول والقصد من الآية هو هذا التغيير التدريجي الذي نراه بين الليل والنهار طوال السنة، هذا التغيير ناشىء عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ٢٣ درجة واختلاف زاوية سقوط أشعة الشمس عليها.

إن للتدرج في تغيير الليل والنهار آثاراً مفيدة في حياة الإنسان والكائنات الاخرى على الأرض لأن نمو النباتات وكثير من الحيوانات يتم في إطار نور الشمس وحرارتها التدريجية.

٢- «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ».

إن معنى خروج «الحي» من «الميت» هو ظهور الحياة من كائنات عديمة الحياة، فنحن نعلم أنه في اليوم الذي استعدت فيه الأرض لاستقبال الحياة، ظهرت كائنات حية من كائنات عديمة الحياة، أضف إلى ذلك أن مواد لا حياة فيها تصبح باستمرار أجزاء من خلايانا الحية وخلايا جميع الكائنات الحية في العالم، وتبدل إلى مواد حية.

أما خروج «الميت» من «الحي» فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا.

إن الآيات - في الواقع - إشارة إلى قانون التبادل الدائم بين الحياة والموت، وهو أعم القوانين التي تحكمنا وأعقدها، كما أنه أروعها في الوقت نفسه.

٣- «وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

هذه الآية تعتبر من باب ذكر «العام» بعد «الخاص» إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤١

من الرزق الإلهي، أما هنا فالآية تشير إلى جميع النعم على وجه العموم، أي أن العزة والحكم والحياة والموت ليست هي وحدها بيد الله بل بيده كل أنواع الرزق والنعم أيضاً.

وتعبير «بِغَيْرِ حِسَابٍ» يشير إلى أن بحر النعم الإلهية من السعة والكبر بحيث إنه مهما أعطى منه فلن ينقص منه شيء ولا حاجة به لضبط الحسابات.

لَمَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ذكرت الآيات السابقة أن العزة والذلة وجميع الخيرات بيد الله تعالى. وبهذه المناسبة فإن هذه الآية تحذر المؤمنين من مصادقة الكافرين وتنهاهم بشدة من موالاتهم الكفار، لأنه إذا كانت هذه الصداقة والولاء من أجل العزة والقدرة والثروة، فإنها جميعاً بيد الله عز وجل ولذلك تقول الآية: «لَمَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ». ولو ارتكب أحد المؤمنين ذلك فإنه يقطع ارتباطه مع الله تماماً: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ». وقد نزلت هذه الآية في وقت كانت هناك روابط بين المسلمين والمشركين مع اليهود والنصارى.

وهذه الآية درس سياسي واجتماعي مهم للمسلمين فتحذّرهم من إتخاذ الأجنبي صديقاً أو حامياً أو عوناً ورفيقاً في أي عمل من أعمالهم ومن الإنخداع بكلامه المعسول وعروضه الجذابة وتظاهره بالمحبة الحميمة، لأن التاريخ قد أثبت بأن أفسى الضربات التي تلقاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

قوله تعالى «مَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» إشارة إلى أن الناس في حياتهم الاجتماعية لابد لهم من إتخاذ الأصدقاء والأصدقاء فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين لا من بين الكافرين.

«فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ».

تقول الآية: إن الذين يعقدون أوامر صداقتهم وولاءهم مع أعداء الله، ليسوا من الله في أي شيء من الأشياء، أي إنهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعة أوامر الله وقطعوا علاقتهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٢

بالجماعة المؤمنة الموحدة، وانقطعت إرتباطاتهم من جميع الجهات. «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً». هذا استثناء من الحكم المذكور وهو أنه إذا اقتضت الظروف - التقيّة - للمسلمين أن يظهر الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم، ولكن الآية تعود في الختام لتؤكد الحكم الأول فتقول: «يُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ». فالله ينذر الناس أولاً بغضب منه وبعقاب شديد، ثم إن مرجع الناس جميعاً إلى الله وإن تولّوا أعداء الله نالوا عاجلاً نتيجة أعمالهم.

إن التقيّة في موضعها حكم عقلي قاطع ويتفق مع الفطرة الإنسانية.



قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) نهت الآية السابقة عن الصداقة والتعاون مع الكافرين والاعتماد عليهم نهياً شديداً، واستثنت من ذلك حالة «التقية». إلا أن بعضهم قد يتخذ من «التقية» في غير محلها ذريعة لمد يد الصداقة إلى الكفار أو الخضوع لولايتهم وسيطرتهم. وبعبارة أخرى أنهم قد يستغلون «التقية» ويتخذونها مبرراً لعقد أو اصر العلاقات مع أعداء الإسلام، فهذه الآية تحذر أمثال هؤلاء وتأمروهم أن يضعوا نصب أعينهم علم الله المحيط بأسرار القلوب والعالم بما ظهر وما خفى وتقول: «قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ». ولا يقتصر علم الله الواسع على ذلك، بل: «وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

في الواقع أن هذه الآية لكي تتبه الناس إلى إحاطة الله بأسرارهم الخفية، تشير إلى أن معرفة الله بأسرارهم إنما هي جانب صغير من مدى علمه اللامحدود الذي يسع السماوات والأرض، وهو إضافة إلى علمه الواسع قادر على معاقبة المذنبين: «وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) تشير هذه الآية إلى حضور الأعمال الصالحة والسيئة يوم القيامة، فيرى كل امرئ ما عمل من خير وما عمل من شرٍ حاضراً أمامه، فالذين يشاهدون أعمالهم الصالحة يفرحون

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٣

ويستبشرون، والذين يشاهدون أعمالهم السيئة يستولى عليهم الرعب ويتمنون لو أنهم استطاعوا أن يتعدوا عنها: «تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا». فالآية لم تقل أنه يتمنى فناء عمله وسيئاته، لأنه يعلم أن كل شيء في العالم لا يفنى فلذلك يتمنى أن يتعد عنه كثيراً.

«وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ».

في الجزء الأول من هذه العبارة يحذر الله الناس من عصيان أوامره وفي الجزء الثاني يذكّرهم برافته، ويبدو أن هذين الجزئين هما- على عادة القرآن- مزيج من الوعد والوعيد.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

سبب التزول

في تفسير المنار: قيل: أن الآية نزلت كالجواب لقوم ادّعوا أمام الرسول صلى الله عليه وآله إنهم يحبون ربهم.

وفي تفسير مجمع البيان: نزلت الآياتان في وفد نجران من النصارى لما قالوا: إِنَّا نَعْظُمُ الْمَسِيحَ حُبًّا لِلَّهِ.

التفسير

تقول الآية الاولى إن الحب ليس بالعلاقة القلبية فحسب، بل يجب أن تظهر آثاره في عمل الإنسان، إن من يدعى حب الله، فعليه أولاً اتباع رسوله: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي».

في الواقع أن من آثار الحب الطبيعية إنجذاب المحب نحو المحبوب والاستجابة له.

هذه الآية لا تقتصر في ردّها على مسيحيي نجران والذين ادّعوا حب الله على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بل هذا الرد أصيل وعام في منطق الإسلام موجه إلى جميع العصور والقرون، إن الذين لا- يفتأون- ليل نهار- يتحدثون عن حبهم لله ولأئمة الإسلام وللمجاهدين في سبيل الله وللصالحين والأخيار، ولكنهم لا يشبهون اولئك في العمل، هم كاذبون.

«يُحِبُّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». إذا كنتم تحبون الله، وبدت آثار ذلك في أعمالكم وحياتكم، فإن الله سيحبكم أيضاً، وسوف تظهر آثار حبه أنه سيغفر لكم ذنوبكم، ويشملكم برحمته.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٤

«قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ». هذه الآية تتابع حديث الآية السابقة وتقول: ما دتم تدعون الحب لله، إذا أتبعوا أمر الله ورسوله، وإن لم تفعلوا فليستم تحبون الله، والله لا يحب هؤلاء «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ».

إنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) في مبتدأ هذه الآية يشرع القرآن بسرد حكاية مريم وأجدادها ومقامهم، فهم النموذج الكامل لحب الله الحقيقي وظهور آثار هذا الحب في مقام العمل والذي أشارت إليه الآيات السابقة.

«اصطفى»: من الصفو وهو خلوص الشئ من الشوائب ومنه «الصفاء» للحجارة الصافية وعليه فالاصطفاء هو تناول صفو الشئ.

تقول الآية: إنَّ اللَّهَ إختار آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران من بين الناس جميعاً، هذا الاختيار قد يكون «تكوينياً» وقد يكون «تشريعياً» أى أن الله قد خلق هؤلاء منذ البدء خلقاً متميزاً، وإن لم يكن فى هذا الإمتياز ما يجبرهم على اختيار طريق الحق، بل إنهم بملء اختيارهم وحرية إرادتهم إختاروه، غير أن ذلك التميز أعدهم للقيام بهداية البشر ثم على أثر إطاعتهم أوامر الله، والتقوى والسعى فى سبيل هداية الناس نالوا نوعاً من التميز الإكتسابى، الذى إمتزج بتميزهم الذاتى، فكانوا من المصطفين.

«ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» (١).

تشير هذه الآية إلى أن هؤلاء المصطفين كانوا- من حيث الإسلام والطهارة والتقوى والجهد فى سبيل هداية البشر- متشابهين، بمثل تشابه نسخ عدده من كتاب واحد، يقتبس كل من الآخر: «بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ».

«وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». فى النهاية تشير الآية إلى حقيقة أن الله كان يراقب مساعيهم ونشاطهم، ويسمع أقوالهم، ويعلم أعمالهم. وفى هذا إشارة أيضاً إلى مسؤوليات المصطفين الثقيلة نحو الله ومخلوقات الله.

(١) «الذرية»: أصلها الصغار من الأولاد، وقد يشمل الأبناء الصغار والكبار أيضاً بلا واسطة أو مع الواسطة، والكلمة من «الذرة» بمعنى الخلق والإيجاد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٥

فى هذه الآية إشارة إلى جميع الأنبياء من اولى العزم، فبعد نوح الذى صرح باسمه، يأتى آل إبراهيم الذين يضمون نوحاً نفسه وموسى وعيسى ونبى الأكرم.

إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) تعقيباً على ما جاء فى الآية السابقة من إشارة إلى آل عمران، تشرع هاتان الآيتان بالكلام على مريم بنت عمران وكيفية ولادتها وتربيتها وما جرى لهذه السيدة العظيمة.

ورد فى الأحاديث أن الله قد أوحى إلى «عمران» أنه سيهبه ولداً مباركاً يشفى المرضى الميؤوس من شفائهم، ويحى الموتى بإذن الله، وسوف يرسله نبياً إلى بنى إسرائيل، فأخبر عمران زوجته «حنة» بذلك، لذلك عندما حملت ظنت أن ما تحمله فى بطنها هو الابن الموعود، دون أن تعلم أن ما فى بطنها ام الابن الموعود «مريم» فنذرت ما فى بطنها للخدمة فى بيت الله «بيت المقدس» ولكنها إذ رأتها انثى إرتبكت ولم تدر ما تعمل إذ إن الخدمة فى بيت الله كانت مقصورة على الذكور ولم يسبق أن خدمت فيه انثى.

والآن نباشر بالتفسير من خلاله نتعرف على تنمة الأحداث:

«إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا». هذه إشارة إلى النذر الذى نذرتة امرأة عمران وهى حامل بأنها تهب ابنها خادماً فى بيت المقدس، لأنها كانت تظنه ذكراً بموجب البشارة التى أتاها بها زوجها ولذلك قالت «محرراً» ولم تقل «محررة»

ودعت الله أن يتقبل نذرها: «فَقَبِلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». «فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ انِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ .

هذه الآية تشرح حال ام مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد انثى، وراحت تخاطب الله قائلة: إنَّها انثى وأنت تعلم أن الذكر ليس كالانثى في تحقيق النذر، فالانثى لا تستطيع أن تؤدَّى واجبها في الخدمة كما يفعل الذكر فالنبت بعد البلوغ لها عادة شهرية ولا يمكنها مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٦٦

دخول المسجد، مضافاً إلى أن قواها البدنية ضعيفة، وكذلك المسائل المربوطة بالحجاب والحمل وغير ذلك: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ . وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ».

يتضح من هذه الجملة أن ام مريم هي التي سمَّتها بهذا الاسم عند ولادتها و «مريم» بلغتها تعني «العابدة» وفي هذا يظهر منتهى إشتياق هذه الام الطاهرة لوقف وليدها على خدمة الله لذلك طلبت من الله- بعد أن سمَّتها- أن يحفظها ونسلها من وسوسة الشياطين وأن يرعاهم بحمايته ولطفه: «وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنُكْحٍ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) تواصل هذه الآية سرد حكاية مريم. لقد أشرنا من قبل أن ام مريم لم تكن تصدق إمكان قبول الانثى خادمة في بيت الله، لذلك كانت تتمنى أن تلد مولوداً ذكراً، إذ لم يسبق أن اختيرت انثى لهذا العمل. ولكن الآية تقول إن الله قد قبل قيام هذه الانثى الطاهرة بهذه الخدمة الروحية والمعنوية، لأول مرة.

وكلمة «أنبتها» إشارة إلى تكامل مريم أخلاقياً وروحياً، كما أنه يتضمن نكتة لطيفة هي أن عمل الله هو «الإنبات» والإينماء. أي كما أن بذور النباتات تنطوى على استعدادات كامنة تظهر وتنمو عندما يتعهد المزارع، كذلك توجد في الإنسان كل أنواع الاستعدادات السامية الإنسانية التي تنمو وتتكامل بسرعة إن خضعت لمنهج المربين الإلهيين ولمزارعي بستان الإنسانية الكبير، ويتحقق الإنبات بمعناه الحقيقي.

«وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا». في هذه الآية يقول القرآن: إختار الله زكريا كى يتكفل مريم، إذ إن أباها عمران قد ودَّع الحياة قبل ولادتها، فجاءت بها امها إلى بيت المقدس وقدمتها لعلماء اليهود وقالت: هذه البنت هدية لبيت المقدس، فليتعهدوا أحدكم، فكثر الكلام بين علماء اليهود، وكان كل منهم يريد أن يحظى بهذا الفخر، وفي احتفال خاص- سيأتى شرحه في تفسير الآية (٤٤) من هذه السورة- اختير زكريا ليكفلها.

وكلما سبَّت وتقدَّم بها العمر ظهرت آثار العظمة والجلال عليها أكثر إلى حدِّ يقول القرآن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٦٧

عنها: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا».

كبرت مريم تحت رعاية زكريا، وكانت غارقة في العبادة والتعبد. بحيث إنَّها- كما يقول ابن عباس- عندما بلغت التاسعة من عمرها كانت تصوم النهار وتقوم الليل بالعبادة، وكانت على درجة كبيرة من التقوى ومعرفة الله حتى أنها فاقت الأخبار والعلماء في زمانها، وعندما كان زكريا يزورها في المحراب يجد عندها طعاماً خاصاً، فأخذ العجب من ذلك، سألها يوماً: «يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا». فقالت: «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

الآية لا تذكر شيئاً عن ماهية هذا الطعام ومن أين جاء، لكن بعض الأحاديث تفيد أنه كان فاكهه من الجنة في غير فصلها تحضر بأمر الله إلى المحراب، وليس ما يدعو إلى العجب في أن يستضيف الله عبداً تقياً.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَيِّدًا كَلِمَةً مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ انِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَ

امْرَأَتِي عَائِزَةَ قَالَتْ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قلنا إن زوجة زكريا وام مريم كانتا اختين، وكانتا عاقرين، وعندما رزقت ام مريم بلطف من الله هذه الذرية الصالحة، ورأى زكريا خصائصها العجيبة، تمنى أن يرزق هو أيضاً ذريةً صالحةً وطاهرةً وتقيةً مثل مريم، بحيث تكون آية على عظمة الله وتوحيده، وعلى الرغم من كبر سن زكريا وزوجته، وبُعدهما من الناحية الطبيعية عن أن يرزقا طفلاً، فإن حب الله ومشاهدة الفواكه الطرية في غير وقتها في محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملاً بإمكان حصوله في فصل شيخوخته على ثمرة الابوة، لذلك راح يتضرع إلى الله: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ». لم يمض وقت طويل حتى أجاب الله دعاء زكريا: «فَنَادَتْهُ الْمَلِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٨

وفيما كان يعبد الله في محرابه، نادته ملائكة الله وقالت له: إن الله يبشرك بمولود اسمه يحيى بل إنهم لم يكتفوا بهذه البشارة حتى ذكروا للمولود خمس صفات: الأول: سوف يؤمن بالمسيح ويشد أزره بهذا الإيمان: «مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ». ثانياً وثالثاً: سيكون من حيث العلم والعمل قائداً للناس «وَسَيِّدًا». كما أنه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة وعن التلوث بحب الدنيا «وَحَصُورًا». «الحصور» من الحصر، أى الذى يضع نفسه موضع المحاصرة. رابعاً وخامساً: من مميّزاته أيضاً أنه سيكون «نَبِيًّا» وأنه «مِّنَ الصَّالِحِينَ».

فلما سمع زكريا بهذه البشارة غرق فرحاً وسروراً، ولم يمتلك نفسه فى إخفاء تعجبه من ذلك فقال: «رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَائِزٌ». فأجابه الله تعالى:

«قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذى يشير إلى نفوذ إرادته تعالى ومشيئته، قنع بذلك. قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادُّكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) هنا يطلب زكريا من الله إماره على بشارته بمجيء يحيى، إن إظهار دهشته - كما قلنا - وكذلك طلب علامة من الله، لا يعينان أبداً أنه لا يثق بوعد الله، خاصة وأن ذلك الوعد قد تؤكد بقوله: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». إنما كان يريد زكريا أن يتحول إيمانه بهذا إيماناً شهودياً، كان يريد أن يمتلىء قلبه بالاطمئنان، كما كان إبراهيم يبحث عن اطمئنان القلب والهدوء الناشئين عن الشهود الحسى.

«قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا».

أجاب الله طلب زكريا هذا أيضاً، وعين له علامة، وهى أن لسانه كف عن الكلام مدة ثلاثة أيام بغير أى نقص طبيعى، فلم يكن قادراً على المحادثة العادية، ولكن لسانه كان ينطق إذا ما شرع يسبح الله ويذكره، هذه الحالة العجيبة كانت علامة على قدرة الله على كل شىء، فالله القادر على فكّ لجام اللسان عند المباشرة بذكره، قادر على أن يفكّ عقم رحم امرأة فيخرج منه ولداً مؤمناً هو مظهر ذكر الله، وهكذا تتضح العلاقة بين هذه العلامة وما كان يريد زكريا.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٩

«وَادُّكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ». «العشى»: تطلق عادة على أوائل ساعات الليل كما يقال «الإبكار» للساعات الأولى من النهار. وقيل إن «العشى» هو من زوال الشمس حتى غروبها و «الإبكار» من طلوع الفجر حتى الظهر. وفى الآية يأمر الله زكريا بالتسبيح. إن هذا التسبيح والذكر على لسان لا ينطق موقتاً دليل على قدرة الله على فتح المغلق، وكذلك هو أداء لفريضة الشكر لله الذى أنعم عليه بهذه النعمة الكبرى.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) بعد الإشارات العابرة إلى مريم فى الآيات السابقة التى دارت حول عمران وزوجته، هذه الآية تتحدث بالتفصيل عن مريم. تقول الآية إن الملائكة كانوا يكلمون مريم: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ».

ما أعظم هذا الإفتخار بأن يتحدث الإنسان مع الملائكة ويحدثونه، وخاصة إذا كانت المحادثة بالبشارة من الله تعالى باختياره وتفضيله، كما في مورد مريم بنت عمران، فقد بشرتها الملائكة بأن الله تعالى قد إختارها من بين جميع نساء العالم وطهرها وفضلها بسبب تقواها وإيمانها وعبادتها.

«يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ».

هذه الآية تكمله لكلام الملائكة مع مريم، فبعد أن بشرها بأن الله قد اصطفاهما، قالوا لها:

الآن اشكري الله بالركوع والسجود والخضوع له اعترافاً بهذه النعمة العظمى.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَهْمُ آيُهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) هذه الآية تشير إلى جانب آخر من قصة مريم عليها السلام وتقول بأن ما تقدم من قصة مريم وزكريا إنما هو من أخبار الغيب: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ». لأن هذه القصة بشكلها الصحيح والخالي من شوائب الخرافة لا توجد في أي من الكتب السابقة، مضافاً إلى أن سند هذه القصة هو وحى السماء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٠

ثم تضيف الآية: «وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَهْمُ آيُهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ». أي إنك لم تكن حاضراً حينذاك، بل جاءك الخبر عن طريق الوحي.

يستفاد من هذه الآية والآيات الاخرى الخاصة بيونس في سورة الصافات أن من الممكن اللجوء إلى القرعة لحل النزاع والخصام الذي يصل إلى طريق مسدود بحيث لا يكون هناك أي حل مقبول من أطراف النزاع.

قَالَتْ رَبِّ أُنَّى يُكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) هذه الآية تبين حادث ولادة المسيح الذي يبدأ بتقديم الملائكة البشارة لمريم عليها السلام بأمر من الله قائلين لها إن الله سوف يهب لك ولداً اسمه المسيح عيسى بن مريم، وسيكون له مقام مرموق في الدنيا والآخرة، وهو مقرب عند الله. «إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

تشير الآية التي بعدها إلى إحدى فضائل ومعجز عيسى عليه السلام وهي تكلمه في المهد:

«وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ». فقد جاء في سورة مريم أنه لدفع التهمة عن امه تكلم في المهد كلاماً فصيحاً أعرب فيه عن عبوديته لله وعن كونه نبياً.

ولما لم يكن من الممكن أن يولد نبي في رحم غير طاهرة، فإنه يؤكد بهذا الإعجاز طهارة امه.

والظاهر من آيات سورة مريم أنه عليه السلام تكلم منذ بداية تولده مما يستحيل على كل طفل أن يقوم به في هذا العمر عادة وبهذا كان كلامه في المهد معجزة كبيرة ولكن الكلام في مرحلة الكهولة «١» أمر عادي ولعل ذكره في الآية أعلاه مقارناً للحديث في المهد إشارة إلى أن كلامه في المهد مثل كلامه في الكهولة والكمال لم يجانب الصواب والحق والحكم.

(١) «الكهولة»: هي متوسط العمر، وقيل إنها الفترة ما بين السنة الرابعة والثلاثين حتى الحادية والخمسين، وما قبلها «شاب» وما بعدها «شيخ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧١

إننا نعلم أن هذه الدنيا هي دنيا العلل والأسباب، وأن الله قد دبر أمر الخلق بحيث إن خلق كل كائن يتم ضمن سلسلة من العوامل، فلكي يولد إنسان قرر الله أن يكون ذلك عن طريق الإتصال الجنسي، ونفوذ الحيمن في البويضة، لذلك حق لمريم أن تصيها الدهشة وأن تتقدم بسؤالها: كيف يمكن أن تحمل وتلد ويكون لها ولد بغير أن يكون لها أي اتصال جنسي مع أي بشر؟ «قَالَتْ رَبِّ

أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا».

فجاءتها الملائكة بأمر ربها تخبرها بأن الله يخلق ما يشاء وكيفما يشاء، فنظام الطبيعة هذا من خلق الله وهو يأتي بأمره، والله قادر على تغيير هذا النظام وقتما يشاء، فيخلق وفق أسباب وعوامل أخرى غير عادية ما يشاء: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ». ثم لتوكيد هذا الأمر وإنهائه يقول: «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ». إن تعبير «كن فيكون» إشارة إلى سرعه الخلق.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُرِي الْأَكْمَةَ وَالتَّابِرُصَ وَ أَحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُتْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) بعد أن ذكرت الآيات السابقة أربع صفات للمسيح عليه السلام (وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد، ومن الصالحين) شرعت هاتان الآيتان بذكر صفتين أخريين من صفات هذا النبي العظيم، فالأولى تقول: «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ». ففي البداية تشير إلى تعليمه الحكمة والعلم بشكل عام ثم تبين مصداقين من مصدايق الكتاب والحكمة وهما التوراة والإنجيل.

في الآية الأولى كان الكلام عن علم المسيح وكتبه السماوية وفي الآية الثانية إشارة إلى معجزاته العديدة ثم تبين الهدف من كل ذلك وهو هداية بني إسرائيل المنحرفين: «وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ». ثم تضيف الآية: «أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ». وليست آية واحدة، بل آيات عديدة. مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٢

ولما كانت دعوة الأنبياء في الحقيقة دعوة إلى حياة حقيقية، فإن هذه الآية- عند بيان معجزات السيد المسيح عليه السلام- تبدأ بذكر بث الحياة في الأموات بإذن الله، وتقول على لسان المسيح: «أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ». ثم تشير إلى معالجة الأمراض الصعبة العلاج أو التي لا علاج لها وتقول على لسانه: «وَأُرِي الْأَكْمَةَ وَالتَّابِرُصَ وَ أَحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ» (١). لا شك أن القيام بكل هذه الأعمال وخاصة لدى علماء الطب في ذلك الزمان كان من المعجزات التي لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك تشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافية، فلكل امرئ في حياته بعض الأسرار التي لا يعرف الآخرون شيئاً عنها، فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما أدخروه، فهذا يعني أنه يستقي معلوماته من مصدر غيبى: «وَأُتْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ». وأخيراً يقول: إن هذه كلها دلائل صادقة للذين يؤمنون منكم «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». تفيد هذه الآية وآيات أخرى أن رسل الله وأوليائه يستطيعون بإذن منه وبأمره- إذا اقتضى الأمر- أن يتدخلوا في عالم الخلق والتكوين وأن يحدثوا ما يعتبر خارقاً للقوانين الطبيعية. وهذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أي إدارة الناس وحكمهم ونشر قوانين الشريعة بينهم ودعوتهم إلى الله وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١) هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السلام وليبان بعض اهداف النبوة حيث يقول: جئت أوكد لكم التوراة واثبت اصولها ومبادئها «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ». كما جئت لأرفع الحظر الذي فرض عليكم بالنسبة لبعض الأشياء في دين موسى عليه السلام بسبب

(١) «اكمه»: قيل إنه يعني أعمى وذهب بعض إلى أنه العشو الليلي، ولكن أغلب المفسرين وأرباب اللغة ذهبوا إلى أنه يعني الأعمى

منذ الولادة، وبعض ذهب إلى أكثر من ذلك بأن المراد هو عدم وجود أصل العين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٣

عصيانكم- مثل منع لحم الأباغ وبعض شحوم الحيوانات وبعض الطيور والأسماك- «وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ». ثم مرّة اخرى تتكرر الجملة التي قرأناها على لسان المسيح فى الآية السابقة: «وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ».

وفى الآية الثانية تؤكد على لسان السيد المسيح عليه السلام عبودية المسيح لرفع كل إبهام وريب قد ينشأ من كفيه ولادته التى قد يتشبث بها البعض لإثبات الوهيته وتقول: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ». يتضح من هذه الآية ومن آيات اخرى أن السيد المسيح لكى يزيل كل إبهام وخطأ فيما يتعلّق بولادته الخارقة للعادة ولكى لا يتخذونها ذريعة لتأليهه كثيراً ما يكرر القول: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» و «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتِنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» «١». بخلاف ما نراه فى الأناجيل المحرّفة الموجودة التى تنقل عن المسيح أنه كان يستعمل «الأب» فى كلامه عن الله، إن القرآن يذكر «الرب» بدلاً من ذلك: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ». وهذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح فى محاربه من يدعى الوهيته، بل لكى يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس: «فَاعْبُدُوهُ». أى اعبدوا الله ولا تعبدونى.

ولذلك نجد أنه لم يكن أحد من الناس يتجرأ فى حياة السيد المسيح أن يدعى الوهيته أو أنه أحد الآلهة وحتى بعد عروجه بقرنين من الزمان لم تخالط تعليماته فى التوحيد شوائب الشرك، إلّا أن التثليث باعتراف أرباب الكنيسة ظهر فى القرن الثالث للميلاد (وسياتى تفصيل ذلك فى ذيل الآية ١٧١ من سورة النساء).

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٥٤) كان اليهود ينتظرون مجيء المسيح عليه السلام بموجب ما بشرهم به موسى عليه السلام قبل أن يولد ولكنه عندما ظهر وتعرضت مصالح جمع من الظالمين والمنحرفين من بنى إسرائيل للخطر لم

(١) سورة مريم / ٣٠.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٤

يبقى معه إلّا نفر قليل، بينما تركه الذين احتملوا أن يؤدّى قبولهم دعوة المسيح والتقيد بالقوانين الإلهية إلى ضياع مصالحهم. بعد أن أعلن عيسى دعوته وأثبتها بالأدلة الكافية، أدرك أن جمعاً من بنى إسرائيل يصرون على المعارضة والعصيان ولا يتركون المعاندة والانحراف: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ». فنادى فى أصحابه و «قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» «١». فاستجاب لندائه نفر قليل، كانوا أطهاراً سَمَاهم القرآن ب «الحواريين» لبوا نداء المسيح ولم ييخلوا بشيء فى سبيل نشر أهدافه المقدسة.

أعلن الحواريون استعدادهم لتقديم كل عون للمسيح عليه السلام وقالوا: «نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

لاحظ أن الحواريين قالوا: نحن أنصار الله ننصر دينه. بل لكى يعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيد وليؤكّدوا إخلاصهم ولم يقولوا: نحن أنصارك.

وبعد أن قبل الحواريون دعوة المسيح إلى التعاون معه واتخاذها شاهداً عليهم فى إيمانهم، اتجهوا إلى الله يعرضون عليه إيمانهم قائلين: «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ». ولكن لما كانت دعوى الإيمان لا تكفى وحدها، فقد اتبعوا ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر الله واتباع رسوله المسيح وقالوا مؤكدين: «وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ».

عندما يتغلغل الإيمان فى روح الإنسان لابد أن ينعكس ذلك على عمله، فبدون العمل يكون إدعاؤه الإيمان تقوُّلاً، لا إيماناً حقيقياً.

بعد ذلك طلبوا من الله قائلين «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ». والشاهدون هم أولئك الذين لهم صفة قيادة الامم، ويوم القيامة يشهدون على

أعمال الناس الحسنه والسيئه.

وبعد أن إنتهى الحواريون من شرح إيمانهم، أشاروا إلى خطط اليهود الشيطانية، وقالوا:  
 إن هؤلاء- لكى يقضوا على المسيح عليه السلام وعلى دعوته ويصدوا انتشار دينه- وضعوا الخطط الماكرة، إلّا أن ما رسمه الله من  
 مكر فاق مكرهم وكان أشد تأثيراً: «وَمَكَّرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

(١) التعبير «أحسن» مع أن الكفر أمر باطنى لا يدرك بالحواس قد يكون أن إصرارهم على الكفر بلغ مرتبة من الشدة وكأنه أصبح  
 محسوساً (الميزان فى تفسير القرآن، ذيل الآية مورد البحث).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٥

أمّا سبب تسمية تلامذة المسيح بالحواريين فقد ذكرت له احتمالات كثيرة ولكن الأقرب إلى الذهن وهو الوارد فى أحاديث أئمة  
 الدين، هو لأنهم فضلاً عن طهارة قلوبهم وصفاء أرواحهم، كانوا دائبى السعى فى تطهير الناس وتنوير أفكارهم وغسلهم من أدران  
 الذنوب.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْجُومَ فَأَخِمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) قلنا إن اليهود- بالتعاون مع بعض المسيحيين الخونة- قرروا قتل السيد  
 المسيح، فأحبط الله مكرهم ونجى نبيه منهم، فى هذه الآية يذكر الله نعمته على المسيح قبل وقوع الحادثه، قائلاً: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى  
 ابْنُ مَرْجُومَ فَأَخِمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

من المعروف عند المفسرين، بالإستناد إلى الآية (١٥٧) من سورة النساء، أن المسيح لم يقتل وأن الله رفعه إلى السماء.  
 ثم تضيف الآية: «وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». هذا جانب آخر من خطاب الله إلى المسيح، والقصد من التطهير هنا هو إنقاذه من  
 الكفار الخبثاء البعيدين عن الحق والحقيقة الذين كانوا يوجهون إليه التهم الباطلة، ويحكون حوله المؤامرات ساعين إلى تلوين  
 سمعته فنصر الله دينه وطهره من تلك التهم.

«وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وهذه بشاره يبشر بها الله المسيح وأتباعه لتشجيعهم على المضى فى الطريق الذى اختاروه، والواقع أن هذه واحدة من آيات الإعجاز  
 ومن تتبؤات القرآن الغيبية التى تقول إن أتباع المسيح سوف يسيطرون دائماً على اليهود الذين عادوا المسيح.  
 وفى ختام الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَخِمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

ويعنى أن ما تقدم من الانتصارات والبشائر يتعلق بالحياة الدنيا أما المحكمه النهائيه ونيل الجزاء الكامل فسيكون فى الآخرة.  
 فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ  
 أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٦

الآية الاولى والثانية تتابعان الخطاب للسيد المسيح وحال أتباعه وأعدائه بينما الآية الثالثة خاطب نبي الخاتم صلى الله عليه وآله.  
 وبعد ذكر رجوع الناس إلى الله ومحاسنتهم- فى الآية السابقة- يأتى فى هذه الآية ذكر نتيجة تلك المحاكمه، فالكافرون  
 والمعارضون للحق والعدالة سيلاقون فى الآخرة من العذاب الأليم مثل ما يلاقون فى الدنيا ولن يكون لأى منهم حام ولا نصير: «فَأَمَّا  
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ».

ومن الإشارة فى هذه الآية إلى عذاب الدنيا نفهم أن الكافرين- وهم هنا اليهود- لا ينجون من العذاب، وهذا ما يؤكد تاريخ اليهود،  
 ومن ذلك تفوق الآخرين عليهم كما جاء فى الآيات السابقة.



ثم أشار القرآن الكريم إلى الفئة الثانية وقال: «وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ». ثم يؤكد القول: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ».

ومن الواضح أن الله لا يحب الظالمين ولا يقدم على ظلم عباده بل يوفيهم اجرهم بالكامل.

وبعد ذكر تاريخ المسيح وبعض ما جرى له، يتجه الخطاب إلى رسول الأعمم صلى الله عليه وآله فيقول: كل هذا الذي سردناه عليك دلائل صدق لدعوتك ورسالتك وكان تذكيراً حكيماً جاء بصورة آيات قرآنية نزلت عليك، تبين الحقائق في بيان محكم وخالٍ من كل هزل وباطل وخرافة. «ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ».

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)

سبب التزل

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآيات في وفد نجران: العاقب والسيد ومن معهما، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فتزل: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٧

الآيات. فقرأها عليهم، فلما دعاهم رسول الله إلى المباهلة (١) استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك ...

فلما كان الغد جاء النبي صلى الله عليه وآله آخذاً بيد علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام بين يديه يمشيان وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم ...

روى أن الأسقف قال لهم: إنني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة.

التفسير

الآية الاولى تورده استدلالاً قصيراً وواضحاً في الرد على مسيحيي نجران بشأن ألوهية المسيح: إن ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلاً على أنه ابن الله أو أنه الله بعينه، لأن هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب ولا أم، وعليه، فكما أن خلق آدم من تراب لا يستدعي التعجب، لأن الله قادر على كل شيء، ولأن «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون، كذلك ولادة عيسى من أم وبغير أب، ليست مستحيلة «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

«الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ». هذه الآية تؤكد الموضوع وتقول: إن ما أنزلنا عليك بشأن المسيح أمر حقيقي من الله ولا يعتبره الشك، فلا تتردد في قبوله.

بعد الآيات التي استدلت فيها على بطلان القول بالوهية عيسى بن مريم، يأمر الله نبيه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاء من العلم والمعرفة، وأمره أن يقول لهم: إنني سأدعو أبنائي، وأنتم ادعوا أبناءكم، وأدعو نسائي، وأنتم ادعوا نساءكم، وأدعو نفسي، وتدعون أنتم أنفسكم، وعندئذ ندعو الله أن ينزل لعنته على الكاذب منا: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

(١) بمعنى الملائكة بين الشخصين، ولذا يجتمع أفراد للحوار حول مسألة دينية مهمة في مكان واحد ويتضرعون الله أن يفضح الكاذب

ويعاقبه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٨

تقول الآية- بعد شرح حياة المسيح عليه السلام- إن ما قصصناه عليك من قصة عيسى حقيقته أنزلها الله عليك وعليه، فإن المزاعم الباطلة القائلة بالوهية المسيح، أو اعتباره ابن الله، أو بعكس ذلك اعتباره لقيطاً، كلها خرافات باطلة «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ». ثم تضيف للتوكيد: إن الذي يليق للعبادة هو الله «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ» وحده، وأن اتخاذ معبود آخر دونه عمل بعيد عن الحق والحقيقة «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو قادر على أن يخلق ولداً بدون أب، وذلك على الله يسير.

الآية الثانية تهدد من لم يستسلم من هؤلاء للحق بعد الاستدلالات المنطقية في القرآن بشأن المسيح عليه السلام وكذلك إذا لم يخضعوا للمباهلة واستمروا في عنادهم وتعصبهم، لأن ذلك دليل على أنهم ليسوا طلاب حق، بل هم مقيدون بأغلال تعصبهم المجحف، وأهوائهم الجامحة، وتقاليدهم المتحجرة، وبذلك يكونون من المفسدين في المجتمع: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَبِإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ».

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) الدعوة إلى الاتحاد: في الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الإسلام (بكل تفاصيله) ولكن الدعوة هذه المرة تتجه إلى النقاط المشتركة بين الإسلام وأهل الكتاب، وبهذا يعلمنا القرآن درساً مفاداً: أنكم إذا لم توفقوا في حمل الآخرين على التعاون معكم في جميع أهدافكم، فلا ينبغي أن يقعد بكم اليأس عن العمل، بل إسعوا لإقناعهم بالتعاون معكم في تحقيق الأهداف المشتركة بينكم، كقاعدة للإنطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدسة «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً». «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

لو أنهم- بعد دعوتهم دعوة منطقية إلى نقطة التوحيد المشتركة- أصرّوا على الإعراض، فلا بد أن يقال لهم: اشهدوا أننا قد أسلمنا للحق، ولم تسلّموا، وبعبارة أخرى: فاعلموا أن من يطلب الحق، ومن يتعصب ويعاند. ثم قولوا لهم: «اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ». فلا تأثير لعنادكم وعصيانكم وابتعادكم عن الحق في أنفسنا، وإنّا ما زلنا على طريقنا- طريق الإسلام- سائرون، لا نعبد إلا الله، ولا نلتزم إلا شريعته الإسلام، ولا وجود لعبادة البشر بيننا.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٩

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن أحبار اليهود ونصارى اجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فتنازعوا في إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ». هذه الآية تردّ على مزاعم اليهود والنصارى، وتقول: إن جدلكم بشأن إبراهيم النبي المجاهد في سبيل الله جدل عقيم لأنه كان قبل موسى والمسيح بسنوات كثيرة والتوراة والإنجيل نزلا بعده بسنوات كثيرة «وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ». أيعقل أن يدين نبي سابق بدين لاحق؟ «أَفَلَا تَعْقِلُونَ». «هَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ».

هنا يُوَيِّخُهُمُ اللَّهُ قَائِلًا إِنَّكُمْ قَدْ بَحِثْتُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِكُمْ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ (وشاهدتم كيف أنكم حتى في بحث ما تعرفونه قد وقعتم في أخطاء كبيرة وكم بعدتم عن الحقيقة، فقد كان علمكم، في الواقع، جهلاً مركباً)، فكيف تريدون أن تجادلوا في أمر لا علم لكم به، ثم تدعون ما لا يتفق مع أي تاريخ؟

وفي نهاية الآية يقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». تؤكداً للموضوع السابق وتمهيداً لبحث الآية التالية.

أجل، إنه يعلم متى بعث إبراهيم عليه السلام بالرسالة لا أنتم الذين جئتم بعد ذلك بزمن طويل وتحكمون في هذه المسألة بدون دليل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٠

مختصر الامثل ج ١، ص: ٣١٩

«مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا». وهذا رد صريح على هذه المزاعم يقول إن إبراهيم لم يكن من اليهود ولا من المسيحيين، وإنما كان موحداً طاهراً مخلصاً أسلم لله ولم يشرك به أبداً.

«الحنيف»: من الحنف، وهو الميل من شيء إلى شيء، وهو في لغة القرآن ميل عن الضلال إلى الاستقامة.

يصف القرآن إبراهيم أنه كان حنيفاً لأنه شقّ حجب التعصب والتقليد الأعمى، وفي عصر كان غارقاً في عبادة الأصنام، نبذ هو عبادة الأصنام ولم يطأ طيء لها رأساً.

إن القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنه كان «حنيفاً» أضاف «مُشْلِماً» ثم أردف ذلك بقوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» لإبعاد احتمال آخر. ومما تقدم يتضح أن إبراهيم عليه السلام لم يكن تابعاً لهذه الأديان، ولكن كيف يمكننا إتباع هذا النبي العظيم الذي يفتخر باتباعه جميع أتباع الأديان السماوية؟

آخر آية من الآيات مورد البحث توضح هذا المطلب وتقول: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...». وعليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركة قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادئ دعوة إبراهيم، فقد بقى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله والمسلمون - بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه وتعميمه على جميع اصول الإسلام وفروعه - من أوفى الأوفياء له، فلا بد أن نعترف بأن هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا أولئك.

وفي ختام الآية يبشر الله تعالى الذين يتبعون رسالة الأنبياء حقيقة ويقول: «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ».

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)

سبب التزول

في تفسير القرطبي: نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى دينهم.

التفسير

هذه الآية تكشف خطئة الأعداء، وتذرهم بالكف عن محاولاتهم العقيمة استناداً إلى التريية التي نشأ عليها هذا الفريق من المسلمين في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله بحيث لا يمكن أن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨١

يكون هناك أي احتمال لارتدادهم. إن هؤلاء قد إعتنقوا الإسلام بكل وجودهم، ولذلك فإنهم يعشقون هذه المدرسة الإنسانية بمجامع قلوبهم ويؤمنون بها، وبناء على ذلك لا سبيل للأعداء إلى تضليلهم، بل إنهم إنما يضلون أنفسهم.

«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» وذلك لأنهم باللقاء الشبهات حول الإسلام وعلى رسول الإسلام واتهامهما بشتى التهم، إنما يربون في أنفسهم روح سوء الظن.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) تعقيباً للحديث عن الأعمال التخريبية لأهل الكتاب الواردة في الآية السابقة، توجه هاتان الآيتان الخطاب لأهل الكتاب وتلومهم على كتمانهم للحقائق وعدم التسليم لها، فتقول: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ».

السؤال هنا أيضاً موجه إلى أهل الكتاب عما يدعوهم إلى العناد واللجاجه والإصرار عليهما بعد أن قرأوا علامات نبي الخاتم في التوراه والإنجيل ويعلمون ما فيهما، فلماذا ينكرونها؟

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ». مرّة أخرى يستنكر القرآن قيامهم بالخلط بين الحق والباطل، وإخفاءهم الحق مع علمهم به، فهم على علمهم بالأمارات الواردة في التوراه والإنجيل عن رسول الأكرم صلى الله عليه و آله يخفونها.

وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ جِهَ النَّهَارِ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَ لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أُلْهِدَى اللَّهُ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أُلْهِدَى اللَّهُ يَدَهُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: تواطأ اثنا عشر رجلاً من أبحار اليهود خبير وقرى عرينه، وقال

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٢

بعضهم لبعض: أدخلوا في دين محمّد أول النهار باللسان دون الإعتقاد واكفروا به آخر النهار. وقولوا: إننا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمّداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه، وبطلان دينه. فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينه، وقالوا: إنهم أهل الكتاب وهم أعلم به منا. فيرجعون عن دينهم إلى دينكم.

التفسير

تكشف هذه الآية عن خطئه هدامه أخرى من خطط اليهود، وتقول إن هؤلاء لكي يزلزلوا بنية الإيمان الإسلامي توسلوا بكل وسيلة ممكنة، من ذلك أنّ «وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ اتَّفَقُوا أَن يُؤْمِنُوا بِمَا أُنزِلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَيَرْتَدُّوا عَنْهُ فِي آخِرِهِ» «آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ جِهَ النَّهَارِ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ».

لا- شك أنّ مثل هذه المؤامرة كانت ستؤثر في نفوس ضعفاء الإيمان، خاصة وأنّ اولئك اليهود كانوا من الأبحار العلماء، وكان الجميع يعرفون عنهم أنّهم عالمون بالكتب السماوية وبعلائم خاتم الأنبياء، فإيمانهم ثم كفرهم كان قادراً على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد، لذلك كانوا يعتمدون كثيراً على خطتهم الماهرة هذه، وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» دليل على أملهم هذا.

وكانت خطتهم تقضى أن يكون إيمانهم بالإسلام ظاهرياً، وأن يبقى إرتباطهم القلبي بدينهم. «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ».

«قُلْ إِنْ أُلْهِدَى اللَّهُ هَدَى اللَّهُ». هذه جملة معترضة جاءت ضمن كلام على لسان اليهود في ما قبلها وما بعدها من الآيات.

«أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ».

هذه الآية استمرار لأقوال اليهود، بتقدير عبارة (ولا تصدقوا) قبلها.

وعلى ذلك يصبح معنى الآية هكذا: «لا- تصدقوا أن ينال أحد ما نلتم من الفخر وما نزل عليكم من الكتب السماوية وكذلك لا تصدقوا أن يستطيع أحد أن يجادلكم يوم القيامة أمام الله ويدينكم لأنكم خير عنصر وقوم في العالم، وأنتم أصحاب النبوة والعقل والعلم والمنطق والاستدلال».

بهذا المنطق الواهي كان اليهود يسعون لنيل ميزة يتميزون بها من حيث علاقتهم بالله ومن حيث العلم والمنطق والاستدلال على الأقوام الاخرى، لذلك يردّهم الله في الآية

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٣

التالية بقوله: «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». أى: قل لهم إن المواهب والنعم، سواء أكانت النبوة والإستدلالات العقلية المنطقية، أم المفاخر الاخرى، هى جميعاً من الله، يسبغها على من يشاء من المؤهلين اللائقين الجديرين بها. «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

هذا تأكيد لما سبق أيضاً: إن الله يخص من عباده من يراه جديراً برحمته- بما فى ذلك مقام النبوة والقيادة- دون أن يستطيع أحد تحديده فهو صاحب الأفضال والنعم العظيمة.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية الكريمة أن الفضل الإلهي إذا شمل بعض الناس دون بعض، فليس ذلك لمحدودية الفضل الإلهي، بل بسبب تفاوت القابليات فيهم.

خطط قديمة: تعتبر هذه الآيات، فى الواقع، من آيات إعجاز القرآن، لأنها تكشف أسرار اليهود وأعداء الإسلام وتفصح خططهم لزعة مسلمي الصدر الأول، فيقظ المسلمون ببركتها ووعوا وساوس الأعداء المغرية، ولكنا لو دققنا النظر لأدركنا أن تلك الخطط تجرى فى عصرنا الحاضر أيضاً بطرق مختلفة، إن وسائل الإعلام الأعداء القوية المتطورة مستخدمة الآن للغرض نفسه، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية فى عقول المسلمين، وبخاصة الجيل الشاب، وهم فى هذا السبيل لا يتورعون عن كل فريء، ويلجأون إلى كل السبل ويتلبسون بلبوس العالم والمستشرق والمؤرخ وعالم الطبيعيات والصحفى، بل حتى الممثل السينمائي.

إنهم يصرحون أن هدفهم ليس التبشير بالمسيحية وحمل المسلمين على اعتناقها، ولا إعتناق اليهودية، بل هدفهم هو هدم اساس المعتقدات الإسلامية فى أفكار الشباب، وجعلهم غير مهتمين بدينهم وتراثهم، إن القرآن اليوم يحذر المسلمين من هذه الخطط كما حذرهم فى القديم.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٤

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: يعنى بقوله «مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ» عبد الله بن سلام، أودعه رجل ١٢٠٠ أوقية «١» من ذهب، فأداه إليه، فمدحه الله سبحانه.

ويعنى بقوله «مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ» فنحاص بن عازوراء وذلك أن رجلاً من قريش استودعه ديناراً، فخانه. والله يذمه فى هذه الآية لخيانته الأمانة.

التفسير

ترسم الآية ملامح اخرى لأهل الكتاب، كان جمع من اليهود يعتقدون أنهم لا يكونون مسؤولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحق فى تملك أماناتهم! كانوا يقولون: إننا أهل الكتاب، وأن النبي والكتاب السماوى نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محترمة عندنا. لقد تغلغت فيهم هذه الفكرة بحيث غدت عقيدة دينية راسخة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله «يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ» قال اليهود: إن لنا حق التصرف بأموال العرب واغتصابها لأنهم مشركون ولا يتبعون دين موسى.

من الجدير بالذكر أن هذه الآية تعلن أن أهل الكتاب لم يكونوا جميعاً ينجحون هذا الطراز من التفكير غير الإنساني، بل كان فيهم جماعة ترى أن من واجبها أن تودى حق الآخرين. ولذلك فإن القرآن لم يدينهم جميعاً ولم يلق تبعه أخطاء بعضهم على الجميع ولذلك يقول: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا».

إن الحوادث التى جرت فى الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن القرارات الدولية والرأى العام العالمى، وقضايا الحق والعدالة وأمثالها، لا قيمة لها فى نظر الصهاينة ولا معنى، وما من شىء يحملهم على الخضوع للحق سوى القوة،

وهذه من المسائل التي تتبأ بها القرآن.

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْتِنِ سَبِيلٌ». هذه الآية تبين منطقتهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأن «لأهل الكتاب» أفضلية على «الاميين» أى على المشركين والعرب الذين كانوا اميين غالباً أو أن المقصود كل من ليس له نصيب من قراءة التوراة والإنجيل، لذلك يحق لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحق أن يأخذهم على ذلك، حتى أنهم ينسبون إلى الله تقرير التفوق الكاذب.

(١) «الأوقية»: تساوى ١ / ١٢ من الرطل ويساوى ٧ مثاقيل، جمعها: أواق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٥

لا شك أن هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرد خيانة الأمانة، لأنهم كانوا يرون هذا حقاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

هؤلاء يعلمون أنه ليس في كتبهم السماوية أى شىء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس في أموالهم، ولكنهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسونها إلى الله.

الآية التالية تنفى مقولة اليهود: «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْتِنِ سَبِيلٌ» التي قزروا فيها لأنفسهم حرية العمل، فاستندوا إلى هذا الزعم المزيف للإعتداء على حقوق الآخرين بدون حق، حيث يتلاعبون بمصائر شعوب العالم، ولا يتورعون عن ارتكاب كل إعتداء على حقوق الإنسان، ويرون القوانين مجرد العوبة بيدهم لتحقيق مصالحهم، فتقول: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

تقرر هذه الآية أن مقياس الشخصية والقيمة الإنسانية ومحبة الله يتمثل في الوفاء بالعهد وفي عدم خيانة الأمانة خاصة، وفي التقوى بشكل عام.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في جماعة من أحبار اليهود أبى رافع، وكنانه بن أبى الحقيق، وحى بن الأخطب، وكعب بن الأشرف، كتموا ما فى التوراة من أمر محمّد وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لئلا تفوتهم الرياسة وما كان لهم على أتباعهم.

التفسير

تشير الآية إلى جانب آخر من آثام اليهود وأهل الكتاب، ولكونها وردت بصيغة عامة، فإنها تشمل كل من تنطبق عليه هذه الصفات. تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا». أى الذين يجعلون عهودهم مع الله والقسم باسمه المقدس موضع بيع وشراء لقاء مبالغ مادية، سيكون جزاءهم خمس عقوبات:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٦

١- أنهم سوف يُحرمون من نعم الله التي لا نهاية لها فى الآخرة «أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ» (١).

٢- إن الله يوم القيامة يكلم المؤمنين ولكنه لا يكلم أمثال هؤلاء «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ».

٣- إن الله سوف لا ينظر إليهم بنظر الرحمة واللطف يوم القيامة «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

٤- ولا يطهرهم من ذنوبهم «وَلَا يُزَكِّيهِمْ».

٥- وأخيراً سيعذبهم عذاباً شديداً «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

بديهي أن كلام الله ليس نطق اللسان لأن الله منزّه عن التجسّد، إنّما الكلام عن طريق الإلهام القلبى، أو عن طريق إحداث أمواج

صوتية في الفضاء كالكلام الذي سمعه موسى عليه السلام من شجرة الطور. وكذلك النظر إليهم فهو إشارة إلى العناية الخاصة بهم وليس المقصود النظر الجسماني.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) هذه الآية التي تؤكد ما بحثته الآيات السابقة بشأن خيانه بعض علماء أهل الكتاب وتقول: إن فريقاً من هؤلاء يلوون ألسنتهم عند تلاوتهم الكتاب، وهذا كناية عن تحريفهم كلام الله. وتضيف: إنهم في تحريفهم هذا من المهارة بحيث إنكم تحسبون ما يقرأونه آيات أنزلها الله، وهو ليس كذلك «لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ». ولكنهم لا يقنعون بذلك، بل يشهدون علانية بأنه من كتاب الله، وهو ليس كذلك «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». مرة أخرى يقول القرآن: إنهم في عملهم هذا ليسوا ضحية خطأ، بل هم يكذبون على الله بوعي وبتقصيد، وينسبون إليه هذه التهم الكبيرة وهم عالمون بما يفعلون «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

(١) «خلاق»: من مادة «خُلِقَ» بمعنى النصيب والفائدة. وذلك لأن الإنسان يحصل عليها بواسطة اخلاقه (وهو إشارة إلى أنهم يفتقدون الأخلاق الحميدة التي تؤهلهم للانتفاع في ذلك اليوم).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٧

مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِنًا بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَ لَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَ التَّيِّبِينَ أَرْبَابًا أ يَأْمُرْكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠) سبب التزلو

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن رجلاً قال: يا رسول الله! يسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن اكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله». فأنزل الله تعالى الآية.

التفسير

سبق أن قلنا إن واحدة من عادات أهل الكتاب القبيحة- اليهود والنصارى- كانت تزييف الحقائق، من ذلك قولهم بالوهية عيسى، زاعمين أنه هو الذي أمرهم بذلك، وكان هذا ما يريد بعضهم أن يحققه بشأن رسول الأكرم أيضاً، للأسباب التي ذكرناها في نزول الآية.

إن الآية رد حاسم على جميع الذين كانوا يقترحون عبادة الأنبياء. تقول الآية: ليس لكم أن تعبدوا نبي الخاتم ولا أي نبي آخر ولا الملائكة، ويخطيء من يقول إن عيسى قد دعاهم إلى عبادته. «مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ».

الآية تنفي نفيًا مطلقاً هذا الأمر، أي أن الذين أرسلهم الله وآتاهم العلم والحكمة لا يمكن- في أي مرحلة من المراحل- أن يتعدوا حدود العبودية لله، بل إن رسل الله هم أسرع خضوعاً له من سائر الناس، لذلك فهم لا يمكن أن يخرجوا عن طريق العبودية والتوحيد ويجزوا الناس إلى هوة الشرك.

«وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِنًا بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ».

«الرياني»: هو الذي أحكم إرتباطه بالله، ولما كانت الكلمة مشتقة من «رب» فهي تطلق أيضاً على من يقوم بتربية الآخرين وتدريب امورهم وإصلاحهم. وعلى هذا يكون المراد من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٨

هذه الآية: إن هذا العمل (دعوة الأنبياء الناس إلى عبادتهم) لا يليق بهم، إن ما يليق بهم هو أن يجعلوا الناس علماء إلهيين في ضوء

تعليم آيات الله وتدریس حقائق الدين، ويصيروا منهم أفراداً لا يعبدون غير الله ولا يدعون إلإ إلى العلم والمعرفة. «وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا».

هذه تكملة لما بحث في الآية السابقة، فكما أن الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم، فإنهم كذلك لا يدعونهم إلى عبادة الملائكة وسائر الأنبياء. وفي هذا جواب لمشركي العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة هم بنات الله، وبذلك يسبغون عليهم نوعاً من اللوهية، ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم من أتباع دين إبراهيم، كذلك هو جواب للصابئة الذين يقولون إنهم أتباع «يحيى» وكانوا يرفعون مقام الملائكة إلى حد عبادتهم، وهو أيضاً رد على اليهود الذين قالوا إن «عزيراً» ابن الله، أو النصرى الذين قالوا إن «المسيح» ابن الله، وأصفوا عليه طابعاً من الربوبية، فالآية ترد هؤلاء جميعاً وتقول إنه لا يليق بالأنبياء أن يدعوا الناس إلى عبادة غير الله. وفي الختام تقول الآية: «أَيُّكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

أيمكن أن يدعوكم النبي إلى الكفر بعد أن اخترتم الإسلام ديناً؟ أى: كيف يمكن لنبي أن يدعوا الناس أولاً إلى الإيمان والتوحيد، ثم يدلهم على طريق الشرك؟

تنوّه الآية ضمناً بعصمة الأنبياء وعدم انحرافهم عن مسير إطاعة الله.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى وجود علائم لنبي الخاتم صلى الله عليه وآله في كتب الأنبياء السابقين، أشارت هذه الآية إلى مبدأ عام، وهو أن الأنبياء السابقين وأتباعهم قد أبرموا مع الله ميثاقاً بالتسليم للأنبياء الذين يأتون بعدهم، وبالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشيء في مساعدتهم على تحقيق أهدافهم. تقول الآية: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٩

وفي القرآن إشارات كثيرة على وحدة الهدف عند أنبياء الله، وهذه الآية نموذج حتى على ذلك.

ثم لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآية: «قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي» «١».

هل اعترفتم بهذا الميثاق وقبلتم عهدي وأخذتم من أتباعكم عهداً بهذا الموضوع؟

وجواباً على ذلك: «قَالُوا أَقْرَضْنَا».

ثم لتوكيد هذا الأمر المهمّ وتشبيته يقول الله: كونوا شهداء على هذا الأمر وأنا شاهد عليكم وعلى أتباعكم «قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

وفي الآية الأخيرة يذم ويهدد القرآن الكريم ناقضى العهود ويقول: «فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فلو أن أحداً بعد كل هذا التأكيد على أخذ الموائيق والعهود المؤكدة- أعرض عن الإيمان بنبي كني الخاتم الذي بشرت به الكتب القديمة وذكرت علائمه، فهو فاسق وخارج على أمر الله تعالى، ونعلم أن الله لا يهدى الفاسقين المعاندين، كما مر في الآية (٨٠) من سورة التوبة:

«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ». ومن لا يكون له نصيب من الهداية الإلهية فإن مصيره إلى النار.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) مرّت بنا حتى الآن بحوث مسهبة في الآيات السابقة عن الأديان الماضية، وابتداءً من هذه الآية يدور البحث حول الإسلام وفيها إلفات لأنظار أهل الكتاب وأتباع الأديان السابقة



إلى الإسلام. تبدأ الآية بالتساؤل: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ».

(١) «الإصر»: العهد المؤكد الذى يستوجب نقضه العقاب الشديد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٠

أيريد هؤلاء ديناً غير دين الله؟ وما دين الله سوى التسليم للشرائع الإلهية، هى كلها قد جمعت بصورتها الكاملة الشاملة فى دين نبي الخاتم صلى الله عليه وآله. فإذا كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحقيقى فعليهم أن يسلموا. «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». يبدأ القرآن بتفسير الإسلام بمعناه الأوسع، فيقول: كل من فى السماوات والأرض، أو جميع الكائنات فى السماوات والأرض، مسلمون خاضعون لأوامره «طَوْعًا وَكَرْهًا».

هذا الإستسلام والخضوع يكون «طوعاً» أو اختيارياً أحياناً، إزاء «القوانين التشريعية» ويكون «كرهاً» أو إجبارياً أحياناً أخرى، إزاء «القوانين التكوينية».

«قُلْ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا». فى هذه الآية يأمر الله النبي والمسلمين بأنهم، فضلاً عن إيمانهم بما انزل على رسول الإسلام، عليهم أن يظهرُوا إيمانهم بكل الآيات والتعليمات التى نزلت على الأنبياء السابقين، وأن يقولوا: إِنَّا لَا نَفْرَقُ بَيْنَهُمْ مِنْ حَيْثُ صَدَقَهُمْ وَعَلَاقَتَهُمْ بِاللَّهِ، إِنَّا نَعْتَرِفُ بِالْجَمِيعِ، فَهَمَّ جَمِيعاً كَانُوا قَادَةً إِلَهِيْنَ، وَهَمَّ جَمِيعاً بَعَثُوا لِهَادِيَةِ النَّاسِ، إِنَّا نَسْلَمُ بِأَمْرِ اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي، وَبِذَلِكَ نَقْطَعُ أَيْدِيَ الْمَفْرَقِينَ.

«وَمِنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ». «يبتغ»: من «الإبتغاء» بمعنى الطلب والسعى، ويكون فى الامور المحموده وفى الامور المذمومة.

تقول الآية: أنه لا يقبل من أحد سوى الإسلام مع الأخذ بنظر الاعتبار احترام سائر الشرايع الإلهية المقدسة. وأما الذين يتخذون غير هذه الحقيقة ديناً، فلن يقبل منهم هذا أبداً، ولهم على ذلك عقاب شديد «وَهُوَ فِي الْأَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ». فى تفسير القرطبي (وفى تفسير روح الجنان أيضاً): نزلت هذه الآية فى الحارث بن سويد أخو الجلاس بن سويد وكان من الأنصار، إرتد عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً، فنزلت هذه الآية.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَمَّا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩١

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآيات فى رجل من الأنصار يقال له: حارث بن سويد بن الصامت. وكان قتل المحذر بن زياد البلوى غدراً، وهرب وارتد عن الإسلام، ولحق بمكة ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله: هل لى من توبه؟ فسألوا.

فنزلت الآية إلى قوله «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» فحملها إليه رجل من قومه، فقال: إني لأعلم أنك لصدوق، ورسول الله أصدق منك، وأن الله أصدق الثلاثة. ورجع إلى المدينة وتاب وحسن إسلامه.

التفسير

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أن الدين الوحيد المقبول عند الله هو الإسلام، وفى هذه الآيات يدور الحديث حول من قبلوا الإسلام ثم رفضوه وتركوه، ويسمى مثل هذا الشخص «مرتد». تقول الآية: «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ

الرَّسُولَ حَقًّا وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

فآية تقول: إن الله لا يعين أمثال هؤلاء الأشخاص على الإهتداء، لماذا؟ لأن هؤلاء قد عرفوا النبي بدلائل واضحة وقبلوا رسالته، فبعدولهم عن الإسلام أصبحوا من الظالمين والشخص الذي يظلم عن علم واطلاع مسبق غير لائق للهداية الإلهية: «وَاللَّهُ لَآيَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

المراد من «البيئات» في هذه الآية، القرآن الكريم وسائر معجزات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمراد من «الظالم» هو من يظلم نفسه بالمرتبة الأولى ويرتد عن الإسلام وفي المرتبة الثانية يكون سبباً في إضلال الآخرين. ثم تضيف الآية: «أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحق بعد معرفتهم له، كما هو مبين في الآية، أن تلعنهم الملائكة وأن يلعنهم الناس. «خَالِدِينَ فِيهَا لَأَيَّخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

تضيف الآية هنا أنهم فضلاً عن كونهم موضع لعن عام، فإنهم سيبقون في هذا اللعن إلى الأبد، فهم في الواقع كالشيطان الخالد في اللعن الأبدى.

ولا شك أن نتيجة ذلك هو أن يكونوا في عذاب شديد ودائم بغير تخفيف ولا إمهال.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٢

وفي آخر آية تفتح طريق العودة أمام هؤلاء الأفراد، وتدعوهم للتوبة، لأن هدف القرآن هو الإصلاح والتربية، ومن أهم الطرق لذلك هو فتح باب العودة للمذنبين والملوثين كما تفتح لهم الفرصة لجبران ما فرط منهم، فتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

يستفاد من هذه الآية أن الذنب عبارة عن نقص في الإيمان، وأنه بعد التوبة يقوم الشخص التائب بتجديد الإيمان ليتطهر من هذا النقص.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) كان الكلام في الآيات السابقة يدور حول الذين يندمون حقاً على إنحرافهم عن طريق الحق فيتوبون توبة صادقة، في هذه الآية يدور الكلام على الذين لن تقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا أولاً، ثم ارتدوا وكفروا، وأصروا على كفرهم. إن الله لن يقبل توبة هؤلاء، لأنهم لن يتخذوا باختيارهم خطوة في سبيل الله، بل هم مجبرون على إظهار الندم والتوبة بعد رؤيتهم انتصار المسلمين، لذلك فتوبتهم ظاهرياً ولن تقبل. وفي الآية الثانية يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ».

تخص الآية أولئك الذين يقضون أعمارهم كافرين في هذه الدنيا، ثم يموتون وهم على تلك الحال، يقول القرآن، بعد أن اتضح لهؤلاء طريق الحق، يسيرون في طريق الطغيان والعصيان، وهم ليسوا مسلمين، ولن يقبل منهم كل ما ينفقونه، وليس أمامهم أى طريق للخلاص، حتى وإن أنفقوا ملء الأرض ذهباً في سبيل الله.

من الواضح أن القصد من القول بإنفاق هذا القدر الكبير من الذهب إنما هو إشارة إلى بطلان إنفاقهم مهما كثر، لأنه مقرون بتلوث القلب والروح بالعداء لله، وإلا فمن الواضح أن ملء الأرض ذهباً يوم القيامة لا يختلف عن ملئها تراباً، إنما قصد الآية هو الكناية عن أهمية الموضوع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٣

أما بشأن مكان هذا الإنفاق، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ فقد ذكر المفسرون لذلك احتمالين إثنين، ولكن ظاهر الآية يدل على العالم الآخر، أى كانوا كافرين «وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا». فلو كانوا يملكون ملء الأرض ذهباً، وظنوا أنهم بالاستفادة من هذا المال، كما هي الحال

في الدنيا، يستطيعون أن يدروا العقاب عن أنفسهم، فهم على خطأ فاحش، وفي الواقع فإن مضمون هذه الآية يشبه قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة الحديد: «فَالْيَوْمَ لَا يُؤَخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا».

وفي الختام يشير إلى نكته أخرى في المقام ويقول: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ».

لا شك في أنهم سينالون عقاباً شديداً مؤلماً، ولن يكون باستطاعته أحد أن ينتصر أو يشفع لهم، لأن الشفاعة لها شرائط، وأهمها الإيمان بالله، ولهذا السبب فلو أن جميع الشفعاء اجتمعوا لإنقاذ أحد الكفار من عذاب النار لم تقبل شفاعتهم. وأساساً، بما أن الشفاعة بإذن الله، فإن الشفعاء لا يشفعون أبداً لمثل هؤلاء الأفراد غير اللاتقين للشفاعة، لأن الشفاعة تحتاج إلى قابلية المحل، والإذن الإلهي لا يشمل الأفراد غير اللاتقين.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمِمَّا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) من علائم الإيمان: بعد أن تحدثت الآية السابقة عن حال الكفار حينما يواجهون الواقع يوم القيامة، ويودون لو أنفقوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به، جاءت هذه الآية لتعطي درساً مهماً في «الإنفاق» بالمناسبة، فقد قال سبحانه وتعالى في هذه الآية: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ».

إن لكلمة «البر» معنى واسعاً يشمل كل أنواع الخير إيماناً كان أو أعمالاً صالحة، كما أن المستفاد من الآية (١٧٧) من سورة البقرة هو اعتبار «الإيمان بالله واليوم الآخر، والأنبياء، وإعانة المحتاجين، والصلاة، والصيام، والوفاء، والإستقامة في البأساء والضراء» جميعها من شعب البر ومصاديقه. وعلى هذا فإن للوصول إلى أن أى شىء مما ينفقونه لن يعزب عن الله سبحانه ولن يضيع، عقب الله على حثه للناس على الإنفاق مما يحبون بقوله: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٤

عَلِيمٌ». إنه يعلم بما تنفقونه صغيراً أم كبيراً، تحبونه أو لا تحبونه. تأثير القرآن في قلوب المسلمين: لقد كان آيات الكتاب العزيز تأثير بالغ ونفوذ سريع في أفئدة المسلمين الأوائل، فما أن سمعوا آيات جديدة النزول، إلماوظهر هذا التأثير على سلوكهم ومواقفهم وتصرفاتهم، ونذكر من باب المثال ما نقرأه في كتب التفسير والتاريخ الإسلامى مما ورد في مجال هذه الآية بالذات.

١- الشيخ ابو الفتوح الرازى في تفسيره (روح الجنان): أن رجلاً من الصحابة كان اسمه أبو طلحة وكان له في المدينة من النخيل ما لم يكن لأحد غيره وكان له نخيل في تجاه مسجد الرسول صلى الله عليه وآله في غاية النضارة والعمارة، وكان كثير الغلّة، وكان فيها عين ماء، والرسول صلى الله عليه وآله كان يأتى إليها ويشرب من مائها ويتوضأ منها، فلما نزل قوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» أتى أبو طلحة وقال: يا رسول الله! إن الله تعالى يعلم أن أحب المال إلى وأكرمه على هذه النخيلات، تصدقت بها رجاء البرّ غداً لتكون لى ذخيرة، يا رسول الله فضعها فى موضع ترى فيه الصّلاح، فقال الرسول صلى الله عليه وآله: «بِخْ ذَلِكَ مال رابح لك».

٢- فى تفسير (روح الجنان): كان لزييدة زوجة هارون الرشيد مصحف ثمين جداً، قد طلت غلافه بالذهب ورصعته بأنواع المجوهرات النفيسة وبينما كانت تتلوا القرآن ذات يوم بلغت الآية الكريمة: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» فتأملت فيه فقالت فى نفسها: «إنه ليس شىء ما هو أحب إلى من هذا المصحف» فأرسلت إلى باعة الجواهر وباعت جواهره ثم أنفقت ثمنه فى بركة ما زالت تنسب إليها حتى يومنا هذا.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)  
فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

سبب النزول

المستفاد من الروايات الواردة حول هذه الآيات وما ينقله المفسرون هو: أن اليهود طرحوا إشكالين آخرين على رسول الله صلى الله عليه وآله ضمن جدالهم له، أحدهما: أنكر اليهود تحليل النبي لحوم الإبل فقال: كل ذلك كان حلالاً لإبراهيم. فقالت اليهود: كل شيء تحرمه فإنه محرم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٥

على نوح وإبراهيم، وهلم جرا حتى إنتهى إلينا. فنزلت الآية.

والآخر: صلاته باتجاه الكعبة فكانوا يقولون: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء والأرض المقدسة. وقال المسلمون بل الكعبة أفضل.

فجاءت الآيات الثلاثة ترد على إنكارهم للأمر الأول وتفند زعمهم، بينما تكفلت الآيات القادمة الرد على اعتراضهم الأخير.

التفسير

صرحت الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث بتفنيد كل المزاعم اليهودية حول تحريم بعض أنواع الطعام الطيب (مثل لحوم الإبل وألبانها) وردت على هذه الكذبة بقولها: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ» (١).

إنّ المستفاد من الروايات الإسلامية هو أنّ يعقوب أخذه وجع العرق الذي يقال له عرق النسا «٢» فنذر إن شفاه الله أن يحرم العروق، ولحم الإبل، وهو أحب الطعام إليه. فاقتدى به أتباعه في هذا، حتى اشتبه الأمر على من أتوا من خلفهم فيما بعد فتصور بعض أنه تحريم إلهي، فنزلت الآية وتصرّح بأن نسبة هذا التحريم إلى الله سبحانه محض إختلاق.

وتأكيداً لهذه الحقيقة أمر الله نبيه في هذه الآية أن يطلب من اليهود بأن يأتوا بالتوراة الموجودة عندهم ويقرأوها ليتبين كذب ما ادعوه، وصدق ما أخبر به الله حول حلية الطعام الطيب كله إذ قال: «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ولكنهم أعرضوا عن تلبية هذا الطلب لعلمهم بخلو التوراة عن التحريم الذي ادعوه.

والآن بعد أن تبين كذبهم وافتراؤهم على الله لعدم استجابتهم لطلب النبي بإحضار التوراة، فإنّ عليهم أن يعرفوا بأن كل من افتري على الله الكذب إستحق وصف الظلم، لأنه بهذا الافتراء ظلم نفسه بتعريضها للعذاب الإلهي، وظلم غيره بتحريفه وإضلاله بما افتري، وهذا هو ما يعنيه قوله سبحانه في ختام هذه الآية: «فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

(١) «إسرائيل»: هو الاسم الآخر ليعقوب.

(٢) «عرق النسا»: ألم عصبى يمتد على مسار العصب الوركي من الالية إلى معصم القدم ويشد هذا الألم جداً إذا ما نثيت الساق الممتدة عند مفصل الحوض (الموسوعة العربية الميسرة).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٦

إنّ اليهود كانوا يحرمون الإبل وكل ما شق ظلفاً من البهائم، ولكن ذلك لا يدل على أنها كانت محرمة في شريعة نوح وإبراهيم أيضاً، إذ يمكن أن يكون هذا التحريم مختصاً باليهود عقاباً لهم وتنكيلاً. فإذا لم يكن لليهود حجة على زعمهم، وإذا تبين لهم صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في دعوته، واتضح لهم أنه على ملة إبراهيم، ودينه الحنيف حقاً يوجب عليهم أن يتبعوه «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». اتبعوا ملة إبراهيم الذي كان حنيفاً مستقيماً لا يميل إلى شيء من الأديان الباطلة، والأهواء الفاسدة، بل يسير في الطريق المستقيم، فلم يكن في دينه أي حكم منحرف مائل عن الحق وحتى في ال أطعمة الطيبة الطاهرة لم يكن يحرم شيئاً بدون مبرر أو سبب وجيه للتحريم ... إنه لم يكن مشركاً.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

حِجِّ الْبَيْتِ مِنَ اسْتِطَاعِ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) لقد أنكرت اليهود على النبي صلى الله عليه وآله أمرين وقد رد القرآن على الأمر الأول في الآيات الثلاث المتقدمة، وها هو يرد على الأمر الثاني، وهو: إنكارهم على النبي اتخاذ الكعبة قبله، وتفضيله لها على بيت المقدس بينما كانوا يفضلونه على الكعبة. يقول سبحانه: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا». فلا عجب إذن أن تكون الكعبة قبله للمسلمين، فهي أول مركز للتوحيد.

إن المصادر الإسلامية والتاريخية تحدثنا بأن الكعبة تأسست على يدي «آدم عليه السلام» ثم تهدمت بسبب الطوفان الذي وقع في عهد النبي «نوح عليه السلام» ثم جدد بناءها النبي العظيم «إبراهيم الخليل عليه السلام» فهي إذن عريقة عراقة التاريخ البشري. إن «الكعبة» والتي تسمى في تسمية وأخرى بـ «بيت الله» وصفت في هذه الآية بأنها «بيت للناس» وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامة وهي: أن كل ما يكون باسم الله ويكون له، يجب أن يكون في خدمة الناس من عباده، وأن كل ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو لله سبحانه.

لقد ذكرت في هاتين الآيتين أربع مزايا أخرى هي:

مختصر الامثال، ج ١، ص: ٢٩٧

١- مُبَارَكًا: «المبارك» يعني كثير الخير والبركة، وإنما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة وخيرًا، سواء الخير المادي، أو المعنوي.

٢- هُدًى لِلْعَالَمِينَ: أجل، إن الكعبة هدى للعالمين فهي تجتذب الملايين من الناس الذين يقطعون إليها البحار والوهاد، ويقصدونها من كل فج عميق ليجتمعوا في هذا الملتقى العبادي العظيم وهم بذلك يقيمون هذه الفريضة فريضة الحج التي لم تزل تؤدى بجلال عظيم منذ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣- فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ: إن في هذا البيت معالم واضحة وعلائم ساطعة لعبادة الله وتوحيده، وفي تلك النقطة المباركة من الآثار المعنوية ما يبهر العيون ويأخذ بمجامع القلوب وإن بقاء هذه الآثار والمعالم رغم كيد الكائدين وإفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها ومحوها لمن تلك الآيات التي يتحدث عنها القرآن في هذا الكلام العلوي.

٤- وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا: لقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربه بعد الانتهاء من بناء الكعبة، أن يجعل بلد مكة آمنًا إذ قال: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا» (١). فاستجاب الله له وجعل مكة بلدًا آمنًا.

وبعد أن استعرض القرآن الكريم فضائل هذا البيت وعدد مزاياه، أمر الناس بأن يحجوا إليه - دون استثناء - وعبر عن ذلك بلفظ مشعر بأن مثل هذا الحج هو دين لله على الناس، فيتوجب عليهم أن يؤدوه ويفرغوا ذمهم منه إذ قال: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ».

وتعني لفظه «الحج» أصلًا القصد، أما وجه تسميته هذه الزيارة وهذه المناسك الخاصة بالحج فلأن قاصد الحج إنما يخرج وهو «يقصد زيارة بيت الله» ولهذا أضيفت لفظه الحج إلى البيت فقال تعالى: «حِجُّ الْبَيْتِ».

إن الحج يجب على كل إنسان مستطيع، في العمر مرة واحدة، ولا يستفاد من الآية المبحوثة هنا أكثر من ذلك، لأن الحكم فيها مطلق، وهو يحصل بالإمتثال مرة واحدة.

إن الشرط الوحيد الذي ذكرته الآية الحاضرة لوجوب الحج واستقراره هو «الاستطاعة» المعبر عنها بقوله سبحانه: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

ثم إنه يستفاد من هذه الآية أن هذا القانون - مثل بقية القوانين الإسلامية - لا يختص

(١) سورة إبراهيم / ٣٥.

بالمسلمين، فعلى الجميع أن يقوموا بفريضة الحج مسلمين وغير مسلمين. وللتأكيد على أهمية الحج قال سبحانه في ذيل الآية الحاضرة: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». أى أن الذين يتجاهلون هذا النداء، ويتكبرون لهذه الفريضة، ويخالفونها لا يضررون بذلك إلا لأنفسهم لأن الله غنى عن العالمين، فلا يصيبه شيء بسبب إعراضهم ونكرانهم وتركهم لهذه الفريضة. ويستفاد من هذه الآية أمران:

الأول: الأهمية الفائقة لفريضة الحج، إلى درجة أن القرآن عبر عن تركها بالكفر، ويؤيد ذلك ما رواه الصدوق في كتاب «من لا يحضره الفقيه» من أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «يا على! تارك الحج وهو مستطيع كافر يقول الله تبارك وتعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»؛ يا على! من سوف الحج حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً».

الثاني: إن هذه الفريضة الإلهية المهمة - مثل بقية الفرائض والأحكام الدينية الأخرى - شرعت لصالح الناس، وفرضت لفرض تربيتهم، وإصلاح أمرهم وبالهم أنفسهم فلا يعود شيء منها إلى الله سبحانه أبداً فهو الغنى عنهم جميعاً.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصِيدُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

#### سبب النزول

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية: مر شماس بن قيس وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٩

النبي صلى الله عليه وآله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فعاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملائ بنى قبيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكروهم يوم بعثت وما كان قبله وأنشدتهم بعض ما كانوا يتقاولوا فيه من الأشعار. وكان يوم بعثت يوماً اقتتل في الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج.

ففعّل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين، على الركب - أوس بن يقظى أحد بنى حارثة من الأوس. وهبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج - فتقاولا، ثم أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين الله الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟» فعرّف القوم أنّها نزغ من الشيطان وكيد لهم من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله تعالى شماس، وأنزل الله تعالى في شأن شماس وما صنع «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ» إلى قوله سبحانه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» وأنزل في أوس بن يقظى وهبار ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا» الآية «١».

مفروق الصفوف ومثيرو الخلاف: بعد أن فعل بعض العناصر اليهودية الحاقدة فعلتها وكادت أن تشعل نيران العداوة بين المسلمين نزل قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ». والمخاطب في هذه الآية هم أهل الكتاب

(١) تفسير روح المعاني ١٤/٤، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٠

ويقصد منهم هنا اليهود، فالله سبحانه يأمر نبيه في هذه الآية أن يسألهم معاتباً عن علته كفرهم بآيات الله في حين أن الله يعلم بأعمالهم. والمراد من آيات الله المذكورة في هذا المقام إما الآيات الواردة في التوراة حول النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وعلائم نبوته، أو مجموعة الآيات والمعجزات التي نزلت على نبي الأكرم، وتحققت على يديه، وكشفت عن حقانيتها، وصدق دعوته، وصحة نبوته.

ثم جاءت الآية الثانية تلومهم قائلة: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ». أى قل يا رسول الله لهم لائماً ومننداً: إذا كنتم غير مستعدين للقبول بالحق، فلماذا تصرون على صرف الآخرين عنه، وصدتم عن سبيل الله، وإظهار هذا الطريق المستقيم في صورة السبيل الأعوج بما تدخلون من الشبه على الناس؟

في حين ينبغي - بل يتعين - أن تكونوا أول جماعة تبادر إلى تلبية هذا النداء الإلهي، لما وجدتموه من البشائر بظهور هذا النبي في كتبكم وتشهدون عليه.

هل تصورون أن كل ما تفعلونه سيخفى علينا؟ كلا... «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

إنه تهديد بعد تنديد وإنذار بعد لوم شديد.

وبعد أن ينتهي هذا التقرير والتنديد والإنذار والتهديد لمشعل الفتن، الصادين عن سبيل الله القويم، المستفيدين من غفلة بعض المسلمين يتوجه سبحانه بالخطاب إلى هؤلاء المخدوعين من المسلمين، يحذرهم من مغبة الإنخداع بوساوس الأعداء، والوقوع تحت تأثيرهم والسماح لعناصرهم بالتسلل إلى جماعتهم وترتيب الأثر على تحريكاتهم وتسويلاتهم وأن نتيجة كل ذلك هو الابتعاد عن الإيمان والوقوع في أحضان الكفر، إذ يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بِغَيْدٍ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ».

من هذا البيان اتضح أن المراد من الرجوع إلى الكفر - في الآية - هو «الكفر الحقيقي والانفصال الكامل عن الإسلام» كما ويمكن أن يكون المراد من ذلك هي تلك العداوات الجاهلية التي تعتبر - في حد ذاتها - شعبه من شعب الكفر وعلامة من علائمه وأثراً من آثاره لأن الإيمان لا يصدر منه إلا المحبة والمودة والتآلف، وأما الكفر فلا يصدر منه إلا التقاتل والعداوة والتنافر.

ثم يتساءل - في عجب واستغراب - «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠١

وَفِيكُمْ رَسُولُهُ». أى: كيف يمكن أن تسلكوا سبيل الكفر، وترجعوا كفاراً والنبي صلى الله عليه وآله بين ظهرانيكم، وآيات الله بينات تقرأ على أسماعكم، وتشع أنوار الوحي على قلوبكم وتهطل عليكم أمطاره المثيرة للحياة؟

إن هذه العبارة ما هي إلا الإشارة إلى أنه لا عجب إذا ضل الآخرون وانحرفوا، ولكن العجب ممن يلازمون الرسول ويرونه فيما بينهم، ولهم مع عالم الوحي إتصال دائم... ومع آياته صحبة دائمة، إن العجب إنما هو من هؤلاء كيف يضلون وكيف ينحرفون؟

ثم في ختام هذه الآيات يوصى القرآن الكريم المسلمين - إن أرادوا الخلاص من وساوس الأعداء وأرادوا الإهتداء إلى الصراط المستقيم - أن يعتصموا بالله ويلوذوا بلطفه ويتمسكوا بهداياته وآياته، ويقول لهم بصراحة تامة: «وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: افتخر رجلا من الأوس والخزرج: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زراره من الخزرج فقال الأوسى: منّا خزيمه بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظله غسيل الملائكة ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدين، ومنّا سعد بن معاذ الذى اهتزّ عرش الرحمن له، ورضى الله بحكمه فى بنى قريظة. وقال الخزرجى: منّا أربعة أحكموا القرآن:

ابى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنّا سعد بن عبادة، خطيب الأنصار ورئيسهم. فجرى الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا وناديا. فجاء الأوس إلى الأوسى، والخزرج إلى الخزرجى ومعهم السلاح. فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وآله فركب حماراً وأتاهم. فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا.

التفسير

الدعوة إلى التقوى: فى الآية الاولى من هاتين الآيتين دعوة إلى التقوى لتكون التقوى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٢

مقدمه للإتحاد والتآخى. وفى الحقيقة أنّ الدعوة إلى الإتحاد دون أن تستعين هذه الدعوة وتنبع من الجذور الخلقية والاعتقادية، دعوة قليلة الأثر، إن لم تكن عديمة الأثر بالمرّة، ولهذا يركز الاهتمام فى هذه الآية على معالجة جذور الاختلاف، وإضعاف العوامل المسببة للتنازع فى ضوء الإيمان والتقوى ولهذا توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ». إن «حق التقوى» يعد من أسمى درجات التقوى وأفضلها لأنه يشمل اجتناب كل إثم ومعصية، وكل تجاوز وعدوان، وإنحراف عن الحق. ثم إنه بعد أن أوصى جميع المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى إنتهت الآية بما يعتبر تحذيراً- فى حقيقته- للأوس والخزرج وغيرهم من المسلمين فى العالم، تحذيراً مفاده: أنّ مجرد إعتناق الإسلام والانضمام إلى هذا الدين لا يكفى، إنّما المهم أن يحافظ المرء على إسلامه وإيمانه واعتقاده إلى اللحظة الأخيرة من عمره وحياته، ولهذا قال سبحانه: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ». الدعوة إلى الإتحاد: بعد أن أوصت الآية السابقة كل المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى ومهدت بذلك النفوس وهياتها، جاءت الآية الثانية تدعوهم بصراحة إلى مسألة الإتحاد، والوقوف فى وجه كل ممارسات التجزئة وإيجاد الفرقة، فقال سبحانه فى هذه الآية: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا».

إنّ المقصود من «حبل الله» هو كل وسيلة للإرتباط بالله تعالى سواء كانت هذه الوسيلة هى الإسلام، أم القرآن الكريم، أم النبى وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ثم إنّ القرآن بعد كل هذا يعطى مثالاً حياً من واقع الامّة الإسلامية لأثر الإرتباط بالله وهو يذكر- فى نفس الوقت- بنعمة الإتحاد والاخوة- تلك النعمة الكبرى- ويدعو المسلمين إلى مراجعة الماضى المؤسف، ومقارنته ذلك الاختلاف والتمزق بهذه الوحدة القوية الصلبة ويقول: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا».

والملفت للنظر هو أنّ الله نسب تأليف قلوب المؤمنين إلى نفسه فقال: «فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ». أى إنّ الله ألف بين قلوبكم، وبهذا التعبير يشير القرآن الكريم إلى معجزة اجتماعية عظيمة للإسلام، لأننا لو لاحظنا ما كان عليه العرب والمجتمع الجاهلى من عداوات

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٣

واختلافات وما كان يكمن فى القلوب من أحقاد طويلة عميقة وما تراكم فيها من ضغائن مستحكمة، وكيف أن أقل شرارة صغيرة أو مسألة جزئية كانت تكفى لتفجير الحروب، وإندلاع القتال فى ذلك المجتمع المشحون بالأحقاد.



تلك المعجزة التي أثبتت أن تحقيق مثل هذه الوحدة وتأليف تلك القلوب المتنافرة المتباغضة، وإيجاد أمه واحدة متآخيه من ذلك الشعب الممزق الجاهل ما كان ليتيسر فى سنوات قليلة بالطرق والوسائل العادية.

لقد كان وضع العرب شيئاً إلى أبعد الحدود حتى أن القرآن يصف تلك الحالة بأنهم كانوا على حافة الإنهيار والسقوط إذ يقول: «وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا».

«شفا»: فى اللغة حافة الهاوية وطرف الحفرة أو الخندق وما شابه ذلك، ومن ذلك «الشفة» كما وتستعمل لفظه «شفا» هذه فى البرء من المرض لأن الإنسان بسببه يكون على حافة السلامة والعافية.

ويريد سبحانه من قوله هذا: أنكم كنتم على حافة السقوط والإنهيار فى الهاوية، ولكن الله نجاكم من ذلك السقوط المرتقب، وأبدلكم بعد الخوف أمناً.

و النار فى هذه الآية كناية عن نيران الحروب والمنازعات التى كانت تتأجج كل لحظة بين العرب فى العهد الجاهلى بحجج واهية، ولأسباب طفيفة.

ولمزيد من التأكيد على ضرورة الإعتصام بحبل الله مع الاعتبار بالماضى والحاضر، يختم سبحانه الآية بقوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

إذن فالهدف الأساسى هو خلاصكم ونجاتكم وهدايتكم إلى سبل الأمن والسلام، وحيث إن فى ذلك مصلحتكم فإن عليكم أن تعيروا ما بيناه لكم مزيداً من الاهتمام، ومزيداً من العناية.

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَ لَمَّا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) الدعوة إلى الحق ومكافحة الفساد: بعد الآيات السابقة التى حثت على الاخوة والإتحاد

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٤

جاءت الإشارة- فى الآية الاولى من الآيتين الحاضرتين- إلى مسألة «الأمر بالمعروف» و «النهي عن المنكر» اللذين هما بمثابة غطاء وقائى اجتماعى لحماية الجماعة وصيانتها، إذ تقول: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». وهذه الآية تتضمن دستوراً أكيداً للامة الإسلامية بأن تقوم بهاتين الفريضتين دائماً، وأن تكون امه أمره بالمعروف ناهية عن المنكر أبداً لأن فلاحها رهن بذلك: «وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

فى مسند عبد الله ابن المبارك عن نعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: «إِنَّ قَوْمًا رَكَبُوا الْبَحْرَ فِي سَفِينَةٍ فَاقْتَسَمُوهَا فَأَصَابَ كُلَّ رَجُلٍ مَكَانًا فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمْ الْفَاسَ فَبَقَرَ مَكَانَهُ فَقَالُوا مَا يَصْنَعُ قَالَ هُوَ إِنِّي أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ فَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ نَجَوْا وَنَجَا وَإِنْ تَرَكَهُ غَرِقَ وَغَرِقُوا فَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِي سَفِينَتِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا».

ولقد جسد النبى الأ-كرم صلى الله عليه و آله- بهذا المثال الرائع- موضوعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنطقيته هاتين الفريضتين بغض النظر عن أمر الشارع بهما، وبذلك قرر حق الفرد فى النظارة على المجتمع على أساس أنه حق طبيعى ناشىء من اتحاد المصائر فى المجتمع وارتباط بعضها ببعض.

تقتضى أهمية الوحدة أن يركز القرآن الكريم ويؤكد عليها مرة بعد اخرى ولذا يذكر بأهمية الإتحاد، ويحذر من تبعات الفرقة والنفاق وآثارها المشؤومة، بقوله: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

إن هذه الآية تحذر المسلمين من أن يتبعوا- كالأقوام السابقة مثل اليهود والنصارى- سبيل الفرقة والاختلاف بعد أن جاءتهم البينات وتوحدت صفوفهم عليها، فيكسبوا بذلك العذاب الأليم.

«وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

إنه ليس من شك في أن نتيجة الاختلاف والفرقة لن تكون سوى الذلة والإنكسار، فذلك هو سر سقوط الامم وذلتها، إنه الاختلاف والتشتت والنفاق والتدابير.

إن المجتمع الذي تحطمت وحدته بسبب الفرقة، وتفتت تماسكه بسبب الاختلاف سيتعرض - لا محالة - لغزو الطامعين وستكون حياته عرضة لأطماع المستعمرين، بل مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٥

ومسرحاً لتجاوزاتهم، وما أشد هذا العذاب، وما أقسى هذه العاقبة؟ أجل تلك هي عاقبة النفاق والاختلاف في الدنيا.

وأما عذاب الآخرة فهو - كما وصفه الله تعالى في القرآن الكريم - أشد وأخزى.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) الوجوه المبيضة والوجوه المسودة: في تعقيب التحذيرات القوية التي تضمنتها الآيات السابقة بشأن التفرقة والنفاق والعودة إلى عادات الكفر ونعرات الجاهلية، جاءت الآيتان الحاضرتان تشيران إلى النتائج النهائية لهذا الإرتداد المشؤوم إلى خلق الجاهلية وعاداتها، وتصريحاً بأن الكفر والنفاق والتنازع والعودة إلى الجاهلية توجب سواد الوجه، فيما يوجب الثبات على طريق الإيمان والاتحاد، والمحبة والتآلف، بياض الوجوه فتقول: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ». ففي يوم القيامة تجد بعض الناس وجوههم مظلمة سوداء والبعض الآخر وجوههم نقية بيضاء ونورانية: «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». فلماذا اخترتم طريق النفاق والفرقة والجاهلية على الإتحاد في ظل الإسلام، فذوقوا جزاءكم العادل، وأما المؤمنون فغارقون في رحمة الله:

«وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

إن هاتين الآيتين تصريحاً بأن المنافقين والمتفرقين بعد ما جاءتهم البينات هم المسودة وجوههم الذائقون للعذاب الأليم بسبب كفرهم، وأما المؤمنون المتألفون المتحابون المتحدون فهم في رحمة الله ورضوانه مبيضة وجوههم.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) هذه الآية إشارة إلى ما تعرضت الآيات السابقة له حول الإيمان والكفر والإتحاد والاختلاف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآثارها وعواقبها، إذ تقول: «تِلْكَ آيَاتُ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٦

اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ». فكل هذه الآيات تحذيرات عن تلك العواقب السيئة التي تترتب على أفعال الناس أنفسهم «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» وإنما هي آثار سيئة يجنيها الناس بأيديهم. ويدل على ذلك أن الله لا يحتاج إلى ظلم أحد، كيف وهو القوى المالك لكل شيء وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

فالآية تشتمل على دليلين على عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأول: إن الله مالك الوجود كله فله ما في السماوات وما في الأرض، فلا معنى للظلم ولا - موجب له عنده، وإنما يظلم الآخريين ويعتدى عليهم من يفقد شيئاً، وإلى هذا يشير المقطع الأول من الآية وهو قوله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

الثاني: إن الظلم يمكن صدوره ممن تقع الامور دون إرادته ورضاه، أما من ترجع إليه الامور جميعاً، وليس لأحد أن يعمل شيئاً بدون إذنه فلا يمكن صدور الظلم منه، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) مكافحة الفساد والدعوة إلى الحق أيضاً: في هذه الآية تطرح مرة أخرى مسألة «الأمر بالمعروف»

و «النهى عن المنكر». فالآية السابقة تشير إلى القسم الخاص، وهذه الآية تشير إلى القسم العام من هاتين الفريضتين. «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ».

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم يصف المسلمين - في هذه الآية - بأنهم خير أمة هُيئت وُعُبت لخدمة المجتمع الإنساني، والدليل على أن هذه الامة خير أمة رشحت لهذه المهمة الكبرى هو «قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيمانها بالله» وهذا يفيد أن إصلاح المجتمع البشرى لا يمكن بدون الإيمان بالله والدعوة إلى الحق، ومكافحة الفساد.

أما هذه الامة خير الأمم، لأنها تختص بآخر الأديان الإلهية والشرائع السماوية، ولا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٧

شك أن هذا يقتضى أن يكون أكمل الشرائع وأتمها في سلم الأديان.

ثم إن الآية تشير إلى أن ديناً يمثل هذا الوضوح، وتشريعاً يمثل هذه العظمة، وتعاليم تنطوى على مثل هذه الفوائد التي لا تنكر، ينبغي أن يؤمن به أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأن في ذلك صلاحهم، وخيرهم إذ يقول سبحانه: «وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ».

ولكن - وللأسف - لم يؤمن به إلاقله ممن نبذ التعصب الأعمى، واعتنق الإسلام برغبة صادقة، واستقبل هذا الدين برحابة صدر، فيما أعرض الأ-كثرون منهم، وفضلوا البقاء على ما هم عليه من الكفر والعصية على إتباع هذا الأمر الإلهي، متجاهلين حتى تلك البشائر التي نطقت بها كتبهم حول هذا الدين وإلى هذا يشير سبحانه بقوله: «مُنْهَمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ». الخارجون عن هذا الأمر الإلهي.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَ إِن يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ (١١١) ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيَّمَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ بَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسِيكَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن رؤوس اليهود مثل كعب وأبي رافع وأبي ياسر وكنانة وابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنينهم كعبد الله بن سلام وأصحابه فأتبوهم لإسلامهم، فنزلت الآية.

التفسير

تبشر الآية الاولى المسلمين الذين يواجهون ضغوطاً شديدة وتهديدات أحياناً من جانب قومهم الكافرين بسبب اعتناق الإسلام، تبشرهم وتعددهم بأنهم منصورون، وأن أهل الكتاب لا يقدرون عليهم ولا تنالهم من جهتهم مضرة، وأن ما سيلحقهم من الأذى من جانبهم لن يكون إلاطفيفاً وعبارة: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَ إِن يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ».

إن هاتين الآيتين تحتويان على عدة أخبار غيبية، وبشائر مهمة للمسلمين قد تحققت

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٨

جميعها في زمن النبي الأ-كرم صلى الله عليه و آله وحياته الشريفة وهي: ١- إن أهل الكتاب لا يقدرون على إلحاق أى ضرر مهم بالمسلمين، وأن ما يلحقونه بهم لن يكون إلاأضراراً بسيطةً، وعبارة «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ».

٢- إنهم لن يثبتوا- في القتال- أمام المسلمين، بل ينهزمون ويكون الظفر للمسلمين، ولا- يجدون ناصرًا ولا- معينًا: «وَ إِن يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ».

٣- إنهم لن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم ولن يتمكنوا من العيش مستقلين، بل سيقون أذلاء دائماً، إلاأن يعيدوا النظر في سلوكهم، ويسلكوا طريق الله، أو أن يعتمدوا على الآخرين ويستعينوا بقوتهم إلى حين: «ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيَّنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ

مَنْ النَّاسِ».

ولم يمض على هذه الوعود الإلهية والبشائر السماوية زمن حتى تحققت برمتها فى حياة الرسول صلى الله عليه وآله. وعلى هذا إن على اليهود أن يعيدوا النظر فى برنامج حياتهم، ويعودوا إلى الله، أو أن يستمروا فى حياتهم النكدة المزيجة بالنفاق. فأما الإيمان بالله والدخول تحت مظلته وفى حصنه الحصين، وأما الاعتماد على معونة الناس الواهية والاستمرار فى الحياة التعسة. لقد كان أمام اليهود طريقان: إما أن يعودوا إلى منهج الله، وإما أن يبقوا على سلوكهم فيعيشوا أذلاء ما داموا، ولكنهم إختاروا الثانى ولهذا لزمتهم الذلة «وَبَاءُ وَبَغْضِبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ».

وعلى هذا أن اليهود بسبب إقامتهم على المعاصى وتماديهم فى الذنوب اصيبوا بأمرين:

أولاً: طردوا من جانب المجتمع وحل عليهم غضب الله سبحانه، و ثانياً: إن هذه الحالة «أى الذلة» أصبحت تدريجاً صفة ذاتية لازمة لهم حتى أنهم رغم كل ما يملكون من إمكانيات وقدرات مالية وسياسية، يشعرون بحقارة ذاتية، وصغار باطنى. وهذا هو ما يشير إليه قوله سبحانه إذ يقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ». وبذلك يشير سبحانه إلى علة هذا المصير الأسود الذى يلزم اليهود، ولا يفارقهم.

إنهم لم يصابوا بما أصيبوا به من ذلة ومسكنة، وحقارة وصغار لأسباب قومية عنصرية أو ما شابه ذلك، بل لما كانوا يرتكبونه من الأعمال فهم:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٩

أولاً: كانوا ينكرون آيات الله ويكذبون بها.

ثانياً: يصرون على قتل الأنبياء الهداء الذين ما كانوا يريدون سوى إنقاذ الناس من الجهل والخرافة، وتخليصهم من الشقاء والعناء. ثالثاً: إنهم كانوا يرتكبون كل فعل قبيح، ويترفون كل جريمة نكراء، ويمارسون كل ظلم فظيع، وتجاوز على حقوق الآخرين، ولا شك أن أى قوم يرتكبون مثل هذه الامور يصابون بمثل ما أصيب به اليهود، ويستحقون ما استحقوه من العذاب الأليم والمصير الأسود.

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

سبب التزول

فى تفسير مجمع البيان: أنه لما أسلم عبد الله بن سلام وجماعته، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلاشارانا. فأنزل الله «لَيْسُوا سَوَاءً» إلى قوله «مِنَ الصَّالِحِينَ».

التفسير

الإسلام وخصيصة البحث عن الحق: بعد كل ذلك الدم لليهود، الذى تضمنته الآيات السابقة بسبب مواقفهم المشينة وأفعالهم الذميمة نجد القرآن- كما هو شأنه دائماً- يراعى جانب العدل والإنصاف، فيحترم كل من تنزه عن ذلك السلوك الذمى الذى سار عليه اليهود، ويعلن بصراحة أنه لا- يعمم ذلك الحكم، وأنه لا- يمكن النظر إلى الجميع بنظرة واحدة دون التفريق بين من أقام على تلك الفعال، وبين من غادرها وطلب الحق، ولهذا يقول:

«لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ».

ثم إنه سبحانه يقول: «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وبهذا يتورع القرآن الكريم عن إدانة العنصر اليهودي كافة، بل يركز على أفعالهم وأعمالهم وممارساتهم، ويحترم ويمدح كل من انفصل عن أكثريةهم الفاسدة، وخضع للحق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٠

والإيمان، وهذا هو أسلوب الإسلام الذي لا يعادى أحداً على أساس اللون والعنصر، بل يعاديه على أساس اعتقادي محض، ويكافحه إذا كانت أعماله لا تنطبق مع الحق والعدل والخير. ثم إنه سبحانه قال: «وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا». معقباً بذلك على العبارات السابقة ومكملاً للآية ويعنى بقوله أن هؤلاء الذين أسلموا واتخذوا مواقعهم في صفوف المتقين لن يضيع الله لهم عملاً، وإن كانوا قد ارتكبوا في سابق حالهم ما ارتكبه من الآثام، وما إقترفوه من المعاصي، ذلك لأنهم قد أعادوا النظر في سلوكهم وأصلحوا مسارهم، وغيروا موقفهم.

كيف «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» وكان هذه العبارة التي يختم بها سبحانه الآية الحاضرة تشير إلى حقيقة من الحقائق الهامة وهي: أن المتقين وإن كانوا قلة قليلة في الأغلب، وخاصة في جماعة اليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وآله حيث كان المسلمون المهتدون منهم قلة ضعيفة، ومن شأن ذلك أن لا تلت كميتهم النظر، ولكنهم مع ذلك يعلمهم الله بعلمه الذي لا يعزب عنه شيء، فلا موجب للقلق، ولا داعي للاضطراب ما دام سبحانه يعلم بالمتقين على قلتهم، ويعلم بأعمالهم، فلا يضيعها أبداً قليلة كانت أو كثيرة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفَسِيَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) في مقابل العناصر التي تبحث عن الحق، وتؤمن به من الذين وصفتهم الآية السابقة، هناك عناصر كافرة ظالمة وصفهم الله سبحانه في هاتين الآيتين بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» لأنه لا ينفع في الآخرة سوى العمل الصالح والإيمان الخالص لا الإمتيازات المادية، في هذه الحياة: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (١).

إن القرآن ينادى بصراحة بأن الإمتيازات المالية والقدرة البشرية الجماعية لا تعد

(١) سورة الشعراء / ٨٨ و ٨٩.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١١

إمتيازاً في ميزان الله، وأن الاعتماد عليها وحدها هو الخطأ الجسيم إلا إذا قرنت بالإيمان والعمل الصالح، واستخدمت في سبيلهما، وإلا فستؤول بأصحابها إلى الجحيم وعذابها الخالد. «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

ولما كان الكلام عن الثروة والمال كان لابد من الإشارة إلى مسألة الإنفاق فيقول سبحانه: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ».

وهذا هو حال غير المؤمن في إنفاقه، فإنه لا ينفق ماله بدافع صحيح، بل ينفقه رياءً وسمعةً وأهواءً وأهداف شريرة، وبذلك يكون كالريح العاتية، اللافحة أو الباردة، تأتي على كل ما أنفقه كما تأتي على الزرع، فتصيبه بالجفاف والفناء، والدمار والهلاك.

إن مثل هذا الإنفاق لا يعالج أية مشكلة اجتماعية (لأنه صرف للمال في غير محله في الأغلب) كما لا ينطوي على أي أثر أخلاقي ونفسي للمنفق البادل.

ثم إنه سبحانه يعقب على ما قال بشأن إنفاق الكفار الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والويل بقوله: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفَسِيَهُمْ يَظْلِمُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هِيَ أَنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا

خَلَوْا عَضْوًا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في رجال من المسلمين، كانوا يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الصداقة والقراة والجوار والحلف والرضاع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٢

التفسير

لا تتخذوا الأعداء بطانة: هذه الآية التي جاءت بعد الآيات السابقة التي تعرضت لمسألة العلاقات بين المسلمين والكفار، تشير إلى قضايا حساسة بالغة الأهمية، وتحذر المؤمنين - ضمن تمثيل لطيف - بأن لا يتخذوا من الذين يفارقونهم في الدين والمسلك أصدقاء يسرون إليهم ويخبرونهم بأسرارهم، وأن لا يطلعوا الأجنبي على ما تحتفظ به صدورهم وما خفى من نواياهم وأفكارهم الخاصة بهم، قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ». وهذا يعني أن الكفار لا يصلحون لمواصلة المسلمين ومصادقتهم، كما لا يصلحون بأن يكونوا أصحاب سر لهم، وذلك لأنهم لا يتورعون عن الكيد والإيقاع بهم ما استطاعوا: «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» (١).

فليست الصداقات والعلاقات بقادرة على أن تمنع اولئك الكفار - بسبب ما يفارقون به المسلمين في العقيدة والمسلك - من إضمار الشر للمسلمين، وتمنى الشقاء والعناء لهم «وَدُّوا مَا عَتَبْتُمُ». أى أحبوا في ضمائرهم ودخائل نفوسهم لو أصابكم العنت والعناء. إنهم - لإخفاء ما يضمرونه تجاهكم - يحاولون دائماً أن يراقبوا تصرفاتهم، وأحاديثهم كيلا يظهر ما يبطنونه من شر وبغض لكم، بيد أن آثار ذلك العدا والبغض تظهر أحياناً في أحاديثهم وكلماتهم، عندما تقفز منهم كلمة أو أخرى تكشف عن الحقد الدفين والحق المستكن في صدورهم: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ».

وقد أوضح الله سبحانه في هذه الآية إحدى سبل التعرف على بواطن الأعداء ودخائل نفوسهم، ثم إنه سبحانه يقول: «وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ». أى أن ما يبدو من أفواههم ما هي إلا لشارة تحكى عن تلك النار القوية الكامنة في صدورهم. ثم إنه تعالى يضيف قائلاً: «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ». أى أن ما ذكرناه من الوسيلة للتعرف على العدو أمر في غاية الأهمية لو كنتم تتدبرون فيه، فهو يوقفكم على وسيلة جداً فعالة لمعرفة ما يكتمه الآخرون ويضمرونه تجاهكم، وهو أمر في غاية الخطورة بالنسبة لأمنكم وحياتكم وبرامجكم.

(١) «الخبال»: فى الأصل بمعنى ذهاب شىء وهى تطلق فى الأغلب على الأضرار التى تؤثر على عقل الإنسان وتلحق به الضرر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٣

يحسب بعض المسلمين أن فى مقدورهم أن يكسبوا حب الأعداء والأجانب إذا أعطوهم حبههم وودهم، وهو خطأ فظيع، وتصور باطل، يقول سبحانه: «هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ».

إنه سبحانه يخاطب هذا الفريق من المسلمين ويقول لهم: إنكم تحبون من يفارقكم فى الدين لما بينكم من الصداقة أو القراة أو الجوار، وتظهرون لهم المودة والمحبة، والحال أنهم لا يحبونكم أبداً، وتؤمنون بكتبهم وكتابكم المنزل من السماء - على السواء - فى حين أنهم لا يؤمنون بكتابكم ولا يعترفون بأنه منزل من السماء.

إن هذا الفريق من أهل الكتاب ينافقون ويخادعون «وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ».

ولا شك أن هذا الغيظ لن يضر المسلمين فى الواقع، إذن فقل لهم يا رسول الله: «قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ». واستمروا على هذا الحق فإنه لن يفارقكم حتى تموتوا.

هذه هي حقيقة الكفار التي غفلتم عنها ولم يغفل عنها سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ثم إن الله يذكر علامة أخرى من علائم العداوة الكامنة في صدور الكفار إذ يقول: «إِنْ تَمَسَسِيكُمْ حَسِينَةٌ تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصَبِّحُوا بِكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا».

ولكن هل تضر هذه العداوة وما يلحقها من ممارسات ومحاولات شريرة بالمسلمين؟

هذا ما يجيب عنه ذيل الآية الحاضرة حيث يقول سبحانه: «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ». وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) من هنا تبدأ الآيات التي نزلت حول واحدة من أهم الأحداث الإسلامية ألا وهي معركة احد. في البدء تشير الآية الاولى إلى خروج النبي صلى الله عليه وآله من المدينة لاختيار المحل الذي يعسكر فيه عند «احد» وتقول: «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ». أى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٤

واذكر عندما خرجت غدوة من المدينة تهييء للمؤمنين مواطن للقتال لغزوة احد. ثم إن الآية الثانية تشير إلى زاوية أخرى من هذا الحدث إذ تقول: «وَإِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

والطائفتان كما يذكر المؤرخون هما بنو سلمة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج.

فقد صممت هاتان الطائفتان على التساهل في أمر هذه المعركة والرجوع إلى المدينة، وهمتا بذلك.

وقد كان سبب هذا الموقف المتخاذل هو أنهما كانتا ممن يؤيد فكرة البقاء في المدينة ومقاتلة الأعداء داخلها بدل الخروج منها والقتال خارجها، وقد خالف النبي هذا الرأي، مضافاً إلى أن عبدالله بن أبي سلول الذي التحق بالمسلمين على رأس ثلاثمائة من اليهود عاد هو وجماعته إلى المدينة، لأن النبي صلى الله عليه وآله عارض بقاءهم في عسكر المسلمين، وقد تسبب هذا في أن تتراجع الطائفتان المذكورتان عن الخروج مع النبي وتعزما على العودة إلى المدينة من منتصف الطريق.

ولكن يستفاد من ذيل الآية أن هاتين الطائفتين عدلتا عن هذا القرار، واستمرتتا في التعاون مع بقية المسلمين، ولهذا قال سبحانه: «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

يعنى أن الله ناصرهما فليس لهما أن تفشلا إذا كانتا تتوكلان على الله بالإضافة إلى تأييده سبحانه للمؤمنين.

غزوة احد: يستفاد من الروايات والنصوص التاريخية الإسلامية، أن قريشاً لما رجعت من بدر إلى مكة وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، لأنه قُتل منهم سبعون واسر سبعون، قال أبو سفيان: يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم يبيكين على قتلاكم فإن الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمد. وأخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب فراش زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

وفي السنة الثالثة للهجرة عزم قريش على غزو النبي وخرجوا من مكة في ثلاثة آلاف فارس وألفى راجل، مجهزين بكل ما يحتاجه القتال الحاسم، وأخرجوا معهم النساء والأطفال والأصنام، ليثبتوا في ساحات القتال.

العباس يرفع تقريراً إلى النبي: لم يكن العباس عم النبي قد أسلم إلى تلك الساعة، بل

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٥

كان باقياً على دين قريش، ولكنه كان يحب ابن أخيه غايه الحب، ولهذا فإنه عندما عرف بتعبئة قريش وعزمهم الأكيد على غزو المدينة ومقاتلة النبي، بادر إلى إخبار النبي، محملاً غفاريًا (من بنى غفار) رسالته عاجلة يذكر فيها الموقف في مكة وعزم قريش، وكان الغفاري يسرع نحو المدينة، حتى أبلغ النبي رسالته عمه العباس، ولما عرف صلى الله عليه وآله بالخبر إلتقى سعد بن أبي وأخبره بما ذكره له عمه، وطلب منه أن يكتفم ذلك بعض الوقت.

النبي يشاور المسلمين: عمد النبي - بعد أن بلغته رسالته عمه العباس - إلى بعث رجلين من المسلمين إلى طرق مكة والمدينة للتجسس

على قريش، وتحصيل المعلومات الممكنة عن تحركاتها.

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الرجلان وأخيرا النبي بما حصلنا عليه حول قوات قريش وأن هذه القوات الكبيرة يقودها أبو سفيان. وبعد أيام استدعى النبي صلى الله عليه وآله جميع أصحابه وأهل المدينة لدراسة الموقف، وما يمكن أو يجب إتخاذ للدفاع، وبحث معهم في أمر البقاء في المدينة ومحاربة الأعداء الغزاة في داخلها، أو الخروج منها ومقاتلتهم خارجها، فاقترح جماعة قائلين: «لا نخرج من المدينة حتى نقاتل في أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودروبنا وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا كان الظفر لهم علينا». وكان هذا هو ما قاله عبد الله بن أبي.

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله يميل إلى هذا الرأي نظراً لوضع المدينة يومذاك، فقد كان صلى الله عليه وآله يرغب في البقاء في المدينة ومقاتلة العدو في داخلها، إلا أن فريقاً من الشباب الأحداث الذين رغوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأي. فوافقهم النبي صلى الله عليه وآله - رغم أنه كان يميل إلى البقاء في المدينة - احتراماً لمشورتهم، ثم خرج مع أحد أصحابه ليرتب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينة وإختار الشعب من جبل احد لإستقرار الجيش الإسلامي باعتباره أفضل مكان من الناحية العسكرية والدفاعية.

لقد استشار النبي أصحابه في هذه المسألة يوم الجمعة، ولذلك فإنه بعد انتهاء المشاورة قام يخطب لصلاة الجمعة وقال بعد حمد الله والثناء عليه:

«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٦

ثم تولى صلى الله عليه وآله بنفسه قيادة المقاتلين وكان يستعرض جيشه طوال الطريق، ويرتب صفوفهم.

يقول المؤرخ المعروف الحلبي في سيرته: وسار إلى أن وصل «رأس الثنية» وعندها وجد كتيبة كبيرة فقال صلى الله عليه وآله: «ما هذا؟» قالوا: هؤلاء خلفاء عبد الله بن أبي اليهودي فقال صلى الله عليه وآله:

«أسلموا؟» فقبل: لا. فقال صلى الله عليه وآله: «إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك». فردهم، ورجع عبد الله بن أبي اليهودي ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثمائة رجل.

والنبي صلى الله عليه وآله بعد أن أجرى التصفية اللازمة في صفوف جيشه واستغنى عن بعض أهل الريب والشك والنفاق استقر عند الشعب من «احد» في عدوة الوادي إلى الجبل وجعل «احداً» خلف ظهره واستقبل المدينة.

وبعد أن صلى بالمسلمين الصبح صف صفوفهم وتعباً للقتال.

فأمر على الرماة «عبد الله بن جبير» والرماة خمسون رجلاً جعلهم صلى الله عليه وآله على الجبل خلف المسلمين وأوعز إليهم قائلاً:

«إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمنوا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا وألزموا مراكزكم».

ومن جانب آخر، وضع أبو سفيان «خالد بن الوليد» في مأتى فارس كميناً يتحينون الفرصة للتسلل من ذلك الشعب ومباغته المسلمين من ورائهم وقالوا: «إذا رأيتمونا قد اختلطنا فخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم».

ثم اصطف الجيشان للحرب، ها هي تكبيرات المسلمين ونداءات «الله أكبر، الله أكبر» تدوى في جنبات ذلك المكان، وتملاً شعاب «احد» وسهولها، بينما تعرض هند والنسوة اللاتي معها من نساء قريش وبناتها الرجال ويضربن بالدفوف ويقرأن الأشعار المثيرة.

وبدأ القتال وحمل المسلمون على المشركين حملة شديدة هزمتهم شر هزيمة، وألجأتهم إلى الفرار وراح المسلمون يتعقبونهم ويلحقون فلولهم.

هذه الهزيمة النكراء التي لحقت بالمشركين دفعت ببعض المسلمين الجديدي العهد بالإسلام إلى التفكير في جمع الغنائم والانصراف



عن الحرب، بظن أن المشركين هزموا هزيمة كاملة، حتى أن بعض الرماة تركوا مواقعهم في الجبل متجاهلين تذكير قائدهم «عبدالله بن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٧

جبير» إِيَّاهم بما أوصاهم به النبي صلى الله عليه وآله ولم يبق معه إلا قليل ظلوا يحافظون على تلك الثغرة الخطرة في الجبل محافظة على المسلمين.

فتنبه «خالد بن الوليد» إلى قلة الرماة في ذلك المكان، فحملوا على الرماة وقتلوهم بأجمعهم، ثم هجموا على المسلمين من خلفهم. وفجأة وجد المسلمون أنفسهم وقد أحاط بهم العدو بسيوفهم. في هذه الكرة «حمزة» سيد الشهداء وطائفة من أصحاب النبي الشجعان، وفر بعضهم خوفاً، ولم يبق حول النبي سوى نفر قليل جداً يدافعون عنه ويردون عنه عادية الأعداء، وكان أكثرهم دفاعاً عن النبي صلى الله عليه وآله ورداً لهجمات العدو، وفداء بنفسه هو الإمام على بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يذب عن النبي الطاهر ببسالة منقطع النظير، حتى أنه تكسر سيفه فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله سيفه المسمى بذي الفقار، ثم تترس النبي بمكان، وبقي على عليه السلام يدفع عنه فلم يزل على عليه السلام يقاتلهم حتى أصابه في رأسه ووجهه، ويديه وبطنه ورجليه سبعون جراحة. فقال جبرائيل: «إن هذه لهي المواساة يا محمد». فقال محمد: «إنه مني وأنا منه». فقال جبرائيل: «وأنا منكما».

قال الإمام الصادق عليه السلام: «نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جبرائيل بين السماء والأرض على كرسى من ذهب، وهو يقول: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على».

وفي هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمد.

يذهب بعض المؤرخين إلى أن «ابن قمئة» الذي قتل الجندى الإسلامي البطل «مصعب بن عمير» وهو يظن أنه النبي، هو الذي صاح «واللات والعزى: لقد قتل محمد».

وهذه الشائعة كانت في صالح الإسلام والمسلمين لأنها جعلت العدو يترك ساحة القتال ويتجه إلى مكة بظنه أن النبي قد قتل وانتهى الأمر، ولولا ذلك لكان جيش قريش الفاتح الغالب لا يترك المسلمين حتى يقتلوا رسول الله لأنهم لم يجيئوا إلى «أحد» إلا لهذه الغاية.

إلا أن شائعة مقتل النبي أوجدت زلزلاً كبيراً في نفوس بعض المسلمين، ولذلك فر هؤلاء من ساحة المعركة.

وأما من بقي من المسلمين في الساحة فقد عمدوا - بهدف الحفاظ على البقية من التفرق وإزالة الخوف والرعب عنهم - إلى أخذ النبي صلى الله عليه وآله إلى الشعب من «أحد» ليطلع المسلمون على وجوده الشريف ويطمئنوا إلى حياته، وهكذا كان، فإنهم لما عرفوا رسول الله صلى الله عليه وآله عاد الفارون وآب المنهزمون واجتمعوا حول الرسول ولامهم النبي صلى الله عليه وآله على فرارهم في تلك

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٨

الساعة الخطيرة، فقالوا: يا رسول الله أتانا الخبر بأنك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين. وهكذا لحقت بالمسلمين - في معركة أحد - خسائر كبيرة في الأموال والنفوس، فقد قتل منهم في هذه الموقعة اثنان وسبعون من المسلمين في ميدان القتال، كما جرح جماعة كبيرة، ولكنهم أخذوا من هذه الهزيمة والنكسة درساً كبيراً ضمن انتصاراتهم في المعارك القادمة.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) فقد بدأت هذه الآيات بتذكير المسلمين بما تحقق لهم من نصر ساحق بتأييد الله لهم في «بدر» (١) إذ قال

سبحانه: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ».

وقد كان الهدف من هذا التذكير هو شد عزائم المسلمين وزرع الثقة في نفوسهم والإطمئنان إلى قدراتهم، والأمل بالمستقبل، فقد نصرهم الله وهم على درجة كبيرة من الضعف، وقله العدد وضآله العدة (حيث كان عددهم ٣١٣ مع إمكانيات بسيطة قليلة، وكان عدد المشركين يفوق ألف مقاتل مع إمكانيات كبيرة).

فإذا كان الأمر كذلك فليتقوا الله وليجتنبوا مخالفة أوامر النبي صلى الله عليه وآله ليكونوا بذلك قد أدوا شكر المواهب الإلهية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ».

ثم تعرض الآية اللاحقة لذكر بعض التفاصيل حول ما جرى في بدر، إذ قالت: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ». أي: اذكروا واذكر أيها النبي يوم كنت تقول للمسلمين الضعفاء آنذاك اخرجوا وسيدكم الله بالملائكة ألا

(١) «بدر»: سميت بدر لأن الماء كان لرجل من جهينة اسمه بدر (مجمع البحرين).

وبدر من حيث اللغة يعنى الممتلى الكامل. ولهذا سمي القمر إذا امتلأ: بدرًا.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١٩

يكفيكم ذلك لتحقيق النصر الساحق على جحافل المشركين المدججين بالسلاح؟

نعم، أيها المسلمون لقد تحقق لكم ذلك في بدر نتيجة صبركم واستقامتكم، واليوم يتحقق لكم ذلك أيضاً إذا أطعتم أوامر النبي، وسرتم وفق تعليماته وصبرتم: «بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» (١).

على أن نزول الملائكة هذا لن يكون هو العامل الأساسي لتحقيق هذا الانتصار لكم بل النصر من عند الله، وليس نزول الملائكة إلالاً لتطمئن قلوبكم «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مَن عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» فهو العالم بسبل النصر ومفاتيح الظفر، وهو القادر على تحقيقه.

ثم إنه سبحانه عقب هذه الآيات بقوله: «لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنقَلِبُوا خَائِبِينَ».

ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون (١٢٨) وقع بين المفسرين في تفسير هذه الآية كلام كثير، إلا أن ما هو مسلم تقريباً هو أن الآية الحاضرة نزلت بعد معركة احد وهي ترتبط بأحداث تلك المعركة، والآيات السابقة تؤيد هذه الحقيقة أيضاً.

يكون معنى الآية كالتالي: ليس لك حول مصيرهم شيء، فإنهم قد استحقوا العذاب بما فعلوه، بل ذلك إلى الله، يعفو عنهم إن شاء أو يأخذهم بظلمهم.

ولقد نقلت في تفسير الدر المنثور: إن هذه الآية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد وقد جرح في وجهه وأصيب بعض رباعيته وفوق حاجبه فقال- وسالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه-: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم». فأنزل الله الآية وأخبره تعالى فيها أنه ليس إليه إلا ما امر به من تبليغ الرسالة ودعائهم إلى الهدى، فهو ليس مسؤولاً عن هدايتهم إن لم يهتدوا ولم يستجيبوا لندائه.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)

(١) «الفور»: السرعة التي تقلب المعادلات كما يفور القدر وتتقلب محتوياتها بسرعة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٠

مختصر الامثل ج ١ ص ٣٤٩

هذه الآية تأكيد لمفاد الآية السابقة، فيكون المعنى هو: أن العفو أو المجازاة ليس بيد النبي، بل هو لله الذي بيده كل ما في السموات وكل ما في الأرض، فهو الحاكم المطلق لأنه هو الخالق، فله الملك وله التدبير، وعلى هذا الأساس فإن له أن يغفر لمن يشاء من المذنبين، أو يعذب، حسب ما تقتضيه الحكمة، لأن مشيئته تطابق الحكمة. ثم إنه سبحانه يختم الآية بقوله: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». تنبيهاً إلى أنه وإن كان شديد العذاب، إلا أن رحمته سبقت غضبه، فهو غفور رحيم قبل أن يكون شديد العقاب والعذاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) هذه الآيات الثلاث، والآيات الست اللاحقة بها تحتوي على سلسلة من البرامج الاقتصادية والاجتماعية، والتربوية، ثم يستأنف القرآن بعد هذه الآيات التسع، حديثه حول معركة «احد» ووقائعها.

إننا نعلم أيضاً أن المجتمع العربي في العهد الجاهلي كان مصاباً- بشدة- بداء الربا، حيث كانت الساحة العربية (وخاصة مكة) مسرحاً للمرابين، وقد كان هذا الأمر مبعثاً للكثير من المآسى الاجتماعية، ولهذا استخدم القرآن في تحريم هذه الفعلة النكراء اسلوب المراحل، فحرم الربا في مراحل أربع:

١- يكتفى في الآية (٣٩) من سورة الروم بتوجيه نصح أخلاقي حول الربا.

٢- يشير في الآية (١٦١) من سورة النساء- ضمن إنتقاد عادات اليهود وتقاليدهم الخاطئة الفاسدة- إلى الربا كعادة سيئة من تلك العادات.

٣- يذكر في الآية الحاضرة حكم التحريم بصراحة، ولكنه يشير إلى نوع واحد من أنواع الربا، وهو النوع الشديد والفاحش منه فقط.

٤- وأخيراً أعلن في الآيات (٢٧٥-٢٧٩) من سورة البقرة عن المنع الشامل والشديد عن جميع أنواع الربا، واعتباره بمنزلة إعلان الحرب على الله سبحانه.

قلنا إن الآية الحاضرة إشارة إلى الربا الفاحش معبرة عن ذلك بقوله: «أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢١

والمراد من «الربا الفاحش» هو أن تكون الزيادة الربوية تصاعديّة، بمعنى أن تضم الزيادة المفروضة أولاً على رأس المال ثم يصبح المجموع مورداً للربا، بمعنى أن الزيادة ثانياً تقاس بمجموع المبلغ، ثم تضم الزيادة المفروضة ثانياً إلى ذلك المبلغ، وتفرض زيادة ثالثة بالنسبة إلى المجموع. ولهذا قال القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً».

ولا- شك أن مثل هذا الفعل يدر على أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء، فلا يمكن الإرتداع عنه إلا بتقوى الله، ولهذا عقب سبحانه نهييه عن مثل هذا الربا الظالم بقوله:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

ولكن هل يكفي الأمر بتقوى الله والترغيب في الفلاح في صورة ترك الربا؟ أم لابد من التلويح بالعذاب الأخرى للمرابين؟ ولهذا قال سبحانه في الآية الثانية: «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». فهذه الآية تأكيد لحكم التقوى الذي مر في الآية السابقة.

ثم إنه سبحانه يمزج ذلك التهديد بشيء من التشجيع والترغيب للمطيعين والممتثلين لأوامره تعالى إذ يقول: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) السباق في مضمار السعادة: بعد أن هددت الآيات السابقة العصاة وتوعدتهم بالعذاب والجحيم، وبشّرت الأبرار المطيعين بالرحمة الإلهية وشوقتهم إليها جاءت الآية الاولى من هذه الآيات تشبهه سعى المطيعين واجتهادهم بالسباق،

والمسابقة المعنوية التي تهدف الوصول إلى الرحمة الإلهية والنعم والعطايا الربانية الخالدة: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ». فلأن الوصول إلى أى مقام معنوى لا يتأتى بدون المغفرة والتطهر من أدران الذنوب، فلا بد إذن من تطهير النفس من الذنوب

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٢

أولاً، ثم الدخول في رحاب القرب الإلهي، ونيل الزلفى لديه. هذا هو الهدف الأول.

وأما الهدف الثاني لهذا السباق المعنوى العظيم فهو «الجنة» التي يصرح القرآن الكريم أن سعتها سعة السماوات والأرض: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ».

ثم إنه سبحانه يختم الآية الحاضرة بقوله: «أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ». فهذه الجنة العظيمة الموصوفة بتلك السعة قد أعدت للذين يتقون الله ويخشونه ويجتنبون معاصيه ويمثلون أوامره.

وينبغى أن نعلم أن المراد بالعرض هنا ليس هو الطول والعرض الهندسى بل المراد - كما عليه أهل اللغة - هو السعة.

لما صرح في الآية السابقة بأن الجنة أعدت للمتقين، تعرضت الآية التالية لذكر مواصفات المتقين فذكرت خمساً من صفاتهم الإنسانية السامية هي:

١- إنهم ينفقون أموالهم في جميع الأحوال، في الشدة والرخاء، في السراء والضراء «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ».

إن أول صفة ذكرت للمتقين هنا هو «الإنفاق» لأن هذه الآيات تذكر ما يقابل الصفات التي ذكرت للمرابين والمستغنيين في الآيات السابقة. هذا مضافاً إلى أن غض النظر عن المال والثروة في السراء والضراء من أبرز علائم التقوى.

٢- إنهم قادرون على السيطرة على غضبهم: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ».

«الكظم»: تعنى في اللغة شد رأس القربة عند ملئها، فيقول كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثم شددت رأسها، وقد استعملت كناية عن يمتلىء غضباً ولكنه لا ينتقم. و «الغيظ»: بمعنى شدة الغضب والتوتر والهيجان الروحي الشديد الحاصل للإنسان عندما يرى ما يكره.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه، أملاً الله قلبه يوم القيامة رضاه».

٣- إنهم يصفحون عن ظلمهم «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ».

إن كظم الغيظ أمر حسن جداً، إلا أنه غير كاف لوحده، إذ من الممكن أن لا يقع ذلك جذور العدا من قلب المرء، فلا بد للتخلص من هذه الجذور والرواسب أن يقرن «كظم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٣

الغيظ» بخطوة أخرى وهي «العفو والصفح» ولهذا أردفت صفة «الكظم للغيظ» التي هي بدورها من أنبل الصفات بمسألة العفو.

٤- إنهم محسنون: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

وهنا إشارة إلى مرحلة أعلى من «العفو والصفح» وبهذا يرتقى المتقون من درجة إلى أعلى في سلم التكامل المعنوى.

وهذه السلسلة التكاملية هي أن لا يكتفى الإنسان تجاه الإساءة إليه بكظم الغيظ ولا يكتفى أيضاً بأن يعفو ويصفح عن المسيء ليغسل بذلك آثار العدا عن قلبه، بل يعتمد إلى القضاء على جذور العدا في فؤاد خصمه المسيء إليه أيضاً، وذلك بالإحسان إليه، وبذلك يكسب وده وحب، ويمنع من تكرار الإساءة إليه في مستقبل الزمان.

٥- إنهم لا يصرون على ذنب: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ».

«الفاحشة»: مشتقة أصلاً من الفحش، وهو كل ما اشتد قبحه من الذنوب، ولا يختص بالزنا خاصة، لأن الفحش يعنى «تجاوز الحد» الذى يشمل كل ذنب.

يستفاد من هذه الآية أن الإنسان لا يذنب مادام يتذكر الله، فهو إنما يذنب إذا نسى الله تماماً واعتدته الغفلة، ولكن لا يلبث هذا النسيان وهذه الغفلة - لدى المتقين - حتى تزول عنهم سريعاً ويذكرون الله، فيتداركون ما فات منهم، ويصلحون ما أفسدوه.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَحْسُونَ إِحْسَاسًا عَمِيقًا بِأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ إِلَّا اللَّهُ، فَلَا يَدُ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ لِذُنُوبِهِمْ دُونَ سِوَاهُ «وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ». ثم إنه سبحانه تأكيداً لهذه الصفة قال: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

والآن جاء الدور لذكر القرآن الكريم ما ينتظر هذا الفريق من الثواب والجزاء اللائق.

وكان ذلك إذ قال سبحانه: «أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا».

لقد ذكر في هذه الآية جزاء المتقين الذين تعرضت الآيات السابقة لذكر أوصافهم وأبرز صفاتهم، وهذا الجزاء عبارة عن: مغفرة ربانية، وجنات خالدة تجري من تحتها الأنهار بدون إنقطاع أبداً.

ثم إنه سبحانه يعقب ما قال عن الجزاء بقوله: «وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ». أي: ما أروع هذا الجزاء الذي يُعطى للعاملين لا للكسالي، الذين يتهربون من مسؤولياتهم، ويتملصون من التزاماتهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٤

قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) النظر في تاريخ الماضين وآثارهم: يعتبر القرآن الكريم ربط الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي أمراً ضرورياً لفهم الحقائق، لأن الإرتباط بين هذين الزمانين (الماضي والحاضر) يكشف عن مسؤوليته الأجيال القادمة، ويوقفها على واجبها، ولهذا قال سبحانه: «قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ».

وهذا يعني أن لله في الامم سنناً لا تختص بهم، بل هي قوانين وسنن عامة في الحياة تجري على الحاضرين كما جرت على الماضين سواء بسواء، وهي سنن للتقدم والبقاء وسنن للتدهور والإنحار، التقدم للمؤمنين المجاهدين المتحدين الواعين، والتدهور والإنحار للامم المتفرقة المتشقة الكافرة الغارقة في الذنوب والآثام.

ولهذا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى السير في الأرض والنظر بإمعان وتدبر في آثار الامم والشعوب التي سادت ثم بادت إذ يقول: «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ».

ولما كان التعليم الإلهي العظيم - رغم كونه موجهاً إلى عامة المخاطبين - لا ينتفع به ولا يستلهمه إلا المتقون قال سبحانه تعقياً على الآية السابقة: «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ».

أجل، إن المتقين الهادفين هم الذين يتعظون بهذه الامور لأنهم يبحثون عن كل ما يعمق روح التقوى في نفوسهم، ويزيد بصيرتهم بالحق.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٥

سبب التزل

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية تسلياً للمؤمنين، لما نالهم يوم احد من القتل والجراح.

وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس قال: انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم احد فيبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن وليد بخيل من المشركين، يريد أن يعلوا عليهم الجبل؛ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «اللهم لا يعلن علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر». فأنزل الله هذه الآيات.

التفسير

دراسة نتائج غزوة أحد: في الآية الاولى من هذه الآيات حذر القرآن المسلمين من أن يعتربهم اليأس والفتور بسبب النكسة في معركة واحدة، وأن يمتلكهم الحزن ويأسوا من النصر النهائي، قال سبحانه: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». والوهن المذكور في الآية هو كل ضعف يصيب الجسم أو الروح أو يصيب الإرادة والإيمان. تعنى أن هزيمتكم إنما كانت بسبب فقدانكم لروح الإيمان وآثارها، فلو أنكم لم تتجاهلوا أوامر الله سبحانه لم يصبكم ما أصابكم، ولم يلحقكم ما لحقكم، ولكن لا تحزنوا مع ذلك، فإنكم إذا ثبتتم على طريق الإيمان كان النصر النهائي حليفكم، والهزيمة في معركة واحدة لا تعنى الهزيمة النهائية. ثم إنه سبحانه يقول: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ». وبذلك يعطى للمسلمين درساً آخر للوصول إلى النصر النهائي. و«القرح» جرح يصيب البدن بسبب اصطدامه بشيء خارجي.

«وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» (١).

ففي هذا القسم يشير سبحانه إلى واحدة من السنن الإلهية وهي أنه قد تحدث في حياة البشر حوادث حلوة أو مرّة ولكنها غير باقية ولا ثابتة مطلقاً، فالانتصارات والهزائم، والغالبية والمغلوبة، والقوة والضعف كل ذلك يتغير ويتحول، وكل ذلك يزول ويتبدل، فلا ثبات ولا دوام لشيء منها.

(١) «الأيام»: جمع يوم يعبر به عن وقت طلوع شمس إلى غروبها، وقد يطلق على فترات الانتصارات الكبرى في حياة الشعوب، و«ناداؤها»: من المداوله بمعنى إذا صار الشيء من بعض القوم إلى البعض الآخر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٦

ثم إنه سبحانه يشير إلى نتيجة هذه الحوادث المؤلمة فيقول: «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

أى أن ذلك إنما هو لأجل أن يتميز المؤمنون حقاً عن أدياء الإيمان.

ثم إنه في قوله: «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» يشير إلى إحدى نتائج هذه الهزيمة المؤلمة وهي تقديم المسلمين بعض الشهداء في هذه المعركة، فيجب أن تعلموا أن هذا الدين لم يصل إليكم بالهين، فلا يفلت منكم كذلك في المستقبل.

ثم إنه تعالى يختم هذا الاستعراض للسنن والدروس والنتائج بقوله: «وَاللَّهُ لَمَائِحِبُ الظَّالِمِينَ». فهو لا ينصرهم ولا يدافع عنهم، ولا يمكنهم من المؤمنين الصالحين العاملين بتعاليم السماء الآخذين بسنن الله في الكون والحياة.

أجل، إن لمعركة «أحد» وما لحق بالمسلمين فيها من هزيمة نتائج وآثاراً، ومن نتائجها وآثارها الطبيعية أنها كشفت عن نقاط الضعف في الجماعة والثغرات الموجودة في كيانها، وهي وسيلة فعالة ومفيدة لغسل تلك العيوب والتخلص من تلك النواقص والثغرات، ولهذا قال سبحانه: «وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا» (١). أى أن الله أراد- في هذه الواقعة- أن يتخلص المؤمنون من العيوب ويربهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعف.

وأما نتيجة هذه التربية والصياغة التي يتلقاها المؤمنون في خضم المحن والمصائب وآتون الحوادث المرّة فهو حصول القدرة الكافية لدحر الشرك والكفر دحراً ساحقاً وكاملاً، وإلى هذا أشار بقوله: «وَيَمَحِّقَ الْكَافِرِينَ» (٢).

ثم إنه يفيدنا القرآن درساً من واقعه «أحد» في تصحيح خطأ فكري وقع فيه المسلمون فيقول: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ».

أى هل تظنون أنكم تنالون أوج السعادة المعنوية بمجرد اختياركم لإسم المسلم، أو بمجرد أنكم حملتم العقيدة الإسلامية في الفكر دون أن تطبقوا ما يتبعها من التعاليم؟

لو كان الأمر كذلك لكان هيناً جداً، ولكن ليس كذلك حتماً، فإنه ما لم تطبق التعاليم التي تتبع تلك المعتقدات، في واقع الحياة العملية لم ينل أحد من تلك السعادة العظمى شيئاً.

وهنا بالذات يجب أن تتميز الصفوف، ويعرف المجاهدون الصابرون عن غيرهم. ثم إنه كان هناك جماعة من المسلمين - بعد معركة «بدر» واستشهاد فريق من أبطال

(١) «المحيص» والمحص أصله: تخليص الشيء مما فيه من عيب.

(٢) «المحق»: النقصان ومنه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال وامتحق وقل ضياؤه.

مختصر الامثال، ج ١، ص: ٣٢٧

الإسلام- يتمنون الموت في أحاديثهم ومجالسهم ويقولون: ليتنا لننا الشهادة في «بدر»، ومن الطبيعي أن يكون بعض تلك الجماعة صادقين في تمنيتهم والبعض الآخرون كاذبين يتظاهرون بهذه الأمانة، أو يجهلون حقيقة أنفسهم، ولكن لم يلبث هذا الوضع طويلاً، فسرعان ما وقعت معركة احد الرهيبة المؤلمة، فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامة وبسالة وصدق وكرعوا كؤوس الشهادة، وحققوا أمانيتهم، ولكن الذين كانوا يتمنونها كذباً وتظاهراً ما إن رأوا علائم الهزيمة التي لحقت بالجيش الإسلامي في تلك الواقعة حتى فروا خوفاً وجبناً، وضناً بنفوسهم وأرواحهم، تاركين الساحة للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآية توبخهم وتعاتبهم إذ تقول: «وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ». فلماذا فررتهم وهربتكم من الشيء الذي كنتم تتمنونونه طويلاً وكيف يفر المرء من محبوبه، وهو يراه وينظر إليه؟

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)

سبب التزلزل

في تفسير مجمع البيان: قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية أنه لما ارجف بأن النبي صلى الله عليه وآله قد قتل يوم احد واشيع ذلك، قال اناس: لو كان نبياً لما قتل. وقال آخرون: نقاتل على ما قاتل عليه، حتى نلحق به وارتمد بعضهم وانهمز بعضهم. وكان سبب انهزامهم وتضعضعهم، إخلال الرماة لمكانهم من الشعب. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نهاهم عن الإخلال به وأمر عبد الله بن جبير وهو أخو خوات بن جبير، على الرماة وهم خمسون رجلاً وقال: «لا تبرحوا مكانكم، فإننا لا نزال غالبين ما ثبتم بمكانكم».

التفسير

لا لعبادة الشخصية وتقديس الفرد: تعلم الآية الاولى من هاتين الآيتين حقيقة اخرى للمسلمين استلهاماً من أحداث معركة «احد» إذ تقول: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ

مختصر الامثال، ج ١، ص: ٣٢٨

قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ». وهذه الحقيقة هي أن الإسلام ليس دين عبادة الشخصية حتى إذا قتل النبي صلى الله عليه وآله ونال الشهادة في هذه المعركة. إن عبادة الشخصية وتقديس الفرد من أخطر ما يصيب أية حركة جهادية ويهددها بالسقوط والانهاء، فإن إرتباط الحركة أو الدين بشخص معين حتى لو كان ذلك هو النبي الخاتم صلى الله عليه وآله معناه توقف كل الفعاليات وكل تقدم بفقده وغيابه عن الساحة، وهذا النوع من الإرتباط هو أحد علائم النقص في الرشد الاجتماعي.

ثم إنه سبحانه يقول: «وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً». يعني أن العودة إلى الكفر والوثنية تضركم أتم دون الله سبحانه، لأن أمثال هذا التراجع لا يعني سوى توقفكم في طريق الخير والسعي نحو السعادة الكاملة، بل فقدان كل ما حصلتموه من العزة والكرامة والمجد بسرعة.

ثم إنه لما كان هناك - في معركة احد - أقلية استمرت على جهادها رغم الصعوبات، وانتشار الخبر المفجع عن مقتل الرسول صلى الله

عليه وآله كان من الطبيعي أن ينال صمودهم هذا وثباتهم التقدير اللائق، ولهذا قال سبحانه: «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ». وبذلك مدح القرآن الكريم استقامتهم وصمودهم، ووصفهم بالشاكرين لأنهم أحسنوا الاستفادة والانتفاع بالنعمة في سبيل الله، وهذا أفضل مصاديق الشكر.

ثم إن جماعة كثيرة من المسلمين اربعوا وزلزلوا لشائعه مقتل النبي في احد- كما أسلفنا- إلى درجة أنهم تركوا ساحه المعركه، وفروا بأنفسهم من الموت وحتى أن بعضهم فكر في الردة عن الإسلام، فكان قوله سبحانه: «وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا». وهو يكرر توبيخهم، وتنبههم إلى أن الموت بيد الله، والفرار لا ينفذ في الخلاص من الأجل الإلهي.

ومن ناحية اخرى أن الفرار من المعركة لا يدفع الأجل كما أن مواصلة القتال والبقاء في المعركة لا يقرب هو الآخر أجلاً. وبعد عرض هذه الحقائق يعقب سبحانه على ما قال بقوله: «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا». أي إن ما عمله الإنسان لا يضيع أبداً، فإن كان هدفه دنيوياً مادياً كما كان عليه بعض المقاتلين في «احد» فإنه سيحصل على ما يسعى إليه ويناله. وأما إذا كان هدفه أسمى من ذلك، وصب جهوده في سبيل الحصول على الحياة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٩

الخالدة والفضائل الإنسانية بلغ إلى هدفه حتماً وأوتى ثواب الآخرة الذي هو أعظم من كل ثواب وأسمى من كل نتيجة، فلماذا إذن لا يصرف الإنسان جهوده، ويوظف ما أوتى من طاقات معنوية ومادية في الطريق الثاني وهو الطريق الخالد السامي؟

وتأكيداً لهذه الحقيقة قال سبحانه مرة اخرى: «وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ».

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) المجاهدون السابقون: بعد استعراض حوادث معركة احد في الآيات السابقة، جاءت الآيات الحاضرة لتحث المسلمين على التضحية والثبات وتشجيعهم وتثبيتهم بذكر تضحيات من سبقوهم من أصحاب الرسل الماضين وأتباعهم المؤمنين الصادقين الأبطال، وتوخي ضمناً أولئك الذين فروا في «احد» وحدثوا أنفسهم بما حدثوا إذ يقول سبحانه في الآية الاولى من هذه الآيات: «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١). فأنصار الأنبياء إذا واجهوا المصاعب والجراحات والشدائد في قتالهم الأعداء لم يشعروا بالضعف والهوان أبداً، ولم يخضعوا للعدو أو يستسلموا له، ومن البديهي أن الله تعالى يحب مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثبتون ويصبرون في القتال: «وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ». فهؤلاء عندما كانوا يواجهون المشاكل بسبب بعض الأخطاء أو العثرات وعدم الانضباط لم يفكروا في الإستسلام للأمر الواقع، أو يحدثوا أنفسهم بالفرار أو الإرتداد عن الدين والعقيدة بل كانوا يتضرعون إلى الله يطلبون منه الصبر والثبات، والعون والمدد ويقولون: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

(١) «رِثْيُونٌ»: جمع «رثي» وزان «على» يطلق على من اشتد إرتباطه بالله عز وجل، ويكون مؤمناً عالمياً، صامداً مخلصاً.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٠

إنهم بمثل هذا التفكير الصحيح والعمل الصالح كانوا يحصلون على ثوابهم دون تأخير، وهو ثواب مزدوج، أما في الدنيا فالنصر والفتح، وأما في الآخرة فما أعد الله للمؤمنين المجاهدين الصادقين: «فَاتِيَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ».

ثم إنه سبحانه يعد هؤلاء من المحسنين إذ يقول: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَانْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمِآوَاهُمْ النَّارُ وَبئس مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) إن أعداء



الإسلام أخذوا- بعد معركة احد- يسعون فى إلقاء الفرقة فى صفوف المسلمين بيث سلسلة من الدعايات المسمومة، والمغلقة أحياناً بلباس النصيحة، والتحرّق على ما آل إليه المسلمون، وكانوا بالاستفادة من الأوضاع النفسية المتردية التى كان يمر بها جماعة من المسلمين، يحاولون زرع بذور النفور من الإسلام بينهم.

الآية الاولى من هذه الآيات تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا حَاسِرِينَ». فهى تحذر المسلمين من إطاعة الكفار وتقول: إن إطاعة الكفار تعنى العودة إلى الجاهلية بعد تلك الرحلة العظيمة فى طريق التكامل المعنوى والمادى فى ظل التعاليم الإسلامية.

ثم إنه سبحانه يؤكد بأن لهم خير ناصر وولى وهو الله: «بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰكُم وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ».

إنه الناصر الذى لا يغلب، بل لا تساوى قدرته أية قدرة، فى حين ينهزم غيره من الموالى، ويندحر غيره من الأسياد.

ثم إنه سبحانه يشير إلى نموذج من نماذج التأييد الإلهى للمسلمين فى أخرج الظروف، وأحلك المراحل إذ يقول: «سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». أى إتنا كما ألقينا الرعب فى قلوب الكفار فى أعقاب معركة «احد» ورايتم نموذجاً منه بأى أعينكم، سنلقى مثله فى قلوب الذين كفروا فيما بعد، ولهذا ينبغى أن تطمئنوا إلى المستقبل، ولا تأخذكم فى الله لومه

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣١

لائم، ولا تهزكم ولا تزعزعكم شماته شامت ووسوسة موسوس.

والجدير بالذكر أن الآية تعلق نشأة هذا الرعب الواقع فى قلوب الكفار كالتالى: «بِمَا أَشْرَكُوا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا».

لقد ظلم هؤلاء الكافرون أنفسهم وظلموا مجتمعاتهم ف: «مَأْوِيَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوٰى الظّٰلِمِينَ» وما أسوأه من مثنوى ومآل.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعِدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تُلَوُّونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحَزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللّٰهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَمَرَّزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّٰهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) الهزيمة بعد الانتصار: قاتل المسلمون فى المرحلة الاولى من معركة «احد» بشجاعة خاصة، إلا أن تجاهل فريق من الرماة لأوامر الرسول صلى الله عليه وآله المشددة بالبقاء عند ثغر الجبل والمحافظة عليه سبب فى أن تنقلب الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٢

وعندما عاد المسلمون بعد تحمل خسائر عظيمة إلى المدينة كان يسأل أحدهم رفيقه: ألم يعدنا الله سبحانه بالفتح والنصر، فلماذا هزمنا فى هذه المعركة؟

فكانت الآيات الحاضرة جواباً على هذا السؤال، وتوضيحاً للعلل الحقيقية التى سببت تلك الهزيمة، وإليك فيما يلى تفسير جزئيات هذه الآيات وتفصيلها:

قال سبحانه: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعِدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ» (١).

يعنى أن عليهم أن لا يتوهموا بأن الوعد بالتأييد والنصر مطلق لا قيد له ولا شرط، بل كل الوعود الإلهية بالنصر مقيدة باتباع تعاليم الله بحذافيرها، والتمسك بأهدافها.

ثم إنه سبحانه يقول بعد بيان هذه الحقيقة حول النصر الإلهى: «وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ».

ومن هذه العبارة التى هى إشارة إلى ما طرأ على وضع الرماة فى جبل «عينين» يستفاد بوضوح بأن الرماة الذين كلفوا بحراسة الثغر قد

اختلفوا فيما بينهم في ترك ذلك الثغر ومغادرة ذلك الموقع في الجبل فعصى فريق كبير منهم، (وهذا قد يستفاد من لفظة عصيتم التي تفيد أن الأغلبية والأكثرية من الرماة قد عصت وتجاهلت تأكيدات النبي بالبقاء هناك).

أجل لقد اختلفتم فيما بينكم وتنازعتم في تلك اللحظات الحساسة البالغة الأهمية:  
«مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ».

وهنا تغير مجرى الامور وانعكست القضية فبدل الله الانتصار إلى الهزيمة ليمتحنكم وينبهم ويربيكم: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ». ثم إن سبحانه غفر لكم كل ما صدر وبدر منكم من عصيان وتجاهل لأوامر الرسول صلى الله عليه وآله وما ترتب على ذلك من التبعات في حين كنتم تستحقون العقاب وما ذلك إلا لأن الله لا يرضن بنعمته على المؤمنين ولا يبخل عليهم بموهبة: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

ثم إنه سبحانه يذكر المسلمين بموقفهم في نهاية معركة «احد» فيقول: «إِذِ تَضِعُّ جُدُونَ وَلَمَّا تَلَوُّونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَيْكُمْ» (٢). أى تذكروا إذ فررتم من المعركة، ورحتم

(١) «الحس»: القتل على وجه الاستئصال، وسمى القتل حساً لأنه يبطل الحس.

(٢) «أخريكم»: بمعنى «ورائكم».

مختصر الامثال، ج ١، ص: ٣٣٣

تلوذون بالجبل أو تنتشرون في السهل، تاركين رسول الله وحده بين المهاجمين المباغتين من المشركين وهو يدعوكم من ورائكم ويناديكم قائلاً: «إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ - إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ». وأنتم لا تلتفتون إلى الوراة أبداً، ولا تلبون نداء النبي صلى الله عليه وآله.

وفي ذلك الوقت أخذت الهموم والأحزان تترى عليكم «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ» لما أصابكم من النكسة ولفقدان مجموعة كبيرة من خيار فرسانكم وجنودكم ولما بلغكم من شاعة قتل النبي صلى الله عليه وآله.

ولقد كان هجوم تلك الغموم عليكم من أجل أن لا- تحزنوا على ما فاتكم من غنائم الحرب، وما أصابكم من الجراحات في ساحة المعركة في سبيل تحقيق الانتصار «لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ».

«وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فهو يعرف جيداً من ثبت منكم وأطاع وكان مجاهداً واقعياً ومن هرب وعصى.

إتسمت الليلة التي تلت معركة «احد» بالقلق والاضطراب الشديدين، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يعود جنود قريش الفاتحون المنتصرون إلى المدينة مرة أخرى لاجتياح البقية الباقية من القوة الإسلامية.

بيد أنه كان هناك بين المسلمين ثلة من المجاهدين الصادقين الذين ندموا على الفرار من الميدان في «احد» فتابوا إلى الله، واطمأنوا إلى وعود النبي الكريم صلى الله عليه وآله حول المستقبل.

وإلى هذا كله يشير الكتاب العزيز في الآية الحاضرة إذ يقول: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ» (١).

ثم إن القرآن الكريم يعمد إلى بيان واستعراض طبيعة ما كان يدور بين اولئك المنافقين وضعاف الإيمان من أحاديث وحوار، وما كان يدور في خلدهم من ظنون وأفكار، إذ يقول:

«يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ».

إنهم كانوا يظنون بالله ما كانوا يظنون به أيام كانوا يعيشون في الجاهلية، وقبل أن تبرز عليهم شمس الإسلام فقد كانوا يتصورون أن الله سيكذبهم وعده ويطنون أن وعود

(١) «الأمنة»: أى الأمن، والنعاس هو النوم الخفيف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٤

النبي صلى الله عليه وآله غير محققه ولا صادقه وكان يقول بعضهم للآخر: «هل لنا من الأمر من شيء».

أى هل سيصيبنا النصر ونحن فى هذه الحالة من السقوط والهزيمة، والمحنة والبليّة؟ إنهم كانوا يستبعدون أن ينزل عليهم نصر من الله بعد ما لقوا، أو كانوا يرون ذلك محالاً. ولكن القرآن يجيبهم قائلاً: «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ». أى كيف تستبعدون ذلك أو ترونه محالاً والأمر كله بيد الله، وهو قادر أن ينزل عليكم النصر متى وجدكم أهلاً لذلك.

على أنهم لم يظهروا كل ما كان يدور فى خلدكم من ظنون وأوهام وهواجس خوفاً من أن يُعدوا فى صفوف الكفار: «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ».

وكأنهم كانوا يتصورون أنّ الهزيمة فى «احد» من العلامات الدالة على بطلان الإسلام، ولذا كانوا يقولون: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا». أى لو كنا على حق لكسبنا المعركة، ولم نخسر كل هذه الأرواح والنفوس.

ولكن الله تعالى أجابهم وهو يشير فى هذه الإجابة إلى مطلبين:

الأول: إنّ عليكم أن لا تتوهموا بأنّ الفرار من ساحة المعركة، وتجنب الصعاب يمكنه أن ينقذكم من الموت الذى هو قدر لكل إنسان ولهذا يقول سبحانه: «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ». فإنّ الذين جاء أجلهم، وحان حين موتهم لا بد أن يموتوا ولا محالة هم مقتولون حتى لو كانوا فى مضاجعهم.

والثانى: إنّ هذه الحوادث لا بد أن تقع حتى يبدى كل واحد مكنون صدره، ومكتوم قلبه، فتتشخص الصفوف، وتتميز جواهر الرجال، هذا مضافاً إلى أنّ هذه الحوادث سبب لتربية الأشخاص شيئاً فشيئاً، ولتخليص نياتهم، وتقوية إيمانهم، وتطهير قلوبهم «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ».

ثم فى ختام هذه الآية يقول سبحانه: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَدَاتِ الصُّدُورِ». ولذلك فهو لا ينظر إلى أعمال الناس بل يمتحن قلوبهم، ليظهرها من كل ما تعلق بالنفوس والأفئدة من شوائب الشرك والنفاق والشك والتردد.

الذنب ينتج ذنباً آخر: هذه الآية ناظرة أيضاً إلى وقائع معركة «احد» وتقرر حقيقة اخرى للمسلمين، وهى أنّ الذنوب والانحرافات التى تصدر من الإنسان بسبب من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٥

وساوس الشيطان، تفرز آثاماً وذنوباً اخرى بسبب وجود القابلية الحاصلة فى النفس الإنسانية نتيجة الذنوب السابقة، التى تمهد لذنوب مماثلة وآثام اخرى، وإلا فإنّ القلوب والنفوس التى خلت وطهرت من آثار الذنوب السالفة لا تؤثر فيها وساوس الشيطانية، ولا تتأثر بها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسِرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مِّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَمِآلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) استغلال المنافقين: كانت حادثة «احد» فرصة مناسبة للمنافقين بأن يقوموا بمحاولاتهم التشويشية. فهذه الآيات تتوجه بالخطاب أولاً إلى المؤمنين بهدف تحطيم جهود المنافقين ومحاولاتهم التخريبية وتحذير المسلمين منهم فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا».

«لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسِرَةً فِي قُلُوبِهِمْ». أنكم أيها المؤمنون إذا وقعتم تحت تأثير هذه الكلمات المضلّة الغاوية، وكررتم نظائرها

ستضعف روحيتكم أيضاً، وستمتنعون أيضاً وحينئذ سيتحقق للمنافقين ما يصبون إليه، ولكن لا تفعلوا ذلك، وتقدموا إلى سوح الجهاد ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب المنافقين المخذلين، أبداً.

ثم إن القرآن الكريم يرد على خبث المنافقين وتسويلاتهم وتشويشاتهم بثلاث أجوبة منطقية هي:

١- إن الموت والحياء بيد الله على كل حال، وأن الخروج والحضور في ميدان القتال لا يغير من هذا الواقع شيئاً، وأن الله يعلم بأعمال عباده جميعها: «وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

٢- ثم إنكم حتى إذا متم أو قتلتم، وبلغكم الموت المعجل - كما يحسب المنافقون - فإنكم لم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٦

تخسروا شيئاً، لأن رحمة الله وغفرانه أعظم وأعلى من كل ما تجمععه أيديكم أو يجمعه المنافقون مع الإستمرار في الحياة من الأموال والثروات «وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ». ٣- وبغض النظر عن كل ذلك فإن الموت لا يعنى الفناء والعدم حتى يخشى منه هذه الخشية ويخاف منه هذا الخوف، ويستوحش منه هذا الإستحاش، إنه نقله من حياة إلى حياة أوسع وأعلى وأجل وأفضل، حياة مزيجه بالخلود موصوفة بالبقاء «وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ».

إن الجدير بالملاحظة في هذه الآيات هو جعل الموت في اثناء السفر، في مصاف الشهادة في سبيل الله، لأن المراد بالسفر هنا هي تلك الأسفار التي يقوم بها الإنسان في سبيل الله ولأجل الله كالسفر وشد الرحال إلى ميادين القتال أو للعمل التبليغي.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنَّ يَنْصُرِكُمْ اللَّهُ فَمَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) الأمر بالعمو العام: هذه الآية ترتبط بواقعه «احد» لأنه بعد رجوع المسلمين من «احد» أحاط الأشخاص الذين فروا من المعركة برسول الله صلى الله عليه وآله وأظهروا له الندامة من فعلتهم وموقفهم، وطلبوا منه العفو. فأصدر الله سبحانه إلى نبيه صلى الله عليه وآله أمره بأن يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئتهم ويستقبل المخطئين التائبين منهم بصدر رحب. إذ قال تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ».

ولقد أشير في هذه الآية إلى واحدة من المزايا الأخلاقية لرسول الله صلى الله عليه وآله وهي اللين مع الناس والرحمة بهم، وخلوه من الفظاظ والخشونة.

«الفظ»: - في اللغة- هو الغليظ الجافي الخشن الكلام و«غليظ القلب» هو قاسى الفؤاد الذى لا تلمس منه رحمة ولا يحس منه لين.

وهاتان الكلمتان وان كانتا بمعنى واحد هو الخشونة، إلا أن الغالب استعمال الاولى في

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٧

الخشونة الكلامية، واستعمال الثانية في الخشونة العملية والسلوكية، وبهذا يشير سبحانه إلى ما كان يتحلى به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من لين ولطف تجاه المذنبين والجاهلين.

ثم إنه سبحانه يأمر نبيه بأن يعفو عنهم إذ يقول: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ».

وهذا الكلام يعنى أنه سبحانه يطلب من نبيه أن يعفو عنهم فيما بينه وبينهم، وأما ما بين الله وبينهم فهو سبحانه يغفر لهم ذلك. وقد فعل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ما أمره به ربه وعفى عنهم جميعاً.

بعد إصدار الأمر بالعمو العام يأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله بأن يشاور المسلمين فى الأمر ويقف على وجهات نظرهم، وذلك إحياءاً لشخصيتهم، وليث الروح الجديدة فى كيانهم الفكرى والروحى اللذين أصابهما الفتور بعد الذى حدث، إذ يقول: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ».

صحيح أن كلمة «الأمر» فى قوله تعالى «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» ذات مفهوم واسع يشمل جميع الامور، ولكن من المسلم أيضاً أن النبى

صلى الله عليه وآله لم يشاور الناس في الأحكام الإلهية مطلقاً، بل كان في هذا المجال يتبع الوحي فقط.

بقدر ما يجب على المستشار أن يتخذ جانب الرفق واللين في المشورة مع مستشاريه يجب إتخاذ القرار الأخير بصرامه وحسم، وهذا هو ما يعبر عنه بالعزم في قوله سبحانه في هذا السياق إذ يقول: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ». ثم إنَّه سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين في ختام الآية أن يتوكلوا على الله فحسب لأنَّه تعالى يحب المتوكلين إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ».

هذا ويستفاد من هذه الآية أنَّ التوكل يجب أن يكون بعد التشاور، وبعد الأخذ والاستفادة من جميع الإمكانيات المتاحة للإنسان حتماً. بعد أن يحث البارئ سبحانه وتعالى عباده على أن يتوكلوا عليه، يبين في هذه الآية- التي هي مكمله للآية السابقة- نتيجة التوكل وثمرته وفائدته العظمى فيقول: «إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ». وهو بهذا يشير إلى أنَّ قدره الله فوق كل القدرات، فإذا أراد بعبد خيراً وأراد نصره وتأييده والدفاع عنه لم يكن في مقدور أية قوة في الأرض- مهما عظمت- أن تتغلب عليه.

والكلام في الآية السابقة موجه إلى شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمر له ولكنه في هذه الآية موجه إلى جميع المؤمنين وكأنها تقول لهم: إنَّ عليهم أن يتوكلوا على الله كما يفعل النبي صلى الله عليه وآله

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٨

ولهذا يختم هذه الآية بقوله: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلُّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) الخيانة ممنوعة مطلقاً: بالنظر إلى الآية السابقة التي نزلت بعد الآيات المتعلقة بوقعة «احد» تعتبر هذه الآية رداً على بعض التعللات الواهية التي تمسك بها بعض المقاتلين.

فجاء القرآن يرد على زعمهم وتصورهم هذا فقال: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلُّ» (١). أي إنكم تصورتهم وظننتم أنَّ النبي يخونكم، والحال أنَّه ليس لنبي أن يغل ويخون أحداً.

إنَّ الله سبحانه ينزه في هذه الآية جميع الأنبياء والرسل من الخيانة، ويقول: إنَّ هذا الأمر لا يصلح- أساساً- للأنبياء، ولا يتناسب مع مقامهم العظيم.

ثم تقول: «وَمَنْ يَغُلُّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أي أنَّ كل من يخون سيأتي يوم القيامة وهو يحمل على كتفه وثيقة خيانتة، أو يصحبه معه إلى المحشر، وهكذا يفتضح أمام الجميع، وتنكشف أوراقه وتعرف خيانتة.

«ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ». يعني أنَّ الناس يجدون عين أعمالهم هناك، ولهذا فهم لا يظلمون لأنَّه يصل إلى كل أحد نفس ما كسبه خيراً كان أو شراً.

أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) المتخلفون عن الجهاد: تضمنت الآيات السابقة الحديث عن شتى جوانب معركة «احد» وملابساتها ونتائجها، وقد جاء الآن دور المنافقين وضعاف الإيمان من المسلمين الذين تقاعسوا عن الحضور في «احد» تبعاً للمنافقين، فنزل قوله تعالى: «أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ». ولبي نداء النبي واتبع أمره بالخروج «كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

(١) «الغلول»: تعني الخيانة، وأصله تدرع الشيء وتوسطه ومنه الغلل للماء الجاري بين الشجر، وهو الماء الذي يتسلل ويتسرب فيما بين الشجر ويدخل فيه، ويطلق الغليل على ما يقاسيه الإنسان في داخله من العطش ومن شدة الوجد والغيط، لهذا السبب.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٩

المصير».

ثم يقول تعالى: «هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ». أى أن لكل واحد منهم درجة بنفسه ومكانه عند الله.

ثم يقول سبحانه فى ختام هذه الآية: «وَاللَّهُ بِصِعَاتِ رَبِّمَا يَعْمَلُونَ». أى: أنه سبحانه عالم بأعمالهم جميعاً فهو يعلم جيداً من يستحق أية درجة من الدرجات، بحيث تليق بتيته وإيمانه وعلمه.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) النعمة الإلهية الكبرى: فى هذه الآية يدور الحديث حول أكبر النعم الإلهية، ألا وهى نعمة بعثه الرسول الأكرم والنبى الخاتم صلى الله عليه وآله وهو إجابة قوية على التساؤل الذى خالجه بعض الأذهان من حديثى العهد بالإسلام بعد معركة احد وهو: لماذا لحق بنا ما لحق، ولماذا أصبنا بما أصبنا به؟ فيجيبهم القرآن الكريم بقوله: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ». أى إذا كنتم قد تحملتم كل هذه الخسائر، وأصبتم بكل هذه المصائب، فإن عليكم أن لا تنسوا أن الله قد أنعم عليكم بأكثر نعمة، ألا وهى بعثه نبياً يقوم بهدايتكم وتربيتكم، فمهما تحملتم فى سبيل الحفاظ على هذه النعمة العظمى والموهبة الكبرى، ومهما كلفكم ذلك من ثمن، فهو ضئيل إلى جانبها، وحقير بالنسبة إليها.

ثم إن الله سبحانه يقول: «مَنْ أَنفُسِهِمْ». إن إحدى مميزات هذا النبى هو أنه من نفس الجنس والنوع البشرى، وذلك لكى يدرك كل احتياجات البشر وحتى يلمس آلام الإنسان وآماله، ثم يقوم بما يجب أن يقوم به من التربية والتوجيه على ضوء هذه المعرفة. ثم إن الله سبحانه يقول واصفاً مهمات هذا النبى العظيم: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ». أى أنه يقوم بثلاثة أمور فى حقهم:

١- تلاوة آيات الله على مسامعهم، وإيقافهم على هذه الآيات والكلمات الإلهية.

٢- تعليمهم بمعنى إدخال هذه الحقائق فى أعماق ضمائرهم وقلوبهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٠

٣- تركية نفوسهم، وتنمية قابلياتهم الخلقية، ومواهبهم الإنسانية. ولكن حيث إن الهدف الأسمى هو «التربية» لذلك قدمت على «التعليم» مع أن الحال - من حيث الترتيب الطبيعى - تقتضى تقديم التعليم على التربية.

إن أهمية هذه النعمة العظمى (البعثة النبوية) إنما تتضح تمام الوضوح وتتجلى تمام الجلاء عندما يقاس الوضع الذى آلوا إليه بالوضع الذى كانوا عليه، وملاحظة مدى التفاوت بينهما وهذا هو ما يعنيه قوله: «وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) دراسة اخرى لمعركة احد: إن بعض المسلمين كانوا يعانون من حزن عميق وقلق بالغ لنتائج احد، فذكروهم الله - فى هذه الآية - بثلاث نقاط هى:

١- يجب أن لا تقلقوا لنتائج معركة معينة، بل عليكم أن تحاسبوا كل قضايا المجابهة مع العدو، وتزنوا المسألة من جميع أطرافها فلو أنه أصابكم على أيدى أعدائكم فى هذه المعركة مصيبة فإنكم قد أصبتم أعداءكم ضعفاً فى معركة اخرى (معركة بدر) لأنهم قتلوا من المسلمين فى معركة «احد» سبعين ولم يأسروا أحداً بينما قتل المسلمون من المشركين فى معركة «بدر» سبعين وأسروا سبعين: «أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا».

٢- أنتم تقولون هذه المصيبة كيف أصابتنا؟ «قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا». ولكن «قل» أيها النبى:

«هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ». أى: هو نابع من مواقفكم فى تلك المعركة، فابحثوا عن أسباب الهزيمة فى أنفسكم.

٣- يجب أن لا تقلقوا للمستقبل لأن الله قادر على كل شىء، فإذا أصلحتم أنفسكم، وأزلتم النواقص، وتخلصتم مما تعاون منه من نقاط الضعف شملكم تأييده، وأنزل عليكم نصره «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيُعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيُعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)  
مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤١

لابد أن تتميز الصفوف: تنوه الآيتان الحاضرتان بحقيقته هامة هي أن أيه مصيبة (كتلك التي وقعت في احد) مضافاً إلى أنها لم تكن دون سبب وعلّة، فإنها خير وسيلة لتمييز صفوف المجاهدين الحقيقيين عن المنافقين أو ضعفاء الإيمان، ولذلك جاء في القسم الأول من الآية الاولي: «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ». أى: أن ما أصابكم يوم تقاتل المسلمون والمشركون فهو بإذن الله ومشيته وإرادته لأن لكل ظاهرة في عالم الكون المخلوق لله سبحانه سبباً خاصاً وعلّة معينة.  
ثم يقول سبحانه في المقطع التالي من الآية: «وَلْيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا».

ثم إن القرآن الكريم يستعرض حواراً قد وقع بين بعض المسلمين، والمنافقين قبل المعركة بالشكل التالي: «وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا». فإن بعض المسلمين (وهو عبد الله بن عمر بن حزام على ما نقل عن ابن عباس) عندما رأى انسحاب عبد الله بن أبى سلول وانفصالهم عن الجيش الإسلامى، وإعتراهم العودة إلى المدينة قال: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا عن حريمكم وأنفسكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله.

ولكنهم تعللوا، واعتذروا بأعذار واهية إذ قالوا: «لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ». أى إننا نظن أن الأمر ينتهى بلا قتال فلا حاجة لوجودنا معكم. فإن هذه كانت مجرد إعتذارات وتعللات، لأن الحرب كانت حتمية الوقوع، ولأن المسلمين إنتصروا في بداية المعركة، وأما ما لحق بهم من الهزيمة والانسار فلم يكن إلا بسبب أخطاء ومخالفات إرتكبوها هم أنفسهم بحيث لولاها لما وقعت بهم هزيمة، ولذا يقول الله سبحانه: «هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ». أى إنهم يكذبون.

ثم علل سبحانه ما ذكره عنهم بقوله: «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ». أى إنهم يظهرون خلاف ما يضمرون، ويبدون من القول خلاف ما يكتمون من الاعتقاد والنية، فإنهم لإصرارهم على إقتراحهم بالقتال داخل أسوار المدينة، أو رهبة من ضربات العدو، أو لعدم حبهم للإسلام أحجموا عن الإسهام فى تلك المعركة، وامتنعوا عن المضى إلى احد فى صحبة المسلمين، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ». فإن الله يعلم جيداً ما يخفونه ويضمرونه من النوايا.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)  
مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٢

مزاعم المنافقين الباطلة: لم يكتف المنافقون بانصرافهم عن الإسهام مع المؤمنين فى القتال، والسعى فى إضعاف الروح المعنوية للآخرين، بل عمدوا إلى لوم المقاتلين المجاهدين بعد عودتهم من المعركة وبعد ما لحق بهم ما لحق قائلين: «لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا». فإذ يدعونهم فى الآية الحاضرة قائلاً: «الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

لقد عبر القرآن عن المؤمنين فى هذه الآية بأنهم إخوان للمنافقين فى حين لم يكن المؤمنون إخواناً للمنافقين إطلاقاً، فما هذه الأنواع من الملامة والتوبيخ للمنافقين؟ فيكون المعنى هو: إنكم أيها المنافقون كنتم تعتبرون المؤمنين إخواناً لكم فكيف تركتم نصرتهم فى هذه اللحظات الخطيرة؟ ولهذا أردف سبحانه هذه الكلمة «لِإِخْوَانِهِمْ» بكلمة «قَعَدُوا» أى تقاعسوا عن المشاركة فى المعركة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أُنْ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)  
الحياة الخالدة: إن الآيات الحاضرة نزلت فى شهداء «احد» وإن كان محتواها ومضمونها يعم حتى شهداء «بدر». فجاءت الآيات الحاضرة لتفند كل هذه التصورات، وتذكر بمكانة الشهداء السامية ومقامهم الرفيع وتقول: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا».

والخطاب - هنا - متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله خاصة حتى يحسب الآخرون حسابهم.

ثم يقول سبحانه معقبا على العبارة السابقة: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

والمقصود من الحياة في الآية هي «الحياة البرزخية» في عالم ما بعد الموت، وإن لم تختص الحياة البرزخية بالشهداء فلكثير من الناس حياة برزخية أيضاً ولكن إن حياة الشهداء محفوفة بالنعمة والمواهب المعنوية العظيمة وكأن حياة الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئاً يذكر بالنسبة إليها.

ثم إن الآية التالية تشير إلى بعض مزايا حياة الشهداء البرزخية، وما يكتنفها ويلازمها من عظيم البركات من خلال الإشارة إلى عظيم إبتهاجهم بما أتوا هناك فتقول: «فَرِحِينَ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٣

بِمَا آتَيْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ».

ثم إن السبب الآخر لإبتهاجهم ومسررتهم هو ما يجدونه ويلقونه من عظيم الثواب ورفيع الدرجات الذي ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهادة في المعركة إذ يقول القرآن: «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ».

ثم يردف هذا بقوله: «أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». يعنى أن الشهداء يحسون هناك وفى ضوء ما يرونه أن إخوانهم المجاهدين لن يكون عليهم أى حزن على ما تركوه فى الدنيا ولا أى خوف من الآخرة ووقائعها الرهيبة.

ثم إنه سبحانه يقول: «يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ» (١).

وهذه الآية مزيد تأكيد وتوضيح حول البشائر التى يتلقاها الشهداء بعد قتلهم واستشهادهم، فهم فرحون ومسرورون من ناحيتين:

الاولى: من جهة النعمة والمواهب الإلهية التى يتلقونها.

والثانية: من جهة أنهم يرون أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين ... لا أجر الشهداء الذين نالوا شرف الشهادة، ولا أجر

المجاهدين الصادقين الذين لم ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم فى المعركة: «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ».

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَمَاخِضُوهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَمَا نَقَلُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ فَضْلٍ لَمْ يَمَسْسِ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) غزوة حمراء الأسد: قلنا إن جيش أبى سفيان المنتصر أسرع بعد إنتصاره فى معركة «احد» على الجيش الإسلامى يحث السير فى طريق العودة إلى مكة حتى إذا بلغ أرض «الروحاء» ندم على فعله، وعزم على العودة إلى المدينة للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين، واستئصال جذور الإسلام حتى لا تبقى له ولهم باقية.

ولما بلغ هذا الخبر إلى النبى صلى الله عليه وآله أمر مقاتلى احد أن يستعدوا للخروج إلى معركة اخرى مع المشركين.

(١) «الاستبشار» يعنى الإبتهاج والسرور الحاصل بسبب تلقى بشاره أو مشاهدة نعمة للنفس أو للغير من الأحبة؛ وليست بمعنى التبشير والإبشار.

إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٤

فلما بلغ هذا الخبر أبى سفيان وأدرك صمود المسلمين، خاف وارعب. هذا وقد حدثت فى هذا الموضوع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، وهى أنه: مر برسول الله «معبد الخزاعى» وهو يومئذ مشرك، فلما شاهد النبى وما عليه هو وأصحابه من الحالة تحركت عواطفه وجاشت، فقال للنبى صلى الله عليه وآله: يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك فى قومك وأصحابك، ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وآله حتى لقي أبى سفيان ومن معه بالروحاء وأجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما



رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً. وقد اجتمع عليه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على صنيعهم، وفيه من الحق عليكم ما لم أر مثله قط. فاهتز لذلك أبو سفيان ومن معه وقفل راجعاً ومنسحباً إلى مكة بسرعة، وحتى يتوقف المسلمون عن طلبه وملاحقته ويجد فرصة كافية للإنسحاب قال لجماعة من بني عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح: «أخبروا محمداً إننا قد أجمعنا الكزة عليه وعلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثم انصرف إلى مكة.

ولما مرت هذه الجماعة برسول الله صلى الله عليه وآله وهو بحمراء الأسد أخبروه بقول أبي سفيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حسبنا الله ونعم الوكيل». وبقي هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيام، فلم ير لهم أثراً فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة، والآيات الحاضرة تشير إلى هذه الحادثة وملابساتها (١).

يقول سبحانه: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ».

ثم إن القرآن الكريم يبين إحدى العلامات الحية لاستقامتهم وثباتهم إذ يقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

ثم بعد ذكر هذه الاستقامة الواضحة وهذا الإيمان البارز يذكر القرآن الكريم نتيجة عملهم إذ يقول: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ» وتأكيذاً لهذا الأمر يقول القرآن: «لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ» مضافاً إلى أنهم «اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ». إنه فضل عظيم ينتظر المؤمنين الحقيقيين، والمجاهدين الصادقين.

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٥

هذه الآية تعقيب على الآيات التي نزلت حول غزوة «حمراء الأسد». ويكون معنى هذه الآية هو: إن عمل نعيم بن مسعود، أو ركب عبد القيس من عمل الشيطان لكي يخوفوا به أولياء الشيطان. يعني أن هذه الوسوس إنما تؤثر في أتباع الشيطان وأوليائه خاصة. إن التعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس ووصفهم بـ «الشيطان» إما لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان، وإما أن المقصود من الشيطان هم نفس هؤلاء الأشخاص، فيكون «هذا المورد» من الموارد التي يطلق فيها اسم الشيطان على المصداق الإنساني له.

ثم إنه سبحانه يقول في ختام الآية: «وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». يعني أن الإيمان بالله والخوف من غيره لا يجتمعان.

وعلى هذا الأساس فإن وجد في أحد الخوف من غير الله كان ذلك دليلاً على نقصان إيمانه وتأثيره بالوسوس الشيطانية لأننا نعلم أنه لا ملجأ ولا مؤثر بالذات في هذا الكون العريض سوى الله الذي ليس لأحد قدرة في مقابل قدرته.

وَلَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَاءً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) مواساة القرآن للنبي صلى الله عليه وآله: الآية الأولى موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله فالله تعالى يعزى نبيه في أعقاب أحداث «احد» المؤلمة قائلاً له: أيها الرسول: «وَلَمَّا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ». وكأنهم يتسابقون إليه «إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً» بل يضرّون بذلك أنفسهم.

هذا مضافاً إلى أن الله سوف لن ينسى مواقفهم المشينة ولن تفوته مخالفاتهم، وسيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: «يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَاءً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

فإن الآية تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون في الكفر فليس ذلك لأن الله لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأن الله أراد أن يكونوا أحراراً في اتخاذ المواقف وسلوك الطريق الذي يريدون، ولا شك أن نتيجة ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الربانية في العالم الآخر. ثم يقرر القرآن هذه الحقائق في الآية الثانية بشكل أكثر تفصيلاً إذ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً». يعني

ليس الذين يتسابقون في طريق الكفر ويسارعون إليه هم وحدهم على هذا الحال، بل كل الذين يسلكون طريق الكفر بشكل من مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٦

الأشكال ويشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء لن يضروا الله شيئاً، وإنما يضرون أنفسهم. ويختم سبحانه الآية بقوله: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وَلَمَّا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) بعد تسليته خاطر النبي صلى الله عليه وآله في الآيات السابقة توجه سبحانه إلى الأعداء في هذه الآية بالخطاب، وأخذ يحدّثهم عن المصير المشؤوم الذى ينتظرهم. يقول فيها سبحانه: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (١). تحذّر المشركين بأنّ عليهم أن لا يعتبروا ما أتيح لهم من إمكانات فى العدة والعدد، وما يكسبونه من انتصارات فى بعض الأحيان، وما يمتلكونه من حرية التصرف، دليلاً على صلاحهم، أو علامة على رضا الله عنهم.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) المسلمون فى بوتقة الاختبار والفرز: لم تكن قضية «المنافقين» مطروحة بقوة قبل حادثة معركة «احد» ولهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدواً لهم غير الكفار، ولكن الهزيمة التى أفرزتها «احد» وما دبّ فى المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضية لنشاط المنافقين المندسين فى صفوف المسلمين، وعلى أثر ذلك عرف المسلمون وأدركوا بأنّ لهم عدواً آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته ونشاطاته وهو «المنافقون» وكان هذا إحدى أهم معطيات حادثة «احد» ونتائجها الإيجابية. والآية الحاضرة التى هى آخر الآيات التى تتحدث - هنا - عن معركة «احد» وأحداثها، تبين وتعرض هذه الحقيقة فى صورة قانون عام إذ تقول: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

(١) «نملى»: مشتقة من الإملاء، وتعنى المساعدة والإعانة وتستعمل فى أكثر الموارد فى إطالة المدّة والإمهال الذى هو نوع من المساعدة، وقد جاءت فى الآية الحاضرة بالمعنى الثانى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٧

فلا بد أن تتميز الصفوف، وتتم عملية الفرز بين الطيب الطاهر، والخبث الرجس، وهذا قانون عام وسنّه إلهية، فليس كل من يدعى الإيمان، ويجد مكاناً فى صفوف المسلمين يترك لشأنه، بل ستبلى سرائره وتنكشف حقيقته فى الآخرة بعد الاختبارات الإلهية المتتابعة له.

وهنا يمكن أن يطرح سؤال وهو: إذا كان الله عالماً بسريرة كل إنسان وأسراره فلماذا لا يخبر بها الناس - عن طريق العلم بالغيب - ويعرفهم بالمؤمن والمنافق؟

إنّ المقطع الثانى من الآية وهو قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ». يجب على هذا السؤال، أى إن الله سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأنّ الوقوف على الأسرار لا يحلّ مشكله، بل سيؤدى إلى الهرج والمرج وإلى تمزق العلاقات الاجتماعية. والأهم من كل ذلك هو أنّه لا بد أن تتضح قيمة الأشخاص من خلال المواقف العملية والسلوكية، ومسألة الاختبار الإلهي لاتعنى سوى هذا الأمر.

ثم إنّ الله سبحانه يستثنى الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ». أى إنّه يختار فى كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على شىء من تلك الغيوب ويوقفهم على بعض الأسرار بحكم احتياج القيادة الرسالية إلى ذلك.

إنّ المراد من المشيئة الإلهية هو «الإرادة المقرونة بالحكمة» أى إن الله سبحانه يطلع على الغيب كل من يراه صالحاً لذلك، وتقتضى حكمته سبحانه ذلك.

ثم أنه تعالى يذكرهم - في ختام الآية - أن يجتهدوا لينجحوا في هذا الامتحان ويخرجوا مرفوعى الرؤوس من هذا الاختبار العظيم، إذ يقول: «فَامُنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) طوق الأسر الثقيل: تبين الآية الحاضرة مصير البخلاء في يوم القيامة، اولئك الذين يبذلون غاية الجهد في جمع الثروة ثم يمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله، ولصالح عباده. والآية هذه وإن لم تتعرض صراحة لذكر الزكاة وغيرها من الحقوق والفرائض المالية، إلا أن الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام خصصت هذه الآية وما وعد به فيها من الوعيد مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٨

بمانعى الزكاة. تقول الآية أولاً: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ». ثم تصف مصير هؤلاء في يوم القيامة هكذا: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أى ستكون تلك الأموال التى بخلوا بها طوقاً فى أعناقهم فى ذلك اليوم الرهيب. ومن هذه الجملة يستفاد أن الأموال التى لم يدفع صاحبها الحقوق الواجبة فيها، ولم ينتفع بها المجتمع، بل صرفت فقط فى سبيل الأهواء الشخصية، وربما صرفت فى ذلك السبيل بشكل جنونى، أو كدست دون أى مبرر ولم يستفد منها أحد سيكون مصيرها مصير أعمال الإنسان، أى أنها - طبقاً لقانون تجسّم الأعمال البشرية - ستجسّم يوم القيامة وتمثل فى شكل عذاب مؤلم يؤذى صاحبها ويخزيه.

ففى تفسير العياشى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الذى يمنع الزكاة يُحوّل الله ماله يوم القيامة شجاعاً من نار ... فيطوّقه إياه، ثم يقال له: الزمه كما لزمك فى الدنيا. وهو قول الله: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ» الآية».

ثم إن الآية تشير إلى نقطة اخرى إذ تقول: «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

يعنى أن الأموال سواء أنفقت فى سبيل الله أو لم تنفق فإنها ستنفصل فى النهاية عن أصحابها، ويرث الله الأرض والسماء وما فيهما، فالأجدر بهم - والحال هذه - أن ينتفعوا من آثارها المعنوية، لا أن يتحملوا وزرها وعناءها، وحسرتها وتبعاتها.

ثم تختم الآية بقوله تعالى: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ». أى إنه عليم بأعمالكم، يعلم إذا بخلتم، كما يعلم إذا انفقتم ما اوتيته من المال فى سبيل الصالح العام وخدمة المجتمع الإنسانى، ويجازى كلّا على عمله بما يليق.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

سبب التزلزل

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: كتب النبى صلى الله عليه وآله إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٩

إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا لله قرضاً حسناً (والمراد منه الإنفاق فى سبيل الله وإنما عبر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر وإثارته لدى الناس قدرأ أكبر) فدخل رسول النبى إلى بيت مدارسهم (حيث يتلقى اليهود دروساً فى دينهم) فوجد ناساً كثيراً منهم اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازورا فدعاهم إلى الإسلام والصلاة والزكاة، فقال فنحاص: إن كان ما تقول حقاً فإن الله إذن لفقير ونحن أغنياء، ولو كان غنياً لما استقرضنا أموالنا! وهو يشير إلى قوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» (١). هذا مضافاً إلى أن «محمّداً» يعتقد أن الله نهاكم عن أكل الربا، وهو يعدكم أن يضاعف لكم إذا انفقتم أضعافاً مضاعفة، وهو يشير إلى قوله تعالى: «يُزِيْبِي الصَّدَقَاتِ» (٢). ولكن فنحاص أنكّر أنه قال شيئاً من هذه فى ما بعد فنزلت الآيتان المذكورتان أعلاه.

التفسير

تقول الآية الاولى: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ». أى لو أن هؤلاء استطاعوا أن يخفوا عن الناس مقالتهم

هذه فإن الله قد سمعها ويسمعها حرفاً بحرف فلا مجال لإنكارها، فهو يسمع ويدرك حتى ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفية جداً أو الأصوات العالية جداً.

ثم يقول سبحانه: «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا». أى إن ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه.

إن المراد من الكتابة ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابة والتدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التي تبقى خالدة في العالم حسب قانون بقاء «الطاقة- المادة».

ثم يقول: «وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ». أى إننا لا نكتفى بكتابة مقالا-تهم الكافرة الباطلة فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جداً وهو قتلهم للأنبياء.

وأما تسجيل وكتابة أعمالهم فلم يكن أمراً اعتباطياً غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامة، ونقول لهم: ها هي نتيجة أعمالكم قد تجسدت في صورة عذاب محرق ونقول: «ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

(١) سورة الحديد / ١١.

(٢) سورة البقرة / ٢٧٦.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٠

مختصر الامثل ج ١ ص ٣٧٩

إن هذا العذاب الأليم الذى تذوقونه ليس سوى نتيجة أعمالكم، فأنتم- أنفسكم- قد ظلمتم أنفسكم «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

ولقد نقل عن الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة أنه قال: «وأيم الله ما كان قوم قط فى غض نعمه من عيش فزال عنهم إلابذنوب اجترحوها لأن الله ليس بظلام للعبيد». الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَنْ نُوْمِنَ لِرَسُوْلِ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبٰنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُوْلٌ مِّنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنٰتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوْكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنٰتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتٰبِ الْمُنِيْرِ (١٨٤)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية فى جماعة من اليهود قالوا: يا محمد إن الله عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أن الله بعثك إلينا فجننا به نصدقك. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

مغالطات اليهود وتعللاتهم: كانت اليهود تتحجج وتجادل كثيراً بهدف التملص من الإنضواء تحت راية الإسلام. ومن مغالطاتهم ما جاء ذكره فى هذه الآية الحاضرة التى تقول:

«الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُوْلِ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبٰنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ».

يقول القرآن فى مقام الرد عليهم: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُوْلٌ مِّنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنٰتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ». وفى ذلك

إشارة إلى زكريا ويحيى وطائفة من الأنبياء الذين قتلوا على أيدي بنى اسرائيل.

ثم يعقب سبحانه على الآية السابقة بقوله: «فَإِنْ كَذَّبُوْكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ».

وفى هذه الآية يسلى الله سبحانه النبى صلى الله عليه وآله ويقول: إن كذبتك هذه الجماعة فلا تقلق لذلك ولا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، وعارضوا دعوتهم بصلابة وعناد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥١

ولم يكن هؤلاء الأنبياء غير مزودين بما يبرهن على صدقهم، بل «جاءوا بالبينات والزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ». كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) الموت وقانونه العام: تعقياً على البحث حول عناد المعارضين وغير المؤمنين تشير هذه الآية- أولاً- إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء فى هذا الكون وتقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

إن لهذه الحياة نهاية لا محالة، ولا بد أن يأتى ذلك اليوم الذى يزور فيه الموت كل أحد، ولا يكون أمامه- حينئذ- إلا أن يفارق هذه الحياة.

إن المراد من «النفس» فى هذه الآية هو مجموعة الجسم والروح، وإن كانت النفس فى القرآن تطلق أحياناً على خصوص «الروح» أيضاً.

والتعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل.

ثم تقول الآية بعد ذلك: «وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أى إنَّه ستكون بعد هذه الحياة مرحلة اخرى هى مرحلة الثواب والعقاب، وبالتالي الجزاء على الأعمال، فهنا عمل ولا حساب وهناك حساب ولا عمل.

وعبارة «تُوَفَّقُونَ» التى تعنى إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله- يوم القيامة- وافية وبدون نقص.

ثم قال سبحانه: «فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ».

«زحزح»: تعنى محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شىء، وتخليصها من جاذبيته تدريجاً؛ و «فاز»: تعنى فى أصل اللغة النجاة من الهلكة ونيل المحبوب والمطلوب.

والجملة بمجموعها تعنى أن الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبية النار ودخلوا الجنة فقد نجوا من الهلكة ولقوا ما يحبونه وكأن النار تحاول بكل طاقتها أن تجذب الأدميين نحو نفسها ... حقاً أن هناك عوامل عديدة تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، وهى على درجة كبيرة من الجاذبية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٢

أليس للشهوات العابرة، واللذات الجنسية الغير المشروعة، والمناصب، والثروات الغير المباحة مثل هذه الجاذبية القوية؟ ثم يقول سبحانه فى نهاية هذه الآية: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ».

وهذه الجملة تكمل البحث السابق وكأنها تقول: إن هذه الحياة مجرد لهو ومتاع تخدع الإنسان من بعيد، فإذا بلغ إليها الإنسان ونال منها ولمسها عن كثب وجدها- على الأغلب- فراغاً فى فراغ وخواء فى خواء، وما متاع الغرور إلا هذا.

إن هذه التعابير قد تكررت فى القرآن والأحاديث كثيراً، والهدف منها جميعاً شىء واحد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياة المادية ولذاتها العابرة الفانية الزائلة هدفه الأخير، وأما الإنتفاع بالحياة المادية ومواهبها كوسيلة للوصول إلى التكامل الإنسانى والمعنوى فليس غير مذموم فقط، بل هو ضرورى وواجب.

لَتَبْلُغَنَّ فِي أُمُورِكُمْ وَانْفُسِكُمْ وَتَشْتِمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة وابتعدوا عن دورهم وديارهم، راحت أيدي المشركين تطل أموالهم وتمتد إلى ممتلكاتهم، وتناها بالتصرف والسيطرة عليها، وإيذاء كل من وقعت عليه أيديهم والإيقاع فيه بالهزاء والاستهزاء.

وعندما جاءوا إلى المدينة، واجهوا أذى اليهود القاطنين فى المدينة، خاصة كعب بن الأشرف الذى كان شاعراً سليط اللسان، وكان يهجو النبى صلى الله عليه وآله والمؤمنين ويحرّض المشركين عليهم ويشبب بنساء المسلمين.

فقال صلى الله عليه وآله: «من لى باين الأشرف»؟ فقال محمد بن سلمة: أنا يا رسول الله. فخرج هو وأبو نائلة مع جماعة فقتلوه غيلة، وأتوا برأسه إلى النبى صلى الله عليه وآله آخر الليل، وهو قائم يصلى.

التفسير

لا تتعبكم المقاومة: «كَبَلُوا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ». أجل إن هذه الحياه ساحة اختبار

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٣

ودار امتحان، فلا بد أن يتهيا الإنسان لمواجهة كل الحوادث والمفاجئات الصعبة العسيرة، وهذا تحذير لجميع المسلمين بأن لا يظنوا بأن الحوادث العسيرة فى حياتهم قد انتهت، أو أنهم قد تخلصوا من أذى الأعداء، وسلاطة لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السليط اللسان الذى كان يؤذى المسلمين بلسانه وشعره. ولهذا قال سبحانه: «وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا».

ثم إنه سبحانه عقب على هذا الإنذار والتنبيه بقوله: «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

وبهذا يبين القرآن وظيفة المسلمين وواجبهم فى أمثال هذه الحوادث الصعبة والظروف العسيرة، ويدعوهم إلى الصبر والاستقامة والصمود و التزم التقوى فى مثل هذه الحوادث معلناً بأن هذه الامور من الامور الواضحة النتائج، ولذلك يتعين على كل عاقل أن يتخذ موقفه منها.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينة ومخالفاتهم تشير الآية الحاضرة إلى واحدة اخرى من تلك الأعمال والمخالفات، ألا وهو كتمان الحقائق فتقول: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ». أى اذكروا إذ أخذ الله مثل هذا الميثاق منكم.

من هذه التعابير يستفاد أن الله سبحانه قد أخذ بوساطة الأنبياء السابقين أكد الموثيق والعهود من أهل الكتاب ولكن خانوا تلك العهود وتجاهلوا تلك الموثيق وأخفوا ما أرادوا إخفاءه من حقائق الكتب السماوية، ولهذا قال سبحانه عنهم: «فَبَدَّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ».

ثم إنه سبحانه أشار إلى حرص اليهود وجشعهم وحبهم المفرط للدنيا إذ يقول:

«وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ».

إن الآية الحاضرة وإن كانت قد وردت بحق أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) إلا أنها فى الحقيقة تحذير وإنذار لكل علماء الدين ورجاله بأن عليهم أن يجتهدوا فى تبليغ الحقائق وبيان الأحكام الإلهية، وتوضيحها وإظهارها بجلاء، وإن ذلك مما كتبه الله عليهم، وأخذ منهم ميثاقاً مؤكداً وغلظاً.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٤

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

سبب التزل

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: نزلت فى اليهود حيث كانوا يفرحون بإجلال الناس لهم ونسبتهم إياهم إلى العلم.

وقيل: نزلت فى أهل النفاق لأنهم كانوا يجمعون على التخلف عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا رجعوا اعتذروا وأحبوا أن يقبل منهم العذر ويحمدوا بما ليسوا عليه من الإيمان.

التفسير

إن الآية الحاضرة فى شأن علماء اليهود الذين يحرفون آيات الكتب السماوية تقول: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنْ

يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يُفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْهُمُ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ». أى لا تحسبن أن هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا وينجون من العذاب، إنما النجاة لمن يستحون- على الأقل- من أعمالهم القبيحة، ويندمون على أنهم لم يفعلوا شيئاً من الأعمال الصالحة. إن هؤلاء المعجيين بأنفسهم ليسوا فقط ضلوا طريق النجاة وحرموا من الخلاص، بل «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ينتظرهم. ثم إن الله سبحانه يقول فى آية لاحقة: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». وهذا الكلام يتضمن بشرى للمؤمنين وتهديداً للكافرين.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٥

أوضح السبل لمعرفة الله: آيات القرآن الكريم ليست للقراءة والتلاوة فقط، بل نزلت لكى يفهم الناس مقاصدها ويدركوا معانيها، وما التلاوة والقراءة إلامقدمة لتحقيق هذا الهدف، أى التفكير والتدبر والفهم، ولهذا جاء القرآن فى الآية الاولى من الآيات الحاضرة يشير إلى عظمه خلق السماوات والأرض، ويقول: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ». إن هذا النقش الساحر الأسر للقلوب، المبوث فى كل ناحية من نواحي هذا الكون العريض يشد إلى نفسه فؤاد كل لبيب وعقله شداً- يجعله يتذكر خالقه، فى جميع الحالات، قائماً أو قاعداً، وحين يكون فى فراشه نائماً على جنبه، ولهذا يقول سبحانه: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ». أى إنهم مستغرقون كامل الإستغراق فى التفكير الحيوى حول هذا الكون الرائع ونظامه البديع ومبدعه، ومبديه.

ولقد اشير- فى هذه الآية- إلى الذكر أولاً، ثم إلى الفكر ثانياً، ويعنى ذلك أن ذكر الله وحده لا يكفى، إن الذكر إنما يعطى ثماره القيمة إذا كان مقترناً بالفكر، كما أن التفكير فى خلق السماء والأرض هو الآخر لا يُجدى ولا يوصل إلى النتيجة المتوخاة ما لم تقترن عملية التفكير بعملية التذكر.

إنّ العقلاء يواجهون هذه الحقيقة الساطعة إلأ أن يقولوا بخشوع هذه الجملة: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ». إن أصحاب العقول السليمة الواعية بعد أن يعترفوا بالهدية فى الخليقة يتذكرون أنفسهم فوراً ويسألون الله التوفيق للقيام بها حتى يتجنبوا عقابه ولهذا يقول: «فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». ثم يقول: «رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ».

ويستفاد من هذه العبارات أن العقلاء يخافون من الخزى قبل أن يخافوا من نار جهنم، وهذا هو حال كل من يمتلك شخصيه، فإن أشد عقوبات الآخرة على هؤلاء هو الخزى فى محضر الله وعند عباده.

على أن النقطة الجديرة بالاهتمام التى تنطوى عليها جملة «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» هى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٦

أن العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربوية المطلوبة للإنسان يقفون على هذه الحقيقة وهى أن الوسيلة الوحيدة لنجاح الإنسان ونجاته هى أعماله وممارساته، ولهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أى أنصار. ثم إن أصحاب العقول وذوى الألباب بعد التعرف على هدف الكون والغاية من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطة، وهى أن هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قيادة الهداة الإلهيين، ولهذا فهم يترصدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق وإخلاص ويستجيبون لأول دعوة يسمعونها منه ويسرعون إليه، ولهذا يقولون فى محضر ربهم:

«رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ». أى ربنا الآن وقد آمنا

بكل وجودنا وإرادتنا، ولكننا يحيط بنا طوفان الغرائز المختلفة من كل جانب، فربما ننزلق وربما نزل ونرتكب معصية، ربنا فاغفر لنا زلتنا، واستر عثرتنا، وتوفنا مع الأبرار الصالحين.

ثم إن هؤلاء العقلاء يطلبون من ربهم في نهاية المطاف، وبعد أن يسلكوا طريق الإيمان والتوحيد وإجابة دعوة الأنبياء والقيام بالواجبات الموجهة إليهم، أن يؤتيهم وعدهم على لسان الرسل فيقولون: «رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ». أي ربنا لقد وفينا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائك ورسلك ولا تفضحنا ولا تلتحق بنا الخزي يوم القيامة:

«وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَاتُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

هذه الآيات الخمسة التي تعد من القمم القرآنية العظيمة التأثير، والتي امتزجت فيها مجموعة من معارف الدين بلحن لطيف وساحر من المناجاة والدعاء، فإذا هي نعمة سماوية تدغدغ المشاعر، وتشير الشعور، وتحرك ما غفا من العقل والضمير.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَمَّا أُضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: هذه الآية تعقيب على الآيات السابقة حول اولى الألباب

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٧

والعقول الثيرة ونتيجة أعمالهم. روى أن أم سلمة (وهي إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وآله) قالت: يا رسول الله! ما بال الرجال يذكرون في الهجرة دون النساء؟ فأنزل الله هذه الآية.

ولكن السبب المذكور لنزول الآية لا ينافي الإرتباط الذي أشرنا إليه بين هذه الآية والآيات السابقة.

التفسير

النتيجة الطيبة لموقف اولى الألباب: في الآيات الخمس الآنفه استعرض القرآن الكريم موجزاً من إيمان اولى الألباب والعقول الثيرة، وفي هذه الآية يقول سبحانه:

«فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ».

ثم يضيف قائلاً: «أَنِّي لَأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ». دفعا للإشبهاء والتوهم الذي قد يسبق إلى الذهن بأنه لا إرتباط بين الفوز والنجاة، وبين أعمال الإنسان ومواقفه.

ثم إنه سبحانه يقول: «مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ». وهذا لأجل أن لا يتصور أحد أن هذا الوعد الإلهي يختص بطائفة معينة، لأن الجميع يعودون في أصل الخلقة إلى مصدر واحد «بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ» أي تولد بعضكم من بعض، النساء من الرجال، والرجال من

النساء، فلا تفاوت في هذه المسألة إذن بين الذكر أو الانثى، فلماذا يكون تفاوت في الجزاء والثواب؟

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقة حيث يتهمون الإسلام أنه دين الرجال دون النساء.

ثم إنه سبحانه يستنتج من ذلك إذ يقول: «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

أي: إن الله سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلاً من هذه المشاق والمتاعب التي نالتهم كفارة لذنوبهم، ليطهروا من أدرانها تطهيراً.

ثم يقول تعالى: «وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». مضافاً إلى غفران ذنوبهم والتكفير عنهم.

وهذا هو الثواب الإلهي لهم على ما قاموا به من تضحية وفداء «ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ». يعني أن الأجر الإلهي

والثوابات الإلهية ليست قابلة للوصف للناس بشكل كامل في هذه الحياة، بل يكفي أن يعلموا بأنه أفضل وأعلى من أي ثواب.



مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٨

لَمَّا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)  
سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في مشركي العرب، وكانوا يتجرون ويتنعمون بها، فقال بعض المسلمين: إن أعداء الله في العيش الرخي، وقد هلكتنا من الجوع! فنزلت الآية.

التفسير

سؤال مزعج: السؤال الذي مر ذكره في سبب نزول هذه الآيات والذي كان يطرحه بعض المسلمين في عصر النبي يعتبر سؤالاً عاماً يطرح نفسه على الناس في كل زمان ومكان. فإنهم يرون كيف يتنعم العصاة والطغاة، والفراعنة والفساق، ويرفلون في النعيم، ويعيشون الحياة الرفاهية وقيسونه- غالباً- بحياة الشدة والعسرة التي يعيشها جماعة من المؤمنين، ويقولون متسائلين: كيف ينعم أولئك العصاة- مع ما هم عليه من الإثم والفساد والجريمة- بمثل تلك الحياة الرغيدة، بينما يعيش هؤلاء- مع ما هم عليه من الإيمان والتقوى والصلاح- في مثل هذه الشدة والعسرة، وربما أدى هذا الأمر ببعض ضعفاء الإيمان إلى الشك والتردد؟!

ولو أننا درسنا هذا السؤال وحللنا عوامل الأمر وأسبابه في كلا الجانبين، لظهرت أجوبة كثيرة على هذا التساؤل، وقد أشارت هذه الآيات إلى بعضها، ويمكننا الوقوف على بعضها الآخر بشيء من التأمل والفحص. تقول الآية الأولى من هذه الآيات: «لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ». والمخاطب في الآية وإن كان شخص النبي الكريم صلى الله عليه وآله إلا أن المراد هو عموم المسلمين. ثم تقول: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ». أي إن هذه النجاحات المادية التي يحرزها المشركون، وهذه الثروات الهائلة التي يحصلون عليها من كل سبيل ليست سوى متاع قليل ولذة عابرة.

«ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ». فالملذات المادية تستعقب عواقب سيئة، فإن مسؤولية هذه الأموال والثروات ستجرهم إلى مصير مشؤوم، ذلك هو الجحيم الذي

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٩

ستكون محطتهم الأخيرة ومآلهم وبئس المآل.

إن أكثر مظاهر تفوق هؤلاء العصاة الطغاة الظالمين محدودة الأبعاد، كما أن متاع أكثر المؤمنين ومشاكلهم ومحنتهم كذلك مؤقتة، ومحدودة أيضاً. ولهذا لا يمكن (أو لا تصح) المقارنة والمقايضة بين هؤلاء وهؤلاء لأن النجاحات المادية التي يحرزها بعض العصاة والفاستقين إنما هي لكونهم لا يتقيدون في جمع الثروة بأى قيد أو شرط، فهم يجمعون المال من كل سبيل، سواء كان مشروعاً أم غير مشروع، حراماً كان أم حلالاً، بل إنهم يجوزون لأنفسهم اكتناز الثروة، في حين يتقيد المؤمنون بمبادئ الحق والعدالة في هذا المجال، فلا يسوغون لأنفسهم بأن يكتسبوا المال من أى طريق كان، وأى سبيل اتفق.

ثم إن الله سبحانه بعد أن بين مصير الكفار في الآية السابقة، بين هنا- في الآية التي تلت تلك الآية- مصير المؤمنين، إذ قال: «لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». أي إن الذين اتبعوا موازين الحق والعدل في الوصول إلى المكاسب المادية، أو أنهم بسبب إيمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادي والاجتماعي ولكنهم مع ذلك بقوا ملتزمين بالتقوى، فإنه تعالى سيعوّضهم عن كل ذلك بجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها «نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ».

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: اختلفوا في نزولها فقليل: نزلت في النجاشي ملك الحبشة وذلك أنه لما مات نعاه جبرائيل لرسول الله في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». قالوا: ومن؟ قال: «النجاشي». فخرج رسول الله إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، وصلى عليه. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلّي على عُلج نصراني حبشي لم يره قطّ وليس على دينه! فأنزل الله هذه الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٠

التفسير

الآية الحاضرة بعد أن ويخت كثيراً من أهل الكتاب على كتمانهم لآيات الله وطغيانهم وتمردهم في الآيات السابقة ذكرت هذه القلة المؤمنة، وبينت خمساً من صفاتها الممتازة هي: ١- «إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ». أي: إنهم يؤمنون بالله عن طواعية وصدق.

٢- «وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ». أي: يؤمنون بالقرآن.

٣- «وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ». أي: إيمانهم بنبي الخاتم نابع من إيمانهم بكتبهم السماوية الواقعية التي بشرت بهذا النبي ودعت إلى الإيمان به إذا ظهر، فهم يؤمنون بكتبهم.

٤- «خَاشِعِينَ لِلَّهِ». أي: إنهم مسلمون لأمر الله وخاضعون لإرادته، وهذا التسليم والخضوع هو السبب الحقيقي لإيمانهم، وهو الذي فرق بينهم وبين العصبيات الحمقاء، وحرّهم من التعنت والاستكبار تجاه منطوق الحق.

٥- «لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا». أي: إنهم ليسوا مثل بعض أحبار اليهود الذين يحرفون آيات الله حفاظاً على مراكزهم وإبقاءً على حاكميتهم على أقوامهم وجماعاتهم، وصولاً إلى بعض المكاسب المادية.

وسيكون لهذه الطائفة من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانية العالية وهذا الموقف الواضح الحي، أجرهم عند ربهم «أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

«إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» فلا يتأخر عن إعطاء الصالحين المؤمنين أجرهم، كما لا يبطل عن مجازاة المنحرفين والظالمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) هذه الآية هي آخر الآيات من سورة آل عمران وتحتوي على برنامج يتكون من أربع نقاط لعامة المسلمين وهي لذلك تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».

١- «اصْبِرُوا»: إن أول مادة في هذا البرنامج الذي يكفل عزّة المسلمين وانتصارهم هو الاستقامة والثبات، والصبر في وجه الحوادث.

٢- «وَصَابِرُوا»: وهي من المصابرة (من باب المفاعلة) بمعنى الصبر والاستقامة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦١

والثبات في مقابل صبر الآخرين وثباتهم واستقامتهم.

فإن القرآن يوصي المؤمنين أولاً بالصبر والاستقامة (التي تشمل كل ألوان الجهاد، كجهاد النفس، والاستقامة في مواجهة مشاكل الحياة)، ثم يوصي ثانياً بالصبر والثبات والاستقامة أمام الأعداء، وهذا بنفسه يفيد أن الأمة ما لم تتغلب وتنتصر في جهادها مع النفس، وفي إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخلية يستحيل إنتصارها على الأعداء، وهذا يعني أن أكثر هزائمها أمام أعدائها إنما هي بسبب ما لحق بها من هزائم في جبهة الجهاد مع النفس وما أصابها من إخفاقات في إصلاح نقاط الضعف التي تعاني منها.

٣- «وَرَابِطُوا»: وهذه العبارة مشتقة من مادة «الرباط» وتعني ربط شيء في مكان (كربط الخيل في مكان) و «المرابطة» بمعنى مراقبة الثغور وحراستها لأن فيها يربط الجنود أفراسهم.

وهذه العبارة أمر صريح إلى المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهة الأعداء، وأن يكونوا في حالة تحفّز وتيقظ ومراقبة مستمرة لثغور البلاد الإسلامية وحدودها حتى لا يفاجؤا بهجمات العدو المباغتة.

٤- «وَاتَّقُوا اللَّهَ»: وهذا بمثابة المظلة الواقية لما سبقها من التعاليم أنه حث على التقوى. «لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ». وهكذا تختتم الآية هذا البرنامج بذكر النتيجة التي تنتظر كل من يطبق هذا البرنامج. «نهاية تفسير سورة آل عمران»  
مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٣

#### ٤. سورة النساء

هذه السورة تقع من حيث ترتيب النزول بعد سورة الممتحنة، لأن الترتيب الفعلي للسور القرآنية لا يطابق ترتيبها في النزول، بمعنى أن كثيراً من السور التي نزلت في مكة تقع في الترتيب الحاضر في آخر القرآن الكريم وكثيراً من السور التي نزلت في المدينة تقع في أوائل القرآن.

إن هذه السورة تعتبر- من حيث عدد الكلمات والأحرف- أطول السور بعد سورة البقرة وتحتوي على (١٧٦) آية وتسمى بسورة النساء نظراً لتضمنها أبحاثاً كثيرة وحديثاً مفصلاً حول أحكام «المرأة» وحقوقها.

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في المدينة، بمعنى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما كان مقبلاً على تأسيس حكومته إسلامية وتكوين مجتمع إنساني قويم، نزلت هذه السورة وهي تحمل جملة من القوانين التي لها أثر كبير في إصلاح المجتمع، وإيجاد البيئة الاجتماعية الصالحة النقية. إن المواضيع المختلفة التي تحدثت عنها هذه السورة هي عبارة عن:

١- الدعوة إلى الإيمان والعدالة، وقطع العلاقات الوذية بالأعداء الألداء، والخصوم المعاندين.

٢- ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٤

٣- العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، وبيان التعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.

٤- قانون الإرث والتوارث بنحو طبيعي وعادل.

٥- القوانين المتعلقة بالزواج والبرامج التي تصون العفاف العام.

٦- القوانين العامة لحفظ الأموال العامة.

٧- التعريف بأعداء المجتمع الإسلامي وتحذير المسلمين منهم.

٨- الحكومة الإسلامية ووجوب طاعة قائد هذه الحكومة.

٩- أهمية الهجرة ووجوبها.

فضيلة تلاوة هذه السورة: روى في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قرأها فكأنما تصدق على كل مؤمن ورث ميراثاً، واعطى من الأجر كمن اشترى محرراً».

ومن البين أن المقصود في هذه الرواية وأمثالها ليس هو القراءة المجردة، بل تلك القراءة التي تكون مقدمة للفهم والإدراك الذي هو بدوره مقدمة لتطبيق تعاليم هذه السورة في الحياة الفردية والاجتماعية.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) مكافحة التمييزات والإستثناءات: الخطاب في الآية الأولى من هذه السورة موجه إلى كافة أفراد البشر، لأن محتويات هذه السورة نفس الامور التي يحتاج إليها كل أفراد البشر في حياتهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ».

ثم إن الآية تدعو إلى التقوى باعتبارها أساساً لأي برنامج إصلاحى للمجتمع، فإداء الحقوق والتقسيم العادل للثروة، وحماية الأيتام، ورعاية الحقوق العائلية، وما شابه ذلك كلها من الامور التي لا تتحقق بدون التقوى، ولهذا تفتتح هذه السورة- التي تحتوى على جميع

هذه الامور - بالدعوة إلى التزام التقوى: «اتَّقُوا رَبَّكُمْ».

وللتعريف بالله الذي يراقب كل أعمال الإنسان وتصرفاته اشير في الآية إلى واحدة من صفاته التي تعتبر أساساً للوحدة الاجتماعية في عالم البشر: «الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ». والمراد من «نفس واحدة» هو أول إنسان قد سمّاه القرآن الكريم ب «آدم» ويعتبره أبا البشر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٥

ثم إن قوله تعالى: «وَوَخَّلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا». والمراد منها هو أن الله سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أى جنس البشر). ووفقاً لرواية منقولة عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه كدّب بشدة فكرة خلق حواء من ضلع آدم، وصرح بأنه خلقت من فضل الطينة التي خلق منها آدم.

قال سبحانه: «وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً». هذه العبارة يستفاد منها أن انتشار نسل آدم، وتكاثره قد تم عن طريق آدم وحواء فقط، أى بدون أن يكون للموجود الثالث أى دخاله فى ذلك.

إن أهمية التقوى، ودورها فى بناء قاعدة المجتمع الصالح سببت فى أن تذكر مجدداً فى نهاية الآية الحاضرة، وأن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنه تعالى أضاف إليها جملة اخرى إذ قال: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ». أى اتقوا الله الذى هو عندكم عظيم، وتذكرون اسمه عندما تطلبون حقوقكم وحوائجكم فيما بينكم.

ثم إنه يقول: «وَالْأَرْحَامَ». ومعناها: واتقوا الأرحام ولا تقطعوا صلاتكم بهم.

إن ذكر هذا الموضوع هنا يدل على الأهمية الفائقة التى يعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم.

ثم يختم الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا رَقِيبًا». أى إنه يحصى عليكم ثباتكم وأعمالكم، ويعلم بها ويراها جميعاً، كما أنه هو الذى يحفظكم أمام الحوادث.

والرقيب أصله من الترقب وهو الإنتظار من مكان مرتفع، ثم استعمل بمعنى الحافظ والحارس لأن الحراسه من لوازم الترقب والنظارة.

وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)

سبب النزول

فى الدر المنثور: إن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه فخاصمه إلى النبى صلى الله عليه و آله فنزلت الآية: «وَأْتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ».

التفسير

لا ... للخيانة فى أموال اليتامى: كثيراً ما يحدث فى المجتمعات البشرية أن يفقد أطفال

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٦

صغار أباءهم بسبب الحوادث والنكبات والكوارث. وفى هذه الآية ثلاثة تعاليم بشأن أموال اليتامى: ١- «وَأْتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ». أى يجب أن تعطوا اليتامى عند رشدهم أموالهم المودعة عندكم، ويكون تصرفكم فى هذه الأموال على نحو تصرف الأمين والناظر والوكيل لا على نحو تصرف المالك.

٢- «وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ». أى لا تأخذوا أموالهم الطيبة و ثرواتهم الجيدة وتضعوا بدلها من أموالكم الخبيثة والمغشوشة، وهذا التعليم يهدف إلى المنع مما قد يرتكبه بعض القيمين على أموال اليتامى من أخذ الجيد من مال اليتيم والرفيع منه وجعل الخسيس والردىء مكانه، بحجة أن هذا التبديل يضمن مصلحة اليتيم، أو لأنه لا تفاوت بين ماله والبديل، أو لأن بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف والضياح وغير ذلك من الحجج والمعاذير.

٣- «وَلَمَّا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ». يعنى لا- تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم بحيث تكون نتيجتها تملك الجميع، أو أن المراد لا

تخلطوا الجيد من أموالهم بالردىء من أموالكم بحيث تكون نتيجتها الإضرار باليتامى وضياع حقوقهم.

ثم إنه سبحانه، لبيان أهمية هذا الموضوع والتأكيد عليه يختم الآية بقوله: «إِنَّه كَانَ حُوبًا كَبِيرًا». «الحوبة»: حقيقتها هي الحاجة التي تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم وحيث إنَّ العدوان على أموال اليتامى ينشأ- في الأغلب- من الحاجة، أو بحجة الحاجة استعمل القرآن الكريم مكان لفظه الإثم في هذه الآية لفظه «الحوب» للإشارة إلى هذه الحقيقة.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ تُقْسَطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَعُولُوا (٣)

سبب النزول

لقد نقل لهذه الآية- في تفسير القرطبي- سبب نزول خاص. قيل: هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يسقط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يسقطوا لهن ويبلغوا أعلى سنتهن من الصداق وامروا أن ينكحوا ما طاب من النساء سواهن.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٧

التفسير

يقول سبحانه في هذه الآية: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسَطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ». وقد جاء هذه الآية بعد ما جاء في الآية السابقة من الحث على حفظ أموال اليتامى من التلف وعدم التفريط فيها، فجاءت هذه الآية لتنوه بحق آخر من حقوقهم، وهو هذه المرأة يتعلق باليتيمات خاصة.

يعنى إنَّ عليكم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنباً من الجور عليهن، وأن تتزوجوا بالنساء اللاتي لا تسمح مكاتهن الاجتماعية والعائلية بأن تجوروا عليهن، وتظلموهن، ويجوز لكم أن تتزوجوا منهن بإثنتين أو ثلاث أو أربع، غاية ما في الأمر حيث إنَّ الخطاب هنا موجه إلى عامة المسلمين، عبر بالمتنى، والثلاث، والرابع فلا شك في أن تعدد الزوجات- بالشروط الخاصة- لا يشمل أكثر من أربع نساء.

ثم إنه سبحانه عقب على ذلك بقوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً». أى التزوج بأكثر من زوجة إنما يجوز إذا أمكن مراعاة العدالة الكاملة بينهن، أما إذا خفتن أن لا تعدلوا بينهن، فاكتفوا بالزوجة الواحدة لكي لا تجوروا على أحد.

ثم يقول: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». أى: يجوز أن تقتصروا على الإماء اللاتي تملكونهن بدل الزوجة الثانية لأنهن أخف شروطاً.

ويقول: «ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا». أى: أن هذا العمل أحرى بأن يمنع من الظلم والجور، ويحفظكم من العدوان على الآخرين.

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤) «النحلة»: في اللغة تعنى العطيء؛ و«صدقاتهن»: جمع الصداق وهي بمعنى المهر. والآية الحاضرة التي جاءت بعد البحث المطروح في الآية السابقة حول انتخاب الزوجة تتضمن إشارة إلى إحدى حقوق النساء المسلمة وتؤكد قائلة: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً». أى:

أعطوا النساء كامل مهرن الذي هو عطية من الله لهن لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر في المجتمع وينجبر بهذا الأمر ما فيهن من ضعف جسمي نسبي.

ثم بعد أن يأمر الله سبحانه في مطلع الآية بأن تعطى للنساء مهرهن كاملة ودون نقصان حفظاً لحقوقهن، يعمد في ذيل هذه الآية إلى بيان ما من شأنه إحترام مشاعر كلا الطرفين،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٨

ومن شأنه تقوية أواصر الود والمحبة والعلاقة القلبية وكسب العواطف إذ يقول: «فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا». أى: لو تنازلت الزوجة عن شيء من المهر ووهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له، وإنما أقر الإسلام هذا المبدأ لكيلا

تكون البيئة العائلية والحياة الزوجية ميداناً لسلسلة من القوانين والمقررات الجافة، بل يكون مسرحاً للتلاقى العاطفى الإنسانى، وتسود فى هذه الحياة المحبة جنباً إلى جنب مع المقررات والأحكام الحقوقية المذكورة. الصداق دعامة إجتماعية للمرأة: لما كانت المرأة- فى العصر الجاهلى- لم تحظ بأية قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأه ترك أمر صداقها- الذى هو حقها المسلم- إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، ويعتبرونه حقاً مسلماً لهم لا لها، وربما جعلوا التزوج بامرأة صداقاً لامرأة اخرى، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، وكان هذا هو صداق الزوجتين.

ولقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد والأعراف الظالمة، واعتبر الصداق حقاً مسلماً خاصاً بالمرأة، وأوصى الرجال مَرَات عديدة وفى آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق للمرأة.

وأما تفسير البعض لمسألة المهر بنحو خاطيء، واعتبار الصداق أنه من قبيل ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلامية، لأن الإسلام لا يعطى للصداق الذى يقدمه الرجل إلى المرأة صفة الثمن كما لا يعطى المرأة صفة البضاعة القابلة للبيع والشراء، وأفضل دليل على ذلك هو صيغته عقد الزواج الذى يعتبر فيه الرجل والمرأة كركنين أساسيين فى الرابطة الزوجية، فى حين يقع الصداق والمهر على هامش هذا العقد، ويعتبر أمراً إضافياً، بدليل صحة العقد إذا لم يرد اسم المهر فيه، وليس كذلك فى صيغته البيع والشراء وغير ذلك من المعاملات المالية إذ بدون ذكر الثمن تبطل هذه المعاملات.

من كل ما قيل نستنتج أن المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، وبمثابة الدعامة القوية التى تساعد على احترام حقوق المرأة، لا أنه ثمن المرأة، ولعل التعبير بالتحلة التى هى بمعنى العطية فى الآية إشارة إلى هذه النقطة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٦٩

وَلَمَّا تَوَوَّأْتُمُ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتُلُوا الَّتِيَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسِّرْ تَعْفُفٌ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) الآيات الحاضرة تكمله للأبحاث المرتبطة باليتامى، التى مَرَّت فى الآيات السابقة. يقول الله سبحانه: «وَلَمَّا تَوَوَّأْتُمُ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ». بل انتظروا رشدهم ونضجهم فى المسائل الاقتصادية لكى لا تتعرض أموالكم للتلف والفناء.

والمراد من السيفه فى الآية الحاضرة هو عدم الرشد اللازم فى الامور الاقتصادية بحيث لا يستطيع الشخص من تدبير شؤونه الاقتصادية وإصلاح ماله على الوجه الصحيح، ولا يتمكن من ضمان منافعه فى المبادلات والمعاملات المالية، ويدل على هذا المعنى ما جاء فى الآية الثانية إذ يقول سبحانه: «فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ».

إن الآيه الحاضرة وإن كانت تبحث حول اليتامى، لكنها تتضمن حكماً كلياً وقانوناً عاماً لجميع الموارد، وهو أنه لا يجوز لأحد مطلقاً أن يعطى أموال من يتولى أمره، أو ترتبط به حياته بنوع من الارتباط، إليه إذا كان سفيهاً غير رشيد.

ثم إن القرآن الكريم يصف الأموال المذكورة فى مطلع الآية الحاضرة بقوله: «الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا». هو تعبير جميل ورائع جداً عن الأموال والثروات، فهى قوام حياة الناس والمجتمع، وبدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصح إعطاؤها إلى السفهاء والمسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها.

ومن هذا التعبير نعرف جيداً ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالامور والشؤون الاقتصادية والمالية، وعلى العكس نقرأ فى الإنجيل الحاضر: «فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السماوات» (١).

(١) إنجيل متى الإصحاح / ١٩ - ٢٣.

في حين يرى الإسلام أن الأمة الفقيرة لا تستطيع أبداً الوقوف على قدميها. وأنه لعجيب أن نرى تلك الطائفة بلغت إلى ما بلغت من المراتب في عالمنا الراهن في حقول التقدم الاقتصادي مع ما هم عليه من التعاليم الخاطئة، في حين نعاني من هذا الوضع المأسوي مع ما نملك من التعاليم الحيوية العظيمة. غير أنه لا داعي للعجب، فهم تركوا تلك الخرافات والأضاليل فوصلوا إلى ما وصلوا، بينما تركنا نحن هذه التعاليم الراقية فوقنا في هذه الحيرة، والتخلف.

ثم إن الله سبحانه يأمر - في شأن اليتامى - بأمرين مهمين هما:

أولاً: رزق اليتامى وإكسائهم من أموالهم حتى يبلغوا سنّ الرشد إذ يقول: «وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ».

ثانياً: مخاطبة اليتامى والتكلم معهم بقول طيب ورفيق إذ قال سبحانه: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا». وذلك لإزالة ما يشعر به اليتامى من نقصان روحى وعقد نفسيه، ويساعدوا بذلك على ترشيدهم وبلوغهم حد الرشد العقلى، وبهذا يكون بناء شخصية اليتيم وترشيدته عقلياً من وظائف الأولياء ومسؤولياتهم أيضاً.

ها هنا تعليم آخر في شأن اليتامى وأموالهم، إذ يقول سبحانه: «وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ». فإذا بلغوا سنّ الرشد الذى آنستم فيه قدرتهم على إدارة أموالهم والتصرف فيها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: «فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» (١).

ثم إنه سبحانه قال: «وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا». وهو تأكيد آخر للأولياء بأن لا يسلموا الأموال إلى اليتامى قبل أن يكبروا بأن يحافظوا على أموال اليتامى ولا يتلفوها أبداً.

ثم إنه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: «وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسِّرْ تَعْفُفٌ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ». وبهذا أذن الله تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب فى حفظها، وحراستها، على أن يراعوا جانب العدل والإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الاجرة، هذا إذا كان الولي فقيراً، أما إذا كان غنياً فلا يأخذ من مال اليتيم

(١) «الإيناس»: بمعنى المشاهدة والرؤية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧١

شيئاً أبداً.

ثم يقول سبحانه: «فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ». لكى لا- يبقى أى مجال للإتهام والتنازع، وهذا هو آخر حكم فى شأن الأولياء واليتامى جاء ذكره فى هذه الآية.

واعلموا أن الحسيب الواقعى هو الله تعالى، والأهم من ذلك هو أن حسابكم جميعاً عنده ولا يخفى عليه شىء أبداً ولا يفوته صغير ولا كبير فإذا بدرت منكم خيانه خفيت على الشهود فإنه سبحانه سيحصبها عليكم، وسوف يحاسبكم عليها ويؤاخذكم بها: «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا».

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)

سبب النزول

فى الدر المنثور عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابناً صغيراً فجاء ابناً عمه وهما عصبتة فأخذتا ميراثه كله فقالت امرأته لهما تزوجا بهما وكان بهما دمامة فأبيا فأنت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت يا رسول الله توفى أوس وترك ابناً صغيراً وابنتين فجاء ابناً عمه خالد وعرفطه فأخذتا ميراثه فقلت لهما تزوجا ابنتيه فأبيا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ما أدري ما أقول، فنزلت الآية.

التفسير

خطوة اخرى لحفظ حقوق المرأة: هذه الآية مكمله للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة، لأنّ العرب الجاهليين كانوا- حسب

تقاليدهم وأعرافهم الظالمة- يمنعون النساء والصغار من حق الإرث، ولا يسهمون لهم من الموارث، فأبطلت هذه الآية هذا التقليد الخاطيء الظالم إذ قال سبحانه: «لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ».

ثم قال سبحانه في ختام هذه الآية بغية التأكيد على الموضوع: «نَصِيبًا مَّفْرُوضًا». حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد في هذا المجال.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٢

حكم أخلاقي: نزلت الآية الحاضرة بعد قانون تقسيم الإرث ويتضمن محتوى هذه الآية حكماً أخلاقياً إستحبابياً في شأن طبقات محجوبة عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث.

إن كلمتي «اليتامى» و «المساكين» وإن ذكرتا بنحو مطلق في هذه الآية، غير أن الظاهر هو أن المراد منهما هم اليتامى والمساكين من قربي الميت.

ثم إنه سبحانه يختم هذه الآية بدستور أخلاقي إذ يقول: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا». يعنى أنه مضافاً إلى تقديم مساعدة مادية إلى هؤلاء اشفعوا ذلك بموقف أخلاقي واستفيدوا من المعين الإنساني لكسب مودتهم، وحتى لا يبقى في قلوبهم أى شعور عدائي تجاهكم، وهذا الدستور علامة اخرى ودليل آخر على أن الأمر بإعطاء شىء من الميراث إلى اليتامى والمساكين إنما هو على نحو الندب لا الوجوب.

وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لِيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (٩) دعوة إلى العطف على اليتامى: يشير القرآن الكريم- بهدف إثارة مشاعر العطف والإشفاق لدى الناس بالنسبة إلى اليتامى- إلى حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً، وتلك الحقيقة هي: إن على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحب أن يعامل الناس يتاماه.

وعلى هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: «وَلِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ». هو أن الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبة الخيانة في شؤون اليتامى ويخافوا مغبة إيدائهم.

وأساساً: إن القضايا الاجتماعية تنتقل في شكل سنه من السنن- من اليوم إلى الغد، ومن الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يروجون في المجتمع سنه ظالمة مثل إيذاء اليتامى فإن ذلك سيكون سبباً لسريان هذه السنه على أولادهم وأبنائهم أيضاً، وعلى هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد آذى يتامى الآخرين وورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده ويتاماه أيضاً. لهذا وجب أن يتجنب أولياء اليتامى مخالفة الأحكام الإلهية، ويتقوا الله في اليتامى ويقولوا لهم قولاً عدلاً موافقاً للشرع والحق، قولاً ممزوجاً بالعواطف الإنسانية والمشاعر

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٣

الأخوية، لكي يندمل بذلك ما في قلوب اولئك من الجراح، وينجبر ما في أفئدتهم من الكسر، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لِيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً».

إن هذا التعليم الإسلامى إشارة إلى ناحية نفسية في مجال تربية اليتامى وهي: إن حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر في الطعام والكساء، بل- مضافاً إلى الرعاية الجسدية- أن يحظى بالرعاية الروحية والعناية العاطفية، وإلا نشأ قاسياً مهزوماً، عديم الشخصية، بل وحاقدًا خطيراً.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا (١٠) الوجه الحقيقي لأفعال البشر: ابتدأت هذه السورة بعبارات شديدة النكير على من يتصرف في أموال اليتامى تصرفاً غير مشروع وغير صحيح، والآية الحاضرة هي أوضح هذه العبارات. تقول هذه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا».

ثم إنه سبحانه يقول في بيان نتيجة أكل أموال اليتامى: «وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا».



ويستفاد من هذه الآية أن لأعمالنا مضافاً إلى وجهها الظاهري وجهاً واقعياً أيضاً، وجهاً مستوراً عنّا في هذه الدنيا، لا نراه بعيوننا هنا، ولكنه يظهر في العالم الآخر، وهذا الأمر هو ما يشكل مسألة تجسم الأعمال المطروحة في المعتقدات الإسلامية. إن القرآن يصرح في هذه الآية بأنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً وجوراً، وإن كان الوجه الظاهري لفعلهم هذا هو الأكل من الأطعمة اللذيذة الملونة، ولكن الوجه الواقعي لهذه الأغذية هو النار المحرقة الملتهبة، وهذا الوجه هو الذي يظهر ويتجلى على حقيقته في عالم الآخرة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٤

يُوصِيَكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّتِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وآله فاعمى عليّ، فدعا بماء فتوضأ ثم صبّه عليّ فأفقت، فقلت: يا رسول الله! كيف أصنع في مالي؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت آية الموارث في.

التفسير

قال الله تعالى في الآية الأولى من هذه الآيات: «يُوصِيَكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ». وهو بذلك يشير إلى حكم الطبقة الأولى من الورثة (وهم الأولاد والآباء والامهات).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٥

وهذا نوع التأكيد على توريث النساء ومكافحته للعادة الجاهلية المعتدية القاضية بحرمانهن من الإرث والميراث، حرماناً كاملاً. ثم يقول سبحانه وتعالى: «فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ». أي لو زادت بنات الميت على اثنتين فلهنّ الثلثان أي قسم الثلثان بينهما.

ثم قال: «وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ». أي لو كانت البنت واحدة ورثت النصف من التركة.

لماذا يرث الرجل ضعف المرأة؟ إذا راجعنا التراث الإسلامي حيث إن هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بداية الإسلام وخالف بعض الأذهان.

في الكافي: علي بن إبراهيم عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك كيف صار الرجل إذا مات وولده من القرابة سواء ترث النساء نصف ميراث الرجال وهنّ أضعف من الرجال وأقلّ حيلة؟ فقال: «لأنّ الله عز وجل فضّل الرجال على النساء بدرجته ولأنّ النساء يرجعن عيالاً على الرجال».

وأما ميراث الآباء والامهات الذين هم من الطبقة الأولى، وفي مصاف الأبناء أيضاً، فإنّ له كما ذكرت الآية الحاضرة ثلاث حالات هي: الحالة الأولى: إن الشخص المتوفى إن كان له ولد أو أولاد، ورث كل من الأب والام السدس: «وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ».

الحالة الثانية: إن لم يكن للمتوفى ولد، وانحصر ورثته في الأب والام، ورثت الام ثلث ما ترك، يقول سبحانه: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ».

الحالة الثالثة: إذا ترك الميت أباً واماً واخوة من أبويه أو من أبيه فقط، ولم يترك أولاداً، ففي مثل هذه الحالة ينزل سهم الام إلى السدس، وذلك لأن الأخوة يحجبون الام عن إرث المقدار الزائد عن السدس وإن كانوا لا يرثون، ولهذا يسمى أخوة الميت بالحاجب، وهذا ما يعنيه قول الله سبحانه: «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ».

ثم إن الله سبحانه يقول: «مَنْ بَعِدَ وَصِيَّتُهُ يُوَصِّي بِهَا أَوْ ذَيْنَ». فلا بد من تنفيذ ما أوصى به الميت من تركته، أو أداء ما عليه من دين أولاً، ثم تقسيم البقية بين الورثة.

(وقد ذكرنا في باب الوصية أن لكل أحد أن يوصى بامور في مجال الثلث الخاص به فقط، فلا يصح أن يوصى بما زاد عن ذلك إلا أن يأذن الورثة بذلك).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٤

ثم قال سبحانه: «ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا». وهذه العبارة تفيد أن قانون الإرث المذكور قد ارسى على أساس متين من المصالح الواقعية، وأن تشخيص هذه المصالح بيد الله.

ولأجل أن يتأكد كل ما ذكر من الامور ويتخذ صفة القانون الذي لا يحتمل التردد، ولا يكون فيه للناس أى مجال نقاش، يقول سبحانه: «فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَذَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا». وبذلك يقطع الطريق على أى نقاش في مجال القوانين المتعلقة بالأسهم في الإرث.

سهم الأزواج بعضهم من بعض: في الآية السابقة أشير إلى سهم الأولاد والآباء والامهات وفي الآية التي تليها يقول الله سبحانه: «وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ». ويشير سبحانه إلى كيفية إرث الزوجين بعضهما من بعض، فإن الزوج يرث نصف ما تركه الزوجة هذا إذا لم يكن للزوجة ولد، فإن كان لها ولد أو أولاد (ولو من زوج آخر) ورث الزوج ربع ما تركه فقط، وإلى هذا يشير تعالى في نفس الآية: «فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ».

على أن هذا التقسيم يجب أن يتم بعد تنفيذ وصايا المتوفاه، أو تسديد ما عليها من ديون كما يقول سبحانه: «مَنْ بَعِدَ وَصِيَّتُهُ يُوَصِّي بِهَا أَوْ ذَيْنَ».

ويكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: «وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ».

وأما إرث الزوجة مما يتركه الزوج، فإذا كان للزوج أولاد (وإن كانوا من زوجة اخرى) ورثت الزوجة الثمن لقوله سبحانه: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ».

على أن هذا التقسيم يجب أن يتم أيضاً من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد ديونه من أصل التركة: «مَنْ بَعِدَ وَصِيَّتُهُ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ».

ثم إنه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض، يعمد إلى ذكر أسهم اخوة الميت وأخواته فيقول: «وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلِمَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ». أى إن مات رجل ولم يترك إلا أختاً أو اختاً، أو ماتت امرأة ولم تترك سوى أخت أو اخت، يورث كل منهما السدس من التركة، هذا إذا كان الوارث أختاً واحداً واختاً واحداً.

أما إذا كانوا أكثر من واحد ورث الجميع ثلثاً واحداً، أى قسم مجموع الثلث بينهم: «فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٧

ثم أضاف القرآن: «مَنْ بَعِدَ وَصِيَّتُهُ يُوَصِّي بِهَا أَوْ ذَيْنَ». أى: تكون قسمة الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثة من التركة ما أوصى به المتوفى، أو يسددوا ما عليه من ديون، ثم قال:

«غَيْرِ مُضَارٍّ». أى: فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث وكذا الدين مضرًا بالورثة.

ثم إنه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: «وَصِدْقَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ». أى إن هذا المطلب وصيه من الله يجب أن تحترموها، لأنه العالم بمصلحتكم وخيركم، فهو أمركم بهذا عن حكمه، كما أنه تعالى عالم بنيات الأوصياء، هذا مع أنه تعالى حلیم لا يعاقب العصاة فوراً، ولا يأخذهم بظلمهم بسرعة.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِئًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤) قد بدأت الآية الأولى من هاتين الآيتين بالإشارة إلى قوانين الإرث التي مرت في الآيات السابقة بلفظة «تلك» إذ قال سبحانه: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ». أى تلك حدود الله التي لا يجوز تجاوزها وتجاهلها لأحد، فإن من تعدى هذه الحدود كان عاصياً مذنباً.

ثم بعد الإشارة إلى هذا القسم من حدود الله يقول سبحانه: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». وهو بذلك يشير إلى النتيجة الاخرى للالتزام بحدود الله واحترامها. ثم يصف هذه النتيجة الاخرى بقوله: «وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». ثم يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير في صورة المعصية، وتجاوز الحدود الإلهية إذ يقول: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِئًا فِيهَا».

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)  
مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٨

الآية الأولى - من هاتين الآيتين - تشير إلى جزاء المرأة المحصنة التي تزنى. فتقول:

«وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ». وعلى هذا يكون جزاء المحصنة التي ترتكب الزنا فى هذه الآية هو الحبس الأبدى.

ولكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: «أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». فإذا لابد أن يستمر هذا الحبس فى حقهن إلى الأبد حتى يأتى أجلهن، أو يعين لهن قانون جديد من جانب الله سبحانه.

ويستفاد من هذه العبارة أن هذا الحكم (أى: الحبس الأبدى للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، وحكم آخر فى المستقبل (وبعد أن تنهيا الظروف والأفكار لمثل ذلك).

ثم إن الله سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن غير إحصان إذ يقول: «وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهمَا». ويقصد أن الرجل غير المحصن أو المرأة غير المحصنة إن أتيا بفاحشة الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا.

إن الحكم المذكور فى هذه الآية (أى الإيذاء) عقوبة كلية، يمكن أن تكون الآية الثانية من سورة النور التى تذكر أن حد الزنا هو (١٠٠) جلده لكل واحد من الزانى والزانية تفسيراً وتوضيحاً لهذه الآية وتعييناً للحكم الوارد فيها.

ثم إن الله سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسألة التوبة والعفو عن مثل هؤلاء العصاة، فيقول: «فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا».

هذا ويستفاد من هذا الحكم - أيضاً - أنه يجب أن لا يعير العصاة الذين رجعوا إلى جادة الصواب وتابوا وأصلحوا على أفعالهم القبيحة السابقة، وأن لا يلاموا على ذنوبهم الغابرة.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٩

في الآية السابقة بين الله تعالى بصراحة مسألة سقوط العقوبة عن مرتكبي الفاحشة ومعصية الزنا إذا تابوا وأصلحوا، وفي هذه الآية يشير سبحانه إلى شرائط قبول التوبة إذ يقول: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ».

والمراد من «الجهالة» في الآية المبحوثة هنا هو طغيان الغرائز، وسيطرة الأهواء الجامحة وغلبتها على صوت العقل والإيمان، وفي هذه الصورة وإن لم يفقد المرء العلم بالمعصية، إلا أنه حينما يقع تحت تأثير الغرائز الجامحة، ينتفى دور العلم ويفقد مفعوله وأثره، وفقدان العلم لأثره مساو للجهل عملاً.

ثم إن الله سبحانه يشير إلى شرط آخر من شروط قبول التوبة إذ يقول: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ».

ثم إنه سبحانه - بعد ذكر شرائط التوبة - يقول: «فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا». مشيراً بذلك إلى نتيجة التوبة التي توفرت فيها الشروط المذكورة.

ثم يقول تعالى: «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ النَّ». وهو إشارة إلى من لا تقبل توبته.

وأما الطائفة الثانية الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفاراً، إذ يقول سبحانه:

«وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا». يعنى إن الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافية والإيمان ولكنهم يموتون وهم كفار لا تقبل توبتهم ولا يكون لها أى أثر.

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية: «أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبْنَ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

سبب التورط

روى فى مجمع البيان عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «نزلت فى الرجل يحبس المرأة عنده، لا حاجة له إليها وينتظر موتها حتى يرثها». أى فى أخذ أموالها من بعد وفاتها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٠

مختصر الامثل ج ١ ٤١٩

وعن ابن عباس: نزلت فى الرجل تكون تحته امرأة، يكره صحبتها، ولها عليه مهر، فيطول عليها، ويضارها لتفتدى بالمهر، فنهوا عن ذلك.

التفسير

الدفاع عن حقوق المرأة: فى هذه الآية بالذات تشير إلى بعض العادات الجاهلية المقيتة وحذر الله سبحانه فيها المسلمين من التورط بها، وتلك هى:

١- لقد كانت إحدى العادات الظالمة فى الجاهلية أن الرجل كان يتزوج بالنساء الغنيات ذوات الشرف والمقام اللاتى لم يكن يحظن بالجمال، ثم كانوا يذرونهن هكذا فلا يطلقونهن، ولا يعاملونهن كالزوجات، بانتظار أن يمتن فيرثوا أموالهن. تقول الآية الحاضرة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا». وبهذا استنكر الإسلام هذه العادة السيئة.

٢- فقد كان من عادات الجاهليين المقيتة أيضاً أنهم كانوا يضغطون على الزوجات بشتى الوسائل والطرق ليتخلين عن مهرهن، ويقبلن بالطلاق، وكانت هذه العادة تتبع إذا كان المهر ثقيلًا باهظًا، فمنعت الآية الحاضرة من هذا العمل بقولها: «وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبْنَ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ». أى: من المهر.

ولكن ثمة استثناء لهذا الحكم قد اشير إليه في قوله تعالى في نفس الآية: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ». و«الفاحشة»: هي أن ترتكب الزوجة الزنا وتخون بذلك زوجها، ففي هذه الحالة يجوز للرجل أن يضغط على زوجته لتتنازل عن مهرها، وتهبه له ويطلقها عند ذلك.

والمقصود من الفاحشة المبينة كل سلوك ناشز مع الزوج.

٣- عاشروهن بالمعاشرة الحسنة، وهذا هو الشيء الذي يوصى به سبحانه الأزواج في هذه الآية بقوله: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». أى: عاشروهن بالعشرة الإنسانية التي تليق بالزوجة والمرأة، ثم عقب على ذلك بقوله: «فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا». إن للخير الكثير في الآية الذي يبشر به الأزواج الذين يدارون زوجاتهم مفهومًا واسعًا، ومن مصاديقه الواضحة الأولاد الصالحون والأبناء الكرام.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨١

سبب التزول

في تفسير الصافي: كان الرجل إذا أراد جديدة بهت التي تحته بفاحشة حتى يلجأها إلى الإفتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة فنهوا عن ذلك.

التفسير

نزلت الآيتان الحاضرتان لتحميا قسماً آخر من حقوق المرأة، فقد جاءت الآية الاولى تقول: «وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا».

فهى تخبر المسلمين - إذا عزموا على تطليق الزوجة واختيار زوجة اخرى - أنه لا يحق لهم أبداً أن يبخسوا من صداق الزوجة الاولى شيئاً أو يستردوا شيئاً من الصداق إذا كانوا قد سلموه إلى الزوجة مهما كان مقداره كثيراً وثقيلاً.

ثم إن الآية تشير في مقطعها الأخير إلى الاسلوب السائد في العهد الجاهلى حيث كان الرجل يتهم زوجته بالخيانة الزوجية لحبس الصداق عنها، إذ تقول في استفهام إنكارى:

«أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا». أى: هل تأخذون صداق الزوجة عن طريق بهتن، واتهامهن بالفاحشة، وهو إثم واضح ومعصية بينة، وهذا يعنى أن أصل حبس الصداق عن الزوجة ظلم ومعصية، والتوسل لذلك بمثل هذه الوسيلة الأثيمة معصية اخرى واضحة، وظلم آخر بين.

ثم أضاف سبحانه بهدف تحريك العواطف الإنسانية لدى الرجال بأنه كيف يحق لكم ذلك، وقد عثتم مع الزوجة الاولى زمناً طويلاً، وكانت لكم معهن حياة مشتركة، واختليتم بهن واستمتع كل واحد منكما بالآخر كما لو كنتما روحاً واحده فى جسمين، أفبعد ما كانت بينكما هذه العلاقة الزوجية الحميمة يحق لكم - أيها الأزواج - أن تبخسوا حق الزوجة الاولى؟ وقد لخص سبحانه كل هذه بقوله: «وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» (١). أفصح أن تفعلوا ذلك وكأنكما غريبان لا رباط بينكما ولا علاقة؟ ثم إنه سبحانه تعالى: «وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا». أى: كيف تبخسون الزوجة حقها فى الصداق وقد أخذت منكم - لدى عقد الزواج بينكما - ميثاقاً غليظاً وعهداً موثقاً بأن

(١) «الإفضاء»: أصله من الفضاء، وهو السعة، وبذلك يكون معنى الإفضاء إيجاد السعة، لأن الإنسان بسبب الإتصال والتعايش مع شخص آخر يكون وكأنه وسع دائرة وجوده، ولهذا استعمل الإفضاء بمعنى الملامسة والإتصال.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٢

تؤدوا إليهن حقوقهن كاملة، فكيف تنتكرون لهذا الميثاق المقدس وهذا العهد المأخوذ منكم حالة العقد؟  
سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: توفي أبو قيس وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالت: إني أعددك ولداً وأنت من صالحى قومك، ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه و آله فأستأمره فأنته فأخبرته، فقال لها رسول الله صلى الله عليه و آله: «ارجعى إلى بيتك». فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

هذه الآية تبطل عادة سيئة من العادات الجاهلية المقيته فتقول: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ». أى لا تنكحوا زوجة أبيكم. ولكن بما أن القانون لا يشمل ما سبق من الحالات الواقعة قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلك النهى بقوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». ثم إنه سبحانه لتأكيد هذا النهى يستخدم ثلاث عبارات شديدة حول هذا النوع من الزواج والنكاح إذ يقول أولاً: «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً». ثم يضيف قائلاً: «وَمَقْتًا». أى عملاً منفراً لا- تقبله العقول، ولا تستسيغه الطباع البشرية السليمة، بل تمقته وتكرهه، ثم يختم ذلك بقوله: «وَسَاءَ سَبِيلًا». أى أنها عادة خبيثة وسلوك شائن.

حتى أننا لنقرأ فى التاريخ أن الناس فى الجاهلية كانوا يكرهون هذا النوع من النكاح ويصفونه بالمقت، ويسمون ما ينتج منه من ولد بالمقيت، أى الأولاد المبعوضين.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِيَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٣)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٣

تحريم الزواج بالمحارم: فى هذه الآية أشار سبحانه إلى النساء اللاتى يحرم نكاحهن والزواج بهن، ويمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسباب وهى:

١- الولادة التى يعبر عنها بالإرتباط النسبى.

٢- الزواج الذى يعبر عنه بالإرتباط السببى.

٣- الرضاع الذى يعبر عنه بالإرتباط الرضاعى.

وقد أشار فى البداية إلى النساء المحرمات بواسطة النسب وهن سبع طوائف إذ يقول:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ». والمراد من «الام» ليس هى التى يتولد منها الإنسان دونما واسطة فقط، بل يشمل الجدة من ناحية الأب ومن ناحية الام وإن علون، كما أن المراد من البنت ليس هو البنت بلا واسطة، بل تشمل بنت البنت وبنت الابن وأولادهما وإن نزلن، وهكذا الحال فى الطوائف الخمس الأخرى.

ثم يشير الله سبحانه إلى المحارم الرضاعية وتقول: «وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعِ».

ثم إن الله سبحانه يشير- فى المرحلة الأخيرة- إلى الطائفة الثالثة من النسوة اللاتى يحرم الزواج بهن ويذكرهن ضمن عدة عناوين:

١- «وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ». يعنى أن المرأة بمجرد أن تتزوج برجل ويجرى عقد النكاح بينهما تحرم امها وام امها وإن علون على ذلك الرجل.

٢- «وَرِيَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ». يعنى أن مجرد العقد على امرأة لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثانى، بل يشترط أن يدخل بها أيضاً مضافاً على العقد عليها.

ثم يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلاً: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَاحِجَاتِكُمْ». أى: إذا لم تدخلوا بام الزبيبة جاز لكم نكاح بناتهن.

٣- «وَحَلِيلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ» (١). والمراد من حلائل، الأبناء زوجاتهم؛ وأما

(١) «الحلائل»: جمع الحليلة، وهى من مادة حل، وهى بمعنى المحللة، أى المرأة التى تحل للإنسان، أو من مادة حلول بمعنى المرأة التى تسكن مع الرجل فى مكان واحد وتكون بينهما علاقة جنسية، لأن كل واحد منهما يحل مع الآخر فى الفراش. مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٤

التعبير ب «من أصلابكم» فهو لأجل أن هذه الآية تبطل عادة من العادات الخاطئة فى الجاهلية، حيث كان المتعارف فى ذلك العهد أن يتبنى الرجل شخصاً ثم يعطى للشخص المتبنى كل أحكام الولد الحقيقى، ولهذا كانوا لا يتزوجون بزوات هذا النوع من الأبناء كما لا- يتزوجون بزوجة الولد الحقيقى تماماً، والتبنى والأحكام المرتبة عليها لا أساس لها فى نظر الإسلام. ٤- «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ». يعنى أنه يحرم الجمع بين الاختين فى العقد.

وبما إن الزواج باختين فى وقت واحد كان عادة جارية فى الجاهلية، وكان ثمة من إرتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهى المذكور بقوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». يعنى أن هذا الحكم كالأحكام الأخرى لا يشمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم الله على هذا الفعل وإن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الاختين، ويفارقوا الأخرى، بعد نزول هذا الحكم.

ثم إن بعض المفسرين احتمل أن تعود جملة «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» إلى كل المحارم من النسوة اللاتى مر ذكرهن فى مطلع الآية فيكون المعنى: إذا كان قد أقدم أحد فى الجاهلية على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهن لم يشمله حكم تحريم الزواج بهن هذا، وإن وجب عليهم بعد نزول هذه الآية أن يتخلوا عن تلك النساء، ويفارقوهن.

وتناسب خاتمة هذه الآية أعنى قوله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» هذا المعنى الأخير.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنَاتٍ بَيْنَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ فَمَا اشْتَمَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) هذه الآية تواصل البحث السابق حول النساء اللاتى يحرم نكاحهن والزواج بهن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٥

وتضيف قائلة: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ». أى: ويحرم الزواج بالنساء، اللاتى لهن أزواج.

«المحصنات»: جمع المحصنة وهى مشتقة من «الحصن» وقد اطلقت على المرأة ذات الزوج لأنها بالزواج برجل تكون قد أحصنت فرجها من الفجور، وكذا اطلقت على النساء العفيفات النقيات الجيب، أو اللاتى يعشن فى كنف رجل وتحت كفاله وبذلك يحفظن أنفسهن ويحصنها من الفجور والزنا.

نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصنات الكتائيات اللاتى أسيرهن المسلمون فى الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرهن بمثابة الطلاق من أزواجهن، وأذن أن يتزوج بهن المسلمون بعد انقضاء عدتهن (١) أو يتعامل معهن كالإماء كما قال سبحانه: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

ثم إن الله سبحانه أكد هذه الأحكام الواردة فى شأن المحارم من النساء ومن شابههن حيث قال: «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». وعلى هذا لا يمكن تغيير هذه الأحكام أو العدول عنها أبداً.

ثم إنه يشير سبحانه إلى حلية الزواج بغير هذه الطوائف إذ يقول: «وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنَاتٍ بَيْنَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ». أى إنه يجوز لكم أن تتزوجوا بغير هذه الطوائف من النساء شريطة أن يتم ذلك وفق القوانين الإسلامية وأن يرافق مبادئ

الفقه والطهر ويبتعد عن جادة الفجور والفسق.

وجملته «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ» إشارة إلى أن العلاقة الزوجية إما يجب أن تتم من خلال الزواج مع دفع صداق ومهر، أو من خلال تملك أمه في لقاء دفع قيمتها.

يقول سبحانه: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً». أي إنه يجب عليهم دفع أجور النساء اللاتي تستمتعون بهن، وهذا القسم من الآية إشارة إلى مسألة الزواج المؤقت أو ما يسمى بالمتعّة، ويستفاد منها أن أصل تشريع الزواج المؤقت كان قطعياً ومسلماً عند المسلمين قبل نزول هذه الآية، ولهذا يوصى المسلمون في هذه الآية بدفع أجورهن. ثم إن الله سبحانه قال: - بعد ذكر وجوب دفع المهر - «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاثَيْتُمْ بِهِ

(١) مقدار عدتهن حيضة واحدة أو وضع حملهن إذا كن حبالى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٦

من بَعْدِ الْفَرِيضَةِ». وهو بذلك يشير إلى أنه لا مانع من التغيير في مقدار الصداق إذا تراضى طرفا العقد، ولا فرق في هذا الأمر بين العقد المؤقت والعقد الدائم. ثم إن هناك احتمالاً آخر في تفسير الآية أيضاً وهو أنه لا مانع من أن يقدم الطرفان - بعد انعقاد الزواج المؤقت على تمديد مدة هذا الزواج وكذا التغيير في مقدار المهر برضا الطرفين، وهذا يعنى أن مدة الزواج المؤقت قابلة للتمديد حتى عند إشرافها على الانتهاء (أي: قبيل انتهائها) بأن يتفق الزوجان أن يضيفا على المدة المتفق عليها في مطلع هذا الزواج، مدة اخرى معينة لقاء إضافة مقدار معين من المال إلى الصداق المتفق عليه أولاً (وقد اشير في روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا التفسير أيضاً).

ثم إنه سبحانه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا». يريد بذلك أن الأحكام المذكورة في هذه الآية تتضمن خير البشرية وصلاحها وسعادتها لأن الله عليم بمصالحهم، حكيم في ما يقرره لهم من القوانين.

الزواج المؤقت ضرورة إجتماعية: هناك قانون عام وهو أن الغريزة الجنسية هي إحدى أقوى الغرائز الإنسانية إلى درجة أن بعض المحللين النفسانيين اعتبرها الغريزة الإنسانية الأصلية التي إليها ترجع بقية الغرائز الاخرى.

فإذا كان الأمر كذلك يُثار سؤال في المقام وهو أنه قد يكون هناك من لا- يمكنه- وفي كثير من الظروف والأحوال- أن يتزوج بالزواج الدائم في سنّ خاص، أو يكون هناك من المتزوجين من سافر في رحلة طويلة ومهمّة بعيدة عن الأهل فيواجه مشكلة الحاجة الجنسية الشديدة التي تتطلب منه التلبية والإرضاء. خاصة وأن هذه المسألة قد اتخذت في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه الزواج- بسبب طول مدة الدراسة وبعد زمن التخرج وبعض المسائل الاجتماعية المعقدة التي قلما يستطيع معها الشباب أن يتزوجوا في سنّ مبكرة، أي في السنّ التي تعتبر فترة الفوران الجنسي لدى كل شاب- اتخذت صفة أكثر عنفاً وضراوة.

وأننا نرى إن الزواج الدائم لم يكن لا- في السابق ولا في الحاضر بقادر على أن يلبي كل الاحتياجات الجنسية، ولا أن يحقق رغبات جميع الفئات والطبقات في الناس، فنحن لذلك أمام خيارين لاثالث لهما وهما: إما أن نسمح بالفحشاء والبغاء ونعترف به (كما هو الحال في المجتمعات المادية اليوم حيث سمحوا بالبغاء بصورة قانونية) أو أن نعالج المسألة عن طريق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٧

الزواج المؤقت (المتعّة) فما هو يا ترى جواب الذين يعارضون فكرة البغاء، وفكرة المتعّة، على هذا السؤال الملح؟

إن اطروحة الزواج المؤقت (المتعّة) ليست مقيدة بشرائط النكاح الدائم لكي يقال بأنها لا تنسجم ولا تتلاءم مع عدم القدرة المالية، أو لا تتلاءم مع ظروف الدراسة، كما لا تنطوى على اضرار الفحشاء والبغاء ومفاسده وويلاته.

وَمَنْ لَمْ يَسِدِّطْ عَلَيْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ



مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَيَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَيَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

التزوج بالإماء: تعقياً على الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآية تبين شروط التزويج بالإماء، فنقول أولاً: «وَمَنْ لَمْ يَشِ تَطْعَ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» (١). أى من لم يجد قدره مالىة على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، وليس لديه ما يقدر على مهرهن ونفقتهن، فإن له أن يتزوج مما ملكت أيماكم من الإماء، فإن مهورهن أقل، ومؤنتهن أخف عادة.

على أن المراد من الأمة هنا هي أمة الغير.

كما أن التعبير بـ «المؤمنات» فى الآية يستفاد منه أنه يجب أن تكون «الأمة» التى يراد نكاحها مسلمة حتى يجوز التزوج بها، وعلى هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثم إن الله سبحانه عقب على هذا الحكم بقوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ». ويريد بذلك

(١) «الطول»: على وزن «نوع» مأخوذ من الطول (على وزن النور) بمعنى القدرة والإمكانية المالىة وما شابه ذلك.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٨

أنكم لستم مكلفين - فى تشخيص إيمان الإماء - إلا بالظاهر، وأما الباطن فالله هو الذى يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، والمطلع على الضمائر.

وحيث إن البعض كان يكره التزوج بالإماء ويستنكف من نكاحهن قال تعالى:

«بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ». أى إنكم جميعاً من أب واحد، وام واحدة، فإذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتى لا يختلفن من الناحية الإنسانية عنكم.

نعم لا بد أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهن وإلا كان باطلاً، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: «فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ». والتعبير عن المالك بالأهل إنما هو للإشارة إلى أنه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنهن متاع أو بضاعة، بل يجب أن يكون التعامل معهن على أنهن من أعضاء العائلة، فلا بد أن يكون تعاملها إنسانياً كاملاً.

ثم إنه سبحانه قال: «وَأَتُوهُنَّ أُجُورُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» ومن هذه الجملة يستفاد أن الصداق الذى يعطى لهن يجب أن يكون متناسباً مع شأنهن ومكانتهن، وأن يعطى المهر لهن، يعنى أن الأمة تكون هى المالكه للصداق.

كما يستفاد من التعبير بـ «المعروف» أنه لا يجوز أن تظلم الإماء فى تعيين مقدار المهر، بل هو حقهن الطبيعى الحقيقى الذى يجب أن يعطى لهن بالقدر المتعارف.

ثم إن الله سبحانه ذكر شرطاً آخر من شروط هذا الزواج، وهو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللاتى لم يرتكبن البغاء إذ قال: «مُحْصَنَاتٍ» سواء بصورة علنية «غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ» أو بصورة خفية «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ». أى أصدقاء وأخلاء فى السر.

ثم إن الله سبحانه قال: «فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ».

وتتضمن الآية بحثاً حول عقوبة الإماء إذا خرجن عن جادة العفة والطهر، وذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإماء، وبعض الأحكام حول حقوقهن.

والحكم المذكور فى هذا المجال هو أن الإماء إذا زنين فجزاؤهن نصف جزاء الحرائر إذا زنين، أى خمسون جلدة. ثم قال سبحانه معقباً على الحكم السابق: «ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ».

«العنت»: على وزن (سند) يقال فى الأصل للعظم المجبور - بعد الكسر - إذا أصابه ألم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٩

وكسر آخر فهضه قد أعنته، لأن هذا النوع من الكسر مؤلم جداً، ولهذا يستعمل في المشاكل الباهظة والأعمال المؤلمة. ويقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضرة إن الزواج بالإماء إنما يجوز لمن يعانى من ضغط شديد بسبب شدة غلبة الغريزة الجنسية عليه ولم يكن قادراً على التزوج بالحرائر من النساء، وعلى هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإماء لغير هذه الطائفة. ثم عقب سبحانه على ذلك بقوله: «وَإِنْ تَصَبَّرُوا خَيْرٌ لَكُمْ». أى إن صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم وما لم تقعوا فى الزنا خير لكم ومن مصلحتكم: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

أى: يغفر الله لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفلة فهو رحيم بكم. يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨) بعد أن بين الله سبحانه فى الآيات السابقة أحكام مختلفة فى مجال الزواج، يمكن أن ينقدح سؤال فى ذهن البعض وهو: ما المقصود من كل هذه القيود ولماذا الحدود القانونية؟ إن الآيات الحاضرة هى إجابة على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ». أى إن الله يبين لكم الحقائق بواسطة هذه القوانين ويهديكم إلى ما فيه مصالحكم، مع العلم بأن هذه الأحكام لا تختص بكم، فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحة، هذا مضافاً إلى أن الله تعالى يريد أن يغفر لكم ويعيد عليكم نعمه التى قطعت عنكم بسبب انحرافكم عن جادة الحق، وكل هذا إنما يكون إذا عدتم عن طريق الانحراف الذى سلكتموه فى عهد الجاهلية وقبل الإسلام.

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». يعلم بأسرار الأحكام ويشعرها لكم عن حكمه. ثم إن الله سبحانه أكد ما مرّ بقوله: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا». أى إن الله يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التى قطعت ومنعت عنكم بسبب ذنوبكم، وارتكابكم للشهوات، ولكن الذين مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٠

يريدون الإنسياق وراء الشهوات الغارقين فى الآثام والذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعادة، إنهم يريدون أن تسايروهم فى اتباع الشهوات وأن تنغمسوا فى الآثار انغماساً كاملاً، فهل ترون- والحال هذه- إن هذه القيود والحدود الكفيلة بضمان سعادتكم وخيركم ومصلحتكم أفضل لكم، أو الحرية المنفلتة المقرونة بالانحطاط الخلقى، والفساد والسقوط؟ إن هذه الآيات تجيب على تساؤل اولئك الأفراد الذين يعيشون فى عصرنا الحاضر أيضاً والذين يعترضون على القيود والحدود المفروضة فى مجال القضايا الجنسية، وتقول لهم: إن الحريات المطلقة المنفلتة ليست أكثر من سراب، وهى لا- تنتج سوى الانحراف الكبير عن مسير السعادة والتكامل الإنسانى، وكما توجب التورط فى المتاهات والمجاهل، وتستلزم العواقب الشريفة التى يتجسد بعضها فى ما نراه بام أعيننا من تبعر العوائل، ووقوع أنواع الجرائم الجنسية البشعة، وظهور الأمراض التناسلية والآلام الروحية والنفسية المقيته، ونشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساء الجناء.

ثم إنه سبحانه يقول بعد كل هذا: «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا». وهذه الآية إشارة إلى أن النقطة التالية وهى أن الحكم السابق فى مجال حرية التزوج بالإماء بشروط معينة ما هو إلا تخفيف وتوسعة، ذلك لأن الإنسان خلق ضعيفاً، فلا بد وهو يواجه طوفان الغرائز المتنوعة الجامحة التى تحاصره وتهجم عليه من كل صوب وحذب أن تطرح عليه طرق ووسائل مشروعة لإرضاء غرائزه ليتمكن من حفظ نفسه من الانحراف والسقوط.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عِدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضِلُّهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد:

الآية الاولى من هاتين الآيتين تشكل القاعدة الأساسية للقوانين الإسلامية في مجال المسائل المتعلقة «بالمعاملات والمبادلات المالية»  
 إِنَّ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩١

ولهذا يستدل بها فقهاء الإسلام في جميع أبواب المعاملات والمبادلات المالية. إن هذه الآية تخاطب المؤمنين بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ». وعلى هذا الأساس يندرج تحت هذا العنوان الكلى كل لون من ألوان العدوان، والغش، وجميع المعاملات الربوية، والمعاملات المجهولة الخصوصيات تماماً، وتعاطى البضائع التي لا فائدة فيها بحكم العقلاء، والتجارة بأدوات اللهو والفساد والمعصية وما شاكل ذلك.

إن التعبير «الأكل» كناية عن كل تصرف، سواء تم بصورة الأكل المتعارف أو اللبس، أو السكنى أو غير ذلك، تعبير رائج في اللغة العربية وغير العربية.

ثم إن الله سبحانه يقول معقباً على العبارات السابقة: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ».

ثم إنه تعالى ينهى في ذيل هذه الآية عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ». وظاهر هذه الجملة بقرينه قوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا». النهى عن الانتحار، يعني أن الله الرحيم كما لا يرضى بأن تقتلوا أحداً، كذلك لا يسمح لكم ولا يرضى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم.

ويشير القرآن بذكر هذين الحكمين بصورة متتالية إلى نكته اجتماعية مهمة، وهي أن العلاقات الاقتصادية في المجتمع إذا لم تكن قائمة على أساس صحيح، ولم يتقدم الاقتصاد الاجتماعي في الطريق السليم، ووقع الظلم والتصرف العدواني في أموال الغير أصيب المجتمع بنوع من الانتحار، وآل الأمر إلى تصاعد حالات الانتحار الفردي مضافاً إلى الانتحار الجماعي الذي هو من آثار الانتحار الفردي ضمناً.

كما حذر قائلاً: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا» (١). أي إن من يعصى هذه الأحكام ويتجاهل هذا التحذير، ويأكل أموال الآخرين بالباطل ودون استحقاق، أو ينتحر بيديه لم يصبه العذاب الأليم في الدنيا فحسب، بل ستصيبه نار الغضب الإلهي، وهذا أمر هين على الله: «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

(١) «الصلى»: يعني في الأصل الإقتراب إلى النار، ويطلق على التدفؤ والإحترق والإكتواء بالنار أيضاً، وقد استعملت في الآية الحاضرة في معنى الإحترق بالنار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٢

هذه الآية تقول بصراحة: «إِنَّ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا».

ومن هذا التعبير يستفاد أن المعاصي والذنوب على قسمين:

القسم الأول: هو ما يسميه القرآن الكريم بالمعصية الكبيرة.

والقسم الثاني: وهو ما يسميه القرآن الكريم بالسيئة.

وقد عبر في الآية (٣٢) من سورة النجم ب «اللمم» بدلاً عن السيئة، وفي الآية (٤٩) من سورة الكهف ذلك لفظه «الصغيرة» في مقابل الكبيرة.

إن الكبيرة هي كل معصية بالغة الأهمية من وجهة نظر الإسلام، ويمكن أن تكون علامة تلك الأهمية أن القرآن لم يكتف بالنهي عنها فقط، بل أورد ذلك بالتهديد بعذاب جهنم، مثل قتل النفس والزنا وأكل الربا وأمثال ذلك.

والصغيرة تبقى صغيرة ما لم تتكرر، هذا مضافاً إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور وطغيان.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن أم سلمة (وهي من أزواج النبي صلى الله عليه وآله) قالت: يا رسول الله! يغزو الرجال ولا تغزو النساء،  
وإنما لنا نصف الميراث، فليتنا رجال فنغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت الآية.

التفسير

لقد أوجب التفاوت في سهم الرجال والنساء من الإرث تساؤلاً لدى البعض، ويبدو أنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا التفاوت إنما هو لأجل  
أن النفقة بكاملها على الرجل، وليس على النساء شيء من نفقات العائلة، بل نفقة المرأة هي الأخرى مفروضة على الرجل، ولهذا  
يكون ما تصيبه المرأة ضعف ما يصيبه الرجل من الثروة، ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية:

«وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ». لأن لكل نوع من أنواع هذا التفضيل

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٣

والتفاوت أسرار خفية عنكم غير ظاهرة لكم. على أنه يجب أن لا نتصور خطأ أن الآية الحاضرة تشير إلى التفاوت المصطنع الذي برز  
نتيجة الاستعمار والاستغلال الطبقي.

ولذا عقب الله سبحانه على الجملة السابقة بقوله: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ». أي: لكل من الرجال  
والنساء نصيب من سعيه وجهده ومكانته سواء كانت مكانة طبيعية (كالتفاوت والفرق بين جنسى الرجل والمرأة) أو غير طبيعية ناشئة  
عن التفاوت بسبب الجهود الاختيارية.

ثم يقول: «وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ». أي: بدل أن تتمنوا هذا التفضيل والتفاوت اطلبوا من فضل الله واسألوا من لطفه وكرمه أن يتفضل  
عليكم من نعمه المتنوعة وتوفيقاته ومثوباته الطيبة لتكونوا - بنتيجة ذلك - سعداء رجالاً ونساءً، ومن أي عنصر كنتم، وعلى كل حال  
اطلبوا واسألوا ما هو خيركم وسعادتكم واقعاً.

«إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». أي: يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع وما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعية أو الحقوقية، ولهذا  
لا وجود للظلم والحيث ولا - لأى شيء من التفاوت الظالم والتمييز غير العادل في أفعاله، كما أنه تعالى خبير بما في بواطن الناس من  
الأسرار والخفايا والنوايا ويعلم من الذى يتمنى الأمانى الخاطئة فى قلبه، ومن يتمنى الأمانى الإيجابية الصحيحة البناءة.

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالدِّينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)  
يعود القرآن مرة أخرى إلى مسألة الإرث إذ يقول: «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» (١). أي: لكل رجل أو امرأة  
جعلنا ورثته يرثون مما ترك الوالدان والأقربون الذى يجب أن يقسم بينهم طبق برنامج خاص.

ثم إن الله تعالى يضيف قائلاً: «وَالَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ». أي ادفعوا إلى الذين عقدتم معهم عقداً نصيبهم من الإرث.

(١) «الموالى»: جمع مولى، وهى فى الأصل من مادة الولاية بمعنى الإتصال والإرتباط، وتطلق على جميع الأفراد الذين يرتبط بعضهم  
ببعض بنوع من الإرتباط، غاية ما هناك أنها تكون فى بعض الموارد بمعنى إرتباط الوالى مع أتباعه، وأما فى الآية الحاضرة فتكون  
بمعنى الورثة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٤

من هم الذين عقد معهم الميثاق، الذين لا بد أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟

إن ما هو أقرب إلى مفهوم الآية هو عقد «ضمان الجريرة» الذى كان رائجاً قبل الإسلام، وهو: «أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن

يتعاوننا فيما بينهما بشكل أخوي أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات، وإذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقي» ولقد أقر الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوي الودّي، ولكنه أكد على أن التوارث بسبب هذا الميثاق إنما يمكن إذا لم يكن هناك ورثته من طبقات الأقرباء.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا». أي إذا قصرتم في إعطاء نصيب الورثة ولم تعطوهم حقوقهم كاملة، علم الله بذلك ولم يخف عليه ما فعلتم، لأنه على كل شيء شهيد وبكل شيء عليم.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (٣٤) قال الله تعالى في مطلع هذه الآية إلى أن العائلة وحدة اجتماعية صغيرة، وهي كالاتحاد الكبير لا بد لها من قائد وقائم بأمرها، لأن القيادة والقوامة الجماعية التي يشترك فيها الرجل والمرأة معاً، لا معنى لها ولا مفهوم، فلا بد أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، ويكون «رئيساً» للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذي يعمل تحت إشراف الرئيس.

إن القرآن يصرح - هنا - بأنّ مقام القوامة والقيادة للعائلة لا بد أن يعطى للرجل إذ تقول: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ». والمقصود من هذا التعبير هو أن تكون القيادة واحدة ومنظمة تتحمل مسؤولياتها مع أخذ مبدأ الشورى والتشاور بنظر الاعتبار.

إنّ جملة «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» إشارة أيضاً إلى هذه الحقيقة، لأنّ القسم الأول من هذه الفقرة يقول: إن هذه القوامة إنما هو لأجل التفاوت الذي أوجده الله بين أفراد البشر من ناحية الخلق لمصلحة تقتضيها حياة النوع البشري، بينما يقول في القسم الثاني منها: وأيضاً لأجل أن الرجال كلّفوا بالقيام بتعهدات مالية تجاه الزوجات والأولاد في مجال الإنفاق والبدل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٥

ثم إنّه سبحانه يضيف قائلاً: «فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ». وهذا يعنى أن النساء بالنسبة إلى الوظائف المناطة إليهن في مجال العائلة على صنفين:

الطائفة الأولى: وهنّ «الصالحات» أي غير المنحرفات «القانتات» أي الخاضعات تجاه الوظائف العائلية «الحافظات للغيب» اللاتي يحفظن حقوق الأزواج وشؤونهم لا- في حضورهم فحسب، بل يحفظنهم في غيبتهم، يعنى أنّهن لا يرتكبن أيّة خيانة سواء في مجال المال، أو في المجال الجنسي، أو في مجال حفظ مكانة الزوج وشأنه الاجتماعي، وأسرار العائلة في غيبته، ويقمن بمسؤولياتهن تجاه الحقوق التي فرضها الله عليهن والتي عبّر عنها في الآية بقوله: «بِمَا حَفِظَ اللَّهُ» خير قيام.

ومن الطبيعي أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هذه النسوة، وحفظ حقوقهن، وعدم إضاعتهن.

الطائفة الثانية: النسوة اللاتي يتخلفن عن القيام بوظائفهن وواجباتهن، وتبدو عليهن علائم النشوز واماراته فإنّ على الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لا بد من القيام بها مرحلة فمرحلة، وهذه الوظائف هي بالترتيب:

١- الموعظة: إنّ المرحلة الأولى التي على الرجال أن يسلكوها تجاه النساء اللاتي تبدو عليهن علائم التمرد والنشوز والعداوة، تتمثل في وعظهن كما قال سبحانه في الآية الحاضرة:

«وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ» (١).

٢- الهجر في المضاجع: وتأتي هذه المرحلة إذا لم ينفع الوعظ ولم تنجع النصيحة «وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ». وبهذا الموقف والهجر وعدم المبالاة بالزوج أظهرت عدم الرضا من الزوجة، لعل هذا الموقف الخفيف يؤثر في أنفسهن.

٣- الضرب: وأتت إذا تجاوزت في عصيانهن، والتمرد على واجباتهن ومسؤولياتهن الحد، ومضين في طريق العناد واللجاج دون أن يرتدعن بالأساليب السابقة، فلا النصيحة تفيد، ولا العظة تنفع، ولا الهجر ينجح، ولم يبق من سبيل إلا استخدام العنف، فحينئذ يأتي دور الضرب «وَ اضْرِبُوهُنَّ». لدفعهن إلى القيام بواجباتهن الزوجية لانحصار الوسيلة في هذه الحالة في استخدام شيء من العنف، ولهذا سمح

الإسلام في مثل هذه الصورة بالضغط عليهن ودفعهن إلى القيام بواجباتهن من خلال العقوبة الجسدية.

(١) «النشوز»: من نشز (على وزن نذر) يعنى الأرض المرتفعة، ويكنى به هنا عن الطغيان والترفع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٦

ومن المسلم أن أحد هذه الأساليب لو أثر في المرأة الناشزة ودفعها إلى الطاعة، وعادت المرأة إلى القيام بوظائفها الزوجية لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأة، ويعمد إلى إيذائها، ومضايقتها حتى تعود إلى جادة الصواب واستقامت في سلوكها ولهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقة بقوله: «فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا».

ثم إن الله سبحانه ذكر الرجال مرة أخرى في ختام الآية بأن لا يسيئوا استخدام مكانتهم كقيم على العائلة فيجحفوا في حق أزواجهم، وأن يفكروا في قدرة الله التي هي فوق كل قدرة «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا».

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا (٣٥) محكمة الصلح العائلية: في هذه الآية إشارة إلى مسألة ظهور الخلاف والنزاع بين الزوجين، فهي تقول: «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا» ليتفاوضا ويقربا من أوجه النظر لدى الزوجين. ثم يقول تعالى: «إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا». أي: ينبغي أن يدخل الحكمان المندوبان عن الزوجين في التفاوض بتيهٍ صالحةٍ ورغبةٍ صادقةٍ في الإصلاح، فإنهما إن كانا كذلك أعانهما الله ووفق بين الزوجين بسببهما.

ومن أجل تحذير (الحكمين) وحثهما على استخدام حسن التيه، يقول سبحانه في ختام هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا».

إن محكمة الصلح العائلية التي أشارت إليها الآية الحاضرة، هي إحدى مبتكرات الإسلام العظيمة، فإن هذه المحكمة تمتاز بميزات تفتقر إليها المحاكم الأخرى، من جملتها:

١- إنه لا يمكن - في البيئه العائليه - العمل بمقياس القوانين الجافه، فهنا يجب حل الخلافات العائليه بالطرق العاطفيه حد الإمكان، ولهذا يأمر القرآن الكريم أن يكون الحكمان في هذه المحكمة ممن تربطهم بالزوجين رابطة النسب والقرايه ليتمكنهما تحريك المشاعر والعواطف باتجاه الإصلاح بين الزوجين، ومن الطبيعي أن تكون هذه الميزه هي ميزه هذا النوع من المحاكم خاصه دون بقية المحاكم الأخرى.

٢- إن المدعى والمدعى عليه في المحاكم العادية القضائيه مضطرين - تحت طائله الدفاع عن النفس - أن يكشفوا عن كل ما لديهما من الأسرار، ومن المسلم أن الزوجين لو كشفوا عن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٧

الأسرار الزوجيه أمام الأجنب والغرباء لجرح كل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحيث لو اضطر الزوجان أن يعودا - بحكم المحكمة - إلى البيت لما عادا إلى ما كانا عليه من الصفاء والمحبه السالفه.

٣- إن الحكمين في المحاكم العادية المتعارفه لا يشعرا عادة بالمسؤوليه الكامله في قضايا الخلاف والمنازعات، ولا تهمهما كيفيه انتهاء القضيه المرفوعه إلى المحكمة، هل يعود الزوجان إلى البيت على وفاق، أو ينفصلا مع طلاق؟

في حين أن الأمر في محكمة الصلح العائليه على العكس من ذلك تماما، فإن الحكمين في هذه المحكمة حيث يرتبطان بالزوجين برابطة القرايه، فإن لا افتراق أو صلح الزوجين أثرا كبيرا في حياه الحكمين من الناحيه العاطفيه، ومن ناحيه المسؤوليات الناشئه عن ذلك، ولهذا فإنهما يسعيان - جهد إمكانهما - أن يتحقق الصلح والسلام والوفاق والوثام بين الزوجين اللذين يمثلانها.

٤- مضافا إلى كل ذلك فإن مثل هذا المحكمة لا تعاني من أيه مشكلات، ولا تحتاج إلى أيه ميزانيات باهظه، ولا تعاني من تلك الخساره والضياع.

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْحَيَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْحَيَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الآية الحاضرة تبين سلسلة من الحقوق الإسلامية بما فيها الحقوق الإلهية وحقوق العباد وآداب العشرة مع الناس ويستفاد منها عشرة تعاليم:

١- «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». إن الآية تدعو الناس قبل أى شىء إلى عبادة الله والخضوع له وحده، وترك الشرك والوثنية الذى هو أساس كل البرامج والمناهج الإسلامية. إن الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده تطهر الروح، وتخلص النية، وتقوى الإرادة، وتشدد من عزيمة الإنسان على الإتيان بأى برنامج مفيد. وحيث إن الآية الحاضرة تبين سلسلة من الحقوق الإسلامية لذلك فقد أشارت إلى حق الله على الناس قبل أى شىء وقبل أى حق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٨

٢- «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا». ثم إنها تشير إلى حق الوالدين وتوصى بالإحسان إليهما ولا شك أن حق الوالدين من القضايا التى يهتم بها القرآن الكريم كثيراً، ولعلنا حظى موضوع بمثل هذا الإهتمام والعناية، فقد جاءت التوصية بالوالدين بعد الدعوة إلى التوحيد فى العبادة فى أربعة مواضع فى القرآن الكريم.

٣- «وَبِذِي الْقُرْبَىٰ». ثم إنها توصى بالإحسان إلى كل الأقرباء، وهذا الموضوع من المسائل التى يهتم بها القرآن الكريم إهتماماً بالغاً تارة تحت عنوان «صلة الرحم» واخرى بعنوان «الإحسان إلى القربى».

٤- «وَالْيَتَامَىٰ». ثم أشارت إلى حقوق «اليتامى» وأوصت المؤمنين ببرهم والإحسان إليهم، لأنه يوجد فى كل مجتمع أطفال أيتام على أثر الحوادث المختلفة، لا يهدد تناسيهم وإهمالهم وضعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعى بصورة عامة، لأن الأطفال اليتامى لو تركوا دون ولاية أو حماية ولم ينالوا حاجتهم من المحبة واللفظ يتحولون إلى أفراد منفلتين فاسدين، بل أشخاص خطرين جناة. وعلى هذا يكون الإحسان إلى اليتامى إحساناً إلى الفرد وإلى المجتمع معاً.

٥- «وَالْمَسَاكِينِ». ثم يذكر سبحانه- فى هذه الآية- بحقوق الفقراء والمساكين، لأنه قد يوجد حتى فى المجتمع السليم الذى يسوده العدل من يعانى من نواقص وعاهات تعوقه عن الحركة والنشاط والفعالية، ولا شك أن تناسى هؤلاء أمر يخالف كل الاسس والقيم الإنسانية، فلا بد من تقديم العون إليهم، ومعالجة حرمانهم.

٦- «وَالْحَيَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ». ثم يوصى بالجيران من ذوى القربى، والمراد هو القرب المكانى لا القرب النسبى، لأن الجيران الأقربين مكاناً يستحقون احتراماً وحقوقاً أكثر من غيرهم، أو أن يكون المراد الجيران الأقربين إلى الإنسان من الناحية الدينية والاعتقادية.

٧- «وَالْحَيَارِ الْجُنُبِ». ثم إنها توصى بالجيران البعيدين، والمراد هو البعد المكانى. إن لحق الجوار فى الإسلام أهمية بالغه إلى درجة أننا نقرأ فى وصايا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المعروفة: «ما زال (رسول الله) يوصى بهم حتى ظننا أنه سيورثهم» (١). (وقد ورد هذا الحديث- فى تفسير المنار؛ وتفسير القرطبي- مثل هذا المضمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً).

وفى تفسير القرطبي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن». قيل: يا رسول الله ومن؟ قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه».

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٩

٨- «وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ». ثم أوصت بالرفيق والصاحب، غير أنه لابد من الإنباه إلى أن ل «الصاحب بالجنب» معنى أوسع من الرفيق والصديق المتعارف، وبهذا الطريق تكون هذه الآية أمراً كلياً وجامعاً بحسن معاشرته كل من يرتبط بالمرء، سواء كان صديقاً واقعياً، أو زميلاً، أو رفيق سفر، أو مراجعاً، أو تلميذاً، أو مشاوراً، أو خادماً.

وقد فسرت لفظة الصاحب بالجنب في بعض الروايات بالزوجة، ولكن لا يبعد أن يكون هذا من باب بيان أحد المصاديق أيضاً.  
 ٩- «وَإِنَّ السَّبِيلَ». وأما الصنف الآخر الذي أوصت بهم الآية هنا فهم الذين تحدث لهم حاجة السفر وبلاد الغرب، فابن السبيل هو الذي ينقطع في السفر وإن كان يمكن أن يكون متمكناً ذا مال في بلده.  
 ١٠- «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». وفي نهاية المطاف توصى هذه الآية بالإحسان إلى العبيد والأرقاء، وبهذا تكون الآية قد بدأت بحق الله، وختمت بحقوق العبيد، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

ثم إنه سبحانه يقول في ختام هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا». وهو بذلك يحذر كل من يتمرد ويعصى أوامر الله، ويتقاعس عن القيام بحقوق أقربائه والديه واليتامى والمساكين وابن السبيل والأصدقاء والأصحاب بدافع التكبر بأنه سيكون معرضاً لسخط الله، وسيحرم من عنايته سبحانه، ولا ريب أن من حرم من اللطف الإلهي والعناية الربانية حرم من كل خير وسعادة «١».  
 الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَمَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ الْآخِرَةِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

(١) «مختال»: من مادة «خيال» حيث يرى الشخص نفسه بسبب بعض المتخيلات عظيماً وكبيراً، وسمى الخيل خيلاً لأن مشيته تشبه مشية المتكبر؛ «فخور»: من مادة «فخر» والفرق بينها وبين الاولى أن المختال إشارة إلى تخيلات الكبر في مجالها الذهني والآخرى يراد بها الأعمال الصادرة عن كبر في المجال الخارجي.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٠

الإنفاق رياءً والإنفاق قرينة: الآية الاولى من هذه الآيات الثلاث تعقيب على الآيات السابقة وإشارة إلى المتكبرين إذ تقول: «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ». هذا مضافاً إلى أنهم يسعون دائماً أن يخفوا عن الآخرين ما تفضل الله عليهم به من الخير كيلا يتوقع المجتمع منهم شيئاً «وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ».

ثم يقول عن نهاية هذا الفرق من الناس وعاقبه أمرهم: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا». ولعل السر في استخدام هذا التعبير في حق هذه الطائفة هو أن «البخل» ينبع في الغالب من الكفر، لأن البخل لا يمتلكون الإيمان الكامل بالموهب الربانية المطلقة والوعود الإلهية العظيمة للمحسنين. إنهم يتصورون أن مساعدة الآخرين وتقديم العون إليهم يجزئ إليهم التعاسة والشقاء.  
 وأما الحديث عن الخزي في عذاب هؤلاء، فلأن الجزاء المناسب للتكبر والإستكبار هو العذاب المهين.

ثم إن الله سبحانه يذكر صفة أخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: «وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَمَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ الْآخِرَةِ إِنَّهُمْ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لَأَسْفَافًا وَمَا يُنْفِقُونَ إِلَّا لِيُضَلَّوهُمُ الشَّيْطَانُ بِغَيْرِ عِلْمٍ» من الإنفاق هو خدمة الناس وكسب رضا الله سبحانه.

إن هؤلاء اختاروا الشيطان رفيقاً وقريباً لهم: «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا». إنه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشيطان، لأن منطقهم هو منطق الشيطان، وسلوكهم سلوكه سواء بسواء، إنه هو الذي يقول لهم: إن الإنفاق بإخلاص يوجب الفقر «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ» «١».

من هذه الآية يستفاد أن علاقة «المتكبرين» ب «الشيطان والأعمال الشيطانية» علاقة مستمرة ودائمة لا مؤقتة ولا مرحلية.  
 وهنا يقول سبحانه وكأنه يتأسف على أحوال هذه الطائفة من الناس: «وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ». أي شيء عليهم لو تركوا هذا السلوك وعادوا إلى جادة الصواب وأنفقوا مما رزقهم الله من الخير والنعمة في سبيل الله، بإخلاص لا



(١) سورة البقرة/ ٢٤٨.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠١

رياء، وكسبوا بذلك رضا الله، وتعرضوا للطفه وعنايته، وأحرزوا سعادة الدنيا والآخرة؟

وعلى كل حال فإن الله يعلم بأعمالهم ونواياهم ويجزيهم بما عملوا: «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا».

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) إِنَّ الْآيَةَ الْحَاضِرَةَ تَقُول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ قَطُّ زَنَةَ ذَرَّةٍ، بَل يَضَاعِفُ الْحَسَنَةَ إِذَا قَامَ بِهَا أَحَدٌ، وَيُعْطِي مِنْ لَدُنْهُ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا عَظِيمًا: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا».

«الذرة»: في الأصل هي النملة الصغيرة التي لا ترى، ولكنها اطلقت تدريجاً على كل شيء صغير جداً، وتطلق الآن ويراد منها ما يتكون من الإلكترون والبروتون أيضاً. وبما أن «مِثْقَال» يعنى الثقل، فإن التعبير ب«مِثْقَال ذَرَّة» يعنى جسماً في غاية الدقة والصغر.

إن هذه الآية تقول للكافرين الذين يبخلون والذين مرّ الحديث عن أحوالهم في الآيات السابقة: إن العقوبات التي تصيبكم ما هي إلاجزاء ما قمتم به من الأعمال، وأنه لا- يصيبكم أى ظلم من جانب الله، بل لو أنكم تركتم الكفر والبخل وسلكتم طريق الله لنتم المثوبات العظيمة المضاعفة.

يبقى أن نعرف لماذا لا يظلم الله سبحانه؟ فإنّ السبب فيه واضح، لأنّ الظلم عادة- إما ناشىء عن الجهل، وإما ناشىء عن الحاجة، وإما ناشىء عن نقص نفسى.

ومن كان عالماً بكل شيء، وكان غنياً عن كل شيء، ولم يكن يعانى من أى نقص، لا يمكن صدور الظلم منه، فهو لا يظلم أساساً، لأنه تعالى لا- يقدر على الظلم، بل مع قدرته تعالى على الظلم- لا- يظلم أبداً لحكمته وعلمه، فهو يضع كل شيء في عالم الوجود موضعه، ويعامل كل أحد حسب عمله، وطبقاً لسلوكه وسيرته.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٢

شهود يوم القيامة: تعقيباً على الآيات السابقة التي كانت تدور حول العقوبات والمثوبات المعدّة للعصاة والمطيعين، جاءت هذه الآية تشير إلى مسألة الشهود في يوم القيامة فتقول: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا». وهكذا يكون نبي كل امية شهيداً عليها، مضافاً إلى شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه، وشهادة الأرض التي عليها عاش، وشهادة ملائكة الله على أعماله وتصرفاته، ويكون نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وهو آخر أنبياء الله ورسله وأعظمهم، شاهداً على امته أيضاً، فكيف يستطيع العصاة مع هؤلاء الشهود إنكار حقيقة من الحقائق، وتخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرسول وعصوه، أى عندما رأوا بام أعينهم تلك المحكمة الإلهية العادلة، وواجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، إنهم يندمون ندماً بالغاً لدرجة أنهم يتمنون لو أنهم كانوا تراباً أو سوّوا بالأرض كما يقول القرآن الكريم في الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: «يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ».

وقد ورد مثل هذا التعبير في آخر سورة النبا إذ يقول تعالى: «وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا».

إنهم في هذه الحالة لا يمكنهم أن ينكروا أية حقيقة واقعة ولا أن يكتموا شيئاً: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» لأنه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَفْوًا غَفُورًا (٤٣) بعض الأحكام الفقهية: تستفاد من الآية الحاضرة عدة أحكام إسلامية هي:

١- بطلان الصلاة في حال السكر: وفلسفه ذلك واضحة، فإن الصلاة حديث العبد إلى ربه ومناجاته ودعاؤه، ولا بد أن يتم كل هذا في حالة الوعي الكامل، والسكرارى أبعد ما يكونون عن هذه الحالة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٣

٢- بطلان الصلاة في حال الجنابة: الذى أشير إليه بعبارة «وَلَا جُنُبًا». ثم استثنى سبحانه من هذا الحكم بقوله: «إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ». أى إذا فقدتم الماء في السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاة (شريطة أن تتيمموا كما يجيء في ذيل الآية).

٣- جواز الصلاة أو عبور المسجد بعد الإغتسال: هو المبين بقوله: «حَتَّى تَغْتَسِلُوا».

٤- التيمم لذوى الأعذار: ثم تشير الآية إلى حكم التيمم لذوى الأعذار فتقول: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ». وفي هذه العبارة من الآية قد اجتمعت كل موارد التيمم، فالمورد الأول هو ما إذا كان في استعمال الماء ضرر على البدن، والمورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسان الحصول على الماء (أم لم يمكن استعماله) وبقوله: «أَوْ خِجَاءٍ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءِ». إشارة إلى علل الإحتياج إلى التيمم وأسبابه، ومعناه إذا أحدثتم حدثاً أو جامعتم النساء «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً». أى لم تقدرُوا على تحصيل الماء أو استعماله «فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا».

ثم إنه سبحانه يبين طريقة التيمم بقوله: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ».

وفي ختام الآية يشير إلى حقيقة أن الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأن الله كثير الصفح كثير الستر لذنوب عباده «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا».

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) في هذه الآيات يخاطب الله سبحانه نبيه الكريم بعبارة حاكية عن التعجب والإستغراب قائلاً: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ». أى عجب أمر هؤلاء الذين اتوا نصيباً من الكتاب السماوى، ولكنهم بدل أن يقوموا بهداية الآخرين وإرشادهم فى ضوء ما أوتوا من الهدى، فإنهم يشترون الضلالة لأنفسهم ويريدون أن تضلوا أنتم أيضاً.

وبهذا الطريق فإن ما نزل لهدايتهم وهداية الآخرين تحوّل إلى وسيلة لضلالهم وإضلال الآخرين بسوء نيتهم، لأنهم لم يكونوا أبداً بصدد الحقيقة، بل كانوا ينظرون إلى كل شىء بمنظار النفاق والحسد والمادية السوداء.

ثم يقول سبحانه: إن هؤلاء وإن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلا أنهم أعداؤكم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٤

الحقيقيون «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ». وأية عداوة أشدّ وأكثر من أن يكرهوا هدايتكم ويخالفوا سعادتكم، تارة باللسان وتارة عن طريق إظهار النصح، وثالثة عن طريق الذم، ويجتهدون فى تحقيق أهدافهم المشؤومة فى كل ظرف وزمان بنحو خاص، وشكل معين.

ولكن لا- تخافوا عداوتهم أبداً ولا- تستوحشوا لمواقفهم المعادية فلستم وحدكم فى الميدان، فكفاكم أن الله قائدكم ووليكم وناصركم: «وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا».

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لِيَّأُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) جانب آخر من أعمال اليهود: تعقيباً على الآيات السابقة تشرح هذه الآية صفات جماعة من أعداء الإسلام، وتشير إلى جانب من أعمالهم ومواقفهم، فتقول أولاً: إن أحد أعمال هذه الجماعة هو تحريف الحقائق، وتغيير حقيقة الأوامر الإلهية: «مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ». أى

أن جماعة من اليهود يحرفون الكلمات عن مواضعها.

وهذا التحريف قد يكون له جانب لفظي، وقد يكون له جانب معنوي وعملي.

أمّا العبارات اللاحقة فتفيد أن المراد من التحريف في المقام هو التحريف اللفظي وتغيير العبارة، لأنه تعالى يقول بعد هذه الجملة: «وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا». يعنى بدل أن يقولوا «سمعنا وأطعنا» يقولون «سمعنا وعصينا».

ثم يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائية المزيجية بروح التحدى والصلافة حيث يقول: إنهم يقولون: «وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ». وبهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعة من المغفلين.

جملة «رَاعِنَا» التي معناها «تفقدنا وأمهلنا» وكان المسلمون الصادقون في صدر الإسلام ومطلع الدعوة المحمدية يرددونها أمام النبي صلى الله عليه وآله ليتمكنوا من سماع صوت النبي وكلامه بنحو أفضل، ولكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النبي ويسئون استخدامها ويكررونها أمام النبي صلى الله عليه وآله وهم يقصدون منها معناها العبري الذي مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٥

هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناه العربي الآخر، وهو ما يرجع إلى الرعونته الذي يعنى الحمق «١». وقد كان هذا كله بهدف إزاحة الحقائق عن محورها الأصلي بألستهم والطعن في الدين الحق، والشريعة الحقّة: «يَا بَالِسْتِثِمِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ».

«وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمًا». أى: إنهم إن سلكوا الطريق المستقيم وتركوا كل ذلك اللجاج والعداء، ومعاداة الحق، وسوء الأدب، والجرأة والوقاحة وقالوا: سمعنا كلام الله وأطعنا، فاستمع إلى كلامنا وأمهلنا لكي ندرك الحقائق إدراكاً كاملاً، لكان ذلك من مصلحتهم، وكان في ذلك منفعتهم، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع العدل والمنطق والعدل والأدب. «وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا». أى: إنهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعة، كيف؟ وقد ابتعدوا عن رحمة الله بسبب ما هم عليه من كفر وتمرد وطغيان، وماتت أفئدتهم وتحجرت بحيث صار من المتعذر أن تخضع للحق، وأن تحيا من رقدتها بهذه السرعة، اللهم إلا بعضهم ممن يمتلك فؤاداً طاهراً وعقلاً يقظاً، فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، والاستماع إلى نداء الحق والإيمان به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) مصير المعاندين: تعقيباً على البحث السابق في الآية المتقدمة حول أهل الكتاب، وجه الخطاب في هذه الآية إليهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ». أى: آمنوا بالقرآن الكريم الذي تجدونه موافقاً لما جاء في كتبكم من العلامات والبشائر.

(١) «راعنا»: إذا اخذت مشتقة من مادة الرعى تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاة والمراقبة، وبمعنى أمهلنا، وإذا اخذت مشتقة من الرعونته تكون بمعنى «أخذناوا اجعلنا حمقى عندك» يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء والسب، ولا بد من الالتفات إلى أن راعنا على الوجه الأول تكون بدون تشديد النون، وعلى الوجه الثانى بتشديد النون، ويستفاد من جملة من الروايات أن اليهود كانوا يتعمدون تشديد النون في راعنا ومد آخرها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٦

ثم إن الله سبحانه يهددهم بأن عليهم أن يخضعوا للحق ويدعوا له قبل أن يُصابوا بإحدى عقوبتين: الأولى: أن تمنحى صورهم كاملة، وأن تذهب عنهم جوارحهم وأعضاؤهم التي يرون ويسمعون ويدركون بها الحق، كلها ثم تقلب وجوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: «مَنْ قَبِلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا» «١».

والمراد من «الطمس وإعفاء الأثر والرّد على العقب» في الآية الحاضرة هو المحو الفكري والروحي، والتأخر المعنوي.

وأما العقوبة الثانية التي هددهم الله بها فهي اللعن والطرّد من رحمته تعالى إذ قال: «أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ» (٢).

إنّ أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفة الحق يسقطون ويتفقهرون أو يهلكون.

ثم إنّ الله يختم هذه الآية بقوله: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» ليؤكد هذه التهديدات، فإنّه لا توجد قوة في الأرض تستطيع أن تقف في وجه إرادة الله ومشيئته.

إنّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أرجى آيات القرآن: الآية الحاضرة تعلن بصراحة أنّ جميع الذنوب والمعاصي قابلة للمغفرة والعفو، إلا «الشرك» فإنّه لا يغفر أبداً، إلّا أن يكف المشرك عن شركه ويتوب ويصير موحداً. «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ». إنّ ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة إنّما هو من جهة أنّ اليهود والنصارى كانوا بشكل من الاشكال مشركين، كل طائفة بشكل معين، والقرآن ينذرهم - بهذه الآية - بأن يتركوا هذه العقيدة الفاسدة التي لا يشملها العفو والغفران، ثم يبين في خاتمة الآية دليل هذا الأمر إذ يقول:

«وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا» (٣).

(١) «الطمس»: هو إزالة الأثر بالمحو، مثل أن نهدم بيتاً ثم نزيل أثره بالمرّة، ولكنّه يطلق - كناية - على ما فقد أثره وخاصيته.

(٢) أصحاب السبت هم الذين ستأتى قصّتهم في سورة الأعراف عند تفسير الآيات (١٦٣-١٦٦).

(٣) «الإفتراء»: مشتقة من مادة «فري» على وزن (فرد) بمعنى القطع، وحيث إنّ قطع بعض أجزاء الشىء السالم يفسد ذلك الشىء ويخرجه إستعمل في كل مخالفة، ومن جملة ذلك الشرك والكذب والتهمة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٧

وهذه الآية من الآيات التي تطمئن الموحدين إلى رحمة الله ولطفه، لأنّ في هذه الآية قد بيّن سبحانه إمكان العفو عن جميع المعاصي والذنوب غير الشرك، فهي كما جاء في حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام أرجى آيات القرآن الكريم إذ قال: «ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية».

أسباب مغفرة الذنوب: إنّه يستفاد من آيات عديدة في القرآن الكريم أنّ وسائل التوصل إلى العفو والمغفرة الإلهية متعددة، ويمكن تلخيصها في خمسة أمور:

١- التوبة والعودة إلى الله تعالى، المقرونة بالندم على الذنوب السابقة، والعزم على الإجتنب عن الذنب والمعصية في المستقبل، وجبران وتلافى الأعمال الطالحة السالفة بالأعمال الصالحة.

٢- الأعمال الصالحة المهمة جداً والتي تسبب العفو عن الأعمال القبيحة.

٣- الشفاعة التي مرّ شرحها عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

٤- الإجتنب عن المعاصي الكبيرة الذي يوجب العفو عن المعاصي الصغيرة كما مرّ شرحها عند تفسير الآيتين (٣١ و ٣٢) من هذه السورة.

٥- العفو الإلهي الذي يشمل الأشخاص اللاتقين له.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ يَلِي اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)

سبب التزول

روى أنّ اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم اموراً وامتيازات، فهم - كما نرى ذلك في آيات القرآن الكريم عند الحكاية عنهم -

كانوا يقولون: «نَحْنُ أَتْبُوا اللَّهَ». - الآية (١٨) من سورة المائدة- وربما قالوا: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى». - الآية (١١١) من سورة البقرة- فنزلت هذه الآيات تبطل هذه التصورات والمزاعم.

التفسير

تزكية النفس: قال تعالى في الآية الاولى من الآيتين الحاضرتين: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٨

يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» (١). وفي هذه إشارة إلى إحدى الصفات الذميمة التي قد يبتلى بها كثير من الأفراد والشعوب، إنها صفة مدح الذات وتزكية النفس، وإدعاء الفضيلة لها. ثم يقول سبحانه: «بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ». فهو وحده الذي يمدح الأشخاص ويزكيهم طبقاً لما يتوفر عندهم من مؤهلات وخصال حسنة دون زيادة أو نقصان، وعلى أساس من الحكمة والمشية البالغة، وليس اعتباطاً أو عبثاً. ولذلك فهو لا يظلم أحداً مقدار فتيل: «وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (٢).

وفي الحقيقة أن الفضيلة هي ما يعتبرها الله سبحانه فضيلة لا ما يدعيه الأشخاص لأنفسهم انطلاقاً من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم وغيرهم.

في الآية اللاحقة التفوق العنصري، ويعتبره نوعاً من الكذب على الله والإفتراف عليه سبحانه، ومعصية كبرى وذنباً بيناً إذ يقول سبحانه: «انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا». أي أنظر كيف أن هذه الجماعة بافتعالها لهذه الفضائل وإدعائها لنفسها من ناحية، ونسبتها إلى الله من ناحية أخرى، تكذب على الله، ولو لم يكن لهذه الجماعة أي ذنب إلا هذا لكفى في عقوبتهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: قيل، وهو قول أكثر المفسرين: إنَّ كعب بن الأشرف خرج مع سبعين راكباً من اليهود إلى مكة، بعد وقعة احد، ليخالفوا قريشاً على رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) «يزكون»: من مادة «تزكية» بمعنى تطهير، وتأتي أحياناً بمعنى التربية والتنمية، ففي الحقيقة إذا كانت التزكية مقترنة بالعمل فإنها تعتبر امراً محموداً، وإلا لو كانت مجرد إدعاء وكلام فارغ فهي مذمومة.

(٢) «الفتيل»: في اللغة بمعنى الخيط الدقيق الموجود بين شقى نواة التمر، ويأتي كناية عن الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً، وأصله من مادة «فتل» بمعنى البرم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٠٩

وينقضوا العهد الذي كان بينهم، وبين رسول الله، فنزل كعب على أبي سفيان، فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكرماً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. ففعل. فذلك قوله «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، ثم قال كعب: يا أهل مكة! ليحيى منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد رب البيت لنجهد على قتال محمد! ففعلوا ذلك. فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن اميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق، نحن أم محمد؟

قال كعب: اعرضوا على دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء (١) ونسقيهم الماء، ونقرى الضيف، ونفك العاني (٢)، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آباءه، وقاطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمد الحديث. فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد. فأنزل الله تعالى الآيات.

## التفسير

إن الآية الاولى من الآيتين الحاضرتين تعكس صفة اخرى من صفات اليهود الذميمة، وهي أنهم لأجل الوصول إلى أهدافهم كانوا يداهنون كل جماعة من الجماعات، حتى أنهم لكي يستقطبوا المشركين سجدوا لأصنامهم، ولهذا يقول سبحانه في هذه الآية مستغرباً: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» وهي الأصنام؟

ولكنهم لا يقتنعون بهذا، ولا يقفون عند هذا الحد، بل: «وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا».

ثم إنه سبحانه بين - في الآية الثانية - مصير أمثال هؤلاء المداهين قائلًا: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا».

إن اليهود - كما تقول هذه الآية - لم يحصلوا من مداهنتهم الفاضحة على نتيجة، بل انهزموا في النهاية، وتحققت نبوءة القرآن الكريم في شأنهم.

إن الآيات الحاضرة وإن كانت قد نزلت في شأن جماعة خاصة، ولكنها لا تختص بهم حتمًا، بل تشمل كل الأشخاص المداهين المصلحين (الانتهازيين) الذين يضخون

(١) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.

(٢) العانى: الأسير.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٠

بشخصيتهم ومكانتهم، بل وإيمانهم ومعتقداتهم في سبيل الوصول إلى مآربهم السافلة وأغراضهم الدنيئة. فإن هؤلاء أبعد ما يكونون عن رحمة الله في الدنيا والآخرة، وغالبًا مايؤول أمرهم إلى الهزيمة والفشل.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) في تفسير الآيتين السابقتين قلنا أن اليهود عمدوا - لإرضاء الوثنيين في مكة واستقطابهم - إلى الشهادة بأن وثنية قريش أفضل من توحيد المسلمين، بل وعمدوا عملياً إلى السجود أمام الأصنام، وفي هذه الآيات يبين سبحانه أن حكمهم هذا لا قيمة له لوجهين:

١- إن اليهود ليس لهم - من جهة المكانة الاجتماعية - تلك القيمة التي تؤهلهم للقضاء بين الناس والحكم في امورهم، ولم يفوض الناس إليهم حق الحكم والقضاء بينهم أبداً ليكون لهم مثل هذا العمل: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ».

هذا مضافاً إلى أنهم لا يمتلكون أية قابلية وأهلية للحكومة المادية والمعنوية على الناس، لأن روح الاستثثار قد استحکم في كيانهم بقوة إلى درجة أنهم إذا حصلوا على مثل هذه المكانة لم يعطوا لأحد حقه، بل خصوا كل شيء بأنفسهم دون غيرهم «فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» (١).

٢- إن هذه الأحكام الباطلة ناشئة من حسدهم البغيض للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته المكرمين، ولهذا تفقد أية قيمة، إنهم إذ خسروا مقام النبوة والحكومة بظلمهم وكفرهم، ولأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة وتلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد في كيانهم: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ».

ثم إن الله سبحانه يقول معقباً على هذا: ولماذا تتعجبون من إعطائنا النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم

(١) «النقير»: مشتقة من مادة النقر (وزن فقر) الدق في شيء بحيث يوجد فيه ثقباً واشتق منه المنقار، وقال بعض: النقير وقبة صغيرة جداً في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١١

ذلك المنصب الجليل وذلك المقام الرفيع، وقد أعطاكم الله سبحانه وأعطى ال إبراهيم الكتاب السماوى والعلم والحكمة والملك العريض (مثل ملك موسى وسليمان وداود) ولكنكم - مع الأسف - أسأتم خلافهم ففقدتم تلكم النعم المادية والمعنوية القيمة بسبب قسوتكم وشورركم: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا».

فى تفسير البرهان عن أبى الصباح قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ...» فقال: «يا أبا الصباح نحن [والله الناس المحسودون]».

ثم قال القرآن الكريم فى الآية اللاحقة: «فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا». أى إن من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذى نزل على آل إبراهيم، ومنهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صد الآخريين عن الإيمان وحال دون انتشاره، اولئك كفاهم نار جهنم المشتعلة عذاباً وعقوبة. وسينتهى إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) تعقيباً على الآيات السابقة شرحت هاتان الآيتان مصير المؤمنين والكافرين. فالآية الأولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا» (١).

وعلة تبادل الجلود - على الظاهر - هى أنه عندما تنضج الجلود يخف الإحساس بالألم لدى الإنسان، ولكى لا تتخفف عقوبتها وعذابها وليحس الإنسان بالألم إحساساً كاملاً، تبدل الجلود، وتأتى مكان الجلود الناضجة جلود جديدة، وما هذا إلا نتيجة الإصرار على تجاهل الأوامر الإلهية، ومخالفة الحق والعدل، والإعراض عن طاعة الله.

(١) «نصليهم»: من مادة «الصلى» بمعنى الإلقاء فى النار، والإشتواء بالنار، أو التدفؤ بالنار و «نضجت»: من مادة «نضج» بمعنى أدركت شيها و صارت مشوية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٢

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا». أى إنه قادر بعزته أن يوقع هذه العقوبات بالعصاء، وأنه لا يفعل ذلك اعتباراً، بل عن حكمه وعلى أساس الجزاء على المعصية.

ثم يقول سبحانه فى الآية الثانية: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا» (١).

أى: إننا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن ندخلهم جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار والسواقي يعيشون فيها حياة خالدة، هذا مضافاً إلى ما يعطون من أزواج مطهرات يستريحون إليهن، ويجدون فى كنفهن لذة الروح والجسد، وينعمون تحت ظلال خالدة بدل الظلال الزائلة، لا تؤذيهم الرياح اللافحة كما لا يؤذيهم الزمهرير أبداً.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: إن هذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وآله برد مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة حين قبض منه المفتاح يوم فتح كعبة وأراد أن يدفعه إلى العباس، لتكون له الحجابة والسقاية. (والظاهر أن العباس أراد أن يستفيد من نفوذ ومكانة ابن أخيه الاجتماعية والسياسية لمصلحته الشخصية) ولكن النبي صلى الله عليه وآله فعل خلاف ذلك، فإنه بعد ما طهر الكعبة من الأصنام

والأوثان، أمر علياً عليه السلام أن يرّد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ففعل ذلك وهو يتلو الآية المبحوثة.

التفسير

الآية الحاضرة تتضمن حكماً عاماً وشاملاً للجميع، فهي تقول بصراحة: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا». إنَّ للأمانة معنى واسعاً يشمل كل شيء مادي ومعنوي، ويجب على كل مسلم - بصريح

(١) «الظليل»: من مادة «الظل» بمعنى الفىء، واستعمل هنا للتأكيد، لأنَّ معناه الظل المظلل أو الظل الظليل وهو كناية عن غاية الراحة والدفء والرفاه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٣

هذه الآية - أن لا يخون أحداً في أمانة دون استثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسلماً أو غير مسلم، وهذا هو إحدى المواد في «الميثاق الاسلامي لحقوق الإنسان» التي يتساوى تجاهها كل أفراد البشر.

ثم إنَّه سبحانه يشير - في القسم الثاني من الآية - إلى قانون مهم آخر، وهو مسألة «العدالة في الحكومة» فيقول: «وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». أى إنَّ الله يوصيكم أيضاً أن تلتزموا جانب العدالة في القضاء والحكم بين الناس، فتحكموا بعدل. ثم قال سبحانه تأكيداً لهذين التعليمين: «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ».

ثم يقول مؤكداً ذلك أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» فهو يراقب أعمالكم وهو يسمع أحاديثكم ويرى أفعالكم.

إنَّ الأمانة لا تنحصر في الأموال التي يودعها الناس - بعضهم عند بعض - بل العلماء في المجتمع هم أيضاً مستأمنون يجب عليهم أن لا يكتسبوا الحقائق، بل حتى أبناء الإنسان وأولاده أمانات إلهية لدى الآباء والامهات فلا يفرطوا في تربيتهم، ولا يقصروا في تأديبهم وتعليمهم، وإلما كان ذلك خيانة في الأمانة الإلهية التي أمر الله بأدائها، بل وفوق ذلك كله الوجود الإنساني، فهو جميع الطاقات المددوعة فيه «أمانات الله» التي يجب على الإنسان أن يجتهد في المحافظة عليها، كما عليه أن يحافظ على صحته جسمه وسلامه روحه.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه: «اعلم أنَّ ضارب على بالسيف وقتاله لو ائتمنى واستصحبني واستشارني ثم قبلت ذلك منه لأدبت إليه الأمانة».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) هذه الآية وبعض الآيات اللاحقة تبحث عن واحدة من أهم المسائل الإسلامية، ألا وهي مسألة القيادة، وتعيين القادة والمراجع الحقيقيين للمسلمين في مختلف المسائل الدينية والاجتماعية. فهي تأمر المؤمنين - أولاً - بأن يطيعوا الله، ومن البديهي أنه يجب أن تنتهي جميع الطاعات - عند الفرد المؤمن - إلى طاعة الله سبحانه، وكل قيادة وولاية يجب أن تنبع من ولاية الله سبحانه وذاته المقدسة تعالى وتكون حسب أمره ومشيئته، لأنَّه الحاكم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٤

والمالك التكويني لهذا العالم، وكل حاكمية ومالكية يجب أن تكون بإذنه وبأمره: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ». وفي المرحلة الثانية تأمر باتِّباع النبي صلى الله عليه وآله وإطاعته، وهو النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ولا ينطق من الأنا، والنبي الذي هو خليفة الله بين الناس، وكلامه كلام الله، وقد أعطى هذا المقام من جانب الله سبحانه.

وفي المرحلة الثالثة يأمر سبحانه بإطاعة أولى الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامي، والذين يحفظون للناس أمر دينهم ودنياهم. من هم أولوا الأمر؟ ذهب جميع مفسري الشيعة بالاتفاق إلى أن المراد من «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون عليهم السلام الذين انيطت إليهم قيادة الأمة الإسلامية المادية والمعنوية في جميع حقول الحياة من جانب الله سبحانه والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولا



تشمل غيرهم، اللهم إلاً الذي يتقلد منصباً من قبلهم، ويتولى أمراً في إدارة المجتمع الإسلامي من جانبهم - فإنه يجب طاعته أيضاً إذا توفرت فيه شروط معينة، ولا تجب طاعته لكونه من اولي الأمر، بل لكونه نائباً لاولي الأمر ووكيلاً من قبلهم.

يقول سبحانه في ذيل الآية إلى مسألة التنازع والاختلاف بين المسلمين إذ قال: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا». والمراد من الاختلاف والتنازع في العبارة الحاضرة هو الاختلاف والتنازع في الأحكام، لا في المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الإسلامية، لأنه في هذه المسائل يجب إطاعة اولي الأمر (كما صرح بذلك في الجملة الاولى من الآية المبحوثة هنا).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة. فقال اليهودي أحاكم إلى محمد؛ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة ولا يجور في الحكم. فقال المنافق: لا بل بيني وبينك كعب بن الأشرف؛ لأنه علم أنه يأخذ الرشوة، فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٥

التفسير

الآية الحاضرة مكمله للآية السابقة، لأن الآية السابقة كانت تدعو المؤمنين إلى طاعة الله والرسول واولي الأمر والتحاكم إلى الكتاب والسنة، وهذه الآية تنهى عن التحاكم إلى الطاغوت واتباع أمره وحكمه وتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ».

ثم يضيف القرآن قائلاً: «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا». أي إن التحاكم إلى الطاغوت فحّ الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يُصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تُمْ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) نتائج حكم الطاغوت: في أعقاب النهي الشديد عن التحاكم إلى الطاغوت وحكام الجور الذي مر في الآية السابقة جاءت هذه الآيات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام والأقضية، وما يتمسك به المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطواغيت وحكام الجور والباطل.

ففي الآية الاولى يقول سبحانه: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يُصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا».

إن الإصرار على هذا العمل يكشف عن ضعف إيمانهم وروح النفاق فيهم، وإلما لوجب أن ينتهوا ويشوبوا إلى رشدهم على دعوة رسول الكريم صلى الله عليه وآله لهم ويعترفوا بخطأهم.

ثم في الآية الثانية يبين هذه الحقيقة، وهي أن هؤلاء المنافقين عندما يتورطون في مصيبة كنتيجة لمواقفهم وأعمالهم، ويواجهون طريقاً مسدودة يعودون إليك عن اضطرار ويأس:

«فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تُمْ جَاءُوكَ».

ويخلفون في هذه الحالة أن هدفهم من التحاكم إلى الآخرين لم يكن إلا الإحسان والتوصل إلى الوفاق بين طرفي الدعوى: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٦

ولكن كشف سبحانه في الآية الثالثة النقاب عن وجههم، وأبطل هذه التبريرات الكاذبة وقال: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ».

ولكنه سبحانه يأمر نبيه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم وعقوبتهم فيقول: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ».

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يدارى المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنه كان مأموراً بالتعامل معهم على حسب ظواهرهم، فلم يكن يجازيهم إلّا في بعض الموارد الاستثنائية.

ثم إنّه سبحانه يأمر النبي أن يعظهم، وأن ينفذ إلى قلوبهم بالقول البالغ، والعظة المؤثرة، يذكرهم بنتائج أعمالهم: «وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا».

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْتَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) في الآيات السابقة شجب القرآن الكريم التحاكم إلى حكام الجور، وفي هذه الآية يقول سبحانه مؤكداً: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ». أى أننا بعثنا الأنبياء ليطاعوا بإذن الله وأمره ولا يخالفهم أحد، لأنهم كانوا رسل الله وسفراءه كما كانوا رؤساء الحكومة الإلهية أيضاً، وعلى هذا يجب على الناس أن يطيعوهم من جهة بيان أحكام الله ومن جهة طريقة تطبيقها، ولا يكتفوا بمجرد ادعاء الإيمان.

يستفاد من عبارة «بِإِذْنِ اللَّهِ» أن كل ما عند الأنبياء من الله.

ثم إنّه سبحانه يترك باب التوبة والإنابة- عقيب تلك الآية- مفتوحاً على العصاة والمذنبين، وعلى الذين يراجعون الطواغيت ويتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصية بنحو من الأنحاء، ويقول: «وَلَوْ أَنْتَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا».

إشارة إلى أن فائدة الطاعة لأمر الله وأمر الرسول تعود إليكم أنفسكم، وإن مخالفة ذلك نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم، لأنها تحطّم حياتكم المادية، وتوجب تخلفكم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٧

وانحطاطكم من الناحية المعنوية.

إنّ هذه الآية تجيب ضمناً على كل الذين يعتبرون التوسل برسول الله أو بالإمام نوعاً من الشرك، لأنّ الآية تصرح بأنّ التوسل بالنبي والاستشفاع به إلى الله، وطلب الاستغفار منه لمغفرة المعاصي، مؤثر وموجب لقبول التوبة وشمول الرحمة الإلهية.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في الزبير ورجل من الأنصار، خاصمه إلى النبي صلى الله عليه وآله في شراج من الحرّة «١»، كانا يسقيان بها النخل كلاهما فقال النبي للزبير: أسق ثم أرسل إلى جارك فغضب الإنصارى وقال: يا رسول الله لئن كان ابن عمّتك! فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال للزبير: أسق يا زبير، ثم إحبس الماء، حتى يرجع إلى الخيبر واستوف حصّك ثم أرسل إلى جارك. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله أشار إلى الزبير برأى فيه السعة له ولخصمه. فلما أحفظ رسول الله، استوعب للزبير حقّه من صريح الحكم.

التفسير

هذه الآية تكميلاً لما جاء من البحث في الآيات السابقة، ولقد أقسم الله- في هذه الآية- بأنّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيماناً واقعياً إلّا إذا تحاكموا إلى النبي وقضائه، ولم يتحاكموا إلى غيره «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ».

ثم يقول سبحانه: يجب عليهم، أن يتحاكموا إليك فقط، ومضافاً إلى ذلك ليرضوا بما تحكمه، سواءً كان في صالحهم أو في ضررهم ولا يشعروا بأى حرج في نفوسهم فضلاً عن أن لا يعترضوا، وبالتالي ليسلموا تسليماً.

«ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

يستفاد من الآية الحاضرة مطلبان مهمان - ضمناً:

(١) الشراج جمع الشرجة: وهى مسيل الماء من الحرة إلى السهل. الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود، كأنها احترقت بالنار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٨

١- إن الآية إحدى الأدلة على عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لأن الأمر بالتسليم المطلق أمام جميع أحكامه وأوامره قولاً وعملاً، دليل واضح على أنه صلى الله عليه وآله لا يخطئ في أحكامه وأقضيته وتعليماته، ولا يتعمد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضاً.

٢- إن الآية الحاضرة تبطل كل اجتهاد فى مقابل النص الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله وتنفي شرعية كل رأى شخصى فى الموارد التى وصلت إلينا فيها أحكام صريحة من جانب الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وآله.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا (٦٦) وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) تكميلاً للبحث السابق حول اولئك الذين يشعرون بضيق وحرَج تجاه أحكام النبي صلى الله عليه وآله وأقضيته العادلة بعض الأحيان - يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف والفرائض الثقيلة فى الامم السالفة فيقول: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ». أى إننا لم نكلفهم بأية فريضة شاقه لا تتحمل، ولو أننا كنا نكلفهم بمثل ما كلفنا به الامم السابقة (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كفارة لما ارتكبه من عبادة العجل، أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟

إنهم لم يتحملوا حكماً بسيطاً أصدره النبي فى أمر سقى نخلات، ولم يسلموا لهذا القضاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمة والمسؤوليات الجسيمة ويمروا بالاختبارات الصعبة بنجاح، فلو أننا أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم (أى يقتل بعضهم بعضاً) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلا قليل منهم.

ثم إن الله سبحانه يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا». أى لو أنهم قبلوا نصائح النبي ومواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، وكان سبباً لتقوية أسس الإيمان عندهم.

إن الله سبحانه يقول فى ختام هذه الآية: «وَأَشَدَّ تَنبِيئًا». أى كلما اجتهد الإنسان فى السير فى سبيل طاعة الله وتنفيذ أوامره ازدادت استقامته وازداد ثباته، وهذا يعنى أن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٩

إطاعة الأوامر الإلهية نوع من الرياضة الروحية التى تحصل للإنسان إلى مرحلة لا يمكن لأية قدرة أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزعه.

ثم إنه سبحانه يبين - فى الآية الثانية - الفائدة الثالثة من فوائد التسليم لأوامر الله وطاعته إذ يقول: «وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا». أى إذا لأعطيناهم - مضافاً إلى ما ذكرناه - أجراً من عندنا عظيماً، لا يعرف منتهاه ولا يدرك مداه.

ثم فى آخر آية من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتيجة إذ يقول: «وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا». والمراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد الطاف جديدة يمن بها الله سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب والهداية الثانوية. وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى ثوبان وكان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وآله قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه

ونحل جسمه فقال صلى الله عليه وآله: «يا ثوبان! ما غير لونك؟» فقال:

يا رسول الله! ما بي من مرض ولا- وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أني لا أراك هناك، لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين وإني إن أدخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة فذاك حتى لا أراك أبداً. فنزلت الآية.

ثم قال صلى الله عليه وآله: «والذي نفسى بيده لا يؤمننَّ عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين». أي: يكون مسلماً لتعاليمي وأوامري، تسليماً كاملاً.

#### التفسير

رفقاء الجنة: في هذه الآية يبين القرآن ميزة أخرى من ميزات من يطيع أوامر الله تعالى والنبي صلى الله عليه وآله ومكملة للميزات التي جاء ذكرها في الآيات السابقة، وهي صحبة الذين أتم الله نعمه عليهم ومرافقتهم: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

وكما أسلفنا في سورة الحمد فإن الذين أنعم الله عليهم هم الذين ساروا في الطريق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٠

مختصر الامثل ج ١، ص: ٤٤٩

المستقيم ولم يرتكبوا أى خطأ، ولم يكن فيهم أى انحراف. ثم يشير- لدى توضيح هذه الجملة وتحديد من أنعم الله عليهم- إلى أربع طوائف يشكلون الأركان الأربعة لهذا الموضوع وهم:

١- الأنبياء: أى رسل الله تعالى الذين كانوا طليعة السائرين في سبيل هداية الناس ودعوتهم إلى الصراط المستقيم «مَنْ النَّبِيِّينَ».

٢- الصادقون: وهم الذين يصدقون فى القول ويصدقون إيمانهم بالعمل الصالح، ويثبتون أنهم ليسوا مجرد أذعياء الإيمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر الله وتعاليمه «وَالصَّادِقِينَ».

ومن هذا التعبير يتضح أنه ليس بعد مقام النبوة أعلى من مقام الصدق، والصدق هذا لا ينحصر فى الصدق فى القول فقط، بل هو الصدق فى الفعل والعمل ... الصدق فى الممارسات والموافق، وهو لذلك يشمل الأمانة والإخلاص أيضاً، لأن الأمانة هى الصدق فى العمل كما أن الصدق أمانة فى القول.

٣- الشهداء: الذين قتلوا فى سبيل الله وفى سبيل العقيدة الإلهية الطاهرة، أو الذين يشهدون على الناس وأعمالهم فى الآخرة «وَالشُّهَدَاءِ».

٤- الصالحون: وهم الذين بلغوا بأعمالهم الصالحة والمفيدة وبتبائع الأنبياء وأوامرهم إلى مراتب عالية ومقامات رفيعة «وَالصَّالِحِينَ». ومن الواضح البين أن مسألة مرافقة الصالحين وصحبة الرفقاء الطيبين لها من الأهمية بحيث تعتبر فى الآخرة الجزء المكمل للنعم الإلهية الكبرى التى يمن الله بها على المطيعين فى الجنة، فهم علاوة على كل ما يحصلون عليه من نعم وميزات سيحظون بمرافقة رفقاء كالأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين.

ثم يبين سبحانه فى الآية اللاحقة أهمية هذا الإمتياز الكبير (أى مرافقة تلك الصفوة المختارة) إن هذه الهبة من جانب الله، وهو عليم بأحوال عباده ونواياهم ومؤهلاتهم: «ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً». فلا يخطىء فى الإثابة والجزاء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً (٧١) الحذر الدائم: «الحذر»: يعنى اليقظة والتأهب والترقب لخطر محتمل، كما يعنى أحياناً

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢١

الوسيلة التى يستعان بها لدفع الخطر. أمّا كلمة «تبات»: فتفيد معنى المجموعات المتفرقة.

والقرآن يخاطب عامة المسلمين في الآية المذكورة أعلاه، ويقدم لهم اثنتين من التعاليم اللازمة لصيانته وجود المسلمين والمجتمع الإسلامي تجاه كل خطر يهدد هذا الوجود. ففي البداية تأمر الآية المؤمنين بالتمسك باليقظة والبقاء في حالة التأهب من أجل مواجهة العدو وتحذيرهم من الغفلة عن هذا الامر: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ».

ثم تأمر الآية بالاستفادة من الأساليب والتكتيكات المختلفة في مواجهة العدو، من ذلك الزحف على شكل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شكل جيش موحد مترابط إن استدعت المواجهة هجوماً شاملاً منسجماً وفي كلتا الحالتين لابد من المواجهة الجماعية «فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَفِرُوا جَمِيعًا».

الآية الكريمة هذه تشتمل على أمر عام مطلق لجميع المسلمين في كل العصور والأزمنة، ويدعو هذا الأمر المسلمين إلى الالتزام باليقظة والاستعداد الدائم لمواجهة أى طارئ من جانب الأعداء ولحماية أمن الامة، وذلك عن طريق التحلى بالاستعداد المادى والمعنوى الدائمين.

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد والاستعداد لمقابلة العدو في الآية السابقة تبين هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، وتفصح تذبذبهم، فهم يصرون على الإمتناع عن المشاركة في صفوف المجاهدين في سبيل الله ... «وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطِئَنَّ» (١).

وحيث يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم، فإن كان قد أصابهم مكروه في قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأن الله قد أنعم عليهم نعمه كبيرة إذ لم يشاركوا المجاهدين في ذلك القتال، ويفرحون لعدم حضورهم في مشاهد الحرب الرهيبة

(١) «ليطئن»: من «البطء» في الحركة، وهو فعل لازم ومتعد. أى أنهم يبطؤون في حركتهم ويدعون الآخرين إلى البطء، ولعل استعمال الفعل في باب التفعيل هنا يعنى أنه متعد فقط، أى إنهم يدفعون أنفسهم إلى البطء تارةً ويدفعون الآخرين إلى ذلك تارةً اخرى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٢

«فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا». وحين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين ونيلمهم المغنم، يتبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسرة عليهم ويظهر الندم على وجوههم، ويشرعون- وكأنهم غرباء لا تربطهم بالمسلمين أية رابطة- بترديد عبارات التأسف: «وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا».

فالذى يرى الشهادة والقتل في سبيل الله مصيبةً وبلاءً، ويخال النجاة من القتل أو الشهادة في هذه السبيل نعمه إلهية، لا ينظر إلى النصر والفوز إلا من خلال منظار كسب الغنائم والمتاع المادى لا غير.

فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) إعداد المؤمنين للجهاد: بعد أن أوضحت الآية السابقة إحجام المنافقين عن مشاركة المجاهدين في القتال تتوجه الآية (٧٤) والتي تليها- بلغة مشجعة مشوقة- إلى المؤمنين فتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله. وتوضح الآية في بدايتها أن أعباء الجهاد يجب أن تكون على عاتق اولئك النفر الذين باعوا حياتهم الدنيوية المادية الزائلة، مقابل فوزهم بالحياة الاخروية الخالدة: «فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ». أى أن المجاهدون الحقيقيون هم وحدهم المستعدون للدخول في هذه الصنفقة.

وتستمر الآية مبينة أن مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياة الدنيا بالآخرة واضح لا يخرج عن حالتين: إما النصر على الاعداء، أو الشهادة في سبيل الله، وهم في كلتا الحالتين ينالون الأجر والثواب العظيم من الله تعالى: «وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». وبديهي أن جنوداً كهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمة، فهم يرون النصر إلى جانبهم في الحالتين. وَمَا لَكُمْ لَأْتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٣

الإستعانة بالعواطف والمشاعر الإنسانية: كانت الآية السابقة تطالب المؤمنين بالجهاد معتمدة على إيمانهم بالله واليوم الآخر، وقد اعتمدت أيضاً قضية الربح والخسارة في سياق دعوتها إلى الجهاد، أما هذه الآية فتستند في دعوتها الجهادية إلى العواطف والمشاعر الإنسانية وتستثيرها في هذا الإتجاه- فهي تخاطب مشاعر المؤمنين وعواطفهم بعرض ما يتحملة الرجال والنساء والأطفال المضطهدون من عذاب وظلم بين مخالبا الطغاة الجبارين، وتطالب المؤمنين- مستثيرة عواطفهم في هذا الإتجاه- عن طريق عرض المشاهد المأساوية التي يعاني منها المستضعفون وتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآية: «وَمَا لَكُمْ لَأْتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» (١).

ولأجل إثارة المشاعر أكثر، تتبته الآية المؤمنين بأن المستضعفين المذكورين لكثرة معاناتهم من البطش والارهاب والاضطهاد قد انقطع أملهم في النجاة ويسوا من كل عون خارجي، فأخذوا يدعون الله لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش والرعب والظلم الفاحش: «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا».

ويطلب المستضعفون من الله- أيضاً- أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم وينجيهم من الظالمين بقولهم: «وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا».

الآية تشير إلى أن الله قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرسالة الإنسانية الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيها المسلمون المخاطبون. الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) لقد أوضحت الآيات السابقة قضية الجهاد، وأبرزت عناصره والمخاطبين به ودوافعه، وفي هذه الآية نلاحظ أنها تحت المجاهدين على القتال، وتبين أهدافهم، مؤكدة أنهم يقاتلون في سبيل الله ولمصلحة عباد الله، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت المتجبر: «الَّذِينَ

(١) إن الفرق بين المستضعف والضعيف واضح وجلي، فالضعيف هو من كان معدوم القدرة والقوة، والمستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم وجور الآخرين، سواء كان الاستضعاف فكرياً أم ثقافياً أم كان أخلاقياً أو اقتصادياً أم سياسياً أم اجتماعياً، فالعبارة هنا جامعته شاملة تستوعب جميع أنواع الاستضعاف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٤

ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ». أي إن الحياة في كل الأحوال لا تخلو من الكفاح والصراع، غير أن جمعاً يقاتلون في طريق الحق، وجمعاً يقاتلون في طريق الشيطان والباطل. لذلك تطلب الآية من أنصار الحق أن ينبروا لقتال أنصار الشيطان دونما رهبة وخوف:

«فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ».

كما توضح هذه الآية حقيقة مهمة، هي أن الطاغوت والقوى المتجبرة- مهما إمتلكت من قوة ظاهرية- ضعيفة في نفسها وجبانة في باطنها، وبهذا تطمئن الآية المؤمنين كي لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت، ولأنهم لا يعتمدون على منشأ القدرة الأزلية الأبدية الذي هو الله العزيز القدير، بل يعتمدون على قدرة الشيطان الضعيفة الجوفاء: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا».

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ

أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلًا (٧٧)

سبب النزول

في الدر المنثور عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة فقال: إني امرت بالعبء فلا تقاتلوا القوم فلما حوله الله إلى المدينة أمره الله بالقتال فكفوا فأنزل الله الآية. التفسير

قوم بضاعتهم الكلام دون العمل: تتحدث الآية بلغة التعجب من أمر نفر أظهروا رغبة شديدة في الجهاد خلال ظرف غير مناسب، وأصروا على السماح لهم بذلك، وقد صدرت الأوامر لهم - حينئذ - بالصبر والاحتمال، ودعوا إلى إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وبعد أن سنحت الفرصة وآتت الظروف للجهاد بصورة كاملة وأمروا به، استولى على هؤلاء نفر الخوف والرعب، وانبروا يعترضون على الأمر الإلهي ويتهاونون في أدائه. تقول الآية: «ألم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٥

تَرِ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً. فكان هؤلاء في اعتراضهم على أمر الجهاد يقولون صراحة: لماذا أسرع الله في إنزال أمر الجهاد؟ ويتمنون لو أصر الله هذا الأمر ولو قليلاً! أو يطلبون أن يناط أمر الجهاد للأجيال القادمة «١» «وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ». والقرآن الكريم يرد على هؤلاء أولاً من خلال عبارة: «يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً». أي أن هؤلاء بدل أن يخافوا الله القادر القهار، أخذتهم الرجفة واستولى عليهم الرعب من إنسان ضعيف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا الإنسان أكبر من خشيتهم الله العلي القدير.

ثم يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقة: لو أنهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفروا لأنفسهم - فرضاً - حياة قصيرة رغيدة هائلة، فإنهم سيخسرون هذه الحياة لأنها زائلة لا محالة، بينما الحياة الأبدية التي وعد الله بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه ولا يخشون سواه، هي خير من تلك الحياة الزائلة، وإن المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملاً غير منقوص دون أن يصيبهم أي ظلم، «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلًا».

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسِلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) إِنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تَقْصِدَانِ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ تَسَلَّلُوا إِلَىٰ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ، أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَبَدُوا الْخَوْفَ وَالْقَلْقَ مِنَ الْمَشَارِكَةِ فِي مَسْئُولِيَةِ الْجِهَادِ، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِمُ الضَّجْرُ وَالِاسْتِيَاءُ حِينَ نَزُولِ حُكْمِ الْجِهَادِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ - فِي الْآيَةِ (٧٧) مِنْ نَفْسِ السُّورَةِ -

(١) تدل بعض الأحاديث أن هذا نفر من المسلمين كان قد سمع بحديث نهضة المهدي المنتظر، فكان البعض منهم يترقب أن يؤخر الجهاد إلى زمن المهدي عليه السلام. (تفسير نور الثقلين ١/ ٥١٨).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٦

وأنبهم لموقفهم هذا بقوله: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ». وفي هذا المقطع القرآني رد آخر على اولئك المنافقين، حيث بين أن الموت آتيهم يوماً لا محالة، حتى إذا تحصنوا في قلاع عالية ومنيعه بحسب ظنهم، ومادام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على طريق مثمر وصحيح كالجهاد؟!

يشير القرآن فى هاتين الآيتين إلى وهم آخر من أوهام المنافقين، حين يوضح أن هؤلاء إذا أحرزوا نصراً أو غنموا خيراً قالوا: إن الله هو الذى أنعم عليهم بذلك، وزعموا أنهم أهل لهذه النعمة: «وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». أمّا إذا منى هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى فى ميدان القتال، ألقوا اللوم على النبى صلى الله عليه وآله وافتروا عليه بقولهم إن ما نالهم من سوء هو من عنده، متهمين خططه العسكرية بالضعف، من ذلك ما حدث فى غزوة احد. تقول الآية: «وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ».

إن القرآن الكريم يرد على هؤلاء مؤكداً إن الإنسان المسلم الموحد الذى يؤمن صادقاً بالله ويعبده ولا يعبد سواه، إنما يعتقد بأن كل الوقائع والأحداث والإنتصارات والهزائم هى بيد الله العليم الحكيم، فالله هو الذى يهب الإنسان ما يستحقه ويعطيه بحسب قيمته الوجودية، وفى هذا المجال تقول الآية: «قُلْ كُلُّ مَنُّ عِنْدِ اللَّهِ».

والآية - هذه - تحمل فى آخرها تقيعاً وتأنيباً للمنافقين الذين لا يتفكرون ولا يمعنون فى حقائق الحياة المختلفة، حيث تقول: «فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيَكَادُونَ بِفَقْهُونَ حَدِيثًا».

وبعد هذا - فى الآية التالية - يصرح القرآن بأن كل ما يصيب الإنسان من خيرات وفوائد وكل ما يواجهه الكائن البشرى من سرور وإنتصار هو من عند الله، وإن ما يحصل للإنسان من سوء وضرر وهزيمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه. تقول الآية: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ».

وترد الآية فى آخرها على اولئك الذين كانوا يرون وجود النبى صلى الله عليه وآله سبباً لوقوع الحوادث المؤسفة فيما بينهم فتقول: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

وحيث تنسب الآية الاولى الخير والشر كله لله، فإن ذلك معناه أن مصادر القوة جميعها بيد الله العليم القدير حتى تلك القوة التى يساء استخدامها، ومن هذا المنطلق تنسب الخير والشر لله، لأنه هو واهب القوى. والآية الثانية: تنسب «السيئات» إلى الناس إنطلاقاً من مفهوم «الجوانب السلبية» للقضية ومن الإساءة فى استخدام المواهب الإلهية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٧

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعِيَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) سنه النبى صلى الله عليه وآله بمنزلة الوحي: توضح الآية الاولى موضع النبى صلى الله عليه وآله من الناس وحسناتهم وسيئاتهم وتؤكد أولاً بأن إطاعة النبى صلى الله عليه وآله هى طاعة لله: «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ». أى لا انفصال بين طاعة الله وطاعة الرسول.

ثم تبين أن النبى صلى الله عليه وآله ليس مسؤولاً عن الذين يتجاهلون ويخالفون أوامره، كما أنه ليس مكلفاً بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إن مسؤولية النبى صلى الله عليه وآله هى الدعوة للرسالة الإلهية التى بعث بها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإرشاد الضالين والغافلين. تقول الآية: «وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا».

فعبارة «حفيظ» تعنى الذى يراقب ويحافظ بصورة دائمة مستمرة، ويستدل من الآية على أن واجب النبى صلى الله عليه وآله هو قيادة الناس وهدايتهم وإرشادهم.

والأمر المهم الآخر فى هذه الآية هو أنها واحدة من أكثر آيات القرآن دلالة على حجية السنه النبوية الشريفة.

أمّا الآية الثانية فيها إشارة إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النبى صلى الله عليه وآله والمسلمين بأنهم مع الجماعة، ويظهرون الطاعة للرسول صلى الله عليه وآله وليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم وليحموا مصالحهم الخاصة، بدعوى الإخلاص والطاعة للنبى صلى الله عليه وآله: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ».

وبعد أن ينصرف الناس من عند النبى صلى الله عليه وآله ويختلى هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم فى إطاعة النبى ويتآمرون فى



ندواتهم الخاصة- السرية الليلية- على أقوال النبي: «فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ».

ولكن الله يأمر نبيه بأن لا- يلتفت إلى مكائد هؤلاء، وأن لا يخافهم ولا يخشى خططهم وأن يتجنب الاعتماد عليهم في مشاريعه، بل يتوكل على الله الذي هو خير ناصر ومعين:

«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٨

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) خَلَوَ الْقُرْآنُ مِنْ الْإِخْتِلَافِ دَلِيلٌ حَى عَلَى إِعْجَازِهِ: هذه الآية تخاطب المنافقين وسائر الذين يرتابون من حقيقة القرآن المجيد، وتطلب منهم- بصيغة السؤال- أن يحققوا في خصائص القرآن ليعرفوا بأنفسهم أن القرآن وحى منزل، ولو لم يكن كذلك لكثير فيه التناقص والاختلاف، وإذا تحقق لديهم عدم وجود الاختلاف، فعليهم أن يدعوا أنه وحى من الله تعالى.

ونستدل من هذه الآية إن الناس مكلفون بالبحث والتحقيق في اصول الدين والمسائل المشابهة لها، مثل صدق دعوى النبي صلى الله عليه وآله وحقانية القرآن، وأن يتجنبوا التقليد والمحاكاة في مثل هذه الحالات.

والقرآن قابل للفهم والإدراك للجميع ولو كان على غير هذه الصورة لما أمر الله بالتدبر فيه.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَتَمَجَّعْتُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) نشر الإشاعات: تشير هذه الآية إلى حركة منحرفة اخرى من حركات المنافقين أو ضعاف الإيمان، تتمثل في سعيهم إلى تلقف أى نبأ عن إنتصار المسلمين أو هزيمتهم، وبته بين الناس فى كل مكان، دون التحقيق والتدقيق فى أصل هذا النبأ أو التأكد من مصدره، وكان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعة عمد أعداء المسلمين إلى بثها لتحقيق أهدافهم الدنيئة وليسيؤوا إلى معنويات المسلمين ويضروا بهم، «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِهِ».

بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصلوا هذه الأخبار إلى قادتهم كى يستفيدوا من معلومات هؤلاء القادة وفكرهم ولكى يتجنبوا دفع المسلمين إلى حالة من الغرور حيال انتصارات خيالية وهمية، أو إلى إضعاف معنوياتهم بإشاعة أنباء عن هزيمة لا حقيقة لها

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢٩

«وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ».

«يستنبطونه»: من مادة «نبط» التى تعنى أول ما يستخرج من ماء البئر أو الينوع، والاستنباط استخراج الحقيقة من الأدلة والشواهد والوثائق، سواء كانت العملية فى الفقه أو الفلسفة أو السياسة أو سائر العلوم.

وتؤكد الآية فى ختامها على أن الله قد صان المسلمين بفضله ولطفه وكرمه من آثار إشاعات المنافقين والمغرضين وضعاف الإيمان، وأنقذهم من نتائجها وعواقبها الوخيمة، ولولا- الإنقاذ الإلهى ما نجى من الإنزلاق فى خط الشيطان إلاً قليلاً: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَتَمَجَّعْتُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا». أى إن النبي وأصحاب الرأى والعلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات ومشيعيها، أما أكثرية المجتمع فلا بد لها من القيادة السليمة لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات ونشرها.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: إن أباً سفيان لما رجع إلى مكة يوم احد، واعد رسول الله موسم بدر الصغرى وهو سوق تقوم فى ذى القعدة فلما بلغ النبي الميعاد قال للناس: «اخرجوا إلى الميعاد». فتأقلاو وكرهوا ذلك كراهة شديدة أو بعضهم. فأنزل الله هذه الآية، فحرض النبي المؤمنين، فتأقلاو عنه ولم يخرجوا. فخرج رسول الله فى سبعين راكباً حتى أتى موسم بدر، فكفاهم الله بأس العدو، ولم يوافهم أبو سفيان ولم يكن قتال يومئذ، وانصرف رسول الله بمن معه سالمين.

## التفسير

بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتي هذه الآية لتعطي أمراً جديداً وخطيراً إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأنه مكلف بمواجهة الأعداء وجهادهم حتى لو بقي وحيداً ولم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنه صلى الله عليه وآله مسؤول عن أداء واجبه هو، وليس عليه مسؤولية بالنسبة للآخرين سوى التشويق والتحريض والدعوة إلى الجهاد: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ».

الآية تشتمل على حكم اجتماعي مهم يخص القادة، ويدعوهم إلى التزام الرأي الحازم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٠

والعمل الجاد في طريقهم ومسيرتهم نحو الهدف المقدس الذي يعملون ويدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأن استمرار الدعوة غير مشروط باستجابة الآخرين لها، وأي قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوة خاصة القادة الإلهيون الذين يعتمدون على الله ... مصدر كل قدرة وقوة في عالم الوجود، وهو سبحانه أقوى من كل ما يدبره الأعداء من دسائس ومكائد بوجه الدعوة، لذلك تقول الآية: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكِيلًا» (١).

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِبًا (٨٥) عواقب التحريض على الخير أو الشر: لقد أشير في الآية السابقة إلى أن كل إنسان مسؤول عن عمله و عما هو مكلف بأدائه، ولا يسأل أى إنسان عن أفعال الآخرين. أما هذه الآية فقد جاءت لكي تسد الطريق أمام كل فهم خاطيء للآية السابقة، فبينت أن الإنسان إذا حرض الغير على فعل الخير أو فعل الشر فينال نصيباً من ذلك الخير أو الشر: «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» (٢).

وهذا بحد ذاته - حث على دعوة الآخرين إلى فعل الخير والتزام جانب الحق، ونهى الغير عن فعل الشر، كما تبين هذه الآية اهتمام القرآن بنشر الروح الاجتماعية لدى المسلمين، ودعوتهم إلى نبذ الأنانية أو الإنطوائية، وإلى عدم تجاهل الآخرين، وذلك من خلال التواصي بالخير والحق والتحذير من الشر والباطل.

وبناء على هذه النظرة الإسلامية، فإن مرتكبي الذنب ليسوا هم وحدهم مذنبين، بل يشترك في الذنب معهم كل الذين شجعوا المرتكبين على ذنبهم، عن طريق وسائل الإعلام

(١) «البأس» و «البأساء»: بمعنى الشدة والقهر والغلبة. «التنكيل»: من نكل في الشيء، أى ضعف وعجز، و «النكل» قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين؛ و «التنكيل» أداء عمل يردع مشاهده عن الذنب وهو العقاب الذى ينزل بالظالمين فيردعهم ويردع من يتعض بمصيرهم.

(٢) «الكفل»: هو عجز الحيوان ومؤخرته التى يصعب ركوبها ويشق، من هنا فكّل ذنب وحصه رديئه كفل، والكفالة كل عمل ينطوى على تعب وعناء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣١

المختلفة أو إعداد الأجراء المساعدة، بل حتى عن طريق إطلاق كلمه صغيرة مشجعه وهكذا الذين يقومون بمثل هذه الأعمال على طريق الخيرات ينالون سهمهم من نتائجها. والآية - هذه - تؤكد أيضاً حقيقة ثابتة اخرى، وهى أن الله قادر على مراقبة الإنسان وتدوين ما يقوم به من أعمال، ثم محاسبته عليها، واثابته على خيرها، ومعاقبته على شرها «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِبًا».

وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّتِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) دعوة إلى مقابلة الود بالود: هذه الآية تأمر

المسلمين بمقابلته مشاعر الحب بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآية: «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا».

«التحية»: مشتقة من «الحياة» وتعني الدعاء ل دوام حياة الآخرين، ومهما تنوعت صيغ التحية بين مختلف الأقسام تكون صيغة «السلام» المصداق الأوضح من كل تلك الأنواع، ولكن بعض الروايات والتفاسير تفيد أن مفهوم التحية يشمل - أيضاً - التعامل الودى العملى بين الناس.

وهكذا يتضح لنا أن الآية هى حكم عام يشمل الرد على كل أنواع مشاعر الودّ والمحبة سواء كانت بالقول أو بالعمل - وتبين الآية فى آخرها أن الله يعلم كل شىء، حتى أنواع التحية والسلام والردّ المناسب لها، وأنه لا يخفى عليه شىء أبداً، حيث تقول: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا».

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) جاءت هذه الآية مكملته لما سبقتها ومقدمه لما تليها من آيات، فالآية السابقة بعد أن أمرت بردّ التحية قالت: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا». والآية موضوع البحث تشير إلى قضية غيبية مهمة هى قضية يوم البعث والحساب، حيث محكمه العدل الإلهية العامة للبشر أجمعين وتقرنها بمسألة التوحيد الذى هو ركن آخر من أركان الإيمان «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٢

هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ». وعبارة «لِيَجْمَعَنَّكُمْ» تدل على الشمولية لكل البشر من أولهم حتى آخرهم، حيث سيجمعون «كلهم» فى يوم واحد هو يوم الحشر والقيامة.

وعبارة «لَا رَيْبَ فِيهِ» الواردة فى الآية وفى آيات اخرى، إنما هى إشارة إلى الأدلة القطعية البديهية على وقوع يوم القيامة، مثل دليل «قانون التكامل» و «حكمة الخلق» و «قانون العدل الإلهي» المذكورة بالتفصيل فى مبحث المعاد.

وتؤكد الآية فى نهايتها على حقيقة أن الله هو أصدق الصادقين: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا». من هنا لا يجوز أن يساور أحد الشك فيما يعد به الله من بعث ونشور وغيره من الوعود.

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أ تَرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) سبب النزول

صاحب تفسير مجمع البيان قال: اختلفوا فىمن نزلت هذه الآية فيه. فقيل: نزلت فى قوم قدموا المدينة من مكة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا إلى مكة لأنهم استوخموا المدينة فأظهروا الشرك ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا فقال بعضهم: لا نفعل فإنهم مؤمنون. وقال آخرون: إنهم مشركون. فأنزل الله فيهم الآية. قال: وهو المروى عن أبى جعفر عليه السلام.

التفسير

هذه الآية تخاطب فى البداية المسلمين وتلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئة تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين، حيث تقول: «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ». وتنهى المسلمين عن الإختلاف فى أمر نفر أبوا أن يهاجروا معهم، وتعاونوا مع المشركين.

وتبين الآية بعد ذلك: إن الله قد سلب من هؤلاء المنافقين كل فرصة للنجاح، وحرهم من لطفه وعنايته بسبب ما اقترفوه وإن الله قد قلب تصورات هؤلاء بصورة تامه فأصبحوا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٣

كمن يقف على رأسه بدل رجليه: «وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا» (١).

وفى الختام تخاطب الآية اولئك البسطاء من المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم وأصبحوا يدافعون لسذاجتهم عن المنافقين، فتؤكد

لهم أن هداية من حرمه الله من لطفه ورحمته بسبب أفعاله الخبيثة الشنيعة أمر لا يمكن تحقيقه، لأن الله قد كتب على هؤلاء المنافقين ما يستحقونه من عذاب وضلال وحرمان من الهداية والنجاة «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا». إذ أن عمل كل شخص لا ينفصل عنه ... وهذه سنة إلهية ... فكيف يؤمل في هداية أفراد امتلأت أفكارهم وقلوبهم بالنفاق، واتجهت أعمالهم إلى حماية أعداء الله؟! إنه أمل لا يقوم على دليل.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَمَّا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا (٨٩) لقد تحدثت الآية السابقة عن المنافقين الذين كانوا يحظون بحماية نفر من المسلمين البسطاء وشفاعتهم، وأوضحت أن هؤلاء المنافقين غرباء عن الإسلام، وهذه الآية تبين أن المنافقين لفرط انحرافهم وضلاتهم يعجبهم أن يجروا المسلمين إلى الكفر كي لا يظنوا وحدهم كافرين: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً».

ولهذا السبب فإن المنافقين أسوأ من الكفار، لأن الكافر لا يحاول سلب معتقدات الآخرين، والمنافقون يفعلون هذا الشيء ويسعون دائماً لإفساد المعتقدات، وهم بطبعهم هذا لا يلبقون بصحبة المسلمين أبداً، تقول الآية الكريمة: «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ». إلا إذا غيروا ما في أنفسهم من شر، وتخلوا عن كفرهم ونفاقهم وأعمالهم التخريبية.

ولكى يثبتوا حصول هذا التغيير، ويثبتوا صدقهم فيه، عليهم أن يبادروا إلى الهجرة من

(١) «أركسهم»: من ركس وهو قلب الشيء على رأسه، وتأتي أيضاً بمعنى ردّ أول الشيء إلى آخره.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٤

مركز الكفر والنفاق إلى دار الإسلام (أى يهاجروا من مكة إلى المدينة) فتقول الآية: «حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أما إذا رفضوا الهجرة فليعلم المسلمون بأن هؤلاء لا يرضون لأنفسهم الخروج من حالة الكفر والنفاق، وإن تظاهرهم بالإسلام ليس إلّا من أجل تمرير مصالحهم وأهدافهم الدنيئة ومن أجل أن يسهل عليهم التآمر والتجسس على المسلمين. وفي هذه الحالة يستطيع المسلمون أن بأسروهم حيثما وجدوهم، وأن يقتلوه إذا استلزم الأمر، تقول الآية الكريمة: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».

وتكرر هذه الآية التأكيد على المسلمين أن يتجنبوا مصاحبة هؤلاء المنافقين وأمثالهم فتقول: «لَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا». إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)

سبب النزول

في تفسير القمي في قوله «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا» الآية أنها نزلت في أشجع وبنى ضمرة وهما قبيلتان وكان من خبرهم أنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى غزاة الحديبية مرّ قريباً من بلادهم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله هادناً بنى ضمرة، وواعدهم قبل ذلك فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله! هذه بنو ضمرة قريباً منا ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة أو يعينوا علينا قريشاً فلو بدأنا بهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَلَّا، إِنَّهُمْ أَبْرُ الْعَرَبِ بِالْوَالِدِينَ وَأَوْصَلَهُمُ لِلرَّحْمِ وَأَوْفَاهُمُ بِالْعَهْدِ».

وكان أشجع بلادهم قريباً من بلاد بنى ضمرة وهم بطن من كنانة وكانت أشجع بينهم وبين بنى ضمرة حلف بالمراعاة والأمان فأجذبت بلاد أشجع وأخضبت بلاد بنى ضمرة فسارت أشجع إلى بلاد بنى ضمرة، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله مسيرهم إلى بنى ضمرة تهباً للمسير إلى أشجع ليغزوهم للمواعدة التي كانت بينه وبين بنى ضمرة فأنزل الله: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ...» الآية. ثم استثنى بأشجع فقال: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ ...» وكانت أشجع محلها البيضاء والحل والمستباح وقد كانوا قريوا من رسول الله فهاجروا لقبهم من رسول الله أن يبعث إليهم من يغزوهم وكان رسول الله قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً فهم بالمسير إليهم فينما هو على ذلك إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رجيلة وهم سبعة فزلوا شعب سلع وذلك في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة

فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله اسيد

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٥

بن حصين وقال له: «اذهب فى نفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع».

فخرج اسيد ومعه ثلاثة نفر من أصحابه فوقف عليهم فقال: ما أقدمكم؟ فقام إليه مسعود بن رجيلة وهو رئيس أشجع فسلم على اسيد وعلى أصحابه فقالوا: جئنا لنوادع محمداً فرجع اسيد إلى رسول الله فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بينى وبينهم». ثم بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدمها أمامه ثم قال: «نعم الشئ الهدية أمام الحاجة». ثم أتاهم فقال: «يا معشر أشجع ما أقدمكم؟» قالوا: قربت دارنا منك وليس فى قومنا أقل عدداً منا فضقنا لحربك لقرب دارنا منك وضقنا لحرب قومنا لقلتنا فيهم فجئنا لنوادعكم فقبل النبى صلى الله عليه وآله منهم ووادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم وفيهم نزلت هذه الآية «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ» إلى قوله «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

التفسير

الترحيب باقتراح السلم: بعد أن أمر القرآن الكريم المسلمين فى الآيات السابقة باستخدام العنف مع المنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثنى هذه الآية من الحكم المذكور طائفتين:

١- من كانت لهم عهود ومواثيق مع حلفائكم «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ».

٢- من كانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربة المسلمين، كما أن قدرتهم ليست على مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربة قبيلتهم «أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ».

ولكى لا يستولى الغرور على المسلمين ازاء كل هذه الانتصارات الباهرة، وكى لا يعتبروا ذلك نتيجة قدرتهم العسكرية وابتكارهم، ولا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايدة، تقول الآية: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ».

وتكرر الآية فى ختامها التأكيد بأن الله لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح وتجنبوا قتالهم، وأن المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوة الصلح هذه، ويصافحوا اليد التى امتدت إليهم وهى تريد الصلح والسلام «فَإِنْ اغْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٦

سَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُذِّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً (٩١)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت فى اناس كانوا يأتون النبى، فيسلمون رثاء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا قومهم، ويأمنوا نبى الله، فأبى الله ذلك عليهم.

التفسير

عقاب ذى الوجهين: إن هذه الآية تصور لنا طائفة من الناس نقيض تلك الطائفة التى تحدثت عنها الآية السابقة وأمرت بقبول الصلح منها، والطائفة تتشكل من أفراد نفعيين إنتهازيين، همهم الوحيد تحقيق مصالحهم والتحرك بحرية تامة لدى المسلمين، وقريش عن طريق الرياء والخيانة والخداع، والتظاهر بتأييد واتباع الجانبين والتعاون معهما، وفى هذا المجال تقول الآية الكريمة: «سَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ».

وهؤلاء حين تسنح لهم الفرصة ينقلبون على أعقابهم وينغمسون فى الفتنة والشرك نكساً على رؤوسهم «كُلُّ مِأْرُذُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا».

وقد اشترط القرآن الكريم على هذه الطائفة ثلاثة شروط من أجل أن تبقى في مأمن من إنتقام المسلمين، وهذه الشروط هي: إعتزال المسلمين، أو مصالحتهم، أو الكف عن إيدائهم حيث تقول الآية الكريمة: «فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِزُوا لَكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ». وإذا رفضت هذه الطائفة الشروط المذكورة وأصررت على العصيان والتمرد، فالمسلمون مكلفون عند ذلك بإلقاء القبض على أفرادها وقتلهم أينما وجدوا، كما تقول الآية: «فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ». ولما كانت الحجج قد تمت على هؤلاء، تقول الآية في الخاتمة: «وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا». وقد يكون هذا التسلط في مجال الكلام والمنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين والكافرين، وقد يكون سلطاناً مادياً ظاهرياً عليهم لأن الآية نزلت في وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كاف من القوة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٧

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوًّا لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، أخى أبي جهل لأمه، لأنه كان أسلم، وقتل بعد إسلامه رجلاً مسلماً وهو لا يعلم إسلامه. والمقتول: الحارث بن يزيد.

التفسير

أحكام القتل الناتج عن الخطأ: لقد أطلقت الآية السابقة أيدي المسلمين في المنافقين الذين كانوا يشككون خطراً كبيراً على الإسلام، وسمحت لهم حتى يقتل أمثال هؤلاء المنافقين، ولكن تفادياً لاستغلال هذا الحكم استغلالاً سيئاً، ولسد الطريق أمام الأغراض الشخصية التي قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمة أنه منافق، وأمام أى تساهل في سفك دماء الأبرياء، بينت هذه الآية والتي تليها أحكام قتل الخطأ وقتل العمد، لكي يكون المسلمون على غاية الدقمة والحذر في مسألة الدماء التي تحظى باهتمام بالغ في الإسلام. تقول الآية الكريمة: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً».

ثم تبين الآية الكريمة غرامة قتل الخطأ، وتقسّمها إلى ثلاثة أنواع:

فالنوع الأول: هو أن يحرر القاتل عبداً مسلماً، ويدفع الدية عن دم القاتل إلى أهله إذا كان القاتل ينتمي إلى عائلة مسلمة «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ». فإذا وهب أهل القاتل الدية وتصدقوا بها له فليس على القاتل أن يدفع شيئاً: «إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٨

والنوع الثاني: من غرامة قتل الخطأ يكون في حالة ما إذا كان القاتل مسلماً ولكن من عائلة معادية للإسلام ويجب في هذه الحالة عتق عبد مسلم ولا تدفع الدية إلى أهل القاتل، لأن الإسلام يرفض تعزيز الحالة المالية لأعدائه، بالإضافة إلى ذلك فإن الإسلام قد قطع الصلة بين هذا الفرد وعائلته المعادية للإسلام فلا معنى إذن لجبران الخسارة.

أما النوع الثالث: من غرامة القتل الناتج عن الخطأ فيكون في حالة كون القاتل من عائلة غير مسلمة لكن بينها وبين المسلمين عهداً وميثاقاً، في مثل هذه الحالة أمر بدفع دية القاتل إلى أهله، كما أمر - أيضاً - بتحرير عبد من العبيد المسلمين احتراماً للعهود والمواثيق تقول الآية: «وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ». وظاهر الآية والروايات التي وردت في تفسيرها تدل على أن المقصود فيها هو القاتل «المسلم».

وتستطرد الآية في بيان الحكم فتتطرق إلى أولئك النفر من المسلمين الذين يرتكبون القتل عن خطأ، ولا يسعهم - لفقهم - دفع المال

دية عن القتل، كما لا يسعهم شراء عبد لتحرير رقبته غرامة عن إرتكابهم للقتل الخطأ، وتبين حكم هؤلاء، وتعلن أنهم يجب أن يصوموا شهرين متتابعين غرامة عن القتل الخطأ الذي إرتكبه، بدلاً من الدية وتحرير الرقبة، وقد اعتبرت ذلك نوعاً من تخفيف الجزاء على الذين لا يطبقون الغرامة المالية وتوبه منهم إلى الله، علماً أن جميع أنواع الغرامات التي ذكرت في الآية عن القتل الخطأ، إنما هي توبة وكفارة للذنب المرتكب في هذا المجال، والله يعلم بخفايا الامور وقد أحاط علمه بكل شيء حيث تقول الآية: «تُوبِيَهُ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن جماعة من المفسرين: نزلت في مقيس بن صبابه الكناني، وجد أخاه هشاماً قتيلاً، في بني النجار فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فأرسل معه قيس بن هلال الفهري وقال له: «قل لبني النجار إن علمتم قاتل هشام فادفعوه إلى أخيه ليقبض منه وإن لم تعلموا فادفعوا إليه ديته».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٩

فبلغ الفهري الرسالة فأعطوه الدية فلما انصرف ومعه الفهري وسوس إليه الشيطان فقال: ما صنعت شيئاً، أخذت دية أخيك فيكون سبباً عليك! اقتل الذي معك لتكون نفس بنفس والدية فضل. فرماه بصخرة فقتله، وركب بعيراً ورجع إلى مكة كافراً. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «لا أومنه في حل ولا حرم! فقتل يوم الفتح».

التفسير

عقوبة القتل العمد: لقد بينت الآية السابقة عقوبة - أو غرامة - القتل الناتج عن الخطأ، وجاءت الآية الأخيرة عقوبة القتل عن عمد وسبق إصرار، في حالة إذا كان القتل من المؤمنين، وبما أن جريمة قتل الإنسان من أعظم وأكبر الجرائم وأخطر الذنوب، وأن التهاون في مكافحته مثل هذه الجريمة يهدد أمن المجتمع وسلامه أفراد، الأمن الذي يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم، لذلك فإن القرآن الكريم قد تناول هذه القضية في آيات مختلفة بأهمية بالغة، حتى أنه اعتبر قتل النفس الواحدة قتلاً للناس جميعاً، إلا أن يكون القتل عقاباً لقتل مثله أو عقاباً لجريمة الإفساد في الأرض حيث يقول القرآن في الآية (٣٢) من سورة المائدة: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

وقد قررت الآية - موضوع البحث - أربع عقوبات أخروية لمرتكب القتل العمد، وعقوبة أخرى دنيوية هي القصاص، والعقوبات الأخروية هي:

١- الخلود والبقاء الأبدى في نار جهنم، حيث تقول الآية: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا».

٢- إحاطة غضب الله وسخطه بالقاتل: «وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

٣- الحرمان من رحمة الله: «وَلَعَنَهُ».

٤- العذاب العظيم الذي ينتظره يوم القيامة: «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

(١) سبة (بالضم): العار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٠

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت في أسامة بن زيد وأصحابه بعثهم النبي صلى الله عليه وآله في سرية فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم له إلى جبل، وكان قد أسلم، فقال لهم: السلام عليكم. لا إله إلا الله محمد رسول الله فبدر إليه أسامة فقتله، واستاقوا غنمه.

التفسير

بعد أن وردت التأكيدات اللازمة- في الآيات السابقة- فيما يخص حماية أرواح الأبرياء، ورد في هذه الآية أمر احترازي يدعو إلى حماية أرواح الأبرياء الذين قد يعرضون إلى الإتهام من قبل الآخرين، إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا».

وتؤكد الآية بعد ذلك محذرة ونهاية عن أن تكون نعم الدنيا الزائلة سبباً في إتهام أفراد أظهروا الإسلام، أو قتلهم على أنهم من الأعداء والإستيلاء على أموالهم، إذ تقول الآية:

«تَبَيَّنُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (١). وتؤكد على أن النعم الخالدة القيمة هي عند الله بقوله: «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ».

وتشير الآية أيضاً إلى حروب الجاهلية التي كانت تنشب بدوافع مادية مثل السلب والنهب فتقول: «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ». وتضيف- مخاطبة المسلمين- أنهم في ظل الإسلام ولطف الله وكرمه وفضله قد نجوا من ذلك الوضع السيء مؤكدة أن شكر هذه النعمة الكبيرة يستلزم منهم التحقق والتثبيت من الامور، إذ تقول الآية: «فَمَنْ لَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا». لما يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)

(١) «العرض»: كلمة على وزن «مرض» وتعني كل شىء زائل لا- دوام له وعلى هذا الأساس فإن «عرض الحيوة الدنيا» معناه رؤوس الأموال الدنيوية التي يكون مصير جميعها إلى الزوال والفناء لا محالة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤١

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، والآيتان الأخيرتان تبيان التمايز بين المجاهدين وغيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوى بين من يبذل المال والنفس رخيصين في سبيل الهدف الإلهي السامى، وبين من يقعه عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذى يحول دونه ودون المشاركة في الجهاد، «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ».

وتكرر الآية من جديد مسألة التفاضل بشكل أوضح وأكثر صراحة، وتؤكد في نهاية المقارنة، أن الله وهب المجاهدين أجراً عظيماً: «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً».

ولكن- كما أسلفنا- لما كان في الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدين يقف اولئك الذين لم يكن الجهاد بالنسبة لهم واجباً عينياً أو لم يشاركو في الجهاد بسبب مرض أو عجز أو علة اخرى أعجزتهم عن هذه المشاركة، فذلك ولأجل أن لا يغفل ما لهؤلاء من نية صالحة وإيمان وأعمال صالحة اخرى فقد وعدوا خيراً حيث تقول الآية الكريمة: «وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ».

وبما أن أهمية الجهاد في الإسلام بالغة جداً، لذلك تنطرق الآية مرّة اخرى للمجاهدين وتؤكد بأن لهم أجراً عظيماً يفوق كثيراً أجر القاعدين عن الجهاد عن عجز، «وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا».

وتشرح الآية التالية- وهى الآية (٩٦) من سورة النساء- نوع هذا الأجر العظيم فتقول أنه: «دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً».

فلو أن أفراداً من بين المجاهدين تورطوا في زلة أثناء أدائهم لواجبهم فندموا على تلك الزلة، فقد وعدهم الله بالمغفرة والعفو، حيث



يقول فى نهاية الآية: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٩)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٢

سبب التزلزل

فى تفسير مجمع البيان: قال أبو حمزة الثمالى: بلغنا أن المشركين يوم بدر، لم يخلفوا إذ خرجوا احداً، إلّاصيباً أو شيخاً كبيراً أو مريضاً. فخرج معهم ناس ممن تكلم بالإسلام فلما التقى المشركون ورسول الله نظر الذين كانوا قد تكلموا بالإسلام إلى قلة المسلمين فارتابوا واصيبوا فيمن اصيب من المشركين، فنزلت فيهم الآية.

التفسير

تعقيباً للبحوث الخاصة بالجهاد، تشير الآيات الثلاث الأخيرة إلى المصير الأسود الذى كان من نصيب اولئك الذين ادعوا الإسلام ولكنهم رفضوا أن يطبقوا خطه الإسلام فى الهجرة. فالقرآن الكريم يذكر كيف أن الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، يسألونهم عن حالهم فى الدنيا وأنهم لو كانوا حقاً من المسلمين، فلماذا اشتركوا فى صفوف المشركين لقتال المسلمين: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ». فيجيب هؤلاء بأنهم تعرضوا فى مواطنهم للضغط وأن ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهي «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ».

لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يرد الملائكة عليهم قائلين: لماذا لم تتركوا موطن الشرك وتنجوا بأنفسكم من الظلم، والكبت عن طريق الهجرة إلى أرض غير أرضكم من أرض الله الواسعة، «قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا».

وفى النهاية تشير الآية إلى مصير هؤلاء، فتقول بأن الذين امتنعوا عن الهجرة لأسباب واهية أو لمصالحهم الشخصية، وقرروا البقاء فى محيط ملوث وفضلوا الكبت والقمع على الهجرة فإن مكان هؤلاء سيكون فى جهنم، وإن نهايتهم وعاقبتهم هناك ستكون سيئة لا محالة: «فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

أما الآية الأخرى من الآيات الثلاث المذكورة، فهى تستثنى المستضعفين والعاجزين الحقيقيين لا المزيفين، فتقول: إن اولئك الرجال والنساء والأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجاً للهجرة، ولم يتمكنوا من إيجاد وسيلة للنجاة من محيطهم الملوث، فهم مستثنون من حكم العذاب، لأن هؤلاء معذرون فى الحقيقة، وإن الله لا يكلف نفساً ما لا تطيق، «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا».

و الآية الأخيرة من الآيات الثلاث المذكورة تبين احتمال أن يشمل الله بعفوه هؤلاء، إذ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٣

تقول: «فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا».

إن الإتيان بكلمة «توفى» فى الآية الشريفة المارة الذكر بدلاً من ذكر كلمة «الموت» إنما هو إشارة إلى أن الموت ليس هو الفناء التام، بل هو حالة تتلقى فيها الملائكة روح الإنسان، أى أن الملائكة يقبضون من الإنسان روحه التى هى جوهر وجوده، فتؤخذ هذه الروح إلى العالم الآخر.

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) الهجرة حكم اسلامى بناء: بعد أن بحثت الآيات السابقة حول الأفراد الذين يقعون فريسة

الذل والمسكنة بسبب عدم إيفائهم بواجب الهجرة، تشرح الآية الأخيرة بشكل صريح وحاسم أهمية الهجرة فى قسمين:

في القسم الأول: تشير هذه الآية إلى نعم وبركات الهجرة في الحياة الدنيا، فتقول إن الذي يهاجر في سبيل الله إلى أي نقطة من نقاط هذه الأرض الواسعة، سيجد الكثير من النقاط الآمنة الواسعة ليستقر فيها، ويعمل هناك بالحق ويرغم أنف المعارضين «وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً».

بعد ذلك تشير الآية في القسم الثاني منها إلى الجانب المعنوي الاخرى للهجرة: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا». وعلى هذا الأساس فإن المهاجرين في كل الأحوال سينالهم نصر كبير، سواء وصلوا إلى المكان الذي يستهدفونه ليتمتعوا فيه بحرية العمل بواجباتهم، أو لم يصلوا إليه فيفقدوا حياتهم في هذا الطريق.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) صلاة المسافر: بعد الآيات التي تحدثت سابقاً عن الجهاد والهجرة، تتطرق الآية (١٠١) من سورة النساء- التي هي موضوع بحثنا الآن- إلى صلاة المسافر، فبين أن لا مانع للمسلم من أن يقصر صلاته لدى السفر إذا خاف من خطر الكافرين الذين هم الأعداء البارزون

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٤

للمسلمين، وقد عبرت هذه الآية عن السفر بالضرب في الأرض، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه لدى السفر. وعلى أي حال، فليس هناك من شك أن صلاة القصر للمسافر- مع الأخذ بنظر الاعتبار الروايات المفسرة لهذه الآية- لا تقتصر على حالة الخوف، ولهذا السبب فإن النبي صلى الله عليه وآله كان في أسفاره حتى في موسم الحج (في أرض منى) يقصر صلاته.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَ لَآ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)

سبب النزول

في تفسير القمي: نزلت- يعنى آية صلاة الخوف- لما خرج رسول الله إلى الحديبية يريد مكة فلما وقع الخبر إلى قريش بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً ليستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على الجبال، فلما كان في بعض الطريق وحضرت صلاة الظهر فأذن بلال فضلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس، فقال خالد بن الوليد: لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصنأهم فإنهم لا يقطعون صلاتهم ولكن يجيء لهم الآن صلاة أخرى هي أحب إليهم من ضياء أبصارهم فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله بصلاة الخوف بهذه الآية.

التفسير

بعد آيات الجهاد السابقة تبين هذه الآية للمسلمين طريقة صلاة الخوف التي تؤدى في ساحة الحرب، فتخاطب الآية النبي صلى الله عليه وآله قائلة: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ». فإذا سجدت جماعة وانقضت الركعة الاولى من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٥

الصلاة، على النبي أن يقف في مكانه فتؤدى الجماعة- سريعاً- الركعة الثانية وتعود إلى ساحة القتال لمواجهة العدو. وتأتى بعد ذلك الجماعة الثانية التي لم تصل بعد، وتأخذ مكان الجماعة الاولى فتصلى مع النبي: «فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ». وعلى الجماعة الثانية أن لا تضع أرضاً لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: «وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ».

وتشير الآية إلى أن أداء الصلاة بهذا الاسلوب من أجل أن يبقى المسلمون في مأمن من أي هجوم مباغت قد يقوم به العدو عليهم،

لأنه يتحين الفرص دائماً لتنفيذ هذا الهجوم، ويتمنى لو تخلى المسلمون وغفلوا عن أسلحتهم وأمتعتهم ليشن عليهم حملته الغادرة: «وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً».

ولمّا كان حمل السلاح والوسائل الدفاعية الاخرى صعباً أثناء أداء الصلاة في بعض الأحيان، تأمر الآية في الختام قائلة: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَىٰ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرُوضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ».

وهذا مشروط بأن يحتفظ المسلمون بما يقيهم من وسائل الدفاع كالدرع، وأمثالها حتى في حالة وجود العذر كالضعف أو المرض، وذلك لحماية أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآية: «وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ».

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)

أهمية فريضة الصلاة: بعد أن ذكرت الآية السابقة صلاة الخوف، وأكدت ضرورة إقامتها حتى في جبهات الحرب، تحت الآية (١٠٣) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر الله بعد أداء الصلاة، وليذكروا الله حين قيامهم وقعودهم وأثناء نومهم على جنوبهم وليسألوه العون والنصر، والقصد من ذكر الله في حالة القيام والقعود والنوم على الجنين، يحتمل أن تكون في الحالات المختلفة للقتال، أي

أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه وهو يقاتل بأحد أنواع الأسلحة الحربية كالقوس والسهم مثلاً. إن هذه الآية تشير إلى أمر إسلامي مهم، يدل على أن أداء الصلاة في أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر الله في الحالات

الآخري. وتؤكد هذه الآية أن حكم صلاة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٦

الخوف هم حكم استثنائي طارئ، وعلى المسلمين إذا ارتفعت عنهم حالة الخوف أن يؤدوا صلاتهم بالطريقة المعتادة «فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ». وتوضح الآية في النهاية سرّ التأكيد على الصلاة بقولها إن الصلاة فريضة ثابتة للمؤمنين وأنها غير قابلة للتغيير: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا».

إن عبارة «موقوت» من المصدر «وقت» وعلى هذا الأساس فإن الآية تبين أنه حتى في ساحه الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضة الإسلامية، لأن للصلاة أوقات محددة لا يمكن تخطيها.

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

سبب النزول

قرع السلاح بسلاح يشابهه: في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: لما أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد وصعد النبي الجبل، قال أبو سفيان: يا محمد لنا يوم ولكم يوم، فقال:

«أجيبوه». فقال المسلمون لا- سواء قتلتنا في الجنة وقتلناكم في النار! فقال أبو سفيان: لنا عزي ولا عزي لكم. فقال النبي، قولوا: «اللَّهُ مولانا ولا مولى لكم!» فقال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال النبي صلى الله عليه و آله قولوا: «اللَّهُ أعلى وأجل».

فقال أبو سفيان: موعدا وموعداكم يوم بدر الصغرى. ونام المسلمون وبهم الكلوم «١» وفيهم نزلت «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ» وفيهم نزلت «إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ» الآية لأن الله أمرهم على ما بهم من الجراح أن يتبعوهم، وأراد بذلك إرهاب المشركين

وخرجوا إلى حمراء الأسد وبلغ المشركين ذلك، فأسرعوا حتى دخلوا مكة.

إن سبب النزول هذا يعلمنا أن المسلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذي يستخدمه العدو، وأن يواجهوا كل أسلوب حربي يتبعه العدو، ويقابلوا سلاحهم بسلاح أمضى، وحتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلامية ضاربة، وبغير ذلك فإن

الرياح ستجرى بما يشتهي الأعداء.

(١) الكلوم: الجروح.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٧

التفسير

أعقت الآيه- موضوع البحث هذه- الآيات السابقة التي تحدثت عن الجهاد والهجرة واستهدفت إحياء روح التضحية والفداء لدى المسلمين بقولها: «وَلَا تَهْتُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ». وهذا تأكيد على ضرورة أن لا يواجه المسلمون عدوهم اللدود بأسلوب دفاعي، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجومية دائماً.

بعد ذلك تأتي الآيه باستدلال حى وواضح للحكم الذى جاءت به، فتسأل المسلمين لماذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر فى ساحة الجهاد فإنّ عدوكم سيصيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق هو أنّ المسلمين يأملون أن يعينهم الله ويشملهم برحمته الواسعة، بينما الكافرون لا- يرجون ولا- يتوقعون ذلك، حيث تقول الآيه: «إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَمَا نَهُمْ بِأَلْمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ».

وفى الختام- ومن أجل إعادة التأكيد- تطلب الآيه من المسلمين أن لا- ينسوا علم الله بجميع الامور، فهو يعلم معاناة المسلمين ومشاكلهم وآلامهم ومسايعهم وجهودهم، ويعلم أنهم أحياناً يصابون بالتهاون والفتور، فتقول الآيه: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» وسيرى المسلمون نتيجة كل الحالات تلك.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)

سبب التزل

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى بنى الايبرق وكانوا ثلاثة اخوه: بشر، وبشير، ومبشر.

وكان بشير يكنى أبا طعمه، وكان يقول الشعر، يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، ثم يقول: قاله فلان. وكانوا أهل حاجة فى الجاهلية والإسلام، فنقب أبو طعمه على عليّة رفاعه بن زيد. وأخذ له طعاماً وسيفاً ودرعاً فشكا ذلك إلى أخيه قتادة بن النعمان، وكان قتادة بدرياً فتجسس فى الدار، وسألا أهل الدار فى ذلك، فقال بنو أبيرق: والله ما صاحبكم إلّا لبيد بن سهل، رجل ذو حسب ونسب. فأصلت عليهم لبيد بن سهل سيفه، وخرج إليهم وقال: يا بنى أبيرق أترموننى بالسرق، وأنتم أولى به منى، وأنتم منافقون تهجون رسول الله، وتنسبون ذلك إلى قريش! لتبينن ذلك، أو لأضعن سيفى فيكم! فداروه وأتى قتادة رسول

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٨

الله، فقال: يا رسول الله! إن أهل بيت منا، أهل بيت سوء عدوا على عمى، فخرقوا عليّة له من ظهرها، وأصابوا له طعاماً وسلاحاً. فقال رسول الله: «انظروا فى شأنكم». فلما سمع بذلك رجل من بطنهم الذى هم منه، يقال له أسير بن عروة، جمع رجالاً من أهل الدار، ثم انطلق إلى رسول الله، فقال: إن قتادة بن النعمان، وعمه، عمدا إلى أهل بيت منا، لهم حسب، ونسب، وصلاح، وأبنوهم بالقبيح، وقالوا لهم ما لا ينبغى، وانصرف، فلما أتى قتادة رسول الله بعد ذلك، ليكمله، جبهه رسول الله جبهاً شديداً، وقال: عمدت إلى أهل بيت حسب ونسب، تأتيتهم بالقبيح، وتقول لهم ما لا- ينبغى؟! قال: فقام قتادة من عند رسول الله، ورجع إلى عمه، وقال: يا ليتنى متّ، ولم أكن كلمت رسول الله، فقد قال لى ما كرهت! فقال عمه رفاعه: الله المستعان، فنزلت الآيات «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ» إلى قوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» فبلغ بشيراً ما نزل فيه من القرآن، فهرب إلى مكة، وارتدّ كافراً.

التفسير

منع الدفاع عن الخائنين: يعرف الله سبحانه وتعالى- فى بداية الآيه (١٠٥) من سورة النساء- نبيه محمّداً صلى الله عليه و آله بأنّ الهدف من إنزال الكتاب السماوى هو تحقيق مبادئ الحق والعدالة بين الناس، إذ تقول الآيه: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىكَ اللَّهُ».

ثم يحذر النبي صلى الله عليه وآله من حماية الخائنين أبداً بقوله: «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً».

ومع أن الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وآله ولكن مما لا شك فيه هو أن هذا الحكم حكم عام لجميع القضاة والمحكمين.

أما الآية الاخرى فهي تأمر النبي صلى الله عليه وآله بطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، إذ تقول:

«وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا».

وَلَمَّا تَجَادَلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (١٠٩)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٩

بعد الآيات التي جاءت بتحريم الدفاع عن الخائنين، تستطرد الآيات الثلاث الأخيرة في التشديد على حرمة الدفاع عن الخائنين،

بالأخص اولئك الذين يخونون أنفسهم «وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا».

لقد تعرض الخائنون في الآية الاخرى إلى التوبيخ، حيث قالت إن هؤلاء يخجلون أن تظهر بواطن أعمالهم وسرائرهم وتكشف إلى

الناس، لكنهم لا يخجلون لذلك من الله سبحانه وتعالى، إذ تقول الآية: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ». فلا يتورع هؤلاء

من تدبير الخطة الخيانية في ظلام الليل، والتحدث بما لا يرضى الله الذي يراقب أعمالهم، أينما كانوا: «وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا

لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا».

بعد ذلك تتوجه الآية (١٠٩) من سورة النساء بالحديث عن شخص السارق الذي تم الدفاع عنه، وتقول بأنه على فرض أن يتم الدفاع

عن هؤلاء في الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامة، أن من يقدر أن يكون لهؤلاء وكيلًا ليرتب أعمالهم ويحل مشاكلهم؟! حيث

تقول الآية: «هَٰذَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا». ولذلك فإن

الدفاع عن هؤلاء الخونة في الدنيا ليس له أثر إلّا القليل، لأنهم سوف لا يجدون أبداً من يدافع عنهم أمام الله في الحياة الآخرة الخالدة.

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهَا بَرِيئًا فَصَدِّقْتَهُ بِهَتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) لقد بينت هذه الآيات الثلاث، ثلاثة

أحكام كليّة بعد أن تطرقت الآيات السابقة إلى مسائل خاصة بالخيانة والتهمة. الآية الاولى تشير إلى هذه الحقيقة وهي أن باب التوبة

مفتوح أمام المسيئين على كل حال، فإذا ارتكب أحد ظلماً بحق نفسه أو غيره، وندم حقيقة على فعلته، أو استغفر الله لذنبه، وكفر عن

خطيئته فيجد الله غفوراً رحيمًا، حيث تقول الآية: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا».

إن الآية الثانية من الآيات الثلاث الأخيرة، تحكى نفس الحقيقة التي وردت بصورة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٠

مختصر الامثل ج ١ ٤٧٩

إجمالية في الآيات السابقة، حيث تؤكد أن أي ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته في النهاية على المذنب نفسه، ويكون قد أضر

بنفسه بذنبه، إذ تقول الآية: «وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ». وفي آخر الآية تأكيد على أن الله عالم بأعمال العباد، وهو

حكيم يجازي كل إنسان بما يستحقه: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وبالصورة المارة الذكر فإن الذنوب مهما اختلفت في الظاهر، فإن اضرارها ستلحق أحياناً بالغير وتلحق أحياناً اخرى بمرتكبيها، ولكن

بالتحليل النهائي، فإن الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه، وإن الآثار السيئة للذنب تظهر قبل كل شيء في روح ونفس

الشخص المذنب.

أما الآية الثالثة من الآيات الأخيرة، فهي تشير إلى خطورة خطيئة إتهام الناس الأبرياء، إذ تقول: «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيًّا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا».

جريمة البهتان: إن إتهام إنسان برىء يعتبر من أقبح الأعمال التي أدانها الإسلام بعنف.

في عيون الأخبار قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج مما قاله فيه».

وحقيقته الأمر أن إشاعته مثل هذا العمل الجبان - في أي محيط إنساني كان - يؤدي في النهاية إلى إهيار نظام العدالة الاجتماعية، واختلاط الحق بالباطل، وتورط البرىء وتبرئة المذنب، وزوال الثقة من بين الناس.

وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُدُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) في هذه الآية الكريمة إشارة أخرى إلى حادثه «بنى الابريق» التي تحدثنا عنها لدى تطرقنا إلى سبب النزول في آيات سابقة، وهذه تؤكد أن الله قد صان النبي صلى الله عليه وآله بفضله ورحمته - سبحانه وتعالى - من كيد بعض المنافقين الذين كانوا ياتمرون به صلى الله عليه وآله ليحرفوه عن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥١

طريق الحق والعدل، فكانت رحمة الله أقرب إلى نبيه فصانته من كيد المنافقين، حيث تقول الآية: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ».

لقد سعى اولئك المنافقون - من خلال اتهامهم لشخص برىء وجرّ النبي وتوريطه في هذه الحادثة - إلى إلحاق ضربة بشخصية النبي صلى الله عليه وآله الاجتماعية والمعنوية أولاً، وتحقيق مآربهم الدنيئة بحق إنسان مسلم برىء ثانياً، ولكن الله العزيز العليم كان لهم بالمرصاد، فصان نبيه صلى الله عليه وآله من تلك المؤامرة وأحبط عمل المنافقين.

بعد ذلك تذكر الآية أن هؤلاء القوم إنما يرمون بأنفسهم في الضلالة ولا يضرون بعملهم النبي صلى الله عليه وآله شيئاً، إذ تقول: «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُدُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ».

وأخيراً توضح الآية سبب عصمة النبي عن الخطأ والزلل والذنب، فتذكر أن الله أنزل على نبيه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم من قبل: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ». ثم تردف الآية ذلك بجملة: «وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا».

وقد ورد في آخر الآية دليل من الأدلة الأساسية لقضية العصمة بشكل مجمل، وهذا الدليل هو قوله تعالى أنه علم نبيه من العلوم والمعارف التي يكون النبي في ظلها مصنواً من الوقوع في أي خطأ أو زلل، ولأن العلم والمعرفة تكون نتيجتهما في المرحلة النهائية حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

لَمَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) النجوى أو الهمس: لقد أشارت الآيات السابقة إلى اجتماعات سرية شيطانية كان يعقدها بعض المنافقين أو أشباههم، وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى هذا الأمر بشيء من التفصيل، وكلمة «النجوى» لا تعنى الهمس فقط، بل تطلق على كل اجتماع سرى أيضاً.

والآية هنا تذكر أن أغلب الاجتماعات السرية التي يعقدها اولئك تهدف إلى غايات شيطانية شريرة لا خير فيها ولا فائدة، إذ تقول: «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ».

ولكى لا يحصل وهم من أن كل نجوى أو همس أو اجتماع سرى يعتبر عملاً مذموماً أو

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٢

حراماً جاءت الآية بأمثال كمقدمة لبيان قانون كلي، وأوضحت الموارد التي تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصى الإنسان بصدقة أو

بمعونه للآخرين أو بالقيام بعمل صالح أو أن يصلح بين الناس، فتقول الآية في هذا المجال: «إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ». فإذا كان هذا النوع من النجوى أو الهمس أو الاجتماعات السرية لا يشوبه الرياء والتظاهر، بل كان مخصصاً لنيل مرضاة الله، فإن الله سيخصص لمثل هذه الأعمال ثواباً وأجرًا عظيمًا، حيث تقول الآية: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا».

وقد عرف القرآن النجوى والهمس والاجتماعات السرية- من حيث المبدأ- بأنها من الأعمال الشيطانية، في قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ».

والنجوى إذا حصلت ابتداءً في جمع من الناس، أثارت لديهم سوء الظن حيالها، حتى أن سوء الظن قد ييدر من الأصدقاء حيال النجوى التي تحصل بينهم، وعلى هذا الأساس فإن الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، وهذه هي فلسفة هذا الحكم الوارد في القرآن.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)  
سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت في شأن ابن أبي ايبرق، سارق الدرع ولما أنزل الله في تفريره وتفرير قومه الآيات، كفر وارتد، ولحق بالمشركين من أهل مكة، ثم نهب حائطاً للسرقة، فوقع عليه الحائط فقتله.

التفسير

حين يرتكب الإنسان خطأ ويدرك هذا الخطأ، فليس أمامه سوى طريقتين:

أحدهما: طريق العودة والتوبة التي أشارت الآيات السابقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٣

والطريق الثاني: هو أن يسلك الإنسان سبيل العناد، وقد أشارت الآية الأخيرة إلى الآثار والعواقب السيئة لهذا الطريق، حيث أعلنت أن من يواجه النبي صلى الله عليه وآله بالعناد والمخالفة بعد وضوح الحق له، ويسير في طريق غير طريق المؤمنين فإن الله سوف لن يهديه إلى غير هذا الطريق، وسيرسله الله في يوم القيامة إلى جهنم، وما أسوأ هذا المكان الذي ينتظره! فتقول الآية: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا».

إن عبارة «يُشَاقِقِ» مأخوذة من مادة «شقاق» بمعنى المخالفة الصريحة المقرونة بالحقد والضغينة.

وجملة «نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ» فهو إشارة إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوي، لتمييز الحق، ومواصلتهم السير في طريق الضلالة.

وجملة «نُصَلِّهِ جَهَنَّمَ» فهي تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) الشرك ذنب لا يغتفر: تشير هذه الآية مرة أخرى إلى خطورة جريمة الشرك الذي يعتبر ذنباً لا يغتفر ولا يتصور وجود ذنب أعظم منه، ويأتي هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين والمرتدين الذين ينساقون بعد إسلامهم إلى الكفر. ولقد مر ما يشابه مضمون هذه الآية في نفس سورة النساء في الآية (٤٨) ولكن تنمة الآيتين تختلف في إحداها عن الأخرى اختلافاً طفيفاً، حيث تقول الآية الأخيرة: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» بينما يقول في مورد سابق «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا».

إن الآية السابقة تشير إلى الفساد العظيم الذي ينطوي عليه الشرك فيما يخص الجانب الإلهي ومعرفة الله، أما الآية الأخيرة فقد بينت الأضرار التي يلحقها الشرك بنفس الإنسان والتي لا يمكن تلافيها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٤

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَ

لَأَمْتِنْتَهُمْ وَلَا مَرْتَنَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَنَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) مكائد الشيطان: إن الآية الأولى تشرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآية السابقة لهذه الأخيرة وهذه الآية إنما تبين سبب ضلال المشركين، فتذكر أنهم يعانون من ضيق شديد فى أفق تفكيرهم، إذ يتركون عبادة الله خالق ومنتشىء عالم الوجود الواسع، ويخضعون أمام المخلوقات التى لا تملك أقل أثر إيجابى فى الوجود، بل هى - أحياناً - مزللة كالشيطان: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا».

إن هذه الآية تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما «إناث» و «شيطان مرید».

«إناث»: تعنى المخلوق الرقيق اللطيف والمرن. أى أن المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفة ومطاوعة بين يدي الإنسان، وأن وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر والانحناء أمام الأحداث، وبعبارة أوضح: أنها موجودات لا تملك الإرادة والاختيار ولا تنفع ولا تضر شيئاً أبداً.

و «مرید»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى سقوط أوراق وأغصان الشجر ولهذا سُمى الشاب اليافع الذى لم ينبت الشعر فى وجهه بالأمرد، وعلى هذا فإن الشيطان المرید يعنى ذلك الشيطان الذى سقطت منه جميع صفات الفضيلة ولم يبق فى وجوده شىء من مصادر القوة. إن القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين: بعضها ضعيف الإرادة مطلقاً والبعض الآخر طاع متكبر متجبر، لكى يبين أن الذى يسلم قياده ويخضع لمثل هذه الأصنام إنما يعيش فى ضلال واضح مبين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٥

بعد ذلك كله تشير الآية إلى صفات الشيطان وأهدافه وعدائه الخاص لأبناء آدم وتتناول بالشرح بعضاً من خطته الدنيئة، وقبل كل شىء تؤكد أن الله قد أبعده الشيطان عن رحمته «لَعَنَهُ اللَّهُ».

وفى الحقيقة فإن أساس شقاء وتعاسة الشيطان هو البعد عن رحمة الله، التى أصابته بسبب غروره وتكبره المفرطين.

ثم تذكر الآية التالية أن الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضاً من خطته:

أولها: أن يأخذ من عباد الله نصيباً معيناً، حيث تقول الآية حاكية قول الشيطان: «وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا». فالشيطان يعلم بعجزه عن اغواء جميع عباد الله، لأن من يستسلم لإرادة الشيطان ويخضع له هم فقط اولئك المنجرفون وراء الأهواء والنزوات والذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان.

والثانية: خطط الشيطان تلخصها الآية بعبارة: «وَلَأُضِلَّنَّهُمْ».

والثالثة: اشغلهم بالأمانيات العريضة وطول الأمل: «وَلَأَمْتِنَنَّهُمْ» (١).

أما الخطه الرابعة: ففيها يدعو الشيطان أتباعه إلى القيام بأعمال خرافية، مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات كما جاء فى الآية: «وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ».

وهذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التى كان يرتكبها الجاهليون المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشى، وكانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أى نوع من أنواع الإنتفاع بهذه الحيوانات.

وخامس: الخطه التى أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان، هى ما ورد على لسانه فى الآية إذ تقول: «وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ».

وهذه الجملة تشير إلى أن الله قد أوجد فى فطرة الإنسان منذ خلقه إياه - النزعة إلى التوحيد وعبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلى بقية الصفات والخصال الحميدة الأخرى.

وهذا الضرر الذى لا يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادة الإنسان، لأنه يعكس له الحقائق والوقائع ويستبدلها بمجموعة من الأوهام والخرافات والوساوس التى



(١) إن عبارة «ولأمنيته»: تعود إلى المصدر «منى» على وزن «منع» وتعنى قياس الشيء أو تقيمه، ولكنها ترد في أغلب الأحيان لتعنى القياس والتقييم والآمال الوهمية والخيالية أما النطفة التي تسمى ب «منى» فمعناها أن قياس تركيب أولى الموجودات الحسية قد تم فيها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٦

تؤدى إلى تغيير السعادة بالشقاء للناس، وقد أكدت الآية في آخرها مبدأ كلياً، وهو أن أى إنسان يعبد الشيطان ويجعله لنفسه ولياً من دون الله، فقد ارتكب إثماً وذنباً واضحاً إذ تقول الآية: «وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسِيرًا مُّبِينًا». والآية التي تلت هذه الآية جاءت ببعض النقاط بمثابة الدليل على ما جاءت به الآية السابقة حيث ذكرت أن الشيطان يستمر في إعطائه الوعود الكاذبة لأولئك ويمنيهم الأمنيات الطوال العراض، ولكنه لا يفعل شيئاً بالنسبة لهؤلاء غير الإغواء والخداع: «يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» (١).

وبينت آخر آية من الآيات الخمس الأخيرة مصير أتباع الشيطان، بأنهم ستكون نتيجتهم السكنى في جهنم التي لا يجدون منها مفراً أبداً، فتقول الآية: «أُولَئِكَ مَا أَوْيَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا» (٢).  
والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا وَعِيدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لقد بينت الآيات السابقة أن الذين يتخذون الشيطان ولياً لهم، إنما ينالهم ضرر واضح ومبين، وأن الشيطان يعدهم زيفاً وخداعاً ويلهيهم بالامنيات الواهية الخيالية الطويلة العريضة، وإن وعد الشيطان مكر وخداع لا غير. أما في هذه الآية الأخيرة- التي هي موضوع بحثنا الآن- فقد بينت مقابل اولئك في النهاية أعمال المؤمنين والثواب الذي سينالونه يوم القيامة، من جنات وبساتين وأنهار تجري فيها، حيث تقول الآية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». وإن هذه النعمة العظيمة دائمة أبداً، وليست كنعم الدنيا الزائلة، فالمؤمنون في الجنة يتمتعون بما اوتوه من خير دائماً أبداً، تؤكد هذه عبارة «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

(١) «الغرور»: يعنى فى الأصل الأثر الواضح للشيء، ولكنه يطلق فى الغالب على الآثار التى لها ظاهر خادع وباطن كريبه، ويطلق على كل شيء يخدع الإنسان مثل المال والجاه والسلطان التى تبعد الإنسان عن الحق وعن جادة الصواب على أنه مادة للغرور.

(٢) «المحيص»: من «المحص» ويعنى العدول والانصراف عن الشيء، وعلى هذا الأساس فإن المحييص هو وسيلة الانصراف والفرار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٧

وإن هذا الوعد وعد صادق وليس كعود الشيطان الزائفة، حيث تقول الآية: «وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا». وبديهى أن أى فرد لا يستطيع - أبداً- أن يكون أصدق قولاً من الله العزيز القدير فى وعوده وفى كلامه، كما تقول الآية: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا». وطبيعى أن عدم الوفاء بالوعد ناتج إما عن العجز وإما الجهل والحاجة، والله سبحانه منزه عن هذه الصفات. ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: تفاخر المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبىكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم! فقال المسلمون: نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب وديننا الإسلام. فنزلت الآية، فقال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء. فأنزل الله الآية التى بعدها «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» الآية.

## التفسير

امتيازات حقيقية واخرى زائفة: لقد بينت هذه الآية واحداً من أهم أعمده أو أركان الإسلام، هو أن القيمة الوجودية لأي إنسان وما يناله من ثواب أو عقاب، لا تمت بصلته إلى دعاوى وامنيات هذا الإنسان مطلقاً، بل إن تلك القيمة ترتبط بشكل وثيق بعمل الإنسان وإيمانه وإن هذا مبدأ ثابت، وسنة غير قابلة للتغيير، وقانون تتساوى الامم جميعها أمامه، ولذلك تقول الآية في بدايتها: «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ». وتستطرد فتقول:

«مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

وكذلك الذين يعملون الخير ويتمتعون بالإيمان - سواء أكانوا من الرجال أو النساء - فإنهم يدخلون الجنة ولا يصيبهم أقل ظلم أبداً، حيث تقول الآية: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٨

وبهذه الصورة يعمد القرآن إلى نبذ كل العصبية بكل بساطة، معتبراً الاعتبارات والإرتباطات المصطنعة الخيالية والاجتماعية والعرقية وأمثالها خاوية من كل قيمة إذا قيست برسالة دينية، ويعتبر الإيمان بمبادئ الرسالة والعمل بأحكامها هو الأساس.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦) لقد تحدثت الآيات السابقة عن أثر الإيمان والعمل، كما بينت أن إتباع أى مذهب أو شريعة غير شرع الله لا- يعنى عن الإنسان شيئاً، والآية الحاضرة تداركت كل وهم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقة، فأوضحت أفضلية شريعة الإسلام وتفوقها على سائر الشرائع الموجودة، حيث قالت: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا».

لقد بينت الآية- موضوع البحث- اموراً ثلاثة تكون مقياساً للتفاضل بين الشرائع وبيانا لخيرها:

١- الإستسلام والخضوع المطلق لله العزيز القدير، حيث تقول الآية: «أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ».

٢- فعل الخير، كما تقول الآية: «وَهُوَ مُحْسِنٌ». والمقصود بفعل الخير- هنا- كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله.

٣- إتباع شريعة إبراهيم النقية الخالصة، كما فى الآية: «وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» (١).

ودليل الإعتماد على شريعة إبراهيم ما ذكرته الآية نفسها فى آخرها، إذ تقول: «وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا».

بعد ذلك تتحدث الآية التالية بملكية الله والمطلقة وإحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول:

(١) «ملة»: تعنى «الشريعة أو الدين» والفرق بين الملة والدين أن الاولى لا تنسب إلى الله، أى لا يقال «ملة الله» ويمكن أن تضاف إلى النبى بينما كلمة الدين أو الشريعة يمكن أى يضافا إلى لفظ الجلالة فيقال: «دين الله» أو «شريعة الله» كما يمكن إضافتهما إلى النبى أيضاً. و «حنيف»: تعنى الشخص الذى يترك الأديان الباطلة ويتبع دين الحق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٥٩

«وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا». وهذه إشارة إلى أن الله حين انتخب إبراهيم عليه السلام خليلاً له، ليس من أجل الحاجة إلى إبراهيم فالله منزّه عن الاحتياج لأحد، بل إن هذا الاختيار قد تمّ لما لإبراهيم من صفات وخصال وسجاياء طيبة بارزة لم توجد فى غيره.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) عود على حقوق المرأة: تجيب الآية الأخيرة هذه على أسئلة وردت حول النساء من قبل المسلمين (وبالأخص حول اليتامى منهن) فتخاطب النبى صلى

الله عليه وآله وتبين له أن الله هو الذي يفتي في الأسئلة التي وجهت إليك يا محمد حول الأحكام الخاصة بحقوق النساء، فتقول: «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ».

وتضيف الآية إن ما ورد في القرآن الكريم حول الفتيات اليتامى اللواتي كنتم تتصرفون في أموالهن، ولم تكونوا التزوجوا بهن، ولم تدفعوا أموالهن إليهن لكي يتزوجن من آخرين، فإنه يجب على قسم آخر من أسئلتكم وبيئكم قبح ما كنتم تعملون من ظلم بحق هؤلاء النسوة: «وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَأَتُوتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ».

ثم توصي الآية الكريمة بالأولاد الذكور الصغار الذين كانوا يحرمون من الإرث وفق التقاليد الجاهلية، فتؤكد ضرورة رعايتهم حقوقهم، حيث تقول: «وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ».

كما تعود الآية فتكرر التأكيد على حقوق اليتامى، فتذكر أن الله يوصيكم في أن تراعوا العدالة في تعاملكم مع اليتامى: «وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ».

وفي الختام تجلب الآية الإنباه إلى أن أي عمل خير يصدر منكم وبالأخص إذا كان في حق اليتامى والمستضعفين - فإنه لا يخفى على الله - وإنكم ستنالون أجر ذلك في النهاية، حيث تقول الآية: «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٠

إن عبارة «يَسْتَفْتُونَكَ» مشتقة من المصدر «فتوى» أو «فتيا» ومعناها الإجابة على كل سؤال معضل. وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يَصِلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: كانت بنت محمد بن سلمة، عند رافع بن خديج، وكانت قد دخلت في السن وكانت عنده امرأة شابة سواها فطلقها تطلقه حتى إذا بقي من أجلها يسير.

قال: إن شئت راجعتك وصبرت على الأثرة (١) وإن شئت تركتك! قالت: بل راجعني وأصبر على الأثرة. فراجعها، فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله تعالى أنزل فيه هذه الآية.

التفسير

الصلح خير: وقد بينت الآيات السابقة حكم نشوز المرأة، وفي هذه الآية إشارة لنشوز الرجل فالآية تتحدث عن المرأة إذا أحست من زوجها التكبر والإعراض عنها، وتبين أن لا مانع من أن تنازل عن بعض حقوقها، وتتصلح مع زوجها، من أجل حماية العلاقة الزوجية من التصدع، فتقول: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يَصِلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا».

بعد ذلك تؤكد الآية على أن الصلح خير وأحسن، حيث تقول: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ». وهذه الجملة الصغيرة مع أنها جاءت في مجال الخلافات العائلية، لكنها تبين قانوناً كلياً، وتؤكد أن الصلح هو المبدأ الأول في كل المجالات، وأن الخلاف والنزاع والصراع والفراق ليس له وجود في الطبع والفطرة الإنسانية السليمة، ولذلك فلا تسوغ هذه الفطرة التوسل بالنزاع وما يجرى مجراه إلما في الحالات الاستثنائية الطارئة.

وتشير الآية بعد ذلك مباشرة إلى أن الإنسان بسبب غريزة حب الذات التي يمتلكها تحيط به أمواج البخل، بحيث إن كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شيء منها، وهذا هو سبب ومنع النزاع والصراع، تقول الآية: «وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ».

(١) الأثرة: الإختيار: أي اختياري للمرأة الشابة وتقديمي إيها عليك.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦١

ولكى لا يسىء الرجال استغلال هذا الحكم الوارد فى الآية، وجه الخطاب إليهم فى نهايتها ودعوا إلى فعل الخير والتزام التقوى، ونبهوا إلى أن الله يراقب أعمالهم دائماً فليحذروا الإنحراف عن جادة الحق والصواب، تقول الآية فى هذا المجال: «وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَمَّا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَذَرُوهُنَّ كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَرْعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) العدالة شرط فى تعدد الزوجات: نستنتج من الجملة التى وردت فى نهاية الآية السابقة- التى تمّ البحث عنها والتى دعت الرجال إلى فعل الخير والتزام التقوى- إنها تعتبر نوعاً من التهديد للأزواج من الرجال، بأن يراقبوا حالهم ولا ينحرفوا قيد شعرة عن جادة الحق والعدالة لدى التعامل مع زوجاتهم. وقد يرد إعتراض وهو: إن تحقيق العدالة فى مجال الحب والعلاقات القلبية أمر بعيد المنال، فكيف يمكن إذن والحالة هذه اتباع العدل مع الزوجات؟

ورداً على الإعتراض المذكور توضح الآية (١٢٩) من سورة النساء، بأن تحقيق العدالة فى مجال الحب بين الزوجات أمر غير ممكن، مهما بذل الإنسان من سعى فى هذا المجال، فتقول الآية: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ».

ولكى لا يسىء الرجال استغلال هذا الحكم، طالبت الآية الرجال بأن لا يظهرها الميل الكامل لإحدى الزوجات إذا تعسر عليهم تحقيق المساواة فى حبهم لهن جميعاً، كى لا- يضيع حق الاخريات ولا يحرن فى أمرهن ماذا يفعلن! حيث تقول الآية: «فَلَمَّا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَذَرُوهُنَّ كَالْمُعَلَّقَةِ».

وتحذر الآية فى آخرها اولئك الذين يجحفون فى حق زوجاتهم، وتطالبهم بأن يتبعوا طريق الإصلاح والتقوى، ويعرضوا عما فات فى الماضى، كى يشملهم الله برحمته وشفوه، فتقول الآية: «وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا».

أمّا الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهى تشير إلى هذه الحقيقة، وهى أنه لو استحال مواصلة الحياة الزوجية للرفين- الزوج والزوجة- واستحال الإصلاح بينهما، فإنهما-

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٤٢

والحالة هذه- غير مرغمين على الإستمرار فى مثل هذه الحياة المرّة الكريهة، بل يستطيعان أن ينفصلا عن بعضهما وعليهما اتخاذ موقف شجاع وحاسم فى هذا المجال دون خوف أو رهبة من المستقبل، لأنهما لو انفصلا فى مثل تلك الحالة فإن الله العليم الحكيم سيغنيهما من فضله ورحمته، فلا يعدمان الأمل فى حياة مستقبلية أفضل، فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا».

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) لقد أوضحت الآية السابقة أن إذا اقتضت الضرورة لزوجين أن ينفصلا عن بعضهما دون أن يجدا حلاً بديلاً عن الانفصال فلا- مانع من ذلك، وليس عليهما أن يخافا من حياة المستقبل، لأن الله سيغنيهما بكرمه وفضله، ويزيل احتياجهما برحمته وبركته. أمّا فى الآية- موضوع البحث- فإن الله يؤكّد قدرته على إزالته ورفع تلك الاحتياجات، لأنه مالك ما فى السماوات وما فى الأرض «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». وإن من يملك ملكاً لا نهاية له كهذا الملك، ويملك قدرة لا نفاذ لها أبداً، لن يكون عاجزاً- مطلقاً- عن رفع احتياجات خلقه وعباده.

ولكى تؤكد الآية ضرورة التقوى فى هذا المجال وفى أى مجال آخر، تشير الآية إلى أن اليهود والنصارى وكل من كان له كتاب سماوى قبل المسلمين قد طلب منهم جميعاً كما طلب منكم مراعاة التقوى: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ».

بعد ذلك تتوجه الآية إلى مخاطبة المسلمين، فتؤكد لهم أن الالتزام بحكم التقوى سيجلب النفع لهم، وأن ليس لله بتقواهم حاجة، كما تؤكد أنهم إذا عصوا وبعوا، فإن ذلك لا يضر الله أبداً، لأن الله هو مالك ما في السموات وما في الارض، فهو غير محتاج إلى أحد أبداً، ومن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٣

حقه أن يشكره عباده دائماً وأبداً: «وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً».

وفي الآية التالية جرى التأكيد- وللمرة الثالثة- على أن كل ما في السموات وما في الأرض هو ملك لله، وأن الله هو الحافظ والمدبر والمدبر لكل الموجودات «ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً».

ثم يبين- عز من قائل- أنه لا- يابه في أن يزيل قوماً عن الوجود، ليأتي مكانهم بقوم آخرين أكثر استعداداً وعزماً وأكثر دأباً في طاعة الله وعبادته، والله قادر على هذا الأمر «إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت باخرين وكان الله على ذلك قديراً».

والآية الأخيرة من الآيات الأربع الماضية، ورد الحديث فيها عن اناس يزعمون أنهم مسلمون، ويشاركون في ميادين الجهاد، ويطبقون أحكام الإسلام، دون أن يكون لهم هدف إلهي، بل يهدفون لنيل مكاسب مادية مثل غنائم الحرب فتنبه الآية إلى أن الذين يطلبون الأجر الدنيوي يتوهمون في طلبهم هذا، لأن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة معاً «من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة».

فلماذا لا يطلب- ولا يرجو- هؤلاء، التوابع معاً؟ والله يعلم بنوايا الجميع ويسمع كل صوت ويرى كل مشهد ويعرف أعمال المنافقين وأشباههم: «وكان الله سميعاً بصيراً» يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلما تبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلؤوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً (١٣٥) العدالة الاجتماعية: على غرار الأحكام التي وردت في الآيات السابقة حول تطبيق العدالة مع الأيتام والزوجات تذكر الآية الأخيرة- موضوع البحث- مبدأ أساسياً وقانوناً كلياً في مجال تطبيق العدالة في جميع الشؤون والموارد بدون استثناء، وتأمير جميع المؤمنين بإقامة العدالة: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط».

والمراد من التعبير بالقيام في الآية يكون تأكيداً لضرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أي جهة كانت.

ولتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة» فشددت على ضرورة التخلي عن كل

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٤

الملاحظات والمجاملات أثناء أداء الشهادة، وأن يكون هدف الشهادة بالحق هو كسب مرضاء الله فقط، حتى لو أصبحت النتيجة في ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه: «شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين». وتشير الآية بعد ذلك إلى عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبين أن ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشهادة العادلة، كما أن العواطف والمشاعر التي تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سبباً في الإمتناع عن الادلاء بالشهادة العادلة حتى ولو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأن الله أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجة الشهادة العادلة ضدّهم، فلا يستطيع صاحب الجاه والسلطان أن يضرّ بشاهد عادل يتمتع بحماية الله، ولا الفقير سبباً جوعاناً بسبب تحقيق العدالة، تقول الآية في هذا المجال:

«إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما».

وللتأكيد أكثر تحكم الآية بتجنب إتباع الهوى، لكي لا يبقى مانع أمام سير العدالة وتحقيقها إذ تقول الآية: «فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا».

«١»

ويتضح من هذه الجملة أن مصدر الظلم والجور كله، هو إتباع الهوى، فالمجتمع الذي لا- تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم والجور.

ولأهميته موضوع تحقيق العدالة، يؤكد القرآن هذا الحكم مرة أخرى، فيبين أن الله ناظر وعالم بأعمال العباد- فهو يشهد ويرى كل من يحاول منع صاحب الحق عن حقه، أو تحريف الحق، أو الإعراض عن الحق بعد وضوحه، فتقول الآية: «وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (٢).

وتثبت الآية اهتمام الإسلام المفرط بقضية العدالة الاجتماعية، وإن مواطن التأكيد المتكررة في هذه الآية تبين مدى هذا الاهتمام الذي يوليه الإسلام لمثل هذه القضية

(١) يمكن أن تكون عبارة «تعدلوا» اشتقاقاً إما من مادة «العدالة» أو من مادة «العدول» فإن كانت من مادة «العدالة» يكون معنى الجملة القرآنية هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أى لكي تستطيعوا تحقيق العدل، وأما إذا كانت من مادة «العدول» يكون المعنى هكذا: فلا تتبعوا الهوى فى أن تعدلوا أى لا تتبعوا الهوى فى سبيل الانحراف عن الحق.

(٢) «تلوا»: مشتقة من المصدر «لى» وتعنى المنع والإعاقة وقد وردت فى الأصل بمعنى اللى والبرم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٥

الانسانية الاجتماعية الحساسة، ومما يؤسف له كثيراً أن نرى الفارق الكبير بين عمل المسلمين وهذا الحكم الإسلامى السامى، وإن هذا هو سرّ تخلف المسلمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

سبب النزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنه قال: إن الآية نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب، عبد الله بن سلام، وأسد وأسيد، إبنى كعب، وثعلبة بن قيس وابن اخت عبد الله بن سلام ويامين بن يامين وهؤلاء من كبار أهل الكتاب، قالوا: تؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب وبمن سواهم من الرسل. فقيل لهم: بل آمنوا بالله ورسوله الآية.

التفسير

يتبين من سبب النزول أن الكلام فى الآية موجه إلى جمع من مؤمنى أهل الكتاب الذين قبلوا الإسلام، ولكنهم لعصبيات خاصة أبوا أن يؤمنوا بما جاء قبل الإسلام من أنبياء وكتب سماوية غير الدين الذى كانوا عليه، فجاءت الآية توصيهم بضرورة الإيمان والإقرار والإعتراف بجميع الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية، لأن هؤلاء جميعاً يسرون نحو هدف واحد، وهم مبعوثون من مبدأ واحد. ولذلك فلا معنى لقبول البعض وإنكار البعض الآخر من هؤلاء الأنبياء والرسل، فالحقيقته الواحدة لا يمكن التفريق بين أجزائها، وأن العصبيات ليس بإمكانها الوقوف أمام الحقائق، لذلك تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ».

وقد بينت الآية- فى آخرها- مصير الذين يجهلون هذه الحقائق، حيث قالت: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا».

وفى هذه الآية اعتبر الإيمان واجباً وضرورياً بخمسة مبادئ، فبالإضافة إلى ضرورة الإيمان بالمبدأ والمعاد، فإن الإيمان لازم وضرورى بالنسبة إلى الكتب السماوية والأنبياء والملائكة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٦

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كفراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَّتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) مصير المنافقين

المعاندین: تماشياً مع البحث الذي ورد في الآية السابقة والذي تناول وضع الكفار وضلالهم البعيد، تشير هذه الآيات الأخيرة إلى وضع مجموعة من الكفار الذين يتلونون في كل يوم تلون الحرباء، فالآية الاولى من الآيات الثلاثة الأخيرة تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء، فتؤكد بأن الله لن يغفر لهم أبداً، ولن يرشدهم إلى طريق الصواب:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا».

ثم تؤكد الآية التالية نوع العذاب الذي يستحقه هؤلاء فتقول: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المنافقين بأنهم يتخذون الكفار أصدقاءً وأحباءً لهم بدلاً من المؤمنين، بقولها: «الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ».

ثم يأتي التساؤل في الآية عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبة الكافرين، وهل أنهم يريدون حقاً أن يكتسبوا الشرف والفخر عبر هذه الصحبة؟ تقول الآية: «أَبِيتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ». بينما العزة والشرف كلها لله «فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا». لأنها تنبع من العلم والقدرة، وأن الكفار لا يمتلكون من القوة والعلم شيئاً، ولذلك فإن علمهم لا شيء أيضاً، ولا يستطيعون إنجاز شيء لكي يصبحوا مصدراً للعزة والشرف.

إن هذه الآية تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر والعزة في شؤونهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية عن طريق إنشاء علاقات الود والصدقة مع أعداء الإسلام لأنهم متى ما اقتضت مصالحهم الشخصية تخلوا عن أقرب حلفائهم وركضوا وراء مصالحهم، وكأنهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاء الحلفاء مسبقاً، والتاريخ المعاصر خير دليل على هذا السلوك النفعي الإنتهازي.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٧

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْتَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)

سبب النزول

نقل في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرن من القرآن، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

التفسير

النهى عن المشاركة في مجالس يعصى الله فيها: لقد ورد في الآية (٦٨) من سورة الأنعام أمر صريح إلى النبي صلى الله عليه وآله في أن يعرض عن اناس يستهزئون بآيات القرآن ويتكلمون بما لا يليق، والآية هذه تكرر الحكم المذكور مرة اخرى، وتحذر المسلمين مذكرة إياهم بحكم سابق في القرآن نهى فيه المسلمون عن المشاركة في مجالس يستهزأ فيها ويكفر بالقرآن الكريم، حتى يكف أهل هذه المجالس عن الاستهزاء ويدخلوا في حديث آخر، تقول الآية: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْتَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ».

بعد ذلك تبين الآية لنا نتيجة هذا العمل، وتؤكد أن من يشارك في مجالس الاستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين وسيكون مصيره نفس مصير اولئك المستهزين. تقول الآية: «إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ».

ثم تكرر الآية التأكيد على أن المشاركة في المجالس المذكورة تدل على الروحية النفاقية التي يحملها المشاركون، وإن الله يجمع المنافقين والكافرين في جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا».

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٨

صفات المنافقين: تبين هذه الآية- وآيات اخرى تالية- قسماً آخر من صفات المنافقين وأفكارهم المضطربة، فتؤكد أن المنافقين يسعون دائماً لاستغلال أى حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين بأنهم شاركوا المؤمنين فى تحقيق النصر وأدعوا بأنهم قدموا دعماً مؤثراً للمؤمنين فى هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركة المؤمنين فى الثمار المعنوية والمادية للنصر حيث تقول الآية فى حقهم: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ».

وهؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهري من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، ويعلنون لهم الرضى والموافقة بقولهم أنهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين وعدم الإستسلام لهم، ويدعون بأنهم شركاء فى النصر الذى حققه أعداء الإسلام تقول الآية: «وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَشْتَجِدْ عَلَيْكُمْ وَنَمْتَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ». وعلى هذا المنوال تحاول هذه الفئة المنافقة أن تكون تارة رفاق الطريق مع الكفار وتارة شركاءهم فى الجريمة وهكذا يمتصون حياتهم بالتلون والنفاق واللعب على الحبال المختلفة.

ولكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحدة مصير هؤلاء ونهايتهم السوداء، ويبين أنهم- لا محالة- سيلاقون ذلك اليوم الذى تكشف فيه الحجب عن جرائمهم ويرفع النقاب عن وجوههم الكريهة، وعند ذلك- أى فى ذلك اليوم، وهو يوم القيامة- سيحكم الله بينهم وهو أحكم الحاكمين، فتقول الآية فى هذا المجال: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ».

ولكى يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكد هذه الآية- فى آخرها- بأن الله لن يجعل للكافرين مجالاً للانتصار أو التسلط على المسلمين، وذلك حيث تقول الآية: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا».

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٦٩

لقد وردت فى هذه الآية خمس صفات للمنافقين، وهى:

١- إن هؤلاء- لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة- يتوسلون بالخدعة والحيلة، حتى أنهم يريدون على حسب ظنهم أن يخدعوا الله تعالى أيضاً، ولكنهم يقعون فى نفس الوقت ومن حيث لا يشعرون فى حبال خدعتهم ومكرهم، إذ هم- لأجل اكتساب ثروات مادية تافهة- يخسرون الثروات الكبيرة الكامنة فى وجودهم، تقول الآية فى هذا المجال: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ».

٢- إن المنافقين بعيدون عن رحمة الله، ولذلك فهم لا يتلذذون بعبادة الله والتقرب إليه، وبدل على ذلك أنهم حين يريدون أداء الصلاة يقومون إليها وهم كسالى خائرو القوى، تقول الآية فى هذا الأمر: «وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى».

٣- ولما كان المنافقون لا يؤمنون بالله وبوعوده، فهم حين يقومون بأداء عبادة معينة، إنما يفعلون ذلك رياءً ونفاقاً وليس من أجل مرضاة الله، تقول الآية: «يُرَاءُونَ النَّاسَ».

٤- ولو نطقت ألسن هؤلاء المنافقين بشيء من ذكر الله، فإن هذا الذكر لا يتجاوز حدود الألسن، لأنه ليس من قلوبهم، ولا هو نابع من وعيهم ويقظتهم، وحتى لو حصل هذا الأمر فهو نادر وقليل. تقول الآية: «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا».

٥- إن المنافقين يعيشون فى حيرة دائمة ودون أى هدف أو خطة معينة لطريقة الحياة ولهذا فهم يعيشون حالة من التردد والتذبذب، فلا هم مع المؤمنين حقاً ولا هم يقفون إلى جانب الكفار ظاهراً، وفى هذا تقول الآية الكريمة: «مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ».

وتبين الآية فى الختام مصير هؤلاء المنافقين، وتوضح أنهم اناس قد سلب الله عنهم حمايته نتيجة لأعمالهم وتركهم يتيهون فى الطريق المنحرف الذى سلكوه بأنفسهم، فهم لن يهتدوا أبداً إلى طريق النجاة، لأن الله كتب عليهم التيه والضلالة عقاباً لهم على أعمالهم.



تقول الآية الكريمة في ذلك: «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٠

لقد أشارت الآيات السابقة إلى قسم من صفات المنافقين، والآيات التالية- هذه- تحذر المؤمنين وتأمروهم أن لا يعتمدوا على المنافقين والكفار بدل الاعتماد على المؤمنين، وأن لا يطلبوا النصره منهم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ». وتبين أن الاعتماد على الكفار يعتبر جريمة وخرقاً صارخاً للقانون الإلهي وشركاً بالله، ونظراً لقانون العدل الإلهي فإن هذه الجريمة تستحق عقاباً شديداً، حيث تؤكد الآية:

«أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا».

وفي الآية الثانية من الآيات الأخيرة بيان لأحوال المنافقين، الذين اتخذهم بعض الغافلين من المؤمنين اصدقاء لأنفسهم، حيث توضح الآية أن المنافقين يستقرون في القيامة في أخط وأسفل دركة من دركات جهنم، ولن يستطيع أحد أن ينصرهم أو ينقدهم من هذا المصير أبداً، تقول الآية: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا».

ويتبين من هذه الآية أن النفاق في نظر الإسلام أشد أنواع الكفر، وأن المنافقين أبعد الخلق من الله.

وقد أوضحت الآية الثالثة من الآيات الأخيرة، أن المجال مفتوح حتى لأكثر الناس تلوئاً للتوبة من أعمالهم وإصلاح شأنهم، والسعي للتعويض بالخير عن ماضيهم المشين، والعودة إلى رحمة الله والتمسك بحبله والإخلاص لله بالإيمان به تقول الآية: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ».

فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلاً للنجاة في النهاية ويستحقون صحبة المؤمنين، تقول الآية: «فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ».

وإن الله سيهب ثواباً وأجراً عظيماً لكل المؤمنين «وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا».

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) العقاب الإلهي ليس دافعه الانتقام: هذه الآية تشير إلى حقيقة ثابتة وهي أن العقاب الإلهي الموجه للبشر العاصين ليس بدافع الانتقام ولا هو بدافع التظاهر بالقوة، كما أنه ليس تعويضاً عن الخسائر الناجمة عن تلك المعاصي، فهذه الامور إنما تحصل ممن في طبيعته النقص والحاجة، والله سبحانه وتعالى منزّه من كل نقص ولا يحتاج أبداً إلى شيء. إذن فالعقاب الذي يلحق الإنسان لما يرتكبه من معاصي، إنما هو انعكاس للنتائج السيئة التي

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧١

ترتبت على تلك المعاصي.

ولتأكيد هذا الأمر تضيف الآية مبيته أن الله عالم بأعمال ونوايا عباده، وهو يشكر ويثيب كل من يفعل الخير من العباد لوجه الله. فتقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا».

وقد قدمت هذه الآية مسألة الشكر على الإيمان لأجل بيان هذه الحقيقة، وهي أن الإنسان ما لم يدرك نعم الله وهباته العظيمة ويشكره على هذه النعم فلن يستطيع التوصل إلى معرفته الله والإيمان به، لأن أنعمه سبحانه وتعالى إنما هي وسائل لمعرفة.

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُغْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) في هذه الآية إشارتان إلى التكليف الأخلاقية الإسلامية:

الاولى تبين أن الله لا يحب التجاهر بالكلام البذيء، ولا يرضى بما يصدر من كلام عن عيوب الناس وفصائح أعمالهم، فتقول الآية: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ».

إنّ عدم الرضى من نشر فضائح أعمال الناس، نابع من حقيقة أنّ الله هو ستار العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءة إلى سمعتهم، إلّا أنّ الآية الكريمة لم تحرم (القول بالسوء) تحريماً مطلقاً، فقد استثنت حالة يمكن فيها أن يصار إلى الكشف والفضح، وهذه الحالة هي إذا وقع الإنسان مظلوماً حين قالت الآية: «إِلَّا مَنْ ظَلِمَ». وبهذا الدليل يستطيع المظلوم - فى مقام الدفاع عن نفسه - أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوىء الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، ولا يسكت على الظلم حتى استعادة حقوقه من الظالم.

ولكى تسد الآية الطريق على كل انتهازى كاذب يريد إساءة استغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكّدت على أنّ الله يراقب أعمال البشر ويعلم ويسمع بكل ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا».

وفى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى النقطة المواجهة لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها (على عكس المساوىء التى يجب أن تكتم إلما فى حالة استثنائية) كما تبيح - أو بالأحرى تحت - الفرد على إصدار العفو على من ارتكب السوء بحقه، لأنّ العفو عند المقدرة من صفات الله العزيز القدير الذى يعفو عن عباده مع إملاكه

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٢

القدرة على الإنتقام بأى صورة شاء، فتقول الآية فى هذا المجال: «إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُغْفَوُا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا». إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) لا تمييز بين الأنبياء: تحدثت الآيات الأخيرة عن مواقف طائفة من الكافرين، ومواقف اخرى لطائفة من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهاية كل من الطائفتين، وهى بهذا تأتى مكمله للآيات السابقة التى تحدثت بشأن المنافقين.

وتشير الآية الاولى إلى طائفة فرقوا بين الأنبياء، فاعتبروا بعضهم على حق والبعض الآخر على باطل، فتؤكد أنّ هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

والواقع أنّ هذه الآية توضح موقف اليهود والنصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان بالنبي عيسى نبى النصارى، واليهود والنصارى معاً كانوا يرفضون الإذعان لنبوّة نبى الخاتم صلى الله عليه وآله فى حين أنّ كتابيهم السماويين قد أثبتا نبوّه هؤلاء الأنبياء.

وعلى هذا الأساس فإنّ ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقة ولا قيمة له مطلقاً، لأنّه لا ينبع من روح طلب الحقيقة. والقرآن الكريم يهدد هؤلاء - وأمثالهم - بأنهم يلقون الذل والهوان، حيث تقول الآية: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا».

وقد يكون وصف العذاب فى هذه الآية ب «المهين» سببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء ورفضهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنّما يوجهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذاباً مهيناً يتناسب واهانتهم تلك.

وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى موقف المؤمنين الذين آمنوا بالله وبجميع أنبيائه ورسله ولم يفرقوا بين أى من الأنبياء والرسل واخلصوا للحق، وكافحوا كل أنواع العصبية الباطلة، وبيّنت أنّ الله سيوفى هؤلاء المؤمنين أجرهم وثوابهم فى القريب العاجل، فتقول الآية:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٣

«وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ».

وقد أكّدت الآية فى الختام أنّ الله سيغفر للمؤمنين الذين ارتكبوا اخطاء بالإنجرار وراء العصبية وممارسة التفرقة بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون فى إيمانهم وعادوا إلى الله، أى تابوا إليه من أخطائهم السابقة، حيث تقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا».

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَكُنَّا لَهُمْ

ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعبدوا في السبت وَاخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: روى أن كعب بن الأشرف وجماعه من اليهود، قالوا: يا محمد! إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة: أى كما موسى بالتوراه جملة، فنزلت الآية.

التفسير

هدف اليهود من اختلاق الأعدار: تشير الآية الاولى إلى طلب أهل الكتاب (اليهود) من النبي محمد صلى الله عليه وآله بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء كاملاً وفي دفعه واحده، فتقول: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ».

ولا شك أن هؤلاء لم يكونوا صادقين في نواياهم مع النبي صلى الله عليه وآله لأن الهدف من نزول الكتاب السماوى هو الإرشاد والهداية والتربية، وقد يتحقق هذا الهدف أحياناً عن طريق نزول كتاب كامل من السماء دفعه واحده، وأحياناً اخرى يتحقق الهدف عن طريق نزول الكتاب السماوى على دفعات وبصورة تدريجية.

ولهذا السبب فضح الله نواياهم السيئه بعد طلبهم هذا وأوضح للنبي صلى الله عليه وآله بأن هذا العمل هو ديدن اليهود، وأنهم معروفون بصلفهم وعنادهم واختلاقهم الأعدار مع نبيهم الكبير موسى بن عمران عليه السلام فقد طلب هؤلاء من نبيهم ما هو أكبر وأعجب إذ سألوه أن يريهم الله جهاراً وعلناً. تقول الآية: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٤

وما مصدر هذا الطلب العجيب الغريب البعيد عن المنطق غير الصلف والعناد، فهم بطلبهم هذا قد تبنا عقيدة المشركين الوثنيين في تجسيد الله وتحديدته، وقد أدى عنادهم هذا إلى نزول عذاب الله عليهم، صاعقه من السماء أحاطت بهم لما ارتكبه من ظلم كبير. تقول الآية: «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ بَظُلْمِهِمْ». ثم تشير الآية إلى عمل قبيح آخر ارتكبه اليهود، وذلك حين لجؤوا إلى عبادة العجل بعد أن شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيرة والدلائل الواضحة، فتقول: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ».

ومع كل هذا الصلف والعناد والشرك، يريهم الله لطفه ورحمته ويغفر لهم لعلهم يرتدعوا عن غيهم، ويهب لنبيهم موسى عليه السلام ملكاً بارزاً وسلطاناً مبيناً، ويفضح السامرى صاحب العجل ويخمد فتنته وفي هذا تقول الآية: «فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا».

لكن اليهود بسبب ما انطوت عليه سريرتهم من شر - لم يستيقظوا من غفلتهم، ولم يخرجوا من ضلالتهم، ولم يتخلوا عن صلفهم وغرورهم، فرفع الله جبل الطور لينزله على رؤوسهم، حتى أخذ منهم العهد والميثاق وأمرهم أن يدخلوا خاضعين خاشعين - من باب بيت المقدس - دليلاً على توبتهم وندمهم، وأكد عليهم أن يكفوا عن أى عمل فى أيام السبت، وأن لا يسلكوا سبيل العدوان، وأن لا يأكلوا السمك الذى حرم صيده عليهم فى ذلك اليوم، وفوق كل ذلك أخذ الله منهم ميثاقاً غليظاً مؤكداً، ولكنهم لم يثبتوا - مطلقاً - وفاءهم لأى من هذه المواثيق والعهد يقول القرآن الكريم فى هذا المجال: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا».

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقْتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٥

نماذج اخرى من ممارسات اليهود العدوانية: تشير هذه الآيات إلى نماذج اخرى من انتهاكات بنى إسرائيل وممارساتهم العدوانية التى

واجهوا بها أنبياء الله. فالآية الاولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهود، وإلى إرتداد بعضهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب الله والحرمان من رحمته وحرمانهم من قسم من نعم الله الطاهرة.

فقد أنكر هؤلاء آيات الله وكفروا بها بعد نقضهم للعهد واتبعوا بذلك سبيل الضلال ولم يكتفوا بهذا الحد، بل تبادوا في غيهم، فارتكبت أياديهم الآثمة جريمة كبرى، إذ عمدوا إلى قتل الهداة والقادة إلى طريق الحق من أنبياء الله، إيغالا منهم في إتباع طريق الباطل والإبتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجه من العناد والصلف والوقاحة، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية والاستهزاء، ووصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحة أن قلوبهم تغطيها حجب عن سماع وقبول قول الأنبياء! تقول الآية الاولى من الآيات الأربع الأخيرة:

«فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ».

وهنا يؤكد القرآن الكريم أن قلوب هؤلاء مختومة حقاً، بحيث لا ينفذ إليها أى حق، وسبب ذلك هو كفرهم وانعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم وصلفهم إلا القليل منهم.

وقد تجاوز هؤلاء المجرمون الحد، فألصقوا بمریم العذراء الطاهرة تهمة شنيعة وبهتاناً عظيماً، هي ام لأحد أنبياء الله الكبار، وذلك لأنها حملت به بإذن الله دون أن يمسه رجل.

تقول الآية في هذا المجال: «وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا».

وقد تباهى هؤلاء الجناة وافتخروا بقتلهم الأنبياء، وزعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، تقول الآية: «وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ». وقد كذبوا بدعواهم هذه فى قتل المسيح، فهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل صلبوا شخصاً شبيهاً بعيسى المسيح عليه السلام وإلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ».

وأكدت الآية أن الذين اختلفوا فى أمر المسيح عليه السلام كانوا- هم أنفسهم- فى شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن ويعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام والظن. تقول الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٦

ويأتى القرآن ليؤكد هنا بأن هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبداً، بل رفعه الله إليه، والله هو القادر على كل شىء، وهو الحكيم لدى فعل أى شىء، تقول الآية: «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا\* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا». وحين تلاحظ أن القرآن يؤكد على قضية عدم صلب المسيح عليه السلام مع أن هذه القضية تظهر للعيان وكأنها مسألة اعتيادية بسيطة، من أجل دحض عقيدة الفداء الخرافية بشدة، لمنع المسيحيين من الإيغال فى هذا الاعتقاد الفاسد، ولكى يؤمنوا بأن طريق الخلاص والنجاة إنما هو فى أعمالهم هم أنفسهم وليس فى ظل الصليب.

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) هنالك احتمالان فى تفسير هذه الآية وكل واحد منهما جدير بالملاحظة من جوانب متعددة:

١- إن الآية تؤكد أن أى إنسان يمكن أن لا يعتبر من أهل الكتاب ما لم يؤمن قبل موته بالمسيح عليه السلام حيث تقول: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ». وأن هذا الأمر يتم حين يشرف الإنسان على الموت وتضعف صلته بهذه الدنيا، وتقوى هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، وفى هذه اللحظة يرى المسيح بعين بصيرته ويؤمن به، فالذين أنكروا نبوته يؤمنون به، والذين وصفوه بالالوهية يدركون فى تلك اللحظة خطأهم وإنحرافهم.

وبديهى أن مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه.

٢- قد يكون المقصود فى الآية هو أن جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح قبل موته، فاليهود يؤمنون بنبوته والمسيحيون يتخلون عن الاعتقاد برؤية المسيح عليه السلام ويحدث هذا- طبقاً للروايات الإسلامية- حين ينزل المسيح عليه السلام من السماء لدى ظهور

المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، وواضح أن عيسى المسيح سيعلن في مثل هذا اليوم انضواءه تحت راية الإسلام لأن الشريعة السماوية التي جاء بها إنما نزلت قبل الإسلام ولذلك فهي منسوخة به.

وتقول الآية في الختام: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا». أى: شهادة المسيح عليه السلام على قومه بأنه قد بلغهم رسالة الله ولم يدعهم لإتخاذها إلهاً من دون الله، بل دعاهم إلى الإقرار بربوبية الله الواحد القهار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٧

فِظْلُمْ مِنَ الَّذِينَ هَرَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) مصير الصالحين والطالحين من اليهود: لقد أشارت الآيات السابقة إلى نماذج من انتهاكات اليهود، أما الآيات الأخيرة فإنما ذكرت نماذج أخرى من تلك الانتهاكات، وبينت العقوبات التي استحقها اليهود بسبب تمردهم وعصيانهم، والعذاب الذي لا قوه وسيلاقوه نتيجة لذلك في الدنيا والآخرة. فالآية الأولى من الآيات الأخيرة تبين أن الله قد حرم بعضاً من الأشياء الطاهرة على اليهود بسبب ممارستهم الظلم والجور، وتصديهم للسائرين في طريق الله، حيث تقول الآية: «فِظْلُمْ مِنَ الَّذِينَ هَرَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا». كما عاقبهم الله بالحرمان من تلك الطيبات لتعاملهم بالربا على الرغم من منعهم من ممارسة المعاملات الربوية ولاستيلائهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعة، فتقول الآية في هذا المجال: «وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ».

وتؤكد الآية أن عذاب اليهود لمعاصيهم تلك لا يقتصر على العقاب الدنيوي، بل سيذيقهم الله - أيضاً - عقاب وعذاب الآخرة الأليم الذي يشمل الكافرين من اليهود. تقول الآية الكريمة: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وقد أشارت الآية الثالثة من الآيات الأخيرة إلى حقيقة مهمة اعتمدها القرآن الكريم مراراً في آيات متعددة، وهي أن ذم اليهود وانتقادهم في القرآن لا يقوم على أساس عنصري أو طائفي على الإطلاق، لأن الإسلام لم يذم أبناء أى طائفة أو عنصر لانتمائهم الطائفي أو العرقي، بل وجه الذم والانتقاد للمنحرفين والضالين منهم فقط، لذلك استثنت هذه الآية المؤمنين الأتقياء من اليهود ومدحتهم وبشرتهم بنيل أجر عظيم، حيث تقول الآية الكريمة: «لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٨

من قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا». وقد آمن جمع من كبار الطائفة اليهودية بالإسلام حين بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وحين شاهدوا على يديه الكريمتين دلائل أحقية الإسلام، ودافع هؤلاء بأرواحهم وأموالهم عن الإسلام، وكانوا موضع احترام وتقدير النبي وسائر المسلمين.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) لقد تناولت الآيات السابقة مسألة التمييز الذي مارسه اليهود بشأن الأنبياء، حيث كانوا يؤمنون ويصدقون ببعض أنبياء الله تعالى ويكفرون بالآخر منهم. أما الآيات أعلاه فهي ترد على اليهود، وتؤكد أن الله أوحى إلى نبيه محمداً صلى الله عليه وآله كما أنزل الوحي على أنبيائه نوح والنبيين الذين جاؤوا من بعد نوح، وكما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأنزل الوحي على الأنبياء من أبناء يعقوب، وعلى عيسى وأيوب ويونس

وهارون وسليمان عليهم السلام وكما أنزل الله على داود كتاب الزبور حيث تقول الآية: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا». ثم تبين الآية أن الوحي لم يقتصر نزوله على هؤلاء الأنبياء، بل نزل على أنبياء آخرين حكى الله قصصهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله من قبل، وأنبياء لم يذكر الله قصصهم، وكل هؤلاء الأنبياء أرسلهم الله إلى خلقه وأنزل عليهم الوحي من عنده، تقول الآية: «وَرُسُلًا قَدْ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٩

قَصَصْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ».

وتبين هذه الآية في آخرها قضية مهمة جداً، وهي أن الله قد كلم موسى بدل أن ينزل عليه الوحي، فتقول: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا». وعلى هذا الأساس فإن صلة الوحي ظلت باقية بين البشر، ولم يكن من عدل الله أن يترك البشر دون مرشد أو قائد، أو أن يتركهم دون أن يعين لهم واجباتهم وتكاليفهم، وهو الذي بعث الأنبياء والرسل للبشر مبشرين ومنذرين، لكي يبشروا الناس برحمته وثوابه، ويُندرونهم من عذابه وعقابه لكي يتم الحجّة عليهم فلا يبقى لهم عذر أو حجة. تقول الآية:

«رُسُلًا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

فقد أحكم الله العزيز القدير خطّة إرسال الأنبياء ونفّذها بكل دقة، وبهذا تؤكد الآية:

«وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا». فحكيمته توجب تحقيق هذا العمل، وقدرته تمهد السبيل إلى تنفيذه.

أما الآية الأخرى فهي تطمئن النبي صلى الله عليه وآله وتوضح له أن المهم هو أن الله قد شهد بما أنزل عليه من كتاب، وليس المهم أن يؤمن نفر من هؤلاء بهذا الكتاب أو يكفروا به - فتؤكد الآية في هذا المجال -: «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ». ولم يكن اختيار الله لمحمد صلى الله عليه وآله لمنصب النبوة أمراً عبثاً - والعياذ بالله - بل كان هذا الاختيار نابغاً من علم الله بما كان يتمتع به النبي من لياقة وكفاءة لهذا المنصب العظيم، ولنزول آيات الله عليه - حيث تقول الآية: «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ».

والقرآن الكريم يؤكد أن ليس الله وحده الذي يشهد بأن دعوة محمد صلى الله عليه وآله هي الحق، بل يشهد معه ملائكته بأحقيّة هذه الدعوة، مع أنّ شهادة الله كافية وحدها في هذا المجال. تقول الآية الكريمة: «وَالْمَلِكُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا وَكَمَا نَزَلْنَا عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) جرى البحث في الآيات السابقة حول المؤمنين وغير المؤمنين، أمّا الآيات الثلاثة الأخيرة فهي تشير إلى مجموعة اختارت أقبح أنواع الكفر، فهؤلاء - بالإضافة - إلى انحرافهم وضلالهم سَعُوا إِلَى تَحْرِيفٍ وَإِضْلَالِ الْأَخْرِينِ، وقد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٠

مختصر الامثل ج ١ ٤٩٩

وظلموا الآخرين معهم لأنهم لم يسيروا في طريق الحق ولم يسمحوا للآخرين - أيضاً - باتّباع هذا السبيل، والآية الكريمة تصف هؤلاء بأنهم في ضلال بعيد وذلك بقولها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا». أمّا الآية الأخرى فتشير إلى الذين كفروا وظلموا، إذ ظلموا الحق أولاً لعدم التزامهم بالصواب، كما ظلموا أنفسهم بذلك - أيضاً - إذ حرموها من السعادة وسقطوا في هوة الضلالة، وظلموا الآخرين حين منعهم من التوجه إلى طريق الحق والصواب، فهؤلاء لن يشملهم أبداً عفو الله، وإن الله لا يهديهم أبداً إلّا إلى طريق جهنم، تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا\* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ».

فهؤلاء باقون وخالدون في جهنم دائماً وأبداً، كما تقول الآية: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

وعلى هؤلاء أن يعلموا أن وعد الله حق، وأن تهديده يتحقق لا محالة، فليس ذلك على الله بالأمر الصعب تقول الآية: «وَكَانَ ذَلِكَ

عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَا مِنْوَا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) لقد أوضحت الآيات السابقة نهاية وعاقبة الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان، أما الآية الأخيرة فهي تدعو إلى الإيمان وتبين نتيجة هذا الإيمان، وتستخدم في ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامى عبارات واصطلاحات تثير عند الأفراد الرغبة والإندفاع نحو الإيمان. وهذه الآية تشير في البداية إلى أن النبي المرسل هو ذلك الذى كان ينتظر الناس ظهوره، والذى أشارت إليه الكتب السماوية السابقة، وهو يحمل إليهم شريعة الحق والعدالة فتقول الآية في هذا المجال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ». ثم تردف الآية بأن هذا النبي قد جاء إلى الناس من الله الذى تعهد تربيته الخلق أجمعين، وذلك من خلال العبارة القرآنية الواردة في هذه الآية، وهى عبارة: «مِنْ رَبِّكُمْ».

وبعد ذلك تؤكد الآية - على أن إيمان الأفراد إنما تعود فائدته ويعود نفعه عليهم أنفسهم، أى أن الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره. تقول الآية: «فَمَا مِنْوَا خَيْرًا لَكُمْ».

كما تؤكد الآية في النهاية على أن من يتخذ الكفر سبيلاً لنفسه فلن يضر الله بعمله هذا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨١

أبدًا، لأن الله يملك كل ما فى السماوات وما فى الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أى شىء من الآخرين، تقول الآية فى هذا الصدد: «وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وتبين الآية فى النهاية أن أحكام الله وأوامره كلها لمصلحة البشر، لأنها نابعة من حكمه الله وعلمه وهى قائمه على أساس تحقيق مصالح الناس، ومنافعهم الخيرة، فتقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) اسطورة التثليث الوهمية: تتطرق هذه الآية والآية التى تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحية، وهذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أى وجود آلهة ثلاثة ويأتى التطرق إلى هذا البحث فى سياق البحوث القرآنية التى وردت فى الآيات السابقة عن أهل الكتاب والكفار. فهذه الآية تحذر فى البداية أهل الكتاب من المغالاة والتطرف فى دينهم، وتدعوهم أن لا يقولوا على الله غير الحق، حيث تقول: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ».

لقد كانت قضية الغلو فى حق القادة السابقين إحدى أخطر منابع الانحراف فى الأديان السماوية، ولهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاة أو المغالين بعنف وشدّة، إذ عرفت كتب الفقه والعقائد هذه الفئة من الناس بأنهم أشد كفرة من الآخرين.

بعد ذلك تشير الآية الكريمة إلى عدة نقاط، يعتبر كل واحد منها فى حد ذاته دليلًا على بطلان قضية التثليث وعدم صحة الوهية المسيح عليه السلام وهذه النقاط هى:

١- لقد حصرت الآية بنوّة السيد المسيح عليه السلام بمریم عليها السلام: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ». وإشارة بنوّة - هذه الواردة فى ستة عشر مكانًا من القرآن الكريم - إنما تؤكد أن المسيح عليه السلام هو إنسان كسائر الناس، خلق فى بطن امه، ومرّ بدور الجنين فى ذلك الرحم،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٢

وفتح عينه على الدنيا حين ولد من بطن مریم عليها السلام كما يولد أفراد البشر من بطون امهاتهم ومرّ بفترة الرضاعة وتربى فى حجر

امه، مما يثبت بأنه امتلك كل صفات البشر فكيف يمكن - وحالة المسيح عليه السلام هذه - أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً، وهو في وجوده محكوم بالظواهر والقوانين المادية الطبيعية ويتأثر بالتحويلات الجارية في عالم الوجود؟! ٢- تؤكد الآية الكريمة أن المسيح عليه السلام هو رسول الله ومبعوث إلى البشر من قبله سبحانه وتعالى وإن هذه المنزلة - أي منزلة النبوة - لا تتناسب ومقام الألوهية.

٣- تبين الآية أن عيسى المسيح عليه السلام هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم عليها السلام حيث تقول: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ».

٤- تشير الآية إلى أن عيسى المسيح عليه السلام هو روح مخلوقة من قبل الله، حيث تقول: «وَرُوحٌ مِنْهُ». وهذه العبارة التي وردت في شأن خلق آدم - أو بعبارة أخرى خلق البشر أجمعين - في القرآن الكريم، إنما تدل على عظمة تلك الروح التي خلقها الله تعالى وأودعها في أفراد البشر بصورة عامة، وفي المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء بصورة خاصة. بعد ذلك تؤكد الآية على ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد وبأنبيائه، ونبذ عقيدة التثليث، مبشرة المؤمنين بأنهم إن نبذوا هذه العقيدة فسيكون ذلك خيراً لهم حيث قالت الآية: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ».

وتعيد الآية التأكيد على وحدانية الله قائلة: «إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ». وهي تخاطب المسيحيين لأنهم حين يدعون التثليث يقبلون - أيضاً - بوحدانية الله، فلو كان لله ولد لوجب أن يكون شبيهه، وهذه حالة تناقض أساس الوحدانية.

فكيف - إذن - يمكن أن يكون لله ولد، وهو منزه من نقص الحاجة إلى زوجة أو ولد، كما هو منزه من نقائص التجسيم وأعراضه. تقول الآية: «سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ». والله هو مالك كل ما في السماوات وما في الأرض والموجودات كلها مخلوقاته وهو خالقها جميعاً، والمسيح عليه السلام - أيضاً - واحد من خلق الله، فكيف يمكن الإدعاء بهذا الاستثناء فيه. وهل يمكن المملوك والمخلوق أن يكون ابناً للمالك والخالق، حيث تؤكد الآية: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». والله هو المدبر والحافظ والرازق والراعى لمخلوقاته، تقول الآية: «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

والحقيقة هي أن الله الأزلي الأبدى الذي يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٣

يحتاج مطلقاً إلى ولد، فهل هو كسائر الناس لكي يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت.

لَنْ يَشْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَشْتَكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَشْتَكِبْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: روى أن وفد نجران، قالوا لنبينا: يا محمد لم تعيب صاحبنا؟ قال:

«ومن صاحبكم؟» قالوا: عيسى عليه السلام. قال: «وأى شيء أقول فيه؟» قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله. فنزلت الآية.

التفسير

المسيح هو عبد الله: على الرغم من أن هاتين الآيتين لهما سبب نزول خاص بهما، إلا أنهما جاءتا في سياق الآيات السابقة التي تحدثت في نفى الألوهية عن المسيح عليه السلام وعلاقتها بالآيات السابقة في دحض قضية التثليث واضحة وجلية.

في البداية تشير الآية الأولى إلى دليل آخر لدحض دعوى الوهية المسيح، فتقول مخاطبة المسيحيين: كيف تعتقدون بالوهية عيسى عليه السلام في حين أن المسيح لم يستنكف عن عبادة الله والخضوع بالعبودية له سبحانه، كما لم يستنكف الملائكة المقربون من هذه العبادة.

حيث قالت الآية: «لَنْ يَشْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ».



وبديهى أن من يكون عبداً لا يمكن أن يصبح معبوداً فى آن واحد.

بعد ذلك تشير الآية إلى أن الذين يمتنعون عن عبادة الله والخضوع له بالعبودية، يكون امتناعهم هذا ناشئاً عن التكبر والأنانية وإن الله سيحضر هؤلاء الناس فى يوم القيامة ويجازى كل واحد منهم بالعقاب الذى يناسبه، فتقول الآية: «وَمَنْ يَشِ تَنَكَّفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَشْتَكِبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا».

وإن الله العزيز القدير سيكافىء فى يوم القيامة اولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٤

وقاموا بالأعمال الخيرة، ويعطيهم ثوابهم كاملاً غير منقوص ويجزل لهم الثواب والنعم، أما الذين تكبروا وامتنعوا عن عبادة الله، فإنهم سينالون منه عذاباً أليماً شديداً، ولن يجدوا فى يوم القيامة لأنفسهم ولياً أو حامياً من دون الله، حيث تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١٧٥) النور المبين: بعد أن تناولت الآيات السابقة بعضاً من انحرافات أهل الكتاب بالنسبة لمبدأ التوحيد ومبادئ وتعاليم الأنبياء، جاءت الآيات الأخرتان لتختما القول فى بيان سبيل النجاة والخلاص من تلك الانحرافات. لقد توجه الخطاب أولاً إلى عامة الناس، مبيناً أن الله قد بعث من جانبه نبياً يحمل معه الدلائل والبراهين الواضحة، وبعث معه النور المبين المتجسد فى القرآن الكريم الذى يهدى الناس إلى طريق السعادة الأبدية، حيث تقول الآية الاولى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا».

والمقصود بالبرهان هو شخص نبي الخاتم صلى الله عليه وآله وأن المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذى عبرت عنه آيات اخرى بالنور أيضاً.

وتوضح الآية الثانية عاقبة اتباع هذا البرهان وهذا النور، فتؤكد على أن الذين آمنوا بالله وتمسكوا بهذا الكتاب السماوى، سيدخلهم الله عاجلاً فى رحمته الواسعة، ويجزل لهم الثواب من فضله ورحمته، ويهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا».

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرٌ هَلَكٌ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٥

سبب النزول

روى - فى تفسير مجمع البيان - عن جابر بن عبد الله، أنه قال: اشتكى وعندى تسع أخوات لى - أو سبع - فدخل على النبى فنفخ فى وجهى، فأفقت، فقلت: يا رسول الله! ألا - أوصى لأخواتى بثلاثين؟ قال: «أحسن». قلت الشرط. قال: «أحسن». ثم خرج وتركنى، ورجع إلئى، فقال: «يا جابر! إنى لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله تعالى قد أنزل فى الذى لأخواتك فجعل لهن الثلاثين». قالوا: وكان جابر يقول انزلت هذه الآية فى.

التفسير

تبيّن الآية الواردة أعلاه التى تسمى - أيضاً - ب «آية الفرائض»، كمية الإرث للأخوة والأخوات، وقد بيّنا عند تفسير الآية (١٢) من سورة النساء إن القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسألة الإرث للأخوة والأخوات وإن إحدى هاتين الآيتين هى الآية (١٢) من سورة

النساء والثانية هي الآية الأخيرة موضوع بحثنا هذا وهي آخر آية من سورة النساء.

فالآية الاولى تخصّ الاخوة والأخوات غير الأشقاء، أى الذين هم من ام واحدة وآباء متعددين. أما الآية الثانية أى الأخيرة، فهي تتناول الإرث بالنسبة للأخوة الأشقاء، أى الذين هم من ام واحدة وأب واحد، أو من امهات متعدداً وأب واحد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآية جاءت لتفصل إرث الكلاله أى إرث الأخوة والأخوات فتقول الآية: «يَسِّرْ تَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ». أى يسألونك فخيرهم بأن الله هو الذى يعين حكم «الكلالة» (أى الأخوة والأخوات).

بعد ذلك تشير الآية إلى عدد من الأحكام، وهي:

١- إذا مات رجل ولم يكن له ولد وكانت له أخت واحدة، فإن هذه الأخت ترث نصف ميراثه تقول الآية الكريمة: «إِنْ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ».

٢- وإذا ماتت امرأة ولم يكن لها ولد، وكان لها أخ واحد- شقيق من أبيها وحده أو من أبيها وامها معاً- فإن أختها الوحيدة يرثها، تقول الآية: «وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ».

٣- وإذا مات شخص وكانت له أختان فقط، فإنهما ترثان ثلثى ما تركه من الميراث، تقول الآية الكريمة: «فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ».

٤- وإذا كان ورثة الشخص المتوفى عدداً من الاخوة والأخوات أكثر من اثنين، فإن ميراثه يقسم جميعه بينهم، بحيث تكون حصّة الأخ من الميراث ضعف حصّة الأخت

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٦

الواحدة منه. تقول الآية الكريمة: «وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ».

وفى الختام تؤكد الآية أن الله يبين للناس هذه الحقائق لكي يصونهم من الانحراف والضلاله، ويدلهم على طريق الصواب والسعادة (وحقيق أن يكون الطريق الذى يرسمه الله للناس ويهديهم إليه هو الطريق الصحيح) والله هو العالم العارف بكل شىء، وفى هذا المجال تقول الآية الكريمة: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

إن الآية إنما تبين إرث الأخوة والأخوات فى حالة عدم وجود ولد الشخص المتوفى، ولكن بناء على الآيات الواردة فى بداية سورة النساء- فإن الأب والام يأتون فى مصاف الأبناء فى الطبقة الاولى من الوارثين ولذلك يتوضح أن المقصود من الآية الأخيرة هى حالة عدم وجود أبناء وعدم وجود أبوين للشخص المتوفى.

«نهاية تفسير سورة النساء»

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٧

## ٥. سورة المائدة

محتوى السورة: تشمل هذه السورة على مجموعة من المعارف والعقائد الإسلامية بالإضافة إلى سلسلة من الأحكام والواجبات الدينية. وقد وردت فى القسم الأول منها الإشارة إلى قضية الخلاف بعد النبى صلى الله عليه وآله وقضايا اخرى مثل: عقيدة التثليث المسيحية ومواضيع خاصة بيوم القيامة والحشر واستجواب الأنبياء حول اممهم.

أما القسم الثانى فقد اشتمل على قضية الوفاء بالعهود والمواثيق، وقضايا العدالة الاجتماعية، والشهادة العادلة، وتحريم قتل النفس (من خلال ذكر قضية إبنى آدم، وقتل قابيل لأخيه هابيل) بالإضافة إلى بيان أقسام من الأغذية المحرمة والمحللة وأقسام من أحكام الوضوء والتيمم.

أما وجه تسمية السورة ب «سورة المائدة» فهو لورود قصة نزول المائدة السماوية على حوارى المسيح عليه السلام فى الآية (١١٤) منها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)  
مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٨

الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق: تدل الروايات الإسلامية وأقوال المفسرين على أن هذه السورة هي آخر سورة أو من السور الأخيرة التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله. لقد تم التأكيد فى هذه السورة- لما تمتاز به من موقع خاص- على مجموعة من المفاهيم الإسلامية، وعلى آخر البرامج والمشاريع الدينية، وقضية قيادة الامة وخلافه النبي صلى الله عليه وآله وقد يكون هذا هو السبب فى استهلال سورة المائدة بقضية الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق، حيث تقول الآية فى أول جملة لها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ». وذلك لى تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التي عقدوها فى الماضى مع الله أو تلك التي أشارت إليها هذه السورة. فإن الآية تعتبر دليلاً على وجوب الوفاء بجميع العهود التي تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التي تعقد مع الله سبحانه وتعالى عقداً محكماً.

إن مفهوم هذه الآية- لسعته- يشمل حتى تلك العقود والعهود التي يقيهما المسلمون مع غير المسلمين. وبعد أن تطرقت الآية إلى حكم الوفاء بالعهد والميثاق- سواء كان إلهياً أو إنسانياً محضاً- أردفت بيان مجموعة أخرى من الأحكام الإسلامية، كان الأول منها حلية لحوم بعض الحيوانات، فبينت أن المواشى واجتنتها تحل لحومها على المسلمين، حيث تقول الآية: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ». «الأنعام»: صيغة جمع من «نعم» وتعنى الإبل والبقر والأغنام.

«بهيمه»: مشتقة من المصدر «بهمة» وتعنى فى الأصل الحجر الصلب، ويقال لكل ما يعسر دركه «مبهماً» وجميع الحيوانات التي لا تمتلك القدرة على النطق تسمى «بهيمه» لأن أصواتها تكون مبهمة للبشر، وقد جرت العادة على إطلاق كلمة «بهيمه» على المواشى من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشية والطيور.

والظاهر من الآية أنها تشمل معنىً واسعاً، أى تبين حلية هذه الحيوانات بالإضافة إلى حلية لحوم أجتنتها أيضاً. ويتبين لنا مما تقدم أن علاقة الجملة الأخيرة وحكمها بالأصل الكلى- الذى هو لزوم الوفاء بالعهد- هى التأكيد على كون الأحكام الإلهية نوعاً من العهد بين الله وعباده- حيث تعتبر حلية لحوم بعض الحيوانات وحرمة لحوم البعض الآخر منها قسماً من تلك الأحكام. وفى الختام تبين الآية موردين تستثنيهما من حكم حلية لحوم المواشى، وأحد هذين مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٩

الموردين هو اللحوم التي سيتم بيان حرمتها فيما بعد، حيث تقول الآية: «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ». والمورد الثانى هو أن يكون الإنسان فى حالة إحرام للحج أو العمرة، حيث يحرم عليه الصيد فى هذه الحالة، فتقول الآية: «غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ». وفى آخر الآية يأتى التأكيد على أن الله إذا أراد شيئاً أو حكماً انجزه أو أصدره، لأنه عالم بكل شىء، وهو مالك الأشياء كلها، وإذا رأى أن صدور حكم تكون فيه مصلحة عباده وتقضى الحكمة صدورهم، أصدر هذا الحكم وشرعه، حيث تقول الآية فى هذا المجال: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ النَّبِيِّ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْبَاطِنِ وَالْعِدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ثمانية احكام فى آية واحدة: لقد بينت هذه الآية عدداً من الأحكام الإلهية الإسلامية المهمة، وهى من الأحكام الأواخر التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وكلها أو أغلبها تتعلق بحج بيت الله، وهى على الوجه التالى:

١- الطلب من المؤمنين بعدم انتهاك شعائر الله، ونهيهم عن المساس بحرمة هذه الشعائر المقدسة، كما تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ». والمراد بكلمة «الشعائر»: هي مناسك الحج التي كلف المسلمون باحترامها كلها.

٢- دعت الآية إلى احترام الأشهر الحرم وهي شهور من السنة القمرية، كما نهت عن الدخول في حرب في هذه الشهور، حيث قالت: «وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ».

٣- حرمت الآية المساس بالقرابين المخصصة للذبح في شعائر الحج سواء ما كان منها ذا علامة وهو المسمى ب «الهدى» أو تلك الخالية من العلامات والتي تسمى ب «القلائد» أى نهت عن ذبحها وأكل لحومها حتى تصل إلى محل القران للحج وتذبح فيه، فقالت الآية:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٠

«وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْقِلَادَ» (١). ٤- أوجبت الآية توفير الحرية التامة لحجاج بيت الله الحرام أثناء موسم الحج، الذى تزول خلاله كل الفوارق القبلية والعرقية واللغوية والطبقية، ونهت عن مضايقة المتوجهين إلى زيارة بيت الله الحرام ابتغاء لمرضاته، أو حتى الذين توجهوا إلى هذه الزيارة وهم يحملون معهم أهدافاً أخرى كالتجارة والكسب الحلال لا فرق فيهم بين صديق أو غريم، فما داموا كلهم مسلمين وقصدهم زيارة بيت الله، فهم يتمتعون بالحصانة كما تقول الآية الكريمة: «وَلَمَّا ءَامِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا».

٥- لقد خصصت هذه الآية حكم حرمة الصيد بوقت الإحرام فقط، وأعلنت أن الخروج من حالة الإحرام بإذنان بجواز الصيد للمسلمين - حيث تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا».

٦- منعت هذه الآية الكريمة المسلمين من مضايقة اولئك النفر من المسلمين الذين كانوا قبل إسلامهم يضايقون المسلمين الأوائل فى زيارة بيت الله الحرام ويمنعونهم من أداء مناسك الحج، وكان هذا فى واقعه الحديبية، فمنع المسلمون من تجديد الأحقاد ومضايقة اولئك النفر فى زمن الحج بعد أن أسلموا وقبلوا الإسلام لهم ديناً، تقول الآية الكريمة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا».

٧- تؤكد الآية - جرياً على سياق البحث الذى تناولته وبهدف إكماله - على أن المسلمين بدلاً من أن يتحدوا للإنتقام من خصومهم السابقين الذين أسلموا - وأصبحوا بحكم إسلامهم أصدقاء - عليهم جميعاً أن يتحدوا فى سبيل فعل الخيرات والتزام التقوى، وأن لا يتعاونوا - فى سبيل الشر والعدوان تقول الآية: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدْوَانِ».

٨- ولكى تعزز الآية الأحكام السابقة وتؤكد لها تدعو المسلمين فى الختام إلى اتباع التقوى وتجنب معصية الله، محذرة من عذاب الله الشديد، فتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

(١) «الهدى»: جمع «هدية» وهو يعنى هنا المواشى التى تهدى لتكون قرابين إلى بيت الله الحرام. و «القلائد»: جمع «قلادة» وهى الشئ الذى يوضع حول رقبة الإنسان أو الحيوان، وتعنى هنا المواشى التى تعلم بالقلائد لذبحها فى مراسم الحج.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩١

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ وَالمَوْقُودَةُ وَالمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَمَّا تَخَشَوْهُمْ وَاحْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُّتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) لقد تمت الإشارة فى بداية السورة إلى الحلال من لحوم المواشى، وورد - أيضاً - أن هناك استثناءات تحرم فيها لحوم المواشى، حيث ذكرتها الآية الأخيرة - موضوع البحث - فى أحد عشر مورداً تكرر ذكر بعضها فى آيات قرآنية أخرى على سبيل التأكيد والمحرمات التى وردت فى هذه الآية، بحسب الترتيب الذى جاءت عليه كما يلي:

أولاً: «الْمَيْتَةُ».

ثانياً: «وَالدَّم».

ثالثاً: «وَلَحْمِ الْخِزِيرِ».

رابعاً: الحيوانات التي تذبح باسم الأصنام، أو باسم غير اسم الله، كما كان يفعل الجاهليون: «وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ».

خامساً: الحيوانات المخنوقة، سواء كان الخنق بسبب الفخ الذى تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها، وكان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحياناً للانتفاع بلحومها وقد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم «الْمُنْخَنَقَةُ».

سادساً: الحيوانات التي تموت نتيجة تعرضها للضرب والتعذيب، أو التي تموت عن مرض وسميت فى الآية بـ «الْمَوْقُودَةُ» (١).

سابعاً: الحيوان الذى يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع، وقد سمي هذا النوع فى الآية بـ «الْمُتَرَدِّيَةُ».

(١) «الموقودة»: من مادة «وقد» يعنى المضروبة بعنف حتى الموت.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٢

ثامناً: الحيوان الذى يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر، وقد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات بـ «النَّطِيحَةُ».

تاسعاً: الحيوان الذى يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه، وسمى هذا النوع فى الآية بـ «مَا أَكَلَ السَّبْحُ».

لقد ذكرت الآية شرطاً واحداً لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكورة حلالاً، وهذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب والتقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافى فيحل بذلك لحمه، ولذلك جاءت عبارة «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» بعد موارد التحريم مباشرة.

عاشراً: كان الوثنيون فى العصر الجاهلى يصبون صخوراً حول الكعبة ليست على أشكال أو هيئات معينة، وكانوا يسمون هذه الصخور

بـ «النصب» حيث كانوا يذبحون قربانين أمامها ويمسحون بالصخور تلك بدم القربان.

والفرق بين النصب والأصنام هو أن النصب ليست لها أشكال وصور بخلاف الأصنام، وقد حرم الإسلام لحوم القربان التى كانت تذبح على تلك النصب، فجاء حكم التحريم فى الآية بقوله تعالى: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ».

وواضح أن تحريم هذا النوع من اللحوم إنما يحمل طابعاً معنوياً وليس مادياً.

أحد عشر: وهناك نوع آخر من اللحوم المحرمة، وهو اللحوم التى تذبح وتوزع بطريقة القمار، وتوضيح ذلك هو أن عشرة من

الأشخاص يتراهنون فيما بينهم فيشترون حيواناً ويذبحونه، ثم يأتون بعشرة سهام كتب على سبعة منها عبارة «فائز» وعلى الثلاثة الأخرى

كتبت عبارة «خاسر» فتوضع فى كيس وتسحب واحدة واحدة باسم كل من الأشخاص العشرة على طريقة الإقتراع، فالأشخاص الذين

تخرج النبال السبعة الفائزة بأسمائهم يأخذون قسماً من اللحم دون أن يدفعوا ثمناً لما أخذوه من اللحم، أما الأشخاص الثلاثة الآخرون

الذين تخرج النبال الخاسرة بأسمائهم فيتحملون ثمن الحيوان بالتساوى، فيدفع كل واحد منهم ثلث قيمة الحيوان دون أن يناله شىء

من لحمه.

وقد سمي الجاهليون هذه النبال بـ «الأزلام» وهى صيغة جمع من «زلم» وقد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنى وجود تأصل

الحرمه فى اللحم، بل لأن الحيوان كان يذبح فى عمل هو أشبه بالقمار، ويجب القول هنا أن تحريم القمار وأمثاله لا ينحصر فى اللحوم

فقط، بل إن القمار محرم فى كل شىء وبأى صورة كان.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٣

ولكى تؤكد الآية موضوع التحريم وتشدد على حرمة تلك الأنواع من اللحوم تقول فى الختام: «ذَلِكُمْ فِسْقٌ».

الإعتدال فى تناول اللحوم: إن الذى نستنتجه من البحث المار الذكر ومن المصادر الإسلامية الأخرى، هو أن الإسلام أتبع فى قضية

تناول اللحوم اسلوباً معتدلاً تمام الاعتدال جرياً على طريقته الخاصة في أحكامه الاخرى. ويختلف اسلوبه هذا اختلافاً كبيراً مع ما سار عليه الجاهليون في أكل لحم النصب والميتة والدم وأشباه ذلك، وما يسير عليه الكثير من الغربيين في الوقت الحاضر في أكل حتى الديدان والسلاحف والضفادع وغيرها. ويختلف مع الطريقة التي سار عليها الهنود في تحريم كل أنواع اللحوم على أنفسهم. فقد أباح الإسلام لحوم الحيوانات التي تتغذى على الأشياء الطاهرة التي لا تعافها النفس البشرية، وألغى الأساليب التي فيها طابع الإفراط أو التفريط.

وقد عيّن الإسلام شروطاً أبان من خلالها أنواع اللحوم التي يحل للإنسان الإستفادة منها. بعد أن بينت الآية الأحكام التي مرّ ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقاً، الاولى منهما تقول: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ». والثانية هي: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا».

متى أكمل الله الدين للمسلمين؟ إن أهم بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز في كنهه وحقيقته كلمة «اليوم» الواردة فيهما. إن ما ذكره جميع مفسري الشيعة في تفاسيرهم وأيدوه كما دعمته روايات كثيرة، وهذا الاحتمال يتناسب تماماً مع محتوى الآية حيث يعتبر «يوم عذير خم» أي اليوم الذي نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً أمير المؤمنين عليه السلام بصورة رسمية وعينية خليفه له، حيث غشى الكفار في هذا اليوم سيل من اليأس، وقد كانوا يتوهمون أن دين الإسلام سينتهي بوفاء النبي صلى الله عليه وآله وأن الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهلية، لكنهم حين شاهدوا أن النبي أوصى بالخلافة بعده لرجل كان فريداً بين المسلمين في علمه وتقواه وقوته وعدالته، وهو على بن أبي طالب عليه السلام ورأوا النبي وهو يأخذ البيعة لعلي عليه السلام أحاط بهم اليأس من كل جانب وفقدوا الأمل فيما توقعوه من شر لمستقبل الإسلام وأدركوا أن هذا الدين باق راسخ.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٤

ففي يوم غدير خم أصبح الدين كاملاً، إذ لو لم يتم تعيين خليفة للنبي صلى الله عليه وآله ولو لم يتم تعيين وضع مستقبل الاممة الإسلامية، لم تكن لتكتمل الشريعة بدون ذلك ولم يكن ليكتمل الدين. وقد وردت في الآية (٥٥) من سورة النور نقطة مهمة جديرة بالانتباه - فالآية تقول: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَكُمْ يَسْرَ الْاَرْضِ كَمَا اَسْرَرْنَا لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ اٰمْنًا».

والله سبحانه وتعالى يقطع في هذه الآية وعداً على نفسه بأن يرسخ دعائم الدين، الذي ارتضاه للمؤمنين في الأرض. ولما كان نزول سورة النور قبل نزول سورة المائدة، ونظراً إلى جملة «وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» الواردة في الآية الأخيرة - موضوع البحث - والتي نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام لذلك كله نستنتج أن حكم الإسلام يتعزز ويترسخ في الأرض إذا اقترن بالولاية، لأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله ووعد بترسيخ دعائمه وتعزيزه، وبعبارة أوضح أن الإسلام إذا اريد له أن يعم العالم كله يجب عدم فصله عن ولاية أهل البيت عليهم السلام.

أمّا الأمر الثاني الذي نستنتجه من ضمن الآية الواردة في سورة النور إلى الآية التي هي موضوع بحثنا الآن، فهو أن الآية الاولى قد أعطت للمؤمنين وعوداً ثلاثة:

أولها: الخلافة على الأرض.

والثاني: تحقق الأمن والاستقرار لكي تكون العبادة لله وحده.

والثالث: استقرار الدين الذي يرضاه الله في الأرض.

ولقد تحققت هذه الوعود الثلاثة في «يوم غدیر خم» بنزول آية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» فمثال الإنسان المؤمن الصالح هو على عليه السلام الذي نصب وصياً للنبي صلى الله عليه وآله ودلت عبارة «الْيَوْمَ يَتَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» على أن الأمن قد تحقق بصورة نسبية لدى المؤمنين، كما بينت عبارة: «وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» إن الله قد اختار الدين الذي يرتضيه، وأقره بين عباده المسلمين.

لقد أعادت الآية- في نهايتها- الكرة في التحدث عن اللحوم المحرمة فبينت حكم الاضطرار في حالة المعاناة من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا يكون هدف الشخص ارتكاب المعصية من تناول ذلك، مشيرة إلى غفران الله ورحمته في عدم مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٥

إلجاء عباده عند الاضطرار إلى تحمل المعاناة والمشقة، وعدم معاقبتهم في مثل هذه الحالات.

قالت الآية الكريمة: «فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

والمراد بالمخمصة هنا الجوع الشديد الذي يؤدي إلى انخماص البطن، سواء كان بسبب حالة المجاعة العامة، أو كان ناتجاً عن الحرمان الخاص.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)

سبب النزول

في تفسير القرطبي: نزلت بسبب عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل وهو زيد الخيل الذي سمّاه رسول الله زيد الخير؛ قالوا: يا رسول الله! إننا قوم نصيد بالكلاب والبزاة وإن الكلاب تأخذ البقر والحمر والظباء فمنه ما ندرك ذكاته ومنه ما تقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة فماذا يحل لنا؟ فنزلت الآية.

التفسير

الحلال من الصيد: أعقبت الآية الأخيرة آيتين سبق وأن تناولنا أحكاماً عن الحلال والحرام عن اللحوم وقد بينت هذه الآية نوعاً آخر من اللحوم أو الحيوانات التي يحل للإنسان تناولها وجاءت على صيغة جواب لسؤال ذكرته الآية نفسها بقولها: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ».

فتأمر الآية النبي صلى الله عليه وآله- أولها- بأن يخبرهم إن كل ما كان طيباً وطاهراً فهو حلال لهم، حيث تقول: «قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» دالة على أن كل ما حرّمه الإسلام يعتبر من الخبائث غير الطاهرة، وإن القوانين الإلهية لا تحرم- مطلقاً- الموجودات الطاهرة التي خلقها الله لينتفع بها البشر.

ثم تبين الآية أنواع الصيد الحلال، فتشير إلى الصيد الذي تجلبه أو تصيده الحيوانات المدربة على الصيد، فتؤكد بأنه حلال، بقولها: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٦

«جوارح»: مشتقة من المصدر «جرح» الذي يعنى أحياناً «الكسب» وتارة يعنى «الجرح» الذي يصاب به البدن ولذلك يطلق على الحيوانات المدربة على الصيد، سواء كانت من الطيور أو من غيرها، اسم «جارحة» وجمعها «جوارح» أي الحيوان الذي يجرح صيده، أو بالمعنى الآخر الحيوان الذي يكسب لصاحبه.

وبديهى أن الصيد الذي تجلبه حيوانات مدربة أخرى، يعتبر حلالاً في حالة جلبه حياً وذبحه وفق الطريقة الشرعية.

وبديهى أن الحيوان الذي تصيده كلاب الصيد، يجب أن يذبح وفق الطريقة الشرعية إن جلب حياً، وإن مات الحيوان قبل دركه فله حلال وإن لم يذبح.

وأخيراً أشارت الآية الكريمة إلى شرطين آخرين من شروط تحليل مثل هذا النوع من الصيد: أولهما: أن لا يأكل كلب الصيد من صيده شيئاً، حيث قالت الآية: «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ». وعلى هذا الأساس فإن الكلاب لو أكلت من الصيد شيئاً قبل إيصاله إلى صاحبها، وتركت قسماً آخر منه، فلا يحل لحم مثل هذا الصيد ومثل هذا الكلب الذي يأكل الصيد لا يعتبر كلباً مدرباً، كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقاً لعبارة «مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» لأنه في هذه الحالة يكون (أى الكلب) قد صاد لنفسه.

والأمر الثاني: هو ضرورة ذكر اسم الله على الصيد بعد أن يتركه الكلب، حيث قالت الآية: «وَأذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ».

ولكى تضمن الآية رعاية الأحكام الإلهية - هذه - كلها، أكدت في الختام قائلة:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». داعية إلى الخوف من الله العزيز القدير ومن حسابه السريع.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصِنَاتُ مِنَ الْمُحْصِنَاتِ وَالْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٧

حكم طعام أهل الكتاب وحكم الزواج معهم: تناولت هذه الآية، التي جاءت مكملة للآيات السابقة، نوعاً آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أن كل غذاء طاهر حلال، وإنّ غذاء أهل الكتاب حلال للمسلمين، وغذاء المسلمين حلال لأهل الكتاب، وحيث قالت الآية: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ».

والمقصود بـ «طعام أهل الكتاب» هو غير اللحوم المذبوحة بأيدي أهل الكتاب. فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم القمي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في هذه الآية: «عنى بطعامهم الحبوب والفاكهة غير الذبائح التي يذبحونها، فإنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم».

حكم الزواج بغير المسلمات: بعد أن بيّنت هذه الآية حلية طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، فقالت بأن المسلمين يستطيعون الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهن مهورهن، حيث تقول الآية: «وَالْمُحْصِنَاتُ مِنَ الْمُحْصِنَاتِ وَالْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ». على أن يكون التواصل بوسيلة الزواج المشروع وليس عن طريق الزنا الصريح، ولا عن طريق المعاشرة الخفية، حيث تقول الآية: «مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ».

وهذا الجزء من الآية الكريمة يقلل الحدود التي كانت مفروضة على الزواج بين المسلمين وغيرهم، ويبيّن جواز زواج المسلم بالمرأة الكتابية ضمن شروط خاصة.

ولا يخفى علينا ما شاع في عالم اليوم من تقاليد الجاهلية بصورة مختلفة، ومن ذلك إنتخاب الرجل أو المرأة خليلاً من الجنس الآخر وبصورة علنية، وقد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلي في التحلل والخلاعة والمجون الجنسي، ففي حين كان الإنسان الجاهلي ينتخب الأخلاء سراً وفي الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأساً من إعلان هذا الأمر والتباهي به بكل صلف ووقاحة، ويعتبر هذا التقليد المشين نوعاً صريحاً ومفضوحاً من الفحشاء وهدية مشؤمة انتقلت من الغرب إلى الشرق وأصبحت مصدراً للكثير من النكبات والكوارث.

ولكى تسد الآية طريق إساءة استغلال موضوع التقارب والمعاشرة مع أهل الكتاب والزواج من المرأة الكتابية على البعض من ضعاف النفوس، وتحول دون الانحراف إلى هذا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٨



الأمر بعلم أو بدون علم، حذرت المسلمين في جزئها الأخير فقالت: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْأَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ». وهذه إشارة إلى أن التسهيلات الواردة في الآية بالإضافة إلى كونها تؤدي إلى السعة ورفع الحرج عن حياة المسلمين، يجب أن تكون - أيضاً - سبباً لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب، لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ وتأثير الغير فيتركوا دينهم، وحيث سيؤدي بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهي الصارم الشديد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

تطهير الجسم والروح: لقد تناولت الآيات السابقة بحثاً متعدد عن الطيبات الجسمانية والنعم المادية، أما الآية الأخيرة فهي تتحدث عن الطيبات الروحية وما يكون سبباً لطهارة الروح و النفس الإنسانية، فقد بينت هذه الآية أحكاماً مثل الوضوء والغسل والتيمم، التي تكون سبباً في صفاء وطهارة الروح الإنسانية - فخاطبت المؤمنين في البداية موضحة أحكام الوضوء بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ».

وقد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام اسلوب الغسل وفق سنة النبي صلى الله عليه وآله وهو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

بعد ذلك كله بينت الآية حكم الغسل عن جنابه حيث قالت: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا». والواضح أن المراد من جملة «فاطَّهَّرُوا» هو غسل جميع الجسم، لأنه لو كان المراد جزءاً خاصاً منه لأقتضى ذكر ذلك الجزء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٩٩

إِنَّ كَلِمَةَ «جُنُبًا» - وكما أوضحنا لدى تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء - تعنى في الأصل «المتباعد» أو «البعيد» وسبب إطلاق هذا اللفظ على الإنسان المجنب لأن هذا الإنسان يجب عليه أن يتعد عن الصلاة والتوقف في المساجد وأمثالها.

ويمكن أن يستدل من الآية التي تدعو المجنب إلى الإغتسال قبل الصلاة على أن غسل الجنابه يجزىء، وينوب عن الوضوء أيضاً. ومن ثم بادرت الآية إلى بيان حكم التيمم حيث قالت: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا».

لقد بينت الآية - بعد ذلك - اسلوب التيمم بصورة إجمالية فقالت: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ».

وقد أوضحت الآية - في آخرها - أن الأوامر الإلهية ليس فيها ما يجرح الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنها أوامر شرعت لتحقيق فوائد ومنافع معينة للناس، فقالت الآية «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». وتؤكد هذه العبارات القرآنية الأخيرة أن جميع الأحكام والأوامر الشرعية الإلهية والضوابط الإسلامية هي لمصلحة الناس ولحماية منافعهم، وليس فيها أى هدف آخر، وإن الله يريد بالأحكام الأخيرة الواردة في الآية - موضوع البحث - أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانية والروحية معاً.

إن جملة «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» تبين قانوناً عاماً معناه أن أحكام الله ليست تكاليف شاقه أبداً، ولو كان في أى حكم شرعى العسر والحرج لأى فرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الاستثناء الوارد في الجملة القرآنية الأخيرة من الآية موضوع البحث، ولهذا لو كان الصوم يشكل مشقة وعناء على أى فرد بسبب مرض أو شيخوخة أما ما شابه ذلك، لسقط أداؤه عن هذا الفرد وارتفع التكليف عنه، بناء على هذا الدليل نفسه.

وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٠

## مختصر الامثل ج ١ ٥٣٩

العهد الربانية: تناولت الآية السابقة مجموعة من الأحكام الإسلامية بالإضافة إلى موضوع إكمال النعمة الإلهية على المسلمين، وجاءت الآية الأخيرة لتكمل السياق الموضوعي لما سبق من آيات، فاستقطبت انتباه المسلمين إلى أهمية وعظمة النعم الإلهية التي أعظمها وأهمها نعمة الإيمان والهداية والإسلام، تقول الآية: «وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». فأى نعمة أعظم من أن ينال الإنسان - في ظل الإسلام - كل الهبات الإلهية والمفاخر والإمكانات الدنيوية، بعد أن كان الناس يعانون في الجاهلية من التشنت والجهل والضلال ويسود بينهم قانون الغاب، وكان الفساد والظلم يعم مجتمعهم آنذاك، وقد تحولوا بفضل الإسلام إلى مجتمع يسوده الإتحاد والتماسك والعلم، ويرفل بالنعمة والإمكانات المادية والمعنوية الزاخرة.

بعد هذا تعيد الآية إلى الأذهان ذلك العهد الذي بين البشر وبين الله، فتقول: «وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا». والمراد بلفظة «العهد» في هذه الآية إشارة إلى جميع العهود والمواثيق التكوينية والتشريعية التي أخذها الله أو النبي صلى الله عليه وآله من المسلمين بمقتضى فطرتهم في مراحل مختلفة.

وفي النهاية تؤكد الآية على ضرورة التزام التقوى، محذرة أن الله محيط بأسرار البشر، وعالم بما يختلج في صدورهم، بقولها: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَعْدِلُوا غَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) دعوة مؤكدة إلى العدالة: إن الآية الأولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العدالة، وهي شبيهة بتلك الدعوة الواردة في الآية (١٣٥) من سورة النساء، التي مضى ذكرها مع اختلاف طفيف، فتخاطب هذه الآية أولاً المؤمنين قائلة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ».

ثم تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدالة وتحذر المسلمين من هذا الانحراف مؤكدة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠١

أن الأحقاد والعداوات القبلية والثارات الشخصية، يجب أن لا تحول دون تحقيق العدل، ويجب أن لا تكون سبباً للإعتداء على حقوق الآخرين، لأن العدالة أرفع وأسمى من كل شيء، فتقول الآية الكريمة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا». وتكرر الآية التأكيد لبيان ما للعدل من أهمية قصوى فتقول: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى». وبما أن العدالة تعتبر أهم أركان التقوى تؤكد الآية مرة ثالثة قائلة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

بعد التأكيد الشديد الذي حملته الآية الكريمة حول قضية العدالة وضرورة تطبيقها بادرت الآية التالية وتمشياً مع الأسلوب القرآني، فأعدت إلى الأذهان ما أعده الله للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه ونعمه العظيمة، حيث تقول الآية: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

كما ذكرت الآية في المقابل جزاء الكافرين الذين يكذبون بآيات الله، فقالت: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

ومما يلفت النظر أن الآية جعلت المغفرة والأجر العظيم في إطار «وعد الله» بينما ذكرت عقاب جهنم بأنه نتيجة للكفر وللتكذيب بآيات الله، وما هذا إلا إشارة إلى فضل الله ورحمته لعباده فيما يخص نعم وهبات الآخرة التي لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت وعظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقاً، كما أنها إشارة - أيضاً - إلى أن عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامي أبداً، بل هو نتيجة عادلة لما إرتكبه الإنسان من أعمال سيئة في حياته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ (١١) لقد ذكرت الآيات السابقة بعضاً من النعم الإلهية، وجاءت الآية الأخيرة تخاطب المسلمين وتذكر لهم أنواعاً من النعم التي أنعم الله بها عليهم، لكي يؤدوا شكرها عن طريق طاعة الله والسعي لتحقيق مبادئ العدالة، فتقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ».

والآية تلفت إنتباه المسلمين إلى الأخطار التي تعرضوا لها، وكان يحتمل أن تدفع

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٢

بالوجود الإسلامي إلى الفناء والزوال وإلى الأبد، ولكن فضل الله ونعمته شملتهم وأنقذت الإسلام والمسلمين من تلك الأخطار. كما تحذر الآية المسلمين وتنبههم إلى ضرورة التزام التقوى والإعتماد على الله كدليل على شكر ذلك الفضل وتلك النعمة، وليعلموا بأنهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم والسند والحماية من الله في حياتهم الدنيوية هذه، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْ أَوْلِيَاءَهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) لقد أشارت هذه الآية أولاً إلى قضية الوفاء بالعهد، وقد تكررت هذه الإشارة في مناسبات مختلفة في آيات قرآنية عديدة، وربما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهمية الوفاء بالعهد ودم نقضه، هي إعطاء أهمية قصوى لقضية ميثاق الغدير الذي سيرد في الآية (٦٧) من هذه السورة. والآية في بدايتها تشير إلى العهد الذي أخذه الله من بني إسرائيل على أن يعملوا بأحكامه وإرساله إليهم بعد هذا العهد اثني عشر زعيماً وقائداً ليكون كل واحد منهم زعيماً لطائفة واحدة من طوائف بني إسرائيل الإثنتي عشر - حيث تقول الآية الكريمة: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا».

والأصل في كلمة «نقيب» إنها تعني الثقب الكبير الواسع، وتطلق بالأخص على الطرق المحفورة تحت الأرض، وسبب استخدام كلمة نقيب للدلالة على الزعامة، لأن زعيم كل جماعة يكون عليمًا بأسرار قومه، وكأنه قد صنع ثقباً كبيراً يطلع من خلاله على أسرارهم. وتشير الآية بعد ذلك إلى وعد الله لبني إسرائيل حيث تقول: «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ».

وإن هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التالية:

١- أن يلتزموا بإقامة الصلاة كما تقول الآية: «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ».

٢- وأن يدفعوا زكاة أموالهم: «وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٣

٣- أن يؤمنوا بالرسول الذين بعثهم الله ويحترموا وينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآية: «وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْ أَوْلِيَاءَهُمْ» (١).

٤- وبالإضافة إلى الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التي تعتبر نوعاً من معاملات القرض الحسن مع الله سبحانه وتعالى حيث تقول الآية: «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا».

ثم أردفت الآية الكريمة بيان نتائج الوفاء بالشروط المذكورة بقوله تعالى: «لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

كما بينت الآية مصير الذين يكفرون ولا يلتزمون بما أمر الله حيث تقول: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) إن هذه الآية الكريمة جاءت تشير إلى نقض بني إسرائيل للعهد الذي أخذه الله عليهم والذي ذكرته الآية السابقة. كما ذكرت هذه الآية نتائج وعواقب هذا النقص حيث تقول:

«فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً» (٢).

والحقيقة هي أن هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد حرموا من رحمة الله، وتحجرت أفكارهم وقلوبهم فلم تعد تبدى أى مرونة أمام الحقائق.

وتشرح الآية آثار هذا التحجر فتقول: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ» و «وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ».

(١) «عزرتموهم»: مشتقة من مادة «تعزير» أى المنع أو العون، أمّا حين تسمى بعض العقوبات الإسلامية بالتعزير فذلك لأن هذه العقوبات تكون عوناً للمذنب لكى يرتدع عن مواصلة الذنب وهذا دليل على أن العقوبات الإسلامية لا تتسم بطابع الانتقام بل تحمل طابعاً تربوياً لذلك سميت بالتعزير.

(٢) «لعن»: تعنى فى اللغة «الطرد والإبعاد» وحين ينسب اللعن إلى الله فإنه يعنى الحرمان من رحمته، أمّا كلمة «قاسية»: فهى فى الأصل مشتقة من المصدر «قساوة» وتطلق على الأخص على الحجر الصلد، ولذلك أطلقت على الذين لا يبدون أى مرونة من جانبهم أمام الحقائق التى تتكشف لهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٤

ولا يستبعد أن تكون علامات وآثار نبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله التى اشير إليها فى آيات قرآنية اخرى، جزءاً من الامور التى نسيها بنو إسرائيل - كما يحتمل أن تكون هذه الجملة القرآنية إشارة إلى ما حرفة أو نسيه جمع من علماء اليهود أثناء تدوينهم للتوراة من جديد بعد أن فقدت التوراة الأصلية، وإن ما وصل إلى هؤلاء من كتاب موسى الحقيقى كان جزءاً من ذلك الكتاب وقد اختلط بالكثير من الخرافات، وقد نسي هؤلاء حتى هذا الجزء الباقى من كتاب موسى عليه السلام.

ثم تتطرق الآية إلى ظاهرة خبيثة طالما برزت لدى اليهود - بصورة عامة - إلّما ندر منهم، وهى الخيانة التى كانت تتكشف للمسلمين بين فترة وأخرى. تقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ».

وفى الختام تطلب الآية من النبى صلى الله عليه وآله أن يعفو عن هؤلاء ويصفح عنهم، مؤكداً أن الله يحب المحسنين، وذلك فى قوله تعالى: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

إنّ العفو والصفح المطلوبان فى الآية يشملان - فقط - تلك الحالات التى كان اليهود يوجهون فيها أذاهم وتحرشاتهم واستفزازاتهم إلى النبى صلى الله عليه وآله ولا يشملان أخطاء اليهود وجرائمهم بحق الأهداف والمبادئ الإسلامية، حيث لا معنى للعفو فى هذا المجال.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) العداة الأبدى: لقد تناولت الآية السابقة ظاهرة نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه الله منهم، أمّا الآية الأخيرة - هذه - فهى تتحدث عن نقض العهد عند النصارى الذين نسوا قسماً من أوامر الله التى كلفوا بها - فتقول الآية فى هذا المجال: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ». فهذه الآية تدل بوضوح على أن النصارى - أيضاً - كانوا قد عقدوا مع الله عهداً على أن لا ينحرفوا عن حقيقة التوحيد، وأن لا ينسوا أوامر وأحكام الله، وأن لا يكتموا علانم خاتم النبيين لكنهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود.

أمّا كلمة «نصارى» التى وردت فى الآية فهى صيغة جمع نصرانى، ويحتمل أن يكون وجه التسمية ناشئاً عن قول المسيح عليه السلام كما تحكيه الآية (١٤) من سورة الصف عنه إذ تقول:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٥

«كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».

فسمى المسيحيون لذلك بالنصارى.

ولما كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، ويزعمون أنهم من أنصار المسيح عليه السلام يقول القرآن في هذه الآية: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى . وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ هَذِهِ، لِذَلِكَ تَسْتَرْدُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فَتَبَيَّنَ نَتِيجَةُ هَذَا الْإِدْعَاءِ الْكَاذِبِ، وَهُوَ اِنْتِشَارُ عِدَاءِ أَبَدِيٍّ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا تَقُولُ الْآيَةُ: «فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

كما ذكرت الآية نوعاً آخر من الجزاء والعقاب لهذه الطائفة النصرانية، وهو أنهم سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وسيرونها بأعينهم حيث تقول الآية: «وَسَوْفَ يُبْتَلُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نقض اليهود والنصارى لميثاقهم، جاءت الآية الأخيرة لتخاطب أهل الكتاب بصورة عامة وتدعوهم إلى الإسلام. وتبين الآية- في البداية- أن رسول الله صلى الله عليه وآله المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصة بالكتب السماوية التي أخفوها هم (أهل الكتاب) وكتموها عن الناس، وأن هذا الرسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التي انتفت الحاجة إليها وزال تأثيرها بزوال العصور التي نزلت لها، فتقول الآية في هذا المجال: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ».

وتشير الآية الكريمة- أيضاً- إلى أهميته وعظمته القرآن المجيد وآثاره العميقة في هداية وإرشاد وتربية البشرية، فتقول: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ». النور الذي يهدي به الله كل من يتبعى كسب مرضاته إلى سبيل السلام، كما تقول الآية الأخرى: «يَهْدِي بِهِ مَخْتَصِرُ الْأَمَثَلِ، ج ١، ص: ٥٠٦»

اللَّهُ مِنَ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ» وينقذهم من أنواع الظلمات (كظلمة الشرك وظلمة الجهل وظلمة التفرقة والنفاق وغيرها ...) ويهديهم إلى نور التوحيد والعلم والإتحاد، حيث تقول الآية: «وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ». وإضافته إلى ذلك كله يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج ولا انحراف في جانبيه العقائدي والعملية أبداً، كما تقول الآية: «وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله؟ جاءت هذه الآية الكريمة لتكمل بحثاً تطرقت إليه آيات سابقة، فحملت بعنف على دعوى ربوبية المسيح عليه السلام وبيّنت أن هذه الدعوى ما هي إلا الكفر الصريح، حيث قالت: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ».

ولكى يتضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أن للمسيحين عدّة دعاوى باطلّة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى: فهم أولاً: يعتقدون بالآلهة الثلاث (أى الثلاث) وقد أشارت الآية (١٧١) من سورة النساء إلى هذا الأمر.

وثانياً: إنهم يقولون: إن خالق الكون والوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاث ويسمونه بالإله الأب والقرآن الكريم يبطل هذا الاعتقاد- أيضاً- في الآية (٧٣) من سورة المائدة حيث يقول: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ».

وثالثاً: إن المسيحيين يقولون: إن الآلهة الثلاث مع تعددهم الحقيقي هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحياناً ب «الوحدة في التثليث» وهذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ». وقالوا: إن المسيح ابن مريم هو الله! وإن هذين الإثنين يشكّلان مع روح القدس حقيقة واحدة في ثلاثة متعددة!

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٧

بعد ذلك ولكي تبطل الآية الكريمة عقيدة الوهية المسيح عليه السلام تقول: «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا».

وهذه إشارة إلى أنه لو كان المسيح عليه السلام إلهاً لإستحال على خالق الكون أن يهلكه وتكون نتيجة ذلك أن تتحدد قدرة هذا الخالق ومن كانت قدرته محدودة لا يمكن أن يكون إلهاً، لأن قدرة الله كذاته لا تحدّها حدود مطلقاً (تدبر جيداً).

وفي الختام ترد الآية الكريمة على أقوال اولئك الذين اعتبروا ولادة المسيح من غير أب دليلاً على الوهيته فتقول: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». فالله قادر على أن يخلق إنساناً من غير أب ومن غير ام كما خلق آدم عليه السلام وهو قادر أيضاً على أن يخلق إنساناً من غير أب كما خلق عيسى المسيح عليه السلام وقدرة الله هذه كقدرته في خلق البشر من آباءهم وامهاتهم، وهذا التنوع في الخلق دليل على قدرته، وليس دليلاً على أي شيء آخر سوى هذه القدرة.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) استكمالاً للبحوث السابقة التي تناولت بعض إنحرافات اليهود والنصارى، تشير الآية الأخيرة إلى أحد الدعاوى الباطلة التي تمسك بها هؤلاء، فتقول: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ».

إن القرآن الكريم حارب كل هذه الإمتيازات والدعاوى الوهيمية، فهو لا يرى للإنسان امتيازاً إلا بالإيمان والعمل الصالح والتقوى، ولذلك تقول الآية الأخيرة في تفنيد وإبطال الإدعاء الأخير: «قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ». فهو لا - بحسب اعترافهم أنفسهم - يشملهم العذاب الإلهي حيث قالوا بأن العذاب يمسهم لأيام معدودة، فكيف يتلاءم ذلك الإدعاء وهذا الإعراف؟ وكيف يمكن أن يشمل عذاب الله أبناءه وأحباءه؟! ومن هنا يثبت أن لا أساس ولا صحة لهذا الإدعاء، وقد شهد تاريخ هؤلاء على أنهم حتى في هذه الدنيا ابتلوا بسلسلة من العقوبات الإلهية، ويعتبر هذا دليلاً آخر على زيف وبطلان دعاوهم تلك.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٨

ولكى تؤكد الآية الكريمة زيف وبطلان الدعوى المذكورة استطرقت تقول: «بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ». والقانون الإلهي عام، فإن الله «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ». وبالإضافة إلى ذلك فإن كل البشر هم من خلق الله، وهم عباده وأرقاؤه، وعلى هذا الأساس ليس من المنطق إطلاق اسم «ابن الله» على أي منهم، حيث تقول الآية: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا». وفي النهاية تعود المخلوقات كلها إلى الله، حيث تؤكد الآية هنا بقولها: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ وَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) تكرر هذه الآية الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتبين لهم أن النبي المرسل إليهم مرسل من عند الله، أرسله في عصر ظلت البشرية قبله فترة دون أن يكون لها نبي، فبين لهم هذا النبي الحقائق، لكي لا يقولوا بعد هذا إن الله لم يرسل إليهم من يهددهم إلى الصراط السوي ويبشرهم بلطف الله ورحمته ويحذّرهم من الانحراف والإعوجاج، وينذرهم بعذاب الله، حيث تقول الآية: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ».

«فترة»: تعني في الأصل الهدوء والسكينة كما تطلق على الفاصلة الزمنية بين حركتين أو جهدين أو نهضتين أو ثورتين. وقد شهدت الفاصلة الزمنية بين موسى وعيسى عليهما السلام عدداً من الأنبياء والرسل، بينما لم يكن الأمر كذلك في الفاصلة الزمنية بين عيسى عليه السلام والنبي محمّد صلى الله عليه وآله ولذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الفاصلة الأخيرة اصطلاح «فترة من الرُّسُلِ». والمعروف أن هذه الفترة دامت ستمائة عام تقريباً.

وفي الختام تؤكد الآية على شمولية قدرة الله عز وجل فتقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». وهذا بيان بأن إرسال الأنبياء والرسل وتعيين أوصيائهم أمر يسير بالنسبة لقدرة الله العزيز المطلقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٩

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَوْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ

وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتْوَكُلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) بنو إسرائيل والأرض المقدسة: جاءت هذه الآيات لتثير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق والسعي لمعرفة أولها، وإيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء والآثام التي ارتكبوها ثانياً، ولكي تحفزهم إلى السعي لتلافي أخطائهم والتعويض عنها، ويذكرهم القرآن في الآية الأولى بما قاله النبي موسى عليه السلام لأصحابه حيث تقول: «وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

وفي ظل هذه النعمة (نعمة وجود الأنبياء) نجا اليهود من هاوية الشرك والوثنية وعبادة العجل وتخلصوا من مختلف أنواع الخرافات والأوهام والقبايح والخبائث.

بعد هذا تشير الآية إلى أكبر نعمة مادية وهبها الله لليهود فتقول: «وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا» وتعتبر هذه النعمة - أيضاً - مقدمة للنعم المعنوية، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويلة من ذل العبودية في ظل الحكم الفرعوني، فلم يكونوا ليمتلكوا في تلك الفترة أى نوع من حرية الإرادة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٠

وتشير هذه الآية في آخرها إلى أن الله قد وهب بنى إسرائيل في ذلك الزمان نعماً لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر في ذلك الحين فتقول: «وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ».

وكانت هذه النعم الوفرة كثيرة الأنواع، فمنها نجاه بنى إسرائيل من مخالب الفراعنة الطغاة وإنفلاق البحر لهم ونزول غذاء خاص عليهم مثل «المن والسلوى».

و الآية التالية تبين واقعه دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة نقلًا عن لسان نبيهم موسى عليه السلام فتقول: «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ».

والمراد بعبارة «الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ» الواردة في الآية، كل أرض الشام التي تشمل جميع الاحتمالات الواردة، لأن هذه الأرض - كما يشهد التاريخ - تعتبر مهداً للأنبياء، ومهبطاً للوحي، ومحلاً لظهور الأديان السماوية الكبرى، كما أنها كانت لفترة طوال من التاريخ مركزاً للتوحيد وعبادة الله الواحد الأحد ونشر تعاليم الأنبياء.

وقد واجه بنو إسرائيل دعوة موسى عليه السلام للدخول إلى الأرض المقدسة مواجهة الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات في ظل الصدف والمعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد في هذا المجال، وردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السلام بقولهم كما تنقله الآية: «قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ» (١).

ويدل جواب بنى إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذي خلفه الحكم الفرعوني على نفوس هؤلاء.

والمراد من عبارة «قَوْمًا جَبَّارِينَ» فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقة» (٢) الذين

(١) «جَبَّارٌ»: مأخوذة أو مشتقة من الأصل «جبر» أى إصلاح الشيء بالقسر والإرغام، ولذلك سُمى إصلاح العظم المكسور «تجبيراً» فهذه الكلمة تطلق من جهة على كل نوع من التجبير والإصلاح، ومن جهة أخرى تطلق على كل أنواع التسلط القسرى، وحين تطلق كلمة «جَبَّارٌ» على الله سبحانه وتعالى فذلك إما لتسلطه على كل شيء، أو لأنه هو المصلح لكل موجود محتاج إلى الإصلاح.

(٢) «العمالقة»: قوم من العنصر السامى يعيشون فى شمال شبه جزيرة العرب بالقرب من صحراء سيناء، وقد هاجموا مصر واستولوا عليها

لفترات طويلة ودامت حكومتهم حوالي ٥٠٠ عام منذ عام ٢٢١٣ قبل الميلاد حتى عام ١٧٠٣ قبل الميلاد (دائرة المعارف لفريد وجدي ٢٣٢/٦٠).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١١

كانوا يمتلكون أجساماً ضخمة، وكانت لهم أطوال خارقة.

بعد هذا الحديث يشير القرآن الكريم إلى رجلين أنعم الله عليهما بالإيمان والتقوى والورع وشملهما بنعمه الكبيرة، فجمعا صفات الشجاعة والشهامة والمقاومة مع الدرك الاجتماعي والعسكري مما دفعهما إلى الدفاع عن اقتراح النبي موسى عليه السلام فواجهها بنى إسرائيل بقولهما: ادخلوا عليهم من باب المدينة، وحين تدخلون عليهم سيواجهون الأمر الواقع فتكونون أنتم المنتصرون، تقول الآية الكريمة في هذا المجال: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ».

وتؤكد الآية- بعد ذلك على ضرورة الاعتماد على الله في كل خطوة من الخطوات والاستمداد من روح الإيمان بقوله تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وما ذكره أغلب المفسرين حول هوية هذين الرجلين هو أنّهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوحنا» وهما من النقباء الإثني عشر في بنى إسرائيل.

والذي حصل حقيقة هو أنّ بنى إسرائيل لم يقتنعوا بأى من الإقتراحات المذكورة، فهم بسبب الضعف والجبن المتأصلين في نفوسهم خاطبوا موسى عليه السلام وأخبروه صراحة بأنهم لن يدخلوا تلك الأرض مادام العمالقة موجودين فيها، وطالبوا موسى أن يذهب هو وربّه لمحاربة العمالقة وسألوه أن يخبرهم عن إنتصاره حيث هم قاعدون، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ».

ثم نقرأ في الآية التالية أنّ موسى أصابه اليأس والقنوط من القوم، ورفع يديه للدعاء مناجياً ربّه قائلاً: إنّه لا يملك حرية التصرف إلّاعلى نفسه وأخيه، وطلب من الله أن يفصل بينهما وبين القوم الفاسقين العصاة، لكي يلقي هؤلاء جزء أعمالهم ويبادروا إلى إصلاح أنفسهم، حيث تقول الآية الكريمة في هذا المجال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

وبديهى إنّ رفض بنى إسرائيل القاطع لأمر نبيهم كان بمثابة الكفر.

وكانت نتيجة صلف وعناد بنى إسرائيل أنّهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب الله دعاء نبيه موسى عليه السلام فحرم عليهم دخول الأرض المقدسة، المليئة بالخيرات مدّة أربعين عاماً، وفي هذا المجال تقول الآية القرآنية الكريمة: «قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

وزادهم عذاباً إذ كتب عليهم التيه والضياع في البرارى والقفار طيلة تلك الفترة، حيث تقول الآية في ذلك: «يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٢

بعد ذلك تذكر الآية أنّ ما نال بنى إسرائيل من عذاب في تلك المدّة، كان مناسباً لما فعلوه، وتطلب من موسى عليه السلام أن لا يحزن على المصير الذي لا قوه حيث تقول الآية الكريمة:

«فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) أول حادثة قتل على الأرض: لقد تناولت هذه الآيات الثلاث الأخيرة قصّة ولدى آدم عليه السلام وكيف قتل أحدهما أخاه، ولعل وجه الصلة بين هذه الآيات والآيات التي سبقتها في شأن بنى إسرائيل، هو غريزة «الحسد» التي كانت دائماً أساساً للكثير من مخالفات وانتهاكات بنى إسرائيل حيث يحذرهم الله في هذه الآيات من مغبة وعاقبة الحسد الوخيمة القاتلة، التي تؤدّي أحياناً إلى أن يعمد أخ إلى قتل أخيه! والآية تقول في هذا المجال لنبي الله أن يتلو على قومه قصّة



ولدى آدم: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ».

ولعل استخدام كلمة «بالحق» في هذه الآية جاء للإشارة إلى أن القصّة المذكورة قد أضيفت لها خرافات مختلفة، وليبان أن القرآن الكريم جاء بالقصة الحقيقية التي حصلت بين ولدي آدم عليه السلام.

وتواصل الآية سرد القصّة فنقول: «إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ». وقد أدت هذه الواقعة إلى أن يهدد الأخ- الذي لم يتقبل الله القربان منه- أخاه بالقتل ويقسم أنه قاتله لا محالة، كما جاء في قوله تعالى في الآية: «قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ».

أمّا الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيراً إلى أن عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علمه في عمله، وأنه ليس لأخيه أي ذنب في رفض القربان، مؤكداً أن الله يقبل أعمال المتقين فقط حيث تقول الآية: «قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

وأكد له أنه لو نفذ تهديده وعمد إلى قتله، فإنه- أي الأخ الذي تقبل الله منه القربان- لن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٣

يمد يده لقتل أخيه، فهو يخاف الله ويخشاه، ولن يرتكب أو يلوث يده بمثل هذا الإثم، حيث تقول الآية: «لَئِنْ بَسَّطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذْنِ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

وأضاف هذا الأخ الصالح- مخاطباً أخاه الذي أراد أن يقتله- أنه لا يريد أن يتحمل آثام الآخرين، قائلاً له: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ» (١). (أي لأنك إن نفذت تهديدك فستتحمل ذنوبي السابقة أيضاً، لأنك سلبت مني حق الحياة وعليك التعويض عن

ذلك، ولما كنت لا- تمتلك عملاً صالحاً لتعوض به، فما عليك إلّا أن تتحمل إثمي أيضاً، وبديهي أنك لو قبلت هذه المسؤولية الخطيرة فستكون حتماً من أهل النار، لأن النار هي جزاء الظالمين) كما تقول الآية: «فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ».

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) التستر على الجريمة: تواصل هاتان الآيتان بقيّة الواقعة

التي حصلت بين إبنی آدم عليه السلام فتبين الآية الاولى منهما أن نفس قابيل هي التي دفعته إلى قتل أخيه فقتله، حيث تقول: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ».

«طوع»: تأتي في الأصل من «الطاعة» لذلك يستدل من هذه العبارة على أن قلب «قابيل» بعد أن تقبل الله قربان أخيه هابيل أخذت تعصف به الأحاسيس والمشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد وكانت تدفعه إلى الانتقام من أخيه «هابيل» ومن جانب آخر كانت عواطفه الإنسانية وشعوره الفطري بقبح الذنب والظلم والجور وقتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رويداً رويداً على مشاعره الرادعة فطوّعت ضميره الحي وكبّلته بقيودها واعدته لقتل أخيه.

وتشير الآية- في آخرها- إلى نتيجة عمل «قابيل» فنقول: «فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

فأى ضرر أكبر من أن يشتري الإنسان لنفسه عذاباً سيلزمه إلى يوم القيامة ويشمل

(١) «تبوء»: مشتقة من المصدر «بواء» أي «العودة».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٤

عذاب الضمير وعقاب الله والعار الأبدى! وتفيد بعض الروايات المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام أن قابيل حين قتل أخاه ترك جثته في العراء حائراً لا- يدرى ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسة على جثته «هابيل» فاضطر «قابيل» (ربّما

نتيجة لضغط وجداني شديد) إلى حمل جثته أخيه مدّة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحة أحاطت به وهي تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانية وفي تلك الأثناء بعث الله غراباً (كما تصرّح الآية) فأخذ يحفر الأرض ويزيح التراب

ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفي جزءاً من طعامه- كما هي عادة الغربان- وليدل بذلك «قابيل» كيف يدفن جثته أخيه، حيث

تقول الآية الكريمة: «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ» (١).

ثم تشير الآية الكريمة إلى أن قاييل استاء من غفلته وجهله، فأخذ يؤنب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه مثله، فتقول الآية: «قَالَ يَا وَيَلَّتَىٰ أُعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِي». وكانت العاقبة أن ندم قاييل على فعلته الشنيعه كما تقول الآية: «فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ».

فى تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآية مورد البحث، عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «لا تقتل نفس ظلماً إلاً كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل».

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَ تَهُم رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعِيدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُشِرُّوْنَ (٣٢) وحده الإنسانية وكرامتها: إن هذه الآية تقوم باستخلاص نتيجة إنسانية كلية بعد الآيات التي تطرقت إلى قصة ولدى آدم عليه السلام. ففي البداية تشير الآية إلى حقيقة اجتماعية

(١) جاء فى تفسير مجمع البيان أن كلمة «يبحث»: معناها فى الأصل هو البحث عن شىء فى التراب ثم استعملت فى مختلف أنواع البحوث. أما كلمة «سوءة»: فهى تعنى كل شىء يستاء الإنسان من رؤيته ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميت وعلى عورة الإنسان.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٥

تربوية مهمية، وهى أن قتل أى إنسان، إن لم يكن قصاصاً لقتل إنسان آخر، أو لم يكن بسبب جريمة الإفساد فى الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشرى بأجمعه، كما أن إنقاذ أى إنسان من الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانية كلها من الفناء، حيث تقول الآية الكريمة: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» (١).

ويرد هنا سؤال وهو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساوياً لقتل الناس جميعاً، وكيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟

ولقد وردت أجوبة عديدة من قبل المفسرين على هذا السؤال ....

وكما قلنا فى بداية تفسير هذه الآية، فإنها تتحدث عن حقيقة اجتماعية تربوية، لأنه:

أولاً: إن من يقتل إنساناً بريئاً ويلطخ يده بدم برىء يكون مستعداً لقتل أناس آخرين يساوونه فى الإنسانية والبراءة، فهو إنسان قاتل، وضحيته إنسان آخر برىء، ومعلوم أنه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاوية.

كما أن أى إنسان يقوم - بدافع حب النوع الإنسانى - بإنقاذ إنسان آخر من الموت، يكون مستعداً للقيام بعملية الإنقاذ الإنسانية هذه بشأن أى إنسان آخر.

ونظراً لكلمة «فكأنما» التى يستخدمها القرآن فى هذا المجال، فإننا نستدل بأن موت وحياء إنسان واحد مع أنه لا يساوى موت وحياء المجتمع إلاً أنه يكون شبيهاً بذلك.

وثانياً: إن المجتمع يشكل كياناً واحداً، وعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد وأن أى ضرر يصيب أحد أعضائه يكون أثره واضحاً - بصورة أو بأخرى فى سائر الأعضاء.

ومن جانب آخر فإن إحياء فرد من أفراد المجتمع يكون - لنفس السبب الذى ذكرناه - بمثابة إحياء جميع أفراد المجتمع.

وتبين هذه الآية بجلاء أهمية حياة وموت الإنسان فى نظر القرآن الكريم، وتتجلى عظمه هذه الآية أكثر حين نعلم أنها نزلت فى محيط لم يكن يعير أى أهمية لدماء أفراد الإنسانية.

جاء في تفسير نور الثقلين: سأل شخص الإمام الصادق عليه السلام عن هذه الآية فأجابه قائلاً:

(١) «أجل»: على وزن «نخل» تعنى فى الأصل الجريمة، وقد شاع استعمالها فيما بعد فى كل عمل له عاقبة سيئة، ثم استعملت لكل عمل ذى عاقبة، وهى الآية تستخدم للتعليل أو بيان علّة الشىء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٤

«من حرق أو غرق»- ثم سكت- ثم قال: «تأويلها الأ-عظم أن دعاها فاستجاب له». وفحوى قول الإمام الصادق عليه السلام فى هذه الرواية هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثم يستطرد الإمام- بعد سكوت- فيبين أن التأويل الأعظم لهذه الآية هو دعوة الغير إلى طريق الحق والخير أو الباطل والشر، وتحقق القبول من الجانب الآخر المخاطب بهذه الدعوة.

وتشير الآية- فى آخرها- إلى انتهاكات بنى إسرائيل، فتؤكد أن هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلا أن الكثير منهم قد نقضوا وانتهكوا القوانين الإلهية واتبعوا سبيل الإسراف فى حياتهم، حيث تقول الآية: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ».

إن كلمة «إسراف» لها معان واسعة، تشمل كل تجاوز أو تعد عن الحدود ولو أنها تستخدم فى الغالب فى مجال الهبات والنفقات. إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

سبب التزول

فى تفسير القرطبي عن أنس بن مالك: أن قوماً من عكّل (١)- أو قال من عرينة- قدموا على رسول الله فاجتؤوا (٢) المدينة؛ فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وآله بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وأبائها فانطلقوا فلما صحّوا قتلوا راعى النبی صلى الله عليه وآله واستاقوا النعم؛ فبلغ النبی صلى الله عليه وآله خبرهم من أول النهار فأرسل فى آثارهم؛ فما ارتفع النهار حتى جىء بهم؛ فأمر بهم فقطعت

(١) عكل (بضم العين المهملة وسكون الكاف): قبيلة مشهورة.

(٢) أى أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف إذا تناول، ذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموا.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٧

أيديهم وأرجلهم وسمر (١) أعينهم وألقوا فى الحرة (٢) يستسقون فلا يسقون.

قيل: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله. وفى رواية: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم؛ وفى رواية فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله فى طلبهم قافه فاتى بهم؛ قال: فأنزل الله تبارك وتعالى فى ذلك الآية.

التفسير

جزاء مرتكب العدوان: تكمل الآية الاولى- من الآيتين الأخيرتين- البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول قتل النفس، وتبين جزاء وعقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين، وينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بارتكاب القتل، فتقول: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ».

ومعنى قطع الأيدي والأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

والذى يلفت الإنتباه فى هذه الآية هو أنها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب وممارسة العدوان ضد الله ورسوله، وهذه النقطة تبين بل تثبت مدى اهتمام الإسلام العظيم بحقوق البشر ورعاية أمنهم وسلامتهم.

وفى الختام تشير الآية إلى أن هذه العقوبات هى لفضح المجرمين فى الدنيا، وسوف لا يتوقف الأمر على هذه العقوبات، بل سينالون يوم القيامة عقاباً أشد وأقسى حيث تقول الآية: «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ويستدل من هذه الجملة القرآنية على أن العقوبات الإسلامية الدنيوية التى تنفذ فى المجرمين لن تكون حائلًا دون نيلهم لعقاب الآخرة، ولكن طريق العودة والتوبة لا يغلق حتى بوجه مجرمين خطيرين كالذين ذكرتهم الآية إن هم عادوا إلى رشدهم وبادروا إلى إصلاح أنفسهم، ولكى يبقى مجال التعويض عن الأخطاء مفتوحاً تقول الآية الثانية: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وبديهى أن توبه هؤلاء فى مثل هذه الجرائم لها تأثير فى ما يخص الله فقط، أما حق الناس فلا يسقط بالتوبة ما لم يرض صاحب الحق.

(١) سمر عين فلان: سملها (فقاها).

(٢) الحره (بفتح الحاء و تشديد الراء): أرض خارج المدينة ذات حجارة سود.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) حقيقة التوسل إلى الله: توجه هذه الآية الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمن تكاليف ثلاثة يؤدى الالتزام بها وتطبيقها إلى نيل الفلاح، وهذه التكاليف هى:

١- إتباع الحيطة والتقوى، كما تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ».

٢- إختيار وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، حيث تقول الآية: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ».

٣- الجهاد فى سبيل الله، إذ تقول الآية: «وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ».

وستكون نتيجة الإلتزام بهذه التكاليف الإلهية وتطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام والإيمان فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

«الوسيلة»: فى الأصل بمعنى نشدان التقرب وعلى هذا الأساس فإن كلمة «الوسيلة» الواردة فى هذه الآية لها معان كثيرة واسعة، فهى تشمل كل عمل أو شىء يؤدى إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وأهم الوسائل فى هذا المجال، كما يقول الإمام أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى خطبه (١١٠) فى نهج البلاغه منها: «إن أفضل ما توصل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به وبرسوله والجهاد فى سبيله فإنه ذروة الإسلام وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة، وإقام الصلاة فإنها الملة» (١) وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة وصوم رمضان فإنه جنه من العقاب وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان «٢» الذنب وصله الرحم فإنها مشاة «٣» فى المال ومنسأة «٤» فى الأجل وصدقة السيرة فإنها تكفر الخطيئة وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء وصنائع المعروف فإنها تقى مصارع الهوان».

كما أن شفاعه الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحين تقرب - أيضاً - إلى الله وفق ما نص عليه القرآن الكريم، وهى داخله فى المفهوم الواسع لكلمه «الوسيلة».

(١) الملة: شريعة الإسلام.

(٢) يرحضان: يطهران أو يغسلان.

(٣) مشاة: مكثرة.

(٤) منسأة: مطيلة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٩

والجدير بالذكر هنا هو أن المراد من التوسل لا يعنى - أبداً - طلب شيء من شخص النبي أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن - عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النبي والإمام - بطلب الشفاعة منهم إلى الله، أو أن يقسم بجاههم وبدينهم (وهذا يعتبر نوعاً من الإحترام لمنزلتهم وهو نوع من العبادة) ويطلب من الله بذلك حاجته، وليس في هذا المعنى أى أثر للشرك، كما لا يخالف الآيات القرآنية الأخرى، ولا يخرج عن عموم الآية الأخيرة موضوع البحث «فتدبر».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) تعقيباً على الآية السابقة التي كلّفت المؤمنين بالتقوى والجهاد وإعداد الوسيلة، جاءت الآيتان الأخيرتان وهما تشيران إلى مصير الكافرين وتؤكدان أنهم مهما بذلوا - حتى لو كان كل ما في الأرض أو ضعفه - في سبيل إنقاذ أنفسهم من عذاب يوم القيامة، فلن يقبل منهم ذلك - وأنهم سينالون العذاب الشديد، فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

بعد ذلك تشير الآية التالية إلى استمرار عذاب الله، وتوضح أن الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدروا على ذلك، وأن عذابهم ثابت وبق لا يتغير، كما تقول الآية: «يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ». وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعِذُّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٠

عقوبة السرقة: لقد بينت آيات سابقة عقاب وحكم المحارب الذي يتعرض لأرواح وأموال ونواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح، أمّا الآيات الثلاث الأخيرة فهي تبين حكم السارق والسارقة أي الفرد الذي يسرق خلسة أموال وممتلكات الناس، فتقول الآية أولاً: «وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا».

وقد قدمت هذه الآية الرجل السارق على المرأة السارقة، بينما الآية التي ذكرت حد وعقوبة الزنا قد قدمت المرأة الزانية على الرجل الزانى، ولعل هذا التفاوت ناشى عن حقيقة أن السرقة غالباً ما تصدر عن الرجال، بينما النساء الخليعات المستهترات يشككن في الغالب العامل والعنصر المحفّز للزنا!

بعد ذلك تبين الآية أن العقوبة المذكورة هي جزاء من الله لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: «جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ».

ولكى لا يتوهم الناس وجود الإجحاف في هذه العقوبة، تؤكد الآية - في آخرها - على أن الله عزيز، أى قادر على كل شيء، فلا حاجة له للإنتقام من الأفراد، وهو حكيم - أيضاً - ولا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآية: «وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

أمّا الآية الثانية فهي تفتح لمن ارتكب هذه المعصية باب العودة والتوبة، فتقول: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

والسؤال الوارد هنا هو: هل أن التوبة وحدها تكفى لغفران الذنب فقط، أم أنها تسقط عنه حد أو عقوبة السرقة أيضاً؟

إن المعروف لدى فقهاء الشيعة أن مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تثبت سرقة في محكمة إسلامية يسقط عنه حد السرقة أيضاً، أمّا إذا

شهد عادلان على سرقته فإن التوبه لا تسقط عنه الحد.

ثم توجه الآية الاخرى الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢١

يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ لَمَّا يُحْزِنُكَ الَّذِينَ يَسِيرَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحْزِنُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصْرِفُوا عَنْهُمْ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: إن إمراة من خيبر ذات شرف بينهم، زنت مع رجل من أشرافهم، وهما محصنان، فكرهوا رجمهما فأرسلوا إلى يهود المدينة، وكتبوا إليهم، أن يسألوا النبي عن ذلك، طمعاً في أن يأتي لهم برخصة، فانطلق قوم منهم: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، وشعبة بن عمرو، ومالك بن الصيف، وكنانة بن أبي الحقيق، وغيرهم فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدّهما؟ فقال: «وهل ترضون بقضائي في ذلك؟» قالوا: نعم. فنزل جبرائيل بالرجم، فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبرائيل: اجعل بينك وبينهم ابن سوريا، ووصفه له. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «هل تعرفون شاباً أمرد، أبيض، أعور، يسكن فداً يقال له ابن سوريا؟» قالوا: نعم. قال: «فأى رجل هو فيكم؟» قالوا: أعلم يهودى بقى على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى. قال: «فأرسلوا إليه». ففعلوا فأتاهم عبد الله بن سوريا، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «إني أنشدك الله الذى لا إله إلا هو، الذى أنزل التوراة على موسى، وخلق لكم البحر، وأنجاكم، وأغرق آل فرعون، وظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المن والسلوى، هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن؟» قال ابن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٢

سوريا: نعم. والذى ذكرتني به، لولا خشية أن يحرقني ربّ التوراة إن كذبت أو غيرت، ما اعترفت لك ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمّد؟ قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول، أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة، وجب عليه الرجم». قال ابن سوريا: هكذا أنزل الله في التوراة على موسى. فقال له النبي: «فماذا كان أول ما ترخصتم به أمر الله؟» قال: كنا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد، فكثر الزنا فى أشرفنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه، فقال له قومه: لا- حتى ترجم فلاناً، يعنون ابن عمه. فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم، يكون على الشريف والوضيع فوضعا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة، ثم يسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين ويجعل وجوههما من قبل دبر الحمار، ويطاف بهما. ففعلوا هذا مكان الرجم. فقالت اليهود لابن سوريا: ما أسرع ما أخبرته به، وما كنت لما أتينا عليك بأهل ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتائبك! فقال: إنه أنشدني بالتوراة، ولولا ذلك لما أخبرته به. فأمر بهما النبي فرجما عند باب مسجده. وقال: «أنا أول من أحيا أمرك إذ أماتوه». فأنزل الله فيه: «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير» فقام ابن سوريا، فوضع يديه على ركبتي رسول الله، ثم قال: هذا مقام العائذ بالله وبك، أن تذكر لنا الكثير الذى أمرت أن تعفو عنه، فأعرض النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك.

ثم سأله ابن سوريا عن نومه؟ فقال: «تنام عيناي ولا ينام قلبي». فقال: صدقت، وأخبرني عن شبه الولد بأبيه، ليس فيه من شبه أمه شيء، أو بأمه ليس فيه من شبه أبيه شيء؟ فقال: «أيهما علا وسبق ماء صاحبه، كان الشبه له». قال: قد صدقت، فأخبرني ما للرجل من الولد

وما للمرأة منه؟ قال: فأغشى على رسول الله طويلاً ثم خلى عنه محمراً وجهه يفيض عرقاً، فقال: «اللحم، والدم، والظفر، والشحم للمرأة والعظم والعصب والعروق للرجل». قال له: صدقت أمرك أمر نبي. فأسلم ابن سوريا عند ذلك، وقال: يا محمد من يأتيك من الملائكة؟ قال: «جبرائيل». قال: صفه لي. فوصفه النبي صلى الله عليه وآله فقال: أشهد أنه في التوراة كما قلت، وأنتك رسول الله حقاً. فلما أسلم ابن سوريا، وقعت فيه اليهود وشتموه فلما أرادوا أن ينهضوا تعلقت بنو قريضة ببني النضير فقالوا: يا محمد إخواننا بنو النضير: أبونا واحد، وديننا واحد، ونبينا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٣

واحد، إذا قتلوا منا قتيلاً لم يُقد وأعطونا ديتة سبعين وسقاً من تمر وإذا قتلنا منهم قتيلاً، قتلوا القاتل، وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقاً من تمر، وإن كان القاتل امرأة قتلوا بها الرجل من رجلين منّا، وبالعبء الحر منا وجراحاتنا على النصف من جراحاتهم، فاقض بيننا وبينهم فأنزل الله في الرجم والقصاص الآيات.

التفسير

التحكيم بين الأنصار والأعداء: تدل هاتان الآيتان والآيات التي تليهما، على أن للقاضي المسلم الحق - في ظل شروط خاصة - في الحكم في جرائم الطوائف الأخرى من غير المسلمين. لقد بدأت الآية الأولى الخطاب بعبارة: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ». وربما جاء استخدام هذا التعبير من أجل إثارة أكثر لدافع الشعور بالمسؤولية لدى النبي صلى الله عليه وآله.

بعد ذلك تظمن الآية النبي صلى الله عليه وآله - كتمهيد لبيان الحكم التالي - فتقول: «لَا يَخْرُجُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ».

وبعد أن تذكر الآية تجاوزات المنافقين والأعداء الداخليين، تتناول وضع الأعداء الخارجيين واليهود الذين كانوا سبباً لحزن النبي صلى الله عليه وآله فتقول الآية: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا».

ثم تشير الآية إلى قسم من تصرفات هؤلاء المشوبة بالنفاق والرياء، فتؤكد أنهم إنما يستمعون كلام النبي لا لأجل اطاعته، بل لكي يجعلوا من ذلك وسيلة لتكذيب النبي والإفراء عليه حيث تقول الآية: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ».

ثم توضح الآية الصفة الثالثة لليهود، فتبين أنهم يتجسسون على المسلمين لمصلحة قوم آخرين ممن لا يحضرون الاجتماعات الإسلامية التي تعقد في مجلس النبي صلى الله عليه وآله فتقول الآية:

«سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ».

ثم تذكر الآية انحرافاً آخر لهؤلاء اليهود، فتشير إلى تحريفهم لكلام الله سبحانه وتعالى من خلال تحريف الألفاظ أو تحريف المعاني الواردة في هذا الكلام، فهم إن وجدوا في كلام الله حكماً يخالف مصالحهم أولوه أو رفضوه جملة وتفصيلاً، كما تقول الآية: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ».

والأعجب من ذلك أن هؤلاء قبل أن يحضروا مجلس النبي كانوا يقررون كما يأمرهم كبارهم أنهم إن تلقوا من محمد صلى الله عليه وآله و آله حكماً موافقاً لميولهم وأهوائهم قبلوا به، وإن كان مخالفاً لهوى أنفسهم ردوه وابتعدوا عنه، تقول الآية الكريمة: «يَقُولُونَ إِنِ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٤

تَوَاتَوْهُ فَاخِرُورُوا». فهؤلاء قد غرقوا في الضلال بحيث لم يبق أمل في هدايتهم، فاستحقوا بذلك عذاب الله ولم تعد تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً». وقد تدنس قلوب هؤلاء إلى درجة لم تعد قابلة للتطهير، وحرّمهم الله لذلك طهارة القلوب، فتقول الآية: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ». وعمل الله مقرون بالحكمة دائماً، لأن من يقضى عمراً في الانحراف ويمارس النفاق والكذب ويخالف الحق ويرفض الحقيقة، ويحرف قوانين الله لن

يبقى له مجال للتوبة والعودة إلى الحق، حيث تقول الآية الكريمة في هذا المجال: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». أمّا الآية الثانية فتؤكد - مرة أخرى - على أن هؤلاء لديهم آذان صاغية لإستماع حديث النبي صلى الله عليه وآله لا لإطاعته بل لتكذيبه، أو كما يقول تفسير آخر فإن هؤلاء آذانهم صاغية لإستماع أكاذيب كبارهم، فتقول الآية: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ». كما أضافت الآية صفة شنيعة أخرى اتّصف بها اليهود وهي تعودهم وادمانهم على أكل الأموال المحرّمة والباطلة من الربا والرشوة وغير ذلك، حيث تقول الآية: «أَكَاوُنَ لِلسُّحْتِ» (١).

ثم تخير الآية النبي صلى الله عليه وآله بين أن يحكم بينهم أو أن يتجنبهم ويتركهم، حيث تقول الآية: «فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ».

ولكى تعزز الآية الإطمئنان في نفس النبي صلى الله عليه وآله - إن هو ارتأى الإعراض عن هؤلاء لمصلحة - أكدت قائلة: «وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا».

كما أكدت ضرورة إتباع العدل وتطبيقه إذا كانت الحالة تقتضى أن يحكم النبي بين هؤلاء فقالت الآية: «وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)

(١) «سحت»: في الأصل نزع القشرة، أو شدة الجوع، ثم اطلقت على كل مال غير مشروع، أى محرّم، وبالأخص الرشوة، لأن مثل هذه الأموال تنزع الصفاء والمودة عن المجتمع وتزيل عنه البركة والرخاء مثلما يؤدى نزع قشر الشجرة إلى ذبولها وجفافها. مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٥

تتابع هذه الآية موضوع الحكم بين اليهود الذى تطرقت إليه الآيات السابقتان اللتان بينتا أن اليهود كانوا يأتون إلى النبي صلى الله عليه وآله ويطلبون منه الحكم فىهم وقد أظهرت هذه الآية الأخيرة الإستغراب من حالة اليهود الذين كانوا مع وجود التوراة بينهم واحتوائها على حكم الله، يأتون إلى النبي محمّد صلى الله عليه وآله ويطلبون منه الحكم فىهم بالرغم من وجود التوراة عندهم، فتقول: «وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ».

والعجيب فى أمر هؤلاء اليهود أنهم حين كانوا يطلبون التحكيم من نبي الإسلام بينهم، كانوا لا يقبلون بحكمه إذا كان مطابقاً لحكم التوراة لكنّه لم يوافق ميولهم ورغباتهم حيث تقول الآية: «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» وما ذلك إلا لأن هؤلاء لم يكونوا بمؤمنين، ولو كانوا مؤمنين لما استهزؤوا هكذا بأحكام الله، حيث تؤكد الآية قائلة: «وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتُّونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَمَّا تَخَشَّوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْا لِمَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) إن هذه الآية والآية التى تليها تكملان البحث أو الموضوع الوارد فى الآيات السابقة، وتبين هذه الآية أهمية الكتاب السماوى الذى نزل على النبي موسى عليه السلام أى التوراة، حيث تشير إلى أن الله أنزل هذا الكتاب وفيه الهداية والنور اللذان يرشدان إلى الحق، وأنّ النور والضياء الذى فيه هو لإزاحة ظلمات الجهل من العقول فتقول الآية: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ».

ولذلك فإنّ الأنبياء الذين أطاعوا أمر الله، والذين تولّوا مهامهم بعد نزول التوراة كانوا يحكمون بين اليهود بأحكام هذا الكتاب، تقول الآية الكريمة: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا».

كما أنّ علماء اليهود ووجاههم ومفكرىهم المؤمنين الأتقياء، كانوا يحكمون وفق هذا الكتاب السماوى الذى وصل أمانه بأيديهم وكانوا شهوداً عليه، حيث تقول الآية:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٦



«وَالرَّبَّائِيُونَ وَالْأَجْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» (١). ثم توجه الآية الخطاب إلى اولئك العلماء والمفكرين من اليهود الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر، فتطلب منهم أن لا يخافوا الناس لدى بيان أحكام الله، بل عليهم أن يخافوا الله، فلا تسؤل لهم أنفسهم مخالفة أو امره أو كتمان الحق، وإن فعلوا ذلك فسيلقون الجزاء والعقاب، فتقول الآية هنا: «فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوْنِ». ثم تحذر الآية من الاستهانة والاستخفاف بآيات الله، فتقول: «وَلَا تَسْتَرْوُا بآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا».

وحقيقته كتمان الحق وأحكام الله نابعة إما عن الخوف من الناس، وإما بدافع المصلحة الشخصية، وأياً كان السبب فهو دليل على ضعف الإيمان وانحطاط الشخصية، وقد أشير في الجمل القرآنية أعلاه إلى هذين السببين. وتصدر الآية حكماً صارماً وحازماً على مثل هؤلاء الأفراد الذين يحكمون خلافاً لما أنزل الله فتقول: «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

وواضح أن عدم الحكم بما أنزل الله يشمل السكوت والابتعاد عن حكم الله الذي يؤدي بالناس إلى الضلال، كما يشمل التحدث بخلاف حكم الله.

وتبين هذه الآية - أيضاً - المسؤولية الكبرى التي يتحملها علماء ومفكرها كل أمه حيال العواصف الاجتماعية، والأحداث التي تقع في بيئاتهم، وتدعو بأسلوب حازم لمكافحة الانحرافات وعدم الخوف من أي بشر - كائناً من كان - لدى تطبيق أحكام الله. وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) القصاص أو العفو: تشرح هذه الآية الكريمة قسماً آخر من الأحكام الجنائية والحدود الإلهية التي وردت في التوراة، فتشير إلى ما ورد في هذا الكتاب السماوي من أحكام وقوانين تخص القصاص، وتبين أن من يقتل انساناً بريئاً فإن لأوليائه القتل حق القصاص من

(١) «أخبار»: صيغته جمع من «حبر» (على وزن فكر) فهي تعني كل أثر خير، اطلقت على المفكرين الذين يخلفون أثراً خيراً في مجتمعهم، ويطلق أيضاً على حبر الدواة الذي يستعمل للكتابة لما فيه من أثر خير.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٧

القاتل بقتله، نفساً بنفس. حيث تقول الآية في هذا المجال: «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ».

كما بينت أن من يصيب عين انسان آخر ويتلفها، يستطيع هذا الإنسان المتضرر في عينه أن يقتص من الفاعل ويتلف عينه، إذ تقول الآية في هذا المجال: «وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ».

وكذلك الحال بالنسبة للأنف والأذن والسن والجروح الاخرى، «وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ».

وعلى هذا الأساس فإن حكم القصاص يطبق بشكل عادل على المجرم الذي يرتكب أحد الجرائم المذكورة.

وقد أنهت هذه الآية التمايز غير العادل الذي كان يمارس في ذلك الوقت.

ولكى لا يحصل وهم أن القصاص أو المقابلة بالمثل أمر إلزامي لا يمكن الحيدة عنه، استدركت الآية بعد ذكر حكم القصاص بينت أن الذي يتنازل عن حقه في هذا الأمر ويعفو ويصفح عن الجاني، يعتبر عفو كفاً له عن ذنوبه بمقدار ما يكون للعفو من أهمية «فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ».

وفي الختام تؤكد الآية قائلة: «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». وأي ظلم أكبر من الإنجرار وراء العاطفة الكاذبة، وترك القاتل دون أن ينال قصاصه العادل بحجة أن الدم لا يغسل بالدم، وفسح المجال للقتلة للتماذي بارتكاب جرائم قتل اخرى، وبالنهاية الإساءة عبر هذا التغاضي إلى أفراد أبرياء، وممارسة الظلم بحقهم نتيجة لذلك.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصِئًا دَقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ مِنَ التَّوْرَةِ

وَهُدَىٰ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) بعد الآيات التي تحدّثت عن التوراة جاءت هذه الآية، وهي تشير إلى حال الإنجيل وتؤكد بعثه ونبوّه المسيح عليه السلام بعد الأنبياء الذين سبقوه، وتطابق الدلائل التي جاء بها مع تلك التي وردت في التوراة، حيث تقول الآية: «وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ».

ثم تشير الآية الكريمة إلى انزال الإنجيل على المسيح عليه السلام وفيه الهداية والنور فتقول:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٨

«وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ». إن كلمة التور التي اطلقت في القرآن الكريم على التوراة والإنجيل، إنّما عنت التوراة والإنجيل الأصليين الحقيقيين.

بعد ذلك تكرر الآية التأكيد على أن عيسى عليه السلام لم يكن وحده الذي أيد وصدّق التوراة، بل إن الإنجيل - الكتاب السماوي الذي نزل عليه - هو الآخر شهد بصدق التوراة حيث تقول الآية: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ».

وفي الختام تؤكد الآية أن هذا الكتاب السماوي قد حوى سبل الرشاد والهداية والمواعظ للناس المتقين، حيث تقول: «وَهُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

وَلِيُحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) الإمتناع عن الحكم بالقانون الإلهي: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى نزول الإنجيل، أكّدت هذه الآية محل البحث أن حكم الله يقضى أن يطبق أهل الإنجيل ما أنزله الله في هذا الكتاب من أحكام، فتقول الآية: «وَلِيُحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ».

فالمراد هو أن المسيحيين تلقوا الأوامر من الله بعد نزول الإنجيل بأن يعملوا بأحكام هذا الكتاب وأن يحكموها في جميع قضاياهم. وتؤكد هذه الآية - في النهاية - فسق الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل الله من أحكام وقوانين فتقول: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

ويلفت النظر اطلاق كلمة «الكافر» مرّة و «الظالم» اخرى و «الفاسق» ثلثه، في الآيات الأخيرة على الذين يمتنعون عن تطبيق أحكام الله، ولعلّ هذا التنوع في اطلاق صفات مختلفة إنّما هو لبيان أن لكل حكم جوانب ثلاثة:

أحدها: ينتهي بالمشرع الذي هو الله.

والثاني: يمسّ المنفذين للحكم (الحاكم أو القاضي).

الثالث: يرتبط بالفرد أو الأفراد الذين يطبق عليهم الحكم.

أى إن كل صفة من الصفات الثلاث المذكورة قد تكون إشارة إلى واحد من الجوانب الثلاثة، لأنّ الذي لا يحكم بما أنزل الله يكون قد تجاوز القانون الإلهي وتجاهله، فيكون قد

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٩

كفر بغفلته هذه، ومن جانب آخر إرتكب الظلم والجور - بابتعاده عن حكم الله - على إنسان برىء مظلوم، وثالثاً: يكون قد خرج عن حدود واجباته ومسؤوليته، فيصبح بذلك من الفاسقين.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) تشير هذه الآية إلى موقع القرآن بعد أن ذكرت الآيات السابقة الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء السابقين.

«مهيمن»: تطلق في الأصل على كل شيء يحفظ ويراقب أو يؤتمن على شيء آخر ويصونه، ولمّا كان القرآن الكريم يشرف في الحفاظ على الكتب السماوية السابقة وصيانتها من التحريف إشرافاً كاملاً ويكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث

تقول الآية: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ».

فالقرآن بالإضافة إلى تصديقه الكتب السماوية السابقة، اشتمل - أيضاً - على دلائل تتطابق مع ما ورد في تلك الكتب، فكان بذلك حافظاً وصائناً لها.

ثم تؤكد على النبي صلى الله عليه وآله - انطلاقاً من الحقيقة المذكورة - ضرورة الحكم بتعاليم وقوانين القرآن بين الناس، حيث تقول: «فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ».

ثم تؤكد عليه أن يتعد عن أهواء وميول أهل الكتاب، الذين يريدون أن يطوعوا الأحكام الإلهية لميولهم ورجباتهم، وأن ينفذ ما نزل عليه بالحق، حيث تقول الآية: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ».

ولأجل اكمال البحث تشير الآية إلى أن كل ملء قد أفردت لها شرعة ونظام للحياة يهديها إلى السبيل الواضح، حيث تقول: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا».

وكلمة «شرع» أو «الشريعة»: تعنى الطريق الذى يؤدى إلى الماء وينتهى به، واطلاق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٠

كلمة «الشريعة» على الدين لأن الدين ينتهى بحقائق وتعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانية وضمان الحياة السليمة للبشرية؛ أما كلمة «النهج» أو «المنهاج»: فتطلقان على الطريق الواضح. ثم تبين الآية أن الله لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشرية واحدة، تتبع ديناً وشرعة واحدة لقدرة على ذلك، لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجى، وحركة مراحل التربية المختلفة، فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْكُمْ».

بعد ذلك تخاطب الآية - فى الختام - جميع الأقوام والملل، وتدعوهم إلى التسابق فى فعل الخيرات بدل تبذير الطاقات فى الاختلاف والتناحر، حيث تقول: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ».

مؤكد أن الجميع يكون مرجعهم جميعاً وعودتهم إلى الله الذى يخبرهم فى يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْتَدِرْهُمْ أَنْ يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

سبب النزول

فى تفسير المنار عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمد لعننا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمد إنك عرفت أنا أحبار اليهود وأشرفهم وساداتهم وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فنقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك. فأبى ذلك. وأنزل الله عز وجل فيهم «وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ» إلى قوله «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

التفسير

تكرر هذه الآية تأكيد البارى عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله فى أن يحكم بين أهل الكتاب طبقاً لأحكام الله وأن لا يستسلم لأهوائهم ونزواتهم، فتقول: «وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣١

ثم تحذر الآية النبى صلى الله عليه وآله من مؤامرة هؤلاء الذين أرادوا عدول النبى صلى الله عليه وآله عن شرعة الحق والعدل وطالبته بأن يراقب تحركاتهم، حيث تقول: «وَاحْتَدِرْهُمْ أَنْ يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

وأكدت هذه الآية استمراراً لخطابها لنبى الخاتم محمد صلى الله عليه وآله أن أهل الكتاب هؤلاء إن لم يدعونا لحكمه العادل فإن

ذلك يكون دلالة على أن ذنوبهم وآثامهم قد طوّقتهم فحرمتهم من التوفيق، وأن الله يريد أن يعاقبهم ويعذبهم بسبب بعض ذنوبهم، حيث تقول الآية:

«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ».

وتشير الآية في النهاية إلى أن إصرار هؤلاء القوم من أهل الكتاب على باطلهم يجب أن لا يكون باعثاً للقلق عند النبي لأن الكثير من الناس منحرفون عن طريق الحق، أي أنهم فاسقون، حيث تقول الآية: «وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ».

أما الآية الاخرى فتساءلت بصيغته استفهام استنكاري: هل أن هؤلاء الذين يدعون أنهم أتباع الكتب السماوية يتوقعون أن تحكم بينهم (الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله) بأحكام الجاهلية التي فيها أنواع التمايز المقيتة؟ حيث تقول الآية: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ».

لكن أهل الإيمان لا يرون أي حكم أرفع وأفضل من حكم الله، حيث تتابع الآية قولها:

«وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

وفي الكافي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الحكم حكمان: حكم الله، وحكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصَِّبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: اختلف في سبب نزوله، وإن كان حكمه عاماً لجميع المؤمنين. قيل:

لما انهزم أهل بدر، قال المسلمون لأوليائهم من اليهود: آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٢

يوم بدر. فقال مالك بن ضيف: أغركم أن أصبتم رهطاً من قريش، لا علم لهم بالقتال، أما لو أمرونا العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدان بقتالنا! فجاء عبادة بن الصامت الخزرجي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله! إن لي أولياء من اليهود كثيراً عددهم، قويه أنفسهم، شديدة شوكتهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، ولا مولى لي إلا الله ورسوله. فقال عبد الله بن ابي: لكني لا أبرأ من ولاية اليهود لأنني أخاف الدوائر ولا بد لي منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا الحباب! ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه». قال: إذا أقبل. وأنزل الله الآية.

التفسير

لقد حذرت الآيات الثلاث مورد البحث المسلمين - بشدة - من الدخول في أحلاف مع اليهود والنصارى، فالآية الاولى منها تمنع المسلمين من التحالف مع اليهود والنصارى أو الإعتماد عليهم (أي إن الإيمان بالله يوجب عدم التحالف مع هؤلاء إن كان ذلك لأغراض ومصالح مادية) حيث تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ».

«أولياء»: صيغة جمع من «ولى» وهى مشتقة من مصدر «الولاية» وهى بمعنى التقارب الوثيق بين شيئين؛ لكن المراد هو منع المسلمين من التحالف مع اليهود والنصارى أو الإعتماد عليهم فى مواجهة الأعداء.

بعد ذلك تبين الآية سبب هذا النهى فى جملة قصيرة، وتقول بأن هاتين الطائفتين إنما هما أصدقاء وحلفاء أشباههما من اليهود والنصارى حيث تقول: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». أى إنهما يهتمان بمصالحهما ومصالح أصدقائهما فقط، ولا يعيران اهتماماً لمصالح المسلمين، ولذلك فإن أى مسلم يقيم صداقة أو حلفاً مع هؤلاء فإنه سيصبح من حيث التقسيم الاجتماعى والدينى جزءاً منهم، حيث

تؤكد الآية هذا المعنى بقولها: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ».

وبديهى أن الله لا يهدى الأفراد الظالمين الذين يرتكبون الخيانة بحق أنفسهم واخوانهم وأخواتهم المسلمين والمسلمات، ويعتمدون على أعداء الإسلام، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وتشير الآية التالية إلى الأعداء التي كان يتشبث بها أفراد ذوى نفوس مريضة لتبرير علاقاتهم اللاشعريه مع الغرباء، واعتمادهم عليهم وتحالفهم معهم، مبررين ذلك بخوفهم من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٣

الوقوع فى مشاكل إن أصبحت القدرة يوماً فى يد حلفائهم الغرباء، فتقول الآية: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» (١).

ويذكر القرآن الكريم هؤلاء الضعفاء، ذوى النفوس المريضة رداً على تعللهم فى التخلّى عن حلفهم مع الغرباء، فبيّن لهم أنهم حين يحتلمون أن يمسك اليهود والنصارى يوماً بزمام القدرة والسلطة يجب أن يحتلموا- أيضاً- أن ينصر الله المسلمين فتقع القدرة بأيديهم، حيث يندم هؤلاء على ما أضمره فى أنفسهم، كما تقول الآية: «فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ».

وتشير الآية فى الختام إلى مصير عمل المنافقين وتبين أنه حين يتحقق الفتح للمسلمين المؤمنين وتنكشف حقيقة عمل المنافقين يقول المؤمنون- بدهشة- هل أن هؤلاء المنافقين هم اولئك الذين كانوا يتشدقون بتلك الدعاوى ويحلفون بالأيمان المغلظة بأنهم معنا، فكيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحد؟ حيث تقول الآية: «وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ».

إن هؤلاء لنفاقهم هذا ذهب أعمالهم أدرج الرياح، لأنها لم تكن نابعة من نية خالصة صادقة، ولهذا فقد أصبحوا من الخاسرين- سواء فى هذه الدنيا أم الآخرة معاً- حيث تؤكد الآية هذا الأمر بقولها: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) بعد الانتهاء من موضوع المنافقين، يأتى الكلام- فى هذه الآية الكريمة- عن المرتدين الذين تتبأ القرآن بارتدادهم عن الدين الإسلامى الحنيف، وهذه الآية أتت بقانون عام يحمل اندازاً لجميع المسلمين، فأكدت أن من يرتد عن دينه فهو لن يضر الله بارتداده هذا

(١) «دائرة»: مشتقة من المصدر (دور) أى الشىء الذى يكون فى حالة دوران، وبما أن القدرات المادية والحكومات هى فى حالة دوران دائم على طول التاريخ، لذلك يقال لها (دائرة) كما تطلق هذه الكلمة- أيضاً- على أحداث الحياة المختلفة التى تدور حول الأشخاص.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٤

أبدأ، ولن يضر الدين ولا المجتمع الإسلامى أو تقدمه السريع، لأن الله كفىل يارسال من لديهم الإستعداد فى حماية هذا الدين، حيث تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهَ بِقَوْمٍ». ثم تتطرق الآية إلى صفات هؤلاء الحماة الذين يتحملون مسؤولية الدفاع العظيمة، وتبينها على الوجه التالى:

١- إنهم يحبون الله ولا يفكرون بغير رضاه، فالله يحبهم وهم يحبونه، كما تقول الآية:

«يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ».

٢ و ٣- يبدون التواضع والخضوع والرأفة أمام المؤمنين، بينما هم أشدأ أقوياء أمام الأعداء الظالمين، حيث تقول الآية: «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ».

٤- إن شغلهم الشاغل هو الجهاد في سبيل الله، إذ تقول الآية: «يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

٥- وآخر صفة تذكرها الآية لهؤلاء العظام، هي أنهم لا يخافون لوم اللاتمين في طريقهم لتنفيذ أوامر الله والدفاع عن الحق، حيث تقول الآية: «وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

وتؤكد الآية- في الختام- على أن إكتساب أو نيل مثل هذه الإمتيازات السامية (بالإضافة إلى الحاجة لسعي الإنسان نفسه) مرهون بفضل الله الذي يهبه لمن يشاء ولمن يراه كفؤاً له من عباده، حيث تقول الآية في هذا المجال: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ». وفي النهاية تبيّن الآية أن مجال فضل الله وكرمه واسع، وهو يعرف الأكفء والمؤهلين من عباده، وكما تقول الآية: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم، يقول قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذ أقبل رجل متعمم بعمامته، فجعل ابن عباس لا- يقول قال رسول الله، إلّا قال الرجل قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله، من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا اعرفه بنفسى، أنا جندب بن جنادة البدرى، أبو ذر الغفارى، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وأخته بهاتين وإلا فصمتا، ورأيت بهاتين وإلا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٥

فعمتا، يقول: «علّى قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره، مخذول من خذله».

أما إنى صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرغ السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئاً، وكان على راعياً فأوما بخنصره اليمنى إليه، وكان يختتم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وآله. فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إن أخى موسى سألك فقال: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صِدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ هِرُونَ أَحْسَى اشْدُدْ بِهِ أَرْزِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي». فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: «سَيَنْشُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سَيْلِطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا». اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللهم فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واجعل لى وزيراً علياً أشدد به ظهري».

قال أبو ذر: فو الله ما استتم رسول الله الكلمة، حتى نزل جبرائيل من عند الله فقال: يا محمد اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الآية.

التفسير

ابتدأت هذه الآية بكلمة «إنما» التى تفيد الحصر، وبذلك حصرت ولاية أمر المسلمين فى ثلاث هم: الله ورسوله صلى الله عليه وآله والذين آمنوا وأقاموا الصلاة وأدوا الزكاة وهم فى حالة الركوع فى الصلاة كما تقول الآية: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ».

إن المراد من كلمة «ولى» فى هذه الآية هو ولاية الأمر والإشراف وحق التصرف والزعامه الماديه والمعنويه، خاصه وقد جاءت مقترنه مع ولاية النبى صلى الله عليه وآله وولاية الله حيث جاءت الولايات الثلاث فى جمله واحده. وبهذه الصورة فإن الآية تعتبر نصاً قرآنياً يدل على ولاية وإمامه على بن أبى طالب عليه السلام للمسلمين.

إن الكثير من الكتب الإسلاميه ومصادر أهل السنه تشتمل على العديد من الروايات القائله بنزول هذه الآية فى شأن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام وقد ذكرت بعض هذه الروايات قضيه تصدق الإمام على عليه السلام بخاتمته على السائل وهو فى حالة الركوع، كما لم تذكر روايات اخرى مسأله التصدق هذه، بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآية فى حق على عليه السلام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٦

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) جاءت هذه الآية مكتملة لمضمون الآية السابقة وهي تؤكد وتتابع الهدف المقصود في تلك الآية وتعلن للمسلمين أن النصر سيكون حليف اولئك الذين يقبلون القيادة المتمثلة في الله ورسوله والذين آمنوا، الذين أشارت إليهم الآية السابقة. وتصف الآية الذين قبلوا بهذه القيادة بأنهم من حزب الله المنصورين دائماً، حيث تقول: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ».

وتشتمل هذه الآية - أيضاً - على قرينه أخرى تؤكد المعنى المذكور في تفسير الآية السابقة لكلمة «الولاية» وهو الإشراف والتصرف والزعامة لأن عبارة «حزب الله» والتأكيد على أن الغلبة تكون لهذا الحزب - في الآية - لهما صلة بالحكومة الإسلامية، ولا علاقة لهما بقضية الصدقة التي هي أمر بسيط وعادي وهذا يؤكد بنفسه أن الولاية - الواردة في الآية - تعني الإشراف والحكم والقيادة للمجتمع الاسلامي، لأن معنى الحزب يتضمن التنظيم والتضامن والإجماع لتحقيق أهداف مشتركة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان رفاعه بن زيد وسويد بن الحرث قد أظهر الإسلام، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فنزلت الآية.

أما بخصوص سبب نزول الآية الثانية من هاتين الآيتين فقول: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة، تضاحكوا فيما بينهم، وتغامزوا على طريق الشخف والمجون «١» تجهيلاً لأهلها، وتنفيراً للناس عنها، وعن الداعي إليها.

التفسير

يحدّر القرآن في الآية المؤمنين من اتخاذ أصدقاء لهم من بين المنافقين والأعداء، إلّا أنه

(١) «السخف»: قلة العقل؛ «المجون»: الصلابه والغلظة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٧

لأجل استثارة عواطف المؤمنين واستقطاب انتباههم إلى فلسفه هذا الحكم خاطبهم بهذا الاسلوب، كما تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ».

ولتأكيد التحذير تقول الآية في الختام: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ». بمعنى أن التودد مع الأعداء والمنافقين لا - يتناسب والتقوى والإيمان أبداً.

و الآية الثانية تتابع البحث في النهي عن التودد إلى المنافقين وجماعه من أهل الكتاب الذين كانوا يستهزؤون بأحكام الإسلام، وتشير إلى إحدى ممارساتهم الاستهزائية دليلاً وشاهداً على هذا الأمر، فتقول: «وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا».

بعد ذلك تبين الآية الكريمة دوافع هذا الاستهزاء، فتذكر أن هذه الجماعة إنما تفعل ذلك لجهلها وابتعادها عن الحقائق، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ».

ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام من أن الأذان نزل وحياً على النبي صلى الله عليه وآله.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنبئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدِ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ

السَّبِيلِ (٦٠)

## سبب النزول

في تفسير القرطبي (وفي المجمع أيضاً) قال ابن عباس: جاء نفر من اليهود- فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع- إلى النبي صلى الله عليه وآله فسألوه عن يؤمن به الرسل عليهم السلام؛ فقال: تؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل إلى قوله «و نحن له مسلمون». فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم؛ فنزلت هذه الآية وما بعدها.

## التفسير

في هذه الآية يأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله أن يسأل أهل الكتاب عن سبب اعتراضهم وانتقادهم للمسلمين، وهل أن الإيمان بالله الواحد الأحد والإعتقاد بما أنزل على نبي الخاتم والأنبياء الذين سبقوه يجابه بالاعتراض والانتقاد، حيث تقول الآية: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٨

تَنْتُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ» (١). وتأتي في آخر الآية عبارة تبين علة الجملة السابقة، حيث تبين أن اعتراض اليهود وانتقادهم للمسلمين الذين آمنوا بالله وبكتبه، ما هو إلا لأن أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا في الذنوب، ولذلك فهم- لإنحرافهم وتلوّثهم بالآثام- يعيرون على كل انسان شريف اتباعه للصواب وسيره في طريق الحق حيث تؤكد الآية: «وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ».

فتخاطب الآية النبي بأن يسأل هؤلاء: إن كانوا يريدون التعرف على أناس لهم عند الله أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُتُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ» (٢).

بعد هذا تبادر الآية إلى شرح الموضوع، فتبين أن اولئك الذين شملتهم لعنة الله فمسخهم قروداً وخنازير، والذين يعبدون الطاغوت والأصنام، إنما يعيشون في هذه الدنيا وفي الآخرة وضعاً أسوأ من هذا الوضع، لأنهم ابتعدوا كثيراً عن طريق الحق وعن جادة الصواب، تقول الآية الكريمة: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ» (٣).

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٤١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٤٢) لَوْ لَمَّا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٤٣)

(١) «تنتقمون»: مشتقة من المصدر «نقمة» وتعني في الأصل إنكار شيء معين نطقاً أو فعلاً كما تأتي بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

(٢) إن كلمة «متوبة» وكذلك كلمة «ثواب»: تعنيان- في الأصل- الرجوع أو العودة إلى الحالة الاولى كما تطلقان- أيضاً- لتعنيا المصير والجزاء (الأجر أو العقاب) لكنهما في الغالب تستخدمان في مجال الجزاء الحسن، وأحياناً تستخدم كلمة «الثواب» بمعنى العقاب وفي الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

(٣) «سواء»: تعني في اللغة (المساواة والإعتدال والتساوي) وأن وجه تسمية الصراط المستقيم في الآية ب «سواء السبيل» لأن جميع أجزاء هذا الطريق مستوية ولأن طرفيه متساويان وممهّدان، كما تطلق هذه التسمية على كل طريقته تتسم بالإعتدال وتخلو من الانحراف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٩

الآية الاولى من هذه الآيات الثلاث- واستكمالاً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة حول المنافقين- تكشف عن ظاهرة الإزدواجية



النفاقية عند هؤلاء، وتبته المسلمين إلى أن المنافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان وقلوبهم يغمركم الكفر، ويخرجون من عندهم المسلمين ولا يزال الكفر يملأ قلوبهم، حيث لا يترك منطق المسلمين واستدلالهم وكلامهم فى نفوس هؤلاء المنافقين أى أثر يذكر، تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ».

ثم تبين الآية الاخرى علائم من نوع آخر للمنافقين، فتشير إلى أن كثيراً من هؤلاء فى انتهاجهم طريق العصيان والظلم وأكل المال الحرام، يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: «وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ». أى إن هؤلاء يسرعون الخطى فى طريق المعاصى والظلم، وكأنهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر والمجد، ويتسابقون فيما بينهم فى هذا الطريق دون خجل أو حياء.

فى الختام لكى يؤكد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

بعد ذلك تحمل الآية الثالثة على علمائهم الذين أيدوا قومهم على ارتكاب المعاصى بسكوتهم، فتقول: «لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ».

وفى الختام، يمارس القرآن الكريم نفس أسلوب الذم الذى إتبعه مع أهل المعاصى الحقيقيين، فيذم العلماء الساكتين الصامتين التاركين للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويقبح صمتهم هذا، كما تقول الآية: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

وهكذا تبين أن مصير الذين يتخلون عن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر العظيمة - وخاصة إن كانوا من العلماء - يكون كمصير أصحاب المعاصى، وهؤلاء شركاء فى الذنب مع العاصين.

فى تفسير المنار روى عن ابن عباس أنه قال: ما فى القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية أى فهى حجة على العلماء إذا قصرُوا فى الهداية والارشاد وتركوا النهى عن البغى والفساد.

وبديهى أن هذا الحكم لا ينحصر فى علماء اليهود والنصارى، بل يشمل كل العلماء مهما كانت دياناتهم إن هم سكتوا وصمتوا أمام تلوث مجتمعاتهم بالذنوب وتسايق الناس فى الظلم والفساد، ذلك لأن حكم الله واحد بالنسبة لجميع البشر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٠

مختصر الامثل ج ١ ٥٧٤

فى الكافى: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أما بعد فإنه إنما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصى ولم ينههم الربانيون والأخبار عن ذلك وإنهم لم يمتدوا فى المعاصى ولم ينههم الربانيون والأخبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر».

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) تبرز هذه الآية واحداً من المصاديق الواضحة للأقوال الباطلة التى كان اليهود يتفوهون بها، وقد تطرقت الآية السابقة إليها - أيضاً - ولكن على نحو كلى.

ويتحدث لنا التاريخ عن فترة من الوقت كان اليهود فيها قد وصلوا إلى ذروة السلطة والقدرة، وكانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعمورة، ويمكن الإستشهاد بحكم سليمان وداود كمثال على حكم الدولة اليهودية، وقد استمر حكم اليهود بعدها بين رقى وانحطاط حتى ظهر الإسلام، فكان ايذاناً بأقول الدولة اليهودية، وبالأخص فى الحجاز، إذ أدى قتال النبو صلى الله عليه وآله ليهود بنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر إلى إضعاف سلطتهم بصورة نهائية.

وفى ذلك الوضع كان البعض من اليهود حين يتذكرون سلطتهم القوية السابقة، كانوا يقولون - استهزاء وسخرية - إن يد الله أصبحت مقيدة بالسلاسل (والعياذ بالله) وأنه لم يعد يعطف على اليهود!

وبما أن سائر أبناء الطائفة اليهودية أظهروا الرضى عن أقوال كبار قومهم هؤلاء، لذلك جاء القرآن لينسب هذه الأقوال إلى جميعهم، كما تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُوبَةً».

والله تعالى يرد على هؤلاء توبيخاً وذنماً لهم ولمعتقدتهم هذا بقوله: «عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا». ثم لكى يبطل هذه العقيدة الفاسدة يقول سبحانه وتعالى «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤١

يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ». فلا- إجبار فى عمل الله كما أنه ليس محكوماً بالجبر الطبيعي ولا- الجبر التاريخي، بل إن إرادته فوق كل شيء وتعمل فى كل شيء.

ثم تشير الآية إلى أن آيات الله التى تفضح أقوال ومعتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر فى صلفهم وعنادهم ويتمادون فى طغيانهم وكفرهم بدلاً من تأثيرها الإيجابى فى ردعهم عن السير فى نهجهم الخاطيء حيث تقول الآية الكريمة: «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

بعد ذلك تؤكد الآية على أن صلف هؤلاء وطغيانهم وكفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من الله عذاب شديد فى هذه الدنيا، من خلال تفشى العداة والحقن فيما بينهم حتى يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: «وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وتشير الآية- فى الختام- إلى المساعى والجهود التى كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب، وعناية الله ولطفه بالمسلمين فى انقاذهم من تلك النيران المدمرة الماحقة، فتقول: «كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ».

وتعتبر هذه الظاهرة إحدى معاجز حياة النبى الأكرم محمد صلى الله عليه وآله لأن اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز والأعراف بمسائل الحرب.

ثم تبيين الآية- أيضاً- أن هؤلاء لا يكفون عن نثر بذور الفتنة والفساد فى الأرض فتقول: «وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا» وتؤكد أيضاً قائلة: «وَاللَّهُ لَأُحِبِّ الْمُفْسِدِينَ».

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) بعد أن وجهت الآيات السابقة النقد لنهج واسلوب أهل الكتاب، جاءت هاتان الآيتان وفقاً لما تقتضيه مبادئ التربية الإنسانية لفتح باب العودة والتوبة أمام المنحرفين من أهل الكتاب، لكى يعودوا إلى الطريق القويم، ولتريهم الدرب الحقيقى الذى يجب أن يسيروا فيه، ولتتمن دور تلك الأقلية من أهل الكتاب التى عاشت فى ذلك العصر لكنها لم تواكب

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٢

الأكثرية فى أخطائها، فتقول الآية الاولى فى البدء: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ». بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدتهم بالجنة ونعيمها، إذ قالت: «وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ» وهذه إشارة إلى النعم المعنوية الأخرى.

ثم تشير الآية الثانية إلى الأثر العميق الذى يتركه الإيمان والتقوى، فى الحياة الدنيوية للإنسان، فتؤكد أن أهل الكتاب لو طبّقوا التوراة والإنجيل وجعلوها مناهجاً لحياتهم وعملوا بكل ما نزل عليهم من ربهم، سواء فى الكتب السماوية السابقة أم فى القرآن، دون تمييز أو تطرف لغمرتهم النعم الإلهية من السماء والأرض، فتقول الآية: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ».

وبديهى أن المراد من إقامة التوراة والإنجيل هو إتباعهم لما بقى من التوراة والإنجيل الحقيقين فى أيديهم فى ذلك العصر.

إن الآية الأخيرة تؤكد مرة أخرى هذا المبدأ الأساسى القائل بأن أتباع التعاليم السماوية التى جاء بها الأنبياء، ليس لإعمار الحياة الآخرة

التي تأتي بعد الموت فحسب، بل إن لها- أيضاً- انعكاسات واسعة على الحياة الدنيوية المادية للإنسان، فهي تقوى الجماعات وتعزز صفوفها وتكثف طاقاتها، وتغدق عليها النعيم وتضاعف امكانياتها وتضمن لها الحياة السعيدة المقترنة بالأمن والاستقرار. ولو ألقينا نظرة على الثروات الطائلة والطاقات البشرية الهائلة التي تهدر اليوم في عالم الإنسان نتيجة للانحراف عن هذه التعاليم، في صنع وتكديس أسلحة فتاكه، وفي صراعات لا- مبرر لها ومساع هدامة، لرأينا أن ذلك كله دليل حي على هذه الحقيقة، حيث إن الثروات التي تستخدم لإشاعة الدمار في هذا العالم- إذا معنا النظر جيداً- إن لم تكن أكثر حجماً من الثروات التي تنفق في سبيل البناء، فهي ليست بأقل منها.

إن العقول المفكرة التي تسعى وتعمل جاهدة- اليوم- لإكمال وتوسيع إنتاج الأسلحة الحربية، ولتوسيع بقعة النزاعات الاستعمارية، إنما تشكل جزءاً مهماً من الطاقات البشرية الخلاقية التي طالما احتاجها المجتمع البشري لرفع احتياجاته، وكم سيصبح وجه الدنيا جميلاً وجداباً لو كانت كل هذه الطاقات تستغل في سبيل الإعمار؟

وفي الختام تشير الآية الكريمة إلى الأقلية الصالحة من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الاعتدال في حياتهم خلافاً لنهج الأغلبية المنحرفة، فعزل الله حسابهم عن حساب

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٣

هذه الأثرية الضالة، حيث تقول الآية: «مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ».

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) اختيار الخليفة مرحلة إنتهاء الرسالة: هذه الآية تتوجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وحده وتبين له واجبه، فهي تبدأ بمخاطبة الرسول: «يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ» وتأمره بكل جلاء ووضوح أن «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ».

ثم لكي يكون التوكيد أشد وأقوى، تحذره وتقول: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ».

ثم تُطمئن الآية الرسول صلى الله عليه وآله- وكان أمراً يقلقه- وتطلب منه أن يهديء من روعه وأن لا يخشى الناس، فيقول له: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ».

وفي ختام الآية إنذار وتهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة الخاصة ويكفرون بها عناداً، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ». أسلوب هذه الآية، ولحنها الخاص، يدل على أن الكلام يدور حول أمر مهم جداً بحيث إن عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرسالة كلها. فما هذه المسألة المهمة التي برزت في الشهور الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وآله بحيث تنزل هذه الآية وفيها كل ذلك التوكيد؟

ليس ثم شك أن قلق الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن لخوف على شخصه وحياته، وإنما كان لما يحتمله من مخالفات المنافقين وقيامهم بوضع العراقيل في طريق المسلمين.

هل هناك مسألة تستطيع أن تحمل كل هذه الصفات غير مسألة استخلاف النبي صلى الله عليه وآله وتعيين مصير مستقبل الإسلام؟! في مختلف الكتب التي كتبها علماء من أهل السنة في التفسير والحديث والتأريخ، أوردوا فيها روايات كثيرة تقول جميعها بصراحة: إن الآية المذكورة قد نزلت في علي عليه السلام.

حادثة الغدير بايجاز: إنه في السنة الأخيرة من حياة النبي صلى الله عليه وآله أدى المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع في عظمة وجلال.

لم يكن أهل المدينة وحدهم قد رافقوا النبي صلى الله عليه وآله في هذه الحجة، بل إلتحق بركبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزيرة العربية لينالوا شرف الصحبة في هذه الحجة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٤

كانت الشمس ترسل أشعتها اللافحة المحرقة على الوديان والسهول لكن لذّة هذا السفر الروحي يسيّرت كل شيء. اقترب وقت الظهيرة، واقترب الركب الكبير من أرض الجحفة، وظهرت من بعيد أرض «غدِير خم» القاحلة الجافة المحرقة. كان يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت ثمانية أيام على عيد الأضحى، وإذا برسول الله صلى الله عليه وآله يصدر أمره للحجيج بالتوقف، وصعد مؤذن النبي صلى الله عليه وآله ينادى في الناس لصلاة الظهر، وأخذ الناس يستعدّون - مسرعين - لأداء الصلاة، كانت الرياح لافحة محرقة، حتى اضطر بعضهم إلى أن يضع قسماً من عباءته تحت قدميه وقسماً منها فوق رأسه كي يتقي حرارة الحصى وأشعة الشمس.

إنتهت صلاة الظهر وهرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم ليلوذون بها من حر الهاجرة، إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرهم أنّ عليهم أن يستعدّوا لسماع رسالة إلهية جديدة في خطبته، وكان الذين يقفون على مسافة من رسول الله صلى الله عليه وآله لا يستطيعون رؤيته، لذلك صنعوا له منبراً من أهداج الإبل ارتقاها رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «الحمد لله ونستعينه ونؤمن به ونتوكّل عليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا الذي لا هادي لمن ضلّ ولا مضلّ لمن هدى وأشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله. أمّا بعد: أيّها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبياً إلّا مثل نصف عمر الذي قبله، وإنّي أوشك أن ادعى فأجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ جنّته حق ونااره حق وأنّ الموت حق وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: «اللهم اشهد». ثم قال: «أيّها الناس ألا تسمعون؟» قالوا: نعم.

ثم ساد الجوّ صمت عميق ولم يُسمع فيه سوى أزيز الرياح ... قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين».

قالوا: وما هذان الثقلان يا رسول الله؟

قال: «أمّا الثقل الأكبر فكتاب الله عزّ وجلّ سبب ممدود من الله ومنى في أيديكم، طرفه بيد الله والطرف الآخر بأيديكم فيه علم ما مضى وما بقى إلى أن تقوم الساعة، وأمّا الثقل الأصغر

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٥

فهو حليف القرآن وهو على بن أبي طالب وعترته عليهم السلام وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم أخذ بيد أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - فرفعها حتى بدا للناس بياض إبطيهما ثم قال: «أيّها الناس: من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «إنّ الله عزّ وجلّ مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلىّ مولاه». (يقولها ثلاث مرات) وفي لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة: (أربع مرات). ثم قال:

«اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم لم يتفرّقوا حتى نزل أمين وحى الله بقوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتى والولاية لعليّ من بعدى».

ثم طفق القوم يهتئون أمير المؤمنين عليه السلام وممن هنا أبو بكر وعمر كل يقول: بخّ لك يا ابن أبى طالب، أصبحت وأمست مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَمَّا تَأَسَّ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٤٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٩)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان وتفسير القرطبى عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: ألسنت تقرأ بأن التوراة من عند الله؟ قال: «بلى». قالوا: فإننا نؤمن بها ولا- تؤمن بما عداها (وفى الحقيقة فإن التوراة تعتبر القدر المشترك بيننا وبينكم، ولكن القرآن كتاب مختص بكم). فنزلت الآية الاولى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٤

التفسير

هذه الآية تشير إلى جانب آخر من ذلك العقبات التى كان يضعها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ترد فيها على منطقهم الواهى الداعى إلى اعتبار التوراة كتاباً متفقاً عليه بين المسلمين واليهود، وترك القرآن باعتباره موضع خلاف. لذلك فالآية تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله قائلة: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ». وذلك لأن هذه الكتب صادرة عن مبدأ واحد وأصولها واحدة.

ويعود القرآن ليشير إلى حالة أكثرهم لا يأخذون العبرة والعظة من هذه الآيات ولا يهتدون بها، بل إنهم- لما فيهم من روح العناد- يزدادون فى طغيانهم وكفرهم «وَلَئِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ طُغْيَانًا وَكُفْرًا». وفى ختام الآية يخفف الله من حزن رسوله صلى الله عليه وآله إزاء تصلب هذه الأكثرية من المنحرفين وعنادهم فيقول له: «فَلَمَّا تَأَسَّ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

هذه الآية ليست مقصورة على اليهود- طبعاً- فالمسلمون أيضاً إذا اكنفوا بادعاء الإسلام ولم يقيموا تعاليم الأنبياء، وخاصة ما جاء فى كتابهم السماوى، فلن تكون لهم منزلة ومكانة لا عند الله، ولا فى حياتهم الفردية والاجتماعية.

الآية التالية تعود لتقرّر مرة أخرى هذه الحقيقة، وتؤكد أن جميع الأقسام وأتباع كل المذاهب دون إستثناء، مسلمين كانوا أم يهوداً أم صابئين أم مسيحيين، لا منقذ لهم من الخوف من المستقبل والحزن على ما فاتهم إلا إذا آمنوا بالله وبيوم الحساب وعملوا صالحاً: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (١) هذه الآية ردّ قاطع على الذين يظنون النجاة فى ظل قوميه معينة، ويفضّلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، ويتقبلون الدعوة الدينية على أساس من تعصب قومى، فتقول الآية إن طريق الخلاص ينحصر فى نبد هذه الأقوال.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرُسُلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَنْ تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)

(١) «الصابئون»: هم أتباع يحيى أو نوح أو إبراهيم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٧

فى آيات سابقة من سورة البقرة، وفى أوائل هذه السورة أيضاً إشارة إلى عهد وميثاق أخذه الله تعالى على بنى إسرائيل وفى هذه الآية تذكير بهذا الميثاق: «لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرُسُلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا».

ثم يضاف إلى ذلك القول بأنهم، فضلاً عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق: «كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيحًا كَذَبُوا وَفَرِيحًا يَقْتُلُونَ».

هذه هي طرائق المنحرفين الأنانيين وسبلهم، فهم بدلاً من إتباع قادتهم، يصرون على أن يكون القادة هم التابعين لأهوائهم. في الآية التالية إشارة إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان وجرائم: «وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فُتْنَةً». أي ظنوا مع ذلك أن البلاء والجزاء لن ينزل بهم، واعتقدوا- كما صرحت الآيات الأخرى- أنهم من جنس أرقى، وأنهم أبناء الله! وأخيراً إستحال هذا الغرور الخطير والتكبر إلى ما يشبه حجاباً غطى أعينهم وآذانهم: «فَعَمُوا وَصَمُوا» عن رؤية آيات الله وعن سماع كلمات الحق.

ولكنهم عندما أصابتهم مظاهر من عقاب الله وشاهدوا نتائج أعمالهم المشؤومة، ندموا وتابوا بعد أن أدركوا أن وعد الله حق، وأنهم ليسوا عنصراً متميزاً فائقاً.

وتقبل الله توبتهم: «ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

إلما أن حالة الندم والتوبة لم تلبث طويلاً، فسرعان ما عاد الطغيان والتجبر وسحق الحق والعدالة، وعادت أغشية الغفلة الناتجة عن الإنغماس في الإثم تحجب أعينهم وآذانهم مرة أخرى «ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ» فلم يعودوا يرون الآيات أو يسمعون كلمه الحق، وعمت الحالة الكثير منهم.

في نهاية الآية جملة قصيرة عميقة المعنى تقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِلُ أَبَدًا عَنْ أَعْمَالِهِمْ، إذ أنه يرى كل ما يعملون: «وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ». لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٨

تعقيباً على البحوث الماضية بشأن انحرافات اليهود التي مرّت في الآيات السابقة، تتحدّث هذه الآيات والتي تليها عن انحرافات المسيحيين، فتبدأ أولاً بأهم تلك الانحرافات، أي «تأليه المسيح» و «تثليث المعبود»: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ». وأي كفر أشدّ من أن يجعلوا الله اللامحدود من جميع الجهات متحدداً مع مخلوق محدود من جميع الجهات، وأن يصفوا الخالق بصفات المخلوق، مع أن المسيح عليه السلام نفسه يعلن صراحةً لبنى إسرائيل: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» وبهذا يستنكر كل لون من ألوان الشرك، ويرفض الغلو في شخصه ويعتبر نفسه مخلوقاً كسائر مخلوقات الله.

ولكى يشدد المسيح التوكيد على هذا الأمر، وليزيل كل إبهام وخطأ، يضيف قائلاً:

«إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ».

ويمضي في التوكيد وإثبات أن الشرك والغلو ضرب من الظلم الواضح، فيقول أيضاً:

«وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ».

فإن ما ورد في الآية المذكورة عن إصرار المسيح عليه السلام على مسألة التوحيد إنما ينسجم مع المصادر المسيحية الموجودة ويعتبر من دلائل عظمة القرآن.

وينبغي الالتفات إلى أن الموضوع الذي تناوله الآية هو الغلو ووحده المسيح بالله، أو بعبارة أخرى هو «التوحيد في التثليث» ولكن الآية التالية تشير إلى مسألة «تعدد الآلهة» في نظر المسيحيين، أي «التثليث في التوحيد» وتقول: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ الْأَقَانِيمِ (١) الثلاثة لا ريب أنهم كفارون: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ».

ويرد القرآن عليهم رداً قاطعاً فيقول: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ».

وفي ذكر «من» قبل «إله» نفى أقوى لأي معبود آخر.

ثم يندرهم بلهجة قاطعة: «وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

في الآية الثالثة يدعوهم القرآن إلى أن يتوبوا عن هذه العقيدة الكافرة لكي يغفر لهم الله تعالى، فيقول: «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

(١) «الأفئوم»: بمعنى الأصل والذات، جمعها «أفانيم».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٩

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) تواصل هذه الآيات البحث الذي جاء في الآيات السابقة حول غلو المسيحيين في المسيح عليه السلام واعتقادهم بألوهيته، فتفتد في بضع آيات قصار اعتقادهم هذا، وتبدأ متسائلة عما وجدوه في المسيح من اختلاف عن باقي الأنبياء حتى راحوا يؤلهونه، فالمسيح ابن مريم قد بعثه الله كما بعث سائر الأنبياء من قبله: «مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ».

إذا كان بعثه من قبل الله سبباً للتأليه والشرك، فلماذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبياء؟

ولمزيد من التوكيد يقول: «وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ». أي إنَّ من تكون له ام حملته في رحمها، ومن يكون محتاجاً إلى كثير من الامور، كيف يمكن أن يكون إلهاً؟! ثم إذا كانت امه صديقه فذلك لأنها هي أيضاً على خط رسالة المسيح عليه السلام منسجمة معه وتدافع عن رسالته، لهذا فقد كان عبداً من عباد الله المقربين، فينبغي ألا يتخذ معبوداً كما هو السائد بين المسيحيين الذين يخضعون أمام تمثاله إلى حد العبادة.

ومرّة اخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفي الربوبية عن المسيح عليه السلام فيقول: «كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ».

وفي ختام الآية إشارة: إلى وضوح هذه الدلائل من جهة، وإلى عناد اولئك وجهلهم من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٠

جهة اخرى، فيقول: «انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (١). ولكي يكمل الاستدلال السابق تستنكر الآية التالية عبادتهم المسيح مع أنهم يعلمون أن له احتياجات بشرية، وإنه لا قدرة له على دفع الضرر عن نفسه أو نفعها، فكيف يتسنى له دفع الضرر عن الغير أو نفعهم؟ «قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا».

وفي النهاية يحذرهم من أن يظنوا أن الله لا يسمع ما يتقولونه أو لا يعلم ما يكونونه:

«وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

الآية التالية تأمر رسول الله صلى الله عليه وآله - بعد انصاح خطأ أهل الكتاب في الغلو - أن يدعوهم بالأدلة الجلية إلى الرجوع عن السير في هذا الطريق: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ» (٢).

إنَّ غلو النصراني معروف، إلا أنَّ غلو اليهود، الذي يشملهم تعبير «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ» قد يكون إشارة إلى ما كانوا يقولونه عن عزير وقد اعتبروه ابن الله، ولمَّا كان الغلو ينشأ - أكثر ما ينشأ - عن إتياع الضالين أهواءهم، لذلك يقول الله سبحانه «وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ».

وفي هذا إشارة أيضاً إلى ما انعكس في التاريخ المسيحي، إذ أنَّ موضوع التثليث والغلو في أمر المسيح عليه السلام لم يكن له وجود خلال القرون الاولى من المسيحية، ولكن عندما اعتنق بعض الهنود وأمثالهم من عبدة الأصنام المسيحية أدخلوا فيها شيئاً من دينهم

السابق كالتثليث والشرك.

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)

(١) «الإفك»: كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه، و «المأفوك»: المصروف عن الحق، وإن كان عن تقصيره، ومن هنا يسمّى إفكاً، لأنه يصد الإنسان عن الحق.

(٢) «تغلو»: من مادة «الغلو» وهى بمعنى تجاوز الحد، إلّا أنها تستعمل للإشارة إلى تجاوز الحد بالنسبة لمقام شخص من الأشخاص ومنزله.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥١

تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذى انتهى إليه الكافرون السابقون، لكى يعتبر به أهل الكتاب فلا يتبعونهم إتباعاً أعمى، فيقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ».

فالآية تشير إلى أن مجرد كون الإنسان من بنى إسرائيل، أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما، لا يكون مدعاة لنجاته، بل إن هذين النبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكلة من الناس.

وفى آخر الآية توكيد لهذا الأمر وبيان للسبب: «ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

و تتحرك الآية التالية من موقع الذم ولتقرع لتؤكد أن هؤلاء لم يعترفوا أبداً بأن عليهم مسؤولية اجتماعية، ولم يكونوا يتناهون عن المنكر، بل إن بعضاً من صلحائهم كانوا بسكوتهم وممالاتهم يشجعون العصاة عملياً «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ» لذلك فقد كانت أعمالهم سيئة وقيحة: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

فى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله: «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» قال: «أما أنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا فى وجوههم وأنسوا بهم».

الآية الثالثة تشير إلى معصية اخرى من معاصيهم: «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا».

من البدية أن صداقتهم لأولئك لم تكن صداقة عادية، بل كانت ممتزجة بأنواع المعاصى، وكانوا يشجعون الأعمال والأفكار الخاطئة، لذلك أدانت الآية فى عباراتها الأخيرة الأعمال التى قدّموها ليوم المعاد، تلك الأعمال التى استوجبت غضب الله وعذابه الدائم: «لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ». ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون (٨١) هذه الآية تبين لهم طريق النجاة من نهجهم الخاطيء، وهو أنهم لو كانوا حقاً يؤمنون

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٢

بالله وبرسوله وبما أنزل عليه، لما عقدوا أواصر الصداقة مع أعداء الله ولا اعتمدوا عليهم أبداً: «وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ».

ولكن الذى يؤسف له هو أن الذين يطيعون أوامر الله قلبه، ومعظمهم خارجون عن نطاق إطاعته وسائرون على طريق الفسق «وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ».

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَجَعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَتَابَهُمْ



اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ  
الْجَحِيمِ (٨٦)

سبب النزول

المهاجرون الاول فى الإسلام: نزلت فى النجاشى، وأصحابه. قال المفسرون: ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، يؤذونهم ويعذبونهم، فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء ومنع الله رسوله بعمه أبى طالب. فلما رأى رسول الله ما بأصحابه، ولم يقدر على منعهم، ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «إن بها ملكاً صالحاً، لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله عز وجل للمسلمين فرجاً». وأراد به النجاشى، واسمه أصحمة وهو بالحبشية عطية.

فخرج إليها سرّاً أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة ... وذلك فى رجب، فى السنة الخامسة من مبعث رسول الله وهذه هى الهجرة الاولى. ثم خرج جعفر بن أبى طالب، وتتابع المسلمون إليها، وكان جميع من هاجر إلى الحبشة مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٣

من المسلمين ٨٢ رجلاً سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك، وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه عماره بن الوليد بالهدايا، إلى النجاشى وإلى بطارقتة ليردّوهم إليهم.

فلما ركبوا السفينة شربوا الخمر ... وألقى الله بينهما العداوة فى مسيرهما، قبل أن يقدموا إلى النجاشى.

ثم وردا على النجاشى فقال عمرو بن العاص: أيها الملك! إن قوماً خالفونا فى ديننا وسبوا آلهتنا، وصاروا إليك فردّهم إلينا. ثم قدّمنا ما حملاه من هدايا إلى النجاشى.

فبعث النجاشى إلى جعفر، فجاءه، فقال: يا أيها الملك سلمهم، نحن عبيد لهم؟ فقال: لا بل أحرار.

قال: فسلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟

قال: لا، ما لنا عليكم ديون.

قال: فلکم فى أعناقنا دماء تطالبوننا بها؟

قال عمرو: لا.

قال: فما تريدون منّا؟ آذيتونا فخرجنا من دياركم. ثم قال: أيها الملك! بعث الله فىنا نبياً أمرنا بخلع الأنداد وترك الإستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة والزكاة والعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، ونهانا عن الفحشاء والمنكر والبغى.

فقال النجاشى: بهذا بعث الله عيسى، ثم قال النجاشى لجعفر: هل تحفظ مما أنزل الله على نبيك شيئاً؟ قال: نعم، فقرأ سورة مريم، فلما بلغ قوله: «وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَلِيئًا». قال: هذا والله هو الحق! فقال عمرو: إنه مخالف لنا فردّه إلينا.

فرفع النجاشى يده وضرب بها وجه عمرو وقال: اسكت، والله لئن ذكرت بعد بسوء لأفعلن بك. وقال: أرجعوا إلى هذا هديته، وقال لجعفر وأصحابه: امكثوا فإنكم سيوم، والسيوم: آمنون، وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق، فانصرف عمرو وأقام المسلمون هناك بخير دار، وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول الله وعلا- أمره وهادن قريشاً، وفتح خيبر، فوافى جعفر إلى رسول الله بجميع من كانوا معه، فقال رسول الله: «لا أدرى أنا بفتح خيبر أسر أم بقدم جعفر».

ووافى جعفر وأصحابه رسول الله فى سبعين رجلاً، منهم إثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فيهم بحيراء الراهب، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله سورة «يس» إلى آخرها

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٤

فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

التفسير

حققت اليهود ومودة النصارى: تقارن هذه الآيات بين اليهود والنصارى الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله. وضعت الآية الاولى اليهود والمشركين في طرف واحد، والمسيحيين في طرف آخر: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .»

يشهد تاريخ الإسلام بجلاء على هذه الحقيقة، ففي كثير من الحروب التي أثيرت ضد المسلمين كان لليهود ضلع فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولكننا قلما نجد المسلمين يواجهون المسيحيين في غزواتهم.

ثم يعزوا القرآن هذا الاختلاف في السلوك الفردي والاجتماعي إلى وجود خصائص في المسيحيين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن موجودة في اليهود:

فأولاً كان بينهم نفر من العلماء لم يسعوا - كما فعل علماء اليهود - إلى إخفاء الحقائق «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ» (١).

ثم كان منهم جمع من الزهاد الذين تركوا الدنيا، وهي النقطة المناقضة لما كان يفعله بخلاء اليهود الجشعين.

وعلى الرغم من كل انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود:

«وَرُهْبَانًا».

وكثير منهم كانوا يخضعون للحق، ولم يتكبروا، في حين كان معظم اليهود يرون أنهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذي لم يأت على يد عنصر يهودي: «وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ».

ثم إن نفراً منهم كانوا إذا استمعوا آيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنهم يعرفون الحق إذا سمعوه: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ».

(١) «القسيس»: تعريب لكلمة سريانية تعنى الزعيم والموجه الديني عند المسيحيين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٥

فكانوا ينادون بكل صراحة وشجاعة، و «يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ».

لقد كان تأثيرهم بالآيات القرآنية من الشدة بحيث إنهم كانوا يقولون: «وَمَا لَنَا لَأَن نُّؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ».

الآيتان الأخيرتان فيهما إشارة إلى مصير هاتين الطائفتين وإلى عقابهما وثوابهما، اولئك الذين أظهروا المودة للمؤمنين وخضعوا لآيات الله وأظهروا إيمانهم بكل شجاعه وصراحة:

«فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» (١).

وأما اولئك الذين ساروا في طريق العداة والعناد فتقول الآية عنهم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَمَّا يُؤَاخِذْكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

سبب النزول

لا تتجاوزوا الحدود: في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان

بن مطعون، فأما أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا- ينام بالليل أبداً وأما بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبداً وأما عثمان بن مطعون فإنه حلف أن لا ينكح أبداً فدخلت امرأه عثمان على عائشة وكانت امرأه جميلة، فقالت عائشة ما لي أراك معطلة فقالت ولمن أترين فوالله ما قاربني زوجي منذ كذا وكذا فإنه قد ترهب ولبس

(١) «أثابهم»: من الثواب وهي في الأصل بمعنى العودة وما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٦

المسوح وزهد في الدنيا، فلما دخل رسول الله أخبرته عائشة بذلك فخرج فنأدى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يحرمون أنفسهم الطيبات ألا إنني أنام بالليل وأنكح وأفطر بالنهار فمن رغب عن سنتي فليس مني». فقاموا هؤلاء فقالوا: يا رسول الله فقد حلفنا على ذلك فأنزل الله تعالى عليه «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...» الآية. التفسير

القسم وكفارتة: في هذه الآية والآيات التالية لها مجموعة من الأحكام الإسلامية المهمة.

في الآية الاولى إشارة إلى قيام بعض المسلمين بتحريم بعض النعم الإلهية، فنهاهم الله عن ذلك قائلاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ».

فبذكر هذا الحكم يعلن الإسلام صراحة إستنكار الرهينة وهجر الدنيا كما يفعل المسيحيون والمرتاظون.

ثم لتوكيد هذا الأمر تنهى الآية عن تجاوز الحدود، لأن الله لا يحب الذين يفعلون ذلك:

«وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

وفي الآية التي تليها نهى آخر للأمر، إلا أن الآية السابقة كان فيها نهى عن التحريم، وفي هذه الآية أمر بالإنتناف المشروع من الهبات الإلهية، فيقول: «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا».

والشرط الوحيد لذلك هو الإعتدال والتقوى عند التمتع بتلك النعم: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ». أى إن إيمانكم بالله يوجب عليكم إحترام أوامره فى التمتع وفى الإعتدال والتقوى.

و الآية التي بعدها تتناول القسم الذى يقسم به الإنسان فى حالة تحريم الحلال وفى غيره من الحالات بشكل عام، ويمكن القول أن القسم نوعان:

فالاولى: هو القسم اللغو، فيقول: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ».

والقسم الثانى: هو القسم الجاد الإرادى الذى قرره المرء بوعى منه، هذا النوع من القسم هو الذى يعاقب عليه الله إذا لم يف به الإنسان: «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ».

بديهي أن الجد وحده فى القسم لا يكفى لصحته، بل لابد أيضاً من صحته محتواه وأن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٧

يكون أمراً مباحاً فى الأقل، كما لابد من القول بأن القسم بغير اسم الله لا قيمة له.

وعليه إذا أقسم إمرؤ بالله، فيجب عليه أن يعمل بقسمه، فإن لم يفعل، فعليه كفارة التخلف.

وكفارة القسم هى ما ورد فى ذيل الآية المذكورة، وهى واحدة من ثلاثة:

الاولى: «فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ». ولكيلا يؤخذ هذا الحكم على إطلاقه بحيث يصار إلى أى نوع من الطعام الدنىء والقليل، فقد جاء بيان نوع الطعام بما لا يقل عن أوسط الطعام الذى يعطى لأفراد العائلة عادة: «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ».

الثانية: «أَوْ كِسْوَتُهُمْ».

من الطبيعي أن ذلك يعنى الملابس التى تغطى الجسم حسب العادة، لذلك لا يستبعد أن تكون الكسوة التى تعطى كفارة تختلف أيضاً باختلاف الفصول والأمكنه والأزمنة.

الثالثة: «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ».

ولكن قد يوجد من لا قدرة له على أى منها، لذلك فإنه بعد بيان تلك الأحكام يقول سبحانه وتعالى: «فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ». ثم يؤكد القول ثانية: «ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ».

ومع ذلك، فلكى لا يظن أحد أنه بدفع الكفارة يجوز للمرء أن يرجع عن قَسَمٍ صحيح أقسمه، يقول تعالى: «وَاحْفَظُوا أَيَّمَانِكُمْ». فى ختام الآيات يبين القرآن أن هذه الآيات توضح لكم الأحكام التى تضمن سعادة الفرد والمجتمع وسلامتها لشكروه على ذلك: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)

سبب النزول

فى تفسير المنار: فى مسند أحمد وسنن أبى داود والنسائى والترمذى أن عمر (وكان يكثر

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٨

من الخمر، كما جاء فى تفسير فى ظلال القرآن ج ٣، ص ٣٣) كان يدعو الله تعالى: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فلما نزلت الآية (٢١٩) من سورة البقرة: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...» قرأها عليه النبى صلى الله عليه وآله فظل على دعائه وكذلك فلما نزلت الآية (٤٣) من سورة النساء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى». فلما نزلت آية المائدة دعى فقرأت عليه فلما بلغ قول الله تعالى «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» قال: انتهينا انتهينا!

التفسير

مراحل تحريم الخمر وحكمها النهائى: سبق أن ذكرنا فى ذيل الآية (٤٣) من سورة النساء، إن معاقرة الخمر فى الجاهلية وقبيل الإسلام كانت منتشرة إنتشاراً أشبه بالوباء العام، حتى قيل: أن حبّ عرب الجاهلية كان مقصوراً على ثلاثة: الشعر والخمر والغزو.

من الواضح أن الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية والاجتماعية بنظر الاعتبار لتعدّر الأمر وشقّ تطبيق التحريم، لذلك إتخذ أسلوب التحريم التدريجى وإعداد الأفكار والأذهان لإقتلاع هذه الآفة من جذورها، وهى العادة التى كانت قد تأصلت فى نفوسهم وعروقهم، ففى أول الأمر وردت إشارات فى الآيات المكية تستقيح شرب الخمر، إلّا أن تلك العادة الخبيثة—عادة معاقرة الخمر—كانت أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات، عندما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسسوا أولى الحكومات الإسلامية، نزلت آية ثانية—هى الآية (٢١٩) من سورة البقرة—أشدّ فى تحريم الخمر من الأولى.

إنّ تقدّم المسلمين فى التعرّف على أحكام الإسلام، أصبحت سبباً فى نزول آية صريحة تماماً فى تحريم الخمر حتى سدّت الطريق أمام الذين كانوا يتصيدون الأعذار والمسوغات، وهذه الآية هى موضوع البحث.

وإنّه مما يستلفت النظر أن تحريم الخمر يعبر عنه فى هذه الآية بصوره متنوعه:

١- فالآية تبدأ بمخاطبة المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا». أى إنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ينسجم مع روح الإيمان.

٢- استعمال «إنما» التى تعنى الحصر والتوكيد.

٣- وضعت الخمر والقمار إلى جانب الأنصاب (وهى قطع أحجار لا صورة لها كانت تتخذ كالأصنام) للدلالة على أن الخمر والقمار لا يقلان ضرراً عن عبادة الأصنام، ولهذا جاء (فى تفسير جامع البيان) عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «شارب الخمر كعابد الوثن».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٩

٤- الخمر والقمار وعبادة الأصنام، والإستقسام بالأزلام (ضرب من اليانصيب) كلها قد اعتبرها القرآن رجساً وخبثاً: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ».

٥- وهذه الأعمال القبيحة كلها من أعمال الشيطان: «مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانِ».

٦- وأخيراً يصدر الأمر القاطع الواجب الإلتزام: «فَاجْتَنِبُوهُ».

٧- وفي الختام يقول تعالى أن ذلك: «لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ». أى لا فلاح لكم بغير ذلك.

٨- وفي الآية التالية لها يحدد بعضاً من أضرار الخمر والقمار، التي يريد الشيطان أن يوقعها بهم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ».

٩- وفي ختام هذه الآية يتقدم بإستفهام تقريرى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ».

أى بعد كل هذا التوكيد والتوضيح، ثمه مكان لخلق المبررات أو للشك والتردد فى تجنّب هذين الإثمين الكبيرين؟ لذلك نجد أن عمر الذى كان شديد الولع بالخمر والذى كان- لهذا السبب- لا يرى فى الآيات السابقة ما يكفى لمنعه، قال عندما سمع هذه الآية: إنتهينا، إنتهينا! لأنه رأى فيها الكفاية.

١٠- فى الآية الثالثة التى تؤكد هذا الحكم، يأمر المسلمين: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا».

ثم يتوعّد المخالفين بالعقاب، وأن مهمّة رسول الله صلى الله عليه وآله هى الإبلاغ: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولُنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ». لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

سبب التزلزل

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل تحريم الخمر والميسر، قالت الصحابة: يا رسول الله! ما تقول فى إخواننا الذين مضوا وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر؟ فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

تجيب هذه الآية الذين يتساءلون عن الماضين قبل نزول آية تحريم الخمر والميسر، أو

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٠

الذين لم يسمعوا بعد تلك الآية لبعدها مناطقهم التى يعيشون فيها، فتقول: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا». ولكنها تشترط لتلك التقوى والإيمان والعمل الصالح: «إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». ثم تكرر ذلك: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا».

وللمرة الثالثة تكرر الآية بقليل من الاختلاف: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا». وتنتهى بالتوكيد:

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». إن المقصود بالتقوى فى المرّة الاولى هو ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية والذى يسوق الإنسان نحو البحث والتدقيق فى الدين ومطالعة معجزة الرسول صلى الله عليه وآله والبحث عن الله، فتكون نتيجة ذلك الإيمان والعمل الصالح.

وتكرار التقوى للمرّة الثانية إشارة إلى التقوى التى تنفذ إلى أعماق الإنسان فيزداد تأثيرها، وتكون نتيجة الإيمان الثابت الوطيد الذى يؤدّى إلى العمل الصالح.

وفى المرحلة الثالثة يدور الكلام على التقوى التى بلغت حدّها الأعلى بحيث إنّها فضلاً عن دفعها إلى القيام بالواجبات، تدفع إلى الإحسان أيضاً، أى إلى الأعمال الصالحة التى ليست من الواجبات.

وعليه فإنّ هذه الضروب الثلاثة من التقوى تشير إلى ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤولية وكأنّها تمثل المرحلة (الابتدائية) والمرحلة (المتوسطة) والمرحلة (النهائية)، ولكل مرحلة قرينة تدل عليها الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِغِكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيُغَلِّمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدِيًّا بِاَلِغِيبَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَّسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦١

سبب النزول

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حشرت لرسول الله صلى الله عليه وآله في عمرة الحديبية الوحوش حتى نالت أيديهم ورماحهم».

وفي الدر المنثور: انزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحوش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا؛ فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون ليعلم الله من يخافه بالغيب.

التفسير

أحكام الصيد عند الإحرام: تبين هذه الآيات أحكام صيد البر والبحر أثناء الإحرام للحج أو للعمرة. في البداية إشارة إلى ما حدث للمسلمين في عمرة الحديبية، فيقول سبحانه وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِغِكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ». ثم يقول من باب التوكيد: «لِيُغَلِّمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ».

والآية في الخاتمة تتوعد الذين يخالفون هذا الحكم الإلهي بعذاب شديد: «فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

على الرغم من أن الجملة الأخيرة في الآية تدل على تحريم الصيد أثناء الإحرام، ولكن الآية التالية لها تصدر حكماً قاطعاً وصريحاً وعماماً بشأن تحريم الصيد أثناء الإحرام، إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ».

ثم بعد ذلك يشار إلى كفارة الصيد في حال الإحرام، فيقول: «وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ».

والمقصود من «مثل» هو التماثل في الشكل والحجم. أي إذا قتل أحد حيواناً وحشياً كبيراً مثل النعام - مثلاً - يجب عليه أن يختار الكفارة من الحيوانات الكبيرة، كالبعير مثلاً أو إذا صاد غزالاً، كفارته تكون شاة تقاربه في الحجم والشكل.

ولما كان من الممكن أن تكون قضية التماثل موضع شك عند بعضهم فقد أصدر القرآن حكمه بأن ذلك ينبغي أن يكون بتحكيم شخصين مطلعين وعادلين: «يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ».

أما عن مكان ذبح الكفارة، فيبين القرآن أنه يكون بصورة «هدى» يبلغ أرض الكعبة: «هَدِيًّا بِاَلِغِيبَةِ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٢

ثم يضيف أنه ليس ضرورياً أن تكون الكفارة بصورة أضحية، بل يمكن الإستعاضة عنها بواحد من اثنين آخرين: «أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَّسَاكِينَ» و «أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا».

إن الهدف من هذه الكفارات هو: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» (١). ثم لما لم يكن لأي حكم أثر رجعي يعود إلى الماضي، فيقول: «عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ».

أما من لم يعتن بهذه التحذيرات المتكررة ولم يلتفت إلى أحكام الكفارة وكرر مخالفاته لحكم الصيد وهو محرم فإن الله سوف ينتقم منه في الوقت المناسب: «وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ». بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ».

والمقصود من الطعام في الآية هو ما يهتأ للأكل من سمك الصيد إذ أن الآية تريد أن تحلل أمرين: الأول هو الصيد، والثاني هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

ثم تشير الآية إلى الحكمة في هذا الحكم وتقول: «مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ». أي لكيلا تعانوا المشقة في طعامكم وأنتم محرمون، فلكم أن تستفيدوا من نوع واحد من الصيد، ذلكم هو صيد البحر.

وللتوكيد تعود الآية إلى الحكم السابق مرّة أخرى وتقول: «وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا».

ولتوكيد جميع الأحكام التي ذكرت، تقول الآية في الخاتمة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

حكمة تحريم الصيد حال الإحرام: معلوم أن الحج والعمرة من العبادات التي تفصل الإنسان عن عالم المادة وتنقله إلى محيط مليء بالمعنويات، فخصوصيات الحياة المادية، والجدال والخصام، والرغبات الجنسية، واللذائذ المادية كلها تنفصل عن الإنسان في مناسك الحج والعمرة، ويبدأ الإنسان ضرباً من الرياضة الإلهية المشروعة، ويبدو أن تحريم صيد البر في حال الإحرام يرمى إلى الهدف نفسه. ثم لو أحل الصيد لزائري بيت الله الحرام، مع الأخذ بنظر الاعتبار كثرة الزوار وكثرة ترددهم في كل سنة على هذه الأرض المقدسة، لقضى على وجود الكثير من الحيوانات

(١) «وبال»: من «الوبل والوابل» وهو المطر الغزير، ثم اطلق على العمل الشاق الجسيم، ولما كان العقاب شديداً وثقيلاً عادة، فقد وصف بأنه «وبال».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٣

القليلة أصلاً في تلك الأرض القاحلة الخالية من الماء والزرع، فجاء هذا التشريع لضمان بقاء حيوانات تلك المنطقة والحفاظ عليها من الإنقراض.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنه حتى في غير حال الإحرام يمنع صيد الحرم، وكذلك قطع أشجاره وحشائشه، تبين لنا أن لهذا التشريع ارتباطاً وثيقاً بقضية الحفاظ على البيئة وعلى النبات والحيوان في تلك المنطقة، وصيانتها من الإبادَة.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامِ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) بعد الكلام في الآيات السابقة عن تحريم الصيد في حال الإحرام، يشير القرآن الكريم في هذه الآية إلى أهميّة «مكة» وأثرها في بناء حياة المسلمين الاجتماعية، فيقول: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامِ قِيَامًا لِلنَّاسِ».

فهذا البيت المقدس رمز وحدة الناس فهم في ظل هذا البيت المقدس يستطيعون إصلاح الكثير مما يستوجب الإصلاح والترميم في حياتهم، وإقامة سعادتهم على قواعده المتينة، لذلك فقد وصف هذا البيت في الآية (٩٦) من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ».

ولما كانت هذه المناسك يجب أن تجرى في جو آمن وخال من الحروب والمنازعات والمخاصمات، فقد أشارت الآية إلى أثر الأشهر الحرم (وهي الأشهر التي تمنع فيها الحرب مطلقاً) وقالت: «وَالشَّهْرَ الْحَرَامِ» كما أشارت إلى الأضاحى الفاقدة للعلامة (الهدى) والأضاحى ذات العلامة (القلائد) التي منها يطعم الناس في موسم الحج، وتؤمن جانباً من احتياجات الحاج للقيام بمناسكه، فقالت: «وَالْهَدْيَ وَالْقَلِيدَ».

ولما كان مجموع هذه الأحكام والقوانين والتشريعات بشأن الصيد، وكذلك بشأن حرم مكة والشهر الحرام وغير ذلك، يحكى عمق تدبير الشارع وسعة علمه تقول الآية: «ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٤

الآية التالية تؤكد تلك التشريعات وتحث الناس على إتباعها وتهدد المخالفين والعاصين فتقول: «اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم».

ومرة أخرى تؤكد الآية على أن الناس هم المسؤولون عن أعمالهم وأن النبي مسؤول عن تبليغ الرسالة لا غير «مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ». وفي الوقت نفسه: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ».

قُلْ لِمَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) الأكثرية ليست دليلاً على الحق: دار الحديث في الآيات السابقة حول تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام وصيد البر في حال الإحرام، ولكن قد نجد أناساً يتذرعون لإرتكاب هذه المعاصي بالكثرة الكاثرة من الذين يرتكبونها في بعض الأمصار، يضع الله سبحانه قاعدة كلية ورئيسية في عبارة قصيرة شاملة يخاطب بها رسوله الكريم: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ».

وعليه فإن الخبيث والطيب - في الآية - يشملان كل ما يرتبط بالإنسان، طعاماً كان ذلك أم فكراً.

وفي الختام يخاطب العلماء وأصحاب العقول والأذكىاء فيقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا جِئْنَا بِهَا الْقُرْآنَ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ». فقام عكاشة بن محصن - وقيل: سراقه بن مالك - فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال رسول الله: «ويحك ما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني كما

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٥

تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

التفسير

الأسئلة الفضولية: لا شك أن السؤال مفتاح المعرفة، وفي القرآن وفي الروايات الكثير من التوكيد على الناس أن يسألوا عما لا يعرفون، ولكن لكل قاعدة استثناء، ولهذا المبدأ التربوي الأساس استثناءه أيضاً، منها أن هناك - أحياناً - بعض المسائل التي يكون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعي ولمصلحة أفراد المجتمع، ففي أمثال هذه الحالات لا يكون الإلحاح في السؤال عنها والسعي لكشف النقاب عن حقيقتها بعيداً عن الفضيلة فحسب، بل يكون مذموماً أيضاً. والقرآن في هذه الآية يشير إلى الموضوع نفسه ويقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ».

ولكن الحاح بعض الناس بالسؤال من جهة، وعدم الإجابة على أسئلتهم من جهة أخرى، قد يثير الشكوك والريب عند الآخرين بحيث يؤدي الأمر إلى مفسد أكثر، لذلك تقول الآية: «وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ» فيشق عليكم الأمر.

ثم لا تحسبوا الله غافلاً عن ذكر بعض الأمور إن سكت عنها فقد «عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ».

في تفسير مجمع البيان عن علي عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحد لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء، ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها».

الآية التي بعدها تؤكد هذه الحقيقة، وتبين أن أقواماً سابقين كانت لهم أسئلة كهذه، وبعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها وعصوا: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ».

ينبغي ألا يظن أحد بأن هذه الآيات لا تمنع أبداً القاء الأسئلة المنطقية التربوية والبناءة، بل تتحدد بالأسئلة التي لا لزوم لها، وبالتعمق



في امور لا ضرورة للتعمق فيها والتي من الأفضل بل من اللازم- أحياناً- بقاؤها في طي الكتمان.

مَيَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٦

في الآية الاولى إشارة إلى أربعة «بدع» كانت سائدة في الجاهلية، فقد كانوا يضعون على بعض الحيوانات علامات وأسماء لأسباب معينة ويحرمون أكل لحومها ولا يجيزون شرب لبنها أو جز صوفها أو حتى امتطاءها، أى أنهم كانوا يطلقونها سائبة دون أن يستفيدوا منها شيئاً، لذلك يقول الله تعالى: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ».

١- «البحيرة»: هي الناقة التي ولدت خمسة أبطن خامسها أنثى- وقيل ذكر- فيشقون أذنها وتترك طليقة ولا تذبج.

٢- «السائبة»: هي الناقة التي تكون قد ولدت اثني عشر بطناً- وقيل عشرة أبطن- فيطلقونها سائبة ولا يمتطيها أحد، وقد يحلبونها أحياناً لإطعام الضيف.

٣- «الوصيلة»: هي الشاة التي ولدت سبعة أبطن- وقيل أنها التي تلد التوائم- وكانوا يحرمون ذبحها.

٤- «الحام»: واللفظة يطلق على الفحل الذي يتخذ للتلقيح.

هذه المعاني تدل جميعاً على حيوانات قَدِّمَت خدمات كبيرة لأصحابها في «النتاج» فكان هؤلاء يحترمونها ويطلقون سراحها لقاء ذلك.

صحيح أن عملهم هذا ضرب من العرفان بالجميل ومظهر من مظاهر الشكر، حتى نحو الحيوانات، ولكنه مضيعة للمال وإتلافاً لنعم الله وتعطيلها عن الإستثمار النافع، ثم إن هذه الحيوانات، بسبب هذا الإحترام والتكريم، كانت تعاني من العذاب والجوع والعطش لأنه قلماً يقدم أحد على تغذيتها والعناية بها، ولهذا كله وقف الإسلام بوجه هذه العادة!

إضافه إلى ذلك، يستفاد من بعض الروايات والتفاسير أنهم كانوا يتقربون بذلك كله، أو بقسم منه إلى أصنامهم، فكانوا في الواقع يندرون تلك الحيوانات لتلك الأصنام، ولذلك كان إلغاء هذه العادات تأكيداً لمحاربة كل مخلقات الشرك.

والعجيب في الأمر، أنهم كانوا يأكلون لحوم تلك الحيوانات إذا ما ماتت موتاً طبيعياً (وكأنهم يتبركون بها) وكان هذا عملاً قبيحاً آخر. ثم تقول الآية: «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» قائلين أن هذه قوانين إلهية دون أن يفكروا في الأمر ويعقلوه، بل كانوا يقلدون الآخرين في ذلك تقليداً أعمى:

«وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ».

الآية الثانية تشير إلى منطقتهم ودليلهم على قيامهم بهذه الأعمال: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٧

إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا».

في الواقع، كان كفرهم وعبادتهم الأصنام ينبع من نوع آخر من الوثنية، هو التسليم الأعمى للعادات الخرافية التي كان عليها أسلافهم، معتبرين ممارسات أجدادهم لها دليلاً قاطعاً على صحتها، ويردّ القرآن بصراحة على ذلك بقوله: «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) كل امرئ مسؤول عن عمله: دار الحديث في الآية السابقة حول تقليد الجاهليين آباءهم الضالين، فأنذرهم القرآن بأن تقليداً كهذا لا ينسجم مع العقل والمنطق، فمن الطبيعي أن يتبادر إلى أذهانهم السؤال: إننا إذا كان علينا أن نفرص عن أسلافنا في هذه الامور، فماذا سيكون مصيرهم؟ ثم إذا نحن أفلعنا عن هذه التقاليد فما مصير الكثير من الناس الذين ما يزالون متمسكين بها وواقعين تحت تأثيرها فكان

جواب القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ».

ثم يشير إلى موضوع البعث والحساب ومراجعة حساب كل فرد: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَمْ تَنْتَرِي بِهِ تَمَنَّآ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْأَثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٨

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: أن ثلاثة نفر خرجوا من المدينة تجاراً إلى الشام: تميم بن اوس الدارى وأخوه عدى، وهما نصرانيان، وابن أبى ماريه، مولى عمرو بن العاص السهمى، وكان مسلماً، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، مرض ابن أبى ماريه، فكتب وصيته بيده، ودسها في متاعه وأوصى إليهما، ودفع المال إليهما وقال: أبلغا هذا أهلى. فلما مات فتحا المتاع وأخذوا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال إلى الورثة. فلما فتش القوم المال، فقدوا بعض ما كان قد خرج به صاحبهم، فنظروا إلى الوصية، فوجدوا المال فيها تاماً، فكلموا تميماً وصاحبه، فقالا: لا علم لنا به وما دفعه إلينا أبلغناه، كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وآله فنزلت الآية.

التفسير

من أهم المسائل التى يؤكدها الإسلام هى مسألة حفظ حقوق الناس وأموالهم وتحقيق العدالة الاجتماعية، وهذه الآيات تبين جانباً من التشريعات الخاصة بذلك، فلكيلا تغمط حقوق ورثة الميت وأيتامه الصغار، يصدر الأمر للمؤمنين قائلاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ».

لابد من القول بأن القضية هنا لا تتعلق بالشهادة العادية المألوفة، بل هى شهادة مقرونة بالوصاية، أى إن هذين وصيان وشاهدان فى الوقت نفسه.

ثم تأمر الآية: إذا كنتم فى سفر ووافاكم الأجل ولم تجدوا وصياً وشاهداً من المسلمين فاختروا اثنين من غير المسلمين: «أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ».

والمقصود من غير المسلمين هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى طبعاً، لأن الإسلام لم يقم وزناً فى أية مناسبة للمشركين وعبدة الأصنام مطلقاً.

ثم تقرّر الآية حمل الشاهدين عند الشهادة على القسم بالله بعد الصلاة، فى حالة الشك والتردد: «تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ».

ويجب أن تكون شهادتهما بما مفاده: إننا لسنا على استعداد أن نبيع الحق بمنافع مادية فنشهد بغير الحق حتى وإن كانت الشهادة ضد أقربائنا: «لَا نَشْتَرِي بِهِ تَمَنَّآ وَلَوْ كَانَ ذَا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٦٩

قُرْبَىٰ وَإِنَّا لَنْ نَخْفَىٰ أَبَدًا الشَّهَادَةَ الْإِلَهِيَّةَ، وَإِلَّا فَسَنُكُونُ مِنَ الْمَذْنِبِينَ: «وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْأَثِمِينَ».

وفى الآية التالية يدور الكلام على ثبوت خيانة الشاهدين إذا شهدا بغير الحق، كما جاء فى سبب نزول الآية، فالحكم فى مثل هذه الحالة- أى عند الإطلاع على أن الشاهدين قد ارتكبا إثم العدوان على الحق واضاعته- هو أن تستعيضوا عنهما باثنين آخرين ممن ظلمهما الشاهدان الأولان (أى ورثة الميت) فيشهدان لإحقاق حقهما: «فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ

الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَانِ».

و الآية الأخيرة بيان لحكمة الأحكام التي جاءت في الآيات السابقة بشأن الشهادة وهي أنه إذا أجريت الامور بحسب التعاليم، أى إذا طلب الشاهدان للشهادة بعد الصلاة بحضور جمع، ثم ظهرت خيانتهم، وقام اثنان آخران من الورثة مقامهما للكشف عن الحق، فذلك يحمل الشهود على أن يكونوا أدق في شهادتهم، خوفاً من الله أو خوفاً من الناس: «ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ».

في الواقع سيكون هذا سبباً في الخشية من المسؤولية أمام الله وأمام الناس، فلا ينحرفان عن محجة الصواب.

ولتوكيد الأحكام المذكورة يأمر الناس قائلاً: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) هذه الآية تكمله للآيات السابقة، ففي ذيل تلك الآيات الخاصة بالشهادة الحقّة والشهادة الباطلة، كان الأمر بالتقوى والخشية من عصيان أمر الله، وفي هذه الآية تذكير بذلك اليوم الذي يجمع الله الرسل فيه ويسألهم عن رسالتهم ومهمتهم و عما قاله الناس ردّاً على دعواتهم «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ». لقد نفوا عن أنفسهم العلم، وأكلوا جميع الحقائق إلى علم الله و «قَالُوا لِمَاعِلَمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ». وعليه فإنكم أمام علماء الغيوب وأمام محكمة هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتكم عن الحق والعدل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧٠

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) نعم الله على المسيح: هذه الآية والآيات التالية لها حتى آخر سورة المائدة تختص بسيرة حياة السيد المسيح عليه السلام والنعم التي أسبغها الله عليه وعلى امه، يبينها الله هنا لتوعيه المسلمين وايقاظهم فتقول الآية: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ».

ثم تشرع الآية بذكر النعم: «إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

من نعم الله الاخرى: «تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا». أى إن كلامك في المهد، مثل كلامك وأنت كهل، كلام ناضج ومحسوب، لا كلام طفل غر.

ثم أيضاً: «وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ».

ومن النعم الاخرى: «وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي».

ومع ذلك فإنك تشفى بإذن الله الأعمى بالولادة والمصاب بالمرض الجلدى (البرص):

«وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ بِأَذْنِي».

ثم: «وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَذْنِي».

وأخيراً كان من نعمى عليك بأن منعت عنك أذى بنى إسرائيل يوم قام الكافرون منهم بوجهك ووسموا ما تفعل بأنه السحر، فدفعت أذى اولئك المعاندين اللجوجين عنك وحفظتك حتى تسير بدعوتك: «وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ».

و مما يلفت النظر في هذه الآية أنها تكرر «بأذنى» أربع مرات لكيلا يبقى مكان للغلو في

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧١

المسيح عليه السلام وادعاء الألوهية له، أى أن ما كان يحققة المسيح عليه السلام بالرغم من إعجازه وإثارته الدهشة ومشابهته للأفعال

الإلهية، لم يكن ناشئاً منه، بل كان من الله وبأذنه، فما كان عيسى سوى عبد من عبيد الله، مطيع لأوامره وما كان له إلا ما يستمدّه من قوّة الله الخالدة.

وَإِذِ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُشْرِكُونَ (١١١) إِذِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) قصة نزول المائدة على الحواريين: تعقيباً على ما جاء في الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم الله به على المسيح عليه السلام وامة يدور الحديث هنا حول النعم التي أنعم الله بها على الحواريين، أي أصحاب المسيح عليه السلام. ففي البداية تشير الآية إلى ما أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله المسيح عليه السلام فاستجابوا «وَإِذِ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ».

إنّ للوحي في القرآن معنى واسعاً لا- ينحصر في الوحي الذي ينزل على الأنبياء، بل أنّ الإلهام الذي ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضاً.

ثم تذكر الآية نزول المائدة من السماء: «إِذِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ».

«المائدة»: تعنى في اللغة الخوان والسفرة والطبق، كما تعنى الطعام الذى يوضع عليها.

شعر المسيح عليه السلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذى يدل على الشك والتردد، على الرغم من كل تلك الأدلة والآيات، فخطبهم و «قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧٢

ولكنهم سرعان ما أكدوا للمسيح عليه السلام أنّ هدفهم برىء، وأنهم لا يقصدون العناد واللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافاً إلى الحالة النورانية في قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوى لأنّ للغذاء ونوعيته أثر مسلّم فى روح الإنسان) «قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ».

فبينوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، ولتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهي من أثر فى الروح ومن زياده فى الثقة واليقين. ولما أدرك عيسى عليه السلام حسن نيتهم فى طلبهم ذاك، عرض الأمر على الله: «قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

فاستجاب الله لهذا الطلب الصادر عن حسن نيته وإخلاص: «قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ».

فبعد نزول المائدة تزداد مسؤوليات هؤلاء وتقوى الحجة عليهم، ولذلك فإنّ العقاب سيزداد أيضاً فى حالة الكفر والانحراف.

وَإِذِ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَمْ أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبِيدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) براءة المسيح من شرك أتباعه: هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين الله والمسيح يوم القيامة. تقول الآية الاولى: «وَإِذِ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

فيجب المسيح عليه السلام بكلّ احترام بوضع جمل على هذا السؤال:

١- أَوْلًا يَنْزِرُهُ اللَّهُ عَنْ كُلِّ شَرِكٍ وَشِبْهِهِ: «قَالَ سُبْحَانَكَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧٣

٢- ثم يقول: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ». أى ما لا يحق لى قوله ولا يليق بى أن أقوله.

فهو لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفى أن يكون له حق فى قول مثل هذا القول الذى لا ينسجم مع مقامه ومركزه.

٣- ثم يستند إلى علم الله الذى لا- تحدّه حدود، تأكيداً لبراءته فيقول: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَرَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ» (١).

٤- «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ». لا أكثر من ذلك.

٥- «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». أى كنت أحول دون سقوطهم فى هاوية الشرك مدّة بقائى بينهم، فكنت الرقيب والشاهد عليهم، ولكن بعد أن رفعتنى إليك، كنت أنت الرقيب والشاهد عليهم.

٦- «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُعْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». أى على كل حال فالأمر أمرك والإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك وليس بإمكانهم أن يفرّوا من عذابك، فهذا حقك بإزاء العصاة من عبيدك وإن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنك أنت القوى الحكيم فلا عفوك دليل ضعف ولا عقابك خال من الحكمة والحساب.

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) الفوز العظيم: بعد الحوار الذى جرى بين الله والمسيح عليه السلام يوم القيامة- كما شرحناه فى تفسير الآيات السابقة- تقول الآية: «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ».

وهؤلاء الصادقون: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». وخير من هذه النعمة المادية أنهم: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ». ولا شك أن هذه النعمة الكبرى التى تجمع بين النعم المادية والنعم المعنوية شىء عظيم: «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

(١) إطلاق كلمة «نفس» على الله لا يعنى الروح، فمن معانى النفس الذات.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧٤

وفى آخر الآية إشارة إلى امتلاك الله كل شىء وسيطرته على السماوات والأرض وما فيها وأن قدرته عامّة تشمل كل شىء: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

هذه الآية تعتبر سبب رضى عباد الله عن الله، وذلك لأن الذى يملك كل شىء فى عالم الوجود له القدرة أن يعطى عباده ما يريدون وأن يغفر لهم وأن يفرحهم ويرضيه، كما تتضمن إشارة إلى عدم صدق أعمال النصارى فى عبادة مريم، لأن العبادة جديرة بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقة بأكمله، لا مريم التى لا تزيد عن كونها مخلوقه مثلهم.

«نهاية تفسير سورة المائدة»

## الجزء الثانى

### ٦. سورة الأنعام

حرب على الشرك والوثنية: قيل أن سورة الأنعام مكية، وهى السورة التاسعة والستون فى تسلسل نزول السور القرآنية. هدف هذه السورة الرئيسى- مثل أهداف السور المكية- توكيد الاصول الثلاثة: «التوحيد» و «النبوة» و «المعاد» ولكنها تؤكد أكثر ما تؤكد قضية

عبادة الله الواحد ومحاربة الشرك والوثنية، بحيث إن معظم آيات هذه السورة يخاطب المشركين وعبدة الأصنام، وبهذا يتناول البحث في أكثر المواضع، أعمال المشركين وبدعهم.

ولعل هذا أيضاً هو السبب لما نقرأه من روايات عن فضل هذه السورة، وإنها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملك، وأن من قرأها وترتوى روحه من ينبوع التوحيد يستغفر له كل اولئك الملائكة.

إن التمغن في آيات هذه السورة يقضى على روح النفاق والنشئت بين المسلمين، ويجعل الآذان سميعة، والأعين بصيرة، والقلوب عارفة.

ولكن العجيب أن نرى بعضهم يكتفى من هذه السورة بقراءة ألفاظها فقط، ويعقد الجلسات لتلاوة آياتها من أجل حل المشاكل الشخصية، فلو اهتمت هذه الجلسات بمحتوى السورة، فلا تنحل المشاكل الخاصة وحدها، بل تنحل جميع مشاكل المسلمين العامة أيضاً، ومن المؤسف جداً أن جمعاً من الناس يعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦

التي لها خواص غامضة ومجهولة فيقرأونها بغير تمغن في مضامينها، مع أن القرآن كله مدرسه ودروس ومنهج ويقظة، ورسالة ووعى. الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) تبدأ السورة بالحمد لله والثناء عليه، ثم تشرع بتوعية الناس على مبدأ التوحيد، عن طريق خلق العالم الكبير (السموات والأرض) أولاً؛ ثم عن طريق خلق العالم الصغير (الإنسان) ثانياً: «الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». الله الذي هو مبدأ الظلمة والنور، بخلاف ما يعتقده الثنويون، وهو وحده خالق كل شيء: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ».

غير أن الكافرين والمشركين، بدلاً من أن يتعلموا من هذا النظام الواحد درس التوحيد، يصطنعون لله الشريك والشبيه: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ».

نلاحظ أن القرآن يذكر عقيدة المشركين بعد حرف العطف «ثم» الذي يدل في اللغة العربية على الترتيب والترسخ، وهذا يدل على أن التوحيد كان في أول الأمر مبدأً فطرياً وعقيدة عامة للبشر، بعد ذلك حصل الشرك كانحراف عن الأصل الفطري.

وروى في تفسير نور الثقلين عن أمير المؤمنين على عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «وكان في هذه الآية رد على ثلاثة أصناف منهم لما قال: «الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». فكان رداً على الدهرية الذين قالوا: إن الأشياء لا بدء لها وهي دائمة، ثم قال: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» فكان رداً على الثنوية الذين قالوا: إن النور والظلمة هما المدبران، ثم قال: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» فكان رداً على مشركي العرب الذين قالوا: إن أوثاننا آلهة».

والآية التالية تلفت نظر الإنسان إلى العالم الصغير (الإنسان) فتشير إلى أعجب أمر وهو خلقه من الطين فتقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ».

صحيح أننا ولدنا من أبونا، لا من الطين، ولكن بما أن خلق الإنسان الأول كان من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧

الطين، فيصح أن نخاطب نحن أيضاً على أننا مخلوقين من الطين.

وتستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إن الله بعد ذلك عين مدّة يقضيها الإنسان على هذه الأرض للنمو والتكامل: «ثُمَّ قَضَى أَجَلًا».

ثم لإستكمال البحث تقول: «وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ».

بعد ذلك تخاطب الآية المشركين وتقول لهم: «ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ». أى تشكون في قدرة الخالق الذي خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) واجتاز به هذه المراحل المدهشة، وتعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

إن كلمة «أجل» وحدها تعنى غير الحتمى من العمر والوقت والمدّة و«الأجل المسمى» بمعنى الحتمى منها وبعبارة اخرى «الأجل المسمى» هو الموت الطبيعي؛ و«الأجل» هو الموت غير الطبيعي، ولكن أن الأجلين يعينهما الله.

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) هذه الآية تكمل البحث السابق في التوحيد ووحديته الله، وترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعة من الكائنات، أو لكل ظاهرة من الظواهر، فيقولون: إله المطر، وإله الحرب، وإله السلم، وإله السماء، وما إلى ذلك، تقول الآية: «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ».

من الطبيعي أن يكون الحاكم على كل شىء والمدبر لكل الامور والحاضر في كل مكان عارفاً بجميع الأسرار والخفايا ولهذا تقول الآية: إن رباً كهذا «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ».

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) قلنا: إن معظم الخطاب في سورة الأنعام موجه إلى المشركين، والقرآن يستخدم شتى السبل لإيقاظهم وتوعيتهم، فهذه الآية والآيات الكثيرة التي تليها تواصل هذا الموضوع.

تشير هذه الآية إلى روح العناد واللامبالاة والتكبر عند المشركين تجاه الحق وتجاه آيات الله، فتقول: «وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨

مثل هذه النفسية لا يقتصر وجودها على عهود الجاهلية ومشركى العرب، فاليوم أيضاً نجد من بلغ الستين من عمره ومع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث والتحقيق في الله والدين، وإن وقع بيده كتاب أو بحث في هذا الموضوع لم ينظر إليه وإن تحدّث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحياناً أمام الناس بمظهر العالم المتجبر! ثم تشير الآية إلى نتيجة أعمالهم، وهى: أنهم عندما رأوا الحقيقة كذبوها، ولو أنهم دققوا في آيات الله جيداً لرأوا الحقيقة وأدركوها وآمنوا بها: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ».

ولسوف تصلهم نتيجة هذا التكذيب والسخرية: «فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

في هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد في الشدّة على التوالي، المرحلة الاولى هى مرحلة الإعراض، ثم مرحلة التكذيب، وأخيراً مرحلة الاستهزاء بآيات الله.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ تَجْرِيًا مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٦) مصير الطغاة: ابتداء من هذه الآية وما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّة تربيوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام والمشركين تناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أولاً بمكافحة عامل (الغرور) وهو من عوامل الطغيان والعصيان والانحراف المهمة، فيذكّرهم بالأمم السالفة ومصائرهم المؤلمة، وبذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، ويقول: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ تَجْرِيًا مِنْ تَحْتِهِمْ» (١).

ولكنهم لما استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانيات إنقاذهم من العقاب الإلهي: «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ».

(١) «المدرار»: فى الأصل من «درّ» اللبن، ثم إنتقل إلى ما يشبهه فى التّزول كالمطر، والكلمة صيغة مبالغة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) منتهى العناد: يشير القرآن هنا إلى

الطلب الذي تقدّم به جمع من عبدة الأصنام ويقول:

«وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ». أى إن عنادهم قد وصل حدًّا ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحراً لكيلا يستسلموا للحقيقة.

وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَشَنَاءُ عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ (٩) وَ لَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) خلق المبررات: من عوامل الكفر والإنكار الاخرى، روح التحجج والبحث عن المبررات. ومن جملة الحجج التي احتج بها المشركون على رسول الله صلى الله عليه وآله وأشار إليها القرآن في كثير من آياته- ومنها هذه الآية- هي أنهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول الله صلى الله عليه وآله وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أيمن إنسان من جنسنا أن يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ «وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ».

يرد القرآن عليهم بجملتين في كل منهما برهان:

الاولى: «وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ». أى لو نزل ملك لمعاونته رسول الله صلى الله عليه وآله لهلك الكافرون.

الثانية: هي أن الرسول الذي يبعثه الله لقيادة الناس وتربيتهم وليكون اسوة لهم، لا بد أن يكون من جنس الناس أنفسهم وعلى شاكلتهم من حيث الصفات والغرائز البشرية، لذلك فالقرآن في الجواب الثانى يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكاً حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان وأن يظهر فى هيئة إنسان: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠

ثم يستنتج من ذلك أنهم- فى هذه الحالة أيضاً- كانوا سيعترضون الإعتراض نفسه، وهو: لماذا أوكل الله مهمته القيادة إلى بشر وأخفى عتبا وجه الحقيقة: «وَلَلْبَشَنَاءُ عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ». وفى الختام يهون الأمر على رسوله ويقول له: «وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

هذه الآية فى الواقع تسليته لرسول الله صلى الله عليه وآله يطلب الله فيها منه أن لا ترعزعه الزعازع، ويهدد فى الوقت نفسه المخالفين والمعاندين ويطلب منهم أن يتفكروا فى عاقبه أمرهم المؤلمة.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١١) لكى يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك فى هذه الآية سبيلاً آخر فىأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة فى أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر اولئك الذين كذبوا بالحقائق، ففعل ذلك يوقظهم من غفلتهم «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ».

لا شك أن لرؤية آثار السابقين والأقوام التى هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيراً أعمق من مجرد قراءة كتب التاريخ، لأن هذه الآثار تجسد الحقيقة ناطقة ملموسة، ولهذا استعمل جملة «انظروا» ولم يقل «تفكروا».

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) يواصل القرآن مخاطبة المشركين، وفى الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد وعبادة الله الأحد وهنا يدور الحديث عن المعاد، وبالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة. يتكوّن الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أولاً: يقول: «قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم وروحهم: «قُلْ لِلَّهِ». فبموجب هذه المقدمة يكون كل عالم الوجود ملكاً لله وبيده وتديره.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١

ثانياً: إن الله هو وحده مصدر كل رحمة، وهو الذى أوجب على نفسه الرحمة، ويفيض بنعمه على الجميع: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».



هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدى الإنسان- الذى عنده إمكانية الخلود- لباس حياة جديدة بعد موته فى عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة فى سيره التكاملى الأبدى، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: «لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَرْبَبَ فِيهِ».

فى نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين وعاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم فى سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَأَيُّمُونَ».

الآية السابقة تشير إلى أن الله مالك كل شىء يستوعبه ظرف «المكان» أما هذه الآية فتشير إلى ملكية الله لما يستوعبه ظرف «الزمان» الواسع وتقول: «وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وفى نهاية الآية وبعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين فى الله فتقول: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». أى أن إتساع عالم الوجود، والكائنات فى آفاق الزمان والمكان لا تحول أبداً دون أن يكون الله عليمًا بأسرارها.

قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُكُمْ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أَمْزُتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَمَّا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُضِرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام فالمشركون، وإن اعتقدوا أن الله هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأً لأنفسهم، ولربما اتخذوا صنماً لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، وإله للظلام، وإله للحرب والسلام، وإله للرزق، وهذا هو تعدد الأرباب الذى ساد اليونان القديم.

ولكى يزيل القرآن هذا التفكير الخاطيء، يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن «قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُكُمْ وَ لَمَّا يُطْعَمُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢

هذه الآية تقتصر على تأكيد إتصاف الله باطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعل ذلك إشارة إلى أن أقوى حاجات الإنسان فى حياته المادية هى حاجته إلى «لقمة العيش» كما يقال، وهذه اللقمة هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوة، وقد يصل خضوعهم لأولئك حد العبودية، ففى هذا يقرر القرآن أن رزق الناس بيد الله لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام، فأصحاب المال والقوة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، وأن الله هو وحده الذى يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام.

ثم للرد على اولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول الله إلى الإنضمام إليهم، يؤكد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء إنطلاقاً من مبدأ نهى الوحي الإلهى عن ذلك، إضافة إلى نهى العقل: «قُلْ إِنِّي أَمْزُتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَمَّا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

الآية التالية فيها تأكيد أشد لهذا النهى الإلهى عن إتباع المشركين: «قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». أى يأمر الله رسوله أن يقول بأنه ليس مستثنى من القوانين الإلهية، وأنه يخاف- إن ركن إلى المشركين- عذاب يوم القيامة.

ولكى يتضح أن النبى صلى الله عليه وآله لا يستطيع شيئاً بغير الاستناد إلى لطف الله ورحمته، فكل شىء بيد الله وبأمره، وحتى رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه يترقب بعين الرجاء رحمة الله الواسعة، ومنه يطلب النجاة والفوز: «مَنْ يُضِرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ».

وَ إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قدرة الله القاهرة: قلنا إن هدف هذه السورة هو إستئصال جذور الشرك وعبادة الأصنام، وهاتان الآيتان تواصلان تحقيق ذلك. فالقرآن يتساءل أولاً: لماذا تتوجهون إلى غير الله، وتلجأون إلى معبودات تصطنعونها لحل مشاكلكم ودفع الضر عن أنفسكم واستجلاب الخير لها؟ بينما لو أصابك أدنى ضرر فلا يرفعه عنك غير الله، وإذا أصابك الخير والبركة والفوز والسعادة فما ذلك إلا بقدرة الله، لأنه هو القادر القوى: «وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١).

(١) «الضر»: هو كل نقيصة يتعرض لها الانسان إمّا فى الجسم مثل نقص عضو والمرض، وإمّا فى النفس مثل الجهل والسفاهة والجنون، وإمّا فى امور اخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣

فى الواقع إنّ سبب الإتجاه إلى غير الله إمّا لتصورهم أنّ ما يتجهون إليه مصدر الخيرات، وإمّا لإعتقادهم بقدرته وأنه يدرأ عنهم المصائب ويحلّ لهم مشاكلهم.

وفى الآية التى تليها إكمال للبحث، فيقول: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ».

ولإزالة كل وهم قد يخطر لأحدكم بأنّ الله قد يسىء استعمال قدرته غير المتناهية كما هو الحال فى ذوى القدرة من البشر، يقول

القرآن: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ». أى أنّه صاحب حكمه و كل أعماله محسوبة لأنّه خبير وعالم ولا يخطىء فى استعمال قدرته أبداً.

قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً

أُخْرَى قُلْ لَأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَأُؤْمِنُونَ (٢٠) أعظم الشاهدين: يذكر جمع من المفسرين أنّ عدداً من مشركى مكة جاءوا إلى رسول الله صلى

الله عليه و آله وقالوا: كيف تكون نبياً ولا نرى أحداً يؤيدك؟ وحتى اليهود والنصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك

بحسب ما عندهم فى التوراة والإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، والآيات المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة. فى مواجهة

هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤيته كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، ويطلبون مزيداً من الشواهد، يؤمر

النبى صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً». أ هناك شهادة أعظم من شهادة رب العالمين: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

وهل هناك دليل أكبر من هذا القرآن:

«وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ».

هذا القرآن الذى لا يمكن أن يكون وليد فكر بشرى، خاصة فى تلك الظروف الزمانية والمكانية، هذا القرآن الذى يضم مختلف

الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، ومعانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقاً لهماً للدعوة!

يستفاد من هذه العبارة أيضاً أنّ القرآن أعظم معجزة وأكبر شاهد على صدق دعوة رسول الله صلى الله عليه و آله.

ثم يشير إلى هدف نزول القرآن ويقول: «لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ». أى إنّ القرآن قد نزل على لكى أنذركم، وأنذر جميع الذين يصل

إليهم - عبر تاريخ البشر، وعلى إمتداد الزمان

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤

وفى أرجاء العالم كافة - كلامى، وأحذّره من عواقب عصيانهم. ثم أمر الله رسوله أن يسألهم: «أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً

أُخْرَى وَيَأْمُرُهُ أَنْ:

«قُلْ لَأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ».

أمّا الذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشهدوا لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فإنّ الآية التى بعدها تردّ عليهم وتقول: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ». أى إنّ معرفتهم به لا تقتصر على مبدأ ظهوره ودعوته فحسب، بل إنهم يعرفون حتى التفاصيل

والخصائص وعلاماته الدقيقة أيضاً.

والآية تعلن فى آخر مقاطعها النتيجة النهائية: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَأُؤْمِنُونَ».

أى إنّ الذين لا يؤمنون بالنبى - مع كل ما تحيطه من دلائل وعلامات واضحة - هم فقط اولئك الذين خسروا كل شىء فى تجارة

الحياة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَنْتَهُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) أشد الظلم: تواصل هذه الآيات المنهج القرآني في مقارعة الشرك وعبادة الأصنام بشكل شامل. تقول الآية الأولى بصراحة وبصورة استفهام إستنكاري: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ».

الجملة الأولى إشارة إلى إنكار التوحيد والثانية إشارة إلى إنكار النبوة حقاً لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جماد لا قيمة لها، أو إنساناً ضعيفاً مثله شريكاً لرب لا تحدّه حدود وله الحكم على كل عالم الوجود.

فلا شك إذن في أن أيّ ظالم - وعلى الأخص أولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة - لا يمكن أن يرى السعادة والفلاح: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

الآية التالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنهم باعتمادهم على مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة في هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلك في الحياة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥

الآخرة، فتقول الآية: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ». أين هم؛ لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذكم؟ لماذا لا يظهرون أيّ حول ولا يبدون أية قوة؟

فيستولى على هؤلاء الرعب والخوف ويبهتون ولا يحيرون جواباً، سوى أن يقسموا بالله إنهم لم يكونوا مشركين، طناً منهم أنهم هناك أيضاً قادرين على إخفاء الحقائق: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَنْتَهُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ».

الآية الثالثة ومن أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: «انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ».

وتنهار المساند التي إختاروا الاستناد عليها وجعلوها شريكة لله، وخابوا في مسعاهم «وَضَلَّ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا أَنْتَ لَهَا تُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمِمَّا يَشْعُرُونَ

(٢٦) في هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسى لبعض المشركين، فهم لا يبدون أية مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك، يناصرونها العدا، ويقذفونها بالتهم، فيبعدون أنفسهم وغيرهم عنها عن هؤلاء. تقول الآية: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا» (١).

إن نسبة هذه الامور إلى الله، إنما هي إشارة إلى قانون «العلّة والمعلول» وخاصية «العمل»، أى إن أثر الاستمرار في الانحراف والإصرار على المعاندة والتشاؤم يظهر في إتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، لقد أثبت التجربة أن المنحرفين والمذنبين يحسون أول الأمر بعدم الرضا عن حالهم، ولكنهم يعتادون ذلك بالتدرج، وقد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحة لازمة وضرورية.

(١) «أكِنَّة»: جمع «كنان» وهو كل ستار أو حاجز؛ و «الوقر»: بمعنى ثقل السمع.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦

وهؤلاء وصلوا حدّاً تصفه الآية فتقول: «وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا أَنْتَ لَهَا تُؤْمِنُوا بِهَا» بل الأكثر من ذلك أنهم عندما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، ولا يأتون - على الأقل - بهيئة الباحث عن الحق الذى يسعى للعثور على الحقيقة والتفكير فيها، بل يأتون بروح وفكر سلبين، ولا هدف لهم سوى الجدل والإعتراض: «حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ». أنهم عند سماعهم كلامك الذى يستقى من

ينابيع الوحي ويجرى على لسانك الناطق بالحق، يبادرون إلى إتهامك بأن ما تقوله إنما هو خرافات اصططنها اناس غابرون:

«يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

الآية التالية تذكر أن هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقة بما يشيعونه ويروجونه من مختلف الأكاذيب، ويمنعونهم أن يقتربوا من رسول الله صلى الله عليه وآله: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» وبيتعدون عنه بأنفسهم: «وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ» (١).

دون أن يدركوا أن من يصارع الحق يكن صريعه، وأخيراً وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحق من وراء السحب، وينتصر بما له من قوة، ويتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافي على سطح الماء، وعليه فإن مساعيهم سوف تتحطم على صخرة الإخفاق والخيبة وما يهلكون غير أنفسهم، ولكنهم لا يدركون الحقيقة: «وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ». ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (٢٧) بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو زدوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٢٨) في هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشركين وفيهما يتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لكي يدركوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم - على الأقل - عبرة لغيرهم، فتقول الآية: «وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ لَتَبِينَ لَكَ مَصِيرَهُمُ السَّيِّئِ الْمُؤْمِلِ». إنهم في تلك الحال على درجة من الهلع بحيث إنهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوض عن أعمالنا القبيحة، ونعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم، ونصدق آيات ربنا،

(١) «ينأون»: من «نأى بمعنى إبتعد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧

ونقف إلى جاب المؤمنين: «فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

الآية التالية تؤكد أن ذلك ليس أكثر من تمن كاذب، وإنما تمتوه لأنهم رأوا في ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه - من عقائد ونيات وأعمال سيئة - مكشوفاً أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: «بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ». غير أن هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنها قد حصلت لظروف طارئته، ولذلك فحتى لو افترضنا المستحيل وعادوا إلى هذه الدنيا مرة أخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل وما نهوا عنه: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» لذلك فهم ليسوا صادقين في تمنياتهم ومزاعمهم «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقُفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) هذه الآية إستئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلبين الذين يتمنون - عندما يشاهدون أهوال يوم القيامة - أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، ولكن القرآن يقول إنهم إذا رجعوا لا يتجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، وأكثر من ذلك فإنهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة «وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

الآية التالية تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدي الله: «وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقُفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ». فيكون جوابهم أنهم يقسمون بأنه الحق: «قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا».

عندئذ: «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». لا شك أن «الوقوف بين يدي الله» لا يعنى إن لله مكاناً، بل يعنى الوقوف في ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسرين، أو أنه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصلاة أنه يقف بين يدي الله وفي حضرته.

الآية التي بعدها، فيها إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨

كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ. إِنَّ المقصود بقاء الله هو - كما قلنا من قبل - اللقاء المعنوي والإيمان الشهودي (الشهود الباطني)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة والحساب والجزاء.

ثم تبين الآية أن هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهدته الرهيبة، ويشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصيروا في حق هذا اليوم: «حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا». «الساعة»: هي يوم القيامة؛ و «بغتة»: تعني فجأة وعلى حين غره، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى الله تعالى.

ثم يقول القرآن الكريم: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ».

«الأوزار»: جمع «وزر» وهو الحمل الثقيل، وتعني الأوزار هنا الذنوب، ويمكن أن تتخذ هذه الآية دليلاً على تجسد الأعمال، لأنها تقول إنهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم.

وفي آخر الآية يقول الله تعالى: «أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ».

ثم لبيان نسبة الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول الله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ». فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياة، ولا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كله في اللعب واللهو غافلين عن كل شيء.

إن تشبيه الحياة الدنيا باللهو واللعب يستند إلى كون اللهو واللعب من الممارسات الفارغة السطحية التي لا ترتبط بأصل الحياة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

ثم تقارن الآية حياة العالم الآخر بهذه الدنيا، فتقول: «وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فتلك حياة خالدة لا تفنى في عالم أوسع وعلى مستوى أرفع، عالم يتعامل مع الحقيقة لا المجاز ومع الواقع لا الخيال.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَمَا يَكْذِبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَضِرْنَآ وَ لَأَمْبَدَلٌ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) المصلحون يواجهون الصعاب دائماً: لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وآله في نقاشاته المنطقية ومحاوراته الفكرية مع المشركين المعاندين المتصلبين، كان يواجه منهم المعاندة واللجاجة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩

والتصلب والتعتت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، ولذلك كله كان النبي صلى الله عليه وآله يشعر بالغم والحزن، والله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن يواسي النبي صلى الله عليه وآله ويصبره على ذلك، لكي يواصل مسيرته بقلب أقوى وجأش أربط، كما جاء في هذه الآية: «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ». فاعلم أنهم لا ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات الله، ولا يكذبونك بل يكذبون الله: «فَإِنَّهُمْ لَأَيَّكَ كَذَّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

ومثل هذا القول شائع بيننا، فقد يرى «رئيس» أن «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضباً، فيقول له: «هون عليك، فإن ما قالوه لك إنما كان موجهاً إليّ، وإذا حصلت مشكلة فأنا المقصود بها، لا أنت» وبهذا يسعى إلى مواساة صاحبه والتهوين عليه.

الآية الثانية تستأنف مواساة الرسول صلى الله عليه وآله وتبين له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكد له أن هذا ليس مقتصراً عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضاً: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ».

ولكنهم صبروا وتحملوا حتى انتصروا بعون الله: «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَضِرْنَآ» وهذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: «وَلَا مُبَدَلٌ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ».

وعليه، فلا تجزع ولا تبتئس إذا ما كذبتك قومك وآذوك، بل اصبر على معاندة الأعداء وتحليل أذاهم، واعلم أن الإمدادات

والألطاف الإلهية ستنزل بساحتك بموجب هذه السنّة، فتنصر في النهاية عليهم جميعاً، وإنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد والمصاعب وعن ثباتهم وصبرهم وانتصارهم في النهاية، لهو شهادة بينة لك: «وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ».

تشير هذه الآية إلى مبدأ عام هو أنّ قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادئ وتعاليم بناءة، وبمحاربة الأفكار المنحطّة والخرافات السائدة والقوانين المغلوطة في المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الإنتهازيين الذين يرون في انتشار تلك التعاليم والمبادئ البناءة خطراً يهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلا استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، وبكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة اولئك المصلحين. إلا أنّ الحقيقة، بما فيها من قوة الجاذبية والعمق، وبموجب السنّة الإلهية، تعمل عملها إلا أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر والمقاومة والثبات.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠

وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) الأموات المتحركون: هاتان الآيتان استمرار لمواساة النبي صلى الله عليه وآله التي بدأت في الآيات السابقة لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنّه استطاع أن يهديهم جميعاً إلى طريق الإيمان بأية وسيلة كانت. فيقول الله تعالى: «وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ». أي إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب ويثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلماً يوصلك إلى السماء للبحث عن آية- إن استطعت- ولكن اعلم أنّهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

في هذه الآية يخبر الله نبيّه بأن ليس في تعليماتك ودعوتك وسعيك أي نقص، بل النقص فيهم لأنهم هم الذين رفضوا قبول الحق، لذلك فإنّ أيّ مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

ولكن لكيلا يظن أحد أنّ الله غير قادر على حملهم على التسليم يقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى». أي لو أراد حملهم على الإستسلام والرضوخ لدعوتك والإيمان بالله لكان على ذلك قديراً.

غير أنّ الإيمان الإجباري لا- طائل تحته، إنّ خلق البشر للتكامل مبنى على أساس حرية الاختيار والإرادة، ففي حالة حرية الاختيار وحدها يمكن تمييز «المؤمن» من «الكافر» و«الصالح» من «غير الصالح» و«الصادق» من «الكاذب».

ثم يقول سبحانه لنبيّه: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ». أي لقد قلت هذا لثلاث تكون من الجاهلين، أي لا- تفقد صبرك ولا- تجزع، ولا يأخذك القلق بسبب كفرهم وشركهم.

وما من شك أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يعلم هذه الحقائق ولكن الله ذكرها له من باب التطمين وتهدئة الروح.

في الآية التي تليها استكمال لما سبق ومزيد من المواساة للرسول الكريم صلى الله عليه وآله فتقول الآية: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١

أمّا الذين هم في الواقع أشبه بالأموات فإنهم لا يؤمنون حتى يبعثهم الله يوم القيامة:

«وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ».

يومئذ، وبعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلا أنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئاً.

وَقَالُوا لَوْ لَمْ نُزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قَلْبًا لَإِنَّ اللَّهَ فَادِرٌ عَلَيَّ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمَّا يَعْلَمُونَ (٣٧) تشير هذه الآية إلى واحد من

الأعذار التي يتذرع بها المشركون، فقد جاء في بعض الروايات أنه عندما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: كل هذا الذي تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقاً فيما تقول، فأتنا بمعجزات كعصا موسى وناقة صالح، يقول القرآن بهذا الشأن: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ».

من الواضح أن أولئك لم يكونوا جادين في بحثهم عن الحقيقة، لأن الرسول صلى الله عليه وآله كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفي، لذلك يأمر الله رسوله أن: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً».. إلهاً أن في ذلك أمراً أنتم عنه غافلون، وهو أنه إذا حقق الله مطالبكم التي يدفعكم إليها عنادكم، ثم بقيتم على عنادكم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعجز، فسوف يقع عقاب الله عليكم جميعاً، وتفنون عن آخركم، لأن ذلك سيكون منتهى الإستهتار بمقام الالوهية المقدس وبمبعوثه وآياته ومعجزاته، ولهذا تنتهي الآية بالقول: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) هذه الآية تستأنف ما جاء في الآيات السابقة من الكلام مع المشركين وتحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة، فتحدثت عن «الحشر» وبعث عام يشمل جميع الكائنات الحيّة والحيوانات، فتقول أولاً: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ».

يتضح من هذا أن فصائل الحيوان والطيور امم مثل البشر.

أى إن للحيوان والطيور - أيضاً - إدراكه ومشاعره في عالمه الخاص، ويعرف الله ويسبح له ويقدسه بحسب طاقته، وإن تكن قوة إدراكه أدنى مما في الإنسان.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢

«الدابة»: من «دب» والديب المشى الخفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات أكثر. «الطائر» كل ذى جناح يسبح في الهواء وقد يوصف بها بعض الامور المعنوية التي تتقدم بسرعة واندفاع، والآية تقصد الطائر الذى يطير بجناحيه. «امم»: جمع امة، وهى كل جماعة يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد. «يحشرون»: من «حشر» بمعنى «الجمع» والمعنى الوارد في القرآن يقصد به يوم القيامة، ولا سيما أنه يقول: «إِلَىٰ رَبِّهِمْ».

ثم تقول الآية: «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ». لعل المقصود «بالكتاب» هو القرآن الذى يضم كل شىء، أو المقصود بالكتاب هو «عالم الوجود» إذ أن عالم الخليفة مثل الكتاب الضخم، يضم كل شىء ولا ينسى شيئاً.

وتختم الآية بالقول: «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ». من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم:

إن الله الذى خلق جميع الحيوانات ووفر لها ما تحتاجه، ورعى كل أفعالها، وجعل لها حشراً ونشوراً، قد أوجد لكم دون شك بعثاً وقيامه وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنه ليس ثمّة شىء سوى الحياة الدنيا والممات.

هل هناك بعث للحيوانات؟ ما من شك أن الشرط الأول للمحاسبة والجزاء هو «العقل والإدراك» ويستتبعهما «التكليف والمسؤولية».

يقول أصحاب هذا الرأى: إن حياة كثير من الحيوانات تجرى وفق نظام دقيق ومثير للعجب، ويدل على ارتفاع مستوى إدراكها وفهمها،

فمن ذا الذى لم يسمع بالنمل والنحل وتمدنها العجيب ونظامها المحير فى بناء بيوتها وخلاياها، ولا شك أن هذه امور ليس من السهل

اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة، إذ إن الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار، أما الأعمال التى تقع فى ظروف خاصة

كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة. فالشاة التى لم يسبق لها أن رأت ذئباً

فى حياتها تفرغ منه أول ما تراه وتدرك خطره عليها وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.

فضلاً عن ذلك كله، فإن هناك بعض الآيات التى تدل - بوضوح - على أن للحيوانات فهماً وإدراكاً، من ذلك حكاية هروب النمل

من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.

ثمّة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات، من ذلك ما روى فى تفسير مجمع البيان عن أبى ذر قال: بينا أنا عند رسول الله

صلى الله عليه وآله إذ انتطحت عنزان، فقال النبي صلى الله عليه وآله:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣

«أندرون فيما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندري. قال: «ولكن الله يدري وسيقضى بينهما».

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) مرّة اخرى يعود القرآن ليتطرّق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ». فهم لا يملكون آذاناً صاغية لكي يستمعوا إلى الحقائق، ولا ألسناً ناطقةً بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق.

وبعد ذلك يقول القرآن الكريم: «مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

إنّ الهداية والضلالة اللتين تنسبان في هذه الحالات إلى مشيئة الله إنّما هما ثواب الله وعقابه لعباده على أفعالهم الحسنه أو السيئه. وبعبارة اخرى: قد يرتكب الإنسان أحياناً إنّما كبيراً يؤدّي به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، وتفقد عينه القدرة على رؤيه الحق، وتفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحق، ويفقد لسانه القدرة على قول الحق.

وقد يكون الأمر على عكس ذلك، أي قد يعمل الإنسان أعمالاً صالحة كثيرة بحيث إنّ عالماً من النور والضوء يشع في روحه، فيتسع بصره وبصيرته، وتزداد أفكاره إشعاعاً، ويكون لسانه ابلغ في إعلان الحق، ذلكم هو مفهوم الهداية والضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة الله ومشيئته.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) التوحيد الفطري: يعود الكلام مرّة اخرى إلى المشركين، ويدور الاستدلال حول وحدانية الله وعبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجة والمؤلمة التي تمرّ بهم في الحياة، ويستشهد بضمائرهم، فهم في مثل تلك المواقف ينسون كل شيء، ولا يجدون غير الله ملجأ لهم. يأمر الله سبحانه نبيه أن: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

الحالة النفسية التي تصوّرها هذه الآية لا تنحصر في المشركين، بل في كل إنسان حين يتعرّض إلى الشدّة وحوادث الخطر وقد لا يلجأ الإنسان في الحوادث الصغيرة والمألوفة إلى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤

الله، إلّا أنّه في الحوادث الرهيبة والمخيفة ينسى كل شيء وإن ظلّ في أعماقه يحس بأمل في النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوّة غامضة خفيّة، وهذا هو التوجه إلى الله وحقيقته التوحيد.

حتى المشركون وعبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها في مثل هذه الظروف تماماً، فتقول الآية: «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَطَوَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) مصير الذين لا يعتبرون: تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضالين والمشركين، ويتخذ القرآن فيها طريقاً آخر لإيقاظهم وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الامم الضالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف اتيح لها جميع عوامل الترييب والتهديب والوعى، غير أنّ جمعاً منهم لم يلقوا بالاً إلى أيّ من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و (ضراء) «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ» (١).

أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟! «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا» ولكنهم لم



يستيقظوا، ولذلك سبان:

الأول: إنهم لكثرة آثامهم وعنادهم في الشرك زابت الرحمة قلوبهم والليوننة أرواحهم: «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ».

والثاني: إن الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزین فی نظرهم أعمالهم، فكل قبيح إرتكبه أظهره لهم جميلاً، ولكل خطأ فعلوه جعله في عيونهم صواباً: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا

(١) «البأساء»: الشدة والمكروه، وتطلق على الحرب أيضاً، وكذلك القحط والجفاف والفقر. أمياً «الضراء»: فأكثر ما تعنى العذاب الروحي كالهم والغم والإكتئاب والجهل أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥

كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم تذكر الآية التالية أنه لما لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم الله تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلمهم يستيقظون ويلتفتون إلى خالقهم الذي وهب لهم كل تلك النعم، ويشخصوا الطريق السوي: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ».

إلا أن هذه النعم كانت في الواقع ذات طابع مزدوج، فهي مظهر من مظاهر المحبة التي تستهدف إيقاظ النائمین، وهي كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرت الغفلة، ولهذا يقول إننا أعطيناكم الكثير من النعم: «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ» (١).

وهكذا استوصلت جذور اولئك الظلمة وانقطع نسلهم: «فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا».

ولما كان الله قد وفر لهؤلاء كل وسائل التريئة ولم يخل عليهم بأى شىء منها، لذلك فإن الحمد يختص بالله الذي يربى أهل الدنيا كافة: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وإختتام الآية بقول: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» دليل على أن استئصال جذور الظلم والفساد والقضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهمية بحيث يستوجب الحمد لله.

في الكافي عن فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... من أحب بقاء الظالمين، فقد أحب أن يعصى الله، إن الله تعالى حمد نفسه على هلاك الظالمين فقال: «فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»».

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

(١) «الإبلاس»: الحزن المعترض من شدة التألم بسبب كثرة المنغصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة «إبليس» وهي هنا تدل على شدة الغم والهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذ.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦

اعرفوا واهب النعم: الخطاب ما يزال موجهاً إلى المشركين. في هذه الآيات حث استدلالى على إيقاظهم بيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنه إذا سلب منكم الله النعم الثمينه التي وهبها لكم، مثل السمع والبصر، وأغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن والسيء، والحق والباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النعم؟ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ

عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ».

في الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أن الخالق والرازق هو الله، وكانوا يعبدون الأصنام للإستشفاع بها عند الله. ثم تقول الآية: انظر إلى هؤلاء الذين نشرح لهم الآيات والدلائل بمختلف الوسائل، ولكنهم مع ذلك يعرضون عنها: «انظر كيف نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ».

«نصرف»: من «التصريف» بمعنى «التغيير» والكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات في صور متنوعة. و«يصدفون»: من «صدف» بمعنى «الجانب» و«الناحية» أى إن المعرض عن شيء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية أخرى. تشير الآية الثانية- بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين والأذن والإدراك» التي هي منبع جميع نعم الدنيا والآخرة- إلى إمكان سلب هذه النعم كلها دفعة واحدة، فتقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ».

«بغتة»: بمعنى «فجأة» و«جهرة» بمعنى «الظاهر» والعلانية. والقصد هو أن القادر على إنزال مختلف العقوبات، وسلب مختلف النعم هو الله وحده، وإن الأصنام لا دور لها في هذا أبداً، لذلك ليس ثمة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن الله لحكمته ورحمته لا يعاقب إلا الظالمين.

الآية الثالثة تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمة الروح هي وحدها العاجزة عن القيام بأى أمر، فإن الأنبياء العظام والقادة الإلهيين أيضاً لا عمل لهم سوى إبلاغ الرسالة والإنذار والتبشير، فكل ما هنالك من نعم إنما هي من الله وبأمره، وأنهم إن أرادوا شيئاً طلبوه من الله: «وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

ثم تقول: إن طريق النجاة ينحصر في أمرين، فالذين يؤمنون ويصلحون أنفسهم «وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» فلا خوف عليهم من العقاب الإلهي، ولا حزن على أعمالهم السابقة. «فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧

أما أولئك الذين لا يصدقون بآياتنا، بل يكذبون بها فإن عقابهم على فسقهم وعصيانهم عذاب من الله: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

من الجدير بالانتباه أن الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات الله بعبارة «يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ» فكان هذا العقاب يطاردهم في كل مكان حتى يشملهم بأشد ما يكون من العذاب.

قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن تَتَّبِعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) معرفة الغيب: هذه الآية استمرار للرد على اعتراضات الكفار والمشركين المختلفة، والرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الاعتراضات في جمل قصيرة:

الأول: هو أنهم كانوا يريدون من رسول الله صلى الله عليه وآله القيام بمعجزات عجيبة وغريبة، وكان كل واحد يتقدم باقتراح حسب رغبته، بل إنهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فمرة كانوا يطلبون بيوتاً من ذهب، ومرة يريدون هبوط الملائكة، ومرة يريدون أن تتحول أرض مكة القاحلة المحرقة إلى بستان ملىء بالمياه والفواكه. ولعلمهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يكون للنبي مقام الألوهية وإمتلاك الأرض والسماء، فلرد على هؤلاء يأتي الأمر من الله: «قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ».

يتضح أن «خزائن الله» تشمل مصدر ومنبع جميع الأشياء، وهي تستقى من ذات الله اللامتناهية منبع جميع الكمالات والقدرات. ثم ترد الآية على الذين كانوا يريدون من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل ويطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكي يدفعوا الضرر ويستجلبوا النفع، فتقول: «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

في الجملة الثالثة رد على الذين كانوا يتصورون النبي صلى الله عليه وآله ملكاً، أو أن يصاحبه ملك، وأن لا يتصف بما يتصف به

البشر من تناول الطعام والسير في الطرقات، وغير ذلك، فقال:

«وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ».

وفي الختام يؤمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم ويغلقون عقولهم عن التفكير أن يكونوا على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيداً

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ٢٨

ويتفهمونها؟ «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ».

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) في ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفي هذه الآية يأمر نبيه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة: «وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ».

أى إن هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب وجزاء، وفي ضوء هذا الاحتمال والخوف من المسؤولية تتولد فيهم القابلية على التلقى والقبول.

ثم يقول: إن أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير الله ملجأ ولا شفيع: «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ».

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس وادعهم إلى الله، إذ أن الأمل فى هدايتهم موجود: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهُؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

سبب النزول

فى تفسير الدر المنثور (وتفسير المنار أيضاً): مرّ الملاء من قريش على النبي صلى الله عليه وآله وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمّد! أراضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ نحن نكون تبعاً لهؤلاء: اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله فيهم القرآن: «وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ» إلى قوله «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ».

فى تفسير المنار عن عمر بن الخطاب قال: لو فعلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله حتى ننظر ما يريدون بقولهم، وما يصبرون إليه من أمرهم فأنزل الله تعالى الآيات فى رفض إقتراحه.

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ٢٩

التفسير

مكافحة التفكير الطبقي: فى هذه الآية إشارة إلى واحد من احتجاجات المشركين، وهو أنهم كانوا يريدون من النبي صلى الله عليه وآله أن يقرّ ببعض الإمتيازات لطبقة الأغنياء ويفضّلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون فى جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله منقصة لهم أى منقصة! مع أن الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الإمتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرون على هذا الطلب فى طرد اولئك عنه، غير أن القرآن ردّ هذا الطلب مستنداً إلى أدله حيّة، فيقول: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» (١).

فى الحقيقة كان هؤلاء يستندون فى طلبهم ذاك إلى سنّة قديمة خاطئة تقيم المرء على أساس ثروته، وكانوا يعتقدون أن المعايير الطبقيّة القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، ويرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم والمعايير.

ثم تقول الآية: إنه ليس ثمة ما يدعو إلى إبعاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأن حسابهم ليس عليك، ولا حسابك عليهم: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ». ولكنك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالماً: «فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ». والمقصود من «الحساب» هنا هو حساب الأعمال. إن المشركين كانوا يتهمون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الفقراء بالإبعاد عن الله بسبب فقرهم، زاعمين أنهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند الله لزمه الترفيه والتوسعة عليهم في معيشتهم. فيرد القرآن على ذلك مبيناً أننا حتى لو فرضنا أنهم كذلك، فإن حسابهم على الله، مادام هؤلاء قد آمنوا وأصبحوا في صفوف المسلمين، فلا يجوز طردهم بأي ثمن، وبهذا يقف في وجه احتجاج أشرف قريش. إمتياز كبير للإسلام: إننا نعلم أن دائرة صلاحيات رجال الدين المسيحيين المعاصرين قد اتسعت إتساعاً مضحكاً بحيث إنهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب، فيامكانهم طرد الأشخاص وتكفيرهم أو قبولهم لأنفسهم الامور. إلا أن القرآن، في هذه الآية وفي آيات اخرى ينفي صراحة أن يكون لأحد الحق، بل ولا لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه في أن يطرد أحداً أظهر إيمانه ولم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسلام، وأن غفران الذنوب والحساب بيد الله وحده، ولا يحق لأحد التدخل في هذا أبداً.

(١) معنى «الوجه» في اللغة معروف، ولكن الكلمة قد تعني «الذات» كما في هذه الآية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠

الآية الثانية يحذر فيها القرآن أصحاب المال والثروة من أن هذه الامور اختبار لهم، فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحملوا العواقب المؤلمة، فالله يمتحن بعضهم ببعض: «وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ». «الفتنة» تعني هنا الامتحان. ثم تضيف الآية: أن الأمر يصل بهؤلاء إلى أنهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظرة احتقار «لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا». ثم تجيب الآية على المعترضين مؤكدة أن هؤلاء الأشخاص اناس شكروا نعمته التشخيص الصحيح بالعمل، كما أنهم شكروا نعمته دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله بقبولها، فأى نعمته أكبر وأى شكر أرفع، ولذلك رشح الله الإيمان في قلوبهم: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ».

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٥) هذه الآية تبدأ أولاً بالطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا يطرد المذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم ويتقبلهم: «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ».

يحتمل أن يكون هذا السلام من الله بوساطة رسوله أو أنه من الرسول صلى الله عليه وآله مباشرة، وهو - على كلا الاحتمالين - دليل على القبول والترحيب والتفاهم والمحبة.

ثم تقول الآية: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

«كتب»: تأتي في كثير من الأحيان كناية عن الإلزام والتعهد، إذ إن من نتائج الكتابة تأكيد الأمر وثبوته.

وفي الجزء الأخير من الآية - وهو توضيح وتفسير لرحمة الله - يتحدث بلهجة عاطفية:

«أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

إن «الجهالة» في مثل هذه المواضع تعني طغيان الشهوة وسيطرتها.

الآية التالية ومن أجل تأكيد هذا الموضوع تشير إلى أن الله سبحانه يوضح آياته وأوامره توضيحاً بيناً لكي يتبين طريق الباحثين عنه والمطيعين له، كما يتبين طريق الآثمين

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١

المعاندین من أعداء الله: «وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ» (١).

إنّ «المجرم» هنا هو اولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق. أى بعد هذه الدعوة العامية إلى الله، التي تشمل حتى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق المعاندین الذين لا يرجعون عن عنادهم.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) الإصرار العقيم: ما يزال الخطاب في هذه الآيات موجهاً إلى المشركين وعبدة الأصنام المعاندین - كدأب معظم آيات هذه السورة - يبدو من سياق هذه الآيات أنّهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى إعتناق دينهم، الأمر الذي يستدعى نزول الآية: «قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ثم بجملة «قُلْ لَأَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ» يجب بوضوح على إصرارهم العقيم، نظراً لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة العقلية.

وفي ختام الآية يؤكد القرآن مرة أخرى على أنّه إذا فعل ذلك «قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

الآية التالية تتضمّن جواباً آخر وهو: «قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ».

«البينة»: أصلاً ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثم أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق والباطل.

(١) جملة «ولتستبين» معطوفة على جملة محذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين ولتستبين سبيل المجرمين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يؤمر في هذه الآية أن يقول: إنّ دليلى في قضيه عبادة الله ومحاربه الأصنام واضح وبين، وإنّ تكذيبكم وإنكاركم لا يقللان من صدق الدليل. ثم يشير إلى حجة واهية أخرى من حججهم، وهى أنّهم كانوا يقولون: إن كنت على حق فعلاً فعجّل بالعقاب الذى تتوعدنا به، فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» لأنّ الأعمال والأوامر كلها بيد الله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

إنّ معنى «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» واضح، أى إنّ كل أمر فى عالم الخلق والتكوين وفى عالم الأحكام والتشريع بيد الله، وكذلك كل منصب - بما فى ذلك القيادة الإلهية والتحكيم والقضاء - إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر الله تعالى وبعد ذلك يقول مؤكداً: إنّ الله هو الذى «يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ».

الآية التالية تأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أنّ ما تطلبونه منى على عجل كان فى سعته وقدرتى، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بينى وبينكم شىء: «قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

ولكيلا يظنوا أنّ عقابهم قد طواه النسيان، يقول فى النهاية: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» وسوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

«يقص»: فى اللغة ترد بمعنى القطع، وعلى هذا يكون معنى «يَقْضُ الْحَقَّ» إنّ الله يقطع الحق عن الباطل ويفصل بينهما.

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَ لَمَّا يَا بَسِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَاضِي أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرِعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) أسرار الغيب: فى هذه الآيات يدور الكلام

حول علم الله وقدرته وسعته حكمه وأمره،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣

وهي تشرح ما اجملته الآيات السابقة. تشرع الآية في الكلام على علم الله فتقول: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

«مفتاح»: جمع «مفتاح» (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح.

ثم لتوكيد ذلك أكثر يقول: «وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّْ وَالْبَحْرِ».

«البرّ»: كل مكان واسع فسيح، وتطلق على اليابسة؛ و «البحر»: كذلك تعني المحل الواسع الذي يتجمع فيه الماء، وتطلق على البحار

والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً. فالقول بأن الله يعلم ما في البرّ والبحر، كناية عن إحاطته بكل شيء.

فهو عالم بحر كآلاف الملايين من الكائنات الحيّة، الكبيرة والصغيرة، في أعماق البحار.

وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه.

وهو عالم بكل الحركات الغامضة في الإلكترونيات في قلب الذرة.

وهو عالم بكل الأفكار التي تمرّ بتلايف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا ... نعم إنّه عالم بكل ذلك على حد سواء.

لذلك فإنه يؤكد ذلك مرة أخرى فيقول: «وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا». أي إنه يعلم عدد الأوراق ولحظة انفصال كل ورقة عن

غصنها وطيرانها في الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلي أمام علم الله.

كذلك لا تختفي حبة بين طبقات التراب إلا ويعلمها الله ويعلم كل تفاصيلها: «وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ».

التركيز هنا على نقطتين حساستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقى سلم الكمال في

صنع أجهزته وأدواته المدهشة.

ترى من ذا الذي يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها في هبوبها على مختلف أصقاع الأرض في الليل والنهار، من أنواع البذور

المنفصلة عن نباتاتها؟

أي دماغ الكروني هذا الذي يستطيع أن يحصى عدد أوراق الشجر التي تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات

في الخريف، وتطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهي أن علوماً من هذا القبيل لن

تكون يوماً في متناول يد الإنسان.

إن سقوط الورقة - في الحقيقة - هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة في مكمنها من الأرض

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤

هو لحظة بدء حياتها، وما من أحد غير الله يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة.

إن لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» وآخر «تربوياً»: أما أثره الفلسفي، فينفي رأى الذين يحصرون علم الله بالكليات، ويعتقدون أنه لا يعلم

عن الجزئيات شيئاً، وفي الآية هنا تأكيد على أن الله يعلم الكليات والجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوي فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع لله يقول للإنسان: إن جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك ونياتك،

وأفكارك كلها بينة أمام الله، فإذا آمن الإنسان حقاً بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله

ونياته.

وفي ختام الآية يقول تعالى: «وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

في الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم الله بأعمال الإنسان وهو الهدف الأصلي وإلى بيان قدرة الله القاهرة، لكي يستنتج الناس

من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأن الله هو الذي يقبض أرواحكم في الليل، ويعلم ما تعملون في النهار: «وَهُوَ

الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ».

«توفى»: تعنى استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، وانقطاع تام في إرتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ وضعف في هذا الإرتباط، وعليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت.

«جرحتم»: من «جرح» وهى هنا بمعنى الإكتساب، أى أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة الله وعلمه ليلاً ونهاراً، وإنّ الذى يعلم بإنفلاق الحبة ونموها في باطن الأرض، ويعلم بسقوط أوراق الأشجار وموتها في أى مكان وزمان، يعلم بأعمالكم أيضاً. ثم يقول: إنّ نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون في الليل «ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى». أى ثم يوقظكم في النهار.. وتستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

ويبين القرآن النتيجة النهائية لهذا المبحث بالشكل التالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». وفي الآية الثالثة توضيح أكثر لإحاطة علم الله بأعمال عباده وحفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥

«حفظه»: جمع «حافظ» وهم هنا الملائكة الموكلون بحفظ أعمال الناس.

ثم يبين القرآن الكريم أنّ حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار وحلول الموت:

«حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَآئِفِرُّطُونَ».

وتبين الآية في النهاية أنّ هؤلاء الملائكة الذين يحفظون حساب أعمال البشر، فهم في حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، والآية تركّز على هذا القسم بالذات.

في الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ». أى عادوا إلى الله بعد أن طورا مرحلة حياتهم، واختتم ملفهم الحاوى على كل شىء.

وفي تلك المحكمة يكون النظر في القضايا وإصدار الأحكام بيد الله: «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ».

وعلى الرغم من كل تلك الأعمال والملفات المتركمة عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاحب فإنّ الله سريع في النظر فيها: «وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ».

روى في تفسير مجمع البيان عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه سُئِلَ كيف يحاسب الله الخلق ولا- يروونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يروونه. وروى «أنه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة». أى إنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُذِّبَ كُذِّبَ ثُمَّ أَنْتُمْ تُنْشِرُونَ (٦٤) النور الذى يضىء في الظلام: مرّة اخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، وهناك في تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد، فيقول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

إنّ الظلام يكون حسيّاً أحياناً ومعنوياً أحياناً اخرى، الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النور إنقطاعاً تاماً، أو يضعف بحيث لا يرى شىء، أو يرى بالجهد الجهد، والظلام المعنوى هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة.

وإذا حدثت في هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافراً في البحر،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦

وتحاصره في ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، في مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شىء ولا يعود يتذكّر شيئاً سوى نفسه، والنور الذى يسطع في أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما

يعتوره من بلاء وضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة الله، لذلك يقول في أمثال هذه الحالات: «تَدْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً». وتعقدون- وأنتم في تلك الحالة- عهداً وميثاقاً على أنفسكم، وتقولون: «لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

ثم تأمر الآية النبي صلى الله عليه وآله أن يخبرهم أن الله سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار، وقد فعل ذلك من قبل مراراً، ولكنهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر: «قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ».

«الكرب»: في الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها، وكذلك تعني العقدة المحكمة الشد في حبل الدلو، ثم أطلقت بعد ذلك على الغم والهم والحزن التي تقلب قلب الإنسان وتثقل عليه كالعقدة.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَيِّرُهُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) ألوان العذاب: في هذه الآية تركيز على التهديد بعذاب الله وعقابه، من أجل إكمال طرق التربية والتهذيب، أي أن الله وهو أرحم الراحمين وملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففي هذه الآية يؤمر الرسول صلى الله عليه وآله بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عذاب من فوق، وعذاب من تحت، وعقاب يتمثل في اختلاف الكلمة والحرب وإراقة الدماء: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ».

إن مسألة اختلاف الكلمة والتفرق في المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوي والصواعق والزلازل، وهو كذلك، بل قد يكون الخراب الناشئ من اختلاف الكلمة والتفرق أحياناً أشد وطأة ودماراً من الزلازل والصواعق، كثيراً ما نلاحظ أن دولاً عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق والتفرقة، وهذه الكلمة تحذير لجميع مسلمي العالم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧

وفي الختام تقول الآية: «انظُرْ كَيْفَ نُصَيِّرُهُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ». أي انظر كيف نوضح لهم المعالم والدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودوا إلى الله.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسُتَ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) تكمل هاتان الآيتان البحث الذي جرى في الآيات السابقة عن الدعوة إلى الله والمعاد وحقائق الإسلام والخشية من عقاب الله. الآية الأولى: تخبر رسول الله صلى الله عليه وآله أن قومه- أي قريش وأهل مكة- لم يصدقوا ما يقول مع أنه صدق وحق وتؤكد الأدلة العقلية المختلفة والفطرية: «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ». ثم يصدر الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: «قُلْ لَنْسُتَ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ». أي إنما أنا رسول ولست أضمن قبولكم.

إن المقصود من «وكيل» هو المسؤول عن الهداية العملية للأفراد والضامن لهم.

وفي الآية التالية القصيرة ذات المعنى العميق تحذير لهم، ودعوة إلى اختيار الطريق الصحيح، «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ». أي أن كل خبر أخبركم به الرسول صلى الله عليه وآله في هذه الدنيا أو في الآخرة موضع ومقر وسوف يتحقق في موعده المقرر وعندئذ ستعرفون ذلك.

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لَمَّا نَزَلَتْ «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، قال المسلمون: كيف نضع إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل إذاً المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام؟ فأنزل الله سبحانه «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»: أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا».

التفسير



إجتنب مجالس أهل الباطل: بما أن المواضيع التي تتطرق إليها هذه السورة تناول حال المشركين وعبدة الأصنام، فهاتان الآيتان تبحثان عن موضوع آخر من المواضيع التي

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨

تتعلق بهم، ففي البداية تقول للرسول صلى الله عليه وآله: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» (١). ثم تخاطب الآية رسول الله مؤكدة أهمية الموضوع: «وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَمَّا تَقَعِدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». أى إذا أنساك الشيطان هذا الأمر وجلست مع هؤلاء القوم سهواً، فعليك - حالما تنتبه - أن تنهض فوراً وترك مجالسة الظالمين.

سؤال: هل يمكن للشيطان أن يتسلط على النبي صلى الله عليه وآله ويسبب له النسيان؟

في الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأن الخطاب في الآية وإن يكن موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله فهو يتحدث في الواقع مع أتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا في اجتماعات المشركين الآثمة، فهؤلاء عليهم حال إنتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، أن مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث في حياتنا اليومية وموجود في مختلف آداب العالم، فأنت قد توجه الخطاب إلى أحدهم ولكن هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إياك أعنى واسمعى يا جارة.

الآية التالية فيها إستثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين في جلسات هؤلاء المشركين لكي ينههم عن المنكر على أمل أن يؤدى ذلك إلى انصراف اولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، وأن آثام اولئك لا تسجل على هؤلاء، لأن قصدهم هو الخدمة والقيام بالواجب:

«وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

وينبغي أن نعلم - في الوقت نفسه - إن الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآية، فيكونون متميزين بالقوى، وبعدم التأثر بهم، وبالقدرة على التأثير فيهم.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

(١) «الخوض»: كما يقول الراغب الأصفهاني في «مفرداته» هو الدخول في الماء والمرور فيه، ثم استعير للورود في امور اخرى، وأكثر ما ترد في القرآن بشأن الدخول في موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩

هذه الآية تواصل ما بحثته الآية السابقة، وتأمّر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدع اولئك الذين يستهينون بأمر دينهم، ويتخذون ممّا يلهون ويلعبون به مذهباً لهم ويغترون بالدنيا وبمتاعها المادى: «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا». وتشير هذه الآية إلى أنّ سلوكهم الحياتى من حيث المحتوى أجوف وواه.

إنّ «دينهم» يعنى «دين الشرك وعبادة الأصنام» الذى كانوا يدينون به. فالآية لا تخص الكفار وحدهم، بل هى تشمل جميع الذين يتخذون من الأحكام الإلهية ومن المقدسات وسائل للتلهى وملء الفراغ وبلوغ الأهداف المادية الشخصية، اولئك الذين يجعلون الدين آله الدنيا، والأحكام الإلهية ألعوبة أغراضهم الخاصة.

ثم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتبهم إلى أعمالهم هذه وإلى أنّ هناك يوماً لا بدّ لهم أن يستسلموا فيه لنتائج أعمالهم ولن يجدوا من ذلك مفراً: «وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» (١).

يوم لا شفيع ينفع ولا ولى سوى الله: «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ».

إنهم يومئذ في حال صعبة مؤلمة يرزحون في قيود أعمالهم بحيث إنهم يرتضون أن يدفعوا أية غرامة (إن كان عندهم ما يدفعونه) ولكنها لن تقبل منهم: «وإن تغدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَأَيُّوْ حَذِّ مِنْهَا» (٢).

ذلك لأنهم يكونون بين مخالف أعمالهم، ولا فدية تنجيهم، ولا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: «أولئك الذين أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا».

ثم يشار إلى جانب مما سيصيبهم من العذاب الأليم بسبب إعراضهم عن الحق والحقيقة:

«لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ».

إنهم يتعدَّبون بالماء الحريق من الداخل، ويكتون بنار الجحيم.

إن جملة «أولئك الذين أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا» هي بمثابة السبب الذي يمنع من قبول الغرامة ومن قبول أى شفيح وولى، أى إن عقابهم

ليس لعلَّة خارجية بحيث يمكن دفعها بشكل من

(١) «البسل»: هو حفظ الشيء ومنعه بالقوة والقهر، والإبسال حمل المرء على التسليم، كما تطلق الكلمة على الحرمان من الثواب، أو

أخذ الرهائن، والجيش الباسل بمعنى القاهر الذي يحمل العدو على التسليم، والمعنى فى الآية هو تسليم المرء وخضوعه لأعماله السيئة.

(٢) «العدل»: بمعنى «المعادل» وهو ما يدفع جزاءً وغرامة لقاء التحرر، وهو أشبه فى الواقع بما يفندى به.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠

الأشكال، بل ينبع من داخل الذات وسلوكها وأعمالها، إنهم أسرى أعمالهم القبيحة، لذلك لا مفر لهم، لأن فرار المرء من أعماله وآثارها إنما هو فرار من ذاته، وهو غير ممكن.

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْفَعُنَا وَمَا لَمْ يَضُرَّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعِيدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ اثْنًا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْزَنًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةً وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) كان المشركون يصرون على دعوة المسلمين إلى العودة إلى الكفر وعبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية تأمر النبى صلى الله عليه وآله بالرد عليهم رداً يدحض رأيهم ويفند دعوتهم فى جواب بصيغة الاستفهام الإستنكارى: أتريدون منا أن نشرك مع الله ما لا يملك لنا نفعاً فنعبده لذلك، ولا يملك لنا ضرراً فنخافه: «قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرَّنَا».

هذه الآية تشير إلى أن أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعين، فهى إما أن تهدف إلى استجلاب منفعة وإما إلى دفع ضرر (مادياً كان أم معنوياً).

ثم يأتى باستدلال آخر على بطلان سلوك المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقري، وهذا يناقض قانون التكامل الذى هو قانون حياتى عام: «وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ» (١).

ثم يضرب مثلاً لتوضيح الأمر، فيقول: إن الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذى أغوته الشياطين (أو غيلان البوادي التى كان عرب الجاهلية يعتقدون أنها تكمن فى منعطفات الطرق وتغوى السابلة وتضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده وظل حيراناً فى البادية:

«كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا» (٢). بينما له رفاق يرشدونه إلى

(١) «أعقاب»: جمع «عقب» وهو مؤخر الرجل، ورجع على عقبه بمعنى اثنى راجعاً، وهو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم «الرجعية».

(٢) «إستهوته»: من «الهوى» وهو ميل النفس إلى الشهوة، واستهوته بمعنى حملته على إتباع الهوى و«الحيرة»: هى التردد فى الأمر، وفى الأصل: الجيئة والذهاب، فالآية تشير إلى الذين يذهبون من الإيمان إلى الشرك مستلهمين تحركاتهم من الشيطان.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١

الصرط السوى المستقيم وينادونه: هلم إلينا، ولكنه من الحيرة والتهيه بحيث لا- يسمع النداء، أو إنه غير قادر على اتخاذ القرار: «لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أئْتِنَا».

وفى الختام يؤمر النبي صلى الله عليه وآله أن يقول: إن الهداية من الله وليس لنا إلا أن نسلم لأمر الله رب العالمين: «قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلا الخالق الكون ومالكة ورب عالم الوجود، لا الأصنام التي لا دور لها فى إيجاد هذا العالم وإدارته.

الآية التالية، تواصل شرح الدعوة الإلهية قائلة: «إِنَّا فَضَّلْنَا عَنِ التَّوْحِيدِ، فَقَدْ أَمَرْنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِتَقْوَى اللَّهِ: «وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا».

وفى الختام يشار إلى المعاد وإلى أن الناس إلى الله يرجعون: «وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ».

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) هذه الآية دليل على ما جاء فى الآية السابقة، وعلى ضرورة التسليم لله وإتباع رسوله، لذلك تقول: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

إن مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعبادة، وهو وحده الذى يجب الخضوع والتسليم له، لأنه خلق الأشياء لمقاصد حقّة.

ثم يقول: إنه فضلاً عن كونه مبدع عالم الوجود، فإن يوم القيامة أيضاً يقوم بأمره، وإذا ما أصدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنه يتحقق فوراً: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ».

ثم يضيف: أن ما يقوله الله هو الحق، أى إنه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف ونتائج ومصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: «قَوْلُهُ الْحَقُّ».

وفى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور ويبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم والملك لله: «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ».

حكومة الله على عالم الوجود ومالكيته له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته وفى يوم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢

القيامة، ولا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثر فى مسار هذه الدنيا وتقدمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود الله وراء هذه الأسباب والعوامل، أما فى ذلك اليوم الذى تتعطل فيه جميع الأسباب والعوامل، فإن حكومة الله ومالكيته تكونان أجلى وأوضح من أى وقت سابق.

وفى ختام الآية إشارة إلى ثلاث من صفات الله تعالى، فهو: «عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ». أى إنه بمقتضى صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضى قدرته وحكمته يجازى كل ما يستحقه.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) لما كانت هذه السورة تحارب الشرك وعبادة الأصنام تستخدم هنا حكاية إبراهيم.

يقول: إن إبراهيم وبخ أباه (عمّه) قائلاً: أتختار هذه الأصنام الحقيرة التى لا حياة فيها آلهة للعبادة: «وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وأى ضلال أشد وأوضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلهاً يعبد، ويتخذ من كائن جامد لا روح فيه ولا إحساس ملجأ يفرع إليه ويبحث عن حلّ مشاكله عنده.

هل كان آزر أباً إبراهيم؟ تطلق كلمة «الأب» فى العريضة على الوالد غالباً، ولكنها قد تطلق أيضاً على الجد من جهة الام وعلى العم، وكذلك على المربي والمعلم والذين يساهمون بشكل ما فى تربية الإنسان.

وقد وردت فى القرآن كلمة «أب» بمعنى العم، كما فى الآية (١٣٣) من سورة البقرة:

«قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا».

والضمير في «قالوا» يعود على أبناء يعقوب وكان إسماعيل عم يعقوب لا أباه.

الطبرى ينقل في تفسيره جامع البيان عن مجاهد قال: ليس آزر أبا إبراهيم.

وفي تفسير روح المعاني: أن آزر اسم عم إبراهيم، والعم والجد يسميان أبا مجازاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣

وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) أدلة التوحيد في السماوات: على أثر الكره الذي كان يحمله إبراهيم للأوثان وطلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقي مع مختلف عبدة الأصنام، وتبين كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلي الواضح. تبين أولاً أن الله كما عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرّفه على مالكيه الله وسلطته المطلقة على السماوات والأرض: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ».

«الملكوت»: من «ملك» بمعنى المالكية والحكم، فالمقصود من الكلمة هنا حكومة الله المطلقة على عالم الوجود برمته.

وكما أنه في الختام يقول: إن الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ».

لا شك أن إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً وفطرياً بواحدانية الله، ولكنه بدراسة أسرار الخلق بلغ يقينه حد الكمال.

الآيات التالية تشرح هذا المعنى، وتبين استدلال إبراهيم من افول الكواكب والشمس على عدم الوهيتها، فعندما غطى ستار الليل المظلم العالم كله، ظهر أمام بصره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هذا ربي! ولكنه إذ رآه يغرب، قال: لا أحب الذين يغربون: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ».

ومرّة أخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضي ذو الإشعاع واللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربي: ولكن مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكوكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيات الأفق.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدني ربي إلى الطريق الموصل إليه فساكون في عداد التائهين «فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ». عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقى بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبي تنشره على الجبل والوادي والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربي فإنه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنه إذ رآها كذلك تغرب وتختفي في جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائي قائلاً: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التي تجعلونها شريكاً لله: «فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

الآن بعد أن عرفت أن وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فأتى أتجه إلى الذي خلق السماوات والأرض، وفي إيماني هذا لن أشرك به أحداً، فإني موحد ولست مشركاً: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

إن تفسير هذه الآية والآيات التالية بشأن ما دفع بإبراهيم الموحد العابد لله الواحد، أن يشير إلى كوكب في السماء ويقول: هذا ربي؟ فإنه عندما يقول: «هَذَا رَبِّي» لا- يقولها قطعاً جازماً، بل يقولها من باب الفرض والاحتمال حتى يفكر في الأمر. أو أنه قال «هَذَا رَبِّي» تعني: هذا ما تعتقدون أنه ربي.

وَ حَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَمَّا أَخَافَ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخَافَ مَا أَسْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥

تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم والأقوام المشركة من عبدة الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجة «وَ حَاجَهُ قَوْمُهُ». فرد عليهم إبراهيم عليه السلام قائلاً: لماذا تجادلوننى فى الله الواحد الأحد وتخالفوننى فيه، وهو الذى وهبى من الدلائل المنطقية الساطعة ما هدانى به إلى طريق التوحيد «قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي».

يتضح فى هذه الآية بجلاء أن قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم وبأى ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته، قد حذروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها فى محاولته لإرغابه وإخافته، لأننا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم ويؤكد لهم أنه لا يخشى أصنامهم التى لا حول لها ولا قوة فى إيصال أى أذى إليه «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ...» فما من أحد ولا من شىء بقادر على أن يلحق بى ضرراً إلا إذا شاء الله:

«إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا».

يظهر من هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام سعى لإتخاذ إجراء وقائى تجاه حوادث محتملة، فيؤكد أنه إذا أصابه فى هذا الصراع شىء - فرضاً - فلن يكون لذلك أى علاقة بالأصنام، بل يعود إلى إرادة الله.

ويضيف إلى ذلك مبيناً أن ربه على درجة من سعة العلم بحيث يسع علمه كل شىء:

«وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا».

ثم يحرك فيهم روح البحث والتفكير فيخطبهم قائلاً: «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ».

فى الآية التالية يهجم إبراهيم منطقاً استدلالياً آخر، فيقول لعبدة الأصنام: كيف يمكننى أن أخشى الأصنام ويستولى على الخوف من تهديدكم، مع إنى لا أرى فى أصنامكم أثراً للعقل والإدراك والشعور والقوة والعلم، أمياً أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود الله وإقراركم له بالعلم والقدرة، ومعرفتكم بأنه لم يأمركم بعبادة هذه الأصنام، فإنكم لا تخافون غضبه:

«وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَسْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» (٨١).

كونوا منصفين إذن وقولوا:

«فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

(١) «السلطان»: بمعنى التفوق والانتصار، ولما كان الدليل والبرهان من أسباب الفوز والانتصار، فقد يوصفان بالسلطان أيضاً، كما هو الحال هنا، أى لا وجود لأى دليل على السماح.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦

يستند منطق إبراهيم عليه السلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنكم تهددوننى بغضب الأصنام، مع أن تأثيرها وهم من الأوهام، ولكنكم بعدم خشيتكم من الله العظيم الذى تؤمن به جميعاً، ونعقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمراً ثابتاً، وتمسكتم بأمر وهمى، ولم يصدر الله تعالى إلينا أمراً بعبادة الأصنام.

فى الآية التالية جواب يدلى به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه فى الآية السابقة (وهذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمى، فقد يسأل المتكلم سؤالاً عن لسان المخاطب ثم يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أن الجواب من الوضوح بحيث ينبغى أن يعرفه

كل شخص). يقول: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَمِزْجُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ هُمُ الْآمَنُونَ وَهُمْ الْمَهْتَدُونَ «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ».

الآية التالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد ومجابهة الشرك كما جاء على لسان إبراهيم، فتقول: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ».

ثم تقول الآية: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ». ولكيلا يخامر بعضهم الشك في أن الله يحابي في إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إِنَّ اللَّهَ مُتَّصِفٌ بِالْحِكْمَةِ وَبِالْعِلْمِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْفَعَ دَرَجَةً مِنْ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) فِي هَذِهِ آيَاتٍ إِشَارَةٌ إِلَى النِّعَمِ الَّتِي أَسْبَغَهَا اللَّهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَهِيَ تَمَثَّلُ فِي أَبْنَاءِ صَالِحِينَ وَذُرِّيَّةٍ لائِقَةٍ، وَهِيَ مِنَ النِّعَمِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَظِيمَةِ. يقول سبحانه: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يبين أن مكانة هذين لم تكن لمجرد كونهما ولدى نبي، بل لإشعاع نور الهداية في قلوبهما نتيجة التفكير السليم والعمل الصالح: «كُلًّا هَدَيْنَا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧

ثم لكيلا يتصور أحد أنه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، وأن التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ». فالإشارة إلى مكانة نوح، وهو من أجداد إبراهيم، والإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه وقبيلته، إنما هي توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة والأصل» و«الذرية».

وعلى أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من أسرة إبراهيم: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ». ثم يبين أن منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة وهم لذلك ينالون جزاءهم: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

في الآية الثانية يرد ذكر زكريا ويحيى وعيسى والياس على أنهم جميعاً كانوا من الصالحين. أي إن مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هي بسبب أعمالهم الصالحة في سبيل الله: «وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

الآية الثالثة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء والقادة الإلهيين، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط الذين رفعهم ربهم درجات على أهل زمانهم: «وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ».

وفي الآية الأخيرة إشارة عامة إلى آباء الأنبياء المذكورين وأبنائهم وإخوانهم ممن لم ترد أسماءهم بالتفصيل وهم جميعاً من الصالحين الذين هداهم الله: «وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتُّبُّورَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ثلاثة إمتيازات مهمة: بعد ذكر مجموعات الأنبياء في الآيات السابقة، تناول هذه الآيات الخطوط العامة لحياتهم، وتبدأ القول: «ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

ولكيلا يحسب البعض أن هؤلاء قد أجبروا على السير في هذا الطريق، أو يظن أن الله

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨

ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصة وإستثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: «لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهي الذي يسرى على غيرهم بغير محاباة.

الآية التالية تشير إلى ثلاثة إمتيازات مهمة هي أساس جميع إمتيازات الأنبياء، وهي قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ».

إنّ الحكم أصلاً هو المنع، ومن ذلك العقل الذي يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، والحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهي قد استعملت في المعاني الثلاثة.

ثم يقول: لئن رفضت هذه الجماعة (أى المشركون وأهل مكة) تلك الحقائق، فإنّ دعوتك لن تبقى بغير إستجابته، إذ إنّنا قد أمرنا جمعاً آخر، لا بقبولها فحسب، بل وبالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبداً، بل يتبعون الحق: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَاقِدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ».

جاء في تفسير المنار وتفسير روح المعاني عن بعض المفسرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس، وقد أسرعوا في قبول الإسلام وجاهدوا في سبيل نشره، وظهر فيهم العلماء في شتى العلوم والفنون الإسلامية وألّفوا الكثير من الكتب.

الآية الأخيرة تجعل من منهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوة رفيعة للهداية تعرض على رسول الخاتم صلى الله عليه وآله فتقول له: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ».

تؤكد هذه الآية مرّة أخرى على أنّ أصول الدعوة التي قام بها الأنبياء واحدة.

إنّ للهداية معنى واسعاً يشمل التوحيد وسائر الاصول العقائدية، كما يشمل الصبر والثبات وسائر الاصول الأخلاقية والتربوية. ثم يؤمر النبي صلى الله عليه وآله أن يقول للناس إنّه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجراً لقاء عمليته تبليغ الرسالة: «قُلْ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا».

ثم إنّ هذا القرآن وهذه الرسالة والهداية إن هي إلّا إيقاظ وتوعية للناس جميعاً: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

إنّ النعم العامة الشاملة مثل نور الشمس والهواء والأمطار هي امور عامة وعالمية، لا تباع ولا تشتري، ولا أجر يعطى لقاءها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ اليهود قالت يا محمّد! أنزل الله عليك كتاباً؟

قال: «نعم». قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً.

التفسير

يبدو من سبب النزول وسياق الآية أنّها بشأن اليهود لا المشركين، لذلك يرى بعضهم أنّ هذه الآية قد نزلت في المدينة، إلّا أنّها وضعت في هذه السورة المكية بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله ولهذا في القرآن ما يشابهه. في البداية تقول الآية: إنّهم لم يعرفوا الله معرفة صحيحة وأنكروا نزول كتاب سماوى على أحد: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ». فيأمر الله رسوله أن «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ».

ذلك الكتاب الذى جعلتموه صحائف متناثرة، تظهرون منه ما ينفعكم وتخفون ما تظنونونه يضرّكم: «تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا».

إنكم تتعلمون من هذا الكتاب السماوى اموراً كثيرة لم تكونوا أنتم ولا- آبؤكم تعلمون عنها شيئاً: «وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ».

وفى ختام الآية يؤمر النبي صلى الله عليه وآله أن يذكر الله وأن يترك اولئك فى اباطيلهم وعنادهم ولع بهم: «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي

خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) تعقياً على البحث الذي دار في الآيات السابقة حول كتاب اليهود السماوى، تشير هذه الآية إلى القرآن باعتباره كتاباً سماوياً آخر، والواقع أن ذكر التوراة مقدمه لذكر القرآن لإزالة كل عجب وتخوف من نزول كتاب سماوى على فرد من البشر، فبدأ بالقول: «وهذا كتاب أنزلناه». وهو كتاب «مبارك» لأنه مصدر كل خير وبركة وصلاح وتقدم، ثم إنه يؤكد

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠

الكتب التي نزلت قبله: «مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ». والمقصود من أن القرآن يصدق الكتب التي بين يديه، هو أن جميع الإشارات والإشارات التي وردت فيها تنطبق عليه. وبناءً على ذلك فصدق القرآن يتجلى في محتواه من جهة، وفي المستندات التاريخية من جهة أخرى.

ثم يبين القرآن هدف نزوله وهو توجيه الإنذار والتحذير لأم القرى (مكة) والساكين حولها وتنبههم إلى مسؤولياتهم وواجباتهم: «وَلِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا».

وفي الختام تقرر الآية أن الذين يعتقدون بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، سيصدقون بهذا الكتاب، ويؤدون فريضة الصلاة ولا يفرطون فيها: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ». إن اليابسة قد انتشرت من تحت الكعبة وهو ما أطلق عليه اسم «دحو الأرض». «ومن حولها» أى جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمتها.

نلاحظ في هذه الآية أنها تشير إلى الصلاة من بين جميع الفرائض الدينية، ونعلم أن الصلاة هي مظهر الارتباط بالله، ولذلك كانت أرفع من جميع العبادات منزلة، ويرى بعضهم أنه عند نزول هذه الآية كانت العبادة الوحيدة المفروضة حتى ذلك الوقت هي الصلاة. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقيل: نزلت في مسيلمه، حيث ادعى النبوة إلى قوله «وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» وقوله «سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فإنه كان يكتب الوحي للنبي عليه السلام فكان إذا قال له اكتب عليمًا حكيمًا، كتب غفوراً رحيمًا، وإذا قال له اكتب غفوراً رحيمًا كتب عليمًا حكيمًا، وارتد ولحق بمكة، وقال إنى مثل ما أنزل الله. هذه الآية، مثل سائر آيات القرآن، نزلت في ظروف خاصة، وهي ذات محتوى عام يشمل كل من ادعى النبوة وأمثالهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١

التفسير

في الآيات السابقة مرّت الإشارة إلى مزاعم اليهود الذين أنكروا نزول أى كتاب سماوى على أحد، وفي هذه الآية يدور الكلام على اشخاص آخرين يقفون على الطرف المعاكس تماماً لأولئك، فيزعمون كذباً أن الوحي ينزل عليهم.

وتتناول الآية ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففي البداية تقول: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

والجماعة الثانية هم الذين يدعون النبوة ونزول الوحي عليهم، فلا هم أنبياء، ولا نزل عليهم وحى: «أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّْ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ».

والجماعة الثالثة هم الذين أنكروا نبوة نبي الخاتم صلى الله عليه وآله أو زعموا ساخرين أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثل آيات القرآن،



وهم في ذلك كاذبون ولا قدرة لهم على ذلك: «وَمَنْ قَالَ سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ».

نعم، هؤلاء كلهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدعى لنفسه القيادة الإلهية وليست لديه صلاحية مثل هذا المقام.

ثم تبين العقاب الأليم الذي ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» (١). أي لو أنك - أيها النبي - رأيت هؤلاء الظالمين وهم يمرون بشدائد الموت والنزع الأخير، وملائكة قبض الأرواح ماديين أيديهم نحوهم ويقولون لهم: هيا أخرجوا أرواحكم، لأدرت العذاب الذي ينزل بهم.

عندئذ تخبرهم ملائكة العذاب بأنهم سينالون اليوم عذاباً مذكراً لأمرين: الأول: إنهم كذبوا على الله، والآخر، إنهم لم ينصاعوا لآياته: «الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ». «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» تعني في الواقع ضرباً من التحقير تبديه الملائكة نحو هؤلاء الظالمين، وإلا فإن إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائكة.

(١) «الغمرات»: جمع غمرة (على وزن ضربئة)، وأصل الغمر إزالة أثر الشيء، ثم استعملت للماء الكثير الذي يستر وجه الشيء تماماً، كما تطلق على الشدائد والصعاب التي تغمر المرء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في النضر بن الحرث بن كلداء، حين قال: سوف يشفع لي اللات والعزى.

التفسير

الضالون: أشارت الآية السابقة إلى أحوال الظالمين وهم على شفا الموت، وتنطلق هذه الآية لتحدث عن خطاب الله لهم عند الموت أو عند الورد إلى ساحة يوم القيامة، فبدأ الآية بالقول بأنهم يأتون يوم القيامة منفردين كما خلقوا منفردين: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

والأموال التي وهبناها لكم وكنتم تستندون إليها في حياتكم، قد خلفتموها وراءكم، وجئتم صفر الأيدي: «وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ» (١).

ولا نرى معكم تلك الأصنام التي قلتم إنها سوف تشفع لكم وظننتم أنها شريكة في تعيين مصائرهم «وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ».

ولكن الواقع أن جمعكم قد تبدد، وتقطعت جميع الروابط بينكم: «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ».

وكل ما ظننتموه وما كنتم تستندون إليه قد تلاشى وضاع: «وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ».

كان المشركون العرب يستندون في حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيرة التي كانوا ينتمون إليها، والأموال التي جمعوها لأنفسهم، والأصنام التي اعتبروها شريكة لله في تقرير مصير الإنسان وشفيعه لهم عند الله، والآية في كل جملة من جملتها الثلاث تشير إلى واحدة من هذه الأمور، وإلى أنها عند الموت تودعه وتتركه وحيداً فريداً.

(١) «خوّلناكم»: من «الخول» وهو إعطاء ما يحتاج إلى التعهد والتدبير والإدارة، وهو النعم التي يسبغها الله تعالى على عباده.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣

ففي ذلك اليوم تنفصم العرى وتنفصل عن البشر كل الإنشادات المادية والمعبودات الخيالية المصطنعة وجميع ما اصطنعوه لأنفسهم في الحياة الدنيا ليكون سندا لهم يستعينون به في يوم يؤسهم حيث لا يبقى سوى الشخص وعمله، ويزول كل ما عدا ذلك، أو يفضل عنهم بحسب تعبير القرآن، وهو تعبير جميل يوحى بأن الشركاء سيكونون إلى درجة من الصغر والحقارة والضياع بحيث إنهم لا يروا بالعين.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) مرّة أخرى يوجه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلائل التوحيد في عبارات جذابة وفي نماذج حيّة من أسرار الكون ونظام الخلق وعجائبه.

في الآية الاولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفي الآية الثانية يشير إلى ثلاثة من الظواهر السماوية. يقول القرآن الكريم أوّلًا: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .

«الفلق»: شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض. و«الحب» و«الحبة»: تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات التي تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً. و«النوى»: من النواة.

ومما يلفت الإنتباه أنّ الحبيّة والنواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر والخوخ وأمثالهما، وإلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التي هي في الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كل جانب، وأنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الإختراق خاصية التسليم والليونة أمام إختراق نطفة النبات، كما منحت النطفة قوة إندفاع تمكّنها من فلق جدران قلعته فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقاً حادثه عجيبة في عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثم يقول: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ».

إنّ موضوع الحياة والموت بالنسبة للكائنات الحيّة من أعقد المسائل التي لم تستطع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها ورفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤

مجھولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة وموادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتحوّل إلى كائنات حيّة. لذلك نجد القرآن - وفي معرض إثبات وجود الله - كثيراً ما يكرر هذا الموضوع، كما يستدل أنبياء عظام كإبراهيم وموسى، على وجود مبدأ قادر حكيم بمسألة الحياة والموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود وفرعون.

وفي ختام الآية توكيد للموضوع: «ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». أي هذا هو ربكم وهذه هي قدرته وعلمه اللامتناهي، فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق وتميلون إلى الباطل.

في الآية الثانية يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماوية: فيقول أوّلًا: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ».

كثيراً ما يشير القرآن إلى نعمتي النور والظلام والليل والنهار، ولكنّه هنا يتناول «طلوع الصبح» كنعمه من نعم الله الكبرى، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جوّ الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذي يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض - مثل القمر - عديمة الجو، لما كان هناك «طلوعان» ولا «فلق» ولا «إصباح» ولا «غسق» ولا «شفق» غير أنّ الجو الموجود حول الأرض والمؤدى إلى حصول فترة فاصلة بين ظلام الليل وضياء النهار عند طلوع الشمس وغروبها يهيئ الإنسان تدريجياً لتقبّل هذين الاختلافين المتضادين والإنتقال من الظلمة إلى النور، ومن النور إلى الظلمة، شيئاً فشيئاً، بحيث إنّه يستطيع أن يتحمّل كل منهما.

ولكيلا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب وأنّه عقاب أو سلب نعمه، يبادر القرآن إلى القول: «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا».

من الامور المسلم بها أن الإنسان يميل خلال انتشار النور والضياء إلى العمل وبذل الجهد، ويتجه الدم نحو سطح الجسم وتتهيا العضلات للفعالية والنشاط، ولذلك لا يكون النوم في الضوء مريحاً، بل يكون أعمق وأكثر راحة كلما كان الظلام أشد، حيث يتجه الدم فيه نحو الداخل، وتدخل الخلايا عموماً في نوع من السكون والراحة، لذلك نجد في الطبيعة أن النوم في الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إن النباتات تنام في الليل أيضاً، وعند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفعاليتها ونشاطها، بعكس الإنسان في هذا العصر الآلى، فهو يبقى مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل، ثم يظل نائماً حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه وسلامته.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥

ثم يشير الله تعالى إلى الثالثة من نعمه ودلائل عظمته بجعل الشمس والقمر وسيلة للحساب: «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا». إنه لموضوع مهم جداً أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض، أن حساب هذا الدوران من الدقة والضبط بحيث إنه لا يتقدم ولا يتأخر لحظة واحدة. وهذا ما لا يمكن أن يكون إلا في ظل علم وقدره لا نهائيتين يضعان تخطيطه وينفذانه بدقة، لذلك تنتهي الآية بقولها: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

بعد شرح نظام دوران الشمس والقمر في الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة أخرى من نعم الله على البشر، فجعل النجوم ليتهدى بها الانسان في ليالي البر والبحر: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ». وتختتم الآية بالقول بأن الله قد بين آياته لأهل الفكر والفهم والإدراك: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ». منذ آلاف السنين والإنسان يعرف النجوم في السماء ونظامها، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الإتجاه في الأسفار البرية والبحرية، وعلى الأخص في المحيطات الواسعة التي كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الإتجاه قبل اختراع الإسطرلاب. إن النجوم هي التي هدت ملايين البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلى بر السلامة.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسِيْتَةً وَ مَسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كَثَلٌ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَاتِرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَ غَيْرٍ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد ومعرفة الله، وللوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان ويسيح به في آفاق العالم البعيدة وقد يسير به في داخل ذاته ويبيّن له آثار الله في جسمه وروحه، فيتيح له أن يرى الله في كل مكان. فيبدأ بالقول: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ». أي إنكم، على اختلاف ملامحكم وأذواقكم وأفكاركم والتباين الكبير في مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، وهذا دليل على منتهى عظمة الخالق وقدرته التي أوجدت من المثل الأول كل هذه الوجوه المتباينة. ثم يقول: إن فريقاً من البشر «مستقر» وفريقاً آخر «مستودع» «فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ».

«المستقر»: أصله من «القر» (بضم القاف) بمعنى البرد، ويقضى السكون والتوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و «مستودع»: من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر، والوديعة هي التي يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتضح من هذا الكلام أن الآية تعني أن الناس بعض «مستقر» أي ثابت، وبعض «مستودع» أي غير ثابت. يحتمل أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين في تركيب نطفة الإنسان، إن النطفة تتركب من جزئين: الأول هو «البويضة» من الانثى، والثاني هو «الحيمن» أو «المني» من الذكر، فالبويضة في رحم الانثى تكاد تكون مستقر ولكن حيمن الذكر حيوان حي يتحرك بسرعة نحوها،

وما أن يصل أول حيمين إلى البويضة حتى يمتزج بها و «يخصبها» ويصد (الحيامن) الاخرى، ومن هذين الجزئين تتكون بذرة الإنسان الأولى

وفي ختام الآية يعود فيقول: «قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ».

الآية الثانية هي آخر آية في هذه المجموعة التي تكشف لنا عن عجائب عالم الخلق وتهدينا إلى معرفة الله بمعرفة مخلوقاته. في البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نعم الله التي يمكن أن تعتبر النعمة الام وأصل النعم الاخرى، وهي ظهور النباتات ونموها بفضل النعمة التي نزلت من السماء: «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً».

وإنما قال (من السماء) لأن سماء كل شيء أعلاه، فكل ما في الأرض من مياه العيون والآبار والأنهار والقنوات وغيرها منشؤها الأمطار من السماء، وقلة الأمطار تؤثر في كمية المياه في تلك المصادر كلها، وإذا استمر الجفاف جفت تلك المنابع، أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٧

ثم تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ».

المقصود من «نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ» هو كل أنواع النباتات وأصنافها التي تسقى من ماء واحد، وتنبت في أرض واحدة وتتغذى من تربة واحدة، وأنه لمن العجيب أن الله تعالى يخرج من أرض واحدة وماء واحد الغذاء الذي يحتاجه كل هؤلاء.

والأعجب من كل هذا أن نباتات الصحراء واليابسة ليست وحدها التي تنمو ببركة ماء المطر، بل إن النباتات المائية الصغيرة التي تطفو على سطح البحر وتكون غذاء للأسماك تنمو بأشعة الشمس وقطرات المطر.

ثم تشرح الآية ذلك وتضرب مثلاً ببعض النباتات التي تنمو بفضل الماء، فتذكر أن الله يخرج بالماء سيقان النباتات الخضرة من الأرض، ومن تلك الحبة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطرى اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين: «فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا» (١).

ومن ذلك الساق الأخضر أخرجنا الحب متراصفاً منظماً: «نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا» (٢).

وكذلك بالماء نخرج من النخل طلعاً مغلقاً، ثم يتشقق فتخرج الاعداق بخيوطها الرفيعة الجميلة تحمل حبات التمر، فتتدلى من ثقلها: «وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ».

«الطلع»: هو عذق التمر قبل أن يفتح غلافه الأخضر، وإذا يفتح الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفيعة، وهي القنوان ومفردها قنو. و «دانية»: أي قريبة، وقد يكون ذلك إشارة إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنها تميل نحو الأرض لثقلها.

وكذلك بساتين فيها أنواع الأثمار والفواكه: «وَجَنَاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ».

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من روائع الخلق في هذه الأشجار والأثمار، فتقول:

«مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

إن شجرتي الرمان والزيتون متشابهتان من حيث الشكل الخارجى وتكوين الأغصان وهيئة الأوراق تشابهاً كبيراً، مع أنهما من حيث الثمر وطعمه وفوائده مختلفتان، ففي الزيتون مادة زيتية قوية الأثر، وفي الرمان مادة حامضية أو سكرية، فهما متباينان تماماً، ومع ذلك فقد تزرع الشجرتان في أرض واحدة، وتشربان من ماء واحد، فهما متشابهتان وغير متشابهتين في آن واحد.

(١) كلمة «أخضر» تشمل كل أخضر في النبات، حتى براعم الأشجار، ولكن بما إنها متبوعه مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود في الآية هو زراعة الحبوب.

(٢) «المتراكب»: من الركوب وما ركب بعضه بعضاً، وأكثر الحبوب بهذا الشكل.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٨

ثم تركز الآية من بين مجموع اجزاء الشجرة، على ثمرة الشجرة وعلى تركيب الثمرة إذا أثمرت، وكذلك على نضج الثمرة إذا

نضجت، ففيها دلائل واضحة على قدرة الله وحكمته للمؤمنين من الناس: «انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويُنعه إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون».

ما نقرؤه اليوم في علم النبات عن كيفية طلوع الثمرة ونضجها يكشف لنا عن الأهمية الخاصة التي يوليها القرآن للأثمار، إذ إن ظهور الثمرة في عالم النبات أشبه بولادة الأبناء في عالم الحيوان، فنظفه الذكر في النبات تخرج من أكياس خاصة بطرق مختلفة (كالرياح أو الحيوانات) وتحط على القسم الاثنوي في النبات، وبعد التلقيح والتركيب تتشكل البيضة الملقحة الاولى، وتحيط بها مواد غذائية مشابهة لتركيبها، وهذه المواد الغذائية تختلف من حيث التركيب وكذلك من حيث الطعم والخواص الغذائية والطبية. فقد تكون ثمرة (مثل العنب والرمان) فيها مئات من الحب، كل حبة منها تعتبر جنيناً وبذرة لشجرة اخرى، ولها تركيب معقد عجيب.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن المراحل المتعددة التي تمر بها الثمرة منذ تولدها حتى نضجها تثير الإنتباه، لأن «المختبرات» الداخلية في الثمرة لا- تنفك عن العمل في تغيير تركيبها الكيماوي إلى أن تصل إلى المرحلة النهائية ويثبت تركيبها الكيماوي النهائي، فكل مرحلة من هذه المراحل دليل على عظمة الخالق وقدرته.

ولكن لابد من القول- بحسب تعبير القرآن- إن المؤمنين الذين يعنون النظر في هذه الامور هم الذين يرون هذه الحقائق، وإلا فعين العناد والمكابرة والإهمال والتساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَہِ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ٥٩

خالق كل شيء: هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمة والخرافات التي يؤمن بها المشركون وأصحاب المذاهب الباطلة، وترد عليهم بالمنطق. فأولاً: قالوا: إن لله شركاء من الجن «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ».

فينكر الإسلام عليهم ذلك، إذ كيف يمكن ذلك وهو الذي خلق الجن: «وَخَلَقَهُمْ». أي كيف يمكن أن يكون المخلوق شريكاً للخالق، لأن الشركة دليل التماثل والتساوي، مع أن المخلوق لا يمكن أن يكون في مصاف خالقه أبداً!

الخرافة الاخرى هي قولهم- جهلاً- إن لله بنين وبنات: «وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

أفضل دليل على أن هذه العقائد ليست سوى خرافة، هو أنها تصدر عنهم «بِغَيْرِ عِلْمٍ».

أي إنهم لا يملكون أي دليل على هذه الأوهام.

من الملاحظ أن القرآن استعمل لفظه «خرقوا»: من الخرق، وهو تمزيق الشيء بغير روية ولا حساب، وهي في النقطة المقابلة تماماً «للخلق» القائم على الحساب، هاتان اللفظتان:

«الخلق والخرق» قد تستعملان في حالات الكذب والاختلاق، مع اختلاف بينهما، هو أن (الخلق والاختلاق) تستعمل في الأكاذيب المدروسة و (الخرق والاختراق) فيما لا حساب فيه من الكذب. أي إنهم اختلقوا تلك الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن يعدوا له ما يلزم من الامور.

أما الطوائف التي كانت تنسب لله البنين، فإن القرآن يذكر في آيات اخرى اسم طائفتين من هؤلاء:

الاولى: هم المسيحيون الذين قالوا: إن عيسى ابن الله.

والاخرى: هم اليهود الذين قالوا: عزيز ابن الله.

يستفاد من الآية (٣٠) من سورة التوبة أن المسيحيين واليهود ليسوا وحدهم الذين نسبوا إبتاً لله، بل كان هذا موجوداً في المعتقدات الخرافية القديمة.

أما بشأن نسبة بنات لله، فالقرآن نفسه يوضح ذلك فى آيات اخرى: «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا» (١).  
والقرآن يرفض تماماً فى نهاية الآية كل هذه الخرافات التى لا أساس لها، وبعبارة حاسمة قاطعة: «سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ».

(١) سورة الزخرف / ١٩.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٠

و الآية التالية ترد على تلك العقائد الخرافية فتؤكد أن الله هو ذلك الذى أبداع خلق السموات والأرض: «بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».  
«البدیع»: تعنى موجد الشيء بغير سابق وجود، أى ان الله أوجد السماوات والأرض بغير أن يسبق ذلك وجود مادة أو خطة سابقة.  
ثم كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجة؟! «أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً». وما حاجته إلى زوجة؟ ثم من التى تكون زوجته وهم جميعاً مخلوقاته؟

ومرّة اخرى تؤكد الآية مقامه باعتباره خالقاً لكل شىء، ومحيطاً بكل شىء: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».  
الآية الثالثة تؤكد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق، من ذكر خالقية الله لكل شىء، وإبداعه السموات والأرض وإيجادها، وكونه منزهاً عن الصفات والعوارض الجسميه وعن الحاجة إلى الزوجة والأبناء وإحاطته العلميه بكل شىء: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ» فلا يستحق العبودية غيره.

ولكى ينقطع كل أمل بغير الله، وتنقلع كل جذور الشرك والإعتماد على غير الله، تختتم الآية بالقول: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».  
الآية الاخيرة من الآيات مورد البحث، ومن أجل إثبات حاكمية الله وإحاطته بكل شىء وحفاظه على كل شىء، وكذلك لإثبات أنه يختلف عن كل شىء، تقول: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». أى: إنه الخبير بمصالح عبيده وبحاجاتهم، ويتعامل معهم بمقتضى لطفه.

فى الحقيقة أن من يريد أن يكون حافظ كل شىء ومربيه وملجأه لابد أن يتصف بهذه الصفات.  
لا تدركه الأبصار: تثبت الأدلة العقلية أن الله لا يمكن أن يرى بالعين، لأن العين لا تستطيع أن ترى إلا الأجسام، أو على الأصح بعضاً من كفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشىء جسماً ولا كيفية من كفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شىء بالعين، فلأن لهذا الشىء حيزاً واتجاهاً وكتله، فى حين أن الله أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو أسمى من عالم المادة المحدود فى كل شىء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦١

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصِرُّكَ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) ليس من واجبك الإكراه: تعتبر هذه الآيات نتيجة للآيات السابقة، وفى البداية تقول:

«قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ».

«بصائر»: جمع «بصيرة» من «البصر» بمعنى الرؤية، ولكنها فى الغالب رؤية ذهنية وعقلانية، وهذه الكلمة فى هذه الآيات تعنى الدليل والشاهد، وتشمل جميع الدلائل التى وردت فى الآيات السابقة، بل إنها تشمل حتى القرآن نفسه.

ثم لكى تبين أن هذه الأدلة والبراهين كافية لإظهار الحقيقة لأنها منطقية، تقول: «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا». أى إن إبصارهم يعود بالنفع عليهم وعماهم يسبب الإضرار بهم.

وفى نهاية الآية تقول، على لسان النبى صلى الله عليه وآله: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ».

الآية التالية تؤكد أن إتخاذ القرار النهائي في إختيار طريق الحق أو الباطل إنما يرجع للناس أنفسهم، وتقول: «وَكَذَلِكَ نَصَّرَفُ الْآيَاتِ» (١). أي كذلك نبين الأدلة والبراهين بصور وأشكال متنوعة.

لكن جمعاً عارضوا، وقالوا- دونما دليل وبرهان- إنك تلقيت هذا من الآخرين (أي اليهود والنصارى): «وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ». إلّا أن جمعاً آخر ممن لهم الإستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصيرة وفهم وعلم، يرون وجه الحقيقة ويقبلونها: «وَلْيَبَيِّنْهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ». إن إتهام رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه إقتبس تعاليمه من اليهود والنصارى قد تكرر من جانب المشركين، وما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم في ذلك، مع أن حياة الجزيرة العربية لم تكن فيها مدرسة ولا درس ليتعلم منها رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً كما أن رحلاته إلى خارج

(١) «نصرف»: من «التصرف» وهو بمعنى ردّ الشيء من حالة أو إبداله بغيره، أي إن الآيات تنزل في صور وأشكال متنوعة ولمختلف المستويات العقلية والعقائدية والاجتماعية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٢

الجزيرة كانت قصيرة لا تدع مجالاً لمثل هذا الاحتمال، ثم إن معلومات اليهود والمسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجة من التفاهة وتسطير الخرافات بحيث لا يمكن - أصلاً- مقارنتها بما في القرآن ولا بتعاليم الرسول صلى الله عليه وآله وسنشرح هذا الموضوع- إن شاء الله- عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة النحل.

ثم تبين الآية واجب رسول الله صلى الله عليه وآله في قبال معاندة المعارضين وحقدهم وإتهاماتهم، فتقول: «اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَأِلَهِ إِلَّا هُوَ». ومن واجبك أيضاً الإعراض عما يوجهه إليك المشركون من إفتراءات: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ». هذا ضرب من التسلية والتقوية المعنوية للنبي صلى الله عليه وآله لكيلا ينتاب عزمه الراسخ الصلب أي ضعف في مواجهته أمثال هؤلاء المعارضين.

في الآية الأخيرة يكرر القرآن فيها- مرّة اخرى- القول بأنّ الله لا يريد أن يكره المشركين ويجبرهم على الإسلام، إذ لو أراد ذلك لما كان هناك أيّ مشرك: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا».

كما يؤكد القول لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنك لست مسؤولاً عن أعمال هؤلاء، لأنك لم تبعث لإكراههم على الإيمان: «وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا». ولا من واجبك حملهم على عمل الخير: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ». «الحفيظ»: هو من يراقب أمراً أو شخصاً ليحفظه من أن يصاب بضرر؛ أمّا «الوكيل»:

فهو من يسعى لإحراز النفع لموكله. إن الفكرة التي تسود هذه الآيات تستلقت النظر، فهي تقول: إن الإيمان بالله وبتعاليم الإسلام لا يكون عن طريق الإكراه والإجبار، بل يكون عن طريق المنطق والاستدلال والنفوذ إلى أفكار الناس وأرواحهم، فالإيمان بالإكراه لا قيمة له، لأنّ المهم هو أن يدرك الناس الحقيقة فيقبلوها بإرادتهم واختيارهم.

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، وقيام دعوته على أساس الاستدلال والإقناع لا الإكراه، وهذه الآية تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سب ما يعبد الآخرون- أي المشركون- لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضاً- ظلماً وعدواناً وجهلاً- إلى توجيه السب إلى ذات الله المقدسة: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٣

يروى أن بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عبادة الأصنام، فيشتمون أحياناً الأصنام أمام المشركين، وقد نهى القرآن نهياً قاطعاً

عن ذلك، وأكد التزام قواعد الأدب واللياقة حتى في التعامل مع أكثر المذاهب بطلائاً وخرافة.

إنَّ السبب واضح، فالسبب والشتم لا يمنعان أحداً من المضى في طريق الخطأ، لأنَّ كلَّ امه تتعصب عادة لعقائدها وأعمالها كما تقول العبارة التالية من الآية: «كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ».

وفي الختام تقول الآية: «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَأَيُّمُونُونَ (١٠٩) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قالت قريش يا محمد! تخبرنا أن موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر، فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقه، فائتنا بآية من الآيات كي نصدقك! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أى شىء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا، حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنا فعلت بعض ما تقولون، أتصدقوننى؟» قالوا: نعم، والله لئن فعلت لتبعنك أجمعين. وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وآله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو أن يجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبرئيل عليه السلام فقال له: «إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن إن لم يصدقوا عدبتهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم». فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

وردت في الآيات السابقة أدلة كثيرة كافية على التوحيد، وردَّ الشرك وعبادة الأصنام، ومع ذلك فإنَّ فريقاً من المشركين المعاندين المتعصبين لم يرضخوا للحق، وراحوا يعترضون وينتقدون. في الآية الأولى يقول القرآن: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مَخْتَصِرِ الْأَمْثَلِ، ج ٢، ص: ٦٤

لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا» (١). وفي الردِّ عليهم يشير القرآن إلى حقيقتين: يأمر النبي صلى الله عليه وآله أولاً أن يقول لهم: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ». أى إنَّ تحقيق المعجزة لا يكون وفق مشهياتهم، بل إنَّها بيد الله وبأمره.

ثم يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثروا بإيمان المشركين فيقول لهم: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَأَيُّمُونُونَ». مؤكداً بذلك أن هؤلاء المشركين كاذبون في قسمهم.

كما أن مختلف المشاهد التي جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله تؤكد حقيقة أنهم لم يكونوا يبحثون عن الحق، بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس ويبدروا في نفوسهم الشك والتردد.

الآية التالية تبين سبب عنادهم وتعصبهم، فتقول: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ». أى إنَّهم بإصرارهم على الانحراف والسير في طريق ملتو وتعصبهم الناشئ عن الجهل ورفض التسليم للحق، أضاعوا قدرتهم على الرؤية الصحيحة والإدراك السليم، فراحوا يعيشون في متاهات الضلال والحيرة.

ثم تشير الآية في الخاتمة إلى أن الله، يترك أمثال هؤلاء في حالتهم تلك لكي يشتد ضلالهم وتزداد حيرتهم: «وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

نسأل الله أن يجنبنا الإبتلاء بمثل هذا الضلال والحيرة الناتجة عن أعمالنا السيئة، وأن يمنحنا النظرة السليمة الكاملة لكي نرى الحقيقة ناصعة لا غش عليها.

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ



(١١١) هذه الآية تتبع سابقاتها في تعقيب الحقيقة نفسها، وهدف هذه الآيات هو بيان كذب أولئك الذين طلبوا تحقيق معجزات عجيبة وغريبة يستحيل تحقق بعضها كما مر. فيصريح القرآن في الآية المذكورة قائلاً: «وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا».

ثم يؤكد ذلك أنهم لا يمكن أن يؤمنوا إلفي حالة واحدة وهي أن يجبرهم الله بإرادته

(١) «الجهد»: بمعنى السعي وبذل الطاقة، والمقصود هنا الجهد في توكيد القسم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٥

على الإيمان: «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» إلا أن إيماناً كهذا لا ينعف في تربيتهم ولا يؤثر في تكاملهم وفي النهاية يقول: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ». وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَ لَتَضَعَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لَيُرِضُوهُ وَ لَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) تشير هذه الآية إلى أن أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصيين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبي الخاتم صلى الله عليه و آله بل إن الأنبياء السابقين وقف في وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس والجن: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ». لا- عمل لهم سوى الكلام المنمق الخادع يستغفل به بعضهم بعضاً، يلقونه في غموض أو يهمس به بعض لبعض: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا».

ولكن: لو أراد الله لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك ولحال دون وقوف هؤلاء الشياطين وأمثالهم بوجه الأنبياء: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ». بيد أن الله لم يشأ ذلك، لأنه أراد أن يكون الناس أحراراً، وليكون هناك مجال لاختبارهم وتكاملهم وتربيتهم. لذلك يأمر الله نبيه في آخر السورة أن لا يلقي بالاً إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية: «فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيراً سيستمع الذين لا إيمان لهم- أي الذين لا يؤمنون بيوم القيامة- إلى تلك الأقوال وتميل قلوبهم إليها: «وَلَتَضَعَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ».

ثم يقول: إن نهاية هذا الميل هو الرضا التام بالمناهج الشيطانية «وَلَيُرِضُوهُ».

وختام كل ذلك كان إرتكاب أنواع الذنوب والأعمال القبيحة: «وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ». أ فَعَيَّرَ اللَّهُ أَتْبَغَىٰ حَكَمًا وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ (١١٤) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٦

هذه الآية هي نتيجة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة والآيات الواضحة التي تؤكد التوحيد: «أ فَعَيَّرَ اللَّهُ أَتْبَغَىٰ حَكَمًا». وهو الذي أنزل هذا الكتاب السماوي العظيم الذي فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، وما يميز بين الحق والباطل والنور والظلمة، والكفر والإيمان: «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا».

وليس الرسول والمسلمون وحدهم يعلمون أن هذا الكتاب قد نزل من الله، بل إن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يعلمون ذلك أيضاً، لأنّ علام هذا الكتاب السماوي قرؤها في كتبهم ويعلمون أنه نزل من الله بالحق: «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ».

وعلى ذلك لم يبق مجال للشك فيه، وكذلك أنت أيها النبي لا تشك فيه أبداً، «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ».

الآية التالية تقول: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَأُمْبَدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«الكلمة»: بمعنى القول وتطلق على كل جملة وكل كلام مطولاً كان أم موجزاً، أما بالنسبة لاستعمالها في هذه الآية إنها تعنى القرآن لأن الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن. فيكون معنى الآية إذن: إن القرآن ليس موضع شكّ بأى شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات ولا عيب فيه، وكل أخباره وما فيه من تواريخ صدق، وكل أحكامه وقوانينه عدل.

ويستند بعض المفسرين إلى هذه الآية لاثبات عدم تحريف القرآن، لأن تعبير «لَأُمْبَدَلَ لِكَلِمَاتِهِ» تعنى أن أحداً لا يستطيع أن يحدث في القرآن تبديلاً أو تغييراً، لا- في لفظه، ولا- في أخباره، ولا في أحكامه، وأن هذا الكتاب السماوى الذى يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هادياً للناس سيبقى محفوظاً ومصوناً من أغراض الخائنين والمحرفين.

وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) نعلم أن آيات هذه السورة نزلت في مكة، يوم كان المسلمون قلة في العدد، ولعل قلتهم هذه وكثرة المشركين وعبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهم بعضهم أنه إذا كان دين اولئك

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٧

باطلاً فلم كثر أتباعه؟! وإذا كان دين الإسلام حقاً، فما سبب قلة معتنقيه؟

ولدفع هذا التوهم يخاطب الله نبيه بعد ذكر أحقية القرآن في الآيات السابقة قائلاً: «وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

وفي الجملة التالية يبين ذلك وهو أنهم يتبعون الظنون التى تخالطها الأهواء والأكاذيب ويمتدح بها الخداع والتخمين: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

فيكون مفهوم الآية الشريفة أن الأكثرية لا يمكن أن تكون وحدها الدليل على طريق الحق، ومن هذا نستنتج أنه يجب التوجه إلى الله وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون في هذا الطريق قلة في العدد.

والدليل على ذلك يرد في الآية التالية التى تؤكد على أن الله عليم بكل شىء ولا مكان للخطأ فى علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين وبالسائرين على طريق الهداية: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْبَائِثِمْ وَيَاطِنْتَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْبَائِثِمْ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٢٠) الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعة حقيقة التوحيد وإثبات بطلان الشرك وعبادة الأصنام. ومن نتائج ذلك أن على المسلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التى تذبح باسم الأصنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذكر اسم الله عليه، لذلك يبدأ القرآن بالقول:

«فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ». أى إن الإيمان ليس مجرد قول وادعاء وعقيدة ونظريه، بل لابد أن يظهر على صعيد العمل أيضاً، فالذى يؤمن بالله يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهى أن حرمة الذبائح التى لم يذكر اسم الله عليها، هى خلفية أخلاقية ومعنوية وتستهدف تثبيت قواعد التوحيد وعبودية الله الواحد الأحد.

الآية التالية تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايرة مع مزيد من الاستدلال، فتقول: لم لا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٨

تأكلون من اللحوم التى ذكر اسم الله عليها، فى الوقت الذى بين الله لكم ما حرم عليكم؟

«وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ». مرة اخرى نشير إلى أن التوبيخ والتوكيد ليسا من أجل ترك

أكل اللحم الحلال، بل الهدف هو أن هذه هي ما ينبغي أن تأكلوا منها، لا من غيرها، وبعبارة أخرى: التوكيد هنا على النقطة المقابلة لمفهوم العبارة، من هنا استدل على ذلك بالقول: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ».

ثم يستثنى من ذلك حالة واحدة: «إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ» سواء كان هذا الاضطرار ناشئاً من وجود الإنسان في البيداء وتحت ضغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطرة المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثم تشير الآية إلى أن كثيراً من الناس يحاولون أن يصلوا الآخرين عن جهل أو عن اتباع الهوى: «وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بغير علم».

يلزم القول أن الجملة المذكورة ربما تكون إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين العرب الذين كانوا يسوغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التي نقتلها بأنفسنا حلالاً، ولحوم الحيوانات التي يقتلها الله حراماً؟

بديهي أن هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأن الحيوان الميت ليس حيواناً ذبحه الله ليتمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إن الحيوان الميت بؤرة الأمراض ولحمه فاسد، ولهذا حرم الله أكله، وأخيراً يقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثالثة تذكر قانوناً عاماً، فيحتمل أن يرتكب بعضهم هذا الإثم في الخفاء، وتقول:

«وَدَرُّوْا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ».

يقال إنهم في الجاهلية كانوا يعتقدون أن الزنا إذا ارتكب في الخفاء فلا بأس به، أما إذا ارتكب علناً فهو الإثم! واليوم - أيضاً - نجد اناساً يسرون وفق هذا المنطق الجاهلي فيخشون ارتكاب الإثم علانية، ولكنهم يرتكبون في الخفاء ما يشاؤون من الآثام دون رادع من ضمير.

إن هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم وتذكيرهم بذلك، تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٦٩

وَلَمَّا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِشْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) دار الكلام في الآيات السابقة حول الجانب الإيجابي من مسألة اللحوم، أي أكل اللحوم الحلال، وفي هذه الآية تأكيد للجانب السلبي من المسألة: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ». ثم في جملة واحدة يدين هذا العمل: «وَإِنَّهُ لَفِشْقٌ» وإثم وخروج عن طريق العبودية وإطاعة الله.

ولكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إن الشياطين يوسوسون في الخفاء لأتباعهم لكي يدخلوا معكم في جدل ونقاش: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ» ولكن كونوا على حذر، ولا تطيعوهم: «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ».

لعل هذا الجدل والوسوسة إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين بشأن أكل الميتة (وذهب البعض إلى أن العرب المشركين أخذوه من المجوس) وقولهم: إننا نأكل الميتة لأن الله أماتها، وهي لذلك أفضل مما نقتله بأيدينا، معتقدين أن عدم أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل الله! غافلين أن الحيوان الميت موتاً طبيعياً، إضافة إلى مرضه غالباً، يضم بين لحمه دماً قدراً فاسداً يفسد معه اللحم، بسبب عدم إنقطاع أوداجه.

ويستفاد من هذه الآية - ضمناً - حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنها - إضافة إلى الجهات الأخرى - لم يتقيد ذابحها بذكر اسم الله عليها. أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

## سبب النزول

في تفسير مجمع البيان قيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وأبي جهل بن هاشم،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٠

وذلك أن أبا جهل آذى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبر بذلك حمزة، وهو على دين قومه، فغضب وجاء معه قوس، فضرب بها رأس أبي جهل، وآمن.

وقيل: نزلت في عمار بن ياسر حين آمن، وأبي جهل.

## التفسير

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة من حيث كون الآيات السابقة أشارت إلى طائفتين من الناس: المؤمنين المخلصين، والكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بضلالهم، بل يسعون حثيثاً إلى تضليل الآخرين، هنا أيضاً يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفة من الناس كانوا من الضالين، ثم غيروا مسيرتهم باعتماد الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذي يحييه الله بإرادته: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ».

الإيمان يغير الأفراد ويشمل هذا التغيير كل جوانب الحياة، وتبدو آثاره في كل الحركات والسكنات. ثم تقول الآية عن أمثال هؤلاء: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ».

على الرغم من وجود الاختلاف في تفسير هذا «النور» فالظاهر أن المقصود ليس القرآن وتعاليم الشرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنح الإيمان بالله الإنسان رؤية وإدراكاً جديدين ... يمنحه رؤية واضحة ويوسع من آفاق نظره لتتجاوز إطار حياته المادية وجدرا ن عالم المادة الضيق إلى عالم أرحب وأوسع.

إنه في ضوء هذا النور يستطيع أن يميز مسيرة حياته بين الناس، وأن يصون نفسه ويحافظ عليها ويحصنها ضد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع والجشع والأفكار المادية المحدودة، والوقوف بوجه أهوائه وكبح جماحها. إن ما نقرأه في الأحاديث الإسلامية من أن «المؤمن ينظر بنور الله» إشارة إلى هذه الحقيقة.

ثم تقارن الآية بين هذا الإنسان الحي، الفعال، التير، والمؤثر، بالإنسان العديم الإيمان والمعاند، فتقول: «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا».

إنه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح وأدمغته معطلة عن العمل.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧١

وفي الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: «كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ولما كان بطل هذه المشاهد في جانبها السلبي هو «أبو جهل» الذي كان من كبار مشركي قريش ومكة، فالآية الثانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين وقادة الكفر والفساد، فتقول: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا». أي إنه عاقبة عصيانهم وكثرة ذنوبهم أدت بهم إلى أن يصبحوا سداً على طريق الحق، وعاملاً على جز الناس نحو الانحراف والابتعاد عن طريق الحق.

وفي الختام تقول الآية: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

كما يستفاد من هذه الآية أن النكبات والتعاسه التي تصيب المجتمع إنما تنشأ من رموزه وقادته، إذ يتوسلون بالمكر والحيلة لتغيير معالم الطريق إلى الله، ويخفون وجه الحق عن الناس.

وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

## سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً، لكنت أولى بها منك، لأننى أكبر منك سنناً وأكثر عنك مالاً.

## التفسير

تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقته تفكير هؤلاء الأكابر «أكابر مجرميها» وإلى مزاعمهم المضحكة الباطلة، فتقول: «وَإِذَا جَاءَ تَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ».

إن القرآن يردّ على هؤلاء بوضوح قائلاً: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

بديهي أن الرسالة لا علاقة لها بالسن ولا بالمال ولا بمراكز القبائل، لأن شرطها الأول هو الاستعداد الروحي، وطهارة الضمير، والسجيا الإنسانية الأصيلة، والفكر السامى،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٢

والرأى السديد ثم التقوى إلى درجة العصمة... إن هذه الصفات، وخصوصاً الاستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها غير الله، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط وما كان يدور بخلد اولئك.

كما إن من يخلف رسول الله صلى الله عليه وآله لا بد أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحي والتشريع، أى أنه حامى الشرع والشريعة، والحارس على قوانين الإسلام، والقائد المادى والمعنوى للناس، لذلك لا بد له أن يكون معصوماً عن الخطأ والإنم، لكى يكون قادراً على أن يوصل الرسالة إلى أهدافها، وأن يكون قائداً مطاعاً وقدوة يُعتمد عليه. وبناءً على ذلك، يكون اختياره من الله أيضاً، فهو وحده الذى يعلم أين يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس ولا للانتخابات والشورى.

وفى النهاية تشير الآية إلى المصير الذى ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين والزعماء الذين يدعون الباطل، فتقول: «سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» (١).

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائية يريدون أن يحافظوا على مراكزهم، ولكن الله سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار والحقارة بحيث إنهم سيتعذبون بذلك عذاباً روحياً شديداً، مضافاً إلى أنهم سيلاقون العذاب الشديد فى الآخرة لأن سعيهم على طريق الباطل كان شديداً أيضاً.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيُؤْتِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) تعقيباً على الآيات السابقة التى دارت حول المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيرة التى تنتظر الفريق الأول، والشقاء الذى سيصيب

(١) «الإجرام»: من «جرم» وأصله القطع، والمجرم هو الذى يقطع العهود وإرتباطه بالله بعدم إطاعته، ولذلك اطلقت كلمة «الجرم» على الإثم والذنب، فى هذا إشارة لطيفة إلى أن هناك فى ذات الإنسان إتفاق مع الحق والطهارة والعدالة، والإجرام هو قطع هذا الإتفاق الفطرى الإلهى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٣

الفريق الثانى، فتقرر أن الله ينعم بالهداية على من يشاء، وذلك بأن يفتح صدره لتقبل الإسلام، أما الذى لا يريد الله أن يوفقه لذلك- لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله وكأنه يريد أن يصعد إلى السماء. «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ».

ولتوكيد هذا الأمر تضيف الآية: «كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ».

فيسلبهم التوفيق ويركسهم في التعاسة والشقاء.

سبق لنا أن قلنا مرّات عديدة أنّ المقصود من لفظي «الهداية» و «الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف والمقدمات المؤدية إلى الهداية بالنسبة للذين لهم الاستعداد لذلك، وسلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

الآية التالية تؤكد البحث السابق فتقول: إنّ المدد الإلهي الذي يشمل السالكين في خط الايمان والعبودية لله ويُسلب عن الذين يتنكبون عن سبيل الله، إنّما هو سنّه إلهية مستقيمة ثابتة لا تبدل «وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا».

وفي ختام الآية توكيد آخر: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُذَكَّرُونَ». أي لمن يملكون قلوباً واعية وآذاناً سامعة.

الآية الثالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التي يهبها الله للذين يطلبون الحق، إحداهما:

«لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ». والثانية: «وَهُوَ وَثِيْقُهُمْ». أي ناصرهم وحافظهم، وكل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحة: «بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فأى فخر أجل وأرفع من أن يتولى الله امور الإنسان ويتكفل بها فيكون حافظه ووليّه، وأية نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمان والأمان، حيث لا- حرب ولا- سفك دماء، ولا- نزاع ولا- خصام، ولا- عنف ولا تنافس قاتل ومميت، ولا تضارب مصالح، ولا كذب ولا إفتراء، ولا إتهام ولا حسد ولا حقد، ولا هم ولا غم، بل الهدوء والطمأنينة والهناء؟

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين والمضلين فتكملان ما بحث في السابق، فتذكران يوم يقفون فيه وجهاً لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٤

فيواجه التابعون والمتبوعون سؤالاً لا جواب لديهم عليه. تذكر الآية في البداية بذلك اليوم الذي يجتمع فيه الجن والإنس، ثم يقال يا أيها المضلون من الجن لقد أضللتكم كثيراً من الناس: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ».

«الجن» هنا هم الشياطين، لأنّ كلمة الجن تشمل كل كائن غير مرئي والآية (٥٠) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس أنّه «كَانَ مِنَ الْجِنِّ». ويبدو أنّ الشياطين المضلين لا- جواب لديهم على هذا السؤال ويطلقون صامتين، غير أنّ أتباعهم من البشر يقولون: ربّنا، هؤلاء استفادوا منا كما إنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: «وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا».

أي كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا وكنا نتبعهم مستسلمين، أمّا نحن فكنا مستمتعين بمباهج الحياة ولذائدها غير متقيدين بشيء ولا ملتفتين إلى سرعة زوالها، لما كان الشياطين يوسوسون في آذاننا ويظهرون الدنيا لهم في صور جميلة جذّابة.

إنّ المقصود من كلمة «أجل» هو نهاية العمر لأنّ «الأجل» كثيراً ما استعمل في القرآن بهذا المعنى.

غير أنّ الله يخاطب التابعين والمتبوعين الفاسدين والمفسدين جميعاً: «قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

وفي الختام تقول الآية: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» فعقابه مبنى على حساب دقيق، وكذلك عفوه، لأنّه عالم بمن يستحقهما.

الآية التالية تشير إلى سنّه إلهية ثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص، وتقرر أنّ هؤلاء الطغاة والظالمين سيكون وضعهم في الآخرة كما كانوا عليه في الدنيا يجز بعضهم بعضاً نحو التهلكة وسوء المصير والانحراف: «وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وكما ذكرنا في البحوث الخاصة بالمعاد فإنّ يوم القيامة مشهد ردود الفعل في صور مكبرة، وما يوجد هناك إنعكاس عن أعمالنا في هذه الدنيا.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٥

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة فى الآيات السابقة ولكيلا يظن أحد أنهم فى حالة من الغفلة ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبين هذه الآيات أن تحذيرهم قد تم بما فيه الكفاية وتمت عليهم الحجة، لذلك يقال لهم يوم القيامة: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا».

«معشر»: من العدد «عشرة»، وبما أن العشرة تعتبر عدداً كاملاً، فالمعشر هو الجماعة الكاملة التى تضم مختلف الطوائف والأصناف.

ثم تقول الآية: «قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا» لأن يوم القيامة ليس يوم الكتمان، بل إن دلائل كل شىء تكون بادية للعيان، وما من أحد يستطيع أن يخفى شيئاً، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهى قائلين: «إننا نشهد ضد أنفسنا ونعترف أن الرسل قد جاؤونا وأبلغونا رسالاتك ولكنتا خالفناها».

نعم ... لقد كانت أمامهم آيات ودلائل كثيرة من الله، وكان يميزون الخطأ من الصواب، إلما أن الحياة الدنيا بيريقتها ومظاهرها قد خدعتهم وأضلتهم: «وَعَزَّيْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

مرّة اخرى يؤكد القرآن أنهم شهدوا على أنفسهم بألسنتهم بأنهم قد ساروا فى طريق الكفر ووقفوا إلى جانب منكرى الله: «وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ».

الآية التالية تعيد المضمون السابق بصورة قانون عام وسنّه ثابتة، وهى: «أَنَّ اللَّهَ لَا يَأْخُذُ النَّاسَ فِي الْمَدَنِ وَالْمَنَاطِقِ الْمَسْكُونَةِ بِظُلْمِهِمْ إِذَا كَانُوا غَافِلِينَ، لِأَبْعَدَ أَنْ يَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ لِيَتَّبِعُوهُمْ إِلَىٰ قَبِيحِ أَعْمَالِهِمْ، وَيَحْذَرُوهُمْ مِنْ مَعْذِرَةِ أَعْمَالِهِمْ: «ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ».

قد تعنى «بظلم» أن الله لا يظلم أحداً بأن يعاقبه عمداً فعل وهو غافل، لأن معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلماً، والله أرفع من أن يظلم أحداً.

وتذكر الآية الثالثة خلاصة ما ينتظر هؤلاء من مصير، وتقرر أن لكل من هؤلاء - الأختيار والأشرار، المطيعين والعصاة، طالبى العدالة والظالمين - درجات ومراتب يوم القيامة تبعاً لأعمالهم، وإن ربك لا يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعاً، ويجزى كلًا بقدر ما يستحق: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

هذه الآية تؤكد مرّة اخرى الحقيقة القائلة بأن جميع «الدرجات» و «الدركات» التى يستحقها الإنسان إنما هى وليده أعماله، لا غير.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٦

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مِآ تَوْعِدُونَ لَمَاتٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) الآية الاولى تستدل على ما سبق فى الآيات التى مرّت بشأن عدم ظلم الله تعالى، وتؤكد أن الله لا حاجة له بشىء وهو عطف ورحيم، وعليه لا دافع له على أن يظلم أحداً أبداً، لأن من يظلم لا بد أن يكون محتاجاً، أو أن يكون قاسى القلب فظاً: «وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» كما أنه لا حاجة له بطاعة البشر، ولا يخشى من ذنوبهم، بل إنه قادر على إزالته كل جماعة بشرية ووضع آخرين مكانها كما فعل بمن سبق تلك الجماعة: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ».

بناءً على ذلك فهو غنى لا حاجة به إلى شىء، ورحيم، وقادر على كل شىء، فلا يمكن إذن أن نتصوره ظالماً.

وإذا أدر كنا قدرته التى لا حدود لها يتضح لنا أن ما وعده بشأن يوم القيامة والجزاء سوف يتحقق فى موعده بدون أى تخلف: «إِنَّ مَا

تَوْعَدُونَ لَأْتِ».

كما أنكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه ولا أن تهربوا من قبضته العادلة:

«وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» (١).

ثم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يهددهم: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَائِنَكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)

(١) «معجزين»: من «أعجز» أى جعله عاجزاً، فالآية تقول: إنكم لا- تستطيعون أن تجعلوا الله عاجزاً عن بعث الناس وتحقيق العدالة، وبعبارة اخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة الله.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٧

لاقتلاع جذور الشرك وعبادة الأصنام من الازهان يعود القرآن إلى ذكر العادات والتقاليد والعبادات الخرافية السائدة بين المشركين، ويثبت فى بيان واضح أنها خرافية ولا أساس لها، فقد كان كفار مكة وسائر المشركين يخصصون لله سهماً من مزارعهم وأنعامهم، كما كانوا يخصصون سهماً منها لأصنامهم أيضاً، قائلين: هذا القسم يخص الله، وهذا القسم يخص شركاءنا أى الأصنام: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا».

ثم تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبة وهو الحكم بأن ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى الله، ولكن ما خصصوه لله يصل إلى شركائهم «فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ».

أنهم إذا أصاب نصيب الله ضرر على أثر حادثه قالوا: هذا لا- أهميته له لأن الله لا حاجة به إليه، ولكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوضوا عنه من نصيب الله، قائلين: إن الأصنام أشد حاجة إليه.

وفى الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

فأى حكم أبقح وأدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذى لا- قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناك هبوط فكرى أخط من هذا؟

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) يشير القرآن فى هذه الآية إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبيحة وجرائمهم الشائنة، ويذكر أنه كما ظهر لهم أن تقسيمهم الحصص بين الله والأصنام عمل حسن بحيث أنهم اعتبروا هذا العمل القبيح والخرافى، بل والمضحك، عملاً محموداً، كذلك زين الشركاء قتل الأبناء فى أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنهم راحوا يعدون قتل الأولاد نوعاً من «الفخر» و «العبادة»: «وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٨

«الشركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحياناً يقدمون أبناءهم قرايين لها، أو كانوا يندرون أنهم إذا وهوا ابناً يذبحونه قرباناً لأصنامهم، كما جاء فى تاريخ عبدة الأصنام القدامى وعليه فإن نسبة «التزيين» للأصنام تعود إلى أن شدة تعلقهم بأصنامهم وحبهم لها كان يحدو بهم إلى ارتكاب هذه الجريمة النكراء.

ثم يوضح القرآن أن نتيجة تلك الأفعال القبيحة هى أن الأصنام وخدامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك، وشككواهم فى دين الله، وحرموهم من الوصول إلى الدين الحق: «لِيُرْدُوهُمْ وَيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ».



ومع ذلك كله، فإن الله قادر على أن يوقفهم عند حدّهم بالإكراه، ولكن الإكراه خلاف سنّة الله، إن الله يريد أن يكون عباده أحراراً لكي يمهد أمامهم طريق التربية والتكامل، وليس في الإكراه تربية ولا تكامل: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ».

ومادام هؤلاء منغمسين في أباطيلهم وخرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنهم ينسبون أحياناً إلى الله، إذن فاتركهم وإتهاماتهم والتفت إلى تربية القلوب المستعدة: «فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لِمَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الاوثان، والتي تدل على قصر نظرهم وضيق تفكيرهم، وتكمل ما مرّ في الآيات السابقة. تذكر في البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق في نصيب الأصنام من زرع وأنعام، وتبين أنهم كانوا يرون أنها محرّمة إلا على طائفة معينة: «وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَأَيُّطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ».

ومرادهم المتولون امور الأصنام والمعابد، والمشركون كانوا يذهبون إلى أن لهؤلاء وحدهم الحق في نصيب الأصنام. «الحجر» هو المنع.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٩

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب:

«وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا».

ثم تشير إلى القسم الثالث من الأحكام الباطلة فتقول: «وَأَنْعَامٌ لَّأَيُّذُكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا».

ولعلها إشارة إلى الحيوانات التي كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هي المطايا التي كانوا يحرمون ركوبها للذهاب إلى الحج.

والأعجب من ذلك أنهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى الله كل ما يخطر لهم من كذب: «افْتِرَاءً عَلَيْهِ».

وفي ختام الآية، وبعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إن الله: «سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى حكم خرافي آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضى بأن حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، وهو حرام على الزوجات، أما إذا خرج ما في بطونها ميتاً، فكلهم شركاء فيه: «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ».

ويشجب القرآن هذا الحكم الجاهلي، ويقرر أن الله سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، «سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ».

وختاماً تقول: «إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». فهو عليم بأعمالهم وأقوالهم وإتهاماتهم الكاذبة، كما أنه يعاقبهم وفق حساب وحكمة.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) تعقيباً على الآيات السابقة التي تحدّثت عن بعض الأحكام التافهة والتقاليد القبيحة في عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قرباناً للأصنام، ووأد البنات خشية العار، وتحريم بعض نعم الله الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدّة، في سبعة تعبيرات وفي جمل قصيرة نافذة توضّح حالهم. ففي البداية تقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ». وكل صفة من هذه الصفات الثلاث كافية لإظهار قبح

أعمالهم، فأى علم يجيز

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٠

للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانوناً اجتماعياً؟ من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلف الأقوام الجاهليين.

ثم يذكر القرآن أن هؤلاء قد حرموا على أنفسهم ما رزقهم الله وأحلّه لهم وكذبوا على الله ونسبوا هذه الحرمة له سبحانه: «وَحَرَّمُوا مَا

رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ».

في هذه العبارة إدانة اخرى لأعمالهم، فهم- أولاً- حرموا على أنفسهم النعمة التي «رزقهم» إياها وأباحها لهم وكانت ضرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون الله.

وهم- ثانياً- «افتروا» على الله قائلين إنه هو الذي أمر بذلك.

في ختام الآية وفي جملتين قصيرتين إدانة اخرى لهم، فهم: «قَدْ ضَلُّوا» ثم إنهم لم يسلكوا يوماً الطريق المستقيم: «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ». وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) لقد جاءت الإشارة في هذه الآية إلى عدة مواضع، كل واحد منها متفرع عن الآخر، ونتيجة عنه. فهو تعالى يقول أولاً: إنَّ الله تعالى هو الذي خلق أنواع البساتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشجار والنباتات، فمنها ما يعتمد في موقفه على الأعمدة والعروش حيث تحمل ما لذ وطاب من الفواكه والثمار، وتجلب بمنظرها الساحر العيون والالباب، ومنها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقي بظلاله الوارفة على رؤوس الآدميين، ويسد بشماره المتنوع حاجة الإنسان إلى الغذاء: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ».

ثم إن الآية تشير إلى نوعين من البساتين والمزارع إذ تقول: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ».

ثم إنه تعالى يضيف قائلاً: إنَّ هذه الأشجار مختلفة ومتنوعة من حيث الثمر والطعم. فمع أنَّ جميعها ينبت من أرض واحدة ويسقى بماء واحد فإن لكل واحدة منها رائحة خاصة، ونكهة معينة، وخاصية تختص بها، ولا توجد في غيرها: «مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨١

ثم يشير سبحانه إلى قسمين آخرين من الثمار عظيمي الفائدة، جيلي النفع في مجال التغذية البشرية إذ يقول: «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ».

إنَّ اختيار هاتين بالذكر من بين أشجار كثيرة إنما هو لأجل أنَّ هاتين الشجرتين: (شجرة الزيتون وشجرة الرمان) رغم تشابههما من حيث الظاهر والمظهر تختلفان اختلافاً شاسعاً من حيث الثمرة، ومن حيث الخاصية الغذائية، ولهذا عقب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين:

«مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

وبعد ذكر كل هذه النعم المتنوعة يقول سبحانه: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ».

ثم ينهي في نهاية المطاف عن الإسراف إذ يقول تعالى: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ». «الإسراف»: تجاوز حد الاعتدال في كل فعل يفعله الإنسان. وهذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى عدم الإسراف في الأكل، أو عدم الإسراف في الإنفاق والبدل.

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَهُ وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ أُشْتِمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نُبُونِي بَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ أُشْتِمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) إنَّ هذه الآيات- كما أشرنا إلى ذلك- بصدد إبطال أحكام خرافية جاهلية كان المشركون يدينون بها في مجال الزراعة والأنعام. ففي الآية المتقدمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات والثمار التي أنشأها الله، وفي هذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحللة اللحم، وما تؤدِّيهِ من خدمات، وما يأتي منها من منافع. يقول أولاً: إنَّ الله هو الذي خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل والنقل، واخرى صغيرة: «وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٢

«حمولة»: جمع وليس لها مفرد وتعني الحيوانات الكبيرة التي تستخدم للحمل والنقل كالإبل والفرس ونظائرها. و «فرش»: هو بنفس المعنى المتعارف، ولكن فسر هنا بالغنم وما يشابهه من الحيوانات الصغيرة.

ثم إن الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنه لما كانت جميع هذه الانعام قد خلقها الله تعالى وحكمها بيده، فإنه يأمركم قائلاً: «كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ».

ولتأكيد هذا الكلام وإبطال أحكام المشركين الخرافية يقول: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». فهو الذى أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

الآية الثانية تبين قسماً من الحيوانات المحللة اللحم، وبعض الأنعام التى يستفاد منها فى النقل، كما يستفاد منها فى تغذية البشر وطعامهم أيضاً فيقول: إن الله خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم (ذكر وانثى)، وزوجين من المعز: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ».

وبعد ذكر هذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيه فوراً بأن يسألهم بصراحة: هل أن الله حرّم الذكور منها أم الاناث: «قُلْ أَلَذَّكَّرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيْنِ». أم أنه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام، أم ما فى بطون الإناث من المعز؟: «أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ». ثم يضيف قائلاً: إذا كنتم صادقين فى أن الله حرّم شيئاً مما تدعون، وكان لديكم ما يدل على تحريم أى واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك: «تَبَوَّنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ثم فى الآية اللاحقة بين الأزواج الأربعة الاخرى من الأنعام التى خلقها الله للبشر، إذ يقول: وخلق من الإبل ذكراً وانثى، ومن البقر ذكراً وانثى، فأى واحد من هذه الأزواج حرّم الله عليكم: الذكور منها أم الإناث؟ أم ما فى بطون الإناث من الإبل والبقر: «وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ».

إن الحكم بتحليل هذه الأنعام وتحريمها إنما هو بيد الله، خالقها وخالق البشر وخالق العالم كله. ولقد صرح فى الآية السابقة بأنه لم يكن لدى المشركين أى دليل علمى أو عقلى على تحريم هذه الأنعام، وحيث إنهم لم يدعوا أيضاً نزول الوحي عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، وهو أن يدعوا أنهم حضروا عند أنبياء الله ورسله يوم أصدروا هذه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٣

الأحكام، ولهذا يقول الله لهم فى مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء وشهدتم أمر الله لهم بتحليل أو تحريم شىء من هذه الأنعام: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا».

وحيث إن الجواب على هذا السؤال هو الآخر بالنفى والسلب، يثبت أنهم ما كانوا يمتلكون فى هذا المجال إلّا الافتراء، ولا يستندون إلّا إلى الكذب.

ولهذا يضيف فى نهاية الآية قائلاً: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». فيستفاد من هذه الآية أن الافتراء على الله من أكبر الذنوب والآثام، إنه ظلم لله تعالى ولمقامه الربوبى العظيم، وظلم لعباد الله، وظلم للنفس.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بِيَاعٍ وَلَمَّا عَوَّادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) ثم إنه تعالى - بهدف تمييز المحرمات الإلهية عن البِدَع التى أحدثها المشركون وأدخلوها فى الدين الحق - أمر نبيه صلى الله عليه وآله فى هذه الآية بأن يقول لهم بكل صراحة، ومن دون إجمال أو إبهام: «لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ» من الشريعة أى شىء من الأطعمة يكون «مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» من ذكر أو انثى وصغير أو كبير.

اللهم «إِلَّا» عدّه أشياء، الأول: «أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً». «أو» يكون «دَمًا مَسْفُوحًا» وهو ما خرج من الذبيحة عند التذكية بالقدر المتعارف (لا الدماء التى تبقى فى جسم الذبيحة فى عروقها الشعرية الدقيقة، بعد خروج قدر كبير منها بعد الذبح). «أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ».

لأن جميع هذه الأشياء رجس ومنشأ لمختلف الأضرار «فَإِنَّهُ رِجْسٌ».

ثم أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: «أَوْ فِشْقًا أَهْلًا لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» (١). أي التي لم يذكر اسم الله

(١) «اهل»: أصله «الإهلال» وهو مأخوذ في الأصل من الهلال والإهلال يعني رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لكل صوت رفيع، كما أنه يطلق على بكاء الصبي عند الولادة الإستهلال، وحيث إنهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عالٍ عند ذبح الأنعام عبر عن فعلهم هذا بالإهلال.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٤

عليها عند ذبحها، لأنها- من الناحية الأخلاقية والمعنوية- تدل على الإبتعاد عن الله وعن جادة التوحيد ولهذا حرمت أيضاً. وعلى هذا الأساس أن الشروط الإسلامية المقررة في الذبح على نوعين: بعضها- مثل قطع الأوداج الأربعة، وخروج القدر المتعارف من دم الذبيحة- لها جانب صحى. وبعضها الآخر- مثل توجيه مقادير الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، وذكر اسم الله عنده، وكون الذابح مسلماً- لها جانب معنوى.

ثم إنه سبحانه استثنى- في آخر الآية- من اضطر إلى تناول شيء مما ذكر من اللحوم المحرمة، كما لو لم يجد أى طعام آخر وتوقفت حياته على تناول شيء من تلك اللحوم، إذ قال:

«فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١). يعنى أن من اضطر إلى أكل شيء مما ذكر من المنهيات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذة، ولا مستحلاً لما حرّمه الله، أو متجاوزاً حد الضرورة، ففي هذه الصورة «فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». وإنما اشترط هذان الشرطان لكي لا يتذرع المضطرون بهذه الإباحة فيتعدوا حدود ما قرره الله بحجة الاضطرار.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) إِنَّ هَاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرّم على اليهود ليتبين أن أحكام الوثنيين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، ولا على دين اليهود (بل ولا على دين المسيح الذى يتبع فى أكثر أحكامه الدين اليهودى). ولهذا يقول سبحانه فى البداية: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ».

يستفاد من الآية المبحوثة أن جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف- دواباً كانت أو طيوراً- كانت محرمة على اليهود.

(١) «الباغى»: من «البغى» وهو يعنى الطلب؛ و «العادى»: من «العدو» وهو يعنى التجاوز.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٥

ثم يقول سبحانه: «وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا».

ثم يستثنى بعد هذا ثلاثه موارد:

أولها: الشحوم الموجودة فى موضع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا».

وثانياً: الشحوم الموجودة على جنبها، أو بين أمعائها: «أَوْ الْحَوَايَا» (١).

وثالثاً: الشحوم التى امتزجت بالعظم والتصقت به «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ».

ولكنه صرح فى آخر الآية بأن هذه الامور لم تكن محرمة على اليهود ولكنهم بسبب ظلمهم وبغيهم حرموا- بحكم الله وأمره- من هذه اللحوم والشحوم التى كانوا يحتونها «ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ».

ويضيف- لتأكيد هذه الحقيقة- قوله: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» وإن ما نقوله هو عين الحقيقة.

ولما كان عناد اليهود المشركين أمراً بيناً، وكان من المحتمل أن يتصلبوا ويتمادوا فى تكذيب رسول الله صلى الله عليه وآله أمر الله

تعالى نبيه في الآية الاخرى أن يقول لهم إن كذبوه: إن ربكم ذو رحمة واسعة فهو لا يسارع إلى عقوبتكم ومجازاتكم، بل يمهلكم لعلمكم تؤوبون إليه، وترجعون عن معصيتكم، وتندمون من أفعالكم وتعودون إلى الله، «فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة». ولكن إذا أسأوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهي، واستمروا في كيل التهم فيجب أن يعلموا أن عقاب الله إياهم حتمي لا مناص منه، وسوف يصيبهم غضبه في المال: «وَلَا يَرُدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ». إن هذه الآية تكشف عن عظمة التعاليم القرآنية، فإنه بعد شرح وبيان كل هذه المخالفات التي ارتكبتها اليهود والمشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فوراً، بل يترك طريق الرجعة مفتوحاً، وذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: «ربكم»، «ذو رحمة»، «واسعة».

حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع والإنابة في نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفية على العودة إلى الطريق المستقيم.

(١) «الحوايا»: جمع «حاوية» وهي مجموعة ما يوجد في بطن الحيوان والتي تكون على هيئة كرة تتضمن الأمعاء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٦

ولكن حتى لا- تبث سعة الرحمة الإلهية هذه على التماذي في غيهم، وتتسبب في تزايد جرأتهم وطغيانهم، وحتى يكفوا عن العناد واللجاج هددهم في آخر جملة من الآية بالعقوبة الحتمية.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرْبِهِمْ يَعْدِلُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرْبِهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) عقيب الكلام المتقدم عن المشركين في الآيات السابقة، أشار في هذه الآيات إلى طائفة من استدلالاتهم الواهية، مع ذكر الأجوبة عنها. فيقول أولاً: إن المشركين سيقولون في معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم في مجال الإشراك بالله، وتحريم الأطحمة الحلال: إن الله لو أراد أن لا- نكون مشركين، وأن لا- يكون آباؤنا وثنينين، وأن لا نحرم ما حرمنا، لفاعل:

«سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ».

إن المشركين- مثل كثير من العصاة- يريدون التملص من مسؤولية العصيان تحت ستار الجبر.

إنهم كانوا يدعون أن سكوت الله على عبادتهم للأصنام وتحريمهم لطائفة من الحيوانات دليل على رضاه، لأنه إذا لم يكن راضياً بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

ولكن القرآن تصدى لجوابهم وناقشهم بشكل قاطع، فهو يقول أولاً: ليس هؤلاء وحدهم يفترون على الله مثل هذه الأكاذيب: «كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» (١). ولكنهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: «حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا».

فهؤلاء كانوا يكذبون في كلامهم هذا، كما أنهم يكذبون الأنبياء، ولو كان سبحانه راضياً

(١) «كذب»: في اللغة تأتي بمعنيين تكذيب الغير، وكذلك فعل الكذب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٧

بهذه الامور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟!

إن دعوة الأنبياء أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، واختيار البشر.

ثم يقول سبحانه: قل لهم يا محمد: هل لكم برهان قاطع ومسلم على ما تدعون؟ هاتوه إن كان: «قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا».

ثم يضيف في النهاية: «إِنَّ مَا تَتَّبِعُونَهُ لَيْسَ سِوَى أَوْهَامٍ وَخَيَالَاتٍ فَجَاءَ: «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ».

وفي الآية اللاحقة يذكر دليلاً آخر لإبطال ادعاء المشركين، ويقول: «قُلْ إِنْ أَلَّاهُ أَقَامَ بَرَاهِينَ جَلِيَّةً وَدَلَالَةً وَاضِحَةً وَصَحِيحَةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَهَكَذَا أَقَامَ أَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ سِوَاءَ بِوَسْطَةِ أَنْبِيَائِهِ أَوْ بِوَسْطَةِ الْعَقْلِ، بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ أَىَّ عِذْرٍ لِمُعْتَذِرٍ: «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ».

وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يدعى أحدٌ أبداً أن الله أمضى - بسكوته - عقائدهم وأعمالهم الباطلة، وكذلك لا يسعهم قط أن يدعوا أنهم كانوا مجبورين، لأنهم لو كانوا مجبورين لكان إقامة الدليل والبرهان، وإرسال الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم لغواً، إن إقامة الدليل دليل على حرية الإرادة.

ثم يقول في ختام الآية: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَكُمْ جَمِيعاً بِالْجَبْرِ لَفَعَلَ: «فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ».

ولكن في مثل هذه الصورة لم يكن لمثل هذا الإيمان ولا للأعمال التي تصدر في ضوء هذا الإيمان الجبرى القسرى أية قيمة، إنما فضيلة الإنسان وتكامله في أن يسلك طريق الهداية والتقوى بقدميه وبإرادته واختياره.

وفي الآية التالية - ولكي يتضح بطلان أقوالهم، ومراعاة لأسس القضاء والحكم الصحيح - دعا المشركين ليأتوا بشهادتهم المعترين لو كان لهم، لكي يشهدوا لهم بأن الله هو الذى حرّم الحيوانات والزروع التي ادعوا تحريمها، لهذا يقول: «قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا».

ثم يضيف قائلاً: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهاداء المعترين (ولا يملكون حتماً) بل يكتفون بشهادتهم وادعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم ولا تؤيدهم في دعاويهم:

«فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ».

هذا مضافاً إلى أن جميع القرائن تشهد بأن هذه الأحكام ما هي إلا أحكام مصطنعة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٨

مختلفة نابعة عن محض الهوى والتقليد الأعمى، ولا اعتبار لها مطلقاً.

ولذلك قال في العبارة اللاحقة: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ» (١).

يعنى أن وثنيهم، وإنكارهم للقيامة والبعث، والخرافات، وإتباعهم للهوى، شواهد حية على أن أحكامهم هذه مختلفة أيضاً، وأن إدعائهم في مسألة تحريم هذه الموضوعات من جانب الله لا قيمة له، ولا أساس له من الصحة.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْهَا وَلا بَطْنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لو كان ذا قُرْبى وَ بَعْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) بعد نفي أحكام المشركين المختلفة التي مرّت في الآيات المتقدمة، أشارت هذه الآيات الثلاثة إلى أصول المحرمات في الإسلام، وذكرت الذنوب الرئيسية الكبيرة في عشرة أقسام بيان مقتضب، عميق وفريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النبي ويستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرمات الإلهية الواقعية، وتركوا المحرمات المختلفة جانباً. يقول: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ».

١- «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً».

(١) «يعدلون»: مشتق من مادة «عدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإن مفهوم جملة «وهم برّبهم يعدلون» هو أنهم كانوا

يعتقدون بشريك وشبيه لله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٨٩

٢- «وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا».

٣- «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ». أى بسبب الفقر والحرمان لأننا «نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ».

٤- «وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». أى لا تقربوها فضلاً عن أن لا ترتكبوها.

٥- «وَلَمَّا تَقَاتَلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ». فلا- تسفكوا الدماء البريئة، ولا- تقتلوا النفوس التي حرم الله قتلها إلا ضمن قوانين العقوبات الإلهية، فيجوز أن تقتلوا من أذن الله لكم بقتله.

ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسة يقول لمزيد من التأكيد: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» فلا ترتكبوها.

٦- «وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ». فلا تقربوا مال اليتيم إلا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده ويستوى.

٧- «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ». فلا تطففوا ولا تبخسوا.

وحيث إن الإنسان- مهما دقق في الكيل والوزن- قد يزيد أو ينقص بما لا- يمكن أن تضبطه الموازين والمكاييل المتعارفة لقلته وخفائه، لهذا عقب على ما قال بقوله: «لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

٨- «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَوْ كَرِهَ آدَامُ الْقَوْمِ». فلا تنحرفوا عن جادة الحق عند الشهادة أو القضاء أو أمر آخر حتى ولو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، واقضوا بالعدل.

٩- «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» ولا تنقضوه.

والمراد من العهد الإلهي المذكور في هذه الآية يشمل جميع العهود الإلهية التكوينية والتشريعية والتكاليف الإلهية وكل عهد ونذر ويمين.

ثم إنه سبحانه يقول في ختام هذه الأقسام الأربعة- للتأكيد-: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

١٠- «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ». إنَّ طريقى هذا هو طريق التوحيد، طريق الحق والعدل، طريق الطهر والتقوى فامشوا فيه، وأتبعوه، واسلكوه ولا تسلكوا الطرق المنحرفة والمتفرقة، فتؤدى بكم إلى الانحراف عن الله

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٠

وإلى الاختلاف، والتشردم، والتفرق، وتزرع فيكم بذور الفرقة والنفاق. ثم يختم جميع هذه الأقسام وللمرة الثالثة- لغرض التأكيد- بقوله: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

بحثن

١- أهمية الإحسان إلى الوالدين: إن ذكر مسألة الإحسان للوالدين- بعد مكافحة الشرك مباشرة، وقبل ذكر تعاليم مهمة مثل حرمة قتل النفس والأمر بالعدل- يدل على الأهمية القصوى التي يحظى بها حق الوالدين في التعاليم الإسلامية.

ويتضح هذا الأمر أكثر عندما نرى أن القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذى يلائم سياق هذه الآية فى استعراضها للمحرمات، مسألة الإحسان إليهما، يعنى أنه ليس إزعاج الوالدين وإيذاؤهما محرماً فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

والأجمل من هذا كله أن كلمة «الإحسان» عُدَّت بحرف «الباء» فقال: «وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا». وعلى هذا الأساس فإن هذه الآية تؤكد أن موضوع الإحسان إلى الوالدين من الأهمية البالغة بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الاحسان بنفسه إلى الوالدين.

٢- قتل الأولاد من الإملاق والجوع: يستفاد من هذه الآيات أن العرب فى العهد الجاهلى لم يقتصروا على قتل البنات ووأدهن بسبب بعض العصبية الخاطئة فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يُعدُّون ثروة كبرى فى المجتمع يومذاك، وذلك بسبب الفقر وخشيتهم من الفاقة.

ولكن هذا العمل الجاهلي - وللأسف البالغ - يتكرر الآن في عصرنا في صورة اخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء وهم أجنّة عن طريق الكورتاج والإجهاض بحجة النقصان الاحتمالي في المواد الغذائية. إن إسقاط الجنين وإن كان يُبرّر الآن بأدلة وحجج اخرى أيضاً، إلّا أنّ مسألة الفقر ومسألة نقصان المواد الغذائية، هي من أدلتها الأصلية.

هذه المسألة والمسائل المشابهة الاخرى تشير إلى أنّ العهد الجاهلي يتكرر في شكل آخر، وأنّ «جاهلية القرن العشرين» أكثر وحشية من جاهلية ما قبل الإسلام.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩١

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لِعَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَيَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) في الآيات السابقة دار الحديث عن عشرة من أحكام الإسلام الأساسية التي لم تكن مختصّة بالإسلام، بل هي موجودة ومقررة في جميع الأديان، ثم قال عقيب ذلك في هذه الآيات: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ». فقد أتممنا نعمتنا على المحسنين والذين سلّموا لأمره وأتبعوه.

إنّ عبارة: «الَّذِي أَحْسَنَ» إشارة إلى جميع المحسنين، والذين يستجيبون للحق، ويقبلون بالأوامر الإلهية.

«وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ» فإنّ فيه كل شيء مما يحتاج إليه المجتمع، ومما له أثر في تكامل الإنسان وترشيده.

«وَهُدًى وَرَحْمَةً». أي أنّ في هذا الكتاب الذي نزل على موسى مضافاً إلى ما سبق:

هدى ورحمة.

إنّ جميع هذه البرامج ما هي إلّا لكي يؤمنوا بيوم القيامة، وبلقاء الله، ولكي يُطهروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارهم، وأقوالهم، وأعمالهم ويزكّوها: «لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ».

الآية اللاحقة تشير إلى نزول القرآن وتعليماته القيمة، وبذلك أكملت البحث المطروح في الآية السابقة، يقول تعالى: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ» فهذا الكتاب الذي أنزلناه كتاب عظيم الفائدة، عظيم البركة، وهو المنبع لكل أنواع الخير والبركة.

ولمّا كان الأمر كذلك وَجِبَ اتِّبَاعُهُ بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ، ووجب التزوّد بالتقوى، والتجَنّب

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٢

عن مخالفته، لتشملكم رحمة الله ولطفه «فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وفي الآية الثالثة أبطل سبحانه جميع المعاذير والتحججات وسدّ جميع طرق التملّص والفرار في وجه المشركين، فقال لهم أولاً: لقد أنزلنا هذا الكتاب مع هذه المميزات لكي لا تقولوا: لقد نزلت الكتب السماوية على الطائفتين السابقتين (اليهود والنصارى) وكنا عن دراستها غافلين، وليس تمردنا على أوامر الله إلّا لكونها موجودة عند غيرنا من الامم، ولم يبلغنا منها شيء: «أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لِعَافِلِينَ». ثم إنّ سبحانه ينقل عنهم - في الآية اللاحقة - نفس ذلك التحجج ولكن بصورة أوسع، ومقروناً هذه المرّة بنوع أشد من الغرور والصّلف وهو: أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدعوا أنّهم كانوا أكثر استعداداً من أيّة امّة اخرى لقبول الأمر الإلهي:

«أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ».

والآية المتقدّمة كانت تعكس هذا التحجج وهو: أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسبب غفلتنا وجهلنا بالكتب السماوية، وهذه الغفلة وهذا الجهل ناشىء عن أنّ هذه الكتب نزلت على الآخرين، ولم تنزل علينا. أمّا هذه الآية فتعكس صفة الإحساس بالتفوق والإدعاء الفارغ



الذي كانوا يدعون عن تفوق العنصر العربي على غيرهم.

فإن القرآن يقول في معرض الرد على هذه الإدعاءات أن الله سبحانه سدّ عليكم كل شئيل التملص والفرار، وأبطل جميع الذرائع والمعاذير، لأن الله آتاكم كل الآيات، وأقام كل الحجج المقرونة بالهداية الإلهية وبالرحمة الربانية لكم: «فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ». ومع ذلك «فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا».

«صدف»: من «الصدف» ويعنى الإعراض الشديد- من دون تفكير- عن شئء، وهو إشارة إلى أنهم لم يكونوا يعرضوا عن آيات الله فحسب، بل كانوا يبتعدون عنها.

وفي خاتمة هذه الآية بين الله تعالى العقاب الأليم الذي أعد لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق وينكرونها من دون أن يفكروا فيها ويدرسوها ولو قليلاً، بل ولا- يكتفون برفضها إنما يعمدون إلى صد الآخريين عنها، ويحولون بينهم وبين سماعها واستيعابها، بين كل ذلك في قوله الموجز والبلغ: «سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٣

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مَنَّظِرُونَ (١٥٨) في الآيات السابقة تبينت هذه الحقيقة وهي: أننا أتمنا الحجة على المشركين، وآتيناهم الكتاب السماوي (أى القرآن) لهدايتهم جميعاً، لكى لا يبقى لديهم أى عذر يبررون به مخالفتهم للرسالة ومعارضتهم للدعوة. وهذه الآية تقول: ولكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا فى لجاجهم وعنادهم حداً لا يؤثر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البين، وكأنهم يتوقعون وينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون اموراً مستحيلة. فيقول أولاً: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ» لتقبض ارواحهم.

«أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ» إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

ويراد من هذا الكلام أنهم ينتظرون اموراً مستحيلة.

ثم يقول: أو أنكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهية والعلامات الخاصة بيوم القيامة ونهاية العالم يوم تنسد كل أبواب التوبة: «أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ».

ثم يضيف عقيب ذلك قائلاً: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَمَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا» فأبواب التوبة حينذاك مغلقة فى وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأن التوبة ساعتد تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، وفائدة لمعطيات الإيمان الاختيارى وقيمة التوبة النصح.

ثم إنه فى المقطع الأخير من الآية يوجه تهديداً شديداً إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبرة شديدة: «قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مَنَّظِرُونَ».

إن من النقاط الهامة التى نستفيدها من الآية الحاضرة هو أن الآية تعتبر طريق النجاة منحصرة فى الإيمان، ذلك الإيمان الذى يكتسب المرء فيه خيراً ويعمل فى ظله عملاً صالحاً.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٤

تعقيباً على التعاليم والأوامر العشر التى مرّت فى الآيات السابقة، والتى امر فى آخرها بإتباع الصراط الإلهى المستقيم، وبمكافحة أى نوع من أنواع النفاق والتفرقة، جاءت هذه الآية تتضمن تأكيداً على هذه الحقيقة، وتفسيراً وشرحاً لها. فيقول تعالى أولاً: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» «١». أى أن الذين اختلفوا فى الدين وتفرقوا فرقا وطوائف لا يمتون إليك بصله أبداً،

كما لا يرتبطون بالدين أبداً، لأنّ دينك هو دين التوحيد، ودين الصراط المستقيم، والصراط المستقيم ما هو إلّا واحد لا أكثر. ثم قال تعالى - مُهَدِّدًا مُؤَبِّخًا أَوْلَئِكَ الْمَفْرَقِينَ -: «إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». أى أنّ الله هو الذى سيؤاخذهم بأعمالهم وهو عليم بها، لا يغيب شىء منها. محتوى هذه الآية يمثّل حكماً عاماً يشمل كل من يفرق الصفوف، وكل من يبذر بذور النفاق والاختلاف بين عباد الله بابتداع البدع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا فى الامم السابقة أو فى هذه الامّة. هذه الآية تكرر مرّة اخرى - وبمزيد من التأكيد - هذه الحقيقة وهى أنّ الإسلام دين الوحدة والإتحاد وأنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقة وإلقاء الاختلاف فى صفوف الامّة. فى الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهية الواسعة، وإلى الثواب الإلهي الواسع الذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين وقد عيّنت التهديدات المذكورة فى الآية بهذه التشجيعات: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا». ثم قال: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا». وللتأكيد يضيف هذه الجملة أيضاً فيقول: «وَهُمْ لَاطْلَمُونَ» وإتّما يعاقبون بمقدار أعمالهم. و«الحسنه» و«السيئه» فى الآية الحاضرة يشمل كل عمل صالح وفكر صالح وعقيدة صالحة أو سيئه.

(١) «الشيعة»: من حيث اللغة تعنى الفرق والطوائف المختلفة وأتباع الأشخاص المختلفين، وعلى هذا فإنّ مفرد هذه الكلمه يعنى من يتبع مدرسه أو شخصاً معيناً، هذا هو المعنى اللغوي لكلمه الشيعة. ولكن للفظه الشيعة معنى آخر فى الاصطلاح، فهو يُطلق على من يتبع أمير المؤمنين علياً عليه السلام ويشايعه، ولا يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٥

قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنِّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَأَشْرِكُ لَهُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) هذه الآية والآيات الاخر التى سنقرؤها فيما بعد والتى ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة فى هذه السورة التى بدأت وانتهت بمكافحة الشرك والوثنية، وتركزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. ففى البداية أمرت رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يقول فى مواجهه معتقدات المشركين والوثنيين ومزاعمهم الجوفاء والعارية عن المنطق السليم: «قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». أى طريق التوحيد، ورفض كل أشكال الشرك والوثنية.

ذكر كلمه «قل» فى هذه الآيات وأمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصالة القرآن، وللدلالة على أنّ ما أتى بعدها هو عين الكلمات التى اوحيت إلى رسول الله.

ثم إنّ تعالى يوضح «الصراط المستقيم» فى هذه الآية والآيتين اللاحقتين. فهو يقول أولًا: إنّ الدين المستقيم الذى هو فى نهاية الصحة والاستقامة، وهو الأبدى الخالد القائم المتكفل لأمور الدين والدنيا والجسد والروح: «دِينًا قِيمًا».

وحيث إنّ العرب كانوا يكتنون لإبراهيم عليه السلام محبة خاصة، بل كانوا يصفون عقيدتهم ودينهم بأنّه دين إبراهيم، فهذا هو الذى أدعو أنا إليه لا ماتزعمونه: «مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ».

إبراهيم عليه السلام الذى أعرض عن العقائد الخرافية التى كانت سائدة فى عصره وبيئته، وأقبل على التوحيد «حَنِيفًا». و«الحنيف»: يعنى الشخص أو الشىء الذى يميل إلى جهة ما، وأما فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة ويولّى وجهه نحو الدين الحق والعقيدة الحقّة.

وكأنّ هذا التعبير جواب وردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول الله صلى الله عليه وآله مخالفته للعقيدة الوثنية التى

كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النبي في معرض الردّ على مقاتلتهم هذه، بأنّ نقض السنن الجاهلية والإعراض عن العقائد الخرافية السائدة في البيئته ليس هو من فعلى فقط، بل كان إبراهيم - الذي نحترمه جميعاً - كذلك أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٦

ثم يضيف للتأكيد قائلاً: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، وحامل الحرب ضد الشرك، الذي لم يفتأ لحظة واحدة عن محاربتة وكفاحه. الآية اللاحقة تشير إلى أنه على النبي أن يقول: إني لست موحداً من حيث العقيدة فحسب، بل إني أعمل كل عمل صالح: «قُلْ إِنَّ صِيَمَاتِي وَنُفْسِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فأنا أحيى لله، وله أموت، وأفدى بكلّ شيء لأجله، وكل هدفي وكل حبي بل كل وجودي له.

و «النُّسُكُ»: يعني في الأصل العبادة، ولذا يقال للعباد: ناسك، ولكن هذه الكلمة تطلق في الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

ثم في الآية الثالثة يضيف للتأكيد وإبطالاً لأي نوع من أنواع الشرك والوثنية قائلاً: «لَا شَرِيكَ لَهُ».

ثم يقول في ختام الآية: «وَبَدَلِكَ أَمْرٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ».

فإن كون رسول الإسلام أول المسلمين، إما من جهة كفيته إسلامه وأهميته، لأنّ درجته إسلامه وتسليمه أعلى وأفضل من الجميع، وإما لأنه كان أول فرد من هذه الامة التي قبلت بالإسلام والقرآن.

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْعَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) هذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيه: قل لهم واسألهم: هل من الصحيح أن أطلب رباً غير الله الواحد في حين أنه هو المالك والمربي، وهو رب كل شيء وبيده أزمه جميع الكائنات، وحكمه جار في جميع ذرات الوجود بلا استثناء:

«قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْعَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ».

ثم إنه يردّ على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: اتبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأً قائلاً: «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ فَلَا يَعْمَلُ أَحَدٌ إِلَّا لِنَفْسِهِ، وَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وِزْرَ أَحَدٍ.»

«ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» فما لكم إليه وهو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٧

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) في هذه الآية التي هي آخر الآيات من سورة الأنعام إشارة إلى أهمية مقام الإنسان ومكانته في عالم الوجود لتكميل الأبحاث الماضية في مجال تقوية دعائم التوحيد، ومكافحة الشرك. لهذا قال تعالى في مطلع كلامه: «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ».

إنّ الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، والذي سيخترت له كل منابع هذا العالم وصدر الأمر بحكومته على جميع الموجودات من جانب الله تعالى، لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط إلى درجة السجود للجمادات.

ثم أشار سبحانه إلى اختلاف المواهب والاستعدادات في المواهب البدنية والروحية لدى البشر، والهدف من هذا الاختلاف والتفاوت، فيقول: «وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ» من المواهب المتنوعة والمتفاوتة ويختبركم بها.

ثم تشير في خاتمة الآية الحاضرة إلى حرية الإنسان في اختيار طريق السعادة وطريق الشقاء نتيجة هذه الاختبارات والابتلاءات، إذ يقول: «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». فإنّ ربك سريع العقاب مع الذين يفشلون في هذا الاختبار، وغفور رحيم للذين ينجحون فيه ويسعون لإصلاح أخطائهم.

١- التفاوت بين أفراد البشر ومبدأ العدالة: لا شك أن بين أفراد البشر طائفة من الاختلافات والفوارق المصطنعة، التى هى نتيجة المظالم التى يمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرين، فهناك مثلاً جماعة يمتلكون ثروات هائلة، وجماعات اخرى تعاني من الفقر المدقع.

جماعة يعانون من المرض والعلّة بسبب سوء التغذية وندرة الوسائل الصحية، فى حين يحظى أفراد معدودون بقدر كبير من السلامة والعافية، بسبب توفر جميع الإمكانيات.

إنّ مثل هذه الفوارق والاختلافات: الثروة والفقر، والعلم والجهل، والسلامة والمرض، هى فى الأغلب وليدة الاستعمار والاستثمار، وهى مظاهر مختلفة للعبودية والمظالم الظاهرة والخفية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٨

إنّ من المسلم أنّه لا يمكن أن تعتبر هذه الامور من فعل المشيئة الإلهية وليس من الصحيح مطلقاً الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غير المبررة أساساً. إنّ أفراد البشر يشكلون من حيث المجموع شجرة كبيرة واحدة يقوم كل فرد برسالة خاصة فى هذا الصرح العظيم، وله بنية مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

ولهذا يقول القرآن الكريم: إنّ هذه الفوارق وهذا التفاوت وسيلة لاختباركم وامتحانكم، لأنّ الاختبار والامتحان الإلهي - كما قلنا سابقاً - يعنى «التربية».

٢- خلافة الإنسان فى الأرض: إنّ النقطة الاخرى الجديرة بالاهتمام، هى أنّ القرآن الكريم وصف الإنسان مراراً بأنه خليفة الله فى أرضه، إنّ هذا الوصف، وهذا التعبير ضمن بيانه لمكانة الإنسان بين هذه الحقيقة أيضاً، وهى: أنّ الله تبارك وتعالى هو المالك الأصلي والحقيقى للأموال والثروات والقابليات، وجميع المواهب الإلهية الممنوحة للإنسان، وما الإنسان - فى الحقيقة - إلّا خليفة الله ووكيل من جانبه، ومأذون من قبله.

ومن البديهي أنّ الوكيل - مهما كان - فهو غير مستقل فى تصرفاته، بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلي، وتقع ضمن إجازته.

ومن هنا يتضح أنّ الإسلام - مثلاً - يختلف عن النظام الشيوعى، وكذا عن النظام الرأسمالى فى مسألة المالكية، لأنّ الفريق الأول يخصص المالكية بالجماعة، والفريق الثانى يخصصها بالفرد، بينما يقول الإسلام: المالكية لا هى للفرد ولا هى للمجتمع، بل هى فى الحقيقة لله تعالى، والناس وكلاء الله، وخلفاؤه.

وبهذا الدليل نفسه يراقب الإسلام طريقة تصرف الأفراد فى الأموال كسباً وصرفاً، ويضع لكل ذلك قيوداً وشروطاً تجعل الاقتصاد الإسلامى نظاماً متميزاً فى مقابل الأنظمة الاخرى.

«نهاية تفسير سورة الأنعام»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٩

## ٧. سورة الاعراف

هذه السورة من السور المكية إلّا قوله تعالى: «وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ» إلى «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» الذى نزل فى المدينة.

محتوى السورة: يشير فى البدء إلى مسألة المبدأ والمعاد.

ثم بهدف إحياء شخصية الإنسان شرح - باهتمام وعناية كبيرة - قصة خلق آدم.

ثم عدّدت - بعد ذلك - المواثيق التى أخذها الله تعالى من أبناء آدم فى مسير الهداية والصلاح، واحداً واحداً.

ثم للتدليل على هزيمة وخسران الجماعات التى تحيد عن سبيل التوحيد والعدالة والتقوى، وكذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين

وإنتصارهم، ذكرت قصص كثير من الاقوام الغابرة والأنبياء السابقين مثل «نوح» و «لوط» و «شعيب» وختمت ذلك ببيان قصة بنى إسرائيل، وجهاد «موسى» ضد فرعون، بصورة مفصلة.

وفي آخر السورة عادت مرّة اخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، بهذا تتناغم البداية والخاتمة.

فضيلة تلاوة هذه السورة: في تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ سورة الأعراف في كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن قرأها

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج ٢ ١٣٩

في كل جمعة كان ممن لا يحاسب يوم القيامة». ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «أما إن فيها آياً محكمة فلا تدعوا قراءتها وتلاوتها والقيام بها فإنها تشهد يوم القيامة لمن قرأها عند ربّه».

المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صِدْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) في مطلع هذه السورة نواجه مرّة اخرى «الحروف المقطعة»، ويمكن أن يكون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب إنتباه المستمعين، ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، لأنّ وجود هذه الحروف في مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثل في نظر العرب، ومن شأنها أن تثير في العربي حبّ الاستطلاع، وتدعوه إلى متابعة الكلام إلى نهايته.

ثم يقول تعالى في الآية اللاحقة: «كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صِدْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ».

«الحرج»: في اللغة يعنى الشعور بالضيق وأى نوع من أنواع المعاناة.

إنّ العبارة الحاضرة تسلّى النبي صلى الله عليه وآله وتطمئن خاطره بأنّ هذه الآيات نازلة من جانب الله تعالى فيجب أن لا يشعر صلى الله عليه وآله بأى ضيق وحرج، لا من ناحية ثقل الرسالة الملقاة على عاتقه، ولا من ناحية ردود فعل المعارضين والأعداء الألداء تجاه دعوته، ولا من ناحية النتيجة المتوقعة من تبليغه ودعوته.

ثم يضيف تعالى في الجملة اللاحقة أنّ الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب نواياهم وأعمالهم الشريرة، وتذكير المؤمنين الصادقين، إذ يقول: «لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

ثم إنّ سبحانه يوجّه خطابه إلى عامة الناس ويقول: «اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ».

وبهذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله ومهمته ورسالته، وانتهى بوظيفته الناس وواجبهم تجاه الرسالة.

وللتأكيد يضيف سبحانه قائلاً: «وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» فلا تتبعوا غير أوامر الله، ولا تختاروا ولياً غير الله.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠١

وحيث إنّ الخاضعين للحق والمتذكرين قليلون، لذا قال في ختام الآية: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ومن هذه الآية يستفاد أنّ الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إمّا القبول بولاية الله وقيادته، وإمّا الدخول تحت ولاية الآخرين، فإذا سلك الطريق الأوّل كان الله وليه، وأمّا إذا دخل تحت ولاية الآخرين فإنّ عليه - حينئذ - أن يخضع في كل يوم لواحد من الأرباب، وأن يختار ربّاً جديداً.

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمة التي تترتب على مخالفة الأوامر التي تمّ بيانها في الآيات السابقة، كما أنّهما تعدّان فهرستاً إجمالياً عن قصص الأقوام المتعددة أمثال نوح، وقوم فرعون، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط التي ستأتى فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحذّر وينذر بشدة في هذه الآية كل اولئك الذين يتمردون على تعاليم الأنبياء ويقومون بزرع الفجور والفساد بدل إصلاح أنفسهم وإصلاح الآخرين، بأن يتدبروا قليلاً في حياة الأقوام السالفة وينظروا كم من قرية عامرة أبداها الله، وأهلك سكانها

الفاستقين: «وَكَمْ مِّن قَوْمٍ أَنذَرْهُمْ أَهْلَكَنَاهُمَا».

ثم يبين كيفية هلاكهم بأن العذاب الأليم جاءهم في منتصف الليل وهم يقضون ساعات الراحة والسكون، أو في وسط النهار وهم يمشون لحظات الاستراحة والإسترخاء بعد رحلة من العمل والنشاط اليومي الذائب: «فَجَاءَهَا بِأُسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ».

ثم يواصل الحديث في الآية اللاحقة هكذا: «فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ». فعندما يتورطون في البلاء، وتتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم ونخوتهم وينادون معترفين بظلمهم: «إنا كنا ظالمين».

ولكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنه نوع من الاعتراف الجبري والاضطراري الذي يضطر إليه حتى أشد الناس غروراً.

إن هذه الآيات تحذيرات صاعقة لهذا العصر وما يليه من العصور، لنا وللأمم والأقوام القادمة، لأنه لا معنى للتبعض في السنة الإلهية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٢

والإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدمة مع كل ما اوتى من قوة هو الآخر عاجز أمام الزلازل والعواصف، وأمام السيول والأمطار الغزيرة، تماماً مثل عجز الامم ما قبل التاريخ وضعفها.

وعلى هذا فليست مثل تلك العواقب السيئة والأليمة التي أصابت ظلمة الامم الغابرة وجباريها، وحلت بالمغرورين والفسفة والمتمردين ليلاً وحرطتهم، ببعيدة عن الإنسان الحاضر.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) التحقيق الشامل: إن الآية

المتقدمة تحدت عن الجزاء الدنيوي للظالمين، وهذه الآيات تبحث في الجزاء والعقاب الاخرى لهم، وبهذا يتضح الارتباط بينها. يقول تعالى أولاً وهو يقرر سنه عامه: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ». أى إتنا سنسأل فى يوم القيامة كل من أرسلنا لهديته رسولاً، حتماً

ودون ريب.

بل ونسأل الأنبياء أيضاً، ماذا فعلوا فى مجال تبليغ رسالتهم: «وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ».

وعلى هذا الأساس فالجميع مسؤولون، قادة وأتباعاً، رسلاً ومرسلاً إليهم، غاية ما فى الأمر أنه يختلف السؤال والمسؤوليات من طائفة إلى اخرى.

فى الآية اللاحقة- ولكى لا يتصور أحد بأن سؤال الله للانباء يعنى أن الأمر قد خفى على الله وغاب عن علمه- قال تعالى بصراحة مزيجة بالقسم، بأننا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنه ما غاب عنا شىء من أفعالهم، وما غابوا هم عنا، فقد كنا معهم فى كل حين ومكان: «فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ».

المساءلة لماذا؟ نحن نعلم أن الله سبحانه يعلم بكل شىء، فهو الحاضر فى كل زمان ومكان، الناظر لكل شىء من نية أو عمل، فما الحاجة إلى مساءلة الرسل والامم عامه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٣

وبدون إستثناء؟!!

الجواب على هذا السؤال واضح، لأن السؤال لو كان للاستعلام والاستفهام، وبهدف الوقوف على الحقيقة لم يصح أن يقع من العالم العارف. وأما إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجة عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن فى ذلك بأس ولا ضير، إذ يشبه ذلك تماماً ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيرة وقابلنا بالإساءة والخيانة، وكان كل ذلك معلوماً معروفاً عندنا، ومع ذلك فإننا نسائله ونقول: ألسنا قد أسدينا إليك كذا وكذا من الخدمة؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟

إن مثل هذه المساءلة ليست لاكتساب العلم، واكتشاف الحقيقة المجهولة، بل هى لتفهيم الطرف الآخر وإيقافه على الحقيقة.

فى الآية اللاحقة- تكميلاً لمبحث المعاد- يشير تعالى إلى قضية «وزن الأعمال» الذى جاء ذكره فى السور القرآنية الاخرى مثل ما جاء

في سورة «المؤمنون» في الآية (١٠٢ و ١٠٣) وسورة «القارعة» الآية (٦ و ٨).

فيقول أولاً: إن وزن الأعمال يوم القيامة أمر واقع لا ريب فيه: «وَالْوِزْنَ يُؤْمِنُ الْحَقُّ».

إذن، فالمسلم هو أن أعمال الإنسان توزن في يوم القيامة بأداة خاصة لا بواسطة موازين مثل موازين الدنيا، ويمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء والأئمة والصالحين، وهذا ما يستفاد - أيضاً - من الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

بل إن أولياء الله في هذا العالم هم أيضاً مقاييس للوزن والتقييم، ولكن حيث إن أكثر الحقائق في هذا العالم تبقى خلف حجب الإبهام والغموض، تبرز في يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: «وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» (١). وتنكشف هذه الحقائق وتنجلي للعيان. ثم إنه تعالى يقول في المقطع الآخر من الآية: «فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ».

إن من البديهي أن المراد من الخفة والتقل في الموازين ليس هو خفة وتقل نفس الميزان، بل قيمة ووزن الأشياء التي توزن بواسطة تلك الموازين، وتُقاس بتلك المقاييس.

إن جملة «كانوا بآياتنا يظلمون» إشارة إلى أن مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل

(١) سورة إبراهيم / ٤٨.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٤

ظلموا - كذلك - البرامج الإلهية الهادية، لأن هذه البرامج كان ينبغي أن تكون سبلاً للهداية ووسائل للنجاة، ولو أن أحداً تجاهلها، ولم يكثر بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالماً لها.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) مكانة الإنسان وعظمته في عالم الوجود: عقيب الآيات التي أشارت إلى المبدأ والمعاد، يدور البحث في هذه الآية والآيات اللاحقة حول عظمة الانسان وأهميته مقامه، وكيفيه خلق هذا الكائن والمفاخر التي وهبها الله له. فهو يقول في البداية: نحن الذين منحناكم الملكية والحاكمية وسلطانكم على الأرض: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ».

وأعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ولكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلا قليلاً «قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ».

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَيَسَّرُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) لقد أشير إلى مسألة خلق الإنسان وكيفيه إيجاده في سبع سور من سور القرآن الكريم، وفي الآية المبحوثة الآن يقول الله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» جدكم الأول، ومن المأمورين بالسجود إبليس الذي كان موجوداً في صفوفهم وإن لم يكن منهم، فامتثلوا لهذا الأمر جميعاً وسجدوا لآدم إلا إبليس: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٥

وكما قلنا في ذيل الآية (٣٤) من سورة البقرة: إن سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، لأن العبادة مخصصة لله سبحانه، بل السجدة هنا بمعنى التواضع.

في الآية اللاحقة يقول تعالى: «أَنَّهُ أَخَذَ إِبْلِيسَ عَلَىٰ عَصِيَانِهِ وَطُغْيَانِهِ وَ «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ». فتذرع - في مقام الجواب - بعذر غير وجهه إذ: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ».

وكان إبليس كان يتصور أن النار أفضل من التراب، وهذه هي أكبر غلطاته وأخطائه، ولعله لم يقل ذلك عن خطأ والتباس، بل كذب عن وعى وفهم، لأننا نعلم أن التراب مصدر أنواع البركات، ومنبع جميع المواد الحياتية، وأهم وسيلة لمواصله الموجودات الحية حياتها، على حين أن الأمر بالنسبة إلى النار ليس على هذا الشكل.

على أن ميزة الإنسان لم تكن في كونه من التراب، بل إن ميزته الأصلية تكمن في «الروح الإنسانية» وفي خلافته لله تعالى. والظاهر أن الشيطان كان يعرف بكل هذه الامور، ولكن التكبر، والأناية هما اللذان منعاه عن امتثال أمر الله، وكان ما أتى به من العذر حجة داحضة، ومحض تحجج وتعلل.

بقي هنا سؤال وهو: كيف كان يتحدث الشيطان مع الله، فهل كان ينزل عليه الوحي؟

الجواب هو: أن كلام الله لا يكون بالوحي دائماً، فالوحي عبارة عن رسالة النبوة، فلا مانع من أن يكلم الله أحداً لا بعنوان الوحي والرسالة، بل عن طريق الباطني أو بواسطة بعض الملائكة، سواء كان من يحادثه الله من الصالحين الأبرار مثل مريم وام موسى، أو من غير الصالحين مثل الشيطان.

ولنعد الآن إلى تفسير بقية الآيات:

حيث إن امتناع الشيطان من السجود لآدم عليه السلام لم يكن امتناعاً بسيطاً وعادياً ولم يكن معصية عادية، بل كان تمرداً مقروناً بالاعتراض والإنكار للمقام الربوبي، لهذا فإن مخالفته كانت تعني الكفر وإنكار العلم والحكمة الإلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه ودرجاته، وبالتالي كل ما له من مكانة عند الله، ولهذا أخرجه الله من ذلك المقام الكريم، وجرده من تلك المنزلة السامقة التي كان يتمتع بها في صفوف الملائكة، فقال له: «فَاهْبِطْ مِنْهَا».

ثم إنه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط والتزلز بالعبارة التالية: «فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا».

وأضاف للتأكيد قائلاً: «فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ». يعني إنك بعملك وموقفك هذا لم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٦

تصبح كبيراً، بل على العكس من ذلك أصبت بالصغار والذلة.

إن هذه الجملة توضح بجلاء أن شقاء الشيطان كله كان وليد تكبره. في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأما الحرص فإن آدم عليه السلام حين نهى عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأما الاستكبار فإبليس حيث امر بالسجود لآدم فأبى، وأما الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه».

ولكن قصة الشيطان لم تنته إلى هذا الحد، فهو عندما عرف بأنه صار مطروداً من حضرة ذي الجلال زاد من طغيانه ولجاجته، وبدل أن يتوب ويثوب إلى الله ويعترف بخطئه فإن الشيء الوحيد الذي طلبه من الله تعالى هو أن يمهل ويؤجل موته إلى يوم القيامة: «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ».

ولقد استجاب الله لهذا الطلب، ف «قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ».

غير أن الشيطان لم يبيغ من مطلبه هذا (أي الإمهال الطويل) الحصول على فرصة لجبران مافات منه أو ليعمر طويلاً، إنما كان هدفه من ذلك هو إغواء بني البشر «قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ». أي لأغوينهم كما غويت، ولأضلنهم كما ضللت.

ثم إن الشيطان أضاف - تأكيداً لقوله - بأنه لن يكتفى بالعودة بالمرصاد لهم، بل سيأتيهم من كل حدب وصوب، ويسد عليهم الطريق من كل جانب «ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ».

ولقد نقل - في المجمع - عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال:



«ثم لآتينهم من بين أيديهم، معناه: اهون عليهم أمر الآخرة؛ ومن خلفهم، أمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم؛ وعن أيمانهم، افسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة؛ وعن شمائلهم، بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم».

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرة أخرى الأمر بخروج الشيطان من حريم القرب الإلهي والمقام الرفيع، بفارق واحد، هو أن الأمر بطرده هنا اتخذ صورة أكثر ازدراء وتحقيراً، وأشد عنفاً ووقعاً، ولعل هذا كان لأجل العناد واللجاج الذي أبداه الشيطان بالإلحاح على الوسوسة للإنسان وإغوائه وإغرائه، يعني أن موقفه الأثيم في البداية كان منحصرًا في التمرد على أمر الله وعدم إيمتاله، ولهذا صدر الأمر بخروجه فقط، ولكن عندما أضاف معصية أكبر إلى معصيته بالعزم على إضلال الآخرين جاء الأمر المشدد: «قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٧

ثم حلف على أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ».

سؤال: بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل الله طلبه في الإمهال، وتأخير الأجل؟

إن مواصلة الشيطان لحياته كقضية سلبية يكون وجودها ضرورياً لتقوية نقاط إيجابيه، لا يكون غير مضر فحسب، بل هو مؤثر ومفيد أيضاً، فإنه مع غض النظر عن الشيطان، هناك مجموعة من الغرائز المختلفة في داخلنا، وهي بوقوفها في الطرف الآخر من قوانا العقلية والروحية تشكّلان ساحة صراع وتناقض قويين، وفي مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان وتكامله، وتربيته ورشده. إن النقطة المهمة التي يجب الإنتباه إليها هي أن الله تعالى وإن كان ترك الشيطان حرّاً في القيام بوساوسه، ولكنه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرداً من الدفاع عن نفسه.

لأنه أولاً: وهبه قوة العقل التي يمكن أن توجد سداً قوياً منيعاً في وجه الوسوس الشيطانية خاصة إذا لقيت تربية صالحة.

وثانياً: جعل الفطرة النقية وحب التكامل في باطن الإنسان كعامل فعال من عوامل السعادة.

وثالثاً: يبعث الملائكة التي تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوسوس الشيطانية، كما يصرح القرآن الكريم بذلك- في الآية (٣٠) من سورة فضيلت- إذ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ». إنها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات والتطمينات لهم.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٨

وساوس شيطانية في حُلل خلابه: تبين هذه الآيات وتستعرض فصلاً آخر من قصة آدم، فتقول أولاً: إن الله سبحانه أمر آدم وزوجته حواء بأن يسكنوا الجنة: «وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ».

ويستفاد من هذه العبارة أن آدم وحواء لم يكونا في بدء الخلق في الجنة. وفي هذه الأثناء صدر أول تكليف وأمر ونهى إلى آدم وحواء من جانب الله تعالى، بهذه الصورة: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ». أي إن الأكل من جميع أشجار هذه الجنة مباح لكما، إلا شجرة خاصة لا تقرباها، وإلا كنتما من الظالمين.

ثم إن الشيطان الذي طرد من رحمة الله تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، وكان قد صمم على أن ينتقم لنفسه من آدم وبنيه ما أمكن.

بدأ بنزع لباس الطاعة والعبودية لله، فأبدى عورتها التي كانت مخبأة مستورة:

«فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا».

وللوصول إلى هذا الهدف رأى أن أفضل طريق هو أن يستغل حب الإنسان ورغبته الذاتية في التكامل والرقى والحياة الخالدة، وليوفر لهما عذراً يعتذران ويتوسلان به لتبرير مخالفتها لأمر الله ونهيه، ولهذا قال لآدم وزوجته: «مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ».

وبهذه الطريقة صور الأمر الإلهي في نظرهما بشكل آخر.

ولما سمع آدم هذا الكلام غرق في التفكير ولكن الشيطان - من أجل أن يحكم قبضته ويعمق وسوسته في روح آدم وحواء - توسل بالأيمان المغلظة للتدليل على أنه يريد لهما الخير! «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ».

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، ولم يكن قد وقع في حبال الشيطان وخدعه بعد ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا، كما أنه لم يكن في مقدوره أن يصدق بأن يأتي بمثل هذه الأيمان المغلظة كذباً، ولهذا وقع في حبال الشيطان، وسقط في ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلهية، كما يعبر القرآن عن ذلك ويلخصه في عبارة موجزة إذ يقول: «فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ» (١).

(١) «دلى»: من مادة التدلية وتعني إرسال الدلو في البئر بحبلٍ تدريجاً وهذه كناية لطيفة عن أن الشيطان أنزل بحبلٍ مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والابتعاد عن الرحمة الإلهية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٩

وبمجرد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتهما «فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا».

وجردا من لباس الجنة الذي هو لباس الكرامة الإلهية.

ثم يقول: إن آدم وحواء لما وجدا نفسيهما عاريين عمداً فوراً إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنة: «وَطَفَفَا يَخِصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» (١).

وفي هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من الله يقول: ألم احذركما من الاقتراب والأكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما: إن الشيطان عدو لكما؟ فلماذا تناسيتما أمرى ووقعتم في مثل هذه الأزمه: «وَنَادَيْهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ».

من المقاييسه بين تعبير هذه الآية والآية الاولى التي أجاز الله فيها لآدم وحواء أن يسكنا الجنة، يستفاد بوضوح أنهما بعد هذه المعصية ابتعدا عن مقام القرب الإلهي.

بحثان

١- ماذا كانت الشجرة الممنوعة؟ جاءت في المصادر الإسلامية تفسيران لها، أحدهما «مادى» وهو أنها كانت «الحنطة» كما هو المعروف في الروايات.

والتفسير الآخر «معنوى» وهو أن المقصود من تلك الشجرة - كما في الروايات - هو ما عبر عنها ب «شجرة الحسد» لأن آدم طبقاً لهذه الروايات - بعد ملاحظته مكانته ومقامه - تصور أنه لا يوجد فوق مقامه مقام، ولا فوق مكانته مكانة، ولكن الله تعالى أطلعه على مقام ثلثه من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الأكرم وأهل بيته)، فحصل عنده ما يشبه الحسد، وكانت هذه هي الشجرة الممنوعة التي امر آدم بأن لا يقربها.

وفي الحقيقة تناول آدم - طبقاً لهذه الروايات - من شجرتين، كانت إحداها أقل منه مرتبة وأدنى منه منزلة، وقد قادته إلى العالم

المادى، وكانت هي «الحنطة». والآخرى هي الشجرة المعنوية التي كانت تمثل مقام ثلثة من أولياء الله، والذي كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته، وحيث إنه تعدى حدّه في كلا الصعيدين ابتلى بذلك المصير المؤلم. ولكن يجب أن نعلم أن هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام، بل كان مجرد إحساس

(١) «يخصفان»: من مادة «الخصف» وتعنى فى الأصل ضمّ شىء إلى شىء آخر، والجمع، ثم أطلق على ترفيع النعل أو الثوب المتمزق وخطاؤه فقيل: خصف النعل أو الثوب، أى جمع الأجزاء المتفرقة وضم بعضها إلى الآخر. مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٠

نفسانى من دون أن تتبعه أية خطوة عملية على طبقه. ٢- هل ارتكب آدم معصية؟ إن المصادر الإسلامية تقول لنا: إن الأنبياء لا يرتكبون إثماً وإن منصب إمامة الناس وهدايتهم لا يعطى لمن يرتكب ذنباً ويقترب معصية. ونحن نعلم أن آدم كان من الأنبياء الإلهيين، وعلى هذا الأساس فإنّ التعابير التي جاءت فى القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعنى «العصيان النسبى» و«ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

وتوضيح ذلك: أن المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و«المعصية النسبية»، والمعصية المطلقة هي مخالفة النهى التحريمى، وتجاهل الأمر الإلهى القطعى، وهى تشمل كل نوع من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام.

ولكن المعصية النسبية هي أن يصدر من شخصيه كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه. فالصلاة التي يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاة ممتازة، ولكنها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء الله.

وهكذا الحال فى سائر أعمالهم، فإنها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم، ولهذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب الله، والمراد من ترك الأولى هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل ويعمد إلى عمل جيّد أو مستحب أدنى منه فى الفضل.

إنّ نهى آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان ترك أولى، ولكن نظراً إلى مكانه آدم ومقامه ومرتبته عُيّد صدوره أمراً مهماً وخطيراً، واستوجب مخالفة هذا النهى (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمؤاخذه من جانب الله تعالى.

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) رجوع آدم إلى الله وتوبته: وفى المال عندما عرف آدم وحواء بكيد إبليس، وخطته ومكره الشيطانى، ورأيا نتيجة مخالفتهم فكراً فى تلافى ما فات، وجبران ما صدر منهما،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١١

فكانت أول خطوة خطاياها هي: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام الله: «قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

إنّ توبه آدم وحواء الخالصة وإن قبّلت من جانب الله تعالى - كما نقرأ ذلك فى الآية (٣٧) من سورة البقرة: «فَتَابَ اللَّهُ» - ولكنهما لم يستطيعا على كل حال التخلص من الأثر الوضعى والنتيجة الطبيعى لعملهما، فقد امرا بمغادرة الجنة، وشمل هذا الأمر الشيطان أيضاً: «قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ».

كما ذكر الجميع بأنهم سيتعرضون فى الأرض للموت بعد الحياة، ثم يخرجون من الأرض مرّة اخرى للحساب «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ».

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوَآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سُوَآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا

جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَحَدِّثْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مِمَّا لَمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) إنذار إلى كل أبناء آدم: إن الله تعالى بين في الآيات الحاضرة وما بعدها سلسلة من التعاليم والبرامج البناءة لجميع أبناء آدم، وهي تعتبر في الحقيقة استمراراً لبرامج آدم في الجنة.

ففي البداية يشير إلى مسألة اللباس وستر سوءات البدن التي كان لها دور مهم في قصة آدم، إذ يقول: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ».

ولكن فائدة اللباس الذي أرسلناه لكم لا- تقتصر على ستر البدن وإخفاء العيوب والسوءات، بل للتجمل والزينة أيضاً حيث يجعل أجسامكم أجمل مما هي عليه. «وَرِيشًا».

«ريش»: في الأصل هو ما يستر أجسام الطيور، وحيث إن ريش الطيور هو اللباس الطبيعي في أجسامها، لهذا اطلق على نوع من أنواع الألبسة، ولكن حيث إن ريش الطير في مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٢

الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمن هذه الكلمة مفهوم الزينة والجمال.

ثم تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التي كانت حول اللباس الظاهري، عن حد اللباس المعنوي تبعاً لسيرته في الكثير من الموارد التي تمزج بين الجانبين المادي والمعنوي، الظاهري والباطني إذ قال: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكُمْ خَيْرٌ».

وتشبيه التقوى باللباس تشبيه قوي الدلالة، معبر جداً، لأنه كما أن اللباس يحفظ البدن من الحرّ والقرّ، يقي الجسم عن الكثير من الأخطار، ويستر العيوب الجسمانية، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك زينة للإنسان، ومصدر جمال، كذلك روح التقوى، فإنها مضافاً إلى ستر عيوب الانسان، ووقايته من الكثير من الأخطار الفردية والاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له ... زينة ملفته للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة وسمواً، وتزيدها جلالاً وبهاء.

والمراد من لباس التقوى هو «روح التقوى» التي تحفظ الإنسان، وتنطوي تحتها معاني «الحياء» و«العمل الصالح» وأمثالهما.

ثم إن الله تعالى يقول في ختام الآية: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». أي إن هذه الألبسة التي جعلها الله لكم، سواء الألبسة المادية أو المعنوية، اللباس الجسماني أو لباس التقوى، كلها من آيات الله ليتذكر الناس نعم الرب تعالى.

اللباس في الماضي والحاضر: لم يزل الإنسان فيما مضى - كما يشهد به التاريخ - يلبس الثياب ولكن الألبسة قد تغيرت وتنوعت تنوعاً بالغاً عبر الزمن. لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسة والثياب في عصرنا الراهن تطوراً هائلاً، واتسع نطاقها اتساعاً كبيراً، بحيث أصبح لا يقاس بما مضى.

ولكن - للأسف - قد اتسعت الجوانب الفرعية، بل وغير المحمودة والفاضحة للثياب والألبسة وتعددت كثيراً إلى درجة أنها غطت على الفلسفة الأصلية للباس.

لقد أصبح اللباس - اليوم - وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، والتكبر والإسراف والتبذير، وما شابه ذلك. حتى أننا ربما نشاهد ألبسة يرتديها جماعات من الناس - وبخاصة الشباب المتغرب - يفوق طابعها الجنوني على الطابع العقلاني، وتكون أشبه بكل شيء إلا باللباس والثوب.

الآية اللاحقة يحذّر فيها الله سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان ومكره، ويدعو إلى مراقبته، والحذر منه، لأنّ الشيطان أبدى عداؤه لأبيهم آدم، فكما أنه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٣

نزع عنه لباس الجنة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، ولهذا يقول تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ

مَنْ الْجَنَّةَ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِهِمَا».

ثم إن الله تعالى يؤكد على أن الشيطان وأعدائه يختلفون عن غيرهم من الأعداء: «إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ». فلا بد من شدة الحذر من مثل هذا العدو.

وفي خاتمة الآية يأتي سبحانه بجملة هي إجابة على سؤال مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلط الله العادل الرحيم عدواً بهذه القوة على الإنسان ... عدواً لا يمكن مقايسته قواه بقوى الإنسان ... عدواً يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنه - حسبما جاء في بعض الأحاديث - يجرى من الإنسان مجرى الدم في عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة الله سبحانه؟! الآية الشريفة - في خاتمتها - ترد على هذا السؤال الاحتمالي إذ تقول: «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَأْيُؤْمِنُونَ». أي إن الخطوات الأولى نحو الشيطان إنما يخطوها الإنسان نفسه، وهو الذي يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكته جسمه. فالشيطان لا يستطيع اجتياز حدود الروح ويعبرها إلا بعد موافقة من الإنسان نفسه.

وفي الآية (٤٢) من سورة الحجر نقراً: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ».

في الآية التالية يشير تعالى إلى واحدة من وساوس الشيطان المهمة والتي تجرى على ألسنة بعض الشياطين من الإنس أيضاً، وهي أنه عندما يُسأل الشخص لدى ارتكابه عملاً قبيحاً، عن دليله يجب قائلاً: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا».

ثم يضيفون إلى هذه الحجة حجة كاذبة أخرى قائلين: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا».

والملفت للنظر أن القرآن الكريم لم يعبأ بالدليل الأول (يعنى التقليد الأعمى للآباء والأسلاف) ولم يعتن به، وإنما اكتفى بالرد على الحجة الثانية، أو بالأحرى (التبرير الثاني) حيث قال: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ». ثم يختم الآية بهذه العبارة: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

«الفحشاء»: هنا هو كل عمل قبيح منكر، ومسألة «الطواف بالبيت عراة» و «اتباع

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٤

القادة والزعماء الظلمة» تعد من المصاديق الواضحة لذلك.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) بما أن الحديث في الآية السابقة دار حول الفحشاء التي يشمل مفهومها كل أنواع الفعل القبيح، وتأكد أن الله لا يأمر بالفحشاء اطلاقاً لهذا اشير في هذه الآية إلى أصول ومبادئ التعاليم الإلهية في مجال الوظائف والواجبات العملية في جملة قصيرة، ثم تبعه بيان أصول العقائد الدينية، أي المبدأ والمعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أولاً: أيها النبي «قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ» والعدل.

ونحن نعلم أن للعدل مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأن حقيقة العدل هي استخدام كل شيء في مجاله، ووضع كل شيء في محله.

ثم إنه سبحانه أمر بالتوحيد في العبادة ومحاربة كل ألوان الشرك وأنواعه، إذ قال:

«وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ». أي وجهوا قلوبكم نحو الله الواحد دون سواه «وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ».

وبعد تحكيم وإرساء قاعدة التوحيد، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد والبعث يوم القيامة، إذ قال: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».

إن الآية الحاضرة تعكس إحدى أقصر وأجمل التعابير في مسألة المعاد الجسماني، إذ تقول: انظروا إلى بداية الخلق، انظروا إلى جسمكم الذي يتكون من مقدار كبير من الماء، ومقدار أقل من المواد المعدنية وشبه المعدنية المختلفة المتنوعة أين كان في السابق؟

فالمياه المستخدمة في جسمكم يحتمل أن كل قطرة منها كانت سادرة في محيط من محيطات الأرض ثم تبخرت وتبدلت إلى السُّحب، ثم نزلت في شكل قطرات المطر على الأراضى، والذرات التى استخدمت فى نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامدة كانت ذات يوم فى هيئة حبة قمح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جُمعت من مختلف نقاط الأرض.

وعلى هذا فلا مكان للتعجب والدهشة إذا سمعنا أنه بعد تلاشى بدن الإنسان ورجوعه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٥

إلى حالته الاولى تجتمع تلك الذرات ثانية، وتتواصل وتترابط ويتشكل الجسم الأول، فلو كان هذا الأمر محالاً فلماذا وقع فى مبدأ الخلق؟!.

إذا «كما بدأكم» الله «تعودون» أى يعيدكم فى الآخرة، وهذا هو الموضوع الذى تضمنته العبارة القصيرة.

فى الآية اللاحقة يصف سبحانه ردود الفعل التى أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلى التوحيد والخير والمعاد) فيقول: «فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ».

ولأجل أن لا يتصور أحد أن الله يهدى فريقاً أو يضل فريقاً من دون سبب، أضاف فى الجملة ما يلى: «إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». أى إن الضالين هم الذين إختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولاية الله، فضلوا.

والعجب أنه رغم كل ما أصابهم من ضلال وانحراف يحسبون أنهم المهتدون الحقيقيون «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ».

إن هذه الحالة تختص بالذين غرقوا فى الطغيان والمعصية، وفى هذه الحالة اغلقت فى وجوههم كل أبواب الهداية، وهذا هو ما أوجدوه وجلبوه لأنفسهم.

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) الحديث فى هاتين الآيتين يتناسب مع قصة آدم فى الجنة، وكذلك يتناول مسألة اللباس وسائر مواهب الحياة، وكيفية الاستفادة الصحيحة منها. فى البداية يأمر جميع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدي، يشمل جميع الأعصار والقرون، أن يتخذوا زينتهم عندما يذهبون إلى المساجد: «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ».

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى كل «زينته جسمانية» مما يشمل لبس الثياب المرتبة الطاهرة الجميلة، وتمشيط الشعر، واستعمال الطيب والعطر وما شابه ذلك كما يمكن أيضاً أن تكون إشارة إلى كل «زينته معنوية» يعنى الصفات الإنسانية والملكات الأخلاقية، وصدق

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٦

النية وطهارتها وإخلاصها. ثم فى العبارة اللاحقة يشير سبحانه إلى مواهب اخرى، يعنى الأطعمة والأشربة الطاهرة الطيبة، ويقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا».

ولكن حيث إن الإنسان حريص بحكم طبيعته البشرية، يمكن أن يسىء استخدام هذين التعليمين، وبدل أن يستفيد من نعمه اللباس والغذاء الصحيح بالشكل المعقول والمعتدل، يسلك سبيل الإسراف والتبذير والبذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلاً: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

«الإسراف»: كلمة جامعة جداً بحيث تشمل كل إفراط فى الكم والكيف، وكذا الأعمال العابثة والإتلاف وما شابه ذلك.

وفى الآية اللاحقة يعمد إلى الردّ- بلهجة أكثر حدة- على من يظن أن تحريم أنواع الزينة والتزين والإجتنا من الأطعمة الطيبة الحلال علامة الزهد، وسبباً للتقرب إلى الله فيقول:

أيها النبى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ».

ثم أضاف للتأكيد: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ». أى إن هذه النعم والمواهب قد خلقت للمؤمنين فى هذه الحياة، وإن كان الآخرون- أيضاً- يستفيدون منها رغم عدم صلاحيتهم لذلك، ولكن فى يوم القيامة حيث الحياة الأعلى والأفضل، وحيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإن هذه المواهب والنعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، ويحرم منها الآخرون حرماناً كلياً.

وفى ختام الآية يقول من باب التأكيد: «كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

لقد اختار الإسلام- كسائر الموارد- حدّ التوسط والإعتدال فى مجال الإنتفاع والاستفادة من أنواع الزينة.

ولم يكتف الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعة والاستفادة من الألبسة الجميلة والمناسبة واستعمال كل أنواع العطور فحسب بل اوصى بذلك وحثّ عليه أيضاً.

توصية صحيحة هامة: إن عبارة «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا» التى جاءت فى الآية الحاضرة، وإن كانت تبدو للنظر أمراً بسيطاً جداً، إلا أنه ثبت اليوم أنه واحد من أهم الأوامر والتعاليم الصحية، وذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منع الكثير من الأمراض والآلام هو الأطعمة الإضافية الزائدة التى تبقى فى بدن الإنسان إن هذه المواد الإضافية تشكل من جانب عبئاً ثقيلاً على القلب وغيره من أجهزة الجسم، وهى من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٧

جانب آخر منبع مهياً لمختلف أنواع العفونات والأمراض.

إنّ العامل الأصل فى وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، والإفراط فى الأكل والبطنة، والطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلّا رعاية الإعتدال فى الأكل.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) لقد شاهدنا مراراً أنّ القرآن الكريم كلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فوراً عن ما يقابله، من الامور القبيحة والمحرمات، ليكتمل كل واحد منهما الآخر.

وهنا أيضاً تحدّث- عقيب السماح بالتمتع والاستفادة من المواهب الإلهية وإباحة كل ما هو زينه وجمال- عن المحرمات على نحو العموم، ثم أشار بصورة خاصة إلى عدة نقاط مهمة.

ففى البداية تحدث عن تحريم الفواحش وقال: يا أيها النبى «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ».

«الفواحش»: جمع «فاحشة» وتعنى الأعمال القبيحة البالغة فى القبح والسوء لا جميع الذنوب، ولعل التأكيد على هذا المطلب (ماظهر منها وما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنا إذا اتى به سراً، ويحرمونه إذا كان ظاهراً مكشوفاً.

ثم إنه عمّم الموضوع وأشار إلى جميع الذنوب وقال: «وَالْإِثْمَ». أى كل إثم.

والإثم فى الأصل يعنى كل عمل مضر، وكل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان وتردى منزلته، ويمنعه ويحرمه من نيل الثواب والأجر الحسن. وعلى هذا يدخل كل نوع من أنواع الذنوب فى المفهوم الواسع للإثم.

ومرّة اخرى يشير بصورة خاصة إلى عدد من كبريات المعاصى والآثام، فيقول:

«وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ». أى كل نوع من أنواع الظلم، والتجاوز على حقوق الآخرين.

«البغى»: يعنى السعى والمحاولة لتحصيل شىء ولكن يراد منه غالباً الجهود المبذولة لغصب حقوق الآخرين، ولهذا يكون مفهومه- فى الغالب- مساوياً لمفهوم الظلم.

ثم أشار تعالى إلى مسألة الشرك وقال: «وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا». فهو أيضاً محرّم عليكم.

وآخر ما يؤكّد عليه من المحرمات هو نسبة شىء لله لا يستند إلى علم: «وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٨

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) لكل امه أجل: فى هذه الآية يشير الله تعالى إلى واحده من سنن الكون والحياة، أى فناء الامم وزوالها، ويلقى ضوءاً أكثر على الأبحاث التى تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض ومصير العصاء، التى سبق الحديث عنها فى الآيات السابقة. فيقول أولاً: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ».

ثم يشير إلى أن هذا الأجل لا يتقدم ولا يتأخر إن جاء «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». أى إن الامم والشعوب مثل الأفراد، لها موت وحياة، وأن الامم تندثر وينمحي أثرها من على وجه الأرض، وتحل مكانها امم اخرى، وإن سنه الموت وقانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والامم أيضاً، مع فارق وهو أن موت الشعوب والامم يكون- فى الغالب- على أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور، والإنغماس فى بحار الشهوات، والغرق فى أمواج الإفراط فى التجمل والرفاهية.

فعندما تسلك الامم فى العالم هذه المسالك وتحرف عن سنن الكون وقوانين الخلقه، تفقد مصادرها الحيويه الواحد تلو الآخر، وتسقط فى النهايه.

ويجب الالتفات إلى أن «الساعة» فى اللغة تعنى أصغر وحده زمنية، فربما تكون بمعنى لحظه، وربما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن. يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) تعليم آخر لأبناء آدم: مره اخرى يخاطب الله سبحانه أبناء آدم وذريته، إذ يقول: «يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». أى إذا أتتكم رسلى يتلون عليكم آياتى فاتبعوهم، لأن من اتقى منكم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٩

واتبعهم وأصلح نفسه والآخرين كان فى أمن من عذاب الله الأليم، فلا يخاف ولا يحزن.

وفى الآية اللاحقه يضيف سبحانه وتعالى قائلاً: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

فتلك عاقبه المؤمنين، وهذه عاقبه المكذبين لهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصَبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) من هذه الآية فما بعد تتضمن الآيات بيان أقسام مختلفه من المصير السىء الذى ينتظر المفترين والمكذبين لآيات الله تعالى، وفى البدايه تشير إلى كيفيه حالهم عند الموت، إذ تقول: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ».

ثم إنه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: «أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصَبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ». أى إن هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم وما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفه، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، وانتهوا إلى آجالهم النهائيه، حينئذ تأتيتهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

وعلى كل حال، فإن عقوباتهم تبدأ منذ لحظه حلول الموت، وفى البدايه يواجهون التوبيخ وعتاب الملائكة المكلفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم التى اتخذتموها من دون الله والتى طالما تحدثتم عنها، وكنتم تسوقون إليها ثرواتكم سفهاً. «قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كل شىء، ويرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئه حول آلهتهم وذهبت أدراج الرياح، قائلين: لانرى منها أثراً وإنها لا تملك أن تدافع عنا، وإن جميع ما فعلناه من العباده لها كان عبثاً وباطلاً:



«قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا».

وهكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر والضلال: «وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ». أى فى حين أغلق فى وجههم طريق العودة، وهذا هو أول سوط جهنمى من سياط العقوبة الإلهية التى تتعرض لها أرواحهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٠

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) تنازع القادة والاتباع فى جهنم: فى هذه الآية يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات الله، وقد صوّرت لنا الآيات السابقة وضعهم عند حلول الموت، وسؤال الملائكة القابضة للأرواح لهم، وهنا يرسم لنا ما يجرى بين الجماعات المظلمة والغاوية، وبين من تعرضوا للإغواء فى يوم القيامة. فى يوم القيامة يقول الله لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن والإنس ممن سبقوكم، وذوقوا نفس مصيرهم النار «قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ».

وعندما يدخل الجميع فى النار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم وأشباههم فى المسلك، وهى مصادمات عجيبة، فكلما دخلت جماعة منهم فى النار لعنت الأخرى واعتبرتها سبباً لشقائها ومسؤولة عن بلائها ومحتتها «كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا» (١).

فى البداية يبدأ المخدوعون المغرّرون بهم بعرض شكائهم، وحيث إنهم لا يجدون مناصاً مما هم فيه يقولون: رَبَّنَا إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَغْوِينَ هُم الَّذِينَ أَضَلُّونَا وَخَدَعُونَا، فضعف يا ربّ عذابهم، عذاباً لضلالهم وعذاباً لإضلالهم إياناً، وهذا هو ما يتضمنه قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ».

ولكن العجيب هو أن يقال لهم فى معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكلنا الطائفتين ضعفان من العذاب وليس للمضلين فقط «قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ».

وفى الآية اللاحقة ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضلال والانحراف بأنه ليس بيننا وبينكم أى تفاوت، فإذا قلنا فقد أئدتم، وإذا خطونا فقد ساعدتم، وإذا ظلمنا فقد عاونتم،

(١) التعبير بالاخت كناية عن الإرتباط الفكرى والصلة الروحية بين هذه الفرق المنحرفة، وحيث إن الأمة مؤنث لفظى، لهذا عبر عنها بالاخت، لا الأخ.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢١

وَإِذْ فَذُوقُوا يَا زَاءَ أَعْمَالِكُمْ عَذَابَ اللَّهِ الْأَلِيمِ «وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ». إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) مرة أخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين والمعاندين، يعنى اولئك الذين لا يخضعون لآيات الله ولا يستسلمون للحق، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أما المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها. وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجين وهو واد بحضر موت يقال له برهوت». ثم أضاف قائلاً: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ».

إن هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر، حتى لا يشك أحد فى عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنة مطلقاً.

وفي خاتمة الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد والتوضيح قائلاً: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ».

وفي الآية اللاحقة يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلمة إذ يقول: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» (١).

ثم يضيف للتأكيد: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ».

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

(١) «المهاد»: جمع مهد وزان عهد أى الفرش؛ و «الغواش»: فى الاصل غواشى جمع غاشية بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٢

ولقد كان البحث فى الآيات السابقة حول المكذبين لآيات الله، والمستكبرين والظالمين، وهنا يشرح ويبين المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وقد أتى بين المبتدأ والخبر بجملة معترضة توضح الكثير من الإبهامات إذ يقول: «لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وهذه الجملة تؤكد بأنه لا ينبغي لأحد أن يتصور بأن الإيمان بالله، والإتيان بالعمل الصالح وسلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلا لأفراد معدودين، لأن التكاليف الإلهية فى حدود الطاقة البشرية وليست أكثر منها.

إن هذه الآية- مثل سائر الآيات القرآنية- تحصر وسيلة النجاة والسعادة الأبدية فى الإيمان والعمل الصالح، وهكذا تفنيد العقيدة النصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح فى مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، ويقولون: إنه قربان لخطايا الإنسانية.

إن إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان والعمل الصالح، فى الآيات المختلفة لتنفيذ هذه المقولة وأمثالها.

وفى الآية اللاحقة أشار تعالى إلى واحدة من أهم النعم التى أعطاها الله سبحانه لأهل الجنة، التى تكون سبباً لطمأنينتهم النفسية وسكنتهم الروحية، إذ قال: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ».

«الغل»: فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء خفية وسراً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذى يتسلل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية (الغل).

وإن من أكبر عوامل الشقاء التى يعانى منها الناس فى هذه الحياة، ومصدر الكثير من الصراعات الاجتماعية الواسعة التى تؤدى- مضافاً إلى الخسائر الفادحة فى المال والنفس- إلى زعزعة الاستقرار الروحي، هو الحسد والحقد.

إن أهل الجنة معافون من هذه الشقاوات والمحن بالكلية، لأنهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة، إنهم يعيشون معاً فى منتهى النواد والتحاب والصفاء والسكينة، ولهذا راضون عن وضعهم الذى هم فيه.

وبعد ذكر هذه النعمة الروحانية، يشير القرآن الكريم إلى نعمهم المادية الجسدية، فيقول:

«تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ».

ثم يعكس رضى أهل الجنة الكامل الشامل الذى يعبرون عنه بالحمد والشكر لله وحده

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٣

على ما هداهم إليه من النعم «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ».

وهنا يأتيهم النداء بأن ما ورثتموه من النعم إنما هو بسبب أعمالكم: «وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ

اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) بعد البحث في الآيات السابقة حول مصير أهل الجنة وأهل النار، أشار هنا إلى حوار هذين الفريقين في ذلك العالم، ويستفاد من ذلك أن أهل الجنة وأهل النار يتحادثون بينهم وهم في مواقعهم في الجنة أو النار، فيقول أولاً: «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا».

فيجيبهم أهل النار قائلين: نعم وجدنا كل ذلك، عين الحقيقة «قَالُوا نَعَمْ».

ثم يضيف تعالى بأنه في هذا الوقت بالذات ينادى مناد بنداء يسمعه الجميع: أن لعنة الله على الظالمين «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ».

ثم يعرف الظالمين ويصفهم بقوله: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ» (١).

جاء في الأحاديث الإسلامية المفسرة والموضحة لهذه الآية، تفسير المؤذن بأمر المؤمنين على عليه السلام.

في تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن محمد بن الحنفية عن علي عليه السلام أنه قال: «أنا ذلك المؤذن».

و بإسناده عن ابن عباس: إن لعلي عليه السلام في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس، قوله «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ» فهو المؤذن بينهم، يقول: «ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي».

(١) «يبغونها عوجاً»: بمعنى يطلبونها عوجاً، أي أنهم يرغبون ويجتهدون في أن يضلوا الناس بإلقاء الشبهات والدعايات المسموعة عن الطريق المستقيم.

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ١٢٤

وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَّا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أ هُوَ لَمَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَّا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَعْزُونَ (٤٩) الأعراف معبر مهم إلى الجنة: عقيب الآيات السابقة التي بينت جانباً من قصة أهل الجنة وأهل النار، تحدث في هذه الآيات حول «الأعراف» التي هي منطقة في الحد الفاصل بين الجنة والنار مع خصوصياتها، وفي البداية يشير إلى الحجاب الذي أقيم بين أهل الجنة وأهل النار، إذ يقول: «وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ».

ويستفاد من الآيات اللاحقة أن الحجاب المذكور هو «الأعراف» وهو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤية كل فريق الفريق الآخر، ولكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر ونداءه، كما مر في الآيات السابقة، على أن الذين يقفون على الأعراف، أي على الأقسام المرتفعة من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين.

ثم إن القرآن الكريم يقول: «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ». يرون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار ويعرفونهم بملامح وجوههم.

ثم يقول: إن هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنة ويسلمون عليهم، ولكنهم لا يدخلون الجنة وإن كانوا يرغبون في ذلك «وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

ولكن عندما ينظرون إلى الطرف الآخر ويشاهدون أهل النار يصطلون فيها، يتضرعون إلى الله طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين: «وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَّا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

وفي الآية اللاحقة يضيف: إن أصحاب الأعراف ينادون فريقاً من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم ويلومونهم قائلين: أما

ترون أن جمعكم للأموال والأفراد والتجبر والتكبر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئاً، فأين تلك الأموال واولئك الأعوان؟ وماذا حصدتم مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٥

من تلك المواقف والصفات السيئة؟! «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ رِجَالًا يَعرِفُونَهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ قَالُوا يَا أَعْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ».

ومرّة أخرى يقولون موبّخين ومعاتبين، وهم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: «أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَدْتُمْ لِيَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ».

وفي المال تشمل الرحمة الإلهية هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، ويقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَأَخَوْفٍ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ». يستفاد من مجموع الآيات والروايات أن الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنة والسعادة الأبدية.

ومن الطبيعي أن الأقوياء الصالحين والطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أما الضعفاء الذي خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيعجزون عن العبور.

كما أنه من الطبيعي أيضاً أن تقف قيادات الجموع وسادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسكريين الذين يمشون في مثل هذه الحالات في مؤخرة جيوشهم ليعبر الجميع، يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاه ببركة مساعدتهم ومعونتهم ونجدتهم.

وعلى هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان والمتورطون في الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمة، والأئمة السادة (يعنى الأنبياء والأئمة والصلحاء) الذين يساعدون الضعفاء في جميع الأحوال.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) نعم الجنة حرام على أهل النار: بعد أن استقر كل من أهل الجنة وأهل النار في أماكنهم ومنازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجتها العقوبة الروحية والمعنوية لأهل النار، وفي البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النار: «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنْ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٦

الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ». فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشيء من الماء أو من نعم الجنة. ولكن أهل الجنة يبادرون إلى رفض هذا المطلب «قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ».

بحثن

١- إن عبارة «مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» التي هي عبارة مجمل، وتتسم بالإبهام، تفيد أنه حتى أهل النار لا يمكنهم أن يعرفوا بشيء من حقيقة النعم الموجودة في الجنة وأنواعها. وهذا الموضوع يتفق وينسجم مع بعض الأحاديث التي تقول: (إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

ثم إن عطف الجملة ب «أو» يشير إلى أن النعم الاخروية الاخرى وخاصة الفواكه يمكنها أن تحل محل الماء وتطفى عطش الإنسان. ٢- إن عبارة «حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ» إشارة إلى أن أهل الجنة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شيء من هذه النعم لأهل النار، لأنه لا يقلل منها شيء بسبب الإعطاء، ولا أنهم يحملون حقداً أو ضغينة على أحد في صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، ولكن وضع أهل النار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنة.

إن هذا الحرمان نوع من «الحرمان التكويني» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

في الآية اللاحقة يبين سبب حرمانهم، بذكر صفات أهل النار وأن أهل هذا المصير الأسود هم الذين أوقعوا أنفسهم فيه فيقول أولاً: إن هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعباً «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا».

وهذا إلى جانب أنهم خدعتهم الدنيا واغرتوا بها «وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

إن هذه الامور سببت في أن يغرقوا في وحل الشهوات، وينسوا كل شيء حتى الآخرة، وينكروا أقوال الأنبياء، ويكذبوا بالآيات الإلهية، ولهذا أضاف قائلاً: «فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

كما أنه يستفاد من هذه الآية أن أول مرحلة من مراحل الإنحراف والضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياها المصيرية بمأخذ الجد، بل يتعامل معها معاملة المتسلى والهازل، فتؤدى به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، وإنكار جميع الحقائق.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٧

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) هذه الآية إشارة إلى أن حرمان الكفار ومصيرهم المشؤوم إنما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم وإلا فليس هناك من جانب الله أى تقصير فى هدايتهم وقيادتهم وإبلاغ الآيات إليهم وبيان الدروس التربوية لهم لهذا يقول تعالى: إِنَّا لَم نَأَلْ جَهْدًا وَلَمْ نَدْخِرْ شَيْئًا فِي مَجَالِ الْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ، بل أرسلنا لهم كتاباً شرحنا فيه كل شيء بحكمه ودراية: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ».

وهو كتاب فيه رحمة وهداية، لا للمعاندین الأنانيين، بل للمؤمنين: «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة فى تفكير العصاة والمنحرفين فى صعيد الهداية الإلهية فيقول: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ». أى كأن هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد والوعيد الإلهي بعيونهم (أى يروا أهل الجنة وهم فيها، وأهل النار وهم فيها) حتى يؤمنوا. ولكنه توقع سخيف، لأنه عندما تُترجم الوعود الإلهية على صعيد الواقع ينتهى الامر، ولم يعد هناك مجال للرجوع ولا طريق للعودة، وهناك سيترفون بأنهم قد تناسوا كتاب الله وتجاهلوا التعاليم الإلهية التى أنزلها على رسله بالحق، وكان قولهم حقاً أيضاً: «يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ».

سيغرقون فى هذا الوقت فى قلق واضطراب، ويفكرون فى مخلص ينقذهم من هذه المشكله ويقولون: «فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا». وإذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إننا لا نصلح أساساً للشفاعة، أفلا يمكن أن نرجع إلى الدنيا ونقوم بأعمال غير ما عملناه سابقاً، ونسلم للحق والحقيقة «أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ».

ولكن هذا التنبيه جاء متأخراً جداً، فلا طريق للعودة ولا صلاحية لهم للشفاعة لأنهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٨

قد خسروا كل رؤوس أموالهم وتورطوا فى خسران جميع وجودهم «قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ».

وسوف يثبت لهم أن أصنامهم ومعبوداتهم ليس لها أى دور هناك، وفى الحقيقة ضاعت- فى نظرهم- جميعاً «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ». من هذه الآية يستفاد أولاً: أن الإنسان حرّ مختار فى أعماله، وإلا لما طلب العودة والرجوع إلى الدنيا لجبران ما فات، و ثانياً: إن العالم الآخر ليس مكان العمل واكتساب الفضائل والنجاة.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَ النَّجُومَ مَسِيرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَمْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) هذه الآية تصف المعبود الحقيقي مع ذكر صفاته الخاصة حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقة وينشدونها أن يعرفوه بوضوح فى هذا العالم وقبل حلول يوم القيامة، ويبدأ حديثه هذا بقوله: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ». أى أن المعبود لا يمكن أن يكون إلّامن كان خالقاً.

هل خلق العالم فى ستة أيام؟ نظراً إلى المفهوم الواسع للفظه «يوم» وما يعادلها فى مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحاً، لأنه كثيراً ما يستعمل اليوم بمعنى الدورة. على هذا الأساس أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض فى ست دورات متوالية، وإن استغرقت كل دورة من هذه الدورات ملايين أو مليارات السنين، والعلم الحديث لم يبين أى أمر يخالف هذا الموضوع.

ثم يقول القرآن الكريم: إنَّ الله تعالى بعد خلق السماوات والأرض أخذ زمام إدارتها بيده (أى ليس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة والتدبير أيضاً) فقال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».

وهذا جواب لمن يعتقد أن الكون محتاج إلى الله تعالى فى الخلق والإيجاد دون البقاء.

«العرش»: فى اللغة هو ما له سقف، وقد يطلق العرش على نفس السقف، وربّما يأتى بمعنى الأسرة الكبيرة المرتفعة، ولكن عندما ينسب إلى الله سبحانه وتعالى ويقال: عرش الله، يراد منه مجموعة عالم الوجود، الذى يعدّ فى الحقيقة سرير حكومه الله تعالى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٩

وعلى هذا تكون عبارة «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» كناية عن الإحاطة الكاملة لله تعالى وسيطرته على تدبير أمور الكون - سماءاً وأرضاً - بعد خلقها.

ثم يقول بأنَّه تعالى هو الذى يلقى بالليل - كغشاء - على النهار، ويستتر ضوء النهار بالأستار المظلمة «يُعِشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ».

ثم يضيف بعد ذلك قائلاً: «إِنَّ اللَّيْلَ يَطْلُبُ النَّهَارَ طَلَبًا حَثِيثًا» «يَطْلُبُهُ حَثِيثًا».

ثم يضيف تعالى أنَّه هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم، خاضعةً لأمره بعد خلقها:

«وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ».

ثم بعد ذكر خلق العالم ونظام الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال مؤكداً:

اعلموا أن خلق الكون وتدبير اموره كله بيده سبحانه دون سواه «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ».

إنَّ المراد من «الخلق» هو الخلق والإيجاد الأول. والمراد من «الأمر» هو السنن والقوانين الحاكمة على عالم الوجود بأسره بأمر الله تعالى، والتي تقود الكون فى مسيره المرسوم له. أى إنَّ العالم كما يحتاج فى حدوثه إلى الله، كذلك يحتاج فى تدبيره واستمرار حياته وإدارة شؤونه إلى الله، ولو أن الله صرف عنايته ولطفه عن الكون لحظة واحدة لتبدد النظام وانهار وانهدم بصورة كاملة.

ثم فى ختام الآية يقول: «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

إنَّ هذه الجملة - بعد ذكر خلق وتدبير عالم الوجود - نوع من الثناء على الذات الربوبية المقدسة.

فهو وجود مبارك أزلى أبدي، وهو بالتالى منشأ جميع البركات والخيرات، ومنبع الخير المستمر «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) شروط استجابة الدعاء: لقد أثبتت الآية السابقة - فى ضوء ما أقيم من برهان واضح - هذه الحقيقة، وهى أن الذى يستحق العبادة فقط هو الله، وفى عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٠

الذى هو مخ العبادة وروحها، يقول أولاً: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً».

«التضرع»: فى الأصل من مادة «ضَرَع» بمعنى الثدى، وعلى هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع، وحيث إنَّه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمة الثدى من جهاتها المختلفة استداراً للحليب، لهذا استعملت هذه الكلمة فى من يظهر حركات خاصة إظهاراً للخضوع والتواضع. وعلى هذا فإنَّ الآية المبحوثة، وعبارة «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا» تحثنا على أن نقبل على الله بمنتهى الخضوع والخشوع والتواضع، بل يجب أن تنعكس روح الدعاء فى أعماق روح الإنسان، وعلى جميع أبعاد وجوده.

وأمره تعالى بأن يدعى الله «خفية» وفى السر، لأنَّه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأجل أن يكون الدعاء مقروناً بتمركز الفكر وحضور القلب.

ثم قال تعالى فى ختام الآية: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ». أى إنَّ الله لا يحب المعتدين.

ولهذه العبارة معنى وسيع يشمل كل نوع من أنواع العدوان والتجاوز، سواء الصراخ ورفع الصوت عالياً جداً حين الدعاء، أو التظاهر

وممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير الله حين الدعاء.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو فى الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا».

ولهذا فلا تستجاب أذعية المفسدين والعصاة، ولا تنتهى إلى أية نتيجة مرجوة.

والمراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما.

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ فَاسِدَةً فَأَصْلَحَهَا اللَّهُ بِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ومرّة اخرى يعود إلى مسألة الدعاء ويذكر شرطاً آخر من شرائطه فيقول: «وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا». أى لا تكونوا راضين معجبين بأفعالكم

بحيث تظنون أنه لا توجد فى حياتكم أية نقطة سوداء، إذ إن هذا الظن هو أحد عوامل التفهقر والسقوط، كما لا تكونوا يائسين إلى

درجة أنكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهي وإجابة الدعاء، إذ إن هذا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣١

اليأس والقنوط هو الآخر سبب لإنطفاء شعلة السعى والإجتهد، بل لابد أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحي (الخوف) و (الأمل) الخوف

من المسؤوليات والعثرات، والأمل برحمته ولطفه.

وفى خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهية: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ».

هذه الآيات قد تضمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء وإجابته، وهى باختصار كالتالى:

١- أن يكون الدعاء عن تضرع وخفية.

٢- أن لا يتجاوز حد الاعتدال.

٣- أن لا يكون مقروناً بالإفساد والمعصية.

٤- أن يكون مقروناً بالخوف والامل المعتدلين.

٥- أن يكون مقروناً بالبر والإحسان، وفعل الخيرات.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَاهُ لِيَلِدِ مِنِّي فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَابْتَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) لابد من المربى والقابلية: فى الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أى التوحيد ومعرفة الله، من

خلال الوقوف على أسرار الكون، وفى هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النعم الإلهية وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» والبعث،

ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

وهذه هى سيرة القرآن الكريم ودأبه فى كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و «المعاد»، والملفت للنظر أنه يستعين لمعرفة الله،

وكذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معاً بالاستدلال بالأسرار الكامنة فى خلق موجودات هذا العالم، فيقول تعالى أولاً: «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ

الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٢

ثم يقول: إن هذه الرياح التى تهب من المحيطات تحمل معها سحباً ثقيلاً مشبعة بالماء «حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا».

ثم يسوق تلك السحب إلى الأراضي الظامئة اليابسة، ويكلفها بأن تروى تلك الأراضي العطاشى «سُقِنَاهُ لِيَلِدِ مِنِّي».

وبذلك ينهمر ماء الحياة فى كل مكان «فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ».

وبمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعاً متنوعه من الثمار والفواكه «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ثم عقب ذلك يضيف: «كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى وَنُلْبِسُهُمْ حُلَّةَ الْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى».

ولقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم انموذجاً من المعاد فى هذه الدنيا، الذى يتكرر أمام عيونكم كل يوم «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وفى الآية اللاحقة- وحتى لا يظن أحد أن نزول المطر على نمط واحد يدل على أن جميع الأراضي تصير حية على نمط واحد أيضاً، وحتى يتضح أن القابليات والإستعدادات المتفاوتة تسببت في أن تتفاوت حالات الاستفادة والإنتفاع بالموهب الإلهية يقول: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ». أى إن الأرض الصالحة هي التي تستفيد من المطر، وتثمر خير إثمار بإذن ربها. أما الأراضي السبخة والخبيثة فلا تثمر إلا بعض الأعشاب غير النافعة «وَالَّذِي خَبَثَ لَآ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» (١). ثم فى ختام الآية يقول تعالى: إن هذه الآيات نبينها لمن يشكرونها، ويستفيدون من غيرها ومدليلها، ويسلكون فى ضوئها سبيل الهداية «كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ». إن الآية الحاضرة إشارة إلى مسألة مهمّة وهى أن فاعليته الفاعل وحدها لا تكفى للإثمار والإنتاج الصحيح المطلوب، بل لابد من «قابلية القابل» فهى شرط للتأثير والإثمار.

(١) «النكد»: هو البخيل الممسك الذى يتعذر أخذ شىء منه بسهولة، ولو أنه أعطى لأعطى الشىء اليسير الحقيق. ولقد شبهت الأراضي المالحة السبخة غير المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ١٣٣

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) رساله نوح أول الرسل من أولى العزم: قد وردت قصة نوح فى سور قرآنية متعددة، مثل سورة هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، لكن هنا اكتفى بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هى: يقول أولاً: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ». إن أول شىء ذكرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، ونفى أى نوع من أنواع الوثنية «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

وبعد أن أيقظ نوح ضمائرهم وفطرتهم الغافية، حذّره من مغبة الوثنية وعاقبتها المؤلمة إذ قال: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». والمراد من «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، كما ويمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهية فى يوم القيامة.

ولكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النبى العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير والنفع لهم، فينصون تحت راية التوحيد ويكفون عن الظلم والفساد، قال جماعة من الأعيان والأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على مصالحهم بسبب يقظة الناس وانتباههم، ويرون الدين مانعاً من عبثهم ومجونهم وشهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة وقحة: نحن نراك فى ضلال واضح «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

ولقد جابه نوح عليه السلام تعنتهم وخشونتهم بلحن هادىء ولهجة متينة تطفح بالمحبة والرحمة،

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ١٣٤

فقال فى معرض الرد عليهم: أنا لست بضال، بل لست فى أية علامة للضلال، ولكنى مرسل من الله «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذه إشارة إلى أن الأرباب التى تعبدوها كلها لا- أساس لها من الصحة، ورب العالمين ما هو إلا الله الواحد الذى خلقها جميعاً وأوجدها من العدم. ثم إن هدفى إنما هو إبلاغ ما حملت من رساله «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي».



ولن آلو جهداً في تقديم النصح لكم، وقصد نفعكم، وإيصال الخير إليكم «وَأَنْصَحْ لَكُمْ».

ثم أضاف تعالى: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

إن هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد في مقابل معارضاتهم ومخالفتهم، وكأنه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا تعلمون شيئاً عنها، أو تكون إشارة إلى لطف الله ورحمته، وتعني أنكم إذا أطعتم الله، وكففتم عن تعنتكم، فإني أعلم ميثبات عظيمة لكم لا تعلمونها ولم تقفوا لحد الآن على سعتها.

وفي الآية اللاحقة نقرأ لنوح كلاماً آخر قاله في مقابل استغراب قومه من أنه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملاً لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإلهية، إذ قال: «أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

يعني: أي شيء في هذه القضية يدعو إلى الاستغراب والتعجب، لأن الإنسان الصالح هو الذي يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أي كائن آخر.

ولكن بدل أن يقبلوا دعوة مثل هذا القائد المخلص الواعي فقد كذبته الجميع، فأرسل الله عليهم طوفاناً فغرق المكذبون ونجا في السفينة نوح ومن آمن «فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا».

وفي خاتمة الآية ذكر دليل هذه العقوبة الصعبة، وأنه عمى القلب الذي منعهم عن رؤية الحق، وأتباعه «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ» (١).

(١) «عمين»: جمع عمى، وهو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهري، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٥

وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَادُّرُّوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسِطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَخِزِينَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) لمحته عن قصة قوم هود: عقيب ذكر رسالة نوح والدروس الغنية بالعبر الكامنة فيها، عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحته سريعة عن قصة نبي آخر من الأنبياء العظام، وهو النبي هود عليه السلام وذكر ما جرى بينه وبين قومه. يقول تعالى أولاً: ولقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً «وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا».

وقوم «عاد» كانوا أمة تعيش في أرض «اليمن» وكانت أمة قوية من حيث المقدره البدنية والثروة الوفرة التي كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة والرعي، ولكنها كانت متخمة بالانحرافات الإعتقادية وبخاصة الوثنية والمفاسد الأخلاقية المتفشية بينهم.

وقد كُلف «هود» الذي كان منهم - وكان يرتبط بهم بوشيجة القربى - من جانب الله بأن يدعوهم إلى الحق ومكافحة الفساد، ولعل التعبير ب «أخاهم» إشارة إلى هذه الوشيجة النسبية بين هود وقوم عاد.

ثم إنه يحتمل أيضاً أن يكون التعبير ب «الأخ» في شأن النبي هود، وكذا في شأن عدده

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٦

أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام (سورة الشعراء، الآية ١٠٦) وصالح (سورة الشعراء، الآية ١٢٢) ولوط (سورة الشعراء، الآية ١٦١) وشعيب (سورة الأعراف، الآية ٨٥) إنما هو لأجل أنهم كانوا يتعاملون مع قومهم في منتهى الرحمة، والمحبة مثل

أخ حميم، ولا يألون جهداً في إرشادهم وهدايتهم ودعوتهم إلى الخير والصلاح. ثم يذكر تعالى أن هود شرع في دعوته في مسألة التوحيد ومكافحة الشرك والوثنية: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

ولكن هذه الجماعة الأنانية المستكبره، وبخاصة أغنياؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، والذين يعبر عنهم القرآن بلفظة «الملا» باعتبار أن ظاهرهم يملأ العيون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح عليه السلام: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ولكن هوداً- وهو يتحلى بالوقار والمتانة التي يتحلى بها الأنبياء والهداة الصادقون الطاهرون- من دون أن ينتابه غضب، أو تعتربه حالة يأس «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم إن هوداً أضاف: إن مهمته هي إبلاغ رسالات الله إليهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم، وانقاذهم من ورطة الشرك والفساد، كل ذلك مع كامل الإخلاص والنصح والأمانة والصدق «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

ثم إن هوداً أشار- في معرض الرد على من تعجب من أن يبعث الله بشراً رسولاً- إلى نفس مقولة نوح النبي لقومه: «أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ».

أى هل تعجبون من أن يرسل الله رجلاً من البشر نبياً، ليحذركم من مغبة أعمالكم، وما ينتظركم من العقوبات في مستقبلكم؟ ثم إنه إستثارة لعواطفهم الغافية، وإثارة لروح الشكر في نفوسهم، ذكر قسماً من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، فقال: «وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ، فَقَدْ وَرَثْنَا الْأَرْضَ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ عَظِيمَةٍ بَعْدَ أَنْ هَلَكَ قَوْمُ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ بِسَبَبِ طُغْيَانِهِمْ وَبَادُوا».

ولم تكن هذه هي النعمة الوحيدة، بل وهب لكم قوة جسدية عظيمة «وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٧

وفي خاتمة الآية يذكر تلك الجماعة الأنانية بأن يتذكروا نعم الله لتستيقظ فيهم روح الشكر فيخضعوا لأوامره، عليهم يفلحون «فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ».

ولكن في مقابل جميع المواعظ والإرشادات المنطقية، والتذكير بنعم الله وموابه، انبرت تلك التلة من الناس الذين كانوا يرون مكاسبهم المادية في خطر، وقبول دعوة النبي تصددهم عن التماذي في أهوائهم وشهواتهم، انبرت إلى المعارضة، وقالوا بصراحة: «إِنَّكَ جِئْتَ تَدْعُونَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَتَرَكْتَ مَا كَانَ أَسْلَافُنَا يَعْبُدُونَ دَهْرًا طَوِيلًا، كَلًّا، لَا يَمْكُنُ هَذَا بِحَالٍ» «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا».

وفي النهاية، ولأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماماً، ويقولوا كلمتهم الأخيرة قالوا: إذا كان حقاً وواقعاً ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أى إننا لا نخشى تهديداتك أبداً «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

وعندما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، وأطلق اولئك المتعنتون كلمتهم الأخيرة الكاشفة عن رفضهم الكامل لدعوة هود، وأيس هود- هو الآخر- من هدايتهم تماماً، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحل عليكم عذاب ربكم «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ».

يعنى أنكم قد غرقتم في دوامة الانحراف والفساد إلى درجة أن روحكم قد دفنت تحت اوزار كثيفة من النجاسات، وبذلك استوجبتم غضب الله، وشملكم سخطه.

ثم لأجل أن لا يبقى منطق عبادة الاوثان من دون رد أضاف قائلاً: «أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيئْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ». فهذه الاصنام التي صنعتموها انتم وآباؤكم ليس لها من الالهية ألما اسم فارغ وضعها أسلافكم كذباً وزوراً، ثم وجتتم تجادلونني في عبادتها في حين لم ينزل بذلك أى دليل من جانب الله.

ثم قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعاً، انتظروا أنتم أن تنفعكم أصنامكم ومعبوداتكم وتنصركم، وانتظر أنا أن يحلّ بكم غضب الله وعذابه الأليم جزاء تعنتكم، وسيكشف المستقبل أى واحد من هذين الإنتظرين هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع «فانتظروا إني معكم من المنتظرين».

وفي نهاية الآية بين القرآن مصير هؤلاء القوم المتمتعين في عبارة قصيرة موجزة:  
«فَأَنجَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٨

أجل، لقد أنجى الله هوداً ومن اتبعه من القوم بلطفه ورحمته، وأميا الذين كذبوا بآيات الله، ورفضوا الإنصواء تحت لواء دعوته، والإنصياع للحق، فقد أيبسوا نهائياً. «دابر»: في اللغة بمعنى آخر الشيء ومؤخرته، وبناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية: أننا أبدنا هؤلاء القوم إبادة كاملة واستأصلنا شأفتهم.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضْءَوْا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصِيحَتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَأُتِجِبُونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) قصة قوم صالح وما فيها من عبر: في هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النبي الإلهي العظيم في قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون في منطقة جبلية بين الحجاز والشام، وبهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعبر حول قوم نوح وهود، فيقول تعالى في البداية: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا».

ولقد كانت أول خطوة خطاها نبيهم صالح في سبيل هدايتهم، هي الدعوة إلى التوحيد،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٩

وعبادة الله الواحد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

ثم أضاف: إنه لا يقول شيئاً من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم ببيئته من ربهم «قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ». ثم إنه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل في أرض الله ولا تمنعوها «فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ». ثم يقول في الآية اللاحقة: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ».

أى: من جانب لا- تنسوا نعم الله الكثيرة، ومن جانب آخر انتبهوا إلى أنه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب الله بذنوبهم وهلكوا.

ثم ركز على بعض النعم الإلهية كالأرض فقال: «تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا». فالأرض قد خلقت بنحو تكون سهولها المستوية والمزودة بالترية الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء والظروف الجوية القاسية.

ويبدو للنظر من هذا التعبير هو أنهم كانوا يغيرون مكان سكنهم في الصيف والشتاء.

وفي ختام الآية يقول تعالى على لسان نبيه صالح: «فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

ثم إننا نلاحظ أيضاً أن جماعة الأغنياء والمترفين ذوى الظاهر الحسن، والباطن القبيح الخبيث، الذين عبر عنهم بالملا أخذوا بزمام المعارضة لهذا النبي الإلهي العظيم.

فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقيناً أن صالحاً مرسل من قبل الله «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ».

ولكن سرعان ما واجهوا رد تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية وعزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إننا مضافاً إلى اعتقادنا بأن صالحاً رسول من قبل الله، فنحن مؤمنون أيضاً بما جاء به «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ».

ولكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرة أخرى إلى إضعاف معنوية المؤمنين «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ».

عندما يس من زعزعة الإيمان في نفوس الجماهير المؤمنة بصالح عليه السلام ومن جانب آخر

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٠

مختصر الامثل ج ٢، ص: ١٧٩

رأوا أن وسواسهم وشائعاتهم لا تجدى نفعاً مع وجود «الناقة» التي كانت تُعدّ معجزة صالح عليه السلام لهذا قروا قتل الناقة، مخالفين بذلك أمر ربهم «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» (١). ولم يكتفوا بهذا أيضاً، بل أتوا إلى صالح نفسه وبصراحة «قَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَّا بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

إن هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح عليه السلام بهدف إضعاف روحه وروحيته المؤمنين به.

وعندما وصل المعارضون بطغيانهم وتمردهم إلى آخر درجة، وأطفأوا في نفوسهم آخر بارقة أمل في الإيمان، حلت بهم العقوبة الإلهية طبقاً لقانون انتخاب الأصلاح، وإهلاك ومحو الكائنات الفاسدة والمفسدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

بأى شيء اهلك قوم ثمود: وهنا يطرح سؤال وهو: يستفاد من الآية الحاضرة أن الشيء الذي اهلك هؤلاء المتمردين كان هو الزلزال، ولكن يظهر من الآية (١٣) من سورة فصّلت أنه كان الصاعقة، بينما نقرأ في الآية (٥) من سورة الحاقة: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ».

يعنى أن قوم ثمود اهلكوا بشيء مدمر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص في جملة واحدة، وهي جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنه يلازم بعضها بعضاً، فكثيراً ما تحدث الرجيّة الأرضية في منطقها ما بفعل صاعقة عظيمة، أي أنه تحدث صاعقة أولاً، ثم تحدث على أثرها رجة أرضية.

«الطاغية»: فهي بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، وهذا ينسجم مع الزلزلة وكذا مع الصاعقة، ولهذا فلا يوجد أي تناقض بين الآيات.

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة يقول: «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَيْحَتِي لَكُمْ وَلَكِنْ لَأَنْجِبُونَ النَّاصِحِينَ».

أي بعد هذه القضية تولى صالح وهو يقول: لقد أديت رسالتي إليكم، ونصحت لكم ولكنكم لا تحبون من ينصحكم.

(١) «العقر»: هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها، فإذا قطع سقط الحيوان، وفقد القدرة على الحركة والتنقل.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤١

وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْتَطِهُرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) مصير قوم لوط المؤلم: في هذه الآيات يستعرض القرآن

الكريم فصلاً آخر غنياً بالعبير من قصص الأنبياء، وبذلك يواصل هدف الآيات السابقة ويكملها، والقصة هذه المرة هي قصة النبي الإلهي العظيم «لوط». الآية الأولى تقول في البدء: اذكروا إذ قال لوط لقومه:

الإلهي العظيم «لوط». الآية الأولى تقول في البدء: اذكروا إذ قال لوط لقومه:

أترتكبون فعلاً قبيحاً لم يفعله قبلكم أحد من الناس! «وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ». وفي الآية اللاحقة بشرح المعصية التي ذكرت في الآية السابقة ويقول: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ». وأى انحراف أسوأ وأقبح من أن يترك الإنسان وسيلة توليد النسل وإنجاب الأولاد، وهو مقاربه الرجل للمرأة، والذي أودعه الله في كيان كل إنسان بصورة غريزية طبيعية، ويعمد إلى «الجنس الموافق» ويفعل بالتالي ما يخالف - أساساً الفطرة والتركيب الطبيعي للجسم والروح الإنسانيين والغريزة السوية الصحيحة، ويكون نتيجته عمق الهدف المتوخى من المقاربه الجنسية.

ثم يقول تعالى في نهاية الآية: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ». أى تجاوزتم حدود الله، ووقعتم في متاهة الانحراف والتجاوز عن حدود الفطرة. وفي الآية اللاحقة أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت وغير المنطقي لقوم لوط، وقال:

إِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لُوطٌ أَوْ جَارٌ يُؤْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَتَلَمَّذُوا إِيَّاهُ وَمَا كَانُوا لَهُمْ قَوْلًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَأَنذَرْتَهُمْ يَدْرَأُونَهُمْ فِي السَّمَاءِ كَمَا فَتَنَّا لُوطَ بْنَ عَبْدِ مَنَافٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ النِّسَاءَ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

أخرجوا لوطاً وأتباعه من مدينتكم. ولكن ما كان ذنبهم؟ إن ذنبهم هو أنهم كانوا جماعة طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصية «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ».

ويحتمل أيضاً في تفسير جملة «إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ» أن قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النبي العظيم وأتباعه الأتقياء بالرياء والتظاهر بالتطهر، مع ملاحظة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٢

كل ما قيل في الآيات الثلاثة أعلاه، يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات والأقوام، ولهذا قال الله تعالى في الآية اللاحقة: «فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» (١). أى لما بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطاً وأتباعه الواقعيين وأهله الطيبين، إلمازوجه التي كانت على عقيدة قومه المنحرفين فتركتها. يستفاد من الآية (١٠) من سورة التحريم إجمالاً أن زوجة لوط كانت في البداية امرأة سالحة، ولكنها سلكت سبيل الخيانة فيما بعد، وجرأت أعداء لوط عليه.

وفي آخر آية من الآيات إشارة إلى العقوبة الشديدة والرهيبة التي حلت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالى: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا». أى مطر ... إنه كان مطراً عجبياً حيث إنهالت عليهم الشهب والنيازك كالمطر وأبادتهم عن آخرهم!

«فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ». إن هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله ولكنه من الواضح أن الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعَدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) رساله شعيب في مدين: في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلاً خامساً من قصص الأقوام الماضين، ومواجهة الأنبياء العظام معهم، وهذا الفصل يتناول قوم شعيب.

(١) يقال «الغابر» لمن ذهب أهله وفنوا وبقي هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأصيبت بما أصيب به العصاة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٣

بعث شعيب عليه السلام الذي ينتهى نسبه - حسب كتب التاريخ - إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين، وهى مدينة من مدن الشام، كان أهلها أهل تجارة وترف قد سادت فيهم الوثنية، وكذا الحيلة، والتطيف في المكيال والميزان، والبخس في المعاملة.

في البداية يقول سبحانه: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً «وإلى مدين أخاهم شعيباً».

إن «مدين» في الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، وحيث إن أبناءه وأحفاده سكنوا في أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين».

ثم إنه تعالى أضاف: إن شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

وقال: إن هذا الحكم مضافاً إلى كونه من وحى العقل، ثابت بواسطة الأدلة الواضحة التي جاءتهم من جانب الله أيضاً: «قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ».

ثم إنه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ في محاربة المفساد الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية السائدة فيهم، وفي البدء منعهم من ممارسة التطفيف، والغش في المعاملة، يقول: «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» (١).

ثم يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، وهو الإفساد في الأرض بعد أن اصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، وفي ضوء الإيمان فقال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا».

ومن المسلم أنه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف في آخر الآية قائلاً:

«ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وفي الآية اللاحقة يشير إلى رابع نصيحة لشعيب، وهي منعهم عن الجلوس على الطرقات وتهديد الناس، وصددهم عن سبيل الله، وتضليل الناس بالقاء الشبهات وتزييف طريق الحق المستقيم في نظرهم، فقال: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا».

وفي ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التي ذكر فيها قومه بالنعمة الإلهية

(١) «البخس»: يعنى نقص حقوق الأشخاص، والتزول عن الحد بصورة توجب الظلم والحيث.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٤

لتفعيل حس الشكر فيهم، فيقول: تذكروا عندما كنتم أفراداً قلائل فزادكم الله في الأفراد وضاعف من قوتكم: «وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ». ثم يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين ونهاية أمرهم ومصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم في السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: «وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

إن آخر آية من الآيات المبحوثة هنا بمثابة إجابة على بعض استفهامات المؤمنين والكفار من قومه.

فيقول لهم شعيب: إن كانت طائفة منكم آمنت بما بعثت به، وأعرضت أخرى فلا ينبغي أن يكون ذلك سبباً لغرور الكفار، ويأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فالمستقبل سوف يكشف عن من يكون على حق، ومن يكون على باطل «وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعِيدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) هذه الآيات تستعرض رد فعل قوم شعيب مقابل كلمات هذا النبي العظيم المنطقية، وحيث إن الملا والأثرياء المتكبرين في عصره كانوا أقوياء في الظاهر، كان رد فعلهم أقوى من رد فعل الآخرين.

إنهم كانوا- مثل كل المتكبرين المغرورين- يهددون شعبياً معتمدين على قوتهم وقدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا».

على أن تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات اخرى سنبحثها في سائر الآيات المرتبطة بشعيب. مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٥

وقد أجابهم شعيب في مقابل كل تهديداتهم وخشونتهم تلك بكلمات في غاية البساطة والرفق والموضوعية، إذ قال لهم: وهل في إمكانكم أن تعيدونا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين في ذلك: «قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ».

وفي الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: «قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا». ثم يضيف شعيب قائلاً: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا».

ثم من دون إبطاء يضيف: إن الله لا يأمر بمثل هذا، لأن الله يعلم بكل شيء ويحيط علماً بجميع الامور «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا». وعلى هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنه لا يعود ولا يرجع عن أمر أعطاه إلا من كان علمه محدوداً، واشتبه ثم ندم على أمره، أما الذي يعلم بكل شيء ويحيط بجميع الامور علماً فيستحيل أن يعيد النظر. ثم لأجل أن يفهمهم بأنه لا يخاف تهديداتهم، وأنه ثابت في موقفه، قال: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وأخيراً لأجل أن يثبت حسن نيته، ويظهر رغبته في طلب الحقيقة والسلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب والفوضى والإخلال بالأمن يقول: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». أى: يا رب أنت أحكم بيننا وبين هؤلاء بالحق، وارفع المشاكل التي بيننا وبين هؤلاء، وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَيْحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) تتحدث الآية الاولى عند الدعايات التي كان يبثها معارضو شعيب ضد من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: «وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٦

والمقصود من الخسارة- هنا- الخسارات المادية التي تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية، وعلى هذا الأساس كان يجب أن يخرجوا من بلدهم وديارهم بالقهر، ويتركوا بيوتهم وأملاكهم. وعندما وصل أمرهم إلى الإصرار على ضلالتهم، وعلى إضلال غيرهم أيضاً، ولم يبق أى أمل في إيمانهم وهدايتهم، حلت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد، فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجساداً ميتة، في داخل بيوتهم ومنازلهم «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

في الآية اللاحقة شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعبارة التالية: «الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا». أى إن الذين كذبوا شعيباً ابعدوا إباده عجيبة، وكأنهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

وفي ختام الآية يقول: «الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ».

وكان هاتين الجملتين جواباً لأقوال معارضى شعيب، لأنهم كانوا قد هددوا بأن يخرجوه هو وأتباعه في حالة عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين السابق، فقال القرآن: إنهم ابعدوا كامله، وكأنهم لم يسكنوا في تلك المنازل، فضلاً عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

وفي مقابل قولهم: إن أتباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إن نتيجة الأمر أثبتت أن مخالفة شعيب هي العامل الأسمى في الخسران.

وفي آخر آية- من الآيات المبحوثة- نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلغت رسالات ربّي، ونصحتكم بالمقدار الكافي، ولم آلُ جهداً في إرشادكم:

«فَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ».

ثم قال: «فَكَيْفَ ءَأَسَى عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ». أي لست متأسفاً على مصير الكافرين، لأنني قد بذلت كل ما في وسعي لهدايتهم وإرشادهم، ولكنهم لم يخضعوا للحق ولم يسلموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٧

إذ لم تنفع المواعظ: إن هذه الآيات- التي ذكرت بعد استعراض قصص مجموعة من الأنبياء العظام، مثل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وقبل أن يعمد القرآن الكريم إلى استعراض قصة موسى بن عمران- أشار إلى عدّة أصول وقواعد عامة تحكم في جميع القصص والحوادث، وهي قواعد واصول إذا فكرنا فيها كشفت القناع عن حقائق قيمة ترتبط بحياتنا- جميعاً- ارتباطاً وثيقاً. في البداية يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ». فالصعب والمشاق والبلايا التي تصيب الأفراد إنما يفعلها الله بهم عسى أن ينتبهوا، ويتركوا طغيانهم، ويرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه.

وذلك لأنّ الناس ما داموا في الرخاء والرفاه فهم في غفلة وقلما يكون لديهم استعداد وقابلية لقبول الحق. أما عندما يتورطون في المحنة والبلاء، يشرق نور فطرتهم وتوحيدهم ويتذكرون الله قهراً بلا اختيار، وتستعد قلوبهم لقبول الحق.

ولكن هذه اليقظة والنهضة ليست عند الجميع على حدّ سواء، فهي في كثير من الناس سريعة وعابرة وغير ثابتة، وبمجرد أن تزول المشكلات يعودون إلى غفلتهم وغفوتهم، ولكن هذه المشكلات تعتبر بالنسبة إلى جماعة آخرين نقطة تحول في الحياة، ويعودون إلى الحق إلى الأبد.

ولهذا قال تعالى في الآية اللاحقة: عندما لم تغير تلك الجماعات سلوكها ومسيرها تحت ضغط المشكلات والحوادث، بل بقوا في الضلال، رفعنا عنهم المشكلات وجعلنا مكانها النعم والرخاء فازدهرت حياتهم وكثر عددهم وزادت أموالهم «ثُمَّ يَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا».

ثم أضاف: أنهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وهي «النعم» و «النقمة» بيد الله، وأنهم راجعون إلى الله، يتذرعون- لخداع أنفسهم- بهذا المنطق، وهو إذا تعرضنا للمصائب والبلايا، فإن ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء والسراء، وكانت لهم حالات رخاء وحالات بلاء، فالحياة لها صعود ونزول، والصعاب أمواج غير ثابتة وسريعة الزوال «وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ». فهي إذن قضية طبيعية، ومسألة إعتيادية.

فيقول القرآن الكريم في الختام: إن الأمر عندما بلغ إلى هذا الحد، ولم يستفيدوا من عوامل التربية- أبداً- بل ازدادوا غروراً وعنجهية وتكبراً أهلكناهم فجأة ومن غير سابق انذار، لأن ذلك أشد إيلاماً ونكالاً لهم، وعبرة لغيرهم: «فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٨

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَمْ آمَنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٠) التقدم وال عمران في ظل الإيمان والتقوى: في الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط على نحو الإجمال، وإن كانت تلك الآيات كافية لبيان النتائج المشحونة بالعبر في هذه القصص، ولكن الآيات



الحاضرة تبين النتائج بصورة أكثر وضوحاً فتقول: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». أى لو أنهم سلكوا سبيل الإيمان والتقوى، بدل الطغيان والتمرد وتكذيب آيات الله والظلم والفساد، لم يتخلصوا من غضب الله وعقوبته فحسب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء والأرض.

والمراد من «بركات» الأرض والسماء إنها المطر والنباتات التي تنبت من الأرض.

ولكن - للأسف - تركوا الصراط المستقيم الذي هو طريق السعادة والرفاه والأمن وكذبوا الأنبياء، وتجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم «وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

في الآيات اللاحقة ولمزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم وأن القانون أعلاه ليس خاصاً بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر والمستقبل أيضاً- يقول: هل أن المجرمين الذين يعيشون في نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم في أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهية، فتزل بهم صاعقه أو يصبهم زلزال في الليل وهم نائمون «أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ».

وهل هم في أمن من ذلك العذاب في النهار وهم غارقون في أنواع اللهو واللعب «أَوْ أَمِّنَ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٩

أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ». يعنى أنهم في قبضة القدرة الإلهية في جميع الأحوال والأوقات، ليلاً ونهاراً، في اليقظة والنوم، في ساعات الفرح والترح، وبإشارة واحدة وأمر واحد يقضى عليهم جميعاً، ويطوى صفحة حياتهم نهائياً.

وفي الآية اللاحقة يعود القرآن الكريم إلى ذكر وتأكيده هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول:

أَفَأَمِّنَ الْمَجْرَمُونَ مِنَ الْمَكْرِ الْإِلَهِيِّ فِي حِينٍ لَا يَأْمَنُ مَكْرَهُ إِلَّا الْخَاسِرُونَ «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤُومُ الْخَاسِرُونَ».

«المكر»: يعنى في اللغة العربية كل حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذي يمضى إليه، سواء كان حقاً أو باطلاً. والمراد من المكر الإلهي هو أن الله تعالى يصرفهم بخطه القوي التي لا تقهر عن حياة الرفاه واللذة دون اختيارهم ويقطعها عليهم. وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية والمهلكة.

وفي الآية اللاحقة يقول القرآن الكريم بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافية وإفادات نظرهم إلى العبر التي كانت في حياة الماضيين: ألا يتنبه الذين ورثوا السيادة على الأرض - من الأقوام الماضية - إلى ما في حياة الماضيين وقصصهم من عبر، فلو أننا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفاعلنا: «أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ».

ويمكننا أيضاً أن نتركهم أحياء ونسلب منهم الشعور وحس التشخيص والتمييز بالمرّة بسبب توغّلهم في الذنوب، بحيث لا يسمعون معها حقيقة، ولا يقبلون نصيحة، ويعيشون بقية حياتهم حيرى «وَنُطْبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ».

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) في هاتين الآيتين ركز القرآن الكريم على العبر المستفادة من بيان قصص الماضيين، والخطاب متوجه هنا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلا أن الهدف هو الجميع، يقول القرآن الكريم أولاً: هذه هي القرى والأقوام التي نقص عليك قصصهم: «تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٠

أَنبَائِهَا». ثم يقول: لم يكن إهلاكهم قبل إتمام الحجّة عليهم، بل لقد جاءهم الأنبياء أولاً بالبراهين الجلية وبذلوا قصارى جهدهم في إيقاظهم وإرشادهم «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ». ولكنهم قاوموا الأنبياء وخالفوا دعوتهم، وأصرروا ولجّوا في عنادهم، ولم يكونوا على استعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البيّنات: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ».

وفي العبارة اللاحقة يبين تعالى علّة هذا التعت واللجاج: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ». يعنى أن الذين يسرون في درب

خاطيء، ويستمرون في السير في ذلك الطريق، ينتقش الانحراف والكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيء، ويتجذر الفساد في نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (والطبع في اللغة نقش صورة على شيء كالسكة) وهذا هو أثر العمل وخاصيته. وقد نسب إلى الله هو تعالى مسبب الأسباب، وهو منشأ تأثير كل مؤثر، فهو يهب الفعل هذه الخاصية عند تكراره، حيث يجعله «ملكه» في نفس الشخص.

ولكن من الواضح والبيّن أنّ مثل الضلال ليس له أى صفة جبرية وقهرية، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان وإن كان التأثير بأمر الله تعالى (فتأمل).

وفى الآية اللاحقة يبيّن تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقي لدى هذه الجماعات، والتي تسببت في ضلالها وهلاكها. في البداية يقول: إنهم كانوا لا يحترمون العهود والمواثيق بل ينقضونها «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ».

وهذا العهد يمكن أن يكون إشارة إلى «العهد الفطري» الذي أخذه الله على جميع عباده بحكم الجبل والفضة. كما أنه يمكن أن يكون إشارة إلى العهد الذي كان الأنبياء الإلهيون يأخذونه من الناس، وكان أكثر الناس يقبلونه، ولكنهم ينقضونه. أو يكون إشارة إلى جميع المواثيق «الفطرية» و «التشريعية».

وعلى كل حال فإنّ روح نقض الميثاق كان من أسباب معارضة الأنبياء والإصرار على سلوك طريق الكفر والنفاق، والإبتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثم يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: «وإن وجدنا أكثرهم لفاسين».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥١

يعنى أنّ روح التمرد والتجاوز على القانون، والخروج عن نظام الخلقة والقوانين الإلهية، كان عاملاً آخر من عوامل استمرارهم على الكفر، وإصرارهم على مخالفة الدعوة الإلهية.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأْنَاهُ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنّٰظِرِينَ (١٠٨) المواجهة بين موسى وفرعون: بين تعالى في هذه الآيات والآيات الكثيرة اللاحقة قصة موسى بن عمران، وما جرى بينه وبين

فرعون وملئه وعاقبه أمره. وعلى العموم يمكن حصر وتلخيص حياة هذا النبي الإلهي العظيم في خمس دورات ومراحل:

١- مرحلة الولادة، وما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه في بلاط فرعون.

٢- مرحلة فراره من مصر، وحياته في أرض «مدين» في كنف النبي شعيب عليه السلام.

٣- مرحلة بعثته، ثم المواجهات الكثيرة بينه وبين فرعون وجهازه.

٤- مرحلة نجاته ونجاة بني إسرائيل من مخالب فرعون.

٥- مرحلة مشاكله مع بني إسرائيل.

في الآية الاولى من الآيات الحاضرة يقول تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَيْنَاهُ». أى من بعد قوم نوح وهود وصالح.

«فرعون»: اسم عام، وهو يطلق على كل ملوك مصر.

ثم يقول تعالى: «فَظَلَمُوا بِهَا».

ثم يقول تعالى في ختام الآية: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

وهذه العبارة إشارة إجمالية إلى هلاك فرعون وقومه الطغاة المتمردين، الذي سيأتى شرحه فيما بعد.

وهذه الآية تشير إشارة مقتضبة إلى مجموع برنامج رسالة موسى، وما وقع بينه وبين فرعون من المواجهة وعاقبة أمرهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٢

أما الآيات اللاحقة فتسلط الأضواء بصورة أكثر على هذا الموضوع، فيقول أولاً:

«وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذه هي أول مواجهة بين موسى وبين فرعون، وهي صورة حية وعملية من الصراع بين «الحق» و «الباطل».

وفى الآية اللاحقة نقرأ أن موسى عقب دعوى الرسالة من جانب الله قال: فالآن إذ أنا رسول رب العالمين ينبغي ألا أقول عن الله

إلا الحق، لأن المرسل من قبل الله المنزه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذباً «حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَأَقُولَ عَلَيَّ اللَّهُ إِلَّا الْحَقَّ».

ثم لأجل توثيق دعواه للنبوة، أضاف: أنا لا أدعى ما أدعيه من دون دليل، بل إنّ معي أدلة واضحة من جانب الله «قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ».

فإذا كان الأمر هكذا «فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

وكان هذا قسماً من رسالة موسى بن عمران الذي حرّر بنى إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعوني.

فقال فرعون بمجرد سماع هذه العبارة- (أى قوله: قد جئتكم بينة)- هات الآية التي معك من جانب الله إن كنت صادقاً «قَالَ إِن كُنتَ

جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ».

ومن دون تأخير أخرج موسى معجزتيه العظيمتين التي كانت إحداهما مظهر «الخوف» والاخرى مظهر «الأمل» وكانتا تكملان مقام

إنذاره ومقام تبشيره، وألقى في البداية عصاه:

«فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ».

ثم إن الآية اللاحقة تشير إلى المعجزة الثانية للنبي موسى عليه السلام التي لها طابع الرجاء والبشارة. يقول تعالى: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ

بِيضَاءٌ لِلنَّٰظِرِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي

الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَا تُوتُوْكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) بدء المواجهة: في هذه الآيات جاء الحديث عن أول رد فعل لفرعون وجهازه

في مقابل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٣

دعوة موسى عليه السلام ومعجزاته. الآية الاولى تذكر عن ملا فرعون أنهم بمجرد مشاهدتهم لأعمال موسى الخارقة للعادة اتهموه

بالسحر، وقالوا: هذا ساحر عليم ماهر في سحره: «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ».

ثم أضافوا: إن هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ». يعنى أنه لا يهدف إلا لاستعماركم

واستثماركم والحكومة على الناس، وغصب أراضى الآخرين، وهذه الأعمال الخارقة للعادة وادعاء النبوة كلها لأجل الوصول إلى هذا

الهدف.

ثم قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

يعنى أنهم جلسوا يتشاورون في أمر موسى، ويتبادلون الرأي فيما يجب عليهم اتخاذه تجاهه، لأن مادة «أمر» بمعنى التشاور.

وعلى كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل في أمر موسى وهارون، وأجل قرارك بشأنهما إلى ما بعد، ولكن ابعث من يجمع

لك السحرة من جميع أنحاء البلاد «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ».

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر في حرفته عليم في سحره «يَأْتُوْكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ».

إن هذا الاقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنهم كانوا يريدون افتعال ذريعة سياسية لأي موقف سيتخذونه ضد موسى كما

كانوا يفعلون ذلك في بقیة مواقفهم ونشاطاتهم الشخصية، ولهذا اقترحوا أرجاء أمر قتل موسى وأخيه نظراً لمعجزتيه اللتين أورتنا رغبة في مجموعة كبيرة من الناس نحو دعوته وانحيازهم إليه، ومزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية والشهادة» وأضفت بضم الثانية إلى الاولى - مسحة من القداسة والجادبية عليه وعلى دعوته.

ولهذا فكروا في بداية الأمر في إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة مماثلة، ويسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثم يأمرن بقتله لتنسى قصة موسى وهارون وتمحي عن الأذهان إلى الأبد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٤

وَ حِيَاءَ السَّحَرَةِ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هَنَاكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَ أَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (١٢٢) كيف انتصر الحق في النهاية: في هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النبي موسى عليه السلام وبين السحرة وما آل إليه أمرهم في هذه المواجهة، وفي البداية تقول الآية: إِنْ السَّحَرَةُ بَادَرُوا إِلَى فِرْعَوْنَ بِدَعْوَتِهِ، وَ كَانَ أَوَّلَ مَا دَارَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ فِرْعَوْنَ هُوَ: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدو «وَ جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ».

فوعدهم فرعون وعداً جيداً وقال: إِنَّكُمْ لَنْ تَحْصِلُوا عَلَى الْأَجْرِ السَّخِي فَقَطْ، بل ستكونون من المقربين عندي «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

يستفاد من هذه الآية أنّ التقرب إلى فرعون في ذلك المحيط، وتلك البيئة كان أعلى وأسمى وأهم من المال والثروة، لأنه كان يعنى منزلة معنوية كان من الممكن أن تصبح منشأ لأموال كثيرة وثروات كبيرة.

وفي المال حُدد موعد معين لمواجهة السحرة لموسى، وكما جاء في سورة «طه» و «الشعراء» دُعي جميع الناس لمشاهدة هذا النزال. وحلّ اليوم الموعود، وهياً السحرة كل مقدمات العمل ... حفنة من العصي والحبال التي يبدو أنها كانت معبئة بمواد كيميائية خاصة، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنها تتحول إلى غازات خفيفة تحرك تلك العصي والحبال المجرّفة. وكانت واقعة عجيبة، فموسى وحده (ليس معه إلا أخوه) يواجه تلك المجموعة الهائلة من السحرة، وذلك الحشد الهائل من الناس المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحرة ومؤيديهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٥

فالتفت السحرة في غرور خاص وكبير إلى موسى عليه السلام وقالوا: إِمَّا أَنْ تَشْرَعَ فَتُلْقَى عَصَاكَ، وَإِمَّا أَنْ نَشْرَعَ نَحْنُ فَتُلْقَى عَصَانَا؟ «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ».

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقة والإطمئنان: بل اشرعوا أنتم «قَالَ أَلْقُوا».

وعندما ألقى السحرة بحبالهم وعصيهم في وسط الميدان سحروا أعين الناس، وأوجدوا بأعمالهم وأقوالهم المهرجة ومبالغاتهم خوفاً في قلوب المتفرجين وأظهروا سحراً كبيراً رهيباً: «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ».

«السحر»: تعنى في الأساس الخداع والشعوذة، وقد يطلق أيضاً على كل عامل غامض، ودافع غير مرئي.

في هذه اللحظة التي اعترت الناس فيها حالة من النشاط والفرح، وتعالص صيحات الإبتهاج من كل صوب، وعلت وجوه فرعون وملائته ابتسامه الرضى، ولمع في عيونهم بريق الفرحة، أدرك الوحي الإلهي موسى عليه السلام وأمره بإلقاء العصي وفجأة انقلب المشهد وتغير، وبدت الدهشة على الوجوه، وترعزت مفاصل فرعون وأصحابه كما يقول القرآن الكريم:

«وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ».

«تلقف»: مشتقة من مادة «لَقَفَ» (على وزن سَيْقَف) بمعنى أخذ شيء بقوة وسرعة، سواء بواسطة الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدي، ولكن تأتي في بعض الموارد بمعنى البلع والابتلاع أيضاً، والظاهر أنها جاءت في الآية الحاضرة بهذا المعنى. «يأفكون»: مشتقة من مادة «إفك» على وزن «مسك» وهي تعنى في الأصل الإنصراف عن الشيء، وحيث إن الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ «الإفك».

وفي هذا الوقت ظهر الحق، وبطلت أعمالهم المزيفة: «فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». لأن عمل موسى كان عملاً واقعياً، وكانت أعمالهم حفة من الحيل ومن أعمال الشعبذة، ولا شك أنه لا يستطيع أى باطل أن يقاوم الحق دائماً.

وهذه هي أول ضربة توجهت إلى أساس السلطان الفرعوني الجبار. ثم يقول تعالى في الآية اللاحقة: وبهذه الطريقة ظهرت آثار الهزيمة فيهم، وصاروا جميعاً أذلاء: «فَعُلِّبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ». والضربة الأقوى كانت عندما تغير مشهد مواجهة السحرة لموسى عليه السلام تغييراً كلياً، وذلك عندما وقع السحرة فجأه على الأرض ساجدين لعظمة الله «وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٦

ثم نادوا بأعلى صوتهم و «قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ».

ولم يكن فرعون والملا يتوقعون هذا الأمر مطلقاً.

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّ لَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَنْفِرْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) التهديدات الفرعونية الجوفاء: عندما توجهت ضربة جديدة- بانتصار موسى على السحرة وإيمانهم به- إلى أركان السلطة الفرعونية، استوحش فرعون واضطرب بشدة، لهذا عمد فوراً إلى عمليتين مبتكرتين: في البداية وجه اتهاماً (لعله مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثم هددهم بأشد التهديدات، ولكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السحرة مقاومة عجيبة تجاه هذين الموقفين، وبهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعوني، وقد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

في البداية يقول: إن فرعوناً قال للسحرة: هل آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم «قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ».

وهذه هي أعلى درجات الاستعباد والاستحمار، أن يكون شعب من الشعوب أسيراً وعبداً بحيث لا يحق له حتى التفكير والإيمان القلبي بأحد أو بعقيدة.

وهذا هو البرنامج الذي يواصله «الاستعمار الجديد»، يعنى أن المستعمرين لا يكتفون بالاستعمار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بل يسعون إلى تقوية جذورهم عن طريق الاستعمار الفكري.

ثم يضيف فرعون قائلاً: «إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا».

إن مراد فرعون هو أن هناك مؤامرة مدروسة وتواطؤاً مبيتاً قد دبرتموه قبل مدة للسيطرة على أوضاع مصر واستلام زمام السلطة.

وهذه التهمة كانت خاوية ومفضوحة، إلى درجة أنه لم يكن يفتنع بها إلا العوام والجهلة من الناس.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٧

ثم إن فرعون هددهم بتهديد غامض ولكنه شديد ومحكم، إذ قال: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وفي الآية اللاحقة بين تفاصيل ذلك التهديد الذي هدد به السحرة فاقسم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبهم، إذ قال: «لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّ لَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ».

لقد قاوم السحرة كلتا حربتي فرعون، وأجابوه جواب رجل واحد: إننا نرجع إلى ربنا إذن «قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ». يعنى إذا تحقق

تهديدك الثاني (وهو القتل) فمعناه أننا سننال الشهادة في سبيل الدفاع عن الحق، وهذا لا يوجب ضرراً علينا، ولا ينقصنا شيئاً، بل يُعدّ سعادةً وفخراً عظيماً لنا.

ثم إنهم للرد على تهمة فرعون، ولايضاح الحقيقة لجماهير المتفرجين على هذا المشهد، واثبات براءتهم من أى ذنب، قالوا: إن الإشكال الوحيد الذى تورده علينا هو أننا آمنّا بآيات الله وقد جاءتنا «وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا».

ثم إنهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون وتوجهوا إلى الله سبحانه، وطلبوا منه الصبر والإستقامة، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك العقوبات الثقيلة من دون نصره وتأييده وعونه، لهذا قالوا: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ».

وأخيراً- وكما جاء فى الروايات وكتب التاريخ- استقام اولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفذ فرعون تهديداته، ومثّل بأجسامهم تمثيلاً مروعاً، وصلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل.

أجل، إذا كان الإيمان مقروناً بالوعى الكامل فإنه ينتهى إلى مثل هذا العشق الملتهب الذى لا يكون هذا التفانى فى سبيله مثار للعجب.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسِيحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٨

فى هذه الآيات يبين لنا القرآن الكريم مشهداً آخر من الحوار الذى دار بين فرعون وبين ملئه حول وضع موسى عليه السلام. تقول الآية فى البداية: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ». يستفاد من هذا التعبير أن فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السلام ترك موسى وبنى إسرائيل أحراراً مدّة من الزمن، ولم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة والتبليغ لصالح دين موسى عليه السلام وأن فرعون كانت له معبودات وأصنام.

إن فرعون- بسبب تحذيرات أعوانه وحاشيته- صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل، فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم وتحذيرهم: سأقتل أبناءهم وأستخدم نساءهم ونحن متفوقون عليهم على كل حال: «قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسِيحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ». والآية اللاحقة بينت خطّة موسى التى اقترحها على بنى إسرائيل لمواجهة تهديدات فرعون، وشرح فيها شروط الغلبة على العدو، وذكرهم بأنهم إذا عملوا بثلاث مبادئ انتصروا على العدو حتماً:

أولها: الإتكال على الله فقط «قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ».

والآخر: أن يثبتوا ولا يخافوا من تهديدات العدو: «وَاصْبِرُوا».

وللتأكيد على هذا المطلب، ومن باب ذكر الدليل، ذكرهم بأن الأرض كلها ملك الله وهو الحاكم عليها والمالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

وآخر هذه المبادئ هو أن يعتمدوا التقوى لأنّ العاقبة لمن اتقى «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

هذه المبادئ والشروط الثلاثة ليست شرائط إنتصار قوم بنى إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لابد له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة.

وفى آخر آية من الآيات الحاضرة يعكس القرآن الكريم شكايات بنى إسرائيل وعتابهم من المشكلات التى ابتلوا بها بعد قيام موسى عليه السلام فيقول: «قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا». فإذا متى يحصل الفرج!؟

وكأن بنى إسرائيل مثل كثير منّا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الامور بقيام موسى عليه السلام فى ليلة واحدة....

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٩

ولكن موسى عليه السلام أفهمهم بأنهم سينتصرون فى المآل، ولكن أمامهم طريقاً طويلاً، وإنّ هذا الإنتصار- طبقاً للسنة الإلهية- يتحقق

في ظل الإستقامة والثبات والسعى والإجتهد، كما جاء ذلك في الآية الحاضرة: «قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ».

ثم يقول في ختام الآية: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكُمْ هَذِهِ النِّعْمَةَ، وَأَعَادَ إِلَيْكُمْ حُرِّيَّتَكُمْ الْمَسْلُوبَةَ كَيْ يَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». يعنى سبداً - بعد الإنتصار - مرحلة امتحانكم واختباركم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) العقوبات التنبيهية: لقد كان القانون الإلهي العام في دعوة الأنبياء - كما قلنا في تفسير الآية (٩٤) من نفس هذه السورة - هو أنهم كلما واجهوا معارضة كان الله تعالى يبتلى الاقوام المعاندين بأنواع المشاكل والبلايا، حتى يحسوا بالحاجة في ضمائرهم وأعماق نفوسهم.

وفي أول آية من الآيتين الحاضرتين إشارة إلى نفس هذا المطلب في قصة فرعون، إذ يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ».

ولكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهية، ويستيقظوا من غفلتهم وغفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف والحالة، وفسروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية ومطابقة لرغبتهم، وكانوا يعيشون في راحة واستقرار قالوا: إن الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا وصلاحنا «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ».

ولكن عندما تنزل بهم النوائب فإنهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السلام وجماعته فوراً ويقولون هذا من شؤمهم: «وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ».

ولكن القرآن الكريم قال في معرض الرد عليهم: اعلموا أن منشأ كل شؤم وبلاء أصابكم إنما هو من قبل الله، وأن الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، ولكن أكثرهم لا يعلمون «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦٠

مسألة التطير والتفاؤل والتشاؤم قد تكون منتشرة في مختلف المجتمعات البشرية.

إن هذين الأمرين وإن لم يكن لهما أي أثر طبيعي إلماً أنه يمكن أن يكون لهما أثر نفسي لا- ينكر، وإن التفاؤل غالباً يوجب الأمل والتحرك، والتشاؤم يوجب اليأس والوهن والتراجع. ولعله لأجل هذا لم يئن في الروايات والأحاديث الإسلامية عن التفاؤل، بينما نهى عن التشاؤم بشدة، ففي حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) النوائب المتنوعة: في هاتين الآيتين اشير إلى مرحلة اخرى من الدروس المنبئة التي لقنها الله لقوم فرعون، وفي الآية الاولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النوائب: إِنَّهُمْ بقوا يلجئون في إنكار دعوة موسى، وقالوا: مهما تأتانا من آية وتريد أن تسحرنا بها فإننا لن نؤمن بك: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ».

ولكن حيث إن الله سبحانه لا- يعاقب امية أو قوماً من دون أن يتم عليهم الحجة قال في الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة ومتعددة لعلهم يتنبهون ... فقال أولاً: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ».

«الطوفان»: مشتقة من مادة «الطوف» وتعنى الشئ الذى يطوف ويدور، ثم اطلقت هذه اللفظة على الحادثة التى تحيط بالإنسان.

ثم سلط الجراد على زروعهم وأشجارهم «وَالْجَرَادَ».

وكلما كان يصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام ويسألونه أن يطلب من الله أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان والجراد أيضاً، وقبل موسى عليه السلام، وارتفع عنهم البلاء ولكنهم مع ذلك لم يكفوا عن لجاجهم وتعنتهم.

وفي المرة الثالثة سلط عليهم القمل «وَالْقُمَّلَ».

والمراد من «القمل» نوع من الآفات الزراعية التي تصيب الغلات وتفسدها وتتلّفها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦١

وعندما خفت أمواج هذا البلاء، واستمرّوا في عنادهم سلط الله عليهم في المرحلة الرابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايداً شديداً حتى أنّه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: «وَالضَّفَادِعَ».

ولكنهم مع ذلك لم يخضعوا للحق ولم يسلموا.

وفي هذا الوقت بالذات سلط الله عليهم «الدّم».

وقال تعالى في ختام ذلك: إِنَّ هَذِهِ آيَاتُ الْمَعَاجِزِ الْبَاهِرَةِ - رغم أنّها أظهرت لهم حقانيه موسى - ولكنهم استكبروا عن قبول الحق وكانوا مجرمين. «آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوقُوبَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) نقض العهد المتكرر: في هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين في مقابل النوائب والبلايا المتبّهة الإلهية، وفي الآية

الاولى نقرأ: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ».

إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى ويطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، وأن يفى الله بما وعده له من استجابته دعائه: «عَهِدَ عِنْدَكَ».

ثم يقولون: إذا دعوت فرفع عنا البلاء فإننا نحلف لك بأن نؤمن بك، ونرفع طوق العبودية عن بني إسرائيل: «لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ».

«الرجز»: استعملت في معاني كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن والوثنية، وسوسة الشيطان، والثلج أو البرد الصلب.

والمراد من عبارة «بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» ومن ذلك العهد الإلهي الذي أعطاه سبحانه لموسى هو أن يستجيب دعائه إذا دعاه.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى نقضهم للعهد ويقول: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦٢

بِالْعُوقُوبَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ» (١). إنّ جملة «إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوقُوبَةِ» إشارة إلى أنّ موسى حدّد لهم وقتاً وعين أمداً، فكان يقول لهم: في الوقت

الفلاني سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتضح لهم أنّ ارتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمراً اتفاقياً وصدفة، بل هو بفضل دعائه وطلبه من الله تعالى.

وآخر هذه الآيات تبين - من خلال جملتين قصيرتين - عاقبة كل هذا التعت، ونقض العهد، فتقول بصورة مجملّة: «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ».

ثم تشرح هذا الانتقام وتذكر تفصيله: «فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ». الانتقام يعنى العقوبة والمجازاة.

والمقصود من الانتقام الإلهي هو أنّ الجماعة الفاسدة وغير القابلة للإصلاح لا يحق لها الحياة في نظام الخلق، ولا بد أن تمحى من صفحة الوجود.

وَأُورَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسَيْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) قوم فرعون والمصير المؤلم: بعد هلاك قوم فرعون، وتحطّم

قدرتهم، وزوال شوكتهم، ورث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم في أغلال الأسر والعبودية أراضي الفراعنة الشاسعة والآية الحاضرة تشير إلى هذا الأمر: «وَأُورَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا».

والمقصود من العبارة هو حكومة بني إسرائيل على كل اراضي الفراعنة وبلادهم.



والتعبير بـ «كَانُوا يُشْتَضُّ عَفُونَ» إشارة إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بني إسرائيل في حالة ضعف دائمية: ضعف فكري وضعف أخلاقي وضعف اقتصادي، ومن جميع الجهات وفي جميع النواحي. والتعبير بـ «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا» إشارة إلى الأراضي الواسعة العريضة التي كانت تحت تصرف الفرعونيين.

(١) «النكت»: على وزن مَكْث، يعني فل الحبل المفتول، ثم اطلق على نقض الميثاق والعهد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٣

وجملة «بَارَكْنَا فِيهَا» إشارة إلى الخصب العظيم الذي كانت تتمتع به هذه المنطقة- يعني مصر والشام.

ثم يقول: «وَوَتَّمَّتْ كَلِمَتِ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا». أي تحقق الوعد الإلهي لبني إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم وثباتهم.

ثم يضيف في آخر الآية: نحن الذين دمروا قصور فرعون وقومه العظيمة، وأبنيتهم الجميلة الشامخة، وكذا بساتينهم ومزارعهم العظيمة «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ».

«صنع»: يعنى الأعمال الجميلة، وقد وردت هذه اللفظة في الآية الحاضرة بمعنى الهندسة الجميلة الرائعة التي كان يستخدمها الفرعونيين في أبنيتهم.

«يعرشون»: في الأصل تعنى الأشجار والبساتين التي تنصب بواسطة العروش والسقف، ولها جمال عظيم وروعة باهرة.

«دمرنا»: من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك والإبادة.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) الاقتراح على موسى بصنع الوثن: في هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصصه بني إسرائيل التي بدأت في أعقاب الانتصار على الفرعونيين، وذلك هو مسألة توجه بني إسرائيل إلى الوثنية التي بحثت بداياتها في هذه الآيات، وجاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصلة في سورة طه من الآية (٨٦-٩٧)، وبصورة مختصرة في الآية (١٤٨) فما بعد من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٤

في الآية الاولى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ». أي النيل العظيم.

ولكن في مسيرهم مروا على قوم يعبدون الأصنام: «فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ». «عاكف»: مشتقة من مادة «العكوف» بمعنى التوجه إلى شيء وملازمته المقارنة لإحترامه وتبجيله.

فتأثر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدة إلى درجة قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتخذ لنا معبوداً على غرار معبودات هؤلاء: «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ».

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الاقتراح الأحمق بشدة، وقال لهم: «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». لأن منشأ الوثنية هو جهل البشر.

وفي الآية اللاحقة نقرأ أن موسى عليه السلام- لتكميل حديثه لبني إسرائيل- قال: إن هذه الجماعة الوثنية التي ترونها سينتهى أمرها إلى الهلاك، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له «إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فعمل هذه الجماعة باطل، وجهودهم غير منتجة، كما أن مصير مثل هؤلاء القوم وكل قوم وثنيين ومشركين هو الهلاك والدمار.

ثم تضيف الآية التوكيد: إن موسى عليه السلام «قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

وفي الآية اللاحقة يذكر القرآن الكريم إحدى النعم الإلهية الكبرى التي وهبها الله سبحانه لبني إسرائيل، ليعبث بالالذات إلى هذه

النعمة الكبرى حس الشكر فيهم، وليعلموا أن اللاتق بالخضوع والعبادة هو الذات الإلهية المقدسة فحسب، يقول في البداية: تذكروا يوم أنجيناكم من مخالبا آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائماً «وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ». ثم تمشياً مع أسلوب القرآن في بيان الامور بتفصيل بعد إجمال شرح هذا العذاب المستمر، وهو: قتل الأبناء، واستبقاء النساء للخدمة والإسترقاق «يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَ كُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُمْ». وقد كان في هذا اختبار عظيم من الله لكم «وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦٥

وَإِعْدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) الميعاد الكبير: في هذه الآية إشارة إلى مشهد من مشاهد حياة بنى إسرائيل، ومشكلة موسى عليه السلام معهم، وذلك هو قصة ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وتلقى أحكام التوراة عن طريق الوحي وكلامه مع الله، والتي ذكرت بعد قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل وانحرافهم عن مسير التوحيد، وضجة السامري العجبية. يقول تعالى أولاً: «وَإِعْدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

هذه الأيام الأربعون بدأت من أول شهر ذى القعدة وختمت باليوم العاشر من شهر ذى الحجة (عيد الأضحى).

«الميقات»: مشتقة من مادة «الوقت» بمعنى الموعد المضروب للقيام بعمل ما، ويطلق عادة على الزمان، ولكنه قد يطلق على المكان الذي يجب أن يتم العمل فيه، مثل «ميقات الحج» يعنى المكان الذى لا يجوز أن يجتازه أحد إلا محرماً. ثم ذكرت الآية أن موسى استخلف هارون وأمره بالإصلاح فى قومه، وأن لا يتبع سبيل المفسدين: «وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ».

حديث المنزلة: أشار كثير من المفسرين الشيعة والسنة - فى ذيل الآية مورد البحث - إلى حديث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أن الشيعة اعتبروا هذا الحديث من الأدلة الحية والصريحة على خلافة على عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة وبلا فصل.

ولكى يتضح هذا البحث ندرج هنا أولاً أسانيد ونص هذا الحديث باختصار، ثم نبحت فى دلالاته.

أسانيد حديث المنزلة: روى جمع كبير من صحابة النبى صلى الله عليه وآله حول غزوة تبوك: أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفنى فى الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبى بعدى».

وهذا النص ورد فى أوثق الكتب الحديثية لدى أهل السنة، يعنى صحيح البخارى وعن سعد بن أبى وقاص «١».

(١) صحيح البخارى ١٢٩ / ٥.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦٦

وقد روى هذا الحديث - أيضاً - فى صحيح مسلم الذى يعد من المصادر الرئيسية عن أهل السنة: خلف رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى» «١».

وقد ورد عين هذا الموضوع فى سنن ابن ماجه أيضاً «٢».

وقد أضيف فى سنن الترمذى مطلب آخر، وهو عن سعد بن أبى وقاص عن أبىه قال:

أمر معاوية بن أبى سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أباً تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله صلى الله عليه وآله فلن

أسببه، لئن تكون لي واحدة منهم أحب إلي من حُمُر النعم. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي وخلفه في بعض مغازيه؟ فقال له يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى». وسمعت يقول يوم خيبر: «لاعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». قال: فتناولنا لها. فقال: «ادعوا لي علياً». قال فأتاه وبه رمد فبصق في عينه فدفع الراية إليه ففتح الله عليه. وأنزلت هذه الآية «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم» الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» (٣).

وقد أشير إلى هذا الحديث في (١٣) موارد من مسند أحمد بن حنبل، تارة ذكرت فيه غزوة تبوك، وتارة من دون ذكر غزوة تبوك بل بصورة كلية (٤).

والجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يروه سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وآله وحده، بل رواه - أيضاً - مجموعة كبيرة من الصحابة الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصاً منهم:

جابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأسماء بنت عميس، وابن عباس، وأم سليم، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب، والأجدر بالذكر أن هذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وآله معاوية بن أبي سفيان، وعمر بن الخطاب أيضاً.

(١) صحيح مسلم ٧ / ١٢٠.

(٢) سنن ابن ماجه ١ / ٤٥.

(٣) سنن الترمذى ٥ / ٣٠١.

(٤) مسند أحمد بن حنبل ١ / ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٤ و ١٨٥ و ٣٣١ و ٣ / ٣٢؛ و ٦ / ٣٦٩ و ٤٣٨.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦٧

حديث المنزلة في سبعة مواضع: النقطة الاخرى، إن النبي صلى الله عليه وآله - وخلافاً لما يتصوره البعض - لم يقل هذا البحث في علي عليه السلام في غزوة تبوك فقط، بل قال هذه العبارة في عدة مواضع منها:

١- في المؤاخاة الاولى: يعنى في المرة الاولى التي آخى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بين المهاجرين واختار علياً عليه السلام في هذه المؤاخاة لنفسه وقال: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى» (١).

٢- في يوم المؤاخاة الثانية: لما آخى النبي صلى الله عليه وآله بين أصحابه، قال علي: لقد ذهب روحى وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري فإن كان هذا من سخط علي فلك العتبي والكرامة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذى بعثني بالحق ما أخرجتكم إلا للنفسى وأنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدى وأنت أخي ووارثي» قال: وما أرت منك يا رسول الله؟ قال: «ما ورث الأنبياء من قبلي». قال: وما ورث الأنبياء من قبلك؟

قال: «كتاب ربهم وسنة نبهم وأنت معي في قصرى في الجنة مع فاطمة بنتى وأنت أخي ورفيقي» (٢).

٣- أم سليم - التي كانت على جانب من الفضل والعقل، وكانت تعد من أهل السوابق، وهي من الدعاة إلى الإسلام، واستشهد أبوها وأخوها بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وفارقت زوجها لأنه أبى أن يعتنق الإسلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يزورها في بيتها ويسليها - تروى أم سليم هذه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها ذات يوم: «إن علياً لحمه من لحمى ودمه من دمي، وهو مني بمنزلة هارون من موسى» (٣).

٤- عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: كفووا عن ذكر علي بن أبي طالب فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: في علي ثلاث خصال لئن يكون لي واحدة منهم أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة ابن الجراح ونفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله والنبي صلى الله عليه وآله متكئ على علي بن أبي طالب حتى ضرب بيده على منكبه ثم

قال: «أنت يا علي أول المؤمنين إيماناً، وأولهم إسلاماً». ثم قال: «وأنت مني بمنزلة هارون من موسى وكذب علي من زعم أنه يحبني ويبغضك» (٤).

(١) كنز العمال ٥ / ٧٢٤.

(٢) كنز العمال ٩ / ١٦٧ / ٢٥٥٥٤.

(٣) كنز العمال ١١ / ٦٠٧.

(٤) كنز العمال ١٣ / ١٢٢.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦٨

٥- عن هانئ بن هانئ عن علي عليه السلام قال: لما صدرنا من مكة إذا ابنه حمزة تنادى: يا عم يا عم، فتناولها علي عليه السلام عنه وأخذها فقال لصاحبه: دونك ابنه عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنه عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنه أخي. فقضى رسول الله صلى الله عليه وآله لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، ثم قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون وأنا منك» (١). ٦- عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي إنه يحل لك في المسجد ما يحل لي وإنك مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (٢).

هذه الموارد الستة هي غير غزوة تبوك، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنة، وإلا فإن هناك في الروايات المروية عن طريق الشيعة موارد أخرى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله هذه العبارة في شأن علي عليه السلام أيضاً.

من مجموع ذلك يستفاد أن حديث المنزلة لم يكن مختصاً بغزوة تبوك، بل هو أمر عام ودائم في شأن علي عليه السلام. ومن هنا يتضح أيضاً أن ما تصوره بعض علماء السنة مثل «الأمدي» من أن هذا الحديث يتكفل حكماً خاصاً في مجال خلافة علي عليه السلام وأنه يرتبط بظرف غزوة تبوك خاصة، ولا يرتبط بغيره من الظروف والأوقات، تصور باطل أساساً، لأن النبي صلى الله عليه وآله كثر هذه العبارة في مناسبات متنوعة مما يفيد أنه كان حكماً عاماً.

محتوى حديث المنزلة: لو درسنا- بموضوعية وتجرد- هذا الحديث، وتجنبنا الأحكام المسبقة والتحججات الناشئة من العصبية، لاستفدنا من هذا الحديث أن علياً عليه السلام كان له- بموجب هذا الحديث- جميع المنازل التي كانت لهارون في بني إسرائيل- إلا النبوة.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

(١) خصائص النسائي / ٨٨.

(٢) ينابيع المودة / ١ / ٢٦٠.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٦٩

المطالبة برؤية الله: في هذه الآيات والآيات اللاحقة يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياة بني إسرائيل، وذلك عندما طلب جماعة من بني إسرائيل من موسى عليه السلام- بالبحاح وإصرار- أن يروا الله سبحانه، وأنهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه واصطحبهم معه إلى ميقات ربه، وهناك رفع طلبهم إلى الله سبحانه، فسمع جواباً أوضح لبني إسرائيل كل شيء في هذا الصعيد. ففي الآيات الحاضرة يقول أولاً:

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ».

ولكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الربوبي: كلا، لن ترانى أبداً «قَالَ لَنْ تَرِيَنِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِيَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا» (١).

فلما رأى موسى هذا المشهد الرهيب تملكه الرعب إلى درجة أنه سقط على الأرض مغمى عليه «وَحَرَ مُوسَى صَبَعًا».

وعندما أفاق قال: رباه سبحانك، أنبت إليك، وأنا أول من آمن بك «فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ».

هل يمكن رؤية الله أساساً؟ نقرأ في الآية الحاضرة أن الله سبحانه قال لموسى: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِيَنِي» فهل مفهوم هذا الكلام هو أن الله قابل للرؤية أساساً؟

الجواب هو أن هذا التعبير هو كناية عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة «حَتَّى يَلْتَمِسَ الْجَبَلَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» وحيث كان من المعلوم أن الجبل يستحيل أن يستقر في مكانه عند تجلّى الله له، لهذا ذكر هذا التعبير، كما أن مفهوم جملة «لَنْ تَرِيَنِي» إنك لا ترانى لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر.

وعلى هذا الأساس، إذا جاء في الأحاديث والأخبار الإسلامية أو الآيات القرآنية عبارة «لقاء الله» فإن المقصود هو المشاهدة بعين القلب والعقل.

(١) «دك»: في الأصل بمعنى سوى الأرض، وعلى هذا فالمقصود من عبارة «جعله دكاً» هو أنه حطم الجبال وسواها كالأرض وجاء في بعض الروايات أن الجبل تناثر أقساماً، سقط كل قسم منه في جانب أو غار في الأرض وتلاشى نهائياً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٠

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُدُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ألواح التوراة: وفي النهاية أنزل الله شرائع وقوانين دينه على موسى عليه السلام. ففي البداية:

«قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي».

فإذا كان الأمر كذلك «فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

إن هدف الآية هو بيان امتيازين كبيرين لموسى على الناس: أحدهما تلقى رسالات الله وتحملها والآخر التكلم مع الله وكلا هذين الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمة.

ثم أضاف تعالى واصفاً محتويات الألواح التي أنزلها على موسى عليه السلام بقوله: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ».

ثم أمره بأن يأخذ هذه التعاليم والأوامر مأخذ الجد، ويحرص عليها بقوة «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ».

وأن يأمر قومه أيضاً بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُدُوا بِأَحْسَنِهَا».

كما يحذرهم بأن مخالفة هذه الأوامر والتعاليم والفرار من المسؤوليات والوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، وأن عاقبتها هي جهنم وسوف يرى الفاسقون مكانهم «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ».

بحوث

١- يستفاد من الآيات القرآنية المتنوعة أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام وكان تكليم الله لموسى عن طريق خلق أمواج صوتية في الفضاء أو في الأجسام، وربما انبعثت هذه الأمواج الصوتية من خلال «شجرة الوادي الأيمن» وربما من «جبل طور» وتبلغ مسمع موسى.

٢- يستفاد من عبارة «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً» أنه لم تكن جميع المواعظ والمسائل موجودة في ألواح موسى عليه السلام لأن الله يقول: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧١

وهذا لأجل أن دين موسى عليه السلام لم يكن آخر دين، ولم يكن موسى عليه السلام خاتم الأنبياء ومن المسلم أن الأحكام الإلهية التي نزلت كانت في حدود ما يحتاجه الناس في ذلك الزمان، ولكن عندما وصلت البشرية إلى آخر مرحلة حضارية للشرايع السماوية نزل آخر دستور إلهي يشمل جميع حاجات الناس المادية والمعنوية.

وتتضح من هذا أيضاً علة تفضيل مقام على عليه السلام على مقام موسى عليه السلام في بعض الروايات، وهي أن علياً عليه السلام كان عارفاً بجميع القرآن، الذي فيه تبيان كل شيء «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» في حين أن التوراة لم يرد فيها إلا بعض المسائل.

٣- في مجال قوله: «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» الظاهر أن المقصود منها هو جهنم، وهي مستقر كل اولئك الذين يخرجون من طاعة الله، ولا يقومون بوظائفهم الإلهية. سأضرب عن آياتي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) مصير المتكبرين: البحث في هاتين الآيتين هو نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون وملئه والعصاة من بنى إسرائيل، فقد بين الله في هذه الآيات الحقيقة التالية وهي: إذا كان الفراعنة أو متمردو بنى إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدته كل تلك المعاجز والبيانات، وسماع كل تلك الحجج والآيات الإلهية، فذلك بسبب أننا نصرف المتكبرين والمعاندين للحق - بسبب أعمالهم - عن قبول الحق. ولهذا يقول أولاً:

«سَأُضْرِبُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ».

ثم أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» وكيفيه سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الاولى قوله تعالى: «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَا» إنهم لا يؤمنون حتى ولو رأوا جميع المعاجز والآيات، والثانية: «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» والثالثة إنهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٢

على العكس: «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا». بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها وأسبابها، فقال: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ».

ثم تبين الآية اللاحقة عقوبته مثل هؤلاء الأشخاص وتقول: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ».

«الحبط»: يعنى بطلان العمل وفقدانه للأثر والخاصية، يعنى أن مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيراً فإن عملهم لن يعود عليهم بنتيجة. وفي ختام الآية أضاف بأن هذا المصير ليس من باب الإنتقام منهم، إنما هو نتيجة أعمالهم هم، بل هو عين أعمالهم ذاتها وقد تجسمت أمامهم «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إن هذه الآية نموذج آخر من الآيات القرآنية الدالة على تجسم الأعمال، وحضور أعمال الإنسان خيرها وشرها يوم القيامة.

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَعْفُرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) اليهود وعبادتهم للعجل: في هذه الآيات يقص القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، وفي نفس الوقت العجيبة التي وقعت في بنى إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، وهي قصة عبادتهم للعجل التي تمت على يد شخص يدعى «السامري» مستعيناً بحلى بنى إسرائيل وما كان عندهم من آلات الزينة. وفي الآية الحاضرة يقول القرآن الكريم أولاً: إن قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى ميقات ربه صنعوا من حليهم عجلًا، وكان مجرد تمثال لا روح فيه، ولكنه كان له صوت كصوت البقر، واختاروه معبوداً لهم:

«وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ».

كيف كان للعجل الذهبي خوار؟ و «الخوار» هو الصوت الخاص الذي يصدر من البقر أو العجل، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن السامري بسبب ما كان عنده من معلومات وضع

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٣

أنايب خاصه في باطن صدر العجل الذهبي، كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبي شبيه بصوت البقر.

ثم يقول القرآن الكريم معاتباً وموبخاً: ألم ير بنو إسرائيل أن هذا العجل لا يتكلم معهم ولا يهديهم لشيء، فكيف يعبدونه؟ «ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً». يعني أن المعبود الحقيقي هو من يعرف - على الأقل - الحسن والقيح، وتكون له القدرة على هداية أتباعه، ويتحدث إلى عبده ويهديهم سواء السبيل، ويعرفهم على طريقة العبادة. إنهم ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا يقول في ختام الآية: «اتخذوه وكانوا ظالمين».

بيد أنه برجع موسى عليه السلام إليهم، واتضح الأمر عرف بنو إسرائيل خطأهم، وندموا على فعلهم، وطلبوا من الله أن يغفر لهم، وقالوا: إذا لم يرحمنا الله ولم يغفر لنا فإننا لا شك خاسرون «ولمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضَعُّعُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل: في هاتين الآيتين بين تعالى بالتفصيل ما جرى بين موسى عليه السلام وبين عبدة العجل عند عودته من ميقاته المشار إليه في الآية السابقة. فهاتان الآيتان تعكسان ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة التي أدت إلى يقظة هذه الجماعة. يقول في البدء: ولما عاد موسى عليه السلام إلى قومه غضبان مما صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضيعتم ديني وأسأتم الخلافة «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي». والمراد هو أنكم تعجلتم في الحكم بالنسبة إلى أمر الله تعالى في قضية تمديد مدة الميقات من ثلاثين إلى أربعين، فاعتبرت عدم مجيئي في المدة المقررة - أولاً - دليلاً على موتي، في حين كان يتعين عليكم أن تترثوا وتنتظروا قليلاً ريثما تمر أيام ثم تتضح الحقيقة. مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٤

فهنا لا بد أن يظهر موسى عليه السلام غضبه الشديد إذ العودة إلى الحق والصواب عسيرة في غير هذه الصورة. إن القرآن يستعرض ردة فعل موسى الشديدة في قبال ذلك المشهد وفي تلك الأزمة، إذ يقول: إن موسى ألقى ألواح التوراة التي كانت بيده، وعمد إلى أخيه هارون وأخذ برأسه ولحيته وجرهما إلى ناحيته ساخطاً غاضباً.

وفي الحقيقة كان هذا الموقف يعكس - من جانب - حالة موسى عليه السلام النفسية، وانزعاجه الشديد تجاه وثية بنى إسرائيل وانحرافهم، ومن جانب آخر كان ذلك وسيلة مؤثرة لهز عقول بنى إسرائيل الغافية، والفاتهم إلى بشاعة عملهم.

ثم إن القرآن الكريم ذكر أن هارون قال - وهو يحاول استعطف موسى وإثبات برائته في هذه المسألة -: يابن ام هذه الجماعة الجاهلة جعلوني ضعيفاً إلى درجة أنهم كادوا يقتلونني، فإذن أنا بريء، فلا تفعل بي ما سيكون موجباً لشماتة الأعداء بي ولا تجعلني في صف هؤلاء الظالمين «قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضَعُّعُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

لقد هدا غضب موسى عليه السلام بعض الشيء، وتوجه إلى الله «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

إن طلب موسى عليه السلام العفو والمغفرة من الله تعالى لنفسه ولأخيه، لم يكن لذنب اقترافه، بل كان نوعاً من الخضوع لله، والعودة إليه، وإظهار النفرة من أعمال الوثنيين القبيحة، وكذا لإعطاء درس عملي للجميع حتى يفكروا ويروا إذا كان موسى وأخوه - وهما لم

يقتربا إنحرافاً- يطلبان من الله العفو والمغفرة هكذا، فالأجدر بالآخرين أن ينتهبوا ويحاسبوا أنفسهم، ويتوجهوا إلى الله ويسألوه العفو والمغفرة لذنوبهم. وقد فعل بنو إسرائيل هذا فعلاً- كما تفيد الآيتان السابقتان.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُشَيْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٥

لقد فعلت ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة فعلتها في المال فقد ندم عبده العجل الإسرائيليون- وهم أكثرية القوم- على فعلهم، وقد طرح هذا الندم في عدة آيات قبل هذه الآية أيضاً (الآية ١٤٩) ومن أجل أن لا يتصور أن مجرد الندم من مثل هذه المعصية العظيمة يكفي للتوبة، يضيف القرآن الكريم قائلاً: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». وهكذا لأجل أن لا يتصور أن هذا القانون يختص بهم أضاف قائلاً: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ».

إن التعبير «اتخذوا» إشارة إلى أن الوثن ليس له أية واقعية، ولكن انتخاب عبدة الأوثان هو الذي أعطاه تلك الشخصية والقيمة الوهمية، ولهذا أتى بكلمة «العجل» وراء هذه الجملة فوراً، يعني أن ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتى بعد انتخابه للعبادة.

وفي الآية اللاحقة يكمل القرآن الكريم هذا الموضوع ويقول في صورة قانون عام:

«وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ» فالذين يتوبون من بعد السيئة وتتوفر كل شروط التوبة لديهم يغفر الله لهم ويعفو عنهم.

الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة تقول: ولما سكن غضب موسى عليه السلام وحصل على النتيجة التي كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التي كانت تحتوى- من أولها إلى آخرها- على الرحمة والهداية، رحمة وهداية للذين يشعرون بالمسؤولية، والذين يخافون الله، ويخضعون لأوامره وتعاليمه: «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُشَيْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ».

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَنَحْنُ فَاعْفُوْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَ اَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هِدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عِدَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٦

مندوبو بنى إسرائيل في الميقات: في الآيتين الحاضرتين يعود القرآن الكريم مرّة اخرى إلى قصة ذهاب موسى إلى الميقات «الطور» في صحبة جماعة، ويقص قصماً آخر من تلك الحادثة. فقد قال القرآن الكريم في الآيتين الحاضرتين أولاً: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا».

ولكن بنى إسرائيل حيث إنهم سمعوا كلام الله طلبوا من موسى عليه السلام أن يطلب من الله تعالى أن يريهم نفسه- لبنى إسرائيل- جهره، وفي هذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظيم وهلك الجماعة، ووقع موسى عليه السلام على الأرض مغشياً عليه، وعندما أفاق قال: ربّاه لو شئت لأهلكنا جميعاً، يعنى بماذا أجيب قومي لو هلك هؤلاء: «فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ».

ثم قال: ربّاه إن هذا المطلب التافه إنّما هو فعل جماعة من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم:

«أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا».



ثم إن موسى عليه السلام قال في عقيب هذا التضرع والطلب من الله: رباه إني أعلم أن هذا كان اختبارك وامتحانك، فأنت تضلّ من تشاء (وكان مستحقاً لذلك) وتهدى من تشاء (وكان لائقاً لذلك) «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» وإختبارك.

وفي ختام الآية يقول موسى عليه السلام: رباه: «أَنْتَ وَآئِنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ».

من مجموع الآيات والروايات يستفاد أن الهالكين قد استعادوا حياتهم في المال وعادوا برفقة موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وقصّوا عليهم كل ما سمعوه وشاهدوه، وأخذوا في إرشاد الغافلين الجاهلين وهدايتهم.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى طلب موسى عليه السلام من ربه وتكميل مسألة التوبة التي ذكرت في الآيات السابقة، يقول موسى: «وَآكُتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ».

«الحسنة»: تعني كل خير وجمال، وعلى هذا الأساس تشمل جميع النعم، وكذا التوفيق للعمل الصالح، والمغفرة، والجنة، وكل نوع من أنواع السعادة.

ولقد أجاب الله - في النهاية - دعاء موسى عليه السلام وقبّل توبته، ولكن لا بصورة مطلقة، بل جاء ذلك في ختام الآية مشروطاً بشروط، إذ يقول: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ» وكان مستحقاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٧

ثم يضيف تعالى قائلاً: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ».

إن هذه الرحمة الواسعة يمكن أن تكون إشارة إلى أنواع الرحمة المادية والمعنوية، لأن النعم المعنوية لا تختص بقوم دون قوم، وإن كان لها شرائط تتوفر لدى الجميع.

ولكن حتى لا يظن أحد أن قبول التوبة، أو سعة الرحمة الإلهية وشموليتها، غير مقيدة وغير مشروطة، ومن دون حساب أو كتاب، يضيف في ختام الآية: سرعان ما أكتب رحمتي للذين تتوفر فيهم ثلاثة أمور: اتقوا، وآتوا الزكاة، وآمنوا بآياتي «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ».

«التقوى»: إشارة إلى إجتنب كل معصية وإثم.

«الزكاة»: مرادة هنا بمعناها الواسع، وحسب الحديث المعروف «لكل شيء زكاة» يشمل جميع الأعمال الصالحة والطيبة.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) اتبعوا هذا النبي: هذه الآية تكمل الآية السابقة التي تحدثت عن صفات الذين تشملهم الرحمة الإلهية الواسعة، أي من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، وأداء الزكاة، والإيمان بآيات الله. وفي هذه الآية يذكر صفات أخرى لهم من باب التوضيح، وهي اتباع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وإن لم يكن مكلفاً بالدعوة والتبليغ، ولكن الرسول مضافاً إلى كونه آله وإتباع دينه، ولهذا يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ».

ثم يبين ست صفات لهذا الرسول مضافاً إلى مقام الرسالة:

١- أنه نبي الله «النبي».

والنبي يطلق على كل من يبين رسالة الله إلى الناس، ويوحى إليه وإن لم يكن مكلفاً بالدعوة والتبليغ، ولكن الرسول مضافاً إلى كونه نبياً - مكلف بالدعوة إلى دين الله، وتبليغه والإستقامة في هذا السبيل.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٨

٢- أنه نبي أمي لم يتعلم القراءة والكتابة، وقد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكة أم القرى قاعدة التوحيد الأصلية: «الأمي».

٣- ثم إن هذا النبي هو «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ».

٤- ومن سمات هذا النبي أنّ دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقةً كاملةً، فهو يدعو إلى كل الخيرات وينهى عن كل الشرور والممنوعات العقلية: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ».

٥- كما أنّ محتوى دعوته منسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمة ويحرم ما تنفر منه «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ».

٦- أنّه ليس كأدعياء النبوة والرسالة الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار والاستثمار والاستغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنّّه يرفع عنهم إصرهم والأغلال التي تكبل عقولهم وأفكارهم وتنقل كاهلهم «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» (١).

وبما إنّ هذه الصفات الست بالاضافة إلى الصفة السابعة وهي مقام الرسالة تشكّل من حيث المجموع علامة واضحة ودليل قاطع على صدق دعواه، فيضيف القرآن الكريم:

«فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

بحثنان

١- خمسة أدلة على النبوة في آية واحدة: الأول: أنّه «أمي» لم يدرس، ولكنه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام في التاريخ البشري.

الثاني: أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة في الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علماً لدى المرء بحقانيته ....

الثالث: أنّ محتويات دعوته تنسجم انسجاماً كاملاً مع العقل.

الرابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم والفطرة السوية.

الخامس: لو لم يكن من جانب الله لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصة، وفي هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال والسلاسل عن الناس، بل عليه أن يقيهم في حالة الجهل والغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، في حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل والغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم والمعرفة.

(١) «الإصر»: يعنى في الأصل عقد الشيء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٧٩

أغلال الوثنية والخرافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد.

أغلال التمييز بكل أنواعه، والحياة التطبيقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلى الأخوة الدينية والإسلامية، والمساواة أمام القانون. وهكذا سائر الأغلال الأخرى.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانية دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح وأقوى.

٢- البشارات بظهور النبي في العهدين: إنّ الشواهد التاريخية القطعية، وكذا محتويات كتب اليهود والنصارى المقدسة (التوراة والإنجيل) تفيد أنّ هذه الكتب ليست هي الكتب السماوية التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام وأنّ يد التحريف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس واندثر، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هي إلا خليط من نساخ الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام مما بقي في أيدي تلامذتهم.

ولكن مع هذا فإنّه يلحظ في ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمن اشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النبي العظيم.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ

الْأُمَّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) دعوة النبي العالمية: في تفسير الصافي عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا محمد! أنت الذي تزعم أنك رسول الله، وأنك الذي يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبي ساعة ثم قال: «نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين». قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فأنزل الله هذه الآية التي صرحت بأن رسالة النبي صلى الله عليه وآله رسالة عالمية.

وفي البداية يأمر الله تعالى رسول الله قائلاً: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٠

مختصر الامثل ج ٢ ١٩٩

إن هذه الآية مثل آيات كثيرة أخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم إنه وصف الإله الذي يدعو إليه النبي صلى الله عليه وآله بثلاث صفات:

١- «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فله الحاكمية المطلقة.

٢- «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فلا معبود يليق للعبادة سواه.

٣- «يُحْيِي وَيُمِيتُ» بيده نظام الحياة والموت.

وفي الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان بالله وبرسوله الذي لم يتعلم القراءة والكتابة والقائم من بين الناس «فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ».

النبي الذي لا يكتفى بدعوة الآخرين إلى هذه الحقائق فحسب، بل يؤمن هو في الدرجة الأولى - بما يقول، يعنى الإيمان بالله وكلماته «الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ».

إنه لا يؤمن فقط بالآيات التي نزلت عليه، بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقية للأنبياء السابقين.

إن تاريخ النبي صلى الله عليه وآله برمته يشهد بهذه الحقيقة وهي أنه صلى الله عليه وآله كان أكثر من غيره التزاماً بالتعاليم التي جاء بها.

أجل، لا بد لكم من اتباع مثل هذا النبي حتى تسطع أنوار الهداية على قلوبكم، لتهدتوا إلى طريق السعادة «وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

وهذا إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد الإيمان، وإنما يفيد الإيمان إذا اقترن بالاتباع العملي.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَعْنَا لَهُمْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ ائْتْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَبِيبَاتِ مِآ رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) جانب من نعم الله على بني إسرائيل: في الآيات الحاضرة إشارة إلى حقيقة رأينا نظيرها في القرآن الكريم، وهذه الحقيقة هي تحرى القرآن للحق، واحترامه لمكانة الأقليات

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨١

الدينية الصالحة، يعنى أنه لم يكن ليصف جميع بني إسرائيل بأسرهم بالفساد والإفساد، وبأن هذا العرق القومى برمته ضال متمرّد من دون إستثناء، بل اعترف بأن منهم أقلية صالحة غير موافقة على أعمال الأكثرية، وقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهؤلاء فيقول: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إن هذه الآية تشير إلى الأقلية اليهودية الذين كانوا يعيشون في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله والذين اعتنقوا الإسلام تدريجاً وبعد مطالعة دعوة النبي ومحتوى رسالته، وانضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين.

وفي الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نعم الله على بني إسرائيل.

فيقول أولاً: «وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّةً». وهذا التقطيع والتقسيم إنما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل، بعيد عن المصادمات الخشنة.

«أسباط»: جمع «سبط» (بفتح السين وبكسرهما) تعني في الأصل الإنبساط في سهوله، ثم يطلق السبط والأسباط على الأولاد وبخاصة الأحفاد لأنهم امتداد العائلة.

والمراد من الأسباط - هنا - هو قبائل بنى إسرائيل وفروعها، الذين كان كل واحد منها منشعباً ومنحدرًا من أحد أولاد يعقوب عليه السلام.

والنعمة الأخرى هي: أنه عندما كان بنو إسرائيل متوجهين إلى بيت المقدس وأصابهم العطش الشديد الخطير في الصحراء، وطلبوا من موسى عليه السلام الماء، أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر ... ففعل فنبع الماء فشربوا ونجوا من الهلاك «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا».

وقد كانت الينابيع هذه مقسمة بين أسباط بنى إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذي يشرب منه «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ». والنعمة الثالثة هي: أن الله تعالى أرسل لهم - في تلك الصحارى الملتبته حيث لا سقف ولا ظلال - سحبا ظللتهم «وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ».

والنعمة الرابعة إنزال المن والسلوى عليهم كغذائين لذيين ومقويين: «وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ».

ثم يقول الله تعالى: «كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ».

ولكنهم أكلوا وكفروا النعمة ولم يشكروها وبذلك ظلموا أنفسهم «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٢

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَيَدَّل الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) في تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهية لبنى إسرائيل وطغيانهم تجاه تلك النعم، وكفرانهم بها. يقول تعالى: «وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ».

وقلنا لهم اطلبوا من الله حط الذنوب عنكم وعفوه عن خطاياكم، وادخلوا من باب بيت المقدس بخضوع «وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا».

فاذا قمتم بهذه الامور غفرنا لكم خطاياكم، وأعطينا للمحسنين ثواباً أكبر «نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

وبالرغم من أن الله فتح أمامهم أبواب الرحمة، ولو أردوا إغتنام الفرصة لاستطاعوا حتماً إصلاح ماضيهم وحاضرهم، ولكن لم يغتنم الظالمون من بنى إسرائيل هذه الفرصة فحسب، بل بدلوا أمر الله، وقالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ».

وفي المال نزل عليهم بسبب هذا الطغيان والظلم للنفس وللآخرين عذاب من السماء «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ».

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٣

قصة فيها عبرة: في هذه الآيات يستعرض مشهداً آخر من تاريخ بنى إسرائيل الزاخر بالحوادث، وهو مشهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما في الأمر أن الخطاب موجه فيها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فيقول له: «وَسَيَلْمُهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ». أى أسأل يهود عصرك عن قضية القرية التي كانت تعيش على ساحل البحر.

ثم تقول: وذكرهم كيف أنهم تجاوزوا- في يوم السبت- القانون الإلهي «إِذْ يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ» لأن يوم السبت كان يوم عطلتهم، وكان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، وعن صيد السمك ويشتغلوا بالعبادة، ولكنهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثم يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبارة التالية: «إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَيَبِئُهُمْ شُرْعًا». فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء في يوم السبت، بينما كانت تختفي في غيره من الأيام.

«السبت»: في اللغة تعنى تعطيل العمل للإستراحة، وسمى «يوم السبت» بهذا الإسم لأن الأعمال العادية والمشاكل كانت تتعطل في هذا اليوم، ثم بقى هذا الإسم لهذا اليوم علماً له.

إن هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعي عادى أم كان له جانب استثنائي وإلهي، كان وسيلة لامتحان واختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم: وهكذا اختبرناهم بشيء يخالفونه ويعصون الأمر فيه «كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

وجملة «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» إشارة إلى أن اختبارهم كان من خلال أدوات موافقة لأهوائهم وما من شأنه أن يدعوهم إلى المعصية والمخالفة، وجميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبين مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصي والذنوب.

عندما واجهت هذه الجماعة من بنى إسرائيل هذا الامتحان الكبير الذي كان متداخلاً مع حياتهم متداخلاً كاملاً، انقسموا إلى ثلاث فرق: «الفريق الأول» وكانوا يشكلون الأكتريه، وهم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهي.

«الفريق الثاني» وكانوا على القاعدة يشكلون الأقلية، وهم الذين قاموا- تجاه الفريق الأول بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«الفريق الثالث» وهم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاة، ولا قاموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٤

وفي الآية الثانية من الآيات المبحوثة هنا يشرح الحوار الذي دار بين الساكنين، وبين الذين تحركوا للنهي عن ارتكاب هذه المخالفة فيقول: «وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا».

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأننا ننهي عن المنكر لأننا نؤدى واجبنا تجاه الله تعالى، وحتى لا نكون مسؤولين تجاهه، هذا مضافاً إلى أننا نأمل أن يؤثر كلامنا في قلوبهم، ويكفوا عن طغيانهم وتعنتهم «قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ».

ويستفاد من الجملة الحاضرة أنه ربما يجب بيان الحقائق والوظائف الإلهية حتى مع عدم احتمال التأثير، وذلك عندما يكون عدم بيان الأحكام الإلهية، وعدم إنكار المنكر سبباً لتناسى وتنامى البدع، وحينما يعدد السكوت دليلاً على الرضا والموافقة. ففي هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهي في مكان حتى مع عدم تأثيره في العصاة والمذنبين.

ثم إن الآية اللاحقة تقول: وفي المال غلبت عبادة الدنيا عليهم، وتناسوا الأمر الإلهي، وفي هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهون عن المنكر، وعاقبنا الظالمين بعقاب أليم بسبب فسقهم وعصيانهم «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» (١).

ثم يشرح العقوبات هكذا: «فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» (٢).

وواضح أن أمر «كونوا» هنا أمر تكويني مثل: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (٣).

يجب الالتفات إلى أن الممسوخين- حسب الروايات- بقوا على هذه الحالة عدة أيام ثم هلكوا ولم يتولد منهم نسل أبداً.

كيف ارتكبوا هذه المعصية؟ إنهم في البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، وذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب والصنارات، ثم لما ضيغرت هذه المعصية في نظرهم، جرأهم ذلك على كسر احترام يوم السبت وحرمة، فأخذوا

يصيدون السمك في يوم السبت تدريجاً وعلناً، واكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جداً.

(١) «بئس»: مشتقة من مادة «باس» يعنى الشديد.

(٢) «عتوا»: من مادة «عتو» على وزن «غلو»، بمعنى الإمتناع عن طاعة أمر.

(٣) سورة يس / ٢٨.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٥

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَيِّنَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) تفرق اليهود وتشتتهم: هاتان الآيتان تشيران إلى بعض العقوبات الدنيوية التي أصابت جماعة من اليهود خالفت أمر الله تعالى، وسحقت الحق والعدل والصدق. فيقول في البداية: واذكروا يوم أخبر الله بأنه سيسلط على هذه الجماعة العاصية المتمردة فريقاً يجعلها حليفه العذاب والأذى إلى يوم القيامة «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَيِّنَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

ويستفاد من هذه الآية أن هذه الجماعة المتمردة الطاغية لن ترى وجه الإستقرار والطمأنينة أبداً، وإن أسست لنفسها حكومة وشيئت دولة.

وفي ختام الآية يضيف تعالى قائلاً: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ».

فبالنسبة إلى الكفار سريع العقاب، وبالنسبة للمذنبين التائبين غفور رحيم.

وهذه الجملة تكشف عن أن الله قد ترك الباب مفتوحاً أمامهم حتى لا يظن أحد أنه قد كتب عليهم المصير المحتوم والشقاء الابدى الذى لا خلاص منه.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى تفرق اليهود فى العالم فيقول: «وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ» فهم متفرون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، ولهذا عندما سمعوا ببدء الإسلام وعرفوا دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله آمنوا به، وبعضهم لم يكونوا كذلك بل تركوا الحق وراءهم ظهرياً، ولم يرتدعوا عن معصية فى سبيل ضمان مصالحهم وحياتهم المادية.

ومرّة اخرى تتجلى هذه الحقيقة فى هذه الآية وهى أن الإسلام لا يعادى العنصر اليهودى، ولا يشجبهم لكونهم أتباع دين معين، أو منتمين إلى عنصر وعرق معين، بل يجعل أعمالهم هى مقياس تقييمهم.

ثم يضيف تعالى قائلاً: «وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». أى ربّما

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٦

نكرمهم ونجعلهم فى رفاه ونعمة حتى نشير فيهم روح الشكر، ويعودوا إلى طريق الحق. وربّما نغرقهم فى الشدائد والمصاعب والمصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور والأنانية والتكبر، ويقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون ويعودون إلى الله، والهدف فى كلتا الحالتين هو التريية والهداية والعودة إلى الحق.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَمَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْمِيْعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) فى الآيات الماضية دار الحديث حول أسلاف اليهود، ولكن فى الآية الحاضرة دار الكلام حول أبنائهم وأخلافهم. وفى البداية يقول تعالى: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى». إنهم ورثوا التوراة عن أسلافهم، وكان عليهم أن ينتفعوا بها ويهتدوا، ولكنهم رغم ذلك قُتِنوا بمتاع هذه الدنيا وحطامها

الرخيص التافه، واستبدلوا الحق والهدى بمنافعهم المادية.

ثم يضيف قائلاً: وعندما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهة، والرغبات والمنافع المادية من جهة اخرى عمدوا إلى الأمانى والآمال الكاذبة وقالوا: لنأخذ المنافع الدنيوية فعلاً سواءً من حلال أو حرام، والله سيرحمنا ويغفر لنا «وَيَقُولُونَ سَيُغْفِرُ لَنَا». إن هذه الجملة تكشف عن أنهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يعيشون حالة من الندم العابر والتوبة الظاهرية، ولكن هذه الندامة - كما يقول القرآن الكريم - لم تكن لها أية جذور في أعماق نفوسهم، ولهذا يقول تعالى: «وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ». «عَرَضٌ»: على وزن «غرض» يعنى الشىء الذى لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادى اسم العرض، لكونه زائلاً غير ثابت فى الغالب.

إن هذه الجملة إشارة إلى عمليات الإرتشاء التى كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماوية، ونسيان أحكام الله لمضاداتها لمصالحهم ومنافعهم المادية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٧

ولهذا قال تعالى فى عقيب ذلك: «أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَيَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ». أى أنهم اخذ عليهم الميثاق - بواسطة كتابهم السماوى التوراة - أن لا يفتروا على الله كذباً، ولا يحرفوا كلماته، ولا يقولوا إلا الحق.

ثم يقول: لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهية، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أذاراً، ولكن المشكلة هى أنهم رأوا التوراة مراراً وفهموا محتواها ومع ذلك ضيعوا أحكامها، ونبذوا أمرها وراء ظهورهم «وَدَّرَسُوا مَا فِيهِ». وفى ختام الآية يقول: إن هؤلاء يخطئون فى تقديرهم للأمر، وإن هذه الأعمال لن تجديهم نفعاً «وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ». ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وفى مقابل الفريق المشار إليه سابقاً يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقرار جريمة تحريف الآيات الإلهية وكتمانها فحسب، بل تمسكوا بحذافيرها وطبقوها فى حياتهم حرفاً بحرف، والقرآن يصف هذه الجماعة بأنهم مصلحو العالم، ويعترف لهم بأجر جزيل وثواب عظيم، ويقول عنهم: «وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَأُنْضِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِحِينَ».

إن الآيات الحاضرة تكشف لنا بوضوح عن أن الإصلاح الواقعى فى الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماوية، ومن دون تطبيق الأوامر والتعاليم الإلهية، وهذا التعبير يؤكد - مرة أخرى - هذه الحقيقة، وهى أن الدين ليس مجرد برنامج يرتبط بعالم ما وراء الطبيعة، وبدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، ويهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، وإجراء مبادئ العدل والسلام والرفاه والاستقرار، وبالتالي كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

وَإِذْ تَقُنَّا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) آخر كلام حول اليهود: هذه الآية آخر آية فى هذه السورة تتحدث حول حياة بنى إسرائيل وهى تتضمن تذكير قصة اخرى ليهود عصر النبى صلى الله عليه وآله قصة فيها عبرة، كما أنها دليل على إعطاء ميثاق وعهد، إذ يقول: واذكروا إذ قلنا للجبل من مكانه وجعلناه فوق

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٨

رؤوسهم كأنه مظلة «وَإِذْ تَقُنَّا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ» (١). وقد ظنوا أنه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد وفرح «وَوَظَّنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ».

وفى تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة وجدية «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ».

واذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، وخافوا من العقاب الإلهى واعملوا بما أخذناه فيه منكم من المواثيق «وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

يعنى أن رسالته موسى عليه السلام وسائر الأنبياء وأعمالهم ومواجهاتهم المستمرة والصعبة وما لقوا من صعاب ومتاعب وشدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر الله، وتنفيذ مبادئ الحق والعدالة والطهر والتقوى فى المجتمعات البشرية بشكل كامل.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) العهد الأول وعالم الذر: الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطري» ووجود الإيمان في أعماق روح الإنسان، ولذلك فإن هذه الآيات تُكَمِّلُ الأبحاث الواردة في الآيات المتقدمة من هذه السورة في شأن «التوحيد الاستدلالي». يقول الله سبحانه مخاطباً نبيه في هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا».

«الذرية»: معناها في الأصل الأبناء الصغار الياعون، إلّا أنّها تطلق في الغالب على عموم الأبناء.

ثم يشير الله سبحانه إلى الهدف النهائي من هذا السؤال والجواب، وأخذ العهد من ذرية آدم في مسألة التوحيد، فيقول: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ».

(١) «نتقنا»: من مادة «نتق» تعنى فى الأصل قلع وانتزاع شىء من مكانه، وإلقاءه فى جانب آخر.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٩

الآية التالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، وهو أن الله تعالى إنّما أخذ هذا العهد من ذرية بنى آدم لثلاثا يعتدروا «أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ». أجل ... «وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

إنّ المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الإستعداد «والكفاءات» و «عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الامهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم الله الإستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلهي فى ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلى ... كما أودعه فى عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها. فبناءً على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه الله من عهد منهم أو سؤاله إياهم: ألسنت برّبكم؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابه كان باللسان ذاته.

وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَشْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَّةَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) فى هذه الآيات إشارة لقصة اخرى من قصص بنى إسرائيل، والآية الاولى من هذه الآيات يخاطب بها النبى صلى الله عليه وآله حيث يقول تعالى: «وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ». والآية التالية تكمل هذا الموضوع على النحو التالى «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا».

ولكن من المسلم أنّ إكراه الناس وإجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم والسنن الإلهية وحرية الإرادة ولا يكون ذلك دليلاً على عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآية

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٠

تضيف مباشرة إنّنا تركناه وهواه وبدلاً من أن ينتفع من معارفه فإنّه هوى وانحطّ «وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ». «أخلد»: من «الإخلاق» وهى تعنى السكن الدائم فى مكان واحد مع حرية الإرادة، فجملة (أخلد إلى الأرض) تعنى اللصوق الدائم بالأرض، وهى كناية عن عالم المادة وبها رجها، واللذائذ غير المشروعة للحياة المادية.

ثم تشبه الآية هذا الفرد بالكلب الذى يُخرج لسانه لاهتاً دائماً كالحوانات العطاشى فتقول: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ



أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ».

فهو لفرط أتباعه الهوى وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من العطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، وكل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مرضية، فهو كالكلب المسعور الذي يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن إرواؤها وهي حالة العبيد الذين لا يهمهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبداً.

ثم تضيف الآية: إِنَّ هَذَا الْمِثَالَ الْخَاصَّ لَا يَتَعَلَّقُ بِفَرْدٍ مُعَيَّنٍ، بل: «ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا فَاقْضِيهِ صِ الْقَصِيصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».

العالم المنحرف «بلعم بن باعوراء»: يستفاد من أغلب الروايات وأحاديث المفسرين أن هذا الشخص يسمّى (بلعم بن باعوراء) الذي عاصر النبي موسى عليه السلام وكان من مشاهير علماء بنى إسرائيل، حتى أن موسى عليه السلام كان يعول عليه كداعية مقتدر، وبلغ أمره أن دعاه كان مستجاباً لدى الباري جلّ وعلا، لكنّه مال نحو فرعون وإغراءاته فانحرف عن الصواب، وفقد مناصبه المعنوية تلك حتى صار بعدئذٍ في جبهة أعداء موسى عليه السلام.

ويجب على المؤمنين معرفته مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم واجتنابهم.

والآيتان التاليتان - كنتيجة عامية وشاملة لقضية (بلعم) وعلماء الدين الذين أحبوا الدنيا - فتقول اولاهما: «سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ».

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه وهو يسخر ملكاته المعنوية وعلومه النافعة التي بإمكانها أن تعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، ويضعها تحت اختيار المستكبرين وأصحاب القدرة الدنيوية وبييعها بثمن بخس فيؤدى ذلك إلى سقوطه وسقوط المجتمع والآية الأخيرة تحذّر الإنسان وتؤكد له أن الخلاص من مثل هذا الانحراف وما يكيده الشياطين لا يمكن إلا بتوفيق وتسديد من الله عزّ وجلّ: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩١

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَمَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) علائم أهل النار: هذه الآيات تقسم الناس إلى مجموعتين ... وتحكى عن صفاتهما وهما أهل النار، وأهل الجنة. فتحدث عن المجموعة الأولى - أهل النار - أولاً، فتأتى بالقسم والتوكيد فتقول: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ».

«ذرائعنا»: مشتقة من «ذراع»، وتعنى هنا الإيجاد والخلق، غير أنها في أصل اللغة تعنى نشر الشيء وتفريقه.

فإن الله سبحانه خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين إلا أن قسماً منهم إختاروا بأعمالهم جهنم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خسرًا ... وأن قسماً منهم إختاروا بأعمالهم الجنة وكان عاقبة أمرهم السعادة ....

ثم يلخص القرآن صفات أهل النار في ثلاث جمل، إذ تقول الآية: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا».

والصفة الثانية التي ذكرتها الآية لأهل النار «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا».

والصفة الثالثة الواردة في حقهم «وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ».

لأن البهائم والأنعام لا تملك هذه الاستعدادات والإمكانات، إلا أنهم بما لديهم من عقل سالم وعين باصرة وأذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب الرقي والتكامل، إلا أنهم نتيجة لإتباعهم هواهم ورغبتهم - بكل هذه التوافه من الامور تركوا هذه الاستعدادات جانباً ... وكان شقاؤهم كبيراً لهذا السبب: «أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ».

فالمعين الذي يحييهم ويروى ظمأهم موجود إلى جانبهم وهم على مقربة منه، إلا أنهم يتصارخون من الظمأ وأبواب السعادة مفتحة

أمامهم لكنهم لا يلتفتون إليها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٢

وفي الآية التالية إشارة إلى حال أهل الجنة وبيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبر والتوجه إلى أسماء الله الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النار، فتقول: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا». والمراد من «أسماء الله الحسنى» هي صفات الله المختلفة التي هي حُسنى جميعاً فالمراد من دعاء الله بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ وجريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلاً: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين، بل ينبغي أن تتمثل هذه الصفات في وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وبتعبير أخرى: ينبغي أن نتصف بصفاته ونتخلق بأخلاقه.

من ذلك الرواية الواردة في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا» قال: «نحن والله الأسماء الحسنى». فهي إشارة إلى أن إشعاعاً من صفاته قد انعكس فينا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة .... ثم تحذر الآية من هذا الأمر، وهو أن تُحرف أسماءه فتقول: «وَدَرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمِهِ سِجْرُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». والمقصود من الإلحاد في أسماء الله هو أن نحرف ألفاظها أو مفاهيمها، بحيث نصفه بصفات لا- تليق بساحته المقدسة، كما يصفه المسيحيون بالثلث «الأب والابن وروح القدس».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنة، إذ تقول الآية: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إن لهؤلاء منهجين ممتازين فأفكارهم وأهدافهم ودعواتهم وثقافتهم حقة وهي في اتجاه الحق أيضاً كما أن أعمالهم وخططهم وحكوماتهم قائمة على أساس الحق والحقيقة.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) الإستدراج: تعقياً على البحث السابق الذي عالجه الآيات المتقدمة- والذي يبين حال أهل النار- تبين هاتان الآيتان واحدة من سنن الله في شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، وهي ما عبر عنها القرآن «بعذاب الإستدراج».

والإستدراج جاء في موطين من القرآن: أحدهما في الآيتين محل البحث، والآخر في الآية (٤٤) من سورة القلم، وكلا- الموطين يتعلقان بمكذبي آيات الله ومنكريها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٣

يقول سبحانه في الآية الاولى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ». أي سنعدبهم بالإستدراج شيئاً فشيئاً، ونطوى حياتهم.

و الآية الثانية تؤكد الموضوع ذاته، وتشير بأن الله لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلمهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب الله؛ فتقول الآية «وَأُمْلِي لَهُمْ».

لأن الإستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، والله قوى ولا يفلت من قبضته أحد «إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ».

فهذه الآية تنذر جميع المجرمين والمذنبين بأن تأخير الجزاء من قبل الله لا يعنى صحة أعمالهم أو طهارتهم، ولا عجزاً وضعفاً من الله، وأن لا- يحسبوا أن النعم التي غرقوا فيها هي دليل على قربهم من الله، فما أقرب من أن تكون هذه النعم والإنتصارات مقدمة لعقاب الإستدراج. فالله سبحانه يغشيهم بالنعم ويمهلهم ويرفعهم عالياً، ثم يكبسهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، ويطوى بذلك وجودهم وتاريخ حياتهم كله.

في الكافي: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» قال: «هو العبد يذنب الذنب فتجد له النعمة معه، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب».

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن رسول الله صلى الله عليه وآله صعد الصفا وكان يدعو قريشاً، فخذأ فخذأ، إلى توحيد الله، ويخوفهم عذاب الله، فقال المشركون: إن صاحبهم قد جنّ، بات ليلاً يصوت إلى الصباح، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

التهم والأباطيل: في الآية الأولى من الآيات - محل البحث - يردّ الله سبحانه على كلام

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٤

المشركين الفارغ، بزعمهم أن النبي صلى الله عليه وآله قد جنّ، فيقول سبحانه: «أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ» (١). وهذا التعبير يشير إلى أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن شخصاً مجهولاً بينهم، وتعيرهم ب «الصاحب» يعنى المحب والمسامر والصديق وما إلى ذلك، وكان النبي معهم أكثر من أربعين عاماً يرون ذهابه وإيابه وتفكيره وتدييره دائماً وآثار النبوغ كانت بادية عليه، فمثل هذا الإنسان الذي كان يُعدّ من أبرز الفضلاء والعقلاء قبل الدعوة إلى الله، كيف تلتصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أما كان من الأفضل أن يتفكروا - بدلاً من إصااق التهم به - في احتمال أن يكون صادقاً في دعواه ومرسل من قبل الله سبحانه؟! كما عبّ القرآن الكريم وبين ذلك بعد قوله أو لم يتفكروا؟ فقال: «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ».

وفي الآية التالية - استكمالاً للموضوع آنف الذكر - دعاهم القرآن إلى النظر في عالم الملكوت عالم السماوات والأرض، إذ تقول الآية: «أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ»، ليعلموا أن هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السماوات والأرض، بنظامه الدقيق المحيّر المذهل لم يخلق عبثاً، وإنما هناك هدف وراء خلقه. ودعوة النبي صلى الله عليه وآله هي من أجل ذلك الهدف، وهو تكامل الإنسان وتربيته وارتقاؤه.

ثم تقول الآية معقبة لتنبههم من نومة الغافلين: «وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ».

وأخيراً فإن الآية التالية، تختتم الكلام بالقول: «مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

فإن هذه التعابير تختص بأولئك الذين يقفون بوجه الحقائق معاندين ألداء، حتى كأنما على أبصارهم غشاوة وفي سمعهم صمم وعلى قلوبهم طبع، فلا يجدون إلا أسدالاً من الظلمات تحجب طريقهم. وكل ذلك هو نتيجة أعمالهم، وهو المقصود بالإضلال الإلهي «مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ».

(١) «الجنة»: معناها الجنون، ومعناها في الأصل: الحائل والمانع فكأنما يلقي على العقل حائل عند الجنون. مختصر الامثل، ج ٢، ص:

١٩٥

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لِمَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: جاء قوم من اليهود، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الساعة متى هي إن كنت نبياً؟ فنزلت الآية.

وقيل: قالت قريش يا محمد! متى الساعة؟ فنزلت الآية.

التفسير

مع أن هذه الآية ذات سبب خاص في النزول - كما ذكروا - إلا أنها في الوقت ذاته لها علاقة وثيقة بالآيات المتقدمة أيضاً، لأنه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامة ولزوم الاستعداد لمثل ذلك اليوم في الآيات السابقة. وبالطبع فإن موضوعاً كهذا يستدعي السؤال عن مواعده وقيامه، ويستثير كثيراً من الناس أن يسألوه: أيا ن يوم القيامة؟ لهذا فإن القرآن يقول: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا».

«الساعة»: تعني زمان نهاية الدنيا، إلا أنها في الغالب تأتي بمعنى القيامة في القرآن الكريم؛ و «أَيَّانَ»: تساوي «متى» وهما للسؤال عن الزمان؛ و «المرسى»: ثبات الشيء أو وقوعه، فبناءً على ذلك فإن «أَيَّانَ مَرَسَاهَا» تعني: في أي وقت تقع القيامة وتكون ثابتة؟ ثم تضيف الآية مخاطبة النبي أن يرد عليهم بصراحة قائلة: «قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ».

إلا أن الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أولاً: «ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». أية حادثة يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضرب لهولها جميع الأجرام السماوية «قبيل القيامة» فتخمد الشمس ويظلم القمر وتندثر النجوم، ويتكون من بقاياها عالم جديد بثوب آخر.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٦

ثم إن قيام الساعة يكون على حين غرة، وبدون مقدمات تدريجية، بل على شكل مفاجيء وانقلاب سريع. «لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً». ثم تقول الآية مرة أخرى: «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا».

وتضيف الآية مخاطبة النبي الكريم: «قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن أهل مكة قالوا: يا محمد! ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يعلو، فتشتره فتربح فيه، وبالارض التي تريد أن تجذب، فترحل منها إلى أرض قد أخصبت؟ فأنزل هذه الآية.

التفسير

لا يعلم الغيب إلا الله: إن الكلام كان في الآية السابقة على عدم علم أحد بقيام الساعة إلا الله، والكلام في هذه الآية على نفي علم الغيب عن العباد بصورة كلية. ففي الجملة الاولى من هذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وآله يقول: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

إن مالك جميع القوى والقدرات وذو الاختيار المستقل - وبالذات - في عالم الوجود هو الله عز وجل فحسب، والآخرون حتى الأنبياء والملائكة يكتسبون منه القدرة ويستمدون منه القوة.

وبعد بيان هذا الموضوع تشير الآية إلى مسألة مهمة أخرى رداً على سؤال جماعة منهم فتقول: «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ».

ثم تحكى الآية عن مقام النبي الواقعي ورسالته، في جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٧

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثَقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيهَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أ يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَبِيحُونَ لَهُمْ نَضْرًا وَلَا أَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُواكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعُوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صِدَامَتُونَ (١٩٣) جحدُ نعمه عظمى: في هذه الآيات إشارة إلى جانب آخر من حالات المشركين واسلوب تفكيرهم والرد على تصوراتهم الخاطئة. لما كانت الآية السابقة إشارة إلى توحيد أفعال الله، فالآيات محل البحث

تعدّ مكمله لها لأن هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال الله أيضاً. تقول الآية الاولى من هذه الآيات: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» فجعل الحياة والسكن جنبا إلى جنب «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلًا خَفِيًّا فَامْرَأَتْ بِهِ».

وبمرور الأيام والليالي ثقل الحمل «فَلَمَّا أَثْقَلَتْ» كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، ويتمنى أن يهبه الله ولداً صالحاً، فلذلك «دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». وعندما استجاب الله دعاءهما، ورزقهما الولد الصالح أشركا بالله «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وتعقياً على هذا الأمر يرد القرآن - بأسلوب بين متين - عقيدة المشركين وأفكارهم مرة أخرى، فيقول: «أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وليس هذا فحسب، فهم ضعاف «وَلَا يَسْتِطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ».

والأوثان والأصنام في حالة لو ناديتموها لما استجابت لكم «وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ». فمن كان بهذه المنزلة وبهذا المستوى أتى له بهداية الآخرين!

ويحتمل بعض المفسرين احتمالاً آخر في تفسير الآية، أن المراد هو أنكم لو طلبتم منهم الهداية فلن يتحقق دعائكم وطلبكم على كل حال «سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٨

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعِيدَةٍ يَأْمُرُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) هاتان الآيتان - محل البحث - توصلان الكلام على التوحيد ومكافحة الشرك، وتبطلان منطق المشركين بأربعة أدلة، فتقول الآية الاولى من هاتين الآيتين: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ».

فبناءً على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشيء مثله تحكمها قوانين الطبيعية، وأن يمد يد الضراعة والحاجة إليه، وأن يجعل مقدراته ومصيره تحت يده.

ثم تضيف الآية: أنكم لو تزعمون بأن لهم عقلاً وشعوراً «فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». وهذا هو الدليل الثاني على إبطال منطق المشركين.

وفي البيان الثالث تبرهن الآية على أن الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتساءل مستكراً: «أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا» (١).

وهكذا فإن الأصنام من الضعة بمكان حتى أنها بحاجة إلى من يدافع عنها ويحامي عنها، وأخيراً فإن الآية تبين ضمن تعبير هو في حكم الدليل الرابع مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله قائلة: «قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَمَّا تُنظَرُونَ». أى إذا كنت كاذباً، وأن الأصنام مقربات عند الله، وقد تجرأت عليها فلم لا تغضب علي؟ وليس لها ولا لكم ولمكائدكم أى تأثير على.

إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصِيرَكُمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

(١) «يبطشون»: فعل مشتق من «البطش» على زنة «العرش» ومعناه الإستيلاء بالشدة والصوله والقدرة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٩

المعبودات التي لا قيمة لها: تعقياً على الآية المتقدمة التي كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النبي): «ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَمَّا تُنظَرُونَ» متبهاً إياهم أنهم لا يستطيعون أن يصيبوا النبي بأذى ضرر، فإن الآية الاولى - من الآيات - محل البحث - تذكر

الدليل على ذلك فتقول: «إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ».

وليس وليى وحدى فحسب، بل هو وليى جميع الصالحين «وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ».

ثم يؤكد القرآن بالآية التالية على بطلان عبادة الأوثان مرة أخرى فيقول: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَيْسَتْ تَطِيعُونَ نَصِيرَكُمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ».

بل أبعد من ذلك «وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَيْسَ مَعَهُمْ». وبالرغم من امتلاكهم العيون التى يخيل إلى الرأى أنها تنظر: «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ».

ومضمون الآيتين الأخيرتين ورد فى الآيات السابقة أيضاً، وهذا التكرار إنما هو لمزيد التأكيد على مكافحة الشرك وقلع جذوره التى نفذت فى أفكار المشركين وأرواحهم عن طريق التلقين والتقرير المتكرر.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَأْيَةٌ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْنَاهَا قُلُوبَنَا لَمَا رَدَدْنَاهَا عَلَىٰ آلِنَا فَأَسْبَغَ بِهَا الْأَعْيُنُ مِنَ الرِّجْلِ وَإِنَّ فِي آيَاتِنَا لَعَلَّةً لِلْعَالَمِينَ (٢٠٣) وسأوس الشيطان: فى هذه الآيات بين القرآن شروط التبليغ وقيادة الناس وإمامتهم بأسلوب أخاذ رائق وجيز، وهى فى الوقت ذاته تناسب والآيات المتقدمة التى كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضاً. فى الآية الأولى - من الآيات محل البحث - إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة والمبلغين، فتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله فتقول فى البداية: «خُذِ الْعَفْوَ».

ثم تعقب الآية بذكر الوظيفة الثانية للنبي صلى الله عليه وآله وتأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التى يرتضيها العقل ويدعو إليها الله عز وجل قائلاً: «وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٠

مختصر الامثل ج ٢ ٢٣٩

أما الوظيفة الثالثة للنبي صلى الله عليه وآله فهى أن يتحمل الجاهلين، فتقول: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ».

فالقادة والمبلغون يواجهون فى مسيرهم أفراداً متعصبين جهلة يعانون من انحطاط فكرى وثقافى وغير متخلقين بالأخلاق الكريمة، فيرشقونهم بالتهمة، ويؤسسون الظن بهم ويحاربونهم.

فطريق معالجة هذه المعضلة لا يكون بمواجهة المشركين بالمثل، بل الطريق السليم هو التحمل والجلد وعدم الإكثارات بمثل هذه الامور، والتجربة خير دليل على أن هذا الاسلوب هو الاسلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، وإطفاء النائرة، والقضاء على الحسد والتعصب، وما إلى ذلك.

وفى الآية التالية دستور آخر، وهو يمثل الوظيفة الرابعة التى ينبغى على القادة والمبلغين أن يتحملوها، وهى أن لا يدعوا سبيلاً للشيطان إليهم، سواء كان متمثلاً بالمال أم الجاه أم المقام وما إلى ذلك، وأن يردعوا الشياطين أو المتشيطين وسأوسهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم. فالقرآن يقول: «وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وفى الآية التالية بيان للانتصار على وسأوس الشيطان بهذا النحو: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ». أى يتذكرون ما أنعم الله عليهم، ويفكرون فى سوء عاقبة الذنب وعذاب الآخرة فيتضح لهم بذلك طريق الحق.

والطائف: هو الذى يطوف ويدور حول الشىء، فكأن وسأوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وروحه كالطائف حول الشىء ليجد منفذاً إليه.

وأساساً فإن كل إنسان فى أية مرحلة من الإيمان، أو أى عمر كان، يُبتلى بوسأوس الشياطين. وربما أحس أحياناً أن فى داخله قوة مهمنة تدفعه نحو الذنب وتدعوه إليه، ولا شك أن مثل هذه الحالة من الوسأوس فى مرحلة الشباب أكثر منها فى أية مرحلة أخرى،

ولا سيما إذا كانت البيئة أو المحيط كما هو في العصر الحاضر من التحلل والحرية، لا الحرية بمعناها الحقيقي، بل بما يذهب إليه الحمقى «من الإنسلاخ من كل قيد والتزام أخلاقي أو اجتماعي أو ديني» فتزداد الوسواس الشيطانية عند الشباب. وطريق النجاة الوحيد من هذا التلوّث والتحلل في مثل هذه الظروف، هو تقوية رصيدة التقوى أولاً، كما أشارت إليه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا» ثم المراقبة والتوجه نحو النفس، والالتجاء إلى الله وتذكر ألطافه ونعمه وعقابه الصارم للمذنب. مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠١

وملخص القول: أننا لاحظنا في الآية السابقة كيف ينجو المتقون من نزغ الشيطان ووسوسته بذكر الله، إله الأئمة إخوة الشياطين يتلون بمزيد الوسواس فلا ينسلخون عنها، كما تعبر الآية التالية عن ذلك قائلة: «وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ». «الإخوان»: كناية عن الشياطين، والضمير «هم» يعود على المشركين والأئمة. وجمله «ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ» تعني أن الشياطين لا يألون جهداً في إضلال المشركين والأئمة. ثم تذكر الآية التالية حال جماعة من المشركين والمذنبين البعيدين عن المنطق، فتقول:

إِنَّهُمْ يَكذِبُونَكَ - يا رسول الله - عندما تتلو عليهم آيات القرآن، ولكن عندما لا تأتيهم بآية، أو يتأخر الوحي يتساءلون عن سبب ذلك: «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا» (١). ولكن قل لهم إنني لا اعمل ولا أقول إلا بما يوحى الله إلي: «قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَمَّا يَسْتَنْكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَبْخُونَهُ وَلَهُ يَسْتَجِدُونَ (٢٠٦) وإذا قرىء القرآن فاستمعوا وانصتوا: لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببيان عظمة القرآن، وتنتهي بالآيات - محل البحث - التي تتكلم عن القرآن أيضاً. في البداية تقول الآية: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ». ويستفاد من ظاهر الآية أن هذا الحكم عام غير مختص بحال ما ولا وقت معين، أي ينبغي إن قرىء القرآن - حيثما كان وكيف كان - أن يستمع الآخرون وينصتوا احتراماً للقرآن، لأن القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل هو كتاب فهم وإدراك، ثم هو كتاب عمل أيضاً.

(١) «الاجتباء»: مأخوذ من الجباية، وأصلها جمع الماء في الحوض ونحوه، ثم توسعوا في الاستعمال فأطلقوا على جمع الأشياء وانتخابها واختيار ما يراد منها اجتباءً. فجملة «لولا اجتبيتها» تعني لولا اخترتها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٢

وهذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجة أن بعض الروايات عبرت عنه بالوجوب. والمورد الوحيد الذي يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجباً، هو في صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت ويستمع لقراءة الإمام، حتى أن جمعاً من الفقهاء قالوا: إن هذه الآية تدل على سقوط الحمد والسورة من قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

وفي الآية التالية إكمالاً للأمر السابق يخاطب القرآن النبي الكريم - وهذا الحكم كلي وعمام أيضاً وإن كان الخطاب موجهاً للنبي صلى الله عليه وآله كما هو الحال في سائر آيات القرآن الأخرى وأحكامها - إذ يقول سبحانه في كتابه: «وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً».

ثم يضيف قائلاً: «وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» (١). «وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

فذكر الله في كل حال وفي كل وقت، صباحاً ومساءً، مدعاةً لإيقاظ القلوب وجلائها من الدرن، وإبعاد الغفلة عن الإنسان. ومثله مثل مزنة الربيع، إذا نزلت أحييت القلوب بأزهار التوجه والإحساس بالمسؤولية والبصيرة، وكل عمل إيجابي بناء....  
ثم تختتم سورة الأعراف بهذه العبارة، وهي أنكم لستم المكلفون فقط بذكر الله بل من يذكر الله من موقع الخشية والاستكانة هم الملائكة المقربون: «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ».  
«نهاية تفسير سورة الأعراف»

(١) «الآصال»: جمع الأصيل، ومعناه قبيل المغرب أو عند الغروب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٣

## ٨. سورة الأنفال

محتوى السورة: في بداية سورة الأنفال إشارة إلى قسم مهم من المسائل المالية من جملتها الأنفال والغنائم التي يُعدّ كل منهما دعامة لبيت المال كما تضمنت هذه السورة مباحث أخرى منها:

صفات المؤمنين الصادقين وما يمتازون به، قصة معركة بدر، وهي أول مواجهة مسلحة بين المسلمين وأعدائهم، وما تضمنت من أحداث عجيبة تلهم العبر.

بعض أحكام الجهاد ووظائف المسلمين إزاء هجوم العدو المتواصل.

ما جرى للنبي صلى الله عليه وآله في ليلته التاريخية «ليلة المبيت».

حال المشركين قبل الإسلام وخراباتهم.

ضعف المسلمين وعجزهم بادىء الأمر ثم زيادة قوتهم ببركة الإسلام.

حكم الخمس وكيفية تقسيمه.

مواجهته المنافقين وطريقة التعرف عليهم. وأخيراً نجد في هذه السورة سلسلة مسائل أخرى أخلاقية واجتماعية بناءً.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الروايات الواردة في شأن هذه السورة وفضيلتها، كالرواية الواردة - في تفسير مجمع البيان - عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الأنفال وبراءة في كل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٤

شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب». إن فضائل سور القرآن والثواب العظيم لا يتأتى بمجرد قراءة الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفكير، والتفكير وسيلة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إن النبي صلى الله عليه وآله قال يوم بدر: من جاء بكذا، فله كذا، ومن جاء بأسير، فله كذا، فتسارع الشبان وبقى الشيوخ تحت الرايات، فلما انقضى الحرب، طلب الشبان ما كان قد نفلهم النبي صلى الله عليه وآله به، فقال الشيوخ: كنا رداءً لكم، ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إلينا، وجرى بين أبي اليسر بن عمرو الأنصاري أخي بني سلمة، وبين سعد بن معاذ، كلام فترع الله تعالى الغنائم منهم، وجعلها لرسوله، يفعل بها ما يشاء، فقسمها بينهم بالسوية.

التفسير



إن الآيه- محل البحث- كما قرأنا في سبب النزول، نزلت بعد معركة بدر وتكلم عن غنائم الحرب وتبين حكماً إسلامياً واسعاً بشكل عام، فتخاطب النبي صلى الله عليه وآله بالقول:

«يَسْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ».

فبناءً على ذلك: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». أى: إن الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعة لله والرسول دون قيد أو شرط وفي جميع مسائل الحياة لا في غنائم الحرب وحدها.

ما هي الأنفال؟ إن مفهوم الأنفال لا يقتصر على غنائم الحرب فحسب، بل يشمل جميع الأموال التي ليس لها مالك خاص (كالآجام ويطون الأودية والموات) وهذه الأموال جميعها لله وللرسول وللمن يلي أمره ويخلفه، وبتعبير آخر: إن هذه الأموال للحكومة الإسلامية، وتصرف في منافع المسلمين العامة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٥

كما قرأنا في شأن النزول آنفاً، أن مشاجرة وقعت بين بعض الأنصار في شأن غنائم الحرب، وقطعاً لهذه المشاجرة فقد نفت الآيه أن تكون الغنائم لغير الله والرسول ثم أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

وأساساً فإن إصلاح ذات البين وإيجاد التفاهم وقلع عناصر الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كل ذلك بالمحبة، يعد من أهم الأغراض الإسلامية.

وقد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدته من أفضل العبادات.

في نهج البلاغة: يقول على عليه السلام في آخر وصاياه- لما ضربه ابن ملجم بالسيف- لولديه:

«إِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكَ كَمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) خمس صفات خاصة بالمؤمنين:

كان الكلام في الآيه السابقة عن تقوى الله وطاعته و طاعته رسول الله بعد المشاجرة اللفظية بين بعض المسلمين في شأن الغنائم. وإكمالاً لهذا الموضوع يشير في هذه الآيات إلى خمس صفات بارزة في المؤمنين: ثلاث منها ذات جانب معنوي وروحاني وباطني، واثنتين منها لها جانب عملي وخارجي ....

فالثلاث الأولى عبارة عن «الإحساس بالمسؤولية» و «الإيمان» و «التوكل»، والثنتان الاخرتان هما الإرتباط بالله، والإرتباط بخلق الله سبحانه.

فتقول الآيات أولاً: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ».

«الوجل»: حالة الخوف التي تنتاب الإنسان، وهو ناشيء عن أحد أمرين: فقد ينشأ عند إدراك المسؤولية.

وقد ينشأ عند إدراك عظمه مقام الله، والتوجه إلى وجوده المطلق الذي لا نهاية له.

ثم تبين الآيه الصفة الثانية للمؤمنين فتقول: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا».

والمؤمنون ليسوا كالموتى من الجمود وعدم التحرك، ففي كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد وتكون صفاتهم مشرقة جديدة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٦

والصفة الثالثة لهؤلاء المؤمنين هي أنهم يتكلمون على الله فقط «وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

فهم يعيشون سعة الافق وسلامة التفكير بحيث يرون ضعف جميع المخلوقات مهما كانت في الظاهر قوية ومقتدرة ولذلك يرفضون الخضوع والاعتماد على أى موجود غير الله تعالى، فمنه يقتبسون قوتهم ومنه يطلبون حاجاتهم.

ولا- ينبغى الوقوع في المفهوم الخاطي للتوكل حيث تصور البعض أن التوكل يعنى عدم الأخذ بقانون العلية والابتعاد عن السعى

والعمل، والصحيح أن مفهومه الحقيقي هو عدم التعلق والاعتماد بالقوى الظاهرية والّا فان الاستفادة من عالم الاسباب المسببات في الطبيعة هو عين التوكل لأن كل تثير لهذه الاسباب في الواقع الخارجى إنما يحصل باذن الله ومشيتته.

وبعد أن ذكرت الآيات الصفات الروحانية للمؤمنين الحقيقيين تقول: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».

التعبير بـ «يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» ليس إشارة الى ممارستهم الدائمة للصلاة فحسب، بل إنهم يتحركون في هذا الاتجاه اتقويهم دعائهم الصلاة في المجتمع وفي كل مكان.

وعبارة «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تتضمن معنى واسعاً يستوعب المواهب المادية والمعنوية كافة، فهم ينفقون من جميع ما رزقهم الله تعالى من المال والعلم والجاه والمكانة الاجتماعية وأمثال ذلك.

وتتحرك آخر آية من الآيات مورد البحث لبيان مقام هؤلاء ومكانتهم عند الله تعالى وما ينتظرهم من الثواب العظيم، فتقول في البداية: «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا».

ثم تذكر الآية ثلاثة أنواع من الثواب لهؤلاء: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

وللمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من الله «وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيدًا مِمَّا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) قرأنا في الآية الاولى من هذه السورة أن بعض المسلمين من جديدي العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حد ما). ففي الآيتين محل البحث يقول الله سبحانه لأولئك: هذه ليست أول مرة تكرهون شيئاً مع أنه فيه صلاحكم كما كان

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٧

الأمر في أساس غزوة بدر وكانوا غير راضين بادىء الأمر، إلا أنهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام والمسلمين. تقول الآية الاولى من الآيتين محل البحث: إن عدم رضا بعض المسلمين في شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكة وعدم رضى بعض المؤمنين بذلك: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أن أمر الخروج كان طبقاً لوحى إلهي ودستور سماوي، وكانت نتيجته الوصول إلى الحق واستقرار المجتمع الإسلامى، إلا أن هؤلاء الأفراد لا يرون إلا ظواهر الامور، ولهذا: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيدًا مِمَّا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ».

إلما أن الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم في حساباتهم، وأن خوفهم وقلقهم دونما أساس، وأن هذه المعركة (معركة بدر)

حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج غلام يجادلون في الحق وتمتد ألسنتهم بالإعتراض؟

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) أول مواجهة مسلحة بين الإسلام والكفر ... لما كانت الآيات السابقة

قد أشارت إلى معركة بدر، فإن الآيتين أعلاه وما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمة وحساسة في تلك المعركة، ولإيضاح الآيتين محل البحث والآيات التالية، من المناسب أن نلقى الضوء على ما جرى في هذه المعركة الحاسمة، لتتجلى لنا دقائق الامور ولطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة في شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر - طبقاً لما يقوله المؤرخون والمحدثون والمفسرون - حين كان أبو سفيان - كبير مكة - عائداً بقافلة تجارية مهمة مؤلفة من أربعين راكباً من قريش، وتحوى على ثروة تجارية تقدر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النسي صلى الله عليه وآله أصحابه أن يتعبأوا ويتهبأوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التي تحمل جل رأس مال العدو معها، وبمصادرة أموال القافلة يتم توجيه ضربة اقتصادية نحو العدو وتعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٨

إنّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه وأصدقائه تصميم النبي على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان أرسل من يمضى إلى مكة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضى رسول أبي سفيان بحاله مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره وبتّر أذنيه والدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، وقد شقّ ثوبه- أو طمريه- وركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبته البعير ووجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكة أخذ يصرخ قائلاً: أيها الناس الأعزة، أدركوا قافلته، أدركوا قافلته، وأسرعوا وتعجلوا إليها. ولما كان أكثر أهل مكة شركاء في هذه القافلة فقد تعبثوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بحوالي ٩٥٠ مقاتلاً و ٧٠٠ بعير ومئة فرس، وكان أبو جهل يقود هذا الجيش.

وكان النبي صلى الله عليه وآله قد قارب بدرًا في نحو من ثلاثمائة وثلاث عشر رجلًا كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «وبدر منطقة ما بين مكة والمدينة» وقد بلغه خبر تهيوّ أبي جهل ومن معه لمواجهته.

فتشاور النبي صلى الله عليه وآله مع أصحابه: هل يلحقون القافلة ويصادرون أموالها، أو أنّ عليهم أن يتهياؤا لمواجهة جيش العدو؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدونا، وكرهت طائفة أخرى ذلك، إلّا أنّ النبي بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أى قتال العدو».

ومن جهة أخرى فإنّ طائفة من المسلمين كانت في قلق وإضطراب وكانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النبي وأصحاب أبي جهل! لكن النبي صلى الله عليه وآله طمأنهم بوعد الله وقال: «إنّ الله عزّ وجل وعدنى إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده، والله لكأنّي أنظر مصرع أبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان». وأمر رسول الله بالرحيل، وخرج إلى بدر وهو بئر.

وفي هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، واتّجه نحو مكة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، وأرسل رسولاً إلى قريش: إنّ الله نجّى قافلته، ولا أظن أنّ مواجهة محمّد في هذا الطرف مناسبة، لأنّ له أعداء يكفونكم أمره، إلّا أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبي سفيان وأقسم باللات والعزى أنّه سيواجه محمّداً، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٩

وأقبلت قريش، وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء، فأخذهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش. قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير.

فأقبلوا يضربونهم وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلى فانقتل من صلاته وقال: «إن صدّقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم!» فأتوه بهم، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش. قال: «كم القوم؟!» قالوا: لا علم لنا بعددهم. قال: «كم ينحرون في كل يوم من جزور؟» قالوا: تسعة إلى عشرة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «القوم تسعمائة إلى ألف رجل». وأمر صلى الله عليه وآله بهم فحبسوا.

كان الجوّ مكفهراً بالرعب والوحشة، إذ كان جيش قريش معبأً مدججاً بالسلاح، ولديه المؤونة والعُدّد، حتى النساء اللاتي ينشدن الأشعار والمغنيات اللاتي يثرن الحماسة، وكان جيش أبي جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، ولا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

المشكلة الأخرى التي كان أصحاب النبي يواجهونها، هي أنّ أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبي فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صلبة صالحة للنزال، العجيب في ذلك أنّ المطر كان في جهة

العدو شديداً بحيث أربكهم وأزعجهم.

والخبر الجديد الذي حصل عليه أصحاب النبي من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلًا حالة العدو أن جيش قريش مع كل تلك الإمكانيات العسكرية في حالة من الرعب بمكانه لا توصف، فكأن الله أنزل عليها جيشاً من الرعب والوحشة.

وعند الصباح اصطف جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوهم، ولكن النبي صلى الله عليه وآله - إتماماً للحجة ولثلاثا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية - أرسل إلى قريش ممثلاً عنه ليقول لهم: إن النبي لا يرغب في قتالكم ولا يحب أن تكونوا أول جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الاقتراح ورغبوا في الصلح، إلا أن أبا جهل امتنع وأبى بشدة.

وأخيراً اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك والكفر، ووقف حمزة عم النبي وعلى ابن عم النبي الذي كان أصغر المقاتلين سنًا وجها لوجه مع صناديد قريش وقتلوا من بارزهم فإنهار ما تبقى من معنويات العدو، فأصدر أبو جهل أمراً عاماً بالحملة، وكان قد أمر بقتل أصحاب النبي من أهل المدينة «الأنصار» وأن يؤسر المهاجرون من أهل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٠

مكة. فقال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: «غضوا أبصاركم وغضوا على النواجذ ولا تستلوا سيفاً حتى آذن لكم». ثم رفع يده إلى السماء وقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد». ثم أصابه الغشى فسرى عنه وهو يسكب العرق عن وجهه ويقول: «هذا جبرئيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين».

فهبت ريح عاصف على العدو، وكان المسلمون يحملون على عدوهم والرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، وأثبت المسلمون جداره فائقه وصمدوا للقتال حتى قتلوا من المشركين سبعين، وأبو جهل من القتلى، وأسروا سبعين، وانهزم الجمع وولوا الدبر، ولم يقتل من المسلمين إلا نفر قليل، وكانت هذه المعركة أول مواجهة مسلحة بين المسلمين وعدوهم من قريش، وإنتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوهم.

التفسير

في الآية الأولى - من الآيتين محل البحث - إشارة إلى وعد الله بالنصر في معركة بدر إجمالاً، إذ تقول الآية: «وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ».

لكنكم لخوفكم من الخسائر واططار وبلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها «وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَه تَكُونُ لَكُمْ».

«شوكه»: ترمز إلى القدرة وتعنى الشدة، وأصلها مأخوذ من الشوك، ثم استعملت هذه الكلمة «الشوكه» في نصول الرماح، ثم اطلق هذا الاستعمال توسعاً على كل نوع من الأسلحة. فبناء على هذا فإن ذات الشوكه تعنى الجماعة المسلحة، وغير ذات الشوكه تعنى الجماعة غير المسلحة. أى إن فيكم من يرغب في مواجهة العدو مواجهة غير المسلحة، وذلك بمصادرة أموال تجارته، وذلك ابتغاء الراحة أو حباً منه للمنافع المادية، في حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أن الصلاح يكمن في تحطيم قوى العدو العسكرية، لتكون الطريق لاجبة لانتصارات كبيرة في المستقبل، ولهذا فإن الآية تعقب بالقول: «وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ» (١).

(١) «الدابر»: بمعنى ذيل الشيء وعقبه، فبناءً على هذا يكون معنى «ويقطع دابر الكافرين» هو استئصال جذورهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١١

ولم يكن هذا درساً لمسلمي ذلك اليوم فحسب، بل ينبغي لمسلمي اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوي، فليعلم ألا يغضوا أبصارهم عن المبادئ الأساسية بسبب المشاكل والأتعاب ويستبدلوها بمناهج غير أساسية قليلة الأتعاب.

وفي آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة: «لِيَحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ

إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُعْشِيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَّهُ مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَكُمْ بِهِ وَيُدْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيُرَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) دروس مفيدة من ساحة المعركة: إن هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعه بدر، والألطف الإلهية الكثيرة التي شملت المسلمين لتثير في نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر. وتشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: «وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ».

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن النبي صلى الله عليه وآله لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقله عدد المسلمين، استقبل القبلة وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف ربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من منكبته، فأنزل الله تعالى «وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» الآية. وعند ذلك «فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلِكَةِ مُّزِدِّينَ». «مردفين»: من «الإرداف» بمعنى اتخاذ محل خلف الشيء، فيكون مفهومها أن الملائكة كانت تتابع بعضها بعضاً في النزول لنصرة المسلمين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٢

ولئلا يعتقد بعض بأن النصر كان بسبب نصره الملائكة فحسب، فإن الآية تقول: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِيُطْمَئِنِّ بِه قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

لأن الله عزيز ومقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، وحكيم لا ينزل نصرته إلا للأفراد الصالحين والمستحقين لذلك. ثم تذكّر الآية النعمة الثانية التي اكتنفت المؤمنين فتقول: «إِذْ يُعْشِيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَّهُ مِنْهُ».

«يغشى»: من مادة «الغشيان» بمعنى تغطية الشيء وإحاطته. فكان النوم كالغطاء الذي وضع عليهم فغطاهم.

«النعاس»: يطلق على بداية النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم.

والرحمة الثالثة التي وصلتكم هي: «وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَكُمْ بِهِ وَيُدْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ».

وهذا الرجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزاً بدنياً كجنابه بعضهم، أو الأمرين معاً.

ثم إن الله تعالى أراد بذلك تقوية معنويات المسلمين وكذلك تثبيت الرمال المتحركة تحت أقدامهم بواسطة المطر: «وَلِيُرَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ».

ويمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقدام هو رفع المعنويات وزيادة الثبات والاستقامة ببركة تلك النعمة، أو إشارة إلى هذين الأمرين.

والنعمة الاخرى التي أنعمها الله على المجاهدين في بدر، هي الرعب الذي أصاب به الله قلوب أعدائهم، فزلزل معنوياتهم بشده، فيقول تعالى: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا». «سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». وإنه لمن العجب والغرابة أن ينهار جيش قريش القوي أمام جيش المسلمين القليل، وأن تذهب معنوياتهم - كما ينقل التاريخ - بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازل المسلمين، وحتى أنهم كانوا يفكرون بأن المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين.

ثم إن القرآن يذكر المسلمين بالأمر الذي أصدره النبي صلى الله عليه وآله للمسلمين بأن عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر في المشركين حال القتال لئلا تضعي قوتهم فيه، بل عليهم توجيه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٣

ضربات مؤثرة وقاطعة «فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ».

«البنان»: جمع «البنانة» بمعنى رؤوس أصابع الأيدي أو الأرجل، أو الأصابع نفسها، وفي هذه الآية يمكن أن تكون كناية عن الأيدي والأرجل أو بالمعنى الأصلي نفسه.

وبعد كل تلك الأحاديث، ولكيلا يقول شخص بأن هذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة والشفقة وأخلاق الرجولة، فإن الآية تقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

«شاقوا»: من مادة «الشقاق» وهي في الأصل بمعنى الإنفطار والإنفصال، وبما أن المخالف أو العدو ويتعد عن الآخرين فقد سمي عمله شقاقاً: «وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ثم يؤكد هذا الموضوع ويقول: ذوقوا العذاب الدنيوي من القتل في ميدان الحرب والأسر والهزيمة السافرة، وعلاوة على ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضاً: «ذَلِكَمْ فُذُوقُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) هذه الآيات توجه خطابها للمؤمنين وتأمرهم أمراً عاماً بالقتال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ».

فالفرار من الحرب يعد في الإسلام من كبائر الذنوب، ولذلك تذكر الآية بعدها جزء من يفر من ميدان الحرب مع الإشارة لمن يستنون منهم فتقول: «وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ».

وكما نرى فقد استثنت الآية صورتين من مسألة الفرار، ظاهرهما أنهما من صور الفرار، غير أنهما في الحقيقة والواقع صورتان للقتال والجهاد.

الصورة الاولى: عبّر عنها بـ «مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ» و «متحرف» من مادة (التحرّف) أي

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٤

الإبتعاد جانباً من الوسط نحو الأطراف والجوانب، والمقصود بهذه الجملة هو أن المقاتلين يقومون بتكتيك قتالي إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء: ثم يغافلونهم في توجيه ضربة قوية إليهم واستخدام فن الهجوم والإنسحاب المتتابع وكما يقول العرب: (الحرب كزّ وفرّ). الصورة الثانية: أن يرى المقاتل نفسه وحيداً في ساحة القتال، فينسحب للإلتحاق بإخوانه المقاتلين وليهجم معهم من جديد على الأعداء.

وتختتم الآية محل البحث بالقول: إن جزء من يفرّ مضافاً إلى استحقيقه لغضب الله فإن مصيره إلى النار: «وَمَا أُوِيَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ». ومن ضمن الإمتيازات الكثيرة التي كانت عند الإمام على عليه السلام وربّما يشير إلى نفسه أحياناً ليكون نبراساً للآخرين قوله: «إنّي لم أفر من الزحف قطّ، ولم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه» (١).

ولثلا يصاب المسلمون بالغرور في انتصارهم، ولثلا يعتمدوا على قواهم الجسميّة فحسب، وليذكروا الله في قلوبهم دائماً، وليتعلقوا به طلباً لألطافه، فإن الآية التالية تقول:

«فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ».

وتشير الآية في ختامها إلى لطيفه مهمّة أخرى، وهي أن ساحة بدر كانت ساحة امتحان واختبار، إذ تقول: «وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا».

لهذا فإن الآية تختتم بهذه الجملة: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». أي إن الله سمع صوت استغاثة النبي والمؤمنين، واطلع على صدق نياتهم، فأنزل أطفاه عليهم جميعاً ونصرهم على عدوّهم، وأن الله يعامل عباده بهذه المعاملة حتى في المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم وإخلاصهم واستقامتهم.

وفى الآية التالية يقول سبحانه تعميماً لهذا الموضوع وأن مصير المؤمنين والكفار هو ما سمعتم، فيقول: «ذَلِكُمْ». ثم يعقب القرآن مبيناً العلة: «وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ». إن تَشَيْتُمْ تَتَّخِعُوا قَصْدَ حِرَاءِ كُمْ الْفَتْحِ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعِيدُ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

(١) تفسير نور الثقلين ٢/ ١٣٩.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٥

لقد جرى بحث كثير بين المفسرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنهم المؤمنون، وأحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هي:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر ونزلت آيات توبخهم وتضع الغنائم تحت تصرف الرسول بشكل كامل فقام بتقسيمها بينهم بالتساوي، بغية تربيتهم وتعليمهم، ثم ذكرهم بحوادث بدر وكيف نصرهم الله على عدوهم القوي. وهذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين وتقول لهم: إنكم إذا سألتم الله الفتح والنصر فسوف يستجيب لكم وينصركم، وإذا تركتم الإعتراض والجدال عند النبي صلى الله عليه وآله فبذلك مصلحتكم، وإذا عدتم لنفس الأسلوب من الإعتراض فسنعود نحن أيضاً، ونترككم وحيدين في قبضة الأعداء وحتى إذا كان عددكم كثيراً فبدون نصره الله لن تقدروا أن تعملوا أى شىء، وإن الله مع المؤمنين المخلصين والطائعين لأوامره وأوامر نبيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَمَّا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون: تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله واسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين فى التنفيذ والطاعة، فتبدأ بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وتضيف لتؤكد الأمر من جديد: «وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ».

ولما كان القول بلا-عمل، والإستماع بلا تأثر، أحد الأمراض التى تصاب بها المجتمعات، وأساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآية الاخرى لتؤكد على هذه المسألة بأسلوب آخر، فقالت: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ».

ولما كان القرآن كتاب عمل فإنه ينظر إلى النتائج دائماً.

وتقول الآية بعدها إن الله لا يمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين فى طلبهم وعلى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٦

استعداد لتقبل الحق: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ».

وفى تفسير مجمع البيان قيل معناه: لأسمعهم قول قصى بن كلاب فإنهم قالوا: أحي لنا قصى، إن كلاب ليشهد بنبوتهك. ويقول تعالى: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ».

فالذين سمعوا دعوة الحق كثيراً، وبلغت آذانهم آيات القرآن، وفهموا مضامينها العالیه، لكنهم أنكروها بسبب عتوهم وعصبيتهم.

كما أن هذه الآية تعد جواباً قاطعاً للقائلين بمدرسه الجبر، لأنها تقرر بأن الخير يكمن فى الإنسان نفسه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ (٢٤) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ

أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَضِيرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) دعوة للحياة: تتابع هذه الآيات دعوة المسلمين المتقدمة للعلم والعمل والطاعة والتسليم لكنها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداءً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

فهذه الآية تقول بصراحة: إن دعوة الإسلام هي دعوة للعيش والحياة على جميع الأصعدة والناس في الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والمادية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

ثم يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

إن الله عز وجل حاضر وناظر ومهيمن على كل المخلوقات. فإن الموت والحياة والعلم والقدرة والأمن والسكينة والتوفيق والسعادة، كلها بيديه وتحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمراً بدون توفيقه، وليس من اللائق التوجه لغيره وسؤال من سواه. لأنه مالك كل شيء والمحيط بجميع وجود الإنسان.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٧

ثم تشير الآية إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة الله ورسوله إلى الحياة فتقول: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً».

وكلمة «فتنة»: بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعية التي يصاب بها الجميع.

ومفهوم الآية هنا هو أن أفراد المجتمع مسؤولون عن أداء وظائفهم، وكذلك فهم مسؤولون عن حث الآخرين لأداء وظائفهم أيضاً، لأن الاختلاف والتشتت في قضايا المجتمع يؤدي إلى إنيهاره، ويتضرر بذلك الجميع.

وتُختتم الآية ببلغه التهديد فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ويأخذ القرآن الكريم مرة أخرى بأيدي المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا في بداية الأمر ضعفاء وكيف صاروا، لعلهم يدركون الدرس البليغ الذي علمهم إياه في الآيات السابقة فيقول: «وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ».

وهذه عبارة تشير إلى الضعف وقلة عدد المسلمين في مكة قبل الهجرة قبل المشركين الأقوياء. أو في المدينة بعد الهجرة في مقابل القوى الكبرى كالفرس والروم: «فَأَوَيْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَضِيرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات، وأريحاء من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله، فأتاهم، قالوا: ما ترى يا أبا لبابة أنتنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقة: إنه الذبح فلا تفعلوا. فأتاه جبرائيل عليه السلام فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت إنني قد خنت الله

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٨

ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد. وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي! فمكث سبعة أيام، لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك.



فقال:

لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذى يحلنى. فجاءه فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومي التى أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالى. فقال صلى الله عليه وآله: «يجزئك الثلث أن تصدق به».

التفسير

الخيانه وأساسها: يوجه الله سبحانه فى الآية الاولى من الآيتين محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ».

إنّ الخيانه لله ورسوله، هى وضع الأسرار العسكرية للمسلمين فى تصرف أعدائهم، أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم. ثم تقول الآية: «وَتَخُونُوا ءَمَانَاتِكُمْ».

«الخيانه»: فى الأصل معناها: الإمتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، وهى ضد «الأمانه» والأمانه وإن كانت تطلق على الأمانه المالىه غالباً، لكنها فى منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياه الاجتماعيه والسياسيه والأخلاقيه كافه. ويقول القرآن فى آخر الآية: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». أى إنه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانه، ولكن الاقدام على الخيانه مع العلم. والآيه بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات والمنافع العابره، لئلا يلقى على عيونهم وآذاتهم غشاء فيرتكبون خيانه تعرّض المجتمع إلى الخطر فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ».

فإذا زلت لنا قدم يوماً، فيجب علينا الإسراع فى تصحيح المسير ك «أبى لبابة» وإذا كان المال هو السبب فى الإنحراف، فعلينا بذله وإنفاقه فى سبيل الله.

وفى نهايه الآية بشاره كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانيين منتصراً، فتقول: «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

فمهما كان حبّ الأبناء كبيراً، ومهما كانت الأموال محبوبه وكثيره، فإنّ جزاء الله وثوابه أعلى وأعظم من كل ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٩

الإيمان ووضوح الرؤيه: تناولت الآيات السابقه أوامر حياتيه تتضمن السعاده الماديه والمعنويه للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن إلّا فى ظلال التقوى لذلك بينت الآيه أربعه ثمار ونتائج للتقوى فقالت ابتداءً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا». إنّنا نرى على مدى التاريخ بعض النساء والرجال المتّقين يملكون ووضوحاً من الرؤيه لا يمكن بلوغه بوسائل العلم والمعرفه أبداً، فهم يرون الأسباب الخفيّه للكثير من الحوادث التى تعصف بالمجتمع، ويرون عناصر الشر وأعداء الحق وإن حجبتهم آلاف الستائر الخادعه.

ومن جانب آخر أنّ إهدار القوى والطاقات فى الذنوب يتسبب فى بقاء الناس على مستوى دان من البصيره والمعرفه ويعيشون التخلف الثقافى والانحطاط فى التفكير حتى وإن كانوا متقدمين فى الصناعه والحياه الماديه.

ثم يقول: إنه إضافة إلى معرفه الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوى أن يغطى على ذنوبكم ويمحو آثارها من وجودكم «وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ».

مضافاً إلى ذلك، فإنّه تعالى سيشملكم بمغفرته «وَيَغْفِرْ لَكُمْ».

وثمار كثيره اخرى تنتظركم لا يعلمها إلّا الله: «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ». فهذه الآثار الأربعه هى ثمرات فى شجره التقوى، ووجود روابط طبيعيه بين التقوى وقسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبة كل ذلك إلى الله تبارك وتعالى.

والفرق بين (تكفير السيئات) و (الغفران) هو أنّ (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسيه والاجتماعيه للذنوب والثى تزول بفعل التقوى،

ولكن (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلهي والخلاص من الجزاء ....

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)

سبب النزول

ذكر المفسرون والمحدثون أن الآية- محل البحث- تشير إلى الحوادث التي أدت إلى هجرة الرسول صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٠

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إنها نزلت في قصة دار الندوة وذلك أن نفرًا من قريش اجتمعوا فيها، وهي دار قصي بن كلاب، وتآمروا في أمر النبي صلى الله عليه وآله، فقال عروة بن هشام: نترى به ريب المنون، وقال أبو البختری: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه، وقال أبو جهل: ما هذا برأى، ولكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسياهم ضربة رجل واحد فيرضى حينئذ بنو هاشم بالديه، فصوب إبليس هذا الرأي، وكان قد جاءهم في صورة شيخ كبير من أهل نجد، وخطأ الأولين. فاتفقوا على هذا الرأي وأعدوا الرجال والسلاح وجاء جبرائيل عليه السلام فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج إلى الغار وأمر علياً فبات على فراشه، فلما أصبحوا وفتشوا عن الفراش، وجدوا علياً. وقد رد الله مكرهم فقالوا: أين محمد؟ فقال: لا أدري. فاقتصوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الجبل ومروا بالغار، رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينة.

التفسير

هذه الآية وخمس آيات تليها، نزلت في مكة لأنها تشير إلى هجرة النبي صلى الله عليه وآله فتقول في بدايتها: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ».

ثم تضيف الآية قائلة: «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

إن المشركين قد بذلوا كل ما في وسعهم وجهدهم من طاقات فكرية وجسدية للقضاء على نبي الخاتم صلى الله عليه وآله حتى أنهم أعدوا جائزة لهذا الغرض وهي مئة ناقة، ولكن الله سبحانه أذهب بأفعالهم أدرج الرياح بواسطة نسج العنكبوت! ونظراً إلى أن هجرة النبي صلى الله عليه وآله تمثل مرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي، بل التاريخ الإنساني، فإننا نستنتج أن الله قد غير مسيرة التاريخ البشري بما نسجته العنكبوت من خيوط ....

وهذا الأمر لا ينحصر بهجرة النبي صلى الله عليه وآله بل في جميع تأريخ الأنبياء، فإن الله سبحانه أذل أعداءهم ودمرهم وأباد قوى الضلال بأسباب هيئة كالريح- مثلاً- أو كثرة البعوض، أو الطير الصغيرة التي تسمى بالأبابل، لبيان حالة الضعف البشري والعجز إزاء قدرته اللامتناهية وليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان والعناد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢١

وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتِنَا بَعْدَآبِ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صِلَاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاةً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) ذكر في الآية السابقة مثل من منطق المشركين على مستوى العمل والممارسة، وفي هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكري، ليتضح أن هؤلاء لم يمتلكوا سلامة

في الفكر ولا صحة في العمل، فجميع أساليبهم خاوية بغير أساس. تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث:

«وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

كانوا يقولون مثل هذا الكلام عند ما يعجزون عن مواجهة القرآن ومعارضته، وكانوا يعرفون جيداً أنهم غير قادرين على معارضة القرآن.

و الآية التالية تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

لقد كانوا يقولون ذلك لشدة تعصبهم وعنادهم، وكانوا يتصورون أن الدين الإسلامي لا أساس له أبداً، وإلا فإن أحداً يحتمل حقانية الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟

وفي ماتقدم من الآيات نلاحظ أن المشركين وجهوا إلى النبي صلى الله عليه وآله اشكالين: الأول منهما: واضح البطلان وهو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

والإشكال الثاني: لو كانت هذه الآيات نازلة من قبل الله فأنزل علينا العقاب والبلاء، فird عليهم القرآن في الآية الثالثة، من الآيات محل البحث، بقوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٢

ثم تعقب الآية بالقول: «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ». إن مفهوم الآية لا يختص بمعاصري النبي صلى الله عليه وآله بل هو قانون عام يشمل جميع الناس. لهذا فقد روى في نهج البلاغة عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به»، وقرأ هذه الآية.

و الآية التالية تقول: «إِنَّ هَؤُلَاءِ جَدِيرُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ» «وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

وهذا التعبير في الآية يشير إلى يوم كان المسلمون في مكة، ولم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتمام الحرية والإطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء والتعذيب. أو أن هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين وصددهم إياهم بعد أدائهم مناسك الحج والعمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

والعجيب أن هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أن لهم حق التصرف كيفما شاءوا في المسجد الحرام، وأنهم أولياؤه. إلا أن القرآن يضيف في هذه الآية قائلاً: «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ». وبالرغم من زعمهم أنهم أولياؤه ف «إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ومع أن هذا الحكم ورد في شأن المسجد الحرام، إلا أنه يشمل جميع المراكز الدينية والمساجد فإن سدننها ينبغي أن يكونوا من أطهر الناس وأتقاهم وأورعهم وأكثرهم إهتماماً بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقاً للتعليم وبث الوعي والإيقاظ.

والأعجب في هذا الشأن أن المشركين كانوا يدعون أنهم يصلون ويعبدون الله بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحة كالصغير والتصديء عند البيت، ولهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً».

ونقرأ في التاريخ أن طائفة من الأعراب في زمان الجاهلية عندما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم ويصفرون ويصفقون ويسمون أعمالهم هذه عبادة.

تعقب الآية على ما تقدم لتقول: «إِنَّ أَعْمَالَكُمْ - بل حتى صلاتكم - مدعاة للخجل والسفاهة ولذلك «فَسُدُّوا عَيْنَكُمْ عَنِ الْبَيْتِ وَكُفِّرُوا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٣

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)

سبب النزول

في تفسير على بن إبراهيم القمي: نزلت في قريش لما وافاهم ضمضم وأخبرهم بخروج رسول الله صلى الله عليه وآله في طلب العير

فأخرجوا أموالهم وحملوا وأنفقوا وخرجوا إلى محاربة رسول الله صلى الله عليه وآله يبدر فقتلوا وصاروا إلى النار وكان ما أنفقوا حسرة عليهم.

## التفسير

مفهوم الآية مفهوم جامع يحمل في معناه كل ما بذله أعداء الحق والعدل من أموال لئيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول في مستهلها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». إلّا أنّ هذا الإنفاق والبذل لن يحقق لهم نصراً «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ».

ولا يتلون بالحسرة والهزيمة في الدنيا فحسب، بل هم كذلك في الآخرة أيضاً «وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ». وبعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإن الآية التي تليها تقول: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ». هذه سنة إلهية دائمة أن يُعرف المخلص من غير المخلص، والطاهر من غير الطاهر، والمجاهد الصادق من الكاذب، والأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أى من ذلك مجهولاً أبداً، بل لا بد في النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض ويسفر الحق عن وجهه.

ثم تضيف الآية: «وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ».

فالخبيث من أية طائفة وفي أى شكل كان سيؤول في النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية في نهاية المطاف: «أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٤

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتِهَاءَ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) من المعلوم في اسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة والإنذار، أى أنه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب والعذاب، فإنه يفتح لهم في الوقت نفسه طريق العودة أمامهم. والآية الاولى:

من الآيات محل البحث تتبع هذا الاسلوب ذاته، فتأمر النبي صلى الله عليه وآله قائلة: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ».

ويستفاد من الآية المباركة أن قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة.

وتضيف الآية قائلة: إنهم إن لم يصححوا أسلوبهم «وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولِينَ». والمقصود من هذه السنة هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، وما أصاب المشركين عندما واجهوا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في معركة بدر.

ولما كانت الآية السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلى الحق، وإن هذه الدعوة قد تولد هذه الفكرة لدى المسلمين وهي أنه قد انتهت فترة الجهاد ولا بد بعد الآن من اللين والتساهل، ترفع هذه الشبهة الآية التالية وتقول: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغ دين محمد صلى الله عليه وآله ما بلغ الليل، حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض، كما قال الله تعالى: «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا».

وأخيراً فإن الآية في نهايتها، وتزامناً مع الشدة في العمل، تمد يد المحبة والرافة إلى الأعداء مرة أخرى فتقول: «فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». ولكن إذا تمادوا في عنادهم وطغيانهم ولم يستسلموا للحق، فاعلموا أن النصر حليفكم والهزيمة من نصيب أعدائكم، لأن الله مولاكم وهو خير ناصر ومعين: «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٥

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) وجدنا في بداية هذه السورة كيف أن بعض المسلمين تشاجروا في شأن تقسيم الغنائم بعد غزوة بدر، وفي هذه الآية عود إلى مسألة الغنائم. يقول الحق سبحانه: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ [الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ]» - من ذرية الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً.

ويضيف مؤكداً: «إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ أَي يَوْمَ بَدْر - يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ».

وتشير الآية في نهايتها إلى قدرة الله غير المحدودة، فتقول: «وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أى: بالرغم من قتلكم يوم بدر وكثرة عدوكم في الظاهر، لكن الله القادر خذلهم وأيدكم فانصرتهم عليهم.

إن الآية محل البحث جاءت في سياق آيات الجهاد، إلّا أنها تقول: «إِنَّ أَيُّهُ فَائِدَةٌ أَوْ رِبْحٌ تَحْصِلُونَ عَلَيْهِ - وَمِنْهُ غَنَائِمُ الْحَرْبِ - فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْتُوا خَمْسَهُ».

ما هو المراد من سهم الله؟ إن ذكر سهم على أنه سهم الله، للتأكيد على أهميته مسألة الخمس وإثباتها، ولتأكيد ولاية الرسول والقيادة الإسلامية وحاكمية النبي صلى الله عليه وآله أيضاً.

أى كما أن الله جعل سهماً باسمه وهو أحق بالتصرف فيه، فقد أعطى النبي والإمام حق الولاية والتصرف فيه كذلك، وإلّا أن سهم الله يُجعل تحت تصرف النبي أو الإمام يصرفه في المكان المناسب، وليس لله حاجة في سهم معين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٦

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِمَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) يعود القرآن في هذه الآيات الكريمة - ولمناسبة الكلام في الآيات السابقة عن يوم الفرقان يوم معركة بدر - ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على أهمية ذلك النصر العظيم. فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: «إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى .

«العدوة»: مأخوذة من «العدو» على زنه «السزو» ومعناها في الأصل التجاوز، ولكنها تطلق على أطراف كل شيء، وحواشيه، لأنها تتجاوز الحد الوسط إلى إحدى الجوانب، وجاءت هذه الكلمة في هذه الآية بهذا المعنى أي «الطرف، والجانب».

«الدنيا»: مأخوذة من «الدنو» على وزن العلو وتعني الأقرب، ويقابل هذا اللفظ الأقصى والقصى.

وكان المسلمون في الجانب الشمالي من ميدان الحرب الذي هو أقرب إلى جهة المدينة، وكان الأعداء في الجانب الجنوبي وهو الأبعد.

ثم تعقب الآية قائله: «وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ».

وبغض النظر عن كل ذلك فإن عدد قوات المسلمين وإمكاناتهم كان أقل من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإن الآية الكريمة تقول: «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِمَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ».

لأن الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهري قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٧

ولكن الله جعلكم إزاء أمر مقدر، وكما تقول الآية: «وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

وليعرف الحق من الباطل في ظلال ذلك النصر غير المتوقع والمعجزة الباهرة و «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَتِهِ».

وتعقب الآية قائله: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ».

فقد سمع نداء استغاثاتكم، وكان مطلعاً على نياتكم، ولذلك أيدكم بنصره على أعدائكم.

وكان النبي صلى الله عليه وآله قد رأى في منامه من قبل أن قلة من المشركين تقاتل المسلمين، وكانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر وبشارة به، فقد رواه صلى الله عليه وآله للمسلمين فزادوا العزائم في الزحف نحو معركة بدر.

والآية الثانية من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، والنعمة التي أولاها سبحانه وتعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: «إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَهِقْتُمُ». ولهبطت معنوياتكم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل لأدى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة «وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ» وانقذ الأمر بواسطة الرؤيا التي أظهرت الوجه الباطني لجيش الأعداء، ولأن الله يعرف باطنكم «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وتذكر الآية الأخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففي هذه المرحلة وفي ظل خطاب النبي المؤثر فيهم والبشائر الربانية، ورؤية حوادث حال التهيو للقتال - كنزول المطر لرفع العطش ولتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة - تجددت بذلك المعنويات وكبر الأمل بالنصر وقويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادي وكأنه صغير ضعيف لا حول ولا قوة له، فتقول الآية المباركة: «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا».

أمّا العدو فإنه لما كان يجهل معنويات المسلمين وظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلاً جداً، بل رآهم أقل مما هم عليه، إذ تقول الآية في الصدود «وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ».

لهذا فإن الآية تعقب على ما سبق قائله: «لِيُقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنة الله فحسب، بل إن إرادته نافذة في كل شيء «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصِيحُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) في الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هي:

١- أنها تقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا». أي إن إحدى علائم الإيمان هي ثبات القدم في جميع الأحوال، وخاصة في مواجهة الأعداء.

٢- «وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». ولا- ريب أن المراد من ذكر الله هنا ليس هو الذكر اللفظي فحسب، بل حضور القلب، فهذا التوجه إلى الله يقوى من عزيمة الجنود المجاهدين، ويشعر الجندي بأن سندا قويا لا تستطيع أية قدرة في الوجود أن تتغلب عليه يدعمه في ساحة القتال. وإذا قُتل فسينال السعادة الكبرى ويبلغ الشهادة العظمى.

٣- كما أن من أهم أسس المبارزة والمواجهة هو الإلتفات للقيادة وإطاعة أوامر القائد والأمر، الأمر الذي لولاه لما تحقق النصر في معركة بدر، لذلك فإن الآية بعدها تقول:

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

٤- «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا» لأن النزاع والفرقة امام الأعداء يؤدي إلى الضعف وخور العزيمة، ونتيجة هذا الضعف والفتور هي ذهاب هيبه المسلمين وقوتهم وعظمتهم «وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ».

٥- ثم تأمر الآية بالاستقامة بوجه العدو، وفي قبال الحوادث الصعبة، فتقول: «وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والفرق بين ثبات القدم في الأمر الأول، والاستقامة والصبر في الأمر الخامس، هو من جهة أن ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية «الجسمية» أما الاستقامة والصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان ومعنويان.

٦- وتدعو الآية الأخيرة من الآيات محل البحث المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجة البلهاء، ورفع الأصوات الفارغة، وتشير إلى قضية أبي سفيان وأسلوب تفكيره هو

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٢٩

وأصحابه، فتقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

فأهدافهم غير مقدسه، وكذلك أساليبهم في الوصول إليها، وتختتم الآية بالقول: «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَمَّا غَابَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي حَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) انَّ أَوَّلَ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ مَحَلَّ الْبَحْثِ تَتَكَلَّمُ عَنْ دِفَاعِ الشَّيَاطِينِ عَنِ الْمَشْرِكِينَ، فَتَبْدَأُ بِالْقَوْلِ: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ».

إن تزيين الشيطان للعمل يكون عن طريق تحريك الأهواء والشهوات والرذائل، فيتزين للإنسان عمله حتى ينظر إليه باعجاب.

ثم تقول الآية: «وَقَالَ لَأَغَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ».

ولن آلو جهداً في الدفاع عنكم، كما يدافع الجار عن جاره ويظهر له وفاءه وإخلاصه، والازمكم ملازمة الظل للشاخص.

ثم تقول الآية: «فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ».

واستدل على نكوصه وتراجعته الفقهري بدليلين هما:

أولاً قوله: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ».

فإنه يرى آثار النصر جيداً في وجوه المسلمين الغاضبة ويشاهد عليها سمات اللطف

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٠

الإلهي والإمداد الغيبي وتأيد الملائكة لهم.

والثاني قوله: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ». فإن الجزاء الإلهي ليس أمراً يسيراً يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنه هو العذاب الأليم «وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسداً لهم؟ يعتقد بعض المفسرين أن الشيطان تجسد لهم في صورة الإنسان، ففي رواية إن قريشاً عندما قررت التحرك والمسير نحو بدر، جاءهم إبليس في صورة «سراقه بن مالك» الذي كان من رؤوس بني كنانة وطمانهم بأنهم يوافقونهم على هذا الأمر، وأنهم سينتصرون، أنه نقل ما يشبه هذه القصة في هجرة النبي صلى الله عليه وآله ومجىء رجل كبير على هيئة شيخ نجدى إلى دار الندوة.

وتشير الآية بعدها إلى روحية جماعة ممن يميلون إلى الشرك في ساحة بدر، فتقول: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ». حين تصوروا أنهم سينتصرون مع قلة العدد والعدة، أو أنهم سينالون الشهادة والحياة الابدية في هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم وعدم معرفتهم بالإمداد الإلهي أنكروا تلك الحقائق البينة، لأنه كما تقول الآية المباركة: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

المراد من «الْمُنَافِقُونَ» و«الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» هما المنافقين في المدينة إما أنهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، أو أنهم من الذين تظاهروا بالإيمان في مكة لكنهم لم يهاجروا إلى المدينة وانضموا في معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلما رأوا قلة المسلمين في معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إن هؤلاء أصابهم الغرور في دينهم الجديد وجاءوا إلى هذه الساحة.

وتجسد الآية بعدها كيفية موت الكفار ونهاية حياتهم، فتوجه بالخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

ثم يقال لؤلئك: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ».

وتضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣١

كَدَّأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَنَفْسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَّأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) في هذه الآيات إشارة إلى «سنه إلهية دائمة» تتعلق بالشعوب والامم والمجتمعات، فنقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «كَدَّأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

فبناءً على هذا فإن قريشاً والمشركين وعبدة الأصنام في مكة، الذين أنكروا آيات الله ووقفوا بوجه الحق وحرابوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزء ما إقترفوه، بل أن ذلك قانون دائم، وسنّه إلهية تشمل من هم أقوى منهم - كآل فرعون - كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك.

ثم توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَنَفْسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وبعبارة اخرى: إن الرحمة الربانية عامة تسع جميع الخلق، لكنها تبلغ الناس وتصل إليهم بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإذا استفادوا من تلك النعم في السير نحو الكمال والإستمداد منها في سبيل الحق تعالى والشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادةً صحيحة، فإن الله سبحانه سيثبت نعماءه ويزيدها، أمّا إذا استغلت تلك المواهب في سبيل الطغيان والانحراف والعنصرية، وكفران النعمة والغرور والفساد، فإن الله سيسلبهم تلك النعم أو يبدلها إلى بلاء ومصيبة، بناءً على ذلك فإن التغيير يكون من قبلنا دائماً، وإلا فإن النعماء الإلهية لا تزول ....

وتعقيباً على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة - كفرعون وأقوام آخرين - فيقول: «كَدَّأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ» ظلموا أنفسهم وظلموا سواهم أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٢

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرُّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ (٥٧) وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَمَّا يَخْسِرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَمَا يُعْجِرُونَ (٥٩) في هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة اخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمة للمسلمين في حياة النبي صلى الله عليه وآله المليئة بالأحداث، إلا أنهم ذاقوا جزء ما إقترفوه مرراً وكانت عاقبة أمرهم خُسرًا، وهؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النبي صلى الله عليه وآله و آله عدة مرات. وتبدأ الآيات فتعرف هذه الطائفة بأنها شر الأحياء الموجودة في هذه الدنيا فتقول: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

وتقول الآية الاخرى: «الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ».

والمفروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الاضرار بالمسلمين وإعانة الأعداء عليهم.

فلاهم يخافون الله تعالى، ولا يحذرون من مخالفته أو امره، ولا يراعون القواعد والاصول الإنسانية: «وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ». و الآية بعدها توضح كيفية اسلوب مواجهه هؤلاء فتقول: «فَإِذَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرُّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ». أي قاتلهم بشكل مدبر بحيث أن الطوائف القابضة



خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك ويتفرقوا عنهم.

«تثقفهم»: مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ الشيء بدقه وسرعة، وهي إشارة إلى وجوب التنبه والإطلاع السريع والدقيق على قراراتهم، والاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

«شرد»: مأخوذة من مادة «التشريد» وهي بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغي أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الاخرى من الأعداء وناقضى العهود، ولا يفكروا بالهجوم عليكم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٣

وهذا الأمر إنما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء في المستقبل أيضاً ويتجنبوا الحرب مع المسلمين، وليتجنب نقض العهد - كذلك - الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلاً «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». «وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» ولا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّبُ الْخَائِنِينَ».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يوجه تعالى الخطاب إلى ناقضى العهد، فيحذرهم من عاقبه ذلك فيقول: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَأُعْجِرُونَ».

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِاللَّهِ يَكْتُبُ الْغَيْبَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَنْصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) تشير أول آية هنا - وتواصلًا مع الحديث في الآيات المتقدمة عن الجهاد - إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به في كل عصر ومصر، وهو لزوم الإستعداد العسكري لمواجهة الأعداء، فتقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ». أي لا تنتظروا حتى يهجم العدو فتستعدوا عندئذ لمواجهة، بل يجب أن تكون لديكم القدرة والإستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

وتضيف الآية قائلة: «وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ». «الرباط»: بمعنى شد الشيء، ويرد هذا الاستعمال كثيراً بمعنى ربط الحيوان في مكان ما لرعايته والمحافظة عليه.

والتعبير في الآية واسع إلى درجة أنه ينطبق على كل عصر ومصر تماماً.

وكلمة «قوة» تشمل كل أنواع القوى والقدرات التي يكون لها أثراً ما في الإنتصار على الأعداء، سواء من الناحية المادية أو الناحية المعنوية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٤

إن هذا الشعار الإسلامي الكبير: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» إذا أضحي شعاراً شاملاً في كل مكان، ينادى به الصغير والكبير، والعالم وغير العالم، والمؤلف والخطيب، والجندي والضابط، والفلاح والتاجر، والتزموا به في حياتهم وطبقوه، كان كافياً لجبران التخلف والتأخر.

إن سيرة النبي صلى الله عليه وآله العملية وأئمة الإسلام تدل على أنهم لم يدخروا وسعاً، واستغلوا كل فرصة لمواجهة العدو، كإعداد الجنود وتهيئة السلاح، وشد الأزر ورفع المعنويات، وبناء معسكرات التدريب، واختيار الزمان المناسب للهجوم، والعمل على استعمال مختلف الأساليب الحربية، ولم يتركوا أية صغيرة ولا كبيرة في ذلك.

والمعروف أن النبي بلغه أن سلاحاً جديداً مؤثراً صنع في اليمن أيام معركة حنين، فأرسل النبي جماعة إلى اليمن لشراؤه فوراً.

الهدف من تهيئة السلاح وزيادة التعبئة العسكرية: ثم ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقي والإنساني من وراء هذا الموضوع، فيقول: إن الهدف منه ليس تزويد الناس في العالم أو في مجتمعكم بأنواع الأسلحة المدمرة التي تهدم المدن وتحرق

الاخضر واليابس وليس الهدف منه استغلال أراضي الآخرين وممتلكاتهم، وليس الهدف هو توسعة الإستعباد والاستعمار في العالم، بل الهدف من ذلك هو «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». لأنَّ أكثر الأعداء لا يستمعون لكلمة الحق ولا يستجيبون لنداء المنطق والمبادئ الإنسانية، ولا يفهمون غير منطق القوة.

ثم تضيف الآية بأنَّ المزيد من استعداداتكم العسكرية يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: «وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ».

تتضمن الآية تعليماً لمسلمي اليوم أيضاً، وهو أنه لا ينبغي الإكتفاء بالإستعداد لأعداء الإسلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتبهوا للأعداء الاحتماليين أو «بالقوة» وأن تتهيأوا حتى تكونوا في أعلى حد من القوة والقدرة.

وفي نهاية الآية إشارة إلى موضوع مهم آخر، وهو أن الإستعداد العسكري وجمع الأسلحة والأجهزة الحربية ووسائل الدفاع المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى الدعم المالي اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعي لتهيئة ذلك المال، وأن ما يبذلونه في هذا الأمر فهو عطاء في سبيل الله، ولن ينقص منه شيء أبداً «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٥

إِلَيْكُمْ» فيرجع إليكم جميعه، بل أكثر ممَّا أنفقتم «وَأَنْتُمْ لَمَّا تَطْلُمُونَ»، وستنالون ثواب ذلك في هذه الدنيا في إنتصار الإسلام وقوته وعظمته.

كما أن ثواباً أعظم ينتظركم في العالم الآخر في جوار رحمة الله.

إنَّ جملة «وَأَنْتُمْ لَا تَطْلُمُونَ» معطوفة على جملة «ترهبون» أي أنكم إذا ما أعددتكم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، ولن يقدرُوا على ظلمكم وإيذائكم، وبناءً على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبداً.

مع أن الآية السابقة أوضحت هدف الجهاد في الإسلام بقدر كافٍ، فإنَّ الآية التالية التي تتحدَّث عن الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلي فتقول: «وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا».

ولما كان الناس يترددون أغلب الأحيان عندما يراد التوقيع على معاهدة الصلح، فإنَّ الآية تأمر النبي بعدم التردد في الأمر إذا كانت الشروط عادلة ومنسجمة مع المنطق السليم والعقل، فتقول: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

ومع ذلك فهي تحذر النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين من احتمال الإحتيال والخداع في دعوة الأعداء إلى الصلح، فقد تكون دعوة للتمويه والرغبة في توجيه ضربه مفاجئة، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلّا أنَّ الآية تطمئن النبي صلى الله عليه وآله أن لا يخشى هذا الأمر أيضاً، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ سيكفيه أمرهم وسينصره في جميع الأحوال، إذ تقول: «وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ».

وسيرتك أيها النبي - السابقة - شاهدة على هذه الحقيقة، لأنَّ الله «هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ».

أضف إلى ذلك أنَّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب ولم يدخروا وسعاً في الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين، ولكن الله شرح صدورهم بأنوار الهداية «وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ».

وقد كانت الحرب لسنوات طويلة قائمة على قدم وساق بين طائفتي الأوس والخزرج بشكل لم يكن أي أحد يتصور أنهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب والصفاء في يوم ما، ولكن الله القادر المتعال فعل ذلك ببركة الإسلام وفي ظلال القرآن.

ثم تضيف الآية أن اتحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفة، لم يكن بوسائل مألوفة أو

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٦

مادية «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ».

وتضيف الآية معقبة في الختام: «إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فعزته تقتضى عجز الآخرين من الوقوف في مواجهته، وحكمته تقتضى أن تكون كل

اموره جاريةً وفق حساب دقيق ونظام صحيح، ولهذا فإن الخطئة الدقيقة وحدثت القلوب المتنافرة المتفرقة وجعلتها تنصاع للنبي صلى الله عليه وآله لينشروا أنوار الهداية في كل أرجاء العالم.

وتخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النبي بالقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) في هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية وأحكام الجهاد أيضاً. فالآية الاولى منهما تخاطب الرسول فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ».

هذه الآية توضح أهمية الإعلام والتبليغ وشحن همم المقاتلين والجنود ومعنوياتهم باعتبار ذلك تعليماً إسلامياً مهماً.

وتعقب الآية بالتعليم الثاني فتقول: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». فينبغي للمسلمين أن لا ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقداراً يكافىء قوة العدو وأفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال والجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوهم عشرة أضعافهم.

ثم تشير الآية إلى علمه هذا الحكم فتقول: «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» وهذا التعليل يبدو عجباً لأول وهلة، إذ ما هي العلاقة بين المعرفة والفقاهة وبين النصر أو بين عدم المعرفة والهزيمة؟! لكن الواقع هو أن العلاقة بينهما قريبة ومتينة، لأن المؤمنين يعرفون نهجهم الذي سلكوه ويدركون الهدف من خلقهم وإيجادهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٧

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات والصبر والاستقامة.

أما الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأى أمر يقاتلون؟

الأعمى ولعاداتهم الجاهلية ساروا وراء هذه الأفكار، وهكذا تبعث ظلمات الطريق وعدم معرفتهم الهدف ونتائج أعمالهم على إنبهار أعصابهم وتفتت في عضدهم وثباتهم، وتجعل منهم كائنات ضعيفة.

وبعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء وان كانوا عشرة أضعاف يخفف الله عن المؤمنين ويتنزل في الحكم الذي يرهقهم فيقول: «الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا».

ثم يقول: «فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ».

ولكن على كل حال ينبغي أن لا تنسوا تسديد الله «وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمَّا كُنْ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) بينت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمة ومواجهته الأعداء، وفي هذه الآيات استكمال لما سبق في عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، وأول موضوع مهم يثار في هذا الشأن، هو ما قالته الآية الكريمة من أن كل نبي ليس له الحق في أسر أفراد العدو إلا بعد أن يثبت اقدمه في الارض ويكيل الضربات القاضية للأعداء: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ».

«يثخن»: مأخوذ من «الثخن» على زنة «المحن» ومعناه في الأصل الضخامة والغلظة والثقل، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز والقوة والنصر والقدرة.

إن معنى الآية هو التفوق على العدو تماماً وإظهار القوة والقدرة وإحكام السيطرة على المنطقة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٨

ثم ألفت باللوم على اولئك الذين خالفوا هذا الأمر فتقول: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ». فلا ينبغي أن نترك المنافع الطويلة الأمد والمستقبلية رهن الخطر من أجل أن نحصل على منافع مادية عابرة. وتُخْتَمُ الآيَةُ بالقول أن التعليم آنف الذكر - في الواقع - مزيج من العزة والنصر والحكمة والتدبير، لأنه صادر من قبل الله تعالى «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

الآية التالية توجه اللوم والتفريع ثانية لأولئك الذين يعرضون المنفعة العامة والمصلحة الاجتماعية للخطر من أجل الحصول على المنافع المادية العابرة، فتقول الآية: «لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». إلاً أنه - كما صرحت الآيات الكريمة في القرآن - فإنَّ سُنةَ الله اقتضت أن تُبين أحكامه ثم يجازى الذي يخالفون عن أمره. وفي الآية التالية إشارة إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب، وهو حكم أخذ الفداء.

في تفسير القمي: لما قتل رسول الله صلى الله عليه وآله النضر بن الحارث، وعقبه بن أبي معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله! قتلنا سبعين وأسرونا سبعين وهم قومك واسارك هبهم لنا يا رسول الله وخذ منهم الفداء واطلقهم، فأَنْزَلَ اللهُ عليهم «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى الْآيَاتِ، فَأُطْلِقَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْفِدَاءَ وَيَطْلُقُوهُمْ». إنَّ الآيَةَ محلُّ البحث أجازت للمسلمين التصرف في غنائم المعركة، والمبلغ الذي يأخذونه فداءً من الأسير، فقالت: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَّالًا طَيِّبًا».

ويمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الاخرى غير الفداء. ثم تأمرهم الآية بالتقوى فتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ». وهذا إشارة إلى أن جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغي أن يجعل هدف المجاهدين في المعركة هو جمع الغنائم وأن يأسروا العدو حتى يأخذوا فداءه، وإذا كان في القلوب مثل هذه التيات السيئة فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، ويعددهم الله بالعمو عمّا مضى فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». والمسألة المهمة في شأن أسرى الحرب هي موضوع إصلاحهم وتربيتهم وهدايتهم، ولهذا فإنَّ الآية الرابعة من الآيات محلُّ البحث تخاطب النبي أن يدعو الأسرى إلى الإيمان بالله وإصلاح أنفسهم، ويرغبهم في كل ذلك، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٩

والمراد من كلمة «خيراً» في الجملة آنفة الذكر «إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا» هو الإيمان وقبول الإسلام أمّا المراد من كلمة «خير» في الجملة الاخرى «يؤتكم خيراً» فهو الثواب أو الأجر المادي والمعنوي. ثم إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف الله ويعفو عن سيئاتكم «وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». وحيث إنَّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسىء إلى الإسلام ويخون النبي وينتقم من المسلمين، فإنَّ الآية التالية تحذّر النبي والمسلمين من خيانتهم فتقول: «وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ». وأى خيانه أعظم من عدم الإستجابة لنداء الفطرة والعزوف عن نداء الحق والعقل، والشرك بالله وعليهم أن لا ينسوا نصره الله لك «فَأَمَّا كَنُ مِنْهُمْ».

وإذا أرادوا الخيانة في المستقبل فلن يُفلحوا، لأنَّ الله مطلع على نياتهم، وجميع تعاليم الإسلام في شأن الأسرى وفق حكمته «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ

اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) تبحث هذه الآيات التي تُختتم بها سورة الأنفال - وتُعدّ آخر فصل من فصولها - عن طوائف المهاجرين والأنصار والطوائف الأخرى من المسلمين وبيان قيمة هؤلاء جميعاً،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٠

مختصر الامثل ج ٢ ٢٧٩

فتعطي كل طائفة قيمة، وتستكمل ما تناولته الآيات السابقة في شأن الجهاد والمجاهدين.

وقد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، وواحدة من غير المسلمين، والطوائف الأربع هي:

١- المهاجرون السابقون.

٢- الأنصار في المدينة.

٣- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤- الذين آمنوا من بعد وهاجروا.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ».

إنّ الآية و صفت الطائفة الأولى بأربع صفات هي: الإيمان، والهجرة والجهاد المالي والاقتصادي والصفة الرابعة جهادهم بأنفسهم ودمائهم وأرواحهم.

أما الأنصار فقد وصفتهم الآية بصفتين هما: الإيواء، والنصرة.

ثم تشير الآية إلى الطائفة الثالثة فتقول: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا».

ثم استثنت في الجملة التي بعدها مسؤولية واحدة فحسب، وأثبتتها في شأن هذه الطائفة، فقالت: «وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ... إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ».

وحضت الآية على رعاية العهود والمواثيق والدقة في أداء هذه المسؤولية، ومنبهته إلى علم الله بكل الأمور، فقالت: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فهو يرى جميع أعمالكم ويطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، وكذلك بالوهن والضعف وعدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف الكبيرة.

أما الآية الثانية فتشير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسلامي، أي مجتمع الكفر وأعداء الإسلام، فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» أي إنّ علاقاتهم منحصرة فيما بينهم، ولا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصرة لأنفسكم، أو تلجؤوهم وتوهم إليكم، أو تأووا وتلتجئوا إليهم.

ثم تنبه الآية المسلمين وتحذرهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤١

إنّ المراد من «الفتنة» هو الاختلاف والتفرق وتزلزل مباني العقيدة الإسلامية على أثر وسوسة الأعداء، و «الفساد» يشمل كل إخلال وتخريب للنظم الاجتماعية المختلفة وخاصة سفك الدماء البريئة والارهاب وأمثال ذلك.

أمّا في الآية التالية فنجد تأكيداً على مقام المهاجرين والأنصار مرة أخرى، وما لهما من موقع وأثر في تحقيق أهداف المجتمع

الإسلامي، فشنى عليهم الآية بقولها: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا». لأنهم هبوا لنصرة الإسلام في الأيام الصعبة الشديدة وفي الغربة والمحنة وقد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصرة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». فهم فائزون بثواب الله والنعمة الاخروية، كما أنهم يتمتعون في هذه الدنيا بالعمة ورفع الرأس والكرامة.

أمّا الآية الأخيرة فتشير إلى الطائفة الرابعة من المسلمين، أي اولئك الذين آمنوا وهاجروا من بعد، فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ». أي إنّ المجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً مغلقاً ومحصوراً على نفسه، بل أبوابه مفتوحة لجميع المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين.

وتشير الآية في ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، وأوليتها فيما جعله الله في عباده من أحكام، فتقول: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ».

إنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين والمسلمين العامة «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآية محل البحث فتؤكد هذا الموضوع في شأن الأرحام والأقارب، فهم إضافة إلى ولاية الإيمان والهجرة يتمتعون بولاية الأرحام أيضاً، ومن هنا فهم يرثون ويورثون بعضهم بعضاً، إلا أنه لا إرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقة قريبي بينهم. وفي آخر جملة من هذه الآية يقول الله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

فما نزل في هذه السورة من أحكام تتعلق بالأنفال وغنائم الحرب، وتعاليم الجهاد والصلح، وأحكام الأسرى والحرب، وما يتعلق بالهجرة وغيرها، كل ذلك كان وفق حساب دقيق يتلاءم وروح المجتمع الإنساني، والعواطف البشرية، والمصالح العامة في جميع جوانبها المختلفة.

«نهاية تفسير سورة الأنفال»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٣

## ٩. سورة التوبة

ينبغي الإلتفات إلى الامور التالية قبل الشروع في تفسير السورة:

١- أسماء هذه السورة: ذكر المفسرون لهذه السورة أسماء عديدة تبلغ العشرة، غير أنّ المشهور منها هو ما يلي: سورة البراءة، وسورة التوبة، والسورة الفاضحة.

٢- متى نزلت هذه السورة؟ هذه السورة هي آخر سورة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو من أواخر السور النازلة عليه في المدينة.

والمعروف أنّ بداية نزول هذه السورة كانت في السنة التاسعة للهجرة، وقسماً منها نزل قبل معركة تبوك، وقسماً منها نزل عند الإستعداد للمعركة أو «الغزوة»، وقسماً منها نزل بعد الرجوع من المعركة والفراغ منها.

والآيات الاولى - هذه - والتي تتعلق بمن بقي من المشركين بلّغها أمير المؤمنين عليه السلام في موسم الحج.

٣- محتوى السورة: يتعلق قسم من آيات هذه السورة بالبقية الباقية من عبدة الأوثان والمشركين، وقطع العلاقات معهم، وإلغاء المعاهدات التي كانت بينهم وبين المسلمين.

وقسماً مهماً منها تتحدّث عن المنافقين وعاقبتهم، وتحذر المسلمين منهم.

وبعض آيات هذه السورة تتحدّث عن الجهاد في سبيل الله وأهميته، كما أنّ قسماً منه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٤

يكمل البحوث السابقة التى تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود والنصارى» عن حقيقة التوحيد، وتكلم عن انصراف علمائهم عن واجبه فى التبليغ وقيادة المجتمع. وحيث سبب انتشار الإسلام واتساع رقعة مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفة ينبغى توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة وتحريم تراكم الثروات واكتنازها، ووجوب طلب العلم أو التعلّم وتعليم الجهلة، وتناولت بحوثاً متنوعه اخرى كقصه هجرة النبى صلى الله عليه وآله، والأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، وأخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود والنصارى، وما إلى ذلك.

فى تفسير مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما نزل على القرآن إلا آية آية، وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة وقل هو الله أحد، فإنهما نزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة، كل يقول يا محمد استوص بنسبة الله خيراً».

٤- لم لم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟ يُجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بُدئت بالبراءة- من قبل الله- من المشركين، وإعلان الحرب عليهم، واتباع أسلوب شديد لمواجهةهم، وبيان غضب الله عليهم، وكل ذلك لا يتناسب والبسملة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» الدالة على الصفاء والصدق والسلام والحب، والكاشفة عن صفة الرحمة والطف الإلهي.

بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسَيُحْوَى فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) إلغاء عهود المشركين: كانت فى المجتمع الإسلامى ومحيطه طوائف شتى، فطائفة منها مثلاً لم يكن لها أى عهد مع النبى صلى الله عليه وآله والنبي كذلك لم يكن له أى عهد معها.

وطوائف اخرى عاهدت النبى صلى الله عليه وآله فى الحديبية- وأمثالها- على ترك المحاصمة والمنازعة، وقد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، وبدون أى سبب يجيز النقص وذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام، أو حاولت اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله.

الآية الاولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافة: «بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

يستفاد من الروايات أن علياً عليه السلام قد امر بإبلاغ أربع مواد إلى الناس فى ذلك اليوم وهى:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٥

١- إلغاء عهد المشركين.

٢- لا يحق للمشركين أن يحجوا فى المواسم المقبلة.

٣- منع العراء والحفاه من الطواف الذى كان شائعاً ومألوفاً حتى ذلك الوقت.

٤- منع المشركين من دخول البيت الحرام.

ثم أمهلتهم مدة أربعة أشهر ليفكروا فيها ويحددوا موقفهم من الإسلام، فإما أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهاؤوا للمواجهة والقتال، فقالت: «فَسَيُحْوَى فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ».

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ (٣) إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتوا إليهم عهدهم إلى مدينتهم إن الله يحب المتقين (٤) نلاحظ فى هاتين الآيتين البيتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التى كانت بين النبى صلى الله عليه وآله والمشركين، حتى أن تاريخ الإلغاء قد اعلن فى هذه الآية إذ نقول: «وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ».

إن الله سبحانه يريد فى هذا الإعلان العام فى مكة المكرمة، وفى ذلك اليوم العظيم، أن يوصل كل ذريعة يتذرع بها المشركون والأعداء، ويقطع السنة المفسدين.

ثم يتوجه الخطاب فى الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيباً وترهيباً، لعلهم يهتدون، إذ تقول الآية: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ». أى إن

الإستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم وفيها خير لكم ولمجتمعكم وديناكم وآخرتكم، فلو تدبرتم بجد وصدق لرأيتم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافي لكل جراحاتكم وليس في الأمر منفعة لله أو لرسوله.

ثم إن الآية تحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: «وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ». فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

وأخيراً فإن الآية أذرت المعاندين المتعصبين قائلة: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٦

وكما أشرنا من قبل فإن إلغاء هذه العهود من جانب واحد- ورفض عهد المشركين- يختص بولئك الذين دلت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم وبدت بوادره، لذلك فإن الآية استثنت قسماً منهم لوفائهم بالعهد، فقالت «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُواكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

فإذا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) الشدة المقرونة بالرفق: نقرأ في الآيتين أعلاه بيان وظيفته المسلمين بعد انتهاء مدة إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» وقد أصدر القرآن أوامره الصارمة في هذا الصدد فقال:

«فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».

ثم يقول: «وَأَخْذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ».

وهذه الشدة متناغمة ومتوائمة مع منهج الإسلام وخطته في إزالة الوثنية وقلعها من جذورها، لأن الوثنية ليست عقيدة صحيحة، ولا ديناً كى تُلحظ بعين الإحترام.

وهذه الشدة والقوة والصرامة لا- تعنى سد الطريق- طريق الرجوع نحو التوبة- بوجههم، بل لهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سبيل الحق، ولذلك فإن الآية عقب بالقول: «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ».

ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». يتوب على عباده المنيين إليه.

وتستكمل الآية التالية هذا الموضوع بأمر آخر، كما يتضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنما هو نشر التوحيد والحق والعدالة، وليس هو الاستثمار أو الاستعمار وإمتصاص المال، أو الإستيلاء على أراضي الآخرين، إذ تقول الآية: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ». أى عليك أن تعامل من يلجأ اليك من المشركين برفق ولطف، وامنحه المجال للتفكير حتى يتبين له محتوى دعوتك في كمال الإرادة والحرية،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٧

فإذا أشرقت أنوار الهداية في قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثم تضيف الآية قائلة: «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» وأوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد في طريقه.

وأخيراً فإن الآية تبين علته هذا الحكم، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ».

فبناءً على ذلك لو فتحت أبواب المعرفة بوجوههم، فإنه يؤمل خروجهم من الوثنية التي هى وليده الجهل- وإلتحاقهم بركب التوحيد الذى هو وليد العلم والمعرفة.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَا لَمَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَمَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَا لَمَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)



المعتدون الناقضون العهد: كما لاحظنا في الآيات السابقة أن الإسلام ألغى جميع العهود التي كانت بينه وبين المشركين وعبدة الأوثان - إجماعاً خاصة - وأمهاتهم مدة أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه، والآيات محل البحث بيان لعله إلغاء العهود من قبل الإسلام، فتقول الآية الأولى من هذه الآيات مستفهمه استفهاماً إنكارياً: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ». أي: إنهم لا ينبغي لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء بالعهد من قبل النبي صلى الله عليه وآله ومن جانب واحد، في وقت تصدر منهم المخالفات وعدم الوفاء بالعهد.

ثم استتت الآية مباشرة ولثك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

وفي الآية التالية يثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة والتأكيد، ويستفهم منه استفهاماً إنكارياً أيضاً، إذ تقول الآية: «كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وُلَا ذِمَّةً».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٨

وتضيف الآية معقبة بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوفة فقالت:

«يُذَوِّنُكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ». وفي نهاية الآية إشارة إلى جذر هذا الموضوع وأساسه وهو فسقهم، فتقول: «وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ».

وفي الآية التالية بيان لبعض علائم فسقهم وعصيانهم، إذ أعربت الآية عن ذلك على النحو التالي «اشْتَرَوْا بَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ».

ثم تعقب الآية بالقول: «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فقد خسروا طريق السعادة وضيعوها، وحرموا الهداية، وهم في الوقت ذاته أوصدوا الطريق بوجه الآخرين، وأى عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره ووزر سواه!

أما في آخر آية من الآيات محل البحث فهي تأكيد آخر على ما ورد في الآيات المتقدمة، إذ تقول الآية: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وُلَا ذِمَّةً».

وهذه الخصلة فيهم لم يُبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ».

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّهُمْ أَكْفَرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ أَتَّخِشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) إن أحد أساليب الفصاحة والبلاغة أن يكرر المتحدث المطلب المهم بتعابير مختلفة للتأكيد على أهميته، وليكون له أثر في النفوس. ولما كانت مسألة تطهير المحيط الإسلامي من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٩

الوثنية وعبادة الأصنام وإزالة آثارها، من المسائل ذات الأهمية القصوى، فإن القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديدة في الآيات محل البحث، فتقول الآية الأولى: «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ».

وتضيف معقبة: «وَنُفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

ولكن لو استمر المشركون في نقض العهود، فتقول الآية التالية: «وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّهُمْ أَكْفَرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ».

صحيح أنهم عاهدوكم على عدم المخاصمة والمقاتلة، إلا أن هذه المعاهدة - بنقضها مراراً، وكونها قابلة للنقض في المستقبل - لا اعتبار لها أصلاً ولا قيمة لها.

وتعقب الآية مضيئة: «لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ».

وفى الآية الاخرى خطاب للمسلمين لإثارة همهم، وإبعاد روح الضعف والخوف والتردد عنهم فى هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: «أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ».

فعلام تقلقون وأنتم لم تبدأوهم بالقتال وإلغاء العهد من قبلكم «وَهُمْ بَدَأُواكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

وإذا كان بعضكم يتردد فى مقاتلتهم خشية منهم، فإن هذه الخشية لا محل لها «أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وفى الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ».

وليس ذلك فحسب، بل، «وَيُخْزِيهِمْ» «وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ».

وبهذا يشعر المؤمنون بالراحة والطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم والعذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، ويزيل الله تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر «وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ».

أما الآية التالية فتضيف: إن فى إنتصار المؤمنين وهزيمة الكافرين سروراً للمؤمنين، وإن الله يسددهم «وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ».

وتختتم الآية بالقول: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

العبارة الأخيرة تحمل البشرى بأن مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام ويشملهم توفيق

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٠

الله، لما لديهم من التهيؤ الروحى والقابلية.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) فى هذه الآية ترغيب للمسلمين فى الجهاد عن طريق آخر، حيث تحمل الآية المسلمين مسؤوليته ذات عبء كبير، وهى أنه لا ينبغى أن تتصوروا أن كل شىء سيكون تاماً بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النية وصدق القول والإيمان الواقعى فى قتالكم الأعداء قتالاً خالصاً من أى نوع من أنواع النفاق، فتقول الآية أولاً: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ».

«الوليجه»: مشتقة من «الولوج» ومعناه الدخول، وتطلق الوليجه على من يعتمد عليه فى الأسرار ومعناها يشبه معنى البطانة تقريباً.

إن الجملة المتقدمة تنبه المسلمين إلى أن الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، ولا تتجلى شخصيته الأشخاص بذلك، بل يعرف الناس باختبارهم عن طريقين:

الأول: الجهاد فى سبيل الله لغرض محو آثار الشرك والوثنية.

الثانى: ترك أية علاقة أو أى تعاون مع المنافقين والأعداء.

فالأول لدفع العدو الخارجى، والثانى يحصن المجتمع من خطر العدو الداخلى.

وتختتم الآية بما يدل على الإخطار والتأكيد: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فلا- ينبغى أن يتصور أحد أن الله لا- يعرف العلائق السرية بين بعض الأفراد وبين المنافقين، بل يعرف كل شىء جيداً وهو خبير بالأعمال كلها.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ

مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥١

من جملة المسائل التى يمكن أن تراود أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين والحكم بجهادهم، هو: لم تبعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أن مساهمتهم فى هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية

والمعنوية» إذ استفاد من إعاناتهم المهمة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوي في زيادة الحاج والطائفين حول الكعبة المشرفة وبيت الله. فالآيتان محل البحث تردان على مثل هذه الأفكار الواهية التي لا أساس لها، وتضريح الآية الاولى منهما بالقول: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ». ثم تشير الآية إلى فلسفه هذا الحكم فتقول: «أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ». ولذلك فهي لا تجديهم نفعاً: «وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ».

فالله طاهر منزّه، وينبغي أن يكون بيته طاهراً منزهاً كذلك، فلا يصح أن تمسه الأيدي الملوثة بالشرك. أمّا الآية التالية فتذكر شروط عمارة المسجد الحرام - إكمالاً للحديث آنف الذكر - فبتين خمسة شروط مهمة في هذا الصدد، فتقول: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وهذا النص إشارة إلى الشرطين الأوّل والثاني اللذين يمثلان الأساس العقائدي.

ثم تشير الآية إلى الشرطين الثالث والرابع فتقول: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ».

أى: إن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يكفي أن يكون مجرد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان بالله ينبغي أن تكون قوية محكمة، وأن يؤدى صلاته باخلاص، كما ينبغي أن تكون علاقته بعباد الله وخلقهم قوية، فيؤدى الزكاة إليهم. وتشير الآية إلى الشرط الخامس والأخير فتقول: «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ».

فقلبه ملىء بعشق الله، ولا يحس إلا بالمسؤولية في امتثال أمره ولا يرى لأحد من عبيده أثراً في مصيره ومصير مجتمعه وتقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر في عمارة محل للعبادة.

ثم تضيف الآية معقبة بالقول: «فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ». فيبلغون أهدافهم ويسعون لعمارة المسجد.

أهمية بناء المساجد: وردت أحاديث كثيرة في أهمية بناء المساجد. ففي تفسير المنار عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضا بنى الله له بيتاً في الجنة».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٢

إلّا أنّ ما هو أكثر أهمية هذا اليوم هو عمارة المسجد المعنوية، فالمسجد ينبغي أن يكون مركزاً للشباب المؤمن، لا محلاً للعجزة والكسالى والمقعدين، فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعي الفعال، لا مجال للعاطلين والبطلين والمرضى.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَيَّجُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني عن ابن بريده، قال: بينا شيبه والعباس يتفاخران، إذا مرّ بهما على بن أبي طالب عليه السلام فقال: «بماذا تتفاخران؟»

فقال العباس: لقد اوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد: سقاية الحاج.

وقال شيبه: اوتيت عمارة المسجد الحرام.

فقال على عليه السلام: «استحييت لكما، فقد اوتيت على صغرى ما لم تؤتيا!»

فقالا: وما اوتيت يا على؟

قال: «ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله!»

فقام العباس مغضباً يجرّ ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به على؟

فقال: «أدعو لى علياً». فدعى له فقال: «ما حملك على ما استقبلت به عمك؟» فقال: «يا رسول الله! صدمته بالحق، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض!»

فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عليهم: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ الْآيَاتِ. فقال العباس: إنا قد رضينا؛ ثلاث مرات.

التفسير

مقياس الفخر والفضل: مع أن للآيات - محل البحث - شأناً في نزولها، إلا أنها في الوقت مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٣

ذاته تستكمل البحث الذي تناولته الآيات المتقدمة، ونظير ذلك كثير في القرآن. فالآية الاولى من هذه الآيات تقول: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَأَيْسَّرُوا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَبِالْحَقِّ لِيَهْدِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». ويحدثنا التاريخ أن منصب «سقاية الحاج» قبل الإسلام كان من أهم المناصب وكان يضاهاى منصب سدانة الكعبة. أما الآية التالية فتوضح ما أجملته الآية السابقة وتؤكد بالقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

وأما الآية الثالثة - من الآيات محل البحث - فتقول: إن الله أنعم على المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين في سبيله ثلاث مواهب هي:

١- «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ».

٢- «وَرِضْوَانٍ».

٣- «وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».

وتعقب الآية الأخيرة لمزيد التوكيد بالقول: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَمَّا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) كل شىء فداء للهدف: إن آخر وسوسة أو ذريعة يمكن أن يتذرع بها جماعة من المسلمين للامتناع عن جهاد المشركين (وفعلاً فقد تذرع بعضهم وفقاً لما ورد في قسم من التفاسير) بأن من بين المشركين وعبداء الأوثان أقارب لهم، فإذا كان القرار أن يجاهد الجميع المشركين فلا بد أن يغمضوا أعينهم عن أرحامهم وأقاربهم وعشيرتهم الخ. هذا كله من جهة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٤

ثم ومن جهة اخرى كانت رؤوس الأموال والقدرة التجارية بيد المشركين تقريباً، ولهذا يسبب تردد المشركين إلى مكة إزدهار التجارة.

ومن جهة ثالثة كان للمسلمين في مكة بيوت عامرة نسبياً، فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج ومناسكه بمكة. فالآيتان - محل البحث - ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص، وتردآن عليهم بيان صريح، فتقول الآية الاولى منهما: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ». ثم تعقب - على وجه التأكيد - مضيفه: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وأى ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق والمشركين، ويظلم مجتمعه، ويظلم نبيه أيضاً؟!

أما الآية التالية فهي تتناول هذا الموضوع بنحو من التفصيل والتأكيد والتهديد والتفريع، فتخاطب النبي صلى الله عليه وآله ليعتف اولئك الذين لا يرغبون في جهاد المشركين لما ذكرناه آنفاً، فتقول: «قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ».

ولما كان ترجيح مثل هذه الامور على رضا الله والجهاد في سبيله، يعدّ نوعاً من العصيان والفسق البين، وإن من تشبث قلبه بالدنيا وزخرفها وزبرجها غير جدير بهداية الله، فإن الآية تعقب في الختام قائلة: «وَاللَّهُ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

ما قرأناه في الآيتين - محل البحث - ليس مفهومه قطع علائق المحبة بين الأرحام، وإهمال رؤوس الأموال الاقتصادية، والإنسياق إلى تجاوز العواطف الإنسانية وإغائها، بل المراد من ذلك أنه ينبغي أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلى الأموال والأزواج والأولاد والدور والمقام الدنيوي، بحيث لا نطّبق في تلك الحالة حكم الله، أو لا نرغب في الجهاد، ويحول عشقنا المادى دون تحقيق الهدف المقدس.

لهذا يلزم على الإنسان إذا لم يكن على مفترق الطرق أن يرضى الجانبين «العلاقة بالله والعلاقة بالرحم».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٥

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين في قلوب اطفال المسلمين وشبابهم ونجعله شعاراً لنا، ونحیی في نفوس المسلمين روح التضحية والجهاد، ليحافظوا على ثقافتهم وموروثهم المعرفي.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) الكثرة وحدها لا تجدى نفعاً: في الآيات المتقدمة رأينا أن الله سبحانه يدعو المسلمين إلى التضحية والجهاد على جميع الصُّعد في سبيل الله وقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان، ويهدد بشدة من يتفاسد منهم عن الجهاد والتضحية بسبب التعلق بالأزواج والأولاد والأرحام والعشيرة والمال والثروة. أما الآيات محل البحث فتشير إلى مسألة مهمة، وهي أن على كل قائد أن ينبه أتباعه في اللحظات الحساسة بأنه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف الإيمان والذين يحجبهم التعلق بالمال والولد والأزواج وما إلى ذلك عن الجهاد في سبيل الله، فلا ينبغي أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، وعليهم أن يواصلوا طريقهم، لأن الله لم يتخل عنهم يوم كانوا قلة، كما هو الحال في معركة بدر، ولا يوم كانوا كثرة ملء العين (كما في معركة حنين) وقد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئاً، لكن الله سبحانه أنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا، فالله في الحالين ينصر المؤمنين ويرسل إليهم مدده ... لهذا فإن الآية الأولى من الآيات محل البحث تقول: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ».

ثم تضيف الآية معقبة: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً». وكان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثني عشر ألفاً، وهذا الرقم لم يسبق له مثيل في الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى إغتر بعض المسلمين وقالوا: «لن نغلب اليوم».

إلا أنه قد فر كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدي عهد بالإسلام ولم يتوغل الإيمان في قلوبهم فانكسر جيش المسلمين في البداية وكاد العدو أن يغلبهم لولا أن الله أنزل بلطفه مدده وجنوده فنجاهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٦

ويصور القرآن هذه الهزيمة بقوله: «وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ».

وفي هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا وهناك، ولم يبق مع النبي إلا القلة، وكان النبي مضطرباً ومتألماً جداً لهذه الحالة نزل التأييد الإلهي: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا».

ويذكر القرآن النتيجة النهائية لمعركة حنين الحاسمة فيقول: «وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ». وكان هذا العذاب والجزاء أن قتل بعض الكافرين، واسر بعضهم، وفر بعضهم إلى مناطق بعيدة عن متناول الجيش الاسلامي.

ومع هذا الحال فإنَّ الله يفتح أبواب توبته للأسرى والفارين من الكفار الذين يرغبون في قبول مبدأ الحق «الإسلام» لهذا فإنَّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وجملة «يتوب» التي وردت بصيغة الفعل المضارع، والتي تدل على الإستمرار، مفهومها أنَّ أبواب التوبة والرجوع نحو الله مفتوحة دائماً بوجه التائبين.

غزوة حنين ذات العبرة: «حنين» منطقة قريبة من الطائف، وبما أنَّ الغزوة وقعت هناك فقد سميت باسم المنطقة ذاتها، وقد عبّر عنها في القرآن ب «يوم حنين» ولها من الأسماء:

غزوة أوطاس، وغزوة هوازن أيضاً.

أمَّا تسميتها بأوطاس، فلأنَّ «أوطاس» أرض قريبة من مكان الغزوة، وأمَّا تسميتها بهوازن، فلأنَّ إحدى القبائل التي شاركت في غزوة حنين تُدعى هوازن.

إنَّ رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف واجتمعوا عنده في اخريات شهر رمضان أو شوال في السنة الثامنة للهجرة، وكانوا قد جاءوا بأموالهم وأبنائهم وأزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، وهكذا فقد وردوا منطقة أوطاس. فعقد النبي صلى الله عليه وآله لواءه، وسلمه علياً عليه السلام.

وكان ألفا شخص قد أسلم في فتح مكة، فأضيف عددهم إلى العشرة آلاف الذين ساهموا في فتح مكة، وصاروا حوالي اثني عشر ألفاً، وتحركوا نحو حنين.

فلما صَلَّى النبي صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرت طائفة من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٧

المقاتلين جديدي الإسلام (بمكة) من مقدمة الجيش، فكان أنَّ ذُهل المسلمون واضطربوا وفر الكثير منهم.

فخلى الله بين جيش المسلمين وجيش العدو، وترك الجيشين على حالهما، ولم يحم المسلمين لغرورهم - مؤقتاً - حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلَّا أنَّ علياً حامل لواء النبي بقي يقاتل في عدة قليلة معه، فأمر النبي صلى الله عليه وآله عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن يصعد على تل قريب وينادي: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرّون؟ هذا رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلما سمع المسلمون صوت العباس رجعوا وقالوا: لبيك لبيك، ولا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدو من كل جانب حملة شديدة، فقتل حوالي مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عددهم منهم.

ونقرأ في نهاية هذه الحادثة التاريخية أن ممثلي هوازن جاءوا النبي وأعلنوا إسلامهم، وأبدى لهم النبي صلى الله عليه وآله صفحه وحبّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) لا يحق للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام: قلنا: إنَّ واحداً من الامور الأربعة التي بلغها الإمام على عليه السلام في موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة، هو أنه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشير إلى هذا الموضوع وحكمته، فتقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا».

ثم تعقب الآية على ذوى النظرة السطحية الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم وغدوا

فقراء مغوزين فتقول: «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ».

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعة الإسلام في عصر النبي صلى الله عليه وآله أخذ سيل الزائر ينحدر نحو بيت الله في مكة، وما زال هذا الأمر مستمراً حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكة في أحسن الظروف فهي بين سلسلة جبال صخرية لا ماء فيها ولا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٨

زرع، لكنها مدينة عامرة، وقد صارت بإذن الله مركزاً مهماً للبيع والشراء والتجارة. ويضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فكل ما يأمركم به الله فهو وفق حكمته، وهو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، وهو خير بذلك.

فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ لَمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) مسؤوليتنا إزاء أهل الكتاب: كان الكلام في الآيات السابقة عن وظيفة المسلمين إزاء المشركين، أمّا الآية محل البحث (وما يليها من الآي) فتبين تكليف المسلمين ووظيفتهم إزاء أهل الكتاب. وفي هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسلة من الأحكام تعدّ حداً وسطاً بين المسلمين والكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث إيمانهم لدينهم السماوي لهم شبه بالمسلمين، إلّا أنّهم من جهة أخرى لهم شبه بالمشركين أيضاً.

ولهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطأ تقضى بقلع جذور الشرك والوثنية من الكرة الأرضية، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب في صورة ما لو احترم أهل الكتاب الإسلام، ولم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

والعلامة الأخرى لموافقته على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هي أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الإسلامية مبلغاً قليلاً من المال بحدود وشروط معينة ستتناولها في البحوث المقبلة إن شاء الله.

وفي غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، ويوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم في جمل ثلاث في الآية محل البحث، إذ تقول الآية أولاً: «فَاتِلُوا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ لَمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ».

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب - كاليهود والنصارى - بالله وباليوم الآخر، مع أنّنا نراهم في الظاهر يؤمنون بالله ويقرون بالمعاد أيضاً؟ والجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات والأوهام.

ثم تشير الآية إلى الصفة الثانية لأهل الكتاب، فتقول: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٩

وتذكر الآية الصفة الثالثة التي كانوا يتصفون بها فتقول: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ». أي إنّ أديانهم منحرفة عن مسيرها الأصيل، فنسوا كثيراً من الحقائق والتمروا بكثير من الخرافات مكانها.

وبعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، التي هي المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب، تقول الآية: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ».

ثم تبين الآية الفرق بين أهل الكتاب والمشركين في مقاتلتهم، بالجملة التالية: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

«الصاغر»: مأخوذ من «الصغر» ومعناه الراضى بالدلة. والمراد من الآية أنّ الجزية ينبغي أن تُدفع في حال من الخضوع للإسلام والقرآن. ما هي الجزية؟ تُعدّ الجزية ضريبة مالية «إسلامية» وهي تتعلق بالأفراد لا بالأموال ولا بالأراضي. أو بتعبير آخر: هي ضريبة مالية سنوية على الرؤوس. أنّ فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هي الدفاع عن الوطن واستقلاله وأمنه، وهي وظيفة عامة على جميع الناس، فبناء على ذلك متى ما قام جماعة فعلاً بالمحافظة على الوطن ولم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون ويتجرون - مثلاً - فإنّ على الجماعة الثانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

فبناء على ذلك أن الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحملة المسلمون من مسؤولية في الحفاظ عليهم وعلى أموالهم.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٠

شرك أهل الكتاب: كان الكلام في الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين وإلغاء عهودهم وضرورة إزالة دينهم ومعتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب. وفي الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب والمشركين، ولا سيما اليهود والنصارى منهم، ليتضح أنه لو كان بعض التشدد في معاملتهم، فإنما هو لانحرافهم عن التوحيد، وميلهم إلى نوع من الشرك في العقيدة، ونوع من الشرك في العبادة. فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

من هو عزير؟ «عزير» في لغة العرب هو «عزرا» في لغة اليهود، فإن عزيراً - أو عزرا - له مكانة خاصة في تاريخ اليهود، حتى أن بعضهم زعم أنه واضح حجر الأساس لأمية اليهود وباني مجدهم، وفي الواقع فإنه خدمة كبرى لدينهم، لأن بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميراً في واقعة المشهورة، وجعل مُدُنَهُمْ، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجرى بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالي قرن.

ولمّا فتح كورث ملك فارس بابل جاءه عزرا، وكان من أكابر اليهود، فاستشفعه في اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم وكتب لهم التوراة - ممّا بقي في ذهنه من أسلافه اليهود وما كانوا قد حدّثوا به - من جديد. ولذلك فهم يحترمونه أيما احترام، ويعدّونه منقذهم ومحبي شريعتهم. وكان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم ب «ابن الله».

وفي الآية التالية إشارة إلى شركهم العملي في قبال الشرك الاعتقادي، أو بعبارة أخرى إشارة إلى شركهم في العبادة، إذ تقول الآية: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ». «الأخبار» جمع حبر، ومعناه العالم، و «الرهبان» جمع راهب وتطلق على من ترك دنياه وسكن الدير وأكب على العبادة.

ومما لا شك فيه أن اليهود والنصارى لم يسجدوا لأخبارهم ورهبانهم، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعة دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفة لحكم الله من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى باتخاذ رب.

وفي ختام الآية تأكيد على هذه المسألة، وهي أن جميع هذه العبادات للبشر بدعة، وهي من العبادات الموضوعية: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦١

إن القرآن المجيد يعلم أتباعه في الآية محل البحث درساً قيماً جدّاً، وبيّن واحداً من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحق لأي مسلم طاعة إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأن هذا الأمر مساو لعبادته، وجميع الطاعات يجب أن تكون في إطار طاعة الله، وإنما يصح إتباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفة لقوانين الله، أيّاً كان ذلك الإنسان وفي أية مكانة أو منزلة.

وفي الآية الثالثة من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسعي اليهود والنصارى، أو سعي جميع مخالفي الإسلام حتى المشركين، وجدّهم واجتهادهم المستمر «العقيم» الذي لا يعود عليهم بالنفع أبداً، إذ تقول الآية: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».



ولا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هذه المحاولات اليائسة، وفي الواقع فإن محاولات مخلوق ضعيف إزاء قدرة الله التي لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالاً مما ذكرته الآية.

الآية الأخيرة من الآيات محل البحث في نهاية المطاف تترف البشرية للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، وتكمل ما أشارت إليه - آنفاً - أن أعداء الإسلام لن يفلحوا في محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ».

والمقصود من «الهدى» هو الدلائل الواضحة، والبراهين اللائحة الجلية التي وُجدت في الدين الإسلامي.

وأما المراد من «دين الحق» فهو هذا الدين الذي اصوله حقة وفروعه حقة أيضاً، وكل ما فيه من تاريخ وبراهين ونتائج حق، ولا شك أن الدين الذي محتواه حق، ودلائله وبراهينه حقة، وتأريخه حق جلي، لا بد أن يظهر على جميع الأديان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهولة الإرتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه ويطلعه من وراء سُيْدَلِ الإعلام المضلل، وستزول كل العقبات والموانع والسدود التي وضعت في طريق انتشار الإسلام.

وهكذا فإن دين الحق سيستوعب كل مكان، ولا يحول بينه وبين تقدمه شيء أبداً، لأن الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفة لسير التاريخ وسنن الخلق.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٢

القرآن وظهور المهدي: إن الآية محل البحث عينها وبالالفاظ ذاتها، وردت في سورة الصف، الآية (٩) كما وردت في الآية (٢٨) من سورة الفتح باختلاف يسير؛ والآية تخبر عن حدث مهم كبير استدعت أهميته هذه أن تتكرر الآية في القرآن، وهذا الحدث الذي أخبرت عنه الآية هو استيعاب الإسلام للعالم بأسره.

فمفهوم الآية إنتصار الإسلام كلياً - ومن جميع الجهات - على جميع الأديان، ومعنى هذا الكلام أن الإسلام سيهيمن على الكرة الأرضية عامه، وسينتصر على جميع العالم.

ينقل الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه إكمال الدين عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم».

كما في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمّد، فلا يبقى أحد إلا أقرّ بمحمّد».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَمَّا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشَّرْنَاهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هَذَا مِمَّا كَتَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٥) كثر الأموال: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن أعمال اليهود والنصارى المشوبة بالشرك، إذ كانوا يعبدون الأبخار والرهبان من دون الله. الآية الاولى محل البحث تقول: إن أولئك مضافاً إلى كونهم غير جديرين بالالوهية فهم غير جديرين بقيادة الناس أيضاً، وخير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضة المضطربة. فالآية هنا تلتفت نحو المسلمين فتخاطبهم بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوغ أو مجوز، فقد أشرنا سابقاً إلى ذلك في آيات أخرى كما ورد في التاريخ شيء منه أيضاً، وذلك:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٣

أولاً: إنهم كتّموا حقائق التعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام في توراته وعيسى عليه السلام في إنجيله، لئلا يميل الناس إلى الدين الجديد، «الدين الإسلامي» فتقطع هداياهم وتغدو منافعهم في خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات (٤١) و (٧٩) و (١٧٤) من سورة

البقرة.

والثاني: إنهم بأخذهم «الرشوة» كانوا يقبلون الحق باطلاً والباطل حقاً، وكانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية (٤١) من سورة المائدة.

ومن أساليبهم غير المشروعة في أخذ المال هو ما يسمى بـ «صكوك الغفران وبيع الجنة» فكانوا يتسلمون أموالاً باهظة من الناس.

وأما صدّهم عن سبيل الله فهو واضح، لأنهم كانوا يحرفون آيات الله، أو أنهم كانوا يكتمونها رعاية لمنافعهم الخاصة.

وتعقياً على موضوع حب اليهود والنصارى لديّناهم وأكل المال بالباطل، فإنّ القرآن يتحدث عن قانون كلي في شأن أصحاب المال وذوي الثراء، الذين يكتنون أموالهم، فيقول:

«وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

فالآية محل البحث تحرم الكتز وجمع المال، والثروة، وتأمّر المسلمين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله وما فيه نفع عباد الله، وأن يتجنبوا كتزها ودفنها وإبعادها عن تحرك السوق، وإلا فليتنظروا «العذاب الأليم».

وهذا العذاب الأليم ليس جزاءهم في يوم القيامة فحسب، بل يشملهم في الدنيا- لإرباكهم الحالة الاقتصادية ولإيجاد الطبقة بين الناس «الفقير والغني» أيضاً.

متى يعدّ جمع الثروة كتزاً؟ وفق كثير من الروايات أنه يجب على الإنسان دفع زكاته سنوياً لا- غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولاً بحكم الكتز وإن جمع المال؟

ففي تفسير المنار عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، ثم سألو النبي صلى الله عليه وآله فقال: «إنّ الله لم يفرض الزكاة إلاّ لطيب بها ما بقي من أموالكم، وإتّما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم».

إلّا أننا نقرأ روايات أخرى في المصادر الإسلامية لا تنسجم ظاهراً- ولأوّل وهلة- والتفسير الآنف الذكر، ومنها ما ورد- في تفسير مجمع البيان- عن الإمام على عليه السلام أنه قال:

«ما زاد على أربعة آلاف (١) فهو كتز أدى زكاته أو لم يؤدّ، وما دونها فهو نفقة».

(١) المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنها مخارج السنة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٤

ويمكن الإستنتاج من مجموع الأحاديث- آنفة الذكر- منضمّة إليها الآية محل البحث، أنه في الظروف الاعتيادية المألوفة، حيث يرى الناس آمنين، أو غير محقق بهم الخطر، والمجتمع في حال مستقر، فيكفي عندئذ دفع الزكاة وما تبقى لا يعدّ كتزاً.

وأما في الحالات غير الطبيعية وغير الاعتيادية، وعندما يقتضى حفظ مصالح المجتمع الإسلامي ذلك، فإنّ الحكومة الإسلامية، تحدّد لجمع المال مقداراً، كما مرّ في حديث الإمام على عليه السلام أو تطالب الناس بالكنوز وما جمعه من المال كلياً.

جزاء من يكتز: في الآية التالية إشارة إلى واحد ممّا يحقّ بمثل هؤلاء ممّن يكتز المال، في العالم الآخر، إذ تقول الآية: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ».

ويخاطبهم ملائكة العذاب وهم في هذه الحال: «هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَنُونَ».

وهذه الآية تؤكد مرّة أخرى هذه الحقيقة، وهي أنّ أعمال الإنسان لا تمضى سدى، بل تبقى وتتجسّد له يوم القيامة، وتكون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ

أَنْفُسِكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) وقف القتال الإجباري: لما كانت هذه السورة تتناول أبحاثاً مفصلةً حول قتال المشركين، فالآيتان محل البحث تشيران إلى أحد مقررات الحرب والجهاد في الإسلام، وهو إحترام الأشهر الحرم. فتقول الآية الاولى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٥

والتعبير ب «كتاب الله» إشارة إلى كتاب الخلق وعالم الوجود.

فمنذ ذلك اليوم الذي استقرت عليه المجموعة الشمسية بنظامها الخاص حدثت السنين والأشهر، فالسنه عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة والشهر دوران القمر حول الأرض دورة كاملة.

ثم تضيف الآية - آنفه الذكر - معقبة: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ».

ثم تضيف الآية مؤكدة: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ».

ويستفاد من بعض الروايات أن تحريم القتال في هذه الأشهر الحرم، كان مشرعاً في الديانة اليهودية والمسيحية وسائر الشرائع السماوية، إضافة إلى شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثم تقول الآية: «فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ».

إلا أنه لما كان تحريم هذه الأشهر قد يتخذ ذريعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمين فيها، فقد عقب الآية بالقول: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً». فبالرغم من أن هؤلاء مشركين، والشرك أساس التشتت والتفرقة، إلا أنهم يقاتلونكم في صف واحد «كافه» فينبغي عليكم أن تقاتلوهم كافه، فذلك منكم أجدر لأنكم موحدون فلا بد من توحيد كلمتكم أمام عدوكم ولتكونوا كالبنيان المرصوص.

وتختتم الآية بالقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

وفي الآية الثانية - من الآيتين محل البحث - إشارة إلى إحدى السنن الخاطئة في الجاهلية، وهي سنة النسيء «تغيير الأشهر الحرم» إذ تقول الآية: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» ففي أحد الاعوام يقررون حلية الشهر الحرام ويحرمون أحد الأشهر الحلال للمحافظة على العدد أربعة «يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ». فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفة تحريم الأشهر، ويتلاعبون بحكم الله بحسب ما تمليه عليهم أهوائهم، والعجيب أنهم يرضون عن عملهم، وفعلهم هذا كما تقول الآية: «زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ». فهم يغيرون الأشهر الحرم ويبدلونها، ويعدون ذلك تديراً لحياتهم ومعاشهم، أو يتصورون أن طول فترة إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلا بد من إثارة الحرب.

فالله سبحانه إذا علم أن في عباده من ليس أهلاً للهداية والتوفيق، خلاه ونفسه: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِنَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قالوا لما رجع رسول الله صلى الله عليه و آله من (الطائف)، أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك في زمان إدراك الثمار، فأحبوا المقام في المسكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، وكان صلى الله عليه و آله قلما خرج في غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها إلا (غزوة تبوك)، لبعد شقتها، وكثرة العدو، ليتأهب الناس، فأخبرهم بالذي يريد، فلما علم الله سبحانه تثاقل الناس، أنزل

الآية.

التفسير

كما أشرنا آنفاً في شأن نزول الآيتين، فإنهما نزلتا في غزوة «تبوك».

وتبوك منطقة بين المدينة والشام، وتعد الآن من حدود الحجاز، وكانت آتخذ على مقربة من أرض الروم الشرقية المتسلطة على الشامات (١).

وقد حدثت هذه الواقعة في السنة التاسعة للهجرة، أي بعد سنة من فتح مكة تقريباً.

ففي الآية الأولى - من الآيتين محل البحث - يدعو القرآن المسلمين إلى الجهاد بلسان الترغيب تارة وبالعتاب تارة أخرى وبالتهديد تارة فهو يدعوهم ويهيوهم إلى الجهاد، ويدخل إليهم من كل باب. إذ تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُم إِلَى الْأَرْضِ».

ثم تقول الآية مخاطبة إياهم بلهجة الملامة: «أَرْضَيْتُم بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخِرَةِ فَمَا مَتَاعِ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ». فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخسران، وكيف يعوض متاعاً غالياً

(١) الفاصلة بين تبوك والمدينة ٦١٠ كم والفاصلة بينها وبين الشام ٦٩٢ كم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٧

لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً!

ثم تتجاوز الآية مرحلة الملامة والعتاب إلى لهجة أشد وأسلوب تهديدي جديد، فتقول:

«إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

فإذا كنتم تتصورون أنكم إذا توليتم وأعرضتم عن الذهاب إلى سوح الجهاد، فإن عجلة الإسلام ستوقف وينطفئ نور الإسلام، فأنتم في غاية الخطأ والله غني عنكم «وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» قوماً أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصية فحسب، بل من حيث الإيمان والإرادة والشهامة والإستجابة والطاعة «وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا».

وهذه حقيقة وليست ضرباً من الخيال أو أمنية بعيدة المدى، فالله عزيز حكيم: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

إِنَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) المدد الإلهي للرسول في أشد اللحظات: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن موضوع الجهاد ومواجهه العدو، وكما أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكداً بعدة طرق، من ضمنها أنه لا ينبغي أن تتصوروا أنكم إذا تقاعستم من الجهاد ونصرة النبي صلى الله عليه وآله فستذهب دعوته والإسلام أدرج الرياح. فالآية محل البحث تعقب على ما سبق لتقول: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ».

وكان ذلك عندما تأمر مشركو مكة على اغتيال النبي صلى الله عليه وآله وقتله، وقد مرّ بيان ذلك في ذيل الآية (٣٠) من سورة الأنفال بالتفصيل.

ولكن النبي صلى الله عليه وآله و آله اطلع - بأمر الله - على هذه المكيدة، فتهيأ للخروج من (مكة) والهجرة إلى (المدينة).

وقد سعى الأعداء سعياً حثيثاً للعثور على النبي، إلّا أنهم عادوا آيسين، وبعد بضعة أيام وصل صلى الله عليه وآله المدينة سالماً، وبدأت مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام هناك.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٨

فالآية آنفة الذكر تشير إلى أشد اللحظات حرجاً في هذا السفر التاريخي، فتقول: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وبالطبع فإنهم لم يريدوا

إخراجه بل أرادوا قتله، لكن لما كانت نتيجة المؤامرة خروج النبي صلى الله عليه وآله من مكة فراراً منهم، فقد نسبت الآية إخراجه إليهم.

ثم تقول: كان ذلك في حال هو «ثَانِي اثْنَيْنِ».

وهذا التعبير إشارة إلى أنه لم يكن معه في هذا السفر الشاق إلّا رجل واحد، وهو أبو بكر «إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ». أي غار ثور، فاضطرب أبو بكر وحزن فأخذ النبي صلى الله عليه وآله يسرى عنه، وكما تقول الآية: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَّخِزْنِي إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا».

ولعل هذه الجنود الغيبية هي الملائكة التي حفظت النبي صلى الله عليه وآله في سفره الشاق المخيف، أو الملائكة التي نصرته في معركة بدر وحنين وأضرابهما.

«وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا».

وهي إشارة إلى أن مؤامراتهم قد باءت بالخيب والفشل وحبطت أعمالهم وآراؤهم، وشع نور الله في كل مكان، وكان الانتصار في كل موطن حليف محمّد صلى الله عليه وآله، ولم لا- يكون الأمر كذلك «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فبعزته وقدرته نصر نبيه، وبحكمته أرشده سبل الخير والتوفيق والنجاح.

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) الكسالى الطامعون: قلنا: إن معركة تبوك كانت لها حالة استثنائية، وكانت مقترنة بمقدمات معقدة وغامضة تماماً، ومن هنا فإن عدداً من ضعاف الإيمان أو المنافقين أخذ «يتعلّل» في الاعتذار عن المساهمة في هذه المعركة. وقد وردت في الآيات المتقدمة ملامة للمؤمنين من قبل الله سبحانه، وتعقيباً على هذا الكلام يدعو المؤمنون جميعاً مرة أخرى- دعوة عامة- نحو الجهاد ويعنف المتسامحين فيقول سبحانه: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٦٩

«الخفاف»: جمع الخفيف؛ «الثقال»: جمع الثقيل، ولهاتين الكلمتين مفهوم شامل يستوعب جميع حالات الإنسان. أي انفروا في أيّ حالة كنتم شباباً أم شيوخاً، تعولون أحداً أم لا تعولون، أغنياء أم فقراء، أصحاب تجارة أو زراعة أم لستم من اولئك. ثم تضيف الآية قائلة: «وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أي جهاداً مطلقاً عاماً من جميع الجهات، لأنهم كانوا يواجهون عدواً قوياً مستكبراً.

ولئلا يتوهم أحد أن هذه التضحية يريد بها الله لنفسه ولا تنفع أصحابها، فإن الآية تضيف قائلة: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». أي إن كنتم تعلمون بأنّ الجهاد مفتاح عزتكم ورفعتمكم ومنعتكم.

وإن كنتم تعلمون بأنّ سبيل الوصول إلى مرضاة الله والسعادة الأبدية وأنواع النعم والمواهب الإلهية، كل ذلك إنّما هو في هذه النهضة المقدسة العامة والتضحية المطلقة.

ثم يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالى الذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النبي مبيّناً واقعهم فيقول: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّقَّةُ» (١).

والعجيب أنهم لا- يكتفون بالأعداء الواهية، بل «وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ». فعدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنّما هو لضعفنا وعدم اقتدارنا وابتلائنا! «يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

فهم قادرون على الذهاب إلى ساحات القتال، لكن حيث إنّ السفر ذو مشقة، ويواجهون صعوبةً وحرماً، فإنهم يتشبثون بالكذب والباطل. ولم يكن هذا الأمر منحصراً بغزوة تبوك وعصر النبي صلى الله عليه وآله فحسب، ففي كل مجتمع فئة من الكسالى

والمناققين والطامعين والانتهازيين الذين ينتظرون لحظات الإنتصار ليقيموا أنفسهم في الصفوف الاولى، ويصرخوا بعالي الصوت أنهم المجاهدون الأوائل والمخلصون البواسل، ليصادروا ثمرات جهود الآخرين في إنتصارهم دون أن يبذلوا أى جهد! غير أن هؤلاء «المجاهدين» المخلصين! كما يزعمون، حين يواجهون الشدائد والأزمات يلوذون بالفرار ويتشبثون بالأعداء الباطلة والحجج الواهية، كأن يقول أحدهم: إننى

(١) «العرض»: ما يعرض ويزول عاجلاً ولا دوام له، ويطلق عادةً على مواهب الدنيا المادية؛ و «القاصد»: معناه السهل، لأنه في الأصل من قصد، والناس يسعون في قصدهم إلى المسائل السهلة.

«الشقة»: تعنى الأرض الصخرية أو الطريق الطويل البعيد الذى يجلب على عابره المشقة والنصب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٠

مريض، ويقول الآخر: إننى مبتلى بطفلى، ويقول الثالث: زوجى مقرب وعلى وشك الولادة، ويقول الرابع: يا ليتنى كنت معكم لولا ضعف فى عينى لا أبصر بهما، ويقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر وأنا على أثركم، وهكذا.... إلّا أن على القادة والصفوة من الناس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، وإذا لم يكونوا أهلاً للإصلاح فينبغى إخراجهم وطردهم من صفوف المجاهدين. عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَافِرِينَ (٤٣) لَمَّا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) التعرف على المنافقين: يستفاد من الآيات- محل البحث- أن جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وبعد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة- حتى أنهم أقسموا على صدق مدعاهم- إستانذوا النبي فى الانصراف عن المساهمة فى معركة تبوك، فأذن لهم النبي بالانصراف. فالله سبحانه يعتب على النبي فى الآية الاولى من الآيات محل البحث فيقول: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَافِرِينَ».

وهناك كلام طويل بين المفسرين فى المراد من عتاب الله نبيه المشفوع بالعمو عنه، أهو دليل على أن إذن النبي صلى الله عليه وآله كان مخالفة، أم هو من باب ترك الاولى؟!

يُحتمل فى تفسير الآية هو أن العتاب أو الخطاب المذكور آنفاً إنما هو على سبيل الكناية، ولم يكن فى الأمر حتى «ترك الاولى» بل المراد بيان روح النفاق فى المنافقين ببيان لطيف وكناية فى المقام.

ويمكن أن يتضح هذا الموضوع بذكر مثال، فلنترض أن ظالماً يريد أن يلطم وجه ابنك، إلّا أن أحد أصدقائك يحول بينه وبين مراده فيمسك يده، فقد تكون راضياً عن سلوكه هذا، بل وتشعر بالسرور الباطنى، إلّا أنك ولإثبات القبح الباطنى للطرف المقابل تقول لصديقك:

لم لا تركته يضربه على وجهه ويلطمه؟ وهدفك من هذا البيان إنما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم ونفاقه، الذى ورد فى ثوب عتاب الصديق وملامته من قبلك.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧١

ثم يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين والمنافقين، فيقول: «لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ».

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد ويدعوهم الإيمان بالله واليوم الآخر ومسئولياتهم وإيمانهم بمحكمة القيامة، كل ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق ويوصد بوجوههم الأعداء والحجج الواهية: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ».

ثم يضيف القرآن: «إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

ويعقب مؤكداً عدم إيمانهم بالقول: «وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رِيئِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ».

وهاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين والمنافقين في صدر الإسلام ومعركة تبوك فحسب، بل يمكن في عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدعين الكاذبين بهاتين الصفتين. فالمؤمن شجاع ذو إرادة وتصميم وخطى واثقة، والمنافق جبان وخائف ومتردد وحائر ويبحث عن المعاذير دائماً.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ أَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ حَيَاءَ الْحَقِّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) عدم وجودهم أفضل: في الآية الأولى - من الآيات أعلاه - بيان لعلامة أخرى من علامات كذبهم، وهي في الحقيقة تكمل البحث الوارد في الآيات المتقدمة آنفاً، إذ جاء فيها «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». فالآية محل البحث تقول: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» ولم ينتظروا الإذن لهم: «وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاتَهُمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ أَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» (١).

هذا أمر تكويني نهض من باطنهم المظلم، وإنه مقتضى عقيدتهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة، ويستفاد من الآية محل البحث أن لكل عمل وثية اقتضاءً يبتلى به الإنسان شاء أم

(١) «تبطههم»: مشتق من التثييط ويعنى الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٢

أبى، وليس لكل أحد قابلية السير في سبيل الله وتحمل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قبل الله يوليه من يجد فيه طهاره النية والإستعداد والإخلاص. وفي الآية التالية إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن عدم مساهمة مثل هؤلاء الأفراد في ساحة الجهاد ليس مدعاة للتأثر والأسف فحسب، بل لعله مدعاة للسرور، والآية تعطى درساً للمسلمين أن لا يكثرثوا بكثرة المقاتلين أو قلتهم وكميتهم وعددهم، بل عليهم أن يفكروا في اختيار المخلصين المؤمنين وإن كانوا قلة، فهذا درس لمسلمي الماضي والحاضر والمستقبل. وتقول الآية: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ». أى إلى تبوك للقتال «مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا».

فبناءً على ذلك فإن حضورهم بتلك الروحية الفاسدة المقرونة بالتردد والنفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك والتردد وتثييط العزائم بين جنود الإسلام.

وتضيف الآية قائلة: «وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ» (١).

ثم تنذر المسلمين من المتأثرين بهم في صفوف المسلمين: «وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ».

فبناءً على ذلك فإن وظيفة المسلمين الراسخين في الإيمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لئلا يقعوا فريسة المنافقين الذئاب. والمراد من السماع في الآية هو الجاسوس الذى يتجسس بين المسلمين ويجمع الأخبار للمنافقين.

وتختتم الآية بالقول: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إنذار للنبي صلى الله عليه وآله بأن هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأول مرة إلى التخريب والتفرقة وبذر السموم، بل ينبغي أن تتذكر - يا رسول الله - أن هؤلاء ارتكبوا من قبل مثل هذه الامور وهم يتربصون الفرص الآن لينالوا مناهم «لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ».

وهذه الآية تشير إلى ما جرى في معركة احد حيث رجع عبدالله بن أبى وأصحابه وانسحبوا وهم في منتصف الطريق، أو أنها تشير إلى مؤامرات المنافقين عامة التى كانوا يكيدونها للنبي صلى الله عليه وآله أو للمسلمين، ولم يغفل التاريخ أن يسجلها على صفحاته.

«وَقَلَّبُوا لَكُمُ الْأُمُورَ» وخططوا للإيقاع بالمسلمين، أو لمنعهم من الجهاد بين يديك، إلا أن كل تلك المؤامرات لم تفلح، وإنما رَقَمُوا على الماء ورشقوا سهامهم على الحجر «حَتَّىٰ جَاءَ

(١) «أوضعوا»: من مادة الإيضاع ومعناه، الإسراع في الحركة، ومعناه هنا الإسراع في النفوذ بين صفوف المقاتلين، و «الفتنة»: هنا بمعنى التفرقة واختلاف الكلمة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٣

الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ». غير أن مشيئة العباد وإرادتهم لا أثر لها إزاء مشيئة الله وإرادته، فقد شاء الله أن ينصرك وأن يُبلغ رسالتك إلى أصقاع المعمورة، ويزيل العراقيل والموانع عن منهاجك، وقد فعل. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما استنفر الناس إلى تبوك، قال: «إنفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر». فقام جد بن قيس، أخو بني سلمة من بني الخزرج، فقال يا رسول الله! ائذن لي، ولا تفتني بنات الأصفر، فأتى أخاف أن افتتن بهن. فقال: «قد أذنت لك». فأنزل الله تعالى «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي» الآية. فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبي سلمة: «من سيدكم؟» قالوا: جد بن قيس غير أنه بخيل جبان! فقال صلى الله عليه وآله: «وأي داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور».

التفسير

المنافقون المتذرعون: يكشف شأن النزول المذكور أن الإنسان متى أراد أن يتصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرع بشتى الحيل. فإن القرآن يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله ليرد على مثل هذه الذرائع المفزوحه قائلاً: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي» بالنساء والفتيات الروميات الجميلات.

ولكن القرآن يقول مجيباً عليه وأمثاله: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». أى إن أمثال اولئك الذين تذرعوا بحجة الخوف من الذنب- هم الآن واقعون فيه فعلاً، وأن جهنم محيطه بهم، لأنهم تركوا ما أمرهم الله ورسوله به وراء ظهورهم وانصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٤

إِنْ نُصِبتْ بِكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبتْ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) فى الآيات- آنفه الذكر- إشارة إلى إحدى صفات المنافقين وعلاماتهم وبهذا تتابع البحث الذى يتناول صفات المنافقين فى ذيل الآيات المتقدمة والآيات اللاحقة. تقول الآيات أولًا: «إِنْ تُصِبتْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ».

وهذه المساءة دليل على العداوة الباطنية وفقدان الإيمان.

ولكنهم على خلاف هذه الحال عند الشدة والخطب: «وَإِنْ تُصِبتْ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ». هؤلاء المنافقون عمى القلوب ينتهزون أئيه فرصة لصالحهم ومنافعهم، ويزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم وعقلهم، إذ لم تساهم فى المعركة الفلانية ولم نقع فى أى مأزق! كما ابتلى به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل والتدبر، وبهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم وهم يكادون أن يطيروا فرحاً.

ولكنك- يا رسول الله- عليك أن ترد عليهم بجواب منطقي متين وذلك:

أولًا: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا». أجل فلا يريد بنا إلّا الخير والصلاح: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». فهم يعشقون الله



فحسب، ومنه يطلبون المدد والعون، ويتوكلون عليه ويلتجئون إليه عند الخطوب.

ثانياً: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ». فإما أن نبير الأعداء في ساحة الحرب ونبيدهم ونعود منتصرين، أو نُقتل فننهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبب لنا ومصدر افتخارنا.

وهكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إما أن تصيبكم سهام البلايا والمصائب والعقوبات الإلهية سواء في الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٥

«وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصَدِّبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ». تربصوا غبطتنا وسعادتنا ونحن نتربص شقاءكم وسوء عاقبتكم.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين وعواقب أعمالهم ونتائجها، وتبين بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها ولا قيمة، ولا تعود عليهم بأي نفع.

ولمّا كان- من بين الأعمال الصالحة- الإنفاق في سبيل الله «الزكاة بمعناها الواسع» والصلاة «وهي العلاقة بين الخلق والخالق»- لهما موقع خاص، فقد اهتمت الآيات بهذين القسمين اهتماماً خاصاً. تخاطب الآيات النبي الكريم فتقول: «قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ مِنْكُمْ».

ثم تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ». فتياكم غير خالصة، وأعمالكم غير طاهرة، وقلوبكم مظلمة، وإنما يتقبل الله العمل الطاهر من الورع التقى.

والمراد من «الفسق» هنا الكفر والنفاق، أو تلوث الإنفاق بالرياء والنظاير.

وفي الآية التالية يوضح القرآن مرة أخرى السبب في عدم قبول نفقاتهم فيقول: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

والقرآن يعول كثيراً على أن قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنه لو قام الإنسان بعمل صالح وهو مؤمن، ثم كفر بعد ذلك فإن الكفر يحبط عمله ولا يكون له أى أثر.

وبعد أن أشار القرآن إلى عدم قبول نفقاتهم، يشير إلى حالهم في العبادات فيقول: «وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ كَمَا أَنَّهُمْ «وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ».

وأن نفقاتهم لا تقبل لسببين:

الأول: هو أنهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٦

والثاني: أنهم إنما ينفقون عن كره وإجبار.

كما أن صلواتهم لا تقبل لسببين أيضاً:

الأول: لأنهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ...».

والثاني: أنهم «لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يتوجه الخطاب نحو النبي قائلاً: «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ».

فهى وإن كانت نعمه بحسب الظاهر، إلا أنه: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

وفى الواقع فإنهم يعذبون عن طريقين بسبب هذه الأموال والأولاد، أى القوة الاقتصادية والإنسانية:

فالأول: إن مثل هؤلاء الأبناء لا يكونون صالحين عادة، ومثل هذه الأموال لا بركة فيها، فيكونان مدعاة قلقهم وألمهم فى الحياة الدنيا، إذ عليهم أن يسعوا ليل نهار من أجل أبنائهم الذين هم مدعاة أذاهم وقلقهم، وأن يجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التى اكتسبوها عن طريق الإثم والحرام.

والثانى: لما كانوا متعلقين بهذه الأموال والأولاد، ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولا بالدار الآخرة الواسعة ولا بنعيمها الخالد، فليس من الهين أن يغمضوا عن هذه الأموال والذرية، وبالتالي يخرجون من هذه الدنيا- بحال مزرية وفى حال الكفر. فالمال والبنون قد يكونان موهبة وسعادة ومدعاة للرفاه والهدوء والاطمئنان والدعة إذا كانا طاهرين طيبين وإلا فهما مدعاة العذاب والشقاء والألم.

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) علامة اخرى للمنافقين: ترسم الآيتان أعلاه حالة اخرى من أعمال المنافقين بجلاء، إذ تقول الآية الاولى: «وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ» ومن شدة خوفهم وفرقهم يخفون كفرهم ويظهرون الإيمان.

والآية التالية تصور شدة عداوة المنافقين للمؤمنين ونفورهم منهم، فى عبارة موجزة إلا أنها فى غاية المتانة والبلاغة، إذ تقول: «لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٧

فهذه الآية واحدة من أبلغ الآيات والتعبير التى يسوقها القرآن فى وصف المنافقين، وبيان هلعهم وخوفهم وبغضهم إخوانهم المؤمنين، بحيث لو كان لهم سبيل للفرار من المؤمنين، ولو على قمم الجبال أو تحت الأرض، لولوا إليه وهم يجمحون، ولكن ما عسى أن يفعلوا مع الروابط التى تربطهم معكم من القبيلة والأموال والثروة، كل ذلك يضطرهم إلى البقاء على رغم أنوفهم.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)

سبب النزول

فى تفسير الدر المنثور عن أبى سعيد الخدرى قال: بينما النبى صلى الله عليه وآله يقسم قسماً- وقال ابن عباس: كانت غنائم هوازن يوم حنين- إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل». فقال عمر: يا رسول الله إننى لى فأضرب عنقه! فقال النبى صلى الله عليه وآله: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء...» فنزلت فيهم الآيتان.

التفسير

الأنانيون السفهاء: فى الآية الاولى أعلاه إشارة إلى حالة اخرى من حالات المنافقين، وهى أنهم لا يرضون أبداً بنصيبتهم. فمتى ملئت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) ومتى ما أعطوا حقهم وروعى العدل فى ايتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه. لذا فإن الآية تقول:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ». لكنهم ينظرون إلى منافعهم الخاصة: «فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ».

فهؤلاء يرون أن النبى صلى الله عليه وآله غير منصف ولا عادل، ويتهمونه فى تقسيمه المال!

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٨

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنْ

اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) موارد صرف الزكاة ودقائقها: في تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما في مكة، حيث كان هدف النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين فيها تعليم الأفراد وتربيتهم ونشر التعاليم الإسلامية. والثانية في المدينة، حيث أقدم النبي صلى الله عليه وآله على تشكيل حكومة إسلامية أُجْرِي من خلالها الأحكام والتعاليم الإسلامية. ومما لا شك فيه أن أول وأهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هي إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تُؤمّن حاجات الدولة الاقتصادية، وهي حاجات طبيعية توجد في كل دولة بدون استثناء، ومن هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النبي صلى الله عليه وآله في المدينة، وتشكل الزكاة أحد موارده، وعلى المشهور فإنّ هذا الحكم سُرع في السنة الثانية للهجرة النبوية. إنّ الآية التي نبهت على الموارد الحقيقية التي تصرف فيها الزكاة، وأنها التوقعات غير المنطقية وحددت موارد صرف الزكاة في ثمانية أصناف:

١- الفقراء.

٢- المساكين: وسيأتى البحث عن الفرق بين الفقير والمسكين.

٣- العاملين عليها: وهم الذين يسعون في جباية الزكاة، وإدارة بيت المال.

٤- المؤلفه قلوبهم: وهم الذين لا يوجد لديهم الحافز والدافع المعنوي القوي من أجل النهوض بالأهداف الإسلامية وتحقيقها، ولكن ويمكن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، والاستفادة منهم في الدفاع عن الإسلام وتحكيم دولته، وإعلاء كلمته. وكما جاء في المباحث الفقهية، فإنّ لهذه الآية، وكذلك للروايات الواردة في هذا الموضوع مفهوماً واسعاً، ولهذا فإنّها تشمل كل من يمكن استمالتهم من أجل نفع وتحكيم الإسلام، ولا دليل على تخصيصها بالكفار.

٥- في الرقاب: وهذا يعني أن قسماً من الزكاة يخصّص لمحاربة العبودية والرق وإنهاء هذه الحالة غير الإنسانية.

٦- الغارمون: وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، ولم يكن هذا العجز نتيجة لتقصيرهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٩

٧- في سبيل الله: والمراد منه جميع السبل التي تؤدّي إلى تقوية ونشر الدين الإلهي، وهي أعم من مسألة الجهاد والتبليغ وأمثالها.

٨- ابن السبيل: وهم الذين تخلفوا في الطريق لعلّة ما، وليس معهم من الزاد والراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التي يقصدونها، حتى ولو لم يكونوا فقراء في واقعهم، لكنهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو لأسباب أخرى.

وفي خاتمة الآية نلاحظ التأكيد على صرفها في الجهات السابقة، ولذلك قال سبحانه:

«فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ» ولا شك أنّ هذه الفريضة قد حُسبت بصورة دقيقة جداً، وبصورة تحفظ مصالح الفرد والمجتمع، لأنّ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

بحثنان

١- الفرق بين الفقير والمسكين: إنّ «الفقير» هو الشخص الذي يعاني من حاجة مالية في حياته ومعاشه مع أنّه يعمل ويكتسب، لكنه لا يسأل أحداً مطلقاً رغم حاجته لعفته وعزّة نفسه، أمّا «المسكين» فهو أشد حاجة من الفقير، وهو عاجز عن العمل، فهو مضطر لأنّ يستعطي الناس ويسألهم.

٢- دور الزكاة في الإسلام: إذا علمنا أنّ الإسلام ظهر إلى الوجود كدين وقانون كامل وشامل عولجت فيه كل الحاجات المادية والمعنوية في الحياة، وكذلك إذا علمنا أنّ تشكيل وتأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وإذ علمنا أنّ الإسلام يهتم اهتماماً خاصاً بنصرة المحرومين ومكافحة الطبقة في المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال والزكاة التي تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

٣- شك أنّ في كل مجتمع أفراداً عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، وأمثالهم، وهؤلاء يحتاجون حتماً إلى من يحميهم

ويرعاهم ويقوم بشؤونهم، وكذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده وكيانه، أمّا مصاريق هؤلاء الجنود ونفقاتهم فإنّ الدولة هي التي تلتزم بتأمينها ودفعها إليهم.

وعلى هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة- التي تعتبر نوعاً من الضرائب على الإنتاج والأرباح وعلى الأموال الراكدة- اهتماماً خاصاً، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، وقد ذكرت- جنباً إلى جنب- مع الصلاة في كثير من الموارد، بل إنّ اعتبرها شرطاً لقبول الصلاة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٠

مختصر الامثل ج ٢، ص: ٣٠٠

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

سبب التزول

هذا حسن لا- قبيح: في تفسير مجمع البيان قيل: نزلت في جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت، وشأس بن قيس وجحش بن حمير ورفاعة بن عبد المنذر وغيرهم، قالوا ما لا ينبغي، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغ محمداً ما تقولون، فيوقع بنا. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإن محمداً أذن سامعه، فأنزل الله الآية.

التفسير

تحدّث الآية- كما يفهم من مضمونها- عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وآله بكلامهم ويقولون أنّه أذن ويصدق كل ما يقال له سريعاً: «وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ».

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة- والتي هي سمة إيجابية للنبي صلى الله عليه وآله والتي يجب توفرها في أي قائد كامل- نقطة ضعف في سيرته ومعاملته صلى الله عليه وآله.

من هنا نلاحظ أنّ القرآن قد ردهم مباشرة، وأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهم بأنّه إذا كان يصغى لكلامكم، ويقبل أعداركم، أو كما تظنون بأنّه أذن، فإنّ ذلك في مصلحتكم ولمنفعتكم «قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ». فإنّه بذلك يحفظ ماء وجوهكم وشخصيتكم، ولا يجرح شعوركم وعواطفكم، وبذلك- أيضاً- يسعى لحفظ وحدتكم واتحادكم ومودتكم، ولو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحة، ويفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضركم ذلك وشق عليكم.

ومن أجل أن لا يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، ولا يجعلون هذه الصفة وسيلة لتأكيد كلامهم، أضاف الله تعالى أنّ النبي صلى الله عليه وآله يؤمن بالله ويطيع أوامره، ويصغى إلى كلام المؤمنين المخلصين ويقبله ويرتب عليه الأثر، «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ». وهذا يعني أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان له طريقان واسلوبان في عمله:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨١

أحدهما: الحفاظ على الظاهر والحيلولة دون هتك الأستار وفضح أسرار الناس.

والثاني: في مرحلة العمل، فقد كان صلى الله عليه وآله في البداية يسمع من كل أحد، ولا ينكر على أحد ظاهراً، أمّا في الواقع العملي فإنّه لا يعتنى ولا يقبل إلّا أوامر الله واقتراحات وكلام المؤمنين المخلصين، والقائد الواقعي يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلّا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنّه رحمه للمؤمنين: «وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ».

بقي هنا شيء واحد، وهو أنّ هؤلاء الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وآله بكلامهم ويتبعون أحواله لعلهم يجدون عيباً يشهرون به يجب أن لا- يتصوروا أنّهم سوف يبقون بدون جزاء وعقاب، ولهذا قال تعالى في نهاية الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ

## جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: لما نزلت الآيات التي ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك ووبختهم قالوا المنافقين: لئن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فقال: والله إن ما يقول محمد حق، وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبي صلى الله عليه وآله فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامراً كذاب، فنزلت الآية.

التفسير

المنافقون والتظاهر بالحق: إن إحدى علامات المنافقين وأعمالهم القبيحة والتي أشار إليها القرآن مراراً هي إنكارهم الأعمال القبيحة والمخالفة للدين والعرف، وهم إنما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السيء وإخفاء الصورة الحقيقية لهم، ولما كان المجتمع يعرفهم ويعرف كذبهم في هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذب من أجل مخادعة الناس وإرضائهم.

وفي الآيات السابقة الذكر نرى أن القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهه، ويحذر المسلمين من تصديق الأيمان الكاذب من جهه أخرى. في البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين وينبههم إلى أن هدف هؤلاء من القسَم هو إرضائكم «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٢

فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإن إرضاء الله ورسوله أهم من إرضاء المؤمنين، غير أنا نرى أنهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا الله ورسوله، ولذا عقب الآية فقالت: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

وفي الآية الثانية نرى أن القرآن يهدد المنافقين تهديداً شديداً، فقال: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا».

ومن أجل أن يؤكد ذلك أضاف تعالى: «ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ».

«يحادد»: مأخوذ من «المحادة» وأصلها «حد»، ومعناها نهاية الشيء وطرفه، ولما كان الأعداء والمخالفون يقفون في الطرف الآخر المقابل، لذا فإن مادة «المحادة» قد وردت بمعنى العداوة أيضاً.

يَحْدَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْدَرُونَ (٦٤) وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَّا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في إثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وآله عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم.

وعمار كان يقود دابة رسول الله صلى الله عليه وآله وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: إضرب وجوه رواحلهم فضرها حتى نجاهم. فلما نزل قال لحذيفة: من عرف القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم».

التفسير

يستفاد من الآية الاولى أن الله سبحانه وتعالى يكشف الستار عن أسرار المنافقين

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٣

أحياناً، وذلك لدفع خطرهم عن النبي صلى الله عليه وآله وفضحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، ويحذروهم وليعرف المنافقون موقع

اقدامهم ويكفوا عن تأمرهم، ويشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم وتكشف خبيثه أسرارهم فقال: «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ».

إلا أن العجيب في الأمر أن هؤلاء ولشدهم وعنادهم لم يكفوا عن استهزائهم وسخريتهم، لذلك تضيف الآية: بأنهم مهما سخروا من أعمال النبي صلى الله عليه وآله فإن الله لهم بالمرصاد وسوف يظهر خبيث أسرارهم ويكشف عن دنىء نياتهم، فقال: «قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ».

أما الآية الثانية فإنها أشارت إلى اسلوب آخر من أساليب المنافقين، وقالت: «وَأَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ» (١). أى إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينة قالوا: نحن نمزح وبذلك ضمنوا طريق العودة.

غير أن القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامه، وجابههم بجواب لا-مفرز معه من الإذعان للواقع، فأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يخاطبهم: «قُلْ أِبَاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ».

أى إنه يسألهم: هل يمكن المزاح والسخرية حتى بالله ورسوله وآيات القرآن؟

هل يمكن إخفاء قضية تنفير البعير وسقوط النبي صلى الله عليه وآله من تلك العقبة الخطيرة، والتي تعنى الموت، تحت عنوان ونقاب المزاح؟

ثم يأمر القرآن النبي صلى الله عليه وآله أن يقول للمنافقين بصراحة: «لَا تَعْتَذِرُوا» والسبب في ذلك أنكم «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ». فهذا التعبير يُشعر أن هذه الفئة لم تكن منذ البداية في صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنهم ضعيفو الإيمان، بعد هذه الحوادث الآتية الذكر سلخوا طريق الكفر.

واختتمت الآية بهذه العبارة: «إِنْ تَعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بَأْتُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» فهي تبين أن طائفة قد استحققت العذاب نتيجة الذنوب والمعاصي، وهذا دليل على أن أفراد الطائفة الأخرى إنما شملهم العفو الإلهي لأنهم غسلوا ذنوبهم ومعاصيهم بماء التوبة من أعماق وجودهم.

(١) «خوض»: على وزن «خوض» وهو بمعنى الدخول التدريجي في الماء، ثم أطلقت على الدخول في مختلف الأعمال من باب الكناية، إلا أنها جاءت في القرآن غالباً بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٤

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا مَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) البحث في هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين وعلاماتهم وصفاتهم، فالآية الأولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلي، وهو أن روح النفاق يمكن أن تتجلى بأشكال مختلفة وتبدو في صور متفاوتة بحيث لا تلتفت النظر في أول الأمر، خصوصاً أن روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل والمرأة، لكن يجب أن لا يُخدع الناس بتغيير صور النفاق بين المنافقين، لذلك يقول الله سبحانه: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ».

وبعد ذلك يشرع القرآن الكريم في ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الأولى والثانية: إنهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات ويرغبونهم فيها من جهة، ويبعدونهم وينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من

جهة اخرى «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ». أى إنهم يسلكون طريقاً ويتبعون منهاجاً هو عكس طريق المؤمنين تماماً، فإن المؤمنين يسعون دائماً- عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- إلى أن يصلحوا المجتمع وينقوه من الشوائب والفساد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية في المجتمع

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٥

واقتراع جذور الخير والأعمال الصالحة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، ولا شك أن وجود مثل هذا المحيط الفاسد والبيئة الملوثة ستساعدهم كثيراً في تحقيق أهدافهم.

الثالث: إن هؤلاء بخلاء لا يتمتعون بروح الخير للناس فلا ينفقون في سبيل الله، ولا يعينون محروماً، ولا يستفيد أقوامهم ومعارفهم من أموالهم، فعبر عنهم القرآن: «وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ».

الرابعة: إن كل أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم يوضح أن هؤلاء قد نسوا الله، والوضع الذى يعيشونه يبين أن الله قد نسيهم فى المقابل، وبالتالي فإنهم قد حرموا من توفيق الله وتسديده ومواهبه السنية، أى إنه سبحانه قد عاملهم معاملة المنسيين، وآثار وعلامات هذا النسيان المتقابل واضحة فى كل مراحل حياتهم، وإلى هذا تشير الآية: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ».

الخامسة: إن المنافقين فاسقون وخارجون من دائرة طاعة أوامر الله سبحانه وتعالى، وقالت الآية: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فى الآية التى تليها نلاحظ الوعيد الشديد والإنذار بالعذاب الأليم والجزاء الذى ينتظر هؤلاء حيث تقول: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» وأنهم سيخلدون فى هذه النار المحرقة «خَالِدِينَ فِيهَا» وأن هذه المجازاة التى تشمل كل أنواع العذاب والعقوبات تكفى هؤلاء إذ «هِيَ حَسْبُهُمْ». وبعبارة اخرى: إن هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبة اخرى غير النار، حيث يوجد فى نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها والروحية.

وتضيف الآية فى خاتمتها أن الله تعالى قد أبعدهم عن ساحة رحمته وجزاهم بالعذاب الأبدى «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ»، بل إن البعد عن الله تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم وأشد عقوبة وآلمها.

تكرر التاريخ والاعتبار به: من أجل توعيته هؤلاء المنافقين، وضعت الآية الآتية مرآة التاريخ أمامهم، ودعتهم إلى ملاحظة حياتهم وسلوكهم ومقارنتها بالمنافقين والعتاة المردة الذين تمردوا على أوامر الله سبحانه وتعالى، وأعطتهم أوضح الدروس وأكثرها عبرة، فذكرهم بأنهم كالمنافيين الماضين ويتبعون نفس المسير وسيلقون نفس المصير: «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» علماً أن هؤلاء «كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا».

وكما أن هؤلاء قد تمتعوا بنصيبتهم فى هذه الحياة الدنيا، وصرخوا أعمارهم فى طريق قضاء

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٦

الشهوات والمعصية والفساد والانحراف، فإنكم قد تمتعتم بنصيبتكم كهؤلاء: «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ».

«الخلاق»: فى اللغة بمعنى النصيب والحصة. ثم تقول بعد ذلك: إنكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتكم وسلكتكم مسلك الإستهزاء والسخرية، تماماً كهؤلاء: «وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا» (١).

ثم تبين الآية عاقبة أعمال المنافيين الماضين لتحذر المنافيين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وكل منافقى العالم فى جملتين: الاولى: إن كل أعمال المنافيين قد ذهبت أدراج الرياح، فى الدنيا والآخرة، ولم يحصلوا على أى نتيجة حسنة، فقالت: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

الثانية: إن هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئة: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

إن هؤلاء المنافيين يمكن أن يستفيدوا ويحققوا بعض المكاسب والإماتيات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت ومحدود،

فإننا إذا أمعنا النظر فسنرى أن هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وبعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين ويتوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله ويتبع اسلوب الإستفهام الإنكارى، فتقول الآية: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ» (٢).

إن هذه الحوادث المرعبة تهز وجدان وأحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس وشعور عند مطالعتها وتحقيقها.

ورغم طغيان هؤلاء وتمردهم فإن الله الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته وعطفه لحظة، وقد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم وإنقاذهم من الضلالة إذ «أَتَتْهُمْ

(١) إن جملة «كالذى خاضوا» فى الواقع بمعنى: كالذى خاضوا فيه. وبعبارة أخرى، فإنها تشبيه لفعل منافقى اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملة السابقة استفادة هؤلاء من النعم والمواهب الإلهية فى طريق الشهوات كالسابقين منهم، وعلى هذا فإن هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل (الذى) بمعنى (الذين) أى المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

(٢) «المؤتفكات»: مأخوذة من مادة الإئتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وهى إشارة إلى مدن قوم لوط التى قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٧

رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» إلّا أنّ هؤلاء لم يصغوا إلى آية موعظة ولم يقبلوا نصيحة من أنبياء الله وأوليائه، ولم يقيموا وزناً لجهاد ومتاعب هؤلاء الأبرار وتحملهم كل المصاعب فى سبيل هداية خلق الله، وإذا كان العقاب قد نالهم فلا يعنى أن الله عزّ وجلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجزموا فاستحقوا العذاب: «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) مَرَّ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، ذَكَرَ خَمْسَ الصِّفَاتِ الْمَشْرُوكَةِ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ، الرِّجَالِ مِنْهُمْ وَالنِّسَاءِ، وَتَذَكَرَ هَذِهِ الْآيَاتُ صِفَاتٍ وَعَلَامَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَتَلَخَّصَ فِي خَمْسِ صِفَاتٍ أَيْضاً، وَتَشَرَعَ الْآيَةُ بِذِكْرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَتَبَدَّأَ بِيَانِ أَنَّ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ وَلَى وَصَدِيقٍ «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».

وبعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

١- ففى البداية تبين أن هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

٢- إنهم ينهون الناس عن الرذائل والمنكرات «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

٣- إنهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا الله، فإنهم يقيمون الصلاة، ويذكرون الله فتحيا قلوبهم وتشرف عقولهم «وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ».

٤- إنهم - على عكس المنافقين والذين كانوا يبخلون بأموالهم - ينفقون أموالهم فى سبيل الله وفى مساعدة عباد الله وبناء المجتمع وإصلاح شؤونه، ويؤدون زكاة أموالهم «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ».

٥- إن المنافقين فسّاق ومرتدون، وخارجون من دائرة الطاعة لأوامر الله، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماماً، إذ «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

أمّا ختام الآية فإنه يتحدث عن إمتيازات المؤمنين، والمكافأة والثواب الذى ينتظرهم،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٨



وأول ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهية التي تنتظرهم ف «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ».

ولا شك أن وعد الله للمؤمنين قطعى ويقينى لأن الله قادر وحكيم، ولا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، وليس الله القادر بعاجز عن الوفاء بوعدده حين وعد «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». الآية الثانية شرحت جانباً من هذه الرحمة الإلهية الواسعة التي تعم المؤمنين فى بُعديها المادى والمعنوى. فهى أولما تقول: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»، ومن خصائص هذه النعمة الكبيرة أنها لا زوال لها ولا فناء، بل الخلود الأبدى، لذا فإن المؤمنين والمؤمنات سيكونون «خَالِدِينَ فِيهَا».

ومن المواهب الإلهية الاخرى التى سوف ينعمون بها هى المساكن الجميلة، والمنازل المرفهة التى أعدها الله لهم وسط الجنان «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ».

ويتضح من الاحاديث أن جنات عدن حدائق خاصة فى الجنة سيستقر فيها النبى صلى الله عليه وآله وجماعته من خلص أصحابه وأتباعه.

بعد ذلك تشير الآية إلى الجزاء المعنوى المعد لهؤلاء، وهو رضى الله تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، وهو أهم وأعظم جزاء، ويفوق كل النعم والعطايا الاخرى «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».

إن اللذة المعنوية والإحساس الروحى الذى يحس ويلتذ به الإنسان عند شعوره برضى الله سبحانه وتعالى عنه لا يمكن أن يصفه أى بشر.

وفى النهاية أشارت الآية إلى جميع هذه النعم المادية والمعنوية، وعبرت عنها بأن «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَأَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) جهاد الكفار والمنافقين: وأخيراً، صدر القرار الإلهى للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى وجوب جهاد الكفار والمنافقين بكل قوة وحزم «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» ولا تأخذك بهم رأفة ورحمة، بل شدد «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ». وهذا العقاب هو العقاب الدنيوى، أما فى الآخرة فإن محلهم «وَمَا أَوْيَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٨٩

إن طريقة جهاد الكفار واضحة ومعلومة، فإن جهادهم يعنى التوسل بكل الطرق والوسائل فى سبيل القضاء عليهم، وبالذات الجهاد المسلح والعمل العسكرى.

والمقصود من جهاد المنافقين هو الأشكال والطرق الاخرى للجهاد غير الجهاد الحربى والعسكرى، كالذم والتوبيخ والتهديد والفضيحة، وربما تشير جملة «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» إلى هذا المعنى.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)

سبب التزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسماهم رجساً وعابهم، فقال الجلاس: والله لئن كان محمداً صادقاً فيما يقول، فنحن شر من الحمير! فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل والله! إن محمداً صادق وأنتم شر من الحمير! فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول الله. فأمرهما رسول الله أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال، ثم قام عامر فحلف بالله لقد قاله. ثم قال: اللهم أنزل على نبيك الصادق منا الصدق. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله والمؤمنون: آمين.

فنزول جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ» فقام الجلاس، فقال: يا رسول الله أسمع الله قد

عرض عليّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك، لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه. فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك منه.

### التفسير

مؤامرة خطيرة: إن هذه الآية تريح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقين، وهو أن هؤلاء عندما رأوا أن أمرهم قد انكشف، انكروا ما نُسب إليهم بل أقسموا باليمين الكاذبة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٠

على مدعاهم. في البداية تذكر الآية أن هؤلاء المنافقين لا يرتدعون عن اليمين الكاذبة في تأييد إنكارهم، ولدفع التهمة فإنهم «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مِآ قَالُوا» في الوقت الذي يعلمون أنهم إرتكبوا ما نسب إليهم من الكفر «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» وعلى هذا فإنهم قد إختاروا طريق الكفر بعد إعلانهم الإسلام «وَكَفَرُوا بَعِيدَ إِسْلِمِهِمْ». ومن البديهي أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين منذ البداية، بل إنهم أظهروا الإسلام فقط، وعلى هذا فإنهم بإظهارهم الكفر قد هتكوا ومزقوا حتى هذا الحجاب المزيف الذي كانوا يتسترون به. وفوق كل ذلك فقد صمّموا على أمر خطير لم يوقفوا لتحقيقه «وَهُمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» ويمكن أن يكون هذا إشارة إلى تلك المؤامرة لقتل النبي صلى الله عليه وآله في ليلة العقبة، والتي مر ذكرها آنفاً، أو أنه إشارة إلى كل أعمال المنافقين التي يسعون من خلالها إلى تحطيم المجتمع الإسلامي وبث بذور الفرقة والفساد والنفاق بين أوساطه، لكنهم لن يصلوا إلى أهدافهم مطلقاً.

الجملة الاخرى تبين واقع المنافقين القبيح ونكرانهم للجميل فتقول الآية: إن هؤلاء لم يروا من النبي صلى الله عليه وآله أى خلاف أو أذى، ولم يتضرروا بأى شىء نتيجة للتشريع الإسلامى، بل على العكس، فإنهم قد تمتعوا فى ظل حكم الإسلام بمختلف النعم المادية والمعنوية «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» وهذه قمة اللؤم.

غير أن القرآن - كعادته - رغم هذه الأعمال لم يغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبة والرجوع إلى الحق على مصراعيه إن أرادوا ذلك، فقال: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ».

وهذه علامة واقعية الإسلام واهتمامه بمسألة التريية، ومعارضته لاستخدام الشدة فى غير محلها وهكذا فتح باب التوبة حتى بوجه المنافقين الذين طالما كادوا للإسلام وتأمروا على نبيه وحاكوا الدسائس والتهم ضده، بل إنّه دعاهم إلى التوبة أيضاً.

وفى نفس الوقت ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء أن هذا التسامح الإسلامى صادر من منطق الضعف، حدّتهم بأنهم إن استمروا فى غيهم وتنكروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشديد سينالهم فى الدارين «وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وإذا كانوا يظنون أن أحداً يستطيع أن يمدّ لهم يد العون مقابل العذاب الإلهى فإنهم فى خطأ كبير، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صباح المنذرين: «وَمَا لَهُمْ فى الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩١

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعَقَّبَهُمْ نَفَاقًا فى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

### سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبي صلى الله عليه وآله أن ادع الله أن يرزقنى مالاً. فقال «يا ثعلبة! قليل تؤدّى شكره، خير من كثير لا تطيقه، أما لك فى رسول الله أسوة حسنة؟ والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة، لسارت». ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالاً، لأعطينّ كل ذى حق حقه! فقال صلى الله عليه وآله: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً».

قال: فاتخذ غنماً، فتمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، ففتحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نمواً حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلاخت الجزية! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا ويح ثعلبه! يا ويح ثعلبه!» وأنزل الله الآيات.

التفسير

المنافقون وقلة الاستيعاب: هذه الآيات تشير إلى صفة أخرى من صفات المنافقين السيئة، وهي أن هؤلاء إذا مسهم البؤس والفقر والمسكنه عزفوا على وتر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أن هؤلاء يمكن أن يكونوا يوماً من جملة المنافقين، إلا أن هؤلاء أنفسهم، إذا تحسن وضعهم المادى فإنهم سينسون كل عهودهم ومواثيقهم مع الله والناس، ويغرقون في حب الدنيا. فالآية الأولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدوا الله على البذل والعطاء لخدمته عباده إذا ما أعطاهم الله المال الوفير: «وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

إلا أنهم يؤكدون هذه الكلمات والوعود مادامت أيديهم خالية من الأموال «فَلَمَّا آتَاهُمْ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٢

مَنْ فَضْلِهِ بَخُلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» غير أن عملهم هذا ومخالفتهم للعهد التي قطعوها على أنفسهم بذرت روح النفاق في قلوبهم وسيبقى إلى يوم القيامة متمكناً منهم «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» وإنما استحقوا هذه العاقبة السيئة غير المحموده «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». وفي النهاية وبخت الآية هؤلاء النفر ولا متهم على النوايا السيئة التي يضمرونها، وعلى انحرافهم عن الصراط المستقيم، واستفهمت بأنهم: «الْمَ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ».

الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتِغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

سبب النزول

وردت عدة روايات في سبب نزول هذه الآيات في كتب التفسير والحديث، يستفاد من مجموعها أن النبي صلى الله عليه وآله كان قد صمم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو- وربما كان ذلك في تبوك- وكان محتاجاً لمعونته الناس في هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبي صلى الله عليه وآله.

أما الفقراء، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء الماء ليلاً، فحصلوا على صاعين من التمر، وشاركوا بهذا الشيء اليسير- الذي لا قيمة له ظاهراً- في هذا المشروع الإسلامى الكبير. غير أن المنافقين الذين لا هم لهم إلا تتبع ما يمكن التشهير به بدلاً من التفكير بالمساهمة الجدية فإنهم عابوا كلا الفريقين، أما الأغنياء فاتهموهم بأنهم إنما ينفقون رياءً وسمعة، وأما الفقراء الذين لا يستطيعون إلا الجهد، والذين قدموا اليسير وهو عند الله كثير، فإنهم سخروا منهم بأن جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، وهددتهم تهديداً شديداً وحذرتهم من عذاب الله.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٣

التفسير

خبث المنافقين: في هذه الآيات إشارة إلى صفة أخرى من الصفات العامة للمنافقين، وهي أنهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف في أعمال الآخرين واحتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع ومحاولة إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير. لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التي يتبعها هؤلاء، وعرفها للمسلمين لكي لا يقعوا في

حباط مكر المنافقين ومن ناحية اخرى اراد أن يفهم المنافقون أن سهمهم لا يصيب الهدف في المجتمع الإسلامي. ففي البداية يقول: **إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.**

والمراد من جملة: **«سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ»** أن الله سبحانه تعالى سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال السيئة، أو أنه تعالى سيحقرهم كما حقروا عباده وسخروا منهم.

ونلاحظ في الآية التي تليها تأكيداً أشد على مجازاة هؤلاء المنافقين، وتذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام وتحويله من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطب هذه المرة هو النبي صلى الله عليه وآله فقالت: **«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ.»**

وإنما لن يغفر الله لهم لأنهم قد أنكروا الله ورسالة رسوله، واختاروا طريق الكفر، وهذا الاختيار هو الذي أوداهم في هاوية النفاق وعواقبه المشؤومة **«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.»** ومن الواضح أن هداية الله تشمل السائرون في طريق الحق وطلب الحقيقة، أما الفساق والمجرمون والمنافقون فإن الآية تقول: **«وَاللَّهُ لَيَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.»**

إن نوع العمل هو المهم لا مقداره، وهذه الحقيقة في القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند في أي مورد إلى كثرة العمل ومقداره، بل هو يؤكد دائماً - وفي كل الموارد - على أن الأساس هو نوع العمل وكيفيته.

المهم أن كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، ولا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء وقلته، بل الإحساس بالمسؤولية والإخلاص في العمل.

ومن هذه الواقعة تتضح حقيقة أخرى، وهي أن المسلمين في المجتمع الإسلامي الواقعي السالم يجب أن يحسوا جميعاً بالمسؤولية تجاه المشاكل التي تعترض المجتمع وتظهر فيه، ولا يجب أن ينتظروا الأغنياء والتمككين يقوموا وحدهم بحل هذه المشاكل والمصاعب، بل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٤

على الضعفاء أيضاً أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر وقل ما يقدمونه، لأن الإسلام يتعلق بالجميع لا بفئة منهم، وعلى هذا، فعلى الجميع أن يسعوا في حفظ الإسلام ولو ببذل النفوس والدماء ويعملوا بكل وجودهم من أجل حياته وصيانتته.

**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لِمَا تَنْفَرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا بَعْزَاءَ بَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)** يستمر الحديث في هذه الآيات حول تعريف المنافقين وأساليب عملهم وسلوكهم وأفكارهم ليعرفهم المسلمون جيداً، ولا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم وخططهم الخبيثة وسمومهم. في البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد في تبوك، وتعذروا بأعذار واهية كبيت العنكبوت، وفرحوا بالسلامة والجلوس في البيت بدل المخاطرة بأنفسهم والاشتراك في الحرب رغم أنها مخالفة لأوامر الله ورسوله: **«فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ.»** وبدل أن يضعوا كل وجودهم وإمكاناتهم في سبيل الله لينالوا افتخار الجهاد وعنوان المجاهدين، فإنهم امتنعوا **«وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.»**

إلا أن هؤلاء نفر لم يكتفوا بتخلفهم وتركهم لهذا الواجب المهم، بل إنهم سعوا في تخذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشيطانية ومحاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة في صدور المسلمين وتشبث المنافقون بكل عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى ولو كان العذر **الْحَرِّ! وَقَالُوا لَاتَنْفَرُوا فِي الْحَرِّ.»**

ثم تتغير وجهة الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله فيأمره الله سبحانه وتعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة واسلوب قاطع: **«قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ**

أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ». لكنهم للأسف لضعف إيمانهم، وعدم الإدراك الكافي لا يعلمون أية نار تنتظرهم، فشرارة واحدة من تلك النار أشد حرارة من جميع نيران الدنيا وأشد حرقه وألماً.

وتشير الآية الثانية إلى أن هؤلاء ظنوا بأنهم قد حققوا نصراً بتخلفهم وتخديلمهم المسلمين وصرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، وضحكوا لذلك وقهقهوا بملء أفواههم، وهذا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٥

هو حال المنافقين في كل عصر وزمن، إلا أن القرآن حذرهم من مغبة أعمالهم فقال:

«فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا».

نعم، ليكوا على مستقبلهم المظلم: ليكوا على العذاب الأليم الذي ينتظرهم: ليكوا على أنهم أغلقوا كل أبواب العودة بوجههم، وأخيراً ليكوا على ما أنفقوا من قوتهم وقدراتهم وعمرهم الثمين، واشتروا به الخزي والفضيحة وسوء العاقبة وتعاسة الحظ.

وفي نهاية الآية بين الله تعالى أن هذه العاقبة التي تنتظرهم هي «جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- إشارة إلى طريقة أخرى دقيقة وخطرة من طرق المنافقين، وهي أنهم حينما يرتكبون ما يخالف القانون الإسلامي، فإنهم يُظهرون أعمالاً يحاولون بها جبران ما صدر منهم، ومحاولة تبرئة ساحتهم مما يستحقون من العقوبة،

وبهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنهم يخفون وجوههم الحقيقية، أو يسعون إلى ذلك. إن الآية الكريمة تقول:

«فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا». أى إن النبي صلى الله عليه و

آله يجب أن يزرع اليأس في نفوس هؤلاء، ويُعلمهم أن هذا التلون سوف لا ينطلي على أحد، ولن يُخدع بهم أحد.

جملة «طَائِفَةٍ مِنْهُمْ» توحى أن هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا ويطلبوا من النبي صلى الله عليه و آله السماح لهم في الخروج إلى الجهاد.

ثم تبين الآية أن سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء وطلبهم ب «إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ».

وَلَمَّا تَصَلَّى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَيْدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَمَّا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم

في ميدان القتال، وعلم الناس تخلفهم الصريح، وفشا سرهم، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يتبع أسلوباً أشد وأكثر صراحة ليقطع وإلى الأبد- جذور النفاق والأفكار الشيطانية، وليعلم المنافقون بأنهم لا محل لهم في المجتمع الإسلامي، وكخطوة عملية في مجال تطبيق

هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهي «وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٦

إن هذا الأسلوب- في الواقع- هو نوع من الكفاح السلبي الفاعل في مواجهة المنافقين.

إن هذا البرنامج والأسلوب الدقيق كان قد أعد لمقابلة منافقي ذلك العصر، ويجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب. وفي آخر الآية يتضح سبب هذا الأمر الإلهي ب «إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» ورغم ذلك فإنهم لم يفكروا بالتوبة ولم يندموا على أفعالهم

ليغسلوها بالتوبة، بل إنهم بقوا على أفعالهم «وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ».

وهنا يمكن أن يسأل أحدكم: إن المنافقين إذا كانوا- حقيقة- بهذا البعد عن رحمة الله، وعلى المسلمين أن لا يُظهروا أى ود أو محبة تجاههم، فلماذا فضّلهم الله تعالى ومنحهم كل هذه القوى الاقتصادية من الأموال والأولاد؟

في الآية الاخرى يوجه الله سبحانه وتعالى الخطاب إلى النبي: «وَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ». فإنها ليست منحة ومحبة من الله تعالى لهؤلاء المنافقين، بل على العكس تماماً، فإن هذه الأموال والأولاد ليست لسعادتهم، بل «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

إن هذه الآية تشير إلى حقيقة وهي أن هذه الإمكانيات والقدرات الاقتصادية والقوى الإنسانية للأشخاص الفاسدين ليست غير نافعة لهم فحسب، بل هي - غالباً - سبب لإبتلائهم وتعاستهم، لأن أشخاصاً كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم في مواردها الصحيحة ليستفيدوا منها الفائدة البناءة، ولا يتمتعون بأبناء صالحين كي يكونوا قرء عين لهم ومعتمد لهم في حياتهم. بل إن أموالهم تصرف غالباً في طريق الشهوات والمعاصي ونشر الفساد وتحكيم أعمدة الظلم والطغيان، وهي السبب في غفلتهم عن الله سبحانه وتعالى، وكذلك أولادهم في خدمة الظلمة والفاسدين، ومبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقية، وبذلك سيكونون سبباً في تراكم البليات والمصائب.

غاية الأمر إن الذين يظنون أن الأصل في سعادة الإنسان هو الثروة والقوة البشرية فقط، أما كيفية صرف هذه الثروة والقوة فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحة حياتهم مفرحة ومبهجة ظاهراً، إلّا أننا لو اقتربنا منها واطلعنا على دقائقها، وعلمنا أن الأساس في سعادة الإنسان هو كيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات والقدرات لعلمنا أن هؤلاء ليسوا سعداء مطلقاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٧

وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأُوتُوا قُلُوبَهُمْ لَمَّا يَفْقَهُوْنَ (٨٧) لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) دناءة الهمة: الكلام في هذه الآيات يدور كذلك حول المنافقين، فالآية الأولى تتحدث عن حال المنافقين إذا ما دعا الرسول صلى الله عليه وآله الناس إلى الثبات على الإيمان والجهاد في سبيل الله، فإنهم - أي المنافقون - رغم قدرتهم الجسمية والمالية سيطلبون العذر والسماح لهم بعدم المشاركة والبقاء مع ذوى الأعذار: «وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ».

وفي الآية التي تليها وبخ القرآن هؤلاء وذمهم وقبحهم بأنهم «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

والمقصود من «الخوالف» في هذه الآية كل الذين عُذروا عن المشاركة في الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مسنين أو مرضى أو صبيان.

ثم أضافت الآية: بأن هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب والفاق وصلوا إلى مرحلة «وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأُوتُوا قُلُوبَهُمْ لَمَّا يَفْقَهُوْنَ».

ثم تحدثت الآية التي تليها في الجانب المقابل عن صفات وروحيات الفئة التي تقابل المنافقين، وهم المؤمنون المخلصون، وعن أعمالهم الحسنة، وبالتالي عاقبة أعمالهم المعاكسة تماماً لعاقبة أولئك، فهي تقول: «لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات والسعادة واللذائذ المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة «وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الخيرات»: تعبير جامع لكل توفيق وخير ونصر وموهبة، وهي تشمل المادية منها والمعنوية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٨

ويستفاد بوضوح من هذه الآية أن «الإيمان» و«الجهاد» إذا اتحدا في شخص، فسيصحبهما كل خير وبركة، ولا سبيل إلى الفلاح والإخلاص، أو إلى شيء من الخيرات والبركات المادية والمعنوية إلّا في ظل هذين العاملين.

وفي آخر آية من الآيات التي نبهنا عليها إشارة إلى قسم من الجزاء الاخرى المعد لهؤلاء المؤمنين، فهي تبشرهم بأنهم قد «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» وتؤكد لهم بأن هذه المواهب والنعم سوف لا تفتنى ولا تنفد، بل سيبقون «خَالِدِينَ فِيهَا»، ثم تبين أن «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) في هذه الآية - ولمناسبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقين الذين يتعدون بكل عذر ويتمسكون بأتفه الحجج - إشارة إلى وضع وواقع

مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد. ففي البداية تقول الآية أن هؤلاء الأعراب رغم أنهم كانوا معذورين في عدم الاشتراك في الجهاد، فإنهم حضروا بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وطلبوا منه أن يأذن لهم في الجهاد: «وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ». وفي مقابل ذلك فإن الفئة الأخرى التي كذبت على الله ورسوله قد تخلف أفرادها دون أي عذر، «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وفي النهاية هددت الآية المجموعة الثانية تهديداً شديداً وأذرتهم بأنه «سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّأْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتُمْ مَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بَأَن يُكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٩

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: إن الآية الأولى نزلت في عبد الله بن زائدة وهو ابن أم مكتوم، وكان ضرير البصر، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا نبي الله إنني شيخ ضرير، خفيف الحال، نحيف الجسم، وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي صلى الله عليه وآله، فأنزل الله الآية.

والآية الثانية نزلت في البكائين وهم سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله! احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه. فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه».

التفسير

هذه الآيات قسمت المسلمين في مجال المشاركة في الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، وأشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة وواقعاً، والخامسة هم المنافقون.

الآية الأولى تقول: إن الضعفاء، والعاجزين لكبر أو عمى أو نقص في الأعضاء، والذين لا وسيلة لهم ينتقلون بها ويستفيدون منها في المشاركة في الجهاد، لا حرج عليهم إذا تخلفوا عن هذا الواجب الإسلامي المهم: «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ».

هذه الأقسام الثلاث تعذر في كل قانون إذا لم تشارك، والعقل والمنطق يمضي هذا التسامح، ومن المسلم أن القوانين الإسلامية لا تنفصل عن المنطق والعقل في أي مورد.

«الحرج»: في الأصل تعنى مركز اجتماع الشيء، ولما كان اجتماع الناس وكثرتهم في مكان ومركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الضيق والإزعاج والمسؤولية والتكليف، ويكون معناها في هذه الآية هو المعنى الأخير، أي المسؤولية والتكليف.

ثم بينت الآية شرطاً مهماً في السماح لهؤلاء بالإنصراف، وهو إخلاصهم وحبهم لله ورسوله، ورجاؤهم وعملهم كل خير لهذا الدين الحنيف، لذا قالت: «إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ». أي إن هؤلاء قادرين على استعمال سلاح الكلمة والسلوك الإسلامي الأمثل، وبهذا يستطيعون ترغيب المجاهدين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٠

ويجب أن لا يقصروا في هدم وتضعيف معنويات العدو، وتهيئة أرضية الهزيمة في نفوس أفراد قدر المستطاع.

ثم تذكر الآية الدليل على هذا الموضوع، فتذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يألون جهداً في عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو

يُوبَخُوا أَوْ يُعَاقَبُوا، إِذِ «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ».

بعد ذلك اختتمت الآية بذكر صفتين عظيمتين من صفات الله عز وجل - وكل صفاته عظيمة - كدليل آخر على جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت:  
«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

«غفور»: مأخوذة من مادة الغفران، أى الستر والإخفاء، أى إن الله سبحانه وتعالى سيلقى الستار على أعمال هؤلاء المعذورين ويقبل أعتذارهم، وكون الله «رحيماً» يقتضى أن لا يكلف أحداً فوق طاقته، بل يعفيه من ذلك، وإذا اجبر هؤلاء على الحضور فى ميدان القتال، فإن ذلك لا يناسب غفران الله ورحمته، وهذا يعنى أن الله الغفور الرحيم سيعفى هؤلاء عن الحضور حتماً، ويعفو عنهم. ثم تشير الآية إلى الفئة الرابعة من المعفو عنهم وهؤلاء هم الذين حضروا - بشوق - عند النبى صلى الله عليه وآله وطلبوا منه أن يحملهم على الدواب للمشاركة فى الجهاد، فاعتذر النبى صلى الله عليه وآله بأنه لا يملك ما يحملهم عليه، فخرجوا من عنده وعيونهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً على ما فاتهم، وعلى أنهم لا يملكون ما ينفقونه فى سبيل الله: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَأَجِدَنَّ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ».

«تفيض»: من مادة الفيضان، أى الإنسكاب والتساقط بعد الإمتلاء، فإن الإنسان إذا أهمله أمر أو دهمته مصيبه، فإذا لم تكن شديدة اغرورقت عيناه بالدموع وامتلأت دون أن تجرى، أما إذا وصلت إلى مرحلة يضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه. أمّا آخر آية فتيين وضع الفئة الخامسة، وهم الذين لم يعذروا، ولن يعذروا عند الله تعالى، فإنهم قد توفرت فيهم كل الشروط، ويملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتماً، لكنهم رغم ذلك يحاولون التملص من أداء هذا الواجب الإلهى الخطير، فجاؤوا إلى النبى صلى الله عليه وآله يطلبون الإذن فى الإنصراف عن الحرب، فبيئت الآية أنهم سيؤاخذون بهتهم ويعاقبون عليه: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَشْتَدُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠١

مختصر الامثل ج ٢ ٣٣٩

وتضيف الآية بأن هؤلاء يكفيهم عاراً وخزياً أن يرضوا بالبقاء مع العاجزين والمرضى رغم سلامتهم وقدرتهم، ولم يهتموا بأنهم سيحرمون من فخر الإشتراك فى الجهاد: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

وكفى به عقاباً أن يسلبهم الله القدرة على التفكير والإدراك نتيجة أعمالهم السيئة هذه، ولذلك أبغضهم الله «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

تتضح من هذه الآيات المعنويات القوية العالیه لجنود الإسلام، وكيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، وتتحرق عشقاً للجهاد والشهادة، وهذا الفخر والوسام مقدم على جميع الأوسمة والصفات الأخرى التى كانوا يمتلكونها، ومن هنا يتضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام وتطوره وانتشاره فى ذلك اليوم، وتخلفنا فى الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لِمَا تَعْتَذِرُونَ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت الآيات فى جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً، ولما قدم النبى صلى الله عليه وآله المدينة راجعاً من تبوك قال:

«لا تجالسوهم، ولا تكلموهم».



## التفسير

تستمر هذه السلسلة من الآيات في الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين. الآية الاولى تبين للمسلمين أن هؤلاء إذا علموا بقدمكم فسيأتون: «يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٢

ثم يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله - باعتباره قائد المسلمين - بأن يواجه المنافقين: «قُلْ لَأَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» لأننا على علم بأهدافكم الشيطانية وما تضرمون وما تعلنون، إذ:

«قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْيَارِكُمْ». إلمائه في الوقت نفسه سيقى باب التوبة والرجوع إلى الصواب مفتوحاً أمامكم «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ».

ثم قالت الآية: إن كل أعمالكم ونياتكم ستثبت اليوم في كتبكم «ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفي الآية التالية إشارة أخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، وتنبية للمسلمين على أن هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم وتصفحوا عنهم «سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ».

إن هؤلاء يطرقون كل باب ليردوا منه، فتارة يريدون إثبات براءتهم وعدم تقصيرهم بالإعتذار، وتارة يعترفون بالتقصير ثم يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأى أسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم «فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ».

ولتأكيد المطلب وتوضيحه وبيان دليله عقب الآية بأن السبب في الاعراض عن هؤلاء «إِنَّهُمْ رَجِسٌ»، ولأنهم كذلك فإن مصيرهم «وَمَا أُوَيْهَهُمْ جَهَنَّمَ». إن كل العواقب السيئة التي سيلقونها إنما يرونها «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

في الآية الأخيرة التي نبحتها هنا إشارة إلى يمين أخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين: «يُخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ».

الملفت للنظر هنا أن الله تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبر سبحانه بتعبير تُشم منه رائحة التهديد، إذ يقول عز وجل: «فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

لا شك أن هؤلاء من الناحية الدينية والأخلاقية لا يعيرون اهتماماً لرضى المسلمين، بل إن الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة السلبية والغضب عليهم من أفكار وقلوب المسلمين، ليكونوا في المستقبل في مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٣

الأعراب أشدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) في هذه الآيات الثلاث - استمراراً للبحث المتقدم حول منافقى المدينة - حديث وبحث حول وضع منافقى الأعراب - وهم سكان البوادي - وعلاماتهم وأفكارهم، وكذلك قد تحدثت حول المؤمنين الخالص منهم.

وربما كان السبب في تحذير المسلمين من هؤلاء، هو أن لا يتصور المسلمون أن المنافقين هم - فقط - هؤلاء المتواجدون في المدينة، بل إن المنافقين من الأعراب أشدُّ وأقسى فالآية الاولى تقول: إن الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم والتربية، وعدم سماعهم الآيات الربانية وكلام النبي صلى الله عليه وآله، أشدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا من مشابهيهم في المدينة: «الأعراب أشدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا» ولهذا البعد والجهل فمن الطبيعي، بل الأولى أن يجهلوا الحدود والأحكام الإلهية التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله: «وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ رَسُولَهُ».

كلمة «الأعراب» من الكلمات التي تعطى معنى الجمع، وهذه الكلمة تطلق على سكان البادية فقط، ومختصة بهم، وإذا أرادوا اطلاقهم على شخص واحد فإنهم يستعملون نفس هذه الكلمة ويلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابي. «أجدر»: فهي مأخوذة من الجدار، ومن ثم اطلقت على كل شيء مرتفع ومناسب، ولهذا فإن «أجدر» تستعمل - عادةً - بمعنى الأنسب والأليق.

وتقول الآية أخيراً: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». أى: إنه تعالى عندما يحكم على الأعراب بمثل هذا الحكم، فلائنه يناسب الوضع الخاص لهم، لأن محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن ومن أجل أن لا يتوهم بأن كل الأعراب أو سكان البوادي يتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآية التالية إلى مجموعتين من الأعراب. ففي البداية تتحدث عن أن قسماً من هؤلاء الأعراب - لنفاقهم أو ضعف إيمانهم - عندما ينفقون شيئاً في سبيل الله، فإنهم مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٤

يعتبرون ذلك ضرراً وخسارة لحقت بهم، لا أنه توفيق ونصر وتجارة رابحة: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا» (١). ومن الصفات الأخرى لهؤلاء أنهم دائماً ينتظرون أن تحيط بكم المصائب والنوائب والمشاكل، ويرميكم الدهر بسهمه: «وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرُ». «الدوائر»: جمع دائرة، ومعناها معروف، ولكن العرب يقولون للحادثة الصعبة والأليمة التي تحل بالإنسان: دائرة، وجمعها «دوائر». في الواقع أن هؤلاء أفراد ضيقو النظر، وبخلاء وحسودون.

ثم تقول الآية - بعد ذلك - إن هؤلاء ينبغي أن لا يترصبوا بكم، وينتظروا حلول المصائب والدوائر بكم، لأنها في النهاية ستحل بهم فقط: «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ».

ثم تختتم الآية الحديث بقولها: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، فهو تعالى يسمع كلامهم، ويعلم بنياتهم ومكنون ضمائرهم. أمّا الآية الأخيرة فقد أشارت إلى الفئة الثانية من الأعراب، وهم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ». ولهذا السبب فإنهم لا يعتبرون الإنفاق في سبيل الله خسارة أبداً، بل وسيلة للتقرب إلى الله ودعاء الرسول صلى الله عليه وآله لإيمانهم بالجزاء الحسن والعطاء الجزيل الذي ينتظر المنفقين في سبيل الله: «وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ». هنا يؤيد الله تعالى ويصدق هذا النوع من التفكير، ويؤكد على أن هذا الإنفاق يقرب هؤلاء من الله قطعاً: «أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ» ولهذا «سَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» وإذا ما صدرت من هؤلاء هفوات وعثرات، فإن الله سيغفرها لهم لإيمانهم وأعمالهم الحسنه، ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

(١) «مغرم»: مأخوذة من مادة (غرم) على وزن (جرم)، وهي في الأصل بمعنى ملازمة الشيء، ولهذا المناسبة قيل للدائن والمدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، وأيضاً قيل: غرامه، لنفس هذه المناسبة لأنها تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلا بأدائها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٥

هذه الآية تشير إلى مجموعات وفئات مختلفة من المسلمين المخلصين، وقسمتهم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: السابقون في الإسلام والهجرة: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ».

الثاني: السابقون في نصره وحماية النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه المهاجرين: «وَالْأَنْصَارَ».

الثالث: الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتبعوا خطواتهم ومناهجهم، وقبولهم الإسلام والهجرة، ونصرتهم للدين الإسلامي، فإنهم

إرتبطوا بهؤلاء السابقين: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ».

والملفت للنظر هنا فقد قالوا بالإجماع، إن أول من أسلم من النساء خديجة زوجة النبي صلى الله عليه وآله الوفيه المضحيه، وأما من الرجال فكل علماء الشيعة ومفسريهم، وفريق كبير من أهل السنة قالوا: إن علياً عليه السلام أول من أسلم ولبي دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة قالت الآية: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

إن رضى الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي عملوها، ورضاهم عن الله لما أعد لهم من الجزاء والعطايا المختلفة التي لا تدركها عقول البشر.

ومع أن الجملة السابقة قد تضمنت كل المواهب والنعم الإلهية، المادية منها والمعنوية، الجسمية والروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، وبيان التفصيل بعد الإجمال:

«وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». ومن إمتيازات هذه النعمة أنها خالدة، وسيبقى هؤلاء «خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا». وإذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية والمعنوية أيقنا أن «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». أى فوز أعلى وأكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه ومعبوده ومولاه قد رضى عنه، وقد وقع على قبول أعماله؟

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ عَظِيمٍ (١٠١) مرة أخرى يدبر القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين وفئاتهم، فيقول: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ». أى يجب أن تأخذوا بنظر الاعتبار المنافقين المتواجدين فى أطراف المدينة، وتحذروهم، وتراقبوا أعمالهم ونشاطاتهم الخطرة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٦

ثم تضيف الآية بأن فى المدينة نفسها قسماً من أهلها قد وصلوا فى النفاق إلى أقصى درجاته، وثبتوا عليه، وأصبحوا ذوى خبرة فى النفاق: «وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ».

«مردوا»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى الطغيان والعصيان والتمرد المطلق، وهى فى الأصل بمعنى التعرى والتجرد.

إن هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق والحقيقة، وتسلطوا على أعمال النفاق إلى درجة أنهم كانوا يستطيعون أن يظهرُوا فى مصاف المؤمنين الحقيقيين، دون أن ينتبه أحد إلى حقيقتهم ومراوغتهم.

إن هذا التفاوت فى التعبير عن المنافقين الداخليين والخارجيين فى الآية يلاحظ جلياً، وربما كان ذلك إشارة إلى أن المنافقين الداخليين أكثر تسلطاً على النفاق، وبالتالي فهم أشد خطراً، فعلى المسلمين أن يراقبوا هؤلاء بدقه، لكن يجب أن لا يغفلوا عن المنافقين الخارجيين، بل يراقبونها أيضاً. لذلك تقول الآية مباشرة بعد ذلك: «لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» ومن الطبيعى أن هذا إشارة إلى العلم الطبيعى للنبي صلى الله عليه وآله ولكن هذا لا ينافى أن يقف كاملاً على أسرارهم عن طريق الوحي والتعليم الإلهي.

وفى النهاية تبين الآية صورة العذاب الذى سيصب هؤلاء: «سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ عَظِيمٍ».

إن العذاب العظيم إشارة إلى عذاب يوم القيامة، وفى نوعية العذابين الآخرين وماهيتهما الذى يرجحه النظر أن واحداً من هذين العذابين هو العقاب الاجتماعى لهؤلاء، والمتمثل فى فضيحتهم وهتك أسرارهم، والكشف عمّا فى ضمائرهم من خبيث النوايا.

والعذاب الثانى هو ما أشارت إليه الآية (٥٠) من سورة الأنفال، حيث تقول هناك:

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

سبب التزول

فى تفسير مجمع البيان: قال أبو حمزة الثمالى: بلغنا أنهم ثلاثة نفرًا من الأنصار: أبو لبابة بن

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٧

عبد المنذر، وثعلبة بن وديعة، وأوس بن حذام، تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله عند مخرجه إلى تبوك، فلما بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيّه، أيقنوا بالهلاك وأوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد، فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وآله فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلّون أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وآله يحلّهم وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وَأَنَا أَقْسَمُ لَا أَكُونُ مِنْ حَلِّهِمْ إِلَّا أَنْ أُمَرَ فِيهِمْ بِأَمْرٍ». فلما نزل «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» عمد رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم، فحلّهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله، فقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها، وتصدّق بها عنّا. قال صلى الله عليه وآله: «ما امرت فيها». فنزل «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» الآيات.

التفسير

بعد أن أشارت الآية السابقة إلى وضع المنافقين في داخل المدينة وخارجها، أشارت هذه الآية هنا إلى وضع جمع من المسلمين العاصين الذين أقدموا على التوبة لجبران الأعمال السيئة التي صدرت منهم، ورجاء لمحوها: «وَأَخْرَجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» ويشملهم برحمته الواسعة ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) الزكاة مطهرة للفرد والمجتمع: في الآية الاولى من هذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمة، وهى مسألة الزكاة، حيث تأمر النبي صلى الله عليه وآله بشكل عام أن: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً».

إنّ حكم «خذ» دليل واضح على أنّ رئيس الحكومة الإسلامية يستطيع أن يأخذ الزكاة من الناس، لا أنّه ينتظر الناس فإن شاؤوا أدّوا الزكاة، وإلّا فلا.

ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية للزكاة، حيث تقول: «تُطَهِّرُهُمْ»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٨

وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا». فهى تطهرهم من الرذائل الأخلاقية، ومن حبّ الدنيا وعبادتها، ومن البخل وغيره من مساوئ الأخلاق، وتزرع مكانها خلال الحب والسخاء ورعاية حقوق الآخرين فى نفوسهم. وفوق كل ذلك فإنّ المفسدات الاجتماعية والانحطاط الخلقى والاجتماعى المتولد من الفقر والتفاوت الطبقي والذى يؤدّى إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الامور ستقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهية وأدائها. ثمّ تضيف الآية فى خطابها للنبي صلى الله عليه وآله حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ». إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس وتقديرهم، حتى إذا كان ما يؤدونه واجباً عليهم وحكماً شرعياً يقومون به، وترغيبهم بكل الطرق، وخاصة المعنوية والنفسية.

فى المجمع روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صلّ عليهم».

ثم تقول الآية: «إِنَّ صِلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» لأنّ من بركات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهية عليهم، وتغمر قلوبهم ونفوسهم إلى درجة أنّهم كانوا يحسون بها.

وفى نهاية الآية نقرأ: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» وهذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث فى الآية، إذ إنّ الله سبحانه يسمع دعاء النبي صلى الله عليه وآله، ومطلع على نيات المؤدّين للزكاة.

ولما كان بعض المذنبين - كالمخلفين عن غزوة تبوك - يصرون على النبي صلى الله عليه وآله فى قبول توبتهم، أشارت الآية الثانية من الآيات التى بين يدينا إلى أنّ قبول التوبة ليس مرتبطاً بالنبي صلى الله عليه وآله، بل بالله الغفور الرحيم، لذا قالت: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ». ولا ينحصر الأمر بتوقف قبول التوبة على قبول الله لها، بل إنّ تعالى هو الذى يأخذ الزكاة والصدقات

الآخرة التي يعطيها العباد تقرباً إليه، أو تكفيراً لذنوبهم: «وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ».

إنّ هذا التعبير من أطف التّعبيرات التي تجسّد عظمتها هذا الحكم الإسلامي - أي الزكاة - فبالرغم من ترغيب كل المسلمين ودعوتهم إلى القيام بهذه الوظيفة الإلهية الكبيرة، فإنّها تحذّره بشدّة وتأمّره بأن يراعوا الآداب الإسلامية ويتقيدوا باحترام من يؤدونها إليه، لأنّ من يأخذها هو الله عزّ وجلّ.

في المجمع عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الصدقة تقع في يد الله قبل أن تصل إلى يد السائل».

وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من شيء إلّا وكلّ به ملك إلّا الصدقة فإنّها تقع في يد الله».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٠٩

ثم قالت الآية في النهاية من باب التأكيد: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ».

وتؤكد الآية التي تليها البحوث التي مرّت بصورة جديدة، وتأمّر النبي صلى الله عليه وآله أن يبلغ الناس: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ». فهي تشير إلى أن لا يتصور أحد أنّه إذا عمل عملاً، سواء في خلوته أو بين الناس فإنّه سيخفى على علم الله سبحانه، بل إنّ الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين يعلمون به إضافة إلى علم الله عزّ وجلّ.

إنّ هذا الإطلاع هو مقدمه للثواب أو العقاب الذي ينتظره في العالم الآخر، لذا فإنّ الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة وتقول: «وَسْتَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

مسألة عرض الأعمال: إنّ بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ونتيجة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمة عليهم السلام عقيدة معروفة ومشهورة، وهي أنّ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام يطلعون على أعمال كل الأئمة، أي أنّ الله تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصة عليهم.

إنّ مسألة عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقدين بها، فإنّي إذا علمت أنّ الله الموجود في كل مكان معي، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ نبي وأئمتي عليهم السلام يطلعون على كل أعمالهم، الحسنه والسيئه في كل يوم، أو في كل اسبوع، فلا شك أنّي سأكون أكثر مراقبه ورعاية لما ييدر منّي من أعمال، وأحاول تجنب السيئه منها ما أمكن.

وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية في (ثلاثة من المتخلفين عن تبوك وهم: هلال بن امية الواقفي، ومرارة بن ربيع، وكعب بن مالك، وهم من الأوس والخزرج وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه، وإنّما تخلف توائماً عن الإستعداد، حتى فاته المسير وانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله و آلّه فقال: واللّه ما لي من عذر ولم يعتذر إليه بالكذب فقال صلى الله عليه وآله: «صدقت، فمر حتى يقضى الله فيك».

وجاء الآخرون فقالوا مثل ذلك وصدقا. فهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن مكالمتهم وأمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأقاموا على ذلك خمسين ليلة وبنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده. ثم نزلت التوبة عليهم بعد الخمسين في الليل وهو قوله تعالى «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا» الآية (١١٨) من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٠

التفسير

في هذه الآية إشارة إلى مجموعة من المذنبين الذين لم تتضح جيداً عاقبة أمرهم، فلا هم مستحقون حتماً للرحمة الإلهية، ولا من المغضوب عليهم حتماً، لذا فإنّ القرآن الكريم يقول في حقهم: «وَأَخْرَجُوا لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ».

وتضيف الآية - بعد ذلك - أنّ الله سبحانه سوف لا يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقضى بعلمه وحكمته: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيُخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا  
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي  
نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)  
سبب النزول

تتحدث الآيات أعلاه عن جماعة أخرى من المنافقين الذين أقدموا- من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة- على بناء مسجد في المدينة،  
عرف فيما بعد ب (مسجد الضرار).

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأتيهم  
فأتاهم وصلى فيه فحسداهم عن جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف، فقالوا: نبني مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد.  
فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله! إننا  
قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة والليله الشائيه وإننا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركه. فقال: «إني على جناح  
سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١١

فصلينا لكم فيه». فلما انصرف رسول الله من تبوك، نزلت عليه الآية في شأن المسجد.

وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النبي صلى الله عليه وآله بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياها، وأن يجعل مكانه محلاً لرمى  
القاذورات والأوساخ.

التفسير

معبد وثني في صورة مسجد: أشارت الآيات السابقة إلى وضع مجاميع مختلفه من المخالفين، وتعرف الآيات التي نبحتها مجموعه  
اخرى منهم، المجموعه التي دخلت حلبه الصراع بخطه دقيقه وذكيه، إلا أن اللطف الإلهي أدرك المسلمين، وبدد أحلام المنافقين  
بإبطال مكرهم وإحباط خطتهم. فالآيه الاولى تقول: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا» وأخفوا أهدافهم الشريره تحت هذا الإسم المقدس، ثم  
لخصت أهدافهم في أربعة أهداف:

١- إن هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم «ضِرَارًا».

٢- تقويه اسس الكفر، ومحاولة إرجاع الناس إلى الحاله التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام: «وَكُفْرًا».

٣- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأن اجتماع فئه من المسلمين في هذا المسجد سيقلل من عظمه التجمع في مسجد قبا الذي كان قريباً  
منه، أو مسجد النبي صلى الله عليه وآله الذي كان يبعد عنه «وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويظهر من هذه الجملة- وكذلك فهم بعض المفسرين- أن المسافه بين المساجد يجب أن لا تكون قليله بحيث يؤثر الاجتماع في  
مسجد على جماعة المسجد الآخر.

٤- والهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقر ومركز لإيواء المخالفين للدين وأصحاب السوابق السيئه، والإنطلاق من هذا المقر في سبيل  
تنفيذ خططهم ومؤامراتهم: «وَارْضَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ».

إلما أن مما يثير العجب أن هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريره والأهداف المشؤومه في لباس جميل ومظهر خداع، وأنهم  
لا يريدون إلا الخير: «وَلِيُخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى».

إلا أن القرآن الكريم يبين أن الله تعالى الذي يعلم السرائر وما في مكنون الضمائر، والذي

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٢

تساوى لديه الظاهر والباطن، والغيب والشهادة يشهد على كذب هؤلاء: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». يؤكد الله سبحانه وتعالى في الآية

التالية تأكيداً شديداً على مسألة حياته مهمة، ويأمر نبيه بصراحه أن «لَاتَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» بل «لَمَسِيْجِدُ أُسَسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» لا المسجد الذي أسس من أول يوم على الكفر والنفاق وتقويض أركان الدين.

ثم يضيف القرآن الكريم أنه بالإضافة إلى أن هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإن «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ».

إن للطهارة هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحي من آثار الشرك والذنوب، أو التطهير الجسدي من الأوساخ والنجاسات.

وفي الآية الثالثة من الآيات مقارنة بين فريقين وفتنين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، والمنافقين الذين بنوه على أساس الكفر والنفاق والتفرقة والفساد. فهي تقول أولاً: «أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ».

إن التشبيه الوارد أعلاه يعطى صورة في منتهى الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقين وتزلزلها، وفي المقابل استحكام ودوام أعمال المؤمنين ونشاطاتهم وبرامجهم.

ومن هنا، فإن المنافقين يظلمون أنفسهم ويظلمون المجتمع أيضاً ولذلك فإن الآية اختتمت بقوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وفي آخر آية إشارة إلى إصرار المنافقين وعنادهم، فهي تعبر عن تعصبهم وإصرارهم في أعمالهم، وعنادهم في نفاقهم، وحيرتهم في ظلمة كفرهم، فهم في شك من بنيانهم الذي بنوه، أو في النتيجة المرجوة منه، وسيبقون في هذه الحال حتى موتهم: «لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ».

وتقول الآية أخيراً: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

فإنه تعالى إنما أمر نبيه صلى الله عليه وآله بهدم هذا البناء الذي يحمل صفة الحق ظاهراً، حتى تتبين نيات السوء التي انطوى عليها هؤلاء، وتنكشف حقائقهم وبواطنهم وهذا الحكم الإلهي هو عين الحكمة، وحسب صلاح المجتمع الإسلامي، وقد صدر على هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٣

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَهُمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) لما كان الكلام في الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإن هاتين الآيتين قد بينتا المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع. لقد عرّف الله سبحانه وتعالى نفسه في هذا المثال بأنه مشتر، والمؤمنين بأنهم بائعون، وقال: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ».

ولما كانت كل معاملة تتكون في الحقيقة من خمسة أركان أساسية، فقد أشار الله سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، والمؤمنين بائعين، وأموالهم وأنفسهم متاعاً وبضاعة، والجنة ثمناً لهذه المعاملة، غاية ما في الأمر أنه بين طريقة تسليم البضاعة بتعبير لطيف، فقال: «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ».

ثم يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، والذي يشكل الركن الخامس فيها، فقال:

«وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ».

ثم، ومن أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ». أي إن ثمن هذه المعاملة وإن كان مؤجلاً، إلا أنه مضمون، ولا وجود لأخطار النسيئة، لأن الله تعالى لقدرته واستغناؤه عن الجميع أوفى من الكل بعهده.

والأروع من كل شيء أنه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، ويتمنى لهم أن تكون صفقته وفيه الرياح، تماماً كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عز وجل: «فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكُمْ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٤

كما هي طريقة القرآن المجيد، حيث إنه يُجمل الكلام في آية، ثم يعمد إلى التفصيل في الآية التي تليها، فقد بين سبحانه في الآية الثانية حال البائعين للروح والمال لرَبِّهم عز وجل، فذكر تسع صفات مميزة لهم: ١- فهم يغسلون قلوبهم وأرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: «التَّبُوءَ».

٢- وهم يطهرون أنفسهم في نفحات الدعاء والمناجاة مع ربِّهم: «الْعَبْدُونَ».

٣- وهم يحمدون ويشكرون كل نعم الله المادية والمعنوية: «الْحَمِيدُونَ».

٤- وهم يتنقلون من مكان عبادة إلى آخر: «السُّحُونَ».

وبهذا الترتيب فإن برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر في العبادة، أو في إطار محدود، بل إن كل مكان هو محل عبادة لله وجهاد للنفس وتربية لها بالنسبة لهؤلاء، وكل مكان يوجد فيه درس وعبرة لهؤلاء فإنهم سيقصدونه.

٥- وهم يركعون مقابل عظمة الله: «الرَّاكِعُونَ».

٦- ويضعون جباههم على التراب أمام خالقهم ويسجدون له: «السَّاجِدُونَ».

٧- وهم يدعون الناس لعمل الخير: «الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

٨- ولم يقتنعوا بهذه الدعوة للخير، بل حاربوا كل منكر وفساد: «وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

٩- وبعد أدائهم وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقومون بأداء آخر وأهم واجب اجتماعي، أي حفظ الحدود الإلهية وإجراء قوانين الله، وإقامته الحق والعدالة:

«وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ».

وبعد ذكر هذه الصفات التسع فإن الله يرغّب - مرّة أخرى - أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الذين هم ثمرة منهج الإيمان والعمل، ويقول للنبي صلى الله عليه وآله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنْ موعدهِ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٥

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: إن المسلمين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: ألا تستغفر لأبائنا الذين ماتوا في الجاهلية؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية ويبين أنه لا ينبغي لنبي، ولا مؤمن، أن يدعو لكافر، ويستغفر له.

التفسير

نهت الآية الاولى النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة وحادة، فهي تقول: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ». ولكي تؤكد ذلك قالت:

«وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ».

ثم أن القرآن الكريم يبين سبب ودليل هذا الحكم فقال: «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

فإن هذا العمل - أي الاستغفار للمشركين - عمل لا معنى له وفي غير محله، لأن المشرك لا يمكن العفو عنه بأى وجه، ولا سبيل لنجاة من سار في طريق الشرك.



ولما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرأوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، ولذا فمن الممكن جداً أن يتبادر إلى اذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركاً؟ وإذا كان هذا العمل منهياً عنه فكيف يفعله هذا النبي الكبير؟

لهذا نرى أن الآية الثانية تنطرق لهذا السؤال وتجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».

وفي آخر الآية توضيح بأن إبراهيم كان إنساناً خاضعاً بين يدي الله عز وجل، وخائفاً من غضبه، وحليماً واسع الصدر، فقالت: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».

ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء: إن هذه الآية ليست الوحيدة التي تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدة آيات في القرآن الكريم أن كل ارتباط وتضامن وعلاقة، العائلية منها وغيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، ويجب أن يحكم الانتماء إلى الله ومحاربه كل أشكال الشرك والوثنية، كل أشكاليات الترابط بين المسلمين، لأن هذا الارتباط هو الأساس والحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعية، ولا تستطيع

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٤

العلاقات والروابط السطحية والفوقية أن تنفيه.

إن هذا درس كبير للأمس واليوم، وكل الأعصار والقرون.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول الله! إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض، ما منزلتهم؟ فنزل «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا» الآية.

التفسير

إن الآية الاولى تشير إلى قانون كلّي وعمام، يؤيده العقل أيضاً، وهو أن الله سبحانه وتعالى مادام لم يبين حكماً، ولم يصل شيء من الشرع حوله، فإنه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحداً، وبعبير آخر: فإن التكليف والمسؤولية تقع دائماً بعد بيان الأحكام، وهذا هو الذي يعبر عنه في علم الاصول بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان). ولذلك فأول ما تطالعنا به الآية قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ».

وأخيراً تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». أى إن علم الله يحتم ويؤكد على أن الله سبحانه مادام لم يبين الحكم الشرعى لعباده، فإنه سوف لا يؤاخذهم أو يسألهم عنه.

وتستند الآية التالية على هذه المسألة وتؤكد: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وأن نظام الحياة والموت أيضاً بيد قدرته، فإنه هو الذى «يُحْيِي وَيُمِيتُ» وعلى هذا: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ». وهو إشارة إلى أنه لما كانت كل القدرات والحكومات فى عالم الوجود بيده، وخاضعه لأمره، فلا ينبغى لكم أن تتكلموا على غيره، وتلتجئوا إلى البعيدين عن الله وإلى أعدائه وتوادوهم، وتوثقوا علاقتمكم بهم عن طريق الاستغفار وغيره.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٧

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

## سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى في غزاة تبوك، وما لحق المسلمين فيها من العسرة، حتى هم قوم بالرجوع، ثم تداركهم لطف الله سبحانه.

وأما الآية الثانية: فإنها نزلت في شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن امية وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثم ندموا. فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة، جاؤوا إليه، واعتذروا، فلم يكلمهم النبي صلى الله عليه وآله وتقدم إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم، فهجرهم الناس حتى الصبيان. فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يحيئون لهم بالطعام، ولا يكلمونهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم، فهلا نتهاجر نحن أيضاً! ففرقوا، ولم يتجمع منهم اثنان، ويقوا على ذلك خمسين يوماً، يتضرعون إلى الله تعالى، ويتوبون إليه فقبل الله تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية.

## التفسير

تحدثت هذه الآيات أيضاً عن غزوة تبوك، فتشير الآية الاولى إلى رحمة الله اللامتناهية التي شملت النبي صلى الله عليه وآله والمهاجرين والأنصار في اللحظات الحساسة، وتقول:

«لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ».

ثم تبين أن شمول هذه الرحمة الإلهية لهم كان في وقت اشتدت فيه الحوادث والضغوط والاضطرابات إلى الحد الذي أوشكت أن تزل فيه أقدام بعض المسلمين عن جادة الصواب، (وصمّموا على الرجوع من تبوك) فتقول: «مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٨

ثم تؤكد مرة أخرى على أن الله سبحانه قد تاب عليهم، فتقول: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». ولم تشمل الرحمة الإلهية هذا القسم الكبير الذي شارك في الجهاد فقط، بل شملت حتى الثلاثة الذين تخلفوا عن القتال ومشاركة المجاهدين في ساحة الجهاد: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا».

إلا أن اللطف الإلهي لم يشمل هؤلاء المتخلفين بهذه السهولة، بل عندما عاش هؤلاء - وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن امية، الذين مرّ شرح حالهم في سبب النزول - مقاطعة اجتماعية شديدة، وقاطعهم كل الناس بالصورة التي تصورها الآية، فتقول: «حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ».

بل إن صدور هؤلاء امتلأت همياً وغمياً بحيث ظنوا أن لا مكان لهم في الوجود، فكأنه ضاق عليهم «وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ» فابتعد أحدهم عن الآخر وقطعوا العلاقة فيما بينهم.

عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجههم فأيقنوا «وَوَظَّنُوا أَنْ لَّمْلَجًا مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ» فأدركتهم رحمة الله مرة أخرى، وسهلت ويسرت عليهم أمر التوبة الحقيقية، والرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) كونوا مع الصادقين: في الآيات السابقة كان الحديث حول جماعة من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع الله ورسوله، أما هذه الآية فقد أشارت إلى النقطة المقابلة لهؤلاء، فهي تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم وثبتوا عليه. في البداية تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ». ولأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى المليء بالمنعطفات والاحطار بدون اشتباه وانحراف أضافت: «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ».

والصادقين هم الذين يؤدون تعهداتهم أمام الإيمان بالله على أحسن وجه دون أي تردد أو تماهل ولا يخافون سيل المصاعب والعقبات، بل يثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء والتضحية.

ولا شك أن لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض في قمتها، وهم الذين نسّمهم بالمعصومين، والبعض في درجات أقل وأدنى

منها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١٩

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوْنُ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

كان البحث في الآيات السابقة حول توبيخ وملامة الممتنعين عن الاشتراك في غزوة تبوك، وتبحث هاتان الآيتان البحث النهائي لهذا الموضوع كقانون كلي. فالآية الاولى تقول:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» لأنه قائد الامية، ورسول الله، ورمز بقاء وحياء الامة الإسلامية.

من البديهي أن التأكيد على أهل المدينة وأطرافها إنما هو لأن المدينة كانت مقر الإسلام يومئذ ومركزه المشع، وإلا فإن هذا الحكم غير مختص بالمدينة وأطرافها، وغير مختص بالنبي صلى الله عليه وآله فإن واجب كل المسلمين، وفي جميع العصور أن يحترموا ويكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، ويذلون قصارى جهدهم في سبيل الحفاظ عليهم، ولا يتركوهم يواجهون الصعاب والأخطار وحدهم، لأن الخطر الذي يحدق بهؤلاء يحدق بالامة جميعاً.

ثم تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها في طريق الجهاد، وتذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل والصعاب وثوابها، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَأَيُّصِبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوْنُ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ». ومن المحتم أنهم سيقبضون جوائزهم من الله سبحانه، واحدة بواحدة، ف «إِنَّ اللَّهَ لَأُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». وكذلك فإنهم لا يبذلون شيئاً في أمر الجهاد:

«وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» ولا يقطعون أرضاً في ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلا ثبت كل ذلك في كتبهم: «وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ» وإنما يثبت ذلك «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٠

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَتَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

سبب التزل

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا خرج غازياً، لم يتخلف عنه إلا المنافقون والمعدرون. فلما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين، وبين نفاقهم في غزاة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزاه يغزوها رسول الله صلى الله عليه وآله ولا سرية أبداً! فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالسرايا إلى الغزو، نفر المسلمون جميعاً وتركوا رسول الله صلى الله عليه وآله وحده فأنزل الله سبحانه «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا» الآية.

التفسير

محاربة الجهل وجهاد العدو: إن لهذه الآية ارتباطاً بالآيات السابقة حول موضوع الجهاد، وتشير إلى حقيقة حياتية بالنسبة للمسلمين، وهي: أن الجهاد وإن كان عظيم الأهمية، والتخلف عنه ذنب وعار، إلا أنه في غير الحالات الضرورية لا لزوم لتوجه المؤمنين كافة إلى ساحات الجهاد، خاصة في الموارد التي يبقى فيها النبي صلى الله عليه وآله في المدينة، بل يبقى منهم جماعة لتعلم أحكام الدين ويتوجه الباقيون إلى الجهاد: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَتَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ».

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام والمعارف الإسلامية، ويحذرونهم من مخالفتها: «وَلَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا

رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» والهدف من ذلك أن يحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر الله سبحانه بانذارهم «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

المسألة المهمة التي يمكن استخلاصها من الآية، هي الأهمية الخاصة التي أولاها الإسلام لمسألة التعليم والتعلم، إلى الدرجة التي ألزم فيها المسلمين بأن لا يذهبوا جميعاً إلى ميدان الحرب، بل يجب أن يبقى قسم منهم لتعلم الأحكام والمعارف الإسلامية. إن هذا يعنى أن محاربة الجهل واجب كمحاربة الأعداء، ولا تقل أهمية أحد الجهادين عن الآخر. بل إن المسلمين مالم ينتصروا في محاربتهم للجهل واقتلاع جذوره من المجتمع فإنهم سوف لا ينتصرون على الأعداء (لأن الأمة الجاهلة محكومة بالهزيمة دائماً).

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) قتال الأقرب فالأقرب: أشارت الآية في سياق أحكام الجهاد التي ذكرت لحد الآن في هذه السورة- إلى أمرين آخرين في هذا الموضوع الإسلامي المهم، فوجهت الخطاب أولاً إلى المؤمنين وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ».

إن هذه الآية بالرغم من أنها تتحدث عن العمل المسلح والبعد المكاني، إلا أنه ليس من المستبعد أن روح الآية حاكمه في الأعمال المنطقية والفواصل المعنوية، أي إن المسلمين عندما يعزومون على المجابهة المنطقية والإعلامية والتبليغية يجب أن يبدووا بمن يكون أقرب إلى المجتمع الإسلامي وأشد خطراً عليه، فمثلاً في عصرنا الحاضر نرى أن خطر الإلحاد والمادية يهدد كل المجتمعات، فيجب تقديم التصدي لها على مواجهة المذاهب الباطلة الأخرى وهذا لا يعنى نسيان هؤلاء، بل يجب اعطاء الأهمية القصوى للهجوم نحو الفئة الأخطر، وهكذا في مواجهة الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي التي تحوز الدرجة الأولى من الأهمية.

والأمر الثاني فيما يتعلق بالجهاد في الآية، هو أسلوب الحزم والشدة، فهي تقول: إن العدو يجب أن يلمس في المسلمين نوعاً من الخشونة والشدة: «وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» وهي تشير إلى أن الشجاعة والشهامة الداخلية والاستعداد النفسي لمقابلة العدو ومحاربتة ليست كافية بمفردها، بل يجب اظهار هذا الحزم والصلابة للعدو ليعلم أنكم على درجة عالية من المعنويات، وهذا بنفسه سيؤدي إلى هزيمتهم وانهيار معنوياتهم.

وبعبارة أخرى فإن امتلاك القدرة ليس كافياً، بل يجب استعراض هذه القوة أمام العدو.

وفي النهاية تبشر الآية المسلمين بالنصر من خلال هذه العبارة: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ». ويمكن أن يشير هذا التعبير- إضافة لما قيل- إلى أن استعمال الشدة والخشونة يجب أن يقترن بالتقوى، ولا يتعدى الحدود الإنسانية في أي حال.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٢

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب: تشير هاتان الآيتان إلى واحدة من علامات المؤمنين والمنافقين البارزة، تكلمة لما مر من البحوث حولهما. فتقول أولاً: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا». وهم يريدون بكلامهم هذا أن يبينوا عدم تأثير سور القرآن فيهم، وعدم اعتنائهم بها، ويقولون: إن هذه الآيات لا تحتوى على الشيء المهم والمحتوى الغني، بل هي كلمات عادية ومعروفة.

ولكن القرآن يجيبهم بلهجة قاطعة، ويقول ضمن تقسيم الناس إلى طائفتين: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

وهذا على خلاف المنافقين ومرضى القلوب من الجهل والحسد والعدا «وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ».

وفي النهاية فإن هؤلاء بعنادهم يغادرون الدنيا على الكفر: «وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ».

إن القرآن الكريم يؤكد من خلال هاتين الآيتين على حقيقته، وهي أن وجود البرامج والقوانين الحياتية لا تكفي بمفردها لسعادة فرد أو جماعة، بل يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار وجود الأرضية المهيئة والاستعداد للتلقى كشرط أساسي.

أَوْ لَمَّا يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَيَلًا يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) يستمر الكلام في هذه الآيات حول المنافقين، وهي توبخهم وتذمهم فتقول: «أَوَّلًا يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ». والعجيب أنهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لا يعتبرون «ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ».

يظهر من تعبير الآية أن هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذي يواجهه كل الناس في حياتهم، بل إن هذا الاختبارات التي ينبغي أن تكون سبباً في توعيه هذه المجموعة كإزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة وظهور باطنهم وحقيقتهم.

ثم تشير الآية إلى الموقف الإنكارى لهؤلاء في مقابل الآيات الإلهية، فتقول: «وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٣

إن خوف هؤلاء وقلقهم ناشى من أن تلك السورة تتضمن فضيحة جديدة لهم، أو لأنهم لا يفهمون منها شيئاً لعمى قلوبهم، والإنسان عدو ما يجهل.

وعلى كل حال، فإنهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوها هذه الأنغام الإلهية، إلا أنهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، ولذلك كان أحدهم يهمس في أذن صاحبه ويسأله: «هَلْ يَرِيكُمْ مِّنْ أَحَدٍ؟» وإذا ما أطمأنوا إلى أن الناس منشغلون بسماع كلام النبي صلى الله عليه وآله وغير ملتفتين إليهم خرجوا: «ثُمَّ انصَرَفُوا».

وتطرقت الآية في الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: «إِنَّ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا لَا يَرِيدُونَ سَمَاعَ كَلِمَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَلَا يَرْتَاوُونَ لِدَلِكِ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ حَاقَتْ بِهَا الظُّلُمَاتُ لِعَنَادِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ فَصَرَفَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْحَقِّ، وَأَصْبَحُوا أَعْدَاءً لِلْحَقِّ لِأَنَّهُمْ أَنَاسٌ جَاهِلُونَ لَا فِكْرَ لَهُمْ: «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ».

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) آخر آيات القرآن المجيد: إن هذه الآيات برأى بعض المفسرين، هي آخر الآيات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وبها تنتهى سورة التوبة، فهي فى الواقع إشارة إلى كل المسائل التي مرت فى هذه السورة. ومن هنا فإن خطاب الآية الأولى موجه للناس، فهي تقول: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ». خاصة وأنه قد وردت لفظه «مَنْ أَنْفُسِكُمْ» وهي تشير إلى شدة ارتباط النبي صلى الله عليه وآله بالناس، حتى كأن قطعه من روح الناس والمجتمع قد ظهرت بشكل النبي صلى الله عليه وآله.

فبعد ذكر هذه الصفة «مَنْ أَنْفُسِكُمْ» أشارت الآية إلى أربع صفات اخرى من صفات النبي صلى الله عليه وآله السامية، والتي لها الأثر العميق فى إثارة عواطف الناس وجلب انتباههم وتحريك أحاسيسهم. ففي البداية تقول: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ». أى أن الأمر لا ينتهى فى أنه لا يفرح لأذاكم ومصاعبكم، بل إنه لا يقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألم لألمكم.

ثم تضيف أنه: «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» ويتحمس لهدايتكم.

ثم تشير إلى الصفتين الثالثة والرابعة وتقول: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». وعلى هذا فإن

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٤

كل الأوامر الصعبة التي يصدرها، (حتى المسير عبر الصحارى المحرقة فى فصل الصيف المقرون بالجوع والعطش لمواجهة عدو قوى فى غزوة تبوك) فإن ذلك نوع من محبته ولطفه، لنجاتكم ولتخليصكم من قبضة الظلم والاستبداد والمعاصى والتعاسف.

وفى الآية التي تليها، وهى آخر آية فى هذه السورة، وصف للنبي صلى الله عليه وآله بأنه شجاع وصلب فى طريق الحق، ولا يبأس بسبب عصيان الناس وتمردهم، بل يستمر فى دعوتهم إلى دين الحق: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ». فهو حصنه الوحيد ... أجل لا حصن لى إلا الله، فإنه استندت و «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

إنّ الذي بيده العرش والعالم العلوى وما وراء الطبيعة بكلّ عظمتها، وهى تحت حمايته ورعايته، كيف يتركنى وحيداً ولا يعيننى على الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلية مقاومة قدرته؟ أم يمكن تصور رحمة وعطف أشد من رحمته وعطفه؟

«نهاية تفسير سورة التوبة»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٥

## ١٠. سورة يونس

محتوى وفضيلة السورة: هذه السورة- على قول بعض المفسرين- نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود، وتؤكد على عدة مسائل أساسية، وأهمها مسألة المبدأ والمعاد.

غاية ما فى الأمر أنّها تتحدث أولاً عن مسألة الوحي ومقام النبى صلى الله عليه وآله، ثم تتطرق إلى نماذج وعلامات الخلقة العظيمة التى تدل على عظمة الله عزّ وجلّ، وبعد ذلك تدعو الناس إلى الإلتفات إلى عدم بقاء الحياة المادية فى هذه الدنيا، وحثية زوالها، ووجوب التوجه إلى الآخرة والتهيؤ لها عن طريق الإيمان والعمل الصالح.

وقد ذكرت السورة- كدلائل وشواهد على هذه المسائل- أقساماً مختلفه من حياة كبار الأنبياء، ومن جملتهم نوح وموسى ويونس عليهم السلام ولهذا سميت بسورة يونس.

وأخيراً فإنها تستغل كل فرصة للشارة والإنذار، بالشارة بالإلهية التى لا- حدود لها للصالحين، والإنذار والإرعاب للطاغين والعاصين، لتكملة ما ورد فيها من بحوث.

فى كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة يونس فى كل شهرين أو ثلاثة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقربين». وذلك لأنّ آيات التحذير والوعيد وآيات التوعية كثيرة فى هذه السورة.

ربّما لا نحتاج أن نذكر بأنّ فضائل السور لا يمكن تحصيله بمجرد تلاوة الآيات من دون

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٦

إدراك معناها، ومن دون العمل بمحتواها، لأنّ التلاوة مقدمه للفهم، والفهم مقدمه للعمل.

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) رساله النبى: فى هذه السورة نواجه- مرّة اخرى- الحروف المقطعة فى القرآن، والتى ذكرت بصورة «الر». بعد هذه الحروف تشير الآية أولاً إلى عظمة آيات القرآن وتقول:

«تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ». إنّ التعبير ب «تلك» وهى اسم إشارة للبعيد، بدل (هذه) التى تشير للقريب، والذى جاء نظيره فى بداية سورة البقرة، يعتبر من التعبيرات الجميلة واللطيفة فى القرآن، وهو كناية عن عظمة ورفعها مفاهيم القرآن.

إنّ توصيف الكتاب السماوى- أى القرآن- بأنه «حكيم» هو إشارة إلى أنّ آيات القرآن محكمة ومنظمة ودقيقة، بحيث لا يمكن أن يأتيها أو يخالطها أى شكل من أشكال الباطل والخرافة، فهى لا تقول إلّا الحق، ولا تدعو إلّا إلى طريق الحق.

أمّا الآية الثانية فإنها تبين- ولمناسبة تلك الإشارة التى مرّت إلى القرآن والوحي الإلهى فى الآية السابقة- واحداً من إشكالات المشركين على النبى صلى الله عليه وآله وهو نفس الإشكال الذى جاء فى القرآن بصورة متكررة، وهذا التكرار يبين أنّ هذا الإشكال من إشكالات المشركين المتكررة، وهو: لماذا نزل الوحي الإلهى من الله على إنسان مثلهم؟ ولماذا لم تتعهد الملائكة بمسؤولية هذه الرسالة الكبيرة؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ».

إنّ كلمة «منهم» تضمنت الجواب على سؤالهم، أى إنّ القائد والمرشد إذا كان من جنس أتباعه، ويعلم أمراضهم، ومطلع على احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثم تشير إلى محتوى الوحي الإلهي وتلخصه في أمرين:

الأول: إنَّ الوحي الذي أرسلناه، مهمته إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب الكفر

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٧

والمعاصي: «أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ».

والثاني: هو «وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

إنَّ «قدم الصدق» هذا إشارة إلى أنَّ الإيمان له «سابقه فطرية» أو إشارة إلى مسألة المعاد ونعيم الآخرة، أو أنَّ القدم بمعنى القدوة

والزعيم والقائد، أي إننا أرسلنا للمؤمنين قائداً ومرشداً صادقاً.

وأن تكون البشارة بكل هذه الامور هي المرادة من التعبير أعلاه.

وتنهي الآية حديثها بذكر إتهام طالما كرره المشركون واتهموا به النبي صلى الله عليه وآله فقالت: «قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ».

إنَّ أمثال هذه التعبيرات التي كانت تصدر من ناحية الأعداء ضد النبي صلى الله عليه وآله دليل بنفسها على أنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقوم بأعمال خارقة للعادة، بحيث تجذب القلوب والأفكار نحوها، خاصة وأنَّ التأكيد على السحر في شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع وقوي على الجاذبية الخارقة الموجودة في هذا الكتاب السماوي، ولأجل خداع الناس فإنهم كانوا يجعلونه في إطار السحر.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) معرفة الله والمعاد: بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسألة الوحي والنبوة في بداية هذه السورة، انتقل في حديثه إلى أصلين أساسيين في تعليمات وتشريعات جميع الأنبياء، ألا وهما المبدأ والمعاد، وبين هذين الأصلين ضمن عبارات قصيرة في هاتين الآيتين.

فيقول أولاً: «إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ». أي إنَّ الله سبحانه قد خلق السماء والأرض في ستة مراحل.

ثم تضيف الآية: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٨

«العرش»: تأتي أحياناً بمعنى السقف، وأحياناً بمعنى الشيء الذي له سقف، وتارةً بمعنى الأسرة المرتفعة، هذا هو المعنى الأصلي لها، أمياً معناها المجازي فهو القدرة. وبعد أن تبين أنَّ الخالق والموجد هو الله سبحانه، اتضح أنَّ الأصنام، هذه الموجودات الميتة والعاجزة- لا يمكن أن يكون لها أي تأثير في مصير البشر، ولهذا قالت الآية في الجملة التالية: «مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ».

وتتحدث الآية التالية- كما أشرنا- عن المعاد، وتبين في جمل قصار أصل مسألة المعاد، والدليل عليها، والهدف منها. فتقول أولاً: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً». وبعد الاستناد إلى هذه المسألة المهمة والتأكيد عليها تضيف: «وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا». ثم تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ».

إنَّ الآيات المرتبطة بالمعاد في القرآن توضح أنَّ العلة الأساسية في تشكيك وتردد المشركين والمخالفين، هي أنَّهم كانوا يشككون في إمكان حدوث مثل هذا الشيء، وكانوا يسألون بتعجب بأنَّ هذه العظام النخرة التي تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة وترجع إلى حالتها الأولى؟ ولهذا نرى أنَّ القرآن يقول: فإنَّ من أوجد العالم في البداية يستطيع أن يعيد ذلك اليجاد.

ثم تبين الهدف من المعاد بأنه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على الله سبحانه مهما صغرت: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ». أما أولئك الذين اختاروا طريق الكفر والإنكار، ولم تكن لديهم أعمال صالحة- لأنَّ الاعتقاد

الصالح أساس العمل الصالح- فَإِنَّ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ وَأَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ بَانْتِظَارِهِمْ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ».

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) جانب من آيات عظمة الله: لقد مرّت في الآيات السابقة إشارة عابرة إلى مسألة المبدأ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢٩

والمعاد، إلّا أنّ هذه الآيات وما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء. لقد أشارت الآية الأولى التي نبحتها إلى جوانب من آيات عظمة الله سبحانه في عالم الخلق فقالت: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا».

إنّ الشمس التي تعم العالم بنورها لا- تعطى النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هي العامل الأساس في نمو النباتات وتربية الحيوانات، وإذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوماً فإنّ السكون والظلمة والموت سيخيّم على كل شيء في فاصلة زمنية قصيرة.

والقمر بنوره الجميل هو مصباح ليلنا المظلمة، ولا تقتصر مهمته على هداية المسافرين ليلاً وإرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء والنشاط لكل سكان الأرض.

ثمّ أشارت الآية إلى فائدة أخرى لوجود القمر فقالت: «وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ». بل إنّ تقويم طبيعي دقيق جداً يستطيع الجاهل والعالم قراءته، ويقرأ فيه تاريخ أعماله وامور حياته.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا الخلق والدوران ليس عملاً غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل «مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ». وفي النهاية تؤكد الآية: «يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» إلّا أنّ هؤلاء الغافلين وفاقدى البصيرة بالرغم من أنّهم يمرون كثيراً على هذه الآيات والدلائل، إلّا أنّهم لا يدركون أدنى شيء منها.

وتتطرق الآية الثانية إلى قسم آخر من العلامات والدلائل السماوية والأرضية الدالة على وجوده سبحانه، فتقول: «إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ». أى إنّ الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سمت أرواحهم وصفت نتيجة لتقواهم وبعدهم عن المعاصي.

لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل والنهار من آيات الله سبحانه، وذلك لأنّ نور الشمس إذا استمر في إشعاعه على الأرض، فإنّ من المسلم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذي تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٠

وكذلك الليل إذا استمر فإنّ كل شيء سينجمد لشدة البرودة.

إلّا أنّ الله سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئته أسباب الحياة والمعيشة على وجه الكرة الأرضية. إنّ الذين لا يزجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون (٨) إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النعيم (٩) دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيّتهم فيها سلاماً وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) أهل الجنة والنار: هذه الآيات تفصيل حول المعاد ومصير الناس في العالم الآخر. ففي البداية يقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَمَّا زُجِرُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا» فهم لا يعتقدون بالمعاد وتجاهلوا الآيات البينات فلم يتدبروا فيها كيما تستيقظ قلوبهم ويتحرك فيهم روح الاحساس بالمسؤولية «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ». فكلتا هاتين الطائفتين مصيرهم إلى النار: «أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».



إن النتيجة الطبيعية والحتمية لعدم الإيمان بالمعاد هى الارتباط بهذه الحياة المحدودة والعلائق المادية، والاطمئنان بها والإعتماد عليها. وكذلك فإن الغفلة عن الآيات الإلهية هى أساس البعد عن الله سبحانه، والإبتعاد عن الله هو العلة لعدم الإحساس بالمسؤولية والتلوث بالظلم والفساد والمعصية، وعاقبه ذلك لا تكون إلا النار.

إن هاتين الآيتين تؤكدان مرة أخرى هذه الحقيقة، وهى أن إصلاح مجتمع ما وإنقاذه من نار الظلم والفساد، يتطلب تقوية ركنى الإيمان بالله والمعاد اللذين هما شرطان ضروريان وأساسيان، فإن عدم الإيمان بالله سبحانه سيقطع الإحساس بالمسؤولية من وجود الإنسان، والغفلة عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، وعلى هذا فإن هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعية.

ثم يشير القرآن إلى وضع فئة أخرى فى مقابل هذه الفئة، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣١

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ». فإن نور الهداية الإلهية الذى ينبعث من نور إيمانهم يضىء كل آفاق حياتهم، وقد اتضحت لهم الحقائق باسرافات هذا النور بحيث لم تعد شراك المذاهب المادية وزبارجها، ولا الوسوس الشيطانية وبريق المطامع الدنيوية قادرة على التعتيم على افكارهم ودفعهم فى طريق الانحراف عن الصواب والحق.

إن وضع هؤلاء فى الحياة الاخرى أنهم «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

إن هؤلاء يرفلون فى محيط مملوء بالصلح والصفاء وعشق الله وأنواع النعم، وفى كل وقت تنير وجودهم نفعه ورشحه من ذات الله وصفاته، فإن «دَعْوِيَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ».

وكلما التقى بعضهم بالآخر فإنهم يتحدثون عن الصفاء والسلام «وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ».

وأخيراً فإنهم كلما إلتدوا بنعم الله المختلفه شكروا ذلك «وَأَعْرَضُوا عَنْهُمُ أَنْ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ

الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) الهمج الزعاع: الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الاولى بأن الله سبحانه إذا جازى المسيئين

على أعمالهم بنفس العجلة التى يحب بها هؤلاء تحصيل النعم والخير، فستنتهى أعمار الجميع ولا يبقى لهم أثر: «وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسِيَّعًا لَجُنِبَهُمْ بِأَلْحَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَذَرِ الَّذِينَ لَمَّا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) الهمج الزعاع: الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الاولى بأن الله سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجلة التى يحب بها هؤلاء تحصيل النعم والخير، فستنتهى أعمار الجميع ولا يبقى لهم أثر: «وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسِيَّعًا لَجُنِبَهُمْ بِأَلْحَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ».

إلما أن لطف الله سبحانه لما كان شاملًا لجميع العباد، حتى المسيئين والكافرين والمشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم جزائهم لعلمهم يعون ويتوبون، ويرجعون عن الضلال إلى الحق والهدى.

وفى الختام تقول الآية: يكفى عقاباً لهؤلاء أن نتركهم وشأنهم ليقفوا فى حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، ولا هم يجدون سبيل النجاة من متاهاتهم: «فَذَرِ الَّذِينَ لَمَّا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

عند ذلك تشير الآية إلى وجود نور التوحيد فى فطرة الإنسان وأعماق روحه وتقول:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٢

«وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا».

نعم ... إن خاصية المشاكل والشدائد الخطيرة، أنها تزيد الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، ويسطع عندها- ولو لمدة قصيرة- نور التوحيد. ثم تقول الآية: إن هؤلاء الأفراد إلى درجة من الجهل وضيق الافق بحيث إنهم يعرضون بمجرد كشف الضر عنهم، حتى كأنهم لم يدعونا ولم نساعدهم: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إن الله سبحانه هو الذى يزين الأعمال، وذلك بجعل هذه الخاصية فى الأعمال القبيحة والمحرمة، بحيث أن الإنسان كلما تلوث بها أكثر، فإنه سيتطبع عليها، وبمرور الزمن يزول قبحها تدريجياً، بل وتصل الحال إلى أن يراها حسنة وجميلة.

وأما لماذا سمّت الآية أمثال هؤلاء «مسرّفين» فلأنّه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال في وجوده، ألا وهو العمر والسلامة والشباب والقوى، وبصرفه في طريق الفساد والمعصية أو في طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفاني ولا يربح من ذلك شيئاً. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) الإعتبار بالظالمين السابقين: تشير هذه الآيات أيضاً إلى معاقبة الأفراد الظالمين والمجرمين في هذه الدنيا، وقد ثبتت المسلمين - بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم - إلى أنّهم إذا سلخوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير. فالآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا». ثم تضيف:

«كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ».

ثم تبين الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة وتقول: «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». يستفاد من جملة: «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أنّ الله سبحانه يهلك فقط اولئك الذين لا أمل في إيمانهم حتى في المستقبل، وعلى هذا فإنّ الأقسام التي يمكن أن تؤمن في المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٣

وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِنَا نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَلَمْ تَعْلَمُوا (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

سبب التزلزل

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت في خمسة نفر (من عبدة الأوثان)، قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: آت بقُرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، أو بدله تكلم به من تلقاء نفسك.

التفسير

كتعقيب للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن المبدأ والمعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع والمسائل المتعلقة به. في البداية تشير إلى واحد من الإشتباهات الكبيرة لعباد الأصنام، وتقول: «وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ».

إنّ هؤلاء الجهلة العاجزين لم يرضوا بالنبي صلى الله عليه وآله قائداً ومرشداً لهم، بل كانوا يدعون لاتباع خرافاتهم وأباطيلهم. إنّ القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء إلى هذا الإشتباه الكبير، ويأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهم: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِنَا نَفْسِي». ثم يضيف للتأكيد: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ». ولست عاجزاً عن تغيير أو تبديل هذا الوحي الإلهي - فحسب - بل: «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ثم تتطرق الآية التالية إلى دليل هذا الموضوع وتقول: قل لهم بأنّي لست مختاراً في هذا الكتاب السماوي: «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ». والدليل على ذلك:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٤

«فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ». لكنكم لم تسمعوا منّي مثل هذا الكلام مطلقاً، ولو كانت هذه الآيات من عندي لتحدثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أمراً بهذه الدرجة من الوضوح: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ». وكذلك، ومن أجل التأكيد يضيف: بأنّي أعلم أنّ أقبح أنواع الظلم هو أن يفترى الإنسان على الله الكذب: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». وعلى هذا فكيف يمكن أن ارتكب مثل هذا الذنب الكبير.

وكذلك فإنّ التكذيب بآيات الله سبحانه من أشدّ الكبائر وأعظمها: «أَوْ كَذَّبَ بآيَاتِهِ».

فإذا كنتم جاهلين بعظمه ما ترتكبونه من الاثم في تكذيب وإنكار آيات الحق، فإنّي لست بجاهل بها، وعلى كل حال فإنّ عملكم هذا جرم كبير، و«إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ».

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْصُرْهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُوَ لَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) آلهة بدون خاصية: واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضاً، وذلك عن طريق نفى الوهية الأصنام، وذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة وإنتفاء قيمتها وأهميتها: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ».

ثم تتطرق إلى إدعاءات عبدة الأوثان الواهية، «وَيَقُولُونَ هُوَ لَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ».

أى إنّ هذه الأصنام والآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سبباً للضر والنفع رغم عجزها عن أى عمل بصورة مستقلة. لقد كان الاعتقاد بشفاعه الأصنام أحد أسباب عبادتها.

إنّ القرآن يقول في دفع هذا الوهم: «قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ». وهو كناية عن أنّ الله سبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنه يعلم بوجودهم في أى نقطة كانوا من السماء والأرض، لأنّ سعه علم الله لا تدع أصغر ذرة في السماء والأرض إلا وتحيط بها علماً.

وفي آخر الآية تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٥

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) إنّ هذه الآية - تنمّه للبحث الذى مرّ في الآية السابقة حول نفى الشرك وعبادة الأصنام - تشير إلى فطرة التوحيد لكل البشر، وتقول: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً».

إنّ فطرة التوحيد هذه، والتي كانت سالمه في البداية، إلا أنّها قد اختلفت وتلوثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضيقة، والميول الشيطانية والضعف، فانحرف جماعة عن جادة التوحيد وتوجهوا إلى الشرك، وقد انقسم المجتمع الإنسانى إلى قسمين مختلفين: قسم موحد، وقسم مشرك: «فَاخْتَلَفُوا». بناءً على هذا فإنّ الشرك في الواقع نوع من البدعة والانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام والخرافات التي لا أساس لها.

وقد يطرح هنا هذا السؤال، وهو: لماذا لا يرفع الله هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشركين السريع، ليرجع المجتمع الإنسانى جميعه موحداً؟

ويجيب القرآن الكريم مباشرة عن هذا السؤال بأنّ الحكمة الإلهية تقتضى حرية البشر في مسير الهداية، فهي رمز التكامل والرقى، ولو لم يكن أمره كذلك فإنّ الله سبحانه كان سيقضى بينهم في اختلافاتهم: «وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». وَيَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) المعجزات المقترحة: مرة اخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان والإسلام: «وَيَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

إنّ هؤلاء كانوا يظنون أنّ الإعجاز أمر بيد النبي صلى الله عليه وآله وهو يستطيع أن يقوم به في أى وقت وبأية كيفية يريد، ولهذا فإنّ القرآن الكريم يأمر النبي صلى الله عليه وآله مباشرة: «فَقُلْ إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ». وبناءً على هذا، فإنّ المعجزة ليست بيدي لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاءً لأهوائكم وحسب ميولكم ورغباتكم ثم لا تؤمنون بعد ذلك بأعذار واهية وحجج ضعيفة.

وفي النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ». فانتظروا العقاب الإلهي، وأنا أنتظر النصر!

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٦

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي

يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) يدور الكلام في هذه الآيات - أيضاً - حول عقائد وأعمال المشركين، ثم دعوتهم إلى التوحيد ونفى كل أنواع الشرك. فالآية الأولى تشير إلى بعض سلوكيات المشركين الحمقاء، وتقول: إننا عندما نبتلى الناس بالمشاكل والنكبات من أجل إيقاظهم وتنبههم، ثم نرفع هذا البلاء عنهم ونذيقهم طعم الراحة والهدوء بعد تلك الضراء، فإنهم بدلاً من أن ينتبهوا لهذه الآيات ويرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسرونها بتفسيرات غير صحيحة، فمثلاً يفسرون الإبتلاءات والمشاكل بأنها نتيجة غضب الأصنام، والنعم والطمأنينة بأنها دليل على شفقتها، أو أنهم يعدون كل هذه الامور صدفة محضة: «وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا».

إن كلمة «مكر» في الآية أعلاه، والتي تعنى بشكل عام أعمال الفكر، تشير إلى التوجيهات الخاطئة وطرق التهرب التي يفكر بها المشركون عند مواجهة الآيات الإلهية، وظهور أنواع البلايا والنعم. إلا أن الله سبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبيه، وأمره أن «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا».

و «المكر»: في الأصل هو كل نوع من التخطيط المقترن بالعمل المخفى، وعلى هذا فإنه يصدق على الله سبحانه كما يصدق على العباد. ومصدق المكر الإلهي في هذه الآية إشارة إلى نفس تلك العقوبات الإلهية التي يحل بعضها في نهاية الخفاء وبدون أية مقدمة وبأسرع ما يكون، بل إنه يعاقب ويعذب بعض المجرمين بأيديهم أحياناً. وتعبير آخر فإن الله مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٧

سبحانه في أي وقت يريد إنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإن هذا العقاب سيتحقق مباشرة، في حين أن الآخرين ليسوا كذلك. ثم يهدد هؤلاء بأن لا تظنوا أن هذه المؤامرات والخطط ستُنسى، بل إن رسلنا - أي الملائكة - يكتبون كل هذه المخططات التي تهدف إلى إطفاء نور الحق: «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» ولذلك يجب أن تهيبوا أنفسكم للجواب والعقاب في الحياة الأخرى وتغوص الآية التالية في أعماق فطرة البشر، وتوضح لهؤلاء حقيقة التوحيد الفطري، وكيف أن الإنسان عندما تلم به المشاكل الكبيرة وفي أوقات الخطر، ينسى كل شيء إلا الله تبارك وتعالى ويتعلق به. تقول الآية: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ». في هذا الحال بالضبط تذكروا الله ودعوه بكل إخلاص وبدون أية شائبة من الشرك، و «دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». فيرفعون أيديهم في هذا الوقت للدعاء:

«لَئِن أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». فلا نظلم احداً ولا نشرك بعبادتك غيرك.

ورغم أن هذه اليقظة مؤقتة، وليس لها أثر تربوي في الأفراد الملوئين جداً، أنها تقيم الحجة عليهم، وستكون دليلاً على محكومتهم.

أما الذين تلوثوا بالمعاصي قليلاً، فإنهم سيتنبهون في هذه الحوادث ويصلحون مسارهم.

ولكن ما أن أنجاهم الله وأوصلهم إلى شاطئ النجاة بدؤوا بالظلم والجور: «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ». لكن يجب أن تعلموا - أيها الناس - إن نتيجة ظلمكم ستصيبكم أنتم «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ». وآخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلاً في هذه الدنيا: «مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

ملاحظتان

١- لقد ذكرت «الرحمة» في الآيات أعلاه مقابل «الضراء» ولم تذكر السراء، وهي إشارة إلى أن أي حسن ونعمة تصل إلى الإنسان فهي من الله سبحانه ورحمته اللامتناهية، في حين أن السوء والنقمة إذا لم تكن للعبرة، فإنها من آثار أعمال الإنسان نفسه.

٢- إن جملة «أُحِيطَ بِهِمْ» تعنى أن هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٨

جانبا، إلاً أنها هنا كناية عن الهلاك والفناء الحتمى لهؤلاء.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لوحة الحياة الدنيا: مرّت الإشارة في الآيات السابقة إلى عدم استقرار ودوام الحياة الدنيا، ففي الآية الاولى من الآيات التي نبحتها تفصيل لهذه الحقيقة ضمن مثال لطيف وجميل لرفع حجب الغرور والغفلة من أمام نواظر الغافلين والطغاة «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ».

إن قطرات المطر هذه تسقط على الأراضي التي لها قابلية الحياة. وبهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التي يستفيد من بعضها الإنسان، ومن بعضها الآخر الحيوانات «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ».

إن هذه النباتات علاوة على أنها تحتوى على الخواص الغذائية المهمة للكائنات الحية الاخرى، فإنها تغطى سطح الأرض وتضفى عليها طابعا من الجمال «حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ». فى هذه الأثناء حيث تتفتح الجنباز وتورق أعالى الأشجار وتعطى ذلك المنظر الزاهى وتبتسم الأزهار وتتألا الأعشاب تحت أشعة الشمس، وتتمايل الأغصان طربا مع النسيم، وتظهر حبات الغذاء والأثمار أنفسها شيئا فشيئا وتجسم جانبا دائب الحركة من الحياة بكل معنى الكلمة، وتملا القلوب بالأمل، والعيون بالسرور والفرح، بحيث «وَضَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا». فى هذه الحال وبصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمر، ونجعلها كأن لم تكن شيئا مذكورا «أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ».

إن جملة «لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ» تعنى أنها لم تكن بالأمس هنا، وهذا كناية عن فناء الشىء بالكلية بصورة كأنه لم يكن له وجود مطلقا.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٩

وللتأكيد تقول الآية فى النهاية: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

إن الآية التالية أشارت بجملة قصيرة إلى الحياة المقابلة لهذه الحياة، وقالت: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ».

فلا خبر هناك عن مطاحنات واعتداءات المتكالبين على الحياة المادية، ولا حرب ولا إراقة دماء ولا استعمار ولا استثمار.

ثم تضيف الآية: إن الله سبحانه يهدى من يشاء - إذا كان لائقا لهذه الهداية - إلى صراطه المستقيم، ذلك الصراط الذى ينتهى إلى دار السلام ومركز الأمن والأمان «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) بيض الوجوه وسود الوجوه: مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عالم الآخرة ويوم القيامة، ولهذه المناسبة فإن هذه الآيات تبين مصير الصالحين وعاقبة المذنبين فتقول فى البداية: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ». والمقصود من الزيادة فى هذه الجملة، هو الثواب المضاعف الكثير، الذى يتضاعف أحيانا عشر مرات، واخرى آلاف المرات حسب نسبة الإخلاص والطهارة والتقوى وقيمة العمل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ». «يرهق»: مأخوذة من مادة «رهق» وهى بمعنى التغطية القهرية والجبرية، و «القتر»: بمعنى «الغبار» والدخان.

وفى النهاية تقول: «أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». التعبير بالأصحاب إشارة إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة ومحيط الجنة.

ثم يأتى الحديث فى الآية التالية عن أصحاب النار الذين يشكلون الطرف المقابل للمجموعة الاولى، فتقول: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ

جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا». وهنا لا يوجد كلام عن الزيادة، لأن الزيادة في الثواب فضل ورحمة، أما في العقاب فإن العدالة توجب أن

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٠

مختصر الامثل ج ٢ ٣٧٩

يكون بقدر الذنب ولا- يزيد ذرة واحدة. إلمأ أن هؤلاء عكس الفريق الأول مسودة وجوهم «وَتَزَهَّقُهُمْ ذَلَّةً». وهذه هي خاصية وأثر العمل الذي ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج.

فقد يظن المسيئون أنهم سوف يكون لهم طريق للهروب أو النجاة، أو أن الأصنام وأمثالها تستطيع أن تشفع لهم، إلا أن الجملة التالية تقول بصراحة: «مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

إن وجوه هؤلاء مظلمة ومسودة إلى الحد الذي «كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَيَرْثِلُنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مِآ كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) مشهد من قيامه عبدة الأوثان: تتابع هذه الآيات أيضاً بالحوث السابقة حول المبدأ والمعاد ووضع المشركين، فتقول أولاً: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ».

ثم تضيف: أننا سوف نعزل هاتين الفئتين - أي العابدون والمعبودون - عن بعضهم البعض، ونسأل كلا منهما على انفراد، تماماً كما هو المتداول في كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأى دليل جعلتم هذه الأصنام شريكاً لله وعبدتموها؟ ونسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ «فَرَيْلُنَا بَيْنَهُمْ».

في هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعهم أو هام هؤلاء: «وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ» فأنتم كنتم تعبدون أهواءكم وميولكم وأوهامكم.

ثم، ومن أجل التأكيد الأشد، يقولون: «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ».

والمراد من الأصنام والشركاء في هذه الآية أنها تشمل كل المعبودات، غاية ما في الأمر أن المعبودات التي لها عقل وشعور تعيد الحقائق وتذكرها بلسانها، أما المعبودات التي لا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤١

عقل لها ولا شعور فإن الكلام عن لسان حالها، وتحدث عن طريق انعكاس آثار العمل.

ففي ذلك اليوم وذلك المكان وذلك الحال - كما يتحدث القرآن في آخر آية من آيات البحث - فإن كل إنسان سيختبر كل أعماله التي عملها سابقاً ويرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء العابدون والمعبودون المضلون الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، وسواء المشركون والمؤمنون من أي قوم ومن أي قبيل: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ». وفي ذلك اليوم سيرجع الجميع إلى الله مولاهم الحقيقي، ومحكمة المحشر تبين أن الحكم لا يتم إلا بأمره «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ».

وأخيراً فإن جميع هذه الأصنام والمعبودات المختلفة التي جعلها هؤلاء شريكاً لله كذباً ستفنى وتمحى: «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فإن القيامة ساحة ظهور كل الأسرار الخفية للعباد، ولا تبقى أية حقيقة إلا وتظهر نفسها.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) الحديث في هذه الآيات عن علامات ودلائل وجود الله سبحانه وأهليته للعبادة، وتعقب أبحاث

الآيات السابقة حول هذا الموضوع. ففي البداية تقول: قل لهؤلاء المشركين وعبدة الأوثان الحائرين التائهين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء والأرض؟ «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

«الرزق»: يعنى العطاء والبذل المستمر، ولما كان الواهب لكل المواهب هو الله سبحانه، فإن «الرازق» و «الرزاق» بمعناهما الحقيقى لا يستعملان إلا فيه فقط، وإذا استعملت هذه الكلمة فى حق غيره فلا شك أنها من باب المجاز.

والأرض وحدها هى التى تغذى جذور النباتات بواسطة موادها الغذائية، وربما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية أولاً عن أرزاق السماء، ثم عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٢

ثم تشير الآية إلى حاستين من أهم حواس الإنسان، واللذان لا يمكن كسب العلم وتحصيله بدونهما، فقالت: «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ».

فإن هذه الآية أشارت إلى النعم المادية أولاً، ثم إلى المواهب والأرزاق المعنوية التى تصبح النعم المادية بدونها فاقدة للهدف والمحتوى.

ثم تطرقت الآية إلى ظاهرتى الموت والحياة اللتين هما أعجب ظواهر عالم الخلق، فتقول: «وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ».

وهذا هو نفس الموضوع الذى حير عقول علماء الطبيعة وعلماء الاحياء، وهو كيف أتى الموجود الحى إلى الوجود من موجود ميت؟ هذه الآية تشمل الموت والحياة المعنويين إضافة إلى الموت والحياة الماديين، لأننا نرى أناساً عقلاء طاهرين ورعين مؤمنين يولدون أحياناً من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، ويلاحظ أيضاً عكس ذلك.

ثم تضيف الآية: «وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ». والكلام فى الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثم عن حافظها وحارسها ومدبرها، وبعد أن يطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة الثلاثة يقول مباشرة بأن هؤلاء سيجيبون بسرعة: «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

يستفاد من هذه الجملة جيداً أنه حتى مشركى وعبدة الأصنام فى الجاهلية كانوا يعلمون أن الخالق والرازق والمحيى ومدبر أمور عالم الوجود هو الله سبحانه.

وفى آخر الآية يأمر الله نبيه: «فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

وبعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمته وتدبير الله فى السماء والأرض، وأيقظت وجدان وعقل المخالفين ودعتهم للحكم فى أمر الخالق، واعترف هؤلاء بذلك، خاطبتهم الآية التالية بلهجة قاطعة وقالت: «فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ». لا الأصنام، ولا سائر الموجودات التى جعلتموها شريكة للبارى عز وجل، والتى تسجدون أمامها وتعظمونها.

ثم تنتهى إلى ذكر النتيجة: «فَمَا إِذَا بَعِدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَلُ فَأَنْتَى تُصِيرُوفُونَ». وأتى تولوا وجوهكم عن عبادة الله وأنتم تعلمون ألا خالق ولا معبود حقاً سواه؟

إن هذه الآية تطرح طريقاً منطقياً واضحاً لمعرفة الباطل وتركه، وهو أن يخطو الإنسان أولاً فى سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان والعقل، فإذا عرف الحق فإن كل ما خالفه باطل وضلال، ويجب أن يضرب عرض الحائط.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٣

وتقول آخر آية فى بيان العلة فى عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر وظهور الحق:

«كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». وفى الواقع فإن هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة لهؤلاء بحيث تُظلم قلوبهم وتلوث أرواحهم إلى درجة لا يرون معها الحق رغم وضوحه وتجليه، ويسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدَى إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدَى لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدَى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لِمَا يَهْدَى إِلَّا أَنْ يَهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) واحدة من علامات الحق والباطل: تعقب هذه الآيات أيضاً

الإستدلالات المرتبطة بالمبدأ والمعاد، وتأمراً الآية الأولى النبي صلى الله عليه وآله أن «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». ثم تضيف: «قُلِ اللَّهُ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ». ولماذا تصرفون وجوهكم عن الحق وتتجهون نحو الضلال؟ ثم تأمر الآية الأخرى النبي صلى الله عليه وآله مرة أخرى: «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ».

لأنَّ المعبود يجب أن يكون هادياً ومرشداً لعباده، خاصة وأنها هداية نحو الحق، في حين أنَّ آلهة المشركين، أعم من الجمادات أو الأحياء، غير قادرة أن تهدي أحداً إلى الحق بدون الهداية الإلهية، لأنَّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصمة والصيانة من الخطأ والاشتباه، وهذا لا يمكن من دون هداية الله سبحانه وتسيده، ولذلك فإنَّها تضيف مباشرة: «قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ». وإذا كان الحال كذلك «أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى». وتقول الآية في النهاية بلهجة التوبيخ والتفريع والملازمة: «فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

وفي آخر آية إشارة إلى المصدر الأساس والعامل الأصل لهذه الانحرافات وهو الأوهام والظنون «وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا».

وفي النهاية تخاطب الآية - بأسلوب التهديد - مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أي منطق سليم وتقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٤

إنَّ الآيات أعلاه تبين أنَّ من برامج الله الأصلية لعباده أن يهديهم إلى الحق، ويتم ذلك عن طريق منح العقل، وإعطاء الدروس المختلفة عن طريق الفطرة، وإرادة وإظهار آياته في عالم الخلق، وكذلك عن طريق إرسال الأنبياء والكتب السماوية.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرْبَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) عظمه دعوة القرآن وحقانيته: تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإنَّ هؤلاء لم يجانبوا الصواب في معرفة المبدأ وحسب، بل كانوا يفترون على نبي الخاتم صلى الله عليه وآله بأنه هو الذي اختلق القرآن ونسبه إلى الله، فالآية الأولى تقول:

«وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ثم تتطرق الآية إلى ذكر الدليل على أصالة القرآن وكونه وحياً سماوياً: فتقول «وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ». أي إنَّ كل البشارات والدلالات الحقة التي جاءت في الكتب السماوية السابقة تنطبق على القرآن ومن جاء به تماماً، وهذا بنفسه يثبت أنه ليس افتراءً على الله بل هو حق.

ثم تذكر الآية دليلاً آخر على أصالة هذا الوحي السماوي وهو: إنَّ في هذا القرآن شرح كتب الأنبياء السابقين الأصيلة، وبيان أحكامهم الأساسية وعقائدهم الأصولية، ولهذا فلاشك في كونه من الله تعالى، فتقول: «وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرْبَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وبتعبير آخر: لا يوجد فيه أي تضاد وتناقض مع برامج وأهداف الأنبياء السابقين، بل يلاحظ فيه تكامل تلك التعليمات والبرامج، وإذا كان هذا القرآن مختلفاً فلا بد أن يخالفها ويناقضها.

وذكر في الآية التالية دليل ثالث على أصالة القرآن، وخاطبت الذين يدعون أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قد افتري هذا القرآن على الله، بأنكم إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٥

مثله، واستعينوا في ذلك بمن شئتم غير الله، ولكنكم لا تستطيعون فعل ذلك أبداً، وبهذا الدليل يثبت أنَّ القرآن من وحي السماء «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».



إن هذه الآيات من جملة الآيات التي تبين إعجاز القرآن بصراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، وقد خاطبت كل العالمين - بدون استثناء - بأنكم إن كنتم معتقدين بأن هذه الآيات ليست من الله فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل. وفي الآية التالية إشارة إلى واحدة من العلل الأساسية لمخالفة المشركين، فتقول: إن هؤلاء لم ينكروا القرآن بسبب الإشكالات والإيرادات، بل إن تكذيبهم وإنكارهم إنما كان بسبب عدم اطلاعهم وعلمهم به: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ». فى الحقيقة لم يكن لهؤلاء أى دليل على نفي المبدأ والمعاد، وكان الجهل والتخلف الناشئ من الخرافات والتعود على مذهب الأجداد هو السد الوحيد فى طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهة.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعة.

أو الجهل بالدروس والعبر التي هى الهدف النهائى من ذكر تاريخ الماضين.

إن مجموع هذه الجهالات والضلالات كانت تحملهم على الإنكار والتكذيب، فى حين أن تأويل وتفسير وتحقق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم يبين بعد «وَلَمَّا يَا تِهِم تَأْوِيلُهُ».

«التأويل»: فى أصل اللغة بمعنى إرجاع الشئ وعلى هذا فإن كل عمل أو قول يصل إلى هدفه النهائى نقول عنه: إن تأويله قد حان وقته.

ثم يضيف القرآن مبيناً أن هذا المنهج الزائف لا ينحصر بمشركى عصر الجاهلية، بل إن الأقسام السابقين كانوا مبتلين أيضاً بهذه المسألة، فإنهم كانوا يكذبون الحقائق وينكرونها دون السعى لمعرفة الواقع، أو إنتظار تحققه: «كَذَّبَكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ». فى حين أن العقل والمنطق يحكمان بأنه لا ينبغى للانسان انكار ما يجله مطلقاً، بل يبدأ بالبحث والتحقيق.

وفى النهاية وجهت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وآله وقالت: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ». أى إن هؤلاء سيلاقون أيضاً نفس المصير.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٦

وأشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشركين، فتقول: إن هؤلاء لا يبقون جميعاً على هذا الحال، بل إن جماعة منهم لم تخمد فيهم روح البحث عن الحق وطلبه وسيؤمنون بالقرآن فى النهاية. فى حين أن الفئة الاخرى ستبقى فى عنادها وإصرارها وجهلها، وسوف لا تؤمن أبداً: «وَمِنْهُمْ مَّن يُّؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ».

ومن الواضح أن أفراد الفئة الثانية فاسدون ومفسدون، ولذلك قالت الآية فى النهاية:

«وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ». وهى إشارة إلى أن الذين لا- يذعنون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، ولهم دور مهم فى إفساده.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) تتابع هذه الآيات البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول إنكار وتكذيب المشركين، وإصرارهم على ذلك، فقد علّمت الآية الاولى النبى صلى الله عليه وآله طريقة جديدة فى المواجهة، فقالت: «وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ».

إن لإعلان الترفع وعدم الاهتمام هذا، والمقترن بالاعتماد والإيمان القاطع بالمذهب، أثراً نفسياً خاصاً، وبالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أى إجمار وإصرار على قبولهم الدعوة الإسلامية، بل إنهم بعدم تسليمهم أمام الحق سيحرمون

أنفسهم، ولا يضرّون إلّا أنفسهم.

وتشير الآياتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء وعدم إذعانهم للحق، وتبين أنّ التعليمات الصحيحة، والآيات المعجزة التي تهزّ الوجدان والدلالات الأخرى الواضحة لا تكفي بمفردها لهداية الإنسان، بل إنّ استعداد القبول ولياقة قبول الحق لازمة أيضاً، كما أنّ البذر لو حده ليس كافياً لإنبات النبات والأوراد، بل إنّ الأرض بدورها يجب أن تكون مستعدة. ولهذا قالت الآية: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٧

وهناك فئة ثانية يشخصون بأبصارهم إليك، وينظرون إلى أعمالك المتضمنة أحقيتك وصدق قولك، إلّا أنّهم عمى لا يبصرون: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ».

ولكنّ أعلم وليعلم هؤلاء أنّ قصور الفكر هذا، وعدم البصيرة والعمى عن رؤية وجه الحق، والصمم عن سماع كلام الله ليس شيئاً ذاتياً لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، وإنّ الله تعالى قد ظلمهم، بل إنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئة وعدائهم وعصيانهم للحق، وعطلوا بذلك عين بصيرتهم وأذن أفئدتهم عن سماع الحق وإتباعه، ف «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ». وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَمَّا يَظْلَمُونَ (٤٧) بعد بيان بعض صفات المشركين في الآيات السابقة، أشير هنا إلى وضعهم المؤلم في القيامة. تقول الآية: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ».

الاحساس بقله مقدار الإقامة في دار الدنيا وقصره، إمّا لأنّه بالنسبة للحياة الأخرى لا يبلغ سوى ساعة واحدة، أو لأنّ هذه الدنيا الفانية انقضت بسرعة بحيث كأنّها لم تكن أكثر من ساعة، أو لأنّهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفادة الصحيحة، فيتصورون أنّها لا تساوي أكثر من قيمة ساعة.

يستفاد من الآيتان (٥٥ و ٥٦) من سورة الروم، أنّ مجموعة من المجرمين يُقسمون في القيامة أنّ فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلّا أنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، والآن قد قامت القيامة وأنتم لا تعلمون، ونحن نعلم أنّ البرزخ ليس متساوياً بالنسبة للجميع، وسنذكر تفصيل ذلك في ذيل الآيات المناسبة.

ثم تضيف الآية أنّه سيثبت لكل هؤلاء في ذلك اليوم: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٨

اللّه». وأنفقوا كل ملكاتهم وطاقتهم الحيوية دون جدوى «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» بسبب هذا التكذيب والإنكار والإصرار على الذنب، ولأنّ قلوبهم وأرواحهم كانت مظلمة. وتقول الآية التالية تهديداً للكفار، وتسليّة لخاطر النبي صلى الله عليه وآله: «وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ».

وتبين الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث قانوناً كلياً في شأن كل الأنبياء، ومن جملتهم نبي الخاتم صلى الله عليه وآله، وكل الامم ومن جملتها الامّة التي كانت تحيا في عصر النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ». فإذا جاء رسولها وبلغ رسالته، وآمن قسم منهم وكفر آخرون، فإنّ الله سبحانه يقضى بينهم بعدله، ولا يظلم ربك أحداً، فيبقى المؤمنون والصالحون يتمتعون بالحياة، أمّا الكافرون فمصيرهم الفناء أو الهزيمة: «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَمَّا يَظْلَمُونَ».

وهذا ما حصل لنبي الخاتم صلى الله عليه وآله وامته المعاصرة له، وبناء على هذا فإنّ القضاء والحكم الذي ورد في هذه الآية هو القضاء التكويني في هذه الدنيا.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لِمَا أَمَلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا

يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَّا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آتِيكُمْ بِهِ آتَانٌ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) العذاب الإلهي واختيارات الرسول: بعد التهديدات التي ذكرت في الآيات السابقة المتعلقة بعذاب وعقاب منكري الحق، فإن هذه الآيات تنقل أولاً استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهي وسخريتهم وانكارهم. فتقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

فإن هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهروا عدم اهتمامهم بتهديدات النبي صلى الله عليه وآله.

وفي مقابل هذا السؤال، فإن الله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وآله أن يجيبهم بعدة طرق:

فيقول أولاً: «قُلْ لَأَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ». فإنني لست إلا رسوله ونبيه، وإن تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٩

إن هذه الجملة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شيء في هذا العالم بالله سبحانه، وكل الحركات والأفعال معلولة لإرادته ومشيته، فهو الذي ينصر المؤمنين بحكمته، وهو الذي يجازي المنحرفين بعدالته.

من البديهي أن ذلك لا ينافي أن الله قد أعطانا قوى وطاقات نملك بواسطتها جلب النفع ودفع الضرر، ونستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا.

ثم يتطرق القرآن إلى جواب آخر ويقول: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ».

إن القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهي بأن لا يعجلوا، فعندما يحل موعدهم فإن هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظة.

وتطرح الآية الأخرى الجواب الثالث، فتقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا».

فهل تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم هذا العذاب المفاجيء غير المرتقب؟ وإذا كان الحال كذلك ف «مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ».

وفي الآية التالية ورد جواب رابع لهؤلاء، فهي تقول: إذا كنتم تفكرون أن تؤمنوا حين نزول العذاب، وأن إيمانكم سيقبل منكم، فإن ظنكم هذا باطل لا صحته له: «أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آتِيكُمْ بِهِ». لأن أبواب التوبة ستغلق بوجوهكم بعد نزول العذاب، وليس للإيمان حينئذ أدنى أثر، بل يقال لكم: «إِن لَّكُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ».

هذا بالنسبة لعقاب هؤلاء الدنيوي، وفي الآخرة: «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ». فإن أعمالكم هي التي أخذت بأطرافكم، وهي التي تتجسد أمامكم وتؤذيكم على الدوام.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يَظْلَمُونَ (٥٤) أَلَمْ آتِ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) لا معنى للشك في العذاب الإلهي: كان البحث في الآيات السابقة عن جزاء وعقاب

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٠

المجرمين في هذه الدنيا والعالم الآخر، وتكمل هذه الآيات هذا البحث أيضاً. فالآية الأولى تقول: إن هؤلاء يسألونك بتعجب واستفهام عن حقيقة هذا الوعيد بالعذاب الإلهي في هذا العالم والعالم الآخر: «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ». ويأمر الله سبحانه نبيه أن يجيبهم على هذا السؤال بما أوتى من التأكيد: «قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ». وإذا ظننتم أنكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهي فأنتم على خطأ كبير:

«وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ».

وتؤكد الآية الاخرى على عظمة هذه العقوبة، وخاصة في القيامة، فتقول: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ».

إن هؤلاء مستعدون لأن يدفعوا أكبر رشوة يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضة العذاب الإلهي، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئاً، ولا ينقص من عذابهم مقدار رأس ابره، خاصة وأن لبعض هذه العقوبات صبغة معنوية، وهي أنهم: يرون العذاب والفضيحة في مقابل أتباعهم مما يوجب لهم اظهار الندم مزيداً من الخزي والعذاب النفسى فلذلك يحاولون عدم ابراز الندم: «وَأَسِرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ».

ثم تؤكد الآية على أنه بالرغم من كل ذلك، فإن الحكم بين هؤلاء يجرى بالعدل، ولا يظلم أحد منهم: «وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

ثم، ومن أجل أن لا يأخذ الناس هذه الوعود والتهديدات الإلهية مأخذ الهزل، ولكي لا يظنوا أن الله عاجز عن تنفيذ هذه الوعود، تضيف الآية: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». لأن جهلهم قد حجب بصيرتهم وجعل عليها غشاوة فلم يعوا الحقيقة.

وتؤكد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرة اخرى، حيث تقول: «هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ».

وبناء على ذلك فإن له القدرة على إمامة العباد، كما أن له القدرة على إحيائهم لمحكمة الآخرة، وفي النهاية: «وَالِلَّهِ تُرْجَعُونَ» وستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥١

القرآن رحمة إلهية كبرى: لقد جاءت في بعض الآيات السابقة بحوث في شأن القرآن عكست جوانب من مخالفات المشركين. وفي هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبة أيضاً، ففي البداية تخاطب جميع البشرية خطاباً عالمياً وشمولياً وتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ».

لقد بينت هذه الآية أربع صفات للقرآن وتشرح وتبين أربع مراحل من مراحل تربية وتكامل الإنسان في ظل القرآن: المرحلة الاولى: مرحلة الموعظة والنصيحة.

المرحلة الثانية: مرحلة تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقية.

المرحلة الثالثة: مرحلة الهداية التي تجرى بعد مرحلة التطهير.

المرحلة الرابعة: هي المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لائقاً لأن تشمله رحمة الله ونعمته.

وتقول الآية الاخرى من أجل تكميل هذا البحث والتأكيد على هذه النعمة الإلهية الكبرى - أي القرآن المجيد-: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» ولا يفرحوا بمقدار الثروات، وعظم المراكز، وعزة القوم والقبيلة، لأن رأس المال الحقيقي والأساس للسعادة الحقيقية هو هذا القرآن، فهو أفضل من كل ما جمعه، ولا يمكن قياسه بذلك المجموع، إذا «هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ».

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَ مَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصِغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) هو الشاهد في كل مكان: كان الحديث في الآيات السابقة عن القرآن، والموعظة الإلهية

والهداية والرحمة في هذا الكتاب السماوي، وتحدثت هذه الآيات عن قوانين المشركين

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٢

المبتدعة والخرافية وأحكامهم الكاذبة. الآية الاولى وجهت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وقالت: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا». إذ أنهم طبقاً لسننهم الخرافية حرّموا قسماً من الدواب وكذلك حرّموا جزءاً من محاصيلهم الزراعية. ثم تقول: «قُلْ آءَ اللَّهِ أذنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ».

الآن وقد أصبح من المسلم أن هؤلاء بهذه الأحكام الخرافية المبتدعة، إضافةً إلى أنهم حرّموا من النعم الإلهية، فإنهم قد افتروا على الساحة الإلهية المقدسة، ولذلك تضيف الآية:

«وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» ولذلك فإنه لسعة رحمته لا يعاقب هؤلاء فوراً على أعمالهم القبيحة.

إلا أن هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصة الإلهية ويشكروا الله على ذلك وينيبوا إليه، فإن أكثرهم غافلون: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ». وحتى لا يتصور أحد أن هذه المهلة الإلهية دليل على عدم إحاطة علم الله سبحانه بكل أعمال هؤلاء، فإن آخر آية من آيات البحث تبين هذه الحقيقة بأبلغ عبارة وتوضح أن الله مطلع على كل ذرات الموجودات في خفايا السماء والأرض، ومطلع على دقائق أعمال العباد، فتقول: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ».

ثم تعقب الآية على مسألة اطلاع الله على كل شيء بتأكيد أكبر، فتقول: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

«يعزب»: مأخوذة من العزوب، وهو في الأصل بمعنى الإبتعاد عن البيت والأهل في سبيل إيجاد وتهيئة المراتع للأغنام والحيوانات، ثم استعملت بمعنى الغيبة والإختفاء بصورة مطلقة.

و «الذرة»: بمعنى الجسم الصغير جداً، ولذلك يقال للنمل الصغير: ذرة، ولمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (٤٠) من سورة النساء. «الكتاب المبين» إشارة إلى علم الله الواسع، والذي يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

لقد بينت آخر هذه الآيات درساً كبيراً لكل المسلمين ... درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق ويصرفهم عن الإنحرافات والطرق الملتوية ... درس فيه صلاح المجتمع مع

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٣

التوجه اليه، وهو: إننا يجب أن نعي هذه الحقيقة، وهي أن كل خطوة نخطوها، وكل كلام نقوله، وكل فكرة نخطر في أذهاننا، ولأى جهة ننظر، وعلى أى حال نكون، فليس الله سبحانه وحده يراقبنا ونحن على هذه الأحوال والأفعال، بل إن ملائكته تراقبنا أيضاً، وينظرون إلينا بكل دقة وانتباه.

في المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً». فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله مع كل ذلك الإخلاص والعبودية، ومع كل تلك الخدمة للخلق والعبادة للخالق خائفاً من عمله في مقابل علم الله، فإن حالنا وحال الآخرين معلوم.

أَلَمْ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَلَمَّا يَخْرُجَنَّ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) طمأنينة الروح في ظل الإيمان: لَمَّا شرحت الآيات السابقة بعضاً من حالات المشركين والأفراد غير المؤمنين، بينت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون في الطرف المقابل لأولئك تماماً، تقول الآية أولاً: «أَلَمْ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». إن المقصود من الغموم هي الغموم المادية والأخاوية والدينية، وإلا فإن وجود أولياء الله مملوء بالخوف والخشية ... الخوف من عدم أداء الواجبات والمسؤولية.

والأسف والحسرة على أن يكون قد فاتهم شيء من الموفقية، ولهذا الخوف والحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان ورقته، بعكس الخوف والحزن الدنيويين فهما أساس الإنحطاط والتسافل.

إن أولياء الله هم الذين لا يوجد حاجب وحائل بينهم وبين الله، فقد زالت الحجب عن قلوبهم ويتقبلون في نور المعرفة والإيمان والعمل الخالص، ويرون الله بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشك أى طريق إلى تلك القلوب الوالهة، وبالنظر لهذه المعرفة بالله الأزلى والقدرة اللامحدودة والكمال المطلق، فإن كل شيء سوى الله حقير في نظرهم ولا قيمة له، وفان لا أهمية له.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٤

إن الآية الثانية وضحت المقصود من «أولياء الله» فهي تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وتؤكد الآية الثالثة على مسأله عدم وجود الخوف والغم والوحشه في شخصيه وقلوب اولياء الحق بهذه العبارة: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ».

ثم تضيف من أجل التأكيد أيضاً: «لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ». بل هي ثابتة حقه، وأن الله سبحانه سيني بما وعد به أولياءه، و «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وحول الآية الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله الذي يمثل رأس سلسله اولياء الله وأحباؤه مخاطبه له بلحن المواساة وتسليه خاطر: «وَلَمَّا يَخْرُجَنَّكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا». ولا يمكن أن يقوم العدو بعمل مقابل إرادة الحق، فإنه تعالى عالم بكل خططهم ودسائسهم. ف «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

أَلَمْ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَشْعُرُونَ (٦٧) جانب من آيات عظمتهم: تعود الآيات أعلاه مره اخرى إلى مسأله التوحيد والشرك والتي تعتبر واحده من أهم مباحث الإسلام، وبحوث هذه السورة، وتجز المشركين إلى المحاكمه وتثبت عجزهم. فتقول أولاً: «أَلَمْ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ». وإذا كان الأشخاص ملكه ومنه، فمن الاولى أن تكون الأشياء الموجوده في هذا العالم ملكه ومنه، وبناءً على هذه فإنه مالك كل عالم الوجود.

ثم تضيف الآية: «وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ». إذ لا دليل ولا برهان لهم على كلامهم «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

وأساساً، فإن إتباع الظن والحدس الذي لا يستند إلى أساس ثابت يجز الإنسان في النهايه إلى وادي الكذب عادة.

ثم ومن أجل إكمال هذا البحث، وتبين طرق معرفه الله، والإبتعاد عن الشرك وعباده

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٥

الأوثان، أشارت الآية الثانية إلى جانب من المواهب الإلهيه التي أودعت في نظام الخلقه والداله على عظمه وقدره وحكمه الله عز وجل، فقالت: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».

نعم «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَشْعُرُونَ». اولئك الذين يسمعون ويدركون، وبعد إدراك الحقيقه يتبعونها ويسيروا على نهجها. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَوْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَمَّا يُقْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) تستمر هذه الآيات - أيضاً - في بحثها مع المشركين، وتذكر واحده من أكاذيب واتهامات هؤلاء لساحه الله المقدسه، فتقول أولاً: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا».

إن هذا الكلام قاله المسيحيون في حق المسيح عليه السلام ثم عبده الأوثان في عصر الجاهليه في حق الملائكه، حيث كانوا يظنون أنها بنات الله، وقاله اليهود في شأن عزيز. ويجيبهم القرآن بطريقتين:

الأول: إنَّ الله سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص، وهو مستغن عن كل شيء: «سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ». وهذا إشارة إلى أنَّ الحاجة إلى الولد، إمَّا للحاجة الجسمية إلى قوته ومساعدته، أو للحاجة الروحية والعاطفية، ولما كان الله سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص وحاجة، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولداً.

«لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». ومع هذا الحال فأى معنى لأن يتخذ لنفسه ولداً ليطمئنه ويهدئه، أو يعينه ويساعده. والجواب الثانى الذى يذكره القرآن لهؤلاء هو: إنَّ من يدعى شيئاً يجب عليه أن يقيم دليلاً على مدعاه: «إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

وتعيد الآية التالية عاقبة الإفتراء على الله المشؤومة، فتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وآله وتقول: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٦

وعلى فرض أنَّ هؤلاء يستطيعون بافتراءاتهم وأكاذيبهم أن ينالوا المال والمقام لعدّة أيام، فإنَّ ذلك «مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ». إنَّ التعبير «نذيقهم» يشير إلى أنَّ هذا العذاب الذى سينال هؤلاء بدرجته من الشدّة بحيث كأنهم يذوقونه بألسنتهم وأفواههم، وهذا التعبير أبلغ جداً من المشاهدة، بل وحتى من لمس العذاب.

وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنَّا كَكِبَرٍ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) جانب من جهاد نوح: الآيات أعلاه بداية لبيان قسم من تاريخ الأنبياء، فإمر الله نبيه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تاريخ الماضين ليكون عبرة لهم. فى البداية تطرقت إلى قصة نوح، فقالت: «وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنَّا كَكِبَرٍ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ». ولهذا فإنى لا أخاف غيره.

ثم تضيف: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ». أى ادعوا أصنامكم أيضاً لتعينكم فى المشورة، حتى لا يبقى شيء خافياً على أحد ولا يتعرض منكم إلى الهم والغم أحد «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً». بل اتخذوا قراركم فى شأنى بكل وضوح. ثم يقول: «ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ».

وإذا علمنا أنَّ هذه الآيات نزلت فى مكّة فى الوقت الذى كان يعيش فيه النبى صلى الله عليه وآله ظروفاً تشبه ظروف نوح، وكان المؤمنون قلّة، سيّضح أنّ القرآن يريد أن يعطى للنبي - أيضاً - نفس هذا الدرس بأن لا يهتم بقدره العدو، بل يسير ويتقدم بكلّ حزم وجرأة وشجاعة، لأنَّ الله يسنده وينصره.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٧

وهذا درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا ولا ينهاروا أمام عظمة الأعداء وكثرتهم، بل إنهم باتكالمهم على الله كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان بكلّ حزم واقتدار ويستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملاً مهماً فى تقوية معنويات الأتباع والمؤيدين، وتدمير معنويات العدو وانهارها.

وذكرت الآية التالية بياناً آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيته، هناك حيث تقول:

«فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ»، فإنى أعمل له، ولا أريد الأجر إلا منه «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

إنَّ مقولة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهيين بأن لا يتوقعوا أى جزء مادي ومعنوي من الناس لقاء دعوتهم وتبليغهم، لأنَّ هذا التوقع يوجد نوعاً من التعلق النفسى الذى يؤدّى إلى عرقلة أساليب الدعوة الصريحة والنشاطات الحرة.

وتبين الآية الأخيرة عاقبة ومصير أعداء نوح، وصدق توقعه وقوله السابق بهذه الصورة: «فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ». ولم

ننقدهم وحسب، بل «وَجَعَلْنَا هُمْ خَلِيفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا».

وفى النهاية توجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وتقول: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ».

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) الرسل بعد نوح: بعد انتهاء البحث الإجمالى حول قصة نوح، أشارت هذه الآية إلى الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح وقبل موسى عليهما السلام لهداية الناس كإبراهيم وهود وصالح ولوط ويوسف عليهم السلام فقالت: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ».

فقد كانوا مسلحين كنوح بسلاح المنطق والإعجاز والبرامج البناءة، إلّا أنّ الذين سلكوا طريق العناد وكذبوا الأنبياء السابقين، كذبوا هؤلاء الأنبياء أيضاً ولم يؤمنوا بهم «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ». وكان ذلك نتيجة للعصيان والتمرد وعداء الحق الذى أوصد تلك القلوب «كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٨

جانب من جهاد موسى وهارون: لقد جرى ذكر قصص الأنبياء والامم السابقة كنماذج حيّة، وبدأ الحديث أولاً عن نوح عليه السلام ثم عن الأنبياء بعد نوح، ووصل الدور فى هذه الآيات إلى موسى وهارون عليهما السلام ومواجهاتهم المستمرة مع فرعون وأتباعه، فتقول الآية الاولى:

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا».

إلّا أنّ فرعون وأتباعه امتنعوا عن قبول دعوة موسى، وعن التسليم فى مقابل الحق:

«فَاسْتَكْبَرُوا». ونظراً للتكبر والاستعلاء وعدم امتلاكهم لروح التواضع فإنهم لم يلتفتوا إلى الحقائق الواضحة فى دعوة موسى، وأصروا واستمروا فى إجرامهم: «وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

وتتحدث الآية التالية عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسى وأخيه هارون، وأول تلك المراحل هى مرحلة الإنكار والتكذيب والإفتراء واتهامهما بسوء النية، وابطال سنن الأجداد، والإخلال بالنظام الاجتماعى، كما يقول القرآن: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ».

إلّا أنّ موسى عليه السلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار وأوضح كذب هؤلاء وأبطل تهمتهم، ففى البداية: «قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا».

صحيح أنّ لكل من السحر والمعجزة نفوذاً وتأثيراً، وأنّ من الممكن أن يؤثر الحق والباطل على ادراكات الناس ونفسياتهم، إلّا أنّ السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماماً عن المعجزة التى هى حق، إذ لا يمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء ونفوذ السحرة، فإن أعمال السحرة تفتقد إلى الهدفية ومحدودة ولا قيمة لها، ومعجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية وتغييرية وتربوية واضحة، وتعرض بشكل واسع وغير محدود.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٥٩

إضافه إلى أنه: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ». وهذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر.

إنّ السحرة لا يرون وجه الفلاح مطلقاً، ولا يعملون إلّا من أجل المال والثروة والمنصب والمنافع الشخصية، فى حين أنّ هدف الأنبياء هداية خلق الله وإصلاح المجتمع الإنسانى من جميع جوانبه المادية والمعنوية.

ثمّ يستمر فرعون وملئه فى رمى موسى عليه السلام بسبل الاتهامات الصريحة، حيث «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

الواقع، أنّهم قدموا صنم «سنه الآباء» وعظمتهم الخيالية والأسطورية حتى يوجهوا الرأى العام ضد موسى وهارون، بأنّهما يريدان أن يعبثا بمقدسات مجتمعكم وبلادكم.



ثم استمروا في هذا التشويه، وقالوا بأن دعوتكم إلى دين الله ما هي إلا كاذب محض، وكل هذه مصائد وخطط خيانية بهدف التسلط على الناس: «وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ».

إن هؤلاء لما كانوا يسعون دائماً من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أن الآخرين مثلهم، وهكذا كانوا يفسرون مساعي المصلحين والأنبياء.

«وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ» لأننا على علم بناوياكم وخططكم الهدامة.

وكانت هذه هي المرحلة الاولى من المواجهة السلبية مع موسى.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبِيطٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) المرحلة الثانية: فعندما لاحظ فرعون قسماً من معجزات موسى، كاليد البيضاء والحية العظيمة، ورأى أن ادعاء موسى ليس واهياً بدون دليل وبرهان، وأن هذا الدليل سيؤثر في جميع أنصاره أو الآخرين قليلاً أو كثيراً، ففكر بجواب عملي كما يقول القرآن: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ».

«فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ». فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ عَبَّوْا كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَدْرَةٍ، وَأَلْقَوْا كُلَّ مَا أَتَوْا بِهِ مَعَهُمْ فِي وَسْطِ الْحَلْبَةِ: «فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٠

بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبِيطٌ». فأنتم أفراد فاسدون ومفسدون لأنكم تخدمون حكومة جبارة وظالمة وتعملون على تقوية دعائم هذه الحكومة الغاشمة الدكتاتورية وهذا بنفسه أقوى دليل على كونكم مفسدين، و «إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ».

وفي الآية الأخيرة، إن موسى قال لهؤلاء: إن النصر والغلب لنا في هذه المباراة حتماً، لأن الله سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، ومعجزات أنبيائه القاهرة، ويفضح ويخزي المفسدين وأهل الباطل وإن كره المجرمون ذلك: «وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَوَلَّتِهِمْ أَنْ يُفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) المرحلة الثالثة: عكست هذه الآيات مرحلة اخرى من المواجهة الثورية بين موسى وفرعون، ففي البداية تبين وضع المؤمنين فتقول: «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ».

إن هذه المجموعة الصغيرة القليلة، والتي كان الشباب والأشبال يشكلون أكثريتها بمقتضى ظاهر كلمة ذرية، كانت تواجه ضغوطاً شديدة من فرعون وأتباعه إلى درجة أنهم خافوا أن يصل بهم الأمر إلى ترك دين موسى نتيجة هذه الضغوط الشديدة: «عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِمْ أَنْ يُفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ».

فقد حدث موسى هؤلاء بلسان المحبة والمودة من أجل تهدئة خواطرهم وتسكين قلوبهم: «وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ».

إن حقيقة التوكل هي إلقاء العمل والتصرف في الامور على كاهل الوكيل، وليس معنى التوكل أن يترك الإنسان الجهد والسعي، بل معناه أن يبذل قصارى جهده، فإذا لم يستطع أن يحل المشكلة فلا يدع للخوف طريقاً إلى نفسه، بل يصمد أمامها بالتوكل والإعتماد على لطف الله والاستعانة بذاته المقدسة وقدرته اللامتناهية، ويستمر في جهاده المتواصل.

إن هؤلاء المؤمنين المخلصين أجابوا دعوة موسى بالتوكل: «فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا». ثم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦١

رجوا من الله سبحانه أن ينجيهم من شر الأعداء ووساوسهم وضغوطهم ويؤمنهم: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ

مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ يَبُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّنَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرْوُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) المرحلة الرابعة: مرحلة البناء من أجل الثورة: شرحت هذه الآيات مرحلة اخرى من نهضة وثورة بنى إسرائيل ضد الفراعنة. فتقول أولاً: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ يَبُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً». فالأمر الإلهي يقرر اختيار البيوت لبنى اسرائيل بمصر وأن تكون هذه البيوت متقاربة ومتقابلة.

ثم تطرقت إلى مسألة تربية النفس معنوياً وروحياً، فقالت: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ». ومن أجل أن تترد آثار الخوف والرعب من قلوب هؤلاء وتعيد وتزيد من قدرتهم المعنوية والثورية قالت: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

يستفاد من مجموع هذه الآيه أن بنى إسرائيل كانوا فى تلك الفترة بصورة جماعة متشتته مهزومه ومتطفلة وملوثة وخائفه، فلا ماوى لهم ولا اجتماع مركزى.

لذلك فإن موسى وأخاه هارون قد تلقوا مهمه وضع برنامج فى عدّه نقاط من أجل تطهير مجتمع بنى إسرائيل، وخاصة فى الجانب الروحى:

١- الإهتمام أولاً بمسألة بناء المساكن، وعزل مساكنهم عن الفراعنة.

٢- أن يبنوا بيوتهم متقاربة ويقابل بعضها الآخر.

٣- التوجه إلى العبادة، وخاصة الصلاة التى تحرر الإنسان من عبودية العباد.

الملفت للنظر أن بنى إسرائيل من أولاد يعقوب، وجماعه منهم من أولاد يوسف طبعاً، وقد حكم هو واخوته مصر سنين طويله، وسعوا فى عمران هذا الوطن، إلا أنه نتيجة لتركهم طاعه الله والغفلة والخلافات الداخليه وصلوا إلى مثل هذا الوضع المأساوى.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَيْدُوا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَمَّا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلَا إِنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لِعَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٢

ثم أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون وأزلامه، فتقول على لسان موسى: «وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ».

إنّ اللام فى «ليضلوا» لام العاقبه، أى إن جماعه الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شأوا أم أبوا، وسوف لا تكون عاقبه أمرهم شيئاً غير هذا، لأنّ دعوة الأنبياء والأطروحات الإلهيه توقف الناس وتوحدهم وبذلك لا يبقى مجال لتسلط الظالمين وكيد المعتدين وستضيق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بداً من معارضة الانبياء. ثم يطلب موسى عليه السلام من الله طلباً فيقول: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ».

«الطمس»: فى اللغة بمعنى المحو وسلب خواص الشىء، واللطيف فى الأمر أن ماورد فى بعض الروايات من أن أموال الفراعنة قد أصبحت خزفاً وحجراً بعد هذه اللعنه، ربّما كان كناية عن أن التدهور الاقتصادى قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمه ثرواتهم تماماً وأصبحت كالحزف لا قيمه لها!

ثم اضافت: «وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ». أى: أسلبهم قدره التفكير والتدبر أيضاً لأنهم بفقدانهم هاتين الدعامتين (المال والفكر) سيكونون

على حافة الزوال والفناء، وسينفتح أمامنا طريق الثورة، وتوجيه الضربه النهائية لهؤلاء.

اللهم إن كنت قد طلبت ذلك منك في حق الفراعنة فليس ذلك نابغاً من روح الإنتقام والحقد بل لأن هؤلاء قد فقدوا أرضية الإيمان أبداً: «فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

ثم خاطب الله سبحانه وتعالى موسى وأخاه بأنه: الآن وقد أصبحتما مستعدين لتربية وبناء قوم بنى إسرائيل «قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا» في سبيل الله ولا تخافا سيل المشاكل، وكونا حازمين في أعمالكما ولا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرا في برنامجكما الثورى «وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٣

الفصل الأخير من المجابهة مع الظالمين: هذه الآيات جسدت آخر مرحلة من المواجهة بين بنى إسرائيل والفراعنة وبيئت مصير هؤلاء في عبارات قصيرة، فتقول أولاً:

إننا جاوزنا بنى إسرائيل البحر- وهو نهر النيل العظيم أطلق عليه اسم البحر لعظمته- أثناء مواجهتهم للفراعنة، وعندما كانوا تحت ضغط ومطاردة هؤلاء: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ». إلا أن فرعون وجنوده طاردوا هؤلاء من أجل القضاء على بنى إسرائيل:

«فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَيْدًا». «البغي»: يعنى الظلم، «والعدو»: بمعنى التعدى، أى إن هؤلاء إنما طاردوهم وتعقبوهم لغرض الظلم والتعدى عليهم، أى على بنى إسرائيل.

جملة «فأتبعهم» توحى بأن فرعون وجنوده قد تبعوا بنى إسرائيل طوعاً.

فإن هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الغرق، وأصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج وتلهو به، فعنداك زالت حجب الغرور والجهل من أمام عينه، وسطع نور التوحيد الفطرى وصدع بالإيمان: «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَأِلهِ إِلَّا الَّذِى ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ». فلست مؤمناً بقلبي فقط، بل إنى من المسلمين عملياً: «وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

ولما تحققت تنبؤات موسى عليه السلام الواحدة تلو الاخرى وأدرك فرعون صدق هذا النبى الكبير أكثر فأكثر وشاهد قدرته وقوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه رب بنى إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة ولذلك يقول: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل!

إلما أن من البديهي أن مثل هذا الإيمان الذى يتجلى عند نزول البلاء ونشوب أظفار الموت، إيمان اضطرارى يتشبث به كل جان ومجرم ومذنب وليست له أية قيمة، أو يكون دليلاً على حسن نيته أو صدق قوله، ولهذا فإن الله سبحانه خاطبه فقال: «ءالنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

لكن «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً». آية للحكام المستكبرين ولكل الظالمين والمفسدين، وآية للفئات المستضعفة. والمراد من البدن هنا، جسد فرعون الذى فارقه الروح، لأن عظمته فرعون فى أفكار الناس فى ذلك المحيط بلغت حداً بحيث إن الكثير لولا- ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، وكان من الممكن أن تنسج الأساطير والخرافات الكاذبة حول نجاة وحياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى الله سبحانه جسده خارج الماء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٤

ويقول فى نهاية الآية: إنه وبالرغم من كل هذه الآيات والدلالات على قدرة الله، ومع كل الدروس والعبر التى ملأت تاريخ البشر فإن الكثير معرضون عنها «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ». وتبين آخر آية من هذه الآيات النصر النهائى لبنى إسرائيل، والرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ».

إن التعبير «مَبُوءًا صِدْقٍ» يمكن أن يكون إشارة إلى أرض مصر، أم أراضى الشام وفلسطين.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ». إلا أن هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ». وبعد

مشاهدة كل تلك المعجزات التي جاء بها موسى، وأدله صدق دعوته، إلاً «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». وإذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غداً.

فَبِإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) لا- تدع للشك طريقاً إلى نفسك: لما كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضى الأنبياء والامم السابقة، وكان من الممكن أن يشكك بعض المشركين ومنكرى دعوة النبي صلى الله عليه وآله في صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد والعلم بصحة هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك، لأن كثيراً من هذه المسائل قد ورد في كتب هؤلاء. إلاً أنه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النبي صلى الله عليه وآله فقال: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ». ليثبت عن هذا الطريق بأنه: «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ». ثم تضيف الآية التالية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» من بعد ما اتضحت لك آيات الله وصدق هذه الدعوة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٥

إِنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ تَقُولُ بِأَنَّكَ إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ فَاسْأَلِ أَوْلِيَاءَكَ الْمَطْلُوعِينَ الْعَالَمِينَ، وتقول هذه الآية بأنك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، وإلاً فإن مخالفة الحق لا عاقبة لها إلاً الخسران. ثم أنها تخبر النبي صلى الله عليه وآله بأن من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، وتوغّلوا في طريق الباطل إلى الحد الذي فقدوا معه الضمير الإنساني الحي تماماً، وتحولوا إلى موجودات لا يمكن اختراقها، غاية ما في الأمر أن القرآن الكريم يبين هذا الموضوع بهذا التعبير: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ». وحتى إذا جاءتهم كل الآيات والدلالات فإنهم لا يؤمنون: «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» ولا أثر لإيمانهم في ذلك الوقت.

فَلَوْ لَمَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنْسَى لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) الآيَةُ الَّتِي آمَنَتْ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ: تحدثت الآيات السابقة عن فرعون خاصة، والأقوام السابقة بصورة عامة، وهي أن هؤلاء امتنعوا من الإيمان بالله في وقت الاختيار والسلامة، إلاً أنهم لما أشرفوا على الموت والعذاب الإلهي أظهروا الإيمان الذي لم يكن نافعاً لهم آنذاك. وتطرح الآية التي نبهتها هذه المسألة كقانون عام، فتقول: «فَلَوْ لَمَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا». ثم استثنت قوم يونس فقالت: «إِلَّا قَوْمٌ يُنْسَى لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ». أي إلى آخر عمرهم. قصة إيمان قوم يونس: كانت قصته هؤلاء على ما جاء في التواريخ، أنه عندما ينس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى في العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، في حين أن عالماً كان معهم أيضاً اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، وأن يستمر في إرشاده أكثر من قبل ولا يبأس.

يونس عليه السلام اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاغتنم هؤلاء الفرصة وعملوا بنصيحة العالم وخرجوا معه خارج المدينة للتضرع والدعاء، وأظهروا الإيمان والتوبة.

إِنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ وَالْإِيمَانَ وَالرَّجُوعَ إِلَى اللَّهِ، الَّذِي تَمَّ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ وَعَنْ وَعَى مَقْتَرِن

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٦

بالإخلاص قد أثر أثره، وارتفعت علامات العذاب وعادت المياه إلى مجاريها، ولما رجع يونس إلى قومه بعد أحداث ووقائع كثيرة وقعت له قبله بأرواحهم وقلوبهم. ثم إن القصة أعلاه تبين بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعي الرشيد الحريص في القوم أو الأمة،

في حين أن العابد الذي لا يمتلك الوعي الكافي يعتمد على الخشونة أكثر، وهكذا يفهم من هذه الرواية منطق الإسلام في المقارنة بين العبادة الجاهلة، والعلم الممتزج بالاحساس بالمسؤولية.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَمَّا يَعْقِلُونَ (١٠٠) لا- خير في الإيمان الإجباري: لقد طالعنا في الآيات السابقة أن الإيمان الاضطرارى لا يجدى نفعاً أبداً، ولهذا فإن الآية الاولى من هذه الآيات تقول: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً». وبناء على هذا فلا يعترض قلبك ألماً لعدم إيمان جماعة من هؤلاء، فإن من مستلزمات أصل حرية الإرادة والاختيار أن يؤمن جماعة ويكفر آخرون، وإذا كان الأمر كذلك «أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

إن هذه الآية تنفى بصراحة مرة أخرى التهمة الباطلة التي قالها ويقولها أعداء الإسلام بصورة مكررة، حيث يقولون: إن الإسلام دين السيف، وقد فرض بالقوة والإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآية- ككثير من آيات القرآن الاخرى- بأن الإيمان الإجباري لا قيمة له، والدين والإيمان شيء ينبع عادة من أعماق الروح، لا من الخارج وبواسطة السيف، خاصة وأنها حذرت النبي صلى الله عليه وآله من إكراه وإجبار الناس على الإيمان والإسلام.

الآية التالية قد ذكرت هذه الحقيقة أيضاً، وهي أن البشر وإن كانوا أحراراً في اختيارهم، إلا أنه «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» ولهذا فإن هؤلاء قد ساروا في طريق الجهل وعدم التعقل، ولم يكونوا مستعدين للاستفادة من رأس مال فكرهم وعقلهم، وسوف لا يوفقون للإيمان وهم على هذا الحال، إذ «وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٧

قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) الموعظة والنصيحة: كان الكلام في الآيات السابقة عن أن الإيمان يجب أن يكون اختيارياً لا بالجبر والاكراه، ولهذا فإن الآية الاولى هنا ترشد الناس إلى الإيمان الاختياري، وتخاطب النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

إن هذه الجملة تنفى بوضوح مسألة الجبر وسلب حرية الإرادة، فهي تقول: إن الإيمان هو نتيجة التدبر في عالم الخلق، أي إن هذا الأمر في اختياركم.

ثم تضيف أنه رغم كل هذه الآيات والعلامات الدالة على الحق، فلا داعي للعجب من عدم إيمان البعض، لأن الآيات والدلالات والإنذارات تنفع الذين لهم الاستعداد لتقبل الحق، أما هؤلاء فإنه «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» (١).

ثم تقول- بنبرة التهديد المتلبسة بلباس السؤال والاستفهام-: هل ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون إلا أن يروا مصيراً كمصير الأقوام الطغاة والمتمردين السابقين الذين عمهم العقاب الإلهي، مصير كمصير الفراعنة والنماردة وشداد وأعوانهم وأنصارهم؟! «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ».

وتحذركم الآية أخيراً فتقول: يا أيها النبي «قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ».

فأنتم بانتظار هزيمة دعوة الحق، ونحن بانتظار المصير المشؤوم الذي ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

ومن أجل أن لا يتوهم متوهم أن الله سبحانه يصيب بعذابه الصالح والطالح، تضيف الآية: إننا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب على الأمم السابقة، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحين: «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا».

(١) «نذر»: جمع نذير، أي المنذر، وهو كناية عن الأنبياء والقادة الإلهيين أو هي جمع إنذار، بمعنى تحذير وتهديد الغافلين والمجرمين الذي هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٨

ثم تقول في النهاية: إن هذا ليس مختصاً بالامم السالفة والرسول والمؤمنين الماضين، بل «كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ». قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسَّ شَكَّ اللَّهِ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) الحزم في التعامل مع المشركين: هذه الآيات والآيات التي تليها، هي آخر آيات هذه السورة، وتتحدث جميعاً حول مسألة التوحيد ومحاربة الشرك والدعوة إلى الحق، وهي فهرست أو خلاصة لبحوث التوحيد وتأكيد على محاربه ومجابهة عبادة الأصنام التي بينت مراراً في هذه السورة.

إن سياق الآية يوحى بأن المشركين كانوا يتوهمون أحياناً أن من الممكن أن يلين النبي ويتسامح في عقيدته في شأن الأصنام ويعترف ويقر لهم عبادة الأصنام ولو جزئياً إلى جانب الاعتقاد بالله بنحو من الانحاء. إلا أن القرآن ينسف هذا التوهم الواهي بصورة قاطعة وحاسمة ويقطع عليهم احلامهم هذه إلى الأبد، فلا معنى لأي نوع من المساومة واللين في مقابل الأصنام، ولا معبود إلا الله، لا تزيد كلمته ولا- تنقص أخرى. ففي البداية يأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يخاطب جميع الناس: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» ولا تكتفى الآية بنفى آلهة اولئك، بل تثبت كل العبادة لله سبحانه زيادة في التأكيد فتقول: «وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ». ومن أجل تأكيد أكبر تضيف: أن هذه ليست إرادتي فقط، بل «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». وبعد أن بينت الآية العقيدة الحقة في نفى الشرك وعبادة الأوثان بكل صراحة وقوة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة، ودليل من العقل:

«وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» وهنا أيضاً لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفى الطرف

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٩

المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

«الحنيف»: تعني الشخص الذي يميل ويتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب والاستقامة.

وبعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطري، تشير إلى دليل عقلي واضح، فتقول:

«وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ». إذ تكون قد ظلمت نفسك ومجتمعك الذي تعيش فيه.

وهنا أيضاً لم تكتف الآية بجانب النفي، بل إنها تؤكد إضافة إلى النفي على جانب الإثبات فتقول: «وَإِنْ يَمَسَّ شَكَّ اللَّهِ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ»، وكذلك «وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» لأن عفوه ورحمته وسعت كل شيء «وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) الكلمة الأخيرة: هاتين الآيتين تضمنت إحداهما موعظة ونصيحة لعامة الناس، واختصت الثانية بالنبي صلى الله عليه وآله وقد كملتا الأوامر والتعليمات التي بينها الله سبحانه على مدى هذه السورة ومواضعها المختلفة. وبذلك تنتهي سورة يونس. فتقول أولاً، وكقانون عام:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ». هذه التعليمات وهذا الكتاب السماوي، وهذا الدين وهذا النبي كلها حق، والأدلة على كونها حقاً واضحة، وبملاحظة هذه الحقيقة: «فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ». أى إنى لست مأموراً بإجباركم على قبول الحق، لأن الإجماع على قبول الإيمان لا معنى له، ولا أستطيع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا أن

أدفع عنكم العذاب الإلهي، بل إن واجبي ومسؤوليتي هي الدعوة والإبلاغ والإرشاد والهداية والقيادة. ثم تبين وظيفة وواجب النبي صلى الله عليه وآله في جملتين: الأولى «وَاتَّبَعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ». فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَدَّدَ مَسِيرَكَ مِنْ خِلَالِ الْوَحْيِ، وَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَنْحَرِفَ عَنْهُ قِيدَ أَنْمَلَةٍ.

والثانية: إنه ستعرضك في هذا الطريق مشاكل مضيئة ومصعب جمه، فلا تدع للخوف مختصر الامثال، ج ٢، ص: ٣٧٠

من سيل المشاكل إلى نفسك طريقاً، بل «وَأَضْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». فَإِنَّ أَمْرَهُ حَقٌّ، وَحُكْمُهُ عَدْلٌ، وَوَعْدُهُ مُتَحَقِّقٌ لَا مَحَالَةَ.

«نهاية تفسير سورة يونس»

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ٣٧١

## ١١. سورة هود

محتوى السورة: إن هذه السورة بأكملها نزلت بمكة ... وطبقاً لما ورد في «تاريخ القرآن» أنها السورة التاسعة والأربعون في ترتيب السور النازلة على المرسل صلى الله عليه وآله.

ونزلت في السنوات الأخيرة التي قضاها النبي صلى الله عليه وآله بمكة، أى بعد وفاة عمه أبى طالب عليه السلام وزوجته خديجة عليها السلام ... وبطبيعة الحال فإن هذه السورة جاءت في فترة من أشد الفترات صعوبة في حياة النبي صلى الله عليه وآله ولذلك يلاحظ في بداية السورة تعابير فيها جانب من التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وللمؤمنين.

ويشكل القسم المهم والعمدة من آيات هذه السورة قصص الأنبياء الماضين وخاصة قصة نوح النبي عليه السلام الذى انتصر بالفئة القليلة التى معه على الأعداء الكثيرين.

إن سرد هذه القصص فيه تسلية لخاطر النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين معه وهم أمام الكم الهائل من الأعداء، كما أن فيه درساً لمخالفهم من الأعداء.

إن آيات هذه السورة- كسائر السور المكية- تتناول أصول المعارف الإسلامية ولا سيما المواجهة مع الشرك وعبادة الأصنام، ومسألة المعاد والعالم بعد الموت، وصدق دعوة النبي.

فى هذه السورة- إضافة إلى قصة نوح النبي- إشارة إلى قصص الأنبياء هود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام ومواقفهم الشجاعة بوجه الشرك والكفر والانحراف والظلم.

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ٣٧٢

شيتنى سورة هود: إن آيات هذه السورة تقرر أن على المسلمين أن لا يتركوا السوح والميادين- فى الحرب والسلم- لكثرة الأعداء ومواجهاتهم الحادة، بل عليهم أن يواصلوا مسيرتهم ويستقيموا أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم.

وعلى هذا فإننا نقرأ فى الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «شيتنى هود وأخواتها».

إن هذه السورة فيها آيات مؤثرة أخرى تتعلق بيوم القيامة والمحاسبة فى محكمة العدل الإلهي، وآيات تتعلق بما ناله الأقبام السابقون من جزاء، وما جاء مع بعضها من أوامر فى الوقوف بوجه الفساد بحيث يحمل جميعها طابع المسؤولية ... فلا عجب إذاً أن يشيب الإنسان عندما يفكر فى مثل هذه المسؤوليات ...

مسألة دقيقة أخرى ينبغى الالتفات إليها فى هذا المجال، وهى أن كثيراً من هذه الآيات تؤكد ما ورد فى السورة السابقة- أى سورة يونس.

التأثير المعنوي لهذه السورة: في تفسير البرهان عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قرأ هذه السورة اعطى من الأجر والثواب بعدد من صدق هوداً والأنبياء عليهم السلام ومن كذب بهم وكان يوم القيامة في درجة الشهداء وحوسب حساباً يسيراً».

ومن الواضح بمكان أن مجرد التلاوة لا يعطى هذا الأثر، وإنما يكون هذا الأثر إذا كانت تلاوة هذه السورة مقرونة بالتفكير والعمل بعدها. وهذا هو الذي يقرب الإنسان إلى المؤمنين السالفين ويبعده عن الذين أنكروا على الأنبياء ووجدوا دعواتهم.

الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَىٰ اللَّهٍ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) الاصول الأربعة في دعوة الأنبياء: تبدأ هذه السورة ببيان أهمية الكتاب العزيز المنزل من السماء، ليلتفت الناس إلى محتوياته أكثر ويفكروا فيه بنظرة أدق. وذكر الحروف المقطعة «الر» - نفسه - دليل على أهمية هذا الكتاب السماوي العزيز الذي يتشكل من حروف

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٣

بسيطة معروفة للجميع مثل الألف واللام والراء مع ما فيه من عظمة وإعجاز بالغين، ثم يبين بعد هذه الحروف المقطعة واحدة من خصائص القرآن الكريم في جملتين.

أولاً: إن جميع آياته متقنة ومحكمة «كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ». و ثانياً: إن تفصيل حاجات الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية - مادية كانت أو معنوية - مبين فيها أيضاً «ثُمَّ فَضَّلْتُ».

هذا الكتاب العظيم مع هذه الخصيصة، من أين انزل، وكيف؟! انزل من عند رب حكيم وخبير «مِن لَّدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ». فبمقتضى حكمته احكمت آيات القرآن، وبمقتضى أنه خبير مطلع بين آيات القرآن في مجالات مختلفه طبقاً لحاجات الإنسان. إن كل واحدة من صفات القرآن التي جاءت في هذه الآية تسترشد من واحدة من صفات الله ... فاستحكام القرآن من حكمته، وشرحه وتفصيله من خبرته.

إن القرآن مجموعة واحدة مترابطة كالبيان المرصوص الثابت، كما تدل على أنه نازل من إله فرد، ولهذا فلا يوجد أي تضاد في آياته، ولا يرى بينها أي اختلاف.

وفي الآية التالية يبين أهم ما يحتويه القرآن وما هو أساسه وهو التوحيد والوقوف بوجه الشرك «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ».

والثاني من محتويات الدعوة السماوية: «إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ». نذير لكم من الظلم والفساد والشرك والكفر، واحذركم من عنادكم وعقاب الله لكم!

وثالث ما في منهج دعوتي إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم وتطهروا أنفسكم من الأدران: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ».

ورابعها هو أن تعودوا إلى الله بالتوبة، وأن تتصفوا - بعد غسل الذنوب والتطهر في ظل الاستغفار - بصفات الله، فإن العودة إليه تعالى لا تعنى إلا الإقتباس من صفاته «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ».

ثم تبين الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو التالي «يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى». فاذا عملنا بهذه الاصول فإن الله سبحانه يهبنا حياة سعيدة إلى نهاية العمر، وفوق كل ذلك فإن كلاً يعطى بمقدار عمله ولا يهمل التفاوت والتفاضل بين الناس في كيفية العمل بهذه الأصول ... «وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ». وأما في صورة المخالفة والعناد فتقول الآية: «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ». حين تمثلون للوقوف في محكمه العدل الإلهي.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٤

واعلموا أن «إِلَىٰ اللَّهٍ مَرْجِعُكُمْ» كائنا من كنتم، وفي أي محل ومقام أنتم، وهذه الجملة تشير إلى الأصل الخامس من الأصول التفصيلية للقرآن وهي مسألة «المعاد والبعث» ولكن لا تتصوروا أنه لا يستطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعد الموت ويكسوها ثوباً جديداً من



الحياة ... «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أَلَمْ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَمْ حِينِ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) هذه الآية تشير- على العموم- إلى أحد الأساليب الحمقاء التي كان يتبعها أعداء الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله وذلك بالاستفادة من طريقة النفاق والإبتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم وماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعو قول الحق. لذلك فإن الآية تقول: «أَلَمْ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ».

«يثنون»: مشيرة إلى كل عمل خفى- ظاهري وباطني- قام به أعداء النبي صلى الله عليه وآله. لذلك فإن القرآن يعقب مباشرة: أن أحذروهم، فإنهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإن الله يعلم ما يخفون وما يعلنون ... «أَلَمْ حِينِ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) جميع الأحياء ضيوف مآدبته: الآية السابقة أشارت إلى سعة علم الله وإحاطته بالسر وما يخفون وما يعلنون، والآية محل البحث تُعدّ دليلاً على تلك الآية المتقدمة، فإنها تتحدث عن الرزق لجميع الموجودات ولا يمكن يتم ذلك إلا بالإحاطة الكاملة بجميع العالم وما فيه.

تقول الآية «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا».

ويعلم تقلبها وتنقلها من مكان لآخر، وحيثما كانت فإن الرزق يصل إليها منه.

وهذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة في كتاب مبين ولوح محفوظ في علم الله «كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٥

ملاحظات

١- بالرغم من أن كلمة «دَابَّةٍ» مشتقة من مادة «ديب» التي تعنى السير ببطء وبخطى قصيرة، ولكنها من الناحية اللغوية تشمل كل حيوان يتحرك في سيره ببطء أو بسرعة.

٢- «الرزق»: هو العطاء المستمر، ومن هنا كان عطاء الله المستمر للموجودات رزقاً.

٣- «المستقر»: تعنى المقر، لأن جذر هذه الكلمة فى اللغة مأخوذ من «قر» على وزن «حر» وتعنى كلمة القرّ البرد الشديد الذى يجعل الإنسان والموجودات الاخرى يركنون إلى بيوتهم، ومن هنا جاءت بمعنى التوقف والسكون أيضاً. و «المستودع» و «الوديعة»: من مادة واحدة، وهاتان الكلمتان فى الأصل تعنيان «إطلاق الشيء وتركه».

٤- «الكتاب المبين»: معناه المكتوب الواضح البين، ويشير إلى علم الله الواسع، وقد يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ أيضاً. تقسيم الأرزاق والسعى من أجل الحياة: طريقة إيصال الرزق من الله تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومحيرة حقاً. من الجنين الذى يعيش فى بطن أمه ولا يعلم أحد من أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفة التى تعيش فى طيات الأرض، وفى الأشجار وعلى قمم الجبال أو فى أعماق البحر، وفى الأصداف ... جميع هذه الموجودات يتكفل الله برزقها ولا تخفى على علمه، وكما يقول القرآن: «عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا».

الطريف فى الآيات آنفة الذكر أنها تعبّر عن الموجودات التى تطلب الرزق ب «الدابّة» وفيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و «الحركة». ونعلم أنه حيثما تكن حركة فلا بد لها من طاقة، أى ما يكون منشأً للحركة.

وفى جواب السؤال هل أن رزق كل أحد مقدر ومعين من أول عمره إلى آخره، وهل أنه يصل إليه شاء أم أبى

نقول: إن رزق كل أحد مقدر وثابت، إلا أنه مشروط بالسعى والجد، وإذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط.

المسألة المهمّة فى هذا المجال أن الآيات والزوايات المتعلقة بتقدير الرزق- فى الواقع- بمثابة الكابح للاشخاص الحريصين وعباد

الدنيا الذين يلجون كل باب، ويرتكبون أنواع الظلم والجنايات، ويتصورون أنهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمنوا حياتهم!

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٦

إن آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألا يمدوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، بل يكفي أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، والله سبحانه يضمن لهم الرزق. وبالطبع أن بعض الأرزاق مثل نور الشمس والمطر والعقل والفكر والاستعداد تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع.

ولكن هذه المواهب إذا لم نحافظ عليها بالجد والسعى بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنها ستبقى بلا أثر! إن النقطة الأساسية هنا أن جميع التعاليم الإسلامية تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحي الحياة المادية والمعنوية، وأن الفرار من العمل - بزعم أن الرزق مقسوم وأنه آت لا محالة - غير صحيح ...

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) الهدف من الخلق: في هذه الآية بُحِثت ثلاث نقاط أساسية: المطلب الأول: يبحث عن خلق عالم الوجود - وخصوصاً بداية الخلق - الذي يدل على قدرة الله وعظمته سبحانه «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ».

إن المقصود من كلمة «اليوم» هو الزمان، سواء كان قصيراً أو مديداً جداً بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلاً، وقد تبهنا على هذا المعنى في ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف بشرح واف في هذا المجال، فلا حاجة للتكرار والإعادة. ثم يضيف سبحانه أن عرشه كان على الماء «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

«العرش»: في الأصل يعنى السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرة العالية كأسرة الملوك والسلاطين الماضين، ويطلق أيضاً على خشب بعض الأشجار، وغير ذلك.

ولكن هذه الكلمة استعملت بمعنى القدرة أيضاً ويقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدرة كما يقال «ثُلَّ عرش فلان» كناية عن ذهاب قدرته. كما ينبغي الالتفات إلى هذه الدقيقة، وهي أن العرش يطلق أحياناً على عالم الوجود، لأن عرش قدرة الله يستوعب جميع هذا العالم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٧

إنه في بداية الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغايه، بحيث كانت على صورة مواد ذائبة أو مائعة». وبعدئذ حدثت اهتزازات شديدة وانفجارات عظيمة في هذه المواد المتراكمة الذائبة، وأخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، وأخذ هذا الوجود المترابط بالانفصال، ثم تشكلت بعد ذلك الكواكب السيارة والمنظومات الشمسية والأجرام السماوية.

فعلى هذا نقول: إن عالم الوجود ومركزات قدرة الله كانت مستقره بادية الأمر على المواد المتراكمة الذائبة.

والمطلب الثاني: الذي تشير إليه الآية أنه الذكر هو الهدف من خلق الكون، والقسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الذي يمثل ذروة الخلائق ... هذا الإنسان الذي كتب عليه أن يسير في طريق التعليم والتربية ويشق طريق التكامل نحو الله تعالى. يقول الله سبحانه: «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا». أى ليختبركم ويمتحنكم أيكم الأفضل والأحسن عملاً بهذه الدار الدنيا.

«ليلوكم»: كلمة مشتقة من مادة «البلاء» و«الإبتلاء» ومعناها الاختبار والامتحان.

والمطلب الثالث: الذي تشير إليه الآية أنه الذكر - هو مسألة المعاد الذي لا ينفصل ولا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، وفيها بيان الهدف من الخلق وهو تكامل الإنسان وتكامل الإنسان يعنى التهيؤ إلى الحياة في عالم أوسع وأكمل، ولذلك يقول سبحانه: «وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ».

وكلمة «هذا» التي وردت - في الآية أنه الذكر - على لسان الكفار، إشارة إلى كلام النبي صلى الله عليه وآله في شأن المعاد ... أى إن ما تدعيه أيها النبي في شأن المعاد سحر مكشوف وواضح، فعلى هذا تكون كلمة السحر هنا بمعنى الكلام العارى عن الحقيقة،

والقول الذي لا أساس له.

وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولَنَّ مَا يَجِبُ لَهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَ لَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَ لَيْتَ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٨

استيعاب المؤمنين وعدم استيعاب غيرهم: في هذه الآيات - وبمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين - بيان لزوايا الحالات النفسية ونقاط الضعف في أخلاق هؤلاء الأفراد والتي تجر الإنسان إلى هاوية الظلام والفساد.

وأول صفة تذكر لهؤلاء هي السخرية من الحقائق وعدم الإكتراف بها وبالمسائل المصيرية، فهؤلاء بسبب جهلهم وعدم معرفتهم وغرورهم حين يسمعون تهديد الانبياء في مؤاخذه المسيئين ومعاقبتهم، ثم تمر عليهم عدة أيام يؤخر الله تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاء مبطن: ما السبب في تأخر العذاب الإلهي، وأين عقاب الله: «وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولَنَّ مَا يَجِبُ لَهُ».

فهذه عادة الجاهلين والمغترين، فكلما وجدوا شيئاً لا ينسجم مع ميولهم وطباعهم عدوه سخرية.

لكن القرآن يحذرهم وينذرهم بصراحة في رده على كلامهم، ويبين لهم أن لا دافع لعذاب الله إذا جاءهم «أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» وأن الذين يسخرون منه واقع بهم ومدمرهم «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ومن نقاط الضعف عند هؤلاء قلة الصبر بوجه المشاكل والصعاب وانحسار البركات الإلهية. حيث نجد في الآية التالية قوله تعالى عنهم: «وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ».

والمراد من «الإنسان» في مثل هذه الآيات هو الأفراد الذين لم يتلقوا تربيته سليمة والمنحرفون عن جادة الحق.

ونقطة الضعف الثالثة عند هؤلاء أنهم حين يتنعمون بنعمة ويشعرون بالترف والرفاه يبلغ بهم الفرح والتكبر والغرور درجة ينسون معها كل شيء، ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: «وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ». ثم يستثنى الله سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد والمصاعب بصبر، ولا يتركون الأعمال الصالحة على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور والتكبر وضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء لا يغترون عند وفور النعمة فينسون الله، ولا يبأسون عند الشدائد والمصائب

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٩

فيكفرون بالله، بل إن أرواحهم الكبيرة وافكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النعم والبلايا في أنفسهم دون الغفلة عن ذكر الله وأداء مسؤولياتهم ولذلك فإن لهؤلاء ثواباً ومغفرة من الله «أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

الامة المعدودة وأصحاب المهدي عليه السلام: في روايات عديدة وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أن الامة المعدودة تعني النفر القليل، وفيها إشارة إلى أصحاب المهدي عليه السلام وأنصاره.

ولكن أن ظاهر الآية من الامة المعدودة هو الزمان المحدود والمعين، وقد وردت رواية عن الإمام على عليه السلام في تفسير الامة المعدودة تشير إلى ما بيناه، وهو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الروايات الآتية تشير إلى المعنى الثاني من الآية، وهو ما اصطلح عليه ب «بطن الآية».

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

## سبب النزول

وردت في شأن نزول الآيات المتقدمة روايتان، ويحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعاً. الأولى: في تفسير مجمع البيان روى عن ابن عباس: إن رؤساء مكة من قريش، أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا محمد! إن كنت رسولاً فحوّل لنا جبال مكة ذهباً أو اتنا بملائكته يشهدون لك بالنبوة. فأنزل الله تعالى «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» الآية. والثانية: روى العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «إني سألت ربي أن يوالي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن يؤاخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن يجعلك وصيي ففعل». فقال رجلان من قريش: والله لصاع من تمر في شئ أحب إلينا مما سأل محمد ربه، فهلا سأله ملكاً يعضده على عدوه، أو كنزاً يستعين به على فاقته. فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٠

مختصر الامثل ج ٢، ص: ٤١٩

## التفسير

القرآن المعجزة الخالدة: يبدو من هذه الآيات أن النبي صلى الله عليه وآله كان يوكل إبلاغ الآيات - نظراً للجاجة الأعداء ومخالفتهم - لآخر فرصة، لذا فإن الله سبحانه ينهي نبيه في أول آية نبحثها عن ذلك بقوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مِمَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ». لئلا يطلبوا منك معاجز مقترحة كنزول كنز من السماء، أو مجيء الملائكة لتصديقه «أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ».

إن هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النبي ويتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة والعداوة والتحجج الواهي، فلذلك تأتي الآية معقبة: «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ». سواءً قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، وسخروا منك أم لم يسخروا، فالله هو الحافظ والناظر على كل شيء «وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». أي لا تكثر بكفرهم وإيمانهم فإن ذلك لا يعينك، وإنما وظيفتك أن تبلغهم، والله سبحانه هو الذي يعرف كيف يحاسبهم، وكيف يعاملهم.

وبما أن الذين يتذرعون بالحجج ويشكلون على النبي كانوا أساساً منكرين لوحى الله، ويقولون: إن هذه الآية ليست نازلة من قبل الله، وإن هذا الكلام افتراه محمد - وحاشاه من ذلك - على الله كذباً، لذلك تأتي الآية التالية لتبين بصراحة تامه: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ». فقل لهم يا رسول الله - إن كانوا صادقين في دعواهم أن ما تقوله ليس من الله وأنه من صنع الإنسان - فليأتوا بعشر سور مثل هذا الكلام مفتريات، وليدعوا - سوى الله - ما شاؤوا «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». أما إذا لم يستجيبوا لدعوتك ولا للمسلمين، ولم يلجأوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتريات كسور القرآن، فاعلموا أن ذلك الضعف وعدم القدرة دليل على أن هذه الآيات نزلت من خزانه علم الله، ولو كانت من صنع بشر، فهم بشر أيضاً... فلماذا لا يقدر على ذلك: «فَالَيْمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهَا أَنْزَلِ بِعِلْمِ اللَّهِ». واعلموا أيضاً أنه لا معبود سوى الله، ونزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقة «وَأَنْ لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ». فهل يسلم المخالفون مع هذه الحالة «فَهَلْ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ». أي بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، وظهر عجزكم وعدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك في أن هذه الآيات منزلت من قبل الله، ومع هذه المعجزة البينة ما زلت منكرين، أم أنكم تسلمون وتقرون حقاً؟

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨١

إن الآيات - المذكورة - تؤكد إعجاز القرآن مرة أخرى وتقول: ليس هذا كلاماً عادياً، بل هو وحى السماء الذي ينزل بعلم الله اللامحدود وقدرته الواسعة، وعلى هذا فإنه يتحدى جميع البشر أن يواجهوه بمثله.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَبَّغُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) الآيات أعلاه أكملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين والمنكرين،

ولكن جماعة منهم امتنعوا عن القبول - لحفظ منافعهم الشخصية - بالرغم من وضوح الحق، فالآيات هذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتَهَا» من رزق مادي وشهرة وتلذذ بالنعم «نُوفَّ إِلَيْهِمْ» نتيجة «أَعْمَالَهُمْ فِيهَا» في هذه الدنيا «وَهُمْ فِيهَا لَأَيُّخْسُونَ». أى لا ينقص من حقهم شيء في الدنيا.

«البخس»: في اللغة نقصان الحق، وجملة «وَهُمْ فِيهَا لَأَيُّخْسُونَ» إشارة إلى أنهم سينالون نتيجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم. هذه الآية سنة إلهية دائمة، وهى أن الأعمال «الإيجابية» والمؤثرة لاتضيع نتائجها، مع فارق وهو أنه إذا كان الهدف الأصلي منها هو الوصول إلى الحياة المادية في هذه الدنيا فإن ثمراتها في الدنيا فحسب، وأمّا إذا كان الهدف هو «الله» وكسب رضاه فإن تأثيرها ونتائجها ستكون في الدنيا وفي الآخرة أيضاً حيث تكون النتائج كثيرة الثمار.

وهذا من قبيل ما نراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربي فتح أسراراً كثيرة من العلم بسعيه المتواصل والمنسق، وأصبح متسلطاً على قوى الطبيعة وحصل على مواهب كثيرة لتصديه الدائب لمشاكل الحياة الدنيوية بصبر واستقامة وجد، فلا كلام في نيل العالم الغربي جزاء أعماله وتحقيقه انتصارات مشرقه، ولكن لأن هدفه الحياة المادية فحسب، فإن أعماله لا تثمر غير توفر الإمكانات المادية.

فلذلك يقول سبحانه عنهم في الآية التالية: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» ليزول كل أثر آخرى لما عملوا في هذه الدنيا ولا ينالون عليه أى ثواب «وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا» وكل ما كان لغير الله فيسزول أثره «وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٢

في الدرّ المنثور - فى تفسير هذه الآيات - عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إذا كان يوم القيامة صارت امتى ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا. فيقول للذى كان يعبد الله للدنيا: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا. فيقول:

لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، انطلقوا به إلى النار.

ويقول للذى يعبد الله رياءً: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء. فيقول: إنّما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لا يصعد إلىّ منها شيء ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النار.

ويقول للذى كان يعبد الله خالصاً: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: بعزّتك وجلالك لأنّك أعلم به منى، كنت أعبدك لوجهك ولدارك، قال: صدق عبدى، انطلقوا به إلى الجنة».

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) هناك أقوال كثيرة - فى تفسير الآية أعلاه - ولكن تفسير منها أشد وضوحاً. فى بداية الآية يقول الحق سبحانه: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ». أى من الله تعالى: «وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً». أى التوراة التى تؤيد صدقه وعظّمته، مثل هذا الشخص هل يستوى ومن لا يتمتع بهذه الخصال والدلائل البينة؟

هذا الشخص هو النبى صلى الله عليه و آله ودليله الواضح هو القرآن المجيد، والشاهد المصدق بنبوته كل مؤمن حق أمثال على عليه السلام ومن قبل وردت صفاته وعلائمه فى التوراة، فعلى هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثة حقة واضحة.

الأول: القرآن الكريم الذى هو بينة ودليل واضح فى يده.

الثانى: الكتب السماوية التى سبقت نبوته وأشارت إلى صفاته بدقته، وأتباع هذه الكتب السماوية فى عصر النبى كانوا يعرفونه حقاً، ولهذا السبب كانوا ينتظرونه.

والثالث: أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحون الذين كانوا يبينون دعوته ويتحدثون عنه.

ومع وجود هذه الدلائل الحثية، هل يمكن أن يقاس مع غيره من المدّعين، أم هل ينبغي التردد في صدق دعوته؟!

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٣

ثم يشير بعد هذا الكلام إلى طلاب الحقّ والباحثين عن الحقيقة، يدعوهم إلى الإيمان دعوةً ضمنيةً فيقول: «أولئك يؤمنون به». أي النبي الذي لديه هذه الدلائل الواضحة.

ثم يعقب بعد ذلك ببيان عاقبة المنكرين ومصيرهم بقوله تعالى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

وفى ختام الآية- كما هي الحال في كثير من آيات القرآن- يوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله ويبيّن درساً عاماً لجميع الناس، ويقول: بعد هذا كله من وجود الشاهد والبيّنة والمصدق بدعوتك، فلا تتردد في الطريق ذاته «فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ». لأنه من قبل الله سبحانه «إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ». ولكن كثيراً من الناس ونتيجةً لجهلهم وأنايتهم لا يؤمنون «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ».

وعلى هذا فالآية تشير إلى امتيازات الإسلام والمسلمين الصادقين واستنادهم إلى الدلائل المحكمة في اختيار مذهبهم هذا ... وفي قبال ذلك تذكر ما يصير إليه المنكرون والمستكبرون من مآل مشؤوم أيضاً ...

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَيَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَمَّا جَرَمَ أَنَّهَمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسِرُونَ (٢٢) أخسر الناس أعمالاً: بعد الآية المتقدمة التي كانت تتحدث عن القرآن ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله تأتي آيات آخر تشرح عاقبة المنكرين وعلاماتهم ومآل أعمالهم. ففي أول آية من هذه الآيات يقول سبحانه: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». ويعنى أن تكذيب دعوة النبي الصادق في الواقع هو تكذيب لكلام الله وافتراء عليه بالكذب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٤

ثم يبيّن ما ينتظرهم من مستقبل مشؤوم يوم القيامة حين يعرضون على محكمة العدل الإلهي «أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ». حينئذ يشهد «الأشهاد» على أعمالهم وأن هؤلاء هم الذين كذبوا على الله العظيم الرحيم وولى النعمة .... «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ» ثم ينادون بصوت عال «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». والآية التي بعدها تبين صفات الظالمين في ثلاث جمل:

الاولى تقول: إنهم يمنعون الناس بمختلف الأساليب عن سبيل الله «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» فمرة عن طريق إلقاء الشبهة، ومرة بالتهديد، وأحياناً عن طريق الإغراء والطمع، وجميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، وهو الصد عن سبيل الله.

الثانية تقول: إنهم يسعون في أن يظهروا سبيل الله وطريقه المستقيم عوجاً «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا». أي بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التفسير بالرأى وإخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصورة الحقيقية للضراط المستقيم. ولا يستطيع الناس وطلاب الحق السير في هذا الطريق.

والثالثة تقول: إنهم لا يؤمنون بيوم النشور والقيامة «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

وعدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات.

في الآية التالية يبيّن أن هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب الله في الأرض ولا أن يخرجوا من سلطانه «أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» كما أنهم لا يجدون ولياً وحامياً لهم غير الله «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ».

وأخيراً يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة: «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ».

لماذا؟! لأنهم كانوا ضالين ومخطئين ومنحرفين، وفي الوقت ذاته كانوا يجزون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم «وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَقَالًا مَعَهُمْ» (١).

وفى ختام الآية يبين الله سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ».

(١) سورة العنكبوت / ١٣.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٥

فهم بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين وسيلتى السمع والبصر لدرك الحقائق، ضلوا السبيل وأضلوا سواهم أيضاً ... وبديهي أن عدم استطاعته دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديدة وعدائهم للحق والحقيقة، وهذا لا يسلب عنهم المسؤولية. والآية التي بعدها تبين في جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدهم في طريق الباطل، فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ». وهذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنساني ... ثم تضيف الآية: أنهم اتخذوا آلهة ومعبودين مصطنعين «مزيفين» ولكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة والمزيفة أخيراً ... «وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وفى نهاية الآية بيان الحكم النهائي لمآلهم وعاقبتهم بهذا التعبير: «لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ». والسبب واضح؛ لأنهم حرموا من نعمه السمع الحاد والبصر النافذ، وخسروا كل إنسانيتهم ووجودهم، ومع هذه الحال فقد حملوا أثقال مسؤوليتهم وأثقال الآخرين مع أثقالهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَشْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) تعقيباً على الآيات المتقدمة التي أوضحت حال منكروى الوحي، تأتي الآيات هنا لتوضحها من في قبالهم، وهم المؤمنون حقاً. فالآية الأولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ». أى: استسلموا وانقادوا خاضعين لأمر الله ووعده الحق، «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفى الآية الاخرى بيان لحالة هذين الفريقين فى مثال حى وواضح ... حال الأعمى والأصم، وحال السميع والبصير، فتقول الآية: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَشْتَوِيَانِ مَثَلًا». ثم تعقب الآية: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

حال منكروى الوحي، فسبب لجاجتهم وعدائهم للحق ووقوعهم أسرى بمخالب

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٦

التعصب والأنانية وعبادة الذات، فقدوا بصرهم وسمعهم للحقيقة البينة، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، وتأثير الإيمان، والتلذذ بعبادة الله، وعظمة التسليم لأمره. هؤلاء الأفراد يعيشون أبداً عمياناً صمّاً فى ظلام مطبق وسكوت مميت ... فى حين أن المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، ويسمعون كل صوت بأذان سميعة، وبالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعادة». وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَّمَّا تَعَبُّدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَيْدِي الرِّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ كُفْرًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) قصية نوح المشيرة مع قومه: تقدم أن هذه السورة تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين وتاريخهم، فى البداية تذكر قصة نوح عليه السلام وهو أحد الأنبياء أولى العزم، وضمن (٢٦) آية تُرسم النقاط الأساسية لتاريخه المثير ... والآيات المتقدمة تبين بداية هذه الدعوة العظيمة فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وفى الآية الاخرى يُلخص محتوى رسالته فى جملة واحدة ويقول: رسالتي هى «أَنْ لَّمَّا تَعَبُّدُوا إِلَّا اللَّهَ». ثم يعقب دون فاصلة بالإنذار والتحذير مرّة اخرى: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ».

إن مسألة التوحيد والعبودية لله الواحد الأحد هى أساس دعوة الأنبياء جميعاً، فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدون ولا يعبدون

إلّا الله، ولا- ينقادون للأوثان الوهيمية الخارجية منها والداخلية من قبيل الأنانية والهوى والشهوات والمقام والجاه والنساء والبنين فلا يبقى أثر للسلبات والخبائث في المجتمع البشري.

فلننظر الآن أول رد فعل من قبل الطواغيت واتباع الهوى والمترفين وامثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان وماذا كان؟!

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٧

فقد أجاب اولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأول: إن الأشراف والمترفين من قوم نوح عليه السلام قالوا له أنت مثلنا ولا فرق بيننا وبينك:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا». زعماً منهم أنّ الرسالة الإلهية ينبغي أن تحملها الملائكة إلى البشر لا أنّ البشر يحملها إلى البشر! وظناً منهم أنّ مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

والإشكال الثاني: إنهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك ومن حولك إلّا حنفة من الأراذل وغير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة: «وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ».

الإشكال الثالث: الذي أوردوه على نوح عليه السلام أنهم قالوا: بالاضافة إلى أنك إنسان ولست ملكاً، وأنّ الذين آمنوا بك والتفوا حولك هم من الأراذل، فإننا لا نرى لكم علينا فضلاً «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ».

والآيات التي تعقبها تبين ردّ نوح عليه السلام وإجاباته المنطقية على هؤلاء حيث تقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِّن رَّبِّي وَعَآئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيتْ عَلَيْكُمْ».

وفي ختام الآية يقول النبي نوح عليه السلام لهم: هل أستطيع أن أزمكم الإستجابة لدعوتي وأنتم غير مستعدين لها وكارهون لها: «أَنْزَلْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهَا وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهَا».

وَيَا قَوْمِ لِمَا أَسَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مَا لِمَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ما أنا بطارد الذين آمنوا: هذه الآيات تتابع ما ردّه نوح عليه السلام على قومه المنكرين.

فآلية الاولى التي تحمل واحداً من دلائل نبوة نوح، ومن أجل أن تنير القلوب المظلمة من قومه تقول على لسان نوح: «وَيَا قَوْمِ لِمَا أَسَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مَا لِمَا». فأنا لا أطلب لقاء دعوتي ما لاً أو ثروة منكم، وإنما جزائي وثوابي على الله سبحانه الذي بعثنى بالنبوة وأمرني بدعوة خلقه إليه: «إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٨

وَلَكِنِ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمِّهِمْ مَعْدُودَةً لِّيَقُولُوا مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَلَكِنِ أَدَقْنَا لِلإِنسَانِ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَكِنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتُهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) وهذا معيار وميزان لمعرفة القادة الصادقين من غيرهم الذين يتحنون الفرص ويهدفون إلى تأمين المنافع المادية في كل خطوة يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويعقب نوح عليه السلام بعد ذلك في ردّه على مقوله طرد المؤمنين به من الفقراء والشباب فيقول بصورة قاطعة: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا». لأنهم سيلاقون ربهم ويخاصمونني في الدار الآخرة «إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ».

ثم تُختتم الآية ببيان نوح لقومه بأنكم جاهلون «وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ». وأي جهل وعدم معرفة أعظم من أن تضيعوا مقياس الفضيلة وتبحثون عنها في الثروة والمال الكثير والجاه والمقام الظاهري.

ثم أنتم تتصورون- بجهلكم- أن يكون النبي من الملائكة، في حين ينبغي أن يكون قائد الناس من جنسهم ليحس بحاجاتهم ويعرف



مشاكلهم وآلامهم.

وفي الآية التي بعدها يقول لهم موضحاً: إِنِّي لَوْ طَرَدْتُ مِنْ حَوْلِي فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنْ عَدْلِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَتَّى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا «وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ».

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهين، إذ سيكونون خصومى يوم القيامة بطردى لهم، ولا أحد هناك يستطيع أن يدافع عني ويخلصني من عدل الله، ولربما أصابتنى عقوبه الله في هذه الدنيا، أم أتكم لا تفكرون في أن ما أقوله هو الحقيقة عينها «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». وآخر ما يجب به نوح قومه ويرد على إشكالاتهم الواهية... إنكم إذا كنتم تتصورون أن لي امتيازاً آخر غير الإعجاز الذي لدى عن طريق الوحي فذلك خطأ، وأقول لكم بصراحة: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أستطيع أن أحقق كل شيء أريده وكل عمل أطلبه، حيث تحكى الآية عن لسانه «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أقول لكم إنني مطلع على الغيب «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». ولا أدعى أنني غيركم كأن أكون من الملائكة مثلاً «وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» فهذه الادعاءات الفارغة والكاذبة يتدرب بها المدعون الكذبة، وهيهات أن يتدرب بها الأنبياء الصادقون.

وفي ذيل الآية يكرر التأكيد على المؤمنين المستضعفين بالقول: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا»، بل على العكس تماماً، فخير هذه الدنيا وخير الآخرة لهم وإن كانوا حفاة لخلو أيديهم من المال والثروة فأنتم الذين تحسبون الخير منحصراً في المال والمقام والسن، تجهلون الحقيقة ومعناها تماماً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٩

وعلى فرض صحة مدعاكم أراذل و «أوباش» ف «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ».

أنا الذي لا أرى منهم شيئاً سوى الصدق والإيمان يجب على قبولهم، لأنني مأمور بالظاهر، والعارف بأسرار العباد هو الله سبحانه، فإن عملت غير عملي هذا كنت آثماً «إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ».

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) كَفَانَا الْكَلَامَ فَأَيْنَ مَا تَعِدُنَا بِهِ؟ الْآيَةُ الْأُولَى مِنَ الْآيَاتِ اعْلَاهُ تَتَحَدَّثُ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ: «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا». فأين ما تعدنا به من عذاب الله «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

فاختيار هذه الطريقة إزاء كل ذلك اللطف وتلك المحبة من قبل أنبياء الله ونصائحهم التي تجرى كالماء الزلال على القلوب، إنما تحكى عن مدى اللجاجة والتعصب الأعمى لدى تلك الأقوام.

لقد أجاب نوح عليه السلام على هذه اللجاجة والحمافة وعدم الإعتناء بقوله: «قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ». فذلك خارج من يدي على كل حال وليس باختيارى، إنما أنا رسوله ومطيع لأمره، فلا تطلبوا منى العذاب والعقاب! ولكن حين يحل عذابه فاعلموا أنكم لا تقدرُونَ أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى ما من آخر «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ».

ثم يضيف: وإذا كان الله يريد أن يضلّكم ويغويكم - لما أنتم عليه من الذنوب والتلوث الفكرى والجسدى - فلا فائدة من نصحي لكم إذا «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» فهو وليكم وأنتم فى قبضته «هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

سؤال: هل يمكن أن يريد الله الغواية والضلال لعباده؟

الجواب: قد تصدر من الإنسان - أحياناً - سلسلة من الأعمال التي تكون نتيجتها الغواية والانحراف الدائمى وعدم العودة إلى الحق.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٠

وفى آخر الآية - محل البحث - ورد كلام بمثابة الجملة المعترضة ليوكد المواضع التي بحثت قصة نوح فى الآيات السابقة واللاحقة، فتبين الآية أن الأعداء يقولون: إن هذا الموضوع صاغه «محمد» من قبل نفسه ونسبه إلى الله «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ».

ففى جواب ذلك قل يا رسول الله: إن كان ذلك من عندى ونسبته إلى الله فذنبه على «قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّْ إِجْرَامِي» ولكنى برىء من ذنوبكم «وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ».

«الإجرام»: مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» وكما أشرنا إلى ذلك- سابقاً- فإن معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثم اطلقت على كل ما يحدث من عمل سىء، وتطلق على من يحث الآخر على الذنب أنه أجرم، وحيث إن الإنسان له إرتباط فى ذاته وفطرته مع العفاف والنقاء، فإن الإقدام على الذنوب يفصل هذا الإرتباط الإلهى منه.

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) إِنَّ قِصَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَارِدَةَ فِي آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ، بَيَّنَّتْ بَعْدَهُ عِبَارَاتٍ وَجَمَلٌ، كُلُّ جَمَلَةٍ مَرْتَبَةٌ بِالْآخَرَى، وَكُلُّ مِنْهَا يَمَثُلُ سِلْسَلَةٌ مِنْ مَوَاجِهَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قِبَالِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَفِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بَيَانٌ لِمَرَحَلَةٍ دَعَاةٍ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُسْتَمِرَّةِ وَالَّتِي كَانَتْ فِي غَايَةِ الْجَدِيدَةِ، وَبِالِاسْتِعَانَةِ بِجَمِيعِ الْوَسَائِلِ الْمَتَّاحَةِ، وَفِي الْآيَاتِ مَحَلُّ الْبَحْثِ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَرَحَلَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاجِهَةِ، وَهِيَ مَرَحَلَةُ انْتِهَاءِ دَوْرَةِ التَّبْلِيغِ وَالتَّهَيُّؤِ لِلتَّصْفِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ. فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى نَقَرْنَا مَا مَعْنَاهُ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ مِنْ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَتِكَ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ غَيْرَ هَؤُلَاءِ: «وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ».

وهى إشارة إلى أن الصفوف قد أمتازت بشكل تام، والدعوة للإيمان والإصلاح غير مجدية، فلا بد إذاً من الإستعداد للتصفية والتحول النهائى.

وفى نهاية الآية تسليئة لقلب نوح عليه السلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩١

هذه الأعمال «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». ونستفيد من هذه الآية- ضمناً- أن الله يطلع نبيه نوحاً على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغى.

وعلى كل حال لابد من إنزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليظهر العالم من التلوث بوجودهم، وليكون المؤمنون فى منأى عن مخالبتهم.

وجاء الأمر لنوح أن «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا».

وفى نهاية الآية ينذر الله نوحاً أن لا يشفع فى قومه الظالمين، لأنهم محكوم عليهم بالعذاب وإن الغرق قد كتب عليهم حتماً «وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ».

هذه الجملة تبين بوضوح أن الشفاعة لا تيسر لكل شخص، بل للشفاعة شروطها فإذا لم تتوفر فى أحد الأشخاص فلا يحق للنبي أن يشفع له ويطلب من الله العفو لأجله.

أما عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد- ولو لحظة واحدة- فى دعوة النبي نوح عليه السلام ويحتملوا على الأقل أن هذا الإصرار وهذه الدعوات المكررة كلها من «وحى الله» فتكون مسألة العذاب والطوفان حتمية! إلا أنهم واصلوا استهزاءهم وسخريتهم مرة أخرى وهى عادة الأفراد المستكبرين والمغرورين «وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ولكن نوحاً كان يواصل عمله بجديئة فائقة وأناة واستقامه منقطعة النظير لأنها وليدة الإيمان، وكان لا يكثرث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم وعميت قلوبهم، وإنما يواصل عمله ليكمله بسرعة. ويوماً بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل ويتهيأ لذلك اليوم العظيم، وكان نوح عليه السلام أحياناً يرفع رأسه ويقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة «قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ

مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ذلك اليوم الذى يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ماتصنعون، ولا ملجأ لكم، وتصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة .. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين ومن غفلتكم وجهلكم وعدم معرفتكم ويضحكون عليكم.

«فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

سفينه نوح: لا شك أن سفينه نوح لم تكن سفينه عاديه ولم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته، إذ كانت سفينه كبيره تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، وتحمل متاعاً وطعاماً كثيراً يكفى للمدة التى يعيشها المؤمنون

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٢

والحيوانات فى السفينه حال الطوفان، ومثل هذه السفينه بهذا الحجم وقدره الاستيعاب لم يسبق لها مثيل فى ذلك الزمان، فهذه السفينه ستجرى فى بحر بسعه العالم، وينبغى أن تمر سالمة عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها. لذلك تقول بعض روايات المفسرين: إن طول السفينه كان ألفاً ومنتى ذراع، وعرضها كان ستمائة ذراع (كل ذراع يعادل نصف متر تقريباً).

ونقرأ فى بعض الروايات أن النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عاماً بالعمى وعدم الإنجاب، وكان ذلك مقدمه لعذابهم وعقابهم. حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَأُوَى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) شروع الطوفان: رأينا فى الآيات المتقدمه كيف صنع نوح عليه السلام وجماعته المؤمنون سفينه النجاة بصدق. وواجهوا جميع المشاكل واستهزاء الأكريه من غير المؤمنين، وهياوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذى طهر سطح الأرض من لوث المستكبرين الكفرة. والآيات - محل البحث - تتعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهايه؟ وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبينه بهذا التعبير: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ».

ولعل قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآيه. وهى فوران التنور بالماء فى بيوتهم ولكن غضوا أجفانهم وصموا آذانهم كعادتهم عند ظهور مثل العلائم الكبيره حتى أنهم لم يسمحوا لأنفسهم بالتفكير فى هذا الأمر وأن إندارات نوح حقيقه. فى هذه الحاله بلغ الأمر الإلهى نوحاً «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ». لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ «وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٣

هذه الآيه تشير من جهه إلى امرأه نوح وابنه كنعان وقد قطعاً علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما وتآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق فى ركوب السفينه ليكونا من الناجين، لأن الشرط الأول للركوب كان هو الإيمان. وتشير الآيه من جهه اخرى إلى أن ثمره جهاد نوح عليه السلام بعد هذه السنين الطوال والسعى الحثيث المتواصل فى التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا نفر المؤمن القليل.

جمع نوح عليه السلام ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعه، وحين أزف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب الله أمرهم أن يركبوا فى السفينه «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا».

لماذا؟ لكى يعلمهم أنه ينبغى أن تكونوا فى جميع الحالات فى ذكر الله تعالى وتستمدوا العون من اسمه وذكره «إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ».

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينه تحت تصرفكم واختياركم لتنجيكم من الغرق وبمقتضى عفوه وغفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهي فتلبدت السماء بالغيوم كأنها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد وومضات البرق في السماء كلها تخبر عن حادثه «مهولة ومرعبة جداً».

شرح المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر.

وهكذا إتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا وادٍ ولا تلعة ولا نجد إلا استوعبه الماء وصار بحراً محيطاً خضماً ... أما الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينه نوح ومن معه تمضى في هذا البحر «وَهَي تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجِ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ». فَإِنَّ مَصِيرَكَ إِلَى الْفَنَاءِ إِذَا لَمْ تَرْكَبْ مَعَنَا.

ولكن - للأسف - كان أثر المحيط السيء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرق عليه.

لذلك فإن هذا الولد اللجوج الأحمق، وظناً منه أن ينجو من غضب الله أجاب والده نوحاً و «قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِي مُنِي مِنَ الْمَاءِ». ولكن نوحاً لم يأس مرة أخرى فنصحته أن يترك غروره ويركب معه و «قَالَ لَأَعَاصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ». ولا ينجو من هذا الغرق إلا من شمله لطف الله «إِلَّا مَنْ رَحِمَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٤

وفي هذه الحالة التي كان ينادى نوح ابنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ».

بحوث

١- دروس تربوية من طوفان نوح: إن هدف القرآن الأصلي من ذكر قصص الماضين بيان دروس وعبر ومسائل تربوية، وفي هذا القسم من قصة نوح مسائل مهمة جداً نشير إلى قسم منها:

تطهير وجه الأرض: صحيح أن الله رحيم ودود، ولكن لا ينبغي أن ننسى أنه حكيم أيضاً، فبمقتضى حكمته أنه عندما لا تؤثر دعوة الناصحين والمربين الإلهيين في قوم فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك في الحياة وسينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية وتحت وطأة التنظيم الحياتي.

وهذا الأمر غير منحصر في قوم نوح ولا- بزمان معين، إنما هو سنة الله في خلقه وعباده في جميع العصور والأزمان حتى في عصرنا الحاضر، وأي إشكال في أن تكون كل من الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية صورة من صور «تطهير الأرض».

٢- لم كان العقاب أو الطوفان؟ صحيح أن قوماً أو أمه كانوا فاسدين وينبغي زوالهم ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق في الآيات المتقدمة نستفيد أن هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب الله دائماً وأبداً «فتدبر جيداً».

كان فرعون يرى قدرته وعظمته تتجلى في «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن الطريف أن هلاك فرعون ونهايته كان في النيل.

وكان قوم نوح أهل زراعة و «أنعام» وكانوا يجدون كل خيراتهم في «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً ...

ومن هنا يتضح جلياً أن حساب الله في غاية الدقة، ولو لاحظنا الطغاة العتاة في عصرنا وفي الحرب العالمية الأولى والثانية كيف ابيدوا بأسلحتهم الحديثة والمتطورة لاتضح المعنى أكثر.

فلا ينبغي أن نعجب أن هذه الصناعات المتقدمة التي اعتمدوا عليها في استعمار الشعوب واستثمار خيراتهم واستضعافهم ... أدت إلى زوالهم.

٣- المرتكزات الجوفاء: من الطبيعي أن كل أحد يعتمد في التغلب على الصعاب ومواجهتها

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٥

المشاكل في حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة والمال، وجماعة على المقام والمنصب، وجماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، وآخرون إلى أفكارهم .. ولكن - كما تخبرنا الآيات المتقدمة ويرينا التاريخ - لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى

مقاومة أمام أمر الله وقدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة.

فابن نوح لغروره وغفلته كان غارقاً في مثل هذا الوهم، وظن أن الجبل سيعصمه من طوفان غضب الله ويحميه ولكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنه وأنهت حياته.

٤- سفينة النجاة: وردت روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه و آله تعبر عن أهل بيته - وهم الأئمة الطاهرون وحمله الإسلام - بأنهم «سفينة النجاة». أى أنه حين يطغى الطوفان الفكرى والعقائدى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإن طريق النجاة الوحيد هو الإلتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) نهاية الحادث: كان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينة بيد الله سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة فى كل صوب، وفى روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذى الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب حتى عاشر محرم) وطافت السفينة نقاطاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء فى بعض الروايات أنها سارت على أرض مكة وحول الكعبة. وأخيراً صدر الأمر الإلهى بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والآية - محل البحث - تبين هذا الأمر وجزئياته ونتيجته فى عبارات وجيزة جداً، وفى الوقت ذاته بليغة وأخاذة، وقد جاءت الآية فى جمل ست:

١- «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ» صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

٢- «وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي» وصدرو الأمر للسماء أن لا تمطري.

٣- «وَوَغِيضَ الْمَاءِ» ونزل الماء فى جوف الأرض.

٤- «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» انتهى حكم الله.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٦

٥- «وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ» واستقرت السفينة على طرف جبل الجودى.

٦- «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» عندئذ لُعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يتعدوا من رحمة الله.

طائفة من علماء العرب: إن هذه الآية تعد أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته جميعاً فى غاية البلاغة والفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أننا نقرأ فى تفسير مجمع البيان أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البر، ولحوم الضأن، وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم. فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شىء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين. وتركو ما أخذوا فيه، وافترقوا. ونادى نوحُ رَبُّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِنْ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) حادثة ابن نوح المؤلمة: قرأنا فى الآيات المتقدمة أن ابن نوح لم يسمع نصيحة والده وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق فى أمواج الطوفان. وهذه الآيات - محل البحث - تتحدث عن قسم آخر من هذه القصة، وهو أنه حين رأى نوح ابنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوة وتذكر وعد الله فى نجاة أهله فالتفت إلى ساحه الله منادياً «فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ».

وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (٤٠) من هذه السورة، ولكنه سمع الجواب مباشرة ... جواب يهزأ كما أنه يكشف عن حقيقة كبيرة ... حقيقة أن الرباط الدينى أسمى من رباط النسب والقرابة «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ». فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. «فَلَمَّا تَسَلَّنَا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

فأحس نوح أن طلبه هذا من ساحة رحمة الله لم يكن صحيحاً، ولا ينبغي أن يتصور نجاه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٧

ولده مما وعد الله به في نجاه أهله، لذلك توجه إلى الله معتذراً مستغفراً و «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

في العيون عن الرضا عليه السلام: «كيف يقرأون هذه الآية؟» قيل: من الناس من يقرأ: أنه عمل غير صالح ومنهم من يقرأ: أنه عمل غير صالح فمن قرأ أنه عمل غير صالح نفاه عن أبيه، فقال عليه السلام: «كلًا لقد كان ابنه، ولكن لما عصى الله نفاه عن أبيه، كذا من كان منا لم يطع الله فليس منا».

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سِنِمَّتْهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) هبوط نوح بسلام: هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التي تتحدث عما جاء في نوح وقصته المليئة بالدروس والعبر في سورة هود، وفيهما إشارة إلى هبوط نوح عليه السلام من سفينته وعوده الحياة والعيش الطبيعي على الأرض. يقول القرآن في الآية الأولى من هاتين الآيتين: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ».

لا شك أن الطوفان كان قد دمر كل آثار الحياة... فالأراضي العامرة والمراتع الخضرة والغابات النضرة كلها ايّدت، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح وأصحابه بالنسبة للمعاش والغذاء، لكن الله سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة إزاء البركات الإلهية والسلامة وأن كل ذلك سيكون مهياً وموقراً لهم فلا ينبغي الحزن على شيء ...

ثم يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنه ستعقب الامم التي معك امم من نسلها، ولكن هذه الامم ستعتر وتغفل عن نعم الله فتتال جزاءها من الله «وَأُمَّمٌ سِنِمَّتْهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وفي آخر آية تختتم بها قصة نوح- في هذه السورة- إشارة كلية عامه إلى ما حدث في عهد نوح فتقول: «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا».

فالخطاب هنا للنبي محمد صلى الله عليه وآله يؤكد عليه أن يصبر ويستقيم كما صبر واستقام نوح عليه السلام

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٨

عندما واجه المشاكل، وهكذا تكون عاقبة الصبر النصر «فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ».

يستفاد من هذه الآية أن الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم الله وبالمقدار الذي كان يريد الله لهم، لا أنهم يعلمون الغيب من أنفسهم.

والآن نودع قصة نوح بكل ما تحمل من عبر وأعاجيب، ونتوجه إلى نبي عظيم آخر وهو هود الذي سُميت هذه السورة باسمه. وَإِلَىٰ عِبَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَلَمْ تَعْلَمُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) في الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السلام وأما الآن فالحديث عن هود عليه السلام. يقول سبحانه في الآية الأولى من هذه القصة: «وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا». ونلاحظ في الآية أنها وصفت هوداً بكونه «أخاهم».

وهذا التعبير جار في لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد ...

أو أن هذا التعبير يشير إلى أن معاملته هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبياً، وهذه الحالة هي صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطلق الزعامة والقيادة أو معاملته أب لأبنائه، بل من منطلق أنهم إخوة لهم ....

معاملته خالية من أية شائبة وأى امتياز أو استعلاء.

كان أول دعوة هود- كما هو الحال في دعوة الأنبياء جميعاً- توحيد الله ونفى الشرك عنه «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ».

فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشر، ولا يصدر منها أى عمل، وأى افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التي لا قيمة لها إطلاقاً.

ثم يضيف هود قائلاً لقومه: لا تتصوروا أن دعوتى لكم من أجل المادة، فأنا لا أريد منكم أى أجر «يَا قَوْمِ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا». فأجرى وحده على من فطرنى ووهبني

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٩٩

الروح وأنا مدين له بكل شىء، فهو الخالق والرازق «إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي».

وأساساً فإننى فى كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنما أفعل ذلك طاعةً لأمره، ولذلك ينبغي طلب الأجر منه وحده لا منكم، وإضافة إلى ذلك فهل لديكم شىء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ثم شرع هود ببيان الأجر المادى للإيمان لغرض التشويق والاستفادة من جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق فى قومه الظالمين، فبين أن هذا الأجر المادى مشروط بالإيمان فيقول: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ». فإذا فعلتم ذلك فإنه «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا» (١). لثلا- تصاب مزارعكم بقله الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإن الله بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرفعكم «وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ».

فلا تتصوروا أن الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، فعلى هذا إياكم والابتعاد عن طريق الحق «وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ».

التوحيد أساس دعوة الأنبياء: يبين تاريخ الأنبياء أنهم بدأوا دعوتهم جميعاً من التوحيد ونفى الشرك ونفى عبادة الأصنام أيأ كانت، والواقع فإن أى إصلاح فى المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأن وحدة المجتمع والتعاون والإيثار كلها أمور تسترشد من منع واحد وهو توحيد المعبود.

وأما الشرك فهو أساس كل فرقة وتعارض وتضاد وأنايئة ... وما إلى ذلك ... وإرتباط هذه المفاهيم بالشرك وعبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على أحد!

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْئِي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥) إِنْئِي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصَتِيبَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أْبَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْرِخَلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)

(١) «المدرار»: مشتق من «در» وهو انصباب حليب الأتداء، ثم استعمل فى انصباب المطر.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٠

قوة المنطق: والآن لننظر ماذا كان رد فعل القوم المعاندين والمغرورين- قوم عاد- مقابل نصائح أخيهم هود وتوجيهاته إليهم: «قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ». أى لم تأتنا بدليل مقنع لنا «وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ» الذى تدعوننا به إلى عبادة الله وترك الأوثان «وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ».

وأضافوا إلى هذه الجمل الثلاث غير المنطقية، أنك يا هود مجنون و «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ». ولا شك أن هوداً- كأى نبي من الأنبياء- أدى دوره ووظيفته وأظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته، ولكنهم لغرورهم- مثل سائر الأقسام- أنكروا معاجزه وعدوها سحراً.

إِنَّ عَلَى هُودٍ أَنْ يردَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ اللُّجُوجِينَ رَدًّا مَقْرُونًا بِالْمَنْطِقِ، مِنْ مَنْطِقِ الْقُوَّةِ أَيْضًا... يَقُولُ الْقُرْآنُ فِي جَوَابِ هُودٍ لَهُمْ: «قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

يشير بذلك إلى أن الأصنام إذا كانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاكى وموتى لمحاربتى لها علناً فعلام تسكت هذه الأصنام؟ وماذا تنتظرى؟

ثم يضيف أنه ليست الأصنام وحدها لا تقدر على شىء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدر على شىء، فإذا كنتم قادرين «مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَأَنْتَظِرُونَ».

فأنا لا تردعنى كثرتكم ولا أعداها شيئاً، ولا أكثرث بقوتكم وقدرتكم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمى ولديكم مختلف القدرات، إلّا أننى واثق بقدره فوق كل القدرات، «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ».

فلو فكرتم جيداً لكان هذا وحده معجزاً حيث ينهض إنسان مفرد وحيد بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة فى مجتمع قوى ومتعصب، لكنّه فى الوقت ذاته لا يشعر فى نفسه بالخوف منهم، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثم يضيف: لستم وحدكم فى قبضه الله، فإنه «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا»، فما لم يأذن به الله، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً.

ولكن إعلموا أيضاً أن ربى القدير ليس كالأشخاص المقتردين الذين يستخدمون قدرتهم للهوى واللعب والأنايئة وفى غير طريق الحق، بل هو الله الذى لا يفعل إلّا الحكمة والعدل «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ثم إن هوداً قال لقومه فى آخر كلامه معهم كما تحكيه الآية: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠١

إشارة إلى أن لا يتصوروا أن هوداً سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنه أدّى واجبه ووظيفته، وأداء الواجب انتصار بحد ذاته حتى لو لم تقبل دعوته.

وكما هدّد القوم هوداً، فإنه هددهم بأشدّ من تهديدهم، وقال: إن لم تستجيبوا لدعوتى فإنّ الله سيبيدكم فى القريب العاجل «وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا».

هذه سنّة الله فى خلقه وقانونه العام، إنّه متى كان قوم غير لائقين لاستجابة الدعوة والهداية والنعم الاخرى التى أنعمها عليهم فإنه سيبيدهم ويستخلف قوماً لائقين بمكانهم «إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ». فلا تفوته الفرصة، ولا يهمل أنبياءه ومحبيه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شىء وقادر على كل شىء.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتَلَسَّكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَتَهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

اللعن الأبدى على القوم الظالمين: فى آخر الآيات التى تتحدث عن قصة قوم عاد ونبیهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا». وتؤكد أيضاً نجاه المؤمنين «وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ».

وفى قوله تعالى: «نَجَّيْنَا» وتكرار هذه الكلمة فى الآية مرتين أقوال مختلفة للمفسرين، ف «نَجَّيْنَا» الأولى تعنى خلاصهم من عذاب الدنيا و «نَجَّيْنَا» الثانية تعنى نجاتهم فى المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، وينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضاً.

ويشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، وهى أن الكلام لَمَّا كان على رحمة الله فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة «نَجَّيْنَا» لتفصل بين الرحمة والعذاب دون أن ينقص شىء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغى الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضاً، وهى أن آيات القرآن وصفت العذاب

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٢



بالغليظ فى أربعة موارد «١». وبملاحظة تلك الآية بدقته نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الآخرة، وخصوصاً الآيات التى جاءت فى سورة ابراهيم وذكر فيها العذاب الغليظ، فإنها تصف بصراحة حال أهل جهنم وأهوالها، وهكذا يكون، وذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديداً فإنه أخفّ من عذاب الآخرة!

وهناك تناسب ينبغى ملاحظته أيضاً، وهو أنّ قوم عاد - كما سيأتى بيان حالهم إن شاء الله - ورد ذكرهم فى سورة القمر، والحاقة، وكانوا قوماً ذوى أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ فى تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا ينسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلاً: «هذا البناء عادى» لذلك كان عذابهم مناسباً لهم لا فى العالم الآخر بل فى هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً، كما مرّ فى تفسير السور الآنفه الذكر. ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عادٍ فى ثلاثة مواضع:

الأول: بإنكارهم لآيات الله وعنادهم أيضاً لم يتركوا دليلاً واضحاً وسنداً بيناً على صدق نبوة نبيهم إلاّ جحدوه «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ».

والثانى: إنهم من الناحية العملية لم يتبعوا أنبياء الله «وَعَصَوْا رُسُلَهُ».

والثالث من الذنوب: إنهم تركوا طاعة الله ومالوا لكل جبار عنيد «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ». فأى ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، ومخالفة الأنبياء، والخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و «الجبار»: يطلق على من يجبر سواه على إتباعه ويريد أن يغطى نقصه بادعاء العظمة والتكبر الظاهرى.

و «العنيد»: هو من يخالف الحق والحقيقة أكثر مما ينبغى، ولا يرضخ للحق أبداً.

(١) وهى فى السور التالية: ١- ابراهيم/ ٧؛ ٢- لقمان/ ٣٤؛ ٣- فصلت/ ٥٠؛ ٤- هود/ ٥٨.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٣

هاتان الصفتان تتجليان فى الطواغيت والمستكبرين فى كل عصر وزمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبداً ويعمدون إلى من يخالفهم بانزال أشد أنواع العقاب به بلا رحمة.

وفى الآية الأخيرة التى تنتهى بها قصة «هود» وقومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة والباطلة حيث تقول الآية: «وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً» و بعد الموت لا يبقى إلاّ خزيمهم والصيت السيء «وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ» يقال لهم: «أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ».

وكان يكفى تعريف هذه الجماعة بلفظ «عاد» ولكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضاً لتؤكد عليهم أولاً، ولتشير إلى أنّهم القوم الذين آذوا نبيهم الناصح لهم ثانياً، ولذلك فقد أبعدهم الله عن رحمته.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قصة ثمود: انتهت قصة عاد، قوم هود، بجميع دروسها بشكل مضغوط، وجاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا فى وادى القرى بين المدينة والشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

ونرى هنا أيضاً أنّ القرآن حين يتحدث عن نبيهم «صالح» يذكره على أنه أخوهم، وأى تعبير أروع وأجمل منه حيث بينا قسماً من محتواه فى الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب ودود مشفق ليس له هدف إلاّ الخير لجماعته «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا».

ونجد أيضاً أنّ منهج الأنبياء جميعاً يبدأ بمنهج التوحيد ونفى أى نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان التى هى أساس جميع المتاعب «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

ولكى يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم الله المهمة التى استوعبت جميع وجودهم فقال: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ».

ثم يُذكر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمه الخلقه بنعم اخرى موجودة في الأرض حيث قال: «وَاسْتَعْمَرَ كُمْ فِيهَا».

الطريف هنا أن القرآن لم يقل: إن الله عمر الأرض وجعلها تحت تصرفكم، وإنما قال:

وفوض إليكم إعمار الأرض «وَاسْتَعْمَرَ كُمْ فِيهَا» وهي إشارة إلى أن الوسائل معدة فيها لكل شيء وعليكم إعمارها بالعمل والسعي

المتواصل والسيطرة على مصادر الخيرات فيها.

وبدون ذلك لا حظ لكم في الحياة الكريمة.

فإذا كان الأمر كذلك: «فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ» لدعواتكم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٤

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٍ (٦٥) والآن لنلاحظ ما الذي كان جواب المخالفين لنبي الله «صالح عليه السلام» إزاء منطقه الحي الداعي إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسى للتأثير على النبي «صالح» أو على الأقل للمحاولة في عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، وبالتعبير العامى الدارج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: «يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا». وكنا نتوجه إليك لحل مشاكلنا ونستشيرك في امورنا ونعتقد بعقلك وذكائك ودرائتك، ولم نشك في إشفائك واهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان وهو منهج اسلافنا ومفخرة قومنا، فأبدت عدم احترامك للأوثان ولل كبار وسخرت من عقولنا «أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا». والحقيقة أننا نشك في دعوتك للواحد الأحد «وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ».

لكن هذا النبي الكبير لم ييأس من هدايتهم ولم تؤثر كلماتهم المخادعة في روحه الكبيرة فأجابهم قائلاً: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً». أفأسكت عن دعوتى ولا أبلغ رساله الله ولا أواجه المنحرفين «فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ». ولكن اعلمو أن كلامكم هذا واحتجاجكم بمنهج السلف والآباء لا- يزيدنى إلا إيماناً بضلالتكم وخسرانكم: «فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ».

وبعد هذا كله ومن أجل البرهان على صدق دعوته، وبيان المعجز الإلهية التي دونها

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٥

قدره الإنسان جاءهم بالناقة التي هي آية من آيات الله وقال: «وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ».

«الناقة»: فى اللغة هى انثى الجمل، وقد اضيفت إلى لفظ الجلالة «الله» وهذه الإضافة تدل على أن هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الإلتفات إلى ما عبّر عنها فى الآيه المتقدمه بأنها «آيه» وعلامه إلهية ودليل على الحقايق، يتضح أنها لم تكن ناقة عاديه، بل كانت خارقه للعادة من جهه أو جهات متعدده.

إن القرآن ذكر قصة ناقة صالح بشكل مجمل غير أننا نقرأ فى روايات كثيرة، أن هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، ولها خصائص اخرى ليس هنا مجال سردها.

وعلى كل حال، فمع جميع ما أكده نبينهم العظيم «صالح» فى شأن الناقة، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها، لأن وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النبي صالح عليه السلام، لذلك فإن جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا

يجدون في دعوة صالح خطراً على مصالحتهم، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتعرض دعائم استعمارهم للتقويض والانهيار، فتآمروا للقضاء على الناقة وهياؤها جماعة لهذا الغرض، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض «فَعَقَرُوهَا».

«عقروها»: مشتقة من مادة «العقر» على وزن «الظلم» ومعناه: أصل الشيء وأساسه وجذره، لأن نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل.

العلاقة الدينية: إن الإسلام يعدّ الرضا الباطني في أمر ما والإرتباط معه إرتباطاً عاطفياً بمنزلة الاشتراك فيه. يقول الإمام علي عليه السلام في الخطبة (٢٠١) في نهج البلاغة: «وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعّمهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا».

وهناك روايات متعددة في المضمون ذاته نقلت عن نبي الخاتم وأهل بيته الكرام، وهي تكشف غاية الإهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية والمناهج الفكرية المشتركة بجلاء.

وفي نهاية الآية نقرأ أن النبي «صالحاً» بعد أن رأى تمرد قومه وعقرهم الناقة أذهرهم «فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ». فهو وعد الله الذي لا يتغير وما أنا من الكاذبين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٦

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَذَانٌ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِيدًا لَثَمُودَ (٦٨) نهاية ثمود؛ قوم صالح: في هذه الآيات يتبين كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم: «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» فتقول الآيات: «فَلَمَّا حَيَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» لا من العذاب الجسماني والمادى فحسب، بل «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» (١). لأن الله قوى وقادر على كل شيء، وله السلطة على كل أمر، ولا يصعب عليه أي شيء ولا قدره فوق قدرته «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ».

وعلى هذا فإن نجاه جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبلى بعذاب الله ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة الله تعالى.

إن رحمة الله تستوجب ألا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين، وألما يؤاخذ المؤمنون بجريهه غير المؤمنين «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح «كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِيدًا لَثَمُودَ» عن لطف الله ورحمته.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالِ لِمَ لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَمَّا تَصَلُّ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

(١) «الخزى»: في اللغة الإنكسار الذي يصيب الإنسان سواءً من نفسه أو من سواه ويشمل كل أنواع الذل أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٧

جانب من حياة محطّم الأصنام: والآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «إبراهيم عليه السلام» هذا البطل العظيم الذي حطم الأصنام، وما جرى له مع قومه، وهنا تذكر الآيات قسماً من حياته المرتبطة بقصة «قوم لوط» وعقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام والعصيان، فتقول في البداية: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى».

وهؤلاء الرسل هم الملائكة الذين امروا بتدمير مدن قوم لوط، ولكنهم قبل ذلك جاؤوا إلى إبراهيم ليسلموه بلاغاً يتضمّن بشرى سارة. أمّا عن ماهية هذه البشرية فهناك احتمالان، ولا مانع من الجمع بينهما.

الإحتمال الأول: البشرى بتولد إسماعيل وإسحاق ويعدّ بشاره عظمى.

والإحتمال الثانى: إن إبراهيم كان مستاءً مما وجده فى قوم لوط من الفساد والعصيان، فحين أخبروه بأنهم امرؤا بهلاكهم شيز، وكان هذا الخبر بشرى له.

فحين جاءوا إبراهيم «قَالُوا سَلِمًا» فأجابهم أيضاً و «قَالَ سَلَمٌ» ورحب بهم «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ». «العجل»: فى اللغة ولد البقر؛ و «الحنيد»: معناه المشوى.

ويستفاد من هذه الجملة أن من آداب الضيافة أن يعجّل للضيف بالطعام، خاصة إذا كان الضيف مسافراً، فإنه غالباً ما يكون متعباً وجائعاً وبحاجة إلى طعام، فينبغى أن يقدم له الطعام عاجلاً ليخلد إلى الراحة.

ولكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيد لهم، فقد رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام، وهذا العمل كان مريباً له وجديداً عليه، فأحس بالإستيحاش واستغرب ذلك منهم «فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً».

ومن السنن والعادات القديمة التى لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم الترام بالتقاليد الطيبة للاسلاف، هى أن الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (وبما اصطلاح عليه:

تناول من ملحه وخبزه) فهو لا يكرّ له قصد سوء، وعلى هذا فإن من له قصد سوء مع أحد- واقعاً- يحاول ألا يأكل من طعامه «وخبزه وملحه» ومن هذا المنطلق شك إبراهيم فى نياتهم، وأساء الظن بهم، واحتمل أنهم يريدون به سوءاً.

أما الرسل فإنهم لما اطلعوا على ما فى نفس إبراهيم، بادروا لرفع ما وقع فى نفسه و «قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٨

وفى هذه الحال كانت امرأته «ساره» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية: «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ».

هذا الضحك من ساره يحتمل أن يكون لأنها كانت مستاءة من قوم لوط وفجائعتهم، وأطلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سبباً لسرورها وضحكها.

ثم تضيف الآية أن إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: «فَبَشِّرْنَهَا بِيِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ».

الواقع أن الملائكة بشرّوها بالولد وبالحنيد، فالأول إسحاق والثانى يعقوب، وكلاهما من أنبياء الله.

ومع التفات «ساره» امرأة إبراهيم إلى كبر سنّها وسنّ زوجها فإنها كانت آيسة من الولد بشده، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا الأمر و «قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ».

إن رسل الله ازالوا التعجب عنها فوراً وذكروها بنعم الله «الخالقة للعاده» عليها وعلى اسرتها ونجاتهم من الحوادث الجمة، فالتفتوا إليها و «قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ». ذلك الرب الذى نجى إبراهيم من مخالب نمرود الظالم، ولم

يصبه سوء وهم فى قلب النار.

وهذه الرحمة الإلهية لم تكن خاصة بذلك اليوم فحسب، بل هى مستمرة فى أهل هذا البيت، وأى بركة أعظم من وجود رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام فى هذه الاسرة وفى هذا البيت بالذات.

وقالت ملائكة الله لمزيد التأكيد على بشارتهم وكلامهم فى شأن الله: «إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ».

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) رأينا فى الآيات السابقة أن إبراهيم عرف فوراً أن أضيافه الجدد لم يكونوا

أفراداً خطرين أو يخشى منهم، ولما ذهب الهلع والخوف عن إبراهيم من اولئك الأضياف، ومن ناحية اخرى فقد بشره بالوليد السعيد، شرع فوراً بالتفكير فى قوم لوط الذين ارسل إليهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٠٩

هؤلاء الرسل «الملائكة» فأخذ يجادلهم ويتحدث معهم في أمرهم «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» (١).

وهنا يمكن أن ينقدح هذا السؤال، وهو: لِمَ تباحث إبراهيم عليه السلام مع رسل الله وجادلهم في قوم آثمين ظالمين - كقوم لوط - وقد امروا بتدميرهم، في حين أن هذا العمل لا يتناسب مع نبى، خاصة إذا كان إبراهيم عليه السلام في عظمته وشأنه؟ لهذا فإن القرآن يعقب مباشرة في الآية عن شفقة إبراهيم وتوكله على الله فيقول: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» (٢). هذه الاضافات الثلاث المجمله جواب على السؤال المشار إليه آنفاً. وتوضيح ذلك: إن هذه الصفات المذكورة لإبراهيم تشير إلى أن مجادلته كانت ممدوحه، وذلك لأن إبراهيم لم يتضح له أن أمر العذاب صادر من قبل الله بصورة قطعية، ويحتمل أنهم سيرتدون عن غيهم ويتعظون، ومن هنا فما زال هناك مجال للشفاعة لهم ...

وتقول الآية التالية: إن الرسل قالوا لإبراهيم - مباشرة - أن أعرض عن اقتراحك لأن أمر ربك قد تحقق والعذاب نازل لا محاله. «يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاباً غير مؤدود». والتعبير بـ «ربك» لا يدل على أن هذا العذاب خال من الطابع الانتقامي فحسب، بل يدل أيضاً على أنه علامة لتربية العباد وإصلاح المجتمع الإنساني.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَعِيفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)

(١) «روع»: على وزن «نوع» معناها «الخوف والوحشة» وكلمة «روع» على وزن «نوح» معناها «الروح» أو قسم منها الذي هو محل الخوف ومركزه، لمزيد الإيضاح تراجع المعاجم اللغوية.

(٢) «الحليم»: مشتق من «الحلم» وهو: الأناة والصبر في سبيل الوصول إلى هدف مقدس، والأواه في الأصل: كثير التحسر والآه سواء من الخوف من المسؤولية التي يحملها أو من المصائب، والمنيب من الإنابة أي الرجوع.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٠

قوم لوط وحياء الخزي: مرّت في آيات من سورة الأعراف إشارة إلى شيء من مصير قوم لوط، وفسرنا ذلك في محله، وهنا يتناول القرآن الكريم - وبمناسبة ما ذكره من قصص الأنبياء وأقوامهم وبما ورد في الآيات المتقدمة عن قصة لوط وقومه - قسماً آخر من حياة هؤلاء القوم المنحرفين الضالين ليتابع بيان الهدف الأصلي ألا وهو سعادة المجتمع الإنساني ونجاته بأسره. يبين القرآن الكريم في هذا الصدد أولاً ... أنه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهم من كل جانب «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

وقد ورد في الروايات الإسلامية أن لوطاً كان في مزرعته حيث فوجيء بعدد من الشباب الواسمين الصّباح الوجوه قادمون نحوه وراغبون في النزول عنده ولرغبته باستضافتهم من جهة، ولعلمه بالواقع المرير الذي سيشهده في مدينته الملوثة بالانحراف الجنسي من جهة أخرى، كل ذلك أوجب له الهم ...

ومرّت هذه المسائل على شكل أفكار وصور مرهقة في فكره، وتحدث مع نفسه «وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ»، لاحتمال الفضيحة والتورط في مشاكل عويصة.

«سبيء»: مشتقة من ساء، ومعناها عدم الإرتياح وسوء الحال؛ و «الذرع»: تعني «القلب» على قول؛ وكلمة «عصيب»: مشتقة من «العصب» ومعناه ربط الشيء بالآخر وشده شداً محكماً، وبما أن الحوادث الصعبة تشد الإنسان وكأنها تسلبه راحته فيظل مبلبل الأفكار سُميت

«عصية» وتطلق العرب على الأيام شديدة الحر أنها عصية أيضاً.

وورد في بعض الروايات أن لوطاً أحر ضيوفه كثيراً حتى حلول الليل، فلعله يستطيع أن يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، ويقوم بواجب الضيافة دون أن يُساء إلى أضيافه، ولكن ما عسى أن يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، وكانت امرأة لوط امرأة كافرة وتساعد قومه الظالمين، وقد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف إلى بيتها، فصعدت إلى أعلى السطح وصدقت بيديها أولاً، ثم ياشعال النار وتساعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأن طعمه دسمه قد وقعت في «الشباك».

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» (١). وكانت حياة هؤلاء

(١) «يهرعون»: مشتقة من الإهراع ومعناها السياقة الشديدة، فكأنما تسوق غريزة هؤلاء إياهم بشدة إلى أضيافه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١١

القوم مسودة وملطخة بالعار «وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» فكان من حق لوط أن يضيق ذرعاً ويصرخ ممّا يرى من شدة استيائه و «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» فأنا مستعد أن أزوجهن إياكم «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» يصدكم عن هذه الأعمال المخزية وينصحكم بالإقلاع عنها.

تعبير لوط «أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» في آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف عن هذه الحقيقة، وهي أن وجود رجل - ولو رجل واحد رشيد - بين قوم ما وقبيلة ما يكفي لردعهم من أعمالهم المخزية، أي لو كان فيكم رجل عاقل ذو لب ورشد لما قصدتم بيتي ابتغاء الإعتداء على ضيفي!

ولكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطاً بكل وقاحة وعدم حياء و «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ». وهنا وجد لوط - هذا النبي العظيم - نفسه محاصراً في هذه الحادثة المريرة فنادى و «قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ» أو سند من العشيرة والأتباع والمعاهدين الأقوياء حتى اتغلب عليكم «أَوْ آوَى إِلَي رُكْنٍ شَدِيدٍ».

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْطَلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِئَةٌ بِمَا أَصَابَتْهُمْ وَإِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحَ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَاباً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ (٨٣) عاقبة الجماعة الظالمة: وأخيراً حين شاهد الملائكة (رسل الله) الأضياف، ما عليه لوط من عذاب النفس كشفوا «ستاراً» عن أسرار عملهم و «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ».

نقرأ في الآية (٣٧) من سورة القمر: «وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ». ونقرأ في بعض الروايات - أيضاً - أن أحد الملائكة غشى وجوههم بحفنه من التراب فعموا جميعاً.

إن اطلاع لوط عليه السلام على حال أضيافه وأموربتهم، دنا زمن السرور والنجاة من مخالبا هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٢

ثم أمر الأضياف لوطاً - مباشرة - أن يرحل هو وأهله من هذه البلدة وقالوا: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ».

ولكن كونوا على حذر «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» إلى الورا «إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِئَةٌ بِمَا أَصَابَتْهُمْ» لتخلفها عن أمر الله وعصيانها مع العصاة الظلمة.

وخلاصة الأمر فإن آخر ما قاله رسل الله - أي الملائكة - للوط عليه السلام: إن العذاب سينزل قومه صباحاً. ومع أول شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: «إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحَ».

ونقرأ في بعض الروايات أن الملائكة حين وعدوا لوطاً بنزول العذاب صباحاً، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه مما ساءه، وجرح قلبه وملاؤه همماً وغمماً أن يعجلوا عليهم بالعذاب في الحال فإن الأفضل الإسراع، ولكن الملائكة طمأنوه بقولهم: «أَلَيْسَ الصُّبْحُ

بِقَرِيبٍ».

وأخيراً دنت لحظة العذاب وتصرّمت ساعات انتظار لوط النبي عليه السلام وكما يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ».

وكلمة «سجّيل»: فارسية الأصل، وهي مركبة من «سنگ» ومعناها الحجارة و «گل» ومعناها الطين، فعلى هذا هي شيء لاصلباً كالحجارة ولا رخواً كالزهره، وإتما هي برزخ «وسط» بينهما. و «المنضود»: من مادة «نضد» ومعناه كون الشيء مصفوفاً وموضوعاً بشكل متتابع ومتراكم، أى إنّ هذا المطر كان متتابعاً سريعاً إلى درجة حتى كأنّ هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

ولكن هذه الأحجار ليست أحجاراً عادية، بل هي أحجار فيها علامات عند الله «مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ».

ولا تتصوروا أنّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ».

هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصير امتهم كما استهزؤوا بالإيمان والأخلاق الإنسانية، وكلّما نصحهم نبيهم باخلاص وحرقة قلب لم يسمعوا له وسخروا منه.

تحريم الانحراف الجنسي: يُعدّ الميل الجنسي إلى المماثل «سواء وقع ذلك بين الرجال أو بين النساء» من الذنوب الكبيرة في الإسلام، وقد جعل الإسلام لكل من الحالتين حداً شرعياً.

والروايات التي تدم الميل الجنسي إلى المماثل والمنقولة عن قادة الإسلام كثيرة ومذهلة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٣

والمطالع لهذه الروايات يحسّ أنّ قبح هذا الذنب ليس له مثيل بين الذنوب.

نقرأ مثلاً من هذه الروايات رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «من جامع غلاماً جاء يوم القيامة جنباً لا ينجيه ماء الدنيا، وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً. ثمّ قال: إنّ الذّكر يركب الذّكر فيهنّ العرش لذلك» (١).

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَ لَمَّا تَنقَضُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَ لَمَّا تَبَخَّسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَمَّا تَغَنَّوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) مدين بلدة شعيب: مع انتهاء قصة قوم لوط تصل النوبة إلى قوم شعيب وأهل مدين، اولئك الذين حادوا عن طريق التوحيد وهاموا على وجوههم في شركهم وعبادة الأصنام، ولم يعبدوا الأصنام

فحسب، بل الدرهم والدينار والثروة والمال، ومن أجل ذلك فإنّهم لو ثوا تجارتهم الرابحة وكسبهم الوفير بالغش والبخس والفساد. في

بداية القصة تقول الآية: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا». وكلمة «أخاهم» تستعمل في مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبة من قبل الأنبياء لقومهم.

و «مدين»: اسم لمدينة شعيب وقبيلته، وتقع المدينة شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء إسماعيل، وكانوا يتاجرون مع أهل مصر ولبنان وفلسطين.

هذا النبي وهذا الأخ الودود المشفق على قومه - كأي نبي في أسلوبه وطريقته في بداية الدعوة - دعاهم أولاً إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد» وقال: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

ثم أشار إلى أحد المفسدات الاقتصادية التي هي من افرازات عبادة الأصنام والشرك، وكانت رائجة عند أهل مدين يومئذٍ جداً، وقال: «وَلَمَّا تَنقَضُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ». أى حال البيع والشراء.

(١) وسائل الشيعة ١٤ / ٢٤٩.

ويشير هذا النبى العظيم بعد هذا الأمر إلى علتين: العلة الاولى: هى قوله «إِنِّي أَرِيكُمْ بِخَيْرٍ».

يقول أولاً: إن قبول نصحي يكون سبباً لتفتح أبواب الخير عليكم وتقديم التجارة وهبوط سطح القيمة واستقرار المجتمع. ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه الجملة «إِنِّي أَرِيكُمْ بِخَيْرٍ» أن شعيباً يقول لهم: إنى أراكم منعمين وفى خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة لعبادة الأصنام وإضاعه حقوق الناس والكفر بدلاً من الشكر على نعم الله سبحانه.

وثانياً: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» بسبب إصراركم على الشرك والتطيف فى الوزن وكفران النعمة ... الخ. وكلمة «محيط»: جاءت صفة ليوم، أى يوم شامل ذو إحاطة، وشمول اليوم يعنى شمول العذاب والعقاب فى ذلك اليوم، وهذا التعبير فيه إشارة إلى عذاب الآخرة كما يشير إلى عقاب الدنيا الشامل.

و الآية الاخرى تؤكد على نظامهم الاقتصادى، فإذا كان شعيب قد نهى قومه عن قلة البيع والبخس فى المكيال، فهنا يدعوهم إلى إيفاء الحقوق والعدل والقسط حيث يقول: «وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ».

ويجب أن يحكم هذا الأصل «وهو اقامة القسط والعدل، وإعطاء كل ذى حق حقه» على مجتمعكم بأسره.

ثم يخطو خطوة أوسع ويقول: «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ».

و «البخس»: معناه فى اللغة التقليل، وجاء هنا بمعنى الظلم أيضاً.

ونجد فى نهاية الآية أن شعيباً يخطو خطوة اخرى أوسع ويقول لقومه: «وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

فالفساد يقع عن طريق البيع ويقع عن طريق غصب حقوق الناس والإعتداء على حقوق الآخرين، والفساد أيضاً يقع فى الإخلال بالموازن والمقاييس الاجتماعيه، ويقع أيضاً ببخس الناس أشياءهم وأموالهم، وأخيراً يقع الفساد على الحثيات بالإعتداء على حرمتها وعلى النواميس وأرواح الناس.

إن الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعيه بجلاء، وهى أنه بعد الإعتقاد بالتوحيد والنظر الفكرى الصحيح، يُنظر إلى الاقتصاد السليم بأهميه خاصه، كما تدلّان على أن

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٥

الإخلال بالنظام الاقتصادى سيكون أساساً للفساد الواسع فى المجتمع.

ثم يخبرهم أن زيادة الثروة- التى تصل إلى أيديكم عن طريق الظلم واستثمار الآخرين- ليست هى السبب فى غناكم، بل ما يغنيكم هو «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ».

التعبير ب «بقيت الله» إمّا لأنّ الربح الحلال القليل المترشح عن أمر الله فهو «بقيت الله» وإمّا لأنّ الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم الله وبقاء البركات ... وإمّا لأنه يشير إلى الجزاء والثواب المعنوى الذى يبقى إلى الأبد.

وقد قلنا مراراً إن آيات القرآن بالرغم من نزولها فى موارد خاصه، إلّا أنها تحمل مفاهيم جامعه وكلييه، بحيث يمكن أن يكون لها مصداق فى العصور والقرون التاليه وتنطبق على مجال أوسع أيضاً.

صحيح أن المخاطبين فى الآية المتقدمه هم قوم شعيب، والمراد من «بقيت الله» هو الربح ورأس المال الحلال أو الثواب الإلهي، إلّا أن كل موجود نافع باق من قبل الله للبشريه، ويكون أساس سعادتها وخيرها يعدّ «بقيت الله» أيضاً.

ومن هنا فإنّ «المهدى الموعود عليه السلام» آخر إمام وأعظم قائد ثورى بعد النبى صلى الله عليه وآله من أجلى مصاديق «بقيت الله» وهو أجدر من غيره بهذا اللقب، خاصه أنه الوحيد الذى بقى بعد الأنبياء والأئمه عليهم السلام.

وفى نهاية الآية- محل البحث- نقرأ على لسان شعيب: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ». إذ وظيفته هى البلاغ وليس مسؤولاً على «إجبار» أحد أبداً.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلمَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أ



رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٦

المنطق الواهي: والآئن فلتر ما كان رد القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السماوي «شعيب». فيما إنهم كانوا يتصورون أن عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، ودلاله على أصالة ثقافتهم، وكانوا لا يرفعون اليد عن الغش في المعاملة وتحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالوا: «يَا شُعَيْبُ أَصَلَمْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا». وترك حريتنا في التصرف بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها «أو أن نفعل في أموالنا ما نشؤا». إن هذا بعيد منك «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ».

لقد كان قوم شعيب واقعين في مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون أنه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قبل مالكيها، في حين يجب أن تكون الامور الماليه تحت ضوابط صحيحة ومحسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، وإلا فستجز الحريه المطلقة المجتمع نحو الانحراف والفساد.

وعلى كل حال هؤلاء الأغنياء فلعلهم كانوا يتصورون متساءلين: إن هذه الأذكار والأدعية ما عسى أن تؤثر في هذه الامور؟ على حين لو كان اولئك يفكرون جيداً لأدركوا هذا الامر الواقعي وهو أن الصلاة توظف في الإنسان الإحساس بالمسؤولية والتقوى ومخافة الله ومعرفته الحقوق، وتذكره بالله وبمحكمه عدل الله، ولذلك فهي تخلصه من الشرك وعبادة الأصنام والتقليد الأعمى للسلف الجاهل وبخس الناس أشياءهم، وعن أنواع الغش والخداع ... الخ.

ولكن شعيباً رد على من اتهمه بالسفه وقله العقل بكلام متين و «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا». ثم يضيف هذا النبي العظيم قائلاً: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ». فلا تتصوروا أنني أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا أفعل ذلك كله، كلا فإنني لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً.

ويستفاد من هذه الجملة أنهم كانوا يهتمون شعيباً بأنه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفي هذا الموضوع صراحةً ويقول تعقيباً على ما سبق «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ».

وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلاقات والروابط الاجتماعية وأنظمتها «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٧

بِاللَّهِ» للوصول إلى هذا الهدف.

وعلى هذا فإنني، ولأجل أداء رسالتي والوصول إلى هذا الهدف الكبير «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وأسعى للإستعانة به على حل المشاكل، وأتوكل عليه في تحمّل الشدائد في هذا الطريق، وأعوذ إليه أيضاً.

ثم ينههم إلى مسأله أخلاقيه، وهي أنه كثيراً ما يحدث للإنسان أنه لا يعرف مصالحه وينسى مصيره، وذلك بسبب بغضه وعدائه بالنسبة لشخص آخر أو التعصب الأعمى واللجاجه في شيء ما، فيقول لهم «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي» فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و «أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ» وما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطهم الله بحجاره من سجل منضود وقلب مدنهم فجعل عاليها سافلها «وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ».

و «مدين»: التي كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، لأنّ المواطنين كلاهما كانا من مناطق «الشامات» وأما من الناحية العمليه فالفرق كبير بين الانحراف الجنسي الذي كان عليه قوم لوط والانحراف الاقتصادي الذي كان عليه قوم شعيب، لكن

كليهما يتشابهان في توليد الفساد في المجتمع والإخلال بالنظام الاجتماعي وإماتة الفضائل الخلقية وإشاعة الانحراف.

ثم يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما ما كان يؤكد عليه جميع الأنبياء المتقدمين.

الأول: قوله: «وَأَسِئْتُمْ بِرَبِّكُمْ»، أى لتطهروا من الذنوب وتجنبوا الشرك وعبادة الأوثان والخيانة فى المعاملات. والثانى: قوله: «ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ» أى ارجعوا إليه.

والواقع أن الاستغفار توقف فى مسير الذنب وغسل النفس، والتوبة عودة إلى الله الكمال المطلق.

واعلموا أنه مهما يكن الذنب عظيماً والوزر ثقيلاً فإن طريق العودة إليه تعالى مفتوح وذلك لأن «رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ».

«الودود»: صيغة مبالغه مشتقة من الود ومعناه المحبة، وذكر هذه الكلمة بعد كلمة «رحيم» إشارة إلى أن الله يلتفت بحكم رحمته إلى المذنبين التائبين، بل هو إضافة إلى ذلك يحبهم كثيراً لأن رحمته ومحبته هما الدافع لقبول الاستغفار وتوبة العباد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٨

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَأَرْهَطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) التهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه: إن شعيباً هذا النبى العظيم - الذى لُقّب بخطيب الأنبياء «١» لخطبه المعروفة والواضحة، والى كانت أفضل شاهد أمين للحياة المادية والمعنوية لهذه الجماعة - واصل محاججته لقومه بالصبر والأناة والقلب المحترق، ولكن تعالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم الضالون؟! لقد أجابوه بأربع جمل كلها تحكى عن جهلهم ولجاجتهم:

فأولها: أنهم قالوا: «يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ».

والثانية: قولهم «وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا».

والثالثة: هى أنه لا تظن أننا نتردد فى القضاء عليك بأشع صورة خوفاً منك ومن بأسك، ولكن احترامنا لعشيرتك هو الذى يمنعنا من ذلك «وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ».

«الرهط»: تطلق فى لغة العرب على الجماعة التى مجموع أنصارها ثلاثة إلى سبعة، أو عشرة، أو على قول - وهو الحد الأكثر - تطلق على أربعين نفراً.

وهم يشيرون بذلك إلى أن قبيلتك تتمتع بالقوة الكافية مقابل قوتنا، ولكن تمنعنا أمور أخرى.

وقولهم الأخير: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ» فهما كانت منزلتك فى عشيرتك، ومهما كنت كبيراً فى قبيلتك إلا أنه لا منزلة لك عندنا لسلك المخالف والمرفوض.

ولكن شعيباً دون أن يتأثر بكلماتهم الرخيصة واتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب وبيانه الشائق متعجباً وقال: «يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ» أفندرونى من أجل

(١) بحار الأنوار ١٢ / ٣٨٧.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١٩

رهطى وقبيلتى التى لا تتجاوز عدّة أنفار ولا تصغون لكلامى فى الله؟ وهل يمكن أن نقارن عدّة أفراد بعظمه الله سبحانه ... وأنتم لم تهابوه وتوقروه «وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا».

وفى الختام يقول لهم: لا تظنوا أن الله غافل عنكم أو أنه لا يرى أعمالكم ولا يسمع كلامكم، بل «إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

فحيث أن المشركين من قوم شعيب هددوه فى آخر كلامهم بالرجم، وأبرزوا قوتهم أمامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على

النحو التالى: «وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» (١).

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلًا بُغْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥) عاقبة المفسدين فى مدين: قرأنا فى قصص الأقسام السابقين مراراً، أن الأنبياء كانوا فى المرحلة الاولى يدعونهم إلى الله، وفى المرحلة التى بعدها حيث لم ينفع النصيح للجماعة ينذرنا نبيها ويخوفها من عذاب الله، وفى المرحلة الثالثة، تبدأ مرحلة التصفيه وينزل العقاب. وفى شأن قوم شعيب- أى أهل مدين- وصل الأمر إلى المرحلة النهائية أيضاً، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ». «الصيحة»: معناها فى اللغة كل صوت عظيم، والقرآن الكريم يحكى عن هلاك أقوام متعددين بالصيحة السماوية، هذه الصيحة يحتمل أن تكون صاعقة من السماء أو ما شابهها.

ثم يعقب القرآن فيقول: «فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». أى: أجساداً هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر ... وهكذا طوى سجل وطومار حياتهم «كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا». وانطفاً بريق كل شىء، فلا ثروة ولا قصور ولا ظلم ولا زينة كل ذلك تلاشى وانعدم.

وكما كانت نهاية عاد و ثمود- وقد حكى عنهما القرآن- فهو يقول عن نهاية مدين أيضاً

(١) «الرقيب»: معناه الحافظ والمراقب وهو مشتق فى الأصل من الرقبة وإنما سُمى بذلك لأنه يكون حافظاً على رقبة شخص ما «كناية عن أنه مراقب على روحه» أو يحرك الرقبة ليؤدى دور الرقابة والحفظ.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٠

مختصر الامثل ج ٢ ٤٤٩

«أَلَّا بُغْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ». والمقصود من كلمة «مدين» أهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة الله وكانوا من الهالكين. وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلِيئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَفْقُدُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بئسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) البطل المبارز لفرعون: بعد انتهاء قصة شعيب وأهل مدين، يشير القرآن الكريم إلى زاوية من قصة موسى ومواجهته لفرعون وهذه القصة هى القصة السابعة من قصص الأنبياء فى هذه السورة. تحدث القرآن الكريم عن قصة موسى عليه السلام وفرعون وبنى اسرائيل أكثر من مائة مرة. وخصوصية قصة موسى عليه السلام بالنسبة لقصص الأنبياء- كشعيب وصالح وهود ولوط عليهم السلام التى قرأناها فى ما سبق- هى أن أولئك الأنبياء عليهم السلام واجهوا الأقسام الضالين، لكن موسى عليه السلام واجه إضافة إلى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبد هو فرعون الجبار. ولكن ينبغى الالتفات إلى أننا نقرأ فى هذا القسم من قصة موسى زاوية صغيرة فحسب ولكنها فى الوقت ذاته تحمل رسالة كبيرة للناس جميعاً. يقول القرآن الكريم أولاً:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

«السلطان»: بمعنى التسلط، يستعمل تارةً فى السلطة الظاهرية، وأحياناً فى السلطة المنطقية، السلطة التى تحاصر المخالف فى طريق مسدود بحيث لا يجد طريقاً للفرار.

ويبدو فى الآية المتقدمة أن «السلطان» استعمل فى المعنى الثانى، والمراد ب «الآيات» هى معجز موسى الجليلة.

إن موسى ارسل بتلك المعجزات القاصمة وذلك المنطق القوى «إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ».

«الملاء»: تطلق على الذين يملأ مظهرهم العيون بالرغم من خلو المحتوى الداخلى، وفى منطق القرآن تطلق هذه الكلمة غالباً على

الوجوه والأشراف والأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين وبالقوى الظالمة... إلّا أنّ جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة... لمنطقه الحق ومعجزاته

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢١

«فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ». ولكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس إلى الحياة السعيدة أو ضمان نجاتهم وتكاملهم: «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ». ويوم الحشر حين يأتي الناس عرصات القيامة فإن زعمائهم وقادتهم في الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يرى فرعون هناك: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وبدلاً من أن ينقذهم ويخلصهم من حرارة المحشر وعطشه يوصلهم إلى جهنم «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبَسَّ الْوَرْدُ الْمُرْوَدُ». فبدلاً من أن يسكن عطش أتباعه هناك يحرق وجودهم وبدلاً من الإرواء يزيدهم ظمأً إلى ظمأً. ثم يقول القرآن: «وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ». فأسماؤهم الدليّة تثبت على صفحات التاريخ أبداً على أنّهم قوم ضالون وجابرة، فقد خسروا الدنيا والآخرة وساءت النار لهم عطاء وجزاءً «بَسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ».

«الرفد»: في الأصل معناه الإعانة على القيام بعمل معين، ثم أطلقت هذه الكلمة على العطاء لأنه إعانة من قبل المعطى إلى المطعى له. ذلك من أتباع القرى نقضه عليك منها قائم وحصيد (١٠٠) وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيب (١٠١) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذة أليم شديد (١٠٢) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (١٠٣) وما تؤخروه إلا لأجل معدود (١٠٤) في آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقسام السابقين ولمحات من تاريخ أنبيائهم، وهنا إشارة إلى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مرّ من الحوادث والأنباء حيث يقول: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ».

«قائم»: تشير إلى المدن والعمارات التي لا تزال باقية من الأقسام السابقين.

«حصيد»: معناها اللغوي قطع النباتات بالمنجل، وفي هذه الكلمة إشارة إلى بعض

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٢

الأراضي البائرة، كأرض قوم نوح وأرض قوم لوط، حيث إنّ واحدة منهما دمرها الغرق والثانية امطرت بالحجارة. «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» حيث ركنوا ولجأوا إلى الأصنام والآلهة «المزعومة» «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك» بل زادوهم ضرراً وخسراً «وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِبٍ» (١).

«وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ» فلا يدعها على حالها و «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ».

هذا قانون إلهي عام ومنهج دائم، فما من قوم أو أمة من الناس يتجاوزون حدود الله ويمدون أيديهم للظلم ولا يكثرثون لنصائح أنبيائهم ومواعظهم، إلّا أخذهم الله أخذاً شديداً واعتصرتهم قبضة العذاب.

وبالطبع فإنّ الظلم بمعناه الواسع يشمل جميع الذنوب، ووصّفت القرية أو المدينة بأنّها «ظالمة» مع أنّ الوصف ينبغي أن يكون لساكينها، فكأنما هناك مسألة دقيقة وهي أنّ أهل هذه المدينة انغمسوا في الظلم إلى درجة حتى كأنّ المدينة أصبحت مغموسة في الظلم أيضاً.

وبما إنّ هذا قانون كلي فإنّ القرآن يقول مباشرة: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ». لأنّ الدنيا لا تعدّ شيئاً إزاء الآخرة، وجميع ما في الدنيا حقير حتى ثوابها وعقابها، والعالم الآخر أوسع - من جميع النواحي - من هذه الدنيا، فالمؤمنون بيوم القيامة ينظرون بعين العبرة لدى مشاهدة هذه المثل والنماذج في الدنيا، ويواصلون طريقهم.

وفي ختام الآية إشارة إلى وصفين من أوصاف يوم القيامة حيث يقول القرآن: «ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ».

هي إشارة إلى أنّ القوانين والسنن الإلهية كما هي عامّة في هذا العالم، فإنّ اجتماع الناس في تلك المحكمة الإلهية أيضاً عام.

وبما أن البعض قد يتوهم أن الحديث عن ذلك اليوم لم يحن أجله فهو نسيئته وغير معلوم وقت حلوله، لهذا فإن القرآن يقول مباشرة: «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ».

وذلك أيضاً لمصلحة واضحة جلية ليرى الناس ميادين الاختبار والتعلم، ولتجلى آخر منهج للأنبياء.

(١) «التيب»: مشتق من مادة «تب» ومعناه الاستمرار في الضرر، وقد يأتي بمعنى الهلاك أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٣

والتعبير بكلمة «معدود» إشارة إلى قرب يوم القيامة، لأن كل شيء يقع تحت العد والحساب فهو محدود وقريب. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ (١٠٨) السعادة والشقاوة: أشير في الآيات المتقدمة إلى مسألة القيامة واجتماع الناس كلهم في تلك المحكمة العظيمة ... وهذه الآيات - محل البحث - بينت زاوية من عواقب الناس ومصيرهم في ذلك اليوم، إذ تقول الآيات أولاً: «يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ».

إن الناس يقطعون في ذلك اليوم مراحل مختلفة ... وكل مرحلة لها خصوصياتها، ففي قسم من المراحل لا يُسألون أبداً حتى أن أفواههم يُختم عليها فلا يتكلمون، وإنما تنطق أعضاء أجسادهم التي حفظت آثار أعمالها بلغة من دون لسان، وفي المراحل الأخرى يرفع الختم أو القفل عن أفواههم ويتكلمون بإذن الله فيعترفون بأخطائهم وذنوبهم ويلوم المخطئون بعضهم بعضاً، بل يحاولون أن يُلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

ويشار في نهاية الآية إلى تقسيم الناس جميعاً إلى طائفتين: طائفة محظوظة، وأخرى بائسة تعيسة «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ». وليس هذا الشقاء وتلك السعادة سوى نتيجة الأعمال والأقوال والنيات التي سلفت من الإنسان في الدنيا.

ثم تشرح الآيات حالات السعداء والأشقياء حيث تقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ». وتضيف حاكية عن حالهم أيضاً: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ\* وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ».

الطريف أن لفظ «شقوا» في الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبنى للمعلوم، ولفظ «سعدوا» ورد بصيغة المبنى للمجهول، ولعل في هذا الاختلاف في التعبير إشارة لطيفة إلى هذه المسألة الدقيقة، وهي أن الإنسان يطوى طريق الشقاء بخطاه، ولكن لا بد لطى طريق السعادة من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٤

الإمداد والعون الإلهي، وإلا فإنه لا يوفق في مسيره، ولا شك أن هذا الإمداد والعون يشمل أولئك الذين يخطون خطواتهم الأولى بإرادتهم واختيارهم فحسب وكانت فيهم اللياقة والجدارة لهذا الإمداد. (فلاحظوا بدقة).

بحثنان

١- مسألة الخلود في القرآن: معنى «الخلود» لغة البقاء الطويل، كما جاء بمعنى الأبد أيضاً، فكلمة «الخلود» لا تعني الأبد وحده لأنه تشمل كل بقاء طويل. ولكن ذكرت في كثير من آيات القرآن مع قيود يفهم منها معنى الأبد، فمثلاً في الآية (١٠٠) من سورة التوبة، والآية (١١) من سورة الطلاق، والآية (٩) من سورة التغابن، حين تذكر هذه الآيات أهل الجنة تأتي بالتعبير عنهم «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» ومفهومها أبدية الجنة لهؤلاء، ونقرأ في آيات القرآن الأخرى وصف أهل النار كآلية (١٦٩) من سورة النساء، والآية (٢٣) من سورة الجن هذا التعبير أيضاً «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» وهو دليل على عذابهم الأبدى.

وتعابير اخرى مثل الآية (٣) من سورة الكهف «مَا كَثَبَ فِيهِ اَبْدًا» والآية (١٠٨) من سورة الكهف أيضاً: «لَا يَتَّبِعُونَ عَنَّا حَوْلًا» وأمثالها تدل بصورة قطعية على أن طائفه من أهل الجنة وطائفه من أهل النار سيقون في العذاب أو النعمة. فالآيات - محل البحث - أيضاً تبين الدوام.

٢- أسباب السعادة والشقاء: السعادة ضالة كل الناس، وهي توفر أسباب تكامل الفرد في المجتمع، والنقطة المقابلة لها هي الشقاء وهو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح والتقدم والتكامل. ولكن ينبغي الالتفات إلى أن أساس السعادة أو الشقاء هو إرادة الإنسان نفسه، فهو يستطيع أن يوفر الوسائل لترشيد نفسه وحتى مجتمعه، وهو الذي يستطيع أن يواجه عوامل الشقاء ويهزمها أو يستسلم لها. وليس الشقاء أو السعادة في منطق الوحي ومدرسة الأنبياء شيئاً من ذات الإنسان وحتى النواقص في المحيط والعائلة والوراثة كل ذلك قابل للتغيير بتصميم الإنسان وإرادته إلا أن ننكر أصل الإرادة في الإنسان وحريته، ونعده محكوماً بالظروف الجبرية، وكل من سعاده أو شقائه ذاتي أو هو نتيجة جبرية لمحيطه، وما إلى ذلك.

وهذا الرأي مرفوض في نظر الأنبياء وفي نظر المذهب العقلي أيضاً.

الطريف أننا نجد في الروايات المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام إشارات إلى مسائل مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٥

مختلفة على أنها أسباب السعادة، أو أسباب الشقاء ... بحيث يتعرف الإنسان خلال مطالعتها على طريقة التفكير الإسلامي في هذه المسألة المهمة، وسيقف على الواقعات العينية وأسباب السعادة الحقيقية. في كتاب الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «حقيقه السعادة أن يختم للرجل عمله بالسعادة، وحقيقه الشقاوة أن يختم للمرء عمله بالشقاوة».

ويقول نبي الخاتم صلى الله عليه وآله أيضاً: «أربع من السعادة وأربع من الشقاوة، فالأربع التي من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب البهيّ. والأربع التي من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء» (١).

وإذا لاحظنا أسباب السعادة والشقاوة في الأحاديث المتقدمة وحققتهم وأثرهما البالغ في حياة البشر، وقارناهما مع الأسباب والمسائل الخرافية التي يعتقد بها جمع كثير - حتى في عصرنا - لوصلنا إلى هذا الواقع الذي يؤكد أن التعاليم الإسلامية منطقية ومدروسة إلى أقصى حد.

فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِمَّا يَعْبُدُ هَوْلًا مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصَّ بَيْنَهُمْ غَيْرَ مَقْصُوصٍ (١٠٩) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَمَا كَلِمَةً سَيَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لِيٍّ وَفِيَّهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) الاستقامة والثبات: هذه الآيات بمثابة تسلية لخاطر النبي صلى الله عليه وآله كما أنها نازلة لبيان وظيفته ومسؤوليته، وفي الواقع إن من أهم النتائج التي يتوصل إليها من القصص السابقة للآم الماضية هي أن لا يكثرث النبي ومن معه من أتباعه المؤمنون حقاً من كثرة الأعداء، ولا يخافوا منهم، ولا يشكّوا أو يترددوا في هزيمة عبدة الأصنام والظالمين الذي يقفون بوجههم، وأن يواصلوا طريقهم ويعتمدوا على الله واثقين به. لذلك يقول القرآن الكريم في

(١) بحار الأنوار ٧٣ / ١٥٤ / ٣٤.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٦

هذا الصدد: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِمَّا يَعْبُدُ هَوْلًا مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ» (١).

ويقول بعدها مباشرة: «وَإِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ». إن هذه الآية تجسم هذه الحقيقة، وهي أن ما قرأناه من قصص الامم السابقة لم يكن أسطورة، كما أنها لا تختص بالماضين، فهي سنه أبدية وخالدة وهي لجميع الناس ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. ويسلّي القرآن قلب النبي صلى الله عليه وآله مرة أخرى، فيحدثه عن موسى وقومه قائلًا: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ». ويقول إذا ما رأيت أن الله لا يعجل العذاب على قومك، فلأن مصلحه الهداية والتعليم والتربية لقومك توجب ذلك وإلا فإن القرار الالهي المسبق يقتضى التعجيل بعملية التحكيم والقضاء وبالتالي إنزال العقاب «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ».

«مریب»: مشتقة من «الريب» ومعناه الشك المقترن بسوء الظن والنظرة السيئة والقرائن المخالفة، وعلى هذا فيكون مفهوم هذه الكلمة أن عبدة الأصنام ما كانوا يترددون في مسألة حقيقة القرآن أو نزول العذاب على المفسدين فحسب، بل كانوا يدعون بأن لديهم قرائن تخالف ذلك أيضاً.

ويضيف القرآن لمزيد التأكيد: «وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ». وهذا الأمر ليس فيه صعوبة على الله ولا- حرج إذ: «إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

الطريف أن القرآن يقول: «لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ» ليشير مرة أخرى إلى مسألة تجسم الأعمال وأن الجزاء والثواب هما في الحقيقة أعمال الإنسان نفسه التي تتخذ شكلاً آخر وتصل إليه ثانية.

وبعد ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة ورمز نجاحهم ونصرهم، وبعد تسليط قلب النبي صلى الله عليه وآله وتقوية إرادته، يبين القرآن- عن هذا الطريق- أنهم دستور امر به النبي صلى الله عليه وآله وهو «فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ».

«استقم» في طريق الإرشاد والتبليغ وأداء الوظائف الإلهية ونشر التعليمات القرآنية.

ولكن هذه الاستقامة ليست لينال فلان أو فلان مستقبلاً زاهراً، بل هي لمجرد طاعة الله

(١) «المرية»: معناها التردد في التصميم على أمر ما ....

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٧

وأتباع أمره. كما أن هذه الإستقامه ليست عليك وحدك، فعليك أن تستقيم أنت «وَمَنْ تَابَ مَعَكَ» استقامة خالية من كل زيادة ونقصان وإفراط أو تفريط «وَلَا تَطْغَوْا» إذ «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ولا تخفى عليه حركة ولا قول ولا أى خطه أخرى ... الخ.

المسؤولية الكبيرة: في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أن الصحابة قالوا يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: «أجل، شيبتي هود وأخوانها».

وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية قال: «شَمِّرُوا شَمِّرُوا فما رُئِيَ ضاحكاً».

والدليل واضح، لأن أربعة أوامر مهمة موجودة في هذه الآية يلقي كل واحد منها عبئاً ثقيلاً على الكتف.

واليوم مسؤوليتنا المهمة- نحن المسلمين أيضاً، وبالخصوص قادة الإسلام- تتلخص في هذه الكلمات الأربعة. وهي: الاستقامة، والإخلاص، وقيادة المؤمنين، وعدم الطغيان والتجاوز. ودون ربط هذه الامور بعضها إلى بعض فإن النصر على الأعداء الذين أحاطونا من كل جانب من الداخل والخارج، واستفادوا من جميع الأساليب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ... هذا النصر لا يكون سوى أوهام في مخيلة المسلمين.

وَلَمَّا تَرَكْنَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (١١٣) الركون إلى الظالمين: إن هذه الآية تبين واحداً من أقوى وأهم الاسس والبرامج الاجتماعية والسياسية والعسكرية والعقائدية، فتخاطب عامة المسلمين ليؤدوا وظيفتهم القطعية فتقول: «وَلَمَّا تَرَكْنَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» (١). والسبب واضح «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ» ومعلوم عندئذ حالكم

«ثُمَّ لَأْتَنصُرُونَ».

في أى الامور لا ينبغى الركون إلى الظالمين؟ بديهي أنه في الدرجة الاولى لا يصح الإشتراك معهم فى الظلم أو طلب الإعانة منهم، وبالدرجة الثانية الاعتماد عليهم فيما يكون فيه ضعف المجتمع الإسلامى وسلب استقلاله واعتماده على نفسه وتبديله إلى مجتمع تابع

(١) «الركون»: مشتق من مادة «رُكُنَ» ومعناه العمود الضخم من الحجر أو الجدار الذى يربط البناء أو الأشياء الاخرى بعضها إلى بعض، ثم اطلق هذا اللفظ على الإعتماد أو الاستناد إلى الشىء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٨

وضعيف لا يستحق الحياة، لأنّ هذا الركون ليس فيه نتيجة سوى الهزيمة والتبعية للمجتمع الإسلامى. وأما ما نلاحظه أحياناً من مسائل التبادل التجارى والروابط العلمية بين المسلمين والمجتمعات غير الإسلاميه على أساس حفظ منافع المسلمين واستقلال المجتمعات الإسلاميه وثباتها، فهذا ليس داخلاً فى مفهوم الركون إلى الظالمين ولم يكن شيئاً ممنوعاً من وجهه نظر الإسلام، وفى عصر النبى نفسه صلى الله عليه وآله والأعصار التى تلتها كانت هذه الامور موجودة وطبيعية أيضاً.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) الصلاة والصبر: هذه الآيات تشير إلى أمرين من أهم الأوامر الإسلاميه، وهما فى الواقع روح الإيمان وقاعدة الإسلام، فيأتى الأمر أولاً بالصلاة: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ».

وظاهر التعبير من «طَرَفِي النَّهَارِ» هو بيان صلاة الصبح وصلاة المغرب اللتين يقعان طرفى النهار؛ و «الزلف» جمع «زلفه» التى تعنى القرب، ويشار بها إلى أول الليل القريب من النهار فتتطبق على صلاة العشاء.

ولأهميه الصلوات اليوميه - خاصة - وجميع العبادات والطاعات والحسنات - عموماً - فإنّ القرآن يشير بهذا التعبير: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ».

والآيه آنفه الذكر كسائر آيات القرآن تبين تأثير الأعمال الصالحه فى محو أثر الأعمال السيئه.

العمل الصالح الصادر من الهدف الإلهى يهب روح الإنسان لطافهً بإمكانها أن تغسل آثار الذنوب وأن تبدل ظلمات نفسه إلى أنوار. الأهميه القصوى للصلاة: تلاحظ فى الروايات المتعدده المنقوله عن النبى صلى الله عليه وآله والأئمه الطاهرين عليهم السلام تعبيرات تكشف عن الأهميه الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام. فى تفسير مجمع البيان عن على بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الْمَسْجِدِ، نَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَمَقَامَ رَجُلٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا. فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الصَّلَاةَ قَامَ الرَّجُلُ فَأَعَادَ الْقَوْلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ، وَأَحْسَنْتَ لَهَا الطَّهْوَرُ؟ قَالَ بَلَى. قَالَ: فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ ذَنْبِكَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢٩

متى ما أديت الصلاة بشرائطها فإنها تنقل الإنسان إلى عالم من المعنويه والروحانيه بحيث توثق علائقه الإيمانه بالله، وتغسل عن قلبه وروحه الأدران وآثار الذنوب.

الصلاة تجير الإنسان من الذنب، وتجلو صدأ القلوب.

الصلاة تجدّر الملكات الساميه للإنسان فى أعماق الروح البشريه، والصلاة تقوى الإراده وتطهر القلب والروح، وبهذا الترتيب فإن الصلاة الواعيه الفاعله هى مذهب تربوى عظيم.

وتعقيباً على تأثير الصلاة فى بناء شخصيه الإنسان وبيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتى الأمر بالصبر فى الآيه الاخرى بعدها: «وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». ومعنى ذلك أنّ العمل الصالح لا يتيسر دون صبر ومقاومه.



إنّ «الصبر» في هذه الآية يشمل كل أنواع الصبر أمام المشاكل والمخالفات والأذى والطغيان والمصائب المختلفة، فالصمود أمام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر.

«الصبر» أصل كلي وأساس إسلامي، يأتي أحياناً في القرآن مقروناً بالصلاة، ولعل ذلك آت من أن الصلاة تبعث في الإنسان الحركة، والأمر بالصبر يوجد المقاومة، وهذان الأمران، أي «الحركة والمقاومة» حين يكونان جنباً إلى جنب يثمران كل اشكال النجاح والموفقيه.

فَلَوْ لَمَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) عامل الانحراف والفساد في المجتمعات: من أجل إكمال البحوث السابقة ذكر في هاتين الآيتين أصل أساسى اجتماعى يضمن نجاه المجتمعات من الفساد، وهو أنه مادام هناك في كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين والملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد والانحراف، ويأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً وديناً، فإنّ هذا المجتمع سيكون مصوناً من الزيغ والانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق أهله وحماته، وبقي المجتمع دون مدافع أمام عوامل الفساد، فإنّ انتشار الفساد ومن ورائه الهلاك أمر حتمى.

الآية الاولى أشارت إلى القرون والأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد أنواع البلاء قائلة: «فَلَوْ لَمَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٠

إنّ أثر «أولو بقیة» في بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: إنّ المجتمع من دون «اولى بقیة» يُسلب حق الحياة، ومن هنا فقد وردت الإشارة إليهم في الآية المتقدمة.

ثم تستثنى جماعة فتقول: «إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ».

هذه الجماعة القليلة وإن كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولكنها كحال لوط عليه السلام واسرته الصغيرة، ونوح والمعدودين ممن آمن به، وصالح وجماعه من أتباعه، فإنهم كانوا قلّة لم توفى للإصلاح العام والكلى في المجتمع. إنّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم وتعمهم، وكما تقول الآية: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ». يعنى متى كان المجتمع ظالماً ولكنه مقبل على اصلاح نفسه، فهذا المجتمع يبقى، ولكن إذا كان المجتمع ظالماً ولم يقبل على نفسه فيصلحها أو يطهرها فإنّ مصيره إلى الفناء والهلاك.

فهذا التعم والتلذذ غير المقيد وغير المشروط أساس الانحرافات في المجتمعات المرفهة، لأنّ سكرها من شهواتها يصدّها عن إعطاء القيم الإنسانية الأصيلة حقها ودرك الواقعيات الاجتماعية، ويغرقها في العصيان والآثام.

وللتأكيد على هذه الحقيقة، تأتي الآية الثانية لتقول: إنّ هذا الذى ترون من إهلاك الله للأمم، إنّما كان لعدم وجود المصلحين فيهم «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ».

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَمَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَ لِيَذِلَّكَ خَلْقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) فى الآية الاولى محل البحث إشارة إلى واحدة من سنن الخلق والوجود التى تمثل اللبنة التحتية لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان ... وهى مسألة الاختلاف والتفاوت فى بناء الإنسان روحاً وفكراً وجسماً وذوقاً وعشاقاً، ومسألة حرية الإرادة والاختيار. تقول الآية: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَمَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ». لثلا يتصور أحد من الناس أنّ تأكيد الله وإصراره على طاعة أمره دليل على عدم قدرته على أن يجعلهم فى سير واحد ومنهج واحد.

لكن مثل هذا الإيمان لا تكون فيه فائدة ولا فى مثل هذا الاتحاد ... فالإيمان القسرى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣١

الذي ينبع من هدف غير إرادى لا يكون علامة على شخصية الفرد ولا وسيلة للتكامل، ولا يوجب الثواب. إنما أن قيمة الإنسان وامتيازاه وأهم ما يتفاوت فيه عن سائر الموجودات هي هذه الموهبة، وهي حرية الإرادة والاختيار، وكذلك امتلاك الأذواق والأطباق والأفكار المتفاوتة التي يصنع كل واحد منها قسماً من المجتمع ويؤمن بعداً من أبعاده. ومن طرف آخر فإن الاختلاف في انتخاب العقيدة والمذهب أمر طبيعي.

ولهذا يقول القرآن الكريم في الآية الأخرى: «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ». ولكن هذه الرحمة الإلهية ليست خاصة بجماعه معينه، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» أن يستفيدوا منها «وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ».

الأشخاص الذين يريدون أن يستظلوا برحمة الله فإن الطريق مفتوح لهم ... الرحمة التي أفاضها الله لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل وهداية الأنبياء.

ومتى ما استفادوا من هذه الرحمة والموهبة، فإن أبواب الجنة والسعادة الدائمة تفتح بوجوههم، وإلا فلا: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

إن هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد وهو الخروج من دائرة رحمة الله، والتقهر عن هداية الرسل والادلاء من قبله، وبهذا الترتيب. وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) أربع معطيات لقصص الماضين: بانتهاء هذه الآيات تنتهي سورة هود، وفي هذه الآيات استنتاج كلى لمجموع بحوث هذه السورة، وبما أن القسم الأهم من هذه السورة يتناول القصص التي تحمل العبر من سيرة الأنبياء والامم السابقة، فإن هذه القصص تعطى نتائج قيمة ملخصة في أربعة مواضع. تقول هذه الآيات أولاً: «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ». وكلمة «كُلًّا» إشارة إلى تنوع هذه القصص.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٢

ثم تشير الآية إلى النتيجة الكبرى الثانية فتقول الآيات: «وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ».

أما ثالث الآثار ورابعها اللذان يستلفتان النظر هما: «وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

إن هذه الآية تؤكد مرة أخرى أنه لا ينبغي أن نعد قصص القرآن ملهاة أو يستفاد منها لإشغال السامعين، بل هي مجموعة من أحسن الدروس الحياتية في جميع المجالات، وطريق رحب لجميع الناس في الحاضر والمستقبل. ثم تخاطب الآيات النبي صلى الله عليه وآله وهو يواجه أعداءه الذين يؤذونه ويظهرون اللجاجة والعناد إن واصل الطريق: «وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ».

فستعلمون من الذى سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظاراً غير مُجد، ونحن ننتظر العذاب من الله عليكم، وهو ما ستدقونه من قبلنا أو من قبل الله مباشرةً.

و آخر آية من هذه السورة تتحدث عن التوحيد كما تحدثت الآيات الاولى من هذه السورة عن التوحيد أيضاً.

هذه الآية تشير إلى ثلاث شعب من التوحيد: توحيد علم الله أولاً، فغيب السماوات والأرض خاص بالله وهو المطلع عليها جميعاً «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». أمياً سواه فعلمه محدود، وفي الوقت ذاته فإن هذا العلم ناشىء من التعليم الإلهي، فعلى هذا فإن العلم غير المحدود، والعلم الذاتى بالنسبة لجميع ما فى السماوات والأرض مخصوص بذات الله المقدسه.

ومن جهة ثانية فإن أزمة جميع الأفعال مرهونه بقدرته «وَالِإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ». وهذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثم تستنتج الآية أنه إذا علمت أن الإحاطة والعلم غير المحدود والقدرة التي لا تنتهى ...

جميعها مخصوص بذات الله المقدسة «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» وهذه مرحلة توحيد العبادة. فينبغي اجتناب العصيان والعناد والطغيان «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

بحثنان

١- علم الغيب خاص بالله: إن الإطلاع على الأسرار الخفية أو الأسرار الماضية والآية كله خاص بالله ... والآيات المختلفة من القرآن تؤكد هذه الحقيقة وتؤيدها أيضاً.

وإذا وجدنا في قسم من آيات القرآن بيان أن الأنبياء قد يعلمون بعض الامور الغيبية،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٣

أو قرأنا في بعض الآيات أو الروايات الكثيرة أن النبي صلى الله عليه وآله والإمام علياً والأئمة المعصومين عليهم السلام قد يخبرون عما جرى في المستقبل من حوادث وبيّنون أسراراً خفية منها، فينبغي أن نعرف أن كل ذلك بتعليم الله سبحانه. فهو سبحانه حيث يجد المصلحة يطلع عباده وأوليائه على قسم من أسرار الغيب، ولكن هذا العلم لا هو علم ذاتي ولا غير محدود، بل هو من تعليم الله وهو محدود بمقدار ما يريد الله.

وليس الإطلاع على علم الغيب من قبل الله خاصاً بالأنبياء أو الأئمة فقد يطلع الله غير النبي والأئمة على غيبه أيضاً ... فنحن نقرأ في قصة ام موسى في الآية (٧) من سورة القصص أن الله قال لها: «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِيَّاكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وقد يطلع الله لضرورة الحياة- أحياناً- الطيور والحيوانات على الأسرار الخفية وحتى على المستقبل البعيد نسبياً مما يصعب علينا تصوره وبهذا الترتيب قد تكون بعض المسائل التي نحسبها غيباً، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطيور أو الحيوانات لا تعد من الغيب.

٢- العبادة لله وحده: في الآية المتقدمة دليل لطيف على أن العبادة لله وحده، وهو أنه لو كانت العبادة من أجل العظمة وصفات الجمال، والجلال فهذه الصفات قبل كل شيء موجودة في الله، وأما الآخرون فلا شيء بالنسبة إليه، وأكبر دليل على عظمة الله علمه الواسع غير المحدود وقدرته اللامتناهية، وقد أشارت الآية الآنفه إلى أنهما مختصان بالله.

وإذا كانت العبادة لأجل الإلتجاء- في حل المشاكل- إلى المعبود ... فإن مثل هذا العمل جدير بمن هو عليم بجميع حاجات العباد وأسرارهم الخفية. وما يغيب عليهم، وهو قادر على إجابة دعوتهم، وبالتالي فإن توحيد الصفات يكون سبباً لتوحيد العبادة (لاحظوا بدقة).

«نهاية تفسير سورة هود»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٥

## ١٢. سورة يوسف

بداية سورة يوسف: قبل الدخول في تفسير آيات هذه السورة ينبغي ذكر عدّة أمور:

١- جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التي تقع في نهاية السورة تبين قصة نبي الله يوسف عليه السلام. القصة الطريفة والجميلة والتي تحمل بين طياتها العبر، ولذلك سميت هذه السورة باسم «يوسف» وبهذه المناسبة- أيضاً- ورد ذكر يوسف- من مجموع (٢٧) مرة في القرآن- (٢٥) مرّة في هذه السورة ومرّة واحدة في سورة غافر الآية (٣٤) ومرّة أخرى في سورة الأنعام الآية (٨٤). ومحتوى هذه السورة- على خلاف سور القرآن الاخرى- مرتبط بعضها ببعض وبيّن جوانب مختلفة من قصة واحدة وردت في أكثر من عشرة فصول، مع بيان أخذ موجز، عميق، وطريف ومثير.

وبالرغم من أن القصصين غير الهادفين، أو من لهم اغراض رخيصة سعوا إلى أن يحولوا هذه القصة المهدبة إلى قصة عشق يحرك أهل الهوى والشهوة! وأن يمسخوا الوجه الواقعي ليوسف عليه السلام بحيث بلغت الحال أن يصوروا «فيلمًا سينمائيًا» وينشروه بصورة

مبتدئه... إلا أن القرآن- وكل ما فيه أسوء وعبره- عكس في ثنايا هذه القصة أسمى دروس العفة وضبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أن إنساناً قرأها عدة مرات فإنه يتأثر- بدون اختيار- بأسلوبها الجذاب في كل مرة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٦

ولذا فقد عبر القرآن عنها بـ «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» وجعل فيها العبر للمعتبرين «أولى الألباب».

٢- التدقيق في آيات هذه السورة يكشف هذه الحقيقة للإنسان، وهي أن القرآن معجز في جميع أبعاده، لأن الأبطال الذين يقدمهم في قصصه أبطال حقيقيون لا خياليون، وكل واحد في نفسه منهم منعدم النظير:

فإبراهيم عليه السلام: البطل الذي حطم الأصنام بروحه العالية التي لا تقبل المساومة مع الطغاة.

وموسى عليه السلام: البطل المرابي لقومه اللجوجين، والذي وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغى.

ويوسف عليه السلام: بطل الورع والتقوى والطهارة... أمام امرأة محتالة جميلة عاشقة.

بعد هذا كله تتجلى القدرة البيانية للوحي القرآني بصورة تحير الإنسان، لأن هذه القصة- كما نعرف- تنتهي في بعض مواردنا إلى مسائل العشق ودون أن يمسحها القرآن أو يتجاوزها يتعرض إلى الأحداث في مسرحها بدقة بحيث لا يحس السامع شيء غير مطلوب فيها، ويذكر القضايا بأجمعها في المتن، ولكن تحفها أشعة قوية من التقوى والطهارة.

٣- قصة يوسف قبل الإسلام وبعده: لا شك أن قصة يوسف كانت مشهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسلام، لأنها مذكورة في (١٤) فصلاً من (سفر التكوين) في التوراة بين (الفصل ٣٧- ٥٠) ذكراً مفصلاً.

وبطبيعة الحال فإنّ المطالعة الدقيقة في هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الاختلاف بين ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن.

وبالمقارنة بين نصّ التوراة ونصّ القرآن نجد أن نصّ القصة في القرآن في غاية الصدق وتخلو من أي خرافة.

وما يقوله القرآن للنبي صلى الله عليه وآله: «وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ» يشير إلى قصة يوسف التي عبر عنها بأحسن القصص، حيث لم يكن النبي مطلعاً على حقيقتها الخالصة.

وعلى كل حال فإنّ هذه القصة- بعد الإسلام- تناقلتها أقلام مؤرخي الشرق والغرب ...

وأحياناً مع أغصان وأوراق إضافية.

٤- لم ذكرت قصة يوسف في مكان واحد بخلاف قصص سائر الأنبياء؟ إن من خصائص قصة يوسف البارزة أن هذه القصة ذكرت في مكان واحد من القرآن، على خلاف قصص الأنبياء التي ذكرت على شكل فصول مستقلة في سور متعددة من القرآن.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٧

والحكمة في ذلك تعود إلى أن تفكيك فصول هذه القصة مع ملاحظة وضعها الخاص يفقدها ترابطها وانسجامها، فلماذا ينبغي أن تذكر كاملة في مكان واحد للحصول على النتيجة المتوخاة.

والخصيصة الأخرى من خصائص هذه السورة هي أن قصص الأنبياء التي وردت في السور الأخرى من القرآن تبين عادة مواجهة الأنبياء لقومهم المعاندين والطغاة.

أمّا في قصة يوسف فلا كلام عن هذا الموضوع، بل أكثر ما فيها بيان حياة يوسف نفسه ونجاته من المزالق الخطيرة التي تنتهي أخيراً إلى استلامه سدة الحكم، وهي في حدّ ذاتها «أنموذج» خاص.

٥- فضيلة تلاوة سورة يوسف: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من قرأ سورة يوسف في كل يوم أو في كل ليلة، بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فرع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين».

إن الروايات التي وردت في فضائل سور القرآن- كما قلنا مراراً- ليس معناها القراءة السطحية دون تفكير وعمل، بل تلاوة تكون

مقدمه للتفكر ...

الر تَلَمَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) أحسن القصص بين يديك: تبدأ هذه السورة بالحروف المقطعة «الر» وهي دلالة على عظمة القرآن، وإن تركيب هذه الآيات ذات المحتوى العميق متكوّن من أبسط الأجزاء، وهي حروف الهجاء «ألف- باء ... الخ». وربما كان لهذا السبب أن تأتي الإشارة- بعد هذه الحروف المقطعة مباشرة- إلى بيان عظمة القرآن في هذه السورة، فتقول: «تلك آيات الكتاب المبين».

ثم يأتي البيان عن الهدف من نزول الآيات فيقول: «إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون». فالهدف إذن ليس القراءة أو التلاوة أو التيمّن أو التبرك بتلاوة هذه الآيات فحسب، بل الهدف الأساسى هو الإدراك ... الإدراك القوى الذى يدعو الإنسان إلى العمل بجميع وجوده.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٨

فالتعبير بكون القرآن عربياً- الذى تكرر فى عشره موارد من القرآن- جواب لأولئك الذين يتهمون النبى صلى الله عليه وآله بأنه تعلم القرآن من أعجمى، وأن محتوى القرآن مستورد وليس وحياً إلهياً.

وهذه التعبيرات المتتابعة تحتم ضمناً وظيفة مفروضة على جميع المسلمين، وهى أن يسعوا جميعاً إلى معرفة اللغة العربية وأن تكون اللغة الثانية إلى جانب لغتهم، لأنها لغة الوحى ومفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثم يقول سبحانه: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ». يعتقد بعض المفسرين أن «أحسن القصص» إشارة إلى مجموع القرآن.

إن الله سبحانه عبّر بـ «أحسن القصص» عن مجموع هذا القرآن الذى جاء فى أجمل البيان والشرح، وأفصح الألفاظ وأبلغها، مقرونه بأسمى المعانى وأدقها، بحيث يبدو ظاهره عذبا جميلاً، ومن حيث الباطن فمحتواها عظيم.

ولكن إرتباط الآيات المقبلة التى تبين قصة يوسف عليه السلام مع هذه الآية- محل البحث- بشكل يشدّ ذهن الإنسان إلى هذا المعنى، وهو أن الله عبر عن قصة يوسف بـ «أحسن القصص» ولنا مراراً أنه لا مانع من أن تكون مثل هذه الآيات للمعنيين جميعاً ... فالقرآن هو أحسن القصص بصورة عامة، وقصة يوسف هى أحسن القصص بصورة خاصة.

أثر القصة فى حياة الناس: مع ملاحظة أن القسم المهم من القرآن قد جاء على صورة تأريخ للامم السابقة وقصص الماضين، فقد يتساءل البعض: لم يحمل هذا الكتاب التربوى كل هذا «التاريخ» والقصص؟!

وتتضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

١- إن التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، وما رسمه الإنسان فى ذهنه من الأفكار والتصورات يجده بصورة عينيه على صفحات التاريخ.

٢- ثم بعد هذا فإنّ للتاريخ والقصة جاذبية خاصة، والإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة فى جميع أحوال حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

والعلة فى ذلك قد تكون أن الإنسان حسى بالطبع قبل أن يكون عقلياً ويتخبط فى المسائل المادية قبل أن يتعمق فى المسائل الفكرية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٣٩

وكلما ابتعد الانسان عن ميدان الحسّ، باتجاه المسائل العقلية كانت هذه المسائل أثقل على الذهن وأبطأ هضماً.

ومن هنا نلاحظ أنه لأجل بيان الاستدلال العقلى يستمدّ المفكرون فى المسائل الاجتماعية والحياتية المختلفة من الأمثلة الحسية، وأحياناً يكون للمثال المناسب والمؤثر فى الاستدلال قيمة مضاعفة، ولذلك فإنّ العلماء الناجحين هم اولئك الذين لهم هيمنة على

انتخاب أحسن الأمثلة.

٣- القصة والتاريخ مفهومان عند كل أحد، وعلى هذا فإن الكتاب الشامل الذي يريد أن يستفيد منه البدوي الأملى والمتوحش ... إلى الفيلسوف والمفكر الكبير، يجب أن يكون معتمداً على التاريخ والقصص والأمثلة.

ومجموعه هذه الجهات تبين أن القرآن خطأ أحسن الخطوات في بيان التواريخ والقصص في سبيل التعليم والتربية.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بَنِيَّ لَأَن تَقْصُصَ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) بارقة الأمل وبدأيه المشاكل: بدأ القرآن بذكر قصة يوسف من رؤياه العجيبة ذات المعنى الكبير، لأن هذه الرؤيا في الواقع تعد أول فصل من فصول حياة يوسف المتلاطمة.

جاء يوسف في أحد الأيام صباحاً إلى أبيه وهو في غاية الشوق ليحدثه عن رؤياه، وليكشف ستاراً عن حادثه جديدة لم تكن ذات أهمية في الظاهر، ولكنها كانت إرهاباً لبداية فصل جديد من حياته: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ».

يقول ابن عباس: إن يوسف رأى رؤياه ليلة الجمعة التي صادفت ليلة القدر (ليلة تعيين الأقدار والآجال).

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٠

والمقصود من السجود هنا هو الخضوع والتواضع، وإلّا فإن السجود المعروف عند الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب والشمس والقمر. إن هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النبي غارقاً في التفكير ... فالقمر والشمس والكواكب، وأى الكواكب! إنها أحد عشر يسجدون جميعاً لولدى يوسف، كم هي رؤيا ذات مغزى! لا شك أن الشمس والقمر «أنا وامه أو خالته» والكواكب الأحد عشر إخوته، هكذا يرتفع قدر ولدى حتى تسجد له الشمس والقمر وكواكب السماء.

إن ولدى «يوسف» عزيز عند الله إذا رأى هذه الرؤيا المثيرة! لذلك توجه إلى يوسف بلهجة يشوبها الإضطراب والخوف المقرون «بالفرح» و «قَالَ يَا بَنِيَّ لَأَتَقْصِيصَ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» وأنا أعرف «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» وهو منتظر الفرصة ليوسوس لهم ويثير نار الفتنة والحسد وليجعل الإخوة يقتتلون فيما بينهم.

ولكن هذه الرؤيا لم تكن دليلاً على عظمته يوسف في المستقبل من الوجهة الظاهرية والمادية فحسب، بل تدل على مقام النبوة التي سيصل إليها يوسف في المستقبل.

ولذلك فقد أضاف يعقوب - لولده يوسف - قائلاً: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ» (١).

أجل فإن الله على كل شيء قدير و «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

الرؤيا والحلم: إن الرؤيا والأحلام على أقسام:

١- الرؤيا المرتبطة بماضى الحياة حيث تشكل الرغبات والأمنيات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

٢- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التي تنشأ من التوهم والخيال وإن كان من المحتمل أن يكون لها دافع نفسى.

٣- الرؤيا المرتبطة بالمستقبل والتي تخبر عنه.

(١) «التأويل»: في الأصل إرجاع الشيء، وكل عمل أو كل حديث يصل إلى الهدف النهائي يطلق عليه «تأويل» وتحقق الرؤيا في الخارج مصداق للتأويل ... و «الأحاديث»: جمع الحديث، وهو نقل ما يجرى، والحديث هنا كناية عن الرؤيا لأن الإنسان ينقلها

للمعبرين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤١

ونقرأ في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله عن الرؤيا قوله: «الرؤيا ثلاثة: بُشْرَى من الله، وتحزين من الشيطان، والذي يحدث به الإنسان نفسه فيراه في منامه» (١).

وواضح أن أحلام الشيطان ليست شيئاً حتى يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من الله في الرؤيا فهي تحمل بشاره حتماً ... ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

من الدروس التي نستلهمها من هذا القسم من الآيات أن نحفظ الأسرار، وينبغي أن يطبق هذا الدرس أحياناً حتى أمام الإخوة، فدائماً تقع في حياة الإنسان أسرار لو أذيعت وفشت بات مستقبلة أو مستقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة على حفظ هذه الأسرار دليل على سعة الروح وتملك الإرادة.

وورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «سرك من دمك فلا يجري من غير أوداجك» (٢).

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْغُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) المؤامرة: من هنا تبدأ قصة مواجهة إخوة يوسف واشتباكهم معه: ففي الآية الأولى- من الآيات محل البحث- إشارة إلى الدروس التربوية الكثيرة التي توحىها القصة، إذ تقول الآية: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَائِلِينَ».

وأى درس أعظم من أن يجتمع عدّة أفراد لإهلاك فرد ضعيف ووحيد- في الظاهر- وبخطط أعدّها الحسد، ويبدلون أقصى جهودهم لهذا الأمر، ولكن نفس هذا العمل- ودون شعور وإرادة منهم- بات سبباً في تربعه على سرير الملك وصيرورته أمراً على البلد الكبير «مصر» ثم يأتي إخوته في النهاية ليطأطأوا برؤوسهم إعظاماً له، وهذا يدلّ على أن الله إذا

(١) بحار الأنوار ٥٨ / ١٩١.

(٢) بحار الأنوار ٧٢ / ٧١.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٢

أراد أمراً فهو قادر على أن يجريه حتى على أيدي من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلى أن الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيداً في هذا العالم، فلو سعى جميع أفراد هذا العالم إلى إزهاق روحه والله لا يريد ذلك، فإنهم لا يستطيعون أن يسلبوا منه شعرة واحدة. كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، واثان منهم: يوسف وبنامين وهما من ام واحدة اسمها راحيل، وكان يعقوب يولى هذين الولدين محبة خاصة، لا سيما يوسف. لأنهما أولاً: أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان إلى العناية والرعاية والمحبة.

وثانياً: لأن أمهما ارتحلت من الدنيا- طبقاً لبعض الروايات- وبعد هذا كله كانت بوادر النبوغ والذكاء الحاد ترسم على يوسف، وهذه الامور أدت إلى أن يولى يعقوب ابنه هذا عناية أكثر.

إلما أن الإخوة الحساد- دون أن يلتفتوا إلى هذه الجهات- تألموا من حبّ أبيهم ليوسف وأخيه، وخاصه بعد اختلافهم في الام والمنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم وتدارسوا الأمر وصمموا على المؤامرة «إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ».

وحكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وبالطبع فإن اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لأن الآيات الآتية تكشف عن اعتقادهم بنبوة أبيهم، وإنما

استنكروا طريقه معاشرته فحسب.

ثم أدى بهم الحسد إلى أن يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا وقدموا مقترحين وقالوا: «اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرُحُوهُ أَرْضًا- أرسلوه إلى منطقته بعيدة- يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ».

ومن الحق أن تشعروا بالذنب والخجل في وجدانكم لأنكم تقدمون على هذه الجناية في حق أخيكم الصغير، ولكن يمكن أن تتوبوا وتغسلوا الذنب «وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ».

إن هذه الجملة تدل على إحساسهم بالذنب من هذا العمل، وكانوا يخافون الله في أعماق قلوبهم، ولذلك قالوا: نتوب ونكون من بعده قوماً صالحين.

ولكن المسألة المهمة هنا هي أن الحديث عن التوبة قبل الجريمة- في الواقع- هو لأجل خداع «الوجدان» وإغرائه وفتح الباب للدخول إلى الذنب، فلا يعد دليلاً على الندم أبداً.

ولكن كان من بين الاخوة من هو أكثر ذكاءً وأرق عاطفةً ووجداناً، لأنه لم يرض بقتل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٣

يوسف أو إرساله إلى البقاع البعيدة التي يخشى عليه من الهلاك فيها... فاقترح عليهم اقتراحاً ثالثاً، وهو أن يلقي في البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمر قافلة فتأخذه معها، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث تقول الآية في هذا الصدد: «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَمَّا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ». «الجب»: معناه «البئر» التي لم تنضد بالطابوق والصخور، ولعل أغلب آبار الصحراء على هذه الشاكلة.

يستفاد من جملة «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» أن القائل لم يكن يرغب- أساساً- حتى بهذا الاقتراح ولعله كان لا يوافقهم على إيذاء يوسف أصلاً.

أثر الحسد المدمر في حياة الناس: الدرس الآخر الذي نتعلمه من هذه القصة، وهو أن الحسد يمكن أن يدفع الإنسان حتى إلى قتل أخيه، أو إيجاد المشاكل له، فنار الحسد إذا لم يمكن إخمادها فإنها ستحرق صاحبها بالإضافة إلى إحراق الآخرين بها. ولهذا نجد في الأحاديث الإسلامية تعابير مؤثرة تدعو إلى مكافحة هذه الرذيلة، وعلى سبيل المثال نورد منها ما يلي:

١- في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله عز وجل لموسى بن عمران عليه السلام: يا بن عمران لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي ولا تمدن عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك فإن الحاسد ساخط لنعمي صاّد لقسمي الذي قسمت بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس مني».

٢- وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر». كما نقرأ له حديثاً يقول: «إن المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط».

كما نستنتج درساً آخر من هذا المقطع في القصة، وهو أن الوالدين ينبغي أن يلاحظا أبناءها الآخرين عند إبراز عنايتهم ومحبتهم لواحد منهم، لأن إبراز العلاقة لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدة في نفوس الآخرين، إلى درجة أنها تجرهم إلى كل عمل مخرب، حيث يجدون شخصياتهم منهزمة ولا بد من تحطيم شخصيته أخيهم للتعويض عن هذه الهزيمة، فيكون الإقدام على هذا العمل دون لحاظ الرحمة ووشائج القربى.

وإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بعمل معاكس، فإنه يظل يلوم نفسه ويحرضها حتى يبتلى بالمرض النفسى.

وفي هذا الصدد نقرأ في الروايات الإسلامية أن الإمام الباقر عليه السلام قال يوماً: «والله إننى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٤

لأصابع بعض ولدى، وأجلسته على فخذي، وأفكر له في الملح، وأكثر له الشكر، وإن الحق لغيره من ولدى، ولكن مخافة عليه منه ومن



غيره، لثلا- يصنعوا به ما فعلوا بيوسف إخوته، وما أنزل الله سورة يوسف إلا أمثالاً لكيلا يحسد بعضنا بعضاً كما حسد يوسف إخوته، وبغوا عليه، فجعلها حجة ورحمة على من تولانا، ودان بحبنا وحجة على أعدائنا ومن نصب لنا الحرب» (١).

فَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزُتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) المؤامرة المشؤومة: بعد أن صوّب إخوة يوسف إقتراح أخيهم في عدم قتل يوسف، وإلقائه في الجب، أخذوا يفكرون في كيفية فصل يوسف عن أبيه، لذلك أقدموا على تخطيط آخر، فجاءوا إلى أبيهم بلسان لئین يدعو إلى الترحم، وفي شكل يتظاهرون به أنهم مخلصون له وحدثوا أباهم و «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ».

تعال يا أبانا وارفع اليد عن اتهامنا، فإنه أخونا وما يزال صبيّاً وبحاجة إلى اللهو واللعب، وليس من الصحيح حبسه عندك في البيت، فحلّ سبيله «أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزُتَع وَيَلْعَبُ» (٢).

وإذا كنت تخشى عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ولكن يعقوب- دون أن يتهم إخوة يوسف بسوء القصد- أظهر تردده في إرسال يوسف لأمرين: الأول: أنه سيبتعد عنه فيحزن عليه، والثاني: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و «قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ».

وبديهي أن الإخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الأول الذي أشار إليه أبوهم يعقوب، لأنّ الحزن والإغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئاً عادياً حتى يعوّض عنه، وربّما كان هذا التعبير مثيراً لنار الحسد في إخوة يوسف أكثر.

(١) وسائل الشيعة ١٣/ ٣٤٤/ ٢٤٥١٦.

(٢) «يرتع»: من مادة «رتع» على وزن «قطع» ومعناه في الأصل رعى الأغنام والأنعام بصورة عامّة للنباتات وشبعها منها، ولكن قد يطلق هذا اللفظ (رتع، يرتع) ويراد به تنزّه الإنسان وكثرة الأكل والشرب أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٥

ومن جهة اخرى فإنّ هذا الموضوع الذي أشار إليه يعقوب، وهو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن رده، وهو لا يحتاج إلى بيان، لأنّ الولد لا بدّ له من الابتعاد عن أبيه من أجل أن ينمو ويرشد.

لذلك فإنهم لم يجيبوه عن الشقّ الأوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثاني لأنّه كان مهماً وأساسياً بالنسبة لهم إذ «قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ». أي:

أترانا موتى فلا ندافع عن أختينا، بل نتفرج على الذبّ كيف يأكله.

وعلى كل حال فقد استطاع إخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، وبتحريك أحاسيس يوسف النقية وترغيبه إلى التنزه خارج المدينة، استطاعوا أن يأخذوا يوسف معهم وأن يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

ومن الطريف أنّه كما أنّ إخوة يوسف استغلّوا علاقة الإنسان- ولا سيما الشاب- بالتنزّه واللعب من أجل الوصول إلى هدفهم الغادر... ففي حياتنا المعاصرة- أيضاً- نجد أعداء الحق والعدالة يستغلّون مسألة الرياضة واللعب في سبيل تلوّث أفكار الشباب، فينبغي أن نحذر المستكبرين «الذئاب» الذين يخططون لاضلال الشباب وحرفهم عن رسالتهم تحت اسم الرياضة والمسابقات المحليّة والعالمية.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) الكذب المفصوح: وأخيراً إنتصر

إخوة يوسف وأقنعوا أباهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئني البال بانتظار الصباح لتنفيذ خطتهم وإزاحة أخاهم الذي يقف عائقاً في طريقهم ... وكان قلقهم الوحيد أن يندم أبوهم ويسحب كلامه ووعده بإرسال يوسف معهم. فجاءوا صباحاً إلى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، وكرر توصياته في شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم وأبدوا احترامهم الفائق ومحبتهم العميقة، وتحركوا إلى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٤

خارج المدينة.

يقال: إن أباهم ودعهم إلى بوابة المدينة ثم أخذ منهم يوسف وضمه إلى صدره ودمعت عيناه، ثم أودع يوسف عندهم وفارقهم، ولكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، وكان إخوة يوسف لا يقصرون عن مداراة أخيهم يوسف وإظهار عنايتهم به ومحبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، ولكن ما أن غاب عنهم أبوهم واطمأنوا إلى أنه لا يراهم، حتى انفجرت عقدهم وصبوا «جام غضبهم» وحقدهم وحسدتهم المتراكم لعدة سنوات على رأس يوسف، فالتفوا حوله يضرّبونه بأيديهم ويلتجئ من واحد لآخر ويستجير بهم فلا يجيره أحد منهم.

نقرأ في رواية أن يوسف كان يبكي تحت وابل اللكمات والضربات القاسية، ولكن حين أرادوا أن يلقوه في الجبّ شرع بالضحك فجاءه ... فتعجب إخوته كثيراً وحسبوا أن أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحاً ... ولكنه رفع الستار عن ضحكه وعلمهم درساً كبيراً إذ قال: لا أنسى أنني نظرت - أيها الإخوة - إلى عضلات أيديكم القوية وقواكم الجسدية الخارقة، فسررت وقلت في نفسي: ما عسى أن يخشى ويخاف من الحوادث والملمات من كان عنده مثل هؤلاء الإخوة، فاعتمدت عليكم وربطت قلبي بقواكم، والآن وقد أصبحت أسيراً بين أيديكم وأستجير بكم من واحد للآخر فلا اجار، وقد سلطكم الله عليّ لأتعلم هذا الدرس، وهو أألأ أعتد وأتوكل على أحد سواه ... حتى ولو كانوا إخوتي.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم يقول في هذا الصدد: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ».

ثم تبيّن الآية أن الله أوحى إلى يوسف وهدأ روعه وألهمه أألأ يحزن فالعاقبة له، إذ تقول:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

وهذا الوحي الإلهي لم يكن وحى النبوة، بقريته الآية (٢٢) من السورة ذاتها، بل كان إلهاماً لقلب يوسف ليعلم أنه ليس وحيداً، بل له حافظ ورقيب، وهذا الوحي بثّ في قلب يوسف نور الأمل وأزال عن روجه ظلمات اليأس والحيرة.

لقد نفذ إخوة يوسف خطتهم كما أردوا، ولكن ينبغي أن يفكروا عند العودة كيف كي يصدّق أبوهم أن يوسف إنتهى بصورة طبيعية. وكانت الفكرة التي أوصلتهم إلى هذا الهدف هي ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه - ظاهراً -

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٧

عن هذا الطريق مدّعين بأنّ الذئب قد أكل يوسف وجاؤوا إليه بدلائل مزيفة!

يقول القرآن الكريم: «وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» بكاءً كاذباً، وهذا يدلّ على أنّ البكاء الكاذب ممكن ... ولا يمكن أن يُخدع العاقل ببكاء العين وحدها.

أمّا الأب الذي كان ينتظر مجيء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتزّ وارتجف حين رأى الجمع وليس بينهم يوسف، وسأل عنه مستفسراً ... فأجابوه و «قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا» لصغر سنه ولأنه لا يعرف التسابق، وانشغلنا عنه «فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ».

ومن أجل أن يبرهنوا على صحة كلامهم فقد «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ». إذ لطحوا الثوب بدم الغزال أو الخروف أو التيس ....

ولكن حيث إنّ الكاذب لا يمتلك حافظه قويه، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة ... وهي - على الأقل - أن يخرقوا

قميص يوسف الملتخ بالدم ليدل على هجوم الذئب ... فقد قدّموا القميص سالمًا غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عيناه على القميص حتى فهم كل شيء و «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا».

في تفسير القرطبي عن ابن عباس: إنهم أخذوا ظبيًا فذبحوه فطلخوا بدمه القميص ولما جاؤوا به جعل يقلبه فيقول: «ما أرى أثر ناب ولا ظفر إن هذا السبع رحيم». وفي روايه أنه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: «تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا، أكل إبنى ولم يمزق عليه قميصه». وجاء أنه بكى وصاح وخرّ مغشيًا عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ونادوه فلم يجب ووضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من ديان يوم الدين، ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا فلم يبق إلّا بيرد السحر.

وبالرغم من احتراق قلبه ولهيب روحه لم يجر على لسانه ما يدل على عدم الشكر أو اليأس أو الفزع أو الجزع، بل قال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ». ثم قال: «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» وأسأله أن يبذل مرارة الصبر في فمي إلى «حلاوة» ويرزقني القوة والقدرة على التحمل أكثر أمام هذا الطوفان العظيم، لئلا أفقد زمامي ويجري على لساني كلام غير لائق.

ملاحظتان

١- حول الترك الأولى: في تفسير البرهان عن الثمالي قال: صليت مع علي بن

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٨

الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة فلما فرغ من صلاته وسبحته نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاه له تسمى سكينه فقال لها: «لا يعبر على بابي سائل إلّا أطعمتموه فإنّ اليوم يوم الجمعة». قلت له: ليس كل من يسأل مستحقًا؟ فقال: «يا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محققًا فلا- نطعمه ونرده فينزل بنا- أهل البيت- ما نزل بيعقوب وآله. أطعموهم أطعموهم. إن يعقوب كان يذبح كل يوم كبشًا فيتصدق منه ويأكل هو وعياله منه، وإن سائلًا مؤمنًا صومًا محققًا له عند الله منزله، وكان مجتازًا غريبًا اعترى علي باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم. يهتف بذلك على بابه مرارًا وهم يسمعون، قد جهلوا حقه ولم يصدقوا قوله، فلما أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله عز وجلّ وبات طاويًا، وأصبح صائمًا جائعًا صابرًا حامدًا لله تعالى، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعًا بطانًا وأصبحوا وعندهم فضل من طعامهم». قال: «فأوحى الله عز وجلّ إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذلت- يا يعقوب- عبيد ذلّة استجرت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلوأي عليك وعلى ولدك. يا يعقوب، إن أحبّ أنبيائي إليّ وأكرمهم عليّ من رحم مساكين عبادي وقربهم إليه وأطعمهم، وكان لهم مأوى وملجأ. يا يعقوب، أما رحمت ذمّال عبيد المجتهد في عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس، لما اعترى بابك عند أوان افطاره وهتف بك: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع. فلم تطعموه شيئًا، فاسترجع واستعبر وشكا ما به إليّ وبات طاويًا حامدًا لي وأصبح لي صائمًا، وأنت- يا يعقوب- وولدك شباع، وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم. أوما علمت- يا يعقوب- أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي؟»

فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك، متى رأى يوسف الرؤيا؟ فقال: «في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعًا...».

يستفاد من هذا الحديث أنّ زلّة بسيطة أو بعبارة أدق: «ترك الأولى» وهو لا يعدّ خطيئة أو إثماً، لأنّ يعقوب لم يتضح له حال السائل ... هذا الترك من قبل الأنبياء والأولياء يكون سبباً لأنّ يبتليهم الله بلاءً شديداً ... وما ذلك إلّا للمقامهم الكبير الذي يوجب عليهم أن يراقبوا كل حركاتهم وسكناتهم، لأنّ «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

٢- دعاء يوسف البليغ الجذاب: في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: لما طرح إخوة يوسف في الجبّ أتاه جبرئيل عليه السلام فدخل عليه فقال: يا غلام ما تصنع ههنا؟ فقال: إنّ إخوتي

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٤٩

القونى فى الجب. قال: فتحب أن تخرج منه؟ قال: ذاك إلى الله عز وجل، إن شاء أخرجنى.

قال: فقال له: إن الله ادعنى بهذا الدعاء حتى أخرجك من الجب فقال له: وما الدعاء؟ فقال:

قل: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المَنَّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أن تصلى على محمد وآل محمد وأن تجعل لى ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً».

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرَوهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) نحو أرض مصر: قضى يوسف فى ظلمة الجب الموحشة والوحدة القاتلة ساعات مرّة، ولكنه بإيمانه بالله وسكينة المنبثقة عن الإيمان شع فى قلبه نور الأمل، وألهمه الله تعالى القوة والقدرة على تحمل الوحدة الموحشة، وأن ينجح فى هذا الإمتحان.

ولكن ... الله أعلم كم يوماً قضى يوسف فى هذه الحالة؟

قال بعض المفسرين: قضى ثلاثة أيام، وقال آخرون: يومين.

وعلى كل حال تبلغ النور «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ».

وانتخب منزلها على مقربة من الجب، وطبيعى أن أول ما تفكر القافلة فيه- فى منزلها الجديد- هو تأمين الماء وسد حاجتها منه «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ».

فانتبه يوسف إلى صوت وحركة من أعلى البئر، ثم رأى الجبل والدلو يسرعان إلى النزول، فانتهاز الفرصة وانتفع من هذا العطاء الإلهى وتعلق بالجبل بوثوق.

فأحس المأمور بالإتيان بالماء أن الدلو قد ثقل أكثر مما ينبغى، فلما سحبه بقوة إلى الأعلى فوجىء نظره بغلام كأنه فلقه قمر، فصرخ وقال: «يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ».

وشياً فشيئاً سرى خبر يوسف بين جماعة من أهل القافلة، ولكن من أجل أن لا يذاع هذا الخبر وينتشر، ولكى يمكن بيع هذا الغلام الجميل فى مصر، أخفوه «وَأَسْرَوهُ بَضَاعَةً» (١).

وقالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الجب أودعوه عندنا لبيعه فى مصر.

وتقول الآية فى نهايتها: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ». والذين شروا يوسف بثمان بخص،

(١) «البضاعة»: فى الأصل من مادة «بضع» على وزن «نذر» ومعناها: القطعة من اللحم، ثم توسعوا فى المعنى وأطلقوا هذا اللفظ على القطعة المهمة من المال. (راجع المفردات للراغب).

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٠

مختصر الامثل ج ٢ ٤٩٩

هو من كان فى القافلة.

وباعوا يوسف بثمان قليل، أو كما عبّر عنه القرآن: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ». ولكن هذا أمر مألوف فإن السراق أو اولئك الذين تأتيتهم بضاعة مهمة دون أى تعب ونصب يبيعونها سريعاً لئلا يطلع الآخرون.

ومن الطبيعى أنهم لا يستطيعون بهذه الفورية أن يبيعوه بسعر غال.

«البخس»: فى الأصل معناه تقليل قيمة الشىء ظلماً.

وتقول الآية فى نهايتها: «وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ».

وهذا البيع البخس إما لأن أهل القافلة اشتروا يوسف بثمن بخس، أو إنهم كانوا يخافون أن يفتضح سرهم ويجدون من يدعيه. وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) في قصر عزيز مصر: انتهت حكاية يوسف مع إخوته الذين ألقوه في غيابة الجب وبينها تفصيلاً، بدأ فصل جديد من حياة هذا الغلام الحدث في مصر... فقد جرى بيوسف إلى مصر وعرض للبيع، ولما كان تحفة نفيسة فقد صار من نصيب «عزيز مصر» الذي كان وزيراً لفرعون أو رئيساً لوزرائه. يقول القرآن الكريم في شأن يوسف: «وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» (١). فلا ينبغي أن ننظر إلى العبيد.

يستفاد من سياق الآية أن عزيز مصر لم يرزق ولداً وكان في غاية الشوق للولد، وحين وقعت عيناه على هذا الصبي الجميل والسعيد تعلق قلبه به ليكون مكان ولده.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ».

(١) «المثوى»: من مادة (ثوى) ومعناه المقام، ولكن معناه هنا الموقعية والمنزلة والمقام كذلك.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥١

هذا «التمكين» في الأرض إما أن يكون لمجيء يوسف إلى مصر، وخاصة أن خطواته في محيط مصر مقدمه لما سيكون عليه من الإقتدار والمكانة القصوى، وإما أنه لا قياس، بين هذه الحياة في مصر «العزيز».

ويضيف القرآن أيضاً: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ».

والمراد من «تأويل الأحاديث» - كما أشرنا سابقاً - هو علم تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا حيث كان يوسف قادراً على أن يطلع على بعض أسرار المستقبل من خلاله.

ثم يختم القرآن هذه الآية بالقول: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

لقد واجه يوسف في هذا المحيط الجديد، الذي يعدّ واحداً من المراكز السياسية المهمة في مصر مسائل مستحدثة... فمن جهة كان يرى قصور الطغاة المدهشة و ثرواتهم ومن جهة أخرى كانت تتجسد في ذهنه صورة أسواق النخاسين وبيع المماليك والعبيد ومن خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر في كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدرًا على ذلك.

فاشغل بتهديب نفسه وبنائها، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

«أشد»: من مادة «شد» وهي هنا إشارة إلى الإستحكام الجسماني والروحاني.

والمراد من «الحكم» و «العلم» الواردين في الآية المتقدمة التي تقول: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» إما أن يكون مقام النبوة، وإما أن يكون المراد من الحكم العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح الخالي من اتباع الهوى والإشتباه، والمراد من العلم الإطلاع الذي لا يقترن معه الجهل، ومهما كان فإن الحكم والعلم موهبتان نادرتان وهبهما الله ليوسف لتقواه و صبره وتوكله عليه.

فإنه ليس مستبعداً أن يهب الله سبحانه لعباده المخلصين المنتصرين في ميادين «جهاد النفس للهوى والشهوات» مواهب من المعارف والعلوم التي لا تقاس بأي معيار مادي.

وَرَأَوَدْتُهُ التِّي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٢

العشق الملتهب: لم يأسر جمال يوسف الملكوتي عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امرأة العزيز كذلك وأصبح متيماً بجماله. وامتدت

مخالبة العشق إلى أعماق قلبها، وبمرور الزمن كان هذا العشق يتجدر يوماً بعد يوم ويزداد اشتعالاً... لكن يوسف هذا الشاب الطاهر التقى، لم يفكر بغير الله، ولم يتعلق قلبه بغير عشق الله سبحانه.

وهناك أمور أخرى زادت من عشق امرأة العزيز ليوسف... فمن جهة لم تُرزق الولد، ومن جهة أخرى إنغمارها في حياة مترفة مفعمة بالبدخ... ومن جهة ثالثة عدم إبتلائها بأي نوع من البلاء كما هي حال المتنعمين، وعدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة... كل ذلك ترك امرأة العزيز - الفارغة من الإيمان والتقوى - تهوى في وساوسها الشيطانية إلى الحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيراً عمّا في قلبها وراودته عن نفسه.

وأتبعت جميع الأساليب والطرق للوصول إلى هدفها، وسعت لكي تلقى في قلبه أثراً من هواها وترغيبها وطلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنِ نَفْسِهِ». وجملته «راودته»: مأخوذة من مادة «المراداة» وأصلها البحث عن المرتع والمرعى، ثم توسعوا في هذا اللفظ فاطلق على كل ما يُطلب بالمدارة والملاءمة.

وهذا التعبير يشير إلى أن امرأة العزيز طلبت من يوسف أن ينال منها بطريق المسالمة والمساومة وبدون أي تهديد، وأبدت محبتها القسوى له بمنتهى اللين.

وأخيراً فُكرت في أن تخلو به وتوفر له جميع ما يثير غريزته، من ثياب فضفاضة، وعلطور عبقة شديدة، وتجميلات مرغبة، حتى تستولي على يوسف وتأسره.

يقول القرآن الكريم: «وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ».

«عَلَّقَتِ»: تدل على المبالغة وأنها أحكمت غلق الأبواب.

وفي هذه الحال، حين رأى يوسف أن هذه الأمور تجرى نحو الإثم، ولم ير طريقاً لخلاصه منها، توجه يوسف إلى زليخا و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ». وبهذا الكلام رفض يوسف طلب امرأة العزيز غير المشروع. وبهذه الجملة اعترف يوسف بوحدانية الله تعالى من الناحية النظرية، وكذلك من الناحية العملية أيضاً، ثم أضاف: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ»... أليس التجاوز ظلماً وخيانة واضحة «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ». وهنا يبلغ أمر يوسف وامرأة العزيز إلى أدق مرحلة وأخطرهما، حيث يعبر القرآن عنه تعبيراً ذا مغزى كبير «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٣

إن امرأة العزيز كانت تريد أن تقضى وطراً مع يوسف، وبذلت وسعها في ذلك، وكاد يوسف يستجيب لرغبتها بطبيعته كونه بشراً شاباً لم يتزوج ويرى نفسه إزاء المثيرات الجنسية وجهاً لوجه... لولا أن رأى برهان الله... أي روح الإيمان والتقوى وتربية النفس، أضف إلى كل ذلك مقام العصمة الذي كان حائلاً دون هذا العمل.

الطريف أن هذا التفسير نقل عن الإمام الرضا عليه السلام في عيون الأخبار للصدوق رحمه الله باسناده إلى علي بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون:

يا بن رسول الله أليس من قولك: أن الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى». قال المأمون: فما معنى قول الله عز وجل إلى أن قال: فأخبرني عن قول الله تعالى «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ». فقال الرضا عليه السلام: «لقد هممت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها كما هممت به، لكنه كان معصوماً والمعصوم لا يهّم بذنب ولا يأتيه». فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.

والآن لتتوجه إلى تفسير بقية الآية إذ يقول القرآن المجيد: «كَذَلِكَ لِنُضِيفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». وهي إشارة إلى أن هذا الإمداد الغيبي والإعانة المعنوية لإنقاذ يوسف من سوء والفحشاء من قبل الله لم يكن إعتباطاً، فقد كان عبداً عارفاً مؤمناً ورعاً ذا عمل صالح طهر قلبه من الشرك وظلماته.

وبيان هذا الأمر يدل على أن مثل هذه الإمدادات الغيبيّة، في لحظات الشدة والأزمة التي تدرّك الأنبياء - كيوسف مثلاً - غير مخصوصة

بهم، فإن كل من كان في زمرة عباد الله الصالحين المخلصين فهو جدير بهذه المواهب أيضاً. العفة والمتانة في البيان: من عجائب القرآن وواحدة من أدلة الإعجاز، أنه لا يوجد في تعبيره ركة وإبتدال وعدم العفة وما إلى ذلك، كما أنه لا يتناسب مع أسلوب الفرد العادي الامي الذي تربى في محيط الجاهلية، مع أن حديث كل أحد يتناسب مع محيطه وأفكاره. وبين جميع قصص القرآن وأحداثه التي ينقلها توجد قصة غرام وعشق واقعية، وهي قصة (يوسف وامرأة عزيز مصر). قصة تتحدث عن عشق امرأة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب.

ولكن القرآن يمزج في رسم هذه الميادين الحساسة من هذه القصة- بأسلوب معجب- الدقة في البيان مع المتانة والعفة، دون أن يغض الطرف عن ذكر الوقائع، أو أن يظهر العجز، وقد استعمل جميع الاصول الأخلاقية والامور الخاصة بالعفة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٤

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُشَاجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) فضيحة امرأة العزيز: المقاومة الشديدة التي أبداها يوسف جعلت امرأة العزيز آيسة منه تقريباً... ولكن يوسف الذي إنتصر في هذا الدور على تلك المرأة المعاندة أحس أن بقاءه في بيتها- في هذا المزلق الخطر- غير صالح، وينبغي أن يتعد عنه، ولذلك أسرع نحو باب القصر ليفتحه ويخرج، ولم تقف امرأة العزيز مكتوفة الأيدي، بل أسرع خلفه لتمنعه من الخروج، وسحبت قميصه من خلفه فقيدته «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ». «الإستباق»: في اللغة هو المسابقة بين شخصين أو أكثر.

و «قُدَّ»: بمعنى مَزَّقَ طولاً، كما أن «قَطَّ» بمعنى مَزَّقَ عرضاً.

فقد أوصل يوسف نفسه نحو الباب وفتحه فرأيا «يوسف وامرأة العزيز» عزيز مصر خلف الباب فجاءه. يقول القرآن الكريم: «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ».

والتعبير عن الزوج ب «السيد» كان طبقاً للعرف السائد في مصر، حيث كانت تخاطب المرأة زوجها بالسيد.

في هذه اللحظة التي رأت امرأة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، وشعلة الإنتقام تتأجج في داخلها من جهة أخرى، كان أول شيء توجهت إليه أن تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحق متهمه يوسف إذ «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُشَاجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ولكن يوسف أدرك أن السكوت هنا غير جائز... فأماط اللثام عن عشق امرأة العزيز «قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٥

وطبيعي أن مثل هذا الحادث من العسير تصديقه في البداية، أي إن شاباً يافعاً غير متزوج لا يُعد آثماً، ولكن امرأة متزوجة ذات مكانة اجتماعية- ظاهراً- آثمة! فلذلك كانت أصابع الإتهام تشير إلى يوسف أكثر من امرأة العزيز.

ولكن حيث إن الله حامى الصالحين والمخلصين فلا يرضى أن يحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الإتهام، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

أما عزيز مصر فقد قبل هذا الحكم الدقيق، وتخير في قميص يوسف ذاهلاً: «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ».

في هذه الحال، ولخوف عزيز مصر من إنتشار خبر هذا الحادث المؤسف على الملأ، فتسقط منزلته وكرامته في مصر رأى أن من

الصالح كتمان القضية، فالتفت إلى يوسف وقال:

«يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنِّ هَذَا». أى: اكنتم هذا الأمر ولا- تخبر به أحداً ... ثم التفت إلى امرأته وقال: «وَأَسِئْتَ تَغْفِرِي لِتَذَنِّبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ».

الشاهد الذى ختم «ملف يوسف وامرأة العزيز» بسرعه، هو أحد أقارب امرأة العزيز، وكلمة «من أهلها» دليل على ذلك. وعلى القاعدة فهو رجل حكيم وعارف ذكى ويقال: إن هذا الرجل كان من مشاوري عزيز مصر وكان معه.

حماية الله فى الأزمان: الدرس الكبير الآخر الذى نتعلمه من قصة يوسف، هو حماية الله ورعايته للإنسان الأكيده فى أشد الحالات، وبمقتضى قوله: «يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». فمن جهه كان يوسف لا يصدق أبداً أن نافذه من الأمل ستفتح له، ويكون قد القميص سندا للطهارة والبراءة، ذلك القميص الذى يصنع الحوادث، فيوماً يفضح إخوة يوسف لأنهم جاؤوا أباهم وهو غير ممزق، ويوماً يفضح امرأة العزيز لأنه قد من دبر، ويوماً آخر يهب البصر والنور ليعقوب، وريحه المعروف يسافر مع نسيم الصباح من مصر إلى أرض كنعان ويبشر العجوز «الكنعاني» بقدم موكب البشير.

إن لله لطفاً خفياً لا يسبر غورها أحد، وحين يهب نسيم هذه الألفاظ تتغير الأسباب والمسببات بشكل لا يمكن حتى لأذكي الأفراد أن يتبأ عنها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٦

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السُّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِنْ تَصِيرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) مؤامرة اخرى: بالرغم من أن عشق امرأة العزيز- المذكور آنفاً- كان مسألة خصوصية بحيث أكد حتى العزيز على كتمانها، ولكن حيث إن هذه الأسرار لا تبقى خافية، ولا سيما فى قصور الملوك وأصحاب المال والقوة- التى فى حيطانها آذان صاغية- فسوف تسترب إلى خارج القصر كما يقول القرآن فى هذا الشأن: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا». ثم لفتها وعنفنها بهذه الجملة: «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وواضح أن المتحدث بمثل هذا الكلام كن نساء أشرف مصر.

لم يكن فساد هؤلاء النسوة بأقل من امرأة العزيز ولكن أيديهن لم تصل إلى يوسف، فكن يرين امرأة العزيز بسبب هذا العشق فى ضلال مبين.

«الشغف»: من مادة «الشغاف» ومعناه أعلى القلب أو الغشاء الرقيق المحيط بالقلب، وشغفها حباً معناه أنها تعلقت به إلى درجة بحيث نفذ حبه إلى قلبها واستقر فى أعماقه.

أما امرأة العزيز فقد وصلها ما دار بين النسوة من إفتضاها «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا».

هذا العمل دليل على أن امرأة العزيز لم تكن تكثر بزوجها، ولم تأخذ الدرس من فضيحتها، ثم أمرت يوسف أن يتخطى فى المجلس «وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ».

نساء مصر- وطبقاً لبعض الروايات التى تقول: كن عشرًا ... أو أكثر- فوجئن بظهور

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٧

يوسف كأنه البدر أو الشمس الطالعة، فتحيرن من جماله «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ» وفقدن أنفسهن «وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» مكان الفاكهة، وحين



وجدن الحياء والعفة تشرقان من عينيه وقد احمر وجهه خجلاً صحن جميعاً و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». وفي هذه الحال التي كانت الدماء تسيل من أيدي النسوة وقد لاحظن ملامح يوسف كلها وصرن أمامه «كالحُشْبُ المسنَّدة» كشفن عن أنهن لسن بأقل من امرأة العزيز عشقاً ليوسف، فاستغلت امرأة العزيز هذه الفرصة ف «قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ». وهكذا أحسَّت امرأة العزيز بالغرور لأنها وُقِّت في ما ألقته من فكرة وأعطت لنفسها العذر، وإعترفت بكل صراحة بكل ما فعلت وقالت: «وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ».

وبدلاً من أن تظهر الندم على كلامها أو تتحفَّظ على الأقل أمام ضيوفها، أردفت القول بكل جد يحكى عن إرادتها القطعية: «وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ» ... ولا أكتفى بسجنه، بل «وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ».

ينقل البعض روايات عجيبة مؤداها أن بعضاً من نسوة مصر أعطين الحق لامرأة العزيز ودرن حول يوسف ليرغبه بأن يستسلم لحبها وكل واحدة تكلمت بكلام.

فقالت واحدة: أيها الشاب ما هذا الصبر والدلال، ولم لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، ألا ترى هذا الجمال الأسر؟ أليس عندك قلب؟! أأست شاباً؟ ألا تستلذ بالعشق.

وقالت الثانية: إذا كنت لا ترغب في جمالها المثير ولا تحتاج إلى مقامها ومالها، ولكن ألا تعرف أنها ستنتقم لنفسها بما أوتيت من وسائل الإنتقام الخطرة.

تهديد امرأة العزيز من جانبها بالسجن من جهة، ووساوس النسوة من جهة أخرى، أوقعا يوسف في أزمة شديدة، وأحاط به طوفان المشاكل، ولكن حيث إن يوسف كان قد صنع نفسه، فقد صمَّ بعزم وشجاعة والتفت نحو السماء ليناجي ربه وهو في هذه الشدة «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ».

وحيث كان يدرى أن لا مهرب له إلا إلى الله في جميع الأحوال ولا سيما في الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند الله بهذا الكلام «وَالْأَلَّا تَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

وحيث إن وعد الله حق، وأنه يُعين المجاهد (لنفسه أو لعدوه) فإنه لم يترك يوسف سيدي وتلقفته رحمته ولطفه كما يقول القرآن الكريم: «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٨

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». فهو يسمع نجوى عبده، وهو مطلع على أسرارهم، ويعرف طريق الحل لهم.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لِمَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبِيلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعَتْ مَلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) السجن بسبب البراءة: انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف في قصر العزيز في تلك الغوغاء والهياج، فإنَّ الخوف من فضيحة جنسية في اسره العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم. فكان الرأي بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أولاً، وليشيع بين الناس أن المذنب الأصلي هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْ حَتَّى حِينٍ».

أجل ... في المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب، ... بل إنَّ الأفراد النجباء كيوسف ينبغي أن يقبوعوا في زاوية النسيان ...

ولكن إلى متى؟ هل تستمر هذه الحالة؟ ... قطعاً لا ...

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان «وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ».

وحيث إن الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادي، فإنه يأنس لأحاسيس الآخرين لبحث عن مسير الحوادث ويتوقع ما سيكون، حتى أن الرؤيا وتعبيرها عنده يكون مطلباً مهماً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٥٩

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إن أحدهما كان ساقياً في بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشايه الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسم الملك، وتحدث كل منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيماً.

«قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ». ثم أضافا: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

فقد اغتم يوسف مراجعة السجنين له لتعبير الرؤيا- وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم- وبحجة التعبير كان يبين حقائق مهمة تفتح لهم السبل ولجميع الناس أيضاً.

في البداية، ومن أجل أن يستلفت إهتمامهما وإعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذي كان مثار إهتمامهما وتوجههما «قَالَ لِيَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا».

ثم إن يوسف أضاف إلى كلامه مقروناً بالإيمان بالله والتوحيد الجارى بجميع أبعاده في أعماق وجوده، ليبين بوضوح أن لا شيء يتحقق إلا بإرادة الله قائلاً: «ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» ولثلا يتصور أن الله يمنح مثل هذه الامور دون حساب، قال: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

والمقصود بهذه الملة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام من كنعان.

وينبغي لى أن أترك مثل هذه العقائد لأنها على خلاف الفطرة الإنسانية النقية، ثم إنى تربيت في اسرة الوحي والنبوة «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يضيف على نحو التأكيد: «مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ». لأن اسرنا اسرة التوحيد ... اسرة إبراهيم محطم الأصنام «ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ». وهى الموهبة العامة التى تشمل جميع عباد الله المودعة فى ارواحهم المسماة بالفطرة حيث يتكاملون بقيادة الأنبياء «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٠

يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْئَلُنِي رَبُّهُ خَمْرًا وَ أَمَا الْآخَرُ فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضَيَّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ (٤٢) السجن أو مركز التربية: حين هبياً يوسف فى البحث السابق قلوب السجنين لقبول حقيقة التوحيد، توجه إليهما وقال: «يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

فكان يوسف يريد أن يفهم السجنين أنه لم تريان الحرية فى النوم ولا تريانها فى اليقظة؟

فلم لا تجتمعون تحت رايه التوحيد، وتعصموا بحبل الواحد القهار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين والجبابرة الذين يسوقونكم إلى السجن أبرياء دون ذنب؟!!

ثم يضيف قائلاً: «مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» بل هى صنع عقولكم العاجزة وأفكاركم المنحرفة ... «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» فلا ينبغي أن تطأطأوا رؤوسكم لسواه من الطغاة والفرعنة، ثم أضاف زيادة فى التأكيد قائلاً:

«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ».

أى إن التوحيد فى جميع أبعاده- فى العبادة، فى الحكومة، فى المجتمع، فى المسائل الثقافية، وفى كل شىء- هو الدين الإلهى المستقيم والثابت. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» ولذلك خضعوا لحكومة غير (الله) فذاقوا الشقاء والسجون فى هذا السبيل. ثم التفت إليهما وقال: «يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيَصَلُّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ». ثم أضاف مؤكداً: «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتَيْنِ». وهو إشارة إلى أن هذا التعبير ليس

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦١

تعبيراً ساذجاً، بل هو من أنباء الغيب التى تعلمها من الله، فلا مجال للترديد والكلام بعد هذا.

وحين أحس يوسف أن السجينين سينفصلان عنه عاجلاً، ومن أجل أن يجد يوماً يُطلق فيه ويبرأ من هذه التهمة، أوصى أحد السجينين الذى كان يعلم أنه سيطلق أن يذكره عند الملك «وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» لكن هذا الغلام «الناسى» مثله مثل الأفراد قليلى الاستيعاب، ما إن يبلغوا نعمته ما حتى ينسوا صاحبها، وهكذا أصبح يوسف منسياً «فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ».

أما عدد السنوات التى قضاها يوسف فى السجن، فهناك أقوال بين المفسرين، والمشهور أنها سبع سنوات، إلا أن بعضهم قال: إن يوسف بقى فى السجن إثنتى عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبه سجنه، وسبع بعدها، وكانت سنوات ملأى بالتعب والنصب إلا أنها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمه بالبركة والخير.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُيُوبَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُيُوبَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ (٤٩) رؤيا ملك مصر وما جرى له: بقى يوسف سنين فى السجن المظلم كآى إنسان منسى، ولم يكن لديه من عمل إلا بناء شخصيته، وإرشاد السجناء وعبادة مرضاهم وتسليته الموجهين

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٢

منهم، حتى غيّرت (حظّه وطالعه) حادثه صغيرة بحسب الظاهر ... ولم تغير هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ أمه مصر وما حولها. لقد رأى ملك مصر الذى يقال أن اسمه هو «الوليد بن الريان» وكان «عزيز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبرين للرؤيا ومن حوله فقص عليهم رؤياه «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُيُوبَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ». ثم التفت إليهم طالباً منهم تعبير رؤياه فقال: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ». ولكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و «قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ».

«الأضغاث»: جمع «ضغث» ومعناه المجموعة من الحطب أو العشب اليابس أو الأخضر أو شىء آخر؛ و «الأحلام»: جمع «حلم» معناه الطيف والرؤيا، فيكون معنى «أضغاث أحلم» هو الأطياف المختلطة، فكأنها متشكلة من مجموعة مختلفه ومتفاوته من الأشياء.

وهنا تذكر ساقى الملك ما حدث له ولصاحبه فى السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشره يوسف «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ».

وهكذا حرّك كلام الساقى المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقى إلى السجن ليرى صديقه القديم ... ذلك الصديق الذى لم يف بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف أن شخصيه يوسف

الكريمة تمنعه من فتح «باب العتاب» فالتفت إليه وقال: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ».

إن يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغي عمله في المستقبل و «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ».

ثم أنه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متواليه فلا أمطار ولا زراعته كافية، فعليكم بالاستفادة مما جمعتم في سنّي الرخاء «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ».

ولكن عليكم أن تحذروا من إستهلاك الطعام «إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِتُونَ» وإذا واطبتم على هذه الخطّة فحينئذ لا خطر يهددكم لأنه «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٣

و «يُعَاثُ النَّاسُ». أي يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» المحاصيل لإستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها ... الخ.

كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً. في الحقيقة لم يكن يوسف مفسّراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدّم مقترحاً من عدّة مواد لخمسّة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإنّ هذا التعبير المقروح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدي الطغاة من جهة اخرى.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيُعَلِّمَ أَنَّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) تبرئه يوسف من كل إتهام: لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقاً ومدروساً ومنطقياً، لقد فهم الملك إجمالاً أنّ يوسف لم يكن رجلاً يستحق السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادي، دخل السجن نتيجة حادث خفي، لذلك تشوّق لرؤيته، ولكن لا- ينبغي للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يؤتى به إليه كما يقول القرآن: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ» لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك و «قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلِّهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ». إذن ... فيوسف لم يرغب أن يكون كأي مجرم، أو على الأقل كأي متهم يعيش مشمولاً ب «عفو الملك» ... لقد كان يرغب أولاً أن تثبت براءته وطهارته ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يُثبت ضمناً تلوث النظام الحكومي وما يجري في قصر وزيره.

ثم يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر ولا جهازه الحكومي وبأى سبب وصلت السجن، فالله مطلع على ذلك «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٤

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرّة ثانية إلى الملك، وأخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إباطه وعلوّ همّته، لذا عظم يوسف في نفس الملك وبادر مسرعاً إلى إحضار النسوة اللاتي شاركن في الحادثة، والتفت إليهن و «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ». يجب أن تقلن الحق ... هل إرتكب يوسف خطيئته أو ذنباً؟

فتيقظ فجأة الوجدان النائم في نفوسهن، وأجبنه جميعاً بكلام واحد، متفق على طهارته و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ».

أمّا امرأة العزيز التي كانت حاضرة أيضاً، أحسّت بأنّ الوقت قد حان لأن تنزه يوسف وأن تعوّض عن تبكيته وجدانها وحياتها وذنبها

بشهادتها القاطعة في حقه، وخاصة أنها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرض فيها بالطعن في شخصيتها وكان كلامه عاماً ومغلقاً تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنما حدث إنفجار في داخلها فجأة وصرخت و «قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ النَّ حَضَحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ». ثم واصلت امرأة العزيز كلامها «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» لأنني عرفت بعد هذه المدّة الطويلة وما عندي من التجارب «أَنَّ اللَّهَ لَيَهْدِيَ كَيْدَ الْخَائِنِينَ».

وتواصل امرأة العزيز القول: «وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» وبحفظه وإعانتة نبقي مصونين، وأنا أرجو أن يغفر لي ربي هذا الذنب «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ».

فامرأة العزيز التي تدعى «زليخا» أو «راعيل» وإن ابتليت في عملها بأشدّ الهزائم، لكن هذه الهزيمة في مسير الذنب كانت سبباً لأن تنتبه ويتيقظ وجدانها النائم، وأن تندم على ما فات من عملها ... والتفتت إلى ساحة الله.

السعداء هم اولئك الذين يصنعون من الهزائم إنتصاراً، ومن سوء الحظّ حظاً حسناً، ومن أخطائهم طريقاً صحيحاً للحياة. وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٥

يوسف أميناً على خزائن مصر: رأينا أن يوسف - هذا النبي العظيم - ثبتت براءته أخيراً للجميع، وحتى الأعداء شهدوا بطهارته ونزاهته، وظهر لهم أن الذنب الوحيد الذي أودع من أجله السجن لم يكن غير التقوى والأمانة التي كان يتحلّى بهما.

إضافةً إلى هذا فقد ثبت لهم أن هذا السجين منهل العلم والمعرفة والنباهة وطاقة فذة وعالية في الإدارة.

ثم يستمر القرآن بذكر القصة فيقول: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» وهكذا أمر الملك باحضاره لكي يجعله مستشاره الخاص ونائبه في المهمات فيستفيد من علمه ومعرفته وخبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثم أرسل الملك مندوباً لزيارته في السجن، فدخل عليه وأبلغه تحيات الملك وعواطفه القلبية تجاهه ثم قال له: إنّه قد لبي طلبك في البحث والتحقيق عن نساء مصر وإتهامهن إياك، قم لنذهب إلى الملك.

فدخل يوسف على الملك وتكلّم معه فعندما سمع من يوسف الأجوبة التي تحكى عن علمه وفراسته وذكائه الحادّ، ازداد حباً له وقال: إن لك اليوم عندنا منزلة رفيعة وسلطات واسعة وإنك في موضع ثقتنا وإ اعتمادنا «فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» فلا بد أن تتصدّى للمناصب الهامة في هذا البلد، وتهتمّ بإصلاح الامور الفاسدة.

فاختار يوسف منصب الأمانة على خزائن مصر، وقال اجعلني مشرفاً على خزائن هذا البلد فإنني حفيظ عليم وعلى معرفة تامة بأسرار المهنة وخصائصها «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ».

كان يوسف يعلم أن جانباً كبيراً من الاضطراب الحاصل في ذلك المجتمع الكبير الملىء بالظلم والجور يكمن في القضايا الاقتصادية، والآن وبعد أن عجزت أجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل واضطروا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له أن يسيطر على اقتصاد مصر حتى يتمكن من مساعدة المستضعفين وأن يخفف عنهم - قدر ما يستطيع - الآلام والمصاعب ويسترّد حقوقهم من الظالمين.

وهنا نقطة اخرى يجب التنبيه عليها وهي إننا نلاحظ أن يوسف عليه السلام يخاطب الملك ويقول له: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» وهذه إشارة إلى أهمية عنصر الإدارة إلى جانب عنصر الأمانة وأن توفّر عنصر الأمانة والتقوى فقط في شخص لا يؤهله لأن يتصدّى لأحد

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٦

المناصب الاجتماعية الحساسة، بل لا بد من إجتماع ذلك العامل مع العلم والتخصص والقدرة على الإدارة. ثم يقول الله سبحانه

وتعالى مُنهيًا بذلك قصه يوسف عليه السلام: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ».

نعم إنَّ الله سبحانه وتعالى ينزل رحمته وبركاته ونعمه المادية والمعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلاً لذلك «نُصِّبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ».

وأته سبحانه وتعالى لا ينسى أن يجازي المحسنين، وإنه مهما طالَّت المدَّة فإنه يجازيهم بجزائه الأوفى «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

ولكن لا- يقتصر سبحانه وتعالى على مجازاة المحسنين في الدنيا، بل يجازي المتقين والمحسنين بأحسن من ذلك في الآخرة وهو الجزاء الأوفى «وَلَا جُزْءَ الْأَخْرَجَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وَإِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتَّبِعُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) اقتراح جديد من يوسف لأخوته: وكما كان متوقعاً، فقد تحسنت الزراعة في مصر خلال سبع سنوات متتالية وذلك على أثر توالي الأمطار ووفرة ماء النيل وكثرت، ويوسف قد أجبر أبناء الشعب على أن يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الإنتاج الزراعي، وهكذا امتلأت المخازن بالمنتجات الزراعية والإستهلاكية ومرت سبع سنوات من الرخاء والوفرة، وبدأ القحط والجفاف يُظهر وجهه الكريه، ومنعت السماء قطرها، فلم تينع ثمرة، ولم تحمل نخلة.

وهكذا أصاب عامية الشعب الضيق وقلَّت منتجاتهم الزراعية، لكنهم كانوا على علم بخزائن الدولة وإمتلائها بالمواد الغذائية، وساعدهم يوسف حيث استطاع- بخطه محكمة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٧

ومنظمة مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجات المتزايدة، في السنين القادمة- أن يرفع الضيق عن الشعب بأن باع لهم المنتجات الزراعية مراعيًا في ذلك العدالة بينهم.

وهذا القحط والجفاف لم يكن مقتصرًا على مصر وحدها، بل شمل البلدان المحطية بها أيضاً، ومنهم شعب فلسطين وأرض كنعان المتاخمة لمصر والواقعة على حدودها في الشمال الشرقي، وكانت عائلة يوسف تسكن هناك وقد تأثرت بالجفاف، واشتد بهم الضيق، بحيث اضطرَّ يعقوب أن يرسل جميع أولاده- ما عدا بنيامين الذي أبقاه عنده بعد غياب يوسف- إلى مصر، حيث سافروا مع قافلة كانت تسير إلى مصر ووصلوا إليها- كما قيل- بعد ١٨ يوماً.

وتذكر المصادر التاريخية أن الأجانب عند دخولهم إلى الأراضي المصرية كانوا ملزمين بتسجيل أسمائهم في قوائم معينة لكي تعرض على يوسف، ومن هنا فحينما عرض الموظفون تقريراً على يوسف عن القافلة الفلسطينية وطلبهم للحصول على المؤن والحبوب رأى يوسف أسماء اخوته بينهم وعرفهم وأمر بإحضارهم إليه، دون أن يتعرف أحد على حقيقتهم وأنهم اخوته ....

يقول القرآن الكريم: «وَإِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ». وكان طبعاً أن لا يتعرف إخوة يوسف عليه لأنه في جانب كان قد مضى على فراقهم إياه منذ أن أودعوه الجبّ وخرج منه ودخل إلى مصر ما يقرب من أربعين سنة، ومن جهة أخرى كان لا يخطر ببالهم أن أخوهم صار عزيزاً لمصر، وحتى لو رأوا الشبه بين العزيز وبين أخيهم لحملوه على الصدفة. كما أن احتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدَّة كان ضعيفاً عندهم، وعلى أية حال فإنَّ إخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب.

أمّا يوسف فإنه قد رحب بإخوته ولاطفهم وفتح باب الحديث معهم، قالوا: نحن عشرة إخوة من أولاد يعقوب، ويعقوب هو ابن إبراهيم الخليل نبي الله العظيم، وأبونا أيضاً من أنبياء الله العظام، وقد كبر سنّه وألم به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغم والحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع إخوته وكان يحبه كثيراً، فخرج معنا يوماً للترهه والتفرج والصيد وغفلنا عنه فأكله الذئب، ومنذ ذلك اليوم وأبونا يبكي لفراقه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٨

نقل بعض المفسرين أنه كان من عادة يوسف أن لا يعطى ولا يبيع لكل شخص إلّا حمل بعير واحد، وبما أن إخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ١٠ أحمال من الحبوب، فقالوا: إن لنا أباً شيخاً كبيراً عاجزاً عن السفر وأخاً صغيراً يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز أن يدفع إليهم حصّتهما، فأمر يوسف أن يضاف إلى حصصهم حملان آخران، ثم توجه إليهم مخاطباً إليهم وقال: فأتوا بأخيكم الصغير في سفركم القادم لتبتوا صدقكم، وتدفعوا التهمة عن أنفسكم. وهنا يقول القرآن الكريم: إنه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم وأرادوا الرحيل عن مصر «وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ». لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطن لهم، وهو إننى سوف أمنع عنكم المؤن والحبوب إذا لم تأتونى بأخيكم: «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ»، وكان يوسف يحاول بشتى الطرق، تارة بالتهديد، واخرى بالتجيب، أن يلتقى بأخيه بنيامين وبقية عنده، وظهر من سياق الآيات، أمران: أن الحبوب كانت تباع وتشتري في مصر بالكيل لا بالوزن، واتضح أيضاً أن يوسف كان يستقبل الضيوف - ومنهم اخوته - الذين كانوا يقدون إلى مصر بحفاوة بالغه ويستضيفهم بأحسن وجه.

وأجاب إخوة يوسف على طلب أخيهم: «قَالُوا سَتَرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ».

ويستفاد من قوله «إِنَّا لَفَاعِلُونَ» وإجابتهم الصريحة لعزير مصر، أنهم كانوا مطمئنين إلى قدرتهم على التأثير على أبيهم وأخذ الموافقة منه، وكيف لا يكونون مطمئنين بقدرتهم على ذلك وهم الذين استطاعوا بإصرارهم وإلحاحهم أن يفزقوا بين يوسف وأبيه؟! وأخيراً أمر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التي اشتروا بها الحبوب في رحالهم - جلباً لعواطفهم - «وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته؟ بالنسبة للآيات السابقة فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو إنه لماذا لم يعرّف يوسف نفسه لإخوته، حتى يقفوا على حقيقة حاله ويرجعوا إلى أبيهم ويخبرونه عن مصير يوسف، وبذلك تنتهى آلامه لأجل فراق يوسف؟ حاول جمع من المفسرين - كالعلامة الطبرسى في مجمع البيان والعلامة الطباطبائى في تفسير الميزان والقرطبى في تفسيره الجامع لأحكام القرآن - الإجابة على هذا السؤال، وذكروا له عدّة أجوبة، ولعل أحسنها وأقربها هو أن يوسف لم يكن مجازاً من قبل الله مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٦٩

سبحانه وتعالى في إخبار أبيه، لأن قصة يوسف مع غض النظر عن خصائصه الذاتية كانت ساحة لاختبار يعقوب وحقلاً لامتحانه، فلا بد من أن يؤدى يعقوب إمتحانه ويجتاز فترة الاختبار قبل أن يسمح ليوسف بإخباره، وإضافة إلى هذا فإن إسراع يوسف في إخبار إخوته قد يؤدى إلى عواقب غير محمودة، مثلاً قد يستولى عليهم الخوف والهلع من إنتقام يوسف منهم لما إرتكبه سابقاً في حقه فلا يرجعوا إليه.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانَ وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لِيَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) موافقه يعقوب: رجع اخوة يوسف إلى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنهم كانوا يفكرون بمصيرهم في المستقبل وأنه لو رفض الأب ولم يوافق على سفر أخيهم الصغير (بنيامين) فإن عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما إنه لا يعطيهم حصّتهم من الحبوب والمؤن. ومن هنا يقول القرآن: «فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» ولا سبيل لنا للحصول عليه إلا أن ترسل معنا آخانا نكتل» وكن على يقين

من أننا سوف نحافظ عليه ونمنعه من الآخرين «وَأَنَا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ثم أضاف: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ثم إن الاخوة حينما عادوا من مصر «وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ» فشهدوا أن هذا الأمر هو برهان قاطع على صحته طلبهم، فجاءوا إلى أبيهم و«قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا».

فيا أبانا ليس هناك مجال للتأخير- ابعث معنا أخانا لكي نساfer ونشترى الطعام «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» وسوف نكون جادين في حفظ أخينا «وَنَحْفَظُ أَخَانَا»، وهكذا نتمكن من أن نشترى كيل بعير من الحبوب «وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» وإننا على يقين في أن سماحه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٠

العزير وكرمه سوف يسهلان حصوله «ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ». وفي كل الأحوال رفض يعقوب إرسال ابنه بنيامين معهم، ولكنه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوي بحيث اضطر إلى التنازل على مطلبهم ولم ير بداً من القبول، ولكنه وافق بشرط: «قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ».

والمقصود من قوله «مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ» هو العهد واليمين المتضمن لإسم الله سبحانه وتعالى.

فقد وافق اخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، وحينما أعطوه العهد والمواثيق المغلظة قال يعقوب: «فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وأخيراً توجه إخوة يوسف صوب مصر للمرة الثانية بعد إذن أبيهم وموافقته على إصطحاب أخيه الصغير معهم، وحينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصياً إليهم بقوله:

«وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ».

ثم أضاف: إنه ليس في مقدوري أن أمنع ما قد قدر لكم في علم الله سبحانه وتعالى «وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ».

ثم قال أخيراً: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

لا شك في أن عاصمة مصر كانت تمتلك أبواباً متعددة، ذهب جمع من المفسرين إلى أن سبب هذه النصيحة هو أن إخوة يوسف كانوا يتمتعون بقسط وافر من الجمال وبأجسام قوية رشيقه، وكان الأب الحنون في قلق شديد من الفات نظر الناس إلى هذه المجموعة المكونة فيصيبهم الحسد من تلك العيون الفاحصة.

وهناك سبب آخر وهو أن دخول هذه المجموعة إلى مصر بوجوههم المشرقة وأجسامهم الرشيقه القويمة قد يثير الحسد والبغضاء في بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧١

واصل الاخوة سيرهم نحو مصر، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة وشاسعة بين كنعان ومصر دخلوا الأراضي المصرية، وعند ذاك «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» فهم برغم تفرقهم إلى جماعات صغيرة- طبقاً لما وصّاهم به أبوهم- فإن الفائدة والثمره الوحيدة التي ترتبت على تلك النصيحة ليس «إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا». وهذه إشارة إلى أن أثرها لم يكن سوى الهدوء والطمأنينة التي إستولت على قلب الأب الحنون الذي بعد عنه أولاده، وبقي ذهنه وفكره مشغولاً بهم وبسلامتهم وخائفاً عليهم من كيد الحاسدين وشور الطامعين، فما كان يتسلّى به في تلك الأيام لم يكن سوى يقينه القلبي بأن أولاده سوف يعملون بنصيحته.

ثم يستمرّ القرآن في مدح يعقوب ووصفه بقوله: «وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». وهذه إشارة إلى أن كثيراً من



الناس يتيهون في الأسباب وينسون قدرة الله سبحانه وتعالى، إلا أن يعقوب كان عالماً بأنه بدون إرادة الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيء، فكان يتوكل في الدرجة الاولى على الله سبحانه وتعالى ويعتمد عليه، ثم يبحث عن عالم الأسباب.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٢

يوسف يخطط للإحتفاظ بأخيه: وأخيراً دخل الاخوة على يوسف وأعلموه بأنهم قد نفذوا طلبته واصطحبوا معهم أخاهم الصغير برغم إمتناع الأب في البداية، ولكنهم أصرّوا عليه وإنزعوا منه الموافقة لكي يثبتوا لك إنهم قد وفوا بالعهد، أما يوسف فإنه قد إستقبلهم بحفاوة وكرم بالغين ودعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر أن يجلس كل إثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا وجلس كل واحد منهم بجانب أخيه على الطعام، وبقي بنيامين وحيداً فتألم من وحدته وبكى وقال: لو كان أخى يوسف حياً لعطف عليّ ولأجلسني إلى جنبه على المائدة لأننا إخوة من أب واحد وأم واحدة، قال يوسف مخاطباً إياهم: إن أخاكم بقي وحيداً وإنني سأجلسه بجانبى على المائدة ونأكل سوياً من الطعام، ثم بعد ذلك أمر يوسف بأن تهياً لهم الغرف ليستريحوا فيها ويناموا، ومرة أخرى بقي بنيامين وحيداً، فاستدعاه يوسف إلى غرفته وبسط له الفراش إلى جنبه، لكنّه لاحظ في تقاسيم وجهه الحزن والألم وسمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوهاً، عند ذاك نفذ صبر يوسف وكشف عن حقيقة نفسه، والقرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله: «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«تبتئس»: مأخوذ من مادة «البؤس» وهو أصل بمعنى الضرر والشدة، لكن في الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغم على نفسك ولا تكن حزيناً من معاملتهم لك، والمراد بقوله «يعملون» هو معاملته الاخوة السيئة لأخيهم بنيامين حيث خططوا لإبعاده وطرده من بينهم كما فعلوا بيوسف.

وتقول بعض الروايات: إنه عند ذاك إقترح يوسف على أخيه بنيامين وقال له: هل تودّ أن تبقى عندي ولا تعود معهم؟ قال بنيامين: نعم، ولكن إخوتي لا يوافقون على ذلك.

قال يوسف: لا تهتم بهذا الأمر فإنني سوف أضع خطة محكمة بحيث يضطرون لتركك عندي والرجوع دونك. وبدأ يوسف بتنفيذ الخطة، وأمر بأن يعطى لكل واحد منهم حصّة من الطعام والحبوب ثم عند ذاك «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ».

لا شك في أن يوسف قام بهذا العمل بسريّة تامّة، ولعله لم يطلع على هذه الخطة سوى موظف واحد وعند ذاك إفتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكى الخاص،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٣

وبحث عنه الموظفون والعمال كثيراً لكن دون جدوى وحينئذ «أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ».

وحيثما سمع إخوة يوسف هذا النداء إرتعدت فرائصهم وإستولى عليهم الخوف، حيث لم يخطر ببالهم أن يتهموا بالسرقة بعد الحفاوة التي قبلوا بها من جانب يوسف، فتوجهوا إلى الموظفين والعمال وقالوا لهم: ماذا فقدتم؟ «قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ».

قالوا: قد فقدنا صواع الملك ونظنّ إنه عندكم «قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ» وبما أن الصواع ثمين ومورد علاقة الملك فإن لمن يعثر عليه جائزة، وهى حمل بعير من الطعام «وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ». ثم أضاف المؤذن والمسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: إنني

شخصياً أضمن هذه الجائزة «وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ».

فاشتمد اضطراب الاخوة لسماحهم هذه الامور وزادت مخاوفهم، وتوجهوا إلى الموظف مخاطبين إياه «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ».

إلا أن الموظفين توجهوا إليهم و «قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ».

أجاب الاخوة: إن عقاب من وجد الصواع في رحله هو أن يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع «قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ». وإن هذا العقاب هو جزاء السارق «كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ». وحينئذ أمر يوسف الموظفين والعمال بأن تنزل رحالهم من على ظهور الجمال ويفتح متاعهم وأن يبحثوا فيها واحداً بعد واحد ودون استثناء، وتجنباً عن إنكشاف الخطة أمر يوسف بأن يبدأوا البحث والتفتيش في أمتعة الاخوة أولاً قبل أمتعة أخيه بنيامين، لكنهم وجدوه أخيراً في أمتعة بنيامين «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ».

بعد أن عثر على الصاع في متاع بنيامين، إستولى الإرتباك والدهشة على الاخوة، وصعقتهم هذه الواقعة ورأوا أنفسهم في حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح وسرق صواع الملك، وهذا يعود عليهم بالخزي والعار، ومن جهة أخرى إن هذا العمل سوف يفقدهم اعتبارهم ونفوذهم عند الملك خصوصاً مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وإضافةً إلى كل هذا، كيف يجيبون على استفسارات أبيهم؟ وكيف يقنعونه بذنب ابنه وعدم تقصيرهم في ذلك؟

ثم يستمر القرآن الكريم ويبين كيف استطاع يوسف أن يأخذ أخاه بالخطة التي رسمها

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٤

الله له دون أن يثير في اخوته أى نوع من المقاومة والرفض «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ». والأمر المهم في هذه القضية هو أنه لو أراد يوسف أن يعاقب أخاه بنيامين، -وطبقاً للقانون المصرى- لكان عليه أن يضرب أخاه ويودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات وأهداف يوسف للإحتفاظ بأخيه، ومن هنا وقبل القبض على بنيامين، سأل إخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأن السنة المتبعة عندهم في معاقبة السارق أن يعمل السارق عند المعتدى عليه كالعبد.

لا-ريب إن للعقوبة والجزاء طرقاً عديدة منها أن يعاقب المعتدى على طبق ما يعاقب به في قومه، وهكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، وتوضيحاً لهذه الحالة وأن يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقاً للدستور المصرى يقول القرآن الكريم: «مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ». لكن الله سبحانه وتعالى يستثنى بقوله: «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». وهو إشارة إلى أن ما فعله يوسف بأخيه لم يكن إللاًبأمر منه سبحانه وتعالى وطبقاً لإرادته في الإحتفاظ ببنيامين، واستمراراً لإمتحان يعقوب وأولاده.

وأخيراً يضيف القرآن الكريم ويقول: إن الله سبحانه يرفع درجات من استطاع أن يفوز في الامتحان ويخرج مرفوع الرأس كما حدث ليوسف «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ» ولكن في كل الأحوال فإن الله تعالى عليم يهدى الإنسان إلى سواء السبيل وهو الذى أوقع هذه الخطة في قلب يوسف وألهمه إياها «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ».

قَالُوا إِنْ يَشِيرُ قَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) موقف إخوة يوسف: وأخيراً إقتنع إخوة يوسف بأن أخاهم (بنيامين) قد ارتكب فعلاً شنيعاً وقبيحاً وإنه قد شوّه سمعتهم وخذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا أن يبرأوا أنفسهم ويعيدوا ماء وجههم «قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ». أى إنه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإن أخاه يوسف وهو أخوه لأبويه قد ارتكب مثل هذا العمل القبيح،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٥

ونحن نختلف عنهما في النسب.

وحيثما سمع يوسف كلامهم تأثر بشده لكنه كتم ما في نفسه: «فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» لأنه كان عالماً بأنهم قد افتروا عليه واتهموه كذباً، إلماً أنه لم يرد عليهم وقال لهم باختصار وإقتضاب: «قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا». أى: إنكم أحقر وأشر مكاناً ممن تتهمونه وتنسبون إليه السرقة، أو أنتم أحقر الناس عندي.

ثم أضاف يوسف: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ.

وعندما لاحظ الإخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة- وطبقاً للسنة والدستور المتعين عندهم- لابد وأن يبقى أخوهم الصغير بنيامين عند عزيز مصر ويقوم بخدمته كسائر عبيده، ومن جهة أخرى فإنهم قد أعطوا لأبيهم الموثيق والأيمان المغلظة على أن يحافظوا على أخيهم بنيامين ويعودوا به سالماً إليه، حينما وقعوا في هذه الحالة توجهوا إلى يوسف الذي كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين إياه «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» لكي نرجعه إلى أبيه ونكون قد وفينا بالوعد الذي قطعناه له، فإنه شيخ كبير ولا طاقة له بفراق ولده العزيز، فرجو منك أن ترحم علينا وعلى أبيه ف «إِنَّا نَزَيْكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

أما يوسف فإنه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ» فإن العدل والإنصاف يقتضى أن يكون المعاقب هو السارق، وليس بريئاً رضى بأن يتحمل أوزار عمل غيره، ولو فعلنا لأمسينا من الظالمين «إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ». والطريف أن يوسف لم ينسب لأخيه السرقة وإنما عبّر عنه ب «مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ» وهذا برهان على السلوك الحسن والسيرة المستقيمة التي كان ينتهجها يوسف في حياته.

فَلَمَّا اسْتَيْسَئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) اذْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٦

رجوع الاخوة إلى أبيهم خائبين: حاول الاخوة أن يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتى الطرق، إلماً أنهم فشلوا في ذلك، ورأوا أن جميع سبل النجاة قد سدّت في وجوههم، إستولى عليهم اليأس وصمّموا على الرجوع والعودة إلى كنعان لكي يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفاً إياهم «فَلَمَّا اسْتَيْسَئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا». أى: إنهم بعد أن يئسوا من عزيز مصر أو من إنقاذ أخيهم، إبتعدوا عن الآخرين واجتمعوا في جانب وبدأوا بالتشاور والنجوى فيما بينهم.

قوله تعالى «خلصوا»: بمعنى الخلوص، وهو كناية عن الإبتعاد عن الآخرين والاجتماع في جلسة خاصة، أما قوله تعالى «نجياً»: فهو من مادة «المناجاة» وأصله من «نجوة» بمعنى الربوة والأرض المرتفعة، فباعتراب أن الربوات منعزلة عن أراضيها المجاورة، سميت الجلسات الخاصة البعيدة عن عيون الغرباء والحديث في السر قياساً عليها ب «النجوى».

وفى ذلك الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلاً: «قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ» بأن تردّوا إليه بنيامين سالماً، فالآن بماذا تجيبونه؟ وقد سؤدنا صفحتنا في المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف «وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ» فالآن والحالة هكذا، فإننى لا اغادر أرض مصر وسوف أعتصم فيها «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». والظاهر أن قصده بحكم الله، إمّا الموت الذى هو حكم إلهى، أى لا أبرح من هذه الأرض حتى أموت فيها، وإمّا أن يفتح الله سبحانه وتعالى له سبيلاً للنجاة، أو عذراً مقبولاً عند أبيه.

ثم أمرهم الأخ الأكبر أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى عليهم «اذْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ». وهذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملك، ثم عثر عليه عند أختينا، وظهر للجميع إنه قد سرقها «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا» ولكن نحن لا نعلم إلماً شهدناه بأعيننا وهذا غاية معرفتنا «وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ».

ثم أرادوا أن يزيلوا الشك والريبه عن قلب أبيهم فقالوا يمكنك أن تتحقق وتساءل من المدينة التي كنا فيها «وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا»

«١». ومن القافلة التي سافرنا معها إلى مصر

(١) «القرية»: يشمل جميع الأرياف والمدن والقرى الصغيرة منها والكبيرة. والمقصود منها في الآية هي مصر.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٧

ورجعنا معها، حيث إن فيها اناساً يعرفونك وتعرفهم، وبمقدورك أن تسألهم عن حقيقة الحال وواقعها «وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا» (١). وفي كل الأحوال كن على ثقة بأننا صادقون ولم نقص عليك سوى الحقيقة والواقع «وَأَنَا لَصَادِقُونَ». يستفاد من مجموع هذه الكلمات والحوار الذي دار بين الأولاد والأب أن قضية سرقة بنيامين كانت قد شاعت في مصر، وأن جميع الناس علموا بأن أحد أفراد العير والقافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفي الملك تمكنوا بيقظتهم من العثور عليها والقبض على سارقها.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسِكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسِيفًا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يعقوب والألطف الإلهية: وأخيراً غادروا مصر متجهين إلى كنعان في حين تخلف أخوهم الكبير والصغير، ووصلوا إلى بيتهم منهوكي القوى وذهبوا لمقابلة أبيهم، وحينما رأى الأب الحزن والألم مستولياً على وجوههم (خلافاً للسفرة السابقة والتي كانوا فيها في غاية الفرح) علم أنهم يحملون إليه أخباراً محزنة وخاصة حينما إفتقد بينهم بنيامين وأخاه الأكبر، وحينما أخبروه عن الواقعة بالتفصيل، إستولى عليه الغضب وقال مخاطباً إياهم بنفس العبارة التي خاطبهم بها حينما أرادوا أن يشرحوا له خديعتهم مع يوسف «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسِكُمْ أَمْرًا». أى: إن أهواءكم الشيطانية هي التي إستولت عليكم وزينت لكم الأمر بهذه الصورة التي أنتم تصفونه.

لكن بعد هذا العتاب الملىء بالحزن والأسى رجع يعقوب إلى قرارة نفسه وقال: «فَصَبْرٌ

(١) «عير»: تعني الجماعة التي تصحب معها الإبل والدواب المحملة بالغذاء، أى يطلق على المجموع «عير» فعلى هذا يكون السؤال منهم ممكناً لأن الكلمة تشمل الأشخاص أيضاً ولا حاجة للتقدير.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٨

جَمِيلٌ». أى: أنتى سوف أمسك بزمام نفسى، ولا- أسمح لها بأن تنطني على بل أصبر صبراً جميلاً على أمل بأن الله سبحانه وتعالى سوف يعيد لى أولادى (يوسف وبنيامين وأخوهم الأ-كبر) «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا». فإنه هو العالم بواقع الامور والخبير بحوادث العالم ما مضى منها وما سوف يأتى، ولا يفعل إلا عن حكمة وتدبير «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». ثم بعد هذه المحاورات بين يعقوب وأولاده، إستولى عليه الحزن والألم، وحينما رأى مكان بنيامين خالياً عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، وتذكر تلك الأيام الجميلة التي كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والذكاء العالى فيشم رائحته الطيبة ويستعيد نشاطه، أما اليوم فلم يبق منه أثر ولا عن حياته خبر، كما أن خليفته (بنيامين) أيضاً قد ابتلى مثل يوسف بحادث مؤلم وذهب إلى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكر يعقوب هذه الامور إبتعد عن أولاده واستعبر ليوسف «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسِيفَى عَلَى يُوسُفَ». واشتد حزن يعقوب وبكاؤه على المصائب المتكررة وفقد أعز أولاده «وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ». لكن يعقوب كان مسيطراً على حزنه ويخفف من آلامه ويكظم غيظه ولا يتفوه بما لا يرضى به الله سبحانه وتعالى «فَهُوَ كَظِيمٌ».

أما الإخوة فكانوا متألمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم مما أحدثوه ليوسف، وفي قضية بنيامين

شاهدوا أنفسهم في وضع صعب وامتحان جديد، ومن جهة ثالثة كان يصعب عليهم أن يشاهدوا أباهم يتجرع غصص المرارة والألم ويواصل بكاءه الليل بالنهار، فلذلك توجهوا إلى أبيهم وخاطبوه معاتبين: «قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوْنَا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» (١). أى: إنك تردّد ذكر يوسف وتأسّف عليه حتى وتقع على فراش المرض وتشرف على الهلاك وتموت. لكن شيخ كنعان هذا النبي العظيم صاحب الضمير اليقظ ردّ عليهم بقوله: «إِنَّمَا أَشْكُوا بِنْتِي وَحَزْنِي إِلَى اللَّهِ» (٢). لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد وتنكثون العهد لأننى «وَأَعْلَمُ مَنْ

(١) «حرض»: بمعنى الشىء الفاسد والمؤلم، والمقصود منه هنا هو المريض الذى ضعف جسمه وصار مشرفاً على الموت.

(٢) «بتّ»: بمعنى التفرقة والشىء الذى لا يمكن اخفاؤه، والمقصود منه هنا هو الألم والحزن الظاهر الذى لا يخفى على أحد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٧٩

اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» فهو اللطيف الكريم الذى لا أطلب سواه.

يَا بِنْتِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَآخِيهِ وَلَمَّا تَيَاسَّوْا مِنْ رُوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لَمَّا تَيَاسَّوْا مِنْ رُوْحِ اللّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعِيهِ مُزْجَاءَ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مِا فَعَلْتُمْ بِيُوْسُفَ وَآخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَيْنَكْ لَأَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) اليأس علامة الكفر: كان القحط والغلاء وشحة الطعام يشتد يوماً بعد آخر فى مصر وما حولها ومنها كنعان، ومرة اخرى أمر يعقوب أولاده بأن يتجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنّه هذه المرّة طلب منهم بالدرجة الاولى أن يبحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين، حيث قال لهم: «يَا بِنْتِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَآخِيهِ».

لكن بما أن أولاد يعقوب كانوا مطمئنين إلى هلاك يوسف وعدم بقاءه، تعجبوا من توصية أبيهم وتأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس والقنوط ووصيهم بالاعتماد على الله سبحانه والإتكال عليه بقوله: «وَلَمَّا تَيَاسَّوْا مِنْ رُوْحِ اللّهِ». فإنّه القادر على حلّ الصعاب و «إِنَّهُ لَيَأْتِيْسُ مِنْ رُوْحِ اللّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ».

«تحسس»: أصله من «حس» بمعنى البحث عن الشىء المفقود بأحد الحواس، والفرق بينه وبين «تجسس» أن التجسس هو البحث عن الخير، والتجسس هو البحث عن الشر.

قوله تعالى «روح» بمعنى الرحمة والراحة والفرج والخلاص من الشدة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٠

وأخيراً جمع الاخوة متاعهم وتوجهوا صوب مصر، وهذه هي المرة الثالثة التى يدخلون فيها أرض مصر، هذه الأرض التى سببت لهم المشاكل وجرت عليهم الويلات. لكن فى هذه السفره- خلافاً للسفرتين السابقتين- كانوا يشعرون بشىء من الخجل يعذب ضمائرهم فإن سمعتهم عند أهل مصر أو العزيز ملوثة للوصمة التى لصقت بهم فى المرة السابقة، ولعلهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. إلا أن الذى كان يبعث فى نفوسهم الأمل ويعطيهم القدرة على تحمل الصعاب هو وصية أبيهم «لَا تَيَاسَّوْا مِنْ رُوْحِ اللّهِ».

وأخيراً استطاعوا أن يقابلوا يوسف، فخاطبوه- وهم فى غاية الشدة والألم- بقولهم:

«فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ». أى: إن القحط والغلاء والشدة قد ألمت بنا وبعاثلتنا ولم نحمل معنا من كنعان إلّا متاعاً رخيصاً «وَجِئْنَا بِبِضَاعِيهِ مُزْجَاءَ» (١).

لا-قيمة لها ولكن- في كل الأحوال- نعتد على ما تبذل لنا من كرمك ونأمل في معروفك «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» بمنك الكريم وصدقاتك الوافرة «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» ولا تطلب منا الأجر، بل اطلبه من الله سبحانه وتعالى حيث: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ». والطريف أن إخوة يوسف لم ينفذوا وصية أبيهم في البحث عن إخوتهم أولًا، بل حاولوا الحصول على الطعام، ولأجل ذلك قابلوا العزيز وطلبوا منه المؤن والحبوب، ولعل السبب في ذلك ضعف أملهم في العثور على يوسف، أو لعلهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم أمام العزيز والمصريين وكأنهم اناس جاؤوا لشراء الطعام والحبوب فقط، ثم يطرحون مشكلتهم أمام العزيز ويطلبون منه المساعدة، فعند ذاك يكون وقع الطلب أقوى واحتمال تنفيذه أكثر.

ونقرأ في روايات وردت في هذا المقام، أن الإخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم إلى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب في تلك الرسالة عزيز مصر وأكبر عدالته وصلاحه وشكره على ما بذله له ولعائلته من الطعام والحبوب، ثم عرّف نفسه والأنبياء من أهل بيته وأخبره برزاياه وما تحمله من المصائب والمصاعب من فقده أعزّ أولاده وأحبهم إلى نفسه يوسف وأخيه بنيامين، وما أصابهم من القحط والغلاء، وفي ختام الرسالة طلب من العزيز أن يمنّ عليه ويطلق سراح ولده بنيامين، وذكره أن بنيامين سليل بيت النبوة والرسالة وأنه

(١) «البضاعة»: أصلها «البضع» على وزن جزء، وهي بمعنى القطعة من اللحم المقطوعة من الجسم، كما يطلق على جزء من المال الذي يقطع منه ثمنًا لشيء. «مزجاء»: من «الإزجاء» بمعنى الدفع، وبما أن الشيء التافه والقليل الثمن يدفعه الآخذ عن نفسه، اطلق عليه (مزجاء).

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨١

لا يتلوّث بالسرقة وغيرها من الدناءات والمعاصي.

وحيثما قدّم الأولاد رسالة أبيهم إلى العزيز شاهدوا أنه فضّ الرسالة باحترام وقبلها ووضعها على عينيه وبدأ يبكي بحيث أن الدموع بّلت ثيابه.

وفي تلك اللحظة، وبعد أن مضت أيام الامتحان الصعب وكان قد إشتدت محنة الفراق على يوسف وظهرت عليه آثار الكآبة والهّم، أراد أن يعرّف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله:

«هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ».

ويستفاد من بعض الروايات أن يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه ومع أخيه ختم إستفساره بإبتسامه عريضة ليدفع عن أذهانهم احتمال أنه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة ولاحظوا وتذكروا الشبه بينه وبين أسنان أخيهم يوسف.

أما هم، فإنهم حينما لاحظوا هذه الامور مجتمعة، وشاهدوا أن العزيز يتحدث معهم ويستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التي لم يكن يعلمها أحد غيرهم إلّا يوسف.

ومن جهة اخرى أدهشهم يوسف وما أصابه من الوجد والهيّاج حينما إستلم كتاب يعقوب، وأحسوا بعلاقه وثيقه بينه وبين صاحب الرسالة.

وثالثاً: كلّما أمعنوا النظر في وجه العزيز ودققوا في ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه وبين أخيهم يوسف ... لكنهم في نفس الوقت لم يدر بخلدهم ولم يتصوروا أنه يمكن أن يكون أخوهم يوسف قد إرتقى منصب الوزارة وصار عزيزاً لمصر، أين يوسف وأين الوزارة والعزة؟! لكنهم تجرّأوا أخيراً وسألوه مستفسرين منه «قَالُوا أَيْنَ نَكَّ لَأَنْتَ يُّوسُفُ».

كانت اللحظات تمرّ بسرعة لكن يوسف لم يدع اخوته يطول بهم الإنتظار ورفع الحجاب بينه وبينهم وأظهر لهم حقيقة نفسه و «قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي». لكن لكي يشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب والنعم، ولكي يعلم إخوته درساً آخر

من دروس المعرفة قال: إِنَّهُ «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

هذه اللحظات الحساسة كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالذنب والجريمة التي اقترفوها في حقه، فترقبوا إجابة يوسف وأنه هل يغفر لهم إساءتهم إليه ويعفو

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٢

عن جريمته أم لا؟ فابتدأوا مستفسرين بقولهم: «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا» (١). أى:

إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ فَضَّلَكَ عَلَيْنَا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْحِكْمَةِ «وَأِنْ كُنَّا لَخَاطِبِينَ». أما يوسف الذى كانت نفسه تأبى أن يرى إخوته فى حال الخجل والندامة - خاصة فى هذه اللحظات الحساسة وبعد إنتصاره عليهم، فخطبهم بقوله: «قَالَ لَأَتَثَرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ» (٢). أى: إِنَّ الْعِتَابَ وَالْعِقَابَ مَرْفُوعٌ عَنْكُمْ الْيَوْمَ، اطمئنوا وكونوا مرتاحى الضمير ولا تجعلوا للآلام والمصائب السابقة منفذاً إلى نفوسكم، ثم لكى يبين لهم أنه ليس وحده الذى أسقط حقه وعفا عنهم، بل إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَيْضاً عَفَا عَنْهُمْ حِينَمَا أَظْهَرُوا النَّدَامَةَ وَالْخَجَلَ قَالَ لَهُمْ: «يَعْفُزُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». أى: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ لِأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وهذا دليل على علو قدر يوسف وغايه فضله حيث إنه لم يعف عن سيئات إخوته فحسب، بل طمأنهم على أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحِيمٌ غَفُورٌ وَأَنَّهُ تَعَالَى سَوْفَ يَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَإِسْتَدَلَّ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وهنا تذكر الإخوة مصيبة اخرى قد ألمت بعائلتهم والشاهد الحى على ما اقترفوه فى حق أخيهم، ألا وهو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصره حزناً وفراقاً على يوسف، أما يوسف فإنه قد وجد لهذه المشكلة حلاً حيث خاطبهم بقوله: «أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرٍ». ثم طلب منهم أن يجمعوا العائلة ويأتوا بهم جميعاً «وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ».

ورد فى بعض الروايات أَنَّ يوسُفَ قَالَ: إِنَّ الَّذِي يَحْمِلُ قَمِيصِي الْمَشَافِي إِلَى أَبِي لَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي حَمَلَ قَمِيصِي الْمَلْطَخَ بِالْدماءِ إِلَيْهِ، فَأَعْطَى ل (يهودا) قَمِيصَهُ بَعْدَ أَنْ اعْتَرَفَ لَهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَ قَمِيصَهُ الْمَلْطَخَ بِالدَّمَاءِ إِلَى أَبِيهِ وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الذَّنْبَ قَدْ أَكَلَ يوسُفَ.

إِنَّ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ تَعَلَّمْنَا دَرْسًا مِنْ دُرُوسِ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهُوَ أَنَّهُ بَعْدَ الْإِنْتِصَارِ

(١) «آثَرَكَ»: أصله من «الإيثارة» وفى الأصل بمعنى البحث عن أثر الشىء، وبما أنه يقال للفضل والخير: أثر، فقد استعملت هذه الكلمة للدلالة على الفضيلة والعلو.

(٢) «تثريب»: أصله من مادة «ثرب» وهو شحمة رقيقة تغطى المعدة والأمعاء، والتثريب بمعنى رفع هذا الغطاء، ثم بمعنى العتاب والملامة فكان المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٣

وَلَمَّا فَضَيْتَ الْعَيْرَ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَمَّا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ حَيَاءُ الْبَشِيرِ أَلْفَاءُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِبِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) عَلَى الْعَدُوِّ وَكَسْرِ شَوْكَتِهِ لَا بَدَّ أَنْ لَا نَنْسَى الْعَفْوَ وَالرَّحْمَةَ، وَأَنْ لَا نَعْمَلَهُ بِقِسَاوَةٍ.

كما أننا نرى رسول الله صلى الله عليه وآله حينما فتح مكة وأذل المشركين وهزمهم وكسر أصنامهم وداس شوكتهم وكبرياءهم، جاء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جوار الكعبة وأخذ بحلقه بابها وكان المشركون قد إلتجؤوا إليها، قال: «وأنا أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم».

أى: إِنَّ الْيَوْمَ لَيْسَ يَوْمَ مَلَامَةٍ وَإِنْتِقَامٍ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ وَالضَّغِينَةِ «أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاق».

وأخيراً شملتهم رعاية الله ولطفه: أمياً أولاد يعقوب فإنهم بعد أن واجهوا يوسف وجرى لهم ما جرى حملوا معهم قميص يوسف فرحين ومستبشرين وتوجهوا مع القوافل القادمة من مصر، لكن - مقارناً مع حركة القافلة من مصر - حدث في بيت يعقوب حادث غريب بحيث أذهل الجميع وصار مثاراً للعجب والحيرة، حيث نشط يعقوب وتحرك من مكانه وتحدث كالمطمئن والواثق بكلامه قال: لو لم تتحدثوا عني بسوء ولم تنسبوا كلامي إلى السفاهة والجهل والكذب لقلت لكم: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ». فإني أحس بأن أيام المحنة والآلام سوف تنصرم في القريب العاجل، وأنه قد حان وقت النصر واللقاء مع الحبيب، وأرى أن آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء والمصيبة ولبسوا لباس الفرح والسرور لكن لا - تصدقون كلامي - «وَلَمَّا فَصَّيَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ».

أما الذين كانوا مع يعقوب - وهم عادةً أحفاده وأزواج أولاده وغيرهم من الأهل والعشيرة - فقد استولى عليهم العجب وخاطبوه بوقاحة مستنكرين: «قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ». أليس هذا برهاناً واضحاً على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على موت يوسف لكنك لا زلت تزعم أنه حي، وأخيراً تقول: إنك تشم رائحته من مصر؟! أين مصر وأين الشام وكنعان؟! وهذا دليل على بعدك عن عالم الواقع وإنغماسك في الأوهام

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٤

والخيالات لكنك قد ضللت منذ مدة طويلة، ألم تقل لأولادك قبل فترة اذهبوا إلى مصر وتحسسوا عن أحوال يوسف! يظهر من هذه الآية الشريفة أن المقصود ب (الضلال) ليس الانحراف في العقيدة، بل الانحراف في تشخيص حقيقة حال يوسف والقضايا المتعلقة به. وبعد عدة أيام من الإنتظار - والتي لا يعلم إلا الله كيف قضاها يعقوب - ارتفع صوت المنادى معلناً عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن في هذه المرة - وخلافاً للمرات السابقة - دخل أولاد يعقوب إلى المدينة فرحين مستبشرين، وتوجهوا مسرعين إلى بيت أبيهم، وقد سبقهم ال (بشير) الذي بشر يعقوب ب حياة يوسف وألقى قميص يوسف على وجهه.

أما يعقوب الذي أضعفت المصائب بصره ولم يكن قادراً على رؤية القميص فبمجرد أن أحس بالرائحة المنبعثة من القميص، وأحس يعقوب بتغير حالته، وفجأة رأى النور في عينيه وأحس بأنهما قد فتحتا ومرة أخرى رأى جمال العالم، والقرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله: «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا».

هذه الحالة التي حصلت ليعقوب أسالت دموع الفرح من عيون الإخوة والأهل، وعند ذاك خاطبهم بقوله: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون إلى أنفسهم ويتساءلون عنها ويفكرون في ماضيهم الأسود المليء بالأخطاء والذنوب، وما اعتورهم من الحسد وغيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الإنسانية، لكن ما أجمل التوبة والعودة إلى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التي سار فيها ... وما أحلى تلك اللحظات التي يحاول المذنب أن يطلب العفو ممن جنى عليه، ليظهر به نفسه ويبعدها عن جادة الخطأ والانحراف، وهذا ما قام به الإخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبلونها ويطلبون منه العفو والاستغفار «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ».

أما يعقوب هذا الرجل العظيم الذي كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون أن يلومهم على تلك الأفعال التي اقترفوها في حقه وحق أخيه ... أجابهم بقوله: «سَيُوفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» وأملى معقود بأن يغفر الله سبحانه وتعالى ذنوبكم «إِنَّهُ هُوَ الْعُفُورُ الرَّحِيمُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٥

بحوث

١- الوعد بالاستغفار: نقرأ في الآيات - محل البحث - أن يوسف عليه السلام قال لإخوته عندما أظهروا له ندامتهم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ»



إِلَّا أَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُمْ عِنْدَمَا اعْتَرَفُوا عِنْدَهُ بِالذَّنْبِ وَأَظْهَرُوا النَّدَامَةَ: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ» وَكَانَ هَدَفُهُ - كَمَا تَقُولُ الزَّوَايَاتُ - أَنْ يُؤَخَّرَ إِسْتِجَابَةُ طَلِبِهِمُ الِاسْتِغْفَارَ إِلَى السَّحَرِ (مِنْ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ) الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَقْتُ لِاسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَقَبُولِ التَّوْبَةِ.

٢- التوسل جائز: يستفاد من الآيات - آنفه الذكر - أن طلب الاستغفار من الآخرين غير مناف للتوحيد، بل هو سبيل إلى الوصول إلى لطف الله سبحانه، وإلا فكيف كان يمكن ليعقوب أن يستجيب لطلب أبنائه في أن يستغفر لهم وأن يجيبهم بالإيجاب على توسلهم به.

٣- نهاية الليلة السوداء: إن الدرس الكبير الذي نستلهمه من الآيات المتقدمة هو أنه مهما كانت المشاكل والحوادث صعبة وعسيرة، ومهما كانت الأسباب والعلل الظاهرية غير تامة ومحدودة، ومهما كان النصر أو الفرج بطيئاً (أو غير متحقق فعلاً) فَإِنَّ أَيَّاماً مِنْ أَوْلِيكَ لَا يَمْنَعُ مِنَ الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ بِلُطْفِ اللَّهِ، فَاللَّهُ الَّذِي أَعَادَ الْبَصَرَ بِرَائِحَةِ الْقَمِيصِ وَنَقَلَ رَائِحَةَ ذَلِكَ الْقَمِيصِ مِنْ مَسَافَةِ بَعِيدَةٍ، وَرَدَّ الْعَزِيزِ الْمَفْتَقِدِ بَعْدَ سِنِينَ طَوِيلَةٍ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَضْمَدَ الْقُلُوبَ الْمَجْرُوحَةَ مِنَ الْفِرَاقِ، وَأَنْ يَشْفِيَ آلَامَ النُّفُوسِ.

أَجَلُ إِنَّا نَجِدُ الدَّرْسَ التَّوْحِيدِيَّ الْكَبِيرَ يَنْطَوِي فِي هَذَا الْقِصَصِ وَالتَّارِيخِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَلَا عَسِيرٍ، بَلْ يَهْوَنُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوئِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصِيرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبُوئِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٦

عاقبه أمر يوسف وأبيه وإخوته: مع وصول القافلة التي تحمل أعظم بشاره من مصر إلى كنعان ينبغي على أهل هذا البيت - وفقاً لوصية يوسف - أن يتحرّكوا ويتجهوا نحو مصر، وتهيات مقدمات السفر من جميع النواحي، وركب يعقوب راحلته وشفثاه رطبتان بذكر الله وتمجيده.

وهذا السفر كان خالياً من أية شائبة من شوائب الهمم والغم. وحتى لو كان السفر بنفسه متعباً، فهذا التعب لم يكن شيئاً ذا بال قبال ما يهدفون إليه في مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالي والأيام ببطء، إلا أن القرآن الكريم - كعادته دائماً - حذف هذه المقدمات التي يمكن أن تدرك بأدنى تفكير وتأمل، فقال في هذا الشأن: «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوئِهِ».

«آوى»: تعنى فى الأصل إنضمام شىء إلى شىء آخر، وضمّ يوسف أبويه إليه كناية عن إحتضانهما ومعانقتهما.

وأخيراً تحققت أحلى سويغات الحياة ليعقوب، وفى هذا اللقاء والوصول الذى تم بين يعقوب ويوسف بعد سنين من الفراق، مرّت على يعقوب ويوسف لحظات لا يعلم إلا الله عواطفها فى تلك اللحظات الحلوة، وأية دموع إنسكبت من عينيها من الفرح.

وعندها التفت يوسف إلى إخوته وأبويه «وَقَالَ ادْخُلُوا مَصِيرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» لَأَنَّ مَصْرَ أَصْبَحَتْ تَحْتَ حُكْمِ يُوسُفَ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ وَاطْمَئِنَانٍ.

ويُستشفّ من هذه الجملة أن يوسف كان قد خرج إلى خارج بؤابة المدينة لإستقبال والديه وإخوته، ولعل التعبير ب «دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ» يحتمل أن يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» وأن تُهَيَأَ مَقَدِّمَاتُ الإِسْتِجَابَةِ لِأَبُوئِهِ وَإِخْوَتِهِ.

فلما دخلوا القصر أكرمهم يوسف «وَرَفَعَ أَبُوئِهِ عَلَى الْعَرْشِ».

وكانت هذه العظمة من النعمة الإلهية واللطف والموهبة التى منّ الله بها على يوسف قد أدهشت إخوة يوسف وأبويه فذهلوا جميعاً «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا».

وعندها التفت يوسف عليه السلام إلى أبيه «وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ».

ألم يقل أنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين؟! فانظر يا أبت كما كنت تتوقع من عاقبه أمرى «قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٧

الطريف هنا أن يوسف تكلم هنا عن سجنه فى مصر من بين جميع مشاكله ولم يتكلم على الجب مراعاةً لإخوته. ثم أضاف يوسف قائلاً: «وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي». وأخيراً يقول يوسف: إن جميع هذه المواهب هى من قبل الله، ولم لا تكون كذلك ف «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ». فيتولى امور عباده بالتيسير والتدبير ... وهو يعلم من هو المحتاج ومن هو الجدير بالاستجابة «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». ثم يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقى وولى النعمة الدائمة فيقول شاكرًا راجيًا: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ».

وهذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من أثر عظيم فى تغيير حياتى وحياء جماعه آخرين من عبادك، وما أعظم بركة العلم!

فأنت يارب: «فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». ولذلك فقد خضعت وإستسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

رباه: «أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ».

أى: إننى لا- أطلب دوام الملك وبقاء الحكم والحياء المادية منك يا رب، لأن هذه الامور جميعها فانية وليس فيها سوى البريق الجذاب. بل أطلب منك يا رب أن تكون عاقبه أمرى على خير، وأن أفضى حياتى وأموت مؤمنًا فى سبيلك مسلمًا لإرادتك، وأن أكون فى صفوف الصالحين، فهذه الامور هى المهمة لدى فحسب.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسَاءَلْتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٨

الأدعياء مشركون غالباً: بعد ما انتهت قصة يوسف عليه السلام بكل دروسها التربوية ونتائجها الغزيرة والقيمة والخالية من جزاف القول والخرافات التاريخية ... إنتقل الكلام إلى النبى صلى الله عليه وآله حيث يقول القرآن الكريم: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ». فالوحي الإلهى فقط هو الذى جاءك بهذه الأخبار.

وكان لزاماً على الناس أن يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلامات الوحي وسماعهم لهذه النصائح الإلهية، وأن يتراجعوا عن طريق الغي، ولكن يا أيها النبى: «وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ».

إن الوصف ب (الحرص) هنا دليل على شوق ولهفة النبى صلى الله عليه وآله لأن يؤمن الناس.

وهذه الآية بالإضافة إلى ما ذكرنا هى تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وآله حتى لا ييأس أبداً من إصرارهم على الكفر والذنوب، كما نقرأ فى الآية (٦) من سورة الكهف: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا». وقوله تعالى: «وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».

فهؤلاء فى الواقع ليس لهم أى عذر أو مبرر لعدم قبول الدعوة بالإضافة إلى ما أتضح من علامات الحق أنك لم تسألهم أجراً حتى يكون مبرراً لمخالفتك: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

وهذه الدعوة عامة للجميع، ومائدة واسعة للعام والخاص وكل البشرية.

«وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ». فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كل يوم. إن أسرار هذا النظام العجيب وهذا الشروق والغروب وحياء النباتات والحشرات والإنسان، وهدير المياه، وحركة النسيم، وكل هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث إن لم يتدبر أحد فيه وفي خالقه سيكون كالخشبنة المسندة. ولهذا فلا تعجب لعدم إيمانهم بالآيات المنزل عليك، لأنهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كل مكان (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ).

قد يتصور هؤلاء أنهم من المؤمنين المخلصين ولكن غالباً ما توجد جذور الشرك في أفكارهم وأقوالهم وضمايرهم. فالمؤمن المخلص هو الذي لا يعتقد بأي معبود سوى الله، فتكون أقواله وأعماله وكل أفعاله خاضعة له. ولا يعترف بغير قانون الله. وفي آخر آية يحذر القرآن الكريم اولئك الذين لم يؤمنوا بعد ويمرّوا على الآيات الواضحة مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٩

مَرَّ الْكِرَامُ وَيَشْرَكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ: «أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ». «الساعة»: القيامة، وقد وردت بهذا المعنى في كثير من الآيات.

أصدق الدروس والعبر: في الآية الأولى من هذه المجموعة يتلقى النبي صلى الله عليه وآله الأوامر لتحديد الطريق والمنهج الذي يتبعه، فيقول القرآن الكريم: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ». ثم يضيف: «عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي».

وهذه الجملة توضّح أنّ كل فرد مسلم مقتد بالرسول صلى الله عليه وآله له نفس الدور في الدعوة إلى الحق، ولا بدّ من دعوة الآخرين إلى الله، من خلال، الأقوال والأفعال وكذلك تؤكد هذه الجملة على أنّ القائد يجب أن تكون له بصيرة ومعرفة كافية، وإلا فإنّ دعوته ليست إلى الحق، وللتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». إنّ وقوع هذه الآية بعد الآيات المتعلقة بيوسف تشير إلى أنّ طريقه ومنهج النبي لا يختلفان عن طريقه ومنهج يوسف النبي، فهو كان يدعو إلى «الله الواحد القهار» حتى في زوايا السجن، أما غيره فكان يدعو إلى أسماء انتقلت إليه بسبب التقليد من جاهل إلى جاهل آخر، أما سيرة الأنبياء والرسول كلها واحدة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٠

وبما أنّ الأقوام الضالة والجاهلة كانت دائماً تثير هذا الاعتراض على الأنبياء وهو أنّكم بشر؟! ولماذا لا تكلف الملائكة لهذا الأمر؟ وبما أنّ الناس في الجاهلية كانوا يثيرون نفس الاعتراض بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وآله ودعوته العامة، فإنّ القرآن الكريم يجب مرّة ثانية على هذا الاعتراض فيقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ». هؤلاء الرسل هم كباقي الناس يعيشون في المدن والقرى، ويتجولون بين الناس ويشعرون بالأمهم وإحتياجاتهم ومشاكلهم. فالوصف هنا بـ «مَنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» تشير إلى أنّ أنبياء الله لم ينهضوا من بين سكنة الصحراء لأنّ سكان البادية يتصفون بالجهل وعدم المعرفة وقلوبهم قاسية ويمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة ومتطلباتها.

ولكن الرسول من أهل مكة التي تعتبر مدينة كبيرة نسبياً.

ثم يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء أن يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التي هي الدعوة إلى الله فإنّ عليهم أن يسيروا ليروا آثار السابقين: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

إنّ السير والتجوال في الأرض لمشاهدة آثار الماضين وخراب دورهم ومدنهم بسبب العذاب الإلهي، أفضل درس لهم، درس حي وملموس للجميع، «وَلَمَّا دَارُ الْأَخْرَجَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَلَّا تَغْفُلُونَ». لماذا؟ لأنّ الدنيا دار مليئة بالمصائب والآلام وغير باقية، أما الآخرة فدار خالدة وخالية من الآلام والعذاب.

«حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا بِجِآنِهِمْ نَصَرْنَا فَنجَّىٰ مَنْ نَشَاءُ».

تشير هذه الآية إلى أدق وأصعب لحظة في حياة الأنبياء فتقول: إن الأنبياء يواجهون دائماً مقاومة عنيفة من قبل أقوامهم وطواغيت زمانهم حتى يصل الحال بالأنبياء إلى اليأس إلى حدّ يظنون أنّ أتباعهم المؤمنين القليلين قد كذبوا عليهم وتركوهم وحدهم في مسيرتهم في الدعوة إلى الحقّ، وفي هذه الأثناء حيث إنقطع أملهم في كل شيء أتاها نصرنا، وفي نهايتها تشير إلى عاقبة المجرمين «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».

فهذه سنة الله في الذين أصروا على أعمالهم وأغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم وبعد إتمام الحجّة عليهم ينالهم العذاب الإلهي فلا تستطيع أي قوة أن تردّه.

و آخر آية من هذه السورة ذات محتوى شامل وجامع لكل الأبحاث التي ذكرناها في هذه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩١

السورة، وهي: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ».

فهى مرآة يستطيعون من خلالها أن يروا عوامل النصر والهزيمة، الهناء والحرمان، السعادة والشقاء، العزّ والذلّة، والخلاصه كل ما له قيمة في حياة الإنسان وما ليس له قيمة.

وهى مرآة لكل تجارب المجتمعات السابقة والرجال العظام، ومرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار عمر كل البشر. ولكن اولى الألباب وذوى البصائر فقط باستطاعتهم أن يشاهدوا العبر في صفحة المرأة العجيبة هذه: «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ».

فهذه الآيات التي أنزلناها عليك والتي أزاحت الستار عن التاريخ الصحيح للأمم السابقة ليست من العلم البشرى الذي يمكن معرفته عن العلماء، بل إنّ الكتب السماوية السابقة تشهد على ذلك وتصدّقه وتؤيّد به وبالإضافة إلى ذلك ففي هذه الآيات كل ما يحتاجه الإنسان في تأمين سعاده وتكامله: «وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ».

ولهذا السبب فهى «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

«نهاية تفسير سورة يوسف»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٣

### ١٣. سورة الرعد

محتوى السورة: كما قلنا سابقاً، بما أنّ السور المكية كان نزولها في بداية دعوة النبي صلى الله عليه وآله وأثناء محاربه للمشركين، فإنّها غالباً ما كانت تتحدّث عن المسائل العقائدية وخصوصاً الدعوة إلى التوحيد والمعاد ومحاربة الشرك، في الوقت الذي نرى فيه أنّ السور المدنية نزلت بعد إنتشار الإسلام وقيام الحكومة الإسلامية، فقد تناولت الأحكام والمسائل المتعلقة بالنظام الاجتماعى واحتياجات المجتمع.

فهذه السورة (سورة الرعد) التي هى من السور المكية لها نفس الخصائص السابقة، فبعد ما تشير إلى أحقيّة القرآن وعظمتها، تتطرّق إلى آيات التوحيد وأسرار الكون التي هى من دلائل ذات الله المقدسة.

ثم تتطرّق إلى المعاد وبعث الإنسان من جديد ومحكمة العدل الإلهي، وهذه المجموعة من اصول المبدأ والمعاد تبين مسؤوليّه ووظائف الناس.

ثم لمعرفة الحق من الباطل، الأمثال الحيّة والقابلة للإدراك.

ومن هنا فالحصيلة النهائية للإيمان بالتوحيد والمعاد هى تلك التطبيقات العملية والحيّة لها، فالقرآن في هذه السورة يدعو الناس إلى

الوفاء بالعهد وصله الأرحام والصبر والاستقامة والإنفاق في السر والعلانية والنهي عن الإنتقام، ويوضح لهم أن الدنيا فانية،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٤

والطمأنينة والراحة لا تحصلان إلا في ظل الإيمان بالله.

وفي النهاية يأخذ بأيدي الناس ويغور بهم في أعماق التاريخ، ويريهم العواقب السيئة للذين طغوا وعصوا وأبعدوا الناس عن الحق، ويختم السورة بتهديد الكفار.

إذن فالسورة تبتدىء بالعقائد والإيمان وتنتهى بالبرامج التربوية للإنسان.

المر تلمك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لما يؤمنون (١) الله الذى رفع السموات بغير عمد ترؤنها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم يلقاء ربكم توفنون (٢) وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٣) وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغيره صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (٤) آيات الله فى السماء والأرض وعالم النبات: مره اخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، تنفرد عن غيرها من السور ب «الم». فمن المحتمل أن هذا التركيب فى بداية سورة الرعد يشير إلى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التى تبتدىء ب «الم» و «الر».

فالآية الاولى من هذه السورة تتحدث عن عظمة القرآن «تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق». ولا يوجد أى شك أو ترديد فى هذه الآيات، لأنها تبين عين الحقيقة للكون ونظامه المرتبط بالإنسان، فهو حق لا يشوبه باطل، ولهذا السبب فإن علائم الحق واضحة فيه لا تحتاج إلى براهين «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون».

ثم تنطرق السورة إلى شرح القسم المهم من أدلة التوحيد وآيات الله فى الكون، وتتجول بالإنسان فى عرض السموات وتريه الكواكب العظيمة وأسرار هذا النظام وحرركته، حتى يؤمن بالقدرة المطلقة والحكمة اللامتناهية «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترؤنها».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٥

إن هذه الآية تكشف عن حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لأنه فى ذلك الوقت كانت نظرية «بطليموس» فى الهيئة تتحكم فى المحافل العلمية فى العالم وعلى أفكار الناس وطبقاً لهذه النظرية فإن السموات عبارة عن أجرام متداخلة تشبه قشور البصل وإنها لم تكن معلقة وبدون عمد بل كل واحدة منها تستند إلى الأخرى.

ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريباً توصل علم الإنسان إلى أن هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أن الأجرام السماوية لها مقر ومدار ثابت، ولا تستند إلى شىء، فالشئ الوحيد الذى يجعلها مستقرة وثابتة فى مكانها هو تعادل قوة التجاذب والتنافر، فالاولى تربط الأجرام فيما بينها، والأخرى لها علاقة بحرركتها.

هذا التعادل للقوتين الذى يشكل أعمدة غير مرئية يحفظ الأجرام السماوية ويجعلها مستقرة فى مكانها.

«ثم استوى على العرش». فى خصوص معنى العرش والإستواء عليه هناك شرح وافى عنه فى ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

وبعد أن بين خلق السموات وهيمته الخالق عليها، تحدث عن تسخير الشمس والقمر «وسخر الشمس والقمر».

ولكن هذا النظام المادى ليس أبدياً، بل «كل يجري لأجل مسمى».

ثم يضيف بعد ذلك: إن هذه الحركات والتغيرات فى الأحوال ليست بدون حساب وكتاب، وبدون فائدة ونتيجة، بل «يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم يلقاء ربكم توفنون».

وتعقيباً للآيات السابقة التى نقلت الإنسان إلى السماء تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد إلى كتاب الكون أى الأرض والجبال والأنهار

وأشجار الثمار وشروق الشمس وغروبها. قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ» وبسطها بالشكل الذي تتهيأ فيه لحياة الإنسان ونمو النباتات والحيوانات.

ثم يشير القرآن الكريم إلى ظهور الجبال «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ». فهي تلك الجبال التي عبرت عنها في آيات أخرى ب (الأوتاد) ولعل ذلك إشارة إلى أنها متشابهة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقي وتغطي سطح الأرض، فهي تبطل الضغوط الداخلية في الأسفل والضغط الخارجي المتمثل بجاذبية القمر والمدّ والجزر، وكذلك تقضي على الاضطرابات والزلازل، وتجعل الأرض مستقرّة وساكنة وصالحة لحياة الإنسان.

ثم تضيف الآية بعد ذلك الأنهار: «وَأَنْهَارًا».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٦

رائع جداً نظام سقى الأرض بواسطة الجبال، وعلاقة الأنهار بالجبال، لأن كثيراً من الجبال تخزن المياه بشكل ثلوج على قممها وفي شقوق الوديان، ثم تذوب تدريجياً، وطبقاً لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة بدون أن تحتاج إلى قوة أخرى لمساعدتها. ثم يذكر القرآن بعد ذلك النباتات والأشجار التي تتكوّن من الأرض والمياه وأشعة الشمس، والتي هي أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ».

والآية تشير هنا إلى أن الفاكهة كائنات حية فيها الذكر والانثى، وبواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السويدي «لينه» المختص بعلم النبات هو الذي توصل إلى هذه الحقيقة في حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وهي أن التوزيع في عالم النباتات يعتبر قانوناً عاماً فالقرآن الكريم قبل ألف واربعمائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة وهذه واحدة من معجزات القرآن العلمية التي تبين عظمة هذا الكتاب السماوي الكبير.

وبما أن حياة الإنسان وكل الكائنات - وخصوصاً النباتات - لا يمكن لها الإستمرار إلا بوجود نظام دقيق ليل والنهار، فإن القرآن يشير إلى ذلك في القسم الآخر من الآية «يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ». ولولا ظلمة الليل وهدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر كل النباتات، ولم تبقى فاكهة ولا أي كائن حي على وجه الأرض.

وتبين الآية في النهاية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وفي الآية الأخيرة من هذه المجموعة يشير القرآن الكريم إلى عدّة نقاط حول علم الأرض وعلم النبات، والتي تعبر عن النظام الدقيق للخلق، يقول أولاً: «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ».

قوله تعالى: «وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ» (١).

«صنوان»: جمع «صنو» تعني الأغصان المختلفة الخارجة من أصل الشجرة.

وهذه قد تشير إلى قابلية الأشجار للتركيب. ففي بعض الأحيان يتم تركيب عدّة أغصان مختلفة على ساق واحدة، وبعد نمو هذه التراكيب تعطى كل واحدة منها نوعاً خاصاً

(١) «أعنان»: جمع عنب؛ و «النخيل»: جمع نخلة، ويحتمل أنهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب والتمر والتي

قد تصل إلى مئات الأنواع في العالم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٧

من الثمر، فالتربة واحدة والساق والجذر واحد ولكن الثمر مختلف.

والأعجب من ذلك أنها تسقى بماء واحد «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ».

أليست هذه الأسرار تدل على وجود من يقود هذا النظام بالعلم والحكمة؟! وهنا في آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقُلُونَ».

وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) تعجب الكفار من المعاد: بعد ما انتهينا من البحث السابق عن عظمة الله ودلائله، تتطرق الآية الاولى من هذه المجموعة إلى مسألة المعاد التي لها علاقة خاصة بمسألة المبدأ، ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى حيث يقول: «وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ». أى: إذا أردت أن تتعجب من قولهم هذا فتعجب لقولهم فى المعاد.

ثم يبين حالهم الحاضر ومصيرهم فى ثلاث جمل:

يقول أولًا: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ»؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون بربوبية الله لما كانوا يترددون فى قدرة الله على بعث الإنسان من جديد، وعلى هذا فسوء ظنهم بالمعاد هو نتيجة لسوء ظنهم بالتوحيد وربوبية الله.

والأمر الآخر أنه بكفرهم وعدم إيمانهم وخروجهم من ساحة التوحيد قيدوا أنفسهم بالأغلال، أغلال عبادة الأصنام والأهواء والمادة والجهل والخرافة، وجعلوها فى أعناقهم «وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ».

ومثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النار «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفى الآية الثانية يشير إلى دعوى اخرى للمشركين حيث يقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» بدلًا من طلب الرحمة ببركة وجودك بينهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٨

وهل يعتقدون بكذب العقوبات الإلهية؟ «وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ» (١).

ثم تضيف الآية: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ».

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ذريعة اخرى: بعد ما أشرنا فى الآيات السابقة إلى مسألة «التوحيد» و«المعاد» تتطرق هذه الآية إلى واحدة من إعتراضات المشركين المعاندين حول مسألة النبوة: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

ومن الواضح أن إحدى وظائف النبى صلى الله عليه وآله إظهار معاجزه لكى يدل على صدقه وصلته بالوحى الإلهى.

إن أعداء الأنبياء لم يكن لديهم حُسن نية أو اتباع للحق عند طلبهم المعجزة، بل لعنادهم وعدم تسليمهم للأمر الواقع ولذلك كانوا يقترحون بين فترة واخرى معاجز عجيبة وغريبة. وهذه ما يسمّى ب «المعجزات الأخلاقية».

ولكن الأنبياء كانوا يقولون لهم الحقيقة وهى أن المعاجز بيد الله، ورسالتنا هداية الناس.

ولذلك نقرأ فى تكلمة الآية قوله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ».

فمعنى الآية: إن الكفار نسوا أن هدف الأنبياء الإنذار والدعوة إلى الله، واعتقدوا أن وظيفتهم القيام بالمعاجز.

وجه التفاوت بين «الإنذار» و «الهداية» هو إن الإنذار للذين أضلوا الطريق ودعوتهم تكون إلى الصراط المستقيم، ولكن الهداية والإستقامة للذين آمنوا.

هناك روايات عديدة تؤكد ما قلناه سابقاً، ففى تفسير جامع البيان عن ابن عباس قال:

لَمَّا نَزَلَتْ «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» وَضَعَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ فَقَالَ: «أَنَا الْمُنذِرُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى مَنْكَبِ عَلِيٍّ فَقَالَ: «أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ بِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ بَعْدِي».

اللَّهُ يَغْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)

(١) «المثلات»: جمع «مثلة» بفتح الميم وضمّ الثاء ومعناها العقوبات النازلة على الامم الماضية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٩٩

علم الله المطلق: نقرأ في هذه الآيات قسماً من صفات الخالق، والتي تكمل بحث التوحيد والمعاد، فالحديث عن علمه الواسع ومعرفته بكل شيء. تقول الآية أولها: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ فِي رَحْمِهَا، سَوَاءٌ مِنْ أَنْثَى الْإِنْسَانِ أَوْ الْحَيْوَانِ، بَلْ بِكُلِّ خِصَائِهِ وَالطَّاقَةَ الْكَامِنَةَ فِيهِ؛ «وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ». أي: تنقص قبل موعدها المقرّر «وَمَا تَزْدَادُ» (١). أي: يعلم بما تزيد عن موعدها المقرّر. «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ». ولكي لا يتصور أحد أنّ هذه الزيادة والنقصان بدون دليل، كما أنّ للجنين ودم الرحم مقدار أيضاً، فالآية التي بعدها تؤكد ما قلناه في الآية السابقة حيث تقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» فعلمه بالغيب والشهادة لهذا السبب «الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ» فهو يحيط بكل شيء، ولا يخفى عنه شيء.

ولتكميل هذا البحث وتأكيده علمه المطلق يضيف القرآن الكريم: «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ».

لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ (١١) المعقبات الغيبية: علمنا في الآيات السابقة أنّ الله بما أنّه عالم الغيب والشهادة فإنّه يعلم أسرار الناس وخفاياهم، وتضيف هذه الآية أنّه مع حفظ وحراسه الله لعباده فإنّ «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ». في تفسير البرهان عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية يقول: «بأمر الله من أن يقع في ركي، أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعاقبان».

ولكي لا يتصور أحد أنّ هذا الحفظ بدون شروط وينغمس في المزلّات، أو يرتكب الذنوب الموجبة للعقاب، ومع كل ذلك ينتظر من الله أو الملائكة أن يحفظوه، يعلّل القرآن ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ». وكي لا يتبادر إلى الأذهان أنّه مع وجود الملائكة الحافظة فأى معنى للعذاب أو الجزاء؟

(١) «تغيض»: أصلها التغيض بمعنى إبتلاع السائل وهبوط مستوى الماء. وتأتى بمعنى النقصان والفساد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠٠

مختصر الامثل ج ٢ ٥٣٩

هنا تضيف الآية: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ». ولهذا السبب فإنّه حين صدور العذاب الإلهي على قوم أو أمة، فسوف ينتهي دور المعقبات ويتركون الإنسان عرضةً للحوادث. «المعقبات»: جمع «معقبة» وهي بدورها جمع «معقب» ومعناه المجموعة التي تعمل بشكل متناوب ومستمر.

التغيير يبدأ من النفس (قانون عام): تبين الجملة «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ» والتي جاءت في موردين متفاوتين في القرآن الكريم، أنّها قانون عام، وقانون حاسم ومنذر.

إنّ هذا الأصل القرآني الذي يبين واحداً من أهمّ المسائل الاجتماعية في الإسلام، يؤكّد لنا أنّ أي تغيير خارجي للأمام مرتبط بالتغيير الداخلي لها، وأي نجاح أو فشل يصيب الأمة ناشىء من هذا الأمر، والذين يبحثون عن العوامل الخارجية لتبرير أعمالهم وتصرفاتهم ويعتبرون القوى المستعمرة والمتسلطة هي السبب في شقاوتهم يقعون في خطأ كبير، لأنّ هذه القوى الجهنمية لا تستطيع أن تفعل شيئاً إذا لم تكن لديها قدرة ومركز في داخل المجتمع.

يقول هذا الأصل القرآني: إنّنا يجب أن نشور من الداخل كي ننهى حالة الشقاء والحرمان، ثورة فكرية وثقافية، ثورة إيمانية وأخلاقية،



وأثناء وقوعنا في مخالب الشقاء يجب أن نبحت فوراً عن نقاط الضعف فينا، ونظهر أنفسنا منها بالتوبة والرجوع إلى الله، ونبدأ حياة جديدة مفعمة بالنور والحركة، كي نستطيع في ظلها أن نبدل الهزيمة إلى نصر.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَمَا يَشْتَعِبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ طَرَفٌ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قسم آخر من دلائل عظمه الله: يتطرق القرآن الكريم مرّة ثانية إلى آيات التوحيد وعلائم العظمة وأسرار الخلقه، فتشير أولاً إلى البرق: «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠١

وَطَمَعًا». فالبرق بشعاعه يبهر العيون من جانب، ومن جانب آخر فإنه يسبب هطول الأمطار ويروي ظمأ الصحراء ويسقي المزروعات فيطمع فيه الناس، وبين هذا الخوف والرجاء تمرّ عليهم لحظات حساسه

ثم تضيف الآية: «وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ» القادرة على إرواء ظمأ الأراضي الزراعية.

الآية الاخرى تشير إلى صوت الرعد الذي يتزامن مع البرق «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ».

نعم، فهذا الصوت المدوّى في عالم الطبيعة يُضرب به المثل، فهو مع البرق في خدمه هدف واحد، ويقومان بعملية التسييح، وبعبارة اخرى فالرعد لسان حال البرق يحكى عن عظمه الخالق وعن نظام التكوين.

وليس الرعد وسائر أجزاء العالم تسبح بحمده تعالى، بل حتى الملائكة «وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ». فهم يخافون من تقصيرهم في تنفيذ الأوامر الملقاه على عاتقهم، وبالتالي فهم يخشون العقاب الإلهي، ونحن نعلم أن الخوف يُصيب اولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم ووظائفهم ... خوف بناءً على الشخص على السعي والحركة.

وللتوضيح أكثر في مجال البرق والرعد تشير الآية إلى الصاعقه: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ». ومع كل ذلك - وبمشاهده آيات العظمة الإلهية في عالم التكوين من السماء والأرض والنباتات والأشجار والبرق والرعد وأمثالها، وفي قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هذه الحوادث، حتى في مقابل واحدة منها مثل شرارة البرق - نرى أن هناك جماعة جاهله تجادل في الله «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ».

«المحال»: في الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السرى وغير الظاهر، فالذى له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالیه، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته.

الآية الأخيرة تشير إلى مطلبين:

الأول: قوله تعالى: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ». فهو يستجيب لدعواتنا، وهو عالم بدعاء العباد وقادر على قضاء حوائجهم، ولهذا السبب يكون دعاؤنا إياه وطلبنا منه حقاً، وليس باطلاً.

ولكن دعاء الأصنام باطل «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَآيَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ».

ولتصوير هذا الموضوع يضرب لنا القرآن الكريم مثالا حياً ورائعاً يقول: «إِلَّا كِبَاسٌ طَرَفٌ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ». فهل يستطيع أحد أن يجلس على بئر ويطلب الماء بإشارة يد ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر إلا من إنسان مجنون.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠٢

وللتأكيد على هذا الحديث يأتي في نهاية الآية قوله تعالى: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ». وأى ضلال أكبر من أن يسعى الإنسان ويجتهد في السبيل الضال ... ولكنّه لا يصل إلى مقاصده. الآية الأخيرة من هذه المجموعة، ولكي تُبرهن كيف أن المشركين ضلوا الطريق تقول:

«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ».

السجدة في هذه الموارد تعنى الخضوع والتسليم، وهناك نوعان من السجود، سجود تكويني وهو أن الكل خاضعون ومسلمون للقوانين الطبيعية مثل الحياة والممات والمرض و...، والبعض منهم له سجود تشريعي بالإضافة إلى السجود التكويني، فهم بميلهم وإرادتهم يسجدون لله.

عبارة «طَوْعًا وَكَرْهًا» يمكن أن تكون إشارة إلى أن المؤمنين خاضعون لله بميلهم وإرادتهم، وأما غير المؤمنين فهم خاضعون كذلك للقوانين الطبيعية التي تسير بأمر الله إن شاؤوا وإن أبوا.

«الظلال»: جمع «ظل» واستعمال هذه الكلمة في الآية يشير إلى أن المقصود في السجود ليس فقط السجود التشريعي، فظلال الكائنات ليست خاضعة لإرادتهم واختيارهم، بل هو تسليم لقانون الضوء، وعلى هذا يكون سجودهم تكويني، يعنى التسليم للقوانين الطبيعية. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) لماذا عبادة الأصنام؟ كان البيان في الآيات السابقة عن معرفة الله وإثبات وجوده، وهذه الآية تبحث عن ضلال المشركين والوثنيين وتتناوله من عدة جهات، حيث تخاطب- أولًا- النبي صلى الله عليه وآله حيث تقول: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم تأمر النبي أن يجيب على السؤال قبل أن ينتظر جوابهم: «قُلِ اللَّهُ». ثم إنه يلومهم ويوبخهم بهذه الجملة: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا».

ثم يذكر مثالين واضحين وصریحين يحدّد فيها وضع الأفراد الموحدين والمشركين،

مختصر الامثال، ج ٢، ص: ٥٠٣

فيقول أولًا: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالبَصِيرُ». فكما لا يستوى الأعمى والبصير لا يستوى المؤمن والكافر، ولا يصح قياس الأصنام على الخالق جلّ وعلا.

ويقول ثانيًا: «أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». كيف يمكن أن نجعل الأصنام التي هي الظلمات المحضه إلى جنب الله الذي هو النور المطلق؟

ثم يُدلل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ». والحال ليس كذلك، فإنّ المشركين أنفسهم لا يعتقدون بها، فهم يعلمون أن الله خالق كل شيء، وعالم الوجود مرتبط به، ولذلك تقول الآية: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

يستفاد من الآية أعلاه أن الخلقه أمر مستمر ودائم، وإنه تعالى يفيض بالوجود عليهم باستمرار وكل شيء يأخذ وجوده من ذاته المقدسة، وعلى هذا فنظام الخلقه وتدبير العالم كلها بيد الله.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) وصف دقيق لمنظر الحق والباطل: يستند القرآن الكريم- الذي يعتبر كتاب هداية وتربية- في طريقته إلى الوقائع العينية لتقريب المفاهيم الصعبة إلى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسية الرائعة من حياة الناس، وهنا- أيضاً- لأجل أن يُجسّم حقائق الآيات السابقة التي كانت تدور حول التوحيد والشرك، الإيمان والكفر، الحق والباطل، يضرب مثلاً واضحاً جداً لذلك ..

يقول أولًا: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». الماء عماد الحياة وأصل النمو والحركة، «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» تتقارب السواقي الصغيرة فيما بينها، وتتكوّن الأنهار وتتصل مع بعضها البعض، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمة والوديان وتجرف كل ما يقف أمامها، وفي هذه الأثناء يظهر الزبد وهو ما يرى على وجه الماء كزغوة الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: «فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا

رَأْيًا».

وليس ظهور الزبد منحصرًا بهطول الأمطار، بل «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠٤

حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلَهُ». أى: الفلزات المذابة بالنار لصناعة أدوات الزينة منها أو صناعة الوسائل اللازمة في الحياة. بعد بيان هذا المثل بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط في الماء بل حتى للفلزات وللمتاع، يستنتج القرآن الكريم: «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ». ثم يتطرق إلى شرحه فيقول: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ». وفي آخر الآية- للمزيد من التأكيد في مطالعة هذه الأمثال- يقول تعالى: «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ».

المثال يعمم المفاهيم: كثير من البحوث العلمية بشكلها الأصلي يفهمها الخواص فقط، ولا يستفيد منها عامة الناس، ولكن عندما يصحبها المثل تكون قابلة للفهم، ويستفيد منها الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية، ولهذا فالمثال وسيلة لتعميم الفكر والثقافة. لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) الذين استجابوا لدعوة الحق: بعد ما كشفت الآيات السابقة عن وجهي الحق والباطل من خلال مثال واضح وبلغ، أشارت هذه الآية إلى مصير الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا لهذه الدعوة واتجهوا صوب الباطل. تقول أولًا: «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى».

«الحسنى»: في معناها الواسع تشمل كل خير وسعادة.

ثم تضيف الآية: «وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ».

لا توجد صيغة أوضح من هذه الآية في بيان شدة عذابهم وعقابهم، يمتلك الإنسان كل ما في الأرض وضعفه أيضاً ويفتدى به للنجاة ولا يحصل النجاة. تشير هذه الجملة في الواقع إلى آخر امنية والتي لا يمكن أن يتصور أكثر منها، وهى أن يمتلك الإنسان كل ما فى الأرض، ولكن شدة العذاب للظالمين ومخالفي الحق تصل بهم إلى درجة أن يفتدوا بكل هذه الامنية

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠٥

أو بأكثر منها لنجاتهم.

وعلى أثر هذا الشقاء (عدم قبول ما فى الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم إلى شقاء آخر «أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ». يعنى أن هؤلاء الأفراد يحاسبون حساباً دقيقاً، وأثناء حسابهم يُوبَّخُونَ وَيُلَامُونَ ومن ثم يستقصى منهم. وفي نهاية الآية إشارة إلى الجزاء الثالث أو النتيجة النهائية لجزائهم «وَمَا أُوَيْهَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

«المهاد»: جمع «مهد»، بمعنى التهيؤ، ويستفاد منها معنى السرير الذى يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهتأ للاستراحة، وقد ذكر

القرآن الكريم هذه الكلمة للإشارة إلى أن هؤلاء الطغاة بدلاً من أن يستريحوا فى مهادهم يجب أن يحرقوا بلهيب النار. أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آيَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) الأبواب الثمانية للجنة وصفات اولى الأبواب: تتحدث هذه الآيات عن سيرة اولى الأبواب وصفاتهم الحسنة، وفيها تكميل للبحث السابق. فى الآية الاولى من هذه المجموعة إستفهام إنكارى: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى».

وهذه إشارة لطيفة إلى أنه من المحال أن لا يعلم أحد بهذه الحقيقة إلا أن يكون أعمى القلب، ولذلك يجىء فى نهاية الآية قوله تعالى: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ».

«الألباب»: جمع «لب» بمعنى جوهر الشيء، ويقابل اولى الألباب اولوا الجهل والعمى.

إن هذه الآية تحث الناس على طلب العلم ومحاربة الجهل، لأنها تعد الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى، ثم بين سيرة اولى الألباب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، وأول ما أشار القرآن إليه وفاؤهم بالعهد وعدم نقضهم له «الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠٦

إن «عهد الله» له معنى واسع، ويشمل العهود الفطرية التي عاهدوا بها ربهم كالفطرة على التوحيد وحب الحق والعدالة، والمواثيق العقلية التي يدركها الإنسان من خلال التفكير والتعقل لعالم الوجود، والمبدأ والمعاد، وتشمل كذلك العهود الشرعية، وهي ما عاهدوا الرسول صلى الله عليه وآله عليه من الطاعة للأوامر الإلهية وترك المعاصي والذنوب. الصفة الثانية من صفات اولى الألباب هي: «وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ».

فالإنسان له صلوات وروابط كثيرة، صلته مع ربه، ومع الأنبياء والقادة، وروابطه مع الأصدقاء والجيران والأقرباء ومع كل الناس، والآية تأمر أن تُحترم هذه الصلوات.

والإنسان ليس منزوياً أو منفكاً من عالم الوجود، بل تحكم كل وجوده الصلوات والروابط.

الصفة الثالثة والرابعة من سيرة اولى الألباب هي قوله تعالى: «وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ».

الصفة الخامسة من صفات اولى الألباب الاستقامة في مقابل جميع المشاكل التي يواجهها الإنسان في مسيرة الطاعة وترك المعصية، وجهاد الأعداء ومحاربة الظلم والفساد، والصبر في مرضاة الخالق، ولذلك يقول تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» (١). فإن هذه الجملة تبين أن كل صبر وعمل خير تكون له قيمة عندما يصبح لوجه الله، وأي عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء والغرور لا قيمة له مطلقاً.

الصفة السادسة من صفاتهم هي: «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ».

إن الإنسان يجدد عهده وصلته بالله سبحانه وتعالى صباحاً ومساءً، ويتفكر بعظمة الخالق ويدعوه، ويظهر نفسه من الذنوب، ويرتبط بالحق المطلق.

ثم يبين الصفة السابعة لدعاة الحق حيث يقول تعالى: «وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً».

فالصلاة تُحکم الصلة بين العبد وربّه والزكاة بين العباد.

والجملة «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تشمل كل العطايا من الأموال والعلوم والقوة والجاه، والإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الأبعاد.

(١) ليس الصبر على الطاعة والمعصية والمصيبة فقط بل الصبر على النعم كذلك حتى لا يصيب الإنسان الغرور.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٠٧

والعبارة «سِرًّا وَعَلَانِيَةً» إشارة أخرى إلى هذه الحقيقة وهي أن إنفاقهم يتم بشكل مدروس، فتارةً يكون سراً ويترب عليه أثر كبير، وذلك في الحالات التي تصون الطرف المنفق من الرياء، ومرةً يكون الإنفاق العلني أكثر تأثيراً وذلك في الحالات التي تدعو الآخرين لكي يتأسوا بهذا العمل الخير ويقتدوا به، فيكون سبباً لكثير من أعمال الخير.

الصفة الثامنة والأخيرة هي قوله تعالى: «وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ».

ومعنى هذه العبارة أنهم لم يكتفوا بالتوبة والاستغفار فقط عند ارتكابهم الذنوب، بل يدفعونها كذلك بالحسنات على مقدار تلك الذنوب، حتى يطهروا أنفسهم والمجتمع بماء الحسنات.

ويحتمل في تفسير الآية أنهم لا يقابلون السوء بالسوء، بل يسعون من خلال إحسانهم للمسيئين أن يجعلوهم يعيدون النظر في مواقفهم.

وبعد ما ذكر القرآن الكريم الصفات الثمانية لأولى الألباب، أشار في نهاية الآية إلى عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: «أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ».

الآية الأخرى توضح هذه العاقبة «جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ». والشىء الذى يكمل هذه النعم الكبيرة واللامتناهية «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلِمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ». فهذه السلامة جاءت بعد ما صبرتم على الشدائد وتحملتكم المسؤوليات الجسام والمصائب، ولكم هنا كامل الطمأنينة والأمان، فلا حرب ولا نزاع، وكل شىء يبتسم لكم، والراحة الخالية من المتاعب - هنا - معدة لكم.

يستفاد من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أن للجنة عدة أبواب، ولكن هذا التعدد للأبواب بسبب الأعمال المختلفة للأفراد. ومن الظريف أن القرآن الكريم - فى الآية (٤٤) من سورة الحجر - يذكر لجهنم سبعة أبواب «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ». وهذه إشارة إلى أن طرق الوصول إلى السعادة وجنة الخلد أكثر من طرق الوصول إلى الشقاء والجحيم، ورحمة الله سبقت غضبه. وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) للمفسدين الذين فقدوا حظهم من العلم والمعرفة حيث يقول جل وعلا: «وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (١).

فى الحقيقة يتلخص فساد عقيدتهم فى الجمل الثلاث الآتية:

- ١- نقض العهود الإلهية: وتشمل المواثيق الفطرية والعقلية والتشريعية.
  - ٢- قطع الصلوات: وتشمل الصلوة مع الله والرسول والناس ومع أنفسهم.
  - ٣- الإفساد فى الأرض: وهو نتيجة حتمية لنقض العهود وقطع الصلوات.
- قوله تعالى: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ». وهذه إشارة لأولئك الذين يسعون للحصول على دخل أكثر فهم يفسدون فى الأرض وينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل لكى يزيدوا من دخلهم المادى، وهم غافلون عن هذه الحقيقة وهى أن الرزق - فى زيادته ونقصه - بيد الله سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: «وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ».

ألا بذكر الله تطمئن القلوب: فى سورة الرعد بحوث كثيرة حول التوحيد والمعاد والنبوة، فالآية الاولى من هذه المجموعة تبحث مرة أخرى فى دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وتبين واحداً من أعداء المشركين المعاندين حيث يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ».

إن هؤلاء يتوقعون من النبى أن يجلس فى زاوية الدار ويظهر لكل واحد منهم المعجزة التى يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها.

ويجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ».

وهذه إشارة إلى أن العيب ليس من ناحية الإعجاز، لأن الأنبياء قد أظهروا كثيراً من

(١) «اللعن»: بمعنى الطرد مع الغضب، واللعن فى الآخرة تشير إلى العقوبة وفى الدنيا الإبتعاد من رحمة الله.

المعاجز، ولكن النقص من داخل أنفسهم. وهو العناد والتعصب والجهل والذنوب التى تصد عن الإيمان.

تفسير الآية الثانية بشكل رائع إلى تفسير «مَنْ أُنَابَ» حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ». ثم يذكر القاعدة العامة والأصل الثابت حيث يقول تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

وتبحث الآية الأخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ».

ما هو ذكر الله، وكيف يتم؟ إن الذكر نوعين «ذكر القلب» و «ذكر اللسان» وكل واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وعلى أية حال ليس المقصود من الذكر - في الآية أعلاه - هو ذكره باللسان فقط فنقوم بتسبيحه و تهليله و تكبيره، بل المقصود هو التوجه القلبي له و إدراك علمه و بآئه الحاضر و الناظر، وهذا التوجه هو مبدأ الحركة والعمل والجهاد والسعى نحو الخير، وهو سدّ منبع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذي له كل هذه الآثار والبركات كما أشارت إليه عدة من الروايات.

فمن وصايا النبي صلى الله عليه و آله للإمام على عليه السلام يقول له: «يا على، ثلاث لا تطيقها هذه الأمة:

المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، و ذكر الله على كل حال، وليس هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزّ وجلّ عنده وتركه» (١).

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَتْ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا فَلَمْ يِنَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَدَّعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِإِنِّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَ لَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاْمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)

(١) بحار الأنوار ٧٤ / ٤٥.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٠

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه و آله:

«اسجدوا للرحمن». قالوا: وما الرحمن؟

وفي سبب نزول الآية الثانية: إنها نزلت في نفر من مشركي مكة، منهم أبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية المخزومي جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه و آله فأتاهم، فقال له عبد الله بن أمية: إن سررك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا، حتى تنفسخ فإنها أرض ضيقه، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت أهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسبح معه أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضى عليها مسيرتنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا فقد كان سليمان سخرت له الريح فكما زعمت لنا فلست أهون على ربك من سليمان. وأحى لنا جدك قصياً، أو من شئت من موتانا لنسأله: أحق ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله منه فأنزل الله سبحانه «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا» الآية.

التفسير

لا أمل في إيمان أهل العناد: تبحث هذه الآيات مرة ثانية مسألة النبوة، والآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين في النبوة وجواب القرآن عليهم فتقول الآية: كما أننا أرسلنا رسلاً إلى الأقوام السالفة لهدايتهم: «كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ». والهدف من ذلك «لَتَتَلَوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ». في الوقت الذي «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ». يكفرون بالله الذي عمّت رحمته كل مكان، وشمل فيضه المؤمن والكافر.

ثم قل لهم: إن الرحمن الذي عمّ فضله هو ربّي «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ».

ثم يجيب اولئك الذين يتشبثون دائماً بالحجج الواهية فيقول: لو أن الجبال تحركت من مكانها بواسطة القرآن: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَتْ بِهِ الْمَوْتَىٰ». فمع ذلك لا يؤمنون به.

ولكن كل هذه الأفعال بيد الله ويفعل ما يريد متى يشاء «بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا».

ولكنكم لا تطلبون الحق، وإذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التي صدرت من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١١

الرسول صلى الله عليه و آله كاف لإيمانكم.

ثم يضيف القرآن الكريم: «أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا». ولكنه لا يفعل ذلك أبداً، لأن هذا الإيمان الإجبارى لا قيمة له وهو فاقد للمعنى والتكامل الذى يحتاجه الإنسان فى حياته.

ثم تضيف الآية: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَِّبُهُمْ بِمَا صَدَّعُوا قَارِعَةً». وهذه مصائب تنزل عليهم بشكل إبتلاءات مختلفة أو على شكل هجوم المسلمين عليهم. وهذه المصائب إن لم تنزل فى دارهم فهى «أَوْ تَحِلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ» لكى يعتبروا بها ويرجعوا إلى الله جل وعلا.

وهذا الإنذار مستمر «حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ».

وهذا الوعد الأخير قد يشير إلى الموت، أو إلى يوم القيامة، أو على قول البعض إلى فتح مكة التى سحقت آخر معقل للعدو.

وعلى أية حال فالوعد الإلهى أكيد: «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّخِلِفُ الْمِيْعَادَ».

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول له: لست الوحيد من بين الأنبياء تعرض لطلب المعاجز الإقتراحية والإستهزاء من الكفار، بل «وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ». ولكن لم نعاقب هؤلاء الكفار فوراً، بل «فَأَمْثَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» لكى يستيقظوا ويعودوا إلى طريق الحق، أو نلقى عليهم الحجة الكافية على الأقل، لأن هؤلاء إذا كانوا مذنبين فإن لطف الله وكرمه وحكمته لا تتأثر بأفعال هؤلاء.

وعلى أية حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل «ثُمَّ أَحَدَثْهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» وهذا المصير ينتظر قومك المعاندين أيضاً. «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سِئُوهُمْ أَمْ تُتَّبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) كيف تجعلون الأصنام شركاء مع الله؟! نعود مرة أخرى فى هذه الآيات إلى البحث حول

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٢

التوحيد والشرك، وهى تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ». ولإتمام البحث السابق، ومقدمة للبحث الآتى. يقول تعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ».

ثم يجيبهم بلا فاصله وبعده طرق:

يقول أولاً: «قُل سِئُوهُمْ». فكيف تجعلون هذه الموجودات التى لا تستحق حتى الأسماء والتى لا قيمة ولا أثر لها، فى عداد الخالق القادر المتعال؟

ويقول ثانياً: «أَمْ تُتَّبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ».

ثالثاً: حتى أنتم لا تؤمنون بذلك فى قرارة أنفسكم، بل «أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ». ولهذا السبب نرى المشركين عندما تضيق بهم المشاكل الحياتية يلوذون بالله، لأنهم يعلمون فى قلوبهم أن الأصنام لا يمكن أن تعمل لهم شيئاً.

رابعاً: إن المشركين ليس لهم إدراك صحيح، وبما أنهم تابعين لأهوائهم وتقليدهم الأعمى، فإنهم غير قادرين على أن يقضوا بالحق وبشكل صحيح، ولهذا السبب ضلوا الطريق، يقول تعالى: «بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

الإضلال الإلهى إنعكاس لما يقوم به الإنسان من الأعمال السيئة التى تجره إلى الضياع، وبما أن هذه الخاصية قد جعلها الله سبحانه وتعالى لمثل هذه الأعمال فلذلك نسب هذا العمل إليه.

ويشير القرآن الكريم في الآية الأخيرة من هذه المجموعة إلى العقاب الأليم الذي يشملهم في الدنيا والآخرة، الشقاء والهزيمة والحرمان وغيرها، حيث تقول: «لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ آخِرٌ أَشَقُّ». لأنها دائمة ومستمرة، جسدية وروحية، وفيها أنواع الآلام.

وإذا اعتقدوا بأن لهم طريقاً للفرار أو سبيلاً للدفاع في مقابل ذلك، فإنهم في إشتباه كبير، لأن «وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ». مثل الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار (٣٥) بالنظر إلى تناوب آيات هذه السورة في بيان التوحيد والمعاد وسائر المعارف الإسلامية

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٣

الآخري، تحدثت هذه الآية مرة أخرى حول المعاد وخصوصاً نعم الجنة وعذاب الجحيم. يقول تعالى: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

قد يكون التعبير «مثل» إشارة إلى هذه النكتة، وهي أن الجنة وسائر النعم الآخروية غير قابلة للوصف بالنسبة إلى الساكنين في هذا العالم المحدود الذي هو في مقابل عالم بعد الموت يعتبر صغيراً جداً، ولذلك نستطيع أن نضرب لهم مثلاً أو صورة عن ذلك. الوصف الثاني للجنة هو «أَكْلُهَا دَائِمٌ» فهي ليست كفاكهة الدنيا فصلية وتظهر في وقت معين من السنة، بل في بعض الأحيان وبسبب الآفات الزراعية تنقطع تماماً.

وكذلك «وَوِظَلُّهَا» كبقية النعم الآخري خالدة ودائمة، ومن هذا يتضح أن ليس في الجنة فصل لتساقط الأوراق، ونعلم من ذلك - أيضاً - أن شعاع الشمس موجود في الجنة، وإلا كان التعبير بالظل هناك بدون شعاع الشمس ليس له أى مفهوم. وبعد بيان هذه الصفات الثلاث قال تعالى في آخر الآية: «تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ».

لقد بين وفصل في هذه العبارة نعم الجنة، ولكن بالنسبة إلى أصحاب النار ذكر جملة قصيرة وبعنف حيث ذكر أن عاقبة أمرهم إلى النار.

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ الْيُؤْمِنُونَ وَالْأَحْزَابِ: أشارت هذه الآية إلى رد الفعل المتفاوت للناس في مقابل نزول الآيات القرآنية، فالأفراد الذين يبحثون عن الحقيقة يفرحون بما انزل على الرسول، بينما المعاندون يخالفون ذلك. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ».

أى: أن الطالبون للحق من اليهود والنصارى وأمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرسول صلى الله عليه وآله لأنهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما في أيديهم من العلامات، ومن جهة أخرى كان سبباً لحريتهم ونجاتهم من شر الخرافات ومن علماء اليهود والمسيحية الذين كانوا يستبدونهم، وكانوا محرومين من حرية الفكر والتكامل الإنساني.

ثم تضيف الآية: «وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ». المقصود من هذه المجموعة هي نفس جماعة اليهود والنصارى الذين غلبهم التعصب الطائفي وأمثاله، ولذلك لم يعبر القرآن الكريم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٤

عنهم بأهل الكتاب، لأنهم لم يتبعوا كتبهم السماوية، بل كانوا أحزاباً وكتلاً تابعين لخبطهم الحزبي. أو أن كلمة «الأحزاب» إشارة إلى المشركين، لأن سورة الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، وهؤلاء ليس لهم دين ولا مذهب بل كانوا على شكل أحزاب وكتل متفرقة اتحدوا في مخالفتهم للقرآن والإسلام. ونقل العلامة الطبرسي عن ابن عباس، أن هذه الآية إشارة إلى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف الله بالرحمن، وأهل الكتاب - خصوصاً اليهود - يفرحون بهذا الوصف «الرحمان» في الآيات القرآنية، ومشركى مكة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به.



وفي آخر الآية يأمر الله النبي صلى الله عليه وآله: «قُلْ إِنَّمَا أَمُوتُ أَنْ أُعْيِدَ اللَّهُ وَلَمَّا أَشْرِكْ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَرْجِعُ». وتلك دعوة للموحدين الصادقين والمؤمنين الرساليين أن يسلموا أمام الأوامر الإلهية.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعِيدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) الحوادث الثابتة والمتغيرة: تتابع هذه الآيات المسائل المتعلقة بالنبوة، ففي الآية الاولى يقول تعالى: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا».

«العربي»: كما يقول الراغب في مفرداته «الفصيح البين من الكلام» وعلى هذا فوصف القرآن بالعربي لأن أحكامه واضحة وبيّنة. ثم يخاطب القرآن النبي صلى الله عليه وآله بلحن التهديد وبشكل قاطع حيث يقول: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ». وبما أن احتمال الانحراف غير موجود إطلاقاً في شخصية الرسول صلى الله عليه وآله لما يتميز به من مقام العصمة والمعرفة، فهذا التعبير - أولاً: - يوضح أن الله سبحانه وتعالى ليس له ارتباط خاص مع أي أحد حتى لو كان نبياً، فمقام الأنبياء الشامخ إنما هو بسبب عبوديتهم وتسليمهم وإستقامتهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٥

وثانياً: تأكيد وإنذار للآخرين، لأن النبي صلى الله عليه وآله إذا لم يكن مصوناً من العقوبات الإلهية في حالة انحرافه عن مسيرته الحق وإتجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرين؟

الآية الاخرى جواب لما كان يستشكله أعداء الرسول صلى الله عليه وآله. ومن جملة هذه الإشكالات:

أولاً: كان البعض يقول: هل من الممكن أن يكون الرسول من جنس البشر، يتزوج وتكون له ذرية؟ فالآية تجيبهم وتقول ليس هذا بالأمر الغريب: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً».

ثانياً: كان ينتظر هؤلاء من الرسول أن يجيبهم على كل معجزة يقترحونها عليه بما تقتضيه أهواؤهم، سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء أن «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثالثاً: لماذا جاء نبي الخاتم صلى الله عليه وآله وغير أحكام التوراة والإنجيل؟ وتجب الجملة الأخيرة من الآية فتقول: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» كما تبلغ البشرية المرحلة النهائية من الرشد والتكامل فليس من العجيب أن ينزل يوماً التوراة، ويوماً آخر الإنجيل، ثم القرآن، لأن البشرية في تحولها وتكاملها بحاجة إلى البرامج المتغيرة والمتفاوتة.

الآية الاخرى بمنزلة التأكيد والاستدلال لما ورد في ذيل الآية السابقة، وهو أن لكل حدث وحكم زمن معين كما يقال: إن الامور مرهونة بأوقاتها، وإذا رأيت أن بعض الكتب السماوية تأخذ مكان البعض الآخر فذلك بسبب «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» فيحذف بعض الامور بمقتضى حكمته وإرادته ويثبت اموراً اخرى، ولكن الكتاب الأصل عنده.

وفي النهاية وللتأكيد أكثر بالنسبة للعقوبات التي كان يوعدهم النبي صلى الله عليه وآله بها وكانوا ينتظرونها حتى أنهم يقولون: لماذا لا تصبح هذه الوعود عملية؟ يقول تعالى: «وَإِنْ مِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (من إنتصارك عليهم وهزيمتهم وتحرير أتباعك وأسر أتباعهم في حياتك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ».

إن جملة «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ» تبين قانوناً عاماً وشاملاً وقد اشير إليه في مختلف المصادر الإسلامية، وهو أن تحقق وصوره الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الاولى المرحلة القطعية أو الثابتة، ولا- سبيل للتغيير فيها (والتي أشارت إليها الآية أعلاه بام الكتاب) والاخرى المرحلة المتغيرة أو بعبارة اخرى «المشروطة» والتي يجد التغيير سبيلاً

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٦

إليها، وقد عبر عنها بالمحو والإثبات، وأحياناً يقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و «لوح المحو والإثبات» كأن ما كتب في اللوح

الأول محفوظ لا يتغير، أما الثاني فمن الممكن محو ما كتب فيه وتغييره. في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من الامور امور محتومة كائنه لا محاله، ومن الامور امور موقوفة عند الله يقدم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، لم يطلع على ذلك أحداً يعنى الموقوفة فأما ما جاءت به الرسل فهي كائنه لا يكذب نفسه ولا نبيه ولا ملائكته».

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسِلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) البشرية فانيه ووجه الله باق: بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث مع منكرى رساله النبي صلى الله عليه وآله فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث. يقول تعالى أولاً: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». من الواضح أن المقصود من «الأرض» هنا هم أهل الأرض، يعنى أن هؤلاء لا ينظرون إلى هذا الواقع من أن الأقوام والحضارات والحكومات فى حال الزوال والإبادة، وإنذار لكل الناس، الصالح منهم والطالح، حتى العلماء الذين يشكلون أركان المجتمع البشرى يكون موت أحدهم أحياناً نقصاناً للدين.

ثم يضيف: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لِمُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». ولذلك فإن قانون الفناء مكتوب على جبين كل الأفراد والامم من جهة، ومن جهة اخرى لا يستطيع أحد أن يغير هذا الحكم ولا الأحكام الاخرى، ومن جهة ثالثة أن حساب العباد سريع جداً، وبهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعاً.

ثم يستمر البحث فى الآية الثانية ويقول: ليست هذه الفئة فقط نهضت بمكرها ومحاربتها لك، بل «وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ». لكن خططهم كشفت، واجهضت مؤامرتهم بأمر من الله، لأنه أعلم الموجودات بهذه المسائل «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا» ذاك هو العالم بكل شىء مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٧

و «يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ». ثم يحذرهم بصيغته التهديد من عاقبة عملهم ويقول: «وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ».

الآية الأخيرة من هذا البحث (كما بدأت هذه السورة بكتاب الله والقرآن) تنهى سورة الرعد فى التأكيد أكثر على معجزة القرآن. يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسِلًا».

فهم يصطنعون كل يوم عذراً، ويطلبون فى كل وقت المعاجز، ثم آخر الأمر يقولون: لست نبي! قل فى جوابهم: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». فالله سبحانه وتعالى يعلم بأتى رسوله، وكذلك هؤلاء لهم المعرفة الكافية بأن القرآن هو كتاب سماوى، وهذا تأكيد جديد على إعجاز القرآن بمختلف جوانبه.

«نهاية تفسير سورة الرعد»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥١٩

## ١٤. سورة ابراهيم

هذه السورة مكية باستثناء الآيات (٢٨) و (٢٩) طبقاً لما قاله كثير من المفسرين أنها نزلت بالمدينة فى قتلى المشركين فى بدر. محتوى السورة: المعلوم من اسم السورة أن قسماً منها نازل بشأن بطل التوحيد ومحطم الأصنام سيدنا إبراهيم عليه السلام (قسم من أدعيته).

والقسم الآخر من هذه السورة يشير إلى تاريخ الأنبياء السابقين أمثال نوح وموسى، وقوم عاد وثمود، وما تحتوى من دروس وعبر فيها. وتكمل هذه المجموعة من البحوث فى السورة آيات الموعظة والنصيحة والبشارة والإنذار.

إن قسماً كبيراً منها أيضاً يبحث مواضيع «المبدأ» و «المعاد».

وخلاصة هذه السورة أنها تبين عقائد ونصائح ومواعظ سيرة الأقسام الماضية، والهدف من رسالة الأنبياء ونزول الكتب السماوية. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة إبراهيم والحجر اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٠

وكما أسلفنا مراراً فإن ما ورد من الثواب حول قراءة السور القرآنية يلازمه التفكير ومن ثم العمل.

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) الخروج من الظلمات إلى النور: شرعت هذه السورة- كبعض السور القرآنية الاخرى- بالحروف المقطعة، والنقطة التي يجب ملاحظتها هنا أن من بين ٢٩ مورداً لسور القرآن التي ابتدأت بالحروف المقطعة هناك ٢٤ مورد ذكر بعدها مباشرة القرآن الكريم، والتي تبين أن هناك علاقة بين الاثنين، أي بين الحروف المقطعة والقرآن، ولعل هذه العلاقة هي نفسها التي ذكرناها في بداية سورة البقرة، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح من خلال هذا البيان أن هذا الكتاب السماوي العظيم المتعهد لقيادة الإنسانية يتكون من مواد بسيطة تسمى بحروف الألفباء، وهذه تشير إلى أهمية هذا الإعجاز، حيث يوجد أصدق بيان من أبسط بيان. وعلى أية حال فبعد ذكر الحروف «الر» يقول تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إن جميع الأهداف التربوية والإنسانية، المعنوية والمادية من نزول القرآن قد جمعت في هذه الجملة (الخروج من الظلمات إلى النور) أي الخروج من ظلام الجهل إلى نور المعرفة، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، من ظلم الظالمين إلى نور العدالة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الذنوب إلى الطهارة والتقوى، ومن التفرقة والنفاق إلى نور الوحدة.

ومن الطريف أن «الظلمات» هنا جاءت بصيغة الجمع و «النور» بصيغة المفرد، وهذه إشارة إلى أن كل الحسنات والطيبات والإيمان والتقوى لها حالة واحدة في ظل التوحيد

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢١

ونوره فهي مترابطة ومتحدة فيما بينها فتصنع مجتمعاً واحداً متحداً وطاهراً من كل جهة. بينما الظلمات تعني التشتت وتفرقة الصفوف. ومن هنا لما كان مصدر كل الخير هي الذات الإلهية المقدسة، والشرط الأساس لدرك التوحيد هو الإلتفات إلى هذه الحقيقة، فإنه يضيف بلا فاصلة: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ».

ولكى يبين أكثر ما هو النور يقول تعالى: «إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». فعزته داله على قدرته، لأنه لا يستطيع أحد أن يغلبه، والحميد داله على نعمه ومواهبه غير المتناهية، لأن الحمد والثناء دائماً تكون في مقابل النعم والمواهب.

الآية الثانية ولكي تعرف الله بصفاته، تبين درساً من دروس التوحيد حيث تقول:

«اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». فله كل شيء، لأنه خالق جميع الموجودات ولهذا السبب هو القادر والعزیز وواهب النعم والحميد.

ثم يتطرق في نهاية الآية إلى مسألة المعاد (بعد أن ذكر المبدأ) فتقول الآية: «وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

ثم يعرف القرآن الكريم الكفار في الآية الاخرى، ويذكر لهم ثلاث صفات كيما نستطيع أن نعرفهم من أول وهلة، يقول تعالى أولاً: «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ». فهم يضحون بالإيمان والحق والعدالة والشرف التي هي من خصائص محبي الآخرة، من أجل منافعهم الشخصية وشهواتهم.

ثم يبين تعالى أن هؤلاء غير قانعين بهذا المقدار من الضلال، بل يسعون في أن يضلوا الآخرين «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». فهم- في الواقع- يزينون الهوى، ويدعون الناس إلى الذنوب، ويخوفونهم من الصدق والإخلاص.

ولا يقتصر عملهم على ذلك فحسب، بل «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا». ثم يحاولون أن يصبغوا الآخرين بصبغتهم، ويسعون في أن يحرفوا السبيل للوصول إلى هدفهم من خلال نشر الخرافات وإبتداع السنن الخبيثة «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ».

وهذا الضلال قد أوجد بُعد المسافة بينهم وبين الحق فكان من العسير جداً عودتهم إلى طريق الحق، ولكن ذلك كان نتيجة لأعمالهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٢

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) كان الحديث في الآيات السابقة عن القرآن الكريم وآثاره الروحية، وتتابع الآية الاولى من هذه المجموعة نفس الموضوع، لكن في بُعد خاص وهو أن دعوة الأنبياء وكتبهم السماوية نزلت بلسان أقوامهم الذين بعثوا إليهم. يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ». لأن الأنبياء يرتبطون في الدرجة الاولى مع قومهم، وأول نور الوحي يشع من بينهم، وأول الصحابة والأنصار ينتخبون منهم، لذلك فإن الرسول يجب أن يحدثهم بلغتهم ولسانهم «لِيُبَيِّنَ لَهُمْ».

إن دعوة الأنبياء كانت توضح لهم من خلال التبيين والتعليم والتربية ولسانهم الرائج لا من خلال أثر مرموز وغير معروف في قلوب. ثم يضيف القرآن الكريم بعد أن بين لهم الدعوة الإلهية: «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ». فليست الهداية والضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ والتبيين، الله سبحانه وتعالى هو الموجه والهادي الحقيقي لعباده.

ولكى لا يتصور أحد أن هذا القول بمعنى الجبر وسلب الحريات، يضيف القرآن مباشرة: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وبمقتضى عزته وقدرته فإنه قادر على كل شيء، ولكن بمقتضى حكمته لا يهدى ولا يضل أحداً بدون سبب ودليل، بل الخطوة الاولى تبدأ من قبل العباد وبكامل الحرية في السير إلى الله، ثم يشع نور الهداية وفيض الحق في قلوبهم، كما في

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٣

الآية (٦٩) من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

وعلى هذا النحو فإن محور الهداية والضلال في أيدي الناس أنفسهم.

تشير الآية الاخرى إلى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء في مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» (١).

وكما قرأنا في الآية الاولى من هذه السورة فإن خلاصة دعوة رسول الخاتم صلى الله عليه وآله هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فهذه دعوة كل الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر.

ثم يشير القرآن الكريم إلى واحدة من أكبر مسؤوليات موسى عليه السلام حيث يقول تعالى:

«وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ». وهي جميع الأيام العظيمة في تاريخ الإنسانية. فكل يوم يُفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس وعبرة، أو ظهور نبي فيه، أو سقوط جبار وفرعون- أو كل طاغ- ومحوه من الوجود. خلاصة القول: كل يوم يُعمل فيه بالحق والعدالة ويتلاشى فيه الظلم وتنطفى فيه بدعته، هو من أيام الله.

الروايات الواردة من أهل البيت عليهم السلام تشير أنهم فسروا «أيام الله» بأيام مختلفة، ففي تفسير نور الثقلين عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أيام الله، يوم يقوم القائم ويوم الكزة (٢) ويوم القيامة».

وفي آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

«صبار» و «شكور»: صيغته مبالغه فأحدهما تشير إلى شدة الصبر، والاخرى إلى زيادة الشكر، وتعني أن المؤمنين كما لا يستسلمون

للحوادث والمشاكل التي تصيبهم في حياتهم، كذلك لا يغترون ولا يغفلون في أيام النصر والنعمة.

تشير الآية الاخرى إلى أحد هذه الأيام التي كانت ساطعة ومشرقة في تاريخ بنى إسرائيل، وذكرها تذكرة للمسلمين حيث يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ». هؤلاء الفراعنة الذين كانوا «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوْنَ

(١) المعجزات التي ظهرت من موسى بن عمران أشارت إليها الآية أعلاه بلفظ الآيات، وهي ٩ معجز مهمية طبقاً للآية (١٠١) من سورة الإسراء، والتي سوف تأتي إن شاء الله في تفسير تلك الآية.

(٢) يوم الكثرة/ أى يوم الرجعة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٤

أَبْنَاؤُكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ.

وكان على طول التاريخ طريقة كل المستعمرين حيث كانوا يبيدون قسماً من القوى الفاعلة والمقاومة، ويضعفون قسماً آخر منها ويستخدمونها في منافعهم الخاصة. أى يوم أكثر بركة من ذلك اليوم حيث أزال الله عنكم فيه شر المتكبرين والمستعمرين، الذين كانوا يرتكبون أفظع الجرائم بحقكم، وأى جريمة أعظم من ذبح أبنائكم كالحیوانات (إنتبه إلى أن القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) وأهم من ذلك فإن نواصبيكم كانت خدماً فى أیدی الطامعین.

وليس هذا المورد خاص ببنى إسرائيل، بل فى جميع الامم والأقوام. فإن يوم الوصول إلى الاستقلال والحرية وقطع أیدی الطواغیت يوم من أيام الله الذى يجب أن نتذكره دوماً حتى لا نعود إلى ما كنا عليه فى الأيام الماضية.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ». يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى لبنى إسرائيل، ويمكن أن تكون جملة مستقلة وخطاباً للمسلمين، ولكن على أية حال فالنتيجة واحدة، لأن وروده فى القرآن الكريم من أجل أن يكون درساً ببناءً لنا.

الشكر سبب لزيادة النعم والكفر سبب للفناء: مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى شكرنا فى مقابل نعمه علينا، وإذا أمرنا بالشكر فذاك نستوجب نعمة اخرى وهى واحدة من المبادئ السامية فى التربية.

إن حقيقة الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان (الحمد لله) أو الشكر اللفظى، بل هناك ثلاث مراحل للشكر:

الاولى: يجب أن نعلم من هو الواهب للنعم؟ هذا العلم والإيمان الركن الأول للشكر.

والثانية: الشكر باللسان.

والثالثة: وهى الأهم الشكر العملى، أى أن نعلم الهدف من منحنا للنعمه، وفى أى مورد نصرفها، وإلا كفرنا بها.

وهنا يتضح هذه العلاقة بين الشكر وزيادة النعمه، لأن الناس لو صرفوا النعم الإلهية فى هدفها الحقيقى، فسوف يثبتون عملياً إستحقاقهم لها وتكون سبباً فى زيادة الفيوضات الإلهية عليهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٥

وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصْغِدُونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) الآية الاولى من هذه المجموعة تؤيد وتكمل البحث السابق فى الشكر والكفران، وذلك ضمن الكلام الذى نقل عن لسان موسى عليه السلام: «وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا

أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ».

إنَّ الشكر والإيمان بالله سبب في زيادة النعم والتكامل الإنساني، وإلَّا فالله عزَّ وجل ليس بحاجة إلى أيِّ شيء، ولو كفرت جميع الكائنات ولم تحمده لا تمسُّ كبريائه بأدنى ضرر، لأنَّه حميد في ذاته.

ثم يشرح مصير الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدَّة آيات، الفئات التي كفرت بأنعم الله وخالفت الدعوة الإلهية، وهي تأكيد للآية السابقة. يقول تعالى: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

يمكن أن تكون هذه الجملة تعقياً على كلام موسى، أو بيان مستقل يخاطب به المسلمين، لكن النتيجة غير متفاوتة كثيراً.

ثم يضيف تعالى: «قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ» فهؤلاء لم يطلع على أخبارهم إلاَّ الله «لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ».

ولكى يوضح القرآن الكريم مصيرهم يقول: «جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ». أي: وضعوا أيديهم على أفواههم من التعجب والإنكار «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٦

أُرْسِلْتُمْ بِهِ». لماذا؟ بسبب: «وإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».

وبما أن الآية السابقة بينت قول المشركين والكفار في عدم إيمانهم بسبب شكهم وترديدهم، فالآية بعدها تنفي هذا الشك من خلال دليل واضح وعبارة قصيرة حيث يقول تعالى: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَمِىَ اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». «فاطر»: من «فطر» وهي في الأصل بمعنى «شق» وهنا كناية عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشياء على أساس نظام دقيق ثم يحفظها ويحميها، كأنَّ ظلمة العدم شقت بنور الوجود.

ولعل «فاطر» تشير إلى تشقُّق المادة الأولية للعالم، كما نقرأ في العلوم الحديثة إنَّ مجموع مادة العالم كانت واحدة مترابطة ثم إنشقت إلى كراه مختلفة.

فالقرآن الكريم هنا- كما في أغلب الموارد الاخرى- يستند لإثبات وجود الخالق وصفاته إلى نظام الوجود وخلق السماوات والأرض. ثم يجيب القرآن الكريم على ثانياً اعتراض للمخالفين، وهو اعتراضهم على مسألة الرسالة (لأنَّ شكهم كان في الله وفي دعوة الرسول) ويقول إنَّ من المسلم أنَّ الله القادر والحكيم لا- يترك عباده بدون قائد، بل إنَّه يارسال الرسل: «يَدْعُوكُمْ لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ».

وزياده على ذلك فإنه: «وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى». كيما تسلكوا سبيل التكامل وتستفيدوا من موهبة الحياة بأقصى ما يمكنكم.

إنَّ غاية دعوة الأنبياء أمران: أحدهما غفران الذنوب، والثاني إستمرار الحياة إلى الوقت المعلوم، والإثتان عله ومعلول، فالمجتمع الذى يستمر فى وجوده هو المجتمع النقى من الظلم والذنوب.

ومع كل ذلك لم يقبل الكفار المعاندون دعوة الحق المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، ومن خلال بيانهم المشوب بالعناد وعدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: «قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا». علاوة على ذلك: «تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيدُونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا». وأكثر من ذلك: «فَأَتُونَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٧

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَنْ نَتَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرَنَّ عَلَىٰ مِمَّا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) التوكل على الله وحده: نقرأ فى هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، وإعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

يعنى لو إفترضنا أنَّ الله تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهى لا تمتلك شيئاً لذاتها، فكل المواهب ومن جملتها موهبة الرسالة

والقيادة هي من عند الله، فالذي يستطيع أن يهب الملائكة هذا المقام قادر أن يعطيها للإنسان.

ثم يجيب على السؤال الثالث دون أن يجيب على الثاني، وكأنّ الإعتراض الثاني الذي هو الإستئذان بسنة الأجداد ليس له أى أهمية وفارغ من المحتوى بحيث إنّ أى إنسان عاقل - بأقل تأمل - يفهم جوابه، بالإضافة إلى أنّ القرآن الكريم قد أجاب عنه فى آيات أخرى. وجواب السؤال الثالث هو أنّ عملنا ليس الإتيان بالمعجز، فنحن لا نجلس فى مكان ونلبى لكم المعجز الإقتراحية وكل ما سؤلت لكم أنفسكم، بل «وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ومع ذلك فإنّ كل نبي كان يظهر لقومه المعجز بمقدار كاف بدون أن يطلبها الناس منه، وذلك لكى يثبت الأنبياء أحقيتهم ولتكون المعجز سنداً لصدقهم.

ولكى يردّ الرسل على تهديداتهم المختلفة يقولون: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وبعد ذلك إستدل الأنبياء على مسألة التوكل حيث قالوا: «وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا».

ثم أضافوا: إنّ ملاذنا هو الله، ملاذ لا يقهر وهو فوق كل شيء: «وَلَنَضْرِبَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا». وأخيراً أنهوا كلامهم بهذه الجملة: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

المقصود من التوكل أن لا يحسّ الإنسان بالضعف فى مقابل المشكلات العظيمة، بل

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٨

بتوكله على قدرة الله المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكل عامل من عوامل القوة واستمداد الطاقة وسبب فى زيادة المقاومة والثبات.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَأَسِئْتُمْ تَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) خطط الجبارين المعاندين ومصيرهم: عندما يعلم الظالمون بضعف منطقتهم وعقيدتهم، يتركون الاستدلال، ويلجأون إلى القوة والعنف، ونقرأ هنا أنّ الأقوام الكافرة العنيدة عندما سمعوا منطلق الأنبياء المتين والواضح قالوا لرسولهم: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا».

وكانّ هؤلاء القوم يعتبرون جميع ما فى الأرض ملكهم، حتى أنّهم لم يمنحوا لرسولهم حقوق المواطنة، ولذلك يقولون «أرضنا»، وفى الحقيقة فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وكل مواهبها للصالحين، وهؤلاء الجبابرة فى الواقع ليس لهم أى حق فيها.

ثم يضيف القرآن الكريم لتسليّة قلوب الأنبياء: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ».

فلا تخافوا من وعيدهم، ولا تظهروا الضعف فى إرادتكم.

وبما أنّ الظالمين كانوا يهددون الأنبياء بالتباعد عن أرضهم، فإنّ الله فى مقابل ذلك كان يعدّ الأنبياء «وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ». ولكن هذا النصر والتوفيق لا يناله إلاّ ذلك لمن خاف مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ».

وحين إنقطعت الأسباب بالأنبياء من كل جانب، وأدوا جميع وظائفهم فى قومهم، فأمن منهم من آمن، وبقي على الكفر من بقى، وبلغ ظلم الظالمين مداها، فى هذه الأثناء طلبوا النصر من الله تعالى: «وَأَسِئْتُمْ تَحُوا...». وقد استجاب الله عزّ وجلّ دعاء المجاهدين المخلصين «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٩

«خاب»: من الخيبة بمعنى فقدان المطلوب.

و «جبار»: بمعنى المتكبر هنا، وتطلق هذه الكلمة أحياناً على الله جلّ وعلا فتعطى معنى آخر، وهو (جبر وإصلاح من هو بحاجة إلى

(الإصلاح) أو بمعنى (المتسلط على كل شيء).

و «العنيد»: في الأصل من «العند» على وزن «رند» بمعنى الإتجاه، وجاءت هنا بمعنى الانحراف عن طريق الحق. ومن الطريف أن «جبار» تشير إلى صفة نفسانية بمعنى روح العصيان، و «عنيد» تشير إلى آثار تلك الصفة في أفعال الإنسان حيث تصرفه عن طريق الحق.

ثم يُبين نتيجة عمل الجبارين في الآخرة ضمن آيتين في خمسة مواضع:

١- إن مثل هذا الشخص: «مَنْ وَرَأَيْهِ جَهَنَّمَ». مع أن كلمة «وراء» بمعنى «الخلف» في مقابل أمام، إلا أنها في هذه الموارد تعني نتيجة وعاقبة العمل.

٢- أمّا في جهنم فإنه: «وَبُئِىَ قَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ». «الصديد»: القيقح المتجمع بين اللحم والجلد، وهو بيان للماء المتعفن الكريه الذى يسقونه.

٣- فهذا المجرم المذنب عندما يرى نفسه في مقابل هذا الشراب «يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ». «يسیغه»: من إساعه، وهى وضع الشراب في الحلق.

٤- ووسائل التعذيب كثيرة بحيث «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ». حتى يذوق وبال عمله وسيئاته.

٥- وقد يتصور أن ليس هناك عقاباً أكثر من ذلك، ولكن «وَمِنْ وَرَأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ».

وبهذا الترتيب فإن كل ما يخطر في ذهن الإنسان وما لا يخطر من شدة العقاب هو في إنتظار هؤلاء الظالمين والجبارين والمذنبين لأنه النتيجة الطبيعية لعمل الإنسان، بل تجسيم أفعالهم في الآخرة، فكل عمل يجسّم بشكل مناسب.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البُعِيدُ (١٨) رَمَادٌ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ: ضربت هذه الآية مثالاً واضحاً وبلغياً لأعمال الكفار، وبذلك تكمل بحث الآيات السابقة في مجال عاقبه أمرهم.

يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ». فيتناثر الرماد في الريح العاصف بحيث لا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٠

يستطيع أحد جمعه، كذلك منكرو الحق ليست باستطاعتهم أن يجمعوا ما كسبوا «لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البُعِيدُ».

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَأُ يُدْهِنُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) الخلق على أساس الحق: بعد ما بحثنا عن الباطل وأنه كالرماد المتناثر إذا اشتدت به الريح، نبحث في هذه الآية عن الحق وإستقراره، يقول الله تعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وآله باعتباره الاسوة لكل دعاء الحق: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

«الحق»: كما يقول الراغب في مفرداته «المطابقة والتنسيق» وله استعمالات اخرى: فتارة يستعمل الحق في العمل الصادر وفقاً للحكمة والنظام كما في الآية (٥) من سورة يونس:

«هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ».

وتارة يطلق على الشخص الذى قام بهذا العمل المحكم، كما- في الآية (٣٢) من سورة يونس - نطلقها على الله عز وجل: «فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ».

وتارة اخرى يطلق على الإعتقاد الذى يطابق الواقع كما في الآية (٢١٣) من سورة البقرة: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ».

ومرة يقال للقول والعمل الذى يتحقق في الوقت المناسب كما في الآية (١٣) من سورة السجدة: «حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ».

فمقابل «الحق» الباطل والضلال واللعب وأمثالهما؛ لكن الآية التى نحن بصددتها تشير إلى المعنى الأول، وهو إنشاء عالم الخلق. حيث



توضح أن الغرض من خلق السماء والأرض هو الحكمة والنظام والحساب، فالله تعالى ليس محتاجاً في خلقها ولا ناقصاً لكي يسدّ نقصه بها، بل هو الغنى عن كل شيء، وهذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات وتكاملها.

ثم يضيف: إن الدليل في عدم الحاجة إليكم ولا إلى إيمانكم هو: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ». وهذا العمل ليس صعباً عند الله «وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ».

والشاهد على هذا القول في الآيات (١٣١-١٣٣) من سورة النساء: «وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣١

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ... إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِالْآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكُمْ قَدِيرًا». وهذا التفسير بخصوص الآية أعلاه منقول عن ابن عباس.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَمَّا تَلَوْتُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) المحادثة الصريحة بين الشيطان وأتباعه: أشارت الآيات السابقة إلى العقاب الشديد للمخالفين والمعاندين والكافرين، وهذه الآيات تكمل ذاك البحث. يقول تعالى أولاً:

«وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا».

وفي هذه الأثناء يقول الضعفاء الذين تاهوا في وادي الضلالة للمستكبرين الذين كانوا سبب ضلالهم «فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» فيجيبونهم بدون توقف «قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ».

ولكن للأسف فالمسألة منتهية «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ».

ولكن يجب أن يعلم المستكبرون أنهم يتحملون مسؤوليته ذنوب أتباعهم شاؤوا أم أبوا، طبقاً لصريح القرآن والروايات، لأنهم المؤسسون للانحراف والضلال دون أن ينقص أي شيء من عذاب أتباعهم.

«المحيص»: من «المحص» بمعنى التخلص من العيوب أو الألم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٢

ثم يشير القرآن الكريم إلى موقف آخر من مواقف القيامة والعقاب النفسي للجبارين والمذنبين وأتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ». وبهذا الترتيب فالشيطان وجميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون ويوبخون تابعيهم البؤساء. ثم يضيف: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي». ويستمر في القول «فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ». أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!

وعلى كل حال فلا أنا أستطيع إنقاذكم من العذاب ولا أنتم تستطيعون إنقاذي: «مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ». والآن اعلمكم بآتي أتبرأ من شرككم وإطاعتكم لي «إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» فقد فهمت الآن أن الشرك في الطاعة أدى إلى شقائي وشقائكم، وهذه التعاسة ليس لها طريق للنجاة، واعلموا «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ونستفيد بشكل أكيد من هذه الآية أن وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره وحرية إرادته، بل هي مجرد دعوة ليس أكثر، فالناس هم الذين يلتبون دعوته بإرادتهم.

وبعد بيان حال الجبارين والظالمين ومصيرهم المؤلم، تتطرق الآية الأخيرة من هذا البحث إلى حال المؤمنين وعاقبتهم، حيث يقول تعالى: «وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الآية.

«التحية»: في الأصل «الحياة» وتستعمل لسلامة وحياء الأفراد، وتطلق لكل تحية وسلام ودعاء في بداية اللقاء.

ف «سلام» يشمل كل سلامة من أي نوع من أنواع العذاب الروحي والجسمي.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضْمَلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة: هنا مشهد آخر في تجسيم الحق والباطل، الكفر

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٣

والإيمان، الطيب والخبيث ضمن مثال واحد جميل وعميق المعنى ... يكمل البحوث السابقة في هذا الباب. يقول تعالى أولًا: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ». ثم يشير إلى خصائص هذه الشجرة الطيبة في جميع أبعادها ضمن عبارات قصيرة. «الكلمة»: في معناها الواسع تشمل جميع الموجودات.

«الطيب»: كل طاهر ونظيف، فالنتيجة من هذا المثال أنه يشمل كل سئ ودستور وبرنامج وطريقته، وكل عمل، وكل إنسان ... والخلاصة: كل موجود طاهر ونظيف وذو بركة، وجميعها شجرة طيبة فيها الخصائص التالية:

- ١- كائن يمتلك الحركة والنمو، وليس جامدًا ولا خاملاً.
- ٢- هذه الشجرة طيبة، من كل جهة ... ثمارها، أزهارها، ونسيمها جميعها طيب وطاهر.
- ٣- لهذه الشجرة نظام دقيق، لها جذور وأغصان، وكل واحد له وظيفته الخاصة.
- ٤- أصلها ثابت محكم بشكل لا يمكن أن يقلعها الطوفان ولا العواصف، «أَصْلُهَا ثَابِتٌ».
- ٥- إن أغصان هذه الشجرة الطيبة ليست في محيط ضيق ولا ردىء، بل مقرها في عنان السماء، وهذه الأغصان والفروع تشق الهواء وتصد في عالياً «وَفَزَعَهَا فِي السَّمَاءِ».

ومن الواضح أن الأغصان كلما كانت عالية وسامقة تكون بعيدة عن التلوث والغبار وتصبح ثمارها نظيفة.

٦- هذه الشجرة كثيرة الثمر لا كالأشجار الذابلة العديمة الثمر، ولذلك فهي كثيرة العطاء «تُؤْتِي أُكْلَهَا».

٧- وثمارها ليست فصلية، بل في كل فصل وزمان، فإذا أردنا أن نمد يدنا إلى أغصانها في أي وقت لم نرجع خائبين «كُلَّ حِينٍ».

٨- إن إنتاجها من الثمار يكون وفق قوانين الخلق والسنن الإلهية وليس بدون حساب «بِإِذْنِ رَبِّهَا».

والآن يجب أن نفحص، أين نجد هذه الخصائص والبركات؟

نجدها بالتأكيد في كلمة التوحيد ومحتواها، وفي الإنسان الموحد ذي المعرفة.

الرجال العظام من المؤمنين هم كلمة الله الطيبة، وحياتهم أصل البركة، دعوتهم توجب الحركة، آثارهم وكلماتهم وأقوالهم وكتبهم وتلاميذهم وتاريخهم ... وحتى قبورهم جميعها ملهمة وحية ومربية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٤

نعم «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وبما أن أحد أفضل الطرق لتوضيح المسائل هو الاستفادة من طريق المقابلة والمقايضة، فقد جعلت النقطة المقابلة للشجرة الطيبة، الشجرة الخبيثة «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ».

والكلمة «الخبيثة» هي كلمة الكفر والشرك، وهي القول السيء والردىء، وهي البرنامج الضال والمنحرف، والناس الخبيثاء، والخلاصة: هي كل خبيث ونجس.

ومن الطريف أن القرآن الكريم فضل الحديد في وصف الشجرة الطيبة بينما إكتفى في وصف الشجرة الخبيثة بجملة قصيرة واحدة

«اجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ».

وهذا نوع من لطافة البيان أن يتابع الإنسان جميع خصوصيات ذكر «المحجوب» بينما يمرّ بسرعة في جملة واحدة بذكر «المبغوض». وبما أن الآيات السابقة جسدت حال الإيمان والكفر، الطيب والخبيث من خلال مثالين صريحين، فإن الآية الأخيرة تبحث نتيجة عملهم ومصيرهم النهائي، يقول تعالى: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ». لأن إيمانهم لم يكن إيماناً سطحياً وشخصيتهم لم تكن كاذبة ومتلوّنة.

فهنا يثبتون بالإيمان ويبرؤون من الذنوب، وهناك يُخلدون في النعيم المقيم.

ثم يشير إلى النقطة المقابلة لهم: «وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ».

قلنا مراراً: إن الهداية والضلال التي تنسب إلى الله عز وجل لا تتحققان إلا بأن يرفع الإنسان القدم الأول لها، فالله عز وجل عندما يسلب المواهب والنعيم من العبد أو يمنحها له يكون ذلك بسبب إستحقاقه أو عدم إستحقاقه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) نهاية كفران النعم: الخطاب في هذه الآيات موجه للرسول صلى الله عليه وآله وهو في الحقيقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبيثة». يقول تعالى أولاً: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٥

كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ». هؤلاء هم جذور الشجرة الخبيثة وقادة الكفر والانحراف.

مع أن بعض المفسرين الكبار عند متابعتهم للروايات الإسلامية فسّروا- أحياناً- هذه النعمة بوجود النبي صلى الله عليه وآله وأحياناً اخرى بالأئمة عليهم السلام وفسّروا الكافرين بهذه النعمة ب «بنى امية» و «بنى المغيرة» مرّة، ومرّة اخرى جميع الكفار الذين عاصروا عهد النبي صلى الله عليه وآله، ولكن من المسلم به أن للآية مفهوماً أوسع من هذا، وليس مختصاً بمجموعة معينة، بل تشمل جميع الأفراد الذين يكفرون بالنعمة الإلهية.

ثم إن القرآن الكريم يفسّر دار البوار بقوله تعالى: «جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ» (١).

ثم يشير في الآية الاخرى إلى واحدة من أسوأ أنواع كفران النعم «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ». لكي يستفيدوا عدّة أيام من حياتهم المادية ومن رئاستهم وحكومتهم في ظل الشرك والكفر لإضلال الناس عن طريق الحق.

أيها النبي: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ». فحياتكم هذه شقاء ورئاستكم فاسدة.

«أنداد»: جمع «ند» بمعنى «المثل» ولكن الراغب في مفرداته والزبيدي في تاج العروس قالوا: إن «الند» يقال للشيء الذي يشابه الشيء الآخر جوهرياً، و «المثل»: يطلق على كل شيء شبيه لشيء، ولذلك فالند له معنى أعمق وأدق من المثل.

وطبقاً لهذا المعنى نستفيد من الآية أعلاه أن أئمة الكفر كانوا يسعون لأن يجعلوا لله شركاء ويشبهوهم في جوهر ذاتهم بالله عز وجل، لكي يضلوا الناس عن عبادة الله ويحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ فِي الْبَحْرِ بَأْمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعِدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

(١) «يصلون»: من «الصلى» بمعنى الإشتعال والإحترق بالنار.

عظمة الإنسان من وجهه نظر القرآن: تعقياً للآيات السابقة في الحديث عن برنامج المشركين والذين كفروا بأنعم الله وكون مصيرهم إلى دار البوار، تحدت هذه الآيات عن برنامج عباد الله المخلصين والنعم النازلة عليهم. يقول تعالى: «قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً». قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يستطيع فيه الإنسان من التخلص من العذاب بشراء السعادة والنعم الخالد، ولا تنفع الصداقه حينئذ «مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَاتَبِعَ فِيهِ وَلَا خَلَلَ».

ثم تتطرق الآية إلى معرفة الله عن طريق نعمه، معرفة تؤدي إلى إحياء ذكره في القلوب، وتحث الإنسان على تعظيمه في مقابل لطفه وقدرته، لأن من الامور الفطرية أن يشعر الإنسان في قلبه بالحب والود لمن أعانه وأحسن إليه.

ويبين هذا الموضوع من خلال عدة آيات «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ». ثم أنه «وَسَيَخْرُجُ لَكُمْ الْفُلُكُ» سواء من جهة موادها الأولية المتوفرة في الطبيعة، أو من جهة القوة المحركة لها وهي الرياح التي تهب على البحار والمحيطات بصورة منتظمة لتسيير هذه السفن فتقل الإنسان وما يحتاج إليه من منطقة إلى أخرى بيسر وسهولة: «لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». «وَسَيَخْرُجُ لَكُمْ الْأَنْهَارُ» كى تسقوا من مائها زروعكم، وتشربوا أنتم وأنعامكم، وفي كثير من الأحيان تكون طريقاً للسفن والقوارب، وتستفيدون منها فى صيد الأسماك.

وليست موجودات الأرض - فقط - مسخرة لكم، بل «وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ».

وليست مخلوقات العالم بذاتها فقط، بل حتى الحالات العرضية لها هي فى خدمتكم:

«وَسَيَخْرُجُ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ\* وَعَاتِكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» من احتياجاتكم البدنية والاجتماعية وجميع وسائل السعادة والرفاه «وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها» لأن النعم المادية والمعنوية للخالق شملت جميع وجودكم وهي غير قابلة للإحصاء، وعلاوة على ذلك فإن ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه كقطرة فى مقابل البحر.

وعلى الرغم من كل هذه الألفاظ والنعم ف «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع أن يجعل الدنيا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٧

حديقة غناء ولنغد مشروع المدينة الفاضلة.

إن الإنسان من وجهه نظر القرآن له من العظمة بحيث سخر الله له جميع ما فى الوجود، إما أن يكون زمام امورها بيده أو تتحرك ضمن منافعه، وعلى أية حال فهذه العظمة جعلته من أشرف الموجودات.

إن القرآن الكريم يناديه: أيها الإنسان، كل شىء بالقدر الكافى تحت تصرفك، بشرط أن واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام (٣٥) رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم (٣٦) ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا (٣٧) ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء (٣٨) الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسما عيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء (٣٩) رب اجعلنى مقيم الصلوة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (٤١) لا تكون ظلوماً كفاراً، عليك أن تقنع بحقك ولا تتجاوز على حقوق الآخرين.

دعاء إبراهيم عليه السلام: لما كان الحديث فى الآيات السابقة عن المؤمنين الصادقين والشاكرين لأنعم الله، عقب هذه الآيات فى بحث بعض أدعية وطلبات العبد المجاهد والشاكر لله إبراهيم عليه السلام ليكون هذا البحث تكملة للبحث السابق ونموذجاً حياً للذين يريدون أن يستفيدوا من النعم الإلهية أفضل إستفادة. يقول تعالى: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام».

لأنه عليه السلام كان يعلم حجم البلاء الكبير الكامن في عبادة الأصنام، ويعلم كثرة الذين ذهبوا ضحية في هذا الطريق: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ». فأى ضلال أكبر من هذا الضلال الذي يفقد الإنسان فيه حتى عقله وحكمته.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٨

إلهي إنتى أَدْعُو إلى توحيدك، وأدعو الجميع إلى عبادتك «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». إن إبراهيم عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يقول لله تعالى: إنه حتى لو انحرف أبناى عن مسيرة التوحيد واتجهوا إلى عبادة الأصنام فإنهم ليسوا منى، ولو كان غيرهم فى مسيرة التوحيد فهم أبناى وإخوانى.

ثم يستمر بدعائه ومناجاته: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ».

وكان ذلك عندما رزقه الله إسماعيل من جاريته «هاجر» فأثار ذلك حسد زوجته الاولى «ساره» ولم تستطيع تحمل وجود هاجر وإبنها، فطلبت من إبراهيم أن يذهب بهما إلى مكان آخر، فاستجاب لها إبراهيم طبقاً للأوامر الإلهية، وجاء بإسماعيل واهه إلى صحراء مكة القاحلة، ثم ودعهم وذهب.

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام دعاءه: إلهي، إن أهلى قد سكنوا فى هذه الصحراء المحرقة إحتراماً لبیتك المحرّم: «فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مَنْ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ».

ومن هنا لَمَّا كان الإنسان الموحّد والعارف يعلم بمحدودية علمه فى مقابل علم الله، وأنه لا يعلم مصلحته إلا الله تعالى، فما أكثر ما يطلب شيئاً من الله وليس فيه صلاحه، أو لا يطلبه وفيه صلاحه، وأحياناً لا يستطيع أن يقوله بلسانه فيضمّره فى أعماق قلبه، ولذلك يعقّب على ما مضى من دعائه ويقول: «رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ».

فإن كنت مغتماً لفراق إبنى وزوجتى فأنت تعلم بذلك ... وترى دموع عيني المنهملة.

وعندما فارقت زوجتى وقالت لى: «إلى من تكلنى» فأنت أدرى بها وبمستقبلها ومستقبل هذه الأرض.

ثم يشير القرآن إلى شكر إبراهيم عليه السلام لنعمه تعالى والى هى من أهم ما إمتاز به عليه السلام شكره على منحه ولدين بارين إسماعيل وإسحاق وذلك فى سنّ الشيخوخة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ». نعم «إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ».

ثم يستمر بدعائه ومناجاته أيضاً فيقول: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٩

ثم يختم دعاءه هنا فيقول: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ».

وبهذا الترتيب فإن دعواته تبدأ بالأمن وتنتهى بالعفو والغفران، ومن الطريف أنه لم يطلبها لنفسه فقط، بل للآخرين كذلك، لأنّ عباد الرحمن ليسوا أنانيين. «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَمَّا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طُرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَٰئِكَ يَكُونُوا أُنْفُسَهُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَيَكُنُّمُ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) الْيَوْمَ الَّذِي تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ: كان الحديث فى الآيات السابقة عن يوم الحساب، وبهذه المناسبة تجسّم هذه الآيات حال الظالمين والمتجبرين فى ذلك اليوم، ثم تبين المسائل المتعلقة بالمعاد وتكمل الحديث السابق حول التوحيد وتبدأ فى تهديد الظالمين: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».

وهذا فى الواقع جواب لأولئك الذين يقولون: إذا كان لهذا العالم إله عادل فلماذا يترك الظالمين وحالهم؟ هل هو غافل عنهم أم لا يستطيع أن يمنعهم وهو يعلم بظلمهم؟

فيجيب القرآن الكريم على ذلك بأنّ الله ليس غافلاً عنهم أبداً، لأنّ عدم عقابهم مباشرة هو أنّ هذا العالم محلّ الامتحان والاختبار وتربية الناس، وهذا لا- يتم إلا فى ظل الحرية، وسوف يأتى يوم حسابهم «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ\* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِينَ

رءُوسِهِمْ لَأَيَّرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ».

«تشخص»: من مادة «الشخص» بمعنى توقف العين عن الحركة والنظر إلى نقطة بدهشة؛ و «مهطعين»: من مادة «إهطاع» بمعنى رفع الرقبة؛ و «مقنعي»: من مادة «الإقناع» بمعنى رفع الرأس عالياً.

إن بيان هذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعين، مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، أفئدتهم هواء، صورة بليغة لهول وشدة ذلك اليوم على الظالمين الذين كانوا يستهزئون بكل شيء، وأصبحوا في هذا اليوم لا يستطيعون حتى تحريك أجفان أعينهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٠

مختصر الامثل ج ٣

فهؤلاء كانوا يعتقدون بكمال عقولهم ويعدون الآخرين من الحمقى، فأصبحوا اليوم مدهوشين لدرجة أن نظرهم نظر المجانين، بل الأموات ... نظر جاف عديم الروح وملء بالرعب والفرع .... نعم، عندما يريد القرآن الكريم أن يصور منظراً أو يجسم موقفاً يستخدم أقصر العبارات في أكمل بيان كما في الآية أعلاه.

ولكى لا يعتقد أحد أن هذه المجازات تتعلق بمجموعة معينة، يقول تعالى لنبه الكريم:

«وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ تَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» حتى نستفيد من هذه الفرصة ثم «نَجِبَ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ» ولكن هيهات إن ذلك محال «أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسِمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ وَسَيَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسِهِمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ». فكل هذه الدروس لم تؤثر بكم وأدمتم ظلمكم وجوركم، والآن وبعد أن وقعتم في يد العدالة تطلبون تمديد المدة؟ لقد إنتهى كل شيء.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَليَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) لا فائدة من مكرهم: أشارت الآيات السابقة إلى نوع من عقاب الظالمين، وفي هذه الآيات أيضاً أشارت - أولاً - إلى جزء من أفعالهم، ومن ثم إلى قسم آخر من جزائهم الشديد وعقابهم الأليم. تقول الآية الأولى: «وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ».

لقد عملوا كل ما بوسعهم من أجل طمس حقائق الإسلام، بدءاً من الترغيب والتهديد وحتى الأذى ومحاولات القتل والإغتيال وبث الشائعات، ومع كل ذلك فإن الله مطلع على

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤١

جميع مؤامراتهم وقد أحصى أعمالهم: «وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ». فلا تقلق فإنهم لا يستطيعون بمكرهم هذا أن يصيبوك بسوء حتى «وإن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ».

«المكر»: بمعنى الإحتيال، فمرةً يلازمه الفساد ومرةً أخرى لا يلازمه، والمراد بكون مكرهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته.

ثم يتوعد الله الظالمين والمسيئين مرةً أخرى من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه و آله: «فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ» لأن الإخلاف يصدر من الذى ليست له قدرة واستطاعة، ولكن:

«إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ».

وهذه الآية مكتملة للآية التي قبلها «وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ». وتعنى أن المهلة التي أعطيت للظالمين ليست بسبب أن الله غافل عنهم وعن أعمالهم ولا مخلف لوعده، بل سينتقم منهم في اليوم المعلوم.

ثم يضيف تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ». وسوف يتجدد كل شيء بعد الدمار، ويبعث الإنسان في خلق جديد

وعالم جديد يختلف في كل شيء عن هذا العالم، في سعته، في نعيمه وعقابه وسيظهر الإنسان بكل وجوده لله تعالى: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

معنى بروز الناس لله تعالى، إنكشاف بواطن وظواهر جميع الناس في يوم المحشر، فالظهور بالقياس إلى علمنا وليس إلى علم الله المطلق.

ووصفه بالقهار دليل على تسلطه على كل الأشياء وسيطرته على ظاهرها وباطنها.

وتصور الآية التالية كيفية بروزهم إلى الله فتقول: «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ».

«الأصفاذ»: جمع «صفاذ» بمعنى الغل؛ و «مقرنين»: من مادة «القرن والإقتران» بمعنى الأشخاص المتقاربين مع بعضهم البعض.

إنّ هذا الغل هو عبارة عن تجسيد للروابط العملية والفكرية بين المجرمين في هذه الدنيا، حيث كان يساعد بعضهم البعض على الظلم والفساد، وتتجسد هذه العلاقة في الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فيما بينهم.

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى لباسهم والذي هو أحد أفراد المجازاة الشديدة: «سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغَشَّى وُجُوهَهُمُ النَّارُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٢

«سراويل»: جمع «سربال» على وزن «مقال» بمعنى القميص من أى قماش كان. و «قطران»: بفتح القاف وسكون الطاء أو بكسر القاف وسكون الطاء، وهى مادة تؤخذ من شجرة الأهل ثم تعلق فتتخزن وتطلى بها الإبل عند إصابتها بمرض الجرب، فهى مادة سوداء نتنة وقابلة للاشتغال.

وعلى هذا أنهم يلبسون ثياباً من مادة سوداء ونتنة وقابلة للاشتغال، حيث تمثل أسوأ الألبسة لما كانوا يعملونه في هذه الدنيا من ارتكاب الذنوب والفواحش. وسوادها يشير إلى أن الذنوب تؤدى إلى أن يكون الإنسان مسودّ الوجه أمام ربه، وتعفنها يشير إلى تلوث المجتمع بهم ومساعدتهم على إشعال نار الفساد، وكأنّ القطران تجسيد لأعمالهم في الدنيا.

كل ذلك لأجل «لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ». ومن الطريف أنه لم يقل أنّ الجزاء بما كسبت أنفسهم، بل يقول: «ما كسبت» ليكون تجسيدا حيا لأعمالهم، وهذه الآية بهذا التعبير الخاص دليل آخر على تجسّم الأعمال.

وفى الختام يقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». وهذا واضح تماماً لأنّ كل إنسان حسابه معه.

وورد فى الخبر: «إنّ الله تعالى يحاسب الخلائق كلهم فى مقدار لمح البصر». ولا-ريب أنّ الله تعالى لا يحتاج إلى وقت لمحاسبة الأفراد، وما جاء فى الرواية أعلاه إشارة إلى أقصر الفترات.

وبما أنّ آيات هذه السورة- وكذلك جميع الآيات- لها جانب الدعوة إلى التوحيد وإبلاغ الأحكام الإلهية إلى الناس وإنذارهم، يقول تعالى فى آخر آية من هذه السورة: «هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ».

بداية وختام سورة إبراهيم: وكما رأينا فإنّ سورة إبراهيم ابتدأت فى بيان دور القرآن الكريم فى إخراج الناس من الظلمات إلى نور العلم والتوحيد، وانتهت فى بيان دور القرآن فى إنذار الناس وتعليمهم التوحيد.

إنّ هذه البداية والنهاية تبين هذه الحقيقة، وهو أنّ كل ما نحتاجه موجود فى هذا القرآن، حيث يقول الإمام على عليه السلام: «هو ربيع القلوب وينابيع العلم»... «فاستشفوه من أدوائكم»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٣

وهذا البيان دليل على خلاف ما يراه بعض المسلمين من أنّ القرآن الكريم كتاب مقدس يقتصر وجوده فى ترتب الثواب لقارئه. بل هو كتاب شامل لجميع مراحل الحياة الإنسانية.

كتاب رشد وهداية ودستور للعمل، فهو يذكّر العالم ويستلهم منه عموم الناس.

إنّ هجران القرآن الكريم وإتخاذ المبادئ المنحرفة الشرقية منها والغربية، أحد العوامل المهمة فى تأخر المسلمين.

«نهاية تفسير سورة إبراهيم»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٥

## ١٥. سورة الحجر

محتوى السورة: المشهور عند جلّ المفسرين أنّ سورة الحجر مكيّة، وهى السورة الثانية والخمسون من السور التى نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى مكة المكرمة. ويمكننا تلخيص ما حوته السورة فى سبع نقاط:

١- الآيات المتعلقة بمبدأ عالم الوجود، والإيمان به من خلال التدبّر فى أسرار الإيجاد.

٢- الآيات المتعلقة بالمعاد وعقاب الفجرة الفسقة.

٣- أهمية القرآن باعتباره كتاباً سماوياً.

٤- محاولة إيقاظ وتنبية البشر من خلال طرح قصّة خلق آدم، وتمرّد إبليس، وتبيان عاقبة التمرد.

٥- زيادة فى محاولة الإيقاظ والتنبية من خلال عرض القصص القرآنى لما جرى لأقوام لوط وصالح وشعيب عليهم السلام.

٦- إنذار وبشارة، مواظ لطيفة وتهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغبات المشوّقة.

٧- مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله لتقوية صبره وثباته قبل ما يحاك من دسائس.

وقد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التى ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، وهى السورة الوحيدة فى القرآن التى ذكرتهم بهذه التسمية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٦

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رَبِّمَا يَؤُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) سورة اخرى تفتتح بالحروف المقطعة «الر» لتبين من جديد أنّ مفردات كتاب نور السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هى إلّا عين تلك الأبجدية التى تلوك ألفاظها ألسن كل البشر، صغيرهم وكبيرهم، بين مختلف اللغات، ومع ذلك فلا يستطيع أى مخلوق الوصول لبناء وتركيب كلام القرآن، وهو ذروة التحدى الربانى المعجز، وعليه فقد جاءت «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ» مباشرة، لأنّه يظهر الحقائق ويبيّن الحق من الباطل. ثم يحذّر الذين يصزّون على الفساد ومخالفة آيات الله الجليلة، ويخبر بأنهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر وتعصب أعمى وعناد. ويقول:

«رَبُّمَا يَؤُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ».

فالمراد بكلمة «يؤد» التمنى وذكر كلمة «لو» للدلالة على تمنّيهم الإسلام فى وقت لا يمكنهم فيه العودة إلى ما كانوا ينكرون، وهذه إشارة إلى أنّ تمنّيهم سيكون فى العالم الآخر وبعد معاينة نتائج الاعمال.

يمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين فى كلال العالمين (الدنيا والآخرة)، واعتبار عدم استطاعتهم العودة إلى الإسلام فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة لجهات مختلفة.

ثم يأتى نداء السماء بلهجة لاذعة، يا محمّد: «ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ». فهم كالأنعام التى لا تعرف سوى الحقل والعلف، ولا تفهم سوى اللذات المادية، وكل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف وتفهم. إنهم لا يدركون فقه الحقائق، لأنّ حجب الغرور والغفلة والأمانى الزائفة ختمت على قلوبهم. ولكن، عندما يصفع الأجل وجوههم وترتفع تلك الحجب عن أعينهم، وحينما يجدون



مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٧

أنفسهم أمام الموت أو في عرصه يوم القيامة، هنالك سيدركون عظمة حجم غفلتهم ومدى خسارتهم، وكيف أنهم قد ضيعوا أعلى ما كانوا يملكون.

الآية التالية توضح محدودية اللذائذ الدنيوية لكي لا يظن أحد إنها خالدة فتقول: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيئَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ». ثم يقول تعالى: «مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ».

فقد سرت سنه الباري جل شأنه بأن يعطى المدّة الكافية لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارة، وبفیوضات الرخاء تارة اخرى، فمن لا تنفعه البشارة يأتيه الإنذار وهكذا، كل ذلك إتماماً للحجة عليهم.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (٨) طلب نزول الملائكة: بتبدى الآيات بتبيان موقف العداء الأعمى والتعصب الأصم للقرآن الحكيم والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله من قبل الكفار، فتقول: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ».

ومن خلال كلامهم يظهر بجلاء مدى وقاحتهم وسوء الأدب الذى امتازوا به حين مخاطبتهم للنبي صلى الله عليه وآله.

الملفت فى التهم الموجهة إلى أنبياء الله تعالى أنها تحمل بين طياتها تضاداً واضحاً يلمس بأدنى تدبر، ففى الوقت الذى يرمون النبى بالجنون يعودون ويقولون عنه: إنه لساحر، فمع أن الساحر لا بد له من الذكاء والنباهة، فهل يعقل أن يكون الساحر، مجنوناً؟! إنهم لم يكتفوا بنسبة الجنون إلى النبى صلى الله عليه وآله بل تحججوا قائلين: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

فيجيبهم الباري جل شأنه: «مَا نُنزِّلُ الْمَلِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ».

وبعبارة اخرى: فالإعجاز ليس أمراً ترفيهاً يناغى تصوّرات الآخرين بقدر ما هو حجة إلهية لإثبات الحق وإماطة الباطل.

وقد أشبعت هذه الحقيقة بصورة وافية لمن يرى النور نوراً والظلام ظلاماً من خلال ما أوصله نبى الخاتم صلى الله عليه وآله عن طريق القرآن والمعجزات الاخرى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٨

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) حفظ القرآن من التحريف: بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار واستهزاءهم بالنبي صلى الله عليه وآله والقرآن، تأتي هذه الآية المباركة لتواسى قلب النبى صلى الله عليه وآله من جهة ولتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهة اخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغه لحياء الرسالة، ألا وهى حفظ القرآن من التلاعب والتحريف:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ». فبناء هذا القرآن مستحکم وشمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، ومصباح هديه أبدى الإنارة، ولو اتحد أعتى جبابرة التاريخ وطغاته وحكامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء، ومزودين بأقوى الجيوش عدّة وعتاداً، على أن يخدموا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأن الحكيم الجبار سبحانه تعهد بحفظه وصيانته.

وقد اختلف المفسرون فى دلالة (حفظ القرآن) فى هذه الآية المباركة، والصحيح، وفقاً لظاهر الآية المذكورة، أن الله تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحي: من التحريف، من التلف والضياع، ومن سفسطات الأعداء المزاجية ووساوسهم الشيطانية.

المشهور بين أوساط جُلّ علماء المسلمين، أن القرآن لم يتعرض لأى نوع من التحريف، وأن الذى بين أيدينا هو عين القرآن الذى نزل على صدر الحبيب محمد النبى صلى الله عليه وآله. فلا زيادة أو نقصان، حتى بكلمة واحدة، أو بحرف واحد.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسِلُّكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) العناد والتعصب: تواسى الآيات قلب النبى صلى الله عليه وآله وقلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب فى طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة والمتعصبة. فتقول أولاً: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ

قَتِيلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ».

ولكنهم من العناد والتعصب لدرجة: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

ذلك الاستهزاء وتلك السخرية لاعتبارات عدة:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٩

- مرة، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النبي كي لا يؤثر في أوساط الفئة الواعية.

- واخرى، يحاولون بالإستهزاء تغطية ضعفهم وعجزهم أمام المنطق القوي والحجج الدامغة لرسول الله عز وجل.

- واخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح في المتاهات كي لا يصحوا على حين غرة فيعتنق الحق وينهض بأعباء مسؤوليته.

- وأخيراً، فقبولهم لدعوة الأنبياء عليهم السلام - حسب تصورهم - يستلزم تقويضاً لكل شهواتهم الدنيوية، وتحميلهم وظائف جديدة لا يطبقونها، فليجئوا للإستهزاء لتبرير إعراضهم وانكارهم وإراحة ضمائرهم.

ثم يقول جلّ وعلا: «كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ». أي: نوصل الآيات القرآنية إلى أعماق وجدانهم وعقولهم.

ومع وضوح البلاغ والتأكيد وبيان المنطق الرباني وإظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزئين «لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ» وهو ليس بجديد «وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ».

ويصل أمر الغارقين في شهواتهم والمصرّين في عنادهم على الباطل إلى أنهم لا يؤمنون حتى «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ». ومع ذلك «لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ».

عجباً، أن يصل الإنسان لهذا الدرک من العناد والتعصب.

إن الذنوب والجهل ومعاداة الحق تؤثر على الروح الطاهرة والفطرة السليمة، فتحجبها عن رؤيته وجه الحقيقة الناصع، وتمنعها من إدراك الحقائق، وإذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب وإزالة الموانع، فإن صورة الحق ستلتوث في نظره فينكر كل ما هو معقول ومحسوس معاً، ومن الممكن تطهير الفطرة في المراحل الأولى، ولكن إذا رسخت في قلبه هذه الحالة وتجدرت وأمست «ملكة» وصفة أخلاقية، فلا يمكن ازالتها بسهولة، وعندها سوف لا تترك أقوى الأدلة العقلية ولا أوضح الأدلة الحسية أي تأثير في قلبه.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات لتعميق معرفة وتوحيد الله، وبساقها

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٠

جاءت تكملةً لبحثي القرآن والنبوة المذكورين في الآيات السابقة. قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» ويعنى «الظهور» ولهذا يطلق على البيت الذي يبنى في سور المدينة أو على سور الحصن الذي يعتصم به المقاتلون، وذلك لما له من بروز وارتفاع خاص.

ويقال كذلك (تبرجت) للمرأة التي تظهر زينتها.

والبروج السماوية: هي منازل الشمس والقمر. وبعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس والقمر يامعان فسراها في كل فصل من فصول السنة ولفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إن الشمس في برج الحمل «١» - مثلاً - أو الثور أو الميزان أو العقرب أو القوس.

ويعتبر وجود الأبراج السماوية، وكذلك النظام الدقيق في حركة منازل الشمس والقمر ضمن هذه البروج (وهو التقويم المجسم لعالم وجودنا)، من الأدلة الواضحة على علم وقدره الخالق جلّ وعلا.

ثم يضيف: «وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ».

ويضيف في الآية التالية: «وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ».

إنَّ المقصود من السماء هو سماء الحق والحقيقة، وأنَّ الشياطين ذوى الوسواس يحاولون أن يجدوا سبيلاً لاختراق السماء واستراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، ولكن النجوم والشهب (وهم القادة الربانيون من الأنبياء والأئمة والعلماء) يبعدونهم ويتردونهم بالعلم والتقوى.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَالْأَقْيَنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُؤَزُونَ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وإتماماً لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، ومظاهر عظمه البارى على وجه البسيطة، ويبدأ بنفس الأرض «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا».

(١) «الحمل»: مجموع منظومات شمسية تظهر فى السماء على هيئة الحمل تقريباً. وكذلك الثور والميزان وغيرها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥١

«المد»: فى الأصل بمعنى التوسعة والبسط، ومن المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء.

ثم يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمه كآية من آيات التوحيد: «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ».

عبر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، ولعل المراد ب «إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد).

ومن بديع خلق الجبال إضافة إلى كونها أوتاداً لتثبيت الأرض وحفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلى، فإنها تقف كالدرع الحصين فى مواجهة قوة العواصف، بل وتعمل على تنظيم حركة الهواء وتعيين اتجاهه، ومع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج وعيون.

ثم ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياة البشرية والحيوانية، ألا وهو النبات:

«وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُؤَزُونَ».

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، وكل تحمل خواصاً معينة ولها من الآثار ما يميزها عن غيرها، وهى باب لمعرفة البارى المصور جل شأنه، وكل ورقة منها كتاب ينطق بمعرفة الخالق.

وبما أن وسائل وعوامل حياة الإنسان غير منحصرة بالنبات والمعادن فقط، ففى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب بقوله: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحية حتى الخارجة عن مسؤوليتكم «وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ».

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش»: جمع «معيشة» وهى الوسائل والمستلزمات التى تتطلبها حياة الإنسان، التى يحصل عليها بالسعى تارة، وتأتية بنفسها تارة اخرى.

أما آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحوى جواباً لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، وهو: لماذا لم تهياً النعم والأرزاق بما لا يحتاج إلى سعى وكدح؟! فتتطرق الحكمة الإلهية جواباً: «وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ». فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاذ ما نملك، وإنما منبع ومخزن وأصل كل شىء تحت أيدينا، وليس من الصعب علينا خلق أى شىء وبأى وقت يكون، ولكن الحكمة إقتضت أن يكون كل شىء فى هذا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٢

الوجود خاضعاً لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنما تنزل إليكم بقدر. ونقرأ فى الآية (٢٧) من سورة الشورى: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ».

إنَّ السعى والكدح في صراع الحياة يضمن على حركة الإنسان، الحيوية والنشاط، وهو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة ومشروعة لتشغيل العقول وتحريك الأبدان، فإنه يطرد الكسل ويمنع العجز ويحيى القلب للتحرك والتفاعل مع الآخرين. وإذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الرباني، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟ والفقر والغنى من البلاء الذي يدخل ضمن مخطط التمحيص والإمتحان، فكما أن الفقر والعوز قد يجزآن الإنسان نحو هاوية السقوط في مهالك الانحراف، فكذلك الغنى في كثير من حالاته يكون منشأً للفساد والطغيان.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُتَأَخِّرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) دور الرياح والأمطار: بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة قسماً من أسرار الخليفة والنعم الإلهية كخلق الأرض والجبال والنباتات وما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير في أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح وما لها من آثار في عملية نزول المطر، فيقول: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ».

«لواقح»: جمع «لاقح».. وهي تشير هنا إلى دور الرياح في تجميع قطع السحاب مع بعضها لتهيئته عملية سقوط الأمطار. ويمكن حمل «مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ» على أنها إشارة لخزن ماء المطر في السحب قبل نزوله، أي: إنكم لا تستطيعون استملاك السحب التي هي المصدر الأصلي للأمطار.

ويمكن حملها على أنها إشارة إلى جمع وخزن الأمطار بعد نزولها، أي إنكم لا تقدرون

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٣

على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعد نزوله، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي يحفظها ويخزنها على قمم الجبال بهيئة ثلوج، أو ينزلها في أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيوناً وآباراً.

ثم ينتقل من مظاهر توحيد الله إلى المعاد ومقدماته: «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ». فيذكر مسألة الحياة والموت التي تعتبر من أهم المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكملات موضوع التوحيد، بالإضافة إلى أن وجود الحياة والموت بحد ذاته دليل على أن موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عما هو بأيديها، وأنَّ الوارث الحقيقي لكل شيء هو الله تعالى.

ثم يضيف: «وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُتَأَخِّرِينَ». أي: نحن على علم بهم وبما يعملون، وإنَّ أمر محاسبتهم جزائهم في المعاد علينا سهل يسير.

ولهذا نرى الآية التي تليها: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». مرتبطة تماماً مع ما قبلها ومنتمة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت... فحكمة الباري أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكل شيء.

فلو أن الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة وينتهي كل شيء بالموت لكانت عملية الخلق عبثاً، وهذا غير معقول، لأنه تعالى منزه عن العبث.

فالحكمة الإلهية اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة إستعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق». وأما كونه سبحانه عليمًا فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة في قلب هذا العالم الطبيعي من جهته، وكذلك في اعماق وجود الانسان من جهة اخرى، ولا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

وكونه سبحانه الحكيم العليم في هذا المورد دليل قوى وعميق الغور على مسألة الحشر والمعاد.

إنَّ كلمة «المستقدمين» و «المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين والمتأخرين من حيث الزمان، وكذلك من حيث أعمال الخير والجهاد وحتى الحضور في الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة وما شابهها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٤

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَنْ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) خلق الإنسان: بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات الله في الآيات السابقة، تأتي هذه الآيات لتبين أن الهدف الأساسي من إيجاد كل الخليقة إنما هو خلق الإنسان، وتتطرق الآيات إلى جزئيات عديدة في شأن الخلق، زاخرة بالمعاني. يقول تعالى في البداية: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ». «الصلصال»: هو التراب اليابس الذي لو اصطدم به شيء أحدث صوتاً... و «الحما المسنون»: هو طين متعفن.

«وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ». «السَّمُومُ» لغة: الهواء الخارق، وسمى بالسموم لأنه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان. ثم يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرة أخرى فيعرض إلى كلام الله تعالى مع الملائكة قبل خلق الإنسان: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي». وهي روح شريفه طاهرة جليته: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٥

وبعد أن تم خلق الإنسان من الجسم والروح المناسبين «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ». ولم يعص هذا الأمر إلا إبليس: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ». وهنا سأل الله إبليس: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ». فأجاب إبليس بعد أن كان غارقاً في بحر الغرور المظلم، وتائهاً في حب النفس المقتم، وبعد أن غطى حجاب الخسران عقله... أجاب بوقاحة: «قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ». ونتيجة للغرور وحب النفس، فقد جهل أسرار الخليقة، وكنيته طبيعية لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون في درجة الملائكة وبين صفوفهم، فجاء الأمر الإلهي مقرعاً: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ». أي: اخرج من الجنة، أو من السماوات أو اخرج من بين صفوف الملائكة. واعلم يا إبليس بأن غرورك أصبح سبباً لكفرتك، وكفرك قد أوجب طردك الأبدى «وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ». أي: إلى يوم القيامة.

وهنا... حينما وجد إبليس نفسه مطروداً من الساحة الإلهية، ساوره إحساس بأن خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد والضغينة في قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم عليه السلام.

فبالرغم من أن السبب الحقيقي يرجع إلى إبليس نفسه وليس لآدم دخل في ذلك، إلا أن غروره وحب نفسه وعناقه المستحکم لم يعطيه الفرصة لدرك حقيقة شقائه، ولهذا «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، ليركز عناده وعداءه! وقبل الله تعالى طلبه: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ».

ولكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد، بل «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ». وهو: نهاية هذا العالم وانتهاء التكليف، لأن بعد ذلك (كما يفهم من ظاهر الآيات القرآنية) تحل نهاية حياة جميع الكائنات، ولا يبقى حي إلا الذات الإلهية المقدسة، ومن هذا نفهم حصول الموافقة

على بعض طلب إبليس.

وهنا أظهر إبليس نيته الباطنية: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي». وكان هذا الإنسان سبباً لشقائي «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ» نعمها المادية «وَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» بإلهائهم بتلك النعم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٦

إلا أنه يعلم جيداً بأن وساوسه سوف لن تؤثر في قلوب عباد الله المخلصين، وأنهم متحصنون من الوقوع في شباكه، لأن قوة الإيمان ودرجة الإخلاص عندهم بمكان يكفي لدرء الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم... ولهذا نراه قد استثنى في طلبه «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ». «المخلصين»: جمع مخلص (بفتح اللام) المؤمن الذي وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان والعمل بعد تعلم وتربية ومجاهدة مع النفس، فيكون ممتنعاً من نفوذ وساوس الشيطان وأى وساوس آخر.

ثم قال تعالى تحقيراً للشيطان وتقوية لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: «قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ». يعنى: يا إبليس ليس لك القدرة على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلا المنحرفين عن الصراط المستقيم والمستجيبين لدواعي رغباتهم وميولهم.

ثم يهدد الله بشدة أتباع الشيطان: «وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ» وأن ليس هناك وسيلة للفرار، والكل سيحاسب في مكان واحد. «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ». هي أبواب للذنوب التي يدخلون جهنم بسببها، وكل يحاسب بذنبه... كما هو الحال في أبواب الجنة التي هي عبارة عن طاعات وأعمال صالحة ومجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) اذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) تَبَّىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) نعم الجنة الثمان: رأينا في الآيات السابقة كيف وصف الله تعالى عاقبة أمر الشيطان وأنصاره وأتباعه، وأن جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم. وجرياً على أسلوب القرآن في التربية والتعليم جاءت هذه الآيات المباركات (ومن باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنة وأهلها وما ترفل به من نعم مادية ومعنوية، جسدية وروحية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٧

وقد عرضت الآيات ثمانية نعم كبيرة (مادية ومعنوية) بما يساوى عدد أبواب الجنة.

١- أشارت في البدء إلى نعمه جسمانية مهمة: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ». ويلاحظ أن هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساساً لها، وهي الخوف من الله والورع والالتزام، فهي إذن... جامعة لكافة صفات الكمال الإنساني.

إن ذكر الجنات والعيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوع رياض الجنة وكثرة عيونها، والتي لكل منها لذة مميزة وطعم خاص.

٢ و ٣- ثم تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمتين أخريتين (السلامة) و (الأمن) ..

السلامة من أى أذى وألم، والأمن من كل خطر، فتقول- على لسان الملائكة مرحبة بهم:-

«اذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ».

وفي الآية التالية بيان لثلاث نعم معنوية أخرى:

٤- «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ». أى: الحسد والحقد والعداوة والخيانة.

٥- «إِخْوَانًا» تربطهم أقوى صلوات المحبة.

٦- «عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ».

إن جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التي يُعاني منها عالمنا الدنيوي، فلا طبقية ولا ترجيح بدون مرجح والكل إخوان، يجلسون متقابلين في صف واحد ومستوى واحد.

٧- ثم تأتي الإشارة إلى النعمة المادية والمعنوية السابعة: «لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ» إنه ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب ونصب قبله وبعده، ولا يدع الإنسان يجد طعم الراحة والاستقرار.

٨- ولا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نعم «وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ».

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التي ينالها المتقون في الجنة بذلك الروتق المؤثر الذي يوقع المذنبين والعاصين في بحار لجية من الغم والحسرة ويجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح الله الرحمن الرحيم أبواب الجنة لهم ولكن بشرط، فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبة والعطف والرحمة وعلى لسان نبيه الكريم صلى الله عليه وآله: «تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ».

وكما هو معهود من الأسلوب القرآني، تأتي العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب والعذاب الإلهي لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهية، ولتوجد التعادل بين مسألتى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٨

الخوف والرجاء، الذي يعتبر رمز التكامل والتربية فيقول وبدون فاصلة: «وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ».

وَتَبَيَّنَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بِشَرِّ نَارِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسِلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) الضيوف الغرباء: تتحدث هذه الآيات المباركات وما بعدها عن الجنة التربوية في تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، وتطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد الله المخلصين من طرف وأتباع الشيطان من طرف آخر).

ومن لطيف البيان القرآني شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم. فتقول أولاً:

«وَتَبَيَّنَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ».

وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم عليه السلام بوجوه خالية من الإبتسام، فابتدأه بالسلام «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا».

فقام إبراهيم عليه السلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهياً لهم طعاماً ووضعهم أمامهم، إلّا أنهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبر عمياً جال في خاطره «قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ». وكان مصدر خوف إبراهيم عليه السلام مما كان عليه متعارفاً في مسأله ردّ الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود تيه سوء أو علامة عدا.

ولكن الملائكة لم يتركووا إبراهيم في هذا الحال حتى: «قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ». والغلام العليم: هو (إسحاق)، حيث نقرأ في سورة هود الآية (٧١) أن امرأة إبراهيم كانت واقفة بقربه عندما بشرته الملائكة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٩

كان إبراهيم يعلم جيداً أنه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (ومع أن كل شيء مقدور لله عزّ وجل)، ولهذا أجابهم بصيغة التعجب: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ». هل البشارة منكم أم من الله عزّ وجل وبأمره، أجيوني كى أزداد اطمئناناً؟

وعلى أية حال ... لم يدع الملائكة مجالاً لشك وتعجب إبراهيم حيث «قَالُوا بِشَرِّ نَارِكَ بِالْحَقِّ». فهي بشاره من الله وبأمره، فهي حق مسلم به.

وتأكيداً للأمر ودفعاً لأي احتمال من غلبة اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: «فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ».

لكن إبراهيم عليه السلام طمأنهم بعدم دخول اليأس إلى قلبه، لأنه مطمئن من أن أمر القدرة الإلهية نافذ في جميع أرجاء الكون حتى مع خرق النواميس الطبيعية وبدون الخلل في الموازنة، «قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ».

إن الضالين هم الذين لا يعرفون الله وقدرته المطلقة، الله الذي خلق الانسان ببناءه العجيب المحير من ذرة تراب ومن نطفة حقيرة ليخرجه ولداً سوياً، الله الذي حوّل نخلة يابسة إلى حامله للثمر بإذنه، الله الذي جعل النار برداً وسلاماً .. هل من شك بأنه سبحانه قادر على كل شيء، بل وهل يصح ممن آمن به وعرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته؟!

وراود إبراهيم عليه السلام- بعد سماعه البشارة- أن الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، وما البشارة إلا المهمة عرضية ضمن مهمتهم الرئيسية، ولهذا «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ».

ومع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السلام المرهف وأنه دقيق في كل شيء ولا يقنع بالعموميات، فبينوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله «إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ».

إن ظاهر تعبير «آل لوط» وما ورد من تأكيد بكلمة «أجمعين» يشمل امرأة لوط الصّالة التي وقفت في صف المشركين، ولعل إبراهيم كان مطلعاً على ذلك، ولذا أضافوا قائلين: «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٠

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جَنِينَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْدِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّضِيحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هُوْلَاءِ ضَافِرُونَ فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرَجُونَ (٦٩) قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هُوْلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَ إِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) عاقبه مذنبى قوم لوط: طالعنا الآيات السابقة بقصه اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء وبين إبراهيم عليه السلام وهذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصة فتبتدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السلام. فنقرأ أولاً: «فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ».

فالتفت إليهم لوط «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ».

يقول المفسرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة ريعان الشباب، وهو يعلم ما كان متفشياً بين قومه من الانحراف الجنسي .. فمن جهة، هم ضيوفه ومقدمهم مبارك ولا بد من إكرامهم واحترامهم، ولكن المحيط الذى يعيشه لوط عليه السلام مريض وملوث.

ولكن الملائكة لم يتركوه وهذه الهواجس طويلاً حتى سارعوا إلى القول: «قَالُوا بَلْ جَنِينَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ». أى: إننا جننا بالعذاب الذى واعدتهم به كثيراً، وذلك لأنهم لم يعتنوا ولم يصدقوا بما ذكرته لهم.

ثم أكدوا له قائلين: «وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ». أى: العذاب الحتمى والجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثم أضافوا لزيادة التأكيد: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العودة ولم يبق فى شأنهم محلاً للشفاعة والمناقشة، كى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦١

لا يفكر لوط فى التشفع لهم وليعلم أنهم لا يستحقونها أبداً.

ثم قالت الملائكة للوط: أخرج وأهلك من المدينة ليلاً حين ينام القوم أو ينشغلوا بشراهم وشهواتهم، لأجل نجاه الثلثة المؤمنة من قومه (وهم أهله ما عدا زوجته).



«فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مَنْ الْيَلِيلِ» وكن خلفهم كي لا يتخلف أحد منهم ولتكون محافظاً ورقيباً لهم «وَأَتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ» وعلى أن يكون نظركم إلى الأمام «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ». أي: إلى أرض الشام، أو أي مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثم ينتقل مجرى الحديث حين يقول تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ». أي: سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

ومن الملفت للنظر، أن القرآن قد ترك القصه عند هذا الحد وعاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه - لسبب سنشير إليه فيما بعد - فيقول: «وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ». أي: إنهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط.

وحينما سمع لوط أصواتهم وضجيجهم أغمتم غمياً شديداً لأجل ضيوفه، لأنه ما كان يدرى أنهم ملائكة العذاب إلى ذلك الوقت ولهذا: «قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ».

أي: إن كنتم لا تؤمنون بالله ولا تصدقون بالنبي ولا تعتقدون بثواب وعقاب، فراعوا حق الضيافة التي هي من السنن المتعارف عليها عند كل المجتمعات سواء كانت مؤمنة أم كافرة، أي بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانية، فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم!

ثم أضاف قائلاً: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ» أمام ضيفي.

ولكنهم من الوقاحة والإصرار على الانحراف بحيث صاروا لا يشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطاً ويحاسبونه، وكأنه ارتكب جرماً في استضافته لهؤلاء القوم «قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ»، باستضافتهم! فلماذا خالفت أمرنا؟! وكان قوم لوط من البخل بحيث إنهم لا يحبون الضيافة، وكانت مدينتهم على طريق القوافل، ويبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لدفع الضيوف ولأجل أن لا ينزل عندهم أحد من القوافل المارة، وتعارفوا على ذلك حتى أصبح عندهم عادة. وكما يبدو أن لوطاً كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينة يسرع لاستضافته خوفاً

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٢

عليه من عمل قومه الخبيث، ولما علم أهل المدينة بذلك جاؤوا إليه غاضبين ونهوه عن أن يستضيف أحداً مستقبلاً. وعليه، فكلمة «العالمين» في الآية أعلاه - كما يبدو - إشارة إلى عابري السبيل، ومن هم ليسوا من أهل تلك المدينة.

وعندما رأهم لوط على تلك الحال من الوقاحة والجساره، أتاهم من طريق آخر لعلهم يستفيقون من غفلتهم وسكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلماذا تسلكون سبيل الانحراف ولا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج): «قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ».

مما لا شك فيه أن بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره، ولكن لوطاً الذي كان يهدف إلى إلقاء الحجة عليهم أراد أن يقول لهم: إنني مستعد إلى هذه الدرجة للتضحية من أجل الضيف، وكذلك لأجل إنقاذكم من الفساد ونجاتهم من الإنحراف.

لكن الويل، كل الويل من سكرات الشهوة، الانحراف والغرور والعناد.. التي مسحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانية وأفرغتهم من العواطف البشرية، والتي بها يحسنون بالخجل والحياء أمام منطق لوط عليه السلام أو أن يتركوا بيت لوط وينسحبوا عن موقفهم، ولكن أنني لهم ذلك، والأكثرية بسبب عدم تأثرهم بحديث لوط استمروا في غيهم وأرادوا أن يمدوا أيديهم إلى الضيوف.

وهنا يخاطب الله تعالى نبيه قائلاً: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ».

وبعد ذلك يبلغ كلام الله تعالى عن هؤلاء القوم الذروة حينما يبين عاقبتهم السيئة في آيتين قصيرتين وبشكل قاطع ملء بالدروس

والعبر بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ».

أى صوت شديد عند شروق الشمس.

ويمكن حمل «الصيحة» على أنها صاعقة عظيمة أو صوت زلزلة رهيب.

ولم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضاً «فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا».

وزيد في التنكيل بهم «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ».

ثم إن نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيبه، قلب المدينة، المطر الحجري) - رغم أن كل واحدة منهم كانت تكفى

لقطع دابر القوم - كان لمضاعفة عذابهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٣

لشدة فسادهم وجسارتهم وإصرارهم على إدامة التلوث بتلك القبائح الشنيعة، وكى يكون عبرة لمن يعتبر.

وهنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية والتربوية فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّعِينَ». العقلاء الذين يفهمون الأحداث

بفراستهم وذكائهم ونظرهم الثاقب ويحملون من كل إشارة حقيقة ومن كل تنبيه درساً.

ولا تتصوروا أن آثارهم ذهبت تماماً، بل هي باقية على طريق القوافل والمآزة «وَأِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَّقِيمٌ».

ثم تدعو الآية المؤمنين إلى التفكير ملياً في هذه القصة واستخلاص العبر منها: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ».

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ

آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِعِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ (٨٤) خاتمة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر: يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى قصتين من قصص الامم السالفة،

وهما (أصحاب الأيكة) و (أصحاب الحجر) ليكمل البحث الذي عرضه في الآيات السابقة حول قوم لوط. يقول أولاً: «وَإِنْ كَانَ

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ». «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» وعاقبتهم على ظلمهم واستبدادهم ..

وجعلنا أرضهم وأرض قوم لوط - المتقدمة قصيتهم - على طريقكم «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ». فانظروا إليها وإلى عاقبة أمرهم، واعتبروا يا

اولى الألباب.

«الأيكة»: هي الأشجار المتشابهة مع بعضها، و «أصحاب الأيكة»: هم قوم «شعيب» الذين عاشوا في بلدة مليئة بالماء والأشجار بين

الحجاز والشام وكانت حياتهم مرفهة ثرية فاصيبوا بالغرور والغفلة، فأدى ذلك إلى الإحتكار والفساد في الأرض.

وقد دعاهم شعيب عليه السلام إلى التوحيد ونهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على

الحال التي هم عليها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٤

ومن خلال ما بينته الآيات في سورة هود، فإنهم لم ينصاعوا للحق ولم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب الله المهلك. وورد ذكرهم

مفصلاً في الآيات (١٧٦) حتى (١٩٠) من سورة الشعراء.

أما «أصحاب الحجر» فهم قوم عصابة عاشوا مرفهين في بلدة تدعى «الحجر» وقد بعث الله إليهم نبيه صالح عليه السلام لهدايتهم.

ويقول القرآن عنهم: «وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُؤْمِنِينَ».

هذه البلدة كانت على طريق القوافل بين المدينة والشام في منزل يسمى (وادي القرى في جنوب تيماء) ولا أثر لها اليوم تقريباً.

ومن الجدير ذكره أن القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء في خبر أصحاب الحجر (وكذلك قوم نوح وقوم شعيب وقوم لوط

في الآيات ١٠٥ و ١٢٣ و ١٦٠ من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام اخر كذبت الأنبياء عليهم السلام والواضح من خلال ظاهر

القصص أن لكل قوم كان نبي واحد لا أكثر.

ولعل مجيء هذا التعبير (المرسلين) في هذه الآية، باعتبار أن الأنبياء لهم برنامج واحد وهدف واحد، وبينهم درجة من الصلوة بحيث إن تكذيب أى منهم هو تكذيب للجميع.

ويستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: «وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ». وموقف الإعراض المشار إليه - كما يبدو - هو عدم إستعدادهم لسماع الآيات والتفكر بها.

وتشير الآية إلى أنهم كانوا من الجدّ والدقة في امور معاشهم وحياتهم الدنيوية حتى أنهم «وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ». وهو ما بيّن لنا أن منطقتهم كانت جبلية، بالإضافة إلى ما توصّلوا إليه من مدينة متقدمه، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول والعواصف والزلازل.

والعجيب من أمر الإنسان، أنه يحزم أمره لتجهيز وتحصين مستلزمات حياته الفانية، ولا يعير أى اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المآل لأن لا يكلف نفسه بسماع آيات الله والتفكر بها.

وأى عاقبه ينتظرون بعد عنادهم وكفرهم غير أن يطبق عليهم القانون الإلهي

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٥

الموعودين به (البقاء للإصلاح) وعدم إعطاء حق إدامه الحياة لأقوام فاسدين ومفسدين ..

فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، ولهذا يقول القرآن: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ».

وكانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمر نزل على دورهم.

فالعذاب الإلهي لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، ولا البيوت المحصنة، ولا الأبدان القوية أو الأموال الوفرة، ولهذا يأتي في نهاية قصتهم «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا حَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة - كقوم لوط وقوم شعيب وصالح - إلى مسألة التوحيد والمعاد، لأن سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدة صحيحة، ولعدم إرتباطه بمسألة المبدأ والمعاد، فيشير إليهما معاً في آية واحدة: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ». فنظامها محسوب ومحكم وهو حق، وكذا هدف خلقها حق.

فيكون هذا النظام البديع والخلق الدقيق المنظم دليلاً واضحاً على الخالق العالم القادر جلّ وعلا، وهو حق أيضاً، بل هو حقيقة الحق، وكل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، وكل شيء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل ... هذا ما يخصّ التوحيد أما المعاد فيقول:

«وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ». وإن تأخرت فإنها آتية بالنتيجة.

إن هذا العالم إنما يكون حقاً عندما يكون لهذه الأيام الدنيوية المليئة بالآلام والمتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير - فليس الغرض من هذه الدنيا أن يعيش فيها الانسان هذه الحياة وتنتهي - ولهذا فمسألة خلق السماوات والأرض وما بينهما إنما هو من موقع الحق ويدل على وجود يوم القيامة والحساب، وإلا لكان الخلق عبثاً وليس حقاً، فتأمل.

وبعد ذلك يأمر الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله أن يقابل عناد قومه وجهلهم وتعصّبهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٦

وعداؤهم بالمحبة والعتفو وغضّ النظر عن الذنوب، والصفح عنهم بالصفح الجميل، أى غير مصحوب بملامه «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ». لأنك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوة إليه، فلا تحتاج وإياهم إلى الخشونة. بالإضافة إلى أن الخشونة مع الجهلة غالباً ما تؤدى بهم إلى الردّ بالمثل، بل وبأشد من ذلك.

«الصفح»: هو وجه كل شيء، كوجه الصورة، ولهذا فقد جاءت كلمة «فاصفح» بمعنى أدر وجهك وغطّ النظر عنهم. وبما أن إدارة الوجه وصرفه عن الشيء قد تعطى معنى عدم الإهتمام والنفرة وما شابه ذلك وكذلك معنى العفو والصفح، فقد ذكرت الآية المتقدمة كلمة «الجميل» بعد «الصفح» لكي تحدد المعنى الثاني.

الآية التالية بمنزلة الدليل على وجوب العفو والصفح الجميل، حيث تقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ». ثم يواسى الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله أن لا تقلق من وحشية الأعداء وكثرتهم وما يملكون من إمكانات مادية واسعة، لأن الله أعطاك ما لا يقف أمامه شيء: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ».

اعتبر أكثر المفسرين أن «سبعاً من المثاني» كناية عن سورة الحمد، والروايات كذلك تشير لهذا المعنى. والداعي لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها وعظمتها محتواها فقد نزلت مرتين على النبي محمد صلى الله عليه وآله.

إن الله تعالى قد صرح لنبيه الكريم صلى الله عليه وآله بأنك قد ملكت سنداً عظيماً (القرآن)، ولا تستطيع أى قوة فى عالم الوجود أن تصرعه.

وبالذات سورة الفاتحة منه التى لها من المحتوى والأثر بحيث لو إرتبط العبد بربه ولو للحظة واحدة لحلقت روحه لساحة قدس الرب، وهى تعيش حال التعظيم والتسليم والمناجاة والدعاء.

وبعد هذه الهبة العظيمة يأمر الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله بأربعة أوامر فيقول له أولاً: «لَا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ». فمتاع الحياة الدنيا ليست دائمة ولا خالية من التبعات، والحفاظ عليها أمر صعب فى أحسن الحالات.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٧

ثم يقول فى الأمر الثانى: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» لما عندهم من أموال ونعم مادية.

فى تفسير القمى عن الإمام الصادق عليه السلام: «لما نزلت هذه الآية لا تمدن عينيك؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن رمى بنظره إلى ما فى يد غيره كثر همّه ولم يشف غيظه ومن لم يعلم أن الله عليه نعمة إلفى مطعم أو ملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه ومن أصبح على الدنيا حزيناً أصبح على الله سخطاً ومن شكاً مصيبه نزلت به فإنما يشكو ربه ومن دخل النار من هذه الأمة ممن قرأ القرآن فهو ممن يتخذ آيات الله هزواً ومن أتى ذا ميسرة فيخشع له طلب ما فى يديه ذهب ثلثا دينه».

فالأمر الأول يتعلّق بعدم الإهتمام والتوجه نحو النعم المادية، والأمر الثانى يتعلّق بعدم التأثر لفقدانها.

والأمر الثالث: جاء بخصوص ضرورة اللين والتواضع مع المؤمنين حيث يقول:

«وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ».

إن هذا التعبير، كناية جميلة عن التواضع والمحبة والملاطفة، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفرأخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها، فتجسّم بذلك أعلى صور العاطفة والحنان وتحفظهم من الحوادث والأعداء، وتحميهم من التشتت.

ونصل إلى الأمر الرابع: «وَقُلْ» لهؤلاء الكفرة المنعمين بكل حزم «إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ». قل: أنذركم من أمر الله بنزول عذابه عليكم «كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ». أى: الذين قسّموا الآيات القرآنية أصنافاً، فما كان ينفعهم أخذوه، وما لا ينسجم ومشتهاهم تركوه.

والمؤمن الخالص لا يجرو على تجزئة أو تقسيم أو تبعض الأحكام الإلهية.

فَو رَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّكَ إِنَّمَا أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِذْ يَضْرِبُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) إصدع بما تؤمر: يبين القرآن فى أواخر سورة الحجر مصير المقتسمين الذين

ذُكروا في

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٨

الآيات السابقة فيقول: «فَو رَبِّكَ لَنَسَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنَّ عالم السر والعلن ومن لا يخفى عليه ذرة ما في السماوات والأرضين لا يسأل لكشف أمر خفى عليه (سبحانه وتعالى عن ذلك) وإنما السؤال لتفهم المسؤول قبح فعله، فالسؤال قسم من العقاب الروحي.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله بقوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ». أى: لا تخف من ضوضاء المشركين والمجرمين، ولا تضعف أو تترد أو تسكت، بل أدهمهم إلى رسالتك جهاراً.

«وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» ولا تعتن بهم.

«فاصدع»: من مادة «صدع» وهي لغة بمعنى «الشق» بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عما في داخلها، ويقال أيضاً لألم الرأس الشديد (صداع) وكأنه من شدته يريد أن يشق الرأس. وهي هنا ... بمعنى: الإظهار والإعلان والإفشاء.

فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم وحرابهم، لأن المسلمين في ذلك الوقت لم تصل قدرتهم - بعد - لمستوى المواجهة مع الأعداء وحرابهم.

ثم يطمئن الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله تقوية لقلبه: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ».

ثم يصف المستهزئين: «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

كأن القرآن يريد أن يقول: إن أفكار وأعمال هؤلاء بنفسها عبث، سخف، حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر وخشب، ودفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع الله - ما صنعوه بأيديهم - آلهة! ومع ذلك ... يستهزؤون بك.

ولمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النبي صلى الله عليه وآله يضيف تعالى قائلاً: «وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِذْ يَبْقُ صِدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ». فروحك اللطيفة وقلبك الطيب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيئة وأحاديث الكفر والشرك، ولذلك يضيق صدرك.

ولكن لا تحزن من قبح أقوالهم «فَسَيَبِخُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ». لأن تسيح الله يذهب أثر أقوالهم القبيحة من قلوب أحياء الله.

ولهذا نقرأ في رواية نقلها عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أحزنه أمر فرع إلى الصلاة.

ثم يعطى الله نبيه صلى الله عليه وآله آخر أمر في هذا الشأن: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ».

إنَّ العبادة مدرسة عالية للتربية، لأنها توظف عقل الإنسان، وتوجه فكره نحو المطلق،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٩

وتغسل غبار الذنوب والغفلة من قلبه وروحه، وتنمي فيه الصفات الإنسانية الرفيعة، وتقوى إيمانه وتجعله أكثر وعياً واكبر مسؤولية.

فلا يمكن للإنسان الواقعي أن يستغنى عن هذه المدرسة الراقية، أما الذين يعتقدون بأن الإنسان قد يصل إلى درجة معينة لا يحتاج عندها إلى العبادة، فاولئك إما أنهم يعتبرون عملية تكامل الإنسان محدودة وتنتهي بحد معين، أو أنهم لم يدركوا معنى العبادة حقاً.

«نهاية تفسير سورة الحجر»

## الجزء الثالث

### ١٦ سورة النحل

محتوى السورة: من خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أن بحوثها تناول ما تناوله الآيات المكية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة

الشرك وعبادة الأصنام، وتارة اخرى ما تناوله الآيات المدنية مثل: الأحكام الاجتماعية ومسائل الجهاد والهجرة. ويمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية وإحكام بما يلي:

١- ذكر النعم الإلهية، وتفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذى حس حى، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم وواهبها. ومن النعم المذكورة فى السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات والثمار، المواد الغذائية الاخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات ومنافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة وحتى نعمة الولد والزوجة، وبعبارة شاملة (أنواع الطيبات). ولهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

وعرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعانى الجليلة والعجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهية الواسعة، وبخصوص اعتبار النحل مصدراً لغذاء مهم من أغذية الإنسان، وباعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد الله.

٢- الحديث عن أدلة التوحيد، عظمة ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين والمجرمين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧

٣- تناول الأحكام الإسلامية المختلفة.

٤- الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حية.

٥- وأخيراً تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال: «من قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التى أنعمها عليه من دار الدنيا».

فقراءة الآيات بتدبر وتفكر مع وجود العزم على العمل والسير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلاً لأن يستعمل الإنسان كل نعمة بما ينبغى عليه أن يستعمل، فلا يحبس ولا يهمل، ويكون من الشاكرين.

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

أتى أمر الله: ذكرنا سابقاً أن قسماً مهماً من الآيات التى جاءت فى أوّل السورة هى آيات مكية نزلت حينما كان النبى صلى الله عليه و آله يخوض صراعاً مستنداً مع المشركين وعبدة الأصنام، وما يمرّ يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهه جديدة ضد الدعوة الإسلامية المباركة، لأنها تريد بناء صرح الحرية، بل كل الحياة من جديد.

ومن جملة مواجهاتهم اليائسة قولهم للنبى صلى الله عليه و آله حينما يهددهم وينذرهم بعذاب الله: إن كان ذلك حقاً فلم لا يحلّ العذاب والعقاب بنا إذن؟!

ولعلمهم يضيفون: وحتى لو نزل العذاب فسنلتجىء إلى الأصنام لتشفع لنا عند الله فى رفع العذاب ... ولم لا يكون ذلك، أو لسن شفيعات؟!

وأول آية من السورة تبطل أوهام اولئك بقوله تعالى: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ».

وإن اعتقدتم أن الأصنام شافعة لكم عند الله فقد أخطأتم الظن «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وبما أن مستلزمات العدل الإلهي اقتضت عدم العقاب إلا بعد البيان الكافي والحجة التامة، فقد أضاف سبحانه: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا». بناء على هذا الإنذار والتذكير «فَاتَّقُونِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨

أما المقصود من «الروح» فى الآية هو: الوحي والقرآن والنبوة، والنهى هى مصدر الحياة المعنوية للبشرية.

إن كلمة «الروح» فى هذا الموضوع ذات جانب معنوى وإشارة إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب وتهذيب النفوس وهداية العقول.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيَسْتَأْذِنُوا لَكُمْ لِيَبْشُرُوا الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نفى الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، وتوجه الإنسان نحو خالقه بطريقتين:

الأول: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم ومحاولة استيعاب ما في الخلائق من نظام عجيب.

الثاني: عن طريق العاطفة ببيان نعم الله الواسعة على الإنسان، عسى أن يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ». وتتضح حقانية السماوات والأرض من نظامها المحكم وخلقها المنظم وكذلك من هدف خلقها وما فيها من منافع.

ثم يضيف: «تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده الله؟!!

بل هل تستطيع أن تخلق بعوضه صغيرة أو ذرة تراب؟!!

فكيف إذن جعلوها شريكة الله سبحانه!

وبعد الإشارة إلى خلق السماوات والأرض وما فيها من أسرار لا متناهية يعرج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩

«النطفة»: في الأصل بمعنى الماء القليل، أو الماء الصافي، ثم أطلقت على قطرات الماء التي تكون سبباً لوجود الإنسان بعد تلقيحها. وحقائقه التعبير يراد به تبيان عظمة وقدره الله عز وجل، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة وتكريم وشرف بين باقي المخلوقات وعند الله أيضاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى نعمه خلق الحيوانات وما تدر من فوائد كثيرة للإنسان فيقول: «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فخلق الأنعام الدال على علم وقدره الباري سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان.

ولم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسية والمعنوية كذلك حين قال:

«وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ».

«تريحون»: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل إستراحتها، ولهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح).

و «تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحاً إلى مراعيها.

عبر القرآن بكلمة «جمال» عن تلك الحركة الجماعية للأنعام حين تسرح إلى مراعيها وتعود إلى مراعيها.

ف «الجمال» جمال استغناء واكتفاء ذاتي، وجمال إنتاج وتأمين متطلبات أمة كاملة، وبعبارة أوضح: جمال الإستقلال الاقتصادي وقطع كل تبعيته للغير.

ثم يشير تعالى في الآية التي تليها إلى إحدى المنافع المهمة الأخرى فيقول: «وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيَسْتَأْذِنُوا لَكُمْ لِيَبْشُرُوا الْإِنْفُسَ». وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل ورأفته حيث سخر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدرة وقوة «إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ».

فالأنعام إذن: تعطى للإنسان ما يلبسه ويدفع عنه الحر والبرد. وكذلك تعطيه الألبان واللحوم ليتقوت بها. وترتك في نفس الإنسان آثاراً نفسية طيبة. وأخيراً تحمل أثقاله.

ثم يعرج على نوع آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها في تنقلاته، فيقول:

«وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً».

وتأتى الإشارة فى ذيل الآيه إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان فى الحصول على الوسائط

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠

النقلية المدنية من غير الحيوانات، فيقول: «وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» من المراكب ووسائل النقل.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَدَّكَّرُونَ (١٣)

بعد ذكر مختلف النعم فى الآيات السابقة، تشير هذه الآيات إلى نعم اخرى ... فتشير أولاً إلى نعمه معنوية عالية فى مرماها: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ». أى: عليه سبحانه سلامة الصراط المستقيم وهو الحافظ له من كل انحراف، وقد وضعه فى متناول الإنسان.

ولكن أى النحويين من الصراط المستقيم هو المراد، التكويني أم التشريعي؟

اختلف المفسرون فى ذلك، إلا أنه لا مانع من قصد الجانبين معاً.

فقد هدى الله الإنسان بالعقل والقدرة وبقية القوى التكوينية التى تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء والوحى السماوى وأعطاه التعليمات الكافية والقوانين اللازمة للمضى بهدى التشريع الربانى فى تكمله مشوار المسيرة، وترك باقى السبل المنحرفة.

ثم يحذّر البارى جلّ شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة كثيرة: «وَمِنْهَا جَائِزٌ».

وبما أن نعمه الإرادة وحرية الاختيار فى الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآيه بجملة قصيرة: «وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ» ولا تستطيعون عندها غير ما يريد الله.

إلا أنه سبحانه لم يفعل ذلك، لأن الهداية الجبرية لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل والفخر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١

وفى الآيه التالية يعود إلى الجانب المادى بما يثير حس الشكر للنعم عند الناس، ويوقد نار عشق الله فى قلوبهم بدعوتهم للتقرب أكثر وأكثر لمعرفة النعم الحق، فيقول: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»، ماء فيه سبب الحياة، وزلالاً شفافاً خال من أى تلوث «لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ». وتخرج به النباتات والأشجار فترعى أنعامكم «وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ».

«تسيمون»: من مادة «الإسامه» بمعنى رعى الحيوانات.

ومما لا شك فيه أيضاً أن ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان وإرواء النباتات، بل ومن فوائده أيضاً: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان وتنفسه براحه، وما شابه ذلك .. فالمذكور من فوائده فى هذه الآيه ليس حصراً وإنما من باب الأهم.

ويكمل الموضوع بقوله: «يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ولا شك أن خلق هذه الثمار المتنوعة وكل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآيه للمتفكرين «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

ثم يشير إلى نعمه تسخير الموجودات المختلفة فى العالم للإنسان بقوله: «وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». على عظمة وقدره الله وعظمه ما خلق.

وإضافة لكل ما تقدم: «وَمِمَّا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ» من مخلوقات سخرها لكم و «مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ» من الأغطية والملابس والأغذية

والزوجات العفيفات ووسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن وكنوز الأرض وسائر النعم الاخرى «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَدَّكَّرُونَ».



وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢

نعمة الجبال والبحار والنجوم: تبين هذه الآيات قسماً آخر من النعم الإلهية غير المحدودة التي تفضل بها الله عز وجل على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوى للحياة، فيقول: «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ».

وكما هو معلوم أن البحار تشكل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأن الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار تعتبر المنبع المهم في إدامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار في خدمة الإنسان ...

ثم يشير البارئ سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحار: «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا». فقد جعل الله في البحار لحماً ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد في تربيته، بل أوجده ونمته يد القدرة الإلهية.

ومن فوائد البحار أيضاً تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه: «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

الحس الجمالي من الامور الفطرية التي فطر الإنسان عليها وهو الباعث على إثارة الشعر والفن الأصيل وما شاكلها عنده.

وينبغي العمل على إشباعه بشكل صحيح وسالم بعيداً عن أى نوع من الإفراط والتفريط.

ولهذا أوصى الإسلام كثيراً بالتزين المعقول الخالي من أى إسراف مثل: لبس اللباس الجيد، التطيب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة ... الخ.

ثم يتطرق القرآن إلى الفائدة الثالثة في البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمة لتنقل الإنسان ونقل ما يحتاجه، فيقول: «وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ».

وأعطاكم الله هذه النعمة لتستفيدوا منها في التجارة أيضاً «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ».

وبعد ذكر هذه النعم التي تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتي في ذيل الآية: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم يأتي الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣

ثم يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال والأنهار من علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: «وَأَنْهَارًا».

ثم يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أن الجبال حاجز بين إرتباط الأراضي فيما بينها بالإضافة لكونها مانعاً رهيباً أمام حركة النقل، فيقول: «وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم يضيف قائلاً: «وَعَلِمْتَ». لأن الطرق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة ومميزات شاخصه يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، ولذا ذكر هذه النعمة.

ومن تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الإرتفاع والإنخفاض، لون الأرض والجبال وحتى طبيعة حركة الهواء.

وأما في حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل في أى من سفر البر أو البحر، فقد جعل الله تعالى علامات في السماء تعوض عن علامات الأرض.

وقد فسرت «النجم» برسول الله صلى الله عليه وآله و «العلامات» بالأئمة عليهم السلام في روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفي بعضها فسر «النجم» و «العلامات» كلاهما بالأئمة عليهم السلام وكل ذلك يشير إلى التفسير المعنوي لهذه الآيات.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «النجم رسول الله صلى الله عليه وآله، والعلامات الأئمة عليهم السلام». وبعد أن بين القرآن كل هذه النعم الجليلة والألطف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنساني للحكم في ذلك «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وكما اعتدنا عليه من القرآن في أسلوبه التربوي الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاجة بصيغته سؤال يترك الجواب عنه في عهدة الوجدان الحي للإنسان.

وفي نهاية المطاف، يفند الباري سبحانه مسألة حصر النعم الإلهية بما ذكر، بقوله: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَأَتَّخِصُوهَا».

ونواجه في هذا المقام سؤالاً وإستفساراً: كيف إذن نؤدى حق الشكر لله؟ و.. ألسنا مع ما نحن فيه، في زمرة الجاحدين؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤

وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ» خير جواب لذلك السؤال.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة في أداء أتم الشكر على نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين في حال اعتدنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتبع ونحصى النعم الربانية بقدر المستطاع، لأن ذلك يزيدنا معرفة لله، وعلماً بعالم الخلقه، وآفاق التوحيد الرحبه، كما يزيد من حراره عشقه سبحانه في أعماق قلوبنا، وكذا يحرك فينا الشعور المتحسس بضروره ووجوب شكر المنعم جلّ وعلا.

ولهذا نجد أن الأئمة عليهم السلام يتطرقون في أقوالهم وأدعيتهم ومناجاتهم إلى النعم الإلهية ويعدون جوانب منها، عبادة لله وتذكيراً ودرساً للآخرين.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

آلهة لا تشعر: تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أيه منها على الأصنام، أما الآية الاولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثالثة للمعبود الحقيقي (وهي العلم) فتقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ». فلماذا تسجدون للأصنام التي لم تكن هي الخالقة لكم، ولم تمنّ عليكم بأية نعمه، ولا تعرف عن علانيتكم شيئاً فضلاً عن سرّكم!؟

ثم يعود القرآن إلى مسألة الخالقية بافق أوسع من الآية السابقة: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وقد بحث لحد الآن في عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنها ليست خالقة، ومع

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥

ذلك كله، فإنها «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ». ثم يضيف قائلاً عنها: «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

فإذا كان الثواب والعقاب بيد الأصنام، فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهن، ومع جهلها بيوم البعث والحساب كيف تكون لائقه للعبادة!؟

وهذه هي الصفة الخامسة التي يجب توفرها في المعبود الحقيقي وتفتقدها الأصنام.

إن مفهوم الصنم وعبادة الأصنام في المنطق القرآني أوسع من أن يحدد بالآلهة المصنوعة، فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل الله عزّ وجل، ونسلم له أمر مصائرنا، فهو صنم وإن كان بشراً.

ولهذا فكل ما جاء في الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون الله بألسنتهم، ولكن في واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، وقد تبعوه لكونه المخلص لهم من دون الله، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

وبعد هذه الإستدلالات الحيثية والواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: «إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ». وبما أن العلاقة بين المبدأ والمعاد مترابطة ربطاً لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: «فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ». فأدلة التوحيد والمعاد قائمة لمن أراد الحق وطلب الحقيقة، إلا أن سبب عدم قبول الحق وإنكاره يرجع إلى حالة الإستكبار وعدم التسليم له، ويصبح ملكة في وجود المنكرين.

ثم تتطرق الآية الأخيرة إلى علم الله في الغيب والشهادة: «لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

والآية في واقعها تهديد للكفار وأعداء الحق، بأن الله عز وجل ليس بغافل عنهم.

فهم مستكبرون و «إِنَّهُ لَأُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ». والإستكبار على الحق من علامات الجهل بالله عز وجل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُتَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليست مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: يروى أنها نزلت في المقتسمين وهم ستة عشر رجلاً خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس على كل عقبة أربعة منهم ليصدوا الناس عن النبي صلى الله عليه وآله وإذا سألهم الناس عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا: أحاديث الأولين وأباطيلهم.

التفسير

حمل أوزار الآخرين: دار الحديث في الآيات السابقة حول عناد المستكبرين واستكبارهم أمام الحق، وسعيهم الحثيث في التنصل عن المسؤولية وعدم التسليم للحق. أما في هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم، فيقول القرآن: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». فليس هو وحى إلهي، بل أكاذيب القداماء.

«الأساطير»: جمع أسطورة، وتطلق على الحكايات والقصص الخرافية والكاذبة، وقد وردت هذه الكلمة تسع مرات في القرآن الكريم نقلاً عن لسان الكفار ضد الأنبياء تبريراً لمخالفتهم الدعوة إلى الله عز وجل.

وفي جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأولين» ليؤكدوا أنها ليست بجديدة وأن الأيام ستتجاوزها حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن لسانهم في الآية (٣١) من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧

سورة الأنفال: «قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا».

والملاحظ على مستكبرى يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروباً من الحق وإضلالاً للآخرين، ووصلت بهم حماقة لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشري، وما الآراء الدينية إلا أساطير وخرافات، حتى أنهم اثبتوا ذلك في كتب (علم الاجتماع ودونوه بصياغة علمية) كما يدعون). أما لو نفذنا في أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة أخرى: فهم لم يحاربوا الأديان والمذاهب الخرافية المجعولة أبداً، فهم مؤسسوها والداعون لنشرها، إنما محاربتهم للأصالة والدين الحق الذي يوقظ الفكر الإنساني ويحطم الأغلال الاستعمارية ويقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.

توضح الآية الاخرى أعمالهم بالقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ».

ثم تتحرك الآية الاخرى لتقرر أن تهمة وصف الوحي الالهي بأساطير الأولين ليست بالأمر المستجد: «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ».

ومن لطيف دقة العبارة القرآنية، أن الآية أشارت إلى أن الله عز وجل لا يدمر البناء العلوي للمستكبرين فحسب، بل سيدمره من القواعد لينهار بكله عليهم.

وقد يكون تخريب القواعد وإسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل والصواعق لتنهيار على رؤوسهم، وقد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم وأحزابهم بأمر الله عز وجل، بل لا مانع من شمول الأمرين معاً.

وعذابهم في الحياة الدنيا لا يعنى تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ».

فيسألهم الله تعالى: «وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ». أى تجادلون وتعادون فيهم، فلا يتمكنون من الإجابة، ولكن: «قَالَ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهو نوع من العذاب الروحي، ويصف ذيل الآية السابقة حال الكافرين بالقول:

«الَّذِينَ تَتَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨

لأن ممارسة الظلم في حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأن الظالم يتلف ملكاته الوجدانية، ويهتك حرمة الصفات الفطرية الكامنة فيه.

أما حين تحين ساعة الموت ويزول حجاب الغفلة عن العيون «فَأَلْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ».

لماذا ينكرون عملهم القبيح؟ فهل إنهم يكذبون وقد أصبح الكذب صفة ذاتية لهم من كثرة تكراره، أم يريدون القول: إننا نعلم سوء أعمالنا، ولكننا اخطأنا ولم تكن لدينا نوايا سيئة فيه.

يمكن القول بإرادة كلا الأمرين.

ولكن الجواب يأتيهم فوراً: إنكم تكذبون فقد ارتكبتم ذنوباً كثيرة: «بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» حتى بتياتكم.

وليس المقام محلاً للإنكار أو التبرير... «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

وقيل للذين اتقوا ما ذأ أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة و لمدار الآخرة خيراً و لنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين (٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلاماً عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون (٣٢)

عاقبة المتقين والمحسنين: قرأنا في الآيات السابقة أقوال المشركين حول القرآن وعاقبه ذلك، والآن ندخل مع المؤمنين في اعتقادهم وعاقبته.. فيقول القرآن: «وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا».

ما أجمل هذا التعبير وأكمله «خيراً» خير مطلق يشمل كل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادي ومعنوي، خير للدنيا والآخرة، خير للإنسان الفرد والمجتمع.

وتبين الآية مورد البحث نتيجة وعاقبه ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩

الآيات السابقة عاقبه ما قاله المشركين من عقاب دنوي وأخروي، ومادى ومعنوي مضاعف: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ».

وقد أطلق الجزاء بال «حسنه» كما أطلقوا القول «خيراً»، ليشمل كل أنواع الحسنات والنعم في الحياة الدنيا، بالإضافة إلى: «وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ». ثم تصف الآية التالية - بشكل عام - محل المتقين في الآخرة بالقول: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

وقلنا أن الآيات مورد البحث توضّح كيفية حياة وموت المتقين مقارنة مع ما ورد في الآيات السابقة حول المشركين والمستكبرين، وقد مرّ علينا هناك أن الملائكة عندما تقبض أرواحهم يكون موتهم بدايةً لمرحلة جديدة من العذاب والمشقة، ثم يقال لهم: «ادخلوا أبواب جهنم...».

وأما عن المتقين: «الَّذِينَ تَتَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ» طاهرين من كل تلوثات الشرك والظلم والإستكبار، ومخلصين من كل ذنب: «يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا». السلام الذي هو رمز الأمن والنجاة. ثم يقال لهم: «ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون». والتعبير عن موتهم ب «تتوفّهم» يحمل بين طياته اللطف، ويشير إلى أن الموت لا يعنى الفناء والعدم أو نهاية كل شيء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم آخر.

وفى تفسير الميزان: أن في هذه الآية ثلاثة مسائل:

- ١- طهارة المؤمنين من خبث الظلم.
  - ٢- يقولون لهم: «سَلِّمْ عَلَيْنَا» وهو تأمين قولى لهم.
  - ٣- «ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» وهو هداية لهم إليها.
- وهذه المواهب الثلاث هي التي ذكرت في الآية (٨٢) من سورة الأنعام: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَيَسْتَعِزُّونَ بِالْبَارِئِ فَمَا نُنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦) إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)

يعود القرآن الكريم مرّة اخرى ليعرض لنا واقع وأفكار المشركين والمستكبرين ويقول بلهجة وعيد وتهديد: ماذا ينتظرون؟ «هل يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ». أى:

ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال.

أو هل ينتظرون أن يأتى أمر الله بعذابهم: «أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ» حيث تغلق أبواب التوبة أيضاً ولا سبيل عندها للإصلاح.

ثم يضيف: إن هؤلاء ليس أول من كانوا على هذه الحال والصفة وإنما «كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وسوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

ثم يذكر عاقبة أمرهم بقوله: «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

فتعبير الآية ب «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا» يؤكّد مرّة اخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، وتتجسم له بصور شتى، وتعذّبه وتؤلمه ولا شيء غر هذه الأعمال فى عذابه.

وتشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١

شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ».

إِنَّ قَوْلَهُمْ «وَلَا حَرَمَنَا» إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التي حُرِّمَ لحومها المشركون في عصر الجاهلية، والتي أنكرها رسول الله صلى الله عليه وآله بشدة. وكأنتهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضى الله تعالى فلماذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عما نقوم به، فسكوتهم وعدم منعه ما كنا نعمل دليل على رضاه.

ولهذا يقول تعالى مباشرة: «كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ».

وهذا هو خط جميع دعاء الحق (من الأنبياء وغيرهم) .. فهم: لا- يداهنون في دعوتهم أبداً ولا يجاملون الباطل وأهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة والقاطعية.

وبعد ذكر وظيفة الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا».

«الامة»: من «الأم» بمعنى الوالدة، أو بمعنى كل ما يتضمن شيئاً آخر في داخله؛ ومن هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معينة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «امة».

ويبين القرآن محتوى دعوة الأنبياء عليهم السلام بالقول: «أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

لأن أسس التوحيد إذا لم تحكم ولم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أى برنامج إصلاحى.

«الطاغوت»: صيغة مبالغة للطغيان .. أى التجاوز والتعدى وعبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سبباً لتجاوز الحد المعقول، ولهذا يطلق

اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر وعلى كل مسير يؤدى إلى غير طريق الحق.

ونعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: «فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ».

والآية (٧٩) من سورة النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ».

وفى نهاية الآية يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين وتقوية روحية المهتدين، بالقول: «فَسَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ».

فآية دليل ناطق على حرية إرادة الإنسان، فإن كانت الهداية والضلال أمرين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢

إجباريين، لم يكن هناك معنى للسير في الأرض والنظر إلى عاقبة المكذبين.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تؤكد التسلية لقلب النبي صلى الله عليه وآله بتبيان ما وصلت إليه حال الضالين: «إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَأَيُّدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ».

«تحرض»: من مادة (حرض)، وهو طلب الشيء بجديته وسعى شديد.

بديهى، أن الآية لا تشمل كل المنحرفين، لأن الشمول يتعارض مع وظيفة النبي (هداية وتبليغ).

فعليه ... تكون الجملة المتقدمة خاصة بمجموعة معينة من الضالين الذين وصل بهم العناد واللجاجة في الباطل لأقصى درجات

الضلال، وأصبحوا غرقى في بحر الإستكبار والغرور والغفلة والمعصية فاغلقت أمامهم أبواب الهداية.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ

وَلِيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين، فتقاضاه فوق فى كلامه والذى أرجوه بعد الموت أنه لكذا.

فقال المشرك: وإنتك لتزعم أنتك تبعث بعد الموت وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله الآية.

## التفسير

المعاد ونهاية الاختلافات: تعرض الآيات أعلاه جانباً من موضوع «المعاد» تكميلاً لما بحث في الآيات السابقة ضمن موضوع التوحيد ورسالة الأنبياء. فتقول الآية الأولى:

«وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَیَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ».

وهذا الإنكار الخالي من الدليل والذي ابتدأه بالقسم المؤكد، ليؤكد بكل وضوح على جهلهم ولهذا يجيبهم القرآن بقوله: «بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد وقدره الله عز وجل على ذلك، ليرد الإشتباه القائل بعدم إعادة الحياة بعد الموت، أو بعثية المعاد ... فيقول: «لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣

يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَآذِبِينَ» في إنكارهم للمعاد وبأن الله لا يبعث من يموت. فالرجوع إلى الوحدة وانتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد وقد أشارت إليه الآية مورد البحث.

ثم يشير القرآن إلى الفقرة الثانية من بيان حقيقة المعاد، للرد على من يرى عدم إمكان إعادة الإنسان من جديد إلى الحياة من بعد موته: «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

إن «كن» إنما ذكرت لضرورة اللفظ، وإلا لا حاجة في أمر الله ل «كن» أيضاً، فأرادته سبحانه وتعالى كافية في تحقيق ما يريد.

فأرادته إحدائه لا غير ذلك، لأنه لا يروى ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق، فأرادة الله تعالى هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا هممة ولا تفكر ولا كيف كذلك كما أنه بلا كيف.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الأولى نزلت في المعذبين بمكة مثل صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، وغيرهم مكثهم الله بالمدينة، وذكر أن صهيباً قال لأهل مكة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم وإن كنت عليكم لم يضركم فخذوا مالي ودعوني. فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له أبو بكر: ربح البيع يا صهيب.

التفسير

ثواب المهاجرين: نرى في الآيات السابقة الحديث عن المشركين ومنكري يوم القيامة، وينتقل الحديث في الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصين، ليقارن بين المجموعتين ويبين طبيعتهما فيقول أولاً: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً». أما في الآخرة: «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

ثم يصف في الآية التالية المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤

إن للمسلمين هجرتين؛ الأولى: كانت محدودة نسبياً (هجرة جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة)، والثانية: الهجرة العامة للنبي صلى الله عليه وآله والمسلمين من مكة إلى المدينة. وظاهر الآية يشير إلى الهجرة الثانية، كما يؤيد ذلك شأن النزول.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

اسألوا إن كنتم لا- تعلمون: هذه الآية يعود إلى بيان المسائل السابقة فيما يتعلق باصول الدين من خلال إجابته لأحد الإشكالات المعروفة؛ حين يتقول المشركون: لماذا لم ينزل الله ملائكة لإبلاغ رسالته؟ أو يقولون: لم لم يجهز النبي صلى الله عليه وآله بقدره خارقة ليجبرنا على ترك أعمالنا؟ فيجيبهم الله عز وجل بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ».

نعم. فإن أنبياء الله جميعهم من البشر، وبكل ما يحمل البشر من غرائز وعواطف إنسانية، حتى يحس بالألم ويدرك الحاجة كما يحس ويدرك الآخرون. في حين أن الملائكة لا تتمكن من إدراك هذه الامور جيداً.

ثم يضيف القول (تأكيداً لهذه الحقيقة): «فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

«الذكر»: بمعنى العلم والإطلاع؛ و «أهل الذكر»: له من شمولية المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين والعارفين في كافة المجالات. فالآية مبينة لأصل إسلامي يتعين الأخذ به في كل مجالات الحياة المادية والمعنوية، وتؤكد على المسلمين ضرورة السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، وأن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

وعلى هذا فإن «مسألة التخصص» لم يقررها القرآن الكريم ويحصرها في المسائل الدينية بل هي شاملة لكل المواضيع والعلوم المختلفة، ويجب أن يكون من بين المسلمين علماء في كافة التخصصات للرجوع إليهم.

ثم تقول الآية التالية: «بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ».

«البينات»: جمع بينة، بمعنى الدلائل الواضحة، ويمكن أن تكون هنا إشارة إلى معجز وأدلة إثبات صدق الأنبياء في دعوتهم؛ و «الزبر»: جمع زبور، بمعنى الكتاب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥

فالبينات تتحدث عن دلائل إثبات النبوة، والزبر إشارة إلى الكتب التي جمعت فيها تعليمات الأنبياء. ومن ثم يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»، ليبين للناس مسؤوليتهم تجاه آيات ربهم الحق. فدعوتك ورسالتك ليست بجديده من الناحية الأساسية، وكما أنزلنا على الذين من قبلك من الرسل كتباً ليعلّموا الناس تكاليفهم الشرعية، فقد أنزلنا عليك القرآن لتبين تعاليمه ومفاهيمه، وتوقظ به الفكر الإنساني ليسيروا في طريق الحق.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

لكل ذنب عقابه: ثمّة ربط في كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلالية والمسائل الوجدانية بشكل مؤثر في نفوس السامعين، والآيات أعلاه نموذج لهذا الاسلوب. فالآيات السابقة عبارة عن بحث منطقي مع المشركين في شأن النبوة والمعاد، في حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابرة والطغاة والمذنبين. فتبتدأ القول: «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ» من الذين حاكوا الدسائس المتعددة لإطفاء نور الحق والإيمان «أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ».

فهل بيعيد (بعد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتنتشق القشرة الأرضية لتبتلعهم وما يملكون، كما حصل مراراً لأقوام سابقة؟!!

«مكروا السيئات»: بمعنى وضعوا الدسائس والخطط ووصولاً لأهدافهم المشؤمة السيئة، كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن ومحاولة قتل النبي صلى الله عليه وآله.

«يخسف»: من مادة «خسف» بمعنى الإختفاء، ولهذا يطلق على اختفاء نور القمر في ظل الأرض اسم (الخسوف).

ثم يضيف: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ». أي:

عند ذهابهم ومجيئهم وحرکتهم في اكتساب الأموال وجمع الثروات. «فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ».

إنّ «معجزين» من الإعجاز بمعنى إزالة قدرة الطرف الآخر، وهي هنا بمعنى الفرار من العذاب ومقاومته.



مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦

أو أن العذاب الإلهي لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجي ومقروناً بالإنذار المتكرر: «أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ». فالיום مثلاً، يصاب جارهم ببلاء، وغداً يصاب أحد أقربائهم، وفي يوم آخر تلتف بعض أموالهم ... والخلاصة، تأتيهم تنبيهات وتذكيرات الواحدة تلو الأخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، وإلا فسيصيبهم العقاب الإلهي ويهلكهم.

إن العذاب التدريجي في هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدى هذه المجموعة، والله عز وجل لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين: «فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ».

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتُّوا ظُلُمَةً عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

سجود الكائنات لله عز وجل: تعود هذه الآيات مرة أخرى إلى التوحيد بادئاً بـ «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتُّوا ظُلُمَةً عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» (١).

أى: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات الله يميناً وشمالاً لتعبّر عن خضوعها وسجودها له سبحانه؟

وهنا ... يعرض الباري سبحانه حركة ظلال الأجسام يميناً وشمالاً بعنوانها مظهراً لعظمته جلّ وعلا واصفاً حركتها بالسجود والخضوع. وجاء في الآية أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أمّا في الآية التالية فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجاً عاماً شاملاً لكل الموجودات المادية وغير المادية، وفي أي مكان، فتقول: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»، مسلمين لله ولأوامره تسليمًا كاملاً.

وحقيقته السجود نهاية الخضوع والتواضع والعبادة، وما تؤدّيه من سجود على الأعضاء السبعة ما هو إلّا مصداق لهذا المفهوم العام ولا ينحصر به.

وبما أن جميع مخلوقات الله في عالم التكوين والخلق مسلمة للقوانين العامة لعالم الوجود،

(١) «داخر»: في الأصل من مادة (دخور) أى: التواضع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧

التي أفاضتها الإرادة الإلهية فإن جميع المخلوقات في حاله سجود له جلّ وعلا، ولا ينبغي لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، وكلها مظهرة لعظمة وعلم وقدره الباري عز وجل، ولتدل على أنها آية على غناه وجلاله ... والخلاصة: كلها دليل على ذاته المقدسة. «الدابة»: بمعنى الموجودات الحيّة، ويستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحيّة في السماوات والأرض على وجود كائنات حيّة في الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما موجود على الأرض.

أمّا جملة «وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» فإشارة لحال وشأن الملائكة التي لا يداخلها أى استكبار عند سجودها وخضوعها لله عز وجل.

ولهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرة وتأكيدياً لنفي حالة الاستكبار عنهم:

«يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

ويستفاد من هذه الآية بوضوح أن علامة نفي الاستكبار شيان:

(أ) الشعور بالمسؤولية وإطاعة الأوامر الإلهية من دون أى اعتراض.

(ب) ممارسة الأوامر الإلهية بما ينبغي والعمل وفق القوانين المعدة لذلك.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَجَدَّدُوا إِلَهَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي آتِي فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَبِأَلِيهِ تَجَارُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ

يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

دين حق ومعبود واحد: تتناول هذه الآيات موضوع نفى الشرك تعقيباً لبحث التوحيد ومعرفة الله عن طريق نظام الخلق الذي ورد في الآيات السابقة، لتتضح الحقيقة من خلال المقارنة بين الموضوع، ويبدأ ب «وَقَالَ اللَّهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّاهُ فَارْهُبُونَ».

ثم يوضح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن ثلاث آيات ... فيقول أولاً «وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فهل ينبغي السجود للأصنام التي لا تملك شيئاً، أم لمن له ما في السماوات والأرض؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨

ثم يضيف: «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا».

ثم يقول في نهاية الآية: «أَفَعَيِّرَ اللَّهُ تَتَقُونَ».

فهل يمكن للأصنام أن تصد عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها وتواظبوا على عبادتها؟! هذا ... «وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ».

فهذه الآية تحمل البيان الثالث بخصوص لزوم عبادة الله الواحد جلّ وعلا، وأن عبادة الأصنام إن كانت شكراً على نعمة فهي ليست بمنعمة.

وعلاوة على ذلك ... «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ».

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعا للضرر وحلا للمعضلات، فهذا من الله.

وهذا البيان الرابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

«تَجْرُونَ»: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات والوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثم استعملت كناية في كل الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

نعم. فالله سبحانه يسمع نداءكم في كل الحالات ويغيثكم ويرفع عنكم البلاء «ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ يَرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ» بالعود إلى الأصنام.

فالقرآن في الآية يشير إلى فطرة التوحيد في جميع الناس، إلا أن حجب الغفلة والغرور والجهل والتعصب والخرافات تغطيها في الأحوال الاعتيادية.

وفي آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتي التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثاً استدلالية في نفى الشرك وعبادة الأصنام، تأتي هذه الآيات لتتناول قسماً من بدع المشركين وصوراً من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلاً آخر على بطلان الشرك وعبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع وعادات المشركين: وتقول أولاً: «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ».

وكان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقيه من المواشى بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، وهو ما تشير إليه الآية (١٣٦) من سورة الأنعام. ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: «تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ».

وعليه فما تقومون به له ضرر مادي من خلال ما تعملونه بلا فائدة، وله عقاب أخروي لأنكم أسأتم الظن بالله واتجهتم إلى غيره. أمّا البدعة الثانية فكانت: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ» من التجسّم ومن هذه النسبة. «وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ». أى: إنهم لم يكونوا يقبلوا لأنفسهم ما نسبوه إلى الله، ويعتبرون البنات عاراً وسبباً للشقاء.

وإكمالاً للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثالثة: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ».

ولا ينتهى الأمر إلى هذا الحد بل «يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ».

ولم ينته المطاف بعد، ويغوص في فكر عميق: «أَيْمَسُكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ».

وفى ذيل الآية، يستنكر الباري حكمهم الظالم الشقى بقوله: «أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

وأخيراً يشير تعالى إلى السبب الحقيقي وراء تلك التلوثات، ألا- هو عدم الإيمان بالآخرة: «لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فالسبب الرئيسى لكل انحراف وقبح وخرافه هو الغفلة عن ذكر الله وعن محكمته العادلة فى الآخرة.

دور الإسلام فى إعادة اعتبار المرأة: لم يكن احتقار المرأة مختصاً بعرب الجاهلية، فلم تلق المرأة أدنى درجات الإحترام والتقدير حتى فى أكثر الامم تمدناً فى ذلك الزمان، وكانت المرأة غالباً ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة وليست إنساناً محترماً، ولكن عرب الجاهلية جسّدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحة ووحشية من غيرهم.

وعندما ظهر الإسلام حارب بشدة هذه المهانة من كافة أبعادها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠

وأولى النبى صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام من الإحترام ما جعل الناس فى عجب من أمره، حيث كان صلى الله عليه وآله مع ما يحظى به من شرف ومقام، كان يقبل يد الزهراء عليها السلام وعندما يعود من السفر يذهب إليها قبل أى أحد. فالإحترام الذى أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصيتها الضائعة بين حوالك الجاهلية، وحررها من العادات البالية، وأنهى عصر تحقيرها.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَمَّا يَشْتَأَخِرُونَ سَاعِيَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَوَيْهَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن جرائم المشركين البشعة فى وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالى: لماذا لم يعذب الله المذنبين بسرعة نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح وظلم فجيح؟ والآية الاولى (٦١) تجيب بالقول: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ». أى: إن الله لو يؤاخذ الناس على ما ارتكبه من ظلم لما بقى إنسان على سطح البسيطة.

فعندما يذهب الإنسان فسينتفى سبب وجود الكائنات الاخرى وينقطع نسلها.

ويضيف القرآن الكريم قائلاً: «وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَمَّا يَشْتَأَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». بل يدركهم الموت فى نفس اللحظة المقررة.

ويعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين وخرافاتهم فى الجاهلية (حول كراهية المولود الأنثى والإعتقاد بأن الملائكة إناثاً) فيقول: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ».

فهذا تناقض عجيب، فإن كانت الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى فىنبغى أن تكون البنت أمراً حسناً فلماذا تكرهون ولادتها؟ وإن كانت شيئاً سيئاً فلماذا تنسبونها إلى الله؟

ومع كل ذلك ... «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى .

فبأى عمل تنتظرون حسنى الثواب؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١

ولهذا يقول القرآن: «لَمَّا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ». أى: أنهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبة فقط، بل و «لهم النار» «وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ» أى: من المتقدمين فى دخول النار.

والمفراط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

وربما يراود البعض من الاستغراب عند سماعه لقصة عرب الجاهلية فى وأدهم للبنات، ويسأل: كيف يصدق أن نسمع عن إنسان ما يدفن فلذة كبده بيده وهى على قيد الحياة؟!

وكأن الآية التالية تجيب على ذلك: «تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ».

ثم يضيف القرآن: إن مشركى اليوم على سئته من سبقهم من الماضين من الذين زينوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشيطان «فَهُوَ وَرِثَتُهُمُ الْيَوْمَ»، يستفيدون مما يعطيهم إياه.

ولهذا ... «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وتبين آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، ولتؤكد حقيقة أن الأقوام والامم لو اتبعت الأنبياء وتخلت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقى أثر لأى خرافة وانحراف، ولزالت تناقضات الأعمال، فتقول: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّشْفِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

المياه، الثمار، الأنعام: مزة اخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم والعطايا الإلهية الكثيرة، تأكيداً لمسألة التوحيد ومعرفة الله، وإشارة إلى مسألة المعاد، وتحريكاً لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، ومن خلال هذا التوجيه الربانى تتضح علاقة الربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات. فيقول: «وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».

وهذا المظهر من مظاهر قدرة وعظمة الخالق عز وجل يدل على إمكان المعاد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢

وإن نعمة الأمطار دليل آخر على قدرة وعظمة الخالق سبحانه.

وبعد ذكر نعمة الماء (الذى يعتبر الخطوة الاولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، وبخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

وأية عبرة أكثر من أن: «نُشْفِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ».

«الفرث»: لغه بمعنى الأغذية المهضومة فى المعدة والتي بمجرد وصولها إلى الامعاء تزود البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج .. فما يهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثاً» وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

ونعلم بأن جدار المعدة لا يمتص إلا مقداراً قليلاً من الغذاء (كبعض المواد السكرية) والقسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كى يمتص الدم ما يحتاجه منه.

وكما نعلم أيضاً بأن اللبن يترشح من غدد خاصه داخل ثدى الإناث، ومادته الأصلية تؤخذ من الدم والغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البياض ذات القوة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، ومن الدم.

والعجب يكمن في استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوثة.

وبعد حديثه عن الأنعام وألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سِكْرًا وَرِزْقًا حَسِينًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ: انتقل الأسلوب القرآني بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهية المختلفة وبيان أسرار الخليقة إلى الحديث عن «النحل» وما يدره من منتج (العسل) ورمز إلى ذلك الالهام الخفي بالوحي الإلهي إلى النحل: «أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣

إنّ الوحي في هذا المورد يعنى الأمر الغريزي والباعث الباطني الذي أودعه الله في الكائنات الحية. وأول مهمة أمر بها النحل في هذه الآية هي: بناء البيت، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ اتخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأول للحياة، ومن ثم القيام ببقية الفعاليات.

ويذكر القرآن الكريم في الآية التالية المهمة الثانية للنحل: «ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا».

وأخيراً يعرض القرآن المهمة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة):

«يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

في طبيعتها وحياتها وما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء)، وهو دليل على عظمة وقدره الباري عز وجل.

كما نعلم بأنّ للنباتات والأوراد استعمالات علاجية فعالة لكثير من الأمراض، والشىء المهم في موضوعنا ما توصل إليه العلماء من خلال تجاربهم التي أكدت على أنّ للنحل من المهارة بحيث إنّ في علمية صنعه للعسل لم يبدر فيما تحويه النباتات والأوراد من خواص علاجية، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل ويجعلها في العسل.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِجَبْدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

سبب اختلاف الأزواج: بينت الآيات السابقة قسماً من النعم الإلهية المجعولة في عالمي النبات والحيوان، لتكون دليلاً حسياً لمعرفة جل شأنه، وتواصل هذه الآيات مسألة إثبات الخالق جلّ وعلا بأسلوب آخر، وذلك بأنّ تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، وذلك كاشف بقليل من الدقة والتأمل على وجود المقدّر لذلك. فيبدأ القول ب «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ». فمنه الممات كما كانت الحياة منه، ولتعلموا بأنكم لستم خالقين لأى من الطرفين (الحياة والموت).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤

ومقدار عمركم ليس باختياركم أيضاً، فمنكم من يموت في شبابه أو في كهولته «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ» (١).

ونتيجة هذا العمر الموعول في سنى الحياة «لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا».

فيكون كما كان في مرحلة الطفولة من الغفلة والنسيان وعدم الفهم ... نعم ف «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ». فكل القدرات بيده جلّ وعلا، وعطاؤه بما يوافق الحكمة والمصلحة، وكذا أخذه لا يكون إلا عندما يلزم ذلك.

ويواصل القرآن الكريم استدلاله في الآية التالية من خلال بيان أنّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان وإنما ... «وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ». فاصحاب الثروة والطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها ومشاركتهم فيها خوفاً أن يكونوا معهم على قدم المساواة: «فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ».

والذى نستفيدة من الآيه المبحوثة أن الإسلام يوصى بمراعاة المساواة كبرنامج أخلاقى بين أفراد العائلة الواحدة ومن يكون تحت التكفل قدر الإمكان، وأن لا يجعلوا لأنفسهم فضلاً عليهم.

فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالإستعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلهية أيضاً، وإن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابى قطعاً.

فإذن وجود التفاوت فى الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الاقتصادية، ويتم ذلك حتى داخل المجتمعات السليمة، إلا أن أساس النجاح يكمن فى السعى والمثابرة والجد، وينبغى أن لا يكون وجود التفاوت والاختلاف فى الإستعدادات وفى الدخل اليومي للأفراد دافعاً لسوء الاستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقى.

ولهذا يقول القرآن الكريم فى ذيل الآيه مورد البحث: «أَفَبِعِزْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

وذلك إشارة إلى أن هذه الاختلافات فى حالتها الطبيعية (وليست الظالمه المصطنعه) إنما هى من النعم الإلهية التى أوجدها لحفظ النظام الاجتماعى البشرى.

وتبدأ الآيه الأخيرة من الآيات مورد البحث بلفظ الجلاله «الله» كما كان فى الآيتين السابقتين، ولتحدث عن النعم الإلهية فى إيجاد القوى البشرية، ولتحدث عن الأرزاق الطيبة أيضاً تكميلاً للحلقات الثلاثة من النعم المذكورة فى آخر ثلاث آيات، حيث استهلّت

(١) «أرذل»: من «رذل» بمعنى الحقارة وعدم المرغوبية؛ والمقصود من «أرذل العمر»: السنين المتقدمة جداً من عمر الإنسان حيث الضعف والسيان، ولا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، ولهذا سماها القرآن بأرذل العمر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥

البحث بنظام الحياه والموت، ثم التفاوت فى الأرزاق والإستعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياه) لتنتهى بالآيه مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشرى و ...

الأرزاق الطيبة. وتقول الآيه: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» لتكون سكناً لأرواحكم وأجسادكم وسبباً لبقاء النسل البشرى. ولهذا تقول وبلافاصلة: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً».

«الحفده»: بمعنى (حافد) وهى فى الأصل بمعنى الإنسان الذى يعمل بسرعة ونشاط دون انتظار أجر وجزاء، أما فى هذه الآيه فالمقصود منها أولاد الأولاد.

ثم يقول القرآن الكريم: «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ».

وبعد كل العرض القرآنى لآثار وعظمه قدره الله، ومع كل ما أفاض على البشرية من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام ويتركون السبيل التى توصلهم إلى جاده الحق «أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ».

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)

تواصل هاتان الآيتان بحوث التوحيد السابقه، وتشير إلى موضوع الشرك، وتقول بلهجه شديده ملؤها اللوم والتوبيخ: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا».

وليس لا يملك شيئاً فقط، بل «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» أن يخلقوا شيئاً.

وهذه إشارة إلى المشركين بأن لا أمل لكم فى عبادتكم للأصنام.

ثم تقول الآيه التالية كنتيجة لما قبلها: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ». وذلك «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

إن عبارة «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» تشير إلى منطق المشركين في عصر الجاهلية (ولا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه اولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إننا نعبد الأصنام لأننا لا نمتلك الأهلية لعبادة الله، فنعبد ما لتقربنا إلى الله! وإن الله مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلا الوزراء والخواص، وما على عوام الناس إلا أن تتقرب للحاشية والخواص لتصل إلى خدمة الله!

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦

ولذا يجيبهم القرآن الكريم قائلاً: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» التي هي من صنع أفكاركم المحدودة ومن صنع موجودات (ممكنة الوجود) ومليئة بالنواقص.

فالله الذي دعاكم لأن تدعوه وتناجوه، وفتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لا ينبغي أن تشبهوه بجبار مستكبر لا يتمكن أى أحد من الوصول إليه ودخول قصره إلا بعض الخواص «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ».

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسِينًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

مثالان للمؤمن والكافر: ضمن التعقيب على الآيات السابقة التي تحدثت عن: الإيمان، الكفر، المؤمنين، الكافرين والمشركين، تشخص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين والكافرين) بضرب مثلين حيين وواضحين.

يشبه المثال الأول المشركين بعبد مملوك لا- يستطيع القيام بأية خدمة لمولاه، ويشبه المؤمنين بإنسان غني، يستفيد الجميع من إمكانياته ... «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ».

أما ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذي يتمتع بأنواع المواهب والرزق الحسن: «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسِينًا» والإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة «وَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا». فاحكموا: «هَلْ يَسْتَوُونَ».

قطعاً، لا ... فإذن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الذي يكون عبده حرّ وقادر ومنفق، وليس الأصنام التي يكون عبادهما أسرى وعديمو القدرة ومحددون «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ثم يضرب مثلاً آخر لعبدة الأصنام والمؤمنين والصادقين، فيشبه الأول بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شيء، ويشبه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ». ولهذا ..

«أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَأَيِّاتٍ بِخَيْرٍ». وعلى هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

- أبكم (لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر منذ الولادة).

- وعاجز لا يقدر على شيء.

- وكَلٌّ على مولاه.

- وأينما يوجهه لا يأتي بخير.

كما رأينا من ربط القرآن في بحوثه المتعلقة بالتوحيد ومحاربة الشرك مع بحث المعاد ومحكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: «لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ثم يضيف قائلاً: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ».

فالعبارتان إشارة حية لقدرة الله عز وجل المطلقة، وبخصوص مسألتى المعاد والقيامة، ولهذا يقول البارئ في ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لِمَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨

أنواع النعم المادية والمعنوية: يعود القرآن الكريم مرّة اخرى بعرض جملة اخرى من النعم الإلهية كدرس في التوحيد ومعرفة الله، وأول ما يشير في هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم والمعرفة ووسائل تحصيله ... ويقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لِمَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا». فمن الطبيعي أنكم في ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شيء، ولكن عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زوّدكم الباري سبحانه بوسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات «وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ». لكي يتحرك حس الشكر للمنعم في أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وتستمر الآية التالية في بيان أسرار عظمة الله عز وجل في علم الوجود، وتقول: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ».

وبما أن الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور في الهواء بالتحريك. ويضيف قائلاً: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ».

صحيح أن نعمة أمور مجتمعة تعطى للطيور إمكانيّة التحليق وال الطيران، مثل: الخاصية الطبيعية للأجنحة، قدره عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة ... ولكن، من الذي خلق هذه الهيئة وتلك الخواص؟

وفي نهاية الآية، يأتي قوله عز من قائل: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». أي: إنهم ينظرون إلى هذه الأمور بعين باصرة وأذن سمعية ويتفكرون فيما يرون ويسمعون، وبذلك يقوى إيمانهم ويرسخ أكثر فأكثر.

وتستمر الآيات في الإشارة إلى النعم الإلهية حتى نصل إلى الآية الثالثة (مورد البحث) لتقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا».

وحقاً إن هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من «البيتوتة» وهي في الأصل بمعنى التوقف ليلاً، واطلقت كلمة «بيت» على الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منهما للسكن ليلاً.

وبعد أن تطرّق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عزّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال:

«وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩

وهي من الخفة بحيث «تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أَي: رحيلكم - وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ».

بل وجعل لكم: «وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ».

فاستعمال المصطلحين «أَثَانًا وَمَتَاعًا» على التوالي يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

الظلال، المساكن، الأغطية: ويشير القرآن الكريم إلى نعمة اخرى بقوله: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا».

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية والحفظ، ولهذا فقد اطلقت على المغارات وأماكن الإختفاء وفي الجبال.



وكان ذكر نعمة «الظلال» و «أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و «الخيام» في الآية السابقة، للإشارة إلى أن طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة... واحدة تعيش في المدن والقرى وتستفيد من بناء البيوت لسكانها، واخرى تعيش الترحال والتنقل فتحمل معها الخيام، وثالثة اولئك الذين يسافرون وليس معهم مستلزمات المأوى... ولم يترك البارى جل شأنه المجموعة الثالثة تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل في طريقهم الظلال والمغارات لتقيهم. وبعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية والصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ»، وثمة ألبسة اخرى تستعمل لحفظ أبدانكم في الحروب «وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ».

«السرائيل»: جمع «سربال» بمعنى الثوب من أى جنس كان.

فإن فائدة الألبسة لا تنحصر في حفظ الإنسان من الحر والبرد، بل تلبس الإنسان ثوب الكرامة وتقى بدنه من الأخطار الموجهة إليه. وفي ذيل الآية يقول القرآن مذكراً: «كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ». أى: تطيعون أمره.

وطبيعى جداً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تتبّيه للنعم المختلفة التي تحيط بوجوده.

وبعد ذكر هذه النعم الجليلة، يقول عز وجل أنهم لو عرضوا ولم يسلموا للحق فلا تحزن ولا تقلق، لأن وظيفتك ابلاغهم: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠

والمراد من هذا المقطع القرآنى هو مواساة النبى صلى الله عليه وآله وتسليته.

وتكميلاً للحديث... يضيف القرآن الكريم القول: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا».

فعلمه كفرهم ليست في عدم معرفتهم بالنعم الإلهية وإنما بحملهم تلك الصفات القبيحة التي تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى والعناد في معاداة الحق.

ولعل ما جاء في آخر الآية «وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

إن أكثرية الكفار هم من أهل التعصب والعناد، والذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم، فهم القلة قياساً إلى اولئك.

وَيَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَمْ يُؤْذَنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَا لَهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

عندما تغلق الأبواب أمام المجرمين: بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة جحود منكرى الحق وعدم اعترافهم بالنعم الإلهية، يتطرق في هذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهي الشديد الذي ينتظر اولئك في عالم الآخرة، ليتبه الغافل من سباته، فعسى أن يعيد النظر في مواقفه المنحرفة قبل فوات الأوان، فيقول أولاً: «وَيَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً».

وبخصوص تلك المحكمة، تأتي الآية لتقول: «ثُمَّ لَمْ يُؤْذَنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

وهل من الممكن أن لا يأذن الله للمجرمين في الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، وذلك لعدم الحاجة للسان في ذلك اليوم العظيم، لأن الجوارح من رجل وأذن وعين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١

وكذلك الجلد، بل وحتى الأرض التي أطاع الإنسان عليها أو عصى، كلها ستشهد عليه، بل ويزاد على عدم السماح لهم بالكلام ب

«وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ». لأنّ هناك محل مواجهته نتائج الأعمال وليس يوم العمل والإصلاح.

وتشرح الآية التالية حال الظالمين بعد انتهاء مرحلة حسابهم ودخولهم في العذاب، وكيف أنّهم يطلبون تخفيف شدة العذاب تارةً، ويطلبون إمهالهم مدّة تارةً اخرى، فتقول:

«وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

وفي الآية التالية يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، وكيف أنّهم سيحشرون في جهنم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية والبشرية، فتقول الآية المباركة واصفة حالهم: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ»، فهذه المعبودات هي التي وسوست لنا للوقوع في درك العمل القبيح، وهي شريكنا في الجرم أيضاً، فارتفع عنا بعض العذاب واجعله لها.

وعندها ... تبدأ تلك الأصنام بالتكلم (بإذن الله): «فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ»، فلم تكن شركاء لله، ومهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

وتأتي الآية التالية لتبين أنّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، ويسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة اخرى ... «وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ» مسلمين لله، مذعنين لعظمته جلّ وعلا لأنّ غرور وتعصب الجاهلين قد ازيل برؤيته الحق الذي لا مفرّ من تصديقه والإذعان إليه.

وفي هذه الأثناء، وحيث كل شيء جليّ كوضوح الشمس .. «وَصَلَّ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ». فتبطل كذبتهم بوجود شريك لله، وكذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعته الأصنام لهم عند الله، عندما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأيّ عمل، بل وironها محشورة معهم في نار جهنم.

وبهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصّباً حول انحراف المشركين الضالين وغرقهم في درك الشرك، دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه .. وبعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، وإنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢

لأنّهم كانوا عاملاً مؤثراً للفساد على الأرض وإضلال خلق الله بالصدّ عن سبيله.

والحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح: «من استن بسنة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ومن استن سنة جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

وتتناول الآية أيضاً مسألة وجود الشهيد في كل امة (والذي ذكر قبل آيات معدودة)، ولمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

ومع أنّ عموم الحكم في هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامي والنبى صلى الله عليه وآله إلّا أنّ القرآن الكريم في مقام التأكيد قال: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ».

وبما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل وجامع للناس بما تتم فيه الحجّة عليهم، ويصح فيه مفهوم النظارة والمراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ».

إنّ الآية أعلاه ذكرت أربعة تعابير متلازمة حسب تسلسلها لتوضيح الهدف من نزول القرآن: ١- تبيانا لكل شيء. ٢- هدى. ٣- رحمة. ٤- بشرى للمسلمين.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

أكمل برنامج إجتماعي: بعد أن ذكرت الآيات السابقة أنّ القرآن فيه تبيان لكل شيء، جاءت هذه الآية لتقدّم نموذجاً من التعليمات

الإسلامية في شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، فتقول في البدء: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ . فالعدل هو القانون الذي تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود.

والمعنى الواقعي للعدل يتجسد في جعل كل شيء في مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدى على حقوق الآخرين، ما هي إلّا صور لخلاف أصل العدل.

ومع ما للعدالة من قدرة وجلال وتأثير عميق في كل الأوقات - الطبيعية والاستثنائية -

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣

في عملية بناء المجتمع السليم، إلّا أنّها ليست العامل الوحيد الذي يقوم بهذه المهمة، ولذلك جاء الأمر بـ «الإحسان» بعد «العدل» مباشرة ومن غير فاصلة. في نهج البلاغة عن علي عليه السلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل».

وبعد ذكر القرآن الكريم للأصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للأصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: «وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ». إنّ «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفية؛ و «المنكر»: إشارة إلى الذنوب العلنية؛ و «البغي»: إشارة إلى كل تجاوز عن حق الإنسان، وظلم الآخرين والاستعلاء عليهم.

وفي آخر الآية المباركة يأتي التأكيد مجدداً على أهميته هذه الأصول الستة: «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

فإحياء الأصول الثلاثة «العدل، والإحسان، وإيتاء ذى القربى» ومكافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء والمنكر، والبغى» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرة بالخير، وهادئة من كل اضطراب، وخالية من أى سوء وفساد، وإذا روى عن ابن مسعود (الصحابي المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية في كتاب الله للخير والشر) فهو للسبب الذي ذكرناه.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ أَدْمَانُكُمْ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت في الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله على الإسلام فقال

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤

سبحانه للمسلمين الذين بايعوه: لا- يحملتكم قله المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة فإن الله حافظكم. أى: اثبتوا على ما عاهدتم عليه الرسول وأكدتموه بالأيمان.

التفسير

الوفاء بالعهد دليل الإيمان: في هذه الآيات قسماً آخر من تعاليم الإسلام المهمة (الوفاء بالعهد والأيمان). يقول أولاً: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ». ثم يضيف: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

إنّ معنى «عهد الله» هو: العهود التي يبرمها الناس مع الله تعالى (وبديهي أنّ العهد مع النبي عهد مع الله أيضاً)، وعليه فهو يشمل كل عهد إلهي وبيعه في طريق الإيمان والجهاد وغير ذلك.

أمّا مسألة «الأيمان» (جمع يمين، أى: القسم) التي وردت في الآية- والتي عرض فيها المفسرون آراء كثيرة- فلها معنى واسع، ويتضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث إنّه يشمل العهود التي يعقدها الإنسان مع الله عزّ وجل، بالإضافة إلى ما يستعمله من أيمان في تعامله مع خلق الله.

وحيث إنّ الوفاء بالعهد أهم الاسس في ثبات أىّ مجتمع كان، تواصل الآية التالية ذكره بأسلوب يتسم بنوع من اللوم والتوبيخ، فتقول:

«وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَصَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَاثًا» (١).

والآية تشير إلى (رايطه) تلك المرأة التي عاشت في قريش زمن الجاهلية، وكانت هي وعاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار في غزل ما عندهن من الصوف والشعر، وبعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن، ولهذا عرفت بين قومها ب (الحمقاء).

ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» (٢). أى: لا- تنقضوا عهودكم مع الله بسبب أن تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا في الخيانة والفساد. واعلموا: «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ».

(١) «أنكاث»: جمع (نكث) على وزن (قسط) بمعنى حلّ خيوط الصوف والشعر بعد برمها، وتطلق أيضاً على اللباس الذي يصنع من الصوف والشعر.

(٢) «الدخل»: (على وزن الدغل)، بمعنى الفساد والتقلب ومنها اخذ معنى (الداخل).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥

وستتضح النتيجة في الآخرة ليلاقى كل فرد جزاءه العادل: «وَلَيَبْيِنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» من هذا الأمر وغيره. والآية التالية تجيب على توهم، غالباً ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهي والتأكيد على الالتزام بالعهود والوظائف، وخلاصته: هل أن الله لا يقدر على إجبار الناس جميعاً على قبول الحق؟ فنقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً».

«أمة واحدة» من حيث الإيمان والعمل على الحق بشكل إجباري، ولكن ذلك سوف لا يكون خطوة نحو التكامل والتسامي ولا فيه أفضلية للإنسان في قبوله الحق، وعليه فقد جرت سُنَّةُ الله بترك الناس أحراراً ليسيروا على طريق الحق مختارين.

ولا تعنى هذه الحرية بأن الله سيمترك عباده ولا يعينهم في سيرهم، وإنما بقدر ما يقدمون على السير والمجاهدة سيحصلون على التوفيق والهداية والسداد منه جلّ شأنه، حتى يصلوا لهدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هذه النعمة الربانية، فتراهم كلما طال المقام بهم ازدادوا ضلالاً.

ولهذا يواصل القرآن الكريم القول ب: «وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

ولكن الهداية الإلهية أو الإضلال لا- تسلب المسؤولية عنكم، حيث إن الخطوات الأولى على عواتقكم، ولهذا يأتي النداء الرباني: «وَلَتَسْلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وتشير هذه العبارة إلى نسبة أعمال البشر إلى أنفسهم، وتؤكد على تحميلهم مسؤولية تلك الأعمال، وتعتبر من القرائن الواضحة في تفسير مفهوم الهداية والإضلال الإلهيين وأن أياً منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبداً.

وقد بحثنا هذا الموضوع سابقاً (راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة).

وتأكيداً على مسألة الوفاء بالعهد والثبات في الإيمان (باعتبار ذلك من العوامل المهمة في ثبات المجتمع) يقول القرآن: «وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ». أى: وسيلة للخداع والنفاق، لأنّ في ذلك خطرين كبيرين:

الأول: «فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا».

الثاني: «وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» في هذه الدنيا «وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» في الآخرة.

من الآثار السلبية لنقض العهود والأيمان شياع سوء ظن الناس وتنفرهم من الدين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦

الحق، وتشئت الصفوف وفقدان الثقة حتى لا يرغب الناس في الإسلام، وإن عقدوا معكم عهداً فسوف لا يجدون أنفسهم ملزمين

بالوفاء به، وهذا ما يؤدي لمساوي ومفاسد كثيرة، وبروز حالة التخلف في الحياة الدنيا.

وأما على صعيد الحياة الاخرى فإنه سيكون سبباً للعقاب والعذاب الإلهي.

وَلَمَّا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إن رجلاً من حضر موت يقال له عبدان الأشرع قال: يا رسول الله، إن امرأ القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطعت من أرضي فذهب بها مني. فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله امرأ القيس عنه، فقال: لا أدري ما يقول. فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنّه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه. فلما قام ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله: «وَلَمَّا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ» الآيتان. فلما قرأهما رسول الله صلى الله عليه وآله قال امرؤ القيس: أما ما عندي فينفد، وهو صادق فيما يقول. لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء، ومثلها معها، بما أكلت من ثمرها. فنزل فيه «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا» الآية.

التفسير

جاءت الآية الأولى من هذه الآيات لتؤكد على قبح نقض العهد مرة أخرى ولتبين عذراً آخراً من أعداء نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقة إلى عذر الخوف من كثرة الأعداء تأتي هذه الآية لتطرح ما للمصلحة الشخصية (المادية) من أثر سلبي على حياة الإنسان. ولهذا تقول: «وَلَمَّا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا».

أى: إن قيمة الوفاء بعهد الله لا تدانيها قيمة، ولو استلتمت زمام ملك الدنيا بأسرها فإنه

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧

لا يساوي قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد الله. وتضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: «إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

ويبين القرآن في الآية التالية سبب الأفضلية بقوله: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ».

ثم يضيف قائلاً: «وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ» - وعلى الأخص في الثبات على العهد والأيمان - «بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إن التعبير بـ «أحسن» دليل على أن أعمالهم الحسنة ليست بدرجة واحدة، فبعضها حسن والبعض الآخر أحسن، ولكن الله تعالى يجزي الجميع بأحسن ما كانوا يعملون، وهو ذروة اللطف والرحمة الربانية.

ثم يبين القرآن الكريم بعد ذلك - على صورة قانون عام - نتائج الأعمال الصالحة المرافقة للإيمان في هذه الدنيا وفي الآخرة، فيقول: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وعليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحة الناتجة عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانة الاجتماعية أو ما شابه ذلك.

الحياة الطيبة، تعنى الحياة الطيبة بجميع جهاتها، وخاليه من التلوثات والظلم والخيانة والعداوة والذل وكل ألوان الآلام والهموم، وفيها ما يجعل حياة الإنسان صافية كماء زلال.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

تبين الآيات مورد البحث طريقة الاستفادة من القرآن وتطرق إلى كيفية تلاوته، فكثافته المحتوى القرآني لا تكفي وحدها لتوجيهنا،

ولا بد من رفع الحجب المخيمة على وجودنا وإزالتها عن محيط فكرنا وروحنا، كي نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثر الغني.

ولهذا يقول القرآن: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

ولا يقصد من الاستعاذة الاكتفاء بالذكر، بل ينبغي لها أن تكون مقدمة لتحقيق وإيجاد الحالة الروحية المطلوبة. حالة: التوجه إلى الله عز وجل، الانفصال عن هوى النفس والعناد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨

المانع للفهم والدرك الصحيح للإنسان، وعندما نقرأ آية، نستعيد بالله من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا، وتحول بيننا وبين كلام الله جل وعلا.

وإن لم تتحقق للإنسان هذه الحالة فسيتعذر عليه إدراك الحقائق القرآنية.

وتأتي الآية التالية لتكون دليلاً على ما جاء في الآية التي قبلها: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»، لأنهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعة دون أمر الله.

فالآية تؤكد حقيقة أن سلطة الشيطان ليست إجبارية على الإنسان، ولا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أن يمهد الإنسان السبيل لدخول الشيطان في نفسه، ويعطيه إجازة المرور من بوابة قلبه.

وَإِذَا يَدُلُّنَا آيَةٌ مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِّسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

سبب التزل

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: كانوا يقولون: يسخر محمد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر، وإنه لكاذب، يأتهم بما يقول من عند نفسه.

التفسير

تحدثت الآيات السابقة عن اسلوب الاستفادة من القرآن الكريم، وتتناول الآيات

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩

مورد البحث جوانب اخرى من المسائل المرتبطة بالقرآن، وتبتدىء ببعض الشبهات التي كانت عالققة في أذهان المشركين حول الآيات القرآنية المباركة، فتقول: «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزَّلُ». فهذا التغيير والتبديل يخضع لحكمة الله، فهو أعلم بما ينزل، وكيف ينزل، ولكن المشركين لجهلهم «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

إن المشركين لم يدخل في تصوراتهم وأذهانهم أن القرآن في صدد بناء مجتمع إنساني جديد يسوده التطور والتقدم والحرية والمعنوية العالية.

فبديهى والحال هذه أن يطرأ على التغيير والتبديل تدرجاً مع ما يعيشونه، فغفلة المشركين عن هذه الحقائق وابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للإعتقاد بأن أقوال النبي صلى الله عليه وآله تحمل بين ثناياها التناقض أو الإفتراء على الله عز وجل وإلا لعلموا أن النسخ في الأحكام جزء من أوامر وآيات القرآن المنظمة على شكل برنامج تربوي دقيق لا- يمكن الوصول للهدف النهائي لنيل التكامل إلابه.

وتستمر الآية التالية بنفس الموضوع، وللتأكيد عليه تأمر النبي صلى الله عليه وآله أن: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ».

«روح القدس» أو (الروح المقدسة) هو أمين الوحي الإلهي «جبرائيل الأمين» وبواسطته كانت الآيات القرآنية تنزل بأمر الله تعالى على

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق، وهدفها واحد يتركز في توجيه الإنسان ضمن التربية الربانية له، وظروف وتركيبة الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخة والمنسوخة في العملية التربوية.

ولهذا، جاء في تكملة الآية المباركة: «لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ».

يقول صاحب تفسير الميزان: إن تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين إنما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب، ونصيبه التثبيت في العلم والإذعان، والإسلام في ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الإهداء إلى واجب العمل والبشرى بأن الغاية هي الجنة والسعادة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠

مختصر الامثل ج ٣، ص: ٩٩

وعلى أية حال، فلأجل تقوية الروح الإيمانية والسير في طريق الهدى والبشرى لابد من برامج قصيرة الأمد ومؤقتة، وبالتدرج يحل البرنامج النهائي الثابت محلها، وهو سبب وجود الناسخ والمنسوخ في الآيات الإلهية.

وبعد أن فند القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهة أخرى، أو على الأصح لذكر إفتراء آخر لمخالفى نبي الرحمة صلى الله عليه وآله فيقول: «وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ».

فالقرآن أجابهم بقوة وأبطل كل ما كانوا يفترونه، بقوله: «لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ» (١).

فالآية المباركة دليل الإعجاز القرآني من حيث اللفظ والمضمون، فحلاوة القرآن وبلاغته وجاذبيته والتناسق الخاص في ألفاظه وعباراته ما يفوق قدرة أى إنسان.

وبلهجة المهّد المتوعّد يبين القرآن الكريم أنّ حقيقة هذه الإتهامات والانحرافات ناشئة من عدم انطباق الإيمان في نفوس هؤلاء، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لأنهم غير لائقين للهداية ولا يناسبهم إلا العذاب الإلهي، لما باتوا عليه من التعصب والعناد والعداء للحق.

وفي آخر آية يقول: «إِنَّ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ». فأية أكاذيب أكبر من تلك التي تطلق على رجال الحق لتحول بينهم وبين المتعطين للحقائق.

قبح الكذب في المنظور الإسلامي: الآية الأخيرة بحثت مسألة قبح الكذب بشكل عنيف، وقد جعلت الكاذبين بدرجة الكافرين والمنكرين للآيات الإلهية.

ولأهمية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصة لمسألة الصدق والنهي عن الكذب.

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب.

فعن علي عليه السلام أنه قال: «الصدق يهّدي إلى البرّ والبرّ يدعو إلى الجنة» (٢).

(١) «يلحدون»: من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، وقد يطلق على أى انحراف، والمراد هنا: إنّ الكاذبين يريدون نسبة القرآن إلى إنسان ويدعون بأنه معلم النبي صلى الله عليه وآله.

«الإعجام» و «العجمة» لغة: بمعنى الإبهام، ويطلق الأعجمي على الذى فى بيانه لحن (نقص) سواء كان من العرب أو من غيرهم، وباعتبار أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغة غيرهم فقد استعملوا اسم (العجم) على غير العرب.

(٢) مشكاة الأنوار للطبرسي / ٣٠٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظَلَمُونَ (١١١)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت في جماعة اكرهوا وهم: عمار، وياسر أبوه وامه سمية، وصهيب، وبلال، وخباب، عُذَّبوا وقُتل أبو عمار وأمه، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه. ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال قوم: كفر عمار. فقال صلى الله عليه وآله: «كلما، إنَّ عماراً ملئاً إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يبكي، فقال صلى الله عليه وآله: «ما وراءك؟» فقال: شرَّ يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت». فنزلت الآية.

التفسير

المرتدون عن الإسلام: تكمل هذه الآيات ما شرعت به الآيات السابقة من الحديث عن المشركين والكفار وما كانوا يقومون به، فتتناول الآيات فئته اخرى من الكفرة وهم المرتدون. حيث تقول الآية الاولى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢

النوع الأول: هم الذين يقعون في قبضة العدو الغاشم ويتحملون أذاه وتعذيبه، ولكنهم لا يصبرون تحت ضغط ما يلاقوه من أعداء الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام وولاءهم للكفر، على أن ما يعلنونه لا يتعدى حركة اللسان، وأما قلوبهم فتبقى ممتلئة بالإيمان. فهذا النوع يكون مشمولاً بالعفو الإلهي بلا ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنهم قد مارسوا التقيّة التي أحلها الإسلام لحفظ النفس وحفظ الطاقات للاستفادة منها في طريق خدمة دين الله عزّ وجل.

النوع الثاني: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقةً، ويغيرون مسيرتهم ويتخلّون عن إيمانهم، فهؤلاء يشملهم غضب الله عزّ وجل وعذابه العظيم.

وتتطرق الآية التالية إلى أسباب ارتداد هؤلاء، فنقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» الذين يصرون على كفرهم وعنادهم.

وخلاصة المقال: حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم المادية وتعرضت للخطر المؤقت، فندموا على إسلامهم لشدة حُبهم لدينهم، وعادوا خاسئين إلى كفرهم.

وبديهي أن من لا يرغب في الإيمان ولا يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهداية الإلهية.

وتأتى الآية الاخرى لتبين سبب عدم هدايتهم، فنقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ» بحيث إنهم حُرِّموا من نعمة الرؤية والسمع وإدراك الحقائق:

«وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ».

إن ارتكاب الذنوب وفعل القبائح يترك أثره السلبي على إدراك الإنسان للحقائق، وتغلق أبواب روجه من تقبل أية حقيقة.

ثم تعرض الآية التالية عاقبة أمرهم، فنقول: «لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ».



وهل هناك من هو أتعس حالاً من هذا الإنسان الذي خسر جميع طاقاته وإمكاناته لنيل السعادة الدائمة بإتباعه هوى النفس. وبعد ذكر الفيتين السابقتين، أى الذين يتلفظون بكلمات الكفر وقلوبهم مملأى بالإيمان، والذين ينقلبون إلى الكفر مرة أخرى بكامل اختيارهم ورجبتهم، فبعد ذلك تتطرق الآية التالية إلى فئة ثالثة وهم البسطاء المخدوعون فى دينهم، فتقول: «تَمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا تَمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». فالآية دليل واضح على قبول توبة المرتد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣

وتأتى الآية الأخيرة لتقدم تذكيراً عاماً بقولها: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا» لتنفذها من العقاب والعذاب. ولكن ... لا فائدة من كل ذلك ... «وَتُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهَمْ لَا يَظْلَمُونَ». وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)

الذين كفروا فأصابهم العذاب: قلنا مراراً: إن هذه السورة هى سورة النعم، النعم المادية والمعنوية وعلى كافة الأصعدة، وقد مر ذكر ذلك فى آيات متعددة من هذه السورة المباركة، وتصور لنا الآيات أعلاه عاقبة الكفر بالنعم الإلهية على شكل مثل واقعى. وابتداء التصوير القرآنى بضرب مثل لمن لم يشكر نعمه الله عليه: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَةً» لا تضطر إلى هجرة إجبارية، بل تعيش فى أمن وأمان (مطمئنة) ومضافاً إلى ذلك «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ». ولكن حالها قد تبدل فى النهاية «فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ». وإضافة لاستكمال نعم الله المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم فى الدنيا، ويدام لهم ذلك فى الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل وأنبياء وأرسلت إليهم التعاليم السماوية «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ». فكانت النتيجة أن: «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

وإنكم حين تطلعون على هذه النماذج الواقعية من الامم السابقة، فاعتبروا بها ولا تنهجوا طريق اولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم الله «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

يحتمل حدثت هذه القصة لجمع من بنى إسرائيل فى منطقة ما، وأنهم ابتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم الله.

ومما يؤيد ذلك ما روى - فى العياشى - عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ قَوْمًا كَانُوا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَبْعُونَهَا وَيَأْكُلُونَ مِنْهَا وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤

إسرائيل يؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت فى بلادهم يستنجون بها فلم يزل الله بهم حتى اضطروا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلون منها وهو قول الله: ضرب الله مثلاً.

وثمة احتمال آخر وهو أن الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا فى اليمن، وقد ذكر القرآن الكريم قصتهم فى الآيات (١٥-١٩) من سورة سبأ، وكيف أنهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار والخيرات فى أمن وسلام، حتى أصابهم الغرور والطغيان والإستكبار وكفران النعم الإلهية، فأهلكهم الله وشنت جمعهم وجعلهم عبرة للآخرين.

فالتعبير إشارة إلى أن القحط والخوف كانا من الشدة وكأنهما لباس قد أحاط بأبدانهم من كل الجهات، وأبدانهم فى تماس معه. وعرض الحادثة ما هو إلتانبيه للناس ولكل الأمم الغارقة بالنعم الإلهية، على أن الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع.

وهو تنبيه أيضاً للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) فى أكياس الأوساخ دائماً.

وهو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية في بيوتهم لاستعمالهم الخاص، ويملؤون مخازنهم إنظاراً لارتفاع سعرها في الأسواق حتى يفسد ويذهب هباءً من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا يخلو أى عمل مما ذكر من عقوبة إلهية، وأقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.  
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لَتَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥

لا يفلح الكاذبون: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الإلهية ومسألة شكر النعمة، تأتي الآيات أعلاه لتحدث عن آخر حلقات الموضوع وتطرح مسألة المحرمات الواقعية وغير الواقعية لتفصل بين الدين الحق وبين البدع التي احدثت في دين الله، وتشرع بالقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» (١).

إن تلوث هذه المواد الثلاث بات اليوم ليس خافياً على أحد، فالميتة مصدر لأنواع الجراثيم، والدم من أكثر مكونات البدن تقبلاً للتلوث بالجراثيم، وأما لحم الخنزير فيعتبر سبباً للإصابة بالكثير من الأمراض الخطرة.

أما فلسفة تحريم ما يذبح لغير الله فليست صحيحة، بل هي أخلاقية ومعنوية.

فمن جهة يكون التحريم حرباً على الشرك وعبادة الأصنام، ومن جهة أخرى يكون دعوة إلى خالق هذه النعم.

ويستفاد من المحتوى العام للآية والآيات التالية أن الإسلام يوصى بالإعتدال في تناول اللحوم، فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم واكتفوا بالأغذية النباتية، ولا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحم أياً كانت كاهل الجاهلية والبعض ممن يدعى التمذّن في عصرنا الحاضر، ممن يجيزون أكل كل لحم (كالسحالي والسرطان وأنواع الديدان).

وفي نهاية الآية سياقاً مع الأسلوب القرآني، ذكرت الحالات والموارد الاستثنائية، يقول: «فَمَنْ اضْطُرَّ». كأن يكون في صحراء ولا يملك غداء؛ «غَيْرِ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

«باغ» أو الباغى: (من البغى) بمعنى «الطلب» ويأتى هنا بمعنى طلب اللذة أو تحليل ما حرّم الله. و «عاد» أو العادى: (من العدو) أى «التجاوز» ويأتى هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حد الضرورة.

وتأتى الآية التالية لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، والذي تطرّق القرآن إليه سابقاً بشكل غير مباشر، فتأتى الآية لتطرحه صراحة حيث

(١) «اهلّ»: من الإهلال، مأخوذ من الهلال، بمعنى إعلاء الصوت عند رؤية الهلال، وباعتبار أن المشركين كانوا إذا ذبحوا حيواناتهم للأصنام صرخوا عالياً بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه ب «اهلّ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦

تقول: «وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لَتَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ». أى: إن ما جئتم به ليس إلا كذبه صريحة أطلقتها ألسنتكم في تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، وتحريمكم لأخرى! (إشارة إلى الأنعام التي حرّمها البعض على نفسه، والبعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسماً منها لأصنامهم).

فهل أعطاكم الله حقّ سنّ القوانين؟ أم أنّ أفكاركم المنحرفة وتقاليديكم العمياء هي التي دفعتكم لإحداث هذه البدع؟ ... أو ليس هذا كذباً وافتراءً على الله؟

ويحذر القرآن في آخر الآية بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ».

لأن من مسببات الشقاء الأساسية الكذب والإفراء على أي إنسان، فكيف به إذا كان على الله عز وجل؟ فلا أقل والحال هذه من مضاعفة آثاره السيئة.

وتوضح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ويمكن أن تكون «مَتَاعٌ قَلِيلٌ» إشارة إلى أجنه الحيوانات الميتة التي كانوا يحللونها لأنفسهم ويأكلون لحومها.

ويطرح السؤال التالي: لماذا حرمت على اليهود محرّمات إضافية؟

الآية التالية كأنها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ».

وهو إشارة إلى ما ذكر في الآية (١٤٦) من سورة الأنعام: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْخَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

وحقيقه هذه المحرمات الإضافية العقاب والجزاء لليهود جزاء ظلمهم، ولذلك يقول القرآن الكريم في آخر الآيات مورد البحث: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وفي آخر آية من الآيات مورد البحث، وتمشياً مع الاسلوب القرآني، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعين من الناس والنادمين من ضلالهم، فيقول: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوَاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ».

وفي هذه الآية ملاحظتان:

أولاً: اعتبرت علة ارتكاب الذنب «الجهالة» والجاهل المذنب يعود إلى طريق الحق بعد ارتفاع حالة الجهل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧

ثانياً: إن الآية لا تحدد الموضوع بالتوبة القلبية والندم، بل تؤكد على أثر التوبة من الناحية العملية وتعتبر الإصلاح مكتملاً للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر الله».

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

كان إبراهيم لوحده أمة: كما قلنا مراراً بأن هذه السورة هي سورة النعم، وهدفها تحريك حس الشكر لدى الإنسان بشكل يدفعه لمعرفة خالق وواهب هذه النعم، والآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور لله، ألا وهو «إبراهيم» بطل التوحيد، وأول قدوة للمسلمين عامة وللعرب خاصة، والآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميدة التي كان يتحلّى بها إبراهيم عليه السلام.

١- «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً». إن «أمة» اسم مفعول يطلق على الذي تقتدى به الناس وتنصاع له. كان إبراهيم عليه السلام منبعاً لوجود أمة ولهذا أطلق القرآن عليه كلمة «أمة».

نعم فقد كان إبراهيم أمةً وكان إماماً عظيماً، وكان رجلاً صانع أمة، وكان منادياً بالتوحيد وسط بيئته الاجتماعية خالية من أيّ موحد.

٢- صفته الثانية في هذه الآيات: أنه كان «قَانِتًا لِلَّهِ».

٣- وكان دائماً على الصراط المستقيم سائراً على طريق الله، طريق الحق «حَنِيفًا».

٤- «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل كان نور الله يملأ كل حياته وفكره، ويشغل كل زوايا قلبه.

٥- وبعد كل هذه الصفات، فقد كان «شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ».

وبعد عرض الصفات الخمسة يبين القرآن الكريم النتائج المهمة لها، فيقول:

١- «اجتبه» للنسوة وإبلاغ دعوته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨

٢- «وهدية إلى صراطٍ مُستقيم»، وحفظه من كل انحراف، لأن الهداية لا تأتي لأحد عبثاً، بل لابد من توفر الإستعداد والأهلية لذلك.

٣- «وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً». «الحسنة»: في معناها العام كل خير وإحسان، فتشمل منح مقام النبوة، مروراً بالنعم المادية حتى نعمة الأولاد وما شابهها.

٤- «وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». ومع أن إبراهيم كان على رأس الصالحين في الدنيا، فإنه سيكون منهم في الآخرة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، وهذه دلالة على عظمه مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السلام على ما له من مقام سام كأحدهم في دار الآخرة، ولم لا يكون ذلك وقد طلب إبراهيم عليه السلام ذلك من ربه حين قال: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ».

٥- وختمت عطايا الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام لما ظهر منه من صفات متكاملة، بأن جعل دينه عامّاً وشاملاً لما ما سيأتي بعده من أزمان- وخصوصاً للمسلمين- ولم يجعل دينه مختصاً بعصر أهل زمانه، فقال الله عز وجل: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» (١).

ويأتي التأكيد مرة أخرى: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

وبملاحظة الآيات السابقة يبدو لنا هذا السؤال: إن كان دين الإسلام هو نفس دين إبراهيم وأن المسلمين يتبعون سنن إبراهيم عليه السلام في كثير من المسائل ومنها احترام يوم الجمعة، فلماذا اتخذ اليهود يوم السبت عيداً لهم بدلاً من الجمعة ويعطلون فيه أعمالهم؟ إن آخر آية من الآيات مورد البحث تجيب على السؤال المذكور حين تقول: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ». أي: إن السبت وما حرم في السبت كان عقوبة لليهود، وقد اختلفوا فيه أيضاً، فمنهم من قبله ومنهم من أهمله.

وتقول بعض الروايات: أن موسى عليه السلام دعا قومه- بنى اسرائيل- لاحترام يوم الجمعة وتعطيل أعمالهم فيه، وهو دين إبراهيم عليه السلام إلا إنهم تعلقوا، واختاروا يوم السبت، فجعله الله عطلة لهم ولكن بضيق وشدة، ولهذا لا ينبغي الإعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنه إنما كان استثنائياً وذا طابع جزائي، وأفضل دليل على هذا الأمر أن اليهود أنفسهم اختلفوا في يومهم

(١) «الحنيف»: بمعنى الذي يترك الانحراف ويتجه إلى الإستقامة والصلاح. وبعبارة أخرى: يغضّ نظره عن الأديان والأوضاع المنحرفة ويتوجه نحو صراط الله المستقيم، الدين الموافق للفطرة، ولهذا يسمى الصراط المستقيم، فالتعبير بالحنيف يحمل بين طياته إشارة خفية إلى أن التوحيد هو دين الفطرة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩

المنتخب هذا، فبعض إحترمه وبعض آخر خالف ذلك وأدام العمل والكسب فيه حتى أصابهم عذاب الله. ويقول القرآن الكريم في آخر الآية: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

عشرة قواعد أخلاقية ... سلاح داعية الحق: حملت آيات السورة بين طياتها أحاديث كثيرة ومتنوعة، فقد تناولت المشركين واليهود وأصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة لينة وأخرى بأسلوب تقريع وشدة، وخصوصاً الآيات السابقة لما لها من عمق وشدة أكثر مما سبقها من الآيات المباركات. أمّا الآيات أعلاه والتي تمثل خاتمة بحوث وأحاديث سورة النحل، فتبين أهم الأوامر الأخلاقية الأساسية التي ينبغي التحصن بها عند مواجهة المخالفين على أساس منطقي، كما وتبين كيفية العقاب والعتو واسلوب الصمود أمام

مؤامراتهم وما شابه ذلك.

ويمكن تسمية ذلك بالأصول التكتيكية ومنهج المواجهة في الإسلام ضد المخالفين، كما وينبغي العمل به كقانون كلى شامل لكل زمان ومكان.

ويتلخص هذا البرنامج الرباني بعشرة اصول، تم ترتيبها وفقاً لتسلسل الآيات مورد البحث:

١- «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ»: فأول خطوة على طريق الدعوة إلى الحق هي التمكن من الاستدلال وفق المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس ومحاولة تحريك وإيقاظ عقولهم، كخطوة أولى في هذا الطريق.

٢- «وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ»: وهي الخطوة الثانية في طريق الدعوة إلى الله، بالاستفادة من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٠

عملية تحريك الوجدان الإنساني، وذلك لما للموعظة الحسنة من أثر دقيق وفاعل على عاطفة الإنسان وأحاسيسه، وتوجيه مختلف طبقات الناس نحو الحق.

٣- «وَإِذَا دُلُّوا بِآيَاتِنَا عَلَى مَا كَفَرُوا مِنْهَا لِيُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلِيَذَّكَّرُوا»: الخطوة الثالثة تختص بتخليه أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فيه والأفكار المغلوطة ليكون مستعداً لتلقى الحق عند المناظرة.

وفي ذيل الآية الأولى، يقول القرآن: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

فالآية تشير إلى أن وظيفةكم هي الدعوة إلى طريق الحق بالطرق الثلاثة المتقدمة، أما مسألة من الذي سيهتدى ومن سيبقى على ضلاله، فعلم ذلك عند الله وحده سبحانه.

٤- إنصب الحديث في الأصول الثلاثة حول البحث المنطقي والاسلوب العاطفي والمناقشة المعقولة مع المخالفين، وإذا حصلت المواجهة معهم ولم يتقبلوا الحق وراحوا يعتدون، فهنا يأتي الأصل الرابع: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ».

٥- «وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ». في تفسير العياشي: إن الآية نزلت يوم أحد لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما صنع بحمزة بن عبد المطلب (فشقوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة كبده فجعلت تلوكه وجدعوا أنفه وأذنه) قال: «اللهم لك الحمد وإليك المشكى وأنت المستعان على ما أرى». ثم قال: «لئن ظفرت لأمثلن ولأمثلن». - وعن ابن عباس قال قال رسول الله:

«لأمثلن بسبعين رجلاً منهم». - فأنزل الله: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ». قال فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أصبر أصبر».

ربما كانت تلك اللحظة من أشد لحظات حياة النبي صلى الله عليه وآله ولكنه تمالك زمام امور نفسه واختار الطريق الثاني، طريق العفو والصبر.

٦- «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»: والصبر إنما يكون مؤثراً وفاعلاً إذا قصد به رضوانه تعالى ولا يلحظ فيه أى شىء دون ذلك.

٧- وإذا لم ينفع الصبر في التبليغ والدعوة إلى الله، ولا- العفو والتسامح، فلا- ينبغي أن يحلّ اليأس في قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار في التبليغ بسعة صدر وهدوء أعصاب أكثر، ولهذا يقول القرآن الكريم في الأصل السابع: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ».

٨- «وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ»: فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسعة ودقيقه وخطره فلا ينبغي لك ترك الميدان، لظنك أن قد وقعت في زوايه ضيقه وحصار محكم، بل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦١

لا بد من التوكل على الله، وسوف تفشل كل الدسائس وتبطل مفعولها بقوة الإيمان والثبات والمثابرة والعقل والحكمة.

و آخر آية من سورة النحل تعرض الأمرين التاسع والعاشر حيث تقول: ٩- «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا»: التقوى في جميع أبعادها وبمفهومها الواسع، ومنها: التقوى في مواجهة المخالفين بمراعاة اصول الأخلاق الإسلامية عند المواجهة، فمع الأسير لا بد من مراعاة

أصول المعاملة الإسلامية، ومع المنحرف ينبغي مراعاة الإنصاف والأدب والتورع عن الكذب والإتهام، وفي ميدان القتال لا بد من التعامل على ضوء التعليمات العسكرية وفق الموازين والضوابط الإسلامية، فمثلاً: ينبغي عدم الهجوم على العزل من الأعداء، وعدم التعرض للأطفال والنساء والعجزة، ولا التعرض للمواشى والمزارع لأجل إتلافها، ولا يقطع الماء على العدو... وخالصة القول: تجب مراعاة اصول العدل مع العدو والصديق (وطبيعى أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم إستثناءً وليس قاعدة).

١٠- «وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ». وإذا عمل بالإحسان فى محله المناسب، فإنه أفضل أسلوب للمواجهة، والتاريخ الإسلامى يرفدنا بعينات رائعة فى هذا المجال... منها: موقف معاملة النبى صلى الله عليه وآله مع مشركى مكة بعد الفتح. وبنظرة تأملية معنئة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبين لنا جميع الخطوط الأصلية والفرعية لأسلوب مواجهة المخالفين، وأن هذه الاصول إنما احتوت كل الاسس المنطقية والعاطفية والنفسية والتكتيكية، وكل ما يؤدى للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الايجابى فيها.

ولو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.  
«نهاية تفسير سورة النحل»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٢

## ١٧ سورة الإسراء

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٣

أسماء السورة: بالرغم من أن الاسم المشهور لهذه السورة هو «بنى إسرائيل» إلا أن لها أسماء اخرى مثل «الإسراء» و «سبحان». ومن الواضح أن ثمة علاقة بين أى اسم من أسماء السورة وبين محتواها ومضمونها، فهى «بنى إسرائيل» لأن هناك قسماً مهماً فى بداية السورة ونهايتها يرتبط بالحديث عن بنى إسرائيل.

وإذا قلنا أنها سورة «الإسراء» فإن ذلك يعود إلى الآية الاولى فيها التى تتحدث عن إسراء (ومعراج) النبى الأكرم صلى الله عليه وآله. وأما تسميتها ب «سبحان» فإن ذلك يعود إلى الكلمة الاولى فى السورة المباركة.

محتوى السورة: هذه السورة مكية وفق القول المشهور بين المفسرين، لذا فإن محتوى السورة يوافق خصوصيات السور المكية. وبالامكان فرز المحاور المهمة الآتية التى يدور حولها مضمون السورة:

١- الإشارة إلى أدلة النبوة الخاتمة وبراهينها، وفى مقدمتها معجزة القرآن وقضية المعراج.

٢- ثمة بحوث فى السورة ترتبط بقضية المعاد.

٣- تتحدث السورة فى بدايتها ونهايتها عن قسم من تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٤

٤- تتعرض السورة إلى حرية الاختيار لدى الإنسان وأن الإنسان غير مجبر فى أعماله، وبالتالي فإن على الإنسان أن يتحمل مسؤولية تلك الحرية من خلال تحمله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.

٥- تبحث السورة قضية الحساب والكتاب فى هذه الدنيا، لكى يعى الإنسان قضية الحساب والكتاب على أعماله وأقواله فى اليوم الآخر.

٦- تشير إلى الحقوق فى المستويات المختلفة، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، وبالأخص منهم الأم والأب.

٧- تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و «التبذير»، و «البخل»، و «قتل الأبناء»، و «الزنا»، و «أكل مال اليتيم»، و «البخس فى المكيال»، و «التكبر»، و «إراقة الدماء».

٨- في السورة بحوث حول التوحيد ومعرفة الله تعالى

٩- تواجه السورة مواقف العناد والمكابرة إزاء الحق، وأن الذنوب تتحوّل إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.

١٠- تركّز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.

١١- تؤكد السورة على تأثير القرآن الكريم في معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية والاجتماعية.

١٢- تبحث السورة في المعجزة القرآنية وعدم تمكن الخصوم وعجزهم عن مواجهتها هذه المعجزة.

١٣- تحذّر السورة المؤمنين من وساوس الشيطان وإغوائه، وتنبههم إلى المسالك التي ينفذ من خلالها إلى شخصيته المؤمن.

١٤- تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا والمفاهيم والتعاليم الأخلاقية.

١٥- أخيراً تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس والعبر من هذه القصص.

في كل الأحوال تعكس سورة الإسراء في مضمونها ومحتواها العقائدي والأخلاقي والاجتماعي لوحه متكاملة ومتناسقة لسمو وتكامل البشر في المجالات المختلفة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم ويكون من أصحابه».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٥

وينبغي أن يلاحظ أن التلاوة ينبغي أن تقترن بالتفكير في معانيها والتأمل في مفاهيمها، وأن يعقب ذلك جميعاً العمل بها، وتحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم في سلوكه.

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)  
معراج النبي صلى الله عليه وآله: الآية الأولى في سورة الإسراء تتحدث عن إسرائ النبي صلى الله عليه وآله أي سفره ليلاً من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى (في القدس الشريف). وقد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجه صلى الله عليه وآله إلى السماء. وقد لوحظ في هذا السفر أنه تمّ في زمن قياسي حيث إنه لم يستغرق سوى ليلة واحدة بالنسبة إلى وسائل نقل ذلك الزمن ولهذا كان أمراً اعجازياً وخالقاً للعادة.

السورة المباركة تبدأ بالقول: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ». وقد كان القصد من هذا السفر الليلي الإعجازي هو «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا».

وبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وآله كان عارفاً بعظمة الله سبحانه، وكان عارفاً أيضاً بعظمة خلقه، لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازي أن تمتلئ روح رسول الله صلى الله عليه وآله وأكثر بدلائل العظمة الربانية، وآيات الله في السماوات، ولتجد روحه السامية في هذه الآيات زخماً إضافياً يوظفه صلى الله عليه وآله في هداية الناس إلى رب السماوات والأرض.

ثم حُتِمَتِ الْآيَةُ بِالْقَوْلِ: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». وهذه إشارة إلى أن الله تبارك وتعالى لم يختر رسوله ولم يصطفه لشرف الإسراء والمعراج، إلّا بعد أن اختبر استعداداه لهذا الشرف ولياقته لهذا المقام، فالله تبارك وتعالى سمع قول رسوله ورأى عمله وسلوكه فاصطفاه للمقام السامي الذي اختاره له في الإسراء والمعراج «١».

(١) من المشهور بين علماء الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كان في مكة أسرى به الله تبارك وتعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك صعد به إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الربانية وآيات الله الكبرى في فضاء السماوات، ثم عاد صلى الله عليه وآله في نفس الليلة إلى مكة المكرمة.

والمعروف أيضاً أن سفر الرسول صلى الله عليه وآله في الإسراء والمعراج قد تمّ بجسم رسول الله وروحه معاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٦

إنَّ تعبير «أسرى» في الآية يشير إلى وقوع السفر ليلاً. وبالرغم من أنَّ كلمة «ليلاً» جاءت في الآية تأكيداً لكلمة «أسرى» إلاَّ أنَّها تريد أن تبين أنَّ سفر الرسول صلى الله عليه وآله قد تمَّ في ليلة واحدة فقط على الرغم من أنَّ المسافة بين المسجد الحرام وبيت المقدس تقدَّر بأكثر من مائة فرسخ، هذا السفر يقع في ليلة واحدة فقط.

وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ تَنخُذُوا مِنْ دُونِي وَ كَيْلًا (٢) ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَغْلُنَّ أَعْلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنَّ أَحْسَنَ نَسَمٍ أَحْسَنُ نَسَمٍ لَأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوءُوا وَ جُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَجْزُوا مَا عَلُوا تَنْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُزَحِّمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

بعد أن أشارت الآية الأولى في السورة إلى معجزة إسرائ النبي صلى الله عليه وآله كشفت آيات السورة الأخرى عن موقف المشركين والمعارضين لمثل هذه الأحداث، وأبانت استنكارهم لها، وعنادهم إزاء الحق، في هذا الإتجاه انعطفت الآية الأولى - من الآيات مورد البحث - على قوم موسى، لتقول لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ تأريخ النبوات واحد، وإنَّ موقف المعاندين واحد أيضاً، وأنه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشي موقفه هذا منك، وبين يديك الآن تأريخ بنى إسرائيل في موقفهم من موسى عليه السلام. تقول الآية أولاً: «وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ».

وصفه هذا الكتاب أنه: «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ». والكتاب الذى تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذى نزل على موسى عليه السلام هدى لبنى إسرائيل.

ثم تشير الآية إلى الهدف من بعثه الأنبياء بما فيهم موسى عليه السلام فتقول: «أَلَّا تَنخُذُوا مِنْ دُونِي وَ كَيْلًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٧

إنَّ التوحيد فى العمل هو واحدٌ من معالم أصل التوحيد، وهو علامة على التوحيد العقائدى. الآية تقول: لا تتكىء على أحد سوى الله. ومن أجل أن تحرك الآية التالية عواطف بنى إسرائيل وتحفزهم لشكر النعم الإلهية عليهم، خصوصاً نزل الكتاب السماوى، فإنها تضع لهم نموذجاً للعبد الشكور فتقول:

«ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ». ولا تنسوا: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا».

والآية تخاطب بنى إسرائيل بأنهم أولاد من كان مع نوح، وعليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم وآبائهم فى الشكر لأنعم الله.

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث، فتقول:

«وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَغْلُنَّ أَعْلُوًّا كَبِيرًا».

والمقصود من «الأرض» فى الآية - بقرينة الآيات الأخرى - هى أرض فلسطين المقدسة التى يقع المسجد الأقصى المبارك فى ربوعها. الآية التى تليها تفضّل ما أجملته من إشارة إلى الإفسادين الكبيرين لبنى إسرائيل والحوادث التى تلى ذلك على أنها عقوبة إلهية فتقول: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا» وإرتكبتهم ألوان الفساد والظلم والعدوان «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ».

وهؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: «فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ». وهذا الأمر لا مناص منه: «وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا». ثم تشير بعد ذلك إلى أن الألفاظ الإلهية ستعود لتشملكم، وسوف تعينكم فى النصر على أعدائكم، فتقول: «ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا».

وهذه المنّة واللطف الإلهى بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم وتصلحوا أعمالكم وتركوا القبائح والذنوب لأنه: «إِنْ أَحْسَنَ نَسَمٍ أَحْسَنُ نَسَمٍ لَأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا».



إِنَّ الْآيَةَ تَعْبَّرُ عَنْ سَنَةٍ ثَابِتَةٍ، إِذْ إِنَّ مَحْصَلَهُ مَا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ سُوءٍ أَوْ خَيْرٍ تَعُودُ لِنَفْسِهِ.

تقول الآية في وصف المشهد الثاني أنه حين يحين الوعد الإلهي سوف تغطّيكم جحافل من المحاربين ويحقيق بكم البلاء إلى درجة أن آثار الحزن والغم تظهر على وجوهكم: «فَإِذَا جَاءَ وَعِيدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوا وَجُوهَكُمْ». بل ويأخذون منكم حتى بيت المقدس: «وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٨

وسوف لا يكتفون بذلك بل سيحتلون جميع بلادكم ويدمرونها عن آخرها:

«وَلْيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَّبِيرًا». وفي هذه الحالة فإن أبواب التوبة الإلهية مفتوحة: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ». «وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا». أي: إن عدتم لنا بالتوبة فسوف نعود عليكم بالرحمة، وإن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبة. وإذا كان هذا جزاؤكم في الدنيا ففي الآخرة مصيركم جهنم:

«وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا» (١). الإفسادان التاريخيان لبني إسرائيل: تحدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبني إسرائيل، يقود كل منهما إلى الطغيان والعلو، وقد لاحظنا أن الله سلط على بني إسرائيل عقب كل فساد، رجالاً أشداءً شجعاناً يذيقونهم جزاء فسادهم وعلوهم وطغيانهم، هذا مع استثناء الجزء الأخرى الذي أعده الله لهم.

يستفاد من تاريخ بني إسرائيل بأن أول من هجم على بيت المقدس وخزبه هو ملك بابل «نبوخذ نصر» حيث بقي الخراب ضارباً فيه لسبعين عاماً، إلى أن نهض اليهود بعد ذلك لإعمارهم وبنائه، أميا الهجوم الثاني الذي تعرّض له، فقد كان من قبل قيصر الروم «أسيانوس» الذي أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل. وقد تم ذلك في حدود مائة سنة قبل الميلاد.

وبذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتي «نبوخذ نصر» و «أسيانوس».

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَا تَفْصِيلًا (١٢)

(١) «حصير»: مشتقة من «حصر» بمعنى الحبس، وكل شيء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم «حصير» ويقال للحصير العادية حصيراً لأن خيوطها وموادها نسجت إلى بعضها البعض.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٩

أقصر الطرق للهداية والسعادة: الآيات السابقة تحدّثت عن بني إسرائيل وكتابهم السماوي «التوراة» وكيف تخلّفوا عن برنامج الهداية الإلهية ليلقوا بعض جزائهم في هذه الحياة الدنيا، والباقي مدّخر ليوم القيامة. وفي هذا المقطع من الآيات، إنتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب السماوي للمسلمين، وآخر حلقة في الكتب السماوية، فقال تعالى أولاً: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ».

إن معنى الآية أعلاه، هو أن القرآن الكريم يمثل أقصر وأفضل طرق الاستقامة والثبات والهداية.

وبهذا فإن الطريق القويم من وجهة نظر العقائد والأفكار.

العقيدة الأقوم من هذه الزاوية، هي التي توافق بين الإعتقاد والعمل، والظاهر والباطن، الفكر والمنهج، وتدفع الإنسان والجميع نحو الله. أمّا الأقوم من وجهة نظر القوانين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، التي تسود المجتمع.

وأخيراً فإن المنهج الأقوم بالنسبة للنظم والسلطات الحاكمة، هو كل ما يدفعها إلى إقامة العدل، والدعوة إلى إشاعة الإنصاف، ومواجهة الظلم والظالمين.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس في مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذي ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالأولى يكون حالها

كما يقول تعالى: «وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا».

أما الفئة الثانية فيكون مصيرها تبعاً لموقفها كما يقول تعالى: «وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وإذا كان استخدام «بشارة» واضح هنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية والاستهزاء.

الآية التي بعدها تنساق في نفس اتجاه البحث وتشير إلى احدى العلل المهمة لعدم الإيمان وتقول بأن عجلة الإنسان وتسرعه وعدم اطلاعه على الامور وإحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى في جهده بين دعائه بالخير وطلبه، وبين دعائه بالشر وطلبه له.

تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ». لماذا؟: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا».

إن استعجال الإنسان واندفاعه في سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية للأمر بحيث إنه لا يحيط بالأشياء بالدراسة الشاملة مما يفوت عليه تشخيص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٠

منفعته الواقعية، وهكذا بنتيجة تعجّله واندفاعه المضطرب يضع عليه وجه الحقيقة، ويتغير مضمونها بنظره، فيفقد نفسه باتجاه الشر والأعمال السيئة الضارة. وهكذا ينتهي الإنسان - نتيجة سوء تشخيصه واضطراب مقياسه في رؤية الخير والحقيقة - إلى أن يطلب من الله الشر، تماماً كما يطلب منه الخير، وأن يسعى وراء الأعمال السيئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة، وهذا الإضطراب وفقدان الموازين هو أسوأ بلاء يصاب به الإنسان ويحول بينه وبين السعادة الحقيقية.

في محاسن البرقى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنما أهلك الناس العجلة، ولو أن الناس تثبتوا لم يهلك أحد».

طبعاً هناك باب في الروايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» ففي الكافي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن الله يحب من الخير ما يعجل».

إن العجلة المذمومة هي التي تكون أثناء البحث والدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أما السرعة والعجلة الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، والتصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ في الروايات: «سارعوا في عمل الخير». أي: بعد أن يثبت أن هذا العمل خير فلا مجال للتأخير والتسويق.

الآية التي بعدها تتحدث عن تعاقب الليل والنهار ومنافع هذا التعاقب، لتجعل من هذا الشاهد مثلاً على معرفة الله والتمتع بآياته، والمثال أيضاً يفيد معنى التأمل والهدوء ويدعو إلى محاذرة التعجل والتسرع. الآية تقول أولاً: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ». ثم: «فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً». ولنا في ذلك هدفان: الأول: «لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ» حيث تنطلقون نهائياً في الكسب والعمل والمعاش مستثمرين العطايا الإلهية، وتنعمون ليلاً بالراحة والهدوء والاستقرار. والهدف الثاني فهو: «وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ» لكي لا تبقى شبهة لأحد «وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلاً».

وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧١

لقد تحدّث الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التي تتصل بالمعاد والحساب، لذلك فإن الآيات التي نبهنا الآن تتحدّث عن قضية «حساب الأعمال» التي يتعرض لها البشر، وكيفية ومراحل إنجاز ذلك في يوم المعاد والقيامة حيث يقول تعالى: «وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَيْرَهُ فِي عُنُقِهِ». «الطائر»: يعنى الطير، ولكن الكلمة هنا تشير إلى معنى آخر كان سائداً ومعروفاً بين العرب؛ إذ كانوا يتفألون بواسطة الطير؛ وكانوا يعتمدون في ذلك على طبيعة الحركة التي يقوم بها الطير. فمثلاً إذا تحرّك الطير من الجهة اليمنى، فهم يعتبرون ذلك فألاً حسناً وجميلاً، أما إذا تحرّك الطير من اليسرى فإن ذلك في عرفهم وعاداتهم علامة الفأل السيء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطير.

إنّ القرآن يبيّن أنّ التّفوّل الحسن والسّيء أو الحظّ النّحس والجميل، إنّما هي أعمالكم لا غير، والتي ترجع عهدتها إليكم وتحملون على عاتقكم مسؤولياتها، وهذه الأعمال لا تنفصل عنكم في الدنيا ولا في الآخرة.

يقول القرآن بعد ذلك: «وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا».

والمقصود من «الكتاب» في الآية الكريمة هي صحيفة الأعمال لا غير، وهي نفس الصحيفة الموجودة في هذه الدنيا والتي تثبت فيها الأعمال، ولكنها هنا (في الدنيا) مخفية عنّا ومكتومة، بينما في الآخرة مكشوفة ومعروفة.

في هذه اللحظة يقال للإنسان: «أَفْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا».

يعنى أنّ المسألة- مسألة المصير- بدرجّة من الوضوح والعلنية والإنكشاف، بحيث لا مجال لانكارها.

وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله «أَفْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ» قال: «يذكر العبد جميع ما عمل، وما كتب عليه، حتى كأنه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها».

الآية التي بعدها توضّح أربعة أحكام أساسية فيما يخص مسألة الحساب والجزاء على الأعمال، وهذه الأحكام هي:

١- أولاً تُقرر أنّ «مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» حيث تعود النتيجة عليه.

٢- ثم تُقرر أيضاً أنّ «وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

وقرأنا نظير هذين الحكيمين في الآية السابعة من هذه السورة في قوله تعالى: «إِنَّ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٢

أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا». ٣- ثم تنتقل الآية لتقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ». «الوزر»: بمعنى الحمل الثقيل؛ وأيضاً تأتي بمعنى المسؤولية، لأنّ المسؤولية- أيضاً- حمل معنوي ثقيل على عاتق الإنسان.

طبعاً هذا القانون الكلي الذي تُقرره آية «وَلَمَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» لا يتنافى مع ما جاء في الآية (٢٥) من سورة النحل التي تقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ» لأنّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين يكونون فاعلين للذنوب أيضاً، أو يُعتبرون بحكم الفاعلين له، ولذلك فهم في واقع الأمر يتحملون أوزارهم وذنوبهم.

٤- الحكم الرابع يتمثل في قوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» يقوم ببيان التكليف وإلقاء الحجة.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)

مراحل العقاب الإلهي: إنّ موضوع البحث في هذه الآيات يُكَمِّل ما كنّا بصدد بحثه في نهاية الآيات السابقة، ولكن بصورة أخرى، إذ تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا» (١٦).

إنّ الآيات التي كنّا قبل قليل بصدد بحثها، كانت تتحدّث عن أنّ العقاب الإلهي لا يمكن أن ينزل بساحة شخص أو مجموعة أو أمّة، من دون أن تكون هناك حجة وبيان للتكليف من قبل الرسل والأنبياء عليهم السلام والآية التي نحن بصددّها الآن، تتحدّث عن نفس هذا الأصل ولكن بطريقة أخرى.

إنّ الله لا- يعاقب أو يؤاخذ أحداً بالعذاب، قبل أن يتمّ الحجة عليه، وقبل أن يتّضح ويستبين تكليفه، ففي البداية يضع الله تعليماته وأوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها وأطاعوا فستنالهم سعادة الدنيا والآخرة. أمّا إذا عصوا وخالفوا ولم يلتزموا بالأوامر والنواهي الربانية، فسيحقيق بهم العذاب، ويؤدّي إلى هلاكهم.

(١) بالرغم من أنّ كلمة «قول» لها معنى واسع ولكنها هنا تعنى إعطاء الأمر بالعذاب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٣

إضافة إلى ذلك، فإنّ التعبير فى الآية الكريمة ينطوى على إشارة مهمة، هى أنّ أغلب المفاسد الاجتماعية تنبع من المترفين، أصحاب الأموال، البعيدين عن الله تعالى، والذين يعيشون حياةً مترفةً بعيدةً عن الشرع مملوءةً بالأهواء والمفاسد.

الآية التى بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنّها أصل عام، وقاعدة سارية، إذ تقول: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ» وفقاً لهذه القاعدة والسنة، ثم تضيف بعد ذلك: «وَكَفَىٰ بَرِّيكَ بُدْثُوبٍ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا». أى: إنّ ظلم وذنوب فرد أو مجموعة لا يمكنها أن تكون خافية على العين البصيرة التى لا تنام لرب العالمين.

أمّا لماذا أكّدت الآية على القرون من بعد نوح عليه السلام؟ فقد يكون ذلك بسبب أنّ الحياة قبل نوح عليه السلام كانت حياةً بسيطةً، والاختلافات التى تقسم المجتمعات إلى مُترف ومستضعف، كانت بسيطةً وضيئيلةً، لذلك فالعذاب الإلهي لم يشملهم بكثرة.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِلُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نَمِدُّ هُوَ لَاءً وَهُوَ لَاءٌ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

طلّاب الدنيا والآخرة: لقد تحدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر الله تعالى، وكيفيه هلاكهم، لذا فإنّ هذه الآيات - التى نحن بصدها الآن - تشير إلى سبب التمرد على شريعة الله، والعصيان لأوامره، وهذا السبب هو حبّ الدنيا، إذ يقول تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِلُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا».

«العاجلة»: تعنى النعم الزائلة، أو الحياة الزائلة.

والظريف فى الآية، أنّها لا تقول: إنّ من يسعى وراء الدنيا، ويجعلها كل همّه، يحصل على كل ما يريد، بل قيدت ذلك بشرطين هما: أولاً: سيحصل على جزء مما يريده؛ وأنّ هذا الجزء هو المقدار الذى نريده نحن، أى «مَا نَشَاءُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٤

ثانياً: إنّ جميع الأشخاص - رغم سعيهم الدنيوى - لا يحصلون على هذا المقدار، وإنّما قسم منهم سيحصل على جزء من متاع الدنيا. وهذا معنى قوله: «لِمَنْ نُرِيدُ».

وبناءً على ذلك، فلا كل طلّاب الدنيا يحصلون عليها، ولا اولئك الذين يحصلون على شىء منها، يحصلون على ما يريدون. ومسار الحياة اليومية يوضّح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكّدون ليلاً ونهاراً ولكنهم لا يحصلون على شىء.

وما أكثر الذين لهم امنيات كبيرة وطموحات متعددة ومشاريع بعيدة، ولكن لا يحصلون إلّا على القليل منها.

والجدير بالانتباه هنا، أنّ عاقبة هذه المجموعة من الناس، والتى هى نار جهنّم، قد تمّ تأكيدها فى الآية، بكلمتى «مَذْمُومًا» و «مَدْحُورًا» إذ التعبير الأوّل يأتى بمعنى اللوم، بينما الثانى يعنى الإبتعاد عن رحمة الخالق، وإنّ نار جهنّم تمثّل العقاب الجسدى لهم، أما «مذموم» و «مدحور» فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح وللجسد، والجزاء والعقاب يكون للاثنين معاً.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثانية ومصيرها، وبقرينة المقابلة - وهى أسلوب قرآنى مميّز - يتوضّح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا».

بناءً على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هى:

أولاً: إرادة الإنسان: وهى الإرادة التى ترتبط بالحياة الأبدية، ولا تكون مرتبطة باللذات الزائلة والنعم غير الثابتة، والأهداف المادية.

ثانياً: هذه الإرادة يجب أن لا تكون ضعيفة وقاصرة فى المجال الفكرى والروحي للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنسانى، وتدفعه للحركة، وببذل كل ما يستطيع من السعى فى هذا المجال.

ثالثاً: إنّ كل ما سبق من حديث عن الإرادة فى النقطتين السابقتين، ينبغى أن يقترن بالإيمان؛ الإيمان الثابت القوى. لأنّ أىّ تصميم وجهد، إذا أريد له أن يثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، ومصدر هذه الأهداف هو الإيمان بالله لا غير.

وقد يتوهم البعض ويلتبس عليه الأمر، ظاناً أن نعم الدنيا هي من نصيب عبيدها وطلابها فقط، وأن طلاب الآخرة وأهلها محرومون منها، لذلك فإن الآية التي بعدها تقف

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٥

أمام هذا اللبس، وتمنع هذا الظن، عندما تقول: «كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ» لتضيف بعدها بقليل: «وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا».

هذه النعم هي تعبير عن مقام الرحمانية الإلهية التي تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن والكافر ولكن هناك نعم لا تحصي وراء ذلك تختص بالمؤمنين والمحسنين دون غيرهم.

الآية التي بعدها تشير إلى أصل مهم في هذا الخصوص وتقول: كما أن السعي في هذه الدنيا متفاوت، وتتفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر في الآخرة، ولكن التفاوت الدنيوي محدود، لأن الدنيا هي نفسها محدودة، وأما الآخرة - ولكونها غير محدودة - فإن تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: «انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا».

هل الدنيا والآخرة تعان على طرفي نقيض؟ إننا نرى في كثير من الآيات القرآنية مدحاً وتمجيهاً للدنيا وبإمكاناتها المادية، ولكن، وبرغم الأهمية الكبرى التي تختص بها النعم المادية، فإن القرآن الكريم استخدم تعابير أخرى تحقّرها وتحطّ منها بقوة.

هذه المعاني المزوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً في الأحاديث والروايات الإسلامية.

إنه إذا تمت الاستفادة من مواهب الدنيا وعطاياها التي تعتبر من النعم الإلهية؛ ويعتبر وجودها ضرورياً في نظام الخلق والوجود، وتمت الاستفادة في سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوي، فإن ذلك يعتبر أمراً جيداً، وتمتدح معه الدنيا، أما إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سيصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغى والظلم.

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٦

أحكام إسلامية مهمة: الآيات التي نحن بصدد بحثها هي بداية لسلسلة من الأحكام الإسلامية الأساسية، والتي تبدأ بالدعوة إلى التوحيد والإيمان؛ التوحيد الذي يعتبر الأساس والأصل لكل النشاطات الإيمانية، والأعمال الحسنة والبناءة. في البداية تبدأ هذه الآيات بالتوحيد وتقول: «لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ».

إنها لم تقل: لا تعبد مع الله إلهاً آخر، بل تقول: «لَا تَجْعَلْ» هذا اللفظ أشمل وأوسع، إذ هو يعني: لا تجعل معبوداً آخر مع الله لا في العقيدة، ولا في العمل، ولا في الدعاء، ولا في العبودية. بعد ذلك توضح الآية النتيجة القاتلة للشرك: «فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا».

إن استعمال كلمة «القعود» تدل على الضعف والعجز. ومن هذا التعبير يمكن أن نستفيد أن للشرك ثلاثة آثار سيئة جداً في وجود الإنسان، هي:

١- الشرك يؤدي إلى الضعف والعجز والذلة.

٢- الشرك موجب للذم واللوم، لأنه خط انحرافي واضح في قبال منطوق العقل، ويعتبر كفراً واضحاً بالنعم الإلهية.

٣- الشرك يكون سبباً في أن يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى الأشياء التي يعبدها، فإنهم يصبحون «مخذولين» أي بدون ناصر ومعين.

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدي، تشير الآيات إلى واحدة من أهم توجيهات الأنبياء عليهم السلام للإنسان، فالآية - بعد أن تؤكد مرة أخرى على التوحيد - تقول: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

كلمة «قضاء» لها مفهوم توكيدي أكثر من كلمة «أمر» وهي تعنى القرار والأمر المحكم الذى لا نقاش فيه، وهذا أول تأكيد فى هذه القضية. أما التأكيد الثانى الذى يدل على أهمية هذا القانون الإسلامى، فهو ربط التوحيد الذى يعتبر أهم أصل إسلامى، مع الإحسان إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثالث والرابع فهما يتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفيدته كلمة «إحسان» التى تشمل كل أنواع الإحسان. وكذلك معنى الإطلاق الذى تفيدته كلمة «والدين» إذ هى تشمل الأم والأب، سواء كانا مسلمين أم كافرين.

أما التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجىء كلمة «إحساناً» نكرة، لتأكيد أهميتها وعظمتها.

ثم تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلاً بالإحسان إلى الوالدين فتقول: «إمّا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٧

يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا» بحيث يحتاجان إلى الرعاية والاهتمام الدائم، فلا تبخل عليهما بأى شكل من أشكال المحبة واللفظ ولا تؤذيها أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «اف»: «فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ (١) وَلَا تَنْهَرْهُمَا». بل: «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا». وكن أمامهما فى غاية التواضع «وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا».

إضافة إلى ما ذكرناه، فتمية ملاحظة لطيفة أخرى يطويها التعبير القرآنى، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مستين وضعيفين وكهليلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنك عندما كنت صغيراً كنت على هذه الشاكلة أيضاً، ولكن والديك لم يقصرا فى مداراتك والعناية بك، لذا فلا تقصر أنت فى مداراتهم ومحبتهم.

وقد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين واحترامهم والتواضع لهم، وقد يصدر هذا العقوق عن جهل فى بعض الأحيان، وعن قصد وعلم فى أحيان أخرى، لذا فإن الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ». وهذه إشارة إلى أن علم الله ثابت وأزلى وأبدى وبعيد عن الإشتباهات، بينما علمكم أيها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان وعصى أوامر خالقه فى مجال احترام الوالدين والإحسان إليهم، ولكن بدون قصد وعن جهل، ثم تاب بعد ذلك وأتاب، وندم على ما فعل وأصلح، فإنه سيكون مشمولاً لعفو الله تعالى: «إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا».

إحترام الوالدين فى المنطق الإسلامى: إن الإسلام يعطى التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين ورعاية حقوقهما، إلفى قضايا نادرة أخرى.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

أ) فى أربع سور قرآنية ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مباشرة، وهذا الإقتران يدل على مدى الأهمية التى يوليها الإسلام للوالدين.

ب) إن مسألة إحترام الوالدين ورعاية حقوقهما من المنزلة بمكان، حتى أن القرآن

(١) إن هذه الكلمة مأخوذ من «الصوت» الذى يخرج من الفم عندما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه من الغبار الموجود عليها. إن الآية تريد أن تقول لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة «أف» من معنى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٨

والأحاديث والروايات الإسلامية، تؤكدان معاً على الإحسان للوالدين حتى ولو كانا مشركين. (ج) رفع القرآن الكريم منزله شكر الوالدين إلى منزلة شكر الله تعالى.

د) القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانة للوالدين، ولا يجيز ذلك.

ه) بالرغم من أن الجهاد يعتبر من أهم التعاليم الإسلامية، إلا أن رعاية الوالدين تعتبر أهم منه، بل لا يجوز إذا أدى الأمر إلى أذية

الوالدين.

(و) في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من ميسرة ألف عام ولا يجدها عاق».

وفي الكافي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله ما حق الوالد على ولده؟ قال: لا يسميه باسمه، ولا يمشى بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب له». (أى:

لا يفعل شيئاً يؤدي إلى أن يسب الناس والديه).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ائْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠)

رعاية الاعتدال في الإنفاق والهبات: مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر من سلسلة الأحكام الإسلامية الأساسية، التي لها علاقة بحقوق القريبى والفقراء والمساكين، والإنفاق بشكل عام ينبغي أن يكون بعيداً عن كل نوع من أنواع الإسراف والتبذير، حيث تقول الآية: «وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً».

إن كلمة «ذِي الْقُرْبَى» لها مفهوم عام وتشمل كل الأرحام والمقربين، ألا أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله هم من أوضح مصاديق القريبى له والرسول في طليعة المخاطبين بالآية الكريمة.

إن «التبذير» هو هدر المال في غير موقعه ولو كان قليلاً، بينما إذا صُرف في محلّه فلا يعتبر تبذيراً ولو كان كثيراً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٩

الآية التي بعدها هي لتأكيد النهي عن التبذير: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً».

لأن الله أعطاه قدرة وقوة وإستعداداً وذكاءً خارقاً للعادة، ولكن الشيطان استفاد من هذه الامور في غير محلّها، أى في طريق إغواء الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

ثم إن استخدام «إخوان» تعنى أن أعمالهم متطابقة ومتناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما متشابهة، أو أنهم قرناء وجلساء للشيطان في الجحيم.

ثم أن الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحياناً، وفي هذه الحالة ترسم الآية الكريمة طريقة التصرف بالنحو الآتى: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ائْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً».

«ميسور»: مشتقة من «يسر» وهى بمعنى الراحة والسهولة، أما هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالإحترام والمحبة.

الإعتدال هو شرط في كل الامور بما فيها الإنفاق ومساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآية للقول: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ». وهذا تعبير جميل يفيد أن الإنسان ينبغي أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء وكأن أيديهم مغلوله إلى أعناقهم بخلاً

وخشية من الإنفاق، ولكن في نفس الوقت تقرّر الآية أن بسط اليد لا ينبغي أن يتجاوز الحد المقرر والمعقول في الصرف والبذل والعتاء، حتى لا ينتهى المصير إلى الملامه والإبتعاد عن الناس: «وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُوماً مَحْسُوراً».

سؤال: لماذا يجب أن يكون هناك مساكين وفقراء ومحرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الافضل أن يعطيهم الله ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآية الأخيرة بمثابة جواب على هذا السؤال: «إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً». إنه

اختبار لنا، فالله قادر على كل شيء، ولكنه يريد بهذا الطريق تربيتنا على روح السخاء والتضحية والعطاء، إضافة إلى ذلك، إذا أصبح أكثر الناس في حالة الكفاية وعدم الحاجة فإن ذلك يقود إلى الطغيان والتمرد «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ»؛ لذلك من المفيد أن يبقوا في حد معين من الحاجة. هذا الحد لا- يسبب الفقر ولا- الطغيان، من ناحية أخرى يرتبط التقدير والبسط في رزق الإنسان بمقدار السعي وبذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبيل العجزة والمعلولين)، وهكذا تقتضى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٠

المشيئة الإلهية ببسط الرزق وتقديره لمن يشاء، وهذا دليل الحكمة، إذ تقتضى الحكمة بزيادة رزق من يسعى وببذل الجهد، بينما تقتضى بتضييقه لمن هو أقل جهداً وسعيًا.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَشْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)

سته أحكام مهمة: في متابعه للأحكام الإسلامية التي أثارها الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات عن ستة أحكام إسلامية أخرى وردت في ست آيات.

أولاً: تشير الآية إلى عمل قبيح وجاهلي هو من أعظم الذنوب، فتنهى عنه: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ». فرزق هؤلاء ليس عليكم «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ». أما علّة الحكم فهي: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً».

هذه الآية تفيد أن الوضع الاقتصادي للعرب في الجاهلية كان صعباً وسيئاً. بحيث إنهم كانوا يقتلون أبناءهم في بعض الأحيان خوف العيلة والفقر، وهناك كلام بين المفسرين فيما إذا كان العرب في الجاهلية يدفنون البنات أحياء وحسب، أو أنهم كانوا يقتلون البنات أيضاً خوفاً من الفقر.

وفي الوقت الذي نستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحق النوع البشري، فإنّ عصرنا الحاضر- وفي أكثر مجتمعاته رُقيًا وتقدمًا- يعيد تكرار هذه الجريمة ولكن بأسلوب آخر، إذ أنّ العمليات الواسعة في إسقاط الجنين وقتله خوفاً من الضائقة المالية وازدياد عدد السكان، هي نموذج آخر للقتل.

ثانياً: الآية التي بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨١

لم تقل الآية: لا- تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، وهذا الأسلوب في النهي فضلاً عما يحمله من تأكيد، فإنه يوضح أنّ هناك مقدمات تجر إلى الزنا ينبغي تجنبها وعدم مقاربتها، فخيانه العين تعتبر واحدة من المقدمات، والسفور والتعري مقدمة أخرى، الكتب السيئة والأفلام الملوثة والمجلات الفاسدة ومراكز الفساد كل واحدة منها تعتبر مقدمة لهذا العمل.

كذلك فإنّ الخلوة بالأجنبية (يعنى خلوة المرأة والرجل الأجنبي في مكان واحد ولو حدهما) يعتبر عاملاً في إثارة الشهوة. وأخيراً فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصة مع ملاحظة الصعوبات الموضوعه أمام الطرفين، هي من العوامل التي قد تؤدي إلى الزنا. والآية نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر، ولكننا نرى في الأحاديث والروايات نهياً مفصلاً عن كل واحدة من هذه المقدمات.

فلسفة تحريم الزنا: يمكن الإشارة إلى ثلاثة عوامل في فلسفة تحريم الزنا، هي:

١- شياع حالة الفوضى في النظام العائلي، وانقطاع العلاقة بين الأبناء والآباء، هذه الرابطة التي تختص بكونها سبباً للتعارف الاجتماعي، بل إنّها تكون سبباً لصيانة الأبناء.

إنّ العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس العلاقات العائلية ستعرض للانهايار والتصدع إذا شاع وجود الابناء غير الشرعيين «أبناء



الزنا».

وعلاوة على ذلك، فإنهم سيحرمون من الحب الاسرى الذي يعتبر عاملاً في الحد من الجريمة في المجتمع الإسلامي، وحينئذ يتحول المجتمع الإنساني بالزنا إلى مجتمع حيواني تغزوه الجريمة والقساوة من كل جانب.

٢- لقد أثبت العلم ودلت التجارب على أن إشاعة الزنا سبب لكثير من الأمراض والمآسى الصحية وكل المعطيات تشير إلى فشل مكافحة هذه الأمراض من دون مكافحة الزنا. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز في المجتمعات المعاصرة، ونتائجها الصحية والنفسية المدمرة).

٣- يجب أن لا ننسى أن هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية وحسب، بل المشاركة في تأسيس الحياة على أساس تحقيق الإستقرار الفكري والأنس الروحي للزوجين. وأما تربية الأبناء والتعامل مع قضايا الحياة، فهي آثار طبيعية للزواج، وكل هذه الامور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل، وقطع دابر الزنا وأشكال المشاعية الجنسية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٢

ثالثاً: الحكم الآخر الذي تشير إليه الآية التي بعدها، هو احترام دماء البشر، وتحريم قتل النفس حيث تقول: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ».

إن الإسلام يحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضية القتل وإراقة الدماء؟! وهنا نستطيع أن نقول- باطمئنان-: إننا لا نرى أى شريعة غير الإسلام أعطت هذه الحرمة الاستثنائية لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات يتنفى معها إحترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبة به، لذلك فإن الآية بعد أن تثبت حرمة الدم كأصل، تشير للإستثناء بالقول: «إِلَّا بِالْحَقِّ».

إن حرمة دم الإنسان في الإسلام لا تختص بالمسلمين وحسب، بل تشمل غير المسلمين أيضاً من غير المحاربين، والذين يعيشون مع المسلمين عيشة مسالمة، فإن دماءهم- أيضاً- وأعراضهم وأرواحهم مصونة ويحرم التجاوز عليها. تشير الآية بعد ذلك إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولى القتل فتقول: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا». ولكن في نفس الوقت ينبغي لولى المقتول أن يلتزم حد الاعتدال ولا يسرف «فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا». إذ ما دام ولى الدم يتحرك في الحدود الشرعية فإنه سيكون مورداً لنصرة الله تعالى.

والنهي عن الإسراف تشير إلى واقع كان سائداً في الجاهلية، واليوم أيضاً يمكن مشاهدة نماذج لها، فحين يُقتل فرد من قبيلة معينة، فإنها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القتال.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

رابعاً: الآية التي بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، والملاحظ أن الآية استخدمت نفس اسلوب الآية التي سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم وحسب، وإنما قالت: «وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ».

وفي هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. ولكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يهدر ويكون عرضه للحوادث بدون أن يكون عليه قيم، لذلك استثنت بقوله: «إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». وبناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، وتنميتها وتكثيرها. وهذا الوضع يستمر إلى أن يبلغ اليتيم سن الرشد ويستطيع فكراً واقتصادياً أن يكون قيماً على نفسه وأمواله «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٣

خامساً: تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا». إن الكثير من العلاقات الاجتماعية وخطوط النظام الاقتصادي والمسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور وانهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام

## الاجتماعى وستحل الفوضى

سادساً: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل فى الوزن والكيل ورعاية حقوق الناس فى ذلك ومحاربة التطفيف فى الميزان حيث تقول الآية الكريمة: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا».

وعادة، فإن الحق والعدل والنظام والحساب، كل هذه الامور تعتبر أصولاً أساسية للحياة، بل وتدخل فى نظام الوجود والخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل - خصوصاً بالنسبة لبخس الكيل والتطفيف فى الميزان - يؤدى إلى إنزال ضربه شديده بالثقة التى تعتبر جوهر استقرار التعامل الإقتصادى بين الناس.

«قسطاس»: بكسر القاف أو ضمها على وزن «مقياس» وأحياناً تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «الميزان» والبعض يعتبرها كلمة رومية، بينما البعض يرى بأنها كلمة عربية.

وهناك من يقول بأنها مركبة من كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى كفة الميزان.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) الإنقياد للعلم: فى الآيات السابقة وقفنا على مجموعة من الاصول والأحكام الإسلامية وفى الآيات التى نبثها الآن نلتقى مع آخر مجموعة من سلسلة هذه الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه إلى عدده أحكام مهمة:

أولاً: فى البداية ينبغى للإنسان المسلم أن يلتزم الدقة فى كل الامور ويجعل العلم رائده

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٤

«وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ». وفى النهاية تعلق الآية عدم اتباع ما دون العمل، فتقول: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا».

والسؤال الذى تواجه به الأعضاء المذكورة يعود إلى مسؤولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسؤول عن الكلام المشكوك غير الموثق، والبصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهدة والرؤية مع أنه لم يشاهد أو يرى، والفؤاد يسأل عن الأفكار الخاطئة التى تدخل فى الأحكام الخاطئة.

ثانياً: الكبر والغرور: الآية التى بعدها تدعو إلى محاربة الكبر والغرور، وتنهى المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث تخاطب النبى صلى الله عليه وآله بالقول: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» (١). وهذه إشارة إلى سلوك المتكبرين والمغرورين الذى يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكى يلتفت الناس إليهم، ويرفعون رؤوسهم فى السماء علامة على أفضليتهم المزعومة بين الناس، لهؤلاء تقول الآية: «إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا». إذ مثل هؤلاء كالنملة التى تمشى على صخرة كبيرة وتضرب برجلها عليها، إلا أن الصخرة تسخر من حماقتها.

ويمكن أن نفهم من خلال هذه الآية، وما ذكر فى القرآن الكريم أن التكبر والغرور مرفوضان بشكل عام. لماذا؟ لأن الغرور هو مصدر الغربة عن الله وعن النفس السليمة، وهو سبب الخطأ فى الحكم والقضاء، وسبيل ضياع الحق والإرتباط بخط الشيطان والتلوث بأنواع الذنوب.

البرنامج الحياتى العملى لقادة الإسلام يعتبر درساً مفيداً لكل مسلم حقيقى فى هذا المجال.

ففى سيرة الرسول صلى الله عليه وآله نرى أنه لم يكن يسمح لأحد أن يمشى بين يديه وهو راكب.

ونقرأ - أيضاً - أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجلس على التراب تواضعاً، ويأكل الطعام كما يأكله العبيد، وكان يحلب الماعز بنفسه، ويركب الدابة دون غطاء. وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله يلتزم هذا السلوك فى كل مواقفه حتى عند فتح مكة.

وفى سيرة الإمام على عليه السلام نقرأ أنه كان يجلب الماء إلى البيت، وفى بعض الأحيان كان ينظف البيت. أما فى سيرة الإمام الحسن عليه السلام فنقرأ أنه عليه السلام حج إلى بيت الله عشرين مرة مشياً على

(١) «مَرَح»: على وزن فَرَح، وهى تعنى الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٥

الأقدام، والنجائب (المحامل والدواب) تقاد بين يديه، وكان عليه السلام يبين أن هذا العمل تواضع لله تعالى. أمّا الآية التى بعدها فهى تؤكد على ما تمّ تحريمه فى الآيات السابقة كالشرك وقتل النفس والزنا وقتل الأولاد والتصرف فى مال اليتيم وإيذاء الوالدين وما شابه ذلك، حيث تقول الآية: «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا». ومن هذا التعبير يتضح أن الله سبحانه وتعالى ليس فقط لا يجبر الإنسان على الذنب، وإنما لا يريد له (بمعنى لا يرغب ولا يود) أن يرتكب الذنب أيضاً، وإلا لو كان الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر، لما أكد الله سبحانه وتعالى على كراهيه هذه الذنوب. ثالثاً: لا تكن مشركاً: من أجل التأكيد أكثر على أن كل هذه التعليمات إنما تصدر من الوحي وتتسم بالحكمة، تقول الآية: «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ».

إن هذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هى ثابتة عن طريق الوحي الإلهي. وعادة ما تكون جميع الأحكام الإلهية على هذه الشاكلة، بالرغم من أن الإنسان لا يستطيع فى كثير من الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهية مع العقل بحكم عدم كماله، ويبقى بعد ذلك الوحي هو المجال الوحيد لمصادقية دركها والإيمان بها.

بعد ذلك ينتهى الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البداية التى انطلق منها، حيث يقول تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ». لماذا؟ لأن المصير سيكون «فَتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا». إن الشرك هو أساس جميع الانحرافات والجرائم والذنوب، لذلك فإن هذه المجموعة من الأحكام بدأت بالشرك وانتهت به.

آخر آية- من الآيات التى نبحتها- تشير إلى واحدة من الأفكار الخرافية للمشركين، إذ الكثير منهم كان يعتقد بأن الملائكة هم بنات الله، فى حين أنهم كانوا يعتبرون البنت عاراً وشناراً، وولادتها فى بيت يؤدى إلى سوء الحظ. القرآن يساير هذا المنطق فيقول لهم: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا».

إن البنات- بدون شك- كالبنين، هم عطايا الإله ومواهبه، ولا يوجد أى تفاوت بينهم فى القيمة الإنسانية. هدف القرآن هو مقابلتهم بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربكم ما تحسبه عاراً لكم؟

بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: «إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا». إذ هذا الكلام لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٦

يتلاءم مع أى منطق ويعتبر ضعيفاً من عدّه جهات، هى: ١- إن الاعتقاد بوجود ابن لله يعتبر إهانة عظيمة لمحضره المقدس، لأنه سبحانه وتعالى ليس بجسم، وليست فيه الصفات الجسمانية، ولا يحتاج فى بقائه إلى النسل. لذا فالإعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفة بالصفات الإلهية.

٢- كيف تعتقدون بأن أولاد الله كلهم بنات، فى حين أنكم ترون البنات أدنى مكانة واحتراماً من الأولاد؟ هذا الإعتقاد السفية يعتبر إهانة اخرى إلى مقام الله تبارك وتعالى.

٣- هذا الإعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة الله الذين يعتبرون من المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرد سماع كلمة «بنت»، فى حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثاً؟

وَلَقَدْ صَيَّرَ قَوْمًا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا

(٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)

كيف يفرون من الحق؟ كان الحديث فى الآيات السابقة يتعلق بقضية التوحيد والشرك، لذا فإن هذه الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح وقاطعية أكبر، وفى البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين وعنادهم فى قبال أدلة التوحيد فتقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا».

«صَرَّفَ»: مشتق من «تصريف» وتعنى التغيير والتحويل، وكونها على وزن «تفعيل» يؤكد معنى الكثرة، وبما أن القرآن يستخدم تعابير متنوعة وفنوناً كلامية مختلفة من أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلى المنطقى والفطرى أو التهديد والترغيب، لذا فإن كلمة «صَرَّفْنَا» تناسب هذا التنوع فى هذا المقام.

وهنا قد يطرح هذا السؤال: إذا ما الفائدة من ذكر كل ذلك، إذا كانت النتائج معكوسة؟

إن جواب هذا السؤال واضح، إذ أن القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصة، ولكنه للمجتمع كاه، وطبعى أن جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هناك الكثير ممن يتبع

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٧

طريق الحق إذا استبان له أدلته كما فى هذا النوع من الأدلة القرآنية، بالرغم من أنها تؤدى بمجموعة أخرى من فاقدى بصيرة القلب إلى المزيد من العناد.

الآية التى بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد الذى يعرف بين العلماء والفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنبي صلى الله عليه وآله: قل لهم: «قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبَّتُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا».

وبما أن كل صاحب قدرة يسعى لمد قدرته وتكميلها، لذا فإن وجود عدة آلهة يؤدى إلى التنازع والتمانع فيما بينهم حول الحكم والسلطة فى عالم الوجود.

وبما أن كلام المشركين وعباراتهم توحى بأنهم نزلوا فى إدراكهم لله عز وجل إلى مستوى أن يكون طرفاً للنزاع، لذا فإن الآية تقول بعد ذلك مباشرة: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا».

ثم لأجل إثبات عظمة الخالق وأنه منزّه عن خيالات واعتقادات وأوهام المشركين، تتحدث الآية التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدسة إذ تقول: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ». ثم تتطرق الآية إلى أن التسبيح لا يقتصر على ما هو موجود فى السماوات والأرض، وإنما ليس هناك موجود إلا ويسبح ويحمد الله، ولكن لا تدركون تسبيحهم: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ». ومع ذلك:

«إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا». أى: لا يؤاخذكم ولا يعاقبكم بسبب كفركم وشرككم مباشرة، ولكن يمهلكم بالقدر الكافى، ويفتح لكم أبواب التوبة ويتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أذْبَانِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزل قوله «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ» الآية فى قوم كانوا يؤذون

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٨

النبي صلى الله عليه وآله بالليل إذا تلا القرآن وصلى عند الكعبة، وكانوا يرمونه بالحجارة ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين، فحال

اللَّهِ سبحانه بينه وبينهم حتى لا- يؤذوه. وروى- في تفسير الكبير- عن ابن عباس، أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وآله ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدري ما يقول محمد غير أنني أرى شفثيه تتحرك بشيء. وقال أبو سفيان: إنني لأرى بعض ما يقوله حقاً. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر. فنزلت هذه الآية: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ...».

التفسير

المغرورون وموانع المعرفة: بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث إن جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلماذا- إذن- لا يقبل المشركون هذه الحقيقة ولا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم من سماعهم لها؟

الآيات التي نبحثها يمكن أن تكون جواباً على هذا السؤال، إذ تقول الآية الأولى: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَأَيُّمُونَ بِالْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّشْتُورًا». وهذا الحجاب والساتر هو نفسه التعصب واللجاجه والغرور والجهل، حيث تقوم هذه الصفات بصد حقائق القرآن عن أفكارهم وعقولهم ولا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مثل التوحيد والمعاد وصدق الرسول في دعوته وغير ذلك.

أما الآية التي بعدها فتقول: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا». أي: إننا غطينا قلوبهم بأستار لكي لا يفهموا معناه، وجعلنا في آذانهم ثقلاً. لذلك فإنهم: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخِذَهُ وَلَوْ عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا».

ثم يضيف الله تبارك وتعالى مرة أخرى: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَشْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ». أي: إن الله تعالى يعلم الغرض من استماعهم لكلامك وحضورهم في مجلسك و «إِذْ هُمْ نَجْوَى يَتَشَاوِرُونَ وَيَتَنَاجَوْنَ» «إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّشْحُورًا». إذ إنهم لا يأتون إليك من أجل سماع كلامك بقلوبهم وأرواحهم، بل هدفهم هو التخريب، وتصيّد الأخطاء.

الآية الأخيرة خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وبالرغم من أن عبارة الآية قصيرة، إلا أنها كانت قاضية بالنسبة لهذه المجموعة حيث قالت: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا». والآية لا تعنى أن الطريق غير واضح والحق خاف، بل على أبصارهم غشاوة، وقلوبهم مغلقة دون الاستجابة للحق، وعقولهم معطلة عن الهدى بسبب الجهل والحقد والتعصب والعناد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٩

وَقَالُوا أِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)

حتمية البعث ويوم الحساب: الآيات السابقة تحدت عن التوحيد وحاربت الشرك، أما الآيات التي نبحثها الآن فتحدت عن المعاد والذي يعتبر مكملاً للتوحيد.

الآيات التي نحن بصددنا أجابت على ثلاثة أسئلة- أو شكوك- يثيرها منكرو المعاد، ففي البداية تحكى الآيات على لسان المنكرين استفهامهم: «وَقَالُوا أِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» «١».

إن التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة يدل على أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يبين في دعوته «المعاد الجسماني» بعد موت الإنسان، إذ لو كان الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمة سبب لإيراد مثل هذه الإشكالات من قبل المعارضين والمنكرين.

القرآن في إجابته على هؤلاء يبين أن قضية بعث عظام الإنسان سهلة وممكنة، بل وأكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديدًا: «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا». وحتى لو كنتم أشد من الحجر والحديد وأبعد منهما من الحياة: «أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ». فإن البعث سيكون مصيركم.

السؤال التشكيكي الآخر الذي يثيره منكرو المعاد هو: إذا سلّمنا بأن هذه العظام المنذرثة المتلاشية يمكن أن تعود إلى الحياة، فمن

يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، ومن الذى له قدرة القيام بهذه العملية المعقدة للغاية؟

هذا السؤال تصوغه الآية بالقول على لسان المنكرين: «فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا».

القرآن يجيب على هذا السؤال حيث يقول: «قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

بعد الانتهاء من الشك الأول والثانى الذى يطلقه المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى الشك الثالث الذى تصوغه على لسانهم بهذا السؤال: «فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ». «سينغضون»: مشتقة من مادة «إنغاض» بمعنى مد الرأس نحو الطرف المقابل بسبب التعجب.

(١) «رُفَات»: على وزن «كُرَات» وهو معنى يطلق على كل شىء قديم ومتلاش.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٠

ما يقصده هؤلاء من سؤالهم هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان من التراب من جديد، فإن هذا يبقى مجرد وعد لا ندري متى يتحقق، إذا كان سيحصل هذا فى آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره فى يومنا هذا ... إن المهم أن نتحدث عن الحاضر لا عن المستقبل!

ويجيب القرآن بقوله: «قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا». إن يوم المعاد - طبعاً - قريب، لأن عمر العالم والحياة على الأرض، مهما طالت، فإنها فى قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شىء، إذ هى مجرد لحظات سريعة وعابرة وسرعان ما تنتهى.

إضافه إلى ذلك، فإن القيامة إذا كانت فى تصوراتنا المحدودة بعيدة فإن مقدمه القيامة التى هى الموت، تعتبر قريبة منا جميعاً، لأن الموت هو القيامة الصغرى (إذا مات الإنسان قامت قيامته)، صحيح أن الموت لا يمثل القيامة الكبرى، ولكنه علامة عليها ومذكر بها. فى الآية التى بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ». أى: إن بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمثلون لأمره طوعاً أو كرهاً، والآية - بالطبع - تتحدث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

فى ذلك اليوم ستظنون أنكم لبثتم قليلاً فى عالم ما بعد الموت (البرزخ) وهو قوله تعالى:

«وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا». إن هذا الإحساس سيظغى على الإنسان فى يوم القيامة، وهو يظن أنه لم يلبث فى عالم البرزخ إلا قليلاً، بالرغم من طول الفترة التى قضاها هناك، وهذه إشارة إلى أن حياة البرزخ لا تعتبر فى مدتها شيئاً فى قبال عالم الخلود الاخرى.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عِدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُم أَوْ إِن يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُرًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَمَّا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ وَ لَأ تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩١

التعامل المنطقي مع المعارضين: الآيات السابقة تعرّضت لقضية المبدأ والمعاد، أما الآيات التى نحن بصددتها فهى توضّح أسلوب المحادثة والاستدلال مع المعارضين وخصوصاً المشركين، لأنه مهما كان المذهب على المستوى، والمنطق قوياً، فإن ذلك لا تأثير له ما دام لا يتزامن مع أسلوب صحيح للبحث والمجادلة مرفقاً بالمحبة بدلاً من الخشونة، لذا فإن أول آية من هذه المجموعة تقول: «وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

الأحسن من حيث المحتوى والبيان، والأحسن من حيث التلازم بين الدليل ومكارم الأخلاق والأساليب الإنسانية، ولكن لماذا يستعمل هذا الاسلوب مع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن واتبعوا الخشونة فى الكلام والمجادلة ف «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ» ويثير بينهم الفتنة والفساد،

فلا تنسوا: «إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا».

وكلمة «عبادي» خطاب للمؤمنين، حيث تعلمهم الآية اسلوب النقاش مع الأعداء، فقد يحدث في بعض الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجدد بخشونة مع معارضى عقيدتهم ويقولون لهم بأنهم من أهل النار والعذاب، وأنهم ضالون، قد يكون هذا الموقف سبباً في أن يقف المعارضون موقفاً سلبياً إزاء دعوة الرسول صلى الله عليه وآله.

إضافة لذلك، فإن الإتهامات التي يطلقها المشركون ضد شخص رسول الله صلى الله عليه وآله ويتهمون به فيها بالسحر والجنون والكهانة والشعر، قد تكون سبباً في أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسهم ويبدأوا بالتشاجر مع المشركين ويستخدموا الألفاظ الخشنة ضدهم... القرآن يمنع المؤمنين من هذا العمل ويدعوهم إلى التزام اللين والتلطّف بالكلام واختيار أفضل الكلمات في اسلوب التخاطب، حتى يأمنوا من إفساد الشيطان.

الآية التي بعدها تضيف: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُم أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبُكُمْ».

وفي آخر الآية مواساة للرسول صلى الله عليه وآله الذي كان يتأذى ويتألم من عدم إيمان المشركين، إذ يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا».

إن مسؤوليتك - يا رسول الله - هي الإبلاغ الواضح، والدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذا آمنوا فهو الأفضل، وإن لم يؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر.

الآية التالية ذهبت أكثر من الآية السابقة في التعبير عن إحاطة الله تبارك وتعالى وعلمه بأعمال ونيات عباده، فقالت: «وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم أضافت:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٢

«وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا».

هذا التعبير القرآني جواب على أحد أسئلة المشركين وشكوكهم، حيث كانوا يقولون - باسلوب استهزائي - لماذا انتخب الله للنبوّة محمّد اليتيم، ثم ما الذي حصل حتى أصبح هذا اليتيم ليس نبياً وحسب، وإنما خاتم الأنبياء. القرآن يقول لهؤلاء: لا تعجبوا من ذلك، لأن الله عليم بقيمة كل إنسان، وهو سبحانه وتعالى ينتخب أنبياءه من بين عامية الناس، ويفضّل بعضهم على بعض، إذ جعل أحدهم (خليل الله) والآخر (كليم الله) والثالث (روح الله)، أما نبينا فقد أنتخبه بعنوان (حبيب الله).

وباختصار: لقد فضّل الله بعض النبيين على بعض لموازن يعلمها هو وتختص بها حكمته جلّ وعلا.

بالرغم من أن داود عليه السلام كان له حكم عظيم ودولة كبيرة وملك واسع، إلّا أن الله سبحانه لم يجعل هذه الامور سبباً لإفتخاره، بل اعتبر كتاب الزبور فخره، حتى يدرك المشركون أن عظمة الإنسان، ليس لها علاقة بالمال والثروة ووجود الحكومة والسلطة، كما أن اليتيم والفقير ليس مدعاة للذل أو دليلاً على الحقارة.

الآية التي تليها تستمر في اتجاه الآيات السابقة، إذ تقول للرسول صلى الله عليه وآله أن يخاطب المشركين بقوله تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا».

إن هذه الآية - كما في آيات اخرى كثيرة - تبطل منطق المشركين وتضرب صميم عقيدتهم من هذا الطريق، وهو أن عبادة الآلهة من دون الله، إما بسبب جلب المنفعة أو دفع الضرر، في حين أن الآلهة التي يعبدونها ليس لها القدرة على حل مشكلة معينة أو حتى تحريكها؛ أي نقل المشكلة من مستوى معين إلى مستوى أقل.

إن استخدام تعبير «الذين» في هذه الآية لا يشمل جميع المعبودات التي يشركها الإنسان مع الله (كالأصنام وغيرها) بل يشمل الملائكة والمسيح وأمثالهم.

بعد ذلك تؤكد الآية التالية على ما ذكرناه في الآية السابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا يستطيع الذين تدعونهم من دون الله أن يحلوا

مشاكلكم، أو أن يجيبوا لكم طلباتكم بدون إذن الله سبحانه وتعالى؟ الآية تجيب على ذلك بأن هؤلاء أنفسهم يذهبون إلى بيت الله، ويلجأون للتقرب من الذات الإلهية المقدسة لقضاء حوائجهم وحل مشاكلهم وتحقيق ما

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٣

يريدونه: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا». إن كلمة «الوسيلة» يشمل كل عمل جميل ولائق، وتدخل في مفهومها كل صفة بارزة اخرى، لأن كل هذه الامور تكون سبباً في التقرب من الله.

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة مع المشركين في قضايا التوحيد والمعاد، تبدأ أول آية من هذه الآيات بكلام على شكل نصيحة لتوعيتهم، حيث تجسم هذه الآية النهاية الفانية لهذه الدنيا أمام عقولهم حتى يعرفوا أن هذه الدنيا دار زوال وأن البقاء الأبدى في مكان آخر، لذلك ما عليهم إلا تهيتهم أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيث تقول الآية: «وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا». فالطغاة والظالمون نيدهم بواسطة العذاب، أما الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

وأخيراً، فإن هذه الدنيا زائلة والكل يسلك طريق الفناء: «كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا». و «الكتاب» هنا هو نفس اللوح المحفوظ وهو العلم اللامتناهى للخالق جلّ وعلا، ومجموعه القوانين الإلهية التي لا يمكن التخلف عنها في عالم الوجود هذا.

وهنا قد يقول المشركون: نحن لا- مانع لدينا من الإيمان ولكن بشرط أن يقوم الرسول صلى الله عليه وآله بجميع المعجزات التي نقتربها عليه، أى أن يستسلم لحججنا، القرآن يجب أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ».

الآية تشير إلى أن الله تبارك وتعالى أرسل معجزات كثيرة وكافية للدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وآله، أما ما تقترحونه من معجزات فهي غير مقبولة، لأنكم بعد وقوعها ومشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أن الأمم السابقة والتي كانت أوضاعها وحالاتها

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٤

مماثلة لأوضاعكم وحالاتكم، اقترحت نفس الاقتراحات ثم لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلى نموذج واضح لهذه الحالة فتقول: «وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً».

لقد طلب قوم صالح الناقة فاخرجها الله لهم من الجبل، وأجبت بذلك المعجزة التي طلبوها، وقد كانت معجزة واضحة وموضحة! ولكن بالرغم من كل ذلك «فَظَلَمُوا بِهَا».

وعادة فإنه ليس من مقتضيات البرنامج الإلهي أن يستجيب لأي معجزة يقترحها إنسان، أو ينصاع إلى تنفيذها الرسول، ولكن الهدف هو: «وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا».

ثم يواسى الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله في مقابل عناد المشركين وإلحاحهم بالباطل، إذ يبين له أن ليس هذا بالشىء الجديد: «وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ». ففي قبال دعوة الأنبياء عليهم السلام هناك دائماً مجموعة مؤمنة نظيفة القلب نقيّة السريرة، صافية الفطرة، في مقابل مجموعة اخرى معاندة مكابرة لجوجه تتحجج وتجد لنفسها المعاذير في معاداة الدعوات وإيذاء الأنبياء، وهكذا يتشابه الحال بين أمس واليوم.

ثم يضيف تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ». وامتحاناً لهم، وكذلك الشجرة الملعونة هي أيضاً امتحان وفتنة للناس: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ».

وفى الختام يأتي قوله تعالى: «وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». لماذا؟ لأنه ما دام قلب الإنسان غير مستعد لقبول الحق والتسليم



له، فإن الكلام ليس لا يؤثر فيه وحسب، بل إن له آثاراً معكوسة، حيث يزيد في ضلال هؤلاء وعنادهم بسبب تعصبهم ومقاومتهم السلبية وانغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمل ذلك).

رؤيا النبي صلى الله عليه وآله والشجرة الملعونة: مجموعة من المفسرين الشيعة والسنة، نقلوا أن هذه الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة والتي رأى فيها النبي صلى الله عليه وآله في المنام أن عدداً من القروء تصعد منبره وتنزل منه (تنزو على منبره صلى الله عليه وآله)، وقد حزن صلى الله عليه وآله كثيراً لهذا الأمر بحيث لم ير ضاحكاً من بعدها إلا قليلاً (وقد تم تفسير هذه القروء التي تنزو على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله بنبي أمية الذين جلسوا مكان النبي صلى الله عليه وآله الواحد تلو الآخر، يقلد بعضهم بعضاً، وكانوا ممسوخى الشخصية، وقد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، وخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله).

ومن الممكن أن تكون (الشجرة الملعونة) في القرآن إشارة إلى أي مجموعة منافقة وخبيثة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٥

ومطرودة من رحمة الله تعالى ومقام الربوبية، خصوصاً تلك المجاميع مثل بنى أمية واليهود قساء القلب، والمعاندين وكل الذين يسرون على خطاهم. وشجرة الزقوم في القيامة تمثل الأشجار الخبيثة في العالم الآخر، وكل هذه الأشجار الخبيثة (المجاميع المعيبة) هي لاختبار وتمحيص المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِآخْتِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصُورَتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلَتِكَ وَرَجَلَكَ وَسَارَّهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)

هذه الآيات تشير إلى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر الله في السجود لآدم عليه السلام، والعاقبة السيئة التي انتهى إليها.

إن طرح هذه القضية بعد ما ذكر عن المشركين المعاندين هو إشارة إلى أن الشيطان يعتبر نموذجاً كاملاً للاستكبار والكفر والعصيان. ثم انظروا إلى أين وصلت عاقبته، لذا فإن من يتبعه سيصير إلى نفس العاقبة. الآية تقول: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ».

إن هذه السجدة التي أمر الله تعالى بها هي نوع من الخضوع والتواضع بسبب عظمه خلق آدم عليه السلام وتميزه عن سائر الموجودات، أو هي سجود للخالق جلّ وعلا في قبال خلقه لهذا المخلوق المتميز.

فقد سيطر الكبر والغرور على إبليس وتحكمت الأنانية في عقله، ظناً منه بأن التراب والطين اللذان يعتبران مصدراً لكل الخيرات ومنبعا للحياة أقل شأنًا وأهميه من النار، لذا اعترض على الخالق جلّ وعلا وقال: «قَالَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٦

ولكنه عندما طرد- إلى الأبد- من حضرة الساحة الإلهية بسبب استكباره وطغيانه في مقابل أمر الله له، قال: «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِآخْتِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا». «أحتنكن»: مشتقة من «احتناك» وهي تعني قطع جذور شيء ما. لذا فإن هذا القول يشير إلى أن إبليس سيحرف كل بنى آدم عن طريق الله وطاعته، إلا القليل منهم.

ويحتمل أن تكون كلمة «أحتنكن» مشتقة من «حنك» وهي المنطقه التي تحت البلعوم؛ وفي الواقع، فإن الشيطان يريد أن يقول بأنه سيضع جبل الوسوسة في أعناق الناس ويجرهم إلى طريق الغواية والضلال.

وهكذا كان، فقد أعطى الشيطان إمكانية البقاء والفعالية حتى يتحقق الاختبار للجميع، ويكون وجوده سبباً لتمحيص واختبار المؤمنين الحقيقيين لأن الإنسان يشتد عزمه عندما تهاجمه الحوادث ويقوى عوده في مواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: «قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا». وبهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل من الناجح في الامتحان الإلهي الكبير.

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك- بأسلوب جميل- الطرق التي ينفذ منها الشيطان والأساليب التي يستخدمها في الوسوسة والإغواء فقالت:  
 «وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ...»  
 «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ...»  
 «وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...»  
 «وَعَدُهُمْ...»

ثم يحىء التحذير الإلهي: «وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا...».

ثم اعلم أيها الشيطان: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ...». «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا».

«إستفزز»: مشتقة من «استفزاز» وهي تعنى الإثارة؛ الإثارة السريعة والعاذية، ولكن الكلمة فى الأصل تعنى قطع شىء ما. واستعمال هذه الكلمة هنا للدلالة على تحريك الشخص وإثارته لينقطع عن الحق ويتوجه نحو الباطل.

«اجلب»: مأخوذ من «إجلاب» وفى الأصل من «جلبه» وهى تعنى الصرخة الشديدة، والإجلاب تعنى الطرد مع الأصوات والصرخات. وأما النهى عن «الجلب» الوارد فى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٧

الروايات فهو إما أن يعنى أن الذى يذهب إلى المزارع لجمع الزكاة يجب عليه أن لا يصيح ويصرخ بحيث يخيف الأحياء، أو أنه يعنى أن على المتسابقين عند سباق الخيل أن لا يصرخوا فى وجوه الخيل الاخرى لتكون لهم الأسبقية.

«خيل»: لها معنيان، فهى تعنى «الخيول» وأيضاً تعنى (الخيالة)، أما فى هذه الآية فقد وردت للتدليل على المعنى الثانى.

أما «رَجَلٍ»: فهى تعنى معكوس (الخيالة) أى (جيش الرجالة والمشاة) وبهذا يتكوّن جيش الشيطان من (الخيالة والرجالة) من جنسه أو من غير جنسه، وهذا يعنى أن البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطان ويصبح من أعوانه ومساعديه فهؤلاء كالخيالة، أما البعض الآخر فيتأثر ببطء وعلى مهل كالمشاة والرجالة.

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَوْا بِرَبِّكُمْ وَأَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)

لماذا الكفران مع كل هذه النعم؟ هذه الآيات تابعت البحوث السابقة فى مجال التوحيد ومحاربة الشرك، ودخلت فى البحث من خلال طريقين مختلفين، هما: طريق الاستدلال والبرهان، وطريق الوجدان ومخاطبة الإنسان من الداخل. ففى البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالي فتقول: «رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ».

طبعاً هناك أنظمة لأجل حركة الفلك فى البحار.

تعلمون- طبعاً- بأن السفن تعتبر أضخم وسيلة لحمل الإنسان، واليوم فإن هناك من السفن العملاقة ما يكون بعضها بمساحة مدينة صغيرة.

ثم يضيف تعالى: «لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ». حتى تساعدكم فى أسفاركم ونقل أموالكم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٨

وتجاركم وتعينكم فى كل ما يخص أمور دنياكم ودينكم. أما لماذا؟ فلأن الله تبارك وتعالى «إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا».

من هذا التوحيد الاستدلالي والذى يعكس جانباً صغيراً من نظام الخلق، وعلم وقدره وحكمته الخالق جلّ وعلا، تنتقل الآية إلى أسلوب الاستدلال الفطرى فتقول: لا تنسوا «وَأِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا». حيث يضل أى شىء من دون الله، لأن ضرر البحر إذا وقع، كالتوفان وغيره يذهب بكل الحواجز وأستار التقليد والتعصب اللاصقة على صفاء الفطرة الإنسانية، لينكشف نور الفطرة

الذى هو نور التوحيد والإيمان والعبودية لله دون غيره.

إن الآية تعتبر عن قانون عام، عرفه كل من جرب ذلك، حيث تؤدى المشاكل والصعوبات الحادة التى يمر بها الإنسان - ويصل السكين العظم - إلى الغاء كل الأسباب الظاهرية التى كان يتعلق بها الإنسان، وتنعدم فاعلية العلل المادية التى كان يتشبث بها، وتنقطع كل الأسباب، إلا السبب الذى يصل الإنسان بمصدر العلم والقدرة المطلقين، والذى هو - لوحده سبحانه وتعالى - قادر على حلّ أعقد المشكلات.

ثم تضيف الآية: «فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا».

مرة أخرى تغطى حجب الغرور والغفلة والتعصب هذا النور الإلهي، ويغطى غبار العصيان والذنوب وملاهي الحياة المادية فطرة الإنسان ووجدانه.

ولكن هل تظنون أن الله لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد وأنتم على اليأسه وفي قلب الصحارى والبرارى؟

لذلك تقول الآية: «أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ». ثم أضافت: «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا».

بعد ذلك تضيف الآية مذكرة أمثال هؤلاء بأنكم هل تظنون أن هذه هى المرة الأخيرة التى تحتاجون فيها إلى السفر فى البحر: «أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِمَّا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا» (١). أى: لا أحد حينئذٍ

(١) «حاصب»: تعنى الهواء الذى يحرك معه الأحجار الصغيرة.

«قاصف»: بمعنى المحطم، وهى هنا تشير إلى العاصفة الشديدة التى تقلع كل شىء من مكانه.

«تبيع»: بمعنى تابع، وهى تشير هنا إلى الشخص الذى ينهض للمطالبة بالدم، وثمان الدم والثأر ويستمر فى ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٩

يطالب بدمكم ويثأر لكم منا.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

الإنسان سيد الموجودات: إن واحدة من أبرز طرق الهداية والتربية، هى التنويه بشخصية الإنسان ومكانته ومواهبه، لذا فإن القرآن الكريم وبعد بحوثه عن المشركين والمنحرفين فى الآيات السابقة، يقوم هنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان والمواهب التى منحها إياها رب العالمين، لكى لا يلوث الإنسان جوهره الثمين، ولا يبيع نفسه بثمن بخس، حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ».

ثم تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية التى حباها الله لبنى البشر، هذه المواهب هى أولاً: «وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

ثم قوله تعالى: «وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» ومع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذى يشمل كل موجود طيب وظاهر تتضح عظمته وشموليته هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

أما القسم الثالث من المواهب فينص عليه قوله تعالى: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا».

لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟ إننا نعلم أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتكوّن من قوى مختلفة، مادية ومعنوية؛ جسمية وروحية، وينمو وسط المتضادات، وله استعدادات غير محدودة للتكامل والتقدم.

فى كتاب علل الشرايع عن الإمام على عليه السلام قال: «إن الله عزّ وجل ركب فى الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب فى البهائم شهوة

بلا عقل، وركب في بنى آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم». الآية التي بعدها تشير إلى موهبة اخرى من المواهب الإلهية التي حباها الله للإنسان، ورتبت عليه المسؤوليات الثقيلة بسبب هذه المواهب. ففي البداية تشير الآية إلى قضية

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ١٤٩

القيادة ودورها في مستقبل البشر فتقول: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ». يعنى أن الذين اعتقدوا بقيادة الأنبياء وأوصيائهم ومن ينوب عنهم في كل زمان وعصر، سوف يكونون مع قادتهم ويحشرون معهم، أمّا الذين انتخبوا الشيطان وأئمة الضلال والظالمين والمستكبرين قادة لهم، فإنهم سيكونون معهم ويحشرون معهم. هذا التعبير والإشارة إلى دور الإمامة وكونها من أسباب تكامل الإنسان، يعتبر في نفس الوقت تحذيراً لكل البشرية كي تدقق في انتخاب القيادة، ولا تعطى أزمية وجودها الفكرى والحياتى بيد أى شخص كان.

ثم تقسم الآية الناس يوم القيامة إلى قسمين: «فَمَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (١). أما القسم الآخر فهو: من كان في الدنيا أعمى القلب: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ. وطبيعى أن يكون هؤلاء العميان القلوب أضل من جميع المخلوقات «وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وفي كتاب التوحيد للصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ قال: «من لم يدلّه خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودوران الفلك والشمس والقمر والآيات العجيبات، على أن وراء ذلك أمر أعظم منه، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً».

لذلك نقرأ في الآيات (١٢٤-١٢٦) من سورة طه، قوله تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا\* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَمَا نَسَىٰ الْيَوْمَ الَّذِي كَفَرَ».

دور القيادة في الإسلام: في الكافي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام ينقل أنه عندما كان يتحدث عن الأركان الأساسية في الإسلام ذكر (الولاية) كخامس وأهم ركن، في حين أن الصلاة التي توضّح العلاقة بين الخالق والخلق، والصيام الذي هو رمز محاربة الشهوات، والزكاة التي تحدّد العلاقة بين الخلق والخالق، والحج الذي يكشف الجانب الاجتماعى في

(١) «فتيل»: تعنى الخيط الرقيق الموجود في شق نوى التمر، وفي المقابل فإن «نقير» تعنى مؤخره نوى التمر، بينما تعنى «قطمير» الطبقة الرقيقة التي تغطى نوى التمر. وكل هذه التعبيرات كناية عن الشيء الصغير جداً والحقير.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠١

الإسلام، اعتبرت الأركان الأربعة الأساسية الاخرى. ثم يضيف الإمام الباقر عليه السلام: «ولم يناد بشيء كما نودى بالولاية» لماذا؟ لأن تنفيذ الأركان الاخرى لن يتحقق إلّا في ظل هذا الأصل، أى في ظل الولاية (١).

وفي تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تترك الأرض بغير إمام يحلّ حلال الله ويحرّم حرامه وهو قول الله: (يوم ندعو كل أناس بإمامهم)». ثم قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من مات بغير إمام مات ميتة جاهليّة».

التاريخ يشهد أن بعض الامم تكون في الصف الأول بين دول العالم وامم بسبب قيادتها العظيمة والكفوءة، ولكن نفس الامم تنهار وتسقط في الهاوية، برغم امتلاكها لنفس القوى البشرية والمصادر الاخرى، إذا كانت قيادتها ضعيفة وغير كفوءة.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا (٧٣) وَلَوْ لَا أَنْ جَبْتْنَاكَ لَفَدَّتْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)

بما أن الآيات السابقة كانت تبحث حول الشرك والمشركين، لذا فإن الآيات التي نبحتها تحذّر الرسول صلى الله عليه وآله من وساوس وإغواءات هذه المجموعة، حيث لا يجوز أن يبدى أدنى ضعف في محاربة الشرك وعبادة الأصنام، بل يجب الاستمرار بصلابه أكبر. في البداية تقول الآية أن وساوس المشركين كادت أن تؤثر فيك: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا».

ثم بعد ذلك تضيف أنه لولا نور العصمة وأن الله تعالى ثبتك على الحق: «وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كَدَّتْ تَوَكَّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا». وأخيراً لو أنك ركنت اليهم فسوف يكون جزاءك ضعف عذاب المشركين في الحياة الدنيا، وضعف عذابهم في الآخرة: «إِذَا لَأَذِقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا».

(١) في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «بنى الإسلام على خمس، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يُناد بشيء كما نودى بالولاية».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٢

إن كلما زاد مقام الإنسان من حيث العلم والوعى والمعرفة والإيمان، ازدادت قيمة وعمق الأعمال الخيرة التي يقوم بها، وبالتالي سيكون ثوابها أكثر، أمّا الثواب والعقاب فسوف يزداد تبعاً لهذه النسبة. إلهي لا تكن لي إلى نفسي: في تفسير مجمع البيان قال ابن عباس إنه لما نزلت هذه الآية، قال النبي صلى الله عليه وآله: «اللهم لا تكن لي إلى نفسي طرفه عين أبداً».

وهذا الدعاء المهم لرسول الهدى صلى الله عليه وآله يعطينا درساً مهماً، وهو أنه يجب أن نذكر الله دائماً ونتجىء إليه، ونعتمد على لطفه، حيث إن الأنبياء المعصومين لم يسلموا من المزالق بدون نصره الله وتثيبتهم لهم، إذن فكيف بنا نحن مع كل ما يحيطنا من أشكال الوسوسة والإغواء الشيطاني.

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)

سبب النزول

نزلت في أهل مكة لما هموا بإخراج النبي صلى الله عليه وآله من مكة.

التفسير

مؤامرة خبيثة أخرى: في الآيات السابقة رأينا كيف أن المشركين أرادوا من خلال مكائدهم المختلفة أن يحرفوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن الطريق المستقيم، لكن الله أنجاه بلطفه له ورعايته إيّاه، وبذلك فشلت خطط المشركين.

بعد تلك الأحداث، وطبقاً للآيات التي بين أيدينا، وضع المشركون خطة أخرى للقضاء على دعوة الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه الخطة تقضى بإبعاد الرسول صلى الله عليه وآله عن مسقط رأسه (مكة) إلى مكان آخر قد يكون مجهولاً وبعيداً عن الأنظار، إلا أن هذه الخطة فشلت أيضاً بلطف الله أيضاً.

الآية الأولى تقول: «وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا». بخطة دقيقة.

ثم يحذّرهم القرآن بعد ذلك بقوله: «وَإِذَا لَمَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا». فهؤلاء سيبادون بسرعة بسبب ذنبهم العظيم في إخراج القائد الكفوء - الذي تذهب نفسه حسرات على

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٣

العباد - من البلد، إذ يعتبر ذلك أوضح مداليل كفران النعمة، ومثل هؤلاء القوم لا يستحقون الحياة ويستحقون العذاب الإلهي. إن هذا الأمر لا يخص مشركي العرب وحسب، بل هو «سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا». وهذه السنة تنبع من

منطق واضح، حيث إن هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، ويحطمون مصباح هدايتهم ومنبع النور إليهم بأيديهم، إن مثل هؤلاء الأقوام لا يستحقون رحمة الخالق، وإن العقاب سيشملهم، ونعلم هنا أن الله تبارك وتعالى لا يفرق بين عباده، وبذلك فإن الأعمال المتشابهة في الظروف المتشابهة لها عقاب متشابه، وهذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلّ وعلا.

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)

بعد سلسلة الآيات التي تحدثت عن التوحيد والشرك وعن مكائد المشركين ومؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة والدعاء والإرتباط بالله والتي تعتبر عوامل مؤثرة في مجاهدة الشرك، ووسيلة لطرد إغواءات الشيطان من قلب وروح الإنسان، إذ تقول الآيات في البداية: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا».

في الروايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام توضّح لنا أن معنى «دلوك» هو زوال الشمس؛ وأما «عسق الليل» فإنها تعنى منتصف الليل، حيث إن «عسق» تعنى الظلمة الشديدة، وأكثر ما يكون الليل ظلمة في منتصفه.

أما «قرآن» فهي تعنى كلاماً يقرأ، و«قرآن الفجر» هنا تعنى صلاة الفجر.

وبهذا الدليل تعتبر هذه الآية من الآيات التي تشير بشكل إجمالي إلى أوقات الصلوات الخمس، ومع أخذ الآيات القرآنية الأخرى بنظر الاعتبار في مجال وقت الصلوات والروايات الكثيرة الواردة في هذا الشأن، يمكن تحديد أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٤

الآية بعد ذلك تقول: «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا». والروايات الواردة في تفسير هذه الآية تقول إن ملائكة الليل والنهار هي التي تشاهد، لأنه في بداية الصباح تأتي ملائكة النهار لتحل محل ملائكة الليل التي كانت تراقب العباد، وحيث إن صلاة الصبح هي في أول وقت الطلوع، لذلك فإن المجموعتين من الملائكة تشاهدها وتشهد عليها.

وبعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التي بعدها إلى قوله تعالى:

«وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ». المفسرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التي وردت روايات عديدة في فضيلتها.

ثم تقول الآية: «نَافِلَةً لَكَ». أي: برنامج إضافي علاوة على الفرائض اليومية.

وهذا التعبير اعتبره الكثير بأنه دليل على وجوب صلاة الليل على الرسول صلى الله عليه وآله، حيث إن هذه (النافلة) والتي هي بمعنى (زيادة في الفريضة) تخصك أنت دون غيرك يا رسول الله صلى الله عليه وآله.

في ختام الآية تتوضّح نتيجة هذا البرنامج الإلهي الروحاني الرفيع حيث تقول: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا».

ولا ريب فإن المقام المحمود هو مقام مرتفع جداً يستثير الحمد، وبما أن هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أن حمد الأولين والآخرين يشملك.

الروايات الإسلامية تشير إلى أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنبي صلى الله عليه وآله هو أكبر الشفعاء في ذلك العالم، وشفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أما الآية التي بعدها فإنها تشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية والذي ينبع من روح التوحيد والإيمان: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ» (١). فأى عمل فردى أو اجتماعي لا أبدؤه إلا بالصدق ولا انهيه إلا بالصدق، فالصدق والإخلاص والأمانة هي الخط الأساس لبداية ونهاية مسيرتي.

وفي الحقيقة فإن سر الانتصار يكمن هنا، وهذا هو طريق الأنبياء والأولياء الربانيين حيث كانوا يتجنبون كل غش وخداع وحيلة في

أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم وكل ما يتعارض مع الصدق. وعادة فإن المصائب التي نشاهدها اليوم والتي تصيب الأفراد والمجتمعات والأقوام

(١) «مدخل» و «مخرج»: هي تعنى الإدخال والإخراج، تؤدى هنا المعنى المصدرى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٥

والشعوب، إنما هي بسبب الانحرافات عن هذا الأساس، ففي بعض الأحيان يكون أساس عملهم قائماً على الكذب والغش والحيلة، وفي بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معين بصدق ولكنهم لا يستمرون على صدقهم حتى النهاية. وهذا هو سبب الفشل والهزيمة. أما الأصل الثانى الذى يعتبر من ناحية ثمرة لشجرة التوحيد، ومن ناحية اخرى نتيجة للدخول والخروج الصادق فى الأعمال، فهو ما ذكرته الآية فى نهايتها: «وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا».

وبعد أن ذكرت الآيات (الصدق) و (التوكل) جاء بعدها الأمل بالنصر النهائى، والذى يعتبر بحد ذاته عاملاً للتوفيق فى الأعمال، إذ خاطبت الآية الرسول صلى الله عليه وآله بوعد الله تعالى:

«وَقُلْ حَيَاءَ الْحَقِّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» (١)، «لأنَّ طَبِيعَةَ الْبَاطِلِ الْفَنَاءُ وَالْدَّمَارُ: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فللباطل جولة، إلا أنه لا يدوم والعاقبة تكون لانتصار الحق وأصاحبه وأنصاره.

وفى الآيات أعلاه تمت الإشارة إلى ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التى ابتعد عنها مسلمو اليوم، ولهذا السبب نرى هزائمهم المتكررة فى مقابل الأعداء والمستكبرين.

والعوامل الثلاثة هي: الدخول الصادق والخالص فى الأعمال، والاستمرار على هذه الحالة الصادقة حتى النهاية «رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ». ثم الإعتماد على قدرة الخالق جلّ وعلا، والإعتماد على النفس، وترك أىّ إعتماد أو تبعية للأجانب «وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا».

وفى بعض الروايات تم تفسير قوله «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» بقيام دولة المهدي عليه السلام فالإمام الباقر عليه السلام يبين أن مفهوم الكلام الإلهي هو: «إذا قام القائم عليه السلام ذهبت دولة الباطل».

وفى تفسير نور الثقلين عن الخرايج والجرايح عن حكيمة خبر طويل وفيه لما ولد القائم عليه السلام كان نظيفاً مفروغاً منه وعلى ذراعه الأيمن مكتوب: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

إن مفهوم هذه الأحاديث لا يحصر المعنى الواسع للآية بهذا المصداق، بل إن ثورة المهدي عليه السلام ونهضته هي من أوضح المصدايق حيث تكون نتيجتها الإنتصار النهائى للحق على الباطل فى كل العالم.

(١) «زهق»: من مادة «زهوق» بمعنى الإضمحلال والهلاك والإبادة، و «زهوق»: على وزن «قبول» صيغة مبالغة وهي تعنى الشىء الذى تمت إبادته بالكامل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٦

وخلاصة القول: إن حقيقة إنتصار الحق وانهازم الباطل هي تعبير عن قانون عام يجرى فى مختلف العصور، وإنتصار الرسول صلى الله عليه وآله على الشرك والأصنام، ونهضة المهدي عليه السلام الموعودة وانتصاره على الظالمين فى العالم، هما من أوضح المصدايق لهذا القانون العام.

وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)

القرآن وصفه للشفاء: الآية التى نبينها الآن تشير إلى التأثير الكبير للقرآن الكريم ودوره البناء فى هذا المجال حيث تقول: «وَنُزِّلُ مِنَ

الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ «الشفاء» هو في مقابل الأمراض والعيوب والنواقص، لذا فإنّ أوّل عمل يقوم به القرآن في وجود الإنسان هو تطهيره من أنواع الأمراض الفكرية والأخلاقية الفردية منها والاجتماعية.

ثم تأتي بعدها مرحلة «الرحمة» وهي مرحلة التخلّق بأخلاق الله، وتفتّح براعم الفضائل الإنسانية في أعماق الأفراد الذين يخضعون للتربية القرآنية.

أمّا الظالمون فإنّهم بدلاً من أن يستفيدوا من هذا الكتاب العظيم، فإنّهم يتمسكون بما لا ينتج لهم سوى الذل والهوان «وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا».

لا ريب أنّ القرآن قادر على هداية الضالين، ولكن بشرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، أمّا واقع المعاندين وأعداء الحق فإنّه يكشف عن تعامل هؤلاء سلبياً مع القرآن، ولذلك لا يستفيدون من القرآن، بل يزداد عنادهم وكفرهم، لأنّ تكرار الذنب يكرّس في روح الإنسان حالة الكفر والعناد.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن شفاء القرآن، تشير الآية التي بين أيدينا إلى أحد أكثر الأمراض تجذراً فتقول: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ». ولكن عندما نسلب منه النعمة ويتضرر من ذلك ولو قليلاً: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا». «أعرض»: مشتقة من «إعراض» وهي تعنى عدم الالتفات، والمقصود منها هنا هو عدم الالتفات للخالق عزّ وجل، وإعراض الوجه عنه وعن الحق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٧

«نأى»: مشتقة من «نأى» وهي على وزن «رأى» وهي بمعنى الإبتعاد، وعند إضافة كلمة «بجانبه» إليها يكون المعنى التكبر والغرور والتزام المواقف المعادية. ويمكن الاستفادة من مجموع هذه الجملة أنّ الأشخاص الدنيويين يصابون بالغرور عند مجيء النعم، بحيث إنهم ينسون واهب ومعطى هذه النعم، ولا يقتصر الأمر على النسيان وحسب، بل ينتقل إلى الإعتراض والتكبر وعدم الالتفات للخالق. جملة «مَسَّهُ الشَّرُّ» تشير إلى أدنى سوء يصيب الإنسان. والمعنى أنّ هؤلاء من الضعف وعدم التحمل بحيث إنهم ينسون أنفسهم ويغرقون في دوامة اليأس بمجرد أن تصيبهم أبسط مشكلة.

الآية الثانية تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله فتقول: «قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ». فالمؤمنون يطلبون الرحمة والشفاء من آيات القرآن الكريم، والظالمون لا- يستفيدون من القرآن سوى مزيد من الخسران، أمّا الأفراد الضعفاء فيصابون بالغرور في حال النعمة، ويصابون باليأس في حال ظهور المشاكل ... هؤلاء جميعاً يتصرفون وفق أمزجتهم، هذه الأمزجة التي تتغير وفق التربية والتعليم والأعمال المتكررة للإنسان نفسه.

وفي هذه الأحوال جميعاً فإنّ هناك علم الله الشاهد والمحيط بالجميع وخاصة بالأشخاص المهتمين: «فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا».

«شاكلة»: في الأصل مشتقة من «شكل» وهي تعنى وضع الزمام والرباط للحيوان.

و (شكال) تقال لنفس الزمام؛ وبما أنّ طبائع وعادات كل إنسان تقيده بصفات معينة لذا يقال لذلك «شاكلة».

إنّ الشاكلة تطلق على كل عادة وطريقة ومذهب وأسلوب يعطى للإنسان اتجاهاً معيناً.

لذا فإنّ العادات والصفات التي يكتسبها الإنسان بتكرار الأعمال اختيارياً وإرادياً، وكذلك الإعتقادات التي يقتنع بها ويعتمدها بسبب الاستدلال أو التعصب لرأى معين يطلق عليها كلها كلمة «شاكلة».



وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

ما هي الروح؟ تبدأ هذه الآية في الإجابة على بعض الأسئلة المهمة للمشركون ولأهل الكتاب، إذ تقول: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٨

يمكن أن نستفيد من مجموع القرائن الموجودة في الآية أن المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التي تميز الإنسان عن الحيوان، وقد شرفتنا بأفضل الشرف، حيث تنبع كل نشاطاتنا وفعاليتنا منها، وبمساعدها نكتشف أسرار العلوم. ولأن الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، ولها اصول تحكمها تختلف عن الاصول التي تحكم المادة في خواصها الفيزيائية والكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء في جملة قصيرة قاطعة: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي». ولكي لا يتعجب هؤلاء أو يندهبوا من هذا الجواب فقد أضافت الآية: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». حيث لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم من أنها أقرب شيء إليكم.

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عن قوله تعالى «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» قالوا: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ، وَالصَّمَدُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ جَوْفٌ، فَإِنَّمَا الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، لَهُ بَصَرٌ وَقُوَّةٌ وَتَأْيِيدٌ يَجْعَلُهُ فِي قُلُوبِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ».

إن الروح الإنسانية لها مراتب ودرجات، فتلذك المرتبة من الروح الموجودة عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هي في مرتبة ودرجه عالية جداً، ومن آثارها العصمة من الخطأ والذنب وكذلك يترتب عليها العلم الخارق. وبالطبع فإن روحاً مثل هذه هي أفضل من الملائكة بما في ذلك جبرئيل وميكائيل. (فتدبر)

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧)

ما عندك هو من رحمته وبركته: تحدثت الآيات السابقة عن القرآن، أمّا الآيتان اللتان نبهتاهما الآن فهما أيضاً ينصبان في نفس الإتجاه. ففي البداية تقول الآية: «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ». وبعد ذلك: «ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا». إننا نحن الذين أعطيناك هذه العلوم حتى تكون قائداً وهادياً للناس، ونحن الذين إذا شئنا استرجعناها منك، وليس لأحد أن يعترض على ذلك. الآية التي بعدها جاءت لتستثنى، فهي تبين أننا إذا لم نأخذ ما أعطيناك، فليس ذلك سوى رحمة من عندنا، حيث يقول تعالى: «إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ». وهذه الرحمة لأجل هدايتك وإنقاذك، وكذلك لهداية وإنقاذ العالم البشري، وهذه الرحمة مكتملة لرحمة الخلق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٩

وفي نهاية الآية ولأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا».

إن وجود القابلية لهذا الفضل في قلبك الكبير بجهدك وعبادتك من جهة، وحاجة العباد إلى مثل قيادتك من جهة أخرى، جعلنا فضل الله عليك كبيراً للغاية فقد فتح الله أمامك أبواب العلم، وأنباك بأسرار هداية الإنسان، وعصمك من الخطأ، حتى تكون أسوة وقدوة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

معجزة القرآن: الآيات التي بين أيدينا تتحدث عن إعجاز القرآن، ولأن الآيات اللاحقة تتحدث عن حجج المشركون في مجال المعجزات، فإن الآية التي بين أيدينا مقدمة للبحث القادم حول المعجزات. إن الله يخاطب رسوله صلى الله عليه وآله ويقول له: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا».

إن هذه الآية دعت - بصراحة - العالمين جميعهم، صغاراً وكباراً، عرباً وغير عرب، الإنسان أو أي كائن عاقل آخر، العلماء والفلاسفة

والأدباء والمؤرخين والنوابغ وغيرهم لقد دعتهم جميعاً لمواجهة القرآن، وتحديده الكبير لهم، وقالت لهم: إذا كنتم تظنون أن هذا الكلام ليس من الخالق وأنه من صنع الإنسان، فأنتم أيضاً بشر، فأتوا إذاً بمثله، وإذا لم تستطيعوا ذلك بأجمعكم، فهذا العجز أفضل دليل على إعجاز القرآن.

إن هذه الدعوة للمقابلة التي يصطلح عليها علماء العقائد بـ «التحدى» هي أحد أركان المعجزة، وعندما يرد هذا التعبير في أى مكان، نفهم بوضوح أن هذا الموضوع هو من المعجزات.

و تتحرك الآية التي بعدها لتوضح جانب من جوانب الإعجاز القرآني، متمثلاً في شموليته وإحاطته بكل شيء، إذ يقول تعالى: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ». ولكن بالرغم من ذلك: «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٠

حقاً إن التنوع الذي يتضمّنه القرآن الكريم تنوع عجيب، خاصة وأنه صدر من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، ففي هذا الكتاب وردت الأدلة العقلية بجزئياتها الخاصة حول قضايا العقائد، وذكرت - أيضاً - الأحكام المتعلقة بحاجات البشر في المجالات كافة.

وتعرض القرآن - أيضاً - إلى قضايا وأحداث تاريخية تعتبر فريدة في نوعها ومثيرة في بابها، وخالية من الخرافات.

وتعرض إلى البحوث الأخلاقية التي تؤثر في القلوب المستعدة كتأثير المطر في الأرض الميتة. القضايا العلمية ورد ذكرها في القرآن الكريم، إذ ذكرت بعض الحقائق التي لم تكن تعرف في ذلك الزمان من قبل أى عالم.

والخلاصة: إن القرآن سلك كل واد وتناول في آياته أفضل النماذج.

ولهذا السبب إذا اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إن جماعة من قريش - وفيهم الوليد بن المغيرة وأبو سفيان وأبو جهل - اجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلّموه وخاصّموه، فبعثوا إليه إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر صلى الله عليه وآله إليهم ظناً منه أنهم بدا لهم في أمره، وكان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمّد إنا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم

أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين وسفّفت الأحكام، وفزقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا

لتطلب مالاً أعطيناك، وإن كنت

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١١

تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كانت علة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء.

فقال صلى الله عليه وآله: «ليس شيء من ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر حتى يحكم الله بيننا».

قالوا: فإذاً ليس أحد أضيّق بلدًا منّا فاسأل ربك أن يسيّر هذه الجبال، ويجرى لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق ...

فقال صلى الله عليه وآله: «ما بهذا بعثت» ...

قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل ذلك.

قال صلى الله عليه وآله: «ذاك إلى الله إن شاء فعل».

وقال قائل منهم: لا تؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبلاً. فقام النبي صلى الله عليه وآله وقام معه عبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن

عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله ... فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سبيلاً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر، ويأتى معك نفر من الملائكة يشهدون لك، وكتاب يشهد لك .... فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله حزينا لما رأى من قومه، فأنزل الله سبحانه الآيات.

التفسير

بعد الآيات السابقة التي تحدثت عن عظمه وإعجاز القرآن، جاءت هذه الآيات تشير إلى ذرائع المشركين، هذه الطلبات وردت على ستة أقسام هي:

١- في البداية يقولون: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَثُوعًا».

٢- قولهم كما في الآية: «أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا».

٣- «أَوْ تُشَقِّطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا».

٤- «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلِكَةِ قَبِيلًا».

٥- «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ».

٦- «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ».

ثم يصدر الأمر من الخالق جلّ وعلا لرسوله صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء في مقابل اقتراحاتهم هذه: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٢

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥)

ذريعة عامة: الآيات السابقة تحدّثت عن تذرع المشركين - أو قسم منهم - في قضية التوحيد، أما الآيات التي نبحتها فإنها تشير إلى ذريعة عامة في مقابل دعوة الأنبياء، حيث تقول: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا». هل يمكن التصديق بأن هذه المهمة والمنزلة الرفيعة تقع على عاتق الإنسان، ثم - والكلام للمشركين - ألم يكن الأولى والأجدر أن تقع هذه المهمة وهذه المسؤولية على عاتق مخلوق أفضل كالملائكة - مثلاً - كي يستطيعوا أداء هذه المهمة بجدارة ... إذ أين الإنسان الترابي والرسالة الإلهية؟!

إنّ هذا المنطق الواهي الذي تحكيه الآية على لسان المشركين لا يخصّ مجموعة أو مجموعتين من الناس، بل إنّ أكثر الناس وفي امتداد تاريخ النبوات قد تذرعوا به في مقابل الأنبياء والرسل.

القرآن الكريم أجاب هؤلاء جميعاً في جملة قصيرة واحدة مليئة بالمعاني والدلالات، قال تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا». يعني أنّ القائد يجب أن يكون من سنخ من بعث إليه، ومن جنس أتباعه، فالإنسان لجماعة البشر، والملك لجماعة الملائكة.

ودليل هذا التجانس والتطابق بين القائد وأتباعه واضح؛ فمن جانب يعتبر التبليغ العملي أهم وظيفة في عمل القائد من خلال كونه قدوة واسوة، وهذا لا يتم إلا أن يكون القائد من جنسهم، يمتلك نفس الغرائز والأحاسيس، ونفس مكونات البناء الجسمي والروحي الذي يملكه كل فرد من أفراد جماعته.

من جانب آخر ينبغي للقائد أن يدرك جميع احتياجات ومشاكل أتباعه كي يكون قادراً على علاجهم، والإجابة على أسئلتهم، لهذا السبب نرى أنّ الأنبياء برزوا من بين عامة الناس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٣

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)

بعد أن قطعت الآيات السابقة أشواطاً في مجال التوحيد والنبوة وعرض حديث المعارضين والمشركين، فإن هذه الآيات عبارة عن خاتمة المطاف في هذا الحديث، إذ تضع النتيجة الأخيرة لكل ذلك. ففي البداية تقول الآية إذا لم يقبل اولئك أدلتك الواضحة حول التوحيد والنبوة والمعاد فقل لهم: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا».

إن هذه الآية تستهدف أمرين فهي أولاً: تهدد المعارضين المتعصيين والمعاندين، بأن الله خير وبصير ويشهد أعمالنا وأعمالكم، فلا تظنوا بأنكم خارجون عن محيط قدرته أو أنّ شيئاً من أعمالكم خاف عنه.

الأمر الثاني هو أنّ الرسول صلى الله عليه وآله أظهر إيمانه القاطع بما قال، حيث إنّ إيمان المتحدّث القوي بما يقول، له أثر نفسى عميق فى المستمع، وعسى أن يكون هذا التعبير القاطع والحاسم المقرون بنوع من التهديد مؤثراً فيهم، ويهزّ وجودهم، ويوقظ فكرهم ووجدانهم ويهديهم إلى الطريق الصحيح.

الآية التالية تؤكد على أنّ الشخص المهتدى هو الذى قذف الله تعالى نور الإيمان فى قلبه: «وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ». أما من أضله الله بسوء أعماله: «وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ». فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه ويطلبوا نور الهداية منه.

هاتان الجملتان تثبتان أنّ الدليل القوي والقاطع لا يكفى للإيمان، فما لم يكن هناك توفيق إلهى لا يستقر الإيمان أبداً.

أما عن سبب مجيء «أولياء» بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدد الآلهة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٤

الوهمية أو تنوع الوسائل التى يلجأون إليها، فىكون المقصود أنّ جميع هذه الوسائل وجميع البشر وغير البشر، وكل ما تؤلّهون من آلهة من دون الله، لا يستطيع أن ينقذكم من الضلالة وسوء العاقبة. ثم تذكر الآيات - بصيغة التهديد القاطع - جانباً من مصيرهم بسبب أعمالهم فى يوم القيامة فتقول: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ». فبدلاً من الدخول بشكل عادى وبقامه منتصبه، فإنّ الملائكة الموكلين بهم يسحبونهم إلى جهنم على وجوههم تعذيباً لهم.

أو يزحفون كالزواحف على وجوههم وصدورهم بشكل ذليل ومؤلم.

ثم هم يحشرون: «عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا».

إنّ مراحل ومواقف يوم القيامة متعددة، وفى بعض المراحل والمواقف يكون هؤلاء صمّاً وبكماً وعمياً، وهذا نوع من العقاب لهم، إلّا أنّ عيونهم فى مراحل لاحقة تبدأ بالنظر، وآذانهم بالسماع، وألسنتهم بالنطق حتى يروا منظر العذاب ويسمعون كلام الشامتين، ويبدأون بالتأوّه والصراخ وإظهار ضعفهم، حيث إنّ كل هذه الامور هى نوع آخر من العقاب لهم.

إنّ المجرمين وأهل النار محرومون من رؤية ما هو سارّ ومن سماع امور تبعث على الفرح، ومن قول وكلام يستوجب نجاتهم، بل على العكس من ذلك، فهم لا ينظرون ولا يسمعون ولا يقولون إلّا ما يؤذى ويؤلم.

فى الختام تقول الآية: «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ». لكن لا تظنوا أنّ نارها كنار الدنيا تنطفى فى النهاية، بل هى: «كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا».

ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا بآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

كيف يكون المعاد ممكناً؟ فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ يوماً سيئاً ينتظر المجرمين فى العالم الآخر، هذه العاقبة التى تجعل أىّ عاقل يفكر فى هذا المصير، لذلك فإنّ الآيات التى بين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٥

أيدنا تقف على هذا الموضوع بشكل آخر. في البداية تقول: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَجْعُوتُونَ خَلْقًا جَدِيدًا».

وبعد تعجبهم من المعاد الجسماني واعتبارهم ذلك أمراً غير ممكن، يقول القرآن بأسلوب واضح ومباشر وبلا فصل: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ». وعلى هؤلاء أن لا يعجلوا فإن القيامة وإن تأخرت، إلا أنها سوف تتحقق بلا ريب: «وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارْتِيَابٍ فِيهِ».

ولكن هؤلاء الظالمين والمعادين مستمرين على ما هم فيه رغم سماعهم هذه الآيات: «فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا».

وحيث إنهم كانوا يصرخون ويصرّون على أن لا يكون النبي من البشر حسداً من عند أنفسهم وجهلاً وضلالاً، وقد منعهم هذا الحسد والجهل من التصديق بإمكانية أن يعطى الله كل هذه المواهب لإنسان، لذا فإن الخالق جلّ وعلا يخاطبهم بقوله: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ». ثم يقول: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا».

«قتور»: من «قتّر» على وزن «قتل» وهي تعنى الإمساك في الصرف، وبما أن (قتور) صيغة مبالغة فإنها تعنى شدة الإمساك وضيق النظر. المعاد الجسماني: الآيات أعلاه من أوضح الآيات المرتبطة بإثبات المعاد الجسماني، فالمشركين كانوا يعجبون من إمكانية عودة الحياة إلى العظام النخرة، والقرآن يجيبهم بأن القادر على خلق السماوات والأرض، لديه القدرة على جمع الأجزاء المتناثرة للإنسان وأن يهبها الحياة مرة أخرى.

كما إن الاستدلال بالقدرة الكلية للخالق عزّ وجل في إثبات المعاد، هو واحد من الأدلة التي يذكرها القرآن مراراً ويعتمد عليها كثيراً. «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٦

لم يؤمنوا رغم الآيات: قبل بضعة آيات عرفنا كيف أن المشركين طلبوا اموراً عجيبة غريبة من الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه الآيات- التي نبحتها- تقف على نماذج للامم السابقة ممن شاهدوا أنواع المعجزات والأعمال غير العادية، إلا أنهم استمروا في الإنكار وعدم الإيمان.

في البدء يقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

والآيات التسع هي: العصا، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الجفاف، ونقص الثمرات. ولأجل التأكيد على الموضوع أسأل- والخطاب موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله- بنى إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين والمنكرين: «فَسَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ».

إلما أن الطاغية الجبار فرعون- برغم الآيات- لم يستسلم للحق، بل أكثر من ذلك إتهم موسى «فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا».

إن التعبير القرآني يكشف عن الاسلوب الدعائي التحريضي الذي استخدمه المستكبرون ويتهمون فيه الرجال الإلهيين بسبب حرمتهم الإصلاحية الربانية ضد الفساد والظلم، إذ يصف الظالمون والطاغية معجزاتهم بالسحر أو ينعنونهم بالجنون كي يؤثروا من هذا الطريق في قلوب الناس ويفرقوهم عن الأنبياء.

ولكن موسى عليه السلام لم يسكت أمام اتهام فرعون له، بل أجابه بلغة قاطعة يعرف فرعون مغزاها الدقيق، إذ قال له: «قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا

مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ».

لذا فإنك- يا فرعون- تعلم بوضوح أنك تتنكر للحقائق، برغم علمك بأنها من الله! فهذه «بصائر» أى أدلة واضحة للناس كى يتعرفوا بواسطتها على طريق الحق، وعندها سيسلكون طريق السعادة، وبما أنك- يا فرعون- تعرف الحق وتنكره، لذا: «وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا». «مثبور»: من «ثبور» وتعنى الهلاك.

ولأن فرعون لم يستطع أن يقف بوجه استدالات موسى القوية، فإنه سلك طريقاً يسلكه جميع الطواغيت عديمى المنطق فى جميع القرون وكافة الأعصار، وذاك قوله تعالى:

«فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا».

«يستفز»: من «استفزاز» وتعنى الإخراج بقوة وعنف.

ومن بعد هذا النصر العظيم: «وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ اشْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٧

الْآخِرَةَ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا». فتأتون مجموعات يوم القيامة للحساب.

«لفيف»: من مادة «لف» وهنا تعنى المجموعة المتداخلة المعقدة بحيث لا يعرف الأشخاص، ولا من أى قبيلة هم.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)

مرّة اخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمية وعظمه هذا الكتاب السماوى ويجب على بعض ذرائع المعارضين. فى البدايه تقول الآيات:

«وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ». ثم تضيف: «وَبِالْحَقِّ نَزَلَ». ثم تقول: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». إذ ليس لك الحق فى تغيير محتوى القرآن.

والفرق بين الجملة الاولى: «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ» والجملة الثانية: «وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» هو أن الإنسان قد يبدأ فى بعض الأحيان بعمل ما، ولكنه لا يستطيع اتمامه بشكل صحيح وذلك بسبب من ضعفه، أما بالنسبة للشخص الذى يعلم بكل شىء ويقدر على كل شىء، فإنه يبدأ بداية صحيحة، وينهى العمل نهاية صحيحة. وكمثال على ذلك: الشخص الذى يخرج ماء صافياً من أحد العيون، ولكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يحافظ على صفاء هذا الماء ونظافته ويمنعه من التلوث، فيصل الماء فى هذه الحالة إلى الآخرين وهو ملوث، إلماً أن الشخص القادر والمحيط بالامور، يحافظ على بقاء الماء صافياً وبعيداً عن عوامل التلوث حتى يصل إلى العطاشى والمحتاجين له.

القرآن كتاب نزل بالحق من قبل الخالق، وهو محفوظ فى جميع مراحلها سواء فى المرحلة التى كان الوسيط فيها جبرائيل الأمين، أو المرحلة التى كان الرسول فيها هو المتلقى، وبمرور الزمن لاتستطيع يد التحريف والتزوير أن تمتد إليه بمقتضى قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» فالله هو الذى يتكفل حمايته وحراسته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٨

لذا فإن هذا الماء النقى الصافى الوحي الإلهى القويم لم تناله يد التحريف والتبديل منذ عصر الرسول صلى الله عليه وآله وحتى نهاية العالم. الآية التى تليها ترد على واحدة من ذرائع المعارضين وحججهم، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن دفعه واحده على الرسول صلى الله عليه وآله، ولماذا كان نزوله تدريجياً؟ كما تشير إلى ذلك الآية (٣٢) من سورة الفرقان التى تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا». فيقول الله فى جواب هؤلاء: «وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ». حتى يدخل القلوب والأفكار ويترجم عملياً بشكل كامل.

ومن أجل التأكيد أكثر تبين الآية- بشكل قاطع- أن جميع هذا القرآن أنزلناه نحن:

«وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا».

إن القرآن له إرتباط دقيق بعصره، أى إرتباط ب (٢٣) سنة، هى عصر نبوة نبي الخاتم بكل ما كانت تتمخض به من حوادث وقضايا. هل يمكن جمع حوادث (٢٣) سنة نفسها فى يوم واحد، حتى ينزل القرآن فى يوم واحد؟ النزول التدريجى يعنى الإرتباط الدائم للرسول صلى الله عليه و آله مع مصدر الوحي، إلّا أن النزول الدفعى يتم بمرحلة واحدة لا يتسنى للرسول صلى الله عليه و آله الإرتباط بمصدر الوحي لأكثر من مرّة واحدة. الآية التى تليها استهدفت غرور المعارضين الجهلة حيث تقول: «قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا».

إن المقصود من «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ» هم مجموعة من علماء اليهود والنصارى من الذين آمنوا بعد أن سمعوا آيات القرآن، وشاهدوا العلامات التى قرأوها فى التوراة والإنجيل، والتحقوا بصف المؤمنين الحقيقيين، وأصبحوا من علماء الإسلام.

«يَخِرُّونَ»: بمعنى يسقطون على الأرض بدون إرادتهم، واستخدام هذه الكلمة بدلاً من السجود ينطوى على إشارة لطيفة، هى أن الواعين وذوى القلوب اليقظة عندما يسمعون آيات القرآن وكلام الخالق عزّ وجلّ ينجذبون إليه ويولّهون به إلى درجة أنهم يسقطون على الأرض ويسجدون خشيةً بدون وعى واختيار (١).

(١) يقول الراغب فى (المفردات): «يخرون» من مادة «خري» ويقال لصوت الماء والريح وغير ذلك ممّا يسقط من علو. وقوله تعالى: «خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط وحصول الصوت منهم بالتسييح، والتنبيه أن ذلك الخري كان صوت تسييحهم بحمد الله لا بشيء آخر، ودليله قوله تعالى فيما بعد: «وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٩

«أذقان»: جمع «ذقن» ومن المعلوم أن ذقن الإنسان عند السجود لا يلمس الأرض، إلّا أن تعبير الآية إشارة إلى أن هؤلاء يضعون كامل وجههم على الأرض قبال خالقهم حتى أن ذقنهم قد يلمس الأرض عند السجود.

الآية التى بعدها توضّح قولهم عندما يسجدون: «وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِن كَان وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا». هؤلاء يعبرون بهذا الكلام عن عمق إيمانهم واعتقادهم بالله وبصفاته وبوعده.

والكلام على هذا الأساس يجمع اصول الدين فى جملة واحدة.

وللتأكيد - أكثر - على تأثر هؤلاء بآيات ربهم، وعلى سجدة الحب التى يسجدونها تقول الآية التى بعدها: «وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشوعًا». «الخشوع»: هو حاله من التواضع والأدب الجسدى والروحي للإنسان فى مقابل شخصيه معينه أو حقيقه معينه.

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ كَبِيرًا (١١١)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إن النبي صلى الله عليه و آله كان ساجدًا ذات ليلة بمكة يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أن له إلهًا واحدًا، وهو يدعو مثنى مثنى.

التفسير

آخر الذرائع والأعذار: بعد سلسلة من الذرائع التى تشبّث بها المشركون امام دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، نصل مع الآيات التى بين أيدينا إلى آخر ذريعة لهم، وهى قولهم: لماذا يذكر رسول الله صلى الله عليه و آله الخالق بأسماء متعددة بالرغم من أنه يدعى التوحيد. القرآن ردّ على هؤلاء بقوله: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» .

إن هؤلاء عميان البصيرة والقلب، غافلون عن أحداث ووقائع حياتهم اليومية حيث كانوا يذكرون أسماء مختلفة لشخص واحد أو لمكان واحد، وكل اسم من هذه الأسماء كان

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٠

يعرف بشرط أو بصفه من صفات ذلك الشخص أو المكان. بعد ذلك، هل من العجيب أن تكون للخالق أسماء متعددة تناسب مع افعاله وكمالاته وهو المطلق فى وجوده وفى صفاته والمنبع لكل صفات الكمال وجميع النعم، وهو وحده عز وجل الذى يدير دفة هذا العالم والوجود؟

فى نهاية الآية التى نبحتها نرى المشركين يتحدثون عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولون:

إنه يؤذينا بصوته المرتفع فى صلاته وعبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعليمات لرسول الله صلى الله عليه وآله عبر قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا».

إن الآية أعلاه تقول: لا تقرا بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل من الحد الطبيعى بحيث تكون حركه شفاه وحسب ولا صوت فيها.

هذا الحكم الإسلامى فى الدعوة إلى الاعتدال بين الجهر والإخفات يعطينا فهماً وإدراكاً من جهتين:

الاولى: لا تؤدوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء والتحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونه بالوقار والهدوء والأدب.

الثانية: يجب أن يكون هذا التوجيه مبدأ لنا فى جميع أعمالنا وبرامجنا الاجتماعيه والسياسيه والاقتصاديه، وتكون جميع هذه الامور بعيدة عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو: «وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا».

أخيراً نصل إلى الآية الأخيرة من سورة الإسراء، هذه الآية تنهى السورة المباركة بحمد الله، كما افتتحت بتسبيحه وتنزيه ذاته عز وجل. إن هذه الآية هى خلاصه أخيره لكل البحوث التوحيدية التى وردت فى السورة، وهى ثمرة لمفاهيمها جميعاً، إذ هى تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله بالقول: «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا».

ومثل هذا الرب فى مثل هذه الصفات، هو أفضل من كل ما تفكر به: «وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا».

روى العلامة الطبرسى رحمه الله فى تفسير مجمع البيان: إن فى هذه الآية رداً على اليهود والنصارى، حين قالوا اتخذ الله الولد، وعلى مشركى العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك، إلّا شريكاً هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء الله لذل الله. «نهاية تفسير سورة الإسراء»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢١

## ١٨ سورة الكهف

محتوى السورة: تبدأ السورة بحمد الخالق جل وعلا، وتنتهى بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح.

يشير محتوى السورة - كما فى أغلب السور المكية - إلى قضية المبدأ والمعاد والترغيب والإنذار. وتشير أيضاً إلى قضية مهمة كان المسلمون يحتاجونها فى تلك الأيام بشده، وهى عدم استسلام الأقلية - مهما كانت صغيرة - إلى الأكثرية مهما كانت قوية فى المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعه الصغيره الأقلية من أصحاب الكهف، أن يتعدوا عن المحيط الفاسد ويتحركوا ضده.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهه، فعليهم خوض الجهاد والصراع، وإن عجزوا عن المواجهه فعليهم بالهجره.

إن السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة موسى والخضر، وقصة ذى القرنين) حيث إن هذه القصص بخلاف



أغلب القصص القرآنية لم تتكرر في مكان آخر من القرآن (أشارت الآية ٩٦ من سورة الأنبياء إلى يأجوج ومأجوج دون ذكر ذي القرنين). وهذه الإشارة تعتبر واحدة من خصائص هذه السورة المباركة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ألا أدلكم على سورة مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٢

شيعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمها ما بين السماء والأرض؟ قالوا: بلى. قال:

«سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام، واعطى نوراً يبلغ السماء، ووقى فتنة الدجال».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلا شهيداً، وبعثه الله مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مع الشهداء».

إن عظمه السور القرآنية وتأثيرها المعنوي، وبركاتها الأخلاقية، إنما يكون بسبب الإيمان بها والعمل وفقاً لمضامينها.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَرْبَابٌ مُّبْتَدِلِينَ قُلُوبَهُمْ بِلَا كَفٍّ لَّهُمْ لَمَّا كَذَبُوا (٥)

البداية باسم الله، والقرآن: تبدأ سورة الكهف - كما في بعض السور الأخرى - بحمد الله، وبما أن الحمد يكون لأجل عمل أو صفة معينة مهمة ومطلوبة، لذا فإن الحمد هنا لأجل نزول القرآن الخالي من كل اعوجاج، فتقول الآية: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا».

هذا الكتاب هو كتاب ثابت ومحكم ومعتمد ومستقيم، وهو يحفظ المجتمع الإنساني ويحمي سائر الكتب السماوية.

«قَيِّمًا». وينذر الظالمين من عذاب شديد: «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ». وفي نفس الوقت فهو: «وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا». وهؤلاء في نعيمهم «مَكِثِينَ فِيهِ أَرْبَابًا».

ثم تشير الآيات إلى واحدة من انحرافات المعارضين، سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين، حيث تنذرهم هذا الأمر فتقول: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا». فهي تحذر النصارى بسبب اعتقادهم بأن المسيح ابن الله، وتحذر اليهود لأنهم اعتقدوا بأن عزير ابن الله، وتحذر المشركين لأنهم لظنهم بأن الملائكة بنات الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٣

ثم تشير الآيات إلى أصل أساسي في إبطال هذه الإدعاءات الفارغة فتقول: إن هؤلاء لا علم لهم ولا يقين بهذا الكلام، وإنما هم مقلدون فيه للآباء، وإن آباءهم على شاكلتهم في الجهل وعدم العلم: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ». ومع ذلك فإنهم يتفوهون بكلام رهيب «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ». فهل يعقل أن يكون الله جسمًا أو يكون له ولد، أو أن يحتاج إلى الصفات المادية وأن يكون محدوداً... إنه كلام رهيب، ومثل هؤلاء الذين يتفوهون به لا ينطقون إلا كذباً: «إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا».

«قيم»: على وزن كلمة «سيد» مشتقة من مصدر الكلمة «قيام» وهنا تأتي بمعنى (الثبات والصمود) إضافة إلى أنها هي وصف للقرآن في عدم وجود أي اعوجاج في آياته، بل إن في مضمونها تأكيد على استقامته واعتدال القرآن، وخلوه من أي شكل من أشكال التناقض، وإشارة إلى أبدية وخلود هذا الكتاب السماوي العظيم، وكونه أسوة لحفظ الأصالة، وإصلاح الخلل، وحفظ الأحكام الإلهية والعدل والفضائل البشرية.

صفة «القيم»: مشتقة من «قيومة» الباري عز وجل التي تعني اهتمام الباري عز وجل وحفظه جميع الكائنات، والقرآن الذي هو كلام الله له نفس الصفة أيضاً.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)

العالم ساحة اختبار: الآيات السابقة كانت تتحدث عن الرسالة وقيادة النبي صلى الله عليه وآله، لذا فإن أول آية نبحتها الآن، تشير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا وهي الإشفاق على الأمة فتقول: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا». وهنا يجب الإلتباه إلى بعض الملاحظات:

«باخع»: من «بخع» على وزن «نخل» وهي بمعنى إهلاك النفس من شدة الحزن والغم.

استخدام كلمة «حديث» للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة في هذا الكتاب السماوي الكبير.

الآية التي بعدها تجسد وضع هذا العالم وتكشف عن أنه ساحة للاختبار والتمحيص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٤

والبلاء، وتوضح الخط الذي ينبغي أن يسلكه الإنسان: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا». لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث إن كل جانب فيه يذهب بالقلب، ويحير الأبصار، ويثير الدوافع الداخلية في الإنسان، كيما يتسنى امتحانه في ظل هذه الإحساسات والمشاعر ووسط أنواع الزينة وأشكالها، لتظهر قدرته الإيمانية، ومؤهلاته المعنوية.

لذلك تضيف الآية مباشرة قوله تعالى: «لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

إن هنا إنذار لكل الناس، لكل المسلمين كي لا ينخدعوا في ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، وبدلاً من ذلك عليهم أن يفكروا بتحسين أعمالهم.

ثم يبين تعالى أن أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة ولا دائمة، بل مصيرها إلى المحو والزوال:

«وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا».

«صعيد»: مشتق من «صعود» وهي هنا تعنى وجه الأرض، الوجه الذي يتضح فيه التراب؛ و «جرز»: تطلق على الأرض الموات بسبب الجفاف وقلة المطر.

إن المنظر الذي نشاهده في الربيع في الصحارى والجبال لا تبقى إذ لا بد أن يأتي الخريف، وتسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان المادية تشبه هذا التحول، فلا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي يضع نهاية للقصور التي تتأطح السماء، وللملابس الباذخة والنعم الكثيرة التي يرفل بها الإنسان، كذلك تنتهي المناصب والمواقع والاعتبارات، وسوف لن يبقى شيء من المجتمعات البشرية سوى القبور الساكنة اليابسة، وهذا درس عظيم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)

أسباب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أن النضر بن الحرث بن كلدة وعقبه بن أبي معيط

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٥

أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته، وخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النبي صلى الله عليه وآله وقالوا لهم ما قالت قريش. فقال لهما أحبار اليهود: إسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فأرأوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟

وفي رواية اخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبي.

فانصرفا إلى مكة فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وقصا عليهم القصّة. فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه و آله فسألوه، فقال صلى الله عليه و آله: «أخبركم بما سألتكم عنه غداً» ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث صلى الله عليه و آله خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبرائيل حتى أرحف أهل مكة وتكلموا في ذلك. فشقّ على رسول الله صلى الله عليه و آله ما يتكلم به أهل مكة عليه، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام عن الله سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سأله عنه عن أمر الفتية والرجل الطواف، وأنزل عليه: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» الآية.

التفسير

بداية قصة أصحاب الكهف: في الآيات السابقة كانت هناك صورة للحياة الدنيا، وكيفيه اختبار الناس فيها، ومسير حياتهم عليها، ولأن القرآن غالباً ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحساسة، أو أنه يذكر نماذج من التاريخ لتجسيد الوعي بالقضية، لذا قام في هذه السورة بتوضيح قصة أصحاب الكهف، وعبرت عنهم الآيات بأنهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون في ظل حياة مترفة بالزينة وأنواع النعم، إلا أنهم انسلخوا من كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم وللصراع ضد الطاغوت - طاغوت زمانهم - وذهبوا إلى غار خال من جميع أشكال الزينة والنعم، وقد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم في سبيل الإيمان والثبات عليه.

في البداية يقول تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا».

إن لنا آيات أكثر عجباً في السماوات والأرض، وإن كل واحد منها نموذج لعظمة الخالق جلّ وعلا، وفي حياتكم - أيضاً - أسرار عجيبة تعتبر كل واحدة منها علامة على صدق دعوتك، وفي كتابك السماوي الكبير آيات عجيبة كثيرة، وبالطبع فإن قصة أصحاب الكهف ليست بأعجب منها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٦

«الرقيم»: في الأصل مأخوذة من «رقم» وتعني الكتابة، وهو اسم ثان لأصحاب الكهف، لأنه في النهاية تمت كتابة أسمائهم على لوحة وضعت على باب الغار.

البعض يرى أن «الرقيم» اسم الجبل الذي كان فيه الغار.

ثم تقول الآيات بعد ذلك: «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» وعندما انقطعوا عن كل أمل توجهوا نحو خالقهم: «فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً». ثم: «وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا».

أى: أرشدنا إلى طريق ينقذنا من هذا الضيق ويقربنا من مرضاتك وسعادتك، الطريق الذي فيه الخير والسعادة وإطاعة أوامر الله تعالى. وقد إستجبت دعوتهم: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا». «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا».

بحوث

١- جملة «أَوَى الْفِتْيَةُ» من مادة (أوى) وتعني المكان الآمن، وهو إشارة إلى أن هؤلاء الفتية الهاربين من بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسوا بالأمن عندما وصلوا إلى الغار.

٢- «فتية»: جمع «فتى» وهو الشاب الحدث، ولكنها تطلق أحياناً على الأشخاص الكبار والمستين الذين يملكون روحية شابة، وقد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة والمدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة والشهامة والتسليم في مقابل الحق.

٣- جملة «ضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ» كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنما يوضع ستار على أذن الشخص بحيث لا يسمع أي شيء، وهو ستار النوم.

٤- جملة «لِنُعَلِّمَ...» لا- تعني أن الله يريد أن يعلم شيئاً جديداً، ويكثر استخدام هذا التعبير في القرآن، والغرض منه هو تحقيق العلم

الإلهي، بمعنى نحن أيقظناهم من المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أى حتى يسأل كل واحد الآخر عن مقدار نومهم. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هُوَ لَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَّا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَرَّتْهُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُوتُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٧

القصة المفصلة لأصحاب الكهف: بعد أن ذكرت الآيات بشكل مختصر قصة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصل لها ضمن (١٤) آية وكان المنطلق في ذلك قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ». كلام خال من أى شكل من أشكال الخرافة والتزيير. «إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى».

وتشير الآيات القرآنية- وما هو ثابت في التاريخ- إلى أن أصحاب الكهف كانوا يعيشون في بيئة فاسدة وزمان شاعت فيه عبادة الأصنام والكفر، وكانت هناك حكومة ظالمة تحمي مظاهر الشرك والكفر والانحراف.

مجموعة أهل الكهف أحسوا بالفساد وقرروا القيام ضد هذا المجتمع، وفي حال عدم تمكنهم من المواجهة والتغيير فإنهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: «وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا». فإذا عبدنا غيره: «لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا».

«شطط»: على وزن (وسط) تعنى الخروج عن الحد والإفراط في الإبتعاد لذا فإن (شطط) تقال للكلام البعيد عن الحق، ويقال لحواشى وضاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، وكونها ذات جدران مرتفعة.

إن هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلاً واضحاً لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، وهو قولهم:

إننا نرى وبوضوح أن لهذه السماوات والأرض خالقاً واحداً، وأن نظام الخلق دليل على وجوده، وما نحن إلا جزء من هذا الوجود، لذا فإن ربنا هو نفسه رب السماوات والأرض.

ثم ذكروا دليلاً آخر وهو: «هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً».

فهل يمكن الاعتقاد بشيء بدون دليل وبرهان؟: «لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ».

وهل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلاً على مثل هذا الاعتقاد؟ ما هذا الظلم الفاحش والانحراف الكبير: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

وهذا الافتراء هو ظلم للنفس، لأن الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط والشقاء، وهو أيضاً ظلم بحق المجتمع الذى تسرى فيه هذه الانحرافات، وأخيراً هو ظلم لله وتعريض لمقامه العظيم سبحانه وتعالى.

هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صداً الشرك عن قلوب الناس،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٨

وزرع غرسه التوحيد في مكانها، إلا أن ضجة عبادة الأصنام في ذلك المحيط الفاسد، وظلم الحاكم الجبار كانتا من الشدة بحيث حبتا أنفاس عبادة الله في صدورهم وانكشمت همهمات التوحيد في حناجرهم. وهكذا اضطروا للهجرة لانقاذ أنفسهم والحصول على

محيط أكثر استعداداً وقد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذى سيذهبون إليه ثم كان قرارهم: «وَإِذِ اعْتَرَّتْهُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُوتُوا إِلَى الْكَهْفِ». حتى: «يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا».

«يهيئ»: مشتقة من «تهيئة» بمعنى الإعداد.

«مرفق»: تعنى الوسيلة التى تكون سبباً للطف والرفق والراحة.

وليس من المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد فى الجملة الاولى إشارة إلى الألفاظ المعنوية لله تبارك وتعالى، فى حين أن الجملة الثانية تشير إلى الجوانب المادية التى تؤدى إلى خلاصهم ونجاتهم.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا (١٨)

مكان أصحاب الكهف: يشير القرآن فى الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف فى الغار، وكأنها تحكى على لسان شخص جالس فى مقابل الغار ينظر إليهم. فى هاتين الآيتين إشارة إلى ستّ خصوصيات هى:

أولاً: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، ولكونه فى الجزء الشمالى من الكرة الأرضية، فإن ضوء الشمس كان لا يدخل الغار بشكل مباشر، فالقرآن يقول إنك إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنها تطلع من جهة يمين الغار، وتغرب من جهة الشمال: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٩

طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ».

وعلى هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، وهو أمر لو حصل فقد يؤدى إلى تلف أجسادهم، ولكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إن عبارة (تزاور) التى تعنى (التمايل) تؤكد على هذا المعنى، وكأن الشمس كانت مأمورة بأن تمر من اليمين (يمين الغار). وكلمة «تقرض»: التى تعنى (القطع) تؤكد نفس مفهوم السابق.

ثانياً: «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ».

لقد كان اولئك فى مكان واسع من الغار، وهذا يدل على أنهم لم يأخذوا مستقرهم فى فتحة الغار التى تتسم بالضيق عادة، بل إنهم انتخبوا وسط الغار مستقراً لهم كى يكونوا بعيدين عن الأنظار، وبعيدين أيضاً عن الأشعة المباشرة لضوء الشمس.

وهنا يقطع القرآن تسلسل الكلام ويستنتج نتيجة معنوية، حيث يبين أن الهدف من ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا».

نعم، إن الذين يضعون أقدامهم فى طريق الله، ويجاهدون لأجله فإن الله سيشملهم بلطفه فى كل خطوة وليس فى بدايه العمل فقط. إن الله يرحم هؤلاء حتى فى أدق التفاصيل.

ثالثاً: إن نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً: «وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ».

هذه الحالة الاستثنائية لكى لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التى تخاف الإنسان اليقظ، أو لكى يكون شكلهم مرعباً كى لا يتجرأ إنسان على الإقتراب منهم، وهذا بنفسه اسلوب للحفاظ عليهم.

رابعاً: وحتى لا- تتهراً أجسامهم بسبب السنين الطويلة التى مكثوا فيها نياماً فى الكهف، فإن الله تبارك وتعالى يقول: «وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ».

حتى لا يتركز الدم فى مكان معين، ولا تكون هناك آثار سيئه على العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدة طويلة.

خامساً: فى وصف جديد يقول تعالى: «وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٠

«وصيد»: كما يقول الراغب فى المفردات، تعنى فى الأصل الغرفة أو المخزن الذى يتم إيجاده فى الجبال لأجل خزن الأموال، إلّا أن

المقصود به هنا هو فتحة الغار.

سادساً: قوله تعالى: «لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا».

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لَيْتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠)

اليقظة بعد نوم طويل: سوف نقرأ في الآيات القادمة أن نوم أصحاب الكهف كان طويلاً للغاية بحيث استمر (٣٠٩) سنة، وعلى هذا الأساس كان نومهم أشبه بالموت، ويقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإن القرآن يقول في الآيات التي نبحتها: «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ».

يعنى مثلما كنا قادرين على إنامتهم نوماً طويلاً فإننا أيضاً قادرين على إيقاظهم. لقد أيقظناهم من النوم، «لَيْتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ». «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

وأخيراً، بسبب عدم معرفتهم لمقدار نومهم، «قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ».

ولكنهم كانوا يحسون بالجوع وبالحاجة الشديدة إلى الطعام، لأن المخزون الحيوى فى جسمهم انتهى أو كاد، لذا فأول اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود ومسكوكات فضية لشراء الغذاء: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ». ثم أرفوا: «وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا». لماذا هذا التلطف:

«إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ». ثم: «وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا».

وتوصيتهم هى توصية لكافة أنصار الحق، فى أن لا- يفكروا بطهارة غذائهم المعنوى وحسب، بل عليهم أيضاً الإهتمام بطهارة طعام الأجسام كى يكون زكياً نقياً من جميع الأرجاس والشبهات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣١

وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا أَنْ وَعِدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنْتَحِدَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبٌ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبٌ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَغْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)

نهاية قصة أصحاب الكهف: لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة من الرجال المتشخصين إلى كل مكان وأغاظت بشدة الملك الظالم. لقد أصدر الحاكم تعليماته إلى جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف فى كل مكان، وعليهم أن يتبعوا آثارهم حتى إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم.

وقد يكون هذا الأمر- وهو قيام مجموعة من ذوى المناصب فى الدولة بترك مواقعهم العالية فى الدولة وتعريض أنفسهم للخطر- هو بحد ذاته سبباً ليقظة الناس ومصدراً لوعيهم، أو لوعي قسم منهم على الأقل.

إن قصة هؤلاء نفر قد استقرت فى صفحات التاريخ وأخذت الأجيال والأقوام تتناقلها عبر مئات السنين.

والآن لنعد إلى الشخص المكلف بشراء الطعام ولننظر ماذا جرى له.

لقد دخل المدينة ولكنه فغراه من شدة التعجب، فالشكل العام للبناء قد تغير، هندام الجميع ولباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحوّلت إلى قصور، وقصور الأمس تحوّلت إلى خرائب.

إنه لا يزال يعتقد بأن نومهم فى الغار كان ليوم أو بعض يوم.

لقد انتهى عجبه عندما مدّ يده إلى جيبه ليسدّد مبلغ الطعام الذى اشتراه، فالبائع وقع

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٢

نظره على قطعة نقود ترجع في قدمها إلى (٣٠٠) سنة، وقد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبار مكتوباً عليها، وعندما طلب منه توضيحاً قال له بأنه حصل عليها حديثاً.  
وهنا أحسَّ الشخص بأنه وأصحابه كانوا في نوم عميق وطويل.

هذه القضية كان لها صدى كالقنبلة في المدينة، وقد انتقلت عبر الألسن إلى جميع الأماكن. فقسم منهم لم يكن قادراً على التصديق بأن الإنسان يمكن أن يعود للحياة بعد الموت، إلماً أنّ قصة أصحاب الكهف أصبحت دليلاً قاطعاً لأولئك الذين يعتقدون بالمعاد الجسماني. ولذا فإنّ القرآن يبيّن أننا كما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإيقاظهم حتى ينتبه الناس:  
«وَكَذَلِكَ أَعْتَدْنَا عَلَيْهِمْ لِيُعَلِّمُوا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا». ثم أضاف تعالى: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَرِيبٌ فِيهَا».

إنّ هذه الإنامة والإيقاظ هي أكثر إثارة للعجب من الموت والحياة في بعض جوانبهما، فمن جهة قد مرّت عليهم مئات السنين وهم نيام وأجسامهم لم تفن أو تتأثر، وقد بقوا طوال هذه المدّة بدون طعام أو شراب، إذن كيف بقوا أحياء طيلة هذه المدّة؟  
أليس هذا دليلاً قاطعاً على قدرة الله على كل شيء؟ فالحياة بعد الموت، بعد مشاهدة هذه القضية ممكنة تماماً.  
بعض المؤرخين كتب يقول: إنّ الشخص الذي أرسل لتهيئة الطعام وشرائه، عاد بسرعة إلى الكهف وأخبر رفقاءه بما جرى، وقد تعجّب كل منهم، فطلبوا من الخالق جلّ وعلا أن يميتهم، وينتقلون بذلك إلى جوار رحمته، وهذا ما حدث.  
لقد ماتوا ومضوا إلى رحمة ربّهم، وبقيت أجسادهم في الكهف عندما وصله الناس.

وهنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسماني وبين من لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يريدون أن تنسى قضية نوم ويقظة أصحاب الكهف بسرعة، كي يسلبوا أنصار المعاد الجسماني هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تغلق فتحة الغار، حتى يكون الكهف خافياً إلى الأبد عن أنظار الناس. قال تعالى: «إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا».  
ولأجل إسكات الناس عن قضيتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيراً، إنّ قضيتهم معقّدة ومصيرهم محاط بالألغاز. لذلك فإنّ:  
«رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ». أي: اتركوهم وشأنهم واتركوا الحديث عن قضيتهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٣

أما المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر واعتبروه دليلاً حياً لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جاهدوا على أن لا تنسى القصة أبداً لذلك اقترحوا أن يتخذوا قرب مكانهم مسجداً، وبقرينة وجود المسجد فإنّ الناس سوف لن ينسوه أبداً، بالإضافة إلى ما يتبرك به الناس من آثارهم: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا».  
الآية التي بعدها تشير إلى بعض الاختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلاً تتحدّث الآية عن اختلافهم في عددهم فتقول: «سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ». وبعضهم «وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ». وذلك منهم «رَجْمًا بِالْغَيْبِ».  
وبعضهم «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ». أما الحقيقة فهي: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ».  
ولذلك «مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ».

إنّ عدد أصحاب الكهف الحقيقي هو سبعة، حيث إنّ القرآن بعد ذكر الأقوال الباطلة، أبان في الأخير العدد الحقيقي لهم.  
إنّ الآية تنتهي بنصيحة تحثّ على عدم الجدل حولهم إلّا الجدل القائم على أساس المنطق والدليل: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا».  
بمعنى قل لهم قولاً منطقيّاً بحيث تتوضّح رجحان منطقك.

إنّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدث معهم بالإعتماد على الوحي الإلهي، لأنّ أقوى الأدلّة هو ما يصدر عن الوحي دون غيره: «وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

الآية التي بعدها تعطى توجيهاً عاماً لرسول الله صلى الله عليه وآله: «وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدًّا». «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». يعنى

يجب أن تقول (إن شاء الله) لكل ما يخص أخبار المستقبل وأحداثه ولكل تصميم تتخذه، لأنك أولاً غير مستقل في اتخاذ القرارات، وإذا لم يشأ الله فإن كائناً من كان لا يستطيع القيام بأى عمل.

ثانياً: لا يصح للإنسان - من الوجهة المنطقية - أن يقطع في أخباره المستقبلية ومواقفه وتصميماته، لأن قدرته محدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة، لذلك الأفضل له ذكر جملة (إن شاء الله) مع كل تصميم لفعل شىء.

وبعد ذلك يقول القرآن: «وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسَيْتَ». وهذه إشارة إلى أن الإنسان إذا نسي قول (إن شاء الله) وهو يتحدث عن أمر مستقبلي، فعليه أن يقولها فور تذكره، حيث يعوّض بذلك عما مضى منه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٤

وبعد ذلك جاء قوله تعالى: «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا».

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٧)

نوم أصحاب الكهف: من القرائن الموجودة في الآيات السابقة نفهم إجمالاً أن نوم أصحاب الكهف كان طويلاً جداً. هذا الموضوع يثير غريزة الاستطلاع عند كل مستمع، إذ يريد أن يعرف كم سنة بالضبط استمر نومهم؟

في المقطع الأخير من مجموعة الآيات التي تتحدث عن أصحاب الكهف، تبعد الآيات الشك عن المستمع وتقول له: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا».

ووفقاً للآية فإن مجموع نومهم وبقائهم في الكهف هو (٣٠٩) سنة.

ومن أجل وضع حدّ لأقوال الناس حول مكثهم في الكهف تؤكد الآية: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا». لماذا؟ لأن: «لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

والذي يعرف خفايا وظواهر عالم الوجود ويحيط بها جميعاً، كيف لا يعرف مدّة بقاء أصحاب الكهف: «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ» (١). ولهذا السبب فإن سكان السماوات والأرض: «مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ».

وفي نهاية الآية يأتي قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا». هذا الكلام هو تأكيد على الولاية المطلقة للخالق جلّ وعلا.

وفي آخر آية يتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله ويقول الله له: «وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ». أى: لا تعرّ أية أهمية إلى أقوال الآخرين المخلوطة بالكذب والخرافة والوضع، يجب أن يكون اعتمادك في هذه الامور على الوحي الإلهي فقط، لأنه لا يوجد شىء يستطيع أن يغيّر كلامه تعالى: «لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ». فكلام الله تعالى وعلمه ليس من سنخ علم

(١) جملة «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ» هي صيغة تعجب، تبين لنا عظمة علم الخالق جلّ وعلا، والمعنى أنه بصير سميع بحيث إن الإنسان يعجب من ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٥

الإنسان الذي يخضع يومياً للتغيير والتبديل بسبب الاكتشافات الجديدة والمعرفة الحديثة، لذلك لا يمكن الإعتماد عليه والركون إليه مائة في المائة، ولهذه الأسباب: «وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا». «ملتحد»: مشتق من «لحد» على وزن «مهد» وهي الحفرة التي يميل وسطها إلى أحد الأطراف (كاللحد الذي يحفر لقبر الإنسان).

الجوانب التربوية لقصّة أهل الكهف: هذه القصّة التاريخية العجيبة التي يذكرها القرآن خالية من أى خرافة أو وضع، وفيها العديد من الدروس التربوية البناءة، تماماً كما في قصص القرآن الاخرى.



(أ) إن أول دروس هذه القصة هو تحطيم حاجز التقليد، والإبتعاد عن التلون بلون المجتمع الفاسد.

(ب) الهجرة من الأوساط المنحرفة درس آخر في هذه القصة ذات العبر.

(ج) التقيّة بمعناها البناء درس آخر نستفيده من هذه القصة.

ونحن نعرف أن التقيّة ليست سوى أن يتكتم الإنسان على حقيقة أمره في الأماكن والمواقف التي لا يرتجى منها فائدة في ذكر الحقيقة، بل تكون سبباً للضرر، والتقيّة وقاية للنفس واحتفاظ بقوة الإنسان لوقت جهاد العدو حيث لا تقيّة.

(د) عدم وجود تفاوت بين الناس وهم في طريق الله، فالوزير كان إلى جانب الراعي، بل كان الاثنان إلى جانب الكلب الذي كان يقوم بالحراسة، وهذا درس آخر يتضح من خلاله أن إمتيازات الدنيا المادية، والمناصب المختلفة ليس لها أدنى نصيب أو تأثير على تصنيف الناس من أهل الحق وسالكيه، إذ الكل فيه سواء... إن طريق الحق هو طريق التوحيد، وطريق التوحيد هو طرق وحدة جميع الناس.

(ه) الإمدادات الإلهية العجيبة عند ظهور المشاكل، هي نتيجة اخرى يجب الاعتبار بها.

(و) لقد تعلمنا من أصحاب الكهف قيمة (طهارة الطعام) حتى في أصعب الظروف وأدقها، لأن طعام الإنسان له آثار عميقة في روحه وفكره وقلبه، وعندما يختلط الطعام بالحرام والنجاسة، يتعد الإنسان عن طريق الله؛ طريق التقوى.

(ز) ضرورة الاعتماد على مشيئة الله وطلب العون من لطفه تعالى: وقول (إن شاء الله) في كل ما يتعلق بامور المستقبل... درس آخر نتعلمه من قصة أصحاب الكهف.

(ح) ضرورة النقاش المنطقي مع المعارضين درس آخر نستفيده من قصة أصحاب الكهف.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٦

(ط) وأخيراً، فإن إمكانية المعاد الجسماني وعودة الناس إلى الحياة مرة أخرى عند البعث، يعتبر عاشر وآخر درس نستفيده من هذه القصة.

إن هدف القرآن ليس قصص القصص لغرض التسلية، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، وأحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التاريخ البشري المليء بالحوادث والمواقف.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقَلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُلَاقُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى في سلمان، وأبي ذر، وصهيب، وعمار، وخباب، وغيرهم من فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وذلك أن مؤلفه قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله! إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء روائح صنانهم وكانت عليهم جبات الصوف، جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء.

فلما نزلت الآية قام النبي صلى الله عليه وآله يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله عز وجل، فقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٧

## التفسير

الحفاه الأظهار: من الدروس التى نستفيدها من قصة أصحاب الكهف أن مقياس قيمة البشر ليست بالمنصب الظاهرى أو بالثروة، بل عندما يكون المسير فى سبيل الله يتساوى الوزير والراعى، والآيات التى نبحتها تؤكد هذه الحقيقة المهمة وتعطى للرسول صلى الله عليه وآله هذا الأمر: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ».

ثم تستمر الآيات مؤكدة خطابها للرسول صلى الله عليه وآله: «وَلَمَّا تَعَيَّدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا وزخارفها.

ثم من أجل التأكيد مجدداً، يقول تعالى: «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا». «وَأَتَّبِعْ هَوِيَّ» والمطيع لأهوائه النفسية، والمفرط فى أفعاله دائماً «وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا» (١).

إن الموضوع أعلاه من الأهمية بمكان، بحيث إن القرآن يقول للرسول صلى الله عليه وآله - بصراحة - فى الآية التى بعدها: «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ».

ولكن اعلّموا أن هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التى يرتديها أمثال سلمان وأبى ذر خاصة، والذين يعيشون حياة مرفهة باذخه ومليئة بالزينة، تنتهى عاقبتهم إلى سوء وظلام وعذاب: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا».

نعم، إنهم كانوا إذا عطشوا فى هذه الدنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنهم عندما يطلبون الماء فى جهنم يؤتى إليهم بماء كالمهل: «وَإِن يَسْتَعْجِلُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ» (٢). «بِئْسَ الشَّرَابُ». ثم «وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» (٣).

وفى هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التى تحضر بين أيديهم بمجرد مناداة الساقى، وفى جهنم يوجد أيضاً ساقٍ وأشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنه ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى وآهات المستضعفين والفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء. نعم، إن كل ما هو موجود هناك (فى الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (فى الدنيا).

وبما أن أسلوب القرآن اسلوب تربوى وتطبيقى، فإنه بعدما بين أوصاف وجزاء عبيد

(١) «فرط»: تعنى التجاوز عن الحد، وكل شىء يخرج عن حدّه ويتحول إلى إسراف يقال له (فرط).

(٢) «مهل»: على وزن «فقل» وهى تعنى أى معدن مذاب.

(٣) «مرتفق»: من كلمه «رفق ورفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٨

الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التى تنتظرهم جزاء ما فعلوا.

لقد أجملت الآية كل ذلك بشكل مختصر، ثم بشكل تفصيلى نوعاً ما. ففى البدء قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَأُنْصِتُ لِعُجْرٍ مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلًا». أى: إننا لا نضيع أعمال العاملين قليلة كانت أو كثيرة، كليه أو جزئية، ومن أى شخص وفى أى عمر كان:

«أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ». (الجنات الخالدة).

«تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ». (من تحت الأشجار والقصور).

«يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» (١).

«وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ». (من حرير ناعم وسميك).

«مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ» (٢).

«نِعْمَ الثَّوَابُ». «وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا». (وحسنت مجمعاً للأحبة).

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنْ رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَ لَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا (٣٤) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)

تجسيد لموقف المستكبرين من المستضعفين: في الآيات السابقة رأينا كيف أن عبيد الدنيا كانوا يحاولون الإبتعاد في كل شيء عن رجال الحق وأهله المستضعفين، ثم عرّفنا الآيات جزاءهم في الحياة الأخرى. الآيات التي نبحتها تشير إلى حادثه اثنين من الأصدقاء أو الإخوة الذين يعتبر كل واحد منهم نموذجاً لإحدى المجموعتين، ويوضّحان طريقة تفكير وقول وعمل هاتين المجموعتين. في البداية تخاطب الآيات الرسول صلى الله عليه وآله

(١) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهي بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) و (كتاب) وهي في الأصل مأخوذة من كلمة فارسية عُرِبَتْ واشتقت منها الأفعال العربية.

(٢) «أرائك»: جمع «أريكة» وتطلق على السرير الذي تكون جوانبه جميعاً مغطاة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٩

فتقول: «وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنْ رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا».

البستان والمزرعة كان فيهما كل شيء: العنب والتمر والحنطة وباقي الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة ومكفيه من كل شيء: «كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَ لَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا».

والأهم من ذلك هو توفر الماء الذي يعتبر سرّ الحياة، وأمرًا مهمًا لا غنى للبستان والمزرعة عنه، وقد كان الماء بقدر كاف: «وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا».

على هذا الأساس كانت لصاحب البستان كل أنواع الثمار: «وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ».

ولأنّ الدنيا قد استهوته فقد أصيب بالغرور لضعف شخصيته وشعر بالأفضلية والتعالى على الآخرين، حيث إلتفت وهو بهذه الحالة إلى صاحبه: «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا».

لقد تضخّم هذا الإحساس ونما تدريجياً - كما هو حاله - ووصل صاحب البستان إلى حالة بدأ يظن معها أنّ هذه الثروة والمال والجاه والنفوذ إنّما هي أمور أبدية، فدخل بغرور إلى بستانه (في حين أنّه لا يعلم بأنّه يظلم نفسه) ونظر إلى أشجاره الخضراء التي كادت أغصانها أن تنحني من شدة ثقل الثمر، وسمع صوت الماء الذي يجري في النهر القريب من البستان والذي كان يسقى أشجاره، وبغفلة قال: لا أظن أن يفنى هذا البستان، ولسان الآية وتصوير القرآن الكريم: «وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا».

بل عمد إلى ما هو أكثر من هذا، إذ بما أنّ الخلود في هذا العالم بتعارض مع البعث والمعاد، لذا فقد فكّر في إنكار القيامة وقال: «وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً». وهذا كلام يعكس وهم قائله وتمنياته.

ثم أضاف: حتى لو فرضنا وجود القيامة فإنّي بموقعي ووجهتي سأحصل عند ربّي - إذا ذهبت إليه - على مقام وموقع أفضل، لقد كان غارقاً في أوهامه: «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا».

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التي يعيشها والتي صوّرها القرآن الكريم، يضيف إلى نفسه في كل فترة وهماً بعد آخر من أمثال ما حكّت عنه الآيات آنفاً، وعند هذا الحد انبرى له صديقه المؤمن وأجابه بكلمات يشرحهما لنا القرآن الكريم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٠

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَ لَوْ لَا إِذِ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَ وَ لَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)

جواب المؤمن: هذه الآيات هي رد على ما نسجه من أوهام ذلك الغنى المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجرى على لسان صاحبه المؤمن. لقد بدأ الكلام بعد أن ظل صامتاً يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذى الأفق الضيق والفكر المحدود، حتى ينتهي من كلامه، ثم قال له:

«قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيَكَ رَجُلًا».

ثم عمد الرجل الموحد المؤمن إلى تحطيم كفر وغرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي».

إِنَّكَ تَبَاهَىٰ بَدْنِيَاكَ وَأَنَا أَفْتَخِرُ بِعَقِيدَتِي وَإِيمَانِي وَتَوْحِيدِي: «وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا».

وبعد أن أشار إلى قضية التوحيد والشرك اللذين يعتبران من أهم المسائل المصيرية، جدد لومه لصاحبه قائلاً: «وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ».

وقد وضع سبحانه وتعالى الوسائل والإمكانات تحت تصرفك، حيث إنك لا تملك شيئاً من عندك، وبدونه تكون لا شيء.

ثم يقول له: ليس من المهم أن أكون أقل منك مالاً وولداً: «إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا». «فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ».

وليس فقط أن يعطيني أفضل مما عندك، بل ويرسل صاعقه من السماء على بستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء:

«وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا».

أو أنه سبحانه وتعالى يعطى أوامره إلى الأرض كي تمنعك الماء: «أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا».

«حُصْبَان»: على وزن «لقمان» وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «حساب»، ثم وردت

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤١

بعد ذلك بمعنى السهام التي تحسب عند رميها، وتأتى أيضاً بمعنى الجزاء المرتبط بحساب الأشخاص، وهذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد»: تعنى القشرة التي فوق الأرض، وهي في الأصل مأخوذة من كلمة صعود.

«زلق»: بمعنى الأرض الملساء بدون أى نباتات بحيث إن قدم الإنسان تنزلق عليها.

في الواقع، إن الرجل المؤمن والموحد حذر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنها جميعاً في طريقها إلى الزوال وهي غير قابلة للإعتماد.

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ

فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)

العاقبة السوداء: أخيراً انتهى الحوار بين الرجلين دون أن يؤثر الشخص الموحد المؤمن في أعماق الغنى المغرور، الذي رجع إلى بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أن الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضراء، وأنه وجب أن ينال جزاء غروره وشركه في هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

ويحتمل أن العذاب الإلهي قد نزل في تلك اللحظة من الليل عندما خيم الظلام، على شكل صاعقه مميته أو عاصفه هوجاء مخيفه، أو على شكل زلزال مخزب ومدمر. وأيضاً كان فقد دمرت هذه البساتين الجميلة والأشجار العالية والزرع المثمر، حيث أحاط العذاب الإلهي بتلك المحصولات من كل جانب: «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ».

«أحيط»: مشتقة من «إحاطة» وهي في هذه الموارد تأتي بمعنى (العذاب الشامل) الذي تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

وعند الصباح جاء صاحب البستان وتدور في رأسه الأحلام العديدة ليتفقد ويستفيد من محصولات البستان، ولكنه قبل أن يقترب منه واجهه منظر مدهش وموحش، يبس الماء في فمه، وتحطم الكبرياء والغرور اللذان كانا يثقان بنفسه وعقله. كأنه صحا من نوم عميق:

«فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرْوَيْهَا».

وفي هذه اللحظة ندم على أقواله وأفكاره الباطلة: «وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٢

والأكثر حزناً وأسفاً بالنسبة له هو ما أصبح عليه من الوحدة في مقابل كل هذه المصائب والإبتلاءات: «وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ».

ولأنه فقد ما كان يملكه من رأس المال ولم يبق لديه شيء آخر، فإن مصيره: «وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا».

وهكذا انتهى كل شيء ولا ينفخ الندم، لأن مثل هذه اليقظة الإجبارية التي تحدث عند نزول الإبتلاءات العظيمة يمكن ملاحظتها حتى عند أمثال فرعون ونمرود، وهي بلا قيمة، لهذا فإنها لا تؤثر على حال من ينتبه.

«هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ». نعم، لقد إتضح أن جميع النعم منه تعالى، وأن كل ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، وأنه بدون الاعتماد على لطفه لا يمكن إنجاز عمل: «هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا».

إذن، لو أراد الإنسان أن يحب أحداً ويعتمد على شيء ما، أو يأمل بهديته من شخص ما، فمن الأفضل أن يكون الله سبحانه محط أنظاره، وموقع آماله، ومن الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى وإحسانه.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)

بداية ونهاية الحياة في لوحة حية: الآيات السابقة تحدثت عن عدم دوام نعم الدنيا، ولأن إدراك هذه الحقيقة في عمر (٦٠-٨٠) سنة يعتبر أمراً صعباً بالنسبة للأفراد العاديين، لذا فإن القرآن قد جسّد هذه الحقيقة من خلال مثال حي ومعبر كي يستيقظ الغافلون المغرورون من غفلتهم ونومهم عندما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدة مرّات خلال عمرهم. يقول تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ». هذه القطرات الواهبة للحياة تسقط على الجبال والصحراء، وتعيد الحياة للبذور المستعدة الكامنة في الأرض المستعدة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إن الطبقة الخارجية السميكة للبذور تلين قبال المطر، وتسمح للبراعم في الخروج منها، وأخيراً تشق هذه البراعم التراب وتخرقه، الشمس تشع، النسيم يهب، المواد الغذائية في الأرض تقدّم ما تستطيع، تتقوى البراعم بسبب عوامل الحياة هذه ثم تواصل نموها، بحيث

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٣

- بعد فترة- نرى أن نباتات الأرض تتشابه فيما بينها: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ».

الجبل والصحراء يتحوّلان إلى قوّة حياتية دافعة، أما البراعم والفواكه والأوراد فإنها تزين الأغصان، وكأنّ الجميع يضحك، يصرخون صراخ الفرح؛ يرقصون فرحاً.

لكن هذا الواقع الجذّاب لا يدوم طويلاً، حيث تهب رياح الخريف وتلقى بغبار الموت على النباتات، يبرد الهواء، وتشح المياه، ولا تمضي مدّة حتى يمسي ذلك الزرع الجميل الأخضر ذو الأغصان المورقة، ميتاً ويابساً: «فَأَصْبَحَ هَشِيمًا» (١).

تلك الأوراق التي لم تتمكن العواصف الهوجاء من فصلها عن الأغصان في فصل الربيع، قد أصبحت ضعيفة بدون روح بحيث إن أي نسيم يهب عليها يستطيع فصلها عن الأغصان ويرسلها إلى أي مكان شاء: «تَذْرُوهُ الرِّيْحُ» (٢).

نعم: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا».

الآية التي بعدها تذكر وضع المال والثروة والقوّة الإنسانية اللذين يعتبران ركنين أساسيين في الحياة الدنيا، حيث تقول: «الْمَالُ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

إن هذه الآية تشير إلى أهم قسمين في رأسمال الحياة حيث ترتبط الأشياء الاخرى بهما، إنها تشير إلى (القوة الاقتصادية) و (القوة الإنسانية).

ثم يضيف القرآن: «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً».

إن مفهوم (الباقيات الصالحات) يشمل كل فكره وقول وعمل صالح تدوم وتبقى آثاره وبركاته بين الأفراد والمجتمعات. وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحِداً (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صِفَاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (٤٨) وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحِداً (٤٩)

(١) «هشيم»: من «هشم» بمعنى محطّم، وهي هنا تطلق على النباتات المتيسّسة والمتحطّمة.

(٢) «تذروه»: من «ذرو» وتعني التشتيت.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٤

يا ويلتاه من هذا الكتاب: تعقياً لما كانت تحدّث به الآيات السابقة عن غرور الإنسان وإعجابه بنفسه، وما تؤدّي إليه هذه الصفات من إنكار للبعث والمعاد، ينصب المقطع الراهن من الآيات التي بين أيدينا على تبيان المراحل الممهدة للقيامة وفق الترتيب الآتي:

١- مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

٢- مرحلة البعث.

٣- قسم من مرحلة ما بعد البعث.

الآية الاولى تذكر الإنسان بمقدمات البعث والقيامة فتقول: إن إنهار معالم الشكل الراهن للعالم هي أول مقدمات البعث، وسيتم هذا التغيير لشكل العالم من خلال مجموعة مظاهر، في الطليعة منها تسيير الجبال الرواسي وكل ما يمسك الأرض ويبرز عليها، حتى تبدو الأرض خالية من أي من المظاهر السابقة: «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً».

هذه الآية تشير إلى حوادث قبيل البعث، وهي حوادث كثيرة جداً. والملاحظ أن السور القصار تتحدث عنها بشكل بارز في إطار حديثها عما بات يعرف اصطلاحاً ب «أشراط الساعة».

إن الاستفادة من مجموعة تلك السور أن وجه العالم الراهن يتغير بشكل كلي حيث تتلاشى الجبال، وعلى حطام كل ذلك تظهر إلى الوجود سماء جديدة، وأرض جديدة، لبيد الإنسان حينئذ حياته الاخرى في مرحلة البعث والحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحِداً».

«نغادر»: من «غدر» بمعنى الترك. ولذلك يقال للذي يخلف الوعد والميثاق ويتركه بأنه «غدر» ويقال لمياه الامطار المتجمعة في مكان واحد ب «الغدير» لأنها قد تركت هناك.

تؤكد الآية الأنفة الذكر على أن المعاد هو حالة عامة لا يستثنى منها أحد.

الآية التي بعدها تتحدث عن كيفية بعث الناس فتقول: «وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صِفَاً». إن استخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشر كل مجموعة من الناس تتشابه في أعمالها في صف واحد؛ أو أن الجميع سيكونون في صف واحد دون أيّة إمتيازات أو تفاوت، وسوف يقال لهم: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

فليس ثمة كلام عن الأموال والثروات، ولا الذهب والزينة، ولا الإمتيازات والمناصب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٥

المادية، ولا الملابس المختلفة، وليس هناك ناصر أو معين، ستعودون كمثل الحالة التي خلقناكم فيها أول مرة، بالرغم من أنكم كنتم

توهمون عدم امكان ذلك: «بَلْ زَعَمْتُمْ اَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا».

وذلك فى وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما اوتيتم من إمكانات مادية غفلتم معها عن الآخرة، وأصبحتم تفكرون فى حياتكم الدنيا وخلودها، وغفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثم تشير الآيات إلى مراحل اخرى من يوم البعث والمعاد فتقول: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ».

هذا الكتاب الذى يحتوى على أحوال الناس بكل تفصيلاتها: «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ». وذلك عندما يطلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف والوحشة على وجوههم.

فى هذه الأثناء يصرخون: «وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ اَلَّا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً اِلَّا اَحْصَاهَا».

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمة دليل آخر: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا». وجدوا الحسنات والسيئات، الظلم والعدل، السليبات والخيانات، كل هذه وغيرها وجدوها متجسدة أمامهم.

فى الواقع إنهم يلاقون مصير أعمالهم: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ اَحَدًا». الذى سيشملهم هناك هو - لا محالة - ما قاموا به فى هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحداً سوى أنفسهم.

ترى ما مقدار ما يعكسه الإيمان بهذا اليوم - بهذه المحكمة بكل ما تتخلله من مشاهد ومواقف - على قضية تربية الإنسان ودفعه

ليتحرك فى خط الرسالة والاستقامة والابتعاد عن الشهوات. فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، وبين إيمانه ويقينه بهذا اليوم؟!

وَ اِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهِ اَفَتَتَّخِذُوْنَهُ وَاَوْلٰٓئِهٖٓ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِىْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ

بِئْسَ لِلظَّالِمِيْنَ بَدَلًا (٥٠) مَا اَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَا خَلَقَ اَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُّتَّخِذِيْنَ الْمُضْتَلِّيْنَ عَصِدًا (٥١) وَ يَوْمَ يَقُوْلُ

نَادُوْا شُرَكَائِي الَّذِيْنَ زَعَمْتُمْ فِدَعُوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوْا لَهُمْ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَ رَاى الْمُجْرِمِيْنَ النَّارَ فَظَنُّوْا اَنَّهُمْ مَوْفِعُوْهَا وَ لَمْ

يَجِدُوْا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٦

لا تتخذوا الشياطين أولياء: لقد تحدت الآيات مرات عدّة عن خلق آدم وسجود الملائكة له، وعدم انصياع إبليس. وقد قلنا: إن هذا

التكرار يتضمن دروساً متعددة، وفى كل مقطع مكرّر هناك دروس وعبر جديدة.

ولأن الآيات السابقة ذكرت مثالا واقعيًا عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين والمغرورين فى مقابل الفقراء المستضعفين وتجسد عاقبة

عملهم، ولأن الغرور كان هو السبب الأصلي لانحراف هؤلاء وانجرارهم إلى الكفر والطغيان، لذا فإن الآيات تعطف الكلام على قصة

إبليس وكيف أبى السجود لآدم غروراً منه وعلوًا، وكيف قاده هذا الغرور والعلو إلى الكفر والطغيان.

إضافة إلى ذلك، فإن هذه القصة توضح أن الانحرافات تنبع من وساوس الشيطان.

فى البداية تقول الآيات: تذكروا ذلك اليوم الذى فيه: «وَ اِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبْلِيسَ».

هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأن إبليس كان من جنس الملائكة، فى حين أن الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس - إذا - طريق

الطغيان والكفر إذا كان من جملتهم؟! لذلك فإن الآيات - منعاً لهذا الوهم - تقول مباشرة إنه: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهِ».

إنه إذا لم يكن من الملائكة، لكنه - بسبب عبوديته وطاعته للخالق جلّ وعلا - قَرَّبَ وكان فى صف الملائكة، إلا أنه - بسبب لحظه من

الغرور والكبر - سقط وأصبح أكثر الموجودات نفرة وابتعاداً عن الله تبارك وتعالى.

ثم تقول الآية: «اَفَتَتَّخِذُوْنَهُ وَاَوْلٰٓئِهٖٓ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِىْ».

والعجب أنهم: «وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ». وهذا العدو، هو عدو صعب مصمّم على ضلالكم وأن يوردكم سوء العاقبة، وقد أظهر عدوانه منذ

اليوم الأول لأبيكم آدم عليه السلام.

فَاتَّخَذَ الشَّيْطٰنُ وَاَوْلَادَهُ بَدَلًا مِنَ الْخٰلِقِ الْمَتَعَالِ اَمْرٍ قَبِيْحٍ: «بِئْسَ لِلظَّالِمِيْنَ بَدَلًا».

الآية التي بعدها هي دليل آخر على إبطال هذا التصور الخاطيء، إذ تقول: عن إبليس وابنائهم أنهم لم يكن لهم وجود حين خلق السموات والأرض، بل لم يشهدوا حتى خلق أنفسهم: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ». حتى نطلب العون منهم في خلق العالم، أو نطلعهم على أسرار الخلق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٧

لذا فإن الشخص الذي ليس له أى دور في خلق العالم، وحتى في خلق من يقع على شاكلته ومن هو من نوعه، ولا يعرف شيئاً من أسرار الخلق، كيف يكون مستحقاً للولاية، أو العبادة، وأى قدرة أو دور يملك؟ ثم تقول: «وَمَا كُنْتَ تَتَّخِذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا».

يعنى أن الخلق قائم على أساس الصدق والصحة والهداية، أما الكائن الذى يقوم منهج حياته على الإضلال والإفساد، فليس له مكان في إدارة هذا النظام.

آخر آية من الآيات التي نبحثها، تحذّر مرّة اخرى، وتقول: تذكروا يوماً يأتى فيه النداء الإلهي: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ».

لقد كنتم تنادونهم عمراً كاملاً، وكنتم تسجدون لهم، واليوم وبعد أن أحاطت بكم أمواج العذاب في ساحه الجزاء، نادوهم ليأتوا لمساعدتكم ولو لساعة واحدة فقط.

هناك ينادى الأشخاص الذين لا تزال ترسيدات أفكار الدنيا في عقولهم: «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ». فلم يجيبوا على نداءهم، فكيف بمساعدتهم وانقاذهم!

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا» (١).

ثم تقول الآية التي بعدها موضحة عاقبة الذين اتبعوا الشيطان والمشركين: «وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ».

لقد انكشفت لهم النار التي لم يكونوا يصدقون بها أبداً، وظهرت أمام أعينهم، وحينئذ يشعرون بأخطائهم، ويتيقنون بأنهم سيدخلون النار: «فَطَنُوا أَنَّهُمْ مُوقِعُوهَا».

ثم يتيقنون أيضاً أن لا منقذ لهم منها: «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا».

فلا تنقذهم اليوم منها لا معبوداتهم ولا شفاعة الشفعاء، ولا الكذب أو التوسل بالذهب والقوة، إنها النار التي يزداد سعيها بسبب أعمالهم.

«مواقعوها»: مشتقة من «مواقعة» بمعنى الوقوع على الآخرين، وهى إشارة إلى أنهم يقعون على النار، وأن النار تقع عليهم، فالنار تنفذ فيهم وهم ينفذون في النار؛ وقد قرأنا في الآية (٢٤) من سورة البقرة قوله تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

(١) «موبق»: من «وبوق» على وزن «نبوغ» وهى تعنى الهلاك، و «موبق» تقال للمهلكة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٨

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَ يُسَبِّحُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نَزَّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)

في انتظار العقاب: تنطوى هذه الآيات على تلخيص واستنتاج لما ورد في الآيات السابقة، وهى تشير - أيضاً - إلى بحوث قادمة. الآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ».

لقد ذكرنا نماذج من تاريخ الماضين المليء بالإثارة، وقد أوضحنا للناس الحوادث المرّة للحياة واللحظات الحلوة في التاريخ، وقد



فصلنا بيان هذه الامور بحيث تتقبلها القلوب المستعدة للحق، وتكون الحجّة على الآخرين تامة، ولا يبقى ثمة مجال للشك.

ولكن بالرغم من هذا فإن مجموعة عصاة لم يؤمنوا أبداً: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا».

الآية التي بعدها تقول: إنه بالرغم من كل هذه الأمثلة المختلفة والتوضيحات المثيرة والأساليب المختلفة التي ينبغي أن تنفذ إلى داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإن هناك مجموعة كبيرة من الناس لم تؤمن: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ». أي مصير الامم السالفة: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا» (١).

فيرونه بأم أعينهم.

إن هذه الآية إشارة إلى أن هذه المجموعة المعاندة والمغرورة لا تؤمن بإرادتها وبشكل طبيعي أبداً، بل هم يؤمنون في حالتين فقط: أولاً: عندما يصيبهم العذاب الأليم الذي نزل مثله في الأقوام والامم السابقة.

ثانياً: عندما يشاهدون العذاب الإلهي بأعينهم، وقد أشرنا مراراً إلى أن مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

(١) «قبل»: تعنى التقابل، بمعنى مشاهدة العذاب الإلهي بالعين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٩

ومن أجل طمأنة الرسول صلى الله عليه وآله في مقابل صلافة وعناد أمثال هؤلاء، تقول الآية:

«وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

ثم تقول الآية: إن هذه القضية ليست جديدة، بل إن من واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة والاستهزاء بآيات الله: «وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا» (١).

وهذه الآية تشبه الآيات (٤٢-٤٥) من سورة الحج التي تقول: «وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ» الآيات.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)

لا استعجال في العقاب الإلهي: الآيات السابقة كانت تتحدث عن مجموعة من الكافرين المتعصبين والمظلمة قلوبهم؛ والآيات التي بين أيدينا تستمر في نفس البحث. ففي البداية قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ».

إن استخدام تعبير (ذكر) يوحى إلى أن تعليمات الأنبياء عليهم السلام هي بمثابة التذكير بالحقائق الموجودة بشكل فطري في أعماق الإنسان، وإن مهمة الأنبياء هي رفع الحجب عن نقاء وشفافية هذه الفطرة.

الطريف في الأمر أن الآية الكريمة رسمت ثلاثة مسالك ليقظة هؤلاء وإعادتهم إلى نور الهداية، هي:

(١) «يدحضوا»: مشتقة من «إدحاض» بمعنى الإبطال والإزالة، وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «دحض» بمعنى الإنزلاق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٠

مختصر الامثل ج ٣ ١٩٩

أولاً: إن هذه الحقائق ثلاث بشكل كامل ما هو مكنون في فطرتكم ووجدانكم وأرواحكم. ثانياً: إنها جاءت من قبل خالقكم.

ثالثاً: عليكم أن لا تنسوا أنكم اقترعتم الذنوب، وأن منهاج عمل الأنبياء هو فتح باب التوبة من الذنوب والهداية للصواب.

لكن هذه الفئة من الناس لم تؤمن برغم كل ذلك: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا». وبذلك لا تنفع معهم دعوتك: «وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا».

إنّ البرنامج التربوي للخالق جلّ وعلا هو أن يعطى لعباده الفرصة بعد الاخرى، وهو جلّ وعلا لا يعاقب بشكل فوري مثل الجبارين والظالمين، بل إنّ رحمته الواسعة تقتضى دوماً إعطاء أوسع الفرص للمذنبين، لذا فإنّ الآية التي بعدها تقول: «وَرَبُّكَ الْعَفُوُّ ذُو الرِّحْمَةِ». «لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَتَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ». فاذا كانت الإرادة الإلهية تقتضى انزال العذاب بسبب ارتكابهم للذنوب لتحقق ذلك فوراً.

«بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا» (١).

فغفرانه تعالى يقضى أن يرحم التوابين، ورحمته تقضى أن لا يعجز عذاب غيرهم، إذ من المحتمل أن يلتحق بعضهم بصفوف التوابين، إلّا أنّ عدالته تعالى تقتضى مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عندما يصل طغيانهم وتمردهم إلى أقصى درجاته. وأخيراً تنتهي هذه المجموعة من الآيات إلى توجيه التحذير الأخير من خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرّة لمن ظلم من السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إنّ هذه المدن والقرى أمامكم، ولكم أن تشاهدوا خرابها والدمار الذي حلّ فيها، وقد أهلكنا أهلها بما ارتكبوا من ظلم، في نفس الوقت الذي لم يعجز فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعداً لمهلكهم: «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا».

(١) «موثلاً»: من كلمة «وثل» وتعني الملجأ ووسيلة النجاة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥١

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرُحْ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)

لقاء موسى والخضر عليهما السلام: ذكر على بن إبراهيم في تفسيره: لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبرنا عن العالم الذي أمر الله موسى عليه السلام أن يتبعه، من هو؟ كيف تبعه؟ وما قصته؟ فأنزل الله تعالى.

لقد ذكرت في سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة وهذه القصص هي: قصة أصحاب الكهف التي إنتهينا منها؛ وقصة موسى والخضر عليهما السلام؛ وقصة ذي القرنين التي سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأفق المحدود في حياتنا وما تعودنا عليه وألفناه، وتبين لنا أنّ حدود العالم لا تنحصر في نطاق ما نرى وما نشاهد، وأنّ الشكل العام للحوادث والأحداث ليس هو ما نفهمه من خلال النظرة الاولى.

فإنّ قصة موسى والخضر لها أبعاد عجيبة اخرى. ففي القصة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبياً من أولى العزم بكل وعيه ومكانته في زمانه يعيش محدودية في علمه ومعرفته من بعض النواحي، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلم على يديه.

في أول آية نقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرُحْ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا».

إنّ المعنى بالآية هو بلا شك موسى بن عمران النبي المعروف من أولى العزم.

أمّا المعنى من (فتاه) فهو يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن من بني اسرائيل.

«مجمع البحرين»: بمعنى محل التقاء البحرين، والمقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليج العقبة» مع «خليج السويس»، وهذان الخليجان يتصلان بالبحر الأحمر.

«حقب»: تعني المدة الطويلة والتي فسرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسى عليه السلام من هذه الكلمة، هو أنني سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضييعته ولو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٢

قوله تعالى «فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا» أى السمكة التى كانت معهما، أما العجيب فى الأمر فإنّ الحوت «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا».

هذه السمك الذى كان معداً للغذاء كانت سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازى وقفزت إلى الماء وغاصت فيه، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجها من الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد فى هذه الفترة إلى الماء. وفى تنمة القصة نقرأ أنّ موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفى هذه الأثناء تذكّر موسى عليه السلام أنّه قد جلب معه طعاماً، وعند ذلك قال لصاحبه: «فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَاءْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا».

إنّ هذه الجملة تظهر أنّ موسى ويوشع قد سلكا طريقاً يمكن أن نسميه بالسفر، إلّا أنّ نفس هذه التعابير تفيد أنّ هذا السفر لم يكن طويلاً.

وفى هذه الأثناء قال له صاحبه: «قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا».

ولأنّ هذا الحادث والموضوع - بشكل عام - كان علامة لموسى عليه السلام، لكى يصل من خلاله إلى موقع (العالم) الذى خرج يبحث عنه، لذا فقد قال: «قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ».

وهنا رجعا فى نفس الطريق: «فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا».

وهنا قد يطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبى مثل موسى عليه السلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن ف «نَسِيَا حُوتَهُمَا». فى الجواب نقول: إنّ لا يوجد ثمة مانع من الإصابة بالنسيان فى المسائل والموارد التى لا ترتبط بالأحكام الإلهية والامور التبليغية، أى فى مسائل الحياة العادية.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٣

رؤية المعلم الكبير: عندما رجع موسى عليه السلام وصاحبه إلى المكان الأوّل، أى قرب الصخرة وقرب (مجمع البحرين)، فجاءه: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا».

إنّ استخدام كلمة «وجدنا» تفيد أنّهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، وقد وجداه أخيراً.

أمّا استخدام عبارة «عبدًا مِنْ عِبَادِنَا» فهى تبين أنّ أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبداً حقيقياً للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سبباً فى شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، وفتح أبواب المعرفة والعلم فى قلبه.

كما أنّ استخدام عبارة «مِنْ لَدُنَّا» تبين أنّ علم ذلك العالم لم يكن علماً عادياً، بل كان يعرف جزءاً من أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التى لا يعلمها سوى الله تعالى.

والمقصود من عبارة «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا» هو الإستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التى وهبها الله تعالى لهذا الرجل كى يكون قادراً على استقبال العلم الإلهي.

فى هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام وبأدب كبير: «قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا».

فى معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم يجيب موسى عليه السلام بكلام عجيب: «قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا».

ثم بين سبب ذلك مباشرة وقال: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا».

إنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التى تخصّ أسرار وبواطن الأحداث، فى حين أنّ موسى عليه السلام لم يكن مأموراً

بمعرفة البواطن، وبالتالي لم يكن يعرف عنها الكثير.

في مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذي ينظر إلى الظاهر صبره وتماسكه فيقوم بالإعتراض وحتى بالتشاجر.

وقد يكون موسى عليه السلام اضطرب عندما سمع هذا الكلام وخشى أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهد بأن يصبر على جميع الحوادث و «قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا».

مرّة اخرى كشف موسى عليه السلام عن قميّة أدبه في هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إني صابر، بل قال: إن شاء الله ستجدني صابراً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٤

ولأنّ الصبر على حوادث غريبة وسيئة في الظاهر والتي لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهين، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السلام أن يتعهد له مرّة اخرى، وحذّره: «قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسِيلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» (١). وقد أعطى موسى العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

المعلم الإلهي والأفعال المنكرة: نعم، لقد ذهب موسى وصاحبه وركبا السفينة:

«فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا».

«خرق»: (كما يقول الراغب في المفردات) الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر ولا تفكّر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالم على هذا المنوال.

وبحكم كون موسى عليه السلام نبياً إلهياً فقد كان من جانب يرى أنّ من واجبه الحفاظ على أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن جانب آخر كان وجدانه الإنساني يضغط عليه ولا يدعه يسكت أمام أعمال الرجل العالم التي يبدو ظاهرها سيئاً قبيحاً، لذا فقد نسي العهد الذي قطعه للخضر (العالم) فاعترض و «قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

(١) إن عبارة «أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» يكون مفهومها بعد الأخذ بنظر الإعتبار كلمة «أحدث» هو: إني أنا الذي أبدأ بالكلام وأكشف للمرّة الاولى؛ أما أنت فلا تتكلم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٥

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا».

وفي هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السلام نظرة خاصة وخاطبه: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا».

أمّا موسى الذي ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذي قطعه لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلاً: «قَالَ لَأَتَوَخَّضُ بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا». يعنى لقد أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذني بهذا الإشتباه.

«ترهقني»: مشتقّه من «إرهاق» وتعنى تغطية شيء ما بالقهر والغلبة، وتأتى في بعض الأحيان بمعنى التكليف، وفي الآية- أعلاه- يكون معناها: لا تصعب الأمور عليّ، ولا تقطع فيضك عنّي بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية وترجلوا من السفينة: «فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَمًا فَاقْتَلَهُ»، وقد تمّ ذلك بدون أى مقدمات.

وهنا ثار موسى عليه السلام مرّة اخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفل برىء بدون أى سبب، وظهرت آثار الغضب على وجهه وملأ الحزن وعدم الرضا عينيه ونسى وعده مرّة اخرى، فقام للإعتراض، وكان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه في المرّة الاولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الاولى: «قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ». أى إنك قتلت انساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا».

ومرّة اخرى كثر العالم الكبير جملته السابقة التي اتّسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السلام: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا».

تذكر موسى تعهده فانتبه إلى ذلك وهو خجل، حيث أخلّ بالعهد مرتين - ولو بسبب النسيان - وبدأ تدريجياً يشعر بصدق عبارة الأستاذ في أن موسى لا يستطيع تحمل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قال له عندما عرض عليه موسى الرفقة، لذا فقد بادر إلى الاعتذار وقال: إذا اعترضت عليك مرة أخرى فلا تصاحبني وأنت في حلّ مني: «قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا».

صيغة العذر هنا تدل على انصاف موسى عليه السلام ورؤيته البعيدة للأمور، وتبين أنه عليه السلام كان

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٦

يستسلم للحقائق ولو كانت مرة.

بعد هذا الكلام والعهد الجديد: «فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتِطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا». والمقصود من كلمة قرية هو مدينة (الناصره) أو ميناء (أيلة). المهم في الأمر، أننا نستنتج من خلال ما جرى لموسى عليه السلام وصاحبه من أهل هذه المدينة أنهم كانوا لئاماً ديني الهمة. في مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «كانوا أهل قرية لئام».

ثم يضيف القرآن: «فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ». وقد كان موسى عليه السلام شاهد كيف أن الخضر قام بترميم الجدار بالرغم من سلوك أهل القرية القبيح إزاءهما، وكأنه بذلك أراد أن يجازي أهل القرية بفعالهم السيئة؛ وكان موسى يعتقد بأن على صاحبه أن يطالب بالأجر على هذا العمل حتى يستطيع أن يعددا لأنفسهما طعاماً.

لذا فقد نسي موسى عليه السلام عهده مرة أخرى وبدأ بالإعتراض، إلا أن اعتراضه هذه المرة بدا خفيفاً ف «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا».

وفي الواقع فإن موسى يعتقد بأن قيام الإنسان بالنضحية في سبيل أناس سيئين عمل مجاف لروح العدالة.

وهنا قال الرجل العالم كلامه الأخير لموسى بأنك ومن خلال حوادث مختلفة، لا تستطيع معي صبراً، لذلك قرّر العالم قراره الأخير: «قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا». «تأويل»: من «أول» على وزن «قول» وتعني الإرجاع، لذا فإن أي عمل أو كلام يرجعنا إلى الهدف الأصلي يسمى «تأويل» كما أن رفع الحجب عن أسرار شيء هو نوع من التأويل.

إن مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغاية، لكن على موسى عليه السلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المرة.

المفسر المعروف أبو الفتوح الرازي يقول: ورد في الخبر، أن موسى عليه السلام عندما سئل عن أصعب ما لاقى من مشكلات في طول حياته، أجاب قائلاً: لقد واجهت الكثير من المشاكل والصعوبات (إشارة إلى ما لاقاه عليه السلام من فرعون، وما عاناه من بنى إسرائيل) ولكن لم يكن أيًا منها أصعب وأكثر ألماً على قلبي من قرار الخضر في فراقى إياه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٧

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُدْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْرِخَ كَتْرَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث: بعد أن أصبح الفراق بين موسى والخضر عليهما السلام أمراً حتمياً، كان من اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهي بتوضيح أسرار أعماله التي لم يستطيع موسى أن يصبر عليها، وفي الواقع فإن استفادة موسى من صحبته تتمثل في معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتي يمكن أن تكون مفتاحاً للعديد من المسائل، وجواباً لكثير من الأسئلة. ففي البداية ذكر قصة السفينة وقال: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا».

وبهذا الترتيب كان ثمة هدف خير وراء ثقب السفينة الذي بدأ في حينه عملاً مشيناً سيئاً، والهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذ خلاصه المقصود في الحادثة الاولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعنى هنا الجانب المكانى، وإنما هى كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أن الإنسان لا يحيط بالحوادث التى سوف تصيبه لاحقاً، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثانية التى قتل فيها الفتى، فيقول: «وَأَمَّا الْعُلَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

إنّ تعبير (خشينا) جاء هنا بمعنى: لم نكن نرغب، وإلا لا معنى للخوف فى هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم والوعى والقدرة.

وبعبارة اخرى: فإنّ الهدف هو الإتيان من حادث سىء نرغب أن نقى الأبوين منه على أساس المودة لهما.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٨

ثم تحكى الآيات على لسان العالم قوله: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا». «زكاة»: هنا بمعنى الطهارة والنظافة، ولها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان والعمل الصالح، وتتسع للامور الدينية والمادية، وقد يكون فى هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السلام الذى قال: «أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً...» فقال له العالم فى الجواب: إنّ هذه النفس ليست زكية، وأردنا أن يبدلها ربهما ابناً طاهراً بدلاً عن ذلك.

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أبدلها الله به جاريه ولدت سبعين نبياً».

فى آخر آية من الآيات التى نبحتها، كشف الرجل العالم عن السر الثالث الذى دعاه إلى بناء الجدار فقال: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا». «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا». «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ».

وأنا كنت مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوى هذين اليتيمين، كى لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرضاً للخطر. وفى خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفى أى شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكى يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقاً لمخطط وتوجيه غيبى، قال العالم: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» بل بأمر من الله.

وذلك سر ما لم يستطع عليه موسى عليه السلام صبراً، إذ قال: «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا».

دروس قصة خضر وموسى عليهما السلام: هناك جملة دروس يمكن أن نستفيد منها من القصة، ويمكن لنا أن ندرجها كما يلى:  
أ: أهمية العثور على قائد عالم والاستفادة من علمه، بحيث رأينا أن نبياً من اولى العزم مثل موسى عليه السلام يسلك هذا الطريق الطويل، وقد بذل ما بذل لتحقيقه، وهذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم وفى أى عمر كانوا.

ب: جوهره العلم الإلهى تنبع من العبودية لله تعالى.

ج: يجب تعلم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السلام لصاحبه «مِمَّا عَلَّمْتَنِي رُشْدًا». أى:

علمنى عملاً يقربنى من هدفى ومقصدى، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الإستعجال فى الأعمال، إذ العديد من الامور تحتاج إلى الفرص المناسبة.

ه: الظاهر والباطن من المسائل المهمة الاخرى التى نتعلمها من القصة، إذ يجب علينا أن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٩

لا تصدر أحكاماً سريعة تجاه الحوادث التى تقع فى مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا، إذ ما أكثر الحوادث التى نكرهاها، ولكن يتضح بعد مدّة أن هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألفاظ الخفية الإلهية، والقرآن يصرح بمضمون هذه الحقيقة فى الآية (٢١٦) من سورة

البقرة قوله تعالى: «عَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

و: من دروس القصة الاعتراف بالحقائق واتخاذ المواقف المطابقة لها، فعندما تخلف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه لا يستطيع الاستمرار معه فى الصعبة.

يجب على الإنسان أن لا يستمر إلى آخر عمره فى اختبار نفسه، بحيث تتحوّل حياته إلى مختبر للأمور المستقبلية التى قد لا تحصل أبداً، اذ عليه عندما يختبر موضوعاً ما عدّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الاختبار وأن يقتنع به.

ز: تأثير إيمان الآباء على الأبناء؛ لقد تحمل الخضر مسؤوليته حماية الأبناء بالمقدار الذى كان يستطيعه، وذلك بسبب الأب الصالح الملتزم، بمعنى أن الابن يستطيع أن يسعد فى ظل الإيمان وأمانة والتزام الأب، وإنّ نتيجة العمل الصالح الذى يلتزمه الأب تعود على الابن أيضاً.

ح: قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين عندما يطال الموت الابن بسبب ما يلحقه من أذى بوالديه فى مستقبل حياته، وبسبب ما يرهقهما به من أذى وطغيان وكفر، قد يحرفهم عن الطريق الإلهى، كما رأينا ذلك فى القصة التى بين أيدينا.

ط: الناس أعداء ما جهلوا؛ قد يحدث أن يقوم شخص بالإحسان إلينا، إلّا أننا نتصوره عدوّاً لنا، لأننا لا نعرف بواطن الامور، ونتسرّع ونفقد الصبر، خصوصاً إزاء الأحداث والامور التى نجهلها ولا نحيط بأسبابها علماً. من الطبيعى أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علماً من الأحداث والقضايا، إلّا أنّ الدرس المستفاد من القصة هو أن لا نتسرّع فى إصدار الأحكام على مثل هذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التى نحيط من خلالها بجوانب وزوايا الموضوع المختلفة.

ى: أدب التلميذ والأستاذ؛ ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ والأستاذ ظهرت فى مقاطع الحديث بين موسى عليه السلام والرجل الربانى العالم، فمن ذلك مثلاً:

١- اعتبار موسى عليه السلام نفسه تابعاً للخضر قوله: «أَتَّبِعُكَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٠

٢- وللتواضع فقد اعتبر علم أستاذه كثيراً، وهو يطلب جانباً من هذا العلم، فقال:

«مِمَّا عَلَّمْتَّ».

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعْدَبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسَيْنًا (٨٦) قَالَ إِنَّمَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نَعْدَبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَإِنَّمَا مِنْ آمَنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)

قصة ذو القرنين العجيبة: قلنا فى بداية حديثنا عن أصحاب الكهف: إن مجموعة من قريش قرّرت اختبار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وقامت هذه المجموعة بالتنسيق مع اليهود واستشارتهم بطرح ثلاث قضايا ونحن الآن بصدد ذكر قصة «ذو القرنين»:

إن قصة ذو القرنين تدور حول شخصية أثارت اهتمامات الفلاسفة والباحثين منذ القدم.

وقد بذلت جهود ومساعي كثيرة للتعرف على هذه الشخصية.

وسنقوم أولاً بتفسير الآيات الست عشرة الخاصة بذي القرنين، ثم ننتقل إلى بحوث لمعرفة شخصية ذى القرنين نفسه.

بتعبير آخر: إن ما يهمنا أولاً هو الحديث عن شخصية ذى القرنين، وهو ما فعله القرآن، حيث يقول تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ».

فيكون الجواب على لسان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله: «قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا».

إنّ بداية الآية تبيّن لنا أنّ قصة ذو القرنين كانت متداولة ومعروفة بين الناس، ولكنها كانت محاطة بالغموض والإبهام، لهذا السبب طالبوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمة.

وفي إستئناف الحديث عن ذى القرنين يقول تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ». أى:

منحناه سبل القوّة والقدرة والحكم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦١

«وَأَتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا». إنّ الله تبارك وتعالى منح «ذو القرنين» أسباب الوصول لكل الأشياء: العقل، العلم الكافي، الإدارة السليمة، القوّة والقدرة، الجيوش والقوى البشرية، بالإضافة إلى الإمكانيات المادية، أى إنّ منح كل الأسباب والسبل المادية والمعنوية الكفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة.

ثم يشير القرآن بعد ذلك إلى استفادة ذى القرنين من هذه الأسباب والسبل فيقول:

«فَأَتْبَعَ سَبَبًا». ثم «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَرْغَبَ الشَّمْسِ». فرأى أنّها تغرب في بحر غامق أو عين ذات ماء آسن: «وَجَدَهَا تُغْرِبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» (١).

«وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا». أى مجموعة من الناس فيهم الصالح والطالح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب الله ذا القرنين في شأنهم: «قُلْنَا يَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا».

بعد ذلك تحكى الآيات جواب «ذو القرنين» الذى قال: «قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا» (٢). أى إنّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوى والأخروى معاً.

«وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ». «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا». أى:

أنا سنتعامل معه بالقول الحسن، فضلاً عن أننا سنخفف عنه ولا نجعله يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلى أننا سوف لن نجبي منه ضرائب كثيرة.

وعندما إنتهى «ذو القرنين» من سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق حيث يقول القرآن فى ذلك: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أى استخدم الوسائل والإمكانيات التى كانت بحوزته.

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ». وهنا رأى أنّها: «وَجَدَهَا تَطُّعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا». وفى اللفظ كناية عن أنّ حياة هؤلاء الناس بدائية جداً، ولا يملكون سوى القليل من الملابس التى لا تكفى لتغطية أبدانهم من الشمس.

أما بعض المفسرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التى تحميهم من الشمس.

(١) «حمئة»: تعنى فى الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة، أو الماء الآسن الموجود فى المستنقعات. وهذا الوصف يبيّن لنا بأنّ الأرض التى بلغها «ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معه بأنّ الشمس كانت تغرب فى هذه المستنقعات، تماماً.

(٢) «نكر»: مشتقة من «منكر» بمعنى الشئ المجهول؛ أى العذاب المجهول الذى لم يمكن تصوره.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٢

بالطبع ليس هناك تعارض بين التفاسير هذه، قوله تعالى: «كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا». هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» ونحن نعلم جيداً بإمكاناته.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ



وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) كيف تم بناء سدّ ذى القرنين: الآيات أعلاه تشير إلى سفره اخرى من أسفار ذى القرنين حيث تقول: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أى: بعد هذه الحادثة استفاد من الوسائل المهمة التي كانت تحت تصرفه ومضى فى سفره حتى وصل إلى موضع بين جبلين: «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَأِيكَادُونَ يُفْقَهُونَ قَوْلًا».

والآية تشير إلى أنه وصل إلى منطقة جبلية، وهناك وجد اناساً كانوا على مستوى دان من المدينة، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدن لدى البشر.

فى هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجيء ذى القرنين، لأنهم كانوا فى عذاب شديد من قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج، لذا فقد طلبوا العون منه قائلين: «قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا». قد يكون كلامهم هذا تم عن طريق تبادل العلامات والإشارات، لأنهم لا يفهمون لغة ذى القرنين. أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: «قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ»، وأتى لا أحتاج إلى مساعدتك المالىة وإنما: «فَأَعِيُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا».

«ردم»: على وزن «طرد» فى الأصل تعنى ملء الشق بالأحجار، إلّا أنها فيما بعد أخذت معنىً واسعاً بحيث شمل كل سدّ، بل وشمل حتى ترقيع الملابس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٣

يعتقد بعض المفسرين أنّ كلمة «ردم» تقال للسدّ القوى.

ثم أمر ذو القرنين فقال: «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ».

«زبر»: جمع «زبرة» على وزن (غرفة)، وتعنى القطع الكبيرة والضخمة من الحديد.

وعندما تهيأت قطع الحديد أعطى أمراً بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطى بين الجبلين بشكل كامل: «حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ». «صدف»: تعنى هنا حافة الجبل.

الأمر الثالث لذى القرنين هو طلبه منهم أن يجلبوا الحطب وما شابهه، ووضعها على جانبي هذا السد، وأشعل النار فيه ثم أمرهم بالنفخ فيه حتى احمرّ الحديد من شدّة النار:

«قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا».

لقد كان يهدف ذو القرنين من ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدّاً من قطعة واحدة، وعن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذى يقام به اليوم فى ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيراً أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لى النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: «قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا».

وبهذا الشكل قام بتغطية هذا السدّ الحديدى بطبقة من النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء ويحفظ من التآكل.

وأخيراً، أصبح هذا السد بقدر من القوة والإحكام بحيث: «فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا».

لقد كان عمل ذى القرنين عظيماً ومهماً، وكان له وفقاً لمنطق المستكبرين ونهجهم أن يتباهى به أو يمينّ به، إلّا أنه قال بأدب كامل: «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي»، لأنّ أخلاقه كانت أخلاقاً إلهية.

إنه أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمة، فإنّ كل ذلك إنّما كان من قبل الخالق جلّ وعلا.

ثم استطرد قائلاً: لا تظنوا أنّ هذا السد سيكون أبدياً وخالدًا: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ». «وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا».

لقد أشار ذو القرنين في كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا وتحطم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٤

بحثنان

أولاً- ملاحظات التربوية في هذه القصة التاريخية: هذه القصة تحوى على دروس تربوية كثيرة وفي الواقع أنها هي الهدف القرآني من إيرادها.

١- إن أول درس تعلمنا إياه أن العمل الدنيوي لا يتم دون توفير أسبابه، لذا فإن الله تبارك وتعالى وهب الوسائل والأسباب لتقدم وانتصار ذي القرنين في عمله.

٢- لا تستطيع أى حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار والأتباع، ومعاقبة المذنبين والمخطئين، وهذا هو نفس الأساس الذي اعتمد عليه ذو القرنين.

والإمام أمير المؤمنين على عليه السلام بلور هذا المعنى في رسالته إلى مالك الأشتر والتي هي برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السلام: «ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة» (١).

٣- التكليف الشاق والتصعب في الامور وتحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الامور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبداً.

٤- الحكومة الكبيرة ذات الإمكانيات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت والاختلاف القائم في حياة الناس وتراعى شرائط حياتهم المختلفة.

٥- إن «ذو القرنين» لم يستبعد حتى تلك المجموعة التي لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: «لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» بل إنه استمع إلى مشاكلهم، ودأب على رفع احتياجاتهم بأي أسلوب كان.

٦- الأمن هو أول وأهم شرط من شروط الحياة الاجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمل «ذو القرنين» أصعب الأعمال وأشقها لتأمين أمن القوم من أعدائهم.

٧- الدرس الآخر الذي يمكن أن نتعلمه من هذه القصة، هو أن أصحاب المشكلة الأصليين معينين بالدرجة الاولى في الإشتراك في الجهد المبذول لحل مشكلتهم.

وعادة فإن العمل الذي يتم بمساهمة وحضور الأطراف الأصليين في المشكلة يؤدي إلى إظهار استعداداتهم ويعطى قيمة خاصة للنتائج الحاصلة منه، وللجهود المبذولة فيه، ومن ثم يحرض الجميع للحفاظ عليه وإدامته بحكم تحملهم لمجهودات إنشائه.

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٥

كما يتضح من هذه النقطة أن المجتمع المتخلف والمتأخر يستطيع أن ينجز أعمالاً مهمة وعظيمة إذا تمتع ببرنامج صحيح وإدارة مخلصه.

٨- الزعيم الإلهي والقائد الرباني لا يلتفت إلى الجزء المادي والنفع المالى وإنما يقتنع بما حباه الله.

وفي القرآن الكريم نقرأ مراراً في قصص الأنبياء أنهم لم يكونوا يطلبون المال جزاءً لأعمالهم ودعواتهم.

٩- إحكام الامور هو درس آخر نستفيد من هذه القصة.

١٠- مهما كان الإنسان قوياً و متمكناً وصاحب قدرة واستطاعة في إنجاز الأعمال، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وهذا هو درس آخر نتعلمه

من قصة «ذو القرنين».

١١- كل شى إلى زوال مهما كان محكماً وصلداً. هذا هو الدرس الأخير في هذه القصة، وهو درس للذين يتمنون أو يظنون خلود المال أو المنصب والجاه.

ثانياً- من هم يأجوج ومأجوج؟ ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج في سورتين، إذ وردت المرّة الاولى في الآيات التي نبحتها، والثانية في سورة الأنبياء، الآية (٩٦).

الآيات القرآنية تؤيد بوضوح أنّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان سكان المناطق المحيطة بهم. حيث طلب أهل القفقاز من «كورش» عند سفره إليهم أن ينقدهم من هجمات هذه القبائل، لذلك أقدم على تأسيس السد المعروف بسدّ ذى القرنين. وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)

عاقبة الكافرين: لقد تناولت الآية السابقة سد يأجوج ومأجوج وانهدامه عند البعث، وهذه الآيات تستمر في قضايا القيامة، فتقول أولاً: إنّنا سنترك في ذلك اليوم- الذى ينتهى فيه العالم- بعضهم يموج ببعض: «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ».

إنّ استخدام كلمة «يموج» إمّا بسبب الكثرة الكاثرة للناس في تلك الواقعة، أو بسبب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٦

الإضطراب والخوف الذى يصيب الناس في ذلك اليوم، وكأنّما أجسادهم تهتز كأموج الماء.

بعد ذلك تضيف الآيات: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا». وبلا شك فإنّ كافة الناس سيجتمعون في تلك الساحة ولن يستثنى منهم أحد، وتعبير «فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» إشارة إلى هذه الحقيقة.

من مجموع الآيات نستفيد أنّ ثمة تحوّلان عظيمان سيحصلان عند نهاية هذا العالم وبداية العالم الجديد:

الأول: فناء الموجودات والناس بشكل آنى.

والثانى: إحياء الموتى بشكل آنى أيضاً.

ولا نعلم مقدار الفاصل بين الحدثين، ولكنّ القرآن يعبر عن هذين التحوّلين بعنوان (نفخ الصور).

ثم تتناول الآيات تفصيل حال الكافرين، حيث توضّح عاقبة أعمالهم، والصفات التى تقود إلى هذه العاقبة، فتقول: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا».

إنّ جهنّم ستظهر لهم، وتوضّح لهم الأنواع المختلفة من عذابها، وهذا هو بحد ذاته عذاب أليم موجع، فكيف إذا ولجوها؟!

ولكن من هم الكافرون؟ ولماذا يصابون بمثل هذه العاقبة؟ الآية تعرّف هؤلاء بجملة قصيرة واحدة بقولها: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي». وبالرغم من أنّهم يمتلكون آذاناً، إلّا أنّهم يفقدون القدرة على السماع: «وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا».

فهؤلاء أسقطوا فى الواقع أهم وسيلة لمعرفة الحق وإداركه، وأهملوا الوسيلة الهامة فى شقاء أو سعادة الإنسان. يعنى أنّهم غطّوا أعينهم وأسماعهم بحجاب وستار بسبب أفكارهم الخاطئة وتعصبهم وحقدهم وصفاتهم القبيحة الاخرى.

الآية التى بعدها تشير إلى نقطة انحراف فكرية لدى هؤلاء هى أصل انحرافاتهم الاخرى، فتقول: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ».

هل يملك هؤلاء المعبودون- كالمسيح والملائكة- شيئاً للدفاع عن الآخرين بالرغم من مكابتهم العالية، أو أنّ الأمر بالعكس إذ كل

ما عند هؤلاء هو من الله، وأنهم أنفسهم يحتاجون إلى هدايته؟

إنّ هذه حقيقة واضحة، ولكن هؤلاء تناسوها وتورطوا فى شرك الشرك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٧

في ختام الآية وللزيد من التأكيد، تقول الآية: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا».

«نُزُلًا»: بمعنى الإقامة، وتعني أيضاً الشيء الذي يهتأ لتقديمه للضيوف.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) أخسر الناس: هذه الآيات والآيات اللاحقة- إلى نهاية السورة المباركة- في الوقت الذي تتحدث فيه عن صفات غير المؤمنين، فإنها تعتبر نوعاً من التلخيص لكافة البحوث التي وردت في هذه السورة، خاصة البحوث المتعلقة بقصة أصحاب الكهف وموسى والخضر وذو القرنين، وما بذلوه من جهود إزاء معارضتهم.

فآيات تكشف أولاً عن أخسر الناس، ولكنها- بهدف إثارة حب الإستطلاع لدى المستمع إزاء هذه القضية- تعتمد إلى إثارها على شكل سؤال موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فتقول: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا». ثم يأتي الجواب بدون أي توقف حتى لا يبقى المستمع في حيرة، فتقول: «الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

مفهوم الخسران لا ينطبق على خسران الأرباح وحسب، بل إن الخسران الواقعي هو خسران أصل رأس المال، وهل هناك رأس مال أربح وأفضل وأحسن من العقل والذكاء والطاقات الإلهية الموهوبة للإنسان من عمر وشباب وصحة؟ إن نتاج كل هذه المواهب هي أعمال الإنسان، وأعمال الإنسان هي في الواقع انعكاس وتجسيد لطاقتنا وقدراتنا. عندما تتحوّل هذه الطاقات إلى أعمال مخزّبة أو غير هادفة، فكأنها قد فئت أو ضاعت؛ إلّا أنّ الخسران الحقيقي والمضاعف هو أن يفقد الإنسان رأسماله المادى والمعنوى في مسالك خاطئة ومجالات منحرفة ويظن أنه أحسن العمل، فهو في هذه الحالة لم يحصل على ثمرة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٨

لعمله، وفي نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيكزّر العمل. الآيات الاخرى تذكر صفات ومعتقدات هذه المجموعة من الخاسرين، حيث تبدأ بتلك الصفات التي تكون أساساً في مصائبهم فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ». إنهم كفروا بالآيات التي تفتح الأبصار والمسامع، الآيات التي ترفع حجب الغرور وتجسّد الحقائق أمام الإنسان، وأخيراً فإنها آيات النور والضياء التي تخرج الإنسان من ظلمات الأوهام والتصورات الخاطئة وترشده إلى عالم الحقائق. ثم إنهم بعد ذلك نسوا الله وكفروا بالمعاد وبلقاء الله «وَلَقَائِهِ».

يعنى أنّ الإنسان في يوم القيامة يشاهد آثار الخالق أكثر وأفضل من أي زمان، لذا فإنه ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعي البصير. نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، وما لم يحس الإنسان بأن هناك قوة تراقب أعماله فإن الإنسان سوف لا يعير أهميته إلى أعماله وسوف لا يصلح نفسه.

ثم تضيف الآية أنهم بسبب من كفرهم بالمبدأ والمعاد فإن أعمالهم قد حبطت وضاعت:

«فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ». وغدت تماماً كالرماد في مقابل العاصفة الهوجاء.

ولأنهم لا يملكون عملاً قيماً ثميناً لذا: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا».

لأنّ الوزن يخصّ الامور الموجودة، أمّا هؤلاء فلا يملكون شيئاً من الأعمال، ولذلك ليس لهم وزن ولا قيمة. روى في تفسير مجمع البيان أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة».

لماذا؟ لأنّ أعمال مثل هؤلاء وأفكارهم وشخصيتهم كانت في الحياة الدنيا عديمة الأهمية والفائدة.

وفى إطار بيان جزاء هؤلاء، تكشف الآية عن ثالث سبب فى انحراف وخسران هؤلاء، وهو الاستهزاء بما أنزل الله، فتقول: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا».

وبذلك فإن هؤلاء انتهوا إلى إنكار الأصول الأساسية الثلاثة فى الإعتقاد الدينى (المبدأ، والمعاد، ورسالة الأنبياء) والأكثر من الإنكار أنهم استهزؤوا بهذه الامور.

والآن بعد أن عرفنا علامات الكفار والأخسرين أعمالاً، وبعد أن انكشفت عاقبة أعمالهم، تتوجه الآيات إلى المؤمنين فتبين عاقبتهم، وبمقايسه بين الاثنين نستطيع تشخيص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٩

كل طرف بشكل كامل. تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا». «الفردوس»: البستان الذى يشتمل على كل النعم والمواهب اللازمة، وبذلك فالفردوس هو أفضل وأكمل البساتين فى الجنة.

وبما أن كمال النعم بدوامها وأن لا تطالها يد الزوال، لذا فإن الآية تقول: «خَالِدِينَ فِيهَا».

وبالرغم من أن طبع الإنسان قائم على التغير والتنوع، إلا أن سكان الجنة لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبداً: «لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حَوْلًا». ذلك لأنهم يجدون كل ما يطلبون حتى التنوع والتكامل كما سيأتى شرح ذلك.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: لما نزل قوله «وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (١)، قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراه، وفيها علم كثير، فأنزل الله هذه الآية «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي».

التفسير

الذين يأملون لقاء الله: الآيات أعلاه فى نفس الوقت الذى تبحث بحثاً مستقلاً، إلا أنها متصله مع بحوث هذه السوره، وكأنما القرآن يريد أن يقول فى هذه الآيات: إن الإطلاع على قصه أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وذى القرنين، يعتبر لا شىء إزاء علم الله غير المحدود. القرآن الكريم يخاطب الرسول صلى الله عليه وآله فى أول آيه نبختها- بقوله: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا».

«مداد»: تعنى الحبر، أو أى ماده ملونه تساعد فى الكتابه.

«كلمات»: جمع كلمه، وهى فى الأصل تعنى الألفاظ التى يتم التحدث بها. أو بعبارة

(١) سورة الإسراء / ٨٥.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٠

اخرى: «الكلمه» لفظ يدل على المعنى، وبما أن كل موجود من موجودات هذا العالم هو دليل على علم وقدره الخالق، لذا فإنه يطلق فى بعض الأحيان على كل موجود اسم (كلمه الله) ويختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمه العظيمة.

وفى الآية التى نبختها فإن (كلمه) قد استخدمت بهذا المعنى أى إشارة إلى موجودات عالم الوجود التى تدل كل واحده فيه على الصفات المختلفه لله تبارك وتعالى.

إن القرآن يلفت أنظارنا فى هذه الآية إلى هذه الحقيقه وهى: لا تظنوا أن عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسونه، بل هو على قدر من السعه والعظمه بحيث لو أن البحار تتحول إلى حبر، وتكتب صفاته وخصائصه، فإنها- أى البحار- ستجف قبل أن

تحصى موجودات عالم الوجود.

وينبغي الإنتباه هنا إلى أن الآية أعلاه في الوقت الذي تجسد فيه سعة عالم الوجود اللامتناهية في الماضي والحاضر والمستقبل، فإنها توضح - أيضاً - العلم المطلق وغير المحدود للخالق جلّ وعلا، لأننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى يحيط علمه بما كان موجوداً في عالم الوجود، وبما سيكون موجوداً، وفي الوقت الذي يعتبر فيه علم الله تعالى «علماً حضورياً» فإنه لا يفترق عن وجود هذه الموجودات (فدقق في ذلك).

إذن نستطيع أن نقول: لو أن جميع المحيطات وبحار الأرض تحوّلت إلى حبر ومداد، ولو أن كافة الأشجار تحوّلت إلى أقلام، فإن ذلك كله لا يستطيع الإحاطة بما هو موجود في علم الخالق جلّ وعلا.

العدد الحي هو العدد الذي تشغل أفكارنا به، ويجسد الحقائق كما هي ويملك روحاً ولساناً وعظمة.

والقرآن الكريم بدلاً من أن يقول: إن مخلوقات عالم الوجود تتجاوز في كثرتها الرقم الذي تقع على يمينه مئات الكيلومترات من الأصفار، يقول: إذا تحوّلت جميع الأشجار إلى أقلام، وكل البحار إلى مواد وحبر، فإن الأقلام ستتكرر ومياه البحار ستنتهي أسرار ورموز وحقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التي يحيط بها جميعاً علم الله تعالى.

الآية الثانية في البحث والتي هي آخر آية في سورة الكهف، عبارة عن مجموعته من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧١

الأسس والأصول للإعتقادات الدينية، التي تتركز في التوحيد والمعاد ورسالة الرسول صلى الله عليه وآله.

ففي البداية تحدّثت السورة عن الله والوحي والجزاء والقيامة، والآية الأخيرة هي خلاصة لمجموع ما ورد في السورة، التي اشتملت في قسم مهم منها على الأصول الثلاثة الآنفه باعتبارها محاور للسورة.

ولأن قضية النبوة قد اقترنت مع أشكال من الغلو والمبالغة على طول التاريخ، لذا فإن الآية تقول: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ».

وهذا التعبير القرآني نسف جميع الإمتيازات المقرونة بالشرك التي تخرج الأنبياء من صفته البشرية إلى صفة الألوهية.

ثم تشير الآية إلى قضية التوحيد من بين جميع القضايا الأخرى في الوحي الإلهي حيث تقول: «أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ».

أما لماذا تمّت الإشارة إلى هذه القضية؟ فذلك لأنّ التوحيد هو خلاصة جميع المعتقدات، وغاية كل البرامج الفردية والاجتماعية التي تجلب السعادة للإنسان.

وفي مكان آخر، أشرنا إلى أنّ التوحيد ليس أصلاً من أصول الدين وحسب، وإنّما هو خلاصة لجميع أصول وفروع الإسلام.

لهذا السبب نقرأ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حدثني جبرائيل عليه السلام قال: سمعت ربّ العزة سبحانه وتعالى يقول: كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» (١).

الجملة الثالثة في الآية الكريمة تشير إلى قضية البعث وتربطها بالتوحيد بواسطة (فاء التفریع)، حيث تقول: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا».

بالرغم من أنّ لقاء الله بمعنى المشاهدة الباطنية ورؤية الذات المقدسة بعين البصيرة هو أمر ممكن في هذه الدنيا بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين، إلّا أنّ هذه القضية تكتسب جانباً عاماً يوم القيامة بسبب مشاهدة الآثار الكبيرة والواضحة والصريحة للخالق تبارك وتعالى.

لذا فإنّ القرآن استخدم هذا التعبير في خصوص يوم القيامة.

(١) بحار الأنوار ٤٩ / ١٢٧.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٢

وفي آخر جملة ثمّة توضيح للعمل الصالح في جملة قصيرة، هي قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا».

بعبارة اخرى: لا يكون العمل صالحاً ما لم تتجلى فيه حقيقة الإخلاص.

في الحقيقة إنّ العمل الصالح الذي ينبع من أهداف إلهية، ويمتج بالإخلاص ويتفاعل معه، هو الذي يكون جوازاً للقاء الله تبارك وتعالى.

فالعمل الخالص يعتبر مهماً في الإسلام إلى الحد الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أخلص لله أربعين يوماً فجزّ الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (١).

«نهاية تفسير سورة الكهف»

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٩.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٣

## ١٩ سورة مريم

محتوى السورة: لهذه السورة من جهة المحتوى عدة أقسام مهمّة:

١- يشكّل القسم الذي يتحدث عن قصص زكريا ومريم والمسيح عليهم السلام ويحيى وإبراهيم عليهما السلام بطل التوحيد، وولده إسماعيل، وإدريس وبعض آخر من كبار أنبياء الله - الجزء الأهم في هذه السورة - ويحتوي على أمور تربوية لها خصوصيات مهمّة.

٢- ثم يتحدث عن المسائل المرتبطة بالقيامة، وكيفية البعث، ومصير المجرمين، وثواب المتقين، وأمثال ذلك.

٣- القسم الثالث، وهو المواعظ والنصائح التي تكمل الأقسام السابقة.

٤- إنّ آخر قسم عبارة عن الإشارات المرتبطة بالقرآن، ونفى الولد عن الله سبحانه، ومسألة الشفاعة، وتشكّل بمجموعها برنامجاً تربوياً مؤثراً من أجل دفع النفوس الإنسانية إلى الإيمان والطهارة والتقوى.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه وماله وولده وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام واعطى من الأجر في الآخرة ملك سليمان بن داود في الدنيا».

إنّ هذا الغنى وعدم الإحتياج - حتماً - قيس من وجود محتوى السورة وسريانها في أعماق روح الإنسان، وانعكاسها من خلال أعماله وأقواله وسلوكه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٤

كهيعص (١) ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)

دعاء زكريا المستجاب: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة في بداية هذه السورة، ولما كنّا قد بحثنا تفسير هذه الحروف المقطعة بصورة مفصلة في بداية ثلاث سور مختلفة فيما سبق - سورة البقرة وآل عمران والأعراف - فلا نرى حاجة للتكرار هنا.

ولكن ما ينبغي اضافته هنا هو وجود طائفتين من الروايات في المصادر الإسلامية تتعلق بالحروف المقطعة في هذه السورة «كهيعص». الاولى: تقول بأن كل حرف من هذه الحروف يشير إلى اسم من أسماء الله الحسنى، فالكاف يشير إلى الكافي، وهو من أسماء الله الحسنى، والهاء تشير إلى الهادي، والياء إشارة إلى الولي، والعين إشارة إلى العالم، والصاد إشارة إلى صادق الوعد (١).

الثانية: تفسّر هذه الحروف المقطعة بحادثه ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة،

والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد إشارة إلى صبره «٢». وكما قلنا مراراً، فإنّ آيات القرآن أنوار ومعان مختلفة، ومع تنوعها واختلافها فإنه لا يوجد تناقض بينها. وبعد ذكر الحروف المقطعة، تشرع الكلمات الاولى باستعراض قصة زكريا عليه السلام فتقول: «ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا». وفي ذلك الوقت الذي كان زكريا عليه السلام مغتماً ومتألماً فيه

(١) تفسير نور الثقلين ٣/ ٣٢٠.

(٢) المصدر السابق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٥

من عدم إنجاب الولد، توجه إلى رحمة ربه: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» بحيث لم يسمعه أحد. وذكر في دعائه وهن وضعف العظام باعتبارها عمود بدن الإنسان ودعامته وأقوى جزء من اجزائه: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا».

لقد شبه زكريا نزول الكبر، وبياض كل شعر رأسه باشتعال النار، والرماد الأبيض الذي تتركه، وهذا التشبيه جميل وبلغ جداً. ثم يضيف: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا». فقد عودتني دائماً - فيما مضى - على استجابته أدعيتي، ولم تحرمني منها أبداً، والآن وقد أصبحت كبيراً وعاجزاً فأجدني أحوج من السابق إلى أن تستجيب دعائي ولا تخينني.

إنّ الشقاء هنا بمعنى التعب والأذى أي إنني لم أتعب ولم أتأذ في طلباتي منك، لأنك كنت تقضيها بسرعة.

ثم يبين حاجته: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي». أي إنني أخشى من أقربائي أن يسلكوا سبيل الانحراف والظلم، «وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً. أي مرضياً عندك.

إنّ للارث هنا مفهوماً ومعنى واسعاً يشمل إرث الأموال كما يشمل إرث المقامات المعنوية، لأنّ الأشخاص الفاسدين إذا تولوا أمر هذه الأموال، فإنهم سيكونون مصدر قلق حقاً، وإذا وقعت زمام الامور وقيادة الناس المعنوية بيد أناس منحرفين، فإن ذلك أيضاً يثير المخاوف، وعلى هذا فإن خوف زكريا يمكن توجيهه في كلا صورتين.

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

بلوغ زكريا أمله: تبين هذه الآيات استجابته دعاء زكريا عليه السلام من قبل الله تعالى استجابته

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٦

ممزوجة بلطفه الكريم وعنايته الخاصة، وتبدأ بهذه الجملة: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا». أما زكريا الذي كان يرى أن الأسباب الظاهرية لا تساعد على الوصول إلى مثل هذه الأمنية، فإنه طلب توضيحاً لهذه الحالة من الله سبحانه: «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا».

«عاقراً»: في الأصل من لفظه «عقر» بمعنى الجذر والنهاية، أو بمعنى الحبس، وإتما يقال للمرأة، عاقرة؛ لأن قابليتها على الولادة قد انتهت، أو لأنّ إنجاب الأولاد محبوس عنها.

«العتى»: تعنى الشخص الذي نحل جسمه وضعف هيكله، وهى الحالة التى تظهر على الإنسان عند شيخوخته.

إلا أن زكريا سمع في جواب سؤاله قول الله سبحانه: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ».

إنّ هذه ليست بالمسألة العجيبة، أن يولد مولود من رجل طاعن في السن مثلك، وامرأة عقيم ظاهراً «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا»، فإنّ الله قادر على أن يخلق كل شيء من العدم، فلا عجب أن يتلطف عليك بولد في هذا السن وفي هذه الظروف.



وقد سرّ زكريا وفرح كثيراً لدى سماعه هذه البشارة، وغمر نور الأمل نفسه، لكن لما كان هذا النداء بالنسبة إليه مصيرياً ومهماً جداً، فإنه طلب من ربه آية على هذا العمل:

«قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً».

لا- شك أن زكريا كان مؤمناً بوعد الله، وكان مطمئناً لذلك، إلا أنه لزيادة الإطمئنان- كما أن إبراهيم الذي كان مؤمناً بالمعاد طلب مشاهدته صورةً وكيفيته المعاد في هذه الحياة ليطمئن قلبه- طلب من ربه مثل هذه العلامة والآية، فخاطبه الله: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، واشغل لسانك بذكر الله ومناجاته.

وهذه واقعةً معجزةً بينه حيث إن إنساناً يمتلك لساناً سليماً، وقدرة على كل نحو من المناجاة مع الله، ومع ذلك لا تكون له القدرة على التحدث أمام الناس.

بعد هذه البشارة والآية الواضحة، خرج زكريا من محراب عبادته إلى الناس، فكلمهم بالإشارة: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، لأنّ النعمة الكبيرة التي من الله بها على زكريا قد أخذت بأطراف القوم، وكان لها تأثير على مصير ومستقبل كل هؤلاء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٧

وإذا تجاوزنا ذلك، فإن بإمكان هذه الموهبة التي تعتبر إعجازاً أن تحكّم أسس الإيمان في قلوب الناس، وكانت هذه أيضاً موهبة أخرى.

لقد ورد اسم «يحيى» في القرآن الكريم خمس مرات- في سور آل عمران، والأنعام، ومريم، والأنبياء- فهو واحد من أنبياء الله الكبار، ومن جملة امتيازاته ومختصاته أنه وصل إلى مقام النبوة في مرحلة الطفولة.

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

صفات يحيى عليه السلام البارزة: رأينا في الآيات السابقة كيف أن الله سبحانه منّ على زكريا عند كبره بيحيى، وبعد ذلك فإن أول ما نلاحظه في هذه الآيات هو الأمر الإلهي المهم الذي يخاطب يحيى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ».

إنّ المراد من الكتاب هنا هو التوراة، فإنّ المراد من أخذ الكتاب بقوة هو إجراء وتنفيذ ما جاء في كتاب التوراة السماوى وأن يعمل بكل ما فيه، وأن يستعين بكل القوى المادية والمعنوية في سبيل نشره وتعميمه.

ثم أشار القرآن الكريم إلى المواهب العشرة التي منحها الله ليحيى والتي اكتسبها بتوفيق الله:

١- «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». وهو أمر النبوة والعقل والذكاء والدراية.

٢- «وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا». و «الحنان» في الأصل بمعنى الرحمة والشفقة والمحبة وإظهار العلاقة والموودة للآخرين.

٣- «وَزَكَاةً». أى أعطيناه روحاً طاهرة وزكية.

٤- «وَكَانَ تَقِيًّا». فكان يجتنب كل ما يخالف الأوامر الالهية.

٥- «وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ».

٦- «وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا» فلم يكن رجلاً ظالماً ومتكبراً واناياً.

٧- ولم يكن «عصياً» ولم يقترف ذنباً ومعصية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٨

٨، ٩، ١٠- ولما كان جامعاً لكل هذه الصفات البارزة، والأوسمة الكبيرة، فإنّ الله سبحانه قد سلّم عليه في ثلاثة مواطن: «وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». إن جملة «سَلِّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ ...» يبين أنّ في تاريخ حياة الإنسان وانتقاله من عالم إلى عالم آخر

ثلاثة أيام صعبة: يوم يضع قدمه في هذه الدنيا: «يَوْمَ وُلِدَ» ويوم موته وانتقاله إلى عالم البرزخ «وَيَوْمَ يَمُوتُ» ويوم بعثه في العالم الآخر «وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». ولما كان من الطبيعي أن تكون هذه الأيام مرافقة للإضطرابات والقلق، فإن الله سبحانه يكتنف خاصة عباده بلطفه وعافيته، ويجعل هؤلاء في ظل حمايته ومنعته في هذه المراحل العسيرة الثلاثة.

شهادة يحيى عليه السلام: لقد أصبح يحيى ضحية للعلاقات غير الشرعية لأحد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلق «هروديس» ملك فلسطين اللاهث وراء شهواته بنتت أخته «هروديا» ولذلك صمم على الزواج منها.

فبلغ هذا الخبر نبي الله العظيم يحيى عليه السلام، فأعلن بصراحة أن هذا الزواج غير شرعي ومخالف لتعليمات التوراة، وسأقف أمام مثل هذا العمل.

لقد انتشر صخب وضوضاء هذه المسألة في كل أرجاء المدينة، وسمعت تلك الفتاة (هروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق في طريقها، ولذلك صممت على الانتقام منه في فرصة مناسبة، فعمقت علاقتها بخالها ووطدتها، وجعلت من جمالها مصيدة له، فقالت هروديا: لا أريد منك إلا رأس يحيى.

فسلم هروديس لما أرادت من دون أن يفكر ويتنبه إلى عاقبة هذا العمل، ولم يمض قليل من الزمن حتى احضر رأس يحيى عند تلك المرأة الفاجرة، إلا أن عواقب هذا العمل الشنيع قد أحاطت به، وأخذت بأطرافه في النهاية.

في تفسير مجمع البيان عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عز وجل أن رأس يحيى بن زكريا اهتدى إلى بغيا بني إسرائيل». أي إن ظروف تشابه من هذه الناحية ظروف وأحوال يحيى، لأن أحد أهداف ثورتى محاربة الأعمال المخزية لطاغوت زمانى يزيد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٩

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)

ولادة عيسى عليه السلام: بعد ذكر قصة يحيى عليه السلام، حوّلت الآيات مجرى الحديث إلى قصة عيسى عليه السلام لوجود علاقة قوية وتقارب واضح جداً بين مجريات هاتين الحادثتين.

فإن كانت ولادة يحيى من أب كبير طاعن في السن وأم عقيم عجيبة، فإن ولادة عيسى من أم دون أب أعجب.

وإن كان الوصول إلى مقام النبوة وبلوغ العقل الكامل - في مرحلة الطفولة - باعثاً على الحيرة ومعجزاً، فإن التحدّث في المهد عن الكتاب والنبوة أبعث على التعجب والحيرة، وأكثر إعجازاً.

وعلى كل حال، فإن كلا الأمرين آيتان على قدرة الله الكبير المتعال، إحداهما أكبر من الاخرى، وقد صادف أن تكون كلتا الآيتين مرتبطتان بشخصين تربطهما أواصر نسب قوية، فكل منهما قريب للآخر من ناحية النسب، حيث إن أم يحيى كانت أخت أم مريم، وكانت كلتاهما عقيمتين وتعيشان أمل الولد الصالح.

تقول الآية الاولى: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا».

«اتتيدت»: أخذت من مادة «نبد» وهي تعني إلقاء وإبعاد الأشياء التي لا تسترعى الإنتباه، وربما كان هذا التعبير في الآية إشارة إلى أن مريم قد اعتزلت بصورة متواضعة ومجهولة وخالية من كل ما يجلب الإنتباه، واختارت ذلك المكان من بيت الله للعبادة.

في هذه الأثناء ومن أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها واعتكافها من كل جهة، فإنها «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا». «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا». والروح هنا جبرئيل ملك الله العظيم حيث تجسّد لمريم على شكل انسان جميل لا عيب فيه ولا نقص.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٠

إنّ الحالة التي اعترت مريم في تلك اللحظة واضحة جداً، كم داخلها من الرعب والإضطراب عند مشاهدة هذا المنظر، وهو دخول رجل أجنبي جميل في محل خلوتها، ولذلك فإنّها مباشرة: «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا». وكانت هذه أول هزة عمّت كل وجود مريم.

إنّ ذكر اسم الرحمان، ووصفه برحمته العامة من جهة، وترغيب الرجل في التقوى والإمتناع عن المعصية من جهة أخرى، كان من أجل أن يردع هذا الشخص المجهول إن كانت له نية سيئة في ارتكاب المعصية.

لقد كانت مريم تنتظر ردّ فعل ذلك الشخص المجهول بعد أن تفوّت بهذه الكلمات إنتظاراً مشوباً بالإضطراب والقلق الشديد، إلّا أنّ هذه الحالة لم تطل، فقد كلّمها ذلك الشخص، ووضّح مهمته ورسالته العظيمة «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ».

لقد كانت هذه الجملة كالماء الذي يلقي على النار، فقد طمأن قلب مريم الطاهر، إلّا أنّ هذا الإطمئنان لم يدم طويلاً، لأنه أضاف مباشرة: «الْأَهَبَ لَكَ عَلِمًا زَكِيًّا».

لقد اهتز كيانه بوجود مريم لدى سماع هذا الكلام، وغاصت مرة أخرى في قلق شديد:

«قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا».

لقد كانت تفكر في تلك الحالة في الأسباب الطبيعية فقط. إلّا أنّ أمواج هذا القلق المتلاطمة هدأت بسرعة عند سماع كلام آخر من رسول الله إليها، فقد خاطب مريم بصراحة: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ». فأنت الواقفة على قدرتي والعالمة بها جيداً ...

أنت التي رأيت ثمر الجنّة في فصل لا يوجد شبيهه لتلك الفاكهة في الدنيا جنب محراب عبادتك، أنت التي سمعت نداء الملائكة حين شهدت بعفتك وطهارتك ... أنت التي تعلمين أنّ جدك آدم قد خلق من التراب، فلماذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثم أضاف: «وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا». فنحن نريد أن نبعثه للناس رحمة من عندنا، ونجعله معجزة، وعلى كل حال، «وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا». فلا مجال بعد ذلك للمناقشة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨١

مريم في عاصفة: وأخيراً حملت مريم، واستقرّ ذلك الولد الموعود في رحمها: «فَحَمَلَتْهُ».

إنّ هذا الأمر قد تسبب في أن تتبعد عن بيت المقدس «فَاتَّبَعَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا».

لقد كانت تعيش في حالة بين الخوف والأمل، حالة من القلق والإضطراب المشوب بالسرور، فهي تفكر أحياناً بأنّ هذا الحمل سيفتضح أمره في النهاية.

فمن الذي سيقنع بأنّ امرأة لا زوج لها تحمل دون أن تكون قد تلوّثت بالذيلة؟ فماذا سأفعل تجاه هذا الإنهام؟

إلّا أنّها من جهة أخرى كانت تحسّ أنّ هذا المولود، نبي الله الموعود، تحفه سماوية نفيسة، فإنّ الله الذي بشرني بمثل هذا الغلام، وخلق به هذه الصورة الإعجازية كيف سيدرني وحيدة؟

ومهما كان فقد انتهت مدّة الحمل.

ومع أنّ النساء يلجأن عادة في مثل هذه الحالة إلى المعارف والأصدقاء ليساعدوهنّ على الولادة، إلّا أنّ وضع مريم لما كان استثنائياً، ولم تكن تريد أن يرى أحد وضع حملها مطلقاً، فإنّها اتخذت طريق الصحراء بمجرّد أن بدأ ألم الولادة؛ ويقول القرآن في ذلك:

«فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ».

إنّ التعبير بجذع النخلة، وبملاحظة أنّ الجذع يعني بدن الشجرة، يوحي بأنّه لم يبق من تلك الشجرة إلّا جذعها وبدنها، أي إنّ الشجرة كانت يابسة.

في هذا الحال غمر كل وجود مريم الطاهر سيل من الغم والحزن، لقد كان هذا الإضطراب والصراع صعباً جداً، وقد أثقل كاهلها إلى

الحد الذي تكلمت فيه بلا إرادة و «قَالَتِ يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا».

إنَّ من البديهي أنَّ الخوف من التهم في المستقبل لم يكن الشيء الوحيد، وإن كان هذا الموضوع يشغل فكر مريم أكثر من أية مسألة أخرى، إلَّا أنَّ مشاكل ومصائب أخرى كوضع الحمل لوحدها بدون قابله و صديق ومعين في الصحارى الخالية، وعدم وجود مكان للإستراحة، وعدم وجود الماء للشرب، والطعام للأكل، وعدم وجود وسيلة لحفظ المولود الجديد، وغير هذه الامور كانت تهزها من الأعماق بشدة.

إلَّا أنَّ هذه الحالة لم تدم طويلاً، فقد سطعت ومضت الأمل التي كانت موجودة دائماً في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٢

أعماق قلبها، وطرق سمعها صوت، «فَنَادَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا». وانظري إلى الأعلى كيف أن هذا الجذع اليابس قد تحوّل إلى نخلة مثمرة، «وَهَزَى إِلَيْكَ بِيَجْدَعِ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّبًا» فكلّلي واشربى وقزى عيناً بالمولود الجديد، «فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا». وهذا الصوم هو المعروف بصوم السكوت. وعلى هذا فليهدأ روعك من كل الجهات، ولا تدعى لهم طريقاً إلى نفسك.

ويظهر من تعبير الآية أن نذر صوم السكوت كان أمراً معروفاً في ذلك المجتمع، ولهذا لم يعترضوا على هذا العمل؛ غير أن هذا النوع من الصوم غير جائز في شريعتنا.

عن علي بن الحسين عليه السلام (في حديث) قال: «وصوم الصمت حرام» (١).

استفاد المفسرون مما جاء صريحاً في هذه الآيات، أن الله سبحانه قد جعل غذاء مريم حين ولادة مولودها الرطب.

في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله ليكن أول ما تأكل النفساء الرطب، فإنَّ الله عزَّ وجل قال لمريم: «وَهَزَى إِلَيْكَ بِيَجْدَعِ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّبًا».

ويستفاد من الروايات أن أفضل غذاء ودواء للحامل هو الرطب.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

المسيح يتكلّم في المهدي: وأخيراً رجعت مريم عليها السلام من الصحراء إلى المدينة وقد احتضنت طفلها «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا». فلما رأوا طفلاً حديث الولادة بين يديها فغزوا أفواههم تعجباً، وتعجل آخرون في القضاء والحكم، وقالوا: إن من المؤسف هذا الإنحدار مع ذلك الماضي المضيء، ومع الأسف على تلوث سمعة تلك الأسرة الطاهرة، «قَالُوا يَا مَرْيَمُ

(١) وسائل الشيعة ٧ / ٣٩٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٣

لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا».

والبعض الآخر واجهها، بالقول: «يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا».

أمياً قولهم لمريم: «يَا أُخْتَ هَارُونَ» لأنَّ هارون رجل طاهر صالح إلى الدرجة التي يضرب به المثل بين بني إسرائيل، فإذا أرادوا أن يصفوا شخصاً بالطهارة والنزاهة، كانوا يقولون: إنّه أخو أو أخت هارون.

في هذه الساعة، سكنت مريم بأمر الله، والعمل الوحيد الذي قامت به، هو أنّها أشارت إلى وليدها «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ». إلَّا أنَّ هذا العمل

جعل هؤلاء يتعجبون أكثر، ثم غضبوا فقالوا:

مع قيامك بهذا العمل تسخرين من قومك أيضاً؟ «قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا».

إن الناس قلقوا واضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل وربما غضبوا وقالوا لبعضهم البعض - حسب بعض الروايات -: إن استهزاءها وسخريتها أشد علينا من انحرافها عن جادة العفة.

إلا أن هذه الحالة لم تدم طويلاً، لأن ذلك الطفل الذي ولد حديثاً قد فتح فاه وتكلم:

«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا \* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ»، ومفيداً من كل الجهات للعباد «وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا».

وكذلك جعلني مطيعاً ووفياً لأمي «وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا».

وروى - في التفسير الكبير - أن عيسى عليه السلام قال: «قلبي لين وأنا صغير في نفسي». وهو إشارة إلى أن هذين الوصفين يقعان في مقابل الجبار والشقي.

وفي النهاية يقول هذا المولود - أي المسيح -: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا».

هذه الآية في حق يحيى عليه السلام كما وردت في شأن المسيح عليه السلام، مع الاختلاف بأن الله هو الذي قالها في المورد الأول، أما في المورد الثاني فإن المسيح قد طلب ذلك.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٤

أيمكن أن يكون لله ولد؟! بعد تجسيد القرآن الكريم في الآيات السابقة حادثه ولادة المسيح عليه السلام بصورة حية وواضحة جداً، انتقل إلى نفي الخرافات وكلمات الشرك التي قالوها في شأن عيسى، فيقول: «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ». خاصية وأنه يؤكد على كونه «ابن مريم» ليكون ذلك مقدمة لنفي بنوته لله سبحانه. ثم يضيف: «قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ».

وتقول الآية التالية بصراحة: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». وهذا إشارة إلى أن اتخاذ الولد - كما يظن المسيحيون في شأن الله - لا يناسب قداسة مقام الألوهية والربوبية، فهو يستلزم من جهة الجسمية، ومن جانب آخر المحدودية، ومن جهة ثالثة الإحتياج.

إن تعبير «كُنْ فَيَكُونُ» تجسيد حي جداً عن مدى سعة قدرة الله، وتسلطه وحاكميته في أمر الخلق.

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرُثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ (٤٠)

إن آخر كلام لعيسى عليه السلام بعد تعريفه لنفسه بالصفات التي ذكرت، هو التأكيد على مسألة التوحيد، وخاصة في مجال العبادة، فيقول: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

وعلى هذا فإن عيسى عليه السلام بدأ بمحاربة كل أنواع الشرك وعبادة الآلهة المزدوجة والمتعددة منذ بداية حياته.

غير أنه بالرغم من كل هذه التأكيدات التي أكد عليها المسيح عليه السلام في مجال التوحيد وعبادة الله، فقد اختلفت الفئات، وأظهروا اعتقادات مختلفة، وخاصة في شأن المسيح:

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

إن تاريخ المسيحية يشهد بوضوح على مدى الاختلاف الذي حصل بعد المسيح عليه السلام في شأنه، وحول مسألة التوحيد.

فذهب البعض: إن المسيح هو الله الذي نزل إلى الأرض! فأحیی جماعه، وأمات أخرى، ثم صعد إلى السماء!

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٥

وقال البعض الآخر: إنه ابن الله!

ورأى آخرون: إنه أحد الأقانيم الثلاثة- الذوات الثلاثة المقدسة- الأب والابن وروح القدس، الله الأب، والله الابن وروح القدس.

وآخرون قالوا: إنه ثالث ثلاثة: فالله معبود، وهو معبود، وامه معبوده!

وأخيراً قال البعض: إنه عبد الله ورسوله.

ولمّا كان الانحراف عن أصل التوحيد يعتبر أكبر انحراف للمسيحيين، فقد رأينا كيف أن الله قد هدّد هؤلاء في ذيل الآية بأنهم سيكون لهم مصير مؤلم مشؤوم في يوم القيامة، في ذلك المشهد العام، وأمام محكمة الله العادلة.

ثم تبين الآية التالية وضع اولئك في عرصات القيامة، فتقول عندما يقدمون علينا يوم القيامة فسوف تكون لهم اسماع قويّة وابصار حدّاه فيسمعون ويرون جميع الحقائق التي كانت خافية عليهم في هذه الدنيا، ولكن الظالمين اليوم، أي في هذه الدنيا غافلون عن هذه العاقبة: «أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

ومن الطبيعي أن تسلب المحكمة وآثار الأعمال نوم الغفلة من العين والأذن، وحتى عمى القلوب فإنهم سيعون الأمر ويعلمون الحق، إلّا أن هذا الوعي والعلم لا ينفعهم شيئاً.

ثم تؤكد الآية التالية مرّة أخرى على مصير المنحرفين والظالمين في ذلك اليوم، فتقول:

«وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحُشْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

حيث يتحسّر المؤمنون المحسنون على قلبه عملهم، وباليتهم كانوا قد عملوا أكثر، وكذلك يتحسّر المسيئون، لأنّ الحجب تزول، وتتضح حقائق الأعمال ونتائجها للجميع.

ثم تحذّر الآية الأخيرة- من آيات البحث- كل الظالمين والجانين، وتذكّرهم بأن هذه الأموال التي تحت تصرفهم الآن ليست خالدة، كما أنّ حياتهم ليست خالدة، بل إنّ الوارث الأخير لكل شيء هو الله سبحانه: «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ».

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٦

إبراهيم ومنطقه المؤثر والقاطع: تزيح هذه الآيات الستار عن جانب من حياة بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام، وتؤكد على أنّ دعوة هذا النبي الكبير- كسائر المرشدين الإلهيين- تبدأ من نقطة التوحيد، فتقول أولاً: «وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا».

إنّ أبرز صفة يلزم وجودها في كل الانبياء وحمله الوحي الإلهي أن يوصلوا أوامر الله إلى العباد دون زيادة أو نقصان.

ثم تتطرق الآية التي بعدها إلى شرح محاورته مع أبيه آزر- والأب هنا إشارة إلى العم، فإنّ كلمة الأب، كما قلنا سابقاً، ترد أحياناً في لغة العرب بمعنى الأب، وأحياناً بمعنى العم- فتقول: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا».

إنّ هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلّة نفى الشرك وعبادة الأوثان، لأنّ أحد بواعث الإنسان في معرفته الرب هو باعث الربح والخسارة، والضرر والنفع، والذي يعبر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتجّه إلى معبود ليس عاجزاً عن حل مشكلة من مشاكلك وحسب، بل إنه لا يملك أصلاً القدرة على السمع والبصر.

بعد ذلك دعا- عن طريق المنطق الواضح- إلى اتّباعه، فقال: «يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا». فيأتي قد وعيت اموراً كثيرة عن طريق الوحي، وأستطيع أن أقول باطمئنان: إنّي سوف لا- أسلك طريق الضلال والخطأ، ولا

أدعوك أبدأً إلى هذا الطريق المعوج.

ثم يعطف نظره إلى الجانب السلبي من القضية بعد ما ذكر بعدها الايجابي ويشير إلى الآثار التي تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: «يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا».

إنَّ العبادة هنا بمعنى الطاعة واتباع الأوامر، وهذا بنفسه يعتبر نوعاً من العبادة.

ثم يذكره ويتبهنه مرةً أخرى بعواقب الشرك وعبادة الأصنام المشؤومة، ويقول: «يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا».

إنَّ تعبير إبراهيم هذا رائع جداً، فهو من جانب يخاطب عمه دائماً ب «يَا أَبَتِ» وهذا يدل على الأدب واحترام المخاطب، ومن جانب آخر فإنَّ قوله «أَنْ يَمَسَّكَ» توحى بأنَّ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٧

إبراهيم كان قلقاً ومتأثراً من وصول أذنى أذى إلى آزر.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَنْ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

نتيجة البعد عن الشرك والمشركين: مرّت في الآيات السابقة كلمات إبراهيم عليه السلام التي كانت ممتزجة باللطف والمحبة في طريق الهداية، والآن جاء دور ذكر أجوبة آزر، لكي تتضح الحقيقة والواقع من خلال مقارنة الكلامين مع بعضهما. يقول القرآن الكريم: إنَّ حرص وتحرق إبراهيم، وبيانه الغنى العميق لم ينفذ إلى قلب آزر، بل إنّه غضب لدى سماعه هذا الكلام، و «قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا».

لكن، ورغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم على أعصابه، كبقية الأنبياء والقادة الإلهيين، ومقابل هذه الغلظة والحدة وقف بكل سمو وعظمة، و «قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ».

إنَّ هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، وأنَّ إبراهيم بقوله: «سَلِّمْ عَلَيْكَ» وما يأتي بعده من كلام يقصد ترك آزر؛ ويمكن أن يكون سلاماً يقال لفض النزاع.

ثم أضاف: «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا». إنَّ إبراهيم في الواقع قابل خشونة وتهديد آزر بالعكس، ووعده بالاستغفار وطلب مغفرة الله له.

ثم يقول: «وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». أي: الأصنام. «وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا».

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم في مقابل آزر، ومن جهة أخرى فإنّها تبيّن حزمه في عقيدته.

لقد وفي إبراهيم بقوله، وثبت على عقيدته بكلّ صلابه وضمود، وكان دائماً ينادى بالتوحيد، بالرغم من أن كل ذلك المجتمع الفاسد في ذلك اليوم قد وقف ضده وثار عليه، إلّا أنّه لم يبق وحده في النهاية، فقد وجد أتباعاً كثيرين على مرّ القرون والأعصار، بحيث إنَّ كل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٨

الموحدين وعباد الله في العالم يفتخرون بوجوده. يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا».

إنَّ هذه الموهبة العظيمة كانت نتيجة صبر إبراهيم عليه السلام واستقامته التي أظهرها في طريق محاربة الأصنام، واعتزال المنهج الباطل والإبتعاد عنه. وإضافة إلى ذلك: «وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا». تلك الرحمة الخاصة بالمخلصين، والرجال المجاهدين في سبيل الله.

وأخيراً: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

إنّ هذا في الحقيقة إجابة لطلب ودعاء إبراهيم الذي جاء في الآية (٨٤) من سورة الشعراء: «وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ». وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ حَيْثُ الْطُّورِ الْأَيْمَنِ وَاقْرَبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)

موسى النبي المخلص: في هذه الآيات الثلاث إشارة قصيرة إلى موسى عليه السلام - وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام وموهبه من مواهب ذلك الرجل العظيم - حيث سار على خطاه.

وتوجه الآية الخطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتقول: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى».

ثم تذكر خمس مواهب وصفات من المواهب التي أعطيت لهذا النبي الكبير:

١- إنه وصل في طاعته وعبوديته لله إلى حدّ «إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا». ولا ريب أنّ الذي يصل إلى هذه المرتبة سيكون مصوناً من خطر الانحراف والتلوّث، لأنّ الشيطان رغم كل إصراره على إضلال عباد الله، يعترف هو نفسه بعدم قدرته على إضلال المخلصين: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (١).

٢- «وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا». فحقيقته الرسالة أن تلقى مهمته على عاتق شخص، وهو مسؤول عن أدائها وإبلاغها، وهذا المقام كان لجميع الأنبياء المأمورين بالدعوة.

إنّ ذكر كونه «نبيًّا» هنا إشارة إلى علوّ مقام هذا النبي العظيم، لأنّ هذه اللفظة في الأصل مأخوذة من (النّبوة) وتعني رفعة المقام وعلوه.

٣- وأشارت الآية التالية إلى بداية رسالة موسى، فقالت: «وَنَدَيْنَاهُ مِنْ حَيْثُ الْطُّورِ»

(١) سورة ص / ٨٢ و ٨٣.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٩

الأئمين». ففي تلك الليلة المظلمة الموحشة، حيث قطع موسى صحارى مدين متوجّهاً إلى مصر، أخذ زوجته الطلق وألم الولادة، وكان البرد شديداً، فكان يبحث عن شعله نار، وفجأة سطع نور من بعيد، وسمع نداء يبلغه رساله الله، وكان هذا أعظم وسام وألذ لحظة في حياته.

٤- إضافة إلى ذلك: «وَاقْرَبْنَاهُ نَجِيًّا» (١) فإنّ النداء كان موهبه، والتكلم موهبه اخرى.

٥- وأخيراً «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا» ليكون معينه ونصيره.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

إسماعيل نبي صادق الوعد: بعد ذكر إبراهيم عليه السلام وتضحيته، وبعد الإشارة القصيرة إلى حياة موسى عليه السلام المتسامية، يأتي الحديث عن إسماعيل، أكبر ولد إبراهيم، ويكمل ذكر إبراهيم بذكر ولده إسماعيل، وبرامجه ببرامج ولده، ويبين القرآن الكريم خمس صفات من صفاته البارزة التي يمكن أن تكون قدوة للجميع.

ويبدأ الكلام بخطاب الآية الشريف للنبي صلى الله عليه وآله فتقول: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» \* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا».

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْفُوفُونَ عِثًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ



لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)

هؤلاء أنبياء الله، ولكن... في آخر قسم من تذكيرات هذه السورة، جاء الحديث عن

(١) وهنا ينادى الله موسى من بعيد، ولما اقترب نجاه. ومن المعلوم أن الله سبحانه ليس له لسان ولا مكان، بل يوجد الأمواج الصوتية في الفضاء، ويتكلم مع عبد كموسى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٠

«إدريس» النبي، فقالت الآية أولاً: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا».

«الصديق»: هو الشخص الصادق جداً، والمصدق بآيات الله سبحانه، والمذعن للحق والحقيقة. ثم تشير الآية إلى مقامه العالى وتقول: «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا». والمراد هو عظمه المقامات المعنوية والدرجات الروحية لهذا النبي الكبير.

ثم تبين الآية التالية بصورة جماعية عن كل الإمتيازات والخصائص التي مرت في الآيات السابقة حول الأنبياء العظام وصفاتهم وحالاتهم والموهب التي أعطاهم الله إياها، فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ».

إن المراد من ذرية آدم في هذه الآية هو إدريس، حيث كان - حسب المشهور - جد النبي نوح.

والمراد من الذرية، هم الذين ركبوا مع نوح في السفينة، لأن إبراهيم كان من أولاد سام بن نوح. والمراد من ذرية إبراهيم: إسحاق وإسماعيل ويعقوب؛ والمراد من ذرية إسرائيل:

موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

ثم تكمل الآية هذا البحث بذكر الأتباع الحقيقيين لهؤلاء الأنبياء، فتقول: «وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْتَنَا إِذَا تَنَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا» (١).

ثم تتحدث الآيات عن جماعة انفصلوا عن دين الأنبياء المرى للإنسان، وكانوا خلفاً سيئاً لم ينفذوا ما أريد منهم، وتعدد الآية قسماً من أعمالهم القبيحة، فتقول: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا».

«خَلَفَ» بمعنى الأولاد الطالحين؛ و«خَلَفَ» بمعنى الأولاد الصالحين.

وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى جماعة من بنى إسرائيل ساروا في طريق الضلال، فنسوا الله، ورجحوا اتباع الشهوات على ذكر الله.

إن المراد من (إضاعة الصلاة) هنا القيام بأعمال تضعيع الصلاة في المجتمع.

ولما كان منهج القرآن في كل موضع هو فتح ابواب الرجوع إلى الإيمان والحق دائماً، فإنه

(١) «سجد»: جمع ساجد؛ و«بكى»: جمع باك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩١

يقول هنا أيضاً بعد ذكر مصير الأجيال المنحرفة: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا»، وعلى هذا فلا يعنى أن الإنسان إذا غاص يوماً في الشهوات فسيكتب على جبينه اليأس من رحمة الله.

طبقاً لنقل كثير من المفسرين، فإن إدريس جد سيدنا نوح عليه السلام واسمه في التوراة «أخنوخ» وفي العربية (إدريس)، وذهب البعض أنه من مادة (درس) لأنه أول من كتب بالقلم، فقد كان إضافة إلى النبوة عالماً بالنجوم والحساب والهيئة، وكان أول من علم البشر خياطة الملابس.

جَنَاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَمَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا

(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

بعض صفات الجنة: وصفت الجنة ونعمها في هذه الآيات بأنها «جَنَّتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا». ثم تشير بعد ذلك إلى نعمة أخرى من أكبر نعم الجنة فتقول: «لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا لَعْنًا» فلا كذب، ولا عداء، لا تهمه ولا جرح لسان، لا سخرية ولا حتى كلام لا فائدة فيه، بل الشيء الوحيد الذي يسمعونه هو السلام «إِلَّا سَلَامًا».

السلام الذي هو علامة على المحيط الآمن، المحيط الملي بالصفاء والعلاقة الحميمة والطهارة والتقوى والصلح والهدوء والإطمئنان. وبعد هذه النعمة تشير الآية إلى نعمة أخرى فتقول: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

وبعد الوصف الإجمالي للجنة ونعمها المادية والمعنوية، تعرّف الآية أهل الجنة في جملة قصيرة، فتقول: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا». وعلى هذا فإن مفتاح باب الجنة مع كل تلك النعم التي مرّت ليس إلا «التقوى».

وَمَا يَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَاءٌ بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَاءٍ خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٢

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: احتبس الوحي أياماً، لما سئل النبي صلى الله عليه وآله عن قصة أصحاب الكهف، وذى القرنين، والروح، فشق ذلك عليه فلما أتاه جبرائيل استبطأه فنزلت «وَمَا يَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» الآية.

التفسير

الطاعة التامة: بالرغم من أن لهذه الآية سبب نزول ذكر أعلاه، إلا أن هذا لا يكون مانعاً من أن يكون لها ارتباطاً منطقياً بالآيات السابقة، لأنها تأكيد على أن كل ما أتى به جبرئيل من الآيات السابقة قد بلغه عن الله بدون زيادة أو نقصان، ولا شيء من عنده، فتحدثت الآية الأولى على لسان رسول الوحي فتقول: «وَمَا يَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»، فكل شيء منه، ونحن عباد وضعنا أرواحنا وقلوبنا على الأكف، «لَهُ مَاءٌ بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَاءٍ خَلْفَنَا وَمَاءٍ بَيْنَ ذَلِكَ». والخلاصة: فإن الماضي والحاضر والمستقبل، وهنا وهناك وكل مكان، والدنيا والآخرة والبرزخ، كل ذلك متعلق بذات الله المقدسة.

ثم تضيف الآية: «إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ بِأَمْرِ رَبِّكَ «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» فإذا كان الأمر كذلك، وكل الخطوط تنتهي إليه «فَاعْبُدْهُ» عبادة مقترنة بالتوحيد والإخلاص.

ولما كان هذا الطريق - طريق العبودية والطاعة وعبادة الله الخالصة - مليء بالمشاكل والمصاعب، فقد أضافت: «وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ». وتقول في آخر جملة: «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا».

وهذه الجملة في الواقع، دليل على ما جاء في الجملة السابقة، يعني: هل لذاته المقدسة شريك ومثيل حتى تمد يدك إليه وتعبده؟ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَّبُّكَ لَخَشْرَتُهُمْ وَالشَّيَاطِينِ ثُمَّ لَخَشْرَتُهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنْنَزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُنثَىٰ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنْحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان أن الآيات الأولى نزلت في أبي بن خلف الجمحي، وذلك أنه أخذ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٣

عظماً بالياً فجعل يفتته بيده ويذريه في الريح ويقول: زعم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نموت ونكون عظماً مثل هذا، إن هذا شيء لا يكون أبداً.

## التفسير

حال أهل النار: مرت في الآيات السابقة بحوث عديدة حول القيامة والجنة والجحيم، وتحدثت هذه الآيات التي نبحثها حول نفس الموضوع، فتعيد الآية الاولى أقوال منكرى المعاد، فتقول: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَدَا مَا مِنَّا لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا». أى إن هذا الشيء غير ممكن.

ثم يجيبهم مباشرة بنفس التعبير: «أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا».

ثم تهدد الآية التالية منكرى المعاد، والمجرمين الكافرين: «فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيْطَانَ ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا».

إن هذه الآية توحى بأن محكمة الأفراد الكافرين والمجرمين قريبه من جهنم.

ولما كانت الأولويات تلاحظ في تلك المحكمة العادلة، فإن الآية التالية تقول: «ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُمَّتَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا»

«١». ونبدأ بحسابهم أولاً، فإنهم عتوا عتواً نسوا معه كل مواهب الله الرحمان، وجنحوا إلى التمرد والعصيان وإظهار الوقاحة أمام ولى نعمتهم.

ثم تؤكد على هذا المعنى مرة اخرى فتقول: «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا».

فسنختار هؤلاء بدقه، وسوف لا يقع أى اشتباه في هذا الإختيار.

وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)

الجميع يردون جهنم: تستمر الآيات في بحث خصائص القيامة والثواب والعقاب، وأشارت في البداية إلى مسألة يثير سماعها الحيرة والعجب لدى أغلب الناس، فتقول: «وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا». فجميع الناس سيدخلون جهنم بدون استثناء لأنه أمر حتمى.

(١) «الشيعة»: فى الأصل بمعنى الجماعة التى يتعاون أفرادها للقيام بعمل ما، وانتخاب هذا التعبير فى الآية يمكن أن يكون إشارة إلى أن العتاء المردة والضالين الكافرين كانوا يتعاونون فى طريق الطغيان، ونحن سنحاسب هؤلاء أولاً، لأنهم أكثر تمرداً وعصياناً من الجميع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٤

«ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا». فتركهم فيها جالسين على الركب من الضعف والذلل.

وهناك بحث مفصّل بين المفسرين فى تفسير هاتين الآيتين حول المراد من «الورود» فى جملة «وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا»؛ فاختر أكثر المفسرين، أن الورود هنا بمعنى الدخول، وعلى هذا الأساس فإن كل الناس بدون استثناء - محسنهم ومسيؤهم - يدخلون جهنم، إلا أنها ستكون برداً وسلاماً على المحسنين، كحال نار نمروود على إبراهيم «يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ»، لأن النار ليست من سنخ هؤلاء الصالحين، فقد تفرّ منهم وتبتعد عنهم، إلا أنها تناسب الجهنميين فهم بالنسبة للجحيم كالمادة القابلة للإشتعال، فما أن تمسّهم النار حتى يشتعلوا.

إن مشاهدة جهنم وعذابها فى الحقيقة، ستكون مقدمه لكى يلتذ المؤمنون بنعم الجنة بأعلى مراتب اللذة.

إن أهل النار أيضاً سيلقون عذاباً أشد من رؤيه هذا المشهد.

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَآخَسُنْ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَبِّيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)

هذه الآيات تتابع ما مرّ فى الآيات السابقة فى الحديث عن الظالمين الذين لا-إيمان لهم، وتعرّض لجانب آخر من منطق هؤلاء

الظالمين ومصيرهم.

ومن المعلوم أن أول جماعة آمنت بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كانوا من المستضعفين الطاهري القلوب، والذين خلت أيديهم من مال الدنيا ومغرياتها.

ولما كان المعيار في المجتمع الجاهلي في ذلك الزمان- وكذا في كل مجتمع جاهلي آخر- هو الذهب والزينة والمال والمقام والمنصب والهيئة الظاهرية، فكان الأثرياء الظالمون، كالنضر بن الحارث وأمثاله يفتخرون على المؤمنين الفقراء بذلك ويقولون: إن علامة شخصيتنا معنا، وعلامة عدم شخصيتكم فقركم ومحروميتكم، وهذا بنفسه دليل على أحقيتنا وباطلكم، كما يقول القرآن الكريم في أول آية من الآيات مورد البحث: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٥

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا».

إلما أن القرآن الكريم يجيب هؤلاء بجواب منطقي ومستدل تماماً، وفي الوقت نفسه قاطع ومفحم، فيقول: كأن هؤلاء قد نسوا تاريخ البشر، ولم ينظروا كم دمرنا من الأقسام السابقين عند تمردهم وعصيانهم: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِءْيَاءً» (١). فهل استطاعت أموالهم وثروتهم، ومجالسهم الفاسقة، وملابسهم الفاخرة، وصورهم الجميلة أن تمنع العذاب الإلهي وتقف أمامه.

ثم تحذّروهم تحذيراً آخر، بأن لا تظنوا أيها الظالمون الكافرون أن مالكم وثروتكم هذه رحمة، بل كثيراً ما تكون دليلاً على العذاب الإلهي: «قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مِدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعِيَةَ». أي: إمّا العذاب في هذه الدنيا، وإمّا عذاب الآخرة، «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا».

وهذا هو ما ذكر في بعض آيات القرآن بعنوان عقاب «الإستدراج».

هذه عاقبة ومصير الظالمين المخدوعين بزخرف الدنيا وزبرجها، أما اولئك الذين آمنوا واهتدوا، فإن الله يزيدهم هدىً وإيماناً «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى».

من البديهي أن للهداية درجات، فإذا طوى الإنسان درجاتها الاولى فإن الله يأخذه بيده ويرفعه إلى درجات أعلى.

وفي النهاية تجيب الآية هؤلاء الذين اعتمدوا على زينة الدنيا السريعة الزوال، وجعلوها وسيلة للتفاخر على الآخرين، فتقول: «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا».

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مِمَّا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)

تفكير خرافي ومنحرف: يعتقد بعض الناس أن الإيمان والطهارة والتقوى لا تناسبهم،

(١) «الأثاث»: بمعنى المتاع وزينة الدنيا؛ و«رئى»: بمعنى الهيئة والمنظر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٦

وأنها السبب في أن تدبر الدنيا عنهم، أما إذا خرجوا من دائرة الإيمان والتقوى فإن الدنيا ستقبل عليهم، وتزيد ثروتهم وأموالهم. فقد كان في عصر النبي- وكذلك في عصرنا- أفراد جاهلون يظنون هذه الظنون والأوهام، أو كانوا يتظاهرون بها على الأقل، فيتحدّث القرآن- كمواصلة للبحث الذى بينه سابقاً حول مصير الكفار والظالمين- في الآيات مورد البحث عن طريقة التفكير هذه وعاقبتها، فيقول في أول آية من هذه الآيات: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا».

ثم يجيبهم القرآن الكريم: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا». فإن الذى يستطيع أن يتكهن بمثل هذا التكهن، ويقول بوجود

علاقته بين الكفر والغنى وامتلاك الأموال والأولاد، مطلع على الغيب، لأننا لا نرى أى علاقته بين هاتين المسألتين، أو يكون قد أخذ عهداً من الله سبحانه، وهذا الكلام أيضاً لا معنى له.

ثم يضيف بلهجة حادة: إن الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن يكون الكفر أساساً لزيادة مال وولد أحد مطلقاً: «كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ». أجل، فإن هذا الكلام الذى لا أساس له قد يكون سبباً فى انحراف بعض البسطاء، وسيثبت كل ذلك فى صحيفه أعمال هؤلاء، «وَتَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا».

إن هذه الأموال والأولاد التى هى أساس الغرور والضلال هى بنفسها عذاب مستمر لهؤلاء. «وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ» من الأموال والأولاد، «وَيَأْتِينَا فَرْدًا».

نعم، إنه سياترك فى النهاية كل هذه الإمكانيات والأملات المادية ويرحل، ويحضر فى محكمة العدل الإلهية بأيد خالية، وفى الوقت الذى اسودت فيه صحيفه أعماله من الذنوب والمعاصي، وخلت من الحسنات ... هناك، حيث يرى نتيجة أقواله الجوفاء فى دار الدنيا. وتشير الآية التالية إلى علة أخرى فى عبادة هؤلاء الأفراد للأصنام، فتقول: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا». وليشفعوا لهم عند الله، ويعينوهم فى حل مشاكلهم، لكن، أى ظن خاطيء وخيال ساذج هذا؟!!

ليس الأمر كما يظن هؤلاء أبداً، فليست الأصنام سوف لا تكون لهم عزاً وحسب، بل ستكون منبعاً لذلتهم وعذابهم، ولهذا فإنهم سوف ينكرون عبادتهم لها فى يوم القيامة: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٧

إن هذه الجملة إشارة إلى نفس ذلك المطلب الذى نقرؤه فى الآية (١٤) من سورة فاطر.

يستفاد هذا التفسير من حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال فى تفسير هذه الآية: «يكون هؤلاء الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ضداً يوم القيامة ويتبرؤون منهم ومن عبادتهم إلى يوم القيامة».

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)

بملاحظة البحث فى الآيات السابقة الذى كان حول المشركين، فإن البحث فى هذه الآيات، إشارة إلى بعض علل انحراف هؤلاء، ثم تبين الآيات فى النهاية عاقبتهم المشؤومة، وثبت هذه الحقيقة، وهى أن هذه الآلهة لم تكن سبب عزتهم بل أصبحت سبب ذلتهم وشقائهم، فتقول أولاً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا».

«الأز»: فى الأصل يعنى غليان القدر، وتقلب محتواه عند شدة غليانه؛ وهو هنا كناية عن مدى تسلط الشياطين على هؤلاء، بحيث إنهم يوجهونهم بالصورة التى يريدونها، وفى المسير الذى يشاؤون، ويقبلونهم كيف يشتهون.

ومن البديهي أن تسلط الشياطين على بنى آدم ليس تسلطاً إجبارياً، بل إن الإنسان الذى يسمح للشياطين بالنفوذ إلى قلبه وروحه.

ثم يوجه القرآن المجيد الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله فيقول: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا» وسنسجل كل شىء لذلك اليوم الذى تشكل فيه محكمة العدل الإلهي.

وهناك احتمال آخر فى تفسير الآية، وهو أن المراد من عد أيام عمر - بل أنفاس - هؤلاء، أن مدة بقائهم قصيرة وداخله تحت إمكان الحساب والعد.

ثم تبين المسير النهائى للمتقين والمجرمين فى عبارات موجزة، فتقول: إن كل هذه الأعمال جمعناها وإدخناها لهم: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا».

فى تفسير على بن ابراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «سأل على عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير قوله:

«يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا» قال: يا على، الوفد لا يكون إلأركبانا، أولئك رجال اتقوا الله فأحبهم واختصهم ورضى أعمالهم

فسَمَّاهم الله المتقين. ثم قال: يا على أما

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ١٩٨

والذى فلق الحبة وبرىء النسمة إنهم ليخرجون من قبورهم وبياض وجوههم كبياض الثلج، عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن، عليهم نعال الذهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ. ثم تقول فى المقابل: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا». كما تساق الإبل العطشى إلى محل الماء، إلّا أنه لا ماء هناك، بل نار جهنم.

وإذا كانوا يتصورون أنهم يستطيعون الخلاص عن طريق الشفاعة، فإنهم يجب أن يعلموا أن هؤلاء الذين يرجونهم «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ» فلا أحد يشفع لهؤلاء، فمن طريق أولى أن لا يقدرُوا على الشفاعة لأحد «إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» فهؤلاء هم الوحيدون الذين تنفعهم وتشملمهم شفاعة الشافعين، أو أن مقامهم أعلى من هذه الرتبة أيضاً، ولهم القدرة والصلاحية لأن يشفعوا للعاصين الذين يستحقون الشفاعة.

والمراد من العهد فى الآية الشريفة كل نوع من أنواع الإرتباط بالله ومعرفته وطاعته، وكذلك الإرتباط بمذهب أولياء الحق، وكل عمل صالح.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَيْدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُفِّرْ مَنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن الشرك، وعاقبه عمل المشركين، فقد أشارت هذه الآيات فى نهاية البحث إلى فرع من فروع الشرك، أى الاعتقاد بوجود ولد لله سبحانه، وتبين مرة أخرى قبح هذا الكلام بأشد وأحد بيان، فتقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا». فليس المسيحيون لوحدهم كانوا يعتقدون بأن «المسيح» هو الإبن الحقيقى لله سبحانه، بل إن اليهود كانوا يعتقدون أيضاً مثل هذا الاعتقاد فى (عزير)، وكذلك عبدة الأصنام فى (الملائكة) فكانوا يظنون أنها بنات الله.

عند ذلك قالت الآية بلهجة شديدة: «لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا». «الإد»: معناه فى الأصل الصوت القبيح المضطرب الذى يصل الأذن نتيجة الاضطراب الشديد للأموج الصوتية فى

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ١٩٩

حجره البعير، ثم أطلق على الأعمال القبيحة والموحشه جداً.

ولما كانت مثل هذه النسبة غير الصحيحة مخالفة لأصل التوحيد فكأن كل عالم الوجود، الذى بنى على أساس التوحيد، قد اضطرب وتصدع إثر هذه النسبة الكاذبة، ولذلك تضيف الآية التالية: «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَيْدًا».

ومن أجل تأكيد وبيان أهمية الموضوع فإنها تقول: إن كل ذلك من أجل «أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا».

إن هؤلاء لم يعرفوا الله قط، لأنه: «وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا».

فإن الإنسان يطلب الولد لواحد من عدة أشياء:

إمّا لأن عمره ينتهى فيحتاج لولد مثله يحمل صفاته لبقى نسله وذكره.

أو لأنه يطلب الصديق والرفيق لأن قوته محدودة.

لكن أياً من هذه المعانى لا ينطبق على الله سبحانه، ولا يصح، فلا قدرته محدودة، ولا حياته تنتهى، ولا يعتره الضعف والوهن، ولا يحس بالوحدة والحاجة، ولذلك قالت الآية الاخرى: «إِنْ كُفِّرْ مَنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا».

فمع أن كل العباد مطيعون له، وقد وضعوا أرواحهم وقلوبهم على الأكف طاعة لأمره، فهو غير محتاج لطاعتهم، بل هم المحتاجون.

ثم تقول الآية التالية: «لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا». أى لا تتصور بأن محاسبة كل هؤلاء العباد غير ممكن، وعسير عليه سبحانه.

«وَكَلَّمَهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا». وبناء على هذا فإن المسيح وعزير والملائكة وكل البشر يشملهم حكمه ولا يستثنى منه أحد، ومع هذه الحال فما أقبح أن نعتقد ونقول بوجود ولد له، وكم نقص من قدر ذاته المقدسة ونزلها من أوج العظمة وقمتها، وننكر صفاته الجلالية والجمالية حينما ندعى أن له ولداً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تَحْسُبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٠

مختصر الامثل ج ٣، ص: ٢٤٩

الإيمان والمحبيية: هذه الآيات الثلاث نهاية سورة مريم، والكلام فيها أيضاً عن المؤمنين، والظالمين الكافرين، وعن القرآن وبشاراته وإنذاراته، وهي - في الحقيقة - عصاره البحوث السابقة بملاحظات ونكات جديدة. تقول أولاً: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا».

إن للإيمان والعمل الصالح نوراً وضياءاً بسعة عالم الوجود، ويعم نور المحبة الحاصل منهما كل أرجاء عالم الخلقة، وإن الذات الإلهية المقدسة تحب أمثال هذا الفرد، فهم محبوبون عند كل أهل السماء، وتقذف هذه المحبة في قلوب أهل الأرض.

ثم تشير الآية التالية إلى القرآن الذي هو منبع ومصدر تنمية الإيمان والعمل الصالح، فتقول: «إِنَّمَا يَسَّرْنَا بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا».

«اللُدُّ»: - بضم اللام وتشديد الدال - جمع «ألد» بمعنى العدو الشديد العداوة، وتطلق على المتعصب العنود في عداوته، ولا منطق له.

وتقول الآية الأخيرة كتهدئة لخاطر النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وتسلياً لهم، خاصة مع ملاحظة أن هذه السورة نزلت في مكة، وكان المسلمون يومذاك تحت ضغط شديد جداً؛ وكذلك تقول بنبوة التهديد والتحذير لكل الأعداء اللجوجين العنودين: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تَحْسُبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا».

«الركز»: بمعنى الصوت الهادىء، ويقال للأشياء التي يخفونها تحت الأرض: «ركاز»، أى إن هؤلاء الأقسام الظالمين، وأعداء الحق والحقيقة المتعصبين، قد تم تدميرهم وسحقهم إلى حد لا يسمع صوت خفى منهم.

لقد صدرت روايات عديدة عن النبي صلى الله عليه وآله في سبب نزول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا». في كثير من كتب الحديث وتفسير السنة والشيعه، وهي تبين أن هذه الآية نزلت لأول مرة في حق على عليه السلام. «نهاية تفسير سورة مريم»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠١

## ٢٠ سورة طه

محتوى السورة: إن أكثر ما يتحدث سورة طه (طه) عن المبدأ والمعاد كسائر السور المكية، ويذكر نتائج التوحيد وتعاسات الشرك.

١- تشير هذه السورة إلى عظمة القرآن، وبعض صفات الله الجلالية والجمالية.

٢- يتحدث أكثر من ثمانين آية عن قصة موسى عليه السلام من حين بعثته، إلى نهوضه لمقارعة فرعون الجبار وأعوانه.

٣- جاءت بعض المسائل حول المعاد.

٤- تناول جزء آخر من هذه السورة الحديث عن القرآن وعظمته.

٥- واحتوى قسم آخر قصة آدم وحواء في الجنة، ثم حادثه وسوسة إبليس، وأخيراً هبوطهما إلى الأرض.

٦- وفي القسم الأخير، تبين السورة المواعظ والنصائح، لكل المؤمنين، مع توجيه الخطاب في كثير من الآيات إلى نبي الخاتم صلى الله

عليه وآله.

فضيلة تلاوة السورة: في كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تدعوا قراءة سورة طه، فإن الله يحبها، ويحب من قرأها، ومن أدام قراءتها أعطاه الله يوم القيامة كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما عمل في الإسلام، وأعطى في الآخرة من الأجر حتى يرضى».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٢

والمراد من التلاوة هي أن تكون التلاوة مقدمة للتفكير والتدبير، التفكير الذي تتجلى آثاره في كل أعمال وأقوال الإنسان. طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)

سبب النزول

وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآيات الأولى من هذه السورة، يستفاد من مجموعها أن النبي صلى الله عليه وآله بعد نزول الوحي والقرآن كان يعبد الله كثيراً، وخاصة أنه كان يكثر القيام والوقوف في العبادة حتى تورمت قدماه، وكان من شدة التعب أحياناً يستند في وقوفه على إحدى قدميه، ثم يستند على الأخرى حيناً آخر، وحيناً على كعب قدمه، وآخر على أصابع رجله، فنزلت الآيات المذكورة وأمرت النبي صلى الله عليه وآله أن لا يحمل نفسه كل هذا التعب والمشقة.

التفسير

مرة أخرى نواجه الحروف المقطعة في بداية هذه السورة، والتي تثير حب الاستطلاع لدى الإنسان: «طه».

في كتاب معاني الأخبار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... وأما طه فإسم من أسماء النبي صلى الله عليه وآله ومعناه: يا طالب الحق الهادى إليه». ويظهر من هذا الحديث أن طه مركب من حرفين رمزيين، فالطاء إشارة إلى طالب الحق، والهاء إلى الهادى إليه، ونحن نعلم أن استعمال الحروف الرمزية وعلامات الاختصار فيما مضى وفي يومنا هذا أمر طبيعي وكثير الاستعمال، خاصة في عصرنا الحاضر فإنه كثير التداول والاستعمال جداً.

وآخر كلام في هذا الباب هو أن (طه) كك (يس) قد أصبحت تدريجياً وبمرور الزمان اسماً خاصاً للنبي صلى الله عليه وآله، حتى أنهم يسمون آل النبي صلى الله عليه وآله، (آل طه) أيضاً؛ وعبر عن الإمام المهدي - عجل الله تعالى فرجه - في دعاء الندبة ب (يابن طه).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٣

ثم تقول الآية: «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . «تشقى : مأخوذة من مادة الشقاء ضد السعادة، إلا أن هذه المادة تأتي أحياناً بمعنى المشقة والتعب، والمراد في الآية هذا المعنى.

ثم تبين الآية الأخرى الهدف من نزول القرآن فتقول: «إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى .

إن التعبير ب «تذكرة» من جهة، وب «من يخشى» من جهة أخرى يشير إلى واقع لا يمكن إنكاره، وهو: إن التذكرة توحى بأن أسس ومقومات كل التعليمات الإلهية موجودة في أعماق روح الإنسان وطبيعته، وتعليمات الأنبياء تجعلها ثمرة، وتوصلها إلى حد النضج، كما نذكر أحياناً بمطلب وأمر ما.

إن تعبير «من يخشى» يبين أن نوعاً من الإحساس بالمسؤولية، والذي سماه القرآن بالخشية، إذا لم يكن موجوداً في الإنسان، فسوف لا يقبل الحقائق.

ثم تتطرق الآيات إلى التعريف بالله تعالى المنزل للقرآن، لتوضح عظمة القرآن من خلال معرفته، فتقول: «تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى».



إنّ هذا التعبير إشارة إلى ابتداء وانتهاء نزول القرآن، انتهاؤه إلى الأرض وابتدائه من السماوات.

ثم تستمر في تعريف الله المنزل للقرآن فتقول: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى .

إنّ هذا التعبير كناية عن تسلط الله، وإحاطته الكاملة بعالم الوجود، ونفوذ أمره وتدييره في جميع أنحاء العالم.

ثم تتحدث عن مالكيه الله بعد حاكميته فتقول: «لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . «الثرى»: في الأصل

بمعنى التراب الرطب، ولما كانت قشرة الأرض - فقط - هي التي تجف نتيجة لأشعة الشمس وهبوب الرياح، وتبقى الطبقة السفلى -

غالباً - رطبة، فإنه يقال لهذه الطبقة: ثرى. وعلى هذا فإنّ «وَمَا تَحْتَ الثَّرَى» تعنى أعماق الأرض وجوفها، وكلها مملوكة لمالك الملك

وخالق عالم الوجود.

وأشارت الآية التالية إلى الركن الرابع، أى «العالمية»، فقالت: «وَأَن تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى».

وعرف منزل القرآن من مجموع الآيات أعلاه معرفه إجمالية في الأبعاد الأربعة: الخلقه، والحكمه، والمالكيه، والعلم.

و الآية التالية ربما تشير إلى ما ذكرنا: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٤

إنّ التعبير بالأسماء الحسنی قد ورد مراراً وتكراراً في الآيات القرآنية، ومن البديهي أنّ كل أسماء الله حسنة، ولكن لما كانت لبعض

أسماء الله وصفاته أهمية أكبر، فقد سميت بالأسماء الحسنی.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُيْدَى (١٠)

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ

عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)

نار في الجانب الآخر من الصحراء: من هنا تبدأ قصة نبي الله الكبير موسى عليه السلام، وتفصيل الجوانب المهمة من هذه القصة

المليئة بالأحداث سيأتي في أكثر من ثمانين آية، لتكون تهدئة ومواساة وتسلية لخاطر النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين الذين كانوا

يعانون خلال تلك الفترة في مكة ضغوطاً شديدة من الأعداء.

ويمكن تقسيم مجموع الآيات في هذه السورة إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن بداية نبوة موسى وبعثته، وأول ومضات الوحي.

القسم الثاني: يتحدث عن دعوة موسى وأخيه هارون لفرعون وملئه إلى دين التوحيد، ثم اشتباكهما بالأعداء.

القسم الثالث: يبحث عن خروج موسى وبنى إسرائيل من مصر، وكيفيه نجاتهم من قبضة فرعون وأتباعه، وغرق هؤلاء وهلاكهم.

القسم الرابع: ويتحدث حول الاتجاهات الانحرافية الشديدة لبنى إسرائيل عن دين التوحيد إلى الشرك، وقبول وساوس السامري،

ومواجهه موسى الحازمة لهذا الإنحراف.

فهذه الآيات تقول بتعبير رقيق وجذاب: «وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى .

إنّ هذا الاستفهام ليس هدفة تحصيل الخبر، بل مقدمه لبيان خبر مهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٥

ثم تقول: «إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُيْدَى».

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى .

ويستفاد من الآية (٣٠) من سورة القصص، أنّ موسى قد سمع هذا النداء من جهة شجرة كانت هناك: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ

الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يُمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ». إنّ موسى لما اقترب شاهد النار في داخل الشجرة، وهذه

النار ليست ناراً عادية، بل إن هذا النور الإلهي الذي ليس له يحرق الشجرة وحسب، بل إنه منسجم معها، ألا وهو نور الحياة. وقد هام موسى لدى سماعه هذا النداء المحيي للروح: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» وشعر بكل وجوده بلذّة لا يمكن وصفها. لقد امر أن يخلع نعليه، لأنه قد وضع قدمه في أرض مقدسة... الأرض التي تجلّى فيها النور الإلهي، ويسمع فيها نداء الله، ويتحمل مسؤوليّة الرسالة، فيجب أن يخطو في الأرض بمنتهى الخضوع والتواضع، وهذا هو سبب خلعه النعل عن رجله.

ثم سمع هذا الكلام من نفس المتكلم: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . وَمِن بَعْدَهَا تَلَقَى مُوسَى أَوَّلَ جَمَلَةٍ مِنَ الْوَحْيِ عَلَى شَكْلِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي». شرعت هذه الآية في بيان أهم أصل لدعوة الأنبياء في هذه الآية، ألا وهو مسألة التوحيد، وبعدها ذكرت موضوع عبادة الله الواحد كشمرة لشجرة الإيمان والتوحيد، ثم أصدرت له أمر الصلاة بعد ذلك، وهي تعني أكبر عبادة وأهم إرتباط بين الخلق والخالق، وأكثر الطرق تأثيراً في عدم الغفلة عن الذات المقدسة. ولما كان المعاد هو الأصل والأساس الثاني، فبعد ذكر التوحيد وأغصانه وفروعه، أضافت الآية التالية: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُتْجَرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَعَسَىٰ .

إِنَّ عَلَمَهُ إِخْفَاءُ تَارِيخِ الْقِيَامَةِ حَسَبِ الْآيَةِ، هِيَ: «لِيُتْجَرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَعَسَىٰ . وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ: فَإِنَّ كَوْنَ السَّاعَةِ مَخْفِيَةً سَيُوجَدُ نَوْعاً مِنْ حَرِيَةِ الْعَمَلِ لِلْجَمِيعِ .

وأشارت الآية الأخيرة إلى أصل اساسي يضمن تنفيذ كل البرامج العقائدية والتربوية، فتقول: «فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّاتُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ» والآ فسوف تهلك «فَتَزْدَىٰ فَاصْمَدٌ فِي مَقَابِلِ الْكَافِرِينَ وَوَسَاوَسَهُمْ وَعَرَاقِيلَهُمْ، وَلَا تَدْعُ لِلْخَوْفِ مِنْ كَثْرَتِهِمْ مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٦

ومؤامرتهم وخططهم الخبيثة إلى قلبك سبيلاً، ولا- تشك مطلقاً في أحقيته دعوتك وأصالة دينك نتيجة هذه الضوضاء. إن جملة «يؤمن» وردت هنا بصيغة المضارع، وجملة «واتبع هواه» بصيغة الماضي، وهي أشارت إلى هذه النكته، وهي أن عدم إيمان منكري القيامة ينبع من أتباع هوى النفس، فهم يريدون أن يكونوا أحراراً ويفعلون ما تشتهي أنفسهم.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَاضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)

عصا موسى واليد البيضاء: لا شك أن الأنبياء يحتاجون إلى المعجزة لإثبات إرتباطهم بالله، وإلا فإن أيّ واحد يستطيع أن يدعى النبوة. إن موسى عليه السلام بعد تلقيه أمر النبوة، يجب أن يتلقى دليلها وسندها أيضاً، وهكذا تلقى موسى عليه السلام في تلك الليلة المليئة بالذكريات والحوادث معجزتين كبيرتين من الله، ويبيّن القرآن الكريم هذه الحادثة فيقول: «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى .

فأجاب موسى: «قَالَ هِيَ عَصَايَ». ولما كان راغباً في أن يستمر في حديثه مع محبوبه الذي فتح الباب بوجهه لأول مرة، وربما كان يظن أيضاً أن قوله: «هِيَ عَصَايَ» غير كاف، فأراد أن يبين آثارها وفوائدها فأضاف: «أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي» «١». أي أضرب بها على اغصان الشجر فتساقط اوراقها لتأكلها الأغنام «وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى» «٢».

إن موسى غطّ في تفكير عميق: أي سؤال هذا في هذا المجلس العظيم، وأي جواب أعطيه؟ وماذا كانت تلك الأوامر؟ ولماذا هذا السؤال؟

وفجأة: «قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا حَيَّةٌ تَسْعَى . «تسعى»: من مادة السعى أي المشى السريع الذي لا يصل إلى الركض.

(١) «أهش»: من مادة هشّ - بفتح الهاء - أي ضرب أوراق الشجر وتساقطها.

(٢) «مارب»: جمع مأرب، أي الحاجة والقصد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٧

وهنا صدر الأمر لموسى: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى .

ثم أشارت الآية التالية إلى المعجزة الثانية لموسى، فأمرته: «وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى .

إن موسى كان مأموراً أن يدخل يده في جيبه ويوصلها إلى تحت إبطه.

وجملته «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» إشارة إلى أن بياض يدك ليس نتيجة مرض البرص وأمثاله، بدليل أن لها لمعاناً وبريقاً خاصاً يظهر في لحظة ويختفي في لحظة أخرى.

وتقول الآية الأخيرة، وكنتيجه لما مر بيانه في الآيات السابقة: «لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى». والمراد من الآيات الكبرى هو تلكما المعجزتان المهمتان اللتان وردتا أعلاه.

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيْرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)

موسى وطلباته القيمة: إلى هنا وصل موسى إلى مقام النبوة، وتلقى معاجز مهمية تسترعى الانتباه، إلا أنه من الآن فصاعداً صدر له أمر الرسالة... رسالة عظيمة وثقيلة جداً... الرسالة التي تبدأ بإبلاغ أعتى وأخطر شخص في ذلك المحيط، فتقول الآية: «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .

أجل... فمن أجل إصلاح بيئه فاسدة، وإيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد وأئمة الكفر... اولئك الذين لهم تأثير في جميع أركان المجتمع.

ومضافاً إلى أن موسى عليه السلام لم يستوحش ولم يخف من هذه المهمة الثقيلة الصعبة، ولم يطلب من الله أي تخفيف في هذه المهمة، فإنه قد تقبلها بصدر رحب، غاية ما في الأمر أنه طلب من الله أسباب النصر في هذه المهمة. ولما كان أهم وأول أسباب النصر الروح الكبيرة، والفكر الوقود، والعقل المقتدر، وبعبارة أخرى: رحابة الصدر، فقد «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي».

ولما كان هذا الطريق مليئاً بالمشاكل والمصاعب التي لا يمكن تجاوزها إلا بلطف الله، فقد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٨

طلب موسى من الله في المرحلة الثانية أن تيسر له اموره وأعماله، وأن تذلل هذه العقبات التي تعترضه، فقال: «وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي». ثم طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلى المراتب فقال: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي».

خاصة وأنه بين عله هذا الطلب فقال: «يَفْقَهُوا قَوْلِي». فهذه الجملة تفسير للآية التي قبلها. أي: أريد أتكلم بدرجة من الفصاحة والبلاغة والتعبير بحيث يدرك أي سامع مرادى من الكلام جيداً.

ولما كان إيصال هذا الحمل الثقيل - حمل رسالة الله، وقيادة البشر وهدايتهم، ومحاربة الطواغيت والجبابة - إلى المحل المقصود يحتاج إلى معين ومساعد، ولا يمكن أن يقوم به إنسان بمفرده، فقد كان الطلب الرابع لموسى من الله هو: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي».

ثم يشير إلى أخيه، فيقول: «هَارُونَ أَخِي». وهارون كان الأخ الأكبر لموسى، وكان يكبره بثلاث سنين، وكان طويل القامة، جميلاً بليغاً، عالي الإدراك والفهم، وقد رحل عن الدنيا قبل وفاة موسى بثلاث سنين.

وقد كان نبياً مرسلًا كما كان نبياً وهدى الله لموسى من رحمته.

ثم يبين موسى عليه السلام هدفه من تعيين هارون للوزارة والمعونة فيقول: «اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي».

ويطلب، من أجل تكميل هذا المقصد والمطلب: «وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي». فيكون شريكاً في مقام الرسالة، وفي إجراء وتنفيذ هذا البرنامج

الكبير، إلا أنه يتبع موسى على كل حال، فموسى إمامه ومقتداه.

وفي النهاية يبين نتيجة هذه المطالب فيقول: «كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا \* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا \* إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا».

ولما كان موسى لم يهدف من طلباته المخلصه هذه إلا الخدمة الأكثر والأكمل، فإن الله سبحانه قد لبى طلباته في نفس الوقت: «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى .

إن موسى طلب كل ما كان يلزمه في هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التي يجلس فيها لأول مرة على مائدة الضيافة الإلهية ويأبى بساطها، والله سبحانه كان يحب ضيفه أيضاً، حيث لبى كل طلباته وأجابه فيها في جملة قصيرة تبعث الحياة، وبدون قيد وشرط.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٩

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عِدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهٗ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَمَّا تَحَرَّنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي (٤١)

الرب الرحيم: يشير الله سبحانه في هذه الآيات إلى فصل آخر من فصول حياة موسى عليه السلام، والذي يرتبط بمرحلة الطفولة ونجاته من قبضة الفراعنة. وهذا الفصل وإن كان من ناحية التسلسل التاريخي قبل فصل الرسالة والنبوة، إلا أنه ذكر كشاهد على شمول عناية الله عز وجل لموسى عليه السلام من بداية عمره، وهي في الدرجة الثانية من الأهمية بالنسبة إلى الرسالة، فيقول أولاً: «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى (١)».

وبعد ذكر هذا الإجمال تتطرق الآيات إلى الشرح والتفصيل، فتقول: «إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى .

وهو إشارة إلى أننا قد علمنا أمه كل الطرق التي تنتهي إلى نجاه موسى عليه السلام من قبضة الفراعنة، لأنه يستفاد من سائر آيات القرآن أن فرعون شدد ارهابه على بنى إسرائيل للتصدى لقوتهم وعصيانهم المحتمل، أو أنه كان قد أمر بقتل أبنائهم وإبقاء البنات للخدمة، لكي يمنع ولادة ولد من بنى إسرائيل كان قد أخبره المنجمون أنه يثور عليه ويزيل ملكه.

إن هذه الام أحست بأن حياة وليدها في خطر، وإخفاؤه مؤقتاً سوف لا يحل المشكلة ...

في هذه الأثناء ألهمها الله - الذي رشح هذا الطفل لثورة كبيرة؛ فألقى في قلب الام: «أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ». «اليم»: هنا يعنى نهر النيل العظيم الذى يطلق عليه

(١) «المنة»: فى الأصل من المن، وهو يعنى الأحجار الكبيرة التى كانوا يزنون بها، ولذلك فإن كل نعمة كبيرة ونفيسة يقال عنها: إنها منة. والمراد فى الآية هو هذا المعنى، وهذا المعنى مفهوم جميل وإيجابى للمنة، إلا أن الإنسان إذا عظم عمله الصغير بكلامه، وذكر الطرف الآخر به، فإنه مصداق حى للمنة السلبية المذمومة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٠

أحياناً اسم البحر لسعته وكثرة مياهه؛ و «التابوت»: تعنى الصندوق الخشبى، ولا يعنى دائماً الصندوق الذى يوضع فيه الأموات كما يظن البعض، بل إن له معنى واسعاً. ثم تضيف: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهٗ».

إن كلمة «عدو» قد تكررت هنا، وهذا تأكيد على عداة فرعون لله، ولموسى وبنى إسرائيل، وأشارت إلى أن الشخص الذى انغمس إلى هذا الحد فى العداة هو الذى سيتولى فى النهاية تربية موسى.

ولما كان موسى عليه السلام يجب أن يحفظ فى حصن أمين فى هذا الطريق الملىء بالمخاطر، فقد ألقى الله قبساً من محبته عليه، إلى الحد الذى لم ينظر إليه أحد إلا ويعشقه، فلا يكف عن قتله وحسب، بل لا يرضى أن تنقص شعرة من رأسه، كما يقول القرآن فى بقیة

هذه الآيات:

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي».

يقولون: إنَّ قابله موسى كانت من الفراعنة، وكانت مصممة على رفع خبر ولادته إلى فرعون، إلَّا أنه لما وقعت عينها على عين المولود الجديد، فكأنَّ ومضه برقت من عينه وأضاءت أعماق قلبها، وطوّقت محبته رقبته، وابتعدت عن رأسها كل الأفكار السيئة. وتقول الآية في النهاية: «وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي».

وكان قصر فرعون قد بنى على جانب شط النيل، وبينما كان فرعون وزوجته على حافة الماء ينظرون إلى الأمواج، وإذا بهذا الصندوق الغريب يلفت انتباههما، فأمر جنوده أن يخرجوا الصندوق من الماء، فلما فتحوا الصندوق شاهدوا بكامل العجب مولوداً جميلاً فيه، وهو شيء لم يكن بالحسبان.

وهنا تتبه فرعون إلى أن هذا الوليد ينبغي أن يكون من بنى إسرائيل، وإنما لاقى هذا المصير خوفاً من جلاوزته، فأمر بقتله، إلَّا أن زوجته - التي كانت عقيماً - تعلقت جداً بالطفل، فقد نفذ النور الذي كان ينبعث من عيني الطفل إلى زوايا قلبها، وجذبها إليه، فضربت على يد فرعون وطلبت منه أن يصرف النظر عن قتله، وعبرت عن هذا الطفل بأنه (قرّة عين)، بل وتمادت في طلبها، فطلبت منه أن يتخذه ولداً ليكون مبعث أمل لهما، ويكبر في أحضانها، وأصرّت على طلبها حتى أصابت سهامها، وحققت ما تصبو إليه. غير أن الطفل جاع، وأراد لبناً، فاخذ يبيكى ويذرف الدموع.

والآن نقرأ بقية القصة على ضوء الآيات الشريفة:

نعم يا موسى، فإننا كنا قدرنا أن تتربى بأعيننا وعلمنا «إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ» بأمر أمك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١١

لتراقب مصيرك، فرأت جنود فرعون: «فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ». وربما أضافت بأن هذه المرأة لها لبن نظيف، وأنا مطمئنة بأن هذا الرضيع سيقبلها.

فاستبشر الجنود على أمل أن يجدوا ضالّتهم عن هذا الطريق، فذهبوا معها، فأطلعت اخت موسى - والتي كانت تظهر نفسها بمظهر الشخص الغريب والمجهول - أمها على الأمر، فجاءت أمه إلى بلاط فرعون، من دون أن تفقد سيطرتها على أعصابها، بالرغم من أن أمواجاً من الحب والأمل كانت قد أحاطت بكل قلبها، واحتضنت الطفل، فلما شمّ الطفل رائحة أمه، وكانت رائحة مألوفة لديه، التقم ثديها كأنه تضمّن لذة الروح وحلاوتها، واشتغل الطفل بشرب اللبن بلهفة وعشق شديد، فانطلقت صرخات الفرح من الحاضرين، وبدت آثار الفرح والسرور على زوجة فرعون.

فقد أمرها فرعون بالإهتمام بالطفل، وأكدت زوجته كثيراً على حفظه وحراسته، وأمرت أن يعرض عليها الطفل بين فترة واخرى.

هنا تحقق ما قاله القرآن: «فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ».

ومرّت السنون والاعوام، وتربى موسى عليه السلام وسط هالة من لطف الله ومحبه، وفي محيط آمن، وشيئاً فشيئاً أصبح شاباً. وكان ذات يوم يمرّ من طريق فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من الأقباط - وهم المصريون، قوم فرعون - ولما كان بنو إسرائيل يعيشون دائماً تحت ضغط الأقباط الظالمين وأذاهم، هبّ موسى لمعونته المظلوم الذي كان من بنى إسرائيل، ومن أجل الدفاع عنه وجه ضربة قاتله إلى ذلك القبطي، فقضت عليه.

إنّ موسى، وحسب إشارة بعض أصدقائه عليه، خرج متخفياً من مصر، وتوجّه إلى مدين، فوجد محيطاً وجوّاً آمناً في ظل النبي

«شعيب»، والذي سيأتي شرح حاله في تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى

هنا حيث يقول القرآن الكريم: «وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا». فبعد حادثه القتل اختبرناك كثيراً والقينا بك في اتون الحوادث والشدائد «فَلَبَّثْتَ بَيْنَ يَدَيْنَا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ». وبعد اجتياز هذا الطريق الطويل، والإستعداد الروحي والجسمي، والخروج من دوامة

الأحداث بشموخ وانتصار «ثُمَّ جِئْت عَلَى قَدَرٍ يُمُوسَى . أَى لاسلام مهمه الرساله فى زمان مقدر إلى هذا المكان.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٢

ثم يضيف: «وَاصْرِطْ عُنُقَكَ لِغَيْبَتِي». فمن أجل مهمه تلقى الوحي الصعبه، ومن أجل قبول الرساله، ومن أجل هدايه العباد وإرشادهم رببتك واختبرتك فى الحوادث الصعبه ومشاقها، ومنحتك القوة والقدرة، والآن حيث ألفت هذه المهمه الكبرى على عاتقك، فإنك مؤهل من جميع الجوانب. «اصطناع»: من ماده «صنع» بمعنى الإصرار والاقدام الأكيد على اصلاح شىء. ويعنى إننى قد اصلحتك من كل الجهات.

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَا لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

أول لقاء مع فرعون الجبار: الآن وقد أصبح كل شىء مهياً، وكل الوسائل قد جعلت تحت تصرف موسى، فقد خاطب الله سبحانه موسى وهارون بقوله: «أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي». الآيات التى تشمل المعجزتين الكبيرتين لموسى عليه السلام، كما تشمل كل آيات الله وتعليماته التى هى بذاتها دليل على أحقيته دعوته.

ومن أجل رفع معنوياتهما، والتأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المساعى والجهود، فقد أضاف سبحانه قائلاً: «وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي» وتنفيذ أومرى، لأن الضعف واللين وترك الحزم سيذهب بكل جهودكما أدراج الرياح، فأثبتا ولا تخافا من أى حادثه، ولا تضعفا أمام أى قدرة.

بعد ذلك، يبين الهدف الأساس لهذه الحركة، والنقطه التى يجب أن تكون هدفاً لتشخيص المسار، فيقول: «أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى». فإنه سبب كل الشقاء والتعاسه فى هذه المنطقه الواسعه، وما لم يتم إصلاحه فسوف لا ينجح أى عمل، لأن عامل تقدم الامه أو تخلفها، سعادتها أو شقتها وبؤسها هو قادتتها وحكامها.

ثم بينت الآيه طريقه التعامل المؤثره مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه وتؤثرا فيه «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٣

ومع هذه الحال، فقد كان موسى وهارون قلقين من أن هذا الرجل القوى المتغطرس المستكبر، الذى عم رعبه وخشونته كل مكان، قد يقدم على عمل قبل أن يبلغان الدعوه، ويهلكهما، لذلك «قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى .

إلما أن الله سبحانه قد أجابهما بحزم: ف «قَالَا لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى وَبِنَاءً عَلَى هَذَا، فمع وجود الله القادر معكما فى كل مكان، الله الذى يسمع كل شىء، ويرى كل شىء، وهو حاميكما وسندكما، فلا معنى للخوف والرعب.

ثم يبين لهما بدقه كيفيه إلقاء دعوتهما فى محضر فرعون فى خمس جمل قصار قاطعه غتية المحتوى، ترتبط أولها بأصل المهمه، والثانيه بيان محتوى المهمه، والثالثه بذكر الدليل والسند، والرابعه بترغيب الذين يقبلونها، وأخيراً فإن الخامسة تكفلت بتهديد المعارضين.

فتقول أولاً: «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ».

ثم تقول: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ».

ثم أشارت إلى دليلهما ووثيقتهما، فتقول: قولاً له: «قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ». وبناءً على هذا، فإن العقل يحكم بأن تفكر فى كلامنا على الأقل، وأن تقبله إن كان صحيحاً ومنطقياً.

ثم تضيف الآيه من باب ترغيب المؤمنين: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . وهذه الجملة يمكن أن تشير أيضاً إلى معنى آخر، وهو أن

السلامة في هذه الدنيا، والعالم الآخر من الآلام والعذاب الإلهي الأليم، ومن مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية، من نصيب اولئك الذين يتبعون الهدى الإلهي، وهذه في الحقيقة هي النتيجة النهائية لدعوة موسى. وأخيراً، فإن الله يأمرهما أن يفهما العاقبة المشؤومة للتمرد على هذه الدعوة وعصيانها، بقولهما له: «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

إن هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لفّ ودوران، وبدون أي تغطية وتورية.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّاهَا لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُم بَل لَّيْسَ لَكُم لَأْيَاتٍ لِّأُولَىٰ النَّهْيِ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٤

لقد حذف القرآن المجيد هنا بعض المطالب التي يمكن فهمها بمعونة الأبحاث الآتية، وتوجه مباشرة إلى محاوره موسى وهارون مع فرعون، والمبحث في الواقع هكذا:

لما أصبح موسى أمام فرعون وجهاً لوجه، أعاد تلك الجمل الدقيقة المؤثرة التي علمه الله إياها أثناء الأمر بالرسالة. فلما سمع فرعون هذا الكلام، كان أول رد فعله أن «قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَىٰ . والعجيب أن فرعون المغرور والمعجب بنفسه لم يكن مستعداً حتى أن يقول: من ربي الذي تدعيانه؟ بل قال: من ربكما؟

فأجابه موسى مباشرةً بجواب جامع جداً، وقصير في الوقت نفسه، عن الله: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . ففي هذه العبارة الموجزة إشارة إلى أصلين أساسيين من الخلق والوجود، وكل واحد منهما دليل وبرهان مستقل يوصل إلى معرفة الله: الأول: إن الله سبحانه قد وهب لكل موجود ما يحتاجه.

والثاني: مسألة هداية وإرشاد الموجودات.

إن من الممكن أن يمتلك الإنسان أي شيء من أسباب الحياة، إلا أنه يجهل كيفية الاستفادة منها، والمهم أن يعرف طريقة استعمالها، وهذا هو الشيء الذي نراه في الموجودات المختلفة بوضوح، وكيف أن كلاً منها يستغل طاقته بصورة دقيقة في إدامه حياته، كيف يبني بيتاً، وكيف يتكاثر، وكيف يربّي أولاده ويخفيهم ويعددهم عن تناول الأعداء، أو يعلمهم كيف يواجهون الأعداء. والبشر - أيضاً - لديهم هذه الهداية التكوينية.

فإن الإنسان نتيجة لإملاكه العقل والإرادة، فإن له واجبات ومسؤوليات، وبعد ذلك مناهج تكاملية ليس للحيوانات مثلها، ولذلك فإنه إضافة إلى الهداية التكوينية محتاج إلى الهداية التشريعية.

فلما سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالاً آخر «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ .

أجابه موسى عليه السلام بقوله: «قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ».

إن موسى قد تبه بصورة ضمنية على إحاطة علم الله بكل شيء، ليتنبه فرعون إلى هذه الحقيقة، وهي أن أي شيء من عمله لا يخفى على الله وإن كان بمقدار رأس الإبرة، وسوف ينال عقابه أو ثوابه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٥

ولما كان جانب من حديث موسى عليه السلام حول مسألة التوحيد ومعرفة الله، فإنه يبين هنا فصلاً آخر في هذا المجال، فيقول: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّاهَا لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . وفي مجموع هذه الآية إشارة إلى أربعة أنواع من نعم الله الكبرى.

إنّ هذه النعم الأربع الكبرى تشكّل حسب الترتيب الذى ورد فى الآية أولويات حياة الإنسان، فقبل كل شىء يحتاج الإنسان إلى محلّ سكن وهدوء، وبعده إلى طرق المواصلات، ثم الماء، ثم المحاصيل الزراعية.

ثم أشار إلى خامس النعم وآخرها من سلسلة النعم الإلهية هذه، فقال: «كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ».

وفى النهاية، وبعد أن أشار إلى كل هذه النعم، قال: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيِّتٍ لِّأُولِي النُّهَى .

«النهى»: جمع «نهيّة» وهى فى الأصل مأخوذة من مادة «نهي» مقابل الأمر، وتعنى العقل الذى ينهى الإنسان عن القبائح والسيئات، يعنى إنّ العقل والفكر المسؤول هو الذى يستطيع أن يدرك ويطلع على هذه الحقيقة.

وبما أنّ هذه الآيات دللت على التوحيد بخلق الأرض ونعمها، فقد بينت مسألة المعاد بالإشارة إلى الأرض فى آخر آية من هذه الآيات أيضاً فقالت: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .

وَلَقَدْ أَرْبَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَآبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ

بَيْنَكَ مَوْعِدًا لِمَا نَخْلُقُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحَى (٥٩) فَتَوَلَّى فُزَعُونَ فَجَمَعَ

كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ

أَسْرَرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لِسِيَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٣) فَاجْمَعُوا

كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٦

فرعون يهيه نفسه للجولة الأخيرة: تعكس هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهة بين موسى وفرعون، ويبدأ القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: «وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . ومن المسلم أنّ المراد من هذه الآيات هى المعجزات التى أراها فرعون فى بداية دعوته، معجزة العصا، واليد البيضاء، ومحتوى دعوته السماوية الجامعة.

والآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغى المستكبر العنود فى مقابل موسى ومعجزاته، وكيف اتهمه كما هى عادة كل المتسلطين والحكام المتعنتين؟ «قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . وهو إشارة إلى أننا نعلم أنّ مسألة النبوة والدعوة إلى التوحيد، وإظهار هذه المعجزات تشكّل بمجموعها خطّة منسّقة للانتصار علينا، وبالتالي إخراجنا مع الأقباط من أرض آباءنا وأجدادنا.

إنّ هذه التهمة هى نفس الحربة التى يستخدمها الطواغيت والمستعمرون على إمتداد التاريخ، ويلوحون بها ويشهرونها كلما رأوا أنفسهم فى خطر، ومن أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسألة تعرّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعنى حكومه هؤلاء العتاة، ووجوده يعنى وجودهم!

ثم أضاف فرعون بأن لا تظن بأننا نعجز عن أن نأتى بمثل هذا السحر: «فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ». ولكى يظهر حزماً أكثر فإنه قال: «فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لِمَا نَخْلُقُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى».

إلّا أنّ موسى لم يفقد هدوء أعصابه، ولم يدع للخوف من عنجهية فرعون إلى قلبه طريقاً، بل قال بحزم: «قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحَى» (١).

إنّ التعبير ب «يَوْمَ الزَّيْنَةِ» إشارة إلى يوم عيد إلّا أنّ المهم هو أنّ الناس كانوا يعطلون أعمالهم فيه.

إنّ فرعون بعد مشاهدة معجزات موسى العجيبة، وتأثيرها النفسى فى أنصاره، صمّم على مواجهة موسى عليه السلام بالاستعانة بالسحرة، ولذلك وضع الإتفاق المذكور مع موسى «فَتَوَلَّى فُزَعُونَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى .

وأخيراً حلّ اليوم الموعود، ووقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم

(١) «الضحى»: بمعنى زيادة أشعة الشمس، أو ارتفاع الشمس.



مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٧

السحرة، وكان عددهم - على رأى بعض المفسرين - إثنتين وسبعين ساحراً، وقال آخرون إنهم بلغوا أربعمائة، وذكر البعض أعداداً أكبر أيضاً، وكان قسم من ذلك الجمع عبارة عن فرعون وأنصاره وحاشيته، وأخيراً القسم الثالث الذى كان يشكل الأكتريه، وهم الناس المتفرجون.

هنا توجه موسى إلى السحرة، أو إلى الفراعنة والسحرة، و «قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَآ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى .

وواضح أن مراد موسى من الافتراء على الله سبحانه هو أن يجعلوا شخصاً أو شيئاً شريكاً له، أو ينسبوا معجزات رسول الله إلى السحر، ويظنوا أن فرعون إلههم ومعبودهم.

إن كلام موسى المتين الذى لا يشبه كلام السحرة بوجه، بل إن نبرته كانت نبرة دعوة كل الأنبياء الحقيقيين، ونابعة من صميم قلب موسى الطاهر، فأثرت على بعض القلوب، وأوجدت اختلافاً بين ذلك الحشد من السحرة، فبعض كان يناصر المواجهه والمبارزه، وبعض تردد فى الأمر، واحتمل أن يكون موسى عليه السلام نبياً إلهياً، وأثرت فيهم تهديداته، خاصة وأن لباس موسى وهارون البسيط كان لباس رعاة الأغنام، وعدم مشاهدته الضعف والتراجع على محيأهما بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلاً آخر على أصالة أقوالهما وصدق نواياهما، ولذلك فإن القرآن يقول: «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى .

إلّا أن أنصار الاستمرار فى المواجهه إنتصروا أخيراً وأخذوا زمام المبادرة بيدهم، وشرعوا فى تحريك السحرة بطرق مختلفة، فأولاً «قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ». وبناءً على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنكم كبار وأساتذة السحر فى هذه البلاد العريضة، ولأن قوتكم وقدرتكم أكبر منهما.

ثم إنهما «يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا». الوطن الذى هو أعز من أنفسكم. إضافة إلى أنهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنهما يريدان أيضاً أن يجعلوا مقدساتكم اضحوكة ومحلاً للسخرية «وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى » (١).  
والآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا تدعوا للتردد إلى أنفسكم طريقاً مطلقاً، بل

(١) «الطريقة»: تعنى العادة والاسلوب المتبع، والمراد منها هنا المذهب؛ و «مثلى»: من مادّة «مثل» وهى هنا تعنى العالى والأفضل، أى الأشبه بالفضيلة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٨

«فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّو صَفًا» لأن الوحده رمز إنتصاركم فى هذه المعركة المصيرية الحاسمه «وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ اسْتَعْلَى .  
قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَلِّإِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَآ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَ أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَدَّعُوا إِنَّمَا صَدَّعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَآ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩)

موسى عليه السلام ينزل إلى الساحة: لقد اتحد السحرة ظاهراً، وعزموا على محاربة موسى عليه السلام ومواجهته، فلما نزلوا إلى الميدان «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى .

غير أن موسى عليه السلام بدون أن يبدى عجلة، لإطمئنانه بأن النصر سوف يكون حليفه، بل وبغض النظر عن أن الذى يسبق إلى الحلبة فى هذه المجابهات هو الذى يفوز «قَالَ بَلْ أَلْقُوا».

فقبل السحرة ذلك أيضاً، وألقوا كل ما جلبوه معهم من عصى وحبال للسحر فى وسط الساحة دفعة واحدة، وإذا قبلنا الرواية التى تقول: إنهم كانوا آلاف الأفراد، فإن معناها أن فى لحظة واحدة القيت فى وسط الميدان آلاف العصى والحبال التى ملئت أجوافها

بمواد خاصة «فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

إنَّ المشهد كان عجيبيًا جدًا، فإنَّ السحرة الذين كان عددهم كبيراً، وتمرسهم وإطلاعهم في هذا الفن عميقاً، وكانوا يعرفون جيداً طريقة الاستفادة من خواص هذه الأجسام الفيزيائية والكيميائية الخفية، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدقوا أن كل هذه الأشياء الميته قد ولجتها الروح، فعلت صرخات السرور من الفراعنة، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف والرعب، ويتراجعون إلى الخلف.

في هذه الأثناء «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . «أوجس»: أخذت من مادة «إيجاس» وفي الأصل من (وجس) على وزن (حبس) بمعنى الصوت الخفى، وبناءً على هذا فإنَّ الإيجاس يعنى الإحساس الخفى والداخلى، وهذا يوحى بأنَّ خوف موسى الداخلى كان سطحياً وخفيفاً. كما نقرأ فى خطبة الإمام على عليه السلام: «لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٩

أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال» (١).

فقد نزل النصر والمدد الإلهى على موسى فى تلك الحال، وبين له الوحى الإلهى أن النصر حليفه كما يقول القرآن: «قُلْنَا لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى .

فقد أرجعت لموسى إطمئنانه الذى تزلزل للحظات قصيرة.

وخاطبه الله مرة اخرى بقوله تعالى: «وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى .

ومما يلفت النظر أنه لم يقل (اللق عصاك) بل يقول: «أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ» وربما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الإهتمام بالعصا، وإشارة إلى أن العصا ليست مسألة مهمّة، بل المهم إرادة الله وأمره، فإنه إذا أراد الله شيئاً، فليست العصا فقط، بل أقل وأصغر منها قادر على إظهار مثل هذه القدرة.

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قِيلَ أَنْ أَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَمَّا قُطِعَ الْأَيْدِيكُمْ وَأُزْجِلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَ لَأَصِيبُنَّكُمْ فِي مَكِيدِكُمْ فِي حُجُودِ النَّخْلِ وَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْفَى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

الإنصار العظيم لموسى عليه السلام: إنتهينا فى الآيات السابقة إلى أن موسى امر أن يلقى عصاه ليبطل سحر الساحرين، وقد عُقت هذه المسألة فى هذه الآية، غاية الأمر أن العبارات والجمل التى كانت واضحة قد حذفت، وهى (أن موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حية

(١) لقد قال الإمام على عليه السلام هذا الكلام فى وقت كان قلقاً من انحراف الناس، ويشير إلى هذه الحقيقة، وهى أن قلقى ليس نابعاً من شكى فى الحق. (نهج البلاغة الخطبة ٤).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٠

عظيمة لقت كل آلات وأدوات سحر السحرة، فعلت الصيحة والغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون وإرتبك، وفغر أتباعه أفواههم من العجب. فأيقن السحرة الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، وكانوا يفرقون جيداً بين السحر وغيره، إنَّ هذا الأمر ليس إلامعجزة إلهية، وأنَّ هذا الرجل الذى يدعوهم إلى ربهم هو رسول الله، فاضطربت قلوبهم، وتبين التحول العظيم فى أرواحهم ووجودهم).

والآن نسمع بقیة الحديث من لسان الآيات:

«فَأَلْقَى السِّحْرَهُ سِحْرًا قَالُوا ءَأَمَّا رَبُّ هُرُونَ وَمُوسَى . إِنَّ التَّعْبِيرَ ب (القي) - وهو فعل مبنى للمجهول - ربّما كان إشارة إلى أنّهم قد صدّقوا موسى، وتأثّروا بمعجزته إلى الحد الذي سجدوا معه دون إرادة.

إنّ عمل السحرة هذا قد وجّه صفعة قويّة إلى فرعون وحكومته الجبارة المستبدّة الظالمة، ولذلك لم ير فرعون بدّاً إلّا أن يجمع كيانه ويلملم ما تبقى من هيئته وسلطانه عن طريق الصراخ والتهديد والوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السحرة و « قَالَ ءَأَمَّنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ ».

إنّ هذا الجبار المستكبر لم يكن يدعى الحكومة على أجسام وأرواح الناس وحسب، بل كان يريد أن يقول: إنّ قلوبكم تحت تصرفي أيضاً، ويجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذني.

إنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّه ألصق بالساحرين التهمة وقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ».

لا شك أنّ فرعون كان على يقين ومعرفة تامّة بكذب كلامه وبطلانه، إلّا أنّنا نعلم أنّ الطغاة لا يتورعون عن إصااق أي كذب وتهمة بخصومهم عندما يرون مركزهم الذي حصلوا عليه بغير حق يتعرّض للخطر.

ثم إنّه لم يكتف بهذا، بل إنّه هدّد السحرة أشدّ تهديد، التهديد بالموت، فقال: «فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَ لَبَنِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

لكن نرى ماذا كان ردّ فعل السحرة تجاه تهديدات فرعون الشديدة؟ إنهم لم يخافوا ولم يهربوا من ساحة المواجهة، أثبتوا صمودهم في الميدان بصورة قاطعة، و «قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَيَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ» لكن، ينبغي أن تعلم بأنك تقدر على

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢١

القضاء في هذه الدنيا، أمّا في الآخرة فحن المنتصرون، وستلقى أنت أشدّ العقاب «إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

ثم أضافوا بأننا قد إرتكبنا ذنوباً كثيرة نتيجة السحر، ف «إِنَّا ءَأَمْنَا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . وخالصة القول: إنّ هدفنا هو الطهارة من الذنوب الماضية، ومن جملتها محاربة نبي الله الحقيقي، فإذا كنت تهدّدنا بالموت في الدنيا، فإننا نتقبّل هذا الضرر القليل في مقابل ذلك الخير العظيم.

ثم واصل السحرة قولهم بأننا إذا كنّا قد آمنّا فإنّ سبب ذلك واضح ف «إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ» ومصيبته الكبرى في الجحيم هي أنّه «لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ بَلْ إِنَّهُ يَتَقَلَّبُ دَائِمًا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، تلك الحياة التي هي أمرٌ من الموت، وأكثر مشقّة منه. «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى . عندما صمّموا على قبول الحقّ والثبات عليه بعشق، وعلى قول المفسر الكبير العلامة الطبرسي رحمه الله: «كانوا أولّ النهار كفّاراً سحرة، وآخر النهار شهداء بررة».

نجاه بنى إسرائيل وغرق الفراعنة: بعد حادثه المجابهة بين موسى والسحرة، وانتصاره الباهر عليهم، وإيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا موسى عليه السلام ودينه أفكار الناس في مصر، بالرغم من أنّ أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلّا أنّ هذا كان ديدنهم دائماً، وكان بنو إسرائيل تحت قيادة موسى مع قلّة من المصريين في حالة صراع دائم مع الفراعنة، ومرت أعوام على هذا المنوال، وحدثت حوادث مرّة موحشة وحوادث جميلة مؤنسة، أورد بعضها القرآن الكريم في الآية (١٢٧) وما بعدها من سورة الأعراف.

وتشير الآيات التي نبعتها إلى آخر فصل من هذه القصة، أي خروج بنى إسرائيل من مصر، فتقول: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي». فتهدّ بنو إسرائيل للتوجه إلى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٢

الوطن الموعود (فلسطين)، إلّا أنّهم لمّا وصلوا إلى سواحل النيل علم الفراعنة بهم، فتعقبهم فرعون في جيش عظيم، فرأى بنو إسرائيل

أنفسهم محاصرين بين البحر والعدو، إلا أن الله أمر موسى أن امض بقومك «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا». طريقاً متى ما مضيت فيه ف «لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . وبذلك فإن موسى وبنى إسرائيل قد ساروا في تلك الطرق التي فتحت في أعماق البحر بعد إنحسار المياه عنها، في هذه الأثناء وصل فرعون وجنوده إلى ساحل البحر فدُهِشُوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقع، ولذلك أعطى فرعون أمراً لجنوده باتباعهم، وسار هو أيضاً في نفس الطريق: «فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ».

إن فرعون الذي ركب الغرور والعصبيّة رأسه، وغرق في بحر العناد والحماقة، لم يهتم لهذه المعجزة الكبيرة، وأمر جيشه في المسير في هذه الطرق البحرية المريبة حتى دخل من هذه الجهة آخر جندي فرعونى، في وقت خرج من الجانب الآخر آخر فرد من بنى إسرائيل. في هذه الأثناء صدر الأمر لأموج المياه أن ترجع إلى حالتها الأولى، فوقعت عليهم الأمواج كما تسقط البناية الشامخة إذا هدمت قواعدها «فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ». أجل، «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى .

صحيح أن جملة (أضل) وجملة (ما هدى) تعطى معنى واحداً تقريباً إلا أن الظاهر أن هناك تفاوتاً فيما بينهما، وهو أن (أضل) إشارة إلى الإضلال، و (ما هدى) إشارة إلى عدم الهداية بعد وضوح الضلالة.

إن فرعون كان عنيداً إلى الحد الذي لم يبين لقومه الحقيقة حتى بعد وضوح الضلال ومشاهدته.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعِدْنَاكُمْ جَانِبَ الْبُحْرِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَمَّا تَطَعُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٣

طريق النجاة الوحيد: تعقياً على البحث السابق في نجاة بنى إسرائيل بصورة إعجازية من قبضة الفراعنة، خاطبت هذه الآيات الثلاث بنى إسرائيل بصورة عامة، وفي كل عصر وزمان، وذكرتهم بالنعمة الكبيرة التي منحها الله إياهم، وأوضحت طريق نجاتهم. فقالت أولاً: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ».

ثم تشير إلى واحدة من النعم المعنوية المهمة، فتقول: «وَوَاعِدْنَاكُمْ جَانِبَ الْبُحْرِ الْأَيْمَنِ». وهذه إشارة إلى حادثة ذهاب موسى عليه السلام مع جماعة من بنى إسرائيل إلى مكان ميعادهم في الطور، ففي ذلك المكان أنزل الله سبحانه ألواح التوراة على موسى وكلمه، وشاهدوا جميعاً تجلى الله سبحانه.

وأخيراً أشارت إلى نعمة مادية مهمة من نعم الله الخاصة ببنى إسرائيل، فتقول: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى . ففي تلك الصحراء كنتم حيارى، ولم يكن عندكم شيء من الطعام المناسب، فأدر ككم لطف الله، ورزقكم من الطعام الطيب اللذيذ ما كنتم بأمس الحاجة إليه.

و «المَنَّاء» نوعاً من العسل الطبيعي كان موجوداً في الجبال المجاورة لتلك الصحراء؛ و «السَّلْوَى» نوع من الطيور المحللة اللحم شبيهاً بالحمام.

ثم تخاطبهم الآية التالية بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمة، فتقول: «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطَعُوا فِيهِ».

الطغيان في النعمة هو أن يتخذ الإنسان هذه النعم وسيلة للذنب والجحود والكفران والتبذير والعصيان، بدل أن يستغلها في طاعة الله وسعادته، تماماً كما فعل بنو إسرائيل، ولذلك حذرتهم الآية بعد ذلك فقالت: «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى .

«هوى»: في الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، والذي تكون نتيجته الهلاك عادةً، إضافة إلى أنه هنا إشارة إلى السقوط الرتبي والبعد عن قرب الله، والطرده من رحمته.

ولما كان من الضروري أن يقترن التحذير والتهديد بالترغيب والبشارة دائماً، لتساوى كفتا الخوف والرجاء، حيث تشكّلان العامل

الأساسي في تكامل الإنسان، ولتفتح أبواب التوبة والرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآية التالية: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى .

«غفار»: صيغته مبالغة، وتوحي أن الله سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين ويشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سيعمهم عفوه ومغفرته مرّات ومرّات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٤

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أُثِرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْدِلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنْ يُرْجَعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)

صخب السامري: ذكر في هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل، ويتعلق بذهاب موسى عليه السلام مع وكلاء وممثلي بنى إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثم عبادة بنى إسرائيل للعجل في غياب هؤلاء.

كان من المقرر أن يذهب موسى عليه السلام إلى «الطور» لتلقى أحكام التوراة، ويصطحب معه جماعة من بنى إسرائيل، غير أن شوق موسى عليه السلام إلى المناجاة مع الله وسماع ترتيل الوحي، وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات الله وميعاده. هنا نزل عليه الوحي: «وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى .

شوق المناجاة وسماع كلامك قد سلب قراري، كنت مشتاقاً إلى أن آخذ منك أحكام التوراة بأسرع ما يمكن لأؤذيها إلى عبادك، ولأنال رضاك عني بذلك ...

وفي هذا اللقاء امتدت مدة الإشراقات والتجليات المعنوية الإلهية من ثلاثين ليلة إلى أربعين، وأدت الأجواء المهيأة لانحراف بنى إسرائيل دورها، فالسامري، ذلك الرجل الفطن والمنحرف صنع باستعماله الوسائل عجلاً، ودعا تلك الجماعة إلى عبادته، وأوقعهم فيها.

وأخيراً أخبر الله موسى في الميعاد بما جرى لقومه والسامري إذ تحكى الآية التالية ذلك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٥

فتقول: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ». «فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا».

وما أن وقعت عينه على ذلك المنظر القبيح، منظر عبادة العجل «قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا». وهذا الوعد الحسن إما أن يكون وعد بنى إسرائيل بنزول التوراة وبيان الأحكام السماوية فيها، أو الوعد بالنجاة والانتصار على الفراعنة ووراثته حكومة الأرض، أو الوعد بالمغفرة والعتق للذين يتوبون ويؤمنون ويعملون الصالحات، أو أنه كل هذه الامور.

ثم أضاف: «أَفْطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ».

وحتى لو نأيت عنكم سنين طويلة فينبغي أن تلتزموا بالتعاليم الإلهية التي تعلمتموها وتؤمنوا بالمعجزات التي رأيتموها: «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْدِلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي». فقد عاهدتكم على أن تثبتوا على خط التوحيد وطريق طاعة الله الخالصة، وأن لا تنحرفوا عنه قيد أنملة، إلا أنكم نسيت كل كلامي في غيابي، وكذلك تمردتم على طاعة أمر أخى هارون وعصيتموه.

فلما رأى بنو إسرائيل أن موسى عليه السلام قد عَنفهم بشدة ولا مهم على فعلهم وتبهبوا إلى قبح ما قاموا به من عمل، هبوا للإعتذار ف «قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا» فلم تكن في الواقع قد رغبنا وصممنا على عبادة العجل «وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ».

إنَّ كبير القوم إذا لام من تحت إمرته على إرتكابهم ذنباً ما، فإنَّهم يسعون إلى نفي ذلك الذنب عنهم، ويلقونه على عاتق غيرهم، وكذلك عبادة العجل من بنى إسرائيل، فإنَّهم كانوا قد انحرفوا بإرادتهم ورغبتهم عن التوحيد إلى الشرك، إلَّا أنَّهم أرادوا أن يلقوا كل التبعة على السامري.

على كلِّ، فإنَّ السامري ألقى كل أدوات زينة الفراعنة وحثيهم التي كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الظلم والمعصية- ولم يكن لها قيمة إلَّا أن تصرف في مثل هذا العمل المحرّم- في النار «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ» (١) «فلما رأى بنو إسرائيل هذا المشهد، نسوا فجأة كل تعليمات موسى التوحيدية» «فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى .

وبهذا فإنَّ السامري قد نسي عهده وميثاقه مع موسى، وإله موسى: «فَنَسِيَ».

وهنا قال الله سبحانه توبيخاً وملامة لعبدة الأوثان هؤلاء: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا». فإنَّ المعبود الواقعي يستطيع على الأقل أن يُلبّي طلبات

(١) «الخوار»: صوت البقرة والعجل، ويطلق أحياناً على صوت البعير.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٤

عباده ويجب على أسئلتهم، فهل يمكن أن يكون سماع خوار العجل من هذا الجسد الذهبي لوحده، دليلاً على جواز عبادة العجل، وصحة تلك العبادة؟ ولا شك أن هارون، خليفة موسى ونبي الله الكبير، لم يرفع يده عن رسالته في هذا الصخب والغوغاء، وأدى واجبه في محاربة الانحراف والفساد قدر ما يستطيع، كما يقول القرآن: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَرُونَ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ» ثم أضاف: «وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ».

لقد كنتم عبيداً فحررركم، وكنتم أسرى فأطلقكم، وكنتم ضالين فهداكم، وكنتم متفرقين مبعثرين فجمعكم ووحدكم تحت راية رجل رباني، وكنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم وهداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن «فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي».

أنسيتم أن أخي موسى قد نصّبتني خليفه له وفرض عليكم طاعتي؟ فلماذا تنقضون الميثاق؟ ولماذا ترمون بأنفسكم في هاوية الفناء؟ إلَّا أن بنى إسرائيل تمسكوا بهذا العجل عناداً، ولم يؤثر فيهم المنطق السليم القوي لهذا الرجل، ولا أدلة هذا القائد الحريص، وأعلنوا مخالفتهم بصراحة: «قَالُوا لَنْ نُبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

وبهذا لم يدعن بنو إسرائيل لأمر العقل ولا لأمر خليفه قائدهم وزعيمهم أيضاً.

ولكن إفتقر عنهم هارون مع القلة من المؤمنين الثابتين، والذين كان عددهم قرابة إثني عشر ألفاً، في حين أن الأغلبية الجاهلة كادوا أن يقتلوه.

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَنْ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٧

نهاية السامري المريرة: تعقياً على البحث الذي تناولته الآيات السابقة حول تفرغ موسى وملايمته لبنى إسرائيل الشديدة على عبادتهم العجل، تعكس هذه الآيات التي نبحتها- في البداية- محاوره موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، ثم مع السامري. فخاطب أولها أخاه هارون «قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا» «أَلَّا تَتَّبِعَنِ» أفلم أقل لك أن «أخلفني في قومي وأصليخ ولا تتبع سبيل

المُفْسِدِينَ» (١). فلماذا لم تهب لمحاربة عبادة العجل هذه؟

إن المراد من جملة «أَلَا تَتَّبِعِينَ» هو: لماذا لم تتبع طريقة عملي في شدة مواجهة عبادة الأصنام؟

ثم أضاف: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي». لقد كان موسى عليه السلام يتحدث بهذا الكلام مع أخيه وهو في فورة وسورة من الغضب، وكان يصرخ في وجهه، وقد أخذ برأسه ولحيته يجزه إليه، فلمّا رأى هارون غضب أخيه الشديد قال له - من أجل تهدئته وليقلل من فورته، وكذلك ليسين عذره وحجته في هذه الحادثة ضمناً... «قَالَ يَبْنَؤُمْ لَأَتَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَمَّا بَرَأْسِي إِيَّيْ خَشِيْتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي».

إن هارون يريد أن يقول: إنني إذا كنت قد أقدمت على الإشتباك معهم كان ذلك خلاف أمرك، وكان من حقك أن تؤاخذني. وبهذا أثبت هارون براءته.

وبعد الانتهاء من محادثة أخيه هارون وتبرئة ساحته، بدأ بمحاكمة السامري: لماذا فعلت ما فعلت، وما هدفك من ذلك: «قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ». فأجابه و «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي».

إن كلمة «الأثر» يعنى بعض تعليمات موسى عليه السلام؛ و «نبذتها» بمعنى ترك تعليمات موسى عليه السلام. وأخيراً فإن «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا» تشير إلى ما كان لديه من معلومات خاصة عن دين موسى عليه السلام.

ومن الواضح أن جواب السامري عن سؤال موسى عليه السلام لم يكن مقبولاً بأي وجه، ولذلك فإن موسى عليه السلام أصدر قرار الحكم في هذه المحكمة، وحكم بثلاثة أحكام عليه وعلى عجله، فأولاً: «قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ». أى يجب عليك الابتعاد عن الناس وعدم الاتصال بهم إلى آخر العمر، فكلما أراد شخص الإقتراب منك، فعليك أن

(١) سورة الأعراف / ١٤٢.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٨

تقول له: لا تتصل بي ولا تقربني، وبهذا الحكم الحازم طرد السامري من المجتمع وجعله في عزلة تامة. منزوياً بعيداً عنهم. قال بعض المفسرين: إن جملة «لَا مِسَاسَ» إشارة إلى أحد القوانين الجزائية في شريعة موسى عليه السلام التي كانت تصدر في حق من يرتكب جريمة كبيرة، وكان ذلك الفرد يبدو كموجود شرير نجس قدر، فلا يخالط أحداً أو يخالطه أحد (١).

والعقاب الثاني: إن موسى عليه السلام قد أسمعته وأعلمه بجزائه في القيامة فقال: «وَأَنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ».

والثالث: «وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا».

وشخص موسى في آخر جملة، ومع التأكيد الشديد على مسألة التوحيد، وحاكمية نهج الله، فقال: «إِنَّمَا إِلْهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا». فليس هو كالأوثان المصنوعة التي لا تسمع كلاماً، ولا تجيب سائلاً، ولا تحل مشكلة، ولا تدفع ضراً.

كذلك نُقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

مع أن الآيات السابقة كانت تتحدث حول تاريخ موسى وبنى إسرائيل والفراعنة والسامري الملئء بالحوادث، وقد بينت في طياتها بحثاً مختلفه، فإن القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتيجة عامه فيقول: «كَذَلِكَ نُقِصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ». ثم يضيف: «وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا» قرآنًا مليئاً بالدروس والعبر، والأدلة العقلية، وأخبار الماضين وما يتبه المقبلين ويحذرهم.

إن كلمة (ذكر) هنا، وفي آيات كثيرة أخرى من آيات القرآن الكريم تشير إلى القرآن نفسه، لأن آياته سبب لتذكّر وتذكير البشر، والوعى والحذر.

ولهذا السبب فإن الآية التالية تتحدث عن الذين ينسون حقائق القرآن ودروس التاريخ

(١) تفسير فى ظلال القرآن ٥/ ٤٩٤.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٩

وعبره، فتقول: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا».

نعم ... إن الإعراض عن القرآن يجرّ الإنسان إلى مثل هذه المتاهات التى تحمّله أعباءً ثقيله من أنواع الذنوب والانحرافات الفكرية والعقائدية.

ثم تضيف: «خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا».

ثم تتطرق الآيات إلى وصف يوم القيامة وبدايته، فتقول: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا». «زُرْقًا»: جمع «أزرق» تأتى عادةً بمعنى زرقه العين، إلّا أنها تطلق أحياناً على القاتم جسده بسبب الشدة والألم، فإنّ البدن عند تحمّل الألم والتعب والعذاب يضعف، ويفقد طراوته، فيبدو قاتمًا وكأنه أزرق.

فى هذه الحال يتحدّث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوثهم وبقائهم فى عالم البرزخ، فبعضهم يقول: لم تلبثوا إلا عشر ليال، أو عشرة أيام لبليالها: «يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا».

وإنّ تخافتهم هذا بالكلام إمّا هو للرعب والخوف الشديد الذى ينتابهم عند مشاهدة أهوال القيامة، أو أنه نتيجة شدة ضعفهم وعجزهم.

ثم يضيف: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ» سواء تكلموا بهمس أم بصراخ، وبصوت خفى أم عال «إِذْ يَقُولُ مُتْلَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا».

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَمَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَأَ أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَ لَا هَضْمًا (١١٢)

مشهد القيامة المهول: تتابع هذه الآيات الكلام فى الآيات السابقة عن الحوادث المرتبطة بانتهاء الدنيا وبداية القيامة. ويظهر من الآية الاولى أن الناس كانوا قد سألوا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٠

النبي صلى الله عليه وآله عن مصير الجبال عند انتهاء الدنيا. ولذلك يقول: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ».

والجواب: «فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا» (١).

يستفاد من مجموع آيات القرآن حول مصير الجبال أنها تمرّ عند حلول القيامة بمراحل مختلفة:

فهى ترجف وتهتزّ أولًا: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ» (٢).

ثم تتحرّك: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا» (٣).

وفى المرحلة الثالثة تتلاشى وتتحوّل إلى كئبان من الرمل: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا» (٤).

وفى المرحلة الأخيرة سيزحزحها الهواء والطوفان من مكانها ويبعثها فى الهواء وتبدو كالصوف المنفوش: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» (٥).

ثم تقول الآية: إنّ الله سبحانه بعد تلاشى الجبال وتطاير ذراتها يأتى أمره إلى الأرض «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» لآ ترى فيها عوجًا ولا أمّتا»

(٦). وفى ذلك الحين يدعو الداعى الإلهى جميع البشر إلى الحياة والاجتماع فى المحشر للحساب فيلثى الجميع دعوته ويتبعونه «يَوْمَئِذٍ



يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجَ لَهُ». كما أن سطح الأرض يصبح صافياً ومستوياً بحيث لا يبقى فيه أى إعوجاج، فإن أمر الله والداعى أيضاً كل منهما صافٍ ومستقيم جلى، واتباعه واضح لا سبيل لأى إنحراف وإعوجاج إليه.

عند ذلك: «وَوَحَّشَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا». إن هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إما هو لهيمنة العظمة الإلهية على عرصة المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفاً من الحساب ونتيجة الأعمال، أو لكليهما.

(١) «نسف»: تعنى وضع الحبوب الغذائية في الغربال وغربلتها، أو ذرها في الهواء لينفصل الحب عن القشر، وهنا إشارة إلى تلاشى الجبال وتهشمها، ثم تناثرها في الهواء.

(٢) سورة المزمل / ١٤.

(٣) سورة الطور / ١٠.

(٤) سورة المزمل / ١٤.

(٥) سورة القارعة / ٥.

(٦) يستفاد من مجموع هذين الوصفين (القاع وصفصفاً) أن كل الجبال والنباتات ستمحى من على وجه الأرض في ذلك اليوم وستبقى الأرض مستوية خالية.

«العوج»: بمعنى الإعوجاج؛ و «الامت»: أى الأرض المرتفعة والريبة، وبناءً على هذا فإن معنى الآية هو أنه لا يرى في ذلك اليوم أى إرتفاع وإنخفاض على وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣١

وبما أن بعض الغارقين في الذنوب والمعاصى قد يحتمل أن تنالهم شفاعه الشافعين وتنجيهم، فإنه يضيف مباشرة: «يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا». وهذا إشارة إلى أن الشفاعه هناك ليست إعتباطية وعشوائية، بل إن هناك تخطيطاً دقيقاً لها، سواء ما يتعلق بالشافعين أو المشفوع لهم، وما دام الأفراد لا يملكون الأهلية والاستحقاق للشفاعة، فلا معنى حينئذ لها.

ولما كان حضور الناس في عرصات القيامة للحساب والجزاء لا بد معه من علم الله سبحانه بأعمالهم وسلوكهم ومعاملاتهم، فإن الآية التالية تضيف: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا». فهو يعلم ما قدم المجرمون وما فعلوه في الدنيا، وهو مطلع على كل أفعالهم وأقوالهم وثباتهم في الماضى وما سيلاقونه من الجزاء في المستقبل، إلا أنهم لا يحيطون بعلم الله، وبهذا فإن إحاطة علم الله سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء وجزائهم، وهذان الركنان في الحقيقة هما دعامة القضاء التام العادل.

في ذلك اليوم: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ».

«العت»: من مادة العنوة، وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة، ولذلك يقال للأسير:

«عانى»، لأنه خاضع وذليل في يد الأسر، وإذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأن كل الإحساسات النفسية، ومن جملتها الخضوع، تظهر آثارها أولاً على وجه الإنسان.

إن إنتخاب صفتى «الحى والقيوم» هنا من بين صفات الله سبحانه، لأنهما يناسبان الشور أو الحياة وقيام الناس جميعاً من قبورهم «يوم القيامة».

وتختتم الآية بالقول: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» فالظلم والجور كالحمل العظيم الذى ينقل كاهل الإنسان، ويمنعه من السير والرقى إلى نعم الله الخالدة.

ولما كانت طريقة القرآن غالباً هى بيان تطبيقى للمسائل، فإنه بعد أن بين مصير الظالمين في ذلك اليوم، تطرق إلى بيان حال المؤمنين فقال: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا» (١).

التعبير ب «مِنَ الصَّالِحَاتِ» إشارة إلى أنهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كل الصالحات فليقوموا ببعضها، لأن الإيمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أن العمل الصالح

(١) «الهضم»: بمعنى النقص، وإذا قيل لجذب الغذاء إلى البدن: هضم، فلأن الغذاء يقل ظاهراً وتبقى فضلاته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٢

بدون إيمان كالشجرة من دون جذر، إذ قد تبقى عدة أيام لكنها تجف آخر الأمر. مراحل القيامة: وردت الإشارة في الآيات - محل البحث - إلى سلسلة من الحوادث التي تقع عند حلول القيامة وبعدها:

١- رجوع الأموات إلى الحياة: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ».

٢- جمع المجرمين وحشرهم: «نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ».

٣- تلاشي جبال الأرض، ثم تبعثرها في كل مكان، وإستواء سطح الأرض تماماً: «يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا».

٤- إستماع الجميع لدعوة داعي الله، وإنقطاع جميع الأصوات: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ...».

٥- عدم تأثير الشفاعة في ذلك اليوم بدون إذن الله: «يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ ...».

٦- إعداد الله تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهي «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا».

٧- خضوع الجميع في مقابل حكمه: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ».

٨- ياس الظالمين: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا».

٩- رجاء المؤمنين لطف الله ورحمته: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...».

و كذلك أنزلناه قرآناً عربياً و صرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً (١١٣) فتعالى الله الملك الحق و لما تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه و قل رب زدني علماً (١١٤)

الآيات محل البحث - في الواقع - إشارة إلى مجموع ما مرّ في الآيات السابقة حول المسائل التربوية المرتبطة بالقيامة والوعد والوعيد، فتقول: «و كذلك أنزلناه قرآناً عربياً و صرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً».

التعبير ب (كذلك) إشارة إلى المطالب التي بينت قبل هذه الآية.

كلمة «عربياً» وإن كانت بمعنى اللغة العربية، إلّا أنّها هنا إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته وسرعة إيصاله للمفهوم والمراد من جهتين:

الاولى: إن اللغة العربية - بشهادة علماء اللغة في العالم - واحدة من أبلغ لغات العالم، وأدبها من أقوى الآداب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٣

والثانية: إن جملة (صرّفنا) أحياناً تشير إلى التعبيرات القرآنية المختلفة حول حادثه واحدة، فمثلاً نراه يبين مسألة الوعيد وعقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الامم السابقة وحوادثها تارة، وتارة اخرى على هيئة خطاب موجه للحاضرين، وثالثة بتجسيد حالهم في مشهد القيامة، وهكذا.

أمّا الآية التالية فتضيف قائلة: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ».

وبما أن النبي صلى الله عليه و آله كان يعجز في إبلاغ الوحي وما ينزل من القرآن لاهتمامه به وتعشقه أن يحفظه المسلمون ويستظروه، ولم يتمه جبرئيل ما يلقيه عليه من الوحي فيبلغه عنه، فإن الآية محل البحث تذكره بأن يتمه فتقول: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا».

فإذا كان النبي صلى الله عليه و آله مأموراً أن يطلب زيادة العلم من ربه إلى آخر عمره مع غزارة علمه، وروحه المليئة وعياً وعلماً، فإن

واجب الآخرين واضح جداً، وفي الحقيقة، فإن العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف حداً، وزيادة الطلب في كثير من الامور مذمومة إلابى طلب العلم فإنها ممدوحه، والإفراط قبيح في كل شىء إلابى طلب العلم.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجُكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَنْ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنْتَ لِمَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)

آدم ومكر الشيطان: إن هذه الآيات وما بعدها تتحدث عن قصة آدم وحواء، وعداء ومحاربة إبليس لهما، وربما كانت إشارة إلى أن الصراع بين الحق والباطل لا ينحصر بالأمس واليوم، وموسى عليه السلام وفرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم وسيستمر كذلك. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٤

وبالرغم من أن قصة آدم وإبليس قد وردت مراراً في القرآن، إلا أنها تبرز في كل مورد بملاحظات ومسائل جديدة، وهنا نتحدث أولاً عن عهد الله إلى آدم فتقول: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا». والمراد من العهد المذكور، أمر الله بعدم الإقتراب من الشجرة الممنوعة.

فلا شك أن آدم لم يرتكب معصية، بل بدر منه ترك الأولى. أو بتعبير آخر، فإن مرحلة وجود آدم في الجنة لم تكن مرحلة تكليف، بل كانت مرحلة تجريبية للإستعداد للحياة في هذه الدنيا وتقبل المسؤولية.

ثم أشارت إلى جانب آخر من هذه القصة، فقالت: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى». ومن هنا يتضح مقام آدم العظيم، آدم الذي سجدت له الملائكة، كما أن عداوة إبليس تجلت له ضمناً من أول الأمر إذ لم يخضع لآدم ولم يعظمه. لا شك أن السجدة لا تعنى السجدة الخاصة بعبادة الله، ولا أحد أو موجود يستحق أن يكون معبوداً من دون الله سبحانه، وبناءً على هذا فإن هذه السجدة كانت لله، غاية ما هناك أنها كانت من أجل خلق هذا الموجود العظيم. فإن الله سبحانه تعالى أنذر آدم بقوله: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجُكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى».

من الواضح أن الجنة هنا لا يراد منها جنة الخلود في العالم الآخر، والتي هي نقطة تكامل لا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، بل كانت بستناً فيه كل شىء مما في بساتين هذه الدنيا، ولم يكن فيها نصب ولا غصّة بلطف الله.

ثم بيّن الله لآدم راحة الجنة وهدوءها، وألم ومشقة الخروج منها، فيقول: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لِمَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى».

فقد اشير في هاتين الآيتين إلى أربع إحتياجات أصلية وابتدائية للإنسان، أى: الحاجة إلى الغذاء، والماء، واللباس - للحماية من حرارة الشمس - والمسكن، لكن ومع كل ذلك، فإن الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، ولهذا لم يهدأ له بال: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى».

«الوسوسة»: فى الأصل تعنى الصوت المنخفض جداً، ثم قيلت لخطور الأفكار السافله والخواطر السيئه سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجه.

إن الشيطان تتبع رغبة آدم وأنها فى أى شىء، فوجد أن رغبته فى الحياة الخالده

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٥

والوصول إلى القدرة الأزلية، ولذلك جاء إليه عن هذين العاملين وإستغلهما فى سبيل جرّه إلى مخالفة أمر الله.

وأخيراً وقع المحذور، وأكل آدم وحواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنة، فبدت أعضاؤهما: «فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا» «١». فلما رأى آدم وحواء ذلك إستحيا «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» «٢». نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة

«وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . «غوى»: اخذت من مادة الغى، أى العمل الصيبانى الناشىء من إعتقاد خاطيء، ولما كان آدم هنا قد أكل - جهلاً وإشتهاهاً- من الشجرة المحرمة، نتيجة للظن الذى حصل له من قول الشيطان، فقد عُبر عن عمله ب (غوى).  
ولكن لما كان آدم نقياً ومؤمناً فى ذاته، وكان يسير فى طريق رضى الله سبحانه، وكان لهذا الخطأ الذى أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة استثنائية، فإن الله سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى . قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)»  
مع أن توبه آدم قد قبلت، إلا أن عمله أدى إلى عدم استطاعته الرجوع إلى الحالة الاولى، ولذا فإن الله سبحانه أصدر أمره لآدم وحواء كليهما وكذلك الشيطان أن يهبطوا جميعاً من الجنة: «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ». إلا أنى اعلمكم بأن طريق النجاة والسعادة مفتوح أمامكم «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

(١) «سوءات»: جمع سوءة، وهى فى الأصل كل شىء غير سار ويسىء الإنسان، ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميت، وأحياناً على العورة، والمراد هنا هو المعنى الأخير.

(٢) «يخصفان»: من مادة خصف، وهى هنا تعنى خياطة اللباس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٦

ومن أجل أن يتضح أيضاً مصير الذين ينسون أمر الحق، فقد أضاف تعالى «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١)».

هنا «قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً». فيسمع الجواب مباشرة: «قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى . وتعمى عينك عن رؤيه نعم الله ومقام قربه.

أما الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فهى بمثابة الاستنتاج والخلاصة إذ تقول:

«وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)

لما كانت عدّة بحوث فى الآيات السابقة قد وردت عن المجرمين، فقد أشارت الآيات الاولى من الآيات محل البحث إلى واحد من أفضل طرق التوعية وأكثرها تأثيراً، وهو مطالعة تاريخ الماضين، فتقول: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ». اولئك الذين عمهم العذاب الإلهى الأليم «يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ».

إن هؤلاء يمشون فى مسيرهم وذهابهم وإيابهم على منازل قوم عاد- فى أسفارهم إلى اليمن- وعلى مساكن ثمود المتهدمة الخربة- فى سفرهم إلى الشام- وعلى منازل قوم لوط التى جعل عاليها سافلها- فى سفرهم إلى فلسطين- ويرون آثارهم، إلا أنهم لا يعتبرون.  
نعم ... «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٢)».

إن موضوع أخذ العبرة من تاريخ الماضين من الامور التى يؤكّد عليها القرآن والأحاديث الإسلامية كثيراً.

فى كتاب معانى الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «... وأغفل الناس من لم يتعظ بتغير الدنيا من حال إلى حال». ولا يفكر فى تقلب الليل والنهار وتعاقبهما.

الآية التالية جواب عن سؤال يثار هنا، وهو: لماذا لا يجرى الله سبحانه على هذا القسم

(١) «الضنك»: المشقة والضيق، وهذه الكلمة تأتي دائماً بصيغة المفرد، وليس لها تثنية ولا جمع ولا تأنيث.

(٢) «النهى»: من مادة نهى، وهى هنا بمعنى العقل، لأن العقل ينهى الإنسان عن القبائح والسيئات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٧

من المجرمين ما أجراه على المجرمين السابقين، فيقول القرآن: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى».

إن هذه السنة الإلهية التي ذكرت في مواضع عديدة من القرآن باسم (كلمة) إشارة إلى قانون الخلق المبني على حرية البشر، لأن كل مجرم إذا عوقب مباشرة وبدون أن يمهل، فإن الإيمان والعمل الصالح سيُصَف بالجبر تقريباً، وسيكون على الأغلب خوفاً من العقاب الآتي، وبناءً على هذا فسوف لا يكون وسيلة للتكامل الذي هو الهدف الأصلي.

إضافةً إلى أنه إذا تقرر أن يعاقب جميع المجرمين فوراً، فسوف لا يبقى أحد حياً على وجه الأرض: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ» (١). وبناءً على هذا فيجب أن تكون هناك مهلة وفترة تعطى لكل المرتبطين بطريق الحق حتى يرجع المجرمون إلى أنفسهم ويسلكوا سبيل الصلاح، وتكون كذلك فرصة لتهديب النفس.

إن التعبير (أجل مسمى) بالشكل الذي يفهم من مجموع آيات القرآن، إشارة إلى الزمان الحتمي لنهاية حياة الإنسان.

ثم يوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله، فيقول: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ». ومن أجل رفع معنويات النبي صلى الله عليه وآله وتقوية قلبه، وتسليته خاطرته، فإنه يؤمر بمناجاة الله والصلاة والتسبيح فيقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ وَلَا يَتَأَثَّرَ بِقَبْحِ جِرَاءِ كَلَامِهِمُ الْمُؤَلَّمِ».

لا شك أن هذا الحمد والتسبيح محاربة للشرك وعبادة الأصنام، وفي الوقت نفسه صبر وتحمل أمام أقوال المشركين السيئة، وكلامهم الخشن.

وَلَمَّا تَمَدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لِمَ تَأْتِيهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَمَّا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)

(١) سورة النحل / ٦١.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٨

لقد أصدرت في هذه الآيات أوامر وتوجيهات للنبي صلى الله عليه وآله، والمراد منها والمخاطب فيها عموم المسلمين، وهى تتمه للبحث الذي قرأناه آنفاً حول الصبر والتحمل. فتقول أولاً:

«وَلَمَّا تَمَدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ». فإن هذه النعم المترزلة الزائلة ما هى إلا «زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

فى الوقت الذى أمددناهم بها «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ». فإن الله سبحانه وهب لك مواهب ونعماً متنوعه، فأعطاك الإيمان والإسلام، والقرآن والآيات الإلهية والرزق الحلال الطاهر، وأخيراً نعم الآخرة الخالدة، هذه الهبات والعطايا المستمرة الدائمة.

وتقول الآية التالية تلطيفاً لنفس النبي صلى الله عليه وآله وتقوية لروحه: «وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» لأن هذه الصلاة بالنسبة لك ولأهلك أساس العفة والطهارة وصفاء القلب وسمو الروح ودوام ذكر الله.

إن هذه السورة لما كانت قد نزلت فى مكة، فإن مصداق الأهل فى ذلك الزمان كان (خديجة وعلياً عليهما السلام) إلا أن مصطلح

أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله أصبح واسع الدلالة بمرور الزمن.

ثم تضيف بأنه إذا كان قد صدر الأمر لك ولأهلك بالصلاة فإن نفعها وبركاتها إنما يعود كل ذلك عليكم، فإننا «لأنسلُك رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ» فإن هذه الصلاة لا تزيد شيئاً من عظمة الله، بل هي رأس مال عظيم لتكامل البشر وإرتقائهم ودرس تعليمي وتربوي عال. وتضيف الآية في النهاية: «وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى . فَإِنَّ مَا بَقِيَ وَيَفِيدُ فِي نَهَائِهِ الْأَمْرُ هُوَ التَّقْوَى، والمتقون هم الفائزون في النهاية، أما الذين لا تقوى لهم فهم محكومون بالهزيمة والإنكسار.

ثم أشارت الآية التالية إلى واحدة من حجج الكفار الواهية فقالت: «وَقَالُوا لَوْلَا يَا تَيْنَا بَايَةَ مَنْ رَبِّهِ» واجابتهم مباشرة: «أَوَلَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى . حيث كانوا يشككون ويطلبون الأعدار بصورة متلاحقة من أجل الإتيان بالمعجزات، وبعد رؤية ومشاهدة تلك المعاجز إستمروا في كفرهم وإنكارهم، فحاق بهم العذاب الإلهي، أفلا يعلمون بأنهم إذا ساروا في نفس الطريق فسينتظرهم المصير نفسه.

إن هؤلاء المتذرعين ليسوا اناساً طلب حق، بل إنهم دائماً في صدد إيجاد أعدار وتبريرات جديدة، فحتى «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ إِلَّآ أَنَّهُم الْآنَ وَقَدْ جَاءَهُمْ هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ بهذا الكتاب العظيم، يقولون كل يوم كلاماً، ويختلقون الأعدار للفرار من الحق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٩

وقالت الآية التالية: أنذر هؤلاء و «قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ» فنحن بانتظار الوعود الإلهية في حقكم، وأنتم بانتظار أن تحيط بنا المشاكل والمصائب «فَتَرَبَّصُوا فَسَيَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّيرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى . وبهذه الجملة الحاسمة العميقة المعنى تنتهي المحاوره مع هؤلاء المنكرين العنودين المتذرعين.

«نهاية تفسير سورة طه»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤١

## ٢١ سورة الأنبياء

محتوى السورة:

١- إن هذه السورة كما تدل عليها تسميتها هي سورة الأنبياء، لأن اسم ستّة عشر نبياً قد جاء في هذه السورة، بعضهم بذكر نماذج وصور من حالاتهم، والبعض كإشارة، وهم:

موسى - هارون - إبراهيم - لوط - إسحاق - يعقوب - نوح - داود - سليمان - أيوب - إسماعيل - إدريس - ذو الكفل - ذو النون (يونس) - زكريا - يحيى عليهم السلام.

٢- إضافة إلى ما مرّ، فإن خاصية السور المكية التي تتحدث عن العقائد الدينية، وبالأخص المبدأ والمعاد، منعكسة تماماً في هذه السورة.

٣- وتحدثت جانب آخر من هذه السورة عن إنتصار الحق على الباطل، والتوحيد على الشرك، وجنود الحق على جنود إبليس.

والذى يلفت النظر هنا أنّ هذه السورة بتدريج تهدد الناس الغافلين الجاهلين بالحساب الشديد، وتنتهي بتهديدات اخرى في هذا المجال أيضاً.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلّم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن».

وقد قلنا مراراً: إنّ القرآن كتاب عقيدة وعمل، والقراءة مقدمة للتفكير والتدبر، وهو مقدمة للإيمان والعمل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٢

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَمُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرِرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥)

تبدأ هذه السورة بتحذير قوى شديد موجه لعموم الناس، تحذير يهزّ الوجدان ويوقظ الغافلين، فنقول: «أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

إنّ عمل هؤلاء يدلّ على أنّ هذه الغفلة عمّت كل وجودهم، وإلّا فكيف يمكن للإنسان أن يؤمن بإقتراب الحساب ... الحساب الدقيق المتناهي في الدقة، ومع كل ذلك لا يكثرث بالامور ويرتكب أنواع الذنوب.

كلمة (إقتراب) لها دلالة على التأكيد أكثر من (قرب) وهي إشارة إلى أنّ هذا الحساب قد أصبح قريباً جداً.

ثم إنّ الفرق بين «الغفلة» و «الإعراض» يمكن أن يكون من جهة أنّ هؤلاء غافلون عن إقتراب الحساب، وهذه الغفلة هي تسبب الإعراض عن آيات الله سبحانه.

إنّ المراد من إقتراب الحساب والقيامة هو أنّ ما بقى من الدنيا قليل في مقابل ما مضى منها، ولهذا فإنّ القيامة ستكون قريبة - قريباً نسبياً - خاصة وأنه قد روي - في تفسير مجمع البيان - عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى اللتين تقع إحداهما إلى جنب الاخرى.

ثم تبين الآية التالية علامة من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصورة: «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَمُونَ».

كلمة «ذكر» في الآية إشارة إلى كل كلام متبه يوقظ الغافلين، والتعبير ب (محدث) إشارة إلى أنّ الكتب السماوية كانت تنزل الواحد تلو الآخر، وتحتوي كل سورة من سور القرآن، وكل آية من آياته محتوى جديداً ينفذ إلى قلوب الغافلين بطرق مختلفة، لكن أيّ فائدة مع من يتخذ كل ذلك هزواً؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٣

ثم تقول من أجل زيادة التأكيد: «لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» لأنهم في الظاهر يتخذون كل المسائل الجديده لهواً ولعباً. ومن الطبيعي أنّ مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا يجدون طريق السعادة، ولا يوفقون إليه.

ثم تشير إلى جانب من الخطط الشيطانية فتقول: «وَأَسْرِرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ». وإذا لم يكن سوى بشر إعتيادي، فلا بد أن تكون أعماله الخارقة ونفوذ كلامه سحراً، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر: «أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ».

إنّ هؤلاء قد أكدوا على مسألتين في أقوالهم: إحداهما: كون النبي صلى الله عليه وآله بشراً، والاخرى: تهمة السحر، وستأتي الإتهامات الاخرى في الآيات التالية أيضاً، ويتصدى القرآن الكريم لجوابها.

إلّا أنّ القرآن يجيبهم بصورة عامة على لسان النبي صلى الله عليه وآله فيقول: «قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» فلا تتصوروا أنّ نجواكم ومؤامراتكم المخفية تخفى عليه «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فهو يعلم كل شيء، ومطلع على كل شيء، فلا يسمع كلامكم وحسب، بل هو مطلع حتى على الأفكار التي تمرّ في أذهانكم، والقرارات التي في صدوركم.

بعد ذكر نوعين من تدرّعات المخالفين، يتطرق القرآن إلى ذكر أربعة أنواع اخرى منها، فيقول: «بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» (١) وهم يعتقدون أنّها حقيقة.

وقد يغيثون كلامهم هذا أحياناً فيقولون: «بَلِ افْتَرَاهُ» ونسبه إلى الله.

ويقولون أحياناً: «بَلْ هُوَ شَاعِرٌ»، وهذه الآيات مجموعة من خيالاته الشعرية.

وفي المرحلة الرابعة يقولون: إنّنا نتجاوز عن كل ذلك فإذا كان مرسلًا من الله حقًا «فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ».

إنّ التحقيق في هذه الإدّعاءات المتضادة المتناقضة في حق النبي صلى الله عليه وآله سيوضح أنّها بنفسها دليل على أنّهم لم يكونوا طلاب حق، بل كان هدفهم خلق الأعداء، وإخراج خصمهم من الحلبة بأية قيمة وثمان، وبأى صورة كانت.

(١) «أضغاث»: جمع ضِغْث، وهو حزمة الحطب أو الأعشاب اليابسة وما شاكل ذلك؛ و «الأحلام»: جمع حُلْم وهو المنام والرؤية، ولما كان جمع حزمة حطب يحتاج أن يجمعوا عدّة أشياء متفرقة إلى بعضها، فإنّ هذا التعبير اطلق على المنامات المضطربة المتفرقة. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٤

مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

كلّ الأنبياء كانوا بشراً: قلنا: إنّ ستّة إشكالات وإيرادات قد اعيد ذكرها في الآيات السابقة، وهذه الآيات التي نبحتها تجيب عنها، تارة بصورة عامّة جامعّة، واخرى تجيب عن بعضها بالخصوص. أشارت الآية الاولى إلى المعجزات المقترحة لأولئك، ونقصد منها:

المعجزات المقترحة حسب أهوائهم تذرّعاً، فتقول: إنّ جميع المدن والقرى التي أهلكناها سابقاً كانت قد طلبت مثل هذه المعاجز، ولكن لما استجيب طلبهم كذبوا بها، فهل يؤمن هؤلاء؟: «مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ». وهي تنذرهم بصورة ضمنية بأنّ الآيات لو تحققت على ما اقترحتهم ثم لم تؤمنوا، فإنّ فناءكم حتمي!

ثم تطرقت الآية التالية إلى جواب الإشكال الأول - خاصة - حول كون النبي صلى الله عليه وآله بشراً، فنقول: إنّك لست الوحيد في كونك نبياً، وفي نفس الوقت أنت بشر «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ» فإنّ هذه حقيقة تاريخية يعرفها الجميع «فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

لا شك أنّ «أهل الذّكر» تشمل من الناحية اللغوية كل العلماء والمطلعين، والآية أعلاه تبين قانوناً عقلائياً عاماً في مسألة (رجوع الجاهل إلى العالم) فإنّ مورد ومصداق الآية وإن كان علماء أهل الكتاب، إلّا أنّ هذا لا يمنع من عمومية القانون، ولهذه العلة إستدل علماء وفقهاء الإسلام بهذه الآية في مسألة «جواز تقليد المجتهدين المسلمين».

ثم تعطى الآية التالية توضيحاً أكثر حول كون الأنبياء بشراً، فنقول: «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ». لا شك في أنّه يجب أن يكون قائد البشر ومرشدهم من جنسهم، بنفس تلك الغرائز والعواطف والأحاسيس والحاجات والعلاقات حتى يحسّ بالأمهم وعذابهم، ولينتخب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٦

أفضل طرق العلاج باستلهامه من معلوماته ليكون قدوة واسوة لكل البشر، وقيم الحجة على الجميع.

ثم تحدّر الآية وتهدّد المنكرين المتعصين العنودين، فنقول: إنّنا كنّا قد وعدنا رسلنا بأن نقدهم من قبضة الأعداء، ونبطل كيد اولئك الأشرار «ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ».

أجل، فكما أنّ سنننا كانت إختيار قادة البشر من بين أفراد البشر، كذلك كانت سنننا أن نحميمهم من مكائد المخالفين، وإذا لم تؤثر المواعظ والنصائح المتلاحقة أثرها في المخالفين، فإننا سنظهر الأرض من وجودهم القدر.

أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب - مرّة اخرى - في جملة قصيرة عميقة المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فنقول: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فإنّ كل من يتدبّر آيات هذا الكتاب الذي هو أساس التذكّر وحياة القلب، وحركة الفكر، وطهارة المجتمع، سيعلم جيداً أنّه معجزة واضحة وخالدة، ومع وجود هذه المعجزة البينة التي تظهر فيها آثار الإعجاز من جهات مختلفة ... من جهة الجاذبية الخارقة، ومن جهة المحتوى، الأحكام والقوانين، العقائد والمعارف، و ... فهل لا زلتم بانتظار معجزة



اخرى؟

إن كون القرآن موقظاً ومتبهاً لا يعنى إجباره الناس على هذا الوعي، بل إن الوعي مشروط بأن يريد الإنسان ويصمم، وأن يفتح نوافذ قلبه أمام القرآن.

وَكَمْ قَصِيْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ سِنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يُرْكَضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مِيَآ أْتَرَفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

كيف وقع الظالمون في قبضة العذاب: تبين هذه الآيات مصير المشركين والكافرين مع مقارنته بمصير الأقوام الماضين، وذلك بعد البحث الذي مرّ حول هؤلاء. فتقول الآية الاولى:

«وَكَمْ قَصِيْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٧

«القصم»: يعنى الكسر المقترن بالشدة، فإنها توحى بأن الله سبحانه قد أعدّ أشدّ العقاب والانتقام للأقوام الظالمين الجائرين. عند ذلك توضح الآية حال هؤلاء عندما تتسع دائرة العذاب لتشمل ديارهم العامرة، وعجزهم أمام العقاب الإلهي، فتقول: «فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ سِنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يُرْكَضُونَ» (١).

إلّا أنه يقال لهؤلاء من باب التوبيخ والتفريع: «لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أْتَرَفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ».

إن هذه العبارة قد تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء حينما كانوا غارقين في تلك النعمة الوفيرة، كان السائلون وطالبو الحاجات يترددون دائماً إلى أبوابهم، يأتون والأمل يقدمهم، ويرجعون بالخيبة والحرمان، فالآية تقول لهم: إرجعوا وأعيدوا ذلك المشهد اللعين، وهذا في الحقيقة نوع من الاستهزاء والملامة.

إنّ هؤلاء يعون في هذا الوقت حقيقة الأمر، ويرون ما كانوا يسخرون منه من قبل قد تجلّى أمامهم بصورةً جديدةً تماماً، فتعلو صرختهم: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

إلّا أنّ هذا الوعي الاضطرارى للإنسان عندما يواجه مشاهد العذاب لا قيمة له، ولا يؤثر في تغيير مصير هؤلاء، ولذلك فإنّ القرآن في آخر آية من الآيات محل البحث يضيف:

«فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا» فيلقونهم على الأرض كالزرع المحصود، وتبدل مدينتهم التي غمرتها الحياة والحركة وال عمران إلى قبور مهدمّة مظلمة، فيصبحوا «خامدين» (٢).

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

خلق السماء والأرض ليس لهواً: لما كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة وهي: إنّ الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف وغاية من خلقهم إلّا الأكل

(١) «الركض»: يأتي بمعنى ركض الإنسان بنفسه، أو بمعنى إركاض المركب والدابة، ويأتي أحياناً بمعنى ضرب الرجل على الأرض؛ مثل «أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» - سورة ص / ٤٢.

(٢) «خامد»: من مادة الخمود، بمعنى إنطفاء النار، ثم اطلقت على كل شيء يفقد حرركته وفاعليته ونشاطه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٨

والشرب والملذات، ويظنون أنّ العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول في الآيات التي نبهنا من أجل إبطال هذا النوع من التفكير،

وإثبات وجود هدف عال وسام من وراء خلق كل العالم، وخاصة البشر: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ».

إن هذه الأرض الواسعة، وهذه السماء المترامية الأطراف، وكل هذه الموجودات المتنوعة البديعة التي توجد في ساحتها تبين أن هدفاً مهماً في خلقها ... نعم، إن الهدف هو بيان قدرة الخالق الجليل، وإبراز جانب من عظمته من جهة، ومن جهة أخرى ليكون دليلاً على المعاد، وإلا فإن كل هذه الضجّة والغوغاء إن كانت لبضعة أيام فلا معنى لها.

ثم تقول الآية التالية: الآن وقد ثبت أن العالم له هدف فإنه لا ريب في أن الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو الله سبحانه وتعالى عن ذلك، فإن هذا الله غير معقول، ف «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ». «اللعب»: يعنى العمل غير الهادف، و «اللهو»:

إشارة إلى الأهداف غير المعقولة والملاهى.

هذه الآية تبين حقيقتين:

الاولى: أنه تشير إلى أن من المحال أن يكون هدف الله هو اللهو.

والاخرى: إنه على فرض أن الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهواً مناسباً لذاته، كأن يكون من عالم المجردات وأمثال ذلك، لا من عالم المادة المحدود.

ثم تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنون عدم هدفية الدنيا، بل هي للهو واللعب فقط: إن هذا العالم مجموعة من الحق والواقع، ولم يتم أساسه على الباطل «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ». وتقول فى النهاية: «وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» وتتحدثون عن عدم هدفية الخلق.

أى إننا نجعل الأدلة العقلية والاستدلالات الواضحة والمعجزات البينة إلى جانب ظنون وأوهام اللاهدين، لتبخر وتتلاشى هذه الأوهام فى نظر العلماء وأصحاب الفكر والرأى.

«نقذف»: من مادة «قذف» بمعنى الإلقاء، وخاصة الإلقاء من طريق بعيد، ولما كان للقذف من بعيد سرعة وقوة أكثر، فإن هذا التعبير يبين قدرة إنتصار الحق على الباطل.

«يدمغه»: (على قول الراغب) كسر «الجمجمة والدماغ»، وتعتبر أكثر نقطة فى بدن الإنسان حساسية، وهو تعبير بليغ عن غلبة جند الحق غلبه واضحه قاطعة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٩

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسَبُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَى وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أن عالم الوجود ليس عبثياً لا هدف من ورائه، فلا مزاح ولا عبث، ولا لهو ولا لعب، بل له هدف تكاملى دقيق للبشر.

ولما كان من الممكن أن يوجد هذا التوهم، وهو: ما حاجة الله إلى إيماننا وعبادتنا؟ فإن الآيات التى نبثها تجيب أولاً عن هذا التوهم، وتقول: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ (أى: الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» «١». ومع هذا الحال فأى حاجة لطاعتكم وعبادتكم؟ فإذا كنتم بالإيمان والعمل الصالح والعبودية فإن كل ذلك سيعود بالنفع عليكم.

وبعد أن نفت فى الآيات السابقة عبثية ولا هدفية عالم الوجود، وأصبح من المسلم أن لهذا العالم هدفاً مقدساً، فإن هذه الآيات تنطرق

إلى بحث مسألة وحدة المعبود ومدبر هذا العالم، فتقول: «أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ» (٢). وهذه الجملة إشارة إلى أن المعبود يجب أن يكون خالقاً، وخاصة خلق الحياة، لأنها أوضح مظاهر الخلق ومصاديقه. التعبير «إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ» إشارة إلى الأصنام والمعبودات التي كانوا يصنعونها من الحجارة والخشب، وكانوا يظنونها حاكمة على السماوات.

(١) «يستحسرون»: في الأصل من مادة حسر، وفي الأصل تعني رفع النقاب والستار عن الشيء المغطى، ثم استعملت بمعنى التعب والضعف، فكأن كل قوى الإنسان تصرف في مثل هذه الحالة، ولا يبقى منها شيء مخفى في بدنه.

(٢) «ينشرون»: من مادة «نشر»، أي فك الشيء المعقد الملفوف، وهو كناية عن الخلق وإنتشار المخلوقات في أرجاء الأرض والسماوات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٠

مختصر الامثل ج ٣، ص: ٢٩٩

وتبين الآية التالية أحد الأدلة الواضحة على نفى آلهة وأرباب المشركين، فتقول: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

هذه الإدعاءات غير الصحيحة وهذه الأرباب المصنوعة والآلهة المظنونة ليست إلا أوهاماً، وساحة كبرياء ذاته المقدسة لا تتلوث بهذه النسب المغلوطة.

إن الدليل الوارد في الآية آنفة الذكر الذي يتحرك لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، في الوقت الذي هو بسيط وواضح، فإنه من البراهين الفلسفية الدقيقة في هذا الباب، ويذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). ويمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلي:

إننا نرى نظاماً واحداً حاكماً في هذا العالم، إن إنسجام القوانين وأنظمة الخلقة هذه يحكى أنها تنبع من عين واحدة، لأن البدايات إن كانت متعددة، والإيرادات مختلفة، لم يكن يوجد هذا الإنسجام مطلقاً. لأن لكل واحدة قضاء، وكانت الاخرى تمحو أثر الاولى، وسيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

وبعد أن ثبت بالاستدلال الذي ورد في الآية توحيد مدبر ومدير هذا العالم، فتقول الآية التالية: إنه قد نظم العالم بحكمة لا مجال فيها للإشكال والإنتقاص ولا أحد يعترض عليه في خلقه: «لَأَيُّسَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَلُونَ».

إن لدينا نوعين من الأسئلة:

الأول: السؤال التوضيحي، وهو أن يكون الإنسان يريد أن يعلم النقطة الأصلية والهدف الحقيقي من المسائل، ومثل هذا السؤال جائز حتى حول أفعال الله.

أمياً النوع الثاني: فهو السؤال الإعتراضي، والذي يعني أن العمل الذي تم كان خطأً. من المسلم أن هذا النوع من السؤال لا معنى له حول أفعال الله الحكيم، إلا أن مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرين واسع.

وتشتمل الآية التالية على دليلين آخرين في مجال نفى الشرك، فمضافاً إلى الدليل السابق يصبح مجموعها ثلاثة أدلة.

تقول الآية أولاً: «أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ». وهو إشارة إلى أنكم إذا صرفتم النظر عن الدليل السابق القائم على أن نظام عالم الوجود دليل على التوحيد، فإنه لا يوجد أي دليل - على الأقل - على إثبات الشرك والوهية هذه الآلهة، فكيف يتقبل إنسان عاقل مطلباً لا دليل عليه؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥١

ثم تشير إلى الدليل الأخير فتقول: «هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَى وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي» وهذا هو الدليل الذي ذكره علماء العقائد تحت عنوان: (إجماع وإتفاق الأنبياء على التوحيد).

ولما كانت كثرة المشركين (وخاصة في ظروف حياة المسلمين في مكة، والتي نزلت فيها هذه السورة) مانعاً أحياناً من قبول التوحيد من قبل بعض الأفراد، فهي تضيف: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ».

لقد كانت مخالفة الأكثرية الجاهلة في كثير من المجتمعات دليلاً وحجة لإعراض الغافلين الجاهلين دائماً، وقد إنتقد القرآن الإستناد إلى هذه الأكثرية بشدة في كثير من الآيات، سواء التي نزلت في مكة أو المدينة.

ولما كان من المحتمل أن يقول بعض الجهلة الغافلين أن لدينا أنبياء كعيسى مثلاً دعوا إلى آلهة متعددة، فإن القرآن الكريم يقول في آخر آية من الآيات محل البحث بصراحة تامة:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لِلَّهِ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ». وبهذا يثبت أنه لا عيسى ولا غيره قد دعا إلى الشرك، ومثل هذه النسبة إليه تهمة وإفراء.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَ لَمْ يَشْفَعُوا إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفَعُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

لما كان الكلام في آخر آية عن الأنبياء، ونفى كل أنواع الشرك، ونفى كون المسيح عليه السلام ولداً، فإن كل الآيات محل البحث تتحدث حول نفى كون الملائكة أولاداً.

وتوضيح ذلك أن كثيراً من مشركي العرب كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله سبحانه، ولهذا السبب كانوا يعبدونها أحياناً، والقرآن الكريم إنتقد هذه العقيدة الخرافية التي لا أساس لها، وبين بطلانها بالأدلة المختلفة. يقول أولاً: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا». فإن كان مرادهم الولد الحقيقي، فإنه يلزم من هذا الجسمية، وإن كان المراد التنبى - والذي كان إعتيادياً ومتداولاً بين العرب - فإن ذلك أيضاً دليل على الضعف والإحتياج، إلا أن الوجود الأزلى الأبدى وغير الجسماني، وغير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له، ولذلك فإن القرآن يقول مباشرة: «سُبْحَانَهُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٢

ثم تبين أوصاف الملائكة في ستة أقسام تشكل بمجموعها دليلاً واضحاً على نفى كونهم أولاداً:

١- «بَلْ عِبَادٌ».

٢- «مُكْرَمُونَ».

فليس هؤلاء عبداً هارين خضعوا للخدمة تحت ضغط المولى، ولذلك فإن الله سبحانه قد أحبهم، وأفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم في العبودية.

٣- إن هؤلاء على درجة من الأدب والخضوع والطاعة لله بحيث «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ».

٤- وكذلك من ناحية العمل أيضاً فهم مطيعون «وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ».

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟

ثم أشارت إلى إحاطة علم الله بهؤلاء فتقول: إن الله تعالى يعلم أعمالهم الحاضرة والمستقبلية، وكذلك أعمالهم السالفة، وأيضاً يعلم ما في دنياهم وآخرتهم، وقبل وجودهم وبعده: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» ومن المسلم أن الملائكة مطلعون على هذا الموضوع، وهو أن لله إحاطة علمية بهم، وهذا العرفان هو السبب في أنهم لا يسبقونه بالقول، ولا يعصون أمره، ولهذا فإن هذه الجملة يمكن أن تكون بمثابة تعليل للآية السابقة.

٥- ولا شك أن هؤلاء الذين هم عباد الله المكرمون المحترمون يشفعون للمحتاجين، لكن ينبغي الإلتفات إلى أن هؤلاء «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى».

ثم إن هذه الجملة تجيب ضمناً أولئك الذين يقولون: إننا نعبد الملائكة لتشفع لنا عند الله، فيقول القرآن لهم: إن هؤلاء لا يقدرُونَ على فعل شيء من تلقاء أنفسهم، وكل ما تريدونه يجب أن تطلبوه من الله مباشرة، وحتى إذن شفاعَةُ الشافعين.

٦- ونتيجة لهذه المعرفة والوعى «وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ».

«الخشية»: تعنى الخوف المقترن بالتعظيم والإحترام؛ و «مشفق»: من مادة الإشفاق، بمعنى التوجه الممتزج بالخوف، لأنها فى الأصل مأخوذة من الشفق، وهو الضياء الممتزج بالظلمة. فبناءً على هذا، فإن خوف الملائكة ليس كخوف الإنسان من حادثه مرعبه مخيفه، وكذلك إشفاقهم فإنه لا- يشبه خوف الإنسان من موجود خطر، بل إن خوفهم وإشفاقهم ممزوجان بالإحترام، والعناية والتوجه، والمعرفة والإحساس بالمسؤولية.

من الواضح أن الملائكة مع هذه الصفات البارزة والممتازة، ومقام العبودية الخالصة لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٣

يَدْعُونَ الْالوهية مطلقاً، أمّا إذا فرضنا ذلك «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكِ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ». إن إدعاء الالوهية فى الحقيقة مصداق واضح على ظلم النفس والمجتمع، ويندرج فى القانون العام «كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ».

أ وَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

علامات اخرى لله فى عالم الوجود: تعقيباً على البحوث السابقة حول عقائد المشركين الخرافية، والأدلة التى ذكرت على التوحيد، فإن فى هذه الآيات سلسله من براهين الله فى عالم الوجود، وتدييره المنظم، وتأكيده على هذه البحوث تقول أولاً: «أولم يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ».

إن المراد من رتق السماء هو أنها لم تكن تمطر فى البدايه، والمراد من رتق الأرض أنها لم تكن تنبت النبات فى ذلك الزمان، إلا أن الله سبحانه فتق الإثنين، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض أنواع النباتات.

وأما فيما يتعلق بإيجاد كل الكائنات الحيه من الماء، فهناك تفسيران مشهوران:

أحدهما: إن حياة كل الكائنات الحيه- سواء كانت النباتات أم الحيوانات- ترتبط بالماء، هذا الماء الذى كان مبدؤه المطر الذى نزل من السماء.

والآخر: إن الماء هنا إشارة إلى النطفة التى تتولد منها الكائنات الحيه عادةً.

وما يلفت النظر أن علماء عصرنا الحديث يعتقدون أن أول إنشاقه للحياة وجدت فى أعماق البحار، ولذلك يرون أن بداية الحياة من الماء، وإذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أن المراد من التراب هو الطين المركب من الماء والتراب. وأشارت الآية التالية إلى جانب آخر من آيات التوحيد ونعم الله الكبيرة، فقالت:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٤

«وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ» (١).

إن الجبال كالدرع الذى يحمى الأرض، وهذا هو الذى يمنع- إلى حد كبير- من الزلازل الأرضية الشديدة التى تحدث نتيجة ضغط الغازات الداخلية، إضافة إلى أن وضع الجبال هذا يقلل من حركات القشرة الأرضية أمام ظاهرة المدّ والجزر الناشئة بواسطة القمر إلى الحدّ الأدنى.

ومن جهة اخرى فلولا الجبال، فإن سطح الأرض سيكون معرضاً للرياح القوية دائماً، وسوف لا تستقر على حال أبداً، كما هى حال الصحارى المقفرة المحرقة.

ثم أشارت الآية إلى نعمة اخرى، وهي أيضاً من آيات عظمة الله، فقالت: «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ». ولو لم تكن هذه الوديان والفجاج، فإن سلاسل الجبال العظيمة الموجودة في المناطق المختلفة من الأرض كانت ستفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل إرتباطها تماماً، وهذا يدل أن هذه الظواهر الكونية خلقت كلها وفق حساب دقيق. ولما كان إستقرار الأرض لا يكفي لوحده لإستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمناً مما فوقه، فإن الآية التالية تضيف: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ».

المراد من السماء هنا هو الجو الذي يحيط بالأرض دائماً، وتبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصل إليه العلماء. وهذه الطبقة رقيقة ظاهراً، وتتكون من الهواء والغازات، وهي محكمة ومنبوعة إلى الحد الذي لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّا ويفنى ويتحطم، فهي تحفظ الكرة الأرضية من سقوط الشهب والنيازك «ليل نهار» التي تعتبر أشد خطراً حتى من القذائف والصواريخ الحربية.

إضافة إلى أن هذا الغلاف الجوى يقوم بتصفيه أشعة الشمس التي تحتوى على أشعة قاتلة وتمنع من نفوذ تلك الأشعة الكونية القاتلة. وتطرت الآية الأخيرة إلى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، فقالت: «وَهُوَ الَّذِي

(١) «رواسي»: جمع راسية، أى الجبال الثابتة، ولما كانت هذه الجبال تتصل جذورها، فيمكن أن تكون إشارة إلى هذا الإرتباط؛ و «تميد»: من الميد، وهو الهزة والحركة غير الموزونة للأشياء الكبيرة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٥

خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

إن المراد من حركة الشمس فى الآية إما الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسية. وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

الموت يتربص بالجميع: قرأنا فى الآيات السابقة أن المشركين قد تشبثوا بمسألة كون النبى صلى الله عليه وآله بشراً من أجل التشكيك بنبوته. إن الآيات محل البحث أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تارة أن إنتفاضة النبى (وفى نظرهم شاعر) لا دوام لها، وسينتهى بموته كل شىء، كما جاء فى الآية (٣٠) من سورة الطور: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ».

وكانوا يظنون تارة أخرى أن هذا الرجل لما كان يعتقد أنه خاتم النبيين، فيجب أن لا يموت أبداً ليحفظ دينه، وبناء على هذا فإن موته فى المستقبل سيكون دليلاً على بطلان إدعائه. فيجيبهم القرآن فى أول آية فيقول: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ».

إن قانون الخلقه هذا لا يقبل التغيير، أى أنه لا يكتب لأحد الخلود، وإذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ».

إن بقاء الشريعة والدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه فى إقامة دينه والسير على خطاه.

ثم يذكر قانون الموت العام الذى يصيب كل النفوس بدون استثناء فيقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

إن لفظه (النفس) قد استعملت فى القرآن بمعان مختلفة، فأول معنى للنفس هو الذات، وهذا المعنى واسع يطلق حتى على ذات الله المقدسه، كما جاء فى الآية (١٢) من سورة الأنعام: «كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ».

ثم استعملت هذه الكلمه فى الإنسان، أى مجموع جسمه وروحه، كما فى الآية (٣٢) من سورة المائدة: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

واستعملت أحياناً فى خصوص روح الإنسان كما فى الآية (٩٣) من سورة الأنعام:

«أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٦

والمراد من النفس فى الآيات التى نبهتها هو المعنى الثانى.

وبعد ذكر قانون الموت الكلى يطرح هذا السؤال، وهو: ما هو الهدف من هذه الحياة الزائلة؟ وأى فائدة منها؟

فيقول القرآن حول هذا الكلام: «وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ». أى: إن مكانكم الأسمى ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان

آخر، وإنما تأتون هنا لتؤدوا الإختبار والامتحان، وبعد إكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأسمى وهو الدار الآخرة.

وَإِذَا رَأَتْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أ هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَمَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)

نواجه فى هذه الآيات مرّة اخرى، بحدوثاً اخرى حول موقف المشركين من رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث يتضح نمط تفكيرهم المنحرف فى المسائل الاصولية، فنقول أولاً: «وَإِذَا رَأَتْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا». فهؤلاء لا عمل لهم إلا السخرية والإستهزاء، ويشيرون إليك بعدم إكتراث ويقولون: «أهذا الذى يذكُرُ آلهتكم وهم بذكرِ الرحمنِ هم كُفَرُونَ».

مما يثير العجب هو إنه لو إزدري أحد هذه الأصنام الخشبية والحجرية (وما هو بمزدر لها، بل يُفصح عن حقيقتها) يقول: إن هذه موجودات لا روح فيها ولا شعور ولا قيمة لها، لتعجبوا منه، أما إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحيم الذى عمّت آثار رحمته وعظمته الأرض والسماء وما من شيء إلا وفيه دليل على عظمته ورحمته، لما أثار إعجابهم.

ثم تشير إلى أمر آخر من الامور القبيحة لدى هذا الإنسان المتحلل، فتقول: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٧

إن المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان؛ والمراد من «عجل» هى العجلة والتعجيل.

إنّ تعبير «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ» نوع من التأكيد، أى إن الإنسان عجول إلى درجة كأنه خلق من العجلة، وتشكّلت أنسجته ووجوده منها! وفى الواقع، فإن كثيراً من البشر العاديين هم على هذه الشاكلة، فهم عجولون فى الخير وفى الشر. وتضيف الآية فى النهاية: «سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ».

التعبير ب (آياتى) هنا يمكن أن يكون إشارة إلى آيات العذاب وعلاماته والبلاء الذى كان يهدّد به النبى صلى الله عليه وآله مخالفيه، ولكن هؤلاء الحمقى كانوا يقولون مراراً: فأين تلك الإبتلاءات والمصائب التى تخوفنا بها؟ فالقرآن الكريم يقول: لا تعجلوا فلا يمضى زمن طويل حتى تحيط بكم.

ثم يشير القرآن إلى إحدى مطالب اولئك المستعجلين فيقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». فهؤلاء غافلون عن أن قيام القيامة يعنى تعاستهم وشقاءهم المرير.

وتجيبهم الآية التالية فتقول: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَمَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ». أى إن هذه الأصنام التى يظنون أنها ستكون شفيعة لهم وناصرة، لا تقدر على أى شيء.

مما يلفت النظر أن العقوبة الإلهية لا يعين وقتها دائماً «بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا» وحتى إذا استمهلوا، وطلبوا التأخير على خلاف ما كانوا يستعجلون به إلى الآن، فلا يجابون «وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ».

وَلَقَدْ اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْبَدَائِحِ سَاءَ خِرْوًا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآيَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٨

لاحظنا في الآيات السابقة أن المشركين والكفار كانوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وآله، فتقول الآية الاولى تسلياً للنبي: لست الوحيد الذي يستهزأ به «وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ». ولكن في النهاية نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به «فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

وتقول الآية التالية: قل لهم إن أحداً لا يدافع عنكم أمام عذاب الله في القيامة، بل وفي هذه الدنيا: «قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ». أى من عذابه، فلو أن الله سبحانه لم يجعل السماء- أى الجو المحيط بالأرض سقفاً محفوظاً كما مر في الآيات السابقة- لكان هذا وحده كافياً أن تتهاوى النيازك وتُمطركم الأجرام السماوية بأحجارها ليل نهار.

مما يستحق الانتباه أن كلمة «الرحمن» قد استعملت مكان (الله) فى هذه الآية، أى انظروا إلى أنفسكم كم إقترفتُم من الذنوب حتى أغضبتم الله الذى هو مصدر الرحمة العامة؟!

ثم تضيف: «يَلْهُمُ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ» فلا- هم يصغون إلى مواعظ الأنبياء ونصحهم، ولا- تهزّ قلوبهم نعم الله وذكره، ولا يستعملون عقولهم لحظة فى هذا السبيل.

ثم يسأل القرآن الكريم: أى شىء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين والمجرمين فى مقابل العقوبات الإلهية؟ «أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَفِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ» (١). فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من العذاب، ولا تكون مصحوبة بتأييدنا ورحمتنا.

ثم أشارت الآية التالية إلى أحد علل تمرد وعصيان الكافرين المهمة، فتقول: «بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». إلا أن هذا العمر الطويل والنعم الوفيرة بدل أن تحرك فيهم حس الشكر والحمد، ويطأطئوا رؤوسهم لعبودية الله، فإنها أصبحت سبب غرورهم وطغيانهم.

ولكن ألا يرى هؤلاء أن هذا العالم ونعمه زائلة؟ «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». فإن الأقوام والقبائل تأتى الواحدة تلو الاخرى وتذهب، وحتى العلماء والعظماء

(١) «يصحبون»: من باب الإفعال، وفى الأصل يعنى أن يجعلوا شيئاً تحت تصرفهم بعنوان المساعدة والحماية، وهو هنا يعنى أن هذه الأصنام لا تملك الدفاع ذاتياً، ولا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوة من قبل الله تعالى، ونحن نعلم أن آية قوة دفاعية فى عالم الوجود إما أن تنبع من ذات الشىء، أو تمنح له من قبل الله تعالى. أى أنها إما ذاتية أو عرضية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٩

الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم وودّعوا الدنيا! ومع هذا الحال «أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ». إن الآية تريد أن تبين أن موت الكبار والعظماء والأقوام درس وعبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أن محاربة الله تعالى لا تنتج سوى الإندحار.

ثم تقرّر الآية حقيقة أن وظيفة النبي صلى الله عليه وآله هى إنذار الناس عن طريق الوحي الإلهي، فتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله، فتقول: «قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ» وإذا لم يؤثر فى قلوبكم القاسية، فلا- عجب من ذلك، وليس ذلك دليلاً على نقص الوحي الإلهي، بل السبب هو «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ».

إن الاذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام الله، أما الأذان التى أصممتها حجب الذنوب والغفلة والغرور فلا تسمع الحق مطلقاً. وَلَئِن مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

بعد أن كانت الآيات السابقة تعكس حالة غرور وغفلة الأفراد الكافرين، تقول الآية الاولى أعلاه: إن هؤلاء المغرورين لم يذكروا الله



يوماً في الرخاء، ولكن: «وَلَيْسَ مَسْتَهْمٌ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولَنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

«نفحة»: تعنى الشىء القليل، أو النسيم اللطيف، وبالرغم من أن هذه الكلمة تستعمل غالباً فى نسمات الرحمة والنعمة غالباً، إلا أنها تستعمل فى مورد العذاب أيضاً.

ولو انتبهوا حينئذ، فما الفائدة؟ فإن هذه اليقظة الاضطرارية لا تنفعهم.

أما الآية الأخيرة التى نبحتها فتشير إلى حساب القيامة الدقيق، وجزائها العادل، ليعلم الكافرون والظالمون أن العذاب على فرض أنه لم يعمهم فى هذه الدنيا، فإن عذاب الآخرة حتمى، وسيحاسبون على جميع أعمالهم بدقة، فتقول: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ».

ونقرأ فى الروايات الإسلامية أن موازين الحساب فى القيامة هم الأنبياء والأئمة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٠

والصالحون الذين لا توجد نقطة سوداء فى صحيفه أعمالهم.

«القسط»: يعنى أحياناً عدم التبعض، وأحياناً يأتى بمعنى العدالة بصورة مطلقه، وما يناسب المقام هو المعنى الثانى، ولهذا تضيف مباشرة: «فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا» فلا ينقص من ثواب المحسنين شىء، ولا يضاف إلى عقاب المسيئين شىء.

إلا أن نفى الظلم والجور هذا لا يعنى عدم الدقة فى الحساب، بل «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حسيين».

«الخردل»: نبات له حبة صغيرة جداً يضرب المثل بها فى الصغر والحقارة.

لمحة من قصص الأنبياء: ذكرت هذه الآيات وما بعدها جوانب من حياة الأنبياء المشفوعة بأمور تربوية بالغة الأثر، وتوضح البحوث السابقة حول نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومواجهته المخالفين بصورة أجلي مع ملاحظة الاصول المشتركة الحاكمة عليها. تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ».

«الفرقان»: يعنى فى الأصل الشىء الذى يميز الحق عن الباطل، وهو وسيلة لمعرفة الإثنين. إن من الممكن أن يكون الفرقان إشارة إلى التوراة، وإلى سائر معجزات ودلائل موسى عليه السلام.

ثم تعرف الآية التالية المتقين بأنهم «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ».

ولكلمة «الغيب» هنا تفسيران: الأول: إنه إشارة إلى ذات الله المقدسه، أى مع أن الله سبحانه غائب عن الأنظار، فإن هؤلاء آمنوا به بدليل العقل.

والآخر: إن المتقين لا يخافون الله فى العلانية وبين المجتمع فقط، بل يعلمون أنه حاضر وناظر إليهم حتى فى خلواتهم.

فإن المتقين يحبون يوم القيامة، لأنه مكان الثواب والرحمة، إلا أنهم فى الوقت نفسه مشفقون من حساب الله فيه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦١

وقارنت الآية الأخيرة بين القرآن وباقي الكتب السابقة: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ». فهل ينكر مثل هذا الكتاب الذى يستبطن أدله أحقيته فيه، وقد سطعت نورانيته، والذين يسرون فى طريقه سعاء منتصرون!؟

ولكى نعرف مدى أثر القرآن فى التوعية وما له من البركات، فيكفى أن نرى حال سكان جزيرة العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كانوا يعيشون فى جاهلية جهلاء وفقر وتعاسة وتفترق وتمزق، ثم نرى حالهم بعد نزول القرآن حيث أصبحوا اسوة ومثلاً حسناً

للآخرين، ونرى كذلك حال الأقوام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم وبعده.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (٥٧)

فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)

قلنا: أن هذه السورة تحدثت عن جوانب عديدة من حالات الأنبياء، فقد اشير في الآيات السابقة إشارة قصيرة إلى رسالة موسى وهارون عليهما السلام، وعكست هذه الآيات وبعض الآيات الآتية جانباً مهماً من حياة إبراهيم عليه السلام ومواجهته لعبدة الأصنام، فتقول أولاً: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ». «الرشد»: في الأصل بمعنى السير إلى المقصد والغاية، ومن الممكن أن يكون هنا إشارة إلى حقيقة التوحيد، وأن إبراهيم عرفها واطلع عليها منذ سنى الطفولة، وقد يكون إشارة إلى كل خير وصلاح بمعنى الكلمة الواسع.

والتعبير بـ «مِن قَبْلُ» إشارة إلى ما قبل موسى وهارون عليهما السلام.

ثم أشارت إلى أحد أهم مناهج إبراهيم عليه السلام، فقالت: إنَّ رُشِدَ إِبْرَاهِيمَ قَدْ بَانَ عِنْدَمَا قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ - وهو إشارة إلى عمه آزر، لأنَّ العرب تسمي العم أباً - ما هذه التماثيل التي تعبدونها؟ «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عِكْفُونَ».

وجملة «أَنْتُمْ لَهَا عِكْفُونَ» بملاحظة معنى «العكوف»: الذي يعنى الملازمة المقترنة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٢

بالإحترام، توحى بأن أولئك كانوا يحبون الأصنام، وكأنهم كانوا ملازميها دائماً.

إنَّ مقولة إبراهيم عليه السلام هذه استدلال على بطلان عبادة الأصنام، لأنَّ ما نراه من الأصنام هو المجسمه والتمثال، والباقي خيال وظن وأوهام.

إلَّا أنَّ عبدة الأصنام لم يكن عندهم - في الحقيقة - جواب أمام هذا المنطق السليم القاطع، سوى أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويلقوها على عاتق آباؤهم، ولهذا «قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِدِينَ».

ولمَّا كانت حجتهم بأنَّ «هذه العبادة هي سنة الآباء» غير مجدية نفعاً ... ولا نمتلك دليلاً على أنَّ السابقين من الآباء والأجداد أعقل وأكثر معرفة من الأجيال المقبلة، بل القضية على العكس غالباً، لأنَّ العلم يتسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرةً ف «قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

إنَّ هذا التعبير المقترن بأنواع التأكيدات، والحاكى عن الحزم التام سبب أن يرجع عبدة الأصنام إلى أنفسهم قليلاً، ويتوجهوا إلى التحقق من قول إبراهيم، فأتوا إلى إبراهيم «فَالُوا أَجِئْنَا بِبَالِحٍ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ» لأنَّ أولئك الذين كانوا قد إعتادوا على عبادة الأصنام، وكانوا يظنون أنَّ ذلك حقيقة حتمية، ولم يكونوا يصدّقون أنَّ أحداً يخالفها بصورة جديّة، ولذلك سألو إبراهيم هذا السؤال تعجباً.

إلَّا أنَّ إبراهيم أجابهم بصراحة: «قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

إنَّ إبراهيم عليه السلام قد بين بهذه الكلمات القاطعة أنَّ الذي يستحق العبادة هو خالقهم وخالق الأرض وكل الموجودات.

ومن أجل أن يثبت إبراهيم جديّة هذه المسألة، وأنه ثابت على عقيدته إلى أبعد الحدود، وأنه يتقبّل كل ما يترتّب على ذلك بكل وجوده، أضاف: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ».

«أكيدن»: مأخوذة من الكيد، وهو التخطيط السرى، والتفكير المخفى وكان مراده أن يفهمهم بصراحة بأننى سأستغلّ في النهاية فرصة مناسبة واحطّم هذه الأصنام.

إنَّ إبراهيم من دون أن يحذر من معبته هذا العمل، دخل الميدان برجولة وتوجّه إلى حرب هذه الآلهة الجوفاء بشجاعة خارقة وحطّمها بصورة يصفها القرآن فيقول: «فَجَعَلَهُمْ جُودًا»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٣

إلَّا كَبِيرًا لَهُمْ» وكان هدفه من تركه «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ».

صحيح أن أذهاننا تنصرف من لفظ عبادة الأصنام إلى الأصنام الحجرية والخشبية على الأكثر، إلَّا أنَّ الصنم والصنمية - من وجهة نظر -

لها مفهوم واسع يشمل كل ما يُبعد الإنسان عن الله، بأي شكل وصورة كان.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)

وأخيراً عبدة الأصنام دخلوا المعبد وواجهوا منظرًا أطار عقولهم من رؤوسهم، فقد وجدوا تلاً من الأيدي والأرجل المكسرة المتراكمة بعضها على البعض الآخر في ذلك المعبد المعمور، فصاحوا و«قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ». ولا ريب أن من فعل ذلك ف«إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ» فقد ظلم آلهتنا ومجتمعنا ونفسه، لأنه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلّا أن جماعة منهم تذكروا ما سمعوه من إبراهيم عليه السلام وإزدراجه بالأصنام وتهديده لها وطريقته تعامله السلبي لهذه الآلهة المزعومة، «قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ».

إن إبراهيم كان شاباً، وربما لم يكن سنّه يتجاوز (١٦) عاماً.

إن المؤلف - عادةً - عندما تقع جريمة في مكان ما، فإنه ومن أجل كشف الشخص الذي قام بهذا العمل، تبحث علاقات الخصومة والعداء، ومن البديهي أنه لم يكن هناك شخص في تلك البيئته من يعادى الأصنام غير إبراهيم، ولذلك توجهت إليه أفكار الجميع، و«قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» عليه بالجريمة.

فنادى المنادون في نواحي المدينة: «ليحضر كل من يعلم بعداء إبراهيم وإهانتته للأصنام».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٤

وأخيراً تشكلت المحكمة، وكان زعماء القوم قد اجتمعوا هناك، ويقول بعض المفسرين: أن نمرود نفسه كان مشرفاً على هذه المحاكمة، وأول سؤال وجهه إلى إبراهيم عليه السلام هو أن: «قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ».

فأجابهم إبراهيم جواباً أفحمهم، وجعلهم في حيرة لم يجدوا منها مخرجاً «قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ». إن من أسس علم معرفته الجرائم أن يكون المتهم بادية عليه آثار الجريمة، والملاحظ هنا أن آثار الجريمة كانت بادية على يد الصنم الكبير، [وفقاً للرواية المعروفة: إن إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصنم الكبير].

لقد هزت كلمات إبراهيم الوثنيين وأيقظت ضمائرهم النائمة الغافلة، وأثار فطرتهم التوحيدية من خلف حجب التعصب والجهل.

ورجعوا إلى فطرتهم ووجدانهم، كما يقول القرآن: «فَرْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ». فقد ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم الذي تنتمون إليه، وكذلك ساحة الله واهب النعم المقدسة.

ولكن للأسف، فإن صدأ الجهل والتعصب والتقليد الأعمى كان أكبر من أن يُصقل ويُحى تماماً بنداء بطل التوحيد.

ولم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدسة، ورجع كل شيء إلى حالته الأولى، وكم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: «ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ». ومن أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البكم قالوا: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ». وأرادوا بهذا العذر الواهي أن يخفوا ضعف وذلة الأصنام.

وهنا فتح أمام إبراهيم الميدان والمجال للاستدلال المنطقي ليوجه لهم أشد هجماته: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ».

ووسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، وإنهال بسياط التقرير على روحهم التي فقدت الإحساس، فقال: «أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». إلّا أنه لم يلح في توبيخهم وتقريرهم لنا يلجوا في عنادهم.

ويستفاد من التواريخ أن جماعة آمنوا به، وهم وإن قلوا عدداً، إلّا أنهم كانوا من الأهمية بمكان، إذ هتأوا الاستعداد النسبي لفئة أخرى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٥

قَالُوا حَرْقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

عندما تصير النار جنه: مع أن عبدة الأوثان اسقط ما في أيديهم نتيجة إستدلالات إبراهيم العلمية والمنطقية، إلا أن عنادهم وتعصبهم الشديد منعهم من قبول الحق، ولذلك فلا-عجب من أن يتخذوا قراراً صارماً وخطيراً في شأن إبراهيم. يقول القرآن الكريم: «قَالُوا حَرْقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ».

فقد قالوا الكثير من أمثال هذه الخزعبلات وأثاروا الناس ضد إبراهيم بحيث إنهم لم يكتفوا بعدة حزم من الحطب تكفي لإحراق عدة أشخاص، بل أتوا بالآلاف الحزم وألقوها حتى صارت جبلاً من الحطب. فقد القى إبراهيم في النار وسط زغاريد الناس وسرورهم وصرخهم، وقد أطلقوا أصوات الفرح طائنين أن محطّم الأصنام قد فنى إلى الأبد وأصبح تراباً ورماداً.

لكن الله الذي بيده كل شيء حتى النار لا تحرق إلا بإذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالماً من لهب تلك النار الموقدة ليضيف وثيقه فخر جديدة إلى سجل إفتخاراته، وكما يقول القرآن الكريم: «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ».

لا شك أن أمر الله هنا كان أمراً تكوينياً، كالأمر الذي يصدره في عالم الوجود إلى الشمس والقمر، والأرض والسماء، والماء والنار، والنباتات والطيور.

والمعروف أن النار قد بردت برداً شديداً إصطكت أسنان إبراهيم منه، وحسب قول بعض المفسرين: إن الله سبحانه لو لم يقل: سلاماً، لمات إبراهيم من شدة البرد.

ويقول الله سبحانه في آخر آية من الآيات محل البحث على سبيل الاستنتاج بإقتضاب:

أَنَّهُمْ تَأْمَرُوا عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ وَلَكِنَّ النَّتِيجَةَ لَمْ تَكُنْ فِي صَالِحِهِمْ «وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ».

لا- يخفى أن الوضع قد اختلف تماماً ببقاء إبراهيم سالماً، وخمدت أصوات الفرح. غير أن العناد ظل مانعاً من قبول الحق، وإن كان أصحاب القلوب الواعية قد استفادوا من هذه الواقعة، وزاد إيمانهم مع قتلهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٦

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)

هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين: لقد هزت قصة حريق إبراهيم عليه السلام ونجاته الإعجازية من هذه المرحلة الخطيرة أركان حكومة نمرود، وأنه لو بقي في تلك المدينة والبلاد على هذا الحال، ومع ذلك اللسان المتكلم والمنطق القوي، والشهامه والشجاعة التي لا نظير لها، فمن المحتم أنه سيشكل خطراً على تلك الحكومة الجبارة الغاشمة.

ومن جهة اخرى، فإن إبراهيم كان قد أدى رسالته وبذر بذور الإيمان والوعى في تلك البلاد، فلا بد من الهجرة إلى موطن آخر لإيجاد أرضية لرسالته هناك، ولذلك صمّم على الهجرة إلى الشام بصحبة لوط- وكان ابن أخ إبراهيم- وزوجته سارة، وربما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: «وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ».

وبالرغم من أن اسم هذه الأرض لم يرد صريحاً في القرآن، إلا أنه بملاحظة الآية الاولى من سورة الإسراء يتضح أن هذه الأرض هي أرض الشام ذاتها، التي كانت من الناحية الظاهرية أرضاً غتية مباركة خضراء، ومن الجهة المعنوية كانت معهداً لرعاية الأنبياء.

وأشارت الآية التالية إلى أحد أهم مواهب الله لإبراهيم، وهي هبته الولد الصالح، والنسل المفيد، فقالت: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ».

وتشير الآية الأخيرة إلى مقام إمامة وقيادة هذا النبي الكبير، وإلى جانب من صفات الأنبياء ومناهجهم المهمة القيمة بصورة جماعية.

لقد عُدَّت في هذه الآية ستّة أقسام من هذه الخصائص، وإذا اضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين - والذي يستفاد من الآية السابقة - فتصبح سبعة.

يقول أولًا: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً». أى: إننا وهبناهم مقام الإمامة إضافة إلى مقام النبوة والرسالة، والإمامة هي آخر مراحل سير الإنسان التكاملي، والتي تعنى القيادة العامة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٧

ثم يذكر في المرحلة التالية ثمره هذا المقام، فيقول: «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» ولا يعنى بالهداية الإرشاد وبيان الطريق الصحيح، والذي هو من شأن النبوة والرسالة. أمّا الموهبة الثالثة والرابعة والخامسة فقد عبر عنها القرآن بقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ».

وفي آخر فصل أشار إلى مقام العبودية، فقال: «وَكَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ» (١). والتعبير بـ «كانوا» الذي يدلّ على الماضى المستمر في هذا المنهج، ربّما كان إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا رجالاً صالحين موحدين مؤهلين حتى قبل الوصول إلى مقام النبوة والإمامة، وفي ظلّ ذلك المخطّط وهبهم الله سبحانه مواهب جديدة.

وَلَوْ طَأَّ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

نجاه لوط من أرض الفجّار: لَمّا كان لوط من أقرباء إبراهيم وذوى أرحامه، ومن أوائل من آمن به، فقد أشارت الآيتان بعد قصه إبراهيم عليه السلام إلى جانب من إجهاده وسعيه في طريق إبلاغ الرسالة، والمواهب التي منحها الله سبحانه له، فتقول: «وَلَوْ طَأَّ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا».

لفظة «الحكم» جاءت في بعض الموارد بمعنى أمر النبوة والرسالة.

والمراد من العلم كل العلوم التي لها أثر في سعادة ومصير الإنسان.

لقد كان لوط من الأنبياء العظام وكان معاصراً لإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثم فارق إبراهيم وجاء إلى مدينة (سدوم) لأنّ أهلها كانوا غارقين في الفساد والمعاصي، وخاصة الانحرافات الجنسية، وقد سعى كثيراً من أجل هداية هؤلاء القوم، وتحمل المشاق في هذا الطريق، إلّا أنّه لم يؤثّر في اولئك التّعمى القلوب.

وأخيراً، نعلم أنّ الغضب والعذاب الإلهي قد حلّ بهؤلاء، وقلب عالي مدينتهم سافلها، واهلكوا جميعاً، إلّا عائلة لوط باستثناء امرأته.

(١) تقديم كلمة (لنا) على (عابدين) يدلّ على الحصر، وإشارة إلى مقام التوحيد الخالص، لهؤلاء المقدمين الكبار، أى إنّ هؤلاء كانوا يعبدون الله فقط.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٨

ولذلك أشارت الآية إلى هذه الموهبة التي وهبت للوط، وهي: «وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ».

والتعبير بـ «الخبائث» بصيغة الجمع، إشارة إلى أنّهم إضافة إلى فعل اللواط الشنيع، كانوا يعملون أعمالاً قبيحة وخبثه اخرى.

والتعبير بـ «الفاسيقين» بعد «قوم سوء» ربّما يكون إشارة إلى أنّ اولئك كانوا فاسقين من وجهة نظر القوانين الإلهية، وحتى مع قطع النظر عن الدين والإيمان، فإنّهم كانوا أفراداً حمقى ومنحرفين في نظر المعايير الاجتماعية بين الناس.

ثم أشارت الآية إلى آخر موهبة إلهية للنبي لوط، فقالت: «وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

نجاه نوح من القوم الكافرين: بعد ذكر جانب من قصة إبراهيم وقصة لوط عليهما السلام، تطرقت السورة إلى ذكر جانب من قصة نبي آخر من الأنبياء الكبار - أي: نوح عليه السلام - فقالت: «وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ». أي قبل إبراهيم ولوط.

إنّ هذا النداء - ظاهراً - إشارة إلى الدعاء واللعنة التي ذكرت في الآية (٢٦ و ٢٧) من سورة نوح أو إنّه إشارة إلى الجملة التي وردت في الآية (١٠) من سورة القمر.

ثم تضيف الآية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئِينَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

إنّ للأهل - هنا - معنى واسعاً يشمل أهله المؤمنين وخواص أصحابه، وعلى هذا فإنّ الذين اعتنقوا دين نوح يعدّون في الواقع من عائلته وأهله.

«الكرْب»: تعني الغمّ الشديد، وهي في الأصل مأخوذة من تقلاب الأرض وحفرها، لأنّ الغمّ الشديد يقرب قلب الإنسان، ووصفه بالعزيز يكشف عن منتهى كربه وأساه.

وأيّ كرب أعظم من أن يدعو قومه إلى دين الحق (٩٥٠) عاماً، كما صرح القرآن بذلك، لكن لم يؤمن به خلال هذه المدة الطويلة إلا ثمانون شخصاً.

وتضيف الآية التالية: «وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٍ سَوْءٍ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٩

فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ». إنّ هذه الجملة تؤكد مرّة أخرى على حقيقة أنّ العقوبات الإلهية لا - تتصف بصفه الإنتقام مطلقاً، بل هي على أساس إنتخاب الأصالح، أي إنّ حق الحياة والتنعّم بمواهب الحياة لأناس يكونون في طريق التكامل والسير إلى الله، أو أنّهم إذا ساروا يوماً في طريق الانحراف إنتبهوا إلى أنفسهم ورجعوا إلى جادة الصواب.

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيُوسِيَ لَكُمْ لِيُخَصِّتَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)

قضاء داود وسليمان عليهما السلام: بعد الحوادث والوقائع المتعلقة بموسى وهارون وإبراهيم ونوح ولوط عليهم السلام، تشير هذه الآيات إلى جانب من حياة داود وسليمان، وفي البداية أشارت إشارة خفية إلى حادث قضاء وحكم صدر من جانب داود وسليمان، فتقول: «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» (١).

إنّ القصة كانت كما يلي: إنّ قطع الأغنام لبعض الرعاة دخلت ليلاً إلى بستان فأكلت أوراقه وعناقيد العنب منه فأتلفته، فرجع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطي كل الأغنام لصاحب البستان تعويضاً لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان - والذي كان طفلاً آنذاك - لأبيه: يا نبي الله العظيم، غير هذا الحكم وعدّ له. فقال الأب: وكيف ذاك؟

قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها ولبنها وصوفها، وتودع البستان في يد صاحب الأغنام ليسعى في إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الأولى يردّ إلى صاحبه، وتردّ الأغنام أيضاً إلى صاحبها؛ وأريد الله حكم سليمان في الآية التالية: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ». ولكن هذا لا يعني أنّ حكم داود كان إشتهاهاً وخطأً، لأنّها تضيف مباشرة: «وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا».

ثم تشير إلى إحدى المواهب والفضائل التي كان الله سبحانه قد وهبها لداود عليه السلام، فتقول:

(١) «نفشت»: من مادة نَفَشَ على وزن (حرب)، أي التفرّق والتبعثر في الليل، ولما كان تفرّق الأغنام في الليل، وفي المزرعة سيقترن

بالتهام نباتها حتماً، لذا قال البعض: إنها الرعى في الليل؛ و «نَفَس» (على وزن علم) تعنى الأغنام التى تتفترق فى الليل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٠

«وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ». فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ شَيْئًا مَهْمًا أَمَامَ قُدْرَتِنَا «وَكُنَّا فَعِلِينَ».

وأشارت الآية الأخيرة إلى موهبة أخرى من المواهب التى وهبها الله لهذا النبى الجليل، فقالت: «وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّصَ نَكْمَ مَنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ».

«اللبوس»: كل نوع من أنواع الأسلحة الدفاعية والهجومية، إلأى هنا تعنى الدرع التى لها صفة الحفظ فى الحروب.

وَلِسْلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

الرياح تحت إمرة سليمان: تشير هاتان الآيتان إلى جانب من المواهب التى منحها الله لنبى آخر من الأنبياء- أى: سليمان عليه السلام- فتقول الآية الأولى منهما: «وَلِسْلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا». وهذا الأمر ليس عجبياً، لأننا عارفون به «وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ». فنحن مطلعون على أسرار عالم الوجود، والقوانين والأنظمة الحاكمة عليه.

«العاصفة»: تعنى الرياح القويّة أو الهائجة، وهنا يمكن أن تكون من باب بيان الفرد الأهم، أى ليست الرياح الهادئة لوحدها تحت إمرته، بل حتى العواصف الشديدة كانت رهن إشارته أيضاً، لأن الثانية أعجب، وكانت تتحرك حيث أراد.

ثم تذكر الآية التالية أحد المواهب الخاصة بسليمان عليه السلام، فتقول: «وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ» لاستخراج الجواهر والأشياء الثمينه الأخرى «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ» من التمرد والطغيان على أوامر سليمان عليه السلام.

إن هذه الجماعه كانوا أفراداً أذكيا نشطين فنانيين صناعاً ماهرين فى مجالات مختلفه.

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧١

أيوب ونجاته من المصاعب: تتحدث الآيتان عن نبى آخر من أنبياء الله العظماء وقصته الملهمة، وهو «أيوب» وهو عاشر نبى اشير إلى جانب من حياته فى سورة الأنبياء.

إن لآيوب قصة حزينه، وهى فى نفس الوقت عظيمه ساميه، فقد كان صبره وتحمله عجيبين، خاصة أمام الحوادث المره، بحيث إن صبر أيوب أصبح مضرِباً للمثل منذ القدم.

غير أن هاتين الآيتين تشيران- بصورة خاصه- إلى مرحله نجاته وإنتصاره على المصاعب، وإستعادة ما فقده من المواهب، فتقول: «وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». «الضر»: تطلق على كل سوء وأذى يصيب روح الإنسان أو جسمه، وكذلك لنقص عضو، وذهاب مال، وموت الأعره وإنهيار الشخصيه وأمثال ذلك، وكما سنقول فيما بعد، فإن أيوب قد ابتلى بكثير من هذه المصائب.

وتقول الآية التالية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ» ليعلم المسلمون أن المشاكل كلما زادت، وكلما زادت الإبتلاءات، وكلما زاد الأعداء من ضغوطهم وضاعفوا قواهم، فإنها جميعاً ترفع وتحلّ بنظره ومنحه من لطف الله، فلا تجبر الخسارة وحسب، بل إن الله سبحانه يعطى الصابرين أكثر مما فقدوا جزاءً لصبرهم وثباتهم.

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)

إسماعيل وإدريس وذو الكفل عليه السلام: تعقياً على قصة أيوب عليه السلام التبريه، وصبره وثباته بوجه سيل الحوادث، تشير الآيتان- محلّ البحث- إلى صبر ثلاثة من أنبياء الله الآخرين فتقول الأولى: «وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ».

ثم تبين الآية الاخرى موهبة إلهية لهؤلاء مقابل الصبر والثبات، فتقول: «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ». وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٢

نجاه يونس من السجن المرعب: تبين هاتان الآيتان جانباً من قصة النبي الكبير يونس عليه السلام، حيث تقول الاولى واذكر يونس إذ ترك قومه المشركين غاضباً عليهم: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا». «النون»: تعنى السمكة العظيمة. أو بتعبير آخر: تعنى الحوت. وبناءً على هذا فإن «ذالنون» معناه صاحب الحوت.

إنه ذهب مغاضباً «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» «١». فقد كان يظن أنه قد أدى كل رسالته بين قومه العاصين، ولم يترك حتى «الأولى فى هذا الشأن، مع أن الأولى هو بقاءه بينهم والصبر والتحمل والتجلى، فلعلهم ينتبهون من غفلتهم ويتجهون إلى الله سبحانه. وأخيراً، ونتيجة تركه الأولى هذا، ضيقنا عليه فابتلعه الحوت «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». فقد ظلمت نفسى، وظلمت قومى، فقد كان ينبغى أن أتقبل وأتحمل أكثر من هذه الشدائد والمصائب، واواجه جميع أنواع التعذيب والآلام منهم فلعلهم يهتدون.

وتقول الآية التالية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ».

جملة «كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» العميقة المعنى توحى بأن ما أصاب يونس من البلاء والنجاه لم يكن حكماً خاصاً، بل حكم عام مع حفظ تسلسل الدرجات والمراتب.

إن كثيراً من الحوادث المؤلمة والإبتلاءات الشديدة والمصائب نتيجة لذنوبنا ومعاصينا، فمتى ما تبتة الإنسان إلى ثلاثة أمور [التي إنبتة إليها يونس فى مثل هذا الظرف فإنه سينجو حتماً:

١- التوجه إلى حقيقة التوحيد، وأنه لا معبود ولا سند إلا الله.

٢- تنزيه الله عن كل عيب ونقص وظلم وجور، وتجنب كل سوء ظن بذاته المقدسه.

٣- الاعتراف بذنبه وتقديره.

فى تفسير الدر المنثور عن سعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى». قلت يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هى ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله «وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ»، فهو شرط من الله لمن دعاه».

(١) «نقدر»: من مادة قدر بمعنى التعسير والتضييق، لأن الإنسان عند التضييق يأخذ من كل شىء قدر محدوداً، لا على نطاق واسع وبدون حساب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٣

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

نجاه زكريا من الوحدة: تبين هاتان الآيتان جانباً من قصة شخصيتين اخريين من أنبياء الله العظماء، وهما زكريا ويحيى عليهما السلام، فتقول الاولى: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

لقد مرت سنين من عمر زكريا، واشتعل رأسه شيباً، ولم يرزق الولد حتى ذلك الحين، ثم أن زوجته كانت عقيماً، وقد كان يأمل أن يرزق ولداً يستطيع أن يكمل مناهجه الإلهية وأعماله التبليغية.



وعندئذ توجه إلى الله بكل وجوده وسأله ولداً صالحاً.

فاستجاب الله هذا الدعاء الخالص المليء بعشق الحقيقة، وحقق امنيته وما كان يصبوا إليه، كما تقول الآية: «فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى . ومن أجل الوصول إلى هذا المراد أصلحنا زوجته وجعلناها قادرة على الإنجاب «وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ». ثم أشار الله سبحانه إلى ثلاث صفات البارزة لهذه الاسرة فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ».

«رغباً»: بمعنى الرغبة والميل والعلاقة؛ و«رهباً»: بمعنى الخوف والرعب؛ و«الخشوع»: هو الخضوع المقرون بالإحترام والأدب، وكذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولية.

إن ذكر هذه الصفات الثلاث ربما تكون إشارة إلى أن هؤلاء عندما يصلون إلى النعمة فلا يبتلون بالغفلة والغرور كما في الأشخاص الماديين من ضعفاء الإيمان.

وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

مريم السيدة الطاهرة: اشير في هذه الآية إلى مقام مريم وعظمتها وعظمه ابنها المسيح عليهما السلام. إن ذكر مريم في ثنايا البحوث التي تتكلم على الأنبياء الكرام؛ إما من أجل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٤

ولدها عيسى عليه السلام، أو لأن ولادته كانت تشبه ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام من جهات متعددة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في ذيل آيات سورة مريم، أو ليوضح أن العظمة غير مختصة بالرجال، بل هناك نساء عظيمات يدل تاريخهن على عظمتهن، وكن قدوة ومثلاً أسمى لنساء العالم. تقول الآية: واذكر مريم، «وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ».

«الفرج»: معناه في اللغة الفاصله والشق، واستعمل كناية عن العضو التناسلي.

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَمَا كُنْتُمْ إِتِنَاءً رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)

امية واحدة: لثما ورد في الآيات السابقة أسماء جمع من أنبياء الله، وكذلك مريم، تلك المرأة التي كانت مثلاً أسمى وجانب من قصصهم، فإن هذه الآيات تستخلص نتيجة مما مر، فنقول: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً». فقد كان منهجهم واحداً، وهدفهم واحداً بالرغم من اختلافهم في الزمان والمحيط والخصائص والأساليب والطرائق.

إن توحيد ووحدة الخطط والأهداف هذه تعود إلى أنها جميعاً تصدر عن مصدر واحد، عن إرادة الله الواحد، ولهذا تقول الآية مباشرة: «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ».

إن توحيد الأنبياء الإعتقادي في الواقع يقوم على أساس وحدة منبع الوحي.

«الامة»: تعني كل جماعة تربطهم جهة مشتركة، وهنا إشارة إلى الأنبياء الذين مر ذكرهم في الآيات السابقة.

وأشارت الآية التالية إلى انحراف جماعة عظيمة من الناس عن أصل التوحيد، فقالت:

«وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ». فقد وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضهم ضد بعض، ويلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ منه، ولم يكتفوا بذلك، بل شهبوا السلاح فيما بينهم، وسفكوا الدماء الكثيرة، وكانت هذه الأحداث نتيجة الانحراف عن أصل التوحيد ودين الله الحق.

«تقطعوا»: من مادة قطع، بمعنى تفريق القطع المتصلة بموضوع واحد. إن أولئك قد إستسلموا أمام عوامل التفرقة والنفاق، ورضوا بأن يبتعد أحدهم عن الآخر، وأنهوا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٥

إتحادهم الفطري والتوحيدي، فمؤوا- نتيجة ذلك- بكل تلك الهزائم والشقاوة.

وتضيف فى النهاية: «كُلِّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ». فَإِنَّ هَذَا الْإِخْتِلَافَ عَرْضِي يُمْكِنُ إِقْتِلَاعُهُ، وَسَيَسِيرُونَ فِي طَرِيقِ الْوَحْدَةِ جَمِيعًا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَتَبَيَّنَ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ نَتِيجَةَ الْإِنْسِجَامِ مَعَ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ فِي طَرِيقِ عِبَادَةِ اللَّهِ، أَوْ الْإِنْحِرَافِ عَنْهَا وَإِتِّخَاذِ طَرِيقِ التَّفْرِقَةِ، فَتَقُولُ: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ». وَمِنْ أَجْلِ زِيَادَةِ التَّأْكِيدِ قَالَتْ: «وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ».

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ككَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْآخَرَى قَدْ عَدَّتِ الْإِيمَانَ شَرْطًا لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَحَرَامٌ عَلَى قَوْمِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) الْكَافِرُونَ عَلَى أَعْتَابِ الْقِيَامَةِ: كَانَ الْكَلَامُ فِي آخِرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ لِلصَّالِحَاتِ، وَتَشِيرُ الْآيَةُ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى الْأَفْرَادِ فِي الطَّرْفِ الْمَقَابِلِ لُولِيِّكَ، وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَمَرُّوا فِي الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ إِلَى آخِرِ نَفْسٍ، فَتَقُولُ: «وَحَرَامٌ عَلَى قَوْمِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ».

إِنَّ هَؤُلَاءِ أَنْاسٍ تَرْفَعُ الْحُجُبَ عَنْ أَعْيُنِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ بَعْدَ مَشَاهِدَةِ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ، أَوْ بَعْدَ فَنَائِهِمْ وَإِنْتِقَالِهِمْ إِلَى عَالَمِ الْبَرَزَخِ، وَعِنْدَهَا يَأْمَلُونَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الدُّنْيَا لِيُصْلِحُوا أَسْخَاءَهُمْ وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، إِلَّا أَنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ بِصِرَاحَةٍ: إِنَّ رَجُوعَ هَؤُلَاءِ حَرَامٌ تَمَامًا، وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ لَجِبْرَانٍ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَغْفَلِينَ فِي غُرُورٍ وَغَفْلَةٍ عَلَى الدَّوَامِ، وَتَسْتَمِرُّ هَذِهِ التَّعَاسَةُ حَتَّى نَهَايَةِ الْعَالَمِ، كَمَا يَقُولُ الْقُرْآنُ: «حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ».

فَتَقُولُ مَبَاشِرَةً: «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا». لِأَنَّ الرَّعْبَ يَسِيطِرُ عَلَى وَجُودِهِمْ إِلَى حَدِّ أَنْ عَيُونِهِمْ تَتَوَقَّفُ عَنِ الْحَرَكَةِ وَتَصْبِحُ جَاخِظَةً لَدَى نَظَرِهِمْ إِلَى تِلْكَ الْحَوَادِثِ.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٤

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ تَرْفَعُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ حُجُبُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ، فَيَرْتَفِعُ صَوْتُهُمْ: «يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا». وَلَمَّا كَانُوا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَغْطِيَةِ ذَنْبِهِمْ بِهَذَا الْعُذْرِ لِيَبْرِئُوا أَنْفُسَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ بِصِرَاحَةٍ: «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ».

كَيْفَ يُمْكِنُ عَادَةً مَعَ وَجُودِ كُلِّ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْكَتَبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَكُلِّ هَذِهِ الْحَوَادِثِ الْمَثِيرَةِ وَالْعَبْرِ وَالِدَّرُوسِ أَنْ يَكُونُوا فِي غَفْلَةٍ؟ إِنَّ مَا صَدَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ تَقْصِيرٍ وَظَلَمٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلْآخَرِينَ.

«حَدَبٌ»: عَلَى زَنَةِ «أَدَبٍ» مَعْنَاهُ مَا إِرْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ بَيْنَ مَنْخَفِضَاتِهَا، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا إِرْتَفَعَ وَبَرَزَ مِنْ ظَهْرِ الْإِنْسَانِ أَيْضًا.

«ينسلون»: مِنْ مَادَّةِ «نَسُولٍ» (عَلَى وَزْنِ فَضُولٍ)، أَيْ الْخُرُوجِ بِسُرْعَةٍ.

«شَاخِصَةٌ»: مِنَ الشَّخْصِ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ الْخُرُوجُ مِنَ الْمَنْزِلِ، أَوْ الْخُرُوجُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَلَمَّا كَانَتِ الْعَيْنُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ وَالِدَهْشَةِ كَانَتْهَا تَرِيدُ الْخُرُوجَ مِنَ الْحَدِيقَةِ، فَقَدْ قِيلَ لِذَلِكَ «شَخْصٌ» إِنَّ هَذِهِ هِيَ حَالَةُ الْمَدْنِيِّينَ الْعَاصِينَ فِي الْقِيَامَةِ يَصْبِحُونَ حَائِرِينَ كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ تَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَحْدَاقِهِمْ.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْبَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَمَّا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْرُغُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

حَصْبُ جَهَنَّمَ: مُتَابِعَةٌ لِلْبَحْثِ السَّابِقِ عَنِ مَصِيرِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ، فَقَدْ وَجَّهَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْخُطَابَ إِلَيْهِمْ، وَجَسَّدَتْ مُسْتَقْبَلَهُمْ وَمُسْتَقْبَلَ آلِهَتِهِمْ بِهَذِهِ الصُّورَةِ: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ». «الْحَصْبُ»: فِي الْأَصْلِ يَعْنِي الرَّمَى وَالْإِلْقَاءَ، وَتَقَالُ بِالذَّاتِ لِلِإِلْقَاءِ قَطْعَ الْحَطْبِ فِي النَّوْرِ.

إِنَّكُمْ وَالْهَتَكُمْ سَتَكُونُونَ حَطْبُ جَهَنَّمَ، وَسَتَلْقَوْنَ الْوَاحِدَ تَلُو الْآخِرِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ كَقَطْعِ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٧

الحطب التي لا قيمة لها، ثم تضيف: «أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ». إنهم يلقون آلهتكم في النار أولاً، ثم تردون عليها، فكأن آلهتكم تستقبلكم وتستضيفكم بالنار المنبعثة من وجودها.

ثم تقول كاستخلاص للنتيجة: «لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ إِيَّاهُ مَأْوَىٰ رَبُّوهُمْ». ولكن اعلموا أنهم لا يدخلون جهنم وحسب، بل «وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ». ولمزيد الإيضاح عن حال هؤلاء «العابدين الضالين» المؤلمة المخزية قبال «آلهتهم الحقيرة»، تقول الآية محل البحث: «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ». «الزفير»: في الأصل يعنى الصراخ المقترن بإخراج النفس. وهنا إشارة إلى الصراخ أو الضجيج المنبعث من الحزن وشدة الكرب. إن هذا الزفير أو الأنين المؤلم لا يكون مقتصرًا على العباد فحسب، بل إن معبوداتهم من الشياطين أيضاً يصرخون معهم. ثم تذكر الجملة التالية أحد العقوبات الاخرى المؤلمة لهؤلاء، وهي «وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ». وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى أن هؤلاء لا يسمعون الكلام الذي يسرهم ويبهجهم، بل يسمعون أنين أهل جهنم المؤلم المنعص وصراخ ملائكة العذاب فقط. وقال بعضهم: إن المراد هو أن هؤلاء يوضعون في توابيت من نار بحيث لا يسمعون صوت أى أحد أبداً، فكأنهم لوحدهم في العذاب، وهذا بنفسه يعتبر عقوبة أشد.

ثم تبين الآية التالية حالات المؤمنين الحقيقيين من الرجال والنساء ليتبين وضع الفريقين من خلال المقارنة بينهما، فتقول أولاً: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ». وهو إشارة إلى أننا سنفي بكل الوعود التي وعدنا بها المؤمنين في هذه الدنيا، وأحدها إبعادهم عن نار جهنم. وتذكر الآيات الأخيرتان أربع نعم إلهية كبرى تغمر هذه الطائفة السعيدة.

فالاولى: إنهم «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً» و «الحسيس»: الصوت المحسوس، وجاءت أيضاً بمعنى الحركة، أو الصوت الناشئ من الحركة، ونار الجحيم المشتعلة دائماً لها صوت خاص، وهذا الصوت مرعب من جهتين: من جهة أنه صوت النار، ومن جهة أنه صوت حركة النار والتهاهما.

والثانية: إنهم «وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ». فليس حالهم كما في هذه الدنيا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٨

المحدودة، فإنهم ينالون كل نعمه يريدونها، مادية كانت أو معنوية، وليس ذلك على مدى يوم أو يومين، بل على إمتداد الخلود. والثالثة: إنهم «لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ». وقد اعتبر بعضهم أن هذا الفرع الأكبر إشارة إلى أهوال يوم القيامة التي هي أكبر من كل هول وفرع.

والرابعة: من أ لطف الله تعالى لهؤلاء هو ما ذكرته الآية محل البحث: «وَتَلَقُّهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ». يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)

يوم تطوى السماء: قرأنا في آخر آية من الآيات السابقة أن المؤمنين آمنون من الفرع الأكبر وهمه، وتجسم هذه الآية رعب ذلك اليوم العظيم، وفي الحقيقة تبين وتجسد عله عظمه وضخامه هذا الرعب، فتقول: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» «١».

وفي هذه الآية تشبيه لطيف لطي سجل عالم الوجود عند إنتهاء الدنيا، ففي الوقت الحاضر فإن هذا السجل مفتوح، وتقرأ كل رسومه وخطوطه، وكل منها في مكان معين، أما إذا صدر الأمر الإلهي بقيام القيامة فإن هذا السجل العظيم سيطوى بكل رسومه وخطوطه.

ثم تضيف: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ».

وفي النهاية تقول الآية: «وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ».

ويستفاد من بعض الروايات أن المراد من رجوع الناس إلى الحالة الاولى، هو أنهم يرجعون حفاة عراة مرة اخرى كما كانوا في بداية الخلق. وهذا أحد صور رجوع الخلق إلى الصورة الاولى.

سيحكم الصالحون الأرض: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى جانب من ثواب المؤمنين الصالحين، فقد أشارت السورة في هاتين الآيتين إلى أحد أوضح المكافآت الدنيوية لهؤلاء،

(١) «السَّجَل»: الدلو العظيمة؛ و «السَّجَل» حجر كان يكتب فيه، ثم سُمي كل ما يكتب فيه سجلاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٩

فتقول: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

«الأرض»: تطلق على مجموع الكرة الأرضية. «الإرث»: يعني إنتقال الشيء إلى شخص بدون معاملة وأخذ وعطاء.

إن المراد من الزبور كتاب داود، والذكر بمعنى التوراة.

إن كلمة الصالحون لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كل المؤهلات، الأهلية من ناحية التقوى، والعلم والوعى، ومن جهة القدرة والقوة، ومن جانب التدبير والتنظيم والإدراك الاجتماعي.

إن الآية التالية تقول من باب التأكيد المشدد: «إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عِدِينَ».

لقد فسرت هذه الآية في بعض الروايات بأصحاب المهدي عليه السلام، وهو بيان مصداق عال وواضح، ولا تحد من عمومية مفهوم الآية مطلقاً.

إن نظام الخلق سيكون دليلاً واضحاً على قبول نظام اجتماعي صحيح في المستقبل، في عالم الإنسانية، وهذا هو الذي يستفاد من الآية مورد البحث، والأحاديث المرتبطة بقيام المصلح العالمي العظيم، المهدي الموعود.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنِ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

النبى رحمة للعالمين: لما كانت الآيات السابقة قد بشرت العباد الصالحين بوراثه الأرض وحكمها، ومثل هذه الحكومة أساس الرحمة لكل البشر، فإن الآية الاولى أشارت إلى رحمة وجود النبى صلى الله عليه وآله العامة، فقالت: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ». فإن عامة البشر فى الدنيا، سواء الكافر منهم والمؤمن، مشمولون لرحمتك، لأنك تكفلت بنشر الدين الذى يُنقذ الجميع.

إن التعبير ب «العالمين» له إطار واسع يشمل كل البشر وعلى إمتداد الأعصار والقرون،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٠

ولهذا يعتبرون هذه الآية إشارة إلى خاتمية نبى الإسلام، لأن وجوده رحمة وقدوة لكل الناس إلى نهاية الدنيا.

ولما كان أهم مظهر من مظاهر الرحمة، وأثبت دعامة لذلك هى مسألة التوحيد وتجلياته، فإن الآية التالية تقول: «قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

وهذه الآية فى الواقع تشير إلى ثلاث نقاط مهمة:

الاولى: إن التوحيد هو الدعامة الأساسية للرحمة، التوحيد فى الإعتقاد، وفى العمل، والتوحيد فى الكلمة، وتوحيد الصفوف، وفى القانون وفى كل شىء.

الثانية: إن كل دعوات الأنبياء تتلخص فى أصل التوحيد، والتوحيد كالروح السارية فى البدن.

والنقطة الثالثة: إن المشكلة الأساسية فى جميع المجتمعات هى التلوث بالشرك بأشكال مختلفة، لأن جملة «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» توحى بأن المشكلة الأساسية هى الخروج من الشرك ومظاهره، ورفع اليد عن الأصنام وتحطيمها، ليس الأصنام الحجرية والخشبية فحسب، بل كل الأصنام، وفى أى شكل كانت، وخاصة طواغيت البشر.

ثم تقول الآية التالية: إنهم إذا لم يدعونا ويهتموا لدعواتنا ونداءاتنا هذه «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتَكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ». «آذنت»: من مادة الإيدان، أى الإعلان المقترن بالتهديد، والظاهر أن النبي أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفره وإبتعاده عن اولئك، ويبيّن بأنه قد يشس منهم تماماً. ثم يبيّن هذا التهديد بصورة أوضح، فيقول بأنى لا أعلم هل أن موعد عذابكم قريب أم بعيد: «وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ». فلا تظنوا أن هذا الوعيد بعيد، فربما كان قريباً وقريباً جداً.

قد يكون المراد من العذاب والعقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، فى الصورة الاولى هو مختص بعلم الله، ولا يعلم أى أحد تاريخ وقوع القيامة بدقة حتى أنبياء الله، وفى الصورة الثانية والثالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته وزمانه، وأنا لا أعلم بجزئياته.

ثم إنكم لا ينبغي أن تتوهموا أن عقوبتكم إذا تأخرت فهذا يعنى أن الله غير مطلع على أعمالكم وأقوالكم، فهو يعلم كل شىء، ف «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ».

فإن الجهر والإخفاء له معنى بالنسبة لكم حيث إن علمكم محدود عادةً، أما بالنسبة لمن لا حدود لعلمه، فإن الغيب والشهادة، والسر والعلن سواء لديه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨١

وكذلك إذا رأيتم أن العقوبة الإلهية لا تحيط بكم فوراً، فلا تظنوا أن الله سبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعله إمتحان لكم: «وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهٗ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ». ثم يأخذكم أشد مأخذ ويعاقبكم أشد عقاب. لقد أوضحت الآية فى الواقع حكمتين لتأخير العذاب الإلهي:

الاولى: مسألة الامتحان والاختبار، فإن الله سبحانه لا يعجل فى العذاب أبداً حتى يمتحن الخلق بالقدر الكافى، ويتم الحجج عليهم. والثانية: إن هناك أفراداً قد تم اختبارهم وحققت عليهم كلمة العذاب حتماً، إلا أن الله سبحانه يوسع عليهم النعمة ليشدد عليهم العذاب، فإذا ما غرقوا فى النعمة تماماً، وغاصوا فى اللذائذ، أهوى عليهم بسوط العذاب ليكون أشد وألم، وليحسوا جيداً بألم وعذاب المحرومين والمضطهدين.

وتتحدث آخر آية هنا- وهى آخر آية من سورة الأنبياء- كآية الاولى من هذه السورة عن غفلة الناس الجهال، فتقول حكاية عن النبي صلى الله عليه وآله فى عبارة تشبه اللعن، وتعكس معاناته صلى الله عليه وآله من كل هذا الغرور والغفلة، وتقول: إن النبي صلى الله عليه وآله بعد مشاهدة كل هذا الإعراض «قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» (١). وفى الجملة الثانية يوجه الخطاب إلى المخالفين ويقول: «وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ».

إنه يتبه هؤلاء بكلمة (ربنا) إلى هذه الحقيقة، وهى أننا جميعاً مريبون ومخلوقون، وهو ربنا وخالقنا جميعاً. والتعبير ب «الرحمن»، والذى يشير إلى الرحمة العامة، يعيد إلى أسماع هؤلاء أن الرحمة الإلهية قد عمّت كل وجودنا، فلماذا لا تفكروا لحظة فى خالق كل هذه النعمة والرحمة.

وجملة «الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» يحذر هؤلاء بأن لا تظنوا أنا وحيدون أمام جمعكم وكثرتكم، ولا تتصوروا أن كل إتهاماتكم وأكاذيبكم، سواء كانت على ذات الله المقدسة، أو علينا، ستبقى بدون جواب وجزاء، كلاً مطلقاً، فإنه تعالى سندننا ومعتمدنا جميعاً، وهو قادر على أن يدافع عن عباده المؤمنين أمام كل أشكال الكذب والإفراء والإتهام. «نهاية تفسير سورة الأنبياء»

(١) لا شك أن حكم الله سبحانه بالحق دائماً، وعلى هذا فإن ذكر كلمة (بالحق) هنا له صبغة التوضيح.

## ٢٢ سورة الحج

محتوى السورة: سميت هذه السورة ب «سورة الحج» لأن جزءاً من آياتها تحدت عن الحج. ويمكن تقسيم مواضعها إلى عدده أقسام هي:

- ١- تضمنت آيات منها موضوع «المعاد» وأدلته المنطقية، وإنذار الغافلين عن يوم القيامة ونظائر ذلك التي تبدأ هذه السورة بها لتضم جزءاً كبيراً منها.
  - ٢- يتضمن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك والمشركين.
  - ٣- دعا جزء آخر من هذه السورة الناس إلى الاعتبار بمصير الأقوام البائدة، وما لاقت من عذاب إلهي.
  - ٤- وتناول جزء آخر منها مسألة الحج وتاريخه منذ عهد إبراهيم عليه السلام.
  - ٥- وتضمن الجزء الآخر مقاومة الظالمين والتصدي لأعداء الإسلام المحاربين.
  - ٦- وإحتوى قسم آخر نصائح في مجالات الحياة المختلفة.
  - ٧- التشجيع على أعمال الصلاة والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوكل والتوجه إلى الله (سبحانه وتعالى).
- فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الحج اعطى من الأجر كحجته حجها، وعمره اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٤

وهذا الثواب والفضل العظيم ليس لمجرد التلاوة اللفظية فقط، وإنما لتلاوة تنير الفكر، وتفكر يتبعه عمل وتطبيق.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

زلزلة البعث العظيمة: تبدأ هذه السورة بآيتين تشيران إلى يوم البعث ومقدماته، وهما آيتان تبعدان الإنسان - دون إرادته - عن هذه الحياة المادية العابرة، ليفكر بالمستقبل المخيف الذي ينتظره، المستقبل الذي سيكون جميلاً وسعيداً إن فكرت فيه اليوم، ولكنه مخيف حقاً إن لم تعد العدة له، والآية المباركة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ». خطاب للناس جميعاً بلا استثناء، فقله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحية العنصر، واللغة، والزمان، والأماكن الجغرافية، والطوائف، والقبائل، فهو موجه للجميع: المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والشيخ والشاب، والرجل والمرأة، على إمتداد العصور.

ثم بينت الآية التالية في عدده جمل إنعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: «يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ» من شدة الوحشة والرعب.

«وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا».

وثالث إنعكاس لهذا الذعر الشديد: «وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ . وعلة ذلك هو شدة العذاب في ذلك اليوم «وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». هذا العذاب الذي أربع الناس وأفقدهم صوابهم.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)

أتباع الشيطان: بعد أن أعطت الآيات السابقة صورة لرعب الناس حين وقوع زلزلة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٥

القيامة، أوضحت الآيات اللاحقة حالة أولئك الذين نسوا الله، وكيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

نجد هؤلاء الناس يجادلون مرّة في أساس التوحيد ووحداية الحق تبارك وتعالى، ومرّة يجادلون في قدرة الله على إحياء الموتى، وفي البعث والنشور، ولا دليل لهم على ما يقولون.

ثم تضيف هذه الآية: «وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ». فهؤلاء الأشخاص الذين لا يتبعون منطقاً أو علماً، وإنما يتبعون كل شيطان عنيد ومتمرد، ولا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس والجن، الذين لكل منهم برنامج وأحاييله وشراكه. «مرید»: مشتقة من «مَرَدَ» وأصلها الأرض المرتفعة التي لا نبت فيها. وهنا يقصد بـ «المرید» الشخص الذي خلا من أى خير وسعادة. وطبعي أن يكون مثل هذا الشخص عنيداً وظالماً وعاصياً.

ومن هنا كانت الآية اللاحقة: «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ» (١).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّتَبَيَّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)

دليل المعاد في عالم الأجنة والنبات: بما أن البحث في الآيات السابقة كان يدور حول

(١) «السعير»: مشتقة من «سَعَرَ» بمعنى لهب النار، وتعني هنا نار جهنم الحارقة التي تمتاز بأنها أكثر حرماً من أى نار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٦

تشكيك المخالفين للمبدأ والمعاد، فالآيات محل البحث طرحت دليلين منطقيين قويين لإثبات المعاد الجسماني: أحدهما التغيرات التي تحدث في مراحل تكوين الجنين، والآخر هو التغيرات التي تحدث في الأرض عند خروج النبات. والخطاب القرآني يعم جميع الناس بنوره: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ» (١). كل ذلك من أجل أن نوضح لكم حقيقة قدرتنا على القيام بأى عمل «لِّتَبَيَّنَ لَكُمْ». فتبقى الأجنة في الأرحام إلى مدة معلومة نحن نحددها لتمرّ بمراحل تكاملها، ونسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام في وسط الطريق قبل أن تكمل «وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم تبدأ الأجنة مرحلة تطور جديدة، لنخرجكم أطفالاً من أرحام امهاتكم، «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً» وبهذا تنتهي مرحلة حياتكم المحددة في بطون امهاتكم. فتضعون أقدامكم في محيط أوسع مملوء بالنور والصفاء، وإمكانات واسعة جداً، إلماً أنّ تكاملكم يستمر في قطع المسافات بسرعة لتبلغوا الهدف، ألا وهو الرشد والكمال الجسمي والعقلي، «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ». وهنا يتبدل الجهل إلى علم، والضعف إلى قوة، والتبعية إلى الاستقلال، لكن مسيرة حياتكم تطوى وتستمر فبعضكم يودع الحياة بينما يستمر آخرون حتى المرحلة الأخيرة من الحياة، أى مرحلة الشيخوخة بعد تكاملهم: «وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ».

أجل، فالمرء يصل إلى مرحلة لا يتذكر فيها شيئاً، حيث يسيطر عليه النسيان، ويصبح في وضع وكأنه طفل «لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا». وهذا الضعف والخمول دليل على بلوغ المرء مرحلة إنتقالية جديدة كما نجد ضعف التحام الثمرة بالشجرة حين تبلغ مرحلة النضج مما يدل على وصولها إلى مرحلة الانفصال.

ثم تتناول الآية بيان الدليل الثاني أى حياة النباتات، فتبين ما يلي: انظر إلى الأرض في فصل الشتاء فتجدها جافّة وميته، فإذا سقط المطر وحلّ الربيع، دبّت الحياة والحركة فيها ونبتت أنواع النباتات فيها ونمت «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» (٢).

(١) «المضغ»: مشتقة من «المضغ» وتعني مقداراً من اللحم يمكن للإنسان مضغه في لقمة واحدة، وهذا تشبيه رائع للجنين في المرحلة التي تعقب مرحلة العلقه.

(٢) «الهامدة»: تعني في الأصل النار التي أطفئت، ويطلق على الأرض التي جفت نباتاتها وأصبحت دون حركة (مفردات الراغب الاصفهاني). والبعض الآخر قال: إن كلمة «هامدة» تطلق على الحد الفاصل بين الموت والحياة (تفسير في ظلال القرآن). «إهتزت»: مشتقة من «الهز» وتعني تحركت بشدة.

«ربت»: مشتقة من «الربو» وتعني الزيادة والنمو، كما أن كلمة «ربا» مشتقة أيضاً من «الربو».

«بهيج»: تعني الجميل الساحر السار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٧

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصلنا إليه، وذلك باستعراض خمس ملاحظات:

١- إن ما استعرضته الآيات الخاصة بالمراحل التي تسبق مراحل الحياة للإنسان وعالم النبات، من أجل أن تعلموا أن الله تعالى حق ذلك بأن الله هو الحق، وبما أنه هو الحق، فالنظام الذي خلقه حق أيضاً، لهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق دون هدف. وبما أن هذه الحياة ليست عبثاً، وأن لها هدفاً، وأنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف في حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد والبعث حتماً.

٢- إن هذا النظام الذي يسيطر على عالم الحياة يقول لنا «وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى . إن الذي يلبس الأرض لباس الحياة، ويغير النطفة التافهة إلى إنسان كامل، ويمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى.

٣- الهدف الآخر هو أن نعلم «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ولا يستحيل على قدرته شيء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة، ويطور هذه النطفة التافهة في مراحل الحياة، أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيي الإنسان بعد موته؟!

٤- إن كل هذا لتعلموا أن ساعة نهاية هذا العالم وبداية عالم آخر، ستحل بلا شك فيها «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْتَابٍ فِيهَا».

٥- ثم إن كل هذا مقدمة لنتيجة أخيرة هي «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ».

وعلى هذا الأساس أن البعث ليس ممكن فحسب، بل إنه سيقع حتماً.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

الجدال بالباطل مرة أخرى: تتحدث هذه الآيات أيضاً عن جدالون في المبدأ والمعاد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٨

جدالاً خاويلاً لا أساس له، في البداية يقول القرآن المجيد: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ». وعبارة «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» هي ذاتها التي ذكرت في آية سابقة، والآية السابقة الذكر داله على وضع الأتباع الضالين الغافلين، في وقت تكون فيه هذه الآية داله على قادة هذه المجموعة الضالة.

إن «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلي؛ و «الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الربانيين؛ و «الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماوية، أي أنها تعني الأدلة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و «السنة» و «الدليل العقلي».

ثم يتطرق القرآن المجيد في جملة قصيرة عميقة المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: «ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». إنهم يريدون أن يضلوا الناس عن سبيل الله بغرورهم وعدم إهتمامهم بكلام الله وبالآدلة العقلية الواضحة.

«ثاني»: مشتقة من «ثنى» بمعنى التواء؛ و «عطف»: تعني «جانب» فالجملة تعني ثنى الجانب، أي الإعراض عن الشيء وعدم الإهتمام به.



ويعقب القرآن ذلك ببيان عقابهم الشديد في الدنيا والآخرة بهذه الصورة: «لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ». ونقول له: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ». لا يعاقب الله أحداً بلا ذنب، ولا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه «١».

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَ لَيْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)

(١) «ظلام»: صيغة مبالغة تعنى كثير الظلم. وطبعي أن الله لا يظلم أبداً لا كثيراً ولا قليلاً، ويمكن أن يكون استخدام هذا التعبير هنا إشارة إلى أن العقاب دون مبرر من قبل الله تعالى - جل عن ذلك وعلا علواً كبيراً - مصداق ظلم كبير.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٩

سبب التزلزل

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت هذه الآية «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ» في جماعه كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة. فكان أحدهم إذا صح جسمه ونتجت فرسه وولدت امرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضى به، واطمأن إليه، وإن أصابه وجع في المدينة، وولدت امرأته جارية، قال: ما أصبت في هذا الدين إلا شراً.

التفسير

الواقف على حافة وادى الكفر: تحدثت الآيات السابقة عن مجموعتين: الأتباع الضالين، والقادة المضلين، أما هذه الآيات، فتحدثت عن مجموعة ثالثة هم ضعاف الإيمان، قال القرآن المجيد عن هذه المجموعة: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ». أى إن بعض الناس يعبد الله بقلقه لسان، وإن إيمانه ضعيف جداً، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه.

ثم تناول القرآن الكريم عدم ثبات الإيمان لدى هؤلاء الأشخاص «فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ». إنهم يطمئنون إذا ضحكت لهم الدنيا وغمرتهم بخيراتهما، ويعتبرون ذلك دليلاً على أحقية الإسلام، إلا أنهم يتغيرون ويتجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالدين والإيمان لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون في هذه الدنيا، فإن تم ما يبتغونه كان الدين حقاً، وإلا فلا.

ويضيف القرآن المجيد في الختام: «خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» و «ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ». مؤكداً أن أفدح الضرر وأفظع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه ودنياه.

وتشير الآية التالية إلى إعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصة بعد الإنحراف عن صراط التوحيد والإيمان بالله، فتقول: «يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ». أى إذا كان هذا الإنسان يسعى إلى تحقيق مصالحه المادية والإبتعاد عن الخسائر ويرى صحة الدين في إقبال الدنيا عليه، وبطلانه في إدمارها عنه، فلماذا يتوجه إلى أصنام لا يؤمل منها خير، ولا يخاف منها ضرر، فهي أشياء لا فائدة فيها، ولا أثر لها في مصير البشر. أجل، «ذَلِكَ هُوَ الضَّلُّ الْبَعِيدُ». إن هؤلاء لبيتعدون عن الصراط المستقيم بعداً حتى لا ترجى عودتهم إلى الحق إلا رجاءً ضعيفاً جداً.

ويوسع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: «يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ». لأن هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض في هذه الدنيا، ويدفعهم نحو الخرافات والجهل، ويدعهم في الآخرة في نار جهنم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٠

وتضيف الآية في الختام: «لَيْسَ الْمَوْلَى وَ لَيْسَ الْعَشِيرُ». فما أسوأ ناصرًا ومعينًا، وما أسوأ مؤنسًا ومعاشرًا.

وفي ختام الآية المباركة نلاحظ مقارنة بين الخير والشر كما هو دأب القرآن الكريم لتتضح النتائج بشكل أكبر، فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». فعاقبتهم معلومة ومنهج تفكيرهم وسلوكهم واضح فمولاهم هو الله تعالى، ورفاقهم وجلساؤهم في الآخرة هم الأنبياء والصالحون والملائكة، وأن الله سبحانه يثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنات تجري من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة والسرور جزاء إستقامتهم على الحق وإستجابتهم له في الحياة الدنيا «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ». وثوابهم يسير عليه - جلّ وعلا- يُشِيرَ عقاب الذين ظلموا أنفسهم بإيثار الباطل على الحق، وعبادتهم الأصنام من دون الله سبحانه.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهَبِنَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

البعث نهاية جميع الخلافات: بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن ضعفاء الإيمان، فإن الآيات مورد البحث ترسم لنا صورة أخرى عن هؤلاء فتقول: «مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهَبِنَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ». هذه الآية تركّز على ملاحظة نفسه تخصّ الأشخاص الحادى المزاج، والضعفى الإيمان الذين يصابون بالهلع ويرتكبون أعمالاً جنونية كلما بلغت امورهم طريقاً مسدوداً فى الظاهر.

وأشارت الآية التالية إلى خلاصة الآيات السابقة، فقالت: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

لقد أوضحت الآيات السابقة أدلة المعاد والبعث، كالمراحل التى يمرّ بها الجنين الإنسانى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩١

ونموّ النباتات وإحياء الأرض بعد موتها، ولكن هذه الأدلة الواضحة والبراهين الدامغة لا تكفى لتقبّل الحق، بل لابد من إستعداد ذاتى لذلك. ولهذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية:

«وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ».

وأشارت آخر الآية هنا إلى ستّ فئات، إحداها مسلمة مؤمنة، وخمس منها غير مسلمة:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

الوجود كله يسجد لله: بما أن الحديث فى الآيات السابقة كان عن المبدأ والمعاد، فإن الآية- موضع البحث- بطرحها مسألة التوحيد، قد أكملت دائرة المبدأ والمعاد، وتخطب النبى صلى الله عليه وآله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ». ولا يقتصر الحال على هذه المخلوقات، بل إن الكثير من الناس يشاركون عالم الموجود بالسجود لله تعالى سوى بعض الكفار الذين يتحركون من موقع العناد والجحود: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ». ثم تضيف: وهؤلاء ليست لهم قيمة عند الله تعالى، ومن كان كذلك فهو مهان: «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ». أى إن من يهينه الله لا يكرمه أحد، وليست له سعادة ولا أجر، حقاً «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». فهو يكرم المؤمنين به، ويذل المنكرين له.

إنّ للموجودات مع ملاحظة ما ورد فى الآية- موضع البحث- شكلين من السجود:

«سجود تكوينى» و «سجود تشريعى».

فالسجود التكوينى هو الخضوع والتسليم لإرادة الله ونواميس الخلق والنظام المسيطر على هذا العالم دون قيد أو شرط، وهو يشمل

ذرات المخلوقات كلها، حتى أنه يشمل خلايا أدمغة الفراعنة والمنكرين العنودين وذرات أجسامهم فالجميع يسجدون لله تعالى تكويناً.

وحسبما يقوله عدد من الباحثين، فإن ذرات العالم كلها لها نوع من الإدراك والشعور، ولذا يسبحون الله ويحمدونه ويسجدون له ويصلون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلك في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٢

تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء) وإذا رفضنا هذا النوع من الإدراك والشعور، فلا مجال لإنكار تسليم الكائنات جميعاً للقوانين الحاكمة على نظام الوجود كله.

أما «السجود التشريعي» فهو غاية الخضوع من العقلاء المدركين العارفين لله سبحانه.

هَذَا خَصِيْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية «هَذَا خَصِيْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ» في ستة نفر من المؤمنين والكفار، تبارزوا يوم بدر وهم: حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة وعلى بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عقبه، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب قتل شيبه بن ربيعة.

التفسير

خصمان متقابلان: أشارت الآية السابقة إلى المؤمنين وطوائف مختلفة من الكفار، وحددتهم بست فئات. أمّا هنا فتقول: «هَذَا خَصِيْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ».

ثم تبيّن الآية أربعة أنواع من عقاب الكافرين المنكرين لله تعالى بوعى منهم، والعقاب الأول حول لباسهم، فتقول الآية: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ».

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى لباسهم الذي اعد لهم من قطع من نار، أو كناية عن إحاطة نار جهنم بهم من كل جانب.

ثم: «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ». أي يصب على رؤوسهم سائل حارق هو حميم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٣

النار، وهذا الماء الحارق الفؤار ينفذ إلى داخل أبدانهم ليذيب باطنها وظاهرها «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ» (١).

وثالث نوع من العقاب هو: «وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ» (٢). أي اعدت لهم أسواط من الحديد المحرق.

والرابع: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». أي كلما أرادوا الخروج من جهنم والخلاص من آلامها وهمومها اعيدوا إليها، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

وأوضحت الآيات التالية وضع المؤمنين الصالحين، مستخدمة أسلوب المقارنة، لتكشف بها عن وضع هاتين المجموعتين، وهنا تستعرض هذه الآيات خمسة أنواع من المكافآت للمؤمنين: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

فخلافًا للمجموعة الأولى الذين يتقلبون في نار جهنم، نجد أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بنعيم رياض الجنة على ضفاف الأنهر وهذه هي المكافأة الأولى، وأمّا لباسهم وزينتهم فتقول الآية: «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» (٣).

وهاتان مكافأتان يمن الله بهما كذلك على عباده العالمين في الجنة، يهبهم أفخر الملابس التي حرموا منها في الدنيا، ويحلبهم بزينة الأساور التي منعوا عنها في الحياة الاولى، لأنها كانت تؤدي إلى إصابتهم بالغرور والغفلة، وتكون سبباً لحرمان الآخرين وفقدهم، أما في الجنة فينتهي هذا المنع ويباح للمؤمنين لباس الحرير والحلى وغيرها.

وأخيراً الهبة الرابعة والخامسة التي يهبها الله للمؤمنين الصالحين ذات سمة روحانية «وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ» حديث ينمي الروح. وألفاظ تثير حيوية الإنسان، وكلمات ملؤها النقاء والصفاء التي تبلغ بالروح درجة الكمال وتملأ القلب بهجةً وسروراً، «وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» (٤). هكذا يهدون إلى طريق الله الحميد، الجدير بالثناء، طريق معرفة الله

(١) «يصهر»: مشتقة من «صهر» على وزن «قهر» وتعني تذويب الشحم؛ أما «الصهر» على وزن «فكر» فتعني النسيب.

(٢) «المقامع»: جمع «مقمع» على وزن «منبر» وتعني السوط أو العمود الحديدي يضرب به المذنب عقاباً له.

(٣) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهي بدورها جمع لكلمة «سوار» على وزن «كتاب» وتعني المعضد.

(٤) «الحميد»: تعني المحمود، وتطلق على من يستحق الثناء، وهنا يقصد بها الله تعالى، وعلى هذا فإن «الصراط الحميد» يعني السبيل إلى مقام مقرب من الله تعالى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٤

والتقرب المعنوي والروحي إليه، سبيل العشق والعرفان. حقاً إن الله يهدي المؤمنين إلى هذا الطريق الذي ينتهي إلى أعلى درجات اللذة الروحية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)

الذين يصدون عن بيت الله الحرام: تحدثت الآيات السابقة عن عامة الكفار، وهذه الآية تشير إلى مجموعة خاصة منهم باءت بمخالفات وذنوب عظيمة، ذات علاقة بالمسجد الحرام ومراسم الحج العظيم. تبدأ هذه الآية ب «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

وكذلك يصدون ويمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ». أي سواء المقيمون فيه والذين يقصدونه من مكان بعيد. «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ». أي كل من أراد الانحراف في هذه الأرض المقدسة عن الحق ومارس الظلم والجور أذقناه عذاباً أليماً.

وهذه الفئة من الكفار ترتكب ثلاث جرائم كبيرة، إضافة إلى إنكارها الحق، وجرائمها هي:

١- صد الناس عن سبيل الله والإيمان به والطاعة له.

٢- صدّهم عن حج بيت الله الحرام، وتوهم أن لهم امتيازاً عن الآخرين.

٣- ممارستهم للظلم وإرتكابهم الإثم في هذه الأرض المقدسة، والله يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَآذَنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْتَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٥

الدعوة العامة للحج: تناولت الآية السابقة قضية المسجد الحرام وحجاج بيت الله، أما هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبة على يد إبراهيم الخليل عليه السلام، ووجوب الحج وفلسفته، وبعض أحكام هذه العبادة الجليلة. إذ بدأت بقصة تجديد بناء الكعبة: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ

مَكَانَ الْبَيْتِ». أى تذكر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبة ليقوم ببنائها.

«بؤاً»: مشتقة من بواء، أى الأرض المسطحة، ثم أطلقت على إعداد المكان مطلقاً.

وتقصّد هذه الآية أنّ الله هدى إبراهيم عليه السلام إلى مكان الكعبة بعد أن هدّمت بطوفان نوح وخفيت معالمها، إذ حدثت عاصفة فأزالت التراب وكشفت عن أسس البيت، أو بعث الله سبحانه ظلّلت مكان البيت، أو بأى أسلوب آخر كشف الله لإبراهيم عليه السلام أسس الكعبة، فقام هو وإبنة إسماعيل عليهما السلام بتجديد بناء بيت الله الحرام.

وتضيف الآية الكريمة أنّه عندما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم عليه السلام: «أَنْ لَأُشْرِكُ بِى شَيْئًا وَطَهَّرْتُ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

فمهميّة إبراهيم عليه السلام كانت تطهير البيت وما حوله من أى نجس ظاهر أو باطن، ومن أى صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجّه عباد الرحمن قلوبهم وأبصارهم إليه تعالى وحده فى هذا المكان الطاهر، وليقوموا بأهمّ العبادات فى هذه البقعة المباركة، ألا وهو الطواف والصلاة فى محيط إيمانى لا يخالطه شرك.

وبعد إعداد البيت للعبادة، أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام: «وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».

«أذن»: مشتقة من «الأذان» أى «الإعلان»؛ و «رجال»: جمع «راجل» أى «ماشى»؛ و «الضامر»: تعنى الحيوان الضعيف؛ و «الفج»: فى الأصل تعنى المسافة بين جبلين، ثم أطلقت على الطرق الواسعة؛ و «العميق»: تعنى هنا «البعيد».

فى تفسير على بن إبراهيم القمى: لمّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج فقال: «يا ربّ وما يبلغ صوتى». فقال الله: «أذن عليك الأذان وعلى البلاغ».

وارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت فارتفع المقام حتى كان أطول من الجبال فنادى وأدخل اصبعيه فى اذنيه وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً يقول: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم، فأجابوه من تحت البحور السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتلبية: لبيك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٦

اللهم لبيك أولاً- ترونيهم يأتون يلبون فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهم ممن استجاب لله وذلك قوله «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ» يعنى نداء إبراهيم على المقام بالحج. وتناولت الآية التالية فلسفة الحج فقالت: «لِيُشْهِدُوا مَنَفَعَهُمْ لَهُمْ». أى إنّ على الناس الحج إلى هذه الأرض المقدسة، ليروا منافع لهم بام أعينهم.

إنّ كلمة «المنافع» تشمل جميع المنافع والبركات المعنوية والمكاسب المادية، وكل عائد فردى واجتماعى، ومعطيات سياسية واقتصادية وأخلاقية، فما أحرى بالمسلمين أن يتوجهوا من أنحاء العالم إلى مكة ليشهدوا هذه المنافع.

ثم تضيف الآية: «وَيَذُكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مِآ رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ». أى أنّه على المسلمين أن يحجوا إلى البيت ويقدموا القرابين من المواشى التى رزقهم الله، وأن يذكروا اسم الله عليها حين الذبح فى أيام معينة تبدأ من العاشر من ذى الحجة وتنتهى بالثالث عشر منه.

وهذا الذكر إشارة إلى توجّه الحاج إلى الله كل التوجه عند تقديم الاضحية، وهمّه كسب رضى الله وقبوله القربان، كما أنّ الاستفادة من لحم الاضحية تقع ضمن هذا التوجه.

ويعتبر تقديم الأضاحى رمزاً لإعلان الحاج إستعداده للتضحية بنفسه فى سبيل الله، على نحو ما ذكر من قصة إبراهيم عليه السلام ومحاولة التضحية بإبنة إسماعيل عليه السلام. إنّ الحجاج بعملهم هذا يعلنون إستعدادهم للإيثار والتضحية فى سبيل الله حتى بأنفسهم. وعلى كل حال فإنّ القرآن بهذا الكلام ينهى أسلوب المشركين الذين كانوا يذكرون أسماء الأصنام التى يعبدونها على أصحابهم،

ليحيلوا هذه المراسم التوحيدية إلى شرك بالله، وجاء في ختام الآية: «فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ».

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحج مشيرةً إلى جانب آخر من هذه المناسك، فتقول أولاً: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ». أى ليظهروا أجسامهم من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٧

الأوساخ والتلوث، ثم ليوفوا ما عليهم من ندور. «وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ». أى يطوفوا بذلك البيت الذى صانه الله عن المصائب والكوارث وحرره.

«تفت»: تعنى القذاره وما يلتصق بالجسم وزوائده كالأظافر والشعر. بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلى برنامج «التقصير» الذى يعد من مناسك الحج.

إنما سميت الكعبة بالبيت العتيق، و «العتيق»: مشتقة من «العتق»، أى التحرر من قيود العبودية، وربما كان ذلك لأن الكعبة تحررت من قيود ملكية عباد الله، ولم يكن لها مالك إلا الله، كما حررت من قيد سيطرة الجابرة كأبرهه.

ومن معانى «العتيق» أيضاً الشىء الكريم الثمين، وهذا المعنى يتجسد فى الكعبة بوضوح.

ومن المعانى الاخرى للعتيق «القديم»، فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت الله بعد ملاحظة ما تتضمنه هذه الكلمه من معان.

والمراد من «الطواف» هنا طواف النساء، فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى قول الله عز وجل: «وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» قال: «طواف النساء» (١).

وأشارت الآية الأخيرة إلى خلاصه ما بحثته الآيات السالفه الذكر، حيث تبدأ بكلمه «ذَلِكَ» التى لها جملة محذوفه تقديرها «كذلك أمر الحج والمناسك». ثم تضيف تأكيداً لأهميه الواجبات التى شرحت: «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ».

والمقصود هنا ب «الحرمت» - طبعاً - أعمال ومناسك الحج، ويمكن أن يضاف إليها احترام الكعبة خاصة والحرم المكى عامه.

ثم تشير هذه الآية وتناسباً مع أحكام الإحرام إلى حليه المواشى، حيث تقول:

«وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ».

وفى ختام هذه الآية ورد أمران يخصان مراسم الحج ومكافحه العادات الجاهليه:

الأول يقول: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ». و «الأوثان»: جمع «وثن» على وزن «كفن» وتعنى الأحجار التى كانت تُعبد زمن الجاهليه،

وهنا جاءت كلمه الأوثان أيضاً لكلمه «رجس» التى ذكرت فى الآية، حيث تقول: «اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ». ثم تليها عبارة «مِنَ الْأَوْثَانِ». أى

الرجس هو ذاته الأوثان.

(١) وسائل الشيعة ٩/ ٣٩٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٨

والأمر الثانى هو: «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ». أى الكلام الباطل الذى لا أساس له من الصحه.

إن هذه الآية إشارة إلى كفيته تلبيه المشركين فى مراسم الحج فى زمن الجاهليه، لأنهم يلبون بشكل يتضمن الشرك بعينه، وبعيدونه عن صورته التوحيدية.

ومع هذا فإن إهتمام الآية المذكورة بأعمال المشركين، لا يمنع من تعميمها على بطلان أيه عباده للأصنام بأيه صوره كانت، وإجتنب أى قول باطل مهما كانت صورته.

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)

عَقَّبَتِ الْآيَاتُ هُنَا الْمَسْأَلَةَ الَّتِي أَكَّدَتْهَا آخِرُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ، وَإِجْتِنَابِ أَى صَنْمٍ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، حَيْثُ تَقُولُ: «حُفَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ». أَى أَقِيمُوا مَرَامِسَ الْحَجِّ وَالتَّالِيَةَ فِي حَالِهِ تَخْلُصُونَ فِيهَا النِّيَّةَ لِلَّهِ وَوَحْدَهُ لَا يَخَالِطُهَا أَى شَرِكٌ أَبَدًا.

«حُفَّاءَ»: جَمْعُ «حَنِيفٍ» أَى الَّذِي اسْتَقَامَ وَابْتَعَدَ عَنِ الضَّلَالِ وَالانْحِرَافِ. أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ: هُوَ الَّذِي سَارَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

إِنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ اعْتَبَرْتَ الْإِخْلَاصَ وَقَصِدَ الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ مُحَرِّكًا أُسَاسِيًّا فِي الْحَجِّ وَالْعِبَادَاتِ الْآخَرَى، حَيْثُ ذَكَرْتَ ذَلِكَ بِشَكْلِ عَامٍ، فَالْإِخْلَاصُ أَصْلُ الْعِبَادَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْإِخْلَاصُ الَّذِي لَا يَخَالِطُهُ أَى نَوْعٌ مِنَ الشَّرِكِ وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ.

ثُمَّ تَرَسَّمَ الْآيَةَ- مَوْضِعَ الْبَحْثِ- صُورَةً حَيَّةً نَاطِقَةً عَنِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَسُقُوطِهِمْ وَسُوءِ طَالِعِهِمْ، حَيْثُ تَقُولُ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَطِّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» (١).

«السَّمَاءُ»: هُنَا كُنْيَاةٌ عَنِ التَّوْحِيدِ؛ وَ«الشَّرِكُ» هُوَ السَّبَبُ فِي السَّقُوطِ مِنَ السَّمَاءِ هَذِهِ.

وَالَّذِي يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ يَفْقَدُ كُلَّ قَدْرَةٍ عَلَى اتِّخَاذِ قَرَارٍ مَا، وَيَبْتَلَى بِفَقْدَانِهِ هَذَا الْمَكَانَ

(١) «تَخَطَّفَهُ»: مُشْتَقَّةٌ مِنَ «الْخَطْفِ» عَلَى وَزْنِ فَعَلٍ، بِمَعْنَى الْإِمْسَاكِ بِالشَّيْءِ أَثْنَاءَ تَحَرُّكِهِ بِسُرْعَةٍ؛ وَ«سَحِيقٌ»: تَعْنَى «الْبَعِيدُ» وَتَطْلُقُ عَلَى النَّخْلَةِ الْعَالِيَةِ كَلِمَةً «سَحُوقٌ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٩

السَّامِي بِأَهْوَاثِهِ النَّفْسِيَّةِ الْمَعَانِدَةَ وَتَزْدَادُ سُرْعَةَ سَقُوطِهِ لِحِظَّةً بَعْدَ أُخْرَى نَحْوَ الْعَدَمِ، وَيَصْبِحُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا.

وَأَوْجَزَتِ الْآيَةَ التَّالِيَةَ مَسَائِلَ الْحَجِّ وَتَعْظِيمَ شَعَائِرِ اللَّهِ ثَانِيَةً فَتَقُولُ «ذَلِكَ» أَى إِنَّ الْمَوْضُوعَ كَمَا قَلْنَا، وَتَضْيِفُ: «وَمَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ».

«الشَّعَائِرُ»: جَمْعُ «شَعِيرَةٍ» بِمَعْنَى الْعَلَامَةِ وَالِدَلِيلِ، وَعَلَى هَذَا فَالشَّعَائِرُ تَعْنَى عِلَامَاتِ اللَّهِ وَأَدْلَتِهِ، وَهِيَ تَضُمُّ عَنَاوِينَ لِأَحْكَامِهِ وَتَعَالِيمِهِ الْعَامَّةِ، وَأَوَّلُ مَا يَلْفَتُ النَّظْرَ فِي هَذِهِ الْمَرَامِسِ مَنَاسِكُ الْحَجِّ الَّتِي تَذَكِّرُنَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ شَعَائِرَ اللَّهِ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَظْمَتِهِ، وَإِنَّ إِقَامَةَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْوَى الْقُلُوبِ.

وَيَسْتَدَلُّ مِنْ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ مَجْمُوعَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِعَدَمِ جَوَازِ الرُّكُوبِ عَلَى الْإِضْحِيَّةِ (النَّاقَةِ أَوْ مَا شَابَهَهَا) حِينَ جَلِبُهَا مِنْ مَوْطِنِهِمْ إِلَى مَنَى لِلذَّبْحِ، كَمَا يَرُونَ عَدَمَ جَوَازِ حَلْبِهَا أَوْ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْهَا بِأَى شَكْلِ كَانٍ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ نَفَى هَذِهِ الْعَقِيدَةَ الْخُرَافِيَّةَ حَيْثُ قَالَ: «لَكُمْ فِيهَا مَنَفَعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى».

وَتَذَكِّرُ الْآيَةَ فِي خَتَامِهَا نَهَايَةَ مَسَارِ الْإِضْحِيَّةِ: «ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ».

وَعَلَى هَذَا يُمْكِنُ الْاسْتِفَادَةُ مِنَ الْإِنْعَامِ الْمَخْصُصَةِ لِلْإِضْحِيَّةِ مَا دَامَتْ فِي الطَّرِيقِ إِلَى مَوْضِعِ الذَّبْحِ، وَبَعْدَ الْوَصُولِ يَجْرَى مَا يَلْزَمُ.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ اسْتَلِيمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)

بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ: يُمْكِنُ أَنْ يَتَسَاءَلَ النَّاسُ عَنِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ. وَمِنْهَا التَّعْلِيمَاتُ الْوَارِدَةُ بِخُصُوصِ الْإِضْحِيَّةِ، كَيْفَ شَرَعَ الْإِسْلَامُ تَقْدِيمَ الْقَرَابِينَ لِكَسْبِ رِضَى اللَّهِ؟ وَهَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِحَاجَةٍ إِلَى قَرَابَانٍ؟ وَهَلِ كَانَ ذَلِكَ مَتَّبَعًا فِي الْأَدْيَانِ الْآخَرَى، أَوْ يَخْصُ الْمُشْرِكِينَ وَحَدَهُمْ؟

تَقُولُ أَوَّلُ آيَةٍ- مِنَ الْآيَاتِ مَوْضِعَ الْبَحْثِ- لِإِيضَاحِ هَذَا الْمَوْضُوعِ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَخْتَصُّ بِكُمْ، بَلْ إِنَّ كُلَّ أُمَّةٍ لَهَا قَرَابِينَ: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ٣٤٩

ذبح حيوان باسم الله ولكسب رضاه يبين استعداد الإنسان للتضحية بنفسه في سبيل الله، والاستفادة من لحم الاضحية وتوزيعه على الفقراء أمر منطقي.

ولذا يذكر القرآن في نهاية هذه الآية: «فَالِهٰكُمِ اِلٰهٌ وَّاحِدٌ». وبما أنه إله واحد «فَلَهُ اَسْلِمُوْا». وبشّر الذين يتواضعون لأحكامه الربانية و «بَشْرِ الْمُخْتَبَيْنِ» (١).

ثم يوضح القرآن المجيد في الآية التالية صفات المختبين (المتواضعين) وهي أربع: إثنان منها ذات طابع معنوي، وإثنان ذات طابع جسماني.

يقول في الأول: «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ». لا يخافون في غضبه دون سبب ولا يشكّون في رحمته، بل إن خوفهم ناتج عن عظمه المسؤوليات التي بذمتهم، واحتمال تقصيرهم في أدائها، وليقينهم بجلال الله سبحانه يقفون بين يديه بكل خشوع.

والثاني: «وَالصّٰبِرِينَ عَلٰى مَا اَصٰبَهُمْ». فهو لاء يصبرون على ما يكابدونه في حياتهم من مصائب وآلام، ولا يكفرون بأنعم الله أبداً، ويأجيز نقول: يستقيمون ويتصرون.

والثالث والرابع: «وَالْمُقِيْمِي الصَّلٰوةِ وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُوْنَ». فمن جهة توطّدت علاقتهم ببارئ الخلق وإزدادوا تقرباً إليه، ومن جهة اخرى إشتد إرتباطهم بالخلق بالإنفاق.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللّٰهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوْا اِسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَاِذَا وَجَبَتْ جُنُوْبَهَا فَكُلُوْا مِنْهَا وَاَطْعِمُوْا الْقَانِعَ وَاَلْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ (٣٦) لَنْ يَبَالَ اللّٰهُ لِحَوْمِهَا وَلَا دِمَآؤِهَا وَلَا كُنْ يَبَالَهٗ التَّقْوٰى مِنْكُمْ كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبُرُوْا اللّٰهُ عَلٰى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِيْنَ (٣٧) اِنَّ اللّٰهَ يَدَافِعُ عَنِ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُوْرٍ (٣٨)

لماذا الاضحية؟ عاد الحديث عن مراسم الحج وشعائره الإلهية والاضحية ثانية، ليقول أولاً: «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللّٰهِ». إن «البدن»: وهي الإبل البدينة تعلقت بكم من جهة، ومن جهة اخرى هي من شعائر الله وعلائمه في هذه العبادة العظيمة، فالاضحية في

(١) «المختبين»: مشتقة من «الإخبات» وأصلها «خبت» وهي الأرض المستوية الواسعة التي يمشى الإنسان فيها بكل سهولة، كما جاءت بمعنى الإطمئنان والخضوع، لأن السير في هذه الأرض يلازمه الإطمئنان، ولهذا تكون خاضعة مستسلمة للسائرين عليها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠١

الحج من المظاهر الجليّة لهذه العبادة التي أشرنا إلى فلسفتها من قبل.

ثم تضيف الآية: «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ» فمن جهة تستفيدون من لحومها وتطعمون الآخرين، ومن جهة اخرى تستفيدون من آثارها المعنوية بإيثارككم وسماحكم وعبادتكم الله، وبهذا تتقربون إليه سبحانه وتعالى.

ثم تبين الآية كيفية ذبح الحيوان: «فَاذْكُرُوْا اِسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ». أى: اذكروا اسم الله حين ذبح الحيوان وفي حالة وقوفه مع نظائره في صفوف.

وليس لذكر الله حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغة خاصة، بل يكفي ذكر اسم من أسماء الله عليها، كما يبدو من ظاهر الآية.

«صواف»: جمع «صافّة» بمعنى الحيوان الواقف في صفّ، وكما ورد في الأحاديث فإنّ القصد من ذلك عقل رجلى الناقة الأماميتين معاً حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعة حين النحر، وطبيعي أن أرجل الناقة تضعف حين تنزف مقداراً من الدم، فتتمدد على الأرض، ويقول القرآن المجيد هنا: «فَاِذَا وَجَبَتْ جُنُوْبَهَا فَكُلُوْا مِنْهَا وَاَطْعِمُوْا الْقَانِعَ وَاَلْمُعْتَرَّ». أى عندما تستقر ويهدأ جانبها (كناية عن لفظ الأنفاس الأخيرة) فكلوا منها وأطعموا الفقير القانع والسائل المعتر.



الفرق بين «القانع» و «المعتر» هو أن القانع يطلق على من يقنع بما يُعطى وتبدو عليه علائم الرضى والإرتياح ولا يعترض أو يغضب، أما المعتر فهو الفقير السائل الذى يطالبك بالمعونة ولا يقنع بما تعطيه، بل يحتج أيضاً.  
 إن عبارة «كُلُوا مِنْهَا» توجب أن يأكل الحجاج من أضحاهم، ولعلها ترمى إلى مراعاة المساواة بين الحجاج والفقراء.  
 وتنتهى الآية بالقول: «كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». وإنه لمن العجب أن يستسلم حيوان عظيم الجثة هائل القوة لطفل يعقل يديه معاً ثم ينحره.

تجيب الآية التالية عن هذه الأسئلة: «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا». إن الله ليس بحاجة إلى لحوم الأضاحى، فما هو بجسم، ولا هو بحاجة إلى شىء، وإنما هو موجد كل وجود وموجود. إن الغاية من الاضحية كما تقول الآية: «وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ». فالهدف هو أن يجتاز المسلمون مراحل التقوى ليلبغوا الكمال ويتقربوا إلى الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٢

إن جميع العبادات دروس فى التربية الإسلامية، فتقديم الاضحية - مثلاً - فيه درس الإيثار والتضحية والسماح والاستعداد للشهادة فى سبيل الله، وفيه درس مساعدة الفقراء والمحتاجين. وعبارة «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا» مع أن دماءها غير قابلة للاستفادة، ربّما تشير إلى الأعمال القبيحة التى كان يمارسها أعراب الجاهلية، الذين كانوا يلطخون أصدانهم وأحياناً الكعبة بدماء هذه القرابين.

وقد اتبعهم فى ممارسته هذا العمل الخرافى مسلمون جاهلون، حتى نهتهم هذه الآية المباركة.

ثم تشير الآية ثانية إلى نعمته تسخير الحيوان قائلة: «كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ».

إن الهدف الأخير هو التعرف على عظمه الخالق جلّ وعلا، لهذا تقول الآية فى الختام:

«وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ». أولئك الذين استفادوا من هذه النعم الإلهية فى طاعة الله، وأنجزوا واجباتهم على خير وجه، ولم يقصروا فى الإنفاق فى سبيل الله أبداً.

وقد تؤدى مقاومة خرافات المشركين التى أشارت إليها الآيات السابقة إلى إثارة غضب المتعصبين المعاندين، ووقوع إشتباكات محدودة أو واسعة، لهذا طمأن الله سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

لتتحد قبائل عرب الجاهلية مع اليهود والنصارى والمشركين فى شبه الجزيرة العربية للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكنوا من بلوغ ما يطمحون إليه، لأن الله وعد المؤمنين بالدفاع عنهم وعداً تجلّى صدقه فى دوام الإسلام حتى يوم القيامة، ولا يختص الدفاع الإلهى عن المؤمنين فى الصدر الأول للإسلام وحسب، بل هو سارى المفعول أبد الدهر، فإن كنا على نهج الذين آمنوا. فالدفاع الإلهى عنّا أكيد. ومن ذا الذى لا يلتمس دفاع الله سبحانه عن عباده الصالحين؟

وفى الختام توضّح هذه الآية موقف المشركين وأتباعهم بين يدى الله بهذه العبارة الصريحة: «إِنَّ اللَّهَ لَأُجِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ». أولئك الذين أشركوا بالله حتى أنهم ذكروا أسماء أوثانهم عند التلبية. فثبتت عليهم الخيانة والكفر لأنعم الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٣

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَأَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصِمْصَمَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

أول حكم بالجهاد: فى تفسير مجمع البيان (والتفسير الكبير أيضاً) كان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجىء مشجوج ومضروب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: «اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال». حتى هاجر، فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة، وهى أول آية نزلت فى القتال.

ولمّا وعد الله المؤمنين بالدفاع عنهم فى الآية السابقة يتّضح جيداً الارتباط بين هذه الآيات. تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أُذِنَ لِمَنْ يَتَعَرَّضُ

لقتال الأعداء وعدوانهم بالجهاد، وذلك بسبب أنهم ظلموا: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا». ثم أردفت بنصرة الله القادر للمؤمنين «وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».

عليكم بالجد والعمل بكل ما تستطيعون من قدره، وعندما تستحقون النصر بإخلاصكم ينجدكم الله وينصركم على أعدائه، وهذا ما حدث للرسول صلى الله عليه وآله في جميع حروبه التي كانت تُكَلَّلُ بالنصر.

ثم توضّح هذه الآيات للمظلومين - الذين أذن لهم بالدفاع عن أنفسهم - بواعث هذا الدفاع، ومنطق الإسلام في هذا القسم من الجهاد فتقول: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ». وذنبهم الوحيد أنهم موحدون: «إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

ثم تستعرض الآية واحداً من جوانب فلسفة تشريع الجهاد فتقول: «وَلَوْ لَأَنَّ اللَّهَ دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسْجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا». أى إن الله إن لم يدافع عن المؤمنين، ويدفع بعض الناس ببعضهم عن طريق الإذن بالجهاد، مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٤

لهدمت أديرة وصوامع ومعابد اليهود والنصارى والمساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً.

وكل دعوة لعبادة الله وتوحيده مضادة للجباية الذين يريدون أن يعبدهم الناس تشبهاً منهم بالله تعالى، لهذا يهدمون أماكن توحيد الله وعبادته، وهذا من أهداف تشريع الجهاد والإذن بمقاتلة الأعداء. «الصوامع»: جمع «صومعة» وهى عادةً مكان خارج المدينة بعيد عن أعين الناس مخصّص لمن ترك الدنيا من الزهاد والعباد. و «البيع»: جمع ببيعة بمعنى معبد النصارى، ويطلق عليها كنيسة أيضاً. و «الصلوات»: جمع صلاة، بمعنى معبد اليهود، ويرى البعض أنها معربة لكلمة «صلواتا» العبرية، التي تعنى المكان المخصّص بالصلاة. وأمّا «المساجد»: فجمع مسجد، وهو موضع عبادة المسلمين. والصوامع والبيع، رغم أنها تخصّ النصارى، إلّا أنّ إحداها معبد عام والآخرى لمن ترك الدنيا.

وفى الختام أكدت هذه الآية ثانياً وعد الله بالنصر: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» ولا شكّ فى إنجاز هذا الوعد، لأنه من رب العزة القائل: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»، من أجل ألا يتصور المدافعون عن خطّ التوحيد أنهم وحيدون فى ساحه قتال الحق للباطل، ومواجهه جموع كثيرة من الأعداء الأقوياء.

و آخر آية تفسر المراد من أنصار الله الذين وعدهم بنصره فى الآية السابقة، وتقول:

«الَّذِينَ إِنْ مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ».

إنهم فئه لا تلهو ولا تلعب كالجباية بعد انتصارها، ولا يأخذها الكبر والغرور، إنّما ترى النصر سلماً لإرتقاء الفرد والجماعة، إنّها لن تتحوّل إلى طاغوت جديد بعد وصولها إلى السلطة، لإرتباطها القوى بالله، والصلاة رمز هذا الارتباط بالخالق، والزكاة رمز للإلتحام مع الخلق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعامتان قويتان لبناء مجتمع سليم، وهذه الصفات الأربع تكفى لتعريف هؤلاء الأفراد، ففى ظلها تتم ممارسة سائر العبادات والأعمال الصالحة، وترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطوّر.

وتقول الآية فى ختامها: «وَلِلَّهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ». وتعنى أنّ بداية أىّ قدره ونصر من الله تعالى، وتعود كلّها فى الأخير إليه ثانية.

وقد أشارت هذه الآيات إلى أمرين مهمّين فى فلسفة الجهاد:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٥

أولهما: جهاد المظلوم للظالم، وهو من حقوقه المؤكدة والطبيعية، التى يؤكدها عقل الإنسان وفطرته. وليس له أن يستسلم للظلم.

وثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر الله من القلوب بتهديم المعابد التى هى مراكز لبثّ الوعى وإيقاظ الناس.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أُهْلِكْنَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبُرِّ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمين بعد أن ذاقوا- كما ذكرت الآيات السابقة- وقد طمأنت الآيات- موضع البحث- الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين وخففت عنهم من جهة، وبيّنت لهم أن العاقبة السيئة تنتظر الكفرة من جهة أخرى، فقالت: «وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ». أى إذا كذبتك هؤلاء القوم فلا- تبتئس ولا تحزن، فالأقوام السابقة قد كذبت رسلها أيضاً، وأضافت: «وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ».

وكذلك كذب أهالى مدينة «مدين» نبيهم «شعيب»، وكذب فرعون وقومه نبيهم «موسى» «وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى . وَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَارِضُ وَالتَّكْذِيبَ لَنْ تَوْثِّرَ فِي رُوحِكَ الطَّاهِرَةَ وَنَفْسِكَ الْمُطْمَئِنَّةَ، مثلما لم تؤثر فى أنبياء كبار قبلك ولم تعق مسيرتهم التوحيدية ودعوتهم إلى الحق والعدل قطّ.

إلا أن هؤلاء الكفرة الأغبياء يتصورون إمكانية مواصلة هذه الأساليب المخزية.

«فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ». أجل، أمهل الله الكافرين ليؤدوا إمتحانهم وليتم الحجة عليهم فأغرقهم بِنِعْمِهِ، ثم حاسبهم حساباً عسيراً. «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» (١) ورأيت كيف أنكرت عليهم أعمالهم، وبيّنت لهم أعمالهم القبيحة، لقد سلبت منهم نعمتى وجعلتهم على أسوأ حال ... سلبت سعادتهم الدنيوية وعوّضتهم بالموت.

(١) «النكير»: تعنى الإنكار وهنا تعنى فرض العقاب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٦

آخر آية موضع البحث يبين الله تعالى كيفية عقاب الكفار بجملة موجزة ذات دلالة واسعة: «فَكَأَيُّنَ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ». وأضافت الآية أن سقف بيوتها قد باتت أسفل البناء: «فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا». أى إن الواقعة كانت شديدة حتى أن السقوف إنهارت أو لما ثم الجدران على السقوف «وَبُيُوتٌ مُّعْتَطَلَةٌ» فما أكثر الآبار المترعة بمياهها العذبة، ولكنها غارت فى الأرض بعد هلاك أصحابها فأصبحت معطلة لا نفع فيها.

«وَقَصْرِ مَشِيدٍ» (١). أجل ما أكثر القصور المشيدة التى إرتفعت شاهقة وزُيّنت، إلا أنها أضحت خرائب بعد أن هلك أصحابها، والنتيجة إنهم تركوا مساكنهم وقصورهم المجللة، وأهملوا مياههم وعيونهم التى كانت مصدر حياتهم وعمران أراضيهم وذهبوا، وكذلك الآبار الغتية بالماء أصبحت معطلة لا ماء فيها.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعِذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ كَأَيُّنَ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨)

السير فى الأرض والعبرة: تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التى عاقبها الله على ما إقترفت أيديهم فدمر أحياءهم، وأكدت الآية الاولى هذه القضية فقالت: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا».

أجل، تحدثنا عن خرائب قصور الظلمة، ومنازل الجبابرة المهدمه، وعبدة الدنيا.

إن هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدث عن ماضى هؤلاء الأقوام، ونتائج أعمالهم وسلوكهم فى الحياة، وعن أعمالهم المشؤومة، وأخيراً عن العقاب الذى صبّه الله عليهم.

ولإيضاح حقيقته هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: «فَإِنَّهَا لَأَنْعَمَى الْأَبْصُرُ

(١) «المشيد»: مشتقة من «شيد» ذات معنيين: أولهما الإرتفاع، والثانى الجصّ، فتعنى لفظه «قصر مشيد» القصر المرتفع.

والمعنى الثانى القصر الذى بنى على اسس ثابتة قوية ليصان من حوادث الزمان، وبما أن معظم منازل ذلك العصر تبنى من الطين، فإن

المنزل الذي يبنى بالجص يكون أقوى من هذه البيوت ويكون متميزاً عنها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٧

وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

إن الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحياناً أكثر وعياً من الآخرين. أما العمى الحقيقيون فهم الذين تعمي قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبداً. في تفسير القمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «شر العمى، عمى القلب». وفي الكافي: «وأعمى العمى عمى القلب».

وترسم الآية الثانية - موضع البحث - صورة اخرى لجهل الأغبياء وعديمي الإيمان فتقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ» فرد عليهم ألا تعجلوا «وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ».

فلا فرق عنده بين الساعة واليوم والسنة: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ».

وفي آخر آية نجد تأكيداً على ما سبق أن ذكرته الآيات الأنفة الذكر من إنذار الكفار المعاندين بأنه ما أكثر القرى والبلاد التي أمهلناها ولم تنزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، ولما لم يفيقوا ويتنبهوا أمهلناهم مرة اخرى ليغرقوا في النعيم والرفاهية، وفجأة نزل عليهم العذاب: «وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا».

إن أولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكون من تأخر العذاب عليهم، ويسخرون من وعيد الأنبياء، ولا يرونه إلا باطلاً، إلا أنهم ابتلوا بالعذاب أخيراً ولم ينفعهم صراخهم أبداً «وَالِئِنَّ الْمَصِيرُ». أجل كل الامور تعود إلى الله، وتبقى جميع الثروات فيكون الله وارثها. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

تحدثت الآيات السابقة عن تعجيل الكفر والعذاب الإلهي، وإن ذلك ليس من شأن النبي صلى الله عليه وآله وإنما يرتبط بمشيئة الله تعالى، فأول آية من الآيات أعلاه تقول: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وترسم الآيات التاليتان صورة للبشرى واخرى للإنذار، لأن رحمة الله واسعة، فتقدم على عقاب الله. تتحدث أولاً عن البشرى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». يتظاهرون بماء المغفرة الإلهية أولاً، فتطمئن ضمائرهم، ثم تشملهم نعم الله ورحمته. عبارة «رزق كريم» ذات مفهوم واسع يضم جميع الأنعم المادية والمعنوية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٨

وأضافت الآية اللاحقة: «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» «١». أي إن الذين حاولوا تخريب الآيات الإلهية ومحوها، وكانوا يعتقدون بأن لهم القدرة على مغالبة إرادة الله المطلقة، فهم أصحاب الجحيم.

«جحيم»: من مادة «جحم» بمعنى شدة توقد النار، وتقال كذلك لشدة الغضب، فعلى هذا تطلق كلمة (الجحيم) على المكان المشتعل بالنيران، وهي هنا تشير إلى نار الآخرة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)

وساوس الشياطين في مساعي الأنبياء: تناولت الآيات السابقة محاولات المشركين والكفرة لمحو التعاليم الإلهية والاستهزاء بها، أما الآيات موضع البحث فقد تضمنت تحذيراً مهماً حيث قالت: إن هذه المؤامرات ليست جديدة، فالشياطين دأبوا منذ البداية على إلقاء وساوسهم ضد الأنبياء. في البداية تقول الآية: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَمراً لصالح الدين والمجتمع وفكر في خطئه لتطوير العمل «أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» إلا أن الله لم يترك نبيه وحده إزاء إلقاء الشياطين «فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ

يُحَكِّمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ». إِنَّ هَذَا الْعَمَلُ يَسِيرُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْمُؤَامَرَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَيَعْرِفُ كَيْفَ يَجِبُهَا «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إِلَّا أَنَّ الْمُؤَامَرَاتِ الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي كَانَ يَحِيكُهَا الْمُشْرِكُونَ وَالْكَافِرَةُ، كَانَتْ تَشْكَلُ سَاحَةً لِامْتِحَانِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَأَمِّرِينَ فِي آنٍ وَاحِدٍ، إِذْ تَضِيفُ الْآيَةَ: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً»

(١) «سعوا»: مشتقته من «السعي» وتعني في الأساس الهرولة، وهنا المحاولة في تخريب الآيات الإلهية ومحوها.

«المعاجزون»: مشتقته من «العجز» وتعني هنا الذي يحاول الغلبة على قدرة الله غير المحدودة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٩

لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ». «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» فهم بعيدون عن الحق لشدة عداوتهم وعنادهم. وكذلك الهدف من هذا البرنامج: «وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ». وطبيعي أن الله لا يترك المؤمنين الواعين المطالبين بحقوقهم والمدافعين عن الحق وحدهم في هذا الطريق الوعر «وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

إِنَّ كَلِمَةَ الرَّسُولِ تَطْلُقُ عَلَى أَنْبِيَاءِ لَهُمْ رَسُولَاتٌ مِنَ اللَّهِ أَمْرًا بِنَشْرَاهَا بَيْنَ النَّاسِ.

أَمَّا كَلِمَةُ «النَّبِيِّ» وَهُوَ الَّذِي يَنْبَأُ بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يُكَلَّفْ بِإِبْلَاغِهِ بِشَكْلِ وَاسِعٍ.

وَلَمَّا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيَدْخُلْتَهُمْ مُدْخِلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) تحدث الآيات السابقة عن محاولات المخالفين في محو الآيات الإلهية، أمّا الآيات التي نقف في ضوئها، فأشارت إلى هذه المحاولات من قبل أشخاص متعصبين قساة. تقول الآية الأولى: «وَلَمَّا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ». بديهي أن الآية هنا قصدت فئة من الكفار لا الكفار كلهم، لأن الكثير منهم أسلموا والتحقوا بالنبي صلى الله عليه وآله وبصفوف المسلمين، قصدت الآية زعماء الكفار والمعاندين والمتعصبين بقوة والحاقدين الذين لم يؤمنوا قط، واستمروا في عرقلة المسيرة الإسلامية.

وتعني كلمة «مريّة» الشك والترديد، وتبين لنا الآية أن هؤلاء الكفرة لم يكونوا يوماً على يقين ببطلان الإسلام ودعوة النبي صلى الله عليه وآله وآله بالرغم من إظهارهم لذلك في كلماتهم.

والمراد من «الساعة» ختام العالم وعشيّة يوم القيامة، والتي رافقت كلمة «بغته».

ويقصد بـ «عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ» عقاب يوم القيامة، وقد وصف يوم القيامة بالعدم لأنه لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٠

يوم يليه لينهض المرء للقيام بأعمال خيرة تعوّض عمّا فاتته وتؤثّر في مصيره. ثم أشارت الآية التالية إلى السيادة المطلقة لرب العالمين

يوم القيامة: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ». وهذا أمر ملازم لله الحاكم الدائم والمالك المطلق، وليس ليوم القيامة فقط.

ولكن كل هذا يزول وتتضح حقيقة وحدانية المالك والحاكم يومئذ.

وبما أن الله هو المالك الحقيقي، فهو إذن الحاكم الحقيقي، وتعم حكومته على المؤمنين والكافرين على السواء، ونتيجة ذلك كما يقول القرآن المجيد: «فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ». الجنّات التي تتوفر فيها جميع المواهب وكل الخيرات والبركات.

ويضيف القرآن الكريم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

عذابٌ يدل الكفرة والذين كذبوا بآيات الله، اولئك الذين عاندوا الله واستكبروا على خلقه يهينهم الله.

وبما أن الآيات السابقة تناولت المهاجرين من الذين طردوا من ديارهم وسلبت أموالهم، لأنهم قالوا: ربنا الله، ودافعوا عن شريعته، فقد اعتبرتهم الآية التالية مجموعة ممتازة جديرة بالرزق الحسن وقالت: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

في تفسير القرطبي: سبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد، قال بعض الناس: من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية مسوية بينهم، وأن الله يرزق جميعهم رزقاً حسناً. وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل.

وعرضت الآية الأخيرة صورة من هذا الرزق الحسن: «لَيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلًا يُرْضَوْنَهُ». فإذا طردوا من منازلهم في هذه الدنيا ولا تقوا الصعاب، فإن الله يأويهم في منازل طيبة في الآخرة ترضيهم من جميع الجهات.

وتنتهي هذه الآية بعبارة: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ». أجل، إن الله عالم بما يقوم به عباده، وهو في نفس الوقت حلیم لا يستعجل في عقابهم، من أجل تربية المؤمنين في ساحة الإمتحان هذه، وليخرجوا منها وقد صلب عودهم وازدادوا تقرباً إلى الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١١

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن الآية الأولى نزلت في قوم من مشركي مكة، لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقالوا: إن أصحاب محمّد لا يقاتلون في هذا الشهر. فحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا، فأظفر الله المسلمين بهم.

التفسير

من هم المنتصرون؟ حدّثنا الآيات السابقة عن المهاجرين في سبيل الله، وما وعدهم الله من رزق حسن يوم القيامة. ومن أجل ألا يتصور المرء أن الوعد الإلهي يختص بالآخرة فحسب، تحدّث الآية - موضع البحث - في مطلعها عن إنتصارهم في ظل الرحمة الإلهية في هذا العالم: «ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ». إشارة إلى أن الدفاع عن النفس ومجابهة الظلم حق طبيعي لكل إنسان.

وبما أن الوعد بالنصر الذي يقوى القلب لا بد وأن يصدر من مقتدر على ذلك. لهذا تستعرض الآية قدرة الله في عالم الوجود التي لا تنتهي، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ». فما أن يقل من أحدهما حتى يزداد في الآخر وفق نظام مدرّوس.

«يولج»: مشتقّة من «الإيلاج» وهو في الأصل من الولوج أي الدخول، وهذه العبارة تشير إلى التغييرات التدريجية المنظّمة تنظيمًا تامًا، كمسألة الليل والنهار، فما يقل أحدهما إلّا يزداد الآخر على مدى فصول السنة.

وتنتهي الآية ب «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». أجل، إن الله يبلي حاجه المؤمنين، ويطلع على حالهم وأعمالهم، ويعينهم برحمته عند اللزوم، مثلما يطلع على أعمال ومقاصد أعداء الحق.

و آخر آية من الآيات السالفة الذكر في الواقع دليل على ما مضى، حيث تقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٢

اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

إن شاهدتم إنتصار الحق وهزيمة الباطل، فإن ذلك بلطف الله الذى ينجد المؤمنين ويترك الكافرين لوحدهم. إن المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامة، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء والعدم بمخالفتهم تلك القوانين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

دلائل الله فى ساحة الوجود: تحدت الآيات السابقة عن قدرة الله غير المحدودة وأنه الحق المطلق، وبينت هذه الآيات الأدلة المختلفة على هذه القدرة الواسعة والحق المطلق وتقول أولاً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً».

لقد اخضرت الأرض المرتدية رداء الحزن- من أثر الجفاف- بعد ما نزل المطر عليها، فأصبحت تسر الناظرين. أجل «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ». «لطيف»: مشتق من «اللطيف» بمعنى العمل الجميل الذى يمتاز برقته؛ وكلمة «الخبير»: تعنى المطلع على الامور الدقيقة.

يرسل الله المطر بقدرة وبخبرة منه، فإن زاده صار سيلاً، وإن نقصه كثيراً ساد الجفاف فى الأرض.

الآية التالية تعرض علامة اخرى على قدرة الله غير المتناهية، وهو قوله سبحانه وتعالى: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

فهو سبحانه خالق الجميع ومالكهم، وبهذا الدليل يكون قادراً عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعاً، ولا يحتاج هو إلى شىء أو إلى أحد.

ويزداد هذا المعنى إشراقاً فى قوله سبحانه: «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

والتحام صفتى الغنى والحميد جاء فى غاية الأحكام، لأن عدداً كبيراً من الناس أغنياء،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٣

إلّا أنهم بخلاء يستغلون الآخرين ويعملون لذاتهم فقط، أما غنى الله سبحانه فهو مزيج من اللطف والسماح والجد والكرم، لذا استحق الحمد والثناء من عباده.

وتشير الآية التالية إلى نموذج آخر من تسخير الله تعالى الوجود للإنسان «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ» وجعل تحت اختياركم جميع المواهب والإمكانات فيها لتستفيدوا منها بأى صورة تريدون، وكذلك جعل السفن والبواخر التى تتحرك وتمخر عباب البحار بأمره نحو مقاصدها. «وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». إضافة إلى «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». وذلك من رحمة الله لعباده ولطفه بهم، وهذا ما نلمسه فى ختام الآية المباركة: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ».

وتتناول الآية الأخيرة أهم قضية فى الوجود، أى قضية الحياة والموت فتقول: «وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ». أى كنتم تراباً لا حياة فيه فألبسكم لباس الحياة «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» وبعد إنقضاء دورة حياتكم يميتكم «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ». أى يمنحكم حياة جديدة يوم البعث.

وتبين الآية ميل الإنسان إلى نكران نعم الله عليه قائلة: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ». فرغم كل ما أغدق الله على الإنسان من أنعم فى الأرض والسماء، فى الجسم والروح، لا- يحمد ولا- يشكره عليها، بل يكفر بكل هذه النعم. ومع أنه يرى كل الدلائل الواضحة والبراهين المؤكدة لوجود الله تبارك وتعالى، والشاهدة بفضله عليه وإحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه وأجهله.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)

لكل امية عبادة: تناولت البحوث السابقة المشركين خاصة، ومخالفى الإسلام عامة، ممن جادلوا فيما أشرك به الإسلام من مبادئ نسخت بعض تعاليم الأديان السابقة، وكانوا يرون من ذلك ضعفاً فى الشريعة الإسلامية، وقوة فى أديانهم، فى حين أن ذلك لا يشكل

ضعفًا إطلاقاً، بل هو نقطة قوة ومنهج لتكامل الأديان ولذا جاء الفصل الرباني جلياً «لَكَلَّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسِكًا هُمْ نَاسِيَهُ». «المناسك»: جمع «منسك» أى مطلق العبادات، ومن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٤

الممكن أن تشمل جميع التعاليم الإلهية. لهذا فإن الآية تبين أن لكل أمة شرعاً ومنهاجاً يفى بمتطلباتها بحسب الأحوال التي تعيشها، لكن ارتقاءها يستوجب تعاليم جديدة تلتبى مطامحها المترقية، وهذا ما صدعت به الآية المباركة وأنارته قائلة: «فَلَا تَزِرُكُمْ فِي الْأَمْرِ». فيما تقدم لا ينبغي لهم منازعتك في هذا الأمر. «وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ». تخاطب الآية النبي صلى الله عليه وآله أن يا أيها النبي لا يؤثر هؤلاء في دعوتك الراشدة باعتراضاتهم الضالة، فالمهتدي إلى الصراط المستقيم أقوى من الضارب في التيه. ثم أضافت الآية: «وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ». فلو استمروا في جدالهم ومناعتهم معك، ولم يؤثر فيهم كلامك. فقل لهم: إن الله أعلم بأعمالكم، وستحشرون إليه في يوم يعود الناس فيه إلى التوحيد، وتحل جميع الاختلافات لظهور الحقائق لجميع الناس: «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

وبما أن القضاء بين العباد يوم القيامة بحاجة إلى علم واسع بهم وإطلاع دقيق بأعمالهم، ختمت الآيات هاهنا بقوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». و «إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ». أجل، إن جميع ذلك قد ثبت في كتاب علم الله الذي لا حدود له، كتاب عالم الوجود وعالم العلة والمعلول، عالم لا يضيع فيه شيء، فهو في تغيير دائم، وكل هذه الموجودات حاضرة بين يدي الله سبحانه بجميع صفاتها وخصائصها، وهذا من معاني القدرة الإلهية التي نلمسها في قوله تعالى: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تَنَزَّلَتْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَتَّبِعُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَّ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٥

معبودات أضعف من ذبابة: تابعت هذه الآيات الأبحاث السابقة عن التوحيد والشرك، فتحدثت ثانية عن المشركين وأفعالهم الخاطئة، فتقول الآية الأولى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا». وهذا يبين بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أن الله سمح لهم بعبادة الأوثان وأنها تشفع لهم عند الله. وتضيف الآية «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ». أى: يعبدون عبادة لا يملكون دليلاً على صحتها لا من طريق الوحي الإلهي، ولا من طريق الاستدلال العقلي، ومن لا يعمل بدليل يظلم نفسه وغيره، ولا أحد يدافع عنه يوم الحساب، لهذا تقول الآية في ختامها: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ».

وتشير الآية الثانية- موضع البحث- إلى عناد الوثنيين وإستكبارهم عن الإستجابة لآيات الله تعالى، في جملة وجيزة لكنها ذات دلالات كبيرة: «وَإِذَا تَنَزَّلَتْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ».

وهنا يسفر التناقض بين المنطق القرآني القويم وتعصب الجاهلية الذي لا يرضخ للحق ولا يفتح قلبه لندائه الرحيم، فما تليت عليهم آيات ربهم إلا ظهرت علائم الإستكبار عنها في وجوههم حتى إنهم «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا». أى كأنهم يريدون مهاجمة الذين يتلون عليهم آيات الله عز وجل وضربهم بقبضات أيديهم، تنفيساً عن التكبر البغيض في قرارة أنفسهم.

«يسطون»: مشتقة من «السطوة» أى رفع اليد ومهاجمة الطرف الآخر.

وقد أمر القرآن المجيد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يجيب هؤلاء المتعطرسين هاتفاً «قُلْ أَفَأَتَّبِعُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكُمْ النَّارُ». أى: إن زعمتم أن هذه الآيات البيّنات شرٌّ، لأنها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإننى اخبركم بما هو شرٌّ منها، ألا وهو عقاب الله الأليم،



النار التي أعدها الله جزاءً: «وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وترسم الآية الآتية صورة معبرة لما كان عليه الوثنيون، وما يعبدونه من أشياء ضعيفة هزيلة تكشف عن بطلان آراء المشركين وعقيدتهم، مخاطبةً للناس جميعاً خطاباً هادياً أن «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاذْتَمِعُوا لَهُ» وتدبروا فيه جيداً «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ». أجل، لو اجتمعت الأوثان كلها، وحتى العلماء والمفكرين والمخترعين جميعاً، لما استطاعوا خلق ذبابة. فكيف تجعلون أوثانكم شركاء لخالق السماوات والأرض وما فيهن من آلاف مؤلفه من أنواع المخلوقات في البر والبحر، في الصحارى والغابات، وفي أعماق الأرض؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٦

وتستكمل الآية البيان عن ضعف الأوثان وعجزها المطلق وأنها ليست غير قادرة على خلق ذبابة فحسب، بل «وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ الذُّبَابُ شَيْءٌ لَأَيَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ».

ويعلو صدى الحق في تقرير ضعف الوثن وعبدته في قوله تعالى: «ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ».

وبعد أن عرض القرآن الكريم هذا المثال الواضح، قرّر حقيقة مهمة، وهي: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

فالمشركون لو كانوا على أدنى معرفة بالله تعالى لما أنزلوا قدره إلى مستوى هذه الآلهة الضعيفة العاجزة ولما جعلوا مصنوعاتهم شركاء له، تعالى عما يفعلون علواً كبيراً، ولو كان لديهم أدنى معرفة بقدره الله لضحكوا من أنفسهم وسخروا من أفكارهم، وتقول الآية في النهاية: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». أجل، إن الله قادر على كل شيء ولا مثيل لقدرته ولا حد، فهو ليس كآلهة المشركين التي لو اجتمعت لما تمكنت من خلق ذبابة، بل ليس لها القدرة على إعادة ما سلبه الذباب منها.

اللَّهُ يَضِيظُنِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِزْرَاهِمِمْ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

سبب النزول

في التفسير الكبير: قال الوليد بن المغيرة: أنزل عليه الذكر من بيننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية «اللَّهُ يَضِيظُنِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٧

التفسير

بما أن الآيات السابقة تناولت بحث التوحيد والشرك وآلهة المشركين الوهمية، وبما أن بعض الناس قد اتخذوا الملائكة أو بعض الأنبياء آلهة للعبادة، فإن أول الآيات موضع البحث تقول بأن جميع الرسل هم عباد الله وتابعون لأمره: «اللَّهُ يَضِيظُنِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ».

أجل، إختار الله من الملائكة رسلاً كجبرئيل، ومن البشر رسلاً كأنبياء الله الكبار.

وختام الآية: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». أي: إن الله ليس كالبشر، لا يعلمون أخبار رسلهم في غيابهم، بل إنه على علم بأخبار رسله لحظة بعد اخرى، يسمع كلامهم ويرى أعمالهم.

وتشير الآية الثانية إلى مسؤولي الأنبياء في إبلاغ رسالة الله من جهة، ومراقبة الله لأعمالهم من جهة اخرى، فتقول: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». إنه يعلم ماضيهم ومستقبلهم «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». فالجميع مسؤولون في ساحة قدسه.

ليعلم الناس أن ملائكة الله سبحانه وأنبياءه عليهم السلام عباد مطيعون له مسؤولون بين يديه، لا يملكون إلأما وهبهم من لطفه، وقوله

تعالى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» إشارة إلى واجب ومسؤولية رسل الله ومراقبته سبحانه لأعمالهم.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحج حيث تخاطبان المؤمنين وتبينان مجموعة من التعاليم الشاملة التي تحفظ دينهم ودنياهم وإنتصارهم في جميع الميادين، وبهذه الروعة والجمال تختم سورة الحج. في البداية تشير الآية إلى أربعة تعليمات: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وقد بينت الآية ركنين من أركان الصلاة، الركوع والسجود لأهميتهما الاستثنائية في هذه العبادة العظيمة.

ثم يصدر الله أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمة، فيقول عز من قائل: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».

والمراد بالجهاد هي كل نوع من الجهاد في سبيل الله والإستجابة له وممارسة أعمال البر والجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) وجهاد الأعداء والظلمة (الجهاد الأصغر).

ولا شك في أن حق الجهاد له معنى واسع يشمل الكيف والنوع والمكان والزمان وسواها.

ولكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٨

والتعليمات الشاملة الواسعة؟ ولهذا تجيب بقية الآية الشريفة فنقول أولاً: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ». أى: حملكم هذه المسؤوليات باختياركم من بين خلقه.

والعبارة الاخرى قوله جلّ وعلا: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». أى: إذا دققتم جيداً لم تجدوا صعوبة في التكليف الربانية لإنسجامها مع فطرتكم التي فطركم الله عليها، وهي الطريق إلى تكاملكم.

وثالث عبارة: «مَلَأَ أَيْبُكُمْ بِرُحْمِهِ».

إن إطلاق كلمة «الأب» على إبراهيم عليه السلام، إما بسبب كون العرب والمسلمين آنذاك من نسل إسماعيل عليه السلام غالباً، وإما لكون إبراهيم عليه السلام هو الأب الروحي للموحدين جميعاً.

ويليها تعبير: «هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا». أى هو سماكم المسلمين في الكتب السماوية السابقة.

وخامس عبارة خصّ بها المسلمين وجعلهم قدوة للآمم الاخرى هي قوله المبارك: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ».

وكون الرسول صلى الله عليه وآله شاهداً على جميع المسلمين يعنى إطلاعه على أعمال امته. فجميع الامم شهداء، والأئمة الطاهرين شهود ممتازون على هذه الامم.

وأعدت الآية في ختامها بشكل مركز الواجبات الخمسة في ثلاث جمل هي «فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ». فإن الله هو قائدكم وناصركم ومعينكم: «هُوَ مَوْلَاكُمْ» و «فِيَنعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ». أى: إن الله أمركم بالإعتصام به لكونه خير الموالى وأجدر الأعوان.

«نهاية تفسير سورة الحج»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٩

## ٢٣ سورة المؤمنون

محتوى السورة: يمكن تقسيم مواضع هذه السورة إلى الأقسام التالية:

١- إن السورة يبدأ بالآية «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» وينتهى بعدد من الآيات التي تذكر صفات هي مدعاة لفلاح المؤمنين.

٢- وأشار هذه السورة إلى علائم اخرى للمؤمنين، التوحيد وآيات عظمة الله وجلاله في عالم الوجود.

٣- وشرح ما حدث لعدد من كبار الأنبياء.

٤- ووجه الخطاب سبحانه وتعالى إلى المستكبرين يحذرهم ببراهين منطقية تارة، واخرى بتعابير دافعة عنيفة، ليعيد القلوب إلى طريق الصواب بالعودة إليه عز وجل.

٥- ثم بين في بحث مركز المعاد.

٦- وتناول قسم آخر سيادة الله على عالم الوجود، وإطاعة العالم وأوامره.

٧- بحثت هذه السورة عن حساب يوم القيامة، وجزاء الخير للمحسنين، وعقاب المذنبين. وينتهي السورة ببيان الغاية من خلق الإنسان. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة المؤمنين ختم الله له بالسعادة إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعة، وكان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٠

وتؤكد أن فضيلة السورة، إنما يجب أن يرافق ذلك التمعن في معانيها والعمل بما أوجبه، لأن هذا الكتاب يبني الذات الإنسانية ويربّيها.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

صفات المؤمنين البارزة: اختيار اسم المؤمنين لهذه السورة لأنه جاء في بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزة معبرة صفات المؤمنين، ومما يلفت النظر أنها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، إستتارة للشوق في قلوب المسلمين للوصول إلى هذا الفخر العظيم باكتساب صفة المؤمنين. تقول الآية: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ».

«أفْلح»: مشتقة من الفلح والفلاح، وتعني في الأصل الحرث والشق، ثم اطلقت على أي نوع من النصر والوصول إلى الهدف والسعادة بشكل عام، ولكلمة الفلاح معنى واسعاً يضم الفلاح المادى والمعنوى، ويكون الإثنان للمؤمنين.

ثم تشرح الآية هذه الصفات فتؤكد قبل كل شيء على الصلاة فتقول: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ». «خاشعون»:

مشتقة من خشوع، بمعنى التواضع وحالة التأدب يتخذها الإنسان جسماً وروحاً بين يدي شخصيه كبيرة، أو حقيقة مهمة تظهر في الإنسان وتبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

والقرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، وليس إقامة الصلاة، إشارة منه إلى أن الصلاة ليست مجرد ألفاظ وحركات لا روح فيها ولا معنى، وإنما تظهر في المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجه إلى الله تفصله عن الغير وتلحقه بالخالق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢١

وروى- في تفسير مجمع البيان- أن النبي صلى الله عليه وآله رأى رجلاً يعبت بلحيته في صلاته، فقال: «أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

إشارة منه صلى الله عليه وآله إلى أن الخشوع الباطنى يؤثر في ظاهر الإنسان.

وثانى صفة للمؤمنين بعد الخشوع مما تذكره الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ».

حقاً نرى جميع حركات وسكنات المؤمنين تتجه لهدف واحد مفيد وبنّاء.

وتشير الآية الرابعة إلى ثالث صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين، وهى ذات جانب إجتماعى ومالى حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ».

ورابع صفة من صفات المؤمنين هي الطهارة والعفة بشكل تام، وإجتنب أى معصية جنسية، حيث تقول الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ» (١). يحفظونها مما يخالف العفة «إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ».

بما أن الغريزة الجنسية أقوى الغرائز عند الإنسان تمرداً، ولضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى والإيمان القوى، لهذا أكدت الآية التالية على هذه المسألة: «فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ».

إن عبارة المحافظة على «الفروج» قد تكون إشارة إلى أن فقدان المراقبة المستمرة في هذا المجال تؤدي بالفرد إلى خطر التلوث بالانحرافات الكثيرة.

وأشارت الآية الثامنة- موضع البحث- إلى الصفتين الخامسة والسادسة من صفات المؤمنين البارزة، حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

إن المحافظة على «الأمانة» بالمعنى الواسع للكلمة، وكذلك الالتزام بالعهد والميثاق بين يدي الخالق والخلق من صفات المؤمنين البارزة، وتعنى الأمانة بمفهومها الواسع أمانة الله ورسوله إضافة إلى أمانات الناس، وكذلك ما أنعم الله على خلقه. وتضم أيضاً أمانة الله الدين الحق والكتب السماوية وتعاليم الأنبياء القدماء، وكذلك الأموال والأبناء والمناصب جميعها أمانات الله سبحانه وتعالى بيد البشر.

وهكذا أن الحكومة وديعة إلهية مهمة جداً يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

وبيئت الآية التاسعة من الآيات موضع البحث آخر صفة من صفات المؤمنين حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

(١) «الفروج»: جمع فرج، وهو كناية عن الجهاز التناسلي.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٢

ومما يلفت النظر أن أول صفة للمؤمنين كانت الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظة عليها، لأن الصلاة أهم رابطة بين الخالق والمخلوق، وأغنى مدرسه للتربية الإنسانية.

وإن الصلاة إن اقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعاً.

بعد بيان هذه الصفات الحميدة، بيئت الآية التالية حصيلة هذه الصفات فقالت: «أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ».

اولئك الذين يرثون الفردوس و منازل عالية و حياة خالدة: «الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». «الفردوس»: الجنة العالية، وأفضل البساتين.

إن هذه المنزلة العالية- حسب ظاهر الآيات المذكورة أعلاه- خاصة بالمؤمنين الذين لهم هذه الصفات، ونجد أهل الجنة الآخرين في منازل أقل أهمية من هؤلاء المؤمنين.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

مراحل تكامل الجنين في الرحم: تبين الآيات موضع البحث- وقسم من الآيات التالية لها- السبل لكسب الإيمان والمعرفة، حيث يمسك القرآن بيد الإنسان ليأخذه إلى «عالم النفس» وليكشف له أسرار باطنه وهو «السير الأنفسى»، وتثير الآيات التالية لها إنتباه الإنسان إلى عالم الظاهر والمخلوقات المدهشة في عالم الوجود وسير عالم الآفاق، وهو «السير الآفاقي».

تقول الآيات أولاً: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» (١).

وتضيف الآية التالية: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ».

وفى الواقع فإن الآيه الاولى تشير إلى بداية وجود جمع البشر من آدم وأبنائه وأنهم خلقوا جميعاً من التراب، إلا أن الآيه التاليه تشير إلى تداوم واستمراريه نسل الإنسان بواسطه تركيب نطفه الذكر ببويضه الانثى فى الرحم.

(١) «السلاله»: تعنى الشىء الذى يستخلص من شىء آخر، وهى فى الحقيقه خلاصه ونتيجه منه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٣

والتعبير عن الرحم ب «قرار مكين»، أى القرار الآمن، إشارة إلى أهميه الرحم فى الجسم، حيث يقع فى مكان أمين محفوظ من جميع الجهات، يحفظه العمود الفقرى من جهه، وعظم الحوض القوى من جهه اخرى، وأعشيه البطن العديده من جهه ثالثه، ودفاع اليدين يشكّل حرزاً رابعاً له، وكل ذلك شواهد على موضع الرحم الآمن.

ثم تشير الآيه الثالثه إلى المراحل المدهشه والمثيرة لتدرج النطفه فى مراحلها المختلفه، واتخاذها شكلاً معيناً فى كل منها فى ذلك القرار المكين، حيث تقول: «إننا جعلنا من تلك النطفه على شكل قطعه دم متخثر (علقه) ثم بدلناها على شكل قطعه لحم ممضوغ (مضغه)، ثم جعلنا من هذه المضغه عظاماً، وأخيراً ألبسنا هذه العظام لحماً: «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا».

وفى الختام أشارت الآيه إلى آخر مرحله والتى تعتبر- فى الحقيقه- أهم مرحله فى خلق البشر، بعبارة عميقه وذات معنى كبير: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ». مرحباً بهذه القدره الفريده، التى خلقت فى ظلمات الرحم هذه الصوره البديعه، وصاغت من قطره ماء كل هذه الامور المدهشه.

طوبى لهذا العلم والحكمه والتدبير، الذى خلق فى هذا الموجود البسيط كل هذه القابليات والجداره، تعالى الله فقد تجلّت قدرته فيما خلق.

وتنتقل الآيه التاليه من تناول مسأله التوحيد ومعرفه المبدأ- بشكل دقيق وجميل- إلى مسأله المعاد حيث تقول: «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيُتُونَ».

ومن أجل أن لا- يعتقد المرء بأن الموت نهايه كل شىء، تقول الآيه: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ». أى إن خلقكم بهذه الصوره المدهشه لم يكن عبثاً أو لتعيشوا أياماً معدودات، فتضيف الآيه أنكم ستبعثون يوم القيامه فى مستوى أعلى وفى عالم أوسع.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِنَعٍ لِلْكَالِينِ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسَبِّحُكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٤

مره اخرى مع علائم التوحيد: تحدثت الآيات السابقه عن آيات الله العظيمة فى وجودنا، وتناولت هذه الآيات بعدها عالم الظاهر وآفاق الكون وعظمه خلق الأرض والسماوات، حيث قالت الآيه الاولى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ».

فإن الآيه تعنى طبقات السماء السبع.

وربما يتوهم أن العالم بهذه السعه والعظمه ألا يوجب أن يغفل الله تعالى عن إدارته؟

فتجيب الآيه مباشرة: «وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ».

وأشارت الآيه التاليه إلى أحد مظاهر القدره الإلهيه، الذى يعتبر من بركات السماوات والأرض، ألا وهو المطر، حيث تقول:

«وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ».

ثم أشارت الآية إلى قضيته أكثر أهميته، هي قضيته إحتياطي المياه الجوفية فتقول: «فَأَسْكَنُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدِيرُونَ». نحن نعلم أن القشرة السطحية من الأرض تتكون من طبقتين مختلفتين:

إن الله الرحيم جعل القشرة الاولى من سطح الأرض نافذة، وتليها قشرة غير نافذة تحافظ على المياه الجوفية، فتكون احتياطاً للبشر يستخرجها عند الحاجة عن طريق الآبار، أو تخرج بذاتها عن طريق العيون، دون أن تفسد أو توجه للإنسان أقل أذى (١). وتشير الآية التالية إلى الخير والبركة في نعمه المطر، أي المحاصيل الزراعية الناتجة عنه فتقول: «فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فمضافاً إلى التمر والعنب اللذين يعتبران أهم المحاصيل الزراعية فإن فيها أنواع أخرى من الفواكه كثيرة.

ومما يلفت النظر من الآيات أعلاه أن منشأ حياة الإنسان في ماء النطفة، ومنشأ حياة النبات من ماء المطر، وفي الحقيقة ينبع هذان النموذجان للحياة من الماء.

ثم تشير الآية التالية إلى شجرة مباركة أخرى نمت من ماء المطر، إضافة إلى بساتين النخيل والكروم والأشجار والفاكهة الأخرى: «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ» (٢). إن جملة «طُورٍ سَيْنَاءَ» إشارة إلى جبل الطور المعروف في صحراء سيناء أو ذات جانب

(١) ويجب ملاحظة أن الماء الملوّث يصفى عند مروره من القشرة النافذة في معظم الأوقات.

(٢) صبغ الأكلين: غذاء يؤكل مع الخبز.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٥

وصفى يعنى الجبل ذى الخيرات، أو الجبل ذى الأشجار الكثيرة، أو الجبل الجميل (لأن «الطور» يعنى الجبل، و «سيناء» تعنى ذات البركة والجمال والشجر).

«صبغ»: تعنى فى الأصل اللون، وبما أن الإنسان يلوّن خبزه مع المرق، لهذا اطلق على جميع أنواع المرق اسم الصبغ.

بعد بيان جانب من أنعم الله فى عالم النبات التى تنمو على المطر، يلى ذلك بحث جانب مهم من أنعم الله وهباته فى عالم الحيوان: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

ثم تشرح الآية «العبرة» فتقول: «نُسِّقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا». أجل إن الحيوان يدرّ حليباً لذيذاً يعتبر غذاءً كاملاً، ويمنح الجسم حرارة كبيرة، ويخرج الحليب من بين الدم على شكل دفعات كما ينزف الدم، لتعلموا قدرة الله حيث يتمكن من خلق غذاء طاهر لذيذ من بين أشياء تبدو ملوثة.

ثم تضيف الآية: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

كما يستفاد من الحيوانات فى الركوب فى البرّ، والسفن فى البحر «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

كل هذه الخصائص والفوائد فى الحيوان تعتبر - حقاً - عبرة لنا، تعرّف الإنسان على ما خلق الله من أنعم، كما تثير فيه الشعور بالشكر والثناء على الله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرَّبُّوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥)

منطق الجبناء المغرورين: تحدثت الآيات السابقة عن التوحيد ومعرفة الله وأسباب عظمتة فى عالم الخليقة، أما الآيات - موضع البحث والآيات المقبلة - فقد تناولت نفس الموضوع على لسان كبار الأنبياء ومن خلال تاريخ حياتهم، حيث بدأت بأول أنبياء اولى العزم

والمنادى بالتوحيد نوح عليه السلام: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ». أى: مع هذا البيان الواضح كيف لا تجتنبون عبادة الأوثان؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٦

أمّا الأشراف الأثرياء والمغرورون والملا من الناس، وهم اللذين يملأون العين في ظاهرهم، والفارغون في واقعهم من قوم نوح عليه السلام: «فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ». وبهذا اعتبروا أوّل عيب له كونه إنساناً فاتهموه بالسلطوية، وحديثه عن الله والتوحيد والدين والعقيدة مؤامرة لتحقيق أهدافه، ثم أضافوا: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكَهً». ولإتمام هذا الاستدلال الخاوى قالوا: «مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ».

إلّا أنّ هذا الكلام الفارغ لم يؤثّر في معنويات هذا النبي الكبير، حيث واصل دعوته إلى الله، ولم يكن في عمله دليل على رغبته في الحصول على إمتياز على الآخرين، أو أن يتسلط عليهم، لهذا لجأوا إلى توجيه تهمة اخرى إليه، هي الجنون الذى كان يتهم به جميع أنبياء الله عبر التاريخ، حيث قالوا: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرِّبْصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ».

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَاَلَمْ تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

خاتمة حياة قوم معاندين: استعرضت الآيات السابقة التهم التي وجهها أعداء نوح عليه السلام إليه، إلّا أنه يستدلّ من آيات قرآنية اخرى- بشكل واضح- أن أذى القوم المعاندين لنوح عليه السلام لم يتحدّد بهذه الامور، بل شمل كل وسيلة يمكن بها إيذاؤه، في حين بذل جميع ما في وسعه في سبيل هدايتهم وإنقاذهم من براثن الشرك والكفر. وعندما يس منهم حيث لم يؤمن بما جاء به إلّا مجموعة صغيرة، دعا الله ليعينه، حيث نقرأ في الآية الاولى: «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي».

هنا نزل الوحي الإلهي، من أجل التمهيد لإنقاذ نوح عليه السلام وأصحابه القلّة وهلاك المشركين المعاندين «فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٧

إنّ عبارة «بأعيننا» إشارة إلى أنّ سعيك في هذا السبيل سيكون تحت حمايتنا.

وإستعمال عبارة «وحينا» يكشف لنا أنّ نوحاً عليه السلام تعلّم صنع السفينة بالوحي الإلهي.

ثم تواصل الآية بأنّه إذا جاء أمر الله، وعلامة ذلك فوران الماء في التنور، فاعلم أنّه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كل نوع من الحيوانات زوجاً (ذكر وانثى) واصعد به إلى السفينة: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ». إشارة إلى زوجة نوح عليه السلام وأحد أبنائه.

ثم أضافت الآية: «وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ».

وتقول الآية التالية: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

وبعد الحمد والثناء عليه تعالى على هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من مخالف الظلمة، ادعوه هكذا: «وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ».

وقد أشارت الآية الأخيرة- من الآيات موضع البحث- إلى مجمل هذه القصة فقالت: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ». ففي هذه الحوادث التي جرت على نوح عليه السلام وإنصاره على أعدائه الظالمين، ونزول أشد أنواع العقاب عليهم، آيات ودلائل لأصحاب العقول السليمة. «وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ». أى إنّنا نمتحن الجميع بشكل قاطع.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَ مِنْ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُنَاءً فَبَعِدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٨

المصير المؤلم لقوم ثمود: تحدّثت هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السلام. ومنطقهم يتناغم ومنطق الكفار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة. فهي تقول أولاً: «ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ». «القرن»: مشتق من الإقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التي تعيش في عصر واحد، وقياس زمن القرن بثلاثين أو مائة سنة يتبع ما تعارفته الأقسام المختلفة.

وبما أن البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد ربّاني، فقد بعث الله أنبياءه يدعون إلى توحيدهم ويطبقون عدالته بين الناس، حيث تقول الآية التالية: «فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

وهذه هي الركيزة الأساسية لدعوة الأنبياء، إنها نداء التوحيد، أس جميع الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وبعدها أكد رسول الله لهم القول: إنكم وبعد هذه الدعوة الصريحة ألا تتركون الشرك وعبادة الأوثان: «أَفَلَا تَتَّقُونَ».

إنهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، وبعث الله النبي «صالح عليه السلام» لهدايتهم، إلّا أنهم كفروا وطغوا فأهلكهم الله بالصيحة السماوية (الصاعقة القاتلة).

ولننظر الآن ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذي أعلنه هذا النبي الكبير؟ يقول القرآن في الآية التالية:

«وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ».

أجل إن القوم بما كانوا يرون في دعوة نبي الله خلافاً لأهوائهم ومنافسةً لمصالحهم العدوانية فجادلوا نبيهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح.

ثم قال بعضهم للبعض الآخر: «وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ».

ومن ثم أنكروا المعاد، الذي كان دوماً سداً منيعاً لاتباع الشهوات وأرباب اللذات، وقالوا: «أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ». لتعيشون حياة جديدة «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ». فقد تساءل الكفار: هل يمكن البعث والناس قد أصبحوا تراباً وتبعثت ذراتهم هنا وهناك؟ إن ذلك مستحيل.

وبهذا الكلام ازدادوا إصراراً على إنكار المعاد قائلين: إننا نشاهد باستمرار موت مجموعة وولادة مجموعة أخرى لتحل محلهم، ولا حياة بعد الموت: «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٩

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

وأخيراً لخصوا التهم التي وجهوها إلى نبيهم فقالوا: «إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ».

وعندما طغى عناد الكفار، تجاسروا على الله، وأنكروا رسالته إليهم، وأنكروا معجزات أنبيائه بكل صلافة، وقد أتم الله حجته عليهم، عندها توجه هذا النبي الكبير إلى الله سبحانه وتعالى و «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي». رباه: انصرنى فقد هتكوا الحرمات، واتهموني



بما شاؤوا وكذبوا دعوتى.

فأجابته الله عز وجل كما ذكرت الآية: «قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ». ألا إنهم سيندمون يوم لا ينفع الندم.

وهكذا جرى «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ» حيث نزلت عليهم صاعقه الموت برعبها الهائل ودمارها الماحق، وقلبت مساكنهم ونثرتها حطاماً، وكانت سرية خاطفة إلى درجة لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا في منازلهم كما بينت الآية الكريمة: «فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً». أى: جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل «فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

والغثاء، يعنى النباتات الجافة المتركمة والطافية على مياه السيول، كما يطلق الغثاء على الزبد المتركم على ماء القدر حين الغليان، وتشبيه الأجسام الميتة بالغثاء دليل على منتهى ضعفها وإنكسارها وتفاهتها.

وهذا إستنتاج نهائى من كل هذه الآيات، فما قيل بصدد إنكار وتكذيب الآيات الإلهية والمعاد والعاقبة المؤلمة والنهاية السيئة لا تختص بجماعة معينة، بل تشمل جميع الظلمة عبر التاريخ.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

هلاك الأقسام المعاندين الواحد بعد الآخر: بعد أن تحدت القرآن عن قصة قوم نوح، أشار إلى أقوام اخرى جاءت بعدهم، وقبل النبى موسى عليه السلام حيث يقول: «ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ». لأن هذا أمر الله وسنته فى خلقه، فالفيض الإلهى لا ينقطع عن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٠

عباده فلو سعى جماعة للوقوف فى وجه مسيرة التكامل الإنسانى للبشرية لمحقتهم ودفع هذه المسيرة إلى أمام. ولهذه الأقسام تاريخ معين وأجل محدود: «مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ». فلو صدر الأمر الحتمى بنهاية حياتهم فسيهلكوا فوراً، دون تأخير لحظة أو تقديم لحظة.

«الأجل»: بمعنى العمر ومدّة الشىء، فالأجل المحتم انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، ولا تغيير فيه. إن الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتم».

وتكشف الآية التالية حقيقة استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوة إلى الله حيث تقول: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى».

«تترا»: مشتقة من «الوتر» بمعنى التعاقب، و «تواتر الأخبار» تعنى وصولها الواحد بعد الآخر، ومن مجموعها يتيقن الإنسان بصدقها. إن معلّمى السماء، كانوا يتعاقبون فى إرشاد الناس، إلّا أنّ الأقسام المعاندة كانوا يواصلون الكفر والإنكار، فإنّه: «كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ».

وعندما تجاوز هذا الكفر والتكذيب حدّه وتمت الحجّة عليهم. «فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا». أى: أهلكتنا الامم المعاندة الواحدة بعد الاخرى ومحوناهم من الوجود.

وقد تمّ محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداولها الناس «وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ». إشارة إلى أنّ كل أمة تتعرض للهلاك، ويبقى منهم بعض الأفراد والآثار هنا وهناك، وأحياناً لا يبقى منهم أى أثر. وهذه الامم المعاندة والطاغية كانت ضمن المجموعة الثانية. وتقول الآية فى الختام، كما ذكرت الآيات السابقة: «فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ».

وهؤلاء لم يكونوا بعيدين عن رحمة الله فى هذه الدنيا فحسب، بل بعيدون عن هذه الرحمة فى الآخرة أيضاً، لأنّ تعبير الآية جاء عاماً يشمل الجميع.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ كِبَرًا وَكَانُوا قَوْمًا كَالِينٍ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

قيام موسى وهلاك الفراعنة: كان الحديث حتى الآن عن أقوام بعث الله لهم رسلاً قبل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣١

موسى عليه السلام، وهلكوا. أما الآيات موضع البحث فقد تحدّث باختصار جدّاً عن إنتفاضة موسى وهارون على الفراعنة ومصير هؤلاء القوم المستكبرين، فقالت:

«ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ».

إنّ «الآيات» تعنى المعجزات التي أعطها الله لموسى بن عمران (الآيات التسع). وتقصد عبارة «سلطان مبین» المنطق القوی والبرهان الدافع لموسى عليه السلام أمام الفراعنة.

أجل بعثنا موسى وأخاه هارون بهذه الآيات وسلطان مبین «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ».

لعل ذلك إشارة إلى أنّ الفراعنة هم أساس الفساد، ولا يصلح أى بلد إلّا بصلاح قادته، إلّا أنّهم «فَاسِدٌ تَكْبُرُوا» لأنهم لم يرضخوا لآيات الحق والسلطان المبین.

والفراعنة كانوا مستكبرين طاغين، كما تقول الآية: «وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ».

ومن الدلائل الواضحة على إحساسهم بالإستعلاء، قولهم: «وَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَادُونَ» (١). فقد تصدّوا لموسى وأخيه هارون بهذه الأدلة الخاوية، مخالفة منهم للحق «فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ». وهكذا إنتهى أعداء بنى إسرائيل الذين كانوا سدّاً مانعاً لدعوة موسى وهارون إلى الله سبحانه.

وبدأت بعدها مرحلة تعليم وتربية بنى إسرائيل، فأنزل الله فى هذه المرحلة «التوراة» على موسى، الذى دعا بنى إسرائيل للإهتمام بهذا الكتاب وتطبيقه على ما ذكرته الآية الأخيرة هنا: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)

آية اخرى من آيات الله: أشارت الآية فى آخر مرحلة من شرحها لحياة الأنبياء إلى السيد المسيح عليه السلام وامه مريم، فقالت: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً».

وقد استعملت «الآية» عبارة «ابن مريم» بدلاً من ذكر اسم عيسى، لجلب الإنتباه إلى حقيقة ولادته من ام دون أب بأمر من الله، وهذه الولادة هى بذاتها من آيات الله الكبيرة.

ثم أشارت الآية إلى الأنعم الكبيرة التى أسبغها الله على هذه الامّ الزكية وبنها فتقول: «وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ». «الربوة»: مشتقة من «الربا» بمعنى الزيادة والنمو،

(١) يطلق على الإنسان «البشر»، لأن بشرته وجلده عاريه، خلافاً لما عليه الحيوانات من لباس طبيعى خاص بكل نوع منهما.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٢

وتعنى هنا المكان المرتفع؛ و «المعين»: مشتق من «المعن» بمعنى جريان الماء. إن هذا المكان الآمن هو مولد السيد المسيح عليه السلام فى صحراء القدس، وقد جعله الله أمناً لهذه الام والوليد، وفجر لهما ماء معيناً ورزقهم من النخل الجاف رطباً جلياً.

فقد كانت الآية دليلاً على حماية الله تعالى الدائمة لرسله ولمن يدافع عنهم.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤)

جميع الامه يد واحده: تحدت الآيات السابقة عن ماضى الأنبياء واممهم، أما هذه الآيات فخاطبت الجميع فقالت: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

بينت هذه الآية ثلاثة مؤثرات فى العمل الصالح:

الأول: طيب الغذاء الذي يورث صفاء القلب ونقاوته.

والثاني: شكر الله تعالى على ما أنعم به من رحمته.

الثالث: الشعور اليقظ بمراقبة الله سبحانه للأعمال كلها.

ثم دعت الآية جميع الأنبياء وأتباعهم إلى توحيد الله والتمسك بتقواه: «وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً». فالإختلافات الموجودة بينكم، وكذلك بين أبنائكم ليست دليلاً على التعددية إطلاقاً. «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ». فنحن بين يدي دعوة واعية إلى وحدة الجماعة والقضاء على ما يثير التفرقة، ليعيش الناس أمة واحدة، كما أن الله ربهم واحد أحد.

ولهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السلام إذ دعوا إلى اتباع تعاليم موحدة، ذات أساس واحد في كل مكان.

وقد حذرت الآية التالية البشر من الفرقة والاختلاف، بعد أن تمت في الآية السابقة دعوتهم إلى التمسك بالوحدة، فقالت:

«فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا». ومما يثير الدهشة أن «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ».

«الزبر»: جمع «زبرة» تعني بعض شعر الحيوان خلف رأسه، يجمعه الراعي ليفصله عن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٣

باقي الشعر، ثم أطلقت هذه الكلمة على كل شيء ينفصل عن أصله، فتقول الآية: «فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا». إشارة منها إلى تفرق الأمة إلى مجموعات وفئات مختلفة.

تستعرض الآية حقيقة نفسية واجتماعية هي أن التعصب الجاهلي للأحزاب والفئات يمنع وصولها إلى الحقيقة، لأن كلاً منها قد اتخذ سبيلاً خاصاً به.

وهذه الحالة نتجت عن حب الذات المفرط والعناد، وهما أكبر عدو للحقيقة، ولوحدة الأمة.

ولهذا تقول الآية الأخيرة هنا: «فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ». أي: اتركهم على حالهم حتى يأتي أجلهم، أو يأتيهم الله بعذاب منه، فليس لهم سوى هذا، لأنهم أصروا على البقاء في جهلهم ومناهتهم.

«حين»: قد تكون إشارة إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

«الغمرة»: على وزن «ضربة» فهي بالأصل من «غمر» أي إتلاف كل شيء، ثم أطلق غمر وغامر على الماء الكثير الذي يزيل كل شيء يواجهه، ويواصل جريانه، ثم أطلق على الجهل والبلايا التي يغرق فيها الإنسان، كما استعملته الآية السابقة بمعنى الغفلة والضلال والجهل والضللال.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَمَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

تعرض ما سبق من الآيات المباركة للأحزاب والمجموعات المعاندة التي غلب عليها التعصب وحب الذات، بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنايية: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ» (١). هو من أجل أننا: «نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ».

فهل يتصورون أن أموالهم الوافرة وكثرة أولادهم دليل على أنهم على حق، ودليل على

(١) وهذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن في قضية (الإستدراج في النعم).

«نمدد»: مشتقة من «الإمداد» وهو إتمام النقص والحيلولة دون القطع، وإيصال الشيء إلى نهايته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٤

قرب منزلتهم من الله؟ «بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» أن كثرة أموالهم وأولادهم نوع من العذاب، أو مقدمه للعذاب ولعقاب الله، إنهم لا يدركون

أَنْ مَا أَعْدَقَ عَلَيْهِمْ رَبِّهِمْ مِنْ نَعَمٍ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَوَزَّطُوا فِي الْعِقَابِ الْإِلَهِيِّ، وَيَمْسَى عِقَابَهُمْ أَشَدَّ أَلَمًا. وبعد نفى تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين والمسارعين في الخيرات، وتبين صفاتهم الرئيسية، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ». و «الخشية»: تعنى الخوف المقترن بالتعظيم والتقديس.

ثم تضيف الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ».

وتأتى بعد مرحلة الإيمان بآيات الله، مرحلة تنزيهه عن كل شبهة وشريك، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ». بعد هذا تأتى مرحلة الإيمان بالمعاد والبعث، والإهتمام الخاص الذى يوليه المؤمنون الحقيقيون لهذه القضية، التى تساعدهم عملياً فى السيطرة على أعمالهم وأقوالهم، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ». وبعد شرح الآيات السابقة لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: «أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ».

وقد رسمت الآيات السابقة صورة واضحة لصفات هذه القدوة من المؤمنين، فبدأت أولاً بالخوف المتميز بتعظيم الله، وهو الدافع إلى الإيمان به ونفى الشرك عنه، وانتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمه العدل الإلهي، الذى يشكل الشعور بالمسؤولية، ويدفع الإنسان إلى كل عمل طيب، فهى تبين أربع خصال للمؤمنين ونتيجة واحدة. (فتأملوا جيداً).

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ (٦٦) مُشْتَكِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)

بما أن خصال المؤمنين هى سبب القيام بالأعمال الخيرة التى أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأن هذه الخصال والقيام بهذه الأعمال لا تتيسر لكل أحد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٥

فتجيب أول آية- من الآيات موضع البحث- عن ذلك فتقول: «وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وكل إنسان يكلف حسب عقله وطاقته. وهذه إشارة إلى أن الواجبات الشرعية هى فى حدود طاقة الإنسان، وأنها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، وكما يقول علماء اصول الفقه: إن هذه القاعدة حاكمه على جميع الواجبات الشرعية ومقدمه عليها.

وقد يسأل: كيف يحاسب كل البشر على أعمالهم كلها صغيرها وكبيرها؟

فتجيب الآية: «وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ». فهناك صحيفة أعمال الإنسان المحفوظة لدى الله العلى القدير.

ولكون هذه الحقائق مؤثرة فى الواعين من الناس فحسب، أضافت الآية التالية بأن هؤلاء الكفار المعاندين غارقون فى دوامة الجهل والغفلة لدرجة أنهم غافلون عما ينتظرهم من الوعيد: «بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا».

وتضيف هذه الآية: «وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ».

المهم هو الإنتباه إلى أن مصدر الأعمال الشريرة يكمن فى إنغمار القلوب فى الجهالة.

ولكن هؤلاء المترفين يبقون فى هذه الغفلة ما داموا فى نعيمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم يصرخون كالوحوش من شدة العذاب الإلهي، كما تقول الآية: «حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ».

فيخاطبون: «لَا تَجْرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ».

وتكشف الآية التالية عن سبب هذا المصير المشؤوم: «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ». بدلاً من الاستفادة منها والإنتباه للواقع.

«تنكصون»: مشتقة من النكوص، بمعنى السير بشكل معاكس.

«أعقاب»: جمع «عقب» على وزن «فعل» وتعنى عقب القدم.

وهذه الجملة كناية عن شخص يسمع كلاماً غير مرغوب فيه، فيرتعب لدرجة يسير فيها القهقري على عقبى قدميه. ثم إنه لا يرجع إلى الوراء لمجرد سماعه آيات الله، وإنما يصبح ممن وصفتهم الآية: «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ». وإضافةً إلى ذلك: «سَمِرًا تَهْجُرُونَ». أي يتسامرون في لياليهم ويتحدثون عن النبي والقرآن بالباطل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٦

«سامراً»: مشتقة من «سَمَرَ» على وزن «نصر» بمعنى التحدث ليلاً.

«تهجرون»: مشتقة من «هَجَرَ» وتعني بالأصل الإبتعاد والانفصال، وقد وردت بمعنى الهذيان الصادر من المريض، لأنّ كلامه في تلك الحالة غير سليم، ويبعث على النفور كما أنّ الهَجْر (على وزن كُفِر) يعني السباب، وهو أيضاً يبعث على الإبتعاد والقطيعة. وقد جاءت كلمة «تهجرون» في الآية بالمعنى الأخير، فتقول: إنّ المشركين من العرب كانوا يتسامرون حتى ساعات متأخرة من الليل، وهم يهدون ويكيلون السباب والشتائم كالمرضى.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كِونَ (٧٤)

أعدار المنكرين المختلفة: تحدّث الآيات السابقة عن إعراض الكفار وإستكبارهم إزاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. وتناولت هذه الآيات أعدارهم في هذا المجال والردّ عليهم، وشرحت الدوافع الحقيقية لإعراض المشركين عن القرآن والرسول صلى الله عليه وآله ويمكن تلخيصها في خمس مراحل:

الاولى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ». فأول سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكير في مضمون دعوة النبي صلى الله عليه وآله ولو تفكروا ملياً لما بقيت مشكلة لديهم.

وفي المرحلة الثانية تقول الآية: «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ». سألت الآية مستنكرة: أكانت الدعوة إلى التوحيد والمعاد، والهدى إلى الأعمال الصالحة مختصة بهم دون آبائهم الأولين، ليحتجوا بأنها بدعة، ويقولوا: لماذا لم يبعثه الله للأولين، وهو لطيف بعباده؟

ليس لهم ذلك، لأنّ الإسلام من حيث المبادئ له مضمون سائر الرسالات التي حملها الأنبياء عليهم السلام فهذا التبرير غير منطقي ولا معنى له.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٧

وفي المرحلة الثالثة تقول الآية: «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ». أي: إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول ومشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأنّ كلامه حق، إلّا أنّ هذا الرجل مشكوك وغير معروف لدينا، فيحتمل أن تُخدع بكلامه، ولكنهم يعرفون ماضيكم جيّداً، وكانوا يدعونكم محمّداً الأمين، ويعترفون بعقلك وعلمك وأمانك، ويعرفون جيّداً والديك وقبيلتك، فلا حجة لهم.

وفي المرحلة الرابعة تقول الآية: «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ». أي إنه مجنون، فبعد إعترافهم بأنّك لست مجهولاً بالنسبة لهم، إلّا أنهم يشككون في سلامه وعقلك وينسبونك إلى الجنون، لأنّ ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتّخذوا هذا دليلاً على جنونك.

يقول القرآن المجيد لنفي هذه الحجة: «بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ». وكلامه شاهد على هذه الحقيقة، ويضيف: «وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ».

أجل، إنّ كلمات الرسول راشدة حكيمة، إلّا أنهم ينكرونها لعدم إنسجامها مع أهوائهم النفسية، فألصقوا به تهمة الجنون في الوقت الذي لا ضرورة في توافق الحق مع رغبات الناس: «وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ».

لأنه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافاً إلى أنها تميل إلى الشر والفساد غالباً.

وتأكيداً لذلك تقول الآية: «بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ». أى: منحناهم القرآن الذى هو أساس للذكر والتوجه إلى الله، وسبب لرفعتهم وشرفهم، إلّا أنهم أعرضوا عن هذا المنار الذى يضيء لهم درب السعادة والشرف.

وفى المرحلة الخامسة تقول الآية: هل أن عذرهم فى فرارهم من الحق هو أنك تريد منهم أجراً على دعوتك: «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

والقرآن الكريم يوضحه هذه المراحل الخمس برهن على أن هؤلاء الحمقى (المشركين) لا يرضخون للحق، وأن أعدارهم فى إنكار الحق أعدار واهية.

وجاءت الآية التالية باستنتاج عام لكل ما مضى: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ورغم أن الروايات الإسلامية تفسّر الصراط المستقيم بولاية على عليه السلام، إلّا أنها تكشف عن المصداق الأكمل لذلك، ولا تتنافى مع المصداق الأخرى كالتقوى والإيمان بالمبدأ والمعاد والتقوى والجهاد والعدل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٨

وتستعرض الآية التالية النتيجة الطبيعية لهذا الموضوع، فتقول: «وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ».

«ناكب»: مشتقة من «النكب» و«النكوب» أى الانحراف عن الطريق. «نكبت الدنيا» تقع فى مقابل إقبال الدنيا، وتعنى إدبار الدنيا وإعراضها عن المرء.

والصراط يقصد به هنا ما فى الآية السابقة.

أوضحت الآيات السابقة عدداً من صفات القادة إلى طريق الحق، فهم المعروفون بالصلاح والاستقامة.

ويواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقيدة الحقّة رغم رفض عدد كبير من الناس لهم وحقدهم عليهم.

والصفة الأخرى للأنبياء أنهم لم يطلبوا أجراً من الناس.

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ

حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

(٨٠)

طرق التوعيه الإلهية المختلفة: عرضت الآيات السابقة الحجج التى يتذرّع بها منكرو الحق فى رفض الرسالات وإيذاء الأنبياء عليهم

السلام، وتناولت هذه الآيات إتمام الحجة عليهم من قبل الله تعالى وتوعيتهم. فتقول أولاً: إنّنا تارةً نشملهم برعايتنا ونرزقهم من وفير

النعمة لينتبهوا، ولكن: «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

والله تعالى يبتليهم لعلهم يعون حين لا تجدى بهم رحمته سبحانه، لكن طائفه غالبه منهم لم يستيقظوا حتى بالبلاء المذل:

«وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٩

فالله تعالى يواصل هذه الرحمة والنعمة والعقوبات، والمشركون يواصلون طغيانهم وعنادهم: «حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» (١).

الواقع، أن نوعين من العقاب الإلهي: أوّلها «عقاب الإبتلاء»، وثانيهما «عقاب الإستيصال» والإقتلاع من الجذور، والهدف من العقاب

الأوّل وضع الناس فى صعوبات وآلام ليدرّكوا مدى ضعفهم وليتركوا مركب الغرور.

أمّا هدف العقاب الثانى الذى ينزل بالمعاندن المستكبرين فهو إزالتهم عن مجرى الحياة، وتطهيرها من عراقيلهم.

ثم تناول القرآن المجيد القضية من باب آخر، فعَدَّد النعم الإلهية لدفع الناس إلى الشكر: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

والتأكيد على (الاذن والعين والعقل) لأنها الأجهزة التي بها يتعرف الإنسان على المحسوسات والقضايا، فالأشياء الحسية يبلغها بالعين والاذن، والقضايا غير الحسية يدركها بالعقل.

وتناولت الآية اللاحقة خلق الله سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: «وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ» (٢).

وبما أنه - جلَّ اسمه - خلقكم من الأرض، لذلك ستعودون إليها مرّة ثانية، ثم يبعثكم: «وَالِيَهُ تُحْشَرُونَ».

ولو فكّرتم في خلقكم من تراب لا قيمة له، لذلكم على خالق الوجود سبحانه، وعزّفكم على كريم لطفه بكم وإحسانه إليكم، وقادكم إلى الإيمان به وبالمعاد.

وبعد ذكر خلق الإنسان، تناولت الآية المذكورة آنفاً دلائل أخرى من بديع صنع الله تعالى «وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وبهذا الترتيب بدأ البيان القرآني من الدافع لإستيقاظ القلب وإنبعائه على معرفة ربه سبحانه وإنتهى بذكر بعض أهم الآيات الأنفسية والآفاقية.

(١) «المبلس»: كلمة مشتقة من «الإبلاس» بمعنى الألم الشديد الناتج عن شدة أثر الحادث، وتدفع بالإنسان إلى الصمت والحيرة واليأس.

(٢) «ذراً»: مشتقة من الذرة (على وزن زرع)، وهي في الأصل بمعنى الخلق والإيجاد والإظهار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٠

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)

دعت الآيات السابقة منكري الله والمعاد إلى التفكير في خلق عالم الوجود وآيات الآفاق والأنفس، وأضافت هذه الآيات أن هؤلاء تركوا عقولهم واتبعوا أسلافهم وقلدوهم تقليداً أعمى: «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ».

ثم إن هؤلاء ملكهم التعجب و: «قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

إن ذلك لا يُصدّق، «لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ». فكانت وعوداً كاذبة، و «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

ولكون الكفار والمشركين أشدّ خوفاً من اليوم الآخر وما فيه من هول الحساب وعدل الكتاب، وسدّدت الآيات موضع البحث إلى هذا المنطق الواهي من ثلاث طرق.

ومما يلفت النظر أن القرآن يأخذ من المشركين إقراراً بكل مسألة، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم. يقول أولاً: «قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

ثم تضيف الآية أنهم يؤمنون بالله خالق الوجود وفق نداء الفطرة النابع من ذاتهم، وسيجيئونك و: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». فأجبههم:

«قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». كيف تتصورون إستحالة إحياء الموتى بعد إقراركم الصريح؟

ثم يأمر رسوله مرّة ثانية أن يسألهم: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

فيأتي الجواب نابعاً من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي الإقرار بربوبيته تعالى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤١

«سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». وبعد هذا الاعتراف الواضح فلماذا لا تخافون الله، ولا تعترفون بالمعاد وبعث الإنسان مرة ثانية: «قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ». واسألهم مرة اخرى عن سيادة الله على السماوات والأرض: «قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ». ومن الذى يجبر اللاجئين وجميع المحرومين ولا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

فيعرفون بأن العالم ومالكيته وحكومته وإجارة الآخرين يعود لله فقط: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». «قُلْ فَأَنَّى تُشَاهِرُونَ». أى: كيف تقولون: إن الرسول صلى الله عليه وآله سحركم رغم كل هذا الاعتراف والإقرار منكم؟!!

وأخيراً يقول القرآن في عبارة مختصرة ذات دلالة كبيرة بأنه ليس سحراً ولا شعبذة ولا شىء آخر: «بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». «الأساطير»: جمع «اسطورة». قال بعض اللغويين: إنها مشتقة من «السطر» بمعنى الصف، فيطلق على الكلمات التى إصطفت فى خط واحد لفظ السطر. فالاسطورة: الكتابة أو السطور التى تركها لنا الآخرون، ولأن كتابات القدماء تحتوى على أساطير خرافية، تطلق الأساطير على الحكايات والقصص الخرافية الكاذبة. وقد تكررت كلمة الأساطير فى القرآن المجيد تسع مرات، وجميعها جاء على لسان الكفار لتوجيه مخالفتهم لأنبياء الله تعالى.

«الملكوت»: مشتقة من «الملك» (على وزن كُفِر)، بمعنى الحكومه والمالكيه.

«العرش»: يعنى السرير ذا القوائم العالیه، ويطلق أحياناً على السقف وشبهه، وعندما تتعلق هذه الكلمه بالله سبحانه، فإنها تعنى عالم الوجود كله.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

الشرك يجز العالم نحو الدمار: تناولت الآيات السابقة بحثاً فى المعاد والملك والحكم والربوبيه، أما هذه الآيات فقد تناولت نفى الشرك، وإستعرضت جانباً من إنحرافات المشركين، وردتها عليهم بالأدلة الساطعه، قائلة: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٢

إن المسيحيين يرون النبى عيسى عليه السلام إبناً لله، والمشركون يرون الملائكة بنات لله، وهذا أوضح مظهر للشرك. ثم بينت الآية بطلان الشرك: أنه لو كان هناك آلهة متعدده تحكم العالم، فسيكون لكل إله مخلوقاته الخاصه به يحكم عليها ويدبر امورها.

وسيكون تبعاً لذلك أنظمه متعدده للعالم، لأن كل واحد من الآلهه يدير منطقته بنظام خاص: «إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ».

وهذا يناهى وحده النظام الحاكم فى هذا العالم.

«وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ». وهذه نتيجة محتومه لكل صراع، إذ يسعى كل طرف فيه لغلبه الآخرين والهيمنه عليهم، وهذا سيكون بذاته سبباً آخر لتفكك النظام الموحد السائد فى العالم.

وجاء فى ختام الآية تقديس لله سبحانه «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ». و الآية التالية ترد على المشركين المغالطين فتقول: «عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ». أى: إن الله يعلم ظاهر الأشياء وباطنها، فكيف تتصورون وجود إله آخر تعرفونه أنتم ولا يعرفه الرب الذى خلقكم والذى يعلم الغيب والشهادة فى هذا العالم؟

وبهذه العبارة يبطل تصوراتهم الخرافية: «فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وختام هذه الآية يشبه ختام الآية (١٨) من سورة يونس، كما أن هذه العبارة تهديد موجه للمشركين بأن الله الذى يعلم السر والعلن، يعلم ما تقولونه، وسيحاسبكم عليه يوم القيامة فى محكمته العادله.

قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرِيئِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلِمَا تَجْعَلِنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعِ بِالَّتِي



هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) مع مخاطبة هذه الآيات للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، واصلت مقاصد الآيات السابقة في تهديد الكفار والمشركين المعاندين بأنواع العذاب الإلهي: «قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ». «رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٣

والمراد بهذا العذاب أنه العقاب الدنيوي الذي ابتلى الله به المشركين.

وتأكيداً لهذا الموضوع ولنفي كل شك لدى الأعداء، ولتسليته خاطر الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين، أضافت الآية اللاحقة: «وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَدِرُونَ».

ولقد تجلّت قدرة الله سبحانه في ساحات مختلفة بعد ذلك.

ثم يأمر الله الرسول صلى الله عليه وآله باتباع سياسة اللين في الدعوة إلى الهدى ودين الحق: «اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ» (١). أى: ادفع عدوانهم وسيناتهم بالعمو والصفح والإحسان، وكلامهم البدى بالكلام المنطقي الموزون: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ». والله يعلم أن أعمالهم القبيحة وكلامهم البدى وأذاهم القاسى يؤلم الرسول صلى الله عليه وآله، إلا أنه عز وجل يدعو إلى عدم الرد بالمثل، بل يوجب أن يكون الرد بالتي هي أحسن. وهذا خير سبيل لإيقاظ الغافلين والمخدوعين.

ثم نقرأ أمراً ربانياً بالاستعاذة بالله من مكائد الشيطان: «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ». إنه دعاء بالإنقاذ من تربص الشيطان ومكره الخفى، ولا يقف الدعاء عند همزات الشياطين بل يستمر في الاستعاذة من حضورهم عنده: «وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ». أى: حضور الشياطين في اجتماعات النبي صلى الله عليه وآله الذى يؤدى إلى إغفال المجتمعين وإضلالهم، فعلى محبى الحق والذاتين عنه وناشديه أن يفوضوا أمرهم إلى الله، ليحفظهم من وساوس الشياطين ومكائدهم.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

طلب المستحيل: تابعت هاتان الآيتان ما تناولته الآيات السابقة من عناد المشركين والمذنبين وتمسكهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخيم حين الموت. وأنهم يستمرون فى باطلهم: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ».

حينما يجبر المذنب والمشرك على ترك الدنيا لينتقل إلى عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة والغرور، يرى بام عينه مصيره المؤلم، فلا مال ولا جاه، فقد عاد كل ما يعنيه هباءً فى

(١) والجدير بالذكر أن هذا الأمر خاص بحالات لا يسىء العدو الاستفادة من هذا المبدأ.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٤

هباءً، وهو يشاهد اليوم عاقبه أمره، وما إرتكبه من ذنوب ومعاص، فيرتفع صراخه وعويله: «قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ». ارجعنى يا رب لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ». ولكن قانون الخلق العادل لا يسمح بمثل هذه العودة، لا يسمح بعودة الصالح ولا الطالح، فيأتيه النداء الدامغ «كَلَّا». «إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا». كلام لم يصدر من أعماقه، ومتى هدأت العاصفة بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبيحة.

وتشير الآية فى نهايتها إلى عالم البرزخ الغامض بعبارة قصيرة ذات دلالة كبيرة «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (١). فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)

جانب من عقاب المسيئين: تحدّثت الآيات السابقة عن عالم البرزخ، وأعقبتها آيات تناولت القيامة بالبحث، وتناولت كذلك جانباً من وضع المذنبين فى عالم الآخرة. فهى تقول أولاً: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ».

من المعلوم- بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم- أن النسخ في الصور يجري مرتين: اوليها في نهاية هذا العالم، حيث يموت من في الأرض والسموات، وفي ثانيتهما يبدأ بعث من في القبور ليعودوا لحياة جديدة وليستعدوا للحساب والجزاء. إن الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة: اوليها: إنتهاء مسألة النسب، لأن رابطة الاسرة والقبيلة التي تسود حياة الناس في هذا العالم تؤدي في كثير من الحالات إلى نجاه المذنبين من العقاب، إذ يستجدون بأقربائهم في حل مشاكلهم، أما الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كل إنسان وعمله، فلا معين له، ولا

(١) «البرزخ»: في الأصل الشيء الذي يقع حائلاً بين شيئين، ثم استعملت لكل ما يقع بين أمرين، ولهذا أتت كلمة البرزخ للدلالة على عالم يقع بين عالم الدنيا والآخرة. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٥. نفع في ولده، أو أخيه، أو والده.

وثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهي، هو يوم كما أطلعنا عليه في مطلع سورة الحج: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ».

وبعد وقوع القيامة تبدأ مرحلة الحساب وقياس الأعمال بميزان خاص بيوم القيامة: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». «الموازن»: جمع «ميزان» وهو وسيلة للقياس، وكما ورد في الأحاديث المختلفة أنه ميزان تقاس به الأعمال والناس، وهم قادة الإسلام الكبار، في الحديث: «إن أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين» (١).

وعلى هذا فإن الرسل وأوصياءهم هم الذين يقاس الناس وأعمالهم بهم، ليتبين إلى أي درجة يشبهونهم. «وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ». وهم الذين فقدوا الإيمان والعمل الصالح، فوزنهم خفيف يوم القيامة لأنهم خسروا رأسمال وجودهم: «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ».

عبارة «خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ» تصريح بحقيقة خسران المذنبين لأكثر رأسمال لهم- أي وجودهم- في سوق تجارة الدنيا دون أن يحصلوا على مقابل.

وتشرح الآية التالية عذابهم الأليم: «تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ». ألسنة النار ولهيبها المحرق تضرب وجوههم كضرب السيف، «وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ» وهم من شدة الألم وعذاب النار، في عبوس واكفهار.

«تلفح»: تعنى في الأصل ضربة السيف، وقد وردت هنا كناية، لأن لهيب النار، أو نور الشمس المحرقة، وريح السموم، تضرب وجه الإنسان كضرب السيف.

«كالح»: بمعنى التعيس واكفهار الوجه.

(١) بحار الأنوار ٧ / ٢٥٢.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٦

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَنَا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ

## الْفَائِزُونَ (١١١)

تحدثت الآيات السابقة عن العذاب الأليم لأهل النار، وتناولت الآيات - موضع البحث - إستعراض جانب من كلام الله مع أهل النار، إذ خاطبهم سبحانه وتعالى بعتاب: «أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْتِي تُتَلَّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ». وهم يعترفون في ردِّهم: «قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ».

«الشقوة» و «الشقاوة»: نقيض السعادة، وتعنى توفر وسائل العقاب والبلاء. أو بتعبير آخر: هى الشر والبلاء الذى يصيب الإنسان. ولعلهم فى إعترافهم هذا يودون نيل رضى الله ورحمته، لهذا يضيفون مباشرة: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ». يقولون ذلك وكأنهم لا يعلمون أن القيامة دار جزاء وليست دار عمل، وأن العودة إلى الدنيا أمر محال. لهذا يردهم الله سبحانه وتعالى بقوة: «قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ».

وعبارة «اخسوا» التى هى فعل أمر، تستعمل لطرده الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنها تعنى تحقيره ومعاقبته. ثم بيّن الله عز وجل دليل ذلك بقوله: هل نسيتم، «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ». ولكنكم كنتم تستهزئون بهم إلى درجة أن كثرة الإستهزاء والسخرية منهم أنساكم ذكرى: «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ» على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ». وأما أنتم فقد إبتليتكم بأسوأ حالة، وبأكثر العذاب ألماً، ولا ينجدكم أحد من مصيركم الذى تستحقونه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٧

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِيْنَا لَا تَرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)

الدنيا وعمرها القصير: بما أن الآيات السابقة تناولت جانباً من عذاب أهل النار الأليم، عقبّت الآيات - موضع البحث - ذلك بذكر نوع آخر من العذاب، هو العذاب النفسى الموجه من قبل الله تعالى لأهل النار للإستهانة بهم. تقول الآية الاولى: «قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ». يخاطبهم سبحانه وتعالى يوم القيامة قائلاً: كم سنة عشتم فوق الأرض؟

إلا أنهم يرون فى هذه المقارنه أن الدنيا قصيرة جداً: «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». والحقيقة أن الأعمار الطويلة فى الدنيا كسحابه صيف لو قارناها بحياة الآخرة، حيث النعم الخالدة والعقاب غير المحدود. وللتأكيد أو للردِّ بدقه قالوا: «فَسَلِّ الْعَادِيْنَ». أى: رباه أسأل الذين يعرفون أن يعدّوا الأعداد ويحسبوا بدقه حين مقارنه بعضها مع بعض.

وهنا يؤنبهم الله ويستهزىء بهم: «قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وإستعملت الآية اسلوباً مؤثراً آخر لإيقاظ هذه الفئة وتعليمها: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِيْنَا لَا تَرْجَعُونَ».

هذه العبارة الموجزة والعميقة تبين واحداً من أقوى الأدلة على البعث وحساب الأعمال والجزاء، وتعنى أن الحياة الدنيا تصبح عبثاً إن لم تكن القيامة والمعاد، فالدنيا بما فيها من مشاكل وما وضع فيها الله من مناهج ومسؤوليات وبرامج، تكون عبثاً وبلا معنى إن كانت لأيام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك فى المسائل الآتية.

وبما أن عدم عبثية الخلق أمر مهم يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآية: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَمَّا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٨

المفلحون والخائبون: بما أن الآيات السابقة تحدثت عن قضية المعاد، واستعرضت الصفات الإلهية، فإن الآية الأولى أعلاه تناولت

التوحيد نافيةً الشرك مؤكدةً للمبدأ والمعاد في قوله تعالى: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ». أجل، إنَّ المشركين ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلته وإشراق حقيقته، ويقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه. وفي النهاية تقول الآية: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكُفْرُونَ».

ما أجمل بداية هذه السورة «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» وما أجمل نهايتها المؤكدة لبدايتها: «لَا يُفْلِحُ الْكُفْرُونَ» هذه هي صورة جامعته لحياة المؤمنين والكافرين من البداية إلى النهاية.

وختمت السورة بهذه الآية الشريفة كاستنتاج عام بأن وجهت الكلام إلى الرسول صلى الله عليه وآله: «وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

والآن وقد إختارت فئة الشرك سيلاً، وجارت فئة اخرى وظلمت، فأنت أيها الرسول ومن معك تدعون الله ربكم أن يغفر لكم ويرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

«نهاية تفسير سورة المؤمنون»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٩

## ٢٤ سورة النور

محتوى السورة: يمكن اعتبار هذه السورة خاصةً بالطهارة والعفة، وكفاح الإنحطاط الخلقى، والقرآن الكريم يحقق هذا الهدف عبر مراحل، هي:

١- بيان العقاب الشديد للمرأة الزانية والرجل الزاني، وهو ما ورد حاسماً في الآية الثانية من هذه السورة.

٢- بيان حد الزنا الذي لا تنبغى إقامته إلّا بشروط مشددة للغاية.

ثم طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفك، وما فيه من إتهام إحدى نساء النبي صلى الله عليه وآله.

٣- وتناولت الآية أحد السبل المهمة لاجتناب التدهور الأخلاقي، من أجل ألا يتصور أن الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.

فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، وحجاب المرأة المسلمة، لأن أحد أسباب الانحراف الجنسي المهمة ناجم عن هاتين المسألتين.

٤- وكخطوة للنجاة من التلوث بما يخلّ بالشرف، دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكليف.

٥- وبيّنت الآيات جانباً من آداب المعاملة، ومبادئ تربية الأولاد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٠

مختصر الامثل ج ٣ ٣٩٩

٦- وجاء ذكر مسائل خاصةً بالتوحيد والمبدأ والمعاد والإمتثال لتعاليم النبي صلى الله عليه وآله. كل ذلك خلال البحوث المطروحة. وتطرقت بحوث هذه الآيات إلى حكومة المؤمنين الصالحين العالمية.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ وَفَرَّجُوا نُورَ سُورَةِ النُّورِ وَحَصَّنُوا بِهَا نِسَاءَكُمْ، فَإِنَّ مِنْ أَدْمَنَ قَرَأَهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ أَوْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَمْ يَزَنْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَدًا حَتَّى يَمُوتَ. فَإِذَا مَاتَ شِيعَهُ إِلَى قَبْرِهٖ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، يَدْعُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّهِ لَهُ حَتَّى يَدْخُلَ إِلَى قَبْرِهٖ».

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

حدّ الزاني والزانية: سميت هذه السورة بالنور لأن آية النور فيها من أهم آياتها، واولى آيات هذه السورة المباركة بمثابة إشارة إلى مجمل بحوث السورة: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

إنّ «سورة» بناء جميل مرتفع، وهذه الكلمة تطلق أيضاً على قسم من بناء كبير، وتطلق السورة على أقسام القرآن المختلفة المفصولة بعضها عن بعض.

إنّ هذه العبارة إشارة إلى كون أحكام ومواضيع هذه السورة- من اعتقادات وآداب وأوامر إلهية- ذات أهمية فائقة، لأنها كلها من الله.

وبعد هذا الإستعراض العام، تناولت السورة أول حكم حاسم للزاني والزانية: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةٍ».

ولتأكيد هذا الحكم قالت: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وأشارت الآية في نهايتها إلى مسألة أخرى لإكمال الاستنتاج من العذاب الإلهي «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ». وتشتمل هذه الآية على ثلاثة تعاليم:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥١

١- الحكم بمعاقبة النساء والرجال الذين يمارسون الزنا.

٢- إقامة هذا الحكم الإلهي بعيداً عن الرأفة بمن يقام عليه.

٣- أوجب الله حضور عدد من المؤمنين في ساحة معاقبة الزناة ليتعظ الناس بما يرون من إقامة حكم الله العادل على المذنبين.

وبعد بيان حدّ الزنا، جاء بيان حكم الزواج من هؤلاء في الآية الثالثة كما يلي: «الزَّانِي لَْيَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَْيَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

إنّ الآية تبيّن واقعة ملموسة، فالمنحطون يختارون المنحطات، وكذلك يفعلن هنّ في اختيارهن، بينما يسيرو المتطهرون المؤمنون عن ذلك. كما تبيّن في هذه العبارة حكماً شرعياً وأمرأ إلهياً يمنع المؤمنين من الزواج مع الزانيات، ويمنع المؤمنات من الزواج مع الزناة، لأنّ الانحرافات الأخلاقية كالأمراض الجسمية المعدية في الغالب.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)

عقوبة البهتان: قد يستغلّ المعترضون ما نصّت عليه الآيات السابقة من عقوبات شديدة للزاني والزانية فيسيئون للمتطهّرين، فبيّنت الآيات اللاحقة هنا عقوبات شديدة للذين يرمون المحصنات. تقول الآية: «وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» (١).

فالأشخاص الذين يتّهمون النساء العفيفات بعمل ينافي العفة (أى: الزنا)، ولم يأتوا بأربعة شهود عدول لإثبات إدعائهم. فحكمهم: «فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً». وتضيف الآية حكمين آخرين: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

«الْقذف»: إذا جرى بلفظ صريح، وبأى لغة وأية صورة فحدّه هو ثمانون جلدة، وإذا لم يكن صريحاً فيعزّر القاذف.

وهذا التشديد في الحكم المشرّع لحفظ الشرف والطهارة، ليس خاصاً بهذه المسألة، ففي كثير من التعاليم الإسلامية نراه ماثلاً أمامنا.

(١) «الزّمي» في الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر وأمثالهما، وقد استخدمت الكلمة هنا كناية عن اتّهام الأشخاص وسبابهم ووصفهم بما لا يليق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٢

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا اتّهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء».

ولكن المولى العزيز الحكيم سبحانه وتعالى لا يسدّ باب رحمته في وجه التائبين، الذين تابوا من ذنوبهم وطهروا أنفسهم، وندموا على

ما فرطوا، وسعوا في تعويض ما فاتهم من البرِّ «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

فمعنى ذلك قبول شهادتهم بعد التوبة وإزالته الحكم بفسقهم.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس، قال سعد بن عباد: لو أتيت لكاع وقد يفخذاها رجل، لم يكن لي أن اهيجه حتى آتى بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتى بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت فإن في ظهري لثمانين جلده.

وبنزول الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكله.

التفسير

عقاب توجيه التهمة إلى الزوجه: يستنتج من سبب النزول أن هذه الآيات في حكم الإستثناء الوارد على حد القذف، فلا يطبق حد القذف (ثمانين جلده) على زوج يتهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، وتقبل شهادته لوحدها ويمكن في هذه الحالة أن يكون صادقاً كما يمكن أن يكون كاذباً في شهادته وهنا يقدم القرآن المجيد حلاً أمثل هو: على الزوج أن يشهد أربع مرات على صدق إدعائه: «وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٣

شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ». وبهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة: «أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا». أربع مرات لإثبات إدعائه من جهة، وليدفع عن نفسه حد القذف من جهة أخرى. ويقول في الخامسة: «لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين».

وهنا تقف المرأة على مفترق طريقين، فإما أن تقر بالتهمة التي وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية. ففي الحالة الأولى تثبت التهمة؛ وفي الثانية: «وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

وبهذا الترتيب تشهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس - أيضاً - لتنفى التهمة عنها بأن تكرر أربع شهادات:

«أشهد بالله إنني لمن الكاذبين فيما رمانى من الزنا». وفي الخامسة تقول: «أنا غضب الله علي إن كان من الصادقين».

وهذه الشهادات منهنما هي ما يسمى ب «اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن في الشهادة.

وليترتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية.

أولها: انفصالهما دون طلاق.

وثانيها: تحريم الزوج على الزوجه إلى الأبد، أى لا يمكنهما العودة إلى الحياة الزوجية معاً بعقد جديد.

وثالثها: سقوط حد القذف عن الرجل، وحد الزنا عن المرأة.

ورابعها: الطفل الذى يولد بعد هذه القضية لا ينسب إلى الرجل، وتحفظ نسبته للمرأة فقط.

ولم ترد تفاصيل الحكم السابق في الآيات المذكورة أعلاه، وإنما جاء في آخر الآيه موضع البحث: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ».

فهذه الآية إشارة إجمالية إلى تأكيد الأحكام السابقة، لأنها تدل على أن اللعان فضل من الله، إذ يحل المشكله التي يواجهها الزوجان بشكل صحيح.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٤

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَمَّا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْ لَمَّا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْ لَمَّا فَضَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْ لَمَّا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)

حديث الإفك المثير: يستفاد من مجموع الآيات هو أنه قد اتهم شخص برىء بعمل مخل بالعبء والشرف حين نزول هذه الآيات، وأن الشائعات كانت منتشرة في المدينة، وأن مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الإخلال بالمجتمع الإسلامي إلى أحسن السبل لتلويث سمعة النبي صلى الله عليه وآله والحط من شأنه المقدس لدى الناس، بترويجهم هذه الشائعات، فنزلت هذه الآيات، وتصدّت لهذه الحادثة بقوة، ودفعت المنحرفين والمنافقين الحاقدين إلى جحورهم. وهذه الأحكام نافذة في كل بيئه وزمان. تقول أول آية من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ».

«الإفك»: على وزن «فكر» يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذي يحق له أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب «مؤتفكة»، ثم اطلقت على كل كلام منحرف عن الحق ومجانب للصواب، ومن ذلك يطلق على الكذب «إفك».

و «العصبة»: على وزن «فُعْلَمَةٌ» مشتقة من العَصَب، وجمعها أعصاب، وهي التي تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، وعلى شكل شبكة منتشرة في الجسم، ثم اطلقت كلمة «عصبة» على مجموعة من الناس متحدة وذات عقيدة واحدة.

واستخدام هذه الكلمة يكشف عن الإرتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين في ترويح حديث الإفك، حيث كانوا يشكّلون شبكة قوية منسجمة ومستعدة لتنفيذ المؤامرات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٥

إِنَّ الْقُرْآنَ طَمَأَنَ وَهَدَّأَ رُوحَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آلَمَهُمْ تَوْجِيهِ هَذِهِ التَّهْمَةُ إِلَى شَخْصِيَّةٍ مُّطَهَّرَةٍ: «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»، لَأنه كشف عن حقيقة عدد من الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء.

ولو لم تكن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، ولكانوا أكثر خطراً على المسلمين.

إِنَّ هَذَا الْحَادِثَ عَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اتِّبَاعَ الَّذِينَ يَرُوجُونَ الشَّائِعَاتِ يَجْرَهُمْ إِلَى الشَّقَاءِ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقِفُوا بِقُوَّةٍ أَمَامَ هَذَا الْعَمَلِ.

ثم تعقب هذه الآية بذكر مسألتين:

أوليهما: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ». إشارة إلى أن المسؤولية الكبرى التي تقع على عاتق كبار المذنبين لا تحول دون تحمل الآخرين لجزء من هذه المسؤولية، ولهذا يتحمل كل شخص مسؤوليته إزاء أية مؤامرة.

والمسألة الثانية: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

وقائد هذه المجموعة سيعاقب عقاباً عظيماً لكبر ذنبه.

ثم توجهت الآية التالية إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلامتهم بشدة: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا». أي: لماذا لم تقفوا في وجه المنافقين بقوة، بل استمعتم إلى أقوالهم التي مسّت مؤمنين آخرين

كانوا بمنزلة أنفسكم منكم. ولماذا لم تدفعوا هذه التهمة وتقولوا بأن هذا الكلام كذب وافتراء: «وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ».

أنكم كنتم تعرفون جيداً الماضي القبيح لهذه المجموعة من المنافقين.

ثم تهتم الآيات بالجانب القضائي للمسألة فتقول: «لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ». أي لماذا لم تطلبوا منهم الإتيان بأربعة شهود. «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ».

إن هذه الملامه تبين أن الحكم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، وكذلك حد القذف في حالة عدمه قد نزل قبل الآيات التي تناولت حديث الإفك.

وأخيراً جمعت الآية التالية هذه الملامات، فقالت: «وَلَوْ لَأَفْضَلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٦

ونظراً لأن «أفضتم» مشتقة من الإفاضه، بمعنى خروج الماء بكثرة، واستعملت في حالات اخرى للتوغل في الماء، نتج من هذه العبارة أن شائعه الإتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافاً إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

وتبين الآية التالية البحث السابق وهو كيف ابتلى المؤمنون بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم، فتقول: «إِذِ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ». أى تذكروا كيف رحبتم بهذه التهمه الباطله فتناقلتموها: «وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ». وتشير هذه الآية إلى ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظيمة في هذا المجال:

الأول: تقبل الشائعه: استقبالها وتناقلها.

الثاني: نشر الشائعه دون أى تحقيق أو علم بصدقها.

الثالث: استصغار الشائعه واعتبارها وسيله للهو وقضاء الوقت. فى نهج البلاغه عن الإمام على عليه السلام قال: «أشد الذنوب ما استهان به صاحبه».

ونظراً لهول هذه الحادثه التي استصغرها بعض المسلمين، أكدتها الآية ثانية، فأثبتهم مره اخرى ولذعتهم بعباراتها إذ قالت: «وَلَوْ لَأِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ».

وسبق لهذه الآية أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذى وجه إليه الإتهام باطلاً، وهنا تقول الآية: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، ولا تناولوا التهمه الموجهه إليه، فكيف بكم وقد كنتم سبياً لنشرها.

يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْ لَأَفْضَلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

حرمه إشاعه الفحشاء: تحدثت هذه الآيات أيضاً عن حديث الإفك، والنتائج المشؤومه والأليمه لاختلاق الشائعات ونشرها، فذكر أولاً: «يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ». أى أن من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، والجمله المذكوره تشكل أحد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٧

أركان التوبه، إذ أن الندم على الماضى لا- يكفى، بل يجب التصميم على عدم تكرار ارتكاب الذنوب فى المستقبل، لتكون توبه كامله.

وللتأكيد أكثر على أن هذا الكلام ليس اعتيادياً، بل صادر عن الله العليم الحكيم، وليبين الحقائق ذات الأثر الفعال فى مصير الإنسان، يقول سبحانه وتعالى: «وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فهو يعلم حاجاتكم وما يضركم وما ينفعكم بمقتضى علمه الواسع، ويصدر أحكامه وأوامره المتناسبه لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

ولشيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

ولجمله (تشيع الفاحشه) مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد فى نشر الفحشاء والمنكر.

وتختم الآية بالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». إنه يعلم الذين يبيتون فى قلوبهم حب هذا الذنب، ويعلم الذين يمارسونه تحت



واجهاث خداعه، أما أنتم فلا تعلمون ذلك ولا تدركونه.

وكررت الآية الأخيرة- مما نحن بصدده من الآيات التي تناولت حديث الإفك ومكافحة إشاعة الفحشاء، وقذف المؤمنين المتطهرين- هذه الحقيقة لتؤكد القول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَمْ تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يُزْمِنُونَ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْحَيِّثَاتِ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٨

على الرغم من عدم متابعة هذه الآيات حديث الإفك بصراحة، إلا أنها تعتبر مكمله لمضمون ذلك البحث، وتحذر المؤمنين جميعاً من تأثير الأفكار الشيطانية فعلى هذا حينما يشعر الفرد بأول وسوسه شيطانية بإشاعة الفحشاء أو ارتكاب أى ذنب آخر فيجب التصدى له بقوة حاسمة، حتى يمنع من انتشاره وتوسعه.

وتخاطب الآية الأولى المؤمنين، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَاتَّبَعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ».

وحيث لا يمكن جرّ أى إنسان مؤمن متطهر مرّة واحدة إلى الفساد، فإن ذلك يتم خطوة بعد اخرى فى طريق الفساد.

وأخيراً الإبتلاء بالكبائر، وهذه معنى جملة «خُطُواتِ الشَّيْطَانِ».

ثم تشير الآية إلى أهم النعم الكبيرة التى من الله بها على الإنسان فى هدايته فتقول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولا شك فى أن الفضل والرحمة الإلهية ينقذان الإنسان من الإنحطاط والانحراف من الذنوب جميعاً، فالله منحه العقل، ولطف به فأرسل إليه الرسل، ويسّر له سبل الإرتقاء والإهتداء، وأعاناه على استكمال الخير، وإضافه إلى هذه المواهب شمل الله الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصّة، وإمداداته التى يستحقونها، والتى تعتبر أهم عنصر فى تطهير وتركيبه النفس.

وذكر عدد من المفسرين- ومنهم الطبرسى فى المجمع- سبباً لنزول الآية الثانية- من الآيات موضع البحث- يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقة، قال: نزلت فى جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوه. فنزلت هذه الآية لتمنعهم من ردّ فعل قاس، وأمرتهم بالعفو والسماح.

نعود الآن إلى تفسير الآية بملاحظة سبب النزول هذا. يقول القرآن: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

إنّ هذا التعبير يكشف أنّ عدداً ممن تورّط فى قضية الإفك كانوا من المهاجرين فى سبيل الله إذ خدعهم المنافقون، ولم يجز الله طردهم من المجتمع الإسلامى لماضيهم المجيد، كما لم يسمح بعقابهم أكثر مما يستحقونه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٩

«يأتل»: مشتقة من «ألية» أى اليمين.

ثم تضيف الآية: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا». لتشجيع المسلمين وترغيبهم فى العفو والصفح بقولها: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ». فإنكم مثلما تأملون من الله العفو عنكم وأن يغفر خطاياكم، يجب عليكم العفو والصفح عن الآخرين: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وترسم هذه الآيات صورة للتعادل الإسلامى فى جذبته ودفعه، وتشكل آيات الإفك والعقوبات الشديدة التى تفرض على الذين يتهمون الآخرين فى شرفهم «قوة الدفع». وأما الآية موضع البحث التى تتحدث عن العفو والصفح وكون الله غفوراً رحيماً. فإنها تكشف عن «قوة الجذب».

ثم تعود الآية إلى قضية القذف وأتاهم النساء العفيفات المؤمنات فى شرفهن، فتقول بشكل حازم: «إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغُفْلَةَ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

فى تفسير الميزان: هذه الآية أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإن كلاً من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام فى كون الرمى ظلماً والرمى ظالماً والمرمى مظلوم فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، وجزاؤه اللعن فى الدنيا والآخرة والعذاب العظيم (١).

والمراد من «الغافلات» أنهم لا يعلمن بما ينسب إليهن من بهتان فى الخارج، ولهذا لسن فى صدد الدفاع عن أنفسهن، وفى النتيجة فإن الآية تطرح موضوعاً جديداً للبحث، لأن الآيات السابقة تحدثت عن مثيرى التهم الذين يمكن التعرف عليهم ومعاقتهم. إلا أن الحديث هنا يدور حول مثيرى الشائعات الذين أخفوا أنفسهم عن العقاب والحد الشرعى، فتقول الآية: إن الله تعالى سيبعدهم عن رحمته فى هذه الدنيا، كما ينتظرهم العذاب العظيم فى الآخرة.

وتحدد الآية التالية وضع الذين يتهمون الناس بالباطل فى ساحة العدل الإلهى، قائلة: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

تدور ألسنتهم بما لا تشتهى أنفسهم لتستعرض الحقائق.

#### (١) الميزان فى تفسير القرآن ٩٤/١٥.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٠

وتشهد أيديهم وأرجلهم، وكما ذكرت الآيات القرآنية: تنطق جلودهم، حقاً إنه يوم البروز والإفضاح، ويوم تنكشف فيه السرائر.

ثم تقول الآية: «يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ». واستناداً إلى هذا الدليل أيضاً «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)

لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم: بينت هذه الآيات جانباً من أدب المعاشرة، والتعاليم الإسلامية الاجتماعية التى لها علاقة وثيقة بقضايا عامة حول حفظ العفة، حيث تقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا». وبهذا الترتيب عندما تعزمون على الدخول لابد من إخبار أصحاب البيت بذلك ونيل موافقتهم.

يجب أن يكون محيط المنزل آمناً إلى حد كاف؛ حتى أن جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان وتعاقب عليه. ونصت الأحكام الإسلامية على تعاليم وآداب خاصة فى هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلا نادراً.

روى- فى التفسير الكبير- أن أبا سعيد الخدرى استأذن على الرسول صلى الله عليه وآله وهو مستقبل الباب فقال: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب».

وفى الدر المنثور عن عبدالله بن بشر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم السلام عليكم».

ومما يلفت النظر فى هذا الحكم الذى يتصف بأبعاد إنسانية وعاطفية واضحة، مرافقة لجملتين، أولاهما: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ» وثانيتهما:

«لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وأردف القرآن هذا الحكم بجملة اخرى فى الآيه التاليه: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤١

قد يكون المراد من هذه العبارة أنه ربما كان فى المنزل أحد، ولكن من لديه حق إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففى هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

ثم تضيف الآيه: «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ».

إشارة إلى أنه لا لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالدخول، فلعل صاحب المنزل فى وضع غير مريح، أو أن منزله لم يهيا لاستقبال الضيوف.

وبما أن بعض الناس قد يدفعهم حب الإطلاع والفضول حين رفضهم استقباله على استراق السمع، أو التجسس من ثقب الباب لكشف خفايا أهل المنزل وليلطلع على أسرارهم، لهذا قالت الآيه: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

وبما أن لكل حكم استثناء، لرفع المشكلات والضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آيه موضع البحث: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ».

وتضيف فى الختام: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ وَمَا تُكْتُمُونَ». ولعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرع بأن المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعاً بعدم علمه بأنها مسكونة، إلا أن الله يعلم بكل هذه الأعمال، ويعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوَاتِرِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٢

سبب التزول

فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقعن خلف آذانهن، فنظر إليها وهى مقبله، فلما جازت نظر إليها ودخل فى زقاق قد سماه بنى فلان، فجعل ينظر خلفها واعترض وجهه عظم فى الحائط أو زجاجة فشق وجهه، فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على صدره وثوبه، فقال: والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله ولأخبرته». قال: «فأتاه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآيه: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»».

التفسير

مكافحه السفور وخائنه العين: قلنا فى البداية: إن هذه السورة اختصت بالعفة والطهارة وتطهير الناس من جميع الانحرافات الجنسية، ولا يخفى على أحد إرتباط هذا البحث بالبحوث الخاصه بالقذف. تقول الآيه أولاً: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ». «يغضوا»: مشتقة من «غضّ» من باب «ردّ» وتعنى فى الأصل التنقيص، لهذا لم تأمر الآيه أن يغمض المؤمنون عيونهم، بل أمرت أن يغضوا من نظرهم.

إن الإسلام نهى عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسية والشهوات، لأن «ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ». كما نصت عليه الآيه- موضع البحث-

في ختامها.

ثم تحذر الآية اولئك الذين ينظرون بشهوة إلى غير محارمهم، ويررون عملهم هذا بأنه غير متعمد، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ». وتناولت الآية التالية شرح واجبات النساء في هذا المجال، فأشارت أولاً إلى الواجبات التي تشابه ما على الرجال، فتقول: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ».

وبهذا حرم الله النظر بريبة على النساء أيضاً مثلما حرمه على الرجال، وفرض تغطية فروجهن عن أنظار الرجال والنساء مثلما جعل ذلك واجباً على الرجال.

ثم أشارت الآية إلى مسألة الحجاب في ثلاث جمل:

أ) «وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا». فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهن المخفية، وإن كانت لا تظهر أجسامهن، أى لا يجوز لهن الكشف عن لباس يتزين به تحت اللباس

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٣

العادي أو العباءة، بنص القرآن الذي نهاهن عن ذلك.

ب) وثانى حكم ذكرته الآية هو: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ». «خُمْر»: جمع «خِمار» فى الأصل تعنى «الغطاء»، إلا أنه يطلق بصورة اعتيادية على الشىء الذى تستخدمه النسوة لتغطية رؤوسهن؛ و «الجيوب»: جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقه القميص، وأحياناً يطلق على الجزء الذى يحيط بأعلى الصدر لمجاورته للياقة.

ويستتج من هذه الآية أن النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهن أو خلف الرأس بشكل يكشفن فيه عن الرقبة وجانباً من الصدر، فأمرهن القرآن برمى أطراف الخمار حول أعناقهن؛ أى فوق ياقه القميص ليسترن بذلك الرقبة والجزء المكشوف من الصدر.

ج) وتشرح الآية فى حكمها الثالث الحالات التى يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهن وإظهار زينتهن، فتقول: «وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا». ١- «لِبُعُولَتِهِنَّ». ٢- «أَوْ آبَائِهِنَّ». ٣- «أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ». ٤- «أَوْ أَبْنَائِهِنَّ». ٥- «أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ». ٦- «أَوْ إِخْوَانِهِنَّ». ٧- «أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ». ٨- «أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ». ٩- «أَوْ نِسَائِهِنَّ».

١٠- «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ».

١١- «أَوْ التَّبَعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ». أى: الرجال الذين لا رغبة جنسية عندهم أصلاً بالعن أو بمرض غيره.

١٢- «أَوْ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ».

د) وتبين الآية رابع الأحكام فتقول: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ». أى: على النساء أن يتحفظن عفتهن.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٤

ويجب أن يراقبن تصرفهن بشدة بحيث لا- يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم. وانتهت الآية بدعوة جميع المؤمنين رجالاً ونساءً إلى التوبة والعودة إلى الله ليفلحوا: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وتوبوا أيها الناس مما ارتكبتم من ذنوب فى هذا المجال، بعدما اطلعت على حقائق الأحكام الإسلامية، وعودوا إلى الله لتفلحوا.

فلسفة الحجاب: مما لا شك فيه أن الحديث عن الحجاب للمتغربين فى عصرنا الذى سمّوه بعصر التعرى والحرية الجنسية، ليس حديثاً ساراً حيث يتصورونه اسطورة يعود لعصور خلت. إلا أن الفساد الذى لا حد له، والمشاكل المتزايدة والناجمة عن هذه الحريات التى لا قيد لها ولا حدود، أدّى بالتدريج إلى إيجاد الاذن الصاغية لهذا الحديث.

والقضية المطروحة (نقولها مع الاعتذار): هل من الصحيح أن تستغل النساء للتلذذ من جانب الرجال عن طريق السمع والنظر واللمس

(باستثناء المجامعة) وأن يكن تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الامور خاصة لأزواجهن؟

يقول الإسلام: إن الأمور الجنسية سواء كانت مجامعة أو استلذاً عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاص بالأزواج، ومحرم على غيرهم، لأن ذلك يؤدي إلى تلويث المجتمع وانحطاطه، وعبارة «ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ» التي جاءت في الآية السابقة تشير إلى هذه المسألة. إن فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

١- إن تعري النساء وما يرافقه من تجميل ودلال- وما شاكل ذلك- يحرك الرجال- خاصة الشباب- ويحطم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبى، وأحياناً يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية.

خاصة إذا لاحظنا أن الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز في الإنسان وأكثرها عمقاً، وكانت عبر التاريخ السبب في أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إن وراء كل حادثه مهمة امرأة.

أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟ وهل هذا العمل عقلاني؟

٢- تبين إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكك الأسرة في العالم، بسبب زيادة التعري، لأن في سوق التعري والحرية الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع وتشترى أو في أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمة.

٣- انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعيين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٥

الحجاب، فشواهدا ظاهرة في المجتمع الغربي، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

٤- قضية «ابتدال المرأة» وسقوط شخصيتها في المجتمع الغربي ذات أهمية كبيرة فعندما يرغب المجتمع في تعري المرأة، فمن الطبيعي أن يتبعه طلبها لادوات التجميل والتظاهر الفاضح والانحدار السلوكي، وتسقط شخصية المرأة في مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلة إعلامية يروج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كل قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنها أداة لإشباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة في صور البشر.

كيف يمكن للمرأة في هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعْهِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَمَا تَكْرَهُوا فَبَيِّاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَبْتَتْنَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)

الترغيب في زواج يسير التكليف: طرحت هذه الآية- منذ بدايتها حتى الآن- سبلاً آمينة متعددة للحيلولة دون الانحطاط الخلقي والفساد إلى عالم أرحب من الطهر والاستقامة، ويحول دون تفهقها أو انحدارها في مهاوى الرذيلة، وقد أشارت الآيات- موضع

البحث- إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا وهو الزواج اليسير الذي يتم بعيداً عن أجواء الرياء والبذخ، لأن إشباع الغرائز بشكل سليم وشرعى خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب. لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ

وَإِمَائِكُمْ». «الأيامى»: جمع «أيم» على وزن «قيم» وتعنى فى الأصل المرأة التى لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٦

زوج لها، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذى لا زوجة له، فيدخل فى هذا المفهوم كل من ليس له زوج، سواء كان بكرة أم ثيباً. وعبارة «أنكحوا» أى «زوّجوا» فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج عن طريق تقديم العون المالى عند الحاجة، أو العثور

على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج، ولا اختلاف فى أن أصل التعاون الإسلامى يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

وجاء ذلك هنا بصراحة ليؤكد أهمية الزواج الخاصة، وهي أهمية بالغه المدى.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين في نكاح حتى يجمع الله بينهما».

وبما أن بعض الأعداء كالفقر أو عدم وجود وتوفير الإمكانات اللازمة قد تقف حائلاً دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج وتشكيل الاسرة. يقول القرآن بهذا الصدد: «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

إن المتزوج يكتسب شخصية اجتماعية، حيث يجد نفسه مسؤولاً عن المحافظة على زوجته، وماء وجه أسرته، وتأمين حياة سعيدة ومستقبل زاهر لها، ويستغل المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد في نفقاته ليتغلب على الفقر بأسرع وقت ممكن، ولا جدال في أن الإمدادات الإلهية والقوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذي تزوج ليحفظ نفسه ويظهرها.

ولكن أحياناً بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئة مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون في ذلك، مما يضطره إلى مضى فترة من الزمن محروماً من الزواج، ولكي لا يظن أن إقدامه على الفساد أمراً مباحاً تقتضيه الضرورة أسرع الآيه التالية لتأمره بالطهارة والعفة فقالت: «وَلَيْسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ».

ويهتم الإسلام كعادته بالعبء الضعفاء اجتماعياً من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسألة المكاتبه (١) فتقول الآية:

«وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا».

ولأجل ألا يقع العبيد في مشاكل لا يتمكنون من حلها ويعجزون عن تسديد ما

(١) إن عقد المكاتبه نوع من الإتفاقات يتم بين المولى وعبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطاً لسيدته، فإذا دفع آخر قسطينال حريته.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٣٦٧

بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: «وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَكُمْ».

والهدف الحقيقي هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

وعقبت هذه الآية بإشارة إلى أحد الأعمال القبيحة التي كان يمارسها عباد الدنيا إزاء جواريتهم: «وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَّغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

وهذه الآية تكشف عن مدى الرذيلة والانحطاط الخلقي الذي كان سائداً في عهد الجاهلية، وقد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، وأنهت هذه الأعمال.

ومع بالغ الأسف نجد عصرنا الذي سمي بجاهلية القرن العشرين، تمارس البشرية هذا العمل بقوة وعلى قدم وساق في بلدان تدعى المدنية والحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان.

وفي الختام- على حسب الاسلوب الذي يتبعه القرآن- يفتح طريق التوبة للمذنبين، ويشجعهم على إصلاح أنفسهم: «وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وعلى نهج القرآن، نجد آخر الآيات- موضع البحث- تستنتج وتلخص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ». وكذلك دروس وعبر من الأقوام الماضية تنفعكم في يومكم هذا: «وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٨

آية النور: تحدث الفلاسفة والمفسرون والعرفاء الإسلاميون كثيراً عن مقاصد الآيات أعلاه، وهي مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التي عرضت لقضية العفة ومكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

وبما أن ضمانته تنفيذ الأحكام الإلهية، وخاصة السيطرة على الغرائز الثائرة، ولا سيما الغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز، لا تتم دون الإستناد إلى الإيمان، ومن هنا إمتد البحث إلى الإيمان وأثره القوى، فقالت الآية أولاً: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وإذا أردنا تشبيه الذات المقدسة لرب العالمين (رغم منزلته العظيمة التي لا نظير لها ولا شبيهه) فلا نجد خيراً من النور! الله الذي خلق كل شيء في عالم الوجود ونوره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، ورزقها من فضل، ولو انقطعت رحمته عنها لحظتها، لأصبح الجميع في ظلمات الفناء والعدم.

ومما يلفت النظر أن كل مخلوق يرتبط بالله بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنه كلام الله.

والدين الإسلامى نور لأنه دينه.

الأنبياء أنوار لأنهم رسله.

والأئمة المعصومون عليهم السلام أنوار إلهية، لأنهم حفظه دينه بعد النبي صلى الله عليه وآله.

والإيمان نور، لأنه رمز الإلتحام به سبحانه وتعالى.

والعلم نور، لأنه السبيل إلى معرفته - عز وجل -.

ولهذا: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وإذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسع، أى الظاهر فى ذاته والمظهر لغيره فى هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات الله المقدسة حقيقة ولا تشبيه فيها، لأنه لا يوجد أظهر من الله تعالى فى العالم، وكل الأشياء تظهر من بركات وجوده.

وبهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره وتنتهى إلى نوره الطاهر.

وقد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذ ذكر مثلاً رائعاً دقيقاً لكيفية النور الإلهي: «مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٩

عَلَى نُورٍ يُهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

«المشكاة»: فى الأصل تعنى الكوة التى تخصص فى الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح.

«الزجاجه»: تطلق فى الأساس على الأحجار الشفافة، وهنا تعنى الزجاجه التى توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، وتنظّم جريان الهواء، لتزيد من نور الشعلة.

«المصباح»: يتألف من وعاء للزيت وفيتيل.

عبارة «زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» تشير إلى الطاقة التى تجهز هذا المصباح بوقود لا ينضب معينه، وزيت الزيتون من أجود الوقود المستعمل للمصابيح، ثم إن هذا الزيت يُحصل عليه من زيتون شجر يتعرض للشمس من جميع جوانبه بشكل متساو، لا أن تكون

الشجرة في الجانب الشرقي من البستان وبجانب حائط يمنع وصول أشعة الشمس إليها، كما لا تكون في جهة الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعة الشمس.

وتوضيح هذا المثال: إن نور الإيمان الموجود في قلوب المؤمنين يحتوي على العناصر الأربعة المتوفرة في المصباح المضىء، هي: «المصباح» وهو شعله الإيمان في قلب المؤمن يضيء طريق الهداية.

و «الزجاجة» هي قلب المؤمن ينظم الإيمان في ذاته ويحفظه من كل سوء.

و «المشكاة» صدر المؤمن. أو بعبارة أخرى: شخصيته بما فيها وعيه وعلمه وفكره الذي يصون إيمانه من الأعاصير والأخطار.

«شجرة مباركة زيتونة» هي الوحي الإلهي الذي يكون بمنتهى الصفاء والطهارة وتوقد شعله إيمان المؤمنين - في الحقيقة - من نور الله الذي ينير السماوات والأرض وقد أشرق من قلوب المؤمنين، فأضاء وجودهم ونور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلة العقلانية بنور الوحي، فيكون مصداق «نور على نور».

ولهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبال النور الإلهي تهتدي، وهي المقصودة بعبارة «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ».

وتجب المحافظة على نور الوحي من التلوث والميول المادية والانحراف إلى الشرق أو الغرب الذي يؤدي إلى التفسخ والاندثار.

ولتعبء قوى الإنسان بشكل سليم بعيداً عن كل فكر مستورد وانحراف، لتكون

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٠

مصدراً ل «يَكَادُ رَبُّهَا يُضَيِّئُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارًا». ويجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، وشكل موضعه، ليتضح لنا ما كان ضرورياً إيضاحه في هذا المجال، لهذا تقول الآية التالية: إن هذه المشكاة تقع «فِي بُيُوتِ أَذُنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ» لكي تكون في مأمن من الشياطين والأعداء والانتهازين، «وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ» ويتلى فيها القرآن والحقائق الإلهية.

ثم تبين المقصود من هذه البيوت في آخر الآية حيث تقول: أنه في هذه البيوت يستبح أهلها صباحاً ومساءً: «يَسْبِحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». «رِحَالٌ لِّاتْلِهِمْ تَجْرَهُ لَمَّا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ». إن هذه الخصائص تكشف عن أن هذه البيوت هي المراكز التي حُصِّنت بأمر من الله، وأنها مركز لذكر الله وليان حقيقة الإسلام وتعاليم الله، ويضم هذا المعنى الواسع المساجد وبيوت الأنبياء والأولياء خاصة بيت النبي صلى الله عليه وآله وبيت على عليه السلام.

وأشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافي لحراس نور الهداية وعشاق الحق والحقيقة، فقالت: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مِمَّا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ». أي: أن الله يكافئهم بجميع أعمالهم بموجب أفضلها، ويشمل ذلك أبسط أعمالهم وأوسطها، حيث يجعلها الله بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

ولا عجب في ذلك، لأن الفضل الإلهي لمن كان جديراً به غير محدود: «وَاللَّهُ يَزُوقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعِيَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)

أعمال سرابية: تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الإيمان والهداية، وإلتام هذا البحث ولتوضيح المقارنة بين الذين نور الله قلوبهم وبين الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر والجهل والإلحاد المظلم. الكلام في الآية الأولى عن الذين يبحثون عن الماء في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧١

صحراء جافة حارقة، ولا يجدون غير السراب فيموتون عطشاً، في الوقت الذي عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، ومنع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها، فتقول أولاً: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعِيَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً». ولكن يجد الله عند أعماله: «وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».



ثم تناولت الآية الثانية مثلاً آخر لأعمال الكفار وقالت: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجَجِي يَعْشُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ». وبهذا المنوال تكون «ظُلُمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ لَمْ يَكِدْ يَرِيهَا».

أجل، إنَّ النور الحقيقي في حياة البشر هو نور الإيمان فقط، ومن دونه تسود الحياة الظلمات، ونور الإيمان هذا إنَّما هو لطف من عند الله: «وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ».

فقد شبَّهت الآية أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسرَّاب يراه ظمآن في صحراء جافة.

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن هذا النور الكاذب، الذي هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هذه الأعمال، الباطن المظلم والمخيف والموحش حيث تتعطل فيه حواس الإنسان، وتظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صِبْغًا أَفَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِبْغًا وَمَا تَشِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)

الجميع يسبح لله: تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الهداية والإيمان، وعن الظلمات المضاعفة للكفر والضلال، أما الآيات موضع البحث، فإنها تتحدث عن دلائل الأنوار الإلهية وأسباب الهداية، وتخطب الآية النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». وكذلك الطير يسبح لله في حال أنها باسطات اجنحتهن في السماء «وَالطَّيْرِ صِفَتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِبْغًا وَمَا تَشِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

وبما أن هذا التسبيح العام دليل على خلقه تعالى لجميع المخلوقات، وخالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، وكذلك دليل على أن كل ما في الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآية: «وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٢

إنَّ القصد من التسبيح والحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله». أي نظام الوجود وأسراره المدهشة الكامنة في كل مخلوق تتحدث بصراحة عن عظمه الخالق وعلمه وحكمته التي لا حدود لها، إذ كل مخلوق جميل، وكل أثر فني بديع يثير الدهشة والإعجاب، حتى أن لوحة فنية وقطعة شعرية جميلة، تحمد وتسبح لمبدعها. فمن جهة تكشف عن صفاته (بحمدها له) ومن جهة أخرى تنفي عنه أي عيب أو نقص (ففسبحه)، فكيف وهذا الكون العظيم بما فيه من عجائب وغرائب لا تنتهي.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

جانب آخر من الخلق العجيب: نواجه ثانية- في هذه الآيات- جانباً آخر من مسألة الخلق المدهشة، وما احتوته من آيات العلم والحكمة والعظمة، وكل ذلك من أدلة توحيد ذات الله الطاهرة. يخاطب القرآن المجيد النبي صلى الله عليه وآله ثانية ويقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا». وبعد أن تتراكم السحب ترى قطرات المطر تخرج من بين السحاب وتهبط على الجبال والسهول والصحارى، «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ».

«يزجي»: مشتق من «الإزجاء»، أي سوقه بأسلوب لين لترتيب المخلوقات المتبعثرة هنا وهناك بقصد جمعها.

«ركام»: على وزن «غلام»، بمعنى الأشياء المترامكة بعضها فوق بعض.

«الودق»: على وزن «شرق»، أنها حبات المطر.

فهو الذي يحيى الأرض بعد موتها ويبعث الحياة في الأشجار والنباتات، ويروى عطش البشر والحيوان.

وأشار القرآن إلى ظاهرة أخرى من ظواهر السماء المدهشة، وهي السحاب، حيث قال:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٣

«وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ». أى من جبال السحب فى السماء تنزل قطرات المطر على شكل ثلج وبرد، فتكون بلاء لمن يريد الله عذابه فصيب هذه الثلوج المزارع والثمار وتلفها وقد تصيب الناس والحيوانات فتؤذيهم، «فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ». ومن لم يرد تعذيبه دفع عنه هذا البلاء، «وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ».

أجل، إنه هو الذى ينزل الغيث المخصب من سحابه تارة ... وهو الذى يصيره برداً بأدنى تغيير بأمره فيصيب به (بالأذى) من يشاء، وربما يكون مهلكاً أحياناً.

وهذا يدل على منتهى قدرته وعظمته إذ جعل نفع الإنسان وضرره وموته وحياته متقارنه، بل مزج بعضها ببعض.

وفى نهاية الآية يشير إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية التى هى من آيات التوحيد فيقول سبحانه: «يَكَادُ سَنَابِرُهَا يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ». فالسحب المؤلفة من ذرات الماء تحمل فى طياتها الشحنات «الكهربائية»، وتومض إيماضاً يذهل برقها (العيون) والأبصار ويصك رعداها السمع من صوته، وربما اهتزت له جميع الاجواء.

إن هذه الطاقة الهائلة بين هذا البخار اللطيف لمثيرة للدهشة حقاً ...

وأشارت الآية التالية إلى إحدى معجز الخلق ودلائل عظمه الله، وهو خلق الليل والنهار بما فيهما من خصائص، حيث تقول: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولَى الْأَبْصَرِ».

إن لتعاقب الليل والنهار والتغيرات التدريجية الحاصلة منه أثر فعال فى استدامة الحياة وبقاء الإنسان، وفى ذلك عبرة لأولى الأبصار.

وأشارت آخر الآيات موضع البحث - إلى أوضح دليل على التوحيد، وهى مسألة الحياة بصورها المختلفة، فقالت: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ». أى أن أصلها جميعاً من ماء، ومع هذا فلها صور مختلفة: «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ» كالزواحف؛ «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ» كالإنسان والطيور؛ «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ» كالدواب.

وليس الخلق محددًا بهذه المخلوقات، فالحياة لها صور أخرى متعددة بشكل كبير، سواء كانت أحياء بحرية أم حشرات بأنواعها المتعددة التى تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآية فى الختام: «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٤

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان قيل: نزلت الآيات فى رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف.

التفسير

الإيمان وقبول حكم الله: تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان بالله وعن دلائل توحيدة وعلائمه فى عالم التكوين، بينما تناولت الآيات - موضع البحث - أثر الإيمان وانعكاس التوحيد فى حياة الإنسان، وإذعانه للحق والحقيقة. تقول أولاً: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ». آيات تنور القلوب بنور الإيمان والتوحيد، وتزيد فى فكر الإنسان نوراً وبهجة، وتبدل ظلمات حياته إلى نور على نور. وطبيعى أن هذه الآيات المبيّنات تُمهّد للإيمان، إلّا أنّ الهداية الإلهية هى صاحبة الدور الأساسى: «وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وكما نعلم فإن إرادة الله ومشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه وتعالى يدخل نور الهداية إلى القلوب المستعدة لتقبله.

ثم استنكرت الآية الثانية وذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدعون الإيمان فى الوقت الذى خلت فيه قلوبهم من نور الله، فتقول الآية

عن هذه المجموعة: «وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ». ما هذا الإيمان الذي لا يتجاوز حدود ألسنتهم، ولا أثر له في أعمالهم.

ثم تذكر الآية التي بعدها دليلاً واضحاً على عدم إيمانهم: «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ». ولتأكيد عبادة هذه المجموعة للعالمية وفضح شرهم، تضيف الآية: «وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ» وبكامل التسليم والخضوع. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٥

وبينت الآية الأخيرة في ثلاث جمل، الجذور الأساسية ودوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرسول صلى الله عليه وآله، فقالت أولاً: «أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ».

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، ولكنهم لا يسلمون بحكم الله ورسوله، ولا يستجيبون له، إما بسبب انحرافهم قليلاً عن التوحيد أو الشك والتردد: «أَمْ ارْتَابُوا». وطبعي أن الذي يتردد في عقيدته، لن يستسلم لها أبداً. وثالثها فيما لو لم يلحدوا ولم يشكوا، أى كانوا من المؤمنين: «أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ». فى الوقت الذى يعتبر هذا تناقضاً صريحاً، إذ كيف للذى يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وآله ويعتبر حكمه حكم الله تعالى أن ينسب الظلم إلى الرسول صلى الله عليه وآله؟! وهل يمكن أن يظلم الله أحداً؟ أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إن الله تعالى مقدس عن كل هذه الصفات؛ «بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». إنهم لا يقتنعون بحقهم، وهم يعلمون أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لا يجحف بحق أحد، ولهذا لا يستسلمون لحكمه.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَأَتَّقِسْمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

الإيمان والتسليم التام إزاء الحق: لاحظنا فى الآيات السابقة رد فعل المنافقين لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وآله، أما الآيات - موضع البحث - فإنها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم الله ورسوله، فتقول: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».

كيف يمكن أن يرحح شخص حكم شخص آخر على حكم الله، وهو يعتقد بأن الله عالم بكل شىء، ولا حاجة له بأحد، وهو الرحمن الرحيم؟ وكيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم الله إلا السمع والطاعة؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٦

لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». ولا شك فى أن الفلاح نصيب الذى يسلم أمره إلى الله، ويعتقد بعدله وحكمه فى حياته المادية والمعنوية.

وتابعت الآية الثانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فتقول: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

لحن الآية التالية - وكذلك سبب نزولها الذى ذكرته بعض التفاسير - يعنى أن بعض المنافقين تأثروا جداً على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة التى وجهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وآله وأقسموا يمينا مغلظة أننا نسلم أمرنا إليك، ولهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ» إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم وبيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، وعليكم عملاً طاعة الله بصدق وإخلاص: «قُلْ لَأَتَّقِسْمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». إن كلمة «ليخرجن» فى هذه الآية يقصد منها عدم التهالك على المال والحياة، وأتباع الرسول صلى الله عليه وآله أينما رحل وحل

وطاعته.

لهذا أكدت الآية التالية- التي هي آخر الآيات موضع البحث- هذا المعنى، وتقول للرسول صلى الله عليه وآله: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ».

ثم تضيف الآية أن هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ». ففي صورة العصيان فقد أدى وظيفته وهو مسؤول عنها كما أنكم مسؤولون عن أعمالكم حين أن وظيفتكم الطاعة، ولكن «وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» لأنه قائد لا يدعو لغير سبيل الله والحق والصواب.

في كل الأحوال: «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ». وإنه صلى الله عليه وآله مكلف بإبلاغ الجميع ما أمر الله به، فإن أطاعوه استفادوا، وإن لم يطيعوه خسروا.

وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٧

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا مع السلاح ولا يصبحون إلا فيه. فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت هذه الآية.

التفسير

حكومة المستضعفين العالمية: تحدثت الآية السابقة عن طاعة الله ورسوله والتسليم له، وقد وصلت الآية- موضع البحث- هذا الموضوع، وبينت نتيجة هذه الطاعة ألا وهي الحكومة العالمية التي وعدنا الله المؤمنين به. فقالت الآية مؤكدة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ» ويجعله متجذراً وثابتاً وقوياً بين شعوب العالم.

«وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا». وبعد سيادة حكم التوحيد في العالم وإجراء الأحكام الإلهية، واستقرار الأمن واقتلاع جذور الشرك، «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

وعلى كل حال يبدو من مجمل هذه الآية أن الله يبشر مجموعة من المسلمين الذين يتصفون بالإيمان والعمل الصالح بثلاث بشائر:

١- استخلافهم وحكومتهم في الأرض.

٢- نشر تعاليم الحق بشكل جذري وفي كل مكان (كما استفاد من كلمة «تمكين»...).

٣- انعدام جميع عوامل الخوف والإضطراب.

وينتج من كل هذا أن يعبد الله بكل حرية، وتطبق تعاليمه ولا يشرك به، ويتم نشر عقيدة التوحيد في كل مكان.

الذين وعدهم الله باستخلاف الأرض: لقد وعد الله المؤمنين ذوي الأعمال الصالحة بالإستخلاف في الأرض وتمكينهم من نشر دينهم وتمتعهم بالأمن الكامل، فما هي خصائص هؤلاء الموعودين بالإستخلاف؟

إن هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أن حكومة المهدي عليه السلام مصداق لها، إذ يتفق

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٨

المسلمون كافة من شيعة وسنة على أن المهدي عليه السلام يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً. ومع كل هذا لا مانع من تعميمها، وينتج من ذلك تثبيت اسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين في كل عصر وزمان، وأن لهم الغلبة والحكم ذات الأسس الثابتة.

إن جميع الجهود- من حرب وسلام وبرامج تثقيفية واقتصادية وعسكرية- تنصب في ظل هذه الحكومة في مسيرة العبودية لله الخالية من كل شائبة من شوائب الشرك.

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا وَاهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

استحاله الفرار من حكومته تعالى: وعدت الآية السابقة المؤمنين الصالحين بالخلافة في الأرض، وتهيء هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومة، فهي تقول أولًا: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ». وهي الوسيلة التي توثق الصلة بين الخالق والمخلوق، وتقرب الناس إلى بارئهم، وتمنع عنهم الفحشاء والمنكر.

«وَأَتُوا الزَّكَاةَ». وهي الوسيلة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وتقلل الفواصل بينهما، وتقوى ارتباطهما العاطفي.

وبشكل عام يكون في كل شيء تبعاً للرسول: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ». طاعة تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم في الأرض، «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» وتكونون لائقين لحمل راية الحق والعدل.

وإذا احتملت أن الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم الله إياه، فذلك غير ممكن، لأنه قادر على كل شيء، ولا يحجب إرادته شيء، ولهذا: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ». فهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب الله وعذابه في الأرض، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل إنهم في الآخرة، «وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صِيَامِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَصُومُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَ مِنْ بَعْدِ صِيَامِ الْعِشَاءِ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسِّرُوا تَأْذِنًا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَمَّا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَغْفِنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين: إن أهم مسألة تابعتها هذه السورة هي مسألة العفاف العام ومكافحة كل انحطاط خلقى، بأبعاده المختلفة. وقد تناولت الآيات- موضع البحث- إحدى المسائل التي ترتبط بهذه المسألة، وشرحت خصائصها. فتقول أولًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».

فيجب على عبيدكم وأطفالكم الاستئذان في ثلاث أوقات: «مَنْ قَبْلَ صِيَامِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَصُومُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَ مِنْ بَعْدِ صِيَامِ الْعِشَاءِ». «ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ». أي هذه ثلاث أوقات للخلوة خاصة بكم.

«العورة»: مشتقة من «العار»، أي: العيب، وأطلق العرب على العضو التناسلي العورة، لأن الكشف عنه عار.

إن إطلاق كلمة «العورة» على هذه الأوقات الثلاثة بسبب كون الناس في حالة خاصة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حيث لا يرتدون الملابس التي يرتدونها في الأوقات الأخرى.

وطبيعي أن المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الاصول، لأن الأطفال لم يبلغوا بعد سن التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

كما أن عمومية الآية تعني شمولها الأطفال البنين والبنات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٠

وتختتم الآية بالقول: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَمَّا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ». فلا حرج ولا إثم عليكم وعليهم إذا دخلوا بدون استئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة، أجل: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وبيئت الآية التالية الحكم بالنسبة للبالغين، حيث تقول: «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

«الحلم»: على وزن «كتب»، بمعنى العقل والكناية عن البلوغ، الذي يعتبر توأمًا لطفرة عقلية وفكرية، ومرحلة جديدة في حياة الإنسان. ويستفاد من الآية السابقة، أن الحكم بالنسبة للبالغين يختلف عنه بالنسبة للأطفال غير البالغين، لأن أولئك يجب عليهم إستئذان الوالدين في الأوقات الثلاثة فقط، لأن حياتهم قد امتزجت مع حياة والديهم بدرجة يستحيل بها الإستئذان كل مرة، وكما أنهم لم يعرفوا المشاعر الجنسية بعد، أما الشباب البالغ، فهم مكلفون في جميع الأوقات بالإستئذان حين الدخول على الوالدين. ويخص هذا الحكم المكان المخصص لاستراحة الوالدين.

وتقول الآية في الختام للتأكيد والإهتمام الفائق: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وفي آخر الآيات موضع البحث - استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز والمسنيات من هذا الحكم، فقال: «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ».

ولهذا الإستثناء شرطان:

أولهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه. أو بعبارة أخرى: أن يفقدن كل جاذبية انثوية. وثانيهما: ألا يتزين بزينة بعد رفع حجابهن.

كما أن - من الواضح - أنه لا يقصد برفع العجائز للحجاب اباحة خلع الملابس كلها والتعري، بل خلع اللباس الفوقاني فقط. وكما عبرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب والخمار. وتضيف الآية في ختامها: «وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨١

فالإسلام يرغب في أن تكون المرأة أكثر عفّة وأنقى وأطهر. ولتحذير النساء اللواتي يستن من سوء الاستفادة من هذه الحرية، بأن يتحدثن أو يتصرفن بأسلوب لا يليق بشرفهن، تقول الآية محذرة إياهن: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» كلما تقولونه يسمعه الله، وما تكتمون في قلوبكم أو في أذهانكم يعلمه الله أيضاً.

لَيْسَ عَلَى الْمَاعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

البيوت التي يسمح بالأكل فيها: تحدثت الآيات السابقة عن الإستئذان في أوقات معينة، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاص بالأب والام، أما الآية موضع البحث فإنها استثنا لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض وبشروط معينة، الدخول إلى منازل الأقرباء وأمثالهم، وحتى أنه يجوز لهم الأكل فيها دون إستئذان، حيث تقول هذه الآية أولًا: «لَيْسَ عَلَى الْمَاعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ».

لأن أهل المدينة كانوا - كما ورد بصراحة في بعض الأحاديث - وقبل قبولهم الإسلام، يمنعون الأعْمَى والأعرج والمريض من المشاركة في مائدتهم، ويتفرون من هذا العمل.

وقد استفسر من الرسول صلى الله عليه وآله عن هذا الموضوع، فنزلت الآية السابقة التي نصت على عدم وجود مانع من مشاركة الأعْمَى والأعرج والمريض للصحيح غذاءه على مائدة واحدة.

ثم يضيف القرآن المجيد: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ».

والمقصود بعبارة بيوتكم، الأبناء أو الزوجات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٢

«أَوْ يُبَيِّنُ عَابَائِكُمْ». «أَوْ يُبَيِّنُ أُمَّهَاتِكُمْ». «أَوْ يُبَيِّنُ إِخْوَانِكُمْ». «أَوْ يُبَيِّنُ أَخَوَاتِكُمْ». «أَوْ يُبَيِّنُ أَعْمَامِكُمْ». «أَوْ يُبَيِّنُ عَمَتِكُمْ». «أَوْ يُبَيِّنُ أَخَوَاتِكُمْ». «أَوْ يُبَيِّنُ خَالَاتِكُمْ». «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ». «أَوْ صَدِيقِكُمْ». «الصدائفة»: تعنى هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقة، وهذه العلاقة توجب التراور فيما بينهم والأكل من طعام الآخر.

بالطبع فإن هذا الحكم له شروط وإيضاحات سيأتى ذكرها فى آخر تفسير الآية.

ثم تضيف الآية: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا».

ولا يوجد خلاف بين الفقهاء حول عدم جواز الأكل من غذاء الآخرين دون استئذان الذى نهت عنه الآية بصراحة مع العلم بهذا النهى. ذكر الشيخ الطوسى رحمه الله فى تفسير التبيان أن مجموعة من المسلمين كانوا إذا نزل بهم الضيف تخرجوا أن يأكلوا معه، فأباح الله الأكل منفرداً ومجتمعاً.

ثم تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقية فتقول: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ».

واختتمت بهذه العبارة: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

يجب السلام عند الدخول إلى أى منزل كان، ويجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، ويسلم أهل المنزل أحدهم على الآخر، وأما إذا لم يجد أحداً فى المنزل فيحى المرء نفسه «١»، حيث تعود هذه التحيات بالسلامة على الإنسان ذاته.

(١) فيقول: «السلام عليكم من قبل ربنا». أو: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٣

سبب التزول

فى تفسير على بن ابراهيم: نزلت الآية الاولى فى قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله صلى الله عليه و آله لأمر من الأمور فى بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عز وجل عن ذلك وقوله «فَإِذَا اسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» قال نزلت فى حنظلة بن أبى عياش وذلك أنه تزوج فى الليلة التى فى صبيحتها حرب احد، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه و آله أن يقيم عند أهله فأنزل الله هذه الآية «فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال واستشهد، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «رَأَيْتَ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بِمَاءِ الْمِزْنِ فِي صَحَائِفِ فُضَّةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». فكان يسمى غسل الملائكة.

التفسير

لا تركوا النبى وحده: إن الآيات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة الله ورسوله، ومن علائم طاعته عدم تركه أو القيام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآيات - موضع البحث - حول هذا الموضوع، فتقول أولاً: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ».

والمراد من «أمر جامع» كل عمل يقتضى اجتماع الناس فيه ويتطلب تعاونهم، سواء كان عملاً استشارياً، أو مسأله حول الجهاد ومقاتلة العدو، أو صلاة جمعة فى الظروف الإستثنائية وأمثالها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٤

وفى الحقيقة إن هذا من شروط النظم والتنظيم ولا يمكن لأية مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغياب شخص واحد قد تترتب عليه صعوبات ويلحق ضرراً بالهدف النهائى، فإذا وجد القائد أن غياب هذا الشخص يلحق ضرراً، فمن حقه أن لا يأذن له، وعليه أن يضحى بمصلحته من أجل هدف أسمى لهذا تضيف الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ».

وتقول الآية في الختام: «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

تبين هذه العبارة ضرورة عدم الاستئذان بالقدر الممكن، واتباع التضحية والإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادرة الجماعة لعمل بسيط.

ومن الطبيعي أن لا- تخص هذه التعاليم التنظيمية الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه فقط، وإنما هي واجبة الإتيان إزاء كل قائد إلهي، سواء كان نبياً أم إماماً أم عالماً نائباً لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعة، كما يحتمه- إضافة إلى القرآن- العقل والمنطق.

ثم بينت الآية التالية حكماً آخر له علاقة بتعاليم النبي صلى الله عليه وآله حيث تقول: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا».

إن الرسول صلى الله عليه وآله عندما يدعوكم للاجتماع، فإنه لا بد من أن يكون لمسألة إلهية مهمة، لهذا يجب عليكم الإهتمام بدعوته، والإلتزام بتعاليمه، وألا تهملوها، فأمره من الله ودعوته منه سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لَئِذَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

«يتسللون»: مشتقة من «تسلل»، وتعني سحب الشيء من موضعه، كما يطلق على الذين يفرون سرّاً من مكان تجمع محدد لهم، كلمة «متسللون».

«لواذا»: مشتقة من «ملاوذة» بمعنى الإختفاء، وتعني هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار. أو بتعبير آخر: استغلال الآخرين ثم الفرار من مكان تجمعهم، وهذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرسول صلى الله عليه وآله الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر.

و آخر آية من الآيات موضع البحث- والتي هي آخر سورة النور- إشارة بليغة إلى قضية المبدأ والمعاد حيث تقول: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

فإن الله العالم بكل شيء، «قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». أي: يعلم أسلوبكم في التعامل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٥

وأعمالكم واعتقادكم ومقاصدكم، فكلها واضحة له سبحانه وتعالى، وثابته في لوحه علمه «وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا». ويجازيهم بها «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

ومما يلفت النظر تأكيد الآية ثلاث مرات على علم الله بأعمال البشر، ليشعر الإنسان أنه مراقب بشكل دائم، ولا يخفى على الله شيء من أعمال هذا الإنسان أبداً، ولهذا الاعتقاد أثره التربوي الكبير ويضمن سيطرة الإنسان على نفسه إزاء الانحرافات والذنوب.

«نهاية تفسير سورة النور»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٧

## ٢٥ سورة الفرقان

محتوى السورة: تتألف هذه السورة في مجملها من ثلاثة أقسام:

- ١- الذي يشكل مطلع هذه السورة، يدحض منطق المشركين بشدة، ويستعرض ذرائعهم، ويردّ عليها، ويخوفهم من عذاب الله، وحساب يوم القيامة، وعقوبات جهنم الأليمة، ويدكرهم بمقاطع من قصص الأقوام الماضية.
- ٢- ولأجل إكمال هذا البحث، تبحث الآيات بعض دلائل التوحيد ومظاهر عظمة الله في الأكوان.
- ٣- مختصر جذاب، وجامع لصفات المؤمنين الحقيقيين (عباد الرحمن) وعباد الله المخلصين، في مقايسته مع الكفار المتعصين الذين



ذكروا في القسم الأول، فتحدد منزله كل من الفريقين تماماً، كما أننا سنرى أن هذه الصفات مجموعة من الاعتقادات والأعمال الصالحة ومكافحة الشهوات، وامتلاك الوعي الكافي، والإحساس والالتزام بالمسؤولية الاجتماعية. واسم هذه السورة قد اخذ من آيتها الاولى، التي تعبر عن القرآن ب «الفرقان» (الفاصل بين الحق والباطل). فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الفرقان مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٨

بعث يوم القيامة وهو يؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور». تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢) المقياس الأعلى للمعرفة: تبدأ هذه السورة بجملة «تبارك» من مادة «بركة»، ونعلم أن الشيء ذو بركة، عبارة عن أنه ذو دوام وخير ونفع كامل. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا». الملفت للانتباه أن ثبوت البركة لذات الخالق عز وجل بواسطة نزول الفرقان، يعني أنه أنزل قرآنًا فاصلاً بين الحق والباطل، وهذا يدل على أن أعظم الخير والبركة هي أن يمتلك الإنسان بيده وسيلة المعرفة- معرفة الحق من الباطل. فمقام العبودية والإنقياد التامين هو الذي يحقق اللياقة لنزول الفرقان، ولتلقى موازين الحق والباطل. وعبارة «للعالمين» كاشفة عن أن شريعة الإسلام عالمية، بل إن بعضهم قد استدل منها على خاتمية النبي صلى الله عليه وآله. الآية الثانية تصف الله الذي نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هي الأساس، والبقية نتائج وفروع لها، فتقول أولًا: «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وبالإنفات إلى تقدم «له» على «ملك السماوات» الذي هو دليل الحصر في اللغة العربية يستفاد أن الحكومه الواقعية والحاكمية المطلقة في السماوات والأرض منحصره به تبارك وتعالى.

ثم يتناول تفنيد عقائد المشركين واحده بعد الاخرى، فيقول تعالى: «وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا». وبهذا الترتيب، يدحض اعتقاد النصارى بأن «المسيح» ابن الله، أو ما يعتقدده اليهود أن «العزيز» ابن الله، وكذلك يدحض اعتقاد مشركى العرب.

ثم يضيف جل ذكره: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ».

فإذا كان لمشركى العرب اعتقاد بوجود الشريك أو الشركاء، ويتوهمونهم شركاء لله في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٩

العبادة، فإن القرآن يدين ويدحض كل هذه الأوهام.

ويقول تعالى في العبارة الأخيرة: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا».

ليس كمثل اعتقاد الثنوين الذين يعتقدون بأن قسماً من موجودات هذا العالم مخلوقات «الله»، وأن قسماً منها مخلوقات «الشيطان». وبهذا الترتيب كانوا يقسمون الخلق والخلقه بين الله والشيطان.

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا (٣) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا (٤) وَ قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أُصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)

الإتهامات المتعددة الألوان: هذه الآيات تنتم للبحث الذي ورد في الآيات السابقة، في مسألة المواجهه مع الشرك وعبادة الأوثان. الآية الاولى تجر المشركين إلى المحاكمه، ولتحريك وجدانهم تقول بمنطق واضح وبسيط، وفي نفس الوقت قاطع وداحض:

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وبعد، فماذا يمكن أن تكون دوافعهم لعبادة الأوثان التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا، فما بالك بما تستطيعه للآخرين؛ «وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا». والاصول المهمة عند الإنسان هي هذه الامور الخمسة بالذات: النفع والضرر، والموت، والحياة، والنشور. فمن يكن بحق مالكا أصيلا لهذه الامور، يكن بالنسبة إلينا جديرا بالعبادة.

هذه الأوثان ليست عاجزة في الدنيا عن حل مشكلة ما لعبدها فحسب، بل إنها لا يؤمل منها شيء في الآخرة أيضاً. الآية التالية- تتناول تحليلات الكفار- أو حججهم على الأصح- في مقابل دعوة النبي صلى الله عليه وآله، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرِيهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٠

لكن القرآن يرد عليهم في جملة واحدة فقط، تلك هي: «فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا» (١).

«الظلم» هنا لأين رجلاً أميناً طاهراً وصادقاً مثل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله اتهموه بالكذب والإفراء على الله، وبالإشراك مع جماعته من أهل الكتاب، فظلموا أنفسهم والناس أيضاً. و«الزور» هنا أن قولهم لم يكن له أساس مطلقاً، لأن النبي صلى الله عليه وآله دعاهم عدة مرات إلى الإتيان بسورة وآيات مثل القرآن، فعجزوا وضعفوا أمام هذا التحدي.

كلمة «زور» في الأصل من «زور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثم أطلقت على كل شيء يتمايل عن حد الوسط، وبما أن «الكذب» انحرف عن الحق، ومال إلى الباطل، فقد سموه «زوراً».

تتناول الآية التالية لونا آخر من التحليلات المنحرفة والحجج الواهية للمشركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: «وَقَالُوا أَشَاطِيرُ الْأُولِينَ اكْتَبَهَا» (٢).

وهو يستلهمها من الآخرين طيلة اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف: «فَهِيَ تُمَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا».

إنه يتلقى المعونة لأجل هدفه في الأوقات التي يقل فيها تواجد الناس، أي بكرة وعشيا.

لذا فالآية الأخيرة تصرح بصيغة الرد على هذه الاتهامات الواهية، فتقول: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

إشارة إلى أن محتوى هذا الكتاب، والأسرار المتنوعة فيه من علوم ومعارف وتاريخ الأقسام الأولين، والقوانين والاحتياجات البشرية، وحتى أسرار عالم الطبيعة والأخبار المستقبلية، تدل على أن ليس من صنع ومتناول عقل البشر، ولم ينظم بمساعدة هذا أو ذاك، بل بعلم الذي هو جدير بأسرار السماء والأرض، والمحيط بكل شيء علماً.

لكن مع كل هذا، فإن القرآن يترك طريق التوبة مفتوحاً أمام هؤلاء المغرضين والمنحرفين، فيقول تبارك وتعالى في ختام الآية: «إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا».

فبمقتضى رحمته أرسل الأنبياء، وأنزل الكتب السماوية، وبمقتضى غفوريته سيعفو في ظل الإيمان والتوبة عن ذنوبكم التي لا تحصى.

(١) «جاءو»: من مادة «مجيء»، يراد بها عادة معنى «القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى «الإتيان».

(٢) ففي الواقع إن أولئك كانوا يريدون أن يتهموا النبي صلى الله عليه وآله من هذا الطريق، بأنه يقرأ ويكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أمياً عمداً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩١

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَشْوَاقِ لَوْ لَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي

إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠)

سبب النزول

في كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله وعن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام قال: قلت لأبي علي بن محمد عليهما السلام هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: مراراً كثيرة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بمكة بفناء الكعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش.. فابتدأ عبد الله بن أبي أمية المخزومي فقال: يا محمّد زعمت أنك رسول الله رب العالمين، وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا، تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب، وتمشي في الأسواق كما نمشي.. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم أنت السامع لكل صوت، والعالم بكل شيء، تعلم ما قاله عبادةك». فأنزل الله عليه: يا محمّد «وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ...» إلى قوله تعالى: «وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا». والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

التفسير

لم لا يملك هذا الرسول كنوزاً وجنات؟ استعرض القرآن في الآيات السابقة قسماً من إشكالات الكفار فيما يخص نزول القرآن المجيد، وأجاب عليها، ويعرض في هذه الآيات قسماً آخر يتعلق بشخص الرسول ويوجب عنها، فيقول تعالى: «وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ».

وفي الوقت الذي يريد هذا الرسول التبليغ بالدعوة الإلهية، ويريد أيضاً السلطنة على الجميع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٢

لقد كان المشركون يرون أنه لا يليق بذوى الشأن الذهاب إلى الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ينبغي أن يرسلوا خدمهم وأمورهم من أجل ذلك.

ثم أضافوا: «لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا». فلم لم يرسل إليه - على الأقل - ملك من عند الله، شاهد على صدق دعوته، وينذر معه الناس؟ حسن جداً، لنفرض أننا وافقنا على أن رسول الله يمكن أن يكون إنساناً، ولكن لماذا يكون فقيراً فاقداً للثروة والمال؟! «أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا».

ولم يكتفوا بهذا أيضاً، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطيء، كما نقرأ في ختام هذه الآية نفسها:

«وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا». ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن السحرة يستطيعون أن يتدخلوا في فكر وعقول الأفراد فيسلبونهم قوام عقولهم.

الآية التالية تبين جواب جميع هذه الإشكالات في عبارة موجزة: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا».

إنّ (الأمثال) هنا، بمعنى الأقوال الفارغة الواهية.

هذه العبارة الموجزة أداء بليغ عن هذه الحقيقة، فهم من خلال مجموعة من الأقوال الواهية التي لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق والقرآن - الذي محتواه شاهد ناطق على إرتباطه بالله - ليخفوا وجه الحقيقة.

الآية الأخيرة مورد البحث - كالأية التي قبلها - توجه خطابها إلى النبي صلى الله عليه وآله على سبيل تحقير مقولات اولئك، وأنها لا تستحق الإجابة عليها. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا».

وللّا، فهل أحد غير الله أعطى الآخرين القصور والبساتين؟ من غير الله خلق جميع هذه النعم والجمال في هذا العالم؟ ترى أيستحيل على الله القادر المَنَّان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور والبساتين؟!

لكنه لا يريد أبداً أن يعتقد الناس أن مكانتك مردّها المال والثروة والقصور، ويكونوا غافلين عن القيم الواقعية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٣

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَمَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَدْرَاكُمْ أَهْلَ جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

فى هذه الآيات- على أثر البحث فى الآيات السابقة حول انحراف الكفار فى مسألة التوحيد والنبوة- يتناول القرآن الكريم قسماً آخر من انحرافاتهم فى مسألة المعاد، ويتضح مع بيان هذا القسم أنهم كانوا أسارى التزلزل والانحراف فى تمام أصول الدين. يقول تعالى أولاً: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ».

ذلك أنه إذا آمن الإنسان بهكذا محكمة عظمى وبالجزاء الإلهى، فلن يتلقى الحقائق بمثل هذا الاستهزاء واللامبالاة، ولن يتذرع بالحجج الواهية ضد دعوة النبى وبراهينه الظاهرة، لكن القرآن هنا لم يتقدم برد استدلالى، ذلك لأن هذه الفئة لم تكن من أهل الاستدلال والمنطق، بل واجههم بتهديد مخيف وجسد أمام أعينهم مستقبلهم المشؤوم والأليم، فهذا الأسلوب قد يكون أقوى تأثيراً لمثل هؤلاء الأفراد يقول أولاً: «وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» (١).

ثم وصف هذه النار المحرقة وصفاً عجيباً، فيقول تعالى: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا».

فى هذه الآية تعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدة هذا العذاب الإلهى ويدل على أن نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير بالله».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أما حالهم فى نار جهنم فيصفها تعالى: «وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا». لأن جهنم مكان واسع، لكن اولئك يُحصرون مكاناً ضيقاً فى هذا المكان الواسع، فهم «يستكروهن فى النار كما يستكروه الوند فى الحائط».

(١) «سعير»: من «سعر» بمعنى التهاب النار، وعلى هذا يقال للسعير: النار المشتعلة والمحيطه والمحرقة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٤

«مقرنين»: من «قرن» بمعنى قرب واجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، ويقولون للحبل الذى يربطون به الأشياء «قرن»، ويقولون أيضاً لمن تقيده يده ورجله مع بعضهما بالغل والسلاسل «مقرن».

«ثبور»: فى الأصل بمعنى «الهلاك والفساد». فحينما يجد الإنسان نفسه أمام شىء مخيف ومهلك، فإنه يصرخ عالياً «واثبور» التى مفهومها ليقع الموت على.

لكنهم يجابون عاجلاً: «لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا».

فلن تنفعم استغاثتكم فى شىء، ولن يكون ثمة موت أو هلاك، بل ينبغى أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

ثم يوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله، ويأمره أن يدعوا اولئك إلى المقايسة، فيقول تعالى: «قُلْ أَدْرَاكُمْ أَهْلَ جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا».

تلك الجنة التى «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

تلك الجنة التى سيقون فيها أبداً «خالدِينَ».

أجل، إنه وعد الله الذى أخذه على نفسه: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا».

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَيَاتِي نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَصَدَّ كَذَّبُكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظَلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)

المحاكمة بين المعبودين وعبدهم الضالين: كان الكلام فى الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين والمشركون فى القيامة وجزاء هذين الفريقين، وتواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبين السؤال الذى يسأل الله عنه معبودى المشركون فى القيامة وجوابهم، على سبيل التحذير. فيقول تعالى: «واذكر يوم يحشر الله هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله: «وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

والمقصود بالمعبودين إنساناً (مثل المسيح) أو شيطاناً (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث إن كل واحد منها كان قد اتخذ فريق من المشركون معبوداً لهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٥

فيسأل المعبودين: «فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ».

ففى الإجابة: «قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

فليس فقط أننا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل أننا كنا نعتز بولائيتك وربوبيتك، ولم نقبل غيرك معبوداً لنا ولغيرنا. وكان سبب انحراف أولئك هو: أن الله تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا ونعيمها فتمتعوا هم وآبائهم وبدلاً من شكر الله تعالى غرقوا فى هذه الملذات ونسوا ذكر الله: «وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَائِيَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ». فالحياء المرفهة لجماعة ضيقة الأفق، ضعيفة الإيمان، تبعث على الغرور، ولهذا هلكوا واندثروا «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

«بور»: من مادة «بور» وهى فى الأصل بمعنى شدة كساد الشئ، ولأن شدة الكساد تبعث على الفساد، فهذه الكلمة بمعنى الفساد، ثم اطلقت بعد هذا على الهلاك.

وعلى هذا فإن قوله تعالى: «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا» إشارة إلى أن هذا الفريق على أثر انغماسهم فى الحياة المادية المرفهة، ونسيانهم الله واليوم الآخر، صاروا إلى الفساد والهلكة.

هنا يوجه الله تبارك وتعالى الخطاب إلى المشركون فيقول: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ».

لأن الأمر هكذا، وكنتم أنتم قد أضللتهم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صِرَافًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدْفَعُهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

لا شك أن «الظلم» له مفهوم واسع، ومع أن موضوع البحث فى الآية هو «الشرك» الذى هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلا أنه لا يقدح بعمومية المفهوم.

والملفت للنظر أن «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، وهذا يدل على أن القسم الأول من البحث وإن كان مرتبطاً بمناقشات البحث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم فى الدنيا، لعل قلوب المشركون تصبح مستعدة لقبول الإيمان على أثر سماعها محاورات العبادين والمعبودين فى القيامة، فيحوّل الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: «وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدْفَعُهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٦

سبب النزول

فى تفسير القرطبي: هذه الآية نزلت جواباً للمشركون حيث قالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟

وقال ابن عباس: لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله بالفاقة وقالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام الآية، حزن النبى صلى الله عليه وآله لذلك فنزلت تعزیه له فقال جبرئيل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ». أى يتغون المعاش فى الدنيا.

## التفسير

في عدة آيات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشركين وأجيب عليها بجواب إجمالي أما الآية مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطي جواباً أكثر تفصيلاً. فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ». فقد كانوا من البشر ويعاشرون الناس، وفي ذات الوقت: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً» وامتحناً.

وهذا الإمتحان، قد يكون بسبب أن اختيار الأنبياء من جنس البشر ومن أوساط الجماهير المحرومة هو امتحان عظيم بذاته، لأنَّ البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصة إذا كان في مستوى واطىء من حيث الإمكانيات المادية. وعلى أثر هذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى: «أَتَصْبِرُونَ». ذلك لأنَّ أهم ركن للنجاح في جميع هذه الامتحانات هو الصبر والاستقامة والشجاعة ...

ويقول تعالى في ختام الآية بصيغة التحذير: «وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا». فينبغي ألا يتصور أحد أن شيئاً من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهية يظل خافياً ومستوراً عن عين الله وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء، إنَّه يراها بدقة ويعلمها جميعاً. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٧

الإدعاءات الكبيرة: الآيات الحالية، تطرح شكلين آخرين من ذرائع المشركين وتجب عليها، فيقول تعالى أولاً: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا». فعلى فرض أننا سنقبل أن النبي يستطيع أن يعيش الحياة العادية مثلنا، لكن أن يتنزل الوحي عليه وحده، ولا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به.

وأفضل دليل على أنهم لم يكونوا يقولون هذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوة النبي، هو أنهم طلبوا أن يشاهدوا الخالق، وأنزلوه إلى حدّ جسم يمكن رؤيته، ذلك الطلب نفسه الذي طلبه مجرمو بني إسرائيل أيضاً، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه في الآية (١٤٣) من سورة الأعراف. لذا يقول القرآن في الإجابة على هذه الطلبات في آخر الآية مورد البحث: «لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا». «العتو»: على وزن «غلو»، بمعنى الإمتناع عن الطاعة، والتمرد على الأمر، مصحوباً بالعناد واللجاجة.

وتعبير «في أنفسهم» من الممكن أن يكون بمعنى: أن هؤلاء صاروا أسارى الغرور والتكبر في أنفسهم. ومن الممكن أن يكون أيضاً بمعنى أنهم أخفوا كبرهم وغرورهم في قلوبهم وأظهروا هذه المعاذير.

ثم يقول تعالى بصيغة التهديد: إنَّ هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ».

بلى سوف لن يُسروا برؤية الملائكة في ذلك اليوم، لأنهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، وسوف يغمرهم الرعب إلى حد أنهم سيطلقون صرخات الاستغاثة التي كانوا يطلقونها في الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون: الأمان .. الأمان، اعفوا عنا: «وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا».

«حجر»: على وزن «قشر»، تقال في الأصل للمنطقة التي حجروها وجعلوها ممنوعة الورد، وعندما يقال «حجر إسماعيل» فلأنَّ حائطاً انشئ حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضاً «حجراً» لأنه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفة. وأيضاً «اصحاب الحجر» الذين ورد اسمهم في القرآن (الآية ٨٠ من سورة الحجر) وهم قوم صالح الذين كانوا ينتحون لأنفسهم بيوتاً حجرية محكمة في قلوب الجبال، فكانوا يعيشون في أمانها.

أما جملة «حجراً محجوراً» فقد كانت اصطلاحاً بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٨

الآية التي بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين في الآخرة، فنقول: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مَّنْثُورًا». يعني أن

أعمال اولئك لا قيمة لها ولا اثر إلى حدّ كأنهم لم يعملوا شيئاً، لأنّ الشئ الذى يعطى عمل الإنسان الشكل والمحتوى، هو النية وغاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهى وعلى أساس أهداف مقدسة ظاهرة، فى حين أنّ من لا إيمان لهم، فغالباً يقعون أسارى التظاهر والرياء والغرور والعجب، فيكون سبباً فى انعدام أية قيمة لأعمالهم.

وبما أنّ القرآن - عادةً - يضع الحسن والسيء متقابلين حتى يتضح وضع كل منهما بالمقاييسه فإنّ الآية التى بعدها تتحدث عن أهل الجنة فتقول: «أَصِحْبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا». «مستقر»: بمعنى محل الإستقرار؛ و «مقيل»: بمعنى محل الإستراحة فى منتصف النهار، من مادة «قيلولة»، وقد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَ نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦)  
تشقق السماء بالغمام: مرّة اخرى يواصل القرآن فى هذه الآيات البحث حول القيامة، ومصير المجرمين فى ذلك اليوم، فيقول أولاً: إنّ يوم محنة وحزن المجرمين هو ذلك اليوم الذى تنشق فيه السماء بواسطة الغيوم: «وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَمِ وَ نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا». «الغمام»: من «الغم» بمعنى ستر الشئ، لذلك فالغيم الذى يغطى الشمس يقال له «الغمام»، وكذلك الحزن الذى يغطى القلب يسمونه «الغم».

هذه الآية ردّ على طلبات المشركين، وعلى إحدى ذرائعهم، لأنهم كانوا يتوقعون أن يأتى الله والملائكة طبقاً لأساطيرهم وخرافاتهم من خلال الغيم، فيدعونهم إلى الحق، وفى أساطير اليهود جاء - أيضاً - أن الله أحياناً يظهر ما بين الغيوم. والمقصود من تشقق السماء بالغمام، هو أن ترتفع حجب العالم المادى عن عين الإنسان من جهة، فيشاهد عالم ما وراء الطبيعة، ومن جهة اخرى ستلاشى الأجرام السماوية، وتظهر الغيوم الانفجارية، فتبرز التشققات ما بينها فى ذلك اليوم، يوم نهاية هذا العالم وبداية النشور، يوم أليم جداً للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: «الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٩

حتى اولئك الذين كان لهم فى هذا العالم نوع من الملك المجازى والمحدود والفانى والسريع الزوال، يخرجون أيضاً من دائرة الملك، فتكون الحاكمية من كل النواحي وجميع الجهات لذاته المقدسة خاصة، وبهذا: «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا». فى الوقت الذى يكون على المؤمنين سهلاً يسيراً وهيناً جداً.

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)

سبب التزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: نزل قوله تعالى «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ» فى عقبه بن أبى معيط، وابى بن خلف، وكانا متخالفين، وذلك أنّ عقبه كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشرف قومه، وكان يكثر مجالسة الرسول فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى طعامه، فلما قربوا الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أنا بأكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله». فقال عقبه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وبلغ ذلك ابى بن خلف فقال: صبأت يا عقبه؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من طعامى إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال ابى: ما كنت براص عنك أبداً حتى تأتبه فتبزق فى وجهه! ففعل ذلك عقبه وارتمد، وأخذ رحم دابية فألقاها بين كتفيه. فقال النبى صلى الله عليه وآله: «لا- ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف». فضرب عنقه يوم بدر صبراً.

وأما ابى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وآله يوم احد بيده فى المبارزة.

نزلت الآيات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذي يُبتلى بخليل ضال، ويجره إلى الضلال.

التفسير

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعض منها في الآيات السابقة، وفي هذه الآيات اشارة إلى قسم آخر منها، وهي مسألة حسرة الظالمين البالغه على ماضيهم، يقول

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ٤٤٩

تعالى أولًا: «وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا».

«يعضّ»: من مادة «عَضَّ»، ويستخدم هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهووسين من شدة الحسرة والأسف. وهذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، ويعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الإنتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب في نفوسهم والشعور بالراحة.

ثم يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدى الغارق في عالم الأسف، يقول: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا» (١).

والمقصود ب «فلان» هو ذلك الذي أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال.

ثم يستمر ويقول: «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي».

«الذكر» في الجملة أعلاه، له معنى واسع، ويشمل كل الآيات الإلهية التي نزلت في الكتب السماوية، بل يدخل في إطاره كل ما يوجب يقظة ووعي الإنسان.

وفي ختام الآية يقول تعالى: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا». ذلك لأنه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر والطرق المنحرفة، ثم يتركه حيران ويذهب لسبيله.

وحقيقة الخذلان هي أي يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، ولكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته وإعانتته تمامًا في اللحظات الحساسة.

نقرأ في حديث عن الإمام محمد التقي الجواد عليه السلام قال: «اياك ومصاحبة الشرير، فإنه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره» (٢).

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

(١) «خليل»: تطلق بمعنى الصديق الخاص الحميم حيث يجعله الإنسان مشاوراً لنفسه.

(٢) بحار الأنوار ٧١ / ١٩٨.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠١

إلهي، إنّ الناس قد هجروا القرآن: كما تناولت الآيات السابقة أنواعاً من ذرائع المشركين والكافرين المعاندين، تناول الآية الاولى في مورد البحث هنا حزن وشكايه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بين يدي الله عزّ وجل من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا».

قول الرسول صلى الله عليه و آله هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدي الله أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الممتلىء ببرامج الحياء، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الإستجداء إلى الآخرين، حتى في القوانين



المدنية والجزائية.

إنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، ويستخدمونه فى زخرفة المساجد بعنوان الفن المعماري، وافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، وعلى الأكثر للتلاوة من أجل الثواب. تقول الآية التى بعدها فى مواساة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائى للخصوم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ».

لست وحدك قد واجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصبونهم العدا.

ولكن إعلم أنّك لست وحيداً، وبلا- معين، «وَكَفَىٰ بِرِّيكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا». فلا وساوسهم تستطيع أن تضلّك، لأنّ الله هاديك، ولا مؤامراتهم تستطيع أن تحطمك، لأنّ الخالق معينك، الخالق الذى علمه فوق كل العلوم، وقدرته أقوى من كل القدرات. الآية التى بعدها تشير أيضاً إلى ذريعة اخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فنقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً».

وأساساً فقد كان الأفضل للنبي صلى الله عليه وآله أيضاً أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعه واحده، كيما يجيب الناس فوراً على كل ما يسألونه ويريدون منه.

ولكن القرآن فى تتمه هذه الآية نفسها يجيبهم: «وَكَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً».

إنّ القرآن مجموعة من أوامر ونواهي، أحكام وقوانين، تاريخ وموعظه، ومجموعة من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير فى مواجهة الأحداث التى كانت تبرز أمام مسير الامه

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٢

الإسلامية، كتاب- كهذا- يبين وينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكليه عن طريق الحضور فى ميادين حياة الامه، لا يمكن أن ينظم ويُدوّن دفعه واحده. وهذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه ونشر جميع بياناته وإعلاناته وأوامره ونواهي- التى يصدرها فى المناسبات المختلفه- دفعه واحده من أجل تسيير الثورة، ترى هل يعتبر هذا العمل عقلياً؟!

ثم للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا». أى أنهم لا يأتون بمثل أو مقوله أو بحث لاضعاف دعوتك ومقابلتها.

وبما أن هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا- بعد مجموعة من إشكالاتهم- أن محمداً وأصحابه مع صفاتهم هذه وكتابهم هذا وبرامجهم هذه شرّ خلق الله- العياذ بالله- ولأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحه وبلاغه القرآن، فإنّ الله سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول فى الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وهذا علامه على مهانتهم وذلّتهم، لأنهم كانوا فى الدنيا فى غاية الكبر والغرور والإستهانة بخلق الله، هذا من جهه.

ومن جهه اخرى تجسيد لضلالتهم فى هذا العالم، ذلك أنّ من يسحبونه بهذه الصورة لا يرى ما أمامه بأى شكل، وغافل عما حوله.

فريق لهم قامات منتصبه كشجر السرو، ووجوه منيرة كالقمر، وخطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَّا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٣

أشار القرآن المجيد في هذه الآيات إلى تاريخ الامم الماضية ومصيرهم المشؤوم مؤكداً على ست أمم. يقول أولاً: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا».

فقد القيت على عاتقهما المسؤولية الثقيلة في جهاد الفراعنة، ويجب عليهما مواصلة هذا العمل الثورى بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر: «فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا». فإنيهم قد كذبوا دلائل الله وآياته التي في الآفاق وفي الأنفس وفي كل عالم الوجود، ومن جهة أخرى عرضوا عن تعاليم الانبياء السابقين وكذبوهم.

ولكن بالرغم من جميع الجهود والمساعي التي بذلها موسى وهارون، بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة والبيانات المتنوعة، أصروا أيضاً على طريق الكفر والإنكار، لذا «فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا». «تدمير»: من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك بأسلوب يثير العجب. وكذلك: «وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا». وكذلك: «وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا».

«قوم عاد» هم قوم النبي «هود» العظيم، الذي بعث في منطقته (الأحقاف) أو (اليمن). و «قوم ثمود» قوم نبي الله «صالح» الذي بعث في منطقة وادي القرى (بين المدينة والشام).

«رس»: في الأصل بمعنى الأثر القليل، و «أصحاب الرس» كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر كان يافث بن نوح غرسها وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطئ نهر يقال له «الرس»، ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة، بعث الله إليهم رسولاً من بنى إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهه إلى عبادة الله وترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست، فلما رأوا ذلك ساءهم، فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها، فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكتهم عن آخرهم.

«قرون»: جمع «قرن» وهى فى الأصل بمعنى الجماعة الذين يعيشون معاً فى زمان واحد، ثم أطلقت على الزمان الطويل (أربعين أو مائة سنة).

لكننا لم نجاز أولئك على غفلة أبداً، بل «وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ».

أجبنا على إشكالاتهم، مثل الإجابة على الإشكالات التى يوردونها عليك، أخطرناهم، أنذرناهم، كررنا عليهم مصائر وقصص الماضين، لكن حين لم ينفع أى من ذلك أهلكتناهم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٤

ودمّرناهم تدميراً: «وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا» (١). وفى نهاية المطاف- فى الآية الأخيرة مورد البحث- يشير القرآن المجيد إلى خرائب مدن قوم لوط التى تقع على بداية طريق الحجازيين إلى الشام، وإلى الأثر الحى الناطق عن المصير الأليم لأولئك الملوئين والمشركين، فيقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا».

نعم، لقد كانوا يرون مشهد الخرائب هذه، لكنهم لم يأخذوا منها العبرة، ذلك لأنهم: «بَلْ كَانُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ نُشُورًا».

وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَدُّونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

الآيات الحالية تتناول لونا آخر من منطق المشركين وكيفيه تعاملهم مع رسول الخاتم صلى الله عليه وآله ودعوته الحقه. يقول تعالى أولاً:

«وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَدُّونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا».

ثم يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم: «إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا».

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففي البداية من خلال جملة واحدة حاسمة يرد على مقولات هذه الفئة التي ما كانت أهلاً للمنطق: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» وأمثالها.

(١) «تبيير»: من مادة «تبر» (على وزن ضرر، وعلى وزن صبر) بمعنى الإهلاك التام.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٥

الجواب القرآني الثاني على مقولا-تهم ورد في الآية التي بعدها، موجهاً الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله على سبيل المواساة وتسليّة خاطر، وأيضاً على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النبي من قبل اولئك، فيقول: «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوِيَهُ». فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته والدفاع عنه، «أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا».

يعنى إذا وقف اولئك أمام دعوتك بالإستهزاء والإنكار وأنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأنّ منطقتك ضعيف ودلائلك غير مقنعة، وفي دينك شك أو ريب، بل لأنهم ليسوا أتباع العقل والمنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسية، واتباع الهوى مصدر الغفلة ومنع الكفر وعدم الإيمان.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآني الثالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: «أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يعنى لا يؤذنيك استهزاؤهم ومقولاتهم السيئة وغير المنطقية أبداً، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، ويستخدم عقله، فيكون مصداقاً لـ «يعقلون». أو أنّه فاقد للعقل ولكنه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقاً لـ «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من اولئك ولا من هؤلاء، وعلى هذا فلا- فرق بينهم وبين الانعام، بل هم أتعس من الأنعام وأعجز، إذ أنّ الأنعام لا تعقل ولا فكر لها، وهؤلاء لهم عقل وفكر، وتسافلوا إلى حال كهذه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِيَأْسَوا وَالنُّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسَخِّيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَابِي أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)

حركة الظلال: في هذه الآيات كلام في أقسام مهمّة من النعم الإلهية، وكلام في نعمه «الظلال» ثم في آثار وبركات «الليل» و «النوم والإستراحة» و «ضياء» النهار و «هبوب الرياح» و «نزول المطر» و «إحياء الأراضي الموات» و «سقاية» الأنعام والناس.

يقول تعالى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٦

أولاً: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا».

هذا الظل الممتد والمنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وأهنا الظلال والساعات هي تلك؛ لأنه تعالى يقول على أثر ذلك: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا». إشارة إلى أنّ مفهوم الظل لم يكن ليتضح لو لم تكن الشمس.

بعد ذلك يبيّن تعالى: ثم إنّنا نجمعه جمعاً ويثداً، «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا».

من المعلوم أنّ الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجياً، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماماً في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، ولهذا فالظل لا يظهر ولا يختفي دفعةً واحدةً، وهذا نفسه حكمه الخالق، ذلك لأنّ الإنتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائي يكون ضاراً بجميع المخلوقات.

بعد ذكر نعمة الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين اخريين متناسبتين معها تناسباً تاماً، فيكشف جانباً آخر من أسرار نظام الوجود الدالة على وجود الله، يقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا».

هذا الحجاب الظلامي الذي لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض ويحفظها كاللباس، ويلتحفه الإنسان كالغطاء الذي يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثم يشير تعالى إلى نعمة النوم: «وَالنَّوْمَ سُبَاتًا».

«السبات»: في اللغة من «سبت» بمعنى القطع، ثم جاء بمعنى تعطيل العمل للإستراحة.

هذا التعبير إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم.

النوم في وقته وبحسب الحاجة إليه، مجدد لجميع طاقات البدن، وباعث للنشاط والقوة، وأفضل وسيلة لهدوء الأعصاب.

وفي ختام الآية أشار تعالى إلى نعمة «النهار» فقال تعالى: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا».

«النشور»: في الأصل من النشر بمعنى البسط، في مقابل الطي وربما كان هذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح في أنحاء البدن، حين

اليقظة التي تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس في ساحة المجتمع، والحركة للمعاش على وجه الأرض.

فضياء النهار من حيث روح وجسم الإنسان باعث على الحركة حقاً، كما أن الظلام باعث على النوم والهدوء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٧

بعد بيان هذه المواهب العظيمة- التي هي أهم ركائز الحياة الإنسانية- يتناول القرآن الكريم موهبة اخرى مهمة جداً فيقول: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا».

لا- يخفى أن دور الرياح هو أنها الطلائع المتقدمة لنزول الرحمة الإلهية، لأنّ إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم المثقلة من أعالي المحيطات باتجاه الأراضي اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر وستهطل على نفس ذلك البحر.

إنّ قسماً من هذه الرياح المتقدمة لقطع الغيوم في حركتها وامتزاجها برطوبة ملائمة، تبعث النسيم المنعش الذي تشم منه رائحة المطر، هذه الرياح مثل البشير الذي يُنبئ عن قدوم مسافر عزيز.

التعبير ب «الرياح» بصيغة الجمع لعله إشارة إلى أنواع مختلفه منها، فبعض شمالي، وبعض جنوبي، وبعض يهب من الشرق إلى الغرب، ومنها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سبباً في انتشار الغيوم في كل الآفاق.

المهم هنا هو أن «الماء» قد وصف ب «الطهور» التي هي صيغة مبالغه من الطهارة والنقاء ولهذا فمفهوم الطهارة والتطهير يعني أن الماء طاهر بذاته ويطهر الأشياء الملوثة.

فمضافاً إلى خاصية الإحياء، فإنّ للماء خاصية كبيرة الأهمية هي التطهير، فلولا الماء فإنّ أجسامنا ونفوسنا وحياتنا تتسخ وتلوث في ظرف يوم واحد.

مضافاً إلى أن تنقية الروح من التلوث بواسطة الغسل والوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح والجسم معاً.

لكن خاصية التطهير هذه مع ما لها من الأهمية، اعتبرت في الدرجة الثانية، لذا يضيف القرآن الكريم في الآية التي بعدها بأن الهدف من نزول المطر هو الإحياء: «الَّذِي بِهِ بَلَدَةٌ مَيِّتًا». وأيضاً: «وَأُنشِقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا».

في الآية الأخيرة- مورد البحث- يشير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هذه الآيات بينهم بصور مختلفه ومؤثره ليتذكروا وليتعرّفوا من خلاله على قدرة الخالق، لكن كثيراً من الناس لم يتخذوا موقفاً إزاء ذلك إلاّ الإنكار والكفران: «وَلَقَدْ صَيَّرْفَنهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَابَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٨

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ

هَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

الآية الاولى - مورد البحث - أشارت إلى عظمة مقام النبي صلى الله عليه وآله، يقول تعالى: لو أردنا لبعثنا نبياً في كل مدينة وبلد، لكننا لم نفعل هذا وألقينا مسؤولية هداية العالمين على عاتقك، «وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا». لأنّ تمرکز النبوة في وجود فرد واحد يكون باعثاً على وحدة وانسجام الناس، ومانعاً من كل فرقة وتشتت.

إنّ هذه الآية دليل على عظمة مقام النبي صلى الله عليه وآله، فهي دليل كذلك على وجوب وحدة القائد، وعلى ثقل عبء مسؤوليته. وبنفس هذا الدليل، يبين الله تبارك وتعالى في الآية التالية أمرين إلهيين مهمين يشكلان منهجين أساسيين للأنبياء، فيوجه الخطاب أولاً إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ويقول: «فَلَمَّا تَطَّعِ الْكُفْرِينَ». لا تخطأ أيّة خطوة على طريق التوافق مع انحرافاتهم، فإنّ التوافق مع المنحرفين آفة الدعوة إلى الله.

أما القانون الثاني فهو: جاهد اولئك بالقرآن: «وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا».

جهاداً كبيراً بعظمة رسالتك، وبعظمة جهاد كل الأنبياء الماضين، الجهاد الذي يشمل جميع الأبعاد الروحية والفكرية للناس، ويشمل كل الأصعدة المادية والمعنوية.

هذا التعبير يجسد أيضاً عظمة مقام القرآن، ذلك لأنه وسيلة هذا الجهاد الكبير وسلاحه القاطع، فإنّ قدرته البيانية واستدلاله وتأثيره العميق وجاذبيته فوق تصور وقدرة البشر.

ثم يتناول القرآن الكريم مجدداً الاستدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نعمه في النظام الكوني، فيشير بعد ذكر المطر في الآيات السابقة إلى عدم الإختلاط بين المياه العذبة والمالحة: «وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبُحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٩

«مرج»: من مادة «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، وهنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب والمالح.

«عذب»: بمعنى سائغ وطيب وبارد، و «فرات» بمعنى لذيذ وهنيء.

«ملح»: بمعنى مالح، و «أجاج» بمعنى مرّ وحاد.

«برزخ»: بمعنى حجاب وحائل بين شيئين.

فهذه الآية تصور واحداً من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق في عالم مخلوقاته، وكيف يستقر حجاب غير مرئي، وحائل خفي بين البحر المالح والبحر العذب، فلا يسمح لهما بالاختلاط.

وقد اتضح اليوم أنّ هذا الحجاب اللامرئي، هو ذلك «التفاوت بين كثافة المالح والعذب» وفي الإصطلاح «تفاوت الوزن النوعي» لهما، حيث يكون سبباً في عدم امتزاجهما إلى مدة طويلة.

إنّ جعل هذه الآية وسط آيات تتعلق ب «الكفر» و «الإيمان» ربّما تكون أيضاً إشارة وتمثيلاً لهذا الأمر، ففي المجتمع الواحد أحياناً، وفي المدينة الواحدة، بل حتى في البيت الواحد أحياناً، يتواجد أفراد مؤمنون كالماء العذب والفرات، مع أفراد بلا إيمان كالماء المالح الأجاج ... مع طرازين من الفكر، ونوعين من العقيدة، ونمطين من العمل، طاهر وغير طاهر، دون أن يمتزجا.

في الآية التالية - بمناسبة البحث في نزول المطر، وفي البحرين العذب والأجاج المتجاورين - يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الماء، فيقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا». أي إنّ الإنسان الأوّل خلق من ماء، وأنّ تكوّن جميع أفراد البشر من ماء النطفة أيضاً، وأنّ الماء يشكل أهم مادة في بناء جسم الإنسان أيضاً ... الماء الذي يعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، كيف صار مبدأ إيجاد مثل هذا الخلق الجميل؟! وهذا دليل بين على قدرته تبارك وتعالى.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جل ذكره الكلام عن انتشار الأنسان، فيقول: «فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا».

المقصود من «النسب» هو القرابة التي تكون بين الناس عن طريق الذرية والولد، مثل إرتباط الأب والابن، أو الإخوة بعضهم مع بعض، أما المقصود من «صهر» التي هي في مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٠

الأصل بمعنى «الختن» هو الإرتباط الذي يقام بين طائفتين عن هذا الطريق، مثل إرتباط الإنسان بأقرباء زوجته. في ختام الآية يقول تبارك وتعالى بصيغته التأكيد على المسائل الماضية: «وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا».

ويبين القرآن الكريم في نهاية المطاف في الآية الأخيرة- مورد البحث- انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايضة بين قدرة الأصنام وقدره الخالق، حيث مرّت نماذج منها في الآيات السابقة، يقول: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ». من المسلم أن وجود المنفعة والضرر لا- يكون وحده معيار العبادة، لكن القرآن يبين من خلال هذا التعبير هذه النكته، وهي أنهم يفتقدون أية حجة في هذه العبادة، لأن الأصنام موجودات عديمة الخاصية تماماً، وفاقدة لأية قيمة، ولأى تأثير سلبي أو إيجابي. ويضيف القرآن الكريم في ختام الآية: أن الكفرة يعين بعضهم بعضاً في مواجهة خالقهم «في طريق الكفر» «وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا». ويعثون القوى وقيمون العراقيل ضد دين الله ونيته والمؤمنين الحقيقيين.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)

أجرى هو هدايتكم: كان الكلام في الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وفي الآية الحالية الاولى يشير القرآن إلى مهمة النبي صلى الله عليه وآله قباله هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أدت مهمتك في البشارة والإنذار.

هذا الخطاب، كما يشخص مهمة النبي صلى الله عليه وآله، كذلك يسلي، وفيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، وعدم المبالاة بهم. ثم يأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهم أنني لا أريد منكم في مقابل هذا القرآن وابلغكم رسالة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١١

السماء أى أجر وعوض: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ». ثم يضيف: إن الأجر الوحيد الذى أطلبه أن يهتدى الناس إلى طريق الله «إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا».

يعنى أجرى وجزائى هو هدايتكم فقط، وبكامل الإرادة والاختيار أيضاً، فلا إكراه ولا إجبار فيه، وكم هو جميل هذا التعبير الكاشف عن غاية لطف ومحبة النبي صلى الله عليه وآله لأتباعه، ذلك لأنه عدّ أجره وجزاءه سعادتهم.

وتبين الآية التي بعدها المعتمد الأساس للنبي صلى الله عليه وآله: «وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ».

فمع هذا المعتمد والملجأ فلا حاجة لك بأجر وجزاء هؤلاء، ولا خوف عليك من ضررهم ومؤامراتهم.

والآن حيث الأمر على هذه الصورة فسيح الله تنزيهاً له من كل نقص، وأحمده إزاء كل هذه الكمالات: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ».

ثم يضيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان ومؤامرات الأعداء، لأن الله مطلع على ذنوب عباده وسيحاسبهم: «وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا».

الآية التالية بيان لقدرة الخالق في ساحة عالم الوجود، ووصف آخر لهذا الملاذ الأمين. يقول تعالى: «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ». «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ» فأخذ بتدبير العالم.

إن من له هذه القدرة الواسعة يستطيع أن يحفظ المتوكلين عليه من كل خطر وحادثه.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «الرَّحْمَنُ»: من شملت رحمته العامة جميع الموجودات، فالمطيع والعاصي والمؤمن والكافر يغترفون من خوان نعمته التي لا انقطاع فيها.

والآن، حيث ربك الرحمن القادر المقدر، فإذا أردت شيئاً فاطلب منه فإنه المطلع على احتياجات جميع عباده: «فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا». وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَجْزِي بِحَمِيدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بَدُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا (٥٩)

البروج السماوية: كان الكلام في الآيات الماضية عن عظمتهم وقدرة الله، وعن رحمته

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٢

أيضاً، ويضيف الله تعالى في الآية الاولى هنا: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟. نحن لا نعرف «الرحمن» أصلاً، وهذه الكلمة ليس لها مفهوم واضح عندنا، «أَتَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا». نحن لا نخضع لأي أحد، وسوف لن نكون أتباع أمر هذا أو ذاك، «وَزَادَهُمْ نُفُورًا». أى أنهم يتكلمون بهذا الكلام ويزدادون ابتعاداً ونفوراً عن الحق.

لا شك أن أنسب اسم من أسماء الله للدعوة إلى الخضوع والسجود بين يديه، هو ذلك الاسم الممتلىء جاذبية «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامة الواسعة، لكن أولئك بسبب عمى قلوبهم ولجاجتهم، لم يظهروا تأثراً حيال هذه الدعوة، بل تلقوها بالسخرية والاستهزاء، وقالوا على سبيل التحقير: «وَمَا الرَّحْمَنُ».

الآية التالية إجابة على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «وما الرحمن؟» وإن كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية، لكن القرآن يجيبهم إجابة جادة، يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» فى الأصل بمعنى «الظهور» ولذا يسمون ذلك القسم الأعلى والأظهر من جدار أطراف المدينة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج». فالبروج السماوية إشارة إلى الصور الفلكية الخاصة حيث تستقر الشمس والقمر فى كل فصل وكل موضع من السنة إزاء واحد منها، يقولون مثلاً: استقرت الشمس فى برج «الحمل» يعنى أنها تكون بمحاذاة «الصورة الفلكية»، «الحمل»، أو القمر فى «العقرب» يعنى وقفت كرة القمر أمام الصورة الفلكية «العقرب».

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس والقمر السماوية، وتضيف على أثر ذلك: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا».

مع هذه الدلائل الواضحة، ومع هذه المنازل البديعة والدقيقة للشمس والقمر، فهل ما زلتم تجهلونه وتقولون: «وما الرحمن؟!» فى الآية الأخيرة يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، ويتحدث مرة أخرى فى قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا».

هذا النظام البديع الحاكم على الليل والنهار، لولاه لانعدمت حياة الإنسان نتيجةً لشدة النور والحرارة أو الظلمة والعمى، وهذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا الله عز وجل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٣

وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)

الصفات الخاصة لعباد الرحمن: هذه الآيات - فما بعد - تستعرض بحثاً جامعاً فذاً حول الصفات الخاصة لعباد الرحمن، وتبين اثنتى عشر صفة من صفاتهم الخاصة، إكمالاً للآيات الماضية حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم الله «الرحمن» يقولون وملء

رؤوسهم استهزاء وغرور «وما الرحمن؟» ورأينا أن القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، وجاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن». إن أول صفة ل «عباد الرحمن» هو نفى الكبر والغرور والتعالى، الذي يبدو في جميع أعمال الإنسان حتى في طريقة المشى، لأن الملكات الأخلاقية تظهر نفسها في حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان بحيث إن من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه - بدقه - من أسلوب مشيته. يقول تعالى: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» (١).

نعم، إنهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإيمان، في حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر. الصفة الثانية ل «عباد الرحمن» الحلم والصبر، كما يقول القرآن في مواصلته هذه الآية: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا». السلام الذي هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، وليس الناشء عن الضعف؛ وليس سلام التحية الذي هو علامة المحبة ورابطة الصداقة، بل السلام الذي هو علامة الحلم والصبر والعظمة.

وتتناول الآية الثانية، خاصيتهم الثالثة التي هي العبادة الخالصة لله، فيقول تعالى:

(١) «هون»: مصدر، وهو بمعنى الناعم والهادى المتواضع، واستعمال المصدر في معنى اسم الفاعل هنا للتوكيد؛ يعنى أنهم في ما هم عليه كأنهم عين الهدوء والتواضع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٤

«وَالَّذِينَ يَسْتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا».

في عتمه الليل حيث أعين الغافلين نائمة، وحيث لا مجال للتظاهر والرياء، حرّموا على أنفسهم لذة النوم، ونهضوا إلى ما هو ألد من ذلك، حيث ذكر الله والقيام والسجود بين يدي عظمته عز وجل. الصفة الرابعة لهم هي الخوف من العذاب الإلهي: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا». أي شديداً ومستديماً. «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا». ومع أنهم مشتغلون بذكر الله وعبادته في الليالي، ويقضون النهار في إنجاز تكاليفهم، فإن قلوبهم أيضاً مملوءة بالخوف من المسؤوليات.

«غرام»: في الأصل بمعنى المصيبة والألم الشديد الذي لا يفارق الانسان. وتطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأن عذابها شديد ودائم لا يزول.

في الآية الأخيرة يشير جل ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة ل «عباد الرحمن» التي هي الاعتدال والابتعاد عن أي نوع من الإفراط والتفريط في الأفعال، خصوصاً في مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا».

الملفت للانتباه أنه يورد الكلام في كيفية إنفاقهم فيقول: «إِنَّ إِنْفَاقَهُمْ إِنْفَاقٌ عَادِلٌ (معتدل) بعيد عن أي إسراف وبخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم وأولادهم جاعاً، ولا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم وعطاياهم.

إن «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، وفي غير حق، وبلا داع، و «الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

«قوام»: لغة بمعنى العدل والإستقامة والحد والوسط بين شيئين.

وَالَّذِينَ لَمَّا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٤٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخُذُ فِيهِ مَهَانًا (٤٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)

ميزة «عباد الرحمن» السادسة التي وردت في هذه الآيات هي التوحيد الخالص الذي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٥

يبعدهم عن كل أنواع الشرك والتثوية والتعددية في العبادة، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ».



الصفة السابعة: طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء: «وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ».

ويستفاد جيداً من الآية أعلاه أن جميع الأنفس الإنسانية محترمة في الأصل، ومحرم إراقه دماؤها إلا إذا تحققت أسباب ترفع هذا الإحترام الذاتي فتبيح إراقه الدم.

صفتهم الثامنة: هي أن عفافهم لا يتلوث أبداً: «وَلَا يَزْنُونَ».

إنهم على مفترق طريقين: الكفر والإيمان، فينتخبون الإيمان، وعلى مفترق طريقين: الأمان واللاأمان في الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، وعلى مفترق طريقين: الطهر والتلوث، فهم يتخيرون النقاء والطهر. إنهم يهيئون المحيط الخالي من كل أنواع الشرك والتعدى والفساد والتلوث، بجدهم واجتهادهم.

وفي ختام هذه الآية يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا».

«الإثم» و«آثام»: في الأصل بمعنى الأعمال التي تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبة، ثم أطلقت على كل ذنب، لكنها هنا بمعنى جزاء الذنب.

تتكيء الآية التالية أيضاً على ما سبق، من أن لهذه الذنوب الثلاثة أهمية قصوى فيقول تعالى: «يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا».

والمقصود من مضاعفة العذاب أن كل ذنب من هذه الذنوب الثلاثة المذكورة في هذه الآية سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذاباً مضاعفاً.

فضلاً عن أن ذنباً ما يكون أحياناً مصدر الذنوب الأخرى، مثل الكفر الذي يسبب ترك الواجبات وارتكاب المحرمات، وهذا نفسه موجب لمضاعفة العذاب الإلهي.

لكن القرآن المجيد كما مرّ سابقاً، لم يغلق طريق العودة أمام المجرمين في أي وقت من الأوقات، بل يدعو المذنبين إلى التوبة ويرغبهم فيها، ففي الآية التالية يقول تعالى هكذا: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

تبديل السيئات حسنات: هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعاً:

١- حينما يتوب الإنسان ويؤمن بالله، تتبدل سيئات أعماله في المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلاً للنفس المحترمة في الماضي، فإنه يتبنى مكانها في المستقبل الدفاع عن المظلومين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٤

ومواجهة الظالمين. وهذا التوفيق الإلهي يناله العبد في ظل الإيمان والتوبة.

٢- إن الله تبارك وتعالى بلطفه وكرمه وفضله وإنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، ويضع مكانها حسنات. ٣- والمقصود من السيئات آثارها السيئة التي تنطبع بها روح ونفس الإنسان، فحينما يتوب ويؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه ونفسه.

الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: «وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا» (١). يعني أن التوبة وترك الذنب ينبغي ألا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغي - إضافة إلى ذلك - أن يكون الدافع إليها خلوص النية، والعودة إلى الله تبارك وتعالى.

الصفة التاسعة ل «عباد الرحمن»، هي احترام وحفظ حقوق الآخرين: إن هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقاً: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ». والمقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعني أن عباد الرحمن لا يتواجدون في مجالس الباطل. فعباد الرحمن لا يؤدون الشهادة الكاذبة، ولا يشهدون مجالس اللهو والباطل والخطيئة، ذلك لأنّ الحضور في هذه المجالس - فضلاً عن ارتكاب الذنب - فإنه مقدمة لتلوث القلب والروح.

ثم يشير تعالى في آخر الآية إلى صفتهم الرفيعة العاشرة، وهي امتلاك الهدف الإيجابي في الحياة، فيقول: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا».

إنهم لا يحضرون مجالس الباطل، ولا يتلوثون باللغو والبطلان.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)

الصفة الحادية عشر لهذه النخبة امتلاك العين الباصرة والاذن السامعة حين مواجهتهم

(١) «متاب»: مصدر ميمي بمعنى التوبة، ولأنه مفعول مطلق هنا، فهو للتوكيد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٧

لآيات الخالق، فيقول تعالى:

«وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا».

من المسلم أن المقصود ليس الإشارة إلى عمل الكفار، ذلك لأنهم لا اعتناء لهم بآيات الله أصلاً، بل إن المقصود: فئة المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات الله بأعين واذان موصدة، دون أن يتدبروا حقائقها، ويستهدوه في أعمالهم.

التلقى الواعي عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة والثبات والصمود، لأن من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، وبتحريفه يتم الانحراف عن الخط الأصيل، فيهوى بهم ذلك إلى وادي الكفر والضلالة وعدم الإيمان.

الصفة الثانية عشر الخاصية لهؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هي التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم وعوائلهم، وإيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ».

بديهي أن معنى هذا ليس أن يقبوعوا في زاوية ويتضرعوا بالدعاء، بل إن الدعاء دليل شوقهم وعشقهم الداخلي لهذا الأمر، ورمز جدهم واجتهادهم.

والصفة الثالثة عشر ل «عباد الرحمن»، التي هي أهم هذه الصفات من وجهة نظر معينة: هي أنهم لا يقنعون أبداً أنهم على طريق الحق، بل إن هممتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة وقداوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضاً. إنهم ليسوا كالزهاد المنزوين في الزوايا، وليس همهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إن سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى. لذا يقول في آخر الآية، إنهم الذين يقولون: «وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا».

نعم، إنهم عباد الرحمن، وكما أن رحمة الله العامة تشمل الجميع فإن رحمة الله بهؤلاء العباد عامة أيضاً من أكثر من جهة، فعلمهم وفكرهم وبياناتهم وقلمهم ومالهم وقدرتهم تخدم بلا انقطاع في طريق هداية خلق الله.

اولئك نماذج الإنسان الكامل والاسوة في المجتمع الإنساني.

اولئك قدوات المتقين.

بعد إكمال هذه الصفات الثلاثة عشرة، يشير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، وفي صورة الكوكبة الصغيرة، فيبين جزاءهم الإلهي: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا». «غرفة»: من مادة «غرف» (على وزن حرف) بمعنى رفع الشيء وتناوله، ويقال

لما يغترف ويتناول «غرفة»، ثم اطلقت على الأقسام العليا من البناء، ومنازل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٨

الطبقات العليا، وهي هنا كناية عن أعلى منازل الجنة.

المهم أن الصبر ليس وصفاً جديداً لهم، بل هو ضمانته تطبيق جميع الصفات السابقة، وعلى هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل والصمود أمام مشكلات طريق الحق، والجهاد والمواجهة ضد العصاة، والوقوف أمام دواعى الذنوب، تجتمع كلها فى ذلك المفهوم. ثم يضيف تعالى: «وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا».

أهل الجنة يحيى بعضهم بعضاً، وتسلم الملائكة عليهم، وأعلى من كل ذلك أن الله يحييهم ويسلم عليهم. ثم يقول تبارك وتعالى للتأكيد أكثر: «خَلِدِينَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

لولا- دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة: هذه الآية التى هى الآية الأخيرة فى سورة الفرقان، جاءت فى الحقيقة نتيجة لكل السورة، وللأبحاث التى بصدد صفات «عباد الرحمن» فى الآيات السابقة، فيقول تبارك وتعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه وآله: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ». وبناء على هذا، إن ما يعطيكم الوزن والقيمة والقدر عند الله هو الإيمان بالله والتوجه إليه، والعبودية له. ثم يضيف تعالى: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا».

يعنى: أنكم قد كذبتهم فيما مضى بآيات الله وبأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى الله، ولم تسلكوا طريق الإيمان به والعبودية له، فلن تكون لكم أية قيمة أو مقام عنده، وستحيط بكم عقوبات تكذيبكم.

«نهاية تفسير سورة الفرقان»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٩

## ٢٦ سورة الشعراء

محتوى السورة: إننا نعلم أن السور المكية التى أنزلت فى بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الاصول الاعتقادية:

التوحيد والمعاد، ودعوة أنبياء الله، وأهمية القرآن.

وتدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريباً.

ويمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى عدة أقسام:

١- مطلع هذه السورة الذى يتكون من الحروف المقطعة، ثم يتحدث فى عظمة القرآن، وتسليته النبى صلى الله عليه وآله فى مواجهة إصرار وحماسة المشركين، والإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، وصفات الله تبارك وتعالى.

٢- يحكى جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام ومواجهاتهم مع أقوامهم، والذى يشبه كثيراً منطق مشركى عصر النبى صلى الله عليه وآله و آله، فكان هذا سبباً فى تسليته النبى صلى الله عليه وآله والمؤمنين الأوتل.

وفيه بشكل خاص أيضاً، تركيز على العذاب العظيم والإبتلاءات المروعة التى حلت بهذه الأمم، والذى هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النبى فى تلك الشرائط.

٣- وتغلب عليه جنبه الإستنتاج من القسمين الأولين، يتناول الحديث حول النبى صلى الله عليه وآله، وعظمة القرآن، وتكذيب المشركين، والأوامر الصادرة إلى النبى صلى الله عليه وآله فيما يتعلق بطريقة الدعوة، وكيفية التعامل مع المؤمنين، ويختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، وبالتهديد الشديد للظالمين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٠

وبالمناسبة، فإن اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التى تتحدث حول الشعراء غير المؤمنين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح عليه السلام وكذب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم عليهم السلام وبعدد من كذب بعيسى عليه السلام وصدق بمحمد صلى الله عليه وآله».

والمراد من التلاوة هي ما كانت مقدمة للتفكير، ثم العزم والعمل.

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاطِحٌ نَفْسِكَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنَّ نَشَأَ نُزُلٍ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبِتٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦)

مرّة أخرى نواجه في بداية هذه السورة مثلاً آخر من الحروف المقطعة وهو: «طسم».

ورد في روايات متعددة عن النبي صلى الله عليه وآله أو بعض أصحابه في تفسير «طسم» أن هذه الحروف علامات «مختصرة» عن أسماء الله تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنة.

وهذه الروايات تؤيد التفسير الذي نقلناه في مستهل سورة الأعراف في هذا الصدد، كما أنها في الوقت ذاته لا تنافي ما قلناه في مستهل سورة البقرة من أن المراد من هذه الحروف بيان إعجاز القرآن وعظمته، حيث إن هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطة وصغيرة.

و الآية التالية تبين عظمة القرآن بهذا النحو: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ووصف القرآن ب «المبين» المشتق من «البيان»، هو إشارة إلى كونه جلياً بيناً عظيماً معجزاً - فكلما أمعن الإنسان النظر في محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر ... ثم بعد هذا فإن القرآن يبين الحق ويميزه عن الباطل، ويوضح سبيل السعادة والنصر والنجاة من الضلال.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢١

وتتحرك الآية التالية لتسرى عن قلب النبي صلى الله عليه وآله وتثبت فتقول: «لَعَلَّكَ بَاطِحٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ». «باطح»: مشتق من «البطح»، ومعناه إهلاك النفس من شدة الغم.

أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على أممهم ولا سيما الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذي ورد في شأنه هذا التعبير القرآني أكثر من مرّة ...

قال بعض المفسرين: إن سبب نزول الآية الآنفه الذكر هو أن النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو أهل مكة إلى توحيد الله باستمرار، إلّا أنهم لم يؤمنوا، فأسف النبي وتأثر تأثراً بالغاً حتى بدت أماراته في وجهه، فنزلت الآية آنفه الذكر لتسرى عن قلب النبي صلى الله عليه وآله «١».

ولبيان أن الله على كل شيء قدير حتى أنه يستطيع أن يسوقهم إلى الإيمان به سوقاً ويضطرهم إلى ذلك، فإن الآية التالية تقول: «إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ».

وهي إشارة إلى أن الله قادر على إنزال معجزة مذهلة - من السماء - أو أن يرسل عليهم عذاباً شديداً فيذعنوا له، ويطأطأوا برؤوسهم خضوعاً له، ويستسلموا لأمره وحكمه، إلّا أن الإيمان يكرهه لا قيمة له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادة ووعي وإدراك وتفكير. ثم يتحدث القرآن عن مواقف المشركين والكفار من آيات القرآن فيقول: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبِتٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ».

والتعبير ب «الرحمن» إشارة إلى أن نزول هذه الآيات من قبل الله إنما هو من رحمته العامة، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعادة والكمال.

والتعبير ب «محدث» - أي جديد - إشارة إلى أن آيات القرآن تنزل واحدة تلو الأخرى، وكل منها ذو محتوى جديد.

ثم يضيف القرآن: أن هؤلاء لا يقفون عند حدود الإعراض، بل يتجاوزون إلى مرحلة التكذيب، بل إلى أشد منه ليصلوا إلى الاستهزاء به، فيقول: «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ». «الأنباء»: جمع «أنبا»، أي الخبر المهم، والمراد من هذه الكلمة ما سيصيبهم

من العقاب الشديد الدينوى والأخروى.

والتحقيق فى هذه الآيه والآيه السابقه يكشف أن الإنسان حين ينحرف عن الجاده المستقيمه فإنه يفصل نفسه عن الحق - بشكل مستمر.

(١) تفسير روح الجنان ٨ / ٣٢٤.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٢

ففى المرحله الاولى يعرض عن الحق ويصرف بوجهه عنه ... ثم بالتدرج يبلغ مرحله الإنكار والتكذيب .. ثم يتجاوز هذه المرحله إلى السخرية والإستهزاء ... ونتيجة لذلك ينال عقاب الله وجزاءه (وقد ورد نظير هذا التعبير فى الآيتين ٤ و ٥ من سورة الأنعام).  
أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

الزوجه فى النباتات: كان الكلام فى الآيات المتقدمه عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعيه (أى القرآن المجيد)، أما فى الآيات محل البحث فالكلام عن الآيات التكوينية ودلائل الله فى خلقه وما أوجده سبحانه؛ فتقول الآيه الاولى من هذه الآيات:

«أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ». «كريم»: فى الأصل تعنى كل شىء قيم وثمانين.

والمراد من «كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» هو النباتات المهمه ذوات الفائده.

وتأتى الآيه التاليه لتقول مؤكده بصراحه: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً». إلّا أن اولئك الذين طبع على قلوبهم فى غفله وجهل إلى درجه يرون معها آيات الله بأعينهم، ومع ذلك يجحدونها ويكفرون بها، ويطرسخ فى قلوبهم العناد والجدل. لذلك فإن الآيه هذه تعقب قائله: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ». أى إن عدم الإيمان لدى اولئك أمسى كالفئه الراسخه فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات. وفى آخر آيه من الآيات محل البحث يرد الخطاب فى تعبير يدل على التهديد والترهيب والتشويق والترغيب، فيقول سبحانه: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

«العزیز»: معناه المقتدر الذى لا يغلب ولا يقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنه قادر على إهلاك المكذبين وتدميرهم .. إلّا أنه مع كل ذلك رحيم، ورحمته وسعت كل شىء، ويكفى الرجوع بإخلاص إليه فى لحظه قصيره، لتشمل رحمته من أناب إليه وتاب، فيعفو عنه بلطفه ورحمته.

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اثْبِتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمٌ فَزَعُونَٰ أَلَمْ يَتَّقُونَ (١١) قَال رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَ يَضِيقُ صِدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٣

بدايه رساله موسى: قلنا إن فى هذه السوره بياناً لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامة المسلمين، ولا سيما المسلمين الأوائل فى عصر النبى صلى الله عليه وآله ... فأول قصه تناولها هذه السوره هى قصه موسى عليه السلام، وتشرح جوانب مختلفه من حياته ومواجهته لفرعون وأتباعه حتى هلاكهم بالغرق فى النيل.

ومما يلفت النظر تكرار عبارة: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»، بعد تمام الحديث عن كل نبى ...

وهو التعبير ذاته الوارد فى بدايه هذه السوره فى شأن النبى محمد صلى الله عليه وآله .. وهذا الإتساق فى التعبير شاهد حى على أن ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنما هو للظروف المتشابهه التى أكتنفت المسلمين من حيث الحاله النفسية والاجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون ...

فتقول الآيتان الاوليان من الآيات محل البحث: «وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ أَلَّا يَتَّقُونَ». و يتركون ظلمهم وفسادهم وعنادهم للحق.

وينبغي الالتفات إلى أن الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هي الظلم، ومن الواضح أن الظلم له معنى جامع واسع ومن مصاديقه الشرك كما تقول الآية (١٣) من سورة لقمان: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

كما أن استعباد بنى إسرائيل واستثمارهم وما قارنهما من زجر وتعذيب من المصاديق الأخرى أيضاً، ثم بعد هذا كله فإن قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، وهكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم بجميع أبعاده ...

ويحكي القرآن مقالة موسى الكليم لرب العزة وما طلبه منه من مزيد القوة والعون لحمل الرسالة العظمى، فيقول في الآية التالية: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ». وأخشى أن اطرد قبل أن أكمل أداء رسالتي بما الاقيه من صخب وتكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود ...

وكان لموسى الحق في كلامه هذا تماماً، لأن فرعون وأتباعه وحاشيته كانوا مهيمنين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم ولو برأيه، وإذا أحسوا بأدنى نغمة مخالفة لأي شخص بادروا إلى الإجهاز عليه فوراً ..

وإضافة إلى ذلك فإن صدري لا يتسع لاستيعاب هذه الرسالة الإلهية: «وَيَضِيقُ صَدْرِي».

ثم بعد هذا كله فلساني قد يعجز عن بيانها: «وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي» ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٤

فلذلك فإنني أطلب أن تشد أزرى بأخي: «فَأَرْسَلْ إِلَىٰ هُرُونَ». لتؤدى رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا في مواجهة الظالمين والمستكبرين.

وبغض النظر عن كل ذلك فإن قوم فرعون يطاردونني «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» كما يعتقدون لأنني قتلت واحداً منهم- حين كان يتنازع مع إسرائيلي مظلوم- بضربة حاسمة، وأنا قلق من ذلك: «فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ».

إن موسى لم يكن خائفاً على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف والمقصد للأسباب آنفه الذكر، لذلك فقد كان يطلب من الله سبحانه مزيد القوة لهذه المواجهة ...

فاستجاب الله طلب موسى ودعوة الصادقة و «قَالَ كَلَّا». فلن يستطيعوا قتلك، أو كلاً لن يضيق صدرك وينعقد لسانك، وقد أجبنا دعوتك أيضاً في شأن أخيك، فهو مأمور معك في هذه المهمة: «فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا» لتدعوا فرعون وقومه إلى توحيد الله.

ولا تظننا بأن الله بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان: «إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» ...

فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكِ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُؤْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)

مواجهة فرعون مواجهة منطقية وقاطعة: انتهت في الآيات المتقدمة المرحلة الاولى لمأمورية موسى عليه السلام وهي موضوع الوحي والرسالة وطلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير ... وتعقيباً على المرحلة الآنفه تأتي الآيات- محل البحث- لتمثل المرحلة الثانية،

أي مواجهة موسى وهارون لفرعون، والكلام المصيري الذي جرى بينهم. تقول الآية الاولى من هذه الآيات مقدمة لهذه المرحلة: «فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وضمن دعوتكما لفرعون بأنكما رسولا رب العالمين اطلبنا منه أن يرسل بنى إسرائيل ويرفع يده عنهم: «أَنْ أَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ».

وبديهي أن المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بنى إسرائيل نير العبودية والقهر

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٥

والإستعباد، ليتحرروا ويأتوا مع موسى وهارون، وليس المراد هو إرسال بنى إسرائيل معهما فحسب.

وهنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسة وممزوجة بالخبث والشيطنة لينفى الرسالة ويقول لموسى «أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...». إذ التقطناك من أمواج النيل الهادرة فانقذناك من الهلاك، وهيتأنا لك مرضعة، وعفونا عن الحكم الصادر في قتل أبناء بنى إسرائيل الذى كنت مشمولاً به، فتربيت في محيط هادىء آمن منعماً... وبعد أن تربيت في بيتنا عشت زماناً «وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ». ثم توجه إلى موسى وذكره بموضوع قتل القبطى فقال: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ».

ثم بعد هذا كله: «وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ».

وعندما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث والشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلّا أنه قدّم الإجابة على الإشكال الثانى نظراً لأهميته. (أو أنه أساساً لم يجد الإشكال الأوّل يستحق الإجابة، لأنّ تربية الشخص لا تكون دليلاً على عدم جواز هداية مربيّه إن كان المربي ضالاً، ليسلك سبيل الرشاد) وأجابه موسى عليه السلام: «قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ».

إنّ موسى عليه السلام استخدم التورية في تعبيره جواباً على كلام فرعون، فقال كلاماً ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق في ذلك الزمان... لكن الله عرفه إياه بعدئذ، ووهب له حكماً- فجعله من المرسلين، إلّا أنّه كان يقصد في الباطن أنّه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدى إلى هذه النتيجة من الجهد والعناء واضطراب البال- مع أن أصل عمله كان حقاً ومطابقاً لقانون العدالة.

ثم يضيف موسى قائلاً: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يردّ موسى عليه السلام على كلام فرعون الذى يمنّ به عليه في أنّه ربّه وتعهده منذ طفولته وصباه، معترضاً عليه بلحن قاطع فيقول: «وَتَلَكَّ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

حتى أمرت أن يُقتل الأطفال الذكور وتستحيا النساء للخدمة.

فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سبباً لأن تضعنى امى فى الصندوق حفاظاً على، وتلقينى فى أمواج النيل، وكانت مشيئة الله أن تسوق الأمواج «زورقى» الصغير حتى توصله إلى قصرك... أجل إنّ ظلمك الفاحش هو الذى جعلنى رهين منتك وحرمنى من بيت أبى الكريم، وصيرنى فى قصرك الملوّث...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٦

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لئنِ اتَّخَذتِ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)

حين واجه موسى عليه السلام فرعون بلهجة شديدة وأجابه بضرر قاطع، وأفحم فرعون في رده، غير فرعون مجرى كلامه، وسأل موسى عن معنى كلامه أنّه رسول رب العالمين، و «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ». وفرعون قد سأل موسى عليه السلام هذا السؤال متجاهلاً ومستهنئاً.

إلّا أن موسى لم يجد يُدأ أن يجيب على فرعون بجد... وحيث إنّ ذات الله سبحانه بعيدة عن متناول أفكار الناس، فإنّه أخذ يحدثه عن آيات الله فى الآفاق وآثاره الحية إذ: «قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ».

وينبغى الإلتفات إلى أن عبدة الأوثان كانوا يعتقدون أنّ لكل موجود فى هذا العالم ربّاً، وكانوا يعدّون العالم تركيباً من نُظُم متفرقة، إلّا أنّ كلام موسى عليه السلام يشير إلى أنّ هذا النظام الواحد المتحكم على هذه المجموعة فى عالم الوجود دليل على أنّ له ربّاً واحداً...

وجملة «إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» لعلها إشارةً إلى أنّ موسى عليه السلام يريد أن يفهم فرعون ومن حوله- ولو تلويحاً- أنّه يعرف أنّ الهدف من هذا السؤال ليس إدراك الحقيقة... لأنّه لو أراد إدراك الحقيقة والبحث عنها لكان استدلاله كافياً.. لتصححوا نظرتكم نحو

الكون.

إلّا أن فرعون عاد لمواصله الاستهزاء والسخرية، واتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ».

ومعلوم من هم الذين حول فرعون، فهم أشخاص من نسيجه وجماعه من أصحاب القوة والظلم والقهر والمال.

وكان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقي يؤثر في القلوب المظلمة لأولئك الرهط ... فعده كلاماً بلا محتوى وغير مفهوم.

إلّا أن موسى عليه السلام عاد مرّة اخرى إلى كلامه المنطقي دون أى خوف ولا- وهن ولا إيهام، فواصل كلامه و «قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٧

إنّ موسى عليه السلام بدأ في المرحلة الاولى ب «الآيات الآفاقية»، وفي المرحلة الثانية أشار إلى «الآيات الأنفسية»، إلّا أنّ فرعون تمادى في حماقته، وتجاوز مرحلة الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، ف «قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ».

وذلك ما اعتاده الجابرة والمستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الزبانيين، إلّا أنّ هذه التهمة لم تؤثر في روح موسى عليه السلام ومعنوياته العالية، وواصل بيان آثار الله في عالم الإيجاد في الآفاق والأنفس، مبيناً خط التوحيد الأصيل ف «قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

فإذا كنت- يا فرعون- تحكم حكماً ظاهرياً في أرض محدودة تدعى مصر، فإنّ حكومه ربّي الواقعية تسع المشرق والمغرب وما بينهما جميعاً، وآثاره تشرق في وجوه الموجودات.

غير أنّ هذا المنطق المتين الذي لا يتزعزع غاظ فرعون بشده، فالتجأ إلى استعمال «حربه» يفرغ إليها المستكبرون عند الإندحار، فجابه موسى و «قَالَ لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ».

إنّ فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الإرهابي، لأنّ مواصلة موسى عليه السلام بمثل هذه الكلمات ستكون سبباً في إيقاظ الناس.

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَحَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُوتَك بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧)

رأينا في الآيات المتقدمة أنّ فرعون يلجأ إلى التهديد بالسجن والإعدام، وهنا يقبل موسى عليه السلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقه اخرى يخذل فيها فرعون ويعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوة أيضاً، القوة الإلهية التي تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدياً و «قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ».

وهنا وجد فرعون نفسه في طريق مغلق مسدود، لأنّ موسى عليه السلام أشار إلى خطّة جديدة ولفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لإعترض عليه الجميع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٨

فاضطر فرعون إلى الإستجابة لاقتراح موسى عليه السلام و «قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ»، «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ» «بأمر الله».

ثم أظهر إعجازاً آخر حيث أدخل يده في جيبه (أعلى الثوب) وأخرجها فإذا هي بيضاء منيرة: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ».

إنّ هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والاخرى مظهر الأمل، فالاولى تناسب مقام الإنذار، والثانية للبيشارة.

غير أنّ فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول وغرق في وحشه عميقة ولكي يحافظ على قدرته الشيطانية التي أحدق بها الخطر بظهور



موسى عليه السلام، وكذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه والملا من حوله في توجيه معاجز موسى ولفت نظرهم عنها، فقد قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ.

ذلك الإنسان الذي كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفة، وإذا هو الآن يعبر عنه بالعليم.

ومن أجل أن يعبئ الملا ويثير حفيظتهم ضد موسى عليه السلام، قال لهم: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ». والغريب في الأمر أن فرعون الذي قال هذا الكلام هو الذي كان يقول من قبل: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ». والآن حيث يرى عرشه مترعاً ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، ويعدها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم في خطر. يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون؟!»، إنها استشارة عاجزة ومن موقف الضعف فحسب.

وبعد المشاورة فيما بينهم التفت الملا من قوم فرعون إليه و «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمِيدَانِ حَاشِرِينَ» (١). أى: أمهلها وابعث رسلك إلى جميع المناطق والأمصار، «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ». وقالوا: لحسن الحظ إن في بلادنا العريضة سحرة كثيرين، فلا بد من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السلام.

(١) «أرجه»: مشتق من «الإرجاء» ومعناها التأخير وعدم الاستعجال في القضاء.

«حاشرين»: مأخوذة من مادة «الحشر» ومعناها التعبئة والسوق لميدان الحرب وأمثال ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٩

فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) اجتماع السحرة من كل مكان: في هذه الآيات يُعرض مشهداً آخر من هذه القصة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحرة والبحث عنهم، وكان الوعد المحدد: «فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ». وبتعبير آخر: إنهم هياوهم من قبل لمثل هذا اليوم.

وطلب من الناس الحضور في هذا المشهد: «وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ».

وقيل للناس: إن الهدف من هذا الحضور والاجتماع هو أن السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الآلهة وينبغي علينا اتباعهم: «لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ». فلا بد من تهيج الساحة للمساعدة في هزيمة عدو الآلهة إلى الأبد.

كل هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون: «فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ».

وكان فرعون قلقاً مضطرب البال، لأنه في طريق مسدود، وكان مستعداً لأن يمنح السحرة أقصى الإمتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

حين اتفق السحرة مع فرعون ووعدهم بالأجر والقرب منه، وشد من عزمهم، فإنهم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٠

بدأوا بتهيئة المقدمات ووفروا خلال ما سبحت لهم الفرصة عصيهم وحبالهم، ويظهر أنهم صيروها جوفاء وطلوها بمادة كيميائية

كالزئبق - مثلاً - بحيث تتحرك وتلمع عند شروق الشمس عليها. وأخيراً كان اليوم الموعود والميقات المعلوم، وانثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخية: «قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ».

وأما السحرة الغارقون بغرورهم، والذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم في هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين ومؤملين لأن يغلبوا موسى عليه السلام: «فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِبُونَ» (١).

وهنا - كما يبين القرآن في الآية (٦٦) من سورة طه - تحركت العصي كأنها الأفاعي والثعابين و «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فتهللت أسارير وجوه الناس ووجه فرعون فرحاً، وأشرق الأمل في عيني فرعون وأتباعه، إلا أن موسى عليه السلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد ويدوم هذا الفصل المثير، فتقدم: «فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ» فتحولت إلى ثعبان عظيم وبدأت بالتهام وسائل وأدوات السحرة بسرعة بالغة: «فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ» (٢).

وهنا فر جماعة من مكانهم وبقي آخرون يترقبون نهاية المشهد، وأفواه السحرة فاغرة من الدهشة ...

وتبدل كل شيء، وثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا - إلى تلك اللحظة - مع فرعون غارقين في الشيطنة، ولأنهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه، فإنهم تيقنوا أن عصا موسى لم تكن سحراً، بل هي معجزة إلهية كبرى: «فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدِينَ».

واقترن هذا العمل العبادي - وهو السجود - بالقول بلسانهم ف «قَالُوا ءَأَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ». ولئلا يبقى مجال للإبهام والغموض والتردد، ولئلا يفسر فرعون ذلك تفسيراً آخر فإنهم قالوا: «رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ».

(١) «الجبال»: جمع «جبل» على وزن (طبل) ومعناها واضح؛ و «العصي»: جمع العصا.

(٢) «تلقف»: مشتق من «اللقف» على زنه (السقف) ومعناه إمساك الشيء بسرعة، سواء كان ذلك باليد أم الفم، ومعلوم أن المراد هنا الإمساك بالفم والابتلاع.

«يأفكون» مشتق من «الإفك» ومعناه الكذب، وهي إشارة إلى وسائلهم الباطلة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣١

أما فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوماً معنوياً ويرى من جانب آخر أن وجوده وسلطانه في خطر، وخاصة أنه كان يعرف أي تأثير عميق لإيمان السحرة في قلوب سائر الناس، ومن الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تذرع بوسيلة جديدة وابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و «قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ».

لقد تربع على عرش الاستبداد سنين طوالاً، كان ترقبه أن تكون قلوب الناس وأفكارهم مرهونةً به وبأمره، إلا أن فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين أخريين ليثبت موقعه كما يتصور أولاً، وليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلةً نياماً. فاتهم السحرة أولاً بأنهم تأمروا مع موسى عليه السلام على أهل مصر جميعاً، فقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ». إلما أنني لا - أدعكم تنتصرون في هذه المؤامرة، وسأخني المؤامرة في مهدها «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لِمَ أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ».

إلا أن فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأن السحرة قبل لحظة - والمؤمنين في هذه اللحظة - قد غمر قلوبهم الإيمان، بحيث لم يهزهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرر قاطع واحبطوا خطته و «قَالُوا لَأَصْبِرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ».

ثم أضافوا بأنهم واجهوا النبي موسى عليه السلام من قبل بالتكذيب وأذنبوا كثيراً، ولكن مع ذلك ف «إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ».

إننا لا نستوحش اليوم من أي شيء، لا من تهديداتك، ولا من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ولا من الصلب على جذوع النخل. و «أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ» (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ

لَنَا لَعَاظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِدُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)

في الآيات المتقدمة رأينا كيف أن موسى خرج منتصراً من تلك المواجهة وهذه الامور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السلام دعوته بين الناس، ويتم الحجّة عليهم.

ومرّت سنون طوال على هذا المنوال، وموسى عليه السلام يظهر المعاجز تلو المعاجز، ولما أتمّ موسى على أهل مصر الحجّة البالغة، وامتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحي على موسى أن يخرج بقومه من مصر، والآيات التالية تجسد هذا المشهد فتقول أولاً:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٢

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرَّ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ». وفعلاً امتثل موسى عليه السلام هذا الأمر، وعبأ بنى إسرائيل بعيداً عن أعين أعدائهم، وأمرهم بالتحرك، إلّا أنّ من البديهي أنّ حركة جماعة بهذا الشكل ليس هيناً يسيراً يمكن إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، وكما يحدثنا القرآن عن ذلك أنّ فرعون أرسل رسله وأعوانه إلى المدن لجمع القوات: «فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

ولتعبئة الناس - ضمناً - وتهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى وقومه، أمر فرعون أن يعلن: «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ».

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتماً.

«الشردمة»: في الأصل تعني القلة من الجماعة، كما تعني ما تبقى من الشيء، ويطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أنّ هؤلاء «أى موسى وقومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرون، فكأنّ فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسد عدم انسجام بنى إسرائيل من حيث إعداد الجيش فيهم ...

ثم تضيف الآية الأخرى حاكية عن لسان فرعون: «وَإِنَّهُمْ لَنَا لَعَاظُونَ». فمن يسقى مزارعنا غداً، ومن يخدم في البيوت والقصور غيرهم!؟

ثم إنّ من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِدُونَ» ومستعدون جميعاً لمواجهتهم.

ثم يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون وقومه وزوال حكومته، وقيام حكومة بنى إسرائيل، فيقول: «فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ».

أجل، «كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ».

فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فُوْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٣

عاقبة فرعون وأتباعه الوحيدة: في هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصة موسى وفرعون، وهو كيفية هلاك فرعون وقومه، ونجاة بنى إسرائيل وانتصارهم، وكما قرأنا في الآيات المتقدمة فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرين، وهياً مقداراً كافياً من «القوة» والجيش.

تحركوا في جوف الليل ليدركوهم بسرعة، فبلغوهم صباحاً كما تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: «فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ». فأمامنا بحر خضم متلاطم بالأمواج، ومن ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة ... هؤلاء الغاضبون علينا.

وهنا مرّت لحظات عسيرة على بنى إسرائيل ... لحظات مرّة لا- يمكن وصف مرارتها ... ولعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم وفقدوا

معنوياتهم وروحياتهم، إلّا أنّ موسى عليه السلام كان مطمئناً هادئ البال، وكان يعرف أنّ وعد الله في هلاك فرعون وقومه ونجاة بني إسرائيل لا يتخلف أبداً ولن يخلف الله وعده رسله ...

لذلك التفت إلى بني إسرائيل الفرعين بكمال الإطمئنان والثقة و «قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ».

وفي هذه الحال التي قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، وكانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر الله كما يقول القرآن: «فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ...». فامتثل موسى عليه السلام أمر ربه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بني إسرائيل، إذا انشق البحر «فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ». «انفلق»: مأخوذ من «الْفَلَقِ» ومعناه الإنشقاق؛ و «فَرَقَ» من مادة «فَرَقَ» على زنه «حلق» ومعناه الانفصال.

وبتعبير آخر، كما يقول الراغب في مفرداته: إنّ الفرق بين (فلق) و (فرق) هو أنّ الأوّل يشير إلى الإنشقاق (أو الإنشطار) والثاني يشير إلى الانفصال.

«الطود»: معناه الجبل العظيم، ووصف الطود بالعظمة في الآية تأكيد آخر على معناه.

إلّا أنّ فرعون وأتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزة الكبرى الواضحة لم يذعنوا للحق، ولم ينزلوا عن مركب غرورهم، فاتبعوا موسى ورهطه ليلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن في هذا الشأن: «وَأَزَلُّنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ». وهكذا ورد فرعون وقومه البحر أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٤

وتقول الآية التالية: «وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ».

وحين خرج آخر من كان من بني إسرائيل من البحر، ودخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر الله فعدت الأمواج إلى حالتها الأولى.

ويبين القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: «ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ».

وهكذا إنتهى كل شيء في لحظة واحدة... فالأرقاء أصبحوا أحراراً، وهلك الجبابرة، وانتهت تلك الحضارة المشيدة على دماء المستضعفين، وورث الحكومة والملك المستضعفون بعدهم.

أجل، «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ». فكأنّ في أعينهم عمى، وفي آذانهم قرأ، وعلى قلوب أقبالاً.

فحيث لا- يؤمن فرعون وقومه مع ما رأوا من المشاهد العجيبة، فلا تعجب إذاً ألا يؤمن بك المشركون- يا محمّد- ولا تحزن عليهم لعدم إيمانهم.

والتعبير ب «أكثرهم» إشارة إلى أنّ جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسى والتحقوا بأصحابه.

أما آخر آية من هذه الآيات فتشير إلى قدرة الله ورحمته المطلقة واللامتناهية، فتقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فمن عزّته أنّه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفة الباغية أصدر أمره فأهلكها، فيكفى أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون وقومه بالنيل الذي كان أساس حياتهم و ثروتهم وقدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه.

ومن رحمته أنّه لا يعجل في الأمر أبداً، بل يمهل سنين طوالاً، ويرسل معاجزه إتماماً للحجّة، ومن رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضة الجبابرة الظالمين.

وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نِيَأَ إِبرَاهِيمَ (٤٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيْنَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَحِدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عِيدُوْا لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٥

تعقب هذه الآيات على قصة موسى وفرعون المليئة بالدروس لتبين قصة إبراهيم ومواجهته المشركين، وتبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر فتقول: «وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ».

ومن بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبي العظيم يركز القرآن الكريم على هذا القسم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ».

فأجابوه مباشرة: «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً». وهذا التعبير يدل على أنهم يحسوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافياً أن يحيوه: نعبد أصناماً، إلا أنهم أضافوا هذه العبارة: «فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً».

إن إبراهيم لما سمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال والاعتراض بشدة، وقمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم في طريق مغلق، ف «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ».

إن أقل ما ينبغي توفره في المعبود هو أن يسمع نداء عابده، وأن ينصره في البلاء، أو يضره عند مخالفته أمره ... إلا أن هذه الأصنام ليس فيها ما يدل على أن لها أقل إحساس أو شعور أو أدنى تأثير في عواقب الناس.

إلا أن عبدة الأصنام الجهلة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذي يكررونه دائماً، ف «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

وهذا الجواب الذي يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذي استطاعوا أن يردوا به على إبراهيم عليه السلام، وهو جواب دليل بطلانه كامن فيه.

فالتفت إبراهيم مؤبخاً لهم ومبيناً موقفه منهم و «قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أجل ... إنهم جميعاً أعدائي وأنا معاديهم، ولا أسألهم أبداً ...

ثم يصف إبراهيم الخليل رب العالمين ويذكر نعمه المعنوية والمادية، ويقايسها بالأصنام التي لا تسمع الدعاء ولا تنفع ولا تضر، ليتضح الأمر جلياً ...

فيبدأ بذكر نعمة الخلق والهداية فيقول: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهَوَّ يَهْدِينِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٦

وبعد بيان أولى مراحل الربوبية، وهي الهداية بعد الخلق، يذكر إبراهيم الخليل عليه السلام النعم المادية فيقول: «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ».

ولست مشمولاً بنعمة في حال الصحة فقط، بل في كل حال، «وَأِذَا مَرِضْتُ فَهَوَّ يَشْفِينِ». ومع أن المرض أيضاً قد يكون من الله، إلا أن إبراهيم نسبه إلى نفسه رعاية للأدب في الكلام ...

ثم يتجاوز مرحلة الحياة الدنيا إلى مرحلة أوسع منها ... إلى الحياة الدائمة في الدار الآخرة، فيقول: «وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ».

وحين أريد عرصات يوم القيامة اعلق حبل رجائي على كرمه: «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

ومما لا شك فيه أن الأنبياء معصومون من الذنب، وليس عليهم وزر كي يغفر لهم ... إلا أنه - كما قلنا سابقاً - قد تعدد حسنات الأبرار سيئات المقربين أحياناً، وقد يستغفرون أحياناً من عمل صالح لأنهم تركوا خيراً منه ... فيقال عندئذ في حق أحدهم: ترك الأولى.

فإبراهيم عليه السلام لا يعول على أعماله الصالحة، فهي لا شيء بإزاء كرم الله، ولا تقاس بنعم الله المتواترة، بل يعول على لطف الله فحسب، وهذه هي آخر مرحلة من مراحل الإنقطاع إلى الله ...

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُزْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)

دعاء إبراهيم عليه السلام: من هنا تبدأ أدعية إبراهيم الخليل وسؤالاته من الله، فكأنه بعد أن دعا قومه الصالحين نحو الله، يتجه بوجهه

نحو الله ويعرض عنهم، فأول ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ».

إن إبراهيم عليه السلام يطلب من الله قبل كل شيء المعرفة العميقة الصحيحة المقرونة بالحكمة، لأن أي منهج لا يتحقق دون هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٧

وبعد هذا الطلب يسأل من الله إلحاقه بالصالحين، وهو إشارة إلى الجوانب العملية، أو كما يصطلح عليها بـ «الحكمة العملية» في مقابل الطلب السابق وهو «الحكمة النظرية» ...

وبما أنه ليس للحكمة حد معين، ولا لصلاح الإنسان حد، فهو يطلب ذلك ليلبغ المراتب العليا من العلم والعمل يوماً بعد يوم، حتى وهو في موقع النبوة، وأنه من أولى العزم .. لا يكتفى بهذه العناوين.

وبعد هذين الطلبين يطلب موضوعاً مهماً آخر بهذه العبارة: «وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ». أي: اجعلني بحال تذكرني الأجيال الآتية بخير.

فاستجاب الله دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه في الآية (٥٠) من سورة مريم: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

ثم ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا، ويتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع يقول: «وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ».

«جنة النعيم» التي تتماوج فيها النعم المعنوية والمادية، النعم التي لا زوال لها ولا اضمحلال ... النعم التي لا يمكن أن نتصورها.

إن التعبير بالإرث في شأن الجنة إيماء لأن معنى الإرث الحصول على الشيء دون مشقة وعناء، أو أن ذلك - طبقاً لما ورد في بعض الروايات - لأن كل إنسان له بيت في الجنة وآخر في النار، فإذا دخل النار ورث الآخرون بيته في الجنة.

وفي خامس أذعيته يتوجه نظره إلى عمه الضال، وكما وعده أنه سيستغفر له، فإنه يقول في هذا الدعاء: «وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ».

وأخيراً فإن دعاءه السادس من ربه في شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة: «وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ». «تخزني»:

مأخوذ من مادة «خزى» على زنة (حزب)، وكما يقول الراغب في مفرداته، معناه الذل والإنكسار الروحي الذي يظهر على وجه الإنسان من الحياء المفرط، أو من جهة الآخرين حين يحرجه ويخجلونه.

وهذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية والاعتماد على لطف الله العظيم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٨

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ  
أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ  
(٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)  
فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَمَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةً فَنُكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ  
مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

اشير في آخر آية من البحث السابق إلى يوم القيامة ومسألة المعاد، أما في هذه الآيات فنلاحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع «في تلك السوق»، وعاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين والضالين وجنود إبليس، فأول ما تبدأ به هذه الآيات هو: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ».

إن هاتين الدعامين المهمتين في الحياة الدنيا «المال والبنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة.

وبديهي أن المراد من المال والبنين هنا ليس هو ما يكون - من المال والبنين - في مرضاة الله، بل المراد منه الاستناد إلى الأمور المادية، فالمراد إذاً هو أن هذه الدعامات المادية لا تحلّ معضلاً في ذلك اليوم.

ثم يضيف القرآن في ختام الآية، على سبيل الاستثناء: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

وياله من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان والنية الخالصة، كما يحتوى على كل ما يكون من عمل صالح، ولم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح.

ثم يبين القرآن الجنة والنار بالنحو التالي فيقول: «وَأَزَلَقَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وُبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ». أى الضالين.

وهذا الأمر قبل ورود كل من أهل الجنة والنار إليهما، فكل طائفة ترى مكانها من قريب .. فيفرح المؤمنون ويستولى الرعب على الغاوين، وهذا أول جزائهما هناك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٩

ثم يتحدث القرآن عن ملامه هؤلاء الضالين، وما يقال لهم من كلمات التوبيخ أو العتاب، فيقول: «وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ». فهل يستطيعون معونتك في هذه الشدة التي أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر والمعونة، «هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ» (١).

إلّا أنهم لا يملكون جواباً لهذا السؤال، كما لا يتوقع أحد منهم ذلك ... «فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ».

كما يقول بعض المفسرين: إن كلاً منهم سئل على الآخر يوم القيامة: «وَجُنُودٌ إِيْلَيْسَ أَجْمَعُونَ».

وفي الحقيقة أن هذه الفرق الثلاث، الأصنام والعابدين لها وجنود إبليس الدالين على هذا الانحراف، يساقون جميعاً إلى النار ... ولكن بهذه الكيفية ... وهى أن تلقى الفرق فرقة بعد أخرى فى النار.

إلّا أن الكلام لا يقف عند هذا الحد، بل يقع النزاع والجدال بين هذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصمتهم هنا، فيقول: «قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ».

أجل ... إن العبد الضالين الغاوين يقسمون بالله فيقولون: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ».

المجرمون الذين كانوا سادة مجتمعاتنا ورؤساءنا وكبراءنا، فأضلونا حفظاً لمنافعهم، وجرّونا إلى طريق الشقوة والغواية.

«فَمَا لَنَا مِن شَفِيعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ». والخلاصة أن الأصنام لا تشفع لنا كما كنا نتصور ذلك فى الدنيا، ولا يتأتى لأى صديق أن يعيننا هنالك.

إلّا أنهم ما أسرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المر، إذ لا جدوى هناك للحسرة ولا مجال للعمل فى تلك الدار لجبران ما فات فى دنياهم، فيتمنون العودة إلى دار الدنيا ... ويقولون: «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وأخيراً بعد الإنتهاء من هذا القسم من قصة إبراهيم، يكرر الله آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعباده جميعاً، وهاتان الآيتان وردتا فى ختام قصة موسى وفرعون، كما وردتا فى

(١) قد يكون المراد من «ينتصرون» هو أن يطلبوا العون والنصر لأنفسهم أو لغيرهم ... أو مجموعهما، لأننا سنلاحظ فى الآيات المقبلة أن العبد ومعبوديه يساقون إلى النار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٠

قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ». وتكرار هاتين الآيتين، هو للتسرية عن قلب النبي صلى الله عليه وآله وتسليته ومن معه من الصحابة القلة وكذلك المؤمنين فى كل عصر ومصر لئلا يستوحشوا فى الطريق من قلة أهله وكثرة الأعداء ... وليطمئنوا إلى رحمة الله وعزته، كما أن هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين، وإشارة إلى أنه لو وجدوا الفرصة فى حياتهم وأمهلهم الله إمهالاً فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته

وكرمه.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١١٠) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)

يتحدث القرآن الكريم بعد الإنتهاء ممّا جرى لإبراهيم وقومه الضالين عن قوم نوح عليه السلام حديثاً للعبارة والإيعاز ... فيذكر عندهم وشدّتهم في موقفهم من نوح عليه السلام وعدم حياتهم وعاقبتهم الأليمة ضمن عدّة آيات ... فيقول أولاً: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ». وواضح أنّ قوم نوح إنّما كذبوا نوحاً فحسب ... ولكن لما كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكديباً للمرسلين جميعاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح عليه السلام، الذي سبق أن أشار إليه في كلامه حول إبراهيم وموسى عليهما السلام، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

والتعبير بكلمة «أخ» تعبير يبيّن منتهى المحبة والعلاقة الحميمة على أساس المساواة، وهو يلهم جميع القادة والأدلاء على طريق الحق أن يراعوا في دعواتهم منتهى المحبة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، ولا يستثقله الناس.

وبعد دعوة نوح قومه إلى التقوى التي هي أساس كل أنواع الهداية والنجاة، يضيف

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤١

القرآن فيقول على لسان نوح وهو يخاطب قومه: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ» فَإِنَّ إِطَاعَتِي مِنْ إِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. ومرة أخرى يتمسك نوح عليه السلام بحقانية دعوته، ويأتي بدليل آخر يقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذي جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته وأمانته، إذ يقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ». إلّا أنّ المشركين الحمقى، حين رأوا سبيل ما تذرّعوا به من الحجج الواهية موصدة، تمسكوا بهذه المسألة، ف «قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ».

وصحيح أنّهم كانوا صادقين ومصيبين في أنّ الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلّا أنّ خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصية ومعيارها ... إذ كانوا يرون معيار القيم في المال والثروة والألبسة والبيوت والمراكب الغالية والجميلة، وكانوا غافلين عن النقاء والصفاء والتقوى والطهارة وطلب الحق، والصفات العليا للإنسانية الموجودة في الطبقات الفقيرة والقلّة من الأشراف.

إلّا أنّ نوحاً عليه السلام جابههم وردّهم بتعبير متين، وجرّدهم من سلاحهم و «قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فما مضى منهم مضى، والمهم هو أنّهم اليوم استجابوا لدعوة النبي، وقالوا له: ليبيك، وتوجهوا لبناء شخصياتهم، ومكنوا الحق من أن ينفذ إلى قلوبهم.

وإذا كانوا في ما مضى من الزمن قد عملوا صالحاً أو طالحاً، فلست محاسباً ولا مسؤولاً عنهم آنئذ: «إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ».

وإنّما عليّ أن أبسط جناحي لجميع طلباء الحق: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ».

وهذه العبارة جواب ضمنى لطلب هؤلاء المثرين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفة الفقراء من حوله.

ولكن المسؤولية الملقاة على عاتقي هي أن أنذر الناس فحسب «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ».

فمن سمع إنذارى وعاد إلى الصراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعي كائناً من كان، وفي أي مستوى طبقي ومقام اجتماعي أو



مادى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٢

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

نجاه نوح وغرق المشركين: كان رد فعل هؤلاء القوم الضالين في مواجهته نبيهم نوح عليه السلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ وهو الإعتماد على القوة والتهديد بالموت والفناء: «قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ».

«الرجم»: مأخوذ من «رجام» على وزن (كتاب) وهو جمع «رجمة» على وزن (لقمة) ومعناها القطعة من الحجر التي توضع على القبر، أو ما يطوف حوله عبدة الأوثان، كما يعنى الرجم القذف بالحجارة حتى القتل، كما يأتي أحياناً بمعنى القتل بأي شكل كان، لأن القتل كان بالحجر سابقاً.

والتعبير ب «من المرجومين» يدل على أن الرجم بالحجارة بينهم كان جارياً في شأن المخالفين.

ونوح شكاً إلى ربه أخيراً، وضمن بيان حاله، سأل ربه أن ينجيّه من قبضة الظالمين، وأن يُبعده عنهم ... إذ: «قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ».

ثم يلتفت إلى ربه فيقول: والآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا وأفضل بيني وبينهم: «فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا».

«الفتح»: معناه واضح، وهو ما يقابل العلق ويضاده، وله استعمالان: فتارة يستعمل في القضايا المادية كفتح الباب مثلاً، وتارة يستعمل في القضايا المعنوية كفتح الهم ورفع الغم.

ثم يضيف فيقول: «وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وهنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة الله نوحاً، وإهلاك المكذبين بعاقبه وخيمته مفاجئة، إذ يقول: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ». أى الملىء بالناس وانواع الحيوانات: «ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ». «المشحون»: مأخوذ من مادة «شحن» على وزن «صحن» ومعناه الملء، وقد يستعمل بمعنى التجهيز؛ و«الشحناء» تطلق على العداوة التي تستوعب جميع

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٣

جوانب الإنسان، والمراد من «المشحون» هنا هو أن ذلك الفلك [أى السفينة] كان مملوءاً من البشر وجميع الوسائل ... ولم يكن فيه أى نقص ... أى إن الله بعد ما جهز السفينة وأعدّها للحركة، أرسل الطوفان لئلا يبتلى نوح وجميع من فى الفلك بأى نوع من أنواع الأذى ... وهذا بنفسه إحدى نعم الله عليهم.

وفى ختام هذه القصة القصيرة، يقول القرآن ما قاله فى ختام قصة موسى وإبراهيم عليهما السلام، فيكرر قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً». أى فى ما جرى لنوح عليه السلام ودعوته المستمرة وصبره ونجاته وغرق مخالفه: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ».

ولهذا فلا- تحزن يا رسول الله من إعراض المشركين وعنادهم، واستقم كما امرت ... فإن عاقبتك وعاقبه أصحابك عاقبه نوح وأصحابه، وعاقبه الضالين من قومك كعاقبه الضالين من قوم نوح.

«وَاعْلَمْ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فرحمته تقتضى أن يمهلهم ويتم عليهم الحجة بإعطاء الفرصة الكافية، وعزته تستلزم أن ينصر كعليهم، وتكون عاقبه أمرهم خسراً. كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَينَ

(١٣٣) وَجَنَّتِ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)

جنايات عاد وأعمالهم العدوانية: والآذن يأتي الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانباً من حياتهم وعاقبتهم، وما فيها من دروس العبر، ضمن ثمانى عشرة آية من آياته. فيقول القرآن: «كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ». بالرغم من أنهم كذبوا هوداً فحسب، إلا أنه لما كانت دعوة هود هى دعوة الأنبياء جميعاً، فكأنهم كذبوا الأنبياء جميعاً. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٤

وبعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدث القرآن عنهم فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ». لقد دعاهم إلى التوحيد والتقوى فى منتهى الشفقة والعطف والحرص عليهم، لذلك عبر عنه القرآن بكلمة «أخوهم». ثم أضاف قائلاً: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». وما سبق من حياتى بين ظهرانىكم يدل على هذه الحقيقة، فإننى لم أخنكم أبداً ولم تجدوا منى غير الصدق والحق.

ثم يضيف مؤكداً: لما كنتم تعرفوننى جيداً «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». لأن إيطاعتكم إياى إطاعة لله سبحانه ... ولا تتصوروا بأنى أدعوكم لأنتفع من وراء دعوتى إياكم فى حياتى الدنيا وأنال المال والجاه، فلست كذلك، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ». فجميع النعم والبركات من عنده سبحانه، وإذا أردت شيئاً طلبته منه، فهو رب العالمين جميعاً. والقرآن الكريم يستند فى هذا القسم من سيره «هود» فى قومه إلى أربعة أمور على الترتيب:

فالأمر الأول: هو محتوى دعوة «هود» الذى يدور حول توحيد الله وتقواه، وقرأنا ذلك بجلاء فى ما مضى من الآى. أما الامور الثلاثة الأخر فيذكرها القرآن حاكياً عن لسان هود فى ثوب الإستفهام الإنكارى، فيقول: «أَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ». «الريح»: فى الأصل يطلق على المكان المرتفع؛ و «تعبتون»: مأخوذ من «العبث» ومعناه العمل بلا هدف صحيح، ومع ملاحظه كلمه «آيه» التى تدل على العلامة، يتضح معنى العبارة بجلاء، وهو أن هؤلاء القوم المثمين، كانوا يبنون على قمم الجبال والمرتفعات الأخر مباني عالية للظهور والتفاخر على الآخرين، وهذه المباني (كالأبراج وما شاكلها) لم يكن من ورائها أى هدف سوى لفت أنظار الآخرين.

وأما الأمر الثالث الذى ذكره القرآن حاكياً على لسان هود منتقداً به قومه، فهو قوله: «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ». «المصانع»: جمع «مصنع» ومعناه المكان أو البناء المجلل المحكم، والنبى هود لا- يعترض عليهم لأن لديهم هذه البنايات المريحة الملائمة، بل يريد أن يقول لهم: إنكم غارقون فى أمواج مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٥

الدنيا، ومنهمكون بعبادة الزينة والجمال والعمل فى القصور حتى نسيتم الدار الآخرة. فى تفسير مجمع البيان روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ لِكُلِّ بِنَاءٍ بِنَى وَبِالِ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَا لَابَدَّ مِنْهُ». ثم ينتقد النبى (هود) قومه على قسوتهم وبطشهم عند النزاع والجدال فيقول: «وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ». يدل هذه الآيات الثلاث أعلاه على أن عشق الدنيا كان قد هيمن عليهم، وأغفلهم عن ذكر الله حتى ادعوا الألوهية. والقسم الثالث من حديث هود مما بينه لقومه، هو ذكر نعم الله على عباده ليحرك فيهم- عن هذا الطريق- الإحساس بالشكر لعلهم يرجعون نحو الله.

وفى هذا الصدد يتبع النبى هود أسلوبى الإجمال والتفصيل، وهما مؤثران فى كثير من الأبحاث، فيلتفت نحوهم أولاً فيقول: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ» (١).

وبعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم الله عليهم، فيقول: «أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ».

ثم يضيف بعد ذلك: «وَجَنَّتِ وَعُيُونٍ».

وهكذا فقد وفر الله لكم سبل الحياة جميعاً، من حيث الأبناء أو القوّة الإنسانية، والزراعة والتدجين ووسائل الحمل والنقل. وأخيراً، فإنّ هوداً في آخر مقطع من حديثه مع قومه ينذرهم ويهددهم بسوء الحساب وعقاب الله لهم، فيقول: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وعادة- يستعمل لفظ (اليوم العظيم) في القرآن، ويراد منه يوم القيامة العظيم من كل وجه، إلما أنه قد يستعمل في القرآن في اليوم الصعب الموحش المؤلم على الامم. فبناء على هذا قد يكون التعبير ب «يوم عظيم» في الآية محل البحث، إشارة إلى اليوم الذي ابتلى به المعاندون من قوم هود (عاد) بالعذاب الأليم.

كما يمكن أن يكون إشارة إلى يوم القيامة وعذابه، أو إلى العذابين معاً، فيوم الاعصار يوم عظيم، ويوم القيامة يوم عظيم أيضاً.

(١) «أمّد»: مأخوذ من «الإمداد»، ويطلق في الأصل على أمور توضع بعضها بعد بعض بشكل منظم، وحيث إنّ الله يرسل نعمه بشكل منظم إلى عباده استعملت هذه الكلمة هنا أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٤

لا تتعب نفسك في نصحننا: رأينا في الآيات المتقدمة أحداث النبي هود المحترق القلب شفقه على قومه المعاندين «عاد» وما حملته هذه الأحاديث من معان غزيرة سامية، والآن ينبغي أن نعرف جواب قومه الجارح وغير المنطقي ولا المعقول، يقول القرآن في هذا الصدد: «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ». فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك.

أما اعتراضك علينا بهذه الامور فلا محل له من الاعراب: «إِنَّ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ».

وليس الأمر كما تقول، فإنه لا شيء بعد الموت، «وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ»، لا في هذا العالم، ولا في العالم الآخر.

«الخلق»: - بضم الخاء واللام- معناه العادة والسلوك والأخلاق لأن هذه الكلمة جاءت بصيغة الإفراد بمعنى الطبع والسجية والعادة الأخلاقية، وهي هنا إشارة إلى الأعمال التي كانت تصدر منهم كعبادة الأصنام، وبناء القصور العالية الجميلة، وحب الذات، والتفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، وكذلك البطش عند الانتقام أو الجزاء، أي إنّ ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض والانتقاد.

ويبين القرآن عاقبة قوم هود الوبيلة فيقول: «فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ».

وفي ختام هذه الأحداث يذكر القرآن تلكما الجميلتين المعبرتين، اللتين تكررتا في نهاية قصص نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» على قدرة الله، واستقامة الأنبياء وعاقبة المستكبرين السيئة، ولكن مع ذلك «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فيمهل إمهالاً كافياً، ويمنح الفرصة، ويبين الدلائل الواضحة للمضلين ليهتدوا، إلما أنه عند المجازاة والعقاب، وبعد إتمام الحجة يأخذ أخذاً عسيراً لا مفرّ لأحد منه أبداً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٧

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)

القسم الخامس من قصص الأنبياء في هذه السورة، هو قصة «ثمود» الموجزة القصيرة، ونبينهم «صالح» الذين كانوا يقطنون في «وادي القرى» بين المدينة والشام، وكانت حياتهم مترفة مرفهة.

وبداية القصة هذه مشابهة لبداية قصة عاد (قوم هود) وبداية قصة نوح وقومه، وهي تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ».

وبعد ذكر هذا الإجمال يفصل القرآن ما كان بين صلاح وقومه، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

ثم يقول لهم معرفاً نفسه: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» وسوابقى معكم شاهد مبين على هذا الأمر «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا». إذ لا أريد إلأرضاً الله والخير والسعادة لكم.

ولذلك فأنا لا- أطلب عوضاً منكم في تبليغي إليكم، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فأنا أدعوكم له، وأرجو الثواب منه سبحانه.

ثم يضع «صالح» اصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد ويحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: «أَتُنْكُرُونَ فِي مَا ههْنَا ءَامِنِينَ».

وتتصورون أن هذه الحياة المادية التي تستغفل الإنسان دائماً له.

وبالأسلوب المتين، أسلوب الإجمال والتفصيل، يشرح النبي صالح لقومه تلك الجملة المغلقة والمجملة بقوله: وتحسبون أنكم مخلدون «فِي جَنَّةٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ» (١).

(١) «الطلع»: مأخوذ من مادة «الطلع» ويستعمل في ما يكون منه الرطب بعدئذ، وقد يستعمل الطلع في الثمرة الأولى للنخل؛ و «الهضيم»: من مادة «هضم»، وله معانٍ مختلفة، فإشارة يراد منه الثمرة الناضجة، وتارة يطلق على الثمر اللين القابل للهضم، وتارة يطلق على المهضوم، وقد يستعمل بمعنى المنظوم المنضد، فإذا كان الطلع في الآية محل البحث بمعنى العذق أول طلوعه، فالهضيم معناه المنضود، وإذا كان الطلع أول الثمر فالهضيم معناه الناضج اللين اللطيف.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٨

ثم ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المحكمة فيقول: «وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ». «الفاره»: مشتق من «فره» ومعناه في الأصل السرور المقرون باللامبالاة وعبادة الهوى.

وبعد ذكر هذه الإنتقادات يتحدث النبي صالح عليه السلام في القسم الثالث من كلامه مع قومه، فيقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الإسراف»: هو التجاوز عن حد قانون التكوين وقانون التشريع ... وأى تجاوز عن الحد موجب للفساد والاختلال. بتعبير آخر: إن مصدر الفساد هو الإسراف، ونتيجة الإسراف هي الفساد أيضاً.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

عناد قوم صالح ولجاجتهم: لقد استمعتم إلى منطق صالح عليه السلام المتين والمحب للخير، مع قومه المضلين - في الآيات المتقدمة - والآن لنستمع إلى جواب قومه في هذه الآيات.

إنهم واجهوه بكلام خشن و «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ». فلذلك فقدت عقلك وتكلم بكلمات غير موزونة ولا معقولة.

ثم بعد هذا كله «مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا». وكل عاقل لا يبيع لنفسه أن يطيع إنساناً مثله «فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» لكي تؤمن بك وتنبعك.

«المسحر»: مشتق من «السحر» ومعناها المسحور، أي المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أن السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل. أجل، إنهم كانوا يرون بمقيار العقل أن يكون الإنسان متوافقاً مع البيئة والمحيط، ويطبق نفسه على جميع المفاسد ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٩

فلو أن رجلاً مصلحاً إلهياً دعا الناس للقيام والنهوض بوجه العقائد الفاسدة وإصلاحها، عدوه - بحسب منطقهم - مجنوناً «مسحراً». إن هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزة لا من أجل معرفته الحق، بل تذرغاً بالحجة الواهية، وعلى نبيهم أن يتم الحجة عليهم، فاستجاب لهم - وبأمر الله -: «قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». هذه الناقة لم تكن ناقة كسائر النياق الطبيعية، كانت هذه الناقة بحالة من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل، ومن خصائصها أنها كانت تشرب ماء الحى في يوم، واليوم الآخر لأهل الحى «أو القرية». وكان على صالح عليه السلام أن يعلمهم أن هذه الناقة ناقة عجيبة وخارقة للعادة، وهى آية من آيات عظمة الله المطلقة فعليهم أن يدعواها على حالها، وقال: «وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ». وبديهي أن المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظة الناس ستؤدى إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتأمروا على نحر الناقة: «فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ» (١). لأنهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الإلهي. ولما تجاوز طغيانهم الحد، وأثبتوا بأعمالهم أنهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادة الله ومشيتته أن يطهر الأرض من وجودهم الملوث «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ». ويقول القرآن في ختام هذه الحادثة ما قاله في ختام حوادث قوم هود وقوم صالح وقوم نوح وقوم إبراهيم، فيعتبر تعبيراً بليغاً موجزاً يحمل بين ثناياه عاقبة أولئك الظالمين: إن في قصة قوم صالح، وفي صبره وتحمله واستقامته ومنطقه القويم من جهة، وعناد قومه وغرورهم وانكارهم للمعجزة البيئية، والمصير الأسود الذى آلو إليه دروس وعبر: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ». أجل، ليس لأحد أن يغلب ربه؛ فما فوق قوته من قوة، وهذه القوة وهذه القدرة العظيمة لا تمنع أن يرحم أوليائه، بل أعداءه أيضاً: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

(١) «عقروها»: مأخوذة من مادة «عقر» ومعناها فى الأصل أساس الشئ وجذره، وقد تأتى بمعنى حز الرأس، وتأتى بمعنى قطع الأرجل من الحيوان، وما إلى ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٠

مختصر الامثل ج ٣ ٤٩٩

كَذَّبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)

السفلة المعتدون: سادس نبي - ورد جانب من حياته وحياء قومه المنحرفين فى هذه السورة - هو لوط عليه السلام. يقول القرآن أولاً فى هذا الصدد: «كَذَّبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التى تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطُ أَلَا تَتَّقُونَ».

ولحن كلماته وقلبه المتحرق لهم، العميق فى تودده إليهم، يدل على أنه بمثابة «الأخ» لهم.

ثم أضاف لوط قائلاً: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». فلم تعرفوا عنى خيانه حتى الآن ... وسأرعى الأمانة فى إيصال رساله الله إليكم أبداً ... «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ». فأنا زعيمكم إلى السعادة والنجاه.

ولا تتصوروا أن هذه الدعوة وسيلة اتخذها للحياة والعيش، وأن وراءها هدفاً مادياً، كلا: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم يتناول بالنقد أعمالهم القبيحة، وقسماً من انحرافاتهم الأخلاقية ... وحيث إن أهم نقطة في انحرافاتهم ... هي مسألة الانحراف الجنسي، لذلك فإنه ركز عليها وقال: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ». فتختارون الذكور من بين الناس لاشباع شهواتكم. أى، إنكم على الرغم مما خلق الله لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشاً طاهراً هادئاً، إلا أنكم تركتم نعمة الله هذه وراءكم، ولوثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزى ... ثم أضاف قائلاً: «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ». فالحاجة والغريزة الطبيعية، سواء كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافى الشنيع أبداً، وإنما جرّكم الطغيان والتجاوز، فتلوثتم وخزيتم به ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥١

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَجَنَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

عاقبه قوم لوط: إن قوم لوط الغارقين بالغرور والتمادي بهم رياح الشهوة، بدلاً من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهي، فتدخل مواظبه في قلوبهم ويخلصوا من تلك الأمواج الرهيبة، فإنهم نهضوا لمواجهته و «قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ». إن فعل هؤلاء الضالين - بلغ بهم أن يعدوا التقوى والتطهر بينهم أكبر عيب، وأن يفخروا بالرجس وعدم الطهارة. ويستفاد من عبارة «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ» أن هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا اناساً طاهرين من حيثهم. إلا أن لوطاً لم يكثر بتهديدهم، وواصل نصحه لهم و «قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ». إنه يريد أن يقول: سأواصل انتقادي إياكم ... فافعلوا ما شئتم ... فأنا لا أترك مواجهه هذه الأعمال القبيحة بالإعتراض والنقد ... والتعبير ب «من القالين» يدل أيضاً على أن جماعة كانوا مثل النبي لوط يرفضون هذه الأعمال ويعترضون عليها. «القالين»: جمع «قال» من مادة «قَلَى» أو «قَلِي» (على وزنى حَلَقَ وَ شَرِكَ) ومعناها العداوة الشديدة التي تترك أثرها في قلب الإنسان، وهذا التعبير يكشف عن شدة تنفر لوط من أعمالهم.

وأخيراً بدّل الفساد مجتمعهم كله إلى مستنقع عفن ... وتمت الحجة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالته لوط مرحلتها النهائية.

فسأل لوط ربه أن يخلصه من قومه، فقال: «رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ».

فاستجاب الله دعائه كما تقول الآية التالية: «فَجَنَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ» (١). وهذه العجوز لم تكن سوى زوج النبي لوط التي لم تؤمن به أبداً.

(١) «الغابر»: من مادة (الغبور) ومعناه الباقي، ومتى ما تحركت جماعة وبقي شخص في المكان فإنه يدعى (غابراً)، ولهذا السبب سمي التراب الباقي غباراً ... والغبرة: الباقي من اللبن في ثدى الحيوان.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٢

أجل، لقد نجى الله لوطاً والمؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلاً من تلك المدينة - أو القرية - فترك قومه الغارقين بالفسق والفجور على حالهم، فنزل عذاب الله في الغداة، فتزلزلت بهم الأرض وانهارت عليهم الأبنية والقصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها وهلكوا جميعاً في ديارهم، وقد عبر القرآن عن ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: «ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ»، ولم يكف ذلك بل «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا». وأى مطر، إنه وابل من احجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار، «فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ». والأمطار عادة تمنح الحياة، إلا أن هذا المطر كان موحشاً مهلكاً مخزباً ...

ويستفاد من الآية (٨٢) من سورة هود أن قري قوم لوط ومدنهم قلب عاليها سافلها أولاً، ثم أمطرت بالحجر النضيد المترام. ومرة أخرى نواجه في نهاية هذه القصة الجملتين اللتين تكررتا في القصص المشابهة لها في هذه السورة، في شأن خمسة أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن: «إِنَّ فِي ذَلِكْ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ». «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ». وأيئة رحمة أعظم من أنه لا يعاقب أقواماً فاسقين كقوم لوط فوراً، بل يمهلهم إمهالاً كافياً لعلهم يهتدون، ويجددوا نظرهم في أعمالهم. وأيئة رحمة أعظم من أن لا يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان في ألف أسره غير صالحه أسره واحدة صالحه، فإنه ينجيها منها وينزل العذاب على اولئك.

وأية عزة أعظم من أن ترى بطرفه عين واحدة ديار الفاسقين قد دُمرت تدميراً ولم يبق منها أي أثر. كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَىٰ (١٨٤) شعيب وأصحاب الأيكة: هذه هي القصة السابعة، والحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٣

الواردة في هذه السورة، وهي قصة شعيب عليه السلام وقومه المعاندين.

كان هذا النبي يقطن في «مدين»، وهي مدينة تقع جنوب الشامات.

تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ».

«أيكة»: على وزن (ليلة)، قرية أو أرض معمورة على مقربة من مدين.

ثم يتحدث القرآن إجمالاً عن شعيب عليه السلام وعنهم فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

إن دعوة شعيب عليه السلام انطلقت من النقطة التي ابتدأها سائر الأنبياء، وهي التقوى ومخافة الله التي تعد أساس المناهج الإصلاحية والتغييرات الأخلاقية والاجتماعية جمعاء.

ثم أضاف شعيب قائلاً: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ». فطاعتكم لي طاعة لله.

واعلموا أنني أبتغي ثوابه ووجهه، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

و «شعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تاريخ حياتهم في هذه السورة، فهو يدعو قومه بعد الدعوة العامة للتقوى وطاعة الله،

إلى إصلاح انحرافاتهم الأخلاقية والاجتماعية وينتقدهم على هذه الانحرافات، وحيث إن أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب

الاقتصادي، والاستثمار والظلم الفاحش في الأثمان والسلع، والتطيف في الكيل، لذلك فقد اهتم بهذه المسائل أكثر من غيرها، وقال

لهم: «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

«تبخسوا»: مأخوذة من «البخس» وهو في الأصل النقص ظمناً من حقوق الناس ... وقد يأتي أحياناً بمعنى الغش أو التلاعب المنتهي إلى

تضييع حقوق الآخرين ... فبناء على ما تقدم، فإن الجملة الآنفه «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» لها معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش

والتزوير والتضليل، والتلاعب في المعاملات، وغمط حقوق الآخرين.

وأما جملة «وَلَمَّا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» فمعناه واسع أيضاً، إذ يشمل بالإضافة إلى البخس والتطيف كل ما من شأنه أن يكون سبباً

للخسارة وإيذاء الطرف الآخر في المعاملة.

ثم إن «شعيباً» في آخر تعليماته - في هذا القسم - يدعوهم مرد أخرى إلى تقوى الله فيقول: «وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَىٰ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٤

«الجبل»: مأخوذة من «الجبل» وهو معروف «ما ارتفع من الأرض كثيراً» ويسمى الطود أحياناً، فالجبله تطلق على الجماعة الكثيرة التي

هي كالجبل في العظمة.

قال بعضهم: الجبله مقدار عددها عشرة آلاف. كما تطلق الجبله على الطبيعه والفطره الانسانيه، لأنها لا تتغير، كما أن الجبل لا يتغير عادةً.

والتعبير المتقدم لعله إشارة إلى أن شعبياً يقول: إنما أدعوكم إلى ترك الظلم والفساد، وأداء حقوق الناس ورعايته العدل، لأن ذلك موجود في داخل الفطره الانسانيه منذ الخلق الأول، وأنا جئتكم لإحياء هذه الفطره.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحَرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

عاقبه الحمقى: لما رأى قوم شعيب الظالمون- أنهم لا- يملكون دليلاً ليواجهوا به منطلقه المتين، ومن أجل أن يسيروا على نهجهم ويواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التهم والأكاذيب. فالتهمه الاولى هي ما يلصقها الجبارة دائماً والمجرمون بالانبياء، وهي السحر فاتهموه بها و«قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحَرِينَ» (١).

ثم ما الفارق بينك وبيننا لتبعك؟! ولا مزيه لك علينا، «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ».

وبعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارة يدعوهم (من الكاذبين) ورجلاً انتهازياً، وتارة يدعوهم مجنوناً أو من المسحرين، وكان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبياً «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ». حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من العذاب. «كِسْفٌ»: جمع «كِسْفَةٌ» على وزن (قطعة)، ومعناها قطعة أيضاً، والمراد من هذه «القطع من السماء» هي قطع الأحجار التي تهوى من السماء.

(١) «المسحر»: هو المسحور... أو الذي يقع عليه السحر من قبل السحرة لينفذوا في عقله ويبتلوا عمله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٥

إِلَّا أَنْ شَعْبِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يُوَاجِهْ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ غَيْرِ الْمَوْزُونَةِ وَالْكَلِمَاتِ الْقَبِيحَةِ وَطَلِبَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ، كَانَ جَوَابَهُ الْوَحِيدَ لَهُمْ أَنْ «قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فإذا لم تنفع المواعظ وتمت الحجة اللازمة، فإن عذابه لا مرد له.

إِنَّ عَذَابَ اللَّهِ أَزْفَ مَوْعِدِهِ- وكما يعبر القرآن عنه في الآية التالية قائلاً: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

«الظلة»: في الأصل معناها القطعة من السحاب المظلل: أي ذى الظل.

إِنَّ حَرًّا شَدِيدًا مَّحْرَقًا حَلَّ فِي أَرْضِهِمْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَهَبْ نَسِيمٌ بَارِدٌ مُّطْلَقًا، فَإِذَا قَطَعَهُ مِنَ السَّحَابِ تَظَهَّرَ فِي السَّمَاءِ- بعد السبعة أيام- وتحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلوا تحت السحاب من شدة الحر.

وفجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميته بصوتها المذهل، واحرقتهم بنارها وزلزلت الأرض وهلكوا جميعاً.

وتُخْتَمُ الْقِصَّةُ هَذِهِ بِمَا خُتِمَتِ الْقِصَصُ السَّابِقَةُ عَنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْكَرَامِ، إِذْ يَقُولُ الْقُرْآنُ: إِنَّ فِي حِكَايَةِ أَصْحَابِ الْاِيكَةِ وَدَعْوَةِ نَبِيِّهِمْ شُعَيْبٍ وَعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، وَبِالتَّالِي نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ دَرْسٌ وَعِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ».

ومع ذلك كله فإن الله رحيم ودود يمهلهم لعلهم يرجعون ويصلحون أنفسهم، فإذا تبادوا في الغي واستوجبوا عذاب الله، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل، «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».



في ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة ينبغي أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة» وهي أن قصص هؤلاء الأنبياء جميعاً جاءت في سور آخر من القرآن أيضاً، إلا أنها لم تعرض بهذا العرض بحيث نجد أن بداية دعوتهم منسجمة، كما أن نهاياتها منسجمة أيضاً. وهذا الإنسجام - قبل كل شيء - يدل على تجلي مفهوم وحدة دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوى منهج واحد وبداية واحدة ونهاية واحدة.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٦

عظمة القرآن في كتب السابقين: بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، والعبير الكامنة في تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرة أخرى إلى البحث الذي شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن وحقانية هذا الكلام الإلهي المبين، إذ يقول: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ». لذلك تضيف الآية التالية قائلة: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ».

ولو كان القرآن لم يُنزل ملك الوحي «الروح الأمين من قبيل الله» لم يكن بهذا الإشراق والصفاء والخلو من الخرافات والأساطير والأباطيل.

فالروح هي أساس الحياة، والأمانة، هي شرط أصيل في الهداية والقيادة.

أجل، إن هذا الروح الأمين نزل بالقرآن «عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ».

إن الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرد شرفاً فكرياً ولملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية واليقظة، والهدف هو التربية وبناء شخصية الإنسان.

ولئلا تبقى حجة لأحد ولا عذر، فإن القرآن انزل «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ».

والجدير بالذكر أن أحد معاني «عربي» هو ذو الفصاحة والبلاغة؛ وفي هذه الصورة فإنه ليس المعول على لسان العرب، بل الأساس صراحة القرآن ووضوح مفاهيمه.

و الآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: «وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ».

وخاصة أن أوصاف هذا النبي العظيم وأوصاف هذا الكتاب السماوي الخالد، جاءت في توراة موسى عليه السلام بحيث أن علماء بني إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك. لذا فإن القرآن يضيف هنا قائلاً: «أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

وواضح أنه مع وجود اولئك العلماء من بني إسرائيل في ذلك المحيط المليء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافاً» واعتباطاً؛ لأنه كان سيرد عليه من كل حذب وصبوب بالإنكار، وهذا بنفسه دليل على أن هذا الموضوع كان جلياً في ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات - محل البحث.

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٧

لو نُزل القرآن على الأعاجم: في هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الإحتمالية من قبل الكفار وموقفه منها، ويستكمل البحث السابق في نزول القرآن بلسان عربي مبين، فيقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ».

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية ويعبد القومية كانوا متعصبين إلى درجة بحيث لو نزل القرآن على غير العرب لما آمن به ورغم أن القرآن نزل على عربي شريف من أسرة كريمة، في بيان رائع رائق بليغ وقد بشرت به الكتب السماوية السابقة، وشهد بذلك علماء بني إسرائيل، ومع ذلك كله لم يؤمن به الكثير من العرب، فكيف إذا كان نبيهم ليس فيه أية صفة من الصفات المذكورة.

ثم تضيف الآية لمزيد التأكيد: «كَذَلِكَ سَلَكْنَهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ».

في بيان بليغ وبلسان رجل من بينهم، وهم يعرفونه ويعرفون سيرته وأخلاقه، وبمحتوى بشرت به الكتب السماوية السابقة. والخلاصة إننا نسلكه بجميع هذه الأوصاف في قلوب المجرمين ليكون مقبولاً سهلاً مطبوعاً إلا أن هذه القلوب المرضى تمتنع عن قبوله، فمثله كمثل الطعام الطيب النافع الذي تلفظه المعدة السقيمة.

ولذلك تقول الآية: «لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ». أي: إن هؤلاء المجرمين المعاندين، يظنون على حالهم حتى نزول العذاب. أجل، إنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب «فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

لا شك أن المراد من هذا العذاب، هو عذاب الدنيا والبلاء المهلك وعقاب الإستئصال.

لذا فإن القرآن يحكى عن حالهم فيقول: إنهم في هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، ويندمون على أفعالهم، ويتملكهم الخوف من المصير المرعب، ويودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات والإيمان بالرسالة الإلهية: «فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ».

أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَمْ أَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ (٢١٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٨

تهمة اخرى للقرآن: حيث إن الآيات المتقدمة ختمت بجملة «هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ» التي يقولها المجرمون عندما يأتيهم العذاب بغتة وهم على أبواب الهلاك، طالبين الإمهال والرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال، فالآيات محل البحث ترد عليهم عن طريقين:

الأول قوله تعالى: «أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».

والآخر أنه: «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ». فعلى فرض أنهم امهلوا ثانية (ولن يُمهلوا بعد إتمام الحجّة عليهم) الا يكون عملهم التمتع والتلذذ بالمواهب المادية فحسب. وهل يعوضون عما فاتهم؟! كلا أبداً.

وهنا يثار سؤال وهو أنه مع الإلتفات إلى أن الله عالم بمستقبل كل قوم وجماعة، فما الحاجة إلى الإمهال؟

ثم أن الامم السالفة كذبت أنبياءها واحداً بعد الآخر، فعلام يأتي الأنبياء منذرين ومبشرين!؟

فالقرآن يجيب على هذا السؤال بأن ذلك سنة الله: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ». فرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجّة وتقديم النصح والموعظة ليتذكروا ويستيقظوا من غفلتهم «ذِكْرَىٰ».

ولو كنا نأخذهم بدون إتمام الحجّة، وذلك بإرسال المنذرين والمبشرين - من قِبَلِ اللَّهِ - لكان ظلماً منا «وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ».

فمن الظلم أن نهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجّة عليهم.

ثم يرد القرآن على إحدى الذرائع أو التهم الباطلة من قِبَلِ أعداء القرآن وهي أن النبي مرتبط ببعض الجن، وهو يعلمه هذه الآيات، والحال أن القرآن يؤكد أن هذه الآيات هي من «تنزيل رب العالمين».

فيضيف هنا قائلاً: «وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ».

ثم يبين جواب هذه التهمة الواهية التي اختلقها الأعداء، فيقول: «وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ». أي: أن محتوى هذا الكتاب العظيم الذي يدعو إلى الحق والطهارة والعدل والتقوى، ونفى كل أنواع الشرك، يدلّ دلالة واضحة على أنه لا شباهة له بأفكار الشياطين وما يلقونه.

ثم إن الشياطين ليست لهم القدرة على ذلك «وَمَا يَسْتَطِيعُونَ».

فإذا كانت لهم القدرة فينبغي على سائر من كان في محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٩

بالشياطين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنهم عجزوا عن الإتيان بمثله. «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ».

ويستفاد من سائر آيات القرآن أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع من الملائكة، فينقلون ما يدور بين الملائكة من مطالب إلى أوليائهم، إلا أنه بظهور نبي الخاتم صلى الله عليه وآله وولادته انقطع استراق السمع تماماً، وزال الارتباط الخبرى بين الشياطين وأوليائهم.

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

وأندر عشيرتك الأقربين: تعقيباً على الأبحاث الواردة في الآيات السابقة في شأن مواقف المشركين من الإسلام والقرآن، فإن الله سبحانه يبين لنيبه - في الآيات محل البحث - منهجه وخطته في خمسة أوامر، في مواجهة المشركين.

وقبل كل شيء فإن الله يدعو النبي صلى الله عليه وآله إلى الإعتقاد التام بالتوحيد؛ التوحيد الذي هو أساس دعوات الأنبياء جميعاً. يقول سبحانه: «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ».

ثم يأمره الله في مرحلة أخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب في دعوته قائلاً: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١).

ولا شك أنه للوصول إلى منهج تغييرى ثورى واسع، لابد من الابتداء من الحلقات الأدنى والأصغر.

أما المرحلة الثالثة، فإن الله يوصى النبي في دائرة أوسع فيقول: عليك أن تعامل أتباعك

(١) «العشيرة»: مشتقة من «العشرة» العدد المعروف [١٠] وحيث إن العشرة تعتبر في نفسها عدداً كاملاً، فقد سمي أقرباء الرجل الذين يكمل بهم عشيرة، ولعل المعاشرة مأخوذة من هذا المعنى، لأنها تجعل الناس بصورة مجموعة كاملة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٠

باللطف والمحبة: «وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». وهذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبة واللطف، كما أن الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبة منها لها، وتجعلها تحت أجنحتها لتكون مصانةً من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرق، فكذلك الأمر بالنسبة للنبي إذ امر أن يخفض جناحه للمؤمنين الصادقين.

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي أن الأعداء لم يقبلوا دعوتك وعصوا أوامرَكَ. فلا تبتئس ولا تحزن: «فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ». أى إذا لم يدعنا بعد دعوتك إياهم للحق، وواصلوا شركهم وعنادهم، فعليك أن تبين موقفك منهم.

وأخيراً فالأمر الالهى الخامس للنبي صلى الله عليه وآله لإكمال مناهجه السابقة، هو: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ».

ذلك الله الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ».

أجل، «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

وهكذا تذكّر الآيات ثلاث صفات لله بعد وصفه بالعزیز الرحيم وكل منها يمنح الأمل ويشد من عزم النبي على مواصلة طريقه، إذ أن الله يرى جهوده وأتباعه وحركاته وسكناته، وقيامه وسجوده وركعاته.

ذلك الله الذى يسمع صوته.

الله الذى يعلم حاجاته وطلباته حاجته.

«التقلب»: معناه الحركة والانتقال من حال إلى حال، وهذا التعبير لعله إشارة إلى سجود النبي صلى الله عليه وآله بين الساجدين فى أثناء الصلاة، أو إلى حركة النبي صلى الله عليه وآله وتنقله بين أصحابه وهم مشغولون بالعبادة، وكان يتابع أحوالهم ويسأل عنهم.

وفى المجموع فإن هذا التعبير إشارة إلى أن الله سبحانه لا يخفى عليه شيء من حالاتك وسعيك، سواءً كانت شخصية فردية، أم كانت مع المؤمنين فى صورة جماعية، لتدبير امور العباد ولنشر مبدأ الحق.

إنذار الأقرين (حديث يوم الدار): وفقاً لما ورد في التواريخ الإسلامية، امر النبي في السنة الثالثة بدعوته الأقرين من عشيرته، فدعا النبي صلى الله عليه وآله «عشيرته» إلى بيت عمه أبي طالب، وكانوا في ذلك اليوم حوالي أربعين رجلاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦١

وبعد أن تناولوا الطعام، قال صلى الله عليه وآله: «يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم بخير الدنيا والآخرة... وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأياكم يؤازرنى على أمرى هذا، على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟» فأحجم القوم عنها غير على، وكان أصغرهم (سناً)، فقال: «يا نبي الله، أنا أكون وزيرك عليه»، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله برقبته، وقال: «إن هذا وصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».

هَيْلٌ أَنْبَأَكُمْ عَلَى مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) نَزَّلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

هذه الآيات- محل البحث- هي آخر الآيات من سورة الشعراء، تعود ثانية لتردد على الإتهام السابق- من قبل الأعداء- بأن القرآن من إلقاء الشياطين، ترددهم بيان أحاذ بليغ مفحم، فتقول: «هَيْلٌ أَنْبَأَكُمْ عَلَى مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ نَزَّلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ». أى الكاذب المذنب، حيث يلقون إليهم ما يسمعون مع اضافته أكاذيب كثيرة عليه «يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَذِبُونَ» «١».

وملخص الكلام أن ما تلقاه الشياطين له علائم واضحة، ويمكن معرفته بعلائمه أيضاً. فالشيطان موجود مؤذ ومخرب، وما يلقيه يجرى في مسير الفساد والتخريب، وأتباعه هم الكذابين المجرمون، وليس شىء من هذه الامور ينطبق على القرآن، ولا على مبلغه، وليس فيها أى شبه بهما.

وفى الآية الرابعة- من الآيات محل البحث- يرد القرآن على إتهام آخر كان الكفار يرمون به النبي فيدعونه شاعراً، كما فى الآية (٥) من سورة الأنبياء: «بَلْ هُوَ شَاعِرٌ». وربما

(١) «أفَّاك»: من «الإفك» والإفك هو الكذب الكبير، فمعنى الأفلاك من يكذب كثيراً أكاذيب كبيرة... و «أثيم»: من مادة «إثم» على وزن (إسم) ومعناه فى الأصل: العمل الذى يؤخر صاحبه عن الثواب، ويطلق عادة على الذنب، فالأثيم هو المذنب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٢

دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء فى الآية (٣٦) من سورة الصافات:

«وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهًا لِّشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ».

فالقرآن يرددهم هنا بيان بليغ منطقي، بأن منهج النبي يختلف عن منهج الشعراء؛ فالشعراء يتحركون فى عالم من الخيال، وهو يتحرك على أرض الواقع والواقعيات، لتنظيم العالم الإنسانى.

والشعراء يبحثون عن العيش واللذة والغزل (كما هى الحال بالنسبة لشعراء ذلك العصر فى الحجاز خاصة حيث يظهر ذلك من أشعارهم بوضوح).

ولذا فإن أتباعهم هم الضالون: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ».

ثم يضيف القرآن على الجملة آفة الذكر معقباً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ».

فهم غارقون فى أخيلتهم وتشبيهاتهم الشعرية، حتى أن القوافى تجرهم إلى هذا الإتجاه أو ذاك، ويهيمون معها فى كل واد.

ومتى سخطوا على أحد هجوه هجواً مرأً وأنزلوه فى شعرهم إلى أسفل السافلين، وإن كان موجوداً سماوياً.

ثم إن الشعراء عادة هم رجال خطابة وجماهير لا أبطال قتال، وكذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإن الآية التالية تضيف فتقول

عنهم: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ».

غير أن النبي الكريم صلى الله عليه وآله رجل عمل من قرنه إلى قدمه، وقد اعترف بعزمه الراسخ واستقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النبي صلى الله عليه وآله.

ولما كان بين الشعراء اناس مخلصون هادفون وأهل أعمال لا أقوال، ودعاة نحو الحق والصدق «وإن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلاً يومئذ». فالقرآن من أجل أن لا يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون في شعرهم أهدافاً الهيئية وإنسانية، ولا يغرقون في الأشعار فيغفلون عن ذكر الله، بل كما يقول القرآن: «وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا».

وأشعارهم تذكر الناس بالله أيضاً... وإذا ما ظلموا كان شعرهم انتصاراً للحق «وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٣

وهكذا فقد بين القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، وهي الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله كثيراً، والانتصار للحق من بعدما ظلموا، مستعينين بشعرهم في الذب عنه.

وحيث إن معظم آيات هذه السورة هو للتسليّة عن قلب النبي، والتسريّة عنه، وعن المؤمنين القلّة في ذلك اليوم في قبال كثرة الأعداء، وحيث إن كثيراً من آيات هذه السورة في مقام الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله ضد التهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، وغير اللاتفة به، فإنّ السورة تختتم بجملته ذات معنى عزيز، وفيها تهديد لأولئك الأعداء الألداء، إذ تقول: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

«نهاية تفسير سورة الشعراء»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٥

## ٢٧ سورة النمل

محتوى السورة: محتوى هذه السورة- بصورة عامة- كمحتوى سائر السور المكية، فأكثر إهتمامها- من الوجهة الاعتقادية- ينصب على المبدأ والمعاد.

وأما من ناحية المسائل العملية والأخلاقية، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسة أنبياء كرام ومواجهاتهم لأممهم المنحرفة، لتكون هذه السورة تسليّة للمؤمنين القلّة بمكة في ذلك اليوم، وفي الوقت ذاته تكون إنذاراً للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم في صفحات تاريخ الظلمة الماضين، فلعلهم يحذرون ويرجعون إلى الرشد.

وأحد خصائص هذه السورة هي بيان قسم مهم من قصة النبي سليمان عليه السلام وملكه سبأ، وكيفيه إيمانها بالتوحيد، وكلام الطير- كالهدد، والحشرات كالنمل- مع سليمان عليه السلام.

وهذه السورة سميت سورة «النمل» لورود ذكر النمل فيها، والعجيب أنّها سميت بسورة «سليمان» كما في بعض الروايات.

وتتحدث هذه السورة ضمناً عن علم الله غير المحدود، وهيمنته وسلطانه على كل شيء في عالم الوجود، وحاكميته على عباده... والإلتفات إلى ذلك له أثره الكبير في المسائل التربوية للإنسان.

وتبدأ هذه السورة بالبشرى وتنتهي بالتهديد، بالبشرى للمؤمنين، والتهديد للناس بأنّ الله غير غافل عن أعمالكم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٦

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات

بعدد من صدق بسليمان وكذب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله».

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى وبشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٣) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤) أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥) وإني كنت للقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦)

القرآن منزل من لدن حكيم عليم: نواجه مرة أخرى- في بداية هذه السورة- الحروف المقطعة من القرآن «طس» وبملاحظة أن ما بعدها مباشرة هو الكلام عن عظمة القرآن، فيبدو أن واحداً من أسرار هذه الحروف هو أن هذا الكتاب العظيم والآيات البيئات منه، كل ذلك يتألف من حروف بسيطة... وإن الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطة كهذه الحروف.

ثم يضيف القرآن قائلاً: «تلك آيات القرآن وكتب مبين».

والإشارة للبعيد بلفظ (تلك) لبيان عظمة هذه الآيات السماوية، والتعريب (المبين) تأكيد على أن القرآن واضح بنفسه وموضح للحقائق أيضاً.

وفي الآية التالية وصفان آخران للقرآن إذ تقول: «هدى وبشرى للمؤمنين». لأنه إذا لم يكن في قلب الإنسان أدنى مرحلة من التقوى والتسليم والإيمان بالواقع، فإنه لا يتجه نحو الحق، ولا يبحث عنه، ولا يفيد من نور هذا الكتاب المبين. «الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون».

وهكذا فإن اعتقاد المؤمنين راسخ في شأن المبدأ والمعاد، وإرتباط متين بالله وخلقه أيضاً... فالأوصاف المتقدمة تشير إلى اعتقادهم الكامل ومنهجهم العملي الجامع.

وتتحدث الآية التالية عن الأشخاص في المقابلة للمؤمنين، وتصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: «إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون». أي: حيارى في حياتهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٧

فهم يرون الملوث نقيًا، والقيح حسناً، والعيب فخراً، والشقاء سعادة وانتصاراً.

وهذا التغير في القيم، أو اضطراب المعايير في نظر الإنسان، يؤدي إلى الحيرة في متاهات الحياة... وهو من أسوأ الحالات التي تصيب الإنسان.

ثم تبين الآية التالية نتيجة «تزيين الأعمال» وعاقبة أولئك الذين شغفوا بها فتقول: «أولئك الذين لهم سوء العذاب». فهم في الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، وسينالون العقاب الصارم في الآخرة «وهم في الآخرة هم الأخسرون».

وأما الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- فهي بمثابة إكمال البيانات السابقة في صدد عظمة محتوى القرآن، ومقدمة لقصص الأنبياء التي تبدأ بعدها مباشرة فتقول: «وإني كنت للقى القرآن من لدن حكيم عليم».

وبالرغم من أن الحكيم والعليم كلاهما إشارة إلى علم الله سبحانه، إلا أن الحكمة تبين الجوانب العملية، والعلم يبين الجوانب النظرية... وبتعبير آخر: إن العليم يخبر عن علم الله الواسع، والحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم وإنزال القرآن على قلب النبي (محمد صلى الله عليه وآله).

إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتیکم منها بخبر أو آتیکم بشهاب قبس لعلکم تصطلون (٧) فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (٩) وألقى عصاك فلما رآها تهتراً كأنها جان ولى مديراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون (١٠) إلا من ظلم ثم يدل حسيناً بعد سوء فإني عفور رحيم (١١) وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين (١٢) فلما جاءتهم آياتنا

مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

موسى يقتبس النور: يجرى الكلام فى هذه السورة- كما أشرنا من قبل- بعد بيان أهمية القرآن، عن قصص خمسة أنبياء عظام، وذكر اممهم، والوعد بانتصار المؤمنين وعقاب مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٨

الكافرين. فأول نبى تتحدث عنه هذه السورة، هو موسى عليه السلام أحد الأنبياء «أولى العزم» وتبدأ مباشرة بأهم نقطة من حياته وأكثرها «حساسية» وهى لحظة نزول الوحي على قلبه وإشراقه فيه، وتكليم الله إياه، إذ تقول الآية: «إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» (١). أى رأيت ناراً من بعيد، فامكثوا هنيهة «سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَيْرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (٢).

فى تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السلام يسير بزوجه بنت النبى شعيب عليه السلام فى طريق مصر- وفى الصحراء- فهبت ريح باردة، وكانت زوجته (أهله) مقرباً، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النار لتصطفى المرأة بها، لكن لم يكن فى الصحراء أى شىء، فلما لاح له النار من بعيد ستر كثيراً، وعلم أنها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضى وآتيكم منها بخبر أو شعله للتدفئة.

وهكذا فقد ترك موسى أهله فى ذلك المكان واتّجه نحو «النار» التى آنسها «فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

إنّ المراد من «مَنْ فِي النَّارِ» هو موسى نفسه، حيث كان قريباً منها ومن الشجرة الخضراء التى عندها، فكأن موسى كان فى النار نفسها؛ وأنّ المراد من «مَنْ حَوْلَهَا» هم الملائكة المقربون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسة فى ذلك الوقت. أو أنّ المراد- على عكس ما ذكرنا آنفاً- فمن فى النار: هم الملائكة المقربون، ومن حولها هو موسى عليه السلام. ومرة أخرى نودى موسى بالقول: «يُمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وذلك يزول عن موسى عليه السلام كل شك وتردد، وليعلم أنّ الذى يكلمه هو رب العالمين، لا شعله النار ولا الشجرة، الربّ القوى العزيز الذى لا يغلب ولا يقهر، والحكيم ذو التدبير فى جميع الامور.

وحيث إنّ الصّدع بالرسالة والبلاغ (وأية رسالة وبلاغ ... رسالة إلى جبار مستكبر ظالم

(١) «آنست»: فعل ماض مأخوذ من «الإيناس»، وهو الرؤية المقرونة بالراحة النفسية والسكينه وإتما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

(٢) «الشهاب»: هو النور الذى ينبثق من النار كالعמוד، وكل نور له عمود يدعى شهاباً؛ و «القبس»: شعله من النار تنفصل عنها؛ و «تصطلون»: من الاصطلاء وهو الدفاء (بالتار).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٩

كفروعون)، لا بدّ له من قوة ظاهرية وباطنية وسند على حقايقته ... فلذا أمر موسى بأن يلقى عصاه: «وَأَلْقِ عَصَاكَ».

فألقي موسى عصاه، فتبدلت ثعباناً عظيماً، فلما رآه موسى يتحرك بسرعة كما تتحرك الحيات الصغار خاف وولى هارباً ولم يلتفت إلى الوراء: «فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَتَّرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ».

وهنا خوطب موسى مرة أخرى أن «يُمُوسَى لَاتَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ».

ومعنى الآية: أن يا موسى إنك بين يدي خالق الوجود العظيم، والحضور عنده ملازم للأمن المطلق.

إلا أنّ فى الآية التالية استثناءً للجملة السابقة، حيث ذكره القرآن فقال: «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ».

أما المعجزة الثانية التى أمر موسى أن يظهرها، فهى اليد البيضاء، إذ تقول الآية: «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ».

والقيّد «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» إشارة إلى أنّ بياض اليد ليس من برص ونحوه، بل هو بياض نورانى يلفت النظر، وهو بنفسه كاشف عن إعجاز

وأمر خارق للعادة.

ومن أجل أن يظهر الله تعالى عنايته ولطفه لموسى أكثر، وكذلك منح الفرصة للمنحرفين للهداية أكثر، قال لموسى بأن معاجزه ليست منحصرة بالمعجزتين الآنفيتين، بل «فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ». ويستفاد من ظاهر الآية أن هاتين المعجزتين من مجموع تسع معاجز «آيات» موسى المعروفة.

وأخيراً تعبأ موسى بأقوى سلاح - من المعاجز - فجاء إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الحق، كما يصرح القرآن بذلك في آية التالية: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

و معلوم أن هذا الإتهام «بالسحر» لم يكن خاصاً بموسى عليه السلام، بل اتخذته المعاندون ذريعة بوجه الأنبياء، ليجعلوه سداً في طريق الآخرين، والإتهام بنفسه دليل واضح على عظمة ما يصدر من الأنبياء خارقاً للعادة، بحيث اتهموه بالسحر.

ومما يلفت النظر أن القرآن يضيف في آخر الآية - محل البحث - قائلاً: إِنَّ هَذَا الْإِتهَامَ لَمْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٠

يكن لأنهم كانوا في شك من أمرهم ومترددين فعلاً، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتهم، «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا». ويستفاد من هذا التعبير أن الإيمان له حقيقة وواقعية غير العلم واليقين، ويمكن أن يقع الكفر جحوداً وإنكاراً بالرغم من العلم بالشيء.

إن القرآن يذكر عاقبة فرعون وقومه على أنه درس من دروس العبرة، في جملة موجزة ذات معنى كبير، مشيراً إلى هلاكهم وغرقهم فيقول: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)

حكومة داود وسليمان عليهما السلام: بعد الكلام عن جانب من قصة موسى عليه السلام في هذه السورة، يتحدث القرآن الكريم عن نبين آخرين من الأنبياء العظام، وهما «داود» و«سليمان»... لأنهما كانا من أنبياء بني إسرائيل أيضاً، وما نجده من اختلاف بين تاريخهما وتاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنهما - ونتيجة للاستعداد الفكري وملائمة المحيط الاجتماعي في عهدهما - قد وقفا إلى تأسيس حكومة عظيمة، وأن ينشرا بالاستعانة والإفادة من حكومتهم دين الله، لذلك لا نجد هنا أثراً أو خبراً عما عهدناه من أسلوب في تلك الآيات التي كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، وهم يواجهون قومهم المعاندين، وربما نالوا منهم الأذى والطرده والخراج من مدنهم وقراهم.. فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماماً.

والطريف، أن القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التي هي أساس الحكومة الصالحة القوية، فيقول: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا». إن من الواضح أن العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل في نفسه علم التوحيد والإعتقادات المذهبية والقوانين الدينية، وكذلك علم القضاء، وجميع العلوم التي ينبغي توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية.

وبعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود وسليمان من ثناء لله: «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧١

والذي يجلب النظر هو أنه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجرى الكلام عن «الشكر» مباشرة... ليكون واضحاً أن كل نعمة لا بد لها من شكر، وحقيقته الشكر هو أن يستفاد من النعمة في طريقها الذي خلقت من أجله.

و الآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أولاً، فتقول: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ».

ثم تضيف الآية حاكية عن لسان سليمان: «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

وجملة «أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» فهي تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامة حكومة الله في ذلك الحين.



وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

سليمان في وادي النمل: يستفاد من آيات هذه السورة، وآيات سورة سبأ أن «حكومة سليمان» لم تكن حكومة مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات والمعجز المختلفة. وفي الحقيقة فإن الله أظهر قدرته في هذه الحكومة وما سخر لها من قوى.

وأول ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: «وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ».

وكانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك والمسير، ومن أجل المحافظة على النظم، يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها «فَهُمْ يُوزَعُونَ». «يوزعون»: من مادة «وزع» على وزن (جمع) ومعناه الحبس والإيقاف، وهذا التعبير متى اطلق على الجند أو الجيش فيعني إيقاف أول الجيش ليلحق به آخره، لكي يحفظ من التشتت والتفرق.

ويستفاد من هذا التعبير أن جنود سليمان كانوا كثيرين، كما كانوا يخضعون للنظم والانضباط.

«حشر»: فعل ماض من «الحشر» على وزن (نشر) ومعناه إخراج الجمع من المقر، والتحرك نحو الميدان للقتال، وما أشبه ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٢

إن سليمان عليه السلام تحرك بهذا الجيش العظيم «حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ». فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، كما تقول الآية: «قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

ويستفاد ضمناً من جملة «لَا يَشْعُرُونَ» أن عدل سليمان كان ظاهراً وواضحاً حتى عند النمل، لأن مفهوم الجملة أن سليمان و جنوده لو شعروا والتفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، وإذا وطأوها فإنما ذلك لعدم توجههم والتفاتهم: «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا». إن سليمان توجه نحو الله .. داعياً وشاكراً مستزيداً فضله: «وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ» (١). أي، لتكون لي القدرة أن استعمل هذه النعم جميعها في ما أمرتني به وما يرضيك، ولا أنحرف عن طريق الحق «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ». وهو يشير إلى أن بقاء هذا الجيش وحكومته وتشكيلاتها الواسعة غير مهم بالنسبة إليه، بل المهم أن يؤدي عملاً صالحاً يرضى به ربه.

والطلب الثالث الذي طلبه سليمان من ربه، كما حكته الآية، هو أن يجعله في زمرة الصالحين، إذ قال: «وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ».

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجِئْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَنْ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَغْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

قصة الهدهد وملكه سبأ: يشير القرآن في هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من

(١) «أوزعني»: من مادة «إيزاع» ومعناه «الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق والتعلق، إلما أن أغلب المفسرين إختاروا المعنى الأول.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٣

حياة سليمان عليه السلام المدهشة، وما جرى له مع الهدهد وملكه سبأ. فيقول أولاً: «وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ».

وهذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، وهي أنه كان يراقب وضع البلاد بدقة، وكان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شيء،

حتى لو كان طائراً واحداً.

وما لا شك فيه أن المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأن القرآن يضيف استمراراً للكلام: «فَقَالَ مَا لِي لَأَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ».

ومن أجل أن لا يكون حكم سليمان غيبياً، وأن لا يؤثر غياب الهدهد على بقاء الطيور، فضلاً عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلاً: «لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأَذِّبَنَّ أَوْ لَأَيُّتِنِّي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ».

إن سليمان قبل أن يقضى غيبياً ذكر تهديده اللازم في صورة ثبوت التخلف.

وقد برهن «سليمان» ضمناً أنه - حتى بالنسبة للطائر الضعيف - يستند في حكمه إلى المنطق والدليل، ولا يعوّل على القوة والقدرة أبداً. ولكن غيبية الهدهد لم تطل «فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ» عاد الهدهد وتوجه نحو سليمان: «فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ».

إن الهدهد أخذ يفصل لسليمان ما حدث فقال: «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ».

لقد بين الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريباً، وأسلوب حكومته.

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد غرق في تفكيره، إلّا أن الهدهد لم يمهل طويلاً فأخبره بخبر جديد ... خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ». فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس وبذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ». وقد غرقوا في عبادة الأصنام حتى أنّي لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم «فَهُمْ لَآيِهَتُودُونَ».

ثم أضاف الهدهد قائلاً: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ».

«خبء»: على وزن (صبر) معناها كل شيء خفي مستور، وهي هنا إشارة إلى إحاطة علم الله بغيب السماوات والأرض، أي:

لِمَ لَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٤٧٤

والأرض وما فيهما من أسرار؟! وأخيراً يختتم الهدهد كلامه هكذا: «اللَّهُ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

وهكذا يختتم الهدهد كلامه مستنداً إلى «توحيد العبادة» و «توحيد الربوبية» لله تعالى، مؤكداً نفى كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

قَالَ سَيَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَنْ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)

الملوك مفسدون مخربون: لقد أصغى سليمان عليه السلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام .. وفكر ملياً، فنبغى أن لا يكتفى بمخبر واحد، بل ينبغى التحقيق أكثر في هذا المجال: «قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

سليمان عليه السلام لم يتهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب .. ولم يصدّق كلامه دون أي دليل ... بل جعله أساساً للتحقيق.

وعلى كل حال، فقد كتب كتاباً وجزياً ذا مغزى عميق، وسلّمه إلى الهدهد وقال له: «اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ».

يستفاد من التعبير «أَلْقِهْ إِلَيْهِمْ» أن يلقي الكتاب عندما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لئلا تعبت به يد النسيان أو الكتمان.

فتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، وأطلعت على مضمونه، وحيث إنّها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان واسمه، ومحتوى الكتاب

يدل على إقدامه وعزمه الشديد في شأن بلده «سبأ»، لذلك فكرت ملياً، ولما كانت في مثل هذه المسائل المهمة تستشير من حولها، لذلك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٥

فقد دعتهم وتوجهت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ».

وقول الملكة: «إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ» «أى قيم» لعله لمحتواه العميق، أو لأنه بُدئ باسم الله أو لأنه ختم بإمضاء صحيح. ثم إن «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ». وبعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها ... التفتت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفُتُوْنِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ». «أفتوني»: مشتقة من «الفتوى»، معناها في الأصل الحكم الدقيق والصحيح في المسائل الغامضة والصعبة. «تشهدون»: مأخوذ من مادة «الشهود»، ومعناه الحضور ... الحضور المقرون بالتعاون والمشورة.

فالتفت إليها أشراف قومها وأجابوها على استشارتها ف «قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ». وهكذا فقد أظهروا لها تسليمهم وإذعانهم لأوامرها ... كما أبدوا رغبتهم في الإعتماد على القوة والحضور في ميدان الحرب. ولما رأت الملكة رغبتهم في الحرب خلافاً لميلها الباطني، ومن أجل إطفاء هذا الظمأ وأن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك: «قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً».

ولمزيد التأكيد أردفت قائلة: «وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

إن ملكة سبأ التي كانت بنفسها ملكة، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، وأن سيرتهم تتلخص في شيئين:

١- الإفساد والتخريب.

٢- وإذلال الأعزة ...

لأنهم يفكرون في مصالحهم الشخصية، ولا يكثرثون بمصالح الامه وعزتها ... وهما على طرفي نقيض دائماً.

ثم أضافت الملكة قائلة: علينا أن نختبر سليمان وأصحابه، لنعرف من هم وما يريدون؟ وهل سليمان نبي حقاً أو ملك؟ وهل هو مصلح أو مفسد؟ وهل يدل الناس أم يحترمهم ويعزهم؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٦

فينبغي أن نرسل شيئاً إليه «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ».

فالملوك لهم علاقة شديدة بالهدايا، ونقطة الضعف كامنة في هذا الأمر، فيمكن أن يدعنا للهدايا الغالية ... فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، وينبغي أن نواجهه بالقوة فنحن أقوىاء ... وإذا ألق على كلامه ولم يكثرث بنا فهو نبي، وفي هذه الصورة ينبغي التعامل معه بالحكمة والتعقل.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)

لا تخدعوني بالمال: خرج رسل ملكة سبأ بقافلة الهدايا وتركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان «في الشام» ظناً منهم أن سليمان سيكون مسروراً بمشاهدته هذه الهدايا ويرحب بهم، لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان ... فإن سليمان عليه السلام مضافاً إلى عدم استقباله واكثرائه بتلك الهدايا، «قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ».

فما قيمة المال، ازاء مقام النبوة والعلم والهداية والتقوى، «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ».

وهكذا فقد حقر سليمان عليه السلام معيار القيم عندهم، وأوضح لهم أن هناك معياراً آخر للقيمة تضحل عنده معايير عبدة الدنيا ولا تساوى شيئاً.

ومن أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق والباطل، قال لرسول ملكة سبأ الخاص: «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَعْرُونَ».

لأنهم لم يدعوا- ويسلموا- للحق ... وإنما قصدوا الخداع والمكر.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٧

حضور العرش في طرفه عين: وأخيراً عاد رسل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هداياهم وأمتعتهم إلى بلدهم، وأخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة ملك سليمان عليه السلام المعجز وجهازه الحكومي، وكل واحد من هذه الامور دليل على أنه لم يكن كسائر الأفراد ولا ملكاً كسائر الملوك، بل هو مُرسل من قبل الله حقاً، وحكومته حكومه إلهية. لذلك قررت الملكة أن تأتي بنفسها مع أشرف قومها إلى سليمان، ويتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر- عن أى طريق كان- إلى سمع سليمان عليه السلام، فعزم على إظهار قدرته العجيبه- والملكة وأصحابها في الطريق إليه- ليعرفهم قبل كل شيء على إعجازه، ليدعوا له ويسلموا لدعوته ... لذلك التفت إلى من حوله و «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ».

وهنا أظهر شخصان استعدادهما لإمتثال طلب سليمان عليه السلام، وكان أمر أحدهما عجيباً والآخر أعجب، إذ «قَالَ عِفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ». فهذا الأمر على يسير، ولا أجد فيه مشقة، كما أنني لا أخونك أبداً، لأنني قادر على ذلك «وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ». «العفريت»: معناه المارد الخيث.

وجمله «وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ» المشفوعة بالتأكيدات من عدّه جهات تشر إلى احتمال خيانه هذا العفريت ... لذلك فقد أظهر الدفاع عن نفسه بأنه أمين وفيّ.

أما الشخص الآخر فقد كان رجلاً صالحاً له علم ببعض ما في الكتاب، ويتحدث عنه القرآن فيقول: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ».

فلما وافق سليمان عليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفه عين بالإستعانة بقوته المعنوية: «فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ».

ثم أضاف قائلاً: «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ».

الفرق بين «علم من الكتاب» و «علم الكتاب»: في كتاب يبايع المودة للقنذوزي عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» قال: «ذاك وزير أخى سليمان بن داود عليه السلام». وسألته عن قول الله عز وجل «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» قال: «ذاك أخى على بن أبى طالب».

والإلتفات إلى الفرق بين «علم من الكتاب» الذى يعنى (العلم الجزئى) و «علم الكتاب»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٨

الذى يعنى (العلم الكلى)، يكشف البون الشاسع بين آصف وعلى عليه السلام.

نور الإيمان في قلب الملكة: نواجه في هذه الآيات مشهداً آخر، مما جرى بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ فسليمان من أجل أن يختبر عقل ملكة سبأ ودرايتها، ويهوىء الجوّ لإيمانها بالله، أمر أن يغيروا عرشها وينكروها ف «قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَّا يَهْتَدُونَ». والمراد من جملة «أَتَهْتَدِي» هى معرفة عرشها.

«فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَزَّوَجَلَّتِ» إِنَّ مَلِكَةَ سَبَأَ أَجَابَتْ جَوَابًا دَقِيقًا وَ «قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ».

ومع كل ذلك فإن ملكة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له من تغييرات ... فقالت مباشرة: «وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ». أي: إذا كان مراد سليمان عليه السلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكي نؤمن به، فإننا كنا نعرف حقاينته بعلائم آخر ... كنا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجة إلى هذا الأمر.

وهكذا فإن سليمان عليه السلام منعها «وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» بالرغم من «إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يجرى الكلام عن مشهد آخر من هذه القصة، وهو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

وكان سليمان عليه السلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، وأن يجرى الماء

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٤٧٩

من تحتها، فلما وصلت ملكة سبأ إلى ذلك المكان «قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ» (١). فلما رآته ظنته نهراً جارياً فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء وهي متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجارى، وكما يقول القرآن: «فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا» (٢).  
إلما أن سليمان عليه السلام التفت إليها و «قَالَ إِنَّهُ صَيْرُوحٌ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ» (٣). فلا- حاجة إلى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

وهنا ينقدح سؤال هام، وهو أن سليمان نبي كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق والتزين الرائق ... والصرح الممرّد والبساط الممهّد .. وصحيح أنه كان حاكماً مبسوط اليد، إلّا أن الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلّا أنه، ما يمنع أن يرى سليمان ملكة سبأ التي كانت ترى قدرتها وعظمتها بالعرش والتاج والقصر العظيم والزينة .. يريها هذا المشهد لتدعن لأمره، ولتحتقر ما عندها؟! وهذه نقطة انعطاف في حياتها لتعيد النظر في ميزان القيم ومعيار الشخصية.

وبتعبير آخر: إن هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقته واسعه، وقبول دين الحق، والوقاية عن الإنفاق المفرط للحرب- لم تكن أمراً مسرفاً. ولذلك حين رأت ملكة سبأ هذا المشهد الرائع: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

لقد كنت في ما مضى أسجد للشمس وأعبد الأصنام، وكنت غارقة في الزينة والتجميل، وكنت أتصور أنني أعلى الناس في الدنيا. أما الآن فإنني أفهم أنني ضعيفة جداً.

ربّاه ... أتيت إليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمري، خاضعة عنقي إليك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

(١) «صرح»: معناه الفضاء الواسع، وقد يأتي بمعنى البناء العالى والقصر وفي الآية المشار إليها أنفاً معناه ساحة القصر أى فضاءه الواسع ظاهراً.

(٢) «اللجة»: فى الأصل مأخوذة من اللجاج، ومعناه الشدة، ثم أطلق على ذهاب الصوت وإيابه فى الحجره تعبیر «لجة»، أما الأمواج المتلاطمة فى البحر فتسمى «لجة» وهى هنا فى الآية بهذا المعنى الأخير.

(٣) «الممرّد»: معناه الصافى؛ و «القوارير»: جمع قارورة وهى الزجاجه.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٤٨٠

صالح فى ثمود: بعد ذكر جانب من قصص موسى وداود وسليمان عليهم السلام فإن هذه الآيات تتحدث عن قصة رابع نبي- وتبين جانباً من حياته مع قومه- فى هذه السورة، وهى ما جاء عن صالح عليه السلام وقومه «ثمود»، إذ يقول القرآن: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ». وكما قيل من قبل: إن التعبير «أخاهم» الوارد فى قصص كثير من الأنبياء، هو إشارة إلى منتهى المحبة

والإشفاق من قبل الأنبياء لهم، كما أن في بعض المواضع إشارة إلى علاقة القربى «الروابط العائلية للأنبياء بأقوامهم». إن جميع دعوة هذا النبي العظيم تلخصت في جملة «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ». أجل، إن عبادة الله هي عصارة كل تعليمات رسل الله تعالى. ثم يضيف قائلاً: «فَإِذَا هُمْ قَرِيبًا يَخْتَصِمُونَ».

فأخذ صالح عليه السلام يذرهم ويحذرهم من عذاب الله الأليم ... إلّا أنّ أولئك لم يستجيبوا له وتمسكوا بعنادهم وطلبوا منه باصرار أن إذا كنت نبياً فليحل بنا عذاب الله «وقد صرحت الآية (٧٧) من سورة الأعراف بأنهم سألوها نبيهم نزول العذاب»: «وَقَالُوا يَا صَٰلِحُ إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

إلّا أنّ صالحاً أجابهم محذراً و «قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ».

إنّ عذاب الله إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم ولا يبقى مجال للإيمان.

تعالوا واختبروا صدق دعوتي في البعد الإيجابي والأمل في رحمة الله في ظل الإيمان به «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وهذا أمر عجيب حقاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة.

إنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلاً من أن يصغوا لنصيحة نبيهم ويستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية وكلمات باطلة ... منها أنّهم «قَالُوا أَطِئُونَا بِكُ وَبِمَنْ مَّعَكَ». ولعل تلك السنة كانت سنة قحط وجذب، فقالوا: إنّ هذا البلاء والمشاكل والعقبات كلها بسبب قدوم هذا النبي وأصحابه.

لكنه ردّ عليهم و «قَالَ طِئْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» فهو الذي يتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التي أدت إلى هذه العقوبات.

في الحقيقة إنّ ذلك اختبار وامتحان إلهي كبير لكم، أجل: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨١

هذه امتحانات وفتن إلهية ... هذه إنذارات وتنبهات ليتنبه - من فيهم اللياقة من غفلتهم، ويصلحوا انحرافهم ويتجهوا نحو الله.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهَيْمًا لَمَّا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَبَلَكَ بَيُّوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

تآمر تسعة رهط في وادي القرى: نقرأ هنا قسماً آخر من قصة صالح وقومه، حيث يكمل القسم السابق ويأتي على نهايته، وهو ما يتعلق بالتآمر على قتل صالح من قبل تسعة «رهط» من المنافقين والكفار، وفشل هذا التآمر في وادي القرى منطلقه النبي صالح وقومه. يقول القرآن في هذا الشأن: «وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الرهط»: يعني في اللغة الجماعة التي تقل عن العشرة أو تقل عن الأربعين، فإنه يتضح أنّ كلّاً من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، وقد اجتمعوا على أمر واحد، وهو الإفساد في الأرض والاخلال بالمجتمع (ونظامه الاجتماعي) ومبادئ العقيدة والأخلاق فيه.

ولا ريب أنّ ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيق الخناق عليهم، ولذلك تقول الآية التالية في حقهم: «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

الطريف أنّ أولئك كانوا يقسمون بالله، ويعنى هذا أنّهم كانوا يعتقدون بالله، مع أنّهم يعبدون الأصنام، وكانوا يبدؤون باسمه في المسائل المهمة.

جاء في التواريخ أنّ المؤامرة كانت بهذه الصورة، وهي أنّ جبلاً كان في طرف المدينة وكان فيه غار يتعبد فيه صالح، وكان يأتيه ليلاً بعض الأحيان يعبد الله فيه ويتضرع إليه،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٢

فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه في الليل، ويحملوا على بيته بعد استشهاده ثم يعودوا إلى بيوتهم، وإذا سنلوا

أظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالحادث.

فلما كمنوا في زاوية واختبأوا في ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوى إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم في الحال. لذلك يقول القرآن في الآية التالية: «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ». ثم يضيف قائلاً: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ».

وكلمة «مكر» تستعملها العرب في كل حيلة وتفكير للتخلص أو الإهتداء إلى أمر ما .. ولا- تختص بالامور التي تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر وما ينفع .. فإذا نسبت هذه الكلمة إلى الله فإنها تعنى إحباط المؤامرات الضارة من قبل الآخرين. ثم يعبر القرآن عن كفيته هلا-كهم وعاقبه أمرهم فيقول: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا». أجل، لقد أذهبهم ريح عتوهم وظلمهم، واحترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعاً «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

إلا أن الأخضر لم يحترق باليابس، والأبرياء لم يؤخذوا بجرم الأشقياء ... بل سلم المتقون «وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ». ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشه وأنتم تبصرون (٥٤) أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (٥٥) انحراف قوم لوط: إن النبي الخامس الذي وردت الإشارة إليه في هذه السورة: نبي الله العظيم «لوط». يقول القرآن في الآيتين محل البحث أولاً: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ». «الفاحشه»: تعنى الأعمال السيئه القبيحه، والمراد منها الإنحراف الجنسي وعمل اللواط المخزى.

ثم يضيف القرآن قائلاً: «أَأِنَّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ». ولكي يتضح بأن الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلاً: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٣

تجهلون بالله، وتجهلون هدف الخلق ونواميسه، وتجهلون آثار هذا الذنب وعواقبه الوخيمه. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آلله خَيْرٌ أَمْ يُشْرِكُونَ (٥٩) عندما تعد الطهارة عيباً كبيراً: والآن، لنستمع إلى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطقي «لوط». يقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ». فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكرى والسقوط الأخلاقي البعيد.

جاء في الروايات أن لوطاً كان يبلغ قومه حوالى ثلاثين عاماً وينصحهم، إلا أنه لم يؤمن به إلا أسرته وأهله باستثناء زوجته فإنها كانت من المشركين وعلى عقيدتهم.

بديهى أن مثل هؤلاء القوم لا أمل فى إصلاحهم فى عالم الدنيا، فينبغى أن يطوى «طومار» حياتهم، لذلك تقول الآية التالية فى هذا الشأن: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنَ الْعَبْرِينَ» (١).

وبعد أن خرج آل لوط فى الموعد المعين «سحر ليلة كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلما أصبح الصباح نزلت عليهم الحجاره من السماء، وتزلزلت الأرض بهم، فدفنوا جميعاً تحت الحجاره والأنقاض، وإلى هذا تشير الآية التالية: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث، وبعد بيان ما جرى على لوط وقومه المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النبي الكريم «محمد صلى الله عليه وآله» ليستنتج مما سبق، فيقول له: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

الحمد والثناء الخاص لله، لأنه أهلك امماً مفسدين كقوم لوط، لثلاث تلوث الأرض من وجودهم.

ثم يضيف قائلاً: «وَسَلِّمْ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ».

سلام على موسى وصالح ولوط وسليمان وداود، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

(١) «الغابرين»: جمع الغابر ومعناه هنا الباقي من الذاهبين من المكان.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٤

وعباد الله الصالحين، ومن والاهم يا حسان.

ثم يقول: «ءَآلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ».

أَمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حِدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٠) أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ (٦١) أَمْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ (٦٢) أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُزِيلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ (٦٣) أَمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ (٦٤)

أمع كل هذه الأدلة ما تزالون مشركين: في آخر آية من آيات البحث السابق، القى هذا السؤال الوجيز المتين: «ءَآلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ». أميا في الآيات محل البحث فتفصيل السؤال .. وتوجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين وتحاكمهم، وتكشف دلائل التوحيد في الآيات الخمس في اثني عشر مثلاً.

فالآية الاولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات والأرض، ونزول الماء من السماء والبركات الناشئة عنه، فتقول:

هل أن معبوداتكم أفضل «أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حِدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ».

«الحدائق»: جمع «الحديقة»، وهي البستان الذي يحيطه الجدار أو الحائط، وله ماء كاف؛ و «البهجة»: معناها الجمال وحسن الظاهر الذي يسر الناظرين.

ويتوجه الخطاب نحو العباد في ختام الآية فيقول: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا».

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور وتسقوا الأرض، لكن الذي جعل الحياة في قلب البذرة، وأمر الشمس أن تشرق على الأرض، والماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٥

فتكون شجراً، هو الله فحسب.

وبتعبير آخر: فإن التوحيد في الخلق يؤدي إلى «توحيد الخالق»، والتوحيد في الربوبية «توحيد مدبر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة».

ولذلك فالقرآن يقول في نهاية الآية: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ» ولكن هؤلاء جهلة عدلوا عن الله وعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ» (١).

والسؤال الثاني بحث عن موهبة استقرار الأرض وثباتها، وأنها مقر الإنسان في هذا العالم، فيقول: هل أن أصنامكم أفضل، «أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ» (٢). كما تحافظ على القشرة الأرضية من الزلازل، كما «وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا» ومانعاً من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

وهكذا فقد ورد في هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد وُلد عن طريق الصدفة العمياء الصماء، والمبدأ الفاقد للعقل والحكمة؟! وهل للأصنام تأثير في هذا النظام البديع المثير للدهشة؟!



حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الإدعاء! لذلك يكرر القرآن في ختام الآية هذا السؤال: «أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ». حاش لله «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

السؤال الثالث من هذه الأسئلة الخمسة التي تحكى عن محاوره ومحاكمة المعنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصدة، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ».

أجل، عندما تُغلق جميع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، ويغدو مضطراً حيراناً لا حيلة له، فإنّ الذي يحلّ المعضلة، ويفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو الله لا غير.

وحيث إنّ الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة في أعماق نفوسهم جميعاً، فإنّ المشركين

(١) قد يكون «يعدلون» من مادة «العدول» أى الإنحراف والرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنّه مادة «عَدَل» على وزن (قشر) ومعناه المعادل والنظير.. ففي الصورة الاولى مفهوم الآية أنّهم ينحرفون عن الله الواحد إلى غيره، وفي الصورة الثانية مفهومها أنّهم يجعلون له عدلاً.

(٢) «الخلال»: فى الأصل معناه الشق بين الشئين؛ و «الرواسى»: جمع «راسية» وهى الثابتة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٦

حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم ويتوجهون نحو لطف الله، كما نقرأ فى الآية (٦٥) من سورة العنكبوت: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». لذلك تضيف الآية قائلة: إنّ لا ينقذكم من هذه المآزق والشدائد فحسب، بل: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ وَلَكِنَّمْ لَا تَتَعَضُونَ بِهَذِهِ الدَّلَائِلِ .. «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ويشير القرآن فى السؤال الرابع مسألة الهداية فيقول: هل أنّ الأصنام أفضل، «أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ» بواسطة النجوم «وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ».

فالرياح التى تدل على نزول الغيث، وكأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث.

ويخاطب القرآن فى ختام الآية المشركين مرّة اخرى فيقول: «أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ».

ثم يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلاً: «تَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أمّا فى آخر آية من الآيات محل البحث، فيشير القرآن السؤال الخامس فى شأن المبدأ والمعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، «أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ».. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير الله «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

والمراد من (الرزق السماوى) هو الغيث ونور الشمس وأمثال ذلك، أمّا (الرزق الأرضى) فالنباتات والمواد الغذائية المختلفة التى تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام والمعادن والمواد المختلفة التى يتمتع بها الإنسان فى حياته.

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

لما كان البحث فى آخر الآيات السابقة عن القيامة والبعث، فإنّ الآيات - محل البحث -

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٧

تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أولاً على السؤال الذى يثيره المشركون دائماً، وهو قولهم: متى تقوم القيامة؟ ومتى هذا الوعد؟ فتقول: «قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

لا- شك أن علم الغيب- ومنه تاريخ وقوع القيامة- خاص بالله، إلا أنه لا منافاة في أن يجعل الله بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ في الآيتين (٢٦ و ٢٧) من سورة الجن: «عِلْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا» إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَّسُولٍ». ثم يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة وشكهم وجهلهم، فيقول: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ».

«ادارك»: في الأصل «تدارك» ومعناه التتابع أو لحوق الآخر بالأول، فمفهوم جملة «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ»: أنهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم مما بذلوه من تفكير، وجمعوا المعلومات في هذا الشأن، لذلك فإن القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ». لأن دلائل الآخرة ظاهرة في هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة في فصل الربيع، وإزهار الأشجار وإثمارها مع أنها كانت في فصل الشتاء جرداء... ومشاهدة عظمة قدرة الخالق في مجموعة الخلق والوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلا أنهم كالعُمى الذين لا يبصرون كل شيء.

و الآية التالية توجز منطق منكري القيامة والبعث في جملة واحدة، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَنَّنَا لَمُخْرَجُونَ». مع أنهم كانوا أول الأمر تراباً وخلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثم يرجعون أحياء بعد أن كانوا تراباً. ثم يحكى القرآن عما يضيفه المشركون من قول: «لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ»، ولكن لم نجد أثراً لهذا الوعد ولن يوجد، «إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، فما هي سوى خرافات وخزعبلات القدماء. فبناءً على هذا فإنهم يبدؤون من الاستبعاد ثم يجعلونه أساساً للإنكار المطلق. ويستفاد- ضمناً من هذا التعبير- أنهم أرادوا أن يسخروا من كلام النبي في شأن يوم القيامة، ويطعنوا عليه، فيقولوا: إن هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير والمراجعة.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٤٨٨

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَ لَمَّا تَخَرَزْنَ عَلَيْهِمْ وَ لَمْ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْنُونَ (٧٤) وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥)

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم: كان الكلام في الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، واستهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر. ولما كان البحث المنطقي غير مُجدد لهؤلاء القوم المعاندين والأعداء الألداء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافرة على المعاد مما يرى كل يوم في عالم النباتات وفي عالم الأجنه، وما إلى ذلك، فإن الآيات محل البحث بدلاً من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب الله الذي شمل من سبقهم من الكفار، وأذرتهم بعقابه المخزى... فوجهت الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله قائلة: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ».

فأنتم تعترفون أن هذه الوعود تلقاها أسلافكم، فلم يكثرثوا بها، ولم يروا ضرراً.

وحيث إن الرسول صلى الله عليه وآله كان يشفق عليهم لإنكارهم، ويحزن لعنادهم، ويحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصاً على هدايتهم، وكان يواجه مؤامراتهم أيضاً.. فإن الآية التالية تسرى عن قلب النبي فتقول له: «وَلَا تَخْرَزْنَ عَلَيْهِمْ» ولا تقلق من مؤامراتهم «وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ».

إلا أن هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلاً من أن يأخذوا إنذار النبي المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه ويسترشدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه «وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وهنا يرد القرآن على استهزائهم وسخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطباً نبيه: «قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي

تَسْتَعْجَلُونَ».

والمراد من العذاب الذي كانوا يستعجلون به، فليل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٩

كما ويحتمل أن المراد منه العقاب العام الذي دفع أخيراً، ببركة وجود النبي إذ كان رحمة للعالمين، والآية (٣٣) من سورة الأنفال شاهدة عليه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ».

ثم يتحدث القرآن في الآية التالية عن هذه الحقيقة وهي أن الله إذا لم يعجل في عقابكم، فذلك بفضلته وبرحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافي لإصلاح أنفسهم، فيقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ».

وإذا كانوا يتصورون أن تأخير العقاب لعدم علم الله سبحانه لما يدور في خلدهم من نيات سيئة وأفكار ضالة، فهم في غاية الخطأ: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» (١). فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم وما يعلنون، والغيب والشهادة عنده سيان.

ثم يضيف القرآن قائلاً: إنه ليس علم الله منحصرًا بما تكن القلوب وما تعلن، بل علمه واسع مطلق. «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

كان الكلام في الآيات السابقة عن المبدأ والمعاد، أمّا في الآيات - محل البحث - فيقع الكلام على مسألة النبوة، وحقانية القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث.

أضف إلى ذلك أن الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجهاً للمشركين، وهنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود واختلافاتهم. فتقول الآيات أولاً: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

(١) «تكن»: مأخوذ من كنّ (على وزن جنّ)، وهذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء وتحفظ، وهنا كناية عن ما يخطر في قلوب الكفار من خواطر وأفكار عدوانية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٠

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم في مسائل كثيرة، فقد اختلفوا في شأن مريم وعيسى عليهما السلام. وفي شأن النبي الذي بشرت به «التوراة» من هو؟ كما أنهم اختلفوا في ما بينهم في كثير من المسائل الدينية والأحكام الشرعية... فجاء القرآن موضحاً هذه الأمور بجلاء.

ولما كانت مواجهة الاختلافات والوقوف بوجهها مدعاة للهدى والرحمة، فإن الآية التالية تشير إلى هذا «الأصل الكلي» وتقول: «وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنه هدى ورحمة من حيث حسم الخلافات ومبارزة الخرافات.

وحيث إن جماعة من بنى إسرائيل وقفت بوجه القرآن والحقائق الواردة فيه، لأوامر الله، فإن الآية التالية تقول في شأنهم:

«إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ». وهذا الكلام إضافة إلى أنه يبين عظمة القرآن، وهو تهديد لبنى إسرائيل، فهو في الوقت ذاته تسلية عن قلب النبي وتسرية عنه، لذا فالآية التالية تقول: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

توكل على الله العزيز الذي لا يغلب، والعليم بكل شيء.. فتوكل عليه ولا تقلق من المشركين والمعاندن، لأنه يرد عاك و «إِنَّكَ عَلَى

الْحَقِّ الْمُبِينِ».

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: إذا كان القرآن حقاً مبيناً فلماذا خالفوه؟ فالآيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان اولئك لا يدعون للحق المبين، ولا يؤثر في قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب.. ل «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى .

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق وأرواحهم تواقه إليه، أما إحياء الموتى - أو موتى الأحياء - لتعصبهم وعنادهم واستمرارهم على الذنب، فلا ترهق فكرك ونفسك من أجلهم وحتى لو كانوا أحياء فإنهم صم لا يسمعون فلا يمكنهم أن يسمعا صوتك، وخاصة إذا أداروا إليك ظهورهم وابتعدوا عنك، «وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ».

كما أنهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، ولو ببعض العلامات، إلا أنهم عمى «وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنِ ضَلَلَتِهِمْ».

وهكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، وآذانهم صم موقرة، وأعينهم عمى. فأنت يا رسول الله: «إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» ويشعرون في أنفسهم بالاذعان للحق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩١

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥)

لما كانت الآية السابقة تتحدث عن استعجال الكفار بالعذاب ونزوله، فإن الآيات - محل البحث - تشير إلى بعض الحوادث التي تقع بين يدي القيامة، وتجسد عاقبة المنكرين الوخيمة، فتقول: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ». «الدابة»: معناها ما يدب ويتحرك. وقد طبق هذا المفهوم في روايات كثيرة على أمير المؤمنين عليه السلام، والروايات الكثيرة في تفسير الآية، تدل على أن المراد من «دابة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفاً، فهو يميز الحق من الباطل والمؤمن من المنافق والكافر.

إنسان يخرج في آخر الزمان قبيل يوم القيامة، وهو بنفسه آية من آيات عظمه الخالق.

ثم تشير الآيات إلى علامة أخرى من علامات القيامة، فتقول: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ». «الحشر»: معناه إخراج جماعة ما من مقرها والسير بها نحو ميدان الحرب أو غيره؛ «الفوج»: الجماعة التي تتحرك بسرعة؛ و «يوزعون»: معناه حبس الجماعة وإيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأول.

فبناء على هذا يستفاد من مجموع الآية أن يوماً سوف سيأتي يحشر الله فيه من كل امه جماعة، ويهيئهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

والكثير من الأعظم يعتقدون بأن هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة وعودة جماعة من الصالحين وجماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة.

«حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

وقائل هذا الكلام هو الله سبحانه. والمراد من «الآيات» هي المعاجز التي يأتي بها الأنبياء، أو أوامر الله، أو الجميع.

وبديهي أن هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أي من هذين السؤالين، لذلك فإن الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تضيف قائلة: «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٢

وهذا القول أو العذاب دنيوي، إذا فسّرنا الآية بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة «١».

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَةً لِّكُنُوفِهِمْ وَ النَّهَارَ مُبْصَرَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَ كُلُّ أُنثَىٰ دَاخِرِينَ (٨٧) وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ بِهَا جَاهِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُمِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلمية: مرّة اخرى نتحدث هذه الآيات عن مسألة المبدأ والمعاد، وآثار عظمة الله، ودلائل قدرته في عالم الوجود، وحوادث القيامة، فتقول: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَةً لِّكُنُوفِهِمْ وَ النَّهَارَ مُبْصَرَةً». وفي ذلك علائم ودلائل واضحة على قدرة الله وحكمته لمن كان مستعداً للإيمان «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». والآية التالية نتحدث عن مشاهد القيامة ومقدماتها، فتقول: «وَ أَذْكَرَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَ كُلُّ أُنثَىٰ دَاخِرِينَ». أي خاضعين. ويستفاد من مجموع آيات القرآن أن النفخ في الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات:

فالمرة الاولى يقع النفخ في الصور عند نهاية الدنيا وبين يدي القيامة، وبها يفرغ من في السماوات والأرض إلّا من شاء الله. والثانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، ولعل هاتين النفختين واحدة.

والمرة الثالثة ينفخ في الصور عند البعث وقيام القيامة.. إذ يحيا الموتى جميعاً بهذه إلّا أنّ الظاهر من الآية يدل على أن النفخة هنا إشارة إلى النفخة الاولى التي تقع في نهاية الدنيا.

والآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة الله في هذا العالم الواسع، فتقول: «وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ بِهَا جَاهِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُمِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ».

فمن يكون قادراً على كل هذا النظم والإبداع في الخلق، لا ريب في علمه و «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ».

(١) و «الرجعة» من عقائد الشيعة المعروفة، وتفسيرها في عبارة موجزة بهذا النحو: بعد ظهور المهدي عليه السلام وبين يدي القيامة، يعود طائفة من المؤمنين الخالص، وطائفة من الكفار الأشرار، إلى هذه الدنيا.. فالطائفة الاولى تصعد في مدارج الكمال... والطائفة الثانية تنال عقابها الشديد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٣

إنّ الآية آنفة الذكر من قبيل آيات التوحيد ودلائل عظمة الله في هذه الدنيا، وتشير إلى حركة الأرض التي لا نحس بها، فالآية آنفة الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلمية.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْيِدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

كان الكلام في الآيات السابقة عن أعمال العباد وعلم الله بها، أما الآيات محل البحث فيقع الكلام في مستهلها عن جزائهم وثواب أعمالهم وأمنهم من فزع يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ».

إنّ معنى الآية واسع كما أنّ الحسنه هنا معناها واسع أيضاً، فهي تشمل الصالحات والأعمال الخالصة، ومن ضمنها الإيمان بالله وبرسوله وولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، التي تعدّ في طليعة الأعمال الحسنه، ولا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحة اخرى تشملها الآية.

ثم يتحدث القرآن عن الطائفة الاخرى التي تقابل أصحاب الحسنات فتقول: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ».

وليس لهذه الطائفة أي توقع غيرها «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

«كُتِبَ»: مأخوذ من «كَبَّ» على وزن «جَدَّ» ومعناه في الأصل إلقاء الشيء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإن ذكر «وجوههم» في الآية هو من باب التوكيد.

إن أولئك حين كانوا يواجهون الحقَّ يُلوون وجوههم ورؤوسهم، وكانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين ... فالآن لابد أن يبتلوا بمثل هذا العذاب.

ثم يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله في الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، ويؤكد له هذه الحقيقة وهي أن يخبر أولئك المشركين بأن عليه أن يؤدي رسالته ووظيفته، سواء آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ».

هذه البلدة المقدسة التي يتلخص كل وجودكم وشرفكم بها.

أجل، أعبد ربَّ هذه البلدة المقدسة «الَّذِي حَرَّمَهَا» وجعل لها خصائص وأحكاماً

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٤

وحرمة، وأموراً آخر لا تتمتع بها أية بلدة أخرى في الأرض.

لكن لا تتصوروا أن هذه البلدة وحدها لله، بل له كل شيء في عالم الوجود «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ».

والأمر الثاني الذي أمرت به، هو أن أسلم وجهي له «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

وهكذا فإن الآية بينت وظيفتين أساسيتين على النبي وهما (عبادة الواحد الأحد، والتسليم المطلق لأمره).

و الآية التالية تبين أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: «وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ».

أتلوه فاستضيء بنوره، وأنتهل من عذب معينه الذي يهب الحياة، وأن أعول في جميع مناهجي على هديه. أجل، فالقرآن وسيلتي

للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، والمواجهة لكل أنواع الشرك والانحراف والضلال ومكافحتها.

ثم تعقب الآية لتحكي عن لسان الرسول وهو يخاطب قومه: لا- تتصوروا أنكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسي، كما أن الله

غنى عنكم، بل: «فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ».

وكل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم اخروية فهي عائدة للمهتدي نفسه والعكس صحيح «وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ

الْمُنذِرِينَ».

والأمر الأخير- في آخر آية من هذه السورة- موجه للنبي أن يحمد الله على هذه النعم الكبرى، ولا سيما نعمه الهداية فيقول:

«وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

هذا الحمد أو الشاء يعود لنعمه القرآن، كما يعود للهداية أيضاً، ويمكن أن يكون مقدمة للجملته التالية: «سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا».

وهذا التعبير إشارة إلى أنه مع مرور الزمان وتقدم العلم والمعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، ويرفع ستار جديد عنها

.. وستعرفون نعم الله وعظمته قدرته وعمق حكمته يوماً بعد يوم .. وإراءة الآيات هذه مستمرة دائماً ولا تنقطع مدى عمر البشر.

إلا أنكم إذا واصلتم طريق الخلاف والانحراف، فلن يترككم الله سدى «وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

ولا تتصوروا بأن الله إذا أخر عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، وأنها لا تسجل في اللوح المحفوظ.

وجملته «وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» الواردة بنفسها أو مع شيء من التفاوت اليسير في تسع آيات من القرآن جملة موجزة، وهي

تهديد ذو معنى عميق، وإنذار لجميع الناس.

«نهاية تفسير سورة النمل»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٥

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في مكة، وفي ظروف كان المؤمنون في قبضة الأعداء الأقوياء وبين مخالبيهم، الأعداء الذين كانوا أكثر عدداً وأشدَّ قدرةً وقوةً ونفيراً.

وبما أن هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التي كان عليها بنو إسرائيل وهم بين مخالبي الفراعنة، فإنَّ قسماً من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصة بنى إسرائيل وموسى عليه السلام والفراعنة.

في بداية السورة يبشر المستضعفين بحكومة الحق والعدل لهم وكسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الإطمئنان والقدرة. و «القسم الآخر» من هذه السورة يتحدث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثرى الذى كان يعتمد على علمه وثروته، حتى لقي أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود.

احدهما غريق في الماء والآخر دفين في الأرض.

وبين هذين القسمين دروس حيية وقيمة من التوحيد والمعاد وأهمية القرآن، وبيان حال المشركين في يوم القيامة، ومسألة الهداية والضلالة، والإجابة على حجج الأفراد الضعاف، وهى «نتيجة» الأول و «مقدمة» للقسم الثانى.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ طسم القصص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٦

اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بموسى وكذب به، ولم يبق ملك فى السماوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً».

وبديهى أن كل هذا الأجر والثواب هو لأولئك الذين يقرأون ويتفكرون، وعلى ضوء هذه السورة يخططون لحياتهم وعملهم.

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

هذه هى المرّة الرابعة عشرة التى نواجه بها بدايات السورة بالحروف المقطعة فى القرآن، وقد تكررت فيها «طسم» ثلاث مرات، وهى هنا- أى «طسم»- ثالث المرات وآخرها.

إنه يظهر من كثير من الروايات فى شأن «طسم» أن هذه الحروف إشارات موجزة عن صفات الله سبحانه وتعالى، أو أنها أماكن مقدسية، ولكنها فى الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التفسير المعروف الذى أكدنا عليه مراراً، وهو أن الله تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقة للجميع، وهى أن هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس التغيير الكبير فى تاريخ البشرية وحامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانية يتشكّل من أمور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء ...» التى يستطيع أن يتلفظ بها كل صبى.

ومن هنا تتجلى عظمة القرآن وأهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التى هى فى اختيار الجميع.

ولعل هذا السبب كان داعياً لأن يكون الحديث بعد الحروف المقطعة مباشرة عن عظمة القرآن، إذ يقول: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ». والقرآن بعد ذكر هذه المقدمة يحكى قصة «فرعون» و «موسى» فيقول: «نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٧

نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أن ما ورد هنا خال من كل خرافة واسطورة، وبعيد عن الأباطيل والأكاذيب، فهى إذن تلاوة مقترنة بالحق والواقعية.

والتعبير ب «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» هو تأكيد على هذه الحقيقة، وهى أن مؤمنى ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين

والأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، وهي أن الأعداء مهما تعاضمت قواهم وتزايدوا عدداً وعدداً، وأن المؤمنين مهما قلوا وكانوا تحت ضغط أعدائهم وكانوا ضعافاً بحسب الظاهر، فلا ينبغي أن يهنوا وينكصوا عن طريق الحق، فكل شيء عند الله سهل يسير.. ثم يفصل القرآن ما أجمله بقوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ».

فقد كان عبداً ضعيفاً، وعلى أثر جهله وعدم معرفته أوضاع شخصيته ووصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنه ادعى الربوبية. والتعبير بـ «الأرض» إشارة إلى أرض مصر وما حولها.

إن فرعون - من أجل تقوية قواعد الاستكبارية - قد أقدم على عدّة جرائم كبرى، فالجريمة الأولى، أنه فرق بين أهل مصر «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا».

فلا يمكن أن تحكم الأقلية - التي لا تعدّ شيئاً - على الأكثرية إلا بالخطأ المعروفة «فَرَّقَ تَشْدًا» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و «توحيد الكلمة» ويخافون من أبدأ، ويخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض.

إن فرعون قسم أهل مصر إلى طائفتي «الأقباط» و «الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه والراحة، وكانت في أيديهم القصور ودوائر الدولة والحكومة.

و «الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد والخدم «في قبضة الأقباط» وكانوا محاطين بالفقر والحرمان.

والجريمة الثانية هي استضعافه لجماعه من أهل مصر بشكل دموي سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: «يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٨

ولكون ورود جملة «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ» بعد جملة «يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ» فإن مسألة اخرى تتجلى أمامنا، وهي أن الفراعنة اتخذوا خطة لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنو إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة ويحاربوهم، وكانوا يتركون النساء اللاتي لا طاقة لهن على القتال والحرب، ليكبرن ثم يخدمن في بيوتهم. وفي آخر جملة تأتي الآية بتعبير جامع، وفيه بيان العلة أيضاً فتقول: «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

والتعبير بـ «يُذَبِّحُ» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبنى إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام والأنعام الاخرى، إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء ويحتزون رؤوسهم.

ثم تأتي الآية الاخرى لتقول: «إِنْ إِرَادَتْنَا وَمَشِئَتْنَا إِقْتَضَتْ إِحْتَوَاءَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِلُطْفِنَا وَكِرْمَانَا؛ «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ» وأن تشملهم رعايتنا ومواهبنا تكون بيد الحكومة ومقاليد الأمور: «وَنَجْعَلُهُمْ أُتْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

ويكونون اولى قوة وقدرة في الأرض «وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ».

فهى بشارة فى صدد إنتصار الحق على الباطل والإيمان على الكفر.

وهى بشارة لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة وحكومة العدل وانطواء بساط الظلم والجور.

وحكومة بنى إسرائيل وزوال حكومة الفراعنة ما هى إلا نموذج لتحقيق هذه المشيئة الإلهية والمثل الأكمل هو حكومة نبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأصحابه بعد ظهور الإسلام.

والمثل الأكبر والأوسع هو ظهور حكومة الحق والعدالة على جميع وجه البسيطة - والكرة الأرضية - على يد «المهدى» أرواحنا له الفداء.

ومن الطبيعي أن حكومة المهدي عليه السلام العالمية فى آخر الأمر لا تمنع من وجود حكومات إسلامية فى معايير محدودة قبلها من



قبل المستضعفين ضد المستكبرين، ومتى ما تمت الظروف والشروط لمثل هذه المحكومات الإسلامية فإن وعد الله المحتوم والمشية الإلهية سيتحققان في شأنها، ولا بد أن يكون النصر حليفها بإذن الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٩

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)  
فَالْقَاطِطَةُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيُكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنْ فِرْعَوْنُ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَ قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)

في قصر فرعون: من أجل رسم مثل حي لانتصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد في سرد قصة موسى وفرعون. يقول القرآن: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وهذه الآية على إيجازها تشتمل على أمرين ونهيين وبشارتين، وهي خلاصة قصة كبيرة وذات أحداث ومجريات نقلها بصورة مضغوطة:

كانت سلطة فرعون وحكومته الجائرة قد خططت تخطيطاً واسعاً لذبح «الأطفال» من بني إسرائيل حتى أن القوابل [من آل فرعون كن يراقبن النساء الحوامل] من بني إسرائيل، ومن بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودة مع أم موسى عليه السلام «وكان الحمل خفياً لم يظهر أثره على أم موسى» وحين أحست أم موسى بأنها مقرب وعلى أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة وأخبرتها بالواقع، وأنها تحمل جيناً في بطنها وتوشك أن تضعه، فهي بحاجة - هذا اليوم - إليها.

و حين ولد موسى عليه السلام سطع نور بهي من عينيه فاهتزت القابلة لهذا النور وطبع حبه في قلبها، وأثار جميع زوايا قلبها، فالتفتت القابلة إلى أم موسى وقالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعوني بهذا الوليد ولكن ما عسى أن أفعل وقد وقع حبه الشديد في قلبي، فاهتمى بالمحافظة عليه، وأظن أن عدونا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيراً.

ثم خرجت القابلة من بيت أم موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون وصمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمها وأخبرتها بأن تنهياً للأمر، وفي هذه الحالة من الإرتباك وهي ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقه وألقته في التنور فإذا بالمأمورين والجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئاً إلّا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ٥٥٠

التنور المشتعل ناراً. وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً «الله الذي نجى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالماً من التنور.

لكن الام لم تهدأ إذ أن الجواسيس يمضون هنا وهناك ويفتشون البيوت.

وفي هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد، فجاءت إلى نجار مصرى «وكان النجار من الأقباط والفراعنة أيضاً» فطلبت منه أن يصنع صندوقاً صغيراً.

والوقت كان فجرًا والناس - بعد - نيام، وفي هذه الحال خرجت أم موسى وفي يديها الصندوق الذي أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل وأرضعت موسى حتى ارتوى، ثم ألقته الصندوق في النيل فتلقفته الأمواج.

ورد في الأخبار أن فرعون كانت له بنت مريضة، وكانت هذه البنت تعاني من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: تنكهن ونتوقع أن إنساناً يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعب فمه حين يدهن به جسدها، وكان فرعون وزوجه «آسية» في انتظار هذا «الحادث» وفي يوم من الأيام .. فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عماله أن يأتوا به

ليعرفوا ما به؟!

ومثل الصندوق «المجهول» الخفى أمام فرعون، فلما وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، ودخل حبه فى قلوب الجميع، وحين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبته أكثر فأكثر.

ولنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصة من لسانه. يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَالْتَقَطَهُ آءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا».

«التقط»: مأخوذة من مادة «التقاط» ومعناها فى الأصل الوصول إلى الشىء دون جهد وسعى، وإنما سميت الأشياء التى يعثر عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضاً ..

ثم تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَطِيئِينَ». وأى خطأ أعظم من أن يحددوا عن طريق العدل والحق، وأن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم والجور والشرك.

وأى خطأ أعظم أن يذبوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السلام، ولكن الله سبحانه أودعه فى أيديهم وقال لهم: خذوا عدوكم هذا وربوه ليكبر عندكم.

ويستفاد من الآية التالية أن شجاراً حدث ما بين فرعون وامرأته، ويحتمل أن بعض

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠١

أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأن القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلِكِ لَأَتَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا».

إن فرعون وجد فى مخايل الطفل والعلائم الاخرى أن هذا الطفل من بنى إسرائيل، فأراد أن يجرى قانون إجرامه عليه. ولكن آسية امرأة فرعون التى لم ترزق ولداً ذكراً، وقفت بوجه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله.

وإذا أضفنا قصة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى - على ما قدمناه - فسيكون دليلاً آخر يوضح كيفية انتصار آسية فى هذه الازمة.

ولكن القرآن - بجملة مقتضية وذات مغزى كبير - ختم الآية قائلاً: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

أجل، إنهم لم يشعروا أن أمر الله النافذ ومشيتته التى لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل فى أهم المراكز خطراً ... ولا أحد يستطيع أن يرد هذه المشيته، ولا يمكن مخالفتها أبداً ..

وَاصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَيْلٌ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

عودة موسى إلى حضن أمه: فى هذه الآيات تتجسد مشاهد جديدة .. فام موسى التى قلنا عنها: إنها ألفت ولدها فى أمواج النيل، بحسب ما فضّلنا آنفاً .. اقتحم قلبها طوفان شديد من الهم على فراق ولدها، فأوشكت أن تصرخ من أعماقها وتذيع جميع أسرارها، لكن لطف الله تداركها، وكما يعبر القرآن الكريم: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». «الفارغ»: معناه الخالى، والمقصود به هنا أن قلب أم موسى أصبح خالياً من كل شىء إلا من ذكر موسى؛ «ربطنا»: من مادة «ربط» ومعناها فى الأصل شد وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظاً فى مكانه.

والمقصود من «ربط القلب» هنا تقويته .. أى تثبيت قلب ام موسى، لتؤمن بوعد الله

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٢

وتتحمل هذا الحادث الكبير. وعلى أثر لطف الله أحست أم موسى بالاطمئنان، ولكنها أحببت أن تعرف مصير ولدها، ولذلك أمرت أخته أن تتبع أثره وتعرف خبره: «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ».

«قَصِيَّه»: مأخوذة من مادة «قَصَّ» ومعناها البحث عن آثار الشيء، وإنما سميت القصة قصة لأنها تحمل في طياتها أخباراً مختلفة يتبع بعضها بعضاً.

فاستجابت «أخت موسى» لأمر أمها، وأخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، ورأت صندوقه الذي كان في الماء يتلطفه آل فرعون .. ويقول القرآن في هذا الصدد: «فَبَصَّرْتَهُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ».

ولكن اولئك لم يلتفتوا إلى أن أخته تتعقبه: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

وعلى كل حال، فقد اقتضت مشيئة الله أن يعود هذا الطفل إلى أمه عاجلاً ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم: «وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ» (١).

وطبيعي أن الطفل الرضيع حين تمر عليه عدة ساعات فإنه يجوع ويبكى.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثاً عن مرضع له، والعجيب في الأمر أنه كان يأبى أثناء المرضعات.

وهذا هو التحريم التكويني من قبل الله تعالى إذ حرم عليه المرضع جميعاً.

والطفل يبكي وعمال فرعون يدورون به بحثاً عن مرضع حتى صادفوا بنتاً أظهرت نفسها بأنها لا تعرف الطفل: «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ».

فسر بها هؤلاء وجاءوا بام موسى إلى قصر فرعون، فلما شم الطفل رائحة أمه التقم ثديها بشغف كبير.

في التفسير الكبير: لما قبل ثديها قال هامان إنك لأمه. قالت: لا. قال: فما بالك قبل ثديك من بين النسوة؟ قالت: أيها الملك إنني

إمرأة طيبة الريح حلوة اللبن ماشم ريحي صبي إلأ أقبل على ثديي. قالوا: صدقت. فلم يبق أحد من آل فرعون إلأ أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

أجل، إن الله أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أمه ليستطيع أن ينهض بوجه

(١) «المراضع»: جمع «مرضع» ومعناها المرأة التي تسقى الطفل لبنها من ثديها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٣

الأرجاس ويحارب الآثمين.

وتَمَّ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ اللَّهِ: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)

موسى عليه السلام وحماية المظلومين: في هذه الآيات نواجه المرحلة الثالثة من قصة موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون، وفيها مسائل تتعلق ببلوغه، وبعض الأحداث التي شاهدها وهو في مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثم سبب هجرته إلى مدين. تقول الآيات في البداية: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

«أشد»: مشتقة من مادة «الشدَّة» وهي القوة.

«استوى»: مشتقة من «الاستواء» ومعناها كمال الخلقة واعتدالها.

والمراد بالحكم والعلم هنا ليس النبوة والوحي، بل المقصود من الحكم والعلم هما المعرفة والنظرة الثاقبة والقدرة على القضاء الصحيح وما شابه ذلك، وقد منح الله هذه الامور لموسى عليه السلام لطهارته وصدقه وأعماله الصالحة.

وعلى كل حال فإن موسى «دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا».

يحتمل أن هذه المدينة هي عاصمته مصر.

والمقصود من جملة «عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا» هو أول الليل، لأن الناس يتركون أعمالهم ويعطلون دكاكينهم ومحلاتهم ابتغاء الراحة والنوم، وجماعته يذهبون للتنزه، وآخرون لأماكن أخرى .. هذه الساعة هي المعبر عنها بساعة الغفلة في بعض الروايات الإسلامية. في معاني الأخبار قال النبي صلى الله عليه وآله: «تَنَفَّلُوا فِي سَاعَةِ الْغَفْلَةِ وَلَوْ بَرَكَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ فَإِنَّهُمَا تَوْرَثَانِ دَارَ الْكِرَامَةِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٤

قيل: يا رسول الله ومتى ساعة الغفلة؟ قال: «ما بين المغرب والعشاء». والحق أن هذه الساعة ساعة غفلة وكثيراً ما تحدث الجنايات والفساد والانحرافات الأخلاقية في مثل هذه لساعة من أول الليل .. فلا الناس مشغولون بالكسب والعمل، ولا هم نائمون، بل هي حالة غفلة عمومية تغشى المدينة عادةً في هذه الساعة.

وموسى دخل المدينة، وهناك واجه مشادةً ونزاعاً، فاقترب من منطقة النزاع «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ». والتعبير بـ «شيعته» يدل على أن موسى قبل أن يبعث كان له أتباع وأنصار وشيعة من بني إسرائيل.

فلما بصر الإسرائيلي بموسى استصرخه، «فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ».

فجاءه موسى عليه السلام لإستنصاره وتخليصه من عدوه الظالم .. الذي يقال عنه أنه كان طباحاً في قصر فرعون، وكان يريد من الإسرائيلي أن يحمل معه الحطب إلى القصر، فضرب موسى هذا العدو بقبضة يده القوية على صدره، فهوى إلى الأرض ميتاً في الحال. تقول الآية: «فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ» (١).

ومما لا شك فيه، فإن موسى لم يقصد أن يقتل الفرعوني، لذلك فإن موسى عليه السلام أسف على هذا الأمر: «قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ».

فإن موسى عليه السلام كان يريد أن يبعد الفرعوني عن الرجل الإسرائيلي، وإن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك، لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل.

ثم يتحدث القرآن عن موسى عليه السلام فيقول: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ».

ومن المسلم به أن موسى عليه السلام لم يصدر منه ذنب هنا، بل ترك الأولى، فكان ينبغي عليه أن يحتاط لثلاثي يقع في مشكلة، ولذلك فإنه استغفر ربه وطلب منه العون.

لذلك فإن موسى عليه السلام حين نجا بلطف الله من هذا المأزق: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْتَمْتُ عَلَىَّ» من عفوك عني وانقاذي من يد الأعداء وجميع ما أنعمت علي منذ بداية حياتي لحد الآن «فَلَنْ

(١) «وكر»: مأخوذ من «الوكر» ومعناه الضرب بقبضة اليد، وهناك معان أخرى لا تناسب المقام.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٥

أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ»، ومعيناً للظالمين.

ويريد موسى عليه السلام أن يقول: «إنه لا يكون بعد هذا مع فرعون وجماعته أبداً .. بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين ..».

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَلَمْ تَرِيدْ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ

(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)

موسى يتوجه إلى مدين حُفِيَةً: نواجه في هذه الآيات المقطع الرابع من هذه القصة ذات المحتوى الكبير، حيث إن مقتل الفرعوني في مصر انتشر بسرعة، ولعل اسم موسى عليه السلام كان مذكوراً من بين بنى إسرائيل المشتبه فيهم. لذلك يقول القرآن في بداية هذا المقطع: «فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» (١). وهو على حال من الترقب والحذر، فوجيء في اليوم التالي بالرجل الإسرائيلي الذي آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبلى آخر وطلب من موسى أن ينصره: «فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ» (٢). ولكن موسى تعجب منه واستنكر فعله و «قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ». إذ تحدث كل يوم نزاعاً ومشادة مع الآخرين. ولكنه كان مظلوماً في قبضة الظالمين (وسواء كان مقصراً في المقدمات أم لا) فعلى موسى عليه السلام أن يعينه وينصره. «فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» صاح ذلك القبلى: «قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ». ويبدو من عملك هذا أنك لست إنساناً منصفاً، «إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ

(١) «يتربص»: مأخوذ من «التربص»، ومعناه الإنتظار، وموسى هنا في انتظار نتائج هذه الحادثة.

(٢) «يستصرخ»: مشتقة من مادة «الإستصراخ»، ومعناها الإستغاثة، ولكنها في الأصل تعنى الصياح أو طلب الصياح من الآخر، وهذا عادة ملازم للإعانة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٦

المُصْلِحِينَ». وهذه العبارة تدل بوضوح على أن موسى عليه السلام كان في نيته الإصلاح من قبل، سواء في قصر فرعون أو خارجه. ومن جهة اخرى فإن الأخبار وصلت إلى قصر فرعون فأحس فرعون ومن معه في القصر أن تكرار مثل هذه الحوادث يندره بالخطر، فعقد جلسة شورى مع وزرائه وانتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسى، وكان في القصر رجل له علاقة بموسى فمضى إليه وأخبره بالمؤامرة.. وكما يقول القرآن الكريم: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ».

وهذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذى كان يكتفم إيمانه ويدعى «حزقيل» وكان من أسرة فرعون.

أما موسى عليه السلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجديته وقبل نصحه ووصيته في مغادرة المدينة، «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ».

وتضرع إلى الله بإخلاص وصفاء قلب ليدفع عنه شر القوم و «قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

ثم قرر موسى عليه السلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التى كانت تقع جنوب الشام وشمال الحجاز، وكانت بعيدة عن سيطرة مصر والفرعانية؛ إلا أنه كان لديه فى هذا الطريق وعواطفه رأس مال كبير وكثير لا ينفد أبداً، وهو الإيمان بالله والتوكل عليه، لذا لم يكثر بأى شىء وواصل السير.. «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» (١).

وَلَمَّا وَرَدَ مِيَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَشْفُقُونَ وَوَجِدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصِيبَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِخْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)

(١) «تلقاء»: مصدر أو اسم مكان، ومعناه هنا: الجهة والصوب الذى قصده.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٧

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير: نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصة، وهى قضية ورود موسى عليه السلام إلى مدينة مدين.

قيل: إن هذا الشاب الطاهر قطع الطريق فى ثمانية أيام، حتى لقى ما لقى من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثرة المشى. وكان يقات من نبات الأرض وأوراق الشجر دفعا لجوعه.

وبدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئا فشيئا، وأخذ قلبه يهدأ ويأنس لإقترابه من المدينة. يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ» (١).

فحركه هذا المشهد ... حفنة من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم .. بينما هناك امرأتان تجلسان فى زاوية بعيدة عنهم، وعليهم آثار العفة والشرف، جاء إليهما موسى عليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و «قَالَ مَا خَطْبُكُمَا» (٢).

لم يرق لموسى عليه السلام أن يرى هذا الظلم، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم خرج من وطنه. فقالت البنتان: إنهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقى هؤلاء الرعاة أغنامهم: «قَالَتَا لَأَسْقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ» (٣).

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضى يارسال بناته للسقى مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما: «وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ». فتأثر موسى عليه السلام من سماعه حديثهما بشدة، فتقدم وأخذ الدلو وألقاها فى البئر .. يقال: إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلا أن موسى عليه السلام استخرجها بقوته وشكيمته وهمته بنفسه دون أن يعينه أحد: «فَسَقَىٰ لَهُمَا» أغنامهما.

ولكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير فى الطريق والجوع ملأ الدلو وسحبها بنفسه وسقى أغنام المرأتان جميعها .. «ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ».

(١) «تذودان»: مشتقة من «ذود» ومعناها المنع، فهما إذاً كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الاخرى.

(٢) ما خطبكما: أى ما شأنكما وما شغلكما هنا!؟

(٣) «يصدر»: مأخوذ من مادة «صدر» ومعناها الخروج من الماء؛ و «الرعاة»: جمع راعٍ، وهو سائس الغنم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٨

أجل .. إنه متعب وجائع، ولا أحد يعرفه فى هذه المدينة. لكن هلم إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود، خطوة نحو الله، فتح لموسى فصلا جديداً، وهياً له من عالم عجيب من البركات المادية والمعنوية .. ووجد ضالته التى ينبغى أن يبحث عنها سنين طوالاً. وبداية هذا الفصل عندما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنها تستحى من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه «فَجَاءَتْهُ إِخِديهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ» فلم ترد على أن «قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا».

فلمع فى قلبه إشراق من الأمل، وكأنه أحس بأن سيواجه رجلاً كبيراً .. رجلاً عارفاً بالحق وغير مستعد أن يترك أى عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب».

تحرك موسى عليه السلام ووصل منزل شعيب، وطبقاً لبعض الروايات، فإن البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلا أن الهواء كان يحرك ثيابها وربما انكشف ثوبها عنها، ولكن موسى لما عنده من عفة وحياء طلب منها أن تمشى خلفه وأن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله وتخبره من أى طريق يمضى إلى دار أبيها شعيب.

دخل موسى عليه السلام منزل شعيب عليه السلام، يقول القرآن في هذا الصدد: «فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَاتَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». فالتفت موسى إلى أنه وجد استاذاً عظيماً.. كما أحس شعيب أنه عثر على تلميذ جدير ولائق. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سِتْرًا فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَصَيِّتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

موسى فى دار شعيب: هذا هو المقطع السادس من قصة حياة موسى عليه السلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، وبعد أن قص عليه قصته، بادرت إحدى بنى شعيب بالقول: إننى أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام ورعايتها: و «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٩

اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ».

فرضى شعيب عليه السلام باقتراح إبنته، وتوجه إلى موسى و «قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ». ثم أضاف قائلاً: «فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ».

فلا أريد إيداءك «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سِتْرًا فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

واستجابة لهذا القرار والعقد الذى أنشأه شعيب مع موسى .. وافق موسى و «قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». ثم أردف مضيفاً بالقول:

«أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَصَيِّتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ». أى سواءً قضيت عشر سنين أو ثمانى سنين «حجج» فلا عدوان على.

ومن أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السلام الله كفيلاً وقال: «وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وبهذه البساطة أصبح موسى صهراً لشعيب على إبنته.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصِيَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جِآنٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ (٣١) اسْلِكْ يَدَاكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْعَلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ ابْتَعَكَمُ الْعَالِيُونَ (٣٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٠

الشارة الاولى للوحى: نصل الآن- إلى المقطع السابع- من هذه القصة ..

لا يعلم أحد- بدقة- ما جرى على موسى فى سنواته العشر مع شعيب، ولا شك أن هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السلام. ومن البديهي أن موسى عليه السلام لا يقنع فى قضاء جميع عمره برعى الغنم، وإن كان وجود «شعيب» إلى جانبه يعد غنيمه كبرى، فعليه أن ينهض إلى نصره قومه، وأن يخلصهم من قيود الأسر، وينقذهم من حالة الجهل وعدم المعرفة.

إن القرآن يقول فى أول من آية هذا المقطع: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا». ثم التفت إلى أهله و «قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ». أى (تندفون).

«آنست»: مشتقة من مادة «إناس»، ومعناها المشاهدة والرؤية المقترنة بالهدوء والراحة. «جذوة»: هى القطعة من النار.

ويستفاد من قوله «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ» أنه كان أوضاع الطريق، كما يستفاد من جملة «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أن الوقت كان ليلاً بارداً.

«فَلَمَّا أَتَاهَا». أى أتى النار التى آنسها ورآها، فتعجب موسى من ذلك: «نُودَى مِنْ شَطِيِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

«الشاطيء»: معناه الساحل؛ و «الوادى»: معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول؛ و «الأيمن»: مشتق من «اليمين» خلاف اليسار، وهو صفة للوادى؛ و «البقعة»: القطعة من الأرض المعروفة الأطراف.

ولا شك أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية فى كل شىء، فأوجد فى الوادى شجرة ليكلم موسى. ومع الإلتفات إلى أن موسى عليه السلام سيتحمل مسؤولية عظيمة وثقيلة.. فينبغى أن تكون عنده معاجز عظيمة من قبل الله تعالى مناسبة لمقامه النبوى، وقد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز: الأولى قوله تعالى: «وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ». فى هذه الحال سمع موسى عليه السلام مرّة اخرى النداء من الشجرة: «يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١١

«الجان»: فى الأصل معناه الموجود غير المرئى، كما يطلق على الحيات الصغار اسم (جان) أيضاً؛ لأنها تعبر بين الأعشاب والأحجار بصورة غير مرئية.

كانت المعجزة الأولى آية «من الرعب»، ثم أمر أن يظهر المعجزة الثانية وهى آية اخرى «من النور والأمل» ومجموعهما سيكون تركيباً من «الإنذار» و «البشارة» إذ جاءه الأمر: «إِشْرَاكَ يَدَاكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ». فالبياض الذى يكون على يده للناس لم يكن ناشئاً عن مرض - كالبرص ونحوه - بل كان نوراً إلهياً جديداً.

لقد هزّت موسى عليه السلام مشاهدته لهذه الامور الخارقة للعادات فى الليل المظلم وفى الصحراء الخالية.. ومن أجل أن يهدأ روع موسى من الرعب، فقد أمر أن يضع يده على صدره: «وَاضْمُمِ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ». وجاء موسى النداء معقّباً: «فَدُنِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ». هنا تذكر موسى عليه السلام حادثة مهمة وقعت له فى حياته بمصر، وهى قتل القبطى، وتعبته القوى الفرعونية لإلقاء القبض عليه وقتله. لذلك فإن موسى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ».

وبعد هذا كله فإنى وحيد ولسانى غير فصيح، «وَأَخِي هُرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ». «أفصح»: مشتقة من «الفصيح» وهو فى الأصل كون الشىء خالصاً، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو وزيادة كلمة «الفصيح» أيضاً. و «الردء»: معناه المعين والمساعد.

فأجاب الله دعوته، وطمأنه بإجابته ما طلبه منه و «قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا» فالسلطة والغلبة لكما فى جميع المراحل.

وبشرهما بالنصر والفوز، وأنه لن يصل إليهما سوء من أولئك؛ إذ قال سبحانه: «فَلَا يَصْعَلُونَ إِلَيْكُمْ أَيَاتِنَا». فبهذه الآيات والمعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الاضرار بكما «أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ».

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٢

موسى فى مواجهة فرعون: نواجه المقطع الثامن من هذه القصة العظيمة.. لقد تلقى موسى عليه السلام من ربه الأمر بأن يصدع بالنبوة والرسالة فى تلك الليلة المظلمة والأرض المقدسة، فوصل إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حُمل.. فذهبا معاً إلى فرعون ليبلغاه رسالة الله. يقول القرآن فى أول آية من هذا المقطع: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى».



وأذكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك، «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى».

فواجهوا موسى متوسلين بحربه توسل بها جميع الجبابرة والضالون على طول التاريخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم .. وهى حربة «السحر».

لكن موسى عليه السلام أجابهم بلهجة التهديد والوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار «وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ».

إشارة إلى أن الله يعلم حالى، وهو مطلع على بالرغم من اتهامكم إياى بالكذب ..

ثم بعد هذا، لو كان كلامى كذبا فأنا ظالم و «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

كيف كان عاقبة الظالمين: نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ الملىء بالأحداث والعبر.

فقد شاع خبر إنتصار موسى عليه السلام على السحرة فى مصر، وموقع الحكومة الفرعونية أصبح فى خطر جدى شديد. فيجب صرف

أفكار الناس، واشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنية، لإغفال الناس وتحميقهم. وفى هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٣

فرعون للتشاور فى معالجة الموقف، إذ نقرأ فى أول آية من هذا المقطع: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي».

فأنا إلهكم فى الأرض .. أما إله السماء فلا دليل على وجوده، ولكننى سأتحقق فى الأمر ولا أترك الإحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان وقال: «فَأَوْقِدْ لِي يَا هَمُّنُ عَلَى الطِّينِ». ثم أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جداً لأصعد عليه واستخبر عن إله موسى. «فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ولما بلغ البناء تمامه .. جاء فرعون بنفسه يوماً وصعد بتشريفات خاصة.

المعروف أنه رمى سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل .. فنزل فرعون من أعلى القصر وقال للناس: اذهبوا واطمأنوا فقد قتلت إله موسى.

ومن المسلم به أن جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعاً أعمى وأصم، صدقوا ما قاله فرعون ونشروه فى كل مكان، وشغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق.

بعد هذا كله يتحدث القرآن عن استكبار فرعون ومن معه، وعدم إزعانهم لمسألتي «المبدأ والمعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام وجنایات بسبب إنكار هذين الأصلين فيقول: «وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ».

لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون وجنوده؟ يقول القرآن الكريم: «فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ». أجل، لقد جعلنا سبب موتهم فى مصدر معيشتهم، وجعلنا النيل الذى هو رمز عظمتهم وقوتهم مقبرة لهم.

إنّ تعبير «نبذناهم» من مادة «نبد»، ومعناه رمى الأشياء التى لا قيمة لها وطرحها بعيداً.

ثم، يختتم الآية بالتوجه إلى النبى صلى الله عليه وآله قائلاً: «فَإَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ».

ثم يضيف القرآن قائلاً فى شأنهم: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ». فكما أنهم كانوا فى هذه الدنيا أئمة الضلال، فهم فى الآخرة- أيضاً- أئمة النار، لأن ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم.

ولمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم وماهيتهم فى الدنيا والآخرة: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٤

هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ».

لعنة الله معناها طردهم من رحمته، ولعنة الملائكة والمؤمنين هي الدعاء عليهم صباحاً ومساءً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)

نصل في هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» وهو القسم الأخير من الآيات التي تتعلق بقصة موسى وما تحمله من معان كبيرة، وهي تتحدث عن نزول الأحكام، والتوراة، أي إنها تتحدث عن انتهاء الدور السلبي «الطاغوت» وبداية «الدور الإيجابي» والبناء. يبدأ هذا المقطع بالآية التالية: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». وفي أن المقصود من «القرون الأولى» من هم؟ قال بعض المفسرين: هو إشارة إلى الكفار من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، لأنه بتقادم الزمان ومضيئه تمحي آثار السابقين.

وقال بعض المفسرين: هو إشارة إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقسام السابقين، لأن الله سبحانه أتى موسى كتاب «التوراة» بعد هلاكهم.

ولكنه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الأولى في الآية شاملاً لجميع الأقسام.

«البصائر»: جمع «بصيرة» ومعناها الرؤية، والمقصود بها هنا الآيات والدلائل التي تستوجب إنارة قلوب المؤمنين ..

و «الهدى» و «الرحمة» أيضاً من لوازم البصيرة .. وعلى أثرها تتيقظ القلوب.

ثم يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة، وهي أن ما ذكرناه لك يا رسول الله، في شأن موسى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٥

وفرعون وما جرى بينهما بدقائقه، هو في نفسه دليل على حقايقه القرآن، لأنك لم تكن «حاضراً» في هذه «الميادين» التي كان يواجه موسى فيها فرعون وقومه، ولم تشهدا بعينيك .. بل هو من الطاف الله عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس .. يقول القرآن: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ». أي الأمر بالنبوة؛ «وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

ثم يضيف القرآن: «وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». وتقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء وهدايتهم في قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن وبيننا فيه قصص الماضين ليكون نوراً وهدى للناس.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ [ / أي: على أهل مكة ] آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» (١).

وأوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقة التي تتحدث عن آلاف السنين الماضية .. لتكون عبرة للناس وموعظة للمتقين (٢).

وتأكيداً على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلاً: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا». أي: نادينا موسى بأمر النبوة، ولكننا أنزلنا إليك بهذه الأخبار رحمة من الله عليك «وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وَلَوْ لَا أَنْ تَصَّ بِهَيْبَتِهِ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أَوْتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)

(١) «ثاوي»: مشتق من (ثوى) ومعناه الإقامة المقرونة بالاستقرار، ولذا سُمى المستقر والمكان الدائم بالمشوى

(٢) كان بين ظهور موسى عليه السلام وظهور النبي (محمد صلى الله عليه وآله) حدود ألفى عام.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٦

ذريعة للفرار من الحق: حيث إن الآيات - آنفة الذكر - كانت تتحدث عن إرسال النبي صلى الله عليه وآله لينذر قومه، ففي هذه الآيات يبين القرآن ما ترتب من لطف الله على وجود النبي في قومه فيقول: «إِنَّا وَقَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِلَ الْعَذَابَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ قَالُوا: لِمَاذَا لَمْ تَرْسِلْ لَنَا رَسُولًا يَبَيِّنُ لَنَا أَحْكَامَكَ لِنُؤْمِنَ بِهِ: «وَلَوْ لَأَنَّ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَجِّعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، وهو أن طريق الحق واضح وبين ... وكل «عقل» حاكم بطلان الشرك وعبادة الأصنام ..

وقبح كثير من الأعمال التي تقع نتيجة الشرك وعبادة الأصنام - كالمظالم وما شاكلها - هي من مستقلات حكم العقل.

ثم تتحدث الآيات عن معاذير أولئك، وتشير إلى أنهم - بعد إرسال الرسل - لم يكفوا عن الحيل والذرائع الواهية، واستمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى .

فلم لم تكن عصا موسى في يده؟ ولم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولم لا ينشق البحر له كما انشق لموسى؟ ولم لم ... الخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا». أى: موسى وهارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق «وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ نُونَ».

إن مشركى مكة المعاندين كانوا يصرون على أنه لم يأت النبي صلى الله عليه وآله بمعجز كمعجز موسى، ومن جهة أخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه في «التوراة» من علائمه وأوصافه ولا يؤمنون بالقرآن المجيد وآياته العظيمة. لذا يخاطب القرآن النبي محمداً صلى الله عليه وآله ليتحداهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ثم يضيف القرآن: «فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ». ولكن من أضيع منهم، «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

ومن الطريف هنا أن روايات عديدة تفسر الآية بأن المراد منها من ترك إمامه وقائده

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٧

الإلهي واتبع هواه.

وهذه الروايات هي من قبيل المصداق البارز. وبتعبير آخر: إن الإنسان محتاج لهداية الله ... هذه الهداية تارة تنعكس في كتاب الله، واخرى في وجود النبي وسنته، واخرى في أوصيائه المعصومين، واخرى في منطق العقل.

المهم أن يكون الإنسان في خط الهداية الإلهية غير متبع لهواه، ليستطيع أن يستضيء بهذه الأنوار.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)

سبب النزول

نقل المفسرون ورواه الأخبار روايات كثيرة ومختلفة في شأن نزول الآيات المتقدمة، والجامع المشترك فيها واحد، وهو إيمان طائفة من علماء اليهود والنصارى والأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهرة - بالقرآن ونبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

قال سعيد بن جبیر نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وآله قرأ عليهم «يس والقرآن

الحكيم» حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا.

التفسير

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن: حيث إن الآيات السابقة كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهية أمام الحقائق التي يقدمها القرآن الكريم، فإن هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهتأة لقبول قول الحق. يقول القرآن في هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعاً، «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

إلا أن (اليهود والنصارى) «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ». لأنهم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٨

يروونه منسجماً مع ما ورد في كتبهم السماوية من علامات ودلائل.

ثم يضيف القرآن في وصفهم قائلاً: «وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا».

ثم يضيف القرآن متحدثاً عنهم: إننا مسلمون لا في هذا اليوم فحسب، بل «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ». ثم يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعة التي آمنت بالنبي من غير تقليد أعمى، وإنما طلباً للحق، فيقول: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا».

فمرة لإيمانهم بكتابهم السماوي الذي كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه ... ومرة أخرى لإيمانهم بنبي الإسلام العظيم صلى الله عليه و آله النبي الموعود المذكور عندهم في كتبهم السماوية.

ثم يشير القرآن الكريم إلى بعض أعمالهم الصالحة من قبيل «دفع السيئة بالحسنة» و «الإنفاق مما رزقهم الله» و «المرور الكريم باللغو والجاهلين» وكذلك الصبر والإستقامة، وهي خصال أربع ممتازة. حيث يقول في شأنهم القرآن الكريم: «وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ». والخصلة الأخرى في هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنهم: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

وليس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من كل ما رزقهم الله من العلم والقوى الفكرية والجسمية والوجاهة الإجتماعية، وجميع هذه الامور من مواهب الله ورزقه- فهم ينفقون منها في سبيل الله.

وآخر صفة ممتازة بينها القرآن في شأنهم قوله: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ».

ولم يردوا الجهل بالجهل واللغو باللغو، بل «وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ».

ثم يضيف القرآن في شأنهم حين يواجهون الجاهلين يقولون: «سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَانْتَبَغِي الْجَاهِلِينَ». أجل، هؤلاء العظام هم الذين يستطيعون أن يستوعبوا رسالة الإيمان في نفوسهم، والذين بذلوا جهداً وقاموا أنواع الصعاب ليصلوا إلى معنى «الإيمان».

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)

الهداية بيد الله وحده: إن الآيات السابقة كانت تتحدث عن طائفتين: طائفة من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٩

مشركي أهل مكة المعاندين، كان رسول صلى الله عليه و آله شديد الإصرار على هدايتهم؛ وطائفة من أهل الكتاب والأفراد البعيدين عن مكة، تلقوا هداية الله برحابة صدر، ولم يستوحشوا من الضغوط والعزلة وما إلى ذلك.

فمع الإلتفات إلى كل هذه الامور، نلاحظ أن الآية الاولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فنقول: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

والمقصود من الهداية ليس «إراءة الطريق»، لأن إراءة الطريق هي من وظيفة النبي صلى الله عليه و آله، وتشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الإيصال للمطلوب والهدف»، والإيصال إلى المطلوب وإلى الهدف هو بيد الله وحده.

إن هذه الآية بمثابة التسلية والتثبيت لقلب النبي ليطمئن إلى هذه الحقيقة، وهي إنه لا إصرار المشركين وعنادهم وإن كانوا من أهل

مكة، ولا إيمان أهل الحبشة ونجران وغيرهما أمثال سلمان الفارسي وبحيرا الراهب من دون دليل وسبب.

فعليه أن لا يكثرث لعدم إيمان الطائفة الأولى.

وفي الآية الثانية- من الآيتين محل البحث- يتحدث القرآن الكريم عن طائفة اعترفوا بالإسلام في واقعهم وأيقنت به قلوبهم، إلا أنهم لم يظهروا إيمانهم بسبب منافع شخصيه وملاحظات ذاتيه، حيث يقول: «وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا».

هذا الكلام لا يقوله إلا من يستضعف قدرة الله ولا يعرف كيف ينصر الله أوليائه ويخذل أعداءه. لذلك يقول القرآن رداً على مثل هذه المزاعم: «أَوَلَمْ تُمْكِن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَاطِلِمُونَ» (١).

الله سبحانه الذي جعل هذه الأرض المالحه والمليئه بالصخور والخالیه من الأشجار والأنهار، جعلها حرماً تهفوا إليه القلوب، ويؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، كل ذلك بيد قدرته القاهره.

كيف لا يكون قادراً على أن يحفظكم من هجوم حفته من الجاهليين عباد الأوثان؟

(١) «نمکن»: في الآية بمعنى نجعل؛ و «يجبى»: مشتق من ماده «جبايه»، والجبايه معناها الجمع، لذلك يطلق على الحوض الذي يجمع فيه الماء جبايه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٠

فكيف يمكن أن يحرمكم الله منهما بعد الإسلام؟

لتكن قلوبكم قويه وآمنوا بما انزل اليكم فإن رب الكعبه ورب مكه معكم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ بِطُرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)

لا تخدعنكم علائق الدنيا: كان الحديث في الآيات المتقدمه يدور حول ما يدعيه أهل مكة، وقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علينا، وتتكدر حياتنا ويختل وضعنا المعاشي والاقتصادي، وفي هذه الآيات مورد البحث ردان آخران على كلامهم:

الأول: يقول .. على فرض أنك لم تؤمنوا، وحيثم في ظل الشرك مرفهين مادياً، ولكن لا- تنسوا أن تعتبروا بحياء من قبلكم، «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ بِطُرَتْ مَعِيشَتَهَا» (١).

أجل، إن الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، والبطر أساس الظلم، والظلم يجز حياتهم إلى النار ... «فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا».

بلى ... بقيت بيوتهم خاليه خربه متهدمه مظلمه لم يزرها ولم يسكنها أحد إلا لفترة قليله «وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ».

جمله «كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» إشارة إلى أن مالكةا الحقيقي هو الله سبحانه المالك لكل شيء، وإذا ما أعطى ملكاً «اعتبارياً» لأحد، فإنه لا يدوم له طويلاً حتى يرثه الله أيضاً.

و الآية الثانية جواب عن سؤال مقدر، وهو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك الله الطغاة، فلم لم يهلك المشركين من أهل مكة والحجاز، الذين بلغوا حدّاً عظيماً من الطغيان، ولم يكن إثم ولا جهل إلاوارتكبوه، ولم لم يعذبهم الله بعدابه الأليم؟

(١) «بطرت»: مشتقة من «بطر»، ومعناه الطغيان والغرور على أثر وفرة النعم.

يقول القرآن في هذا الصدد: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْعَنُوا عَلَيْهِمْ أَيَّامِنَا».

أجل ... لا يعذب الله قوماً حتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ الله لا يعذبهم، وهو يراقب أعمالهم، «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ».

والتعبير «مَيَّا كُنَّا» أو «وَمَا كَانَ رَبُّكَ» دليل على أنّ سنه الله الدائمة والأبدية التي كانت ولا زالت، هي أن لا يعذب أحداً إلا بعد إتمام الحجّة الكافية.

و آخر آية من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثاني على أصحاب الحجج الواهية، الذين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله: «إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَتَّخِطَفُ مِنَّا مِنْ أَرْضِنَا» وبعدها العرب من ديارنا، وهو قوله تعالى: «وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ مِمَّا عِنْدَكُمْ مِنَ النِّعَمِ الْفَانِي .. إِذْ إِنَّ نِعْمَ الدُّنْيَا تَشُوْبُهُا الْأَكْدَارُ وَالْمَشَاكِلُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَلَيْسَ مِنْ نِعْمَةٍ مَادِيَةٌ خَالِيَةٌ مِنَ الضَّرَرِ وَالْخَطَرِ أَبَدًا».

إضافه إلى ذلك فإنّ النعم التي عند الله «الباقية» لا تقاس مع النعم الدنيوية الزائلة، فنعم الله - إذن - خير وأبقى.

فبموازنة بسيطة يعرف كل إنسان عاقل أنّه لا ينبغي أن يضحى بنعم الآخرة من أجل نعم الدنيا، ولذلك تختتم الآية بالقول: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعِدَانًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالِ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)

كان الحديث في الآيات المتقدمة عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصية، ورجّحوا الشرك على التوحيد، وفي الآيات التي بين أيدينا يبيّن القرآن حال هذه الجماعة يوم القيامة قبال المؤمنين الصادقين. ففي بداية هذه الآيات يلقي القرآن سؤالاً يقارن فيه بين المؤمنين والكافرين، ويشير الوجدان ويجعله حكماً فيقول: «أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٢

وَعِدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

جملة «هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» إشارة إلى الإحضار في محضر الله يوم القيامة للحساب. وجملة «الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا» التي تكررت في سور مختلفة من القرآن الكريم، إشارة إلى حقارة هذه الحياة بالنسبة للحياة الأخرى، لأنّ كلمة «دنيا» في الأصل مأخوذة من «دنو» ومعناها القرب في المكان أو الزمان أو المنزلة والمقام، ثم توسّع هذا المفهوم ليلق بلفظ «دنيا» أو «أدنى على الموجودات الصغيرة التي تحت اليد في مقابل الموجودات الكبيرة، وقد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التي لا قيمة لها في مقابل الأشياء ذات القيمة العالية، وربما استعمل في القرب في مقابل البعد، وحيث إنّ هذه «الحياة» في مقابل العالم الآخر صغيرة ولا قيمة لها وقريبة أيضاً، فإنّ تسميتها بالحياة الدنيا تسمية مناسبة جداً.

ثم يأتي الكلام عن عرصات يوم القيامة ومشاهدها ليجسده أمام الكفار، مشاهد يقشعر منها البدن حين يتصورها الإنسان، فيقول القرآن: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ».

فهذا السؤال في الحقيقة فيه نوع من الإهانة والتوبيخ والعقوبة.

ولكنهم بدلاً من أن يجيبوا بأنفسهم، فإنّ معبوديهم هم الذين يردّون الجواب، ويتبرؤون منهم، ويتنفرون من عبادة المشركين إياهم.

ونعرف أنّ معبودات المشركين وآلهتهم على ثلاثة أنواع: فإمّا أن يكونوا أصناماً «وأحجاراً وخشباً» أو من المقدسين كالملائكة والمسيح، وإمّا أن يكونوا من الشياطين والجنّ. فالذين يردّون على السؤال ويجيبون هم النوع الثالث، كما حكى عنهم القرآن: «قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ».

وتعقياً على السؤال عن آلهتهم وعجز المشركين عن الجواب، يطلب أن يدعوهم لنصرتهم «وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» (١).  
وحيث يعلم المشركون أن دعاءهم غير نافع، وأن المعبودين «الشركاء» لا يمكن أن يفعلوا شيئاً من شدة الهلع والوحشة، أو استجابة  
لأمر الله، يتوجهون إلى الشركاء ويدعونهم كما يقول القرآن الكريم: «فَدَعَوْهُمْ».

(١) التعبير «شركاءكم» مع أن هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء الله سبحانه، هو إشارة إلى أن هؤلاء الشركاء من صنعكم وهم  
متعلقون بكم لا بالله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٣

ومن الواضح أنه لا- أثر لهذا النداء والطلب، ولا- يقال لهم «لييك» .. «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ». فحينئذ لا ينفعهم شيء «وَرَأَوْا الْعَذَابَ».  
ويتمنون «لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ».

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ  
يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

تعقب الآيات محل البحث، على ما كان في الآيات السابقة في شأن المشركين وما يسألون يوم القيامة. فبعد أن يسألوا عن شركائهم  
ومعبودهم، يسألون عن موافقهم وما أبدوه من عمل إزاء أنبيائهم: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ».

ومن المسلم به أن هؤلاء «المشركين» لا يملكون جواباً لهذا السؤال. فكل ما يقولون كاشف عن فضيحتهم وشقائهم، حتى أن الأنبياء  
والمرسلين في ذلك اليوم يجيبون ربهم حين يسألون: «مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَاعْلَمُ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ» (١).

ما الذي يقوله في ذلك اليوم وفي ذلك المكان عمى القلوب من المشركين؟ لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول:

«فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ». أى يسأل بعضهم بعضاً ولا يعرفون جواباً.

وحيث إن أسلوب القرآن هو ترك الأبواب مفتوحة بوجه الكافرين والاثمين دائماً، لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الحق في أى مرحلة  
كانوا من الإثم، فإنه يضيف في الآية التي بعدها: «فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ».

فسييل النجاة- حسب ما يوضحه القرآن- يتلخص في ثلاث جمل هي العودة والتوبة إلى الله، والإيمان، والعمل الصالح، وعاقبتهما  
النجاة والفلاح حتماً.

و الآية التي بعدها دليل على نفى الشرك وبطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: «وَرَبُّكَ

(١) سورة المائدة / ١٠٩.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٤

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ». فالخلق بيده، والتدبير والإختيار بيده أيضاً، وهو ذو الإرادة.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك ويتجهون نحو غير الله؟ لذلك فإن الآية تنزه الله عن الشرك وتقول:

«سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أمّا الآية التي بعدها فتتحدث عن علم الله الواسع، وهي تأكيد أو دليل على الإختيار الواسع في الآية السابقة، إذ تقول هذه الآية:  
«وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ».

فإحاطته بكل شيء دليل على اختياره لكل شيء، كما هي- ضمناً- تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أن الله غير مطلع على سرائرهم  
وتياتهم و «مؤامراتهم».

و الآية الأخيرة من هذا المقطع، هي نتيجة الحكم، وتوضيح للآيات السابقة في مجال نفى الشرك، وهي ذات أربعة أوصاف من أوصاف الله، وجميعها فرع على خالقيته واختياره.

فالأول: أنه «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند الله فهو من المضلين الخاطئين.

والثاني: أن جميع النعم دنيوية كانت أم اخروية هي منه، وهي من لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: «لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ».

الثالث: أنه «وَلَهُ الْحُكْمُ». فهو الحاكم في هذا العالم، وفي العالم الآخر.

والرابع: «وَالِيهِ تُرْجَعُونَ» للحساب والثواب والعقاب.

فالله الخالق، وهو المطلع، وهو الحاكم يوم الجزاء، وبيده الحساب والثواب والعقاب.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَأَنْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ لَكُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَيْسَ كُنُوفًا فِيهِ وَلَتُبْتِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٥

نعمتا الليل والنهار العظيمتان: هذه الآيات - محل البحث - تتحدث عن قسم كبير من مواهب الله سبحانه، التي تدل على التوحيد ونفى الشرك من جهة، كما أنها تكمل البحث السابق .. وتذكر مثلاً للنعم التي تستوجب الحمد والشاء. ففي الآية الاولى من هذه الآيات إشارة إلى نعمه النهار والنور الذي هو أساس لآية حركه، فتقول الآية: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَأَنْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ لَكُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَيْسَ كُنُوفًا فِيهِ وَلَتُبْتِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

كما تتحدث الآية الاخرى عن نعمه الظلمة فتقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ لَكُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَيْسَ كُنُوفًا فِيهِ وَلَتُبْتِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

أمّا الآية الثالثة فتحكى عن نتيجة النعمة المشار إليها في الآيتين السابقتين فيقول: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِيَتَشْكُرُوا فِيهِ وَلَتُبْتِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

إن سعة رحمة الله تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم.

ومرة اخرى - بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد ونفى الشرك - يعود القرآن الكريم على السؤال الأول الذي أثير في الآيات السابقة ليقول: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ».

وهذه الآية مكررة في السورة نفسها، إذ وردت بنصها في الآية (٦٢)، ولعل هذا التكرار ناشىء عن السؤال مرتين في يوم القيامة، مرة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيدخلوا من أنفسهم، ومرة بصورة عامة في محضر الشهود، وهو ما أشير إليه في الآية التي بعدها .. ليخجلوا أيضاً من حضورهم. لذلك تأتي الآية التي بعدها فتقول: «وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» (١). أيها المشركون الضالون.

وحين تنكشف المسائل وتتجلى الامور لا تبقى خافية، «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقربنة الآيات الاخرى في القرآن، إذ أن كل نبي شاهد على امته، ونبي الخاتم صلى الله عليه وآله الذي هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء والامم.



(١) التعبير «نزعنا» التي تعنى جذب الشيء من مقره، هي إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة وامة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٦

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

الثرى الإسرائيلي البخيل: جاء تفصيل قصة موسى عليه السلام العجيبة ومواجهاته ومواقفه مع فرعون في قسم كبير من الآيات السابقة في هذه السورة.. وفي القسم الآخر من آيات هذه السورة، وقع الكلام على مواجهة بنى إسرائيل مع رجل ثرى منهم يدعى «قارون». المعروف أن «قارون» كان من أرحام موسى وأقاربه (ابن عمه أو ابن خالته) وكان عارفاً بالتوراة، وكان في بداية أمره مع المؤمنين، إلّا أن غرور الثروة جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السلام وأماته ميتة ذات عبرة للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك في الآيات التالية. يقول القرآن في شأنه أولاً: «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ». وسبب بغيه وظلمه إنه كان ذا ثروة عظيمة، ولأنه لم يكن يتمتع بإيمان قوى وشخصية متينة فقد غرته هذه الثروة الكبيرة وجرتّه إلى الانحراف والاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: «وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ». «المفتاح»: جمع «مفتاح» معناه المكان الذى يدخّر فيه الشيء، كالصندوق الذى يحفظ فيه المال، وهو ما يسميه بعض التجار بـ «القاصة». فيكون المعنى: إن قارون كان ذا مال كثير ووفير من الذهب والفضة، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء «أُولَى الْقُوَّةِ». «تنوًا»: مشتقّه من «النوء» ومعناه القيام بمشقة وثقل، وتستعمل في حمل الأثقال التى لها ثقل ووزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه.

والآن لنرى ما قال بنو إسرائيل لقارون، يقول القرآن في هذا الصدد: «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» (١).

(١) «الفرحين»: جمع الفرح، وتعنى من يكون مغروراً على أثر تملكه الشيء و متكبراً بطراً منتشياً من ربح النَّصر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٧

ثم يقدمون له أربع نصائح قيمة اخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم من قولهم له: «لَا تَفْرَحْ».

فالنصيحة الاولى قولهم له: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ». وهذا إشارة إلى أن المال والثروة ليس أمراً سيئاً كما يتصوره بعض المتوهمين، المهم أن تعرف فيم يستعمل المال، وفي أى طريق ينفق. وكان قارون رجلاً ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة بسبب أمواله الطائلة، ولكن ما الفائدة منها وقد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

والنصيحة الثانية قولهم له: «وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا». والآية تشير إلى مسألة واقعية، وهى أن لكل فرد منا نصيباً من الدنيا، فالأموال التى يصرفها على بدنه وثيابه ليظهر بمظهر لائق هى أموال محدودة، وما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئاً، وعلى الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة... فالإنسان... كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟ وكم يستطيع أن يلبس من الثياب؟ وكم يمكن أن يحوز من المساكن والمراكب؟ وإذا مات وكم يستطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟ فالباقي - إذن - رضى أم أبى هو من نصيب الآخرين.

وما أجمل قول الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة حيث يقول: «يا بن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك».

والنصيحة الثالثة هى: «وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

وبتعبير آخر: كما أن الله تفضل عليك وأحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

والنصيحة الرابعة والأخيرة أن لا- تغرنك هذه الأموال والإمكانات المادية فتجرك إلى الفساد: «وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَأُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ».

وهذا أيضاً حقيقة واقعية أخرى، إن كثيراً من الأثرياء وعلى أثر جنون زيادة المال- أحياناً- أو طلباً للاستعلاء، يفسدون في المجتمع، فيجرون إلى الفقر والحرمان، ويحتكرون جميع الأشياء في أيديهم.

والآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغي والظالم الإسرائيلي لجماعته الواعظين له.

فأجابهم قارون بتلك الحالة من الغرور والتكبر الناشئة من ثروته الكبيرة، و «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي».

هذا لا يتعلق بكم، وليس لكم حق أن ترشدوني إلى كيفية التصرف بمالي.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٨

وهنا يجب القرآن على قول قارون وأمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول: «أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا».

أقول: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي» ونسيت من كان أكثر منك علماً وأشد قوّة وأثرى مالاً، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضه العذاب الإلهي؟!!

وفي ختام الآية إنذار ذو معنى كبير آخر لقارون، جاء في غاية الإيجاز: «وَلَا يُسَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ».

بعبارة أخرى: أن العلماء من بنى إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم وكان لديه مجال والجواب، لكن بعد إتمام الحجّة ونزول العذاب الإلهي، عندئذ لا مجال للتفكير والجواب، فإذا حلّ العذاب الإلهي بساحته فهو الهلاك الحتمي.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسِدْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

جنون الثروة: المعروف أن أصحاب الثروة يتلون بأنواع الجنون ... وواحد منها «جنون عرض الثروة وإظهارها» فهؤلاء يشعرون باللذة عندما يعرضون ثروتهم على الآخرين، فإن قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدّ مثلاً بارزاً له، والقرآن يتحدث عنه في جملة موجزة في بعض آياته فيقول: «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ». امام قومه من بنى إسرائيل.

وجملة «في زينته» ناطق عن هذه الحقيقة، وهي أنه أظهر جميع قدرته وقوته ليبدى ما لديه من زينة وثروة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٩

هنا أصبح الناس طائفتين - بحسب العادة فطائفه وهم الأكثرية- من عبدة الدنيا- أثارهم هذا المشهد، فاهترت قلوبهم ... «قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».

وأمام هذه الطائفة التي ذكرناها آنفاً طائفة أخرى من العلماء والمتقين الورعين، فهؤلاء كانوا هناك، وكان لهم موقف آخر من قارون، وكما يعبر عنهم القرآن «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا». ثم أردفوا مؤكدين: «وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ».

في الدر المنثور عن ابن عباس أن قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه وكان يبتغي العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده.

فقال له موسى عليه السلام: إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى. فقال: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم

بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا- نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن ارسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل فترسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنه فجر بك. قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال: نعم. فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربك؟ قال:

أمرنى أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنك قد زنت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام أنشدتك بالله إلأما صدقت. قالت: أما إذا نشدتنى فإنهم دعونى وجعلوا لى جعلاً على أن أقذفك بنفسى وأنا أشهد أنك برىء وأنتك رسول الله.

فخرّ موسى عليه السلام ساجداً يبكى فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذهم فغيبتهم فأوحى الله: «يا موسى سألك عبادى وتضرعوا إليك فلم تجبهم فو عزتى لو أنهم دعونى لأجبتهم» (١).

(١) الميزان فى تفسير القرآن ٨٣/١٦.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٠

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ».

يا للعجب ... ففرعون يهوى فى ماء النيل ... وقارون فى أعماق الأرض.

الماء الذى هو سرّ الحياة وأساسها يكون مأموراً بهلاك فرعون، والأرض التى هى مهاد الاطمئنان والدعة تنقلب قبراً لقارون واتباعه. ومن البديهي أن قارون لم يكن لوحده فى ذلك البيت فقد كان معه أعوانه وندماءه ومن أعانه على ظلمه وطغيانه، وهكذا توغلوا فى أعماق الأرض جميعاً. «فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ».

أما آخر آية- محل البحث- فتحكى عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون، وما شابه ذلك. وإذا هم اليوم يقولون: واهاً له، فإن الرزق بيد الله؛ «وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ».

لذلك شكروا الله على هذه النعمة وقالوا: «لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَ لَأَيْفُلِحُ الْكٰفِرُونَ». فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، وعاقبة الغرور والغفلة ونهاية الكفر والشهوة.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

نتيجة حبّ التسلط والفساد فى الأرض: بعد البيان المثير لما حدث لشرى مستكبر ومتسلط، وهو قارون، تبدأ الآية الاولى من هذا المقطع بيان استنتاج كلّى لهذا الواقع وهذا الحدث، إذ تقول الآية: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا». إن ما يكون سبباً لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة فى العلو» أى الاستكبار؛ و «الفساد فى الأرض» وهما الذنوب.

ويقول القرآن فى نهاية الآية: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». و «العاقبة» بمفهومها الواسع هى النتيجة الصالحة، وهى الانتصار فى هذه الدنيا، والجنة ونعيمها فى الدار الاخرى ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣١

وبعد ذكر هذه الواقعية، وهي أن الدار الآخرة ليست لمن يحب السلطة والمستكبرين، بل هي للمتقين المتواضعين وطلبة الحق، تأتي الآية الثانية لتبين قانوناً كلياً وهو مزيج بين العدالة والتفضل، ولتذكر ثواب الإحسان. فتقول: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا». وهذه هي مرحلة التفضل، أي أن الله سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيقه، فإذا أراد الإنسان أن يعطى أجر صاحبه فإنه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلا أن الله قد يضاعف الحسنه بعشر أمثالها وقد يضاعفها بمئات الأمثال وربما بالآلاف، إلا أن أقل ما يتفضل الله به على العبد أن يجازيه عشرة أضعاف حسناته، حيث يقول القرآن في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا».

ثم يعقب القرآن ليدكر جزاء المسيئين فيقول: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وهذه هي مرحلة العدل الإلهي، لأن المسيء لا يجازى إلا بقدر إساءته، ولا تضاف على إساءته أية عقوبة.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَاللَّهُ يَدْعُكَ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل النبي صلى الله عليه وآله بالجحفة في مسيره إلى المدينة، لما هاجر إليها، اشتاق إلى مكة فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: أتشتاق إلى بلدك وهو مولدك؟! فقال: نعم. قال جبرائيل: فإن الله يقول: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ» (١). يعني مكة... ونعلم إن هذا الوعد العظيم تحقق أخيراً.

(١) راجع تفسير الميزان، تفسير القرطبي، ومجمع البيان، «التفسير الكبير» للفخر الرازي، وتفسيرات غيرها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٢

فعلى هذا تعد الآية آنفه الذكر من الإخبار الإعجازي السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النبي صلى الله عليه وآله إلى مكة بصورة قطعية ودون أي قيد وشرط، ولم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهي الكبير.

التفسير

الوعد بعودة النبي إلى حرم الله الآمن: قلنا: إن الآية الاولى من هذه الآيات طبقاً لما هو مشهور بين المفسرين نزلت في «الجحفة» في مسير النبي صلى الله عليه وآله، إلى المدينة إذ كان متوجهاً إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرسول»... لكن هذا الحنين والشوق والتعلق بمكة يؤلمه كثيراً، وليس من اليسير عليه الإبتعاد عن حرم الله الآمن.

وهنا يشرق في قلبه الطاهر نور الوحي، ويبشّره بالعودة إلى وطنه الذي ألفه فيقول: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ». فلا تكثرث ولا تذهب نفسك حسرات، فالله الذي أعاد موسى إلى أمه هو الذي أرجعه أيضاً إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات في مدين.

هو الله سبحانه الذي يردك إلى مكة بكل قوة وقدرة، ويجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقاً في هذه الأرض المباركة.

ثم يضيف القرآن في خطابه للنبي صلى الله عليه وآله، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علمه الله: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

إن طريق الهداية واضح، وضلالهم بين، وهم يتعبون أنفسهم عبثاً، فالله يعرف ذلك جيداً، والقلوب التي تعشق الحق تعرف هذه الحقيقة أيضاً.

أما الآية التالية فتحدث عن نعمة أخرى من نعم الله العظيمة على النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ».

ثم يضيف القرآن في خطابه للنبي صلى الله عليه وآله أن طالما كنت في هذه النعمة: «فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ». ومن المسلم به أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن ظهيراً للكافرين أبداً، إلا أن الآية جاءت في مقام التأكيد على النبي صلى الله عليه وآله وبيان المسؤولية للآخرين.

وفي هاتين الآيتين أربعة أوامر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله، وأربعة صفات لله تعالى، وبها يكتمل ما ورد في هذه السورة من أبحاث.

يقول أولاً: «وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٣

إِلَيْكَ». وبالرغم من أن النهي موجه إلى الكفار، إلا أن مفهوم الآية عدم تسليم النبي صلى الله عليه وآله أمام صد الكافرين، وإحباطهم ومؤامراتهم.

وبهذا الأسلوب يأمر الله النبي صلى الله عليه وآله أن يقف راسخ القدم عند نزول الآيات ولا يتردد في الأمر، وأن يزيل الموانع من قارعة الطريق مهما بلغت، وليسر نحو هدفه مطمئناً، فإن الله حاميهم ومعه أبداً.

وبعد هذا الخطاب الذي فيه جنبه نهى، يأتي الخطاب الثاني وفيه سمة إثبات فيقول: «وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ».. فالله الذي خلقك وهو الذي ربأك ورعاك ...

والأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد الله، هو نفى جميع أنواع الشرك وعبادة الأصنام «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

والأمر الرابع تأكيد آخر على نفى جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ».

وهذه الأوامر المتتابعة كل واحد منها يؤكد الآخر، يوضح أهمية التوحيد في المنهج الإسلامي، إذ بدونها يكون كل عمل زيفاً ووهماً. وبعد هذه الأوامر الأربعة تأتي أوصاف أربعة لله سبحانه، وهي جميعاً تأكيد على التوحيد أيضاً:

فالأول قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

والثاني قوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

والوصف الثالث: «لَهُ الْحُكْمُ» والحاكمية في عالمي التشريع والتكوين.

والرابع: أن معادنا إليه «وَالِيهِ تُرْجَعُونَ».

والأوصاف الثلاثة الأخيرة يمكن أن تكون دليلاً على إثبات التوحيد وترك جميع أنواع عبادة الأصنام، الذي أشير إليه في الوصف الأول.

«نهاية تفسير سورة القصص»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٥

## ٢٩ سورة العنكبوت

محتوى السورة: إن أبحاث هذه السورة تتلخص في أربعة أقسام:

١- في البداية يتحدث عن مسألة «الامتحان»، وموضوع «المنافقين»، وهذان الأمران متلازمان لا يقبلان الانفكاك.

٢- وقسم آخر من هذه السورة هو لتسليق قلب النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين القلة الأوائل، عن طريق بيان جوانب من حياة الأنبياء العظام السابقين، أمثال نوح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام وعواقبهم؛ إذ واجهوا أعداء ألداء أمثال نمرود وطواغيت المال

البعلاء.

٣- ثم يتحدث عن التوحيد ودلائل الله في عالم خلقه، والمواجهة مع المشركين، ويدعوا الفطرة والوجدان إلى الإحتكام والقضاء الحق.

٤- وفي قسم آخر من هذه السورة، ففيه مباحث متنوعة عن عجز الأصنام المصنوعة التي تعبد من دون الله، وعبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، وبيان عظمة القرآن، ودلائل حقانية نبي الخاتم، ولجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، والعمل الصالح، والإحسان إلى الوالدين، وأسلوب مناقشة المخالفين، وما إلى ذلك.

وتسمية السورة هذه بـ «العنكبوت» مأخوذة من الآية (٤١) من هذه السورة، التي تشبه عبدة الأوثان من دون الله بالعنكبوت، التي تبنى بيتها من نسيجها، وهو أوهن البيوت.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٦

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين».

وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله من أهل الجنة، لا أستثنى فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب الله علي في يميني إثماً، وإن لهاتين السورتين من الله مكاناً».

ولا شك أن محتوى هاتين السورتين الغزير، والدروس العملية المهمة منها في التوحيد، وما إلى ذلك، كله كاف لأن يسوق أي إنسان ذى لب وفكر وعمل إلى الجنة والخلود فيها.

الم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

نواجه في بداية هذه السورة الحروف المقطعة «الم» أيضاً .. وقد بينا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة «١».

وبعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، وهي مسألة الشدائد والضغوط والامتحان الإلهي فيقول أولاً: «أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» «٢».

ثم يذكر القرآن هذه الحقيقة- بعد الآية المتقدمة مباشرة- وهي أن الامتحان سنة إلهية دائمة جارية في جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

ووقعوا أيضاً- تحت تأثير ضغوط الأعداء القساء والجهلة المعاندين ..

وينبغي أن يكون الأمر كذلك، لأنه في مقام الإدعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنه أشرف مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحية .. فلا بد من معرفة قيمة هذه الإدعاءات بالامتحان، وينبغي أن تعرف النيات والسرائر إلى أي مدى تنسجم مع هذه الادعاءات.

(١) يراجع بداية تفسير سورة البقرة وبداية سورة آل عمران وبداية تفسير سورة الأعراف.

(٢) «يفتنون»: مشتق من «الفتنة» وهي في الأصل وضع الذهب في النار لمعرفة مقدار خلوصه، ثم أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهري ومعنوي.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٧

أجل: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ».

من البديهي أن الله يعرف جميع هذه الامور جيداً- قبل أن يخلق الإنسان- إلّا أن المراد من العلم هنا هو ظهور الآثار والشواهد العملية

... ومعناه أنه ينبغي أن يرى علم الله في هذه المجموعة عملياً في الخارج، وأن يكون لها تحقق عيني.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

لا- مهرب من سلطان الله: كان الكلام في الآيات السابقة عن امتحان المؤمنين الشامل، والآية الاولى من الآيات أعلاه تهديد شديد للكفار والمذنبين، لئلا يتصوروا أنهم حين يضيقون على المؤمنين ويضغطون عليهم دون أن يعاقبهم الله فوراً، فإن الله غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم، تقول الآية هذه: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». فلا ينبغي أن يغرهم إمهال الله إياهم فهو امتحان لهم، كما أنه فرصة للتوبة والعودة إلى ساحة الله تعالى.

ثم يتحدث القرآن مرة أخرى عن سير المؤمنين ومناهجهم، ويقدم النصح لهم، فيقول: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ». فعليه أن يعمل ما في وسعه على امتثال الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، لأن الوقت المعين سيأتي حتماً «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ».

ثم إن الله سبحانه يسمع أحاديثكم، وهو مطلع على أعمالكم وثباتكم ... لأنه «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

إن «لقاء الله» في يوم القيامة ليس لقاءً حسيّاً بل نوعاً من الشهود الباطني.

وكما يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: إن المقصود من لقاء الله، هو أن العباد يكونون في موقف لا يكون بينهم وبين الله حجاب، لأن طبيعته يوم القيامة هي ظهور الحقائق كما يقول القرآن: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ». سورة النور الآية (٢٥).

أما الآية التي تليها فهي تعليل لما سبق بيانه في الآية الآنفه، إذ تقول: إن على المؤمنين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٨

الذين يرغبون في لقاء الله السعي بما اوتوا من قدره وقابلية من أجل ذلك فإن نتيجة كل ذلك السعي والجهاد وتحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». إن خطه الامتحان الإلهي هي الجهاد، جهاد النفس وهواها، وجهاد الأعداء الألداء، لحفظ الإيمان والتقوى والطهارة، ونفع ذلك يعود للإنسان ...

و آخر آية- محل البحث- توضيح لما تقدم ذكره في الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد فيقول: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

إذن أول فائدة كبيرة لهذا الجهاد الكبير (وهو الإيمان والعمل الصالح) هي تكفير الذنوب وسترها على الإنسان، كما أن الثواب سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن في نهاية هذه الآية أيضاً: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«نكفر»: مشتقة من مادة «تكفير» ومعناها في الأصل التغطية والستر، والمقصود بتغطية الذنوب هنا عفو الله وصفحه.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْأَنْسِيَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسِينًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَا تُطْعَمُهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

سبب النزول

وردت روايات مختلفة في شأن نزول الآية الآنفه الذكر، ومضمون الجميع واحد وهي أن بعض الرجال الذين كانوا في مكة وأسلموا «١»، حين سمعت امهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاماً ولا يشربن ماءً حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، وبالرغم من أن أية واحدة من هؤلاء الامهات لم تف بقولها، ورجعت عن إضرابها عن الطعام، إلا أن الآية المتقدمة نزلت لتوضح للجميع اسلوب المعاملة بين الأبناء والآباء والامهات، في مجال الكفر والإيمان.

(١) ورد في بعض الروايات اسم (سعد بن أبي وقاص) وفي بعضها اسم (عياش بن أبي ربيعة المخزومي).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٩

التفسير

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين: إن واحداً من أهم الامتحانات الإلهية، هي مسألة «التضاد» بين خط الإيمان والتقوى وبين علاقة العاطفية والقراءة.. والقرآن في هذا المجال يوضح وظيفة المسلمين بجلاء. في البداية يتحدث عن قانون كلي يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ».

إن التعبير بـ «الإنسان» هنا يلفت النظر.. فهذا القانون لا يختص بالمؤمنين، بل كل من كان جديراً بأن يحمل اسم الإنسان ينبغي أن يكون عارفاً بحق الأبوين... وأن لا ينسى تكريمهما واحترامهما والإحسان إليهما طيلة عمره.. وإن كان كل ذلك لا يفى بحقوقهما. بعد ذلك، ومن أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أن العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمة على العلاقة بين الإنسان وربّه وإيمانه، يأتي استثناء صريح ليوضح هذا الموضوع في الآية، فيقول تعالى: «وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا». جملة «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» إشارة إلى عدم منطقيّة الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحاً واقعاً لكان عليه دليل بين.

وبتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشيء فلا ينبغي أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم ببطلانه؟ فهذا الاتباع هو اتباع للجهل، فلو أنّ الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

ثم يضيف تعالى في نهاية الآية: «إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَبْتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وهذه الجملة تهديد لأولئك الذين يسرون في طريق الشرك، والذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق..

و الآية التي بعدها تؤكد الحقيقة في اولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتكرر هذا المضمون أيضاً: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ».

وأساساً فإن عمل الإنسان يترك في الإنسان أثره.. فالعمل الصالح يصنع الإنسان بلونه ويدخله في زمرة «الصالحين».

كما أن العمل السيء يدخله في زمرة «الخاطئين والمسيئين».

إنّ الكلام في الآيات المتقدمة كان عن غفران الذنوب وتكفير السيئات وما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلّا أنه هنا إشارة عن مقامهم الرفيع الذي هو في نفسه ثواب آخر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٠

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

شركاء في الانتصار أمّا في الشدة فلا: حيث إن الآيات المتقدمة تحدثت عن المؤمنين الصالحين والمشركين بشكل صريح، ففي الآيات الاولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثالث- أي المنافقين- فيقول القرآن فيهم: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ». فلا يصبرون على الأذى والشدائد، ويحسبون تعذيب المشركين لهم وأذى الناس أنه عذاب من الله «وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ». فنحن معكم في هذا الافتخار والفتح.

ترى هل يظنون أن الله خفي عليه ما في أعماق قلوبهم فلا يعرف نيّاتهم «أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ».

ولعل التعبير بـ «آمنّا» بصيغة الجمع، مع أن الجملة التي تليه جاءت بصيغة المفرد، هو من جهة أن هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا



أنفسهم في صف المؤمنين، فلذلك يقولون «آمنّا» أى آمنّا كسائر الناس الذين آمنوا.

وجملة «أوذى فى الله» معناه أوذى فى سبيل الله، أى إنهم قد يتعرض لهم العدو- أحياناً- وهم فى سبيل الله والإيمان فيؤذيهم.

وفى الآية التالية- لمزيد التأكيد- يضيف القرآن قائلاً: «وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ». فلو تصوروا أنهم إذا أخفوا الحقائق فإنهم سيكونون فى منأى عن علم الله فهم فى خطأ كبير جداً.

إن التعبير بالمنافقين لها معنى واسع، ويشمل حتى الأفراد ضعاف الإيمان الذين يبدلون عقيدتهم لأذنى مكروه يصيبهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤١

و الآية الاخرى بعدها تشير إلى منطق المشركين الخاوى والملتوى، الذى لا يزال موجوداً فى طبقات المجتمع الواسعة فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ».

واليوم نرى كثيراً من الخبثاء يقولون للآخرين عند دعوتهم إلى أمر: إن كان فيه ذنب فعلى رقابنا فى حين أننا نعلم أنه لا يمكن لأحد أن يتحمل وزر أحد، فالله عادل سبحانه ولا يؤاخذ أحداً بجرم الآخر.

لذلك فإن القرآن يقول بصراحة فى الجملة التالية: «وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ».

وبعد ذلك، ومن أجل أن لا يتصور أن هؤلاء الدعاء للكفر والشرك وعبادة الأصنام والظلم، لا شىء عليهم من العقاب لهذا العمل، فإن القرآن يضيف فى الآية التالية قائلاً: «وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ».

وثقل الذنب هذا ... هو ثقل ذنب الإغراء والإغواء وحث الآخرين على الذنب، وهو ثقل السنّة التى عبر عنها النبى صلى الله عليه وآله فقال: «من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شىء» (١).

وتختتم الآية بالقول: «وَلْيَسْلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تَكَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)

(١) التفسير الكبير ٢٥ / ٤٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٢

إشارة لقصى نوح وإبراهيم: لما كان الكلام فى البحوث السابقة عن الإمتحانات العامة فى الناس، فإن الكلام هنا- وفى ما بعد- يقع على الإمتحانات الشديدة للأنبياء.

تبدأ الآيات أولًا بالكلام على أول نبى من أولى العزم وهو نوح عليه السلام وتتحدث عنه بعبارات موجزة، لتُجمل قسماً من حياته التى تناسب- كثيراً- الواقع الراهن للمسلمين- آتئذ- فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا».

كان نوح مشغولاً ليل نهار بالتبليغ ودعوة قومه إلى توحيد الله- فرادى ومجتمعين، مستفيداً من جميع الفرص فى هذه المدة الطويلة (أى تسعمائة وخمسين عاماً) يدعوهم إلى الله ... ولم يشعر بالتعب والنصب من هذا السعى المتتابع ولم يظهر عليه الضعف والفتور.

ومع كل هذا الجهد الجهد لم يؤمن به إلا جماعة قليلة فى حدود الثمانين شخصاً كما تنقل التواريخ (أى: بمعدل نفر واحد لكل اثنتى عشرة سنة).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف والتعب فى سبيل الدعوة إلى الحق ومواجهة الانحرافات، لأنّ منهجكم أمام منهج «نوح» سهل للغاية.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبة قوم نوح الظالمين الألداء: «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ». ويضيف القرآن الكريم في الآية الاخرى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ».

ثم يعقب على قصة نوح وقومه التي وردت بشكل مضغوط، ويأتى بقصة إبراهيم عليه السلام، ثانى الأنبياء الكبار من أولى العزم فيقول: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَم خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». إذ ينجيكم من دنياكم الملوثة بالذنوب والشقاء، وتكون آخرتكم هى السعادة الأبدية.

ثم يذكر إبراهيم عليه السلام أدله بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ويبين فى تعابير مختلفه يتضمن كل منها دليلاً على فساد مذهبهم وبطلانه فيقول أولاً: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا».

الأصنام التى ليس لها إرادة، ولا عقل، وهى فاقدة لكل شىء، بحيث إن شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان». ثم يتوسع فى حديثه ويمضى إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنكم تكذبون وتضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: «وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٣

ثم يبين الدليل الثالث وهو أن عبادتكم لهذه الأوثان إما لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم فى «الآخرة» وكلا الهدفين باطل ... وذلك: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَآيَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا».

وأنتم تعتقدون بأن هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو الله، فالذى يتكفل بالرزق هو الله، «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ».

ولأنه هو الذى يرزقكم فتوجهوا إليه «وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ».

وإذ كنتم تبتغون الدار الاخرى فإنه «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فالأصنام لا تصنع شيئاً هنا ولا هناك.

وبهذا الأدلة الموجزة والواضحة ألجم منطقهم الواهى وأفحمهم.

ثم يلتفت إبراهيم عليه السلام مهتداً لهم ومبدياً عدم اكترائه بهم قائلاً: «وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ» كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزي بتكذيبهم والعاقبة الوحيمه «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ» سواء استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته وبلاغه.

والمقصود بالامم قبل امه إبراهيم عليه السلام، امه نوح عليه السلام وما بعده من الامم.

والقرآن يترك قصة إبراهيم هنا مؤقتاً، ويكمل البحث الذى كان لدى إبراهيم فى صدد التوحيد وبيان رسالته بدليل المعاد، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». أى كيف لا يعرف هؤلاء خلق الله؟ فالذى له القدرة على الإيجاد أولاً قادر على إعادته أيضاً.

ويضيف فى آخر الآية على سبيل التأكيد: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». لأن تجديد الحياة قبال الإيجاد الأول يُعدّ أمراً بسيطاً.

وطبيعى أن هذا التعبير يناسب منطق الناس وفهمهم، وإلا فإن السير والعسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة والمطلقة.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُوءُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٤

الآيسون من رحمة الله: هذه الآيات تواصل البحث فى المعاد أيضاً، فإن القرآن يدعو فى الآية الاولى من هذا المقطع الناس إلى «السير فى الآفاق» فى مسألة المعاد ... فى حين أن الآية السابقة كانت السمه فيها «السير فى الأنفس» أكثر. يقول القرآن:

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ». انظروا إلى أنواع الموجودات الحيه، والاقوام والامم المتنوعه والمختلفه، وكيف أن

اللَّهِ تَعَالَى خَلَقَهَا أَوَّلًا، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ نَفْسَهُ الَّذِي أَوْجَدَهَا فِي الْبَدَايَةِ مِنَ الْعَدَمِ قَادِرٌ أَيْضًا عَلَى إِيجَادِهَا فِي الْآخِرَةِ: «ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» ولأنه أثبت قدرته على كل شيء حين خلق الخلق أولًا، إذن فـ «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فهذه الآية والآية التي قبلها- أيضاً- أثبتنا بواسطة قدرته الواسعة إمكان المعاد ..

«النشأة»: في الأصل، تعني إيجاد الشيء وتربيته، وقد يعبر أحياناً عن الدنيا بالنشأة الأولى، كما يعبر عن الآخرة بالنشأة الآخرة.

ثم يتعرض القرآن الكريم إلى إحدى المسائل المتعلقة بالمعاد، وهي مسألة الرحمة والعذاب، فيقول: «يُعَذَّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ».

ومع أن رحمة الله مقدمة على غضبه، إلّا أنّ الآية هنا تبدأ أولاً بذكر العذاب ثم الرحمة، لأنها في مقام التهديد، وما يناسب مقام التهديد هو هذا الأسلوب.

وإكمالاً لهذا البحث الذي يبين أن الرحمة والعذاب هما بيد الله والمعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان الله وحكومته ولا يمسّكم عذابه، فأنتم في خطأ كبير... فليس الأمر كذلك؛ «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» (١).

وإذا كنتم تتصورون أنكم تجدون من يدافع عنكم وينصركم هناك، فهذا خطأ محض أيضاً: «وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

وهكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين.. لذلك يقول في الآية التي بعدها بشكل قاطع: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَايَتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَشُؤا مِنْ رَّحْمَتِي». ثم يضيف مؤكداً: «وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمة الله.

(١) «معجزين»: مشتقة من مادة «عجز»، ومعناها في الأصل التخلف والتأخر عن الشيء، ولذلك تستعمل هذه الكلمة في الضعف الباعث على التخلف والتأخر؛ «المعجزة»: معناه الذي يجعل الآخر عاجزاً، وحيث إنّ الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد وقدرته، يعجزونه عن ملاحقتهم، لذلك استعملت كلمة «معجز» في هذا الصدد أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٥

والمراد بـ «آيات الله» هي جميع الآيات في عالم الوجود والتشريع.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ كَمَا بَغِضَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالنَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) فَمَا مِنْ لَهٍ لُحُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

اسلوب المستكبرين في جوابهم لإبراهيم: والآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضالون لإبراهيم عليه السلام رداً على أدلته الثلاثة في مجال التوحيد والنبوة والمعاد؟!

إنهم- قطعاً- لم يكن لديهم جواب منطقي وكجميع الأقوياء المستكبرين فقد توسلوا بقدراتهم الشيطانية وأصدروا أمراً بقتله، حيث يصرح بذلك القرآن الكريم فيقول: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ».

وأخيراً رُجِحَ الرأي الأول، لأنهم كانوا يعتقدون أن أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنار.

وفي هذه الآية الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار سوى هذا المقدار الذي استكملت به الآية الكريمة، وهو «فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ».

غير أن تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد في سورة الأنبياء الآيات (٤٨-٧٠) وقد بينا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته. ويضيف القرآن في الختام: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

إن إبراهيم عليه السلام نجى من النار بصورة خارقة للعادة وبلطف الله سبحانه، غير أنه لم يترك أهدافه .. بل نهض بالأمر وازداد همّة وأعطى لأهدافه حرارة أكثر.

ثم توجه إبراهيم إلى المشركين، «وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٦

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». ولكن هذه المودة والمحبة تتلاشى في الآخرة، «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّمَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ» «وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ».

إن عبادة الصنم أو الوثن كانت رمزاً للوحدة لكل قوم ولكل قبيلة، كما تربط بينهم وبين اسلافهم. ثم بعد هذا كله فإن سراة الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عبادة الأوثان، وكان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراة والأتباع.

ولكن هذه العلاقات والوشائج والإرتباطات الخاوية تتقطع جميعها يوم القيامة.

وفي الآية التي بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط وهجره إبراهيم، إذ تقول: «فَأَمَرَ لَهُ لُوطُ».

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، وكانت له مع إبراهيم علاقة قري «يقال إنه كان ابن أخت إبراهيم عليه السلام» وحيث إن أتباع شخص عظيم - لإبراهيم - بمنزلة أفراد امه كاملة فقد تحدث سبحانه - خاصة - عن إيمان «لوط» وشخصيته الكبرى المعاصرة لإبراهيم عليه السلام، ليتضح أنه إذ لم يؤمن الآخرون، فإن ذلك ليس مهماً.

ثم تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السلام، فتقول: «وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فلذلك تحرك إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة - بمعينه لوط - من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء والتوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعه هناك ويوسع دعوة التوحيد.

وفي آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التي منحها الله لإبراهيم عليه السلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الاولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق ويعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان والنبوة في بيته وأسرته ويحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ». وهما نبيان كبيران واصل كل منهما السير على منهاج إبراهيم محطم الأصنام.

الموهبة الثانية: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ».

الموهبة الثالثة: «وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا». فما هو هذا الأجر الذي لم يوجهه القرآن؟ لعله إشارة إلى امور مختلفة مثل الاسم الحسن، ولسان الصدق والثناء بين جميع الامم، لأن الامم كلها تحترم إبراهيم عليه السلام على أنه نبي عظيم الشأن، ويفتخرون بوجوده

ويسمونه «شيخ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٧

الأنبياء».

الموهبة الرابعة، هي: «وَإِنَّهُ فِي الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». وهكذا تشكل هذه المواهب مجموعة كاملة من المفخر.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَأَتَاتُونَنِي الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أ إِنَّكُم لَأَتَاتُونَنِي الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَنِي فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ

(٣٠)

المنحرفون جنسياً: بعد بيان جانب مما جرى لإبراهيم عليه السلام يتحدث القرآن عن قسم من قصة حياة النبي المعاصر لإبراهيم «لوط عليه السلام» فيقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَأَتَاتُونَنِي الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ». «الفاحشة»: مشتقة من مادة «فَحَشَى»

وهى فى الأصل تعنى كل فعل أو كلام سىء للغاية، والمراد بها هنا الانحراف الجنىسى. (اللوواط).

لوط عليه السلام هذا النبى العظيم، كشف أخيراً ما فى نفسه وقال لقومه: «أَنْتُمْ كُنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ». أفتريدون أن تقطعوا النسل «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ».

ولا ترعون عن الأعمال المخزية فى مجالسكم العامة «وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ».

«النادى»: مشتق من «النداء» وهو يعنى المجلس العام، كما يأتى أحياناً بمعنى مكان التنزه، لأن الأفراد هناك ينادى بعضهم بعضاً وترتفع أصواتهم.

ورد فى التواريخ: إنهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش والإبتذال، أو يضرب أحدهم الآخر على ظهره، أو يلعبون القمار، ويستعملون أنواع الآلات الموسيقية، ويكشفون عوراتهم فى مجتمعهم ويغدون عراه ... الخ «١».

والآن فلنلاحظ ماذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النبى لوط عليه السلام المنطقية. يقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

وهنا لم يكن للوط عليه السلام بد إلا أن يلتفت إلى الله بقلب حزين مهموم ... و «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٨

عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ». القوم المنحرفين، المتمادين فى الأرض فساداً، والذين تركوا تقواهم وأخلاقهم الإنسانية وألقوا العفة والطهارة خلف ظهورهم، ومزجوا عبادة الأوثان بفسد الأخلاق والظلم، وهددوا نسل الإنسان بالفناء والزوال.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّه وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

وهذه هى عاقبة المنحرفين: لقد استجيب دعاء لوط أخيراً، وصدر الأمر من الله تعالى بالعقاب الصارم والشديد لهؤلاء القوم المنحرفين والمفسدين، فمّر الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التى فيها إبراهيم عليه السلام لأداء رسالته اخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، وهذه الرسالة التى سبقت العذاب، هى بشارتهم لإبراهيم عليه السلام بالولد: «بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب».

والآيات المتقدمة تذكر أولاً قصة مرورهم بإبراهيم عليه السلام فتقول: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ».

والتعبير «هذه القرية» يدل على أن مدين قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السلام.

والتعبير «الظالمين» هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك والفساد الأخلاقى وعدم العفة، وظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين والقوافل التى كانت تمر على طريقهم.

فلما سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النبى العظيم و «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٩

فما عسى أن تكون عاقبته؟

إلما أنهم أجابوه على الفور: «فَمَا لَوْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا» فلا تحزن عليه، لأننا لا نحرق «الأحضر واليابس» معاً، وخطتنا دقيقة ومحسوبة تماماً ... ثم أضافوا: «لَنَنْجِيَنَّه وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

إنتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، وتوجهوا إلى ديار لوط عليه السلام وقومه، يقول القرآن في هذا الشأن: «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

فقد جاؤوا إليه بهيئة فتیان ذی وجوه ملیحة، ومجىء أمثال هؤلاء الضیوف فی مثل هذا المحیط الملوّث، ربّما كان یجرّ علی لوط الوبال.

«سوء»: مشتقة من «ساء» ومعناه سوء الحال؛ و «الذرع»: معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى «ضاق بهم ذرعًا» أى ضاق قلبه وانزعج.

إلّا أنّ الضیوف حین أدركوا عدم إرتیاحه كشفوا عن «هویتهم» وعرفوا أنفسهم ورفعوا عنه الحزن: «وَقَالُوا لَمَّا تَخَفْ وَلَمَّا تَخْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَأَنَّ مِنَ الْغَابِرِينَ».

وبعد هذا، ولكى تتضح خطّة عملهم فی شأن عاقبة هؤلاء القوم المنحرفین أكثر، أضافوا: «إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

والمراد ب «القرية» هى «سدوم» من قرى قوم لوط عليه السلام.

والمراد من «الرجز» هنا هو العذاب.

وهنا لم يذكر القرآن كيفية العذاب الأليم، سوى أنه قال: «وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِثْلَهَا يَوْمَ بَيْنَةَ لُقُومٍ يَعْقِلُونَ».

إلّا أنّ فی سورة هود الآیة (٨٢) منها وكذلك سورة الأعراف الآیة (٨٤) منها، تفصیلاً فی بیان العذاب، وهو أنه أصابت قراهم فی البداية زلزلة شديدة فجعلت عاليها سافلها، ثم أمطرت عليها حجارة من السماء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٠

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُشْتَبِهِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

تنوع العذاب للظالمين: بعد بيان قصّة لوط وقومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب وعاد وثمود، وقارون وفرعون، وقد أشير في هذه الآيات - محل البحث - إلى كل منهم إشارة موجزة «مكتنفة» للإستنتاج والعبارة. فى البداية تقول الآیة:

«وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا».

والتعبير بكلمة «أخاهم»، هو إشارة إلى منتهى محبة هؤلاء الأنبياء إلى اممهم، وإلى عدم طلبهم السلطة، وبالطبع فإن هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضاً.

و «مدین» مدينة واقعة جنوب غربى الأردن، وتدعى اليوم ب «معان» وهى فى شرق خليج العقبة، وكان شعيب عليه السلام وقومه يقطنون فيها.

وشعيب كسائر أنبياء الله العظام، بدأ بالدعوة إلى الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، وهما أساس كل دين وطريقته: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ».

فالإيمان بالمبدأ يكون سبباً لإحساس الإنسان بأن الله يراقبه مراقبةً دقيقةً بشكل دائم ويسجل أعماله؛ والإيمان بالمعاد يذكر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شيء وكل عمل مهما كان تافهاً ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥١

مختصر الامثل ج ٣ ٥٩٣

والمبدأ الثالث هو بمثابة خطّة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الإجتماعية، إذ قال: «وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ». وللفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، وتدمير، وظلم .. الخ .. ويقابله الصلاح والإصلاح، ومفهومهما يشمل جميع الخطط البتاءة.

«تعثوا»: من مادة «عثى» ومعناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما في الأمر أن هذا التعبير كثيراً ما يستعمل في الموارد التي تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيداً على هذا المفهوم. إلّا أن تلك الجماعة بدلاً من أن تصغى لمواعظه ونصائحه بآذان القلوب، خالفته ولم تصغ إليه «فكذبوه». وكان هذا التأكيد سبباً في أن تصيبهم زلزلة شديدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ». أي مكبوبين على وجوههم ميتين.

«الجاثم»: مشتق من «جثم» ومعناه الجلوس على الركبة والتوقف في مكان ما ... ولا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة .. فهذا التعبير إشارة إلى أنهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا وجثوا على الركب، إلّا أن الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم ونزلت عليهم الصاعقة التي تزامنت معها فماتوا.

أمّا الآية التي بعده فتتحدث عن «عاد» و «ثمود» قومي (هود وصالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيهما لهما، وما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران في آيات عديدة من القرآن، وهما أي قوم هود وقوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: «وَعَادًا وَثَمُودًا».

ثم تضيف الآية: «وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ» المتهمه والتي هي على طريقكم في منطقة الحجر واليمن. ثم تشير الآية إلى السبب الأصلي لشقائهم وسوء حظهم، إذ تقول: «وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ». وكانت فطرتهم على فطرة الله وتقواه، ولم يأل الأنبياء جهداً في هدايتهم، وبذلوا قدراً كافياً من النصيح والإرشاد لهم، لكنهم حادوا «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ». و الآية الاخرى تذكر أسماء ثلاثة من الجبابرة الذين كان كل واحد منهم بارزاً للقدرة الشيطانية، فتقول: «وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ».

فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور وعبادة «الذات» والأنانية والغفلة. وفرعون كان مظهر القدرة الإستكبارية المقرونة بالشيطنة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٢

وأما هامان، فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين. ثم يضيف القرآن: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ» والدلائل «فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ». فاعتمد قارون على ثروته وخزائنه وعلمه، واعتمد فرعون وهامان على جيشهما وعلى القدرة العسكرية، وعلى قوة إعلامهم وتضليلهم لطبقات الناس المغفلين الجهلة. لكن .. برغم كل ذلك لم يفلحوا «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ».

كلمة «سابقين» تعنى من يتقدم ويكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى: «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ». أي إنهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سلطان الله برغم ما كان عندهم من إمكانات، بل أهلكهم الله في اللحظة التي أراد، وأرسلهم إلى ديار الفناء والذلة والخزي. كما يذكر في الآية التي بعدها: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ».

فإنه يذكر في هذه الآية بحسب الترتيب أنواع عذابهم فيقول: «فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا». «الحاصب»: معناه الاعصار الذي يحمل حصى كثيرة معه.

والمقصود ب «منهم» هنا هم «عاد» قوم هود.

«وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» وهذا هو العذاب الذي عذب الله به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين ...  
«وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ». وهذا هو عقاب قارون الثرى المغرور المستكبر من بنى إسرائيل.  
«وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا». وهذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون وهامان وجنودهما.

ويبين في ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، وهي أن ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أجل، إن عقاب هذه الدنيا والآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح في وجوههم، فالله أكثر عدلاً وأسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٥٥٣

دعامة واهية كبيت العنكبوت: بينت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون والمفسدون الظلمة والأنانيون من مصير وخيم وعاقبة سوداء وعذاب أليم ... وبهذه المناسبة، ففي الآيات التي بين أيدينا، يبين القرآن الكريم مثلاً بليغاً ومؤثراً يعبدون غير الله ويتخذون من دونه أولياء، وكلما أمعنا النظر في هذا المثال وفكرنا فيه ملياً انقذت في أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

والجدير بالذكر، أن بيت العنكبوت ونسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، والتدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر.

فلو دققنا النظر في بيوت العنكبوت لرأينا منظرًا طريفاً مثل الشمس وأشعتها مستقرةً على قواعد هذا «البناء النسيجي»، وبالطبع فإن هذا البيت مناسب للعنكبوت وكاف، ولكنه في المجموع لا يمكن تصور بيت أو هن منه، وهكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين ومعبودهم، إذ تركوا عبادة الله والتجأوا إلى الأصنام والأحجار والأوثان.

أما الآية التالية ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفلة الجهلة .. إذ تقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» ولا يخفى على الله شركهم الظاهر ولا شركهم الخفى «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» على الإطلاق.

وإذا أمهلهم، فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أن قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التي توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجّة البالغة لله عليهم، فيهدى من هو جدير بالهدى.

و الآية الثالثة- من الآيات محل البحث- لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النبي صلى الله عليه وآله في هذه الأمثلة التي ضربها الله، وكانوا يقولون: الله الذي خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟

فرد القرآن بقوله: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ».

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- يضيف القرآن الكريم: «خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ». ليس في عمل الله باطل أو عبث ... فإذا تشبیه بالعنكبوت وبيته الخاوي هو أمر محسوب بدقته، وإذا ما إختار موجوداً صغيراً لتمثيل به فهو لبيان الحق، وإلاً فهو خالق أعظم المجزات والمنظومات الشمسية وغيرها.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٥٥٤

أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفه من قصص الامم السابقة وأنبائهم العظام، يتوجه الخطاب- على سبيل تسليية خاطر، وإراءة الخط الكلى أو الخطوط العامه- للنبي صلى الله عليه وآله ويأمره بما ينبغى عليه أن يفعل. فيبدأ أولاً بقوله: «أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» ... أى إقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه وتطلبه من العلم والحكمة والنصح، ومعيار معرفة الحق من الباطل.



وبعد بيان هذا الأمر الذي يحمل طابعاً تعليمياً، يأتي الأمر الثاني الذي هو محور أصيل للتربية فيقول تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ». ثم يبين فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (١).

طبيعة الصلاة- حيث إنها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الاعتقاد بالمبدأ والمعاد- فإنها تردع عن الفحشاء والمنكر.

إن النهي عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعايتها الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر، فيقدر ما منعه قبلت منه».

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره ومن شأن الصلاة: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ».

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة اخرى في الصلاة، أى أن أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلي للنهي عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر الله، وكونه أكبر لأنه العلة والأساس للصلاة.

وحيث إن نيات الناس، وميزان حضور القلب منهم في الصلاة وسائر العبادات، كل ذلك متفاوت جداً، فإن الآية تختتم بالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ». أى يعلم ما تصنعون

(١) إن الفحشاء هي إشارة للذنوب الكبيرة الخفية، وأمّا المنكر فهو الذنوب الكبيرة الظاهرة، أو أن الفحشاء هي الذنوب التي تنتج بغلبة القوى الشهوانية، والمنكر من أثر القوى الغضبية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٥

من أعمال في الخفاء أو العلى، والنيات التي في قلوبكم أو الكلمات التي تجرى على ألسنتكم.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)

اتبعوا أحسن الأساليب في البحث والجدال: كان أكثر الكلام في الآيات المتقدمة في كيفية التعامل مع المشركين المعاندين وكان مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجة حاداً، أما في هذه الآيات- محل البحث- فيقع الكلام في شأن مجادله أهل الكتاب الذين ينبغي أن يكون الكلام معهم لطيفاً، فيقول القرآن في هذا الصدد: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

«تجادلوا»: مشتق من «جدال» ومعناه في الأصل قتل الحبل وإحكامه، كما تستعمل هذه المفردة في البناء المحكم وما أشبهه، وحين يتناقش اثنان في بحث معين فكل واحد منهما يريد أن يلوى صاحبه عن عقيدته وفكرته .. لذا فقد سُمي هذا النقاش جدالاً.

والمراد من قوله «وَلَا تُجَادِلُوا»، المناقشات المنطقية.

والتعبير بـ «الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» تعبير جامع يشمل الأساليب والطرق الصحيحة والمناسبة للتباحث أجمع.

فعلى هذا إن ألفاظكم ينبغي أن تكون بطريقة مؤدبة، والكلام ذا مودة، والمحتوى مستدلاً، وصوتكم هادئاً غير خشن.

وبالطبع فإن هذا الأصل الكلى في البحث والمجادلة الإسلامية، فقد يُعد في بعض الموارد ضعفاً، أو يكون الطرف الآخر مغروراً إلى درجة أن هذا التعامل الإنساني يزيده جراً وعدواناً وتكبراً، لذلك فإن القرآن يضيف مستثناً: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

وهم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، وكنتموا كثيراً من الآيات، لئلا يطلع الناس

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٦

على أوصاف النبي محمد صلى الله عليه وآله. ويختتم الآية بمصداق بارز من «المجادلة التى هى أحسن» ويمكنه أن يكون قدوة لأى بحث، فيقول القرآن الكريم: «وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». وهذا مثل واحد من المجادلة التى هى أحسن التى ينجذب إليها كل من يسمعها، ويدل على أن الإنسان يجب أن يكون بعيداً عن التحزب أو طلب التفرقة.

و الآية الاخرى تؤكد على الاصول الأربعة التى سبق ذكرها فى الآية المتقدمة، فتقول: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ». أى القرآن. أجل ... نزل هذا القرآن على أساس توحيد المعبود، وتوحيد دعوة جميع الأنبياء إلى الحق، والتسليم دون قيد أو شرط لأمر الله؛ والمجادلة التى هى أحسن.

ثم يضيف القرآن الكريم: «فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» ويعتقدون بصدقه إذ أنهم وجدوا علائمه فى كتبهم، كما أن محتواه من حيث الاصول العامة والكلية منسجم مع كتبهم.

ويضيف القرآن بعدئذ: «وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ». أى أهل مكة والمشركون العرب.

ثم يقول القرآن فى كفر الطائفتين من اليهود والنصارى: «وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ».

ومع الإلتفات إلى أن مفهوم الجحود، هو أن يعتقد الإنسان بشىء بقلبه وينكره بلسانه، فإن مفهوم الجملة المتقدمة أن الكفار يعترفون فى قلوبهم بعظمة هذه الآيات، ويرون علامات الصدق عليها، إلا أنهم ينكرون ذلك عناداً وتعصباً، وتقليداً أعمى لأسلافهم ولآبائهم، ولحفظ منافعهم الشخصية.

ثم يضيف القرآن مشيراً إلى علامة اخرى من علائم حقانية دعوة النبي صلى الله عليه وآله الجلية والواضحة، وهى تأكيد على محتوى الآية السابقة، فيقول: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطُلُونَ». وقالوا إن ما جاءنا به هذا النبي هو حصيلة مطالعته لكتب الماضين.

وفى الآية التالية علامة اخرى أيضاً على حقانية القرآن، إذ تقول: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ».

والتعبير بـ «الآيات البينات» كاشف عن هذه الحقيقة وهى أن دلائل حقانية القرآن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٧

تتجلى بنفسها عياناً، وتشرق فى أرجائه، فدليلها معها.

ثم بعد هذا كله، فإن أتباع هذه الآيات وطلابها المشدودة قلوبهم إليها هم أولوا العلم والإطلاع، بالرغم من أن أيديهم خالية وأرجلهم حافية.

وتختتم الآية بقوله تعالى: «وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» ... لأن دليلها واضح، وقد وردت علائمها فى الكتب المتقدمة. وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مَسِيَ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَعْسُوهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

أليس القرآن كافياً فى إعجازه: الأشخاص الذين لم يذعنوا ويسلموا للبيان الاستدلالي والمنطقي الذى جاء به القرآن بسبب عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولم يقبلوا بكتاب كالتقرآن ... تذرعو بحجة اخرى على سبيل الاستهزاء والسخرية، وهى أنه لم لا تأت - يا محمد - بمعجزة من المعاجز التى جاء بها موسى وعيسى: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ».

ومن دون شك فإن النبي صلى الله عليه وآله كانت لديه معاجز غير القرآن الكريم، إلا أن أولئك لم يكن قصدهم من وراء كلامهم

الحصول على معجزة.

إن القرآن، للرد على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوى الحجج الواهية، يدخل من طريقين: فيقول أولاً في خطابه لنبية: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ». أى قل لأولئك المعاندين أن الله يدرى أية معجزة تناسب أى زمان وأى قوم. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٨

ثم يضيف القرآن معقباً أن قل: «وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

والجواب الآخر هو قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ».

فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، والقرآن بحد ذاته أعظم معجزة معنوية ...

معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم وعلى الأجيال من بعدهم.

وفى نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد والتوضيح بصورة أجلى، فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». «ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، وهو القرآن.

أجل، إن القرآن رحمة «وسيلة» للذكرى والتذكر أيضاً، فهو للمؤمنين الذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقة.

ولعل الفرق بين «الرحمة» و «الذكرى» أن القرآن ليس معجزة وذكرى فحسب، بل هو إضافة إلى كل ذلك يحتوى على القوانين التى تمنح الرحمة والمناهج التربوية والإنسانية.

فمثلاً كانت عصى موسى معجزة فحسب، إلا أنها لم يكن لها أثر فى حياة الناس اليومية، غير أن القرآن معجزة، هو فى الوقت ذاته منهج كامل الحياة ورحمة أيضاً.

ولما كان كل مدع بحاجة إلى الشاهد، فالقرآن يبين فى الآية الاخرى أن خير شاهد هو الله: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا».

وبديهى أنه كلما كان إطلاع الشاهد وشهادته أكثر، فإن قيمة الشهادة تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلاً: «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

يحتمل أن تكون هذه الشهادة شهادة عملية، لأنه حين يؤتى الله نبية معجزة كبرى كالقرآن، فقد وقع على سند حقانته وأمضاه.

وإضافةً للشهادة العملية المتقدمة، نقرأ فى آيات كثيرة من القرآن شهادة قوليه فى نبوة النبي صلى الله عليه وآله.

ويمكن أن المراد من شهادة الله فى الآية هى ما سبق من الوعد والذكر فى كتب الله السابقة «كالتوراة والإنجيل» ويعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصورة جيدة.

وتختتم الآية بنحو من الوعيد والتهديد لأولئك الكفار بالله، فيقول: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ». وأى خسران أعظم من أن يعطوا جميع قواهم الجسمانية والإمكانات الاجتماعية والفردية فى سبيل الإعلام والتبليغ لمذهبهم الوثنى وأهملوا ذكر الله، فلم يعد عليهم هذا إلا بالضرر والخسران.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٩

أما فى الآية التالية فإشارة إلى الذريعة الثالثة إذ تقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ». إذ يقولون: لو كان عذاب الله حقاً على الكافرين فلم لا يأتينا؟! لا يأتينا؟!!

فيجب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة.

الأول: «وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ».

وهذا الزمان المعين (الأجل) إنما هو لهدف أصلى، للإرعواء عن باطلهم وتيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم.

والثانى: إن أولئك الذين يتذرعون بهذا القول ما يدرهم لعل العذاب يأخذهم على حين غرة من أنفسهم «وَلْيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» «١».

وبالرغم من أن موعد العذاب معين ومقرر إلا أن المصلحة تقتضى ألا يطلعوا عليه، وأن يأتيهم دون مقدمات، لأنه لو عرف وقته لكان باعثاً على تجرؤ الكفار والمذنبين وجسارتهم .. وحين يأزف الوعد بالعذاب فإنهم سيتجهون بالتوبة إلى الله وينيبون إليه. والحكمة التربوية لمثل هذا العقاب تقتضى أن يكتفم مواعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسها، ويكون الخوف والإستيحاش منها عاملاً على الردع.

وأخيراً فإن الجواب القرآني الثالث يتبين في الآية إذ يقول: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإن عذاب الآخرة واقع لا محالة، ومحيط بهم تماماً وسيصيبهم حتماً بحيث إن القرآن يذكره بصورة أمر فعلي (وكان جهنم الآن محيطه بهم).

ويوجد تفسير آخر أكثر دقة لهذه الآية، وهو أن جهنم محيطه، الآن فعلاً بالكافرين، من جهتين - بالمعنى الواقعي للكلمة. الجهة الاولى: إنها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم وتلوثهم بالذنوب يحترقون بجهنم التي أعدوها لأنفسهم. والجهة الثانية: طبقاً لظاهر الآيات في القرآن فإن جهنم موجودة فعلاً، فإن جهنم موجودة في باطن الدنيا، وبهذا فهي محيطه بهم على نحو الحقيقة.

ثم يضيف القرآن: «يَوْمَ يَغْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا

(١) «البغته»: مشتقة من «البغت» ومعناه التحقق المفاجيء وغير المنتظر لأمر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٠

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

يمكن أن تكون هذه الآية توضيحاً لإحاطة عذاب جهنم في يوم القيامة بالكفار، ويمكن أن تكون بياناً مستقلاً لذلك العذاب الأليم لهم الذي يحيط بهم اليوم على أثر أعمالهم، وفي غد يتجلى هذا العذاب بوضوح ويكون محسوساً ظاهراً. أما جملة «ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» التي يظهر أن قائلها هو الله تعالى، فهي بالإضافة إلى أنها نوع من العقوبة النفسية لمثل هؤلاء الأشخاص، فهي كاشفة عن هذه الحقيقة، وهي أن عذاب الله ليس إلا انعكاساً للأعمال التي يقوم بها الإنسان نفسه في النشأة الآخرة.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية الاولى في المستضعفين من المؤمنين بمكة امروا بالهجرة عنها.

ونزل قوله «وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا» في جماعة كانوا بمكة يؤذيهم المشركون فأمروا بالهجرة إلى المدينة فقالوا: كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار، ولا غفار ومن يطعمنا ومن يسقينا؟

التفسير

لابد من الهجرة: حيث إن الآيات السابقة كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفة من الإسلام والمسلمين، ففي الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين ومسؤولياتهم قبال المشاكل المختلفة، أي مشاكل أذى الكفار وضغوطهم وقله عدد المسلمين وما إلى ذلك، فتقول الآية الاولى: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَايَ فَاعْبُدُونِ».

لأن الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبداً لله، فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦١

والنهاى مستحيلاً، فلا سبيل عندئذ إلا الهجرة.

وحيث إن البعض بقوا في ديار الشرك، ولم يرغبوا بالهجرة بذريعة أنهم يخشون الخروج من ديارهم ويخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الاخرى التى تهددهم ... إضافة إلى فراق الأحبة والمتعلقين والأبناء والأصدقاء، فإن القرآن يرددهم بجواب جامع قائلاً: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ».

لا تظنوا أن الموت نهاية كل شيء، لأنكم جميعاً «إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» ... إلى الله العظيم، وإلى نعمه التى لا حد لها ولا انتهاء لأمدها. و الآية التالية تبين جانباً من هذه النعم فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (١). والامتياز الآخر لغرف الجنة أنها دائمة «خَالِدِينَ فِيهَا». ويضيف القرآن معقباتاً فى ختام الآية: «نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

والمراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذين يعملون الصالحات المقرونة بإيمانهم، وإن كانت كلمة العاملين مطلقة. و الآية التالية تصف أهم ما يتحلى به المؤمنون العاملون فتقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». إذ يتعدون عن الزوجة والأولاد والأهل والبيت والأحباب والأصدقاء وكل شيء عزيز عليهم، لكنهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مرارة الغربة والتهجير عن أوطانهم ويصبرون.

وإذ أمعنا النظر وفكرنا جيداً رأينا أن الصبر والتوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانية، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق والمشاكل، والتوكل هو الهدف والباعث على الحركة فى هذا الطريق المديد الملتوى.

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- جواب لؤلئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا وأهلينا، فمن سيطعمنا ويرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا- تحزنوا على الرزق ولا تحملوا ثقل الذلة والأسر، فالرازق هو الله، لا لكم فحسب بل: «وَكَايُنَ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ».

(١) «لنُبَوِّئَنَّهُمْ»: من مادة «تبوءة»، معناها إعطاء السكنى للإقامة والبقاء الدائم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٢

فالقرآن يؤكد فى نهاية الآية قائلاً: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

يسمع كلامكم كله، ويعرف لسان حالكم، ولسان حال جميع الدواب، وهو خير بحاجات الجميع، ولا يخفى على علمه الذى لا حد له شيء أبداً.

وَلَيْتُنَّ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفِكُونَ (٦١) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَيْتُنَّ سَأَلْتُهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَمَّا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَبِإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيُكْفَرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

الإقرار بالتوحيد فى الباطن والشرك فى الظاهر: كان الحديث فى الآيات السابقة موجهاً إلى المشركين الذين أدركوا حقايقه الإسلام، إلا أنهم لم يكونوا مستعدين للإيمان والهجرة، خوفاً من انقطاع الرزق عليهم، أما فى هذه الآيات، فالحديث موجه للنبي صلى الله عليه و آله، وفى الواقع لجميع المؤمنين، وهو يبين دلائل التوحيد عن طرق «الخلق»، و «الربوبية»، و «الفطرة»، أى عن ثلاث طرائق متفاوتة، ويريهم أن مصيرهم وعاقبة أمرهم بيد الله الذى يجدون آثاره فى الآفاق وفى أنفسهم، لا بأيدى الأصنام والأوثان التى لا تضر ولا تنفع.

فتبدأ الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث، مشيرةً إلى خلق السماوات والأرض وتستعين باعتقاداتهم الباطنية ...

فتقول: «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ».

لأن من المسلم به أنه لا عبدة الأصنام ولا غيرهم ولا أى أحد آخر يقول: إن خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر حفنة من الأحجار والخشب المصنوعة بيد الإنسان.

وبتعبير آخر: لا يشك في «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين في عبادة الخالق، وكانوا يقولون: إنما نعبد أوثاناً ليقرّبونا إلى الله زلفى، فهم الوسطاء بيننا وبين الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٣

وهم غافلون عن أنه لا تفصل بين الخالق والمخلوق أية فاصلة.

إن الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». أى مع هذا المال كيف يعرضون عن عبادة خالقهم ويستبدلون بها عبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب!؟

«يؤفكون»: مشتقة من «إفك» ومعناها إعادة الشيء من صورته الواقعية والحقيقية.

والتعبير ب «يؤفكون» بصيغة المجهول إشارة إلى أنهم لا قدرة لهم على التصميم، فكأنهم منجذبون إلى عبادة الأوثان دون إرادته. والمراد من تسخير الشمس والقمر النظم التي أقرها الله تعالى، وجعل الشمس والقمر في دائرة هذه النظم في خدمة الإنسان، ومنافعه. ثم يضيف القرآن تأكيداً لهذا المعنى، وهو أن الله خالق الخلق ورازقهم، فيقول: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ». فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس ولا بيد الأصنام.

وإذا كانوا يتصورون أن الله قادر، إلا أنه غير مطلع على حالهم، فهذا خطأ كبير ل «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وفى المرحلة الثانية يقع الكلام عن «التوحيد الربوبى» ونزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ». فهذا هو ما يعتقده عبدة الأصنام فى الباطن، ولا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم، فهم يعرفون أن الخالق هو الله، وأنه رب العالم ومدبره.

ثم يضيف القرآن مخاطباً نبيه: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ». فالحمد والثناء لمن أنعم جميع النعم.

وحيث إن أقوال المشركين من جهة، وأعمالهم وأفعالهم وكلماتهم من جهة أخرى، يناقض بعضها بعضاً، فإن الآية تختتم بإضافة الجملة التالية: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ».

وإلا فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض فى كلماته، فتارة يرى أن الخالق والرازق والمدبر للعالم هو الله، وتارة يسجد للأوثان التى لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس.

ومن أجل أن يحول القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنه يبين فى الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياساً إلى الحياة الأخرى الخالدة، فى عبارة موجزة وملينة بالمعاني، فيقول: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». «اللهو»: معناه الإنشغال، أو كل عمل يصرف الإنسان إليه ويشغله عن مسائل الحياة الأساسية. أما «اللعب»: فيطلق على الأعمال التى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٤

فيها نوع من النظم الخيالى، والهدف الخيالى أيضاً. فالقرآن فى هذا الصدد يشرح حال الدنيا وحال الآخرة، مبيناً أن الحياة الدنيا هى نوع من الإنشغال واللعب، ثم يطوى كل شىء ويغدو فى سلة النسيان.

أما الحياة الحقيقية التى الافناء بعدها، فهى الحياة الآخرة فحسب.

وينبغى الالتفات إلى أن المراد من «الحيوان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدرياً. وهذا التعبير: «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَاةُ» إشارة إلى أن الحياة الحقيقية هى فى الأخرى، لا فى هذه الدار الدنيا- فكأن الحياة فى الأخرى تفور من جميع أبعادها، ولا

شيء هناك إلّا الحياة.

وبديهى أنّ القرآن لا يريد أن ينسى وينفى مواهب الله في هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الاخرى قياساً صريحاً وواضحاً ... وإضافةً إلى كل ذلك فإنه ينذر الإنسان لثلاثاً يكون أسيراً لهذه المواهب، بل ينبغي أن يكون أميراً عليها، ولا يؤثرها على القيم الأصيلة أبداً.

وفي المرحلة الثالثة ... يتجه القرآن نحو الفطرة والجمالة الإنسانية، ونحو تجلّي نور التوحيد في أشدّ الأزمات في أعماق روح الإنسان، وضمن مثالٍ بديع جداً وبلغ فيقول: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». أجل، إنّ الشدائد والأزمات هي التي تهىء الأرضية لتفتح الاجتماعية «الفطرة» الإنسانية، لأنّ نور التوحيد مخفى في أرواح الناس جميعاً.

إلّا أنّ التعليمات الخاطئة والغفلة والغرور - وخاصة عند السلامة ووفور النعمة - تلقى عليها أستاراً، غير أنّ طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، وتتجلى نقطة النور آنذاك.

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - وبعد ذكر جميع هذه الدلائل على التوحيد وعبادة الله، يواجه القرآن المشركين والكفار بتهديد شديد فيقول: «إِنَّ هَؤُلَاءِ أَنْكَرُوا آيَاتِنَا وَكَفَرُوا بِمَا رَزَقْنَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ فَلْيَتَمَتَّعُوا بِهَا أَيَّاماً قَلِيلًا: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» عاقبه كفرهم وشركهم.

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٥

سبب النزول

في الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ جماعة من المشركين قالوا: يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلّا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والعرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنّا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس، فأنزل الله: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا» الآية.

التفسير

أشارت الآيات - التي سبق ذكرها - إلى بعض الحجج الواهية للمشركين، وهي أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثم هاجرنا معك يا رسول الله، وقد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة، وفي الآيات - محل البحث - يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا». أى أرض مكة المكرمة.

في حين أنّ العرب كانوا يعيشون في حالة غير آمنة خارج مكة، وكانت قبائلهم مشغولة بالنهب والسلب والغارات، إلّا أنّ هذه الأرض باقية على أمنها «وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ».

فالله المقتدر على أن يجعل في هذا البحر المتلاطم والطوفان المحدق بأرض الحجاز «من الفتن» حرم مكة كالجزيرة الهادئة الآمنة وسط البحر، كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! وكيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة الله العظيمة جلّ وعلا؟

«أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ».

وبعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهي القرآن إلى هذه النتيجة في الآية التالية: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ». لقد قدمنا دلائل واضحة لكم على أنّه لا شيء أحقّ بالعبادة وأحرى بها من الله، لكنكم كذبتكم على الله، وصنعتم له شركاء بأيديكم.

إنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الاجتماعية، وفي الواقع إنّ المظالم الاخرى تسترقد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل

منها نوع من الشرك.

ولكن اعلّموا أنّ عاقبة الشؤم والخزي للمشركين «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ». و آخر آية- من الآيات محل البحث- وهي في الوقت ذاته آخر آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعاً مهماً، وهي عصارة جميع هذه السورة، وتنسجم مع بدايتها. تقول الآية ... بالرغم من أنّ المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى الله، من قبيل مشكلة معرفته الحق، ومشكلة وساوس الشياطين من الإنس والجن، ومشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٦

يرحمون، ومشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، وهي أنّ الله يمنحك القوة والاطمئنان قبال المشاكل ويدافع عنكم، تقول الآية: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ».

إنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، ومثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعى وجهاد في سبيل الله ومن أجله، وللوصول إلى الأهداف الإلهية، كل ذلك يصدق عليه «جاهدوا فينا» سواء كان في سبيل كسب المعرفة، أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو في إعانة الضعفاء، أو في الإقدام على أي عمل حسن وصالح.

وعلى هذا أننا إذا أصبنا بأي نوع من الهزيمة عدم الموقية، فسبب ذلك وعلته أحد أمرين: إما أنا قصّرنا في جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص في العمل.

«نهاية تفسير سورة العنكبوت»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٧

### ٣٠ سورة الروم

محتوى السورة: يمكن تلخيص مضامين هذه السورة في سبعة أقسام:

- ١- التنبؤ بانتصار الروم على الفرس في معركة تحدث في المستقبل.
  - ٢- جانب من طريقة التفكير عند غير المؤمنين وكيفية أحوالهم.
  - ٣- قسم مهم من آيات «عظمة الله» في الأرض والسماء، وفي وجود الإنسان.
  - ٤- الكلام عن التوحيد «الفطري» بعد بيان دلائله في الآفاق وفي الأنفس لمعرفة الله سبحانه.
  - ٥- العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين والمذنبين وتفصيل حالاتهم، وظهور الفساد في الأرض نتيجة لآثامهم وذنوبهم.
  - ٦- إشارة إلى مسألة التملك، وحق ذوى القربى، وذم الربا.
  - ٧- العودة- مرّة أخرى- إلى دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره، والمسائل المتعلقة بالمعاد.
- فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سيح لله ما بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه وليلته».
- ومن البديهي أنّ من جعل محتوى هذه السورة في روحه وقلبه، وراقب الله في كل لحظة،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٨

فإنّ تقوى الله تملأ قلبه حتى يكون حقيقاً بهذا الأجر والثواب.

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهِمْ سَيِّغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعِيدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعِيدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)



## سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: غلبت فارس الروم وظهروا عليهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وفرح بذلك كفار قريش من حيث إن أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب وساء ذلك المسلمين. وكان بيت المقدس لأهل الروم، كالكعبة للمسلمين. فدفعتهم فارس عنه. فنزلت الآيات الآنفه وقالت: لئن غلب الفرس الروم لياتين النصر والغلبة للروم خلال فترة قصيرة، وقد حددت الفترة لانتصار الروم على الفرس «فِي بَضْعِ سِنِينَ».

وهذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهه دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوي الذي يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، ومن جهه اخرى كان فألاً حسناً للمسلمين في مقابل فآل المشركين، حتى أن أبابكر ناحب بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء، إن لم تغلب فارس في سبع سنين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لم فعلت فكل ما دون العشرة بضع». فكان ظهور فارس على الروم في تسع سنين ثم أظهر الله الروم على فارس زمن الحديبيه ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب.

## التفسير

تنبؤ عجيب: هذه السوره ضمن مجموع تسع وعشرين سوره تبدأ بالحروف المقطعه «الم». وقد بحثنا مراراً في تفسير هذه الحروف المقطعه وخاصه في بدايه سوره البقره وآل عمران والأعراف. والفارق الوحيد الذي نلاحظه هنا عن بقيه السور، ويلفت النظر، هو أنه خلافاً لكثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطعه، التي يأتي الحديث بعدها على عظمه

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٩

القرآن الكريم، بل بحثاً عن اندحار الروم وانتصارهم في المستقبل، ولكن مع التدقيق يتضح أن هذا البحث يتحدث عن عظمه القرآن الكريم أيضاً... لأن هذا الخبر الغيبي المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، وعظمه هذا الكتاب السماوي. يقول القرآن بعد الحروف المقطعه: «غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ».

والمراد ب «أدنى الأرض» المكان القريب من بلاد فارس، أي إن المعركه وقعت في أقرب نقطه بين الفرس والروم. ثم يضيف القرآن: «وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ». وهم أي الروم.

ثم يبين الفتره القصيره من هذه السنين بهذا التعبير: «فِي بَضْعِ سِنِينَ». والمعلوم أن «بضع» ما يكون أقله الثلاث وأكثره التسع. وإذا أخبر الله عن المستقبل، فلائنه «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ».

إن هذه العبارة تريد أن توضح هذه اللطيفه، وهي أن القادر بالذات والمالك على الإطلاق هو الله، وكل من لديه شيء فهو منه.

ثم يضيف القرآن: أنه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنه ستغلب الروم «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ».

أجل، يفرحون «بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

إن المسلمين «المؤمنين» فرحوا في ذلك اليوم لجهات متعدده:

١- من إنتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنه ساحة لإنتصار الموحدين على المشركين.

٢- من الإنتصار المعنوي لظهور إعجاز القرآن.

٣- ومن الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار، ويحتمل أن يكون صلح الحديبيه، أو بعض فتوحات المسلمين الاخر.

ولزيادة التأكيد يضيف أيضاً: «وَعَدَ اللَّهُ لَأَيُّخِلْفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». والسبب في عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم بالله وقدرته، فهم لم يعرفوا الله حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقه، وهي أن الله محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأن التخلف عن الوعد إما للجهل، أو للضعف وعدم القدره، لكن الله لا يتخلف عن الوعد، لأنه يعرف عواقب الامور، وقدرته فوق كل شيء.

ثم يضيف القرآن معقباً: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٠

ولو كانوا يعلمون باطن الحياة وواقعها في هذه الدنيا، لكان ذلك كافياً لمعرفة الآخرة، لأنّ التدقيق في هذه الحياة العابرة، يكشف أنّها حلقة من سلسلة طويلة ومرحلة من مسير مديد كبير، كما أنّ التدقيق في مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أنّ الهدف النهائي ليس هو هذه المرحلة من حياة الجنين فحسب، بل هي مقدمة لحياة أوسع. إعجاز القرآن من جهة علم الغيب: إنّ واحداً من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومثله الواضح في هذه الآيات- محل البحث- ففي عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن إنتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين .. ويعدّ ذلك وعداً إلهياً غير مكذوب ولا يتخلف أبداً.

ويحدثنا التاريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان ... فقد انتصر الروم في حربهم الجديدة على الفرس، واقرن زمان هذا الإنتصار ب «صلح الحديبية» وطبقاً لرواية اخرى أنّه كان مقارناً لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون إنتصاراً ملحوظاً على الكفار.

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمِمَّا يَبْنِيهِمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)

كان الكلام في آخر آية من البحث السابق عن السطحين وأصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا والعالم المادى .. وكانوا جاهلين بما وراء الطبيعة ويوم القيامة، أمّا في هذه الآيات- محل البحث- والآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ والمعاد، فتبدأ هذه الآيات أولاً على صورة استفهام فتقول: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧١

أَنْفُسِهِمْ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمِمَّا يَبْنِيهِمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى». أى: لو أنّهم فكروا جيداً ورجعوا إلى عقولهم في الحكم و وجدانهم، لكانوا يطلعون جيداً على هذين الأمرين:

أولاً: إنّ العالم خلق على أساس الحق، وتحكمه أنظمه هي دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق وقدره كاملة. وثانياً: هذا العالم يمضى إلى الزوال، وحيث إنّ الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثاً، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا.

لذلك يضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» فينكرون لقاء الله؛ أو إنّهم ينكرون المعاد أصلاً؛ أو إنّهم لا ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» ومخرية تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين.

وحيث إنّ التعبير ب «أَجَلٍ مُّسَمًّى» كاشف عن أنّ هذه الحياة على كل حال لا تدوم، وهذا إنذار لجميع عبدة الدنيا، فإنّ القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ». أى بالدلائل الواضحات ... إلّا أنّهم أهملوا ذلك، ولووا رؤوسهم، ولم يستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب الله الأليم، «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- فتبين آخر مرحلة من كفرهم فتقول: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ».

أجل، إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمريض الخبيث، فيأكل إيمانه ويعدمه، ويبلغ الأمر حدّاً يكذب الإنسان فيه آيات الله، وأبعد من ذلك أيضاً إذ يحمل الذنب صاحبه على الإستهزاء بالأنبياء، والسخرية بآيات الله، ويبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ ونصيحة أبداً، ولا تؤثر فيه أية حكمة وأية آية، ولا يبقى طريق سوى أسواط عذاب الله المؤلمة له.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٢

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

مصير المجرمين ومآلهم يوم القيامة: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن الذين يكذبون ويستهزؤون بآيات الله، وفي الآيات - محل البحث - تستكمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بيان جوانب منه، ومآل المجرمين في القيامة. فتبدأ الآيات بالقول: «اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». ويبين في هذه الآية استدلال قصير موجز، وذو معنى كبير، على مسألة المعاد، وقد ورد هذا المعنى بعبارة اخرى في بعض آيات القرآن الاخرى ومنها: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ» (١). و الآية الاخرى تجسد حالة المجرمين يوم القيامة: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ».

«يبلس»: مأخوذ من مادة «إبلاس» وتعنى فى الأصل الغم والحزن المترتبان على أثر شدة اليأس والقنوط.

فيحق للمجرمين أى ييأسوا ويبلسوا فى ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان وعمل صالح فيشفع لهم فى عرصات المحشر، ولا صديق حميم، ولا مجال للرجوع إلى الدنيا وتدارك ما مضى. لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلاً: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ». فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون الله ويبرأون منها «وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ».

ثم يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس فى يوم القيامة، فيقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ».

(١) سورة يس / ٧٩ - ٨١.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٣

«يحبرون»: مأخوذة من مادة «حبر» على زنه «قشر» ومعناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور والفرح التى يظهر أثرها على الوجه أيضاً.

و «الروضة»: معناها المكان الذى تكثر فيه الأشجار والماء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها واخضرارها.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ».

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

التسبيح والحمد فى جميع الأحوال لله: بعد الأبحاث الكثيرة التى وردت فى الآيات السابقة فى شأن المبدأ والمعاد، وقسم من ثواب المؤمنين، وجزاء المشركين وعقابهم، وفى الآيات محل البحث يذكر التسبيح والحمد والتقديس والتنزيه لله من جميع أنواع الشرك والنقص والعيب، إذ تقول الآية: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ».

وعلى هذا فقد ورد فى هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح الله:

١- بداية الليل «حِينَ تُمْسُونَ».

٢- وطلوع الفجر «حِينَ تُصْبِحُونَ».

٣- وعصراً «عَشِيًّا».

٤- وعند الزوال - فى الظهر - «حِينَ تُظْهِرُونَ».

وفى الآية التالية عودة إلى المعاد، ويرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ». أى: إن ميدان «المعاد» وميدان «نهاية الدنيا» المتمثل أحدهما بخروج «الحي من الميت» والآخر «خروج الميت من الحي» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعاً، ويعود الناس في يوم القيامة إلى الحياة مرة أخرى.

أما التعبير بـ «يخرج الحي من الميت» المستعمل للأراضي الموت، واضح أن الأرض تبدوا ميتة في فصل الشتاء، ولكن في فصل الربيع مع سقوط الغيث واعتدال الهواء، تدب مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٤

الحركة في الأرض، وهذا ميدان المعاد الذي نراه في هذه الدنيا. وأما مسألة «إخراج الميت من الحي» فهي ليست شيئاً خافياً ولا مستتراً. وأمياً ما يتعلق بـ «إخراج الحي من الميت» فبالرغم من أنه من المسلم به- في العصر الحاضر على الأقل- أنه لم ير في المختبرات والمشاهدات اليومية أن موجوداً حياً يتولد من موجود ميت، غير أن الثابت علمياً والمسلم به أنه كانت الأرض في البدايات قطعة ملتتهبة من النار، ولم يوجد عليها أى موجود حي، ثم وفقاً لظروف خاصة لم يكتشفها العلم- حتى الآن- بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحية من مواد لا روح فيها بقفزة كبيرة.

لكن الذى نلمسه وندركه، هو أن الموجودات الميتة دائماً تكون جزءاً من الموجودات الحية وتكسى ثوب الحياة، فالماء والطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحية، لكنهما حين يكونان في البدن ويصيران جزءاً منه يتحولان إلى موجود حي وتضاف كريات جديدة وخلايا جديدة إلى كريات البدن وخلاياه.

فعلى هذا يمكن القول بأن في نظام الطبيعة دائماً يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وبهذا الدليل فإن الله الذى خلق الطبيعة قادر على إحياء الموتى فى العالم الآخر.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢)

آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس: تحدثت هذه الآيات- وبعض الآيات الأخر التى تليها- عن طرائف ولطائف من دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره فى نظام عالم الوجود، وهى تكمل البحوث السابقة.

ويتحدث القرآن هنا أولاً عن خلقه الإنسان التى تعد أول موهبة إلهية له، وأهمهما أيضاً، فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ».

فى هذه الآية إشارة دليلين من أدلة عظمة الله.

الأول: خلق الإنسان من التراب، وربما كان إشارة إلى الخلق الأول للإنسان، أى آدم عليه السلام، أو خلق جميع الناس من التراب، لأن المواد الغذائية التى تشكل وجود الإنسان، جميعها من التراب بشكل مباشرة أو غير مباشر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٥

الثانى: كثرة النسل «الآدمى» وانتشار أبناء «آدم» على سطح المعمورة.

و الآية الثانية من الآيات محل البحث تتحدث أيضاً عن قسم آخر من الآيات فى الأنفس، التى تمثل مرحلة ما بعد خلق الإنسان، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا». أى من جنسكم والغاية هى السكينة الروحية والهدوء النفسى.

وحيث إن استمرار العلاقة بين الزوجين خاصة، وبين جميع الناس عامة، يحتاج إلى جذب قلبى وروحانى، فإن الآية تعقب على ذلك مضيئة: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

ولمزيد التأكيد تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

ومن هنا يمكن الإستنتاج بأن الذين يهملون هذه السنّة الإلهية وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلا أن توجب الظروف الخاصة والضرورة في بقائهم عزاباً).

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- فهي مزيج من آيات الآفاق وآيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء والأرض، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

السموات بجميع ما فيها من كرات، وبجميع ما فيها من منظومات ومجرات، السماوات التي مهما خلق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها ومطالعتها ... وكلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

ثم ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: «وَاخْتَلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ». لذلك خلق الله الأصوات والألوان واختلاف الألسنة لتنظيم المجتمع البشري.

ويقول القرآن في نهاية الآية الأنفة الذكر: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ».

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٦

آيات عظمتها- مرّة اخرى: تعقيباً على الأبحاث السابقة حول آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، نتحدث هذه الآيات- محل البحث- حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة. فتتحدث في البداية عن ظاهرة «النوم» على أنها ظاهرة مهمة من ظواهر الخلق ومثل بارز من

نظام الحكيم الخالق، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ».

وتختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

هذه الموهبة العظيمة تؤدى إلى أن يحصل جسم الإنسان وروحه على الراحة اللازمة، فيرتفع التعب بطرو النوم الذى بمثابة وقفة لعمل البدن، ونوع من التعطيل له.

ومن المسلم به أنه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان وذبل جسمه وانهار بسرعته، ولعجل عليه العجز والشيخوخة.

و الآية التى تلتها، التى تبين خامس آية من آيات عظمه الله، تتجه أيضاً إلى «الآيات فى الآفاق» وتتحدث عن البرق والرعد والغيث وحياء الأرض بعد موتها، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا».

«الخوف»: مما يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق؛ و «الطمع»: من جهة نزول الغيث الذى ينزل بعد البرق والرعد على هيئة قطر أو مزنة.

وعلى هذا فإن البرق السماوى مقدمه لنزول الغيث.

ثم يضيف القرآن معقلاً: «وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

ويؤكد القرآن فى نهاية هذه الآية مضيفاً: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ويفهمون أن وراء هذه الخطه المدروسة يداً قادرة تقودها وتهديتها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصماء أبداً.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية اخرى من الآيات الآفاقية، وذلك عن تدبير نظام السماء والأرض وبقائهما ودوامهما، إذ تقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ». أى إنّ خلق السماوات- المشار إليه فى الآيات السابقة- ليس آية

وحده فحسب، بل بقاؤها ودوام نظامها أيضاً آية اخرى، فهذه الأجرام العظيمة فى دورانها المنظم حول نفسها تحتاج إلى امور كثيرة، وأهمها المحاسبة المعقدة للقوة الجاذبة والدافعة.

وفى نهاية الآية وبالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٧

والتعبير بـ «دعاكم» إشارة إلى أنه كما أن أمراً واحداً منه كافٍ للتدبير ولنظم العالم، فإن دعوة واحدة منه كافية لأن تبعثكم من رقدتكم وتشركم من قبوركم ليوم القيامة.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩)

المالكية لله وحده: كانت الآيات المتقدمة تتحدث حول توحيد الخالق، وتوحيد الرب، أما الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، وهو توحيد الملك فتقول: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ولأنهم ملك يده فـ «كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ» وخاضعون.

أى إن زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كله في يده، وهم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة الله، شأؤوا أم أبوا. والدليل على هذه «المالكية» هو الخالقية والربوبية، فإن من خلق الموجودات في البداية وتكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنه هو المالك الأصلي لها لا سواه.

وحيث إن المسائل المرتبطة بالمبدأ والمعاد هي كالنسيج الواحد في انسجامها في سلسلة الآيات الآنفه، والتي ستأتي في ما بعد، ففي الآية التالية يعود القرآن إلى موضوع المعاد، فيقول: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

إن القرآن يثبت في هذه الآية - بأوجز الاستدلال - مسألة إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنكم تعتقدون أن بداية الخلق من قبل الله، فعودة الخلق مرة أخرى أيسر وأهون من بداية الخلق.

ولكن من الضروري أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»، وهي أن التعبير بالهين والصعب، هو

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٨

من خلال نافذتنا الفكرية، وأما بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب والسهل». وربما كان لهذا السبب أن عَقَّبَ القرآن في ذيل الآية مباشرة بالقول: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

لأننا لو تصورنا أي وصف كمالى لأى موجود في السماء والأرض، من علم وقدره وملك وعظمه وجود وكرم، فمصادقه الأتم والأكمل هو عند الله، لأن الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلا هو وحده فإن لديه الأوصاف غير المحدودة، والجميع لديهم أوصاف عارضة، أما أوصاف الله فذاتية، وهو مصدر الكمالات وأساسها.

وتنتهى الآية بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». هو عزيز لا يقهر، إلا أنه وفي منتهى قدرته غير المحدودة لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكل أفعاله وفق حكمته.

وبعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد والمعاد في الآيات المتقدمة، يتناول القرآن موضوع «نفي الشرك» في مثال بين فيقول:

«ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ».

هذا المثال هو لو كان لديكم - أيها المشركون - عبيد ومماليك فـ «هَلْ لَّكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ». أى إن عبيدكم هؤلاء يشاركونكم فى أموالكم وفى ما رزقناكم، بحيث تكونون أنتم وعبيدكم سواء فى مالكية هذه الأموال والنعم وتخافون أن يتصرفوا فى هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحال فى تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو فى الميراث مثلاً... فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا فى أموالكم.

فلو كان لكم عبيد وملك يمين «وهو ملك مجازى» لما رضيتم بمثل هذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التى هى ملك

حقيقى لله شركاءه، أو تزعمون أن بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة الله أو بعض المخلوقات الاخرى كالجن أو الأصنام الحجرية والخشبية شركاءه، ألا ساء ما تحكمون.

والتعبير «مَا رَزَقْنَاكُمْ» يشير إلى هذه اللطيفة، وهى أنكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد والمماليك، ولا المالكين الواقعيين للمال، لأن كل ذلك لله وحده.

ويعقب القرآن فى ختام الآية للتأكيد والدقة على مضمون السؤال، فيقول: «كَذَلِكَ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٩

نُفَّضُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ». أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثلة الواضحة فى حياتكم لتفكروا فيها، ولكيلا تنسبوا لله - على الأقل - ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم.

غير أن هذه الآيات البينات وهذه الأمثلة الواضحة هى لأولى الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، واستوعبت آفاقهم الخرافات والعصبيات، لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلاً: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ». ولذلك فإن الله خلّى بينهم وبين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئة، فتأهوا فى وادى الضلالة «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ».

ولا شك أن من يتركهم الله ويخلّى بينهم وبين أنفسهم «وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ»

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَمَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَآتَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَتِيًّا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد ومعرفة الله، عن طريق مشاهدة نظام الخلق، وتعقيباً على الآيات الآنفه الذكر، فإن الآية الاولى - من هذه الآيات محل البحث - تتحدث عن التوحيد الفطرى، أى الإستدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية والدرك الضرورى والوجدانى، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا»، لأنها «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لِاتَّبِيدِ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». «الوجه»: معناه معروف، وهو مقدم الرأس. والمراد به هنا الوجه الباطنى، ووجه القلب والروح؛ وكلمة «أقم»: مشتقة من الإقامة، ومعناه الاستقامة والوقوف بثبات (على قدم راسخة) ... وكلمة «حنيف»: مشتقة من «حَنَفٌ»، ومعناها الميل من الباطل نحو الحق، ومن الاعوجاج نحو الاستواء والاستقامة. فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل والاستواء عن كل انحراف وباطل وخرافة وضلال.

إن جملة «لِاتَّبِيدِ لِحَلْقِ اللَّهِ» وبعدها جملة «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» تأكيدان آخران على مسأله كون الدين فطرياً، وعدم إمكان تغيير هذه الفطرة ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٠

ويضيف القرآن فى الآية التالية: ينبغى أن يكون التفاتكم للدين الحنيف والفطرى حالة كونكم «مُبِينِينَ إِلَيْهِ» فأصلكم وأساسكم على التوحيد، وينبغى أن تعودوا إليه أيضاً.

«مبينين»: من مادة «إنابة» وهى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، وتعنى هنا الرجوع نحو الله والعودة نحو الفطرة (التوحيدية).

ويعقب على الأمر بالإنابة والعودة إليه، بالأمر بالتقوى، وهى كلمة تجمع معانى أوامر الله ونواهيته، إذ يقول: «وَأَتَّقُوا» أى اتقوا مخالفته أوامره.

ثم يؤكد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ». لأن الصلاة فى جميع أبعادها، هى أهم منهج لمواجهة الشرك، وأشد الوسائل تأثيراً فى تقوية أسس التوحيد والإيمان بالله سبحانه.

كما أنه يؤكد فى نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهي فيقول: «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». لأن الشرك أعظم الذنوب وأكبر

الكبائر، فإن الله لا يغفره.

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- يبين القرآن واحداً من آثار الشرك وعلائمه في عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا في دينهم على فرق واحزاب كثيرة: «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا». والعجيب في الأمر أنهم على تضادهم واختلافهم فإن «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ».

أجل، إن واحدة من علائم الشرك هي التفرقة، لأن المعبودات المختلفة هي منشأ الأساليب المتفاوتة وهي أساس الانفصال والتفرق. بحث

التوحيد باعث داخلي قوى: كما أن الدلائل العقلية والمنطقية توجه الإنسان، فإن في داخله دوافع وموانع أيضاً.. بحيث تعين له الجهة «أحياناً» من حيث يدرى أو لا يدرى.

وفلسفة وجودها في داخل الإنسان، هي أن الإنسان لا- يستطيع- دائماً- أن ينتظر إيعاز العقل والمنطق، لأن هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتية» بعض الأحيان.

فمثلاً لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطلق «لزوم بدل ما يتحلل» ضرورة تناول الطعام .. أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد والتناسل» ضرورة الممارسة الجنسية، وأن يعمل ويتحرك وفق المنطق في كل ذلك، لكان ينبغي أن ينقرض الإنسان- قبل هذا الزمان بكثير- إلا أن الغريزة الجنسية من جهة وجاذبيتها، والإشتهاء للطعام من جهة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨١

اخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى. وكلما كانت الأهداف حياتية أكثر وعمومية، كانت هذه «الدوافع» أشد وأقوى أيضاً. لكن ينبغي الالتفات إلى أن هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنية (غير واعية) لا تحتاج إلى وساطة العقل والشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام والجنس دون الحاجة إلى التفكير. وقد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعي، أي إن هذه الدوافع الداخلية تترك أثرها في العقل والتفكير وتدفعه إلى انتخاب الطريق. وعادة يطلق على النوع الأول من هذه الدوافع «الغريزة» وعلى النوع الثاني «الفطرة» (فلاحظوا بدقة).

عبادة الله والاتجاه نحوه لهما مكانه في نفوس جميع الناس، وهو ما يصطلح عليه ب «الفطرة».

إن لدينا دلائل وشواهد مختلفة توضح بجلاء كون «الميل إلى الله» فطرياً، بل تؤكد هذا الميل في جميع اصول الدين وأبعاده:

١- إن دوام الاعتقاد الديني والإيمان بالله على إمتداد التاريخ البشري بنفسه دليل على الفطرة، لأنه إذا كان ذلك على سبيل العادة، لما كانت له جنبه عمومية ولا جنبه دائمية، فهذا العموم وهذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

٢- إن المشاهدات عياناً في العالم المعاصر تكشف أنه مع جميع ما بذل الطغاة والمستبدون- وأنظمتهم الجائرة من جهود وسعى لمحو الدين وآثاره وعن طرق مختلفة- لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين وجدوره من أعماق هذه المجتمعات.

٣- الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين وعلماء النفس في مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنهم يقولون: «إن التحقيقات في المجالات النفسية تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الديني». أو بتعبير آخر: «بعد قدسي» أو «رباني» وربما عدوا هذا البعد أساساً للأبعاد الثلاثة الأخرى وهي «البعد العلمي» و «البعد الجمالي» و «البعد الخيري».

إذ يدعون بأن البواعث الأساسية للروح البشرية هي هذه:

أ) دافع البحث عن الحقيقة (الشعور العلمي) وهو مصدر أنواع العلوم، والأهداف التحقيقية المستمرة، والمتابعات في معرفة عالم الوجود.

ب) حس «الإحسان والعمل الصالح» الذي يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقية

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٢



كالتضحية والإيثار والعدل والشهامة وأمثالها. ج) الحس «الجمالى»: وهو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل والأدب والمسائل الذوقية، وربّما أصبح مصدر التحول في حياة الفرد أو المجتمع أحياناً.

د) الحس «الدينى»، أى الإيمان بمبدأ عال وعبادته واتباعه.

٤- إنّ التجاء الإنسان في الشدائد والمحن إلى قوة خفية وراء الطبيعة، وطلب حل المشاكل والازمات من قبل هذه القوة، لهو أيضاً شاهد آخر على أصالة هذا الدافع الباطنى والإلهام الفطرى، ويمكن - بضمها إلى مجموع الشواهد التى ذكرناها آنفاً- أن نوقفنا على مثل هذا الدافع الباطنى فى داخلنا نحو الله سبحانه.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

إنّ الآية الاولى من المقطع الذى بين أيدينا، هى فى الحقيقة استدلال وتأكيد على البحث السابق فى مجال كون التوحيد فطرياً، وتفتح هذا النور الإلهى عند الشدائد والصعاب، إذ تقول الآية: «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ».

إلّا أنّهم إلى درجته من السطحية والغباء التعصب والتقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث أنّه بمجرد انتهاء المشكله وهبوب نسيم الرحمة الإلهية ... «ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ».

جملة «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» إشارة لطيفة للمعنى التالى، وهو أنّ الأساس فى الفطرة هو توحيد الله وعبادته، والشرك أمر عارض، حيث متى ما يتسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان والتوحيد، شأؤوا أم أبوا.

والطريف هنا أنّ «الرحمة» فى الآية مسندة إلى «الله»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلّا أنّ الضر لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيراً من الإبتلاءات والمشاكل التى تحوطنا هى من نتائج أعمالنا وذنوبنا.

و كلمة «رَبَّهُمْ» التى تكررت فى الآية تكررت فى الآية مرتين، تؤكّد على أنّ الإنسان

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٣

يحسّ بالتدبير الإلهى وربوبية الله على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك والضلال.

أما الآية الاخرى فجاءت بعنوان التهديد لأولئك المشركين، الذين ينسون ربهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ» وليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ثم يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم والمواهب الدنيوية الفانية. وسوف يرون العاقبة السيئة لذلك: «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

والقرآن فى الآية الاخرى يصوغ الكلام فى صيغة الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: «أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ». «السلطان»: معناه ما يدل على السلطة وينتهى إلى الانتصار عادةً، ومعناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فهى ترسم طريقة تفكير وروحية هؤلاء الجهلة الاغبياء الذين يقنطون ويحزنون لأقل مصيبة، فتقول: «وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ».

فى حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر الله عند النعم، ولا يقنطون عند الشدائد والمصيبة، إذ هم يشكرون الله على نعمه، ويرون المصيبة امتحاناً واختباراً، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون ويتجهون إلى الله تعالى.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية بصورة جيدة أنّ قسماً من المصائب والإبتلاءات التى تحل بالإنسان هى - على الأقل - نتيجة أعماله وذنوبه.

إنّ جملة «فَرِحُوا بِهَا» ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور ونوع من السكر والنشوة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٤

الآية الاولى من الآيات محل البحث تتحدث عن التوحيد والربوبية أيضاً، وانسجماً مع سياق الآيات السابقة التي كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عند إقبال النعمة عليهم، ويأسهم وقنوطهم عند مواجهتهم الشدائد والبلاء، فإنها تقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

إن العالم هو عالم الأسباب، لكن هذه القاعدة في الوقت ذاته ليست دائمية ولا كلية، إذ يتفق أن نرى أناساً جديرين وجادين يركضون من هنا وهناك، إلّا أنهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، وعلى العكس منهم قد نشاهد أناساً لا يسعون ولا يجدون وتتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حذب وصوب.

وهذه الاستثناءات كأنها لبيان أن الله بالرغم من جميع ما جعل للأسباب من تأثير، لا ينبغي أن ينسى في عالم الأسباب، ولا ينبغي للإنسان أن يغفل أن وراء هذا العالم يداً قوية أخرى تديره كيف شاءت.

لذلك يقول القرآن في نهاية الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وحيث إن كل نعمته وموهبه ينالها الإنسان تحمله وظائف ومسؤوليات وعليه أدائها، فإن القرآن يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله في الآية التالية قائلاً: «فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ».

والتعبير بـ «حقه» كاشف عن أنهم شركاء في أموال الإنسان، وإذا دفع المرء شيئاً من ماله إليهم فإنما يؤدي حقهم، وليس له من عليهم.

إن القرآن يبين في نهاية الآية ترغيباً للمحسنين، وشرط القبول ضمناً، فيقول: «ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

ومع الإلتفات إلى أن المراد من «وجه الله» ذاته المقدسه، فإن هذه الآية تشير إلى أن الإنفاق وإيتاء حق الأقارب وأصحاب الحق الآخرين ليس كافياً، بل المهم هو الإخلاص والنية الطاهرة والخالية من أى أنواع الرياء والمنه والتحقير وانتظار الأجر والثواب.

وتشير الآية التالية - بمناسبة البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص - إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما لله، والآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا، فتقول: «وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِيًّا لِّيَرْبُوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَمَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ».

«الربا»: معناه في الأصل «الزيادة»، وهنا أن المراد من الربا هو الهدايا التي يقدمها بعض

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٥

الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروة والمال، كي ينالوا منهم أجراً أحسن وأكثر.

وبديهي أنه في مثل هذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الاعتبار استحقاق الطرف الآخر ولا الجدارة والأولوية، بل كل ما يهدف إليه أن تصل الهدية إلى مكان، تعود على مهيديها بمبلغ أوفر ومن الطبيعي أن مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبه» إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية والمعنوية.

فعلى هذا يكون معنى «الربا» في هذه الآية هو «الهدية والعطية»، والمراد من جملة «لِّيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ» هو أخذ الأجر الوافر من الناس. ولا شك أن أخذ مثل هذه الأجرة ليس حراماً، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلّا أنه فاقد للقيمة الأخلاقية والمعنوية ...

وفي الآية الأخيرة - من الآيات محل البحث - عودة أخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، وهي الموضوع الأساس الذي ورد في كثير من آيات هذه السورة ... وتصف الآية «الله» بأربعة أوصاف لتكون إشارة للتوحيد ومواجهة الشرك، ودليلاً على المعاد أيضاً فتقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

ومن المسلم به أن المشركين لم يكن أى منهم يعتقد بأن الخلق كان من قبل الأوثان، أو أن أرزاقهم بيد الأوثان والأصنام، أو أن نهاية حياتهم بأيدي هذه الأوثان كذلك، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفي، والاستفهام هنا استفهام إنكارى.

إنّ القرآن يقول: عندما يكون الخلق والرزق والموت والحياة بيد الله، فالعبادة ينبغي أن تكون له فقط، ويكشف هذه الحقيقة بقوله: «سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ» وهى أن المشركين أهانوا كثيراً مقام رب العزة إذ أشركوه فى العبادة مع أوثانهم. **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لِمَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)**

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٦

أساس الفساد ومصدره أعمال الناس أنفسهم: كان الكلام فى الآيات السابقة عن الشرك، ونعلم أن أساس جميع المفساد هو الغفلة عن أصل التوحيد والتوجه نحو الشرك، لذلك فإنّ القرآن- فى هذه الآيات محل البحث- يتحدث عن ظهور الفساد فى الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ». والله يريد أن يريهم ما قدموه و «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

والآية الآنفه الذكر تبين المعنى الواسع حول ارتباط الفساد بالذنوب، الذى لا يختص بأرض «مكة» والحجاز، ولا بعصر النبى صلى الله عليه وآله.

وفى الآية التالية يأمر الله الناس بالسير فى الأرض ليروا شواهد كثيرة «حيتية» من مسألة ظهور الفساد فى الأرض بسبب المعاصى والذنوب من قبل الناس. ويوصى نبىه صلى الله عليه وآله أن يأمرهم بذلك، فيقول: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ».

أجل «كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ». والشرك أساس الفساد والانحراف والضلال.

وحيث إنّ التصور والوعى والانتباه، ثم العودة والإنابة إلى الله، كل ذلك لا يكون- دائماً- مفيداً ومؤثراً، ففى الآية التالية يوجه القرآن الخطاب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّمْ يَمُرَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ». أى يتفرقون «فريق فى الجنة وفريق فى السعير».

ووصف الدين بأنه «قيم» مع ملاحظة أن «القيم»: معناه الثابت والقائم، هو إشارة إلى أن هذا التوجه المستمر «أو الإقامة» هى للدين .. أى لأنّ الإسلام دين ثابت ومستقيم وذو نظام قائم فى الحياة المادية والمعنوية للناس، فلا تمل عنه أبداً، بل أقم وجهك للدين القيم. وإنما وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله ليعرف الآخرون واجبه ووظيفتهم أيضاً.

والتعبير ب «يَصِدِّعُونَ» من مادة «صدع» معناه فى الأصل: كسر الإناء، ثم انتقل بالتدرج إلى أى نوع من أنواع التفرق والتشتت، وهنا إشارة إلى انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النيران.

و الآية التالية بيان لهذا الانفصال فى يوم القيامة، إذ تقول: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ».

«يمهدون»: مشتقة من «المهد» وكما يقول الراغب فى مفرداته فإنّ معناه السرير المعد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٧

للطفل، ثم توسعوا فى المعنى فصار المهد والمهاد لكل مكان مهياً ومعد «وفيه منتهى الدعة والراحة» وقد انتخب هذا التعبير لأهل الجنة والمؤمنين الصالحين، من هذه الجهة.

ومن الطريف أن القرآن اكتفى فى شأن الكفار بالتعبير ب «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» ولكن بالنسبة للمؤمنين تضيف الآية التالية: أن المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم الله من مواهبه وفضله فيقول: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ».

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَ لَقَدْ

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزَّلُ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُتَسِّبِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

ومن المسلم به أن هذا الفضل لا يشمل الكفار إذ: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكُفْرِينَ».

قلنا: إن في هذه السورة قسماً مهماً «يستلقت النظر» من دلائل التوحيد وآيات الله، مبيناً في سبع آيات تبدأ كل منها بقوله:

«وَمِنْ آيَاتِهِ» قرأنا ست آيات منها بصورة متتابعة، والآية الأولى من الآيات أعلاه هي سبع الآيات التي مرت، وآخرها.

وحيث كان الكلام في الآيات السابقة عن الإيمان والعمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد - أيضاً - تأكيداً على ذلك. تقول هذه الآية:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ». فهي تمضي سابقة للغيث في حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم وتربط بينها وتولفها

وتحملها إلى الأرض اليابسة العطشى، وتغطي صفحة السماء، ومع تغير درجة حرارة الجو تهبط المطر للنزول من هذه الغيوم.

ولذلك فنحن نقراء في تعقيب الآية قوله تعالى: «وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٨

أجل، إن الرياح هي وسيلة لتكاثر النعم العديدة في مجال الزراعة والتدجين، وهي وسيلة للحمل والنقل أيضاً، وأخيراً فهي سبب

للإزدهار التجاري. وفي الآية التالية يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم، في حين أن الآية التي بعدها تتحدث عن هبوب الرياح

مرة أخرى، ولعل وجود هذه الآية بين آيتين تتحدثان عن نعمة هبوب الرياح له جانب اعتراضى.

ولعل ذكر النبوة إلى جانب هذه المسائل، إنما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ والمعاد.

إن الآية تقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ». أى المعجزات والدلائل الواضحة والبراهين العقلية،

فاستجاب جماعة منهم لهذه الدلائل، ولم يستجب آخرون لها يرغم النصائح «فَاْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرَمُوا» ونصرنا المؤمنين «وَكَانَ حَقًّا

عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ».

وبالمجموع تعطى الآية هذا المعنى: «إِنَّ نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُسْلِمِ بِهِ هُوَ فِي عَهْدَتِنَا وَهَذَا الْوَعْدُ سَنَجْعَلُهُ عَمَلِيًّا دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى نَصْرِ

مِنَ الْآخَرِينَ».

أما الآية الأخرى فتعود ثانية لذكر نعمة هبوب الرياح فتقول: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ

كِسْفًا» (١). أى القطع الصغير المتراكم ثم تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة: «فَنَزَّلُ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ» (٢).

ويضيف القرآن في نهايته الآية قائلاً: «فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

ثم تأتي الآية الأخرى بعدها فتقول: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُتَسِّبِينَ» (٣).

وإنما يدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون في رحلاتهم وتنقلهم في الصحراء، ولحياتهم علاقة وصله قريبة

مع هذه القطرات.

(١) «الكسف»: جمع «كسفة» ومعناها القطعة، وهي هنا - كما يبدو - إشارة إلى القطعات (من الغيوم) المتراكمة بعضها فوق بعض

فتجعلها غليظة وشديدة، وذلك حين تكون الغيوم مهيأة لنزول المطر.

(٢) «الودق»: على وزن (الحلق)، وتطلق على ذرات الماء الصغيرة كمثل الغبار أحياناً، إذ تتناثر عند نزول الغيث في السماء، كما تطلق

على قطرات «المطر» المتفرقة أحياناً.

(٣) «مبلس»: مأخوذة من مادة الإبلاس، ومعناها اليأس وعدم الرجاء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٩

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

والتعبير بـ «رَحْمَتِ اللَّهِ» في شأن المطر هو إشارة الآثار المباركة فيه من جهات مختلفة.

ومع الإلتفات إلى العلاقة بين المبدأ والمعاد في المسائل المختلفة، فإن «القرآن» يضيف قائلاً في نهاية الآية: «إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَلَيْتَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

حيث إن الكلام كان- في الآيات السابقة- عن الرياح المباركة التي كانت مبشرات بالغيث والرحمة، ففي أول آية من الآيات أعلاه إشارة إلى الرياح المدمرة والتي تجلب الضرر، إذ يقول القرآن في هذا الصدد: «وَلَيْتَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ».

اولئك هم الضعفاء الحمقى فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون، وبعد نزوله مستبشرون، وإذا هبت ريح صفراء في بعض الأيام وابتلوا مؤقتاً تراهم يتصارخون وبالكفر يجأرون ويتجأرون.

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمة الله مستبشرون وعليها يشكرون، وعند نزول المصائب والمشاكل تراهم صابرون. «مصفرًا»: مشتقة من «الصفرة» وهي لون معروف؛ ويعتقد أكثر المفسرين أن الضمير في «رأوه» يعود على الشجر والنباتات التي تصفر وذبل على أثر هبوب الرياح المخربة.

وفي الآيتين التاليتين بمناسبة البحث الوارد في الآية السابقة- فإن الناس يقسمون إلى أربعة طوائف:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩٠

١- طائفة «الموتى» الذين لا يدركون أية حقيقة، وإن كانوا أحياء في الظاهر.

٢- وطائفة «الضم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

٣- وطائفة «العمى» الذي حُرِّموا من رؤيته وجه الحق.

٤- وأخيراً طائفة المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآية الأولى: «فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ، وَلِذَلِكَ لَا تُوَثَّرُ مَوَاعِظُكَ فِي أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْمَيْتَةِ. وَكَذَلِكَ «وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ».

وتأتى الآية الثانية لبيان بقية الطوائف فتقول: «وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ».

إن القرآن لديه ما هو أفضل من «الحياة والموت الماديين والجسمانيين» وأفضل من السمع والبصر الظاهريين فلديه نوع اسمى من هذه الحياة والموت والسمع والبصر، وتكمن فيها سعادة الإنسان أو شقاؤه.

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- يشير القرآن إلى دليل آخر من أدلة التوحيد، وهو دليل الفقر والغنى، ويكمل البحوث التي تدور حول التوحيد في هذه السورة، فيقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً».

كتتم في البداية ضعافاً إلى درجة أنكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحية الجسمية، أمّا من الناحية الفكرية فمصادفة قوله تعالى: «لَاتَعْلَمُونَ شَيْئًا» بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم.

لكن - قليلاً قليلاً - صرتم ذوى رشد وقوة، وصار لكم جسم قوى، وفكر جيد، وعقل مقتدر إدراك واسع. ومع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثم يبدأ بالإنحدار من القمة إلى قعر الوادى، الذى يمثل «مرحلة ضعف الجسم والروح».

هذا التغير والصعود والنزول خير دليل لهذه الحقيقة، وهى أنه لم تكن القوة من عندكم ولا الضعف، فكل منهما كان من جهة أخرى. أمّا آخر جملة فى الآية فهى إشارة إلى علم الله الواسع وقدرته المطلقة: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». وهى بشارة وإنذار فى الوقت ذاته، أى إن الله مطلع على جميع نياتكم، وهو قدير على مجازاتكم وثوابكم.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩١

فى هذه الآيات - محل البحث - يعقب القرآن على البحوث التى كانت حول المبدأ والمعاد أيضاً، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمة، وذلك بتجسيمه حالة المجرمين فى ذلك اليوم، إذ يقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» فى عالم البرزخ. أجل، «كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» فإنهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق ومصروفين عنها. والتعبير «الساعة» عن يوم القيامة هو إمّا لأنّ يوم القيامة يقع فى لحظة مفاجئة، أو لأنه من جهة أن أعمال العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ الله سريع الحساب.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالة البرزخ والقيامة فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». وتقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

وجملة «فِي كِتَابِ اللَّهِ» لعلّ إشارة إلى الكتاب التكويني، أو إلى الكتاب السماوى، أو إشارة إليهما معاً، أى كان - بأمر الله التكويني والتشريعي - مقدراً أن تلبثوا مثل هذه المدة فى البرزخ، ثم تحشرون فى يوم القيامة.

فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون ندمهم ويتوبون ويعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول فى هذا الصدد: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩٢

وواحد من أعداؤهم أنهم يلقون تبعات ذنوبهم على أسيخهم فى الكفر والنفاق.

وأحياناً يلقون اللوم على الشيطان فى تضليلهم وانحرافهم وأنه وسوس لهم.

وفى الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها فى هذه السورة ... إذ تقول: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ». لقد ذكرنا فيه الوعد والوعيد، الأمر والنهى، البشارة والإنذار، الآيات الآفاقية والأنفسية، دلائل المبدأ والمعاد والأخبار الغيبية والخلاصة ذكرنا فيه كل شىء يمكن أن يؤثر فى نفوس الناس.

وفى الحقيقة، إنّ فى القرآن - بشكل عام - وسورة الروم - بشكل خاص - حيث نحن الآن فى مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل والدروس الموقظة لكل فئة، ولكل طبقة، ولكل جماعة، ولكل فكر وأسلوب.

ومع هذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر فى قلوبهم المظلمة السوداء أى من هذه الامور، لذلك يقول القرآن فى شأنهم: «وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ».

والتعبير ب «مبطلون» تعبير جامع يحمل كل معاني الدجل والإفراء والنسب الكاذبة والفاضة من قبل المشركين. والآية التي بعدها تبين السبب في مخالفة هذه الطائفة، فتقول: إن لجاجة هؤلاء التي لا حد لها وعداءهم للحق، إنما هو لفقدانهم الإحساس والإدراك بسبب كثرة ذنوبهم، ولأنهم لا يعلمون شيئاً... إذ تقول: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ». «يطبع»: مأخوذة من الطبع، ومعناها ختم الشيء، وهي إشارة إلى ما كان يجري في السابق، وهو جار أيضاً اليوم إذ يختم على الشيء كيلا يتصرف به ويُغلق بإحكام، وقد يضعون عليه القفل ويضربون عليه مادة لزجة مختومة بإشارة معينة كما يتنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشيء إلا بكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

وكان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التي لا- ينفذ إليها النصح، والذين فقدوا الوجدان والعقل والعلم، ولا أمل في هدايتهم.

ومما يسترعى الانتباه أن في الآيات السابقة ذكر العلم أساساً للإيمان، وفي هذه الآية ذكر الجهل أساساً للكفر وعدم التسليم للحق. أمّا آخر آية من السورة الروم، فهي تأمر النبي صلى الله عليه وآله وأمرين مهمين، وتبشره بشاره كبرى، لتحتة على مواصلة الوقوف والتصدي للمشركين والجاهلين والسفهاء بالاستقامة والصبر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩٣

تقول أوّلًا: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر والاستقامة أمام الحوادث المختلفة، وفي مقابل أنواع الأذى والبهتان والمصاعب «فَاصْبِرْ».

لأن الصبر والاستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

وليكون النبي صلى الله عليه وآله أكثر اطمئناناً، فإن الآية تضيف: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». فقد وعدك والمؤمنين بالنصر، والاستخلاف في الأرض، وغلبة الإسلام على الكفر، والنور على الظلمة، والعلم على الجهل، وسوف يلبس هذا الوعد ثوب العمل. وتأمر ثانياً بضبط الأعصاب والهدوء وعدم الانحراف في المواجهة الشديدة والمتابعة، حيث تقول الآية: «وَلَا يَسِيخُفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوْقِنُونَ».

«يستخفّنك»: مشتقة من «الخفة» وهي خلاف الثقل. أي: كن رزيناً قائماً على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد ويحركوك من مكانك، وكن ثابتاً ومواصلاً للمسيرة باطمئنان، إذ أنهم فاقدوا اليقين، وأنت مركز اليقين والإيمان. هذه السورة بدأت بوعده إنتصار المؤمنين على الأعداء، وانتهت أيضاً بهذا الوعد، إلّا أنّ شرطها الأساس هو الصبر والاستقامة. «نهاية تفسير سورة الروم»

## الجزء الرابع

### ٣١. سورة لقمان

محتوى السورة: إن محتوى هذه السورة يتلخص في خمسة أقسام:

- ١- يشير - بعد ذكر الحروف المقطعة - إلى عظمة القرآن وكونه هدىً ورحمةً للمؤمنين الذين يتمتعون بصفات خاصة.
- ٢- يتحدث عن آيات الله في خلق السماء ورفعها بدون أي عمد، وخلق الجبال، والأحياء المختلفة، ونزول المطر، ونمو النباتات.
- ٣- ينقل جانباً من كلام لقمان الحكيم والمتأله في وصيته لابنه، وتسمية هذه السورة بسورة «لقمان» بسبب هذا البحث المهم العميق المحتوى.
- ٤- ثم تعود السورة إلى أدلة وعلامات التوحيد مرة أخرى فتتحدث عن تسخير السماء والأرض ونعم الله الوفيرة، وذمّ منطلق الوثنيين

الذين سقطوا فى وادى الضلال والانحراف نتيجة التقليد واتّباع الآباء والأجداد.

وتكشف الستار عن علم الله المطلق بذكر مثال واضح.

٥- إنه يشير إشارة قصيرة مؤثرة تهزّ الوجدان إلى مسألة المعاد والحياة بعد الموت، وتحذّر الإنسان من الإغترار بهذه الدنيا.

ثم انتهى هذا المبحث بذكر جانب من علم الله بالغيب بما يتعلق بالإنسان، ومن جملة

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦

ذلك لحظة موته، وحتى على الجنين فى بطن امه، وبذلك تنتهى السورة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة لقمان، كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة، واعطى من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف وعمل بالمنكر».

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة لقمان فى ليلة وكلّ الله به فى ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسى».

وكل هذا الفضل والثواب والإمّياز لتلاوة سورة من القرآن لأنّ التلاوة مقدّمة للتفكر، والتفكر مقدّمة للعمل.

الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) «الم» تبدأ هذه السورة بذكر أهمية وعظمة القرآن، وبيان الحروف المقطعة فى بدايتها إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الآيات التى تتركّب من حروف الألف باء البسيطة، لها محتوى ومفهوم سام يغيّر مصير البشر بصورة تامّة، ولذلك فإنّها تقول بعد ذكر الحروف المقطعة: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ».

«تلك»: فى لغة العرب إشارة للبعيد، وهذا التعبير كناية عن عظمة وأهمية هذه الآيات.

إنّ وصف «الكتاب» ب «الحكيم» إمّا لقوّة وامتانة محتواه، لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقاً وسيلاً، ويترد عن نفسه كل نوع من الخرافات والأساطير؛ أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذى يتكلّم بألف لسان فى الوقت الذى هو صامت لا ينطق، فيعلم، ويعظ وينصح، ويرغب ويرهب، ويحذّر ويتوعّد، ويبين القصص ذات العبرة. وخلاصة القول فإنّه حكيم بكل معنى الكلمة. ولهذه البداية علاقة مباشرة بكلام لقمان الحكيم الذى ورد البحث فيه فى هذه السورة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧

ثم تذكر الآية التالية الهدف النهائى من نزول القرآن، فتقول: «هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ».

إنّ الهداية مقدّمة لرحمة الله، لأنّ الإنسان يجد الحقيقة أولاً فى ظلّ نور القرآن، ويعتقد بها ويعمل بها، وبعد ذلك يكون مشمولاً برحمة الله الواسعة ونعمه التى لا حدّ لها.

ثم تصف الآية التالية المحسنين بثلاث صفات، فتقول: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

فإنّ إرتباط هؤلاء بالخالق عن طريق الصلاة، وبخلق الله عن طريق الزكاة، ويقينهم بمحكمة القيامة باعث قوى على الإبتعاد عن الذنب والمعصية، ودافع لأداء الواجبات.

وتبين الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- عاقبة عمل المحسنين، فتقول: «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

جملة «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» توحى بأنّ هداية اولئك قد ضمنت من قبل ربهم.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

سبب النزول



في تفسير مجمع البيان: نزل قوله «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ»: في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، كان يتجر فيخرج إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم، واسفنديار، وأخبار الأكاسرة. فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن.

التفسير

الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة: الكلام في هذه الآيات عن جماعة يقعون تماماً في الطرف المقابل لجماعة المحسنين والمؤمنين الذين ذكروا في الآيات السابقة. الكلام والحديث مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨

هنا عن جماعة يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهديه وإضلال المجتمع، ويشترون شقاء وبؤس دنياهم وآخرتهم. فتقول أولاً: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا». ثم تضيف أخيراً: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ». إن شراء لهو الحديث والكلام الأجوف إما أن يتم عن طريق دفع المال في مقابل سماع الخرافات والأساطير، أو أن يكون عن طريق شراء المغنيات لعقد مجالس اللهو والباطل والغناء. ويحتمل أيضاً أن يكون للشراء هنا معنى كنائي، والمراد منه كل أنواع السعي للوصول إلى هذه الغاية.

وأما «لَهْوَ الْحَدِيثِ» فإن له معنى واسعاً يشمل كل نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذي يؤدي إلى اللهو والغفلة، ويجزّ الإنسان إلى اللاهديه أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء والألحان والموسيقى المهيجة المثيرة للشهوة والغرائز والميول الشيطانية، أو الكلام الذي يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه ومضامينه. ولجملة «لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» مفهوم واسع أيضاً، يشمل الإضلال العقائدي، كما قرأنا ذلك في قصة النضر بن الحرث وأبي جهل، وكذلك يشمل الإفساد الأخلاقي كما جاء في أحاديث الغناء. والتعبير بـ «بِغَيْرِ عِلْمٍ» إشارة إلى أن هذه الجماعة الضالة المنحرفة لا تؤمن حتى بمذهبها الباطل، بل يتبعون الجهل والتقليد الأعمى لا غير.

أما وصف العذاب بـ (المهين) فلأن العقوبة متناغمة مع الذنب، فإن هؤلاء قد استهزؤوا بآيات الله وأهانوها، ولذلك فإن الله سبحانه قد أعد لهم عذاباً مهيناً، إضافة إلى كونه أليماً.

وأشارت الآية التالية إلى رد فعل هذه الفئة أمام آيات الله، وتوحي بالمقارنة برد فعلهم تجاه لهو الحديث، فتقول: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَوَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا». أي ثقلاً يمنعه من السماع ..

ثم تذكر أخيراً عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». إن التعبير بـ «وَلَّى مُسْتَكْبِرًا» إشارة إلى أن إعراضه لم يكن نابغاً من تضرر مصالحه الدنيوية والحد من رغباته وشهوته فحسب، بل إن الأمر أكبر من ذلك، فإن فيه دافع التكبر أمام عظمة الله وآياته، وهو أعظم ذنب فيه.

إن تعبير (بشر) في مورد العذاب الإلهي الأليم، يتناسب مع عمل المستكبرين الذين كانوا يتخذون آيات الله هزواً.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩

ثم تعود الآيات التالية إلى شرح وتبيان حال المؤمنين الحقيقيين، وقد بدأت السورة في مقارنتها هذه بذكر حالهم أولاً ثم ختمت به في نهاية هذا المقطع أيضاً، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ».

والأهم من ذلك أن هذه الجنان الوافرة النعم خالدة لهؤلاء: «خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا» والله سبحانه لا يعد كذباً، وليس عاجزاً عن الوفاء بوعوده «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وللنعيم معنى واسع يشمل كل أنواع النعم المادية والمعنوية.

بحثان

١- تحريم الغناء: لا شك في أن الغناء بصورة إجمالية حرام على المشهور بين علماء الشيعة، وتصل هذه الشهرة إلى حد الإجماع. والذي يمكن استفادته من مجموع كلمات فقهاء في هذا المجال، أن الغناء هو الأصوات والألحان التي تناسب مجالس الفسق والفجور، وأهل المعصية والفساد، ويحرك القوى الشهوانية في الإنسان.

والملفت للنظر أن بعض الألحان تعد أحياناً غناءً ولهاً باطلاً بذاتها ومحتواها، مثال ذلك أشعار العشق والغرام والأشعار المفسدة التي تُقرأ بألحان وموسيقى راقصة.

وقد تكون الألحان بذاتها غناءً أحياناً أخرى، مثال الأشعار الجيدة، أو آيات القرآن والدعاء والمناجاة التي تُقرأ بلحن يناسب مجالس الفاسدين والفساق، وهو حرام في كلتا صورتين «فتأمل».

ومن الطبيعي أن يكون للغناء موارد شك- ككل المفاهيم الأخرى- وأن الإنسان لا يعلم حقاً هل أن الصوت الفلاني يناسب مجالس الفسق والفجور، أم لا؟ وفي هذه الصورة يحكم بالحلية بحكم أصل البراءة.

والكلام الأخير هو أن ما ذكر أعلاه يتعلق بالغناء، وأما استعمال الآلات الموسيقية وحرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

٢- فلسفة تحريم الغناء: فبنظرة سريعة إلى معطيات الغناء سنواجه المفسد أدناه:

أولاً: الترغيب والدعوة إلى فساد الأخلاق:

لقد بينت التجربة أن كثيراً من الأفراد الواقعيين تحت تأثير موسيقى وألحان الغناء قد تركوا طريق التقوى، وأتجهوا نحو الشهوات والفساد.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠

إن مجلس الغناء- عادة- يعدّ مركزاً لأنواع المفسد، والدافع على هذه المفسد هو الغناء.

وينقل في تفسير روح المعاني حديثاً عن أحد زعماء بني أمية أنه قال لهم: إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر. وهذا يبين أنه حتى اولئك كانوا مطلعين على مفسده أيضاً. ثانياً: الغفلة عن ذكر الله:

إن التعبير باللغو الذي فسّر بالغناء في بعض الروايات الإسلامية إشارة إلى حقيقة أن الغناء يجعل الإنسان عبداً ثملاً من الشهوات حتى يغفل عن ذكر الله.

في الأمالي للطوسي رحمه الله عن علي عليه السلام قال: «كلما ألهى عن ذكر الله فهو من الميسر».

ثالثاً: الإضرار بالأعصاب:

إن الغناء والموسيقى أحد العوامل المهمة في تخدير الأعصاب، ولهذا فإن كثيراً من مفسد المخدرات موجودة في الغناء، سواء كان تخديره خفيفاً أم قوياً.

ويستفاد من الإحصاءات المعدة للوفيات في عصرنا الحالي بأن معدّل موت الفجأة قد ازداد بالمقارنة مع السابق، وقد ذكروا أسباباً مختلفة كان من جملتها الغناء والموسيقى.

رابعاً: الغناء أحد وسائل الإستعمار:

إن مستعمري العالم يخافون دائماً من وعى الشعوب، وخاصة الشباب، ولذلك فإن جانباً من برامجهم الواسعة لاستمرار وإدامة الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفلة والجهل والضلال، وتوسعة وسائل اللغو المفسدة.

إن المخدرات لا تتصف اليوم بصفة تجارية فقط، بل هي أحد الوسائل السياسية المهمة، فإن السياسات الاستعمارية تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء ونوادي القمار ووسائل اللغو الفاسدة الأخرى، ومن جملتها توسعة ونشر الغناء والموسيقى، وهي من أهم الوسائل التي

يصرّ عليها المستعمرون لتخدير أفكار الناس، ولهذا فإنّ الموسيقى تشكّل القسم الأكبر من وقت إذاعات العالم ووسائل الإعلام الأساسية.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)  
مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١

هذا خلق الله: مواصلة للبحث حول القرآن والإيمان به في الآيات السابقة، تتحدث الآيات أعلاه عن أدلة التوحيد الذي هو أهم الاصول العقائدية. تشير الآية الاولى إلى خمسة أقسام من مخلوقات الله التي ترتبط مع بعضها إرتباطاً وثيقاً لا ينفصل، وهي: خلق السماء، وكون الكواكب معلقة في الفضاء، وخلق الجبال لتثبيت الأرض، ثم خلق الدواب، وبعد ذلك الماء والنباتات التي هي وسيلة تغذيتها، فتقول: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا».

«العمد»: جمع «عمود» وتقييد بنائها وإقامتها ب «تَرْوُنَهَا» دليل على أنه ليس لهذه السماء أعمدة مرئية، ومعنى ذلك أن لها أعمدة إلاً أنها غير قابلة للرؤية، فإنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى قانون الجاذبية الذي يبدو كالعمود القوى جداً، إلا أنه غير مرئي، يحفظ الأجرام السماوية.

إنّ الجملة أعلاه أحد معجزات القرآن المجيد العلمية، وقد أوردنا تفصيلاً أكثر عنها في ذيل الآية (٢) من سورة الرعد.

ثم تقول الآية في الغاية من خلق الجبال: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ».

وبعد ذكر نعمة استقرار السماء بأعمدة الجاذبية، واستقرار وثبات الأرض بواسطة الجبال، تصل النبوة إلى خلق الكائنات الحية واستقرارها، بحيث تستطيع أن تضع أقدامها في محيط هادئ مطمئن، فتقول: «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ».

إنّ التعبير ب «مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» إشارة إلى تنوع الحياة في صور مختلفة.

إلاً أن من المعلوم أنّ هذه الحيوانات تحتاج إلى الماء والغذاء، ولذلك فإنّ الجملة التالية أشارت إلى هذا الموضوع، فقالت: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ».

فالكرة الأرضية تعتبر سماطاً واسعاً ذا أغذية متنوعة يمتدّ في جميع أنحاءها، ويصلح لكل نوع منها حسب خلقته، مما يدل على عظمة الخالق جل وعلا.

ثم تشير هذه الآية مرّة أخرى إلى مسألة (الزوجية في عالم النباتات) وهي أيضاً من معجزات القرآن العلمية، لأنّ الزوجية - أي وجود الذكر والانثى - في عالم النباتات لم تكن ثابتة في ذلك الزمان بصورة واسعة، والقرآن كشف الستار عنها.

بعد ذكر عظمة الله في عالم الخلق، وذكر صور مختلفة من المخلوقات، ووجهت الآية الخطاب إلى المشركين، وجعلتهم موضع سؤال واستجواب، فقالت: «هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢

مَآذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ». من المسلم أنّ اولئك لم يكونوا يستطيعون إدعاء كون أي من المخلوقات من خلق الأصنام، وعلى هذا فإنّهم كانوا يقرون بتوحيد الخالق، مع هذا الحال كيف يستطيعون تعليل الشرك في العبادة؛ لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الرب وكون مدبر العالم واحداً، وهو دليل على توحيد العبودية.

ولذلك اعتبرت الآية عمل اولئك منطبقاً على الظلم والضلال، فقالت: «بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

ومعلوم أنّ «الظلم» له معنى واسعاً يشمل وضع كل شيء في غير موضعه، ولما كان المشركون يربطون العبادة، وتدبير العالم أحياناً بالأصنام، فإنّهم كانوا مرتكبين لأكبر ظلم وضلالة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالُوا لَقَمَانُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) لتكميل البحوث السابقة حول التوحيد والشرك، وأهميته وعظمه القرآن، والحكمة التي استعملت وأتبع في هذا الكتاب السماوي، فقد ورد الكلام في هذه الآيات التي نبحتها والآيات الأخرى التالية عن لقمان الحكيم، وعن جانب من المواعظ المهمة لهذا الرجل المتأله في باب التوحيد ومحاربة الشرك. إن هذه المواعظ العشرة التي ذكرت ضمن ست آيات، قد بينت بأسلوب رائع المسائل العقائدية، إضافة إلى اصول الواجبات الدينية والمباحث الأخلاقية.

لقد ورد اسم «لقمان» في آيتين من القرآن في هذه السورة، وأن أسلوب القرآن في شأن

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣

لقمان يوحى بأنه لم يكن نبياً.

في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «حقاً أقول: لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه ومنّ عليه بالحكمة».

تقول الآية الأولى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».

إن الحكمة التي يتحدث عنها القرآن، والتي كان الله قد آتاها لقمان، كانت مجموعة من المعرفة والعلم، والأخلاق الطاهرة والتقوى ونور الهداية.

فإن لقمان بامتلاكه هذه الحكمة كان يشكر الله، فقد كان يعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهية، وكيفية استغلالها والاستفادة منها، وكان يضعها بدقة وصواب كامل في مكانها المناسب لتحقيق الهدف الذي خلقت من أجله، وهذه هي الحكمة، وهي وضع كل شيء في موضعه، وبناءً على هذا فإن الشكر والحكمة يعودان إلى نقطة واحدة.

والتعبير بـ «غنيّ حميد» إشارة إلى أن شكر الناس للأفراد العاديين إما أن يؤدي إلى النفع المادي للمشكور، أو زيادة مكانة صاحبه في أنظار الناس، إلماً أن أياً من هذين الأمرين لا معنى له ولا مصداق في حق الله تعالى، فإنه غني عن الجميع، وهو أهل لحمد كل الحامدين وثنائهم.

وبعد تعريف لقمان ومقامه العلمي والحكمي، أشارت الآية التالية إلى أولى مواعظه، وهي في الوقت نفسه أهم وصاياه لولده، فقالت: «وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

وأي ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها في مصاف الله ودرجته، وهم يظلمون أنفسهم أيضاً حيث ينزلونها من قمة عزة العبودية لله ويهونون بها إلى منحدر ذلة العبودية لغيره.

والآيتان التاليتان جمل معترضه ذكرها الله تعالى في طيات مواعظ لقمان، لكن هذا الاعتراض لا يعني عدم الإتصال والإرتباط، بل يعني الصلة الواضحة لكلام الله عز وجل بكلام لقمان، لأن في هاتين الآيتين بحثاً عن نعمة وجود الوالدين ومشاقهما وخدماتهما وحقوقهما، وجعل شكر الوالدين في درجة شكر الله.

إضافة إلى أنهما تعتبران تأكيداً على كون مواعظ لقمان لابنه خالصة، لأن الوالدين مع

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤

هذه العلاقة القوية وخلص النية لا يمكن أن يذكر في مواعظهما إلماً فيه خير وصلاح الولد، فتقول أولاً: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ». وعندئذ تشير إلى جهود ومتاعب الام العظيمة، فتقول: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ». وهذه المسألة قد ثبتت من الناحية العلمية، إذ أوضحت التجارب أن الأمهات في فترة الحمل يُصبن بالضعف والوهن، لأنهن يصرفن خلاصة وجودهن في تغذية وتنمية الجنين،

ويقدم له من موادهن الحياتية أفضلها.

وهذا الأمر يستمر حتى في فترة الرضاعة، لأن اللبن عصاره وجود الام، ولهذا تضيف بعد ذلك فترة رضاعه سنتان: «وَفَصَّالَةٌ فِي عَمَّائِنِ». كما اشير إلى ذلك في الآية (٢٣٣) من سورة البقرة: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ». والمراد فترة الرضاعة الكاملة، وإن كانت تتم أحياناً بفترة أقل.

ثم تقول: «أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ». فاشكرني لأنتي خالقك والمنعم الأصلي عليك، ومنحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين، واشكر والديك لأنهما واسطة هذا الفيض وقد تحملا مسؤوليه إيصال نعمي إليك.

ويقول الله تعالى في نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد والعتاب: «إِلَيَّ الْمَصِيرُ».

فإنك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كل هذه الحقوق والمصاعب والخدمات بدقه فيجب على الإنسان أن يؤدي ما عليه من شكر مواهب الله.

إن الوصية بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الإشتباه والوهم عند البعض وذلك حينما يظن أنه يجب مداراتهما وأتباعهما حتى في مسألة العقيدة والكفر والإيمان، لكن الآية التالية تقول: «وَأِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا».

فيجب أن لا تكون علاقة الإنسان بأمه وأبيه مقدمه على علاقته بالله مطلقاً، وأن لا تكون عواطف القرابة حاكمه على عقيدته الدينية أبداً.

ولما كان من الممكن أيضاً أن يوجد هذا الأمر توهم وجوب استخدام الخشونة مع الوالدين المشركين وعدم احترامهما، ولذلك أضافت الآية إن عدم طاعتها في مسألة الشرك ليس دليلاً على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن: «وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا».

فلأطفهما وأظهر المحبة لهما في الحياة الدنيوية والمعاشرة، ولا تستسلم لأفكارهما

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥

واقترحاتهما من الناحية العقائدية والبرامج الدينية، وهذه بالضبط نقطة الاعتدال الأصلية التي تجمع فيها حقوق الله والوالدين، ولذا يضيف بعد ذلك: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ».

لأن المصير إليه سبحانه: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

إن الآية أعلاه تشبه ما جاء في الآية (٨) من سورة العنكبوت، حيث تقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْرًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

يَا بَنِي إِنتَهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بَنِي إِنتَهَا وَ أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الْأُمُورِ (١٧) وَ لَا تَصْعُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) كانت اولى مواعظ لقمان عن مسألة التوحيد ومحاربة الشرك، وثانيها عن حساب الأعمال والمعاد، والتي تكمل حلقة المبدأ والمعاد، فيقول: «يَا بَنِي إِنتَهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ». أى فى يوم القيامة.

ويضعها للحساب: «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ».

«الخردل»: نبات له حبات سوداء صغيرة جداً يضرب المثل بصغرهما؛ وهذا التعبير إشارة إلى أن أعمال الخير والشر مهما كانت صغيرة لا قيمة لها، ومهما كانت خفية كخردله فى بطن صخرة فى أعماق الأرض، أو فى زاوية من السماء، فإن الله اللطيف الخبير المطلع على كل الموجودات، صغيرها وكبيرها فى جميع أنحاء العالم، سيحضرها للحساب والعقاب والثواب، ولا يضيع شيئاً فى هذا الحساب.

إنّ الإنفئات والتوجه إلى هذا الإطلاع التام من قبل الخالق سبحانه على أعمال الإنسان وعلمه بها، هو أساس كل الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وهو قوة وطاقة محرّكة نحو الخيرات، وسدّ منيع من الشرور والسيئات.

وبعد تحكيم اسس المبدأ والمعاد، والتي هي أساس كل الإعتقادات الدينية، تطرّق لقمان

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦

إلى أهمّ الأعمال، أى مسألة الصلاة، فقال: «يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ». لأنّ الصلاة أهمّ علاقة وإرتباط مع الخالق، والصلاة تنور قلبك، وتصفّى روحك، وتضىء حياتك، وتطهّر روحك من آثار الذنب، وتقذف نور الإيمان فى أنحاء وجودك، وتمنعك عن الفحشاء والمنكر. وبعد الصلاة يتطرّق لقمان إلى أهمّ دستور اجتماعى، أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيقول: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

وبعد هذه الأوامر العملية المهمة الثلاثة، ينتقل إلى مسألة الصبر والإستقامة، والتي هي من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فيقول: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

«العزم»: بمعنى الإرادة المحكّمة القوية، والتعبير بـ «عَزَمَ الْأُمُورِ» هنا إمّا بمعنى الأعمال التي أمر الله بها أمراً مؤكداً، أو الامور والأعمال التي يجب أن يمتلك الإنسان فيها إرادة فولاذية وتصميماً راسخاً، وأياً من هذين المعنيين كان فإنّه يشير إلى أهمية تلك الأعمال. والتعبير بـ «ذَلِكَ» إشارة إلى الصبر والتحمل.

ثم انتقل لقمان إلى المسائل الأخلاقية المرتبطة بالناس والنفس، فيوصى أولاً بالتواضع والبشاشة وعدم التكبر، فيقول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». أى لا تعرض بوجهك عن الناس «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَأُيْحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ».

«تُصَعِّرُ»: من مادة (صعّر)، وهى فى الأصل مرض يصيب البعير فيؤدى إلى إعوجاج رقبتة؛ و «المرح»: يعنى الغرور والبطر الناشئ من النعمة؛ و «المختال»: من مادة «الخيال» و «الخيلاء» وتعنى الشخص الذى يرى نفسه عظيماً وكبيراً، نتيجة سلسلة من التخيالات والأوهام؛ و «الفخور»: من مادة «الفخر» ويعنى الشخص الذى يفتخر على الآخرين.

وعلى هذا، فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جداً وأساس توهين وقطع الروابط الاجتماعية الصميمية: إحداهما التكبر وعدم الاهتمام بالآخرين، والاخرى الغرور والعجب بالنفس، وهما مشتركتان من جهة دفع الإنسان إلى عالم من التوهم والخيال ونظرة التفوق على الآخرين، وإسقاطه فى هذه الهاوية، وبالتالي تقطعان علاقته بالآخرين وتعزلانه عنهم.

إنّ مراد لقمان محاربه كل مظاهر التكبر والغرور.

فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من مشى على الأرض

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧

اختيالاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها».

ثم بين فى الآية التالية أمرين وسلوكين أخلاقيين إيجابيين فى مقابل النهيين عن سلوكين سلبيين فى الآية السابقة فيقول: إبتغ الإعتدال فى مشيك: «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ». وابتغ الإعتدال كذلك فى كلامك ولا ترفع صوتك عالياً، «وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ».

إنّ هاتين الآيتين فى الحقيقة أمرتا بصفيتين، ونهتا عن صفتين:

فالنهى عن «التكبر» و «العجب»، فإنّ أحدهما يؤدى إلى أن يتكبر الإنسان على عباد الله، والآخر يؤدى إلى أن يظنّ الإنسان أنّه فى مرتبة الكمال وأسمى من الآخرين، وبالتالي سيغلق أبواب التكامل بوجهه، وإن كان لا يقارن بينه وبين الآخرين.

أمّا الأمر بصفيتين، فهما رعاية الإعتدال فى العمل والكلام، لأنّ التأكيد على الإعتدال فى المشى أو إطلاق الصوت هو من باب المثال فى الحقيقة.

والحق أن الإنسان الذي يتبع هذه النصائح الأربع موفق وسعيد وناجح في الحياة، ومحبوب بين الناس، وعزيز عند الله. في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أكثر ما تلج به امتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق».

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ والمعاد وطريقة الحياة، وخطط وبرامج القرآن

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨

الأخلاقية والاجتماعية، ولأجل إكمال البحث، تتجه الآيات إلى بيان نعم الله تعالى لتبعث في الناس حسن الشكر ... الشكر الذي يكون منبعاً لمعرفة الله وطاعة أوامره، فيوجه الخطاب لكل البشر، فيقول: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» ثم تضيف الآية: «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً».

«أسبغ»: من مادة «سبغ» وهي في الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل، ثم اطلق على النعم الكثيرة الوفيرة أيضاً. وتتحدث الآية في النهاية عن كفر بالنعم الإلهية الكبيرة العظيمة، والتي تحيط الإنسان من كل جانب، ويهتد إلى الجدل ومحاربة الحق، فتقول: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ». وبدل أن يعرف ويقدر هبة وعطاء كل هذه النعم الظاهرة والباطنة، فإنه يتجه إلى الشرك والجحود نتيجة الجهل.

والملفت للنظر هو أن «العلم»: إشارة إلى الإدراكات التي يدركها الإنسان عن طريق عقله؛ و «الهدى»: إشارة إلى المعلمين والقادة الربانيين والسموامين، والعلماء الذين يأخذون بيده في هذا المسير ويوصلونه إلى الغاية والهدف؛ والمراد من «الكتاب المنير»: الكتب السماوية التي تملأ قلب الإنسان نوراً عن طريق الوحي.

إن هذه الجماعة العنيدة لا- يمتلكون علماً، ولا- يتبعون مرشداً وهادياً، ولا- يستلهمون من الوحي الإلهي، ولما كانت طرق الهداية منحصرة بهذه الامور الثلاثة فإن هؤلاء لما تركوها سقطوا في هاوية الضلال والضياع ووادي الشياطين.

وتشير الآية التالية إلى المنطق الضعيف السقيم لهذه الفئة، فتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَجِدُهُمْ عَلَىٰ آبَاءِنَا». ولمّا لم يكن أتباع الآباء الجهلة المنحرفين جزءاً من أيّ واحد من الطرق الثلاثة المذكورة أعلاه للهداية، فإن القرآن ذكره بعنوان الطريق الشيطاني، وقال: «أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ».

ثم تطرقت الآية التالية إلى بيان حال مجموعتين: المؤمنين الخالص، والكفار الملوّثين، وتجعلهم مورد اهتمامها في المقارنة بينهم، فقالت: «وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩

والإستمساك بالعروة الوثقى تشبيه لطيف لهذه الحقيقة، وهي أن الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر المادية والإرتقاء إلى أعلى قمم المعرفة والمعنويات وتسامى الروح، إلى واسطة ووسيلة محكمة مستقرّة ثابتة، وليست هذه الوسيلة إلا الإيمان والعمل الصالح، وكل سبيل ومتكأ غيرهما متهرىء متخرق هاو وسبب للسقوط والموت، إضافة إلى أن ما يبقى هو هذه الوسيلة، وكل ما عداها فان، ولذلك فإن الآية تقول في النهاية: «وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ».

في تفسير البرهان: من طريق العامة عن الرضا عليه السلام عن آباءه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله ستكون بعدى فتنة مظلمة، الناجي منها من تمسك بالعروة الوثقى. فقيل: يا رسول الله، وما العروة الوثقى؟ قال: ولاية سيد الوصيين. قيل: يا

رسول الله، ومن سيد الوصيين؟ قال: أمير المؤمنين. قيل: يا رسول الله ومن أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين وإمامهم بعدى. قيل: يا رسول الله، ومن مولى المسلمين وإمامهم بعدك؟ قال: أخى على بن أبى طالب».

وقد رويت روايات اخرى فى هذا الباب تؤيد أن المراد من العروة الوثقى مودة أهل البيت عليهم السلام، أو حب آل محمد صلى الله عليه وآله، أو الأئمة من ولد الحسين عليهم السلام.

وقد قلنا مراراً: إن هذه التفاسير بيان للمصاديق الواضحة، ولا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالتوحيد والتقوى وأمثال ذلك. ثم تطرقت الآية التالية إلى بيان حال الفئة الثانية، فقالت: «وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ». لأنك قد أدت واجبك على أحسن وجه، وهو الذى قد ظلم نفسه.

فلا تحزن أن تكفر جماعة من الناس، ويظلموا ويجوروا وهم متنعمون بالنعم الإلهية ولا يعاقبون، فلا عجله فى الأمر، إذ: «إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا». فإننا مطلعون على أسرارهم ونياتهم كأطلعنا على أعمالهم، ف: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ». ثم يضيف بأن تمتع هؤلاء بالحياة لا- ينبغى أن يثير عجبك، لأننا «نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ» ذلك العذاب الأليم المستمر.

إن هذا التعبير لعله إشارة إلى أن هؤلاء لا- يتصوروا أنهم خارجون عن قبضة قدرة الله سبحانه، بل إنه يريد أن يمهل هؤلاء للفتنة وإتمام الحجة والأهداف الاخرى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠

وَلَيْنَ سَاءَ لَتْهُمُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّ مَاءَ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) عشر صفات لله سبحانه: بينت الآيات الستة أعلاه مجموعة من صفات الله سبحانه، وهى عشر صفات رئيسية، أو عشرة أسماء من الأسماء الحسنى: الغنى، الحميد، العزيز، الحكيم، السميع، البصير، الخبير، الحق، العلى، والكبير.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن الآية الاولى تتحدث عن «خالقية» الله، والآية الثانية عن «مالكيته» المطلقة، والثالثة عن «علمه» اللامتناهى، والآية الرابعة والخامسة عن «قدرته» اللامتناهى، والآية الأخيرة تخلص إلى هذه النتيجة، وهى أن الذى يمتلك هذه الصفات ويتمتع بها هو الله تعالى، وكل ما دونه باطل أجوف حقير.

مع ملاحظة هذا البحث الإجمالى نعود إلى شرح الآيات، فتقول الآية الاولى: «وَلَيْنَ سَاءَ لَتْهُمُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ». هذا التعبير يدل من جهة على أن المشركين لم يكونوا منكرين لتوحيد الخالق مطلقاً، ومن جهة اخرى يدل على كون التوحيد فطرياً وأن هذا النور كامن فى طينه وطبيعته كل البشر.

ثم تقول: إذا كان هؤلاء معترفين بتوحيد الخالق ف «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ثم تتطرق إلى «مالكية» الله، لأنه بعد ثبوت كونه خالقاً لا حاجة إلى دليل على كونه مالكا، فتقول: «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١

ومن البديهى أن الخالق والمالك يكون مدبراً لأمر العالم أيضاً.

ولذلك تقول الآية فى النهاية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

إنه غنى على الإطلاق، وحميد من كل جهة، لأن كل موهبة فى هذا العالم تعود إليه، وكل ما يملكه الإنسان فإنه صادر منه وخزائن



كل الخيرات بيده، وهذا دليل حى على غناه.

ولما كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذى يصدر عن المرء باختياره، وكل حسن نراه فى هذا العالم فهو من الله سبحانه، فإن كل حمد وثناء منه.

ثم تجسّد الآية التالية علم الله اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جداً فيقول: «وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدْتُ كَلِمَتَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

«يمدّه»: من مادة «المداد» وهى بمعنى الحبر أو المادة الملونة التى يكتبون بها، وهى فى الأصل من «مدّ» بمعنى الخطّ، لأن الخطوط تظهر على صفحة الورق بواسطة جرّ القلم.

«الكلمات»: جمع «كلمة» وهى فى الأصل الألفاظ التى يتحدث ويتكلم بها الإنسان، ثم اطلقت على معنى أوسع، وهو كل شىء يمكنه أن يبين المراد والمطلب، ولمّا كانت مخلوقات هذا العالم المختلفة يبين كل منها ذات الله المقدسة وعظمته، فقد أطلق على كل موجود (كلمة الله)، ثم استعملت كلمات الله بمعنى علم الله لهذه المناسبة.

بعد ذكر علم الله اللامحدود، تتحدث الآية الاخرى عن قدرته اللامتناهية، فتقول: «مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ».

الآية التالية تأكيد وبيان آخر لقدرة الله الواسعة، وقد وجهت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وآله فقالت: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَيَّحِرُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» لخدمته الناس وتأمين احتياجاتهم «كُلُّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

«الولوج»: فى الأصل بمعنى «الدخول»، ودخول الليل فى النهار والنهار فى الليل قد يكون إشارة إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجى على مدار السنة، حيث ينقص شىء من أحدهما تدريجياً، ويضاف على الآخر بصورة غير محسوسة، لتتكوّن الفصول الأربعة للسنة بخصائصها وآثارها المباركة.

وجملة «كُلُّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» إشارة إلى أن هذا النظام الدقيق لا يستمر إلى الأبد، بل إن له نهاية بانتهاء الدنيا.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢

وتقول الآية الأخيرة كاستخلاص نتيجة جامعة كلية: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبُطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ». إن مجموع البحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول كون الله خالقاً ومالكاً، وعن علمه وقدرته اللامتناهين، أثبتت هذه الامور، وأن الحق هو الله وحده، وكل شىء غيره زائل وباطل ومحدود ومحتاج؛ والعلى والكبير الذى يسمو على كل شىء، ويجل عن كل وصف، هو ذاته المقدسة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يدور البحث والحديث فى هاتين الآيتين أيضاً عن نعم الله سبحانه، وأدلة التوحيد فى الآفاق والأنفس، فالحديث فى الآية الاولى عن دليل النظام، وفى الآية الثانية عن التوحيد الفطرى، وهما فى المجموع تكملان البحوث التى وردت فى الآيات السابقة. تقول الآية الاولى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

لا شك أن حركة السفن على سطح المحيطات تتم بمجموعه من قوانين الخلقه.

وبعد بيان نعمه حركة السفن فى البحار، والتى كانت ولا تزال أكبر وأنفع وسائل حمل ونقل البضائع والبشر، أشارت هذه الآية إلى صورة اخرى لهذه المسألة، فقالت: «وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». «الظلل»: جمع ظلّه بمعنى سحابه تظل.

أى إن أمواج البحر العظيمة تهيج فتحيط بهم كأن سحاباً قد أظلمهم بظل مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفاً وعاجزاً رغم كل تلك القوى والإمكانات الظاهرية التي أعدها لنفسه.  
 هنا يحيط التوحيد الخالص بكل قلبه ويغمره، ويعتقد بأن الدين والعبادة مختصة به سبحانه.  
 ثم تضيف الآية إن الله سبحانه لما نجاهم من الهلكة إنقسم الناس قسمين: «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ».  
 مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣

«مقتصد»: من مادة «قصد» بمعنى الاعتدال في العمل، والوفاء بالعهد.

وهؤلاء وفوا بعهدهم ولم ينقضوه، ولم ينسوا منه الله عليهم في تلك اللحظات الحساسة.

وتضيف الآية في النهاية: «وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ».

«ختار»: من «الختر» بمعنى نقض العهد، وهذه الكلمة صيغة مبالغة، لأن المشركين والعاصين يتوجهون إلى الله مراراً، ويقطعون على أنفسهم العهود، وينذرون النذور، إلما أنهم بمجرد أن يهدأ طوفان الحوادث ينقضون عهودهم بصورة متلاحقة، ويكفرون بنعم الله عليهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعِيَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) في هاتين الآيتين اللتين هما آخر آيات سورة لقمان، تلخيص للمواعظ والنصائح السابقة ولأدلة التوحيد والمعاد، وتوجيه الناس إلى الله واليوم الآخر وتحذير من الغرور الناشئ من الدنيا والشيطان، ثم الحديث عن سعة علم الله سبحانه وشموله لكل شيء، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا».

إن الدستور الأول هو التوجه إلى المعاد، فالدستور الأول يحيى في الإنسان قوة المراقبة، والثاني ينمى روح الثواب والعقاب، ولا شك أن الإنسان الذي يعلم أن شخصاً خبيراً ومطلعاً على كل أعماله يراه ويعلم به ويسجل كل أعماله، ومن ناحية أخرى يعلم أن محكمه عادلة ستشكل للتحقيق في كل جزئيات أعماله، لا يمكن أن يتلوث بأدنى فساد ومعصية.

جملة «لَا يَجْزِي» من مادة الجزاء، و «الجزاء» ورد بمعنيين من الناحية اللغوية:

أحدهما: المكافأة والمعاقبة مقابل شيء، كما يقال: جزاه الله خيراً.

والآخر: الكفاية والنيابة والتحمل للشيء عن الآخرين، كما جاء في الآية مورد البحث:

«لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤

ومن الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصل واحد، لأن الثواب والعقاب يحلان محل العمل وينوبان عنه، وهما بمقداره أيضاً - تأملوا ذلك -.

على كل حال، فإن كل إنسان في ذلك اليوم مشغول بنفسه، ومبتلى بمعطيات أعماله وآثارها إلى درجة أنه لا ينظر إلى أحد ولا يهتم به، حتى وإن كان أبوه، أو ابنه الذي كانت تربطه به أقرب الروابط، فلا يفكر أحد بآخر مطلقاً.

وتحذر الآية في النهاية البشر من شيئين، فتقول: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ». أي الشيطان.

في الواقع، يلاحظ هنا نهيان في مقابل الأمرين اللذين كانا في بداية الآية، فإن الإنسان إذا نمت فيه مسألة التوجه إلى الله، والخوف من الحساب والجزاء، فلا يخاف عليه من الانحراف والفساد، إلما من طريقين:

أحدهما: أن تقلب زخارف الدنيا وزبرجها الحقائق في عينيه بصور أخرى، وتسلب منه القدرة على التشخيص، لأن حب الدنيا رأس كل الخطايا وأساسها.

والآخر: أن تخدعه وساوس الشيطان وتغره، وتبعده عن المبدأ والمعاد.

فإذا أغلق طريقي نفوذ المعصية والذنب هذين، فسوف لا يهدده أى خطر، وعلى هذا فإن الدساتير والبنود الأربعة أعلاه تمثل مجموعة كاملة من برنامج نجاه وخلص الإنسان.

وفى آخر آية من هذه السورة، وبمناسبة البحث الذى جاء فى الآية السابقة حول يوم القيامة، يدور الكلام عن العلوم المختصة بالله سبحانه، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ» ومطلع على جميع جزئياته وتفصيله ... «وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ». فكان مجموع هذه الآية جواب عن سؤال يطرح فى باب القيامة، وهو نفس السؤال الذى سأل المشركون به النبى صلى الله عليه وآله مراراً وتكراراً، وقالوا: «مَتَى هُوَ» (١). فيجيبهم القرآن عن سؤالهم، ويقول: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا» (٢). «نهاية تفسير سورة لقمان»

(١) سورة الإسراء / ٥١.

(٢) سورة طه / ١٥.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥

### ٣٢. سورة السجدة

محتوى السورة: هذه السورة بحكم كونها من السور المكية تتابع بقوة الخطوط الأصلية للسور المكية، أى البحث فى المبدأ والمعاد، والبشارة والإنذار، وعلى العموم تنقسم مباحثها إلى عدة أقسام:

١- الكلام عن عظمة القرآن، ونزوله من قبل رب العالمين.  
٢- ثم البحث حول آيات الله سبحانه فى السماء والأرض، وتدبير هذا العالم.  
٣- بحث آخر حول خلق الإنسان من «التراب» و «النفثة» و «الروح الإلهية»، ومنحه وسائل تحصيل العلم، أى العين والاذن والعقل من قبل الله تعالى.

٤- ثم تتحدث بعد ذلك عن القيامة والحوادث التى تسبقها، أى الموت، وما بعدها.

٥ و ٦- بحوث مؤثرة تهزّ الوجدان عن البشارة والإنذار.

وبهذا فإن الهدف الأصلي للسورة تقوية اسس الإيمان بالمبدأ والمعاد، وإيجاد دفعة قوية فى المحتوى الداخلى للإنسان نحو التقوى. أسماء هذه السورة: اسم هذه السورة فى بعض الروايات، وكذلك المشهور على لسان المفسرين: سورة (السجدة)، أو (الم السجدة)، ويسمونها أحياناً (سجدة لقمان) لتمييزها عن سورة (حم السجدة)، لأنها جاءت بعد سورة لقمان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٦

وذكرت فى بعض الروايات باسم (الم تنزيل).

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ الم تنزيل، وتبارك الذى بيده الملك، فكأنما أحيى ليلة القدر».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة السجدة فى كل ليلة جمعة أعطاه الله كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما كان منه، وكان من رفقاء محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام».

فلا شك أن تلاوتها- التلاوة التى تكون مصدراً للتفكير، وبالتالي مبدءاً للتصميم والحركة- قادرة على أن تصنع من الإنسان مثلاً

متكاملاً تشمله كل هذه الفضيلة والفخر.

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرْبَابٍ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) عظمة القرآن، والمبدأ والمعاد: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة «الم» في هذه السورة، وهذه هي المرّة الخامسة عشرة التي نرى فيها مثل هذه الحروف في بداية السور القرآنية.

والبحث الذي جاء بعد هذه الحروف مباشرة حول أهمية القرآن يبين مرّة اخرى هذه الحقيقة، وهي أنّ «الم» إشارة إلى عظمة القرآن، والقدرة على إظهار عظمة الله سبحانه، وهذا الكتاب العظيم الغني المحتوى، والذي هو معجزة محمد صلى الله عليه وآله الخالدة يتكوّن من حروف المعجم البسيطة التي يعرفها الجميع. تقول الآية: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرْبَابٍ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ». هذه الآية جواب عن سؤالين: الأوّل عن محتوى هذا الكتاب السماوي، فتقول في الجواب: إنّ محتواه حقّ ولا مجال لأدنى شك فيه؛ والسؤال الثاني يدور حول مبدع هذا الكتاب، وفي الجواب تقول: إنّ هذا الكتاب من قبل رب العالمين.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧

ثم يشير إلى التهمة التي طالما وجهها المشركون والمنافقون إلى هذا الكتاب السماوي العظيم حيث قالوا: إنّ هذا الكتاب من تأليف محمد. وقد ادّعى كذباً بأنّه من الله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ». فيقول جواباً على ادّعاء هؤلاء الزائف: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ». وأدله أحقيته واضحة وبيّنة فيه من خلال آياته.

ثم يتطرق إلى الهدف من نزوله، فيقول: «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

جملة «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» إشارة إلى أنّ القرآن يهيء أرضية الهداية، إلّا أنّ التصميم واتخاذ القرار النهائي موكل ومرتبب بنفس الإنسان. إنّ المراد من «النذير» هنا النبي الكبير الذي يوضح ويبين دعوته مقرونة بالمعجزات وفي محيط واسع، ومعلوم أنّ مثل هذا النذير لم يقم في الجزيرة العربية وبين قبائل مكة.

بعد بيان عظمة القرآن ورسالته النبي صلى الله عليه وآله تطرقت الآية التالية إلى أساس آخر من أهم أسس ودعائم العقائد الإسلامية، فتقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ». والمراد من «سِتَّةِ أَيَّامٍ» في هذه الآيات: ستّ مراحل.

وبعد مسألة الخلق تتطرق الآية إلى مسألة حاكمية الله سبحانه على عالم الوجود، فتقول: إنّ الله تعالى بعد ذلك استوى على عرش قدرته وسيطر على جميع الكائنات: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».

«العرش»: تعنى في الأصل الكراسي الطويلة القوائم، وتأتي عادة كناية عن القدرة.

إنّ استواء الله على العرش بمعنى أنّه خالق عالم الوجود، وكذلك الحاكم على كل العالم.

وتكتمل الآية مراحل التوحيد بالإشارة إلى توحيد «الولاية» و «الشفاعة»، فتقول: «مَّا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ».

والمراد من «الشفيع» هنا: الناصر والمعين، ونحن نعلم أنّ الناصر والولي والمعين هو الله وحده.

فمع هذا الدليل الواضح، فلماذا تنحرفون وتضلّون وتتمسكون بالأصنام؟ «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ».

إنّ المراحل الثلاث للتوحيد التي انعكست في الآية أعلاه يعتبر كل منها دليلاً على الاخرى، فتوحيد الخالق دليل على توحيد الحاكمية، وتوحيد الحاكمية دليل على توحيد

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨

الولي والشفيع والمعبود. وتشير الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث إلى توحيد الله سبحانه في البداية، ثم إلى مسألة «المعاد»، وبهذا تكمل هنا فروع وأركان التوحيد الثلاثة التي اتّضحت في الآيات السابقة- (توحيد الخالق والحاكمية والعبودية)- بذكر توحيد

الربوبية، أى تدبير عالم الوجود من قبل الله سبحانه فقط، فتقول: إن الله يدبر أمور العالم من مقام القرب منه إلى الأرض: «يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

ثم تضيف: «ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ». والمراد من هذا اليوم يوم القيامة.

والمراد من الآية هو أن الله سبحانه خلق هذا العالم، ونظم ودبر السماء والأرض بتدبير خاص، إلّا أنه يطوى هذا التدبير فى نهاية العالم، وبعد طوى هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج ومشروع عالمى جديد أوسع، أى سيبدأ عالم آخر بعد إنتهاء هذه الدنيا.

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) مراحل خلق الإنسان العجيب: إن الآيات- مورد البحث- إشارة وتأكيد فى البداية على بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقة، والتى كانت تتلخص فى أربع مراحل: توحيد الخالقية، والحاكمية، والولاية، والربوبية، فتقول: «ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

ثم تشير الآية التالية إلى نظام الخلقه الأحسن والأكمل بصورة عامة، ومقدمة لبيان خلق الإنسان ومراحل تكامله بشكل خاص: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ». وأعطى كل شىء ما يحتاجه. وبتعبير آخر: فإن تشييد صرح الخلقه العظيم قد قام على أساس النظام الأحسن، أى قام على نظام دقيق سالم لا يمكن تخيل نظام أكمل منه.

بعد هذه المقدمة الآفاقية يدخل القرآن بحث الأنفس، وكما تحدّث فى بحث الآيات

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩

الآفاقية عن عدة أقسام للتوحيد، فإنّه يتحدّث هنا عن عدة مواهب عظيمة فى مورد البشر: يقول أولاً: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ». لبيّن عظمه وقدره الله سبحانه، هذا من جانب، ومن جانب آخر يحذّر الإنسان ويذكره من أين أتيت، وإلى أين ستذهب؟! ومن المعلوم أنّ هذه الآية تتحدّث عن خلق آدم، لا كل البشر، لأن استمرار نسله قد ذكر فى الآية التالية، وظاهر هذه الآية دليل واضح على خلق الإنسان بشكل مستقل، قد تمّ من الطين مباشرة وبدون واسطة.

ثم تشير الآية بعدها، إلى خلق نسل الإنسان، وكيفية تولد أولاد آدم فى مراحل، فتقول: «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ».

«جعل»: هنا بمعنى الخلق؛ و «النسل»: بمعنى الأولاد والأحفاد فى جميع المراحل.

«السلالة»: فى الأصل، بمعنى العصارة الخالصة لكل شىء، والمراد منها هنا نطفة الإنسان التى تعتبر عصارة كل وجوده، ومبدأ حياة وتولد الذرية واستمرار النسل.

«مهين»: التى تعنى الضعيف إشارة إلى وضعه الظاهرى، وإلّا فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

وتشير الآية التالية إلى مراحل تكامل الإنسان المعقّدة فى عالم الرحم، وكذلك المراحل التى طواها آدم عند خلقه من التراب، فتقول: «ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَرَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

«سويه»: من التسوية، أى الإكمال، وهذه إشارة إلى مجموع المراحل التى يطويها الإنسان من حال كونه نطفة إلى المرحلة التى تتّضح فيها جميع أعضاء بدنه، وكذلك المراحل التى طواها آدم بعد خلقه من التراب حتى نفخ الروح.

والتعبير ب «النفخ» كناية عن حلول الروح فى بدن الإنسان، لأنّ النطفة عندما تنعقد فى البداية ليس لها إلّا نوعاً من «الحياة النباتية»، أى التغذية والنمو فقط، أما الحس والحركة التى هى علامة «الحياة الحيوانية»، وكذلك قوة الإدراكات التى هى علامة الحياة الإنسانية، فلا أثر عن كل ذلك.

إنّ تكامل النطفة فى الرحم تصل إلى مرحلة تبدأ عندها بالحركة، وتحيا وتتبعث فيها القوى الإنسانية الاخرى تدريجياً، وهذه هى

المرحلة التي يعبر عنها القرآن بنفخ الروح.

أما إضافة «الروح» إلى «الله» فهي «إضافة تشريفية»، أي إن روحاً ثمينه وشريفه بحيث

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠

إن من المناسب أن تسمى «روح الله» قد دبت في الإنسان ونفخت فيه.

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هِدَايَهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) الندم وطلب الرجوع: تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلي حول المعاد، ثم تبين وتبحث حال المجرمين في العالم الآخر، وهي في المجموع تنمى للبحوث السابقة التي تحدثت حول المبدأ، إذ إن البحث عن المبدأ والمعاد مقترنان غالباً في القرآن المجيد فتقول: إن هؤلاء الكفار يتساءلون باستغراب بأتنا إذا متنا وتحولت أبداننا إلى تراب واندرثت تماماً فهل سوف نخلق من جديد: «وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ».

إن التعبير «ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» إشارة إلى أن الإنسان يصبح تراباً بعد موته كسائر الأتربة ويتفرق هذا التراب نتيجة العوامل الطبيعية وغير الطبيعية، ولا يبقى منه شيء حتى يعيده الله سبحانه في القيامة مرة أخرى.

إلما أن هؤلاء ليسوا بمنكرين قدره الله «بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» فإنهم ينكرون مرحلة لقاء الله والحساب والثواب والعقاب لتبرير حرية العمل وليعملوا ما يريدون.

وهذه الآية تشبه كثيراً الآيات (٣-٦) من سورة القيامة التي تقول: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَجْمَعَّ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَدَرِينَا عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَّ أَمَامَهُ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

بناء على هذا، فإن هؤلاء ليسوا قاصرين من ناحية الاستدلال، ولكن شهواتهم حجت قلوبهم، ونياتهم السيئة منعتهم من قبول مسألة المعاد.

وتجيب الآية هؤلاء عن طريق آخر، فتقول: لا تتصوروا أن شخصيتكم بأبدانكم وأجسامكم، بل بأرواحكم، وهي باقية ومحفوظة: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

إذا لاحظنا أن معنى «يتوفاكم» من مادة «توفى» (على وزن تصدى)، هو الإستيفاء، فإن الموت سوف لا يعنى الفناء، بل نوع من قبض الملائكة لروح الإنسان التي تشكل أهم من وجود الإنسان.

إن الآيتين أعلاه تجيبان منكرى المعاد بهذا الجواب: إذا كان إشكالكم في تفرق الأجزاء الجسمية، فإنكم تقرّون بقدره الله سبحانه ولا- تنكرونها، وإذا كان إشكالكم في اضمحلال وفناء شخصية الإنسان على أثر تناثر تلك الذرات، فلا يصح ذلك لأن أساس شخصية الإنسان يستند إلى الروح.

ثم تجسّد وضع هؤلاء المجرمين الكافرين ومنكرى المعاد الذين يندمون في القيامة أشدّ الندم على ما كان منهم لدى مشاهدة مشاهدتها ومواقفها المختلفة، فتقول: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ».

ستعجب حقاً! هؤلاء النادمون الناكسو الرؤوس هم اولئك المتكبرون العتاة العصاة الذين لم يكونوا يدعون في الدنيا لأية حقيقة؟

«الناكس»: من مادة «نكس» على وزن (كلب) بمعنى إنقلاب الشيء، وهنا يعنى خفض الرأس إلى الأسفل وطأطأته.

تقديم «أبصرنا» على «سمعنا» لأن الإنسان يرى المشاهد والمواقف أولاً، ثم يسمع إستجواب الله والملائكة.

إن المراد من «المجرمين» هنا الكافرون، وخاصة منكرى القيامة.

ولما كان كل هذا الإصرار والتأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز الله سبحانه عن أن يلقى نور الإيمان في قلوب هؤلاء، فإن الآية التالية تضيف: «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا».

فمن المسلم أن الله تعالى يمتلك مثل هذه القدرة، إلا أن الإيمان الذي يتحقق ويتم بالإجبار لا قيمة له، ولذا فالمشيئة الإلهية أرادت أن ينال الإنسان شرف كونه مختاراً، وأن يسير في طريق التكامل بحريته واختياره، ولذلك تضيف في النهاية: لقد قررت أن أخلق الإنسان مختاراً «وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

أجل ... إن المجرمين سلكوا هذا الطريق بسوء اختيارهم، ولذلك فهم مستحقون للعقاب،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢

ونحن قد قطعنا على أنفسنا أن نملاً جهنم منهم.

ولذلك تقول الآية التالية: إنا سنقول لأصحاب النار «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». مرة أخرى يستفاد من هذه الآية أن نسيان محكمه القيامة العادلة هو الأساس لكل تعاسة وشقاء للإنسان، لأنه سيرى نفسه في هذه الصورة حراً إزاء ارتكاب القبائح والظلم والعدوان.

وكذلك يستفاد من الآية بوضوح أن العقاب الأبدى للفرد معلول لما إرتكبه من أعمال في دار الدنيا، لا لشيء آخر.

وضمناً يتضح أن المراد من «نسيان الله» هو عدم رعايته ونصرته لهم.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيِنَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) جوائز عظيمة لم يطلع عليها أحد: إن طريقة القرآن هي أنه يبين كثيراً من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضها، لتكون مفهومة ومستقرة في القلب تماماً، وهنا أيضاً بعد الشرح والتفصيل الذي مر في الآيات السابقة حول المجرمين والكافرين، فإنه يتطرق إلى صفات المؤمنين الحقيقيين البارزة، ويبين اصولهم العقائدية، وبرامجهم العملية بصورة مضغوطة ضمن آيتين بذكر ثمان صفات، فيقول أولاً: «إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣

سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» (١).

«خَرُّوا»: في الأصل من مادة «الخرير» أي صوت الماء وأمثاله حين انحداره من مرتفع إلى منخفض، واستعماله هذا التعبير في شأن الساجدين إشارة إلى أن هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبيح في لحظة هويهم إلى الأرض للسجود.

لقد بينت في هذه الآية أربع صفات:

١- أنهم يسجدون بمجرد سماعهم آيات الله. لقد ذكرت هذه الصفة والخاصية في سورة مريم الآية (٥٨) كأحد أبرز صفات الأنبياء، كما يقول الله سبحانه في شأن جمع من الأنبياء العظام: «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا».

وبالرغم من أن الآيات هنا ذكرت بصورة مطلقة، ولكن من المعلوم أن المراد منها غالباً الآيات التي تدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك.

٢ و ٣- فهم ينزهون الله تعالى عن النقائص من جهة، ومن جهة أخرى فإنهم يحمّدونه ويشنون عليه لصفات كماله وجماله.

٤- والصفة الاخرى لهؤلاء هي التواضع وترك كل أنواع التكبر.

ثم أشارت الآية الثانية إلى أوصاف هؤلاء الاخرى، فقالت: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ» (٢). فيقومون في الليل، ويتجهون إلى ربهم ومحبوبهم ويشرعون بمناجاته وعبادته.

إن هؤلاء يستيقظون ويحيون قدرًا من الليل في حين أن عيون الغافلين تغط في نوم عميق، وحينما تتعطل برامج الحياة العادية، وتقل المشاغل الفكرية إلى أدنى مستوى، ويعم

(١) ينبغى الإلتفات إلى أن الآية الاولى هي اولى السجود الواجبة في القرآن الكريم، وإذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعاً لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الإحتياط في وضع الجبهة على ما يصح السجود عليه.

(٢) «تتجافى»: من مادة «جفا» وهي في الأصل بمعنى القطع والحمل والإبعاد؛ و«الجنوب»: جمع جنب، وهو الجانب؛ و«المضاجع»: جمع مضجع، وهو محل النوم، وإبعاد الجانب عن محل النوم كناية عن النهوض من النوم والتوجه إلى عبادة الله في جوف الليل. مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤

الهدوء والظلام كل الأرجاء، ويقل خطر التلوث بالرياء في العبادة. والخلاصة: عند توفر أفضل الظروف لحضور القلب، فإنهم يتجهون بكل وجودهم إلى معبودهم، ويخبرونه بما في قلوبهم، فهم أحياء بذكره، وكؤوس قلوبهم طافحة بحبه وعشقه. ثم تضيف: «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا».

وهنا تذكر الآية صفتين اخريين لهؤلاء هما: «الخوف» و«الرجاء»، فلا يأمنون غضب الله عز وجل، ولا يبأسون من رحمته، والتوازن بين الخوف والرجاء هو ضمان تكاملهم وتوغلهم في الطريق إلى الله سبحانه، والحاكم على وجودهم دائماً، لأن غلبة الخوف تجر الإنسان إلى اليأس والقنوط، وغلبة الرجاء تغرى الإنسان وتجعله في غفلة، وكلاهما عدو للإنسان في سيره التكامل إلى الله سبحانه. وثامن صفاتهم، وآخرها في الآية أنهم: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

فهم لا يهبون من أموالهم للمحتاجين وحسب، بل ومن علمهم وقوتهم وقدرتهم ورأيهم الصائب وتجاربهم ورصيدهم الفكري، فيهبون منها ما يحتاج إليه الغير.

ثم تطرقت الآية التالية إلى الثواب العظيم للمؤمنين الحقيقيين الذين يتمتعون بالصفات المذكورة في الآيتين السابقتين، فتقول بتعبير جميل يحكى الأهمية الفائقة لثوابهم: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

التعبير ب«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ» وكذلك التعبير ب«قُرَّةِ أَعْيُنٍ» مبين لعظمة هذه المواهب والعطايا التي لا عد لها ولا حصر. وفي حديث- رواه البخارى ومسلم جميعاً- عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْن رَأَتْ، وَلَا أذُن سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وتبين الآية التالية المقارنة التي مرّت في الآيات السابقة بصيغة أكثر صراحة، فتقول: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ».

لقد جعل «الفاسق» في مقابل «المؤمن» في هذه الآية، وهذا دليل على أن للفسق مفهوماً واسعاً يشمل الكفر والذنوب الاخرى.

وتبين الآية التالية عدم المساواة هذه بصورة أوسع وأكثر تفصيلاً، فتقول: «أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ (١)». ثم تضيف الآية بأن هذه الجنات قد أعدها الله تعالى لاستقبالهم في مقابل أعمالهم الصالحة: «نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إن التعبير ب«نزلًا»، والذي يقال عادةً للشئ الذي يهبطونه لاستقبال وإكرام الضيف، إشارة لطيفة إلى أن المؤمنين يُستقبلون ويُخدمون دائماً.



(١) «المأوى»: من مادة «أوى» بمعنى إنضمام شيء إلى شيء آخر، ثم قيلت للمكان والمسكن والمستقر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥

وتطرت الآية التالية إلى النقطة التي تقابل هؤلاء، فتقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ». فهؤلاء مخلدون في هذا المكان المرعب بحيث إنهم: «كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ».

مرّة اخرى نرى هنا العذاب الإلهي قد جعل في مقابل «الكفر والتكذيب»، والثواب والجزاء في مقابل «العمل»، وهذا إشارة إلى أن الإيمان لا يكفى لوحده، بل يجب أن يكون حافزاً وباعثاً على العمل، إلا أن الكفر كافٍ لوحده للعذاب، وإن لم يرافقه ويقترن به عمل.

وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) عقوبات تربوية: بعد البحث الذي مر في الآيات السابقة حول المجرمين وعقابهم الأليم، فإن الآيات مورد البحث تشير إلى أحد الألفاظ الإلهية الخفية، وهي موارد العذاب الخفيف في الدنيا ليتضح أن الله سبحانه لا يريد أن يتبلى عبداً بالعذاب الخالد أبداً، ولذلك يستخدم كل وسائل التوعية لنجاته. تقول الآية: «وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

من المسلم أن «العذاب الأدنى» له معنى واسع يتضمّن أغلب الاحتمالات التي كتبها المفسرون بصورة مفصلة:

فمن جعلتها، أن المراد المصائب والآلام والمشقة؛ أو القحط والجفاف الشديد الذي دام سبع سنين وابتلى به المشركون في مكة حتى اضطروا إلى أكل أجساد الموتى؛ أو الضربة القاصمة التي نزلت عليهم في غزوة بدر، وأمثال ذلك.

وأما «العذاب الأكبر» فيعني عذاب يوم القيامة الذي يفوق كل عذاب حجماً وألماً.

ولما لم تنفع أيّة وسيلة من وسائل التوعية والتنبية، حتى العذاب الإلهي، لم يبق طريق إلا انتقام الله من هؤلاء القوم الذين هم أظلم الناس، وكذلك تقول الآية التالية: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ».

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦

شرط الإمامة، الصبر والإيمان: تشير الآيات مورد البحث إشارة قصيرة إلى قصة «موسى عليه السلام» وبنى إسرائيل لتسلي نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والمؤمنين الأوائل وتطيّب خواطرهم، وتدعوهم إلى الصبر والتحمل والثبات أمام تكذيب وإنكار المشركين التي اشير إليها في الآيات السابقة. تقول الآية أولاً: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ».

أى: فلا تشكّك أو تتردد في أن «موسى» قد تلقى آيات الله، وقد جعلنا كتاب موسى «التوراة» وسيلة لهداية بنى إسرائيل «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ».

ثم تشير الآية التالية إلى الأوسمة والمفاخر التي حصل عليها بنو إسرائيل في ظلّ الإستقامة والإيمان لتكون درساً للآخرين، فتقول: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ».

لقد ذكرت الآية هنا شرطين للإمامة: أحدهما: الإيمان واليقين بآيات الله عزوجل؛ والثاني: الصبر والإستقامة والصمود.

ولما كان بنو إسرائيل - كسائر الامم - قد اختلفوا بعد هؤلاء الأئمة الحقيقيين، وسلوكوا مسالك مختلفة، فإن الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

أجل ... إن مصدر ومنبع الاختلاف دائماً هو مزج الحق بالأهواء والميول، ولما كانت القيامة يوماً لا معنى فيه للأهواء والميول، حيث تمحى ويتجلّى الحق بأجلى صورته، فهناك ينهى الله سبحانه الاختلافات بأمره، وهذه أيضاً إحدى فلسفات المعاد.

أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِيْنَهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠) يوم إنتصارنا: كانت الآيات السابقة ممزوجة بتهديد المجرمين من الكفار، وتقول الآية الأولى من الآيات مورد البحث إكمالاً لهذا التهديد: «أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧

الْقُرُونِ». فهؤلاء يسيرون بين الخرائب ويرون آثار اولئك الأقوام الذين هلكوا من قبلهم «يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ».

تقع مساكن «عاد» و «ثمود» المدمرة، ومدن «قوم لوط» الخربة فى طريق هؤلاء إلى الشام، وكان المشركون يمرّون على تلك الخرائب فكان ليوت هؤلاء وقصورهم المتهدمة مئة لسان، وتبين لهم وتحدثهم بنتيجة الكفر والانحطاط، ولذلك تضيف الآية فى النهاية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ».

وتشير الآية التالية إلى أحد أهم النعم الإلهية التى هى أساس عمران كل البلدان، ووسيلة حياة كل الكائنات الحية، ليّضح من خلالها أن الله سبحانه كما يمتلك القدرة على تدمير بلاد الضالين المجرمين، فإنه قادر على إحياء الأراضى المدمرة والميتة، ومنح عباده كل نوع من المواهب، فتقول: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ». «الجرز»: تعنى الأرض القاحلة التى لا ينبت فيها شىء قط.

ولما كانت الآيات السابقة تهدد المجرمين بالانتقام، وتبشّر المؤمنين بالإمامة والنصر، فإن الكفار يطرحون هذا السؤال غروراً واستكباراً وتعللاً بأن هذه التهديدات متى ستتحقق، كما يذكر القرآن ذلك: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». فيجيبهم القرآن مباشرة، ويأمر النبى صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ». أى: إذا كان مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهى الذى سمعتموه من النبى لتؤمنوا، فإن الوقت قد فاتكم، فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئاً.

والمراد من «يوم الفتح» يوم نزول «عذاب الإستئصال»؛ أى العذاب الذى يقطع دابر الكافرين، ولا يدع لهم فرصة الإيمان. وتعبير آخر: فإنّ عذاب الإستئصال نوع من العذاب الدنيوى، الذى يئهى حياة المجرمين بعد إتمام الحجة.

وأخيراً تنهى الآية الأخيرة هذه السورة- سورة السجدة- بتهديد بليغ عميق المعنى، فتقول: «فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِيْنَهُمْ مُنْتَظِرُونَ».

الآن، حيث لم تؤثر فى هؤلاء البشارة ولا الإنذار، فأعرض عنهم، وانتظر رحمة الله سبحانه، ولينتظروا عذابه فإنهم لا يستحقون سواه. «نهاية تفسير سورة السجدة»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩

### ٣٣. سورة الأحزاب

محتوى السورة: إن هذه السورة من أغنى سور القرآن المجيد وأجناها ثماراً، وتتابع وتبحث مسائل متنوعة وكثيرة جداً فى باب اصول الإسلام وفروعه.

ويمكن تقسيم الأبحاث التى وردت فى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

١- بداية السورة التى تدعو الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى طاعة الله وترك أتباع الكافرين ومقترحات المنافقين.

٢- أشار إلى بعض خرافات زمان الجاهلية، كالظهار، وكذلك مسألة التبنى، وأكّدت على بطلانها، وحصرت العلاقات والروابط العائلية والسببية بالروابط الواقعية والطبيعية.

٣- وهو أهم أقسام هذه السورة، ويرتبط بمعركة «الأحزاب» وحوادثها المرعبة، وإنتصار المسلمين المعجز على الكفار.  
 ٤- يرتبط بزوجات النبي، حيث يجب أن يكنَّ أسوة وانموذجاً أسمى لكل نساء المسلمين، ويصدر لهن في هذا الباب أوامر مهمة.  
 ٥- يتطرق إلى قصة «زينب بنت جحش» التي كانت يوماً زوجة لزيد، وهو ابن النبي بالتبني، وافتقرت عنه، فتزوجها النبي صلى الله عليه وآله بأمر الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠

٦- يتحدث عن مسألة الحجاب، والتي ترتبط بالبحوث السابقة، ويوصي كل النساء المؤمنات بمراعاة هذا القانون الإسلامي.  
 ٧- يشير إلى مسألة المعاد المهمة، وطريق النجاة في ذلك الموقف العظيم، وكذلك يشرح مسألة أمانة الإنسان العظمى، أي مسألة التعهد والتكليف والمسؤولية.

لما كان جزء مهم من هذه السورة يتحدث عن أحداث غزوة الأحزاب (الخنديق) فإنَّ هذا الإسم قد اختير لها. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله، وما ملكت يمينه، اعطى الأمان من عذاب القبر».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمد وآله وأزواجه». إنَّ هذه الفضائل لا تُنال بالتلاوة الخالية من الروح، بل التلاوة التي تكون مبدأً للتفكير الذي يضيء آفاق الإنسان يظهر آثاره في أعماله وسلوكه.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إنَّ هذه الآيات نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل، وأبي أعور السلمي، قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبي بعد غزوة احد بأمان من رسول الله صلى الله عليه وآله ليكلموه فقام معهم عبدالله بن ابي وعبد الله بن أبي سرح وطعمه بن ابيرق فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا محمد! ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة، وقل إنَّ لها شفاعه لمن عبدها وندعك وربك. فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وآله فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم؟ فقال: «إني أعطيتهم الأمان». وأمر صلى الله عليه وآله فخرجوا من المدينة ونزلت الآية: «وَلَمَّا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ» وأمرته أن لا يصغى لمثل هذه الإقتراحات.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١

التفسير

اتَّبِعِ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ فَقَطْ: إنَّ من أخطر المنعطفات والمنحدرات التي تعترض طريق القادة الكبار قضية اقتراحات الصلح والتنازل والوفاق التي تطرح من قبل المخالفين.

لقد بذل مشركو «مكة» ومنافقو «المدينة» كل ما في وسعهم ليحرِّفوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن خط التوحيد من خلال طرح مقترحات السلام والإتفاق، إلَّا أنَّ أولى آيات سورة الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم، ودعت النبي صلى الله عليه وآله إلى الإستمرار في اسلوبه الحاسم في خط التوحيد بدون أدنى تراجع وتنازل ومسالمة.

إنَّ هذه الآيات بمجموعها تأمر النبي صلى الله عليه وآله بأربعة أوامر مهمة:

الأول: في مجال التقوى، والتي تهىء الأرضية لكل برنامج آخر، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ».

إنَّ حقيقة التقوى هي ذلك الإحساس الداخلي بالمسؤولية، ولولا هذا الإحساس فإنَّ الإنسان لا يندفع ولا يتحرَّك باتجاه أى برنامج

بناءً.

الثاني: نفى ورفض طاعة الكافرين: «وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ».

وتقول الآية في النهاية تأكيداً لهذا الموضوع: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا».

فإنه تعالى حينما يأمرك بعدم إتباع هؤلاء، فإن ذلك صادر عن حكمته اللامتناهية، لأنه يعلم ما أخفى في هذا الإتباع والمهادنة من المصائب، الأليمة، والمفاسد الجمة.

الثالث: نثر بذور التوحيد واتباع الوحي الإلهي، فيقول: «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» واحذر ف «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا». وبناءً على هذا، فإن الواجب الأول هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحل محلها الملائكة.

ولما كانت هناك مشاكل كثيرة، وتهديدات ومؤامرات، ومعوقات في الاستمرار في سلوك هذا الطريق، فإنه تعالى يصدر الأمر الرابع بأن: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا». فلو أن الف عدو يسعى لقتلك، فلا تخش ولا تخف منهم لأنني ناصرك ومعينك.

ومع أن المخاطب في هذه الآيات هو النبي صلى الله عليه وآله، إلا أنه خطاب لكل المؤمنين، ولعامه المسلمين في كل عصر وزمان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) إدعاءات جوفاء: تعقياً للآيات السابقة التي كانت تأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يتبع الوحي الإلهي فقط، ولا يتبع الكافرين والمنافقين، تعكس هذه الآيات التي نحن بصددنا عاقبة اتباع هؤلاء وأنه يدعو الإنسان إلى مجموعة من الخرافات والأباطيل، وقد ذكرت الآية الأولى من الآيات مورد البحث ثلاث منها، فتقول أولاً: «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ».

إن للجملة معنى عميق، وهو: أنه ليس للإنسان إلقاب واحد، ولا يحتوى هذا القلب ولا يختزن إلا لعشق معبود واحد، وعلى هذا فإن اولئك الذين يدعون إلى الشرك والآلهة المتعددة ينبغي أن تكون لهم قلوب متعددة، ليجعلوا كل واحد منها بيتاً لعشق معبود واحد. في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا يجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان، إن الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فيحب بهذا ويغض هذا، فأما محبنا فيخلص الحب لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه، فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه، فإن شاركه في حبنا حب عدونا فليس منا ولسنا منه والله عدوهم وجبرئيل وميكائيل والله عدو للكافرين».

وبناءً على هذا، فإن القلب مركز الاعتقاد الواحد، وينفذ برنامجاً عملياً واحداً، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعتقد بشيء حقيقة وينفصل عنه في العمل.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣

ثم يتطرق القرآن إلى خرافة أخرى من خرافات الجاهلية، وهي خرافة «الظهار»، حيث إن المشركين كانوا إذا غضبوا على نساءهم، وأرادوا أن يبدووا تنفّرهم وعدم ارتياحهم، قالوا للزوجة: «أنت على كظهر امي». فيعتبرها بمثابة أمه، وكان يعد هذا الكلام بمنزلة الطلاق.

يقول القرآن الكريم في تنمة هذه الآية: «وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ إِلَىٰ تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ». فلم يمض الإسلام هذا القانون الجاهلي، ولم يصادق عليه، بل جعل عقوبة لمن يتعاطاه، وهي: أن من نطق بهذا الكلام فلا يحق له أن يقرب زوجته حتى يدفع الكفارة، وإذا لم يدفعها ولم يأت زوجته فإن لها الحق في أن تستعين بحاكم الشرع ليجبره على أحد أمرين: إمّا أن يطلقها وفقاً لأحكام الإسلام

ويفارقها، أو أن يكفر ويستمر فى حياته الزوجية كالسابق.

ثم تطرقت الآية إلى ثالث خرافة جاهلية، فقالت: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ».

وتوضيح ذلك: أنه كان من المتعارف فى زمن الجاهلية أنهم كانوا ينتخبون بعض الأطفال كأولاد لهم، ويسمّونهم أولادهم، وبعد هذه التسمية يعطونه كل الحقوق التى يستحقها الولد من الأب، فيرث الولد من تبنّاه، كما يرث المتبنى الولد.

وقد نفى الإسلام هذه العادات غير المنطقية والخرافية أشد النفي. ولذلك يقول القرآن الكريم بعد هذه الجملة: «ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ».

إنكم تقولون: إن فلاناً ولدى، وأنتم تعلمون علم اليقين أن الأمر ليس كذلك، فإنّ الأمواج الصوتية فقط هى التى تخرج من أفواهكم ولا تنبع مطلقاً من اعتقاد قلبى، وهذا كلام باطل ليس إلّا «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ».

إنّ «قول الحق» يطلق على القول الذى ينطبق على الواقع الموضوعى تماماً، أو أن يكون من الامور الاعتبارية التى تتسجم مع مصالح كل أطراف القضية، ونعلم أنّ مسألة «الظهار» فى الجاهلية، أو «التبني» الذى كان يسحق حقوق الأبناء الآخرين إلى حد كبير - لم يكونا من الموضوعات العينية، ولا من الاعتباريات الحافظة لمصلحة عامة الناس.

ثم يضيف القرآن مؤكداً وموضحاً الخط الصحيح والمنطقى للإسلام: «ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ».

وتقول الآية لرفع الأعذار والحجج: «فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ». أى إن عدم معرفة آبائهم لا يكون دليلاً على أن تضعوا اسم شخص آخر كأب

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤

لهذا الابن، بل يمكنكم أن تخاطبوهم كإخوانكم فى الدين أو أصدقائكم ومواليكم.

«الموالى»: جمع «مولى»، وقد ذكر المفسرون له معانى عديدة، فالبعض فسّره هنا بمعنى الصديق والصاحب، والبعض الآخر بمعنى الغلام المعتق والمحرّر. ولكن ربّما يدعو الشخص إنساناً غير أبيه لاعتياده ذلك سابقاً، أو لسبق لسانه، أو لاشتباهه فى تشخيص نسب الأفراد، وهذا خارج عن حدود اختيار الإنسان، فإنّ الله العادل الحكيم لا يعاقب مثل هذا الإنسان، ولذا أردفت الآية: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

إنّ تعالى يغفر لكم ما سبق، ويعفو عن السهو والنسيان والاشتباه.

ثم تتطرق الآية التالية إلى مسألة مهمة اخرى، أى إبطال نظام «المؤاخاة» بينهم.

وتوضيح ذلك: أنّ المسلمين لما هاجروا من مكة إلى المدينة وقطع الإسلام كل روابطهم وعلاقاتهم بأقاربهم وأقوامهم المشركين الذين كانوا فى مكة تماماً، فقد أجرى النبى صلى الله عليه وآله بأمر الله عقد المؤاخاة بينهم وعقد عهد المؤاخاة بين «المهاجرين» و«الأنصار»، وكان يرث أحدهم الآخر كالأخوين الحقيقيين، إلّا أنّ هذا الحكم كان مؤقتاً وخاصاً بحالة استثنائية جداً، فنزلت الآية أعلاه وألغت نظام المؤاخاة الذى كان يحلّ محلّ النسب، وجعل حكم الإرث وأمثاله مختصاً بأولى الأرحام الحقيقيين.

غاية ما فى الأمر أنّ الآية قبل أن تذكر هذا الحكم ذكرت حكيمين آخرين - أى كون النبى صلى الله عليه وآله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وكون نساء النبى صلى الله عليه وآله كامهاتهم - كمقدمة، فقالت:

«النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» (١). «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» (٢).

ومع أنّ النبى صلى الله عليه وآله بمنزلة الأب، وأزواجه بمنزلة امهات المؤمنين إلّا أنّهم لا يرثون منهم

(١) إنّ النبى صلى الله عليه وآله أولى من كل إنسان مسلم فى المسائل الاجتماعية والفردية، وكذلك فى المسائل المتعلقة بالحكومة والقضاء والدعوة، وإنّ إرادته ورأيه مقدم على إرادة أى مسلم ورأيه، وهذا لأنّ النبى صلى الله عليه وآله معصوم ووكيل لله سبحانه،

ولا يفكر ويقرر إلفي صالح المجتمع والفرد.

(٢) وهي طبعاً امومه معنوية وروحية، كما أن النبي صلى الله عليه وآله أب روحى ومعنوى للامة.

إن تأثير هذا الارتباط المعنوى كان منحصراً فى مسألة حفظ احترام أزواج النبي صلى الله عليه وآله وحرمة الزواج منهن، كما جاء الحكم الصريح بتحريم الزواج منهن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، أى إن المسلمين كان من حقهم أن يتزوجوا بنات النبي، فى حين أن أى أحد لا يستطيع الزواج من ابنة امه، وكذلك مسألة كونهن أجنبيات، وعدم جواز النظر إليهن إلا للمحارم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥

مطلقاً، فكيف يُنتظر أن يرث الابن المتبنى؟!

ثم تضيف الآية: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ». ولكن مع ذلك، ومن أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمين تماماً ويكون بإمكان المؤمنين تعيين شيئاً من الإرث لإخوانهم - وإن كان بأن يوصوا بثالث المال - فإن الآية تضيف فى النهاية: «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا».

وتقول فى آخر جملة تأكيداً لكل الأحكام السابقة، أو الحكم الأخير: «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» - فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن الكريم -.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ميثاق الله الغليظ: لما كانت الآيات السابقة قد بينت الصلاحيات الواسعة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تحت عنوان (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، فإن هذه الآيات تبين واجبات النبي وسائر الأنبياء العظام الثقيلة العظيمة، لأننا نعلم أن الصلاحيات تقترن دائماً بالمسؤوليات. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا».

وعلى هذا فإنها تذكر أولاً جميع الأنبياء فى مسألة الميثاق، ثم تخصص بالذكر منهم خمسة أنبياء هم اولوا العزم، وعلى رأسهم نبي الخاتم صلى الله عليه وآله لعظمته وجلالته وشرفه.

هذا الميثاق هو تأديته مسؤولية التبليغ والرسالة والقيادة وهداية الناس فى كل الأبعاد والمجالات.

إن الأنبياء كانوا مكلفين بأن يؤيد بعضهم بعضاً، كما أن الأنبياء اللاحقين يصدّقون ويؤكّدون صحّة دعوة الأنبياء السابقين.

وتبين الآية التالية الهدف من بعثه الأنبياء والميثاق الغليظ الذى اخذ منهم، فتقول:

«لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا».

إن المراد من الصادقين: هم الذين أثبتوا صدقهم وإخلاصهم فى ميادين حماية دين الله والجهاد والثبات والصمود أمام المشاكل وبذل الأرواح والأموال.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُورُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (١١) الإمتحان الإلهي العظيم فى مواجهة الأحزاب: تتحدث هذه الآيات والآيات الاخرى التالية، التى تشكل مجموعها سبع عشرة آية، عن أخطر الامتحانات والاختبارات الإلهية للمؤمنين والمنافقين، واختبار مدى صدقهم فى العمل، الذى بحث فى الآيات السابقة.

إن هذه الآيات تبحث أحد أهم حوادث تاريخ الإسلام، أى عن «معركة الأحزاب».

إن حرب الأحزاب - وكما يدل عليها إسمها - كانت مجابهة شاملة من قبل عامة أعداء الإسلام والفئات المختلفة التى تعرّضت

مصالحها ومنافعها اللامشروعة للخطر نتيجة توسع وانتشار هذا الدين.

لقد اشعلت أول شرارة للحرب من قبل يهود «بنى النظير» الذين جاؤوا إلى مكة وأغروا «قريش» بحرب النبي صلى الله عليه وآله، ووعدهم بأن يساندوهم ويقفوا إلى جانبهم حتى النفس الأخير، ثم أتوا قبيلة «غطفان» وهيتوهم لهذا الأمر أيضاً. ثم دعت هذه القبائل حلفاءها كقبيلة «بنى أسد» و«بنى سليم»، ولما كان الجميع قد أحس بالخطر فإنهم اتحدوا واتفقوا على أن يقضوا على الإسلام إلى الأبد.

أما المسلمون اجتمعوا للتشاور بأمر النبي صلى الله عليه وآله، وقبل كل شيء أخذوا برأى «سلمان الفارسي» وحفروا حول المدينة خندقاً حتى لا يستطيع العدو عبوره بسهولة ويهجم على المدينة، ولهذا كان أحد أسماء هذه المعركة «معركة الخندق».

لقد مرّت لحظات صعبة وخطرة جداً على المسلمين، وكانت القلوب قد بلغت الحناجر، وكان المنافقون من جهة أخرى قد شتموا عن السواعد وجدّوا في تأمرهم على الإسلام، وكذلك ضخامة عدد الأعداء وقلة عدد المسلمين - (ذكروا أنّ عدد الكفار كان عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف) وإستعداد الكفار من ناحية المعدّات الحربية، كل ذلك قد رسم صورة كالحة للمصير المجهول في أعين المسلمين. إلّا أنّ الله سبحانه أراد أن

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧

ينزل هنا آخر ضربة بالكفر، ويميّز صفّ المنافقين عن صفوف المسلمين.

وأخيراً انتهت هذه الغزوة بانتصار المسلمين فقد هبت بأمر الله عاصفه هوجاء إقتلعت خيام الكفار وأتلفت وسائلهم، وألقت في قلوبهم الرعب الشديد، وأرسل سبحانه قوى الملائكة الغيبية لعون المسلمين.

وقد اضيف إلى ذلك تجلّي قدره وعظمه أمير المؤمنين على عليه السلام أمام عمرو بن عبد ودّ، فلاذ المشركون بالفرار من دون القدرة على القيام بأيّ عمل.

نزلت الآيات السبع عشرة من هذه السورة، واستطاعت بتحليلاتها الدقيقة والفاضحة أن تستفيد من هذه الحادثة المهمة من أجل إنتصار الإسلام النهائي وقمع المنافقين بأفضل وجه.

يلخص القرآن الكريم هذه الحادثة في آية واحدة أولها، ثم يتناول تبيان خصوصياتها في السّت عشرة آية الاخرى، فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا [فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا]. ويعلم أعمال كل جماعة وما قامت به في هذا الميدان الكبير.

إنّ التعبير ب «الجنود» إشارة إلى مختلف الأحزاب الجاهلية كقريش وغطفان وبنى سليم وبنى أسد وبنى فزاره وبنى أشجع وبنى مرّة، وكذلك إلى طائفة اليهود في داخل المدينة.

إنّ المراد من «جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا» والتي نزلت لنصرة المسلمين، هو «الملائكة» التي ورد نصرها للمؤمنين في غزوة بدر في القرآن المجيد بصراحة.

والملائكة نزلت لرفع معنويات المؤمنين وشدّ عزيمتهم وإثارة حماسهم.

وتقول الآية التالية تجسيداً للوضع المضطرب في تلك المعركة، وقوة الأعداء الحربية الرهيبة، والقلق الشديد لكثير من المسلمين: «إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونًا».

إنّ الجملة أعلاه إشارة إلى محاصرة هذه المدينة من قبل أعداء الإسلام.

إنّ جملة «زَاغَتِ الْأَبْصَارُ» - بملاحظة أنّ «زَاغَت» من مادة الزيع، أى الميل إلى جانب واحد - إشارة إلى الحالة التي يشعر بها الإنسان عند الخوف والإضطراب، حيث تميل عيناه إلى جهة واحدة، وتتسمّر وتثبت على نقطة معينة، ويبقى متحيراً حينذاك.

وجملة «وَتَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونًا» إشارة إلى أنّ بعض المسلمين خطرت على أفكارهم ظنون شيطانية.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨

هنا كان الامتحان الإلهي قد بلغ أشده كما تقول الآية التالية: «هَذَا لِكَيْ يُبْلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزَلُوا زُلْزَالًا شَدِيدًا».

من الطبيعي أن الإنسان إذا احيط بالعواصف الفكرية، فإن جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الابتلاء، بل ستظهر عليه آثار الإضطراب والتزلزل.

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْمُوعًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَأُتْمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) المنافقون في عرصه الأحزاب: فار تنور امتحان حرب الأحزاب، وابتلى الجميع بهذا الامتحان الكبير العسير، وهنا انقسم المسلمون إلى فئات مختلفة: فمنهم المؤمنون الحقيقيون، وفئة خواص المؤمنين، وجماعة ضعاف الإيمان، وفرقة المنافقين، وجمع المنافقين العنودين المتعصبين، وبعضهم كان يفكر في بيته وحياته والفرار، وجماعة كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، والبعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أو اصر الود مع المنافقين.

وتعكس اولى الآيات مورد البحث مقالة المنافقين ومرضى القلوب، فتقول: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا».

جاء في تاريخ حرب الأحزاب: أنه خلال حفر الخندق، وبينما كان المسلمون يعملون فخرجت عليهم صخرة كسرت المعول فأعلموا النبي صلى الله عليه وآله فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربه صدعها، وبرقت منها برقة أضاعت ما بين لابتي المدينة حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون ثم الثانية كذلك، ثم

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩

الثالثة كذلك ثم خرج وقد صدعها فسأله سلمان عما رأى من البرق فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الاولى، وأخبرني جبرئيل أن امتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرني أن امتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أن امتي ظاهرة عليها، فأبشروا» فاستبشر والمسلمون.

وقال المنافقون: ألا تعجبون يعدكم الباطل ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة ومدائن كسرى وإنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل الله: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» (١).

ثم تتطرق الآية الاخرى إلى بيان حال طائفة اخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، والذين كانوا أخبث وأفسق من الباقين، فمن جانب تقول الآية عنهم: واذكر إذ قالت مجموعة منهم للأنصار: يا أهل المدينة (يثرب) ليس لكم في هذا المكان موقع فلا تتوقفوا هنا وارجعوا إلى بيوتكم: «وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا».

وبذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

ومن جانب آخر: «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا».

«عورة»: مأخوذة من مادة «عار»، وتقال للشيء الذي يوجب ظهوره العار، وتقال أيضاً للشقوق والثقوب التي تظهر في اللباس أو جدران البيت، وكذلك للثغور الضعيفة والنقاط الحدودية التي يمكن اختراقها وتدميرها، وعلى ما يخافه الإنسان ويحذره، والمراد هنا البيوت التي ليس لها جدار مطمئن وباب محكم، ويخشى عليها من هجوم العدو.

و «يثرب»: هو الاسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النبي صلى الله عليه وآله، وبعد هجرته أصبح إسمها تدريجياً «مدينة الرسول»،



ومخففها المدينة.

وتشير الآية التالية إلى ضعف إيمان هذه الفئة، فتقول: **إِنَّ هَؤُلَاءِ بَلَغَ بِهِمْ ضَعْفُ الْإِيمَانِ إِلَىٰ دَرَجَةٍ أَنْ جِيشَ الْكُفْرِ لَوْ دَخَلَ الْمَدِينَةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَصُوبَ، وَاسْتَوْلَىٰ عَلَيْهَا، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ فَسَوْفَ يَقْبَلُونَ ذَلِكَ وَيَسَارِعُونَ إِلَيْهِ: «وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مَنْ أَقْطَرَهَا ثُمَّ سَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّتْ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا».**

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٧٠ (ذكر غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب). مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠

مختصر الامثل ج ٤ ٩٩

من المعلوم أن اناساً بهذا الضعف والتزلزل وعدم الثبات غير مستعدين للقاء العدو ومحاربتة، ولا هم متأهبون لتقبل الشهادة في سبيل الله، بل يستسلمون بسرعة ويغيرون مسيرهم. وبناءً على هذا، فإن المراد من كلمة «الفتنة» هنا هي الشرك والكفر. ثم يستدعي القرآن الكريم فئة المنافقين إلى المحاكمة، فيقول: **«وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤُولُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا».** وعليه فإنهم مسؤولون أمام تعهدهم.

إن كل من يؤمن ويباع النبي صلى الله عليه وآله يعاهده على أن يدافع عن الإسلام والقرآن ولو كلفه ذلك حياته. وبعد أن أفضى الله سبحانه نية المنافقين ويبين أن مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين: الأول: أنه يقول للنبي صلى الله عليه وآله: **«قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا».** إن هذا البيان يشبه ما ورد في غزوة احد، حيث أشار القرآن في الآية (١٥٣) من سورة آل عمران إلى فئة اخرى من المنافقين المشبهين للعزائم، والمفرقين لوحدة الصف.

والثاني: ألم تعلموا أن مصائرهم بيد الله، ولن تقدرُوا أن تفروا من حدود حكومة الله وقدرته ومشيبته: **«قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».**

بناءً على هذا، فإنكم إذا علمتم أن كل مقدراتكم بيده سبحانه، فأطيعوا أمره في الجهاد الذي هو أساس العزة والكرامة والشموخ في الدنيا وعند الله، وحتى إذا تقرر أن تنالوا وسام الشهادة فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابة صدر.

**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْمَآخِزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْمَآخِزَابَ لَوِ اتَّخَذُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)**

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١

فئة المعوقين: أشارت هذه الآيات إلى وضع فئة اخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب الأحزاب، وكانوا يدعون الآخرين أيضاً إلى اعتزال القتال، فقالت: **«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا».**

«المعوقين»: من مادة «عوق» على زنة (شوق) تعنى منع الشيء ومحاولة صرف الآخرين عنه؛ و «البأس»: في الأصل يعنى (الشدّة)، والمراد منه هنا الحرب.

وتضيف الآية التالية: إن الدافع لكل تلك العراقل التي وضعوها أمامكم هو أنهم بخلاء:

**«أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ» (١).** لا- في بذل الأرواح في ساحة الحرب، بل هم بخلاء حتى في المعونات المادية لتهيئة مستلزمات الحرب، وفي المعونة البدنية في حفر الخندق، بل ويخلون حتى في المساعدة الفكرية، بخلاً يقترن بالحرص المتزايد يوماً.

وبعد تبيان بخل هؤلاء وامتناعهم عن أي نوع من المساعدة والإيثار، تتطرق الآية إلى بيان صفات اخرى لهم، والتي لها صفة العموم

في كل المنافقين، وفي كل العصور والقرون، فتقول: «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ».

فلأنهم لما لم يذوقوا طعم الإيمان الحقيقي، ولم يستندوا إلى عماد قوى في الحياة، فإنهم يفقدون السيطرة على أنفسهم تماماً عندما يواجهون حادثاً صعباً ومأزقاً حرجاً، وكأنهم يواجهون الموت.

ثم تضيف الآية: «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللْسِنَةِ حِدَادٍ أَشْحَهُ عَلَى الْخَيْرِ». فيأتون إليكم كأنهم هم الفاتحون الأصليون والمتحمّلون أعباء الحرب، فيعربدون ويطلبون سهمهم من الغنائم، وهم كانوا أبخل من الجميع في المشاركة في الحرب والثبات فيها. «سلقوكم»: من مادة «سَلَقَ»، وهي في الأصل بمعنى فتح الشيء بعصيية وغضب، سواء كان هذا الفتح باليد أو اللسان، وهذا التعبير يستعمل في شأن من يطلب الشيء بالزجر واسلوب الأمر؛ و «الألسنة الحداد» تعني الألسنة الجارحة المؤذية، وهي هنا كناية عن الخشونة في الكلام.

وتشير الآية في النهاية إلى آخر صفة لهؤلاء، والتي هي أساس كل شقائهم وتعاستهم، فقالت: «أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ». لأنها لم تكن منبعثة عن الإخلاص والدافع الديني الإلهي: «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

(١) «أشحه»: جمع شحيح، من مادة (الشح)، أي البخل المقترن بالحرص.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢

وتجسد الآية التالية بتصوير أبلغ جبن وخوف هذه الفئة، فتقول: «يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا».

ثم تضيف الآية: «وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ». أي: منتشرون في الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك ويتتبعون أخباركم: «يَسْتَلْمُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ». فيسألون من كل مسافر آخر الأخبار لئلا تكون الأحزاب قد اقتربت منهم، وهم مع ذلك يمتنون عليكم بأنهم كانوا يتابعون أخباركم دائماً.

وتضيف الآية في آخر جملة: وعلى فرض أنهم لم يهزموا ويفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم، «وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا». فلا تحزنوا وتقلقوا لذهابهم، ولا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنهم اناس لا قيمة لهم ولا صفة تحمد، وعدمهم أفضل من وجودهم.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (٢٥) دور المؤمنين المخلصين في معركة الأحزاب: يستمر الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفة ومخططاتهم وأدوارهم في غزوة الأحزاب، ويتحدث القرآن المجيد في نهاية المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، ومعنوياتهم العالية ورجولتهم وثباتهم وسائر خصائصهم في الجهاد الكبير.

ويبدأ مقدمه هذا البحث بالحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث كان إمامهم وقودتهم، فيقول: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣

فإن النبي صلى الله عليه وآله خير نموذج لكم، لا في هذا المجال وحسب، بل وفي كل مجالات الحياة، فإن كلاً من معنوياته العالية، وصبره واستقامته وصدوره، وذكائه ودرايته، وإخلاصه وتوجهه إلى الله، وتسلطه وسيطرته على الحوادث نموذج يحتذى به كل المسلمين.

«الاسوة»: تعنى في الأصل الحالة التي يتلبسها الإنسان لدى اتباعه لآخر. وتعبير آخر:

هي التأسى والإقتداء. وبناءً على هذا فإن لها معنى المصدر لا الصفة، ومعنى جملة: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، هو أن لكم في النبي صلى الله عليه وآله تأسيًا واقْتداءً جيداً، فإنكم تستطيعون بالإقتداء به واتباعه أن تصلحوا أموركم وتسيروا على الصراط المستقيم.

وتجدر الإشارة إلى أن علياً عليه السلام مع شهامته وشجاعته في كل ميادين الحرب، والتي تمثل معركة الأحزاب نموذجاً منها، يقول في نهج البلاغة فيما روى عنه: «كُنَّا إِذَا احْمَرَ الْبَأْسَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مَنَا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ».

بعد ذكر هذه المقدمة تطرقت الآية التالية إلى بيان حال المؤمنين الحقيقيين، فقالت:

«وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا».

هذا الوعد إشارة إلى الكلام الذي كان رسول الله قد تكلم به من قبل بأن قبائل العرب ومختلف أعدائكم سيئحدون ضدكم قريباً ويأتون إليكم، لكن اعلّموا أن النصر سيكون حليفكم في النهاية.

إنهم قيل لهم من قبل: إنكم ستخضعون لامتحان عسير، فلما رأوا الأحزاب تيقنوا صدق إخبار الله ورسوله، وزاد إيمانهم وتسليمهم.

وتشير الآية التالية إلى فئة خاصة من المؤمنين، وهم الذين كانوا أكثر تأسيًا بالنبي صلى الله عليه وآله من الجميع، وثبتوا على عهدهم الذي عاهدوا الله به، وهو التضحية في سبيل دينه حتى النفس الأخير، وإلى آخر قطرة دم، فتقول: «مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَحِيَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ». من دون أن يتزلزل أو ينحرف ويبدل العهد ويغير الميثاق الذي قطعه على نفسه «وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا».

«نحب»: على زنه «عهد» تعنى العهد والنذر والميثاق.

إن للآية مفهوماً واسعاً يشمل كل المؤمنين المخلصين الصادقين في كل عصر وزمان، سواء من ارتدى منهم ثوب الشهادة في سبيل الله، أم من ثبت على عهده مع ربه ولم يتزعزع، وكان مستعداً للجهاد والشهادة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤

وتبين الآية التالية النتيجة النهائية لأعمال المؤمنين والمنافقين في جملة قصيرة، فتقول:

«لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا». فلا يبقى صدق وإخلاص ووفاء المؤمنين بدون ثواب، ولا ضعف وإعاقات المنافقين بدون عقاب.

وتطرح الآية الأخيرة من هذه الآيات - والتي تتحدث عن غزوة الأحزاب وتنتهي هذا البحث، فتقول في الجملة الأولى: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا».

«الغيظ»: يعنى (الغضب) ويأتى أحياناً بمعنى (الغم)، وهنا جاء مزيجاً من المعنيين، فإن جيوش الأحزاب قد بذلت قصارى جهدها للإنتصار على جيش الإسلام، لكنّها خابت، ورجع جنود الكفر إلى أوطانهم يعلوهم الغم والغضب.

والمراد من «الخير» هنا الإنتصار في الحرب، ولم يكن إنتصار جيش الكفر خيراً أبداً، بل إنه شرٌّ، ولما كان القرآن يتحدث من وجهة نظرهم الفكرية عبر عنه بالخير، وهو إشارة إلى أنهم لم ينالوا أى نصر في هذا المجال.

وتضيف في الجملة التالية: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ». فقد هيأ عوامل بحيث انتهت الحرب من دون حاجة إلى إلتحام واسع بين الجيشين، ومن دون أن يتحمل المؤمنون خسائر فادحة، لأنّ العواصف الهوجاء القارصة قد مزقت أوضاع المشركين من جهة، ومن

جهة أخرى فإنّ الله تعالى قد ألقى الرعب والخوف في قلوبهم من جنود الله التي لا ترى، ومن جهة ثالثة فإنّ الضربة التي أنزلها على بن أبى طالب عليه السلام بأعظم بطل من أبطالهم، وهو «عمرو بن عبد ود»، قد تسببت في تبدد أحلامهم وآمالهم، ودفعتهم إلى أن

يلملموا أمتعتهم ويتركوا محاصرة المدينة ويرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبة والخسران.

وتقول الآية في آخر جملة: «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيًّا». فمن الممكن أن يوجد اناس أقوىاء، لكنهم ليسوا بأعزاء لا يُقهرون، بل هناك من يقهرهم ومن هو أقوى منهم، إلا أن القوى العزيز الوحيد في العالم هو الله عز وجل الذي لا حد لقدرته وقوته ولا انتهاء. نتائج حرب الأحزاب: لقد كانت حرب الأحزاب نقطة انعطاف في تاريخ الإسلام، قلبت كفة التوازن العسكري والسياسي لصالح المسلمين إلى الأبد.

ويمكن تلخيص النتائج المثمرة لهذه المعركة في عدة نقاط:

(أ) فشل مساعي العدو، وتحطم قواه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥

(ب) كشف المنافقين، وفضح الأعداء الداخليين الخطرين.

(ج) جبران الذكرى الأليمة لهزيمة احد.

(د) قوة المسلمين، وازدياد هيبتهم في قلوب الأعداء.

(ه) إرتفاع معنويات المسلمين نتيجة للمعجزات العظيمة التي رأوها في هذه المعركة.

(و) تثبيت مركز النبي صلى الله عليه وآله في داخل المدينة وخارجها.

(ز) تهيب الأرضية لتصفية المدينة وإنقاذها من شر بني قريظة.

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) غزوة بني قريظة إنتصار عظيم آخر: كان في المدينة ثلاث طوائف معروفة من اليهود، وهم: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكانت هذه الطوائف قد عاهدت النبي صلى الله عليه وآله على أن لا تعين عدوًا له ولا يتجسسوا لذلك العدو، إلا أن «بنو قينقاع» قد نقضوا عهدهم في السنة الثانية للهجرة، و«بنو النضير» في السنة الرابعة للهجرة بأعدار شتى، وصمموا على مواجهة النبي صلى الله عليه وآله وانهارت مقاومتهم في النهاية، وطردها إلى خارج المدينة. بناءً على هذا، فإن «بني قريظة» كانوا آخر من بقى في المدينة إلى السنة الخامسة للهجرة حيث وقعت غزوة الأحزاب، فإنهم اتصلوا بمشركي العرب، وشهروا السيوف بوجه المسلمين.

بعد انتهاء غزوة الأحزاب فإن النبي صلى الله عليه وآله عاد إلى منزله، فنزل عليه جبرئيل بأمر الله وقال: لماذا ألقيت سلاحك وهذه الملائكة قد استعدت للحرب؟ عليك أن تسير الآن نحو بني قريظة وتنهى أمرهم.

كان المسلمون في حارة الإنتصار، وبنو قريظة يعيشون لوعه الهزيمة المرة، وهم في طريقهم إلى ديارهم يجزون أذيال الخيبة.

هنا نادى مناد من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله بأن توجهوا إلى بني قريظة قبل أن تصلوا العصر، فاستعد المسلمون بسرعة وتهيئوا للمسير إلى الحرب، وما كادت الشمس تغرب إلا وكانت حصون بني قريظة المحكمة محاصرة تمامًا. لقد استمرت هذه المحاصرة خمسة وعشرين يوماً، وأخير سَلَمُوا جميعاً فقتل بعضهم، واضيف إلى سجل إنتصارات المسلمين إنتصار عظيم آخر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦

وقد أشارت الآيات - مورد البحث - إلى هذه الحادثة، وأوضحت أن هذه الحادثة كانت نعمة وموهبة إلهية عظيمة، فتقول الآية أولاً: «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ».

«الصياصي»: جمع (صيصية)، أي: القلعة المحكمة، ثم اطلقت على كل وسيلة دفاعية.

ويتضح هنا أن اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم وحصونهم إلى جانب المدينة في نقطة مرتفعة.

ثم تضيف الآية: «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ». وأخيراً بلغ أمرهم أنكم «فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا\* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ»

وَأَمْوَالَهُمْ».

والتعبير عن هذه الغنائم بـ «الإرث» لأن المسلمين لم يبذلوا كثير جهد للحصول عليها، وسقطت في أيديهم بسهولة كل تلك الغنائم التي كانت حصيلة سنين طويلة من ظلم وجور اليهود واستثماراتهم في المدينة. وتقول الآية في النهاية: «وَأَرْضًا لَمْ تَطُوهَا».

وهذا إشارة إلى البساتين والأراضي الخاصية بنى قريظة، والتي لم يكن لأحد الحق في دخولها، لأن اليهود كانوا يبذلون قصارى جهودهم في سبيل الحفاظ على أموالهم وحصرها فيما بينهم.

وأخيراً فإن التأكيد على قدرة الله عز وجل في آخر آية: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا». إشارة إلى أنه سبحانه قد هزم الأحزاب بالرياح والعواصف والجنود الغيبين يوماً، وهزم ناصرهم - أي يهود بنى قريظة - بجيش الرعب والخوف يوماً آخر.

نتائج غزوة بنى قريظة: إن الانتصار على أولئك القوم الظالمين العنودين قد حمل معه نتائج ثمرة للمسلمين، ومن جملتها: (أ) تطهير الجبهة الداخلية للمدينة، واطمئنان المسلمين وتخلصهم من جواسيس اليهود.

(ب) سقوط آخر دعامة لمشركي العرب في المدينة، وقطع أملهم من إثارة القلاقل والفتن داخلياً.

(ج) تقوية بنية المسلمين المالية بواسطة غنائم هذه الغزوة.

(د) فتح آفاق جديدة للإنتصارات المستقبلية، وخاصة فتح «خير».

(هـ) تثبيت مكانة الحكومة الإسلامية وهيبتها في نظر العدو والصدیق، في داخل المدينة وخارجها.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرْذَنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعُكُنَّ وَأَسِرِّحُكُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُمْ تُرْذَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْعَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

سبب النزول

في تفسير علي بن إبراهيم: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من غزاه خيبر وأصاب كثر آل أبي الحقيق، قتل أزواجه أعطنا ما أصبت، فقال لهن رسول الله صلى الله عليه وآله قسمته بين المسلمين على ما أمر الله فغضب من ذلك وقلن لعلك ترى أنك إن طلقنا أن لا نجد الأكل من قومنا يتزوجونا فانف الله لرسوله فأمره أن يعتزلهن فاعتزلهن رسول الله صلى الله عليه وآله في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حزن وطهرن ثم أنزل الله هذه الآية وهي آية التخيير فقال «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ» إلى قوله «أَجْرًا عَظِيمًا» فقامت أم سلمة وهي أول من قامت وقالت قد اخترت الله ورسوله فقم من كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك فأنزل الله «تُرْجَى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَوَى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ» الآية.

التفسير

أما السعادة الخالدة أو زخارف الدنيا: لم يعزب عن أذهانكم أن الآيات الأولى من هذه السورة قد توجت نساء النبي بتاج الفخر حيث سمتهن بـ «أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ». ومن البديهي أن المناصب والمقامات الحساسة التي تبعث على الفخر تصاحبها مسؤوليات ثقيلة، فكيف يمكن أن تكون نساء النبي أمهات المؤمنين وقلوبهن وأفكارهن مشغولة بحب الدنيا ومغرياتها؟

وبغض النظر عن ذلك، فإن النبي صلى الله عليه وآله يجب أن لا يكون لوحده اسوة للناس بحكم الآيات السابقة، بل يجب أن تكون عائلته اسوة لباقي العوائل أيضاً، ونساؤه قدوة للنساء المؤمنات حتى تقوم القيامة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨

فخاطبت الآية الاولى من الآيات أعلاه النبي صلى الله عليه وآله وقالت: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ مِنْ كُتُبِنَ تَرِدُنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا».

«أمْتَعِكُنَّ»: من مادة متعة، تعنى الهدية التى تلائم أحوال المرأة، والمراد هنا المقدار المناسب الذى يضاف على المهر، وإن لم يكن المهر معيناً فإنه يعطيها هدية لائقه بحالها بحيث ترضيها، ويتم طلاقها وفراقها فى جو هادىء مفعم بالحب.

«السراح»: فى الأصل من مادة «سرح» أى الشجرة التى لها ورق وثمر. والمراد من «السراح الجميل» فى الآية طلاق النساء وفراقهن فراقاً مقترناً بالإحسان، وليس فيه جبر وقهر.

وتضيف الآية التالية: «وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْأَخْرَجَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا».

وبناءً على هذا، فإن إظهار عشق الله وحبه، والتعلق بالنبي واليوم الآخر لا يكفى لوحده، بل يجب أن تنسجم البرامج العملية مع هذا الحب والعشق.

وبهذا فقد بين الله سبحانه تكليف نساء النبي وواجبهن فى أن يكنّ قدوةً واسوةً للمؤمنات على الدوام.

ومع أن المخاطب فى هذه الآية هو نساء النبي إلبأن محتوى الآيات ونتيجتها تشمل الجميع، وخاصةً من كان فى مقام قيادة الناس وإمامتهم واسوة لهم.

ثم تتناول الآية التالية بيان موقع نساء النبي أمام الأعمال الصالحة والطالحة، وكذلك مقامهن الممتاز، ومسؤولياتهن الضخمة بعبارة واضحة، فتقول: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

فأنتن تعشن فى بيت الوحي ومركز النبوة، والآخرين ينظرون إليكن ويتخذون أعمالكن نموذجاً وقدوة لهم. بناءً على هذا، فإن ذنبكن أعظم عند الله، لأن الثواب والعقاب يقوم على أساس المعرفة، ومعيار العلم، وكذلك مدى تأثير ذلك العمل فى البيئه.

والمراد من «الفاحشه المبيئه» الذنوب العليه.

أما قوله عز وجل: «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» فهو إشاره إلى أن لا تظنن أن عذابكن وعقابكن عسير على الله تعالى، وأن علاقتهكن بالنبي صلى الله عليه وآله ستكون مانعه منه.

أما فى الطرف المقابل، فتقول الآية: «وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٩

«يقنت»: من القنوت، وهو يعنى الطاعة المقرونه بالخضوع والأدب، والقرآن يريد بهذا التعبير أن يأمرهن بأن يطعن الله ورسوله، ويراعين الأدب مع ذلك تماماً.

«الرزق الكريم» له معنى واسع يتضمن كل المواهب الماديه والمعنويه، وتفسيره بالجئه باعتبارها مجمعاً لكل هذه المواهب.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَوْلٌ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَمَّا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقْمِنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْمَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) هكذا يجب أن تكون نساء النبي:

كان الكلام فى الآيات السابقه عن موقع نساء النبي ومسؤولياتهن الخطيره، ويستمر هذا الحديث فى هذه الآيات، وتأمير الآيات نساء النبي صلى الله عليه وآله بسبعه أوامر مهمه؛ فيقول سبحانه فى مقدمه قصيره: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ». فَإِنْ انتسابكن إلى النبي قد منحكن موقعاً خاصاً بحيث تقدرن على أن تكن نموذجاً وقدوة لكل النساء، سواء كان ذلك فى مسير التقوى أم مسير المعصيه.

وبعد هذه المقدمة التى هيأتها لتقبل المسؤوليات وتحملها، فإنه تعالى أصدر أول أمر فى مجال العفه، فيقول: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ». بل تكلمن عند تحدثكن بجد وباسلوب عادى.

إِنَّ التَّعْبِيرَ بِ«الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» تَعْبِيرٌ بَلِيغٌ جَدًّا، وَمَوْذٌ لِحَقِيقَتِهِ أَنَّ الْغَرِيزَةَ الْجَنَسِيَّةَ عِنْدَمَا تَكُونُ فِي حُدُودِ الْإِعْتِدَالِ وَالْمَشْرُوعِيَّةِ فَهِيَ عَيْنُ السَّلَامَةِ، أَمَّا عِنْدَمَا تَتَعَدَّى هَذَا الْحَدَّ فَإِنَّهَا سَتَكُونُ مَرَضًا قَدْ يَصِلُ إِلَى حَدِّ الْجُنُونِ.

وَيَبِينُ الْأَمْرَ الثَّانِي فِي نَهَايَةِ الْآيَةِ فَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: يَجِبُ عَلَيْكَ التَّحَدُّثُ مَعَ الْآخَرِينَ بِشَكْلِ لَاتِقٍ وَمَرْضَى لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَقْتَرَنًا مَعَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ: «وَقُلْنَا قَوْلًا مَّعْرُوفًا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٠

إِنَّ جَمْلَهُ «لَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ» إِشَارَةٌ إِلَى طَرِيقَةِ التَّحَدُّثِ؛ وَجَمْلُهُ: «وَقُلْنَا قَوْلًا مَّعْرُوفًا» إِشَارَةٌ إِلَى مَحْتَوَى الْحَدِيثِ.

«القول المعروف» له معنى واسع يتضمّن كل ما قيل، إضافةً إلى أنه ينفي كل قول باطل لا فائدة فيه ولا هدف من ورائه، وكذلك ينفي المعصية وكل ما خالف الحق.

ثم يصدر الأمر الثالث في باب رعاية العفة، فيقول: «وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى».

«قرن»: من مادة «الوقار»، أي الثقل، وهو كناية عن التزام البيوت؛ و«التبرج»: يعنى الظهور أمام الناس، وهو مأخوذ من مادة (برج)، حيث يبدو ويظهر لأنظار الجميع.

والمراد من «الجاهلية» أنها الجاهلية التي كانت في زمان النبي صلى الله عليه وآله، ولم تكن النساء محجبات حينها - كما ورد في التواريخ - وكنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهن مع إظهار نحورهن وجزء من صدورهن وأقراطهن وقد منع القرآن الكريم أزواج النبي من مثل هذه الأعمال.

ولا شك أن هذا الحكم عام، والتركيز على نساء النبي من باب التأكيد الأشد.

وأخيراً يصدر الأمر الرابع والخامس والسادس فيقول سبحانه: «وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

إن هذه الأوامر الثلاثة تشير إلى أن الأحكام المذكورة ليست مختصة بنساء النبي، بل هي للجميع، وإن أكدت عليهن.

ويضيف الله سبحانه في نهاية الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا».

إن التعبير ب(إنما) - والذي يدل على الحصر عادةً - دليل على أن هذه المنقبة خاصة بأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله؛ وجملة (يريد) إشارة إلى إرادة الله التكوينية.

وبتعبير آخر: فإن المعصومين نتيجة للرعاية الإلهية وأعمالهم الطاهرة، لا يقدمون على المعصية مع امتلاكهم القدرة والاختيار في إتيانها.

«الرجس»: تعنى الشىء القذر، سواء كان نجساً وقدرًا من ناحية طبع الإنسان، أو بحكم العقل أو الشرع، أو جميعها؛ و«التطهير»: الذى يعنى إزالة النجس، هو تأكيد على مسألة إذهاب الرجس ونفى السيئات.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦١

فإن الروايات الكثيرة جداً الواردة في كتب الفريقين تنفى شمول الآية لكل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وتقول: إن المخاطبين في الآية والمقصود بأهل بيت النبي هم خمسة أفراد فقط، وهم: محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وبينت الآية الأخيرة - من الآيات مورد البحث - سابع وظيفته وآخرها من وظائف نساء النبي، وتبتهن على ضرورة استغلال أفضل الفرص التي تتاح لهن في سبيل الإحاطة بحقائق الإسلام والعلم بها وبأبعادها، فتقول: «وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ».

وفيما هو الفرق بين «آيات الله» و«الحكمة»؟ قال بعض المفسرين: إن كليهما إشارة إلى القرآن، غاية ما في الأمر أن التعبير ب(الآيات) يبين الجانب الإعجازي للقرآن، والتعبير ب(الحكمة) يتحدث عن المحتوى العميق والعلم المخفى فيه.

وأخيراً تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَمَا نَ لَطِيفًا خَبِيرًا». وهى إشارة إلى أنه سبحانه مطلع على أدق الأعمال وأخفاها، ويعلم نياتكم تماماً، وهو

خبير بأسراركم الدفينه في صدوركم.

جاهلية القرن العشرين: مرّت الإشارة إلى أنّ جمعاً من المفسرين تورّطوا في تفسير (الجاهلية الاولى) وكأنّهم لم يقدرُوا أن يصدّقوا ظهور جاهلية اخرى في العالم بعد ظهور الإسلام، وأنّ جاهلية العرب قبل الإسلام ضئيلة تجاه الجاهلية الجديدة، إلّا أنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم، حيث نرى مظاهر جاهلية القرن العشرين المرعبة، ويجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازية. إذا كان العرب في زمان الجاهلية يغيرون ويحاربون، وإذا كان سوق عكاظ - مثلاً - ساحه لسفك الدماء لأسباب تافهة عدّه مرّات، وقتل على أثرها أفراد معدودون، فقد وقعت في جاهلية عصرنا حروب ذهب ضحيتها عشرون مليون إنسان، وجرح وتعوق أكثر من هذا العدد.

وإذا كانت النساء «تتبرّج» في زمن الجاهلية ويلقن خمرهنّ عن رؤوسهن بحيث كان يظهر جزء من صدورهن ونحوهن وقلائدهن وأقراطهن، ففي عصرنا تشكّل نواد تسمّى بنوادى العراء - ونموذجها مشهور في بريطانيا. وإذا كانت في الجاهلية «زانيات من ذوات الأعلام»، حيث كنّ يرفعن أعلاماً فوق بيوتهن ليدعين الناس إلى أنفسهن، ففي جاهلية قرننا اناس يطرحون اموراً ومطالب في هذا مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٢

المجال عبر صحف خاصة، يندى لها الجبين، ولجاهلية العرب مئة مرتبة من الشرف على هذه الجاهلية. إنّ ما قلناه كان جانباً من العبء الملقى على عاتقنا لبيان حياة الذين يتعدون عن الله تعالى، فإنّهم وإن امتلكوا آلاف الجامعات والمراكز العلمية والعلماء المعروفين، فهم غارقون في وحل الفساد ومستنقع الرذيلة، بل إنّهم قد يضعون هذه المراكز العلمية وعلماءها في خدمة هذه الفجائع والمفاسد أحياناً.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، دخلت على نساء رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا.

فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله! إنّ النساء لفي خيبة وخسار. فقال: «وممّ ذلك؟» قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

شخصية المرأة ومكانتها في الإسلام: بعد البحوث التي ذكرت في الآيات السابقة حول واجبات أزواج النبي صلى الله عليه وآله، فقد ورد في هذه الآية كلام جامع عميق المحتوى في شأن كل النساء والرجال وصفاتهم، وبعد أن ذكرت عشر صفات من صفاتهم العقائدية والأخلاقية والعملية، بينت الثواب العظيم المعدّ لهم في نهايتها. تقول الآية: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ». أي المطيعين لأوامر الله والمطيعات.

وهو إشارة إلى أنّ «الإسلام» هو الإقرار باللسان الذي يجعل الإنسان في صف المسلمين، ويصح مشمولاً بأحكامهم، إلّا أنّ «الإيمان» هو التصديق بالقلب والجنان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٣

«قانت»: من مادة «القنوت»، وهي الطاعة المقترنة بالخضوع، وهذه إشارة إلى الجوانب العملية للإيمان وآثاره.



ثم تطرقت إلى أحد أهم صفات المؤمنين الحقيقيين، أي حفظ اللسان فتقول:  
«وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ».

ولمّا كان الصبر والتحمل والصلابة أمام المشاكل والعقبات هو أساس الإيمان، ودوره ومنزلته في معنويات الإنسان بمنزلة الرأس من الجسد، فقد وصفتهم الآية بصفتهم الخامسة، فقالت: «وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ».  
ونعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقية هو الكبر والغرور وحبّ الجاه، والنقطة التي تقع في مقابله هي «الخشوع»، لذلك كانت الصفة السادسة: «وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ».

وإذا تجاوزنا حبّ الجاه، فإنّ حبّ المال أيضاً آفة كبرى، وعبادته والتعلّق به ذلكم خطيرة مرّة، ويقابله الإنفاق ومساعدة المحتاجين، لذلك كانت صفتهم السابعة: «وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ».

قلنا: إنّ ثلاثة أشياء إذا تخلّص الإنسان من شرّها، فإنّه سيبقى في مأمن من كثير من الآفات والشُرور الأخلاقية، وهي: اللسان والبطن والشهوة الجنسية، وقد اشير إلى الأول في الصفة الرابعة، أما الشيء الثاني والثالث فقد أشارت إليهما الآية في الصفتين الثامنة والتاسعة، فقالت: «وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ».

وأخيراً تطرقت الآية إلى الصفة العاشرة التي يرتبط بها الإستمرار في كل الصفات السابقة والمحافظة عليها، فقالت: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ».

إنّ هؤلاء يجب أن يكونوا مع الله ويذكروه في كل حال، وفي كل الظروف، وأن يزيحوا عن قلوبهم حجب الغفلة والجهل، ويبعدوا عن أنفسهم همزات الشياطين ووساوسهم، وإذا ما بدرت منهم عثرة فإنهم يهبون لجبرانها في الحال لئلا يحدوا عن الصراط المستقيم.  
ثم تبيّن الآية في النهاية الأجر الجزيل لهذه الفئة من الرجال والنساء الذين يتمتعون بهذه الخصائص العشرة بأنهم قد «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

فإنّه تعالى قد غسل ذنوبهم التي كانت سبباً في تلوّث أرواحهم، بماء المغفرة، ثم كتب لهم الثواب العظيم الذي لا يعرف مقداره إلّا هو.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٤

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في زينب بنت جحش الأسديّة وكانت بنت اميمة بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله فخطبها رسول الله صلى الله عليه وآله و آله على مولاه زيد بن حارثة، ورأت أنّه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنّه يخطبها على زيد، أبت وأنكرت وقالت: أنا ابنة عمّتك فلم أكن لأفعل. وكذلك قال أخوها عبد الله بن جحش فنزل: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ» الآية. يعنى عبد الله بن جحش واخته زينب.

فلما نزلت الآية، قالت: رضيت يا رسول الله وجعلت أمرها بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وكذلك أخوها فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وآله زيداً.

التفسير

نعلم أن روح الإسلام التسليم، ويجب أن يكون تسليماً لأمر الله تعالى بدون قيد أو شرط، وقد ورد هذا المعنى في آيات مختلفة من القرآن الكريم، وبعبارات مختلفة، ومن جملتها الآية أعلاه، والتي تقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ».

بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعاً لإرادة الله تعالى، كما أن كل وجودهم من الشعر حتى أخصم القدمين مرتبط به ومذعن له. ولذلك أشارت الآية إلى هذه المسألة في نهايتها، حيث تقول: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٥

ثم تناولت الآية التالية قصة «زيد» وزوجته «زينب» المعروفة، والتي هي إحدى المسائل الحساسة في حياة النبي صلى الله عليه وآله، ولها ارتباط بمسألة أزواج النبي التي مرّت في الآيات السابقة، فتقول: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ».

والمراد من نعمه الله تعالى هي نعمه الهداية والإيمان التي منحها لزيد بن حارثه، ومن نعمه النبي صلى الله عليه وآله أنه كان قد أعتقه وكان يعامله كولد الحبيب العزيز.

ويستفاد من هذه الآية أن شجاراً قد وقع بين زيد وزينب، وقد استمرّ هذا الشجار حتى بلغ أعتاب الطلاق، ويستفاد أن النبي كان ينصح دائماً ويمنعه من الطلاق.

ثم تضيف الآية: «وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

إن مسألة خشية الله سبحانه توحى بأنّ هذا الزواج قد تمّ كتنفيذ لواجب شرعي، يجب عنده طرح كل الاعتبارات الشخصية جانباً من أجل الله تعالى ليتحقق هدف مقدس من أهداف الرسالة، حتى وإن كان ثمن ذلك جراحات اللسان التي يلقيها جماعة المنافقين في اتهاماتهم للنبي. لهذا تقول الآية في متابعة المسألة: «إِنَّ زَيْدًا لَمَّا أَنْهَى حَاجَتَهُ مِنْهَا وَطَلَّقَهَا زَوْجَانَهَا لَكَ: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لَكِنَّ لَمَّا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا». وكان لابد أن يتم هذا الأمر: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

بناءً على هذا، فإنّ هذه المسألة كانت مسألة أخلاقية وإنسانية، وكذلك كانت وسيلة مؤثرة لكسر سنتين جاهليتين خاطئتين، وهما: الإقتران بمطلقة الابن المتبني والزواج من مطلقة عبد معتق.

«الأدعياء»: جمع «دعي»، أي الابن المتبني؛ و «الوطر» هو الحاجة المهمة.

والتعبير ب «زَوَّجْنَاكَهَا» دليل على أن هذا الزواج كان زوجاً بأمر الله.

وتقول الآية الأخيرة في تكميل المباحث السابقة: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ». فحيث يأمره الله سبحانه لا تجوز المداهنة في مقابل أمره تعالى، ويجب تنفيذه بدون أي تردد.

وأساساً فإنّ مخالفة السنن والأعراف، واقتلاع الآداب والعادات الخرافية وغير

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٦

الإنسانية يقترن عادةً بالضجيج والغوغاء والصخب، وينبغي أن لا يهتمّ الأنبياء بهذا الضجيج والصخب مطلقاً، ولذلك تعقب الجملة التالية فتقول: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ». فلست الوحيد المبتلى بهذه المشكلة، بل إنّ الأنبياء جميعاً كانوا يعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سنن مجتمعاتهم، وعند سعيهم لإجتثاث اصول الأعراف الفاسدة منها.

ويقول الله سبحانه في نهاية الآية تشبيهاً لاتباع الحزم في مثل هذه المسائل الأساسية:

«وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا».

إنّ التعبير ب «قَدَرًا مَقْدُورًا» قد يكون إشارة إلى كون الأمر الإلهي حتمياً، ويمكن أن يكون دالاً على رعاية الحكمة والمصلحة فيه،

إِلَّا أَنَّ الْأَنْسَبَ فِي مَوْرَدِ الْآيَةِ أَنْ يَرَادَ مِنْهُ كَلَامُ الْمَعْنِيِّينَ.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) من هم المبلِّغون الحقيقيون: تشير الآية مورد البحث، ومناسبة للبحث الذي مرَّ حول الأنبياء السابقين في آخر آية من الآيات السابقة، إلى أحد أهم برامج الأنبياء العامة، فتقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ».

وكذلك الحال بالنسبة إليك، فينبغي أن لا تخش أحداً في تبليغ رسالات الله.

إنَّ عمل الأنبياء عليهم السلام في كثير من المراحل هو كسر مثل هذه السنن والأعراف عادةً، ولو أنَّهم سمحوا لأقلَّ خوف وتردد أن ينفذ إلى نفوسهم فسوف يفشلون في أداء رسالاتهم، فيجب على هذا أن يسيروا بحزم وثبات، ويستوعبوا كلمات المسيئين الجارحة غير المترنئة، ويستمرّوا في طريقهم دون أن يهتّموا بإصطناع الأجواء ضدّهم، وضجيج العوام، وتآمر الفاسدين والمفسدين وتواطئهم، لأنَّ كل الحسابات بيد الله سبحانه، ولذلك تقول الآية في النهاية: «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا».

إنَّه يحسب إشار الأنبياء وتضحياتهم في هذا الطريق ويجزيهم عليها، كما يحفظ كلمات الأعداء البذيئة وثرثرتهم ليحاسبهم عليها ويجازيهم.

إنَّ الآية المذكورة دليل واضح على أنَّ الحزم والإخلاص وعدم الخوف من أي أحد إلا الله تعالى، شرط أساسي في التقدم والرقى في مجال الإعلام والتبليغ.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٧

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) مسألة الخاتمية: هذه الآية هي آخر ما بينه الله سبحانه فيما يتعلق بمسألة زواج النبي صلى الله عليه وآله بمطلقة زيد لكسر عرف جاهلي خاطيء، وتبين في نهايتها حقيقة مهمة اخرى - وهي مسألة الخاتمية - بمناسبة خاصة. تقول أولاً: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ». لا زيد ولا غيره، وإذا ما أطلقوا عليه يوماً إنَّه «ابن محمد» فإنَّما هو مجرد عادة وعرف ليس إلَّا، وما إن جاء الإسلام حتى اجتثت جذوره، وليس هو رابطة طبيعية عائلية.

ثم تضيف: بأنَّ علاقة النبي صلى الله عليه وآله معكم إنَّما هي من جهة الرسالة والخاتمية فقط: «وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ». وبهذا قطع صدر الآية الإرتباط والعلاقة النسبية بشكل تام وقطعي، وأثبت ذيلها العلاقة المعنوية الناشئة من الرسالة والخاتمية، ومن هنا يتضح ترابط صدر الآية وذيلها.

ولا- شك أن الله العليم الخبير قد وضع تحت تصرفه كل ما كان لازماً في هذا الباب، من الاصول والفروع، والكليات والجزئيات في جميع المجالات، ولذلك يقول سبحانه في نهاية الآية: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) تحية الله والملائكة فرج للمؤمنين: لما كان الكلام في الآيات السابقة عن مسؤوليات نبي الخاتم صلى الله عليه وآله وواجباته الثقيلة الملقاة على عاتقه، فإنَّ الآيات مورد البحث تبين جانباً من وظائف المؤمنين من أجل تهيئته الأرضية اللازمة لهذا التبليغ، وتوسعه أطرافه في جميع الأبعاد، فوجهت الخطاب إليهم جميعاً وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا». ونزّهوه صباحاً ومساءً «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

لما كانت عوامل الغفلة في الحياة المادية كثيرة جداً، وسهام وسوسة الشياطين ترمى من كل جانب صوب الإنسان، فلا طريق لمحاربتها إلا بذكر الله الكثير.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٨

إنَّ «الذكر الكثير» - بالمعنى الواقعي للكلمة - يعني التوجه إلى الله سبحانه بكل الوجود، لا بقلقه اللسان وحسب.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أكثر ذكر الله أظله الله في جنته».

والآية التالية بمثابة نتيجة وعلّة غائية للتسبيح في الواقع، فهي تقول: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَكَتْهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ». أي: من ظلمات الشرك والكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم والتقوى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا». وبسبب هذه الرحمة كتب على نفسه هداية البشر وإرشادهم، وأمر ملائكته أن تعينهم في ذلك.

«يصلّي»: من مادة «صلاة» وهي هنا تعني الرعاية والعناية الخاصة، وهذه العناية بالنسبة لله تعني نزول الرحمة، وبالنسبة للملائكة تعني الاستغفار وطلب الرحمة.

هذه هي رحمة الله الخاصة التي تخرج المؤمنين من ظلمات الأوهام والشهوات والوساوس الشيطانية، وتهديهم إلى نور اليقين والإطمئنان والسيطرة على النفس، ولولا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق الملىء بالمنعطفات والعراقيل لا يكون سالكاً. وتجسد الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين وثوابهم بأروع تجسيد وأقصر عبارة، فتقول: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ». «التحية»: من مادة «حياة»، وهي تعني الدعاء لسلامة وحياء أخرى.

هذا السلام يعنى السلامة من العذاب، ومن كل أنواع الألم والعذاب والمشقة، سلام ممتزج بالهدوء والإطمئنان. بعد هذه التحية، التي ترتبط ببداية الأمر، أشارت الآية إلى نهايته فقالت: «وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) السراج المنير: الخطاب في هذه الآيات موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله، إلّا أنّ نتيجته لكل المؤمنين، وبذلك فإنّها تكمل الآيات السابقة التي كانت تبحث في بعض وظائف المؤمنين وواجباتهم.

لقد جاءت في الآيتين الأوليين من هذه الآيات الأربع «خمس صفات» للنبي صلى الله عليه وآله وجاء مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٦٩

في الآيتين الاخيرين بيان خمس واجبات يرتبط بعضها ببعض، وتكمل إحداها الاخرى.

تقول الآية أولاً: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا». فهو من جانب شاهد على أعمال أمته، لأنّه يرى أعمالهم.

وهو من جانب آخر شاهد على الأنبياء الماضين الذين كانوا شهوداً على اممهم: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» (١).

ومن جهة ثالثة فإنّ وجودك بما لك من الصفات والأخلاق والبرامج والتعليمات البناءة، إضافة إلى تاريخك المشرق وأعمالك المشرفة، شاهد على أحقيّة دينك، وشاهد على عظمتك الله وقدرته.

ثم تطرقت الآية إلى الصفتين الثانية والثالثة فقالت: «وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». فهو مبشّر للمحسنين بثواب الله اللامتناهي ... بالسلامة والسعادة الخالدة ... بالظفر والتوفيق الملىء بالفخر والإعتزاز ... ونذير للكافرين والمنافقين من عذاب الله الأليم ... من خسران كل رأسمال الوجود، ومن السقوط في شراك التعاسة في الدنيا والآخرة.

وأشارت الآية التالية إلى الصفة الرابعة والخامسة، فقالت: «وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا».

إنّ كون النبي صلى الله عليه وآله (سراجاً منيراً) إشارة إلى المعجزات وأدلة أحقيّة دعوة الرسول، وعلامة صدقها، فهو سراج منير شاهد بنفسه على نفسه.

إنّ وجود النبي صلى الله عليه وآله أساس الهدوء والإطمئنان، ونمو روح الإيمان والأخلاق، والخلاصة:

أساس الحياة والحركة، وتأريخ حياته شاهد حي على هذا الموضوع.

وفي الآيتين الاخيرين من الآيات مورد البحث بياناً لخمس واجبات من واجبات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فتقول أولاً: «وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا». وهى إشارة إلى أن مسألة تبشير النبى صلى الله عليه وآله لا يحد بالثواب الإلهى بمقدار أعمال المؤمنين الصالحة، بل إن الله سبحانه يفيض عليهم من فضله بحيث تضطرب المعادلة بين العمل والجزاء تماماً. ثم تناولت الواجب الثانى والثالث، فقالت: «وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ». لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يطع الكافرين والمنافقين مطلقاً، إلا أن هذا الموضوع من

(١) سورة النساء / ٤١.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٠

الأهمية بمكان، ولذلك أكدت الآية على هذا الموضوع بالخصوص من باب التأكيد على النبى صلى الله عليه وآله والتحذير والقدوة للآخرين. ثم تقول فى الأمر الرابع والخامس: «وَدَعُ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا». إن هذا الجزء من الآية يوحى بأنهم قد وضعوا النبى صلى الله عليه وآله تحت ضغط شديد لحمله على الإستسلام، واستخدموا ضده وضد أصحابه كل أنواع الأذى، سواء كان عن طريق جرح اللسان والكلام الفاحش والإهانة، أم عن طريق الأذى الجسمى، أو عن طريق الحصار الإقتصادى.

يقول التاريخ: إن النبى صلى الله عليه وآله والمؤمنين الأوائل قد وقفوا كالجبل الأشم أمام أنواع الأذى، ولم يقبلوا عار الإستسلام والهزيمة قط، وأخيراً انتصروا فى حركتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) جانب من أحكام الطلاق: إن آيات هذه السورة- الأحزاب- جاءت على شكل مجموعات مختلفة، والخطاب فى بعضها موجه إلى النبى صلى الله عليه وآله، وفى بعضها الآخر إلى كل المؤمنين، وهذا يعنى أن النبى صلى الله عليه وآله كان مراداً بهذه التعليمات، كما أن عموم المؤمنين يراودون بها أيضاً. تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا».

لقد بين الله سبحانه هنا حكماً استثنائياً من حكم عده النساء المطلقات، وهو أن الطلاق إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العدة، ومن هذا التعبير يفهم أن حكم العدة كان قد بين قبل هذه الآية.

ثم تتطرق الآية إلى حكم آخر من أحكام النساء اللاتى يطلقن قبل المباشرة الجنسية- والذى سبقت الإشارة إليه فى سورة البقرة أيضاً- فتقول: «فَمَتَّعُوهُنَّ». أى اعطوهن هدية مناسبة.

ولا شك أن تقديم هدية مناسبة إلى المرأة يكون واجباً فى حالة عدم تعيين المهر من قبل.

أما مقدار هذه الهدية، فقد بينه القرآن المجيد فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة إجمالاً بقوله: «مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ». وكذلك قال فى نفس تلك الآية: «عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧١

وآخر حكم فى الآية مورد البحث هو: «وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا».

«السراح الجميل» هو الطلاق المقترن بالمحبة والإحترام، وترك كل خشونة وظلم وجور واحتقار.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتِ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) يمكنك الزواج من هذه النسوة: بعد ذكر جانب من الأحكام المتعلقة بطلاق النساء، ووجه الخطاب هنا إلى النبى صلى الله عليه وآله

آله، وفضلت الموارد السبعة التي يجوز للنبي الزواج فيها من تلك النسوة:

١- فقالت أولًا: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ». والمراد من هؤلاء النساء - بقرينة الجمل التالية - النساء اللاتي لم يكن يرتبطن بالنبي صلى الله عليه وآله برابطة قرابة وقد تزوجنه، وربما كانت مسألة دفع المهر لهذا السبب، لأن العرف المتبع آنذاك هو أنهم كانوا يدفعون المهر نقداً عند زواجهم من الأجنبية، إضافةً إلى أفضلية التعجيل في هذا الدفع، وخاصة إذا كانت الزوجة بحاجة إليه إلا أن هذا الأمر ليس من الواجبات على أي حال، إذ يمكن أن يبقى المهر ديناً في ذمة الزوج إذا ما اتفق الطرفان على ذلك.

٢- «وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ».

«أفاء»: من مادة «الفيء»، وتقال للأموال التي يحصل عليها الإنسان بدون جهد ومشقة، ولذلك يطلق (الفيء) على الغنائم الحربية، وكذلك الأنفال.

٣- «وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ».

إن التحديد بهذه الفئات الأربع واضح، إلا أن شرط الهجرة من أجل أنها كانت دليلاً على الإيمان في ذلك اليوم، وعدم الهجرة دليل على الكفر، أو لأن الهجرة تمنحهن امتيازاً أكبر وفضلاً أعظم، والهدف من الآية هو بيان النساء الفاضلات المؤهلات لأن يصبحن زوجات للنبي صلى الله عليه وآله.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٢

٤- «وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ مِنْ دُونِ مَهْرٍ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ». أي أن هذا الحكم خاص للنبي صلى الله عليه وآله ولا يشمل سائر المؤمنين «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ». وبناءً على هذا، فإذا كنا قد حددنا بعض المسائل فيما يتعلق بالزواج من هؤلاء النسوة، فقد كان ذلك استناداً إلى مصلحة حاكمه في حياتك وحياتهن، ولم يكن أي من هذه الأحكام والمقررات اعتبارياً وبدون حساب. ثم تضيف الآية: «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ». وبالتالي ستكون قادراً على أداء المسؤوليات الملقاة على عاتقك في القيام بهذا الواجب «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

إن الجملة الأخيرة في الآية أعلاه إشارة في الواقع إلى فلسفة هذه الأحكام الخاصة بنبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث تقول: إن للنبي ظروفاً لا يعيشها الآخرون، وهذا التفاوت في الظروف أصبح سبباً للتفاوت في الأحكام.

إن الهدف من هذه الأحكام رفع بعض المشاكل والصعوبات من كاهل النبي صلى الله عليه وآله.

تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

سبب النزول

نزلت الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وآله وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهراً حتى نزلت آية التخيير، فأمره الله تعالى أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة ...

وعلى أنه يؤوى من يشاء منهن ويرجى من يشاء منهن ويرضين به، قسم لهن، أو لم يقسم، أو قسم لبعضهن ولم يقسم لبعضهن أو فضل بعضهن على بعض في النفقة والقسمة والعشرة أو سوى بينهن، والأمر في ذلك إليه يفعل ما يشاء وهذه من خصائصه صلى الله عليه وآله، فرضين بذلك كله واخترنه على هذا الشرط.

التفسير

حل مشكلة أخرى في حياة النبي: إن قائداً ربانياً عظيماً كالنبي صلى الله عليه وآله خاصة يجب أن

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٣

يكون له هدوء نسبي في حياته الداخلية ليقوى على التفرغ لحل سيل المشاكل التي أحاطت به من كل جانب.

إن الإختلاف بين زوجات النبي، والمنافسة النسوية المعروفة بينهن، قد أثار في الوقت نفسه عاصفة من الإضطراب داخل بيت النبي مما شغل فكره وزاد في همه.

هنا منح الله سبحانه نبيه إحدى الخصائص الأخرى، وأنهى هذه الحوادث والأخذ والعطاء في الجدل إلى الأبد، وأراح فكر النبي صلى الله عليه وآله من هذه الجهة، وهدأ خاطره وروعه، فقال سبحانه في هذه الآية: «تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتَوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ».

«ترجى»: من «الإرجاء»، أى: التأخير؛ و «تؤوى»: من «الإيواء» ويعنى إستضافة شخص في بيتك.

ونعلم أن أحكام الإسلام فى شأن الزوجات المتعددة تقضى بأن يقسم الزوج أوقاته بينهن بصورة عادلة، ويعبرون عن هذا الموضوع فى الكتب الفقهية الإسلامية ب «حق القسم».

فكانت إحدى مختصات النبي صلى الله عليه وآله هى سقوط رعايته حق القسم منه بحكم الآية أعلاه، وبسقوط هذا الواجب عنه فقد

كان قادراً على أن يقسم أوقاته كيف يشاء، غير أنه صلى الله عليه وآله كان يراعى تحقيق العدالة ما أمكن رغم هذه الظروف.

ثم تضيف الآية: وعندما ترغب عن إحداهن وتعزلها، ثم ترغب فيها فلا تثرى عليك: «وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ».

وبهذا فليس الخيار بيدك فى البداية وحسب، بل إنه بيدك حتى فى الأثناء أيضاً، ولذلك يضيف سبحانه: «ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ».

وذلك أولاً: لأن هذا الحكم عام يشملهن جميعاً ولا يتفاوتن فيه، وثانياً: إن الحكم الذى يشرع من جانب الله سبحانه إنما يشرع لمصلحته مهمة. وبناءً على هذا فيجب الإذعان له برغبة ورضا.

وأخيراً ينهى المطلب بهذه الجملة: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا».

لا يستعجل فى إنزال العقاب بالمذنبين.

أجل إن الله يعلم بأى حكم قد رضيتم، وله أذعنتم بقلوبكم، وعن أى حكم لم ترضوا.

وهو سبحانه يعلم أياً من أزواجكم تحبون أكثر، ومن منهن تحظى باهتمام أقل، ويعلم كيف تراعون حكمه وتنفذه مع هذا الإختلاف فى الميول والرغبات.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٤

لَمَّا يَحِجُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدٍ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) حكم مهم آخر فيما يتعلق بأزواج النبي: لقد بين الله سبحانه فى هذه الآية حكماً آخر من الأحكام المتعلقة بزواج النبي، فقال

عز وجل: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدٍ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ». فالآية منعت الرسول من الزواج الجديد إلا بالإماء والجوارى: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَمَّا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شئ عليمًا (٥٤)

أسباب النزول

نزلت آية الحجاب لما بنى رسول الله صلى الله عليه وآله بنى زينب بنت جحش، وأولم عليها. قال أنس: أولم عليها بتمر وسويق، وذبح شاة، وبعثت إليه امى امى سليم بحيس فى تور من حجارة، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وآله أن أدعو أصحابه إلى الطعام،

فدعوتهم، فجعل القوم يجيئون ويأكلون ويخرجون. ثم يجيء القوم فيأكلون ويخرجون. قلت: يا نبي الله! قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه؟ فقال: ارفعوا طعامكم فرفعوا طعامهم، وخرج القوم، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون في البيت، فأطالوه المكث. فقام صلى الله عليه وآله وقمت معه، لكي يخرجوا. فمشى حتى بلغ حجرة عائشة.

ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرفع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فنزلت الآية. قيل: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطعم معه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة وكانت معهم، فكره صلى الله عليه وآله ذلك، فنزلت آية الحجاب.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٥

وقيل: إن رجلين قالوا: أينك محمد نساءنا ولا ننكح نساءه والله لئن مات لنكحنا نساءه فنزلت الآية أعلاه وحزمت الزواج بنساء النبي من بعده مطلقاً، وأنهت هذه المؤامرة.

التفسير

مرّة اخرى يوجه الخطاب إلى المؤمنين، لتبين الآية جانباً آخر من أحكام الإسلام، وخاصة ما كان مرتبطاً بأداب معاشره النبي صلى الله عليه وآله وآله وبيت النبوة، فتقول أولاً: لا ينبغي لكم دخول بيوت النبي إلا إذا دعيتم إلى طعام واذن لكم بالدخول بشرط أن تدخلوا في الوقت المقرر، لا أن تأتوا قبل ذلك بفترة وتجلسون في انتظار وقت الغذاء، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءً» (١).

ومن المسلم أن هذا الحكم لا يختص ببيت النبي صلى الله عليه وآله، إذ ينبغي أن لا تدخل دار أى إنسان بدون إذنه كما نقرأ - فى الكافي - فى أحوال النبي صلى الله عليه وآله أنه عندما كان يريد دخول بيت إبنته فاطمة عليها السلام كان يستأذن، وكان معه جابر بن عبد الله يوماً، فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه.

إضافةً إلى أنهم إذا دُعوا إلى طعام فينبغى أن يكونوا عارفين بالوقت، لئلا يوقعوا صاحب البيت فى جهد وإحراج فى غير مكانه. ثم تناولت الحكم الثانى فقالت: «وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا».

وتقول فى الحكم الثالث: «وَلَا مُشْتَبِهِينَ لِحَدِيثٍ» فلا تجلسوا حلقاً تتحدثون بعد تناول الطعام، سواء كان ذلك فى بيت النبي، أم فى بيت أى صاحب دعوة.

طبعاً، قد يرغب المضيفون فى مثل هذه الحلقات والمجالس، فهذه الحالة مستثناة.

ثم تبين الآية عله هذا الحكم فتقول: «إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ».

من المسلم أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يتردد لحظة، ولا يخشى شيئاً، أو يستحى من شىء فى بيان الحق فى الموارد التى لم يكن لها بعد شخصى وخاص، إلا أن بيان الحق إذا كان يعود على القائل نفسه ليس بالأمر الجميل الحسن، أما تبيانه من قبل الآخرين فإنه رائع ومستحسن، ومورد الآية من هذا القبيل أيضاً.

(١) «إنه»: من مادة «أتى - يأتى» أى حلول وقت الشىء، وتعنى هنا تهيئه الطعام للتناول.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٦

ثم تبين الآية الحكم الرابع فى باب الحجاب، فتقول: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ».

ومن الواضح أن جعل نساء النبي عرضةً لأنظار الناس - وإن كنَّ يرتدين الحجاب الإسلامى - لم يكن بالأمر الحسن، ولذلك صدر الأمر إلى الناس إذا سألتهم أزواج النبي صلى الله عليه وآله شيئاً تحتاجون إليه، فاسألوهن من وراء الستر.

ولذلك بين القرآن فلسفه هذا الحكم فقال: «ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ».



ثم تبين الآية الحكم الخامس بأنه: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ». فبالرغم من أن هذا العمل قد ذكر في نفس الآية، ولكن معنى الآية فهو يشمل كل نوع من الأذى.

وأخيراً تبين الآية الحكم السادس والأخير في مجال حرمة الزواج بنساء النبي صلى الله عليه وآله من بعده، فقالت: «وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا».

وحذرت الآية الثانية الناس بشدة، فقالت: «إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». فلا تظنوا أن الله سبحانه لا يعلم ما خططتم له في سبيل إيذاء النبي صلى الله عليه وآله سواء ما ذكرتموه، أو الذي أضمرتموه، فإنه تعالى يعلم كل ذلك جيداً، ويعامل كل إنسان بما يناسب عمله.

لَمَّا جُنَّاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آيَاتِهِنَّ وَ لَمَّا أَبْنَائِهِنَّ وَ لَمَّا إِخْوَانِهِنَّ وَ لَمَّا أَبْنَاءُ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَمَّا أَبْنَاءُ أَخَوَاتِهِنَّ وَ لَمَّا نِسَائِهِنَّ وَ لَمَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: لما نزلت آية الحجاب قال: الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله، ونحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب؟ فأنزل الله تعالى قوله: «لَا جُنَّاحَ عَلَيْهِنَّ» الآية. أن يروهن ولا يحتجبن عنهن.

التفسير

الموارد المستثناة من قانون الحجاب: لما كان الحكم الذي ورد في الآية السابقة حول حجاب نساء النبي مطلقاً، ويمكن أن يوهم هذا الإطلاق بأن المحارم مكلفون بتنفيذه أيضاً، وأن يحدثوهن من وراء حجاب كالأجانب، فقد نزلت هذه الآية وفصلت حكم هذه مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٧

المسألة. تقول الآية: «لَا جُنَّاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آيَاتِهِنَّ وَ لَمَّا أَبْنَائِهِنَّ وَ لَمَّا إِخْوَانِهِنَّ وَ لَمَّا أَبْنَاءُ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَمَّا أَبْنَاءُ أَخَوَاتِهِنَّ وَ لَمَّا نِسَائِهِنَّ وَ لَمَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ».

وبتعبير آخر: فإن محارمهن الذين استثنوا في الآية هم هؤلاء الستة فقط.

ويتغير أسلوب الآية في نهايتها من الغائب إلى المخاطب، فتخاطب نساء النبي صلى الله عليه وآله وتقول: «وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً». فإن الحجاب والستر وأمثالهما وسائل للحفاظ والإبعاد عن الذنب والمعصية ليس إلّا، والدعامة الأساسية هي التقوى فحسب، ولولاها فسوف لا تنفع كل هذه الوسائل.

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَ إِثْمًا مُبِينًا (٥٨) الصلاة على النبي والسلام عليه: بعد البحوث التي مرّت في الآيات السابقة حول وجوب حفظ حرمة النبي صلى الله عليه وآله وعدم إيذائه، فإن هذه الآيات تتحدث أولاً عن محبة الله وملائكته للنبي صلى الله عليه وآله وتعظيمهم له، وبعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك، ثم تذكر العواقب المشؤومة الأليمة لأولئك الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وآله ثم تبين أخيراً عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتهامهم والإفراء عليهم. تقول أولاً: «إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ».

إنّ مقام النبي صلى الله عليه وآله ومنزلته من العظمة بمكان، بحيث إنّ خالق عالم الوجود، وكل الملائكة الموكّلين بتدبير أمر هذا العالم بأمر الله سبحانه يصلّون عليه، وإذا كان الأمر كذلك فضمّوا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا، ف «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

إنّه جوهرة نفيسة لعالم الخلق، وقد جعل بينكم بلطف الله، فلا تستصغروا قدره، ولا تنسوا مقامه ومنزلته عند الله وملائكة السموات ... «الصلاة»: وجمعها «صلوات»، كلّما نسبت إلى الله سبحانه فإنّها تعني «إرسال الرحمة»، وكلّما نسبت إلى الملائكة فإنّها تعني «طلب

الرحمة».

إنّ التعبير بـ «يصلون» وهو فعل مضارع يدل على الاستمرار، يعنى أنّ الله وملائكته يصلون عليه دائماً وباستمرار صلاة دائماً خالدة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٨

إنّ «صلوا» أمر بطلب الرحمة والصلاة على النبي، أما «سلموا» فتعنى التسليم لأوامر نبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أو أن يكون بمعنى «السلام» على النبي صلى الله عليه وآله بـ (السلام عليك يا رسول الله) وما أشبه ذلك، والذي يعنى طلب سلامة النبي من الله سبحانه.

مما يلفت النظر أنّه قد ورد صريحاً في كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وفي روايات لا تحصى من طرق العامة وأهل البيت، أن يضاف (آل محمّد) عند الصلوات على محمّد صلى الله عليه وآله، وكيفية الصلاة هي: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ. ثم تبيّن الآية التالية النقطة المقابلة للآية السابقة، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا».

والمراد من أذى الله سبحانه هو الكفر والإلحاد الذي يُغضب الله عزّ وجل.

وأما ايداء نبي الخاتم صلى الله عليه وآله فله معنى واسع، ويشمل كل عمل يؤذيه.

بل ويستفاد من الرواية الواردة في ذيل الآية أن ايداء أهل بيت النبي وخاصة على وفاطمة عليهما السلام، يدخل ضمن الآية، وقد جاء في المجلد الرابع من صحيح البخارى، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبني».

وورد هذا الحديث في المجلد السابع من صحيح مسلم بهذه العبارة: «إنما فاطمة بضعة منى يؤذيني ما آذاها».

وروى هذا المعنى في حق على عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «١».

وتتحدث الآية الأخيرة عن ايداء المؤمنين، وتهتمّ به جداً بعد ايداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله فتقول: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا». لأنّ للمؤمن علاقة بالله ورسوله عن طريق الإيمان، ولهذا جعل في مرتبة الله ورسوله هنا.

وتعبير «بغير ما اكتسبوا» إشارة إلى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا ذنباً حتى يؤذوا.

وفي عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتى يخرج مما قاله فيه».

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٧٩

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً (٦٠) ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً (٦١) سنه الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً (٦٢)

سبب النزول

في تفسير على بن إبراهيم في سبب نزول الآية الاولى: فإنه كان سبب نزولها أن النساء كن يخرجن إلى المسجد ويصلين خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وإذا كان بالليل خرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة والغداة، يقعدن الشبان لهن في طريقهن فيؤذونهن ويتعرّضون لهنّ فأنزل الله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

## التفسير

تحذير شديد للمؤذنين ومختلقى الإشاعات: بعد النهي عن ايداء رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين الذي ورد في الآية السابقة، أكدّت الآية هنا على أحد موارد الأذى، ومن أجل الوقوف أمامه سلكت طريقين، فتقول الآية في الجزء الأول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِحْكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ».

إنّ الهدف هو أن لا تتساهل المسلمات في أمر الحجاب كعوض النساء المتحللات والمتبرجات المسلوبات الحياء رغم التظاهر بالحجاب، هذا التبرج يغرى السفلة والأراذل ويلفت إنتباههم.

ولما كان نزول هذا الحكم قد أقلق بعض المؤمنات مما كان منهن قبل ذلك، فقد أضافت الآية في نهايتها: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا». فكل ما بدر منكنّ إلى الآن كان نتيجة الجهل فإنّ الله سيغفره لكن فتن إلى الله وارجعن إليه، ونفذن واجب العفة والحجاب جيداً. مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٠

بعد الأمر الذي صدر في الآية السابقة للمؤمنات، تناولت هذه الآية بعداً آخر لهذه المسألة، أي أساليب الأراذل والأوباش في مجال الإيذاء، فقالت: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا». «المرجفون»: من مادة «إرجاف»، وهي إشاعة الأباطيل بقصد ايداء الآخرين وإحزانهم؛ و «نغريئك» من مادة «الإغراء»، ويعنى الدعوة إلى تنفيذ عمل، أو تعلّم شيء، دعوة تفتن بالترغيب والتحريض.

ويستفاد من سياق الآية أنّ ثلاث فئات في المدينة كانت مشتغلة بأعمال التخريب والهدم، وكل منها كان يحقّق أهدافه بأسلوب خاصّ، فظهر ذلك كتيار ومخطّط جماعي، ولم تكن له صبغة فردية:

فالفئة الاولى: هم «المنافقون» الذين كانوا يسعون لإقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامرتهم ضده.

و الثانية: هم «الأراذل» الذين يعبر عنه القرآن: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ».

والفئة الثالثة: هم الذين كانوا يبثون الإشاعات في المدينة، وخاصةً عندما كان النبي صلى الله عليه وآله وجيش المسلمين يتجهون إلى الغزوات، لإضعاف معنوياتهم.

وعندما يطردون من هذه المدينة، ويخرجون عن حماية الحكومة الإسلامية، فإنهم سيكونون «مُلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا». «تقفوا»: من مادة «ثقف» و «ثقافة»، وهي: السيطرة على الشيء بدقّة ومهارة، وهذا التعبير إشارة إلى أنّهم سوف لا يجدون مكاناً آمناً بعد هذا الهجوم، بل سيبحث عنهم المؤمنون بدقّة حتى يجدوهم ويرسلوهم إلى ديار الفناء.

ثم تضيف الآية الأخيرة من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديداً، بل: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَمُوا مِنْ قَبْلُ» فكلما زادت صلافة المفسدين وتجاوزت مؤامراتهم الحدود، يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

ولما كان هذا الحكم سنّة إلهية، فإنّه سوف لا يتغير ولا يتبدل أبداً، حيث إنّ سنّة الله ثابتة «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا».

إنّ هذا التعبير يجسد كون هذا التهديد حقيقياً وجدياً، ليعلموا أنّ هذا المطلب والمصير

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨١

حتمي، وله جذوره ونظائره في التاريخ، ولا سبيل إلى تغييره وتبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزية، أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

إنّ هذا الحكم كسائر الأحكام الإسلامية لا يختص بزمان أو مكان أو أشخاص.

إذا كان نفث السموم والتآمر قد تجاوز الحد على أرض الواقع، وأصبح كتيار جارف يهدّد المجتمع الإسلامي بأخطار حقيقية، فما المانع من أن تنفّذ الحكومة الإسلامية أوامر الآيات أعلاه، والتي انزلت على النبي صلى الله عليه وآله ومنحته هذه الصلاحية، وتعيء الناس للقضاء على جذور الفساد.

والمراد من السنّة فى مثل هذه الموارد: القوانين الإلهية الثابتة والأساسية، سواء التكوينية منها أم التشريعية، التى لا تتغير مطلقاً. يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يسألون أتيان يوم القيامة: كانت الآيات السابقة تتحدث عن مؤامرات المنافقين والأشرار، وقد اشير فى هذه الآيات التى نبعتها إلى واحدة اخرى من خططهم الهدامة، وأعمالهم المخزبة، حيث كانوا يطرحون أحياناً هذا السؤال: متى تقوم القيامة التى يخبر بها محمّد ويذكر لها كل هذه الصفات؟ وذلك إما استهزاء، أو لزرع الشك فيها فى قلوب البسطاء، فتقول الآية: «يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ».

ثم تقول الآية- مورد البحث- فى مقام جوابهم: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ» ولا يعلمها حتى المرسلون والملائكة المقربون. ثم تضيف بعد ذلك: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا».

ثم تطرقت الآية إلى تهديد الكافرين، وتناولت جانباً من عقابهم الأليم، فقالت: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا\* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٢

الفرق بين «الولى» و «النصير» هنا هو: أن «الولى» من يتولّى القيام بكل الأعمال وتنفيذها، أما «النصير» فهو الذى يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب، إلّا أنّ هؤلاء الكافرين لا ولى لهم فى القيامة ولا نصير. ثم بينت جزءاً آخر من عقابهم الأليم فى القيامة فقالت: «يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ». وهذا التقلب إما أن يكون فى لون البشرة والوجه حيث تصبح حمراء أو سوداء أحياناً، أو من جهة تقلبهم فى النار ولهيبتها حيث تكون وجوههم فى مواجهة النار أحياناً، وأحياناً جوانب اخرى (نعوذ بالله من ذلك).

هنا سنتطلق صرخات حسرتهم، و «يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ». فإننا لو كنّا أطعناهما لم يكن ينتظرنا مثل هذا المصير الأسود الأليم.

«وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا».

«السادة»: جمع «سيد»، وهو المالك العظيم الذى يتولّى إدارة المدن المهمة أو الدول؛ و «الكبراء» جمع «كبير» وهو الفرد الكبير سواء من ناحية السن، أو العلم، أو المركز الاجتماعى وأمثال ذلك. وبهذا فإنّ السادة إشارة إلى رؤساء البلاد العظام، والكبراء هم الذين يتولون إدارة الامور تحت إشراف اولئك السادة، ويعتبرون معاونين ومشاورين لهم، وكانهم يقولون: إننا قد جعلنا طاعة السادة محل طاعة الله، وطاعة الكبراء مكان طاعة الأنبياء، فابتلينا بأنواع الإنحرافات والتعاسة والشقاء.

هنا تنور نائرة هؤلاء الجهنميين الضالين، ويطلبون من الله سبحانه أن يزيد فى عذاب مضليهم وعقابهم أشدّ عقاب فيقولون: «رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا»- عذاب لضلالهم وعذاب لإضلالهم-.

من المسلم أنّ هؤلاء يستحقون العذاب واللعن، واستحقاقهم للعذاب المضاعف واللعن الكبير بسبب سعيهم فى سبيل إضلال الآخرين، ودفعهم إلى طريق الإنحراف. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُضِلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٣

بماذا رموا موسى عليه السلام وأتهموه: بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة حول وجوب إحترام مقام النبى صلى الله عليه وآله، وترك كل ما يؤذيه والإبتعاد عنه، فقد وجهت هذه الآيات الخطاب للمؤمنين، وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا».

إن اختيار موسى عليه السلام من جميع الأنبياء الذين طالما اودوا، بسبب أن المؤذنين من بنى إسرائيل قد آذوه أكثر من أى نبي آخر. والمراد من ايداء موسى عليه السلام هو بيان حكم كلى عام جامع، لأن بنى إسرائيل قد آذوا موسى عليه السلام من جوانب متعددة ... ذلك الأذى الذى لم يكن يختلف عن أذى بعض أهل المدينة (لنبينا صلى الله عليه و آله) كإشاعة بعض الأكاذيب وإتهام زوج النبى بتهم باطله، وقد مرّ تفصيلها فى تفسير سورة النور، ذيل الآيات (١١-٢٠).

ويستفاد من هذه الآية أن من كان عند الله وجيهاً وذا منزلة، فإن الله سبحانه يدافع عنه فى مقابل من يؤذيه ويتهمه بالأبطل. قولوا الحق لتصلح أعمالكم: بعد البحوث السابقة حول ناشرى الإشاعات والذين يؤذون النبى، تصدر الآية التالية أمراً هو فى الحقيقة علاج لهذا المرض الإجتماعى الخطير، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

«القول السديد»: يعنى القول الذى يقف كالسد المنيع أمام أمواج الفساد والباطل. ثم تبين الآية التالية نتيجة القول السديد، فتقول: «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ». إن التقوى فى الواقع هى دعامة إصلاح اللسان وأساسه، ومنع قول الحق، والقول الحق أحد العوامل المؤثرة فى إصلاح الأعمال، وإصلاح الأعمال سبب مغفرة الذنوب، وذلك ل «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» (١).

ثم تضيف الآية فى النهاية: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا». وأى فوز وظفر أسمى من أن تكون أعمال الإنسان صالحه، وذنوبه مغفورة، وهو عند الله من المبيضة وجوههم الذين رضى الله عنهم.

(١) سورة هود/ ١١٤.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٤

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣) حمل الأمانة الإلهية أعظم افتخارات البشر: تكمل هاتان الآيتان- اللتان هما آخر آيات سورة الأحزاب- المسائل المهمة التى وردت فى هذه السورة فى مجالات الإيمان، والعمل الصالح، والجهاد، والإيثار، والعفة والأدب والأخلاق، وتبين كيف أن الإنسان يحتل موقعاً سامياً جداً بحيث يستطيع أن يكون حامل رسالة الله العظيمة.

تبين الآية أولاً أعظم إمتيازات الإنسان وأهمها فى كل عالم الخلقه، فتقول: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا».

مما لا شك فيه أن إباءها تحمل المسؤولية وامتناعها عن ذلك لم يكن استكباراً منها، بل إن إباءها كان مقترناً بالإشفاق، أى الخوف الممتزج بالتوجه والخضوع.

إلّا أن الإنسان، اعجوبة عالم الخلقه، قد تقدم: «وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

إن الأمانة الإلهية هى قابلية التكامل غير المحدودة والمتمترجة بالإرادة والإختيار، والوصول إلى مقام الإنسان الكامل، وعبودية الله الخاصة وتقبل ولاية الله.

والمراد من عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال هو المقارنة، أى أنها عندما قارنت حجم هذه الأمانة مع ما لديها من القابليات والإستعدادات أعلنت عدم لياقتها وإستعدادها عن تحمّل هذه الأمانة العظيمة.

وبهذا فإن السماوات والأرض والجبال قد صرخت جميعاً بأننا لا طاقة لنا بحمل هذه الأمانة.

ولأن الإنسان كان قد خلق بشكل يستطيع معه تحمّل المسؤولية والقيام بها، وأن يتقبل ولاية الله، ويسير فى طريق العبودية والكمال

ويتجه نحو المعبود الدائم، وأن يطوى هذا الطريق بقدمه وإرادته، وبالاستعانة بربه.

وهذا لم يكن قبول اتفاق وعقد، بل كان قبولاً تكوينياً حسب عالم الإستعداد.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٥

أما وصف الإنسان بهاتين الصفتين - ظلوماً، جهولاً - بسبب نسيان غالب البشر وظلمهم أنفسهم، وعدم العلم بقدر الإنسان ومنزلته ... وبسبب الفعل الذى بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قبل قابيل وأتباعه، ولا يزال إلى اليوم.

وتبين الآية التالية عله عرض هذه الأمانة على الإنسان، وبيان حقيقة أن أفراد البشر قد انقسموا بعد حمل هذه الأمانة إلى ثلاث فئات: المنافقين والمشركين والمؤمنين، فتقول:

«لَيَعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

«نهاية تفسير سورة الأحزاب»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٧

### ٣٤. سورة سبأ

محتوى السورة: إن محتوى هذه السورة يندرج فى خمسة مواضيع:

١- التوحيد وبعض الآثار الدالة عليه فى عالم الوجود، وبعض صفات الله المقدسة كالوحدانية، والربوبية، والالوهية.

٢- قضية المعاد التى نالت النصيب الأوفى من العرض فى هذه السورة.

٣- نبوة الأنبياء السابقين وبالأخص رسول الخاتم صلى الله عليه و آله والرد على تخزصات أعدائه حوله، وذكر جانب من معجزات من سبقه من الأنبياء.

٤- التعرض لذكر بعض النعم الإلهية العظيمة، ومصير الشاكرين والجاحدين من خلال استعراض جانب من حياة النبي سليمان عليه السلام وحياة قوم سبأ.

٥- الدعوة إلى التفكير والتأمل والإيمان والعمل الصالح، وبيان تأثير هذه العوامل فى سعادة وموقية البشر.

سميت السورة بهذا الاسم (سبأ) لذكرها قصة قوم سبأ.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة سبأ لم يبق نبي ولا رسول إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الحمدتين جميعاً، سبأ وفاطر، فى ليلة لم يزل

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٨

ليلته فى حفظ الله تعالى وكلائه، فإن قرأهما فى نهاره لم يصبه فى نهاره مكروه، واعطى من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ مناه».

وهذا الثواب العظيم لا يكون نصيب من يكتفى من قراءته بلقلقة اللسان وحسب، بل يجب أن تكون القراءة مقدمة للتفكير الذى يكون بدوره باعثاً على العمل الصالح.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) هو المالك لكل شىء والعالم بكل شىء: خمس سور من القرآن الكريم افتتحت «بحمد الله»، وإرتبط (الحمد) فى ثلاثه منها بخلق السموات والأرض وهى (سبأ وفاطر والأنعام) بينما كان مقترناً فى سورة الكهف بنزول القرآن على قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وجاء فى سورة الفاتحة تعبيراً جامعاً شاملاً لكل هذه

الإعتبرات: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

إن الحمد والشكر لله تعالى في مطلع سورة سبأ هو في قبال مالكيته وحاكميته تعالى في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ».

لذا فإن الحاكمية والمالكية في الدنيا والآخرة له سبحانه، وكل موهبة، وكل نعمة، ومنفعه وبركه، وكل خلقه سويته عجيبة مذهلة، تتعلق به تعالى، ولذا فإن كل مدح وثناء يصدر من أحد على شيء في هذا العالم، فإن مرجعه في النهاية إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم يضيف تعالى قائلاً: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ».

فقد اقتضت حكمته البالغة أن يُخضع الكون لهذا النظام العجيب، وأن يستقر - بعلمه وإحاطته - كل شيء في محله من الكون، فيجد كل مخلوق - كل ما يحتاج إليه - في متناوله.

إن هذا الحمد والثناء لا - ينطلق من ألسنة الناس والملائكة فقط، بل تُسمع همهمة الحمد والتسبيح من كل ذرة في عالم الوجود بإدراك العقل، فليس من موجود إلا ويحمده ويسبحه تعالى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٨٩

تنتقل الآية التي بعدها إلى التوسع في إظهار جانب من علم الله اللامحدود، تناسباً مع وصف الآية السابقة له تعالى بالحكيم والخبير، فيقول سبحانه: «يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا».

نعم، فقد أحاط علماً بكل حبة مطر وقطرة ماء تنفذ وتلج في أعماق الأرض حتى إذا وصلت طبقة صلده تجمعت هناك وصارت ذخيرة للإنسان.

ويعلم بالبدور التي تنتقل على سطح الأرض لتنب في مكان ما وتصبح شجرة باسقة أو عشباً طرياً.

يعلم بجذور الأشجار عند توغلها في أعماق التربة بحثاً عن الماء والغذاء.

يعلم بالموجات الكهربائية والغازات المختلفة، بذرات الهواء التي تنفذ في الأرض.

وكذلك، يعلم بالكنوز والدفائن وأجساد الموتى من الإنسان وغيره ... نعم إنه مطلع على كل هذا.

وكذلك فهو عارف وعالم بالنباتات التي تخرج من الأرض، والناس الذين يبعثون منها، بالعيون التي تفور بالماء منها، بالغازات التي تتصاعد منها، بالبراكين التي تلوح بجحيمها.

والخلاصة، فهو عالم بكل الموجودات التي تلج الأرض وتخرج منها أعم مما نعلمه أو ما لا نعلمه.

ثم يضيف قائلاً: «وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا».

فهو يعلم بحبات المطر، وبأشعة الشمس التي تنثر الحياة، بأموج الوحي والشرائع السماوية العظيمة، وبالملائكة التي تهبط إلى الأرض لإبلاغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهية المختلفة، بالأشعة الكونية التي تدخل جو الأرض من الفضاء الخارجي، بالشهب والذرات المضطربة في الفضاء والتي تهوى نحو الأرض، فهو تعالى محيط بهذا كله.

وكذلك فإنه يعلم بأعمال العباد التي تعرج إلى السماء، والملائكة التي تقفل صاعدة إلى السماء بعد أداء تكاليفها، وبالشياطين الذين يرتقون إلى السماء لاستراق السمع، وبالأبخرة التي تتصاعد من البحار إلى أعالي السماء لتتكاثف مكونة سحباً، وبالآهات التي تنطلق

من قلب المظلوم متصاعدة إلى السماء ... نعم هو عالم بكل ذلك.

وفي ختام الآية يضيف تعالى: «وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٠

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصِيْرٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبْرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا

في آياتنا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (٥) أقسم بالله لتأتينكم القيامة: تتعرض الآيات مورد البحث إلى موضع التوحيد وصفات الله في نفس الوقت الذي تهىء أرضية لموضوع المعاد، لأنّ مشكلات (بحث المعاد) لا- يمكن حلّها إلّا عن طريق العلم اللامتناهي للبارى عزّ وجل، كما سنرى. لذا فإنّ الآيات مورد البحث تبدأ أوّلًا بقوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَتَأْتِينَا السَّاعَةُ».

ويريدون بذلك الفكاك والتحرّر من قيود هذه الإعتقادات؛ الحساب والكتاب والعدل والجزاء، ليرتكبوا ما يحلوا لهم من الأعمال. ولكن القرآن بناءً على وضوح أدلة القيامة يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بصورة حاسمة وفي معرض بيان النتيجة، فيقول: «قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأَتَأْتِيَنَّكُمْ».

والتركيز على كلمة «رب» لأنّ القيامة في الأصل من شؤون الربوبية، فكيف يمكن أن يكون الله مالكاً ومربياً للبشر يقودهم في سيرهم التكاملي، ثم يتخلّى عنهم في منتصف الطريق لينتهي بالموت كل شيء.

وبما أنّ أحد إشكالات الكافرين بالمعاد، هو شكهم- من جانب- في إمكانية جمع وإعادة بناء أعضاء الإنسان الميت بعد تبعثرها وتفسيخها في التراب، وكذلك- من جانب آخر- في إمكانية وجود من يمكنه النظر في جميع أعمال العباد التي عملوها في السر والعلن والظاهر والباطن، لذا فإنّ الله تعالى يضيف في تنمة الآية الكريمة: «عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

والمقصود من «الكتاب المبين» هو «لوح العلم الإلهي اللامتناهي» ضبط وقيد كل شيء، بدون أن يجد التغيير والتبديل طريقه إليه.

ثم يوضّح تعالى الهدف من قيام القيامة في آيتين، أو بتعبير آخر: إعطاء الدليل على لزوم

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩١

مثل ذلك العالم بعد عالمنا الحالي لمنكرى القيامة، فيقول تعالى: «لِيُجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

فإن لم يُجاز المؤمنين بصالح عملهم ثواباً، أفلا يعنى ذلك تعطيل أصل العدالة الذي هو أهم أصل من اصول الخلقة؟

«الرزق الكريم» يشمل كل رزق ذي قيمة، ومفهوم ذلك واسع.

وبتعبير آخر: فإنّ «الجنة» بكل نعمها المعنوية والمادية جمعت في هذه الكلمة.

ثم تضيف الآية التالية، موضّحة نوعاً آخر من العدالة فيما يخص عقاب المذنبين والمجرمين، فيقول تعالى: إنّ الذين كذبوا آياتنا وسعوا في إنكارها وإبطالها وتصوروا أنّهم يستطيعون الخلاص من دائرة قدرتنا... «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ».

«الرجز»: في الأصل بمعنى الإضطراب وعدم القدرة على حفظ التوازن، ثم اطلقت الكلمة على كل ذنب ورجس. فالمقصود من (الرجز) هنا، أسوأ أنواع العذاب- الذي يتأكد بإرداف كلمة «الآليم» أيضاً.

«سعو»: من «السعي»، بمعنى كل جهد وجدّ في أمر، والمقصود منها هنا، الجدّ والجهد في تكذيب وإنكار آيات الحق وصدّ الناس عن طريق الله سبحانه وتعالى.

«معاجزين»: من «المعاجزة»، بمعنى معجزين، أى مثبطين، أنّ هذا الوصف يستخدم للمجرمين لتوهمهم بأنّه يستطيع القيام بأثره جناية يشاء، ثم يستطيع الفرار من سلطة القدرة الإلهية.

وَيَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسِقُطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)



مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٢

العلماء يرون دعوتك إنها حق: كان الحديث في الآيات السابقة عن عمى البصائر، المغفلين الذين أنكروا المعاد، والآيات مورد البحث، تتحدث عن العلماء والمفكرين الذين صدقوا بآيات الله وسعوا سعيهم لتشجيع الآخرين على التصديق بها. يقول تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». إن عبارة «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»، يشمل كل العلماء والمفكرين في كل عصر وزمان ومكان. واليوم، فإن هناك كتباً متنوعة كتبها مفكرون غربيون وشرقيون حول الإسلام والقرآن، تحوى إقرارات ظاهرة على عظمة الإسلام وصدق الآية مورد البحث.

ويعود تعالى إلى مسألة القيامة والبعث في الآية التي بعدها، ويكمل البحوث السابقة بطريقة أخرى، فيقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِذَا مُمِزْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ». يبدو أن إصرار- هؤلاء الكفار- على إنكار مسألة المعاد يعتمد على أمرين: الأول: توهمهم أن المعاد الذي تحدث عنه رسول الأكرم صلى الله عليه وآله وهو «المعاد الجسماني»، أمر يسهل الإشكال عليه والطعن فيه.

الثاني: أن الاعتقاد بالمعاد، أو حتى القبول باحتماله- على كل حال- إنما يفرض على الإنسان مسؤوليات وتعهيدات، وهذا ما اعتبره رؤوس الكفر خطراً حقيقياً. والعجيب أنهم: «أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ».

ولكن القرآن يرد عليهم بشكل حاسم قائلاً: «بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ». والحقيقة أن الحياة لو حُددت بهذه الأيام القليلة من عمر الدنيا لكان تصور الموت بالنسبة لكل إنسان كابوساً مرعباً، لهذا السبب نرى أن منكرى المعاد في قلق دائم منغص وعذاب أليم، بينما المؤمنون بالمعاد يعتبرون الموت قنطرة إلى عالم البقاء. ثم ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد، مقترن بتهديد الغافلين المعاندين، فيقول تعالى: «أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

فإن هذه السماء بكواكبها الثابتة والسيارة، وكذلك الأرض بكل مدهشاتها وأنواع موجوداتها الحية، وبركانها ومواهبها، لأوضح دليل على قدرة الخلاق العظيم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٣

وهذا هو «برهان القدرة» الذي استدلل به القرآن الكريم في آيات أخرى في مواجهته منكرى المعاد، ومن جملة هذه الآيات، الآية (٨٢) من سورة يس، والآية (٩٩) من سورة الإسراء، والآيتين (٦ و ٧) من سورة ق.

ونشير إلى أن هذه الجملة كانت مقدمة لتهديد تلك الفئة المتعصبة من ذوى القلوب السوداء، الذين يصرون على عدم رؤية كل هذه الحقائق، لذا يضيف تعالى قائلاً: «إِن نَّشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ». فأنمر الأرض فتنشق بزلزلة مهولة وتبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر وتدمر بيوتهم وتهلكهم «أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَافًا مِّنَ السَّمَاءِ». أجل، إن في هذا الأمر دلائل واضحة على قدرة الله تعالى على كل شيء، ولكن يختص بإدراك ذلك كل إنسان يتدبر في مصيره ويسعى في الإنابة إلى الله: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ».

ونحن المحكومون بقدرته في كل طرفه عين إنكار قدرته على البعث بعد الموت، أو كيف نستطيع الفرار من سلطة حكومته. وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبِيَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) المواهب الإلهية العظيمة لداود: بناء على ما مر ذكره في آخر المجموعة السابقة من الآيات وما قلناه حول «العبد

المنيب» والثواب، ولعلمنا بأن هذا الوصف قد ذكر للنبي داود عليه السلام (في الآية ٢٤ من سورة ص) - كما سيرد شرحه بإذن الله - فالأفضل من أن نتعرض لجانب من حياة هذا النبي عليه السلام كمثال للإجابة والتوبة وإكمال البحث السابق، وهي أيضاً تنبيه لكل من يغمط نعم الله ويتناساها، ويتخلى عن عبوديته لله عند جلوسه على مسند القدرة والسلطة. في الآية الاولى يقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا».

فبعد هذه الإشارة الإجمالية العامة، تبدأ الآية بشرح وتوضيح جوانب من الفضائل المعنوية والمادية التي تمتع بها داود، فيقول تعالى: «يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ».

«أوبى»: في الأصل من «التأويب» بمعنى الترجيع وإعادة الصوت في الحلق، وهذا الأصل يستعمل أيضاً بمعنى «التوبة» لأن حقيقة الرجوع إلى الله.

وفي كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن الصادق عليه السلام أنه قال في حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام: «إنه خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلا جاوبته».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٤

وبعد ذكر هذه الفضيلة المعنوية، تذكر الآية فضيلة مادية اخرى فتقول: «وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ». إن ظاهر الآية يدل على أن ليوئه الحديد تمت لداود بأمر إلهي.

وروي - في تفسير مجمع البيان - عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن الله أوحى إلى داود عليه السلام:

نعم العبد أنت إلا أنك تأكل من بيت المال! فبكى داود أربعين صباحاً، فلأن الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعاً فبيعه بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستين درعاً فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً فاستغنى عن بيت المال».

الآية التي بعدها تتعرض لشرح صناعة داود للدروع والأمر الإلهي العميق المعنى بهذا الخصوص. يقول تعالى: «أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ».

«سابغات»: جمع «سابغ» وهو الدرع التام الواسع؛ و «سرد»: في الأصل بمعنى حياكته ما يخشن ويغلظ كسج الدرع وخرز الجلد، واستعير لنظم الحديد، وجمله «وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ» معناها مراعاة المقاييس المتناسبة في حلقات الدرع وطريقة نسجها، وفي الواقع فإن الله تعالى قد أمر داود بأن يكون مثالاً يحتذى لكل الحرفيين والعمّال المؤمنين في العالم، بمراعاته للإتقان والدقة في العمل من حيث الكم والكيف في المصنوعات، ليستطيع بالتالي مستهلكوها استعمالها براحة وبشكل جيد، والإفادة من متانتها.

ثم تختم الآية بخطاب لداود وأهل بيته: «وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فالهدف ليس صناعة الدروع وتحقيق الربح، بل إن ذلك كله وسيلة في المسير باتجاه العمل الصالح، وليستفيد أيضاً داود وأهل بيته. وَلَيْسَ لِيَمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُأْذِنُ رَبِّهِ وَمَن يَرِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ (١٣) فَلَمَّا فَضَّيْنَا عَلَيْهِ الْمِوتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٥

هيبه سليمان وموته العبرة: بعد الحديث عن المواهب التي أعقد الله بها على داود عليه السلام تنتقل الآيات إلى الحديث عن ابنه سليمان عليه السلام، فهذه الآيات تشير إلى ثلاث مواهب عظيمة خص بها ابنه سليمان عليه السلام. يقول تعالى: «وَلَيْسَ لِيَمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ».

الملفت هنا أن الله تبارك وتعالى حينما سخر للأب جسماً خشناً وصلباً جداً وهو الحديد، نرى أنه قد سخر للإنسان موجوداً لطيفاً للغاية،

ولكنّ العملين كانا نافعين وإعجازيين.

أما كيف تحمل الريح مقعد سليمان، (سواء أكانت كرسياً أم بساطاً)؟ فليس بواضح لنا، والقدر المتيقن هو أن لا شيء يمثل مشكلة أو عقبة أمام قدرة الله.

بعدئذ تنتقل الآية إلى الموهبة الثانية التي خصّ الله بها سليمان عليه السلام، فتقول الآية الكريمة: «وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ».

«أسلنا»: من مادة «سيلان» بمعنى الجريان؛ و «القطر» بمعنى النحاس، والمقصود أننا أذبنا له هذا الفلز وجعلناه كعين الماء.

والأمر ليس واضحاً لدينا وما نعلمه هو أن ذلك أيضاً كان من الألفاظ الإلهية على هذا النبي العظيم.

أخيراً تنتقل الآية إلى بيان الموهبة الإلهية الثالثة لسليمان عليه السلام وهي تسخير مجموعة كبيرة من الجن لخدمته فتقول الآية: «وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ».

الآية التالية، تشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجية الهامة، التي كان يقوم بها فريق الجن بأمر سليمان. يقول تعالى: «يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ».

فكل ما أراه سليمان من معابد وتمائيل وأواني كبيرة للغذاء والتي كانت كالأحواض الكبيرة، وقدرور واسعة ثابتة، كانت تهيأ له، فبعضها يرتبط بالمسائل المعنوية والعبادية، وبعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانية، وكانت متناسبة مع أعداد جيشه وعماله الهائلة.

«محارِب»: جمع محراب، ويعني «مكان العبادة» أو «القصور والمباني الكبيرة» التي بنيت كمعابد.

فإن هؤلاء العمال النشطين المهرة، قاموا ببناء المعابد الضخمة والجميلة في ظلّ حكومته الإلهية والعقائدية، حتى يستطيع الناس أداء وظائفهم العبادية بسهولة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٦

«تمائيل»: جمع تمثال، بمعنى الرسم والصورة والمجسمة؛ «جفان»: جمع «جفنة» بمعنى إناء الطعام؛ «جوابي»: جمع «جايبة» بمعنى حوض الماء.

وهنا يستفاد أن المقصود من التعبير الوارد في الآية الكريمة، أن هؤلاء العمال قد صنعوا لسليمان عليه السلام أواني للطعام كبيرة جداً، بحيث إن كلّاً منها كان كالحوض، لكي يستطيع عدد كبير من الأفراد الجلوس حوله وتناول الطعام منه.

«قدور»: جمع «قدر» على وزن «قشر». بنفس معناه الحالي، أي الإناء الذي يطبخ فيه الطعام؛ و «راسيات»: جمع «راسية» بمعنى ثابتة، والمقصود أن القدور كانت من العظمة بحيث لا يمكن تحريكها من مكانها.

وتعرج الآية في الختام وبعد ذكر هذه المواهب الإلهية، إلى آل داود فتخاطبهم: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ».

والمقصود من (الشكر) هو (الشكر العملي)، أي الاستفادة من تلك المواهب في طريق الأهداف التي خلقت لأجلها، والمسلم به أن الذين يستفيدون من المواهب الإلهية في طريق الأهداف التي خلقت لأجلها هم النادرة النادرة.

آخر آية من هذه الآيات، وهي آخر حديث عن النبي سليمان عليه السلام، يخبرنا الله سبحانه وتعالى فيها بطريقة موت ذلك النبي العجيبة والداعية للإعتبار. يقول تعالى: «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ» (١).

وتضيف الآية بعد ذلك: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ». «تبيئت»: من مادة «بين» بمعنى «العلم والإطلاع». يعني أن الجن لم يعلموا بموت سليمان إلى ذلك الوقت، ثم علموا وفهموا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب لما بقوا حتى ذلك الحين في تعب وآلام الأعمال الشاقة التي كلّفوا بها.

لَقَدْ كَانَ لِسَيِّدٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِنِ أَكْمَلِ خَمْطٍ وَأَنْثَلِ وَشَىءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ

## نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ (١٧)

(١) «منسأته»: من مادة «نساء» وهو التأخير في الوقت؛ والمنسأة: عصا يُنْسَأُ بها الشيء، أى يؤخر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٧

المدينة الراقية التي أضعها الكفران: بعد أن تطرقت الآيات السابقة إلى توضيح النعم الإلهية العظيمة التي أولاها الله داود وسليمان عليهما السلام، وأداء هذين النبيين العظيمين وظيفتهما بالشكر، تنتقل الآيات أعلاه إلى الحديث عن قوم آخرين يمثلون الموقف المقابل للموقف السابق.. قوم شملهم الله بأنواع النعم، ولكنهم سلكوا طريق الكفران. يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ». والمشهور أن «سبأ» اسم «أبي العرب» في اليمن.

ومن الممكن أن يكون «سبأ» اسم شخص ابتداءً، ثم بعدئذ سمي كل أولاده وقومه من بعده باسمه، ثم انتقل الاسم ليشمل مكان سكانهم.

تنتقل الآية بعد ذلك لتجلى الموقف عن تلك الموهبة الإلهية التي وضعت بين يدي قوم سبأ. فيقول تعالى: «جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ». ما حصل هو أن قوم سبأ استطاعوا- ببناء سدّ عظيم بين الجبال الرئيسية في منطقتهم- حصر مياه السيول المدمرة أو الضائعة هدرًا على الأقل، والإفادة منها... وبإحداث منافذ في ذلك السدّ سيطروا تمامًا على ذلك الخزان المائي الهائل، وبالتحكّم فيه تمكّنوا من زراعة مساحات شاسعة من الأرض.

ثم يضيف القرآن: «كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ».

فبلحاظ النعم المادية هواء نقي، ونسيم يبعث على السرور، أرض معطاءة وأشجار وافرة الثمر، وبلحاظ النعم المعنوية فمغفرة الله التي شملتهم، والتغاضي عن تقصيرهم، وصرف البلاء والعذاب عنهم وعن بلدتهم.

ولكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين، لم يخرجوا من بوتقة الامتحان بسلام.

قال تعالى: «فَأَعْرَضُوا» استهانوا بنعمة الله، توهموا بأن العمران والمدنية والأمن أشياء عادية، نسوا الله، وأسكرتهم النعمة.

وهنا مسهم سوط الجزاء، يقول تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعُرمِ». فدمّر بيوتهم ومزارعهم وحولها إلى خرائب..

«العرم»: من «العرامة» وهي شراسه وصعوبة في الخلق تظهر بالفعل، ووصف «السيّل» بالعرم إشارة إلى شدته وقابليته على التدمير.

بعدئذ يصف القرآن الكريم عاقبة هذه الأرض كما يلي: «وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٨

ذَوَاتِنِ أَكْبَلِ خَمِيْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيْلٍ». «اكل»: بمعنى الطعام؛ و«خمط»: بمعنى النبات المرّ وهو «الأراك»؛ و«أثل»: شجر معروف.

وبذا يكون قد نبت محل تلك الأشجار الخضراء المثمرة، أشجار صحراوية غليظة ليست ذات قيمة.

يقول تعالى في الآية التالية بصراحة وكتلخيص واستنتاج لهذه القصة: «ذَلِكَ جَزَاؤُنَا لَهُمْ بِمَا كَفَرُوا».

ويجب أن لا يتبادر إلى الذهن بأن هذا المصير يخص هؤلاء القوم، بل إن من المسلم أنه يعمّ كل من كانت لهم أعمال شبيهة بأعمال هؤلاء. وهكذا تضيف الآية:

«وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ».

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَى ظَاهِرَةً وَفَدَدْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبْرًا فِيهَا لِيَالِي وَ أَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَخْيَادِيْثَ وَمَرْقَنَاهُمْ كُلٌّ مُّمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) «فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَخْيَادِيْثَ وَمَرْقَنَاهُمْ كُلٌّ مُّمَرِّقٍ»: تعود هذه الآيات إلى قصة قوم سبأ مرة أخرى، وتعطى شرحاً وتفصيلاً أكثر حولهم وحول العقاب الذي حلّ

بهم، ليكون درساً بليغاً وتربوياً لكل سامع. يقول تعالى: لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمة لم تغطّها وحدها، بل «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً». فقد جعلنا بينهم وبين الأرض المباركة مدائن وقرى اخرى متّصلة بفواصل قليلة إلى درجة أنّ القرية ترى من القرية الثانية.

والمقصود من «الأرض المباركة» هو «صنعاء» أو «مأرب» وكلتاها كانتا في اليمن.

ولكن العمران وحده لا يكفي، بل إنّ شرطه الأساسي هو «الأمان»، ولذلك تضيف الآية: «وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ». أي جعلنا بينها فواصل معتدلة: «سَيِّرُوا فِيهَا لِيَأْتِيَ وَآيَاتًا ءَامِنِينَ».

وبهذا فإنّ الفواصل والمسافات بين القرى كانت متناسقة محسوبة، وكذلك فإنّها طرق محفوظة من حملات الضواري أو السراق أو قطاع الطرق.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٩٩

ولكن هؤلاء جحدوا نعم الله العظيمة ولبسهم الغرور، وأحاطت بهم الغفلة ونشوة النعيم وعدم لياقتهم له، فأسلكتهم طريق الكفران وعدم الشكر، وانحرفوا عن الصراط وتركوا أوامر الله خلف ظهورهم.

فمن جملة مطالبهم العجيبه من الله، «فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا». أي طلبوا أن يجعل الله المسافات بين قراهم طويلة، كي لا يستطيع الفقراء السفر جنباً إلى جنب مع الأغنياء، ومقصودهم هو أن تكون بين القرى - كما أسلفنا - فواصل صحراوية شاسعة، حتى لا يستطيع الفقراء ومتوسطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مركب، وبذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء وعلامة على القدرة والثروة. فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم «وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ».

فإن كانوا يظنون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا، إذ أنّهم قد استلوا خنجراً ومزقوا به صدورهم.

ويا له من تعبير رائع، ذلك الذي أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول:

إنّنا جازيناهم ودمرنا بلادهم ومعيشتهم بحيث: «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثًا».

فلم يبق من تلك الحياة المرفّهة، والتمدّن العريض المشرق، إلّا أخبار على الألسن، وذكريات في الخواطر، وكلمات على صفحات التاريخ «وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ».

كيف دمرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدرة البقاء فيها، وبذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كل مجموعة إلى جهة لإدامة حياتهم، حتى أضحى تفرّقهم مثلاً يضرب فقيل:

«تَفَرَّقُوا أَيَادِي سَبَأَ».

وفي ختام الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

ذلك لكونهم بصبرهم واستقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى والهوس الجموح، ويقفون بوجه المعاصي، وبشكرهم لله تعالى في طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به ويقظون، وعليه فإنّهم يأخذون العبرة بشكل جيد.

وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج ٤ ١٤٩

لا- أحد مجبر على اتّباع الشيطان: هذه الآيات في الحقيقة تمثّل نوعاً من الإستنتاج العام من قصة «قوم سبأ» التي مرّت في الآيات السابقة. يقول تعالى في الآية الاولى من هذه الآيات: «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

بتعبير آخر: فإنّ إبليس بعد امتناعه من السجود لآدم وطرده من محضر الكبرياء الإلهي، توقع وقال: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ

مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» (١).

وتشير الآية التالية إلى مطلبين فيما يخص الوسوس الشيطانية، والأشخاص الذين يقعون تحت سلطته، والأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان، فتقول الآية المباركة: «وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ».

وذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» (٢). ولكن من الواضح أنه بعد إجابة دعوته من قبل عديمي الإيمان، وعبيد الهوى، لا يهدأ له بال، بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم. لذا فإن الآية تؤكد أن الهدف من إطلاق يد إبليس في وسوساته، إنما هو لأجل معرفة المؤمنين من غيرهم ممن هم في شك: «إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ».

والمقصود من الجملة أعلاه هو التحقق العيني لعلم الله، لأن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب أحداً بناءً على علمه بالواطن، والأعمال المستقبلية لذلك الشخص، بل يجب توفر ميدان للإمتحان، ومن خلال وسوس الشياطين وهوى النفس يظهر الإنسان ما بداخله - بكامل الإرادة والإختيار - إلى الواقع الفعلي، ويتحقق علم الله سبحانه وتعالى عيناً.

ثم تختتم الآية بتبنيه للعباد: «وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ». حتى لا يتصور أتباع الشيطان بأن أعمالهم وأقوالهم تتلاشى في هذه الدنيا، أو أن الله ينسى.

(١) سورة الحجر / ٣٩ و ٤٠.

(٢) سورة إبراهيم / ٢٢.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠١

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَمَّا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَ لَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) قلنا في بداية السورة بأن هناك مجموعة من آياتها تتحدث حول المبدأ والمعاد والاعتقادات الحقة، ومن ربطها مع بعضها نحصل على حقائق جديدة. في هذا المقطع من الآيات يجز القرآن المشركين في الواقع إلى المحاكمة، ثم يبين تفسخ منطقهم الواهي بخصوص شفاعه الأصنام.

في الآية الاولى يقول تعالى: «قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ». ولكن اعلمو أن هذه الأصنام أو الشركاء لا يستجيبون لدعائكم أبداً، ولا يحلون لكم مشكلة.

ثم تنتقل الآية إلى عرض الدليل على هذا القول، فيقول تعالى: «لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَمَّا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ».

وللإجابة على هذا التساؤل تقول الآية التي بعدها: لو كان هناك شفعاء لدى الله تعالى فإنهم لا يشفعون إلا بإذنه وأمره: «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ».

وعليه فإن العذر الذي يتعلل به الوثنيون بقولهم: «هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ» (١). ينتهي بهذا الجواب، وهو أن الله سبحانه وتعالى، لم يجز شفاعتها أبداً.

لذا تقول العبارة بعدها بأنه في ذلك اليوم تهيمن الوحشة والاضطراب على القلوب، ويستولى القلق على الشافعين والمشفوع لهم بانتظار أن يروا لمن يأمر الله بجواز الشفاعه؟

وعلى من ستجوز تلك الشفاعة؟ وتستمر حالة القلق والإضطراب، حتى حين ... فيزول

(١) سورة يونس / ١٨.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٢

ذلك الفزع والإضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهي: «حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ».

هنا وحينما يتواجه الفريقان ويتساءلان، (أو أن المذنبين يسألون الشافعين): «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ». فيجيبنهم: «قَالُوا الْحَقَّ». وما الحق إلّا جواز الشفاعة لمن لم يقطعوا إرتباطهم تماماً مع الله.

وتضيف الآية فى الختام: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

وهذه العبارة متممة لما قاله «الشفعاء»، حيث يقولون: لأنّ الله علىّ وكبير فأى أمر يصدره هو عين الحق، وكل حق ينطبق مع أوامره.

فى الآية التالية يلج القرآن الكريم طريقاً آخر لإبطال عقائد المشركين، ويجعل مسألة «الرازقية» عنواناً بعد طرحه لمسألة «الخالقية» التى مرّت معنا فى الآيات السابقة. يقول تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

بديهى أن لا- أحد منهم يستطيع القول بأنّ هذه الأصنام الحجرية والخشبية هى التى تنزل المطر من السماء، أو تنبت النباتات فى الأرض.

الجميل أنّه- بدون إنتظار الجواب منهم- يردف تعالى قائلاً: «قُلِ اللَّهُ».

آخر الآية تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساساً لدليل واقعى ومتوأم مع غاية الأدب والإنصاف، بطريقه تستنزل الطرف المقابل من مركب الغرور والعناد الذى يمتطيه، وتدفعه إلى التفكير والتأمل. يقول تعالى: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وهذا إشارة إلى: أن عقيدتنا وعقيدتكم متضادتان، وعليه- بناءً على إستحالة الجمع بين النقيضين- فلا يمكن أن تكون الدعوتان على حق.

وتستمر الآية التى بعدها بالاستدلال بشكل آخر- ولكن بنفس النمط المنصف الذى يستنزل الخصم من مركب العناد والغرور. يقول تعالى: «قُلْ لَأَتَسَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

وهنا أنّ الرسول صلى الله عليه وآله مأمور باستعمال تعبير «جرم» فيما يخصه، وتعبير «أعمال» فيما يخص الطرف الآخر، وبذا تتضح أنّ كل شخص مسؤول أن يعطى تفسيراً لأعماله وأفعاله، لأنّ نتائج أعمال أى إنسان تعود عليه، حسنها وقيبحها.

الآية التالية توضيح لنتيجة الآيتين السابقتين، فبعد أن تبه إلى أنّ أحد الفريقين على الحق والآخر على الباطل، وإلى أنّ كلّاً منهما مسؤول عن أعماله، إنتقل إلى توضيح كيفية

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٣

التحقّق من وضع الجميع، والتفريق بين الحق والباطل ومجازاة كل فريق طبق مسؤوليته، فيقول تعالى، قل لهم بأنّ الله سوف يجمعنا فى يوم البعث، ويحكم بيننا بالحق، ويفصل بعضنا عن بعض، حتى يعرف المهتدون من الضالين، ويبلغ كل فريق بنتائج أعماله. «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ».

وإذا كنتم اليوم ترون أنّكم مخلوطون بعضكم البعض، وكلّاً يدعى بأنّه على الحق وبأنّه من أهل النجاة، فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد، ولا بدّ أن يأتى يوم التفريق بين الصفوف، فربوبية الله إقتضت فصل «الطيب» من «الخبيث» و «الخالص» من «المشوب» و «الحق» عن «الباطل» فى النهاية. ويستقرّ كل منهما فى مكانه اللاتق.

فكروا الآن ماذا ستعملون فى ذلك اليوم، وفى أى صفّ ستقفون، وهل أحضرتكم إجابة لمسألة الله فى ذلك اليوم؟

وفى آخر الآية يضيف ليؤكد حتمية ذلك التفريق فيقول: «وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ».

هذان الاسمان- وهما من أسماء الله الحسنى- أحدهما يشير إلى قدرة الله تعالى على عملية فصل الصفوف، والآخر إلى علمه اللامتناهى، إذ إن عملية تفريق صفوف الحق عن الباطل لا يمكن تحققها بدون هاتين الصفتين.

واستخدام كلمة «الرب» فى الآية أعلاه إشارة إلى أن الله هو المالك والمربى للجميع، وذلك مما يقتضى أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معداً، وهى إشارة لطيفة إلى إحدى دلائل «المعاد».

«فتح»: كما يشير الراجب فى مفرداته، الفتح إزالة الإغلاق والإشكال. وذلك ضربان:

أحدهما: يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل، والغلق والمتاع؛ والثانى: يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغم، وذلك ضروب: أحدها: فى الامور الدنيوية كغم يُفرج وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه، والثانى: فتح المستغلق من العلوم، ... إلى أن يقول: و «فتح القضية فتاحاً» فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها». وعليه فإن استخدام هذه المفردة هنا لأن الحكم والقضاء يتم أيضاً هناك، فضلاً عن الفصل والتفريق بينهما الذى هو أحد معانى كلمة «فتح»- ومجازاة كل بما يستحق.

فى الآية الأخيرة من هذه الآيات التى هى عبارة عن الأمر الخامس للرسول صلى الله عليه وآله يعود القرآن إلى الحديث مرّة اخرى فى مسألة التوحيد التى ابتدأ بها ليختمه بها. يقول تعالى:

«قُلْ أَرُونى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٤

فبعد هذه الجملة مباشرة، وبكلمة واحدة يشطب على هذه الأباطيل فيقول: «كَلَّا».

فهذه الأشياء لا تستحق أن تعبد أبداً وهذه الأوهام والتصورات ليس لها شىء من الواقعية.

ثم لأجل تأكيد وتثبيت هذا المعنى يقول مختتماً الحديث: «بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». فعزته وقدرته الخارقة، تقتضى الدخول فى حريم ربوبيته، وحكمته تقتضى توجيه هذه القدرة فى محلها.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) الدعوة العالمية: الآية الاولى من هذه الآيات، تتحدث فى نبوة الرسول صلى الله عليه وآله، والآيات التى تليها تتحدث حول الميعاد.

أشارت الآيات ابتداءً إلى شمولية دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وعمومية نبوته لجميع البشر فقالت: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

«كافّة»: من مادة «كف» وتعنى الكف من يد الإنسان، وبما أن للإنسان يقبض على الأشياء بكفه تارةً ويدفعها عنه بكفه تارةً اخرى، فلذا تستخدم هذه الكلمة للقبض أحياناً، وللمنع اخرى. وهنا بمعنى «الجمع» وفى هذه الحالة يكون مفهوم الآية «إننا لم نرسلك إلا لجميع الناس». أى عالمية دعوة الرسول صلى الله عليه وآله.

وبناءً على ما أشارت إليه الآيات السابقة من أن الله سبحانه وتعالى يجمع الناس ويحكم بينهم تورد هذه الآية سؤال منكربى المعاد كما يلى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ولكن القرآن الكريم يمتنع دائماً عن الإجابة الصريحة على هذا السؤال وتعيين زمان وقوع البعث، ويؤكد أن هذه الامور هى من علم الله الخاص به سبحانه وتعالى، وليس لأحد غيره الإطلاع عليها.

لذا فقد تكرر فى الآية التى بعدها، هذا المعنى بعبارة اخرى. يقول تعالى: «قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٥

يَوْمَ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ».

إن إخفاء تأريخ قيام الساعة- حتى على شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله- كما أسلفنا- لأن الله سبحانه وتعالى أراد لعباده



نوعاً من حرية العمل مقترنة بحاله من التهيؤ الدائم، لأنه لو كان تاريخ قيام القيامة معلوماً فإن الجميع سيغطون فى الغفلة والغرور والجهل حينما يكون بعيداً عنهم، أما حين إقترابه منهم فستكون أعمالهم ذات جنبه اضطرارية، وفى كلتا الحالتين تتحجم الأهداف التربوية للإنسان.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَ لَّا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَّا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَ أَسْرَرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) لمناسبة البحث الوارد فى الآيات السابقة حول مواقف المشركين إزاء مسألة المعاد، تعرّج هذه الآيات إلى تصوير بعض فصول المعاد المؤلمة لهؤلاء المشركين كى يقفوا على خاتمة أعمالهم. أولاً يقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَ لَّا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ».

أى ولا بالكتب السماوية السابقة.

فإن إنكار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين، يحتمل أن يكون المقصود به، نفي نبوة الرسول صلى الله عليه و آله من خلال نفي الكتب السماوية الاخرى، باعتبار أن القرآن أكد على موضوع ورود دلائل على نبوة الرسول صلى الله عليه و آله فى التوراة والإنجيل، ولهذا يقولون: نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب ولا بالكتب التى سبقتة.

ثم تنتقل إلى الحديث حول وضع هؤلاء فى القيامة من خلال مخاطبة الرسول صلى الله عليه و آله فى قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٦

فى حين أن «المستضعفين» الذين اتبعوا بجهلهم «المستكبرين» وهم الذين سلكوا طريق الغرور والتسلط على الآخرين ورسوموا لهم منهجهم الشيطاني، هناك: «يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَّا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ». إنهم يريدون بذلك إلقاء مسؤولية ذنوبهم على عاتق هؤلاء «المستكبرين»، مع أنهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعية فى دار الدنيا.

لكن «المستكبرين» لا يقولون على صمتهم بل: «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ».

كلّا، فلسنا بمسؤولين، فمع إمتلاككم حرية الإرادة، استسلمتم لأحاديثنا الباطلة، وكفرتهم وألحدتم متناسين أحاديث الأنبياء المنطقية، «بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ».

ولكن المستضعفين لا- يقتنعون بهذا الجواب، ويعاودون القول مرّة اخرى لإثبات جرم المستكبرين: «وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً».

فصحيح أننا كنا أحراراً فى القبول بذلك، ولكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسؤولون ومجرمون، خاصة وأنكم كنتم تتحدثون معنا دائماً من موقع القدرة والسلطة.

لذا فإن الفريقين يندمون على ما قدمت أيديهم، المستكبرون على إضلالهم للآخرين، والمستضعفون على إيمانهم وقبولهم بتلك الأباطيل المشؤومة، ولكن لكى لا- يفتضحوا أكثر فأنهم يكتمون الندم حينما يواجهون العذاب الإلهى ... «وَأَسْرَرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا».

فهم فى الدنيا حينما يلتفتون إلى إشتباههم ويندمون لم يكونوا يمتلكون الشجاعة لإظهار ندمهم الذى هو أول طريق التوبة وإعادة النظر، وتلك هى الخصلة الأخلاقية الخاصة بهم والتى يمارسونها فى الآخرة أيضاً.

فإن هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم: «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فألاية تشير أيضاً إلى قضية تجسم الأعمال.

التعبير ب «الذين كفروا» يشير إلى أن فريقى الغاوين والمغويين المستضعفين وكل الكفار يلقون ذلك المصير.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٧

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَشْعُونَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة فى الغاوين من المستكبرين، فإن جانباً آخر من هذا المبحث تعكسه الآيات أعلاه بطريقة أخرى، فتقول الآية المباركة: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ». «نذير»: من «الإنذار» وهو الإخبار الذى فيه تخويف، وإشارة إلى أنبياء الله الذين يندرون الناس من عذاب الله فى قبال الانحرافات والظلمات والذنوب والفساد.

«مترفوها»: جمع «مترف» من مادة «ترف» بمعنى «التوسع فى النعمة» و (المترف) الذى قد أبطرتة النعمة وسعة العيش، وأترفته النعمة أى أطقته.

تشير الآية التالية إلى المنطق الأجوف الذى يتمسك به هؤلاء لإثبات أفضليتهم ولاستغفال العوام فتقول: «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا».

إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّنَا، فقد أعطانا المال الوفير، والقوة البشرية، وذلك دليل على لطفه بحقنا وإشارة إلى مقامنا وموقعنا عنده، ولذلك لن نعاقب أبداً «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ».

الآية التى بعدها ترد بأرقى اسلوب على هذا المنطق الأجوف الخداع وتنسفه من الأساس، وبطريق مخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله تقول الآية الكريمة: قل لهم: إِنَّ رَبِّي يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَتَعَالَى: «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ». وعليه فلا يجب إعتبار سعة الرزق دليلاً على السعادة، وقلة على الشقاء، «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». طبعاً أكثر الجهال المغفلين هم كذلك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٨

ثم تتابع الآيات هذا المعنى بصراحة أكثر. تقول: «وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ .

ولكن ليس معنى هذا هو حث الإنسان على ترك السعى والدأب اللازم لإقامة الأود، بل المقصود هو التأكيد على أن امتلاك الإمكانيات الاقتصادية والقوة البشرية الواسعة لا يمثل أبداً أية قيمة معنوية للإنسان عند الله.

ثم تتناول الآية موضوع المعيار الأصلى لتقييم الناس، وما يسبب قربهم منه (على شكل استثناء منفصل) فتقول: «إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ».

وعليه فجميع المعايير تعود أصلاً إلى هذين الأمرين «الإيمان» و «العمل الصالح».

هنا يشطب القرآن وبصراحة قل نظيرها على كل الظنون المنحرفة والخرافات بخصوص عوامل القرب من الله.

كلمة «ضعف» ليست بمعنى «مضاعفة الشيء مرتين» فقط، بل بمعنى «أضعاف مضاعفة لأكثر من مرتين»، وقد وردت فى هذه الآية بهذا المعنى.

«غرفات»: جمع «غرفة» بمعنى الحجرات العلوية من البناء، التى غالباً ما تكون إضاءتها أكثر وهوؤها أفضل، وبعيدة عن الآفات.

التعبير ب «آمنون» فيما يخص أهل الجنة، تعبیر جامع يعكس حالة الطمأنينة الروحية والجسدية لهم من كافة النواحي.

الآية التالية تصف الفريق المقابل لهؤلاء، فتقول: أمّا هؤلاء الذين يسعون ويجتهدون لتسفيه آياتنا، لا يؤمنون ولا يتركون غيرهم

يسرون في طريق الإيمان، ويتوهمون أنهم يستطيعون الفرار من يد قدرتنا، هؤلاء يحضرون في عذاب أليم يوم القيامة «وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ».

هؤلاء هم الذين اعتمدوا على أموالهم وأولادهم وكثرة عددهم لتكذيب الأنبياء، وعملوا على إغواء عباد الله. «معاجزين»: كما ذهب بعض أرباب اللغة إلى أن معناه أن هؤلاء تصوروا أنهم يستطيعون الفرار من دائرة قدرة الله تعالى وجزائه وعقابه، إلا أن هذا التوهم باطل وسراب خادع.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٠٩

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) نفور المعبودين من عابديهم: تعود هذه الآيات لتؤكد مرة أخرى خطأ الذين يتوهمون بأن أموالهم وأولادهم سبب لقربهم من الله فتقول: «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ».

ثم تضيف الآية: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

وفي الكافي: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة».

والجدير بالتذكير هو أن الإنفاق يجب أن يكون من المال الحلال والكسب المشروع، وإلا فلا قبول لغيره عند الله ولا بركة فيه.

فمع أن محتوى هذه الآية يؤكد ما عرضته الآيات السابقة إلا أن هناك ما هو جديد من جهتين:

الاولى: أن الآية السابقة التي عرضت نفس المفهوم، كانت تتحدث عن أموال وأولاد الكفار، بينما الآية محل البحث باحتوائها على كلمة «عباد» تشير إلى المؤمنين.

الثانية: الآية السابقة أشارت إلى سعة الرزق وضيقة بالنسبة إلى مجموعتين مختلفتين، في حين أن هذه الآية تشير إلى حالتين مختلفتين بالنسبة لشخص واحد، حيناً يتسع رزقه وحيناً يضيق.

ولأن فريقاً من الأثرياء الظالمين الطغاة كانوا في صفّ المشركين، وادّعوا بأنهم يعبدون الملائكة وأنهم شفعاؤهم يوم القيامة، فقد ردّ القرآن على هذا الإدعاء الباطل فقال: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ».

والهدف من هذا السؤال هو أن تظهر الحقائق من إجابة الملائكة، لكي يخسأ هؤلاء الضالون ويخيب ظنهم، ويعلموا بأن الملائكة متنفرين من أعمالهم، فيصيبهم اليأس إلى

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٠

الأبد. ذكر (الملائكة) من بين المعبودات التي كان المشركون يعبدونها، إما لأن الملائكة أشرف المخلوقات التي عبدها الضالون، أو أنه من قبيل أن عبدة الأوثان كانوا يعتقدون بأن الأحجار والأخشاب هي مظهر ونموذج لموجودات علوية (كالملائكة وأرواح الأنبياء)، ولذا عبدوها.

والآن لننظر ماذا تقول الملائكة للإجابة على سؤال الباري عزّ وجل؟ لقد اختارت الملائكة في الحقيقة أكثر الأجوبة شمولية وأعظمها أدباً: «قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ».

والمقصود (بالجن) هو (الشيطان) وسائر الموجودات الخبيثة التي شجعت عبدة الأوثان على ذلك العمل، وعليه فإن المراد من عبادة الجن هي تلك الطاعة والإنقياد لأوامرها والرضى بأضاليلها.

لذا- وكاستخلاص للنتيجة- تقول الآية الكريمة التي بعدها: «فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا». وبناءً على ذلك فلا الملائكة- الذين هم ظاهراً معبودون- يستطيعون الشفاعة لهم، ولا هم يستطيعون مساعدة بعضهم البعض.

«وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ».

التعبير عن «الكفر» ب «الظلم». أو عن «الكافرين والمشركين» ب «الظالمين»، ذلك لأنهم قبل كل شيء ظلموا أنفسهم بخلعهم تاج العبودية لله عن رؤوسهم.

وفي الحقيقة فإنهم سيعاقبون يوم القيامة على شرهم وعلى إنكارهم للمعاد.

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّنْ قَدْ بَدَّلْنَا كَلِمَ تَقَالُوتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنْ يَسْهَبَ وَهِيَ كَالْحَبِّ ذُرِّيَّتٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا جَاءَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مُبِينٍ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) بأى منطق ينكرون آيات الله: تعود هذه الآيات لتكامل البحث الذى تناولته الآيات

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١١

السابقة حول المشركين الكفار وأقوالهم يوم القيامة، فتحدث حول وضع هؤلاء فى الدنيا ومواقفهم عند سماعهم القرآن حتى يتضح أن مصيرهم الاخرى المشؤوم إنما هو نتاج تلك المواقف الخاطئة التى اتخذوها إزاء آيات الله فى الدنيا. تقول الآية الكريمة الاولى: «وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ».

فهذا أول رد فعل لهم إزاء «الآيات البينات» وهو السعى إلى تحريك حس العصبية فى هؤلاء القوم المتعصبين.

ثم توضح الآية مقولتهم الثانية التى قصدوا بها إبطال دعوة النبى صلى الله عليه وآله فتقول: «وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّنْ قَدْ بَدَّلْنَا كَلِمَ تَقَالُوتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنْ يَسْهَبَ وَهِيَ كَالْحَبِّ ذُرِّيَّتٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا جَاءَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مُبِينٍ».

بمعنى كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه.

وأخيراً، كان الإتهام الثالث الذى ألصقوه بالرسول صلى الله عليه وآله هو (السحر) كما نرى ذلك فى آخر هذه الآية: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

فى الآية التى بعدها، يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الإدعاءات الواهية، فيقول:

«وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ».

وهى إشارة إلى أن هذه الإدعاءات يمكنها أن تكون مقبولة فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سماوى يخالف مضمونه الدعوة الجديدة، فلا بأس أن ينبروا لتكذيبها. أما من لا يعتمد إلا على فكره الشخصى - بدون أى وحى من السماء - وبدون أن يكون له نصيب من علم، فلا يحق له الحكم لمجرد تلفيقه الخرافات والأوهام.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تهدد تلك المجموعة المتمردة بكلمات بليغة مؤثرة فتقول:

«وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» فى حين أن هؤلاء لم يبلغوا فى القوة والقدرة عشر ما كان لأولئك الأقسام «وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ».

فمدنهم المدمرة بضربات العقوبة الإلهية الساحقة ليست ببعيدة عنكم ... فهى فى الشام القريب منكم، فليكونوا لكم مرآة للعبارة، واستمعوا إلى النصائح التى يقولها الدمار، وقارنوا مصيركم بمصيرهم، فلا السنّة الإلهية قابلة للتغيير ولا أنتم أقوى منهم.

قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٢

الثورة الفكرية أساس لأى ثورة أصيلة: فى هذا المقطع من الآيات والآيات التالية، والتى تشكّل أواخر سورة سبأ المباركة، يؤمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مرّة اخرى بدعوة هؤلاء بالأدلة المختلفة ليؤمنوا بالحق، ويرجعوا عن ضلالهم. ففى الآية الاولى إشارة إلى اللبنة الأساسية فى كل التحولات والتبدلات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فتقول: «قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا «تتفكروا» دون أن يذكر بماذا؟ فحذف المتعلق دليل على العموم، أى فى كل شىء، فى الحياة المعنوية والمادية، فى الامور الكبيرة والصغيرة، وبكلمة: فى كل أمر يجب التفكير أولاً، وأهم من ذلك كله هو التفكير للعثور على الإجابة للأسئلة الأربعة التالية: من أين جئت؟ لأى شىء أتيت؟ إلى أين أذهب؟ وأين أنا الآن؟

تعبير «صاحبكم» إشارة إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وإنه ليس نكرة بالنسبة لكم، لقد عرفتموه بالأمانة والصدق والإستقامة. «جبنه»: بمعنى «جنون» وفى الأصل من مادة «جن» بمعنى ستر الشىء عن الحاسية، ومن كون أن (المجنون) ستر عقله، فقد اطلق عليه هذا التعبير، والجدير بالملاحظة هنا هو أن العبارة تريد الكشف عن هذه الحقيقة، وهى أن من يدعو إلى التفكير والإنتباه كيف يكون هو مجنوناً.

جملة «إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ» تلخص رسالة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فى مسألة «الإندار» أى: التحذير من المسؤولية، ومن المحكمة الإلهية، والعقاب الإلهي.

فالآية السابقة كانت دعوة للتفكير ونفى أى حالة من عدم التوازن الروحي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وفى مطلع هذه الآيات، يتحدث القرآن فى عدم مطالبة الرسول صلى الله عليه وآله بأى أجر مقابل تبليغ الرسالة. تقول الآية الاولى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

أنا دعوتكم للتفكير، والآن تأملوا، واسألوا وجدانكم، أى سبب يدعوني لأن أنذركم من العذاب الإلهي الشديد؟، وأى ربح سوف أجنه من هذا العمل، لأنى أساساً لم اطالبكم بأى أجر أو جزاء.

وأنكم إن لاحظتم أنى فى بعض ما أخبرتكم به عن الله سبحانه وتعالى، قلت لكم: «لأ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٣

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى «١». فهذا أيضاً يعود نفعه إليكم، لأن مودة ذى القربى ترتبط بمفهوم (الإمامة والولاية) واستمرار خط النبوة، الذى هو ضرورى لإدامة هدايتكم.

ثم تختم الآية بالقول: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». فإن كنت اريد أجرى من الله وحده فلائه وحده عالم بكل أعمالى ومطلع على نواياى.

بالإلتفات إلى ما قيل حول حقانية دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، تضيف الآية التى بعدها قائلة أنّ القرآن واقع غير قابل للإنكار لأنه ملقى من الله سبحانه وتعالى على قلب الرسول صلى الله عليه وآله: «قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ».

«يقذف»: من مادة «قذف» وهو الرمي البعيد. والمقصود ب «يقذف بالحق» هو الكتب السماوية والوحي الإلهي على قلوب الأنبياء والمرسلين، ولأنه سبحانه وتعالى هو علام الغيوب، فهو يعلم بالقلوب المهتأة، فينتخبها ويقذف الوحي فيها حتى ينفذ إلى أعماقها.

ويحتمل أن يكون المقصود بتعبير «القذف» هنا هو نفوذ حقانية القرآن إلى نقاط العالم القريية والبعيدة، وهى إشارة إلى أن هذا الوحي السماوى سيضىء جميع العالم بنوره فى نهاية الأمر.

بعدئذ ولزيادة التأكيد يضيف سبحانه وتعالى: «قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُهُ». وعليه فلن يكون للباطل أى دور مقابل الحق، لا خطه اولى جديدة، ولا خطه معادة، ولهذا السبب فلم يتمكن الباطل من طمس نور الحق ومحو أثره من القلوب.

ثم يضيف تعالى لأجل إيضاح أنّ ما يقوله صلى الله عليه وآله هو من الله، وأن كل هداية منه، وأن ليس هناك أدنى خطأ أو نقص فى الوحي الإلهي: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي». أى: إننى لو أتكلت على نفسى فسوف أضل، لأن الإهتداء إلى طريق الحق من بين أكداس الباطل ليس ممكناً بغير إمداد الله، ونور الهداية الذى ليس فيه ضلال وتيه هو نور الوحي الإلهي.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ».

(١) سورة الشورى ٢٣.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٤

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ليس للكافرين مفر: الآيات الأخيرة من سورة سبأ تعود إلى الحديث فى المشركين المعاندين الذين مرّ الحديث فيهم فى الآيات السابقة عن طريق مخاطبة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فتصوّر حال تلك المجموعة عند وقوعها فى قبضة العذاب الإلهي، كيف تفكّر فى الإيمان، حين لا يكون لإيمانهم أدنى فائدة. يقول تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فِرْعَوْنُ فَلَا فُوتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ».

وذلك الصراخ والفرع والإضطراب تتحدث عن الدنيا وعذاب الإستئصال، أو لحظة تسليم الروح، إذ يقول تعالى فى الآية الأخيرة من هذا المقطع: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلٍ».

والمقصود من جملة «أَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» هو أنّ هؤلاء الأفراد الكافرين والظالمين، ليس فقط لا يمكنهم الفرار من يد القدرة الإلهية فحسب، بل إنّ الله سبحانه وتعالى يأخذهم بالعذاب من مكان قريب منهم جداً. الآية التى بعدها، تعرض هؤلاء بعد أن أخذهم العذاب الإلهي تقول الآية الكريمة: «وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ». ولكن «أَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

نعم فبحلول الموت وعذاب الإستئصال اغلقت أبواب العودة كثيراً، وحيل كالسّد المحكم بين الإنسان وبين أن يكفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإيمان فى ذلك الحين، كأنه كائن من مكان بعيد، وهو إيمان إضطرارى بسبب الخوف الشديد من العذاب الذى يعاين هناك، مثل ذلك الإيمان أصلاً لا قيمة له.

«التناوش»: من مادة «نوش» بمعنى التناول، وبعضهم اعتبروا أنّها بمعنى «التناول بسهولة». أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد ولم يكونوا يتناولونه من قريب.

كيف يستطيعون الآن وبعد أن انتهى كل شىء أن ينبروا لجبران خطاياهم ويؤمنوا، فى حين أنّهم قبل هذا كفروا: «وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٥

ولم يكتفوا بالكفر فقط، بل إنّهم ألصقوا بالرسول صلى الله عليه وآله وتعاليمه مختلف أنواع التّهم، وحكموا أحكاماً خاطئة فيما يخصّ (عالم الغيب - والقيامة - والنّبوة): «وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

«القذف»: الرمى من بعيد؛ و «الغيب» هو عالم ما وراء الحس، والجملة كناية لطيفة عمّن يطلق أحكامه على عالم ما وراء الطبيعة بلا سابق علم أو معرفه، كمن يرمى شيئاً من نقطة بعيدة، فقلّما يصيب الهدف، فظنونهم وأمانيتهم وأحكامهم لا تصيب أهدافها أيضاً. ثم يضيف تعالى: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلٍ».

ففى لحظة مؤلمة فصل بينهم وبين كل ثرواتهم وأموالهم، وقصورهم ومقاماتهم، وأمانيتهم، فكيف سيكون حالهم؟ هؤلاء الذين كانوا يعيشون الدرهم والدينار، والذين كانت قلوبهم لا تطاوعهم فى التخلّى عن أبسط الإمكانيات المادية ... كيف سيكون حالهم فى تلك اللحظة التى يجب عليهم فيها أن يودّعوا كل ذلك وداعاً أخيراً، ثم يغمضون عيونهم ويسيروا باتجاه مستقبل مظلم موحش.

«نهاية تفسير سورة سبأ»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٧

محتوى السورة: يمكن تلخيص آيات هذه السورة في خمسة أقسام:

- ١- قسم مهم من آيات هذه السورة يتحدث حول آثار عظمة الله في عالم الوجود، وأدلة التوحيد.
- ٢- قسم آخر من آياتها يبحث في ربوبية الله، وعن خالقيته ورزاقيته، وخلق الإنسان من التراب ومراحل تكامل الإنسان.
- ٣- قسم آخر يتحدث حول المعاد ونتائج الأعمال في الآخرة، ورحمة الله الواسعة في الدنيا، وسنته الثابتة في المستكبرين.
- ٤- قسم من الآيات يشير إلى مسألة قيادة الأنبياء وجهادهم الشديد والمتواصل ضد الأعداء المعاندين، ومواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الخصوص.

٥- القسم الأخير منها يتعرض للمواعظ والنصائح الإلهية فيما يخص المواضع المذكورة أعلاه، ويعتبر مكملًا لها.

سميت هذه السورة بـ «فاطر» أو «الملائكة» لابتداء آياتها بآية ذكر فيها «فاطر» و «الملائكة».

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الملائكة،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٨

دعته يوم القيامة ثلاثة أبواب من الجنة أن ادخل من أي الأبواب شئت».

ومع الإلتفات إلى ما نعلمه من أن أبواب الجنة هي تلك العقائد والأعمال الصالحة التي سببت الوصول إلى الجنة، فيمكن أن تكون الرواية السالف ذكرها إشارة إلى أبواب القاعدة الاعتقادية الثلاثية الأساس «التوحيد- المعاد- النبوة».

ونقول كما قلنا سابقاً بأن القرآن برنامج عمل، وتلاوته بداية للتفكير والإيمان الذي هو بدوره وسيلة للعمل بمحتوى الآيات، وكل هذا الثواب العظيم يتحقق بهذه الشروط.

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَزِدُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤَفِّكُونَ (٣) فاتح مغاليق الأبواب: تبدأ هذه السورة بحمد الله والثناء عليه لخلقه هذا الكون الفسيح.

يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

«فاطر»: من مادة «فطر» وأصله الشقّ طولاً، لأنّ خلق الموجودات يشبه شقّ ظلمة العدم وظهور نور الوجود، استخدم هذا التعبير فيما يخصّ الخلق.

ولأنّ تدبير امور هذا العالم قد نيّطت من قبل الباري عزّ وجل - بحكم كون عالمنا عالم أسباب - بعهدة الملائكة، فالآية تنتقل مباشرة إلى الحديث في خلق الملائكة وقدراتها العظيمة التي وهبها الله إياها. «جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

إنّ المقصود من الرسالة مفهوم واسع يشمل كلّاً من «الرسالة التشريعية» و «الرسالة التكوينية».

«أجنحة»: جمع «جناح» ما يستعين به الطائر على الطيران، وهو بمثابة اليد في الإنسان،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١١٩

ولأنّ الجناح في الطائر يستخدم كوسيلة مساعده على الإنتقال والحركة والفعالية، فقد استخدمت هذه الكلمة كناية عن وسيلة الحركة ذاتها وعامل القدرة والاستطاعة؛ والمقصود في الآية هو القدرة على الإنتقال والتمكن من الفعل.

بعد الحديث عن خالقية الله سبحانه وتعالى، ورسالة الملائكة الذين هم واسطة الفيض الإلهي، تنتقل الآيات إلى الحديث عن رحمة الله سبحانه، والتي هي الأساس لكل عالم الوجود. تقول الآية الكريمة: «مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا

مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

الخلاصة أن تمام خزائن الرحمة عنده، وهو يفيض منها على كل من يراه أهلاً لها.

وتشير الآية التالية إلى «توحيد العبادة» على أساس «توحيد الخالقية والرازقية» فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

فكروا ملياً ما هو منشأ كل هذه المواهب والبركات والإمكانات الحياتية التي قُضت لكم ... «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

فإذا علمتم أن مصدر كل هذه البركات هو الله، فاعلموا أن: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

وعليه فكيف تنحرفون عن طريق الحق إلى الباطل، وتسجدون للأصنام بدلاً من السجود لله سبحانه؟ «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ».

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) لا يغرتكم الشيطان والدنيا: بعد أن كان الحديث حول توحيد الخالقية والرازقية ينتقل القسم الثاني من هذه المجموعة من الآيات إلى الحديث في تفصيل البرامج العملية للرسول صلى الله عليه وآله ويوجه الخطاب إليه أولاً، ثم لعموم الناس، وبيان المناهج العملية لهم بعد تفصيل البرامج العقائدية سابقاً.

في البداية تقدم الآيات للرسول درس الإستقامة على الصراط السوي، والذي هو أهم

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٠

الدروس له، فتقول الآية الكريمة: «وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ». فهؤلاء الرسل الذين سبقوك قاوموا، ولم يهدأ لهم بال في أداء رسالتهم، وأنت أيضاً يجب أن تقف بصلابته، وتؤدى رسالتك، والبقية بعهده الله: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». فهو الناظر والرقيب على كل شيء، وسوف يحاسب على جميع الأعمال. فهو تعالى لا يتغافل عن المشاق التي تتحملها في هذا الطريق، كما أنه لن يترك هؤلاء المكذبين المخالفين المعاندين يمضون دون عقاب.

ثم تنتقل الآيات لتوضيح أهم البرامج للبشرية، فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». فالقيامة والحساب والكتاب والميزان والجزاء والعقاب والجنة والنار كلها وعود إلهية لا يمكن أن يُخلفها الله تعالى.

ومع الإنتباه إلى هذه الوعود الحقّة: «فَلَمَّا تَعَرَّنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَمَّا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ». فلا ينبغي أن تخدعكم الحياة الدنيا، ولا يخدعكم الشيطان بعفو الله ورحمته ..

أجل، إن عوامل الإثارة، وزخارف الدنيا وزبارجها، إنما تريد أن تملأ قلوبكم، وتلهيكم عن تلك الوعود الإلهية العظيمة.

«غُرُور»: صيغته مبالغة بمعنى الخداع، والظاهر أنه إشارة الشيطان.

الآية التالية تنذر وتبته جميع المؤمنين فيما يخص مسألة وسواس الشيطان ومكائده والتي تعرّضت لها الآية السابقة فتقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا».

تلك العداوة التي شرع بها الشيطان من أول يوم خلق فيه آدم عليه السلام.

في آخر الآية يضيف تعالى للتأكيد أكثر: «إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ». «حزب»: في الأصل بمعنى الجماعة التي لها فعالية، ولكنها تطلق عادةً على كل مجموعة تتبع برنامجاً وهدفاً خاصاً.

إن الشيطان يدعو حزبه إلى المعاصي والذنوب ولوث الشهوات إلى الشرك والطغيان والإضطهاد، وبالنتيجة إلى جهنم وبئس المصير. آخر آية من هذه الآيات توضح عاقبة «حزب الله» السعيدة وخاتمة «حزب الشيطان» المريرة، فتقول: «الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».



إن الكفر وحده يكفي للخلود في عذاب السعير، بينما الإيمان بدون العمل لا يكفي لتحقيق النجاة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢١

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَمَّا تَذَهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصِيرُ عَدُوُّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ (١٠) تبيين مِمَّا مَرَّ تقسيم الناس إلى مجموعتين «المجموعة المؤمنة» و «المجموعة الكافرة» أو «حزب الله» و «حزب الشيطان»، وتنتقل هذه الآيات إلى بيان إحدى الخصائص المهمة لهاتين المجموعتين والتي هي في الواقع المصدر لسائر برامجهما. تقول الآية الأولى: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا». هل هو كمن يرى الحقائق كما هي من حيث الحسن والقبح؟! إن هذه القضية هي المفتاح لكل مصائب الأقوام الضالة والمعاندة، الذين يرون أعمالهم القبيحة أعمالاً جميلة، وذلك لإنسجامها مع شهواتهم وقلوبهم المعتمة.

أما من الذي زين سوء أعمال هؤلاء في أنظارهم؟

مما لا شك فيه أن العامل الأصلي لذلك هو الهوى والشيطان، ولكن لأن الله هو الخالق لذلك الأثر في أعمالهم، فيمكن نسبه ذلك إلى الله تعالى، لأن الإنسان وفي بداية طريق المعاصي يشعر بعدم الإرتياح حين إرتكاب المعصية، لسلامة فطرته وحيوية وجدانه وسلامه عقله، ولكن بتكرار تلك الأعمال يقلل عدم الإرتياح إلى أن يصل إلى درجة عدم الإكتراث. ثم إذا استمر في ذلك الطريق يمسى القبيح جميلاً في نظره، حتى يصل إلى أن يتوهم أن ذلك من مفاخره وفضائله، والحال أنه يغط في بركة آسنه من التعاسه والشقاء.

ثم يضيف القرآن موضحاً علّة الفرق بين الفريقين فيقول: «فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

وواضح أن هذه المشيئة الإلهية توأم لحكمته تعالى، وإنما تعطى لكل ما يناسبه، لذا فإن الآية تضيف في الختام: «فَلَمَّا تَذَهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ».

ذلك لأجل: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٢

واستناداً إلى البحوث التي سبقت حول الهداية والضلالة والإيمان والكفر، تنتقل الآية التالية إلى بحث المبدأ والمعاد بعبارات مضغوطة، وتقرن آيات المبدأ بإثبات المعاد بدليل واحد ملفت للنظر، تقول الآية الكريمة: «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». نظام دقيق يتحكم في حركة الرياح، ثم في حركة السحاب، ثم في نزول قطرات المطر الباعثة للحياة، ثم في حياة الأرض الميتة، وهو أحسن دليل على أن يد القدرة الحكيمه هي من وراء ذلك النظام تقوم على تدبير اموره.

الآن، وبعد هذا المبحث التوحيدي، تشير الآية إلى الإشتباه الخطير الذي وقع فيه المشركون لإعتقادهم بأن العزة تأتيهم من أصنامهم، فتقول الآية: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا».

«العزة»: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ... من قولهم: أرض عزاز، أي صلبة.

ولأن الله سبحانه وتعالى هو الذات الوحيدة التي لا تُغلب، وجميع المخلوقات بحكم محدوديتها قابلة لأن تُغلب، وعليه فإن العزة جميعها من الله، وكل من اكتسب عزة فمن بحر عزته اللامتناهي.

في كتاب كفاية الأثر عن جنادة بن أبي امية قال: دخلت على الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام في مرضه الذي توفي فيه وبين يديه طشت يقذف فيه الدم ويخرج كبده قطعة قطعة، من السم الذي أسقاه معاوية (لعنه الله)، فقلت: يا مولاي ما لك لا تعالج

نفسك؟

فقال: «يا عبد الله، بماذا اعالج الموت؟»

قلت: إننا لله وإنا إليه راجعون.

ثم التفت إلي فقال: «لقد عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله أن هذا الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من ولد علي وفاطمة، ما منا إلا مسموم أو مقتول». ثم رفعت الطشت وبكى صلوات الله عليه وآله قال: فقلت له: عطني يا بن رسول الله قال: «نعم ... وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبه بلا سلطان، فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل ...» الحديث.

ثم توضح الآية طريق الوصول إلى (العزة)، فيقول تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ».

فقد فسّر «الكلم الطيب» بأنه العقائد الصحيحة فيما يخص المبدأ والمعاد والنبوة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٣

ثم تنتقل الآية إلى ما يقابل كل ذلك فتقول: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ».

«يبور»: من مادة «بور» و «بوران» في الأصل بمعنى الكساد المفرط، ولأن مثل هذا الكساد يكون سبباً للهلاك، فقد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الهلاك والفناء. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) مع الإلتفات إلى ما كان من حديث في الآيات السابقة حول التوحيد والمعاد وصفات الله، تتعرض هذه الآيات أيضاً إلى قسم آخر من آيات «الأنفس والآفاق» التي تدل على قدرة الله من جانب، وعلى علمه من جانب آخر، وقضية إمكانية المعاد من جانب ثالث.

في البداية تشير إلى خلق الإنسان في مراحل المختلفة فتقول: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا».

وهذه ثلاث مراحل من مراحل خلق الإنسان: الطين - والنطفة - ومرحلة الزوجية.

بديهي أن الإنسان من التراب، إذ إن آدم عليه السلام خلق من تراب، كما أن جميع المواد سواء التي يتشكل منها جسم الإنسان، أو التي يتغذى عليها، أو التي تنعقد منها نطفته، جميعها تنتهي إلى مواد هي ذاتها التي يحتويها التراب.

ثم ينتقل إلى المرحلة الرابعة والخامسة، «حمل النساء» و «الولادة» فيقول تعالى: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ».

أين ذلك التراب الميت الجامد من الإنسان الحي العاقل الفطن المبتكر؟! وأين تلك النطفة الحقيرة التي تتكوّن من بضع قطرات من الماء المتعفن من ذلك الإنسان الراشد الجميل والمجهز بالحواس والأجهزة العضوية المختلفة.

ثم تشير الآية إلى المرحلتين السادسة والسابعة من هذا البرنامج المذهل بانتقالها إلى

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٤

حلقة أخرى، فتذكر مراحل العمر المختلفة والعوامل المؤثرة في زيادته ونقصانه فتقول الآية الكريمة: «وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ». «معمّر»: من مادة «عمر» في الأصل من «العمارة» نقيض الخراب، والعمر اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة خلال مدة معيّنة.

المقصود من «الكتاب» هو العلم الإلهي اللامحدود.

وأخيراً تختم الآية بهذه الجملة: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

فخلق هذا الموجود العجيب من التراب، وبدء خلق إنسان كامل من «ماء النطفة» وكذلك المسائل المرتبطة بتحديد الجنس، ثم الزوجية، والحمل، والولادة، وزيادة أو نقص العمر سواء بلحاظ القدرة أو بلحاظ العلم والحسابات كلها بالنسبة إليه تعالى سهلة وبسيطة، وذلك بمجموعه يمثل جانباً من «آيات الأنفس» التي تربطنا ببداية عالم الوجود والتعرّف عليه من جهة، كما تعتبر أدلة حيّة

على مسألة إمكانية المعاد من جهة اخرى.

إنّ هناك سلسلة من العوامل الطبيعية التي تؤثر على طول أو قصر العمر، والتي أصبح أكثرها معروفاً عند الناس، كالتغذية الصحيحة بعيداً عن الإفراط والتفريط، العمل وإدامة الحركة، تحاشي المواد المخدرة، والإدمانات الخطرة والمشروبات الكحولية، الابتعاد عن المهيجات المستمرة، التمسك بإيمان قوى يساعد الإنسان على العيش بإطمئنان وهدوء في الملمات، ويعطيه القدرة على مواجهته ذلك.

وإضافة إلى ذلك، فإنّ هناك عوامل اخرى والروايات أكدت عليها، وكنموذج نورد الروايات التالية:

(أ) في مكارم الأخلاق للطبرسي عن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الصدقة وصله الرحم تعمران الديار وتزيدان في الأعمار».

(ب) وفي وسائل الشيعة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «البر وصدقة السرّ ينفيان الفقر ويزيدان في العمر، ويدفعان عن سبعين ميتة سوء».

تشير الآية التالية- التي تعتبر قسماً آخر من آيات الآفاق الدالة على عظمته وقدرته سبحانه وتعالى- إلى خلق البحار وبركاتها وفوائدها، فتقول الآية الكريمة: «وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ».

فمع أنّ كلا البحرين في الأصل كانا بصورة قطرات من الماء الصافي والسائغ نزلت من

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٥

السماء إلى الأرض، وأنّ كليهما من أصل واحد، إلّا أنّهما يظهران على هيتين متفاوتتين تماماً وبفوائد متفاوتة أيضاً.

والعجيب أنّ الإنسان يحصل على السمك الطازج من كل منهما: «وَمَنْ كُلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا». علاوة على إمكانية الاستفادة من كليهما للنقل والانتقال «وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرٍ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يستخرج من البحار وسائل الزينة المختلفة من أمثال (اللؤلؤ- والمرجان- والصدف- والدرّ)، وتركيز القرآن على ذكر هذه المسألة لأنّ روح الإنسان تختلف عن الحيوان باحتوائها على أبعاد مختلفة منها «الحس الجمالي» الذي هو منبع ظهور جميع المسائل الذوقية والفنية والأدبية التي يؤدي إشباعها بصورة صحيحة إلى إشاعة السرور في النفس.

إنّ البضائع التي يتم حملها ونقلها عبر البحار، وكذا أعداد المسافرين الذين يتم نقلهم من مكان إلى آخر، على درجة من الكثرة بحيث لا يمكن مقايستها مع أية من وسائل النقل الاخرى.

وتأكيد القرآن الكريم على مفهوم «لحماً طرياً» إشارة عميقة المحتوى لفوائد التغذية بهذه اللحوم في مقابل أضرار اللحوم القديمة والمعلّبة وأمثال ذلك.

جملة «لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» لها معنى واسع وشامل لكل فعالية اقتصادية تعتمد على البحر.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَمَّا يَشِيعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَئِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) تعاود هذه الآيات الإشارة إلى قسم آخر من آيات التوحيد والنعم الإلهية اللامتناهية، لكي تدفع الإنسان مع تعريفه بتلك النعم إلى شكرها ومعرفة المعبود الحقيقي، وليرجع عن أي شرك أو عبادة خرافية. يقول تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ».

«يولج»: من مادة «إيلاج» بمعنى الدخول في مضيق. ويمكن أن يكون إشارة إلى أحد

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٦

المعنيين أو كليهما، أي: الزيادة والنقص التدريجي في الليل والنهار على مدار السنة، مما يؤدي إلى حصول الفصول المختلفة بكل آثارها وبركاتها، أو الانتقال التدريجي من الليل إلى النهار وبالعكس، وذلك بواسطة الشفق والغسق الذي يقلل من مخاطر الانتقال

المفاجيء من النور إلى الظلام وبالعكس. ثم يشير إلى مسألة تسخير الشمس والقمر فيقول تعالى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». وأي تسخير أفضل من حركة هذين الكوكبين باتجاه تحقيق المنافع المختلفة للبشر، وهذا التسخير يعتبر مصدراً لمختلف أنواع البركات في حياة البشر.

ومع ما تتمتع به الشمس والقمر في أفلاكها من مسير دقيق ومنتظم لتؤدي المنفعة المناسبة والجيدة للبشر، فإن النظام الذي يحكمها ليس بخالد. لذا يشير تعالى إلى ذلك بعد ذكر التسخير فيقول: «كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى». ثم يقول تعالى مسلطاً الضوء على نتيجة هذا البحث التوحيدي: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ». الله الذي قرّر نظام النوم والظلام والحركات الدقيقة للشمس والقمر بكل بركاتهما. «لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ».

«قطمير»: هو الأثر في ظهر النواة، وهنا كناية عن موجودات حقيرة تافهة.

ثم تضيف الآية: «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَأَيْدِيكُمْ دُعَاءِكُمْ»، لأنها قطع من الحجر والخشب لا- أكثر، جمادات لا- شعور لها، «وَلَوْ سَـجَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ».

إذ اتضح أنها لا تملك نفعاً ولا ضرراً حتى بمقدار (قطمير).

وأدهى من ذلك «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ».

ما ورد في هذه الآية شبيه بما ورد في الآية (٢٨) من سورة يونس حيث يقول تعالى:

«وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَأَيْتُنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ».

ثم يقول تعالى في ختام الآية من أجل تأكيد أكثر أن لا- أحد يخبرك عن جميع الحقائق كما يخبرك الله تعالى: «وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ».

فإذا قالت الآية أن الأصنام تتنكر لكم في يوم القيامة، وتتضيق منكم، فلا تتعجبوا من هذا القول، فإن من يخبركم هو الذي يعلم بكل ما في هذا الكون بالتفصيل.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٧

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا وَكَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَىٰ فإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) بعد الدعوة المؤكدة إلى التوحيد ومحاربه أي شكل من أشكال الشرك وعبادة الأوثان، يحتمل أن يتوهم البعض فيقول: ما هي حاجة الله لأن يُعبد بحيث يصر كل هذا الإصرار، فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

فالقائم بذاته غير المحتاج لسواه، واحد أحد، وهو الله تعالى، وكل البشر بل كل الموجودات محتاجة إليه في جميع شؤونها وفقيرة إليه ومرتبطة بذلك الوجود المستقل بحيث لو قطع إرتباطها به لحظه واحدة لأصبحت عدم في عدم.

فنحن المحتاجون والفقراء إلى الله ونسلك سبيل تكاملنا عن طريق عبادته وطاعته، ونقترب بذلك من مصدر الفيض اللامتناهي، ونعترف من أنوار ذاته وصفاته.

وعليه فهو «غني» كما أنه «حميد» أي إنه في عين إستغنائه عن كل أحد، فهو رحيم وعطوف وأهل بكل حمد وشكر.

الإلتفات إلى هذه الحقيقة له أثران إيجابيان على المؤمنين، فهي تستنزلهم من مركب الغرور والأنانية والطغيان من جانب، وتنبههم إلى أنهم لا يملكون شيئاً من أنفسهم يستقلون به، وأنهم مؤتمنون على كل ما في أيديهم من جانب آخر، لكي لا يمدوا يد الحاجة إلى غيره، ولا يضعوا طوق العبودية لغير الله في أعناقهم.

ولتأكيد هذا الفقر والحاجة في الإنسان، يقول تعالى في الآية التالية: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ». فهو تعالى ليس محتاجاً لطاعتكم ولا خائفاً من معصيتكم.

وفي الآية الثالثة أيضاً يعود التأكيد مرة ثانية فيقول تعالى: «وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ».

نعم، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وهذا يصدق على جميع عالم الوجود.

الآية الأخيرة من هذه الآيات تشير إلى خمسة مواضيع فيما يتعلق بما سبق بحثه في الآيات السابقة:

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٨

الأول: من الممكن أن يثير ما ورد في الآية الماضية من قوله تعالى: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ». سؤالاً في أذهان البعض من أن المقصودين في هذه الآية ليس المذنبين فقط، فهل يمكن أن يكون هؤلاء أيضاً معرضين للعقوبات المترتبة على أعمال الطالحين، ويحكمون بالفناء على حد سواء؟ هنا يجيب: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

«وزر»: بمعنى الثقل، وقد اخذ من «وزر» (على زنة كرب) بمعنى الملجأ في الجبل، وأحياناً يأتي بمعنى المسؤولية.

وهذه الجملة ترتبط من جانب بالعدل الإلهي، بحيث يرتهن كل بعمله، ومن جانب آخر فإن فيها إشارة إلى شدة العقوبة يوم القيامة. هذه المسألة تطرح في الجملة الثانية من الآية بشكل آخر، يقول تعالى: «وَأِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» (١).

وفي الجملة الثالثة من الآية، ترفع الستارة عن حقيقة أن إندارات الرسول صلى الله عليه وآله لها أثرها في القلوب المهتأة لذلك فقط، تقول الآية الكريمة: «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ».

فإن لم يكن خوف الله متمكناً من القلب، ولم يكن هناك إحساس بمراقبه قوة غيبية في السر أو العلن، ولم تنفع الصلاة التي تؤدي إلى إحياء القلب والتذكير بالله في تقوية ذلك الإحساس ... فلن يكون لإندارات الأنبياء أثر يذكر.

وفي الجملة الرابعة يعود مرة أخرى إلى حقيقة (إن الله غير محتاج لأحد) فتضيف: «وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ».

وفي الختام يتبّه في الجملة الخامسة إلى أن المحسنين والمسئئين إن لم ينالوا جزاء أعمالهم في الدنيا فليس لذلك أهمية ما دام المصير إلى الله: «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ».

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَمَّا الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ (٢٠) وَلَمَّا الظُّلُّ وَالنُّورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)

(١) «مثقلة»: بمعنى «الحامل لحمل ثقيل» ويقصد بها هنا حامل الوزر على عاتقه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٢٩

وما تستوى الظلمات ولا النور: تذكر الآيات مورد البحث - بما يتناسب مع البحوث التي مرّت حول الإيمان والكفر في الآيات السابقة - أربعة أمثلة جميلة للمؤمن والكافر، توضّح بأجلى شكل آثار الإيمان والكفر.

في المثال الأول: شبه «الكافر والمؤمن» ب «الأعمى والبصير» حيث تقول الآية الكريمة:

«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ».

الإيمان نور وإشراق، يعطى البصيرة والمعرفة للإنسان في النظرة إلى العالم، وفي الاعتقاد، والعمل وفي كل الحياة، أما الكفر فظلمة كالحجة، فلا إعتقاد صحيح ونظرة سليمة عن العالم، ولا عمل صالح.

وبما أن العين المبصرة وحدها لا تكفي لتحقيق الرؤية، فيجب توفر النور والإضاءة أيضاً لكي يستطيع الإنسان الإبصار بمساعدة هذين العاملين، تضيف الآية التالية: «وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ».

لأنّ الظلام منشأ الضلال، الظلام سبب السكون والركود، الظلام مسبب لكل أنواع المخاطر، أما النور والضياء فهو منشأ الحياة والمعيشة والحركة والرشد والنمو والتكامل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا الظُّلُّ وَلَا الخُرُورُ». فالمؤمن يستظل في ظل إيمانه بهدوء وأمن وأمان، أما الكافر فلكفره يحترق بالعذاب والألم. ثم يقول تعالى في آخر تشبيهه: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ». المؤمنون حيويون، سعاد متحركون، أما الكافر فمثل الخشب اليابس، لا فيها طراوة ولا ورق ولا ورد ولا ظل لها، ولا تصلح إلحطباً للنار.

وفي ختام الآية يضيف تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ». لكي يسمع دعوة الحق ويلبى نداء التوحيد ودعوة الأنبياء «وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ».

فمهما بلغ صراخك، ومهما كان حديثك قريباً من القلب، ومهما كان بيانك معتبراً، فإن الموتى لا يسعهم إدراك شيء من ذلك، ومن فقد الروح الإنسانية نتيجة الإصرار على المعاصي، وغرق في التعصب والعناد والظلم والفساد، فبديهي أن ليس لديه الإستعداد لقبول دعوتك.

وعليه فلا تقلق من عدم إيمانهم، ولا تجزع، فليس عليك من وظيفة إلّا الإبلاغ والإنذار «إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٠

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) لا عجب من عدم إيمان: توصّلنا في الآيات السابقة إلى أن هناك أفراداً كالأموات والعميان لا تترك مواضع الأنبياء في قلوبهم أدنى أثر، وعلى ذلك فإن الآيات مورد البحث تقصد مواضع الرسول صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص وتخفيف آلامه لكي لا يغتم كثيراً.

أولاً تقول الآية الكريمة: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ».

أوصل نداءك إلى مسامعهم، بشرهم بثواب الله، وأنذرهم عقابه، سواء استجابوا أو لم يستجيبوا.

ويضيف تعالى في الآية التالية: «وَإِن يُكَذِّبُوكَ». فلا عجب من ذلك، ولا تحزن بسبب ذلك، لأنه «فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

«البيّنات»: بمعنى الدلائل الواضحة والمعجزات التي تثبت حقايقه النبي؛ والمقصود ب «الزبر»: ذلك القسم من كتب الأنبياء التي تحتوى على العبرة والموعظة والنصيحة والمناجاة (كزبور داود)؛ وأما «الكتاب المنير» فتلك المجموعة من الكتب السماوية التي تحتوى على الأحكام والقوانين والتشريعات الاجتماعية والفردية المختلفة مثل التوراة والإنجيل والقرآن.

تشير الآية الأخيرة من هذه الآيات إلى العقاب الأليم لتلك المجموعة فتقول: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (١). فهم لم يكونوا بمنأى عن العقاب الإلهي، وإن استطاعوا أن يستمروا بتكذيبهم إلى حين.

فبعض عاقبتهم بالطوفان، وبعض بالريح العاصف المدمرة، وآخرون بالصيحة والصاعقة والزلزلة.

أخيراً لتأكيد وبيان شدة وقسوة العقوبة عليهم يقول: «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ». ذلك تماماً

(١) «أخذت»: من مادة «أخذ» بمعنى حيازة الشيء وتحصيله، لكنّها هنا كناية عن المجازاة، لأنّ الأخذ مقدّمه للعقاب.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣١

مثلاً يقوم شخص بإنجاز عمل مهم ثم يسأل الحاضرين: كيف كان عملي؟

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْبَانِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَحْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) العجائب

المختلفة للخلق: مرة اخرى تعود هذه الآيات إلى مسألة التوحيد، وتفتح صفحة جديدة من كتاب التكوين أمام ذوى البصائر من الناس، لكى ترد بعنف على المشركين المعاندين ومنكرى التوحيد المتعصبين. أولًا تقول الآية الكريمة: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا».

شروع هذه الجملة بالإستفهام التقريرى، وبتحريك حس التساؤل لدى البشر، إشارة إلى أن هذا الموضوع جلى إلى درجة أن أى شخص إذا نظر من موقع طلب الحقيقة أبصرها.

نعم، يبصر هذه الفواكه والزهور الجميلة والأوراق والبراعم المختلفة بأشكال مختلفة تتولد من ماء وتراب واحد.

«ألوان»: قد يكون المراد «الألوان الظاهرية للفواكه» أو كناية عن التفاوت فى المذاق والتركيب والخواص المتنوعة لها.

ثم تشير الآية إلى تنوع أشكال الجبال والطرق الملونة التى تمر من خلالها وتؤدى إلى تشخيصها وتفريقها الواحدة عن الاخرى، فتقول: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبٌ سُودٌ».

«جدد»: جمع «جدة» بمعنى الجادة والطريق.

«بيض»: جمع «أبيض» كما أن «حمر» جمع «أحمر» وهو إشارة إلى الألوان.

«غرايب»: جمع «غريب» - على وزن كبريت - وهو الشبيه للغراب فى السواد.

فإن تشكيل الجبال بألوان مختلفة من جهة، وتلوين الطرق الجبلية بألوان متفاوتة، من جهة اخرى، دليل آخر على عظمة وقدره وحكمة الله سبحانه وتعالى التى تتجلى وتترين كل آن بشكل جديد.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٢

وفى الآية التالية تطرح مسألة تنوع الألوان فى البشر والاحياء الاخرى، فيقول تعالى:

«وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ».

فالبشر مع كونهم جميعاً لأب واحد وام واحدة، إلا أنهم عناصر وألوان متفاوتة تماماً، فالبعض أبيض البشرة كالوفر، والبعض الآخر أسود كالحرير، وحتى فى العنصر الواحد فإن التفاوت فى اللون شديد أيضاً.

ناهيك عن التفاوت والإختلاف الكامل فى بواطنهم عدا أشكالهم الظاهرية، وفى خلقهم ورجباتهم وخصوصيات شخصياتهم وإستعداداتهم وذوقهم.

وبعد عرض تلك الأدلة التوحيدية يقول تعالى فى الختام جامعاً: نعم إن الأمر كذلك «كَذَلِكَ».

ولأن إمكانية الإنتفاع من آيات الخلق العظيمة هذه تتوفر أكثر عند العباد العقلاء والمفكرين يقول تعالى فى آخر الآية: «إِنَّمَا يُخَشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

نعم فالعلماء من بين جميع العباد، هم الذين نالوا المقام الرفيع من الخشية «وهى الخوف من المسؤولية متوافق مع إدراك لعظمة الله سبحانه»، حالة (الخشية) هذه تولدت نتيجة سبر أغوار الآيات الآفاقية والأنفسية، والتعرف على حقيقة علم وقدره الله وغاية الخلق.

الراغب فى مفرداته يقول: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها».

روى - فى تفسير مجمع البيان - عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يعنى بالعلماء من صدق قوله فعله ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم».

وفى ختام الآية يقول تعالى، كدليل موجز على ما مر: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ».

«عزته» وقدرته اللامتناهية منبع للخوف والخشية عند العلماء، و «غفرانه» سبب فى الرجاء والأمل عندهم، وبذا فإن هذين الاسمين المقدسين يحفظان عباد الله بين الخوف والرجاء، ونعلم بأنه لا يمكن إدامة الحركة باتجاه التكامل بدون الإتصاف بهاتين الصفتين بشكل متكافئ.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٣

التجارة المربحة مع الله: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى مرتبة الخوف والخشية عند العلماء، تشير الآيات مورد البحث إلى مرتبة «الأمل والرجاء» عندهم أيضاً. يقول تعالى أولاً: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ».

إن «التلاوة» هنا لا تعني مجرد القراءة السطحية الخالية من التفكير والتأمل، بل قراءة تكون سبباً وبعثاً على التفكير، الذي يكون بدوره باعثاً على العمل الصالح، الذي يربط الإنسان بالله من جهة، ومظهر ذلك الصلاة، ويربطه بخلق الله من جهة ثانية، ومظهر ذلك الإنفاق من كل ما تفضل به الله تعالى على الإنسان.

هذا الإنفاق تارة يكون (سراً)، فيكون دليلاً على الإخلاص الكامل؛ وتارة يكون (علانية) فيكون تعظيماً لشعائر الله ودافعاً للآخرين على سلوك هذا الطريق.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، توضح هدف هؤلاء المؤمنين الصادقين فتقول: إنهم يعملون الخيرات والصالحات «لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ».

هذه الجملة تشير إلى منتهى إخلاصهم، لأنهم لا ينظرون إلّا إلى الأجر الإلهي.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) بعد أن كان الحديث في الآيات السابقة عن المؤمنين المخلصين الذين يتلون الكتاب الإلهي ويطبّقون وصاياه، تتحدث هذه الآيات عن ذلك الكتاب السماوي وأدلة حقانيته، وكذلك عن الحملة الحقيقية لذلك الكتاب، وبذا يستكمل الحديث الذي افتتحته الآيات السابقة حول التوحيد، بالبحث الذي تشره هذه الآيات حول النبوة. تقول الآية الكريمة:

«وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ».

جملة «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» دليل آخر على صدق هذا الكتاب السماوي.

جملة «إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ» توضح علمه حقانيته القرآن وإنسجامه مع الواقع جَنَاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٤

والحاجات البشرية، لأنه نازل من الله سبحانه وتعالى الذي يعرف عباده خير معرفة، وهو البصير الخبير فيما يتعلق بحاجاتهم. «الخبير»: العالم بالباطن والعقائد والنيات والتباعد الروحي في الإنسان؛ و «البصير»:

العالم بالظواهر والتباعد الجسماني للإنسان.

الآية التالية تتحدث في موضوع مهم بالنسبة إلى حملة هذا الكتاب السماوي العظيم، أولئك الذين رفعوا مشعل القرآن الكريم بعد نزوله على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، في زمانه وبعده على مَرِّ القرون والعصور، وهم يحفظونه ويحرسونه، فتقول: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا».

والمقصود من «الكتاب» هنا، «القرآن الكريم».

إن «الإرث» يطلق على ما يستحصل بلا مشقة أو جهد، والله سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب السماوي العظيم للمسلمين هكذا بلا



مشقة أو جهد.

ثم تنتقل الآية إلى تقسيم مهم بهذا الخصوص، فتقول: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكُمْ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ».

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أوكل مهمته حفظ هذا الكتاب السماوي، بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى هذه الأمة، الأمة التي إصطفاها الله سبحانه، غير أن في تلك الأمة مجاميع مختلفة: بعضهم قصيروا في وظيفتهم العظيمة في حفظ هذا الكتاب والعمل بأحكامه، وفي الحقيقة ظلموا أنفسهم، وهم مصداق «ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ».

ومجموعة أخرى، أدت وظيفتها في الحفاظ والعمل بالأحكام إلى حد كبير، وإن كان عملها لا يخلو من بعض الزلات والتقصيرات أيضاً.

وأخيراً مجموعة ممتازة، أنجزت وظائفها العظيمة بأحسن وجه، وسبقوا الجميع في ميدان الاستباق.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٥

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن: هذه الآيات نتيجة لما ورد ذكره في الآيات الماضية.

يقول تعالى: «جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا».

«جنان»: جمع «جنة» بمعنى (الروضة) وكل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض؛ و «عدن»: بمعنى الاستقرار والثبات، وعليه فإن «جنان عدن» بمعنى «جنان الخلد والدوام والاستقرار». فإن هذا التعبير يشير إلى أن نعم الجنة العظيمة خالدة وثابتة.

ثم تشير الآية إلى ثلاثة أنواع من نعم الجنة، بعضها إشارة إلى جانب مادي وبعضها الآخر إلى جانب معنوي وباطني، وبعض أيضاً يشير إلى عدم وجود أي نوع من المعوقات.

فتقول الآية: «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ».

فهؤلاء لم يلتفتوا في هذه الدنيا إلى بريقها وزخرفها، ولم يكونوا أسرى التفكير باللباس الفاخر، والله سبحانه وتعالى يعوضهم عن كل ذلك، فيلبسهم في الآخرة أفخر الثياب.

بعد ذكر تلك النعمة المادية، تنتقل الآية مشيرة إلى نعمة معنوية خاصة فتقول: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ».

«الحزن»: (على وزن عدم)، و «الحزن» - على وزن عسر - كليهما لمعنى واحد، وأصله الوعورة والخشونة في الأرض واطلق على الخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم ويضاده الفرح.

ثم يضيف أهل الجنة هؤلاء: «إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ».

بغفرانه أزال عنا حسرة الزلات والذنوب، وبشكره وهبنا المواهب الخالدة التي لن يلقي عليها الغم بظلاله المشؤومة.

أخيراً تنتقل الآية مشيرة إلى آخر النعم، وهي عدم وجود عوامل الإزعاج والمشقة والتعب والعذاب، فتحكى عن ألسنتهم «الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَنَمَسَّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ».

«النصب»: بمعنى التعب؛ و «اللغوب»: يطلق على المشاق الروحية.

وبذا فلا وجود هناك لعوامل التعب والمشقة، سواء كانت نفسية أو جسمانية.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٦

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا: القرآن الكريم يقرن (الوعيد) (بالوعد) ويذكر «الإنذارات»، إلى جانب «البشارات» لتقوية عاملى الخوف والرجاء الباعثين للحركة التكاملية في الإنسان. فمتابعة

للحديث الذي كان في الآيات السابقة عن المواهب الإلهية، ينتقل الحديث هنا إلى العقوبات الأليمة للكفار، والحديث هنا أيضاً عن العقوبات المادية والمعنوية. تبدى الآيات بالقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ»، فكما أن الجنة دار المقامة والخلد للمؤمنين، فإن النار أيضاً مقام أبدي للكافرين.

ثم تضيف: «الْأَيْقُضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا». فالموت بالنسبة إلى هؤلاء ليس سوى منفذ للخلاص من العذاب، لكن الله تعالى أوصد دونهم ذلك المنفذ.

يبقى منفذ آخر هو أن يقبوا على قيد الحياة ويخفف عنهم العذاب شيئاً فشيئاً، أو أن يزداد تحملهم للعذاب فينتج عن ذلك تخفيف العذاب عنهم، ولكن تتمه الآية أغلقت هذا المنفذ أيضاً: «وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا».

ثم تضيف الآية وللتأكيد على قاطعية هذا الوعد الإلهي: «كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ».

فجزاء الكفار ليس سوى الحريق والعذاب الأليم، الحريق بالنار التي أشعلوها بأيديهم في الحياة الدنيا واحتطبوا لها من أفكارهم وأعمالهم ووجودهم.

وتنتقل الآية التالية إلى وصف نوع آخر من العذاب الأليم، وتشير إلى بعض النقاط الحساسة في هذا الخصوص، فتقول الآية الكريمة: «وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» (١).

(١) «يصطرخون»: من مادة «صرخ» بمعنى الصياح الشديد الذي يطلقه الإنسان من القلب للإستغاثة وطلب النجدة، للتخلص من الألم أو العذاب أو أي مشكل آخر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٧

فهم بمشاهدة نتائج أعمالهم السيئة، يغرقون في ندم عميق، ويصرخون من أعماق قلوبهم ويطلبون المحال، العودة إلى الدنيا للقيام بالأعمال الصالحة.

ففي قبال ذلك الطلب الذي يطلبه اولئك من الله سبحانه وتعالى، يصدر ردّ قاطع عنه سبحانه وتعالى حيث يقول: «أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ». فإذا لم تنتفعوا بكل ما توفر بين أيديكم من وسائل النجاة تلك ومن كل الفرص الكافية المتاحة «فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ».

في الآية الأخيرة- من هذه الآيات- يرد الجواب على طلب الكفار في العودة إلى الدنيا فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

فهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو استجاب لما طلبه منه أهل جهنم، وأعادهم إلى الدنيا فسوف يعاودون نفس المسيرة المنحرفة التي كانوا عليها.

إضافة إلى ذلك فالآية تنبيه للمؤمنين على أن يسعوا لتحقيق الإخلاص في نياتهم، وأن لا يأخذوا بنظر الاعتبار غير الله سبحانه وتعالى. هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقْتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوراً (٤١) تنتقل الآيات إلى مرحلة أخرى من تشخيص عوامل ضعف وبتلان مناهج الكفار والمشركين في التعامل أو التفكير لتكامل البحوث التي مرّت في الآيات السابقة، فتقول أولاً:

«هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْفَ فِي الْأَرْضِ».

«خلائف»: هنا سواء كانت بمعنى خلفاء وممثلة الله في الأرض، أم بمعنى خلفاء الأقبام السابقين، فهي دليل على منتهى اللطف الإلهي

على البشر حيث إنه قبيح لهم جميع إمكانات

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٨

الحياة، أعطاهم العقل والشعور والإدراك، وعلمه طريقة الاستفادة من تلك الإمكانيات، فكيف نسي الإنسان والحال هذه ولى نعمته الأصلي. هذه الجملة بيان ل «توحيد الربوبية» الذى هو دليل على «توحيد العبادة». وهذه الجملة أيضاً تنبيه للبشر جميعاً ليعلموا بأن مكنتهم ليس أبدياً ولا خالداً، فكما أنهم خلائف لأقوام آخرين، فما هى إلّامدّة حتى ينتهى دورهم ويكون غيرهم خلائف لهم. لذا تردف الآية قائلة: «فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا». فغضبه بمعنى رفع الرحمة ومنع اللطف الإلهى من شمول اولئك الذين ارتكبوا السيئات.

الآية التالية ترد على المشركين بجواب قاطع حازم، وتذكّرهم بأن الإنسان إذا اتّبع أمراً أو تعلّق بأمر، فيجب أن يكون هناك دليل عقلى على هذا الأمر، أو دليل نقلى ثابت، وأنتم أيها الكفار حيث لا تملكون أيّاً من الدليلين فليس لديكم سوى المكر والغرور. تقول الآية الكريمة: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ». فهل خلقوا شيئاً فى الأرض، أم شاركوا الله فى خلق السماوات؟!

ومع هذا الحال فما هو سبب عبادتكم لها، لأن كون الشيء معبوداً فرع كونه خالقاً.

والآن بعد أن ثبت أنكم لا تملكون دليلاً عقلياً على ادّعاءكم، فهل لديكم دليل نقلى؟

«أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ».

كلّا، فليس لديهم أى دليل أو بينة أو برهان واضح من الكتب الإلهية، إذ ليس لديهم سوى المكر والخديعة: «بَلْ إِنْ يِعِدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا».

وتنتقل الآية التى بعدها إلى الحديث عن حاكمية الله سبحانه وتعالى على مجموعة السماوات والأرض، وفى الحقيقة فإنها تنتقل إلى إثبات توحيد الخالقية والربوبية بعد نفي اشتراك المعبودات الوهمية فى عالم الوجود فتقول: «إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا».

فليس بدء الخلق - فقط - مرتبطاً بالله، فإن حفظ وتدبير الخلق مرتبط بقدرته أيضاً، بل إن المخلوقات فى كل لحظة لها خلق جديد، وفيض الوجود يغمر الخلق لحظة بعد اخرى من مبدأ الفيض. ولو قطعت الرابطة بين الخلق وبين ذلك المبدأ العظيم الفيض، فليس إلّا العدم والفاء.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٣٩

وللتأكيد تضيف الآية قائلة: «وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ».

فلا الأصنام التى صنعتموها ولا الملائكة، ولا غير ذلك، لا أحد غير الله قادر على ذلك.

وفى ختام الآية - لكى يبقى طريق الأوبة والإنابة أمام المشركين الضالين مفتوحاً - يقول تعالى محذراً لهم التوبة فى كل مرحلة من الطريق: «إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا».

فبمقتضى (حلمه) لا يتعجل عقابهم، وبمقتضى (غفرانه) يتقبل توبتهم - بشرائطها - فى أى مرحلة من مراحل مسيرهم.

وَأَفْسَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ نَذِيرًا لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِيْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سِنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسِنََّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسِنََّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنَّا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)

سبب النزول

في تفسير الدر المنثور: بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من إحدى الامم. فلما أشرقت شمس الإسلام من افق بلادهم، وجاءهم النبي صلى الله عليه وآله بالكتاب السماوى، رفضوا، بل كذبوا، وحاربوا، ومارسوا أنواع المكر والخديعة. فنزلت الآيات أعلاه تلومهم وتوبخهم على إدعاءاتهم الفارغة.

التفسير

إستكبارهم ومكرهم سبب شقائهم: تواصل هذه الآيات الحديث عن المشركين ومصيرهم فى الدنيا والآخرة. الآية الاولى تقول: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ».

فعندما طالعوا صفحات التاريخ، تعجبوا كثيراً وادَّعوا لأنفسهم الإدعاءات وتفاخروا على هؤلاء بأن يكون حالهم أفضل منهم. مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٠

حيث أشار القرآن إلى ذلك بعد الجملة الاولى من الآية بالقول: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا».

هذا التعبير يدل على أنهم كانوا قبل بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى خلاف ما يدَّعون- بعيدين عن دين الله سبحانه وتعالى، فقد كانت حنيفية إبراهيم معروفة بينهم، إلا أنهم لم يكونوا يحترمونها.

الآية التالية توضيح لما فى الآية السابقة، تقول: إنَّ بَعْدَهُمْ عَنِ الْحَقِّ لِأَنَّهُمْ سَلَكُوا طَرِيقَ الْاِسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ أَهْلِيَّةُ الْخُضُوعِ لِمَنْطِقِ الْحَقِّ: «اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ». وكذلك لأنهم كانوا يحتالون ويسئون «وَمَكْرَ السَّيِّئِ». ولكن «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ».

جملة «لا يحيق»: الفعل (يحيق) من (حاق) بمعنى نزل وأصاب، والجملة معناها «لا ينزل ولا يصيب ولا يحيط»؛ إشارة إلى أن الاحتيال قد يؤدي- مؤقتاً- إلى الإحاطة بالآخرين، ولكنه فى النهاية يعود على صاحبه، فهو مفضوح وضعيف وعاجز أمام خلق الله، وسيندمون حتماً أمام الله سبحانه وتعالى، وذلك هو المصير المشؤوم الذى انتهى إليه مشركو مكة.

هذه الآية تريد القول بأنهم لم يكتفوا فقط بالإبتعاد عن النبي صلى الله عليه وآله، بل إنهم استعانوا بكل قدرتهم واستطاعتهم لأجل إنزال ضربة قوية به وبدعوته، والسبب فى كل ذلك لم يكن سوى الكبر والغرور وعدم الرضوخ للحق.

ختام الآية تهديد لتلك المجموعة المستكبرة الماكرة والخائنة، وجملة عميقة المعنى وبكلمات تهز المشاعر، يقول تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ».

هذه الجملة تشير إلى جميع المصائر المشؤومة التى أحاقت بالأقوام السالفة كقوم نوح، وعاد، وشمود، وقوم فرعون، حيث أصاب كلًّا منهم بلاء عظيم.

ثم تضيف الآية لزيادة التأكيد قائلة: «فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا».

الآية التالية تدعو هؤلاء المشركين والمجرمين إلى مطالعة آثار الماضين والمصير الذى وصلوا إليه، حتى يروا بآم أعينهم فى آثارهم ومواطنهم السابقة جميع ما سمعوه، وبذا يتحول البيان إلى العيان، فتقول الآية الكريمة: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤١

فإذا كانوا يتصورون أنهم أشد قوة من اولئك فهم على إشتباه عظيم، لأنَّ الأقوام السالفة كانت أقوى منهم: «وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً». إضافةً إلى أن الإنسان مهما بلغ من القوة والقدرة، فإنَّ قدرته وقوته لا شىء إزاء قوة الله، لماذا؟ لأنه «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ». فهو العليم القدير: «إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا»، لا يخفى عليه شىء، ولا يستعصى على قدرته شىء، ولا يغلبه أحد.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) لولا لطف الله ورحمته: الآية مورد البحث وهي الآية الأخيرة من آيات سورة فاطر، وبعد تلك البحوث الحادة والتهديدات الشديدة التي مرّت في الآيات المختلفة للسورة، تنهى هذه الآية السورة ببيان اللطف والرحمة الإلهية بالبشر، تماماً كما ابتدأت السورة بذكر إفتتاح الله الرحمة للناس.

زيادة على ذلك، فإن الآية السابقة التي تهدد المجرمين والكفار بمصير الأقوام الغابرين، تطرح كذلك السؤال التالي، وهو إذا كانت السنة الإلهية ثابتة على جميع الطغاة والعاصين، فلماذا لا يعاقب مشركو مكة؟! وتجب على السؤال قائلة: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا». ولا يمنحهم فرصة لإصلاح أنفسهم والتفكير في مصيرهم وتهذيب أخلاقهم: «مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» (١).

نعم لو أراد الله مؤاخذتهم على ذنوبهم لأنزل عليهم عقوبات متتالية، صواعق، وزلازل، وطوفانات، فيدمر المجرمين ولا يبقى أثراً للحياة على هذه الأرض. «وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» ويعطيهم فرصة للتوبة وإصلاح النفس.

هذا الحلم والإمهال الإلهي له أبعاد وحسابات خاصة، فهو إمهال إلى أن يحل أجلهم «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا». «نهاية تفسير سورة فاطر»

(١) «دابة»: من مادة «دب» والدب والديب مشى خفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر، ويستعمل في كل حيوان وإن اختصت في التعارف بالخييل.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٣

### ٣٦. سورة يس

محتوى السورة: يلاحظ في هذه السورة أربعة أقسام رئيسية:

١- تتحدث السورة أولاً عن رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والقرآن المجيد والهدف من نزول ذلك الكتاب السماوي العظيم.  
٢- قسم آخر من السورة يتحدث عن رسالة ثلاثة من أنبياء الله، وكيف كانت دعوتهم للتوحيد، وجهادهم المتواصل المرير ضد الشرك.

٣- قسم آخر منها، والذي يبدأ من الآية (٣٣) وحتى الآية (٤٤)، مملوء بالنكات التوحيدية الملفتة للنظر.

٤- قسم مهم آخر منها يتحدث حول المواضيع المرتبطة بالمعاد والأدلة المختلفة عليه، وكيفية الحشر والنشر، والسؤال والجواب في يوم القيامة، ونهاية الدنيا، ثم الجنة والنار.

وخلال هذه البحوث الأربعة ترد آيات محرّكة ومحفزة لأجل تنبيه وإنذار الغافلين والجهال، لها الأثر القوي في القلوب والنفوس.

فضيلة تلاوة السورة: سورة يس من أهم السور القرآنية، إلى حد أن الأحاديث لقبّتها بـ «قلب القرآن». ففي المجمع عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَس».

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَس، فَمَنْ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٤

قرأ يس في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسي، ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكل به ألف ملك يحفظونه من كل شيطان رجيم ومن كل آفة».

إن عظمة فضيلة هذه السورة إنما هي لعظمة محتواها.. محتوى يوقظ من الغفلة ويضخّ في النفس الإيمان، ويولد روح المسؤولية ويدعو إلى التقوى، بحيث إن الإنسان إذا تفكّر في هذه الآية وجعل ذلك التفكير يلقي بظلاله على أعماله، فإنه يفوز بخير الدنيا

والآخرة.

يس (١) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لَتُنذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَمَا يُؤْمِنُونَ (١٠) هذه السورة تبدأ- كما هو الحال فى ثمان وعشرين سورة اخرى- بحروف مقطعة وهى «يس».

فى تفسير على بن إبراهيم: قال الصادق عليه السلام: «يس اسم رسول الله صلى الله عليه وآله والدليل عليه قوله: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

بعد هذه الحروف المقطعة- وكما هو الحال فى أغلب السور التى تبدأ بالحروف المقطعة- يأتى الحديث عن القرآن المجيد، فيورد هنا قسمًا بالقرآن، إذ يقول: «وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ».

الملفت للنظر أنه وصف «القرآن» هنا بـ «الحكيم»، فى حين أن الحكمة عادةً صفة للعاقل، كأنه سبحانه يريد طرح القرآن على أنه موجود حى وعاقل ومرشد، يستطيع فتح أبواب الحكمة أمام البشر.

بديهى أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأن يقسم، ولكن الأقسام القرآنية تتضمن- دائماً- فائدتين أساسيتين: الأولى التأكيد على الموضوع اللاحق للقسم، والثانية بيان عظمة الشىء الذى يقسم به الله تعالى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٥

الآية التى بعدها توضّح الأمر الذى من أجله أقسم الله تعالى فى مقدمه السورة الكريمة:

«إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

بعد ذلك تضيف الآية: «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ».

فإن عزّته ورحمته إحداهما مظهر للإنذار والأخرى للبشارة، وياقترانهما جعل هذا الكتاب السماوى العظيم فى متناول البشرية.

الآية التالية تشرح الهدف الأصلى لنزول القرآن كما يلى: «لَتُنذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ». أى إنه لم يأت نذير لآبائهم.

إنّ الهدف من نزول القرآن الكريم كان تنبيه الناس الغافلين، وتذكيرهم بالمخاطر المحيطة بهم، والذنوب والمعاصى التى إرتكبوها، والشرك وأنواع المفسدات التى تلوثوا بها.

ثم يتبأ القرآن الكريم بما يؤول إليه مصير الكفار والمشركين فيقول تعالى: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

والمراد من «القول» هنا الوعيد الإلهى لكل أتباع الشيطان بالعذاب فى جهنم.

فإن ذلك يخص أولئك الذين قطعوا كل ارتباط لهم بالله سبحانه وتعالى، وأغلقوا عليهم منافذ الهداية بأجمعها، فهم لن يؤمنوا أبداً.

الآية التى بعدها تواصل وصف تلك الفئة المعاندة، فتقول: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ». أى: مرفوعى الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«أغلال»: جمع «غل» من مادة «غلل» ويعنى تدرع الشىء وتوسطه، ومنه الغلل (على وزن عمل) للماء الجارى بين الشجر. و «الغل» الحلقة حول العنق أو اليدين وتربط بعد ذلك بسلسلة، وبما أن العنق أو اليدين تقع فى ما بينها فقد استعملت هذه المفردة فى هذا المورد.

ويا له من تمثيل رائع حيث شبه القرآن الكريم حال عبدة الأوثان المشركين بحال هذا الإنسان، فقد طوّقوا أنفسهم بطوق «التقليد الأعمى»، وربطوا ذلك بسلسلة «العادات والتقاليد الخرافية» فكانت تلك الأغلال من العرض والإتساع أنها أبقّت رؤوسهم تنظر إلى الأعلى وحرمتهم بذلك من رؤية الحقائق، وبذلك فإنهم أسرى لا يملكون القدرة والفعالية والحركة، ولا قدرة الإبصار.

فإن الآيه أعلاه، تعتبر شرحاً لحال تلك الفئة الكافرة فى الدنيا وحالهم فى عالم الآخرة الذى هو تجسيد لمسائل هذا العالم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٦

الآية التالية تناول وصفاً آخر لحالة تلك المجموعة، وتمثيلاً ناطقاً عن عوامل وأسباب عدم تقبلهم الحقائق فتقول: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا». وحوصروا بين هذين السدّين وأمسوا لا يملكون طريقاً لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، آتند: «فَأَعَشَيْنَاهُم فَهْمٌ لِأَيِّبَصْرُونَ». فكذاك حال المستكبرين المعاندين العمى الصمّ في قبال الحقائق.

لهذا فإنه تعالى يقول في آخر آية من هذه المجموعة: «وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». فمهما كان حديثك نافذاً في القلوب ومهما كان أثر الوحي السماوي، فإنه لن يؤثر ما لم يجد الأرضية المناسبة.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) من هم الذين يتقبلون إنذارك: كان الحديث في الآيات السابقة عن مجموعة لا تملك أى استعداد لتقبل الإنذارات الإلهية ويتساوى عندهم الإنذار وعدمه، أما هذه الآيات فتتحدث عن فئة اخرى هي على النقيض من تلك الفئة، وذلك لكى يتضح المطلب بالمقارنة بين الفئتين كما هو اسلوب القرآن. تقول الآية الاولى من هذه المجموعة: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ».

التعبير ب «الغيب» هنا إشارة إلى معرفة الله عن طريق الاستدلال والبرهان.

جملة «فبشّره» تكميل للإنذار، إذ إن الرسول صلى الله عليه وآله في البدء ينذر، وحين يتحقق للإنسان اتباع الذكر والخشية وتظهر آثارها على قوله وفعله، هنا يبشّره البارئ عز وجل.

يبشّره بأن الله العظيم سيغفر له تلك الزلات جميعها، ويبشّره بعدئذ بأجر كريم وثواب جزيل لا يعلم مقداره ونوعه إلا الله سبحانه.

بعد ذلك وبما يتناسب مع البحث الذى كان فى الآية السابقة حول الأجر والثواب العظيم للمؤمنين، تنتقل الآية التالية إلى الإشارة إلى مسألة المعاد والبعث والكتاب والحساب والمجازاة، تقول الآية الكريمة: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٧

«وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ». وعليه فإن صحيفه الأعمال لن تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وتحفظها إلى يوم الحساب.

جملة «ما قدموا» إشارة إلى الأعمال التى قاموا بها ولم يبق لها أثر، أما التعبير «وآثارهم» فإشارة إلى الأعمال التى تبقى بعد الإنسان وتنعكس آثارها على المحيط الخارجى، من أمثال الصدقات الجارية (المباني والأوقاف والمراكز التى تبقى بعد الإنسان وينتفع منها الناس).

ثم تضيف الآية لزيادة التأكيد: «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ».

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أ إِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ (١٩) واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية: لمتابعة البحوث الماضية فى الآيات السابقة حول القرآن ونبوّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، والمؤمنين الصادقين، والكفار المعاندين، تطرح هذه الآيات نموذجاً من موقف الامم السابقة بهذا الصدد، وتتحدث حول تاريخ عدد من الأنبياء السابقين لتكون تنبيهاً لمشركى مكة من جهة، وتسلياً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ولفئة المؤمنين القليلة به فى ذلك اليوم، فإن التأكيد على إيراد هذه القصة فى قلب هذه السورة التى تعتبر هى بدورها قلب القرآن الكريم، بسبب تشابه ظروف تلك القصة مع ظروف المسلمين فى ذلك اليوم.

أولاً تقول الآية الكريمة: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ».

«القرية»: فى الأصل اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس، وتطلق أحياناً على نفس الناس أيضاً، لذا فمفهومها يتسع حتى يشمل المدن

والنواحي، وأطلقت في لغة العرب وفي القرآن المجيد مراراً على المدن المهمة مثل «مصر» و «مكة» وأمثالهما.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٨

والمراد من القرية هنا «أنطاكية» إحدى مدن بلاد الشام، فإنه يظهر جيداً من آيات هذه السورة أن أهل تلك المدينة كانوا يعبدون الأصنام، وأن هؤلاء الرسل جاؤوا يدعونهم إلى التوحيد ونبد الشرك.

ثم تنتقل الآيات إلى تفصيل الأحداث التي جرت فتقول: «إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ».

وفي أسماء هؤلاء الرسل قال بعض المفسرين: إن أسماء الإثنين «شمعون» و «يوحنا» والثالث «بولس».

الآن لننظر ماذا كان رد فعل هؤلاء القوم الضالين قبال دعوة الرسل. القرآن الكريم يقول: إِنَّهُمْ تَعَلَّلُوا بِنَفْسِ الْأَعْذَارِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يَتَذَرَعُ بِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْكُفَّارِ دَائِمًا فِي مَوَاجِهَةِ الْأَنْبِيَاءِ «قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ».

فإذا كان مقرراً أن يأتي رسول من قبل الله سبحانه، فيجب أن يكون ملكاً مقرباً وليس إنساناً مثلاً. هذه هي الذريعة التي تذرعوها بها لتكذيب الرسل وإنكار نزول التشريعات الإلهية.

فإن هؤلاء الأنبياء لم يياسوا جزاء مخالفه هؤلاء القوم الضالين ولم يضعفوا، وفي جوابهم:

«قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ». ومسؤوليتنا إبلاغ الرسالة الإلهية بشكل بين فحسب.

«وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ».

ويستفاد من تعبير «البلاغ المبين» إجمالاً أنهم أظهروا دلائل ومعاجز تشير إلى صدق ادعائهم، إذ أن البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقة تجعل من الميسر للجميع أن يدركوا مراده، وذلك لا يمكن تحقيقه إلا من خلال بعض الدلائل والمعجزات الواضحة.

وقد ورد في بعض الروايات أيضاً أن هؤلاء الرسل كانت لهم القدرة على شفاء بعض المرضى المستعصى علاجهم - بإذن الله - كما كان لعيسى عليه السلام.

ولكن الوثنيين لم يسلموا أمام ذلك المنطق الواضح وتلك المعجزات، بل إنهم زادوا من عنفهم في المواجهة، وانتقلوا من مرحلة التكذيب إلى مرحلة التهديد والتعامل الشديد «قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ».

ويحتمل حدوث بعض الوقائع السلبية لهؤلاء القوم في نفس الفترة التي بعث فيها هؤلاء الأنبياء، وكانت إما نتيجة معاصي هؤلاء القوم، أو كإشارات إلهية لهم.

وإنهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطة ببعثه هؤلاء الرسل، وأظهروا سوء نواياهم من

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٩

خلال التهديد الصريح والعلني، وقالوا: «لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ومن الممكن أن ذكر «العذاب الأليم» إشارة إلى أننا سنرجمكم إلى حد الموت.

هنا رد الرسل الإلهيون بمنطقهم العالي على هذيان هؤلاء: «قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ». فإذا أصابكم سوء الحظ وحوادث الشؤم، ورحلت بركات الله عنكم، فإن سبب ذلك في أعماق أرواحكم، وفي أفكاركم المنحطه وأعمالكم القبيحة المشؤومة، وليس في دعوتنا.

وفي الختام قال الرسل لهؤلاء: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ».

فإذا أنكرتم التوحيد وأشركتم فسبب ذلك هو الإسراف وتجاوز الحق، وإذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فسبب ذلك الإسراف في المعاصي والتلوث بالشهوات. وجاء من أفصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم

مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً

وَلَا يُنْفَعُونَ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا



غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسِيرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأ-كف: تشير هذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذي وردت الإشارة إليه في هذه القصة. والإشارة تتعلق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل وبشجاعتهم في قبال الأكتريه الكافره المشركه ... وكيف وقفوا حتى الرمح الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل. تشرح هذه الآيات بالقول: «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٠

مختصر الامثل ج ٤، ص: ١٩٩

هذا الرجل الذي يذكر أغلب المفسرين أن اسمه «حبيب النجار»، وحينما بلغه بأن مركز المدينة مضطرب ويحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع وأوصل نفسه إلى مركز المدينة ودافع عن الحق بما استطاع؛ بل إنه لم يدخر وسعاً في ذلك. التعبير «رجل» بصورة النكرة إشارة إلى أنه كان فرداً عادياً، ليس له قدرة أو إمكانيه متميزه في المجتمع، لكي يأخذ المؤمنين في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله درساً بأنهم وإن كانوا قلة في عصر صدر الإسلام، إلّا أنّ المسؤولية تبقى على عواتقهم، وأنّ السكوت غير جائز حتى للفرد الواحد.

والآن لننظر إلى هذا الرجل المجاهد، بأي منطق وبأي دليل خاطب أهل مدينته؟

فقد أشار أولاً إلى هذه القضية: «اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا». فتلك القضية بحدّ ذاتها الدليل الأول على صدق هؤلاء الرسل، فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أئيه منفعة مادية شخصية، ولا يريدون منكم مالاً ولا جاهاً ولا مقاماً، وحتى أنهم لا يريدون منكم أن تشكروهم. والخلاصة: لا يريدون منكم أجراً ولا أي شيء آخر.

وهذا ما أكدت عليه الآيات القرآنية مراراً فيما يخصّ الأنبياء العظام، كدليل على إخلاصهم وصفاء قلوبهم، وفي سورة الشعراء وحدها تكررت هذه الجملة خمس مرات «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».

ثم يضيف: إن هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم وكلامهم أنهم أشخاص مهتدون: «وَهُمْ مُهْتَدُونَ».

ثم ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذي يعتبر عماد دعوة هؤلاء الرسل، فيقول:

«وَمَا لِي لَأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي».

فإن من هو أهل لأن يُعبد هو الخالق والمالك والوهاب، وليس الأصنام التي لا تُضّر ولا تنفع.

وبعد ذلك يتبّه إلى أن المرجع والمآل إلى الله سبحانه فيقول: «وَاللَّيْلُ تَرْجَعُونَ». أي: لا تتصوروا أن الله له الأثر والفاعلية في حياتكم الدنيا فقط، بل إن مصيركم في العالم الآخر إليه أيضاً، فتوجهوا إلى من يملك مصيركم في الدارين.

وفي ثالث استدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام وإثبات العبودية لله بنفى العبودية للأصنام، فيكمل قائلاً: «ءَاتَخَذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدُنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَأَتَّعِنَ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِدُونَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥١

هنا أيضاً يتحدث عن نفسه حتى لا يظهر من حديثه أنه يقصد الإمرة والإستعلاء عليهم، وهو يحدّد الذريعة الأساس لعبدة الأوثان حينما يقولون: نحن نعبد الأصنام لكي تكون شفيعاً لنا أمام الله.

ثم يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد والتوضيح أكثر: إنّي حين أعبد هذه الأصنام وأجعلها شريكاً لله فإنّي سأكون في ضلال بعيد: «إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

فأبى ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامدة جنباً إلى جنب خالق السماوات والأرض.

وعندما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من إستعراض تلك الاستدلالات والتبليغات المؤثرة أعلن لجميع الحاضرين: «إِنِّي ءَامَنْتُ

بَرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ».

أما من هو المخاطب في هذه الجملة «فَاسْمِعُونِ»؟

لكن لننظر ماذا كان رد فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟

القرآن لا يصرح بشيء حول ذلك، ولكن يستفاد من طريقة الآيات التالية بأنهم ثاروا عليه وقتلوه.

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بعبارة جميلة مختصرة هي: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ».

إن هذا التعبير يدل على أن دخوله الجنة كان مقترناً باستشهاد هذا الرجل المؤمن.

والمقصود من الجنة هنا، هي (جنة البرزخ) لأنه يستفاد من الآيات ومن الروايات أن الجنة الخالدة يوم القيامة ستكون نصيب المؤمنين،

كما أن جهنم ستكون نصيب المجرمين.

فإن روح ذلك المؤمن الطاهرة، عرجت إلى السماء إلى جوار رحمة الله وفي نعيم الجنان، وهناك لم تكن له سوى أمنية واحدة: «قَالَ

يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ».

يا ليت قومي يعلمون بأى شيء «بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ». أى: ليت أن لهم عين تبصر الحق، لهم عين غير محجوبة

بالحجب الدنيوية الكثيفة والثقيلة، فيروا ما حُجب عنهم من النعمة والإكرام والإحترام من قبل الله، ويعلموا أى لطف شملنى به الله فى

قبال عدوانهم على .. لو أنهم يبصرون ويؤمنون، ولكن يا حسرة.

رأينا كيف أصر أهالى مدينة أنطاكية على مخالفة الإلهيين، والآن لننظر ماذا كانت نتيجة عملهم؟

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٢

القرآن الكريم يقول فى هذا الخصوص: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ».

فلسنا بحاجة إلى تلك الامور، لأن إشارة واحدة كانت كافية لتبديل عوامل حياتهم ومعيشتهم إلى عوامل موت وفناء.

ثم يضيف تعالى: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ».

فإنها لم تكن سوى صيحة لم تتجاوز اللحظة الخاطفة فى وقوعها، صيحة أسكتت جميع الصيحات، هزة أوقفت كل شيء عن التحرك.

الآية الأخيرة تتعرض إلى طريقة جميع متمردي التاريخ إزاء الدعوات الإلهية لأنبياء الله بلهجة جميلة تأسر القلوب فتقول: «يَا حَسِيرَةً

عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

هؤلاء الضالون المحرومون من السعادة لم يكتفوا بعدم الإستماع بأذان قلوبهم لنداء قادة البشرية العظام فقط، بل إنهم أصروا على

السخرية والإستهزاء منهم.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَمَا يَزِجُّونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) الغفلة الدائمة: تتحدث

هاتان الآيتان - استناداً إلى ما مر فى الآيات السابقة - عن الغفلة المستمرة لمجموعة كبيرة من البشر فى هذا العالم على مر العصور

والقرون، فتقول الآية:

«أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ».

فهؤلاء الكفار ليسوا بدعاً من الأمر، فقد كان قبلهم أقوام آخرون تمردوا على الحق مثلهم عاشوا فى هذه الدنيا، ومصائرهم الأليمة التى

ملأت صفحات التاريخ، فهل يكفى ذلك المقدار لتحقق العبرة والاعتبار؟

فى آخر الآية يضيف تعالى: «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَأَيَّزِحُّونَ». أى: أن رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران مافاتهم وتبديل ذنوبهم حسنات، فلم يبق

لهم سبيل للرجوع أبداً.

هذا التفسير يشبه بالضبط ما قاله على بن أبى طالب عليه السلام فى نهج البلاغة حينما تحدت فى أخذ العبرة من الموتى فقال: «لا عن

قبيح يستطيعون انتقالاً ولا فى حسن يستطيعون ازدياداً».

وتضيف الآية التالية: «وَإِنْ كَلَّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ». أى: أن المسألة لا تنتهى

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٣

بهلاكهم وعدم استطاعتهم العودة إلى هذه الدنيا، كلاً، فعاجلاً سيحضر الجميع فى عرصه المحشر للحساب، ثم العقاب الإلهى المتلاحق والمستمر فى إنتظارهم.

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) آيات اخرى: مما مرّ بحثه فى الآيات السابقة حول جهاد الرسل ضد الشرك وعبادة الأوثان، وكذلك التعرض إلى مسألة المعاد فى الآية الأخيرة من المقطع السابق، توضّح الآيات- مورد البحث- مسألتى التوحيد والمعاد معاً لإيقاظ المنكرين لهاتين المسألتين ودفعهم إلى الإيمان. تتعرض الآية الاولى إلى قضية إحياء الأرض الميتة والبركات التى تعود على الإنسان من ذلك فتقول: «وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ».

قضية الحياة والبقاء من أهمّ دلائل التوحيد، فبرغم التطور والتقدم الحاصل فى وسائل الدراسة وفى العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحل، وحتى الآن لم يُعلم تحت تأثير أى العوامل تتحول موجودات ميتة إلى خلايا حية؟ جملة «فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» إشارة إلى أن الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذية، بينما بعضها غير قابل للأكل، ولكن له فوائد اخرى كتغذية الحيوانات، وصناعة الأصباغ، والأدوية، والامور الاخرى التى لها أهمية فى حياة الإنسان.

الآية التالية توضيح وشرح للآية الاولى من هذه الآيات، فهى توضّح كيفية إحياء الأرض الميتة، فتقول: «وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ».

كان الحديث فى الآية الاولى عن الحبوب الغذائية، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوية والمغذية التى يعدّ «التمر» و «العنب» أبرز وأهمّ نماذجها حيث يعتبر كل منهما غذاءً كاملاً.

الآية التالية تشرح وتوضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركة المثمرة فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكى يأكلوا من ثمارها دون حاجة إلى بذل جهد فى ذلك ودون تدخّل

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٤

الإنسان فى صنعائها ... «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ».

ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابله للأكل بمجرد جنيها من أغصانها، ولا تحتاج إلى طبخ أو أية تغييرات اخرى. ذلك إشارة إلى غاية لطف الله بهذا الإنسان وكرمه. فالهدف هو تحريك حس تشخيص الحق، والشكر فى الإنسان، لكى يضعوا أقدامهم على أول طريق معرفة الله عن طريق الشكر، لأنّ شكر المنعم أول قدم فى طريق معرفته.

الآية الأخيرة من الآيات موضع البحث، تتحدث عن تسبيح الله وتنزيهه، وتشجب شرك المشركين الذى ذكرته الآيات السابقة، وتوضّح طريق التوحيد وعبادة الأحد الصمد للجميع فتقول: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ».

بديهى أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد ومنهاج عملى من أجل طى طريق التكامل.

إنّ هذه الآية واحدة من الآيات التى توضّح محدودية علم الإنسان، وتدلل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافية علينا وعن معلوماتنا حتى الآن.

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَّا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَّا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) هذه

الآيات تتحدث في قسم آخر من آثار عظمه الله في عالم الوجود. تقول الآية الكريمة الاولى: «وَأَيُّ لَّهُمَّ اللَّيْلُ نَسِيخٌ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ».

«نسخ»: من مادة «سرخ» وتعني في الأصل نزع جلد الحيوان، والتعبير في الآية تعبير لطيف، فكأن نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، يُنزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتي، والتأمل في هذا التعبير يوضح هذه الحقيقة، وهي أن الظلام هو الطبيعة الأصل للكرة الأرضية، وأنّ النور والإضاءة صفة عارضة عليها تأتيها من مصدر آخر، فهو

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٥

كاللباس الذي يرتدى، وحينما يُخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعي للبدن.

الآية التي بعدها تتعرض إلى النور والإضاءة وتذكر الشمس، فتقول: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا».

هذه الآية تبين بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر. أما ما هو المقصود من تلك الحركة؟ أحدث التفاسير التي ظهرت بخصوص هذه الآية، هو ما كشفه العلماء أخيراً من حركة الشمس مع منظومتها باتجاه معين ضمن المجرة التي تكون المجموعة الشمسية جزءاً منها، وقيل أن حركتها باتجاه نجم بعيد جداً أطلقوا عليه اسم «وجا».

فإن حركة كوكب الشمس الذي يعادل مليون ومائتي الف مرة حجم الأرض، بحركة دقيقة ومنظمة في هذا الفضاء اللامتناهي، ليس مقدوراً لغير الله سبحانه الذي تفوق قدرته كل قدره وبعلمه اللامتناهي، لذا فإن الآية تضيف في آخرها: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

أما آخر ما قيل في تفسير هذه الآية فهو أن تعبير الآية يشير إلى نظام السنة الشمسية الناشئة عن حركة الشمس عبر الأبراج المختلفة، ذلك النظام الذي يعطى لحياء الإنسان نظاماً وبرنامجاً معيناً يؤدي إلى تنظيم حياته من مختلف النواحي. لذا فإن الآية التالية تتحدث عن حركة القمر ومنازله التي تؤدي إلى تنظيم أيام الشهر، وذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: «وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ».

المقصود ب (المنازل) تلك المستويات الثمانية والعشرون التي يطويها القمر قبل الدخول في «المحاق» والظلام المطلق.

هذا النظام العجيب ينظم حياة الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى فهو تقويم سماوي طبيعي لا يحتاج إلى تعلم القراءة والكتابة لمتابعته. الآية الأخيرة من هذه الآيات، تتحدث عن ثبات ودوام ذلك النظم في السنين والشهور، والنهار والليل، فقد وضع الله سبحانه وتعالى لها نظاماً وبرنامجاً لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو إختلال في وضعها وحركتها، وبذا ثبت تاريخ البشر وانتظم بشكل كامل، تقول الآية: «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

من المعلوم أن الشمس تطوى في دورانها خلال العام الأبراج الإثني عشر، في حين أن القمر يطوى منازلها خلال شهر واحد، وعليه فحركة القمر أسرع من حركة الشمس في مدارها إثنى عشرة مرة، لذا فإن الآية تقول بأن الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرِك القمر مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٦

في حركته فتقطع في شهر واحد ما تقطعه في سنة واحدة. وبذا يختل النظام السنوي لها.

يتضح مما قلنا أن المقصود من حركة الشمس في هذا البحث، هي الحركة بحسب حسنا بها.

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَيْرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) حركة السفن في البحار آية إلهية: تحدثت الآيات السابقة عن دلالة قدرة الباري عز وجل في خلق الشمس والقمر والليل والنهار وكذلك الأرض وبركاتها، وفي هذه الآيات التي أمامنا يتحدث الباري عز وجل عن البحار وقسم من بركات ونعم ومواهب البحار، يعني حركة السفن التجارية والسياحية على سطحها. لذا فإن الآيات الكريمة تقول أولاً: «وَأَيُّ لَّهُمَّ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ».

فإن حركة السفن والبواخر التي هي من أهم وأضخم وسائل الحمل والنقل البشرية، وما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما

تستطيعه المركبات الاخرى، كل ذلك ناجم عن خصائص الماء ووزن الأجسام التي تصنع منها السفن، والطاقة التي تحرّكها، سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقة النووية. وكل هذه القوى والطاقات التي سخّرها الله للإنسان، كل واحدة منها وكلها معاً آية من آيات الله سبحانه وتعالى.

ولكى لا يتوهم أنّ المركب الذي أعطاه الله للإنسان هو السفينة فقط، تضيف الآية التالية قائلة: «وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ». المراكب التي تسيّر على الأرض، أو في الهواء وتحمل البشر وأثقالهم.

الآية التالية- لأجل توضيح هذه النعمة العظيمة- تتعرض لذكر الحالة الناشئة من تغيير هذه النعمة فتقول: «وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذون».

فنصدّر أمرنا لموجة عظيمة فتقلب سفنهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجة في كل إتجاه بأمرنا، ولكننا نحفظ هذا النظام الموجود ليستفيدوا منه. وإذا وقعت بين الحين والحين حوادث من هذا القبيل فإن ذلك لينتبهوا إلى أهميته هذه النعمة الغامرة. وأخيراً تضيف الآية لتكمل الحديث فتقول: «إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ».

نعم فهم لا يستطيعون النجاة بأية وسيلة إلا برحمتنا ولطفنا بهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٧

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعُمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) بعد أن كان الحديث في الآيات السابقة عن الآيات الإلهية في عالم الوجود، تنتقل هذه الآيات لتتحدث عن رد فعل الكفار المعاندين في مواجهة هذه الآيات الإلهية، وكذلك توضح دعوة النبي صلى الله عليه وآله لهم وإنذارهم بالعذاب الإلهي الأليم. يفتح هذا المقطع بالقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

إنّ المقصود بـ «ما بين أيديكم» العقوبات الدنيوية التي أوردت الآيات السابقة نماذج منها؛ والمقصود بـ «ما خلفكم» عقوبات الآخرة، وكأنه يراد القول بأنها خلفهم ولم تأت إليهم وسوف تصل إليهم في يوم ما وتحيط بهم؛ والمقصود بـ «التقوى» من هذه العقوبات، هو عدم إيجاد العوامل التي تؤدي إلى وقوع هذه العقوبات.

الآية التالية تؤكد نفس المعنى وتشير إلى لجاجة هؤلاء الكفار وإعراضهم عن آيات الله وتعاليم الأنبياء، تقول الآية الكريمة: «وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ».

فلا الآيات الأنفسية تؤثر فيهم، ولا الآفاقية، ولا التهديد والإنذار، ولا البشارة والتطمين بالرحمة الإلهية، فهم مبتلون بالعمى الكلي بحيث لا يتمكنون حتى من رؤية أقرب الأشياء إليهم، وحتى أنهم لا يفرقون بين ظلمة الليل وشمس الظهيرة.

ثم يشخص القرآن الكريم أحد الموارد المهمة لعنادهم وإعراضهم فيقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعُمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

ذلك المنطق الضعيف الذي يتمسك به الأنانيون والبخلاء في كل عصر وزمان ويقولون:

إنّ فلاناً أصبح فقيراً بسبب عمل ارتكبه وأدى به إلى الفقر، مثلما أننا أغنياء بسبب عمل عملنا فشمّلنا لطف الله ورحمته، وعليه فليس فقره ولا غنانا كانا بلا حكمة. غافلين عن أنّ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٨

الدنيا إنّما هي دار امتحان وإبتلاء، والله سبحانه وتعالى إنّما يمتحن البعض بالفقر كما يمتحن البعض بالغنّى والثروة، وربّما يضع الله الإنسان وفي وقتين مختلفين في بوتقة الامتحان:

الغنّى والفقر، وينظر هل يؤدّي الأمانة حال فقره ويتمتع بمناعه الطبع ويلج مراتب الشكر اللاتقّة، أم أنّه يبطأ كل ذلك بقدمه ويمرّ؟

وفي حال الغنى هل ينفق مما تفضل الله به عليه، أم لا؟

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَادِقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) صيحة الشور: بعد ذكر المنطق الأجوف والذرائع التي تشبث بها الكفار في مسألة الإنفاق في الآيات السابقة، تتعرض هذه الآيات إلى الحديث عن إستهزائهم بالقيامة، لتسف بجواب قاطع منطقيهم الفارغ حول إنكار المعاد.

مضافاً إلى أنها تكمل بحوث التوحيد التي مرت في الآيات السابقة بالبحث حول المعاد.

تقول الآية الكريمة الاولى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». فإذا لم تستطيعوا تشخيص زمان دقيق لقيام الساعة، فمعنى هذا أنكم لستم بصادقين في حديثكم.

الآية التالية ترد على هذا التساؤل المقرون بالسخرية بجواب قاطع حازم، وتخبرهم بأن قيام الساعة ليس بالأمر المعقد أو المشكل بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى: «مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ».

فكل ما يقع هو صيحة سماوية كافية لأن تقبض فيها أرواح جميع المتبقين من الناس على سطح الأرض بلحظة واحدة وهم على حالهم، وتنتهي هذه الحياة المليئة بالصخب والدعوى والمعارك والحروب، ليتخلف وراءها صمت مطبق، وتخلو الأرض من أي صوت أو إزعاج.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٥٩

في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم، والرجل يلبط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم».

«صيحة» صاح: رفع الصوت، وأصله تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشق فسمع منه صوت، وصيح الثوب كذلك.

«يخصمون»: من مادة «خصم» بمعنى النزاع.

والمقصود هو التخاصم على أمر الدنيا والامور المعيشية الاخرى.

فإن القرآن بهذا التعبير القصير والحازم إنما أراد تنبيههم إلى أن القيامة ستأتي وبشكل غير متوقع، هذا أولاً. وأما ثانياً فإن قيام الساعة ليس بالموضوع المعقد بحيث يختصمون ويتنازعون فيه، فبمجرد صيحة واحدة ينتهي كل شيء وتنتهي الدنيا بأسرها. لذا فهو تعالى يضيف في الآية التالية قائلاً: «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ».

في العادة فإن الإنسان حينما تلم به حادثه ويحس بعدها بقرب أجله، يحاول جاهداً أن يوصل نفسه إلى أهله ومنزله ويستقر بين عياله، ثم يقوم بإنجاز بعض الامور المعلقة، ويعهد بأبنائه أو متعلقيه إلى من يثق به عن طريق الوصية أو غير ذلك. ويوصى بإنجاز بعض الامور الاخرى.

ولكن هل تترك الصيحة السماوية فرصة لأحد؟ ولو سححت الفرصة فرضاً فهل يبقى أحد حياً ليستمع الوصية.

ثم تشير الآيات إلى مرحلة اخرى، مرحلة الحياة بعد الموت، فتقول: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ».

التراب والعظام الرميم تلبس الحياة من جديد، وتنتفض من القبر بشراً سوياً، ليحضر المحاكمه والحساب في تلك المحكمه العظيمة المهولة، وكما أنهم ماتوا جميعاً بصيحة واحدة، فبنفخة واحدة يبعثون أحياء من جديد، فلا هلاكهم يشكك عقبه أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، ولا حياتهم كذلك.

«أجدات»: جمع «جدث» وهو القبر، والتعبير يشير بوضوح إلى أن للمعاد جنبه جسمانية بالإضافة إلى جنبه الروحية، وأن الجسد يعاد

بناؤه جديداً من نفس المواد السابقة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦٠

وقوله تعالى: «رَبِّهِمْ» كأنها تلميح إلى أن ربوبيه ومالكية وتربية الله كلها توجب أن يكون هناك حساب وكتاب ومعاد. تضيف الآية التالية: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ».

نعم فإنَّ المشهد مهول ومذهل إلى درجة أن الإنسان ينسى جميع الخرافات والأباطيل ولا يتمكن إلا من الاعتراف الواضح الصريح بالحقائق، الآية تصوّر القبور «بالمراقد» والنهوض من القبور (بالبعث) كما ورد في الحديث: «كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون».

ثم تقول الآية لبيان سرعة النفخة: «إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ».

وعليه فإحياء الموتى وبعثهم من القبور وإحضارهم في محكمة العدل الإلهي لا يحتاج إلى مزيد وقت، كما كان الأمر عند هلاكهم، فالصيحة الاولى للموت، والصيحة الثانية للحياة والحضور في محكمة العدل الإلهي.

فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) هنا يبدأ البحث حول كيفية الحساب في المحشر، ثم ينتقل في الختام إلى تفصيل وضع المؤمنين الصالحاء والكفار الطالحين، فتقول الآية الكريمة الاولى: «فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئاً». فلا ينقص من أجر وثواب أحد شيئاً، ولا يزداد على عقوبة أحد شيئاً.

ثم تنتقل الآية لتوضح تلك الحقيقة وتعطي دليلاً حياً عليها فتقول: «وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

ثم تنتقل الآيات لتعرض إلى جانب من مثوبة المؤمنين العظيمة، وقبل كل شيء تشير إلى مسألة الطمأنينة وراحة البال فتقول: «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ».

«شغل»:- على وزن سرر- و «شغل»- على وزن لطف:- كليهما بمعنى العارض الذي

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦١

يذهل الإنسان ويصرفه عن سواه، سواء كان مما يبعث على المسرة أو الحزن، ولكن لإلحاقه كلمة «فكاهون» التي هي جمع «فاكه» وهو المسرور الفرح الضاحك، يمكن إستنتاج أن المعنى إشارة إلى الإنسان المشغول بنفسه والمنصرف تماماً عن التفكير في أى قلق أو ترقب، والغارق في السرور والسعادة والنشاط بشكل لا يترك أى مجال للغم والحسرة أن تعكر عليه صفوه، وحتى أنه ينسى تماماً هول قيام القيامة والحضور في محكمة العدل الإلهية، تلك المواقف التي لولا نسيانها فإنها حتماً ستلقى بظلالها الثقيلة من الغم والقلق على القلب، وبناءً على ذلك فإن أحد الآثار المترتبة على إنشغال الذهن بالنعمة هو نسيان أهوال المحشر.

وبعد التعرض إلى نعمة الطمأنينة وراحة البال التي هي أساس جميع النعم الاخرى وشرط الاستفادة من جميع المواهب والنعم الإلهية الاخرى، ينتقل إلى ذكر بقية النعم، فيقول تعالى: «هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ».

«أزواج» تشير إلى الزوجة التي يعطيها الله في الجنة، أو الزوجة المؤمنة التي كانت معه في الدنيا.

التعبير ب «ظلال» يدل على وجود الشمس هناك، ولكنها ليست شمساً مؤذية.

إضافةً إلى ذلك فإن: «لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ».

«يدعون»: أى يطلبون، والمعنى أن كل ما يطلبونه ويتمنونه يحصلون عليه.

وعليه فإن كل ما يخطر على بال الإنسان وما لا يخطر من المواهب والنعم الإلهية موجود هناك معدّ ومهيأ، والله عنده حسن الثواب.

وأهم من كل ذلك، المواهب المعنوية التي أشارت إليها آخر آية بقولها: «سَلِّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ».

هذا النداء الذي تخفّ له الروح، فيملؤها بالنشاط، هذا النداء المملوء بمحبة الله، يجعل الروح الإنسانية تتسلق الأفراح نشوى

بالمعنويات التي لا يرقى إليها وصف ولا تعادلها أية نعمة أخرى. نعم فسماع نداء المحبوب، النداء الندى بالمحبة، المعطر باللفظ، يغمر سكان الجنة بالحبور... الحبور الذي تعادل اللحظة منه جميع ما في الدنيا، بل ويفيض عليه.

ففي الدرّ المنثور قال النبي صلى الله عليه وآله: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قول الله تعالى: «سَلَامًا قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ» قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتوا إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦٢

وَ امْتَاَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ اَعْهَدْ لِيَكُم يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَمَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَ أَنْ اَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) لماذا عبدتم الشيطان: مرّ في الآيات السابقة جانب من المصير المشوق لأهل الجنة، وفي هذه الآيات مورد البحث جانب بئس من مصير أهل النار وعبدة الشيطان. أولًا: يخاطبون في ذلك اليوم خطاباً تحقيرياً: «وامتازوا اليوم أيها المجرمون».

فأنتم ربّما دخلتم في صفوف المؤمنين في الدنيا وتلوّنتم بلونهم تارة، واستفدتم من حيثيتهم واعتبارهم، أمّا اليوم «فامتازوا عنهم» وأظهروا بشكلكم الأصلي الحقيقي.

الآية التالية تشير إلى لوم الله تعالى وتوبيخه المجرمين في يوم القيامة قائلاً: «أَلَمْ اَعْهَدْ لِيَكُم يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَمَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

جری هذا التحذير وبشكل متكرر على لسان الأنبياء والرسل.

ومن جانب آخر فإنّ هذا العهد اخذ على الإنسان في عالم التكوين، وبلسان إعطاء العقل له، إذ إنّ الدلائل العقلية تشير بشكل واضح إلى أنّ على الإنسان أن لا يطيع من تصدّى لعداوته منذ اليوم الأوّل وأخرجه من الجنة، وأقسم على إغواء أبنائه من بعده.

ومن جانب ثالث فقد اخذ هذا العهد على الإنسان بالفطرة الإلهية للناس على التوحيد، وإنحصار الطاعة في الله سبحانه، وبهذا لم تتحقق التوصية الإلهية هذه بلسان واحد، بل بعدة ألسنة وأساليب، وامضى هذا العهد والميثاق.

الآية التالية تأكيد أشد وبيان لوظيفة بنى آدم، تقول الآية الكريمة: «وَأَنْ اَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

اخذ على الإنسان العهد بأن لا يطيع الشيطان، إذ أنّه أعلن له عن عداوته بشكل واضح منذ اليوم الأوّل، فهل يطيع عاقل أوامر عدوّه؟! .. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، اخذ عليه العهد بطاعة الله سبحانه وتعالى، لأنّ سبيله هو الصراط المستقيم، وهذا في الحقيقة أعظم محرّك للبشر.

ويستفاد كذلك من هذا التعبير ضمناً بأنّ الدنيا ليست بدار القرار، إذ إنّ الطريق لا يرسم لأحد إلّا لمن يريد الذهاب إلى مقصد آخر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦٣

وللتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ».

ألا ترون ماذا أحلّ باتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تاريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أى مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟

إذن لماذا أتم غير جادين في معاداة من أثبت أنّه عدو لكم مرّات ومرّات؟ ولا زلتم تتخذونه صديقاً بل قائداً وولياً وإماماً.

هذه جهنّم التي كنتم تؤعدون (٦٣) اضلّوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٤) اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم

بما كانوا يكسبون (٦٥) ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنتى يبيصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم على مكاتبتهم فما

استطاعوا مضياً ولا يرجعون (٦٧) ومن نعمره ننكسه في الخلق أ فلما يعقّبون (٦٨) تعرّضت الآيات السابقة إلى قسم من التوبيخات

والتفريعات الإلهية وإلى مخاطبته سبحانه المجرمين في يوم القيامة، هذه الآيات تواصل البحث حول الموضوع نفسه أيضاً.



نعم، ففي ذلك اليوم وحينما تظهر جهنم للمجرمين الكافرين يذكرهم الله بوعده، والآية تشير إلى ذلك فتقول: «هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ».

فقد بُعث إليكم الأنبياء واحداً بعد واحد، وحذروكم من مثل هذا اليوم ومن مثل هذه النار، ولكنكم لم تأخذوا أقوالهم إلا على محمل السخرية والاستهزاء: «اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ».

ثم يشير تعالى إلى شهود يوم القيامة ... الشهود الذين هم جزء من جسد الإنسان، حيث لا مجال لإنكار شهادتهم، فيقول تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

ففي ذلك اليوم لا تكون أعضاء الإنسان طوع إرادته وميوله، فهي بأجمعها تتخلى عن إمثال أمره وتستسلم لأمر الله سبحانه، ويالها من محكمة عجيبة تلك المحكمة التي شهودها

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦٤

نفس أعضاء الإنسان. تلك الأعضاء التي كانت الوسائل لإرتكاب المعاصي والذنوب. في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ولست تشهد الجوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب، فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عز وجل: «فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

الآية التالية تشير إلى أحد ألوان العذاب التي يمكن أن يتلى الله تعالى بها المجرمين في هذه الدنيا، تقول الآية الكريمة: «وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ» (١).

وفي تلك الحالة التي يبلغ فيها الرعب الذروة عندهم: «فَأَسْبِغُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ». فهم عاجزون حتى عن العثور على الطريق إلى بيوتهم، ناهيك عن العثور على طريق الحق وسلوك الصراط المستقيم.

وعقوبة مؤلمة أخرى لهم: إننا لو أردنا لمسخناهم في مكانهم على شكل تماثيل حجريه فاقده للروح والحركة، أو على أشكال الحيوانات بحيث لا يستطيعون التقدم إلى الأمام، ولا الرجوع إلى الخلف: «لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ» (٢).

إن الآيتين أعلاه تتحدثان عن عذاب الدنيا.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تشير إلى وضع الإنسان في آخر عمره من حيث الضعف والعجز العقلي والجسمي، لتكون إنذاراً لهم وليختاروا طريق الهداية عاجلاً، ولتكون جواباً على الذين يلقون بمسؤولية تقصيرهم على قصر أعمارهم، وكذلك لتكون دليلاً على قدرة الله سبحانه وتعالى، فالقادر على أن يعيد ذلك الإنسان القوى إلى ضعف وعجز الوليد الصغير ... قادر على مسألة المعاد بالضرورة، وعلى الطمس على عيون المجرمين ومنعهم عن الحركة، كذلك تقول الآية الكريمة: «وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ».

«ننكسه»: من مادة «تنكيس» وهو قلب الشيء على رأسه، وهي هنا كناية عن الرجوع الكامل للإنسان إلى حالات الطفولة.

(١) «طمسنا»: من «طمس» - على وزن شمس - بمعنى إزالة الأثر بالمحو، وهذه إشارة إلى إزالة ضوء العين أو صورتها بشكل كلي بحيث لا يبقى منها أثر.

(٢) «مكانتهم»: بمعنى محل التوقف، وهي إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخرجهم عن إنسانيتهم في محل توقفهم، يغير أشكالهم، ويفقدهم القدرة على الحركة، تماماً كالمثال الخالي من الروح.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦٥

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) إنه ليس بشاعر

... بل نذير: قلنا أن في هذه السورة بحوثاً جديّة وجامعة حول اصول الاعتقادات: التوحيد، والمعاد، والنبوة، وتنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفة من الآيات.

طرح في الآيات السابقة بحوث مختلفة حول التوحيد والمعاد، وتعود هاتان الآيتان إلى البحث في مسألة النبوة، وقد أشارتا إلى أكثر الإتهامات رواجاً والتي اثرت بوجه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وردت عليهم رداً قوياً، منها اتهام الرسول بكونه شاعراً، فقالت: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ».

كان ذلك بسبب الجاذبية الخاصّة للقرآن الكريم ونفوذه في القلوب، الأمر الذي كان محسوساً للجميع، بالإضافة إلى عدم إمكانية إنكار جمال ألفاظه ومعانيه وفصاحته وبلاغته، وقد كانت جاذبية القرآن الكريم الخاصّة قد أثرت حتى في نفوس الكفار الذين كانوا أحياناً يأتون إلى جوار منزل النبي صلى الله عليه وآله بشكل خفي ليلاً لكي يستمعوا إلى تلاوته للقرآن في عمق الليل. وهنا حاول الكفار من أجل تفسير هذه الظاهرة العظيمة، ولغرض إستغلال الناس وصرف أنظارهم من كون ذلك الكلام وحياً إلهياً، فأشعروا تهمة الشعر في كل مكان، والتي كانت بحد ذاتها تمثّل إعتراضاً ضمناً بتميز كلام القرآن الكريم. وأمّا لماذا لا يليق بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يكون شاعراً، فلا تّ طبيعة الشعر تختلف تماماً عن الوحي الإلهي، للأسباب التالية:

- ١- إن أساس الشعر - عادةً - هو الخيال والوهم، والحال أن الوحي يُستمد وجوده من مبدأ الوجود ويدور حول محور الحقيقة.
- ٢- الشعر يفيض من العواطف الإنسانية المتغيرة، وهي في حال تغيير وتبدل مستمرين، أمّا الوحي الإلهي فمرآة الحقائق الكونية الثابتة.
- ٣- لطافة الشعر تنبع في الغالب من الإغراق في التمثيل والتشبيه والمبالغة، إلى درجة أن قيل: «أحسن الشعر أكذبه»، أمّا الوحي فليس إلا الصدق.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦٦

- ٤- وأخيراً يقول أحد المفسرين: إن الشعر مجموعة من الأشواق التي تحلق منطلقاً من الأرض باتجاه السماء، بينما الوحي حقائق نازلة من السماء إلى الأرض، وهذان الإتجاهان واضح تفاوتهما.
- وهنا يجب أن لا ننسى تقدير مقام اولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق باتجاه أهداف مقدسه، ويصنون أشعارهم من كل ما لا يرضى الله.

ثم يضيف تعالى في آخر الآية لنفي الشعر عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ». والهدف هو الإنذار وإتمام الحجّة: «الَّذِينَ يَنْذِرُ مَنْ كَانَ كَافِرًا وَالْحَقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ».

هذه الآيات «ذكر» ووسيلة تنبيه، هذه الآيات «قرآن مبين» يوضح الحق بلا أدنى تغطية أو غمط، بل بقاطعية وصراحة، ولذا فهو عامل إنتباه وحياء وبقاء.

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَّا يَشِدُّ طَبْعُهُمْ وَهُمْ لَهَا مُخَضَّرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْتُرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) فوائد الأنعام للإنسان: يعود القرآن الكريم مرّة أخرى في هذه الآيات إلى مسألة التوحيد والشرك، ويشير - ضمن تعداد قسم من آثار عظمة الله في حياة البشر، وحلّ مشكلاتهم ورفع حاجاتهم - إلى ضعف وعجز الأصنام، وبمقارنته واضحه يشطب على الشرك ويثبت بطلانه، وفي نفس الوقت يثبت حقانيه خطّ التوحيد. تقول الآية الكريمة الاولى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ».

ولكى يستفيدوا بشكل جيد من هذه الحيوانات: «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ».

ولا تنتهي منافعها إلى هذا الحد، بل «وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ». وعليه: «أَفَلَا يَشْكُرُونَ». الشكر الذي هو وسيلة معرفة الله وتشخيص

ولّى النعمة.

جملة «وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ» إشارة إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي تدليل هذه الحيوانات

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٧

للإنسان. فتلك الحيوانات القوية والتي تنسى في بعض الأحيان ذلك التدليل الإلهي، وتثور وتغضب وتعاند فتصبح خطرة إلى درجة أن عشرات الأشخاص لا يمكنهم الوقوف أمامها؟

وفي حالاتها الاعتيادية فإن قافلة كاملة من الجمال يقودها تارة صبي لم يبلغ الحلم، ويدفعها في الطريق الذي يرتيه.

جملة «لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» إشارة إلى فوائد الحيوانات الكثيرة الأخرى التي تتحقق للإنسان، ومن جملتها الأصواف والأوبار التي تصنع منها مختلف الملابس والخيم والفرش، والجلود التي تصنع منها الحقائب والملابس والأحذية ووسائل أخرى مختلفة.

«مَشَارِبُ» إشارة إلى الحليب الذي يؤخذ من تلك الدواب ويؤمن مع منتجاته قسماً مهماً من المواد الغذائية للإنسان.

لذا فإن الآية التالية، تنتقل إلى الحديث عن المشركين ووصف حالهم فتقول: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ».

فيا له من خيال باطل وفكر ضعيف؟ ذلك الذي يعتقد بهذه الموجودات الضعيفة التافهة التي لا تملك لنفسها - ناهيك عن الآخرين - ضرراً ولا نفعاً، ويجعلونها إلى جانب الله سبحانه وتعالى ويقرونها به تعالى، ويلجأون إليها لحل مشاكل حياتهم؟

وعليه تضيف الآية التالية: إن المعبودات لا تستطيع نصره المشركين، وسيكون هؤلاء المشركون جنوداً مجتهداً يتقدمونها إلى جهنم: «لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ».

وياله من أمر أليم أن يصطف هؤلاء المشركون بصفوف تتقدمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنم زمراً في ذلك اليوم العظيم، دون أن يستطيعوا حل عقدة مشكلته واحدة من مشكلات هؤلاء المشركين في ذلك الموقف الرهيب.

التعبير ب «مُحَضَّرُونَ» يكون عادةً للتحقير، لأن إحصار الأفراد دون أن يكون لموافقته أو عدمها أثر إنما يدل على حقارتهم.

أخيراً - وفي آخر آية من هذه الآيات، ولمواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتشيت فؤاده إزاء مكر المشركين، والفتن والأعمال الخرافية - تقول الآية الكريمة: «فَلَمَّا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ». تارة يقولون شاعر، وأخرى ساحر، وأمثال ذلك من التهم: «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

فلا تخفى علينا نواياهم، ولا مؤامراتهم في الخفاء، ولا جحودهم وتكذيبهم لآياتنا في

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٤٨

العلن، نعلم بكل ذلك، ونحفظ لهم جزاءهم إلى يوم الحساب، وستكون أنت أيضاً في أمان من شرهم في هذه الدنيا.

أ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، جاء بعظم بال متفتت، وقال: يا محمّد أترعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: «نعم». فنزلت الآية «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ» إلى آخر السورة.

التفسير

هذه السورة ابتدأت بمسألة النبوة، واختتمت بسبعة آيات تمثل أقوى البيانات حول المعاد. فتقول: «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» (١).

فهذا الموجود الضعيف العاجز، يصبح قوياً إلى درجة أن يجيز لنفسه النهوض لمحاربة الدعوات الإلهية، وينسى ماضيه ومستقبله، ليكون مصداقاً حياً لقوله تعالى: «فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ».

ويكفي لمعرفة مدى غفلته وحمقه أنه جاء: «وَضْرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» (٢).

المقصود من ضرب المثل هنا الاستدلال وذكر مصداق لإثبات مطلب معين.

والجميل أن القرآن الكريم أجابه بجملة وجيزة مقتضبة وهي قوله تعالى: «وَنَسِيَ خَلْقَهُ». ثم أردفها بتوضيح أكثر.

فكأنه يقول: لو لم تنس بدء خلقك لما استدلت بهذا الاستدلال الواهي الفارغ أبداً.

أيها الإنسان الكثير النسيان، عد قليلاً إلى الوراء وانظر في خلقك، كيف كنت نطفة تافهة

(١) «خصيم»: بمعنى المصّر على الخصومة والجدال؛ و «الرؤية» بمعنى العلم.

(٢) «رميم»: من مادة «رم»، وهو إصلاح الشيء البالي.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٦٩

وكل يوم أنت في لبس جديد من مراحل الحياة، فأنت في حال موت وبعث مستمرين، فمن جماد أصبحت رجلاً بالغاً، وبكمية من عالم النبات الجامد، ومن عالم الحيوان الميت أيضاً أصبحت إنساناً، ولكنتك نسيت كل ذلك وصرت تسأل: من يحيى العظام وهي رميم؟ ألم تكن أنت في البدء تراباً كما هو حال هذه العظام بعد تفسخها؟!

لذا فإن الله سبحانه وتعالى يأمر الرسول صلى الله عليه وآله بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسي: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ». وإذا كنت تعتقد بأن هذه العظام بعد تفسخها تصبح تراباً وتنتشر في الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة من نقاط إنتشارها؟ فإنّ الجواب على ذلك أيضاً واضح: «وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».

فمن كان له مثل هذا (العلم) وهذه (القدرة) فإنّ مسألة المعاد وإحياء الموتى لا تشكل بالنسبة إليه أية مشكلة.

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) تتابع هذه الآيات البحوث المختلفة حول المعاد وتقول: «الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ».

ثمّة تفسير عميق، والذي ظهر إلى الواقع نتيجة جهود العلماء في عصرنا الحاضر وقد اخترنا أن نطلق عليه تسمية «إنبعاث الطاقة».

وتوضيح ذلك كما يلي: إنّ من أهمّ الوظائف التي تقوم بها النباتات هي عملية «التركيب الضوئي» والتي تعتمد أساساً على أخذ غاز «ثاني أو أكسيد الكربون» من الهواء، والإفادة منه بواسطة «المادة الخضراء» أو ما يسمّى «بالكلورفيل» لصنع الغذاء بمساعدة الماء وضوء الشمس. ذلك الغذاء الذي يؤدّي إلى تكوّن حلقات السليلوز في النباتات من ذوات الفلقتين، ويكون ناتج عملية التركيب الضوئي الأوكسجين الذي يطلق في الهواء مرّة اخرى.

ولو نظرنا إلى العملية بطريقة اخرى فإنّ النباتات تأخذ الغاز (ثاني أو أكسيد الكربون) وتجزئه أثناء عملها لتحتفظ بالكربون مركباً مع غيره من الماء لتكوّن الخشب وتطلق الأوكسجين.

والمهمّ هنا أنّ العلماء يقولون: بأنّ أية عملية تركيب كيميائي تحتاج إلى طاقة ما لكي

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٠

يتمّ ذلك التفاعل الكيميائي، أو أنّ ذلك التفاعل يؤدّي إلى إطلاق طاقة كنتاج عنه، وبناءً عليه فإنّ التفاعل الذي يتمّ نتيجة التركيب الضوئي إنّما يستفيد من الشمس كمصدر للطاقة لإتمام التفاعل. وعليه فالشجرة إنّما تقوم بإدخار هذه الطاقة في الخشب الذي يتكوّن نتيجة لهذه العملية. وعندما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقة المدخّرة. وبذا فإنّنا نقوم بإعادة تركيب (الكربون) مع (الأوكسجين) لينتج (ثاني أو أكسيد الكربون) الذي ينطلق في الهواء مرّة اخرى، بالإضافة إلى بخار الماء.

ويقال إنّ كل الطاقات في الكرة الأرضية تعود إلى الشمس أساساً، وواحد من مظاهره ما ذكرنا.

وهنا وحيث بلغنا «إنبعاث الطاقات» نلاحظ أنّ النور والحرارة المبعثرة في الجو والتي تقوم الأشجار بجمعها في أخشابها لتنمو فإنّها لا

تفنى أبداً، بل إنها تتبدل شكلاً. وتختفى بعيداً عن أعيننا في كل ذرة من ذرات الخشب، وعندما نقوم بإيقاد النار بقطعة من الحطب، فإن إنبعاثها يبدأ، وجميع ما كان في ذرات الخشب من النور والحرارة وطاقة الشمس، في تلك اللحظة - لحظة الحشر والنشر - تظهر من جديد. بدون أن ينقص منه حتى بمقدار إضاءة شمعة واحدة (تأمل بدقة).

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) هو المالك والحاكم على كل شيء. بعد ذكر دلائل المعاد والفتات الأنظار إلى الخلق الأول، ونشوء النار من الشجر الأخضر في الآيات السابقة، تتابع الآية الأولى هنا بحث ذلك الموضوع من طريق ثالث وهو قدرة الله اللامتناهية، فتقول الآية الأولى: «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ».

الآية اللاحقة تأكيد على ما ورد في الآيات السابقة، وتأكيد على حقيقة أن أي خلق وإيجاد بالنسبة لله سبحانه وتعالى وقدرته سهل وبسيط، وخلق السماوات العظيمة والكرة

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧١

الأرضية يعادل في سهولته إيجاد حشرة صغيرة، فكلاهما بالنسبة له تعالى أمر هين بسيط.

يقول تعالى: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

فإن الله سبحانه وتعالى ما إن يرد شيئاً إلّا تحقق فوراً، وليس بين إرادته ووجود ذلك الشيء أيّة فاصلة، وعليه فإن «أمره» و«قوله» وجملة «كن» كلها توضيح لمسألة الخلق والإيجاد. وتوضيح للتحقق السريع بوجود كل ما أراه سبحانه وتعالى.

الآية الأخيرة من هذه الآيات وهي في ذات الوقت آخر آية من سورة «يس» تنهى البحث في مسألة المبدأ والمعاد بشكل جميل وبطريقة الإستنتاج الكلي فتقول: «فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

«ملكوت»: من أصل «ملك» بمعنى الحكومة والمالكية. ومعنى الآية كما يلي: إنّ الحاكمية والمالكية المطلقة بدون أدنى قيد أو شرط بيد قدرته المطلقة، وكذلك فإنّ الله سبحانه منزه ومبرأ عن أي عجز أو نقص في القدرة، وبهذا الشكل فإنّ إحياء الموتى وإلباس العظام المتفسخة لباس الحياة من جديد، كل ذلك لن يشكّل لديه أيّة مشكلة، ولذلك فاعلموا يقيناً أنّكم إليه ترجعون وأنّ المعاد حق.

بحوث

١- الإعتقاد بالمعاد أمر فطري: إذا كان الإنسان قد خلق للفناء فيجب أن يكون عاشقاً للفناء، وأن يلتذّ بنهاية عمره وبموته في حين أنّنا نرى أنّ الموت بمعنى الفناء لم يكن ساراً للإنسان في أي وقت، وهو يفترّ منه بكل وجوده.

إنّ السعي لإبقاء أجسام الموتى عن طريق التحنيط، وبناء المقابر الخالدة كأهرام مصر، والجرى وراء ما يسمّى بماء الحياة ودواء الشباب وما يطيل العمر، كل ذلك دليل على عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا كنّا قد خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء سوى أنّها علاقة شاغلة بلا جدوى ولا فائدة.

لا تنسوا أنّنا نتابع البحث في مسألة المعاد بعد الإتفاق على الإعتقاد بوجود الله الحكيم العالم، ونحن نعتقد بأنّ كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى في وجودنا إنّما هو وفقاً لحساب وغرض، وبناءً عليه فإنّ عشق البقاء لا بد أن يكون له حساب خاص، منسجم مع الخلق والعالم بعد الدنيا.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٢

وبتعبير آخر: فلو أنّ نظام الخلق أوجد فينا عطشاً، فإنّ ذلك دليل على أنّ للماء وجوداً في العالم الخارجي، كذلك فإنّ وجود الغريزة الجنسية والميل إلى الجنس الآخر يدلّ على وجود الجنس الآخر في العالم الخارجي، وإلّا فإنّ الإنجذاب بدون أن يكون له مدلول

وموضوع خارجى لا يتفق مع حكمة الخلق.

ومن جهة اخرى فعندما نبحث فى التاريخ البشرى منذ أيام نشأة ذلك التاريخ فإننا نجد دلائل كثيرة على الاعتقاد الراسخ لدى الإنسان بالحياة بعد الموت، فالآثار التى وصلت إلينا من البشر الغابرين - وحتى إنسان ما قبل التاريخ - وبالأخص طريقة دفن الموتى، وكيفية بناء القبور، وحتى دفن الأشياء المختلفة مع الموتى، كلها دليل على ما ترسخ فى وجدانهم من الاعتقاد بالحياة بعد الموت. «صاموئيل كنيك» أحد علماء النفس المعروفين يقول: «إنّ التحقيقات الدقيقة تشير إلى أنّ المجموعات البشرية الاولى على سطح الأرض، كانت لهم إعتقادات معينة، لأنهم كانوا يلحدون موتاهم بطريقة معينة فى الأرض، ويضعون معهم وسائل وآلات أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الموت إلى جانبهم، وبهذه الطريقة فإنهم يشبّون إعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت» (١). فهؤلاء اعتقدوا بالحياة بعد الموت، وإن كانوا قد سلكوا طريقاً خاطئاً فى إعتقادهم كتوهمهم أنّ تلك الحياة شبيهة بهذه الحياة تماماً. على كل حال، فلا يمكن قبول أنّ ذلك الإعتقاد القديم مجرد وهم أو نتيجة للتلقين والعادة. ومن جهة ثالثة، فإنّ وجود محكمة «الوجدان»، دليل آخر على فطرية الإعتقاد بالمعاد. فكل إنسان عندما ينجز عملاً حسناً فإنه يستشعر فى أعماقه وفى وجدانه الطمأنينة التى لا يمكن أحياناً وصفها بأى بيان أو كلام. وعلى العكس عندما يرتكب الذنوب وخصوصاً الجنايات الكبرى، فإنه يستشعر عدم الراحة، إلى حد تصل الحالة فى البعض إلى الإنتحار، أو يسلموا أنفسهم إلى المحاكم لنيل العقاب والتعلق على أعواد المشانق.

(١) علم الاجتماع، ساموئيل كنيك / ١٩٢.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٣

كل ذلك دليل على عذاب الضمير والوجدان.

وللإنسان أن يسأل نفسه: كيف يمكن أن يكون عالم صغير كعالم النفس له تلك المحكمة، ولا يكون لهذا العالم العظيم مثل هذا الوجدان وهذه المحكمة؟!

وبهذا الشكل يتضح أنّ الإعتقاد بمسألة المعاد أمر فطرى، ومن عدّة طرق:

من طريق العشق البشرى العام للبقاء.

ومن طريق وجود ذلك الإعتقاد بالحياة بعد الموت على طول التاريخ البشرى.

ومن طريق وجود النموذج المصغّر لها فى داخل الإنسان.

٢- أثر الإعتقاد بالمعاد على حياة البشر: إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت وبقاء آثار الأعمال البشرية، وخلود الأعمال - سواء كانت خيراً أو شراً - يترك أثره العميق على فكر وأعصاب وجسد الإنسان، ويمكنه أن يكون عاملاً مؤثراً فى التشجيع على الأعمال الحسنة. إنّ تأثير الإيمان بالحياة بعد الموت فى إصلاح الأفراد الفاسدين والمنحرفين وتشجيع الأفراد المضحّين والمجاهدين، أكثر بكثير من تأثير المحاكم والعقوبات المعمول بها عادةً فى الدنيا، للمزايا التى يتمتع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العادية، ففى محكمة المعاد لا وجود لإعادة النظر، ولا أثر للإضطهاد الفكرى على صاحبها، ولا فائدة من إعطاء وثائق كاذبة ومزورة، ولا تستغرق - عبر روتينها - مدة من الزمن.

القرآن الكريم يقول: «وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَأَتَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (١).

كذلك يقول تعالى: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَأَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (٢).

كذلك قوله تعالى: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (٣).

وإنَّ حسابه تعالى سريع وحاسم كما ورد في الخبر: «أنَّه تعالى يحاسب الخلائق كلَّهم في مقدار لمح البصر». ولهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أنَّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء،

(١) سورة البقرة / ٤٨.

(٢) سورة يونس / ٥٤.

(٣) سورة إبراهيم / ٥١.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٤

فقال تعالى: «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» (١).

حتى أنَّه يستفاد من بعض الآيات أنَّ الإنسان إذا كان معتقداً بالقيمة فإنَّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفة، فقد ورد في وصفه تعالى للمطففين في الميزان، قوله تعالى:

«أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» (٢).

والحماسة الخالدة لمجاهدى الإسلام سابقاً وحاضراً في ميادين الجهاد، والتضحية والفداء والإيثار الذى يظهره الكثير من المسلمين في الدفاع عن بلدان الإسلام وعن المحرومين والمستضعفين، يدلُّ على أنَّه بجميعه إنعكاس لحالة الاعتقاد بالحياة الخالدة في الدار الآخرة، وقد دلَّت الدراسات من قبل المفكرين، والتجارب المختلفة على أنَّ تلك المظاهر لا يمكن أن تكون - في المقياس الواسع الشامل - إلَّا عن طريق العقيدة بالحياة بعد الموت.

فإنَّ المجاهد الذى منطقه: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» (٣). أى: الوصول إلى إحدى السعادتين، إمَّا النصر أو الشهادة، هو قطعاً مجاهد لا يقبل الهزيمة.

إنَّ الموت الذى يبعث على الوحشة لدى كثير من الناس، وحتى أنَّهم يحاذرون من ذكر إسمه أو كل ما يذكر به، ليس موحشاً ولا قبيحاً قطَّ بالنسبة إلى المعتقدين بالحياة بعد الموت، بل إنَّه بالنسبة إليهم نافذة على عالم رحيب، وتحطُّم القفص الدنيوى وكسر القيود الماديَّة التى تأسر الروح، وبلوغ الحرِّيَّة المطلقة.

إنَّ مسألة المعاد تعتبر الخط الفاصل بين الإلهيين والماديين، لوجود نظرتين مختلفتين هنا:

فالمادى يرى الموت فناءً مطلقاً، ويفرُّ منه بكل وجوده، لأنَّ كل شىء سينتهى به.

والإلهى يرى الموت ولادة جديدة، وولوجاً فى عالم واسع كبير مشرق، والإنطلاق فى السماء اللامحدودة. ومن الطبيعى فإنَّ المعتقدين بهذا المذهب لا يفسحون المجال للخوف والوحشة للدخول إلى أنفسهم عند سلوكهم طريق الموت والشهادة. بل إنَّهم يستلهمون من قول على بن أبى طالب عليه السلام: «والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه» (٤).

(١) سورة السجدة / ١٤.

(٢) سورة المطففين / ٤ و ٥.

(٣) سورة التوبة / ٥٢.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٥.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٥

ويستقبلون الموت فى سبيل الهدف برحابة صدر. ولهذا فإنَّ أمير المؤمنين حينما تلقى الضربة السامة من اللعين الخاسر «عبد الرحمن بن ملجم» لم يقل سوى «فرت ورب الكعبة».

خلاصة القول: فإن الإيمان بالمعاد يجعل من الإنسان الخائف الضائع، إنساناً شجاعاً شهماً هادفاً، تمتلئ حياته بالحماسة والتضحية والصدق والتقوى.

٣- الدلائل العقلية على المعاد: فضلاً عن الدلائل النقلية الكثيرة على المعاد سواء الواردة في القرآن المجيد، والتي تشمل مئات الآيات بهذا الخصوص، فإن هناك أدلة عقلية واضحة أيضاً على هذه المسألة، والتي نحاول ذكرها هنا بشكل مختصر:

أ) برهان الحكمة: إذا نظرنا إلى هذا العالم بدون العالم الآخر، فسيكون فارغاً وبلا معنى تماماً، كما لو افترضنا بوجود الحياة في الأطوار الجنينية بدون الحياة في هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضى بأن جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرد نزولهم من بطون أمهاتهم ويموتون، فإن الدور الجنيني سيكون بلا معنى؟ كذلك لو كانت الحياة في هذا العالم مبتورة عن الحياة في العالم الآخر، فسنواجه نفس الاضطراب والحيرة، فما ضرورة أن نعيش سبعين عاماً أو أكثر أو أقل في هذه الدنيا وسط كل هذه المشكلات؟ فنبداً الحياة ونحن لا نملك تجربة معينة، وحين بلوغ تلك المرتبة يهجم الموت وينتهي العمر... نسعى مدة لتحصيل العلم والمعرفة، وحينما نبلغ درجة منه بعد اشتعال الرأس شيئاً يستقبلنا الموت.

ثم لأجل ماذا نعيش؟ الأكل واللبس والنوم والإستيقاظ المتكرر يومياً، وإستمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟ فهل حقاً إن هذه السماء المترامية الأطراف وهذه الأرض الواسعة، وكل هذه المقدمات والمؤخرات وكل هؤلاء الأساتذة والمعلمين والمربين وكل هذه المكتبات الضخمة وكل هذه الامور الدقيقة والأعمال التي تداخلت في خلقنا وخلق باقي الموجودات، كل ذلك لمجرد الأكل والشرب واللبس والحياة المادية هذه؟

هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهة هذه الحياة، ويقدم بعضهم على الإنتحار للتخلص من هذه الحياة الخاوية، بل قد يفخر به. وكيف يمكن لمن يؤمن بالله وبحكمته المتعالية أن يعتبر هذه الحياة الدنيا وحدها بدون إرتباطها بحياة اخرى ذات قيمة وذات شأن؟

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٦

يقول تعالى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» (١). أى: أنه لو لم يكن رجوع بعد هذه الدنيا إلى الله، فإن الحياة في هذه الدنيا ليست سوى عبث في عبث.

نعم فإن الحياة في هذه الدنيا تجد معناها ويكون لها مفهوماً ينسجم مع حكمة الله سبحانه وتعالى عندما تعتبر هذه: «الدنيا مزرعة للآخرة» و «الدنيا قنطرة» ومكان تعلم، وجامعة للإستعداد للعالم الآخر ومتجر لذلك العالم، تماماً كما يقول أمير المؤمنين على عليه السلام في نهج البلاغة في كلماته العميقة المعنى: «إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها. مسجد أحبباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحى الله، ومتجر أولياء الله».

خلاصة القول، إن الفحص والمطالعة في وضع هذا العالم يؤدى إلى الإعتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَدَكَّرُون» (٢).

ب) برهان العدالة: التدقيق في نظام الوجود وقوانين الخلق، يستنتج منه أن كل شىء منها محسوب بدقمة متناهية. ففي مؤسسه البدن البشرى، يحكم نظام عادل دقيق، بحيث أنه لو تعرض لأذى تغيير أو عارض ما لأذى إلى إصابته بالمرض أو حتى الموت، حركات القلب، دوران الدم، أجفان العين، وكل جزء من خلايا الجسم البشرى مشمول بهذا النظام الدقيق، الذى يحكم العالم بأسره و «بالعدل قامت السماوات والأرض». فهل يستطيع الإنسان أن يكون وحده النعمة النشاز في هذا العالم الواسع!؟

صحيح أن الله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان بعض الحرية فى الإرادة والاختيار لكى يمتحنه ولكى يتكامل فى ظل تلك الحرية ويطوى مسير تكامله بنفسه، ولكن إذا أساء الإنسان الاستفادة من تلك الحرية فماذا سيكون؟! ولو أن الظالمين الضالين المضلين بسوء

استفادتهم من هذه الموهبة الإلهية استمروا على مسيرهم الخاطيء فماذا يقتضى العدل الإلهي!؟



وصحيح أن بعضاً من المسيئين يعاقبون في هذه الدنيا ويلقون مصير أعمالهم - على

(١) سورة المؤمنون / ١١٥.

(٢) سورة الواقعة / ٦٢.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٧

الأقل قسم منهم - ولكن المسلم أن جميعهم لا ينال جميع ما يستحق، كما أن جميع المحسنين الأطياب لا يتلقون جزاء أعمالهم الطيبة في الدنيا، فهل من الممكن أن تكون كلتا المجموعتين في كفة عدالة الله سواء؟! ويقول القرآن الكريم: «أَفَنَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (١). وفي موضع آخر يقول تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (٢).

على كل حال، فلا شك في تفاوت الناس وإطاعة أوامر الله سبحانه وتعالى، كما أن محاكم «القصاص والثواب الدنيوية» و «محكمة الوجدان» و «الآثار الوضعية للذنوب» كل ذلك لا يكفي لإقرار العدالة على ما يبدو، وعليه يجب القبول بأنه لأجل إجراء العدالة الإلهية يلزم وجود محكمة عدل عامة تراعى بدقة الخير أو الشر في حساباتها، وإلا فإن أصل العدالة لا يمكن تأمينه أبداً. وبناءً على ما تقدم يجب الإقرار بأن قبول العدل الإلهي مساوٍ بالضرورة لوجود المعاد والقيامة، القرآن الكريم يقول: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٣).

ويقول: «وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (٤).

(ج) برهان الهدف: على خلاف ما يتوهمه الماديون، فإن الإلهيين يرون أن هناك هدفاً من خلق الإنسان، والذي يعبر عنه الفلاسفة ب «التكامل» وفي لسان القرآن والحديث فهو «القرب إلى الله» أو «العبادة»: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (٥). فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهاية لكل شيء؟!

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم ويستمر فيه سير الإنسان التكامل، وهناك يحصد ما زرع في هذا العالم، وكما قلنا في موضع آخر فإنه في ذلك العالم الآخر يستمر سير الإنسان التكامل ليبلغ هدفه النهائي. الخلاصة: أن تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، وإذا قطعنا الارتباط بين هذا العالم وعالم ما بعد الموت، فكل شيء سيتحوّل إلى ألغاز، وسوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

(١) سورة القلم / ٣٥ و ٣٦.

(٢) سورة ص / ٢٨.

(٣) سورة الأنبياء / ٤٧.

(٤) سورة يونس / ٥٤.

(٥) سورة الذاريات / ٥٦.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٨

(د) برهان نفى الاختلاف: لا شك أننا جميعاً نعدّب كثيراً من الاختلافات بين المذاهب والعقائد في هذا العالم، وكلنا نتمنى أن تحلّ هذه الاختلافات، في حين أن جميع القرائن تدلّ على أن هذه الاختلافات هي من طبيعة الحياة، ويستفاد من عدة دلائل بأنه حتى بعد قيام المهدي عليه السلام - وهو المقيم لحكومة العدل العالمية والمزيل لكثير من الاختلافات - ستبقى بعض الاختلافات العقائدية بلا حلّ تام، وكما يقول القرآن الكريم، فإن اليهود والنصارى سيقون على اختلافاتهم إلى قيام القيامة: «فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعِبَادَةَ وَالْبَعْضَاءَ

إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ» (١).

ولكن الله سبحانه وتعالى الذى يقود كل شىء باتجاه الوحدة سينهى تلك الاختلافات حتماً، ولوجود الحجب الكثيف لعالم المادة فى الدنيا فإنه لا- يمكن حلّ هذا الأمر بشكل كامل فيها، ونعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور والإنكشاف، إذن فنهاية هذه المسألة ستكون نهاية عملية، وستكون الحقائق جلية واضحة إلى درجة أنّ الاختلافات العقائدية ستحلّ بشكل نهائى تام.

الجميل أنه تمّ التأكيد فى آيات متعددة من القرآن الكريم على هذه المسألة، يقول تعالى فى الآية (١١٣) من سورة البقرة: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وفى الآيات (٣٨ و ٣٩) من سورة النحل يقول تعالى: «وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِيْبَعُثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَوْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ».

٤- القرآن ومسألة المعاد: تعتبر مسألة المعاد الثانية بعد مسألة التوحيد والتي تعتبر المسألة الأساس فى تعليمات الأنبياء بخصائصها وآثارها التربوية، لذا ففى بحوث القرآن الكريم نجد أنّ أكثر الآيات اختصّت ببحث مسألة المعاد، بعد الكثرة الكاثرة التى اختصّت ببحث مسألة التوحيد.

والمباحث القرآنية حول المعاد تارة تكون بشكل إستدلالات منطقية، واخرى بشكل بحوث خطابية وتلقينية شديدة الوقع بحيث إنّ سماعها فى بعض الأحيان يؤدّى إلى قشعريرة شديدة فى البدن بأسره. والكلام الصادق- كالأستدلالات المنطقية- ينفذ إلى أعماق الروح الإنسانية.

(١) سورة المائدة/ ١٤.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٧٩

فى القسم الأوّل، أى الاستدلالات المنطقية، فإنّ القرآن الكريم يؤكّد كثيراً على موضوع إمكانية المعاد، إذ إنّ منكرى المعاد غالباً ما يتوهمون إستحالتة، ويعتقدون بعدم إمكانية المعاد بصورة معاد جسمانى يستلزم عودة الأجسام المهترئة والتراب إلى الحياة مرّة اخرى. ففى هذا القسم، يلج القرآن الكريم طرقاً متنوعة ومتفاوتة تلتقى كلها فى نقطة واحدة، وهى مسألة «الإمكان العقلى للمعاد».

فتارة يجسّد للإنسان النشأة الاولى، وبعبارة واضحة تقول الآية: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (١).

وتارة يجسّد حياة وموت النبات، وبعثه الذى نراه بأمّ أعيننا كل عام، وفى الختام يقول إنّ بعثكم تماماً كالنبات: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ\* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ\* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» (٢).

وفى موضع آخر يقول تعالى: «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ» (٣).

وحيناً يطرح مسألة قدرة الله سبحانه وتعالى على خلق السموات والأرض فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهَا بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٤).

وحيناً آخر يعرض عملية إنبعاث الطاقة وإشتعال الشجر الأخضر كنموذج على قدرته، وجعل النار فى قلب الماء فيقول: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا» (٥).

وتارة يجسّد أمام ناظرى الإنسان الحياة الجنينية فيقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» (٦).

وأخيراً فإنّ القرآن تارة يدلل على البعث بالنوم الطويل- النوم الذى هو قرين الموت

(١) سورة الأعراف / ٢٩.

(٢) سورة ق / ٩ - ١١.

(٣) سورة فاطر / ٩.

(٤) سورة الأحقاف / ٣٣.

(٥) سورة يس / ٨٠.

(٦) سورة الحج / ٥.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٠

وأخوه، بل إنه الموت بعينه من بعض الجوانب - كنوم أصحاب الكهف الذي استمر ثلاثمائة وتسع سنين، وبعد تفصيل جميل حول النوم واليقظة يقول: «وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَأَرِيْبٌ فِيهَا» (١).

تلك هي الأساليب الستة المختلفة التي طرحها آيات القرآن الكريم لبيان إمكانية المعاد.

علاوة على قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة (البقرة - ٢٤٠) وقصة عزيز (البقرة - ٢٥٩) وقصة الشهادة من بني إسرائيل (البقرة - ٧٣)، والتي تشكل كل واحدة منها نموذجاً تاريخياً على هذه المسألة وهي من الشواهد والدلائل الأخرى التي ذكرها القرآن بهذا الخصوص.

خلاصة القول، إن ما عرضه القرآن الكريم عن المعاد ومظاهره المختلفة ومعلوماته ونتائجه، والدلائل الرفيعة التي يطرحها بهذا الخصوص، حية ومقنعة بحيث إن أي إنسان إذا كان لديه ذرة من الوجدان فإنه يتأثر بعمق ما يطرحه القرآن الكريم.

٥- المعاد الجسماني: المقصود من المعاد الجسماني ليس إعادة الجسم وحده في العالم الآخر، بل إن الهدف هو بعث الروح والجسم معاً، وتعبير آخر فإن عودة الروح أمر مسلم به، والحديث حول عودة الجسم.

جمع من الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون بالمعاد الروحي فقط، وينظرون إلى الجسد على أنه مركب، يكون مع الإنسان في هذه الدنيا فقط، وبعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل من الجسد ويندفع نحو عالم الأرواح.

ولكن العلماء المسلمين الكبار يعتقدون بأن المعاد يشمل الروح والجسم، وهنا لا يقيد البعض بعودة الجسم السابق، ويقولون بأن الله قيض للروح جسداً، ولكن شخصية الإنسان بروحه فإن هذا الجسد يعد جسده.

في حال أن المحققين يعتقدون بأن هذا الجسد الذي يصبح تراباً ويتلاشى، يتلبس بالحياة مرة أخرى بأمر الله الذي يجمعه ويكسوه بالحياة، هذه العقيدة نابعة من متون الآيات القرآنية الكريمة.

إن الشواهد على المعاد الجسماني في الآيات القرآنية الكريمة كثيرة جداً، بحيث يمكن

(١) سورة الكهف / ٢١.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨١

القول قطعاً بأن الذين يعتقدون بإقتصار المعاد على المعاد الروحي فقط لا يملكون أدنى إطلاع على الآيات العديدة التي تبحث في موضوع المعاد، وإلا فإن جسمانية المعاد واضحة في الآيات القرآنية إلى درجة تنفي أدنى شك في هذه المسألة.

فهذه الآيات التي قرأناها في آخر سورة يس، توضح هذه الحقيقة فحينما تساءل الإنسان: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» أجابه القرآن بصراحة ووضوح: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ».

إن كل تعجب المشركين والمخالفين لمسألة المعاد هو هذه القضية، وهي كيف يمكن إحياءنا بعد الموت وبعد أن نصبح تراباً متناثراً وضائعاً في هذه الأرض؟ «وَقَالُوا أَأِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنْتَ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» (١).

إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: «أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ» (٢).

وتعجبوا من هذه المسألة إلى درجة أنهم اعتبروا إظهارها دليلاً على الجنون أو الكذب على الله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» (٣).

لهذا السبب فإن إستدلالات القرآن الكريم حول إمكانية المعاد عموماً تدور حول هذا المحور وهو «المعاد الجسماني» وما عرضناه في الفصل السابق في سته طرق كانت دليلاً وشاهداً على هذا الادعاء.

علاوة على أن القرآن الكريم يذكر مراراً وتكراراً بأنكم ستخرجون يوم القيامة من قبوركم والقبور مرتبطة بالمعاد الجسماني. والأوصاف التي يذكرها القرآن الكريم عن المواهب المادية والمعنوية للجنة، كلها تدل على أن المعاد معاد جسمي ومعاد روحي أيضاً، وإلا فلا معنى للهور والقصور وأنواع الأغذية والنعيم في الجنة إلى جنب المواهب المعنوية.

على كل حال، فلا يمكن أن يكون الإنسان على جانب يسير من المنطق والثقافة القرآنية وينكر المعاد الجسماني. وبتعبير آخر: فإن إنكار المعاد الجسماني بنظر القرآن الكريم مساوٍ لإنكار أصل المعاد.

(١) سورة السجده / ١٠.

(٢) سورة المؤمنون / ٣٥.

(٣) سورة سبأ / ٧.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٢

علاوة على هذه الأدلة النقلية، فإن هناك أدلة عقلية بهذا الخصوص لو أردنا إيرادها لاتسع البحث كثيراً.

٦- الجنة والنار: الكثيرون يتوهمون بأن عالم ما بعد الموت يشبه هذا العالم تماماً ولكنه بشكل أكمل وأجمل، غير أن لدينا قرائن عديدة تدل على الفروق الكبيرة بين العالمين من حيث الكيفية والكمية، لو أردنا تشبيهها بالفروق بين العالم الجيني وهذه الدنيا لظلت المقايسة أيضاً غير كاملة.

فوفقاً لصريح الروايات الواردة في هذا الشأن فإن في عالم ما بعد الموت ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على فكر بشر، القرآن الكريم يقول: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (١).

الأنظمة الحاكمة في ذلك العالم أيضاً تتفاوت تماماً مع الأنظمة في هذا العالم، ففي حين يستفاد في هذا العالم من أفراد يسمون «الشهود» في المحاكمات، نرى أن هناك تشهد الأيدي والأرجل وحتى الجلد: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٢). «وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» (٣).

على كل حال، فما قيل عن العالم الآخر لا يرسم أمامنا سوى صورة باهتة، وعادةً فإن اللغة التي نتحدث بها والثقافة التي لدينا غير قادرة جميعها على الوصف الحقيقي لما هو موجود هناك، ولكن لا يترك الميسور بالمعسور. فالمقدار المتيقن هو أن الجنة هي مركز كل النعم والمواهب الإلهية سواء المادية أو المعنوية، وجهنم هي مركز لكل أنواع العذاب الأليم المادي والمعنوي أيضاً.

«نهاية تفسير سورة يس»

(١) سورة السجده / ١٧.

(٢) سورة يس / ٦٥.

(٣) سورة فصلت / ٢١.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٣

## ٣٧. سورة صافات

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى سورة الصافات في خمسة أقسام:

- ١- يبحث حول مجاميع من ملائكة الرحمن، ومجموعة من الشياطين المتمردين ومصيرهم.
  - ٢- يتحدث عن الكافرين، وإنكارهم للنبوة والمعاد، والعقاب الذي ينتظرهم يوم القيامة، والعذاب الإلهي الذي سيصلهم، كما يشرح هذا القسم جوانب من النعم الموجودة في الجنة إضافةً إلى ملذاتها وجمالها وسرور أهلها.
  - ٣- يشرح تاريخ الأنبياء أمثال (نوح) و (إبراهيم) و (إسحاق) و (موسى) و (هارون) و (إلياس) و (لوط) و (يونس) ويتحدث هذا القسم بشكل مفصل عن إبراهيم محطّم الأصنام وعن جوانب مختلفة من حياته.
  - ٤- يعالج صورة معيّنة من صور الشرك والذي يمكن إعتباره من أسوأ صور الشرك، وهو الإعتقاد بوجود رابطة القرابة بين الله سبحانه وتعالى والجن والملائكة.
  - ٥- يتناول في عدّة آيات قصار إنتصار جيوش الحق على جيوش الكفر والشرك والنفاق، وإبتلاءهم - أى الكافرين والمشركين والمنافقين - بالعذاب الإلهي، وتنزّه آيات هذا القسم الله سبحانه وتعالى وتقّدسه عن الأشياء التي نسبها المشركون إليه.
- إنّ تسمية هذه السورة بالصافات جاءت نسبةً إلى الآية الأولى فيها.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٤

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ سورة الصافات اعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد كل جنّي وشيطان، وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمناً بالمرسلين».

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الصافات في كل يوم جمعة لم يزل محفوظاً من كل آفة، مدفوعاً عنه كل بليّة في حياته الدنيا، مرزوقاً في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، ولم يصبه الله في ماله ولا ولده ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم، ولا جبار عنيد، وإن مات في يومه أو ليلته بعثه الله شهيداً، وأماته شهيداً، وأدخله الجنة مع الشهداء في درجة من الجنة».

إنّ الهدف من التلاوة هو التفكّر، ومن ثم الإعتقاد، ومن بعد العمل، ومن دون شك فإنّ الذي يتلو هذه السورة بتلك الصورة، سيحفظ من شرّ الشياطين، ويتطهر من الشرك، ويمتلك الإعتقاد الصحيح القوي، ويمارس أعمالاً صالحة، وإنّه سيحشر مع الشهداء.

وَالصّٰفٰتِ صَفًّا (١) فَالزّٰجِرٰتِ زَجْرًا (٢) فَالتّٰلِيٰتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوٰحِدٌ (٤) رَبُّ السّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) الملائكة المستعدة لتنفيذ المهام: هذه السورة هي أول سورة في القرآن الكريم تبدأ بالقسم، القسم المليء بالمعاني والمثير للتفكّر، القسم الذي يجوب بفكر الإنسان في آفاق وأجواء هذا العالم، ويجعله متهيئاً لتقبّل الحقائق.

من المسلم به أنّ الله تبارك وتعالى هو أصدق الصادقين، وليس بحاجة إلى القسم.

ونلفت الإنتباه إلى نقطتين لحل مشكلة القسم في كل آيات القرآن التي سنتناولها من الآن فما بعد.

الأولى: أنّ القسم يأتي دائماً بالنسبة إلى امور مهمة وذات قيمة، ولذلك فإنّ أقسام القرآن تشير إلى عظمة وأهمية الأشياء المقسم بها.

الثانية: أنّ القسم يأتي للتأكيد، وللدلالة على أنّ الامور التي يقسم من أجلها هي امور جديّة ومؤكّدة.

إنّ بدايه هذه السورة تذكر أسماء ثلاثة طوائف أقسم بها الله تعالى.

الأولى: «وَالصّٰفٰتِ صَفًّا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٥

الثانية: «فَالزّٰجِرٰتِ زَجْرًا».

الثالثة: «فَالثَّلَايَاتِ ذِكْرًا».

إنّ المعروف والمشهور هو أنّ هذه الصفات تخصّ طوائف من الملائكة ...

طوائف اصطفت في عالم الوجود بصفوف منظمة، وهي مستعدة لتنفيذ الأمر الإلهي.

وطوائف من الملائكة تزجر بني آدم عن ارتكاب المعاصي والذنوب، وتحبط وساوس الشياطين في قلوبهم، أو الملائكة الموكلة بتسيير السحاب في السماء وسوقها نحو الأرض اليابسة لإحيائها.

وأخيراً طوائف من الملائكة تتلو آيات الكتب السماوية حين نزول الوحي على الرسل.

«الصافات»: هي جمع كلمة «صافئة» وهي بدورها تحمل صفة الجمع أيضاً، وتشير إلى مجموعة مصطفة، إذن ف «الصافات» تعني الصفوف المتعددة.

و «الزاجرات»: مأخوذة من «الزجر» ويعني الصرغ بالتحويف والصراخ، وبمعنى أوسع فإنها تشمل كل منع وطرود وزجر للآخرين.

إذن فالزاجرات تعني مجاميع مهمتها نهى وصرف وزجر الآخرين.

الآن نرى ما هو المراد من هذه الأقسام المفعمة بالمعاني، أي القسم بالملائكة والإنس؟

الآية التالية توضح ذلك وتقول: «إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ».

قسم بتلك المقدسات التي ذكرناها فإنّ الأصنام ستزول وتدمر، وإنه ليس هناك من شريك ولا شبيه ولا نظير لله سبحانه وتعالى.

ثم يضيف: «رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ».

فالشمس في كل يوم تشرق من مكان غير المكان الذي أشرقت منه قبل يوم أو بعد يوم، والفواصل الموجودة بين هذه النقاط منظمة ودقيقة للغاية، حيث إنها لا تزيد ولا تقل بمقدار ١١٠٠٠ من الثانية، وهذا التنظيم الدقيق موجود منذ ملايين السنين، كما أنّ هذا النظام ينطبق على ظهور وغروب النجوم.

إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لِمَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٦

حفظ السماء من تسلل الشياطين: الآيات السابقة تحدثت عن طوائف الملائكة المكلفة بتنفيذ المهام الجسام، والآيات مورد البحث تتحدث عن الطائفة المقابلة لها، أي الشياطين وعن مصيرهم. ويمكن أن تكون هذه الآيات مقدمة لدحض معتقدات مجموعة من المشركين الذين يعبدون الشياطين والجن، وتتضمن كذلك درساً في التوحيد بين طيبتها.

تبدأ الآية بالقول: «إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ».

حقاً إنّ منظر النجوم في السماء رائع الجمال، ولا- تملّ أي عين من طول النظر إليه، بل إنّ النظر إليه يزيل التعب والهم من داخل الإنسان، (مما يذكر أنّ أبناء المدن في العصر الحاضر التي يغطيها دخان المصانع، لا يستمتعون بمشاهدة السماء وهي مرضية بالكواكب كما يشاهدها الإنسان القروي حيث يدركون هذه المقولة القرآنية- أي تزيين السماء بالكواكب- بصورة أفضل).

أما الآية: «وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ» فإنها تشير إلى حفظ السماء من تسلل الشياطين إليها.

«مارد»: مشتقة من «مرد» التي تعني الأرض المرتفعة الخالية من الزرع، وهنا المقصود هو الشخص الخبيث العاري من الخير.

ثم يضيف القرآن الكريم: إنّ الشياطين لا تتمكن من سماع حديث ملائكة الملائكة الأعلى ومعرفة أسرار الغيب التي عندهم، فكلموا حاولوا عمل شيء ما لسماع الحديث، رشقوا بالشهب من كل جانب: «لَأَيَّاسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ».

نعم، إنهم يطردون من السماء بشدة، وقد أعد لهم عذاب دائم، كما جاء في قوله تعالى:

«دُحُورًا وَأَلْهُمَّ عَذَابٌ وَاصِبٌ». «لَا يَسْمَعُونَ» بمعنى (لا يستمعون) ويفهم منها أن الشياطين يحاولون معرفة أخبار «الملائكة الأعلى» إلا أنه لا يسمح لهم بذلك.

«الملائكة الأعلى» ، تعني ملائكة السموات العلى، لأن كلمة «ملائكة» تطلق في الأصل على الجماعة التي لها وجهة نظر واحدة. وعندما يوصف الملائكة (الأعلى) فذلك إشارة إلى الملائكة الكرام ذوى المقام الأرفع والأسمى. «يقذفون»: مشتقة من «قذف» وتعنى رمى الشيء إلى مكان بعيد، والمقصود هنا طرد الشياطين بواسطة الشهب.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٧

وهنا إشارة إلى أن الشياطين لا يطردون ولا يمنعون من الإقتراب من السماء فحسب، بل سيصيبهم فى النهاية- مع ذلك- عذاب دائم. وأشارت الآية أيضاً إلى طائفة من الشياطين الشريرة التي تحاول الصعود إلى السماء العليا لإستراق السمع، وإلى المصير الذى ينتظرها هناك، كما جاء فى الآية الشريفة: «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ». «الخطفة»: أى اختلاس الشيء بسرعة.

و «الشهاب»: شىء مضىء متولد من النار، ويرى نوره فى السماء على شكل خط ممتد.

وكما هو معروف فإن الشهب ليست نجومًا، وإنما تشبه النجوم، وهى عبارة عن قطع صغيرة من الحجر متناثرة فى الفضاء، عندما تدخل فى مجال جاذبية الأرض، تنجذب نحوها، ونتيجة دخولها بسرعة إلى جو الأرض وإحتكاكها الشديد مع الهواء المحيط بالكرة الأرضية فإنها تشتعل وتحترق.

و «ثاقب»: تعنى النافذ والخالق.

وهذه إشارة إلى أن الشهاب يثقب كل شىء يصيبه ويحرقه.

فَأَسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) الذين لا يقبلون الحق أبدًا: هذه الآيات تعالج قضية منكرى البعث، وتتابع البحث السابق بشأن قدرة البارئ عز وجل خالق السموات والأرض، وتبدأ بالإستفسار منهم وتقول: إسألهم هل أن معادهم وخلقهم مرة ثانية أصعب أو خلق الملائكة والسموات والأرض: «فَأَسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا».

نعم، فنحن خلقناهم من مادة تافهة، من طين لزج: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ».

فالمشركون الذين ينكرون المعاد، قالوا بعد سماعهم الآيات السابقة بشأن خلق السموات والأرض والملائكة. إن خلق الإنسان أصعب من خلق السموات والأرض والملائكة، إلا أن القرآن الكريم أجابهم بالقول: إن خلق الإنسان مقابل خلق الأرض

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٨

والسماء والملائكة الموجودة فى هذه العوالم، يعد لا شىء، لأن أصل الإنسان يعود إلى حفنة من التراب اللزج. ولأن أصل الإنسان كان من التراب الذى خلط بالماء، وبعد فترة أضحى طينًا متجمعا ذا رائحة نتنه، ثم تحول إلى طين متماسك (وهذه الصورة هى جمع لحالات متعددة مذكورة فى عدة آيات فى القرآن المجيد).

ثم يضيف القرآن الكريم: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ».

وما يكمن وراء تلك التصرفات القبيحة ليس هو الجهل - فقط - وعدم المعرفة، بل إنها اللجاجة والعناد، إذ أنهم كلما ذكروا بدلائل المعاد والعقوبات الإلهية لا يتذكرون «وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ».

والأنكى من ذلك، أنهم كلما شاهدوا معجزة من معجزاتك، لا يكتفون بالإستهزاء، وإنما يدعون الآخرين للإستهزاء أيضا: «وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ». «وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

قولهم «هذا» المقصود منه تحقير المعجزات والآيات الإلهية والإنتقاص منها.

أ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أ وَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) هل نبعث من جديد: الآيات هذه تتابع سرد أقوال منكري المعاد، وتواصل الرد عليها، فالآية الأولى تعكس إستبعاد البعث من قبل منكريه بهذا النص: «أءَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

وهل سيبعث آباؤنا الأولون أيضاً؟ «أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ». فمن يستطيع جمع تلك العظام النخرة وأكوام التراب المتفرقة المتبقية من الإنسان؟ ومن يتمكن من إعادة الحياة إليها؟

فهؤلاء ذوى القلوب العمياء نسوا أنهم كانوا تراباً فى اليوم الأول، ومن التراب خلقوا، وإذ كانوا يشككون فى قدرة الله، فعليهم أن يعرفوا أن الله كان قد أراهم قدرته، وإن كانوا يشككون بإستحالة التراب، فقد أثبت ذلك من قبل.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٨٩

ثم يرد القرآن على تساؤلاتهم عندما يقول للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: قل لهم: نعم أنتم وأجدادكم ستبعثون صاغرين مهانين أذلاء، «قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ».

فهل تتصورون أن عمليهم إحيائكم والأولين تعدد مستحيلة، أو هى عمل عسير على الله القادر والقوى؟ كلا، فإن صرخة عظيمة واحدة ممن كلفهم الله سبحانه وتعالى بذلك كافية لبعث الحياة بمن فى القبور، ونهوض الجميع فجأة من دون أى تمهيد أو تحضير من قبورهم ليشاهدوا بأعينهم ساحة المحشر التى كانوا بها يكذبون: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ».

تعبير «زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» مع الإلتفات إلى معنى الكلمتين، يشير إلى أن البعث يتم بسرعة وعلى حين غرة، وإلى سهولته فى مقابل قدرة البارى عز وجل.

وهنا تتعالى صرخات المشركين المغرورين وتبين ضعفهم وعجزهم، ويقولون: الويل لنا فهذا يوم الدين: «وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ».

نعم، فعندما تقع أعينهم على محكمة العدل الإلهى وشهودها وقضاتها، وعلى علامات العقاب فإنهم - من دون أن يشعروا- يصرخون ويبيكون، ويعترفون بحقيقة البعث.

وهنا يوجه إليهم الخطاب من البارى عز وجل أو من ملائكته: نعم، اليوم هو يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون، «هَذَا يَوْمَ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ».

وبما أن المجرمين لا يفكرون إلا بالجزاء والعقاب الذى سينالهم، يطلق على يوم القيامة اسم يوم الجزاء، ولكن الله سبحانه وتعالى يشير إلى معنى أوسع من الجزاء الذى يعد أحد أبعاد ذلك اليوم، إذ يعتبر ذلك اليوم هو يوم الفصل.

يوم فصل الحق عن الباطل، فىجب أن تتبين كل الخطوط المتضادة والبرامج الحقيقية والكاذبة و يوم المحاكمة.

فطبيعة الدنيا هى إختلاط الحق بالباطل، فى حين أن طبيعة البعث هو فصل الحق عن الباطل، ولهذا السبب فإن أحد أسماء يوم القيامة فى القرآن المجيد (يوم الفصل).

ثم يصدر البارى عز وجل أوامره إلى ملائكته المكلفين بإرسال المجرمين إلى جهنم أن «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ».

نعم احشروهم وما كانوا يعبدون «مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ».

«احشروا»: مشتقة من «حشر»، ويقول الراغب فى مفرداته: إنها تعنى إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٠

(أزواج) هنا إما أن تشير إلى زوجات المجرمين والمشركين، أو إلى من يعتقد إعتقادهم ويعمل عملهم ومن هو على شاكلتهم، لأن



هذه الكلمة تشمل المعنيين.

جملة «مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ» تشير إلى آلهة المشركين، كالأصنام والشياطين والطغاة المتجبرين والفراعنة والتمارد.

ففي أحد الأيام ارشدوا إلى الصراط المستقيم ولكنهم لم يقبلوه، واليوم يجب أن يهدوا إلى صراط الجحيم، وهم مجبرون على القبول به، وهذا توبيخ عنيف لهم يجعلهم يتحرقون ألماً في أعماقهم.

وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَاتَنَاصِرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلذَاتُونَ (٣١) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) الحوار بين القادة والأنباع الضالين: الآيات السابقة إستعرضت كيفية سوق ملائكة العذاب للظالمين ومن يعتقد إعتقادهم برفقة الأصنام والآلهة الكاذبة التي كانوا يعبدونها من دون الله، إلى مكان معين، ومن ثم هدايتهم إلى صراط الجحيم.

واستمراراً لهذا الإستعراض يقول القرآن: «وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ».

ولكن عمّاذ يسألون؟ هناك روايات يذكرها الشيعة والسنة في أنهم يسألون عن ولاية أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام (١).

وبالطبع، فإن مثل هذه الروايات لا تحدّ من المفهوم الواسع للآيات، بل تعكس مصاديقها الواضحة. بناءً على ذلك فإنه ليس هناك أى مانع من أن يسأل عن كل شيء، عن العقائد وعن التوحيد والولاية، وعن الحديث والعمل، وعن النعم والمواهب التي وضعها الله سبحانه وتعالى في إختيار الإنسان.

على أيّ حال، فعندما يساق المجرمون إلى صراط الجحيم، تكون أيديهم مقطوعة عن

(١) الرواية هذه وردت في الصواعق المحرقة / ٨٩، عن الديلمي عن أبي سعيد الخدري نقلًا عن النبي صلى الله عليه وآله كما وردت عن الحاكم بن أبو القاسم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢ / ١٦٠، نقلًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩١

كل شيء وقاصرة عن تحصيل العون، ويقال لهم: أنتم الذين كان أحدكم يلجأ إلى الآخر في المشكلات ويطلب العون منه، لم لا ينصر بعضكم بعضاً الآن «مَا لَكُمْ لَاتَنَاصِرُونَ».

فكل الدعائم التي تصوّرتهم إنها دعائم مطمئنة في الدنيا ازليت عنكم، ولا يمكن أن يساعد بعضكم البعض، كما أن آلهتكم ليسوا بقادرين على تقديم العون لكم، لأنهم عاجزون ومشغولون بأنفسهم.

الآية التي تليها تضيف: إنهم في ذلك اليوم مستسلمون لأوامر الله وخاضعون له، ولا يمكنهم إظهار المخالفة أو الإعتراض، «بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ».

وهنا يبدأ كل واحد منهم بلوم الآخر، ويسعى إلى إلقاء أوزاره على عاتق الآخر، والتابعون يعتبرون رؤساءهم وأئمتهم هم المقصّرون، فيقابلونهم وجهاً لوجه، ويبدأ كل منهم بسؤال الآخر، كما تقول الآية: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ».

وهنا يقول التابعون لمتبعيهم: إنكم شياطين، إذ كنتم تأتوننا بعنوان النصيحة والهداية والتوجيه وإرادة الخير والسعادة لنا، ولكن لم يكن من وراء مجيئكم سوى المكر والضياع «قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ».

إذ أننا- بحكم فطرتنا- كنا نسعى وراء الخير والطهارة والسعادة، ولذا لبينا دعوتكم. نعم فكل الذنوب التي إرتكبناها أنتم مسؤولون عنها، لأننا لم نكن نملك شيئاً سوى حسن النية وطهارة القلب، وأنتم الشياطين الكذابون لم يكن لديكم سوى الخداع والمكر.

«يمين»: تعنى (اليد اليمنى) أو (الجهة اليمنى) والعرب تعتبرها في بعض الأحيان كناية عن الخير والبركة والنصيحة.

وفي المقابل فإن المتبوعين والقادة يجيئون تابعيهم بالقول: «قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

ودليلنا واضح، إذ لم تكن لنا أى سلطة عليكم، ولم نضغط عليكم ونجبركم لعمل أى شىء: «وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ».

إنما أنتم قوم طغاة ومعتدون، وأخلاقكم وطبيعتكم الظالمة صارت سبب تعاستكم «بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ».

وكم هو مؤلم أن يرى الإنسان قائده وإمامه الذى كان قد إرتبط به قلبياً طوال عمره، قد تسبب فى تعاسته وشقائه ثم يتبرأ منه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٢

فى الحقيقة، إن كلنا المجموعتين صادقة فى قولها.

فجدالكم لا يؤدى إلى نتيجة، وهنا يعترف أئمة الضلال بهذه الحقيقة، ويقولون: بهذا الدليل ثبت أمر الله علينا، وصدر حكم العذاب

بحق الجميع، وسينالنا جميعاً عذاب الله «فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ».

إنكم كنتم طاعين، وهذا هو مصير الطغاة، أما نحن فقد كنا ضالين ومضلين.

فنحن أضللناكم كما كنا نحن أنفسنا ضالين «فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ».

بناء على ذلك ما الذى يثير العجب فى أن نكون جميعاً شركاء فى هذه المصائب وهذا العذاب؟

إن سبب تأثيرنا عليكم هو وجود روح الطغيان فى داخلكم؛ هذا الطغيان هياً لديكم أرضية التأثير ياغوائنا، وعبر هذا الطريق تمكنا من

نقل الخرافات إليكم.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لِمَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَ

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْرَوْنَ إِلَّا

مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (٤٠) مصير أئمة الضلال وأتباعهم: الآيات السابقة بحثت موضوع التخاصم الذى يدور

بين أئمة الضلال وتابعيهم يوم القيامة قرب جهنم، أما الآيات أعلاه فقد وضحت - فى موضع واحد - مصير المجموعتين، وشرحت

أسباب تعاستهم. ففى البداية تقول: إن التابع والمتبوع والإمام والمأموم مشتركون فى ذلك اليوم بالعذاب الإلهى، «فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي

الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ».

وبالطبع فإن اشتراكهم فى العذاب لا يمنع من وجود إختلاف فى المكان الذى سيلقون منه فى جهنم، إضافة إلى إختلاف نوع العذاب

الإلهى؛ إذ من الطبيعى أن الذى يتسبب فى انحراف الآلاف من البشر لا يتساوى عذابه مع فرد ضال عادى.

وللتأكيد أكثر على تحقق العذاب تقول الآية التى تلتها: «إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ».

إن هذه هى سنتنا، السنة المستمده من قانون العدالة.

ثم توضح السبب الرئيسى الكامن وراء تعاسة اولئك، وتقول: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لِمَا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٣

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ».

إن التكبر والغرور، وعدم الإنصياع للحق، والعمل بالعادات الخاطئة والتقاليد الباطلة بإصرار ولجاجة، والنظر إلى كل شىء باستخفاف

واستحفار، تؤدى جميعاً إلى إنحراف الإنسان.

لكن هؤلاء بزروا إرتكابهم للذنوب الكبيرة بتبريرات أسوأ من ذنوبهم، كقولهم: هل نترك آلهتنا وأصنامنا من أجل شاعر مجنون؟

«وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ».

لقد أطلقوا على النبى الأكرم صلى الله عليه وآله كلمة (شاعر) لأن كلامه كان ينفذ إلى قلوبهم ويحرك عواطفهم، فأحياناً كان يتكلم

إليهم بكلام يفوق أفضل الأشعار وزناً، فى الوقت الذى لم يكن حديثه شعراً، وكانوا يعتبرونه (مجنوناً) لكونه لم يتلون بلون المحيط

الذى يعيش فيه، ووقف موقفاً صلباً أمام العقائد الخرافية التى يعتقد بها المجتمع المتعصب حينذاك، الموقف الذى اعتبره المجتمع

الضال في ذاك الوقت نوع من الإنتحار الجنوني، في الوقت الذي كان أكبر فخر لرسول الله صلى الله عليه وآله، هو عدم إستسلامه للوضع السائد حينذاك.

وهنا تدخل القرآن لردّ إدعاءاتهم التافهة والدفاع عن مقام الوحي ورسالة النبي صلى الله عليه وآله عندما قال: «بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ».

فمحتوى كتابه من جهة، وتوافق دعوته مع دعوات الأنبياء السابقين من جهة أخرى، هي خير دليل على صدق حديثه. وأما أنتم أيها المستكبرون الضالون، فإنكم ستذوقون العذاب الإلهي الأليم: «إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ». ولا تتصوّروا أنّ الله منتقم، وأنّه يريد الإنتقام لنيته منكم، كلّا ليس كذلك: «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». وجزاؤكم إنّما هو نتيجة أعمالكم وتكبركم وكفركم وعدم إيمانكم بالله وزعمكم بأنّ آيات الله هي (شعر) ورسوله (مجنون) إضافة إلى ظلمكم وإرتكابكم القبائح.

آخر آية في هذا البحث، والتي هي مقدمة للبحث المقبل، تستثني مجموعة من العذاب، وهي مجموعة عباد الله المخلصين: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

وكلمة «عِبَادَ اللَّهِ» يمكنها لوحدتها أن تبيّن إرتباط هذه المجموعة بالله سبحانه وتعالى، وعندما تضاف إليها كلمة (مخلصين) فإنّها تعطي لتلك الكلمة عمقاً وحياءً.

نعم فهذه المجموعة لا تحاسب على أعمالها، وإنّما يعاملها الله سبحانه وتعالى بفضله

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٤

وكرمه، ويمنحها من الثواب بغير حساب.

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَهَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)

جوانب من النعم لأهل الجنة: الآيات الأخيرة في البحث السابق تحدثت عن عباد الله المخلصين، أما آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض العطايا والنعم غير المحدودة التي يهبها الله سبحانه وتعالى لأهل الجنة، ويمكن توضيحها في سبعة أقسام:

تقول الآية أولاً: «إِنَّ لَهُمْ رِزْقًا مَعْلُومًا وَمَعِينًا» «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ».

وهي الهبات المعنوية والمتع الروحية ودرك مظاهر ذات الله، وتناول الشراب الطاهر والغمره في عشق الله، اللذة التي لا يمكن أن يدركها العبد ما لم يتذوقها ويعيش رحابها.

ثم ينتقل إلى بيان نعم أخرى، ويعدّد قبل كل شيء بعض نعم الجنة التي تقدّم لأهل الجنة بكلّ إحترام وتكريم: «فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ». ثم يقول: «إِنَّ أَمَا كُنْهُمْ فِي حِدَائِقِ خُضْرَاءِ مَمْلُوءَةٍ نَعْمَ الْجَنَّةِ» (في جَنَّاتِ النَّعِيمِ).

فأىّ نعمة يتمنونها موجودة هناك، وكل ما يطلبون يجدونه أمامهم.

وأشارت الآيات إلى النعمة الرابعة، وهي إستئناس أهل الجنة بمجالس السمر التي يعقدونها مع أصدقائهم في جوّ ملؤه الصفاء، إذ يجلسون على سرر متقابلة وينظر كل منهم إلى الآخر: «عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ».

«سرر»: هي جمع «سرير» وهي الأسرّة التي يجلس عليها الناس في مجالس سمرهم.

أما القسم الخامس فيتحدث عن نعمة أخرى من النعم التي تغدق على أهل الجنة، إذ تطرّق إلى الشراب الطهور الذي يطاف به عليهم بكؤوس مملوءة بأنواع الخمور الطاهرة، ومتى ما أرادوا فإنّهم يسقون من ذلك الخمر ليغرقوا في عالم من النشاط والروحية: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مُعِينٍ».

وهذه الكؤوس ليست في مكان معيّن يذهبون إليها لأخذها، وإنّما يطاف بها عليهم:

يُطَافُ عَلَيْهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٥

«كأس»: يطلقها أهل اللغة على إناء الشراب المملوء، فيما يطلقون كلمته «قدح» عليه إن كان خالياً؛ و «معين»: مشتقة من «معن» على وزن (صحن) وتعني الجارى، إشارة إلى أن هناك عيوناً جارية من الخمر الطاهر، تملأ منها- فى كل لحظة- الكؤوس، ومن ثم يطاف بها على أهل الجنة.

ثم ينتقل الحديث إلى وصف كؤوس الشراب، إذ يقول: إِنَّهَا بِيضَاءُ اللَّوْنِ وَمِتْلَأْتُهُ وَتَعْطَى لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ بِهَا «بَيْضَاءُ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ». إِنَّهَا أَشْرَبُهُ طَاهِرَةٌ، خَالِيَةٌ مِنَ الْأَلْوَانِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَبِيضَاءُ اللَّوْنِ شَفَافَةٌ.

الآية السابقة التى تطرقت إلى الشراب والكؤوس ربّما تجلب إلى الأذهان مفاهيم اخرى، أما الآية التى تليها فتطرّد فى جملة قصيرة كافة تلك المفاهيم عن الأذهان: «لَافِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ».

«غول»: على وزن (قول) تعنى الفساد الذى ينفذ إلى الشىء بصورة غير محسوسة.

«ينزفون»: من مادة «نزف» على وزن (حذف) وتعنى فقدان الشىء تدريجياً. والمقصود فى هذه الآية ذهاب العقل تدريجياً والوصول إلى حالة السكر، أما خمر الجنة الطاهر فإنه لا يسكر على الإطلاق، إذ لا يذهب بالعقل ولا يسبب أى مضار.

أما القسم السادس، فإنه يشير إلى الحور العين فى جنات النعيم: «وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ». أى نرزقهم زوجات لا يعشقن سوى أزواجهن ويقصرن طرفهنّ عليهم فقط، ولهذه الزوجات أعيناً واسعة وجميلة.

«طرف»: فى الأصل تعنى جفن العين، وهذه الكلمة كناية عن النظر، إذ إن أجفان العين تتحرك عندما ينظر الإنسان إلى شىء ما؛ إذن فإنّ عبارة «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» تعنى النساء اللواتى ينظرن نظرة قصيرة، وأنهنّ ينظرن إلى أزواجهنّ فقط.

هذا التعبير كناية عن كونهنّ لا يعشقن إلا أزواجهن، وقلوبهم ممتية بمحبتهم، ولا توجد محبة اخرى فى قلوبهنّ، وهذا هو أكبر إمتياز للمرأة التى تحب زوجها وتتأمل به.

إنّ آخر آية فى بحثنا هذا تعطينا وصفاً آخر لزوجات الجنة، إذ توضّح طهارتهن وقداستهنّ من خلال هذه العبارة: «كَأَنَّهُنَّ بَيِّضٌ مَّكْنُونٌ». أى إنهنّ نظيفات وظريفات.

الهبات التى منّ الله تعالى بها على أهل الجنة- المذكورة فى الآيات السابقة- هى مجموعة من الهبات المادية والمعنوية، وإن كان حقيقة النعم التى تغدق على أهل الجنة خفية عن أهل الدنيا، إلا إذا ذهبوا إلى هناك وشاهدوها عن قرب ليدرّكوها.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٦

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أ إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ (٥٧) أ فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ (٥٩) إِنْ هَذَا إِلَّا فَوْزٌ عَظِيمٌ (٦٠) لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) البحث عن رفيق السوء: عباد الله المخلصون الذين إستعرضت الآيات السابقة النعم المادية والمعنوية التى أغدقت عليهم، كالفاكهة، والحور، والأصدقاء الطيبين الذين يجالسونهم ويتحدثون معهم، وفجأة يتذكرون أصدقاءهم فى الدنيا، أصدقاءهم الذين انفصلوا عنهم فى الطريق، ولم يجدوا لهم أى أثر فى الجنة، فيسعون إلى معرفة مصيرهم.

نعم، فى الوقت الذى كانوا فيه منشغلين بالحديث والسؤال عن أحوال بعضهم البعض، «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ».

فجأة خطر فى ذهن أحدهم أمر، فالتفت إلى أصحابه قائلاً: لقد كان لى صديق فى الدنيا «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ».

ومع الأسف، فإنه انحرف عن الطريق الصحيح، وصار منكراً ليوم البعث، وكان دائماً يقول لى: هل تصدق هذا الكلام وتعتقد به؟ «يَقُولُ أَأَنْتَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ».

هل أننا إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً نحيا مرة أخرى، لنساق إلى الحساب: «أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ» (١).  
وهنا يخاطب من كان يتحدث معهم من أهل الجنة، بالقول: ليتنى أعرف أين هو الآن؟  
وفي أية ظروف يعيش؟  
ويضيف: أيها الأصدقاء، هل تستطيعون البحث عنه، ومعرفة حاله، «قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ» (٢).

(١) «مدينون»: من مادة «دين» وتعني الجزاء، وهنا تعني: هل أننا سنجزى؟

(٢) «مطلعون»: من مادة «إطلاع» وتعني التفتيش والبحث، والإشراف على شيء من مكان عالٍ، وأخذ المعلومات.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٧

وأثناء بحثه عن قرينه وصديقه ينظر إلى جهنم، ويرى فجأةً صديقه وسط جهنم:

«فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ» (١).

فيخاطبه قائلاً: أقسم بالله لقد كدت أن تهلكني وتسقطني فيما سقطت فيه «قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَّ لِتَزِدَّيْنِ» (٢).

فلولا لطف الله الذي منعه من ذلك ونعمته التي سارعت لمساعدتي، لكنت اليوم من المحضرين للعذاب مثلك في نار جهنم «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

وهنا يلقي نظرة أخرى إلى صديقه في جهنم، ويقول له موبخاً إياه: ألم تكن أنت القائل لي في الدنيا بأننا لا نموت «أَفَمَا نَحْنُ بِمَمْتِنِينَ».

سوى مرة واحدة في الدنيا، وبعدها لا حياة أخرى ولا عذاب «إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ».

هنا اختتم الحديث بجملة عميقة المعاني: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ما أعظم هذا الفوز الذي يغرق فيه الإنسان بنعمة الخلود والحياة الأبدية، وتشمله الألفاظ الإلهية.

ثم يقول تبارك وتعالى في ختام البحث جملة توظف القلوب وتهز الأعماق: «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ». أي لمثل هذا فليعمل الناس،

ومن أجل نيل هذه النعم فليسع الساعون.

فما أجمل التعبير الذي صاغته الآيات القرآنية المذكورة أعلاه، عندما دعت المؤمنين إلى هذا الهدف، أي نيل الجنان المملوءة بالملذات الروحية والجسمية، التي تشمل الشراب الطاهر الذي يغرق الإنسان في الظل الملكوتي، والقرناء والأصدقاء الطيبين ذوي القلوب الصافية الذين تزيل مجالستهم كل أشكال الغم.

أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزَّلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ

الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)

(١) «سواء»: تعني الوسط.

(٢) «تردين»: من مادة «إرداء» وتعني السقوط من مكان عالٍ، وهلاك الساقط.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٨

جوانب من العذاب الأليم لأهل النار: بعد توضيح النعم الكثيرة والخالدة التي يغدقها الله سبحانه وتعالى على أهل الجنة، تستعرض

الآيات أعلاه العذاب الأليم والمثير للأحزان الذي أعدّه الله لأهل جهنم، وتقارنه مع النعم المذكورة سابقاً، بحيث تترك أثراً عميقاً في

النفوس يردعها عن إرتكاب الأعمال السيئة والمحزّمة. ففي البداية تقول: «أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزَّلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ».

«نزل»: تعني الشيء الذي يهتأ لورود الضيف فيقدم إليه إذا ورد، والبعض الآخر قال:

إنها تعنى الشيء الأول الذى يقدم للضيف حين وروده.

و «زقوم»: اسم نبات مرّ وذى طعم ورائحة كريهة.

و «شجرة»: لا- تأتى دائماً بمعناها المعروف، وإنما تعنى فى بعض الأحيان (النبات)؛ والقرائن هنا تشير إلى أن المراد من الشجرة هو المعنى الثانى أى (النبات). مختصر الامثل ج ٢١٩٤

ثم يستعرض القرآن الكريم بعض خصائص هذه النبتة، ويقول: «إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ».

«فتنة»: تعنى المحنة والعذاب، كما تعنى الامتحان، وهو إشارة إلى أن المشركين عندما سمعوا كلمة (الزقوم) عمدوا إلى السخرية والاستهزاء، فيما كان هذا الأمر إمتحاناً لأولئك الطغاة.

ويضيف القرآن الحكيم: «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ».

ولكن الظالمين المغرورين يواصلون إستهزاءهم، ويقولون: كيف يمكن لنبات أو شجر أن ينبت فى قعر جهنم؟ فأين النار وأين الشجر والنبات؟

وكأنهم كانوا غافلين عن أن الاصول التى تحكم فى ذلك العالم- أى الآخرة- تختلف كثيراً عن الاصول الحاكمة فى العالم الدنيوى.

ثم يضيف القرآن الكريم: «طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ».

إن التشبيه هنا استخدم لبيان شدة قباحة ثمار الزقوم وشكلها الباعث على النفور والإشمئزاز.

ويواصل القرآن الكريم إستعراض العذاب الذى سينال المشركين والكافرين: «فَإِنَّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ».

هذا هو العذاب والفتنة الذى أشرنا إليه فى الآيات السابقة، حيث إن أكل هذا النبات

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ١٩٩

الذى ينبت فى جهنم ذو الرائحة الكريهة والطعم المرّ واللبن الذى يورم ويحرق الأبدان فور ما يصيبها، وتناوله- وبكميات كبيرة- يعدّ عذاباً أليماً.

ومن البديهي، فإنّ من يتناول هذا الطعام السىء الطعم والمرّ، يصيبه العطش، ولكن حينما يشعر بالعطش ماذا يشرب؟ القرآن يجيب على هذا السؤال بالقول: «ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ».

«الشوب»: هو الشيء المخلوط أو الممزوج مع شيء آخر؛ و «حميم»: هو الماء الحار البالغ فى حرارته، وهذا هو غذاء أهل جهنم، وهذا هو شرابهم.

وبعد هذه الضيافة إلى أين يذهبون، فيجيب القرآن على هذا السؤال أيضاً بالقول: «ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ».

الآية الأخيرة فى بحثنا تناولت السبب الرئيسى الذى أدى إلى دخول اولئك إلى جهنم ونيلمهم العذاب الأليم والشديد هناك، تناولته فى آيتين مليئتتين بالمعانى والحقائق: «إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ».

وإنهم كانوا يسرعون على آثارهم ومن دون أى إرادة، «فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ».

«يهرعون»: من مادة «هرع» أى أسرع، وهى إشارة إلى أنهم كانوا يقلدون آباءهم قلباً ودينياً وإنهم كانوا يحثون الخطى على آثارهم إلى درجة كأنهم يسارعون فى ذلك من دون أى إرادة وإختيار، وإشارة اخرى إلى تعصّبهم وتمسكهم بالخرافات التى كان أجدادهم الضالّون يعتقدون بها.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

(٧٤) الامم الضالة السابقة: بما أن المسائل السابقة المتعلقة بالمجرمين والضالين لا تختص بزمان ومكان معينين، فالقرآن يتوسّع فى الآيات التى تبحث بشكل مفصّل عن هذه المسائل، ويهيه الأرضية فى عدة آيات قصيرة ومختصرة لشرح امور كثيرة عن الامم

السابقة، والتى بالإطلاع عليها تكون أدلة ناطقة للبحوث السابقة.

ومن تلك الامم اقوام نوح وإبراهيم وموسى وهارون ولوط ويونس وغيرهم، إذ يقول: «وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠٠

ثم يضيف القرآن المجيد أن ضلالتهم لم تكن بسبب إفتقادهم القائد وعدم موعظتهم: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ».

إذ أننا أرسلنا إليهم أنبياء لإنذارهم من خطر الشرك بالله والكفر به، والظلم والإعتداء، وتقليد الآخرين بصورة عمياء، ولإطلاعهم على مسؤولياتهم.

ثم يقول في عبارة ذات معان عميقة: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ».

إن هذه الآية المباركة تشير إلى نهاية اقوام سنستعرض أحوالها وأوضاعها بصورة مفصلة في الآيات القادمة.

أما آخر آية في بحثنا فإنها تستنى جماعة من العذاب الإلهي: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ».

إن هذه الآية تشير إلى عاقبة هذه الامم، وتدعو إلى التمعن في العذاب الأليم الذي ابتلوا به، والذي أهلكهم وأبادهم جميعاً ماعدا عباد الله المؤمنين والمخلصين الذين نجوا من هذا العذاب.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ

(٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْمَآخِرِينَ (٨٢)

مقتطفات من قصة نوح: من هنا يبدأ سرد قصص تسعة أنبياء من أنبياء الله الكبار، والذين كانت الآيات السابقة قد تطرقت إليهم

بصورة حفيئة، وتشعر الآيات بنوح شيخ الأنبياء وأول اولي العزم من الرسل. بدأ البحث بالإشارة إلى دعاء نوح الشديد على قومه بعد

أن ينس من هدايتهم: «وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ».

هذا الدعاء يمكن أن يكون إشارة إلى الدعاء الذي ورد في سورة نوح: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ

إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (١).

فإن الله سبحانه وتعالى يجيبه في الآية التي تليها بالقول: «وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

(١) سورة نوح / ٢٦ و ٢٧.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠١

يمكن أن يكون ذلك الغم نتيجة إستهزاء قومه الكافرين المغرورين به، وتجريحهم إياه بكلمات نابية وساخرة تستهدف إهانتته وأتباعه

المؤمنين، أو نتيجة تكذيب قومه اللجوجين إياه.

ويضيف القرآن الكريم: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ».

وإضافة إلى ذلك يقول القرآن: أننا جعلنا لنوح ثناءً وذكرًا جميلاً في الأجيال والامم اللاحقة: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ».

فقد وصفه القرآن المجيد بالنبي المقاوم والشجاع والصبور والرحيم والعطوف، وأطلق عليه لقب شيخ الأنبياء.

فبعد تحمله كافة الصعاب والآلام، منحه الله سبحانه وتعالى وساماً خالداً يفتخر به في العالمين «سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ».

ولكى تكون خصوصيات نوح عليه السلام مصدر إشعاع للآخرين، أضاف القرآن الكريم: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». و «إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

إن درجة عبودية نوح لله وإيمانه به - إضافة إلى إحسانه وعمله الصالح الذي ذكرته الآيتان الأخيرتان - كانت السبب الرئيسي وراء

اللطف الإلهي الذي شمل نوحاً وأنقذه من الغم الكبير، وبعث إليه بالسلام، السلام الذي يمكن أن يشمل كل من عمل بما عمل به

نوح، لأن معايير الألفاظ الإلهية لا تتخلف، ولا تختص بشخص دون آخر.

أما الآية الأخيرة في بحثنا فقد وضحت عبارة شديدة اللهجة مصير تلك الأمة الظالمة الشريرة الحاقدة: «ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ».

إذ إنهم المطر سيلاً من السماء، وتفجرت الأرض عيوناً، وغطت المياه اليابسة كبحر هائج دكّ بأواجه المتلاطمة الشامخة عروش الطغاة ودمرها، لافظاً إياهم بعدئذ أجساداً هامدة لا حياة فيها ولا روح.

وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَلِفُكَا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَيِّمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَزَاعَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَزَاعَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ (٩٤)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠٢

خطبة إبراهيم الذكية في تحطيم الأصنام: آيات بحثنا هذا تتناول بشيء من التفصيل حياة النبي الشجاع إبراهيم عليه السلام محطم الأصنام بعد آيات إستعرضت جوانب من تاريخ نوح عليه السلام المليء بالحوادث. الآية الاولى ربطت بين قصة إبراهيم وقصة نوح بهذه الصورة:

«وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ». أى: إن إبراهيم كان سائراً على خطى نوح عليه السلام في التوحيد والعدل والتقوى والإخلاص، وكل واحد منهم يواصل تنفيذ برامج الآخر لإكمالها.

بعد هذا العرض المختصر ندخل في التفاصيل. قال تعالى: «إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «القلب السليم الذى يلقى ربه وليس فيه أحد سواه».

واعتبر القرآن الكريم القلب السليم رأس مال نجاه الإنسان يوم القيامة، حيث نقرأ في سورة الشعراء، وفي الآيات (٨٨ و ٨٩) على لسان النبي الكبير إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

نعم، من هنا تبدأ قصة إبراهيم ذى القلب السليم، والروح الطاهرة، والإرادة الصلبة، والعزم الراسخ، مع قومه، إذ كلف بالجهاد ضد عبادة الأصنام، وبدأ بأبيه وعشيرته: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ». ما هذه الأشياء التى تعبدونها؟

أليس من المؤسف على الإنسان الذى كرمه الله على سائر المخلوقات، وأعطاه العقل أن يعظم قطعة من الحجر والخشب العديم الفائدة؟ أين عقولكم؟

ثم يكمل العبارة السابقة التى كان فيها تحقير واضح للأصنام، ويقول: «أَفُكَا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ».

واختتم كلامه فى هذا المقطع بعبارة عنيفة: «فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». إذ تأكلون ما يرزقكم به يومياً، ونعمه تحيط بكم من كل جانب، ورغم هذا تقصدون موجودات لا قيمة لها من دون الله.

وجاء فى كتب التاريخ والتفسير، أن عبدة الأصنام فى مدينة بابل كان لهم عيد يحتفلون به سنوياً، يهيئون فيه الطعام داخل معابدهم، ثم يضعونه بين يدي آلهتهم لتباركه، ثم يخرجون جميعاً إلى خارج المدينة، وفى آخر اليوم يعودون إلى معابدهم لتناول الطعام والشراب.

وحين دعاه قومه ليلاً للمشاركة فى مراسمهم نظر إلى النجوم: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ». «فَقَالَ إِنِّي سَيِّمٌ». وبهذا الشكل إعتذر عن مشاركتهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠٣

بعد إعتذاره تركوه وأسرعوا لتأديته مراسمهم، «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ».

إن أهل بابل كانوا يستقرون النجوم، وبالطبع كانت هناك خرافات كثيرة فى هذا المجال شائعة فى أوساطهم، منها أنهم كانوا يعتبرون النجوم تؤثر على حظوظهم، وكانوا يطلبون منها الخير والبركة، كما كانوا يستدلون بها على الحوادث المستقبلية.



ولكى يوهمهم إبراهيم عليه السلام بأنه يقول بمثل قولهم، نظر إلى السماء وقال حينذاك: إني سقيم، فتركوه ظناً منهم أن نجمة يدل على سقمه.

ولكن روحه متعبه من جزاء الممارسات التافهة لقومه وكفرهم وظلمهم وفسادهم، رغم أنهم تصوّروا شيئاً آخر، واعتقدوا أنه يعاني من أمراض جسدية.

وبهذه الطريقة بقي إبراهيم عليه السلام وحده في المدينة بعد أن تركها عبدة الأصنام متوجهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله ونور الإشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر في عينيه، إذ قربت اللحظات التي كان ينتظرها، وعليه أن يتحرك لمحاربة الأصنام وإلحاق ضربه عنيفة بها، ضربة تهز العقول التافهة لعبدتها وتوقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، ونظر إلى صحون وأواني الطعام المنتشرة في المعبد، ثم نظر إلى الأصنام وصاح بها مستهزئاً، ألا تأكلون من هذا الطعام الذي جلبه لكم عبدتكم، إنه غذاء دسم ولذيذ ومتنوع، ما لكم لا تأكلون؟ «فَرَاغَ إِلَيَّ الْهَيْهَاتِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ» (١). ثم أضاف: لم لا تتكلمون؟ لم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ «مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ».

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس وانقض على تلك الأصنام بالضرب بكل ما لديه من قوة: «فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ». إن إنقضا إبراهيم عليه السلام على الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظم إلى خربة موحشة.

وفي آخر اليوم عاد عبدة الأصنام إلى مدينتهم، واتجهوا فوراً إلى معبدهم، فشهدوا مشهداً رهيباً وغامضاً.

ثم تحوّل جوّ السكوت الذي خيم عليهم لحظة مشاهدة المشهد، تحوّل إلى صراخ وإستفسار عمّن فعل ذلك بالهتيم؟

ولم يمر وقت طويل، حتى تذكروا وجود شاب يعبد الله في مدينتهم إسمه إبراهيم، كان يستهزئ بأصنامهم «فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ».

(١) «راغ»: من مادة «روغ» وتعني التوجه والتمایل بشكل سرّي ومخفي أو بشكل مؤامرة وتخریب.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠٤

«يرفون»: مشتقة من «زف» وتستعمل بخصوص هبوب الرياح والحركة السريعة للنعامه الممتزجة ما بين السير والطيران، ثم تستخدم للكناية عن (زفاف العروس) إذ تعني أخذ العروس إلى بيت زوجها.

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فشل مخططات المشركين: بعد أن حطم إبراهيم الأصنام، استدعى إبراهيم بهذه التهمة إلى المحكمة، وقد شرح القرآن الكريم في سورة الأنبياء الحادثة بصورة مفصلة، بينما اكتفى القرآن في آيات بحثنا بالإشارة لمقطع حساس واحد من مواقف إبراهيم عليه السلام وهو آخر كلامه معهم في مجال بطلان عقيدتهم في عبادة الأصنام: «قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ».

فهل هناك شخص عاقل يعبد شيئاً من صنع يديه؟

فالمعبود يجب أن يكون خالق الإنسان، وليس صنيعه يده، من الآن فكروا واعرفوا معبودكم الحقيقي: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ».

فهو خالق الأرض والسماء، ومالك الوقت والزمان، ويجب السجود لهذا الخالق وحمده وعبادته.

إن هذه الحجّة كانت من الوضوح والقوة إلى حد جعلتهم يقفون أمامها مبهورين وغير قادرين على ردّها وحضها.

ومن المعروف أن الطغاة والجبابرة لا يفهمون لغة المنطق والدليل.

ولإيقاف إنتشار منطق التوحيد بين أبناء مدينة بابل، عمد الطغاة الذين أحسوا بخطر إنتشاره على مصالحهم الخاصة إلى استخدام منطق القوة والنار ضد إبراهيم عليه السلام، حيث هتفوا بالإعتماد على قدراتهم الدنيوية: أن ابنوا له بيوتاً عالياً، واشعلوا في وسطه النيران ثم

ارموه فيه: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ».

ومن هذه العبارة يستفاد أن الأوامر كانت قد صدرت ببناء أربعة جدران كبيرة، ومن ثم إشعال النيران في داخلها، وبناء الجدران الأربعة الكبيرة، إنما تم - كما يحتمل - للحؤول دون إمتداد النيران إلى خارجها، ومنع وقوع أخطار محتملة قد تنجم عنها، ولإيجاد جهنم واقعية

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠٥

كتلك التي كان إبراهيم يتهدد ويتوعد عبده الأوثان بها.

«الجحيم»: في اللغة هي النار التي تجتمع بعضها على بعض.

وآيات القرآن الكريم هنا لم تشر إلى تفاصيل هذا الحادث الذي ورد في سورة الأنبياء، وإنما أنهت هذه الحادثة بخلاصة مركزة ولطيفة: «فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَشْقَلِينَ».

«كيد»: في الأصل تعني الإحتيال، أكان بطريقة صحيحة أم خطأ، مع أنها غالباً ما تستعمل في موارد مذمومة، وهي إشارة إلى المخطط الواسع الذي وضعه طغاة بابل للقضاء على دعوة إبراهيم للناس بقوله وعمله ومحو آثارها.

إبراهيم عليه السلام الذي نجا بإرادة الله من هذه الحادثة الرهيبة والمؤامرة الخطيرة التي رسمها أعداؤه له، صمم على الهجرة إلى أرض بلاد الشام، إذ إن رسالته في بابل قد إنتهت؛ «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينِ».

من البديهي أن الله لا يحويه مكان، والهجرة التي تتم في سبيله من المجتمع الملوث الفاسد إلى المجتمع الطاهر الصافي، فإنها هجرة إلى الله.

الآيات - هنا - عكست أول طلب لإبراهيم عليه السلام من البارئ عز وجل، إذ طلب الولد الصالح، الولد الذي يتمكن من مواصلة خطه الرسالي، ويتم ما تبقى من مسيرته، وذلك حينما قال: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ».

فاستجاب الله لدعاء عبده إبراهيم، وورقه أولاداً صالحين (إسماعيل وإسحاق).

فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) بحثنا في الآيات السابقة إنتهى عند هجرة إبراهيم عليه السلام من بابل بعد أن أدى رسالته هناك، وطلبه من الله أن يرزقه ولداً صالحاً، إذ لم يكن له ولد، وأول آية في هذا البحث تتحدث عن الإستجابة لدعاء إبراهيم، إذ قالت الآية: «فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠٦

في الواقع إن ثلاثة بشائر جمعت في هذه الآية، الاولى أنه سيرزق طفلاً ذكراً، والثانية أن هذا الطفل يبلغ سن الفتوة، أما الثالثة فهي أن صفته حلِيم.

أخيراً، ولد الطفل الموعود لإبراهيم وفق البشارة الإلهية، وأتلع قلب إبراهيم الذي كان ينتظر الولد الصالح لسنوات طوال، إجتاز الطفل مرحلة الطفولة وأضحى غلاماً، وهنا يقول القرآن: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ». يعني أنه وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع فيها السعي وبذل الجهد مع والده في مختلف امور الحياة وإعانتة على اموره.

فقد ذهب جمع من المفسرين: إن عمر إسماعيل كان (١٣) عاماً حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير، والذي يدل على بدء امتحان عسير آخر لهذا النبي ذي الشأن العظيم، إذ رأى في المنام أن الله يأمره بذبح ابنه الوحيد وقطع رأسه.

امتحان شاق آخر يمر على إبراهيم الآن، إبراهيم الذي نجح في كافة الإمتحانات الصعبة السابقة وخرج منها مرفوع الرأس، ولكن قبل كل شيء، فكر إبراهيم عليه السلام في إعداد ابنه لهذا الأمر، حيث «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى .

الولد الذي كان نسخه طبق الأصل من والده، والذي تعلم خلال فترة عمره القصيرة الصبر والثبات والإيمان في مدرسة والده، رغب بالأمر الإلهي بصدر واسع وطيبة نفس، وبصراحة واضحة قال لوالده: «قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ».

ولا تفكر في أمري، فإنك «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ».

فما أعظم كلمات الأب والابن وكم تخفى في بواطنها؛ فمن جهة، الأب يصارح ولده البالغ من العمر (١٣) عاماً بقضية الذبح، حيث جعله هنا شخصيته مستقلة حرة الإرادة.

ومن جهة أخرى، عمد الابن إلى ترسيخ عزم وتصميم والده في تنفيذ ما أمر به.

وبهذا الشكل يجتاز الأب وابنه المرحلة الأولى من هذا الإمتحان الصعب بانتصار كامل.

كتب البعض: إن إسماعيل ساعد والده في تنفيذ هذا الأمر الإلهي، وعمل على تقليل ألم وحزن والدته.

يا أبت، أحكم شدّ الحبل كي لا- تتحرك يدي ورجلي أثناء تنفيذك الأمر الإلهي، أخاف أن يقلل ذلك من مقدار الجزاء الذي سأناؤه.

والدي العزيز اشحد السكين جيداً، وامرره بسرعة على رقبتى كي يكون تحمّل ألم الذبح سهلاً بالنسبة لى ولك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٠٧

والدي قبل ذبحي اخلع ثوبى من على جسدى كي لا يتلوّث بالدم، لأنى أخاف أن تراه والدتى وتفقد عنان صبرها.

ثم أضاف: أوصل سلامى إلى والدتى، وإن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبى إليها كي يسلى خواطرها ويهدىء من آلامها.

قربت اللحظات الحساسة، فعندما رأى إبراهيم عليه السلام درجة إستسلام ولده للأمر الإلهي إحتضنه وقبل وجهه، وفي هذه اللحظة بكى الإثنان.

القرآن الكريم يوضح هذا الأمر فى جملة قصيرة ولكنها مليئة بالمعاني، فيقول تعالى:

«فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» (١).

كَبْ إبراهيم عليه السلام ابنه على جبينه، ومَرَّرَ السكين بسرعة وقوة على رقبة ابنه، وروحه تعيش حالة الهيجان، إلّا أنّ السكين الحادة لم تترك أدنى أثر على رقبة إسماعيل اللطيفة.

وهنا غرق إبراهيم فى حيرته، ومَرَّرَ السكين مرّة أخرى على رقبة ولده، ولكنها لم تؤثر بشيء كالمرة السابقة. نعم، فإبراهيم الخليل يقول للسكين: إذبحى، لكن الله الجليل يعطى أوامره للسكين أن لا تذبحى، والسكين لا تستجيب سوى لأوامر البارى عز وجل.

وهنا ينهى القرآن كل حالات الإنتظار وبعبارة قصيرة مليئة بالمعاني العميقة:

«وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

ثم يضيف القرآن الكريم: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ».

عملية ذبح الابن البار المطيع على يد أبيه، لا تعدّ عملية سهلة وبسيطة بالنسبة لأب إنتظر فترة طويلة كي يرزقه الله بهذا الابن.

والذى يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر الله، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح وإطمئنان يحفه اللطف الإلهي، وإستسلام فى مقابل هذا الأمر.

ولكى لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصاً، وتحقق امنية إبراهيم فى تقديم قربان لله، بعث الله كبشاً كبيراً إلى إبراهيم ليذبحه بدلاً عن ابنه

إسماعيل، ولتصير سنّة للأجيال القادمة التى تشارك فى مراسم الحج وتأتى إلى أرض (منى): «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ».

(١) «تله»: من مادة «تل» وتعنى فى الأصل المكان المرتفع؛ و «تله للجبين» تعنى أنه وضع أحد جوانب وجه ابنه على مكان مرتفع من الأرض.

مختصر الامثل، ج 4، ص: 208

وإحدى دلائل عظمته هذا الذبح، هو إتساع نطاق هذه العملية سنة بعد سنة بمرور الزمن، وحالياً يذبح في كل عام أكثر من مليون اضحية تيمناً بذلك الذبح العظيم وإحياءاً لذلك العمل العظيم. النجاح الذي حققه إبراهيم عليه السلام في الإمتحان الصعب، لم يمدحه الله فقط ذلك اليوم، وإنما جعله خالداً على مدى الأجيال: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ».

ولما إمتاز به إبراهيم عليه السلام من صفات حميدة، خصه البارئ عز وجل بالسلام: «سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ».

نعم، إنا كذلك نجزي ونثيب المحسنين: «كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». جزاء يعادل عظمة الدنيا، جزاء خالد على مدى الزمان، جزاء يجعل من إبراهيم أهلاً لسلام الله عز وجل عليه.

من هو ذبيح الله؟ ظاهر آيات القرآن الكريم المختلفة تؤكد على أن إسماعيل هو ذبيح الله.

وجاء في روايات عن الإمامين المعصومين الباقر والصادق عليهما السلام، أنهما أجابا على أسئلة تستفسر عن الذبيح، فأجابا أنه إسماعيل.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَرْنَاهُ يَاسِيحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسِيحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) إبراهيم ذلك العبد المؤمن: الآيات الثلاث المذكورة أعلاه هي آخر الآيات التي تواصل الحديث عن قصة إبراهيم وإبنيه وتكملها. في البداية تصف الآية القرآنية إبراهيم:

«إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

إن هذه الآية دليل على ما ذكر فيما قبل، كما توضّح حقيقة مفادها أن إيمان إبراهيم القوى دفعه إلى أن يضع كل وجوده وكيانه وحتى إبنيه العزيز البارّ، في صحن الإخلاص فداءً لربه سبحانه وتعالى.

ثم تناول هذه الآيات نعمة أخرى من النعم التي وهبها الله تعالى لإبراهيم: «وَبَشَرْنَاهُ يَاسِيحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ».

الآية الأخيرة تتحدث عن البركة التي أنزلها البارئ جلّ وعلا على إبراهيم وإبنيه إسحاق: «وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ».

«بركة»: مشتقة من «برك» على وزن (درك) وتعني صدر البعير، وتدرجياً أعطت هذه

مختصر الامثل، ج 4، ص: 209

الكلمة معنى الثبات وبقاء شيء ما؛ والآية مورد بحثنا تشير إلى ثبات ودوام النعم الإلهية على إبراهيم وإسحاق وعلى أسرهم.

وهذه البركات لا تشمل كل أفراد عائلة إبراهيم وعشيرته، وإنما تشمل - فقط - المؤمنين والمحسنين منهم، إذ تقول الآية في آخرها: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ».

«محسن»: جاءت هنا بمعنى المؤمن والمطيع لله؛ و«ظالم»: جاءت هنا بمعنى الكافر والمذنب. فالآية المذكورة أعلاه تجيب اليهود والنصارى الذين افتخروا بكونهم من أبناء الأنبياء، وتقول لهم: إن صلة القربى لوحدها ليست مدعاة للإفتخار، إن لم ترافقها صلة في الفكر والالتزام بالرسالة.

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَا هُمَ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) النعم التي منّ بها الله على موسى وهارون: الآيات المباركة هذه تشير إلى جوانب من النعم الإلهية التي أغدقها الله جلّ شأنه على موسى وأخيه هارون.

الآية الاولى تشير إلى قوله تعالى: «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ».

«المنة»: في الأصل من «المن» ويعني الحجر الذي يستعمل للوزن، ثم أطلق على النعم الكبيرة والثقيلة، فلو كانت لها جنبه عملية وموضوعية فالمنة جميلة ومحمودة، ولو اقتضرت على اللفظ والكلام فهي سلبية ومذمومة.

إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْعَمَ عَلَى الْأَخْوِينَ مُوسَى وَهَارُونَ بِنِعْمَةِ عَظِيمَةٍ. أَمَّا آيَاتُ الَّتِي تَلْتَهَا فَتُشْرَحُ سَبْعَةٌ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَفْضَلُ مِنْ اخْتِهَا. فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى يَقُولُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

فهل هناك قلق أكثر من هذا، وهو أن بنى إسرائيل يعيشون في قبضة الفراعنة المتجبرين

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٠

الطغاة؟ يذبحون أولادهم ويسخرون نساءهم في خدمتهم، ويستعبدون رجالهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة. وفي المرحلة الثانية، قال الباري عز وجل: «وَنَصَرْنَا هُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ».

ففي ذلك اليوم كان جيش الفراعنة ذا قوة عظيمة ويتقدمه الطاغية فرعون، فيما كان بنو إسرائيل قوم ضعفاء وعاجزين يفتقدون لرجال الحرب وللسلاح أيضاً، إلا أن المدد الإلهي وصلهم في تلك اللحظات، وأغرق فرعون وجيشه وسط أمواج البحر، وأورث بنى إسرائيل قصور وثورات وحدائق وكنوز الفراعنة.

وفي المرحلة الثالثة من مراحل إغداق النعم على بنى إسرائيل وشمولهم بعنايته، جاء في محكم كتابه العزيز: «وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ».

نعم (التوراة) هو كتاب مستبين، أى يوضح لهم المجهولات المبهمة، ويحييهم على كل ما يحتاجونه في دينهم وديانهم، كما أكدت الآية (٤٤) من سورة المائدة ذلك: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ».

وفي المرحلة الرابعة أشار القرآن الكريم إلى نعمته معنوية أخرى من بها جل شأنه على موسى وهارون، وهي هدايتهما إلى الصراط المستقيم، «وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

أما المرحلة الخامسة فإنها أكدت على استمرار رسالتهم والثناء الجميل عليهما، إذ تقول الآية: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ». و المرحلة السادسة تستعرض التحيّة الطيبة المباركة التي وردت إلى كل من موسى وهارون من عند الله: «سَلِّمْ عَلَيَّ مُوسَى وَهَارُونَ».

سلام من عند الله، السلام الذى هو رمز لسلامة الدين والإيمان والرسالة والمذهب، السلام الذى يوضح النجاة والأمن من العقاب والعذاب فى هذه الدنيا وفى الآخرة.

وفي المرحلة السابعة- الأخيرة- نصل إلى مرحلة الثواب والمكافأة الكبرى التى يقدمها الباري عز وجل إليهما: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

نعم إن حصولهما على كل هذه المفاتيح لم يكن من دون دليل أو سبب، إذ كانا من المحسنين والمؤمنين والمخلصين والطيبين، فمثل هؤلاء جديرون بالثواب والمكافأة.

الآية الأخيرة فى بحثنا تشير إلى نفس الدليل الذى ورد فى قصة نوح وإبراهيم من قبل: «إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١١

فالإيمان هو الذى ينير روح الإنسان ويعطيه القوة، ويدفعه إلى الطهارة والتقوى وعمل الإحسان والخير.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَمْ تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آيَاتِكُمُ الْأُولَى (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) النبى إلیاس ومواجهته للمشركين: القصة الرابعة فى هذه السورة إستعرضت بصورة مختصرة حياة نبى الله (إلیاس). يقول تعالى: «وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم تبدأ الآيات بالتفصيل بعد الإجمال وتقول: واذكر عندما أنذر قومه «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَمْ تَتَّقُونَ». أى: اتقوا الله واجتنبوا الشرك وعبادة الأصنام وإرتكاب الذنوب والمظالم، وكل ما يؤدى بالإنسان إلى الباطل والفساد.

أما الآية التي تلتها فقد تحدت بصراحة أكثر: «تَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

قيل: (بعل) إسم صنم وكان من ذهب وطوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائه سادن «١».

فقد عمد إلياس إلى توبيخ قومه بشدة، وقال لهم: «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ».

وإستخدام كلمة (رب) هنا أفضل متبته للعقل والفكر، لأن أهم قضية في حياة الإنسان هي أن يعرف من الذى خلقه؟ ومن هو مالكة ومرتيه وولى نعمته اليوم؟

إلا أن قومه اللجوجين والمتكبرين لم يعطوا اذناً صاغيةً لنصائحه ومواعظه، ولم يعابوا بما يقوله لهدايتهم، وإنما كذبوه «فَكَذَّبُوهُ».

ومقابل تصرفاتهم هذه توعدهم الله سبحانه وتعالى بعذابه بعبارة قصيرة جاء فيها: «إِنَّا سَنَحْضُرُهُمْ إِلَىٰ مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ وَسَنَعَذِّبُهُمْ فِي جَهَنَّمَ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» لينالوا جزاء أعمالهم القبيحة والمنكرة.

(١) روح المعاني ٢٣ / ١٣٩.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٢

ولكن يبدو أن هناك مجموعة من الأطهار المحسنين والمخلصين قد آمنوا بما جاء به إلياس، ولكي لا يضيع حق هؤلاء، قال تعالى مباشرة بعد تلك الآية: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

الآيات الأخيرة من بحثنا إستعرضت نفس القضايا الأربعة التي وردت بحق الأنبياء الماضين (نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون) ولأهميتها نستعرضها مرة أخرى.

قوله تعالى: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ». أى: إن الامم القادمة سوف لن تنسى الجهود الكبيرة التي بذلها الأنبياء الكبار من أجل حفظ خطّ التوحيد.

وفي المرحلة الثانية أثنى الله سبحانه وتعالى وبعث بتحياته إلى آل ياسين. قال تعالى:

«سَلِّمْ عَلَيَّ إِيَّا يَاسِينَ».

وفي المرحلة الثالثة، قال تعالى: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

أما المرحلة الرابعة فتطرح الإيمان كأمر أساسى يجب أن يتوفر في الأنبياء الذين إستعرضتهم هذه السورة المباركة فتقول الآية هنا: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

«الإيمان» و «العبودية» لله هما مصدر الإحسان، والإحسان يؤدى إلى إنضمام المحسن لصفوف المخلصين الذين يشملهم سلام الله.

وإن لوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) تدمير قوم لوط: «لوط» هو خامس نبي يذكر اسمه في هذه السورة ضمن تسلسل الآيات التي تحدت بصورة مختصرة عن تأريخه لإستمداد العبر منه.

وطبقاً لما جاء في آيات القرآن بشأن لوط، يتضح أنه كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام، وأنه من أنبياء الله العظام.

بحثنا يبدأ بقوله تعالى: «وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يبين جوانب من قصة لوط، حيث قال: تذكر تلك الفترة الزمنية التي أنقذنا فيها لوطاً وأهله: «إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ».

عدا زوجته العجوز التي جعلناها مع من بقى في العذاب: «إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ». «ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ».

الجميل القصيرة- التي وردت أعلاه- تشير إلى تأريخ قوم لوط الملئء بالحوادث، والتي

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٣

ورد شرحها في سور (هود) و (الشعراء) و (العنكبوت).

وباعتبار أن هذه الآيات كانت مقدّمة لايقاظ الغافلين والمغرورين، فقد أضاف القرآن الكريم: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصِبِّحِينَ». أى: إنكم تمرّون في كل صباح بجانب ديارهم الخربة من جزاء العذاب.

كما تمرّون من هناك في الليل أفلا تعقلون؟ «وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

هذه الآيات تخاطب قوافل أهل الحجاز التي كانت تذهب ليلاً ونهاراً إلى بلاد الشام عبر مدن قوم لوط، وتقول: لو كان لهم آذان حيّة لسمعوا الصراخ المذهل والعيويل المفزع لهؤلاء القوم المعذّبين. نعم، إنّه درس ما أكثر العبر فيه، ولكن المعترين منه قليل.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ

(١٤٢) فَلَوْ لَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلْبَثُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَتَبَدَّنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَيِّئٌ مَّقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً

مِنْ يَفْقَظِينَ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمَّنُوا فَمَرَّغَتْهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) يونس في بوتقة الإمتحان: الحديث هنا

عن قصة نبي الله «يونس» عليه السلام وقومه التائبين، والتي هي سادس وآخر قصة تتناول قصص الأنبياء والامم السابقة.

في البدايه، وكما تعودنا في القصص السابقة، فإنّ الحديث يكون عن مقام رسالته، إذ تقول الآية: «وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

نبي الله «يونس» عليه السلام كسائر الأنبياء العظام بدأ بالدعوة إلى توحيد الله ومجاهدة عبدة الأصنام، ومن ثم محاربة الأوضاع

الفاسدة التي كانت منتشرة في مجتمعه آنذاك، إلّا أنّ قومه المتعصّبين الذين كانوا يقلّدون أجدادهم الأوائل رفضوا الإستجابة لدعوته،

عدا مجموعة قليلة منهم، يحتمل أن لا تتعدّى الشخصين (أحدهما يسمّى بالعابد والثاني بالعالم) آمنت برسالته.

وبعد فترة طويلة من دعوته إيّاهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام، يئس يونس من هدايتهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٤

وبالفعل فقد دعا عليهم، فنزل عليه الوحي وحدّد له وقت حلول العذاب الإلهي بهم، ومع حلول موعد نزول العذاب، رحل يونس-

بمعيّة الرجل العابد- عن قومه وهو غاضب عليهم، ووصل إلى ساحل البحر، وشاهد سفينة عند الساحل غاصّة بالركاب فطلب منهم

السماح له بالصعود إليها.

وهذا ما أشارت إليه الآية التالية، حيث قالت: «إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ».

«أبق»: مشتقة من «إباق» والتي تعنى فرار العبد من سيده، إنّها عبارة عجيبة، إذ تبين أنّ ترك العمل بالأولى من قبل الأنبياء العظام ذوى

المقام الرفيع عند الله، مهما كان بسيطاً فإنّه يؤدّى إلى أن يتخذ الباري عزّ وجل موقفاً معاتباً ومؤثراً للأنبياء، كإطلاق كلمة (الآبق)

على نبيه.

ومن دون أى شك فإنّ نبي الله يونس عليه السلام، معصوم عن الخطأ، ولكن كان الأجدار به أن يتحمّل آلاماً اخرى من قومه، وأن

يبقى معه حتى اللحظات الأخيرة قبل نزول العذاب، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم ويتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى.

ووفق ما ورد في الروايات، فقد صعد يونس عليه السلام إلى السفينة، ثم إنّ حوتاً ضخماً وقف أمام السفينة، فاتحاً فمه وكأنّه يطلب

الطعام، فقال ركّاب السفينة أنّ هناك شخصاً مذنباً معنا يجب أن يكون طعام هذا الحوت، ولم يجدوا سبيلاً سوى الإقتراع لتحديد

الشخص الذى يرمى للحوت، وعندما إقترعوا خرج اسم يونس.

وقد أشار القرآن المجيد فى آية قصيرة إلى هذه الحادثة، قال تعالى: «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ».

«ساهم»: من مادة «سهم» وتعنى إشتراكه فى الإقتراع، فالإقتراع تمّ على ظهر السفينة بالشكل التالى، كتبوا اسم كل راكب على (سهم)

ثم خلطوا الأسهم وسحبوا سهماً واحداً، فخرج السهم الذى يحمل اسم يونس عليه السلام.

«مدحض»: مشتقة من «دحض» وتعنى إبطال مفعول الشىء أو إزالته أو التغلّب عليه؛ والمراد هنا أنّ إسمه ظهر فى عملية الإقتراع من

بين بقية الأسماء.

وقال القرآن الكريم: «فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ». أى إنّ حوتاً عظيماً التقمه وهو مستحق للملامة.

«التقم»: مشتقهُ من «الإلتقام» وتعنى (البلع).

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٥

«مليم»: من مادة «لوم» وتعنى التوبيخ والعتب.

ومن المسلم أنّ هذه الملامه لم تكن بسبب إرتكابه ذنباً كبيراً أو صغيراً وإنما بسبب تركه العمل بالأولى، وإستعجاله فى ترك قومه وهجرانهم.

فى تفسير الدرّ المنثور: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما أراد الله حبس يونس عليه السلام فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً».

يونس عليه السلام إنتبه بسرعة للحادث، وتوجّه على الفور إلى الله سبحانه وتعالى وتكامل وجوده مستغفراً لله على تركه العمل بالأولى، وطالباً العفو منه.

ونقلت الآية (٨٧) فى سورة الأنبياء صورة توجّه يونس عليه السلام بالدعاء الذى يسمّيه أهل العرفان باليونسية. قال تعالى: «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لِيَّ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

إعتراف يونس الخالص بالظلم، وتسيحه الله المرافق للندم أذى مفعوله، إذ إستجاب الله له وأنقذه من الغم، كما جاء فى الآية (٨٨) من سورة الأنبياء: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ».

ونلاحظ الآن ماذا تقول الآيات بشأن يونس عليه السلام. قال تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبَّثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

أى لو لم يكن من المسبّحين لأبقيناه فى بطن الحوت حتى يوم القيامة، ويعنى تبديل سجنه المؤقت إلى سجن دائم، ومن ثم تبديل سجنه الدائم إلى مقبرة له.

ويضيف القرآن، وقد ألقينا به فى منطقة جرداء خالية من الأشجار والنباتات، وهو مريض: «فَبَدَّنْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ».

فالحوت الضخم لفظ يونس - الذى لم يكن غذاءً صالحاً لذلك الحوت - على ساحل خالٍ من الزرع والنبات، والواضح أنّ ذلك السجن العجيب أثر على سلامته وصحة جسم يونس، إذ أنّه تحرّر من هذا السجن وهو منهار ومعتل.

كانت حرارة الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظلّ لطيف يظلّل جسده. والقرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهى بالقول، إنّنا أنبتنا عليه شجرة قرع ليستظلّ بأوراقها العريضة والرطبة: «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ».

«اليقطين»: تعنى كل نبات لا ساق له وله أوراق كبيرة، مثل نبات البطيخ والقرع والخيار

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٦

وما يشابهها؛ و «الشجرة»: تطلق على النباتات التى لها ساق وأغصان والتى ليس لها ساق وأغصان. وبعبارة اخرى: تشمل كل الأشجار والنباتات. فبعد أن ترك يونس قومه وهو غضبان، ظهرت لقومه دلائل تبيّن لهم قرب موعد الغضب الإلهى، هذه الدلائل هزّت عقولهم بقوة وأعادتهم إلى رشدهم، ودفعتهم إلى اللجوء للشخص (العالم) الذى كان آمن بيونس وما زال موجوداً فى المدينة، واتّخاذها قائداً لهم ليرشداهم إلى طريق التوبة.

وجلسوا يبكون، داعين الله سبحانه وتعالى بإخلاص أن يتقبل توبتهم ويغفر ذنوبهم وتقصيرهم بعدم أتباعهم نبى الله يونس.

وهنا أراح الله عنهم سُحب العذاب وأنزلها على الجبال، وهكذا نجا قوم يونس التائبون المؤمنون بلطف الله.

بعد هذا عاد يونس إلى قومه ولكن ما إن عاد إلى قومه حتى فوجئ بأمر أثار عنده الدهشة والعجب، وهو أنّه ترك قومه فى ذلك اليوم يعبدون الأصنام، وهم اليوم يوحدون الله سبحانه.

القرآن يقول هنا: «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ». كانوا قد آمنوا بالله، واغدقت عليهم النعم الإلهية المادية والمعنوية لمدة معينة، «فَأَمَّنُوا فَمَرَّغَتْهُمْ إِلَى حِينٍ».



وبالطبع فإنهم بعد توبتهم كانوا يتمتعون بإيمان بسيط، وقد إزداد بعد عودة يونس إليهم، أى إزداد إيمانهم بالله وبرسوله يونس، وأخذوا ينفذون تعليماته وأوامره.

دروس كبيره فى قصة يونس عليه السلام: من هذه القصة يمكن إستخلاص الدروس التربوية ومن جملتها:

(أ) هذه القصة توضح كيف أن قوماً مذنبين مستحقين للعذاب يستطيعون فى آخر اللحظات تغيير مسيرتهم التاريخيه، بعودتهم إلى أحضان الرحمه الإلهيه، وإنقاذ أنفسهم من العذاب.

(ب) هذه الحادئه تبين أن الإيمان بالله والتوبه من الذنوب علاوه على أنها تتسبب فى نزول الآثار والبركات المعنويه، فهى توجد النعم والهبات الدنيويه وتجعلها فى اختيار الإنسان، وتوجد حاله من العمران والبناء، وتطيل الأعمار.

(ج) أخيراً فإن مجريات هذه القصة تستعرض قدرة البارئ عز وجل العظيمة التى لا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٧

يقف أمامها شئ ولا يصعب عليها شئ، إلى درجه تستطيع حفظ حياة إنسان فى فم وجوف حيوان كبير وحشى، وإخراجه سالماً من هناك.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَّبِّكَ بُنَاتٌ وَلَهُمْ بَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَضِطَّفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) التهم القبيحة: بعد إستعراض ست قصص من قصص الأنبياء السابقين، يغير القرآن موضوع الحديث، ويتناول موضوعاً آخر يرتبط بمشركى مكة آنذاك.

إن مجموعة من المشركين العرب وبسبب جهلهم وسطحية تفكيرهم كانوا يقيسون الله عز وجل بأنفسهم، ويقولون: إن لله عز وجل أولاداً، وأحياناً يقولون: إن له زوجة.

فى البدايه يقول: أسألهم هل أن الله تعالى خص نفسه بالبنات، وخصهم بالبني، «فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَّبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ».

وكيف تنسبون ما لا تقبلون به لأنفسكم إلى الله، حيث إنهم طبق عقائدهم الباطلة كانوا يكرهون البنات بشده ويحبون الأولاد كثيراً. فإن الولد والبت من حيث وجهه النظر الإنسانية، ومن حيث التقييم عند الله سبحانه وتعالى متساوون، وميزان شخصيتهم هو التقوى والطهاره.

ثم ينتقل الحديث إلى عرض دليل حسي على المسأله هذه، وبشكل إستفهام إستنكارى، قال تعالى: «أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ».

ومن دون أى شك فإن جوابهم فى هذا المجال سلبى، إذ لم يستطع أحداً منهم الإدعاء بأنه كان موجوداً أثناء خلق الملائكة.

مره اخرى يطرح القرآن الدليل العقلى المقتبس من مسلماتهم الذهنيه ويقول: «أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَمَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَضِطَّفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ».

هل تدركون ما تقولون وكيف تحكمون: «مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٨

الم يحن الوقت الذى تتركون فيه هذه الخرافات والأوهام القبيحه والتافهه؟ «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». إذن أن هذا الكلام باطل من الأساس بحيث لو أن أى إنسان له ذرة من عقل ودرايه، ويتفكر فى الأمر جيداً، لأدرك بطلان هذه المزاعم.

بعد إثبات بطلان إدعاءاتهم الخرافيه بدليل تجربى وآخر عقلى، نتقل إلى الدليل الثالث وهو الدليل الثقلى، حيث يقول القرآن الكريم مخاطباً إياهم: لو كان ما تزعمونه صحيحاً لذكرته الكتب السابقه، فهل يوجد لديكم دليل واضح عليه، «أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ».

وإذا كنتم صادقين في قولكم فأتوا بذلك الكتاب: «فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

هذا القول يشبهه بقيّة الأقوال التي يخاطب بها القرآن عبدة الأصنام: «وَجَعَلُوا الْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا تَأْتُوا شَاهِدًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» (١).

الآية اللاحقة تطرقت إلى خرافة أخرى من خرافات مشركي العرب، والتي تزعم بوجود نسبة بين الله عز وجل والجن، فالآية هنا تخاطبهم بضمير الغائب، لأنهم اناس تافهون، ولا تتوفّر فيهم الكفاءة واللياقة للردّ على زعمهم: «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا». والمراد من كلمة (نسب) كل أشكال الرابطة والعلاقة، حتى ولو لم يكن هناك أي صلة للقرابة فيها، وكما نعلم فإن مجموعة من المشركين العرب كانوا يعبدون الجن ويزعمون أنها شركاء لله، ولهذا كانوا يقولون بوجود علاقة بينها وبين الله. فالقرآن المجيد ينفي هذه المعتقدات الخرافية بشدة، ويقول: «وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ».

ونزه الله تعالى نفسه عمّا قاله اولئك الضالون في صفاته تعالى، قائلاً: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ». وإسثنى وصف عباده المخلصين (الذين وصفوه عن علم ومعرفة ودراية) حيث وصفوه بما يليق بذاته المقدسة. قال تعالى: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ». العباد الخالصون من كل أشكال الشرك وهوى النفس والجهل والضلال، والذين لا يصفون الباري عز وجل إلا بما سمح لهم به.

(١) سورة الزخرف / ١٩ - ٢١.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢١٩

نعم، ينبغي لنا مراجعة كلمات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وخطب علي بن أبي طالب عليه السلام، وأدعية الإمام علي بن الحسين عليه السلام في صحيفته، كي نستنير بضياء وصفهم له جلّ وعلا. فأمر المؤمنين عليه السلام - في الخطبة ١٨٦ في نهج البلاغة - يصف الله عز وجل بالقول: «لا تناله الأوهام فتقدّره، ولا تتوهمه الفطن فتصوّره، ولا تدركه الحواسّ فتحسّه، ولا تلمسه الأيدي فتمسّه، ولا يتغيّر بحال، ولا يتبدّل في الأحوال، ولا تبليه الليالي والأيام، ولا يغيّره الضياء والظلام، ولا يوصف بشيء من الأجزاء، ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض، ولا بالغيريّة والأبعاض، ولا يقال: له حدّ ولا نهاية، ولا انقطاع ولا غاية».

أمّا الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فقد قال في الدعاء الأوّل في الصحيفة السجّادية: «الحمد لله الأوّل بلا أوّل كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين وعجزت عن نعته أوهام الواصفين».

فَأَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسُوفَ يَغْلِبُونَ (١٧٠) الإِدْعَاءَاتِ الكاذبة: الآيات السابقة تحدثت عن الآلهة المختلفة التي كان المشركون يعبدونها، أمّا الآيات - مورد بحثنا الآن - فتتابع ذلك الموضوع، حيث توضّح في كل بضع آيات موضوعاً يتعلق بهذا الأمر.

بداية البحث تؤكد الآيات على أنّ وساوس عبدة الأصنام لا تؤثر في الطاهرين والمحسنين، وإنّما قلوبكم المريضة وأرواحكم الخبيثة هي التي تستسلم لتلك الوسواس. قال تعالى: «فَأَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ».

نعم، أنتم وما تعبدون لا - تستطيعون خداع أحد بوسائل الفتنة والفساد عن الطريق المؤدّي إلى الله «مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ». إلا اولئك الذين يريدون أن يحترقوا في نار جهنم «إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ».

بعد إنتهاء بحثنا حول الآيات الثلاث السابقة التي وضّحت مسألة إختيار الإنسان في مقابل فتن وإغراءات عبدة الأصنام، نواصل بحثنا حول الآيات الثلاث التالية والتي تتناول

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٠

مختصر الامثل ج ٤، ص: ٢٤٩

المرتبة العالية لملائكة الله، وتقول مخاطبة عبدة الأصنام: إن الملائكة التي كنتم تزعمون أنها بنات الله لها مقام معين، والجميل في هذه العبارة أن الملائكة هي التي تتحدث عن نفسها «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ». وتضيف ملائكة الرحمن: وإنا جميعاً مصطفون عند الله في إنتظار أوامره، «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ».

وإنا جميعاً نسبحة، ونزّهه عما لا يليق بساحه كبريائه: «وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ».

نعم، نحن عباد الله، وقد وضعنا أرواحنا على الأ-كف بانتظار سماع أوامره، إنا لسنا أبناء الله، إنا ننزهه البارئ عز وجل من تلك المزاعم الكاذبة والقيحة.

إن الآيات المذكورة أعلاه أشارت إلى ثلاث صفات من صفات الملائكة:

الاولى: أن لكل واحد منهم مقام معين ومشخص ليس له أن يتعداه.

والثانية: أنهم مستعدون دائماً لإطاعة أوامر الله سبحانه وتعالى وتنفيذها في عالم الوجود.

والثالثة: أنهم يسبحون الله دائماً وينزهونه عما لا يليق بساحه كبريائه.

الآيات الأربع الأخيرة من هذا البحث تشير إلى أحد الأعداء الواهية التي تذرّع بها المشركون فيما يخص هذه القضية وعبادتهم للأصنام، وتجب عليهم قائلة: «وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ». «لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ».

الآية التالية تقول: لقد تحقق ما كانوا يأملونه، إذ أنزل عليهم القرآن المجيد الذي هو أكبر وأعظم الكتب السماوية، إلمأن هؤلاء الكاذبين في إدعاءاتهم كفروا به، ولم يفوا بما قالوا، واتخذوا موقفاً معادياً إزاءه، فسيعلمون وبال كفرهم «فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصُرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) حزب الله هو المنتصر: لا-زلنا نتابع البحث في آيات هذه السورة المباركة، والتي شارفت على الإنتهاء، بعد أن إستعرضنا في الأبحاث السابقة جهاد الأنبياء العظام والمصاعب

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢١

والعراقل التي أثارها وأوجدها المشركون، ففي آيات بحثنا الحالي سنتطرق لأهم القضايا الواردة في هذه السورة، إذ زفت البشرية للمؤمنين بانتصار جيش الحق على جيش الشيطان. الوعد الإلهي الكبير هذا إنما جاء لبعث الأمل في صفوف المؤمنين في صدر الإسلام الذين كانوا لحظة نزول هذه الآيات يرزحون تحت ضغوط أعداء الإسلام في مكة، ولكل المؤمنين والمحرومين في كل زمان ومكان، والإستعداد لجهاد ومقاومة جيوش الباطل:

«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ». «وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ». الوعد الإلهي من أهم الامور التي ينتظرها السائرون في طريق الحق بإشتياق، حيث يستمدون منه القوى الروحية والمعنوية.

ولمواساءة النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وللتأكيد على أن النصر النهائي سيكون حليفهم، وفي نفس الوقت لتهديد المشركين، جاءت الآية التالية لتقول: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ».

ويؤكد القرآن الكريم التهديد الأول بتهديد آخر جاء في الآية التي تلتها، إذ تقول: انظر إلى لجاجتهم وكذبهم وإعتقادهم بالخرافات، إضافةً إلى حمقهم، فإنهم سيرون جزاء أعمالهم القبيحة عن قريب: «وَأَبْصُرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ».

وسوف ترى في القريب العاجل إنتصارك وإنتصار المؤمنين وإنكسار وهزيمة المشركين المدلّة في الدنيا.

وعن تكرار اولئك الحمقى لهذا السؤال على رسول الله صلى الله عليه وآله أين العذاب الإلهي الذي واعدتنا به؟ وإن كنت صادقاً،

فلم هذا التأخير؟

يرد القرآن الكريم عليهم بلهجة شديدة مرافقة بالتهديد، قائلاً: اولئك الذين يستعجلون العذاب وأحياناً يتساءلون (متى هذا الوعد؟)، وأحياناً اخرى يقولون متسائلين (متى هذا الفتح؟): «أَفَعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».

فعندما ينزل عذابنا عليهم، ونحيل صباحهم إلى ظلام حالك، فإنهم في ذلك الوقت سيفهمون كم كان صباح المنذرين سيئاً وخطيراً «فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ».

استخدام عبارة (ساحة) والتي تعنى فناء البيت أو الفضاء الموجود في وسط البيت، جاء ليحسم لهم نزول العذاب في وسط حياتهم، وكيف أن حياتهم الطبيعية ستتحول إلى حياة موحشة ومضطربة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٢

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَنْبَصِرُ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) تول عنهم: كما قلنا، فإن الآيات الأخيرة النازلة في هذه السورة جاءت لمواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والمؤمنين الحقيقيين، ولتهديد الكافرين اللجوجين.

الآيتان الأوليتان في بحثنا هذا، تشبهان الآيات التي وردت في البحث السابق، إذ تقول بلغة مرفقة بالتهديد: تول عنهم واتركهم في شأنهم لمدة معينة «وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ».

وانظر إلى لجاجة اولئك الكافرين وكذبهم وممارساتهم العدائية ونكرانهم لوجود الله، الذين سينالون جزاء أعمالهم عن قريب «وَأَنْبَصِرُ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ».

التكرار جاء للتأكيد، وذلك ليدرك اولئك الكافرون أن جزاءهم وهزيمتهم وخيبتهم أمر قطعى لا بد منه وسيكون ذلك عن قريب، وسيبتلون بالنتائج المريرة لأعمالهم، كما أن إنتصار المؤمنين هو أمر قطعى ومسلم به أيضاً.

ثم تختتم السورة بثلاثة آيات ذات عمق في المعنى بشأن (الله) و (الرسول) و (العالمين)، إذ تنزه الله رب العزة والقدرة من الأوصاف التي يصفه بها المشركون والجاهلون: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ».

فأحياناً يصفون الملائكة بأنها بنات الله، وأحياناً يقولون بوجود نسبة بين الله والجن، وأحياناً اخرى يجعلون مصنوعات لا قيمة لها من الحجر والخشب بمرتبة الباري عز وجل.

وفي الآية الثانية شمل الباري عز وجل كافة أنبيائه بلطفه غير المحدود، وقال: «وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ». السلام الذي يوضح السلامة والعافية من كل أنواع العذاب والعقاب في يوم القيامة، السلام الذي هو صمام الأمان أمام الهزائم ودليل للإنتصار على الأعداء.

وأخيراً إختتمت السورة بآية تحمد الله: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

الآيات الثلاث الأخيرة يمكن أن تكون إشارة وإستعراضاً مختصراً لكل القضايا والامور الموجودة في هذه السورة، لأن الجزء الأكبر منها كان بشأن التوحيد والجهاد ضد مختلف أنواع الشرك، فالآية الاولى تعيد ما جاء بشأن تسبيح وتنزيه الله عز وجل عن الصفات التي وصف بها من قبل المشركين، والقسم الآخر من السورة يبين جوانب من أوضاع سبع أنبياء كبار أشارت إليها هنا الآية الثانية.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٣

والآية الثالثة إستعرضت جزءاً آخر من النعم الإلهية، وبالخصوص أنواع النعم الموجودة في الجنة، وإنتصار جند الله على جنود الكفر، والحمد والثناء الذي جاء في الآية الأخيرة، فيه إشارة لكل تلك الامور.

روى- في تفسير مجمع البيان- عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه: سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين».

«نهاية تفسير سورة الصافات»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٥

### ٣٨. سورة ص

محتوى السورة: سورة (ص) يمكن اعتبارها مكتملة لسورة الصفات، فمجموع مواضعها يشابه كثيراً ما ورد في سورة الصفات. ويمكن تلخيص محتويات هذه السورة في خمس أقسام:

١- يتحدث عن مسألة التوحيد والجهاد ضد الشرك والمشركين، ومهيمية نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعناد ولجاجة الأعداء تجاه الأمرين المذكورين أعلاه.

٢- يعكس جوانب من تأريخ تسع من أنبياء الله ومن بينهم (داود) و (سليمان) و (أيوب) حيث تتحدث عنهم السورة أكثر من غيرهم.

٣- يتطرق إلى مصير الكفرة الطغاة يوم القيامة ومجادلة بعضهم البعض في جهنم، ويبين للمشركين وللذين لا يؤمنون بالله إلى أين ستؤدى بهم أعمالهم.

٤- يتناول مسألة خلق الإنسان وعلو مقامه وسجود الملائكة له.

٥- يتوعّد الأعداء المغرورين بالعذاب، ويواسى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ النبي لا يريد جزاء من أحد مقابل دعوته، ولا يريد الشقاء والأذى لأحد.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة ص اعطى من الأجر بوزن كل جبل سخّرهُ الله لداود حسنات وعصمه الله أن يصرّ على ذنب صغيراً أو كبيراً».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٦

وفي كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة ص في ليلة الجمعة اعطى من خير الدنيا والآخرة ما لم يعط أحد من الناس إلّا النبي مرسل أو ملك مقرب، وأدخله الله الجنة وكل من أحبّ من أهل بيته حتى خادمه الذي يخدمه».

والمراد من التلاوة هنا التلاوة التي ترافق التفكير العميق والتصميم الجدّي، الذين يدفعان الإنسان إلى العمل بما جاء في هذه السورة المباركة.

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تَنْصُرُنَا اللَّهُ سَببَ التَّوَلَّى

سبب التّوَلَّى

في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب، فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهمنا، فادعه ومره فليكفّ عن آلهمنا ونكفّ عن إلهه».

قال: «بعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فادعه، فلما دخل النبي صلى الله عليه وآله لم ير في البيت إلّا مشركاً فقال: السلام على من اتّبع الهدى، ثم جلس فخبره أبو طالب بما جاؤوا له، فقال: أوهل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطأون أعناقهم؟ فقال أبو جهل نعم وما هذه الكلمة؟ فقال: تقولون لا إله إلّا الله».

قال: «فوضعا أصابعهم في آذانهم وخرجوا هراباً وهم يقولون: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إنّ هذا إلّا إختلاق». فأنزل الله تعالى في قولهم: «ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» إلى قوله «إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ».

التفسير

مرّة اخرى تمرّ علينا سورة تبدأ آياتها الاولى بحروف مقطعة وهو حرف «ص» وي طرح نفس السؤال السابق بشأن تفسير هذه الحروف المقطعة، ولكن مجموعة من المفسرين إعتبرت هنا حرف (ص) رمزاً يشير إلى أحد أسماء الله، وذلك لأن الكثير من أسمائه تبدأ بحرف الصاد مثل (صادق)، (صمد)، (صانع)؛ أو أنه إشارة إلى (صدق الله) التي إختصرت بحرف واحد.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٧

ثم يقسم الله تعالى بالقرآن ذى الذكر والذى هو حقاً معجزة إلهية: «وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ».

فالقرآن ذكر ويشتمل على الذكر، والذكر يعنى التذكير وصلل القلوب من صدأ الغفلة، تذكّر الله، وتذكّر نعمه، وتذكّر محكمته الكبرى يوم القيامة، وتذكّر هدف خلق الإنسان.

الآية التالية تقول لرسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيت هؤلاء لا يستسلمون لآيات الله الواضحة ولقرآنه المجيد، فاعلم أن سبب هذا لا يعود إلى أن هناك ستاراً يغطى كلام الحق، وإنما هم مبتلون بالتكبر والغرور اللذين يمنعان الكافرين من قبول الحق، كما أن عنادهم وعصيانهم - هما أيضاً - مانع يحول دون تقبلهم لدعوتك: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ».

«العزة»: كما قال الراغب في مفرداته، هي حالة تحول دون هزيمة الإنسان (حالة الذى لا يقهر)، وتعطى معنيين، فأحياناً تعنى (العزة الممدوحة) المحترمة، كما فى وصف ذات الله الطاهر بالعزیز، وأحياناً تعنى (العزة بالإنثم) أى الوقوف بوجه الحق والتكبر عن قبول الواقع، وهذه مذلة فى حقيقة الأمر.

«شفاق»: مشتقة من «شق»، ومعناه واضح، ثم استعمل فى معنى المخالفة، لأن الإختلاف يسبب فى أن تقف كل مجموعة فى شق، أى فى جانب.

القرآن هنا يعد مسألة العجرفة والتكبر والغرور وطى طريق الإنفصال والفرقة من أسباب تعاسة الكافرين.

ولإيقاظ اولئك المغرورين المغفلين، يرجع بهم القرآن الكريم إلى ماضى تاريخ البشر، ليربهم مصير الامم المغرورة والمتكبرة، كى يتعظوا ويأخذوا العبر منها «كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ». أى: إن امماً كثيرة كانت قبلهم قد أهلكتناها (بسبب تكذيبها الأنبياء، وإنكارها آيات الله، وظلمها وإرتكابها للذنوب) وكانت تستغيث بصوت عال عند نزول العذاب عليها، ولكن ما الفائدة فقد تأخر الوقت! ولم يبق أمامهم متسع من الوقت لإنقاذ أنفسهم: «فَنَادَوْا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ».

فعندما كان أنبياء الله فى السابق يعظونهم ويحذرونهم عواقب أعمالهم القبيحة، لم يكتفوا بصم آذانهم وعدم الإستماع، وإنما كانوا يستهزئون ويسخرون من الأنبياء ويعذبون المؤمنين ويقتلونهم، فبذلك أضعوا الفرصة ودمروا كل الجسور التى خلفهم، فنزل العذاب الإلهى ليهلكهم جميعاً، العذاب الذى رافقه إنغلاق باب التوبة والعودة، وفور نزوله تبدأ أصوات الإستغاثة تتعالى، والتى لا تغنى عنهم يومئذ شيئاً.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٨

(لايت): جاءت للنفى، وهى فى الأصل (لا) نافية اضيفت إليها (تاء) التانيث، لتعطى معنى التأكيد؛ و «مناص»: من مادة «نوص» وتعنى الملاذ والملجأ.

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ آيَةً وَاحِدَةً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (٥) وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِتْلَاقٌ (٧)

سبب النزول

فى تفسير على بن إبراهيم: نزلت بمكة لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله الدعوة بمكة اجتمعت قريش إلى أبى طالب فقالوا: يا أبى طالب، إن ابن أخيك قد سفّه أحلامنا، وسب آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فإن كان الذى يحمله على ذلك العدم، جمعنا له حالماً حتى يكون أغنى رجل فى قريش، ونملكه علينا. فأخبر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك فقال: «لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما أردته، ولكن يعطونى كلمة يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم ويكونون ملوكاً فى الجنة».

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم وعشر كلمات، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «تشهدون أن لا إله إلا الله وأنى رسول

اللَّهِ».

فقالوا: ندع ثلاث مائة وستين إلهاً ونعبد إلهاً واحداً؟  
فأنزل الله تعالى: «أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلْهًا وَاحِدًا» - إلى قوله - «إِلَّا اخْتَلَقُ».

التفسير

هل يمكن قبول إله واحد بدلاً من كل تلك الآلهة: المغرورون والمتكبرون لا يعترفون بأمر لا يلائم أفكارهم المحدودة والناقصة، إذ يعتبرون أفكارهم المحدودة والناقصة مقياساً لكل القيم. لذا فعندما رفع رسول الله صلى الله عليه وآله لواء التوحيد في مكة، وأعلن الإنتفاضة ضد الأصنام الكبيرة والصغيرة في الكعبة، والبالغ عددها (٣٦٠) صنماً، تعجبوا: لماذا جاءهم النذير من بينهم؟ «وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ».

كان تعجبهم بسبب أن محمداً صلى الله عليه وآله منهم ... أنهم اعتبروا هذا الإمتياز الكبير نقطة سلبية في دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وتعجبوا من أمر بعثته إليهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٢٩

وأحياناً كانوا يجتازون مرحلة التعجب إلى مرحلة إتهام رسول الله بالكذب والسحر والكذب «وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ». إن إتهامهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالسحر، إنما نتج من جزاء رؤيتهم لمعجزاته التي لا تقبل الإنكار وتنفذ بصورة مدهشة إلى أفكار المجتمع، وإتهامه بالكذب بسبب تحدّثه بأمور تخالف سنتهم الخرافية وأفكارهم الجاهلية التي كانت جزءاً من الامور المسلم بها في ذلك المجتمع، وإدعاء الرسالة من الله.

وعندما أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله دعوته لتوحيد الله، أخذ أحدهم ينظر للآخر ويقول له:

تعال واسمع العجب العجاب «أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلْهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ».

نعم، فالغرور والتكبر إضافة إلى فساد المجتمع، تساهم جميعاً في تغيير بصيرة الإنسان، وجعله متعجباً من بعض الامور الواقعية والواضحة، في حين يصرّ بشدة على التمسك ببعض الخرافات والأوهام الواهية.

وبعد أن ينس طغاة قريش من توسط أبي طالب في الأمر وفقدوا الأمل، خرجوا من بيته، ثم إنطلقوا وقال بعضهم لبعض، أو قالوا لأتباعهم: اذهبوا وتمسكوا أكثر بالهتكم، واصبروا على دينكم، وتحملوا المشاق لأجله، لأن هدف محمّد هو جرّ مجتمعنا إلى الفساد والضياع وزوال النعمة الإلهية عنّا بسبب تركنا الأصنام، وإنه يريد أن يترأس علينا؛ «وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ».

«إنطلق»: مشتقة من «إنطلاق» وتعني الذهاب بسرعة والتحرّر من عمل سابق، وهنا تشير إلى تركهم مجلس أبي طالب وعلامات الضجر والغضب بادية عليهم.

و (الملأ) إشارة إلى أشرف قريش المعروفين الذين ذهبوا إلى أبي طالب.

وجملة «لَشَيْءٌ يُرَادُ» إشارة إلى دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، إذ اعتبرت قريش هذه الدعوة مؤامرة ضدها، وقالت: إن ظاهرها يدعو إلى الله، وباطنها يهدف إلى السيادة والرئاسة علينا وعلى العرب، ودعت الناس إلى التمسك أكثر بعبادة الأصنام، وترك تحليل أمر هذه المؤامرة إلى زعماء القوم.

فإن زعماء المشركين أرادوا بهذا القول تقوية المعنويات المنهارة لأتباعهم، والحيلولة دون تزعزع معتقداتهم، ولكن كل مساعيهم ذهبت أدراج الرياح.

ولخداع عوام الناس وإقناع أنفسهم، قال زعماء المشركين: «مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخْرَةَ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَقُ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٠

فلو كان ادعاء التوحيد وترك عبادة الأصنام أمراً واقعياً لكان آباؤنا الذين كانوا بتلك العظمة والشخصية قد أدركوا ذلك، وكنا قد سمعنا ذلك منهم، لذا فهو مجرد حديث كاذب وليست له سابقة. وعبارة «المِلَّةِ الْأَخْرَةَ» تشير إلى آخر الأديان قبل ظهور نبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

«إختلاق»: مشتقة من «خلق» وتعني إبداء أمر لم تكن له سابقة، والمراد في الآية - مورد البحث - أن التوحيد الذي دعا إليه هذا النبي مجهول بالنسبة لنا ولآبائنا الأولين.

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) الآيات السابقة تحدثت عن المواقف السلبية التي إتخذها المعارضون لنهج التوحيد والإسلام، ونواصل في هذه الآيات الحديث عن مواقف المشركين، فمشركو مكة بعد ما أحسوا أن مصالحهم اللامشروعة باتت في خطر، واثراً تزايد اشتعال نيران الحقد والحسد في قلوبهم، ومن أجل خداع الناس وإقناع أنفسهم عمدوا إلى مختلف الإدعاءات بمنطق زائف لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنها سؤالهم بتعجب وإنكار: «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا».

من البديهي أن أشكال التعجب والإنكار المتولدة عن الخطأ في «تحديد القيم» إضافة إلى الحسد وحب الدنيا، لا يمكن أن تكون معياراً منطقياً في القضاء.

لهذا فإن تتمه الآية تقول: إن مرض اولئك شيء آخر، إنهم في حقيقة الأمر يشككون في أمر الوحي وأمر الله «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي».

ملاحظاتهم التي لا قيمة لها على شخصية الرسول ما هي إلا أذكار واهية، وشكهم وترددهم في هذه المسألة ليس بسبب وجود إبهام في القرآن المجيد، وإنما بسبب أهوائهم النفسية وحب الدنيا وحسداهم.

وفي نهاية الأمر فإن القرآن الكريم يهددهم بهذه الآية: «بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ». أي إن هؤلاء لم يدوقوا العذاب الإلهي، ولهذا السبب تجاسروا على رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويضيف القرآن الكريم في الرد عليهم: هل يمتلكون خزائن الرحمة الإلهية كي يهبوا أمر

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣١

النبوة لمن يرغبون فيه، ويمنعونها عن لا يرغبون فيه؟ «أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ».

فالله سبحانه وتعالى بمقتضى كونه (رب) هذا الكون ومالكه، وبارئ عالم الوجود وعالم الإنسانية، ينتخب لتحمل رسالته شخصاً يستطيع قيادة الأمة إلى طريق التكامل والتربية.

وبمقتضى كونه (العزیز) فإنه لا يقع تحت تأثير الآخرين ويسلم مقام الرسالة إلى أشخاص غير لائقين. ولكونه (الوهاب) فإنه ينفذ أي شيء يريده، ويمنح مقام النبوة لكل من يرى فيه القدرة على تحمله.

ويمكن الاستفادة من كلمة (رحمة) هنا في أن النبوة إنما هي رحمة ولطف رب العالمين بعالم الإنسانية.

الآية اللاحقة واصلت تناول نفس الموضوع، ولكن من جانب آخر، حيث قالت: «أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ».

هذا الكلام يعد مكملاً للبحث السابق، إذ جاء في الآية السابقة: إنكم لا تمتلكون خزائن الرحمة الإلهية، كي تمنحوها لمن تنسجم أهواؤه مع أهوائكم، والآن تقول الآية التالية لها: بعد أن تبين أن هذه الخزائن تحت تصرف الباري عز وجل، إذن فليس أمامكم غير طريق واحد، وهو أن ترتقوا إلى السماوات لتمنعوا الوحي أن ينزل على رسول الله وإنكم تعرفون أن تحقيق هذا الأمر شيء محال، وأنتم عاجزون عن تنفيذه.



الآية الأخيرة فى بحثنا جاءت بمثابة تحقير لأولئك المغرورين السفهاء، قال تعالى: «جُنِدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ». فهؤلاء جنود قلائل مهزومون ...

«هنالك» إشارة للبعيد، وبسبب وجودها فى الآية، فقد اعتبر بعض المفسرين أنها إشارة إلى هزيمة المشركين فى معركة بدر، التى دارت رحاها فى منطقة بعيدة بعض الشيء عن مكة المكرمة.

وإستخدام كلمة (الأحزاب) هنا إشارة- حسب الظاهر- إلى كل المجموعات التى وقفت ضد رسل الله، والذين أبادهم البارئ عز وجل.

وفى ذلك اليوم لم تكن هنالك الإنتصارات فى بدر والأحزاب وحينئذ قد تحققت.

ولكن القرآن قال بحزم إن هؤلاء الأعداء- الذين هم مجموعة صغيرة من تلك المجموعات- سيهزمون فى نهاية المطاف.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٢

واليوم يبشّر القرآن الكريم مسلمى العالم المحاصرين من كل الجهات من قبل القوى المعتدية والظالمة بنفس البشائر التى بشّر بها المسلمين قبل (١٤٠٠) عام، فى أن الله سبحانه وتعالى سينجز وعده فى هزيمة جند الأحزاب، إن تمسك مسلمو اليوم بعهودهم تجاه الله كما تمسك بها المسلمون الأوائل.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَوْلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) تكفيهم صيحة سماوية واحدة: تتمه للآية الآنفه الذكر، التى بشّرت بهزيمة المشركين مستقبلاً، تناولت آيات بحثنا الحالى بعض الأحزاب التى كذّبت رسلها، وبيّنت المصير الأليم الذى كان ينتظرها، إذ تقول: إن أقوام نوح وعاد وفرعون ذى الأوتاد كانت قد كذّبت قبلهم بآيات الله ورسله، «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ».

كذلك أقوام ثمود ولوط وأصحاب الأيكة- أى قوم شعيب- كانت هى الاخرى قد كذّبت رسلهم: «وَتَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ».

فكل قوم من هذه الأقوام كذّب بما جاء به رسل الله، وأنزل العذاب الإلهي بحقه: «إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ».

والتاريخ بين كيف أن كل قوم من تلك الأقوام ايبء بشكل من أشكال العذاب، وكيف أن مدنهم تحوّلت إلى خرائب وأطلال خلال لحظات، وأصبح ساكنوها أجساد بلا أرواح!

فهل يتوقع مشركو مكة أن يكون مصيرهم أفضل من مصير اولئك من جرّاء الأعمال العدائية التى يقومون بها؟ لذا فإن الآية التالية تخاطبهم بلغة التهديد الحازمة والقاطعة: ما ينتظر هؤلاء من جرّاء أعمالهم إالصيحة سماوية واحدة تقضى عليهم وتهلكهم وما لهم من رجوع، «وَمَا يَنْظُرُ هَوْلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ».

يمكن أن تكون هذه الصيحة مماثلة للصيحات السابقة التى نزلت على الأقوام الماضية، كأن تكون صاعقة رهيبه أو زلزلاً عنيفاً يدمر حياتهم وينهبها.

وقد تكون إشارة إلى صيحة يوم القيامة، التى عبر عنها القرآن الكريم ب (النفخة الاولى فى الصور).

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٣

«فواق»: على وزن (رواق) هو الفاصل بين كل رضعتين، إذ بعد فترة معيّنه من حلب الثدى بصورة كاملة يعود فينزل إليه اللبن من جديد. وبما أن الثدى يستريح قليلاً بعد كل حلبة، فكلمة (فواق) يمكن أن تعطى معنى الهدوء والراحة. وبما أن هذه الفاصلة من أجل عودة الحليب مرّة اخرى إلى الثدى فإن هذه الكلمة تعطى مفهوم العودة والرجوع.

فالصيحة الرهيبه ليس بعدها رجوع ولا راحة ولا هدوء ولا إفاقة، ففور شروعها تغلق كل الأبواب أمام الإنسان.

الآية الأخيرة في هذا البحث تشير إلى كلام آخر للكافرين حيث قالوا باستهزاء وسخرية: رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا الْعَذَابَ قَبْلَ حُلُولِ يَوْمِ الْحِسَابِ، «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ».

«قِط»: على وزن (جَنّ) تعنى قطع الشيء عرضاً، فيما تعنى كلمة «قَد» وهى على نفس الوزن السابق، قطع الشيء طولاً؛ وكلمة «قِط» هنا تعنى نصيباً أو سهماً.

وهذا الكلام قيل بعد نزول آيات قرآنية تؤكد على أن هناك مجموعة تعطى صحائفها باليد اليمنى، ومجموعة أخرى تستسلم صحائفها باليد اليسرى.

وهنا قالت مجموعة من مشركى مكة وهى تستهزىء: ما أجمل أن تسلّم إلينا الآن صحف أعمالنا لنقرأها ونشاهد ماذا عملنا؟ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ (٢٠) تعلم من داود: تتمه للبحوث السابقة التى إستعرضت فيها آيات القرآن أذى المشركين لرسول الله صلى الله عليه وآله ونسبتهم إليه ما لا- يليق به، فإنّ القرآن الكريم لمواساة رسول الله وأصحابه المؤمنين القلائل، طرح قصة داود عليه السلام. فى البداية تقول آيات بحثنا: «اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

«الأيد»: بمعنى القدرة، وتأتى أيضاً بمعنى النعمة.

وقد توفّر المعنيان المذكوران أعلاه فى داود، إذ كان يتمتع بقوة جسدية مكنته من أن يقتل الطاغية جالوت بضربة قوية واحدة بواسطة حجر رماه من مقلعه على جالوت،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٤

فأسقطه من فرسه مضرّجاً بدمه خلال إحدى المعارك. أما من حيث قدرته السياسية، فقد كانت حكومته قوية ومستعدة دائماً لمواجهة الأعداء، بكل قوة وإقتدار، حتى قيل أن الآلاف من جنده كانت تقف على أهبة الإستعداد من المساء حتى الصباح فى أطراف محراب عبادته.

ومن حيث قدرته الأخلاقية والمعنوية والعبادية، فإنه كان يقوم معظم الليل فى عبادة الله، ويصوم نصف أيام السنة.

وأما من حيث النعم الإلهية، فقد أنعم عليه البارئ عزّ وجل بالكثير من النعم الظاهرية والباطنية.

خلاصة الحديث، إن داود كان رجلاً ذا قوة وقدره فى الحروب والعبادات والعلم والمعرفة وفى السياسة، وكان أيضاً صاحب نعمة كبيرة (١).

فإن الآيات الأنفة بعد أن تطرقت بصورة موجزة إلى نعم الله على داود، تشرح أنواعاً من تلك النعم. قال تعالى: «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ».

كذلك سخّرنا له مجاميع الطيور كى تسبح الله معه: «وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً».

فكل الطيور والجبال مسخرة لداود ومطيعه لأوامره، وتسبح معه البارئ عزّ وجل، وتعود إليه، «كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ».

إنّ تسبيحها كان توأماً مع صوت ظاهرى، مرافقاً لنوع من الإدراك والشعور الذى هو فى باطن ذرات العالم، وطبقاً لهذا الإحتمال، فإنّ كل موجودات العالم تتمتع بنوع من العقل والشعور، وحينما تسمع صوت مناجاة هذا النبى الكبير تردّد معه المناجاة، ليمتدح تسبيحها مع تسبيح داود عليه السلام.

وتواصل الآية التالية إستعراض نعم الله على داود عليه السلام، قال تعالى: «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ».

أى: ثبتنا وأحكمتنا مملكته، بحيث كان العصاة والطغاة من أعدائه يحسبون لمملكته ألف حساب لقوتها.

وإضافة إلى هذا فقد آتينا الحكمة والعلم والمعرفة «وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ».

(الحكمة) هنا تعنى العلم والمعرفة وحسن تدبير امور البلاد، أو مقام النبوة، أو جميعها.

(١) «أيد»: جمع «يد»، وقد إستعملت هنا لكونها مظهر القوة والنعمة والملك، وقد حملت كل هذه المعانى هنا.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٥

وآخر نعمة إلهية أنعمت على داود هي تمكنه من القضاء والحكم بصورة صحيحة وعادلة «وَفَضَّلَ الْخِطَابِ».

وهناك احتمال آخر لتفسير هذه العبارة، وهو أن الله سبحانه وتعالى أعطى داود منطقاً قوياً يدلل على سمو وعمق تفكيره، ولم يكن هذا خاصاً بالقضاء وحسب، بل في كل أحاديثه.

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخِمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعِاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) داود والإمتحان الكبير: تتمه للآيات السابقة التي إستعرضت الصفات الخاصة بداود والنعمة الإلهية التي أنزلها البارئ عز وجل عليه، يبين القرآن المجيد أحداث قضية عرضت على داود. ففي البداية يخاطب القرآن المجيد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَهَلْ أَتَيْكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ».

«الخصم»: تطلق على الطرفين المتنازعين.

«تسوروا»: مشتقة من «سور» وهو الحائط العالى الذى يبنى حول البيت أو المدينة؛ وتعنى هذه الكلمة فى الأصل القفز أو الصعود إلى الأعلى.

فرغم أن داود عليه السلام كان محاطاً بأعداد كبيرة من الجند والحرس، إلماً أن طرفى النزاع تمكنا- من طريق غير مألوف- تسور جدران المحراب، والظهور أمام داود عليه السلام فجأة، ففزع عند رؤيتهما، إذ دخلا عليه بدون إستئذان ومن دون إعلام مسبق، وظن داود عليه السلام أنهم يكنون له السوء: «إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٦

إلماً أنهما عمداً بسرعه إلى تطيب نفسه وإسكان روعه، وقال- له: لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدهما على الآخر؛ «قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ».

فاحكم الآن بيننا ولا- تتحيز فى حكمك وأرشدنا إلى الطريق الصحيح: «فَأَخِمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ».

«شطط»: مشتقة من «شطط» على وزن (فقط)، وتعنى البعيد جداً، ولكون الظلم والطغيان يبعدان الإنسان كثيراً عن الحق، فكلمة (شطط) تعنى الإبتعاد عن الحق، كما تطلق على الكلام البعيد عن الحقيقة.

ولذلك تقدم أحدهما وطرح المشكله على داود، وقال: هذا أخى، يمتلك (٩٩) نعجه، وأنا لا أملك إلا نعهه واحده، وإنه يصبر على أن أعطيه نعجتي ليضمها إلى بقية نعاجه، وقد شدد على فى القول وأغلظ: «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ».

«النعجه»: هى الانثى من الضأن، وقد تطلق على انثى البقر الوحشى والخراف الجبليه.

«اكفلنيها»: مشتقة من «الكفالة»، وهى هنا كناية عن التخلي (ومعنى الجملة: إجعلها لى وفى ملكيتى وكفالتى، أى إمنحني إياها).

«عزنى»: مشتقة من «العزة» وتعنى التغلب، وبذا يكون معنى الجملة إنه تغلب على.

وهنا التفت داود عليه السلام إلى المدعى قبل أن يستمع كلام الآخر (كما يوضحه ظاهر الآية) وقال: من البديهي أنه ظلمك بطلبه ضم

نعجتك إلى نعاجه؛ «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ».

وهذا الأمر ليس بجديد، إذ إن الكثير من الأصدقاء والمخالطين بعضهم لبعض يبغى على صاحبه، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم قلة: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» (١).  
فالأشخاص الذين يراعون بصورة كاملة في معاشرتهم وصدقاتهم الطرف المقابل، ولا

(١) «خلطاء»: جمع «خليط» وتعني الأشخاص أو الأشياء المخلوطة بعضها مع بعض، كما تطلق على الصديق والشريك والجار، ورغم أن الظلم والإعتداء لم يختص بالخلطاء، إلا أن ذكر هذه المجموعة بسبب وجود الإتصالات المتكررة فيما بينهم، وإحتمال حدوث سوء تفاهم فيما بينهم، أو بسبب عدم توقع حدوث أي ظلم وطغيان من قبل اولئك.  
مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٧

يعتدون عليه أدنى إعتداء ويؤدون حقوق أصدقائهم ومعارفهم بصورة كاملة قليلون جداً، وهم المتزودون بالإيمان والعمل الصالح.  
على أيه حال، فالظاهر أن طرفي الخصام إقتنعا بكلام داود عليه السلام وغادرا المكان.  
ولكن داود غرق في التفكير بعد مغادرتهما، رغم أنه كان يعتقد أنه قضى بالعدل بين المتخاصمين، فلو كان الطرف الثاني مخالفاً لإدعاءات الطرف الأول - أي المدعى - لكان قد إعرض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أن القضية هي كما طرحها المدعى.  
ولكن آداب مجلس القضاء تفرض على داود أن يترث في إصدار الأحكام ولا يتعجل في إصدارها، وكان عليه أن يسأل الطرف الثاني أيضاً ثم يحكم بينهما، فلذا ندم كثيراً على عمله هذا، وظن أنما فتنه البارئ عز وجل بهذه الحادثة: «وَوَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ».  
وهنا أدركته طبيعته، وهي أنه أواب، إذ طلب العفو والمغفرة من ربه وخرّ راکعاً تائباً إلى الله العزيز الحكيم: «فَاسْتَتَعَفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ».

«خرّ»: مشتق من «خرير» وتعني سقوط شيء من علو ويسمع منه الصوت مثل صوت الشلالات، كما أنها كناية عن السجود.  
و «راكعاً»: إما أنها تعني السجود كما جاءت في اللغة، أو لكون الركوع مقدمة للسجود.  
فالله سبحانه وتعالى شمل عبده داود بلطفه وعفا عن زلته من حيث ترك العمل بالأولى، كما توضّحه الآية التالية: «فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ».  
وإن له منزلة رفيعة عند الله «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ».

«زلفى»: تعني المنزلة (والقرب عند الله)؛ و «حسن مآب»: إشارة إلى الجنة ونعم الآخرة.  
يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) احكم بالعدل ولا تتبع هوى النفس: نواصل استعراض قصة داود، ونقف هنا على  
مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٨

اعتابها النهائية، حيث إن آيات بحثنا هذا هي آخر الآيات الواردة في هذه السورة بشأن داود، إذ تخاطبه بلهجة حازمة وبعبارات مفعمة بالمعاني، شارحة له وظائفه ومسؤولياته الجسيمة بعد أن وضحت مقامه الرفيع، إذ تقول: «يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ».  
محتوى هذه الآية التي تتحدث عن مقام داود الرفيع والوظائف المهمة التي كلف بها، تبين أن القصص الخيالية والكاذبة التي نسجت بشأن زواج داود من زوجة (أوريا) كلها كاذبة ولا أساس لها من الصحة. فهل يمكن أن ينتخب البارئ عز وجل شخصاً ينظر إلى شرف المؤمنين والمقربين منه بعين خؤونة ويلوث يده بدم الأبرياء، خليفة له في الأرض، ويمنحه حكم القضاء المطلق؟!  
هذه الآية تضم خمس جمل كل واحدة منها تتحدث عن حقيقة معينة:

الاولى: خلافة داود في الأرض.

هذه الآية تبين أن الحكومة في الأرض يجب أن تستلهم شرعيتها من الحكومة الإلهية، وأي حكومة لا تستلهم شرعيتها من الحكومة الإلهية فإنها حكومة ظالمة وغاصبة.

الجملة الثانية: تأمر داود قائلة: بعد أن منحك الله سبحانه وتعالى هذه النعمة الكبيرة، أي الخلافة، فإنك مكلف بأن تحكم بين الناس بالحق «فأحكم بين الناس بالحق».

وفي واقع الأمر فإن إحدى ثمار خلافة الله هي ظهور حكومة تحكم بالحق.

أما الجملة الثالثة: فإنها تشير إلى أنهم خطر يهدد الحاكم العادل، ألا وهو اتباع هوى النفس «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ .

نعم، فهوى النفس ستار سميك يغطي بصيرة الإنسان، ويباعد بينه وبين العدالة.

لهذا فإن الجملة الرابعة تقول: «فِيضِلُّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

فأينما وجد الضلال كان لهوى النفس ضلع في ذلك، وأينما اتبع هوى النفس فإن عاقبته الضلال.

والجملة الخامسة تشير إلى أن كل ضلال عن سبيل الله لا ينفك عن نسيان يوم الحساب، ومن ينسى يوم الحساب فإن عذاب الله الشديد ينتظره: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ».

وتتمه للبحث الذي إستعرض حال داود وخلافته في الأرض، تتطرق الآيات لأهداف خلق عالم الوجود، كي تشخص أسباب الحكومة على الأرض التي هي جزء من ذلك العالم،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٣٩

فيقول تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ».

هناك مسألة مهية تعد مصدرًا لكل الحقوق، وهي: ما الهدف من وجود الخلق؟ فعندما ننظر إلى هذا العالم الواسع، ونوافق على أن هذا العالم الواسع لم يخلقه الله عبثًا، نتابع الهدف من وراء ذلك الخلق، الهدف الذي يمكن إيجازه في كلمات قصيرة وعميقة، وهي (التكامل) و (التعليم) و (التربية) ومن هنا نستنتج أن الحكومات عليها أن تسير وفق هذا الخط، فعليها أن تثبت اسس التربية والتعليم لتكون أساس التكامل المعنوي عند الإنسان.

الآية التالية تضيف: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ».

كما أن عدم وجود هدف من خلق العالم يعد أمرًا مستحيلًا، فمن المستحيل أيضاً المساواة بين الصالحين والظالمين، لأن المجموعة الاولى كانت تخطو خطواتها وفق أهداف خلق العالم للوصول إلى الغاية النهائية، بينما كانت المجموعة الثانية تسير باتجاه مخالف لمسير المجموعة الاولى.

وبعبارة اخرى: فلإثبات مسألة المعاد - أحياناً - يمكن الاستدلال عليها عن طريق برهان (الحكمة) وأحياناً اخرى عن طريق برهان (العدالة)، فالآية السابقة استدلال بالحكمة، والآية التي بعدها استدلال بالعدالة.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تشير إلى موضوع يوضح - في حقيقة الأمر - الهدف من الخلق، إذ جاء في الآية الكريمة: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ».

فتعليماته خالدة، وأوامره عميقة وأصيله، ونظمه باعثة للحياة وهادية للإنسان إلى الطريق المؤدى إلى إكتشاف هدف الخلق.

فالهدف من نزول هذا الكتاب العظيم لم يقتصر - فقط - على تلاوته وتلفظ اللسان به، بل لكي تكون آياته منبعاً للفكر والتفكير وسبباً ليقظة الوجدان، لتبعث بدورها الحركة في مسير العمل.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ ءَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي

حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٠

سليمان عليه السلام يستعرض قوّاته القتالية: هذه الآيات تواصل البحث السابق بشأن داود عليه السلام. فالآية الاولى تزفّ البشرى لداود في أنّه سيرزق بولد صالح هو سليمان، وسيتولّى الحكم وأعباء الرسالة من بعده، وتقول: «وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». هذه الجملة تبين عظمه مقام سليمان، ويحتمل كونها ردّاً على الإتهامات القبيحة والعارية من الصحّة الواردة في التوراه المحرّفه عن ولاده سليمان من زوجة أورثيا، والتي كانت شائعه في المجتمع قبل نزول القرآن.

الآية التالية تبدأ بقصه خيل سليمان، التي فسّرت بأشكال مختلفه، حيث إنّ البعض فسّرها بصورة سيئه ومعارضه لموازن العقل، إذ يقول القرآن: «إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ».

«صافنات»: جمع «صافنه» وتطلق على الجياد التي تقوم على ثلاث قوائم وترفع أحد قوائمها الأمامية قليلاً ليمسّ الأرض على طرف الحافر، وهذه الحالة تخصّ الخيول الأصيلة التي هي على أهبة الإستعداد للحركة في أيه لحظه.

«الجياد»: جمع «جواد» وتعني الخيول السريعه السير، وكلمه «جواد» مشتقه في الأصل من (جود)، والجود عند الإنسان يعني بذل المال، وعند الخيول يعني سرعه سيرها.

ويستشف من الآيه مع القرائن المختلفه المحيطه بها، أنّه في أحد الأيام وعند العصر إستعرض سليمان عليه السلام خيوله الأصيلة التي كان قد أعدّها لجهاد أعدائه.

فقد جاء هذا الوصف في القرآن بعد ذكر مقام سليمان باعتباره نموذجاً من أعماله.

ولكى يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين في أنّ حبه لهذه الخيول القويه ناتج من حبه للدينا، جاء في قوله تعالى: «فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي».

إنّي احبّ هذه الخيل من أجل الله وتنفيذ أمره، واريد الإستفاده منها في جهاد الأعداء.

وإستمرّ سليمان عليه السلام ينظر إلى خيله الأصيلة المستعده لجهاد أعداء الله، وهو يعيش حاله من السرور، حتى توارت عن أنظاره: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ».

كان هذا المشهد جميلاً ولطيفاً لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مره اخرى: «رُدُّوْهَا عَلَيَّ». وعندما نفّذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السلام إلى مسح سوقها وأعناقها: «فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ».

وبهذا الشكل أشاد بجهود مدرّبي تلك الخيول، وأعرب لهم عن تقديره لها، لأنّ من

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤١

الطبيعي لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد ووجهه ورقبته وشعر رقبتة، أو يمسح على ساقه، وأبرز في نفس الوقت تعلقه الشديد بخيله التي تساعده في تحقيق أهدافه العليا الساميه، وتعلق سليمان الشديد بخيله ليس بأمر يبعث على العجب.

«طفق»: بإصطلاح النحويين من أفعال المقاربه، وتأتى بمعنى (شرع)؛ و «سوق»: هي جمع (ساق)؛ و «أعناق»: جمع (عنق) ومعنى الآيه هو أنّ سليمان شرع بمسح سوق الجياد وأعناقها.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَمَا يَتَّبِعُنِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) الإمتحان الصعب لسليمان وملكه الواسع:

هذه الآيات تتحدث عن أحداث اخرى من قصه سليمان. القسم الأول من الآيات يتطرّق إلى أحد الإمتحانات التي إمتحن الله بها عبده سليمان، الإمتحان في ترك العمل بالأولى، وكيف توجه بعدها سليمان بقلب خاشع إلى الله سبحانه وتعالى طالباً منه العفو والتوبه

لتركه العمل بالأولى

الآية الأولى في بحثنا هذا تقول: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ».

إن سليمان عليه السلام كان متزوجاً من عدة نساء، وكان يأمل أن يرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه في إدارة شؤون البلاد وجهاد الأعداء، فحدث نفسه يوماً قائلاً: لأطوفنّ على نسائي كي أرزق بعدد من الأولاد لعلهم يساعدونني في تحقيق أهدافي، ولكونه غفل عن قول (إن شاء الله) بعد تمام حديثه مع نفسه، تلك العبارة التي تبين توكل الإنسان على الله سبحانه وتعالى في كل الأمور والأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميت ناقص الخلقة جيء به والقي على كرسي سليمان عليه السلام. سليمان عليه السلام غرق - هنا - في تفكير عميق، وتألم لكونه غفل عن الله لحظة واحدة وإعتمد على قواه الذاتية، فتاب إلى الله وعاد إليه.

فإن القرآن الكريم - من خلال الآية التالية - يكرر الحديث بصورة مفصلة حول قضية توبه سليمان التي وردت في آخر عبارة تضمّنتها الآية السابقة: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٢

مُلْكًا لَّيَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ».

إن سليمان طلب من الباري عز وجل أن يهب له ملكاً مع معجزات خاصة، لأننا نعرف أن لكل نبي معجزة خاصة به. وهذا الأمر لا يعدّ عيباً أو نقصاً بالنسبة للأنبياء الذين يطلبون من الله أن يؤيدهم بمعجزة خاصة. الآيات التالية تبين موضوع إستجابة الله سبحانه وتعالى لطلب سليمان ومنحه ملكاً يميّز بإمتهادات خاصة ونعم كبيرة، يمكن إيجازها في خمسة أقسام:

١- تسخير الرياح له بعنوان واسطة سريعة السير، كما تقول الآية: «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ».

تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحة بالنسبة لنا، وكل ما نعرفه أن تلك الأمور الخارقة توضع تحت تصرف الأنبياء لتسهّل لهم القيام بمهامهم.

٢- النعمة الأخرى التي أنعمها الباري عز وجل على عبده سليمان عليه السلام، هي تسخير الموجودات المتمردة ووضعها تحت تصرف سليمان لتنجز له بعض الأعمال التي يحتاجها «وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ». أي: إن مجموعة منها منشغلة في البرّ ببناء ما يحتاج إليه سليمان من أبنية، وأخرى منشغلة بالغوص في البحر.

وبهذا الشكل فإن الله وضع تحت تصرف سليمان قوة مستعدة لتنفيذ ما يحتاج إليه، فالشياطين - التي من طبيعتها التمرد والعصيان - سخّرت لسليمان لتبني له، ولتستخرج المواد الثمينة من البحر.

٣- النعمة الأخرى التي أنعمها الباري عز وجل على سليمان، هي سيطرته على مجموعة من القوى التخريبيّة، لأنّ هناك من بين الشياطين من لا- فائدة فيه، ولا- سبيل أمام سليمان سوى تكييلهم بالسلاسل، كي يبقى المجتمع في أمان من شرورهم، كما جاء في القرآن المجيد «وَأَخْرَيْنَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ».

«مقرنين»: مشتقة من (قرن) وهي تشير إلى ربط الأيدي والأرجل أو الرقاب بالسلاسل.

«أصفاد»: جمع «صفد» على وزن (مطر) وتعني القيود التي تكبل بها أيدي السجناء.

وقال البعض: إن عبارة «مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ» تعني الجامعة التي تجمع بين الرقبه

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٣

واليدين، وهذا المعنى قريب من معنى «مقرنين» اللغوي وأكثر مناسبة له.

٤- النعمة الزابعة التي أنعمها الله سبحانه وتعالى على نبيه سليمان هي إعطاؤه الصلاحيات الواسعة والكاملة في توزيع العطايا والنعم

على من يريد، ومنعها ممن يريد حسب ما تقتضيه المصلحة، «هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

عبارة «بِغَيْرِ حِسَابٍ» إما أن تكون إشارة إلى أن الباري عز وجل قد أعطى لسليمان صلاحيات واسعة لن تكون مورد حساب أو مؤاخذه، وذلك لصفه العدالة التي كان يتمتع بها سليمان في مجال استخدام تلك الصلاحيات، أو أن العطاء الإلهي لسليمان كان عظيماً بحيث إنه مهما منح منه فإنه يبقى عظيماً وكثيراً.

٥- والنعمة الخامسة التي من الله سبحانه وتعالى بها على سليمان، هي المراتب المعنوية اللاتئة التي شملته، كما ورد في آخر آية من آيات بحثنا: «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ».

إن عبارة «حُسْنَ مَآبٍ» التي تبشره بحسن العاقبة والمنزلة الرفيعة عند الله، هي - في نفس الوقت - إشارة إلى زيف الادعاءات المحرّفة التي نسبتها كتب التوراة إليه، والتي تدعى أن سليمان انجز في نهاية الأمر إلى عبادة الأصنام إثر زواجه من امرأة تعبد الأصنام، وعمد إلى بناء معبد للأصنام، إلا أن القرآن الكريم ينفي ويدحض كل تلك البدع والخرافات.

بحث

من جملة الامور التي رسمتها قصة سليمان، ما يلي:

إن إمساكه بزمام امور مملكه قويه ذات إمكانيات ماديّه واقتصاديّه واسعه وحضاره ساطعه لا تتنافى مع المقامات المعنويه والقيم الإلهيه والإنسانيه.

وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) حياه أيوب المليئه بالحوادث والعبر: إن أيوب هو ثالث نبي من أنبياء الله تستعرض هذه السوره (سوره ص) جوانب من حياته، وهي بذلك تدعو رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله إلى تذكر هذه القصة، وحكايتها للمسلمين، كي يصبروا على المشاكل الصعبة التي كانت تواجههم، ولا يياسوا من لطف ورحمه الله.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٤

اسم «أيوب» أو قصته وردت في عدده سور من سور القرآن المجيد، منها الآية (١٦٣) في سورة النساء، والآية (٨٤) في سورة الأنعام، التي ذكرت اسمه في قائمة أنبياء الله الآخرين، وبينت وأثبتت مقام نبوته، بخلاف كتاب التوراة الحالي الذي لم يعتبره من الأنبياء، وإنما اعتبره أحد عباد الله المحسنين والأثرياء وذا عيال كثيرين.

كما أن الآيات (٨٣ و ٨٤) في سورة الأنبياء إستعرضت بصورة مختصرة جوانب من حياه أيوب عليه السلام. أما آيات بحثنا هذه فإنها تستعرض حياته بصورة مفصلة أكثر من أي سورة اخرى من خلال أربعة آيات:

فالأولى تقول: «وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ».

هذه الآية تبين أولًا علو مقام أيوب عند الباري عز وجل، وذلك من خلال كلمه «عبدنا»، وثانيًا فإنها تشير بصورة خفيه إلى الإبتلاءات الشديده التي لا تطاق، وإلى الألم والعذاب الذي مس أيوب عليه السلام.

ففي تفسير على بن إبراهيم نقرأ أن أبا بصير سأل الإمام الصادق عليه السلام عن بليته أيوب التي ابتلى بها في الدنيا لأى عله كانت؟ قال: «لنعمة أنعم الله عليه بها في الدنيا وأدى شكرها، وكان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس من دون العرش فلما سعد ورأى شكر نعمة أيوب حسده إبليس وقال: يا رب، إن أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمة إلا بما أعطيته من الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدى إليك شكر نعمة أبداً، فسُلطني على دنياه حتى تعلم أنه لم يؤد إليك شكر نعمة أبداً».

(ولكى يوضح الباري عز وجل إخلاص أيوب للجميع، ويجعله نموذجاً حياً للعالمين حتى يشكروه حين النعمة ويصبروا حين البلاء، سمح الباري عز وجل للشيطان في أن يتسلط على دنيا أيوب).



«فقيل له: قد سلطتك على ماله وولده. قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالا ولا ولداً إلا أعطبه [أى أهلكه فازداد أيوب شكراً لله وحامداً. قال: فسأطني على زرعه، قال: قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب لله شكراً وحامداً. فقال: يا رب! سلطني على غنمه، فسأطه على غنمه فأهلكها فازداد أيوب لله شكراً وحامداً، وقال: يا رب سلطني على بدنه، فسأطه على بدنه ما خلا عقله وعينه، فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه، فبقي في ذلك دهرًا طويلاً يحمد الله ويشكره...».

(ولكن وقعت حادثه كسرت قلبه وجرحته روحه جرحاً عميقاً، وذلك عندما زارته مجموعته من رهبان بني إسرائيل).

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٥

«... قالوا: يا أيوب لو أخبرتنا بذنبك لعل الله كان يهلكنا إذا سألناه؟ وما نرى إبتلاك بهذا البلاء الذي لم يبتل به أحد إلا من أمر كنت تستره؟ فقال أيوب: وعزّه ربّي أنّه ليعلم أنّي ما أكلت طعاماً إلا ماؤيتيم أو ضيف يأكل معي وما عرض لي أمران كلاهما طاعة لله إلا أخذت بأشدهما على بدني».

حقاً إن شماتة أصحابه كانت أكثر المآ عليه من أيّة مصيبة أخرى حلّت به، ورغم هذا لم يفقد أيوب صبره، وإنما توجه إلى الباري عزّ وجل وذكر العبارة التي ذكرناها آنفاً، أي قوله تعالى: «أَتَى مَسِينِ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ». ولكونه خرج من الإمتحان الإلهي بنتيجة جيّدة، فتح الباري عزّ وجل - مرّة أخرى - أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمل أيوب، وأعاد عليه النعم التي إفتقدها الواحدة تلو الأخرى، لا بل أكثر مما كان يمتلك من المال والزرع والغنم والأولاد، وذلك كي يفهم الجميع العاقبة الحسنه للصبر والتحمل والشكر.

في النهاية خرج أيوب عليه السلام سالماً من بودقة الامتحان الإلهي، ونزول الرحمة الإلهية عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ».

«اركض»: مشتقة من «ركض» على وزن (فقر) وتعني دكّ الأرض بالرجل، وأحياناً تأتي بمعنى الركض، وهنا تعطي المعنى الأول.

عين باردة لأيوب ليشرب منها ويغتسل بمائها للشفاء من كافة الأمراض التي أصابته (الظاهرة والباطنية). فإنّ وصف ذلك الماء بالبارد، قد يكون إشارة إلى التأثيرات الخاصة التي يتركها الماء البارد على سلامة الجسم، وذلك ما أثبتته الطب الحديث اليوم.

النعمه المهمه الاولى التي اعيدت على أيوب هي العافية والشفاء والسلامة، أمّا بقيه النعم التي اعيدت عليه، فاستعرضها القرآن المجيد: «وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ».

المشكلة الوحيدة التي بقيت لأيوب عليه السلام هي قسمه بضرب زوجته، إذ كان قد أقسم أيام مرضه لئن برىء من مرضه ليجلّدن امرأته مائة جلده أو أقل لأمر أنكره عليها، ولكن بعدما برىء من مرضه رغب أيوب في العفو عنها إحتراماً وتقديراً لوفائها ولخدماتها التي قدّمتها إليه أيام مرضه، ولكن مسألة القسم بالله كانت تحول دون ذلك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٦

وهنا شمل الباري عزّ وجل أيوب عليه السلام مرّة أخرى بالطفاه ورحمته، وذلك عندما أوجد حلّاً لهذه المشكلة المستعصية على أيوب: «وَأَخْذُ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبُ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ».

«ضغت»: تعني ملء الكفّ من الأعواد الرقيقه، كسيقان الحنطة والشعير أو الورد وما شابهها.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا - التي هي بمثابة عصاره القصة من أولها حتى آخرها - تقول:

«إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

في هذه الآية أنّها أعطت ثلاثة أوصاف لأيوب، كل واحد منها إن توفّر في أي إنسان فهو إنسان كامل. أوّلاً: مقام عبوديته.

ثانياً: صبره وتحمله وثباته.

ثالثاً: إنباته المتكررة إلى الله.

الفرج بعد الشدة نقطة اخرى تكمن في مجريات هذه القصة، فعندما تشتدّ أمواج الحوادث والبلاء على الإنسان وتحيط به من كل جانب، عليه أن لا ييأس ويفقد الأمل، وإنما عليه أن يدرك أنّها بداية تفتح أبواب الرحمة الإلهية عليه، كما يقول على بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة: «عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء».

وَ اذْكَرْ عِبَادَنَا اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ اُولَى الْاَيْدِي وَ الْاَبْصَارِ (٤٥) اِنَّا اَخْلَصْنَا هُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِى الدَّارِ (٤٦) وَ اِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْاَخْيَارِ (٤٧) وَ اذْكَرْ اِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلُّ مِّنَ الْاَخْيَارِ (٤٨) الانبياء الستة: متابعه للآيات السابقة تستعرض آيات بحثنا هذا أسماء ستة من أنبياء الله، وتوضح بصورة مختصرة بعض صفاتهم البارزة التي يمكن أن تكون انموذجاً حياً لكل بنى الإنسان. ففي البداية تخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله: «وَ اذْكَرْ عِبَادَنَا اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ».

فالعبودية لله تعنى التبعية المطلقة له، وتعنى الاستسلام الكامل لإرادته، والاستعداد لتنفيذ أوامره فى كل الأحوال.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٧

العبودية لله تعنى عدم الاحتياج لغيره، وعدم التوجه لسواه، والتفكير بلطفه ورحمته فقط، هذا هو أوج تكامل الإنسان وأفضل شرف له. ثم تضيف الآية: «أولى الأيدي والأبصار».

وقد وصف البارى عز وجل أنبياءهم ذوو إدراك وتشخيص وبصيرة قوية، وذوو قوة وقدرة كافية لإنجاز أعمالهم.

إنهم قدوة لكل السائرين فى طريق الحق، فبعد مقام العبودية الكامل لله تعالى، تسلّحوا بهذين السلاحين القاطعين.

وعلى هذا أنه ليس المراد من اليد والعين أعضاء الحس التى يمتلكها غالبية الناس، وإنما هى كناية عن صفتين هما (العلم والقدرة).

أما الصفة الرابعة لهم فيقول القرآن بشأنها: «إِنَّا اَخْلَصْنَا هُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِى الدَّارِ».

إنهم يتطلّعون إلى عالم آخر، وافق نظرهم لا- ينتهى عند الحياة الدنيا ولذاتها المحدودة، بل يتطلّعون إلى ما وراءها من حياة أبدية ونعيم دائم، ولهذا يبذلون الجهد ويسعون غاية السعى لنيلها.

الصفتان الخامسة والسادسة جاءتا فى الآية التالية: «وَ اِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْاَخْيَارِ».

إنّ إيمانهم وعملهم الصالح كانا السبب فى إصطفاء البارى عز وجل لهم من بين الناس لأداء مهام النبوة وحمل الرسالة.

وبعد أن أشارت الآية السابقة إلى مقام ثلاثة أنبياء بارزين، تشير الآية التالية، إلى ثلاثة آخرين، إذ تقول: «وَ اذْكَرْ اِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلُّ مِّنَ الْاَخْيَارِ».

فكل واحد منهم كان مثلاً واسوة فى الصبر والإستقامة وطاعة أوامر البارى عز وجل، خاصة «إسماعيل» الذى كان على إستعداد كامل للتضحية بروحه فى سبيل الله، ولهذا السبب اطلق عليه لقب (ذبيح الله).

وإستعراض آيات القرآن الكريم لحياة اولئك العظام ليستلهم منها رسول الله صلى الله عليه وآله وكل المسلمين العبر، وتبعث فيه روح التقوى والتضحية والإيثار، وتجعله فى نفس الوقت صابراً صامداً أمام المشاكل والحوادث الصعبة.

الآية (٨٦) من سورة الأنعام بينت أنّ (اليسع) من ذرية إبراهيم، وأنه من الأنبياء الكبار؛

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٨

وأما (ذو الكفل) فهو أيضاً معروف بأنه أحد أنبياء الله، وذكره ورد مع أنبياء آخرين فى الآية (٨٥) من سورة الأنبياء.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَنَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (٥١) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٍ (٥٢) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هذا ما وُعد به المتّقون:

آيات هذه السورة إنتقلت بنا إلى شكل آخر من الحديث، إذ أخذت تقارن بين المتّقين والعصاة المتجبرين، وتشرح مصير كل منهما

يوم القيامة، وهي بصورة عامية تكمل بحوث الآيات السابقة. في البداية، وكخلاصة لشرح حال الأنبياء السابقين والنقاط المضيئة في حياتهم، تقول الآية: «هَذَا ذِكْرٌ».

لم يكن الهدف من بيان مقاطع من تاريخ اولئك الأنبياء الرائع والمثير سرد بعض القصص، وإنما الهدف الذكر والتذكّر، كما أكدت عليه بداية هذه السورة.

فالهدف هو إيقاظ الأفكار، ورفع المستوى العلمى، وزيادة قوة المقاومة والصمود لدى المسلمين الذى نزلت إليهم هذه الآيات. ثم أخرجت الامور من طابعها الخاصّ وبيان أوضاع وأحوال الأنبياء، إلى طابعها العام، لتشرح بصورة عامه مصير المتقين، إذ تقول: «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ».

بعد هذه الآية القصيرة، يعمد القرآن المجيد مجدداً إلى اتباع أسلوبه الخاص، وهو أسلوب الإيجاز والتفصيل، ليشرح ما فاز به المتقون: «جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَنَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ».

عبارة «مُمْتَحَنَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ» إشارة إلى أنهم لا يتكلفون حتى بفتح أبواب الجنة، إذ أنها تفتح بدون عناء لإستقبال أهل الجنة، إذ إن الجنة ينتظارهم، وعندما تراهم تفتح لهم أبوابها وتدعوهم للدخول إليها.

ثم تبيين الهدوء والسكينة التى تحيط بأهل الجنة، إذ تقول: «مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ».

بعد هذا تتطرق الآيات للزوجات الصالحات فى الجنة، إذ تقول: «وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثْرَابٍ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٩

«الطرف»: جفن العين، وأحياناً يأتى بمعنى النظر، ووصف آخر نساء الجنة بقاصرات الطرف (أى ذوات النظرات القصيرة) يشير إلى إقتصار نظرهن على أزواجهن فقط، وحبهن وعشقهن لهم وعدم تفكيرهم بسواهم، وهذه من أفضل مزايا وحسنات الزوجات.

الآية الأخيرة فى هذا البحث تشير إلى النعم السبع التى يغدقها البارئ عز وجل على أهل الجنة، التى وردت فى الآيات السابقة. قال تعالى: «هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ».

وعداً لا يُخلف، ويبعث فى نفس الوقت على النشاط لمضاعفة الجهد، نعم إنه وعد من الله العظيم.

وللتأكيد على خلود هذه النعم، جاء فى قوله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ».

أى: أن النعم فى الجنان خالدة ولا تنفذ ولا تزول كما فى الحياة الدنيا، ولا يظهر عليها أى نقص، لأن الله أراد ذلك.

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنِسَّ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ (٥٨)

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْزَجِبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَنِسَّ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ

قَدَّمَ لَنَا هَذَا فِرْدُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وهذه هى عاقبة الطغاة: الآيات السابقة إستعرضت النعم السبع وغيرها من النعم التى يغدقها

البارئ عز وجل على عباده المتقين، أما آيات بحثنا فإنها تستخدم أسلوب المقارنة الذى كثيراً ما استخدمه القرآن الكريم، لتوضيح

المصير المشؤوم والعقوبات المختلفة التى ستنال الطغاة والعاصين. قال تعالى: «هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ».

ثم تعمد آيات القرآن المجيد إلى الاستفادة من أسلوب الإيجاز والتفصيل، إذ تقول:

«جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنِسَّ الْمِهَادُ». أى إن جهنم هى المكان المشؤوم الذى سيردونه، وإنهم سيحترقون بنيرانها، فيا لها من فراش سىء.

«مهاده»: تعنى الفراش، وهو مكان إستراحته، ويجب أن يكون مناسباً- فى كل الأحوال- لوضع الشخص وملائماً لرغبته، ولكن كيف

سيكون حال الذين خصصت لهم نار جهنم فراشاً؟!!

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٠

مختصر الامثل ج ٤ ص ٢٨٠

ثم تتطرق الآيات إلى أنواع اخرى من العذاب الإلهى، إذ تقول: «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ». أى يجب عليهم أن يشربوا الحميم

والغساق.

«الحميم»: هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، والذي هو أحد أنواع أشربة أهل جهنم.

و «غساق»: من «غسق» على وزن (رمق) وتعنى شدة ظلمات الليل.

وقال الراغب في مفرداته: إن (غساق) تعنى القيح الذى يسيل من جلود أهل جهنم ومن الجراحات الموجودة فى أجسامهم.

آيات بحثنا تشير مرّة أخرى إلى نوع آخر من أنواع العذاب الأليم: «وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا». أى أنّ هناك عذاب آخر غير ذلك العذاب.

«أزواج»: تعنى الأنواع والأقسام، وهذه إشارة موجزة إلى أنواع أخرى من العذاب لا تختلف عن أنواع العذاب السابقة، ولكن آيات القرآن لم تفصح هنا عن أنواعها وقد لا يستطيع أحد فى هذه الدنيا فهمها وإدراكها.

وآخر عذاب لهم أنّ جلساءهم فى جهنم ذوو ألسنة بذيئة لا- تنطق إلّا بالقيح من الكلام، فعندما يرد رؤساء الضلال النار، ويرون بأعينهم تابعيهم يساقون نحو جهنم يخاطب بعضهم البعض ويقول له: «هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ».

فيجيونهم: «لَا مَرْحَبًا بِهِمْ».

ثم يضيفون: «إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ».

«مقتحم»: من «إقتحام» وتعنى الدخول فى شىء بمشقة وبصعوبة وخوف، وغالباً ما تعطى معنى الدخول فى شىء من دون أى إطلاع وعلم مسبق.

وتوضّح هذه العبارة أنّ متبعى سبيل الضلال يردون نار جهنم الرهيبة نتيجة تركهم البحث والتفكير، واتباعهم لأهوائهم، إضافة إلى تقليدهم الأعمى لآبائهم الأولين.

فإنّ الصوت يصل إلى مسامع الأتباع الذين يغضبون من كلام أئمة الضلال، ويلتفتون إليهم قائلين: «قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْزَجَاءُ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبَيِّنْ الْقُرْآنَ».

وأراد الأتباع من جوابهم القول: بأنّ من حسن الحظّ أنكم (أى أئمة الضلال والشرك) مشتركون معنا فى هذا الأمر. وهذا يشفى غليل قلوبنا (وكأنهم شامتون بأئمتهم).

لكن الأتباع لا يكتفون بهذا المقدار من الكلام، لأنّ أئمة الضلال هم الذين كانوا السبب المباشر لإرتكابهم الذنوب، ولذا فإنّهم يعتبرونهم أصحاب الجريمة الحقيقيين، وهنا يلتفتون

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥١

إلى البارى عزّ وجلّ قائلين: «قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ».

العذاب الأوّل لأنّهم أضلّوا أنفسهم، والثانى لأنّهم أضلّونا.

هذه هى نهاية كل من عقد الصداقة مع المنحرفين وبيعهم على السير فى طرق الضلال والانحراف، فإنّهم عندما يرون نتائج أعمالهم الوخيمة يلعن بعضهم بعضاً ويتخاصمون فيما بينهم.

والملفت للنظر هنا أنّ الآيات التى تذكر النعم التى يغدقها البارى عزّ وجلّ على المتّقين كانت أكثر تنوعاً من الآيات التى إستعرضت عذاب الطغاة المتجبرين، إذ أشارت آيات القسم الأوّل إلى سبع نعم، بينما أشارت آيات القسم الثانى إلى خمسة أنواع من العذاب، يحتمل أن يكون السبب هو سبق رحمة الله لغضبه، «يامن سبقت رحمته غضبه».

وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْ نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَا هُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ: آيات بحثنا تواصل إستعراض الجدال الدائر بين أهل جهنم. تقول اولى تلك الآيات: «وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْ نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ».

فعندما يبحث أفراد أتبعوا أئمة الضلال، أمثال أبي جهل وأبي لهب، عن أشخاص آخرين مثل عمار بن ياسر وخباب وصهيب وبلال، في نار جهنم يرجعون إلى ذاتهم متسائلين، ويستفسرون من الآخرين: أين أولئك الأشخاص؟ وتضيف الآيات نقلًا عن أهل جهنم: «أَتَّخَذْنَا هُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ». إننا كنا نسخر من هؤلاء الرجال العظماء ذوى المقام الرفيع، ونعتبرهم اناساً حقراء لا يستحقون أن ننظر إليهم، ولكن اتضح لنا الآن أن جهلنا وغرورنا وأهواءنا هي التي أسدلت على أعيننا ستائر حجب الحقيقة عَنَّا، فهؤلاء كانوا من المقربين لله ومكانهم الآن في الجنة. ومن الضروري الالتفات إلى أن أحد أسباب عدم إدراك الحقائق هو عدم أخذها بطابع الجد، إضافة إلى الإستهزاء بها، إذ يجب على الدوام مناقشة الحقائق بشكل جدى للوصول إليها. ثم تخرج الآية الأخيرة بالنتيجة التي تمخض عنها الجدل بين أهل جهنم، وتؤكد على ما مضى بالقول: «إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٢

فأهل جهنم مبتلون في هذه الدنيا بالخصام والنزاع والحروب. فالنزاع والجدال يتحكم بهم، وفي كل يوم يتخاصمون مع هذا وذاك. وفي يوم القيامة، ذلك اليوم الذى تبرز فيه الأسرار وما تخفيه الصدور، تراهم يتنازعون فيما بينهم في جهنم. الجدير بالذكر أن أهل الجنة متكونون على الأسرة، ويتحدثون فيما بينهم بكلام ملؤه المحبة والصدق، كما ورد في آيات مختلفة من آيات القرآن الحكيم، بينما تجد أهل النار يعيشون حالة من الصراع والجدال، إذن فتلك نعمه كبيرة، وهذا عذاب أليم. قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ: البحوث السابقة كانت تحمل طابع إنذار وتهديد للمشركين والعاصين والظالمين، أما آيات بحثنا فتتابع ذلك البحث، إذ جاء في اولى آياتها: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ».

صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله مبشر أيضاً، ولكن بما أن البشرى تخص المؤمنين فإن الإنذار يخص المشركين والمفسدين، والحديث هنا يخص المجموعة الأخيرة، وإعتمد فيه على الإنذار. ثم يضيف: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». كلمة (القهار) وردت في هذه العبارة، كى لا يغتر أحد بلطف الله، ويظن أنه يعيش في مأمن من قهر الله، ولكى لا يغرق في مستنقع الكفر وإرتكاب الذنب.

وتطرح دلائل توحيد الخالق جلّ وعلا في الالوهية والعبودية بشكل مباشر، وتضيف:

«رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ».

في الواقع هناك ثلاث صفات من صفات البارى عز وجل ذكرت في هذه الآية، وكل واحدة منها جاءت لإثبات مفهوم ما. الاولى: «ربوبيته» لعالم الوجود، ومالكه لكل هذا العالم، المالك المدبر لشؤون عالم الوجود. والصفة الثانية والثالثة وصف البارى عز وجل ب (العزیز) و (الغفار) وهو دليل آخر على

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٣

توحده تعالى في الالوهية، لأنه الوحيد الذى يستحق العبادة والطاعة، وإضافة إلى ربوبيته فإنه يمتلك القدرة على المعاقبة، وإضافة إلى امتلاكه للقدرة على المعاقبة، فإن أبواب رحمته ومغفرته مفتوحة للجميع.

ثم يخاطب البارى عز وجل نبيه الأكرم فى عبارة قصيرة وقوية: «قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ».

ثم تقول الآية، مقدمة لسرد قصة خلق آدم، والمكانة الرفيعة التى يحتلها الإنسان الذى سجدت له كافة الملائكة: «مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ

بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ».

أى: لا علم لى بالمناقشات التى دارت بين الملائكة الأعلى وملائكة العالم العلوى بخصوص خلق الإنسان، حيث إن العلم يأتينى عن طريق الوحى، والشئ الوحيد الذى يوحى إلى هو أننى نذير مبين: «إِن يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ». ورغم أن الملائكة لم تناقش وتجادل البارى عز وجل، ولكنهم قالوا عندما أخبرهم البارى عز وجل بأنه سيجعل فى الأرض خليفة، فقالوا: أتخلق فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟

مثل هذا النقاش أطلق عليه اسم (التخاصم) وهى تسميه مجازيه.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسِيتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) تكبر الشيطان وطرده من رحمته الله: هذه الآيات توضيح لإختصاص (الملائكة الأعلى) و (إبليس) وبحث حول مسأله خلق آدم عليه السلام. الآية الاولى تذكر ياخبر الله عز وجل

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٤

ملائكته بأنه سيخلق بشراً من الطين: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ».

ولكى لا- يتصور البعض أن أصل خلق الإنسان هو ذلك الطين وحسب، أضافت الآية التالية: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

وبهذا الشكل إنتهت عمليه خلق الإنسان، وذلك بعد إمتزاج روح البارى عز وجل الطاهرة مع التراب. فخلق موجود عجيب لم يسبق له مثيل، ولم توضع لرقبه وإنحطاطه أليه حدود. الموجود الذى زوده البارى عز وجل بإستعدادات خارقه تجعله لائقاً لخلافه الله، والذى سجدت له الملائكة بأجمعها فور إكتمال عمليه خلقه: «فَسَجَدَ الْمَلِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ».

إلا أن إبليس كان الوحيد الذى أبى أن يسجد لآدم لتكبره وتمرده وطغيانه، ولهذا السبب أنزل من مقامه الرفيع إلى صفوف الكافرين: «إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

نعم، فالتكبر والغرور من أقبح الامور التى يبتلى بها الإنسان، ويحرماه من إدراك الحقائق وفهمها، ويؤديان به إلى التمرد والعصيان، ويخرجانه أيضاً من صفوف المؤمنين المطيعين لله إلى صف الكافرين الباغين والطاغين، ذلك الصف الذى يترأسه إبليس ويقف فى مقدمته.

وهنا إستجوب البارى عز وجل إبليس: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي».

وبما أن البارى عز وجل منزّه عن كآفه أشكال الجسم والتجسيم، فعبارة (يدى) هنا كناية عن القدره، ومن الطبيعى أن الإنسان يستعمل يديه ليظهر قدرته على إنجاز العمل.

ثم تضيف الآية: «أَسِيتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ». أى أكان عدم سجودك لأتتك استكبرت، أم كنت من الذين يعلو قدرهم عن أن يؤمروا بالسجود؟!!

ومن دون أى شك فإنه لا أحد يستطيع أن يدعى أن قدرته ومنزلته أكبر من أن يسجد لله (أو لآدم بأمر من الله).

إلّا أن إبليس إختار- بكل تعجب- الشق الثانى، وكان يعتقد بأنه أعلى من أن يؤمر بذلك، لذلك قال- بكل وقاحه- أثناء تبيانه أسباب معارضته لأوامر البارى عز وجل:

«قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٥

وخطأ إبليس أن النار أشرف من التراب، ولا يحق لأحد أن يأمر مخلوقاً بالسجود لمخلوق آخر دني منه.

ولكن أولاً: إن آدم لم يكن تراباً فقط، وإنما نفخت فيه الروح الإلهية، وهذا هو سبب عظمته.

ثانياً: التراب ليس بأدنى من النار، وإنما هو أفضل منها بكثير، لأن كل الحياة أصلها من التراب، فالنباتات وكل الموجودات الحية بأجمعها تستمد غذاءها ومصدر حياتها من التراب.

والنار إنما يستفاد منها في الوسائل الترابية، وقد تكون أداة خطرة ومدمة.

ولو أمعنا النظر في أدلة إبليس لرأينا فيها كفرةً عجيبةً، لأنه بكلامه أراد نفي حكمة الله، والتقليل من شأن أوامره (نعوذ بالله).

وهنا وجب إخراج هذا الموجود الخبيث من صفوف الملائكة الأعلى وملائكة العالم العلوي، فخطبه الباري عز وجل بالقول: «قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ».

فهذا المكان مكان الطاهرين والمقربين، وليس بمكان المذنبين والعاصين ذوى القلوب المظلمة.

«رجيم»: من «رجم»، وبما أن لازمها الطرد، فقد وردت بهذا المعنى هنا.

ثم أضاف الباري عز وجل: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ».

المهم أن الإنسان عندما يرى النتائج الوخيمة لأعماله السيئة عليه أن يستيقظ من غفلته، وأن يفكر في كيفية إصلاح ذلك الخطأ، ولا شيء أخطر من بقاءه راكباً لموج الغرور واللجاجة واستمراره في السير نحو حافة الهاوية، لأنه في كل لحظة يتعد أكثر عن الصراط المستقيم، وهذا هو نفس المصير المشؤوم الذي وصل إليه إبليس.

وهنا تحوّل (الحسد) إلى (عداء)، كما قال القرآن: «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

إنه طلب من الباري عز وجل أن يمهله إلى يوم يبعثون كي ينتقم من أبناء آدم عليه السلام ويدفعهم جميعاً إلى طريق الضلال.

وفي الحقيقة، إنه كان يريد الاستمرار في إغواء بني آدم حتى آخر فرصة متاحة له، لأن في يوم البعث تسقط التكاليف عن الإنسان، ولا معنى هناك للوساوس والإغواءات، إضافةً إلى هذا فقد طلب من الله عز وجل أن يبقيه حياً إلى يوم القيامة، رغم أن كل الموجودين في العالم يموتون في هذه الدنيا.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٦

وهنا اقتضت مشيئة الله سبحانه - بدلائل سنشير إليها - أن يستجيب الله لطلب إبليس، ولكن هذه الإستجابة كانت مشروطة وليست مطلقة، كما توضّحه الآية التالية: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ».

ولكن ليس إلى يوم البعث الذي تبعث فيه الخلائق، وإنما إلى زمان معلوم. قال تعالى:

«إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

وهذا إشارة إلى يوم نهاية العالم، لأن كل الموجودات الحية في ذلك اليوم تموت، وتبقى ذات الله المقدسة فقط، كما ورد في الآية (٨٨) من سورة القصص: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

هنا كشف إبليس عما كان يضمه في داخله، وعن الهدف الحقيقي لطلبه البقاء خالداً إلى زمن معين إذ: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

القسم بالعزة تبين أنه مصمم بصورة جديّة على المضى في عمله، وأنه سيبقى إلى آخر لحظة من عمره ثابتاً على عهده بإغواء بني آدم. وبعد قسمه إنتهى إبليس إلى هذه الحقيقة، وهي أن هناك مجموعة من عباد الله المخلصين لا يمكن كسبهم بأي طريقة إلى داخل منطقة نفوذه، لذلك اعترف بعجزه في كسب أولئك فقال:

«إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ».

اولئك الذين يسيرون في طريق المعرفة والعبودية لك بصدق وإخلاص وصفاء، إنك دعوتهم إليك، وأخلصتهم لك، وجعلتهم في منطقة أمنك.

سؤال: لماذا تمت الباري عز وجل الموافقة على طلب إبليس في البقاء حياً؟

في الجواب نقول: إن عالم الدنيا هذا هو ساحة للإختبار والإمتحان (الإختبار الذي هو وسيلة لتربية وتكامل الإنسان) وكما هو معروف فإن الإختبار لا يتم من دون مواجهته عدو شرس ومجاهته مختلف أنواع الأعاصير والمشاكل. وبالطبع، إن لم يكن هناك شيطان، فإن هوى النفس ووساوسها هي التي تضع الإنسان في بودقه الإختبار، ولكن حرارة هذه البودقة تزداد بوجود الشيطان، لأن الشيطان سيكون في هذه الحالة العامل الخارجي المؤثر على الإنسان، وهوى النفس والوساوس ستكون العامل الداخلي.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٧

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) آخر حديث بشأن إبليس: آيات بحثنا هي آخر آيات سورة (ص)، وهي خلاصة لكل محتوى هذه السورة، ونتيجة للأبحاث المختلفة التي تناولتها السورة.

في البداية رداً على تهديد إبليس في إغواء كل بني آدم عدا المخلصين منهم، يجيبه الباري عز وجل بالقول: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ». أقسم بالحق، ولا أقول إلا الحق: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ».

فما ورد في بداية السورة إلى هنا حق، والذي ورد بشأن أحوال الأنبياء الكبار في هذه السورة بسبب حروبهم وجهادهم حق، والحديث في هذه السورة عن القيامة والعذاب الأليم الذي سينزل بالطغاة والنعم التي سيغدقها الباري عز وجل على أهل الجنة حق، ونهاية السورة حق، والله سبحانه يقسم بالحق ويقول الحق بأنه سيملاً جهنم بالشيطان وأتباعه.

إن هاتين الجملتين تشتملان على الكثير من التأكيد، لكي لا يبقى لأحد أدنى شك وترديد بهذا الشأن، إذ لا سبيل لنجاة الشيطان وأتباعه، والاستمرار بالسير على خطاه يؤدي إلى جهنم.

وفي نهاية هذا البحث يشير الباري عز وجل إلى أربعة أمور:

ففي المرحلة الاولى يقول: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».

إنما أجرى على الله، كما ذكرت ذلك آيات اخرى في القرآن المجيد كآية (٤٧) من سورة سبأ، والتي تقول: «إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

وهذه هي إحدى دلائل صدق رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي المرحلة الثانية يقول: أنا لست من المتكلمين، فكلامى مستند على الأدلة والمنطق، ولا يوجد فيه أى تكلف، وعباراتي واضحة وكلامى خالٍ من الغموض واللف والدوران «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٨

أما المرحلة الثالثة فتبين الهدف الأصلي من هذه الدعوة الكبيرة من نزول هذا الكتاب السماوى «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

المهم هو أن يوقظ الناس من غفلتهم ويجعلهم يتعمقون في التفكير.

هذه العبارة تبين أن محتوى دعوة الأنبياء في كل المراحل يتناسب مع الفطرة التي فطرنا عليها الباري عز وجل.

وأما في المرحلة الرابعة، فإنه يهدد المعارضين والمخالفين بعبارة قصيرة غزيرة المعنى:

«وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ».

يقول: من الممكن أن لا تأخذوا هذا الكلام مأخذ الجد، إلا أنه سيثبت لكم عاجلاً صدق كلامى، سيثبت في هذا العالم في ساحات



قتال الإسلام ضد الكفر، وفي ساحات العمل الاجتماعي والفكري، وفي العالم الآخر بواسطة العذاب الإلهي الأليم الذي ستعذبون به.  
«إنتهت تفسير سورة ص»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٥٩

### ٣٩. سورة الزمر

محتوى السورة: إن هذه السورة تضم عدة أقسام مهمة:

١- تتطرق السورة إلى مسألة الدعوة إلى توحيد الله.

٢- الأمر المهم الآخر الذي تكرر في عدة آيات في هذه السورة من بدايتها حتى نهايتها، هو مسألة (المعاد) والمحكمة الإلهية الكبرى، ومسألة الثواب والعقاب، وغرف الجنة، وكور النار في جهنم، ومسألة الخوف والرهبة من يوم القيامة، وظهور نتائج الأعمال في ذلك اليوم، وتجسيدها في ذلك المشهد الكبير، وهذه الامور التي تدور حول محور المعاد ممزوجة مع قضايا التوحيد بشكل كبير وكأنها تشكل معها نسيجاً واحداً.

٣- قسم آخر من السورة يتناول أهمية القرآن المجيد، وتأثيره القوي على القلوب والأرواح.

٤- قسم آخر أيضاً يبين مصير الأقسام السابقين والعذاب الإلهي الأليم الذي نزل بهم من جراء تكذيبهم لآيات الله تعالى.

٥- وقسم آخر من هذه السورة يتحدث عن مسألة التوبة، وكون أبواب التوبة مفتوحة لمن يرغب في العودة إلى الله.

هذه السورة معروفة باسم سورة (الزمر) وهذا الاسم مأخوذ من الآيتين (٧١) و (٧٣) من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٦٠

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاها، وأعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا الله تعالى».

وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الزمر أستخفها من لسانه أعطاه الله من شرف الدنيا والآخرة، وأعزه بلا مال ولا عشيرة، حتى يهابه من يراه وحرّم جسده على النار وبنى له في الجنة ألف مدينة».

مقارنته فضائل تلاوة سورة الزمر مع محتوياتها، يوضح أنّ هذه المكافآت إنّما تعطى لمن كانت تلاوته مقدمة للتفكير والتفكير مقدمة للإيمان والعمل.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) عليك الإخلاص في الدين: هذه السورة تبدأ بآيتين تتحدثان عن نزول القرآن المجيد:

الأولى تقول: إن الله هو الذي أنزل القرآن، والثانية: تبين محتوى وأهداف القرآن.

في البداية تقول: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

من الطبيعي أن كل كتاب تتم معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، وعندما ندرك أن هذا الكتاب السماوي الكبير مستلهم من علم الله القادر والحكيم، الذي لا يقف أمام قدرته المطلقة شيء، ولا يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنا بلا عناء أن محتوياته حق وكلها حكمة ونور وهداية.

ثم تنتقل السورة إلى عرض محتويات هذا الكتاب السماوي وأهدافه: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ».

ولكون هدف نزول القرآن يتحدد في إعطاء الدين الخالص للبشرية، فإن آخر الآية يقول: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ».

إنّ (الدين) يتناول مجموعة شؤون الحياة المادية والمعنوية للإنسان، ويجب على عباد الله المخلصين أن يخلصوا كل حياتهم لله.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤١

الآية التالية تؤكد مرة اخرى على مسألة الإخلاص، وتقول: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ».

وهذه العبارة ذات معنيين:

الأول: هو أن البارئ عز وجل لا يقبل سوى الدين الخالص، والاستسلام الكامل له من دون أى قيد أو شرط.

والثاني: هو أن الدين والشريعة الخالصة يجب أخذها من الله فقط، لأن أفكار الإنسان ناقصة وممزوجة بالأخطاء والأوهام.

إن هذه الآية في الواقع استدلال للآية التي جاءت قبلها، فهناك تقول: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ». وهنا تقول: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ».

ثم تنتقل الآية إلى إبطال المنطق الواهي للضعيف للمشركين الذين تركوا طريق الإخلاص، وضاعوا في طرق الشرك والانحراف: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وهنا سيوضح للجميع فساد أفكارهم وأعمالهم وبطلان عقائدهم ..

هذه الآية هي تهديد قاطع للمشركين في أن البارئ عز وجل سيحاكمهم في يوم القيامة، اليوم الذي تنكشف فيه الإلتباسات وتظهر فيه الحقائق، ليجزوا ويعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرمة، إضافة إلى فضيحتهم أمام الجميع في ساحة المحشر.

والقرآن المجيد يؤكد بصورة خاصة على أن الإنسان يستطيع أن يتصل بالله من دون أى واسطة، وأن يتحدث معه ويناجيه ويطلب منه حاجته.

وبهذا الشكل فالبارئ عز وجل ليس ببعيد عنا، ولسنا ببعيد عنه كى تكون هناك حاجة للوساطة بين الطرفين، إنه أقرب إلينا من كل قريب، وموجود في كل مكان وفي أعماق قلوبنا.

وفقاً لهذا فإن عبادة الوسطاء من الملائكة والجن ونظائرهم، أو الأصنام الحجرية والخشبية، عمل باطل لا صحة له، إضافة إلى أنه يعدّ كفراً بنعمة الله، لأنّ الذي يهب النعم أجدر بالعبادة من تلك الموجودات الميتة، أو المحتاجة إلى الآخرين من أعلى رأسها إلى أخص قدمها. لذا يقول القرآن المجيد في نهاية الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَآيَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ».

لأنه أوصد بقلنا يديه أبواب الهداية أمامه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٢

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَيَّخِرُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) ما حاجة الله إلى الأولاد: المشركون إضافة إلى أنهم يعتبرون الأصنام وسيطاً وشفيعاً لهم عند الله - كما استعرضت ذلك الآيات السابقة - فقد اعتقدوا - أيضاً - أن بعض المخلوقات - كالملائكة - هي بنات الله، والآية الأولى في بحثنا تجيب على هذا الاعتقاد الخاطيء والتصور القبيح بالقول: «لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

والأفضل هو القول بأن الآية تريد القول: إن الإبن مطلوب إما لتقديم العون أو لمؤانسة الروح، وبفرض المحال فإن الله عز وجل لو كان محتاجاً لمثل هذا الأمر، لاصطفى لهذا بعضاً ممن يشاء من أشرف خلقه، فلم يتخذ ولداً؟

ولكن لكونه الواحد الذي لا نظير له والقاهر والغالب لكل شيء والأزلى والأبدي، فإنه لا يحتاج إلى مساعدة أى أحد، ولا يستوحش من وحدانيته حتى يزيلها عن طريق الانس مع الآخرين، لهذا فهو منزّه ومقدس عن الولد، حقيقياً كان أو منتخباً.

ولإثبات حقيقة أن الله لا يحتاج إلى مخلوقاته، ولبيان دلائل توحيده وعظمته، يقول البارئ عز وجل: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ». كون تلك الامور حقاً دليل على وجود هدف كبير من وراء خلقها، وذلك لتكامل المخلوقات وفي مقدمتها الإنسان، ثم لا تنتهي عند البعث.

بعد عرض هذا الخلق الكبير، تشير الآية إلى جوانب من تدبيره العجيب، والتغيرات التي تطرأ بحسابات دقيقة، والأنظمة الدقيقة أيضاً التي تحكم اولئك، إذ يقول القرآن المجيد:

«يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ».

من هذه الآية يتجلى لنا أن الأرض كروية وتدور حول نفسها، ومن جزاء هذا الدوران، يطوق الأرض دائماً شيطان، أحدهما سواد الليل، والثاني بياض النهار، ولا يبقى هذان الشيطان ثابتين، وإنما يغطي الشريط الأسود الأبيض من جهة والشريط الأبيض يغطي مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٣

الأسود من جهة اخرى، أثناء حركة الأرض حول نفسها.

فإن القرآن المجيد يبين ظاهرة الليل والنهار و (النور) و (الظلمات) في عدة آيات مختلفة، كل واحدة منها تشير إلى نقطة معينة، وتنظر إلى هذه الظاهرة من زاوية خاصة.

ثم تنتقل إلى جانب آخر، ألا وهو التدبير والنظام الدقيق المسير لشؤون هذا العالم. قال تعالى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

فلا يظهر في حركة الشمس التي تدور حول نفسها، أو التي تتحرك مع بقية كواكب المجموعة الشمسية نحو نقطة خاصة في مجرة درب التبانة، أدنى خلل، فهي تتحرك وفق نظام خاص ودقيق جداً، ولا يظهر أى خلل في حركة القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسه، فالكل يخضع لقوانين (الخالق) ويتحرك وفقها، وسيستمر في التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

نهاية الآية كانت بمثابة تهديد وترغيب للمشركين، إذ تقول: «أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ».

فبحكم عزته وقدرته المطلقة لا يمكن لأى مذب ومشرك أن يهرب من قبضة عذابه، وبمقتضى كونه الغفار، فإنه يستر عيوب وذنوب التائبين، ويظللهم بظل رحمته.

«غفار»: صيغة مبالغة مشتقة من المصدر «غفران» وتعنى فى الأصل لبس الإنسان لشيء يقيه من التلوث، وعندما تستخدم بشأن البارئ عز وجل فإنها تعنى ستره لعيوب وذنوب عباده النادمين وحفظهم من عذابه وجزائه.

والهدف من ذكر هاتين الصفتين فى آخر الآية، هو إيجاد حالة من «الخوف» و «الرجاء» عند العباد، وهما عاملان رئيسيان وراء كل تحرك نحو الكمال.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصِرُّوْنَ (٦) إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) الجميع مخلوقون من نفس واحدة. مرة اخرى تستعرض آيات القرآن الكريم عظمه

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٤

خلق الله، وتبين فى نفس الوقت بعض النعم الاخرى التى من بها الله سبحانه وتعالى على الإنسان. فى البداية نتحدث عن خلق الإنسان وتقول: «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا».

خلق كل بنى آدم من نفس واحدة إشارة إلى مسألة خلق آدم أبى البشر، إذ إن كل البشر وبتنوع خلقتهم وأخلاقهم وطبائعهم وإستعداداتهم وأذواقهم المختلفة يعودون فى الأصل إلى آدم عليه السلام.

وعبارة: «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» إشارة إلى أن الله خلق آدم فى البداية، ثم خلق حواء مما تبقى من طينته التى خلق منها، وذلك كما ورد فى الروايات الإسلامية.

بعد هذا ينتقل الحديث إلى مسألة خلق أربعة أنواع من الأنعام تؤمن للإنسان ضروريات الحياة، حيث يستفيد من جلودها لملابسه،

ومن حليها ولحمها لغذائه، ومن جهة اخرى يصنع من جلودها وأصوافها عدّة امور يستفيد منها في حياته، ومن جهة ثالثة يستخدمها كوسيلة لتقله وحمل أثقاله: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ».

والمقصود من (الأزواج الثمانية) الذكر والانثى لكل من الإبل والبقر والضأن والمعز.

وعبارة «أَنْزَلَ لَكُمْ» والتي تخص هنا الأنعام الأربعة- كما بينا ذلك من قبل- لا تعنى فقط إنزال الشيء من مكان عال، وإنما في مثل هذه الحالات تعنى (تدنى المقام) والنعم من مقام أعلى إلى أدنى.

ثم تتطرق الآيات إلى حلقة اخرى من حلقات خلق الله، وهي عملية نمو الجنين، إذ تقول الآية: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ».

«يخلقكم»: فعل مضارع يعطى معنى الاستمرارية، وهو هنا بمثابة إشارة إلى التحولات العجيبة والصور المختلفة التي تطرأ على الجنين في مراحل وجوده المختلفة في بطن الام.

وقوله «ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ» إشارة إلى ظلمة بطن الام وظلمة الرحم وظلمة المشيمة (الكيس الخاص الذي يستقر فيه الجنين) التي هي ثلاثة أغلفة سميكة تغطى الجنين.

الإمام الحسين عليه السلام- في دعائه المعروف بدعاء عرفه الذي يعدّ دورة دراسية كاملة وعالية في التوحيد- عند استعراضه للنعم التي منّ بها البارئ عز وجل عليه يقول:

«وابتدعت خلقي من منى يمنى، ثم أسكنتني في ظلمات ثلاث: بين لحم وجلد ودم لم تشهدني

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٤٥

خلقي، ولم تجعل لي من أمرى ثم أخرجتني للذي سبق لي من الهدى إلى الدنيا تاماً سوياً».

وفي نهاية الآية، بعد ذكر الحلقات التوحيدية الثلاث الخاصة بخلق الإنسان والأنعام ومراحل خلق الجنين، يقول البارئ عز وجل: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ فَآئِنِّي تُصْرَفُونَ».

فأحياناً يصل الإنسان بعد مشاهدته لهذه الآثار التوحيدية العظيمة إلى مقام الشهود، ثم أشار تعالى إلى ذاته القدسية حيث يقول: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ».

عبارتي «ربكم» و «له الملك» تدلان على حصر الربوبية بذاته الطاهرة المقدسة، والذي أتضح بصورة جيدة في عبارة: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذكر هذه النعم الكبيرة التي منّ بها البارئ عز وجل على عباده، تتطرق الآية التالية إلى مسألة الشكر والكفر، وتناقش جوانب من هذه المسألة. في البداية تقول: «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ». أي إن تكفروا أو تشكروا فإن نتائجه تعود عليكم، والله غني عنكم في حال كفركم وشكركم.

ثم تضيف، إن غناه وعدم احتياجه لا يمنع من أن تشكروا وتجنبوا الكفر، لأن التكليف إنما هو لطف ونعمة إلهية. قال تعالى: «وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ».

وبعد استعراض هاتين النقطتين تستعرض الآية نقطة ثالثة وهي تحمل الشخص مسؤوليته أعماله، لأن قضية التكليف لا يكتمل معناها بدون هذا الأمر. قال تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

ولأنه لا- معنى للتكليف إن لم يكن هناك عقاب وثواب، فالآية تشير في المرحلة الرابعة إلى قضية المعاد، وتقول: «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ولكون مسألة الحساب والعقاب لا يمكن أن تتم ما لم يكن هناك إطلاع وعلم كاملين بالأسرار الخفية للإنسان، تختتم الآية بالقول: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

بهذا الشكل، ومن خلال جمل قصار، استعرضت فلسفة التكليف وخصوصياته ومسؤولية الإنسان ومسألة العقاب والثواب.

مختصر الامثل، ج 4، ص: 266

وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) أَمْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) الآيات السابقة تحدثت بالأدلة والبراهين عن توحيد ومعرفة الباري عز وجل، وذلك من خلال عرض بعض الظواهر العظيمة له في الآفاق والأفئس، أما آيات بحثنا فتحدثت في البداية عن التوحيد الفطري وتوضح أن ما يدركه الإنسان عن طريق العقل أو الفهم أو المطالعة في شؤون الخلق موجود بصورة فطرية في أعماقه، وأنه يظهر أثناء المشاكل وأعاصير الحوادث التي تعصف به. تقول الآية الكريمة: «وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ». ونادماً من ذنوبه وغفلته. وعندما يمن الله على الإنسان بالنعم ينسى المشاكل والإبتلاءات السابقة التي دعا الله عز وجل من أجل كشفها عنه، قال تعالى: «ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ».

إذ يجعل لله أنداداً وشركاء ويعمد إلى عبادتها، ولا يكتفى بعبادتها بل يعمد - أيضاً - لإضلال وحرف الناس عن سبيل الله: «وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ».

المقصود هنا من (الإنسان) هم الناس العاديون الذين لم يتربوا في ظل إشعاعات أنوار تعاليم الأنبياء، ولا يشمل هذا الكلام المؤمنين الذين يذكرون الله في السراء والضراء ويطلبون العون من لطفه دائماً.

نهاية الآية تخاطب مثل اولئك الأشخاص بلغة ملؤها التهديد الصريح والحازم والقاطع:

«قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

الآية التالية استخدمت اسلوب المقارنة، الاسلوب الذي طالما استخدمه القرآن المجيد لإفهام الآخرين القضايا المختلفة، حيث تقول: هل أن مثل هذا الشخص انسان لائق وذو قيمة: «أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ».

مختصر الامثل، ج 4، ص: 267

«قانت»: من مادة «قنوت» بمعنى ملازمة الطاعة المقرونة بالخشوع والخضوع.

«آناء»: هي جمع «انا» - على وزن كذا - وتعنى ساعة أو مقداراً من الوقت.

التأكيد هنا على ساعات الليل، لأن تلك الساعات يحضر فيها القلب أكثر، وتقل نسبة تلوثه بالرياء أكثر من أى وقت آخر.

وتتمه الآية تخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالقول: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ». كلاً، إنهم غير متساوين: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ».

لا شك في أن السؤال المذكور أعلاه سؤال شامل، ولكن إشارة إلى سؤال آخر قد طرح، وهو: هل يستوى المشركون والمؤمنون الذين يحيون الليل بالعبادة، فالسؤال الثاني يشير أكثر إلى هذه المسألة وهو: هل أن الذين يعلمون بأن المشركين المعاندين لا يتساوون مع المؤمنين الطاهرين، يتساوون مع الذين لا يعلمون بهذه الحقيقة الواضحة!

فهذه العبارة أحد شعارات الإسلام الأساسية وهو سمو وعلو منزلة العلم والعلماء في مقابل الجهل والبديهي أن تكون هاتان المجموعتان غير متساويتين عند الباري عز وجل، وغير متساويين لدى العقلاء، ولا يقفون في صف واحد لا في الدنيا، ولا في الآخرة وأنهم مختلفون ظاهراً وباطناً.

العلم في هذه الآية وبقية الآيات لا يعنى معرفة مجموعة من المصطلحات، أو العلاقة المادية بين الأشياء، وإنما يقصد به المعرفة الخاصة التي تدعو الإنسان إلى (القنوت) أى إلى طاعة الباري عز وجل والخوف من محكمته وعدم اليأس من رحمته، هذه هي حقيقة العلم، فإذا كانت العلوم الدنيوية تؤدى إلى ما ذكرناه آنفاً، فهي علم أيضاً، وإلا فهي سبب الغفلة والظلم والغرور والفساد فى الارض، ولا يحصل منها سوى «القبل والقال».

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا ذَلِكَ هُوَ الْخُسِرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْمٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٦٨

الخطوط الرئيسية لمناهج العباد المخلصين: تمتع لما جاء في بحث الآيات السابقة التي قارنت بين المشركين المغرورين والمؤمنين المطيعين لله، وبين العلماء والجهلة، فإن آيات بحثنا هذا تبحث الخطوط الرئيسية لمناهج عباد الله الحقيقيين المخلصين وذلك ضمن سبعة مناهج وردت في عدة آيات تبدأ بكلمة (قل).

الآية الاولى تحت النبي صلى الله عليه وآله على التقوى: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ».

نعم، فالتقوى هي الحاجز الذي يصد الإنسان عن الذنوب، وتجعله يحس بالمسؤولية وبتكاليفه أمام الباري عز وجل، وهي المنهج الأول لعباد الله المؤمنين والمخلصين، وهي ميزان شخصيه وكرامة الإنسان عند الباري عز وجل.

المنهج الثاني يختص بالإنسان والعمل الصالح في هذه الدنيا التي هي دار العمل، وقد شجعت الآية الناس وحثتهم على عمل الإحسان، من خلال بيان نتيجة ذلك العمل:

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ».

نعم فالإحسان بصورة مطلقة في هذه الدنيا- سواء كان في الحديث، أو في العمل، أو في نوع التفكير والتفكير بالأصدقاء والغرباء- يؤدي إلى نيل ثواب عظيم في الدنيا والآخرة، لأن جزء الإحسان هو الإحسان.

وفي الواقع فإن التقوى عامل ردع، والإحسان عامل صلاح، وكلاهما يشمل (ترك الذنب) و (أداء الفرائض والمستحبات).

المنهج الثالث يدعو إلى الهجرة من مواطن الشرك والكفر الملوثة بالذنوب، قال تعالى:

«وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ».

هذه الآية رد على ذوى الإرادة الضعيفة والمتذرعين بمختلف الذرائع الذين يقولون: إننا عاجزون عن أداء الأحكام الإلهية، لأننا في أرض مكة التي يحكمها المشركون. والقرآن يرد عليهم بأن أرض الله لا تقتصر على مكة، هاجروا من المواطن الملوثة بالشرك والكفر والظلم التي لا يمكنكم فيها أداء الأحكام الإلهية بحرية إلى آخر.

وهذا يوضح- بصورة جيدة- أن المؤمن الذي تحيط به الضغوط والكبت، ويستطيع أن يهاجر في سبيل الله عليه أن يهاجر، وإلا فإنه غير معذور أمام الله.

ولأن الهجرة ترافقها بصورة طبيعية مشكلات كثيرة في مختلف جوانب الحياة، فالمنهج الرابع إذن يتعلق بالصبر والإستقامة. قال تعالى:

«إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٦٩

وعبارة (بغير حساب) تبين أن للصابرين أفضل الأجر والثواب عند الله، ولا يوجد عمل آخر يبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر والإستقامة. أما المنهج الخامس فقد ورد فيه أمر بالإخلاص والتوحيد الخالي من شوائب الشرك، وهنا تتغير لهجة الكلام بعض الشيء، ويتحدث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن وظائفه ومسؤولياته، إذ يقول: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ».

ثم يضيف: «وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ». وهذا هو المنهج السادس الذي يعترف بأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو أول الناس إسلاماً وتسليماً لأوامر الباري عز وجل.

أمّا المنهج السابع والأخير فيتناول مسألة الخوف من عقاب البارئ عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: «قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

التأمل في هذه الآيات يكشف بوضوح عن أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو عبد من عباد الله، وهو مكلف أيضاً بعبادة الله بإخلاص، لأنه - هو أيضاً - يخاف العذاب الإلهي. وهذا دليل على عظمته وأحقّيته.

بعد استعراض المناهج السبعة المذكورة في الآيات أعلاه (التقوى، الإحسان، الهجرة، الصبر، الإخلاص، التسليم، الخوف).

ولكون مسألة الإخلاص لها ميزات خاصة في مقابل العلل المختلفة للشرك، تعود الآيات لتؤكد عليها مرة أخرى، إذ تقول وبنفس اللهجة السابقة: «قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي».

أما أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون الله: «فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ».

ثم تضيف: «قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ».

أى: إنهم لم يستثمروا طاقاتهم وعمرهم، ولا استفادوا من عوائلهم وأولادهم لإنقاذهم، ولا لإعادة ماء الوجه المراق إليهم، وهذا هو الخسران العظيم: «أَلَا ذَلِكْ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ».

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تصف إحدى صور الخسران المبين، إذ تقول: «لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ».

وبهذا الشكل فإن أعمدة النيران تحيط بهم من كل جانب، فهل هناك أعظم من هذا؟

وهل هناك عذاب أشد من هذا؟

«ظلل»: جمع «ظلل» على وزن «سنه» وتعني الستر الذي ينصب في الجهة العليا، وطبقاً

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧٠

لهذا فإن إطلاق هذه الكلمة على ما يفرش تحت اهل النار اطلاق مجازي ومن باب التوسع في معنى الكلمة. هذا تجسيد لأحوالهم وأوضاعهم في هذه الدنيا، إذ أنّ الجهل والكفر والظلم محيط بكل وجودهم، ومستحوذ عليهم من كل جانب.

ثم تضيف الآية مؤكدة وواعظة إياهم: «ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ».

إضافة كلمة (العباد) إلى لفظ الجلالة في هذه الآية، ولعدة مرات إشارة إلى أنّ تهديد البارئ عز وجل لعباده بالعذاب إنّما هو لطف ورحمة منه، وذلك كي لا يبتلّى عباده بهذا المصير المشؤوم.

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعِيدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) عباد الله الحقيقيون: استخدم القرآن الكريم مرة أخرى أسلوب المقارنة في هذه الآيات، إذ قارن بين عباد الله الحقيقيين والمشركين المعاندين الذين لا مصير لهم سوى نار جهنم. قال تعالى: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى».

عبارة «اجتنبوا الطَّاغُوتَ» تعني الابتعاد عن كل أشكال الشرك وعبادة الأصنام وهوى النفس والشيطان، وتجنب الإنصياح والاستسلام للحكام المتجبرين الطغاة.

أما عبارة «أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ» فإنها تجمع روح التقوى والزهد والإيمان، وأمثال هؤلاء يستحقون البشري.

ثم تعرّج الآية على تعريف العباد الخاصين فتقول: «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ».

الآيتان المذكورتان بمثابة شعار إسلامي، وقد بينتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الاختيار في مختلف الامور.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧١

ولكون رسول الله صلى الله عليه و آله كان يرغب - بشدة - في هداية المشركين والضالين، و كان يتألم كثيراً لإلحراف اولئك الذين لم يعطوا آذاناً صاغية للحقائق، فإن الآية التالية عمدت إلى مواساته بعد أن وضحت له حقيقة أن عالمنا هذا هو عالم الحرية والامتحان، ومجموعة من الناس - في نهاية الأمر - يجب أن تدخل جهنم، إذ قالت: «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ».

ومن البديهي أن حتمية تعذيب هذه المجموعة لا تحمل أى طابع إجباري، بل إنهم يعذبون بسبب الأعمال التي ارتكبوها. ولبعث السرور في قلب رسول الله صلى الله عليه و آله ولزيادة الأمل في قلوب المؤمنين، جاء في آخر الآية: «لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ».

فإن كان أهل جهنم مستقرين في ظلل من النار، كما ورد في الآية السابقة: «لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ». فإن لأهل الجنة غرفاً من فوقها غرف أخرى، وقصور فوقها قصور أخرى، لأن منظر الورود والماء والأنهار والبساتين من فوق الغرف يبعث على اللذة والبهجة بشكل أكثر.

وكشفت الآية أيضاً عن أن غرف أهل الجنة الجميلة قد زينت بأنهار تجري من تحتها «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». نعم، هذا وعد الله: «وَعَدَ اللَّهُ لَأُخْلِفَ اللَّهُ الْمَيِّتَ».

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُضِيغاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم مرة أخرى دلائل التوحيد والمعاد، ليكمل البحوث التي تناولت مسألة الكفر والإيمان الواردة في الآيات السابقة، إذ تقول موجهة الخطاب إلى النبي الأكرم صلى الله عليه و آله باعتباره القدوة لجميع المؤمنين: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ».

قطرات المطر التي تبعث الحياة حينما تنزل من السماء تمتصها الطبقة الاولى من طبقات

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧٢

الأرض، وعندما تنفذ إلى داخل هذه الطبقة تقف عند طبقة أخرى في الأرض ولا تتمكن من النفوذ خلالها، لتبعث مرة أخرى إلى سطح الأرض بصورة عيون وقنوت وآبار. وتضيف الآية فيما بعد: «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ» ذات الأشكال المختلفة. أي: مختلف الأنواع كالحنطة والشعير والرز والذرة، ذات الأشكال المختلفة والألوان الظاهرية المتعددة، فمنها الأخضر الغامق، والأخضر الفاتح، وبعضها ذو أوراق عريضة وكبيرة، والبعض الآخر ذو أوراق دقيقة وصغيرة.

ثم تنتقل الآية إلى مرحلة أخرى من مراحل حياة هذه النباتات، إذ تقول: «ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُضِيغاً» (١). حيث تعصف به الرياح من كل جانب لتقلعه من مكانه بسبب ضعف سيقانه، ويضيف تعالى: «ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً».

نعم، إن في هذا لذكراً لأصحاب العقول وأهل العلم: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ».

هذا المشهد يذكر الإنسان بالنظام الدقيق والعظيم الذي وضعه البارئ عز وجل لعالم الوجود، وإنه تذكير بنهاية الحياة وانطفاء شعلتها، ومن ثم بمسألة البعث وعودة الأموات إلى الحياة.

وكتمة لهذا الدرس الكبير في التوحيد والمعاد، تنتقل الآيات إلى المقارنة بين المؤمنين والكافرين، كي توضح حقيقة أن القرآن والوحي السماوي هما كقطرات المطر التي تهطل على الأرض، وكما أن الأرض التي لها الإستعداد هي التي تستفيد من قطرات المطر، فكذلك القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف الله، هي - فقط - التي تستفيد من آيات الله، وذلك طبقاً لقوله تعالى: «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُو لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ».



كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور. «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ».

أما القاسية قلوبهم، فهم الذين لا تؤثر بهم المواعظ ولا الوعيد ولا البشرى، ولا الآيات القرآنية المؤثرة. نعم، «أُولَئِكَ فِي ظُلْمٍ مُّبِينٍ». ويقال للقلوب التى لا تظهر أى استجابة لنور الحق والهداية، ولا تسمح بنفوذ نور الحق والهداية إليها (قلوب قاسية).

(١) «يهيج»: من مادة «هيجان» ولها معنيان فى اللغة، الأول هو جفاف النبات واصفراره، والثانى هو التحرك والإنتفاض، ومن الممكن أو يعود المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات حينما يجفّ فإنه يستعد للإنتفاض والإنتشار والتحريك واليهيجان. مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧٣

فى تفسير القرطبي: روى عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله قوله تعالى «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ وَ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ» كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح». قلنا يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال صلى الله عليه وآله: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والإستعداد للموت قبل نزوله».

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّتَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَمْ مَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)

سبب النزول

نقل بعض المفسرين عن عبد الله بن مسعود: مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مله، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فنزلت أول آية من الآيات أعلاه معرّفة القرآن ب (أحسن الحديث).

التفسير

الآيات السابقة تحدثت عن العباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كما تحدثت عن الصدور الرحبة المستعدة لتقبل الحق. الآيات التى يدور حولها البحث تواصل التطرق إلى هذا الأمر، كى تكمل حلقات البحوث السابقة الخاصة بالتوحيد والمعاد مع ذكر بعض دلائل النبوة، إذ تقول الفقرة الاولى من الآية: «اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ».

ثم تستعرض خصائص القرآن الكريم، حيث تشرح الخصائص المهمة للقرآن من خلال بيان ثلاث صفات له:

أما الخاصية الاولى فهى: «كِتَابًا مُّتَشَابِهًا». والمقصود من (متشابه) هنا هو الكلام المتناسق الذى لا تناقض فيه ويشبه بعضه البعض، فلا تعارض فيه ولا تضاد، وكل آية فيه

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧٤

أفضل من الاخرى والتمثال من حيث اللطف والجمال والعمق فى البيان.

وهذا بالضبط على عكس العبارات التى يصوغها الإنسان، التى مهما اعتنى بصياغتها فإنها لن تخلو من الاخطاء والاختلافات والتناقضات، ودراسة آثار الكتاب الكبار المعروفين فى مجالى الشر والشعرهى خير شاهد على هذا الموضوع. أما الخاصية الثانية فهى: «مَّتَانِي»- أى المكرر- وهذه الكلمة تشير إلى تكرار بحوثه المختلفه وقصصه ومواعظه، التكرار الذى لا يمل منه الإنسان، وإنما على العكس من ذلك، إذ يتشوق لتلاوته أكثر، وهذه إحدى اسس الفصاحة.

أما الخاصية الثالثة فهى: «تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ». وهذه الخاصية للقرآن فتتجلى فى مسأله نفوذه وتأثيره العميقين والخارقين فى اعماق النفوس؛ «تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ».

إنه لوصف وتجسيد لطيف وجميل لنفوذ آيات القرآن العجيب إلى أعماق القلوب، إذ أنه فى بداية الأمر يبعث فى القلب شيئاً من

الخوف والرهبه، الخوف الذي يكون أساساً للصحوه ولبدء الحركة، والرهبه التي تجعل الإنسان يتحسس مسؤولياته المختلفه، ثم تأتي مرحلة الهدوء وقبول آيات الله وتتبعها السكينه والإستقرار.

في تفسير مجمع البيان روى عن العباس بن عبد المطلب أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا اقشعرت جلد العبد من خشية الله، تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجره اليابسه ورقها».

وفي نهاية الآيه يقول تعالى بعد أن بين تلك الخصائص: «ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ».

حقاً إن القرآن نزل لهدايه الجميع، لكن المتقين وطلّاب الحق والحقيقه هم المستفيدون- فقط- من نوره، أما اولئك الذين تعمّدوا إغلاق كافة نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الكريم، والذين تتحكم بأرواحهم ظلمات التعصب والعناد- فقط- لا يستفيدون من نور القرآن، وإنما يزدادون ضلاله من جزاء عنادهم وعدائهم، لذلك فإن تتمه الآيه تقول: «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

فهذه الضلاله هي التي يضع الإنسان حجر أساسها بيده، ويحكم بناء أساسها بواسطة أعماله الخاطئه والسيئه، ولذلك لا تنافي إطلاقاً مع إرادة الإنسان وحرته.

الآيه التاليه تقارن بين مجموعه من الظالمين والمجرمين، ومجموعه من المؤمنين الذين

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧٥

استعرضت أوضاعهم فيما قبل، وذلك كي تجعل الحقيقه أكثر وضوحاً في هذه المقارنه، إذ تقول: «أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ».

إن أوضاع الظالمين في جهنم في ذلك اليوم تجبرهم على استخدام وجوههم كوسيله دفاعيه، لأن أيديهم وأرجلهم مقيده بالسلاسل. ثم تضيف نهاية الآيه: «وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ».

نعم، إن ملائكه العذاب هي التي توضح لهم هذه الحقيقه المره والمؤلمه، إذ يقولون لهم: إن أعمالكم ستبقى معكم وستعذبكم، وهذا التوضيح هو تعذيب روحي آخر لهؤلاء.

إن ما قيل لحد الآن هو إشارة بسيطه لعذابهم الأليم في يوم القيامه، والآيه التاليه تتحدث عن العذاب الدنيوي لهؤلاء، كي لا يتصور أحد أنه يعيش في أمان بهذه الدنيا، قال تعالى: «كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ».

الآيه الأخيره في بحثنا هذا تبين أن عذاب هؤلاء الدنيوي لا يقتصر على العذاب الجسدي، وإنما يشتمل أيضاً على عقوبات نفسيه: «فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (١).

ولكن العار والخزي للإنسان أن يخرج من هذه الدنيا حقيراً وذليلاً، قد ابتلى بعذاب فاضح يريق ماء وجهه، «وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

كلمه (أكبر) كناية عن شدّه العذاب وقسوته.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمِيدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) قرآن لا- عوج فيه: الآيات- هنا- تبحث خصائص القرآن المجيد أيضاً، وتكمل البحوث

السابقه في هذا المجال. ففي البدايه تتحدث عن مسأله شموليه القرآن، إذ تقول الآيه الكريمه:

«وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ».

(١) «خزي»: تعني الذل والهوان كما تعني الفضيحه (يراجع لسان العرب).

حيث تمّ فيه شرح قصص الطغاة والمتمردين الرهيبة، وعواقب الذنوب الوخيمة، ونصائح ومواعظ، وأسرار الخلق ونظامه، وأحكام وقوانين متينة، وبكلمة أنه وضح فيه كل ما هو ضروري لهداية الإنسان على شكل أمثال، لعلمهم يتذكرون ويعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم: «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». ثم تتطرق الآية إلى وصف آخر للقرآن، إذ تقول: «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ». فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم - بكل هذه الصفات التي ذكرناها - هو: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

ثم يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التي ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد والمشرک، وذلك ضمن إطار مثل ناطق وجميل، إذ يقول: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» (١).

كل واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معيّن.

والأدهى من كل ذلك أنه عندما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر، والآخر يرميه على الأول، وهكذا يبقى محروماً محتاجاً عاجزاً تائهاً. وفي مقابلة هناك رجل سلم لرجل واحد «وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ».

فهذا الشخص خطه ومنهجه واضح، وولى أمره معلوم فلا- تردد ولا- حيرة ولا- تضاد ولا تناقض، يعيش بروح هادئة ويخطو خطوات مطمئنة، فهل أن هذين الرجلين متساويان:

«هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا».

هذا المثال ينطبق على (المشرک) و (الموحّد) فالمشرک يعيش في وسط المتضادات والمتناقضات، وكل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديد، أما الموحّدون فإنهم يعشقون الله وحده.

وفي نهاية الآية يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

ولكن أكثرهم لا- يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ إنّ حبّ الدنيا والشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضلون عن طريق الحقيقة: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وتتمه لبحت الآيات السابقة بشأن التوحيد والشرك، تتحدث الآية التالية عن نتائج

(١) «متشاكسون»: أصلها من «شكاسة» وتعنى سوء الخلق والتنازع والاختصام، ولهذا يقال «متشاكس» لمن يتخاصم ويتنازع بعصبية وسوء خلق.

مختصر الامثال، ج ٤، ص: ٢٧٧

الشرك والتوحيد في موقف القيامة، إذ تبدأ بمسألة الموت الذي هو بؤابة القيامة، وتبين لكل البشريه أنّ قانون الموت عامّ وشامل للجميع: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ».

قال بعض المفسرين: إنّ أعداء رسول الله كانوا ينتظرون وفاته، وكانوا في نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول الله صلى الله عليه وآله يموت في نهاية الأمر، فالقرآن - هنا - أجابهم بالقول: إن مات رسول الله فهل تبقون أنتم خالدين، هذا ما نصّت عليه الآية (٣٤) من سورة الأنبياء: «أَفَأَينَ مَتَّ فُهُمُ الْخَالِدُونَ».

ثم ينتقل البحث إلى محكمه يوم القيامة، ليجسم المجادله بين العباد في ساحة المحشر: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ».

«تختصمون»: مشتقة من «اختصام» وتعنى النزاع والجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل منهما تنفيذ كلام الآخر.

ولكن الآيات التالية تبين أنّ المخاصمه تقع بين الأنبياء والمؤمنين من جهة، والمشرکين المكذبين من جهة أخرى.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصُّدُقِ إِذْ حِجَّاهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَ الَّذِي حِجَّاهُ بِالصُّدُقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسِيَّوْا الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) هذه الآيات تواصل البحث الخاص بموقف الناس في ساحة المحشر، وتخاصمهم في تلك المحكمه

الكبرى، وتقسّم آيات بحثنا إلى مجموعتين هما (المكذبون) و (المصدقون)، والقرآن الكريم يعطى صفتين لأصحاب المجموعة الاولى، أى «المكذبين». قال تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ»<sup>(١)</sup>. الكافرون والمشركون يكذبون كثيراً على الباري عز وجل، فأحياناً يعتبرون الملائكة بنات الله، وأحياناً يقولون: عيسى هو ابن الله، وأحياناً اخرى يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند الله، وأحياناً يبتدعون أحكاماً كاذبة في الحلال والحرام وينسبونها إلى الله، وما شابه ذلك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧٨

وأما الكلام الصادق الذى أنزل إليهم وكذبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمة الآية تبين فى جملة قصيرة جزاء أمثال هؤلاء الأفراد. قال تعالى: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ»<sup>(١)</sup>.

أما المجموعة الثانية فقد وصفها القرآن الكريم بوصفين، إذ قال: «وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

عبارة «الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ» يشمل كل الذين يبلغون نهج الأنبياء ويروجون كلام الله.

وبهذا الشكل فإن الآية تتحدث عن أناس هم من حملة الرسالة ومن العاملين بها، وتتحدث عن أولئك الذين ينشرون فى العالم ما ينزل به الوحي من كلام الباري عز وجل وهم يؤمنون به ويعملون به، وهكذا فإن الآية تضم الأنبياء والأئمة المعصومين والدعاة لنهج الأنبياء.

الآية التالية تبين أن هناك ثلاث ثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعة، أى المصدقين، إذ تقول فى البداية: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ».

لهذه الآية مفهوم واسع بحيث يشمل كل النعم المادية والمعنوية.

أما المكافأتان الثانية والثالثة اللتان يمنحهما الباري عز وجل للمصدقين، فيقول القرآن المجيد بشأنهما: «لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ».

كم هى عبارة جميلة ولطيفة! فمن جانب يدعون الله سبحانه وتعالى ليكفر عنهم أسوأ ما عملوا بظل لطفه، ويظهرهم من تلك البقع السوداء بماء التوبة، ومن جهة اخرى يدعون الله ليجعل أفضل وأحسن أعمالهم معياراً للمكافأة، وأن يجعل بقية أعمالهم ضمن ذلك العمل.

إن ما يتضح من الآيات الكريمة هو أن الله استجاب لدعواهم، عندما غفر لهم وعفا عن أسوأ أعمالهم، وجعل أفضل الأعمال معياراً للمكافأة.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧)

(١) «مثنوى: من مادة (ثواء) وتعنى الإقامة المستمرة فى مكان ما ولهذا فإن (مثنوى هنا تعنى المكان والمنزل الدائم).

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٧٩

سبب التزول

الكثير من المفسرين قالوا: إن مشركى قريش كانوا يخوفون رسول الله صلى الله عليه و آله من آلهتهم ويحذرونه من غضبها على أثر وصفه تلك الأوثان بأوصاف مزريئة، ويوعدونه بأنه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى، وللرد على كلامهم نزلت الآية المذكورة أعلاه.

التفسير

إنَّ اللهَ كافٍ: تتمُّ لتهديدات الباري عزَّ وجل التي وردت في الآيات السابقة للمشركين، والوعد لأنبيائه. تتطرق الآية الأولى في بحثنا لتهديد الكفار: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ».

إنَّ قدرة الباري عزَّ وجل أقوى وأعظم من كل القدرات الأخرى، وهو الذي يعلم بكل احتياجات ومشكلات عباده، والذي هو رحيم بهم غاية الرحمة واللطف، كيف يترك عباده المؤمنين لوحدهم أمام أعاصير الحوادث وعدوان بعض الأعداء!

إنَّ في هذه الآية بشرى لكل السائرين في طريق الحق والمؤمنين الحقيقيين، خاصة أولئك الذين يعيشون أقلية في بعض المجتمعات، والمحاطين بمختلف أشكال التهديد من كل جانب.

وكتمة للآية السابقة، تشير الآية التالية إلى مسألة (الهداية) و (الضلالة) وتقسم الناس إلى قسمين: (ضالين) و (مهيئين) وكل هذا من الله سبحانه وتعالى، كي تبين أنَّ جميع العباد محتاجون لرحمته، ومن دون إرادته لا يحدث شيء في هذا العالم. قال تعالى: «وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ». «وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ».

ومن البديهي أنَّ الضلالة لا تأتي من دون سبب، وكذلك الهداية بل إنَّ كل حالة منهما هي استمرار لإرادة الإنسان وجهوده.

وما أشدَّ جهل الذين فصلوا بين مثل هذه الآيات وبقية آيات القرآن واعتبروها شاهداً على ما ورد في المذهب الجبري، وكأنَّهم لا يعلمون أنَّ آيات القرآن تفسِّر إحداها الأخرى، بل إنَّ القرآن الكريم يقول في نهاية هذه الآية: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ». وهو خير شاهد على هذا المعنى.

وكما هو معروف فإنَّ الانتقام الإلهي هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكرة التي اقترفتها الإنسان، وهذا يشير إلى أنَّ إضلاله سبحانه وتعالى للإنسان هو بحد ذاته نوع من أنواع

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٠

الجزاء وردَّ فعل لأعمال الإنسان نفسه، وبالطبع فإنَّ هدايته سبحانه وتعالى للإنسان هي بحد ذاته نوع من أنواع الثواب، وهي ردَّ فعل للأعمال الصالحة والخالصة التي يقوم بها الإنسان.

الهداية والإضلال من الله: «الهداية»: في اللغة تعني التوجيه والإرشاد بلطف ودقَّة، وتنقسم إلى قسمين (بيان الطريق) و (الإيصال إلى المطلوب). وبعبارة أخرى: (هداية تشريعية) و (هداية تكوينية).

ولتوضيح ذلك نقول: إنَّ الإنسان يصف أحياناً الطريق للسائل بدقَّة ولطف وعناية ويترك السائل معتمداً على الوصف في قطع الطريق والوصول إلى المقصد المطلوب، وأحياناً أخرى يصف الإنسان الطريق للسائل ومن ثم يمسك بيده ليوصله إلى المكان المقصود. و (الإضلال) هو النقطة المقابلة ل (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة على آيات القرآن لا تضح لنا- بصورة جيِّدة- أنَّ القرآن يعتبر أنَّ الضلالة والهداية من الله؛ أي أنَّ الإثنين ينسبان إلى الله.

الدراسة السطحية لهذه الآيات وعدم إدراك معانيها العميقة أدَّى إلى زيغ البعض خلال تفسيرهم لها ووقوعهم في فخاخ المذهب الجبري.

إنَّ أدقَّ تفسير يتناسب مع كل آيات الهداية والضلال، ويفسرها جميعاً هو أنَّ الهداية التشريعية التي تعني (إراءة الطريق) لها خاصية عامة وشاملة، ولا توجد فيها أي قيود وشروط، كما ورد في الآية (٣) من سورة الإنسان: «إِنَّا هَدَيْنَهُ السَّبِيلَ إِذَا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا». وفي الآية (٥٢) من سورة الشورى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». ومن البديهي أنَّ دعوة الأنبياء هي مظهر دعوة الله تعالى، لأنَّ كل ما عند النبي هو من الله.

وبالنسبة إلى مجموعة من المنحرفين والمشركين ورد في الآية (٢٣) من سورة النجم:

«وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى .

أمّا الهداية التكوينية فتعني الإيصال إلى الغرض المطلوب، والأخذ بيد الإنسان في كل منعطفات الطريق، وحفظه وحمايته من كل الأخطار التي قد تواجهه في تلك المنعطفات حتى إيصاله إلى ساحل النجاة، وهي - أي الهداية التكوينية - موضع بحث الكثير من آيات القرآن الاخرى التي لا يمكن تقييدها بأية شروط، فالهداية هذه تخصّ مجموعة ذكرت أوصافهم في القرآن، أمّا الضلال الذي هو النقطة المقابلة للهداية فإنه يخص مجموعة اخرى ذكرت أوصافهم أيضاً في القرآن الكريم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨١

مختصر الامثل ج ٤، ص: ٣١٩

القرآن المجيد يقول في الآية (٢٤) من سورة البقرة: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ». وفي الآية (٢٥٨) من سورة البقرة: «وَاللَّهُ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وهذا يبيّن أنّ الظلم مقدمة للضلال. ومن هنا يتّضح أنّ الفسق، أي عدم إطاعة أوامر البارئ تعالى هو مصدر الضلال. وفي الآية (٢٤٤) من سورة البقرة نقرأ: «وَاللَّهُ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

وهنا اعتبر الكفر هو الذي يهتء أرضية الضلال.

وقد ورد في الآية (٣) من سورة الزمر: «إِنَّ اللَّهَ لَإِيْهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارًا».

يعني أنّ الكذب والكفر هما مقدمة للضلال.

والآية (٢٨) من سورة غافر تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَإِيْهْدِي مَنْ هُوَ مُشْرِفٌ كَذَّابٌ».

أي إنّ الإسراف والكذب يسببان الضلالة.

إنّ ما يمكن استنتاجه هو أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الضلالة الإلهية تشمل كل من توفرت فيه هذه الصفات (الكفر) و (الظلم) و (الفسق) و (الكذب) و (الإسراف).

أمّا فيما يخصّ الهداية، فقد وردت في القرآن المجيد شروط وأوصاف تبين أنّ الهداية لا تقع من دون سبب وخلاف الحكمة الإلهية. وقد استعرضت الآيات التالية بعض الصفات التي تجعل الإنسان مستحقاً للهداية ومحاطاً باللفظ الإلهي؛ منها ما ورد في الآية (١٦) من سورة المائدة: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

إذن فاتباع أمر الله، وكسب مرضاته يهيئان الأرضية للهداية الإلهية.

وفي الآية (٢٧) من سورة الرعد نقرأ: «إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ».

إذن فالتوبة والإنابة تجعلان الإنسان مستحقاً للهداية.

وورد في الآية (٦٩) من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

فالجهد، وخاصة (الجهد الخالص في سبيل الله) هو من الشروط الرئيسية للهداية.

وأخيراً نقرأ في الآية (١٧) من سورة محمد: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى».

أي أنّ قطع مقدار من طريق الهداية هو شرط للإستمرار فيه بلطف البارئ عزّ وجل.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٢

نستنتج من ذلك أنّه لو لم تكن هناك توبة وإنابة من العبد، ولا اتباع لأوامر الله، ولا جهاد في سبيله ولا بذل الجهد وقطع مقدار من طريق الحق، فإنّ اللطف الإلهي لا يشمل ذلك العبد، وسوف لا يمسك البارئ بيده لإيصاله إلى الغرض المطلوب. فهل أنّ شمول هؤلاء الذين يتحلّون بهذه الصفات بالهداية هو أمر عبث، أو أنّه دليل على هدايتهم بالإجبار؟

من الملاحظ أنّ آيات القرآن الكريم في هذا المجال واضحة جداً ومعناها ظاهر، ولكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية والضلال ابتلوا بمثل هذا الإبتلاء (لأنهم لم يشاهدوا الحقيقة فقد ساروا في طريق الخيال).

إذن يجب القول بأنهم هم الذين إختاروا لأنفسهم سبيل (الضلال).

على أية حال، فإن المشيئة الإلهية في آيات الهداية والضلال لم تأت عبثاً ومن دون أى حكمه، وإنما تتم بشرائط خاصة، بحيث تبين تطابق حكمه البارئ عز وجل مع ذلك الأمر.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) هل إن آلهتكم قادرة على حل مشاكلكم: الآيات السابقة تحدثت عن العقائد المنحرفة للمشركين والعواقب الوخيمة التي حلت بهم، أما آيات بحثنا هذا فإنها تستعرض دلائل التوحيد كي تكمل البحث السابق بالأدلة، كما تحدثت الآيات السابقة عن دعم البارئ عز وجل لعباده وكفاية هذا الدعم، والآيات أعلاه تتابع هذه المسألة مع ذكر الدليل.

في البداية تقول الآية: «وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

العقل والوجدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسع بكل هذه العظمة مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضية، فكيف يمكن للعقل أن يقبل أن الأصنام التي لا روح فيها ولا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٣

عقل ولا شعور هي التي خلقت هذا العالم، وبهذا الشكل فإن القرآن يحاكم اولئك إلى عقولهم وشعورهم وفطرتهم، كي يثبت أول أسس التوحيد في قلوبهم، وهي مسألة خلق السماوات والأرض.

وفي المرحلة التالية تتحدث الآيات عن مسألة الريح والخسارة، وعن مدى تأثيرها على نفع أو ضرر الإنسان، كي تثبت لهم أن الأصنام لا دور لها في هذا المجال، وتضيف: «قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ».

والآن بعد أن اتضح أن الأصنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئاً ولا باستطاعتها أن تتدخل في ربح الإنسان وخسارته، إذن فلم نعدها ونترك الخالق الأصلي لهذا الكون، وكنتيجه نهائية وشاملة يقول البارئ عز وجل: «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ».

آيات القرآن المجيد أكدت - ولعدة مرات - على أن المشركين يعتقدون بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض. وهذا الأمر يبين أن الموضوع كان بالنسبة للمشركين من المسلمات، وهذا أفضل دليل على بطلان الشرك، لأن توحيد خالق الكون والاعتراف بمالكه وربوبيته أفضل دليل على (توحيد المعبود) ومن كل هذا نخلص إلى أن التوكل لا يكون إلا على الله فكيف بعبادة غيره؟!

الآية التالية تخاطب أولئك الذين لم يستسلموا لمنطق العقل والوجدان بتهديد إلهي مؤثر، إذ تقول: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المحزى والعذاب الخالد في الآخرة: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ».

وبهذا الشكل فإن آخر كلام يقال لأولئك هو: إما أن تستسلموا لمنطق العقل والشعور وتستجيبوا لنداء الوجدان، أو أن تنتظروا عذابين سيحلان بكم، أحدهما في الدنيا وهو الذي سيخزيكم ويفضحكم، والثاني في الآخرة وهو عذاب دائم خالد، وهذا العذاب أنتم اعددموه لأنفسكم، وأشعلتم النيران في الحطب الذي جمعتموه بأيديكم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٤

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا أَوْ لَوْ كَانُوا لَمَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) بعد ذكر دلائل التوحيد، وبيان مصير المشركين والموحدين، تبين الآية الأولى - في هذا البحث - حقيقة، مفادها أن قبول ما جاء في كتاب الله أو عدم قبوله إنما يعود بالفائدة أو الضرر عليكم، وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصير عليكم في هذا المجال، فإنه لم يكن يتغنى جنى الأرباح من وراء ذلك، وإنما كان يؤدي واجباً إلهياً: «إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ».

وتضيف الآية: «فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

فإنك لست مكلفاً بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، وإنما عليك إبلاغهم وإنذارهم فقط: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ».

ثم لتوضح أن الحياة والموت وكل شؤون الإنسان هي بيد الله سبحانه وتعالى، قالت الآية: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا».

وبهذا الشكل فإنَّ (النوم) يعد شقيق (الموت) لكن بأحد أشكاله الضعيفة.

وتضيف الآية: «فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى».

نعم، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وبعد ما أصبحت حاكمية (الله) على وجود الإنسان وتدبير أمره عن طريق نظام الحياة والموت والنوم واليقظة، أمراً مسلماً من خلال الآيات السابقة، تناولت الآية اللاحقة خطأ اعتقاد المشركين فيما يخص مسألة الشفاعة، كي تثبت لهم أن مالك الشفاعة هو مالك حياة وموت الإنسان، وليس الأصنام الجامدة التي لا شعور لها: «أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٥

وكما هو معروف فإنَّ إحدى الأعداء الواهية لعبدة الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هي ما ورد في مطلع هذه السورة: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ».

إذ أنهم كانوا يعدونها تماثيل وهاكل للملائكة والأرواح المقدسة، ويزعمون أن هذه الأحجار والأخشاب الميتة لها قدرة هائلة.

ولكون الشفاعة تحصل من الشفيع الذي هو، أولاً: يشعر ويدرك ويفهم؛ وثانياً: قدير ومالك وحكيم. فإنَّ تنمة الآية تجيبهم: «قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَيَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ».

إذا كنتم تتخذون من الملائكة والأرواح المقدسة شفعاء لكم، فإنهم لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً، لأنَّ كل ما عندهم هو من الله، وإذا كنتم تتخذون من الأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة شفعاء لكم، فإنهم علاوة على عدم امتلاكهم شيئاً لأنفسهم، فهم لا يمتلكون أدنى عقل أو شعور.

لذا فإنَّ الله جلَّ وعلا يضيف في الآية التالية: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا». لأنه: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وكما يقول بعض المفسرين: إنَّ حقيقة الشفاعة، هي التوسل بأسماء الله الحسنى، التوسل برحمته وغفرانه وستره، طبقاً لهذا فإنَّ كافة أشكال الشفاعة تعود في النهاية إلى ذاته المقدسة، إذن كيف يمكن طلب الشفاعة من غيره وبدون إذنه (١).

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَخِيدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) الذين يخافون من اسم الله: مرّة أخرى يدور الحديث عن التوحيد والشرك، إذ



مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٦

عكست الآية الاولى احدى الصور القبيحة والمشوهة للمشركين ولمنكرى المعاد من خلال تعاملهم مع التوحيد، قال تعالى: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» (١). فأحياناً يستحسن الإنسان القبائح ويستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق ويستبشر إذا سمع اسم الباطل. وفي المقابل نرى المؤمنين لدى سماعهم اسم الله ينجذبون إليه بدرجة أنهم على استعداد لبذل كل ما لديهم في سبيله.

وعندما يصل الأمر إلى درجة أن مجموعة من اللجوجين والجهلة المغرورين ينفرون ويشمئزون حتى من سماع اسم الله، يوحى البارى عز وجل إلى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله أن يتركهم ويتوجه إلى البارى عز وجل ويشتكى إليه من هؤلاء بلحن ملء بالعواطف الرفيعة والعشق الإلهى لكى يبعث على تسكين قلبه الملئ بالغم من جهة، وعلى تحريك العواطف الهامدة عند اولئك من جهة اخرى: «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

نعم أنت الحاكم المطلق في يوم القيامة، وهناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، ويفكرون في إصلاح ما مضى، ولكن ما الفائدة؟ الآية التالية تقول: «وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». ولكن هذا الأمر غير ممكن.

«الظلم»: هنا له معان واسعة تشمل الشرك أيضاً وبقية المظالم.

ثم تضيف الآية: «وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ».

وسيرون العذاب بأعينهم، العذاب الذى لم يكن يتوقعه أحد منهم.

الآية التالية توضيح أو تنمى لموضوع طرحته الآية السابقة، إذ تقول: «وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

(١) «اشمأزت»: من مادة «اشمئزاز» وتعنى الإنقباض والنفور عن الشئ.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٧

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) فى الشدائد يذكرون الله، ولكن... الآيات هنا تتحدث مرّة اخرى عن المشركين والظالمين، وتعكس صورة اخرى من صورهم القبيحة. فى البداية يقول: «فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا». لكن هذا اللجوء مؤقت، إذ ما إن يتفصل عليه البارى عز وجل ويكشف عنه الضر والشدائد، حتى يتبجح ناكراً لهذه النعم، وزاعماً بأنه هو الذى أنقذ نفسه من ذلك الضر: «ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ» (١).

إن أمثال هؤلاء الغافلين لا يتصورون أن العلوم والمعارف التى يمتلكها الإنسان إنما هى نعمة إلهية.

ثم يجيب القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المغرورين، الذين ينسون أنفسهم وخالقهم بمجرد زوال المحنة وتوفر النعمة، قائلاً: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

فالهدف من إبتلائهم بالحوادث الشديده والصعبة، ومن ثم إغداق النعم الكبيرة عليهم هو اظهار خباياهم والكشف عن بواطنهم.

وتضيف الآية التالية: «قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

نعم، فقارون وأمثاله من المغرورين يتصورون أنهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم وغفلوا عن أن الله سبحانه وتعالى هو الذى من بهذه النعم عليهم وأنه المصدر الأصيل للنعم والواهب الحقيقى لها، وأنهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهرية.

ثم يقول: «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا».

فكل واحد منهم ابتلى بنوع من العذاب الإلهي وهلك، كابتلائهم بالطوفان والسيول والزلازل والصيحة السماوية.

(١) «خول»: من مادة «تحويل» وتعني الإعطاء على نحو الهبة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٨

ويضيف: إن هذا المصير لا ينحصر بولئك الاقوام وحسب بل إن مشركي مكة سيبتلون في القريب العاجل بعواقب أعمالهم السيئة، ولا يستطيع أحد منهم أن يفر من قبضة العذاب الإلهي الذي سينزل بهم جميعاً: «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ».

وسينال هذا العذاب والإبتلاء كل الطغاة والمغرورين والمشركين، وفي كل العصور والقرون.

القرآن الكريم أجاب على ادعاءات الذين يزعمون أنهم حصلوا على النعم الدنيوية بعلمهم وقدرتهم، عندما دعاهم إلى مراجعة تاريخ الأولين للإطلاع على أنواع الإبتلاءات والعذاب الذي ابتلوا به بسبب مزاعمهم الباطلة، وهذا هو ردّ تأريخي وواقعي.

ثم يرد القرآن الكريم عليهم بردّ عقلي، إذ يقول: «أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

فالكثير من الأشخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياة المستضعفين والبسطاء، في حين نرى أن الكثير من الأشخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء ومتنعمين من كل النواحي، فلو كان الظفر المادي كله يأتي عن طريق جهد وسعي الإنسان إضافة إلى كفاءته، لما كنا نرى مثل هذه المشاهد.

لذا تضيف الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

الآيات التي وضّحها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام عندما قال: «عرفت الله بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهمم» (١). وهي كلمة سامية تدلّ على ضعف وعجز الإنسان كي لا يتيه ولا يتبلى بالغرور والتكبر.

إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً: بعد التهديدات المتكررة التي وردت في الآيات السابقة قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥٠.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٨٩

بشأن المشركين والظالمين، فإنّ آيات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبين وأعطتهم الأمل، لأنّ الهدف الرئيسي من كل هذه الأمور هو التربية والهداية وليس الانتقام والعنف، فبلهجة مملوءة باللطف والمحبة يفتح الباري أبواب رحمته أمام الجميع ويصدر أوامر العفو عنهم، عندما يقول: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا».

التدقيق في عبارات هذه الآية يبين أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التي تعطي الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «ما في القرآن آية أوسع من يا عبادي الذين أسرفوا» الآية (١).

إنّ الوعد الذي أعطاه الله بغفران الذنوب مشروط بأن يعودوا إلى أنفسهم بعد ارتكاب الذنب، ويتوجّهوا في مسيرهم نحو الباري عزّ وجل، ويستسلموا لأوامره، ويظهروا صدق توبتهم وإنابتهم بالعمل.

الآية التالية ترشد المجرمين والمذنبين إلى الطريق للدخول إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع إذ تقول: «وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ». واصلحوا اموركم ومسیر حياتكم: «وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ».

بعد طي هاتين المرحلتين «الإنابة» و«التسليم»، تتحدث الآية عن المرحلة الثالثة وهي مرحلة (العمل)، إذ تقول: «وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ

إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ».

وبهذا الشكل فإن مسيرة الوصول إلى الرحمة الإلهية لا تتعدى هذه الخطوات الثلاث:

الخطوة الاولى: التوبة والندم على الذنب والتوجه إلى الله تعالى.

الخطوة الثانية: الإيمان بالله والإستسلام له.

الخطوة الثالثة: العمل الصالح.

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْبَ رَبِّتَا عَلَيَّ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّآخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)

(١) تفسير مجمع البيان ٨/ ٤٠٧.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٠

الندم لا ينفع في ذلك اليوم: الآيات السابقة أكدت على التوبة وإصلاح الذات وإصلاح الأعمال السابقة، وآيات بحثنا الحالي تواصل التطرق لذلك الموضوع؛ ففي البداية تقول: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَيَّ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّآخِرِينَ».

نعم، فعندما يرد الإنسان إلى ساحة المحشر، ويرى بأم عينيه نتائج إفراطه وإسرافه ومخالفته، يصرخ فجأة (واحسرتاه) إذ يمتلىء قلبه في تلك اللحظات بغم كبير مصحوب بندم عميق، وهذه الحالة النفسية التي وردت في الآيات المذكورة.

عبارة «جَنْبِ اللَّهِ» تعني أن الامور ترجع إلى جانب الله، فأوامره وإطاعته والتقرب إليه، والكتب السماوية كلها نزلت من جانبه، وكلها مجموعة في هذا المعنى

ثم تضيف الآية: «أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

يبدو أن هذا الكلام يقوله الكافر عندما يوقف أمام ميزان الحساب، حيث يرى البعض يقادون إلى الجنة وهم محملون بأعمالهم الحسنة، وهنا يتمنى الكافر لو أنه كان أحد هؤلاء المتوجهين إلى جنة الخلد.

وتضيف الآية مرة اخرى: «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

وهذا ما يقوله الكافر - أيضاً - حينما تقوده الملائكة الموكلة بالنار نحو جهنم، وترى عيناه نار جهنم ومنظر العذاب الأليم فيها، وهنا يتأوه من أعماق قلبه ويتوسل لكي يسمح له بالعودة مرة اخرى إلى الحياة الدنيا ليظهر نفسه من الأعمال السيئة والقيحة ويستبدلها بأعمال صالحة.

القرآن المجيد يرد على القول الثاني من بين الأقوال الثلاثة، إذ يقول: «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

إن قولك: لو كانت الهداية قد شملتنى لأصبحت من المتقين، فما هي الهداية الإلهية؟ هل هي غير الكتب السماوية ورسول الله، وآياته وعلاماته الصادقة في الآفاق والأنفس؟ إنك سمعت باذنك وشاهدت بعينك كل هذه الآيات، فما كان رد فعلك إزاءها غير التكذيب والتكبر والكفر.

فمن بين تلك الأعمال الثلاثة يعد (الاستكبار) الجذر الرئيسي، ومن بعد يأتي التكذيب بآيات الله، وحصيلة الاثنين هو الكفر وعدم الإيمان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩١

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيَجِيءُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا

يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) الآيات السابقة تتحدث عن المشركين الكذابين والمستكبرين الذين يندمون يوم القيامة على ما قدمت أيديهم ويتوسلون لإعادتهم إلى الدنيا، ولكن هيهات أن يستجاب لهم طلبهم، وآيات بحثنا هذه تواصل الحديث عن هذا الأمر، إذ تقول: «وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ». ثم تضيف: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ».

إنّ عبارة «كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ» تستهدف أولئك الذين قالوا بوجود شريك لله، أو باتخاذ الله ولداً من الملائكة، أو الذين يزعمون أنّ المسيح عليه السلام هو ابن الله، وأمثلة هذه المزاعم والإدعاءات.

الآية التالية تتحدث عن طائفة تقابل الطائفة السابقة، حيث تتحدث عن المتقين وابتهاجهم في يوم القيامة، إذ تقول: «وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ» (١).

ثم توضح فوزهم وانتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعاني: «لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

نعم، إنهم يعيشون في عالم لا يوجد فيه سوى الخير والطهارة والسرور، وهذه العبارة القصيرة جمعت -حقاً- كل الهبات الإلهية فيها. الآية التالية تنطرق من جديد إلى مسألة التوحيد والجهاد ضد الشرك، وتواصل مجادلة المشركين، حيث تقول: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».

العبارة الأولى في هذه الآية تشير إلى (توحد الله في الخلق) والثانية تشير إلى (توحده في الربوبية).

(١) «مفازة»: مصدر ميمي بمعنى الفوز والظفر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٢

فمسألة (توحده في الخلق) هي حقيقة اعترف بها حتى المشركون، ولكنهم ابتلوا بالانحراف فيما يتعلق بمسألة (توحده في الربوبية)، ففي بعض الأحيان اعتبروا الأصنام هي التي تحفظهم وتحميهم وتدبر أمرهم، وكانوا يلجؤون إليها عندما يواجهون أي مشكلة. أمّا الآية التالية فقد تطرقت إلى (توحيد الله في المالكية) لتكمل بحث التوحيد الذي ورد في الآيات السابقة، إذ تقول: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولهذا السبب قررت الآية المذكورة بمثابة استنتاج: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

لأنهم تركوا المصدر الرئيسي والمنبع الحقيقي لكل الخيرات والبركات وتاهوا في صحارى الضلال عندما عرضوا بوجوههم عن مالك مفاتيح السماوات والأرض، وتوجهوا نحو موجودات عاجزة تماماً عن تقديم أدنى عمل لهم.

من مجموع كل الامور التي ذكرناها في الآيات السابقة بشأن فروع التوحيد، يمكن الحصول على نتيجة جيّدة، وهي أنّ التوحيد في العبادة هو حقيقة لا يمكن نكرانها وعلى كل إنسان عاقل أن لا يسمح لنفسه بالسجود للأصنام، ولهذا فإنّ البحث ينتهي بآية تتحدث بلهجة حازمة ومتشددة: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ».

هذه الآية -وبالنظر إلى أنّ المشركين والكفرة كانوا أحياناً يدعون رسول الله صلى الله عليه وآله إلى احترام آلهتهم وعبادتها، أو على الأقل عدم الانتقاص منها أو النهي عن عبادتها- أعلنت وبمنتهى الصراحة أنّ مسألة توحيد الله وعدم الإشراك به هي مسألة لا تقبل المساومة والاستسلام أبداً، إذ يجب أن تزال كافة أشكال الشرك وتمحي من على وجه الأرض.

وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) يَلِي اللَّهُ فَاعْبُدْهُ وَكُنْ مِنَ السَّائِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) الشرك محبط للاعمال: آيات بحثنا تواصل التطرّق للمسائل المتعلقة بالشرك والتوحيد والتي كانت قد استعرضت في الآيات

السابقة أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٣

الآية الاولى تتحدث بلهجة قاطعة وشديدة حول أخطار الشرك، وتقول: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيُحِبَطَّنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وبهذا الترتيب، فإن للشرك نتيجتين خطيرتين، تشملان حتى أنبياء الله فيما لو أصبحوا مشركين، على فرض المحال.

النتيجة الاولى: إحباط الأعمال، والثانية: الخسران والضياع.

وإحباط الأعمال يعني محو آثار ثواب الأعمال السابقة، وذلك بعد كفره وشركه بالله، لأن شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحيد، ولا يقبل أى عمل بدون هذا الاعتقاد.

وأما خسارتهم فإنها بسبب بيعهم أكبر ثروة يمتلكونها، ألا وهي العقل والإدراك والعمر في سوق التجارة الدنيوية، وشراؤهم الحسرة والألم بثمرتها.

الآية التالية تضيف للتأكيد أكثر: «بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

تقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر، وذلك يعنى أن ذات الله المنزهة يجب أن تكون معبودك الوحيد.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تكشف عن الجذر الرئيسي لانحرافهم، وتقول: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ». ولهذا تنزلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفاً للأوثان.

ثم يأتي القرآن بعبارتين كنايةيتين بعد العبارة السابقة، وذلك لبيان عظمة وقدره الباري عز وجل، إذ يقول كلام الله المجيد: «وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ».

«القبضة»: الشيء الذى يقبض عليه بجميع الكف، تستخدم - عادة - للتعبير عن القدرة المطلقة والتسلط التام؛ و «مطويات»: من مادة «طى» وتعنى الثنى، والتي تستعمل أحياناً كناية عن الوفاة وانقضاء العمر، أو عن عبور شيء ما.

فالذى يثنى طوماراً ويحمله بيده اليمنى يسيطر بصورة كاملة على الطومار الذى يحمله بتلك اليد، وانتخب اليد اليمنى هنا لأن أكثر الأشخاص يؤدون أعمالهم المهمة باليد اليمنى ويحسون بأنها ذات قوة وقدره أكثر.

خلاصة الكلام، أن كل هذه التشبيهات والتعبير هي كناية عن سلطة الله المطلقة على عالم الوجود فى العالم الآخر، حتى يعلم الجميع أن مفتاح النجاة وحل المشاكل يوم القيامة هو بيد القدرة الإلهية، كى لا يعمدوا إلى عبادة الأصنام وغيرها من الآلهة بذريعة أنها ستشفع لهم فى ذلك اليوم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٤

إن السماء والأرض أيضاً فى قبضته فى الحياة الدنيا ولكن فى ذلك اليوم أكثر من أى وقت مضى وكل إنسان يدرك ويشعر أن كل شيء هو من عند الله وتحت تصرفه.

فبعد التوضيحات التى ذكرت آنفاً، يعطى الباري عز وجل فى آخر الآية نتيجة مركزه وظاهريه، إذ يقول: «سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فلو لم يكن بنو آدم قد أصدروا أحكامهم على ذات الله المقدسة المنزهة وفق مقاييس تفكيرهم الصغيرة والمحدودة، لما انجر أحد منهم إلى حبال الشرك وعبادة الأصنام.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) (النفخ فى الصور) وموت وإحياء جميع العباد: الآيات الأخيرة فى البحث السابق تحدثت عن يوم القيامة، وآية بحثنا الحالى تواصل الحديث عن ذلك اليوم مع ذكر إحدى الميزات المهمة له، إذ تبدأ الحديث بنهاية الحياة فى الدنيا، وتقول: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ».

يستفاد من الروايات إن هذه المجموعة المتبقية تموت في نهاية الأمر، ولا يبقى أحد حياً في هذا العالم سوى الباري عز وجل إذ هو: «حَيٌّ لَا يَمُوتُ».

يتضح بصورة جيدة من هذه الآية أن حادثين تقعان مع نهاية العالم وعند البعث، في الحادثة الاولى يموت الأحياء فوراً، وفي الحادثة الثانية- التي تقع بعد فترة من وقوع الحادثة الاولى- يعود كل الناس إلى الحياة مرة أخرى، يقفون بانتظار الحساب. وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) اليوم الذي تشرق الأرض بنور ربها: آيتنا بحثنا تواصلان استعراض الحديث عن القيامة والذي بدأ قبل عدة آيات. في البداية تقول: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا».

وقد اختلف المفسرون في معنى إشراق الأرض بنور ربها، إذ ذكروا تفسيرات عديدة، اخترنا إثنين منها، وهي:

١- قالت طائفة: إن المراد من نور الرب هو الحق والعدالة، الذي ينير بهما رب العالمين الأرض في ذلك اليوم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٥

٢- أما المفسر الكبير العلامة الطباطبائي رحمه الله، صاحب تفسير الميزان، فقد قال: إن المراد من إشراق الأرض بنور ربها هو ما يخص يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وتجلي الأعمال من خير أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين. وقد استدل العلامة الطباطبائي على هذا الرأي بالآية (٢٢) من سورة «ق»: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ». وهذا الإشراق وإن كان عاماً لكل شيء يسعه النور، لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهلها يومئذ من الشأن، خصها بالبيان.

ومن دون شك فإن هذه الآية تتعلق بيوم القيامة، وإن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار عليهم السلام تفسرها على أنها تعود إلى ظهور القائم المهدي المنتظر (عج)، فهي في الواقع نوع من التطبيق والتشبيه، وتأكيد لهذا المعنى وهو عند ظهور المهدي (عج) تصبح الدنيا نموذجاً حياً من مشاهد القيامة، إذ يملأ هذا الإمام بالحق ونائب الرسول الأكرم وخليفته الله، الأرض بالعدل إلى الحد الذي ترتضيه الحياة الدنيا.

العبارة الثانية في هذه الآية تتحدث عن صحائف الأعمال، إذ تقول: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ».

الصحائف التي تتضمن جميع صغائر وكبائر أعمال الإنسان.

وتضيف العبارات التي تتحدث عن الشهود: «وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ».

فالأبناء يحضرون ليسألوا عن أدائهم لمهام الرسالة، كما ورد في الآية (٦) من سورة الأعراف: «وَلَنَسَلُنَ الْمُؤْمِنِينَ».

كما يحضر شهداء الأعمال في محكمة العدل الإلهية ليدلوا بشهاداتهم، صحيح أن الباري عز وجل مطلع على كل الامور، ولكن للتأكيد على مقام العدالة يدعو شهداء الأعمال للحضور في تلك المحكمة.

العبارة الرابعة تقول: «وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ».

والخامسة تضيف: «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

فمن البدييات، عندما يكون الحاكم هو الباري عز وجل، فلا يحكم إلا بالحق، وفي مثل هذه المحاكم لا وجود للظلم والاستبداد مطلقاً.

العبارة السادسة في الآية التالية أكملت الحديث بالقول: «وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ».

إن جزء الأعمال وعواقبها سترد إليهم، وهل هناك مكافأة ومجازاة أعلى من أن يرد عمل الإنسان بصورة كاملة إلى الإنسان نفسه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٦

فالذي يتمكن من تنفيذ مثل هذه المناهج العادلة بدقّة، هو الذي أحاط علمه بكل شيء، لهذا فإنّ العبارة السابعة والأخيرة في هذا البحث تقول: «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ».

إذن فلا حاجة حتى للشهود، لأنّ الله هو أعلم من كل أولئك الشهود، ولكن لطفه وعدله يقتضيان إحصار الشهود. وَ سَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) الَّذِينَ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ زُمَرًا: تواصل الآيات هنا بحث المعاد، وتستعرض بالتفصيل ثواب وجزاء المؤمنين والكافرين، الذي استعرض بصورة مختصرة في الآيات السابقة.

وتبدأ بأهل جهنم، إذ تقول: «وَسَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا».

عبارة «زمر» تعني الجماعة الصغيرة من الناس، وتوضح أنّ الكافرين يساقون إلى جهنم على شكل مجموعات صغيرة ومتفرقة. و «سَيِّقَ»: من مادة «سوق» وتعني (الحث على السير).

ثم تضيف: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» (١).

يتضح بصورة جيّدة من خلال هذه العبارة، أنّ أبواب جهنم كانت مغلقة قبل سوق أولئك الكفرة، وهي كأبواب السجون المغلقة التي تفتح أمام المتهمين الذين يراد سجنهم، وهذا الحدث المفاجيء يوجد رعباً ووحشاً كبيرة في قلوب الكافرين، وقبل دخولهم يتلقاهم خزنة جهنم باللوم والتوبيخ، الذين يقولون استهجاناً وتوبيخاً لهم: لم كفرتم وقد هيأت لكم كافة أسباب الهداية، فكيف وصل بكم الحال إلى هذه الدرجة رغم إرسال الأنبياء إليكم؟

فإنّ الكافرين يجيئون خزنة جهنم بعبارة قصيرة ملؤها الحسرات، قائلين: «قَالُوا بَلَىٰ

(١) «خزنة»: جمع (خازن) من مادة «خزن» وتعني حافظ الشيء، و (خازن) تطلق على المحافظ والحارس.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٧

وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وبهذا الشكل اعترفوا بأنهم كذبوا الأنبياء وانكروا آيات الله، وبالطبع فإنّ مصيرهم لن يكون أفضل من هذا.

هذا النقاش القصير ينتهي مع اقترابهم من عتبة جهنم: «قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

فأبواب جهنم - كما أشرنا إليها من قبل - يمكن أن تكون قد نظمت حسب أعمال الإنسان، وإنّ كل مجموعة كافرة تدخل جهنم من الباب الذي يتناسب مع أعمالها، وذلك مثل أبواب الجنة التي يطلق على أحد أبوابها اسم «باب المجاهدين».

والذي يلفت النظر هو أنّ ملائكة العذاب تؤكّد على مسألة التكبر من بين بقية الصفات الرذيلة التي تؤدّي بالإنسان إلى السقوط في نار جهنم، وذلك إشارة إلى أنّ التكبر والغرور وعدم الإنصياع والاستسلام أمام الحق هو المصدر الرئيسي للكفر والانحراف وإرتكاب الذنب. ولهذا نقرأ في رواية - في الكافي - عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قالوا: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر».

وَ سَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) المتقون يدخلون الجنة افواجا: هذه الآيات - التي هي آخر آيات سورة (الزمر) - تواصل بحثها حول موضوع المعاد، حيث تتحدث عن كيفية دخول المؤمنين المتقين الجنة، بعد أن

كانت الآيات السابقة قد استعرضت كيفية دخول الكافرين جهنم، لتوضح الامور أكثر من خلال هذه المقارنة. في البداية تقول: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا».

عبارة (سيق) أثار التساؤل، لأن هذا التعبير يستخدم في موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أى اشتياق ورغبة في تنفيذه، ولذلك فإن هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٨

جهنم، ولكن لم استعملت بشأن أهل الجنة الذين يتوجهون إلى الجنة بتلهف واشتياق؟ إن التفسير الأصح لهذه العبارة هي: مهما كان حجم عشق المتقين للجنة، فإن الجنة وملائكة الرحمة مشتاقه أكثر لوفود اولئك عليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى المستضيف المشتاق للضيف والمتلهف لوفوده عليه إذ أنه لا يجلس لانتظاره وإنما يذهب لجلبه بسرعة قبل أن يأتى هو بنفسه إلى بيت المستضيف، فملائكة الرحمة هي كذلك مشتاقه لوفود أهل الجنة.

«زمر»: تعنى هنا المجموعات الصغيرة؛ وتبين أن أهل الجنة يساقون إلى الجنة على شكل مجموعات مجموعات كل حسب مقامه. ثم تضيف الآية: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمِ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ». الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول بشأن أهل جهنم: إنهم حينما يصلون إلى قرب جهنم تفتح لهم الأبواب، ويقول بشأن أهل الجنة، إن أبواب الجنة مفتحة لهم من قبل، وهذه إشارة إلى الاحترام والتبجيل الذى يستقبلون به من قبل ملائكة الرحمة. وقد قرأنا فى الآيات السابقة أن ملائكة العذاب يستقبلون أهل جهنم باللوم والتوبيخ الشديدين، أما ملائكة الرحمة فإنها تبادر أهل الجنة بالسلام المرافق للاحترام والتبجيل.

الملاحظ أن «الخلود» استخدم بشأن كل من أهل الجنة وأهل النار، وذلك لكى لا يخشى أهل الجنة من زوال النعم الإلهية، ولكى يعلم أهل النار بأنه لا سبيل لهم للنجاة من النار.

الآية التالية تتكون من أربع عبارات قصار غزيرة المعانى تنقل عن لسان أهل الجنة السعادة والفرح اللذين غمراهم، حيث تقول: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ». وتضيف فى العبارة التالية: «وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ».

المراد من الأرض هنا أرض الجنة؛ واستخدام عبارة (الإرث) هنا، إنما جاء لكونهم حصلوا على كل هذه النعم فى مقابل جهد قليل بذلوه، إذ- كما هو معروف- أن الميراث هو الشئ الذى يحصل عليه الإنسان من دون أى عناء مبدول.

العبارة الثالثة تكشف عن الحرية الكاملة التى تمنح لأهل الجنة فى الاستفادة من كافة ما هو موجود فى الجنة الواسعة، إذ تقول: «نَتَّبَوُّا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ».

أما العبارة الأخيرة فتقول: «فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٢٩٩

وهذه إشارة إلى أن هذه النعم الواسعة إنما تعطى فى مقابل العمل الصالح (المتولد من الايمان طبعاً) ليكون صاحبه لائقاً ومستحقاً لنيل مثل هذه النعم.

وفى النهاية تخاطب الآية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قائلة: «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ». يسبحون الله ويقادسونه ويحمدونه.

إذ تشير إلى وضع الملائكة الحافين حول عرش الله، أنها تعبر عن استعداد اولئك الملائكة لتنفيذ الأوامر الإلهية، ولهذا تقول العبارة التالية: «وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ».

وباعتبار أن هذه الامور دلالت على ربوبية البارئ عز وجل واستحقاق ذاته المقدسة والمنزهة لكل أشكال الحمد والثناء، فإن الجملة



الأخيرة تقول: «وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

إن الحمد والثناء على الله هو منهاج كل اولى الألباب، ومنهاج كل الخواص والمقربين.

«نهاية تفسير سورة الزمر»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠١

## ٤٠. سورة غافر

محتوى السورة: سورة غافر هي طليعة الحواميم، والحواميم في القرآن الكريم سبع سور متتالية يلي بعضها بعضاً، نزلت جميعاً في مكة، وهي تبدأ ب «حم».

يمكن النظر إلى محتوى السورة في إطار ما تثيره النقاط والأقسام الآتية:

١- تتحدث عن بعض أسماء الله الحسنى خصوصاً تلك التي ترتبط باحياء معانى الخوف والرجاء فى القلوب، مثل قوله تعالى: «غَافِرِ الذَّنْبِ» و «شَدِيدِ الْعِقَابِ».

٢- تهديد الكفار والطواغيت بعذاب فى هذه الدنيا، بالإضافة إلى التعرض لعذاب الآخرة، وتتناول بعض الصور والمشاهد التفصيلية فيه.

٣- بعد أن وقفت السورة على قصة موسى وفرعون، بدأت بالحديث- بشكل واسع- عن قصة ذلك الرجل المؤمن الواعى الشجاع الذى اصطلح عليه ب «مؤمن آل فرعون» وكيف واجه البطانة الفرعونية وخلص موسى عليه السلام من كيدها.

٤- تعرض السورة المباركة فيه إلى قضيتى التوحيد والشرك، بوصفهما دعامتين لوجود الإنسان وحياته، وفى ذلك تناول جانباً من دلائل التوحيد، بالإضافة إلى ما تقف عليه من مناقشة لبعض شبهات المشركين.

٥- تنتهى السورة بدعوة رسول الله صلى الله عليه و آله للتحمل والصبر، ثم تخلص السورة فى خاتمتها إلى ذكر بعض النعم الإلهية.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٢

إن تسمية السورة ب «غافر» يعود إلى كون هذه الكلمة هي بداية الآية الثالثة من آيات السورة المباركة، أما تسميتها ب «المؤمن» فيعود إلى اختصاص قسم منها بالحديث عن «مؤمن آل فرعون».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «الحواميم ديباج القرآن».

وروى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الحواميم ريحان القرآن، فاحمدوا الله واشكروه بحفظها وتلاوتها. وإن العبد ليقوم يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر والعنبر. وإن الله ليرحم تاليها وقارئها، ويرحم جيرانه وأصدقائه ومعارفه وكل حميم أو قريب له، وإنه فى القيامة يستغفر له العرش والكرسى وملائكة الله المقربون».

ومن الواضح أن هذه الفضائل الجزيلة ترتبط بالمحتوى الثمين للحواميم، هذا المحتوى الذى إذا واظب الإنسان على تطبيقه فى حياته والعمل به، والالتزام بما يستلزمه من مواقف وسلوك، فإنه سيكون مستحقاً للشواب العظيم والفضائل الكريمة التى قرأناها.

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُوعِ لَمَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرِ (٣) تواجها فى مطلع السورة الحروف المقطعة وهى هنا من نوع جديد لم نعهده فى السور السابقة، حيث افتتحت السورة ب «حم».

إن الحروف التى تبدأ بها سورة غافر- كما يستفاد ذلك من بعض الروايات ومن آراء المفسرين- تشير إلى أسماء الله التى تبدأ بحروف هذه السورة، أى «حميد» و «مجيد» كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام «١».

البعض الآخر ذهب إلى أن «ح» إشارة إلى أسمائه تعالى مثل «حميد» و «حليم» و «حنان»، بينما «م» إشارة إلى «ملك» و «مالك» و «مجيد».

وهناك احتمال في أن «ح» يشير إلى الحاكمية، فيما يشير «م» إلى المالكية الإلهية. ويتضح في نهاية الفقرة عدم وجود تناقض بين الآراء والتفاسير الآنفه الذكر، بل هي تعمد جميعاً إلى تفسير الحروف المقطعة بمعنى واحد.

(١) يلاحظ معاني الأخبار، للشيخ الصدوق / ٢٢ (باب: معنى الحروف المقطعة في أوائل السور من القرآن).

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٣

في الآية الثانية- كما جرى على ذلك الاسلوب القرآني- حديث عن عظمة القرآن، وإشارة إلى أن هذا القرآن بكل ما ينطوي عليه من عظمة وإعجاز وتحد، إنما يشتكل في مادته الخام من حروف الألف باء ... وهنا يكمن معنى الإعجاز. يقول تعالى: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

إن قدرته تعالى تجعل الأشياء الاخرى عاجزة عن الوقوف إزاءها، فقدرته ماضية في كل شيء، وعزته مبسوطه، أما علمه تعالى فهو في أعلى درجات الكمال، بحيث يستوعب كل احتياجات الإنسان ويدفعه نحو التكامل.

والآية التي بعدها تعدد خمساً من صفاته تعالى، يبعث بعضها الأمل والرجاء، بينما يبعث البعض الآخر منها على الخوف والحذر. يقول تعالى: «غَافِرِ الذَّنْبِ». «وَقَابِلِ التَّوْبِ». «شَدِيدِ الْعِقَابِ». «ذِي الطَّوْلِ». «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ الْمَصِيرُ».

أجل إن من له هذه الصفات هو المستحق للعبادة وهو الذي يملك الجزاء في العقاب والثواب.

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) بعد أن تعرضت الآيات السابقة إلى نزول القرآن، وإلى بعض الصفات الإلهية التي تستهدف بعث الخوف والرجاء، ورد كلام في الآيات التي بين أيدينا عن قوم امتازوا بالمجادلة والمنازعة حيال آيات الله ... الآية الكريمة توضح مصير هذه المجموعة ضمن تعبير قصير وقاطع، فتقول: «مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا».

صحيح أن هذه المجموعة قد تملك العدة والعدد، إلا أن ذلك لن يدوم إلا لفترة، فلا تغتر

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٤

وتنخدع إذا لتحركهم في البلاد وتقلهم في المدن المختلفة، واستعراضهم لقوتهم: «فَلَا يَغْرُزُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ». «يجادل»: مشتق من «جدل» وهي في الأصل تعني لفّ الحبل وإحكامه، ثم عم استخدامهما في الأبنية والحديد وما شابه، ولهذا فإن كلمة (مجادلة) تطلق على عمل الاشخاص المتقابلين ويريد كل شخص أن يلقي حجته ويثبت كلامه ويغلب خصمه.

«تقلب»: مشتق من «قلب» وتعني التغيير، و «تقلب» هنا بمعنى التصرف في المناطق والبلاد المختلفة للسيطرة والتسلط عليها، وتعني الذهاب والإياب فيها أيضاً.

إن هدف الآية تحذير للرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين به- في بداية البعثة- من الذين كانوا من الطبقة المستضعفة المحرومة، بأن لا يركنوا إلى الإمكانيات المالية أو القوة السياسية والاجتماعية للكفار، ويعتبرونها دليلاً على حقانيتهم أو سبباً لقوتهم الحقيقية، إذ هناك الكثير منهم في تاريخ هذه الدنيا، وقد انكشف ضعفهم وسقطت عنهم سراويل القوة المزعومة ليبيّن عجزهم حيال العقاب الإلهي.

لذلك توضح الآية التي بعدها عاقبة بعض الامم السابقة التي ضلت الطريق وانكفأت عن جادة الحق والصواب، فتقول في عبارات قاطعة واضحة تحكي عاقبة قوم نوح وحالهم ومن تلاهم من أقوام وجماعات: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ».

هؤلاء هم «الأحزاب» الذين تآزروا ووقفوا ضد دعوات الأنبياء الإلهيين، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات ومضامينها الربانية.

إنهم لم يقتنعوا بمجزد الوقوف ضد الدعوات النبوية الكريمة، بل خطت كل أمة منهم لأن تمسك بنبيها فتسجنه وتؤذيه، بل وحتى تقتله: «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ».

ثم لم يكتفوا بهذا القدر أيضاً، بل لجأوا إلى الكلام الباطل لأجل القضاء على الحق ومحوه، وأصروا على إضلال الناس وصددهم عن شريعة الله: «وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» (١).

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، ولم يبق لهم الخير دوماً، إذ حينما حان الوقت المناسب جاء الوعد الإلهي: «فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ».

(١) «للدحضوا»: مصدرها ثلاثي «إدحاض» وتعني الإزالة والإبطال.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٥

لكم - أيها الناس - أن تشاهدوا خرائب مدنهم حين سفركم وأثناء تجوالكم ... انظروا عاقبتهم المشؤومة المظلمة مدونة على صفحات التاريخ وفي صدور أهل العلم، فانظروا واعتبروا.

الآية الأخيرة - في المقطع الذي بين أيدينا - تشير إلى الجزء الاخرى الذي ينتظر هؤلاء، بالإضافة إلى قسطهم من العقاب الدنيوي: «وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

إن المعنى الظاهري للآية واسع، يشمل جميع الكفار والمعاندين من جميع الأقسام.

إن حتمية العقاب الإلهي لهؤلاء القوم يعود إلى ذنوبهم المستمرة، والأعمال التي يقومون بها بملء إرادتهم خلافاً لرسالة الله.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) دعاء حملة العرش للمؤمنين: يتضح من اسلوب الآيات السابقة أنها نزلت في فترة كان فيها المسلمون قلمه محرومة، بينما كان الأعداء في أوج قوتهم، بعد ذلك نزلت الآيات التي نحن بصدددها لتكون بشرى للمؤمنين الحقيقيين والصابرين، بأنكم لستم وحدكم. فالقرآن يقول: «الَّذِي يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا».

أمّا قولهم ودعائهم فهو: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا». فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين ورحيم بهم: «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ».

يوضح هذا الكلام للمؤمنين بأنكم لستم وحدكم الذين تعبدون الله وتسبحونه

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٦

وتحمدونه، فقبلكم الملائكة المقربون وحملة العرش ومن يطوف حوله، يسبحون الخالق جلّ وعلا ويحمدونه. وهي من جانب آخر تحذر الكفار وتقول لهم: إن إيمانكم أو عدمه ليس مهماً.

ومن جانب ثالث، في الآية إخبار للمؤمنين بأنكم لستم وحدكم في هذا العالم - بالرغم من أنكم أقلية في محيطكم - فأعظم قوة غيبية في العالم وحملة العرش هم معكم ويساندونكم ويدعون لكم.

في الآية التي تليها استمرار دعاء حملة العرش للمؤمنين. يقول تعالى: «رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ».

وأيضاً: «وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ».

لماذا؟ ل «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

والوعد الإلهي الذي أشارت إليه الآية فهو نفس الوعد الذي ورد مراراً على لسان الأنبياء لعامة الناس.

أما تقسيم المؤمنين إلى مجموعتين، فهو في الواقع يكشف عن حقيقة أن هناك مجموعة تأتي بالدرجة الأولى، وهي تحاول أن تتبع الأوامر الإلهية بشكل كامل.

أما المجموعة الأخرى فهي ليست بدرجة المجموعة الأولى ولا في مقامها، وإنما بسبب انتسابها إلى المجموعة الأولى ومحاولتها النسبية في اتباعها سيئملها دعاء الملائكة.

بعد ذلك تذكر الآية الفقرة الرابعة من دعاء الملائكة للمؤمنين: «وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ».

ثم ينتهي الدعاء بهذه الجملة ذات المعنى الكبير: «وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

هل هناك فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان، ويتعد عنه العذاب لتشمله الرحمة الإلهية ويدخل الجنة الخالدة، و ثم يلتحق به أقرباؤه الذين يودهم؟

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَ مَتَّ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَفْتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ إِذِ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَبْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخِدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٧

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص: تحدثت الآيات السابقة عن شمول الرحمة الإلهية للمؤمنين، أما مجموعة الآيات التي بين أيدينا فهي تتحدث عن «غضب» الله تعالى على الكافرين، كي يكون بالمستطاع المقارنه بين صورتين ومشهدين متقابلين. في البداية تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَ مَتَّ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَفْتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ إِذِ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ».

من الذي ينادى هؤلاء بهذا النداء؟

يبدو أن ملائكة العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم وفضحهم، في مقابل ما فعله ملائكة الرحمة من إكرام المؤمنين والصالحين. «المقت»: تعنى في اللغة البغض والعداوة الشديدة. وهذه الآية تبين أن غضب الله تعالى على الكافرين هو أشد من عداوتهم لأنفسهم. أما فيم يتعلق مقت الكفار لأنفسهم، يتمثل في ارتكاب هؤلاء في الحياة الدنيا لأكبر عداوة إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد، فهل ثمة عداة للنفس أكثر من أن يغلق الإنسان أمامه أبواب السعادة الأبدية، ويفتح على نفسه أبواب العذاب.

عندما يشاهد المجرمون أوضاع يوم القيامة وأهوالها، ويرون مشاهد الغضب الإلهي حيالهم، سينتبهون من غفلتهم الطويلة ويفكرون بطريق للخلاص، فيعترفون بذنوبهم ويقولون: «قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَبْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ».

عندما تزول حجب الغرور والغفلة، وينظر الإنسان بالعين الحقيقية، فلا سبيل عندها سوى الاعتراف بالذنوب.

والمقصود من «أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ» هو الموت في نهاية العمر والموت في نهاية البرزخ؛ أما المقصود من «أَخْيَبْنَا اثْنَتَيْنِ» فهي الإحياء في نهاية البرزخ والإحياء في القيامة.

وعلى هذا الأساس فإن هناك حياة جسمانية وحياة برزخية، ففي نهاية العمر يحل الموت بحياتنا الجسمانية؛ لكن في نهاية العالم يحل بحياتنا البرزخية.

يترتب على ذلك أن تكون هناك حياتان بعد هذين الموتين: حياة برزخية، وحياة في يوم القيامة.

من الطبيعي أن يكون الجواب على طلب الكافرين بالعودة إلى هذه الدنيا للتكفير عما

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٨

فاتهم هو الرفض. وهذا الرفض من الوضوح بحيث لم تشر إليه الآيات التي نبحتها، لكن نستطيع أن نعتبر الآية التي بعدها دليلاً على ما نقول، إذ تقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخِدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا». فعندما يدور الكلام عن التوحيد والتقوى والأوامر الحقة تسمتزون وتحزنون، أما إذا دار الحديث عن الكفر والنفاق والشرك فسفرحون وتنبسط أساريركم، لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

وفى نهاية الآية، ومن أجل أن لا ييأس هؤلاء المشركون ذوو القلوب المظلمة، تقول الآية إنَّ الحاكمية تختص بذات الله سبحانه وتعالى: «فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ». إذ لا يوجد غيره قاض وحاكم فى محكمة الآخرة، ولا يوجد غيره على وكبير، فلا يستطيع أحد أن يغلبه، ولا يوجد طريق للهروب من حكمه.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) ادع الله وحده رغماً على الكافرين: هذه الآيات المتضمنة للنصيحة والتهديد والإنذار، استدلال على المسائل المطروحة فى الآيات السابقة، فهى استدلال على التوحيد والربوبية ونفى الشرك وعبادة الأصنام. تقول الآية أولاً: «هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ». ثم توضح واحدة من هذه الآيات: «وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا».

قطرات المطر تهب الحياة، ونور الشمس يحيى الكائنات، والهواء سرّ الوجود والحياة؛ حياة جميع الكائنات، حيوانات، نباتات، اناس ... كلها تنزل من السماء.

وأخيراً تضيف الآية الكريمة: برغم جميع هذه الآيات البينات التى تسود هذا العالم الواسع، وتغمر الوجود بضياؤها، إلّا أنّ العيون العمياء والقلوب المحجوبة لا تكاد ترى شيئاً، وإنّما يتذكّر - فقط - من ينبى إلى خالقه ويغسل قلبه وروحه من الذنوب: «وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٠٩

الآية التى بعدها ترتب نتيجة على ما سبق فتقول: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». وأخلصوا نياتكم: «وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

تصف الآية التى تليها خالق الكون ومالك الحياة والموت، وبعض الصفات المهمة، فتقول: «رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ».

فهو رفيع فى علمه، وفى قدرته، وفى جميع أوصافه الكمالية والجمالية، هو تعالى رفيع فى أوصافه بحيث إنّ عقل الإنسان برغم قابليته واستعداده لا يستطيع أن يدركها.

تضيف الآية بعد ذلك قوله تعالى: «ذُو الْعَرْشِ».

فكلّ عالم الوجود تحت حكومته وفى قبضته.

وفى وصف ثالث تضيف الآية أنه هو تعالى الذى: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ». وهذه الروح هى نفس القرآن ومقام النبوة والوحى، حيث تحيى هذه الامور القلوب، وتكون فى الانسان كالروح لجسد الانسان.

والملفت للنظر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن رزق الأجساد من مطر ونور وهواء، فيما تتحدث هذه الآيات عن الرزق «الروحي» والمعنوى المتمثل فى نزول الوحى.

والآن لنرى ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عليهم السلام؟

الإجابة يقدمها القرآن فى نهاية الآية بقوله: «لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ».

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه العباد بخالقهم ...

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه السابقون باللاحقين ...

إنّه اليوم الذى يجمع على ساحة القيامة بين رموز الحق وقادته، ورموز الباطل وزعامته وأنصاره ...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين ...

إنّه يوم التقاء الظالم والمظلوم ...

هو يوم التقاء الإنسان والملائكة ...

وأخيراً، يوم التلاق، هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله وأقواله في محكمة العدل الإلهي.

يَوْمٌ هُمْ بَارِزُونَ لَأَيُّحْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٠

يوم التلاقي: هذه الآيات والتي تليها، هي توضيح وتفسير (ليوم التلاق) وهو اسم ليوم القيامة. يبين تعالى أن يوم التلاقي، هو: «يَوْمٌ هُمْ بَارِزُونَ»... إنه اليوم الذي تزول فيه جميع الحجب والأستار، ثم تنكشف الأسرار الباطنية والمنخفية.

الوصف الثاني لذلك اليوم المهول، هو انكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى شيء منها على الله تعالى: «لَأَيُّحْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ». بالطبع... في هذه الحياة لا يخفى من أمر الإنسان شيء على الله العالم المطلق، ولكن «البروز» في ذلك اليوم يكون مؤكداً أكثر بحيث إن الآخرين سيطلعون على أسرار بعضهم البعض؛ أما بالنسبة لله فالمسألة لا تحتاج إلى بحث أو كلام.

الخصوصية الثالثة ليوم التلاقي هو انبساط الحاكمية المطلقة لله تعالى، ويظهر ذلك من خلال نفس الآية التي تسأل عن الحكم والملك في ذلك اليوم: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ».

يأتي الجواب: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

إن هذا السؤال وجوابه لا يطرحان من قبل فرد معين، بل هو سؤال يطرحه الخالق والمخلوق، الملائكة والإنسان، المؤمن والكافر، تطرحه جميع ذرات الوجود، وكلهم يجيبون عليه بلسان حالهم، بمعنى أنك أينما تنظر تشاهد آثار حاكميته، وأينما تدقق ترى علامته قاهريته واضحه.

الخصوصية الرابعة لذلك اليوم، هو كونه يوم جزاء: «الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ».

أجل، إن ظهور وبروز الاحاطة العلمية لله تعالى وحاكميته ومالكه وقهاريته كلها أدلة واضحه على هذه الحقيقة العظيمة المخيفة من جهة، والمفرحة من جهة اخرى.

أما الخصوصية الخامسة لذلك اليوم، فهي ما يختصره قوله تعالى: «لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ».

وكيف يمكن أن يحصل الظلم، في حين أن الظلم إما أن يكون عن جهل، والله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً.

وإما أن يكون عن عجز، والله عز وجل هو القاهر والمالك والحاكم على كل شيء.

الصفة السادسة والأخيرة ليوم التلاقي، هي سرعة الحساب لأعمال العباد، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

وسرعة الحساب بالنسبة لله تعالى تجرى كلمح البصر. ورد في الخبر: «أنه تعالى يحاسب للخلائق كلهم في مقدار لمح البصر».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١١

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَمَا ظَمِينٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ (١٨) يَغْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَفْقَهُ بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) يوم تبلغ القلوب الحناجر: هذه الآيات تستمر، كالأيات السابقة، في وصف القيامة.

يقول تعالى: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ».

«الآزفة»: باللغة بمعنى (القريب). وإذا نظرنا بتأمل فسنجد أن عمر الدنيا بأجمعه لا يعادل سوى لحظة زائلة حيال يوم القيامة، ولأن الله تبارك وتعالى لم يذكر أي تاريخ لهذا اليوم المهول، حتى للأنبياء عليهم السلام، لذا يجب الاستعداد دائماً لاستقبال ذلك اليوم.

الوصف الثاني ليوم الآزفة هو: «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» من شدة الخوف.

الصفة الثالثة لذلك اليوم تعبر عنها الآية ب «كَاطْمِينَ». أي إن الهَمَّ والغَمَّ سيشمل كل وجودهم، إلا أنهم لا يستطيعون إظهار ذلك أو إبداءه.

«كاذم»: مشتقة من «كظم» وهي في الأصل تعنى غلق فوهة القربة المملوءة بالماء، ثم أطلقت بعد ذلك على الأشخاص المملوئين غضباً إلاً أنهم لا يظهرونه لسبب من الأسباب.

الصفة الرابعة ليوم التلاقي هو يوم: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ». أى صديق، نعم إن تلك المجموعة من الأصدقاء الكذابين التي تحيط بالشخص كذباً وتملقاً - كما يحيط الذباب بالحلويات - طمعاً في مقامه وقدرته وجاهه وماله.

الصفة الخامسة تقول عنها الآية: «وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ».

ذلك أن شفاعه الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء والأولياء إنما تكون بإذن الله تعالى، وعلى هذا الأساس لا مجال لتلك التصورات السقيمة لعبدة الأصنام، الذين كانوا يعتقدون في الحياة الدنيا أن أصنامهم ستشفع لهم في حضرة الله جلّ وعلا.

وفي المرحلة السادسة تذكر الآية أحد صفات الخالق جلّ وعلا، والتي تعتبر في نفس الوقت وصفاً لكيفية القيامة، حيث تقول: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ».

إن الله تبارك وتعالى يعلم الحركات السرية للعيون وما تخفيه الصدور من أسرار، وسيقوم تعالى بالحكم والقضاء العادل عليها.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٢

الآية التي تليها تتحدث عن صفة سابعة للقيامة تتمثل في قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ». أما غيره: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَآ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ».

في ذلك اليوم يختص الله وحده بالقضاء، وهو جلّ جلاله لا يقضى إلا بالحق.

وفي الختام وللتأكيد على المطالب المذكورة في الآيات السابقة تضيف الآية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

فهو تعالى سميع وبصير بمعنى الكلمة، أى إن كل المسموعات والمبصرات حاضرة عنده، وهذا تأكيد على إحاطته وعلمه بكل شيء، وقضاوته بالحق، فإنه لو لم يكن سميعاً وبصيراً مطلقاً فلا يستطيع أن يقضى بالحق.

أ وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين: إن أسلوب القرآن الكريم في كثير من الآيات أنه بعد أن يتعرض لكليات القضايا الحساسة والمهمة يمزجها ببعض المسائل الجزئية والمحسوسة ويأخذ بيد الإنسان ليريه الحوادث الماضية والحالية، لذلك فإن الآيات التي بين أيدينا تتحدث عن أحوال الأمم الظالمة السابقة ومنهم فرعون والفراعنة وما حلّ بهم من جزاء أليم، وتدعوا الناس للاعتبار بمصير أولئك، بعد ما كانت الآيات السابقة قد حدثتنا عن يوم القيامة وصفاته وطبيعة الحساب الدقيق الذي ينطوى عليه. يقول تعالى: «أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ».

إن الذي تحكيه الآيات وتدعونا للاعتبار به ليس تاريخاً مدوناً نستطيع أن نشكك في طبيعته الوثائق والنصوص المكونة له، فهذه قصور الظالمين الخربة، وها هي عظامهم النخرة التي يطويها التراب، والقصور المدفونة تحت الأرض ... ها هي كلها تحكى عظة الدرس، وعظيم العبرة، خصوصاً وأن القرآن يزيدنا معرفة بهؤلاء فيقول عنهم: «كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٣

كانوا يملكون السلطات القوية، والجيوش العظيمة، والمدنية الباهرة التي لا يمكن مقايستها ب حياة مشركى مكة.

ولكن عاقبة هؤلاء القوم، بكل ما انطوت عليه حياتهم من مظاهر قوة و حياة و نماء، هي كما يقول تعالى: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ».

فلم تنفعهم كثرتهم ولم تمنعهم أموالهم وقدرتهم وشوكتهم من العذاب الإلهي عندما نزل بساحتهم.

الآية التي بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقاً بإيجاز. يقول تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا». فلم يكن الأمر أنهم

كانوا غافلين ولم يعرفوا الأمر، ولم يكن كفرهم وارثكابهم الذنوب بسبب عدم إتمام الحجّة عليهم، فلقد كانت تأتيهم رسلهم تترأ، كما يستفاد من قوله تعالى: «كَانَتْ تَأْتِيهِمْ» إلّا أنّهم لم يخضعوا للأوامر الإلهية.

وحينئذ: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ». وعاقبتهم أشد العقاب: «إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَ قَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى العاقبة الأليمة للأقوام السابقة، فقد شرعت الآيات التي بين أيدينا بشرح واحدة من هذه الحوادث، من خلال قصة موسى وفرعون، وهامان وقارون. يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

أرسله تعالى: «إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَمَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

إنّ «آيات» في الآية التي نحن بصددتها تشير إلى «معجزات موسى» بينما يشير «سلطان مبين» إلى منطق موسى عليه السلام القوي وأدلتة القاطعة في مقابل الفراعنة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٤

وبذلك كانت دعوة موسى عليه السلام تستهدف القضاء على الحاكم الظالم، والمخططات الشيطانية لرموز السياسة في حاشية السلطان الظالم، وبتر تجاوزات الأثرياء المستكبرين، وبناء مجتمع جديد يقوم على قواعد العدالة الكاملة في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية.

الآية التي بعدها تتعرض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمة في مقابل دعوة النبي موسى عليه السلام: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ».

وما نستفيدة من الآية هو أنّ قضية قتل الأبناء والإبقاء على النساء فقط لم يقتصر - كاسلوب طاغوتي - على الفترة التي سبقت ولادة موسى عليه السلام فحسب، وإنما تمّ تكرار هذه الممارسة أثناء نبوة موسى عليه السلام.

ويعبر هذا الاسلوب عن واحدة من الممارسات والخطط المشؤومة الدائمة للقدرات الشيطانية الظالمة التي تستهدف إبادة وتعطيل الصاقات الفعالة، وترك غير الفاعلين للإستفادة منهم في خدمة النظام.

القرآن يجيب: «وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ».

لقد قضى الله تعالى بمشيئته أن ينتصر الحق وأهله، وأن يزهق الباطل وأنصاره.

لقد اشتد الصراع بين موسى عليه السلام وأصحابه من جانب، وبين فرعون وأنصاره من جانب آخر. يقول تعالى: «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ».

نستفيد من الآية أنّ أكثرية مستشاريه أو بعضهم على الأقل كانوا يعارضون قتل موسى، لخوفهم أن يطلب عليه السلام من ربه نزول العذاب بساحتهم، لما كانوا يرون من معجزاته وأعماله غير العادية.

وقد استدل فرعون على تصميمه في قتل موسى عليه السلام بدليلين، الأوّل ذو طابع ديني ومعنوي، والآخر ذو طابع دنيوي ومادي، فقال في الأوّل، كما يحكى القرآن ذلك: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ».

وفي الثاني: «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ».

والآن لنر كيف كان رد فعل موسى عليه السلام والذي يبدو أنّه كان حاضراً في المجلس؟

يقول القرآن في ذلك: «وَ قَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٥



ويستفاد من قول موسى عليه السلام أيضاً أن من تحلّ فيه صفتا «التكبر» و «عدم الإيمان بيوم الحساب» فهو إنسان خطر، علينا أن نستعيد بالله من شرّه وكيده.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) أقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله: مع هذه الآيات تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ موسى عليه السلام وفرعون، لم تطرح في أيّ مكان آخر من القرآن الكريم. المرحلة التي نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذي كان من المقربين إلى فرعون، ولكنه اعتنق دعوة موسى التوحيدية من دون أن يفصح عن إيمانه الجديد هذا، وإنما تكتم عليه واعتبر نفسه - من موقعه في بلاط فرعون - مكلّفاً بحماية موسى عليه السلام من أيّ خطر يمكن أن يتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعندما شاهد أن حياة موسى في خطر بسبب غضب فرعون، بادر بأسلوبه المؤثر للقضاء على هذا المخطط. يقول تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ». أقتلوه في حين أنّه: «وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ». ثم إنّ للقضية بعد ذلك جانبين: «وإنّ يكُ كاذباً فعليه كذبُهُ وإنّ يكُ صادقاً يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ». ثم تضيف الآيات: «إنّ الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذابٌ».

فإذا كان موسى سائراً في طريق الكذب والتجاوز فسوف لن تشملته الهداية الإلهية، وإذا كنتم أنتم كذلك فستحرمون من هدايته.

ولم يكتف «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، وإنما استمرّ يحاول معهم بلينٍ وحكمة، حيث

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٦

قال لهم - كما يحكى ذلك القرآن -: أن بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها ونعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الالهي. «يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا». ويظهر أنّ هذا الكلام أثر في حاشية فرعون وبطانته، فقلل من غضبهم وغيظهم، لكن فرعون لم يسكت ولم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ. وهو إنّي أرى من المصلحة قتل موسى ولا حلّ لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثم إنّي: «وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ».

وهذه هو حال كافة الطواغيت والجبارين على طول التاريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره.

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مِدْبَرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) التحذير من العاقبة: كان الشعب المصري آنذاك يمتاز نسبياً بمواصفات التمدن والثقافة، وقد أطلع على أقوال المؤرخين بشأن الأقوام السابقة، أمثال قوم نوح وعاد وثمود الذين لم تكن أرضهم تبعد عنهم كثيراً، وكانوا على علم بما آل إليه مصيرهم. لذلك كلّه فكر مؤمن آل فرعون بتوجيه أنظار هؤلاء إلى أحداث التاريخ وأخذ يحذّرهم من تكرار العواقب الأليمة التي نزلت بغيرهم، عساهم أن يتيقظوا ويتجنبوا قتل موسى عليه السلام. يقول القرآن الكريم حكاية على لسانه: «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ».

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأنّي خائف عليكم عن العادات والتقاليد السيئة التي كانت متفشية في الأقوام السالفة: «مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ».

هل عندكم ضمان بأنكم لستم مثل أولئك؛ أو أنّ العقوبات الإلهية لا تشملكم؛ ترى ماذا عمل أولئك حتى أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا على دعوة الأنبياء الإلهيين، وفي بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم ... لذلك كلّه فإنّي أخاف عليكم مثل هذا المصير المؤلم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٧

ولكن ينبغي أن تعلموا أن ما سيصيبكم ويقع بساحتكم هو من عند أنفسكم وبما جنت أيديكم: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ». ثم تضيف الآية على لسانه: «وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ». أي يوم تطلبون العون من بعضكم البعض، إلا أصواتكم لا تصل إلى أي مكان.

«التناد»: مأخوذة أصلاً من كلمة «ندا» وتعني «المناداة» والمشهور بين المفسرين أن (يوم التناد) هو من أسماء يوم القيامة. يعني (يوم مناداة البعض للبعض الآخر). وهذا المعنى يعبر عن ضعف الإنسان وعجزه عندما تنزل به المحن وتحيطه المصاعب والملمات، وينقطع عنه العون وأسباب المساعدة، فيبدأ بالصراخ ولكن بغير نتيجة.

وفي عالمنا هذا نمة أمثلة عديدة على «يوم التناد» مثل الأيام التي ينزل فيها العذاب الإلهي، أو الأيام التي يصل فيها المجتمع إلى طريق مسدود لكثرة ما ارتكب من ذنوب وخطايا، وقد نستطيع أن نتصور صوراً أخرى عن يوم التناد في حياتنا من خلال الحالات التي يمر بها الناس بالمشاكل والصعاب المختلفة حيث يصرخ الجميع عندها طالبين للحل والنجاة.

الآية التالية تفسر يوم التناد بقولها: «يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

ومثل هؤلاء حق عليهم القول: «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ». إن هؤلاء الذين ضلوا في الحياة الدنيا بابتعادهم عن سبل الرشاد والهداية وتنكبهم عن الطريق المستقيم، سيظلون في الآخرة عن الجنة والرضوان والنعم الإلهية الكبرى.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) عجز المتكبرين عن الإدراك الصحيح: هذا المقطع من الآيات الكريمة يستمر في عرض كلام مؤمن آل فرعون، ومن خلال نظرة فاحصة في سياق الآيات، يظهر أن مؤمن آل فرعون طرح كلامه في خمسة مقاطع.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٨

المقطع الأول: راعى فيه مؤمن آل فرعون الإحتياط، ودعا القوم إلى الحذر من الأضرار المحتملة.

المقطع الثاني: وفيه وجه مؤمن آل فرعون الدعوة إلى التأمل بما حل بالأقوام السابقة.

المقطع الثالث: كامن في الآيات القرآنية التي بين أيدينا، إذ تذكرهم الآيات - من خلال خطاب مؤمن آل فرعون - بجزء من تأريخهم، هذا التاريخ الذي لا يبعد كثيراً عنهم، ولم تُمح بعد أو اصر الإرتباط الذهني والتاريخي فيما بينهم وبينه؛ وهذا الجزء يتمثل في نبوة يوسف عليه السلام، الذي يعتبر أحد أجداد موسى، حيث يبدأ قصة التذكير معهم بقوله تعالى:

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ». وبالدلالات الواضحة لهدايتكم ولكنكم: «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ».

وشككم هنا ليس بسبب صعوبة دعوته أو عدم اشتغالها على الأدلة والعلائم الكافية، بل بسبب غروركم حيث أظهرتم الشك والتردد فيها.

ولأجل أن تتصلوا من المسؤولية، وتعطوا لأنفسكم الذرائع والمبررات، قلت: «حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا».

بناء على ذلك كله لم تشملكم الهداية الإلهية بسبب أعمالكم ومواقفكم: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ».

لقد سلكتم سبيل الإسراف والتعدي على حدود الله تعالى كما قمتم بالتشكيك في كل شيء، حتى غدا ذلك كله سبباً لحرمانكم من اللطف الإلهي في الهداية، فسدرتم في وادي الضلال والغى، كى تنتظركم عاقبه هذا الطريق الغاوى.

الآية التي تليها تعرّف «المسرف المرتاب» بقول الله تبارك وتعالى: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ».

وللكشف عن قبح هذه المواقف عند الله وعند الذين آمنوا، تقول الآية: «كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا».

ذلك لأن الجدل بالباطل (الجدال السلبي) واتخاذ المواقف ضد الوقائع والآيات القائمة على أساس الدليل المنطقي، يعتبر أساساً

لضلال المجادلين وتكبيهم عن جادة الهداية والصواب، وكذلك في اغواء الآخرين. في النهاية، وبسبب عدم تسليم هؤلاء أمام الحق، تقرّر الآية قوله تعالى: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣١٩

إنّ العناد في مقابل الحق يشكّل ستاراً مظلماً حول فكر الإنسان، ويسلب منه قابليته على التشخيص الهادى الصحيح. وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْ حَا لَعْلَى أَبْلُغِ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصِدِّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) أريد أن أطلع إلى إله موسى: بالرغم من النجاح الذى أحرزه مؤمن آل فرعون فى إثناء عزم فرعون عن قتل الكليم عليه السلام، إلّا أنه لم يستطع أن يثنيه عن غروره وتكبره وتعالیه إزاء الحق. يقول تعالى فى وصف هذا الموقف: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَمُّنُ ابْنِ لِي صِرْ حَا لَعْلَى أَبْلُغِ الْأَسْبَابَ». أى لعلّى أحصل على وسائل وتجهيزات توصلنى إلى السماوات.

«أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا».

ولكن ماذا كانت النتيجة؟! «وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصِدِّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ».

«الصرح»: فى الأصل تعنى الوضوح؛ و «التصریح»: بمعنى التوضیح، ثم عمّم معنى الكلمة على الأبنية المرتفعة والقصور الجميلة العالیه؛ و «تباب»: تعنى الخسارة والهلاك.

فمن خلال عملية التأمل والتمحيص، يمكن أن تنتهى إلى ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرف. والأهداف هذه هى: أولاً: أراد فرعون أن يختلق وضعا يعمد من خلاله إلى إهَاء الناس وصرف أذهانهم عن قضية نبوة موسى عليه السلام وثورة بنى إسرائيل.

ثانياً: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطاع من الناس، وعلى الأخص العاطلين منهم، لكي يجد هؤلاء فى هذا الشغل عزاءً- ولو مؤقتاً- عن مظالم فرعون وينسون جرائمه وظلمه، ومن ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدى إلى إرتباطهم بخزانة فرعون وأمواله، وبالتالي إرتباطهم بنظامه وسياساته.

ثالثاً: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلى أعلى نقطة فيه، ويرمق السماء ببصره، أو يرمى سهماً نحو السماء، ويرجع إلى الناس فيقول لهم: لقد انتهى كل

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢٠

مختصر الامثل ج ٤ ص ٣٤٩

شئ بالنسبة لإله موسى، والآن انصرفوا إلى أعمالكم براحة بال.

طبعاً، يمكن للخطة السياسية والمواقف المضللة أن تخدع الناس شطراً من الزمان، وتؤثر فيهم لفترة من الوقت، إلّا أنّها تنتهى بالفشل على المدى البعيد.

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ إِذَا خِرَةٌ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلِمَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد: أشرنا آنفاً إلى أنّ مؤمن آل فرعون أوضح كلامه فى مجموعة من المقاطع، وفى هذه المجموعة من الآيات الكريمة نفق على المقطع الرابع بعد أن أشرنا فى الآيات السابقة إلى ثلاثة منها.

إنّ هذا المقطع من كلام مؤمن آل فرعون ينصب فى مضمونه على إلفات نظر القوم إلى الحياة الدنيوية الزائلة، وقضية المعاد والحشر والنشر، إذ إنّ تركيز هذه القضايا فى حياة الناس له تأثير جذرى فى تربيتهم.

يقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ».

ثم تضيف الآية: «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ».

إن القضية ليست فناء هذه الدنيا وبقاء الآخرة وحسب، بل الأهم من ذلك هي قضية الحساب والجزاء، حيث يقول تعالى: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُدْرَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ».

إن مؤمن آل فرعون - بكلامه هذا أثار أولًا قضية عدالة الله تبارك وتعالى، حيث يقاضى الإنسان بما اكتسبت يده خيرًا أو شرًا. ومن جهة ثانية أشار في كلامه إلى الثواب والفضل الإلهي لذوى العمل الصالح.

ومن جهة ثالثة أشار للتلازم القائم بين الإيمان والعمل الصالح.

ورابعه يشير أيضاً إلى مساواة الرجل والمرأة في محضر الله تبارك وتعالى، وفي القيم الإنسانية.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢١

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذكر في أن الحياة الدنيا وإن كانت متاعاً لا يغنى شيئاً عن الحياة الأخرى، إلا أنه يمكن أن يكون وسيلة للجزاء اللامتناهى والعطايا التي تصدر عن المطلق جل وعلا.

إن عبارة «مثلها» تشير إلى أن العقاب في العالم الآخر يشبه نفس العمل الذي قام به الإنسان في هذه الدنيا.

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاهِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَمَّا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَيَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) الكلام الأخير: في خامس وآخر - مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب والأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتّم ممّا فعل، فقد قال كل ما هو ضروري، أمّا القوم من ملاّ فرعون، فكان لهم - كما سنرى ذلك - قرارهم الخطير بشأنه.

يفهم من خلال القرائن أن أولئك المعاندين والمغرورين لم يسكتوا حيال كلام هذا الرجل الشجاع المؤمن، وإنما قاموا بطرح «مزايا» الشرك في مقابل كلامه، ودعوه كذلك إلى عبادة الأصنام. لذا فقد صرخ قائلاً: «وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ».

نعم، إنكم: «تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ».

لقد ذكرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنته واضحه أن دعوتهم إلى الشرك لا تستند على دليل صحيح.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢٢

إن عبارة (العزير) و (الغفار) تشير من جانب إلى مبدأ (الخوف والرجاء) ومن جانب ثانٍ تشير إلى إلغاء الوهيّة الأصنام والفراعنة، حيث لا يملكون العزة ولا العفو.

ينتقل الخطاب القرآني - على لسان مؤمن آل فرعون - إلى قوله تعالى: «لَمَّا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ».

إن هذه الموجودات لا تملك الحس والشعور، إنها أصنام لا تتكلم ولا تضر ولا تنفع، وإنّ عليكم أن تعلموا: «وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ». فهو سبحانه وتعالى الذي أرسل رسله إلى الناس لأجل هدايتهم، وهو الذي يشبههم ويعاقبهم على أعمالهم.

ويجب أن تعلموا أيضاً: «وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

وهكذا كشف مؤمن آل فرعون ما كان يخفى من إيمانه، وبذلك فقد انكشف هنا خطّه الإيماني التوحيدى، وانفصل علناً عن خط الشرك الملوّث.

في آخر كلامه - وبتهديد ذى مغزى - يقول لهم: «فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ».

إنّ ما قلته لكم ستذكرونه في الدنيا والآخرة، وستعلمون صدقي عندما تصيبكم المصائب، وينزل بساحتكم الغضب الإلهي، لكن سيكون ذلك كله بعد فوات الأوان، فإن كان في الآخرة فلا طريق للرجوع، وإن كان في الدنيا فهو لا يتمّ إلّا حين يحلّ بكم العذاب الإلهي، وعندها ستغلق جميع أبواب التوبة.

ثم تضيف الآية على لسان الرجل المؤمن: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ». لهذا كله لا أخشى تهديداتكم.

اللّه تبارك وتعالى لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيداً وإنما: «فَوْقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا».

أمّا القوم الظالمون فقد كان مصيرهم ما يرسمه لنا القرآن الكريم: «وَحَاقَ بِالِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ».

إنّ العذاب والعقاب الإلهي أليم بمجمله، إلّا أنّ تعبير «سوء العذاب» يظهر أنّ الله تبارك وتعالى انتخب لهم عذاباً أشدّ إبلاماً من غيره، وهو ما تشير إليه الآية التي بعدها، حيث قوله تعالى: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا». ثم: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ».

مختصر الامثل، ج 4، ص: 323

وهنا نلفت النظر إلى الملاحظتان الآتيتان:

أولاً: تقول الآية: إنهم يعرضون على النار صباحاً ومساءً، ثم تقول: في يوم القيامة يكون العذاب أشد ما يمكن، وهذا دليل على أنّ العذاب الأوّل يختص بعالم البرزخ، وهو ممّا يلي موت الإنسان ومغادرته روحه جسده، ويقع قبل يوم القيامة، إنّ العرض على نار جهنم يهزّ الانسان ويجعله يرتعد خوفاً وهلعاً.

ثانياً: إنّ تعبير (الغدو) و (العشى) قد تكون فيه إشارة إلى استمرار العذاب. أو قد يفيد انقطاع العذاب البرزخي ليقصر على (الغدو) و (العشى) أي الصبح والمساء، وهو الوقت الذي يقترن في حياة الفراعنة وأصحابهم مع أوقات لهوهم واستعراضهم لقوتهم وجبروتهم في حياتهم الدنيا.

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدِ فَهِمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50) نقاش الضعفاء والمستكبرين في جهنم: لقد لفت مؤمن آل فرعون في نهاية كلامه نظر القوم إلى القيامة والعذاب وجهنم، لذلك جاءت هذه المجموعة من الآيات الكريمة وهي تقف بشكل رائع دقيق على تحاجج وتخاصم أهل النار فيما بينهم، وبالذات تحاجج المتستضعفين مع المستكبرين. يقول تعالى: «وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ».

المراد من «الضعفاء» هنا هم اولئك الذين يفتقدون العلم الكافي والإستقلال الفكري، إذ كان هؤلاء يتبعون زعماء الكفر الذي يطلق عليهم القرآن اسم المستكبرين، وكانت التبعية مجرد انقياد أعمى بلا تفكير أو وعى.

وهؤلاء الأتباع يلجأون إليهم كي يتحملوا عنهم قسطاً من العذاب؟

مختصر الامثل، ج 4، ص: 324

وهي نوع من السخرية والإستهزاء واللوم، يوم يثبت أنّ كل ادعاءات المستكبرين مجرد تقولات زائفة عارية عن المضمون والحقيقة. إنّ المستكبرين لم يسكتوا على هذا الكلام وذكروا جواباً يدل على ضعفهم الكامل وذلتهم في ذلك الموقف المهول، إذ يحكى القرآن على لسانهم قولهم: «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدِ فَهِمَ بَيْنَ الْعِبَادِ».

وعندما تغلق في وجههم السبل، سبل النجاة والخلاص، يتوجّه الجميع إلى خزنة النار:

«وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ» (1).

إنهم يعلمون أن العذاب الإلهي لا- يرتفع، لذلك يطلبون أن يتوقف عنهم ولو ليوم واحد كي يرتاحوا قليلاً... إنهم قانعون بهذا المقدار!

لكن إجابة الخزنة تأتي منطقياً واضحة: «قَالُوا أَوْلَمَ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ». وفى الجواب: «قَالُوا بَلَى .

فيستطرد الخزنة: «قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ». إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) الوعد بنصر المؤمنين: بعد أن تحدثت الآيات التي سبقتها عن مؤمن آل فرعون، عادت هذه المجموعة من الآيات البيئات تتحدث عن شمول الحماية والنصر الإلهي لأنبياء الله ورسله وللذين آمنوا فى هذه الدنيا وفى الآخرة.

إنها تتحدث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآية الكريمة: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ». إنها الحماية المؤكدة بأنواع التأكيد، والتي لا ترتبط بقيد أو شرط، والتي يستتبعها الفوز

(١) «خزنة»: جمع خازن، وتعنى الحارس.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢٥

والنصر، النصر فى المنطق والبيان؛ وفى الحرب والميدان؛ وفى إرسال العذاب الإلهي على القوم الظالمين، وفى الإمداد الغيبي الذى يقوى القلوب ويشد الأرواح ويجذبها إلى بارئها جلّ وعلا. «أشهاد»: جمع «شاهد» أو «شاهد» وهى تعنى الذى يشهد على شىء ما. والمقصود بالأشهاد، هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون الذين يشهدون على أعمال الناس.

إنّ يوم الأشهاد يوم افتضح الكافرين وسوء عاقبة الظالمين، هو: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ». تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك للحديث عن أحد الموارد التى إنتصر فيها الرسل نتيجة الحماية الإلهية والدعم الربانى لهم، فتتحدث عن النبى الكليم عليه السلام: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ».

إنّ هداية الله لموسى تنطوى على معانى واسعة، إذ تشمل مقام النبوة والوحى، والكتاب السماوى (التوراة) والمعاجز التى وقعت على يديه عليه السلام أثناء تنفيذه لرسالات ربه وتبليغه إياها. الآية التى بعدها تضيف: «هُدًى وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ».

الفرق بين «الهداية» و «الذكرى» أنّ الهداية تكون فى مطلع العمل وبدايته، أما التذكير فهو يشمل تنبيه الإنسان بامور سمعها مسبقاً وآمن بها لكنّه نسيها.

وبعبارة اخرى: إنّ الكتب السماوية تعتبر مشاعل هداية ونور فى بداية انطلاقة الإنسان، وترافقه فى أشواط حياته تبث من نورها وهداها عليه.

ولكن الذى يستفيد من مشاعل الهدى هذه هم «أولوا الألباب» وأصحاب العقل، وليس الجهلة والمعاندون المتعصبون. الآية الأخيرة- من المقطع الذى بين أيدينا- تنطوى على وصايا وتعليمات مهمة للرسول صلى الله عليه وآله وهى فى واقعها تعليمات عامة للجميع، بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وآله. يقول تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». عليك أن تصبر على عناد القوم ولجاجة الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء والمعارف، وتحتمل أحياناً أذاهم وتحاذلهم.

وعليك أيضاً أن تصبر إزاء العواطف النفسية.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢٦

إن جميع انتصارات الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين الأوائل إنما تمت بفضل الصبر والإستقامة، واليوم لا بد أن نسير على خطى رسول الله ونصبر كما صبر الرسول وأصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقرة الأخرى من التعليمات الربانية تقول: «وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ».

واضح أن رسول الله صلى الله عليه وآله معصوم لم يرتكب ذنباً ولا معصية، لكننا قد أشرنا في غير هذا المكان إلى أن أمثال هذه التعابير في القرآن الكريم، والتي تشمل في خطابها الرسول الأكرم وسائر الأنبياء، إنما تشمل ما نستطيع تسميته بـ «الذنوب النسبية» لأن الغفلة - مثلاً - لا تليق بمقامهم، ولو للحظة واحدة، إذ إن منزلتهم الرفيعة ومعرفتهم العالية تستوجب أن يحذروا هذه الأمور ويستغفروا منها متى ما صدرت عنهم.

الفقرة الأخيرة في الآية الكريمة تقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ».

«العشى»: فترة ما بعد الظهر إلى قبل غروب الشمس؛ أما «الإبكار»: فهو ما بين الطلوعين.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَمْ يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَشِئْتَوِي الْمَأْعَمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَّمَّا رَيْبٌ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَمْ يُؤْمِنُونَ (٥٩) ما يستوى الأعمى والبصير: دعت الآيات السابقة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصبر والإستقامة أمام المعارضين وأكاذيبهم ومخططاتهم الشيطانية، والآيات التي نحن بصدد هاتذکر سبب مجادلتهم للحق. يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ».

«المجادلة»: تعنى العناد في الكلام وإطالته بأحاديث غير منطقية، وإن كانت تشمل

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢٧

أحياناً في معناها الواسع الحق والباطل.

أما «أتاهم» فهي إشارة إلى الأدلة والبراهين التي أوحى الله بها إلى أنبيائه عليهم السلام.

أما المقصود بـ «آيات الله» التي كانوا يجادلون فيها، فهي معجزات وآيات القرآن والأحاديث المختصة بالمبدأ والمعاد، حيث كانوا يعتبرونها سحراً، أو أنها علامات الجنون، أو أساطير الأولين.

من ذلك يتبين أن ليس لهؤلاء من دليل حى ومنطقي في المجادلة سوى التعالى والغرور والتكبر عن الإنصياع إلى الحق.

ثم تضيف الآية: «مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ».

إن هدفهم أن يروا أنفسهم كباراً، يفاخرون بذلك ويفتخرون على غيرهم، لكنهم لن يحصدوا سوى الذلة والخسران.

في نهاية الآية تعليمات قيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله بأن يستعيد بالله من شر هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم، حيث يقول تعالى: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

فهو - تعالى - يسمع أحاديثهم الباطلة الواهية، وينظر إلى مؤامراتهم وأعمالهم القبيحة وخططهم الشريرة.

إن قضية المعاد وعودة الروح للإنسان بعد موته، تعتبر من أكثر القضايا التي يجادل فيها الكفار، ويعاندون بها رسول الله صلى الله عليه وآله و آله لذلك تنتقل الآية التالية إلى التذكير بهذه القضية، وإعادة طرحها وفق منطق قرآنى آخر، إذ يقول تعالى: «لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَمْ يَعْلَمُونَ».

إن خالق هذه المعجزات العظيمة ومدبرها يستطيع - بطريق أولى أن يحيى الموتى، وإلا كيف يتسق القول بخلقه السماوات والأرض وعجزه من إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت؟

لقد تضمنت الآية الكريمة سبباً آخر من أسباب المجادلة متمثلاً بـ «الجهل» في حين طرحت الآيات السابقة عامل «الكبر». والعاملان يرتبطان مع بعضهما، لأن أصل وأساس «الكبر» هو «الجهل» وعدم معرفة الإنسان لحدوده وقدره، ولعدم تقديره لحجم علمه ومعرفته. الآية التي بعدها، وفي إطار مقارنته واضحة تكشف عن الفرق بين حال المتكبرين الجهلة

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢٨

وبين المؤمنين الواعين، حيث تقول: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ». إلا أنكم بسبب جهلكم وتكبركم: «قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ».

إن المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمة العالم المحيط بهم، وبذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم ومعرفتهم وموقعهم، إلا أن الأعمى لا يدرك موقعه أو حجمه في الزمان والمكان وفي عموم الوجود المحيط به، لذلك فهو يخطيء دائماً في تقييم أبعاد وجوده، ويصاب بالكبر والغرور والوهم الذي يدفعه إلى ما هو قبيح وسىء.

الآية الأخيرة في المجموعة القرآنية التي بين أيدينا تعرّض إلى وقوع القيامة وقيام الساعة حيث يقول تعالى: «إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَّارِيْبٍ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ».

أما سبب القول: بـ «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» فلا يعود إلى أن قيام القيامة من القضايا المجهولة والمبهمه، بل ثمة ميل في الإنسان نحو «الحرية» في الاستفادة غير المشروطة أو المقيدة من ملذات الدنيا وشهواتها، بالإضافة إلى الأمل الطويل العريض الذي يلزم الإنسان فينساق مع الحياة، ويغفل عن التفكير بالقيامة، أو الإستعداد لها.

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّبِعْ تَوْفِيقَهُ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ادعوني أستجب لكم: لقد تضمنت الآيات السابقة ألوان الوعيد والتهديد لغير المؤمنين من المتكبرين والمغرورين، المجموعة التي بين أيدينا من الآيات الكريمة تفيض حبياً إلهياً ولطفاً، وتنبس بالرحمة الشاملة للتائبين. يقول تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ».

الدعاء في نفسه نوع من العبادة، لأن الآية أطلقت في نهايتها صفة العبادة على الدعاء.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٢٩

تتضمن الآية في نهايتها تهديداً قوياً للذين يستكفون عن الدعاء، حيث يقول تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (١).

في الكافي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «إن عند الله عز وجل منزلة لا تنال إلا بمسأله، ولو أن عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فسل تعط يا ميسر إنه ليس من باب يقرع إلا يوشك أن يفتح لصاحبه».

فبما أن الدعاء وطلب الحوائج من الله تعالى يعتبر فرعاً لمعرفته، لذا تتحدث الآية التي تليها عن حقائق تؤدّي إلى ارتقاء مستوى المعرفة لدى الإنسان، وتزيد شرطاً جديداً لإجابة الدعاء، متمثلاً بالأمل في الإجابة، بل وانتظار تنجز الحاجة وتمامها. يقول تعالى:

«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ».

إن ظلمة الليل وهدوءه وسكونه يعتبر - من جانب - سبباً قهرياً لتعطيل الحركة اليومية لعمل الإنسان السوى ونشاطه، ومن ناحية أخرى تمحو عن الإنسان تعب النهار، وتدفعه إلى الإستقرار والرافة لجسده وأعصابه، في حين يعتبر النور والنهار أساس الحياة والحركة. لذلك يضيف تعالى: «وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».



ثم تضيف الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ».

إن طبع الإنسان الجاهل هو كفران النعم وترك الشكر، كما نقرأ ذلك في الآية (٣٤) من سورة إبراهيم، في قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

الآية التي تليها تبدأ من توحيد الربوبية وتنتهي بتوحيد الخالقية والربوبية. فتقول أولاً:

«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ». ومريكم الذي من صفاته أنه: «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ».

ولا معبود إلا الله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

في الواقع إن وجود كل هذه النعم دليل على الربوبية والتدبير، وخالق كل شيء عنوان لصفه التوحيد في الربوبية، لأن الخالق هو المالك والمربي. ومن المعلوم أن الخلق يستدعي الرعاية الدائمة لأن الخالق لا تعنى أن الله يخلق الخلق ويتركها وشأنها، بل لا بد وأن يكون الفيض الإلهي مستمراً في كل لحظة على جميع الموجودات. ولذلك فهذه الخالق لا تنفصل عن الربوبية.

(١) «داخر»: من «دخور» وتعني الذلة، وهذه الذلة هي عقوبة ذلك التكبر والإستعلاء.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٠

وتساءل الآية في نهايتها: كيف يسوغ الإنسان لنفسه الإنحراف والتكبر عن الجادة المستقيمة؟ فيقول تعالى: «فَأَنى تُؤْفَكُونَ».

والملاحظ أن «تؤفكون» صيغة مجهول، بمعنى أنها تحرفكم عن طريق الحق، وكأن المراد هو أن المشركين فاقدون للإرادة إلى درجة أنهم يساقون في هذا المسير دون أى نسبة من الحرية والإرادة والإختيار في هذا المجال!

الآية الأخيرة- من مجموعة الآيات التي نبحتها- تأتي وكأنها تأكيد لمواضيع الآيات السابقة، فيقول تعالى: «كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

«يجحدون»: مشتقة من مادة «جحد» وهي في الأصل تعنى إنكار الشيء الموجود في القلب والنفوس. بمعنى أن الإنسان يقر في نفسه وقلبه بعقيدة أو بشيء ما، وفي نفس الوقت ينفيه ويتظاهر بعكسه أو يعتقد بعدمه في نفسه ويثبته في لسانه.

ويطلق وصف الجحود على البخلاء والذين لا يؤمل منهم الخير ويتظاهرون بالفقر دائماً.

بعض علماء اللغة أوجز في تفسير «جحد» و «جحود» بقولهم: الجحود الإنكار مع العلم.

وبناءً على ما تقدم فإن الجحود يتضمّن في داخله نوعاً من معانى العناد في مقابل الحق.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْمَارِضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنى نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنى الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) ذلكم الله ربكم: تستمر هذه المجموعة من الآيات الكريمة بذكر المواهب الإلهية العظيمة وشمولها للعباد، كى تهب لهم المعرفة، وتربى في نفوسهم الأمل بالدعاء والتسليم وطلب الحوائج من الله تعالى.

والطريف في الأمر هنا أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن «النعم الزمانية» من ليل ونهار، بينما تتحدث هذه المجموعة عن «النعم المكانية» أى الأرض المستقرة، والسقف المرفوع (السماء) حيث تقول: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣١

إنه المكان الخالي من المعوقات الصعبة، متناسق في تشكيلته مع تكوين الإنسان الروحي والجسدى، حيث تتوفر في الأرض المصادر المختلفة للحياة والوسائل المتنوعة والمجانية التي يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآية: «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً». أى كالسقف والقبه فوقكم.

والمقصود بالسماء هنا الغلاف الجوي الذى يحيط بالأرض.

ثم ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فيقول تعالى: «وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ».

لقد ذهب بعض المفسرين فى تفسير: «وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ» إلى معنى أوسع من الصورة والشكل الظاهرى والتكوين الداخلى، فقال: إنَّ المعنى يتضمَّن كل الاستعدادات والأذواق التى خلقها الله فى الإنسان وأودعها فيه، ففضَّله بها على كثير ممن خلق.

وفى آخر الحديث عن سلسلة هذه العطايا والمواهب الإلهية، تتحدث الآية عن النعمة الرابعة، وهى الرزق الطيب بقوله تعالى: «وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ».

«الطيبات» تشتمل على معنى واسع جداً، وهى تشمل الجيد من الطعام واللباس والزوجة والمسكن والدواب، وهى أيضاً تشمل الكلام والحديث الطيب الزكى النافع.

بعد بيان هذه المجموعة الرباعية من النعم الإلهية، تعود الآية للقول: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (١).

الآية التى بعدها تستمر فى إثارة قضية توحيد العبودية من طريق آخر، فتؤكد انحصار الحياة الواقعية بالله تعالى وتقول: «هُوَ الْحَيُّ».

إنَّ حياته عين ذاته، ولا- تحتاج إلى الغير. حياته (جلّ وتعالى) أبدية لا يطالها الموت، بينما جميع الكائنات الحية تتمتع بحياة مقرونة بالموت وحياتها محدودة وموقته تسترقد هذه الحياة من الذات المقدسة.

لذلك ينبغى للإنسان الفانى المحدود المحتاج أن يرتبط فى عبادته بالحي المطلق، من هنا تنتقل الآية مباشرة إلى تقرير معنى الوحداية فى العبودية من خلال قوله تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

(١) «ذلكم»: اسم إشارة للبعيد، واستخدامها فى مثل هذه الموارد كناية على العظمة وعلو المقام.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٢

وعلى أساس هذه الوحداية تقرّر قضية اخرى يتضمَّنها قوله تعالى: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

والتعبير القرآنى درس للعباد بأن يتوجهوا بالشكر والحمد إلى الخالق جلّ وعلا دون غيره، فهو جزيل العطايا كثير المواهب متواصل النعم على عباده، خاصة نعمة الحياة والوجود بعد العدم.

الآية الأخيرة من المجموعة القرآنية، هى فى الواقع خلاصة لكل البحوث التوحيدية الآنفه، وجاءت لكى تقضى على أدنى بارقة أمل قد يحتمل وجودها فى نفوس المشركين، إذ يقول تعالى موجهاً كلامه إلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَبِّي».

ولم ينهانى ربى عن عبادة غيره فحسب، بل: «وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

إنَّ أمثال هذه الصيغ والأساليب المؤثرة يمكن أن نلمسها فى كل مكان من كتاب الله العزيز، فهى تجمع الليونة والأدب حتى إزاء الأعداء والخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابلية لقبول الحق فسيثأثرون بالاسلوب المذكور.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) المراحل السبع لخلق

الإنسان: تميمياً لما تحدّثت به الآيات السابقة عن قضية التوحيد، تستمر الآيات التى بين أيدينا فى إثارة نفس الموضوع من خلال الحديث عن «الآيات النفسية» والمراحل التى تطوى خلق الإنسان وتطوره، من البدء إلى النهاية.

الآية الكريمة تتحدث عن سبع مراحل تكشف عن عظمة الخالق جلّ وعلا وجزيل مواهبه ونعمه على العباد. يقول تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا

أَجَلًا مُّسَمًّى وَّلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٣

يتضح من سياق الآية الكريمة أنّ المرحلة الاولى أو بداية الإنسان في مسيرة الخلق والوجود تكون من التراب، حيث خلق الله أبانا الأول آدم عليه السلام من تراب، أو أنّ جميع البشر خلقوا من التراب، ذلك أنّ المواد الغذائية التي تشكّل قوام الإنسان ووجوده، بما في ذلك النطفة- سواء كانت حيوانية أم نباتية- كلّها تستمد أساسها واصولها من التراب.

المرحلة الثانية، هي مرحلة النطفة التي تشمل جميع البشر كأصلٍ ثانٍ في وجودهم عدا آدم وزوجته حواء.

المرحلة الثالثة التي تتكامل فيها النطفة وتنمو بشكلٍ مستمر وتحوّل إلى قطعة دم فتسمى بمرحلة «العلقة».

بعد ذلك تتحوّل «العلقة» إلى «مضغّة» أشبه ما تكون باللحم «الممضوغ» وهي مرحلة ظهور الأعضاء، ثم مرحلة الحس والحركة، والآية لا تشير هنا إلى هذه المراحل الثلاث، لكن الآيات الاخرى أشارت إلى ذلك بشكل واضح.

المرحلة الرابعة تتمثل في ولادة الجنين، بينما تتمثل المرحلة الخامسة في تكامل القوّة الجسميّة التي قيل إنّها تتم في سن الثلاثين، حيث سيحرز الجسم الإنساني أكبر قدر ممكن من نموه وتكامل قواه.

وقال البعض: إنّ الإنسان يصل هذه المرحلة قبل هذا السن، ومن الممكن أن تختلف هذه المرحلة عند الأشخاص إلى أن يحرز الإنسان فيها مرحلة «بلوغ الأشد» حسب التعبير القرآني.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الرجوع القهقري إلى الوراثة، فيفقد الإنسان قواه تدريجياً، فيصل إلى الشيب الذي يعتبر المحطة السادسة من محطات حياة الإنسان.

أخيراً، تنتهي حياة كل إنسان في الأرض بالموت والانتقال إلى العالم الآخر.

بعد كل هذه التغيرات والتطورات، هل ثمة من شك في قدره وعظمه مبدىء عالم الوجود، وأطاف الله ومواهبه على الخلق؟!

الآية الأخيرة في هذا البحث تتحدث عن أهم مظهر من مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى متمثلة بقضية الحياة والموت، هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان- بالرغم من تقدّم العلم وتطوّره- في نطاق الامور الغامضة والمجهولة في معرفة الإنسان وعلمه. قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٤

إنّ نماذج الحياة تعتبر أكثر النماذج تنوعاً في عالم الوجود وكل الكائنات تنتهي بأجلٍ معيّن إلى الموت، سواء في ذلك الكائن ذو الخليّة الواحدة أو الحيوانات الكبيرة، أو التي تعيش في الأعماق المظلمة للمحيطات والبحار، أو الطيور التي تعانق السماء، ومن الأحياء احادية الخليّة السابحة في امواج المحيطات إلى الأشجار التي يبلغ طولها عشرات الأمتار، فإن لكل واحد منها حياة خاصة وشرائط معيّنة، وبهذه النسبة تتفاوت عملية موتها، وبدون شك فإن أشكال الحياة هي أكثر أشكال الخلقة تنوعاً وأعجبها.

وكل واحدة من هذه القضايا المعقّدة والمتنوعة لا تعتبر مشكلة وعسيرة بالنسبة إلى قدرة الخالق جلّ وعلا، حيث تتحقق بمجرد إرادته. لذلك تقول الآية في نهايتها بياناً لهذه الحقيقة: «فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضِرُّونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسَبِّحُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) اذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) عاقبة المعاندين المغرورين: مرّة اخرى تعود آيات الله البيّنات للحديث عن الذين يجادلون في آيات الله، فتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضِرُّونَ».

إنّ هذه المجادلة بالباطل المقترنة مع التعصب الأعمى جعلتهم يحيدون عن الصراط المستقيم، لأنّ الحقائق لا تظهر أو تبين إلّا في

الروح الباحثة عن الحقيقة ومن ثم الإذعان لمنطقها.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان أمرهم عندما تقول: «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٥

من الضروري أن نشير أولاً إلى أن السورة التي بين أيدينا تحدثت أكثر من مرّة عن «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ» جاء ذلك في الآيتين (٣٥) و (٥٦) وهذه الآية، ونستفيد من القرائن أن المقصود ب «آيات الله» هي دلائل النبوة وعلائمها على الأكثر، بالإضافة إلى ما تحويه الكتب السماوية، وطالما تتضمن الكتب السماوية آيات التوحيد، والمسائل الخاصة بالمبدأ والمعاد، لذا فإن هذه القضايا مشمولة بجدال القوم وخصومتهم للحق.

وتنتهي الآية بتهديد من خلال قوله تعالى: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ». أي سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وعاقبة أعمالهم السيئة وذلك في وقت «إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُشْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ». أي يلقي بهم في الماء المغلي: «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (١).

إضافة إلى هذا العذاب الجسماني سيعاقبون بمجموعة من أنواع العذاب الروحي والنفسي كما تشير إليه الآية التالية، حيث يقول تعالى: «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». أي: أين شركاؤكم من دون الله كي ينقذوكم من هذا العذاب الأليم وأمواج النار المتلاطمة؟ ألم تقولوا: إنكم تعبدونهم وتطيعونهم وتتخذونهم أرباباً ليشفعوا لكم، إذا أين شفاعتهم الآن؟! فيجيبون بخضوع يغشاهم وذلل يعلوهم: «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا». أي اختفوا وهلكوا وايدوا بحيث لم يبق منهم أثر.

وعندما يرى هؤلاء أن اعترافهم بعبادة الأصنام أصبح عاراً عليهم وعلامةً تميزهم، فإنهم يبدأون بالإنكار فيقولون: «بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً».

لقد كانت الأصنام مجرد أوهام، لكننا كنا نظن أنها تمثل حقائق ثابتة، لكنها أصبحت كالسراب الذي يتصوّره العطشان ماءً، أما اليوم فقد ثبت لنا أنها لم تكن سوى أسماء من غير مسمى وألفاظ ليس لها معنى، وأن عبادتها لم تنفعنا بشيء سوى الضلال. لذلك فهؤلاء اليوم يواجهون الواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره.

هناك احتمال آخر في تفسير الآية، هو أنهم سيكذبون لينقذوا أنفسهم من الفضيحة، كما نقرأ ذلك في الآيتين (٢٣ و ٢٤) من سورة الأنعام: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا

(١) «الأغلال»: جمع «غل» وتعني الطوق حول العنق أو الرجل، وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «غلل» على وزن «أجل» بمعنى الماء الذي يجري بين الأشجار.

«السلاسل»: جمع «سلسلة»؛ و «يسحبون» من كلمة «سحب» على وزن (سهو).

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٦

مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وأخيراً يقول تعالى: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ». إن كفرهم وعنادهم سيكون حجاباً على قلوبهم وعقولهم، ولذلك سياتركون طريق الحق ويسلكون سبيل الباطل، فيحرمون يوم القيامة من الجنة وينتهي مصيرهم إلى النار. وهكذا يضل الله الكافرين.

الآية التي بعدها تشير إلى علة مصائب هذه المجموعة، حيث يقول تعالى: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ».

كانوا يفرحون بمعارضة الأنبياء وقتل المؤمنين والتضييق على المحرومين، وكانوا يشعرون بالعظمة عند ارتكاب الذنوب وركوب المعاصي واليوم عليهم أن يتحملوا ضريبة كل ذلك الفرح والغفلة والغرور من خلال هذه النيران والسلاسل والسعير.

ولمثل هؤلاء يصدر الخطاب الإلهي: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

هذه الآية تؤكد مرّة أخرى على أن التكبر هو أساس المصائب.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِغُصَّ الذِّى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) فاصبر ... حتى يأتيك وعد الله: بعد سلسلة البحوث السابقة عن جدال الكافرين وغرورهم وتكذيبهم الآيات الإلهية والدلائل النبوية، تأتي هاتان الآيتان لمواساة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتأمرا به بالصبر والإستقامة فى مواجهة المشاكل والصعاب. يأتي الأمر أولًا فى قوله تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ».

إنّ وعده بالنصر حق، ووعدته بمعاقبة المستكبرين المغرورين حق، وكلاهما سيتحققان، فعلى أعداء الحق أن لا يظنوا بأنهم يستطيعون الهروب من العذاب الإلهي بسبب تأخر عقابهم، لذلك تضيف الآية: «فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِغُصَّ الذِّى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ». مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٧

إنّ مسؤوليتك هى التبليغ البالغ وإتمام الحجة على الجميع، حتى تنتور القلوب اليقظة ببلاغك، ولا يبقى للمعاندين عذر. ثم تشير الآية الكريمة إلى الوضع المشابه الذى واجهه الرسل والأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وآله كى تكون فى هذه الذكرى مواساة أكثر للرسول الكريم، حيث واجه الأنبياء السابقين مثل هذه المشاكل، إلما أنهم استمروا فى طريقهم واحتفظوا بمسارهم المستقيم.

يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ».

ورد فى الروايات والمصادر الإسلامية المختلفة أنّ عدد الأنبياء كان (١٢٤) ألف نبى. لقد واجه كل منهم ما تواجهه أنت اليوم، فصبروا وكان حليفهم النصر والغلبة على الظالمين.

ومن جهة ثانية كان الجميع يطلبون من الرسل الإتيان بالمعجزة، ومشركو مكة لم يشدوا على غيرهم فى طلب المعاجز من رسول الله صلى الله عليه وآله لذلك يخاطب الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بقوله: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثم تهدد الآية من كان يقول: لماذا لا يشملنا العذاب الإلهي إذا كان هذا الرسول صادقاً؟

فتقول الآية: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ».

فى ذلك اليوم المهول تغلق أبواب التوبة، ويخسر أهل الباطل صفتهم.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لَتُبْلَغُوا عَلَيْهَا حَاجَةٌ فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تَحْمَلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآىِ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) منافع الأنعام المختلفة: تعود الآيات التى بين أيدينا للحديث مرّة أخرى عن علائم قدرة الخالق (جلّ وعلا) ومواهبه العظيمة لبنى البشر، وتشرح جانباً منها كى تزيد من وعى الإنسان ومعرفته بالله تعالى، وليندفع نحو الشئ والشكر فيزداد معرفته بخالقه. يقول تعالى: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

فبعضها يختص بالغذاء كالأغنام، وبعضها للركوب والغذاء كالجمال.

«أنعام»: جمع «نعم» على وزن «قلم» وتطلق فى الأصل على الجمال، لكنّها توسّعت فيما بعد لتشمل الجمال والبقر والأغنام.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٨

إضافة لما سبق تقول الآية التى بعدها: إنّ هناك منافع أخرى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ».

الإنسان يستفيد من لبنها وصوفها وجلدها وسائر أجزائها الأخرى، بل يستفيد حتى من فضلاتها فى تسميد الأرض وإخصاب الزرع. ثم تضيف الآية: «وَلَتُبْلَغُوا عَلَيْهَا حَاجَةٌ فِي صُدُورِكُمْ».

وهذا إشارة إلى الترفيه والهجرة والسياحة والتسابق والتفاخر، وما إلى ذلك من رغبات تنطوى عليها نفس الإنسان.

ولأن الأنعام تعتبر وسيلة سفر على اليابسة، لذلك تقول الآية في نهايتها: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

لقد جعلت للسفينه صفة خاصة بحيث تستطيع أن تبقى على سطح الماء بالرغم من الأثقال والأوزان الكبيرة التي عليها، وجعل الله تعالى الحركة في الريح بحيث تستطيع الفلك الاستفادة منها في حركتها و ايصال الإنسان و البضائع إلى مناطق مختلفة في العالم. الآية الأخيرة هي قوله تعالى: «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ».

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) هذه الآيات هي آخر مجموعة من سورة غافر، ونستطيع أن نعتبرها نوعاً من الاستنتاج للبحوث السابقة. فأولاً تقول: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

فاولئك: «كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ».

عبارة: «آثَارًا فِي الْأَرْضِ» لعلها إشارة إلى تقدمهم الزراعي - كما جاء في الآية (٩) من

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٣٩

سورة الروم - أو إشارة إلى البناء العظيم للأقوام السابقين في قلب الجبال والسهول.

ومع هذه القوة والعظمة التي كانوا يتمتعون بها، فإنهم لم يستطيعوا مواجهة العذاب الإلهي: «فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

الآية التي بعدها تنتقل للحديث عن تعاملهم مع الأنبياء ومعجز الرسل البينة، حيث يقول تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ». أي إنهم فرحوا بما عندهم من المعلومات والأخبار، وصرفوا وجوههم عن الأنبياء وأدلتهم. وكان هذا الأمر سبباً لأن ينزل بهم العذاب الإلهي: «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

والمقصود من العلم الذي كان عندهم، هو اعتماد البشر على ما لديهم، واستعلاءهم بهذه «المعرفة» على دعوات الرسل ومعجز الأنبياء، بل واندفع هؤلاء حتى إلى السخرية بالوحي والمعارف السماوية.

لكن القرآن الكريم يذكر مآل غرور هؤلاء وعلوهم وتكبرهم إزاء آيات الله، حينما يقول: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ».

ثم تأتي النتيجة سريعاً في قوله تعالى: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا».

لماذا؟ لأنه عند نزول «الإستصال» تغلق أبواب التوبة.

وهذا الحكم لا يختص بقوم دون غيرهم، بل هو: «سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ».

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى: «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ».

ففي ذلك اليوم عندما ينزل العذاب بساحتهم، سيفهم هؤلاء بأن رصيدهم في الحياة الدنيا لم يكن سوى الغرور والظنون والأوهام.

وهكذا تنتهي السورة المباركة (غافر) التي بدأت بوصف حال الكافرين المغرورين، ببيان نهاية هؤلاء وما آل إليه مصيرهم من العذاب والخسران.

«نهاية تفسير سورة غافر»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤١

## ٤١. سورة فصلت

محتوى السورة: يمكن الحديث عن محتويات السورة من خلال الخطوط العريضة التالية:

١- التركيز على موضوع القرآن وما يتصل به من بحوث.

٢- إثارة قضية خلق السماء والأرض، خاصة ما يتعلق ببداية العالم الذى خلق من مادة (الدخان) ثم مراحل نشوء الكرة الأرضية والجبال والنباتات والحيوانات.

٣- ثمه فى السورة إشارات إلى عاقبة الأقسام المغرورين الأشقياء من الامم السابقة، مثل قوم عاد وثمود، وهناك إشارة قصيرة إلى قصة موسى عليه السلام.

٤- تتضمن السورة تهديد المشركين وإنذار الكافرين، مع ذكر آيات القيامة وما يتعلق بشهادة أعضاء جسم الإنسان عليه، وتوبيخ الله تبارك وتعالى لأمثال هؤلاء.

٥- تناول السورة قسماً من أدلة البعث والقيامة وخصوصياتهما.

٦- تنتهى السورة ببحث لطيف عن آيات الآفاق والأنفس، وتعود كزرة أخرى إلى قضية المعاد.

إن تسمية السورة ب «فصّلت» مشتق من الآية الثالثة فيها، وإطلاق «حم السجدة» عليها لأنها تبدأ ب «حم» والآية (٣٧) فيها هي آية السجدة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ حم السجدة اعطى

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٢

بعدد كل حرف منها عشر حسنات».

و أخرج البيهقي فى شعب الايمان عن الخليل بن مرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة (١).

و طبعى أنّ هذه السورة المباركة بكل ما تتضمن فى مضامينها العالیه من أنوار ومعارف ومواعظ إنّما تكون مؤثرة فيما لو تحوّلت تلاوتها إلى نور ينفذ إلى أعماق النفس، فتحوّل فى حياة الإنسان المسلم إلى دليل من نور يقوده فى يوم القيامة نحو الصراط والخلص، لأنّ التلاوة مقدمة للتفكير، والتفكير مقدمة للعمل.

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَامِلُونَ (٥) عظمه القرآن: فى الدر المنثور عن جابر بن عبد الله قال: اجتمع قريش فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا:

أنت يا أبا الوليد. فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت وإن كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلم حتى نسمع منك. أما والله ما رأينا سلحة قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب حتى لقد طار فيهم أنّ فى قريش ساحراً وأنّ فى قريش كاهناً والله ما ننتظر إلّا مثل صيحة الجبل أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف. يا أيها الرجل إن كان نما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً وإن كان نما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فرغت»؟ قال: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم

(١) روح المعاني ٩٤/٢٤.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٣

\* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» حتى بلغ «فإن أعرضوا فقل أنذرناكم صاعقةً مثل صاعقة»

عَرَادٍ وَتَمُودَ» فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: لا- فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته قالوا: فهل أجابك؟ قال: والذى نصبها بنياً ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال: «أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَتَمُودَ» قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدرى ما قال؟ قال لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

نعود الآن إلى المجموعة الأولى من آيات هذه السورة المباركة، التى تطالعنا بالحروف المقطعة فى أولها «حم». إن البعض اعتبر (حم) اسماً للسورة، أو أن (ح) إشارة إلى «حميد»، و (م) إشارة إلى «مجيد» وحميد ومجيد هما من أسماء الله العظمى.

ثم تتحدث عن عظمة القرآن فتقول: «تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

إن «الرحمة العامة» و «الرحمة الخاصة» لله تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمة التى هى رحمة للعدو والصديق، ولها بركات خاصة للأولياء.

بعد التوضيح الاجمالي الذى أبدته الآية الكريمة حول القرآن، تعود الآيات التالية إلى بيان تفصيلي حول أوصاف هذا الكتاب السماوى العظيم، وذكرت له خمسة صفات ترسم الوجه الأصيل للقرآن: فتقول أولاً: إنه كتاب ذكرت مطالبه ومواضيعه بالتفصيل كل آية فى مكانها الخاص، بحيث يلبي احتياجات الإنسان فى كل المجالات والأدوار والعصور، فهو:

«كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ». وهو كتاب فصيح وناطق: «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

وهذا الكتاب بشير للصلحين، نذير للمجرمين: «بَشِيرًا وَنَذِيرًا». إلا أن أكثرهم:

«فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَيْسَ سَمْعُونَ».

بناءً على ذلك فإن أول خصائص هذا الكتاب هو أنه يتضمّن فى تشريعاته وتعاليمه كل ما يحتاجه الإنسان وفى جميع المستويات، ويلبى ميوله ورغباته الروحية.

الصفة الثانية أنه متكامل، لأن «قرآن» مشتق من القراءة، وهى فى الأصل بمعنى جمع أطراف وأجزاء الكلام.

الصفة الثالثة تتمثل بفصاحة القرآن وبلاغته، حيث يذكر الحقائق بدقة بليغة دون أى نواقص، وفى نفس الوقت يعكسها بشكل جميل وجذاب.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٤

الصفتان الرابعة والخامسة تكشفان عن عمق التأثير التربوى للقرآن الكريم، عن طريق اسلوب الإنذار والوعيد والتهديد والترغيب، فآية تقوم بتشويق الصالحين والمحسنين بحيث إن النفس الإنسانية تكاد تطير وتتماوج فى آفاق الملكوت والرحمة، وأحياناً تقوم آية بالتهديد والإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصورة وعنف المشهد. ومع ذلك فإن المتعصّبين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، وكأنهم لا يسمعونها أبداً بالرغم من السلامة الظاهرية لأجهزتهم السمعية، إنهم فى الواقع يفتقدون لروح السماع وإدراك الحقائق، ووعى محتويات النذير والوعيد القرآنى.

وهؤلاء - كمحاوله منهم لثنى الرسول صلى الله عليه وآله عن دعوته، وايغالباً منهم فى الغى وفى زرع العقبات - يتحدّثون عند رسول الله بعناد وعلو وغرور حيث يحكى القرآن عنهم: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ».

مادام الأمر كذلك فاتركنا وشأننا، فاعمل ما شئت فإننا عاكفون على عملنا: «فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ».

«أَكِنَّةٌ»: جمع «كنان» وتعنى الستار.

هكذا ... بمنتهى الوقاحة والجهل، يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جادة الحق.

عبارة «فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ» محاولتهم زرع اليأس عند النبى صلى الله عليه وآله. أو قد يكون المراد نوعاً من التهديد له. والتعبير يمثّل منتهى العناد والتحدّى الأحمق للحق ولرسالاته.



قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَمَّا يُؤْتَوْنَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) من هم المشركون: الآيات التي بين أيدينا تستمر في الحديث عن المشركين والكافرين، وهي في الواقع إجابة لما صدر عنهم في الآيات السابقة، وإزالة لأي وهم قد يلصق بدعوة النبي صلى الله عليه وآله. يقول تعالى لرسوله الكريم: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ».

ثم تستمر الآية: «فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ».

ثم تضيف الآية محذرة: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٥

الآية التي تليها تقوم بتعريف المشركين، وتسلب الضوء على جملة من صفاتهم وتختص هذه الآية بذكرها، حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

إن هؤلاء يعزفون بأمرين: ترك الزكاة، وإنكار المعاد.

والمقصود من الزكاة في الآية هو المعنى العام للإنفاق، أما كون ذلك من علائم الشرك، فيكون بسبب أن الإنفاق المالى في سبيل الله يعتبر من أوضح علامات الإيثار والحب لله، لأن المال يعتبر من أحب الأشياء إلى قلب الإنسان ونفسه، وبذلك فإن الإنفاق - وعدمه - يمكن أن يكون من الشواخص الفارقة بين الإيمان والشرك، خصوصاً في تلك المواقف التي يكون فيها المال بالنسبة للإنسان أقرب إليه من روحه ونفسه، كما نرى ذلك واضحاً في بعض الأمثلة المنتشرة في حياتنا.

بعبارة أخرى: إن المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذي يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ وعلا، والأمر من هذه الزاوية بالذات يقترن بشكل متساوى مع عدم الإيمان بالمعاد، أو يكون ترك الزكاة ملازماً لإنكار وجوبه.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ فَرِيضَةً لَا يَحْمَدُونَ إِلَّا بِأَدَائِهَا، وَهِيَ الزَّكَاةُ، بِهَا حَقَّنَا دِمَاءَهُمْ وَبِهَا سَمَّوْا مُسْلِمِينَ».

الآية الأخيرة تقوم بتعريف مجموعة تقف في الجانب المقابل لهؤلاء المشركين البخلاء، وتعرض إلى جزائهم حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ». «ممنون»: مشتق من «من» وتعنى هنا القطع أو النقص، لذا فإن غير ممنون تعنى هنا غير مقطوع أو منقوص.

قُلْ أَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) مراحل خلق السماوات والأرض: الآيات أعلاه نماذج للآيات الأفقية، وعلائم العظمة،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٦

وقدره الخالق جلّ وعلا في خلق الأرض والسما، وبداية خلق الكائنات، حيث يأمر تعالى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمخاطبة الكافرين والمشركين. يقول تعالى: «قُلْ أَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ». وتجعلون لله تعالى شركاء ونظائر: «وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً».

إنه لخطأ كبير، وكلام يفتقد إلى الدليل: «ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ». إن الذي يدبر أمور هذا العالم، أليس هو خالق السماء والأرض؟ فإذا كان سبحانه وتعالى هو الخالق، فلماذا تعبدون هذه الأصنام وتجعلونها بمنزلته؟!

الآية التي تليها تشير إلى خلق الجبال والمعادن وبركات الأرض والمواد الغذائية، حيث تقول: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ». وهذه المواد الغذائية هي بمقدار حاجة المحتاجين: «سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ».

وبهذا الترتيب فإنه تبارك وتعالى قد دبر لكل شيء قدره وحاجته.

المقصود من «السائلين» هنا هم الناس، أو أنها تشمل بشكل عام الإنسان والحيوان والنبات.

ووفق هذا التفسير فإن الله تعالى لم يحدد احتياجات الإنسان لوحده منذ البداية وحسب، وإنما فعل ذلك للحيوانات والنباتات أيضاً. بعد الإنتهاء من الكلام عن خلق الأرض ومراحلها التكاملية، بدأ الحديث عن خلق السماوات حيث تقول الآية: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا». فكانت الإجابة: «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ». وفي هذه الأثناء: «فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ». ثم: «وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا». وأخيراً: «وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا». نعم: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ». إن هذه المجموعة من الآيات الكريمة تكشف بوضوح أن دحو وتوسيع الأرض وتفجر العيون ونبات الأشجار والمواد الغذائية، قد تم جميعاً بعد خلق السماوات.

ملاحظات

تبقى أمامنا ملاحظات ينبغي أن نشير إليهم:

- ١- عبارة «بَارَكْ فِيهَا» إشارة إلى المعادن والكنوز المستودعة في باطن الأرض، وما على الأرض من أشجار وأنهار ونباتات ومصادر للماء الذي هو أساس الحياة والبركة، حيث تستفيد منها جميع الأحياء الأرضية.
- ٢- عبارة «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» تشمل الأقسام الثلاثة المذكورة في الآية (أى خلق الجبال، مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٧).

خلق المصادر وبركات الأرض، خلق المواد الغذائية).

- ٣- جملة «هى دخان» تبين أن بداية خلق السماوات كان من سحب الغازات الكثيفة الكثيرة، وهذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصّلت إليه البحوث العلمية بشأن بداية الخلق والعالم.

- ٤- قوله تعالى: «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» لا- تعنى أن كلاماً قد جرى باللفظ، وإنما قول الخالق وأمره هو نفسه الأمر التكويني، وهو عين إرادته فى الخلق. أمّا التعبير ب «طوعاً أو كرهاً» فهو إشارة إلى أن الإرادة الإلهية الحتمية قد ارتبطت بتكوّن السماوات والأرض. والمعنى أنه يجب أن يحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

- ٥- قوله تعالى: «فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ» يشير إلى وجود مرحلتين فى خلق السماوات، كل مرحلة استمرت لملايين أو مليارات السنين، وكل مرحلة تتضمن مراحل اخرى، ومن المحتمل أن تكون هاتان المرحلتان هما مرحلة تبادل الغازات المضغوطة إلى سوائل و مواد مذابة، ثم مرحلة تبادل المواد المذابة إلى مواد جامدة.

- ٦- إن العدد «سبع» ربما جاء هنا للكثرة، بمعنى أن هناك سماوات كثيرة وأجرام كثيرة.

- ومن المحتمل أن يكون الرقم للعدد، أى إن عدد السماوات هى سبع بالتحديد. ومع هذا التقييد، فإن جميع ما نرى من كواكب ونجوم ثابتة وسيارة هى من السماء الاولى، وبذلك يكون عالم الخلق متشكلاً من سبع مجموعات كبرى، واحدة منها فقط أمام أنظار البشرية.

- ٧- قوله تعالى: «وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ» تدلّ على أن جميع النجوم زينة للسماء الاولى، وهى ليست للزينة وحسب، بل فى الليالى المعتمه تكون مصابيح للتائمين وأدله لمن يسير فى الطريق، تعينهم على تعيين اتجاه الحركة.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٨

احذركم صاعقه مثل صاعقه عادٍ وثمود: بعد البحث المهم الذي تضمنته الآيات السابقة حول التوحيد ومعرفة الخالق جلّ وعلاه تنذر الآيات- التي بين أيدينا- المعارضين والمعاندين الذين تجاهلوا كل هذه الدلائل الواضحة والآيات البيّنات، وتحذّروهم أنّ نتيجة الإعراض، نزول العذاب بهم. يقول تعالى: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». «الصاعقه»: تعنى الصوت المهيب فى السماء، ويشتمل على النار أو الموت أو العذاب.

يوصل الحديث القرآنى سياقه بالقول: «إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ».

إنّ الأنبياء قد استخدموا جميع الوسائل والأساليب لهديتهم، حتى ينفذوا إلى قلوبهم المظلمة.

لكن لنرى ماذا كان جوابهم حيال هذه الجهود العظيمة الواسعة لرسول الله تعالى. يقول تعالى: «قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً» لإبلاغ رسالته بدلاً من إرسال الناس، والآن ومادام الأمر كذلك: «فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ». وما جئتم به لا نعتبره من الله.

إنّها نفس الذريعة التي ينقلها القرآن مراراً على لسان منكرو النبوات ورسالات الله ومكذبي الرسل، من الذين كانوا يتوقعون أن يكون الأنبياء دائماً ملائكة، وكأنما البشر لا يستحقون مثل هذا المقام.

مثال ذلك قولهم فى الآية (٧) من سورة الفرقان: «وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا».

إنّ قائد البشر يجب أن يكون من صنف البشر، كى يعرف مشاكل الإنسان واحتياجاته ويتفاعل مع قضاياهم، وكى يستطيع أن يكون القدوة والاسوة، لذلك يصرّح القرآن فى الآية (٩) من سورة الأنعام بقوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا».

بعد المجمل الذى بيّنته الآيات أعلاه، تعود الآيات الآن- كما هو اسلوب القرآن الكريم- إلى تفصيل ما اوجز من خبر قوم عاد و ثمود فتقول: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً».

لكنّ القرآن يردّ على هؤلاء ودعواهم بالقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٤٩

تضيف الآية فى النهاية قوله تعالى: «وَكَانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

نعم، إنّ الإنسان الضعيف المحدود سوف يطغى بمجرد أن يشعر بقليل من القدرة والقوة، وأحياناً بدافع من جهله، فيتوهم أنّه يصارع الله جلّ وعلا.

لكن ما أسهل أن يبدل الله عوامل حياته إلى موت ودمار، كما تخبرنا الآية عن مآل قوم عاد: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَنَنْذِرَنَّهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

إنّ هذه الريح الصرصر، وكما تصرّح بذلك آيات اخرى، كانت تقتلعهم من الأرض بقوة ثم ترطمهم بها، بحيث أصبحوا كأعجاز النخل الخاوية- يلاحظ الوصف فى سورة القمر الآيتين (١٩ و ٢٠) وسورة الحاقة الآية (٦) فما بعد.

لقد استمرت هذه الريح سبع ليال وثمانية أيام، وحطمت كيانهم وكل وسائل عيشهم، نكالا بما ركبوا من حماقة وعلو وغرور، ولم يبق منهم سوى أطلال تلك القصور العظيمة، وآثار تلك الحياة المرفهة.

هذا فى الدنيا، وهناك فى الآخرة: «وَالْعَذَابُ الْأَخْرَى أَخْرَى».

إنّ العذاب الدنيوى هو فى الواقع كالشرارة فى مقابل بحر لّجى من النار فى عذاب الآخرة.

والأنكى من ذلك أن ليس هناك من ينصرهم: «وَهُمْ لَا يُنصِرُونَ».

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) عاقبه قوم ثمود: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قوم عاد، تبحث هاتان الآيتان فى قضية قوم ثمود ومصيرهم، حيث

تقول: إنّ الله قد بعث الرسل والأنبياء لهم مع الدلائل البيّنة، إلّا أنّهم: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى».

لذلك: «فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وهؤلاء مجموعة تسكن «وادي القرى (منطقة بين الحجاز والشام) وقد وهبهم الله أراضى خصبة خضراء مغمورة، وبساتين ذات نعم كثيرة، وكانوا يبذلون الكثير من جهدهم في الزراعة، ولقد وهبهم الله العمر الطويل والأجسام القوية، وكانوا مهرة في البناء القوى المتماسك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٠

مختصر الامثل ج ٤، ص: ٣٩٨

لقد جاءهم نبيهم بمنطق قوى، ومعه المعاجز الإلهية، إلماً أن هؤلاء القوم المغرورين المستعدين لم يرفضوا دعوته وحسب، بل آذوه وأتباعه القليلين، لذلك شملهم الله بعقابه في الدنيا، ولن يغنى ذلك عن عذاب الآخرة شيئاً. القرآن يجيبنا على ذلك بقول الله عز وجل: «وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ». قال بعض المفسرين: لقد آمن بالنبي صالح (١١٠) أشخاص من بين مجموع القوم. لقد أنجى هذه المجموعة إيمانها وتقواها، بينما شمل العذاب تلك الكثرة الطاغية بسبب كفرها وعنادها؛ والمجموعتان يمكن أن تكونا نموذجاً لفئات من هذه الأمة.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَوْلَا جُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصِْبْ بِحُكْمِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) كانت الآيات السابقة تتحدث عن الجزاء الدنيوي للكفار المغرورين والظالمين والمجرمين، أما الآيات التي نبعتها الآن فتتحدث عن العذاب الاخرى، وعن مراحل مختلفة من عقاب أعداء الله. يقول تعالى: «وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ».

ولكى تتصل الصفوف ببعضها يتم تأخير الصفوف الاولى حتى تلتحق بها الصفوف الاخرى: «فَهُمْ يُوزَعُونَ» (١). وحينذاك: «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». يا لهم من شهود؟ فأعضاء الإنسان تشهد بنفسها عليه ولا يمكن إنكار شهادتها، لأنها كانت حاضرة في جميع المشاهد والمواقف وناظرة لكل الأعمال، وهى إذ تتحدث بأمر الله تعالى.

(١) «يوزعون»: من «وزع» وهى بمعنى المنع، وعندما تستخدم للجنود أو الصفوف الاخرى، فإن مفهومها يعنى أن يبقى المجموع إلى أن يلتحق بهم آخر نفر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥١

إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا» يَبَيِّنُ أَنَّ الْمَحْكَمَةَ تَتَعَدَّىٰ بِالْقَرْبِ مِنَ النَّارِ.

المجرمون يستغربون هذه الظاهرة، وآية استغرابهم قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْلَا جُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا».

وفى الجواب يقولون: «قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ».

ثم تستمر الآية بقوله تعالى: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

ومرّة اخرى تضيف: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ».

وإنَّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ».

كنتم غافلين عن أن الله يسمع ويرى، يشهد أعمالكم فى كل حال ومكان، ثم هناك عناصر الرقابة التى ترافقكم وهى معكم فى كل

مكان، فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفى عن أعينكم وآذانكم وجلودكم؟ ثم يقول تعالى: «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ». توضّح الآيات بشكل قاطع خطورة سوء الظن بالله تعالى، ومآل ذلك إلى الهلاك والخسران. وبالعكس ذلك فإنّ حسن الظن بالله تعالى سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيْضَنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَرَيْتُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) قرناء السوء: فى أعقاب البحث السابق حيث تحدّث الآيات الكريمة عن مصير «أعداء الله» جاءت الآيات أعلاه لتشير إلى نوعين من العقاب الأليم الذى ينتظر هؤلاء فى الدنيا والآخرة. يقول تعالى: «فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ». ولا يمكنهم الخلاص منها لأنها مصيرهم سواء صبروا أم لم يصبروا. «مَثْوَى»: من «ثوى» على وزن «هوى» وتعنى المقرّ ومحل الاستقرار. وللتأكيد على هذا الأمر تضيف الآية: «وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٢

«يستعتبون»: مأخوذة فى الأصل من «العتاب» وتعنى إظهار الخشونة، ومفهوم ذلك أنّ الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كى يعفو عنه ويرضى عنه، لذلك فإنّ كلمة (استعتاب) تعنى الإسترضاء وطلب العفو. ثم تشير الآية الثانية إلى العذاب الدنيوى لهؤلاء فتقول: «وَقَيْضَنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَرَيْتُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساوىء لهم حسنات. «قيضنا»: من «قيض» على وزن (فيض) وتعنى فى الأصل قشرة البيضه الخارجيه، ثم قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل، كسيطرة القشرة على البيضه.

وهذه إشارة إلى أنّ أصدقاء السوء والرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان، حيث يصادرون أفكارهم، ويهيمنون عليهم بحيث يفقدون معه قابلية الإدراك والإحساس المستقل، وعندها ستكون الامور القبيحة السيئه جميله حسنه فى نظرهم. لقد ورد هذا المعنى بشكل أوضح فى الآيتين (٣٦ و ٣٧) من سورة الزخرف فى قوله تعالى: «وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ». وبسبب هذا الوضع تضيف الآية بأنّ الأمر الالهى صدر بعذابهم وأنّ مصيرهم هو مصير الامم السالفه: «وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ».

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ».

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أقدامنا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) الضجيج فى مقابل صوت القرآن: بعد أن تحدّث الآيات السابقة عن الأقوام الماضين كقوم عاد وثمود، وتحدّثت عن جلساء السوء وقرناء الشر، تتحدّث المجموعة التى بين أيدينا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٣

من الآيات البينات عن جانب من جوانب الإنحراف لمشركى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله.

القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى هذه الآيات، حيث يقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ». هذا الاسلوب فى مواجهة تأثير الحق ونفوذه بالرغم من كونه اسلوباً قديماً، إلا أنه يستخدم اليوم بشكل أوسع وأخطر لصرف أفكار الناس وخنق أصوات المنادين بالحق والعدالة، فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسمع صوت الحق. فتارة يتم اللغو بواسطة الضججه والضوضاء والصفير.

واخرى بواسطة القصص الكاذبة والخرافية.

وثالثة بواسطة قصص الحب والعشق المثيرة للشهوات.

وقد يتجاوز مكرهم مرحلة القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصة بالفساد وأنواع الأفلام المبتذلة والمطبوعات المنحرفة الرخيصة، والألاعيب السياسية الكاذبة والمثيرة، إنهم يعمدون إلى الاستعانة بأى أسلوب يؤدي إلى حرف أفكار الناس واهتماماتهم عن الحق.

الآية الاخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: «فَلْتَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا».

خاصة اولئك الذين يمنعون الناس من سماع آيات الله.

وهذا العذاب يمكن أن يشملهم في الدنيا بأن يقتلوا على أيدي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أو يقعوا في أسرهم، وقد يكون في الآخرة، أو يكون العذاب في الدنيا والآخرة معاً.

قوله تعالى: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ».

كما أن قوله تعالى: «كَانُوا يَعْمَلُونَ» دليل على أنه سيتم التأكيد على الأعمال التي كانوا يقومون بها دائماً.

وللتأكيد على قضية العذاب، يأتي قوله تعالى: «ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ».

وهذه النار ليست مؤقتة زائلة بل: «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ». نعم، فذلك: «جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

«يجحدون»: من «جحد» إشارة إلى إنكار الحقائق مع العلم بها، وهذا من أسوأ أنواع الكفر.

لذلك تشير الآية التالية إلى هذا المعنى الذي يشمل الكفار وهم في الجحيم فيقول:

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٤

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَصْلَمْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ». إن اولئك كانوا ينهوننا عن سماع قول النبي وكانوا يقولون: إنه ساحر مجنون.

والمقصود من الجن والانس - في الآية - هم الشياطين، والناس الذين يقومون بالغواية مثل الشياطين، وليس هما شخصان معينان.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين: بعد أن تحدت القرآن الكريم عن المنكرين المعاندين الذين يصدون عن آيات الله، وأبان جزاءهم وعقوبتهم، بدأ الآن (في الصورة المقابلة) في الحديث عن المؤمنين الراسخين في إيمانهم، وأشار إلى سبعة أنواع من الثواب الذي يشملهم جزاء ومثوبة لهم. يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا».

فلا تقلقوا من الصعوبات التي تنتظركم، ولا تحزنوا على ذنوبكم الماضية.

هناك الكثير من الذين يدعون محبة الله، إلّا أننا لا نرى الاستقامة واضحة في عملهم وسلوكهم، فهم ضعفاء وعاجزون بحيث عندما يشملهم طوفان الشهوة يودعون الإيمان ويشركون في عملهم.

وينبغي أن نتنبه هنا إلى أن «الاستقامة» مثلها مثل «العمل الصالح» هي ثمرة لشجرة الإيمان، إذ الإيمان يدعو الإنسان إلى الاستقامة متى ما نفذ إلى عمق الإنسان، وتأسست قواعد وجوده النفسى على التقوى، كما أن الاستقامة تقوى في الإنسان ملكة التقوى والسير في طريق الحق والإيمان.

روى أن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله! حدثني بأمر أعتصم به. قال:

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٥

«قل ربى الله ثم استقم» (١).

فبعد البشارتين الاولى والثانية والمتمثلتين بعدم (الخوف) و (الحزن) تصف الآية المرحلة الثالثة بقوله تعالى: «وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ

تُوَعَدُونَ».

والبشارة الرابعة يتضمنها قوله تعالى: «نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ».

فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم في الخير وتعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنة.

وهذا- أى البشارة الرابعة- دليل على أن المؤمنين من ذوى الاستقامة يسمعون هذا الكلام من الملائكة فى الدنيا عندما يكونون أحياء، إلبا أن ذلك لا- يكون باللسان واللفظ، بل يسمعون ذلك بأذن قلوبهم، بما يشعرون به من هدوء واستقرار وسكينة وإحساس كبير بالراحة عند المشاكل والصعاب، وتثبت أقدامهم من السقوط والانحراف.

والبشارة الخامسة قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ». أى: فى الجنة.

أما البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادية وما تريدونه. بل الاستجابة إلى العطايا والموهب المعنوية: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ».

أما البشارة السابعة والأخيرة فهى أنكم ستحلون ضيوفاً لدى البارئ عز وجل وفى جنته الخالدة، وستقدم لكم كل النعم تماماً مثلما يتم الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: «نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ».

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا أُولُو حُظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ادْفَعْ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ: مازالت هذه المجموعة من الآيات الكريمة تتحدث عن الصورة الأخرى عن المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول. يقول تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

(١) سنن ابن ماجه ٢/١٣١٤؛ سنن ترمذى ٤/٣٢.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٦

إن الآيه الكريمة هذه ترسم ثلاث صفات لذى القول الحسن هى: الدعوة إلى الله، والعمل الصالح، والتسليم حيال الحق. بعد بيان الدعوة إلى الله وأوصاف الدعاء إلى الله، شرحت الآيات اسلوب الدعوة وطريقتها، فقال تعالى: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ».

فى الوقت الذى لا يملك فيه أعداؤكم سوى سلاح الإفتراء والإستهزاء والسخرية والكلام البذى وأنواع الضغوط والظلم؛ يجب أن يكون سلاحكم- أنتم الدعاء- التقوى والطهر وقول الحق واللين والرفق والمحبة.

وبالرغم من أن (الحسنة) و (السيئة) تنطويان على مفهومين واسعين، إذ تشمل الحسنة كل إحسان وجميل وخير وبركة، والسيئة تشمل كل انحراف وقبح وعذاب، إلبا أن الآيه تقصد ذلك الجانب المحدد من السيئة والحسنة، الذى يختص بأساليب الدعوة.

ثم تضيف الآيه: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

إدفع الباطل بالحق، والجهل والخشونة بالحلم والمدارة، وقابل الإساءة بالإحسان، فلا ترد الإساءة بالإساءة، والقبح بالقبح، لأن هذا اسلوب من همم الانتقام، ثم إن هذا الاسلوب يقود إلى عناد المنحرفين أكثر.

وتشير الآيه فى نهايتها إلى فلسفه وعمق هذا البرنامج فى تعبير قصير، فتقول: إن هذا التعامل سيقود إلى: «فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ».

«ولى»: هنا بمعنى الصديق؛ و «حميم»: تعنى فى الأصل الماء الحار المغلى، ويقال للأصدقاء المخلصين والمحبين للشخص «حميم» والآيه تقصد هذا المعنى.

إن هذا الاسلوب من التعامل مع المعارضين والأعداء ليس بالأمر العادى السهل، والوصول إليه يحتاج إلى بناء أخلاقى عميق، لذلك فإن الآيه التى بعدها تبين الاسس الأخلاقية لمثل هذا التعامل فى تعبير قصير ينطوى على معانى كبيرة، حيث يقول تعالى:

«وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا».

و كذلك: «وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».

إنّ هناك - بلا شك - موانع تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، وإنّ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من تحقيق ذلك بوسائل مختلفة، لذلك نرى الآية الأخيرة تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله بوصفه الاسوة والقوة فتقول له: «وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«نزغ»: تعنى الدخول في عملٍ ما لإفساده، ولهذا السبب يطلق على الوسواس

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٧

الشيطنانية «نزغ»، وهذا التحذير بسبب ما يراود ذهن الإنسان من مفاهيم مغلوطة خطيرة، إذ يقوم بعض ادعياء الصلاح بتوجيه النصائح على شاكلة قولهم: لا يمكن إصلاح الناس إلا بالقوة، وأمثال ذلك من الوسواس التي تنتهي إلى مقابلة السيئة بالسيئة. القرآن الكريم يقول: إياكم والسقوط في مهاوى هذه الوسواس، ولا تلجأوا إلى القوة إلا في موارد معدودة. وأخيراً، تتضمن الآية الدعوة إلى الاستعاذة بالله في دائرة واسعة.

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنِّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) السجود لله تعالى: تعتبر هذه الآيات بداية فصل جديد في هذه السورة، فهي تختص بقضايا التوحيد والمعاد، ودلائل النبوة وعظمة القرآن، وهي في الواقع مصداق واضح للدعوة إلى الله في مقابل دعوة المشركين إلى الأصنام. تبدأ أولاً من قضية التوحيد، فتدعو الناس إلى الخالق عن طريق الآيات الأفاقية: «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» (١).

فالليل وظلمته للراحة، والنهار وضوءه للحركة. أما الشمس فهي مصدر كل البركات المادية في منظومتنا، فالضوء والحرارة والحركة ونزول المطر، ونمو النباتات ونضج الفواكه، وحتى ألوان الورود الجميلة، كل ذلك يدين في وجوده إلى الشمس. القمر يقوم بدوره بإضاءة الليالي المظلمة، وضوءه دليل السائرين في دروب الصحراء، وهو يجلب الخيرات بتأثيره على مياه البحار وحدوث الجزر والمد فيه.

ولعل البعض قام بالسجود لهذين الكوكبين السماويين وعبادتهما بسبب الخيرات

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ السجدة هنا واجبة في حال سماع الآية أو تلاوتها.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٥٨

والبركات الأنفة الذكر، فتأهوا في عالم الأسباب. ولذلك نرى القرآن بعد هذا البيان يقول مباشرة: «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». إنّ هذه الآية تستدل على وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذي يتحكم بالشمس والقمر والليل والنهار، وإنّ حاكميته تعالى على هذه الموجودات تعتبر دليلاً على وجوب عبادته.

فإنّ الله تعالى يخاطبهم بعد ذلك بقوله: «فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ» (١).

فليس مهماً أن لا تسجد مجموعة من الجهلة والغافلين حيال جيروت الله وذاته المقدسة الطاهرة، فهذا العالم الواسع مليء بالملائكة المقربين الذين يركعون ويسجدون ويسبحون له دائماً ولا يفترون أبداً.

ثم إنّ هؤلاء هم بحاجة إلى عبادة الله ولا يحتاج تعالى لعبادتهم، لأنّ فخرهم وكمالهم لا يتم إلّا في ظل العبودية له سبحانه وتعالى.

نعود مرة أخرى إلى آيات التوحيد التي تعتبر الأرضية للمعاد. يقول تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ



اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ».

ثم تنتقل الآية من قضية التوحيد المتمثلة هنا بالحياة التي ما زالت تحيطها الكثير من الأسرار والخفايا والغموض، إلى قضية المعاد، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى .

نعم: «إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فدلائل قدرته واضحة في كل مكان، فكيف نشكك بالمعاد ونعتبره محالاً؟

«خاشعة»: من «الخشوع» وتعنى فى الأصل التضرع والتواضع الملازم للأدب؛ واستخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميتة اليابسة، يعتبر نوعاً من الكناية.

«ربت»: من «ربو» على وزن (غلو) وتعنى الزيادة والنمو، والربا مشتق من نفس هذه الكلمة، لأن المرابي يطلب دينه مع الزيادة.

«اهتزت»: من «هز» على وزن «حظ» وتعنى التحريك الشديد.

(١) «يسأمون»: من كلمة «السائمة» وتعنى التعب من الإستمرار فى العمل أو فى موضوع معين.

مختصر الامثال، ج ٤، ص: ٣٥٩

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَمْ مَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَمَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) محرّفو آيات الحق: المجموعة التي بين أيدينا من آيات السورة الكريمة، بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد، وتضليل الناس، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا».

من الممكن لهؤلاء أن يضلوا الناس بأسلوب المغالطة وباستخدام السفسطة الكلامية، ويخفوا ذلك عن الناس؛ إلا أنه ليس بوسعهم إخفاء ذرة مما يقومون به عن الله تبارك وتعالى.

«يلحدون»: من «إلحاد» وهى فى الأصل من «لحد» على وزن (عهد) وتعنى الحفرة الواقعة فى جانب واحد، ولهذا السبب يطلق على الحفرة فى جانب القبر اسم «اللحد». ثم اطلقت كلمة (إلحاد) على أى عمل يتجاوز الحد الوسط إلى الإفراط أو التفريط، وهى لذلك تطلق لوصف الشرك وعبادة الأصنام، ويقال لمن لا يؤمن بالله تعالى (الملحد).

والمقصود من «الإلحاد فى آيات الله» هو إيجاد الوسواس والتمويه فى أدلة التوحيد والمعاد التي ذكرتها الآيات السابقة بعنوان «ومن آياته».

القرآن الكريم أوضح جزاء هؤلاء فى إطار مقارنة واضحة فقال تعالى: «أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الأشخاص الذين يحرقون إيمان الناس وعقائدهم بنيران الشبهات والتشكيكات سيكون جزاؤهم نار جهنم، بعكس الذين أوجدوا المحيط الآمن للناس بهدایتهم إلى التوحيد والإيمان، فإنهم سيكونون فى أمان يوم القيامة أليس ذلك اليوم هو يوم تتجسد فيه أعمال الإنسان فى هذه الدنيا؟

وعندما يبأس الإنسان من هداية شخص يخاطبه بقوله: افعل ما شئت. لذا فالآية تقول لأمثال هؤلاء: «اعملوا ما شئتم».

لكن عليكم أن تعلموا: «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

مختصر الامثال، ج ٤، ص: ٣٦٠

لكن هذا الأمر لا يعنى أن لهم الحرية فى أن يعملوا ما يشاؤون، أو أن يتصرفوا بما يرغبون، بل هو تهديد لهم لإعراضهم عن كلام الحق.

الآية التي بعدها تتحول من الحديث عن التوحيد والمعاد إلى القرآن والنبوة، وتحذر الكفار المعاندين بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ».

إن إطلاق وصف «الذكر» على القرآن يستهدف تذكير الإنسان وإيقاظه، وشرح وتفصيل الحقائق له بشكل إجمالي عن طريق فطرته. ثم تنطلق الآية لبيان عظمة القرآن فتقول: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ».

إنه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو أن يتغلب عليه، منطقته عظيم واستدلاله قوى، وتعبيره بليغ منسجم وعميق، تعليماته جذرية، وأحكامه متناسقة متوافقة مع الاحتياجات الواقعية للبشر في أبعاد الحياة المختلفة.

ثم تذكر الآية صفة أخرى مهمة حول عظمة القرآن وحيويته، فيقول تعالى: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ». يعنى عدم وجود تناقض في مفاهيمه، ولا ينقض بشيء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقة، ولا يعارض كذلك بالإكتشافات العلمية المستقبلية.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه، ولا يمكن أن ينسخ في المستقبل.

لم تصل إليه يد التحريف بزيادة أو نقص في آية أو كلمة، ولن يطاله ذلك مستقبلاً.

لأنه: «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

أفعال الله عز وجل لا تكون إلا وفق الحكمه وفي غاية الكمال. لذا فهو أهل للحمد دون غيره.

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَمَدُونٌ مَغْفِرَةٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فَصَّلْتَ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّتَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦١

كتاب الهداية والشفاء: قام الكفار والمشركون بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وتكذيبه، والتصدي للاسلام والقرآن. والآيات السابقة كانت تحكى عن إلحادهم وكفرهم بآيات الله لذلك جاءت الآية الاولى من الآيات التي بين أيدينا لمواساة النبي صلى الله عليه وآله وارشاد المسلمين الذين يواجهون الأذى بأن لا محيص لهم عن الاستقامة والصبر. يقول تعالى: «مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ».

إذا كانوا يتهمونك بالجنون والكهانة والسحر، فقد أطلقوا هذه الأوصاف على من قبلك من الأنبياء والمرسلين.

إن دعوتك لدين الحق ليست جديدة، وإن ما تواجهه وأنت تدعو للدين الجديد ليس جديداً أيضاً، لذلك ما عليك - يا رسول الله - إلا أن ترابط بقوة وتلزم ما أنت عليه ولا تهتم بكلام هؤلاء، لأن الله معك.

يقول الله تبارك وتعالى في نهاية الآية: «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ».

فرحمته ومغفرته للمصدقين، وعذابه للمكذبين والمعارضين.

الآية التي بعدها تتحدث عن ذرائع هؤلاء المعاندين، وترد على واحدة منها، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر ويستفيد منه غير العرب؟

وهنا يجب القرآن على هذا القول بقوله: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فَصَّلْتَ آيَاتُهُ».

ثم يضيفون: يا للعجب قرآن أعجمي من رسول عربي؟: «أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ».

أو يقولون: كتاب أعجمي لأمه تنطق بالعربية؟!!

«أعجمي»: من «عجمه» وتعنى عدم الفصاحة والإبهام في الكلام، وتطلق «عجم» على غير العرب لأن العرب لا يفهمون كلامهم بوضوح، وتطلق «أعجم» على من لا يجيد الحديث والكلام سواء كان عربياً أم غير عربى.

ثم يخاطب القرآن الرسول صلى الله عليه وآله بالقول: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً».

أما غيرهم: «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ». أى «ثقل» ولذلك لا يدركونه.

ثم إنه: «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى». أى إنهم لا يرونه بسبب عماهم، فهؤلاء كالأشخاص الذين ينادون من بعيد: «أُولَئِكَ يُتَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

الآية التالية تستمر في مواساة رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين معه وتقول لهم: إن للعناد

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦٢

والإنكار تاريخ طويل في حياة النبوات: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ». وإذ ترى أننا لا نعجل في عقاب هؤلاء الأعداء المعاندين، فذلك لأن المصلحة تقتضى أن يكونوا أحراراً حتى تتم الحججة عليهم: «وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمْ». أى لكان العقاب قد شملهم بسرعة.

إن التأجيل الإلهي إنما يتم هنا لمصلحة الناس ومن أجل المزيد من فرص الهداية والنور، وبغية إتمام الحججة عليهم، وهذه السنة كانت نافذة في جميع الأقوام السابقة، وهى تجرى فى قومك أيضاً.

لكنهم لم يصدقوا بهذه الحقيقة بعد: «وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ».

«مريب»: من «ريب» بمعنى الشك الممزوج بسوء الظن والقلق، لذلك فمعنى الآية: إن المشركين لا يشكون فى كلامك وحسب، بل يزعمون وجود القرائن على بطلانه والتي تؤدى بزعمهم إلى الريب.

فى الآية الأخيرة- من المجموعة- نقف أمام قانون عام يرتبط بأعمال الناس، وقد أكدته القرآن مراراً، وهذا القانون يكمل البحث السابق بشأن استفادة المؤمنين من القرآن، بينما يحرم غير المؤمنين أنفسهم من فيض النور الإلهي والهدى الرباني. يقول تعالى فى هذا القانون: «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ».

لذا فإن من لم يؤمن بهذا الكتاب والدين العظيم فسوف لن يضروا الله تعالى ولا يضروك، لأن الحسنات والسيئات تعود إلى أصحابها، وهم الذين سينالون حلاوة أعمالهم ومرارتها.

كلمة «ظلام» والتي هى صيغة مبالغة بمعنى «كثير الظلم»، يمكن أن تشير- هنا وفى آيات قرآنية أخرى- إلى أن العقاب دون سبب من قبل الخالق العظيم يعتبر مصداقاً للظلم الكثير، لأنه تعالى منزّه عن هذا الفعل.

وذهب بعضهم إلى أن الله تعالى له عباد كثيرون، فلو أراد أن يظلم كل واحد منهم بجزء يسير قليل، عندها سيكون مصداقاً ل «ظلام». إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّجِيسٍ (٤٨)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦٣

الله العالم بكل شىء: الآية الأخيرة- فى المجموعة السابقة- تحدثت عن قانون تحمّل الإنسان مسؤوليته أعماله خيراً كانت أم شراً، وعودة آثار أعماله على نفسه، وهى إشارة ضمنية لقضية الثواب والعقاب فى يوم القيامة.

وهنا يطرح المشركون هذا السؤال: متى تكون هذه القيامة التى تتحدث عنها؟ الآيتان اللتان نبهتكما تبيان أولاً عن هذا السؤال، إذ يقول القرآن: إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ يَخْتَصُّ بِعِلْمِ قِيَامِ السَّاعَةِ: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ».

ثم تضيف الآية: ليس علم الساعة وحده من مختصات العلم الإلهي فحسب، بل يندرج معه أشياء أخرى مثل أسرار هذا العالم، وما يختص بالكائنات الظاهرة والمخفية: «وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ».

«أكمام»: جمع «كم» على وزن «جم» وتعنى الغلاف الذى يغطى الفاكهة و «كم» على وزن «قم» تعنى الجزء من الرداء الذى يغطى اليد. وبما أن أدق المراحل فى عالم الكائن الحى هى مرحلة النمو فى الرحم والولادة، لذلك أكد القرآن على هاتين القضيتين، سواء فى

عالم الإنسان والحيوان، أم في عالم النبات.

ثم يضيف السياق القرآني: إن هذه المجموعة التي تنكر القيامة وتستهزئ بها، ستعرض إلى مشهد يقال لهم فيه: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنَكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ».

فما كنا نقوله هو كلام باطل، كان كلاماً نابعاً من الجهل والعناد والتقليد الأعمى، واليوم عرفنا مدى بطلان ادعاءاتنا الواهية. وهؤلاء في نفس الوقت الذى يسجلون اعترافهم السابق، فهم أيضاً لا يشاهدون أثراً للمعبودات التى كانوا يعبدونها من دون الله من قبل: «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُدْعُونَ مِن قَبْلُ».

إن مشهد القيامة مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الأبواب، فينسون خواطر تلك الأصنام والمعبودات التى كانوا يعبدونها ويسجدون لها ويذبحون لها القرابين.

ففى ذلك اليوم سيعلمون: «وَوَطَّئُوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ».

«محيص»: من «حيص» على وزن «حيف» وتعنى العدول والتنازل عن شىء، ولأن (محيص) اسم مكان، فهى تعنى هنا الملجأ والمفر. «ظنوا»: من «ظن» ولها فى اللغة معنى واسع، فهى أحياناً بمعنى اليقين، وتأتى أيضاً بمعنى الظن، وفى الآية مورد البحث جاءت بمعنى اليقين.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦٤

لَمَّا يَسْأَلُ الْإِنْسَانَ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَقُولُ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِن أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِيقَنَّهِمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) فى نفس الاتجاه الذى تحدثت فيه الآيات السابقة، نلتقى مع مضمون المجموعة الجديدة من الآيات التى بين أيدينا. يقول تعالى: «لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ».

ولكنه: «وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَقُولُ قَنُوطٌ».

والمقصود بالإنسان هنا الإنسان غير المتربى بعد باصول التربية الإسلامية، والذى لم يتنور قلبه بالمعرفة الإلهية والإيمان بالله، ولم يحس بالمسؤولية بشكل كامل.

الآية التالية تشير إلى صفة أخرى من صفات الإنسان الجاهل البعيد عن العلم والإيمان متمثلة بالغرور: «وَلَئِن أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي».

أى: إننى مستحق ولائق لمثل هذه المواهب والمقام.

تضيف الآية بعد ذلك أن هذا الغرور يقود الإنسان فى النهاية إلى إنكار الآخرة حيث يقول: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً». ولنفرض أن هناك قيامة فإن حالى سيكون أحسن من هذا: «وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِي عِنْدَهُو لِلْحُسْنَى .

لكن الله يحذر أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِيقَنَّهِمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ». «العذاب الغليظ»: هو العذاب الشديد المتراكم.

الآية التى بعدها تذكر حالة ثالثة لمثل هؤلاء، هى حالة النسيان عند النعمة والفرح والجزع عند المصيبة. يقول تعالى: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ». أما:

«وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ».

«نا»: من «نأى» على وزن «رأى» وتعنى الابتعاد، وعندما تقترن مع كلمة «بجانبه» فتكون كناية عن التكبر والغرور، لأن المتكبرين يناون بوجوههم دون اهتمام ويتعدون.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦٥

«العرىض»: مقابل الطويل، ويستخدم العرب هاتين الكلمتين للدلالة على الزيادة والكثرة.

إنّ الإنسان الذى يفتقد الإيمان والتقوى يكون عرضةً لمثل هذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناسٍ لله، وإذا أدبرت عنه فتنوط يائس كثير الجزع.

وفى الجانب المقابل نرى أنّ رجال الحق وأتباع الأنبياء والرسل لا يتغيرون إذا أقبلت عليهم النعم، ولا يهنون أو يياسون أو يجزعون عند إدبارها.

الآية الأخيرة تتضمن الخطاب الأخير لهؤلاء، وتبين لهم - بوضوح - الأصل العقلى المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النبى صلى الله عليه وآله فتقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ».

إنّ نفس الاسلوب الذى نقرأ عنه فى محاضرة أئمة المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد، كما نرى ذلك واضحاً فى الحادثة التى ينقلها العلّامة الكلينى رحمه الله فى الكافى حيث يذكر فيه الحوار الذى دار بين الإمام الصادق عليه السلام وابن أبى العوجاء.

فمن المعروف أنّ عبد الكريم بن أبى العوجاء كان من ملاحدة عصره ودهريه، وقد حضر الموسم الحج أكثر من مرّة والتقى مع الإمام الصادق عليه السلام فى مجالس حوار، انتهت إلى رجوع بعض أصحابه عنه إلى الإسلام، ولكن ابن أبى العوجاء لم يسلم، وقد صرّح الإمام عليه السلام بأنّ سبب ذلك: «هو أعمى من ذلك لا يسلم».

والحادثة موضع الشاهد هنا، هى أنّ الإمام بضّر باين أبى العوجاء فى الموسم فقال له:

«ما جاء بك إلى هذا الموضوع؟» فقال: عادة الجسد، وسنة البلد ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمى الحجارة؟ فقال له عليه السلام: «أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم» (١).

فذهب يتكلم فقال له عليه السلام: «لا جدال فى الحج». ورفض ردائه من يده وقال: «إن يكن الأمر كما تقول وليس كما تقول نجونا ونجوت وإن يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول نجونا وهلكت».

فأقبل عبد الكريم على من معه فقال: وجدت فى قلبى حزازه (ألم) فردّونى، فردّوه فمات.

(١) يناديه الإمام بهذا الاسم، وهو اسمه الحقيقى مع كونه منكرًا لله لكى يشعره مهانة ما هو عليه وهذا اسمه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦٦

سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَحِيطٌ (٥٤) علائم الحق فى العالم الكبير والصغير: الآيات الختامتان فى هذه السورة تشيران إلى موضوعين مهمين، وهما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الاولى تتحدث عن التوحيد (أو القرآن)، والثانية عن المعاد. يقول تعالى:

«سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

«آيات الأفاق» تشمل خلق الشمس والقمر والنجوم والنظام الدقيق الذى يحكمها، وخلق أنواع الأحياء والنباتات والجبال والبحار وما فيها من عجائب وأسرار لا تعد ولا تحصى وما فى عالم الأحياء من عجائب لا تنتهى، إنّ كل هذه الآيات هى دليل على التوحيد وعلى وجود الله.

أمّا «الآيات النفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، والنظام المحير الذى يتحكّم بالمخ وحركات القلب المنتظمة والشرايين والعظام والخلايا، وانعقاد النطفة ونمو الجنين فى ظلمات الرحم. ثم أسرار الروح العجيبة. إنّ كل ذلك هى كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

نعود الآن إلى الآية التى تنتهى بجملة ذات مغزى حيث يقول تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ». وهل هناك شهادة أفضل وأعظم من هذه التى كتبت بخط القدرة التكوينية على ناصية جميع الكائنات، على أوراق الشجر، فى الأوراد والزهور، وبين طبقات المخ العجيبة، وعلى الأغشية الرقيقة للعين، وفى آفاق السماء وبواطن الأرض، وفى كل شىء من الوجود تجد أثراً يدل على الخالق، وشهادة تكوينية على وحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه (سبحانه وتعالى).

الآية الأخيرة فى السورة تشير إلى الأساس والسبب فى شقاء هذه المجموعة المشركة الفاسدة، إذ يقول تعالى عنهم: «أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ».

ولأنهم لا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، فهم يقومون بأنواع الجرائم والمعاصى مهما مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦٧

كانت. ولكنهم يجب أن يعلموا: «أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ».

إن جميع أعمالهم ونواياهم حاضرة فى علم الله، وكل ذلك يسجل لمحكمة القيامة والحشر.

«مريء»: تعنى التردد فى اتخاذ القرار، والبعض اعتبرها بمعنى الشك والشبهة العظيمة.

والآية- فى هذا الجزء منها- رد على شبهات الكفار بخصوص المعاد، فهؤلاء يقولون:

كيف يمكن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ينفصل؟

والأكثر من ذلك: من الذى يحيط بنيات الناس وأعمالهم على مدى تاريخ البشرية؟

القرآن يجيب على كل ذلك بالقول: كيف يمكن للخالق المحيط بكل شىء أن لا تكون هذه الامور طوع قدرته وواضحة بالنسبة له؟

ثم إن دليل إحاطة علمه بكل شىء، هو تديره لكل هذه الامور، فكيف يجوز له أن لا يعلم بامور ما خلق ودبر.

إن إحاطة الخالق جلّ وعلا بالموجودات والكائنات تتضمن معنى دقيقاً ولطيفاً يتمثل فى ارتباط كل الكائنات والموجودات بالذات المقدسة.

وبعبارة اخرى: لا يوجد فى عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، وبقية الموجودات والكائنات تعتمد عليه وترتبط به، بحيث لو زال هذا الإرتباط لحظة واحدة فلا يبقى شىء منها.

«نهاية تفسير سورة فصلت»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٦٩

## ٤٤. سورة الشورى

محتوى السورة: إن هذه السورة تتناول قضايا يمكن الإشارة إليها بما يلى:

١- فى القسم الأوّل وهو أهم أقسام السورة، يشتمل البحث فيه على قضية الوحي الذى يمثل طريق ارتباط الأنبياء عليهم السلام بالله تبارك وتعالى.

٢- ثم يشير إلى دلائل التوحيد، وآيات الله فى الآفاق والأنفس التى تكتمل البحث فى موضوع الوحي.

٣- فى السورة إشارات إلى قضية المعاد ومصير الكفار فى القيامة، وهو محدود قياساً إلى الأقسام الاخرى.

٤- تشتمل السورة على مجموعة من البحوث الأخلاقية.

إن إطلاق اسم «الشورى» على هذه السورة المباركة يعود إلى محتوى الآية (٣٨) منها التى تدعو المسلمين إلى المشورة فى امورهم. فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ حم عسق بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيقول:

عبدى أدمنت قراءة حم عسق ولم تدر ما ثوابها، أمّا لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة». وعندما يدخل الجنة يرفل بأنواع النعم

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٠

الإلهية التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام في الحديث الآنف بشكل مفصل (١).

حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) مرّة اخرى تواجهنا الحروف المقطعة في مطلع السورة، وهي هنا تنعكس بشكل مفصل، إذ بين أيدينا خمسة حروف.

«حم» موجودة في بداية سبع سور قرآنية (المؤمن، فضّلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف) ولكن في سورة الشورى اضيف إليها مقطع «عسق».

بعد الحروف المقطعة تتحدث الآية الكريمة عن الوحي، فنقول: «كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

«كذلك» إشارة إلى محتوى السورة ومضامينها.

ومصدر الوحي واحد، وهو علم الله وقدرته، ومحتوى الوحي في الاصول والخطوط العريضة واحد أيضاً بالنسبة لجميع الأنبياء والرسالات.

وضرورى أن نشير إلى أن الآيات التي نبحثها أشارت إلى سبع صفات من صفات الله الكمالية، لكل منها دور في قضية الوحي بشكل معين، ومن ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما في هذه الآية: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فعرّته تعالى وقدرته المطلقة تقتضى سيطرته على الوحي ومحتواه العظيم. وحكمته تستوجب أن يكون الوحي الإلهي حكيماً متناسقاً مع حاجات الإنسان التكاملية في جميع الامور والشؤون.

قوله تعالى: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

إن مالكيته تعالى لما في السماء والأرض تستوجب ألا يكون غريباً عن مخلوقاته وما

(١) ثواب الأعمال، نقلًا عن تفسير نور الثقلين ٤/ ٥٥٦.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧١

يؤول إليه مصيرها، بل يقوم بتدبير امورها وحاجاتها عن طريق الوحي، وهذه هي الصفة الثالثة من الصفات السبع.

أمّا «العلّي» و «العظيم» اللذان هما رابع وخامس صفة له - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات، فهما يشيران إلى عدم حاجته لأيّ طاعة أو عبودية من عباده.

الآية التي بعدها تضيف: «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ» (١).

وذلك بسبب نزول الوحي من قبل الله، أو بسبب التهم الباطلة التي كان المشركون والكفار ينسبونها إلى الذات المقدسة ويشركون الأصنام في عبادته.

ويتضح مما سلف أن للجملة معينين:

الأول: أنها تختص بموضوع الوحي، وهو في الواقع يشبه ما جاء في الآية (٢١) من سورة الحشر في قوله تعالى: «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

الثاني: أن السماوات تكاد تتفطر وتتلاشى بسبب شرك المشركين وعبادتهم للأصنام من دون الله، بل هم يساوون بين أدنى الكائنات والموجودات وبين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ وعلا.

بقية الآية، قوله تعالى: «وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ».

أما الرابطة بين هذا الجزء من الآية والجزء الذي سبقه، فهو- وفقاً للتفسير الأول- أن الملائكة الذين هم حملة الوحي العظيم وواسطته، يسبحون ويحمدون الله دائماً، يحمدونه بجميع الكمالات، ويتزهون عن جميع النواقص، وعندما ينحرف المؤمنون أحياناً، تقوم الملائكة بنصرهم ويطلبون المغفرة لهم من الله تعالى.

أما وفق التفسير الثاني، فإن تسييح الملائكة وحمدهم إنما يكون لتزيهه تعالى عما ينسب إليه من شرك، وهم يستغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا وسلوكوا طريق التوحيد ورجعوا إلى بارئهم جل جلاله. وأخيراً تشير نهاية الآية الكريمة إلى سادس وسابع صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وتنصب حول الغفران والرحمة، وتتصل بقضية الوحي ومحتواه، وبخصوص وظائفه.

(١) «يتفطرن»: من كلمة «فطر» على وزن «سطر» وتعنى فى الأصل الشق الطولى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٢

المؤمنين، حيث يقول تعالى: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». وبهذا الترتيب أتمت الآيات الكريمات الإشارة إلى مجموعة متكاملة من الأسماء الحسنى المختصة بالله تعالى والمرتبطة بالوحي.

وفى نهاية الآية ثمة إشارة لطيفة إلى استجابة دعاء الملائكة بخصوص استغفارهم للمؤمنين، بل إنه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور مما يدل على عظيم فضله.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مِمَّا لَهُمْ مِنْ وُلْيَىٰ وَلَمَا نَصَرِي (٨) انطلاقة من ام القرى: تحدثت الآيات السابقة عن قضية الشرك، لذلك فإن الآية الاولى فى المجموعة الجديدة، تتناول بالبحث نتيجة عمل المشركين وعاقبة أمرهم، حيث يقول تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ».

ثم تخاطب الآية رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ».

إن مسؤوليتك هى تبليغ الرسالة وإيصال نداء الله إلى جميع العباد.

يعود القرآن إلى قضية الوحي مرة أخرى، وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدثت عن أصل الوحي، فإن الكلام هنا ينصب حول الهدف النهائى له، إذ يقول تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا».

و «أم القرى» هى مكة المكرمة.

ثم تنذر الناس من يوم القيامة وهو يوم الجمع الذى يجتمع فيه الناس للحساب والجزاء:

«وَتُنذِرُ يَوْمَ الْجُمُعِ لَأَرْيَبَ فِيهِ».

وفى ذلك اليوم ينقسم الناس إلى مجموعتين: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

وبما أن الآية أعلاه يقسم الناس إلى فئتين، فإن الآية التى بعدها تضيف: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»؛ على الهداية. إلا أن الإيمان الإجبارى ليست له قيمة، وكيف يمكن لمثل هذا الإيمان أن يكون معياراً للكمال الإنسانى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٣

وكما أن ملكة الحرية والاختيار طريق إلى التكامل، فهى أيضاً سنة إلهية لا تقبل التغيير.

تشير الآية بعد ذلك إلى وصف أهل الجنة والسعادة حيال أهل النار، فيقول تعالى:



«وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

إن كلمة «ولي» تشير إلى المشرف الذي يقوم بالحماية والمساعدة بحكم ولايته ودون أي طلب. أما «النصير» فالذي يقوم بنصر الإنسان ومساعدته بعد أن يطلب العون.

أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) الولي المطلق: أوضحت الآيات السابقة أن لا ولي ولا نصير سوى الله، والآيات التي بين أيدينا تعطى أدلة على هذه القضية، وتنفي الولاية لما دونه سبحانه وتعالى.

تقول الآية بأسلوب التعجب والإنكار: «أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ». إلّا أنه: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ». فلو أراد هؤلاء أن يختاروا ولياً، فعليهم أن يختاروا الله.

ثم تذكر دليلاً آخر فتقول: «وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى».

ويجب اللجوء إليه لا لغيره، لأن المعاد والبعث بيده، وأن أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعد الموت.

ثم تذكر دليلاً ثالثاً فتقول: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وهذه إشارة إلى أن الشرط الرئيسي للولي هو امتلاكه للقدرة الحقيقية.

الآية التي بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ». فهو الوحيد الذي يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إن من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولي إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب.

وبعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية بالله، تقول الآيات على لسان

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٤

النبي صلى الله عليه وآله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي». فهو الذي يتصف بهذه الأوصاف الكمالية ولهذا السبب:

«عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ». أي: أعود إليه في المشكلات والشدائد والزلات. الآية التي تليها يمكن أن تكون دليلاً خامساً على ولاية الله المطلقة، أو دليلاً على ربوبيته، واستحقاقه دون غيره للتوكل والإنابة، إذ تقول: «فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

«فاطر»: من مادة «فطر» وتعني في الأصل فتح شيء ما، وكأما الآية تشير إلى تفتت ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات وخروج الموجودات منه.

والمقصود بالسموات والأرض هنا جميع السماوات والأرض وما فيها من كائنات وما بينها، لأن الخلقية تشملها جميعاً.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: «جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ».

إن الزواج يعتبر أساساً لراحة الروح وسكون النفس، ومن جانب آخر يعتبر الزواج أساساً لبقاء النسل واستمراره، وتكاثره.

الصفة الثالثة التي تذكرها الآية هو قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

إن هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية في معرفة صفات الله الأخرى، وبدونها لا يمكن التوصل إلى أي صفة من صفات الله، لأن أكبر منزلق يواجه السائر في طريق معرفة الله يتمثل في «التشبيه» حيث يشبهون الخالق جلّ وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدّي للسقوط في وادي الشرك.

إن وجود الله تعالى ليس له نهاية ولا يحدّ بحدّ، وكل شيء غيره له نهاية وحدّ من حيث القدر والعمر والعلم والحياة والإرادة والفعل... وفي كل شيء.

وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

تشير نهاية الآية إلى صفات اخرى من صفات الله: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

هو الخالق والمدبر، والسميع والبصير، وفي نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير أو مثيل.

الآية التي بعدها تتحدث عن ثلاثه أقسام اخرى من صفات الفعل والذات حيث توضّح كل واحدة منها قضيه الولاية والربوبية فى بعدٍ خاص. يقول تعالى: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه وتعالى، وكل ما يرغب به راغب ينبغي أن يطلبه

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٥

منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات والأرض وليس «مفاتيحها» وحسب «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١).

«مقاليد»: جمع «مقليد» وتعنى المفتاح، وهى تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كل شىء.

وفى الصفة الاخرى، والتي هى فى الواقع ثمرة ونتيجة للصفة السابقة تقول الآية: «يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات والأرض، فإنّ جميع الأرزاق فى قبضته، ويقسّمها وفقاً لمشيئته التى تصدر بمقتضى حكمته، ويلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، ومكانها وسائر شؤون حياتها الاخرى، لذا تضيف الآية فى آخر صفة قوله تعالى: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وبذلك يتضح أنّ الآيات الأربع التى بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات الله الكمالية سواء الذاتية منها أم الفعلية.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّتْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) الإسلام عصاره شرائع جميع الأنبياء: بما أنّ العديد من بحوث هذه السورة تتعلّق بالمشركين، وأنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن نفس هذا الموضوع أيضاً، لذا فإنّ الآيات التى نبحثها تبين هذه الحقيقة، وهى أنّ دعوة الإسلام إلى التوحيد ليست دعوة جديدة. تقول الآية: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا». والذى هو أوّل نبي من أولى العزم.

(١) سورة المنافقون / ٧.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٦

وأيضاً: «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى .

وبهذا الشكل فما كان موجوداً فى شرائع جميع الأنبياء موجود فى شريعتك أيضاً.

لذا، وكتعليمات عامية لجميع الأنبياء العظام، تقول الآية فى الجملة الاخرى: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ». وبعد ذلك تقول: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ».

فلقد تطبّع هؤلاء على الشرك وعبادة الأصنام بسبب الجهل والتعصب لسنين طويلة، وعشعش ذلك فى أعماقهم بحيث أصبحت الدعوة إلى التوحيد تخيفهم وتوحشهم.

وكما أنّ انتخاب الأنبياء بيد الخالق، كذلك فإنّ هداية الناس بيده أيضاً: «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ».

لقد أشارت هذه الآية إلى خمسة من الأنبياء الإلهيين فقط (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام) لأنّ هؤلاء الخمسة هم الأنبياء اولوا العزم، أى أصحاب الدين والشرايع، وفى الحقيقة فإنّ الآية تشير إلى انحصار الشريعة بهؤلاء الخمسة من الأنبياء.

وبما أن أحد أركان دعوة الأنبياء من اولى العزم هو عدم التفرّق في الدين، فقد كانوا يدعون لذلك حتماً، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كل هذه الاختلافات المذهبية؟

وقد أجابت الآية الاخرى على هذا السؤال وذكرت أساس الاختلافات الدينية بأنه: «وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ».

وبهذا الترتيب فإن أساس التفرّق في الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم والبغى والانحراف عن الحق، والأهواء والآراء الشخصية. فالعلماء الذين يطلبون الدنيا و «الحاقدون من الناس والمتعصبون» إتحدوا معاً لزرع هذه الاختلافات. وتعتبر هذه الآية رداً واضحاً على الذين يقولون بأن الدين أوجد الاختلاف بين البشر، وأدى إلى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ. ثم يضيف القرآن الكريم: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّصَ بَيْنَهُمْ». حيث يهلك أتباع الباطل وينصر أتباع الحق.

فالدنيا هي محل الاختبار والتربية والتكامل، ولا يحصل هذا بدون حرية العمل، وهذا مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٧

هو الأمر التكويني الإلهي الذي كان موجوداً منذ بدء خلق الإنسان ولا يقبل التغيير، إن هذه هي طبيعة الحياة الدنيوية، ولكن ما يمتاز به عالم الآخرة هو أن جميع هذه الاختلافات ستنتهي وسوف تصل الإنسانية إلى الوحدة الكاملة.

أما آخر جملة فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعة، أي الذين لم يدركوا عصر الرسل، حيث تقول: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ».

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) فاستقم كما امرت: بما أن الآيات السابقة تحدّثت عن تفرّق الامم بسبب البغى والظلم والانحراف، لذا فإن الآية التي نبحثها تأمر النبي بمحاولة حلّ الاختلافات وإعادة الحياة إلى دين الأنبياء، وأن يبذل منتهى الاستقامة في هذا الطريق، فتقول: «فَلِذَلِكَ فَادْعُ». أي:

ادعوههم إلى الدين الإلهي الواحد وامنع الاختلافات.

ثم تأمره بالاستقامة في هذا الطريق، فتقول: «وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ».

ولعلّ جملة «كما امرت» إشارة إلى المرحلة العالية من الاستقامة، أو إلى أن الاستقامة يجب أن تكون من حيث الكمية والكيفية والزمن والخصوصيات الاخرى مطابقة للقانون الإلهي.

وبما أن أهواء الناس تعتبر من الموانع الكبيرة في هذا الطريق، لذا تقول الآية في ثالث أمر لها: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، لأن كل مجموعة ستدعوك إلى أهوائها ومصالحها الشخصية، تلك الدعوة التي يكون مصيرها الفرقة والاختلاف والنفاق.

وبما أن لكل دعوة نقطة بداية، لذا فإن نقطة البداية هي شخص الرسول صلى الله عليه وآله، حيث تقول الآية في رابع أمر لها: «وَقُلْ ءَأَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ».

وبما أن رعاية (أصل العدالة) ضروري لإيجاد الوحدة، لذا فإن الآية تطرح ذلك في خامس أمر لها فتقول: «وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ». سواء في القضاء والحكم، أو في الحقوق الإجتماعية والقضايا الاخرى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٨

بعد هذه التعليمات الخمس، تشير إلى المشتركات بين الأقسام والتي تلخص بخمس فقرات، حيث تقول: «اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ». وكل واحد مسؤول عن أعماله: «لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ». «لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ».

إضافة إلى ذلك فإننا جميعاً سوف نجتمع في مكان واحد: «اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا».

والذى سوف يقضى بيننا فى ذلك اليوم هو الأحد الذى: «وَالَّذِي الْمَصِيرُ».

وعلى هذا الأساس فإن إلهنا واحد، ونهايتنا ستكون فى مكان واحد، والقاضى الذى إليه المصير واحد، وبالرغم من كل هذا فإننا مسؤولون جميعاً حيال أعمالنا، وليس هناك فرق لإنسان على آخر إلا بالإيمان والعمل الصالح.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعِيدٍ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) الآيات السابقة كانت تتحدث عن واجبات النبى صلى الله عليه وآله، كاحترامه لمحتوى الكتب السماوية، وتطبيق العدالة بين جميع الناس وترك أى محاجة أو خصومة بينه وبينهم، أمّا الآيات التى نبحثها، فلكى تكميل البحث السابق وثبت أن حقايقه نبى الخاتم لا- تحتاج إلى دليل، تقول: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعِيدٍ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ».

وبما أن نقاشهم ومحاجتهم ليس لكشف الحقيقة، بل للعناد والإصرار تقول الآية:

«وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ». «وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندین.

والمقصود من جملة «مِنْ بَعِيدٍ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ» هو استجابة عامة الناس من ذوى القلوب الطاهرة، والذين ليست لهم نوايا خبيثة، ويستسلمون للحق ويخضعون له مستسلمين ذلك من الفطرة الإلهية ومشاهدة محتوى الوحي والمعجزات المختلفة للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٧٩

ثم يشير القرآن إلى أحد أدلة التوحيد وقدره الخالق، وفى نفس الوقت يتضمّن إثبات النبوة حيال المتحاجين ذوى المنطق الواهى، حيث تقول الآية: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ».

«الحق» كلمة جامعة تشمل المعارف والعقائد الحقّة، والأخبار الصحيحة والبرامج المتطابقة مع الحاجة الفطرية والاجتماعية، وما شابه ذلك.

وأمّا «الميزان» فله معنى عام فى مثل هذه الموارد، بالرغم من أن معناه اللغوى هو وسيلة لقياس الوزن، إلّا أنه فى معناه الكنائى يطلق على أى معيار للقياس الصحيح، وحتى شخص الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، حيث أن وجودهم معيار لتشخيص الحق من الباطل وميزان يوم القيامة، والميزان فى القيامة يراد به هذا المعنى.

بناءً على هذا فإن الخالق أنزل كتاباً على نبى الخاتم صلى الله عليه وآله بحيث يعتبر هو الحق، والميزان للتقييم.

وبما أن نتيجة كل هذه الامور، خاصة ظهور الحق بشكل كامل وتحقق العدالة وإقامة الميزان تتضح فى يوم القيامة، لذا فإن الآية تقول فى نهايتها: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ».

ثم يشير القرآن إلى موقف الكفار والمؤمنين حيال القيامة، فتقول الآية: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا».

فهؤلاء لا يقولون ذلك بسبب عشقهم للقيامة والوصول إلى لقاء المحبوب، أبداً، إن كلامهم هذا من قبيل الاستهزاء والإنكار. «وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ».

ومن هنا يتضح مدى التأثير التربوى العميق للإيمان بالقيامة ومحكمة العدل الإلهى الكبيرة على المؤمنين خاصة وفى احتمالهم حصول هذا الأمر فى أية لحظة من اللحظات.

وكإعلان عام، تقول الآية فى نهايتها: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ». لأن نظام هذا العالم يعتبر - بحد ذاته - دليلاً على أنه مقدمة لعالم آخر وبدونه سيكون خلق هذا العالم عبثاً وليس له أى معنى، وهذا لا يتناسب مع حكمه الخالق ولا مع عدالته.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٠

بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن العذاب الإلهي الشديد وعن طلب منكري المعاد للتعجيل بقيام القيامة، لذا فإن أول آية نبحثها هنا تقرن «الغضب» الإلهي مع «اللطف» الإلهي في معرض ردّها على استعجال منكري المعاد: «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ».

ثم طرح الآية أحد مظاهر لطفه العام وهو الرزق، فتقول: «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ». وهذا لا يعنى أن هناك جماعة محرومون من رزقه، بل المقصود البسط في الرزق لمن يشاء.

ونقرأ في الآية (٢٧) من هذه السورة: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ».

وواضح أن (الرزق) هنا يشمل الرزق المعنوي والمادي، الجسماني والروحاني.

وتقول الآية في نهايتها: «وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ».

وعندما يعد الله تعالى عباده بالرزق واللطف فهو قادر على إنجاز هذا الأمر، ولهذا السبب لا يوجد أي تخلف في وعوده أبداً.

الآية التي بعدها شَبَّهت أفراد العالم حيال رزق الخالق وكيفية الاستفادة منه بالمزارعين الذين يقوم قسم منهم بالزراعة للآخرة والقسم الآخر للدنيا، وتحدد عاقبة كل قسم منهم وفق تشبيه لطيف حيث تقول: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ».

وعلى هذا الأساس فلا طلاب الدنيا يصلون إلى ما يريدون، ولا طلاب الآخرة يحرمون من الدنيا.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لِمَا أَسَاءَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: ورد في سبب نزول الآيات (٢٣-٢٦) من هذه السورة، أنه ذكر

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨١

أبو حمزة الثمالي في تفسيره: حدثني عثمان بن عمير عن سعيد بن جبير عن عبدالله بن عباس:

أن رسول الله صلى الله عليه وآله حين قدم المدينة واستحکم الإسلام قالت الأنصار فيما بينها: نأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فنقول له: إن تعرك أمور فهذه أموالنا تحکم فيها غير حرج ولا- محذور عليك. فأتوه في ذلك فنزلت: «قُلْ لَأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ . فقرأها عليهم وقال:

«تودون قرباتي من بعدى». فخرجوا من عنده مسلمين لقوله. فقال المنافقون: إن هذا الشيء افتراه في مجلسه أراد بذلك أن يدلنا لقربته من بعده. فنزلت: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فأنزل الله: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» الآية. فأرسل في أثرهم فبشّرهم وقال: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا» وهم الذين سلّموا لقوله.

التفسير

أجر الرسالة في مودة أهل البيت عليهم السلام: بما أن الآية (١٣) من هذه السورة كانت تتحدث عن تشريع الدين من قبل الخالق بواسطة الأنبياء أولى العزم، لذا فإن أول آية في هذا البحث- كاستمرار للموضوع- تقول في مجال نفى تشريع الآخرين، وأن جميع القوانين ليست معتبرة قبل القانون الإلهي، وأن التقنين يختص بالخالق: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ».

وبعد ذلك يقوم القرآن بتهديد المشرّعين بالباطل، حيث تقول الآية: «وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ» حيث يصدر الأمر بعذابهم.

وفي نفس الوقت يجب عليهم أن لا ينسوا هذه الحقيقة وهي: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

المقصود من (كلمة الفصل) هي المدّة المقررة المعطاة من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد، كي تكون لهم حرية العمل وتم الحجة عليهم.

كما أنّ عبارة (ظالمين) تتحدث عن المشركين الذين لهم عقائد منحرفة قبال القوانين الإلهية وذلك بسبب اتساع مفهوم الظلم، وإطلاقه على أيّ عمل ليس في مورده.

ويظهر أنّ المقصود من (العذاب الأليم) هو عذاب يوم القيامة.

ثم تذكر الآية بياناً مجملًا حول (عذاب الظالمين) ثم بياناً مفصلاً عن (جزاء المؤمنين)، فتقول: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٢

«روضات»: جمع (روضة) وتعني المكان الذي يشتمل على الماء والشجر الكثير، لذا فإنّ كلمة (روضة) تطلق على البساتين الخضراء، ونستفيد من هذه العبارة بشكل واضح أنّ بساتين الجنة متفاوتة، والمؤمنون من ذوى الأعمال الصالحة في أفضل بساتين الجنة.

إلّا أنّ الفضل الإلهي بخصوص المؤمنين ذوى الأعمال الصالحة لا ينتهي هنا، فسوف يشملهم اللطف الإلهي بحيث: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ».

وبهذا الترتيب لا يوجد أيّ قياس بين (العمل) و (الجزاء)، بل إنّ جزاءهم غير محدود من جميع الجهات.

والأجمل من ذلك عبارة «عِندَ رَبِّهِمْ» حيث توضّح اللطف الإلهي اللامتناهي بشأنهم، وهل هناك فوز أكبر من أن يصلوا إلى قرب مقام الخالق.

وليس غريباً أن تقول الآية في نهايتها: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ».

ولبيان عظمه هذا الجزاء تقول الآية التي بعدها: «ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

يبشرهم حتى لا تصعب عندهم آلام الطاعة والعبودية ومجاهدة هوى النفس والجهد حيال أعداء الله.

وقد يتوهم أنّ نبي الخاتم صلى الله عليه و آله يريد جزاءً وأجرًا على إبلاغ هذه الرسالة، لذا فإنّ القرآن يأمر الرسول بعد هذا الكلام ليقول: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . أَى حَبّ أهل بيتي».

ومودّة ذوى القربى ومحبتهم ترتبط بقضية الولاية وقبول قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام من آل الرسول حيث تعتبر في الحقيقة استمراراً لقيادة النبي واستمراراً للولاية الإلهية، وجلّى أنّ قبول هذه الولاية والقيادة كقبول نبوة النبي صلى الله عليه و آله ستكون سبباً

لسعادة البشرية نفسها وستعود نتائجها إليها.

في تفسير القرطبي: في رواية سعيد بن جبیر عن ابن عباس: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نُوَدِّهِمْ؟

قال: «علي وفاطمة وأبناؤهما».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٣

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أنّه ورد في آخر الآية: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ». وهل هناك حسنة أفضل من أن يكون الإنسان دائماً تحت راية القادة الإلهيين، يحبهم بقلبه، ويستمر على خطهم، يطلب منهم التوضيح

للقضايا المبهمة في كلام الخالق، يعتبرهم القدوة والأسوة وسيرتهم وعملهم هو المعيار.

«اقترف» مأخوذة في الأصل من (قرف) على وزن (حرف) وتعني قطع القشرة الإضافية من الشجرة، أو من الجروح الحاصلة، حيث تكون أحياناً علامة على شفاء الجرح وتحسنه، هذه الكلمة استخدمت فيما بعد في الإكتساب سواء كان حسناً أو سيئاً.

والطريف في الأمر أن بعض التفاسير تنقل عن ابن عباس و (السدي) أن المقصود من (اقتراف الحسنه) في الآية الشريفة هو مودة آل محمد.

وجاء في حديث عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «اقتراف الحسنه مودتنا أهل البيت».

وواضح أن المقصود من هذه التفاسير أن معنى اكتساب الحسنه لا يتحدد بمودة أهل البيت عليهم السلام، بل له معنى أوسع و أشمل ولكن بما أن هذه الجملة وردت بعد قضية مودة ذى القربى لذا فإن أوضح مصداق لإكتساب الحسنه هو هذه المودة.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) هذه الآيات تعتبر استمراراً للآيات السابقة في موضوع الرسالة وأجرها، ومودة ذوى القربى وأهل البيت عليهم السلام. فأول آية تقول: إن هؤلاء القوم لا- يقبلون الوحي الإلهي، بل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». وهذا الإعتقاد وولد أفكارهم حيث ينسبونه إلى الخالق.

في حين: «فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» ويجردك من قابلية إظهار هذه الآيات.

وفي الحقيقة، فإن هذا الأمر إشارة إلى الاستدلال المنطقي المعروف، وهو أنه إذا ادعى شخص النبوة، وجاء بالآيات البينات والمعجز، وشمله النصر الإلهي، فلو كذب على الخالق فإن الحكمة الإلهية تقتضى سحب المعجز منه وفضحه وعدم حمايته.

ثم تقول الآية لتأكيد هذا الموضوع: «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٤

فهذه هي مسؤولية الخالق في توضيح الحق وفضح الباطل وفقاً لحكمته، وإلا فكيف يسمح لشخص بالكذب عليه وفي نفس الوقت ينصره ويظهر على يديه المعجز؟

كما أن من الاخطاء الكبيرة أن يتصور بعض المشركين قيام الرسول صلى الله عليه وآله بهذا العمل مخفياً ذلك عن علم الخالق: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وبما أن الخالق يبقى طريق الرجعة مفتوحاً أمام العباد، لذا فإن الآيات القرآنية بعد ذم أعمال المشركين والمذنبين القبيحة تشير إلى أن الابواب التوبة مفتوحة دائماً، ولذا تقول الآية محل البحث: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ».

إلا أنكم إذا تظاهرت بالتوبة وأخفيت أعمالاً أخرى، فلا تتصوروا أن ذلك يخفى عن علم الخالق، لأنه: «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

أما آخر آية فتوضح الجزاء العظيم للمؤمنين، والعذاب الأليم للكافرين في جمل قصيرة فتقول: إن الله تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين وطلباتهم: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». بل: «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ». وسوف يعطيهم ما لم يطلبوا: «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».

هذه السورة (سورة الشورى) من السور المكية إلا أن بعض المفسرين يعتقدون أن هذه الآيات الأربع (٢٣-٢٦) نزلت في المدينة، وسبب النزول الذي ذكرناه في بداية تفسير هذه الآيات يشهد على هذا المعنى.

وأيضاً فإن الروايات التي تفسر أهل البيت بعلى وفاطمة وبنيهما الحسن والحسين عليهم السلام تناسب هذا المعنى، لأننا نعلم أن زواج على من سيده النساء عليهما السلام تم في المدينة، وولادة الحسن والحسين عليهما السلام كانتا في العام الثالث والرابع الهجري على ما

رواه المؤرخون.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعِيدٍ مَا فَتَطُورًا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ

وَلِيِّ وَ لَا نَصِيرٍ (٣١)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٥

سبب النزول

في تفسير القرطبي: قال خباب بن الأرت: أن الآية «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَّا يَشَاءُ». فبزلت.

التفسير

ورد في آخر آية من الآيات السابقة من أن الخالق يستجيب دعوة المؤمنين، وفي أعقاب ذلك يطرح هذا السؤال: لماذا نرى البعض منهم فقراء، ولا ينالون ما يرغبونه مهما يدعون؟

تقول الآية: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَّا يَشَاءُ».

وبهذا الترتيب فإن تقسيم الأرزاق يقوم على حساب دقيق من قبل الخالق تجاه عباده، وهذا يحدث بسبب: «إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ».

فهو يعلم بمقدار استيعاب أي شخص فيعطيه الرزق وفقاً لمصلحته، فلا يعطيه كثيراً ليطغى، ولا قليلاً فيعيش الضنك من الفقر.

صحيح أن الخالق ينزل الرزق بقدر حتى لا يطغى العباد، إلا أنه لا يمنعهم أو يحرمهم، لذا فإن الآية التي بعدها تقول: «وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ».

ولماذا لا يكون هذا: «وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ».

هذه الآية تتحدث عن آيات وعلائم التوحيد في نفس الوقت الذي تبين فيه نعمة ولطف الخالق، لأن نزول المطر يشتمل على نظام دقيق للغاية ومحسوب.

ولهذه المناسبة - أيضاً - فإن الآية التي بعدها تتحدث عن أهم آيات علم وقدره الخالق، حيث تقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ».

وتقول الآية في نهايتها: «وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ».

والمقصود من جمع الأحياء الذي تذكره هذه الآية، فقد ذكر العديد من المفسرين أنه الجمع للحساب وجزاء الأعمال في القيامة.

ويحتمل في تفسير الآية أعلاه أن المقصود من (الجمع) الجانب المقابل ل (بث)، أي أن (بث) تشير إلى خلق أنواع الكائنات الحية باختلافها، ثم إذا شاء الخالق (جمعها) وأفناها.

فكما أن العديد من الأحياء - (على مدى التاريخ) - انتشرت بشكل عجيب، ثم انقرضت واختفت فيما بعد، كذلك جمعها وإبادتها يكون بيد الخالق.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٦

وبما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن الرحمة الإلهية، لذا يطرح سؤال في هذا المجال، وهو كيف تجتمع الرحمة وكل هذه المصائب التي تصيبنا.

الآية الأخرى تجيب على هذا السؤال وتقول: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ».

ثم إن هذا الجزاء ليس جزاءً على جميع أعمالكم القبيحة، لأنه «وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ».

تبين هذه الآية وبوضوح أن فلسفة الحوادث المؤلمة والمشاكل الحياتية التي تصيب الإنسان هي نوع من التحذير والعقاب الإلهي.

في جامع الأخبار عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «إن البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة».

على أية حال، فقد يتصور البعض أنهم يستطيعون الهروب من هذا القانون الإلهي الحتمي، لذا فإن آخر آية في هذا البحث تقول: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» (١).



وفى السماء بطريق أولى وكيف تستطيعون الهروب من قدرته وحاكميته فى حين أن كل عالم الوجود هو فى قبضته ولا منازع له. وإذا كنتم تعتقدون بوجود من سيساعدكم وينصركم، فاعلموا: «وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

وفى الحقيقة فإن آخر آية تجسد ضعف وعجز الإنسان، والآية التى قبلها عدالة الخالق ورحمته.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنَّ يَشَأُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)

(١) «معجزين»: من كلمته «إعجاز»، لأنها وردت فى العديد من الآيات القرآنية بمعنى الهروب من محيط القدرة الإلهية ومن عذابه، حيث يقتضى معناها ذلك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٧

هبوب الرياح المنتظمة وحرارة السفن: مرة اخرى نشاهد أن هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق وأدلة التوحيد، وتستمر فى البحث الذى أشارت إليه الآيات السابقة بهذا الخصوص، وهنا تذكر موضوعاً يتعامل معه الإنسان كثيراً فى حياته المادية، خصوصاً المسافرين عبر البحار وسكان السواحل، حيث تقول الآية: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ».

«جوار»: جمع «جارية» وهى صفة للسفن حيث لم تذكر للإختصار، وعادة فإن الآية تقصد حركة السفن، ولذا فقد استخدمت هذه الصفة.

«أعلام»: جمع «علم» تعنى الجبل، لأنها فى الأصل بمعنى العلامة والأثر الباقى الذى يخبر عن شىء معين، مثل (علم الطريق) و (علم الجيش) وما شابه.

أما سمي الجبل بالعلم لأنه ظاهر من بعيد، وأحياناً كانوا يشعلون النار فوق قمته حتى تكون مناراً للسائرين.

وعلى هذا الأساس فإن القرآن يعتبر حركة السفن العملاقة فى هذه الآية - كما فى الآيات المتعددة الاخرى - بسبب هبوب الرياح المنتظمة، من آيات الخالق.

وللتأكيد أكثر تقول الآية: «إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ».

وكاستنتاج تضيف الآية فى نهايتها: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

فهبوب الرياح، وحركة السفن، وخلق البحار، والنظام الخاص المتناسق الذى يتحكم بهذه الامور ... كلها آيات مختلفة للذات المقدسة.

«صبار» و «شكور» صيغتا مبالغة، فهاتان الصفتان توضحان حقيقة الإيمان، لأن المؤمن صبور فى المشاكل والإبتلاءات وشكور فى النعم.

فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر».

مرة اخرى، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهية، تقول الآية الاخرى: «أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا». أى لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التى إرتكبها المسافرون.

إلا أنه بالرغم من ذلك فإن اللطف الإلهى يشمل الإنسان: «وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ».

ونقرأ فى الآية (٤٥) من سورة فاطر: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَائَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

«وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ». وما لهم من ملجأ سوى ذاته

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٨

المنزّهة.

«محيص»، مأخوذة من كلمة «حيص» على وزن (حيف) وتعنى الرجوع والعدول عن أمر ما، وبما أن (محيص) اسم مكان، لذا وردت هذه الكلمة، بمعنى محل الهروب أو الملجأ.

والكلام فى آخر آية موجه إلى الجميع حيث تقول: «فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». ولكن «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنيوى الزائل المحدود التافه بمتاع أبدى خالد، فتلك هى التجارة المربحة العديمة النظير. فى صحيح مسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع؟»

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) هذه الآيات استمرار للبحث الوارد فى الآيات السابقة بخصوص الأجر الإلهي للمؤمنين المتوكلين.

فبعد ذكر الإيمان والتوكل اللذين لهما طبيعة قلبية، تشير هذه الآيات إلى سبعة أنواع من البرامج العملية، وهذه البرامج توضح اساس المجتمع الصالح والحكومة الصالحة القوية.

فأول صفة تبدأ من التطهير حيث تقول الآية أن الثواب الإلهي العظيم سوف يكون من نصيب المؤمنين المتوكلين: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ».

«كبائر»: جمع «كبيرة» وتعنى الذنوب الكبيرة. وقد ورد تفسير للكبائر فى روايات أهل البيت عليهم السلام بأنها: «التي أوجب الله عز وجل عليها النار» (١).

(١) من لا يحضره الفقيه ١/ ١٧٥؛ تفسير العياشى ١/ ١٥١؛ ثواب الأعمال/ ١٩٧.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٨٩

وعلى هذا الأساس فإن أول علائم الإيمان والتوكل هو الاجتناب عن (الكبائر).

أمّا ثانى صفة، والتي لها طبيعة تطهيرية أيضاً، فهى السيطرة على النفس عند الغضب الذى يعتبر من أشد حالات الإنسان حيث تقول الآية: «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ».

فهؤلاء لا يفقدون السيطرة على أنفسهم عند الغضب ولا يرتكبون الجرائم عنده، والأكثر من ذلك غسل قلوبهم وقلوب الآخرين من الحقد بواسطة مياه العفو والغفران.

وهذه الصفة لا تتوفر إلا فى ظل الإيمان الحقيقى والتوكل على الحق.

فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ومن ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا غضب، حرّم الله جسده على النار».

الآية الاخرى تشير إلى الصفة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، حيث تقول:

«وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ». «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ». «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ». «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

فالآية السابقة كانت تتحدث عن تطهير النفس من الذنوب والتغلب على الغضب، إلا أن الآية التى نبهتنا تتحدث عن بناء النفس فى المجالات المختلفة، ومن أهمها إجابة دعوة الخالق، والتسليم حيال أوامره.

وتقول الآية بخصوص سابع صفة للمؤمنين الحقيقين: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ». أى: أنهم إذا تعرّضوا للظلم لا

يستسلمون له، بل يطلبون النصر من الآخرين.

فإنّ المظلوم مكلف بمقاومة الظالم وطلب النصره، وأيضاً فإنّ المؤمنين مكلفون بإجابه.

هذا البرنامج الإيجابي البناء يحذّر الظالمين من مغبه ظلم المؤمنين، حيث إنهم لا يسكتون على ذلك ويقفون بوجههم، وهو أيضاً يؤمل المظلومين بأنّ الآخرين سوف ينصرونكم عند استغاثتكم.

ولكن بما أنّ التناصر يجب أن لا يخرج عن حدّ العدل وينتهي إلى الإنتقام والحقد والتجاوز عن الحد، لذا فإنّ الآية التي بعدها اشترطت ذلك بالقول: «وَجَزَاؤًا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٠

وعمل الظالم يجب أن يسمى ب (سيئه) إلّا أنّ جزاءه وعقابه ليس (سيئه) وإذا وجدنا أنّ الآية عبرت عن ذلك بالسيئه فبسبب العقاب اليم ومؤذ، والألم والأذى بحدّ ذاته (سىء) بالرغم من أنّ قصاص الظالم ومعاقبته يعتبر عملاً حسناً بحد ذاته.

إنّ هذه العبارة يمكن أن تكون مقدمه للعفو الوارد في الجملة التي بعدها، وكأنما تريد الآية القول: إنّ العقاب مهما كان فهو نوع من الأذى، وإذا ندم الشخص عندها يستحق العفو.

لذا ففي مثل هذه الموارد ينبغي عليكم العفو، لأنّ «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ».

وتقول الآية في نهايتها: «إِنَّهُ لَأَجِبُ الظَّالِمِينَ».

فإنّ كلّاً من العفو والعقاب له موقعه الخاص، فالعفو يكون عندما يستطيع الإنسان الإنتقام، وهذا يسمى العفو البناء.

والعقاب والإنتقام والرّد بالمثل يكون عندما يبقى الظالم مستمراً في غيه وضلاله، والمظلوم لم يثبت أركان سيطرته بعد، فالعفو هنا يكون من موقع الضعف فيجب الرّد بالمثل.

وَلَمَنْ أَنْتَصِرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) الظلم والإنتصار: تعتبر هذه الآيات تأكيداً وتوضيحاً وتكميلاً للآيات السابقة بشأن الإنتصار ومعاقبه الظالم والعفو في المكان المناسب. فأولاً تقول الآية: «وَلَمَنْ أَنْتَصِرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ».

لأنّ الإنتصار وطلب العون من الحقوق الطبيعيه لأيّ مظلوم، ونصر المظلومين مسؤوليه كل إنسان حر ومتيقظ الضمير.

«إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ». وإضافه إلى عقابهم الدنيوي: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ينتظرهم في الآخرة.

«بغى»: تعنى في الأصل الجد والمثابرة والمحاولة للحصول على شيء ما، ولكن كثيراً ما تطلق على المحاولات لغصب حقوق الآخرين، والتجاوز عن حدود وحقوق الخالق، لذا فإنّ للظلم مفهوماً خاصاً وللبغى مفهوماً عاماً يشمل أىّ تعدٍ أو تجاوز للحقوق الإلهيه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩١

أما آخر آيه فتشير مرّة أخرى إلى الصبر والعفو، لكي تؤكّد أنّ الإنتقام والعقاب والقصاص من الظالم لا يمنع المظلوم من العفو، حيث تقول: «وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

عبارة (عزم الامور) إشارة إلى أنّ هذا العمل من الأعمال التي أمر الله بها ولا يمكن أن تنسخ، أو أنّه من الأعمال التي يجب أن يشد الإنسان العزم لها.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَائِيٍّ مِنْ بَعِيدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ ظُرْفِ حَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) هل من سبيل للرجعه:

الآيات السابقة كانت تتحدث عن الظالمين، أما الآيات التي نبحتها فتشير إلى عاقبة هذه المجموعة وجوانب من عقابها. فهي تعتبرهم من الضالين الذين لا يملكون أى ولي، فتقول: «وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدِهِ». إنه لا الهداية ولا الضلالة مفروضة وجبرية، إنما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس.

فأحياناً يقوم الإنسان بعمل معين وبسببه يسلب الخالق منه التوفيق ويطمس على قلبه ويمنع عنه نور الهداية ويتركه سابحاً في الظلمات. ثم تضيف الآية: «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ». ولكن مهما كانت هذه الطلبات فإنها ستواجه بالرفض، لأن العودة غير ممكنة أبداً.

الآية الاخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعة حيث تقول: «وَتَرِيَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ». هذه صورة لحالة شخص يخشى من شيء أشد خشية ولا يريد أن ينظر إليه بعينين مفتوحتين، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يتغافل عنه، لذا فهو مجبور على النظر إليه، لكن مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٢ بطرف خفي.

أما آخر عقاب ذكر هنا، فهو سماع اللوم والتوبيخ الأليم من المؤمنين، كما جاء في آخر الآية: «وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ».

فهل هناك خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه، ثم زوجته، وأبناءه وأقرباءه؟ ونصيبه نار الفراق وهو في داخل العذاب الإلهي؟!

ثم تضيف: يا أهل المحشر: «أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ».

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أن (العذاب الخالد) لهؤلاء الظالمين، يدل على أن المقصود هم الكافرون، والآية التي بعدها تشهد على هذه الحقيقة، حيث تقول: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ولتأكيد هذا المعنى تقول الآية في نهايتها: «وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ».

استجيبوا لرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِائًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) بما أن الآيات السابقة ذكرت جانباً من العقاب الأليم الموحش للكافرين والظالمين، فإن الآيات أعلاه تحذّر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، وتدعوهم إلى الاستجابة لدعوة الخالق والعودة إلى طريق الحق. فأول آية تقول: «استجيبوا لرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ».

وإذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه، وأحداً يحميكم غير رحمته، فإنكم على خطأ، لأن: «مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ».

عبارة «يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» تشير إلى يوم القيامة، وليس إلى يوم الموت. كما أن

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٣

عبارة (من الله) تشير إلى أن أحداً لا يستطيع أن يتخذ قراراً بالعودة قبل أمر الخالق جلّ وعلا.

الآية التي بعدها تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله وتواسيه قائلة: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا». فلا تحزن عليهم لأنك لست مسؤولاً عن حفظهم من الانحراف.

«إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلُغُ» سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

ثم ترسم صورة لحال هذه الجماعة غير المؤمنة والمعرضة عن الحق فتقول: «وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا». ويغفل عن ذكر الخالق: «وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ».

فلا النعم الإلهية وشكر المنعم توقظ هذا الإنسان وتجزّه نحو الشكر والمعرفة والطاعة، ولا العقوبات التي تصيبه بسبب الذنوب توقظه من نوم الغفلة، ولا دعوة الرسول تؤثر فيه.

فعوامل الهداية من حيث «التشريع» هي دعوة رسل الخالق، ومن حيث «التكوين» قد تكون النعم وقد تكون المصائب، إلا أن هؤلاء الجهلة ذوى القلوب الميتة لا تؤثر فيهم أى من هذه العوامل.

ثم لبيان حقيقة أن أى نعمة ورحمة فى هذا العالم مصدرها الخالق، ولا يملك الأفراد شيئاً من عندهم، أشارت الآية إلى قضية عامة ومصداق واضح لهذه الحقيقة، حيث تقول: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ».

و «نموذج» واضح لهذه الحقيقة وأن كل ما موجود هو منه، والأفراد لا يملكون شيئاً من عندهم هو أنه: «يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ\* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا».

وبهذا الترتيب فإن الناس يُقسَمون إلى أربع مجاميع: من عنده الأولاد الذكور ويريد البنات، ومن عنده البنات ويريد الذكور، ومن عنده الذكور والإناث، والمجموعة التى تفتقد الأبناء ويأملون ويرغبون فيهم.

«عقيم»: مأخوذة من «عقم» تعنى فى الأصل الجفاف والتصلب المانع من قبول التأثير، والنساء العقيمت تطلق على اللواتى تكون أرحامهن غير مستعدة لتقبل النطفة ونمو الطفل.

و «اليوم العقيم» يطلق على اليوم الذى ليس فيه سرور وفرح، كما يسمى يوم القيامة باليوم العقيم بسبب عدم وجود يوم بعد ذلك اليوم يمكن فيه التعويض عن الماضى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٤

إن استخدام عبارة (يهب) تعتبر دليلاً واضحاً على أن الإناث والذكور من هدايا الخالق وهباته، وليس صحيحاً للمسلم الحقيقى التفريق بين الإثنين.

كما أن استخدام عبارة (يزوجهم) لا- تعنى التزويج هنا، بل تعنى جمع الهبتين (الإناث والذكور) لبعض الناس. وبعبارة اخرى: فإن مصطلح (التزويج) يأتى أحياناً بمعنى الجمع بين الأشياء المختلفة أو الأنواع المتعددة، لأن (زوج) تعنى فى الأصل شيئين أو شخصين متقارنين.

وعلى أية حال، فإن المشيئة الإلهية هى التى تتحكم فى كل شىء وليس فى قضية ولادة الأبناء فحسب، فهو القادر والعليم والحكيم، حيث يقترن علمه بقدرته، لذا فإن الآية تقول فى نهايتها: «إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ».

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥١)  
سبب النزول

فى تفسير القرطبي: إن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه، فإننا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إن موسى لن ينظر إليه»، فنزل قوله «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ» الآية.

التفسير

طرق ارتباط الأنبياء بالخالق: هذه السورة، كما قلنا فى بدايتها، تهتم بشكل خاص بقضية الوحي والنبوّة، فهى تبدأ بالوحي وتنتهى به، لأن الآيات الأخيرة تتحدث عن هذا الموضوع (أى الوحي). وبما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن النعم الإلهية، لذا فإن هذه الآيات تتحدث عن أهم نعمة إلهية وأكثرها فائدة لعالم البشرية، ألا وهى قضية الوحي والارتباط بين الأنبياء والخالق. تقول الآية: «وَمَا

كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا». لأنَّ الخالق منزّه عن الجسم والجسمانية.  
 «أَوْ مِنْ وَرَأَى حِجَابٍ» كما كان يفعل موسى حيث إنّه كان يتحدث في جبل الطور.  
 «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» كما كان يقوم به جبرائيل الأمين وينزل على الرسول صلى الله عليه وآله:  
 «فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ».

فلا يوجد طريق آخر سوى هذه الطرق الثلاثة لتحدّث الخالق مع عباده ل «إِنَّهُ عَلِيٌّ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٥

حَكِيمٌ». فهو أعلى وأجل من أن يرى أو يتكلم عن طريق اللسان، وكل أفعاله حكيمة، ويتم ارتباطه بالأنبياء وفق برنامج.

هذه الآية تعتبر رداً على الذين يتصورون - بجهالة - أنّ الوحي يعنى مشاهدة الأنبياء للخالق وهم يتكلمون معه.  
 وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) القرآن روح من الخالق: بعد البحث العام الذي ورد في الآية السابقة بخصوص الوحي، تتحدث الآيات التي نبهتها عن نزول الوحي على شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث تقول:

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا».

والمقصود من كلمته (روح) في هذه الآية هو القرآن الكريم، لأنّه أساس حياة القلوب وحياة جميع الأحياء.  
 فَإِنَّ الْآيَةَ تَضِيفُ: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا». فهذا هو اللطف الإلهي الذي شملك وأنزل عليك هذا الوحي السماوي وآمنت بكل ما يحتويه.

وتضيف الآية في نهايتها: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فالقرآن نور للجميع وليس لك فحسب، وهو وسيلة لهداية البشر إلى الصراط المستقيم.

وقد ورد نفس هذا المعنى بعبارة أخرى في الآية (٤٤) من سورة فصّلت حيث تقول الآية: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ».

ثم تقول الآية مفسرة للصراط المستقيم: «صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

أمّا آخر جملة في هذه الآية - وهي آخر آية في سورة الشورى - فهي دليل على أنّ الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذي يوصل إلى الخالق، حيث تقول: «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٦

هذه الجملة بشري للمتقين، وهي في نفس الوقت تهديد للظالمين والمذنبين، لأنّ الجميع سوف يرجعون إلى الخالق.

وهي دليل على أنّ الوحي يجب أن يكون من الخالق فقط، لأنّ جميع الامور ترجع إليه، وتدير كل شيء بيده.

وهكذا نرى أنّ بداية ونهاية هذه الآيات منسجمة فيما بينها ومرتبطة، ونهاية السورة - أيضاً - يتلاءم مع بدايتها والموضوع العام السارى عليها.

بحث

ماذا كان دين الرسول الأعظم قبل نبوته: لا يوجد شك في أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يسجد لصنم قبل بعثته أبداً، ولم ينحرف عن خط التوحيد، فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنى، إلّا أنّ العلماء يختلفون في الدين الذي كان عليه:

فأفضل قول هو: لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله يملك برنامجاً خاصاً من قبل الخالق وكان يعمل به، وفي الحقيقة فقد كان له دين خاص حتى زمان نزول الإسلام عليه.

والدليل على هذا الكلام الجملة التى ورد فى الخطبة (١٩٢) فى نهج البلاغة، وهو: «ولقد قرن الله به- صلى الله عليه وآله- من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره». فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

«نهاية تفسير سورة الشورى»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٧

## ٤٣. سورة الزخرف

محتوى السورة: يمكن تلخيص مباحث هذه السورة فى سبعة فصول:

- ١- فى بداية السورة يتحدث عن أهمية القرآن المجيد، ونبوة نبي الخاتم صلى الله عليه وآله، ومواجهة المشركين لهذا الكتاب السماوى.
  - ٢- يذكر قسماً من أدلة التوحيد فى الآفاق، ونعم الله المختلفة على البشر.
  - ٣- ثم يكمل هذه الحقيقة عن طريق محاربة الشرك، ونفى ما ينسب إلى الله عز وجل من الأقاويل الباطلة، ومحاربة التقاليد العمياء.
  - ٤- وينقل جانباً من قصص الأنبياء الماضين واممهم، وتاريخهم لتجسيد هذه الحقائق. مختصر الامثل ج ٤ ٤١٩
  - ٥- ويتعرض إلى مسألة المعاد، وجزاء المؤمنين، ومصير الكفار المشؤوم، ويحذر المجرمين ويهددهم بتهديدات وتحذيرات وإنذارات قوية.
  - ٦- ويتناول القيم الباطلة التى كانت ولا تزال حاكمة على أفكار الأشخاص الماديين، ووقوعهم فى مختلف الإشتباهات حينما يقيمون مسائل الحياة ويزنونها بالميزان الدنيوى.
  - ٧- وهو فصل المواعظ والنصائح العميقة المؤثرة حيث يكمل الفصول الأخرى.
- وقد أخذ اسم هذه السورة (الزخرف) من الآية (٣٥) منها، التى تتحدث فى القيم المادية.
- فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ سورة الزخرف، كان مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٨

ممن يقال له يوم القيامة: يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنة بغير حساب».

إن هذه البشارة العظمى، والفضيلة التى لا تقدّر، لا تحصل بمجرد التلاوة الخالية من التدبر والإيمان والعمل الصالح، لأن التلاوة مقدمة للفكر، والإيمان والعمل الصالح ثمرة له.

حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (٤) أَ فَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) مرّة أخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، وهى حروف «حم». وهذه رابع سورة تبدأ ب (حم).

ويقسم تعالى بالقرآن الكريم فى الآية الثانية، فيقول: «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ».

قسماً بهذا الكتاب الواضحة حقائقه، والبيّنة معانيه ومفاهيمه، والظاهرة دلائل صدقه.

ثم يضيف: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

إن كون القرآن «عربياً»، إما بمعنى أنه نزل بلغة العرب التى هى أوسع لغات العالم فى بيان الحقائق، أو بمعنى فصاحته، لأن أحد معانى كلمة «عربى» هو (الفصيح) وهى إشارة إلى أننا قد جعلناه فى منتهى الفصاحة وغايتها، لتظهر الحقائق جيّداً من خلال كلماته وجملته،

ويدركها الجميع جيداً.

ثم يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات اخرى لهذا الكتاب السماوى فيقول: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ». «الام»: فى اللغة تعنى أصل كل شىء وأساسه، وإنما يقول العرب للأثم امياً لأنها أساس العائلة ومأوى الأولاد، وعلى هذا فإن (ام الكتاب) يعنى الكتاب الذى يكون أساساً لكل الكتب السماوية. إنه كتاب علم الله المحفوظ لديه، والذى ادرجت فيه كل حقائق العالم، وكل

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٣٩٩

حوادث الماضى والمستقبل، وكل الكتب السماوية، ولا يستطيع أى أحد أن يصل إليه ويعلم ما فيه، إلا إذا أراد الله سبحانه أن يعلم أحداً بالمقدار الذى يريده عز وجل.

وهذا وصف عظيم للقرآن الذى ينبع من علم الله اللامتناهى، وأصله وأساسه لديه سبحانه، ولهذا يقول فى الصفة الثانية: (لعلي) وفى الثالثة (حكيم).

واعتر البعض الآخر علو القرآن لاحتوائه على حقائق لا تدركها أفكار البشر، وهى بعيدة عن مدى ما تستوعبه عقولهم. وفى الآية التالية يخاطب المنكرين للقرآن والمعرضين عنه فيقول: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ». صحيح أنكم لم تألوا جهداً فى مخالفتكم للحق وعدائه، إلا أن رحمة الله سبحانه واسعة بحد لا تشكل هذه الأعمال المناوئة حاجزاً فى طريقها، ونظّل نزل باستمرار هذا الكتاب السماوى الذى يوقظكم، وآياته التى تبعث الحياة فيكم، حتى تهتز القلوب التى لها أدنى حظ من الإستعداد وتثوب إلى طريق الحق، وهذا هو مقام رحمة الله العامة، أى: رحاميته التى تشمل العدو والصديق، والمؤمن والكافر. «الصفح»: فى الأصل بمعنى جانب الشىء وطرفه، ويأتى أيضاً بمعنى العرض والسعة، وهو فى الآية بالمعنى الأول. أى: أنحول عنكم هذا القرآن الذى هو أساس التذكرة إلى جانب وطرف آخر؟

«المسرف»: من الإسراف، وهو تجاوز الحد، إشارة إلى أن المشركين وأعداء النبى صلى الله عليه وآله لم يقفوا عند حد فى خلافهم وعدائهم مطلقاً.

ثم يقول فى عبارة قصيرة كشاهد على ما قيل، وتسلياً لخاطر النبى صلى الله عليه وآله وتهديداً للمنكرين المعاندين: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

إن هذه المخالفات وأنواع السخريه لم تكن لتمنع لطف الله ورحمته أبداً، فإنها فيض متواصل من الأزل إلى الأبد، ووجود يعم عطاؤه كل العباد، بل إنه سبحانه قد خلقهم للرحمة «وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ» (١). ولهذا فإن إعراضكم وعنادكم سوف لا يمنع لطفه مطلقاً.

(١) سورة هود/ ١١٩.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٠

لكن، ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء بأن لطف الله اللامتناهى سيحول دون عقابهم فى النهاية، لأن العقاب بنفسه من مقتضى حكمته، ولذلك يضيف فى الآية التالية: «فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ». فالآية تخاطب النبى صلى الله عليه وآله بأننا سبق وأن ذكرنا لك نماذج كثيرة من هذه الأقوام العاصية الطاغية، وأوحينا إليك تفصيل حالهم بدون زيادة أو نقصان، وكان من بينهم أقوام أقوى وأشد من مشركى العرب كثيراً، ولهم إكاثيات وثروات وأفراد وجيوش وإمكانات واسعة... كفرعون وآل فرعون. «البطش»: بمعنى أخذ الشىء بالقوة، وهنا اقترن بكلمة «أشد» وتعطى مفهوم شدة القوة والقدرة أكثر.

والضمير فى «منهم» يعود على مشركى العرب الذين خوطبوا فى الآيات السابقة.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ



تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَتَسْتَبْتُوا عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَا هُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِآيَاتٍ كَمَا جِئْتُمْ بِآيَاتِكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْيِينَ عَظِيمٍ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْ لَمَّا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سِقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِيُؤْتِيَهُمْ آبُؤَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَنَكَّبُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْمُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُسْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) بعض أدلّة التوحيد: من هنا يبدأ البحث حول التوحيد والشرك، فتستعين الآيات بقطرة هؤلاء وطبنتهم لإثبات التوحيد. يقول سبحانه: «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ».

إنّ هذا التعبير الذي ورد بتفاوت يسير في أربع آيات من القرآن الكريم - العنكبوت / ٦١، لقمان / ٢٥، الزمر / ٣٨ والزخرف في الآية التي نبحتها - دليل على كون معرفة الله سبحانه أمر فطري مغروس في طينه البشر وطبيعتهم من جانب، ومن جانب آخر يدل على مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠١

أنّ المشركين كانوا مقرّين بأنّ خالق السماوات والأرض هو الله سبحانه.

ثم يشير سبحانه إلى خمس نعم من نعم الله العظيمة، والتي تعتبر كل منها نموذجاً من نظام الخلق، وآية من آيات الله سبحانه، فيقول أولاً: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا».

ونعلم أنّ الهدوء النفسى هو الدعامة الأساسية للاستفادة من النعم الاخرى والتنعم بها.

ثم يضيف سبحانه لتبيان النعمة الثانية: «وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

إنّا نعلم أنّ التظايرس تعمّ كل اليابسة تقريباً، وفيها الجبال والتلال والهضاب، والبديع أن توجد بين أعظم سلال جبال العالم فواصل يستطيع الإنسان أن يشق طريقه من خلالها، وقلماً اتفق أن تكون هذه الجبال سبباً لإنفصال أقسام الكرة الأرضية عن بعضها تماماً، وهذا واحد من أسرار نظام الخلق، ومن مواهب الله سبحانه وعطاياه للعباد.

وذكرت الموهبة الثالثة - وهي موهبة نزول المطر، وإحياء الأراضي الميتة - في الآية التالية: «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ». من قبوركم يوم البعث.

وبعد ذكر نزول المطر وحياء النباتات، يشير في المرحلة الرابعة إلى خلق أنواع الحيوانات، فيقول سبحانه: «وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا».

إنّ التعبير «الأزواج» كناية عن أنواع الحيوانات بقربنة ذكر النباتات في الآية السابقة.

ونعلم أنّ قانون الزوجية سنّة حياتية في كل الكائنات الحية، والعينات الاستثنائية لا تقدر بجامعية هذا القانون.

وفي المرحلة الخامسة تبين الآيات آخر نعمة من هذه السلسلة فيقول سبحانه: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالثَّمَرَاتِ مَا تَرْكَبُونَ».

إنّ هذه النعمة هي إحدى مواهب الله سبحانه للبشر، وكراماته التي منّ بها عليهم، وهي لا تلاحظ في الأنواع الأخرى من الموجودات.

وتذكر الآية التالية الهدف النهائي لخلق هذه المراكب فتقول: «لَتَسَيَّرُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ».

وتذكر آخر آية- من هذه الآيات- قول المؤمنين لدى ركوبهم المركب، إذ يقولون: «وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ».

هذه الجملة إشارة إلى مسألة المعاد، لأنّ الإنتباه إلى الخالق والمبدأ، يلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائماً.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٢

وهي أيضاً إشارة إلى أن لا تغتروا عندما تركبون هذه المراكب وتتسلطون عليها، ولا تغرقوا في مغريات الدنيا وزخارفها، بل يجب أن

تذكرنا بانتقالنا الكبير من هذا العالم إلى العالم الآخر.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ

لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ

عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَيِّئَاتُكَتَبَ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات الله: بعد تثبيت دعائم التوحيد

بوسيلة ذكر آيات الله سبحانه في نظام الوجود، وذكر نعمه ومواهبه، تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك، أي محاربة الشرك وعبادة غير

الله تعالى، فتطرقت أولاً إلى أحد فروعها، أي عبادة الملائكة فقالت:

«وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا».

إنّ التعبير «الجزء» يبين من جانب أنّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكة أولاد الله تعالى، لأنّ الولد جزء من وجود الأب والأم، ويفصل

عنهما كنفقة تتكوّن وتتلقح، وإذا ما تلقت تكوّن الولد من تلك اللحظة. ويبين من جانب آخر قبولهم عبادتها، لأنهم كانوا يظنون

الملائكة جزءاً من الآلهة في مقابل الله سبحانه.

ثم تضيف: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ». فمع كل هذه النعم الإلهية التي أحاطت بوجوده، والتي مرّ ذكر خمس منها في الآيات السابقة،

فإنه بدل أن يطأطأ رأسه إعظماً لخالقه، وإجلالاً لولى نعمته، سلك سبيل الكفر واتّجه إلى مخلوقات الله ليعبدها.

في الآية التي بعدها يستثمر القرآن الثواب الفكرية لدى هؤلاء من أجل إدانته هذا التفكير الخرافي، لأنهم كانوا يرجحون جنس الرجل

على المرأة، وكانوا يعدّون البنت عاراً- عادة- يقول تعالى: «أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ».

فإذا كان مقام البنت أدنى في اعتقادكم، فكيف ترجحون أنفسكم وتعلونها على الله، فتجعلون نصيبه بنتاً، ونصيبكم ولداً؟

وتتابع الآية التالية هذا البحث ببيان آخر، فتقول: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٣

مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ».

والمراد من «بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا» هم الملائكة الذين كانوا يعتبرونهم بنات الله، وكانوا يعتقدون في الوقت نفسه أنّها آلهتهم، وأنّها

شبيهة به- سبحانه- ومثله.

إنّ لفظة (كظيم) من مادة «كظم»، وتعني الحلقوم، وجاءت أيضاً بمعنى غلق فم قربة الماء بعد امتلائها، ولذلك فإنّ هذه الكلمة

استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضباً أو غمّاً وحرزناً، وهذا التعبير يحكى جيداً عن خرافة تفكير المشركين البله في عصر الجاهلية فيما

يتعلق بولادة البنت، وكيف أنّهم كانوا يحزنون ويغتمون عند سماعهم بولادة بنت لهم، إلّا أنّهم في الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ

الملائكة بنات الله سبحانه.

وتضيف في الآية الكريمة: «أَوْ مَنْ يَنْشُؤُا فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» (١).

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالباً، تتبعان من ينبوع عاطفتهم، إحداهما: تعلق النساء الشديد بأدوات الزينة، والاخرى: عدم إمتلاكهن القدرة الكافية على إثبات مرادهن أثناء المخاصمة والجدال لحياتهن وخجلهن.

وتذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- هذا المطلب بصراحة أكثر، فتقول: «وَجَعَلُوا الْمَلَكَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاءً».

ثم تجيبهم الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري فتقول: «أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ».

وتضيف في النهاية: «سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسَلُّونَ».

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاَهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين: أعطت الآيات السابقة أول جواب منطقي على عقيدة عبدة الأوثان الخرافية، حيث كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله، وتتابع هذه الآيات نفس الموضوع، وتسلك مسالك اخرى لإبطال هذه الخرافة القبيحة، فتعرض أولاً لأحد الأدلة الواهية لهؤلاء ثم تجيب عليه فتقول: «وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاَهُمْ».

(١) «ينشؤا»: من مادة «الإنشاء»، أى إيجاد الشيء، وهنا بمعنى تربية الشيء وتنميته؛ و «الحلية»: تعنى الزينة؛ و «الخصام»: هو المجادلة والنزاع على شيء ما.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٤

إن هذا التعبير قد يكون إشارة إلى أن هؤلاء كانوا يعتقدون بالجبر، وأن كل ما يصدر منا فهو بإرادة الله، وكل ما نفعله فهو برضاه. وتجب الآية فى النهاية على هذا الاستدلال الواهى لعبدة الأصنام، فتقول: «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ». إن هؤلاء لا- علم ولا- إيمان لهم حتى بمسألة الجبر أو رضى الله سبحانه عن أعمالهم، بل هم- ككثير من متبعى الهوى والمجرمين الآخرين- يتخذون مسألة الجبر ذريعة لهم من أجل تبرئة أنفسهم من الذنب والفساد، فيقولون: إن يد القضاء والقدر هى التى جرتنا إلى هذا الطريق وحتمته علينا.

«يخرصون»: من «الخرص»، وهو فى الأصل بمعنى التخمين، وأطلقت هذه الكلمة أولًا على تخمين مقدار الفاكهة، ثم أطلقت على الحدس والتخمين، ولما كان الحدس والتخمين يخطئ أحياناً ولا يطابق الواقع، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً، و «يخرصون» فى هذه الآية من هذا القبيل.

وتشير الآية التالية إلى دليل آخر يمكن أن يكونوا قد استدلوا به، فتقول: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ». أى: يجب على هؤلاء أن يتمسكوا بدليل العقل لإثبات هذا الإدعاء، أو بدليل النقل، فى حين لم يكن لهؤلاء دليل لا من العقل ولا من النقل، فإن كل الأدلة العقلية تدعو إلى التوحيد، وكذلك دعا كل الأنبياء والكتب السماوية إلى التوحيد.

وأشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى ذريعتهم الأصلية، وهى فى الواقع خرافة لا أكثر، أصبحت أساساً لخرافة اخرى، فتقول: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ».

لم يكن لهؤلاء دليل إلا التقليد الأعمى للآباء والأجداد، والعجيب أنهم كانوا يظنون أنهم مهتدون بهذا التقليد، فى حين لا يستطيع أى إنسان عاقل حر أن يستند إلى التقليد فى المسائل العقائدية والأساسية التى يقوم عليها بناؤه الفكرى، خاصة إذا كان التقليد تقليد «جاهل لجاهل».

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ

جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (٢٥)  
مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٥

تواصل هذه الآيات موضوع الآيات السابقة حول الدليل الأصلي للمشركين في عبادتهم للأصنام، وهو تقليد الآباء والأجداد، فتقول: إن هذا مجرد ادعاء واه من مشركي العرب: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ».

إن هذه الآية نوع من التسلية لخاطر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمؤمنين ليعلموا أن ذرائع المشركين واستدلالاتهم هذه ليست بالشىء الجديد، إذ إن هذا الطريق سلكه كل المنحرفين الضالين على مر التاريخ.

وتبين الآية التالية جواب الأنبياء السابقين على حجج هؤلاء المشركين والمنحرفين بوضوح تام، فتقول: «قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ».

هذا التعبير هو أكثر التعبيرات المؤدبة الممكن طرحها أمام قوم عنيد مغرورين، ولا يجرح عواطفهم أو يمسهام مطلقاً.

إن مثل هذه التعبيرات القرآنية تعلمنا آداب المحاوره والمجادله وخاصة أمام الجاهلين المغرورين.

ومع كل ذلك، فإن هؤلاء كانوا غرقى الجهل والتعصب والعناد بحيث لم يؤثر فيهم حتى هذا المقال المؤدب الرقيق، فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط: «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ».

من البديهي أن مثل هؤلاء الأقوام الطاغين المعاندين، لا يستحقون البقاء، وليست لهم أهلية الحياة، ولا بد أن ينزل عذاب الله، ولذلك فإن آخر آية - من هذه الآيات - تقول:

«فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ». فبعضهم بالطوفان، وآخرون بالزلزله المدمره، وجماعه بالعاصفه والصاعقه، وخلاصه القول: إِنَّا دَمَرْنَا كُلَّ فِتْنَةٍ مِنْهُمْ بِأَمْرٍ صَارِمٍ فَأَهْلَكْنَاهُمْ.

وأخيراً وجهت الآية الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله من أجل أن يعتبر مشركو مكه أيضاً، فقالت: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ» فعلى مشركى مكه المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٦

التوحيد كلمه الأنبياء الخالده: أشارت هذه الآيات إشارة موجزة إلى قصة إبراهيم، وما جرى له مع قوم بابل عبدة الأوثان، لتكمل بذلك بحث ذم التقليد، الذى ورد فى الآيات السابقة، وذلك لأنه:

أولاً: إن إبراهيم عليه السلام كان الجد الأكبر للعرب، وكانوا يعدونه محترماً ويقدمونه، ويفتخرون بتاريخه، فإذا كان اعتقادهم وقولهم هذا حقاً فيجب عليهم أن يتبعوه عندما مزق حجب التقليد، وإذا كان سيئهم تقليد الآباء، فلماذا يقلدون عبدة الأوثان ولا يتبعون إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: إن عبدة الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهى - وهو اتباع الآباء - فلم يقبله إبراهيم منهم أبداً.

ثالثاً: إن هذه الآية نوع من التطيب لخاطر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والمسلمين الأوائل ليعلموا أن مثل هذه المخالفات والتوسلات بالمعاذير والحجج الواهية كانت موجودة دائماً، فلا ينبغي أن يضعفوا أو يياسوا.

تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ».

ولمّا كان كثير من عبدة الأصنام يعبدون الله أيضاً، فقد استثناه إبراهيم مباشرة فقال:

«إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ».

إنه عليه السلام يذكر في هذه العبارة الوجيزة دليلاً على انحصار العبودية بالله تعالى، لأن المعبود هو الخالق والمدبر، وكان الجميع مقتنعين بأن الخالق هو الله سبحانه، وكذلك أشار عليه السلام في هذه العبارة إلى مسألة هداية الله التكوينية والتشريعية التي يوجبها قانون اللطف.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام من أنصار أصل التوحيد، ومحاربه كل أشكال الشرك طوال حياته وحسب، بل إنه بذل قصارى جهده من أجل ابقاء كلمة التوحيد في هذا العالم إلى الأبد، كما تبين ذلك الآية التالية، إذ تقول: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (١).

والطريف أن كل الأديان التي تتحدث عن التوحيد اليوم تستلهم دعوتها وأفكارها من تعليمات إبراهيم عليه السلام التوحيدية، وأن ثلاثة من أنبياء الله العظام - وهم موسى وعيسى عليهما السلام

(١) «العقب»: في الأصل بمعنى كعب القدم، إلا أن هذه الجملة استعملت فيما بعد في الأولاد وأولاد الأولاد بصورة واسعة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٧

ومحمد صلى الله عليه وآله - من ذريته، وهذا دليل على صدق تنبؤ القرآن في هذا الباب.

والآية التالية جواب عن سؤال وهو: في مثل هذه الحال لم لا يعذب الله مشركي مكة؟ ألم نقرأ في الآيات السابقة: «فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ».

فتقول الآية مجيبة: «بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ».

فنحن لم نكتف بحكم العقل ببطلان الشرك والوثنية، ولا بحكم وجدانهم بالتوحيد، بل أمهلناهم لإتمام الحجة عليهم حتى يقوم هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا النبي العظيم محمد صلى الله عليه وآله بهدایتهم.

إلا أن العجيب أنه: «وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ».

وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سِيخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) لَمْ لَمْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ أَحَدٍ

الأغنياء: كان الكلام في الآيات السابقة في ذرائع المشركين في مواجهة دعوة الأنبياء، فكانوا يتهمونهم بالسحر تارة، ويتوسلون تارة

أخرى بتقليد الآباء وينبذون كلام الله وراء ظهورهم، وتشير الآيات - مورد البحث - إلى حجة واهية أخرى من حجج اولئك

المشركين، فتقول: «وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ». أي: مكة والطائف.

لقد كانوا معذورين بتشبهم بمثل هذه الذريعة من جهة، إذ كان المعيار في تقييمهم للبشر هو المال والثروة والمقام الظاهري والشهرة.

وهذا هو السبب في بلاء المجتمعات البشرية العظيم، والعامل الأساس في انحرافها الفكري، حيث تقلب الحقائق تماماً في بعض

الأحيان.

ويرد القرآن الكريم بأجوبة قاطعة على هذا النمط من التفكير المتسافل الخرافي، ويجسد النظرة الإلهية الإسلامية تماماً، فيقول: «أ هُمْ

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ». فيمنحوا النبوة من يشاؤون، وينزلوا عليه الكتاب السماوي.

فضلاً عن ذلك، فإن وجود التفاوت والإختلاف بين البشر من ناحية مستوى المعيشة، لا يدل على تفاوتهم في المقامات والمنازل

المعنوية مطلقاً، بل: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٨

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سِيخْرِيًّا».

لقد نسي هؤلاء أن حياة البشر حياة جماعية، ولا يمكن أن تدار هذه الحياة إلا عن طريق التعاون والخدمة المتبادلة. بناءً على هذا فينبغي

أن لا يخدعهم هذا التفاوت، ويظنوا أنه معيار القيم الإنسانية، إذ:

«وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ»؛ بل إن كل المقامات والثروات لا تعدل جناح بعوضة في مقابل رحمة الله والقرب منه. وَلَوْ لَمَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَ زُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) قصور فحمة سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ! (قيم كاذبة): تستمر هذه الآيات في البحث حول «نظام القيم في الإسلام» وعدم اعتبار كون المال والثروة والمناصب المادية هي المعيار في التقسيم، فتقول الآية الأولى: «وَلَوْ لَمَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ». ولجعلنا لهم بيوتاً لها عدّة طوابق ولها سلالم جميلة «وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ».

ثم تضيف الآية الاخرى: «وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ». ولم تكتف الآية بهذا، بل استطردت أنه إضافة إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباهج وانواع الزينة «وَزُخْرَفًا». ثم تضيف الآية: «وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ».

«الزخرف»: في الأصل بمعنى كل زينة مقترنة بالرسم والتصوير، ولما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينة، فقد قيل له: زخرف؛ وإنما قيل للكلام الأجوف الذي لا فائدة فيه: كلام مزخرف، لأنهم يحيطونه ويلبسونه المزوقات ليصبح مقبولاً.

إن هذه الاسس المادية ووسائل الزينة الدنيوية، حقيرة لا قيمة لها عند الله تعالى فلا ينبغي أن تكون إلّا من نصيب الأفراد الذين لا قيمة لهم كالكافرين ومنكري الحق، ولو لم

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٠٩

يتأثر الناس من طلاب الدنيا ويميلوا إلى الكفر لجعل الله تعالى هذه الامور من نصيب هذه الفئة فقط، ليعلم الجميع أن هذه الامور ليست هي المعيار والمقياس لشخصية الإنسان وقيمه ومقامه.

ومن هنا يتضح أن وجود جماعة من الكفار والظالمين بهذه القدرة المادية ليس دليلاً على رفعة شخصيتهم، ولا أن حرمان المؤمنين منها، أو من التمتع بها في حد المعقول كأدوات للزينة، يضر بإيمانهم وتقواهم، وهذا هو التفكير الإسلامي والقرآني الصحيح.

وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُشِيعُ الضُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) أقران الشياطين: لما كان الكلام في الآيات السابقة عن عبدة الدنيا الذين يقيمون كل شيء على أساس المعايير المادية، فإن الآيات - مورد البحث - تتحدث عن أحد الآثار المميته الناشئة عن الارتباط بالدنيا والتعلق بها، ألا وهو الإبتعاد عن الله سبحانه. تقول الآية الأولى: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (١).

نعم، إن الغفلة عن ذكر الله، والغرق في لذات الدنيا، والإنبهار بزخارفها ومغرياتها يؤدي إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينه دائماً، ويلقى لجاماً حول رقبته يشده به، ويجزه إليه ليذهب به حيث يشاء.

ثم أشارت الآية التالية إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به في شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ».

وتزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحد الذي يظنون: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ».

وهكذا تستمر هذه الحالة على هذا المنوال، فيبقى الإنسان الغافل الجاهل على ضلاله، وتستمر الشياطين في إضلاله، حتى ترفع

الحجب، وتفتح عين رؤيته على الحقيقة: «حَتَّى

(١) «نقيض»: من مادة قيض، وهي في الأصل بمعنى الغشاء الذي يغطي البيضة، ثم جاءت بمعنى جعل شيء مستولياً على شيء آخر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٠

إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ». نعم، إن عرصه القيامة تجسّد واسع لمشاهد هذه الدنيا، والقرين والرفيق

والقائد والدليل هنا وهناك واحد، بل إنهما - برأى بعض المفسرين - يقرنان بسلسلة واحدة.

إلا أن هذا الأمل لا يتحقق مطلقاً، ولا يمكن أن يقع الإفتراق أو البون بين هؤلاء وبين الشياطين، ولذلك فإن الآية التالية تضيف: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ». فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الاخرى إلى الأبد. وبهذا فإن القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء في الإفتراق عن الشياطين إلى يأس دائم.

ويترك القرآن هنا هذه الفئنة وشأنها، ويوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله ويتحدث عن الغافلين عمى القلوب الذي كذبوا إرتباطه بالله، وهم من جنس من تقدم الكلام عنهم في الآيات السابقة، فيقول: «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

إن القرآن يقول بنوعين من السمع والبصر والحياة للإنسان: السمع والبصر والحياة الظاهرية، والسمع والبصر والحياة الباطنية، والمهم هو القسم الثاني من الإدراك والنظر والحياة، فإنها إذا تعطلت فلا ينفع حينئذ موعظه وإرشاده، ولا إنذار وتحذير. فإِذَا مَا نَدَهْبَنَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَكَمْكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَ اسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) متابعه للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن الكفار المعاندين الظالمين الذين لا أمل في هدايتهم، تخاطب هذه الآيات نبي الأكرم صلى الله عليه وآله مهدة الكفار أشد تهديد من جانب، ومسليته خاطر النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «فِإِذَا مَا نَدَهْبَنَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ».

والمراد من الذهاب بالنبي صلى الله عليه وآله من بين اولئك القوم، وفاته.

ثم تضيف الآية: «أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ».

فهم في قبضتنا على أية حال، سواء كنت بينهم أم لم تكن، والعقاب والانتقام الإلهي حتمي في حقهم إذا ما استمروا في أعمالهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١١

بعد هذه التحذيرات تأمر الآية النبي صلى الله عليه وآله أن: «فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». وعدم قبول جماعة من هؤلاء به لا يدل على عدم حقانيتك.

ثم تضيف الآية الاخرى: «وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ». فإن الهدف من نزوله إيقاظ البشر، وتعريفهم بتكاليفهم: «وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ».

ثم تطرقت الآية الأخيرة إلى نفي عبادة الأصنام وإبطال عقائد المشركين بدليل آخر، فقالت: «وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ».

إشارة إلى أن كل أنبياء الله قد دعوا إلى التوحيد، ووقفوا جميعاً ضد الوثنية بحزم، وعلى هذا فإن نبي الخاتم صلى الله عليه وآله في مخالفته الأصنام لم يقوم بعمل سبقه به أحد، بل أحيا بفعله سنة الأنبياء الأبدية.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الْعَذَابَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (٥٠) الفراعنة المغرورون ونقض العهد: في هذه الآيات إشارة إلى جانب مما جرى بين نبي الله موسى بن عمران عليه السلام وبين فرعون، ليكون جواباً لمقالة المشركين الواهية بأن الله إن كان يريد أن يرسل رسولاً، فلماذا لم يختار رجلاً من أثرياء مكة والطائف لهذه المهمة العظمى؟

قالت الآية الاولى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

المراد من «الآيات»: المعجزات التي كانت لدى موسى، والتي كان يثبت حقانيته بواسطتها، وكان أهمها العصا واليد البيضاء.

يقول القرآن الكريم في الآية التالية: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ».

وهذا الموقف هو الموقف الأول لكل الطواغيت والجهال المستكبرين.

إِلَّا أَنَّا أَرْسَلْنَا بِآيَاتِنَا الْوَاحِدَةَ تَلُو الْآخِرَى لِاتِّمَامِ الْحُجَّةِ: «وَمَا نُزِيلُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٢

وقد أريناهم بعد معجزتى العصا واليد البيضاء معاجز الطوفان والجراد والقمل والضفادع وغيرها.

ثم تضيف الآية: «وَأَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

إن هذه الحوادث وإن كانت تنبه هؤلاء بصورة مؤقتة، فيلجأون إلى موسى، غير أنهم بمجرد أن تهدأ العاصفة ينسون كل شىء، ويجعلون موسى غرضاً لسهام أنواع التهم، كما نقرأ ذلك في الآية التالية: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ».

أى تعبير عجيب هذا! فهم من جانب يسمونه ساحراً، ومن جانب آخر يلجأون إليه لرفع البلاء عنهم، ومن جانب ثالث يعدونه بتقبل الهداية.

إن موسى رغم كل هذه التعبيرات اللاذعة والمحقرة لم يكف عن السعى لهدايتهم مطلقاً، ولم ييأس بسبب عنادهم وتعصبهم، بل استمر في طريقه، ودعا ربه مرات كى تهدأ عواصف البلاء، وهدأت، لكنهم كما تقول الآية التالية: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ».

كل هذه دروس حية وبلغية للمسلمين، وتسليية للنبي صلى الله عليه وآله لكى لا يثنوا مطلقاً أمام عناد المخالفين وتصلبهم.

وهى أيضاً تحذير للأعداء اللجوجين المعاندين، بأنهم ليسوا أقوى من فرعون وآل فرعون ولا- أشد، فلينظروا عاقبه أمر اولئك، وليتفكروا فى عاقبتهم.

وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَيْلًا وَ مَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦) إذا كان نبياً فلم لا يملك أسورة من ذهب: لقد ترك منطق موسى عليه السلام من جهة، ومعجزاته المختلفة من جهة اخرى، وزعزعت أفكار الناس واعتقادهم بفرعون. هنا أراد فرعون بسفسطته ومغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السلام عن التأثير فى أفكار شعب مصر، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: «وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٣

مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَا تُبْصِرُونَ».

وبهذا فقد عظم فرعون القيم المبتدعة السيئة، وجعل المال والمقام والجاه هى معايير الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة إلى عبدة الأصنام فى عصر الجاهلية فى موقفهم أمام نبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

ثم يضيف: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ».

وبهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين - حكومه مصر، وملك النيل - وذكر لموسى نقطتى ضعف: الفقر ولكنة اللسان.

هذا فى الوقت الذى لم يكن بموسى أية لكنة فى اللسان، لأن الله تعالى قد استجاب دعاءه، ورفع عنه عقده لسانه، لأنه سأل ربه عند البعثه أن: «وَ اخْلُلْ عُقْدَهُ مِّنْ لِّسَانِي» (١).

ومن المسلم أن دعاءه قد استجيب، والقرآن شاهد على ذلك أيضاً.

ثم تشبث فرعون بذريعتين آخرين، فقال: «فَلَوْ لَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكَةُ مُقْتَرِنِينَ».

إن الفراعنة كانوا يعتقدون أن الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور والقلائد الذهبية، ولذلك فإنهم يتعجبون من موسى إذ لم



يكن معه مثل آلات الزينة هذه، وهذا هو حال المجتمع الذي يكون معيار تقييم الشخصية في نظره الذهب والفضة وأدوات الزينة. أمّا أنبياء الله فإنهم بطرحهم هذه المسائل - بالذات - جانباً كانوا يريدون أن يبطلوا هذه المقاييس الكاذبة، وأن يزرعوا محلها القيم الإنسانية الأصيلة - أي العلم والتقوى والطهارة - لأنّ نظام القيم إذا لم يصلح في مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعادة أبداً.

وتشير الآية التالية إلى نكتة لطيفة، وهي: إنّ فرعون لم يكن غافلاً عن واقع الأمر تماماً، وكان ملتفتاً إلى أن لا قيمة لهذه القيم والمعايير، إلّا أنه: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ».

إنّ طريقة كل الحكومات الجبارة الفاسدة من أجل الإستمرار في تحقيق أهدافها وأنانياتها، هي الإبقاء على الناس في مستوى متردٍ من الفكر والثقافة والوعي، وتسعى إلى تركهم حمقى لا يعون ما حولهم باستخدام أنواع الوسائل، لأنّ يقظتها ووعيتها، وتنامي رشدتها الفكرى يشكل أعظم خطر على الحكومات، ويعتبر أكبر عدو للحكومات المستبدّة. والطريف أنّ الآية المذكورة تنتهي بجملة: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» إشارة إلى أنّ

(١) سورة طه / ٢٧.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٤

هؤلاء القوم الضالين لو لم يكونوا فاسقين ومتمردين على طاعة الله عزّ وجل وحكم العقل، لما كانوا يستسلمون لمثل هذه الدعايات والخزعات ويصغون إليها.

نعم، كان هؤلاء قوماً فاسقين يتبعون فاسقاً. كانت هذه جنيات فرعون وآل فرعون ومغالطاتهم في مواجهة رسول الله موسى عليه السلام، لكننا نرى الآن إلى أين وصلت عاقبة أمرهم بعد كل هذا الوعظ والإرشاد وإتمام الحجج من طرق مختلفة، إذ لم يسلموا للحق. تقول الآية: «فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ». فقد اختار الله سبحانه هؤلاء عقوبة الإغراق بالخصوص من بين كل العقوبات، وذلك لأنّ كل عزّتهم وشوكتهم وافتخارهم وقوتهم كانت بنهر النيل العظيم وفروعه الكثيرة الكبيرة، والذي كان فرعون يؤكّد عليه من بين كل مصادر قوته، إذ قال: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي».

نعم، يجب أن يكون مصدر حياتهم وقوتهم، سبب هلاكهم وفنائهم، ويكون قبراً لهم ليعتبر الآخرون.

«آسفونا»: من مادة «الأسف»، وهو الحزن والغم، ويأتي بمعنى الغضب.

والطريف أنّ غضب الله يعني «إرادة العقاب»، ورضاه يعني «إرادة الثواب».

وتقول الآية الأخيرة كاستخلاص لنتيجة مجموع ما مرّ من كلام: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ».

«السلف»: في اللغة يعني كل شيء متقدم، ولذلك يقال للأجيال السابقة: سلف، وللأجيال الآتية: خلف، ويسمّون المعاملات التي تتم قبل الشراء «سلفاً» لأنّ ثمن المشتري يدفع من قبل؛ و «المثل»: يقال للكلام الدائر بين الناس كعبرة، ولما كانت قصة فرعون والفراعنة ومصيرهم المؤلم عبرة عظيمة فقد ذكرت في هذه القصة كعبرة للأقوام الآخرين.

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أٰ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَيْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعِيَةِ فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٥

سبب النزول

في جامع البيان: جلس رسول الله صلى الله عليه وآله فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى

جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله فعرض له النضر بن الحارث، وكلمه رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَ اللَّهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» [أنبياء ٩٨ و ٩٩]. ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله وأقبل عبدالله بن الزبيرى بن قيس بن عدى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله الزبيرى:

والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حسب جهنم، فقال عبدالله بن الزبيرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل من عبد من دون الله فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم. فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان فى المجلس من قول عبد الله الزبيرى (ورأوا أنه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله من قول عبدالله بن الزبيرى، فقال) رسول الله صلى الله عليه وآله: «نعم كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته» (١).

فأنزل الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ...» أنبياء ١٠١ و ١٠٢. أى عيسى وعزير ومن عبد من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ...» أنبياء ٢٦ - ٢٩ والآيات بعدها. ونزل فى إعجاب المشركين بقول ابن الزبيرى «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ...» الزخرف ٥٧ و ٥٨ «٢».

#### التفسير

أى الآلهة فى جهنم: تتحدث هذه الآيات حول مقام عبودية المسيح عليه السلام، ونفى مقوله المشركين بالوهيته والوهية الأصنام، وهى تكملة للبحوث التى مرت فى الآيات السابقة حول دعوة موسى ومحاربه للوثنية الفرعونية، وتحذير لمشركى عصر النبى صلى الله عليه وآله وكل مشركى العالم. تقول الآية الاولى: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» (٣).

(١) جامع البيان ١٧ / ١٢٧.

(٢) البداية والنهاية ٣ / ١١٠.

(٣) «يصدون»: من مادة «صد»، تعنى الضحك والصرخ، وإحداث الضجيج والغوغاء، حيث يضعون يداً بيد عند السخرية والاستهزاء عادة. (يراجع لسان العرب، مادة: صدد).

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٦

إن المثل كان من جانب المشركين، وضرب فيما يتعلق بالأصنام، لأننا نقرأ فى الآيات التالية: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً». إن المشركين قالوا أن عيسى بن مريم قد كان معبوداً، فينبغى أن يكون فى جهنم بحكم هذه الآية، وأى شىء أفضل من أن نكون نحن وأصنامنا مع عيسى؟! قالوا ذلك وضحكوا واستهزؤوا وسخروا.

ثم استمروا: «وَقَالُوا آلَ اللَّهِ تَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ». فإذا كان من أصحاب الجحيم، فإن آلهتنا ليست بأفضل منه ولا أسمى.

ولكن، اعلم أن هؤلاء يعلمون الحقيقة، و «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ».

بل: «إِنَّ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ».

لقد كان عيسى مقراً طوال حياته بالعبودية لله، ودعا الجميع إلى عبوديته سبحانه، ولما كان موجوداً فى امته لم يسمح لأحد بالانحراف عن مسير التوحيد، ولكن المسيحيين أوجدوا خرافة ألوهية المسيح، أو التثليث، بعده.

ولثلاث يتوهموا أن الله سبحانه محتاج لعبوديتهم، وأنه يصر عليها، فإنه تعالى يقول فى الآية التالية: «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ». ملائكة تخضع لأوامر الله، ولا تعرف عملاً لإطاعته وعبادته.

والآية التالية تشير إلى خصيصة أخرى من خصائص المسيح عليه السلام وتقول: «إِنَّ عِيسَى سَبَبُ الْعِلْمِ بِالسَّاعَةِ وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ». إما

أنّ ولادته من غير أب دليل على قدرة الله اللامتناهية، فتحل على ضوءها مسألة الحياة بعد الموت، أو من جهة نزول المسيح عليه السلام من السماء فى آخر الزمان طبقاً لروايات عديدة، ونزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعة.

ثم تقول الآية بعد ذلك: «إِنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ حَتْمٌ، وَوَقُوعُهَا قَرِيبٌ: «فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا» لا من حيث الاعتقاد بها ولا من حيث الغفلة عنها. «وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» وأى صراط أكثر استقامته من الذى يخبركم بالمستقبل الخطير الذى ينتظركم، ويحذركم منه، ويدلكم على طريق النجاة من أخطار يوم البعث!؟

إلا أن الشيطان يريد أن يبيدكم فى عالم الغفلة والإرتباط بها، فاحذروا: «وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

لقد أظهر عداؤه لكم منذ اليوم الأول، مرّة عند وسوسته لأبيكم وأمكم - آدم وحواء -

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٧

وإخراجهما من الجنة، واخرى عندما أقسم على إضلال بنى آدم وإغوائهم، إلا المخلصين منهم. وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥) مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَى جَانِبٍ مِنْ خِصَائِصِ حَيَاةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَتَكْمِلُ هَذِهِ الْآيَاتُ ذَلِكَ الْبَحْثُ. تَقُولُ الْآيَةُ أَوْلًا: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ».

إنّ «الحكمة» اطلقت على كل العقائد الحقّة، وبرامج الحياة الصحيحة التى تصون الإنسان من أنواع الانحراف فى العقيدة والعمل، وتتناول تهذيب نفسه وأخلاقه، وعلى هذا فإنّ للحكمة هنا معنى واسعاً يشمل «الحكمة العلمية» و «الحكمة العملية».

ولهذه الحكمة - إضافة إلى ما مرّ - هدف آخر، وهو رفع الاختلافات التى تخلّ بنظام المجتمع، وتجعل الناس حيارى مضطربين، ولهذا السبب نرى المسيح عليه السلام يؤكّد على هذه المسألة.

وتضيف الآية فى النهاية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا».

بعد ذلك، ومن أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام فى مسألة عبوديته، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ».

وأنا مثلكم محتاج فى كل وجودى إلى الخالق المدبر، فهو مالكى ودليلى.

وللتأكيد أكثر يضيف: «فَاعْبُدُوهُ». إذ لا يستحق العبادة غيره، ولا تليق إلابه، فهو الرب والكل مربوبون، وهو المالك والكل مملوكون.

ثم يؤكّد كلامه بجملة اخرى حتى لا تبقى لمتذرع ذريعه، فيقول: «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

نعم، إن الصراط المستقيم هو طريق العبودية لله سبحانه ... ذلك الطريق الذى لا انحراف فيه ولا إعوجاج.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٨

لكن العجب أن يختلف أقوام من بعده مع كل هذه التأكيدات: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ».

فالبعض ذهب إلى أنّه الرب الذى نزل إلى الأرض.

وبعض آخر اعتبره ابن ربّه.

وآخرون بأنّه أحد الأقانيم الثلاثة (الدوات المقدسة الثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس).

وهناك فئة قليلة فقط هم الذين اعتبروه عبد الله ورسوله، غير أنّ عقيدة الأغلبية هى التى هيمنت، وعمت مسألة التثليث والآلهة الثلاثة عالم المسيحية.

وهدهم الله سبحانه فى نهاية الآية بعذاب يوم القيامة الأليم، فقال: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ».

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ

الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ماذا تنتظرون غير عذاب الآخرة: كان الكلام فى الآيات السابقة

يدور حول عبدة الأوثان العنودين، وكذلك حول المنحرفين والمشركين فى امّة عيسى عليه السلام، والآيات مورد البحث تجسد عاقبه أمرهم. يقول تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

فى الدر المنثور قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان اللقحة، والرجلان يطويان الثوب». ثم قرأ: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

ثم رفعت الآية الغطاء عن حالة الأخلاء الذين يودّ بعضهم بعضاً، ويسرون معاً فى طريق المعصية والفساد، والإغترار بزخارف الدنيا، فتقول: «الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (١).

(١) «الأخلاء»: جمع «خليل»- من مادة خلء- بمعنى المودة والمحبة، وأصلها من الخلل أى الفاصلة بين جسمين، ولما كانت المحبة والصدقة كأنها تنفذ فى أعماق القلب وثناياه، فقد استعملت فيها هذه الكلمة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤١٩

إنّ تبدل مثل هذه المودة إلى عداوة فى ذلك اليوم أمر طبيعى، لأنّ كلّاً منهم يرى صاحبه أساس تعاسته وسوء عاقبته.

أما المتقين تبقى روابط أخوتهم، وأواصر مودّتهم خالدة، لأنها تدور حول محور القيم والمعايير الخالدة، وتوضح نتائجها المثمرة فى عرصه القيامة أكثر، فتمنحها قوة إلى قوتها.

والآية التالية تبيان لأوصاف المتقين وأحوالهم، وبيان لعاقبتهم التى تبعث على الفخر والإعتزاز فى ذلك اليوم العصيب. يقول لهم الله تعالى: «يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

كم هو جميل هذا النداء! نداء مباشر من الله سبحانه من دون واسطة توصله ... نداء يبدأ بأحسن الصفات: يا عبادى! نداء يزيل قلق الإنسان فى يوم ليس فيه إلاّ القلق والاضطراب ... نداء يطهر القلب من غم الماضى وحزنه، وينقيه ... نعم، لهذا النداء هذه المزايا الأربعة المذكورة.

وتبين آخر آية- من هذه الآيات- هؤلاء المتقين والعباد المكرمين بصورة أكثر وضوحاً، بذكر جملتين اخريين، فتقول: «الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ».

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَحَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلْمِذُ الْأَعْيُنِ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين: تبين هذه الآيات جزاء عباد الله المخلصين، والمؤمنين الصالحين الذين مرّ وصفهم فى الآيات السابقة، وتبشرهم بالجنة الخالدة مع ذكر سبع نعم من نعمها النفيسة الغالية. تقول أولاً: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ». وبذلك فإنّ مضيفهم الحقيقى هو الله تعالى الذى يدعو ضيوفه ويقول لهم: ادخلوا الجنة.

ثم أشارت إلى أولّ نعمه من تلك النعم، فقالت: «أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ». ومن الواضح أنّ كون المؤمنين الرحماء إلى جانب زوجاتهم المؤمنات يمنحهما معاً اللذة والسرور، فإذا كانا شريكين فى همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين فى سرور الآخرة ونشوتها.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٠

مختصر الامثل ج ٤، ص: ٤٢٩

ثم تضيف: «تُحْبَرُونَ».

«تحبرون»: من مادة «حبر» أى الأثر المطلوب، وتطلق أحياناً على الزينة وآثار الفرحة التى تظهر على الوجه.

وتقول فى بيان النعمة الثالثة: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَحَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ». فهم يضافون ويخدمون بأفضل الأواني، وألذّ الأطعمة، فى منتهى الهدوء والإطمئنان والصفاء.

«الصحاف»: جمع «صحفة»، وهي في الأصل من مادة «صحف»، أي التوسع، وتعني هنا الأواني الكبيرة الواسعة والأكواب جمع كوب، وهي أقذاح الماء التي لا عروة لها.

وتشير في الرابعة والخامسة إلى نعمتين أخريين جمعت فيهما كل نعم العالم المادية والمعنوية، فتقول: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ».

وعلى قول الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان: وقد جمع الله سبحانه بقوله «مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ» ما لو اجتمع الخلاق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم، لم يزيدوا على ما انتظمتها هاتان الصفتان.

ولما كانت قيمة النعمة في كونها خالدة، فقد طمأنت الآية أصحاب النعيم من هذه الجهة عندما ذكرت الصفة السادسة فقالت: «وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». لئلا يكدر التفكير في زوال هذه النعمة صفو عيشهم ولذتهم، فيقلقوا من المستقبل وما يخبئه.

وهنا، من أجل أن يتضح أن كل نعم الجنة هذه تعطى جزاءً لا اعتباراً وعبثاً، تضيف الآية: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

أي أن أعمالكم هي أساس خلاصكم ونجاتكم، إلا أن ما تحصلون عليه إذا ما قورن بأعمالكم فهو كالشيء المجاني المعطى من قبل الله تعالى، وكالهبة حصلتكم عليها بفضل.

والكلام في النعمة السابعة والأخيرة في ثمار الجنة التي هي من أفضل نعم الله، فتقول الآية: «لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ».

وجاء في الحديث: «لا ينزع رجل في الجنة ثمرة من ثمرها إلا نبت مثلاًها مكانها» (١).

(١) تفسير روح البيان ٨ / ٣٩٢.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢١

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب: لقد فصلت هذه الآيات القول في مصير المجرمين والكافرين في القيامة، ليتضح الفرق بينه وبين مصير المؤمنين - المطيعين لأمر الله - المشرف السعيد من خلال المقارنة بين المصيرين. تقول الآية الأولى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ».

«المجرم»: من مادة «جرم»، وهو في الأصل بمعنى القطع الذي يستعمل في قطع الثمار من الشجرة - أي القطف - وكذلك في قطع نفس الشجرة، إلا أنه استعمل فيما بعد في القيام بكل عمل سيء، وربما كان سبب هذا الاستعمال هو أن هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربه وعن القيم الإنسانية، وتبعده عنهما.

والمراد هنا هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلاً لهم.

ولما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائم بمرور الزمان، وتقل شدته تدريجياً، فإن الآية التالية تضيف: «لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ».

إن هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسألة الخلود، وعدم تخفيف العذاب، والحزن واليأس المطلق، وما أشد العذاب الذي تمتزج فيه هذه الأمور الثلاثة وتجتمع.

وتنبه الآية التالية إلى أن هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، واشتروه بأعمالهم وبظلمهم لأنفسهم، فتقول: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ».

إن القرآن يرى إرادة الإنسان وأعماله السبب الأساسي لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية والوهمية التي اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثم تطرقت الآية إلى بيان جانب من مدله هؤلاء ومسكنتهم، فقالت، «وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ».

فمع أن كل امرئ يهرب من الموت ويريد استمرار الحياة وبقاءها، إلا أنه عندما تتوالى

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٢

عليه المصائب أحياناً ويضيق عليه الخناق يتمنى على الله الموت، وإذا كانت هذه الأمنية قد تحدث أحياناً لبعض الناس في الدنيا، فإنها تعم جميع المجرمين هناك، فكلهم يتمنى الموت. ولكن حيث لا- فائدة من ذلك، فإن مالك النار وخازنها يجيبهم: «قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَثُونَ» (١).

وتقول الآية الاخرى، وهي تشير إلى علّة خلود هؤلاء في نار جهنم: «لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ».

وللتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، وإن كانت مسألة التوحيد والمعاد والقرآن تأتي في الدرجة الاولى.

وهذا التعبير يشير إلى أنكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، وإنما خالفتم الحق في الواقع، وهذه المخالفة هي التي ساقتمكم إلى العذاب الخالد الأبدى.

وتعكس الآية التالية جانباً من كراهية هؤلاء للحق واشمئزازهم منه، وكذلك مناصرتهم للباطل والتمسك به، فتقول: «أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ».

فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس ودبروا المؤمرات لإطفاء نور الإسلام، وقتل النبي صلى الله عليه وآله ولم يتورعوا في إنزال الضربات بالإسلام والمسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وفي المقابل أردنا أن نجازى هؤلاء في هذه الحياة الدنيا، وفي الآخرة بأشد العذاب.

و الآية الاخرى بيان لإحدى علل التأمر، فتقول: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ».

فإن الأمر ليس كذلك، إذ نحن نسمع ورسنا: «بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ».

«السر»: هو ما يضمرة الإنسان في قلبه، أو ما يودعه من أسراره لدى إخوانه وأصدقائه؛ و «النجوى»: هي الهمس في الاذن.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَ يُلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)

(١) «ما كثون»: من مادة «مكث»، وهو في الأصل التوقف المقترن بالإنظار، وربما كان هذا التعبير من مالك استهزاءً، كما نقول-

أحياناً- لمن يطلب شيئاً لا يستحقه انتظر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٣

لما كان البحث في الآيات السابقة- وخاصة في بداية السورة- عن مشركي العرب واعتقادهم بأن لله ولداً، وأنهم كانوا يظنون الملائكة بنات الله، ولما مر البحث في عدة آيات مضت عن المسيح عليه السلام ودعوته إلى الوجدانية الخالصة والعبودية لله وحده، فقد ورد البحث في هذه الآيات في نفى هذه العقائد الفاسدة عن طريق آخر. تقول الآية: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ».

وعلى هذا، فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: لو كان لله ولد لبادرت قبلكم إلى احترامه وتعظيمه، ليطمئن هؤلاء من إستحالة أن يكون لله ولد.

بعد هذا الكلام ذكرت الآية دليلاً واضحاً على نفى هذه الإدعاءات، فقالت: «سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

فإن من كان مالكاً للسموات والأرض ومدبراً لها، ورباً للعرش العظيم، لا يحتاج إلى الولد.

ثم تضيف الآية الاخرى كاحتقار لهؤلاء المعاندين وتهديد لهم، وهو بحد ذاته أسلوب آخر من أساليب البحث مع أمثال هؤلاء

الأفراد: «فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ».

إنه نفس اليوم الموعود الذي أقسم الله تعالى به في الآية (٢) من سورة البروج، حيث تقول الآية: «وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ».

وتواصل الآيتان التاليتان البحث حول مسألة التوحيد، وهما تشكلان نتيجة للآيات السابقة من جهة، ومن جهة أخرى دليلاً لتكتملتها وإثباتها، وفيهما سبع من صفات الله سبحانه، ولجميعها أثر في تحكيم وتقوية مبادئ التوحيد.

فتقف الآية الأولى بوجه المشركين الذين كانوا يعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض، بل ابتدعوا للبحر إلهاً، وللصحراء إلهاً وآخر للحرب، ورابعاً للصالح والسلم، وآلهة مختلفة ومتعددة بتعدد الموجودات، فتقول: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ».

وتقول في الصفتين الثانية والثالثة: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ». فكل أعماله تقوم على أساس الدقة والحساب والنظم، وهو عليم بكل شيء ومحيط به، وبذلك فإنه يعلم أعمال العباد جيداً، ويجازيهم عليها طبقاً لحكمته.

وتتحدث الآية الثانية في الصفتين الرابعة والخامسة، بركات وجوده الدائمة الوفيرة، وعن امتلاكه السماء والأرض وما بينهما، فتقول: «تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٤

وَمَا بَيْنَهُمَا». «تبارك»: من مادة «بركة»، وتعني امتلاك النعمة الوفيرة، أو الثبات والبقاء، أو كليهما، وكلاهما يصدقان في شأن الله تعالى. وتضيف في الصفتين السادسة والسابعة: «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وعلى هذا فإذا أردتم الخير والبركة فاطلبوها منه لا من الأصنام، فإن مصائرهم إليه يوم القيامة، وهو المرجع الوحيد لكم، ويده كل شيء.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) من يملك الشفاعة: لا زال الحديث في

هذه الآيات - وهي آخر آيات سورة الزخرف - حول إبطال عقيدة الشرك وتفنيدها، وعاقبة المشركين المُرَّة، وهي توضح بطلان عقيدتهم بدلائل أخرى. تقول الآية الأولى: «وَلَا يَغْلِبُكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ».

ولما كانت الملائكة وأمثالها من بين آلهة هؤلاء، فقد استثنوا في ذيل الآية، فقالت: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ».

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنهم يشفعون لأي كان، حتى وإن كان وثنياً ومشرکاً ومنحرفاً عن طريق التوحيد وضالاً عن الصراط المستقيم، بل «وَهُمْ يَعْلَمُونَ». جيداً لمن يشفعون.

ثم تدين المشركين من أفواههم، وتجيهم جواباً قاطعاً، فتقول: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

إن من النادر أن يوجد من بين مشركي العرب وغيرهم من يعتقد أن الأصنام هي الخالقة لهم، فإن الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط وشفعاء يقربونهم إلى الله زلفى، أو أنها دلائل وعلامات لأولياء الله المقدمين، ثم يضمون إليها ذريعة أن معبودنا يجب أن يكون موجوداً ملموساً ومحسوساً لأنس به، فيعبدها، ولذا فإنهم متى ما سئلوا عن خالقهم فيقولون: الله. ولذلك فإن الآية تقول في

نهايتها: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». وهو لوم وتوبيخ لهم ... فإنكم إذا علمتم حقيقة الأمر فلم تعرضون عن الله وتعبدون غيره؟

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٥

وتحدثت الآية التالية عن شكوى النبي صلى الله عليه وآله إلى الله سبحانه من هؤلاء القوم المتعصبين الذين لا منطق لديهم، فقالت: «وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ».

إنه يقول: لقد تحدثت مع هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، فأنتيهم من طريق التبشير والإنذار، وذكرت لهم قصص الأقسام الماضية المؤلمة، إلا أن حرارة كلامي لم تؤثر في برودة قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فلم يؤمنوا.

ويأمر الله سبحانه نبيه في آخر آية أن «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» ولا- يكن إعراضك عنهم إعراض افتراق وغضب وأذى وجرح للمشاعر، بل

أعرض عنهم «وَقُلْ سَلِّمْ» لا سلام تحية ومحبة، بل سلام وداع وافتراق.

إنّ هذا السلام يشبه ذلك السلام الذي ورد في الآية (٦٣) من سورة الفرقان: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا». سلام هو علامة اللامبالاة بهم ممتزجة بالعلو والعزة.

ومع ذلك فإنه تعالى يهددهم ويحذرهم بجملة عميقة المعنى، لثلاث صوروا أنّ الله تاركهم بعد هذا الفراق والوداع، فيقول: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

نعم، سوف يعلمون أي نار محرقة قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم، وأي عذاب أليم قد هيأوا أسبابه ليطلبهم فيما بعد؟

«نهاية تفسير سورة الزخرف»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٧

## ٤٤. سورة الدخان

محتوى السورة: يمكن تلخيص فصول هذه السورة في سبعة:

- ١- بداية السورة بالحروف المقطعة، ثم بيان عظمة القرآن، مع تبيان نزوله في ليلة القدر أول مرة.
- ٢- وتحدث عن التوحيد ووحدانية الله سبحانه، وبيان بعض مظاهر عظمتة في عالم الوجود.
- ٣- ويتحدث عن مصير الكفار وعاقبتهم، وأنواع العقوبات الأليمة التي نزلت وستنزل بهم.
- ٤- وتحدث عن قصة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل مع قوم فرعون، وهزيمة قوم فرعون وهلاكهم وفنائهم، من أجل إيقاظ هؤلاء الغافلين.
- ٥- وتشكل مسألة القيامة وأنواع العذاب الأليم الذي سينال أصحاب الجحيم، والمثوبات العظيمة التي تسر الروح، والتي سينالها المتقون.
- ٦- ومن المواضيع الاخرى التي طرحت في هذه السورة موضوع الغاية من الخلق، وعدم كون خلق السماء والأرض عبثاً.
- ٧- وأخيراً تنتهي السورة ببيان عظمة القرآن الكريم كما بدأت بذلك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٨

ولما كان الكلام في الآية العاشرة من هذه السورة عن «الدخان المبين»، فقد سميت بسورة الدخان.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة بنى الله له بيتاً في الجنة».

وروى أبو حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الدخان في فرائضه ونوافله بعثه الله من الآمنين يوم القيامة، وأظله تحت ظل عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، واعطى كتابه بيمينه».

حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَمَّا إِلَهُ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آيَاتِكُمْ الْأُولَى (٨) نزول القرآن في الليلة المباركة: نلاحظ في بداية هذه السورة- وكالسور الأربعة السابقة، والسورتين الآتيتين، والتي يكون مجموعها سبع سور هي سور الحواميم- الحروف المقطعة «حم».

إنّ بعض المفسرين فسّر (حم) هنا بالقسم، فيصبح في الآية قسمان متتابعان: قسم بحروف الهجاء ك (حم)، وقسم بهذا الكتاب المقدس الذي يكون من هذه الحروف.

وكما قلنا، فإنّ الآية الثانية أقسمت بالقرآن الكريم، حيث تقول: «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ».



لكن لنر الآن ما هو القصد من وراء ذكر هذا القسم؟ الآية التالية توضح هذا الأمر، فتقول: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ».

لقد فسرها أغلب المفسرين بليلة القدر، تلك الليلة العظيمة التي تغيرت فيها مقدرات البشر بنزول القرآن الكريم ... تلك الليلة التي تقدر فيها مصائر الخلائق.

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهر الآية هو أن القرآن كله قد نزل في ليلة القدر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٢٩

أما ما هو الهدف الأساس من نزوله؟ نهاية الآية أشارت إليه إذ قالت: «إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ». فإن سنتنا الدائمة هي إرسال الرسل للإنذار الظالمين والمشركين، وكان إرسال نبي الخاتم صلى الله عليه وآله بهذا الكتاب المبين آخر حلقة من هذه السلسلة المباركة المقدسة. والآية التالية وصف وتوضيح لليلة القدر، حيث تقول: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ».

التعبير ب (يفرق) إشارة إلى أن كل الامور والمسائل المصيرية تقدر في تلك الليلة؛ والتعبير ب «الحكيم» بيان لاستحكام هذا التقدير، وعدم تغيره، وكونه حكيمًا.

وهذا البيان ينسجم مع الروايات الكثيرة التي تقول: إن مقدرات بني آدم بأجمعهم لمدّة سنة تقدر في ليلة القدر، وكذلك تفرق الأرزاق والآجال والامور الاخرى في تلك الليلة.

وتقول الآية الاخرى لتأكيد أن القرآن منزل من قبل الله تعالى: «أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ».

ولأجل تبيان العلة الأساسية لنزول القرآن وإرسال النبي صلى الله عليه وآله وكون المقدرات في ليلة القدر، تضيف الآية: «رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ».

نعم، فإن رحمة التي لا تُحدّ توجب أن لا يترك العباد وشأنهم، بل يجب أن ترسل إليهم التعليمات اللازمة لترشدهم في سيرهم إلى الله.

وتذكر نهاية هذه الآية- والآيات التالية- سبع صفات لله سبحانه، وكلها تبين توحيدة ووحدانيتها، فتقول: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فهو يسمع طلبات العباد، وهو عليم بأسرار قلوبهم.

ثم تقول مبينة للصفة الثالثة: «رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ».

لما كان كثير من المشركين يعتقدون بوجود آلهة وأرباب عديدين، وكانوا يظنون أن لكل موجود من الموجودات إله، فإن هذه الآية أبطلت كل هذه الأوهام بجملة: «رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا». وأثبتت أن رب كل موجودات العالم واحد.

وتقول في الصفة الرابعة والخامسة والسادسة: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ». فحياتكم ومماتكم بيده، وهو سبحانه ربكم ورب العالمين، وعلى هذا فلا إله سواه، أو يكون من ليس له مقام الربوبية ولا أهليتها، ولا يملك الحياة والموت ربًا ومبعودًا؟!!

وتضيف في الصفة السابعة: «وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٠

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) لما كان الكلام في الآيات السابقة في أن هؤلاء إن كانوا طلاب يقين، فإن سبل تحصيله كثيرة، وتضيف أول آية من هذه الآيات: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ» فإن شك هؤلاء في حقانية هذا الكتاب السماوى وفى نبوتك، ليس نابعاً من كون المسألة معقدة صعبة، بل من عدم جديتهم فى التعامل معها.

ثم انتقلت الآية التالية إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين، فى الوقت الذى وجهت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وآله و آله فقالت: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

إنَّ المراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الذي سيغطي السماء في نهاية العالم، وعلى أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، وبداية عذاب الله الأليم للظالمين والمفسدين.

عند ذلك سيعم الخوف والاضطراب كل وجودهم، وتزول الحجب من أمام أعينهم، فيقفون على خطيئهم الكبير، ويتجهون إلى الله تعالى بالقول: «رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ».

إلما أن الله عز وجل يرفض طلب هؤلاء ويقول: «أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ». رسول كان واضحاً في نفسه وتعليماته وبرامجه وآياته ومعجزاته، ومبيناً لها جميعاً.

غير أن هؤلاء بدل أن يذعنوا له، ويؤمنوا بالله الواحد الأحد، ويتقبلوا أوامره بكل وجودهم، أعرضوا عن النبي صلى الله عليه وآله: «ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ».

ثم تضيف الآية التالية: «إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ».

ويقول سبحانه في آخر آية من هذه الآيات: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ».

«البطش»: هو تناول الشيء بصولة، وهنا بمعنى الأخذ للانتقام الشديد، ووصف البطشة بالكبرى إشارة إلى العقوبة الشديدة التي تنتظر هذه الفئة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣١

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذْوَأَ إِلَىٰ آلِي عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَّمَّا تَغْلَبُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (٢١) متابعه للآيات السابقة التي كانت تتحدث حول تمرد مشركي العرب وعدم إذعانهم للحق، تشير هذه الآيات إلى نموذج من الأمم الماضية التي سارت في نفس هذا المسير، وابتليت أخيراً بالعذاب الأليم والهزيمة النكراء، ليكون ذلك تسلياً للمؤمنين، وتحذيراً للمنكرين المعاندين. وذلك النموذج هو قصة موسى وفرعون، حيث تقول الآية: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ».

«فتناً»: من مادة «فتنة»، وهي في الأصل تعنى وضع الذهب في فرن النار لتخليصه من الشوائب، ثم أطلقت على كل امتحان واختبار يجري لمعرفة نسبة خلوص البشر.

ثم تضيف الآية: «وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ».

لقد خاطبهم موسى عليه السلام بأسلوبه المؤدب جدّاً، المليء بالود والمحبة، فقال: «أَنْ أَذْوَأَ إِلَىٰ آلِي عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ».

وطبقاً لهذا التفسير، فإن «عِبَادَ اللَّهِ» بحكم المخاطب، والمراد منهم الفراعنة، وبالرغم من أن هذا التعبير يستعمل في آيات القرآن في شأن العباد الصالحين، إلّا أنه أطلق أيضاً في موارد عديدة على الكفار والمجرمين، من أجل تحريك وجدانهم، وجذب قلوبهم نحو الحق.

بناء على هذا، فإنَّ المراد من «أذوا» إطاعة أمر الله سبحانه وتنفيذ أوامره.

ثم يقول لهم موسى عليه السلام بعد أن دعاهم إلى طاعة الله سبحانه، أو إطلاق سراح بني إسرائيل وتحريرهم: إنَّ مهمتي الأخرى أن أقول لكم: «وَأَنْ لَّاتَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» معجزاته بينه، وأدلتته منطقياً واضحة.

ولما كان المستكبرون وعبيد الدنيا لا يدعون أي تهمة وافتراء، إلّا وألصقوهما بمن يرونه مخالفاً لمنافعهم ومصالحهم اللامشروعة بل لا يتورعون حتى عن قتله وإعدامه، لذا فإنَّ موسى عليه السلام يضيف للحد من مسلكهم هذا: «وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ».

وتخاطب الآية الأخيرة هؤلاء القوم فتقول: «وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٢

لأنَّ موسى عليه السلام كان واثقاً من نفوذه بين أوساط الناس، ومختلف طبقاتهم، بامتلاكه تلك المعجزات الباهرات، والأدلة القوية،

والسلطان المبين.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَاسْتَبْرَأَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) لقد استخدم موسى عليه السلام كل وسائل الهداية للنفوذ إلى قلوب هؤلاء المجرمين الظلمة، إلما أنها لم تؤثر فيهم أدنى تأثير، وطرق كل باب ولكن ما من مجيب. لذلك ينس منهم، ولم ير لهم علاجاً إلّا لعنهم والدعاء عليهم، لأنّ الفاسدين الذين لا أمل في هدايتهم لا يستحقون الحياة في قانون الخلق، بل يجب أن ينزل عليهم عذاب الله ويجتثهم ويطهر الأرض من دنسهم. لذلك تقول الآية الأولى من هذه الآيات: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ».

وقد استجاب الله سبحانه دعاءه، وكمقدمة لنزول العذاب على الفراعنة، ونجاة بني إسرائيل منهم، أمر موسى عليه السلام أن «فَاسْتَبْرَأَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ».

لكن لا تقلق من ذلك، فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذي ينتظرهم.

إنّ ما حذف هنا من أجل الاختصار ووضّح في آيات أخرى من القرآن عبارات موجزة، فمثلاً نقرأ في الآية (٧٧) من سورة طه: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَاتَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى .

ثم تضيف الآية التي بعدها: عندما تصل إلى الساحل الآخر عليك أن تترك البحر بهدوء «وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا». والمراد من البحر في هذه الآيات هو نهر النيل العظيم.

من الطبيعي أن موسى عليه السلام وبني إسرائيل كانوا راغبين في أن يجتازوا البحر حتى تتصل المياه مرة أخرى وتملاً هذا الفراغ، وبتعدوا بسرعة عن منطقة الخطر، ويتجهوا بسلامة إلى الوطن الموعود، إلّا أنهم امرؤا أن لا يعجلوا أثناء عبورهم نهر النيل، بل ليدعوا فرعون وآخر جندي من جنوده يردون النيل، فإن أمر إهلاكهم وإماتتهم قد صدر إلى أمواج النيل المتلاطمة الغاضبة، ولذلك تقول الآية في ختامها: «إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٣

يبين القرآن الكريم في الآيات التالية تركه الفراعنة العظيمة التي ورثها بنو إسرائيل، ضمن خمسة مواضيع تكون الفهرس العام لكل حياة الفراعنة، فيقول أولاً: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ».

لقد كانت البساتين والعيون ثروتين من أهم وأروع ثروات هؤلاء.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ». وكانت هاتان ثروتين مهمتين آخرين، فمن جهة كانت الزراعة العظيمة التي تعتمد على النيل، حيث أنواع المواد الزراعية الغذائية وغيرها، والمحصولات التي امتدت في جميع أنحاء مصر، وكانوا يستخدمونها غذاءاً لهم ويصدرون الفائض منها إلى الخارج؛ ومن جهة أخرى كانت القصور والمسكن العامرة، حيث إنّ من أهم مستلزمات حياة الإنسان هو المسكن المناسب.

ولما كان هؤلاء يمتلكون وسائل رفاه كثيرة غير الامور الأربعة المهمة التي مرّ ذكرها، فقد أشار القرآن إليها جميعاً في جملة مقتضبة، فقال: «وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ».

ثم يضيف: «كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ».

والمراد من «قَوْمًا آخِرِينَ» هم بنو إسرائيل، حيث صرح بذلك في الآية (٩٥) من سورة الشعراء.

وقد عادوا إلى مصر بعد غرق الفراعنة وورثوا ميراثهم، وحكموا هناك.

وتقول الآية الأخيرة من هذه الآيات: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ».

إنّ عدم بكاء السماء والأرض ربّما كان كناية عن حقارتهم، وعدم وجود ولي ولا نصير لهم ليحزن عليهم ويبكيهم.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣) بنو إسرائيل في بوتقة الاختبار: كان الكلام في الآيات السابقة عن غرق الفراعنة وهلاكهم، وانكسار شوكتهم وانتهاء حكومتهم، وانتقالها إلى الآخرين، وتحدثت هذه مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٤

الآيات في النقطة المقابلة لذلك أي نجاه بنى إسرائيل وخلصهم، فتقول: «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ». من العذاب الجسمي والروحي الشاق، من ذبح الأطفال الذكور، واستحياء البنات للخدمة وقضاء المآرب، من السخرة والأعمال الشاقة جداً، وأمثال ذلك. لقد نجى الله سبحانه هذه الأمة المظلومة من قبضة هؤلاء الظالمين، أعظم سفاكي الدماء في التاريخ، في ظل ثورة موسى بن عمران عليه السلام الربانية، لذلك تضيف الآية: «مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ». وتشير الآية التالية إلى نعمة أخرى من نعم الله سبحانه على بنى إسرائيل، فتقول: «وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ». إلاً أنهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا وعوقبوا.

وعلى هذا فإنهم كانوا الأمة المختارة في عصرهم، لأن المراد من العالمين البشر في ذلك العصر والزمان لا في كل القرون والأعصار. وتشير آخر آية من هذه الآيات إلى بعض المواهب الأخرى التي منحهم الله إياها، فتقول: «وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ». وهذا تحذير لكل الامم والأقوام فيما يتعلق بالانتصارات والمواهب التي يحصلون عليها بفضل الله ولطفه، فإن الامتحان عندئذ عسير. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُشْرِبِينَ (٣٥) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) لا شيء بعد الموت: بعد أن جسدت الآيات السابقة مشهداً من حياة فرعون والفراعنة، وعاقبه كفرهم وإنكارهم، تكرر الكلام عن المشركين مرة أخرى، وأعدت هذه الآيات مسألة شكهم في مسألة المعاد- والتي مرّت في بداية السورة- بصورة أخرى، فقالت: «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ. وسوف لا نعود إلى الحياة إطلاقاً وما يقوله محمد عن المعاد والحياة بعد الموت والثواب والعقاب، والجنة والنار لا حقيقة له.

أى إننا نموت مرة واحدة وينتهي كل شيء.

ثم تنقل كلام هؤلاء الذين تشبثوا بدليل واه لإثبات مدعاهم، إذا قالوا: «فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٥

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) قوم تبع: لقد كانت أرض اليمن- الواقعة في جنوب الجزيرة العربية- من الأراضي العامرة الغنية، وكانت في الماضي مهد الحضارة والتمدن، وكان يحكمها ملوك يسمون «تبعاً»- وجمعها تبعاء- لأن قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأن أحدهم كان يخلف الآخر ويتبعه في الحكم.

وهذه الآيات تواصل البحث الذي ورد حول مشركي مكة وعنادهم وإنكارهم للمعاد- فتهدد اولئك المشركين من خلال الإشارة إلى قصة قوم تبع، بأن ما ينتظركم ليس العذاب الإلهي في القيامة وحسب، بل سوف تلاقون في هذه الدنيا أيضاً مصيراً كمصير قوم تبع المجرمين الكافرين، فتقول: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ».

ثم تعود الآية التي بعدها إلى مسألة المعاد مرة أخرى، وتثبت هذه الحقيقة باستدلال رائع، فتقول: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينَ» (١).

فإذا كان الموت بزعمكم نقطة النهاية فسيكون هذا الخلق لعباً ولهواً وعبثاً، لا فائدة من ورائه ولا هدف.

ثم تضيف الآية التي بعدها لتأكيد الكلام: «مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ».

إن كون هذا الخلق حقاً يوجب أن يكون له هدف عقلائي، وذلك الهدف لا يتحقق إلا بوجود عالم آخر. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

لأنهم لا يعملون الفكر في التوصل إلى الحقائق، وإلا فإن أدلة المبدأ والمعاد واضحة بينه.

إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمٌ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)

(١) «لاعب»: من مادة «لعب»، ويقول الراغب في المفردات: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٦

يوم الفصل: تمثل هذه الآيات نتيجة الآيات السابقة التي بحثت مسألة المعاد، والتي استدلت بها عن طريق حكمة خلق هذا العالم على وجود البعث والحياة الاخرى.

فتستنتج الآية الاولى من هذا الاستدلال: «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ».

ثم ذكرت الآية التالية شرحاً موجزاً ليوم الفصل هذا، فقالت: «يَوْمٌ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ».

«المولى»: من مادة «ولاء»، وهي في الأصل تعني الإتصال بين شيئين بحيث لا يوجد بينهما حاجز، وله مصاديق كثيرة.

والفرق بين «لا- يغنى» وبين «لا- هم ينصرون» هو: إن الأول إشارة إلى أن أى فرد لا يقدر في ذلك اليوم على حل مشكله فرد آخر بصورة إنفرادية مستقلة، والثاني إشارة إلى أنهم عاجزون عن حل المشاكل حتى وإن تعاونوا فيما بينهم.

لكن هناك جماعة واحدة مستثناءة فقط، وهي التي أشارت إليها الآية التالية، فقالت: «إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

لا شك أن هذه الرحمة الإلهية لا تُمنح اعتباراً، بل تشمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقط.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) شجرة الزقوم: تصف هذه

الآيات أنواعاً من عذاب الجحيم وصفاً مرعباً يهز الأعماق، وهي تكمل البحث الذي مر في الآيات السابقة حول يوم الفصل والقيامة، فتقول: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ». فهؤلاء المجرمون هم الذين يأكلون هذا النبات المر القاتل، والخبيث الطعام التتن الرائحة.

«الزقوم»: اسم شجرة لها أوراق صغيرة وثمره مرة مرّة خشنة اللمس منتنة الرائحة، تنبت في أرض تهامة من جزيرة العرب، كان المشركون يعرفونها، وهي شجرة عصيرها مرّ، وإذا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٧

أصاب البدن تورّم؛ و «الأثيم»: من مادة «إثم»، وهو المقيم على الذنب، والمراد هنا الكفار المعاندون المعتدون، المصرون على الذنوب والمعاصي المكثرون منها.

ثم تضيف الآية: «كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ».

«المهل»: الفلز المذاب؛ و «الحميم»: هو الماء الحار المغلى.

فعندما يدخل الزقوم بطون هؤلاء، فإنه يولد حرارة عالية لا تطاق، ويغلى كما يغلى الماء، وبدل أن يمنحهم هذا الغذاء القوة والطاقة فإنه يهبهم الشقاء والعذاب والألم والمشقة.

ثم يخاطب سبحانه خزنة النار، فيقول: «خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ».

«فاعتلوه»: من مادة «اعتل»، وهي الأخذ والسحب والإلقاء؛ و «سواء»: بمعنى الوسط، لأن المسافة إلى جميع الأطراف متساوية، وأخذ أمثال هؤلاء الأشخاص وإلقاؤهم في وسط جهنم باعتبار أن الحرارة أقوى ما تكون في الوسط، والنار تحيط بهم من كل جانب.

ثم تشير الآية التالية إلى نوع آخر من أنواع العقاب الأليم الذي يناله هؤلاء، فتقول: «ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ». وبهذا فإنهم يحترقون من الداخل، وتحيط النار بكل وجودهم من الخارج، وإضافة إلى ذلك يصب على رؤوسهم الماء المغلى في وسط

الجحيم.

وبعد كل أنواع العذاب الجسمي هذه، تبدأ العقوبات الروحية والنفسية، فيقال لهذا المجرم المتمرد العاصي الكافر: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ».

أنت الذي ركبتك الغرور فلم تدع ذنباً لم ترتكبه، ولا موبقاً لم تأتها، فذق الآن نتيجة أعمالك التي تجسدت أمامك، وكما أحرقت أجسام الناس وآلمت أرواحهم، فليحترق الآن داخلك وخارجك بنار غضب الله والماء المغلى الذي يصهر ما في بطونهم والجلود. ويضيف القرآن الكريم في آخر آية- من الآيات مورد البحث- مخاطباً إياهم: «إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٨

المتقون ومختلف نعم الجنة: لما كان الكلام في الآيات السابقة عن العقوبات الأليمة لأهل النار، فإن هذه الآيات تذكر المواهب والنعم المعدة لأهل الجنة، لتوضح أهمية كل منهما من خلال المقارنة بينهما. وقد لخصت هذه المواهب في سبعة أقسام: الأولى هي: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ». على هذا فلا يصيبهم أى إزعاج أو خوف، بل هم فى أمن كامل من الآفات والبلايا، من الغم والأحزان، ومن الشياطين والطواغيت.

ثم تطرقت الآيات إلى النعمة الثانية فقال: «فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

إن التعبير بالجنات يمكن أن يكون إشارة إلى تعدد الحدائق والبساتين التى يتمتع بها كل فرد من أهل الجنة، فهى تحت تصرفه، أو تكون إشارة إلى مقاماتهم المختلفة ودرجاتهم المتفاوتة، لأن حدائق الجنة وبساتينها غير متساوية، بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنة.

وتشير الثالثة إلى ملابسهم الجميلة، فتقول: «يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ».

«السندس»: يقال للأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة؛ و «الإستبرق» هى الأقمشة الحريرية السميكه.

طبعاً، ليس فى الجنة حرّ شديد أو برد قارس ليتوقاه أهل الجنة بارتداء هذا الملابس، بل هذه إشارة إلى الألبسة المتنوعة المعدة لهم.

وتصل النبوة فى النعمة الرابعة إلى أزواجهم، فتقول: «كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ».

«الحور»: جمع حوراء وأحور، وتقال لمن اشتد سواد عينه، واشتد بياض بياضها؛ و «العين»: جمع أعين وعيناء، أى أوسع العين، ولما كان أكثر جمال الإنسان فى عينه، فإن الآية تصف عيون الحور العين الجميلة الساحرة.

ثم تناولت الآية الاخرى النعمة الخامسة لأصحاب الجنة فقالت: «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ».

ولا أثر هنا للأمراض والاضطرابات التى قد تحدث فى هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه، وكذلك لا خوف من فسادها وقتلتها.

خلود الجنة ونعمها هى النعمة السادسة من نعم الله سبحانه على المتقين، لأن الذى يقلق فكر الإنسان عند الوصال واللقاء هو خوف الفراق، ولذلك تقول الآية: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٣٩

وأخيراً يبين القرآن الكريم السابع من نعم وآخرها، فيقول: «وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ». فإن كمال هذه النعم إنما يتم عندما يخلو فكر أصحاب الجنة من احتمال العذاب، وعدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

وهذا التعبير يشير إلى أن المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإن الله سبحانه سيعفو عنها بلطفه وكرمه، ويطمئنهم بأن لا يدعوا للخوف إلى أنفسهم سبيلاً.

وأشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى جميع النعم السبعة، وكتبتجه لما مر تقول:  
«فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

صحيح، إن المتقين قد عملوا الكثير من الصالحات والحسنات، إلّا أنّ من المسلم أنّ تلك الأعمال جميعاً لا تستحق كل هذه النعم الخالدة، بل هي فضل من الله سبحانه، إذ جعل كل هذه النعم والعطايا تحت تصرفهم ووهبهم إيّاها. فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) قلنا: إنّ سورة الدخان بدأت ببيان عظمة القرآن وعمقه، وتنتهي بهذه الآيات التي تبين كذلك التأثير العميق لآيات القرآن الكريم، لتتسجم بذلك بداية السورة مع نهايتها. تقول الآية الأولى: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». فمع أنّ محتواه عميق جداً، وأبعاده مترامية، لكنّه بسيط واضح، يفهمه الجميع، وتقتبس من أنواره كل الطبقات، أمثاله جميلة رائعة، وتشبيهاه واقعية بليغة، وقصصه حقيقية تربوية، دلّله واضحة محكمة، وبيانه مع عمقه بسيط سهل، مختصر عميق المحتوى، وهو في الوقت نفسه ذو حلاوة وجاذبية، ينفذ إلى أعماق قلوب البشر، فينبه الغافلين، ويعلم الجاهلين، ويذكر من كان له قلب.

وهذه الآية شبيهة بالآية التي تكررت عدّة مرّات في سورة القمر: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ». لكن لما كان هناك جماعة لم يذعنوا لأمر الله، ولم يسلموا ويستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف، فقد هددهم الآية الأخيرة، وحذرتهم فقالت: «فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ». فانتظر ما وعدك الله بالنصر على الكفار، ولينتظروا الهزيمة والخسران ... انتظر نزول عذاب الله الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين، ودعهم ينتظرون هزيمتك وعدم تحقق أهدافك السامية، ليعلم أي الإنتظارين هو الصحيح؟

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٠

«ارتقب»: في الأصل مأخوذة من «الرقبة»، ولما كان من ينتظر شيئاً يمد رقبتة نحوه دائماً، فقد جاءت بمعنى انتظار الشيء ومراقبته.  
«نهاية تفسير سورة الدخان»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤١

## ٤٥. سورة الجاثية

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى هذه السورة في سبعة فصول:

- ١- عظمة القرآن المجيد وأهميته.
  - ٢- بيان جانب من دلائل التوحيد أمام المشركين.
  - ٣- ذكر بعض ادّعاءات الدهريين، والرد عليها بجواب قاطع.
  - ٤- إشارة وجيزة إلى عاقبة بعض الأقوام الماضين، كبنى إسرائيل.
  - ٥- تهديد الضالين المصّرّين على عقائدهم المنحرفة والمتعصّبين لها تهديداً شديداً.
  - ٦- الدعوة إلى العفو والصفح، لكن مع الحزم وعدم الانحراف عن طريق الحق.
  - ٧- الإشارات البليغة المعبرة إلى مشاهد القيامة المهولة.
- واسمها مقتبس من الآية (٢٨) منها؛ و «الجاثية»: تعنى الجثو على الركب، وهي إشارة إلى وضع كثير من الناس في ساحة القيامة، في محكمة العدل الإلهية تلك.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ حم الجاثية ستر الله عورته، وسكن روعته عند الحساب».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٢

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعِيدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) إِنَّ هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ سَادِسُ السُّورَاتِ الَّتِي تَبْدَأُ بِالْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ «حم» وهى تشكل مع السورة الآتية- أى سورة الأحقاف- سور الحواميم السبعة.

يقول الطبرسى رحمه الله فى بداية هذه السورة: إِنَّ أَحْسَنَ مَا يُقَالُ هُوَ أَنَّ (حم) اسم هذه السورة، ثم ينقل عن بعض المفسرين، أَنَّ تسمية هذه السورة ب (حم) للإشارة إلى أَنَّ هذا القرآن المعجز بتمامه يتكون من حروف الألف باء.

وربما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية التالية عن عظمة القرآن مباشرة فتقول:

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

«العزیز»: هو القوى الذى لا يقهر؛ و «الحكيم»: هو العارف بأسرار كل شىء، وتقوم كل أفعاله على أساس الحكمة والدقة.

ثم تناولت الآية التى بعدها بيان آيات الله سبحانه ودلائل عظمتة فى الآفاق والأنفس، فقالت: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ».

إِنَّ عِظْمَةَ السَّمَاوَاتِ مِنْ جَانِبٍ، وَنِظَامَهَا الْعَجِيبِ الَّذِي مَرَّتْ عَلَيْهِ مِلايين السنين الذى لم ينحرف عما سار عليه قيد أنملة، من جانب آخر، ونظام خلقه الأرض وعجائبها، من جانب ثالث، يكون كل منها آية من آيات الله سبحانه.

غير أَنَّ علامات التوحيد هذه، وعظمة الله تعالى إِنَّمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا وَيَنْتَفِعُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ، أى طَلَّابِ الْحَقِّ وَالسَّائِرُونَ فِي طَرِيقِ اللَّهِ.

ثم انتقلت السورة من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فقالت: «وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

كل واحد من هذه المخلوقات آية بنفسه، ودليل على علم مبدئ الخلقه وحكمته وقدرته اللامتناهية.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٣

وتذكر الآية التالية ثلاث مواهب اخرى لكل منها أثره الهام فى حياة الإنسان والكائنات الحية الاخرى، وكل منها آية من آيات الله تعالى، وهى مواهب «النور» و «الماء» و «الهواء»، فتقول: «وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

إِنَّ نِظَامَ «النور» و «الظلمة» وحدوث الليل والنهار حيث يخلف كل منهما الآخر نظام موزون دقيق جداً، وهو عجيب فى وضعه وسنته وقانونه.

ويحتمل فى تفسير الآية أن لا يكون المراد من اختلاف الليل والنهار تعاقبهما، بل هو إشارة إلى اختلاف المدة وتفاوت الليل والنهار، فى فصول السنة، فيعود نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الاختلاف من المحاصيل الزراعية المختلفة والنباتات والفواكه، ونزول الثلوج وهطول الأمطار والبركات الاخرى.

ثم تناول الحديث فى الفقرة الثانية عن الرزق السماوى، أى «المطر». والماء يشكل الجانب الأكبر والقسم الأساسى من بدن الإنسان، وكثير من الحيوانات الاخرى، والنباتات.

ثم تتحدث فى الفقرة الثالثة عن هبوب الرياح .. تلك الرياح التى تنقل الهواء الملئ بالأكسجين من مكان إلى آخر، وتضعه تحت تصرف الكائنات الحية، وتبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحارى والغابات لتصفيته، ثم إعادته إلى المدن.

والعجيب أن هاتين المجموعتين من الكائنات الحية- أى الحيوانات والنباتات- متعاكسة فى العمل تماماً، فالاولى تأخذ الأوكسجين وتعطى غاز ثانى أوكسيد الكاربون، والثانية على العكس تتنفس ثانى أوكسيد الكاربون وتزفر الأوكسجين، ليقوم التوازن فى نظام الحياة، ولكى لا ينفذ مخزون الهواء النقى المفيد من جو الأرض بمرور الزمان.



إن هبوب الرياح، إضافة إلى ذلك فإنه يلحق النباتات فيجعلها حاملةً للأثمار والمحاصيل، وينقل أنواع البذور إلى الأراضي المختلفة لبذرهما هناك، وينمي المراعي الطبيعية والغابات، ويهيج الأمواج المتلاطمة في قلوب المحيطات، ويبعث الحركة والحياة في البحار ويشير أمواجها العظيمة، ويحفظ الماء من التعفن والفساد، وهذه الرياح نفسها هي التي تحرك السفن على وجه المحيطات والبحار وتجريها.

وتقول الآية الأخيرة، إجمالاً للبحوث الماضية، وتبياناً لعظمة آيات القرآن وأهميتها:

«تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٤

«التلاوة»: من مادة «تلو» أي الإتيان بالكلام بعد الكلام متعاقباً، وبناء على هذا فإن تلاوة آيات القرآن تعنى قراءتها بصورة متوالية متعاقبة.

والتعبير «بالحق» إشارة إلى محتوى هذه الآيات، وهو أيضاً إشارة إلى كون نبوة النبي صلى الله عليه وآله والوحي الإلهي حقاً. وبعبارة أخرى، فإن هذه الآيات بليغة معبرة تضمنت في طياتها الاستدلال على حقانيتها وحقانيته من جاءها.

وحقاً إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأى شيء سوف يؤمنون؟ ولذلك تعقب الآية:

«فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ».

حقاً إن للقرآن الكريم محتوى عميقاً من ناحية الاستدلال والبراهين على التوحيد، وكذلك فهو يحتوي على مواعظ وإرشادات تجذب العباد إلى الله سبحانه حتى القلوب التي لها أدنى استعداد- أو أرضية صالحه- وتدعو كل مرتبط بالحق إلى الطهارة والتقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات في أحد فلا أمل في هدايته بعد ذلك.

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِرْيَاتِهِمْ مِنْ شَيْئٍ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) ويل لكل أفَّاك أثيم: رسمت الآيات السابقة صورة عن فريق يسمعون كلام الله مدعماً بمختلف أدلة التوحيد والمواعظ والإرشاد، فلا يترك أثراً في قلوبهم القاسية، أما هذه الآيات فتتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق، فتقول أولاً: «وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ».

«الأفَّاك»: صيغة مبالغة، وهي تعنى الشخص الذي يكثر الكذب جداً، وتقال أحياناً لمن يكذب كذباً عظيماً حتى وإن لم يكثر من الكذب.

و «الأثيم»: من مادة إثم، أي المجرم والعاصي، وتعطى أيضاً صفة المبالغة.

ويتضح من هذه الآية جيداً أن الذين يقفون موقف الخصم العنيد المتعصب أمام آيات الله سبحانه هم الذين غمرت المعصية كيانهم، فانغمسوا في الذنوب والآثام والكذب، لا أولئك الصادقون الطاهرون، فإنهم يدعون لها لطهارتهم ونقاء سريرتهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٥

ثم تشير الآية التالية إلى كيفية اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: «يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا».

وتهدده الآية في نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: «فَبَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». فكما أنه آذى قلب النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين وآلمهم، فإننا سنبتليه بعذاب أليم أيضاً.

ثم تضيف الآية التي بعدها: «وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا».

إنه يتخذ كل آياتنا هزواً، سواء التي علمها والتي لم يعلمها، وغاية الجهل أن ينكر الإنسان شيئاً أو يستهزى به وهو لم يفهمه أصلاً، وهذا خير دليل على عناد أولئك وتعصّبهم.

ثم تصف الآية عقاب هؤلاء في النهاية فتقول: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

وتوضح الآية التالية العذاب المهين، فتقول: «مَنْ وَرَّأَتْهُمْ جَهَنَّمَ».

إن التعبير بالوراء مع أن جهنم أمامهم وسيصلونها في المستقبل، يمكن أن يكون ناظراً إلى أن هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا ونبذوا الآخرة والعذاب وراء ظهورهم.

إن الآية تضيف مواصلة الحديث أن هؤلاء إن كانوا يظنون أن أموالهم الطائلة وآلهتهم التي ابتدعوها ستحل شيئاً من أثقالهم، وأنها ستغني عنهم من الله شيئاً، فإنهم قد وقعوا في اشتباه عظيم، حيث: «وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءً».

ولما لم يكن هناك سبيل نجاه وفرار من هذا المصير، فإن هؤلاء يجب أن يبقوا في عذاب الله ونار غضبه: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ولقد استصغر هؤلاء آيات الله سبحانه، ولذلك سيعظم الله عذابهم، وقد اغتر هؤلاء وتفاحروا فألقاهم الله في العذاب الأليم.

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُوكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مِا فِي السَّمَوَاتِ وَمِا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَمَّا يَزُجُونِ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٦

مواصلة للبحوث التي وردت في الآيات السابقة حول عظمة آيات الله، تتناول هذه الآيات نفس الموضوع، فتقول: «هَذَا هُدًى». فهو

يميز بين الحق والباطل، ويضئ حياة الإنسان، ويأخذ بيد سالكي طريق الحق ليوصلهم إلى هدفهم ومنزلهم المقصود، لكن:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ». «الرجز»: يعنى الاضطراب والاهتزاز وعدم الانتظار، وتطلق هذه الكلمة أيضاً على مرض الطاعون والابتلاء الصعبة، أو العواصف الثلجية الشديدة، والوساوس الشيطانية وأمثال ذلك، لأن كل هذه الامور تبث على الاضطراب وعدم الانتظام والانضباط.

ثم تحول زمام الحديث إلى بحث التوحيد الذي مر ذكره في الآيات الاولى لهذه السورة، فتعطى المشركين دروساً بليغة مؤثرة في توحيد الله سبحانه ومعرفة. فتارة تدغدغ عواطفهم، وتقول: «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُوكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

بعد بيان السفن التي لها تماس مباشر بحياة البشر اليومية، تطرقت الآية التي بعدها إلى مسألة تسخير سائر الموجودات بصورة عامة، فتقول: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مِا فِي السَّمَوَاتِ وَمِا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ».

فلماذا يعرض الإنسان عنه ويلجأ إلى غيره، ويتسكع على أعتاب المخلوقات الضعيفة، ويبقى في غفلة وذهول عن المنعم الحقيقي عليه؟ ولذلك تضيف الآية في النهاية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

لقد كانت الآية السابقة تلامس عاطفة الإنسان وتحاول إثارتها، وهنا تحاول هذه الآية تحريك عقل الإنسان وفكره، فما أعظم رحمة ربنا سبحانه! إنه يتحدث مع عباده بكل لسان وأسلوب يمكن أن يطبع أثره، فمزة بحديث القلب، واخرى بلسان الفكر، والهدف واحد من كل ذلك، ألا وهو إيقاظ الغافلين ودفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

ثم تطرقت الآية التالية إلى ذكر قانون أخلاقي يحدد كيفية التعامل مع الكفار لتكمل أبحاثها المنطقية السابقة عن هذا الطريق، فحوت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وقالت: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَمَّا يَزُجُونِ أَيَّامَ اللَّهِ».

فمن الممكن أن تكون معاملة هؤلاء قاسية، وتعبيراتهم خشنة غير مؤدبة، وألفاظهم بذيئة، وذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان وأسس التربية الإلهية، غير أن عليكم أن تقابلوهم

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٧

بكل رحابة صدر لثلا يصروا على كفرهم ويزيدوا في تعصبهم، فتبعد المسافة بينهم وبين الحق.

لكن، ومن أجل أن لا يستغل مثل هؤلاء الأفراد هذا الصفح الجميل والعمو والتسامي، فقد أضافت الآية: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

لقد اعتبر بعض المفسرين هذه الجملة تهديداً للكفار والمجرمين، في حين أن البعض الآخر اعتبرها بشاره للمؤمنين لهذا العفو والصفح، لكن لا مانع من أن تكون تهديداً لتلك الفئة من جانب، وبشاره لهذه الجماعة من جانب آخر، كما أشير إلى هذا المعنى في الآية التالية أيضاً. تقول الآية: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

إن هذا التعبير الذي ورد في القرآن الكريم مراراً، وبعبارات مختلفة، يشكل جواباً لمن يقول: ماذا يضر عصياننا الله تعالى، وما تنفعه طاعتنا؟

فتقول هذه الآيات: إن كل ضرر ذلك وكل نفعه يعود عليكم، فأنتم الذين تسلكون مراقي الكمال في ظل الأعمال الصالحة، وتحلقون إلى سماء قرب الله عز وجل، كما أنكم أتم الذين تهوون إلى الحضيض نتيجة ارتكابكم الآثام والمعاصي، فتبتعدون عن الله عز وجل وتستحقون بذلك اللعنة الأبدية.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا يَنْهَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) آتينا بنى إسرائيل كل ذلك، ولكن... متابعة للبحوث التي وردت في الآيات السابقة حول نعم الله المختلفة وشكرها والعمل الصالح، تناول هذه الآيات نموذجاً من حياة بعض الأقسام الماضين الذين غمرتهم نعم الله سبحانه، إلا أنهم كفروا بها ولم يراعوها حق رعايتها.

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٨

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ».

تبين هذه الآية في مجموعها خمس نعم أنعم الله بها على بنى إسرائيل.

النعمه الاولى هي الكتاب السماوى، أى التوراة التى كانت مبينه للمعارف الدينيه والحلال والحرام، وطريق الهدايه والسعاده؛ والثانيه مقام الحكومه والقضاء.

أما النعمه الثالثه فقد كانت نعمه مقام النبوه، حيث اصطفى الله سبحانه أنبياء كثيرين من بنى إسرائيل.

وقد ورد فى روايه أن عدد أنبياء بنى إسرائيل بلغ ألف نبى، وفى روايه اخرى: «إن عدد أنبياء بنى إسرائيل أربعة آلاف نبى».

وتتحدث الآية فى الفقرة الرابعه حديثاً جامعاً شاملاً عن المواهب الماديه، فتقول:

«وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ».

النعمه الخامسه، هى تفوقهم وقوتهم التى لا ينازعهم فيها أحد، كما توضح الآية ذلك فى ختامها فتضيف: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ».

لا شك أن المراد من «العالمين» هنا هم سكان ذلك العصر.

وتشير الآية التاليه إلى الموهبه السادسه التى منحها الله سبحانه لهؤلاء المنكرين للجميل، فتقول: «وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ».

«البيّنات»: يمكن أن تكون إشارة إلى المعجزات الواضحة التى أعطها الله سبحانه موسى بن عمران عليه السلام وسائر أنبياء بنى إسرائيل، أو أنها إشارة إلى الدلائل والبراهين المنطقية الواضحة، والقوانين والأحكام المتقنه الدقيقه.

فمع وجود هذه المواهب والنعم العظيمه، والدلائل البيئه الواضحه لا يبقى مجال للاختلاف، إلا أن الكافرين بالنعم هؤلاء ما لبثوا أن

اختلفوا، كما يصور القرآن الكريم ذلك في تتمه هذه الآية إذ يقول: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ». ويهددهم القرآن الكريم في نهاية الآية بقوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». وبهذا فقد فقدوا قوتهم وعظمتهم في هذه الدنيا بكفرانهم النعمة، واختلافهم فيما بينهم، واشتروا لأنفسهم عذاب الآخرة. بعد بيان المواهب التي من الله تعالى بها على بنى إسرائيل، وكفرانها من قبلهم، ورد

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٤٩

الحديث عن موهبة عظيمة أهداها الله سبحانه لنبي الخاتم صلى الله عليه وآله والمسلمين، فقالت الآية: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ».

«الشريعة»: تعنى الطريق التي تستحدث للوصول إلى الماء الموجود عند ضفاف الأنهر التي يكون مستوى الماء فيها أخفض من الساحل، ثم أطلقت على كل طريق يوصل الإنسان إلى هدفه ومقصوده. لقد استعملت هذه الكلمة مرّة واحدة في القرآن الكريم، وفي شأن الإسلام فقط. والمراد من «الأمر» هنا هو دين الحق الذي مرّت الإشارة إليه في الآية السابقة أيضاً، حيث قالت: «بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ». ولما كان هذا المسير مسير النجاة والنصر، فإنّ الله سبحانه يأمر النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك أن «فَاتَّبِعْهَا». وكذلك لما كانت النقطة المقابلة ليس إلتباع أهواء الجاهلين ورغباتهم، فإنّ الآية تضيف في النهاية: «وَلَمَّا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

وتعتبر الآية التالية تبيانا لعلّة النهي عن الإستسلام أمام مقترحات المشركين وقبول طلباتهم، فتقول: «إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». فإذا ما اتبعت دينهم الباطل وأحاط بك عذاب الله تعالى فإنّهم عاجزون عن أن يهبوا لنجدتك وإنقاذك، ولو أنّ الله سبحانه سلب منك نعمة فإنّهم غير قادرين على إرجاعها إليك.

ومع أنّ الخطاب في هذه الآيات موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله إلّا أنّ المراد منه جميع المؤمنين. ثم تضيف الآية: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». فكلّهم من جنس واحد، ويسلكون نفس المسير، ونسجهم واحد، وكلّهم ضعفاء عاجزون.

لكن لا تذهب بك الظنون بأنك وحيد، ومن معك قليل ولا ناصر لكم ولا معين، بل:

«وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ».

وكتأكيد لما مرّ، ودعوة إلى اتباع دين الله القويم، تقول آخر آية من هذه الآيات: «هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ». «البصائر»: جمع «بصيرة»، وهي النظر، ومع أنّ هذه اللفظة أكثر ما تستعمل في وجهات النظر الفكرية والنظريات العقلية، إلّا أنّها تطلق على كل الامور التي هي أساس فهم المعاني وإدراكها. هذا تعبير جميل يعبر عن عظمة هذا الكتاب السماوي وتأثيره وعمقه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٠

مختصر الامثل ج ٤ ٤٧٩

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَمْ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ليسوا سواء محياهم ومماتهم: متابعة للآيات السابقة التي كان الكلام فيها يدور حول فئتين هما: المؤمنون والكافرون، أو المتقون والمجرمون، فإنّ أولى هذه الآيات قد جمعتها في مقارنته أصولية بينهما، فقالت: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً

مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

«اجترحوا»: في الأصل من الجرح الذي يصيب بدن الإنسان أثر إصابته بحادث، ولما كان ارتكاب الذنب والمعصية كأنما يجرح روح المذنب، فقد استعملت كلمة الإجتراح بمعنى ارتكاب الذنب.

فإن الآية تقول: إنه لظن خاطئ أن يتصوروا أن الإيمان والعمل الصالح، أو الكفر والمعصية، لا يترك أثره في حياة الإنسان، فإن حياة هذين الفريقين ومماتهم يتفاوتان تماماً.

أمّا الآية التالية فإنه تفسير لسابقتها وتعليل لها، إذ تقول: «وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَآ يُظْلَمُونَ». فكل العالم يوحى بأن خالقه قد خلقه وجعله يقوم على محور الحق، وأن يحكم العدل والحق كل مكان، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يجعل الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمجرمين الكافرين.

وكذلك فإن الآية الأخيرة من هذه الآيات توضيح وتعليل آخر لعدم المساواة بين الكافرين والمؤمنين، إذ تقول: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

ولا صنم أخطر من إبتاع هوى النفس الذي يوصل كل أبواب الرحمة وطرق النجاة بوجه الإنسان؟

في تفسير القرطبي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥١

لأن الأصنام العادية موجودات لا خصائص لها ولا صفات فعالة مهمة، أما صنم الهوى، فإنه يغوى الإنسان ويسوقه إلى ارتكاب أنواع المعاصي، والإنزلاق في هاوية الإنحراف.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) عقائد الدهريين: في هذه الآيات بحث آخر حول منكرى التوحيد، غاية ما هناك أنه ذكر هنا اسم جماعة خاصة منهم، وهم «الدهريون» الذين ينكرون وجود صانع حكيم لعالم الوجود مطلقاً، في حين أن أكثر المشركين كانوا يؤمنون ظاهراً بالله، وكانوا يعتبرون الأصنام شفعاء عند الله، فتقول الآية أولاً: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا».

فكما يموت من يموت منا، يولد من يولد منا وبذلك يستمر النسل البشري: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ».

وبهذا فإنهم ينكرون المعاد كما ينكرون المبدأ، والجملة الأولى ناظرة إلى إنكارهم المعاد، أما الجملة الثانية فتشير إلى إنكار المبدأ. إن القرآن الكريم أجاب هؤلاء العبثيين بجملة وجيزة عميقة، تلاحظ في موارد أخرى من القرآن الكريم أيضاً، فقال: «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

وقد ورد نظير هذا المعنى في الآية (٢٨) من سورة النجم في من يظنون أن الملائكة بنات الله سبحانه: «وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً».

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في القول بقتل المسيح، [النساء ١٥٧] وعقيدة مشركى العرب في الأصنام، [يونس ٦٦].

وأشارت الآية التالية إلى إحدى ذرائع هؤلاء الواهية وحججهم الباطلة فيما يتعلق بالمعاد، فقالت: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

كان هؤلاء يرددون أنه إذا كانت حياة الأموات وبعثهم حقاً فأحيوا آباءنا كنموذج لإدعائكم، حتى نعرف مدى صدقكم، ولنسألهم عما يجري بعد الموت، وهل يصدقون ما تقولونه أم يكذبونه؟

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٢

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ يَحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) الكل جاث في محكمة العدل الإلهي: هذه الآيات جواب آخر على كلام الدهريين، الذين كانوا ينكرون المبدأ والمعاد، وقد أشير إلى كلامهم، في الآيات السابقة؛ فتقول الآية أولاً: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَارِيبَ فِيهِ».

لم يكن هؤلاء يعتقدون بالله ولا باليوم الآخر، ومحتوى هذه الآية استدلال عليهما معاً، حيث أكدت على مسألة الحياة الأولى.

ومن جهة أخرى، تقول لهم: كيف يكون القادر على إنشاء الحياة الأولى عاجزاً عن إعادتها ثانياً؟

ولما كان كثير من الناس لا يتأمل هذه الدلائل ولا يدقق النظر فيها، فإن الآية تضيف في النهاية: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

أمّا الآية التالية فهي دليل آخر على مسألة المعاد، وقد قرأنا الشبهة المطروحة حوله في آيات القرآن الاخرى، فتقول: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». فلما كان مالكاً لتمام عالم الوجود الواسع وحاكماً عليه، فمن المسلم أن يكون قادراً على إحياء الموتى، ومع وجود تلك القدرة المطلقة لا تكون عملية الإحياء بالأمر العسير.

لقد جعل الله سبحانه هذا العالم مزرعة للآخرة، و متجراً وافر الربح إلى ذلك العالم، ولذلك يقول سبحانه في نهاية الآية: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ يَحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ».

إن الحياة والعقل والذكاء ومواهب الحياة الاخرى هي رأس مال الإنسان في سوق التجارة هذا، لكن اتباع الباطل يبادلونه بمتاع فإن سريع الزوال، ولذلك فإنهم حين يأتون يوم القيامة، يوم لا ينفع إلا القلب السليم والإيمان والعمل الصالح سيرون خسارتهم الباهظة

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٣

بام أعينهم، ولات ساعة مندم.

«يخسر»: من الخسران، وهو فقدان رأس المال؛ و «المبطل»: من مادة «إبطال»، فلها في اللغة معان مختلفة، كإبطال الشيء، والكذب، والاستهزاء والمزاح، وطرح أمر باطل وذكره، وكل هذه المعاني يمكن أن تقبل في مورد الآية.

الأشخاص الذين أبطلوا الحق، والذين نشروا عقيدة الباطل وأهدافه، والذين كذبوا أنبياء الله، وسخروا من كلامهم، سيرون خسارتهم المبين في ذلك اليوم.

وتجسد الآية التالية مشهد القيامة بتعبير بليغ مؤثر جداً، فتقول: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً».

ثم تبين الآية ثانياً مشهد القيامة، فتقول: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». فإن هذا الكتاب صحيفة أعمال سجلت فيها كل الحسنات والسيئات، والقبايح والأفعال الجميلة، وأقوال الإنسان وأعماله، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم: «لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» (١).

وعبارة «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» يوحي بأن لكل امه كتاباً يتعلق بأفرادها جميعاً، إضافة إلى صحيفة الأعمال الخاصة بكل فرد.

ثم يأتيهم الخطاب من قبل الله مرة أخرى، فيقول مؤكداً: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ». فقد كنتم تفعلون كل ما يحلو لكم، ولم تكونوا تصدقون مطلقاً أن كل أعمالكم هذه تسجل في مكان ما، ولكن «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

«نستسخ»: من مادة «إستنساخ»، وهي في الأصل مأخوذة من النسخ، وهو إزالة الشيء بشيء آخر، ثم استعملت في كتابه كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحي الكتاب الأول.

وتبين الآية التالية الجلسة الختامية للمحكمة وإصدار قرار الحكم، حيث تنال كل فئة جزاء أعمالها، فتقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ».

والتعبير ب «رَبُّهُمْ» يحكى عن لطف الله الخاص، يكتمل بتعبير «الرحمة» بدل «الجنة».

وتبلغ بهم نهاية الآية أوج الكمال حينما تقول: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ».

(١) سورة الكهف / ٤٩. مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٤

إنَّ ل «رحمة الله» معنى واسعاً يشمل الدنيا والآخرة، وقد أطلقت في آيات القرآن الكريم على معان كثيرة، فتارة تطلق على مسألة الهداية، واخرى على الإنقاذ من قبضة الأعداء، وثالثة على المطر الغزير المبارك، ورابعة على نعم اخرى كنعمه النور والظلمة، وأطلقت في موارد كثيرة على الجنة ومواهب الله سبحانه في القيامة.

«الفوز»: تعنى الظفر المقترن بالسلامة، وقد استعملت في (١٩) مورداً من آيات القرآن المجيد، فوصف الفوز مرةً بالمبين، واخرى بالكبير، أما في غالب الآيات فقد وصف بالعظيم، وهو مستعمل عادةً في شأن الجنة.

وتذكر الآية الآتية مصير من يقع في الطرف المقابل لأولئك السابقين، فتقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

ومما يلفت النظر أن الكلام في هذه الآية عن الكفر فقط، وأما أعمال السوء التي هي عامل الدخول في عذاب الله وسببه فلم يجر لها ذكر، وذلك لأن الكفر وحده كاف لأن يدخل صاحبه العذاب.

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَعَرَّيْتُمْ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) يوم تبدو السيئات: الآية الاولى من هذه الآيات توضيح لما ذكر في الآيات السابقة بصورة مجمله، توضيح لمسألة استكبار الكافرين على آيات الله ودعوة الأنبياء، فتقول:

«وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ».

وتتحدث الآية التالية عن جزاء هؤلاء وعقابهم، ذلك الجزاء الذي لا يشبه عقوبات

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٥

المحاكم الدنيوية، فتقول: «وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا». فستجسد القبائح والسيئات أمام أعينهم، وتوضح لهم، وتكون لهم قريناً دائماً يتأذون من وجوده إلى جانبهم ويتعذبون من صحبته: «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

والأشد ألماً من كل ذلك هو الخطاب الذي يخاطبهم به الله الرحمن الرحيم، فيقول سبحانه: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا».

لا شك أن النسيان لا معنى له بالنسبة إلى الله سبحانه الذي يحيط علمه بكل عالم الوجود، لكنّه هنا كناية لطيفة عن احتقار الإنسان المجرم العاصي وعدم الإهتمام به.

وتتابع الآية الحديث، فتقول: «وَمَا يُؤْمِرُ النَّارُ». وإذا كنتم تظنون أن أحداً سيهب لنصرتكم وغوثكم، فاقطعوا الأمل من ذلك، واعلموا أنه: «وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ».

أما لماذا ابتليتكم بمثل هذا المصير؟ ف «ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَعَرَّيْتُمْ الدُّنْيَا».

وتكرر الآية ما ورد في الآية السابقة وتؤكد بأسلوب آخر، فتقول: «فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

فقد كان الكلام هناك عن مأواهم ومقرهم الثابت، والكلام هنا عن عدم خروجهم من النار .. حيث قال هناك: ما لهم من ناصرين، وهنا يقول: لا يقبل منهم عذر، والنتيجة هي أن لا سبيل لنجاتهم.

وفى نهاية هذه السورة، ولإكمال بحث التوحيد والمعاد، والذي كان يشكل أكثر مباحث هذه السورة، تبيين الآيتان الأخيرتان وحدة ربوبية الله وعظمته، وقدرته وحكمته، وتذكر خمس صفات من صفات الله سبحانه في هذا الجانب، فتقول أولاً: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ». لأنه «رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

وبعد وصف ذاته المقدسة بمقام الحمد والربوبية، تضيف الآية في الصفة الثالثة: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». لأن آثار عظمته ظاهرة في السماء المترامية الأطراف، والأرض الواسعة الفضاء، وفي كل زاوية من زوايا العالم. وأخيراً تقول الآية في الوصفين الرابع والخامس: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وبذلك تكمل مجموعة العلم والقدرة والعظمة والربوبية والمحمودية، والتي هي مجموعة

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٦

من أهم صفات الله، وأسمائه الحسنی.

وبوصف الله سبحانه بالعزیز والحكيم تنتهي سورة الجاثية كما بدأت بهما، وكل محتواها وما تضمنته شاهد على عزه الله سبحانه وحكمته السامية.

«نهاية تفسير سورة الجاثية»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٧

## ٤٦. سورة الأحقاف

محتوى السورة: إن هذه السورة تتابع الأهداف التالية:

- ١- بيان عظمة القرآن.
- ٢- محاربة كل أنواع الشرك والوثنية بشكل قاطع.
- ٣- توجيه الناس إلى مسألة المعاد ومحكمة العدل الإلهي.
- ٤- إنذار المشركين والمجرمين من خلال بيان جانب من قصة قوم عاد، الذين كانوا يسكنون أرض «الأحقاف»، ومنها اخذ اسم هذه السورة.

٥- الإشارة إلى سعة دعوة نبي الخاتم صلى الله عليه وآله وكونها عامة تتخطى حتى حدود البشر، أي إنها تشمل طائفة الجن أيضاً.

٦- ترغيب المؤمنين وترهيب الكافرين وإنذارهم، وإيجاد دوافع الخوف والرجاء.

٧- دعوة نبي الخاتم صلى الله عليه وآله إلى التحلى بالصبر والاستقامة إلى أبعد الحدود، والإقتداء بسيرة الأنبياء الماضين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ كل ليلة أو كل جمعة سورة الأحقاف لم يصبه الله بروعه في الدنيا، وآمنه من فرع يوم القيامة».

ومن البديهي أن كل هذه الحسنات والدرجات لا تمنح لمجرد التلاوة اللفظية، بل التلاوة

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٨

البناء المؤدية إلى السير في طريق الإيمان والتقوى، ولمحتوى سورة الأحقاف هذا الأثر حقاً إذا كان الإنسان طالب حقيقة ومستعداً للعمل والتطبيق.

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ (٣) خلق هذا العالم على أساس الحق: هذه السورة هي آخر سورة تبدأ ب «حم» وتسمى جميعاً الحواميم.

إن هذه الآيات التي تهز الأعماق، وتحرك الوجدان، والتي تضمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطة، من



الألف والباء، والحاء والميم وأمثالها، وكفى بها دليلاً على عظمة الله سبحانه إذ أظهر هذا المركب العظيم من مثل هذه المفردات البسيطة.

وربما كان هذا هو السبب في أن تضيف الآية مباشرة: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

إنه نفس التعبير الذي ورد في بداية ثلاث سور من الحواميم، وهي: المؤمن، والجاثية، والأحقاف.

ولا شك في الحاجة إلى قوة لا تقهر، وحكمة لا حد لها، لكي تنزل مثل هذا الكتاب.

ثم تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين، فتحدثت الآية عن عظمة السماوات والأرض وكونهما حقاً، فقالت: «مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى». فلا ترى في كتاب سمائه كلمة تخالف الحق، ولا تجد في مجموع عالم خلقه شيئاً نشازاً لا ينسجم والحق.

لكن مع أن القرآن حق، وخلق العالم حق أيضاً: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ».

فالآيات القرآنية تهددهم وتنذرهم بصورة متلاحقة متواليه، وتحذرهم بأن محكمه عظمى أمامهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن نظام الخلقه بدقته وأنظمتها الخاصة يدل بنفسه على أن في الأمر حساباً ونظاماً، غير أن هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٥٩

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَشْتَجِبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) أَضَلُّ النَّاسُ: كان الكلام في الآيات السابقة عن خلق السماوات والأرض وأنها جميعاً من صنع الله العزيز الحكيم، ومن أجل تكمله هذا البحث، تخاطب هذه الآيات النبي صلى الله عليه وآله وتقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ».

كنتم تقرون بأن الأصنام لا دخل لها في خلق الموجودات الأرضية مطلقاً، فعلام تمدون أكفكم إلى الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تعقل، تستمدون منها العون في حل معضلاتكم، ودفع البلاء عنكم، واستجلاب البركات إليكم؟ وإذا قلتم - على سبيل الفرض -: إنها شريكه في أمر الخلق والتكوين ف «أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

إن جملة «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ...» إشارة إلى دليل العقل؛ وجملة «أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا» إشارة إلى الوحي السماوي، والتعبير ب «أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ» إشارة إلى سنن الأنبياء الماضين وأوصيائهم، أو آثار العلماء السابقين.

بعد ذلك تبين الآية التالية عمق ضلالة هؤلاء المشركين وانحرافهم، فتقول: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَشْتَجِبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ولا يقف الأمر عند عدم إجابتهم وحسب، بل إنهم لا يسمعون كلامهم: «وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ». والأشد أسفاً من ذلك أنه: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ».

أما المعبودات من العقلاء، فإنهم سيهتجون لإظهار عدائهم لهؤلاء الضالين، فالمسيح عليه السلام يظهر اشتمزازه وتنفره من عابديه، وتبترأ الملائكة منهم، بل وحتى الشياطين والجن تظهر عدم رضاها. وأما المعبودات التي لا عقل لها ولا حياة، فإن الله سبحانه سمنحها العقل والحياة لتتطرق بالبراءة من هؤلاء العبداء وتبدي غضبها عليهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٠

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ

بِي وَ لَمَّا بَكَّمْ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) لم أكن أول نبي: يستمر الحديث في هذه الآيات عن حال المشركين، وكيفيه تعاملهم مع آيات الله، فتقول: «وَإِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ». فهم لا- يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع في القلوب، وجاذبيته التي لا- تقاوم من جهه، وهم من جهه اخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمتة وكونه حقاً، ولذلك فإنهم يفسرون هذا النفوذ القوى بتفسير خاطئ منحرف ويقولون: إنه سحر مبین، وهذا القول- بحد ذاته- اعتراف ضمنى واضح بتأثير القرآن الخارق في قلوب البشر.

بناءً على هذا، فإن «الحق»- في الآية المذكورة- إشارة إلى آيات القرآن.

غير أن هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمة وإصاقها به، بل إنهم تبادوا فخطوا خطوة أوسع، وأكثر صراحة: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرِيَهُ». إن الله سبحانه يأمر نبيه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع، ويعطيهم البرهان الجلى بأنه قل لهم إذا كان كذلك فاللزام أن يفضحنى ولا تستطيعون الدفاع عنى مقابل عقابه: «قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». وهذا كما ورد في الآيات (٤٤-٤٧) من سورة الحاقه: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ».

ثم يضيف مهدياً: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ» وسيعاقبكم في الوقت اللازم.

ثم يقول في الجملة التالية كأكبر مقترن بتعامل مؤدب جداً: «كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ». فهو يعلم صدق دعوتى، وسعوى وجهدى في إبلاغ الرسالة، كما يعلم كذبكم وافتراءكم والعوائق التى تضعونها فى طريقي، وهذا كاف لى ولكم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦١

ومن أجل أن يدلهم على طريق الرجوع إلى الحق، ويعلمهم بأنه مفتوح إن أرادوا العوده، يقول: «وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ». فهو يعفو عن التائبين ويغفر لهم، ويدخلهم فى رحمته.

ويضيف فى الآية التالية: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ». يقول النبى صلى الله عليه وآله أنا لست أول نبي دعا إلى التوحيد، فقد جاء قبلى أنبياء كثيرون كلهم كانوا بشراً، وكانوا يلبسون الثياب ويأكلون الطعام، ولم يدع أحد منهم أنه يعلم الغيب المطلق، ولم يستسلم أحد منهم أمام المعاجز التى كان يقترحها الناس، والتى كانت تقوم على أساس الرغبة والميول.

وتضيف آخر آية من هذه الآيات، ولتكمله ما ورد فى الآيات السابقة: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

إن الشاهد من بنى إسرائيل الذى شهد على كون القرآن المجيد حقاً هو «عبد الله بن سلام» عالم اليهود المعروف، الذى آمن فى المدينة والتحق بصفوف المسلمين.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

سبب النزول

إن الإسلام لاقى ترحيباً واسعاً وامتداداً سريعاً بين الطبقات الفقيرة وسكان البوادي، وذلك لأنهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعة لتهدد بالخطر، ولم يكن الغرور قد ركبهم وملاً عقولهم، وقلوبهم أظهر من قلوب المترفين ومتبعى الشهوات والرغبات.

لقد عدَّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئة، والذى كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين، نقطة ضعف كبيرة من قبل

المستكبرين فقالوا: أى دين هذا الذى يتبعه سكان

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٢

البوادى والفقراء والحفاه والجوارى والعبيد؟ إذا كان ديناً مقبولاً ومعقولاً فلا ينبغي أن يكون أتباعه من طبقة فقيرة واطئة اجتماعياً، ونتخلف نحن أعيان المجتمع وأشرافه عن اتباعه. وقد أجاب القرآن هؤلاء جواباً شافياً كافياً سيّضح في تفسير هذه الآيات.

التفسير

شرط الانتصار الإيمان والاستقامة: تستمر هذه الآيات فى تحليل أقوال المشركين وأفعالهم، ثم تفرعهم وملاصمتهم بعد ذلك، فتشير أولاً إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم، مبنى على أساس الكبر والغرور، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ».

فما هؤلاء إلا حفنة من الفقراء الحفاه من سكان القرى، والعبيد الذين لاحظ لهم من العلم والمعرفة إلا القليل، فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق وأن يقبلوا عليه ونحن - أعيان المجتمع وأشرافه - فى غفلة عنه؟

ولذلك فإن الآية تجيبهم فى نهايتها بهذا التعبير اللطيف: «وَأِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ». أى: إن هؤلاء ما أرادوا أن يهتدوا بآيات القرآن، لا أن القصور فى قابلية القرآن على الهداية.

جملة «سيقولون» بصيغة المضارع، تدل على أنهم كانوا يرمون القرآن بهذه التهمة دائماً، وكانوا يتخذون هذا الإتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثم تطرقت الآية إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقاً، ولنفى تهمة المشركين إذ كانوا يقولون: هذا إفك قديم، فقالت: إن من علامات صدق هذا الكتاب العظيم أن كتاب موسى الذى يعتبر إماماً أى قدوة للناس ورحمة قد أخبر عن هذا النبى وصفاته، وهذا القرآن أيضاً كتاب منسجم فى آياته وفيه العلامات المذكورة فى التوراة: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ». وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تقولون: هذا إفك قديم؟

ثم تضيف بعد ذلك: «لَسَانًا عَرَبِيًّا» يفهمه الجميع ويستفيدون منه.

ثم تبين فى النهاية الهدف الرئيسى من نزول القرآن فى جملتين قصيرتين، فتقول: «لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَى لِلْمُحْسِنِينَ». وإذا لاحظنا أن جملة (ينذر) مضارعة تدل على الاستمرار والدوام، فسيّضح أن إنذار القرآن كبشارته دائمة مستمر، فهو يحذر الظالمين

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٣

والمجرمين على مدى التأريخ ويخوفهم وينذرهم، ويبشر المحسنين على الدوام.

و الآية التالية تفسير للمحسنين الذين ورد ذكرهم فى الآية التى قبلها، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

وبناءً على هذا، فإن «المحسنين» هم السائرون على خط التوحيد من الناحية العقائدية، وفى خط الاستقامة والصبر من الناحية العملية.

وتبشر آخر آية من هذه الآيات الموحدين المحسنين بأهم بشاره وأتمنها، فتقول:

«أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

التعبير ب «الأصحاب» إشارة إلى اجتماعهم الدائم وتنعمهم الخالد بنعم الجنة.

وعبارة «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يدل من جهة على أن الجنة لا تمنح مجاناً، بل إن لها ثمناً يجب أن يؤدى، ويشير من جهة أخرى إلى أصل حرية الإنسان واختياره.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي

مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعِدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) أيها الإنسان أحسن إلى والديك: هذه الآيات والتي تليها، توضيح لما يتعلق بالفريقين:

الظالم والمحسن، اللذين أشير إليهما إجمالاً في الآيات السابقة، وتتناول الآية الأولى وضع المحسنين، وتبدأ بمسألة الإحسان إلى الوالدين وشكر جهودهم وأتعبهم التي بذلوها، والذي يعتبر مقدمه لشكر الله سبحانه، فتقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا». «الوصية» و «التوصية» بمعنى مطلق الوصية، ولا ينحصر معناها بالوصايا بما بعد الموت، ولذلك فسرها جماعة هنا بأنها الأمر والتشريع. إن مسألة الإحسان إلى الوالدين من الاصول الإنسانية، ينجذب إليها ويقوم بها حتى اولئك الذين لا يلتزمون بدين أو مذهب، وبناءً على هذا، فإن الذين يعرضون عن أداء هذه الوظيفة، ويفرضون القيام بهذا الواجب، ليسوا مسلمين حقيقيين، بل لا يستحقون اسم الإنسان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٤

ثم تطرقت إلى سبب وجوب معرفة حق الام، فقالت: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا». تضحى خلالها الام أعظم التضحيات، وتؤثر ولدها على نفسها أيما إيثار، لأن الام ومعاناه الام في طريق تربية الطفل محسوسة وملموسة أكثر، ولأن جهود الام أكثر أهميه إذا ما قورنت بجهود الأب، كان التأكيد أكثر على قدر الام في الروايات الإسلامية. ثم إنه يمكن أن يستفاد من هذا التعبير القرآني أنه كلما قصرت فترة الحمل يجب أن تطول فترة الرضاع بحيث يكون المجموع (٣٠) شهراً.

ثم تضيف الآية: إن حياة هذا الإنسان تستمر «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

إن بلوغ الأشد إشارة إلى البلوغ الجسمي، وبلوغ الأربعين سنه إشارة إلى البلوغ الفكري والعقلي.

وفي الحديث: «إن الشيطان يمر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبي وجه لا يفلح» (١).

إن القرآن الكريم يضيف في متابعه هذا الحديث: إن الإنسان العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعين، يطلب من ربه ثلاث طلبات، فيقول أولاً: «قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ».

أما طلبه الثاني فهو: «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ».

وأخيراً يقدم طلبه الأخير فيقول: «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي».

وتبين الآية في نهايتها مطلبين، كل منهما تبيان لبرنامج عملي مؤثر، فتقول: «إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ». فقد بلغت مرحلة يجب أن أعين فيها مسير حياتي، وأسير في ذلك الخط ما حييت.

والآخر: «وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

والآية التالية بيان بليغ لأجر هؤلاء المؤمنين الشاكرين وثوابهم، وقد أشارت إلى مكافآت مهمه ثلاث، فقالت أولاً: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا».

إن جملة «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ» تبين أن العمل الصالح هو العمل الذي يبعث على رضى الله سبحانه.

(١) تفسير روح المعاني ١٨ / ٢٦.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٥

وتعبير «أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» والذي ورد في آيات عديدة من القرآن المجيد، يبين فضل الله الذي لا يحصى في مقام مكافأة العباد وجزائهم، حيث يجعل أحسن أعمالهم معياراً لكل أعمالهم الحسنة في الحساب والمثوبة.

والهبة الثانية هي تطهيرهم، فتقول: «وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ».

والموهبة الثالثة هي أنهم: «فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ». فيطهرون من الهفوات التي كانت منهم، ويكونون في جوار الصالحين المطهرين المقربين عند الله سبحانه.

وتضيف الآية في نهايتها- كتأكيد على هذه النعم التي مر ذكرها-: «وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ». وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَنِلَّكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أَوْلَيْتَكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَمَّا يُظَلَّمُونَ (١٩) مضيعو حقوق الوالدين: كان الكلام في الآيات السابقة عن المؤمنين الذين سلكوا طريق القرب من الله، فبلغوا الغاية ووسعتهم رحمة الله، وكرمهم لطفه، وكل ذلك في ظل الإيمان والعمل الصالح، وشكر نعم الله سبحانه، والإلتفات إلى حقوق الأبوين والذرية وأدائها.

أمّا هذه الآيات، فيدور الكلام فيها عمن يفنون في الطرف المقابل، وهم الكافرون المنكرون للجميل والحق، والعاقون لوالديهم، فتقول: «وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي».

إلّا أن أبويه المؤمنين لم يستلما أمام هذا الولد العاق الضال، فتقول الآية: «وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَنِلَّكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». غير أنه يأبى إلّا أن يسير في طريق الضلالة والعناد الذي اختطه لنفسه، ولذلك نراه يجيبهما بكل تكبر وغرور ولا مبالاة: «فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، فما تقولانه عن المعاد والحساب ليس إلا خرافات وقصص كاذبة أتتكم من الماضين من قبلكم، ولست بالذي يعتقد بها وينقاد لها.

وكما بينت الآيات السابقة ثواب المؤمنين العاملين للصالحات، فإن هذه الآيات تبين

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٦

عاقبة أعمال الكافرين الضالين المتجربين على الله، فتقول: «أَوْلَيْتَكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ». وأي خسارة أعظم من أنهم خسروا كل رأس مال وجودهم إذ اشتروا به غضب الله عز وجل وسخطه. أمّا الآية الأخيرة من هذه الآيات فإنها تشير أولًا إلى تفاوت درجات كلا الفريقين، فتقول: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا». فليس كل أصحاب الجنة أو أصحاب النار في درجة واحدة، بل إن لكل منهما درجات ومراتب تختلف باختلاف أعمالهم، وحسب خلوص نيتهم وميزان معرفتهم، وأصل العدالة هو الحاكم هنا تمامًا.

«الدرجات»: جمع «درجة»، وتقال عادةً للسلالم التي يصعد الإنسان بتسلقها إلى الأعلى؛ و«الدركات» جمع «درك»، وهي تقال للسلّم الذي ينزل منه الإنسان إلى الأسفل، ولذلك يقال في شأن الجنة: درجات، وفي شأن النار: دركات، لكن لما كانت الآية مورد البحث قد تحدثت عنهما معاً، ولأهمية مقام أصحاب الجنة، ورد لفظ (الدرجات) للأثنين، وهو من باب التغليب.

ثم تضيف الآية: «وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ» وهذا التعبير إشارة أخرى إلى مسألة تجسم الأعمال، حيث أن أعمال ابن آدم ستكون معه هناك، فتكون أعماله الصالحة باعثاً على الرحمة به واطمئنانه، وأعماله الطالحة سبباً للبلاء والعذاب الأليم.

وتقول الآية أخيراً كتأكيد على ذلك: «وَهُمْ لَآيُظَلَّمُونَ» لأنهم سيرون أعمالهم وجزاءها، فكيف يمكن تصور الظلم والجور؟ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) الزهد والإدخار للآخرة: تستمر هذه الآية في البحث حول عقوبة الكافرين والمجرمين، وتذكر جانباً من أنواع العذاب الجسمي والروحي الذي سينال هؤلاء، فتقول: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا».

نعم، فقد كنتم غارقين في الشهوات، ولم تكونوا تعرفون شيئاً إلا التمتع بطيبات هذا العالم ونعمه المادية، ومن أجل أن تكونوا متحللين من كل القيود في هذا المجال، أنكرتم المعاد لتطلقوا لأنفسكم العنان، وسخرتم هذه المواهب من أجل إنزال كل أنواع الظلم والجور

بحق الآخرين.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٧

«فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ». فالיום ترون جزاء كل ذلك التمتع الباطل، واتباع الشهوات الأعمى، وعبادة الهوى، والاستكبار والفسق والفجور وتذوقون العذاب المذل والمهين بسبب تلکم الأعمال. إن هذا العرض بحد ذاته نوع من العذاب الأليم المرعب، حيث يرى الكافرون بأعينهم كل أقسام جهنم من الخارج قبل أن يردوها، وليشاهدوا مصيرهم المشؤوم ويتعذبوا ويتألموا له.

لقد ذكر في ذيل هذه الآية ذبان لأصحاب الجحيم، الأول: الاستكبار، والثاني: الفسق.

ويمكن أن يكون الأول إشارة إلى عدم إيمانهم بآيات الله وبعث الأنبياء والقيامة، والثاني إشارة إلى أنواع الذنوب والمعاصي، فأحدهما يتحدث عن ترك أصول الدين، والآخر عن تضييع فروع الدين «١».

وَ أَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّقِكَ عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) قوم عاد والريح المدمرة: لما كان القرآن يذكر قضايا كليه، ثم يتطرق إلى بيان مصاديق واضحة لها، ليطبق تلك الكليات. فإنه هنا يسلك نفس السبيل، فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين، تطرق إلى ذكر قصة قوم عاد الذين هم صورة واضحة لأولئك العتاة، فتقول الآية: «وَأَذْكَرَ أَخَا عَادٍ».

إن التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النبي العظيم وحرصه على قومه.

ثم تضيف الآية: «إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ».

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٨/٢٠٦.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٨

«الأحقاف»: تعني الكثبان الرملية التي تتشكل على هيئة مستطيل أو تعرجات ومنحنيات، على أثر هبوب العواصف في الصحارى، ويتضح من هذا التعبير أن أرض قوم عاد كانت أرضاً حصباء كبيرة. إن هذه المنطقة تقع جنوب الجزيرة العربية قرب أرض اليمن.

يقول القرآن الكريم: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ». ثم هددهم بقوله: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

إلّا أن هؤلاء القوم المتمردين وقفوا بوجه هذه الدعوة الإلهية، وخاطبوا هوداً: «قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّقِكَ عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

إلّا أن هوداً عليه السلام قال في رده على هذا الطلب المتهور الذي يدل على الجنون: «قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ». فهو الذي يعلم متى وفي أى ظروف ينزل عذاب الاستئصال، فلا هو مرتبط بطلبكم وتمنيكم، ولا هو تابع لرغبتى، بل يجب أن يتم الهدف ويتحقق، ألا وهو إتمام الحجة عليكم، فإن حكمته سبحانه تقتضى ذلك.

ثم يضيف: «وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ». فهو مهمتى الأساسية، ومسؤوليتى الرئيسية، أمّا اتخاذ القرار فى شأن طاعة الله وأوامره فهو أمر يتعلق بكم، وإرادة نزول العذاب ومشيتته تتعلق به سبحانه.

«وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ». وجهلكم هذا هو أساس تعاستكم وشقائكم، فإن الجهل المقترن بالكبر والغرور هو الذى يمنعكم من دراسة دعوة رسل الله، ولا يأذن لكم فى التحقيق فيها ...

وأخيراً لم تؤثر نصائح هود عليه السلام المفيدة، وإرشاداته الأخوية فى قساة القلوب اولئك، وبدل أن يقبلوا الحق لجوا فى غيهم

وباطلهم، وتعصبوا له، وحتى نوح عليه السلام كذبه قومه بهذا الادعاء الواهي وهو أنك إن كنت صادقاً فيما تقول فأين عذابك الموعود؟

والآن، وقد تمت الحجة بالقدر الكافي، وأظهر اولئك عدم أهليتهم للبقاء، وعدم استحقاقهم للحياة، فإنَّ حكمة الله سبحانه توجب أن يرسل عليهم «عذاب الإستئصال» ذلك العذاب الذي يجتث كل شيء ولا يبقى ولا يذر.  
وفجأة رأوا سحاباً قد ظهر في الأفق، واتسع بسرعة: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» (١).

(١) «عارض»: من مادة «عرض»، وهنا بمعنى السحاب الذي ينتشر في عرض السماء، وربما كان هذا أحد علامات السحب الممطرة بأنها تتسع في ذلك الأفق ثم تصعد؛ و «الأودية»: جمع «واد»، وهو المنخفض ومجرى السيول والمياه.  
مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٦٩

لكن، قيل لهم سريعاً بأن هذا ليس سحاباً ممطراً: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». والظاهر أن المتكلم بهذا الكلام هو الله سبحانه، أو أن هوداً لما سمع صرخات فرحهم واستبشارهم قال لهم ذلك.  
نعم، إنها ريح مدمرة: «تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا».

قال بعض المفسرين: إنَّ المراد من «كُلَّ شَيْءٍ» البشر ودوابهم وأموالهم، لأنَّ الجملة التالية تقول: «فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ». وهذا يوحي بأن مساكنهم كانت سالمه، أما هم فقد هلكوا، وألقت الرياح القوية أجسادهم في الصحارى البعيدة، أو في البحر.  
روى أن الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها في الجو حتى يرى كأنها جرادة، وقيل: أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت فيها كشهد النار، وروى أن أول ما عرفوا به أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأحال الله عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لها أنين.

وجاء في الآية (٧) من سورة الحاقة: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ».

ثم كشف الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر (١).

وتشير الآية في النهاية إلى حقيقة، وهي أن هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين، بل: «كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ». وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

(١) التفسير الكبير ٢٨ / ٢٨.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٠

لستم بأقوى من قوم عاد أبداً: إنَّ هذه الآيات بمثابة استنتاج للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن عقاب قوم عاد الأليم، فتخاطب مشركي مكة وتقول: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ».

فقد كانوا أقوى منكم من الناحية الجسمية، وأقدر منكم من ناحية المال والثروة والإمكانات المادية، ولكن عجزوا عن الوقوف أمام عاصفة العذاب الإلهي، فكيف بكم إذن.

ثم تضيف الآية: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً». فقد كانوا أقوياء في مجال إدراك الحقائق وتشخيصها أيضاً، وكانوا يدركون الامور جيداً، وكانوا يستغلون هذه المواهب الإلهية من أجل تأمين حاجاتهم ومآربهم المادية على أحسن وجه، لكن: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ

سَمِعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ».

وأخيراً: «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ثم تخاطب الآية مشركي مكة من أجل التأكيد على هذا المعنى ولزيادة الموعظة والنصيحة، فتقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى

اولئك الأقوام الذين لا تبعد أوطانهم كثيراً عنكم، وكان مستقرهم في أطراف جزيرة العرب.

ثم تضيف الآية بعد ذلك: «وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

وتوبخ الآية الأخيرة من هذه الآيات هؤلاء العصاة، وتذمهم بهذا البيان: «فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً».

حقاً، إذا كانت هذه الآلهة على حق، فلماذا لا تعين أتباعها وعبادها وتنصرهم في تلك الظروف الحساسة، ولا تنقذهم من قبضة العذاب

المهول المرعب؟ إن هذا بنفسه دليل محكم على بطلان عقيدتهم حيث كانوا يظنون أن هذه الآلهة المخترعة هي ملجأهم وحماهم في

يوم تعاستهم وشقائهم.

ثم تضيف: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ». فإن هذه الموجودات التي لا قيمة لها ولا أهمية، والتي ليست مبدأ لأي أثر، ولا تأتي بأى فائدة، وهي عند

العسر صماء عمياء، فكيف تستحق الألوهية وتكون أهلاً لها؟

وأخيراً تقول الآية: «وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ». فإن هذا الهلاك والشقاء، وهذا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧١

العذاب الأليم، واختفاء الآلهة وقت الشدة والعسر، كان نتيجة لأكاذيب اولئك وأوهامهم وافتراءاتهم.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا

سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لِمَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ

أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)

سبب النزول

في تفسير علي بن إبراهيم: أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج من مكة إلى سوق عكاظ ومعه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى

الإسلام فلم يجبه أحد ولم يجد من يقبله، ثم رجع إلى مكة، فلما بلغ موضعاً يقال له وادي مجنة: تهجد بالقرآن في جوف الليل، فمر

به نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله استمعوا له فلما سمعوا قراءته قال بعضهم لبعض: «أنصتوا». يعنى

استكتوا (فلما قضى) أى فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من القراءة «وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» إلى قوله «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»

فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فاسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله شرائع الإسلام فأنزل الله على نبيه «قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ

اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ» السورة كلها.

التفسير

إيمان طائفة من الجن: جاء في هذه الآيات بحث مختصر حول إيمان طائفة من الجن بنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكتابه السماوى.

لقد كانت قصة قوم عاد تحذيراً لمشركي مكة، وقصة إيمان طائفة من الجن تحذيراً آخر.

تقول الآية أولاً: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ».

«صرفنا»: يعنى نقل الشيء وتبديله من حالة إلى اخرى؛ ولعله إشارة إلى أن الجن كانوا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٢

يصغون إلى أخبار السماء عن طريق استراق السمع، ومع ظهور نبي الخاتم صلى الله عليه وآله رجعوا إليه واتجهوا نحو القرآن. ثم



تضيف الآية: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا». وذلك حينما كان النبي صلى الله عليه وآله يتلو آيات القرآن فى جوف الليل، أو فى صلاة الصبح.

وأخيراً أضاء نور الإيمان قلوب هؤلاء، فلمسوا فى أعماقهم كون آيات القرآن حقاً، ولذلك: «فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ». وتبين الآية التالية كيفية دعوة هؤلاء قومهم عند عودتهم إليهم، تلك الدعوة المتناسقة الدقيقة، الوجيزة والعميقة المعنى: «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى .

ومن صفاته أننا رأيناها يصدق الكتب السماوية السالفة ويتطابق معها فى محتواها، وفيه العلائم الواردة فى تلك الكتب: «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ».

وصفته الاخرى أنه: «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ». بحيث إن كل من يستند إلى عقله وفطرته يرى آيات حقانيته واضحة جلية. وآخر صفة أنه يهدى إلى الرشد: «وَالْإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ».

ثم أضافوا: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ». إذ ستمنحون حينها مكافأتين عظيمتين: «يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (١).

المراد من: «دَاعِيَ اللَّهِ» نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذى كان يرشدهم إلى الله سبحانه.

وتذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- كلام مبلغى الجن، فتقول: «وَمَنْ لَأُجِيبَ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ». ينصرونه من عذاب الله، ولذلك فإن: «أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

أى ضلال أشد وأسوأ وأجلى من أن يهت الإنسان إلى محاربة الحق ونبي الله، بل حتى إلى محاربة الله الذى لا ملجأ له سواه فى كل عالم الوجود، ولا يستطيع الإنسان أن يفر من حكومته إلى مكان آخر؟!

(١) «يجركم»: من مادة «إجارة»، وقد وردت بمعان مختلفة: الإغاثة، الإنقاذ من العذاب، الإيواء، والحفظ.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٣

أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبَّنَا قَالَ فَمَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَمَّا تَشَاءَ تَعَجَّلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَتُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥) فاصبر كما صبر أولوا العزم: تواصل هذه الآيات البحث حول المعاد، حيث جاءت الإشارة إلى مسألة المعاد فى الآيات السابقة حكاية عن لسان مبلغى الجن- هذا من جهة.

ومن جهة اخرى، فإن سورة الأحقاف تتحدث فى فصولها الاولى عن مسألة التوحيد، وعظمة القرآن المجيد، وإثبات نبوة نبي الخاتم صلى الله عليه وآله، وتبحث فى آخر فصل من هذه السورة مسألة المعاد لتكمل بذلك البحث فى الاصول الاعتقادية الثلاثة.

تقول الآية الاولى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

هذا أحد أدلة المعاد العديدة التى يؤكد عليها القرآن ويستند إليها فى آيات مختلفة، ومن جملتها الآية (٨١) من سورة يس.

وتجسد الآية التالية مشهداً من العذاب الأليم المحيط بالمجرمين ومنكرى المعاد، فتقول:

«وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ».

وعندما يعرض الكافرون على النار، ويرون ألسنة لهبها العظيمة المحرقة المرعبة يقال لهم:

«أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ». وهل تستطيعون اليوم أن تنكروا البعث ومحكمة الله العادلة، وثوابه وعقابه، وتقولون: ما هذا إلا أساطير الأولين؟

غير أن أولئك الذين لا حيلة لهم: «قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا. فَمَا يَقُولُ اللَّهُ سبحانه، أو ملائكة العذاب: «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». وبهذا فإنهم يرون كل الحقائق بام أعينهم فى ذلك اليوم ويعترفون بذلك الإعراف الذى لن ينفعهم، وسوف لن تكون نتيجة إلههم والحسرة، وتأنيب الضمير والعذاب الروحى.

ويأمر الله سبحانه نبيه فى آخر آية من هذه الآيات، وهى آخر آية فى سورة الأحقاف،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٤

على أساس ملاحظة ما مرّ فى الآيات السابقة حول المعاد وعقاب الكافرين، أن: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» فليست الوحيد الذى واجه مخالفة هؤلاء القوم وعداوتهم، فقد واجه أولوا العزم هذه المشاكل وثبتوا أمامها واستقاموا.

عبارة (من الرسل) إشارة إلى فته خاصة من الأنبياء كانوا أصحاب شريعة، وهم الذين أشارت إليهم الآية (٧) من سورة الأحزاب: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا».

وقد رويت فى هذا الباب روايات كثيرة فى مصادر الشيعة والسنة، تدل على أن الأنبياء أولى العزم كانوا خمسة.

ثم يضيف القرآن بعد ذلك: «وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ». أى للكفار لأن القيامة ستحل سريعاً، وسيرون بأعينهم ما أطلقوه عليها وادعوه فيها، ويجزون أشد العذاب، وعندها سيطلعون على أخطائهم، ويعرفون ما كانوا عليه من الضلالة والغى.

إن عمر الدنيا قصير جداً بالنسبة إلى عمر الآخرة، حتى: «كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ».

ثم تضيف الآية كتحذير لكل البشر: «بَلِّغْ» لكل أولئك الذين خرجوا عن خط العبودية لله تعالى.. لأولئك الغارقين فى بحر الحياة الدنيا السريعة الزوال والفناء، والعابدين شهواتها.. وأخيراً هو بلاغ لكل سكان هذا العالم الفانى.

وتقول فى آخر جملة تتضمن استفهاماً عميق المعنى، وينطوى على التهديد: «فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ».

ملاحظة

كان نبي الخاتم مثال الصبر والإستقامة: إن حياة أنبياء الله العظام - وخاصة نبي الأكرم صلى الله عليه وآله - تبيان لمقاومتهم اللامحدودة أمام الحوادث الصعبة والشدائد العسيرة، والعواصف الهوجاء، والمشاكل القاصمة، ولما كان طريق الحق مليئاً بهذه المشاكل دائماً، فيجب على سالكيه أن يستلهموا العبر من أولئك العظماء فى هذا المسير.

إننا ننظر عادة من نقطة مضيئة فى تاريخ الإسلام إلى أيام مرّت على الإسلام ونبيه صلى الله عليه وآله صعبة مظلمة، وهذه النظرة من المستقبل إلى الماضى تجسم الوقائع والحقائق بشكل آخر، فينبغى علينا أن ندرك أن النبي صلى الله عليه وآله كان وحيداً فريداً.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٥

فأعداءه شمروا عن سواعدهم للفتك به، حتى أن أقاربه وعشيرته كانوا فى الخط الأول فى هذه المجابهة.

لقد فرضوا عليه الحصار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى بحيث أغلقوا جميع الأبواب والطرق بوجهه وبوجه أتباعه، حتى مات بعضهم جوعاً، وأقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت على النبي صلى الله عليه وآله أيام يصعب على القلم واللسان وصفها، فعندما جاء إلى الطائف ليدعو الناس إلى الإسلام، لم يكتفوا بعدم إجابة دعوته، بل رموه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه.

لقد كانوا يحثون الجهلاء من الناس على أن يصرخوا، ويسبوا فى كلامهم إليه، فعمد إلى ظل حبله من عنب، وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّى، إلى من تكلمنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى...» (١).

كانوا يسمونه ساحراً تاراً، واخرى يخاطبونه بالمجنون.

كانوا يلقون التراب والرماد على رأسه حيناً، وحيناً يجمعون على قتله، فيحاصرون بيته بالسيوف والرماح.

إلا أنه رغم كل تلك الظروف استمر في صبره وصدوده واستقامته.

وأخيراً جنى الثمرة الطيبة لهذه الشجرة المباركة، فقد عمّ دينه شرق العالم وغربه، لا جزيرة العرب وحدها، ويدوّى اليوم صوت انتصاره صباح مساء في كل أرجاء الدنيا، وفي قارات العالم الخمسة، وهذا هو معنى: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ». «نهاية تفسير سورة الأحقاف»

(١) سيرة النبي صلى الله عليه وآله، لابن هشام ٢/ ٢٨٥؛ تاريخ الطبري ٢/ ٨٠.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٧

## ٤٧. سورة محمد

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى السورة بصورة عامة في عدة فصول:

- ١- مسألة الإيمان والكفر، والمقارنة بين أحوال المؤمنين والكفار في هذه الدنيا وفي الحياة الآخرة.
- ٢- بحوث معبرة بليغة وصريحة حول مسألة الجهاد وقاتل المشركين، والتعليمات الخاصة فيما يتعلق بأسرى الحرب.
- ٣- شرح أحوال المنافقين الذين كان لهم نشاطات هدامة كثيرة حين نزول هذه الآيات في المدينة.
- ٤- فصل آخر يتناول مسألة السير في الأرض، وتدبر مصير الأقوام الماضية وعاقبتهم، كدرس للاعتبار والإعطاء.
- ٥- وفي جانب من آيات هذه السورة ذكرت مسألة الاختبار الإلهي لمناسبتها موضوع القتال والجهاد.
- ٦- ورد الحديث في فصل آخر عن مسألة الإنفاق الذي يعتبر بحدّ ذاته نوعاً من الجهاد، وجاء الحديث عن مسألة البخل الذي يقع في الطرف المقابل.

٧- وتناولت بعض آيات هذه السورة- لمناسبة موضوعها- مسألة الصلح مع الكفار- الصلح الذي يكون أساساً لهزيمة المسلمين وذلتهم- ونهت عنه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٨

سميت هذه السورة بسورة محمد صلى الله عليه وآله لأن اسمه الشريف قد ذكر في الآية الثانية، واسمها الآخر هو: سورة القتال، والواقع أن مسألة الجهاد وقاتل أعداء الإسلام هو أهم موضوع ألقى ظلاله على هذه السورة.

فضيلة تلاوة السورة: في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الذين كفروا لم يرتب أبداً، ولم يدخله شك في دينه أبداً، ولم يبله الله بفقر أبداً، ولا خوف من سلطان أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكلّ الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره، ويكون ثواب صلاتهم له ويشيعونه حتى يوقفونه موقف الأمن عند الله عزّ وجل، ويكون في أمان الله، وأمان محمد صلى الله عليه وآله».

إن الذين يعيشون محتوى هذه السورة في نفوسهم وأعماق وجودهم، وتشبعت به أرواحهم، وهم أشداء في جهاد الأعداء اللدودين القساء، والذين لم يدعوا للشك والتزلزل إلى أنفسهم سبيلاً، تكون أسس دينهم قوية، وإيمانهم صلباً، ولا يملكهم خوف ولا تنالهم ذلّة ولا يعترهم فقر، وهم في الآخرة منعمون في جوار رحمة الله.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) المؤمنون أنصار الحق، والكافرون أنصار الباطل: إن هذه الآيات الثلاث تعتبر في الحقيقة مقدمة لأمر حربي مهم صدر في الآية الرابعة، فبينت الاولى منها وضع الكافرين وحالهم، والثانية حال المؤمنين، وقارنت ثالثتهما بين الإثنين،

وذلك لتتهدأ الأرضية والاستعداد للجهاد الديني ضد الأعداء الظالمين العتاة باتضحاح حال الفئتين.

تقول الآية الاولى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

وهي إشارة إلى زعماء الكفر ومشركي مكة الذين كانوا يشعلون نار الحروب ضد الإسلام، ولم يكتفوا بكونهم كفاراً، بل كانوا يصدون الآخرين عن سبيل الله بأنواع الحيل والخدع والمخططات.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٧٩

والمراد من: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» أنه كل أعمالهم التي قاموا بها، وظهرها معونة للفقراء والضعفاء، أو إقراء للضعيف، أو غير ذلك، ستحبط لعدم إيمانهم.

فإن الله سبحانه قد أحبط كل مؤامراتهم وما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام والقضاء على المسلمين، وحال بينهم وبين الوصول إلى أهدافهم الخبيثة.

والآية التالية وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون في الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم في الآية السابقة، فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ».

والجدير بالالتفات إليه أن الآية تبين ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، في مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادين عن سبيل الله.

لقد جاء «البال» بمعان مختلفة، فجاء بمعنى الحال، العمل، القلب؛ وبناءً على هذا فإن إصلاح البال يعنى تنظيم كل شؤون الحياة والامور المصيرية، وهو يشمل الفوز في الدنيا.

وبيئت الآية الأخيرة العلة الأساسية لهذا الانتصار وتلك الهزيمة من خلال مقارنه مختصرة بليغه، فقالت: «ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ».

ف «الحق» يعنى الحقائق العينية، وأسمائها ذات الله المقدسة، وتليها الحقائق المتعلقة بحياة الإنسان، والقوانين الحاكمة في علاقته بالله تعالى، وفي علاقته بالآخرين؛ و «الباطل» يعنى الظنون، والأوهام، والمكائد والخدع، والأساطير والخرافات، والأفعال الجوفاء التي لا هدف من ورائها، وكل نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمة في عالم الوجود.

وتضيف الآية في النهاية: «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ». أى: كما أنه سبحانه قد بين الخطوط العامة لحياة المؤمنين والكفار، وعقائدهم وبرامجهم العملية ونتائج أعمالهم في هذه الآيات، فإنه يوضح مصير حياتهم وعواقب أعمالهم.

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَسُدُّوا الْوُثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيِّئَاتِهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ (٥) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٠

مختصر الامثل ج ٤، ص: ٥٢٠

يجب الحزم في ساحة الحرب: إن الآيات السابقة كانت مقدمة لتهيئة المسلمين من أجل إصدار أمر حربي مهم ذكر في الآيات مورد البحث، فتقول الآية: «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ».

من البديهي أن «ضرب الرقاب» كناية عن القتل، فإن الهدف هو دحر العدو والقضاء عليه، ولما كان ضرب الرقاب أوضح مصداق له، فقد أكدت الآية عليه.

فإن هذا الحكم مرتبط بساحة القتال، لأن «لقيمتم» - من مادة اللقاء - تعنى الحرب والقتال في مثل هذه الموارد.

ثم تضيف الآية: «حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَسُدُّوا الْوُثَاقَ».

«أثخنتموهم»: من مادة «ثخن»، بمعنى الغلظة والصلابة، ولهذا تطلق على النصر والغلبة الواضحة، والسيطرة الكاملة على العدو.

فإن الآية المذكورة تبين تعليماً عسكرياً دقيقاً، وهو أنه يجب أن لا يُقدم على أسر الأسرى قبل تحطيم صفوف العدو والقضاء على آخر حصن لمقاومته، لأن الإقدام على الأسر قد يكون سبباً في تزلزل وضع المسلمين في الحرب، وسيعيق المسلمين الإهتمام بأمر الأسرى ونقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسى.

وتبين الجملة التالية حكم أسرى الحرب الذى يجب أن يقام بحقهم بعد انتهاء الحرب، فتقول: «فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً».

وعلى هذا لا يمكن قتل الأسير الحربى بعد انتهاء الحرب، بل إن ولى أمر المسلمين - طبقاً للمصلحة التى يراها - يطلق سراحهم مقابل عوض أحياناً، وبلا عوض أحياناً أخرى، وهذا العوض - فى الحقيقة - نوع من الغرامة الحربية التى يجب أن يدفعها العدو.

طبعاً يوجد حكم ثالث فى الإسلام فيما يتعلق بهذا الموضوع، وهو استعباد الأسرى، إلا أنه ليس أمراً واجباً، بل هو راجع إلى ولى أمر المسلمين ينقذه عندما يراه ضرورة فى ظروف خاصة، ولعله لم يرد فى القرآن بصراحة لهذا السبب، بل بينته الروايات الإسلامية فقط.

ثم تضيف الآية بعد ذلك: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا». فلا تكفوا عن القتال حتى تحطموا قوى العدو ويصبح عاجزاً عن مواجعتكم، وعندما سيخمد لهيب الحرب.

ثم تضيف الآية: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ». بالصواعق السماوية، والزلازل،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨١

والعواصف، والإبتلاءات الاخرى، لكن باب الإختبار وميدانه سيغلق فى هذه الصورة:

«وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ».

هذه المسألة هى فلسفة الحرب، والنكته الأساسية فى صراع الحق والباطل، وفى هذه الحروب ستميز صفوف المؤمنين الحقيقيين والعاملين من أجل دينهم عن المتكلمين فى المجالس المتخاذلين فى ساعة العسرة، وبذلك ستفتح براعم الاستعدادات، وتحيا قوة الإستقامة والرجولة، ويتحقق الهدف الأسمى للحياة الدنيا، وهو الإبتلاء وتنمية قوة الإيمان والقيم الإنسانية الاخرى.

وتحدثت آخر جملة من الآية مورد البحث عن الشهداء الذين قدّموا أرواحهم هدية لدينهم فى هذه الحروب، ولهم فضل كبير على المجتمع الإسلامى، فقالت: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ».

هذه هى إحدى مواهب الله فى شأن الشهداء.

وهناك ثلاث مواهب اخرى أضيفت فى الآيات التالية:

تقول الآية أولاً: «سَيَهْدِيهِمْ» إلى المقامات السامية، والفوز العظيم، ورضوان الله تعالى.

والاخرى: «وَيُضِلُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ» فيهبهم هدوء الروح، واطمئنان خاطر، والنشاط المعنوى والروحى، والإنسجام مع صفاء ملائكة الله ومعنوياتهم، حيث يجعلهم جلساءهم وندماءهم فى مجالس أنسهم ولذتهم، ويدعوهم إلى ضيافته فى جوار رحمته.

والموهبة الأخيرة هى: «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ».

إنه تعالى لم يبين لهم الصفات الكلية للجنات العلى وروضة الرضوان وحسب، بل عرف لهم صفات قصورهم فى الجنة وعلاماتها، بحيث أنهم عندما يردون الجنة يتوجهون إلى قصورهم مباشرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصْبِرُوا لِلَّهِ يُنصِرْكُمْ وَيُخْلِصْكُمْ وَأَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٢

إن تنصروا الله ينصركم: تستمر هذه الآيات فى ترغيب المؤمنين فى جهاد أعداء الحق، وهى ترغيبهم فى الجهاد بتعبير رائع بليغ، فتقول:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ».

إن التأكيد على مسألة «الإيمان» إشارة إلى أن إحدى علامات الإيمان الحقيقي هو جهاد أعداء الحق.

وعبارة «تَنصُرُوا اللَّهَ» تعني نصره دينه، ونصره نبيه، وشريعته وتعليماته.

يقول: «يَنصُرْكُمْ» فهو سبحانه يلقي في قلوبكم نور الإيمان، وفي نفوسكم وأرواحكم التقوى، وفي أرواحكم القوة والتصميم أكثر، وفي أفكاركم الهدوء والإطمئنان.

ومن جانب آخر يرسل الملائكة لمدكم ونصرتكم، ويغير مسار الحوادث لصالحكم، ويجعل أفئدة الناس تهوى إليكم، ويجعل كلماتكم نافذة في القلوب، ويصير نشاطاتكم وجهودكم ثمرة. نعم، إن نصره الله تحيط بالجسم والروح، من الداخل والخارج؛ إلا أنه سبحانه يؤكد على مسألة تثبيت الأقدام من بين كل أشكال النصر، وذلك لأن الثبات أمام العدو أهم رمز للانتصار، وإنما يكسب الحرب الذين يصمدون ويستقيمون أكثر.

ولما كانت حشود العدو العظيمة، وأنواع معداتهم وتجهيزاتهم قد تشغل فكر المجاهدين في سبيل الله أحياناً، فإن الآية التالية تضيف: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلُّ أَعْمَالُهُمْ».

وتبين الآية التالية علّة سقوط هؤلاء، وجعل أعمالهم هباءً منثوراً، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

لقد أنزل الله سبحانه دين التوحيد قبل كل شيء، إلا أن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا نحو الشرك.

لقد أمر الله سبحانه بالحق والعدالة، والعفة والتقوى، غير أنهم أعرضوا عنها جميعاً، واتجهوا صوب الظلم والفساد، بل إنهم تشمئز قلوبهم إذا ذكر اسم الله تعالى وحده: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» (١).

وإذا كان هؤلاء يتنفرون من هذه الامور، فمن الطبيعي أن لا يخطوا خطوة في هذا المسير، ولقد كانت كل مساعيهم وجهودهم في مسير الباطل وخدمته، فمن الطبيعي أيضاً أن تحبط كل هذه الأعمال.

(١) سورة الزمر / ٤٥.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٣

ولما كان القرآن الكريم في كثير من الموارد يعرض للظالمين العاصين نماذج محسوسة، فقد دعاهم هنا أيضاً إلى التدبر في أحوال الماضين، فقال: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

ومن أجل أن لا يظن هؤلاء أن ذلك المصير المشؤوم كان مختصاً بالأقوام الطاغين الماضين، فقد أضاف الآية: «وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَالُهُا». وتناولت آخر آية- من الآيات مورد البحث- سبب حماية الله المطلقة للمؤمنين ودفاعه عنهم، وإهلاكه الكافرين الطغاة، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ». «المولى»: بمعنى الولي والناصر، وبذلك فإن الله سبحانه قد تولى أمر المؤمنين ونصرتهم، أما الكافرون فقد أخرجهم من ظل ولايته، ومن الواضح أنه تعالى يعين اولئك المستظليين بظل ولايته، ويدفع عنهم النوائب، ويزيل عن طريقهم العراقيل، ويثبت أقدامهم، وأخيراً فإنهم ينالون مرادهم بنصره الله ومعونته، أما اولئك الخارجون عن ولايته فإن أعمالهم ستحبط، وتكون عاقبتهم الهلاك.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) عاقبة المؤمنين والكافرين: لما كانت الآيات السابقة تتحدث عن الصراع الدائم بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فإن الآيات مورد البحث تبين عاقبة المؤمنين والكفار من خلال مقارنته واضحة، وهي بذلك تريد أن توضح أن هذين الفريقين لا يختلفان في الحياة الدنيا وحسب، بل إن الاختلاف بينهما سيكون أوسع في الآخرة، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ». صحيح أن كلا الفريقين يعيشون في الدنيا، ويتنعمون بمواهبها ولذاتها، إلا أن الفرق يكمن في أن هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحة، والأعمال المفيدة البناءة لجلب رضى

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٤

الله تعالى، أما الكافرون فإن هدفهم ينصب على الأكل والشرب والنوم والتمتع بلذات الحياة. ومن أجل إكمال هذا الهدف تقارن الآية التالية بين مشركى مكة وعبداء الأوثان الماضين، وبعبارة أوضح، فإنها تهددهم تهديداً شديداً، وتؤكد ضمناً على بعض جرائمهم الشنيعة التى تدل على جواز قتالهم فتقول: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ». فلا يظن هؤلاء أن الدنيا مستوسقة لهم إلى درجة أنهم اجترؤوا على إخراج أشرف رسل الله من أقدس المدن، فإن الأمر لا يدوم كذلك، فهم بالقياس إلى قوم عاد وثمود والفراعنة وجيش أبرهه موجودات ضعيفة عاجزة، والله قادر على تدميرهم بكل سهولة، والقضاء عليهم يسير على الله سبحانه.

وتطرح آخر الآيات - مورد البحث - مقارنة أخرى بين المؤمنين والكفار، بين فئتين تختلفان في كل شىء، فأحدهما مؤمنة تعمل الصالحات، وتحيا الاخرى حياة حيوانية بكل معنى الكلمة .. بين فريقين، أحدهما مستظل بظل ولاية الله سبحانه، والآخر لا مولى له ولا ناصر، فتقول: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَبِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُرِّيٰ لَهُ سُوءٌ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

إن الفريق الأول قد اختاروا طريقهم عن معرفة صحيحة، ورؤية واقعية، وعن يقين ودليل وبرهان قطعى؛ أما الفريق الثانى فقد ابتلوا بسوء التشخيص، وعدم إدراك الواقع، وظلمة المسير والهدف، فهم فى ظلمات الأوهام حائرون، والعامل الأساس فى هذه الحيرة والضلالة هو اتباع الهوى والشهوات.

ومن الواضح أن الاستفهام فى جملة: «أَفَمَنْ كَانَ...» استفهام إنكارى، أى إن هذين الفريقين لا يتساويان أبداً. «البينة»: تعنى الدليل الواضح الجلى، وهى هنا إشارة إلى القرآن، ومعاجز الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، والدلائل العقلية الاخرى.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٥

وصف آخر للجنة: إن هذه الآية وصف لمصير كل من المؤمنين والكافرين، فالفئة الاولى الذين يعملون الصالحات، والثانية زين لهم سوء أعمالهم.

وقد رفعت هذه الآية الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، وعن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، وهى تحدد عاقبة كلا الفريقين وتوضحها.

تتحدث الآية عن أربعة أنهار فى الجنة، لكل منها سائله ومحتواه الخاص، ثم تتحدث عن فواكه الجنة، وأخيراً عن بعض المواهب المعنوية. تقول الآية أولاً: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ».

ثم تضيف: «وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ» وذلك أن الجنة مكان لا يعتره الفساد، ولا تتغير أطعمته الجنة بمرور الزمن، وإنما تتغير الأطعمه فى هذه الحياة الدنيا، لوجود أنواع الميكروبات التى تفسد المواد الغذائية بسرعة.

ثم تطرقت إلى ثالث نهر من أنهار الجنة، فقالت: «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ». لا يخفى أن خمر الجنة وشرابها لا علاقة له بخمر الدنيا الملوث مطلقاً، بل هو كما يصفه القرآن فى الآية (٤٧) من سورة الصافات: «لَافِيهَا عُوقٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنرَفُونَ»، وليس فيه إلا العقل والنشاط واللذة الروحية.

وأخيراً تبين الآية رابع أنهار الجنة بأنه: «وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى».

وعلاوة على هذه الأنهار المختلفة التي خلق كل منها لغرض، فقد تحدثت الآية عن فواكه الجنة في الموهبة الخامسة، فقالت الآية: «وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

وأخيراً تتحدث عن الموهبة السادسة التي تختلف عن المواهب المادية السابقة، إذ إن هذه الهبة معنوية روحية، فتقول: «وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ».

ولنر الآن ماذا سيكون مصير الفريق المقابل للمؤمنين، أي الكفار؟

تقول الآية متابعه لحديثها: «كَمْ مِنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ».

جمله «سُقُوا» بصيغة الفعل المبني للمجهول، توضح أن أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوة، لا بإرادتهم، وبدل الارتواء في تلك النار المحرقة فإنه يقطع أمعاءهم، وكما هي طبيعة الجحيم، فإنهم يرجعون إلى حالتهم الاولى، حيث لا موت هناك.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٦

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) تعكس هذه الآيات صورة عن وضع المنافقين، وطريق تعاملهم مع الوحي الإلهي، وكلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومسألة قتال أعداء الإسلام ومحاربتهم.

تقول الآية الاولى من الآيات مورد البحث: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا». وكان مرادهم من ذلك الرجل هو النبي صلى الله عليه وآله.

إنّ تعبير هؤلاء في شأن النبي وكلماته البليغة، كان من القبح والبذاءة إلى درجة تدل على أنهم لم يؤمنوا بالوحي السماوي قط.

«آنفاً»: من مادة «أنف»، ولما كان للأنف بروزاً متميزاً في وجه الإنسان، فإنّ هذه الكلمة تستعمل في شأن أشراف القوم، وكذلك تستعمل في مورد الزمان المتقدم على زمان الحال، كما جاء في الآية مورد البحث.

إلّا أنّ القرآن الكريم قد أجابهم جواباً قاطعاً، فقال: إنّ كلام النبي صلى الله عليه وآله لم يكن غامضاً ولا معقداً، بل «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

ويقف المؤمنون الحقيقيون في الطرف المقابل لهؤلاء، وعنهم تتحدث الآية التالية فتقول:

«وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ».

نعم، لقد خطا هؤلاء الخطوة الاولى بأنفسهم، واستخدموا عقولهم وفطرتهم في هذا المسير، ثم أخذ الله سبحانه ييدهم كما وعدهم من قبل، فزادهم هدى إلى هداهم.

وتحدّر الآية التالية أولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم، فتقول: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ».

إنّ هؤلاء لم يدعوا للحق حيث كان الإيمان واجباً عليهم، ومفيداً لهم، بل كانوا في طغيانهم يعمهون، وبآيات الله يستهزئون، غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبة وبداية القيامة تهزّ العالم وتزلزله، يصيبهم الفزع ويظهرون خضوعهم ويؤمنون، ولا ينفعهم يومئذ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٧

إيمانهم وخضوعهم.

«الأشراط»: جمع «شراط»، وهي العلامة، وعلى هذا فإنّ (أشراط الساعة) إشارة إلى علامات اقتراب القيامة.



وتقول آخر آية من هذه الآيات وكاستخلاص لنتيجة البحوث التي وردت في الآيات السابقة حول الإيمان والكفر، ومصير المؤمنين والكفار: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». أى:

اثبت على خط التوحيد، فإنه الدواء الشافي، واعلم أن أفضل وسيلة للنجاة هو التوحيد الذي بينت الآيات السالفة آثاره. وبعد هذه المسألة العقائدية، تعود الآية إلى مسألة التقوى والعفة عن المعصية، فتقول: «وَاسْتَعْفُوا لِدُنْبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ».

لا يخفى أن النبي صلى الله عليه وآله لم يرتكب ذنباً قط بحكم مقام العصمة، وأمثال هذه التعابير إشارة إلى ترك الأولى، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو إلى أنه قدوة للمسلمين. ويقول سبحانه في ذيل الآية، وكتيبان للعله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ».

فهو يعلم ظاهركم وباطنكم، كتمانكم وعلايتكم، سرّكم ونجواكم، بل ويعلم حتى نياتكم، وما توسوس به أنفسكم، ويخطر على أذهانكم، وما يجرى في ضمائركم، ويعلم حركاتكم وسكناتكم، ولهذا وجب عليكم التوجه إليه ورفع الأكف بين يديه وطلب العفو والمغفرة والرحمة منه.

«المتقلب»: هو المكان الذي يكثر التردد عليه؛ و«المثوى»: هو محل الاستقرار.

إن لهاتين الكلمتين معنى واسعاً يشمل كل حركات ابن آدم وسكناته، سواء التي في الدنيا أم في الآخرة. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَمَّا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٨

يخافون حتى من اسم الجهاد: تبين هذه الآيات المواقف المختلفة للمؤمنين والمنافقين تجاه الأمر بالجهاد، تكمله للأبحاث التي مرّت في الآيات السابقة حول هذين الفريقين.

تقول الآية الأولى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَمَّا نَزَّلَتْ سُورَةٌ».

سورة يكون فيها أمر بالجهاد، يوضح واجبنا تجاه الأعداء القساء.

وأما المنافقون: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ». إن ميدان الجهاد بالنسبة إلى المؤمنين ميدان إظهار عشقهم لمحبتهم، ميدان تفجّر الاستعدادات والقابليات، وهو ميدان الثبات والمقاومة والإنصار، ولا معنى للخوف في مثل هذا الميدان. إلّا أنه بالنسبة إلى المنافقين ميدان موت وفناء وتعاسة، ميدان هزيمة ومفارقة لذائد الدنيا، وهو أخيراً ميدان مظلم يعقبه مستقبل مرعب غامض.

فإن الآية تضيف في النهاية فتقول: «فَأُولَى لَهُمْ».

إن جملة أعلاه تعبّر في الأدب العربي عن التهديد واللعن، وتمنّى التعاسة والفناء للآخر.

وتضيف الآية التالية: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ».

ثم تضيف: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ». وسيرفع رؤوسهم في الدنيا، ويمنحهم العزة والفخر، ويؤدى إلى أن ينالوا الثواب الجزيل، والأجر الكبير، والفوز العظيم في الآخرة.

وجملة «عَزَمَ الْأَمْرُ» تشير في الأساس إلى استحكام العمل، إلّا أن المراد منها هنا الجهاد، بقرينة الآيات التي سبقتها والتي تليها.

وتضيف الآية التالية: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ». لأنكم إن أعرضتم عن القرآن والتوحيد، فإنكم

سترجعون إلى جاهليّتكم حتماً، ولم يكن في الجاهلية إلّا الفساد في الأرض، والإغارة والقتل وسفك الدماء، وقطيعة الرحم، ووأد البنات.

وتوضح الآية التالية المصير النهائي لهؤلاء القوم المنافقين المفسدين المتذرعين بأوهى الحجج فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ».

إنّ هؤلاء يظنون أنّ الجهاد الإسلامي القائم على أساس الحق والعدالة، قطيعة للرحم، وفساداً في الأرض، أمّا كل الجرائم التي ارتكبوها في الجاهلية، والدماء البريئة التي سفكوها

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٨٩

أيام تسلطهم، والأطفال الأبرياء الذين وأدوهم ودفنوهم وهم أحياء يستغيثون، كانت قائمة على أساس الحق والعدل! لعنهم الله إذ لا اذن واعية لهم، ولا عين ناظرة بصيرة.

وتناول آخر آية من هذه الآيات ذكر العلة الحقيقية لانحراف هؤلاء القوم التعساء، فقالت: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». ولهذا، فإنّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، ويكون في صميمها لا على هامشها، وعليهم أن يجعلوه قلوبهم وأسوتهم، وأن ينفذوا كل أوامره، وأن يجعلوا خطوط حياتهم وطبيعتها منسجمة معه.

لكن، أنّ الاستفادة من القرآن تحتاج إلى نوع من تهذيب النفس وجهادها، وإن كان القرآن بنفسه معيناً في تهذيبها، لأنّ القلوب إذا كانت مغلقة بأقفال الهوى والشهوة، والكبر والغرور، واللجاجه والتعصب، فسوف لا يلجها نور الحق.

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنِيطًا لَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْيَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أفلا يتدبرون القرآن: تواصل هذه الآيات الكلام حول المنافقين ومواقفهم المختلفة، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ».

«سَوَّلَ»: من مادة «سَوَّلَ»، وهي الحاجة التي يحرص عليها الإنسان؛ و«التسويل»: بمعنى الترغيب والتشويق إلى الامور التي يحرص عليها، ونسبته إلى الشيطان بسبب الوسوس التي يلقها في نفس الإنسان، وتمنع من هدايته؛ و«أملى»: من مادة «إملاء»، وهو زرع طول الأمل فيهم، والآمال البعيدة المدى، والتي تشغل الإنسان، فتصدّه عن الحق والهدى.

وتشرح الآية التالية عله هذا التسويل والتزيين الشيطاني، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنِيطًا لَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ». وهذا دأب المنافقين في البحث عن

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٠

العصاة والمخالفين، وإذا لم يكونوا مشتركين ومتفقين معهم في كل المواقف، فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم، بل ويطيعونهم إذا اقتضى الأمر. بل قد اتجه منافقو المدينة نحو يهود المدينة - وهم «بنو النضير» و «بنو قريظة» الذين كانوا يبشرون بالإسلام قبل بعثه النبي صلى الله عليه وآله، أما بعد ظهوره ومبعثه، وتعرض مصالحهم للخطر، ولحسدكم وكبرهم، فإنّهم اعتبروا الإسلام ديناً باطلاً، وغير سليم - ولما كان هناك قدر مشترك بين المنافقين واليهود في مخالفتهم النبي صلى الله عليه وآله، وتآمرهم ضد الإسلام، فإنّهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسلام والمسلمين.

وربما كان جملة «فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» إشارة إلى أننا نتعاون معكم في هذا الجزء فقط، فإنكم تخالفون عبادة الأصنام، وتعتقدون بالبعث والقيامة، ونحن لا نتفق معكم في هذه الامور.

وتهدد الآيات هؤلاء في نهايتها فتقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ». فهو عليم بكفرهم الباطن ونفاقهم، وتآمرهم مع اليهود، وسيعاقبهم ويجازيهم في الوقت المناسب.

و الآية التالية بمثابة توضيح لهذا التهديد المبهم، فتقول: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ».

وهم يضربون وجوههم لأنها اتجهت نحو أعداء الله، ويضربون أذبارهم لأنهم أدبروا عن آيات الله ونبيه.

وتناولت آخر آية من هذه الآيات بيان علمه هذا العذاب الإلهي وهم على إعتاب الموت، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَشِيحَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

لأن رضى الله سبحانه هو شرط قبول الأعمال وكل سعى وجهد.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلاَعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلاَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلاَتَبْلُؤُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَلاَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ (٣١) يعرف المنافقون من لحن قولهم: تشير هذه الآيات إلى جانب آخر في صفات المنافقين وعلاماتهم، وتؤكد بالخصوص على أنهم يظنون أن باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم وصورتهم الحقيقية عن النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين دائماً، وأن ينفذوا أنفسهم بذلك من الفضيحة

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩١

الكبرى، فتقول أولاً: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ».

«الأضغان»: جمع «ضغن»، وهو الحقد الشديد.

إن الآية التالية تضيف: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلاَعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ». فنجعل في وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأيتمهم، وتراهم رأى العين فتتظر واقعهم عندما تنظر ظاهرهم.

ثم تضيف: «وَلاَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ». فيمكنك في الحال أن تعرفهم من خلال نمط كلامهم. أى: يمكن معرفة المنافقين مرضى القلوب من خلال الكناية في كلامهم، وتعبيراتهم المؤذية التي تنطوي على النفاق.

في تفسير مجمع البيان عن أبي سعيد الخدرى قال: لحن القول بغضهم على بن أبى طالب عليه السلام. قال: وكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ويغضهم على بن أبى طالب عليه السلام «١».

لقد كانت إحدى العلامات البارزة للمنافقين أنهم كانوا يعادون أول من آمن من الرجال، وأول مضح في سبيل الإسلام، ويغضونه. واليوم أيضاً لا تصعب معرفة المنافقين من لحن قولهم ومواقفهم المضادة في المسائل الاجتماعية المهمة، وخاصة عند الإضطرابات أو الحروب، ويمكن التعرف عليهم بأدنى دقة في أقوالهم وأفعالهم.

وأخيراً تضيف الآية: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ». فهو يعلم أعمال المؤمنين ما ظهر منها وما بطن، ويعلم أعمال المنافقين، وإذا افترضنا أن هؤلاء قادرون على إخفاء واقعهم الحقيقى عن الناس، فهل باستطاعتهم إخفاءه عن الله الذى هو معهم فى سرهم وعلانيهم، وخلوتهم

واجتماعهم؟

وتضيف الآية التالية مؤكدة وموضحة طرقة أخرى لتمييز المؤمنين عن المنافقين:

«وَلاَتَبْلُؤُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ». الحقيقين من المتظاهرين بالجهاد والصبر.

(١) مجمع البيان ١٧٦/٩. ثم إن جماعة من كبار العامة نقلوا مضمون هذا الحديث فى كتبهم؛ ومن جملتهم: أحمد بن حنبل فى كتاب فضائل الصحابة، وابن عبد البر فى الإستيعاب، والذهبي فى تاريخ أول الإسلام، وابن الأثير فى جامع الاصول، والعلامة الكنجى فى كفاية الطالب، والسيوطى فى الدر المنثور، والآلوسى فى روح المعانى، وأورده جماعة آخرون فى كتبهم؛ وهو يبين أنها إحدى الروايات المسلمة عن الرسول الأعظم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٢

وتقول الآية الأخيرة: «وَلاَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ».

وبهذا فإن الله سبحانه يختبر أعمال البشر، كما يختبر أقوالهم وأخبارهم. فليست هذه المرة الاولى التي يخبر الله سبحانه الناس فيها بأنى أبلوكم لتمييز صفوفكم، ويعرف المؤمنون الحقيقيون وضعفاء الإيمان والمنافقون، وقد ذكرت مسألة الإمتحان والإبتلاء هذه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد بحثنا المسائل المتعلقة بالاختبار الإلهى فى ذيل الآية (١٥٥) من سورة البقرة، وكذلك وردت فى بداية سورة العنكبوت. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) بعد البحوث المختلفة التى دارت حول المنافقين فى الآيات السابقة، تبحث هذه الآيات وضع جماعة اخرى من الكفار، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ». حتى وإن عملوا خيراً، لأنه لم يكن مقترناً بالإيمان.

هؤلاء يمكن أن يكونوا مشركى مكه، أو الكفار من يهود المدينة، أو كليهما.

أما «تبيين الهدى» فقد كان عن طريق المعجزات بالنسبة إلى مشركى مكه، وعن طريق الكتب السماوية بالنسبة إلى أهل الكتاب. و«إحباط أعمالهم» إما أن يكون إشارة إلى أعمال الخير التى قد يقومون بها أحياناً كإقراء الضيف، والإنفاق، ومعونة ابن السبيل، أو أن يكون إشارة إلى عدم تأثير خطط هؤلاء ومؤامراتهم ضد الإسلام.

وبعد أن تبين حال المنافقين، والخطوط العامة لأوضاعهم، وجَّهت الآية التالية الخطاب

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٣

إلى المؤمنين مبينة خطهم وحالهم، فقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ».

فإن أسلوب الآية يوحى بأن من بين المؤمنين أفراداً كانوا قد قصرُوا فى طاعة الله ورسوله وفى حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل، ولذلك فإن الله سبحانه يحذّرهم فى هذه الآية.

وجاءت الآية الأخيرة من هذه الآيات موضحة ومؤكدة لما مرّ فى الآيات السابقة حول الكفار، وتهدى إلى الصراط المستقيم من يريد التوبة إلى طريق الرجوع، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ». لأن أبواب التوبة ستعلق بنزول الموت، ويحمل هؤلاء أوزارهم وأوزار الذين يضلّونهم، فكيف يغفر الله لهم.

فَلَمَّا تَهْتَبْتُمْ أَتَدْعُونِ إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) الصلح المذل: متابعه للآيات السابقة التى كانت تتحدث حول مسألة الجهاد، تشير هذه الآية إلى أحد الامور الهامة فى مسألة الجهاد، وهو أن ضعفاء الإيمان يطرحون غالباً مسألة الصلح للفرار من مسؤولية الجهاد، ومصاعب ميدان الحرب. ولذلك تقول الآية الشريفة:

الآن وقد سمعتم الأوامر الإلهية فى الجهاد «فَلَا تَهْتَبْتُمْ وَتَدْعُونِ إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ».

أى: الآن وقد لاحت علائم انتصاركم وتفوقكم، كيف تذلون أنفسكم وترضون بالمهانة باقتراح الصلح الذى لا يعنى إلا التراجع والهزيمة؟ فليس هذا صلحاً فى الواقع، بل هو استسلام وخضوع ينبع من الضعف والإنهيار، وهو نوع من طلب الراحة والعافية، ويقبح بكم أن تتحملوا عواقبه الأليمة الخطرة.

ومن أجل رفع معنويات المسلمين المجاهدين تضيف الآية: «وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ». «يتركم»: من مادة «الوتر»، وهو المنفرد، ولذلك يقال لمن قتل قريبه، وبقي وحيداً: وتر. وجاء أيضاً بمعنى النقصان؛ وفى الآية—مورد البحث— كناية جميلة عن هذا المطلب، بأن الله سبحانه لن يترككم وحدكم، بل سيقركم بثواب أعمالكم، خاصة وأنكم تعلمون أنكم لن تخطوا خطوة إلا لاكتبت لكم، فلم يكن الله لينقص من أجركم شيئاً، بل سيضاعفه ويزيد عليه من فضله وكرمه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٤

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنَّ يَسْأَلْكُمْ هِيَ فَيُخْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَمَا يُكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) قلنا: إنَّ سورة محمد هي سورة الجهاد، فأمر الجهاد بدأت، وبه تنتهي، والآيات مورد البحث- وهي آخر آيات هذه السورة- تتناول مسألة أخرى من مسائل حياة البشر في هذا الميدان، فتطرح كون الحياة الدنيا لا- قيمة لها لزيادة ترغيب المسلمين ودعوتهم إلى طاعة الله سبحانه عموماً، وإلى أمر الجهاد بالخصوص، لأنَّ حبَّ الدنيا والإنشاد إلىها أحد العوامل المهمة التي تعيق المسلمين عن الجهاد، فنقول: «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ».

«اللعب»: يقال للأعمال التي تتصف بنوع من الخيال للوصول إلى هدف خيالي؛ و«اللهو»: يقال لكل عمل يشتغل الإنسان به فيصرفه عن المسائل الأساسية.

والحق أنَّ الدنيا لعب ولهو ليس إلَّا، فلا يحصل منها أنس وارتياح، وليس لها دوام وبقاء، وإنَّما هي لحظات كلمح البصر، ولذات زائلة تحفها الآلام والمتاعب.

ثم تضيف الآية: «وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَمَّا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ». فلا- الله يسألكم أجراً مقابل الهداية والرشاد وكل تلك الهبات العظيمة في الدنيا والآخرة، ولا رسوله، فإنَّ الله تعالى غني عن العالمين، ولا يحتاج رسوله إلى غير الله.

وإذا كان الشئ الزهيد من أموالكم يؤخذ كركاء وخمس وحقوق شرعية أخرى، فإنه يعود عليكم ويصرف فيكم، لحماية يتاماكم ومساكينكم وضعفائكم وأبناء السبيل منكم، وللدفاع عن أمن بلادكم واستقلالها، وللاستقرار النظام والأمن، ولتأمين احتياجاتكم، وعمران دياركم.

بناءً على هذا، فحتى هذا المقدار اليسير هو من أجلكم ومنفعتكم، فإنَّ الله ورسوله في غنى عنكم، وبذلك فلا منافاة بين مفهوم هذه الآية وآيات الزكاة والإنفاق وأمثالها.

ولتبيان تعلق أغلب الناس بأموالهم وثرواتهم الشخصية تضيف الآية التالية: «إِنْ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٥

يَسْأَلْكُمْ هِيَ فَيُخْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ».

«يخفكم»: من مادة «إحفاء»، أي: الإصرار والإلحاح في المطالبة والسؤال، وهي في الأصل من حفاً، وهو المشى حافياً، وهذا التعبير كناية عن الأعمال التي يتابعها الإنسان إلى أبعد الحدود؛ و«الأضغان» جمع ضغن، وهو بمعنى الحقد الشديد.

وبذلك فإنَّ الآية تريد أن توقظ أرواح البشر الغاطئة في نومها العميق بسوط التقريع والملامة والعتاب، ليرفعوا عن أعناقهم قيود الذل والعبودية للأموال، ويصبحوا في حال يضخون عندها بكل ما لديهم في سبيل الله، ويقدمون ما عندهم بين يديه، ولا يرجون في مقابل ما يعطون إلَّا الإيمان به وتقواه ورضاه عنهم.

والآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث، وهي آخر آية من سورة محمد- تأكيد آخر على ما مرَّ في الآيات السابقة حول المسائل المادية وتعلق الناس بها، ومسألة الإنفاق في سبيل الله، فنقول: «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ».

وهنا يأتي سؤال، وهو: إنَّ الآيات السابقة قد ذكرت أنَّ الله لا يسألكم أموالكم، فكيف أمرت هذه الآية بالإنفاق في سبيل الله؟ غير أنَّ تنمة الآية تجيب عن هذا السؤال عن طريقين، فنقول أولاً: «وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ». لأنَّ ثمره الإنفاق تعود عليكم أنفسكم في الدنيا والآخرة، حيث يقل التفاوت الطبقي، وعندها سيعم الأمن والهدوء في المجتمع، وتحل المحبة والصفاء محل العداوة والحقد، هذا ثوابكم الدنيوي.

وأما في الآخرة، فستمنحون مقابل كل درهم أو دينار تنفقونه الهبات والنعم العظيمة التي لم تخطر على قلب بشر، وعلى هذا فإنَّ من يبخل يبخل عن نفسه. وتعبير آخر: فإنَّ الإنفاق هنا يعني أكثر ما يعني الإنفاق في أمر الجهاد، والتعبير ب«فِي سَبِيلِ اللَّهِ» يلائم هذا

المعنى أيضاً، ومن الواضح أن أي نوع من المساهمة في تقدّم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع واستقلاله وشرفه. والجواب الآخر هو: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ» فهو غنى عن إنفاقكم في سبيله، وغنى عن طاعتكم، وإنّما أنتم الفقراء إلى لطفه ورحمته وثوابه وكرمه في الدنيا والآخرة.

وتحذر الجملة الأخير جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمة الجليلة، والموهبة العظيمة، حيث جعلكم سبحانه حماة دينه القويم وأنصار دينه وأتباع رسوله وأصحابه،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٦

فحذار أن تقصروا في تعظيم هذه النعمة وإكبارها، إذ: «وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ». وقد جاء نظير هذا التهديد في الآية (٥٤) من سورة المائدة، حيث تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ». وفي تفسير مجمع البيان: روى أبوهريرة أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا: يا رسول الله! من هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه وكان سلمان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله فضرب بيده على فخذه فقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «والله أبدل بهم خيراً منهم الموالى».

«نهاية تفسير سورة محمد»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٧

## ٤٨. سورة الفتح

محتوى السورة: هذه السورة كما هو ظاهر من اسمها تحمل رسالة الفتح والنصر؛ الفتح والنصر على أعداء الإسلام، الفتح المبين والأكيد «سواء كان هذا الفتح متعلقاً بفتح مكة أو بصلح الحديبية أو بفتح خيبر أو كان هذا الفتح بشكل مطلق». وفي تفسير مجمع البيان عن عبد الله بن مسعود قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله من الحديبية فجعلت ناقته تثقل فتقدمنا فأنزل الله عليه: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا». فأدر كنا رسول الله صلى الله عليه وآله وبه من السرور ما شاء الله، فأخبر أنها نزلت عليه. وبمراجعة إجمالية للسورة يمكن القول إنها تتألف من سبعة أقسام:

١- تبدأ السورة بموضوع البشرى بالفتح كما أن آياتها الأخيرة لها علاقة بهذا الموضوع أيضاً، وفيها تأكيد على تحقق رؤيا النبي التي تدور حول دخوله وأصحابه مكة وأداء مناسك العمرة.

٢- يتحدث قسم آخر من هذه السورة عن الحوادث المتعلقة بصلح الحديبية ونزول السكينة على قلوب المؤمنين و «بيعة الرضوان» وما إلى ذلك.

٣- ويتحدث قسم ثالث منها عن مقام النبي صلى الله عليه وآله وهدفه الأسمى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٨

٤- ويكشف القسم الرابع الستار عن غدر المنافقين ونقضهم العهد ونكثهم له ويعطى أمثلةً من أعدائهم الواهية في مسألة عدم مشاركتهم النبي جهاده المشركين والكفار.

٥- وفي قسم آخر يقع الكلام على طلبات «المنافقين» في غير محلها.

٦- والقسم السادس يوضح من هم المعذرون الذين لا حرج عليهم.

٧- وأخيراً يتحدث عن خصائص أصحاب النبي وأتباعه في طريقته وسنته وصفاتهم التي يتميزون بها.

فضيلة تلاوة السورة: في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حَصَيْنَا أَمْوَالَكُمْ وَنَسَاءَكُمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ مِنَ التَّلْفِ بِقِرَاءَةِ «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مَمَّنْ يَدْمَنُ قِرَاءَتَهَا نَادَى مُنَادِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْمَعَ الْخَلَائِقُ أَنَّكَ مِنْ عِبَادِي الْمُخْلِصِينَ، الْحَقُّوهُ بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِي وَادْخُلُوهُ جَنَّاتِ النِّعِيمِ وَاسْقُوهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ بِمَزَاجِ الْكَافُورِ».

ومن الواضح أن الهدف الأصلي من تلاوة هذه السورة هو تطبيق أعمال القارئ وخلقه وطبعه على مفاد هذه السورة ومضامينها. إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) الفتح المبين: في الآية الأولى من هذه السورة بشرى عظيمة للنبي صلى الله عليه وآله بشرى هي عند النبي طبقاً لبعض الروايات أحب إليه من الدنيا وما فيها، إذ تقول الآية: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا». وهو إشارة إلى ما كان من نصيب للمسلمين من الفتح الكبير على أثر «صلح الحديبية».

ومن الأفضل وقبل الولوج في تفسير الآيات أن نعرض قصة صلح الحديبية ليُتضح «المقام» ويكون هذا العرض بمثابة شأن نزول الآيات أيضاً.

قصة صلح الحديبية: في السنة السادسة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله معتمراً في ذي القعدة لا يريد حرباً ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار ومن تبعه من الأعراب ألف وأربعمائة وساق الهدى معه سبعين بدنه ليعلم الناس أنه إنما جاء زائراً للبيت فلما بلغ عسفان لقيه بسر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فاجتمعوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٤٩٩

إن النبي صلى الله عليه وآله قال للناس: «انزلوا». فقالوا: ما بالوادي ماء ينزل عليه. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قلب من تلك القلب فغرز في جوفه فجاش الماء بالرئ حتى ضرب الناس بعطن .. وبدأ التزاور بين سفراء النبي صلى الله عليه وآله وممثليه وسفراء قريش وممثليها لتحل المشكلة على أي نحو كان وأخيراً جاء عروة بن مسعود الثقفي الذي كان رجلاً حازماً عند النبي فقال النبي:

«إِنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مَعْتَمِرِينَ...» فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم قد وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي فوالله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، وحدثهم ما رأى وما قال النبي صلى الله عليه وآله ... فدعا رسول الله عمر ليرسله إلى مكة، فقال: ليس بمكة من بني عدى من يمنعي وقد علمت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها وأخافها على نفسى فأرسل عثمان فهو أعز بها منى فدعا عثمان فأرسله ليلبغ عنه فانطلق فلقه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره فأتى أبا سفيان، وعظماة قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا لعثمان حين فرغ من أداء الرسالة: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به النبي صلى الله عليه وآله فاحتبسته قريش عندها فبلغ النبي صلى الله عليه وآله أنه قد قتل. فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ثم دعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة .. ثم أتى الخبر أن عثمان لم يقتل.

ثم بعث قريش سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وآله ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه ذلك، فأقبل سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وآله وأطال معه الكلام وتراجعا، ثم جرى بينهم الصلح، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: لا نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فكتبها، ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال له: «امح رسول الله». فقال: لا أمحوك أبداً. فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وليس يحسن أن يكتب فكتب موضع رسول الله محمد بن عبد الله، وقال لعلى لتبليغ بمثلها، اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن الناس، وإنه من أتى منهم رسول الله بغير إذن وليه رده إليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم يردوه عليه ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وأن يرجع

رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم عامه ذلك فإذا كان

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٠

عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، وسلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها غيرها ... فلما فرغ النبي صلى الله عليه وآله من قضيته قال: «قوموا فانحروا ثم احلقوا».

فما فتح في الإسلام قبله فتح كان أعظم منه حيث آمن الناس كلهم بعضهم بعضاً فدخل في الإسلام تينك الستين مثل ما دخل فيه قبل ذلك وأكثر.

وفي ذلك الحين نزلت سورة الفتح وأعطت للنبي الكريم بشرى كبرى بالفتح المبين «١».

لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيُنصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) نتائج الفتح المبين الكبرى: في هاتين الآيتين بيان للنتائج المباركة من «الفتح المبين» (صلح الحديبية) والتي ورد ذكره في الآية السابقة. فتقول الآيتان: «لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا\* وَيُنصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا».

وبهذا فإن الله منح نبيه الكريم في ظل هذا الفتح المبين أربع مواهب عظيمة هي:

«المغفرة»، و «إتمام النعمة»، و «الهداية» و «النصر».

الإجابة على سؤال مهم: تثار هنا سؤال وهو: ما المراد من العبارة الآنفه «لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ» مع أن النبي معصوم من الذنب؟

وللحصول على الإجابة «الجامعة» لهذه الإشكال لابد من ذكر مقدمة وهي:

إنّ المهم هو العثور على العلاقة الخفية بين فتح الحديبية ومغفرة الذنب! وبالتدقيق في الحوادث التاريخية وما تمخضت عنه نصل إلى هذه النتيجة، وهي أنه حين يظهر أيّ مذهب حق ويبرز في عالم الوجود فإن أصحاب السنن الخرافية الذين يرون أنفسهم ووجودهم في خطر يكيلون التهم والامور التافهة إليه ويشيعون الشائعات والأباطيل وينشرون الأراجيف الكاذبة بصدده. ولكن حين ينال الانتصار وتحظى مناهجه وخططه بالموفقية فإن تلك النسب تمضى كما لو كانوا قد رقموا على الماء، وتتبدل جميع أقوالهم إلى حسرات وندامة ويقولون عندئذ لم نكن نعلم.

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ٨٦ - ٩٠.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠١

وخاصة في شأن النبي محمد صلى الله عليه وآله كانت هذه التصورات والذنوب التي وصمها به كثيرة، إذ عدّوه باغياً للحرب والقتال ومثيراً لنار الفتنة معتداً بنفسه لا يقبل التفاهم وما إلى ذلك.

وقد كشف صلح الحديبية أن مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهباً «تقدّمياً» إلهياً..

فهو يحترم كعبة الله وبيته العتيق ولا يهاجم أية جماعة أو قبيلة دون سبب، ويدعو جميع الناس بحق إلى محبوبهم «الله» وإذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعية للسلام والصلح والدعة ...

وعلى هذا فقد غسل صلح الحديبية جميع الذنوب التي كانت قبل الهجرة وبعد الهجرة قد نسبت إلى النبي صلى الله عليه وآله أو جميع الذنوب التي نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه في المستقبل احتمالاً ... وحيث إن الله جعل هذا الفتح نصيب النبي فيمكن أن يقال أن الله غفر للنبي ذنوبه جميعاً.

والنتيجة أن هذه الذنوب لم تكون ذنوباً حقيقية أو واقعية بل كانت ذنوباً تصورية وفي أفكار الناس وظنهم فحسب، وكما نقرأ في الآية (١٤) من سورة الشعراء في قصة موسى قوله مخاطباً ربه: «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ». في حين أن ذنبه لم يكن سوى نصرة

المظلوم من بني إسرائيل وسحق ظلم الفراعنة لا غير.



وبديهى أن هذا الفعل لا يعدّ ذنباً، بل دفاع عن المظلومين ولكنه كان يعدّ ذنباً في نظر الفراعنة وأتباعهم.

وبتعبير آخر: أن «الذنب» فى اللغة يعنى الآثار السيئة والتبعات التى تنتج عن العمل غير المطلوب، فكان ظهور الإسلام فى البداية تدميراً لحياء المشركين، غير أن إنتصاراته المتلاحقة والمتابعة كانت سبباً لنسيان تلك التبعات.

وهكذا بالنسبة لمشركى مكة سواءً قبل هجرة النبى أم بعدها إذ كانت أفكارهم وأذهانهم مبلبله عن الإسلام وشخص النبى بالذات، غير أن إنتصارات الإسلام أزاله هذه التصورات والأفكار.

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٢

نزول السكينة على قلوب المؤمنين: ما قرأناه فى الآيات السابقة هو ما أعطاه الله من مواهب عظيمة لنبى الأكرم صلى الله عليه وآله بالفتح المبين «صلح الحديبية»، أما فى الآية أعلاه فالكلام عن الموهبة العظيمة التى تطف الله بها على جميع المؤمنين، إذ تقول الآية: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ».

ولم لا تنزل السكينة والاطمئنان على قلوب المؤمنين: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

«السكينة»: فى الأصل مشتقة من «السكون»، ومعناها الاطمئنان والدعة وما يزيل كل أنواع الشك والتردد والوحشه من الإنسان ويجعله ثابت القدم فى طوفان الحوادث.

وهذه السكينة يمكن أن يكون لها جانب عقائدى فيزيل ضعف تزلزل العقيدة أو يكون لها جانب عملى بحيث يهب الإنسان ثبات القدم والمقاومة والاستقامة والصبر.

وتعبيرات الآية نفسها تتناسب مع استعمال السكينة فى معناها الأول أكثر.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) نتيجة اخرى من الفتح المبين: فى روح المعانى عن أنس قال: أنزلت على النبى صلى الله عليه وآله ليغفر لك الله من ذنبك وما تأخر فى مرجعه من الحديبية فقال: «لقد أنزلت على آية هى أحب إلى مما على الأرض». ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بين الله تعالى لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» حتى بلغ «فَوْزًا عَظِيمًا».

إن هذه الآيات تتحدث عن علاقة صلح الحديبية وآثاره ورد الفعل المختلف فى أفكار الناس وتناججه المشره، وكذلك عاقبة كل من الفريقين اللذين امتحنا فى هذه «البوتقة» والمختبر. فتقول الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث: «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٣

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». فلا تُسلب هذه النعمة الكبرى عنهم أبداً ..

وإضافة إلى ذلك فإن الله يعفو عنهم «وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا».

وبهذا فإن الله قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبىه فى فتحه المبين من المواهب الأربعة موهبتين عظيمتين هما: «الجنة خالدين فيها» و «التكفير عن سيئاتهم» بالإضافة إلى إنزال السكينة على قلوبهم ومجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزاً عظيماً لأولئك الذين خرجوا من الإمتحان بنجاح وسلامه.

غير أن إزاء هذه الجماعة، جماعة المنافقين والمشركين الذين تتحدث الآية التالية عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: «وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ».

أجل، لقد ظنّ المنافقون حين تحرّك النبى صلى الله عليه وآله ومعه المؤمنون من المدينة أن لا يعودوا نحوها سالمين.

ثم يفصل القرآن بيان عذاب هؤلاء وعقابهم ويجعله تحت عناوين أربعة فيقول أولاً:

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ». «الدائرة»: في اللغة هي الحوادث وما ينجم عنها أو ما يتفق للإنسان في حياته، فهي أعم من أن تكون حسنة أو سيئة غير أنها هنا بقرينة كلمة «السوء» يراد منها الحوادث غير المطلوبة.

وثانياً: «وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ».

وثالثاً: «وَلَعَنَهُمُ».

ورابعاً: فإنه بالمرصاد «وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة أخرى إلى عظمة قدرة الله فتقول الآية:

«وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

ومما يستلفت النظر أن القرآن حين يذكر المؤمنين يصف الله بالعلم والحكمة، وهما يناسبان مقام الرحمة، ولكنه حين يذكر المنافقين والمشركين يصف الله بالعزة والحكمة، وهما يناسبان العذاب.

ما المراد من جنود السماوات والأرض: هذا التعبير له معنى واسع حيث يشمل الملائكة «وهي من جنود السماء» كما يشمل جنوداً أخرى كالصواعق والزلازل والطوفانات والسيول والأمواج والقوى الغيبية غير المرئية التي لا نعرف عنها شيئاً.. لأن جميع هذه الأشياء هي جنود الله وهي مطيعة لأوامره.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٤

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) مكانة النبي وواجب الناس تجاهه: قلنا إن بعض الجهلاء اعترضوا بشدة على صلح الحديبية وحتى أن بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الإحترام بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله وكان مجموع هذه الأمور يستوجب أن يؤكد القرآن مرة أخرى على عظمة النبي صلى الله عليه وآله وجماله قدره. لذلك فإن الآية الأولى من الآيات أعلاه تخاطب النبي فتقول: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

«شاهدًا» على جميع الأمة الإسلامية، بل هو شاهد على جميع الأمم.

وفي الآية التالية خمسة أوامر مهمة، هي بمثابة الهدف من سمات النبي المذكورة آنفًا:

وتشكل أمرين في طاعة الله وتسيحه وتقديره، وثلاثة أوامر منها في «طاعته» رسوله و «الدفاع عنه» و «تعظيم مقامه». إذ تقول الآية: «لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

«تعزروه»: من مادة «تعزير»، وهو في الأصل يعني «المنع» ثم توسعوا فيه فأطلق على كل دفاع ونصرة وإعانة للشخص في مقابل أعدائه كما يطلق على بعض العقوبات المانعة عن الذنب «التعزير» أيضاً؛ و «توقروه»: مشتقة من مادة «توقير»، وجذورها «الوقر» ومعناها الثقل.. فيكون معنى التوقير هنا التعظيم والتكريم.

وطبقاً لهذا التفسير فإن الضميرين في «تعزروه» و «توقروه» يعودان على شخص النبي صلى الله عليه وآله والهدف من ذلك هو الدفاع عنه بوجه أعدائه وتعظيمه واحترامه.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة قصيرة إلى مسألة «بيعة الرضوان» وقد جاء التفصيل عنها في الآية (١٨) من السورة ذاتها.

إن القرآن يتحدث عن مبايعة المسلمين في الآية محل البحث فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٥

و «البيعة»: معناها المعاهدة على أتباع الشخص وطاعته، وكان المرسوم أو الشائع بين الناس أن الذي يعاهد الآخر ويبايعه يمد يده إليه ويظهر وفاءه ومعاهده عن هذا الطريق لذلك الشخص أو لذلك «القائد» المبايع.

وحيث أن الناس يمدون أيديهم «بعضهم إلى بعض» عند البيع وما شاكله من المعاملات ويعقدون المعاملة بمد الأيدي و «المصافحة» فقد أطلقت كلمة «البيعة» على هذه العقود والعهود أيضاً. وخاصةً أنهم عند «البيعة» كأنما يقدمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذي يظهرون وفاءهم له.

وعلى هذا يتضح معنى «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» .. إذ إن هذا التعبير كناية عن أن بيعة النبي هي بيعة الله، فكأن الله قد جعل يده على أيديهم فهم لا يبايعون النبي فحسب بل يبايعون الله، وأمثال هذه الكناية كثيرة في اللغة العربية. ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا». «نكث»: مشتقة من «نكث» ومعناها الفتح والبسط ثم استعملت في نقض العهد.

والقرآن في هذه الآية يُنذر جميع المبايعين للنبي صلى الله عليه وآله أن يشبثوا على عهدهم وبيعتهم فمن ثبت على العهد فسيؤتيه الله أجراً عظيماً ومن نكث فإنما يعود ضرره عليه ولا ينال الله ضرره أبداً ..

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّتِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٦

المخلفين: هذه الآيات تبين حالة المخلفين ضعاف الإيمان بعد أن بينت الآيات السابقة حال المنافقين والمشركين لتتم حلقات البحث ويرتبط بعضها ببعض. تقول هذه الآيات:

«سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّتِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ».

إنهم لم يكونوا صادقين حتى في توبتهم.

فأبلغهم يا رسول و «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا».

أجل «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

وهو يعلم جيداً أن هذه الحيل والحجج الواهية لا صحة لها ولا واقعية ..

ومن أجل أن ينجلى الأمر ويتضح الواقع أكثر يميظ القرآن جميع الأستار فيقول: «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا».

أجل، إن السبب في عدم مشاركتكم النبي وأصحابه في هذا السفر التاريخي لم يكن هو كما زعمتم - انشغالكم بأموالكم وأهليكم -

بل العامل الأساس هو سوء ظنكم بالله، وكنتم تتصورون خطأ أن هذا السفر هو السفر الأخير للنبي وأصحابه وينبغي الاجتناب عنه.

وما ذلك إلأما وسوست به أنفسكم «وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوءِ».

لأنكم تخيلتم أن الله أرسل نبيه في هذا السفر وأودعه في قبضة أعدائه ولن يخلصه ويحميه عنهم، «وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا» - أي هالكين -

في نهاية الأمر.

وأي هلاك أشدّ وأسوأ من عدم مشاركتهم في هذا السفر التاريخي وبيعة الرضوان وحرمانهم من المفازر الاخر .. ثم الفضيحة

الكبرى .. وبعد هذا كله ينتظرهم العذاب الشديد في الآخرة، أجل لقد كان لكم قلوب ميتة فابتليتكم بمثل هذه العاقبة.

وحيث أن هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإن القرآن يصرح في الآية التالية قائلاً:

«وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا». «السعير»: معناه اللهب.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن ومن أجل أن يثبت قدره الله على معاقبة الكفار والمنافقين: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٧

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَاتِ اللَّهِ فُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسَدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأَسْ شَدِيدٍ تَقَاتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسِينًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْبَاغِي حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) الْمُخَلَّفُونَ الانتهازيون: يعتقد أغلب المفسرين أن هذه الآيات ناظرة إلى «فتح خيبر» الذي كان في بداية السنة السابعة للهجرة وبعد صلح الحديبية. وتوضيح ذلك أنه طبقاً للروايات حين كان النبي صلى الله عليه وآله يعود من الحديبية بشر المسلمين المشتركين بالحديبية - بأمر الله - بفتح خيبر، وصرح أن يشترك في هذه الحرب من كان في الحديبية من المسلمين فحسب، وأن الغنائم لهم وحدهم ولن ينال المخلفين منها شيء أبداً.

إلما أن عبيد الدنيا الجبناء لما فهموا من القرائن أن النبي سينتصر في المعركة المقبلة قطعاً - وأنه ستقع غنائم كثيرة في أيدي جنود الإسلام - أفادوا من الفرصة، فجاؤوا إلى النبي وطلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك في حرب خيبر، وقد غفلوا عن نزول الآيات آنفاً وأنها كشفت حقيقتهم من قبل كما نقرأ ذلك في الآية الأولى من الآيات محل البحث: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ».

إن القرآن الكريم يقول رداً على كلام هؤلاء الانتهازيين وطالبي الفرص: «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَاتِ اللَّهِ». ثم يضيف قائلاً للنبي: «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا».

وليس هذا هو كلامي بل «كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» وأخبرنا عن مستقبلكم أيضاً.

إن أمر الله أن تكون غنائم خيبر خاصة بأهل الحديبية ولن يشاركهم في ذلك أحد. لكن هؤلاء المخلفين الصلفين استمروا في تبجحهم واتهموا النبي ومن معه بالحسد كما صرح القرآن بذلك: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسَدُونَنَا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٨

وهكذا فإنهم بهذا القول يكذبون حتى النبي صلى الله عليه وآله ويعدون أساس منعهم من الاشتراك في معركة خيبر الحسد فحسب. وفي ذيل الآية يصرح القرآن عن حالهم فيقول: «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

أجل إن أساس جميع شقائهم وسوء حظهم هو جهلهم وعدم فقاہتہم، فالجهل ملازم لهم أبداً، جهلهم بالله سبحانه وعدم معرفته مقام النبي صلى الله عليه وآله وجهلهم عن مصير الإنسان وعدم توجههم إلى أن الثروة في الدنيا لا قرار فيها، فهي زائلة لا محالة.

واستكمالاً لهذا البحث فإن الآية التالية تقترح على المخلفين عن الحديبية اقتراحاً وتفتح عليهم باب العودة فتقول: «قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأَسْ شَدِيدٍ تَقَاتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسِينًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

فينبغي أن تؤدوا امتحان صدقكم في الميادين الصعبة وأن تسهموا فيها مرةً أخرى، وإلا فإن إجتنايب الميادين الصعبة، والمساهمة في الغنائم وميادين الراحة غير مقبول.

ومن هم هؤلاء القوم المعبر عنهم ب «أولى بأس شديد» في الآية وأى جماعة هم؟!!

نقول: جملة «تَقَاتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ» تدل على أنهم ليسوا من أهل الكتاب، لأن أهل الكتاب لا يُجبرون على قبول الإسلام، بل يُخَيَّرُونَ بين قبوله أو دفع الجزية والحياة مع المسلمين على شروط أهل الذمة.

وإنما الذين لا يُقبل منهم إلا الإسلام هم المشركون وعبدة الأصنام فحسب، لأن الإسلام لا يعترف بعبادة الأصنام ديناً ويرى أنه لا بد

من إجبار الناس على ترك عبادتها.

ومع الإلتفات إلى أنه لم تقع معركة مهمة في عصر النبي بعد حادثه الحديبية مع المشركين سوى فتح مكة وغزوة حنين، فيمكن أن تكون الآية المتقدمة إشارة إلى ذلك وخاصة غزوة حنين لأنها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و «بنى سعد».

الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تبين أعدارهم وخاصة أن بعض المفسرين قالوا إن جماعة من المعوقين جاؤوا إلى النبي بعد نزول الآية وتهديدها للمخلفين بقولها «يعدّبكم عذاباً أليماً»، فقالوا: يا رسول الله، ما هي مسؤوليتنا في هذا الموقع؟ فنزل قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ».

وليس الجهاد وحده مشروطاً بالقدرة، فجميع التكاليف الإلهية هي سلسلة من

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٠٩

الشرائط العامة ومن ضمنها الطاقة والقدرة، وكثيراً ما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا المعنى

وبالطبع فإن هذه الجماعة وإن كانت معذورة من الاشتراك في ميادين الجهاد، إلّا أنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقوية قوى الإسلام وتقدّم الأهداف الإلهية.

ولعل الجملة الأخيرة في الآية محلّ البحث تشير أيضاً إلى هذا المعنى فتقول: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدِّبْهُ عَذَاباً أليماً».

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) رضى الله عن المشركين في بيعه الرضوان: ذكرنا آنفاً أنه في الحديبية جرى حوار بين ممثلي قريش والنبي صلى الله عليه وآله وكان من ضمن السفراء عثمان بن عفان الذى تشده أوامر القربى بأبى سفيان، ولعل هذه العلاقة كان لها أثر في انتخابه ممثلاً عن النبي صلى الله عليه وآله فأرسله إلى أبى سفيان وأشرف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمة فاحتبسته قريش عندها. فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمين أن عثمان قد قُتل. فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الشجرة فاستند إليها وباع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفزوا «١».

فبلغ صدق هذه البيعة مكة واضطربت قريش من ذلك بشدة واطلقوا عثمان.

وكما نعرف فإن هذه البيعة عرفت ببيعة الرضوان وقد أفرزت المشركين وكانت منعطفاً في تاريخ الإسلام. فالآيتان محلّ البحث تتحدّثان عن هذه القصة فتقول الأولى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

والهدف من هذه البيعة الإنسجام أكثر فأكثر بين القوى وتقوية المعنويات وتجديد التعبئة العسكرية ومعرفة الأفكار واختبار ميزان التضحية من قبل المخلصين الأوفياء.

فأعطى الله هؤلاء المؤمنين المضحّين والمؤثرين على أنفسهم نفس رسول الله في هذه

(١) تفسير مجمع البيان ١٩٤/٩.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٠

اللحظة الحساسة والذين بايعوه تحت الشجرة أعطاهم أربعة أجور، ومن أهم تلك الأجور والاثبات الأجر العظيم وهو «رضوانه» كما عبرت عنه الآية (٧٢) من سورة التوبة:

«وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».. أيضاً. ثم تضيف الآية قائلة: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ».

سكينته واطمئنناً لا حدّ لهما، وهم بين سيل الأعداء في نقطة بعيدة عن الأهل والديار والعدو مدجج بالسلح، في حين أن المسلمين

عُزِّلَ من السلاح «لأنهم جاؤوا بقصد العمرة لا من أجل المعركة».

وهذا هو الأجر الثاني والموهبة الإلهية الأخرى.

وفي ذيل هذه الآية إشارة إلى الأجر الثالث إذ تقول الآية: «وَأَتَابَهُمْ فَفَتَحَا قَرِيبًا».

هذا الفتح هو فتح خيبر كما يقول أغلب المفسرين.

والتعبير بـ «قريباً» تأييد على أن المراد منه «فتح خيبر».

والأجر الرابع أو النعمة الرابعة التي كانت على أثر بيعه الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التالية هي: «وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا».

وحيث إنَّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهي اطمئناناً كاملاً فإنَّ الآية تضيف في الختام: «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

فإذا ما أمركم في الحديبية أن تصالحوا فإنَّما هو على أساس من حكمته، حكمته كشف عن إسرارها الأستار مضى الزمن، وإذا ما وعدكم بالفتح القريب والغنائم الكثيرة فهو قادر على أن يلبس وعده ثياب الإنجاز والتحقق.

وهكذا فإنَّ المسلمين المضحين الأوفياء أولى الإيمان والإيثار اكتسبوا في ظل بيعه الرضوان في تلك اللحظات الحساسة انتصاراً في الدنيا والآخرة، في حين أن المنافقين الجهلة وضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات.

بحث

البيعة وخصوصياتها: «البيعة» من مادة «بيع» وهي في الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعاملة. ثم أطلق هذا التعبير على مدِّ اليد على المعاهدة.

وتدلَّ القرائن على أن البيعة ليست من إبداعات المسلمين، بل هي سنَّة متَّبعة بين العرب قبل الإسلام، ولهذا السبب فإنَّ طائفة من «الأوس» و «الخزرج» جاؤوا في بداية الإسلام

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١١

خلال موسم الحج من المدينة إلى مكة وبايعوا النبي صلى الله عليه و آله في العقبة، وكان تعاملهم في قضية البيعة يوحى بأنَّها أمر معروف، وبعدها وخلال فرص ومناسبات متعددة جدَّد النبي البيعة مع المسلمين، وكانت إحداها هذه البيعة التي عرفت ببيعة الرضوان في الحديبية، وأوسع منها البيعة التي كانت عند فتح مكة، وسيأتي شرحها في تفسير «سورة الممتحنة» بإذن الله.

ولكن كيف تتم البيعة؟! .. بصورة عامة تتم البيعة كما يلي:

يمدُّ المبايع يده إلى يد المبايع ويبدى الطاعة والوفاء بلسان الحال أو المقال .. وربما ذكر شروطاً أو حدوداً لبيعته كأن يعقد البيعة على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد والمرأة.

وكان النبي الكريم يقبل ببيعة النساء أيضاً لكن لا على أن يمددن أيديهنَّ إلى يده الكريمه بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده في طرف منه وتدخل يدها في طرف آخر.

وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) من بركات صلح الحديبية مرَّة أخرى تتحدث هاتان الآيتان- كالأيات السابقة المتعلقة بصلح الحديبية والوقائع التالية لها- عن البركات وما حصل عليه المسلمون من غنائم في هذا الطريق. فتقول الآية الأولى منهما: «وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ».

ويدلُّ لحن الآية أن المراد من المغانم الكثيرة هنا جميع المغانم التي جعلها الله للمسلمين سواءً في أمد قصير أم بعيد.

ثم يشير القرآن إلى لطف آخر من أطفاف الله على المسلمين- في هذه الحادثة- فيقول:

«وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ».

وهذا لطف كبير أن يكون المسلمون على قلة العِدَد والعُدَد وفي نقطة نائية عن الوطن وفي مقربة من العدو- في مأمن منه وأن يلقي الله رباً ووحشة منهم في قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٢

ثم يضيف القرآن في تكملة الآية مشيراً إلى نعمتين كبيرتين أخريين من مواهب الله ونعمه إذ يقول: «وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا».

وفي الآية التالية أعطى الله بشاره أخرى للمسلمين إذ قال: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا». إن هذا الوعد إشارة إلى فتح مكة وغنائم حنين.

أو إشارة إلى الفتوحات والغنائم التي كانت نصيب المسلمين بعد النبي (كفتح فارس والروم ومصر)، كما يحتمل أيضاً أنه إشارة لجميع ما تقدم ذكره.

فإن الآية من إخبار القرآن بالمغيبات والحوادث الآتية، وقد حدثت هذه الفتوحات في مدة قصيرة وكشفت عن عظمة هذه الآيات بجلاء.

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّهَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّهَ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْ لَمَّا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتِيكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) هذه الآيات تتحدث أيضاً عن أبعاد اخر لما جرى في الحديبية وتشير إلى «الطيفتين» مهمتين في هذا الشأن.

الاولى: هي أنه لا تتصوروا أنه لو وقعت الحرب بينكم وبين مشركي مكة في الحديبية لانتصر المشركون والكفرة. «وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

وليس هذا منحصراً بكم بل: «سُنَّهَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّهَ اللَّهِ تَبْدِيلًا». فهذا هو قانون إلهي دائم، فمتى واجه المؤمنون العدو بتيات خالصة وقلوب طاهرة ولم يضعفوا في أمر الجهاد نصرهم الله على عدوهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٣

واللطيفة الاخرى التي بينتها هذه الآيات أنها قالت: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

حقاً.. كان ما حدث مصداقاً جلياً «للفتح المبين» ونعم ما اختاره القرآن له من وصف، فالعدو الذي زحف بجيشه مراراً نحو المدينة وسعى سعياً عجبياً لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، إلا أنه الآن حيث حطوا أقدامهم في حريمه ودياره يمتلكه الرعب منهم حتى أنه يقترح الصلح معهم.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى لطيفة اخرى تتعلق بمسألة صلح الحديبية وحكمتها، إذ تقول الآية: «هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ» (١).

كان أحد ذنوبهم كفرهم، والذنب الآخر صدّهم إياكم عن العمرة زيارة بيت الله ولم يجيزوا أن تنحروا الهدى في محله، أي مكة.

ومثل هذه الذنوب يستوجب أن يسلطكم الله عليهم لتعاقبهم بشدة، لكن الله تعالى لم يفعل ذلك فلماذا؟! ذيل الآية يبين السبب بوضوح إذ يقول: «وَلَوْ لَمَّا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتِيكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ».

وهذه الآية تشير إلى طائفة (من الرجال والنساء) المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في مكة ولم يهاجروا إلى المدينة لأسباب خاصة.

«المعرة»: من مادة «عر» على زنة «شر» (والعر على زنة الحر) في الأصل معناه مرض الجرب وهو من الأمراض الجلدية التي تصيب

الحيوانات أو الإنسان أحياناً ثم توسعوا في المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كل ضرر يصيب الإنسان. ولاكمال الموضوع تضيف الآية: «لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ».

أجل، كان الله يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكة أن تشملهم الرحمة ولا تنالهم أية صدمة .. ولمزيد التأكيد تضيف الآية الكريمة: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

أى: لو افترقت وانفصلت صفوف المؤمنين والكفار في مكة ولم يكن هناك خطر على المؤمنين لعذبنا الكفار بأيديكم عذاباً أليماً.

(١) «معكوفاً»: مشتق من «العكوف»، ومعناها المنع عن الحركة والبقاء في المكان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٤

صحيح أن الله قادر على أن يفصل هذه الجماعة عن الآخرين عن طريق الإعجاز، ولكن سنة الله - في ما عدا الموارد الاستثنائية - أن تكون الامور وفقاً للأسباب العادية.

«تزييلوا»: من مادة «زوال»، وهنا معناها الانفصال والتفرق.

ويستفاد من روايات متعددة منقولة عن طرق الشيعة والسنة حول ذيل هذه الآية أن المراد منها أفراد مؤمنون كانوا في أصلاب الكافرين والله سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذب الكافرين ..

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) التعصب وحمية الجاهلية أكبر سد في طريق الكفار: هذه الآية تتحدث مرّة اخرى عن (مجريات) الحديدية وتجسّم ميادين اخرى من قضيتها العظمى ... فتشير أولاً إلى واحد من أهم العوامل التي تمنع الكفار من الإيمان بالله ورسوله والإذعان والتسليم للحق والعدالة فتقول: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ».

ولذلك منعوا النبي والمؤمنين أن يدخلوا بيت الله ويؤدوا مناسكهم وينحروا «الهدى» في مكة. وقالوا: لو دخل هؤلاء - الذين قتلوا آباءنا وإخواننا في الحرب - أرضنا وديارنا وعادوا سالمين فما عسى أن تقول العرب فينا؟! وأية حيشة واعتبار لنا بعد هذا؟ فهؤلاء - بهذا العمل - هتكوا حرمة بيت الله والحرم الآمن من جهة، وخالفوا سننهم وعاداتهم من جهة اخرى، كما أسدلوا ستاراً بينهم وبين الحقيقة أيضاً.

«الحمية»: في الأصل من مادة حمى - على وزن حمد - ومعناها حرارة الشمس أو النار التي تصيب جسم الإنسان وما شاكله، ومن هنا سميت الحمى التي تصيب الإنسان بهذا الاسم؛ «حمى» على وزن كبرى، ويقال لحالة الغضب أو النخوة أو التعصب المقرون بالغضب حمية أيضاً.

ثم تضيف الآية الكريمة - وفي قبال ذلك - : «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٥

هذه السكينة التي هي وليدة الإيمان والاعتقاد بالله والاعتماد على لطفه دعوتهم إلى الإطمئنان وضبط النفس وأطفأت لهب غضبهم حتى أنهم قبلوا - ومن أجل أن يحفظوا ويرعوا أهدافهم الكبرى - بحذف جملة «بسم الله الرحمن الرحيم» التي هي رمز الإسلام في بداية الأعمال وأن يثبتوا - مكانها «بسمك اللهم» التي هي من موروثات العرب السابقين - في أول المعاهدة وحذفوا حتى لقب «رسول الله» الذي يلي اسم محمد صلى الله عليه وآله.

وقبلوا بالعودة إلى المدينة من الحديدية دون أن يستجيبوا لهوى عشقهم بالبيت ويؤدوا مناسك العمرة، ونحروا هديهم خلافاً للسنة التي في الحج أو العمرة في المكان ذاته وأحلوا من احرامهم دون أداء المناسك ..

أجل، لقد رضوا بمرارة أن يصبروا إزاء كل المشاكل الصعبة، ولو كانت فيهم حمية الجاهلية لكان واحد من هذه الامور الآنفه كفيلاً



أن يشعل الحرب بينهم في تلك الأرض.

ثم يضيف القرآن في هذا الصدد قائلاً: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا».

«كلمة»: هنا بمعنى «روح»، ومعنى الآية أن الله ألقى روح التقوى في قلوب أولئك المؤمنين وجعلها ملازمة لهم ومعهم.

وتختتم الآية بقوله سبحانه: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». فهو سبحانه يعرف نيات الكفار السيئة ويعرف طهارة قلوب المؤمنين أيضاً فينزل السكينة والتقوى عليهم هنا.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) رؤيا النبي الصادقة: هذه الآية- أيضاً- ترسم جانباً آخر من جوانب قصة الحديبية المهمة، والقصة كانت على النحو التالي:

رأى النبي صلى الله عليه وآله في المدينة رؤيا أنه يدخل مكة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدث أصحابه عن رؤياه فسروا جميعاً، غير أنه لما كان جماعه من أصحابه يتصورون أن تعبير الرؤيا سيتحقق في تلك السنة ذاتها ومنعهم المشركون من الدخول إلى مكة أصابهم الشك والتردد... ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا النبي غير صادقة؟

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٦

فكان جواب النبي لهم: هل قلت لكم أن هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟! فترت الآية الآنفة في هذا الصدد والنبي عائد من الحديبية إلى المدينة وأكدت أن هذه الرؤيا كانت صادقة ولا بد أنها كائنه... تقول الآية: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ».

فما رآه النبي في المنام كان حقاً وصدقاً.

ثم تضيف الآية قائلة: «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا». وكان في هذا التأخير حكمة: «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

جملة «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» هنا لعلها نوع من تعليم العباد لكي يعولوا على مشيئة الله عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة الله، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلين عنه.

التعبير ب «فَتَحًا قَرِيبًا» إشارة إلى «فتح خبير» لأنه كان «تحققه العيني» بعد هذه الرؤيا في فترة أقل زمناً من فتح مكة بعدها.

الآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التي أخبر عنها القرآن، وهي شاهد على أن هذا الكتاب سماوى وأنه من معجزات النبي الكريم حيث يخبر قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام في المستقبل القريب وعن الفتح القريب قبله أيضاً، وكما نعلم أن هذين التنبؤين قد حدثا فعلاً.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) في هاتين الآيتين اللتين بهما تنتهي سورة الفتح إشارة إلى مسألتين مهمتين من «الفتح

المبين» أي «صلح الحديبية»: احدهما تتعلق بعالمية الإسلام والثانية تتعلق بأوصاف

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٧

أصحاب النبي وخصائصهم وما وعدهم الله سبحانه به. فالأولى منهما تقول: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ وَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا».

وهذا وعد صريح وقاطع من الله سبحانه في غلبة الإسلام وظهوره على سائر الأديان.

أي لا- تعجبوا لو أخبركم الله عن طريق رؤيا نبيه محمد بالانتصار وأن تدخلوا المسجد الحرام بمنتهى الأمان وتودوا مناسك العمرة

دون أن يجروا أحد على إيدائكم، كما لا تعجبوا أن يشركم الله بالفتح القريب- فتح خبير «فأول الغيث قطرة» وسيكون الإسلام باسطاً ظلالة فى أرجاء المعمورة ويظهر على جميع الأديان ...

والمراد ب «الظهور على الدين كله»، أهو الظهور المنطقى، أم الظهور (والغلبة) العسكرية؟!!

إن كلمة «يظهر» دليل على الغلبة الخارجية ... ولهذا يمكن القول أنه بالإضافة إلى نفوذ الإسلام فى مناطق كثيرة واسعة من الشرق والغرب وهى تحت لوائه اليوم وتدين به أكثر من أربعين دولة إسلامية بنفوس يقدر إحصاؤها بأكثر من مليار نسمة فإنه سيأتى زمان على الناس يستوعب الإسلام جميع أرجاء المعمورة «رسمياً» وسيكتمل هذا الأمر بظهور المهدي (عج) إن شاء الله. وفى آخر آية وصف بليغ لأصحاب النبى الخاصين والذين كانوا على مناجاه على لسان التوراة والإنجيل وهو مدعاة افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم ورجولتهم فى الحديبية والمراحل الاخر كما أنه درس اختبار لجميع المسلمين على مدى القرون والأعصار ... فتقول الآية فى البداية: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

ثم تصف الآية أصحابه وخلالهم (وسجايهم) الباطنية والظاهرية ضمن خمس صفات إذ تقول فى وصفهم: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ».

وصفتهم الثانية أنهم: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ».

وفى الحقيقة أن عواطفهم وأفكارهم تتلخص فى هاتين الخصلتين: «الرحمة» و «الشدّة» ... لكن لا- تضاد فى الجمع بينهما أولاً، ولا رحمتهم فيما بينهم وشدتهم على الكفار تقتضى أن تحيد أقدامهم عن جادة الحق ثانياً ... ثم تضيف الآية مبيته وصفهم الثالث فتقول: «تَرِيَهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا».

هذا التعبير يجسد العبادة بركنيها الأساسيين: «الركوع والسجود» على أنها حالة دائمية لهم، العبادة التى هى رمز للتسليم أمام أمر الله الحق، ونفى الكبر والغرور والأنانية عن وجودهم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٨

أما الوصف الرابع الذى تذكره الآية عن هؤلاء الأصحاب فهو بيان نيتهم الخالصة الطاهرة فتقول: «يَتَّبِعُونَ فُضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا». فهم لا يعملون رياءً ولا يتبعون من الخلق الثواب، بل هدفهم رضا الله وفضله فحسب.

أما الوصف الخامس فهو عن سيماهم المشرق إذ تقول الآية: «سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ». إن القرآن يضيف بعد بيان هذه الأوصاف: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ».

فهذه حقيقة مقولة قبلًا وأوصاف وردت فى كتاب سماوى نزل منذ أكثر من ألفى عام ...

ولكن لا ينبغي أن ننسى أن التعبير ب «وَالَّذِينَ مَعَهُ» يحكى عن معية النبى فى كل شىء، فى الفكر والعقيدة والأخلاق والعمل لا عن أولئك الذين كانوا فى عصره- وإن اختلفوا وإياه فى المنهج.

ثم يتحدث القرآن عن وصفهم فى كتاب سماوى كبير آخر وهو الإنجيل فيقول: «وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ وَفَاشَتَغَلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ».

وفى الحقيقة إن أوصافهم المذكورة فى «التوراة» تتحدث عن أبعاد وجودهم من جهة العواطف والأهداف والأعمال وصورتهم الظاهرية ...

وأما الأوصاف الواردة فى «الإنجيل» فهى تتحدث عن حركتهم ونموهم وتكاملهم فى جوانب مختلفة (فلاحظوا بدقة).

أجل هم أناس متصفون بصفات عليا لا يفترقون عن الحركة لحظة واحدة ... وينشرون الإسلام بأقوالهم وأعمالهم فى العالم ويوماً بعد يوم يزداد عددهم فى المجتمع الإسلامى ...

ثم تضيف الآية معقبة: أن هذه الأوصاف العليا وهذا النمو والتكامل السريع وهذه الحركة المباركة بقدر ما تعجب المحبين وتسرههم

فهى فى الوقت ذاته: «لِيُغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».

ويضيف القرآن محتمماً هذه الآية المباركة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

بديهى أن أوصاف أصحاب النبى التى وردت فى بداية الآية محل البحث جمعت فيها الإيمان والعمل الصالح، فتكرار هذين الوصفين إشارة إلى استمرارهما وديمومتها: أى أن الله وعد أولئك الذين بقوا على نهجهم من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله واستمروا بالإيمان والعمل الصالح.

«نهاية تفسير سورة الفتح»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥١٩

## ٤٩. سورة الحجرات

محتوى السورة: هذه السورة تحمل مسائل مهمّة تتعلق بشخص النبى الكريم صلى الله عليه وآله والمجتمع الإسلامى بعضه ببعض. وحيث أن أغلب المسائل الأخلاقية تدور فى هذه السورة فيمكن أن نسمّى هذه السورة بـ «سورة الأخلاق والآداب». ويمكن تقسيم مضامين السورة على النحو التالى:

١- فى بداية السورة تبين طريقة التعامل مع النبى صلى الله عليه وآله وآدابها وما ينبغى على المسلمين مراعاته من أصول عند حضرة النبى.

٢- تشتمل هذه السورة على سلسلة من اصول «الأخلاق الاجتماعية» المهمة.

٣- الأوامر الإرشادية المتعلقة بكيفية مواجهة الاختلافات والتنازع أو القتال الذى قد يقع بين المسلمين أحياناً ...

٤- يتحدث عن معيار قيمة الإنسان عند الله وأهمية التقوى ...

٥- يعالج قضية أن الإيمان ليس بالقول فحسب بل لابد من ظهور آثاره فى أعمال الإنسان والجهاد بالمال والنفس - إضافة إلى الاعتقاد فى القلب -.

٦- يتحدث عن علم الله وإطلاعه وعن جميع أسرار الوجود الخفية وأعمال الإنسان، وهذا القسم بمثابة الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الواردة فى هذه السورة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٠

مختصر الامثل ج ٤ ٥٤٩

وتسمية هذه السورة بسورة «الحجرات» لورود هذه الكلمة فى الآية الرابعة منها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحجرات فى كل ليلة أو فى كل يوم كان من زوار محمد صلى الله عليه وآله».

وبديهى أن كل هذه الحسنات التى هى بعدد المطيعين والعاصين إنما تكون فى صورة ما لو أخذنا بنظر الاعتبار كلاً من الفريقين وأن نفكر جيداً فنجعل مسيرنا وفقاً لمنهج المطيعين ونبتعد عن منهج العاصين.

ونيل زيارة النبى أيضاً فرع على أن نعمل وفق الآداب المذكورة فى الحضور عنده صلى الله عليه وآله لأنّ التلاوة فى كل مكان مقدمة للعمل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمَّا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ

صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَمَّا تَجَهَّرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِ كَمْ لِيُغْضِ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

أسباب النزول

في تفسير القرطبي: روى أن النبي صلى الله عليه وآله أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذا مضى إلى خير فأشار عليه عمر برجل آخر، فنزلت الآية وأمرت أن لا تقدموا بين يدي الله ورسوله. وأمياً في شأن الآية الثانية فقد قال المفسرون إن طائفة من بني تميم وأشرافهم وردوا المدينة، فلما دخلوا مسجد النبي نادوا بأعلى صوتهم من وراء الحجرات التي كانت للنبي: يا مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢١

محمد أخرج إلينا. فأزعجت هذه الصرخات غير المؤدبة النبي، فخرج إليهم فقالوا له: جئناك لنفاخرك فأجز شاعرنا وخطيبنا ليتحدث عن مفاخر قبيلتنا، فأجازهم النبي صلى الله عليه وآله فنهض خطيبهم وتحدث عن فضائلهم الخيالية الوهمية كثيراً... فأمر النبي ثابت بن قيس «١» أن يرد عليهم فنهض وخطب خطبةً بليغة فلم يبق لخطبة أولئك من أثر... ثم نهض شاعرهم وألقى قصيدة في مدحهم فنهض «حسان بن ثابت» فرد عليه بقصيدة شافية كافية. فأمر النبي صلى الله عليه وآله أن تهدى لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه فكان أن تأثروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوته. فالآيات محل البحث ناظرة إلى هذه القضية والأصوات من خلف الحجرات.

التفسير

إن في محتوى هذه السورة قسماً من المباحث الأخلاقية المهمة والتعليمات الإنضباطية التي تدعونا إلى تسمية هذه السورة بـ «سورة الأخلاق»، وهذه المسائل والتعليمات تقع في الآيات الأولى من السورة محل البحث، والآيات هذه على نحوين من التعليمات. الأولى: عدم التقدم على الله ورسوله وعدم رفع الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وآله... فتقول الآية الأولى في هذا الصدد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». والمراد من عدم التقديم بين يدي الله ورسوله هو أن لا يقترح عليهما في الأمور، وترك العجلة والإسراع أمام أمر الله ورسوله... والآية الثانية تشير إلى الأمر الثاني فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ». والجملة الأولى: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» إشارة إلى أنه لا ينبغي رفع الصوت على صوت النبي، فهو بنفسه نوع من الإساءة الأدبية في محضره المبارك، والنبي له مكانته، وهذا الأمر لا يجدر أن يقع أمام الأب والام والأستاذ لأنه مخالف للإحترام والأدب أيضاً.

(١) كان ثابت بن قيس خطيب الأنصار وخطيب النبي كما كان حسان بن ثابت شاعره [اسد الغابة ١ / ٢٢٩].

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٢

أمياً جملة: «لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ» فيمكن أن تكون تأكيداً على المعنى المتقدم في الجملة الأولى، أو أنها إشارة إلى مطلب آخر، وهو ترك مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله بالنداء «يا محمد» والعدول عنه بالقول: «يا رسول الله»... وبديهي أن أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءة والإهانة لشخص النبي ومقامه الكريم فذلك موجب للكفر، وإلّا فهو ايداء له وفيه إثم أيضاً...

وفى الصورة الاولى تتضح علة الحبط وزوال الأعمال، لأن الكفر يحبط العمل ويكون سبباً فى زوال ثواب العمل الصالح ...

وفى الصورة الثانية أيضاً، لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السيء باعثاً على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

وفى الآية الاخرى مزيد تأكيد على الثواب الذى أعده الله لأولئك الذين يمثلون أمر الله ويراعون الآداب عند رسول الله، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَصْوَابَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

«يغضون»: مشتقة من غض - على وزن حظ - ومعناها تقليل النظر أو خفات الصوت ويقابل هذه الكلمة الإمعان بالنظر والجهر بالصوت. و «امتحن»: مشتقة من الإمتحان، والأصل فى استعمالها إذابة الذهب وتطهيره من غير الخالص، ثم استعملت بعدئذ فى مطلق الاختبار كما هى الحال بالنسبة للآية محل البحث.

أما الآية الاخرى فتشير إلى جهل أولئك الذين يجعلون أمر الله وراء ظهورهم، وعدم إدراكهم فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ».

وأساساً كلما ترقى عقل الإنسان زيد فى أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصورة أحسن ومن هنا فإن إساءة الأدب دليل على عدم العقل. «الحجرات»: جمع «حجرة» وهى هنا إشارة إلى البيوت المتعددة لأزواج النبی المجاورة للمسجد .. وأصل الكلمة مأخوذ من «الحجر» على وزن الأجر: أى «المنع» لأن الحجر تمنع الآخرين من الدخول فى حريم «حياة» الإنسان ... والتعبير ب «وراء» هنا كناية عن الخارج من أى جهة كان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٣

ويضيف القرآن إكمالاً للمعنى فى نهاية الآية قائلاً: «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ».

صحيح أن العجلة قد تجعل الإنسان أحياناً يبلغ قصده بسرعة، إلا أن الصبر فى مثل هذا «المقام» والتأنى مدعاة إلى المغفرة والأجر العظيم.

وحيث إن بعضهم قد ارتكبوا جهلاً هذا الخطأ من قبل، واستوحشوا من هذا الأمر وحاسبوا أنفسهم بعد نزول الآية، فإن القرآن يضيف قائلاً إنهم تشملهم الرحمة عند التوبة: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

بحثنان

١- الأدب أغلى القيم: اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بمسألة رعاية الأدب، والتعامل مع الآخرين مقروناً بالإحترام والأدب سواء مع الفرد أم الجماعة.

يقول الإمام على عليه السلام: «الأدب حُلل مجددة» (١).

ويقول فى مكان آخر: «الأدب يُغنى من الحسب» (٢).

وأساساً فإن الدين مجموعة من الآداب، الأدب بين يدي الله والأدب بين يدي الرسول والأئمة المعصومين، والأدب بين يدي الأستاذ والمعلم، أو الأب والأم والعالم والمفكر.

٢- الإنضباط الإسلامى فى كل شىء وفى كل مكان: إن مسألة المديرية لا تتم بدون رعاية الإنضباط، وإذا أريد للناس العمل تحت مديرية وقيادة حسب رغبتهم، فإن اتساق الأعمال سينعدم عندئذ وإن كان المديرين والقادة جديرين.

وكثير من الأحداث والنواقص التى نلاحظها تحدث عن هذا الطريق، فكم من هزيمة أصابت جيشاً قوياً أو نقصاً حدث فى أمر بهم جماعة وما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفاً ...

ولقد ذاق المسلمون أيضاً مرارة مخالفة هذه التعاليم مراراً فى عهد النبی صلى الله عليه وآله أو بعده، ومن أوضح الامور قصة هزيمة المسلمين فى معركة أحد لعدم الإنضباط من قبل جماعة قليلة من المقاتلين.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٥.

(٢) كنز الفوائد، أبو الفتح الكراچكي / ٤٧.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٤

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَّبِعُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: «إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ» نزل في الوليد بن عقبه بن أبي معيط بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله في صدقات بني المصطلق فخرجوا يتلقونه فرحاً به، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية، فظن أنهم هموا بقتله، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: إنهم منعوا صدقاتهم وكان الأمر بخلافه. فغضب النبي صلى الله عليه وآله وهم أن يغزوهم فنزلت الآية.

التفسير

لا تكثر بأخبار الفاسقين: كان الكلام في الآيات الآتية على ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون ووظائفهم أمام قائدهم ونيبهم محمد صلى الله عليه وآله. أما الآيات محل البحث فهي تبين الوظائف الأخرى على هذه الأمة إزاء نبيها. وتقول ينبغي الاستقصاء عند نقل الخبر إلى النبي فلو أن فاسقاً جاءكم بنياً فتثبتوا وتحققوا من خبره، ولا تكرر هو النبي على قبول خبره حتى تعرفوا صدقه ... فتقول الآيات أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَّبِعُوا».

ثم تبين السبب في ذلك فتضيف: «أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ».

فلو أن النبي قد أخذ بقول «الوليد بن عقبه» وعدّ قبيلة بني المصطلق مرتدين وقاتلهم لكانت فاجعة عظيمة ...

واستدل جماعة من علماء الأصول على حجية خبر الواحد بهذه الآية لأنها تقول: «إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَّبِعُوا ...» ومفهومها أن العادل لو جاء بنياً فلا يلزم التبيين.

والآية التالية - وللتأكيد على الموضوع المهم في الآية السابقة - تضيف قائلة: «وَاعْلَمُوا

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٥

أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» (١).

فالقرآن يقول: من حسن حظكم أن فيكم رسول الله وهو مرتبط بعالم الوحي، ولا تصروا وتلحوا عليه، فإن ذلك فيه عنت لكم وليس من مصلحتكم ...

ويشير القرآن معقّباً في الآية إلى موهبة عظيمة أخرى من مواهب الله سبحانه فيقول:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ».

فإن القرآن يقرّر قاعدة كلية وعمامة في نهاية هذه الآية لواجدي الصفات المذكورة فيها فتقول: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ».

أي: لو حفظتم هذه الموهبة الإلهية «العشق للإيمان والتنفر من الكفر والفسوق» ولم تلوثوا هذا النقاء والصفات الفطرية فإن الرشد والهداية دون أدنى شك في انتظاركم ...

أما آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقة وهي أن محبوبة الإيمان والتنفر من الكفر والعصيان من المواهب الإلهية العظمى على البشر إذ تقول: «فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

فعلمه وحكمته يوجب أن يخلق فيكم عوامل الرشد والسعادة ويكملها بدعوة الأنبياء إياكم ويجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف

المنشود ... «وهو الجنة».

ولا شك أن علم الله بحاجة العباد وحكمته في مجال التكامل وتربية المخلوقات توجب أن يتفضل بهذه النعم المعنوية الكبرى على عباده (وهي محبوبية الإيمان والتفرد من الكفر والعصيان).

وعلى هذا فإن عشق الإيمان والتفرد من الكفر موجودان في قلوب جميع الناس دون استثناء وإذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنما هو من جهة أخطائهم وسلوكياتهم وأعمالهم، فإن الله لم يلق في قلب أي شخص حب العصيان وبغض الإيمان ...

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلُوهَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَاصِلُوهَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصِلُوهَا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

(١) «لعتنم»: مشتقة من مادة «العت» ومعناه الوقوع في عمل يخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الذي يشق على الإنسان، ومن هنا قيل للألم الحاصل من العظم المكسور عند تعرضه للضربة بأنه عنت ..

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٦

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزل في الأوس والخزرج، وقع بينهما قتال بالسعف والنعال.

التفسير

المؤمنون إخوة: يقول القرآن هنا قولاً هو بمثابة القانون الكلي العام لكل زمان ومكان:

«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلُوهَا بَيْنَهُمَا».

«اقتتلوا»: مشتقة من مادة «القتال» ومعناها الحرب، إلا أنها كما تشهد بذلك القرائن تشمل كل أنواع النزاع وإن لم يصل إلى مرحلة القتال والمواجهة «العسكرية».

فإن من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلا تسيل الدماء وأن يعرفوا مسؤوليتهم في هذا المجال، فلا يكونوا متفرجين كبعض الجهلة الذين يمزون بهذه الامور دون اكرثات وتأثر! فهذه هي وظيفة المؤمنين الاولى عند مواجهة أمثال هذه الامور. ثم يبين القرآن الوظيفة الثانية على النحو التالي: «فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى . ولم تستسلم لاقتراح الصلح: «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ».

وبديهي أنه لو سالت دماء الطائفة الباغية والظالم- في هذه الأثناء- فإثمها عليها، أو كما يصطلح عليه إن دماءهم هدر، وإن كانوا مسلمين.

وهكذا فإن الإسلام يمنع من الظلم وإن أدى إلى مقاتلة الظالم، لأن ثمن العدالة أعلى من دم المسلمين أيضاً، ولكن لا يكون ذلك إلا إذا فشلت الحلول السلمية.

ثم يبين القرآن الوظيفة الثالثة فيقول: «فَإِنْ فَاءَ تَ فَاصِلُوهَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ».

أي لا ينبغي أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوة الطائفة الباغية الظالمة بل ينبغي أن يعقب ذلك الصلح وأن يكون مقدّمه لقلع جذور عوامل النزاع، وإلا فإنه بمرور الزمن ما أن يحسّ الظالم في نفسه القدرة حتى ينهض ثانية ويشير النزاع.

وحيث إنه تميل النوازع النفسية أحياناً في بعض الجماعات عند الحكم والقضاء إلى إحدى الطائفتين المتخاصمتين وتنقض «الإستقامة» عند القضاء فإن القرآن ينذر المسلمين في رابع تعليماته وما ينبغي عليهم فيقول: «وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (١).

والآية التالية تضيف لبيان العلة والتأكيد على هذا الأمر قائلة: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصِلُوهَا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ».

(١) «المقسطين»: مأخوذة من «القسط» ومعناها في الأصل التقسيم بالعدل.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٧

وحيث إنه في كثير من الأوقات تحلّ «الروابط» في أمثال هذه المسائل محل «الضوابط» فإنّ القرآن يضيف في نهاية هذه الآية مرّة أخرى قائلاً: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وهكذا تتضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعية على المسلمين في ما بينهم في تحكيم العدالة الاجتماعية بجميع أبعادها.

بحث

أهمية الأخوة الإسلامية: إنّ جملة «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» الواردة في الآيات المتقدمة واحدة من الشعارات الأساسية و«المتجذرة» في الإسلام.

فعلى هذا الأصل الإسلامى المهم فإنّ المسلمين على اختلاف قبائلهم وقومياتهم ولغاتهم وأعمارهم يشعرون فيما بينهم بالأخوة وإن عاش بعضهم في الشرق والآخر في الغرب ...

ففى مناسك الحج مثلاً حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافة فى مركز التوحيد تبدو هذه العلاقة والإرتباط والإنسجام والوشائج محسوسة وميداناً للتحقق العيني لهذا القانون الإسلامى المهم ...

وبتعبير آخر: إنّ الإسلام يرى المسلمين جميعاً بحكم الأسرة الواحدة ويخاطبهم جميعاً بالإخوان والأخوات ليس ذلك فى اللفظ والشعار، بل فى العمل والتعهدات المتماثلة أيضاً، جميعهم (أخوة وأخوات).

وفى الروايات الإسلامية تأكيد على هذه المسألة أيضاً.

فى كثر الفوائد: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً، لا براءة له منها إلّا بالأداء العفو؛ يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويُقيل عثرته، ويقبل معذرتة، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافى صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضى حاجته، ويشفع مسئلته، ويسمّ عطسته، ويرشد ضالته، ويردّ سلامه، ويطيب كلامه، ويُبّرّ أنعامه، ويصدق أقسامه، ويوالى وليه، ولا يعادى عدوه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعيّنه على أخذ حقه، ولا يُسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يُحبّ لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَٰمَّا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

أسباب التزول

فى تفسير مجمع البيان: نزل قوله: «لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى اذنه قر، وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبى فيسمع ما يقول.

فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا، تفسحوا، حتى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس فجلس خلفه مُغضباً.

فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان. فقال ثابت: ابن فلانة، ذكر اماً له كان يعير بها فى الجاهلية. فنكس الرجل رأسه



حياء، فنزلت الآية.

وقوله «وَلَمَّا نَسِيَا مِّنْ نِّسَائِهِ» نزل في نساء النبي صلى الله عليه وآله سخرن من ام سلمة. وذلك أنها ربطت حقوبها بسبيته وهي ثوب أبيض، وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره. فقالت عائشة لحفصة: انظري ماذا تجر خلفها، كأنه لسان كلب فلهذا كانت سخريتهما. وقوله «وَلَا يَعْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» نزل في رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله اغتابا رفيقهما وهو سلمان، بعثاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليأتي لهما بطعام فبعثه إلى أسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله صلى الله عليه وآله على رحله، فقال: ما عندي شيء. فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة وقالوا لسلمان: لو بعثاه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله. فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما». قالوا: يا رسول الله! ما تناولنا يومنا هذا لحماً. قال: «ظلمت تأكلون لحم سلمان وأسامة». فنزلت الآية.

التفسير

الإستهزاء وسوء الظن والغيبة والتجسس والألقاب السيئة حرام: حيث أن القرآن المجيد

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٢٩

اهتم ببناء المجتمع الإسلامي على أساس المعايير الأخلاقية فإنه بعد البحث عن وظائف المسلمين في مورد النزاع والمخاصمة بين طوائف المسلمين المختلفة بين في الآيتين محل البحث قسماً من جذور هذه الاختلافات ليزول الاختلاف (بقطعها) ويحسم النزاع. ففي كل من الآيتين الأنفتين تعبير صريح وبلغ عن ثلاثه امور يمكن أن يكون كل منها شرارة لإشتعال الحرب والاختلاف، إذ تقول الآية الاولى من الآيتين محل البحث أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ». لأنه: «عسى أن يكونوا خيراً منهم». «وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ».

والخطاب موجه هنا إلى المؤمنين كافة فهو يعم الرجال والنساء وينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح، لأن أساس السخرية والاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء والغرور والكبر وأمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ. ثم تقول الآية في المرحلة الثانية: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ».

«تلمزوا»: هي من مادة «لَمَزَ» على زنه «طنز» ومعناها تتبع العيوب والظعن في الآخرين.

وتضيف الآية في المرحلة الثالثة أيضاً قائلة: «وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ».

هناك الكثير من الأفراد الحمقى قديماً وحديثاً، ماضياً وحاضراً مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحة، ومن هذا المنطلق فهم يحقرون الآخرين ويدمرون شخصياتهم وربما انتقموا منهم أحياناً عن هذا الطريق، وقد يتفق أن شخصاً كان يعمل المنكرات سابقاً، ثم تاب وأتاب وأخلص قلبه لله، ولكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه.

الإسلام نهى عن هذه الامور بصراحة ومنع من إطلاق أى إسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاةً لتحقير المسلم ...

وروى- في تفسير مجمع البيان- أن صفية بنت حبي بن أخطب، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله تبكى فقال لها: «ما وراءك؟» فقالت: إن عائشة تعيرني وتقول يهودية بنت يهوديين! فقال لها: «هلا قلت أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمداً». فنزلت الآية. ولذلك فإن الآية تضيف قائلة: «بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ». أى قبيح جداً على من دخل في سلك الإيمان أن يذكر الناس بسماوات الكفر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٠

وتختتم الآية لمزيد التأكيد بالقول: «وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وأى ظلم أسوأ من أن يؤذى شخص بالكلمات اللاذعة و «اللاسعة» والتحقير واللمز قلوب المؤمنين التي هي «مركز عشق» الله.

في هذه الآية يبدأ القرآن فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ».

المراد من هذا النهي هو النهي عن ترتيب الآثار، أى متى ما خطر الظن السيء فى الذهن عن المسلم فلا ينبغي الإعتناء به عملياً، ولا ينبغي تبديل اسلوب التعامل معه ولا تغيير الروابط مع ذلك الطرف.

ولذلك نقرأ فى هذا الصدد حديثاً- فى الأمالى للصدوق- عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«... وَضَع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يَغْلِيك منه، ولا- تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملاً».

ثم تذكر الآية موضوع «التجسس» فتنهى عنه بالقول: «وَلَا تَجَسَّسُوا».

وأخيراً فإن الآية تضيف فى آخر هذه الأوامر والتعليمات ما هو نتيجة الأمرين السابقين ومعلولهما فتقول: «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضًا».

وهكذا فإن سوء الظن هو أساس التجسس، والتجسس يستوجب إفشاء العيوب والأسرار، والإطلاع عليها يستوجب الغيبة، والإسلام ينهى عن جميعها علماً ومعلولاً.

ولتقريب هذا العمل يتناول القرآن مثلاً بليغاً يجسد هذا الأمر فيقول: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ».

أجل، إن كرامة الأخ المسلم وسمعته كلحم جسده، وابتدال ماء وجهه بسبب اغتيابه وإفشاء أسرار الخفية كمثل أكل لحمه.

كلمة «ميتاً» للتعبير عن أن الإغتياب إنما يقع فى غياب الأفراد، فمثلهم كمثل الموتى الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وهذا الفعل أقيح ظلم يصدر عن الإنسان فى حق أخيه.

وحيث أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوثين بهذه الذنوب الثلاثة ويدفعهم وجدانهم إلى التيقظ والتنبه فيلتفتون إلى خطئهم، فإن السبيل تفتحه الآية لهم إذ تُختتم بقوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣١

فلا بد أن تحيا روح التقوى والخوف من الله أولاً: وعلى أثر ذلك تكون التوبة والإنابة لتشملهم رحمة الله ولطفه.

بحوث

١- الأمن الاجتماعى الكامل: إن الأوامر أو التعليمات الستة الواردة فى الآيتين آفتى الذكر (النهي عن السخرية واللمز والتنازب بالألقاب وسوء الظن والتجسس والإغتياب) إذا نُفذت فى المجتمع فإن سمعة وكرامة الأفراد فى ذلك المجتمع تكون مضمونه من جميع الجهات.

إن للإنسان رؤوس أموال أربعة ويجب أن تحفظ جميعاً فى حصن هذا القانون وهى:

«النفس والمال والناموس وماء الوجه».

والتعابير الواردة فى الآيتين محل البحث والروايات الإسلامية تدل على أن ماء وجه الأفراد كأفْسهم وأموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، ولا- يكتفى بأن يكف الناس عن ضرب بعضهم بعضاً فحسب، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل وأرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم وظنهم أيضاً.. وأن يُحس كلُّ منهم أن الآخر لا يرشقه بنبال الاتهامات فى منطقة أفكاره.

وهذا الأمن فى أعلى مستوى ولا يمكن تحقّقه إلّا فى مجتمع رسالى مؤمن. يقول النبى صلى الله عليه وآله فى هذا الصدد: «إن الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يُظنّ به ظنّ السوء» (١).

٢- لا تجسسوا: رأينا أن القرآن يمنع جميع أنواع التجسس بصراحة تامّة، وحيث إنه لم يذكر قيوداً أو شرطاً فى الآية فيدلّ هذا على أن التجسس على أعمال الآخرين والسعى إلى إذاعة أسرارهم إثم، إلّا أن القرائن الموجودة داخل الآية وخارجها تدل على أن هذا الحكم متعلق بحياة الأفراد الشخصية والخصوصية.

ويصدق هذا الحكم أيضاً في الحياة الاجتماعية للأفراد بشرط أن لا يؤثر في مصير المجتمع. لكن من الواضح أنه إذا كان لهذا الحكم علاقة بمصير المجتمع أو مصير الآخرين فإن المسألة تأخذ طابعاً آخر، ومن هنا فإن النبي صلى الله عليه وآله كان قد أعد أشخاصاً وأمرهم أن يكونوا

(١) المحجبة البيضاء في تهذيب الاحياء ٥/ ٢٤٨.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٢

عيوناً لجمع الأخبار واستكشاف المجريات واستقصائها لحيطوطها بما له علاقة بمصير المجتمع. ومن هذا المنطلق أيضاً يمكن للحكومة الإسلامية أن تتخذ أشخاصاً يكونون عيوناً لها أو منظمة واسعة للإحاطة بمجريات الامور، وأن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التي يراد بها إرباك الوضع الأمني في البلاد، فيتجسسوا للمصلحة العامة حتى لو كان ذلك في إطار الحياة الخاصة للأفراد. إلا أن هذا الأمر لا ينبغي أن يكون ذريعاً لهتك حرمة هذا القانون الإسلامي الأصيل، وأن يسوغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسسوا في حياة الأفراد الخاصة بذريعة التأمير والإخلال بالأمن، ويفتحوا رسائلهم مثلاً، أو يراقبوا الهاتف ويهجموا على بيوتهم بين حين وآخر. والخلاصة أن الحد بين التجسس بمعناه السلبي وبين كسب الأخبار الضرورية لحفظ أمن المجتمع دقيق وظريف جداً، وينبغي على مسؤولي إدارة الامور الاجتماعية أن يراقبوا هذا الحد بدقة لئلا تهتك حرمة أسرار الناس، ولئلا يهدد أمن المجتمع والحكومة الإسلامية.

٣- الغيبة من أعظم الذنوب وأكبرها: قلنا إن رأس مال الإنسان المهم في حياته ماء وجهه وحيثيته، وأي شيء يهدده فكأنما يهدد حياته بالخطر.

وأحياناً يعد اغتيال وقتل الشخصية أهم من اغتيال الشخص نفسه، ومن هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحياناً. إن واحدة من حكم تحريم الغيبة أن لا يتعرض هذا الاعتبار العظيم ورأس المال المعنوي للأشخاص لخطر التمزيق والتلوث. والأمر الآخر إن الغيبة تولد النظرة السيئة وتضعف العلاقات الاجتماعية وتوهنها وتلف رأس مال الإعتماد وتزلزل قواعد التعاون «الاجتماعي».

قال البراء خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» (١).

(١) المحجبة البيضاء في تهذيب الاحياء ٥/ ٢٥١.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٣

وأوحى الله تعالى موسى عليه السلام: «من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليه فهو أول من يدخل النار» (١).

في الكافي: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه». إن هذه التأكيدات والعبارات المثيرة إنما هي للأهمية القصوى التي يوليها الإسلام لصون ماء الوجه وحيثية المؤمنين الاجتماعية، وكذلك للأثر المخزب- الذي تتركه الغيبة- في وحدة المجتمع والإعتماد المتبادل في القلوب. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُرُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) التقوى أغلى القيم الإنسانية: كان الخطاب في الآيات السابقة موجهاً للمؤمنين وكان بصيغته: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»، وقد نهى الذكر الحكيم في آيات متعددة عما يوقع المجتمع الإسلامي في خطر، وتكلم في جوانب من ذلك.

في حين أن الآيه محل البحث تخاطب جميع الناس وتبين أهم أصل يضمن النظم والثبات، وتميز الميزان الواقعي للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة. فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا». والمراد بـ «خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ» هو أصل الخلق وعودة أنساب الناس إلى «آدم وحواء»، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيلة على أخرى من حيث النسب، وإذا كان الله سبحانه قد خلق كل قبيلة وأولادها خصائص ووظائف معينة فإنما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الاجتماعية.

إن القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخرة والمباهات في العصر الجاهلي ويُلغى التفاصل بالأنساب والقبايل يتجه نحو المعيار الواقعي القيم، فيضيف قائلاً: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ». وهكذا فإن القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الإمتيازات الظاهرية والمادية، ويعطى الأصالة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من الله، ويقول إنه لا شيء أفضل من التقوى في سبيل التقرب إلى الله وساحه قدسه.

(١) المحجبة البيضاء في تهذيب الاحياء ٥/ ٢٥٢.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٤

وبما أن «التقوى» صفة روحانية وباطنية ينبغي أن تكون قبل كل شيء مستقرّة في القلب والروح، وربما يوجد مدعون للتقوى كثيرون والمتصفون بها قلة منهم، فإن القرآن يضيف في نهاية الآية قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ». فالله يعرف المتقين حقاً وهو مطلع على درجات تقواهم وخلص نياتهم وطهارتهم وصفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأما المدعون الكاذبة فإنه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً.

بحثنان

١- القيم الحقّة والقيم الباطلة: لا شك أن كل إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمة وافتخار، ولذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم ...

إلا أن معرفه معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماماً، وربما أخذت القيم الكاذبة مكاناً بارزاً ولم تُبق للقيم الحقّة مكان في قاموس الثقافة للفرد.

فجماعه ترى بأن قيمتها الواقعيه في الإنتساب إلى القبيلة المعروفة.

وكان الاهتمام بالقبيلة والإفتخار بالإنتساب إليها من أكثر الامور الوهميّة رواجاً في الجاهلية إلى درجة كانت كل قبيلة تعدّ نفسها أشرف من القبيلة الاخرى، ومن المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية في أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد والمجمعات! وجماعه اخرى تعول على مسألة المال والثروة وامتلاكها للقصور والخدم والحشم وأمثال هذه الامور، فتعدّها دليلاً على القيمة الشخصية وتسعى من أجل كل ذلك دائماً.

وهكذا تخطو كل جماعه في طريق خاص وتنشد قلوبها إلى قيمة معينة وتعدّها معيارها الشخصي.

وبما أن هذه الامور جميعها أمور متزلزلة ومسائل ذاتية ومادية وعابرة فإنّ مبدأ سماوياً كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبداً.. لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان ويعتبر القيمة الحقيقية للإنسان في صفاته الذاتية وخاصة تقواه وطهاره قلبه والتزامه الديني.

حتى أنه لا يكثر بموضوعات مهمه كالعلم والثقافة إذا لم تكن في خطّ «الإيمان والتقوى والقيم الأخلاقية» ...

في الدر المنثور عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٥

عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلابالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «فليبلغ الشاهد الغائب».

٢- حقيقة التقوى: يستفاد من آيات القرآن أن التقوى هي الإحساس بالمسؤولية والتعهد الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجة لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنوب ويدعوه إلى العمل الصالح والبر ويغسل أعمال الإنسان من التلوثات ويجعل فكره ونيته في خلوص من أيّة شائبة.

وقد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

(أ) حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الاعتقادات الصحيحة.

(ب) تجنّب كل إثم وهو أعم من أن يكون تركاً لواجب أو فعلاً لمعصية.

(ج) التجلّد والإصطبار عن كل ما يشغل القلب ويصرفه عن الحق، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)

سبب النزول

نزلت في أعراب من بنى أسد بن خزيمه قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة في سنة جدبه وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة وجعلوا يمينون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية «١».

التفسير

الفرق بين الإسلام والإيمان: كان الكلام في الآية المتقدمة على معيار القيم الإنسانية، أي التقوى، وبما أن التقوى ثمره لشجرة الإيمان، الإيمان النافذ في أعماق القلوب، ففي الآيتين

(١) أسباب نزول الآيات، الواحدى النيسابورى / ٢٦٥.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٦

الآفتين بيان لحقيقة الإيمان إذ تقول الآية الاولى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ». وطبقاً لمنطوق الآية فإن الفرق بين «الإسلام» و«الإيمان» في أن: الإسلام له شكل ظاهري قانوني، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين وتجرى عليه أحكام المسلمين.

أما الإيمان فهو أمر واقعي وباطني، ومكانه قلب الإنسان لا ما يجرى على اللسان أو ما يبدو ظاهراً.

في مجمع البيان: روى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب».

وهذا المعنى نفسه وارد في تعبير آخر في بحث الإسلام والإيمان. في الكافي عن فضيل بن يسار قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إن الإيمان ما قر في القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء».

ثم تضيف الآية محل البحث فتقول: «وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً». وسيؤفكم ثواب أعمالكم بشكل كامل ولا ينقص منها شيئاً.

وذلك ل «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

«يلتكم»: مشتق من «ليت» على زنة (ريب) ومعناه الإنقاص من الحق.

والعبارات الأخيرة في الحقيقة إشارات إلى أصل قرآني مسلم به وهو أن شرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآية أنه إذا كنتم مؤمنين بالله ورسوله إيماناً قلبياً وعلامته طاعتكم لله والرسول فإن أعمالكم مقبولة، ولا ينقص من أجركم شيء، ويثيبكم الله، وببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأن الله غفور رحيم.

وحيث إن الحصول على هذا الأمر الباطني أي الإيمان ليس سهلاً، فإن الآية التالية تتحدث عن علامته، العلام التي تميز المؤمن حقاً عن المسلم والصادق عن الكاذب، وأولئك الذين استجابوا لله وللرسول رغبةً وشوقاً منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعاً أو للوصول إلى المال والدنيا فتقول: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزُنْجُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أجل، إن أول علامة للإيمان هي عدم التردد في مسير الإسلام، والعلامة الثانية الجهاد بالأموال، والعلامة الثالثة التي هي أهم من الجميع الجهاد بالنفس.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٧

ولذلك فإن الآية تختتم بالقول مؤكدة: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ».

هذا هو المعيار الذي حدده الإسلام لمعرفة المؤمنين الحق وتمييزهم عن الكاذبين المدعين بالإسلام تظاهراً، وليس هذا المعيار منحصرافاً بفقراء جماعة بني أسد، بل هو معيار واضح وجلي ويصلح لكل عصر وزمان لفصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام، وليان قيمة أولئك الذين يمتنون بأن أسلموا على النبي صلى الله عليه وآله وذلك بحسب الظاهر فحسب، إلا أنه عند التطبيق والعمل لا يوجد فيهم أقل علامة من الإيمان أو الإسلام.

قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قالوا: فلما نزلت الآيتان - آناً - أتو رسول الله صلى الله عليه وآله يحلفون أنهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان، فأنزل الله سبحانه الآية الأولى من الآيات مورد البحث وأندرتهم أن لا يحلفوا، فالله يعرف باطنهم وظاهرهم، ولا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض.

التفسير

لا- تمنوا على إسلامكم: كانت الآيات السابقة قد بينت علائم المؤمنين الصادقين، وحيث إننا ذكرنا في شأن النزول أن جماعة جاؤوا النبي صلى الله عليه وآله وقالوا إن ادعاءهم كان حقيقة وإن الإيمان مستقر في قلوبهم، فإن هذه الآيات تنذرهم وتبين لهم أنه لا حاجة إلى الإصرار والقسم، كما أن هذا البيان والإنذار هو لجميع الذين على شاكلة تلك الجماعة، فمسألة (الكفر والإيمان) إنما يطالع عليها الله الخبير بكل شيء.

ولحن الآيات فيه عتاب وملامة، إذ تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: «قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

ولمزيد التأكيد تقول الآية أيضاً: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». فذاته المقدسة هي علمه

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٨

بعينه وعلمه هو ذاته بعينها ولذلك فإن علمه أزلي أبدى.

ثم يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمتنون على النبي بأنهم أسلموا وأنهم أذعنوا لدينه في الوقت الذي حاربه

القبائل العربية الاخرى. فيقول القرآن جواباً على كلماتهم هذه: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَاتُتْمِنُوا عَلَيَّ إِسْلِمَ كَمَ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

«المنة»: من مادة «المن» ومعناه الوزن الخاص الذى يوزن به، ثم استعمل هذا اللفظ على كل نعمة غالية وثمينه، والمنه على نوعين: فإذا كان فيها جانب عملى كعطاء النعمة والهبة فهى ممدوحه، ومنن الله من هذا القبيل، وإذا كان فيها جانب لفظى، كمن كثير من الناس بالقول بعد العمل، فهى قبيحه وغير محبوبه.

فالإيمان وقبل كل شىء يمنح الإنسان إدراكاً جديداً عن عالم الوجود، ويكشف عنه حجب الأنانية والغرور، ويوسع عليه أفق نظره، ويجسد له عظمة خلقه فى نظره.

ومن هنا كان على الإنسان أن يؤدى شكر نعمة الله صباح مساء، وأن يهوى إلى السجود بعد كل صلاة وعبادة، وأن يشكر الله على جميع هذه الامور.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث تأكيد آخر على ما ورد فى الآية الآنفه إذ تقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ». فلا تصروا على أنكم مؤمنون حتماً ولا حاجه للقسم .. فهو حاضر فى أعماق قلوبكم، وهو عليم بما يجرى فى غيب السماوات والأرض جميعاً.

«نهاية تفسير سورة الحجرات»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٣٩

## ٥٠. سورة ق

محتوى السورة: إن محور بحوث هذه السورة هو موضوع «المعاد» والمسائل المرتبطة بالمعاد. تمت الإشارة فى هذه السورة إلى الامور التالية:

- ١- إنكار الكافرين مسألة المعاد وتعجبهم منها «المراد بالمعاد هنا هو المعاد الجسمانى».
- ٢- الاستدلال على مسألة المعاد عن طريق الإلتفات إلى مطلق التكوين والخلق وخاصة إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث.
- ٣- الاستدلال على مسألة المعاد عن طريق الإلتفات إلى الخلق الأول.
- ٤- الإشارة إلى مسألة ثبت الأعمال والأقوال ليوم الحساب.
- ٥- المسائل المتعلقة بالموت والإنتقال من هذه الدنيا إلى الدار الاخرى.
- ٦- جانب من حوادث يوم القيامة وأوصاف الجنة والنار.
- ٧- إشارة إلى حوادث نهاية هذا العالم المذهله والمثيرة.

وفى الأثناء إشارات (موجزة وذات تأثير بليغ) عن حال الامم الماضيه وطغيانها وعاقبتها الوخيمه أمثال قوم فرعون وعاد وقوم لوط وقوم شعيب وقوم تبع وما ورد من تعليمات للنبي فى التوجه إلى الله تعالى ... كما وردت فى بداية السورة ونهايتها إشارة إلى عظمة القرآن. مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٠

فضيله تلاوة السورة: يستفاد من الروايات الإسلامية أن النبي صلى الله عليه و آله كان يهتم إهتماماً كبيراً بسورة «ق» حتى أنه صلى الله عليه و آله كان يقرأها فى كل جمعة إذا خطب الناس «١».

فى تفسير مجمع البيان عن الباقر عليه السلام قال: «ومن أدمن فى فرائضه ونوافله سورة ق وسع الله فى رزقه وأعطاه كتاباً يمينه وحاسبه حساباً يسيراً».

وكل هذه الفضيله والفخر لا يحصل بقراءة الألفاظ فحسب، بل القراءة هى بداية لتيقظ الأفكار، وهى بدورها مقدمه للعمل الصالح

والإنسجام مع محتوى السورة هذه.

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ (٥) مرةً أخرى نواجه هنا بعض الحروف المقطعة، وهو الحرف «ق»، وكما قلنا من قبل أن واحداً من التفاسير المتينة هو أن هذا القرآن على عظمتها مؤلف من حروف بسيطة هي ألف باء الخ... وهذا يدل على أن مبدع القرآن ومنزله لديه علم لا محدود وقدره مطلقه بحيث خلق هذا التركيب الرفيع العالى من هذه الوسائل البسيطة المألوفة.

قال بعض المفسرين: إن «ق» إشارة إلى بعض أسماء الله تعالى «الكادر والقيوم» وما إلى ذلك من الأسماء المبدوءة بحرف القاف. ومن جملة الامور التي تثبت على أن هذا الحرف (ق) هو من الحروف المقطعة المذكورة لبيان عظمة القرآن هو مجيء القسم مباشرة- بعد هذا الحرف- بالقرآن المجيد إذ يقول سبحانه: «ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

«المجيد»: مشتقة من المجد ومعناها الشرف الواسع؛ وبما أن القرآن عظمتها غير محدودة وشرفه بلا نهاية، فهو جدير بأن يكون مجيداً من كل جهة، فظاهره رائق، ومحتواه عظيم، وتعاليمه عالية، ومناهجه مدروسة، تبعث الروح والحياة في نفوس العباد.

ثم يبين القرآن جانباً من إشكالات الكفار والمشركين العرب الواهية فيذكر إشكاليين

(١) مستدرک، الحاكم النيسابورى ١/ ٢٨٤؛ صحيح مسلم ٣/ ١٣؛ مسند أحمد ٦/ ٤٦٣.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤١

منها ... الأول هو حكايته عنهم: «بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ».

وبعد إشكالهم الأول على نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو كيف يكون النبي بشراً؟! كان لهم إشكال آخر على محتوى دعوته ووضعوا أصابع الدهشة على مسألة أخرى كانت عندهم أمراً غريباً وهى: «أءِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ».

إن القرآن يرد عليهم بطرق متعددة؛ فتارةً يشير إلى علم الله الواسع فيقول: «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ».

إذا كان إشكالكم هو أنه كيف تجتمع عظام الإنسان النخرة ولحمه الذى صار تراباً ومن يجمعها؟! أو من يعرف عنها شيئاً؟! فجواب ذلك معلوم ... فالله الذى أحاط بكل شىء علماً يعرف جميع هذه الذرات ويجمعها متى شاء، كما أن ذرات الحديد المتناثرة فى تل من الرمل يمكن جمعها بقطعها من «المغناطيس» وكذلك جمع ذرات الإنسان أيسر على الله من ذلك.

وإذا كان إشكالهم أنه من يحفظ أعمال الإنسان ليوم المعاد، فالجواب على ذلك أن جميع أعمال الناس فى لوح محفوظ، ولا يضيع أى شىء فى هذا العالم، وكل شىء - حتى أعمالكم - سيظل باقياً وإن تغير شكله.

ثم يرد القرآن عليهم بجواب آخر، وفيه منحنى نفسى أكثر إذ يقول: «بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ». أى: إنهم جحدوا الحق مع علمهم به، وإلا فإنه لا غبار على الحق، وكما سيوضح فى الآيات المقبلة فإنهم يرون صورة مصغرة للمعاد بأعينهم مراراً فى هذه الدنيا وليس عندهم مجال للشك والتردد.

لذلك فإن القرآن يختتم هذه الآية مضيفاً: «فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ». فلا تهم كذبوا الرسالة فهم دائماً فى تناقض فى القول وحيرة فى العمل وإضطراب فى السلوك.

فتارةً يتهمون النبي بأنه مجنون أو أنه شاعر أو كاهن.

وتارةً يقولون بأنه يعلمه بشر.

وهذه الكلمات المتفرقة والمتناقضة تدل على أنهم فهموا الحق، إلا أنهم يتدرعون بحجج واهية شتى، ولذلك لا يقرون على كلام واحد أبداً.



«مرج»: مشتقة من مرج ومعناها الأمر المختلط والمشتبه والمشوش، ولذلك فقد أطلقوا على الأرض التي تكثر فيها النباتات المختلفة والمتعددة بأنها «مرج» أو «مرتع».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٢

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) انظروا إلى السماء لحظةً: هذه الآيات توصل البحث عن دلائل المعاد، فتارةً تتحدث عن قدرة الله المطلقة لإثبات المعاد، واخرى تستشهد له بوقائع ونماذج تحدث في الدنيا تمثل حالة المعاد، فهي تستجلب وتُلفت أنظار المنكرين إلى خلق السماوات فتقول: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا».

والمراد بالنظر هنا هو النظر المقترن بالتفكير الذي يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذي خلق السماء الواسعة وما فيها من عجائب مذهلة وتناسق وإستحكام ونظم ودقة.

جملة «وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ» أى لا إنشقاق فيها، إما أن يكون بمعنى عدم النقص والعيب، أو أن يكون معناه عدم الإنشقاق والإنفطار فى السماء المحيطة بأطراف الأرض وهى ما يعبر عنها بالغلاف الجوى للأرض أو ما يعبر القرآن عنه بالسقف المحفوظ.

ثم تشير الآيات إلى عظمة الأرض فتقول: «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ».

أجل، خلق الأرض من جهة، ثم اتساعها «وخرجها من تحت الماء» من جهة اخرى، ووجود الجبال «الرواسي» عليها وإرتباط بعضها ببعض كأنها السلاسل التى تشد الأرض وتحفظها من الضغوط الداخلية والخارجية والجزر والمد الحاصلين من جاذبية الشمس والقمر من جهة ثالثة... ووجود أنواع النباتات بما فيها من عجائب واتساق وجمال من جهة رابعة جميعها تدل على قدرته اللامحدودة.

أما الآية التالية فهى بمثابة الإستنتاج إذ تقول: «تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ».

أجل إن من له القدرة على خلق السماوات بما فيها من عظمة وجمال وجلال، والأرض بما فيها من نعمة وجمال ودقة، كيف لا يمكنه أن يلبس الموتى ثوب الحياة مرة اخرى وأن يجعل لهم معاداً وحياة اخرى.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٣

أما الآية التالية فهى إستدلال آخر على هذا الأمر إذ تقول: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ».

ثم تضيف الآية: «وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ».

«باسقات»: جمع «باسقة» بمعنى الشجرة المرتفعة العالية؛ و«الطلع»: ثمر النخل وما يكون منه الرطب والتمر بعدئذ؛ «النضيد»: معناها المتراكم بشكل دقيق.

والآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: «رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ».

وهكذا فإن هذه الآيات ضمن بيان النعم العظمى للعباد وتحريك إحساس الشكر فيهم فى مسير المعرفة تذكركم بأنهم يرون مثلاً للمعاد كل سنة فى حياتهم فى هذه الدنيا، فالأرض الميتة الخالية واليابسة تهتر وتنبت النباتات عليها عند نزول قطرات الغيث وكأن أصدقاء القيامة تترنم على شفاه النباتات قائلة: «وحده لا شريك له».

فهذه الحركة العظيمة نحو الحياة فى عالم النباتات تكشف عن هذه الحقيقة، وهى أن بارىء عالم الموجودات قادر على إحياء الموتى مرة اخرى، لأن وقوع الشيء أقوى دليل على إمكانه.

كَذَٰبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِيعَ كُلُّ قَدْبٍ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) لست وحدك المبتلى بالعدو: تعالج هذه الآيات مسألة المعاد من خلال نوافذ متعددة.

ففى البداية ومن أجل تثبيت قلب النبى صلى الله عليه وآله وتسليته تقول: لست وحدك المرسل الذى كذبه الكفار وكذبوا محتوى دعواته ولا سيما المعاد فإنه: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ».

وجماعة «ثمود» هم قوم صالح النبى العظيم إذ كانوا يقطنون منطقة «الحجر» شمال الحجاز. أما «أصحاب الرس» فالكثير من المفسرين يعتقدون أنهم طائفة كانت تقطن اليمامة، وكان عندهم نبى يُدعى حنظلة فكذبوه. وألقوه فى البئر فى آخر الأمر.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٤

ثم يضيف القرآن قائلاً: «وَعِبَادُ وَفَزَعُونَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ». والمراد بإخوان لوط هم قومه، وقد عبر القرآن عن لوط بأنه أخوهم، وهذا التعبير مستعمل فى اللغة العربية بشكل عام.

وكذلك من بعدهم: «وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمِ تُبَّعٍ». و «الأيكة»: معناها الأشجار الكثيرة المتداخلة بعضها ببعض - أو الملتفة أغصانها - و «أصحاب الأيكة» هم طائفة من قوم شعيب كانوا يقطنون منطقة غير «مدين» وهى منطقة ذات أشجار كثيرة.

والمراد من «قوم تبع» طائفة من أهل اليمن، لأن «تبع» لقب لملوك اليمن، باعتبار أن هؤلاء القوم يتبعون ملوكهم.

ثم إن الآية هذه أشارت إلى جميع من ذكرتهم من الأقوام الثمانية فقالت: «كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٍ».

فإن هؤلاء الامم كذبوا أنبياءهم وكذبوا مسألة المعاد والتوحيد أيضاً، وكانت عاقبة أمرهم نكراً ووبالاً عليهم، فمنهم من ابتلى بالطوفان، ومنهم من أخذته الصاعقة، ومنهم من غرق بالنيل، ومنهم من حُسفت به الأرض أو غير ذلك، وأخيراً فإنهم ذاقوا ثمرة تكذيبهم المرّة.

ثم يشير القرآن إلى دليل آخر من دلائل إمكان النشور ويوم القيامة فيقول: «أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ».

ثم يضيف القرآن: إنهم لا يشكّون ولا يترددون فى الخلق الأول لأنهم يعلمون أن خالق الإنسان هو الله ولكنهم يشكّون فى المعاد مع كل تلك الدلائل الواضحة: «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ».

وفى الحقيقة إنهم فى تناقض بسبب هوى النفس والتعصب الأعمى، فمن جهة يعتقدون بأن خالق الناس أولاً هو الله إذ خلقهم من تراب، إلما أنهم من جهة اخرى حين يقع الكلام على المعاد وخلق الإنسان ثانية من التراب يعدّون ذلك أمراً عجبياً ولا يمكن تصوّره وقبوله.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) كتابه جميع الأقوال: يثار فى هذه الآيات قسم آخر من المسائل المتعلقة بالمعاد، وهو

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٥

ضبط أعمال الإنسان وإحصاؤها لتعرض على صاحبها عند يوم الحساب.

تبدأ الآيات فتتحدث عن علم الله المطلق وإحاطته بكلّ شىء فتقول: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ».

«توسوس»: مشتقة من الوسوسة وهى - كما يراه الراغب فى مفرداته - الأفكار غير المطلوبة التى تخطر بقلب الإنسان، وأصل الكلمة «الوسواس» ومعناه الصوت الخفى وكذلك صوت أدوات الزينة وغيرها.

والمراد من الوسوسة فى الآية هنا هى أن الله لما كان يعلم بما يخطر فى قلب الإنسان والوسواس السابحة فى أفكاره، فمن البديهي أنه عالم بجميع عقائده وأعماله وأقواله، وسوف يحاسبه عليها يوم القيامة.

وجمله «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» يمكن أن تكون إشارة إلى أن خالق البشر محال أن لا يعلم بجزئيات خلقه.

أجل، هو الخالق، وخلقته دائم ومستمر ونحن مرتبطون به فى جميع الحالات، فمع هذه الحال كيف يمكن أن لا يعلم باطننا وظاهرنا.

ويضيف القرآن لمزيد الإيضاح فى ذيل الآية قائلاً: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».

وهذا ما أشار إليه القرآن فى الآية (٢٤) من سورة الأنفال، إذ قال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

وبالطبع فإن هذا كله تشبيه تقريبي، والله سبحانه أقرب من ذلك وأسمى رغم كون المثال المذكور أبلغ تصوير محسوس على شدة القرب.

إنّ الإلتفات إلى هذه الحقيقة يوقظ الإنسان، ويكون على بينة من أمره وما هو مذخور له في صحيفته أعماله عند محكمه عدل الله ... فيتحول من إنسان غافل إلى موجود واع ملتزم ورع تقى.

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ». أى: أنه بالإضافة إلى إحاطة علم الله «التامة» على ظاهر الإنسان وباطنه، فهناك ملكان مأموران بحفظ ما يصدر منه عن يمينه وشماله.

«تلقى»: معناها الأخذ والتسلم؛ و«المتلقيان»: هما ملكان مأموران بكتابة أعمال الناس؛

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٦

و«قعيد»: مأخوذة من القعود ومعناها «جالس» والمراد بالقعيد هنا الرقيب والملازم للإنسان. وبتعبير آخر: أن الآية هذه لا تعنى أن الملكين جالسين عن يمين الإنسان وعن شماله، لأنّ الإنسان يكون في حال السير تارةً، واخرى في حال الجلوس، بل التعبير هنا هو كناية عن وجودهما مع الإنسان وهما يترصدان أعماله. وورد في الروايات الإسلامية أن ملك اليمين كاتب الحسنات، وملك الشمال كاتب السيئات، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل الإنسان حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سبع ساعات، فإذا استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة.

أما آخر آية من الآيات محل البحث فتحدث عن الملكين أيضاً فتقول: «مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

وكان الكلام في الآية الآتية عن كتابة جميع أعمال الإنسان، وفي هذه الآية إهتمام بخصوص ألفاظه، وهذا الأمر هو للأهمية القصوى للقول وأثره في حياة الناس، حتى أن جملة واحدة أو عبارة قصيرة قد تؤدي إلى تغيير مسار المجتمع نحو الخير أو الشر.

«الرقيب»: معناها المراقب؛ و«العتيد»: معناها المتهيء للعمل.

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنَفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) القيامة، والبصر الحديد: تعكس الآيات أعلاه مسائل اخرى تتعلق بيوم المعاد: «مشهد الموت» و«النفخ في الصور» و«مشهد الحضور في المحشر». فتقول أولاً: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ».

سكرة الموت: هي حال تشبه حالة التمل السكران إذ تظهر على الإنسان بصورة الاضطراب والى انقلاب والتبدل، وربما استولت هذه الحالة على عقل الإنسان وسلبت شعوره وإختياره.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٧

وللإمام على عليه السلام كلام بليغ - في الخطبة ١٠٩ في نهج البلاغة - يرسم لحظة الموت وسكراتها إذ يقول: «اجتمعت عليهم سكرت الموت وحسرت الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيرت لها ألوانهم ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم ومنطقه وأنه ليين أهله ينظر ببصره ويسمع باذنه على صحته من عقله وبقاء من لبه يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره! ويتذكر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتعون بها».

ثم يضيف القرآن في ذيل الآية قائلاً: «ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ» (١).

أجل، إن الموت حقيقة يهرب منها أغلب الناس لأنهم يحسبونه فناً لا نافذة إلى عالم البقاء، أو أنهم لعلائقهم وإرتباطاتهم الشديدة بالدنيا والمواهب المادية التي لهم فيها لا يستطيعون أن يصرفوا قلوبهم عنها، أو لسواد صحيفه أعمالهم. أيّاً كان فهم منه يهربون ...

ولكن ما ينفعهم ومصيرهم المحتوم في إنتظار الجميع ولا مفرّ لأحد منه.

ثم يتحدث القرآن عن النفخ في الصور فيقول: «وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ».

والمراد من «النفخ في الصور» هنا هو النفخة الثانية، وهي نفخة «القيام والجمع والحضور» وتكون في بداية البعث والنشور والقيامة وبها يحيى الناس جميعهم ويخرجون «وينسلون» من الأجداث والقبور إلى ربهم وحساب «عدله» وجزائه. وفي الآية التالية بيان لحال الناس يوم المحشر بهذه الصورة: «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ». فالسائق يسوقه نحو محكمة عدل الله، والشهيد يشهد على أعماله! وهي كمحاكم هذا العالم إذ يسوق المأمورون المتهمين ويأتون معهم للمحكمة ويشهد عليهم الشهود.

وهنا يخاطب المجرمون أو جميع الناس (فرداً فرداً) فيقال: «لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدًا». أجل، إن أستار عالم المادة من الآمال والعلاقة بالدنيا والأولاد والمرأة والأنانية والغرور والعصبية والجهل والعناد وحب الذات لم تكن تسمح أن تنظر إلى هذا اليوم مع وضوح دلائل المعاد والنشور، فهذا اليوم ينفذ عنك غبار الغفلة، وتماط عنك حجب الجهل

(١) «تحديد»: مشتقة من مادة «حيد» - على وزن صيد - ومعناها العدول عن الشيء والفرار منه ..

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٨

والتعصب واللجاجة، وتنشق أستار الشهوات والآمال، وما كان مستوراً وراء حجاب الغيب يبدو ظاهراً اليوم، لأن هذا اليوم يوم البروز ويوم الشهود ويوم تبلى السرائر.

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالِ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَلَا لَبِئْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَمْ لِذِي وَلَا تَقْدُمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ (٣٠) قرناء الإنسان من الملائكة والشياطين: مرّة اخرى ترسم في هذه الآيات صورة اخرى عن المعاد، صورة مثيرة مذهلة حيث إن الملك - قرين الإنسان - يبين محكومة الإنسان بين الملائكة ويصدر حكم الله لمعاقبته وجزائه. تقول الآية الاولى من هذه الآيات: يقول صاحبه وقرينه هذا كتاب أعمال هذا الإنسان حاضر لدي: «وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ».

فيكشف الستار عن كل صغيرة وكبيرة صدرت منه.

والمراد من «قرينه» هو الملك الذي يرافق الإنسان في الدنيا والذي كان مأموراً بتسجيل أعماله وضبطها ليشهد عليه هناك في محكمة عدل الله.

ثم يخاطب الله الملكين المأمورين بتسجيل أعمال الإنسان فيقول لهما: «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ».

«عنيدي»: مشتقة من العناد، ومعناها التكبر وحب الذات وعدم الخضوع للحق.

وفي الآية التالية إشارة إلى بعض الأوصاف الذميمة المنحطة التي يتصف بها هؤلاء الكفار - إذ تقول الآية: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ». «معتد»: معناها المتجاوز على الحدود، سواء أكان متجاوزاً لحقوق الآخرين أو لحدود الله وأحكامه؛ و «مريب»: مشتقة من الريب، وتعنى من هو في شك، الشك المقرون بسوء الظن، أو من يخدع الآخرين فيجعلهم بما يقول أو يعمل في شك من أمرهم ... فيضلوا عن سواء السبيل.

ثم تضيف الآية التالية لتذكر وصفاً ذمياً لمن كان من طائفة الكفار فتقول: «الَّذِي جَعَلَ

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٤٩

مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ». أجل: «فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ».

وفي هذه الآيات بيان سته أوصاف لأهل النار، فالأوصاف الخمسة المتقدمة بعضها لبعض بمثابة العلة والمعلول، أما الوصف السادس

فإيضاح للجذر الأصيل لهذه الأوصاف، لأنَّ معنى الكفار هو من أصرَّ على كفره كثيراً، وينتهي هذا الأمر إلى العناد. والمعاند أو العنيد يصرَّ على منع الخير أيضاً، ومثل هذا الشخص بالطبع يكون معتدياً متجاوزاً على حقوق الآخرين وحدود الله. والمعتدون يصرون على إيقاع الآخرين في الشك والريب وسلب الإيمان عنهم.

وفي الوصف السادس أى: «الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» يكمن الجذر الأصيل والأساس لجميع الإنحرافات الآنف ذكرها، والمراد من هذا الوصف هو الشرك، لأنَّ التدقيق فيه يكشف أنَّ الشرك هو الباعث على جميع هذه الامور المتقدمة.

وفي الآية التالية يكشف الستار عن مشهد آخر وصورة اخرى مما يجرى على هؤلاء الكفار وعاقبتهم، وهو المجادلة بينهم وبين الشيطان الغوى في يوم القيامة، فكل من الكفار يلقي التبعات على الشياطين، إلَّا أنَّ قرينه «الشيطان» يردُّ عليه ويقول كما يحكى عنه القرآن: «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ». فلم أجبره على سلوك طريق الغواية والضلالة، بل هو الذى سلكه باختياره وإرادته وإختار هذا الطريق.

وبالرغم من أنَّ هذه الآيات تتحدث عن دفاع الشيطان عن نفسه فحسب، ولا- يظهر فيها كلام على إعتراض الكفار وردهم على الشيطان، إلَّا أنَّه وبقريته سائر الآيات التى تتحدث عن مخاصمتهم فى يوم القيامة وبقريته الآية التالية يتضح جدال الطرفين إجمالاً، لأنها تقول حاكية عن رب العزة: «قَالَ لَاتَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ».

وأخبرتكم عن هذا المصير.

إشارة إلى قوله تعالى للشيطان من جهة: «قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا» (١).  
ومن جهة اخرى فقد أندر سبحانه من تبعه من الناس: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (٢).

(١) سورة الإسراء / ٦٣.

(٢) سورة ص / ٨٥.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٠

مختصر الامثل ج ٤، ص: ٥٩٠

ولمزيد التأكيد تقول الآية التالية حاكية عن لسان رب العزة: «مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ».

والمراد من «القول» هنا هو التهديد أو الوعيد الذى أشار إليه الله سبحانه مراراً فى آيات متعددة وذكرنا آنفاً أمثلة منها.

والتعبير ب «ظلام» وهو صيغة مبالغة معناه إشارة إلى أنَّ مقام عدل الله وعلمه فى درجة بحيث لو صدر منه أصغر ظلم لكان يعدّ كبيراً جداً ولكان مصداقاً للظلام، فعلى هذا فإنَّ الله بعيد عن أى أنواع الظلم.

إنَّ هذا التعبير دليل على أنَّ العباد مخيرون ولديهم الحرية «فى الإرادة» فلا الشيطان مجبور على شيطنته وعمله، ولا الكفار مجبورون على الكفر وأتباع طريق الشيطان، ولا العاقبة والمصير القطعى الخارج عن الإرادة قد تقررا لأحد أبداً.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى جانب قصير ومثير من مشاهد يوم القيامة إذ تقول الآية: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ».

إنَّ هذه الآية تدل دلالة واضحة أنَّ أهل جهنم كثيرون، وأنَّ صورة جهنم مرعبة وموحشة وأنَّ تهديد الله جدى وحق يربك الفكر فى كل إنسان فيهنه ويحدّره ألا يكون واحداً من أهلها.

وَ أَرْزَقْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوْعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ حَسِبْتِى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ حَيَاءً بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) اذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَذَكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَاهِدٌ (٣٧) مع الإلتفات إلى أنَّ أبحاث هذه

السورة يدور أغلبها حول محور المعاد والامور التي تتعلق به، ومع ملاحظة أن الآيات آنفه الذكر تتحدث عن كيفية القاء الكفار المعاندين في نار جهنم وما يلاقونه من عذاب شديد وبيان صفاتهم التي جرّتهم وساقتهم إلى نار جهنم.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥١

ففي هذه الآيات محل البحث تصوير لمشهد آخر، وهو دخول المتقين الجنة بمتهى التكريم والتجلة وإشارة إلى أنواع النعم في الجنة، كما أن هذه الآيات تبين صفات أهل الجنة لتتضح الحقائق أكثر بهذه المقارنة ما بين أهل النار وأهل الجنة.

فتبدأ الآيات بالقول: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ».

«أزلفت»: من مادة «زلفى»- على زنة كبرى- ومعناها القرب، أى قُربت.

ثم تبين الآيات أوصاف أهل الجنة فتقول: «هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِكُلِّ أَوْابٍ حَفِيظٍ».

«أواب»: من مادة «أوب»- على زنة ذوب- ومعناها العودة؛ ومع ملاحظة أن هذه الصيغة هى للمبالغة فإنها تدل على أن أهل الجنة رجال متقون بحيث إن أى عامل أو مؤثر أراد أن يبعدهم عن طاعة الله فهم يلتفتون ويتذكرون فيرجعون إلى طاعته فوراً، ويتوبون عن معاصيهم وغفلاتهم ليلبغوا مقام «النفس المطمئنة».

«الحفيظ»: معناه الحافظ، والمراد منه هو الحافظ لعهد الله إذ أخذه من بنى آدم ألا يعبدوا الشيطان كما ورد في الآية (٦٠) من سورة يس؛ والحافظ لحدود الله وقوانينه والحافظ لذنوبه والمتذكر لها مما يستلزم التوبة والجبران.

وإستدامةً لبيان هذه الأوصاف فإن الآية التالية تشير إلى وصفين آخرين منها، وهما بمثابة التوضيح لما سبق ذكره، إذ تقول الآية: «مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ». أى: أنهم لا يرتكبون الإثم لا بمرأى من الناس ولا فى خلوتهم وإبتعادهم عنهم.

وهذا الخوف «أو الخشية» يكون سبباً للإنباء، فيكون قلبهم متوجهاً إلى الله ويقبل على طاعته دائماً ويتوب من كل ذنب، وأن يواصلوا هذه الحالة حتى نهاية العمر ويردوا عرصات المحشر على هذه الكيفية.

ثم تضيف الآية الاخرى بأن أولئك الذين يتمتعون بالصفات الأربع هذه حين تتلقاهم الملائكة عند أبواب الجنة يقولون لهم بنهاية التجلة والإكرام: «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ».

«السلام» من كل أنواع الأذى والسوء والعذاب والمعاقبة، السلامة الكاملة فى لباس الصحة والعافية.

ولطمأنتهم يُضاف أن ذلك اليوم يوم الدعة و «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ».

وإضافةً لهاتين البشارتين بشرى الدخول بسلام، وبشرى الخلود فى الجنة، يبشّره الله بشريين اخرين بحيث تكون مجموع البشريات أربعاً كما أنهم يتصفون بأربع صفات يقول:

«لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٢

وإضافةً إلى كل ذلك فإنه: «لَدَيْنَا مَزِيدٌ» من النعم التى لم تخطر ببال أحد.

وبعد الانتهاء من بيان الحديث حول أهل الجنة وأهل النار ودرجاتهما، فإن القرآن يلفت أنظار المجرمين للعبرة والاستنتاج فيقول: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ». فكانت تلك الأقوام أقوى من هؤلاء وكانوا يفتحون البلدان ويتسلطون عليها، إلماً أنهم وبسبب كفرهم وظلمهم أهلكناهم ... فهل وجدوا منفذاً ومخرجاً للخلاص من الموت والعذاب الإلهي: «هَيْلٌ مِّن مَّحِيصٍ».

«القرن» و «الإقتران»: فى الأصل هو «القرب» أو «الإقتراب» ما بين الشيئين أو الأشياء، ويطلق لفظ «القرن» على الجماعة المترامنة فى فترة واحدة، ويجمع على «قرون»، فإهلاك القرون معناه إهلاك الامم السابقة.

و «البطش» معناه حمل الشىء وأخذه بالقوة والقدرة، كما يستعمل هذا اللفظ بمعنى الفتك والحرب.

و «المحيص»: معناها الانحراف والعدول عن الشيء، ومن هنا فقد استعملت هذه الكلمة في الفرار من المشاكل والهزيمة عن المعركة. فإن الآية تنذر الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله أن يستقروا تاريخ الماضين وأن ينظروا في قصصهم للاعتبار، ليروا ما صنع بهؤلاء المعاندين الذين كانوا امماً وأقواماً أشد من هؤلاء «وليفكروا بعاقبتهم أيضاً». ويضيف القرآن في آخر آية من الآيات محل البحث مؤكداً أكثر فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ».

والمراد ب «القلب» هنا وفي الآيات الاخر من القرآن التي تتكلم على إدراك المسائل هو العقل والشعور والإدراك. أما «أَلْقَى السَّمْعَ» فكناية عن الإصغاء ومنتهى الإستماع بدقة. و «الشهيد»: يطلق على من هو حاضر القلب.

وهكذا فإن مضمون الآية بمجموعه يعنى ما يلي: إن هناك فريقين ينتفعان بهذه المواعظ والنصيحة ... فالفريق الأول من يتمتع بالذكاء والعقل ... ويستطيع بنفسه أن يحلل المسائل بفكره. أما الفريق الآخر فليس بهذا المستوى، إلا أنه يمكن أن يلقى السمع للعلماء ويصغى لكلماتهم بحضور القلب ويعرف الحقائق عن طريق الإرشاد.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٣

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) خالق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى: تعقياً على ما ورد في الآيات آنفة الذكر ودلائلها المتعددة في شأن المعاد، تشير الآيات محل البحث إلى دليل آخر من دلائل إمكان المعاد ... ثم تأمر النبي بالصبر والاستقامة والتسبيح بحمد الله ليبطل دسائس المتآمريين وما يحيكونه ضده، فتقول الآية الاولى من هذه الآيات: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ».

«اللغوب»: بمعنى «التعب» وبديهي أن من كان قادراً على إيجاد السماوات والأرض وخلق الكواكب والمجرات وأفلاكها جميعاً، قادر على إعادة الإنسان بعد موته وأن يلبسه ثوباً جديداً من الحياة. وبعد ذكر دلائل المعاد المختلفة وتصوير مشاهد المعاد ويوم القيامة المتعددة فإن القرآن يخاطب النبي ويأمره بالصبر - لأن هناك طائفة لا تدعن للحق وتصر على الباطل فيقول:

«فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ». إذ بالصبر والإستقامة - وحدهما - استطاع التغلب على مثل هذه المشاكل.

وبما أن الصبر والإستقامة يحتاجان إلى دعامة ومعتمد، فخير دعامة لهما ذكر الله والإرتباط بالمبدأ - مبدأ العلم القادر على إيجاد العالم - لذلك فإن القرآن يضيف تعقياً على الأمر بالصبر قائلاً: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ». وكذلك: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ».

و «التسبيح» في الأوقات الأربعة إشارة إلى الصلوات الخمس اليومية وبعضاً من النوافل الفضلى على الترتيب والنحو التالي: ف «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» إشارة إلى صلاة الصبح، لأن في آخر وقتها تطلع الشمس فينبغى أداؤها قبل طلوع الشمس. وقبل الغروب إشارة إلى صلاتي الظهر والعصر لأن الشمس تغرب آخر وقتيهما.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٤

أما قوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ» فيشير إلى صلاتي المغرب والعشاء وقوله: «وَأَدْبَارَ السُّجُودِ» ناظر إلى النوافل بعد صلاة المغرب. وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذُكِّرُوا بِالْقُرْآنِ مَنْ

يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) يخرج الجميع أحياءً عند صيحة القيامة: هذه الآيات محل البحث التي تختتم بها سورة «ق» كسائر آياتها تتحدث على المعاد والقيامة كما أنها تعرض جانباً منهما أيضاً وهو موضوع النفخة في الصور، وخروج الأموات من القبور في يوم النشور ... فتقول: «وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ». والمخاطب بالفعل «استمع» هو النبي صلى الله عليه وآله نفسه إلاً أنه من المسلم به أن المقصود جميع الناس. والمراد من «استمع» إما هو الإنتظار والترقب، لأن من ينتظر حادثه تبدأ بصوت مهول يرى في حالة ترقب دائماً، فهو منتظر لأن يسمع الصوت؛ أو هو الإصغاء إلى كلام الله فيكون المعنى «استمع كلام الله» إذ يقول: يوم يسمعون الصيحة الخ. هذا المنادى هو «إسرافيل» الذي ينفخ في الصور ... وقد وردت الإشارة في آيات القرآن إليه لا بالإسم بل بتعابير خاصة. عبارة «مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» إشارة إلى أن هذه الصيحة ينتشر صداها في الفضاء بدرجة أنها كما لو كانت في اذن كل أحد. ولكي يعرف من الحاكم في هذه المحكمة الكبرى، فإن القرآن يضيف قائلاً: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ». ثم يضيف القرآن فيخبر عن ميقات النشور فيقول: «يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا». أي: يخرجون مسرعين من القبور. ويضيف مختتماً: «ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ». و«الحشر»: معناه الجمع من كل جهة ومكان.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٥

أمياً آخر آية من الآيات محل البحث وهي آخر آية من سورة «ق» ذاتها فهي تخاطب النبي وتسرى عنه وتسلى قلبه لما يلاقيه من المعاندين والكفرة فتقول: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ». فمسؤوليتك البلاغ والدعوة نحو الحق والبشارة والندارة: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ». وذلك إشارة إلى أن القرآن كافٍ للإنذار وإيقاظ المؤمنين، فكل صفحة منه تذكر بيوم القيامة وآياته المختلفة التي تتحدث عن قصص الماضين وعاقبتهم وتصف أهل النار وأهل الجنة وما يقع عند قيام الساعة في محكمه عدل الله هي خير موعظة ونصيحة لجميع الناس.

«نهاية تفسير سورة ق»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٧

## ٥. سورة الذاريات

محتوى السورة: يدور محور هذه السورة حول المسائل المتعلقة بالمعاد ويوم القيامة والثواب والعقاب لكل من المؤمنين والكافرين. إن مباحث هذه السورة تدور حول خمسة محاور وهي:

- ١- إن القسم المهم منها يتكلم عن المعاد وبداية السورة ونهايتها أيضاً هما حول المعاد.
- ٢- القسم الآخر ناظر إلى مسألة توحيد الله وآياته في نظام الخلق والوجود، وهي تكمل مبحث المعاد طبعاً.
- ٣- وفي قسم آخر يقع الكلام على ضيف إبراهيم من الملائكة وما امروا به من تدمير مدن قوم لوط.
- ٤- والآيات الاخر من هذه السورة فيها إشارات إلى قصة موسى عليه السلام وبعض الامم كعاد وثمود وقوم نوح.
- ٥- وقسماً من هذه السورة يتحدث عن مواجهة الامم المعاندين لأنبيائهم وتأمر النبي صلى الله عليه وآله بالصبر والاستقامة بوجه المشاكل والشدائد وتسرى عنه وتسلى قلبه.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الذاريات في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته، وأتاه برزق واسع ونور له في قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة».



مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٨

والهدف هو التلاوة بتفكير... التفكير الباعث على العمل.

وقد اشتق اسم هذه السورة، أى (الذاريات) من الآية الاولى فيها.

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) قسماً بالأعاصير والسُّحب الذاريات: هذه السورة هي الثانية بعد سورة «الصفات» التي تبدأ بالقسم المتكرر، القسم العميق والباعث على التفكير.

والطريف في الأمر أن هذا القسم يرتبط محتواه بمحتوى يوم القيامة والنشور.

والحقيقة أن كل قسم في القرآن هو بنفسه- وإن كثرت الأقسام- أو الأيمان- وجه من وجوه إعجاز القرآن هذا الكتاب السماوى، وهو من أجمل جوانبه وأبهاها وسيأتى تفصيل كل ذلك في موقعه.

وفى مستهل السورة يقسم الله سبحانه بخمسة أشياء مختلفة، فيقول الله فى البداية:

«وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا» (١). أى قسماً بالرياح التى تحمل السحب فى السماء وتذرو البذور على الأرض فى كل مكان ...

ثم يضيف: «فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا». قسماً بالسحب التى تحمل أمطاراً ثقيلة معها ..

«فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا». و «الجاريات»: هنا هى السفن. أى: قسماً بالسفن التى تجرى فى الأنهار العظيمة والبحار الشاسعة بيسر وسهولة ..

«فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا». و «المقسّمات»: هنا معناها الملائكة الذين يقسمون الامور.

فهناك تفسير آخر يمكن ضمها إلى هذا التفسير، وهو أن المراد ب «الجاريات» هى الأنهار التى تجرى بماء المزن؛ و «المقسّمات أمرًا» هى الأرزاق التى تقسم بواسطة الملائكة عن طريق الزراعة.

وعلى هذا فإن الكلام عن الرياح ثم الغيوم وبعدها الأنهار وأخيراً نمو النباتات فى الأرض يتناسب تناسباً قريباً مع مسألة المعاد، لأننا نعرف أن واحداً من أدلة إمكان المعاد هو إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث وقد ذكر ذلك عدة مرات فى القرآن بأساليب مختلفة.

(١) «الذاريات»: جمع «الذارية»، ومعناها الريح التى تحمل معها الأشياء وتشرها فى الفضاء.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٥٩

وبعد ذكر هذه الأقسام الأربعة التى تبين أهمية الموضوع الذى يليها، يقول القرآن: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ».

ومرّة اخرى لمزيد التأكيد يضيف قائلاً: «وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ». «الدين»: هنا معناه الجزاء كما جاء بهذا المعنى فى قوله تعالى: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ». أى يوم الجزاء.

وأساساً فإن واحداً من أسماء يوم القيامة هو «يوم الدين» و «يوم الجزاء». ويتضح من ذلك أن المراد من الوعود الواقعة «هنا» هى ما يوعدون عن يوم القيامة وما يتعلق بها من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار وسائر الامور المتعلقة بالمعاد، فعلى هذا تكون الجملة الاولى شاملة لجميع الوعود، والجملة الثانية تأكيد آخر على مسألة الجزاء.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْفَكُ (٩) قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) والسماء ذات الحُبك: تبدأ هذه الآيات كالأيات المتقدمة بالقسم وتحدث عن اختلاف الكفار وجدلهم حول يوم الجزاء والقيامة. فتقول الآيات فى البداية: قسماً بالسماء ذات الخطوط والتعرجات الجميلة: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ».

«الحبك»: جمع «حباك» وفى اللغة معان كثيرة لها، وجميع هذه المعانى تعود إلى معنى واحد وهى التجاعيد والتعاريح الجميلة التى تظهر على صفحات الرمل فى الصحراء أو صفحات الماء أو التجاعيد فى الشعر أو السُّحب فى السماء.

وتطبيق هذا المعنى على السماء ووصفها بها «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» هو إما لنجومها ذات المجاميع المختلفة وصورها الفلكية. وإمّا للأمواج الجميلة التي ترتسم في السحب أو لمجراتها العظيمة. فعلى هذا يكون معنى «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» أن القرآن يقسم بالسماء ومجراتها العظيمة.

أمّا الآية التالية فهي جواب للقسم وبيان لما وقع عليه القسم، إذ تقول مؤكّدة: «إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ». فدائماً أنتم تتناقضون في الكلام؛ ففي مسألة المعاد تقولون أحياناً: لا نصدّق أبداً أن نعود أحياء بعد أن تصير عظامنا رميمًا. وتارةً تقولون نحن نشك في هذه القضية ونتردد.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٠

وتارةً تضيفون أن هاتوا آباءنا وأسلافنا من قبورهم ليشهدوا أن بعد الموت قيامةً ونشوراً لنقبل بما تقولون. وتقولون في شأن النبي محمّد صلى الله عليه وآله تارةً بأنه شاعر، أو بأنه ساحر، وتارةً تقولون أنه لمجنون، وتارةً تقولون إنّما يعلمه بشر فهو معلّم.

كما تقولون في شأن القرآن بأنه: أساطير الأولين تارةً، أو تقولون بأنه شعر، وتارةً تسمّونه سحراً، وحيناً آخر تقولون أنه كذب إفتراه وأعانه عليه قوم آخرون ... الخ.

فقسماً بحُبك السماء وتجاعيدها إنّ كلامكم مختلف وملء بالتناقض، وكأنّ هذا التناقض في كلامكم دليل على أنّه لا أساس لكلامكم أبداً.

وهذا التعبير إنّما هو استدلال على بطلان إدعاء المخالفين في شأن التوحيد والمعاد والنبي والقرآن «وإن كان اعتماد هذه الآيات في الأساس على مسألة المعاد كما تدل عليه القرينة في الآيات التالية».

وفي الآية التالية يبيّن القرآن علة الانحراف عن الحق فيقول: «يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ». أى:

يؤفك عن الإيمان بالقيامة والبعث كل مخالف للحق، وإلّا فإنّ دلائل الحياة بعد الموت واضحة وجلية.

«الإفك»: في الأصل يطلق على صرف الشيء.

ومع ملاحظة أنّ الكلام كان في الآيات المتقدمة على المعاد والقيامة، فمن المعلوم أنّ المراد الأصلي من الانحراف والإفك هنا هو الانحراف عن هذه العقيدة ... كما أنّه حيث كان الكلام في الآية المتقدمة عن اختلاف كلام الكفار وتناقضهم فيعلم أنّ المراد هنا من الآية هم أولئك المنحرفون عن الإيمان بالمعاد الذين انصرفوا عن مسير الدليل العقلي والمنطق السليم الباحث عن الحق.

وفي الآية التالية ذمّ شديد للكاذبين وتهديد لتخرصاتهم، إذ تقول: «قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ».

«الخراص»: من مادة «خَرَصَ» ومعناه في الأصل كل كلام يقال تخميناً أو ظناً، وحيث إنّ مثل هذا الكلام غالباً ما يكون كذباً فقد استعملت هذه الكلمة في الكذب أيضاً.

إنّ القضاء بلا دليل ولا مدرّك أو مستند يبيّن بل على الظن والحدس هو عمل يسوق إلى الضلال ويستحق اللعن والعذاب.

ثم يعرف القرآن هؤلاء الخراصين الكذبة فيقول: «الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرِهِ سَاهُونَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦١

«العمرة»: في الأصل معناها الماء الغزير الذي يغطّي محلاً ما ... ثم استعملت على الجهل السحيق الذي يغطّي عقل الشخص.

و «سَاهُونَ»: جمع ل «سَاهٍ» وهي مشتقة من «السهو» والمراد بها هنا الغفلة.

فعلى هذا يكون المراد من كلمة «الخرصاصون» هم الغارقون في جهلهم وكل يوم يتذرّعون بحجة واهية فراراً من الحق.

ولذلك فهم دائماً: «يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ».

جملة «يسألون» والفعل للمضارع يدل على أنّهم يثيرون هذا السؤال أيان يوم الدين؟! باستمرار ... على أنّه ينبغي أن يكون يوم القيامة

وموعده مخفياً، ليكون محتمل الوقوع في أى زمان، ويحصل منه الأثر التربوي للإيمان بيوم القيامة الذى هو بناء الشخصية والاستعداد الدائم.

إلا أنه ومع هذه الحال فإن القرآن يردّ عليهم مجيباً بلغه شديدة ويعنّفهم: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ».

وعندئذ يقال لهم هنالك: «ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ». إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ثواب المستغفرين بالأشجار: تعقياً على الكلام المذكور فى الآيات آنفة الذكر الذى كان يدور حول الكذبة والجهلة ومنكرى القيامة وعذابهم، فى الآيات محل البحث يقع الكلام عن المؤمنين المتقين وأوصافهم وثوابهم لتتجلى بمقارنته الفريقين - كما هو عليه اسلوب القرآن - الحقائق أكثر فأكثر. تقول الآيات هنا: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

وصحيح أن البستان بطبيعته يكون ذا سواق وروافد، لكن ما أطف أن تندقق مياه العيون فى داخل البستان نفسه وتسقى أشجاره ... فهذا هو ما تمتاز به بساتين الجنة ... فهى ليست ذات عين واحدة بل فيها عيون ماء متعددة تجرى متدفقة هناك.

ثم يضيف القرآن مشيراً إلى نعم الجنّات الاخر فيتحدث عنها بتعبير مغلق فيقول:

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٢

«آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ». أى أنهم يتلقون هذه المواهب الإلهية بمنتهى الرضا والرغبة والشوق ... ويعقب القرآن فى ختام الآية بأن هذه المواهب وهذا الثواب كل ذلك ليس إعتباطاً بل «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ». و «الإحسان»: هنا يحمل معنى وسيعاً بحيث يشمل طاعة الله والأعمال الصالحة الاخر أيضاً. والآيات التالية تبين كيفية إحسانهم، فتعرض ثلاثة أوصاف من أوصافهم فتقول: أُولَئِكَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ».

«يهجعون»: مشتقة من الهجوع، ومعناه النوم ليلاً. فعلى هذا فهم كل ليلة يحيون قسماً منها بالعبادة وصلاة الليل، أما الليالى التى يرقدون فيها حتى مطلع الفجر ... وتفوت عليهم العبادة فيها كلياً ... فهى قليلة جداً.

والوصف الثانى من أوصافهم يذكره القرآن بهذا البيان: «وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ».

فحيث إن عيون الغافلين هاجعة آخر الليل والمحيط هادىء تماماً، فلا شىء يشغل فكر الإنسان ويقلق باله ... يصلون ويستغفرون عن ذنوبهم خاصة.

ثم يذكر القرآن الوصف الثالث لأهل الجنة المتقين فيقول: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ».

كلمة «حق» هنا هو إمّا لأن الله أوجب ذلك عليهم: كالزكاة والخمس وسائر الحقوق الشرعية الواجبة؛ أو لأنهم التزموه وعاهدوا أنفسهم على ذلك.

ويمكن أن يقال إن الفرق بين المحسنين وغيرهم هو أن المحسنين يؤدّون هذه الحقوق، فى حين أن غيرهم ليسوا مقيدين بذلك.

وما وصلنا من روايات عن أهل البيت عليهم السلام يؤكّد أيضاً أن المراد من «حق معلوم» شىء غير الزكاة الواجبة.

وفى الفرق بين «السائل» و «المحروم»، فقال بعضهم «السائل» هو من يطلب العون من الناس، أما «المحروم» فمن يحافظ على ماء وجهه ويبدل قصارى جهده ليعيش دون أن يمدّ يده إلى أحد، أو يطلب العون من أحد، بل يصبر نفسه.

فهذا التعبير يشير إلى هذه الحقيقة وهى لا تنتظروا أن يأتيكم المحتاجون ويمدّوا أيديهم إليكم، بل عليكم أن تبحثوا عنهم وتجودوا للأفراد المحرومين الذين يعبر عنهم القرآن بأنهم

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٣

«يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ» (١) ... لتساعدوهم وتحفظوا ماء وجوههم.

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوَعَّدُونَ (٢٢) فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطُقُونَ (٢٣) آيات الله وآثاره في أنفسكم: تعقياً على الآيات المتقدمة التي كانت تتحدث عن مسألة المعاد وصفات أهل النار وأهل الجنة، تأتي هذه الآيات- محل البحث- لتتحدث عن آيات الله ودلائله في الأرض وفي وجود الإنسان نفسه ليطلع على مسألة التوحيد ومعرفة الله وصفاته التي هي مبدأ الحركة نحو الخيرات كلها من جهة، وعلى قدرته على مسألة المعاد والحياة بعد الموت من جهة أخرى، لأنَّ خالق الحياة على هذه الأرض وما فيها من عجائب قادر على تجديد الحياة بعد الموت كذلك. تقول هذه الآية أولاً: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ».

والحق أن دلائل الله وقدرته غير المتناهية وعلمه وحكمته التي لا حد لها في هذه الأرض كثيرة ووفيرة إلى درجة أن عمر أي إنسان مهما كان لا يكفي لمعرفة جميعاً.

ولا- بأس أن ننقل هنا جانباً من كلمات بعض العلماء المعروفين في العالم الذين لهم دراسات كثيرة في هذا الصدد: إنه «كرسى موريسين» فلنصغ إليه قائلاً: «لقد روعى منتهى الدقة في تنظيم العوامل الطبيعية فلو تضخمت القشرة الخارجية للكرة الأرضية أكثر ممَّا كانت عليه عشر مرَّات لأنعدم الأوكسجين الذي هو المادَّة الأصلية للحياة، ولو أنَّ أعماق البحار كانت أكثر عمقاً ممَّا هي عليه قليلاً أو كثيراً، لأنجذب جميع الأوكسجين والكربون من سطح الأرض ولم يعد أي إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سطح الأرض». ويقول في مكان آخر: «أنَّ نسبة الأوكسجين في الهواء هي إحدى وعشرين بالمائة فحسب، فلو كانت هذه النسبة خمسين بالمائة لأحترق به كل ما من شأنه الاشتعال في هذا العالم... ولو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة في غابة لأحترقت الغابة جمعا» (٢).

(١) سورة البقرة / ٢٧٣.

(٢) أسرار خلق الإنسان، كرسى موريسين / ٣٣-٣٦.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٤

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». أي أفلا تبصرون هذه الآيات في أنفسكم أيضاً. ولا شك أن الإنسان أعجوبة عالم الوجود وما هو في العالم الأكبر موجود في عالم الإنسان الأصغر أيضاً، بل في الإنسان عجائب لا توجد في أي مكان من العالم.

إنَّ الأ-جهاز الموجود في بدن الإنسان كالقلب والكلية والرئة وخاصة عشرات آلاف الكيلومترات من الأعصاب الرقيقة أو الكبيرة والأعصاب الدقيقة التي لا- ترى بالعين المجردة وجميعها مسؤولة عن إيصال الغذاء والماء والتهوية إلى عشرة مليون مليار خلية، والحواس المختلفة كالسمع والبصر والحواس الأخر كل منها آية عظيمة من آيات الله.

وأهم من كل ذلك لغز الحياة التي لم تعرف أسرارها وبناء الروح أو العقل الإنساني الذي يعجز عن إدراكه عقول جميع الناس.

وقد ورد في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (١).

وفي الآية الثالثة من الآيات- محل البحث- إشارة إلى القسم الثالث من دلائل عظمة الخالق وقدرته على المعاد، إذ تقول: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ».

إنَّ سعة مفهوم الرزق تشمل حيَّات المطر وغيرها كنور الشمس الذي يأتي من السماء وله أثره الفاعل في الحياة، والهواء الذي هو أساس حياة الموجودات.

إنَّ ما يمنع البصيرة ويصدّها عن مطالعة أسرار الخلق هو «الحرص على الرزق»، فالله سبحانه يطمئن الإنسان في الآية الأخيرة بأنَّ رزقه مضمون، ليستطيع أن ينظر إلى عجائب العالم ويتحقق فيه قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

وجملة «وَمَا تُوعَدُونَ» فيمكن أن تكون تأكيداً على مسألة الرزق ووعد الله في هذا المجال، أو أن المراد منها عذاب ينزل من السماء.

فهذه الآيات الثلاث فيها ترتيب لطيف، فالآية الاولى تتحدث عن أسباب وجود الإنسان وحياته، والآية الثانية تتحدث عن الإنسان نفسه، والآية الثالثة تتحدث عن أسباب بقائه ودوامه.

لذلك فإن الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تُقسم فتقول: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ». وقد بلغ الأمر حدًّا أن يقسم الله على ما لديه من عظمه وقدره ليطمئن عباده الشاكين

(١) بحار الأنوار ٢/ ٣٢.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٥

ضعاف الأنفس الحريصين إنَّ ما توعدون في مجال الرزق والثواب والعقاب والقيامة جميعه حق ولا ريب في كل ذلك. هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤) إذ دخلوا عليه فقالوا سيلاً ما قال سيلاً ما قوم منكمرون (٢٥) فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين (٢٦) فقربته إليهم قال أأما تأكلون (٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لما تخف وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠) ضيوف إبراهيم عليه السلام: من هذا المقطع - فما بعد - يتحدث القرآن في هذه السورة عن قصص الأنبياء الماضين والامم المتقدمة تأكيداً وتأييداً للموضوع آنف الذكر وما حواه من مسائل، وأول جانب يثيره هذا المقطع هو قصة الملائكة الذين جاءوا لعذاب قوم لوط، ومروا على إبراهيم عليه السلام على صورة بشر، ليسروه بالولد، مع أن إبراهيم بلغ سنًا كبيراً فهو في مرحلة المشيب وامرأته كانت عقيماً كذلك. فمن جهة ... يعد إعطاء هذا الولد لإبراهيم وزوجه وهما في مرحلة الكبر والياس من الإنجاب تأكيداً على كون الأرزاق مقدرة كما اشير إلى ذلك في الآيات المتقدمة.

ومن جهة اخرى يعد دليلاً آخر على قدرة الحق وآية من آيات معرفة الله التي ورد البحث عنها في الآيات آنفاً. ومن جهة ثالثة يعد بشري للامم المؤمنة بأنها في رعاية الحق، كما أن الآيات التالية تتحدث عن عذاب قوم لوط وهي في الوقت ذاته تهديد للمجرمين.

ففي البدء يوجه الله سبحانه الخطاب لنيه فيقول: «هل أتيتك حديث ضيف إبراهيم المكرمين».

والتعبير ب«المكرمين» إما لأن هؤلاء الملائكة كانوا مأمورين من قبل الحق، أو لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم، أو للوجهين معاً.

ثم يبين القرآن حالهم فيقول: «إذ دخلوا عليه فقالوا سلماً ما قال سلم قوم منكمرون».

فإن إبراهيم أدى ما عليه من حق الضيافة: «فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٦

«راغ»: مشتق من «روغ» - على وزن شوق - ومعناه التحرك مقروناً بخطه خفيه.

و«العجل»: على وزن «طفل» معناه ولد البقر وفي الأصل مأخوذة من العجلة، لأن هذا الحيوان في هذه السن وفي هذه المرحلة يتحرك حركة عجلية، وحين يكبر تزول عنه هذه الصفة تماماً؛ و«السمين»: معناه المكتنز لحمه، وانتخاب مثل هذا العجل إنما هو لإكرام الضيف وليسع المتعلقين والأكلة الآخرين.

ثم تضيف الآية بالقول عن إبراهيم وضيفه: «فقربته إليهم». إلا أنه لاحظ أن أيديهم لا تصل إلى الطعام فتعجب و«قال أأما تأكلون».

وكان إبراهيم يتصور أنهم من الآدميين «فأوجس منهم خيفة» لأنه كان معروفاً في ذلك العصر وفي زماننا أيضاً بين كثير من الناس الملتزمين بالتقاليد العرفية، أنه متى ما أكل شخص من طعام صاحبه فلن يناله أذى منه ولا يخونه ولذلك فإن الضيف إذا لم يأكل من طعام صاحبه، يثير الظن السىء بأنه جاء لأمر محذور.

وهنا قال له الضيف كما ورد في الآية (٧٠) من سورة هود طمأنه له ف«قالوا لا تخف».

ويضيف القرآن: «وَبَشِّرُوهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ».

وبديهى أن الغلام عند ولادته لا يكون عليمًا، إلا أنه من الممكن أن يكون له استعداد بحيث يكون في المستقبل عالماً كبيراً ... والمراد به هنا هو ذلك المعنى.

والمشهور بين المفسرين أن هذا الغلام هو إسحاق.

«فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صِرِّهِ فَصَيَّرَهُ فَصَيَّرَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ». ونقرأ في الآية (٧٢) من سورة هود قوله تعالى: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا».

«صِرَّة»: مشتقة من الصر على وزن الشر، ومعناه في الأصل الشد والإرتباط. وفي الآية محل البحث معناها هو الصوت العالى الشديد.

و «صكت»: معناها الضرب الشديد أو الضرب، والمراد منها هنا هو أن امرأة إبراهيم حين سمعت بالبشرى ضربت بيدها على وجهها - كعادة سائر النساء - تعجباً وحياءً.

وطبقاً لما يقول بعض المفسرين وما ورد في سفر التكوين فإن امرأة إبراهيم كانت آتخذ في سن التسعين وإبراهيم نفسه كان في سن المئة عاماً ... أو أكثر. إلا أن الآية التالية تنقل جواب الملائكة لها فتقول: «قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ».

والتعبير ب «الحكيم» و «العليم» إشارة إلى أنه لا يحتاج إلى الإخبار بكونك امرأة عقيماً عجوزاً وبعلك شيخاً، فالله يعرف كل هذه الامور.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٧

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) مُدِين قَوْم لوط المدمرة آية وعبرة: تعقيباً على ما سبق من الحديث عن الملائكة الذين حلوا ضيفاً على إبراهيم وبشارتهم إياه في شأن الولد «إسحاق» تحدثت هذه الآيات عما دار بينهم وبين إبراهيم في شأن قوم لوط.

توضيح ذلك: إن إبراهيم بعد ما ابعث إلى الشام ... واصل دعوة الناس إلى الله ومواجهته لكل أنواع الشرك وعبادة الأصنام ... وقد عاصر إبراهيم الخليل «لوط» أحد الأنبياء العظام ويحتمل أنه كان مأموراً من قبله بتبليغ الناس وهداية الضالين، فسافر إلى بعض مناطق الشام «أى مدن سدوم» فحل في قوم مجرمين ملوثين بالشرك والمعاصي الكثيرة، وكان أفبجها تورطهم في الانحراف الجنسي واللواط، وأخيراً فقد أمر رهط من الملائكة بعدابهم وهلاكهم إلا أنهم مروا بإبراهيم قبل إهلاكهم.

وقد عرف إبراهيم من حال الضيف (الملائكة) أنهم ماضون لأمر مهم، ولم يكن هدفهم الوحيد البشرى بتولد إسحاق، لأن واحداً منهم كان كافياً لمهمة «البشارة»، أو لأنهم كانوا عاجلين فأحس بأن لديهم «مأمورية» مهمّة. لذلك فإن أول آية من الآيات محل البحث تحكى بداية المحاوره فتقول: «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ».

فأما الملائكة اللثام عن «وجه الحقيقة» ومأموريتهم ف «قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ».

ثم أضافوا قائلين: «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ».

والتعبير ب «حجارة من طين» هو ما أشارت إليه الآية (٨٢) من سورة هود بالقول من «سجّل»؛ ولعلها في المجموع إشارة إلى هذا المعنى وهو أن هلاك قوم لوط المجرمين لم يكن يستلزم إنزال أحجار عظيمة وصخور وجلاميد من السماء، بل كان يكفي أن يمطروا بأحجار صغيرة ليست صلبة جداً كأنها حبات «المطر».

ثم أضاف الملائكة قائلين: «مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٨

والقرآن هنا يكشف عما جرى لرسول الله إلى نبيه لوط فيقول: «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مَنْ

المُسْلِمِينَ».

أجل عدالتنا لا تسمح أن يتلى المؤمن بعاقبه الكافر.

وهذا هو ما أشارت إليه الآيتان (٥٩ و ٦٠) من سورة الحجر بالقول: «إِلَّا عَالَ لُحُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنِّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ».

إن هذا القسم من قصة قوم لوط ورد في هذه السور الخمس في عبارات مختلفة وجميعها يتحدث عن حقيقة واحدة... إلا أنه حيث يمكن أن ينظر إلى حادثه ما من زوايا متعددة وكل زاوية لها بعدها الخاص... فإن القرآن ينقل الحوادث التاريخية- على هذه الشاكلة- غالباً.

وفي مقام التربية يلزم أحياناً أن يعول على مسألة مهمّة مراراً للترك أثرها العميق في ذهن القارىء.

فإن الله سبحانه زلزل مدن قوم لوط وقلب عاليها سافلها ثم أمطرها بحجارة من سجيل منضود ولم يبق منها أثراً... حتى أن أجسادهم دفنت تحت الأنقاض والحجارة لتكون عبرة لمن يأتي بعدهم من المجرمين والظالمين غير المؤمنين.

ولذلك فإن القرآن يضيف قائلاً في آخر آية من الآيات محل البحث: «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

وهذا التعبير يدل بوضوح أن من يعتبر ويتعظ بهذه الآيات هم الذين لديهم استعداد للقبول في داخل كيانهم ويحسون بالمسؤولية.

وَفِي مُوسَى إِذِ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَا مِنْهُ الْجُودَةَ فَتَبَدَّنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذِ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذِ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) دروس العبرة من الأقوام السالفة: يتحدث القرآن في هذه الآيات محل البحث- تعقياً

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٦٩

على قصة قوم لوط وعاقبتهم الوحيمه- عن قصص أقوام آخرين ممن مضوا في العصور السابقة. فيقول أولاً: «وَفِي مُوسَى إِذِ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

«السلطان»: ما يكون به التسلط، والمراد به هنا المعجزة أو الدليل والمنطق العقلي القوي أو كلاهما، وقد واجه موسى فرعون بهما.

إن فرعون لم يسلم لمعجزات موسى الكبرى التي كانت شاهداً على إرتباطه بالله ولم يطأطأ رأسه للدلائل المنطقية... بل بقي مصرّاً لما كان فيه من غرور وتكبر: «فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

والطريف أن الجابرة المتكبرين حين كانوا يتهمون الأنبياء بالكذب والإفتراء كانوا يتناقضون تناقضاً عجيباً، فتارةً يتهمونهم بأنهم سحرة، واخرى بأنهم مجانين، مع أن الساحر ينبغي أن يكون ذكياً وأن يعول على مسائل دقيقة ويعرف نفوس الناس حتى يسحرهم ويخدعهم بها... والمجنون بخلافه تماماً.

إِلَّا إِنَّ الْقُرْآنَ يَخْبِرُ عَنْ فِرْعَوْنَ الْجَبَّارِ وَأَعْوَانِهِ بِقَوْلِهِ: «فَأَخَذْنَا مِنْهُ الْجُودَةَ فَتَبَدَّنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ».

جملة «فتبدناهم» إشارة إلى أن فرعون وجنوده كانوا في درجة من الضعف أمام قدرة الله بحيث ألغاهم في اليم كأنهم موجود لا قيمة ولا مقدار له.

المراد بالميم ذو الملامه؛ أي هو الشخص الذي يرتكب عملاً يكون بنفسه ملامه.

والتعبير ب «وهو مليم» إشارة إلى أن العقاب الإلهي لم يمحه فحسب بل التاريخ من بعده يلومه على أعماله المخزية ويذكرها بكل ما يشينه ويلعنه ويفضح غروره وتكبره بإمطة النقاب عنهما.

ثم يتناول القرآن عاقبة قوم آخرين بالذكر وهم «قوم عاد»، فيقول: «وَفِي عَادٍ إِذِ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ».

ثم يذكر القرآن سرعه الريح المسلطة على عاد فيقول: «مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ».

«الريميم»: مأخوذ من الرمة وهي العظام النخرة البالية. وهذا التعبير يدل على أن سرعة الريح المسلطة على قوم عاد لم تكن سرعة طبيعية، بل إضافة إلى تخريبها البيوت وهدمها المنازل، فهي محرقة وذات سموم مما جعلت كل شيء رميمًا.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٠

ثم تصل النبوة إلى ثمود قوم صالح إذ أمهلهم الله قليلاً ليلتقوا العذاب بعد ذلك ... فيقول الله فيهم: «وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ».

والمراد بـ «حَتَّىٰ حِينٍ» هو الأيام الثلاثة المشار إليها في الآية (٦٥) من سورة هود إمهالاً لهم: «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدَّةٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ».

أجل: «فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ».

«عتوا»: مشتقة من العتو- على وزن غلؤ- ومعناه الإعراض «بالوجه»، والإنصراف عن طاعة الله، والظاهر أن هذه الجملة إشارة إلى ما كان منهم من إعراض طوال الفترة التي دعاهم فيها نبيهم صالح كالشرك وعبادة الأوثان والظلم وعقرهم الناقة التي كانت معجزة نبيهم، لا الإعراض الذي كان منهم خلال الأيام الثلاثة فحسب، وبدلاً من أن يتوبوا وينبوا غرقوا في غرورهم وغفلتهم.

وأخيراً فإن آخر جملة تتحدث عن شأن هؤلاء القوم المعاندين. تقول: «فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ».

إن قوم صالح (ثمود) الذين كانوا من القبائل العربية وكانوا يقطنون «الحجر» وهي منطقة تقع شمال الحجاز مع إمكانات مادية هائلة وثروات طائلة وعمروا طويلاً في قصور مشيدة ... اهلكوا بسبب إعراضهم عن أمر الله وطغيانهم وعنادهم والشرك والظلم، وبقيت آثارهم درساً بليغاً من العبر للآخرين.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى عاقبة خامس أمه من الامم، وهي قوم نوح، فتقول: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ». و «الفاسق» يُطلق على من يخرج على حدود الله وأمره، ويكون ملوثاً بالكفر أو الظلم أو سائر الذنوب.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَمَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) والسماة بنيناها بأيدي وإنا لموسعون: مرة أخرى تتحدث هذه الآيات عن موضوع آيات عظمة الله في عالم الخلق، وهي تنممة لما ورد في الآيتين (٢٠ و ٢١) من هذه السورة في

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧١

شأن آياته في الأرض وفي نفس «الإنسان» ووجوده- وهي ضمناً دليل على قدرة الله على المعاد والحياء، فتقول أولاً: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ».

«الأيد»: على وزن الصيد، معناه القدرة والقوة- وقد تكرر هذا المعنى في آيات القرآن المجيد، وهو هنا بمعنى قدرة الله المطلقة العظيمة في خلق السماوات.

ودلائل هذه القدرة العظيمة واضحة جلية في عظمة السماوات ونظامها الخاص الحاكم عليها أيضاً.

ومع الأخذ بنظر الإعتبار ما إكتشفه العلماء من اتساع العالم هو أن الله خلق السماوات ويوسعها دائماً.

والعلم الحديث (المعاصر) يقول ليست الكرة الأرضية وحدها تتضخم وتثقل على أثر جذب المواد السماوية تدريجاً، بل السماء أيضاً في اتساع دائم، أي أن بعض النجوم المستقرة في المجرات تبتعد عن مركز مجراتها بسرعة هائلة حتى أن هذه السرعة لها أثرها في الإلتساع في كثير من المواقع.

وبعد خلق السماء والأرض تصل النبوة إلى خلق الموجودات المختلفة في السماء والأرض وأنواع النباتات والحيوانات فتقول الآية التالية في هذا الشأن: «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».



جملة «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ» يشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحية فحسب، فيمكنها أن تشير إلى هذه الحقيقة وهي أن جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرات موجبة وسالبة، ومن المسلم به هذا اليوم من الناحية العلمية أن الذرات مؤلفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، ومنها ما يحمل طاقة موجبة وتدعى بالبروتون.

ويضيف القرآن في الآية التالية مستتجاً مما تقدم من الأبحاث التوحيدية قائلاً: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ». والتعبير بـ «الفرار» هنا يطلق في ما إذا واجه الإنسان موجوداً أو حادثاً مخيفاً فيسرع من مكان المواجهة إلى ذلك المكان ويلتجئ إلى نقطة الأمان والأمان... فالآية تقول: فزوا من عقيدة الشرك الموحش وعبادة الأصنام إلى التوحيد الخالص الذي هو منطقة الأمان والأمان الواقعي.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٢

فزوا من السيئات والقبائح وعدم الإيمان وظلمة الجهل والعذاب الدائم والتجأوا إلى رحمة الحق وسعادته الأبدية. ولمزيد التأكيد، يستند القرآن إلى وحدانية العبادة لله الأحد فيقول: «وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ». كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) قرأنا في الآية (٣٩) من هذه السورة أن فرعون أتهم موسى عليه السلام عندما دعاه إلى الله وترك الظلم أنه ساحر أو مجنون، فهذا الإتهام ورد على لسان المشركين في زمان النبي محمد صلى الله عليه وآله أيضاً إذ اتهموه بمثل ما اتهم فرعون موسى وقد عز ذلك على المؤمنين الأوائل والقلائل كما كان يؤلم روح النبي. فالآيات محل البحث ومن أجل تسليته النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين تقول:

«كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

كانوا يتهمون الرسل السابقين بأنهم سحرة لأنهم لم يجدوا جواباً منطقياً لمعاجزهم الباهرة، وكانوا يخاطبون رسولهم بأنه «مجنون»... لأنه لم يكن على غرارهم ومتلونا بلون المحيط ولم يستسلم للأمر المادية.

ثم يضيف القرآن هل أن هذه الأقوام الكافرة تواصلت فيما بينها على توجيه هذه التهمة إلى جميع الأنبياء: «أَتَوَاصَوْا بِهِ». ويعقب القرآن على ذلك قائلاً: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ».

وهذه هي إفرازات روح الطغيان حيث يتوسلون بكل كذب واتهام لإخراج أهل الحق من الساحة.

ولمزيد التسري عن قلب النبي وتسليته يضيف القرآن: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ».

وكن مطمئناً بأنك قد أدت ما عليك من التبليغ والرسالة: «فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ».

وهذه الجملة تذكر بالآيات السابقة التي تدل على أن النبي كان يتحرق لقومه حتى يؤمنوا ويتأثر غاية التأثير لعدم إيمانهم حتى كاد يهلك نفسه من أجلهم.

كما تشير الآية (٦) من سورة الكهف حيث نقرأ فيها: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٣

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنون، وظنوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حل حتى نزلت الآية بعدها لتأمر النبي بالتذكير: «وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

فكان أن أحس الجميع بالإطمئنان.

والآية تشير إلى أن هناك قلباً مهتياً تنتظر كلامك يا رسول الله وتبليغك فإذا ما عاند جماعة ونهضوا بوجه الحق مخالفين، فإن هناك جماعة آخرين تتوق إلى الحق من أعماق قلوبهم وأرواحهم ويؤثر فيها كلامك اللين.

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)

هدف خلق الإنسان من وجهة نظر القرآن: من أهم الأسئلة التي تختلج في خاطر كل إنسان هو لِمَ خَلَقْنَا؟! وما الهدف من خلق الناس والمجيب إلى هذه الدنيا؟!

فآيات آنفه الذكر تجيب على هذا السؤال المهم والعام بتعابير موجزة ذات معنى غزير، وتكمل البحث الوارد في آخر آية من الآيات المتقدمة حول تذكير المؤمنين، لأن ذلك من أهم الاصول التي ينبغي على النبي أن يتابعها ... كما توضّح - ضمناً - معنى الفرار إلى الله الوارد في الآيات السابقة.

تقول الآيات حاكية عن الله سبحانه: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ». وأنه غير مفتقر إلى أي منهم أبداً: «مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ». بل إن الله تعالى هو الذي يرزق عباده ومخلوقاته ... «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

وبقليل من التأمل في مفهوم آيات القرآن نرى أن الهدف الأصلي هو «العبودية» وهو ما اشير في هذه الآيات محل البحث، أما العلم والإمتحان وأمثالهما فهي أهداف ضمن مسير العبودية لله، ورحمة الله الواسعة نتيجة العبودية لله. وهكذا يتضح أننا خلقنا لعبادة الله، لكن المهم أن نعرف ما هي حقيقة هذه العبادة؟! إن العبودية هي إظهار منتهى الخضوع للمعبود، ولذلك فالمعبود الوحيد الذي له حق

(١) مجمع البيان ٩ / ٢٦٨.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٤

العبادة على الآخرين هو الذي بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلك سوى الله سبحانه. فبناءً على ذلك فالعبودية هي قمة التكامل وأوج بلوغ الإنسان وإقترابه من الله.

فإن العبودية الكاملة هي أن لا يفكر الإنسان بغير معبوده الواقعي أي الكمال المطلق، ولا يسير إلأى منهجه اللاحب وأن ينسى سواه حتى (نفسه وشخصه).

وهذا هو الهدف النهائي من خلق البشر الذي أعد الله له الامتحان والاختبار لئله، ومنح الإنسان العلم والمعرفة، وجعل نتيجة كل ذلك فيض رحمته للإنسان.

هؤلاء يشاركون أصحابهم في العذاب: الآيات أعلاه هما آخر سورة الذاريات، وهما نوع من الإستنتاج لما تقدم من الآيات الواردة في السورة ذاتها. فالآية الاولى تقول أنه بعد أن أصبح معلوماً أن هؤلاء المشركين قد انحرفوا عن الهدف الحقيقي للخلق، فليعلموا أن لهم قسطاً وافراً من العذاب الإلهي كما كان للأقوام السالفة: «فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ» .. ويقولوا إن كان عذاب الله حقاً فلم لا يصيبنا؟!

والتعبير ب«الظلم» في شأن هذه الجماعة هو لأن الشرك والكفر من أكبر الظلم، ولأن حقيقة الظلم هي وضع الشيء في غير موضعه المناسب، ومن المعلوم أن عبادة الأصنام مكان عبادة الله تعدد أهم مصداق للظلم، ولذلك فهم يستحقون العقاب التي نالها الأقدمون من المشركين.

وفي الآية الأخيرة إستكمال لعذاب الدنيا بعذاب الآخرة، إذ تقول: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ».

وكما أن هذه السورة بُدئت بمسألة المعاد والقيامة، فإنها إنتهت بالتأكيد عليها كذلك.

«نهاية تفسير سورة الذاريات»

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٥

محتوى السورة: تتركز بحوث هذه السورة- أيضاً- على مسألة المعاد وعاقبة الصالحين والملتقين.

يمكن أن يقسم محتوى هذه السورة إلى ستة أقسام.

١- الآيات الاولى من السورة التي تبدأ بالقسم تلو القسم، وهي تبحث في عذاب الله، ودلائل القيامة وعلاماتها وعن النار وعقاب الكافرين (الآيات ١-١٦).

٢- ثم يذكر بتفصيل نعم الجنة وموآب الله في القيامة، (الآيات ١٧-٢٨).

٣- ثم يقع الكلام عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وما وجه إليه الأعداء من التهم، ويرد عليها بنحو موجز (الآيات ٢٩-٣٤).

٤- ثم بحث عن التوحيد باستدلالات واضحة (الآية ٣٥-٤٣).

٥- ثم عود على مسألة المعاد وبعض أوصاف يوم القيامة (الآيات ٤٤-٤٧).

٦- والقسم الأخير الذي لا يتجاوز الآيتين يختتم الامور المذكورة آنفاً بأمر نبي الإسلام بالصبر والاستقامة والتسييح والحمد لله ووعدته بأن الله حاميه وناصره.

وقد اشتق اسم هذه السورة (الطور) من الآية الاولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته».

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٦

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا والآخرة».

وواضح أن كل هذا الأجر والثواب العظيم هو لأولئك الذين يجعلون هذه التلاوة وسيلة للتفكير والتفكير بدوره وسيلة للعمل.

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّشْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مِمَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) هذه السورة- هي الاخرى- من السور التي تبدأ بالقسم ... القسم الذي يهدف لبيان حقيقة مهمة، وهي مسألة القيامة والمعاد ومحاسبة أعمال الناس.

يقول سبحانه وتعالى: «وَالطُّورِ».

«الطور»: في اللغة معناه الجبل، ولكن مع ملاحظة أن هذه الكلمة تكررت في عشر آيات من القرآن الكريم، تسع منها كانت في الكلام على «طور سيناء» وهو الطور أو الجبل الذي نزل الوحي عنده على موسى، فيعلم أن المراد منه في الآية محل البحث (الطور ذاته).

فبناءً على ذلك، فإن الله يقسم في أول مرحلة بواحد من الأمكنة المقدسة في الأرض حيث نزل عليها الوحي.

وفي تفسير قوله تعالى «وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ» احتمالات متعددة، ولكن بتناسب القسم المذكور آنفاً فإن الآية تشير هنا إلى «كتاب موسى» أو كل كتاب سماوي.

«فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ». «الرق»: من الرقة، وهي في الأصل الدقة واللطافة، كما تطلق هذه الكلمة على الورق أو الجلد الخفيف الذي يكتب عليه؛ و«المنشور»: معناه الواسع.

«وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ». والمراد منه «الكعبة» وهي بيت الله في الأرض المعمور بالحجاج والزوار، وهو أول بيت وضع للعبادة على الأرض.

«وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ». والمقصود هو «السماء» لأننا نقرأ في الآية (٣٢) من سورة الأنبياء: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا».

ولعل الوجه- في التعبير- بالسقف هو أن النجوم والكواكب السماوية إلى درجة من الكثرة بحيث غطت السماء فصارت كأنها السقف،

أو إشارة إلى الجو الذي يحيط بالأرض أو ما يسمى بالغلاف الجوى، وهو بمثابة السقف الذي يمنع النيازك والشهب أن تهوى إلى

الأرض وتصدّ الأشعة الضارّة من الوصول إلى الأرض.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٧

«وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ». «المسجور»: معناه الملتهب، كما في الآيتين (٧١ و ٧٢) من سورة غافر، إذ قال سبحانه: «يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ».

هذا «البحر المسجور» هو البحر المحيط بالأرض، أو البحار المحيطة بها وسيلتهب قبل يوم القيامة، ثم ينفجر كما نقرأ ذلك في الآية (٦) من سورة التكويد: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

البحر الذي في باطن الأرض وهو مؤلف من مواد منصهرة مذابة.

ولعل أن تكون الآية قسماً بهما معاً، إذ كلاهما من آيات الله ومن عجائب هذا العالم الكبرى.

وعلاقة هذه الأقسام الخمسة فيما بينها، أن الظاهر أن الأقسام الثلاثة الأولى بينها إرتباط وعلاقة، لأنها جميعاً تتحدث عن الوحي وخصوصياته، فالطور محل نزول الوحي، والكتاب المسطور إشارة إلى الكتاب السماوي أيضاً، سواء كان التوراة أو القرآن، والبيت المعمور هو محل ذهاب وإياب الملائكة ورسل وحي الله.

أما القسمان الآخران فيتحدثان عن الآيات التكوينية «في مقابل الأقسام الثلاثة التي كانت تتحدث عن الآيات التشريعية».

وهذان القسمان واحد منهما يشير إلى أهم دلائل التوحيد وعلائمه وهو «السما» بعظمتها، والآخر يشير إلى واحد من علائم المعاد المهمة ودلائله، وهو الواقع بين يدي القيامة.

فبناءً على هذا فإن التوحيد والنبوة والمعاد جمعت في هذه الأقسام [أو الأيمان الخمسة].

«إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ». إن هذه الأقسام والتي تدور حول محور قدرة الله في عالم التكوين والتشريع تدل على أن الله قادر على إعادة الحياة وبعث الموتى من قبورهم مرة أخرى، وهذا هو غاية الأقسام المذكورة كما قرأنا في الآيات الأخيرة من الآيات محل البحث.

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) قَوْلٌ يُومِنُ لِلْمُكْذِبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اضْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٨

كانت في الآيات السابقة إشارة وتلميح عن عذاب الله في يوم القيامة- بصورة مغلقة- أما الآيات محل البحث ففيها توضيح وتفسير لما مرّ، فتتحدث أولاً عن بعض حالات يوم القيامة وخصائصه، ثم عن كيفية تعذيب المكذبين فتقول: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا».

«المور»: معناه الحركة السريعة والدوران المقترن بالذهاب والإياب والاضطراب والتموج. وعلى هذا فإن النظام الحاكم على الكرات يضطرب بين يدي يوم القيامة وتنحرف عن مداراتها وتتجه إلى كل جهة ذهاباً وإياباً، ثم تبدل وتولد سماء جديدة بأمر الله كما تقول الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ».

ثم يضيف القرآن في آية أخرى: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا».

كل ذلك هو إشارة إلى أن هذه الدنيا وما فيها وما عليها تندك ويحدث مكانها عالم جديد بأنظمة جديدة ويكون الإنسان أمام نتائج أعماله وجهاً لوجه.

لذا فإن القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: «قَوْلٌ يُومِنُ لِلْمُكْذِبِينَ».

أجل، حين تعم الوحشة والاضطراب جميع الخلق لتغير العالم، تهيمن على المكذبين وحشة عظيمة وهي العذاب الإلهي ... لأن «الويل»: إظهار التأسف والحزن لوقوع حادثة غير مطلوبة.

ثم تبيّن الآيات من هم «المكذبون» فتقول: «الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ».

فيزعمون أنّ آيات القرآن ضرب من الكذب والإفتراء وأنّ معجزات النبي سحر وأنه مجنون، ويتلقّون جميع الحقائق باللعب ويسخرون منها ويستهنئون بها.

«خوض»: معناه الدخول في الكلام الباطل، وهو في الأصل ورود الماء والعبور منه.

ثم تبيّن الآيات ذلك اليوم وعاقبه هؤلاء المكذبين في توضيح آخر، فتقول: «يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً» (١). أى يساقون نحو جهنم بعنف وشدة.

ويقال لهم حينئذ: «هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ».

كما يقال لهم أيضاً: «أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ».

لقد كنتم تزعمون في الدنيا إنّ ما جاء به محمّد سحر، وليختطف عقولنا! ويرينا اموراً على أنّها معاجز، ويذكر لنا كلاماً على أنّه وحى منزل من الله.

(١) «دع»: على وزن جدّ معناه الدفع الشديد والسوق بخشونة وعنف.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٧٩

لذلك فحين يردون نار جهنم يقال لهم بنحو التوبيخ واللامامة والإحتقار وهم يلمسون حرارة النار: أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون!؟

كما يقال لهم هناك أيضاً: «اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

أجل، هذه هي أعمالكم وقد عادت إليكم، فلا ينفع الجزع والفرع والآه والصراخ ولا أثر لكل ذلك أبداً.

وهذه الآية تأكيد على «تجسم الأعمال» وعودتها نحو الإنسان، وهي تأكيد جديد أيضاً على عدالة الله ... لأنّ نار جهنم مهما كانت شديدة ومحرقة فهي ليست سوى نتيجة أعمال الناس أنفسهم، وأشكالها المتبدلة هناك.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَكَاهِنِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(١٩) مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّضْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ

مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) تعقيباً على المباحث الواردة في الآيات المتقدمة حول عقاب المجرمين وعذابهم

الأليم تذكر الآيات محل البحث ما يقابل ذلك من المواهب الكثيرة والثواب العظيم للمؤمنين والتمتعين لتتجلى بمقاييسه واضحة مكانة

كل من الفريقين. تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ».

والتعبير بـ «المتقين» بدلاً من المؤمنين، لأنّ هذا العنوان يحمل مفهوم الإيمان، كما يحمل مفهوم العمل الصالح أيضاً، خاصة أنّ

«التقوى» تقع مقدّمة وأساساً للإيمان في بعض المراحل.

ثم يتحدث القرآن عن تأثير هذه النعم الكبرى على روحية أهل الجنة فيقول في الآية التالية: «فَكَاهِنِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ» (١).

(١) «فكاهين»: مشتقة من فكهه ومعناها كون الإنسان مسروراً، وجعل الآخرين مسرورين بالكلام العذب. مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٠

خاصة أنّ الله قد طمأنهم وآمنهم من العقاب: «وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ».

وهذه الجملة قد تكون ذات معنيين ... الأوّل بيان النعمة المستقلة قبالة نعم الله الآخر ...

و الثاني أن يكون تعقيباً على الكلام السابق، أى أنّ أهل الجنة مسرورون من شيئين «بما آتاهم الله من النعم في الجنة»، و «بما وقاهم

من عذاب الجحيم».

ثم تشير الآية الاخرى إلى نعم المتقين في الجنة فتقول: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

والتعبير ب «هنيئاً» هو إشارة إلى أن أطعمه الجنة وشرابها السائغة غير منغصة، فهي ليست كأطعمه الدنيا وشرابها التي تجرّ الإنسان إلى الوبال عند الإفراط أو التفريط بها ...

إضافة إلى كل ذلك لا يحصل عليها بمشقة، ولا يخاف من إنتهاؤها، ولذلك فهي هنيئة.

ومن المعلوم أن أطعمه الجنة هنيئة بذاتها، ولكن قول الملائكة لأهل الجنة «هنيئاً» هذا القول له لطفه وعودته الخاصة.

والنعمة الاخرى التي يتمتع بها أهل الجنة هي كونهم: «مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ».

فهم يلتذون بالاستئناس إلى أصحابهم والمؤمنين الآخرين، وهذه لذة معنوية فوق أية لذة اخرى.

وهذا التعبير لا ينافي ما ورد في هذه الآية محل البحث، لأن مجالس الانس والسرور ترتب الأسرة فيها على شكل مستدير ومصفوفة جنباً إلى جنب، فجلّاسها على سرر مصفوفة متقابلون.

والتعبير ب «متكئين» إشارة إلى منتهى الهدوء، لأن الإنسان عند الهدوء يتكىء عادةً، والذين هم في قلق وحزن لا يرون كذلك.

ثم يضيف القرآن بأننا زوّجناهم من نساء بيض جميلات ذوات أعين واسعة «وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» (١).

(١) «الهور»: جمع حوراء وأحور، فهو جمع للمذكر والمؤنث سواء، ويطلق على من حدقه عينه سوداء وبياضها شفاف أو هو كناية عن الجمال، لأن الجمال يتجلى في العينين قبل كل شيء، والعين جمع لأعين وعيناء، معناه العين الواسعة؛ وهكذا فإنّ الحور العين مفهومًا واسعاً يشمل الأزواج جميعاً الذكور والإناث من أهل الجنة فالذكور للإناث وبالعكس.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨١

هذه بعض من نعم أهل الجنة المادية والمعنوية، إلا أنهم لا يكتفون بهذه النعم فحسب، وإنما تضاف إليها نعم ومواهب معنوية ومادية اخرى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ».

وهذه نعمة بنفسها أيضاً أن يرى الإنسان ذريته في الجنة ويلتذ برؤيتهم دون أن ينقص من عمله شيء أبداً.

فمثل هؤلاء الأبناء وهذه الذرية إذا كان في عملهم نقص وتقصير فإنّ الله سبحانه يتجاوز عنهم لأجل آبائهم الصالحين، ويرتفع مقامهم عندئذ فيبلغون درجة آبائهم، وهذه المثوبة موهبة للآباء والأبناء.

إنّ القرآن يضيف في نهاية الآية: «كُلُّ امْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ». أي: أن أعمال كل إنسان ملازمة له، سواء كانت صالحة أو طالحة،

ولذلك فإنّ المتقين في الجنة رهينو أعمالهم، وإذا كان أبناؤهم وذرياتهم معهم، فلا يعنى ذلك أن أعمالهم ينقص منها شيء أبداً.

وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ بِفَاكِهِهِمْ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمٌ إِنْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ

(٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) أشارت الآيات المتقدمة إلى تسعة أقسام من مواهب أهل الجنة، وتشير الآيات

محل البحث إلى خمسة اخر منها بحيث يستفاد من المجموع أن ما هو لازم للهدوء والطمأنينة والفرح والسرور واللذة مهياً لهم في

الجنة. فتشير الآية الاولى من الآيات محل البحث إلى نوعين من طعام أهل الجنة فتقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ بِفَاكِهِهِمْ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ».

«أمددناهم»: مشتق من الإمداد ومعناه العطاء والزيادة والإدامة ... أي إن طعام الجنة وفواكهها لا ينقص منهما شيء بتناولهما، وهما ليسا

كطعام الدنيا وفواكهها بحيث يتغيران أو ينقصان.

والتعبير ب «مِمَّا يَشْتَهُونَ» يدل على أن أهل الجنة أحرار تماماً في إنتخاب الأطعمة ونوعها وكميتها وكيفيةها، فمهما طلبوا فهو مهىء

لهم ... وبالطبع فإنّ طعام الجنة غير منحصر بهذين النوعين اللحم والفاكهة، إلا أنّهما يمثلان الطعام المهم، وتقديم الفاكهة على اللحم

إشارة إلى أفضليتها عليه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٢

ثم تشير الآية التالية إلى ما يشربه أهل الجنة من شراب سائغ فتقول: «يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ».

حيث يناول أحدهم الآخر كؤوس الشراب الطاهر من الإثم والإفساد، ويشربون شراباً سائغاً عذباً لذيذاً يهب النشاط خالياً من أى نوع من أنواع التخدير وفساد العقل! ولا يعقبه لغو ولا إثم، بل كله لذة وإنتباه ونشاط «جسمى وروحانى».

«يتنازعون»: من مادة التنازع ومعناه أخذ بعضهم من بعض. بأن أهل الجنة يتجادبون الشراب الطهور بعضهم من بعض على سبيل المزاح والسرور.

أما النعمة الرابعة المذكورة لأهل الجنة فوجود الخدم والغلمان إذ تقول الآية: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ».

و «اللؤلؤ المكنون»: هو اللؤلؤ داخل صدفة، وهو فى هذه الحالة شفاف وجميل إلى درجة لا توصف وإن كان خارج الصدفة شفافاً وجميلاً أيضاً، غير أن الهواء الملوّث والأيدى التى تتناوله كل ذلك يؤثّر فيه، فلا يبقى على حالته الأولى من الشفافية! فالغلمان وخدمة الجنة هم إلى درجة من الصفاء حتى كأنهم اللؤلؤ المكنون كما يعبر القرآن الكريم.

وبالرغم من أنه لا حاجة فى الجنة إلى الخدمة، وما يطلبه الإنسان يجده أمامه، إلّا أنّ هذا بنفسه إكرام أو إحترام آخر لأهل الجنة.

فى تفسير مجمع البيان: قيل يا رسول الله! الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: «والذى نفسى بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وآخر نعمة فى هذه السلسلة من النعم هى نعمة الطمأنينة وراحة البال من كل عذاب أو عقاب إذ تقول الآية التالية: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ».

مشفقين أن يسلك أبناؤنا طريق الضلال، فيتيهوا فى مفازة جرداء ويتحجروا. مشفقين أن يفجؤنا أعداؤنا القساء ويضيقوا علينا الميدان. ولكن الله منّ علينا برحمته الواسعة: «فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ».

«السموم»: يعنى الحرارة التى تدخل فى مسام البدن فتؤذى الإنسان، ويطلق على الريح التى تتسم بهذه السمّة بريح السموم كما يطلق عذاب السموم على مثل هذا العذاب الذى تدخل حرارته مسام البدن فتؤذيه.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٣

وأما إطلاق كلمة «السم» على المواد القاتلة فهو لأنها تنفذ فى جميع أجزاء البدن.

والكلام الذى ينقله القرآن على لسان أهل الجنة هنا يشير إلى إعتراهم بهذه الحقيقة وهى أن كون الله براً رحيماً يعرفه أهل الجنة فى ذلك الزمان أكثر من أى وقت مضى فيقولون: «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ».

إلّا أننا نعرف هذه الصفات الآن بشكل واقعى أكثر مما كنا نعرفها، إذ شملنا برحمته العظيمة قبال هذه الأعمال التى لا تعدّ شيئاً وأحسن إلينا مع كل تلك الذنوب الكثيرة.

فَدَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)

سبب التزلزل

فى الدر المنثور عن ابن عباس أن قريشاً لما اجتمعوا فى الدار الندوة «١» فى أمر النبى صلى الله عليه وآله قال قائل منهم احبسوه فى وثاق وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابعه إنما هو كأحدهم فأنزل الله فى ذلك من قولهم «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ».

التفسير

كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن قسم مهم من نعم الجنة وثواب المتقين وكان الكلام فى الآيات التى سبقتها عن بعض عذاب أهل

النار. لذلك فإن الآية الأولى من الآيات محل البحث تخاطب النبي فتقول: «فَذَكِّرْ». لأن قلوب عشاق الحق تكون أكثر استعداداً بسماعها مثل هذا الكلام، وقد آن الأوان أن تبين الكلام الحق لها. ثم يذكر القرآن الإتهامات التي أطلقها أعداء النبي الألداء المعاندون فيقول: «فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ».

(١) «دار الندوة»: وهي دار قصي بن كلاب التي لا تقضى قريش أمراً من أمورها إلّا فيها، وكانت هذه الدار بابها إلى مسجد الكعبة. (راجع سيرة النبي صلى الله عليه وآله، ابن هشام الحميري ٢ / ٣٣١). مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٤ «الكاهن»: يطلق على من يخبر عن الأسرار الغيبية، وغالباً ما كان الكاهن يدعى بأنه له علاقة بالجن ويستمد الأخبار الغيبية منهم. فإن قريشاً ومن أجل أن تشتت الناس وتصرفهم عن النبي صلى الله عليه وآله كانت تتهمه ببعض التهم، فتارةً تتهمه بأنه كاهن، وتارةً تتهمه بأنه مجنون، والعجب أنها لم تقف على تضاد الوصفين، لأن الكهنة اناس أذكاء والمجانين على خلافهم! ولعل الجمع بين الإفترايين في الآية إشارة إلى هذا التناقض في الكلام من قبل القائمين.

ثم يذكر القرآن الإتهام الثالث الذي يخالف الوصفين السابقين أيضاً فيقول: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ». «المنون»: مشتق من المنّ، وهو على معنيين: النقصان والقطع، ثم استعملت كلمة «المنون» في الموت أيضاً، لأنه ينقص العدد ويقطع المدد؛ «ريب»: أصلها الشك والتردد والوهم في الشيء الذي تنكشف أستاره بعدئذ فتتضح حقيقته. وهذا التعبير يستعمل في شأن الموت، فيقال «ريب المنون» لأن وقت حصوله غير معلوم لا أصل تحققة.

إلا أن جماعة من المفسرين قالوا: إن المراد من «ريب المنون» في الآية محل البحث هو حوادث الدهر، حتى إنه نقل عن ابن عباس أنه قال حيث ما وردت كلمة «ريب» في القرآن فهي بمعنى الشك والتردد، إلّا في هذه الآية من سورة الطور فمعناها الحوادث. فاولئك كانوا يطمنون أنفسهم ويرضون خاطرهم بأن حوادث الزمان كفيلاً بالقضاء على النبي صلى الله عليه وآله وكانوا يتصورون أنهم سيتخلصون من هذه المشكلة العظمى التي أحدثتها دعوة النبي صلى الله عليه وآله في سائر المجتمع ... لذلك فإن القرآن يرد عليهم بجملة موجزة مقتضبة ذات معنى غزير ويهدّد هؤلاء - عمى القلوب - مخاطباً نبيه فيقول: «قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ». ثم يوبّخهم القرآن توبيخاً شديداً فيقول في شأنهم: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَهُمْ بِهِدَاً أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ». إن هذه التهم والإفتراءات ليست مما تقول به عقولهم وتأمرهم به، بل أساسها طغيانهم وتعصبهم وروح العصيان والتمرد. «الأحلام»: جمع «حلم» ومعناه العقل؛ وهذه الكلمة قد تأتي بمعنى الرؤيا والمنام ولا يبعد مثل هذا التفسير في الآية محل البحث ... فكأن كلماتهم ناتجة عن أحلامهم الباطلة.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٥

ومرّة اخرى يشير القرآن إلى آتهام آخر - من اتهاماتهم - الذي يعدّ الرابع في سلسلة اتهاماتهم فيقول: «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلُهُ بَلْ لَأَيُّؤْمُنُونَ». «تقوله»: مشتق من مادة تقول - على وزن تكلف - ومعناه الكلام الذي يفعله الإنسان بينه وبين نفسه دون أن يكون له واقع. إن القرآن يردّ عليهم رداً يدرهم ويتحداهم متهمكماً فيقول: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ». فأنتم اناس مثله ولديكم العقل والقدرة على البيان والإطلاع والخبرة على أنواع الكلام فلم لا يأتي مفكروكم وخطباءكم وفصحاءكم بمثل هذا الكلام.

وجملة «فليأتوا» أمر تعجيزي، والهدف منه بيان عجزهم وعدم قدرتهم على مجاراة القرآن. وهذا ما يعبر عنه في علم الكلام والعقائد بالتحدي أي دعوة المخالفين إلى المعارضة والإتيان بالممثل «في مواجهة المعجزات».

فهذه آية من الآيات التي تبين إعجاز القرآن بجلاء، ولا يختص مفهومها بمن عاصروا النبي صلى الله عليه وآله بل يشمل جميع الذين يزعمون - بأن القرآن كلام بشر، وأنه مفترى على الله - على إمتداد القرون والأعصار، فهم مخاطبون بهذه الآية أيضاً ... أي هاتوا



حديثاً مثله إن كنتم تزعمون بأنه ليس من الله وأنه كلام بشر.

إن نداء القرآن فى هذه الآية والآيات المشابهة كان عالياً أبداً، ولم يستطع أى إنسان خلال أربعة عشر قرناً- منذ بعثه النبى صلى الله عليه وآله حتى يومنا هذا- أن يرد بجواب إيجابى.

وهذا العجز «العمومى» شاهد حى على أصالة هذا الوحي السماوى.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَمَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسْطَرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) هذه الآيات تواصل البحث الاستدلالى السابق- كذلك- مع أحد عشر سؤالاً متتابعاً،

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٦

وهى تناقش المنكرين للقرآن ونبوه محمد صلى الله عليه وآله وقدره الله سبحانه. فأول ما تبدأ به هو موضوع الخلق فتقول: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ».

وهذه إشارة إلى «برهان العلية» المعروف الوارد فى الفلسفة وعلم الكلام لإثبات وجود الله، وهو أن العالم الذى نعيش فيه ممّا لا شك- فيه- حادث (لأنه فى تغيير دائم، وكل ما هو متغير فهو فى معرض الحوادث، وكل ما هو فى معرض الحوادث محال أن يكون قديماً وأزلياً).

والآن ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كان العالم حادثاً فلا يخرج عن الحالات الثلاث التالية:

١- وُجِدَ مِنْ دُونِ عِلَّةٍ.

٢- هو نفسه علة لنفسه.

٣- إنَّ هَذَا الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ لَوَاجِبِ الْوُجُودِ الَّذِى يَكُونُ وُجُودُهُ ذَاتِيًّا لَهُ.

وبطلان الاحتمان المتقدمة واضح، لأنَّ وجود المعلول من دون علة محال، وإلاَّ فينبغى أن يكون كل شىء موجوداً فى أى ظرف كان، والأمر ليس كذلك.

والاحتمال الثانى وهو أن يوجد الشىء من نفسه محال أيضاً، لأنَّ مفهومه أن يكون موجوداً قبل وجوده، ويلزم منه إجتماع النقيضين [فلاحظوا بدقّة].

فبناءً على ذلك لا طريق إلّا القبول بالاحتمال الثالث، أى خالقيته واجب الوجود.

الآية التالية تثير سؤالاً آخر على الإدعاء فى المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة فتقول:

«أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

فإذا لم يوجدوا من دون علة ولم يكونوا علة أنفسهم أيضاً، فهل هم واجبو الوجود فخلقوا السماوات والأرض؟! وإذا لم يكونوا قد خلقوا الوجود، فهل أوكل الله إليهم أمر خلق السماء والأرض؟ فعلى هذا هم مخلوقون ويبداهم أمر الخلق أيضاً.

من الواضح أنهم لا يستطيعون أن يدعوا هذا الإدعاء الباطل، لذلك فإنَّ الآية تختتم بالقول: «بَلْ لَأَيُّوقِنُونَ».

أجل، فهم يتذرعون بالحجج الواهية فراراً من الإيمان.

ثم يتساءل القرآن قائلاً: فإذا لم يدعوا هذه الامور ولم يكن لهم نصيب فى الخلق، فهل

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٧

عندهم خزائن الله: «أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ» «١». ليهبوا من شأؤوا نعمة النبوة والعلم أو الأرزاق الاخر ويمنعوا من شأؤوا ذلك: «أَمْ هُمُ

الْمُصِيطِرُونَ» على جميع العوالم وفى أيديهم امور الخلائق!؟

إنهم لا يستطيعون أن يدعوا أبداً أن عندهم خزائن الله تعالى، ولا يملكون تسليطاً على تدبير العالم، لأن ضعفهم وعجزهم إزاء أقل مرض بل حتى على بعوضة تافهة وكذلك احتياجهم إلى الوسائل الابتدائية للحياة خير دليل على عدم قدرتهم وفقدان هيمنتهم! وإنما يجزهم إلى إنكار الحقائق هوى النفس والعناد وحب الجاه والتعصب والأناية.

وكلمة «مصيرون» إشارة إلى أرباب الأنواع التي هي من خرافات القدماء، إذ كانوا يعتقدون أن كل نوع من أنواع العالم إنساناً كان أم حيواناً آخر أم جماداً أم نباتاً له مدبر ورب خاص يدعى برّب النوع ويدعون الله «ربّ الأرباب» وهذه العقيدة تعدّ في نظر الإسلام «شركاً» والقرآن في آياته يصرّح بأنّ التدبير لجميع الأشياء هو لله وحده ويصفه برّب العالمين.

ومن المعلوم أنه لا- منكر و النبوة ولا- المشركون في العصر الجاهلي ولا- سواهما يدعى أياً من الامور الخمسة التي ذكرها القرآن، ولذلك فإنه يشير إلى موضوع آخر في الآية التالية فيقول: إن هؤلاء هل يدعون أن الوحي ينزل عليهم أو يدعون أن لهم سلماً يرتقون عليه إلى السماء فيستمعون إلى أسرار الوحي: «أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ» (٢).

وحيث إنه كان من الممكن أن يدعوا بأنهم على معرفة بأسرار السماء فإن القرآن يطالبهم مباشرة بعد هذا الكلام بالدليل فيقول: «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

ومن الواضح أنه لو كانوا يدعون مثل هذا الادعاء فإنه لا يتجاوز حدود الكلام فحسب، إذ لم يكن لهم دليل على ذلك أبداً.

ثم يضيف القرآن قائلاً: هل صحيح ما يزعمون أن الملائكة اناث وهم بنات الله؟! «أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ».

وفي هذه الآية إشارة إلى واحد من إعتقاداتهم الباطلة، وهو استيائهم من البنات

(١) الخزائن: جمع الخزينه ومعناها مكان كل شيء محفوظ لا تصل إليه اليد ويدخر فيه ما يريد الإنسان يقول القرآن في هذا الصدد: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» سورة الحجر / ٢١.

(٢) «سُلم»: يعنى «المصعد» كما يأتى بمعنى أيه وسيله كانت.

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٨

بشده، وإذا علموا أنهم رزقوا من أزواجهم «بناتاً» اسودت وجوههم من الحياء والخجل ومع هذا فإنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله. وبديهي أن الذكر والانثى لا يختلفان في نظر القيمة الإنسانية... والتعبير في الآية المتقدمة هو في الحقيقة من قبيل الاستدلال بعقيدتهم الباطلة ومحاجتهم بها.

ثم يتنازل القرآن إلى مرحلة أخرى، فيذكر واحداً من الامور التي يمكن أن تكون ذريعة لرفضهم فيقول: «أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ».

«المغرم»: - على وزن مغرم وهو ضدّ معناه- أى ما يصيب الإنسان من خسارة أو ضرر دون جهه، أما الغريم فيطلق على الدائن والمدين أيضاً.

و «المثقل»: مشتق من الأثقال، ومعناه تحميل العبء والمشقة، فبناءً على هذا المعنى يكون المراد من الآية: ترى هل تطلب منهم غرامة لتبليغ الرسالة فهم لا يقدرّون على أدائها ولذلك يرفضون الإيمان؟!

ومرّة أخرى يخاطبهم القرآن متسائلاً «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ». فهؤلاء يدعون أن النبي شاعر وينتظرون موته لينطوى بساطه وينتهى كل شيء بموته وتلقى دعوته في سلّة الإهمال. فمن أين لهم أنهم سيقون أحياء بعد وفاة النبي؟ ومن أخبرهم بالغيب؟!

ثم يتناول القرآن احتمالاً آخر فيقول: لو لم يكن كل هذه الامور المتقدمة، فلا بدّ أنهم يتآمرون لقتل النبي وإجهاض دعوته ولكن ليعلموا أن كيد الله أعلى وأقوى من كيدهم:

«أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ».

وأخيراً فإن آخر ما يشره القرآن من أسئلته في هذا الصدد قوله: «أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ».

ويضيف - منزهاً -: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فعلى هذا لا أحد يستطيع أن يمنعهم من الله ويحميهم، وهكذا فإن القرآن يستدرجهم ويضعهم أمام استجاب عجيب وأسئلة متصلة تؤلف سلسلة متكاملة مؤلفة من أحد عشر سؤالاً، ويضطرهم مرحلة بعد مرحلة إلى التراجع والتنازل من الإدعاءات الفارغة، ثم يوصد عليهم سُبُل الفرار كلها ويحاصرهم في طريق مغلق.

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٨٩

تعقيباً على البحث الوارد في الآيات المتقدمة الذي يناقش المشركين والمنكرين المعاندين، هذا البحث الذي يكشف الحقيقة ساطعة لكل إنسان يطلب الحق، تميظ الآيات محل البحث النقاب عن تعصبهم وعنادهم فتقول: «وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ».

إن هؤلاء المشركين معاندون إلى درجة إنكارهم الحقائق الحسية وتفسيرهم الحجاره الساقطة من السماء بالسحاب.

وهكذا يتضح حال هؤلاء الأشخاص إزاء الحقائق المعنوية. لذلك فإن الآية التالية تضيف بالقول: «فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ».

«يُصْعَقُونَ»: مأخوذة من صعق، والإصعاق هو الإهلال، وأصله مشتق من الصاعقة، وحين أن الصاعقة تُهلك من تقع عليه فإن هذه الكلمة استعملت بمعنى الإهلاك أيضاً.

إن جملة «ذرهم» أمر يُفيد التهديد، والمراد منه أن الإصرار على تبليغ مثل هؤلاء الأفراد لا يجدي نفعاً إذ لا يهتدون.

ثم يبين القرآن في الآية التالية هذا اليوم فيقول: «يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

أجل، من يمت تقم قيامته الصغرى «من مات قامت قيامته» وموته بداية للثواب أو العقاب الذي يكون قسم منه في البرزخ والقسم الآخر في القيامة الكبرى، أى القيامة العامة، وفي هاتين المرحلتين لا تنفع ذريعة متذرع ولا يجد الإنسان ولياً من دون الله ولا نصيراً.

ثم تضيف الآية أنه لا ينبغي لهؤلاء أن يتصوروا أنهم سيواجهون العذاب في البرزخ وفي القيامة فحسب، بل لهم عذاب في هذه الدنيا أيضاً: «وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

أجل، إن على الظالمين أن ينتظروا في هذه الدنيا عذاباً كعذاب الامم السابقة كالصاعقة والزلازل والكسف من السماء والقحط أو القتل على أيدي جيش التوحيد كما كان ذلك في معركة بدر وما ابتلى به قادة المشركين فيها إلا أن يتيقظوا ويتوبوا ويعودوا إلى الله آيين منيين.

وجملة «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» تشير إلى أن أغلب اولئك الذين ينتظروهم العذاب

مختصر الامثل، ج ٤، ص: ٥٩٠

في الدنيا والآخرة هم جهلة، ومفهومها أن القليل منهم يعرف هذا المعنى، إلا أنه في الوقت ذاته يُصِرُّ على المخالفة لما فيه من اللجاجة والعناد عن الحق.

وفي الآية التالية يخاطب القرآن نبيه ويدعوه إلى الصبر أمام هذه التهم والمثبطات وأن يستقيم فيقول: «وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ».

فإذا ما اتهموك بأنك شاعر أو كاهن أو مجنون فاصبر، وإذا زعموا بأن القرآن مفترى فاصبر، وإذا أصروا على عنادهم وواصلوا رفضهم لدعوتك برغم كل هذه البراهين المنطقية فاصبر، ولا تضعف همّتك ويفتر عزمك: «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا».

نحن نرى كل شىء ونعلم بكل شىء ولن ندعك وحدك.

وبما أن الحاجة لله وعبادته وتسيبحة وتقديسه وتنزيهه والإلتجاء إلى ذاته المقدسة كل هذه الامور تمنح الإنسان الدعة والاطمئنان والقوة، فإن القرآن يعقب على الأمر بالصبر بالقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ».

سواء كان الحمد التسيبحة سحرًا، أو عند صلاة الفريضة، أو عند القيام من أى مجلس كان.

أجل، نور روحك وقلبك بتسيبحة الله وحمده فإنهما يمنحان الصفاء ... وعطر لسانك بذكر الله ... واستمد منه المدد واستعد لمواجهة أعدائك.

وفى الدر المنثور: إنه لما كان بأخرة كان إذا قام من مجلسه قال: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك». فقيل يا رسول الله! ما هؤلاء الكلمات التى تقولهن، قال: «هن كلمات علمنيهن جبرئيل كفارات لما يكون فى المجلس».

ثم يضيف القرآن فى آخر آية من الآيات محل البحث قائلاً: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ». «نهائية تفسير سورة الطور»

## الجزء الخامس

### ٥٣. سورة النجم

محتوى السورة: هذه السورة- كما يقول بعض المفسرين- هى أول سورة تلاها النبى صلى الله عليه وآله جهرًا وبصوت عال فى حرم مكة بعد أن أضحت دعوته علنًا ... وأصغى إليها المشركون وسجد لها جميع المسلمين حتى المشركون (١).

إن هذه السورة- لكونها مكية- تحمل بين ثناياها بحوثًا فى الاصول الاعتقادية خاصة «النبوة والمعاد» وفيها تهديد ووعد وإنذارات مكررة لإيقاظ الكفار وردعهم عن غيرهم.

ويمكن تقسيم محتوى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

١- بداية السورة تتحدث بعد القسم العميق المغزى عن حقيقة الوحي وإتصال النبى صلى الله عليه وآله مباشرة بمنزل الوحي «جبريل».

٢- ثم يجرى الكلام على معراج الرسول صلى الله عليه وآله، له علاقة مباشرة بالوحي أيضاً.

٣- ثم يجرى الكلام عن خرافات المشركين فى شأن الأصنام وعبادة الملائكة.

٤- ويفتح القرآن سبيل التوبة بوجه المنحرفين وعامة المذنبين، ويؤملهم بمغفرة الله الواسعة، ويؤكد على أن كلاً مسؤول عن عمله، ولا تزر وازرة وزر اخرى.

٥- وإكمالاً لهذه الأهداف يبين جوانب من مسألة- المعاد- ويقيم دليلاً واضحاً على هذه

(١) تفسير روح البيان ٢٠٨/٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦

المسألة بما هو موجود فى النشأة الاولى- الدنيا-.

٦- وكعادة القرآن فى سائر السور ترد فى هذه السورة إشارات لعواقب الامم المؤلمة لعداوتهم للحق وعنادهم.

٧- وأخيراً فإن السورة تختتم بالأمر بالسجود لله وعبادته.

وتسمية السورة ب «النجم» هى لورود هذا اللفظ فى الآية الاولى من السورة ذاتها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة النجم اعطى من الأجر عشر حسنات

بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وآله ومن جحد به».

ومن المسلم به أن مثل هذا الثواب العظيم هو لأولئك الذين يتخذون تلاوة هذه السورة وسيلة للتفكير، ثم العمل، وأن يطبقوا تعليمات هذه السورة على أنفسهم في حياتهم.

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ممَّا يجدر بيانه أن السورة السابقة «الطور» ختمت بكلمة «النجوم»، وهذه السورة بدأت ب «والنجم» - إذ أقسم به الله قائلاً: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ» .

والظاهر من الآية ما يقتضيه إطلاق كلمة «والنجم» القسم بنجوم السماء كافة التي هي من أدلته عظمة الله ومن أسرار عالم الوجود الكبرى ومن المخلوقات العظيمة لله تعالى.

والتعويل على غروبها وافولها مع أن طلوعها وإشراقها يسترعى النظر أكثر، هو لأن غروب النجم دليل على حدوثة كما أنه دليل على نفى عقيدة عبادة الكواكب كما ورد في قصة إبراهيم الخليل: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُحِبُّ الْأَفْلِينَ» (١).

لكن لنعرف لم أقسم الله بالنجم؟ الآية التالية توضح ذلك فتقول: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ» .

(١) سورة الأنعام / ٧٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧

والتعبير ب «الصاحب» أى الصديق أو المحب لعله إشارة إلى أن ما يقوله نابع من الحب والشفقة.

ومن أجل التأكيد على هذا الموضوع وإثبات أن ما يقوله هو من الله فإن القرآن يضيف قائلاً: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ» .

وهذا التعبير مشابه التعبير الاستدلالي الوارد فى الآية آنفه الذكر فى صدد نفى الضلالة والغواية عن النبى صلى الله عليه وآله لأن أساس الضلال غالباً ما يكون من اتباع الهوى.

ثم تأتى الآية التالية لتصرح: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» .

فهو لا يقول شيئاً من نفسه، وليس القرآن من نسج فكره! بل كل ما يقوله فمن الله، والدليل على هذا الإدعاء كامن فى نفسه، فالتحقيق فى آيات القرآن يكشف بجلاء أنه لن يستطيع إنسان مهما كان عالماً ومفكراً - فكيف بالامى الذى لم يقرأ ولم يكتب فى محيط مملوء بالخرافات - أن يأتى بكلام غزير المحتوى كالقرآن، إذ ما يزال بعد مضى القرون والعهود ملهماً للأفكار، ويمكنه أن يكون أساساً لبناء مجتمع صالح مؤمن سالم.

وينبغى الإلتفات - ضمناً - إلى أن هذا القول ليس خاصاً بآيات القرآن، بل بقريته الآيات السابقة يشمل سنه الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً وأنها وفق الوحى، لأن هذه الآية تقول بصراحة: «وما ينطق عن الهوى».

والحديث الطريف التالى شاهد آخر على هذا المدعى.

فى الدر المنثور: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تسد الأبواب التى فى المسجد فشق عليهم قال:

حبه أتى لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرغان وهو يقول:

أخرجت عمك وأبابكر وعمر والعباس، وأسكنت ابن عمك فقال رجل يومئذ ما بالوا برفع ابن عمه قال فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قد شق عليهم فدعا الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول الله صلى الله عليه وآله خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً فلما فرغ قال: «يا أيها الناس ما أنا سددها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته». ثم قرأ: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» .

وهذا الحديث الذى يكشف عن علو مقام أمير المؤمنين على عليه السلام بين جميع الامة الإسلامية بعد الرسول يدل على أنه ليست

أقوال النبي طبق الوحي فحسب بل حتى أعماله وأفعاله وتقريره وسيرته أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى (١٢) تعقيباً على الآيات المتقدمة التي تحدثت عن نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وآله يجرى الكلام في هذه الآيات عن معلم الوحي. تقول الآية: إن من له تلك القدرة العظيمة هو الذي علم النبي صلى الله عليه وآله: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى».

وللتأكيد أكثر تضيف الآية بعدها إنه ذو قدرة خارقة ومتسلط على كل شيء: «ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى».

وقد علمه هذا التعليم عندما كان بالافق الأعلى: «وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى».

ثم اقترب واقترب حتى كان بفاصلة قوسين من معلمه أو أقل «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى». ثم أن الله تعالى أنزل عليه الوحي «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى».

«المِرَّة»: معناها الفتل، وبما أن الحبل كلما فتل أكثر كان أشد إحكاماً وقوة... فإن هذه الكلمة استعملت في الامور المادية أو المعنوية المحكمة والقوية.

«تدلَّى»: فعل مأخوذ من التدلَّى ومعناه، كما يقول الراغب في مفرداته، الإقتراب، فبناءً على ذلك فهو تأكيد على جملة «دنا» الواردة قبله، وكلا الفعلين بمعنى واحد تقريباً.

«قاب»: بمعنى مقدار؛ و «قوس» (معروف معناه) وهو ما يوضع في وتره السهم ليرمي به فمعنى «قاب قوسين»... قدر طول قوسين.

ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام بأن المراد من هذه الآيات الرؤية الباطنية (القلبية) لذات الله المقدسة التي تجلّت للرسول وتكررت في المعراج واهتز لها النبي وهالته.

فعلى هذا التفسير يبين القرآن نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله بالصورة التالية:

إن الله الذي هو شديد القوى علم النبي في وقت بلغ حد الكمال والإعتدال في الافق الأعلى. ثم قرب وصار أكثر إقتراباً حتى كان بينه وبين الله مقدار قاب قوسين أو أقل وهناك أوحى الله إليه ما أوحاه. وبما أن هذا اللقاء الباطني يصعب تصوّره لدى البعض، فإنه يؤكد

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩

أن ما رآه قلب النبي كان حقاً وصادقاً ولا ينبغي تكذيبه أو مجادلته.

وكما بينا فإن تفسير هذه الآيات بشهود النبي الباطني لله تعالى هو أكثر صحّة وأكثر إنسجاماً وموافقاً للروايات الإسلامية، وأكرم فضيلة للنبي، ومفهومها أجمل وأطف، والله أعلم بحقائق الامور.

ونختم هذا البحث بحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وآخر عن علي عليه السلام.

١- في تفسير القرطبي: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله هل رأيت ربك؟ فقال: «رأيت به فؤادي».

٢- وفي خطبة الإمام علي (١٧٩) في نهج البلاغة إذ سأله ذعلب اليماني: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟...».

وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) هذه الآيات هي أيضاً تنتم للأبحاث السابقة في شأن مسألة الوحي وإرتباط النبي صلى الله

عليه وآله بالله والشهود الباطني، إذ تقول: «وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى». أي مرّة ثانية، وكان ذلك «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى». أي عند شجرة سدر في الجنة تدعى بسدره المنتهى ومحلها في جنّة المأوى:

«عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى».

هذه حقائق واقعية شاهدها النبي صلى الله عليه وآله بام عينيه و «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى .  
ورغم أنه لم يرد توضيح عن سدره المنتهى في القرآن الكريم، إلّا أنّ الأخبار والروايات الإسلامية ذكرت لها أوصافاً كثيرة. وهذه  
التعابير تشير إلى أن المراد من هذه الشجرة ليس كما نألفه من الأشجار المورقة والباسقة على الأرض أبداً، بل إشارة إلى ظلّ عظيم في  
جوار رحمة الله وهناك محلّ تسبيح الملائكة ومأوى الامم الصالحة.  
أمّا «جَنَّةُ الْمَأْوَى فمعناها الجنة التي يُسكن فيها؛ والمراد من هذه الجنة هو «جنة البرزخ» التي تحلّ فيها أرواح الشهداء والمؤمنين  
بصورة مؤقتة.

والآية: «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى إشارة إلى أن بصر النبي، وأنّ عينيه الكريمتين لم تميلتا يمنة ولا يسرة، وما رآه النبي بعينه هو عين  
الواقع؛ لأنّ «زاغ»: من مادة «زيغ» معناه الانحراف يمينا أو شمالاً؛ و «طغى»: من الطغيان، معناه التجاوز عن الحد.  
مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠

إنّ التعبير ب «نَزَلَهُ أُخْرَى معناه أن النبي صلى الله عليه وآله رأى الله في شهود باطنى عند معراجة في السماء. وتعبير آخر: نزل الله  
مرّة اخرى على قلب النبي وتحقق الشهود الكامل في (المنتهى إليه) القريب إلى الله عند سدره المنتهى حيث جنة المأوى والسدره  
تغطيتها حجب من أنوار الله.  
ورؤية قلب النبي في هذا الشهود لم تكن لغير الحق أبداً، ولم ير سواه، ولقد رأى من دلائل عظمة الله في الآفاق والأنفس أيضاً  
وشاهدها بعينه.

بحثنان

١- ما هو الهدف من المعراج؟ الهدف من المعراج هو بلوغ النبي صلى الله عليه وآله مرحلة الشهود الباطنى من جهه، ورؤية عظمة  
الله في السماوات بالبصر الظاهرى من جهه اخرى والتي أشارت إليه آخر آية من الآيات محل البحث: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ  
الْكُبْرَى .

وفي الآية الاولى من سورة الإسراء: «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا» والإطلاع على مسائل مهمّة- كثيرة- كأحوال الملائكة وأهل الجنة وأهل النار  
وأرواح الأنبياء والتي كانت مصدر إلهام للنبي طوال عمره الشريف في تعليم وتربية الناس.

٢- جانب من إحياءات الله وكلماته لرسوله في ليلة المعراج: في كتاب ارشاد القلوب للديلمى: روى عن أمير المؤمنين على عليه  
السلام: «أنّ النبي صلى الله عليه وآله سأل ربّه سبحانه ليلة المعراج فقال:

يا ربّ أى الأعمال أفضل؟! فقال الله عزّ وجل: ليس شىء عندي أفضل من التوكل علىّ والرّضا بما قسمت. يا محمّد! وجبت محبّتى  
للمتحابين فيّ، ووجبت محبّتى للمتعاطفين فيّ، ووجبت محبّتى للمتواصلين فيّ، ووجبت محبّتى للمتوكّلين علىّ، وليس لمحبتى علم  
ولا غاية ولا نهاية».

وجاء في جانب آخر: «يا أحمد (١) فاحذر أن تكون مثل الصبى إذا نظر إلى الأخضر والأصفر أحبّه وإذا أعطى شىء من الحلو  
والحامض اغترّ به. فقال: يا ربّ، دلّنى على عمل أتقرب به إليك.

قال: اجعل ليلتك نهراً ونهارك ليلاً. قال: ربّ وكيف ذلك؟ قال: اجعل نومك صلاةً وطعامك الجوع».

كما جاء في مكان آخر منه: «يا أحمد، محبّتى محبّة للفقراء فادن الفقراء وقرب مجلسهم

(١) إنّ إسم النبي في كل مكان من هذا الحديث ورد بلفظ أحمد إلّا في بدايته، أجل فاسم النبي في الأرض محمّد وفي السماء أحمد.

وجاء فى موضع آخر أيضاً: «يا أحمد، أبغض الدنيا وأهلها وأحب الآخرة وأهلها. قال يا ربّ ومن أهل الدنيا ومن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضا لا يعتذر إلى من أساء إليه ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه، كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمله بعيد وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام، وإنّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويدعون بما ليس لهم، ويتكلمون بما يتمنون ويدكرون مساوى الناس ويخفون حسناتهم.

قال: يا ربّ، هل يكون سوى هذا العيب فى أهل الدنيا؟ قال: يا أحمد، إنّ عيب أهل الدنيا كثير، فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء».

ثم يتناول الحديث أهل الجنة فيقول: «يا أحمد، إنّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقة وجوههم، كثير حياؤهم، قليل حمقهم، كثير نفعهم، قليل مكرهم، الناس منهم فى راحة وأنفسهم منهم فى تعب، كلامهم موزون، محاسبين لأنفسهم، متعبين لها، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، إذا كتب الناس من الغافلين كتبوا من الذاكرين، فى أول النعمة يحمدون وفى آخرها يشكرون، دعاؤهم عند الله مرفوع، وكلامهم مسموع، تفرح الملائكة بهم، ... الناس [الغفلة] عندهم موتى والله عندهم حى قيوم كريم، يدعون المدبرين كراماً ويريدون المقبلين تلطفاً قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة، يموت الناس مرّة ويموت أحدهم فى كل يوم سبعين مرّة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم ... وإن قاموا بين يدي كأنهم بنيان مرصوص لا أرى فى قلبهم شغلاً لمخلوق ... فوعزّتى وجلالى لأحبيّتهم حياةً طيبةً إذا فارقت أرواحهم من جسداهم ولا أسلّط عليهم ملك الموت ولا يلى قبض روحهم غيرى ولا أفتحنّ لروحهم أبواب السماء كلها ولأرفعن الحجب كلها دونى، ولأمرنّ الجنان فلتزيننّ»

... «يا أحمد، إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال فإذا طيبت مطعمك ومشربك فأنت فى حفظى وكفى».

وجاء فى مكان آخر منه: «يا أحمد، هل تدرى أىّ عيش أهنا وأىّ حياة أبقى؟ قال اللهم لا.

قال: أما العيش الهنىء فهو الذى لا يفتّر صاحبه عن ذكرى ولا ينسى نعمتى ولا يجهل حقى،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢

يطلب رضاي فى ليله ونهاره. وأما الحياة الباقية فهى التى يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر فى عينه وتعظم الآخرة عنده ويؤثر هواى على هواه ويبتغى مرضاتى ويعظم حق عظمتى ويذكر علمى به ويراقبنى بالليل والنهار عند كل سيئته أو معصية وينقى قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسيلاً فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه لى وفراغه وإشتغاله وهمة وحديثه من النعمة التى أنعمت بها على أهل محبّتى من خلقتى وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالى وعظمتى». وأخيراً فإنّ هذا الحديث القدسى الكريم يختم بهذه العبارات المؤثرة: «يا أحمد، لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض ويصوم صيام أهل السماء والأرض ويطوى من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العارى ثم أرى فى قلبه من حبّ الدنيا ذرة أو سعتها أو رئاستها أو حليتها أو زيتها لا يجاورنى فى دارى ولأنزعنّ من قلبه محبّتى وعليك سلامى ورحمتى والحمد لله ربّ العالمين» (١).

هذه الأحاديث القدسية «من ربّ العرش» التى تحمل روح الإنسان إلى أوج السماوات معها وتعرج به إلى حالة الشهود هى قسم من الحديث القدسى المشار إليه آنفاً.

ونضيف إلى ذلك أننا على يقين أنه كان بين النبى ومحبوبه فى تلك الليلة الكريمة أسرار وإشارات وكلمات اخرى لا تستطيع الأذان الإصغاء إليها ولا الأفكار الساذجة إستيعابها؛ ولذلك بقيت فى نفس النبى صلى الله عليه وآله طي الكتمان فلم يبيح بها لأحد إلّا لخصائمه المختصين به.

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ



سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآيَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) هذه الأصنام وليده أهوائكم: بعد بيان الأبحاث المتعلقة بالتوحيد والوحى والمعراج وآيات عظمة الواحد الأحد فى السماء، يتناول القرآن أفكار المشركين، فينقضها ويتحدث عن معتقداتهم الخرافية ... فيقول: بعد أن أدركتم عظمة الله وآياته فى خلقه فهل أن أصنامكم

(١) بحار الأنوار ٧٤ / ٢١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣

مثل اللات والعزى والصنم الثالث وهو «مناة» بإمكانها أن تنفعكم أو تضركم: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ . مع أنكم تزعمون أن قيمة البنت دون قيمة الولد ولو بلغكم أن أزواجكم أنجب بنات حزنتم واسودت وجوهكم. «تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ . فهذه قسمة غير عادلة بينكم وبين الله تعالى فعلم تجعلون نصيب الله دون نصيبكم؟! وهكذا يتناول القرآن أفكارهم الخرافية مستهزئاً بها! ويقول لهم: إنكم ترون البنت عاراً وذلك وتندونها وهى حية فى القبر، وفى الوقت ذاته تزعمون بأن الملائكة بنات الله، ولا تعبدون الملائكة من دون الله فحسب بل تصنعون لها التماثيل وتجعلون لها تلك القدسية. ومن هنا يبدو واضحاً أن العرب الجاهلين كانوا يعبدون بعض هذه الأصنام على الأقل على أنها تماثيل الملائكة، الملائكة التى يسمون كلاً منها برى النوع ومدبر الوجود ومدبره، وكانوا يرون أن الملائكة بنات الله. ومن هنا يتبين أن القرآن لا يقصد إمضاء ما كان عليه العرب من التفريق بين الذكر والانثى، بل يريد بيان ما هو مقبول ومسلم عندهم (وهو منطق الجدول)، وإلا فلا فرق فى نظر الإسلام ومنطقه بين الذكر والانثى من حيث القيمة الإنسانية، ولا الملائكة فيهم ذكر وانثى، ولا هم بنات الله، وليس عند الله من ولد أساساً.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن بضرر قاطع: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآيَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ».

فلا دليل لديكم من العقل، ولا دليل عن طريق الوحى على مدعاكم، وليس لديكم إلا حفة من الأوهام والخيالات الباطلة. ثم يختتم القرآن الآية بالقول: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ». فهذه الخيالات والموهومات وليده هوى النفس «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى .. إِلَّا أَنَّهُمْ أَغْمَضُوا أَعْيُنَهُمْ عَنْهُ وَخَلَفُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَتَاهُوا فِي هَذِهِ الْأَوْهَامِ وَالضَّلَالَاتِ . وَأَسَاساً فَإِنَّ «هوى النفس» ذاته يعد أكبر الأصنام وأخطرها، وهو الأصل لظهور الأصنام الأخرى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) هذه الآيات أيضاً تتناول بالبحث والتعقيب موضوع عبادة الأصنام وخرافتها، وهى تتمة لما سبق بيانه فى الآيات المتقدمة. فنتناول أولاً الامنيات الجوفاء عند عبدة الأصنام وما كانوا يتوقعون من الأصنام: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى . تُرَى! هل من الممكن أن تشفع هذه الأجسام التى لا قيمة لها ولا روح فيها عند الله سبحانه؟ أو يلتجأ إليها عند المشكلات؟ كلاً! «فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى .

إن عالم الأسباب يدور حول محور إرادته، وكل ما لدى الموجودات فمن بركات وجوده، فالشفاعة من اختياراته أيضاً، وحل المشاكل بيد قدرته كذلك.

وهكذا فإن القرآن يقطع أمل المشركين تماماً- بشفاعة الأصنام.

وفى آخر الآيات محل البحث يقول القرآن مضيفاً ومؤكداً على هذه المسألة: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى .

فحيث لا تستطيع الملائكة على عظمتها حتى ولو بشكل جماعي أن تشفع لأحد إلا بإذن الله ورضاه، فما عسى يُنتظر من هذه الأصنام التي لا قيمة لها.

بحث

سعة الأمانى: الأمل أو التمنى إنما ينبع من محدودية قدرة الإنسان وضعفه، الإنسان إذا كانت له علاقة بالشىء ولم يستطع أن يبلغه ويحققه فإنه يأخذ صورة التمنى عنده ...

وبالطبع قد تكون أمانى الإنسان أحياناً نابعة من روحه العالية وبعثاً على الحركة والجد والنشاط والجهاد وسيره التكاملى ... كما لو تمنى بأن يتقدم الناس بالعلم والتقوى والشخصية والكرامة.

إلما أنه كثيراً ما تكون هذه الأحلام «الأمانى» كاذبة، وعلى العكس من الأمانى الصادقة فإنها- أى الكاذبة- أساس الغفلة والجهل والتخدير والتخلف كما لو تمنى الإنسان الخلود فى الأرض والعمر الدائم، وأن يملك أموالاً طائلة، وأن يحكم الناس جميعاً وأمثال هذا الخيال الموهوم.

ولذلك فقد رغبنا الروايات الإسلامية الناس فى تمنى الخير، كما فى كتاب الخصال عن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥

على عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو لله عز وجل رضاء لم يخرج من الدنيا حتى يعطاه».   
 إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَمَّا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠) هذه الآيات- محل البحث- كالأيات المتقدمة، تبحث موضوع نفى عقائد المشركين، فتقول أولها: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى .

أجل، إن هذا الكلام القبيح والمخجل إنما يصدر من اناس لا يعتقدون بيوم الحساب ولا بجزاء أعمالهم، فلو كانوا يعتقدون بالآخرة لما تجاسروا وقالوا مثل هذا الكلام، وأى كلام؟! كلام ليس لهم فيه أدنى دليل ... بل الدلائل العقلية تبرهن على أنه ليس لله من ولد، وليس الملائكة إناثاً، ولا هم بنات الله كذلك.

ثم يتناول القرآن واحداً من الأدلة الواضحة على بطلان هذه التسمية فيقول معقلاً:

«وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَمَّا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً».

فالإنسان الهادف والمعتقد لا يطلق كلامه دون علم ودراية، ولا ينسب أية نسبة لأحد دونما دليل .. فالتعويل على الظن والتصور إنما هو من عمل الشيطان أو من يتصف بالشیطانية ... وقبول الخرافات والأشياء الموهومة دليل الإنحراف وعدم العقل.

ولكن الظن المعقول وهو ما يخطر فى الذهن، ويكون مطابقاً للواقع غالباً، وعليه يبنى الإنسان أعماله و سلوكياته اليومية عادة- كشهادة الشهود فى المحكمة وقول أهل الخبرة وظواهر الألفاظ وأمثال ذلك- غير داخل فى هذه الآيات، وهذه الامور نوع من العلم العرفى لا الظن.

ومن أجل أن يبين القرآن أن هؤلاء الجماعة ليسوا أهلاً للإستدلال والمنطق الصحيح، وقد ألهاهم حب الدنيا عن ذكر الله وجرهم إلى الوحل فى خرافاتهم وأوهامهم يضيف قائلاً:

«فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦

إنما عبارة (ذكرنا) ذو مفهوم واسع بحيث يشمل كل توجه نحو الله، سواء أكان ذلك عن طريق القرآن، أو عن طريق العقل، أو عن طريق السنّة، أو تذكّر القيامة وما إلى ذلك.

وربما لا حاجة إلى التذكير أن الأمر بالإعراض عن هذه الفئة (أهل الدنيا) لا ينافي تبليغ الرسالة الذي هو وظيفة النبي الأساسية، لأن التبليغ والإنذار والبشارة كلها لا تكون إلمافي موارد احتمال التأثير، فحيث يعلم ويتيقن عدم التأثير فلا يصح هدر الطاقات، وينبغي الإعراض بعد إتمام الحجّة.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يثبت القرآن انحطاط أفكار هذه الفئة فيقول مضيفاً:  
«ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ».

إن آية أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى خرافاتهم كعبادة الأصنام وجعلهم الملائكة بنات الله: أي أن منتهى علمهم هو هذه الأوهام. أو أنها إشارة إلى حب الدنيا والأسر في قبضة الماديات، أي أن منتهى إدراكهم هو قناعتهم بالأكل والشرب والنوم والمتاع الفاني في هذه الدنيا وزبرجها وزخرفها الخ.

وقد جاء في الدعاء المعروف في أعمال شعبان المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا».

وتختتم الآية بالقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى .

ختام الآية يشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن الله يعرف الضالين جيّداً كما يعرف المهتدين أيضاً، فيصّب غضبه على الضالين ويسبغ لطفه على المهتدين، ويجازي كلّاً بعمله يوم القيامة.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَبِئُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتَقَى (٣٢) لما كان الكلام في الآيات المتقدمة عن علم الله بالضالين والمهتدين، فإن الآيات أعلاه تتمه لما جاء آنفاً. تقول: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧

فالمالكية المطلقة في عالم الوجود له وحده، والحاكمية المطلقة على هذا العالم له أيضاً، ولذلك فإن تدبير عالم الوجود بيده فحسب. ولما كان الأمر كذلك فهو وحده الجدير بالعبادة والشفاعة.

إن هدفه الكبير من هذا الخلق الواسع ليستيقظ الإنسان في عالم الوجود وليسير في مسير التكامل في ضوء المناهج التكوينية والتشريعية وتعليم الأنبياء وتربيتهم، لذلك فإن القرآن يذكر نتيجة هذه المالكية فيختتم الآية بالقول: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى .

ثم يصف القرآن المحسنين في الآية التالية فيقول: «الَّذِينَ يَجْتَبِئُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ».

«الكبائر»: جمع كبيرة؛ و «الإثم» في الأصل هو العمل الذي يُبعد الإنسان عن الخير والثواب، لذلك يطلق على الذنب عادة؛ و «اللمم»: معناه الإقتراب من الذنب. في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اللمم: الرجل يلتم بالذنب فيستغفر الله منه».

والقرائن الموجودة في هذه الآية تشهد على هذا المعنى أيضاً... إذ قد تصدر من الإنسان بعض الذنوب، ثم يلتفت إليها فيتوب منها.

أضف إلى ذلك فإن الجملة التالية بعد الآية في القرآن تقول: «إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ».

وهذا يدل على أن ذنباً صدر من الإنسان وهو بحاجة إلى غفران الله. يعني أن الذين أحسنوا من الممكن أن ينزلقوا في منزلق ما فيذنوبوا، إلا أن الذنب على خلاف سجيّتهم وطبعهم وقلوبهم الطاهرة- وإنما تقع الذنوب عرضاً، ولذلك فما أن يصدر منهم الذنب إلا ندموا وتذكروا وطلبوا المغفرة من الله سبحانه.

ويتحدث القرآن في ذيل الآية عن علم الله المطلق مؤكّداً عدالته في مجازاة عباده حسب أعمالهم فيقول: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ».

وقوله «أنشأكم من الأرض» إما هو باعتبار الخلق الأول عن طريق آدم عليه السلام الذى خلقه من تراب، أو باعتبار أن ما يتشكّل منه وجود الإنسان كله من الأرض، حيث له الأثر الكبير فى التغذية وتركيب النطفة، ثم بعد ذلك له الأثر فى مراحل نمو الإنسان أيضاً. وعلى كل حال، فإنّ الهدف من هذه الآية أنّ الله مطلع على أحوالكم وعليم بكم منذ كنتم ذرّات فى الأرض ومن يوم إنعقدت نطفتكم فى أرحام الامهات فى أسجاف من الظلمات فكيف - مع هذه الحال - لا يعلم أعمالكم. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨

وهذا التعبير مقدمه لما يليه من قوله تعالى: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

فلا حاجة لتعريفكم وتزكيتكم وبيان أعمالكم الصالحة، فهو مطلع على أعمالكم وعلى ميزان خلوص نياتكم، وهو أعرف بكم منكم. فى علل الشرائع عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير قوله تعالى «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ» قال: «لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لأنّ الله تعالى أعلم بمن اتقى منكم».

بحث

ما هى كبائر الإثم: إنّ كل ذنب فيه أحد الشروط التالية يعدّ كبيراً:

أ الذنوب التى ورد الوعيد من قبل الله فى شأنها والعذاب لمتركبها.

ب الذنوب المذكورة فى نظر أهل الشرع ولسان الروايات بأنّها عظيمة.

ج الذنوب التى عدّتها المصادر الشرعية أكبر من الذنوب التى هى من الكبائر.

د وأخيراً الذنوب المصرّح بها فى الروايات المعتبرة بأنّها من الكبائر.

وقد ورد ذكر الكبائر فى الروايات الإسلامية مختلفاً عددها فيه، إذ جاء فى بعضها أنّها سبع. فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... والكبائر السبع الموجبات: قتل النفس الحرام، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف».

وجاء فى بعض الروايات أنّها «عشر»، وأوصلتها روايات اخر إلى «تسع عشرة» كبيرة، وربّما ترقى هذا العدد إلى أكثر مما ذكر فى بعض الروايات أيضاً.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَ إِبرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى (٣٧) أَنْ تَرَى وَرِزْرًا وَرِزْرًا أُخْرَى (٣٨) وَ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَ أَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)

سبب التزول

فى مجمع البيان: نزلت فى عثمان بن عفان، كان يتصدق وينفق ماله، فقال له أخوه من الرضاة عبد الله بن أبى سرح: ما هذا الذى تصنع يوشك أن لا يبقى لك شىء؟ فقال عثمان:

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩

إنّ لى ذنوباً، وإنى أطلب بما أصنع رضى الله وأرجو عفوه. فقال له عبد الله: أعطنى ناقتك، وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه، وأشهد عليه، وأمسك عن الصدقة. فنزلت الآيات.

وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله على دينه، فعيّره بعض المشركين، وقالوا: تركت دين الأشياخ وظلتهم، وزعمت أنّهم فى النار؟ قال: إننى خشيت عذاب الله. فضمن له الذى عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه، أن يتحمّل عنه عذاب الله، ففعل. فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل، ومنعه تمام ما ضمن له، فنزلت الآيات.

التفسير

كان الكلام في الآيات السابقة في أن يجزي الله تعالى من أساء بإساءته ويشب المحسنين بإحسانهم ... وبما أنه من الممكن أن يتصور أن يعذب أحد بذنب غيره أو أن يتحمل أحد وزر غيره، فقد جاءت هذه الآيات لتنفى هذا التوهم في المقام، وبينت هذا الأصل الإسلامي المهم أن كلاً يرى نتيجة عمله، فقالت أولاً: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . أَى تَوَلَّى مِنَ الْإِسْلَامِ أَو الْإِنْفَاقِ . «وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى» (١) . بمعنى أنه أنفق القليل ثم إمتنع وأمسك وهو يظن أن غيره سيحمل وزره يوم القيامة ..

«أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوَ يَرَى . فَأَى رَجُلٍ جَاءَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَ «القيامة» فأخبرهم بأنه يمكن أخذ الرشوة وتحمل آثام الآخرين؟ وبعد هذا تأتي الآية الاخرى لتبين إعتراض القرآن الشديد على ذلك، وبيان لأصل كلى مطرد في الأديان السماوية كلها فتقول: ترى أهذا الذى إمتنع عن الإنفاق وآمن بالوعود الخيالية، ويريد أن يخلص نفسه من عذاب الله بإنفاقه اليسير والزهد من أمواله، أتغنيه هذه الخيالات والتصورات: «أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى» (٢) . «إبراهيم»: هو ذلك النبي العظيم الذى أدى حق رسالته لله، وبلغ ما أمره به ووفى بجميع عهوده ومواريقه، ولم يخش تهديد قومه وطاغوت زمانه، ذلك الإنسان الذى بذل نفسه للنيران وقلبه للرحمن وولده للقربان وماله للأخوان . ثم تأتي الآية الاخرى لتقول: «أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى .

(١) «أكدى»: مأخوذ من الكدية ومعناه الصلابه، ثم أطلق على من يمسك والبخيل.

(٢) «وفى»: مصدره توفيه معناه البذل والأداء التام ..

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠

«الوزر»: فى الأصل مأخوذ من «الوزر» - على زنه خطر - ومعناه المأوى أو الكهف أو الملجأ الجبلى، ثم استعملت هذه الكلمه فى الاعباء الثقيله! لشباهتها الصخور الجبلية العظيمة، وأطلقت على الذنب أيضاً، لأنه يترك عبثاً ثقيلاً على ظهر الإنسان. والمراد من «الوازره» من يتحمل الوزر.

ولمزيد الإيضاح يضيف القرآن قائلاً: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى .

أما الآية التالية فتقول: «وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى . فالإنسان لا يرى غداً نتائج أعماله التى كانت فى مسير الخير أو الشر فحسب، بل سيرا أعماله نفسها يوم الحساب، كما نجد التصريح بذلك فى الآية (٣٠) من سورة آل عمران: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا» .

أما الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فتقول: «ثُمَّ يُجْزَى الْجَزَاءَ الْأَوْفَى .

والمراد من «الجزء الأوفى» هو الجزء الذى يكون طبقاً للعمل، وبالطبع هذا لا- ينافى لطف الله وتفضله بأن يضاعف الجزاء على الأعمال الصالحة عشرة أضعاف أو عشرات الأضعاف ومئاتها وإلى ما شاء الله.

اشير فى الآيات - آنفه الذكر - إلى ثلاثة اصول من الاصول الإسلامية، وقد أكدت عليها الكتب السماوية السابقة وهى:

(أ) كل إنسان مسؤول عن ذنبه ووزره.

(ب) ليس للإنسان فى آخرته إلا سعيه.

(ج) يجزى الله كل إنسان على عمله الجزاء الأوفى.

وهكذا فإن القرآن يشجب الكثير من الأوهام والخرافات التى يهتم بها عامه الناس أو السائدة بينهم وكأنها مذهب عقائدى . وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى (٤٢) وَأَنَّ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّ هُوَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى (٤٩) كل شىء ينتهى إليه: فى هذه الآيات تتجلى بعض صفات الله التى ترشد الإنسان إلى مسأله التوحيد وكذلك المعاد أيضاً. ففى هذه الآيات وإكمالاً للبحوث

الواردة في شأن جزاء

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١

الأعمال يقول القرآن: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ .

وليس الحساب والثواب والجزاء في الآخرة بيد قدرته فحسب، فإن الأسباب والعلل جميعها تنتهي سلسلتها إلى ذاته المقدسة، وجميع تدبيرات هذا العالم تنشأ من تدبيراته، وأخيراً فإن ابتداء هذا العالم والموجودات وانتهائها كلها منه وإليه، وتعود إلى ذاته المقدسة. في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا وتكلموا فيما دون العرش، ولا تكلموا فيما فوق العرش». أي لا تتكلموا في ذات الله فإن العقول تحار فيه ولا تصل إلى حد فإنه لا يمكن للعقول المحدودة أن تفكر في ما هو غير محدود لأنه مهما فكرت العقول فتفكيرها محدود وحاشا لله أن يكون محدوداً. إن هذا التفسير لا ينافي ما ذكرناه آنفاً ويمكن الجمع بين المفهومين في الآية.

ثم يضيف القرآن في الآية التالية مبيناً حاكمية الله في أمر ربيوته وإنهاء امور هذا العالم إليه فيقول: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا\* وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ .

وهذه الآيات الأربع وما قبلها هي بيان جامع وتوضيح طريف لمسألة انتهاء الامور إليه وتدبيره وربوبيته، لأنها تقول: إن موتكم وحياتكم بيده واستمرار النسل عن طريق الزوجين بيده، وكل ما يحدث في الحياة فبأمره، فهو يضحك، وهو يبكي، وهو يميت، وهو يحيى، وهكذا فإن أساس الحياة والمعول عليه من البداية حتى النهاية هو ذاته المقدسة. وقد جاء في بعض الأحاديث ما يوسع مفهوم الضحك والبكاء في هذه الآية ففسرت بأنه سبحانه: «أبكى السماء بالمطر وأضحك الأرض بالنبات» (١).

وبعد ذكر الامور المتعلقة بالربوبية والتدبير من قبل الله يتحدث القرآن عن موضوع المعاد فيقول: «وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ .

«النشأة»: معناها الإيجاد والتربية، و «النشأة الاخرى» ليست شيئاً سوى القيامة.

ثم يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَىٰ وَأَقْنَىٰ .

فالله سبحانه لم يرفع حاجات الإنسان المادية عنه بلطفه العميم فحسب، بل أولاه غنى يرفع عنه حاجاته المعنوية من امور التربية والتعليم والتكامل عن طريق إرسال الرسل إليه وإنزال الكتب السماوية وإعطائه المواهب العديدة.

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢ / ٣٣٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢

«أعنى»: فعل مشتق من غنى ومعناه عدم الحاجة؛ و «أقنى»: فعل مشتق من قنية على وزن جزيه، ومعناها الأموال التي يدخرها الإنسان. فيكون معنى الآية على هذا النحو: هو أعنى أي رفع الحاجات الفعلية، وأقنى معناه إيلاء المواهب التي تدخر سواء في الامور المادية كالحائظ أو البستان والأملاك وما شاكلها، أو الامور المعنوية كرضا الله سبحانه الذي يعد أكبر «رأس مال» دائم. أما آخر آية من الآيات محل البحث فتقول: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ .

تخصيص القرآن «الشعري» النجم المعروف في السماء بالذكر، بالإضافة إلى أنه أكثر النجوم لمعاناً ويطلع عند السحر في مقربة من الجوزاء مما يلفت النظر تماماً... فإن طائفة من المشركين العرب كانت تعبد، فالقرآن يشير إلى أن الأولى بالعبادة هو الله لأنه رب الشعري «وربكم».

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَتَمُودَ فَمِمَّا أَنْبَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَعَسَىٰ مَا عَشَىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ألا تكفي دروس العبرة هذه: هذه الآيات - كآيات المتقدمة - تستكمل المسائل

المذكورة فى الصحف الاولى وما جاء فى صحف ابراهيم وموسى .

وكانت الآيات المتقدمة قد ذكرت عشر مسائل ضمن فصلين:

الأول: كان ناظراً إلى مسؤولية كل إنسان عن أعماله.

الثانى: ناظر إلى إنتهاء جميع الخطوط والحوادث إلى الله سبحانه. أمّا الآيات محل البحث فتتحدث عن مسألة واحدة- وإن شئت قلت- تتحدث عن موضوع واحد ذلك هو مجازاة أربع امم من الامم المنحرفة الظالمة وإهلاكهم، وفى ذلك إنذار لأولئك الذين يلبون رؤوسهم عن طاعة الله ولا يؤمنون بالمبدأ والمعاد.

فتبدأ الآية الاولى من الآيات محل البحث فتقول: «وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى .

وصف عاد ب «الاولى» إمّا لقدمها حتى أنّ العرب تطلق على كل قديم أنه «عادى» أو لوجود امتين فى التاريخ باسم «عاد» والامة المعروفة التى كانت نبيها هود عليه السلام تدعى ب «عاد الاولى».

ويضيف القرآن فى الآية التالية قائلاً: «وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى .

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣

ويقول فى شأن قوم نوح: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى .

لأنّ نبيهم نوحاً عاش معهم زماناً طويلاً، وبذل قصارى جهده فى إبلاغهم ونصحهم، فلم يستجب لدعوته إلا قليل منهم، وأصروا على شركهم وكفرهم وعتوهم وإستكبارهم وإيدائهم نبيهم نوحاً وتكذيبهم إياه وعبادة الأوثان بشكل فظيع كما سنعرض تفصيل ذلك فى تفسير سورة نوح إن شاء الله.

وأما رابعة الامم فهى «قوم لوط» المشار إليهم بقوله تعالى: «وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى .

والظاهر أنّ زلزلة شديدة أصابت حبيهم وقريتهم فقذفت عماراتهم نحو السماء بعد إقتلاعها من الأرض وقلبتها على الأرض، وطبقاً لبعض الروايات كان جبرئيل قد إقتلعها بإذن الله وجعل عاليها سافلها ودمرها تدميراً... «فَعَشَّاهَا مَا عَشَّى .

لقد امطروا بحجارة من السماء، فغشّت حبيهم وعماراتهم المنقلبة ودفنتها عن آخرها.

وفى ختام هذا البحث يشير القرآن إلى مجموع النعم الوارد ذكرها فى الآيات المتقدمة ويلمح إليها بصورة استفهام إنكارى قائلاً: «فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبَّكَ تَسْمَرَى .

فهل تشكّ وتتردد بنعم الله، كنعمه الحياء أو أصل نعمه الخلق والإيجاد، أو نعمه أنّ الله لا- يأخذ أحداً بوزر أحد؛ وما جاء فى الصحف الاولى وأكده القرآن!

صحيح أنّ المخاطب بالآية هو شخص النبى صلى الله عليه وآله إلّا أنّ مفهومها شامل لجميع المسلمين، بل الهدف الأصلى من هذه الآية إفهام الآخرين.

هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَرْزَقْتَ الْأَرْزَقَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَمْ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَ لَا تَبْكُونَ (٦٠) وَ أَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (٦٢) تعقياً على الآيات المتقدمة التى كانت تتحدث عن إهلاك الامم السالفة لظلمهم، تتوجه هذه الآيات- محل البحث- إلى المشركين والكفار ومنكرى دعوة النبى صلى الله عليه وآله فتخاطبهم بالقول: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذْرِ الْأُولَى . أى النبى أو القرآن نذير كمن سبقه من المنذرين.

وقوله عن «القرآن أو النبى «هذا نذير من النذر الاولى» يعنى أنّ رساله محمد وكتابه

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤

السماوى لم يكن (أى منهما) موضوعاً لم يسبق إليه، فقد أنذر الله امماً بمثله فى ما مضى من القرون، فعلام يكون ذلك مثار تعجبكم. ومن أجل أن يلتفت المشركون والكفار إلى الخطر المحقق بهم ويهتّموا به أكثر يضيف القرآن قائلاً: «أَرْزَقْتَ الْأَرْزَقَةَ».

والتعبير ب «الآزفة» عن القيامة هو لإقترابها وضيق وقتها، لأنّ الكلمة هذه مأخوذة من الأزف على وزن نَجَف، ومعناه ضيق الوقت، وبالطبع فإنّ مفهومه يحمل الإقتراب أيضاً.

وتسمية القيامة بالآزفة في القرآن بالإضافة إلى هذه الآية محل البحث، واردة في الآية (١٨) من سورة غافر أيضاً... وهو تعبير بليغ وموقظ، وهذا المعنى جاء بتعبير آخر في الآية (١) من سورة القمر: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ». فإنّ إقتراب القيامة مع الأخذ بنظر الاعتبار عمر الدنيا المحدود والقصير يمكن إدراكه بوضوح، خاصة ما ورد أنّ من يموت تقوم قيامته الصغرى.

ثم يضيف القرآن قائلاً: أنّ المهمّ هو أنّه لا أحد غير الله بإمكانه إغاثته الناس في ذلك اليوم والكشف عمّا بهم من شدائد: «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ». «الكاشفة»: هنا معناه مزيحة الشدائد.

فالحاكم والمالك وصاحب القدرة في ذلك الحين وكل حين هو الله سبحانه، فإذا أردتم النجاة فالتجئوا إليه وإلى لطفه وإذا طلبتم الدعة والأمان فاستظلوا بالإيمان به. ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ».

ولعلّ هذه الجملة إشارة إلى القيامة الوارد ذكرها آنفاً، أو أنها إشارة إلى القرآن، لأنه ورد التعبير عنه ب «الحديث» في بعض الآيات كما في الآية (٣٤) من سورة الطور، أو أنّ المراد من «الحديث» هو ما جاء من القصص عن هلاك الامم السابقة أو جميع هذه المعاني.

ثم يقول مخاطباً: «وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ». أى في غفلة مستمرّة ولهو وتكالب على الدنيا، مع أنّه لا مجال للضحك هنا ولا الغفلة والجهل، بل ينبغي أن يبكي على الفرص الفائتة والطاعات المتروكة، والمعاصي المرتكبة، وأخيراً فلا بد من التوبة والرجوع إلى ظلّ الله ورحمته.

ويقول القرآن في آخر آية من الآيات محل البحث - وهي آخر آية من سورة النجم أيضاً  
مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥

- بعد أن بين أبحاثاً متعددة حول إثبات التوحيد ونفى الشرك: «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعُْبُدُوا» (١).

فإذا أردتم أن تسيروا في الصراط المستقيم والسبيل الحق فاسجدوا لذاته المقدسة فحسب، إذ لله وحده تنتهي الخطوط في عالم الوجود، وإذا أردتم النجاة من العواقب الوخيمة التي أصابت الامم السالفة لشركهم وكفرهم فوقعوا في قبضه عذاب الله، فاعبدوا الله وحده.

الذي يجلب النظر - كما جاء في روايات متعددة - أنّ النبي صلى الله عليه وآله عندما تلا هذه الآية وسمعها المؤمنون والكافرون سجدوا لها جميعاً.

وليست هذه هي المرّة الاولى التي يترك القرآن بها أثره في قلوب المنكرين ويجذبهم إليه دون اختيارهم، إذ ورد في قصة «الوليد بن المغيرة» أنّه لما سمع آيات فصّلت وبلغ النبي صلى الله عليه وآله (في قوله) إلى الآية: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». قام من مجلسه واهتز لها وجاء إلى البيت فظنّ جماعه من المشركين أنّه صبا إلى دين محمّد.

«نهاية تفسير سورة النجم»

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ هذه الآية هي ثلثة السجود الواجبة في القرآن الكريم، وإذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعاً لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الإحتياط في وضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧



## ٥٤. سورة القمر

محتوى السورة: تحوى هذه السورة خصوصيات السور المكيه التى تتناول الأبحاث الأساسية حول المبدأ والمعاد، وخصوصاً العقوبات التى نزلت بالاعمم السالفه، وذلك نتيجة عنادهم ولجاجتهم فى طريق الكفر والظلم والفساد .. مما أدى بها الواحدة تلو الاخرى إلى الإبتلاء بالعذاب الإلهي الشديد، وسبب لهم الدمار العظيم.

ونلاحظ فى هذه السورة تكرر قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» وذلك بعد كل مشهد من مشاهد العذاب الذى يحل بالاعمم لكى يكون درساً وعظة للمسلمين والكفار. ويمكن تلخيص أبحاث هذه السورة فى عدده أقسام هى:

١- تبدأ السورة بالحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، وموضوع شق القمر، وإصرار وعناد المخالفين فى إنكار الآيات الإلهية.

٢- ثم يبحث بتركيز واختصار عن أول قوم تمردوا على الأوامر الإلهية، وهم قوم نوح، وكيفية نزول البلاء عليهم.

٣- ثم يتعرض إلى قصة قوم «عاد» وأليم العذاب الذى حل بهم.

٤- ثم تتحدث الآيات عن قوم «ثمود» ومعارضتهم لنبيهم صالح عليه السلام وبيان معجزة الناقة،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨

وأخيراً إبتلاؤهم بالصيحة السماوية.

٥- تتطرق الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن قوم «لوط» ضمن بيان واف لإنحرافهم الأخلاقى ... ثم عن السخط الإلهي عليهم وإبتلائهم بالعقاب الربانى.

٦- ثم تركز الآيات الكريمة الحديث عن آل فرعون، وما نزل بهم من العذاب الأليم جزاء كفرهم وضلالهم.

٧- ثم تعرض مقارنة بين هذه الاعمم ومشركى مكة ومخالفى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والمستقبل الخطير الذى ينتظر مشركى مكة فيما إذا استمروا على عنادهم وإصرارهم فى رفض الدعوة الإلهية.

وتنتهى السورة ببيان صور ومشاهد من معاقبة المشركين، وجزاء وأجر المؤمنين والمتقين.

وسورة القمر تتميز آياتها بالقصر والقوة والحركة.

وقد سميت هذه السورة ب (القمر) لأن الآية الاولى منها تتحدث عن شق القمر.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة اقتربت الساعة فى كل غب بُعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر، ومن قرأها كل ليلة كان أفضل وجاء يوم القيامة ووجهه مسفر على وجوه الخلائق».

ومن الطبيعى أن تكون النورانية التى تتسم بها هذه الوجوه تعبيراً عن الحالة الإيمانية الراسخة فى قلوبهم نتيجة التأمل والتفكر فى آيات هذه السورة المباركة والعمل بها بعيداً عن التلاوة السطحية الفارغة من التدبر فى آيات الله.

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) شَقَّ الْقَمَرُ: يتناول الحديث فى الآية الاولى حادثين مهمتين:

أحدهما: قرب وقوع يوم القيامة، والذى يقترن بأعظم تغيير فى عالم الخلق، وبداية لحياة جديدة فى عالم آخر، ذلك العالم الذى يقصر فكرنا عن إدراكه نتيجة محدودية علمنا وإستيعابنا للمعرفة الكونية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩

والحادثة الثانية التى تتحدث الآية الكريمة عنها هى معجزة إنشقاق القمر العظيمة التى تدل على قدرة البارئ عز وجل المطلقة، وكذلك تدل - أيضاً - على صدق دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. قال تعالى: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

وجدير بالذكر أن سورة النجم التي أنهت آياتها المباركة بالحديث عن يوم القيامة «أُزِفَتِ الْأَرْفَةُ» تستقبل آيات سورة القمر بهذا المعنى أيضاً، مما يؤكد قرب وقوع اليوم الموعود رغم أنه عندما يقاس بالمقياس الدنيوي فقد يستغرق آلاف السنين ويتوضح هذا المفهوم، حينما نتصور مجموع عمر عالما هذا من جهة، ومن جهة أخرى عندما نقارن جميع عمر الدنيا في مقابل عمر الآخرة فإنها لا تكون سوى لحظة واحدة.

إن إقتران ذكر هاتين الحادثتين في الآية الكريمة: «إنشقاق القمر واقتراب الساعة» دليل على قرب وقوع يوم القيامة، حيث إن ظهور الرسول الأكرم - وهو آخر الأنبياء - قرينه على قرب وقوع اليوم المشهود.

ومن جهة أخرى، فإن إنشقاق القمر دليل على إمكانية اضطراب النظام الكوني، ونموذج مصغر للحوادث العظيمة التي تسبق وقوع يوم القيامة في هذا العالم، حيث إن دثار الكواكب والنجوم والأرض يعنى حدوث عالم جديد، استناداً إلى الروايات المشهورة التي ادعى البعض تواترها.

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن فعلت تؤمنون؟» قالوا: نعم.

وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين ورسول الله ينادى: «يا فلان! يا فلان! اشهدوا».

يقول سبحانه: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ».

والمراد من قوله تعالى «مستمر» أنهم شاهدوا من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله معجزات عديدة، وشق القمر هو استمرار لهذه المعاجز، وأنهم كانوا يبزرون إعراضهم عن الإيمان وعدم الاستسلام لدعوة الحق وذلك بقولهم: إن هذه المعاجز كانت «سحر مستمر».

أما قوله تعالى: «وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ». فإنه يشير إلى سبب مخالفتهم وعنادهم وسوء العاقبة التي تنتظرهم نتيجة لهذا الإصرار.

إن مصدر خلاف هؤلاء وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وآله أو تكذيب معاجزه ودلائله، وكذلك تكذيب يوم القيامة، هو اتباع هوى النفس.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠

والمراد من جملة «وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ»، هو أن كل شيء في هذا العالم لا يفنى ولا يزول، فالأعمال الصالحة أو السيئة تبقى مع الإنسان حتى يرى جزاء ما فعل. حيث إن الحق سيظهر وجهه الناصح مهما حاول المغرضون إطفاءه، كما أن وجه الباطل القبيح سيظهر قبحه كذلك، وهذه سنة إلهية في عالم الوجود.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَةٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّسْتَمِرٌّ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَىٰ (٨) تَأْتِي هَذِهِ الْآيَاتِ لتواصل البحث عن الكفار الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وآله ولم يدعونا للحق حيث أعرضوا عن جميع المعاجز التي شاهدوها.

والآيات أعلاه تشرح حال هؤلاء الأفراد وموضحة المصير البائس الذي ينتظر هؤلاء المعاندين في يوم القيامة. يقول سبحانه إن هؤلاء لم يعدوا الإنذار والإخبار، بل جاءهم من الأخبار ما يوجب إنذارهم عن القبائح والذنوب: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَةٌ». وذلك ليلقى عليهم الحجة.

والقصد من «الأنباء» الإخبار عن الامم والأقوام السابقة الذين هلكوا بألوان العذاب المدمر الذي حل بهم، وكذلك أخبار يوم القيامة وجزاء الظالمين والكفار، حيث اتضح كل تلك الأخبار في القرآن الكريم.

ويضيف تعالى: «حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ». فهذه الآيات حكم إلهية بليغة ومواعظ مؤثرة، إلّا أنّها لا تفيد أهل العناد (١). الآية التالية تؤكد على أنّ هؤلاء ليسوا على استعداد لقبول الحق، فاتركهم لحالهم وأعرض عنهم وتذكّر يوم يدعو الداعي الإلهي إلى أمر مخيف، وهو الدعوة إلى الحساب،

(١) «نذر»: جمع «نذير» ويعنى (المنذرين) والمقصود بالمنذرين هي الآيات القرآنية وأخبار الامم والأنبياء الذين وصل صوتهم إلى أسماع الناس.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١

حيث يقول سبحانه: «قَتَلْنَا عَنْهُمْ يُومَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ» (١).

أما المراد من «شئٍ نُّكْرٍ» فهو الحساب الإلهي الدقيق الذي لم يكن معلوماً من حيث وقته قبل قيام الساعة، أو العذاب الذي لم يخطر على بالهم، أو جميع هذه الامور، ذلك لأنّ يوم القيامة في جميع أحواله حالة غير مألوفة للبشر. وفي الآية اللاحقة يبين الله سبحانه وتعالى توضيحاً أكثر حول هذا الموضوع ويذكر أنّ هؤلاء يخرجون من القبور في حالة: «خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ».

نسبة «الخشوع» هنا للأبصار لأنّ المشهد مرعب ومخيف إلى حدّ لا تستطيع الأنظار رؤيته، لذلك فإنّها تتحوّل عنه وتطرق نحو الأسفل. والتشبيه هنا بـ «الجراد مُنْتَشِرٌ» لأنّ النشور في يوم الحشر يكون بصورة غير منتظمة لحالة الهول التي تعترى الناس فيه، كما هي حركة إنتشار الجراد التي تتمثل فيها الفوضى والاضطراب خلافاً للقسم الأكبر من حركة الطيور التي تطير وفق نظم خاصة في الجو، مضافاً إلى أنّهم كالجراد من حيث الضعف وعدم القدرة.

إنّ حالة هؤلاء الفاقدين للعلم والبصيرة، حالة ذهول ووحشة وتخيّط في المسير كالسكارى يرتطم بعضهم ببعض فاقدين للوعي والإرادة.

وأما قوله تعالى: «مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ» فإنّ كلمة «مهطعين»: تأتي من مادة «اهطاع» أي مدّ الرقبة، والبعض يرجعها إلى النظر بإنتباه أو الركض بسرعة نحو الشيء، ويحتمل أن تكون كل واحدة من هذه المعاني هي المقصودة، حيث إنّ بمجرد سماع صوت الداعي الإلهي تمدّ الرقاب إليه ثم يتبعه التوجّه بالنظر نحوه، ثم الإسراع إليه والحضور في المحكمة الإلهية العادلة عند دعوتهم إليها.

وهنا يستولى الخوف من الأحوال العظيمة لذلك اليوم على وجود الكفار والظالمين، لذا يضيف سبحانه معبراً عن حالة البؤس التي تعترى الكافرين بقوله: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ».

ويستفاد من هذا التعبير أنّ يوم القيامة يوم غير عسير بالنسبة للمؤمنين.

(١) «نكر»: مفرد من مادة «نكاره» وتعنى الشئ المبهم المخيف.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) قصة قوم نوح عبرة وعظة: جرت السنّة القرآنية في كثير من الموارد أنّ الله سبحانه يستعرض حالة الأقوام السابقة والعاقبة المؤلمة التي انتهوا إليها إنذاراً وتوضيحاً (للكفار والمجرمين) بأنّ الاستمرار في طريق الضلال سوف لن يؤدي بهم إلّا إلى المصير البائس الذي لاقته الأقوام السابقة.

وفى هذه السورة، إكمالاً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة، فى إثارات وإشارات مختصرة ومعبّرة حول تاريخ خمسة من الأقوام المعاندة ابتداءً من قوم نوح كما فى قوله تعالى:

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ». فمضافاً إلى تكذيبه وإتهامه بالجنون صبّوا عليه ألوان الأذى والتعذيب ومنعوه من الإستمرار فى أداء رسالته.

فتارةً يقولون له مهتدين ومنذرين: «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» (١).

وتارةً اخرى يضغطون رقبته بأيديهم حتى يفقد وعيه، ولكنّه ما أن يفيق إلى وعيه حتى يقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» (٢). والتعبير بـ «عبدنا» إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم المعاندين والمغرورين فى الواقع يبارزون الله تعالى لا مجرد شخص «نوح». ثم يضيف تعالى أنّ نوح عندما يئس من هداية قومه تماماً: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ». «انتصر»: طلب العون، وهنا جاءت بمعنى طلب الإنتقام على أساس العدل والحكمة.

(١) سورة الشعراء / ١١٦.

(٢) الدر المنثور ٣ / ٩٥؛ تفسير القرطبي ٨ / ٢٧٣؛ وجامع البيان ٢٩ / ١٢٦.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٣٣

ثم يشير هنا إشارة معبّرة وقويّة فى كيفية العذاب الذى إبتلوا به وصبّ عليهم حيث يقول سبحانه: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ». إنّ تعبير إنفتاح أبواب السماء لتعبير رائع جدّاً، ويستعمل عادةً عند هطول الأمطار الغزيرة. «منهمر»: من مادة «همر» على وزن (صبر) وتعنى النزول الشديد للدموع أو الماء.

ويذكر أنّ الماء الذى أدّى إلى الطوفان لم يكن من هطول الأمطار فقط، بل كان من تفجير العيون فى الأرض، حيث يقول تعالى: «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا». وهكذا إختلط ماء السماء بماء الأرض بمقدار مقدّر وملاً البسيطة: «فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ». وتترك الآيات الكريمة مسألة الطوفان، لأنّ ما قيل فيها من الآيات السابقة يعتبر كافياً فتنتقل إلى سفينة نوح عليه السلام حيث يقول تعالى: «وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُشِّرَ».

«دسر»: جمع «دسار» بمعنى الإبعاد أو النهر بشدة مقترناً مع حالة عدم الرضا.

فإنّ التعبير القرآنى هنا ظريف، لأنّه كما يقول البارى عزّ وجل بأننا وفى وسط ذلك الطوفان العظيم، الذى غمر كل شىء أودعنا أمر نجاه نوح وأصحابه إلى مجموعة من المسامير وقطع من الخشب، وهكذا تتجلى القدرة الإلهية العظيمة.

ويشير سبحانه إلى لطف عنايته للسفينة المخصّصة لنجاه نوح عليه السلام حيث يقول سبحانه:

«تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا». أى أنّ هذه السفينة تسير بالعلم والمشئّة الإلهية، وتشقّ الأمواج العالية بقوة وتستمر فى حركتها تحت رعايتنا وحفظنا. ثم يضيف تعالى: «جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا».

إنّ نوح عليه السلام كسائر الأنبياء الإلهيين يعتبر نعمة إلهية عظيمة وموهبة من مواهبه الكبيرة على البشرية، إلّا أنّ قومه الحمقى كفروا به وبرسالته.

ثم يقول سبحانه وكتيجه لهذه القصة العظيمة موضع العظة والاعتبار: «وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ».

وفى الآية اللاحقة يطرح الله سبحانه سؤالاً معبّراً ومهدداً للكافرين الذين اتّبعوا نفس المنهج الذى كان عليه قوم نوح حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرًا».

هل هذه حقيقة واقعة، أم قصة واسطورة؟

ويضيف مؤكداً هذه الحقيقة فى آخر الآية مورد البحث فى قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤

إنّ هذا الكتاب العظيم الخالي من التعقيد والمجسد لعناصر التأثير من حيث عذوبه ألفاظه وجاذبيتها، وطبيعته قصصه الواقعية ذات المحتوى الغزير ... لذا فإنّ القلوب المهياة لقبول الحق والمتفاعلة مع منطلق الفطرة والمستوعبة لمنهج العقل تنجذب بصورة متميزة، والشاهد على هذا أنّ التاريخ الإسلامى يذكر لنا قصصاً عديدة عجيبة محيرة من حالات التأثير العميق الذى يتركه القرآن الكريم على القلوب الخيرة.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٢٢) مصير قوم عاد: تستعرض الآيات الكريمة أعلاه نموذج آخر من الكفار والمجرمين بعد قوم نوح، وهم (قوم عاد) وذلك كتحذير لمن يتنكب طريق الحق والهداية الإلهية. وتبدأ فصول أخبارهم بقوله تعالى: «كَذَّبَتْ عَادٌ».

لقد بذل هود عليه السلام غاية جهده فى توعيته قومه وتبليغهم بالحق الذى جاء به من عند الله، وكان عليه السلام كلما ضاعف سعيه وجهده لإنتشالهم من الكفر والضلال إزدادوا إصراراً ونفوراً ولجاجة فى غيهم وغرورهم الناشىء من الثراء والإمكانات المادية، بالإضافة إلى غفلتهم نتيجة إنغماسهم فى الشهوات، جعلتهم صم الآذان، عمى العيون، فجازاهم الله بعقاب أليم، ولهذا تشير الآية الكريمة باختصار حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ».

كما نلاحظ التفصيل فى الآيات اللاحقة بعد هذا الإجمال حيث يقول سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ».

«صرصر»: من مادة «صرر» على وزن (شـر)، وفى الأصل تعنى (الإغلاق والإحكام) ويأتى تكرارها فى هذا السياق للتأكيد، ولأنّ الرياح التى عذبوا بها كانت باردة وشديدة ولاذعة ومصحوبة بالأزيز، لذا اطلق عليها (صرصر).

«نحس»: فى الأصل معناها (الإحمرار الشديد) الذى يظهر فى الافق أحياناً، كما يطلق العرب أيضاً كلمة (نحاس) على وهج النار الخالية من الدخان، ثم أطلق هذا المصطلح على كل (شؤم) مقابل (السعد).

«مستم» صفة ل (يوم) أو ل (نحس) ومفهومه فى الحالة الاولى هو استمرار حوادث

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥

ذلك اليوم كما فى الآية (٧) من سورة الحاقة قوله تعالى: «سَيَخْرُهَا عَلَيْهِمْ سَيِّجٌ لَّيَالٍ وَتَمَائِيَةٌ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ».

وتعنى فى الحالة الثانية استمرار نحوسه ذلك اليوم حتى هلك الجميع.

ثم يستعرض سبحانه وصف الرياح بقوله: «تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ».

«منقعر»: من مادة «قعر» بمعنى أسفل الشىء أو نهايته، ولذا يستعمل هذا المصطلح بمعنى قلع الشىء من أساسه.

«أعجاز»: جمع «عجز» - على وزن رجل - بمعنى خَلْفٌ أو تحت، وقد شبهوا بالقسم الأسفل من النخلة وذلك حسبما يقول البعض لأنّ شدة الرياح قَطَّعت أيديهم ورؤوسهم ودفعتها بأبجائها، وبقيت أجسادهم المقطعة الرؤوس والأطراف كالنخيل المقطعة الرؤوس، ثم قُلت أجسادهم من الأرض وكانت الرياح تتقاذفها.

وللسبب المذكور أعلاه، يكرّر الله سبحانه وتعالى إنذاره للكفار بقوله: «فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ».

فنحن كذلك فعلنا وجازينا الأقوم السالفة التى سلكت سبيل الغى والطغيان والعصيان، فعليكم أن تتفكروا فى مصيركم وأنتم تسلكون نفس الطريق الذى سلكوه.

وفى نهاية القصة يؤكّد قوله سبحانه: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ».

والنقطة الأخيرة الجديرة بالذكر هى تأكيد قوله سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ» حيث تكررت مرّتين: الاولى: فى بداية الحديث

عن قصة قوم عاد، والثانية: في نهايتها، ولعل سبب هذا الاختلاف بين قوم عاد والأقوام الاخرى، أن عذاب قوم عاد كان أكثر شدة وإنتقاماً، رغم أن جميع ألوان العذاب الإلهي شديد.

إن مسألة الإهتمام بموضوع (سعد ونحس) الأيام، وكذلك الحوادث التي وقعت فيها، بالإضافة إلى أنها ترشدنا للكثير من الحوادث التاريخية ذات العظة والعبرة، فإنها أيضاً عامل للتوسل بالله والتوجه إلى رحاب عظمتة السامقة، واستمداد العون من ذاته القدسية، وهذا ما نلاحظه في روايات عديدة.

ففي الأيام النحسة مثلما نستطيع أن نطمئن نفسياً لممارستنا العملية وبكل تفاؤل وموقية، وذلك حينما ندعو الله ونطلب منه العون ونتصدق على الفقراء، ونقرأ شيئاً من الآيات القرآنية ونتوكل على الذات الإلهية المقدسة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٢٤) أَلْقَى الدُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الكَذَّابِ الأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاضْطَبِرْ (٢٧) وَبَنَيْنَهُمْ أَنْ المَاءِ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ (٣١) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) العاقبة الأليمة لقوم ثمود: تكمله للأبحاث السابقة، تتحدث الآيات الكريمة باختصار عن ثالث قوم ذكروا في هذه السورة، وهم (قوم ثمود) الذين عاشوا في (حجر) الواقعة في شمال الحجاز، ليستفاد من قصتهم الدروس والعبر.

لقد بذل نبيهم «صالح» عليه السلام أقصى الجهد من أجل هدايتهم وإرشادهم ولكن دون جدوى. قال تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ». إن «نذر» جاءت هنا جمع «إنذار» وهو الكلام الذي يتضمن التهديد، والذي هو الطابع العام لكلام الأنبياء جميعاً. ويستعرض سبحانه سبب تكذيبهم (الأنبياء) حيث يقول على لسان قوم ثمود: «فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ». إن الكبرياء والغرور والنظرة المتعالية تجاه الآخرين، بالإضافة إلى حب الذات كانت حاجزاً عن الإستجابة لدعوة الأنبياء عليهم السلام، لقد قالوا: إن «صالح» شخص مثلنا وليست له أي امتيازات علينا ليصبح زعيماً وقائداً نطيعه وتبعه، كما لا يوجد سبب لإتباعه. وهذا هو الإشكال الذي تورده جميع الأقوام الضالة على أنبيائها بأنهم أشخاص مثلنا، ولذا لا يستطيع أن يبلغ رسالته سماوية. وتزداد اللجاجة والعناد في قوم ثمود فيتساءلون: إذا اريد نزول الوحي على إنسان، فلماذا اختص بصالح من بيننا: «أَلْقَى الدُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا».

وفي الحقيقة أن هذه الأقوال لها شبه كبير بأقوال مشركي مكة، ذلك أنهم شككوا برسالة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧

النبي بأقوال مماثلة: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا» «١». ثم تحتتم الآية بقوله سبحانه: «بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ». وذلك إتهاماً لصالح عليه السلام بالكذب فيما ادعاه من اختصاص الوحي به وإنذار قومه وأنه يريد أن يتحكم علينا ويجعل كل امورنا تحت قبضته ويسيرنا وفق هواه وإرادته .. «أشِرٌّ»: وصف من مادة «أشِر» على وزن (قمر) بمعنى بطر ومرح زائد عن الحد.

ويرد الباري عز وجل عليهم بصورة قاطعة بقوله: «سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الكَذَّابِ الأَشِرِّ».

وعندما يدركهم العذاب الإلهي ويسويهم مع التراب ويحولهم رماداً، وبعد أن يجازيهم الله بأعمالهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ... عندئذ سيدركون حقيقة إتهاماتهم الزائفة التي اتهموا بها نبي من أنبياء الله المقربين، وسيعلمون أيضاً أن هذه الإفترادات هي أحق بهم وألصق.

ثم يشير سبحانه إلى قصة «الناقة» التي ارسلت كمعجزة ودلالة على صدق دعوة صالح عليه السلام حيث يقول: «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً

لَهُمْ فَأَرْتَقِبُهُمْ وَاصْطَبِرُوا».

«الناقة»: انثى البعير، وهى ليست كبقية النوق لما تتصف به من خصوصيات خارقه للعاده، وطبقاً للروايات المشهوره فإن هذه الناقه قد خرجت من بطن صخره جبل حجه دامغه للمنكرين والمعاندين.

ومن الواضح أن قوم ثمود قد جعلوا أمام إمتحان عسير، حيث يستعرض سبحانه هذا الإختبار لهم بقوله: «وَبَيَّنُّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ». يوم لهم ويوم للناقه.

ومع أن القرآن الكريم لم يوافقنا بتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع، ولكن كما يذكر الكثير من المفسرين فإن ناقه صالح عليه السلام كانت تشرب كل الماء يوم يكون شربها، ويعتقد البعض الآخر أن هيئتها ووضعها كانا بشكل يدفع الحيوانات إلى الفرار من الماء عندما تقترب الناقه نحوه، ولذلك فإنهم إقترحوا حلًا وهو: أن يكون الماء يوماً لهم وآخر للناقه.

إن قوم ثمود المتمردين عقدوا العزم على قتل الناقه، فى الوقت الذى حذرهم نبىهم

(١) سورة الفرقان / ٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨

صالح عليه السلام من سيها بسوء، وأخبرهم بأن العذاب الإلهى سيقع عليهم بعد فترة وجيزه إن فعلوا ذلك. ونظراً لإستخفافهم بهذا التحذير (فقد نادوا أحد أصحابهم حيث تصدى للناقه وقتلها). يقول الله سبحانه: «فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ».

ويمكن أن يكون المراد ب (صاحب) أحد رؤساء ثمود، وكان أحد أشرارهم المعروفين ويعرف فى التاريخ ب (قداره بن سالف) «١». «عقر»: من ماده «عقر» على وزن (ظلم) وفى الأصل بمعنى الأساس والجذر، وإذا استعمل هذا المصطلح بخصوص الناقه فإنه يعنى القتل والنحر.

وتأتى الآيه اللاحقه مؤكده إنذارهم قبل نزول العذاب الشديد عليهم، حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي». ثم وقع العذاب والسخط الإلهى على هؤلاء المتمردين المعاندين حيث يضيف سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ». «الهشيم»: من ماده «هشم» على وزن «حسم» وفى الأصل بمعنى إنكسار الأشياء الضعيفه كالنباتات.

«مختر»: فى الأصل من ماده «حظر» على وزن (حفر) بمعنى المنع، ولذلك فإن إعداد الحظائر للحيوانات والمواشى تكون مانعه لها من الخروج ولدرء المخاطر عنها، ومفردها (الحظيره)، و «مختر» على وزن محتسب- هو الشخص الذى يملك مثل هذا المكان. والإستعراض الذى ذكرته الآيه الكريمه حول عذاب قوم ثمود عجيب جداً ومعبر للغايه، حيث لم يرسل الله لهم جيوشاً من السماء أو الأرض للتكيل بهم، وإنما كان عذابهم بالصيحه السماويه العظيمة، فكانت صاعقه رهيبه، أخدمت الأنفاس، وكان إنفجاراً هائلاً حطم كل شىء فى قريتهم.

إن إستيعاب هذا اللون من العذاب كان صعباً وعسيراً للأقوام السالفه، ولكنه يسير بالنسبه لنا، وذلك من خلال معرفتنا لتأثير الأمواج الناتجه من الانفجارات، حيث إنها تحطم كل شىء يقع ضمن دائره إشعاعاتها.

ومن الطبيعى أننا لا نستطيع المقارنه بين الانفجارات البشرىه وصاعقه العذاب الإلهى

(١) «قداره»: على وزن (مناره) - كان رجلاً قبيح الشكل والسيره، ومن أكثر الأشخاص شؤماً فى التاريخ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩

التي أشاعت الدمار الرهيب فى هؤلاء القوم الحمقى المستبدين، وعلى بيوتهم وقصورهم، عسى أن يكون عبره ودرساً للآخرين، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ».

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نَذُرِ (٣٧) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نَذُرِ (٣٩) وَ لَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٤٠) المصير الأكثر شؤماً: نلاحظ في هذه الآيات تعبيرات قصيرة وقوية حول قصة «قوم لوط» والعذاب الشديد الذي حل بهم، وهم المجموعة الرابعة من الأقوام التي اتَّصفت بالقبح والضلال والتي استعرضتهم هذه السورة المباركة ... حيث يبدأ الحديث عنهم بقوله سبحانه:

«كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ».

«نذر»: جمع «إنذار» وتعني التهديد والتخويف. ومن المحتمل أن يكون المراد بها بعد ذكرها بصيغة الجمع هو الإنذارات المتعاقبة من النبي لوط لقومه، والتي كُذِّبَ بها أجمع، كما يمكن أن يكون المقصود منها هو إشارة إلى إنذار لوط والأنبياء الذين سبقوه في الدعوة إلى الله ذلك أن جميع الأنبياء يسعون من أجل تثبيت حقيقة أساسية واحدة وهي العبودية لله.

وتستعرض الآيات التالية مشاهد من العذاب الذي نزل بقوم لوط وكيفيه نجاه عائلته حيث يقول سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا».

«حاصب»: تعني الريح الشديدة التي تأتي بالحجارة والحصباء، والحصباء هي الحصى، ويكون المقصود: إِنَّا أَمْطَرْنَا هُمْ بِالْحِجَارَةِ وَالْحِصْبَاءِ حَتَّى عُلَّتْ أَجْسَادُهُمْ وَدَفَنُوا تَحْتِهَا؛ «إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ».

وتتحدث الآيات القرآنية الأخرى عن هول العذاب الذي حلَّ بقوم لوط حيث الزلازل التي قلبت مدنهم فأصبح عاليها سافلها، وبذلك أصيبت بكارثة الدمار الماحق ... وتحدث عن مطر الحجارة والحصى الذي نزل عليهم بشدة، فيقول سبحانه في ذلك: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا مَخْتَصِرِ الْأَمْثَلِ، ج ٥، ص: ٤٠»

جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ (١). ويضيف الباري عز وجل بقوله: «نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ».

إِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَتَمَّ الْحِجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ، حَيْثُ يُوَضِّحُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَيَقُولُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ».

«بطش»: على وزن (فرش) وتعني في الأصل أخذ الشيء بالقوة، ولأنَّ المجرم لا يؤخذ إلَّا بالقوة ليلقى جزاءه، لذلك فإنَّها تعني المجازاة.

«تماروا»: من «تمارى» بمعنى محادثة طرفين لإيجاد الشك وإلقاء الشبهة مقابل الحق، فهؤلاء سعوا بطرق مختلفة إلى إلقاء الشكوك والشبهات بين الناس لإبطال تأثير إنذارات هذا النبي العظيم «لوط» عليه السلام.

ولم يكتف هؤلاء المعاندون بإلقاء الشبهات العقائدية بين الناس، بل بلغت بهم الوقاحة والصلف وعدم الحياء حدًّا أَنَّهُمْ تَجَرَّؤُوا عَلَى مَلَانِكَةِ الرَّحْمَنِ وَضِيُوفِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ الْمَأْمُورِينَ بِعَذَابِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ حِينَمَا دَخَلُوا بَيْتَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِصُورَةِ شَبَابٍ وَسِيمِينَ، حَيْثُ يَقُولُ سَبْحَانَهُ: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ». أَيْ أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَضَعَ ضِيُوفَهُ تَحْتَ تَصْرِفِهِمْ.

لقد بلغ الألم الذي اعترى «لوطاً» عليه السلام حدًّا لا يطاق نتيجة هذا التصرف القبيح والمخجل لقومه، وطلب بإصرار أن يكفوا عن هذا السلوك المشين المخجل البعيد عن الشرف والحياء.

بل وأبدى إستعداده عليه السلام لترويح بناته لهم - إن أعلنوا توبتهم - وهذه أعلى حالات المظلومية التي يتعرض لها هذا النبي الكريم من قبل قوم عديمي الحياء والإيمان والقيم الخيرة، كما في قوله سبحانه: «قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» (٢).

ولم يمض وقت طويل حتى واجهت هذه الفئة المجرمة الباغية الجزاء الأولى لعملهم الإجرامى حيث يقول في ذلك سبحانه: «فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نَذُرِ».

إنَّ يد القدرة الإلهية إمتدت لتنتقم من هؤلاء القوم المجرمين، وذلك بأن طمست على أعينهم، حيث يقول البعض بأنَّ جبرائيل قد امر



أن يخفق بجناحهم على عيونهم حيث فقدوا

(١) سورة هود / ٨٢.

(٢) سورة الحجر / ٧١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١

بصرهم حالاً، وقيل إن بؤر أبصارهم قد أصبحت مستوية مع وجوههم.

وجاءت الساعة المرتقبة حيث أمر الله بفنائهم وقلبت الزلزلة مدينتهم رأساً على عقب وصُبَّ عليهم العذاب صباً مع أول خيط من أشعة فجر ذلك اليوم، فتمزق أجسادهم وتلاشى أبدانهم وتدمر بيوتهم وتندثر قصورهم وتتحول إلى أنقاض وخرائب، وإذا بالمطر الحجري ينهمل عليهم ويطمس كل معالم الحياة لديهم حتى لم يبق أى أثر لهم.

وذلك ما تشير له الآية الكريمة حيث تعكس هذا المعنى باختصار وتركيب: «وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ».

«مستقر»: تعنى الثبوت والإحكام، أى بمعنى (ثابت الحكم). ويحتمل أن يكون المراد به هنا هو: أن العذاب الإلهي كان شديداً إلى حد أن أى قوة لم تكن قادرة على مواجهته.

ثم يضيف سبحانه مؤكداً ومكرراً مرة أخرى قوله: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي».

لكى لا يكون مجال للشك والتردد فى إنذار الأنبياء لكم بعد هذا.

وفى نهاية المطاف وفى آخر آية من بحثنا هذا تتكرر جمل الموعظة والعبرة وللمرة الرابعة فى هذه السورة بقوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ».

نعم، لم يتعظ قوم لوط من النذر، ولم يتعظوا من العذاب الأول الذى أعمى أبصار البعض منهم والذى كان بمثابة إنذار لهم فهل أن

الآخرين الذين يرتكبون نفس الذنوب يتعظون لدى سماع آيات القرآن هذه وينوبوا إلى رشدهم ويندموا على ما فرط منهم ..

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَ كَفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ

(٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) هل أنتم

أفضل من الأقوام السابقة: المجموعة الخامسة التى يتحدث عنها القرآن فى هذه السلسلة هم قوم فرعون، ولأن الحديث عن هؤلاء

القوم قد طرح بصورة تفصيلية فى السور القرآنية المختلفة، لذا فإن هذه السورة المباركة تستعرض هذه القصة فى مقاطع مختصرة

ومركزة حول ضرورة الاستفادة من العبر التى جاءت فيها والإلتعاض منها ...

يقول سبحانه: «وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢

المقصود من (آل فرعون) ليسوا أهل بيته ومتعلقه فقط، بل يشمل كل أتباعه بصورة عامة.

«نذر»: على وزن (كتب) وهى جمع نذير، وهنا إشارة إلى المعجزات التسع لموسى عليه السلام.

و الآية اللاحقة تكشف عن رد الفعل لآل فرعون من دعوة النبيين الإلهيين، والإنذارات التى وجهوها لهم حيث يقول الله سبحانه:

«كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا».

(آيات) لها معنى واسع تشمل الدلائل العقلية والمعجزات والدلائل النقلية، وعند ملاحظه قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ» يتبين لنا أن المقصود ب (الآيات) هنا هى المعجزات التسع لموسى عليه السلام.

إن الإنسان إذا كان صادقاً فى البحث عن الحقيقة فإنه يكفيه أن يرى واحدة منها، وخاصة تلك التى يسبقها إنذار، ثم بلاء، ثم زوال

هذا البلاء عند دعاء النبي الإلهي، ولكن العناد والإصرار على الباطل والغرور إذا ركب الإنسان، فحتى لو أصبحت جميع السماء

والأرض آيات لله، فلن تكون ذات تأثير على أمثال هؤلاء، والجواب الحاسم المناسب لهم هو العذاب الإلهي الذي يقضى على النزعات الشريرة والنفوس المريضة التي يملؤها الهوى والغرور. كما قال تعالى: «فَأَخَذْنَا هُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ» تكملة للآية مورد البحث. والتعبير الآخر الذي أتى في آخر هذه القصة لا يوجد له شبه في التعبيرات المماثلة في القصص الأخرى، وذلك لأن الفراعنة كانوا يتباهون بقوتهم وسطوتهم وعزهم أكثر من بقية الأمم، والحديث عن قوة سلطانهم كان في كل مكان. يقول الله تعالى: «فَأَخَذْنَا هُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ». وذلك كي يكون واضحاً للجميع أن القوة الحقيقية هي لله وحده، لأن كل قوة وعزة أخرى غير قوته وما يتصل بذاته وهمية لا تساوي شيئاً في قبال عزته وقدرته ...

والعجيب أن نهر النيل العظيم الذي كان مصدر خير وثروة لهم، هو الذي امر بالانتقام منهم، والأعجب من ذلك أن أضعف المخلوقات سلطت عليهم كالجراد والضفادع والقمل فجعلتهم في حالة عجز ومسكنة لا يقدرّون على دفعها، وهم الذين كانوا من السطوة والقوة موضع حديث أهل زمانهم.

وبعد بيان هذه المشاهد المؤثرة من قصص الأقسام المنصرمة والعذاب الإلهي العظيم الذي حلّ بهؤلاء الجبابرة المتمردين على الحق، يخاطب الله سبحانه في الآية اللاحقة مشركي مكة بقوله تعالى: «أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣

فما الفرق بينكم وبين قوم فرعون وقوم نوح ولوط وشمود؟ فكما أن أولئك الأقوام قد عذبوا بالطوفان تارة والزلازل والصواعق أخرى. ومن الطبيعي أن مثل هذه الادعاءات ادعاءات كاذبة لا يقوم عليها أي دليل «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ». والجدير بالذكر هنا أن الآية السابقة كانت بصورة خطاب، أما في الآية مورد البحث والآيات اللاحقة، فإن الحديث عن الكفار بلغه الغائب، وهو نوع من أنواع التحقير، أي أنهم غير مؤهلين للخطاب الإلهي المباشر.

ويواجه القرآن الكريم هؤلاء السادرين في غيهم بإخبار غيبى حاسم وقوي، حيث يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ».

«سيهزم»: من مادة «هزم» في الأصل بمعنى الضغط على الجسم اليابس لحد التلاشى.

وهذا إشارة إلى النقطة التالية وهي: رغم حالة الإتحاد والإنسجام لهؤلاء القوم ظاهراً، إلا أنهم كالموجودات اليابسة والفاقد للروح، فبمجرد تعرّضها إلى ضغط قوى تتهشم.

لقد صدق هذا التنبؤ في معركة بدر وسائر الحروب الأخرى حيث كانت هزيمة الكفار ساحقة، فإنه رغم قدرتهم وقوتهم فقد تلاشى جمعهم.

وفي آخر الآية مورد البحث يشير سبحانه إلى أن الهزيمة التي منى بها المشركون سوف لن تكون في الدنيا فقط، وإنما هي في الآخرة أشد وأدهى، حيث يقول الباري عز وجل: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ».

«أدهى»: من مادة (دَهَو) و (دهاء)، بمعنى المصيبة والكارثة العظيمة والتي لا مخرج منها ولا نجاة، ولا علاج لها، وتأتي أيضاً بمعنى الذكاء الشديد، إلا أن المقصود منها في الآية الكريمة هو المعنى الأول.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَفِ بِالْبَصِيرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤

إن هذه الآيات هي استمرار لبحث الآيات السابقة حول بيان أحوال المشركين والمجرمين في يوم القيامة، وآخر آية من تلك الآيات تعكس هذه الحقيقة بوضوح، وهو أن يوم القيامة هو الموعد المرتقب لهؤلاء الأشرار في الاقتصاص منهم، حيث يحمل المرارة والصعوبة والأهوال لهم، والتي هي أشد وأقسى مما أصيبوا به في هذه الدنيا. وتحدث الآية الأولى - مورد البحث - عن ذلك حيث

يقول سبحانه: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ».

يقول الباري عز وجل: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ».

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِيًّا لِلْمُتَكَبِّرِينَ يُقَالُ لَهُ: سَقَرُ شَكَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شِدَّةَ حَزْرِهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ فَيَتَنَفَّسُ فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ».

ولكى لا يتصور أن هذه الشدة في العذاب لا تتناسب مع المعاصي، يقول سبحانه: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ».

إن عذابهم في هذه الدنيا كان بتقدير وحساب، وكذلك سيكون عقابهم المؤلم في الآخرة، وليس الجزاء فقط، ذلك أن الله سبحانه خلق كل شيء بحساب وتقدير.

ثم يضيف تعالى إنه ليست أعمالنا موافقة للحكمة فحسب، بل أنها مقترنة مع القدرة والحسم، لأنه: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ». ولذلك فإن اليوم الذي تقوم فيه الساعة يحدث بأمر الله بلمح البصر، وكل شيء يكون في مسار الآخرة حينئذ، وتبعث الحياة من جديد في الأبدان.

كما أن المشيئة الإلهية في مجازاة المجرمين بالصواعق والصيحات السماوية والزلازل والظوفان والرياح العاتية ... كل ذلك يحدث بمجرد الأمر الإلهي وبدون تأخير.

إن أمره تعالى في كل مكان وكل شيء هو (كلمة واحدة) والتي تكون أسرع من لمح البصر، ولكن محتوى الأمر الإلهي متفاوت ومختلف، ومن خلال معرفة السنة التدريجية للعالم المادي وخاصيته وطبيعة الحركة - نلاحظ أنها تتأثر بالزمان.

وفي الآية اللاحقة يخاطب الكفار والمجرمين مرة أخرى، ويلفت إلتباههم إلى مصير الأقسام السابقة حيث يقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ».

إن الآية الكريمة تؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى، وهي أن أعمال مشركي قريش وممارساتهم هي نفس أعمال وممارسات وعقائد الأقسام السابقة، لذا فلا يوجد دليل على أن مصيركم سوف يكون أفضل من مصيرهم، فاتعظوا وعوا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥

ثم يشير القرآن إلى هذا الأصل وهو أن صفحة أعمال الأقسام السابقة لم تنته بموتهم، بل هي باقية ومسجلة عليهم، يقول سبحانه: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ». فكذلك أعمالكم مثبتة ومحفوظة ليوم الحساب.

«زبر»: جمع «زبور» بمعنى الكتاب، وهي تشير إلى صحيفة أعمال الإنسان.

ثم يضيف سبحانه: «وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ».

وبناءً على هذا فحساب الأعمال في ذلك اليوم هو حساب شامل وتام لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، حيث يستلم المجرمون صفحة أعمالهم كاملة، فيصعقون لهولها ويصطرخون لدقتها: «وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» (١).

ولما كانت السنة المتبعة في القرآن الكريم غالباً ما تعتمد المقارنة بين جبهة الصلاح والهدى من جهة، وجبهة الفساد والضلال من جهة أخرى، لأن في المقارنة يبرز التفاوت والاختلاف بصورة أفضل، فهنا أيضاً بعد الحديث عن مصير الكفار والمجرمين يشير سبحانه

إشارة مختصرة إلى العاقبة السعيدة والحبور العظيم الذي يكون من نصيب المتقين حيث يقول سبحانه: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ».

وفي آخر آية مورد البحث والتي هي آخر آية في سورة القمر يوضح الباري بصورة أكثر (مستقر المتقين) حيث يقول سبحانه أنهم: «فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ».

ويا له من وصف رائع وظريف! حيث إن هذا الوصف يتميز بخصوصيتين تجمعان كل السمات الرائعة:

الاولى: أن المكان هو (مستقر صدق) وليس فيه باطل، بل كله حق يجد فيه المتقون كل ما وعدوا به كاملاً غير منقوص.

الثانية: أنهم في جوار وقرب الله سبحانه، وهذا هو المستفاد من كلمة (عند) والذي يشير إلى غاية القرب المعنوي، وهذا القرب هو من

اللَّهُ المالك القادر ... ما أروعه عن قرب من الربِّ الكريم الوهاب والذى يمنح العطايا والهبات لضيوفه المتقين بجميل لطفه وعظيم إحسانه وواسع كرمه، حيث جميع ما فى الوجود تحت قبضته وإمرته ومالكيته، وهو المَنَّان

(١) سورة الكهف / ٤٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦

الذى لا ينقصه شىء فى السماوات والأرض، والذى وعد المتقين بالخير العظيم وأعدَّ لهم عظيم العطايا والإحسان. والنقطة الجديرة بالذكر فى هاتين الآيتين والتي تتحدث فيها عن الهبات وجزاء أصحاب اليمين، حيث فى البداية تتحدث عن العطايا الماديَّة التى تشمل البساتين الوارفة والحدائق الغناء والأنهار الجارية، ثم تتحدث بعد ذلك عن الجزاء المعنوى العظيم، والذى يتجسّد بحضورهم من المليك المقتدر، وذلك تهيئة للإنسان من مرحلة إلى اخرى، يغمرها الشوق والحبور والرغبة فى العمل الصالح.

«نهاية تفسير سورة القمر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧

## ٥٥. سورة الرحمن

محتوى السورة: توضّح هذه السورة بصورة عامة النعم الإلهية المختلفة، سواء كانت مادية أو معنوية، والتي تفضّل بها البارى عزّ وجل على عباده وغمّهم بها، ويمكن تسميتها لهذا السبب ب (سورة الرحمة) أو (سورة النعمة) ولهذا فإنها بدأت بالإسم المبارك (الرحمن) الذى يشير إلى صنوف الرحمة الإلهية الواسعة، وتنتهى هذه السورة آياتها بإجلال وإكرام البارى سبحانه، ويقرار عباده بالنعم التى تفضّل بها عليهم (إحدى وثلاثين مرّة) وذلك من خلال تكرار آية: «فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». ويمكن أن نقسّم محتويات السورة إلى عدّة أقسام:

- ١- فى الآيات الاولى من هذه السورة حديث عن النعم الإلهية الكبيرة، سواء تلك التى تتعلق بخلق الإنسان أو تربيته وتعليمه، أو الحساب والميزان، وكذلك سائر الامور الاخرى التى يتجسّد فيها الخير للإنسان، إضافةً إلى الغذاء الروحى والجسمى له.
- ٢- يتناول توضيح مسألة خلق الإنس والجن.
- ٣- يتضمن توضيح الآيات والدلائل الإلهية فى الأرض والسماء.
- ٤- وفيه بعد تجاوز النعم الإلهية على الإنسان فى الدنيا تتحدث الآيات عن نعم الله فى عالم الآخرة بدقّة وظرافة، خاصة عن الجنة، وبصورة أعمّ وأشمل عن البساتين والعيون والفاكهة وحوار العين وأنواع الملابس من السندس والإستبرق ...

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨

٥- تتحدث عن مصير المجرمين وجزائهم المؤلم المحسوب.

إنّ تكرار آية: «فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» وفى مقاطع قصيرة أعطت وزناً متميزاً للسورة، وخاصة إذا قرىء بالمعنى المعبر الذى يستوحى منها ... فإنّ حاله من الشوق والإنبهار تحصل لدى الإنسان المؤمن. ولذلك فلا نعجب عندما نقرأ فى حديث للرسول صلى الله عليه وآله حيث يقول: «لكل شىء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره» (١).

فضيلة تلاوة السورة: إنّ اتّصاف هذه السورة بما يثير الإحساس بالشكر على أفضل صورة أدّى إلى ورود روايات كثيرة فى فضل تلاوة هذه السورة تلك التلاوة التى ينبغى أن تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية وتحركها باتّجاه الطاعات وبعيداً عن لقلقة اللسان.

وفى تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الرحمن، رحم الله ضعفه، وأدّى شكر ما أنعم الله عليه».

وفى ثواب الأعمال عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الرحمن فقال عند كل: «فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»: لا

شيء من الآئتك ربّي اكذب، فإن قرأها ليلاً ثم مات، مات شهيداً، وإن قرأها نهاراً ثم مات، مات شهيداً». الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) بداية النعم الإلهية: لما كانت هذه السورة تبين أنواع النعم والهبات الإلهية العظيمة، فإنها تبدأ باسم (الرحمن) والذي يرمز إلى الرحمة الواسعة، ولو لم تكن (الرحمانية) من صفاته لم ينعم بهذا الخير العميم على عباده الصالحين والعاصيين، لذلك يقول: «الرَّحْمَنُ». «عَلَّمَ الْقُرْآنُ» وبهذا فإن أول نعمة تفضّل بها الله سبحانه، هي نعمة «تعليم القرآن». والظريف هنا أن بيان نعمة (تعليم القرآن) ذكرت قبل «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» و«عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» في الوقت الذي يفترض فيه أن تكون الإشارة أولاً إلى مسألة خلق الإنسان، ومن ثم نعمة تعليم البيان، ثم نعمة تعليم القرآن، وذلك استناداً للترتيب الطبيعي، إلا أن عظمة القرآن الكريم أوجبت أن نعمل خلافاً للترتيب المفترض.

(١) تفسير مجمع البيان ٣٢٦/٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩.

وقد جاءت هذه الآية جواباً لقولهم: وما الرحمن في قوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ». [الفرقان قالوا وما الرحمن؟ وقد روى أنه لما نزل قوله «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» قالوا: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة. ف قيل لهم «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنُ» أي: علم محمداً صلى الله عليه و آله القرآن، وعلمه محمد صلى الله عليه و آله امته (١).

وعلى كل حال فإن لإسم «الرحمن» أوسع المفاهيم بين أسماء الباري عز وجل بعد اسم الجلالة (الله) لأننا نعلم أن لله رحمتين: (الرحمة العامة) و (الرحمة الخاصة) واسم «الرحمن» يشير إلى رحمة الله العامة التي تشمل الجميع، كما أن اسم «الرحيم» يشير إلى «الرحمة الخاصة» بأهل الإيمان والطاعة، ولعله لهذا السبب لا يطلق اسم الرحمن على غير الله سبحانه (إلا إذا كانت كلمة عبد قبله)، أما وصف «الرحيم» فيقال لغير الله أيضاً، وذلك لأنه لا أحد لديه الرحمة العامة سوى الله تعالى، أما الرحمة الخاصة فإنها موجودة في المخلوقات وإن كانت بصورة محدودة.

وهنا يطرح التساؤل التالي: من الذي علمه الله سبحانه القرآن الكريم.

إن هذه السورة تبين الرحمة الإلهية للإنس والجن ولذا أكد سبحانه إقرارهم بنعمه إحدى ثلاثين مرة، وذلك بقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». والأنسب هو أن الله علم القرآن للإنس والجن بواسطة نبيه الكريم محمد صلى الله عليه و آله.

وبعد ذكره سبحانه لنعمة القرآن التي لا مثيل لها ينتقل إلى أهم نعمة في الترتيب المذكور ويقول: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ».

من الطبيعي أن المقصود هنا هو نوع الإنسان وليس آدم عليه السلام فقط.

وإطلاق كلمة (البيان) التي تأتي بعد خلق الإنسان دليل على عمومية كلمة الإنسان.

إن ذكر إسم «الإنسان» بعد «القرآن» هو الآخر يستوجب التأمل، ذلك لأن القرآن الكريم يمثل مجموعة أسرار الكون بصورة مدونة «الكتاب التدويني»، والإنسان هو خلاصة هذه الأسرار بصورة تكوينية «الكتاب التكويني»، كما أن كل واحدة منها هو صورة من هذا العالم الكبير.

وتشير الآية اللاحقة إلى أهم النعم بعد نعمة خلق الإنسان حيث يقول الباري عز وجل: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ».

(١) تفسير مجمع البيان ٣٢٩/٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠.

مختصر الامثل ج ٥ ٩٩

كلمة (البيان) لها معنى لغوى واسع، حيث تقال لكل شىء يوضح ويبين شيئاً معيناً.

وبناءً على هذا فإنها لا تشمل النطق والكلام فحسب، بل تجمع الكتابة والخط وأنواع الاستدلالات العقلية والمنطقية التى تبين المسائل المختلفة والمعقدة أيضاً رغم أن معالم هذه المجموعة هى التكلم والنطق.

وإذا أخذنا دور البيان فى تكامل وتقدم الحياة الإنسانية، فمن الواضح أن الإنسان لم يكن بمقدوره وإمكانه أن ينقل تجاربه وعلومه من جيل إلى آخر بهذه السهولة وبالتالي أدى إلى التقدم والعلم والدين والأخلاق... وإذا ما سلبت هذه النعمة العظيمة من الإنسان ليوم واحد فإن المجتمع الإنسانى سوف يأخذ طريقه نحو التقهقر بسرعة، ولو أخذنا «البيان» بمعناه الواسع الذى يشمل الخط والكتابة والفنون المختلفة، فإنه سيتضح لدينا بصورة أكثر دوره الهام فى الحياة الإنسانية.

ويتطرق بعد ذلك إلى النعمة الإلهية الرابعة والتى هى هبة من هبات الله العظيمة أيضاً، حيث يقول تعالى: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ». إن أصل وجود الشمس من أكبر النعم الإلهية للإنسان، لأن العيش فى المنظومة الشمسية بدون نور وحرارة الشمس أمر غير ممكن. إن نمو ونضج النبات والمواد الغذائية أجمع، بالإضافة إلى سقوط الأمطار وهبوب الرياح، كلها ببركة هذه الهبة الإلهية.

كما أن للقمر دوراً هامياً فى حياة الإنسان، فبالإضافة إلى أنه يضىء الليالى المعتمة، فإن جاذبيته هى علة المد والجزر فى البحار والمحيطات، وهى عامل لبقاء الحياة فى البحار، كما أنها تقوم بدورها فى إرواء كثير من المناطق القريبة للسواحل التى تصب الأنهار بالقرب منها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن ثبات الإنتظام لهاتين الحركتين (حركة القمر حول الأرض، وحركة الأرض حول الشمس) هو السبب فى الظهور المنتظم لليل والنهار والسنين والشهور والفصول المختلفة، وبالتالي فإنه سبب أساسى لإنتظام الحياة الإنسانية وبرمجة الامور التجارية والصناعية والزراعية، وإن فقد الإنتظام فيها فسوف تضطرب الحياة البشرية وتختل الكثير من مرتكزاتها.

وليس لحركة هذين الكوكبين نظام دقيق جداً فحسب، بل إن مقدار كثافته وجاذبيته

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١

ومسافة كل منهما عن الأرض هى الاخرى محسوبة بدقة وحساب (وحسبان).

ومن المؤكد أن اختلال كل واحدة من هذه الامور سيؤد اختلالات عظيمة فى المنظومة الشمسية، ومن ثم فى النظام الحياتى للبشر. والجدير بالذكر أن الشمس بالرغم من أنها فى وسط المنظومة الشمسية وتبدو ساكنة وثابتة، إلا أنها مع جميع كواكبها وأقمارها تسير فى وسط المجرة المتعلقة بها إلى نقطة معينة (تسمى هذه النقطة بنجمه فيكا) وهذه الحركة لها أيضاً نظام وسرعة معينان.

ثم يتحول بنا الله إلى نعمة عظيمة اخرى هى الخامسة فى مسلسل ما ذكره سبحانه من النعم فى هذه السورة المباركة، حيث يوجه النظر إلى ألطافه فى الأرض حيث يقول:

«وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ».

«النجم»: يأتى أحياناً بمعنى كوكب، ويأتى اخرى بمعنى النبات الذى لا- ساق له، ولما جاءت الكلمة هنا بقرينة «الشجر» فيكون المقصود هو المعنى الثانى، أى النباتات بدون سيقان.

ومن الواضح أن النبات مصدر جميع المواد الغذائية للإنسان، حيث يستهلكك قسماً مباشراً منه، والقسم الآخر تستهلكه الحيوانات الاخرى التى هى جزء أساسى من غذاء الإنسان، ومن هنا فإن النبات هو مصدر غذاء الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وهذا المعنى يصدق أيضاً فى عالم الحيوانات البحرية، لأنها تتغذى على نباتات صغيرة جداً تنبت فى البحر وتوجد بكثرة هائلة تقدر بملايين البلايات، وهى المصدر الغذائى لهذه الحيوانات البحرية، وتنمو هذه النباتات الصغيرة فى البحر بتأثير الضوء (أشعة الشمس) التى تتحرك بين الأمواج.

وبهذا فإن «النجم» أنواع من النباتات الصغيرة الزاحفة (مثل اليقطين والخيار وأمثاله).

أما «الشجر» فإنه النوع الآخر من النباتات التي لها سيقان وتشمل أشجار الفاكهة ونباتات الغلات وغير ذلك.

وتعبير «يسجدان» إشارة إلى التسليم والخضوع أمام القدرة الإلهية وقوانين الخلق والإبداع الإلهي لأجل نفع الإنسان. وهنا إشارة إلى الأسرار التوحيدية أيضاً حيث توجد في كل ورقه وكل بذرة آيات عجيبة من عظمه وقدره الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَنْ تَطْعَمُوا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَالِكِهْهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) السماء رفعها ووضع

الميزان: في الآية مورد البحث يتحدث سبحانه عن النعمة السادسة، ألا وهي نعمة خلق السماء حيث يقول: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا».

(السماء) في هذه الآية سواء كانت بمعنى جهة العلو، أو الكواكب السماوية، أو جو الأرض ... إن كل واحدة من هذه المعاني هبة عظيمة ونعمة لا مثيل لها، وبدونها تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

إن النور الذي يمنحنا الدفء والحرارة والهداية والحياة والحركة يأتيان من السماء وكذلك الأمطار، والوحي أيضاً، (وبذلك فإن للسماء مفهوماً عاماً، مادياً ومعنوياً).

ثم يستعرض سبحانه النعمة السابعة حيث يقول تعالى: «وَوَضَعَ الْمِيزَانَ».

«الميزان»: كل وسيلة تستعمل للقياس، سواء كان قياس الحق من الباطل، أو العدل من الظلم والجور، أو قياس القيم وقياس حقوق الإنسان في المراحل الاجتماعية المختلفة.

و (الميزان) يشمل كذلك كل نظام تكويني ودستور اجتماعي، لأنه وسيلة لقياس جميع الأشياء.

ونستنتج من الآية اللاحقة استنتاجاً رائعاً حول هذا الموضوع حيث يضيف بقوله تعالى:

«أَلَّا تَطْعَمُوا فِي الْمِيزَانِ».

ياله من تعبير رائع حيث يعتبر القوانين الحاكمة في هذا العالم الكبير منسجمة مع القوانين الحاكمة على حياة الإنسان (العالم الصغير) وبالتالي ينقلنا إلى حقيقة التوحيد، حيث مصدر جميع القوانين والموازن الحاكمة على العالم هي واحدة في جميع المفردات وفي كل مكان.

ويؤكد مرة أخرى على مسألة العدالة والوزن حيث يقول سبحانه: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣

هذه الآية تؤكد على مسألة الوزن بمعناها الخاص، ويأمر البشر أن يدققوا في قياس ووزن الأشياء في التعامل، وهذه أضييق الدوائر.

إن أهمية الميزان في أي معنى كان عظيمة في حياة الإنسان بحيث إننا إذا حذفنا حتى مصداق الميزان المحدود والصغير والذي يعنى (المقياس) فإن الفوضى والإرتباك سوف تسود المجتمع البشري.

ويستفاد من بعض الروايات أن (الميزان) قد فسّر بوجود (الإمام)، وذلك لكون الوجود المبارك للإمام المعصوم هو وسيلة لقياس الحق من الباطل، ومعيار لتشخيص الحقائق وعامل مؤثر في الهداية. وهكذا في تفسير «الميزان» بالقرآن الكريم ناظر إلى هذا المعنى.

ثم ينتقل سبحانه من السماء إلى الأرض فيقول عز وجل: «وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ».

إن القرائن الموجودة في السورة وطبيعة النداءات الموجهة للإنس والجن تدل على أنها المقصود هنا (الجن والإنس).

وفي الآية اللاحقة يستعرض ذكر نعمتين التاسعة والعاشره من النعم الإلهية، والتي تتضمن قسمًا من المواد الغذائية التي وهبها الله سبحانه للإنسان حيث يقول تعالى: «فِيهَا فَالِكِهْهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ».

«الفاكهة»: تشمل كل نوع من الفاكهة.

و «أكمام»: جمع (كم) تطلق على الغلاف الذي يغطي الفاكهة.

إن إختيار هذا الوصف لفاكهة شجرة النخل - والتي تكون في البداية مختفية في غلاف ثم ينشق الغلاف عن ثمر منظود وبشكل جميل وجذاب - يمكن أن يكون لهذا الجمال الأخاذ، أو للمنافع الجمة الكامنة في هذا الغلاف، والتي تتميز بالمنافع الطبية والغذائية. ثم يتحدث سبحانه عن النعمة الحادية عشرة والثانية عشرة حيث يقول سبحانه: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ».

الحبوب مصدر أساسي لغذاء الإنسان، وأوراقها الطازجة واليابسة هي غذاء للحيوانات التي هي لخدمة الإنسان، حيث يستفيد من حليبها ولحومها وجلودها وأصوافها، وبهذا الترتيب فلا يوجد شيء فيها غير ذي فائدة. ومن جهة أخرى، فإن الله تعالى خلق الأزاهير المعطرة والورود التي تعطر مشام الجسم والروح وتبعث الاطمئنان والنشاط، ولذا فإن الله سبحانه قد أتم نعمه على الإنسان. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤

وبعد ذكر هذه النعم العظيمة (المادية والمعنوية) ينقلنا في آخر آية من البحث مخاطباً الجن والإنس بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». هذه النعم التي يدل كل هذا على لطف وحنان الخالق... فكيف يمكن التكذيب بها إذا؟ إن هذا الاستفهام استفهام تقريرى جيء به في مقام الإقرار، وقد قرأنا في بداية السورة رواية تؤكد على ضرورة تعقينا بهذه العبارة (لا شيء من آلائك ربى اكذب) بعد كل مرة نتلو فيها الآية الكريمة: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». إن التعبير (أى) إشارة إلى أن كل واحدة من هذه النعم دليل على مقام ربوبية الله ولطفه وإحسانه، فكيف بها إذا كانت هذه النعم مجتمعة.

حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) الصلصال وخلق الإنسان: إن الله تعالى بعد ذكره للنعم السابقة والتي من جملتها «حَلَقَ الْإِنْسَانَ»، يتعرض في الآيات مورد البحث إلى شرح خاص حول خلق الإنس والجن كدليل على قدرته العظيمة من جهة، وموضع درس وعبرة للجميع من جهة أخرى، فيقول سبحانه: «حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ». «صلصال»: فى الأصل معناه (ذهاب ورجوع أو تردد الصوت فى الأجسام الصلبة)، ثم اطلقت الكلمة على الطين اليابس الذى يخرج صوتاً.

«فخار»: من مادة «فخر» بمعنى الشخص الذى يفخر كثيراً، ولكون الأشخاص الذين يعيشون الفراغ فى شخصياتهم ومعنوياتهم يكثرون الثرثرة والإدعاء عن أنفسهم، فإن هذه الكلمة تستعمل لكل إناء من الطين أو «الكوز»، وذلك بسبب الأصوات الكثيرة التى يولدها. ومن هنا يستفاد بوضوح من الآيات القرآنية المختلفة حول مبدأ خلق الإنسان، أنه كان من التراب ابتداءً. قال تعالى: «فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ» (١). ثم خرج مع الماء وأصبح طيناً:

(١) سورة الحج / ٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥

«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» (١). ثم أصبح بصورة طين خبيث الرائحة: «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (٢). ثم أصبح مادة فى حالة لاصقة: «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» (٣). ومن ثم يتحول إلى حالة يابسة ويكون من «صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» كما ذكر فى الآية مورد البحث.

هذه المراحل كم تستغرق من الوقت، وكم هى المدة التى يتوقف فيها الإنسان فى كل مرحلة من هذه المراحل، وفى أى ظروف تحدث هذه التطورات؟



هذه المسائل خفيت عن علمنا وإدراكنا، والله وحده هو العالم بها فقط.

ثم يتطرق سبحانه لخلق الجن حيث يقول: «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ».

«مارج»: في الأصل من «مرج» على وزن (مرض) بمعنى الإختلاط والمزج، والمقصود هنا اختلاط شعل النيران المختلفة.

ولكن كيف خلق الجن من هذه النيران المتعددة الألوان؟ هذا ما لم يعرف بصورة دقيقة، كما أن الخصوصيات الأخرى عن هذا المخلوق، قد بينت لنا عن طريق الوحي الرباني وكتاب الله الكريم، ولكن محدودية معلوماتنا لا تعني السماح لنا أبداً بإنكار هذه الحقائق أو تجاوزها، خاصة بعد ما ثبتت عن طريق الوحي الإلهي. (وسيكون لنا إن شاء الله شرح مفصل حول خلق الجن وخصوصيات هذا المخلوق في تفسير سورة الجن).

وبعد أن تحدّث عن النعم التي كانت في بداية خلق الإنسان يكرّر تعالى قوله تعالى:

«فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

في الآية اللاحقة يستعرض نعمة أخرى، حيث يقول سبحانه: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ».

بما أن الشمس في كل يوم تشرق من نقطة وتغرب من أخرى، وبعدها أيام السنة لها

(١) سورة الأنعام / ٢.

(٢) سورة الحجر / ٢٨.

(٣) سورة الصافات / ١١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦

شروق وغروب، ولكن نظراً للحدّ الأكثر من الميل الشمالي للشمس والميل الجنوبي لها، ففي الحقيقة أن للشمس مشرقين ومغربين والبقية بينهما.

إنّ هذا النظام الذي هو سبب وجود الفصول الأربعة له فوائد وبركات كثيرة، ويؤكد ويكمل ما مرّ بنا في الآيات السابقة، وذلك لأنّ الحديث كان عن حساب سير الشمس والقمر، وكذلك عن وجود الميزان في خلق السماوات، وإجمالاً فإنّه يبيّن النظام الدقيق للخلقة وحركة الأرض والقمر والشمس، وكذلك فإنّه يشير إلى النعم والبركات التي هي موضع استفادة الإنسان. فإنّ الله تعالى يؤكد هذه النعمة بعد نعمة خلق الإنس والجن بقوله: «فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) البحار وذخايرها الثمينة: استمراراً لشرح النعم الإلهية يأتي الحديث هنا عن البحار، ولكن ليس عن خصوصيات البحار بصورة عامة، بل عن كيفية خاصة ومقاطع معينة منها تمثل ظواهر عجيبة وآية على القدرة اللامتناهية للحقّ، بالإضافة إلى ما فيها من النعم التي هي موضع استفادة البشرية. يقول تعالى: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ». ولكن بين هذين البحرين المتلاقين فاصل يمنع من طغيان وغلبة أحدهما على الآخر: «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ».

المقصود من البحرين هما الماء العذب والماء المالح، وذلك بالاستدلال بقوله تعالى:

«وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا» (١).

إنّ الأنهار العظيمة ذات المياه العذبة عندما تصبّ في البحار والمحيطات فإنّها تشكّل بحراً من الماء الحلو إلى جنب الساحل وتطرد الماء المالح إلى الخلف، والعجيب أنّ هذين المائين لا يمتزجان مع بعضهما لمدة طويلة بسبب اختلاف درجة الكثافة؛ وتشير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة.

ومرّة أخرى يخاطب الله تعالى عباده في معرض حديثه عن هذه النعم حيث يسألهم

(١) سورة الفرقان / ٥٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧

سبحانه: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

واستمراراً لهذا الحديث يقول عز وجل: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

«اللؤلؤ»: فهو حبيبة شفافة ثمينه تنمو في داخل الصدف في أعماق البحار، وكلما كبر حجمها زاد ثمنها؛ و «المرجان»: فهو كائن حي يشبه الغصن الصغير للشجرة، وينشأ في أعماق البحار، وكان العلماء يتصورون لفترة زمنية أن هذه الشجرة نوع من أنواع النباتات، إلا أنه اتضح فيما بعد أنه نوع من الحيوانات. وأفضل أنواع المرجان الذي يستعمل للزينة هو المرجان ذو اللون الأحمر، وكلما كان إحمراره أشد كانت قيمته أعلى وأثمن.

واستمراراً لهذا القسم من النعم الإلهية يشير سبحانه إلى موضوع (السنن) التي هي في الحقيقة أكبر وأهم وسيلة لنقل البشر وحمل الأمتعة في الماضي والحاضر، حيث يقول سبحانه: «وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ».

والظريف هنا أنه في الوقت الذي يعبر عن السفن بأنها «منشآت» والتي تحكى أنها مصنوعة بواسطة الإنسان، يقول سبحانه (وله) أي لله تعالى وهو إشارة إلى أن جميع الخواص التي يستفاد منها في صناعة السفن، والتي منحها الله للبشر المخترعين لهذه الصناعة هي لله، وكذلك فإنه هو الذي أعطى خاصية السيولة لمياه البحر والقوة للرياح، وأن الله تعالى هو الذي أوجد هذه الخواص في المواد المتعلقة بالسفينة.

«أعلام»: جمع (علم) على وزن (قلم)، بمعنى (جبل) بالرغم من أنها في الأصل بمعنى (علامة وأثر) والذي يخبر عن شيء معين، ولأن الجبال تكون واضحة من بعد فإنه يعبر عنها ب (العلم) كما أن لفظه (علم) تطلق أيضاً على «الرأية».

ومرة أخرى يكرر سبحانه هذا السؤال العميق المغزى بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) كل شيء هالك إلا وجهه: استمراراً لشرح النعم الإلهية، في هذه الآيات يضيف سبحانه قوله: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ». وهنا يتساءل كيف يكون الفناء نعمة إلهية؟

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٨

وللجواب على هذا السؤال نذكر ما يلي: يمكن ألماً يكون المقصود بالفناء هنا هو الفناء المطلق، وإنما هو الباب الذي يطل منه على عالم الآخرة، والجسر الذي لا بد منه للوصول إلى دار الخلد؛ أو أن النعم الإلهية الكثيرة- المذكور سابقاً- يمكن أن تكون سبباً لغفلة البعض وإسرافهم فيها بأنواع الطعام والشراب والزينة والملابس والمراكب وغير ذلك، مما يستلزم تحذيراً إلهياً للإنسان، بأن هذه الدنيا ليست المستقر، فالحذر من التعلق بها، ولا بد من الاستفادة من هذه النعم في طاعة الله ... إن هذا التنبيه والتذكير بالرحيل عن هذه الدنيا هو نعمة عظيمة. ويضيف في الآية اللاحقة قوله سبحانه: «وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

«وجه» معناه اللغوي معروف وهو القسم الأمامي للشئ بحيث يواجهه الإنسان في الطرف المقابل، وإستعمالها بخصوص لفظ الجلالة يقصد به (الذات المقدسة).

أمياً «ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» والذي هو وصف ل (الوجه) فإنه يشير إلى صفات الجمال والجلال لله سبحانه، لأن «ذُو الْجَلَالِ» تبتنا عن الصفات التي يكون الله أسمى وأجل منها (الصفات السلبية). وكلمة «الإكرام» تشير إلى الصفات التي تظهر حسن وقيمة الشئ، وهي الصفات الثبوتية لله سبحانه كعلمه وقدرته.

وبناءً على هذا فإن معنى الآية بصورة عامة يصبح كالاتي: إن الباقي في هذا العالم هو الذات المقدسة لله سبحانه، والتي تتصف

بالصفات الثبوتية والمنزهة عن الصفات السلبية.

ثم يخاطب الخلائق مرة أخرى: «فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ومضمون الآية اللاحقة هي نتيجة للآيات السابقة، حيث يقول سبحانه: «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولماذا لا يكون كذلك في الوقت الذي يفنى الجميع ويبقى وحده سبحانه.

التعير ب (يسأله) جاء بصيغة المضارع، وهو دليل على أن السؤال والطلب في الكائنات مستمر من الذات الإلهية المقدسة، وهذا شأن

الموجود الممكن الذي هو مرتبط بواجب الوجود ليس في الحدوث فقط، وإنما في البقاء أيضاً.

ثم يضيف سبحانه: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ».

إن خلقه مستمر، وإجاباته لحاجات السائلين والمحتاجين لا تنقطع، كما أن ابداعاته مستمرة فيجعل الأقسام يوماً في قوة وقدره، وفي

يوم آخر يهلكهم، ويوماً يعطي السلامة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٩

والشباب، وفي يوم آخر الضعف والوهن، ويوماً يذهب الحزن والهَم من القلوب وآخر يكون باعثاً له، وخلاصة الأمر أنه في كل يوم-

وطبقاً لحكمته ونظامه الأكمل - يخلق ظاهرة جديدة وخلقاً وأحداثاً جديدة.

ومرة أخرى - بعد هذه النعم المستمرة والإجابة لاحتياجات جميع خلقه من أهل السماوات والأرض يكرر قوله سبحانه: «فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَعْظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ

الْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ

آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) النعم الإلهية التي استعرضتها الآيات السابقة كانت مرتبطة بهذا العالم، إلا أن الآيات مورد البحث تتحدث عن

أوضاع يوم القيامة، وخصوصيات المعاد، وفي الوقت الذي تحمل تهديداً للمجرمين، فإنها وسيلة لتربيته وتوعيته وإيقاظ المؤمنين،

بالإضافة إلى أنها مشجعة لهم للسير في طريق مرضاته سبحانه، ومن هنا فإننا نعتبرها نعمة، لذلك بعد ذكر كل واحدة من هذه النعم

يتكرر نفس السؤال الذي كان يعقب ذكر كل نعمة من النعم السابقة.

يقول سبحانه في البداية: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ».

«الثقلان»: من مادة «ثقل» على وزن (كبر) بمعنى الحمل الثقيل وجاءت بمعنى الوزن أيضاً، إلا أن «ثقل» على وزن (خبر) يقال عادة

لمتاع وحمل المسافرين، وتطلق على جماعة الإنس والجن وذلك لثقلهم المعنوي، لأن الله تبارك وتعالى قد أعطاهم عقلاً وشعوراً

وعلماً ووعياً له وزن وقيمة بالرغم من أن الثقل الجسدي لهم ملحوظ أيضاً.

وبعد هذا يكرر الله سبحانه سؤاله مرة أخرى: «فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وتعقيباً على الآية السابقة التي كانت تستعرض الحساب الإلهي الدقيق، يخاطب الجن والإنس مرة أخرى بقوله: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

إِنِ اسْتَعْظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» للفرار من العقاب الإلهي؛ «فَانفُذُوا لَاتَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ». أي بقوة إلهية، في حين

أنكم فاقدون لمثل هذه القوة والقدرة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٠

«معشر»: في الأصل من «عشر» مأخوذ من عدد «عشرة»، ولأن العدد عشرة عدد كامل، فإن مصطلح (معشر) يقال: للمجموعة المتكاملة

والتي تتكوّن من أصناف وطوائف مختلفة. «أقطار»: جمع «قُطر» بمعنى أطراف الشيء.

«تنفذوا»: من مادة «نفوذ»، وهي في الأصل بمعنى خرق وعبور من شيء.

والتعير (من أقطار) إشارة إلى شقّ السماوات وتجاوزها إلى خارجها.

إِنَّ الْآيَةَ أَعْلَاهُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْهَرُوبِ وَالْفِرَارِ مِنْ يَدِ الْعَدَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّذِي يَفَكِّرُ بِهِ الْعَاصُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

في مجمع البيان: روى مسعدة بن صدقة عن كليب قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام، فأنشأ يحدثنا فقال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد، وذلك أنه يوحى إلى السماء الدنيا أن اهبطى بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثل من في الأرض من الجن والإنس والملائكة. ثم يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتى يهبط أهل سبع سماوات فيصير الجن والإنس في سبع سرادقات من الملائكة ثم ينادى مناد: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ» الآية. فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبع أطواق من الملائكة».

ويخاطب سبحانه هاتين المجموعتين (الجن والإنس) بقوله: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

والتهديد هنا لطف إلهي أيضاً، فالبرغم من أنه يحمل تهديداً ظاهرياً، إلا أنه عامل للتنبية والإصلاح والتربية، حيث إن وجود المحاسبة في كل نظام هو نعمة كبيرة.

وما ورد في الآية اللاحقة تأكيد لما تقدم ذكره في الآيات السابقة، والذي يتعلق بعدم قدرة الجن والإنس من الفرار من يد العدالة الإلهية، حيث يقول سبحانه: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ».

«شواظ»: بمعنى (الشعلة العديمة الدخان). إن هذا التعبير يشير إلى شدة حرارة النار.

و «نحاس»: بمعنى الدخان أو (الشعل ذات اللون الأحمر مصحوبة بالدخان)، لأنها تتحدث عن موجود يحيط بالإنسان في يوم القيامة ويمنعه من الفرار من حكومة العدل الإلهي.

ثم يضيف سبحانه قوله: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦١

والكلام هنا عن النعم والآلاء من أجل ما ذكرنا من اللطف في الآية السابقة.

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) تكمله للآيات السابقة يتحدث القرآن الكريم عن بعض مشاهد يوم القيامة، والآيات أعلاه تذكر خصوصيات من مشاهد ذلك اليوم الموعود، وعن كيفية الحساب والجزاء والعقاب. يقول سبحانه في بداية الحديث: «فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ».

ويستفاد من مجموع آيات «القيامة» بصورة واضحة أن النظام الحالي للعالم سوف يتغير ويضطرب وتقع حوادث مرعبة جداً في كل الوجود، فتتغير الكواكب والسيارات والأرض والسماء، وتحصل تغيرات يصعب تصورها، ومن جملتها ما ذكر في الآية أعلاه، وهي إنشقاق وتناثر الكرات السماوية، حيث يصبح لونها أحمر بصورة مذابة كالدهن.

ولأن الإخبار بوقوع هذه الحوادث المرعبة في يوم القيامة - أو قبلها - تنبيه وإنذار للمؤمنين والمجرمين على السواء، ولطف من اللطاف الله سبحانه، يتكرر هذا السؤال: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفي الآية اللاحقة ينتقل الحديث من الحوادث الكونية ليوم القيامة إلى حالة الإنسان المذنب في ذلك اليوم، حيث يقول سبحانه: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ».

وكل شيء واضح، وكل شيء يُقرأ في وجه الإنسان.

إن يوم القيامة يوم طويل جداً، وعلى الإنسان أن يجتاز محطات ومواقف متعددة فيه، حيث لا بد من التوقف في كل محطة مدة زمنية. إن في بعض هذه المواقف لا يسأل الإنسان إطلاقاً، كما أن بعض المواقف الأخرى لا يسمح له بالكلام، حيث تشهد عليه أعضاء بدنه.

قال تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٢

وَتَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١). كما أن في بعض المحطّات يُسأل الإنسان وبدقه متناهية عن كافة أعماله.

ومرّة اخرى يخاطب سبحانه عباده، حيث يقول: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

نعم، إنّه لا يسأل حيث «يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ».

ثم يضيف سبحانه: «فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ».

«النواصي»: جمع ناصية وفي الأصل بمعنى الشعر وما يكون بمقدمة الرأس، من مادة (نصأ) وتعني الإتصال والإرتباط، «وأخذ بناصيته»

بمعنى أخذه من شعره الذي في مقدمه رأسه، كما تأتي أحياناً كناية عن الغلبة الكاملة على الشيء.

والمعنى الحقيقي للآية المباركة هو أنّ الملائكة تأخذ المجرمين في يوم القيامة من نواصيهم وأرجلهم، ويرفعونهم من الأرض بمنتهى

الذلة ويلقونهم في جهنم، أو أنّه كناية عن منتهى ضعف المجرمين وعجزهم أمام ملائكة الرحمن، حيث يقذفونهم في نار جهنم بذلة

تامة.

ومرّة اخرى يضيف سبحانه: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». لأنّ التذكير بيوم القيامة هو لطف منه تعالى.

ثم يقول سبحانه: «هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ».

ويضيف سبحانه في وصف جهنم وعذابها المؤلم الشديد حيث يقول: «يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ».

«آَن» و «آني» هنا بمعنى الماء المغلي وفي منتهى الحرارة والإحراق.

فإنّ المجرمين يحترقون وسط هذا اللهب الحارق لنار جهنم، ويظمأون ويستغيثون للحصول على ماء يروى ظمأهم، حيث يعطى لهم

ماء مغلي (أو يصبّ عليهم) مما يزيد ويضاعف عذابهم المؤلم.

ويستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ (عين حميم) الحارقة تكون بجانب جهنم، ويلقى فيها من يستحق عذابها ثم في النار يسجرون.

قال تعالى: «يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي

(١) سورة يس / ٦٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٣

النَّارِ يُسْحَرُونَ» (١).

ومرّة اخرى بعد هذا التنبيه والتحذير الشديد الموقظ، الذي هو لطف من الله يقول الباري عز وجل: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ

(٥٠) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ

إِسْتَبْرَقٍ وَوَجْنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) الْجَنَّتَانِ اللَّتَانِ أَعَدَّتَا لِلخَائِفِينَ: يترك القرآن الكريم وصفه لأهل النار

وحالاتهم البائسة لينقلنا إلى صفحة جديدة من صفحات يوم القيامة، ويحدثنا فيها عن الجنة وأهلها، وما أعدّ لهم من النعم فيها، والتي

يصوّرها سبحانه بشكل مشوّق ومثير ينفذ إلى أعماق القلوب في عملية مقارنة لما عليه العاصون من عذاب شديد يحيط بهم والتي

تحدثت عنها الآيات السابقة، وما ينتظر المؤمنين من جنّات وعيون وقصور وحوار في الآيات أعلاه، يقول سبحانه: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

رَبِّهِ جَنَّاتٍ».

وللخوف من الله أسباب مختلفة، فأحياناً يكون بسبب قبح الأعمال وانحراف الأفكار، واخرى بسبب القرب من الذات الإلهية حيث

الشعور بالخوف والقلق من الغفلة والتقصير في مجال طاعة الله، وأحياناً اخرى لمجرد تصورهم لعظمة الله اللامتناهية وذاته

اللامحدودة فيتتابهم الشعور بالخوف والضعف أمام قدسيته العظيمة ... وهذا النوع من الخوف يحصل من غاية المعرفة لله سبحانه،

ويكون خاصاً بالعارفين والمخلصين لحضرته.

ومرة أخرى، وبعد ذكر هذه النعم العظيمة يخاطب الجميع بقوله: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يضيف سبحانه في وصفه لهاتين الجنتين بقوله: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ».

وبعد ذكر هذه النعم يكرر سبحانه السؤال مرة أخرى فيقول: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ولأن البساتين النضرة والأشجار الزاهية ينبغي أن تكون لها عيون، أضاف سبحانه في وصفه لهذه الجنة بقوله: «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ».

ثم طرح مقابل هذه النعمة الإضافية قوله: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

(١) سورة غافر / ٧١ و ٧٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٤

وفي الآية اللاحقة ينتقل البحث إلى فاكهة هاتين الجنتين حيث يقول سبحانه: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ». ثم يضيف سبحانه قوله: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

لقد طرحت في الآيات السابقة ثلاث صفات لهاتين الجنتين، وتستعرض الآية التالية الصفة الرابعة حيث يقول تعالى: «مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِشْتَبَرِقٍ».

وهذا التعبير يدل على الهدوء الكامل والإستقرار التام لدى أهل الجنة.

إن أتمن قماش يتصور في هذه الدنيا يكون بطانة لتلك الفرش، إشارة إلى أن القسم الظاهر لا- يمكننا وصفه من حيث الجمال والجادبية.

وأخيراً، وفي خامس نعمة يشير سبحانه إلى كيفية هذه النعم العظيمة، حيث يقول:

«وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ». «جنى»: على وزن (بقى) وتعني الفاكهة التي نضج قطفها؛ و «دان» في الأصل (داني) بمعنى قريب.

ومرة أخرى يخاطب الجميع سبحانه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هِيَ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) الجنة والزوجات الحسان: في الآيات السابقة ذكرت خمسة أقسام من هبات وخصوصيات الجنتين، وهنا نتطرق لذكر النعمة السادسة وهي الزوجات الطاهرات، حيث يقول سبحانه:

«فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ». قد قصرن طرفهن على أزواجهن، ولم يردن غيرهم. ثم يضيف تعالى: «لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» (١).

في تفسير مجمع البيان: قال أبو ذر: إنها تقول لزوجها: وعزة ربّي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله الذي جعلني زوجتك، وجعلك زوجي.

«طرف»: على وزن (حرف) بمعنى جانب العين، وبما أن الإنسان عندما يريد النظر يحرك

(١) «يطمئنن»: من مادة «طمث»، في الأصل بمعنى دم الدورة الشهرية، وجاءت بمعنى زوال البكارة؛ والمراد هنا أن النساء الباكرات في الجنة لم يكن لهن أزواج قط.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٥

أجفانه، لذا فقد استعمل هذا اللفظ كناية عن النظر، وبناءً على هذا فإن التعبير بقاصرات الطرف إشارة إلى النساء اللواتي يقصرن طرفهن على أزواجهن، ويعني أنهن يكنن الحب والود لأزواجهن فقط، وهذه هي إحدى ميزات الزوجة التي لا تفكر بغير زوجها ولا تضمّر لسواه الود.

وفى التعقيب على نعمة الجنة هذه يكرر قوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يتطرق إلى المزيد من وصف الزوجات الموجودات فى الجنة، حيث يقول: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ».

ومرة أخرى، وبعد ذكر هذه النعمة يقول سبحانه: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفى نهاية هذا البحث يقول عز وجل: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ».

وهل ينتظر أن يجازى من عمل عملاً صالحاً فى الدنيا بغير الإحسان الإلهى؟

يقول الراغب فى المفردات: الإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطى أكثر مما

عليه ويأخذ أقل مما له فالإحسان زائد على العدل ..

ويتكرر قوله سبحانه مرة أخرى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وذلك لأنَّ جزاء الإحسان بالإحسان نعمة كبيرة من قبل الله تعالى، حيث يؤكد سبحانه أن جزاءه مقابل أعمال عباده مناسب لكرمه

ولطفه وليس لأعمالهم، مضافاً إلى أن طاعاتهم وعباداتهم إنما هى بتوفيق الله ولطفه، وبركاتها تعود عليهم.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) جنتان بأوصاف عجيبة: بعد بيان صفات

جنتى الخائفين وخصوصياتهما المتميزة، واستمراراً للبحث ينتقل الحديث فى الآيات التالية عن جنتين بمرتبة أدنى من السابقتين

يكونان لأشخاص أقل خوفاً وإيماناً بالله تعالى من الفئة الاولى، حيث إن هدف العرض هو بيان سلسلة درجات ومراتب للجنان

تتناسب مع الإيمان والعمل الصالح للأفراد.

يقول سبحانه فى البداية: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٦

فى تفسير مجمع البيان: فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما

وما فيهما».

وفى نفس الموضوع ورد فى حديث آخر: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين» «١». أى من فضة. ثم يضيف

سبحانه: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم ذكر القرآن الخصوصيات الخمس لهاتين الجنتين التى تشبه- إلى حد ما- ما ذكر حول الجنتين السابقتين، كما أنَّهما تختلفان فى

بعض الخصوصيات الاخرى حيث يقول سبحانه:

«مُدْهَمَّتَانِ».

«مدهامتان»: من مادة (أدهيمام) ومن أصل (دهمه) على وزن (تهمه) ومعناها فى الأصل السواد وظلمة الليل، ثم اطلقت على الخضرة

الغامقة المعتمة، ولأنَّ مثل هذا اللون يحكى عن غاية النضرة للنباتات والأشجار، ممَّا يعكس منتهى السرور والإنشراح، لهذا فقد

استعمل لهذا المعنى.

ويضيف سبحانه مرة أخرى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفى الآية اللاحقة يصف الجنة وصفاً إضافياً حيث يقول سبحانه: «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ». «نضاختان»: من مادة (نضخ) بمعنى فوران

الماء.

ومرة أخرى يسأل سبحانه عن الإنس والجن سؤالاً إستنكارياً فيقول: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وتتحدث الآية التالية حول فاكهة هاتين الجنتين حيث تقول: «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ».

ويكرر سبحانه السؤال مرة أخرى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

(١) الدرّ المنتور ١٤٦/٦. والتعبير بالذهب والفضة يمكن أن يكون إشارة إلى اختلاف درجة هاتين الجنتين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٧

زوجات الجنة ... مرّة اخرى: استمرار لشرح نعم الجنتين التي ذكرت في الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات عن قسم آخر من هذه النعم التي تزخر بها جنان الله التي أعدها للصالحين من عباده، حيث يقول سبحانه في البداية: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ». تستعمل كلمة (خير) غالباً للصفات الجيدة والجمال المعنوي، أما «حسن» فإنها تستعمل للجمال الظاهر. لذا فإن المقصود بـ «خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» اولئك النسوة اللواتي جمعن بين حسن السيرة، وحسن الظاهر. وجاء في الروايات في تفسير هذه الآية أن الصفات الحسنه للزوجات في الجنة كثيرة ومن جملتها طيب اللسان والنظافة والطهارة، وعدم الإيذاء، وعدم النظر للرجال الأجانب.

ومرّة اخرى يكرّر السؤال نفسه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يضيف مستمراً في وصف الزوجات في الجنة: «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ».

«حور»: جمع حوراء وأحور، وتطلق على الشخص الذي يكون سواد عينه قاتماً وبياضها ناصعاً، وأحياناً تطلق على النساء اللواتي يكون لون وجوههن أبيض.

والتعبير بـ «مقصورات» إشارة إلى أنّهن مرتبطات ومتعلقات بأزواجهن ومحجوبات عن الآخرين.

ومرّة اخرى يكرّر السؤال نفسه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ويضيف سبحانه وصفاً آخر لحوريات الجنة، حيث يقول: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ».

ويستفاد من الآيات القرآنية أنّ الزوجين المؤمنين في هذه الدنيا سيلتحقان في الجنة مع بعضهما ويعيشان في أفضل الحالات.

ويستفاد أيضاً من الروايات أنّ درجة ومقام زوجات المؤمنين الصالحات أعلى وأفضل من حوريات الجنة وذلك بما قمن به في الدنيا من صالح الأعمال وعبادة الله سبحانه.

ثم يضيف تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفي آخر وصف للنعم الموجودة في هذه الجنة يذكر سبحانه تعالى: «مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ».

«رفررف»: في الأصل بمعنى الأوراق الواسعة للأشجار، ثم اطلقت على الأقمشة الملونة الزاهية التي تشبه مناظر الحدائق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٨

«عبقري»: في الأصل بمعنى كل موجود قلّ نظيره.

و «حسان»: جمع «حسن» على وزن «نسب» بمعنى جيد ولطيف.

فإنّ هذه التعابير حاكية جميعاً عن أنّ كل موجودات الجنة لا نظير له ولا شبيه في نوعه.

وللمرّة الأخيرة وهي (الحادية والثلاثون) يسأل سبحانه جميع مخلوقاته من الجن والإنس هذا السؤال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

هل النعم المعنوية؟ أم النعم المادية؟ أم نعم هذا العالم؟ أم الموجودة في الجنة؟ إن كل هذه النعم شملت وجودكم وغمرتكم ... إلآئاً - مع الأسف - قد أنساكم غروركم وغفلتكم هذه الألفاظ العظيمة، ومصدر عطائها وهو الله سبحانه الذي أنتم بحاجة مستمرة

إلى نعمه في الحاضر والمستقبل ... فأياً منها تنكرون وتكذبون؟



ويختم السورة سبحانه بهذه الآية الكريمة: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

«تبارك»: من أصل (برك) بمعنى صدر البعير، وذلك لأن الجمال حينما تبرك تضع صدرها على الأرض أولاً، ومن هنا استعمل هذا المصطلح بمعنى الثبات والدوام والاستقامة، لذا فإن كلمة (مبارك) تقال للموجودات الكثيرة الفائدة، وأكرم من تطلق عليه هذه الكلمة هي الذات الإلهية المقدسة باعتبارها مصدراً لجميع الخيرات والبركات.

واستعملت هذه المفردة هنا لأن جميع النعم الإلهية - سواء كانت فى الأرض والسماء فى الدنيا والآخرة والكون والخلق - فهى من فيض الوجود الإلهى المبارك، لذا فإن هذا التعبير من أنسب التعبيرات المذكورة فى الآية لهذا المعنى.

والملفت للنظر هنا أن هذه السورة بدأت باسم الله (الرحمن) وانتهت باسم الله ذى الجلال والإكرام) وكلاهما ينسجمان مع مجموعة مواضع السورة.

«نهاية تفسير سورة الرحمن»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٩

## ٥٦. سورة الواقعة

محتوى السورة: إن سورة الواقعة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت قبلها سورة (طه) وبعدها (الشعراء) «١».

هذه السورة - كما هو واضح من لحنها، وذكره المفسرون أيضاً - نزلت فى مكة، بالرغم من أن بعضهم قال: إن الآيتين (٨١ و ٨٢) نزلتا فى المدينة، إلا أن هذا الإدعاء ليس له دليل، كما أن محتوى الآيتين الكريمتين لا يساعدان على ذلك أيضاً.

وسورة الواقعة - كما هو واضح من إسمها - تتحدث عن القيامة وخصيصياتها، ولذا فإن هذا الموضوع هو الأساس فى البحث. إلا أننا نستطيع أن نلخص موضوعات السورة فى ثمانية أقسام:

١- بداية ظهور القيامة والحوادث المرعبة المقترنة بها.

٢- تقسيم أنواع الناس فى ذلك اليوم إلى ثلاثة طوائف: (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والمقربين).

٣- بحث مفصل حول مقام المقربين، وأنواع الجزاء لهم فى الجنة.

(١) الفهرست للنديم / ٢٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٠

٤- بحث مفصل حول القسم الثانى فى الناس وهم أصحاب اليمين، وأنواع الهبات الإلهية الممنوحة لهم.

٥- بحث حول أصحاب الشمال وما ينتظرهم من جزاء مؤلم فى نار جهنم.

٦- بيان أدلة مختلفة حول مسألة المعاد من خلال بيان قدرة الله عز وجل، وخلق الإنسان من نطفة حقيرة، وظهور الحياة فى النباتات، ونزول المطر، إشتعال النار.

٧- وصف حالة الاحتضار والانتقال من هذا العالم إلى حيث العالم الاخرى والتي تعتبر من مقدمات يوم القيامة.

٨- وأخيراً نظرة إجمالية كلية حول جزاء المؤمنين وعقاب الكافرين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الواقعة، كتب ليس من الغافلين». وذلك لأن آيات هذه السورة تتصف بالتحريك والإيقاظ بصورة لا تسمح للإنسان أن يبقى فى جو الغفلة.

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ فى كل ليلة جمعة الواقعة أحبه الله وأحبه إلى الناس أجمعين، ولم ير فى الدنيا يؤساً أبداً ولا فقراً ولا فاقة، ولا آفة من آفات الدنيا، وكان من رفقاء أمير المؤمنين عليه السلام».

ومن الواضح أننا لا نستطيع الحصول على جميع البركات التي وردت لهذه السورة بالقراءة السطحية، بل ينبغي بعد تلاوتها التفكير والتدبير، ومن ثم الحركة والعمل.

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَئِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) الواقعة العظيمة: إن الأحداث المرتبطة بالقيامة تذكر غالباً في القرآن الكريم مقترنة بحوادث أساسية عظيمة قاصمه ومدمرة، وهذا ما يلاحظ في الكثير من السور القرآنية التي

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧١

تحدث عن القيامة؛ وفي سورة الواقعة، نجد هذا واضحاً في الآيات الأولى منها، حيث يبدأ سبحانه بقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ». «لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ». وذلك لأن الحوادث التي تسبقها عظيمة وشديدة بحيث تكون آثارها واضحة في كل ذرات الوجود. فإن الحشر لا يقترن بتغيير الكائنات فحسب، بل إن البشر يتغير كذلك كما يقول سبحانه في الآية اللاحقة: «خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ». أجل، بعض يسقط إلى قاع جهنم، وبعض آخر إلى أعلى عِلين في الجنة.

وفي الخصال عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «خَافِضَةٌ خَفَضَتْ وَاللَّهُ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ فِي النَّارِ، رَافِعَةٌ رَفَعَتْ وَاللَّهُ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ».

ثم يستعرض القرآن الكريم وصفاً أوسع في هذا الجانب حيث يقول: «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا».

يا له من زلزال عظيم وشديد إلى حد أن الجبال فيه تندك وتلاشى. قال تعالى: «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا \* فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا».

«رُجَّتْ»: من مادة «رج» على وزن (حج) بمعنى التحرك الشديد للشيء وتقال رجرجه للإضطراب؛ و «بُسَّتْ»: من مادة «بس» على وزن (حج) والأصل بمعنى تلين الطحين وتعجنه بواسطة الماء؛ و «هباء»: بمعنى غبار؛ و «متبث»: بمعنى منتشر.

وبعد بيان وقوع هذه الظاهرة العظيمة والحشر الكبير يستعرض القرآن المجيد ذكر حالة الناس في ذلك اليوم، حيث قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بقوله سبحانه: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً».

وحول القسم الأول يحدثنا القرآن الكريم بقوله: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ». والمقصود من أصحاب الميمنة هم الأشخاص الذين يعطون صحيفة أعمالهم بأيديهم اليمنى، وهذا الأمر رمز لأهل النجاة، ودليل الأمان للمؤمنين والصالحين في يوم القيامة، كما ذكر هذا مراراً في الآيات القرآنية.

عبارة «ما أصحاب الميمنة» هو بيان حقيقة السعادة التي ليس لها حد ولا يمكن تصوورها لهؤلاء المؤمنين.

ثم يستعرض الله تعالى المجموعة الثانية بقوله: «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٢

المشأمة، حيث الشؤم والتعاسة، وإستلام صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى التي هي رمز سوء عاقبتهم وعظيم جرمهم وجناتهم، نتيجة عمى البصيرة والسقوط في وحل الضلال. والتعبير ب «ما أصحاب المشأمة» هو الآخر يعكس نهاية سوء حظهم وشقاوتهم.

وأخيراً يصف المجموعة الثالثة أيضاً بقوله سبحانه: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ».

(السابقون) ليسوا الذين سبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل في أعمال الخير والأخلاق والإخلاص، فهم اسوة وقودة وقادة للناس، ولهذا السبب فهم من المقربين إلى الحضرة الإلهية.

وإذا فتيرت (السابقون) كما في بعض الروايات الإسلامية بأنها تعني الأشخاص الأربعة وهم «هايل»، و «مؤمن آل فرعون»، و «حبيب النجار» الذين تميز كل منهم بأسبقيته في قومه، وكذلك «أمير المؤمنين» عليه السلام الذي هو أول من دخل في الإسلام من الرجال،

فإن هذا التفسير هو بيان للمصاديق الواضحة، وليس تحديداً لمفهوم الآية.

ثم يوضح المقام العالى للمقربين، حيث يقول سبحانه: «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

التعبير بـ «جَنَّاتِ النَّعِيمِ» يشمل أنواع النعم المادية والمعنوية.

ويشير فى الآية اللاحقة إلى الحالة العديدة فى الامم السابقة وفى هذه الامه أيضاً حيث يقول سبحانه: «ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَى». أى أنهم جماعة كثيرة فى الامم السالفة والأقوام الاولى.

«وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ».

وطبقاً لهاتين الآيتين فإنّ قسماً كبيراً من المقربين هم من الامم السابقة، وقسم قليل منهم فقط هم من امه محمد صلى الله عليه وآله. عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ (١٨) لَا يُصِيدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَخَيْرٍ مِّنْ عَيْنٍ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَمَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيماً (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) الجنة بانتظار المقربين: هذه الآيات تتحدث عن أنواع نعم الجنة التى أعدها الله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٣

سبحانه للقسم الثالث من عباده المقربين، والتى كل واحدة منها أعظم من اختها وأكرم ..

وقد لخصت هذه النعم بسبعة أقسام:

يقول تعالى فى البداية: «عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ \* مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ».

«سرر»: جمع «سرير» من مادة (سرور) بمعنى التخت الذى يجلس عليه المنعمين فى مجالس الانس والسرور.

ونلاحظ استمرار الأوصاف الرائعة فى القرآن الكريم لسرر الجنة، ومجالس أهلها، ومنتديات أحببها مما يدل على أن من أهم نعم وملذات هؤلاء هى جلسات الانس هذه ..

ثم يتحدث سبحانه عن نعمة اخرى لهم حيث يقول: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ».

التعبير بـ «يطوف» من مادة (طواف) إشارة إلى استمرار خدمه هؤلاء (الطوافين) لضيوفهم.

والتعبير بـ «مخلدون» إشارة إلى خلود شبابهم ونشاطهم وجمالهم وطراوتهم، والأصل أن جميع أهل الجنة مخلدون وبقون.

ويضيف القرآن أن هؤلاء الولدان يقدمون لأصحاب الجنة أقداح الخمر وكؤوس الشراب المأخوذ من أنهار الجنة: «بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ» (١).

وشرايهم هذا ليس من النوع الذى يأخذ لباب العقل والفكر، حيث يقول تعالى: «لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ» (٢).

إنّ الحالة التى تنتابهم من النشوة الروحية حين تناولهم لهذا الشراب لا يمكن أن توصف، إذ تغمر كل وجودهم بلذة ليس لها مثيل.

ثم يشير سبحانه إلى رابع وخامس قسم من النعم المادية التى وهبها الله للمقربين فى الجنة، حيث يقول سبحانه: «وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ». «وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ».

(١) «أكواب»: جمع «كوب» بمعنى القدح أو الإناء الذى لا- عروة له؛ و «أباريق»: جمع «إبريق» وهى فى الأصل اخذت من الفارسية (أبريز) بمعنى الأوانى ذات اليد من جهة، ومن الاخرى ذات أنبوب لصب السائل؛ و «كأس»: تقال للإناء المملوء بالسائل لدرجة يفيض من جوانبه؛ و «معين» من مادة «معن» بمعنى الجارى.

(٢) «يصدعون»: من مادة «صداع» على وزن (حباب)، بمعنى وجع الرأس، وهذا المصطلح فى الأصل من (صدع) بمعنى (الإنفلاق) لأنّ الإنسان عندما يصاب بوجع رأس شديد فكأنّ رأسه يريد أن ينفلق من شدّة الألم، لذا فإنّ هذه الكلمة قد استعملت فى هذا

المعنى؛ و «ينزفون»: من أصل «نزف» بمعنى سحب جميع مياه البئر بصورة تدريجيّة، وتستعمل أيضاً حول (السُّكْر) وفقدان العقل. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٤

إنّ تقديم الفاكهة على اللحم بلحاظ كون الفاكهة أفضل من الناحية الغذائية بالإضافة إلى نكهتها الخاصة عند أكلها قبل الطعام. والذي يستفاد من بعض الروايات أنّ غصون أشجار الجنة تكون في متناول أيدي أهل الجنة، بحيث يستطيعون بكل سهولة أن يتناولوا أى نوع من الفاكهة مباشرة، وهكذا الحال بالنسبة لبقية الأغذية الموجودة في الجنة، إلّا أنّ مما لا شك فيه أنّ تقديم الغذاء من قبل (الولدان المخلدين) له صفاء خاص ولطف متميز حيث إنّ تقديم الطعام يعبر عن مزيد الإحترام والإكرام لأهل الجنة. ثم يشير سبحانه إلى سادس نعمة وهي الزوجات الطاهرات الجميلات، حيث يقول سبحانه: «وَحُورٌ عِينٌ». «كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ». «حور»: جمع حوراء وأحور، ويقال للشخص الذي يكون سواد عينه شديداً وبياضها شفافاً؛ و «عين»: جمع عيناء وأعين، بمعنى العين الواسعة.

«مكنون»: بمعنى مستور، والمقصود هنا الاستتار في الصدف. أنّهن مستورات عن أعين الآخرين بصورة تامة، لا يد تصل إليهن ولا عين تقع عليهن.

وبعد الحديث عن هذه المنح، والعطايا المادية السّنة، يضيف سبحانه: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». كي لا يتصور أحد أنّ هذه النعم تعطى جزافاً، بل إنّ الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لنيلها والحصول عليها، حيث يلزم للإنسان العمل المستمر الخالص حتى تكون هذه الألفاظ الإلهية من نصيبه.

ويلاحظ بأنّ (يعملون) فعل مضارع يعطى معنى الإستمرار.

ويتحدث القرآن الكريم عن سابع نعمة من نعم أهل الجنة، وهي التي تتسم بالطابع الروحي المعنوي، حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ هُمْ عَنْهَا بِالْحَقِّ مُخَلَّدُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْتِيهِمْ».

فالجوّ هناك جوّ نزيه خالص بعيد عن الدنس، فلا كذب، ولا تهم، ولا إفتراءات، ولا استهزاء ولا غيبة ولا ألفاظ نابية وعبارات لاذعة ... وليس هنالك لغو ولا كلام فارغ.

ثم يضيف سبحانه: «إِلَّا قَلِيلًا سَلَمًا سَلَمًا».

سلام وتحيّة من الله، ومن الملائكة المقربين، وسلامهم وتحتيتهم لبعضهم البعض في تلك المجالس العامرة المملوءة بالصفاء والتي تفيض بالودّ والاخوة والصدق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٥

وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَ طَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَ ظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَ مَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَ فُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) غُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) أصحاب اليمين وهباتهم: بعد بيان الهبات والنعم المادية والمعنوية (للمقربين) يأتي الدور في الحديث عن (أصحاب اليمين)، ويشير سبحانه إلى نعم ست، ممّا أنعم به عليهم تمثّل مرحلة أدنى في مقابل سبع نعم منحها سبحانه إلى المقربين من عباده.

تبدأ الآيات في الحديث عنهم أوّلًا من حيث مقامهم العالی، حيث يقول عزّ وجل:

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ».

إنّ هذا الوصف هو أروع وصف لهؤلاء، لأنّ هذا التعبير يستعمل في موارد لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه، وهو تعبير عن المقام العالی لأصحاب اليمين.

وتشير الآية اللاحقة إلى أوّل نعمة منحت لهذه الجماعة، حيث تقول: «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ».

وفى تفسير روح المعاني: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون: إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً، فقال: يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذى صاحبها؟ قال: «وما هي». قال: السدر، فإن له شوكاً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أليس الله يقول: في سدر مخضود، خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكه ثمرة، وأن الثمرة من ثمره تفتق اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر». ثم يأتي الحديث عن ثاني هبة لهم حيث يقول سبحانه: «وَطَلَحَ مَنُضُودٍ». «الطلح»: شجرة خضراء لطيفة اللون والرائحة، وذكر البعض أنها شجرة الموز التي تتميز بأوراق عريضة وخضراء جميلة، وفاكهتها حلوة ولذيذة.

و «منضود»: من مادة (نضد) بمعنى متراكم.

وقال بعض المفسرين: بالنظر إلى أن أوراق شجر السدر في غاية الصغر، وأوراق شجر مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٤

الموز في غاية الكبر فقوله تعالى «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ\* وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ» اشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها، والورق أحد مقاصد الشجر «١». ثم يستعرض سبحانه ذكر النعمة الثالثة من نعم أهل اليمين بقوله: «وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ».

فسير البعض هذا (الظل الواسع) بحالة شبيهة للظل الذي يكون ما بين الطلوع الفجر إلى طلوع الشمس من حيث إنتشاره في كل مكان، وقد نقل حديث للرسول صلى الله عليه وآله بهذا المعنى في روضة الكافي «٢». و ينتقل الحديث إلى مياه الجنة حيث يقول سبحانه: «وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ».

«مسكوب»: من مادة «سكب» تعنى فى الأصل الصب، ولأن صب الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيار أو سلال فهي إحدى الهبات التي منحها الله لأهل الجنة.

ومن الطبيعي أن هذه الجنة المليئة بالأشجار العظيمة، والمياه الجارية، لا بد أن تكون فيها فواكه كثيرة، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة، حيث يقول سبحانه فى ذكر خامس نعمة: «وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ\* لَّمْ يَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ».

نعم، ليست كفواكه الدنيا من حيث محدوديتها فى فصول معينة من أسابيع أو شهور.

ثم يشير سبحانه إلى نعمة اخرى حيث يقول: «وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ». أى الزوجات الرفيعات القدر والشأن.

«فرش»: جمع فراش وتعنى فى الأصل كل فراش يفرش ولهذا التناسب فإنها تستعمل فى بعض الأحيان كناية عن الزوج (سواء كان رجلاً أو امرأة).

ويصف القرآن الكريم زوجات الجنة بقوله تعالى: «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً».

وهذه الآية لعلها تشير إلى الزوجات المؤمنات فى هذه الدنيا حيث يمنهن الله سبحانه خلقاً جديداً فى يوم القيامة، ويدخلن الجنة وهن فى قمة الحيوية والشباب والجمال والكمال الظاهر والباطن، وبشكل يتناسب مع كمال الجنة وخلوها من كل نقص وعيب. ثم يضيف تعالى: «فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا».

واحتمال أن يكون الوصف مستمراً، كما صرح كثير من المفسرين بذلك، واشير له فى

(٢) روضة الكافي ٨ / ٩٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٧

الروايات الإسلامية أيضاً، حيث الزواج لا يغير وضعهن وبيقين أباكراً (١).

ويضيف في وصفهن بوصف آخر فيقول تعالى: «عُزْبًا».

«عُزْبًا»: جمع «عروبة» بمعنى المرأة التي يحكى وضع حالها عن مقام عفتها وطهارتها، وعمّا تكنه من المحبة لزوجها؛ و«إعراب»: معناه

هو نفس مدلول الإظهار، ويأتى هذا المصطلح أيضاً بمعنى الفصاحة ولطافة الكلام، ويمكن جمع المعنيين في هذه الآية.

والوصف الآخر لهن: «أُتْرَابًا». أى: أنّها تماثلات في الجمال وأتراب في الظاهر والباطن، ومتماثلات في العمر مع أزواجهن.

«أتراب»: جمع «ترب» بمعنى المثل والشبيه. إنّ هذا الشبه والتماثل يمكن أن يكون في أعمار الزوجات بالنسبة لأزواجهن، كى يدركن

إحساسات ومشاعر أزواجهن كاملة.

ثم يضيف تعالى: «لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ».

وهذا تأكيد جديد على اختصاص هذه الصفات والنعمة الإلهية بهم.

وفى نهايه هذا العرض يقول سبحانه: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ».

«ثَلَاثَةٌ»: فى الأصل بمعنى قطعة مجتمع من الصوف، ثم اطلقت على كل مجموعة من الناس عظيمة ومتماثلة، وبهذا الترتيب فإن

مجموعة عظيمة من أصحاب اليمين هم من الامم السابقة، ومجموعة عظيمة من الامم الإسلامية، لأنّ بين المجموعتين كثير من

الصالحين والمؤمنين، بالرغم من أنّ السابقين للإيمان فى الامم الإسلامية أقلّ من السابقين للإيمان فى الامم السابقة، وذلك لكثرة

تلك الامم وكثرة أنبيائها.

وَاصِحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ (٤١) فى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَمَّا بَارِدٍ وَ لَأَ كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ

ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصَعِّرُونَ عَلَى الْحِنْتِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ

آبَاؤُنَا الْأُولُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأُولَىٰ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) العقوبات المؤلمة لأصحاب الشمال: بعد

الاستعراض الذى مرّ بنا حول النعم والهبات العظيمة التى منحها الله سبحانه للمقربين من عباده ولأصحاب اليمين من أوليائه، يتطرق

(١) روح المعاني ٢٧ / ١٤٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٨

الآن إلى ذكر المجموعة الثالثة (أصحاب الشمال) والعذاب المؤلم والعاقبة السيئة التى حلت بهم، فى عملية مقارنة لوضع المجموعات

الثلاثة، حيث يقول البارئ: «وَاصِحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصِحَابُ الشَّمَالِ». أصحاب الشمال هم الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم

اليسرى إشارة إلى سوء عاقبتهم، وأنهم من أهل المعاصى والذنوب.

ثم يشير سبحانه إلى ثلاثة أنواع من العقوبات التى يواجونها، الهواء الحارق القاتل من جهة: «فى سَمُومٍ»، والماء المغلى المهلك من

جهة اخرى: «وَحَمِيمٍ»، وظل الدخان الخائق الحارّ من جهة ثالثة: «وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ».

هذه الألوان من العذاب تحاصرهم وتطوقهم وتسلب منهم الصبر والقدرة.

ثم يضيف البارئ مؤكداً فيقول: «لَأَبَارِدٍ وَ لَأَ كَرِيمٍ».

المظلة عادةً تحمى الإنسان من الشمس والمطر والهواء ولها منافع اخرى، والظل المشار إليه فى الآية الكريمة ليس له من هذه الفوائد

شئ يذكّر.

ومن الطبيعى أنّ مظلة من الدخان الأسود الخائق لا ينتظر منها إلّا الشر والضرر.

وبالرغم من أن جزاء أهل النار له أنواع مختلفة مرعبة من العذاب، إلا أن ذكر الأقسام الثلاثة يكفي لإعطاء فكرة عن بقية الأهوال. وفي الآيات اللاحقة يذكر الأسباب التي أدت بأصحاب الشمال إلى هذا المصير المخيف والمشؤوم، وذلك بثلاث جمل: أ) يقول سبحانه وتعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ».

«مترف»: من مادة «ترف» بمعنى التمتع، وتطلق على الشخص الذي ملكته الغفلة وجعلته مغروراً سكراناً، وجرت به إلى الطغيان. صحيح أن أصحاب الشمال ليسوا جميعاً من زمرة المترفين، إلا أن المقصودين في القرآن الكريم هم أربابهم وأكابرهم. ب) ثم يشير سبحانه إلى العامل الذي كان مصدراً وسبباً لعذاب أصحاب الشمال، فيقول سبحانه: «وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ». «الحنث»: في الأصل يعني كل نوع من الذنوب. فإن خصوصية أصحاب الشمال ليس فقط في ارتكاب الذنوب ولكن في الإصرار عليها.

ج) وثالث عمل سبب لهم هذا الويل والعذاب، هو أنهم قالوا: «وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٩

وعلى هذا فإن إنكار القيامة والذي هو بحد ذاته مصدر للكثير من الذنوب، هو وصف آخر لأصحاب الشمال، ومصدر لشقائهم. وتعبير «كَانُوا يَقُولُونَ» يوضح لنا أنهم كانوا يصرون ويعاندون في إنكار يوم القيامة أيضاً.

إن الذنوب الثلاثة التي اشير إليها في الآيات الثلاثة السابقة كانت بمثابة نفى اصول الدين الثلاثة من قبل أصحاب الشمال. ففي آخر آية تحدت القرآن الكريم عن تكذيبهم ليوم القيامة، وفي الآية الثانية عن إنكار التوحيد، وفي الآية الاولى كان الحديث عن المترفين وهي إشارة إلى تكذيب الأنبياء.

إنهم لم يكتفوا بما ذكروا وذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث قالوا بتعجب: «أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ».

ثم إن القرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يجيبهم: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ مَّعْلُومَةٍ». «مِيقَاتٍ»: من مادة «وقت» بمعنى الزمان الذي يحدّد لعمل ما أو موعد. والمقصود من المِيقَاتِ هنا هو نفس الوقت المقرر للقيامة. ويستفاد من التعابير المختلفة التي وردت في الآية السابقة والتأكيدات العديدة حول مسألة الحشر، أن حشر جميع الناس ينجز في يوم واحد.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن معلومية يوم القيامة هي عند الله فقط، وإلّا فإن جميع البشر بما فيهم الأنبياء والمرسلون والمقربون والملائكة ليس لهم علم بتوقيتها.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ (٥١) لَمَا كَلُّونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) عقوبات جديدة للمجرمين: هذه الآيات استمرار للأبحاث المرتبطة بعقوبات أصحاب الشمال، حيث يخاطبهم بقوله: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ لَمَا كَلُّونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ».

«زقوم»: نبات مرّ تنبت الرائحة وطعمه غير مستساغ، وفيه عصارة إذا دخلت جسم الإنسان يصاب بالتورم، وتقال أحياناً لكل نوع من الغذاء المنفّر لأهل النار.

وجملة «فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ» إشارة إلى الجوع الشديد الذي يصيبهم بحيث إنهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٠

يأكلون بنهم وشره من هذا الغذاء النتن وغير المستساغ جداً فيملؤون بطونهم. وعند تناولهم لهذا الغذاء السيء يعطشون ولكن ما هو شرابهم! يتبين ذلك في قوله تعالى: «فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ».

إن البعير الذي يبتلى بداء العطش فإن شدة عطشه تجعله يشرب الماء باستمرار حتى يهلك، وهذا هو نفس مصير «الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ» في يوم القيامة.

وفي آخر آية- مورد البحث- يشير سبحانه إلى طبيعته ماكلهم ومشربهم في ذلك اليوم حيث يقول: «هَذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ».

ومن الطبيعي أن أهل النار ليسوا ضيوفاً، وأن الزقوم والحميم ليس وسيلة لضيافتهم بل هو نوع من الطعن فيهم، وأنه إذا كان كل هذا العذاب هو مجرد استقبال لهم، فكيف بعد ذلك سيكون حالهم.

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) سبعة أدلة على المعاد: بما أن الآيات السابقة تحدثت عن تكذيب الضالين ليوم المعاد، فإن الآيات اللاحقة استعرضت سبعة أدلة على هذه المسألة المهمة، كى يتركز الإيمان وتطمئن القلوب بالوعود الإلهية التى وردت فى الآيات السابقة حول «المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال». يقول سبحانه فى المرحلة الاولى: «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ».

أى لِم لا تصدقون بالمعاد؟! لماذا تتعجبون من الحشر والمعاد الجسمى بعد أن تصبح أجسامكم تراباً؟ ألم نخلقكم من التراب أول مرة؟ أليس حكم الأمثال واحداً؟

وفى الآية اللاحقة يشير البارىء إلى دليل ثان حول هذه المسألة فيقول: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ».

وهل أن القادر على الخلق المتكرر يعجز عن إحياء الموتى فى يوم القيامة؟

ثم يستعرض ذكر الدليل الثالث حيث يقول سبحانه: «نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ».

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٨١

إننا لن نغلب أبداً، وإذا قدرنا الموت فلا يعنى ذلك أننا لا نستطيع أن نمنح العمر السرمدى، بل إن الهدف هو أن نذهب بقسم من الناس ونأتى بآخرين محلهم، وأخيراً نعيدكم خلقاً جديداً فى عالم لا تعلمون عنه شيئاً: «عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ».

ويمكن توضيح الدليل بالصورة التالية: إن الله الحكيم الذى خلق الإنسان وقدر له الموت فطائفة يموتون وآخرين يولدون باستمرار، من البديهي أن له هدف.

فإذا كانت الحياة الدنيا هى الهدف فالمناسب أن يكون عمر الإنسان خالداً وليس بهذا المقدار القصير المقترن مع ألوان الآلام والمشاكل.

وسنة الموت تشهد أن الدنيا معبراً وليست منزلاً وأنها جسر وليست مقصداً، لأنها لو كانت مستقرراً ومقصداً لزم أن تدوم الحياة فيها.

وفى آخر آية- مورد البحث- يتحدث سبحانه عن رابع دليل للمعاد حيث يقول: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

هذا الدليل نستطيع بيانه بصورتين:

الاولى: إن خلق هذه الدنيا العظيمة وما فيها هل يمكن أن يكون لهدف صغير محدود، كأن يعيش الإنسان فيها بضعة أيام؟ كلا ليس كذلك، وإلا فإنه يعنى أن خلق العالم سيكون بدون هدف، ولكن مما لا شك فيه أن هذه المخلوقات العظيمة قد خلقت لموجود شريف- مثل الإنسان- ليعرف الله سبحانه من خلالها، معرفة تكون رأسماله الوحيد فى الدار الآخرة، فالهدف إذن هو الدار الآخرة، وهذا دليل آخر على المعاد.

الثانية: هو أننا نلاحظ مشاهد المعاد فى هذا العالم تتكرر أمامنا فى كل سنة وفى كل زاوية وكل مكان، حيث مشهد القيامة والحشر فى عالم النبات، فتحبى الأرض الميتة بهطول الأمطار الباعثة للحياة. قال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ أَحْيَاهَا لِمُحْيِ الْمَوْتَىٰ (١)».

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمَعْرُومُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) هل أنتم الزارعون أم الله: استعرضنا لحد الآن أربعة أدلة من الأدلة السبعة التى جاء



(١) سورة فصلت / ٣٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٢

ذكرها في هذه السورة حول المعاد، والآيات - مورد البحث واللاحقة لها - تستعرض الأدلة الاخرى المتبقية والتي كل منها مصداق لقدرة الله اللامتناهية. فالدليل الأول يرتبط بخلق الحبوب الغذائية، والثاني يرتبط بخلق الماء، والثالث يتعلق بالنار، وهذه المحاور تشكل الأركان الأساسية في الحياة الإنسانية.

يقول سبحانه في البداية: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ».

والله سبحانه هو الذى يخلق فى وسط هذه البذرة الحياة، فعندما توضع البذرة فى محيط مهيأ من حيث التربة والضوء والماء، فإنها تستفيد ابتداءً من المواد الغذائية المخزونة فيها إلى أن تصبح برعمًا وتولد جذراً، ثم تنمو بسرعة عجيبة مستفيدة من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض.

وفى الآية اللاحقة يؤكد الدور الهامشى للإنسان فى نمو ورشد النباتات فيقول: «لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَّمْتُمْ نَفْسَكُمْ».

«حطام»: من مادة «حطم» تعنى فى الأصل كسر الشئ، وغالباً ما تطلق على كسر الأشياء اليابسة كالعظام النخرة وسيقان النباتات الجافة، والمقصود هنا هو التبن.

ويحتمل أيضاً أن المقصود بالحطام هنا هو فساد البذور فى التربة وعدم نموها.

نعم، تتعجبون وتغمركم الحيرة وتقولون: «إِنَّا لَمُعْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» (١).

وإذا كنتم أنتم الزارعين الحقيقيين، فهل بإمكانكم أن تمنعوا وتدفعوا عن زرعكم الأضرار والمصير المدمر والنتيجة البائسة؟ وهذا التحدى يؤكد لنا أن جميع امور الخلق من الله سبحانه.

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) من الذى خلق الماء والنار: يشير سبحانه فى هذه الآيات إلى سادس وسابع دليل للمعاد فى هذا القسم من آيات سورة الواقعة، التى تبين قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، بل

(١) «مغرمون»: من مادة «غرامه» بمعنى الضرر وفقدان الوقت والمال.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٣

فى كل شئ: «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ». «أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ».

«مزن»: يعنى (الغيوم البيضاء) وفسرها البعض بأنها (الغيوم الممطرة).

إن هذه الآيات تجعل الوجدان الإنسانى أمام استفسارات عدده كى تأخذ إقراراً منه، حيث يسأل الله سبحانه: هل فكرتم بالماء الذى تشربونه باستمرار والذى هو سر حياتكم؟

وإذا لاحظنا فى الآيات أعلاه عملية استعراض لماء الشرب - فقط - وعدم التحدث عن تأثيره فى حياة الحيوانات أو النباتات فإن السبب هو الأهمية البالغة للماء فى حياة الإنسان نفسه، بالإضافة إلى أنه قد اشير له فى الآيات السابقة فى حديث الزرع، لذا لا حاجة لتكرار ذلك.

وأخيراً - ولإكمال البحث فى الآية اللاحقة - يقول سبحانه: «لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ». «اجاج»: من مادة «أجج» وقد أخذت فى الأصل من «أجيج النار» يعنى إشتعالها وإحتراقها، ويقال «اجاج» للمياه التى تحرق الفم عند شربها لشده ملوحتها ومرارتها وحرارتها.

وأخيراً نصل إلى سابع- وآخر- دليل للمعاد في هذه السلسلة من الآيات الكريمة، وهو خلق النار التي هي أهم وسيلة لحياة الإنسان وأكثرها أهمية له في المجالات الصناعية المختلفة، حيث يقول سبحانه: «أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشُونَ». «تورون»: من مادة «ورى» بمعنى الستر، ويقال للنار التي تكون مخفية في الوسائل التي لها القابلية على الإشتعال والتي تظهر بشرارة، ويقال «ورى» و «إبراء».

جملة (تورون)- بمعنى إشعال النار- بالرغم من أنها فسّرت هنا بما يستفاد منه توليد النار، إلا أنه لا مانع من أن تشمل الأشياء المشتعلة أيضاً كالحطب باعتباره ناراً خفية تظهر وقت توفر الشروط المناسبة لها. وفي الآية اللاحقة يضيف مؤكداً الأبحاث أعلاه بقوله سبحانه: «نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتَاعًا لِلْمُقْوِينَ». إن عودة النار من داخل الأشجار الخضراء تذكّرنا برجوع الأرواح إلى الأبدان في الحشر من جهة، ومن جهة أخرى تذكّرنا هذه النار بنار جهنم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٤

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» (١). جملة «متاعاً للمقوين» إشارة إلى الفوائد الدنيوية لهذه النار.

يستنتج سبحانه نتيجة مهمة بعد ما ركّز على أهمية هذه النعم للإنسان وذلك بتسبيحه والشكر له تعالى باعتباره المصدر الوحيد لهذه النعم ... فيقول سبحانه في آخر آية مورد البحث: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ». إن الله الذي خلق كل هذه النعم، والتي كل منها تذكّرنا بقدرته وتوحيده وعظمته ومعاده، لائق للتسبيح والتزنيه من كل عيب ونقص. إنه ربّ، وكذلك فإنه «عظيم» وقادر ومقدر، وبالرغم من أن المخاطب في هذه الآية هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلا أن من الواضح أن جميع البشر هم المقصودون.

فَلَمَّا أَفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَفَسَّمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَلَمْ نَقُلْ لَكَ الْحَقِيقَةُ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكذِّبُونَ (٨٢) المطهرون ومعرفة أسرار القرآن: استمراراً للأبحاث التي جاءت في الآيات السابقة، والتي تركّز الحديث فيها حول الأدلة السبعة الخاصة بالمعاد، ينتقل الحديث الآن عن أهمية القرآن الكريم باعتباره يشكل مع موضوع النبوة ركنين أساسيين بعد مسألة المبدأ والمعاد والتي بمجموعها تمثل أهم الأركان العقائدية. يبدأ الحديث بقسم عظيم، حيث يقول سبحانه: «فَلَمَّا أَفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ».

وعندما يلاحظ الإنسان- طبقاً لتصريحات العلماء- أن في (مجرتنا) فقط ألف مليون نجمة، وتوجد في الكون مجرات كثيرة، وكل واحدة منها لها مسار خاص، عندئذ ستوضح لنا أهمية هذا القسم القرآني. ولهذا السبب فإنه تعالى يضيف في الآية اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَفَسَّمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ». وهذه بحد ذاتها تعتبر إعجازاً علمياً للقرآن الكريم، حيث في الوقت الذي كانت تعتبر

(١) جامع البيان ٢٧ / ٢٦٢؛ وروح المعاني ٢٧ / ١٥٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٥

النجوم عبارة عن مسامير فضائية رصّعت السماء بها فإن مثل هذا البيان القرآني الرائع في ظل ظروف وأوضاع يخيم عليها الجهل، محال أن يصدر من بشر عادي.

وتوضّح الآية اللاحقة ما هو المقصود من ذكر هذا القسم؟ حيث يقول سبحانه: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ».

وبهذه الصورة فإنه يردّ على المشركين المعاندين الذين يصرون باستمرار على أنّ هذه الآيات المباركة هي نوع من التكهن - والعياذ بالله - أو أنه حديث جنوني أو شعر، أو أنه من قبل الشيطان ... فيردّ عليهم سبحانه بأنه وحى سماوى وحديث بين وعظمته وأصالته لا غبار عليها، ومحتواه يعبر عن مبدأ نزوله.

نعم، إنّ القرآن كريم وقائله كريم ومن جاء به كذلك، وأهدافه كريمة أيضاً.

ثم يستعرض الوصف الثانى لهذا الكتاب السماوى العظيم حيث يقول تعالى: «فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ».

إنّه فى «لوح محفوظ» فى علم الله، محفوظ من كل خطأ وتغيير وتبديل.

وفى ثالث وصف له يقول سبحانه: «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ».

ذكر الكثير من المفسرين - تماشياً مع بعض الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام - بعدم جواز مسّ (كتابة) القرآن الكريم بدون غسل أو وضوء.

كما اعتبر بعضهم أنّها إشارة إلى أنّ الحقائق والمفاهيم العالیه فى القرآن الكريم لا يدركها إلّا المطهرون. فإنّ طهارة الروح فى طلب الحقيقة تمثّل حدّاً أدنى من مستلزمات إدراك الإنسان لحقائق القرآن، وكلّما كانت الطهارة والقداسة أكثر كان الإدراك لمفاهيم القرآن ومحتوياته بصورة أفضل.

وفى رابع وآخر وصف للقرآن الكريم يقول تعالى: «تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

إنّ الله المالك والبارئ لجميع الخلق، قد نزل هذا القرآن لهداية البشر، وقد أنزله سبحانه على قلب النبی الطاهر، وكما أنّ العالم التكويني صادر منه وهو تعالى رب العالمين فكذلك الحال فى المجال التشريعي، فكل نعمة وهداية فمن ناحيته ومن عطائه.

ثم يضيف سبحانه: «أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ». هل أنتم بهذا القرآن وبتلك الأوصاف المتقدمة تتساهلون، بل تنكرونه وتستصغرونه فى حين تشاهدون الأدلة الصادقة والحقّة بوضوح، وينبغى لكم التسليم والقبول بكلام الله سبحانه بكلّ جدية، والتعامل مع هذا الأمر كحقيقة لا مجال للشك فيها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٦

عبارة «هذا الحديث» فى الآية الكريمة إشارة للقرآن الكريم.

«مدهنون»: فى الأصل من مادة «دهن» بالمعنى المتعارف عليه، ولأنّ الدهن يستعمل للبشرة وامور اخرى، فإنّ كلمة (أدهان) جاءت بمعنى المداراة والمرونة، وفى بعض الأحيان بمعنى الضعف وعدم التعامل بجدية ... ولأنّ المنافقين والكاذبين غالباً ما يتصفون بالمداراة والمصانعة، لذا استعمل هذا المصطلح أحياناً بمعنى التكذيب والإنكار، ويحتمل أن يكون المعنيان مقصودان فى الآية. وفى آخر آية - مورد البحث - يقول سبحانه إنكم بدلاً من أن تشكروا الله تعالى على نعمه ورزقه وخاصة نعمة القرآن الكبيرة، فإنكم تكذبون به: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ».

فَلَوْ لَمَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَمَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْ لَأِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) عندما تصل الروح إلى الحلقوم: تكلمة لأبحاث المعاد والردّ على المنكرين والمكذبين فإنّ

القرآن الكريم يرسم لنا صورة معبرة ومجسّدة لهذه اللحظات حيث يقول سبحانه:

«فَلَوْ لَأِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ» ولا تستطيعون عمل شىء من أجله.

والمخاطبون هنا هم أقارب المحتضر الذين ينظرون إلى حالته فى ساعة الاحتضار من جهة، ويلاحظون ضعفه وعجزه من جهة ثانية، وتتجلّى لهم قدرة الله تعالى على كل شىء، حيث إنّ الموت والحياة بيده، وأنهم - أى أقاربه - سيقاقون نفس المصير.

ثم يضيف سبحانه: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ».

نعم، نحن الذين نعلم بصورة جيّدة ما الذى يجول فى خواطر المحتضر؟ وما هى الإزعاجات التى تعتريه؟ نحن الذين أصدرنا أمرنا

بقبض روحه في وقت معين، إنكم تلاحظون ظاهر حاله فقط، ولا تعلمون كيفية إنتقال روحه من هذه الدار إلى الدار الآخرة. ثم للتأكيد الأشد في توضيح هذه الحقيقة يضيف تعالى: «فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». إنَّ ضعفكم هذا دليل أيضاً على أنَّ مالك الموت والحياة واحد، وأنَّ الجزاء بيده، وهو الذي يحيى ويميت.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٧

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنَزَلُ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) مصير الصالحين والطالحين: هذه الآيات نوع من الخلاصة للآيات الأولى والأخيرة من هذه السورة، كما أنها تجسد حالة التفاوت بين البشر في حالة الاحتضار، وكيف أنَّ قسماً منهم يلفظون أنفاسهم بهدوء وراحة في تلك اللحظات الصعبة، وآخرين تلوح لهم من بعيد النار الحامية، ويسيطر عليهم الخوف والاضطراب والهلع فيلفظون أنفاسهم بصعوبة بالغة. يقول سبحانه في البداية: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ».

«روح»: على وزن (قول) في الأصل بمعنى التنفس؛ و «الريحان»: بمعنى النبات أو الشيء ذي العطر، ثم اصطلح على كل شيء باعث للحياة والراحة، كما أنَّ الريحان يطلق على كل نعمة ورزق كريم. وبناءً على هذا فإنَّ الروح إشارة إلى كل الامور التي تخلص الإنسان من الصعوبات ليتنفس براحة، وأمَّا الريحان فإنه إشارة إلى الهبات والنعمة التي تعود إلى الإنسان بعد إزالة العوائق.

والجدير بالملاحظة أنَّ الحديث عن «جَنَّةِ النعيم» جاء بعد ذكر الروح والريحان وقد استفاد من هذا أنَّ الروح والريحان يكون من نصيب المؤمنين في الإحتضار والقبر والبرزخ، وأمَّا الجنة ففي الآخرة. في الأمالي للصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ» يعني في قبره، وجَنَّةِ نعيم يعني في الآخرة».

ثم يضيف سبحانه: «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ». وهم تلك الثلثة الصالحة من الرجال والنساء الذين يستلمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى كعلامة للفوز والنصر والنجاح «فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ».

وبهذا الترتيب فإنَّ ملائكة الله المختصين بقبض الروح في لحظات الإنتقال من هذه الدنيا يوصلون سلام أصحاب اليمين إلى المحتضر. كما قال تعالى- في الآية (٢٦) من نفس السورة- في وصف أهل الجنة وكلامهم: «إِلَّا قِيلاً سَلَامًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٨

ثم تستعرض الآيات الكريمة القسم الثالث الذين مرَّ ذكرهم في أوائل هذه السورة عبر التصنيف الذي ذكر واصطلح عليهم ب (أصحاب الشمال)، حيث يقول تعالى: «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنَزَلُ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ».

نعم، إنهم على مشارف الموت حيث يذوقون أول عذاب إلهي، ويتجرعون مرارة عقاب يوم القيامة في القبر والبرزخ. وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى أنَّ قسماً من الأشخاص الضالين من فصيلة الأفراد المستضعفين أو الجهلة القاصرين الذين ليس لديهم إصرار وعناد على الباطل، يمكن أن تشملهم الألفاظ الإلهية، أما المكذبون المعاندون فإنهم سيبتلون بالمصير البائس والعاقبة السيئة التي تقدّم ذكرها.

وفي نهاية هذا الحديث يضيف سبحانه: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ».

إنَّ التعبير ب (فسبِّح)- الفاء تفرعية- هو إشارة إلى أنَّ ما قيل حول الأقسام الثلاثة هو عين العدالة، وبناءً على هذا اعتبر (ربك) منزهاً من كل ظلم، وإذا ما اريد الإبتعاد عن مصير أصحاب الشمال فعلينا أن نتنزه من كل شرك وظلم المتلازمان مع إنكار القيامة.

وفي الدر المنثور: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» قال: «اجعلوها في ركوعكم». ولما نزلت «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قال: «اجعلوها في سجودكم».

«نهاية تفسير سورة الواقعة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٩

## ٥٧. سورة الحديد

محتوى السورة: نستطيع أن نقسم موضوعات هذه السورة إلى سبعة أقسام:

- ١- الآيات الاولى من هذه السورة لها بحث جامع حول التوحيد وصفات الله تعالى.
  - ٢- يتحدث عن عظمة القرآن، هذا النور الإلهي الذي أشرق في ظلمات الشرك.
  - ٣- يستعرض وضع المؤمنين والمنافقين في يوم القيامة، وبهذا تعكس السورة في أبحاثها الاصول الإسلامية الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد.
  - ٤- تتحدث الآيات فيه عن الدعوى إلى الإيمان والخروج من الشرك، وعن مصير الأقسام الضالة من الامم السابقة.
  - ٥- جزء مهم من هذه السورة يتحدث حول الإنفاق في سبيل الله، وخصوصاً في تقوية اسس الجهاد في سبيل الله، وأن مال الدنيا ليس له وزن وقيمة.
  - ٦- في قسم قصير من الآيات- إلا أنه واف ومستدل- يأتي الحديث عن العدالة الاجتماعية والتي هي إحدى الأهداف الأساسية للأنبياء.
  - ٧- وفيه تتحدث الآيات عن سلبية الرهبانية والإنزواء الاجتماعي وأن ذلك يمثل إبتعاداً عن الخط الإسلامي.
- إن تسمية السورة ب (الحديد) هو لما جاء في الآية (٢٥) من ذكر كلمة الحديد.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٠

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)  
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) فضيلة تلاوة السورة: وردت في الروايات الإسلامية نقاط جديدة بالملاحظة حول فضيلة تلاوة سورة الحديد، ومما لا شك فيه أن المقصود في التلاوة هي تلاوة التدبر والتفكير الذي يكون توأمًا مع العمل.

في الدر المنثور عن عرياض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية».

وفي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ المسبحات كلها قبل أن ينام، لم يمت حتى يرى القائم عليه السلام، وإن مات كان في جوار رسول الله صلى الله عليه وآله».

آيات للمتفكرين: إن هذه السورة بدأت بقسم التوحيد، الذي يشتمل على عشرين صفة من صفات الله سبحانه، تلك الصفات التي بمعرفتها يصل الإنسان إلى مستوى عال من المعرفة الإنسانية بالله، وتعمق معرفته بذاته المقدسة، وهذه الأوصاف والتي تشير إلى جانب من صفات جلاله وجماله، كلما تعمق العلماء وأهل الفكر فيها توصلوا إلى حقائق جديدة عن الذات الإلهية المقدسة.

في الكافي: عندما سئل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام عن التوحيد فقال: «إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» فمن وراء ذلك فقد هلك».

إن أول آية من هذه السورة بدأت بتسييح وتنزيه الله عز وجل حيث يقول سبحانه:

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وبعد ذكر صفتين من صفات الذات الإلهية يعني (العزة والحكمة) يتطرق إلى (مالكيته وتدبيره، وقدرته في عالم الوجود) والتي هي من مستلزمات القدرة والحكمة، حيث يقول تعالى: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩١

إنَّ مالكيه الله عزَّ وجل لعالم الوجود ليست مالكيه اعتباريه وتشريعيه، إذ أنَّها مالكيه حقيقيه وتكوينيّه. وهذا يعني أنَّ الله سبحانه محيط بكل شيء، وأنَّ جميع العالم في قبضته وقدرته وتحت إرادته وأوامره، لذا فقد جاء الحديث بعد هذا الكلام عن (الإحياء والإفناء) والقدرة على كل شيء.

الاختلاف بين «العزّة» و «القدرة» هو أنَّ العزّة أكثر دلالة على تحطيم المقابل والقدرة تعني توفير الأسباب وإيجادها. وبناءً على هذا فإنَّهما يعدّان وصفين مختلفين بالرغم من أنَّهما مشتركان في أصل القدرة (يرجى ملاحظة ذلك).

ثم يتطرق سبحانه إلى ذكر خمس صفات أخرى حيث يقول: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

الوصف هنا ب «الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» تعبير رائع عن أزليته وأبديته تعالى، لأننا نعلم أنه وجود لا متناهي وأنه (واجب الوجود) أي أن وجوده من نفس ذاته، وليس خارجاً عنه حتى تكون له بداية ونهاية، وبناءً على هذا فإنه كان من الأزل وسيبقى إلى الأبد.

إنَّه بداية عالم الوجود، وهو الذي سيبقى بعد فناء العالم أيضاً. وبناءً على هذا فإنَّ التعبير ب «الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» ليس له زمان خاصّ أبداً، وليس فيه إشارة إلى مدّة زمنية معينة.

والوصف ب «الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» هو تعبير آخر عن الإحاطة الوجودية- أي وجود الله- بالنسبة لجميع الموجودات، أي إنَّه أظهر من كل شيء لأنَّ آثاره شملت جميع مخلوقاته في كل مكان، وهو خفي أكثر من كل شيء أيضاً لأنَّ كنه ذاته لم يتضح لأحد.

فإنَّ أحد نتائج هذه الصفات المتقدمة هو ما جاء في نهاية الآية الكريمة: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». إذ إنَّ من كان في البداية ويبقى في النهاية، وموجود في ظاهر وباطن العالم ...

سيكون عالماً بكل شيء قطعاً.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٢

على عرش القدرة دائماً: تحدثت الآيات السابقة عن إحدى عشرة صفة للذات الإلهية المقدسة، وتبين الآيات أعلاه أوصافاً أخرى حيث اشير في الآية الأولى مورد البحث إلى خمسة أوصاف أخرى من صفات جلاله وجماله. ويبدأ الحديث عن مسألة الخلقه حيث يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ».

لقد ذكرت مسألة الخلقه في (ستة أيام) سبع مرّات في القرآن الكريم، المرّة الأولى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف، والأخيرة هي هذه الآية مورد البحث (الحديد/٤).

فإنَّ المقصود من (اليوم) في هذه الآيات ليس المعنى المتعارف (اليوم)، بل المقصود هو (الزمان) سواء كان هذا الزمان قصيراً أو طويلاً حتى لو بلغ ملايين السنين.

ثم تتطرق الآيات إلى مسألة الحكومه وتدير العالم حيث يقول سبحانه: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ».

إنَّ زمام حكومه وتدير العالم كانت دائماً بيده ولا زالت، وبدون شك فإنَّ الله تعالى ليس جسمًا، ولذا فليس معنى «العرش» هنا هو عرش السلطه، والتعبير كناية لطيفه عن الحاكمية المطلقة لله سبحانه ونفوذ تديره في عالم الوجود.

ثم يستعرض نوعاً آخر من علمه اللامتناهي بقوله تعالى: «يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا».

وفي رابع وخامس صفة له سبحانه يركّز حول نقطة مهمة حيث يقول: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

وكيف لا يكون معنا في الوقت الذي نعتمد عليه، ليس في إيجادنا فحسب، بل في البقاء لحظة بلحظة- أيضاً- ونستمد منه العون، إنَّه

روح عالم الوجود.

الحقيقة أن الاحساس بأن الله معنا في كل مكان يعطى للإنسان عظمته وجلالاً من جهة، ومن جهة أخرى يخلق فيه اعتماداً على النفس وشجاعته وشهامته، ومن جهة ثالثة فإنه يثير إحساساً شديداً بالمسؤولية، لأن الله حاضر معنا في كل مكان، وناظر ومراقب لأعمالنا، وهذا أكبر درس تربوي لنا. وهذا الاعتقاد يمثل دافعاً جدياً للتقوى والطهارة والعمل الصالح في الإنسان، ويعتبر رمز عظمته وعزّته.

وبعد مسألة الحاكمية والتدبير يأتي الحديث عن مسألة مالكيته سبحانه في كل عالم الوجود، حيث يقول: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٣

وأخيراً يشير إلى مسألة مرجعيته فيقول تعالى: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

نعم، عندما يكون الخالق والمالك والمدبر معنا في كل مكان، فمن البديهي أن يكون رجوعنا ورجوع أعمالنا إليه كذلك.

وفي آخر آية مورد للبحث يشير إلى صفتين أخريين بقوله تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ».

بالتدرج ينقص أحد الوقتين (الليل والنهار) ليضيف للآخر، وتبعاً لذلك يتغير طول النهار والليل في السنة، وهذا التغير يكون مصحوباً بالفصول الأربعة في السنة مع كل البركات التي تكون مختصة في هذه الفصول لبنى الإنسان.

وتفسير آخر لهذه الآية هو: إن شروق وغروب الشمس لن يحدثا فجأة ودون مقدمات، بل يتم هذا التغير بصورة تدريجية حتى يتهيأ الجميع لذلك.

ويضيف سبحانه في النهاية: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

فكما أن أشعة الشمس الباعثة للحياة تنفذ في أعماق ظلمات الليل، وتضيء كل مكان، فإن الله عز وجل ينفذ كذلك في كل زوايا قلب وروح الإنسان، ويطلع على كل أسرار.

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لِمَا تُمُونَنَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَنْ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسَيْنِي وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) الإيمان والإنفاق أساسان للنجاة: بعد البيان الذي تقدم حول دلائل عظمته الله في عالم الوجود وأوصاف جماله وجلاله، تلك الصفات المحفزة للحركة باتجاه الله تعالى، تنتقل الآن إلى جو هذه الآيات المفعم بالدعوة للإيمان والعمل ...

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٤

يقول سبحانه في البداية: «آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».

إن هذه الدعوة دعوة عامة لجميع البشر، فهي تدعو المؤمنين إلى إيمان أكمل وأرسخ، وتدعو - أيضاً - غير المؤمنين إلى التصديق والإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه الدعوة إلى الإيمان جاءت توأمًا مع أدلة التوحيد التي تناولتها الآيات التوحيدية السابقة.

ثم يدعو إلى أحد الالتزامات المهمة للإيمان وهي: (الإنفاق في سبيل الله) حيث يقول تعالى: «وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ».

إن للإنفاق مفهوماً واسعاً ولا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل - أيضاً - العلم والهداية والسمعة الاجتماعية ورؤوس الأموال المعنوية والمادية.

ثم يقول تعالى في الحث على الإنفاق: «فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ».

إن وصف الأجر بأنه «كبير» إشارة إلى عظمة الألفاظ الإلهية والهبات الإلهية، وأبديتها وخلوصها ودوامها ليس في الآخرة فحسب، بل

في عالم الدنيا أيضاً حيث إنّ قسماً من الأجر سوف يكون من نصيب الإنسان في الدنيا.

وبعد الأمر بالإيمان والإنفاق يعطى بياناً لكل منهما، وهو بمثابة الاستدلال والبرهان، وذلك بصورة استفهام توبيخي ابتداءً، حيث يستفسر عن علة عدم قبول دعوة الرسول صلى الله عليه وآله حول الإيمان بالله فيقول سبحانه: «وَمَا لَكُمْ لِمَاتُؤْمُنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

يعنى أنكم إذا كنتم مستعدين حقيقته وصدقاً لقبول الحق، فإنّ دلائله واضحة عن طريق الفطرة والعقل، وكذلك عن طريق النقل. وجاءت الآية اللاحقة لتأكيد وتوضيح نفس هذا المعنى حيث تقول: «هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيَّ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

إنّ كلمة (رؤوف) جاءت هنا إشارة إلى محبته ولطفه الخاص بالنسبة إلى المطيعين، في حين أنّ كلمة (رحيم) إشارة إلى رحمته بخصوص العصاة.

ثم يأتي استدلال آخر على ضرورة الإنفاق حيث يقول تعالى: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». أي أنكم سترحلون عن هذه الدنيا وتركون كل ما منحكم الله فيها، وتذهبون إلى عالم آخر، فلماذا لا تستفيدون من هذه الأموال التي جعلها الله تحت تصرفكم بتنفيذ أمره بالإنفاق.

ولأنّ للإنفاق قيمةً مختلفةً وأحوالاً متفاوتةً والشرائط والظروف، يضيف يوم تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُوَكِّمُ النَّارَ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بَشَسِ الْمَصِيرُ (١٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٥

سبحانه: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلٌ». أي أنّ الذين بذلوا المال والنفس في الظروف الحرجة مفضّلون على الذين ساعدوا الإسلام بعد سكون الموج وهدوء العاصفة. لذلك وللتأكيد أكثر يضيف تعالى: «أُولَئِكَ أَغْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا».

وبما أنّ القسمين (الإنفاق والجهاد) مشمولان بعناية الحق تعالى مع اختلاف الدرجة، فيضيف في النهاية: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى . وهذا تقدير لعموم الأشخاص الذين ساهموا في هذا الطريق.

وكلمة (حسنى) لها مفهوم واسع، حيث تشمل كل ثواب وجزاء وخير في الدنيا والآخرة. ولكون قيمة العمل بإخلاصه لله سبحانه فيضيف في نهاية الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

نعم، إنّه يعلم بكيفية وكمية أعمالكم. وكذلك نياتكم ومقدار خلوصكم، ولغرض الحثّ على ضرورة الإنفاق في سبيل الله، ومن خلال تعبير رائع يؤكد سبحانه ذلك في الآية مورد البحث بقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا». فينفق مما آتاه الله في سبيل الله «فِيضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ».

والمراد من الإقراض لله تعالى هو كل إنفاق في سبيله، وأحد مصاديقه المهمة الدعم الذي يقدم للرسول صلى الله عليه وآله وأئمة المسلمين من بعده، كى يستعمل في الموارد اللازمة لإدارة الحكومة الإسلامية. لذا نقل في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْ خَلْقَهُ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ قَرْضًا مِنْ حَاجَةٍ بِهِ إِلَى ذَلِكِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ مِنْ حَقِّ فَاِنَّمَا هُوَ لَوْلِيهِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٦

لقد بشر الله المنفقين في آخر آية من الآيات السابقة بالأجر الكريم، واستمراراً للبحث فالآيات أعلاه تتحدث عن هذا الأجر، وتبين



مدى قيمته وعظمته في اليوم الآخر. يقول سبحانه: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». والمقصود من النور- في الواقع- تجسيم نور الإيمان، لأن في ذلك اليوم تتجسد أعمال البشر، فيتجسد الإيمان الذي هو نور هدايتهم بصورة نور ظاهري، ويتجسد الكفر الذي هو الظلام المطلق بصورة ظلمة ظاهرية.

وهنا يصدر هذا النداء الملائكي باحترام للمؤمنين: «بُشْرِيكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». أما المنافقون الذين سلكوا طريق الظلام والكفر والذنوب والمعصية، فإن صراخهم يعلو في مثل تلك الساعة ويلتمسون من المؤمنين شيئاً من النور، لكنهم يواجهون بالرد والنفى، كما في قوله تعالى: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ».

ويأتي الجواب على طلبهم بقوله تعالى: «قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا».

كان من الممكن أن تحصلوا على النور من الدنيا التي تركتموها وراءكم، وذلك بإيمانكم وأعمالكم الصالحة، إلا أن الوقت انتهى، وفاتت الفرصة عليكم ولا أمل هنا في حصولكم على النور.

«فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا لَّهُ بَابٌ». وهذا الباب أو هذا الجدار من نوع خاص وأمره فريد، حيث إن كلاً من طرفيه مختلف عن الآخر تماماً، حيث: «بِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ».

ويمكن أن يكون هذا الباب من أجل أن يرى المنافقون من خلاله نعم الجنة ويتحسرون عليها، أو أن من كان قليل التلوث بالذنوب وقد نال جزاءه من العذاب بإمكانه أن يدخل منها ويكون مع المؤمنين في نعيمهم.

غير أن هذا الحائط ليس من النوع الذي يمنع عبور الصوت حيث يضيف سبحانه: «أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ». لقد كنا نعيش معكم في هذه الدنيا فما الذي حدث وإنفصلتم عنا وذهبتم إلى الروح والرحمة الإلهية وتركتمونا في قبضة العذاب؟ «قَالُوا بَلَى . كُنَّا مَعَكُمْ فِي أَمَاكُنْ كَثِيرَةٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْأَسْوَاقِ، فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكُنَّا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٧

أحياناً جيراناً أو في بيت واحد ... نعم كنا معاً، إلا أن اختلافاتنا في العقيدة والعمل كانت هي الفواصل بيننا، لقد كنتم تسيرون في خط منفصل عن خطنا وكنتم غرباء عن الله في الاصول والفروع، لذا فأنتم بعيدون عنا، ثم يضيفون: لقد إبتليتم بخطايا وذنوب كثيرة من جملتها:

١- «وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ» وخذتموها بسلوك طريق الكفر والضلال.

٢- «وَتَرَبَّصْتُمْ» وانتظرت موت النبي وهلاك المسلمين وإنهدام أساس الإسلام، بالإضافة إلى التهرب من إنجاز كل عمل إيجابى وكل حركة صحيحة، حيث تتعللون وتماطلون وتسوفون إنجازها.

٣- «وَارْتَبْتُمْ» في المعاد وحقانية دعوة النبي والقرآن ..

٤- وخذتكم الآمال «وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ».

هذه الأمانى لم تعطكم مجالاً- حتى لحظة واحدة- للتفكير الصحيح، لقد كنتم مغمورين في تصوراتكم وتعيشون في عالم الوهم والخيال، واستولت عليكم امنية الوصول إلى الشهوات والأهداف المادية.

٥- «وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعُزْرَ». إن الشيطان عزكم بوساوسه في مقابل وعد الله عز وجل، فتارةً صور لكم الدنيا خالدة باقية واخرى صور لكم القيامة بعيدة الوقوع، وفي بعض الأحيان عزكم بلطف الله والرحمة الإلهية، وأحياناً جعلكم تشكون في أصل وجود الله العظيم الخالق.

وأخيراً فإن المؤمنين- بلحاظ ما تقدم- يخاطبون المنافقين بقولهم: «فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». وبهذا الترتيب يواجه المنافقون نفس مصير الكفار أيضاً، وكلهم رهينة ذنوبهم وأعمالهم القبيحة، ولا يوجد لهم أى طريق للخلاص.

ثم يضيف سبحانه: «مَأْوِيَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

الإنسان - عادةً - لكي ينجو من العقوبة المتوقعة في الدنيا، يتوسل للخلاص منها إما بالغرامة المالية أو طلب العون والمساعدة من قوة شفيعة، إلا أنه في يوم القيامة تنقطع كل الأسباب والوسائل المادية المتعارف عليها في هذا العالم للوصول إلى المقاصد المرجوة. وبهذه الصورة يوضح القرآن الكريم أن الوسيلة الوحيدة للنجاة في ذلك اليوم هي الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، حتى أن دائرة الشفاعة محدودة للأشخاص الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وليسوا من الغرباء مطلقاً عن الإيمان والذين قطعوا ارتباطهم بصورة كلية من الله وأوليائه وعصوا أوامرهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٨

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن الآية الأولى نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عما في التوراة، فإن فيها العجائب. فنزلت «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» إلى قوله «لَمِنَ الْغَافِلِينَ» (١) فخبّرهم أن القرآن أحسن القصص وأنفع لهم من غيره، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله. ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك، فنزلت آية «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا» (٢) فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله. ثم عادوا فسألوا سلمان، فنزلت هذه الآية.

التفسير

إلى متى هذه الغفلة: بعد ما وجهت الآيات السابقة مجموعة من الإنذارات الصارمة والتنبهات الموقظة، وبيّنت المصير المؤلم للكفار والمنافقين في يوم القيامة، جاءت الآية الأولى مورد البحث بشكل استخلاص نتيجة كلية من ذلك، فتقول: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» (٣).

«تخشع»: من مادة «خشوع» بمعنى حالة التواضع مقترنة بالأدب الجسمي والروحي، حيث تنتاب الإنسان هذه الحالة - عادةً - مقابل حقيقة مهمّة أو شخصيّة كبيرة.

(١) سورة يوسف / ١-٣.

(٢) سورة الزمر / ٢٣.

(٣) «يَأْنِ»: من مادة «إناء، على وزن (نداء) ومن مادة (أناء) على وزن جفاء بمعنى الإقتراب وحضور وقت الشيء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٩

ومن الواضح أن ذكر الله عز وجل إذا دخل أعماق روح الإنسان، وسمع الآيات القرآنية بتدبر فإنها تكون سبباً للخشوع، والقرآن الكريم هنا يلوم بشدة قسماً من المؤمنين لعدم خشوعهم أمام هذه الامور، لأنه قد ابتلى كثير من الامم السابقة بمثل هذا من الغفلة والجهل.

وهذه الغفلة تؤدي إلى قساوة القلب وبالتالي إلى الفسق والعصيان.

إن آية: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...» من الآيات المثيرة في القرآن الكريم، حيث تليّن القلب، وترطب الروح وتمزق حجب الغفلة. لذلك نلاحظ بصورة مستمرة أن أفراداً مذبذبين جداً قد هداهم الله إلى طاعته بعد سماعهم هذه الآية التي وقعت

في نفوسهم كالصاعقة، وأيقظتهم من سباتهم وغفلتهم التي كانوا فيها، ولهذا شواهد عديدة حيث تنقل لنا كتب التاريخ العديد منها، حتى أن البعض منهم أصبح في صفّ الزهاد والعباد. مختصر الامثل ج ٥، ص ١١٩

ولأنّ إحياء القلوب الميتة لا يكون إلّا بالذكر الإلهي، الحياة الروحية التي لن تكون إلّا بظل الخشوع والخضوع وخاصة في أجواء القرآن الكريم ... لذا فإنّ القرآن يشبه عملية إحياء القلوب الميتة بإحياء الأراضي الميتة، فكما أن هذه تحيا ببركة نزول الأمطار كذلك فإنّ القلوب تحيا بذكر الله سبحانه ... حيث يضيف سبحانه في الآية اللاحقة: «اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون».

هذه الآية تشير إلى إحياء الأراضي بوسيلة المطر، كذلك فإنّ إحياء القلوب الميتة يكون بواسطة ذكر الله وقراءة القرآن المجيد الذي نزل من سماء الوحي على القلب الطاهر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وكلاهما جديران بالتدبر والتعقل.

ويرجع مرّة أخرى في الآية اللاحقة إلى مسألة الإنفاق، والتي هي إحدى ثمار شجرة الإيمان والخشوع، حيث يتكرر نفس التعبير الذي قرأناه في الآيات السابقة مع إضافته، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ».

إنّ المقصود من القرض الحسن لله في هذه الآيات والآيات المشابهة هو الإنفاق في سبيل الله، بالرغم من أن القرض لعباد الله هو من أفضل الأعمال أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٠

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاحر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً و في الآخرة عذاب شديد و مغفرة من الله و رضوان و ما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور (٢٠) استمراراً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة في بيان حال المؤمنين وأجرهم عند الله تعالى، تضيف الآيات التالية بهذا الصدد قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

«الصادق»: صيغة مبالغة من «الصدق» بمعنى الشخص الذي يستوعب الصدق جميع وجوده، حيث يصدق عمله قوله، وهو النموذج التام للصدق.

«شهداء»: جمع «شهيد» بمعنى الحضور مع المشاهدة. إلّا أنّ المراد من (الشهداء) في الآية مورد البحث قد يكون الشهادة على الأعمال، كما يستفاد من الآيات القرآنية الأخرى، فالأنبياء شهداء على أعمالهم، ورسول الإسلام شاهد عليهم وعلى الأمة الإسلامية، والمسلمون أيضاً شهداء على أعمال الناس.

واحتتم البعض أن (شهداء) هنا هو الشهداء في سبيل الله، أي الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر وثواب الشهادة، يحسبون بمنزلة الشهداء.

ثم يضيف تعالى: «لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ».

إنّ هذا التعبير المختصر يشير إلى عظيم الأجر والنور الذي ينتظرهم.

وفي النهاية يضيف تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

وذلك كي تتوضح بهذه المقارنه والنتيجة التي آلت إليها المجموعتان، والتي تتدرج بين القميه والقاع، حيث إنّ القسم الأول في المقام العالي من دار الخلد، والقسم الثاني في الدرك الأسفل من النار يندبون سوء حظهم وإنحطاط مصيرهم.

وبما أنّ المجموعة الأولى كانت في أعلى مستويات الإيمان، ففي المقابل أيضاً ذكرت الآية

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠١

أيضاً الكفر بأسوأ صورته في الجماعة الثانية المقارن للتكذيب بآيات الله.

ولأن حب الدنيا مصدر كل رذيلة، ورأس كل خطيئة، فالآية اللاحقة ترسم بوضوح وضع الحياة الدنيا والمراحل المختلفة والمحفزات والظروف والأجواء التي تحكم كل مرحلة من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: «اعلموا إنما الحيوه الدنيا لعب ولهو وزينه وتفأخر بينكم وتكاثروا في الأموال والأولاد».

وبهذه الصورة فإن «الغفلة» و «اللهو» و «الزينة» و «التفاخر» و «التكاثر» تشكل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ويذكر سبحانه مثلاً لبداية ونهاية الحياة ويجسد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصورة حيث يقول سبحانه: «كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتريه مضمراً ثم يكون حطاماً» (١).

«كفار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، ولكن بمعنى «الزرع» لأن أصل الكفر هو التغطية، وبما أن الزارع عندما ينثر البذور يغطيها بالتراب، فقد قيل له كافر.

«حطام»: من مادة «حطم» بمعنى التكسير والتفتيت، ويطلق على الأجزاء المتناثرة للتبن (حطام) وهي التي تأخذها الرياح باتجاهات مختلفة.

إن المراحل التي يمر بها الإنسان مدة سبعين سنة أو أكثر تظهر في النبات بعدة أشهر، ويستطيع الإنسان أن يسكن بجوار المزرعة ويراقب بداية ونهاية العمر في وقت قصير.

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى حصيلة العمر ونتيجته النهائية حيث يقول سبحانه: «وفي الآخره عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان».

وأخيراً تنهى الآية حديثها بهذه الجملة: «وما الحيوه الدنيا إلا متاع الغرور».

«غرور»: في الأصل من مادة «عز» بمعنى الأثر الظاهر للشيء، ويقال (عز) للأثر الظاهر في جبهة الحصان، ثم اطلقت الكلمة على حالة الغفلة، حيث إن ظاهر الإنسان واع، ولكنه غافل في الحقيقة، وتستعمل أيضاً بمعنى الخدعة والحيلة.

«المتاع»: بمعنى كل نوع ووسيلة يستفاد منها، وبناءً على هذا فإن جملة (الدنيا متاع الغرور) كما جاءت في قوله تعالى: «وما الحيوه الدنيا إلا متاع الغرور». تعني أنها وسيلة

(١) «يهيج»: من مادة «هيجان» جاءت هنا بمعنيين الأول: جفاف النبات، والآخر: التحرك والحيوية، وقد يرجع هذان المعنيان إلى أصل واحد، لأن النبات عند جفافه يكون مهياً للإندثار والانتشار بحركة الرياح.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٢

وأداة للحيلة والخدعة للفرد وللآخرين. وطبيعي أن هذا المعنى وارد في الأشخاص الذين يعتبرون الدنيا هدفهم النهائي، وتكون منتهى غاياتهم، ولكن إذا كانت الهبات المادية في هذا العالم وسيلة للوصول بالإنسان للسعادة الأبدية، فذلك لا يعد من الدنيا، بل ستكون جسراً وقنطرة ومزرعة للآخرة التي ستتحقق فيها تلك الأهداف الكبيرة حقاً.

سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

(٢٢) لِكَيْلِمَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ

مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) المسابقة المعنوية الكبرى: بعد ما بينت الآيات السابقة قيمة هذه الدنيا المتواضعة الفانية،

وكيف أن الناس فيها منهمكون في اللذات والتكاثر والتفاخر وجمع الأموال ... تأتي الآيات مورد البحث لتدعو الناس إلى العمل للحصول على موقع في الدار الآخرة، ذلك الموقع المتمسك بالثبات والبقاء والخلود، وتدعوهم إلى السباق في هذا المجال وبذل الجهد

فيه، حيث يقول سبحانه: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

وفى الحقيقة أنّ مغفرة الله هي مفتاح الجنة، تلك الجنة التي عرضها السماوات والأرض وقد أعدت من الآن لضيفه المؤمنين، حتى لا يقول أحد إن الجنة نسيته ودين ولا أمل في النسيته.

وممّا ينبغي ملاحظته أنّ المسارعة لمغفرة الله لا بدّ أن تكون عن طريق أسبابها كالتوبة والتعويض عن الطاعات الفائتة، وأساساً فإنّ طاعة الله عزّ وجلّ يعنى تجنّب المعاصي.

ويضيف تعالى في نهاية الآية: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٣

ومن المؤكّد أنّ جنّة بذلك الإتّساع وبهذه النعم، ليس من السهل للإنسان أن يصل إليها بأعماله المحدودة، لذا فإنّ الفضل واللفظ والرحمة الإلهية - فقط - هي التي تستطيع أن تمنحه ذلك الجزاء العظيم في مقابل السير من أعماله، إذ إنّ الجزاء الإلهي لا يكون دائماً بمقياس العمل، بل إنّ بمقياس الكرم الإلهي.

ولمزيد من التأكيد على عدم التعلق بالدنيا، وعدم الفرح والغرور عند إقبالها، أو الحزن عند إدبارها، يضيف سبحانه: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

إنّ المصائب التي تحدث في الطبيعة كالزلازل والسيول والفيضانات والآفات المختلفة، وكذلك المصائب التي تقع على البشر كالموت وأنواع الحوادث المؤلمة التي تشمل الإنسان، فإنّها مقدّرة من قبل ومسجّلة في لوح محفوظ.

والجدير بالإنتباه أنّ المصائب المشار إليها في الآية هي المصائب التي لا يمكن التخلّص منها، وتكون مقدّرة وحتمية وغير قابلة للإجتنا، وليست ناتجة عن أعمال الإنسان. وإلّا فإنّ المصائب والمصاعب التي تكون بسبب ذنوب الإنسان وتسامحه في الطاعات والالتزامات الإلهية، فإنّ لمواجهتها لا بدّ من وضع برنامج صحيح في حياة الإنسان.

والمقصود من «اللوح المحفوظ» هو: العلم اللا-متناهي لله سبحانه، أو صحيفة عالم الخلق ونظام العلّة والمعلول، والتي هي مصداق العلم الفعلي لله سبحانه.

ولنلاحظ الآن ما هي فلسفة تقدير المصائب في اللوح المحفوظ، ومن ثم بيان هذه الحقيقة في القرآن الكريم؟

الآية اللاحقة تزيح هذا الحجاب عن هذا السرّ المهم حيث يقول تعالى: «لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ».

هاتان الجملتان تحلان - في الحقيقة - إحدى المسائل المعقّدة لفلسفة الخلق، لأنّ الإنسان يواجه دائماً مشاكل وصعوبات وحوادث

مؤسفة في عالم الوجود، ويسأل دائماً نفسه هذا السؤال وهو: رغم أنّ الله رحمن رحيم وكريم .. فلماذا هذه الحوادث المؤلمة؟!

ويجب سبحانه أن هدف ذلك هو: ألا تأسركم مغريات هذه الدنيا وتنشدوا إليها وتغفلوا عن أمر الآخرة ... كما ورد في الآية أعلاه.

هذه المصائب هي إنذار للغافلين وسوط على الأرواح التي تعيش الغفلة والسبات، ودلالة على قصر عمر الدنيا وعدم خلودها وبقائها.

إنّ هذه المصائب تكسر حدّة الغرور والتفاخر وحيث يقول سبحانه في نهاية الآية:

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٤

«وَاللَّهُ لَمَائِحِبٌ كُؤُلٌ مُّخْتَالٍ فَخُورٍ». «مختال»: من مادة «خيال» بمعنى متكبر، لأنّ التكبر من التخيّل، أي من تخيّل الإنسان الفضل لنفسه،

وتصوره أنّه أعلى من الآخرين؛ و «فخور»: صيغة مبالغه من مادة «فخر» بمعنى الشخص الذي يفتخر كثيراً على الآخرين.

والشخص الوحيد الذي يتلى بهذه الحالات هو المغرور الذي أسكرته النعم، وهذه المصائب والآفات بإمكانها أن توقظه عن هذا السكر والغفلة وتهديه إلى سير التكامل.

ومن ملاحظة ما تقدم أعلاه فإنّ المؤمنين عندما يرزقون النعم من قبل الله سبحانه فإنّهم يعتبرون أنفسهم مؤتمنين عليها، ولا يأسفون على فقدانها وفواتها، ولا يغفلون ويسكرون بوجودها.

وفي آخر آية مورد البحث نلاحظ توضيحاً وتفسيراً لما جاء في الآيات السابقة، والذي يوضح حقيقة الإنسان المختال الفخور حيث

يقول عنه تعالى: «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ».

نعم، إنَّ الإنداد العميق لرخارف الدنيا ينتج التكبر والغرور، ولازم التكبر والغرور هو البخل ودعوة الآخرين للبخل، أما البخل فلائذ التكبر والغرور كثيراً ما يكون بسبب ثراء الإنسان الذى يدفعه إلى أن يحرض عليه، وبالتالي يبخل فى إنفاقه، ومن هنا فإنَّ لازمة الغرور والتكبر هو البخل.

أما دعوة الآخرين إلى البخل، فلائذ سخاء الآخرين سيفضح غيرهم من البخلاء، هذا أولاً، والثانى أن البخل يحبُّ البخل، لذا فإنه يدعو للشىء الذى يرغب فيه.

ولكى لا يتصور أن تأكيد الله سبحانه على الإنفاق وترك البخل، أو كما عبرت عنه الآيات السابقة ب (القرض لله) مصدره إحتياج ذاته المقدسة، فإنه يقول فى نهاية الآية: «وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

بل نحن كلنا محتاجون إليه وهو الغنى عننا جميعاً، لأنَّ جميع خزائن الوجود عنده وتحت قبضته، ولأنَّه جامع لصفات الكمال فإنه يستحق كل شكر وثناء.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٥

الهدف الأساس من بعثه الأنبياء: ابتدأ الله سبحانه وتعالى عباده بالنعم فكانت رحمته وطفه ومغفرته، ونعمه الكثيرة التى لا تحصى والتى اشير إليها فى الآيات السابقة... ولأنَّ هذه النعم تحتاج إلى تقنين فى استعمالها، ونظم وشرائط لنيل نتائجها المرجوة، لذا فإنه يحتاج إلى قيادة تقوم بمباشرتها والإشراف عليها وإعطاء التوجيهات الإلهية بشأنها، وهؤلاء القادة يجب أن يكونوا (قادة إلهيين) والآية مورد البحث- التى تعتبر من أكثر الآيات القرآنية محتوى- تشير إلى هذا المعنى، وتبين هدف إرسال الأنبياء ومناهجهم بصورة دقيقة، حيث يقول سبحانه: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

وبهذه الصورة فإنَّ الأنبياء كانوا مسلحين بثلاث وسائل وهى: «الدلائل الواضحة»، و «الكتب السماوية»، و «معيار قياس الحق من الباطل» والجيد من الردىء. ولا يوجد مانع من أن يكون القرآن (بينه) أى معجزة، وهو كذلك كتاب سماوى ومبين للأحكام والقوانين، أى أن الأبعاد الثلاثة تصب فى محتوى واحد وهى موجودة فى القرآن الكريم.

وعلى كل حال، فإنَّ الهدف من تعبته هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحة الأساسية، هو إقامة القسط والعدل.

وأنَّ هذه الآية تشير إلى أحد الأهداف العديدة لارسال الرسل.

ثم إنَّ أى مجتمع إنسانى مهما كان مستواه الأخلاقى والاجتماعى والعقائدى والروحى عالياً، فإنَّ ذلك لا يمنع من وجود أشخاص يسلكون طريق العتو والطغيان، ويقفون فى طريق القسط والعدل، واستمراراً لمنهج الآية هذه يقول سبحانه: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ».

إنَّ هذه الأسلحة الثلاثة التى وضعت تحت تصرف الأنبياء هى بهدف أن تكون الأفكار والمفاهيم التى جاء بها الأنبياء فاعلة ومؤثرة، وتحقق أهدافها المنشودة، فقد وضع الحديد والبأس الشديد فى خدمه رسل الله.

إنَّ تعبير (أنزلنا) إشارة إلى الهبات التى تعطى من المقام الأعلى إلى المستوى الأدنى، وهنا حديث لأمير المؤمنين عليه السلام فى تفسيره لهذا القسم من الآية حيث قال: «فإنزاله ذلك: خلقه إياه» (١).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٦

ثم يشير سبحانه إلى هدف آخر من أهداف ارسال الأنبياء وإنزال الكتب السماوية، وخلقه وتسخير الوسائل المفيدة للإنسان كالحديد مثلاً، حيث يقول تعالى: «وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ».

المقصود من (علم الله) هنا هو التحقق العيني ليتوضح من هم الأشخاص الذين يقومون بنصره الله ومبدئه، ويقومون بالقسط، ومن هم الأشخاص الذين يتخلفون عن القيام بهذه المسؤولية العظيمة.

ومفهوم هذه الآية يشبه ما ورد في الآية (١٧٩) من سورة آل عمران: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

وبهذه الصورة نلاحظ أن المسألة هنا مسألة إختبار وتمحيص واستخراج الصفوة التي استجابت لمسؤوليتها والقيام بواجبها الإلهي، وهذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسية في هذا البرنامج.

ومن الطبيعي أن المقصود ب (نصره الله) أنها نصره الدين والمبدأ والحاملين وحي الرسالة، وإقامة الحق والقسط ... وإلا فإن الله ليس بحاجة إلى نصره أحد، بل الكل محتاج إليه.

ولتأكيد هذا المعنى تنتهي الآية بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ».

حيث بإمكانه سبحانه أن يغير ما يشاء من العالم، بل يقلبه رأساً على عقب بإشارة واحدة، ويهلك أعداءه، وينصر أوليائه ... وبما أن الهدف الأساس له سبحانه هو التربية وتكامل البشر، لذا فقد دعاهم عز وجل إلى نصره مبدأ الحق.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) تعاقب الرسل واحداً بعد الآخر: للقرآن الكريم منهجه المتميز، ومن خصوصياته أنه

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٧

بعد بيان سلسلة من الاصول العامة يشير ويدكر بمصير الأرقام السابقة، لكي يكون ذلك شاهداً وحبّة.

وهنا أيضاً يتجسد هذا المنهج، حيث يشير في المقدمة إلى ارسال الرسل مع البينات والكتاب والميزان والدعوة إلى الإيمان بالحق، لنيل مرضاته سبحانه والفوز بالسعادة الأبدية ... ثم يتحدث عن بعض الامم السابقة وأنبياهم ويعكس هذه الاسس في منهج دعوتهم.

ويبدأ بشيوخ الأنبياء وبداية سلسلة رسل الحق، نوح وإبراهيم عليهما السلام، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ».

ومما يؤسف له أن الكثيرين لم يستفيدوا من هذا الميراث العظيم، والنعم الإلهية الفياضة، والهبات والألطف العميمة، حيث يقول عز وجل: «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ».

نعم، لقد بدأت النبوة بنوح عليه السلام توأمًا مع الشريعة والمبدأ، ومن ثم إبراهيم عليه السلام من الأنبياء اولى العزم في إمتداد خط الرسالة.

ثم يشير إلى قسم آخر من سلسلة الأنبياء الكرام التي تختتم بعيسى عليه السلام آخر رسول قبل نبينا محمد صلى الله عليه وآله حيث يقول سبحانه: «ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا».

حيث حملوا نور الهداية للناس ليضيئوا لهم الطريق، وتعاقبوا في حملها الواحد بعد الآخر، حتى وصل الدور إلى السيد المسيح: «وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ».

ثم يشير هنا إلى الكتاب السماوي للسيد المسيح عليه السلام حيث يقول: «وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ».

ويستمر متحدثاً عن خصوصيات أتباعه فيقول سبحانه: «وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً».

وفي تفاوت مصطلحي «الرأفة» و «الرحمة» قالوا: إن «الرأفة» تعني الرغبة في دفع الضرر، و «الرحمة» تعني الرغبة في جلب المنفعة. ولهذا تذكر الرأفة قبل الرحمة غالباً، لأن قصد الإنسان ابتداءً هو دفع الضرر ومن ثم يفكر في جلب المنفعة. ثم يضيف سبحانه: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» (١).

(١) إن الرهبانية أخذت من «الرهبه» التي جاءت بمعنى الخوف من الله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٨

إن الاستفادة من الآية أعلاه إجمالاً هو أن الرهبانية لم تكن في شريعة السيد المسيح عليه السلام، وأن أصحابه ابتدعوها من بعده، وكان ينظر إليها في البداية على أنها نوع من أنواع الزهد والإبداعات الخيرة لكثير من السنن الحسنه التي تشيع بين الناس. ولا تتخذ عنوان التشريع أو الدستور الشرعي، إلا أن هذه السنه تعرضت إلى الانحراف - فيما بعد - وتحريف التعاليم الإلهية، بل إقترنت بممارسات قبيحه على مر الزمن.

ومن جملة الممارسات القبيحه للمسيحيين في مجال الرهبانية تحريم الزواج للنساء والرجال بالنسبة لمن يتفرغ (للرهبنة) والإنزواء الاجتماعي، وإهمال كآفته المسؤوليات الإنسانية في المجتمع، والركون إلى الصوامع والأديرة البعيده، والعيش في محيط منزو عن المجتمع ... بالإضافة إلى جملة من المفاصد التي حصلت في الأديرة ومراكز الرهبان.

وفي أمالي الصدوق رحمه الله عن أنس بن مالك، قال: توفي ابن لعثمان بن مطعون، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ من داره مسجداً يتعبد فيه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: «يا عثمان، إن الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنما رهبانية امتي الجهاد في سبيل الله».

إن الإسلام ندد للرهبانية بشده، حتى أن الكثير من المصادر الإسلامية أوردت الحديث المعروف: «لا رهبانية في الإسلام».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفِزْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)  
لَيْتَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ يَفْقِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: قال سعيد بن جبیر: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله جعفرأ في سبعين راكباً إلى النجاشي، يدعوه. فقدم عليه ودعاه، فاستجاب له وآمن به. فلما كان عند إنصرافه، قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا فنأتى هذا النبي فنسلم به.

فقدموا مع جعفر. فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالوا: يا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٩

نبي الله! إن لنا أموالاً ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا فجننا بأموالنا فواسينا المسلمين بها. فأذن لهم فانصرفوا. فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين.

فأنزل الله تعالى فيهم: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» إلى قوله «وَمِمَّا زَقَنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (١) فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين. فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» فخرخوا على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين! أميا من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا، فله أجر كاجوركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ» الآية، فجعل لهم أجرين، وزادهم النور والمغفرة.



## التفسير

الذين لهم سهمان من الرحمة الإلهية: بما أن الحديث في الآيات السابقة كان عن أهل الكتاب والمسيحيين، فإن الآيات مورد البحث مكتملة لما جاء في الآيات السابقة. يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ».

إن المخاطب في هذه الآية هم جميع المؤمنين الذين قبلوا- بالظاهر- دعوة الرسول صلى الله عليه وآله ولكنهم لم يؤمنوا بها الإيمان الراسخ الذي يضيء أعماق النفوس ويتجسد في أعمالهم وممارساتهم.

وتكمله للآية الكريمة يشير القرآن الكريم إلى ثلاث نعم عظيمة تحصل في ظل الإيمان العميق والتقوى، حيث يقول تعالى: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

«كفل»: على وزن (طفل) بمعنى الحصة التي توفر للإنسان حاجته، ويقال للضامن «كفيل» أيضاً بهذا اللحاظ، حيث يكفل الطرف المقابل ويضمه بنفسه.

والمقصود من هاتين الحصتين أو النصيبين هو ما جاء في قوله تعالى: «رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً».

وحول القسم الثاني من الجزاء والأجر يقول تعالى: «وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ».

إن للآية مفهوماً مطلقاً واسعاً حسب الظاهر ولا يختص بالدنيا فقط ولا بالآخرة فحسب. وبتعبير آخر: فإن الإيمان والتقوى هي التي تسبب زوال الحجب عن قلوب

(١) سورة القصص / ٥٢-٥٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٠

المؤمنين، حيث يتبين لهم وجه الحقيقة واضحاً وبدون حجاب، وفي ظل الإيمان والتقوى هذين سيكون للإنسان وعى وبصيرة حرم غير المؤمنين منها، لأن أكبر حاجز عن المعرفة وأهم مانع لها هو الحجاب الذي يغطي قلب الإنسان، والذي هو هوى النفس والنزعات الذاتية والأمانى الفارغة، والآمال البعيدة، والوقوع في أسر المادة ومغريات الدنيا، حيث لا تسمح للإنسان أن يرى الحقائق بصورتها الطبيعية، وبالتالي فإن الحكم على الأشياء يكون بعيداً في منطق العقل والصواب.

إلا أن استقرار الإيمان والتقوى في القلوب يبّد هذه الحجب ويزيل عتمتها وظلامها عن صفحة القلب.

وفي الآية اللاحقة- والتي هي آخر آيات هذه السورة- بيان ودليل لما جاء في الآية الآنفه الذكر حيث يقول تعالى: «لَنَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

إنه جواب لهؤلاء الكتابيين الذين زعم قسم منهم: أن لهم أجراً واحداً كبقية المسلمين حينما رفضوا الإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله، حيث آله وأتيا الذين آمنوا بالرسول منهم فلهم أجران: أجر الإيمان بالرسول السابقين، وأجر الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله، حيث يجيبهم القرآن ويردّ عليهم بأن المقصود بالآية هم المسلمون.

فهؤلاء هم الذين لهم أجران، لأنهم آمنوا جميعاً برسول الله بالإضافة إلى إيمانهم بكل الأنبياء السابقين، أما أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا برسول الله فليس لهم أى نصيب أو سهم من الأجر، ذلك ليعلموا أن الرحمة الإلهية ليست في اختيارهم حتى يهبوا ما يشاؤون منها وفق مشترياتهم، ويمنعوها عن الآخرين.

«نهاية تفسير سورة الحديد»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١١

محتوى السورة: نزلت هذه السورة في المدينة، وانسجماً مع موضوعات السورة المدنية فإنها تتحدث في الغالب عن الأحكام الفقهية، ونظام الحياة الاجتماعية، والعلاقات بين المسلمين وغيرهم ... ونستطيع أن نلخص أهم أبحاثها في ثلاثة أقسام:

١- يتحدث عن حكم (الظهار) الذي كان يعتبر نوعاً من الطلاق والانفصال الدائم، حيث قومه الإسلام وجعله في الطريق الصحيح.

الثاني: يتحدث عن مجموعة من التعليمات الخاصة بأداب المجالسة، والتي منها:

«التفسيح» في المجالس ومنع النجوى.

يتعرض إلى بحث واف ومفصل عن المنافقين، تلك الفئة التي تتظاهر بالإسلام، إلا أنها تتعاون مع أعدائه، ويحذر المسلمين المؤمنين من الدخول في حزب الشيطان والنفاق، ويدعوهم إلى الحب في الله والبغض في الله والإلتحاق بحزب الله. وقد اشتق اسم هذه السورة (المجادلة) من الآية الأولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن ابي بن كعب قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله في يوم القيامة».

في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٢

فريضة أدمنها لم يعذبه الله حين يموت أبداً، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً، ولا خصاصة في بدنه».

وحيث إن موضوعات هذه السورة تتناسب مع الجزاء المرتقب من الله تعالى، لذلك فإن الروايات أعلاه توضح لنا الهدف من التلاوة من أجل العمل بمحتوياتها.

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَّاسَا ذَلِكَمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَةَ يَوْمَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَّاسَا فَمَنْ لَمْ يَسِدْ فَطَعَامٌ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

سبب النزول

في تفسير علي بن إبراهيم: حدثنا علي بن الحسين قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن محبوب عن أبي ولاد عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن امرأة من المسلمات أتت النبي صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله! إن فلاناً زوجي وقد نثرت له بطني وأعنته على دنياه وآخرته، لم ير مني مكروهاً أشكوه إليك. فقال: فيم تشكينه؟ قالت: إنه قال: أنت علي حرام كظهر امي، وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أنزل الله تبارك وتعالى علي كتاباً أفضى فيه بينك وبين زوجك، وأنا أكره أن أكون من المتكلمين، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عز وجل وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وانصرفت.

قال: فسمع الله تبارك وتعالى مجادلتها لرسول الله في زوجها وما شكت إليه وأنزل الله في ذلك قرآناً: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ» إلى قوله «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٣

التفسير

الظهار عمل جاهلي قبيح: بالنظر إلى ما قيل في سبب النزول، وكذلك طبيعة الموضوعات التي وردت في السورة، فإن الآيات الأولى منها واضحة في دلالتها حيث يقول سبحانه: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا».

«تجادل»: من المجادلة مأخوذة من مادة «جدل» وتعني في الأصل (قتل الحبل).

ثم يضيف تعالى: «وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا».

«تحاور»: من مادة «حور» بمعنى المراجعة في الحديث أو الفكر.

«إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». إِنَّ اللَّهَ عالم بكل المسموعات والمرئيات، بدون أن يحتاج إلى حواس نظر أو سمع، لأنه حاضر وناظر في كل مكان، يرى كل شيء ويسمع كل حديث.

ثم يستعرض تعالى حكم الظهار بجمل مختصرة وحاسمة تقضى بقوة على هذا المفهوم الخرافي حيث يقول سبحانه: «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا إِلَىٰ وَلَدْنَهُمْ».

«الام» و «الولد» ليس بالشىء الذى تصنعه الألفاظ، بل إنهما حقيقة واقعية عينية خارجية لا يمكن أن تكون من خلال اللعب بالألفاظ. ويضيف تعالى مكملاً الآية: «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا» (١).

وتماشياً مع مفهوم هذه الآية فإن «الظهار» عمل محرّم ومنكر، ومع أنّ التكليف الإلهية لا تشمل الممارسات السابقة، إلا أنها ملزمة لحظة نزول الحكم، ولا بد عندئذ من ترتيب الأثر، حيث يضيف الله سبحانه هذه الآية: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ».

وبناءً على هذا فإذا كان المسلم قد ارتكب مثل هذا العمل قبل نزول الآية فلا بأس عليه لأن الله سيعفو عنه، وأما مسألة الكفارة باقية بقوتها.

إلا أنّ مثل هذا العمل القبيح (الظهار) لم يكن شيئاً يستطيع الإسلام أن يغضّ النظر عنه، لذلك فقد جعل له كفارة ثقيلة نسبياً كى يمنع من تكراره، وذلك بقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا». ثم يضيف تعالى: «ذَلِكَم تَوْعُظُونَ بِهِ».

(١) «زور»: فى الأصل بمعنى الإحناء الموجود على الصدر وجاءت أيضاً بمعنى الانحراف، ولأنّ حدود الكذب والباطل منحرفة عن

الحق، فيقال له (زور) كما يطلق على الصنم أيضاً بهذا اللحاظ. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٤

أى يجب ألّا تتصوروا أنّ مثل هذه الكفارة فى مقابل الظهار، كفارة ثقيلة وغير متناسبة مع الفعل، إنّ المقصود بذلك هو الموعظة والإيقاظ لنفوسكم، والكفارة عامل مهم فى وضع حدّ لمثل هذه الأعمال القبيحة والمحرمة، ومن ثم السيطرة على أنفسكم وأقوالكم.

وأساساً فإنّ جميع الكفارات لها جنبه روحية وتربوية، والكفارات المالية يكون تأثيرها غالباً أكثر من التعزيرات البدنية.

ولأنّ البعض يحاول أن يتهرّب من إعطاء الكفارة بأعداد واهية فى موضوع الظهار، يضيف عزّ وجل أنّه يعلم بذلك حيث يقول فى نهاية الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

إنّه عالم بالظهار، وكذلك عالم بالذين يتهرّبون من الكفارة، وكذلك بتياتكم!

ولكن كفارة تحرير (رقبة) قد لا تيسر لجمع من يرتكب هذا الذنب كما لاحظنا ذلك فى موضوع سبب نزول هذه الآية المباركة.

وقد يتعدّد وجود المملوك، ليقوم المكلف بتحرير رقبته حتى مع قدرته المالية، كما فى عصرنا الحاضر، لهذا كله ولأنّ الإسلام دين عالمى خالد فقد عالج هذه المسألة بحكم آخر يعوّض عن تحرير الرقبة، حيث يقول عزّ وجل: «فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعِينَ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا».

وهذا اللون من الكفارة له أثر عميق على الإنسان، حيث إنّ الصوم بالإضافة إلى أنّه وسيلة لتنقية الروح وتهذيب النفس، فإنّ له تأثيراً عميقاً وفاعلاً فى منع تكرّر مثل هذه الأعمال فى المستقبل.

ومن الواضح - كما فى ظاهر الآية - أنّ مدّة الصوم يجب أن تكون ستين يوماً متتابعاً، وكثير من فقهاء أهل السنّة أفتوا طبقاً لظاهر الآية، إلاّ أنّه قد ورد فى روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ المكلف إذا صام أيام قلائل حتى ولو يوماً واحداً بعد صوم الشهر الأوّل،

فإن مصداق التتابع في الشهرين يتحقق، وهذا الرأي حاكم على ظاهر الآية.

ولأن الكثير من الناس غير قادرين على الوفاء بالكفارة الثانية، وهي صوم الشهرين المتتابعين، فقد ذكر لذلك بديل آخر حيث يقول سبحانه: «فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا».

والظاهر من الإطعام أن يعطى غذاء يشبع الشخص في وجبة طعام، إلا أن الروايات الإسلامية ذكرت أن المقصود بذلك هو (مد) لإطعام كل واحد (والمد يعادل ٧٥٠ غم).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٥

ثم يشير تعالى في تكملة الآية مرة أخرى إلى الهدف الأساس لمثل هذه الكفارات: «ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».

نعم إن إزالة الذنوب بوسيلة الكفارات تقوى اسس الإيمان، وتربط الإنسان بالتعاليم الإلهية قولاً وعملاً. وفي نهاية الآية يؤكد سبحانه بصورة قاطعة على الالتزام بأوامره حيث يقول: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ». يقال للقوانين الإلهية إنها حدود، وذلك لحرمة تجاوزها.

وقد أدان الإسلام للظهار وشرع له حكم الكفارة.

وبناءً على هذا فكلما جعل الرجل على زوجته ظهاراً فإن الزوجة تستطيع أن تراجع الحاكم الشرعي وتلزمه، إما أن يطلقها بصورة شرعية، أو يرجعها إلى حالتها الزوجية السابقة، بعد دفعه للكفارة بالصورة التي مرت بنا سابقاً.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) اولئك أعداء الله: إذا كانت آخر جملة في الآيات السابقة تحت الجميع بضرورة الالتزام بالحدود الإلهية وعدم تجاوزها، فإن الآيات مورد البحث لا تتحدث عن الأشخاص الذين تجاوزوا حدود الله فحسب، بل عن الذين حاربوا الله ورسوله، وتوضّح عاقبتهم ومصيرهم في هذه الدنيا والعالم الآخر كذلك. يقول سبحانه في البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

«يحادون»: من مادة «محادة» بمعنى الحرب المسلّحة والاستفاداة من الحديد وتقال أيضاً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٦

للحرب غير المسلّحة؛ و «كبتوا»: من مادة «كبت» بمعنى المنع بذلة، و «كبتوا» إشارة إلى أن الله تعالى يجعل جزاء المحاربين لله ورسوله الذلّة والهوان ويمنعهم من لطفه الشامل. ثم يضيف الباري سبحانه: «وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

وبناءً على هذا فقد تمتّ الحجة بشكل كامل، ولم يبق عذر، وحجة للمخالفة، ومع ذلك فإن خلفاء، فلا بد من أن يجازوا، ليس في هذه الدنيا فحسب، بل في القيامة: «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ».

فإن هذا التهديد الإلهي للأشخاص الذين يقفون بوجه الرسول صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم قد تحقّق، حيث واجهوا الذلّة والإنكسار في غزوة بدر وخيبر والخندق وغير ذلك، وأخيراً في فتح مكة حيث كسرت شوكتهم واحبط كيدهم بانتصار الإسلام في كل مكان.

والآية اللاحقة تتحدث عن إستعراض زمان وقوع العذاب الاخرى عليهم حيث يقول عز وجل: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا». نعم: «أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ».

وهذا بحد ذاته عذاب مؤلم، لأن الله تعالى يذكرهم بذنوبهم المنسيّة ويفضحهم في مشهد الحشر أمام الخلائق.

وفي نهاية الآية يقول البارئ سبحانه: «وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

إن حضور الله سبحانه في كل مكان وفي كل زمان وفي الداخل والخارج، يوجب ألا يحصى أعمالنا- فقط- بل تياتنا وعقائدنا، وفي ذلك اليوم الكبير الذي هو «يوم البروز» يُعرف كل شيء ولكي يعلم الإنسان السبب في شدة العقاب الإلهي.

ولتأكيد حضور الله سبحانه في كل مكان وعلمه بكل شيء ينتقل الحديث إلى مسألة «النجوى» حيث يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

ثم يضيف تعالى: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

المقصود من أن «الله» رابعهم أو سادسهم هو أن الله عز وجل موجود حاضر وناظر في كل مكان وعالم بكل شيء، وإلا فإن ذاته المقدسة لا مكان لها، ولا يوصف بالعدد أبداً، ووحدانيته أيضاً ليست وحدة عددية، بل بمعنى أنه لا شبيه له، ولا نظير ولا مثيل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٧

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوِدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبُرِّ وَالنُّتُوِّ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

سبب الترويل

نقلت روايتان حول سبب نزول الآية الاولى اعلاه، وكل واحدة منهما تخصّ قسماً من الآية الكريمة. تقول الرواية الاولى: قال ابن عباس: نزل قوله «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى الْآيَةَ، في اليهود والمنافقين، إنهم كانوا يتناجون فيما بينهم، دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل، أو مصيبة أو هزيمة. فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلما طال ذلك شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فنزلت الآية «١».

أما الرواية الثانية فقد نقل في صحيح مسلم والبخاري وكثير من كتب التفسير، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: أتى النبي صلى الله عليه وآله و آلُه اناس من اليهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. قال: «وعليكم». قالت عائشة قلت: بل عليكم السام والذام. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله و آلُه «يا عائشة لا تكوني فاحشة». فقالت ما سمعت ما قالوا. فقال: «أوليس قد رددت عليهم الذي

(١) تفسير مجمع البيان ٩/ ٤١٣؛ وتفسير روح المعاني ٢٨/ ٢٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٨

قالوا قلت وعليكم». فأنزل الله عز وجل «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ...» (١).

التفسير

النجوى من الشيطان: البحث في هذه الآيات هو استمرار لأبحاث النجوى السابقة.

يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوِدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ».

ويستفاد من هذه الآية بصورة جلية أن المنافقين واليهود قد نهوا من قبل ومنعوا من النجوى التي تولد سوء الظن عند الآخرين وتسبب

لهم القلق.

واستمراراً لهذا الحديث فإن القرآن الكريم يشير إلى مورد آخر من أعمال التجاوز والمخالفة للمنافقين واليهود، حيث يقول تعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ».

«حيوك»: من مادة «تحية» مأخوذة في الأصل من الحياة بمعنى الدعاء بالسلام والحياة الأخرى؛ والمقصود بالتحية الإلهية في هذه الآية هو: (السلام عليكم) أو (سلام الله عليك) والتي وردت نماذج منها في الآيات القرآنية عن الأنبياء وأصحاب الجنة، ومن جملتها قوله تعالى في الآية (١٨١) من سورة الصافات: «سَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ».

ثم يضيف تعالى أن هؤلاء لم يرتكبوا مثل هذه الذنوب العظيمة فقط بل كانوا مغرورين متعالين وكأنهم سكارى فيقول عز وجل: «وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ».

وبهذه الصورة فإنهم قد أثبتوا عدم إيمانهم بنبوة الرسول صلى الله عليه وآله وكذلك عدم إيمانهم بالإحاطة العلمية لله سبحانه. ويرد عليهم القرآن الكريم: «حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ».

والطبيعي أن هذا الكلام لا ينفي عذابهم الدنيوي، لأن النجوى قد تكون بين المؤمنين أحياناً وذلك للضرورة أو لبعض الميل، لذا فإن الآية اللاحقة تخاطب المؤمنين ستكون مناجاتهم في مأمن من التلوث بذنوب اليهود والمنافقين حيث يقول الباري عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ». يستفاد من هذا التعبير - بصورة واضحة - أن النجوى إذا كانت بين المؤمنين فيجب أن

(١) صحيح مسلم ٥/٧؛ صحيح البخارى ٥١/٨؛ وفى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام ٦٤٨/٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٩

تكون بعيدة عن سوء وما يثير قلق الآخرين، ولا بد أن يكون مسارها التواصى بالخير والحسنى، وبهذه الصورة فلا مانع منها.

ولذلك فإن القرآن يحذّر منها أشدّ تحذير في آخر آية مورد البحث، حيث يقول تعالى:

«إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا». ولكن يجب أن يعلموا أن الشيطان لا يستطيع إلحاق الضرر بأحد إلا أن يأذن الله بذلك «وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ذلك لأن كل مؤثر في عالم الوجود يكون تأثيره بأمر الله حتى إحراق النار وقطع السيف.

«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». إذ أنهم - بالروح التوكليّة على الله، وبالاعتماد عليه سبحانه - يستطيعون أن ينتصروا على جميع هذه المشاكل.

لهذا العمل - أى النجوى - من الوجهة الفقهية الإسلامية أحكام مختلفة:

فتارةً يكون هذا العمل «حراماً» وذلك فيما لو أدى إلى أذى الآخرين أو هتك حرمتهم كالنجوى الشيطانية حيث هدفها إيذاء المؤمنين.

وقد تكون النجوى أحياناً «واجبة» وذلك في الموضوعات الواجبة السريّة، حيث إن إفشاءها مضرّ ويسبب الخطر والأذى، وفى مثل هذه الحالة فإنّ عدم العمل بالنجوى يستدعى إضاعة الحقوق وإلحاق خطر بالإسلام والمسلمين.

وتتصف النجوى فى صورة اخرى بالإستحباب، وذلك فى الأوقات التى يتصدى فيها الإنسان لأعمال الخير والبرّ والإحسان، ولا يرغب بالإعلان عنها وإشاعتها وهكذا حكم الكراهة والإباحة.

وأساساً، فإنّ كل حالة لا يوجد فيها هدف مهم فالنجوى عمل غير محمود، ومخالف لآداب المجالس، ويعتبر نوعاً من اللامبالاة وعدم الإكتراث بالآخرين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَفْعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في الصفّة، وفي المكان ضيق، وذلك يوم الجمعة. وكان صلى الله عليه وآله يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار. فجاء اناس من أهل بدر، وفيهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ١٤٩

ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا في المجلس. فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردّ عليهم النبي صلى الله عليه وآله. ثم سلّموا على القوم بعد ذلك، فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم، فلم يفسحوا لهم. فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وآله، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر. فشق ذلك على من اقيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم. وقال المنافقون للمسلمين: أستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس، فوالله ما عدل على هؤلاء أن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم! فنزلت الآية.

التفسير

إحترام أهل السابقة والإيمان: تعقيباً على الموضوع الذي جاء في الروايات السابقة حول ترك (النجوى) في المجالس، يتحدث القرآن عن أدب آخر من آداب المجالس حيث يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ».

جملة «يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ» لها مفهوماً واسعاً، وتشمل كل سعة إلهية، سواء كانت في الجنة أو في الدنيا أو في الروح والفكر أو في العمر والحياة، أو في المال والرزق.

وبما أن المجالس تكون مزدحمة أحياناً بحيث إنه يتعذر الدخول إلى المجلس في حالة عدم التفسح أو القيام، وإذا وجد مكان فإنه غير متناسب مع مقام القادمين واستمراراً لهذا البحث، يقول تعالى: «وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا». أي إذا قيل لكم قوموا فقوموا.

ولا- ينبغي أن تضجروا أو تسأموا من الوقوف، لأنّ القادمين أحياناً يكونون أحوج إلى الجلوس من الجالسين في المجلس، وذلك لشدة التعب أو الكهولة أو للإحترام الخاص لهم، وأسباب أخرى.

ثم يتطرق سبحانه إلى الجزاء والأجر الذي يكون من نصيب المؤمنين إذا التزموا بالأمر الإلهي، حيث يقول عز وجل: «يَزْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ».

وذلك إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله إذا أمر البعض بالقيام وإعطاء أماكنهم للقادمين، فإنه لهدف إلهي مقدس، وإحتراماً للسابقين في العلم والإيمان.

وبما أن البعض يؤدي هذه التعليمات ويلتزم بهذه الآداب عن طيب نفس ورغبة، والآخرون يؤدونها عن كراهية أو للرياء، والتظاهر... فيضيف تعالى في نهاية الآية: «وَاللَّهُ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢١

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

بالرغم من أن الآية نزلت في مورد خاص، إلّا أنّ لها مفهوماً عاماً، وبملاحظة أنّ ما يرفع مقام الإنسان عند الله شيان: الإيمان، والعلم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)

أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وآله فيكثر من مناجاته. [وهذا العمل بالإضافة إلى أنه يشغل الرسول صلى الله عليه وآله ويأخذ من وقته فإنه كان يسبب عدم إرتياح المستضعفين منه، وحيث يشعرهم بامتياز الأغنياء عليهم فأمر الله سبحانه بالصدقة عند المناجاة. فلما رأوا ذلك، انتهوا عن مناجاته. فنزلت آية الرخصة.

[التي لامت الأغنياء ونسخت حكم الآية الأولى وسمح للجميع بالمناجاة، حيث إنَّ النجوى هنا حول عمل الخير وطاعة المعبود].

التفسير

الصدقة قبل النجوى (إختبار رائع): في قسم من الآيات السابقة كان البحث حول موضوع النجوى، وفي الآيات مورد البحث استمراراً وتكملة لهذا المطلب. يقول سبحانه:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةً».

ثم يضيف بقوله تعالى: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ».

أما كون الصدقة «خير» فإنها كانت للأغنياء موضع أجر وللفقراء مورد مساعدة، وأما كونها (أطهر) فلأنها تغسل قلوب الأغنياء من حب المال، وقلوب الفقراء من الغل والحقد.

ولكن لو كان التصدق قبل النجوى واجباً على الجميع، فإنَّ الفقراء عندئذ سيحرمون من طرح المسائل المهمة كاحتياجاتهم ومشاكلهم أمام الرسول صلى الله عليه وآله فلذا جاء في ذيل الآية إسقاط هذا الحكم عن المجموعة المستضعفة مما مكّنهم من مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله والتحدث

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٢

معه: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». وبهذه الصورة فإنَّ دفع الصدقة قبل النجوى كان واجباً على الأغنياء دون غيرهم.

والطريف هنا أنَّ للحكم أعلاه تأثيراً عجبياً وامتحاناً رائعاً أفرزه على صعيد الواقع من قبل المسلمين في ذلك الوقت، حيث امتنع الجميع من إعطاء الصدقة للأشخاص واحد، ذلك هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وهنا اتضح ما كان يجب أن يتضح، وأخذ المسلمون درساً في ذلك، لذا نزلت الآية اللاحقة ونسخت الحكم حيث يقول سبحانه: «ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَاتٍ».

حيث اتضح أنَّ حب المال كان في قلوبكم أحب من نجواكم للرسول صلى الله عليه وآله واتضح أيضاً أنَّ هذه النجوى لم تكن تطرح فيها مسائل أساسية، وإلا فما المانع من أن تقدم هذه المجموعة صدقة قبل النجوى، خاصة أنَّ الآية لم تحدد مقدار الصدقة فيمكنهم دفع مبلغ زهيد من المال لحل هذه المشكلة.

ثم يضيف تعالى: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَعْتَبُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْكُفْرَانُ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَمْ يَكُنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) حزب الشيطان: هذه الآيات توضح قسماً من تأمر المنافقين وتعرض صفاتهم للمسلمين، وذكرها بعد آيات النجوى يوضح لنا أنَّ قسماً من ناجوا الرسول كانوا من المنافقين، حيث كانوا بهذا العمل يظهرون قربهم للرسول صلى الله عليه وآله



ويتسترون على مؤامراتهم، وهذا ما سبب أن يتعامل القرآن مع هذه الحالة بصورة عامة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٣

يقول تعالى في البداية: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

ثم يضيف تعالى: «مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ». فهم ليسوا أعوانكم في المصاعب والمشاكل، ولا- أصدقاءكم وممن يكون لكم الود والإخلاص، إنهم منافقون يغيرون وجوههم كل يوم ويظهرون كل لحظة لكم بصورة جديدة.

ويضيف- أيضاً- واستمراراً لهذا الحديث أن هؤلاء ومن أجل إثبات وفاءهم لكم فإنهم يقسمون بالأيمان المغلظة: «وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهذه طريقة المنافقين، فيقومون بتغطية أعمالهم المنفرة وجوههم القبيحة بواسطة الأيمان الكاذبة والحلف الباطل، في الوقت الذي تكون أعمالهم خير كاشف لحقيقتهم.

ثم يشير تعالى إلى العذاب المؤلم لهؤلاء المنافقين المصيرين على الباطل والمعاندين للحق، حيث يقول تعالى: «أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا». وبدون شك فإن هذا العذاب عادل وذلك:

«إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم للتوضيح الأكثر حول بيان سمات وصفات المنافقين يقول سبحانه: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

يخلفون أنهم مسلمون وليس لهم هدف سوى الإصلاح، في حين أنهم منهمكون بفسادهم وتخريبهم ومؤامراتهم ... وفي الحقيقة فإنهم يستفيدون من الاسم المقدس لله للصد والتمنع عن سبيل الله تعالى ... ويضيف تعالى في النهاية: «فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ». أي مذل.

إنهم أرادوا بحلفهم الكاذب تحسين سمعتهم وتجميل صورتهم، إلا أن الله سيبتليهم بعذاب أليم مذل.

ولأن المنافقين يعتمدون في الغالب على أموالهم وأولادهم وهما (القوة الاقتصادية والقوة البشرية) في تحقيق مآربهم وحل مشاكلهم، فإن القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى بقوله تعالى: «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

وهذه الأموال ستصبح لعنة عليهم وطوقاً في أعناقهم وسبباً لعذابهم المؤلم، كما يوضح الله سبحانه ذلك في الآية (١٨٠) من سورة آل عمران: «سَيَطُوقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي ذيل الآية يهددهم ويقول: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

والعجيب أن المنافقين لا يتخلون عن نفاقهم حتى في يوم القيامة أيضاً، كما يوضح الله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٤

سبحانه ذلك في قوله: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ». إن يوم القيامة يوم تتجلى فيه الأعمال، وحقيقة الإنسان التي كان عليها في الدنيا، ولأن المنافقين أخذوا هذه الحالة النفسية معهم إلى القبر والبرزخ، فإنها ستتضح يوم القيامة أيضاً، ومع علمهم بأن الله سبحانه لا يخفى عليه شيء وأنه علام الغيوب، إلا أنهم- إنسجماً مع سلوكهم المعهود- فإنهم يحلفون أمام الله حلفاً كاذباً.

ثم يضيف عز وجل أنهم بهذا اليمين الكاذب يظنون أنه بإمكانهم كسب منفعة أو دفع ضرر: «وَيَحْسِبُونَ أَنََّّهُمْ عَلَى شَيْءٍ».

إن هذا التصور الواهي ليس أكثر من خيال.

وأخيراً تنتهي الآية بهذه الجملة: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ». وبهذه الصورة سيفتضح.

وفي آخر آية مورد البحث يبين الباري عز وجل المصير النهائي للمنافقين العمى القلوب بقوله تعالى: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

«استحوذ»: من مادة «حوذ» بمعنى الجزء الخلفى لفخذ البعير، ولأن أصحاب الإبل عندما يسوقون جمالهم يضربونها على أفخاذها، فقد جاء هذا المصطلح بمعنى التسلط أو السوق بسرعة.

نعم، إن المنافقين المغرورين بأموالهم ومقامهم، ليس لهم مصير سوى أن يكونوا تحت سيطرة الشيطان واختياره ووساوسه بصورة تامة، وينسون الله بصورة كلية، أنهم ليسوا منحرفين فحسب، بل إنهم في زمرة الشيطان وهم أنصاره وحزبه وجيشه في إضلال الآخرين.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٥

كان الحديث عن المنافقين وأعداء الله وبيان بعض صفاتهم وخصائصهم في الآيات السابقة، واستمراراً لنفس البحث - في هذه الآيات التي هي آخر آيات سورة المجادلة - تطرح خصوصيات اخرى لهم، ويتضح المصير الحتمى لهم حيث الموت والاندحار. يقول تعالى في البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ» (١). أى أذلّ الخلائق.

والآية اللاحقة دليل على هذا المعنى حيث يقول سبحانه: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ».

وبنفس القدر الذى يكون فيه الله قوياً عزيزاً فإن أعداءه يكونون ضعفاء أذلاء، وهذا بنفسه بمثابة الدليل على ما ورد في الآية السابقة من وصف الأعداء بأنهم «فى الأذلين».

ولقد اتضح على مر العصور هذا الإنتصار للمرسلين الإلهيين فى أوجه مختلفة، سواء فى أنواع العذاب الذى أصاب أعداءهم وصوره المختلفة كطوفان نوح وصاعقه عاد وشمود والزلازل المدمرة لقوم لوط وما إلى ذلك، وكذلك فى الإنتصارات فى الحروب المختلفة كغزوات بدر وحنين وفتح مكة، وسائر غزوات رسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وأهم من ذلك كله إنتصارهم الفكرى والمنطقى على أفكار الشيطان وأعداء الحق والعدالة.

آخر آية مورد البحث - والتي هي آخر آية من سورة المجادلة - تعد من أقوى الآيات القرآنية التى تحذّر المؤمنين من إمكانية الجمع بين حبّ الله وحبّ أعدائه، إذ لا بدّ من اختيار طريق واحد لا غير، وإذا ما كانوا حقاً مؤمنين صادقين فعليهم اجتناب حبّ أعداء الله. يقول تعالى: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ». إن حبّ الآباء والأبناء والأخوان والعشيرة شىء ممدوح، ودليل على عمق العواطف الإنسانية، إلّا أنّ هذه المحبة حينما تكون بعيدة عن حبّ الله فإنها ستفقد خاصيتها.

ثم يتطرّق القرآن الكريم إلى الجزء العظيم لهذه المجموعة التى سخرت قلوبها لعشق الله تعالى، حيث يستعرض خمسة من أوصافهم والتي يمتل بعضها مدداً وتوفيقاً من الله تعالى، والآخر نتيجة العمل الخالص له سبحانه ... وفى بيان القسم الأول والثانى يقول تعالى: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ».

(١) «يحادون»: من مادة «محاد» بمعنى الحرب المسلّح وغير المسلّح، أو بمعنى الممانعة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٦

ومن الطبيعى أنّ هذا الإمداد والالطف الإلهى لا- يتنافى أبداً مع أصل حرية الارادة واختيار الإنسان، لأنّ الخطوات الاولى فى ترك أعداء الله قد قررها المؤمنون ابتداءً، ثم جاء الإمداد الإلهى بصورة استقرار الإيمان حيث عبّر عنه ب (كتب).

هذه الروح الإلهية التي يؤيد الله سبحانه المؤمنين بها هي نوع من الحياة المعنوية الجديدة التي أفاضها الله تعالى على المؤمنين. ويقول تعالى في ثالث مرحلة: «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». ويضيف في رابع مرحلة لهم: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

إنَّ أعظم ثواب معنوي وجزاء روحاني لأصحاب الجنة في مقابل النعم المادية العظيمة في القيامة من جنان وحوار وقصور هو شعورهم وإحساسهم أن الله راضٍ عنهم وأن رضى مولاهم ومعبودهم يعنى أنهم مقبولون عنده، وفي كنف حمايته وأمنه، حيث يجلسهم على بساط قربه، وهذا أعظم إحساس ينتابهم، ونتيجته رضاهم الكامل عن الله سبحانه. وفي آخر مرحلة يضيف تعالى بصورة إخبار عام يحكى عن نعم وهبات اخرى حيث يقول: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وليس المقصود بالفلاح هنا ما يكون في عالم الآخرة ونيل النعم المادية والمعنوية في يوم القيامة فحسب، بل كما جاء في الآيات السابقة أن الله تعالى ينصرهم بلطفه في هذه الدنيا أيضاً على أعدائهم وستكون بأيديهم حكومة الحق والعدل التي تستوعب هذا العالم أخيراً.

«نهاية تفسير سورة المجادلة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٧

## ٥٩. سورة الحشر

محتوى السورة: تأخذ هذه السورة بصورة متميزة قصة حرب المسلمين مع بعض اليهود (يهود بنى النضير) والتي انتهت بإخراجهم من المدينة وتطهير هذه المدينة المقدسة منهم.

وهذه السورة من السور المهمة والمثيرة والموقظة في القرآن الكريم، ولها انسجام قريب جداً مع الآيات الأخيرة مع السورة السابقة، والتي وعدت «حزب الله» بالنصر، والنصر الوارد في هذه السورة يعدّ مصداقاً بارزاً لذلك النصر الموعود.

ويمكن تلخيص موضوعات هذه السورة في ستة أقسام هي:

- ١- تتحدث عن تسييح الله الحكيم العليم من قبل الموجودات جميعاً.
- ٢- يوضح قصة إشتباك المسلمين مع ناقضى العهد من يهود المدينة.
- ٣- يستعرض القرآن قصة منافقى المدينة مع اليهود والتعاون بينهما.
- ٤- يشمل مجموعة من التوجيهات والنصائح العامة لعموم المسلمين.
- ٥- عبارة عن وصف بليغ للقرآن الكريم وبيان أثره في تطهير الروح والنفوس.
- ٦- يتناول قسماً مهماً من أوصاف جلال وجمال الذات الإلهية المقدسة، وبعض أسمائه الحسنی، وهذه الصفات تكون عوناً للإنسان في طريق معرفه الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٨

إنَّ اسم هذه السورة مأخوذ من الآية الثانية فيها، والتي تتحدث عن «الحشر»، والذي يعنى هنا تجمّع اليهود للرحيل عن المدينة، أو حشر المسلمين اليهود لطردهم منها.

وأخيراً فإنَّ هذه السور هي إحدى (سور المسبّحات) والتي بدأت بتسييح الله، وانتهت بتسييح الله أيضاً.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن ابى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ومن قرأ سورة الحشر لم يبق جنة ولا نار، ولا عرش ولا كرسى ولا حجاب، ولا السماوات السبع ولا الأرضون السبع، والهوام والرياح

والطير والشجر والدواب، والشمس والقمر والملائكة، إلّا صلّوا عليه، واستغفروا له، وإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً.

ومما لا شك فيه أنّ هذا من آثار التفكير والتدبر في محتوى هذه السورة وعند قراءتها.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْ لَمَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذِكْرُكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنِيهِ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)

سبب النزول

ذكر المفسرون والمحدثون والمؤرخون بصورة مفصلة سبب نزول هذه الآيات، وخلاصة ما ذكروه هي ما يلي:

كان بالمدينة ثلاث قبائل من اليهود وهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، ويذكر أنهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصلاً، وإنما قدموا إليها واستقروا فيها، وذلك لما قرأوه في

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٩

كتبهم العقائدية من قرب ظهور نبي في أرض المدينة، حيث كانوا يانتظار هذا الظهور العظيم.

وعندما هاجر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى المدينة عقد معهم حلفاً بعدم تعرض كل منهما للآخر، إلّا أنهم كلما وجدوا فرصة مناسبة لم يألوا جهداً في نقض العهد.

ومن جملة ذلك أنهم نقضوا العهد بعد غزوة احد، التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة.

فقد ذهب كعب بن الأشرف زعيم قبيلة بنى النضير مع أربعين فارساً إلى مكة، وهنالك عقد مع قريش حلفاً لقتال محمد صلى الله عليه وآله، وجاء أبو سفيان مع أربعين شخصاً، وكعب بن الأشرف مع أربعين نفرًا من اليهود، ودخلا معاً إلى المسجد الحرام ووثقوا العهد في حرم الكعبة، فعلم النبي صلى الله عليه وآله بذلك عن طريق الوحي.

والمؤامرة الاخرى هي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل يوماً مع شيوخ الصحابة وكبارهم إلى حى بنى النضير، وذلك بحجة إستقراض مبلغ من المال منهم كدوية لقتيلين من طائفة بنى عامر، قتلها عمرو بن امية) أحد المسلمين، وربما كان الهدف من ذلك هو معرفة أخبار اليهود عن قرب حتى لا يباغت المسلمون بذلك.

فبينما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتحدث مع كعب بن الأشرف إذ حيك مؤامرة يهودية لإغتيال رسول الله وتنادى القوم: إنكم لا تحصلون على هذا الرجل يمثل هذه الحالة وهاهو قد جلس بالقرب من حائطكم، فليذهب أحدكم إلى السطح ويرمي بحجر عظيم ويريحنا منه، فقام عمرو بن جحاش وأبدى إستعداده لتنفيذ الأمر، وذهب إلى السطح لتنفيذ عمله الإجرامى، إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله علم عن طريق الوحي بذلك، فقفّل راجعاً إلى المدينة دون أن يتحدث بحديث مع أصحابه، إلّا أنّ الصحابة تصوروا أنّ الرسول سيعود مرة اخرى، ولما عرفوا فيما بعد أنّ الرسول في المدينة عاد الصحابة إليها أيضاً.

وهنا أصبح من المسلم لدى رسول الله صلى الله عليه وآله نقض اليهود للعهد، فأعطى أمراً للإستعداد والتهيؤ لقتالهم.

وجاء في بعض الروايات أيضاً أنّ أحد شعراء بنو النضير هجا رسول الله صلى الله عليه وآله بشعر يتضمّن مساً بكرامة الرسول وهذا دليل آخر لنقضهم العهد.

وبدأت خطة المسلمين في مواجهة اليهود وكانت الخطوة الاولى أن أمر رسول الله (محمد بن سلمة) أن يقتل كعب بن الأشرف زعيم اليهود، إذ كانت له به معرفة، وقد نفذ هذا العمل بعد مقدمات وقتله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٠

إن قتل كعب بن الأشرف أوجد هزة وتخلخلاً في صفوف اليهود، عند ذلك أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله أمراً للمسلمين أن يتحرّكوا لقتال هذه الفئة الباغية الناقضة للعهد.

وعندما علم اليهود بهذا لجأوا إلى قلاعهم المحكمة وحصونهم القوية، وأحكموا الأبواب، إلّا أنّ الرسول صلى الله عليه وآله أمر أن تقلع أشجار النخيل القريبة من القلاع.

فقد ارتفع صوت اليهود عندما شعروا بالضيّق، وهم محاصرون في حصونهم ... فقالوا: يا محمد، لقد كنت تنهى عن هذا، فما الذي حدا بك لتأمر قومك بقطع نخيلنا؟

فنزلت الآية (٥) من الآيات محل البحث وبيّنت بأنّ هذا العمل هو أمر من الله عزّ وجل.

واستمرّت المحاصرة لعدّة أيام، ومنعاً لسفك الدماء اقترح رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم أن يتركوا ديارهم وأراضيهم ويرحلوا من المدينة، فوافقوا على هذا وحملوا مقداراً من أموالهم تاركين القسم الآخر ... واستقرّ قسم منهم في «أذرعات الشام»، وقليل منهم في «خيبر»، وجماعة ثالثة في «الحيرة»، وتركوا بقية أموالهم وأراضيهم وبساتينهم وبيوتهم بيد المسلمين بعد أن قاموا بتخريب ما يمكن لدى خروجهم منها (١).

التفسير

بدأت هذه السورة بتزييه وتسييح الله وبيان عزّته وحكمته. يقول سبحانه: «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وهذه مقدمة لبيان قصة يهود بنى النضير، اولئك الذين انحرفوا عن طريق التوحيد ومعرفة الله وصفاته.

التسييح العام الوارد في الآية لجميع موجودات الأرض والسماء، أعم من الملائكة والبشر والحيوانات والنباتات والجمادات يمكن أن يكون بلسان «القال» ويمكن أن يكون بلسان «حال» هذه المخلوقات حول دقّة النظام المثير للعجب لها في خلق كل ذرّة من ذرات هذا الوجود، وهو التسليم المطلق لله سبحانه والإعتراف بعلمه وقدرته وعظّمته وحكمته.

ومن جهة أخرى فإنّ قسماً من العلماء يعتقدون أنّ كل موجود في العالم له نصيب وقدر من العقل والإدراك والشعور، بالرغم من أنّنا لم ندركه ولم نطلع عليه، وبهذا الدليل فإنّ هذه المخلوقات تسيح بلسانها، بالرغم من أنّ آذاننا ليس لها القدرة على سماعها.

(١) تفسير مجمع البيان ٩/ ٤٢٥؛ وتفسير على بن إبراهيم ٢/ ٣٥٨؛ وتفسير القرطبي ٢/ ١٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣١

وبعد بيان المقدمة أعلاه نستعرض أبعاد قصة يهود بنى النضير في المدينة حيث يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ».

«حشر»: في الأصل تحريك جماعة وإخراجها من مقرها إلى ميدان حرب وما إلى ذلك، والمقصود منه هنا اجتماع وحركة المسلمين من المدينة إلى قلاع اليهود، أو اجتماع اليهود لمحاربة المسلمين، ولأنّ هذا أول اجتماع من نوعه فقد سمى في القرآن الكريم بأول الحشر، وهذه بحد ذاتها إشارة إلى بداية المواجهة المقبلة مع يهود بنى النضير ويهود خيبر وأمثالهم.

ويضيف الباري عزّ وجل: «مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ». لقد كانوا مغرورين وراضين عن أنفسهم إلى حدّ أنّهم اعتمدوا على حصونهم المنيعه، وقدرتهم المادية الظاهرية.

ولأنّ الله سبحانه يريد أن يوضح للجميع أن لا قوة في الوجود تقاوم إرادته، فإنّ إخراج اليهود من أراضيهم وديارهم بدون حرب، هو دليل على قدرته سبحانه، وتحذّر لليهود الذين ظنّوا أنّ حصونهم مانعتهم من الله.

ولذلك يضيف - استمراراً للبحث الذي ورد في الآية - قوله تعالى: «فَاتَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ». نعم، إنّ هذا الجيش غير المرئي هو جيش الخوف الذي يرسله الله تعالى في كثير من الحروب

لمساعدة المؤمنين، وقد خيم على قلوبهم، وسلب منهم قدرة الحركة والمقاومة، لقد جهّزوا وهبوا أنفسهم لقتال المهاجرين والأنصار غافلين عن إرادة الله تعالى، حيث يرسل لهم جيشاً من داخلهم.

وفي نهاية الآية - بعنوان استنتاج كلي - يقول تعالى: «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ».

«اعتبروا»: من مادة «اعتبار» وفي الأصل مأخوذة من العبور، أى العبور من شىء إلى شىء آخر، ويقال لدمع العين «عبرة» بسبب عبور قطرات الدموع من العين، وكذلك يقال «عبرة» لهذا السبب، حيث إنها تنقل المطالب والمفاهيم من شخص إلى آخر، وإطلاق «تعبير المنام» على تفسير محتواه، بسبب أنه ينقل الإنسان من ظاهره إلى باطنه.

وبهذه المناسبة يقال للحوادث التي فيها دروس وعظات «عبر» لأنها توضح للإنسان سلسلة من التعاليم الكليّة وتنقله من موضوع إلى آخر.

والتعبير بـ «أولى الأبصار» إشارة إلى الأشخاص الذين يتعاملون مع الحوادث بعين

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٢

واقعية ويتوغلون إلى أعماقها.

والمقصود من العبرة والإعتبار فى الآية أعلاه هو الإنتقال المنطقي والقطعي من موضوع إلى آخر. يعنى مقياسه الحوادث المتشابهة من خلال أعمال العقل. وتضيف الآية اللاحقة: «وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُوهُمْ فِي الدُّنْيَا».

وبدون شك فإنّ الجلاء عن الوطن وترك قسم كبير من رؤوس الأموال التي جهدوا جهداً بليغاً فى الحصول عليها، هو بحد ذاته أمر مؤلم لهم، وبناءً على هذا فإنّ مراد الآية أعلاه أنه لو لم يحلّ بهم هذا العذاب، فإنّ بانتظارهم عذاباً آخر هو القتل أو الأسر بيد المسلمين ...

إلّا أنّ الله سبحانه أراد لهم التيه فى الأرض والتشرد فى العالم، لأنّ هذا أشدّ ألماً وأسئ على نفوسهم، إذ كلّما تذكروا أرضهم وديارهم ومزارعهم وبساتينهم التي أصبحت بيد المسلمين، وكيف أنّهم شردوا منها بسبب نقضهم العهد ومؤامراتهم ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّ ألمهم وحزنهم ومتاعبهم وتضاعف وخاصة على المستوى النفسى.

وكان هذا عذاباً دنيوياً لهم، إلّا أنّ لهم جولة اخرى مع عذاب أشدّ وأخزى، ذلك هو عذاب الآخرة، حيث يضيف سبحانه فى نهاية الآية: «وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ».

وبما أنّ ذكر هذه الحادثة مضافاً إلى تجسيد قدرة الله وصدق الدعوة المحمّدية، فهى فى نفس الوقت تمثّل إنذاراً وتنبهاً لكل من يروم القيام بأعمال مماثلة لفعل بنى النضير، لذا ففى الآية اللاحقة يرشدنا سبحانه إلى هذا المعنى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

«شاقوا»: من مادة «شقاق» وهى فى الأصل بمعنى الشقّ والفصل بين شيئين، وبما أنّ العدو يكون دائماً فى الطرف المقابل، فإنّ كلمة (شقاق) تطلق على هذا العمل.

وفى الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث نلاحظ جواباً على اعتراض يهود بنى النضير على قطع المسلمين لنخيلهم - كما ورد فى شأن النزول - بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله لتهيئة ظروف أفضل لقتال بنى النضير أو لزيادة حزنهم وألمهم، فيضطروا للنزول من قلاعهم ومنازل المسلمين خارج القلعة، وقد أثار هذا العمل غضب اليهود وحققهم، فقالوا: يا محمّد، قد كنت تنهى عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟ فنزلت الآية مبيّنة لهم أنّ ذلك من أمر الله سبحانه حيث يقول البارئ: «مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٣

فِيَاذِنِ اللَّهُ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ». «لينته»: من مادة «لون» تقال لنوع جيد من النخل.

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَا لِكِنَّةٍ اللَّهُ يُلْطِقُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
(٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ  
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: نزل قوله «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى الْآيَةَ» في أموال كفار أهل القرى، وهم قريظة وبنو النضير، وهما بالمدينة. وفدك، وهي من المدينة على ثلاثة أميال. وخيبر، وقرى عرينه، وينبع، جعلها الله لرسوله، يحكم فيها ما أراد. وأخبر أنها كلها له. فقال اناس: فهلا قسمها، فنزلت الآية.

[وسنلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وآله قسم هذه الأموال بين المهاجرين الفقراء في المدينة، وعلى قسم من الأنصار من ذوى الفاقة].

التفسير

حكم الغنائم بغير الحرب: بما أن هذه الآيات تكلمة للآيات القرآنية السابقة التي تتحدث عن إندحار يهود بنى النضير، لذا فإن هذه الآيات تبين حكم غنائم بنى النضير، كما أنها في نفس الوقت توضح حكماً عاماً حول الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بدون حرب، كما ذكر ذلك في كتب الفقه الإسلامى بعنوان (الفىء).

يقول الله تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ».

«أفاء»: من مادة «فىء» وهي فى الأصل بمعنى الرجوع، وإطلاق كلمة «فىء» على هذا اللون من الغنائم لعله باعتبار أن الله سبحانه قد خلق هذه النعم والهبات العظيمة فى عالم الوجود فى الأصل للمؤمنين، وعلى رأسهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذى هو أشرف الكائنات.

وبناءً على هذا فإن الجاحدين لوجود الله والعاصين له بالرغم من إمتلاكهم للبعض من هذه النعم بموجب القواعد الشرعية والعرفية، إلّا أنهم يعتبرون غاصبين لها، ولذلك فإن عودته

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٤

هذه الأموال إلى أصحابها الحقيقيين (وهم المؤمنون) يسمّى (فيئاً) فى الحقيقة. «أوجفتم»: من مادة «إيجاف» بمعنى السوق السريع الذى يحدث غالباً فى الحروب.

«خيلى»: بمعناه المتعارف عليه (وهى اسم جنس وجمعها خيول) «١».

«ركاب»: من مادة «ركوب» وتطلق فى الغالب على ركوب الجمال.

والهدف من مجموع الجملة أن جميع الموارد التى لم يحدث فيها قتال وفيها غنائم، فإنها لا توزع بين المقاتلين، وتوضع بصورة تامة تحت تصرف رئيس الدولة الإسلامية وهو يصرفها فى الموارد التى سيأتى الحديث عنها لاحقاً.

ثم يضيف سبحانه أن الانتصارات لا تكون غالباً لكم «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

نعم، لقد تحقّق الانتصار على عدو قوى وشديد كيهود (بنى النضير) وذلك بالمدد الإلهى الغيبى، ولتعلموا أن الله قادر على كل شىء. ولا بدّ للمسلمين أن يتعلموا من ذلك دروس المعرفة الإلهية، ويلاحظوا علائم حقانية النبى صلى الله عليه وآله، ويلتزموا منهج الإخلاص والتوكل على الذات الإلهية المقدسة فى جميع ممارساتهم.

والآية اللاحقة تبين بوضوح مورد صرف (الفىء) الوارد فى الآية السابقة وتقول بشكل قاعدة كليّة: «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلِ».

وهذا يعنى أن هذه الغنائم ليست كباقي الغنائم الحربية التى يكون خمس منها فقط تحت تصرف الرسول صلى الله عليه وآله وسائر

المحتاجين، والأربعة الأخماس الاخرى للمقاتلين.

وإذا ما صرّحت الآية السابقة برجوع جميع الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وآله فلا يفهم من ذلك أن يصرفها جميعاً في موارد الشخصية، وإنما اعطيت له لكونه رئيساً للدولة الإسلامية، وخاصة كونه المتصدى لتغطية حاجات المعوزين، لذا فإن القسم الأكبر يصرف في هذا المجال.

إن الرسول صلى الله عليه وآله لا يريد الأموال لموره الشخصية، بل بعنوان قائد المسلمين ورئيس دولتهم يصرفها في الامور التي تحقق مصلحة الدولة الإسلامية بشكل عام.

(١) يقول الراغب في المفردات: إن الخيل في الأصل من مادة (خيال) بمعنى التصورات الذهنية، وخيلاء بمعنى التكبر والتعالى على الآخرين لأنه ناتج من تخیل الفضيلة، ولأن ركوب الإنسان على الحصان يشعر بالإحساس بنوع من الفخر والزهو غالباً، لذلك أطلق لفظ الخيل على الحصان، والنقطة الجديرة بالملاحظة أن خيل تطلق على الحصان وكذلك على راكبه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٥

ومما يجدر بالملاحظة أن هذا الحق ينتقل من بعد الرسول صلى الله عليه وآله إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم إلى نوابهم. يعنى (كل مجتهد جامع للشرائط) لأن الأحكام الإسلامية لا تعطّل، والحكومة الإسلامية من أهم المسائل التي يتعامل المسلمون معها وقسم من هذه الاسس قننت ضمن الهيكل الاقتصادي العام للمجتمع الإسلامي، كما أنها تمثل مبدأ أساسياً في النظام الاقتصادي للدولة الإسلامية.

ثم يستعرض سبحانه فلسفه هذا التقسيم الدقيق بقوله تعالى: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ». فيتداول الأغنياء الثروات فيما بينهم ويحرم منها الفقراء.

والمفهوم الذي ورد في هذه الآية يوضح أصلاً أساسياً في الاقتصاد الإسلامي وهو:

وجوب التأكيد في الاقتصاد الإسلامي على عدم تمرکز الثروات بيد فئة محدودة وطبقه معينة تتداولها فيما بينها، مع كامل الإحترام للملكية الشخصية، وذلك بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد يحرك عملية تداول الثروة بين أكبر قطاع من الامه. ويضيف سبحانه في نهاية الآية: «وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». وبالرغم من أن هذا القسم من الآية نزل بشأن غنائم بني النضير، إلا أن محتواها حكم عام في كل المجالات، ومدرك واضح على حجية سنة الرسول صلى الله عليه وآله.

وطبقاً لهذا الأصل فإن جميع المسلمين ملزمون بإتباع التعاليم المحمّدية، وإطاعة أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله، وإجتنا ما نهى عنه، سواء في مجال المسائل المرتبطة بالحكومة الإسلامية أو الاقتصادية أو العبادية وغيرها.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيُنصِرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٦

السمات الأساسية للأمنار والمهاجرين والتابعين: هذه الآيات- التي هي استمرار للآيات السابقة- تتحدث حول طبيعة مصارف الفيء الستة، التي تشمل الأموال والغنائم التي حصل عليها المسلمون بغير حرب، وقد أوضحت الآية المعنى باليتامى والمساكين وأبناء السبيل، مع التأكيد على المقصود من أبناء السبيل بلحاظ أنهم يشكلون أكبر رقم من عدد المسلمين المهاجرين في ذلك الوقت، حيث



تركوا أموالهم ووطنهم نتيجة الهجرة، وكانوا فقراء بعد أن هجروا الدنيا من أجل دينهم. يقول تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ».

هنا بينت الآية ثلاثة أوصاف مهمة وأساسية للمهاجرين الأوائل، تتلخص ب: «الإخلاص» و «الجهاد» و «الصدق».

وفي الآية اللاحقة يستعرض سبحانه ذكر مورد آخر من موارد صرف هذه الأموال، ومن بين ما يستعرضه في الآية الكريمة أيضاً وصف رائع ومعبر جداً عن طائفة الأنصار، ويكمل البحث الذي جاء في الآية السابقة حول المهاجرين، فيقول سبحانه: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

«تبؤوا»: من مادة «بؤاء» وهي في الأصل بمعنى تساوى أجزاء المكان. وبعبارة أخرى يقال: (بؤاء) لترتيب وتسوية مكان (ما)، هذا التعبير كناية لطيفة لهذا المعنى، وهو أن طائفة الأنصار - أهل المدينة - قد هيئوا الأرضية المناسبة للهجرة.

والتعبير «تبؤوا» يوضح لنا أن الأنصار لم يهيئوا بيوتهم لاستقبال المهاجرين فحسب، بل إنهم فتحوا قلوبهم ونفوسهم وأجواء مجتمعهم قدر المستطاع للتكيف في التعامل مع وضع الهجرة المرتقب.

وجملة «من قبلهم» يوضح لنا أن كل تلك الامور كانت قبل هجرة مسلمي مكة، وهذا أمر مهم.

ثم يتطرق سبحانه إلى بيان ثلاث صفات أخرى توضح روحية الأنصار بصورة عامة، حيث يقول تعالى: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ».

فلا فرق بين المسلمين في وجهه نظرهم والمهم لديهم هو مسألة الإيمان والهجرة وهذا الحب كان يعتبر خصوصية مستمرة لهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٧

والأمر الآخر: «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا». فهم لا يطمعون بالغانم التي اعطيت للمهاجرين، ولا يحسدونهم عليها، ولا حتى يحسبون بحاجة إلى ما اعطى للمهاجرين منها.

ويضيف تعالى في المرحلة الثالثة إلى وصفهم: «وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» (١).

ومن هذه السمات الثلاث: «المحبة» و «عدم الطمع» و «الايثار»، كانت تتشكل خصوصية الأنصار المتميزة.

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بنى النضير للأنصار:

«إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمه، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمه». فقال الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمه، ولا نشاركهم فيها فنزلت الآية.

وفي نهاية الآية - ولمزيد من التأكيد لهذه الصفات الكريمة، وبيان تأثيرها الإيجابي العميق - يضيف سبحانه: «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الشح»: البخل مقترناً بالحرص عادة؛ و «يوق»: من مادة وقاية.

وفي الكافي عن الفضل بن أبي قره قال: قال الصادق عليه السلام: «تدرى ما الشحيح؟ قلت: هو البخيل. قال: «الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده، والشحيح يشح على ما في أيدي الناس، وعلى ما في يديه، حتى لا يرى مما في أيدي الناس شيئاً إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه الله».

وفي آخر آية مورد البحث يأتي الحديث عن آخر طائفة من المسلمين، الذين عرفوا بيننا باصطلاح القرآن الكريم ب (التابعين)،

والذين يشكلون المجموعة الغالبة من المسلمين بعد المهاجرين والأنصار الذين تحدت عنهم الآيات السابقة. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ».

(١) «خصاصة»: من مادة «خصاص» بمعنى الشقوق التي توجد في جدران البيت، ولأن الفقر في حياة الإنسان يمثل شقاً، لذا عبر عنه

بالخصاصة. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٨

وبهذا الترتيب فإن خصوصياتهم هي: (تربية النفس) و (الإحترام للسابقين في الإيمان) و (الإبتعاد عن الحسد والبغضاء). والتعبير ب (إخوان) والإستمداد من الرؤوف الرحيم في نهاية الآية يحكى عن روح المحبة والصفاء والاخوة التي يجب أن تسود المجتمع الإسلامي أجمع، فكل شخص يتمنى صفة حسنة لا يتمناها لنفسه فحسب. إن الآيد أعلاه لبيان هذه الحقيقة وهي أن أموال «الفيء» لا تنحصر بمحتاجي المهاجرين والأنصار فقط، بل تشمل سائر المحتاجين من المسلمين على مر العصور.

بحث

الصحابة في ميزان القرآن والتاريخ: يصر بعض المفسرين - بدون الإلتفات إلى الصفات التي مرت بنا في الآيات السابقة لكل من المهاجرين والأنصار والتابعين - على إعتبار جميع الصحابة بدون استثناء متصفين بجميع الصفات الإيجابية (للمهاجرين والأنصار والتابعين) وأنهم نموذج يقتدى بهم من حيث نزاهتهم وطهرهم والتسامح فيما بينهم، وكل خلاف صدر منهم أحياناً سواء في زمن الرسول صلى الله عليه وآله أو من بعده فإنهم يغضون النظر عنه، وبهذا اعتبروا كل مهاجر وأنصارى وتابع شخصاً محترماً ومقدساً بصورة عامة، دون الإلتفات إلى أعمالهم وتقييمها حسب الموازين الشرعية. إلما أن الملاحظ أن في الآيات أعلاه رفض واضح إزاء هذا الفهم، حيث تحدد الآية التقييم وفق ضوابط وموازن دقيقة للمهاجرين الحقيقيين والأنصار والتابعين.

ففي «المهاجرين»: الإخلاص والجهاد والصدق.

وفي «الأنصار»: المحبة للمهاجرين والإيثار، والإبتعاد عن كل حرص وبخل.

وفي «التابعين»: بناء أنفسهم، والإحترام للسابقين في الإيمان، والإبتعاد عن كل بغض وحسد.

إننا في الوقت الذي نحترم فيه السابقين في خط الرسالة والإيمان، يجدر بنا أن ندقق في سوابقهم وملف فعالهم، سواء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أو المخاضات المختلفة التي حدثت بعده في التاريخ الإسلامي، وعلى أساس الضوابط والمعايير الإسلامية المستلهمة من هذه الآيات المباركات نحكم لهم أو عليهم، وعندئذ نقوى أو أصرنا مع من بقى على العهد، ونقطعها أو نحددها - بما يناسب - مع من ضعفت روابطهم أو قطعوها مع تلك الموازين والضوابط، وهذا هو المنطق الصحيح والمنسجم مع حكم القرآن والعقل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٩

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحِيدًا أَوْ بِدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنَ إِذْ يَنْصُرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)

سبب التزول

في تفسير روح البيان: إن قسماً من منافق المدينة - كعبد الله بن ابي وأصحابه - أرسلوا إلى بنى النضير وأبلغهم بما يلي: لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين وهو جالس في بيته حتى قال أحد سادات بنى النضير وهو سلام بن مشكم لحبي بن أخطب الذي كان هو المتولى لأمر بنى النضير والله يا حبي إن قول ابن ابي لباطل وليس بشيء وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً فيجلس في بيته يتر كك فقال حبي نأبى الاعداءة محمد والا قتاله فقال سلام فهو

والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا فكان ما كان كما سبق في أول السورة وفيه حجة بينة لصحة النبوة واعجاز القرآن.

### التفسير

دور المنافقين في فتن اليهود: بعد بيان ما جرى ليهود بنى النضير في الآيات السابقة، وبيان حالة الأصناف الثلاثة من المؤمنين، يتعرض القرآن الكريم الآن لشرح حالة المنافقين ودورهم في هذا الحادث، وفي البداية يتحدث مع الرسول صلى الله عليه وآله حيث يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٠

وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ». وهكذا فإن هؤلاء المنافقين وعدوا طائفة اليهود بامور ثلاثة، وجميعها كانت كاذبة. ولهذا السبب يقول القرآن الكريم بصراحة: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». أجل، لقد كان المنافقون كاذبين دائماً، والكاذبون منافقين غالباً.

ثم ... للإيضاح والتأكيد الأكثر حول كذب المنافقين يضيف سبحانه:

«لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ». «وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ». «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنُ». «ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ». والآية اللاحقة تتحدث عن سبب هذا الإندحار، حيث يقول سبحانه: «لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ».

ولأنهم لا يخافون الله، فإنهم يخافون كل شيء خصوصاً إذا كان لهم أعداء مؤمنون مثلكم: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ».

ثم يستعرض دليلاً واقعياً واضحاً يعبر عن حالة الخوف والاضطراب حيث يقول سبحانه: «لَأَيَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ».

«قرى»: جمع قرية، أعم من المزروعة وغير المزروعة، وتأتي أحياناً بمعنى الناس المجتمعين في مكان واحد.

«محصنة»: من مادة «حصن» بمعنى مسورة، وبناءً على هذا فإن (القرى المحصنة) تعني القرى التي تكون في أمان بوسيلة أبراجها وخنادقها والمواضع التي تعيق تقدم العدو فيها.

نعم، بما أنهم خرجوا من حصن الإيمان والتوكل على الله، فإنهم بغير الإلتجاء والإلتكاء على الجدران والقلاع المحكمه لا يتجرؤون على مواجهة المؤمنين.

ثم يوضح أن هذا ليس ناتجاً عن جهل بمعرفة فنون الحرب، أو قلته في عددهم وعدتهم، أو عجز في رجالهم، بل إن «بأسهم بينهم شديد».

ولهذا السبب - واستمراراً لما ورد في نفس الآية - نستعرض سبباً آخر من أسباب إندحار المنافقين، حيث يقول سبحانه: «تَحَسَّبُ لَهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤١

وهكذا فإن الانسجام الظاهري للعناصر غير المؤمنة والإتفاقيات العسكرية والاقتصادية يجب ألا تخدعنا أبداً، لأن وراءها قلوب متناحرة متنافرة، ودليلها واضح وهو إنهاك كل منهم بمنافعه المادية بشكل شديد، وبما أن المنافع غالباً ما تكون متعارضة، فعندئذ تبرز الاختلافات والشحناء فيما بينهم، ولن تغني عن ذلك العهود والإتفاقيات وشعارات الوحدة والانسجام الظاهري. في الوقت الذي تكون فيه وحدة وانسجام المؤمنين على قواعد واصل ربانية كأصل الإيمان والتوحيد والقيم الإلهية.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرُوا فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاسْتَقِيمُوا سُبُلَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ رَاغِبِينَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ

هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يستمرّ البحث في هذه الآيات حول قصة بنى النضير والمنافقين ورسم خصوصية كل منهم في تشبيهين رائعين: يقول سبحانه في البداية: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

تحدثنا هذه الآية عن ضرورة الاعتبار بما جرى لبني النضير والقوم الذين كانوا من قبلهم وما جرى لهم.

ويعتقد كثير من المفسرين أن المقصود بقوله «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» هو إشارة إلى قصة يهود «بنى قينقاع»، التي حدثت بعد غزوة بدر، وانتهت بإخراجهم من المدينة، لأن يهود بنى قينقاع كيهود بنى النضير كانوا ذوى ثراء ومغرورين بقدرتهم القتالية، يهددون رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمين بقوتهم وقدرتهم العسكرية إلا أن العاقبة لم تكن غير حصاد التيه والتعاسة في الدنيا والعذاب في الآخرة. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٢

«وبال»: بمعنى (عاقبة الشؤم والمرارة) وهي في الأصل مأخوذة من «وابل» بمعنى المطر الغزير، لأن المطر الغزير غالباً ما يكون مخيفاً. ثم يستعرض القرآن الكريم تشبيهاً للمنافقين حيث يقول سبحانه: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

والمقصود بـ «الإنسان» في هذه الآية هو مطلق الإنسان الذي يقع تحت تأثير الشيطان، وينخدع بأحاييله ووعوده الكاذبة، ويسير به في طريق الكفر والضلال، ثم إن الشيطان يتركه ويتبرأ منهم.

نعم، هكذا حال المنافقين حيث يدفعون بحلفائهم من خلال الوعود الكاذبة والمكر والحيلة إلى اتون المعارك والمشاكل ثم يتركونهم لوحدهم، ويتخلون عنهم، لأن الوفاء لا يجتمع والنفاق.

وتتحدث الآية اللاحقة عن مصير هاتين الجماعتين (الشيطان وأتباعه، والمنافقين وحلفائهم من أهل الكفر) وعاقبتهما البائسة، حيث النار خالدتين فيها، فيقول سبحانه عنهم: «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

وهذا أصل كلّي فإن عاقبة تعاون الكفر والنفاق، والشيطان وحزبه، هو الهزيمة والخذلان، وعدم الموقّية، وعذاب الدنيا والآخرة، في الوقت الذي تكون ثمره تعاون المؤمنين وأصدقائهم تعاون وثيق وبناء، وعاقبته الخير ونهايته الانتصار والتمتع بالرحمة الإلهية الواسعة في عالم الدنيا والآخرة.

وتوجه الآية اللاحقة حديثها للمؤمنين بعنوان استنتاج من حالة الشؤم والبؤس التي اعترت المنافقين وبنى النضير والشياطين، حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لَعَدٍ».

إن هذه الذخيرة الاخرية تمثل أكبر رأسمال حقيقي للإنسان في مشهد يوم القيامة، لذا فإن هذا النوع من الأعمال الصالحة يلزم إعداده وتهيئته وإرساله مسبقاً، وإلا فلا أحد يهتم له بعد وفاته وإنقضاء أجله، وإذا ارسل شيئاً فليس له شأن يذكر.

ثم يضيف تعالى مرة اخرى للتأكيد بقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

نعم، التقوى والخوف من الله يدعوان الإنسان للتفكير بيوم غده (القيامة) بالإضافة إلى السعى إلى تنقية وتخليص وتطهير أعماله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٣

وأكدت الآية اللاحقة بعد الأمر بالتقوى والتوجه إلى يوم القيامة على ذكر الله سبحانه، حيث يقول تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ».

وأساساً فإن جوهر التقوى شيئان: ذكر الله تعالى، وذلك بالتوجه والإنشاد إليه من خلال المراقبة الدائمة منه واستشعار حضوره في كل مكان وفي كل الأحوال، والخشية من محكمه عدله ودقّه حسابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها في صحيفة أعمالنا ... ولذا فإن التوجه إلى هذين الأساسين (المبدأ والمعاد) كان على رأس البرامج التربوية للأنبياء والأولياء، وذلك لتأثيرها العميق في تطهير الفرد والمجتمع.

وأساساً فإن النسيان - بحد ذاته - من أكبر مظاهر تعاسة الإنسان وشقائه، لأن قيمة الإنسان في قابلياته ولياقاته الذاتية وطبيعته خلقه التي تميزه عن الكثير من المخلوقات، وإذا نسيها فهذا يعني نسيان إنسانيته، وفي مثل هذه الحالة يسقط الإنسان في وحل الحيوانية، ويصبح همّه الأكل والشرب والنوم والشهوات.

وهذه كلها عامل أساس للفسق والفجور، بل إن نسيان الذات هو من أسوأ مصاديق الفسق والخروج عن طاعة الله، ولهذا يقول سبحانه: «أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

وفي آخر آية - مورد البحث - يستعرض سبحانه مقارنة بين هاتين الجماعتين: الجماعة المؤمنة المتقية السائرة باتجاه المبدأ والمعاد، والجماعة الغافلة عن ذكر الله، التي ابتليت كنتيجة للغفلة عن الله بنسيان ذاتها، حيث يقول سبحانه: «لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ».

ليس في الدنيا، ولا في المعتقدات، وليس في طريقة التفكير والمنهج، وليس في طريقة الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان وأهدافه، ولا - في المحصلة الاخرية والجزاء الإلهي ... إذ إن خط كل مجموعة من هاتين المجموعتين في اتجاه متعارض ... متعارض في كل شيء وكل مكان وكل هدف ... إحداهما تؤكد على ذكر الله والقيام وإحياء القيم الإنسانية الرفيعة، والقيام بالأعمال الصالحة كذخيرة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ... والاخرى غارقة في الشهوات واللذات المادية، وأسيرة الأهواء ومبتلية بالنسيان .. وبهذا فإن الإنسان على مفترق طريقين، إما أن يرتبط بالقسم الأول، أو بالقسم الثاني، وليس غيرهما من سبيل آخر.

وفي نهاية الآية نلاحظ حكماً قاطعاً حيث يضيف سبحانه: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٤

فليس في الدار الآخرة فقط يوجد (فائزون وخاسرون) بل في هذه الدنيا أيضاً، حيث يكون الانتصار والنجاة والسكينة من نصيب المؤمنين المتقين، كما أن الهزيمة والخسران في الدارين تكون من نصيب الغافلين.

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) لو نزل القرآن على جبل: تكمله للآيات السابقة التي كانت تهدف إلى تحريك النفوس والقلوب الإنسانية، وخاصة عن طريق التذكير بالنهاية التي يكون عليها الإنسان، والمصير الذي ينتظره، والذي يجدر أن يهتبه في أبهى وأفضل صورة ... تأتي هذه الآيات المباركات التي هي آخر آيات سورة الحشر، والتي تأخذ بنظر الاعتبار مجمل ما ورد من آيات هذه السورة، لتوضح حقيقة أخرى حول القرآن الكريم، وهي: أن هذا الكتاب المبارك له تأثير عميق جداً حتى على الجمادات، حيث إنه لو نزل على الجبال لهزها وحزها وجعلها في وضع من الإضطراب المقترن بالخشوع إلا أنه - مع الأسف - هذا الإنسان القاسي القلب يسمع آيات الله تتلى عليه ولا تتحرك روحه ولا يخشع قلبه. يقول سبحانه: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (١).

وقد حملها البعض الآخر على ظاهرها وقالوا: إن كل الموجودات في هذا العالم - ومن جملتها الجبال - لها نوع من الإدراك والشعور الخاص بها، وإذا نزلت هذه الآيات عليها فإنها

(١) «متصدع»: من مادة «صدع»، بمعنى شق الأشياء القوية، كالحديد والزجاج، وإذا قيل لوجع الرأس: صداع، فإنه بسبب شعور الإنسان أن رأسه يريد أن يتشقق من الألم.

ستلاشى، ودليل هذا ما ورد في الآية (٧٤) من سورة البقرة في وصف جماعة من اليهود.

قال تعالى: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعِيدٍ ذَلِكُمْ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيْخَرُّجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

الآيات اللاحقة تستعرض قسماً مهماً من صفات جمال وجلال الله سبحانه، التي لكل واحدة منها الأثر العميق في تربية النفوس وتهذيب القلوب، وتحوى الآيات القرآنية الثلاثة خمسة عشر وصفاً لله سبحانه. أو بتعبير آخر: فإن ثمانى عشره صفة من صفاته العظيمة تذكرها ثلاث آيات، وكل منها تتعلق ببيان التوحيد الإلهي والاسم المقدس، وتوضح للإنسان طريق الهداية إلى العالم النوراني لأسماء وصفات الحق سبحانه. يقول تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ».

هنا وقبل كل شيء يؤكد على مسألة التوحيد، التي هي أصل لجميع صفات الجمال والجلال، وهي الأصل والأساس في المعرفة الإلهية، ثم يذكر علمه بالنسبة للغيب والشهود.

ثم يعتمد على رحمته العامة التي تشمل جميع الخلائق: (الرحمن) ورحمته الخاصة التي تخص المؤمنين، (والرحيم) لتعطي للإنسان أملاً، ولتعيته في طريق بناء نفسه والتكامل بأخلاقه وسلوكه بالسير نحو الله.

أما في الآية اللاحقة، فبالإضافة إلى التأكيد على مسألة التوحيد فإنها تذكر ثمانى صفات أخرى لله سبحانه، حيث يقول الباري عز وجل: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ». «الْمَلِكُ» الحاكم والمالك الحقيقي لجميع الكائنات.

«الْقُدُّوسُ» المنزه من كل نقص وعيب.

«السَّلَامُ» لا يظلم أحد، وجميع الخلائق في سلامة من جهته.

ثم يضيف سبحانه:

«الْمُؤْمِنُ» يعطي الأمان لأحبائه، ويتفضل عليهم بالإيمان.

«الْمُهَيَّمُنُ» الحافظ والمراقب لكل شيء.

«الْعَزِيزُ» القادر الذي لا يقهر.

«الْجَبَّارُ»: مأخوذ من (جبر) وقد ورد هذا المصطلح عشر مرّات في القرآن الكريم، تسع مرّات حول الأشخاص الظالمين والمستكبرين المتسلطين على رقاب الأمية والمفسدين في الأرض ومرّة واحدة فقط عن الله القادر المتعال، حيث ورد بهذا المعنى في الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٦

ثم يضيف سبحانه: «الْمُتَكَبِّرُ».

«المتكبر»: من مادة «تكبر» وجاءت بمعنيين:

الأول: إستعملت صفة المدح، وقد اطلقت على لفظ الجلالة، وهو إتصافه بالعلو والعظمة والسمات الحسنه بصورة عامة.

والثاني: استعملت صفة الذم وهو ما يوصف به غير الله عز وجل.

ولأنّ العظمة وصفات العلو والعزة لا تكون لائقه لغير مقام الله سبحانه، لذا استعمل هذا المصطلح هنا بمعناه الإيجابي حول الله سبحانه، وكلما إستعمل لغير الله أعطى معنى الذم.

وفي نهاية الآية يؤكد مرّة أخرى مسألة التوحيد التي كان الحديث حولها ابتداءً حيث يقول تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وفي آخر آية مورد البحث يشير سبحانه إلى ستّ صفات أخرى حيث يقول تعالى:

«هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ». «الْبَارِئُ». «الْمُصَوِّرُ».

ولأنّ صفات الله لا تنحصر فقط بالتى ذكرت في هذه الآية فإنه سبحانه يشير إلى صفة أساسية لذاته المقدسة اللامتناهية، حيث يقول

عَزَّ وَجَلَّ: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

ولهذا السبب فإنه سبحانه منزّه ومبرأ من كل عيب ونقص: «يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». ويعتبرونه تاماً وكاملاً من كل نقص وعيب.

وأخيراً- للتأكيد الأكثر على موضوع نظام الخلق- يشير سبحانه إلى وصفين آخرين من صفاته المقدسة، التي ذكر أحدهما في السابق بقوله تعالى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

الاولى دليل كمال قدرته على كل شيء، وغلبته على كل قوة.

والثانية إشارة إلى علمه وإطلاعه ومعرفته ببرامج الخلق وتنظيم الوجود وتدبير الحياة.

إنّ مجموع ما ورد في الآيات الثلاث بالإضافة إلى مسألة التوحيد التي تكررت مرتين، فإنّ مجموع الصفات المقدسة لله سبحانه تكون سبع عشرة صفة مرتبة بهذا الشكل: ١- عالم الغيب والشهادة، ٢- الرحمن، ٣- الرحيم، ٤- الملك، ٥- القدوس، ٦- السلام، ٧- المؤمن، ٨- المهيمن، ٩- العزيز، ١٠- الجبار، ١١- المتكبر، ١٢- الخالق، ١٣- الباري، ١٤- المصور، ١٥- الحكيم، ١٦- له الأسماء الحسنى، ١٧- الموجود الذي تسبح له كل موجودات العالم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٧

إنّ هذه الآيات تأخذ بيد السائر في طريق معرفة الله، وتقودهم من درجة إلى درجة ومن منزل إلى منزل، حيث تبدأ الآيات أولاً بالحديث عن ذاته المقدسة، ومن ثم إلى عالم الخلق، وتارة أخرى بالسير نحو الله تعالى، حيث ترتفع روحه إلى سمو الواحد الأحد، فيتطهر القلب بالأسماء والصفات الإلهية المقدسة، ويربى في أجواء هذه الأنوار والمعارف، حيث تنمو براعم التقوى على ظاهر أغصان وجوده، وتجعله لائقاً لقرب جواره لكي يكون وجوداً منسجماً مع كل ذرات الوجود، مردّدين معاً ترانيم التسبيح والتقديس.

إنّ الآيات الأخيرة لهذه السورة آيات خارقة وعظيمة وملهمة، وهي درس تربوي كبير للإنسان.

في تفسير مجمع البيان: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«اسم الله الأعظم في ست آيات في آخر سورة حشر».

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ آخر سورة الحشر، غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر».

«نهاية تفسير سورة الحشر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٩

## ٦٠. سورة الممتحنة

محتوى السورة: تتكوّن موضوعات هذه السورة من قسمين:

١- يتحدث عن موضوع «الحبّ في الله» و«البغض في الله»، وينهى عن عقد الولاء والودّ مع المشركين، ويدعو المسلمين لكي يستلهموا من سيرة الرسول العظيم إبراهيم عليه السلام فيما يتعلّق بموقفه من أقرب الأقربين إليه (أبيه آزر) بلحاظ ما يمليه عليه الموقف المبدئي، كما تذكر بعض الخصوصيات الاخرى في هذا المجال ويتكرر هذا المعنى في نهاية السورة، كما في بدايتها.

٢- يتناول هذا القسم مسائل المرأة المهاجرة وضرورة تمحيصها، كما يبيّن أحكاماً اخرى في هذا الصدد.

واختيار اسم (الممتحنة) لهذه السورة كان بلحاظ حالة التمحيص والإمتحان التي وردت في الآية العاشرة من هذه السورة «١».

كما ذكر اسم آخر لهذه السورة وهو (سورة المودّة) وذلك بلحاظ النهي عن عقد الولاء والودّ مع المشركين، وقد أكّدت عليه السورة كثيراً.

(١) قرأها البعض «ممتحنه» (بفتح الحاء) وذلك بسبب حالة التمهين والامتحان للنسوة المهاجرات، وقرأها آخرون «ممتحنه» (بكسر الحاء) وذلك لأن موضوعات السورة - أجمع - كانت وسيلة للامتحان والتمهين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ١٦٩

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: عن ابي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ومن قرأ سورة الممتحنه، كان المؤمنون والمؤمنات له شفعا يوم القيامة».

إن هذه النعم والألطف الإلهية تكون للأشخاص الذين لا يكتفون بالتلاوة السطحية الفارغة من محتوى الروح، والبعيدة عن العلم والعمل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في حاطب بن أبي بلتعنة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، أتت رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة بعد بدر بستين، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا. قال: «أمهاجرة جئت؟» قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟» قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهب موالى واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني! قال: «فأين أنت من شباب مكة؟» وكانت مغنية نائحة. قالت: ما طلب مني بعد وقعة بدر [وهذا يدل على عمق النازلة التي نزلت بمشركي قريش في بدر]؛ فحث رسول الله صلى الله عليه وآله عليها بنى عبدالمطلب، فكسوها وحملوها، وأعطوها نفقة. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتجهز لفتح مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعنة وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطها عشرة دنانير وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعنة إلى أهل مكة إن رسول الله يريدكم فخذوا حذرکم!» فخرجت سارة ونزل جبرائيل فأخبر النبي صلى الله عليه وآله بما فعل، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥١

علياً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها. فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهتموا بالرجوع. فقال على عليه السلام: «والله ما كذبنا ولا كذبنا»، وسل سيفه وقال لها: «أخرجي الكتاب وإلا والله لأضربن عنقك!» فلما رأت الجذ أخرجته من ذؤابتها قد أخبأته في شعرها.

فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟» قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟» قال: يا رسول الله! والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت عريراً فيهم [أي غريباً] وكان أهلي بين ظهرانيتهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وآله وعذره. فقام عمر بن الخطاب وقال:



دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وما يدريك يا عمر لعل الله اطّلع على أهل بدر فغفر لهم فقال لهم: إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

[وكيفية العلاقة التي يجب أن تتحكّم بين المسلمين من جهة، والمشرّكين وأعداء الله من جهة أخرى، والتأكيد على إلغاء وتجنب أى ولاء مع أعداء الله .

التفسير

نتيجة الولاء لأعداء الله: علمنا مما تقدّم أنّ سبب نزول الآيات السابقة هو التصرف المشين الذى صدر من أحد المسلمين (حاطب بن أبى بلتعنة) ورغم أنه لم يكن قاصداً للتجسس إلّا أنّ عمله نوع من إظهار المودة لأعداء الإسلام، فجاءت الآيات الكريمة تحدّر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرفات مستقبلاً وتنهاهم عنها.

يقول سبحانه فى البداية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عِدُوِي وَعِدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ». مؤكداً أنّ أعداء الله وحدهم هم الذين يضمرون العداة للمؤمنين والحقد عليهم، ومع هذا التصور فكيف تمدّون يد الصداقة والودّ لهم.

ويضيف تعالى: «تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٢

إنهم يخالفونكم فى العقيدة، كما أنّهم شنّوا عليكم الحرب عملياً، ويعتبرون إيمانكم بالله - الذى هو أكبر فخر لكم وأعظم قداسة تجللكم - غاية الجرم وأعظم الذنب، ومع هذه الأعمال التى مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودة لهم.

ثم يضيف القرآن الكريم موضحاً: «إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي». فلا تعقدوا معهم أو اصر الولاء والودّ.

فإذا كنتم ممن تدعون حبّ الله حقاً، وهاجرتم من دياركم لأجله سبحانه وترغبون فى الجهاد فى سبيله طلباً لرضاه تعالى، فإنّ هذه الأهداف العظيمة لا يناسبها إظهار الولاء لأعداء الله سبحانه.

ثم يضيف عزّ وجل للمزيد من الإيضاح فيقول: «تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ».

وبناءً على هذا فما عسى أن يغنى الإخفاء وهو واقع بعلم الله فى الغيب والشهود؟

وفى نهاية الآية نجد تهديداً شديداً لمن يجانب السبيل الذى أمر به الله سبحانه بقوله:

«وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

فمن جهة انحرف عن معرفة الله تعالى بظنه أنّ الله لا يعلم ولا يرى ما يصنع، وكذلك انحرف عن طريق الإيمان والإخلاص والتقوى، حينما يعقد الولاء وتقام أوامر المودة مع أعداء الله، وبالإضافة إلى ذلك فإنّه وجّه ضربة قاصمة إلى حياته حينما أفضى أسرار المسلمين إلى الأعداء، ويمثّل ذلك أقبح الأعمال وأسوأ الممارسات حينما يسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل ويقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفة بعد بلوغه مرتبة الإيمان والقداسة.

وفى الآية اللاحقة يضيف سبحانه للتوضيح والتأكيد الشديد فى تجنب موالاتهم: «إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ» (١).

أنتم تكتون لهم الودّ فى الوقت الذى يضمرون لكم حقداً وعداوة عميقة ومتأصّلة، وإذا ما ظفروا بكم فإنهم لن يتوانوا عن القيام بأى عمل ضدكم.

والأدهى من ذلك هو سعيهم الحثيث فى ردكم عن دينكم وإسلامكم، والعمل على تجريدكم من أعظم مكسب وأكبر مفخرة لكم، وهى حقيقة الإيمان: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ».

(١) «يتقفوكم»: من مادة: «ثقف» و «ثقافة»، بمعنى المهارة فى تشخيص أو إنجاز شىء ما، ولهذا السبب تستعمل - أيضاً - بمعنى الثقافة

أو التمكن والتسلط المقترن بمهارة على الشيء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٣

وفي آخر آية من هذه الآيات يستعرض سبحانه الجواب على حاطب بن أبي بلتعة ومن يسايره في منهجه من الأشخاص، حينما قال في جوابه لرسول الله عن السبب الذي حدا به إلى إفشاء أسرار المسلمين لمشركي مكة، حيث قال بلتعة: أهلى وعيالي في مكة، وأردت أن أمنع عنهم الأذى وأصونهم بعملى هذا، (واتخذ عند أهلها يداً). يقول تعالى: «لَنْ تَنْفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ».

وذلك لأن الأرحام والأولاد المشركين سوف لن يجلبوا خيراً وعزّة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة.

ثم يضيف تعالى: «يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ».

وهذا تأكيد على أن مقام أهل الإيمان هو الجنة، وأن أهل الكفر يساقون إلى جهنم وبئس المصير.

وفي نهاية الآية يحذّر الجميع مرّة أخرى بقوله تعالى: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

إنه عالم بنياتكم، وعالم بالأعمال التي تصدر منكم، سواء كانت في حالة السر أو العلن، وإذا كانت المصلحة الإلهية تقتضى عدم إفشاء أسراركم أحياناً كما في حادثة حاطب بن أبي بلتعة، فلائها لحكمه أو مصلحة يراها سبحانه، وليس لأنه لا يعلم بها أو تخفى عليه خافية.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَّهٖ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) إنّ منهج القرآن (من أجل التأكيد على تعاليمه القيمة) يعتمد في كثير من الموارد طريقة الاستشهاد بنماذج أساسية في عالم الإنسانية والحياة، وبعد التشديد السابق الذي مر بنا خلال الآيات السابقة في تجنّب عقد الولاء لأعداء الله، يتحدث القرآن الكريم عن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٤

إبراهيم عليه السلام ومنهجه القدوة كنموذج رائد يحظى باحترام جميع الأقسام وخصوصاً العرب منهم. قال تعالى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ».

والمراد من تعبير «الَّذِينَ مَعَهُ» هم المؤمنون الذين ساروا برفقته في هذا الطريق بالرغم من قلّة عددهم. ثم يضيف سبحانه لتوضيح هذا المعنى: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ومرّة أخرى يؤكدون مضيفين: «كَفَرْنَا بِكُمْ». والكفر هنا هو كفر البراءة الذي اشير له في بعض الروايات ضمن ما ورد في تعدّد أقسام الكفر الخمسة.

ويضيفون للمرّة الثالثة مؤكّدين بصورة أشد: «وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَّهٖ».

وبهذا الإصرار وبهذه القاطعية وبدون أى تردد أو موارد يعلن المؤمنون انفصالهم وإبتعادهم ونفرتهم من أعداء الله حتى يؤمنوا بالله وحده، وهم مستمرّون في موقفهم وإلى الأبد ولن يتراجعوا عنه أو يعيدوا النظر فيه إلا إذا غير الكفار مسارهم وتراجعوا عن خطّ الكفر إلى الإيمان.

ولأنّ هذا القانون العام كان له استثناء في حياة إبراهيم عليه السلام يتجسّد ذلك بإمكانية هداية بعض المشركين، حيث يقول سبحانه معقّباً: «إِنَّ هَؤُلَاءِ قَطَعُوا كُلَّ إِرْتِبَاطٍ لَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمُ الْكَافِرِينَ حَتَّى الْكَلَامِ الْوَدُودِ وَالْمَلَائِمِ: «إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ».

وقد عمل إبراهيم عليه السلام بما وعد آزر به.

ويقول عزّ وجل في بيان هذا المعنى: «وَمَا كَانَ إِسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ

إِبْرَاهِيمَ لَأُوَّاءَ حَلِيمٍ» (١).

إن إبراهيم عليه السلام وأصحابه كانوا من أشدّ المخالفين والمحاربين للشرك، ولا بد لنا من الإقتداء بهم وأخذ الدروس والعبر من سيرتهم، بما في ذلك ما يتعلق بموقفه من «آزر» إذا توفرت لنا نفس الشروط والخصوصيات.  
وبما أن محاربه أعداء الله، والصرامة والشدة معهم - خصوصاً مع تمتعهم بقدره ظاهرياً - سوف لن تكون فاعله إلا بالتوكل على الله تبارك وتعالى، يضيف سبحانه في نهاية الآية:

(١) سورة التوبة / ١١٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٥

«رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

وفي الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى طلب آخر مهم وحساس لإبراهيم عليه السلام وأصحابه في هذا المجال، حيث يقول تعالى:

«رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

من المحتمل أن يكون ما ورد في الآية إشارة إلى عمل حاطب بن أبي بلتعنه واحتمال صدور شبيهه من أشخاص جهلة يكونون سبباً في تقوية الظالمين، من حيث لا يشعرون، بل يتصورون أنهم يعملون لمصلحة الإسلام.

ويضيف في نهاية الآية: «وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فقدرتك يا الله لا تفهر، وحكمتك نافذة في كل شيء.

ومرة أخرى يؤكد سبحانه في آخر آية من هذه الآيات على نفس الأمر الذي ذكر في أول آية، حيث يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ».

لقد كانوا لنا اسوة، ليس فقط في موقفهم ضد منهج الكفر وعبدة الأوثان، بل هم اسوة لنا في الدعاء بين يدي الباري عز وجل، وقدوة لنا في طلب المغفرة منه.

وبدون شك فإن هذا التأسي والإقتداء يرجع نفعه إلى المسلمين أنفسهم قبل الآخرين، لذا يضيف سبحانه في النهاية قوله: «وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

وذلك أن عقد الولاء مع أعداء الله يقوى عودهم وشوكتهم وبالتالي يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

وفي الغالب فإن وجود القدوة في حياة البشر مؤثر في تربيتهم وتوجيههم، ولهذا السبب فإن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين، وبقية الأنبياء الكرام عليهم السلام كانوا موضع هداية البشرية من خلال أعمالهم والتزاماتهم.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَادِيَّةً مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَمَّا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِبُوا عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِبِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٦

مواد الكفار غير الحربين: يستمر الحديث في هذه الآيات المباركات تكمله للموضوعات التي طرحت في الآيات السابقة حول «الحب في الله والبغض في الله» وقطع العلاقة مع المشركين، بالرغم من أن قطع هذه الرابطة يولد فراغاً عاطفياً بالنسبة للبعض من المسلمين، فإن المؤمنين الصادقين، وأصحاب رسول الله المخلصين آمنوا بهذا المنهج وثبتوا عليه، والله تعالى بشر هؤلاء ألا يحزنوا، لأن الثواب هو جزاؤهم بالإضافة إلى أن هذه الحالة سوف لن تستمر طويلاً، حيث يقول سبحانه: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَادِيَّةً مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً».

ويتحقق هذا الوعد وتصدق البشارة في السنة الثامنة للهجرة حيث من الله على المسلمين بفتح مكة، ودخل أهلها جماعات جماعات في دين الإسلام الحنيف، مصداقاً لقوله تعالى: «يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا». وعند ذلك تبدد غيوم الظلمة والعداء والعدا من سماء حياتهم، وتشرق نفوسهم بنور الإيمان وحرارة الودّ وأجواء المحبة والصدقة.

وعلى كل حال، إذا تباعد بعض الناس عن خط الإسلام والمسلمين وكانت تربطهم علاقات إيجابية مع المسلمين، ففي مثل هذه الحالة لا ينبغي اليأس، لأن الله تعالى قادر على كل شيء، ويستطيع تغيير ما في قلوبهم، فهو الذي يغفر الذنوب والخطايا لعباده، حيث يضيف تعالى في نهاية الآية: «وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وتبين الآيات اللاحقة شارحة وموضحة طبيعة علاقة المودة مع المشركين، حيث يقول سبحانه: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

إن الاستفادة من الآيات الكريمة حول طبيعة وكيفية العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو (أصل كلي) لا يختص بذلك الوقت فقط، بل يمثل خطأ عاماً لطبيعة هذه العلاقة في كل الأزمنة سواء اليوم أو غداً، في حياتنا المعاصرة والمستقبلية.

وواجب المسلمين وفق هذه الاسس أن يقفوا بكل صلابه أمام أيه مجموعه، أو دوله، تتخذ موقفاً عدائياً منهم أو تعين من أراد بالإسلام والمسلمين سوءاً... وقطع كل صلّة قائمه على أساس المحبة والصدقة معهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٧

أما إذا كان الكفار في موقع محايد إزاء الإسلام والمسلمين، أو أنهم متعاطفون معهم، عندئذ يستطيع المسلمون أن يقيموا علاقات حسنة ويرتبطوا وإياهم بروابط المودة على أن لا تكون بالصورة التي تكون بين المسلمين أنفسهم، ولا بالشكل الذي يؤدي إلى تغلغلهم في صفوف المسلمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُنْهُمُ اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: صالح رسول الله صلى الله عليه وآله بالحديبية مشركى مكة على أن من أتاه من أهل مكة، رده عليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فهو لهم، ولم يردوه عليه، وكتبوا بذلك كتاباً، وختموا عليه. فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية، مسلمة بعد الفراغ من الكتاب والنبى صلى الله عليه وآله بالحديبية. فأقبل زوجها مسافر من بنى مخزوم، في طلبها، وكان كافراً. فقال: يا محمّد، اردد على امرأتى، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد. فنزلت الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ» من دار الكفر إلى دار الإسلام «فَاْمْتَحِنُوهُنَّ».

قال ابن عباس: امتحانهم أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلحجاباً لله ورسوله. فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وآله فحلفت بالله الذى لا إله إلا هو على ذلك. فأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها عليه، فتزوجها عمر بن الخطاب.

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحن ويعطى أزواجهن مهورهن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٨

التفسير

تعويض خسائر المسلمين والكفار: إستعرضت الآيات السابقة موضوع «البغض في الله» وما يترتب على ذلك من قطع أى صلة مع أعداء الله ... أما موضوع هذه الآيات فهو عن «الحب في الله» وعن طبيعة العلاقة مع الذين انفصلوا عن الكفر وإرتبطوا بالإيمان. وينصب الحديث في الآية الأولى - من هذه الآيات المباركات - عن النساء المهاجرات، حيث ضمت هذه الآية سبع نقاط تتعلق بالنساء المهاجرات، كما تناولت نقاطاً أخرى تختص بالنساء المشركات. النقاط التي تختص بالنساء المهاجرات هي:

١- امتحان النساء المهاجرات، حيث يوجه سبحانه الحديث إلى المؤمنين فيقول تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ».

إنّ هذا الإمتحان هو أن يستحلفن أن هجرتهن لم تكن إلّا من أجل الإسلام.

كما يوجد احتمال آخر حول كيفية امتحان النسوة المهاجرات، وذلك كما ورد في الآية (١٢) من نفس السورة. قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَعْفِرِ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

ومن الممكن أن يكون الكذب في الحلف أيضاً، فيقول البعض خلافاً لما يعتقد به، إلّا أنّ التزام الكثير من الناس حتى المشركين في ذلك الزمان بمسألة البيعة والحلف بالله كان سبباً في تقليص دائرة غير الصادقين.

لذا يضيف سبحانه في العبارة التالية: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ».

٢- يقول سبحانه في الأمر اللاحق: «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ».

٣- في ثالث نقطة التي هي دليل على الحكم السابق يضيف تعالى: «لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ».

فالإيمان والكفر لا يجتمعان في مكان واحد، لأنّ عقد الزواج المقدس لا يمكن أن يربط بين محورين وخطين متضادين (خط الإيمان) من جهة و (الكفر) من جهة أخرى.

٤- كان المتعارف بين العرب أن يدفعوا للمرأة مهرها سلفاً، ولهذا المعنى أشار سبحانه في قوله في الأمر الرابع: «وَأَنفَقُوا مِمَّا أَنفَقُوا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٩

بالرغم من أنّ أزواج المؤمنات كفار فلا بدّ من إعطائهم ما أنفقوا من مهور على زوجاتهم، وذلك لأنّ الطلاق والانفصال قد تمّ بمبادرة من المرأة بسبب إيمانها، لذا توجب العدالة الإسلامية دفع خسارة الزوج.

وطبيعي أنّ دفع المهر يكون لمن عقد معاهدة صلح من الكفار مع المسلمين، كما في صلح الحديبية.

٥- الحكم الآخر الذي يلي الحكم أعلاه، فهو قوله تعالى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ».

ومن الضروري ملاحظة أنّ انفصال المرأة المؤمنة عن زوجها الكافر لا يحتاج إلى طلاق، إلّا أنّه لا بدّ من انتهاء العدة.

٦- أمّا إذا كان الزوج قد آمن بالإسلام، وبقيت المرأة كافرة، فهنا تنفصل الرابطة الزوجية، فتقطع صلة زواجهما، كما في قوله تعالى: «وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ».

«عصم»: جمع عصمة، وهي في الأصل بمعنى المنع، وهنا بمعنى النكاح والزوجية.

«الكوافر»: جمع كافرة، بمعنى النساء الكافرات.

٧- أمّا آخر حكم ذكر في الآية الكريمة، فهو مهور النساء اللواتي ارتددن عن الإسلام والتحقن بالكفار فإنّ لكم الحق في المطالبة بمهورهن مثلما للكفار الحق في المطالبة بمهور زوجاتهم اللاتي دخلن دائرة الإسلام والتحقن بالمسلمين، حيث يقول تعالى: «وَسَلُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَلُوا مَا أَنفَقُوا». وهذا ما توجهه العدالة والإحترام المتقابل للحقوق.

وفي نهاية الآية - وتأكيدها لما سبق - يقول سبحانه: «ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إن هذه الأحكام المستلهمة من العلم الإلهي، الممتزجة بحكمته تعالى.

والإلتفات إلى حقيقة أن كون جميع هذه الأحكام إلهية يعد أكبر ضماناً إجرائية لها في قوة التنفيذ.

وإستعرضت ثاني و آخر آية من هذه الآيات متابعه لما تقدم، بعض الامور في هذا الصدد.

يقول تعالى أنه في كل مرة ترتد امرأة متزوجة عن الإسلام وتلتحق بالكفار، ثم حدثت معركة بينكم وبين الكفار وحالفكم النصر عليهم وغنمتم منهم مغنم فاعطوا الذين ذهب زوجاتهم إلى الكفار: «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٠

وتدعو الآية الكريمة في نهايتها جميع المسلمين إلى الالتزام بالتقوى حيث يقول تعالى:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ».

والأمر بالتقوى هنا يمكن أن يكون بمراعاة الدقة والعدل في تعيين مقدار مهر الزوجة، باعتبار أن هذا الأمر يعتمد فيه على قول الزوج في الغالب، ولا يوجد سبيل لإثبات هذا الحق إلا أقوال الزوجين، ولاحتمال أن تسبب الوسواس الشيطانية في الإدعاء بمبلغ أكثر من المقدار الحقيقي للمهر، لذا يوصى بالتقوى.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَعْفِرْنَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) شروط بيعه النساء: استمراراً للبحث الذي تقدم في الآيات السابقة والذي استعرضت فيه أحكام النساء المهاجرات، تتحدث هذه الآية عن تفاصيل وأحكام بيعه النساء المؤمنات مع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

لقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة لما فرغ النبي صلى الله عليه وآله من بيعه الرجال وهو على الصفا جاءته النساء يبايعنه فنزلت هذه الآية، فشرط الله تعالى في مبايعتهم أن يأخذ عليهن هذه الشروط. يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَعْفِرْنَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وبعد هذه الآية أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله من النساء المؤمنات.

وروى أنه صلى الله عليه وآله كان إذا بايع النساء، دعا بقدر ماء، فغمس فيه يده، ثم غمسن أيديهن فيه. وقيل: إنه كان يبايعهن من وراء الثوب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) بدأت هذه السورة بآية تؤكد على قطع كل علاقة بأعداء الله، وتختتم هذه السورة بآية

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦١

تؤكد هي الاخرى على نفس المفهوم والموقف من أعداء الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

ويحذر القرآن الكريم من أن يتخذ أمثال هؤلاء أولياء وأن تفسى لهم الأسرار فيحيطون علماً بخصوصيات الوضع الإسلامى.

إن عبارة «قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» لها مفهوماً واسعاً حيث يشمل جميع الكفار والمشركين. والتعبير بـ «الغضب» في القرآن الكريم لا ينحصر باليهود فقط، إذ ورد بشأن المنافقين أيضاً كما في الآية (٦) من سورة الفتح.

ثم تتناول الآية أمراً يعتبر دليلاً على هذا النهي حيث يقول تعالى: «قَدْ يَشْأَوْ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ».

ذلك أن موتى الكفار سيرون نتيجة أعمالهم في البرزخ حيث لا رجعة لهم لجبران ما مضى من أعمالهم السيئة، لذلك فإنهم يشأوا تماماً من النجاة، وهؤلاء المجرمون في هذه الدنيا قد غرقوا في آثامهم وذنوبهم إلى حد فقدوا معه كل أمل في نجاتهم، كما هو الحال

بالنسبة للموتى من الكفار.

«نهاية تفسير سورة الممتحنة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٣

## ٦١. سورة الصف

محتوى السورة: تدور أبحاث هذه السورة حول محورين أساسيين.

الأول: فضيلة الإسلام على جميع الأديان السماوية، وضمان خلوده وبقائه.

والثاني: وجوب الجهاد في طريق حفظ المبدأ وترسيخ أركانه وتطوير العمل لتقدمه والإلتزام به.

إلا أننا حينما نتأمل في الآيات الكريمة نلاحظ إمكانية تقسيمها إلى ثلاثة أقسام أخرى:

١- الدعوة إلى الانسجام بين القول والعمل.

٢- الإشارة إلى موقف اليهود من العهود ونقضهم لها، بالإضافة إلى بشارة السيد المسيح عليه السلام بظهور الإسلام العظيم.

٣- استعراض لحياة حوارى السيد المسيح والدعوة لاستلهاام الدروس من سيرتهم.

إن إختيار إسم «الصف» لهذه السورة كان بلحاظ العبارة التى وردت فى الآيه الرابعه منها، وتسمى أحياناً بسورة «عيسى»، أو سورة «الحواريين».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة عيسى عليه السلام كان عيسى مصلياً عليه، مستغفراً له ما دام فى الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقه».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٤

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: وددنا لو أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبرهم الله أن أفضل الأعمال إيمان لا شك فيه والجهاد. فكره الناس، وشق عليهم، وتباطأوا عنه، فنزلت الآية.

التفسير

اعتبرت هذه السورة من السور المسبحات، ذلك لأنها تبدأ بتسبيح الله فى بدايتها:

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

ولم لا يسبحونه ولا ينزهونه من كل عيب ونقص: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» القدير الذى لا يقهر والحكيم المحيط بكل شىء علماً.

ثم يضيف البارى عز وجل فى معرض لوم وتوبيخ للأشخاص الذين لم يلتزموا بأقوالهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ».

ثم يضيف سبحانه مواصلاً القول: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ».

فمفهوم الآية يشمل كل تخلف عن عمد، سواء تعلق بنقض العهود والوعود أو غير ذلك من الشؤون، حتى أن البعض قال: إنها تشمل حتى النذور.

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرض، وذلك قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»».

ثم طرح الآية اللاحقة مسألة مهمة للغاية فى التشريع الإسلامى، وهى موضوع الجهاد فى سبيل الله، حيث يقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتًا مَرُوضًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٥

«مرصوص»: من مادة «رصاص» بمعنى معدن الرصاص، ولأن هذه المادة توضع بعد تذويبها بين طبقات البناء من أجل استحكامه وجعله قوياً ومتيناً للغاية، لذا اطلقت هذه الكلمة هنا على كل أمر قوى ومحكم. والمقصود هنا أن يكون وقوف وثبات المجاهدين أمام العدو قوياً راسخاً.

إن من العوامل المهمة والمؤثرة في تحقيق النصر عامل الانسجام ووحدة الصفوف أمام الأعداء في ميادين القتال، وهذا المبدأ لا يجدر بنا الالتزام به في الحرب العسكرية فحسب، بل علينا تجسيده في الحروب الاقتصادية والسياسية... وإلا فسوف لن نحقق شيئاً.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) البشارة بظهور النبي (أحمد): تأتي الآية الكريمة - أعلاه - مكتملة لمحورين أساسيين تحدثت عنهما الآيات السابقة وهما (الانسجام بين القول والعمل) و (وحدة الصف الإيماني)، لتستعرض لنا زاوية من حياة النبيين العظميين (موسى وعيسى) عليهما السلام، ومتطرقه إلى طبيعة التناقض والانفصام بين أقوال أتباعهم وأعمالهم، بالإضافة إلى (عدم انسجام صفوفهم) وأخيراً المصير السيء الذي انتهوا إليه. يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ».

والمراد من هذا الإيذاء هو ما كانوا ينسبونه لموسى عليه السلام من تهم، كما بيّن ذلك في الآية (٦٩) من سورة الأَحزاب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا».

ومما لا شك فيه أن هذه الممارسات لم تبق بدون عقاب كما نقرأ ذلك في نهاية الآية حيث قال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إن ما يستفاد من المفهوم الذي استعرضته الآية المباركة أن الهداية والضلالة وإن كانت من قبل الله سبحانه، إلا أن مقوماتها وأرضيتها تكون من الإنسان نفسه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٦

وتشير الآية اللاحقة إلى مسألة تكذيب بنى إسرائيل لرسالة عيسى عليه السلام ومخالفتهم له، حيث يضيف تعالى: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ».

وهذا بيان من عيسى عليه السلام أنه يمثل همزة وصل وحلقه من الرسالة بين نبيين وكتابين وامتتين، فقد سبقته رسالته موسى عليه السلام وكتابه، وستليه رسالته الإسلام على يد النبي العظيم محمد صلى الله عليه وآله.

وبالرغم من أن قسماً من بنى إسرائيل قد آمنوا بالرسول الموعود، إلا أن الأكتريه الغالبه كان لهم موقف عدائي متشدد تجاهه، مما دعاهم وسؤل لهم إنكار معاجزه الواضحه، وذلك ما يجسده قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ».

العجيب هو أن اليهود كانوا قد شخّصوا الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله قبل مشركى العرب، إلا أنهم بقى على لججتهم وإصرارهم وعنادهم وإنكارهم له.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَمَّا يَنْهَأَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَأَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم: لاحظنا في الآيات السابقة موقف الإصرار والعناد لجموع أهل الكتاب من دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله رغم ما



بشّر به المسيح عليه السلام حول ظهور رسول الإسلام، وما اقترن بذلك من بينات ودلائل ومعجز واضحة. وتبين الآيات - مورد البحث - عاقبة هؤلاء ومصيرهم السيء ونتيجة عملهم الخائب. فيقول تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ».

نعم، إن أمثال هؤلاء المكذّبين لدعوة الرسول الإلهي، الذين يعتبرون ما يأتي الرسول به من إعجاز سحراً، وما يتحدث به من مبادئ إلهية سامية ضاللاً وباطلاً... فإن هؤلاء هم أظلم الناس، لأنهم يصدّون أنفسهم عن طريق الحق والهداية والنجاة، ويصدّون سائر عباد الله عن منابع الفيض الإلهي ويحرمونهم من السعادة الأبدية. ويضيف سبحانه في نهاية الآية: «وَاللَّهُ لَآيَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٧

ثم يستعرض القرآن الكريم نقطة اخرى ويبين لنا أن أعداء الحق ليسوا بقادرين على الوقوف بوجه مبادئ السماء والأنوار الإلهية العظيمة، حيث يقول سبحانه: «يُرِيدُونَ لِيُطْفَؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ». إن هذه الجهود والمؤامرات الشيطانية غير قادرة على التأثير وإطفاء شعلة الوهج الرسالي الذي أتى به محمّد صلى الله عليه وآله، وبذلك تحقّق التنبؤ القرآني في الفشل الذريع الذي لحق بهؤلاء الذين أرادوا كيداً بالرسالة الإلهية... بل إن النور الإلهي في حالة إنتشار وإتساع يوماً بعد يوم، كما تكشف ذلك لنا الاحصائيات، حيث إن عدد مسلمي العالم في تزايد مستمر رغم الجهود المتظافرة من الصهاينة والصليبيين و (الماديين الشرقيين).

وهذا الأمر بحد ذاته يمثل معجزة خالدة من معجز القرآن الكريم وهذا الدين العظيم.

ويتوضّح التأكيد الأكثر في آخر آية - مورد البحث - حيث يعلن القرآن الكريم ذلك صراحة بقوله عزّ وجل: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ».

وبذلك أثبت أحداث المستقبل صدق هذا التنبؤ العظيم، وغلبه الإسلام من الناحية المنطقية على كافة المذاهب الاخرى وقد حقّق خطوات عظيمة في طريق التقدّم على الأعداء، واكتسح مناطق واسعة من العالم، وهو الآن في تقدّم مستمر، وقوة يخشى منها عالمياً.

ومن المسلم أن النتيجة النهائية كما نعتقد سوف تكون للإسلام، وذلك عند ظهور الإمام المهدي - أرواحنا فداء - إن هذه الآيات بذاتها دليل على هذا الظهور العظيم. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ تَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَعْفُو لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصِيرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) التجارة الرابعة: قلنا في بداية السورة أن الأهداف المهمة لهذه السورة هو الدعوة إلى الإيمان والجهاد في سبيل الله، وما الآيات مورد البحث إلّا تأكيد على هذين الأصلين، من

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٨

خلال مثال رائع يبعث على الحركة الإلهية في روح الإنسان، والتي هي شرط إنتصار الإسلام على كل الأديان، وقد اشير إلى هذا العامل في الآيات الماضية. يقول تعالى في البداية: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ».

وقد بادر في نفس الوقت وبدون إنتظار للإجابة متحدّثاً عن هذه التجارة المتعددة المنافع، حيث يضيف تعالى: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ تَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ». ومما لا شك فيه أن الله سبحانه غنى عن هذه التجارة النافعة وأن جميع منافعها تعود على المؤمنين. لذا يقول في نهاية الآية: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

إن الإيمان بالرسول لا ينفصل عن الإيمان بالله تعالى، كما أن الجهاد بالنفس لا ينفصل عن الجهاد بالمال.

وعند التدقيق في الآية المباركة نلاحظ أنه تعالى قد قدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لا باعتباره أكثر أهمية، بل بلحاظ أنه

مقدمه للجهاد بالنفس، لأنّ مستلزمات الجهاد لا تنهياً إلّا عند توفرّ الإمكانيات المادية.

لقد تمّ تسليط الأضواء على ثلاثة عناصر أساسية في هذه التجارة العظيمة والتي لا مثيل لها.

(فالمشترى) هنا هو الله سبحانه، و (البائع) هم المؤمنون، و (البضاعة) هي الأنفس والأموال، ويأتي دور العنصر الرابع في هذه الصفقة وهو الثمن والعوض لهذه المعاملة العظيمة.

يقول تعالى: «يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وتستعرض الآية مرحلة الجزء الاخرى في البداية حيث غفران الذنوب باعتبارها أهم عوامل القلق وعدم الراحة الفكرية والنفسية للإنسان، وعندما يتحقق الغفران له فمن المسلم أنّ الراحة والهدوء والإطمئنان تنشر ظلالها عليه.

كما أننا نقرأ في الآية اللاحقة عن شعبتين من الهبات الإلهية التي تفضل بها البارئ على عباده المؤمنين في هذه الدنيا حيث يقول: «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ».

يالها من تجارة مباركة حيث تشمل على الفتح والنصر والنعمة والرحمة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٩

ولهذا فإنه سبحانه يبارك للمؤمنين تجارتهم العظيمة هذه، ويزفّ لهم البشرى بقوله تعالى: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) كونوا كالحواريين: في الآية الأخيرة من سورة الصف يدور الحديث مرّة أخرى حول محور (الجهاد) الذي مرّ ذكره سابقاً في هذه السورة، إلّا أنّ الحديث عنه يستمر هنا في هذه الآية - أيضاً بأسلوب جديد. لقد طرحت الآية الكريمة مسألة مهمة غير الجنة والنار وذلك بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ».

نعم، أنصار الله، الله الذي هو منشأ جميع القدرات، ومرجعها.

ثم يستشهد بنموذج تاريخي رائد كى يوضح سبحانه أنّ هذا الطريق لن يخلو من السالكين والعشاق الإلهيين حيث يضيف تعالى: «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ».

ويكون الجواب على لسان الحواريين بمنتهى الفخر والإعتزاز: «قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ». وساروا في هذا الدرب حاملين لواء الخير والهداية، ومتصدّين لحرب أعداء الحق والرسالة، حيث يقول سبحانه: «فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ».

وهنا يأتي العون والنصر والإغاثة والمدد الإلهي للطائفة المؤمنة حيث يقول سبحانه:

«فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ».

وأنتم أيضاً يا حواريي محمّد، يشملكم هذا الفخر وتحيطكم هذه العناية والالطف الإلهي، لأنكم أنصار الله، وإنّ النصر على أعداء الله سيكون حليفكم أيضاً، كما انتصر الحواريون عليهم.

من هم الحواريون؟ جاء ذكر الحواريين في القرآن الكريم خمس مرّات، مرتين منها في هذه السورة المباركة.

«الحواريون»: تعبير يراد به الإشارة إلى اثني عشر شخصاً من الأنصار الخواص

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٠

لعيسى عليه السلام وقد ذكرت أسماؤهم في الأناجيل المتداولة حالياً ك (إنجيل متى، ولوقا باب ٦).

في الدرّ المنثور: قال رسول الله صلى الله عليه وآله للنفر الذين لاقوه بالعقبة: «أخرجوا إلى اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم». مما يعكس أهمية هؤلاء العظام.

«نهاية تفسير سورة الصف»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧١

## ٦٢. سورة الجمعة

مختصر الامثل ج ٥ ١٩٩

محتوى السورة: تدور هذه السورة حول محورين أساسيين:

١- التوحيد وصفات الله والهدف من بعثه الرسول ومسألة المعاد.

٢- الأثر التربوي لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيات المتعلقة بهذه العبادة العظيمة.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع: ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الجمعة اعطى عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة، وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين».

وقد ورد في الروايات التأكيد الكثير على قراءة سورة الجمعة والمنافقون في صلاة الجمعة، وقد ورد في بعض الروايات أن لا تترك قراءتها ما أمكن، ومع أن العدول في القراءة عن سورة «التوحيد» و «كافرون» إلى سور أخرى غير جائز، إلا أن هذه المسألة مستثناة في صلاة الجمعة، فيجوز العدول عنهما إلى سورة «الجمعة» و «المنافقون» بل عد ذلك مستحباً.

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَ آخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٢

تبدأ هذه السورة كذلك بالتسبيح لله عز وجل، وتشير إلى بعض صفات الجمال والجلال والأسماء الحسنى لله، ويعتبر ذلك في الحقيقة مقدمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى:

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». حيث يسبحونه بلسان الحال والقال ويتزهدونه عن جميع العيوب والنقائص: «الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

وبناءً على ذلك تشير الآية أولاً إلى «المالكية والحاكمية المطلقة»، ثم «تنزهه من أى نوع من الظلم والنقص» وذلك لإرتباط اسم الملوك بأنواع المظالم والمآسى، فجاءت كلمة «قدوس» لتنفي كل ذلك عنه جل شأنه.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد وصفات الله، يتحدث القرآن عن بعثه الرسول والهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزیز الحكيم القدوس، حيث يقول: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ». وذلك من أجل أن يطهرهم من كل أشكال الشرك والكفر والانحراف والفساد «وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

«الأميين»: جمع «امى» وهو الذى لا يعرف القراءة والكتابة (ونسبته إلى الام باعتبار أنه لم يتلق تعليماً فى معهد أو مدرسة غير مدرسة الام).

إن الآية تؤكد على أن نبي الإسلام بعث من بين هؤلاء الاميين الذين لم يتلقوا ثقافه وتعليماً وذلك لبيان عظمة الرسالة وذكر الدليل على حقانيتها، لأن من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم وبذلك المحتوى العميق وليد فكر بشرى وفى ذلك المحيط الجاهلى ومن شخص امى أيضاً، بل هو نور أشرق فى الظلمات، وهى بحد ذاتها معجزة باهرة وسنداً قاطعاً على حقانيتها.

ولخصت الآية الهدف من بعثه الرسول صلى الله عليه وآله فى ثلاثه امور، جاء أحدها كمقدمة وهو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أى (تهذيب وتزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب والحكمة) الهدف النهائى الكبير.

نعم، جاء الرسول صلى الله عليه وآله ليعطى الإنسانية ويعلمها العلم والأخلاق، لتستطيع بهذين الجناحين (جناح العلم وجناح الأخلاق) أن تحلق في عالم السعادة وتطوى مسيرها إلى الله لتنال القرب منه.

ويمكن أن يكون الفرق بين «الكتاب» و «الحكمة» هو أن الأول إشارة إلى القرآن والثاني إشارة إلى سنة الرسول صلى الله عليه وآله. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٣

وتعبير «الضلال المبين» إشارة إلى سابقة العرب وماضيهم الجاهلى فى عبادة الأصنام.

نعم لقد جاء الرسول وأنقذهم ببركة الكتاب والحكمة من هذا الضلال والتخبط وزكاهم وعلمهم. وحقاً إن تربيته وتغيير مثل هذا المجتمع الضال يعتبر أحد الأدلة على عظمة الإسلام ومعجز نبينا العظيمة.

ولكن لم يكن الرسول مبعوثاً لهذا المجتمع الامى فقط، بل كانت دعوته عامه لجميع الناس، فقد جاء فى الآية التالية: «وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ».

بناءً على ذلك تكون الآية أعلاه شاملة لجميع الأقوام الذين يأتون بعد أصحاب الرسول من العرب والعجم.

وجاء فى آخر الآية: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

بعد أن يشير إلى هذه النعمة الكبيرة- أى نعمة بعث نبي الأكرم وبرنامجه التعليمى والتربوى- يضيف قائلاً: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرِّقُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) الحمار الذى يحمل الأسفار: جاء فى بعض الروايات أن اليهود قالوا: (إذا كان محمداً قد بعث برسالة فإن رسالته لا تشملنا) فردت عليهم الآية مورد البحث فى أول بيان لها بأن رسالته قد اشير إليها فى كتابكم السماوى لو أنكم قرأتموه وعلمتم به. يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا». أى نزلت عليهم التوراة وكلفوا بالعمل بها ولكنهم لم يؤدوا حقها ولم يعملوا بآياتها فمثلهم «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا».

لقد إقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراة واكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٤

هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذى يضرب به المثل فى الغباء والحماقة.

ثم يقول تعالى: «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ». إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملاً، بل أنكروه بلسانهم أيضاً، حيث نصبت الآية (٨٧) من سورة البقرة وهى تصف اليهود قائلة: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ». ويقول تعالى فى آخر الآية فى عبارة وجيزة: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

صحيح أن الهداية شأن إلهى، ولكن ينبغى أن تهياً لها الأرضية اللازمة، وهى الروح التوافق لطلب الحق والبحث عنه، وهى امور يجب أن يهيتها الإنسان نفسه، ولا شك أن الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضية.

وقد حملت الروايات بشدة على مثل هؤلاء العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون، وفى رواية عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً» (١).

ومثل هؤلاء العلماء سيكونون بلائاً على المجتمع ووبالاً عليه، وسينتهى المجتمع الذى علماؤه من هذا القبيل إلى مصير خطير.

يقول الشاعر:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب.

وأوضحنا سابقاً أنّ اليهود اعتبروا أنفسهم أمّة مختارة، أو نسيجاً خاصاً لا يشبه غيره، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادّعوا أنّهم أبناء الله وأحباؤه المنتقمون، وهذا ما أشارت إليه الآية (١٨) من سورة المائدة: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ». (رغم أنّهم يقصدون الأبناء المجازيين).

ولكن القرآن شجب هذا التعالى مرّة أخرى بقوله: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

فالأحباء يتمنون اللقاء دائماً، ولا يتمّ اللقاء المعنوى بالله يوم القيامة.

إنّ خوفكم وفراركم من الموت دليل قاطع على أنّكم متعلقون بهذه الدنيا وغير صادقين فى إدعائكم.

(١) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ١/ ١٢٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٥

ثم يشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: «وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ». لأنّ خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسيين:

الأول: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت واعتقاده أنّ الموت زوال وفناء.

والثانى: أعماله السيئة التى يعتقد أنّه سيواجهها بعد مماته فى عالم الآخرة عندما تقام المحكمة الإلهية.

وإنّما يخاف اليهود من الموت لسوء أعمالهم إذ أنّهم يعتقدون- أيضاً- بيوم الحساب.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، وذلك لأنّ الظلم يتّسع ليشمل جميع الأعمال السيئة والجرائم التى إرتكبوها، من قتلهم الأنبياء وقول الزور وغصب الحقوق وتلوّثهم بمختلف المفاصد الأخلاقية.

غير أنّ هذا الخوف وذلك الفرار لا يجدى شيئاً، فالموت أمر حتمى لا بدّ أن يدرك الجميع، إذ يقول تعالى: «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

الموت قانون عام يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (١).

وكذلك المثل أمام محكمة العدل الإلهى لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم الله تعالى بأعمال عباده بدقّة وبتفصيل كامل.

وبهذا سوف لا- يكون هناك طريق للتخلّص من هذا الخوف سوى تقوى الله وتطهير النفس والقلب من المعاصى، وبعد أن يخلص الإنسان لله تعالى فإنّه لن يخاف الموت حينئذٍ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْيًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

(١) سورة الرحمن / ٢٦ و ٢٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٦

سبب النزول

نقل فى سبب نزول هذه الآيات وخصوصاً الآية «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً» روايات مختلفة جميعها تخبر عن معنى واحد، هو أنّه فى أحد السنوات: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام، والنبي صلى الله عليه وآله يخطب يوم

الجمعة فلما رأوه قاموا إليه بالبيع خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله وإلارط، فنزلت الآية فقال صلى الله عليه وآله:

«والذى نفسى بيده لو تابعتكم حتى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادى ناراً».

وقال المقاتلان: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب يوم الجمعة، إذ قدم دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، ثم أحد بنى الخزرج ثم أحد بنى زيد بن مناة من الشام بتجارة. وكان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق، إلا أته وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق، أو بز، أو غيره فينزل عند أحجار الزيت، وهو مكان فى سوق المدينة، ثم يضرب بالطل ليؤذن الناس بقدمه، فيخرج إليه الناس ليتبايعوا معه.

فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم على المنبر يخطب. فخرج الناس، فلم يبق فى المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال صلى الله عليه وآله: «لولا هؤلاء لسومت عليهم الحجارة من السماء». وأنزل الله هذه الآية «١».

التفسير

أكبر تجمع عبادى سياسى اسبوعى: كانت الأبحاث السابقة تدور حول مسألة التوحيد والنبوة والمعاد، وكذلك ذم اليهود عبيد الدنيا، بينما انصب الحديث فى الآيات مورد البحث على الركائز الإسلامية المهمة التى تؤثر كثيراً على استقرار أساس الإيمان، وتمثل الهدف الأساس للسورة، وهى صلاة الجمعة وبعض الأحكام المتعلقة بها. فى البداية يخاطب الله تعالى المسلمين جميعاً بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

«نودى»: من مادة «نداء» وهى هنا بمعنى الأذان إذ لا نداء للصلاة غير الأذان.

فعندما يرتفع الأذان لصلاة الجمعة يكون لزاماً على الناس أن يتركوا مكاسبهم ومعاشهم، ويذهبوا إلى الصلاة وهى أهم ذكر لله.

(١) تفسير مجمع البيان ١٠ / ١١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٧

من الواضح أن لأمر ترك البيع والشراء مفهوماً واسعاً يشمل كل عمل يمكن أن يزاحم الصلاة.

المقصود من (ذكر الله) بالدرجة الأولى هو الصلاة، ولكننا نعلم أن خطبتي صلاة الجمعة مشتملة على الأخرى ومتضمنة (لذكر الله) وهى جزء من صلاة الجمعة، وبناءً على ذلك ينبغى الإسراع لحضور الخطبتين أيضاً.

تضيف الآية التى تليها قائلة: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

فى آخر الآية- مورد البحث- ورد ذم عنيف للأشخاص الذين تركوا رسول الله صلى الله عليه وآله فى صلاة الجمعة وأسرعوا للشراء من القافلة القادمة، إذ يقول تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا».

ولكن «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

فمن المؤكد، أن الثواب والجزاء الإلهى والبركات التى يحظى بها الإنسان عند حضوره صلاة الجمعة والإستماع إلى المواعظ والحكم التى يلقيها رسول الله صلى الله عليه وآله وما ينتج عن ذلك من تربية روحية ومعنوية، لا يمكن مقارنتها بأى شىء آخر، فإذا كنتم تظنون إنقطاع الرزق فإنكم على خطأ كبير لأن «اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

التعبير ب «اللهو» إشارة إلى الطبل وسائر آلات اللهو التى كانت تستعمل عند دخول قافلة جديدة إلى المدينة، فقد كانت تستعمل كإعلان وإخبار عن دخول القافلة، إضافةً إلى كونها وسيلةً للترفيه والدعاية واللهو.

بحوث

١- أول صلاة جمعة فى الإسلام: فى المجمع: قيل: قبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام

وللنصارى يوم أيضاً مثل ذلك، فلنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله عزّ وجل ونشكره. وكما قالوا يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ وذكرهم فسّمّوه يوم الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم أسعد بن زرارة شاة، فتغدوا وتعشوا من شاة واحدة، وذلك لقتلهم. فأنزل الله تعالى في ذلك: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ» الآية. فهذه أوّل جمعة في الإسلام. فأما أوّل جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه فقيل: إنه قدم رسول الله صلى الله عليه وآله مهاجراً مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٨

حتى نزل قبا على عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين، لإثنتي عشرة ليلة، خلت من شهر ربيع الأوّل حين الضحى، فأقام بقبا يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة قاصداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ اليوم في ذلك الموضع مسجده. وكانت هذه الجمعة أوّل جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وآله في الإسلام. فخطب في هذه الجمعة وهي أوّل خطبة خطبها بالمدينة.

٢- أهمية صلاة الجمعة: إن أفضل دليل على أهمية هذه الفريضة العظيمة هو الآيات الأخيرة في هذه السورة المباركة، التي أمرت جميع المسلمين وأهل الإيمان بمجرد سماعهم لأذان الجمعة أن يسرعوا إليها ويتركوا الكسب والعمل، وكل ما من شأنه أن يزاحم هذه الفريضة.

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في خطبة طويلة نقلها المخالف والوالف: «إن الله تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها في حياتي أو بعد موتي إستخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حج له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له، حتى يتوب» (١).

ومن الملفت للنظر أنه قد ورد ذمّ شديد لتارك صلاة الجمعة، عندما تكون صلاة الجمعة واجباً عتيباً (أى في زمن حضور الإمام المعصوم) وأما في زمن الغيبة، فإنه لا يكون مشمولاً بهذا الذم والتقريع رغم عظمة صلاة الجمعة وأهميتها في هذا الوقت أيضاً.

٣- فلسفة صلاة الجمعة العبادية والسياسية: إن صلاة الجمعة - قبل كل شىء - عبادة جماعية ولها أثر العبادات عموماً، حيث تطهر الروح والقلب من الذنوب، وتزيل صداً المعاصي عن القلوب.

أما من الناحية السياسية والاجتماعية فهي أكبر مؤتمر اسبوعي عظيم بعد مؤتمر الحج السنوي، لهذا نجد الرسول صلى الله عليه وآله يقول في رواية أنّ الجمعة حج من لا يملك القدرة على المشاركة في الحج. ويعطى الإسلام أهمية خاصة لثلاثة مؤتمرات كبيرة:

(١) وسائل الشيعة ٥/ ٧ (باب وجوب صلاة الجمعة). رسائل شهيد الثاني، رساله الجمعة / ٦١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٩

التجمعات التي تتم يومياً لصلاة الجماعة.

التجمع الأسبوعي الأوسع في صلاة الجمعة.

ومؤتمر الحج الذي يعقد في كل سنة مرّة.

ودور صلاة الجمعة مهم جداً خاصة وأن من واجبات الخطيب هو التحدّث في الخطبتين عن المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

«نهاية تفسير سورة الجمعة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨١

محتوى السورة: يمكن تقسيم مباحث هذه السورة بأربعة أقسام:

١- صفات المنافقين وتضمن نقاطاً مهمة وحساسة.

٢- تحذير المؤمنين من خطط المنافقين ووجوب الإنباه إلى ذلك ورصده بشكل دقيق.

٣- حثّ المؤمنين على عدم الاستغراق في الدنيا وزخرفها والإنشغال بذلك عن ذكر الله.

٤- حثّ المسلمين على الإنفاق في سبيل الله، والانتفاع من الأموال قبل الموت وقبل اشتعال الحسرة في نفوسهم.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة المنافقين برأ من النفاق».

وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الواجب على كل مؤمن إذا كان لنا شيعه أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة وسبح اسم ربك الأعلى، وفي صلاة الظهر بالجمعة والمنافقين، فإذا فعل ذلك فكأنما يعمل بعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وكان جزاؤه وثوابه على الله الجنة».

إنّ المرور على هذه السور دون الاستفادة منها على الصعيد العملي وجعلها برنامجاً للحياة، سوف لن يؤدى إلى زوال روح النفاق وإجتثاث جذورها من نفس الإنسان.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٢

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَمَّا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُشْبٌ مِّنْ دَعْدٍ يَّحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعِدُّ فَاحْذَرهُمْ فَاْتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) مصدر النفاق وعلامات المنافقين: نذكر مقدمة قبل الدخول في تفسير هذه الآيات، وهي أنّ الإسلام طرح مسألة النفاق والمنافقين مع هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه إلى المدينة، وبداية استحكام اسس الإسلام وظهور عزه، فلم تبرز ظاهرة النفاق في مكة، لأنّ الأعداء يصعب عليهم التجاهر في عدائهم، بل قد يتعذر ذلك عليهم في بعض الأحيان، لهذا اختار أعداء الإسلام المهزومون أن يواصلوا خططهم التخريبية من خلال إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وانخرطوا ظاهراً في صفوف المسلمين، بينما ظلوا محافظين على كفرهم في باطنهم.

وهكذا تكون غالباً طبيعة أعداء كل ثورة ودعوة بعد إشتداد عودها وقوة ساعدها، إذ تواجه الكثير من الأعداء وكانهم أصدقاء.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا نزلت كل تلك الآيات التي تصف المنافقين وتشرح حالهم، في المدينة ولم تنزل في مكة.

ومما يجدر الإشارة إليه أنّ هذه المسألة- أى مسألة النفاق- غير محصورة بعصر الرسول، بل إنّ جميع المجتمعات- وخاصة الثورية منها- تكون عرضة للإصابة بهذه الظاهرة الخطيرة، ولذلك يجب أن يدرس القرآن الكريم وما جاء فيه من تجارب وإرشادات من خلال هذه النظرة الحيوية، لا من خلال اعتبارها مسألة تاريخية لا علاقة لها بالواقع، وبهذا يمكن إستلهام الدروس والحكم لمكافحة النفاق وخطوط المنافقين في المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أنّ خطر المنافقين يفوق خطر باقى الأعداء، لخفائهم وعدم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٣

القدرة على تشخيصهم بسهولة من جهة، ولكونهم أعداء يعيشون في داخل الجسم الإسلامى وربما ينفذون إلى قلبه نفوذاً يصعب معه فرزهم وتحديددهم من جهة أخرى.

ويأتى خطرهم ثالثاً من إرتباطاتهم مع سائر عناصر المجتمع بعلاقات بحيث تصعب مكافحتهم.

ولهذا نرى أنّ أكثر الضربات التي تلقاها الإسلام على مدى التاريخ جاءت من هذا المعسكر، أى معسكر النفاق ولهذا نلاحظ أنّ



الإسلام شن حملات شديدة جداً عليهم.

وبعد هذه المقدمة نرجع إلى تفسير الآيات.

إنَّ أوَّلَ صفةٍ يذُكرها القرآن للمنافقين هي: إظهار الإيمان الكاذب الذى يشكّل الظاهرة العامة للنفاق، حيث يقول تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ وَقَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ». و

ويضيف: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ». لأنهم لم يريدوا الإخبار عن واقعيه رساله رسول الله وإنما أرادوا الإخبار عن إعتقادهم برسالته، وهذا من الكذب المحض.

وهذه أوَّلَ علامة من علامات المنافقين، حيث اختلاف الظاهر مع الباطن، ففى الوقت الذى يظهر المنافقون الإيمان ويدعون به بألستهم، نرى قلوبهم قد خلت من الإيمان تماماً، وهذه الظاهرة تشكّل المحور الرئيسى للنفاق.

وتذكر الآية اللاحقة العلامة الثانية: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ذلك لأنهم يضعون الموانع والعراقيل فى طريق هداية الناس، وليس هناك أقبح من أن يمنع الإنسان غيره من الإهداء.

من عبارة «جُنَّةً» يتضح أن المنافقين فى حالة حرب دائمة ضد المؤمنين، وأن الظواهر التى يتخفون وراءها لا ينبغى أن تخدع أحداً. وتتطرق الآية اللاحقة إلى ذكر السبب الذى يقف وراء هذه الأعمال السيئة، حيث يقول تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ».

والواقع أن المنافقين مجموعتان:

المجموعة الأولى: كان إيمانها منذ البداية ظاهرياً وصورياً.

والثانية: كان إيمانها حقيقياً فى البداية ثم ارتدوا ولزموا طريق النفاق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٤

والظاهر أن الآية - مورد البحث - تتعرض للمجموعة الثانية.

وتشبه هذه الآية (٧٤) من سورة التوبة التى تقول: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ».

فإن عدم قدرتهم على إدراك الحقائق الواضحة تعتبر علامة ثالثة من علامات نفاقهم.

وتوضح الآية اللاحقة علامات المنافقين بشكل أكثر وضوحاً، إذ يقول تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ» فهم يتمتعون بظواهر جميلة وأجسام لطيفة.

«وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ» لأنه ينطوى على شىء من التحسين والعدوية.

وفى الوقت الذى يتأثر الرسول بحديث بعضهم - كما يبدو من ظاهر التعبير - فكيف بالآخرين!؟

هذا فيما يخص ظاهريهم، أما باطنيهم ف «كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُّسْنَدَةٌ».

فأجسامهم خالية من الروح، ووجوههم كالحة، وكيانهم خاوٍ منحور من الداخل، ليس لهم أية إرادة ولا- يتمتعون بأية استقلالية (كالأخشاب المسندة) المكسدة.

وكان هؤلاء يتميزون بالضعف والخواء فى داخلهم، لا يعرفون التوكل والاعتماد على الله ولا على أنفسهم، فهم كما يصفهم القرآن الكريم فى آية اخرى: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ».

يسيطر عليهم الخوف والرعب وسوء الظن، وتغمر أرواحهم النظرة السوداء السيئة ...

تجدهم فى خوف دائم من ظلمهم وخيانتهم.

وقد نبه القرآن الكريم فى نهاية الآية قائلاً: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ». أى: هم الأعداء الواقعيون.

ويضيف: «فَاتْلُهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ». أى: كيف ينحرفون عن الحق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمَّا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَأَيَعْلَمُونَ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٥

سبب النزول

ذكرت كتب التاريخ والتفسير سبباً مسهباً لنزول هذه الآيات، وجاء في الكامل في التاريخ: أنه بعد غزوة بني المصطلق ازدحم الناس على الماء، وردت وارده الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه، فازدحم هو وسانان الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا- فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبي سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث السن فقال: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا في بلادنا، أما والله «لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ»، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم وقاسمتموهم أموالكم، والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم، فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبي صلى الله عليه وآله وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله مُرُّ به عبادة بن بشر فليقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف إذا تحدثت الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذن بالرحيل. فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقبه أسيد بن حضير فسلم عليه وقال: يا رسول الله، لقد رحت في ساعة لم تكن تروح فيها؟ فقال: أو ما بلغك ما قال عبد الله بن أبي؟ قال: وماذا قال؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال أسيد: فأنت والله تُخرجه إن شئت، فإنك العزيز وهو الذليل.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد من الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً. وسمع عبد الله بن أبي أن زيدا أعلم النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله قوله فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان عبد الله في قومه شريفاً، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأه. وأنزل الله: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» تصديقاً لزيد، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله باذن زيد وقال: هذا الذي أوفى الله باذنه. وبلغ عبد الله بن أبي سلول ما كان من أمر أبيه، فأتى النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله فقال: يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، وأخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشى في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا، فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثاً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٦

عاتبه قومه وعنفوه وتوعدوه (١).

التفسير

علامات اخرى للمنافقين: تأتي هذه الآيات لتكتمل توضيح علامات المنافقين التي بداتها الآيات التي سبقتها. يقول تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ».

إن حب المنافقين لأنفسهم وعبادتهم لذواتهم، جعلتهم أبعد ما يكونون عن الإسلام الذي يعنى التسليم والرضا والاستسلام الكامل للحق.

«لَوْا»: من مادة «لى» وهى فى الأصل بمعنى برم الحبل، وتأتى أيضاً بمعنى إمالة الرأس وهزه إعراضاً واستكباراً.

ومن أجل أن لا يبقى هناك أى إبهام أو التباس قال تعالى: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إن استغفار النبي تؤثر حينما يتوبون بصدق وإخلاص، ويستسلمون للحق، هنالك يؤثر استغفار الرسول وتقبل شفاعته.

والمقصود من الفساق، هم تلك المجموعة من الفساق أو المذنبين الذين يصرون على ذنوبهم ويركبون رؤوسهم.

والشاهد الآخر الذى يذكره القرآن كعلامة لهم واضحة جداً، هو قوله تعالى: «هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا». فلا تعطوا المسلمين شيئاً من أموالكم وإمكاناتكم لكي يتفرقوا عن رسول الله.

«وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ».

إن هؤلاء فقدوا الوعى والبصيرة، ولم يعرفوا أن كل ما لدى الناس إنما هو من الله. وأن تقاسم الأنصار لأموالهم مع المهاجرين إنما هو من دواعى الإفتخار والإعتزاز، ولا ينبغي أن يمتوا به على أحد.

ثم يقول تعالى فى إشارة اخرى إلى مقاله اخرى سيئه من مقالاتهم: «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ».

(١) الكامل فى التاريخ ٢ / ٨١

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٧

وهذا نفس الكلام الذى أطلقه عبد الله بن ابي، ويريدون من ورائه أنهم أهل المدينة الأصليون الذين سيخرجون منها الرسول وأصحابه من المهاجرين، بعد عودتهم من غزوة بنى المصطلق التى مرّت الإشارة إليها.

ورغم أن هذا الحديث صدر عن رجل واحد، لكنه كان لسان حال المنافقين جميعاً، وهذا ما جعل القرآن يعبر عنهم بشكل جماعى «يقولون...» فيردّهم رداً حازماً، إذ يقول:

«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

ولم يكن منافقو المدينة وحدهم الذين روى هذا الكلام، بل سبقهم إلى ذلك رؤساء قريش عندما قالوا: (سينتهى أمر هذه المجموعة القليلة الفقيرة من المسلمين إذا حاصرناهم إقتصادياً أو أخرجناهم من مكة).

وهكذا نرى اليوم الدول المستكبرة وهى تحدّر الشعوب التى ترفض الخضوع لسيطرتها، بأنّها تملك الدنيا وخزائنها، فإن لم تخضع لها تحاصرها إقتصادياً لتركيبتها.

وهؤلاء هم الذين طبع على قلوبهم واتخذوا منهجاً واحداً على مدى التاريخ، وظنوا أن ما لديهم باق، ولم يعلموا أن الله قادر على إزالته وإزهاقه بلمحة بصر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا حَيَاءً أَجَلَهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم: إن حبّ الدنيا والتكالب على الأموال والإنشاد إلى الأرض، من الأسباب المهمة التى تدفع باتجاه النفاق، وهذا ما جعل القرآن يحذّر المؤمنين من مغبّة الوقوع فى هذه المصيدة الخطيرة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

ورغم أن الأموال والأولاد من النعم الإلهية التى يستعان بها على طاعة الله وتحصيل رضوانه، لكنّها يمكن أن تتحول إلى سدّ يحول بين الإنسان وخالقه إذا ما تعلق به الإنسان بشكل مفرط.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٨

بعد هذا التحذير الشديد، يأمر الله تعالى بالإنفاق فى سبيله حيث يقول: «وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

والأمر بالإنفاق هنا يشمل كافة أنواع الإنفاق الواجبه والمستحبه.

والطريف أنه جاء في ذيل الآية «فَأَصَّدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ» لبيان تأثير الإنفاق في صلاح الإنسان.

إنّ هناك عدداً كبيراً من الناس يضطربون كثيراً حينما يجدون أنفسهم على وشك الانتقال إلى عالم البرزخ، والرحيل عن هذه الدنيا، وترك كل ما بنوا فيها من أموال طائلة وملاذ واسعة، دون أن يستثمروها في تعمير الآخرة، عندئذ يتذكّر هؤلاء ويطلبون العودة إلى الحياة الدنيا مهما كان الرجوع قصيراً وعابراً، ليعوضوا ما فات، ويأتيهم الجواب «وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا».

وفي الآية (٣٤) من سورة الأعراف: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَاسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ».

ثم تنتهي الآية بهذه العبارة: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فقد سجل كل شيء عنكم وستجدونه محضراً من ثواب وعقاب.

«نهاية تفسير سورة المنافقون»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٩

## ٦٤. سورة التغابن

محتوى السورة: إن سياق الآيات الأخيرة في هذه السورة ينسجم مع السور المدنية، وصدورها أكثر انسجاماً مع السور المكية، ولكننا نرى أنها مدنية طبقاً للمشهور.

يمكن تقسيم مباحث هذه السورة إلى عدّة أقسام:

١- بداية السورة التي تبحث في التوحيد وصفات وأفعال الله تعالى.

٢- حثّ الناس على ملاحظة أعمالهم ظاهراً وباطناً، وأن لا يغفلوا عن مصير الأرواح السابقين.

٣- ثم يجرى الحديث عن المعاد، وأن يوم القيامة «يوم تغابن»، تغبن فيه جماعة وتفوز فيه جماعة، واسم السورة مشتق من هذا المفهوم.

٤- الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وتحكيم قواعد النبوة.

٥- ويأمر الله تبارك وتعالى في القسم الأخير من السورة بالإنفاق في سبيله، ويحذّر من الإنخداع بالأموال والأولاد والزوجات، وتختتم السورة بذكر صفات الله تبارك وتعالى.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة التغابن في فريضة كانت شفيعة له يوم القيامة، وشاهد عدل عند من يجيز شهادتها، ثم لا تفارقه حتى يدخل الجنة».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٠

يَسْبُحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ وَكَافَرَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْتَرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْزَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) تبدأ هذه السورة بتسبيح الله، الله المالك المهيم على العالمين القادر على كل شيء:

«يَسْبُحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». ويضيف: «لَهُ الْمُلْكُ». والحاكمية على عالم الوجود كافة، ولهذا السبب: «وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ثم يشير تعالى إلى أمر الخلق الملازم لقدرته، إذ يقول تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» وأعطاكم نعمته الحريه والاختيار «فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ».

وبناءً على هذا فإنّ الإمتحان الإلهي يجد له معنى عميقاً: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

ثم يوضح مسألة الخلقة أكثر بالإشارة إلى الهدف منها، إذ يقول في الآية اللاحقة: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

فإنّ هذا الخلق الحق الدقيق ينطوي على غايات عظيمة وحكمة بالغة، حيث يقول تعالى في الآية (٢٧) من سورة «ص»: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا».

ثم يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان، ويدعونا بعد آيات الآفاق إلى السير في آفاق الأنفس. يقول تعالى: «وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسِنَ صُورَكُمْ». لقد صور الإنسان بأحسن الصور وأجملها، وجعل له من المواهب الباطنية الفكرية والعقلية ما جعل العالم كله ينطوي فيه، وأخيراً تنتهي الامور إليه تعالى: «وَالِإِلَهِهِ الْمَصِيرُ».

ولأنّ الإنسان خلق لهدف سام عظيم، فعليه أن يكون دائماً تحت إرادة الباريء وضمن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩١

طاعته، فإنه: «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

تجسد هذه الآية علم الله اللامتناهي في ثلاثة مستويات: علمه بكل المخلوقات، وما في السماوات والأرض.

ثم علمه بأعمال الإنسان كافة، سواء أضررها أو أظهرها.

والثالث علمه بنية الإنسان وعقائده الداخلية التي تحكم قلب الإنسان وروحه.

ومما لا شك فيه أنّ ذلك سيهيء للإنسان للحركة نحو الرقي والتكامل.

ثم يلفت القرآن الكريم الإنتباه إلى أهم عامل في تربية الإنسان وتعليمه، وهو الإتعاظ بمصارع القرون وما جرى على الأقسام السالفة حيث يقول: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ألم تمرّوا على مدنهم المهذمة وآثارهم المدمّرة في طريقكم إلى الشام والأماكن الأخرى، فتروا بأم أعينكم نتيجة كفرهم وظلمهم، وكان هذا عذابهم في الدنيا وفي الآخرة لهم عذاب أشد.

ثم تشير الآية اللاحقة إلى سبب هذه العاقبة المؤلمة وهو الغرور والتكبر على الأنبياء:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا». وبهذا المنطق عصوا وكفروا «فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا» واللّه في غنى عن طاعتهم «وَاسْتَعْنَى اللَّهُ» فطاعتهم لأنفسهم وعصيانهم عليها و«اللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ».

ولو كفرت كل الكائنات لما نقص من كبريائه تعالى شيء، كما أنّ طاعتهم لا تزيده شيئاً، نحن الذين نحتاج إلى كل هذه التعليمات والمناهج التربوية.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٢

في أعقاب تلك الآيات التي بحثت مسألة الخلقة والهدف من الخلق، جاءت هذه الآيات لتكتمل البحث الذي يطرح قضية المعاد والقيامة، حيث يقول تعالى: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا».

فإنّ القرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم في أعقاب هذا الكلام بقوله: «قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». لأنّهم في البدايه كانوا عدماً وخلقهم الله، فأعادتهم إلى الوجود مرّة اخرى أيسر ..

ولابدّ أن تكون النتيجة كما قررتها الآية اللاحقة وأنه بعد أن ثبت أنّ المعاد حق: «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَيْرًا».

وبناءً على ذلك يأمرهم البارئ أن يعدوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، ويستعدوا للبعث ويوم الجزاء. والإيمان هنا لا بد أن يرتكز على ثلاثة أصول: (الله) و (الرسول) و (القرآن) التي تتضمن الامور الاخرى جميعاً. وتصف الآية اللاحقة يوم القيامة بقولها: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ».

فإن أحد أسماء يوم القيامة هو «يوم الجمع» الذي ورد كراراً بتعابير مختلفة في القرآن الكريم، منها ما جاء في الآية (٤٩ و ٥٠) من سورة الواقعة: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». ثم يضيف تعالى: «ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ». أي اليوم الذي يعرف فيه «الغابن» بالفوز عن «المغبون» بالغلبة، وهو اليوم الذي ينكشف فيه من هم الناس الذين غبنوا وخسرت تجارتهم.

ثم يتحدث القرآن الكريم عن أحوال المؤمنين في ذلك اليوم (يوم القيامة) أو (يوم التغابن) قائلاً: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». وستنزل النعم الإلهية والبركات بتحقيق الشرطين الأساسيين، الإيمان والعمل الصالح. ثم يقول تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ». وهناك عاملان أساسيان للشقاء يذكرهما القرآن، هما الكفر والتكذيب بالآيات الإلهية، وهما النقيضان الواقعيان للإيمان والعمل الصالح.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٣

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) كل ما يصيبنا بإذنه وعلمه: في أول آية مورد البحث يشير القرآن إلى أصل كلّي عن المصائب والحوادث الأليمة التي تصيب الإنسان، ولعل ذلك يعود إلى أن الكفار كانوا دائماً يتذرعون بوجود المصائب والبلايا لنفي العدالة الإلهية في هذا العالم، أو يكون المراد أن طريق الإيمان والعمل الصالح مقرون دائماً بالمشاكل، ولا يصل الإنسان المؤمن إلى مرتبة مقاومتها، وبذلك يتضح وجه الارتباط بين هذه الآية وما قبلها. يقول تعالى أولاً: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

فما يجرى من حوادث كلها بإذن الله لا تخرج عن إرادته أبداً.

وعندما نقول يقع ذلك بإرادة الله، فإنما نعني «الإرادة التكوينية» لا الإرادة التشريعية.

من مجموع الآيات التي وردت في هذا المجال، فنلاحظ أنها عرضت المصائب على نوعين:

الأول: ما يكون جزءاً من طبيعة تكوين الإنسان كالموت والحوادث الطبيعية الأخرى، وهذه لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عنه، فيقرّر القرآن الكريم بأن ذلك يقع بإذن الله.

الثاني: هو تلك المصائب التي تأتي من تقصير الإنسان ومن عمل يده، وله الدور الأساسي في تحققها، وهذه يقول القرآن: إنها تصيبكم بسبب أعمالكم.

ويشير القرآن المؤمنين بقوله: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ».

فالمؤمن لا تهزمه المصائب ولا ييأس ولا يجزع، والله يهدي الإنسان حينما يكون شكوراً لنعمة، صابراً على بلائه، مستسلماً لقضائه.

وتقول الآية في نهاية المطاف: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وقد يراد من هذا التعبير الإشارة إلى الهدف من وراء هذه الامتحانات والاختبارات الصعبة، وهو إيقاظ الناس وتربيتهم وإعدادهم لمجابهة الغرور والغفلة، وسيؤثر ذلك حتماً ويدفع الإنسان إلى طاعة الله ورسوله، و «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ».

لا يخفى أن إطاعة الرسول فرع عن إطاعة الله تعالى وطاعة الرسول تقع في طول طاعة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٤

الله، فهما في خط واحد، وهذا ما جعله يكرر كلمة إطاعة. وإذا ما حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، فإن طاعة الله تتعلق باصول القوانين والتشريعات الإلهية، بينما طاعة الرسول في تفسيرها وفي المسائل التنفيذية وفي التفاصيل، فعلى هذا تكون الاولى هي الأصل، والثانية فرع.

ثم يضيف قائلاً: «فإن توليتم فإنما على رسولنا البلغ المبين».

نعم، إن الرسول ملزم بتبليغ الرسالة، وسيتولى الباريء جل شأنه محاسبتكم، وهذا نوع من التهديد الخفي الجاد.

ويشير القرآن الكريم في الآية اللاحقة إلى قضية التوحيد في العبودية، التي تشكل المبرر الطبيعي لوجوب الطاعة، إذ يقول تعالى: «الله لا إله إلا هو». وبما أنه كذلك إذا: «على الله فليتوكل المؤمنون».

فليس غير الله يستحق العبودية، لأنه لا مالك ولا قادر ولا عالم غيره، والغنى كله له، وكل ما لدى الآخرين فممنه وإليه، فيجب الرجوع له والاستعانة به على كل شيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصِفُوا فَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقَرُّضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسِينًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

سبب التزول

في تفسير على بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

«إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ». وذلك أن الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله تعلق به ابنه وامرأته وقالوا: نشدك الله أن تذهب عنا وتدعنا فنضج بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذّرهم الله أبناءهم ونساءهم، ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٥

يمضى ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً، فلما جمع الله بينه وبينهم أمره الله أن يوفى ويحسن ويصلحهم فقال: «وإن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

التفسير

أولادكم وأموالكم وسيلة لامتحانكم: حذر القرآن الكريم من مغتبه الوقوع في الحب المفرط للأولاد والأموال، الذي قد يجز إلى عدم الطاعة لله ورسوله حيث قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ».

إن هناك مظاهر عديدة لهذه العداوة، فأحياناً يتعلقون بشبابكم ليحرموكم خير الهجرة، واخرى ينتظرون موتكم ليسيظروا على أموالكم وثروتكم، وما إلى ذلك.

وتظهر هذه العداوة أحياناً بمظهر الصداقة وتقديم الخدمة، وحيناً آخر تظهر بسوء النية وخبث المقصد.

ومن أجل أن لا يؤدي ذلك إلى الخشونة في معاملته الأهل، نجد القرآن يوازن ذلك بقوله في ذيل نفس الآية: «وإن تَعَفَوْا وَتَصِفُوا فَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

فإذا ندموا واعتذروا والتحقوا بكم فلا تعرضوا لهم بعد ذلك، واعفوا عنهم واصفحوا كما تحبون أن يعفو الله عنكم.

«العفو»: بمعنى صرف النظر عن العقوبة؛ و«الصفح»: في مرتبة أعلى، ويراد به ترك أي توبيخ ولوم؛ و«الغفران»: الذي يعنى ستر

الذنب وتناسيه.

وتشير الآية اللاحقة إلى أصل كلي آخر حول الأموال والأولاد، حيث تقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ». فإذا تجاوزتم ذلك كله فإن: «وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

وقد تقدم في الآية السابقة الكلام عن عداء بعض الأزواج والأولاد الذين يدعون الإنسان إلى الانحراف وسلوك طريق الشيطان والمعصية والكفر، وفي هذه الآية نجد الكلام عن أن جميع الأموال والأولاد عبارة عن «فتنة»، وهذين الأمرين (الأموال والأولاد) من أهم وسائل الإمتحان والإبتلاء.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة لأنه ليس أحد إلّا هو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعد من مضلات الفتن فإن الله سبحانه يقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٦

وجاء في الآية اللاحقة: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ».

لقد أمر الله تعالى أولاً بإجتنب الذنوب، ثم بإطاعة الأوامر، وتعد الطاعة في قضية الإنفاق مقدمه لتلك الطاعة، ثم يخبرهم أن خير ذلك يعود إليكم ولأنفسكم.

وللتأكيد على أهمية الإنفاق ختمت الآية ب «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«شح»: بمعنى «البخل المرادف للحرص»، أن هاتين الخصلتين السيئتين من أكبر الموانع أمام فوز الإنسان، وتعلق عليه سبيل الإنفاق وتصده عن الخير.

وفي تفسير على بن إبراهيم عن الفضل بن أبي مرة قال: رأيت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول: «اللهم قنى شح نفسي!» فقلت: جعلت فداك ما سمعتك تدعو بغير هذا الدعاء. قال: «وأى شيء أشد من شح النفس وأن الله يقول: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»».

وللتشجيع على الإنفاق والتحذير من البخل، يقول تعالى: «إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ».

فالله الخالق الواهب للنعم الذي له كل شيء، يستقرض منا ثم يعدنا بأنه سيعوضنا أضعاف ذلك، إنه لطف ما بعده لطف.

«القرض»: في الأصل بمعنى القطع، ولأنها اقترنت بكلمة «حسن» فإنها تعنى فصل المال عن النفس وإنفاقه في الخير.

وعبارة «يَغْفِرْ لَكُمْ» للإشارة إلى أن الإنفاق أحد عوامل غفران الذنوب.

ويقول في آخر الآية: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». إنه مطلع على أعمال عباده ومنها النفقة والبذل في سبيل الله، وإنه غير محتاج لكي يستقرض من عباده وإنما هو إظهار لكمال لطفه ومحبته لعباده.

«نهاية تفسير سورة التغابن»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٧

## ٦٥. سورة الطلاق

محتوى السورة: يمكن أن نقسم مباحث هذه السورة إلى قسمين:

١- الآيات السبع الأولى التي تتحدث عن الطلاق وما يرتبط به من امور.

٢- ويشكل الدافع الحقيقي للقسم الأول من السورة، ويدور الحديث فيه عن عظمة الله ومقام رسوله وثواب الصالحين وجزاء العاصين على شكل مجموعة منسجمة لضمان إجراء هذه المسألة الإجتماعية المهمة، ويذكر أن لهذه السورة أسماء اخرى كسورة «النساء

القصرى» (على وزن صغرى) مقابل سورة «النساء» المعروفة «النساء الكبرى».



فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله». يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَمَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٨

شرائط الطلاق والإنفصال: تقدم أن أهم بحث في هذه السورة هو بحث الطلاق، حيث يشرع القرآن فيها مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وبصفته القائد الكبير للمسلمين، ثم يوضح حكماً عمومياً بصيغته الجمع، حيث يقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ».

إن المراد هو أن تجرى صيغة الطلاق عند نقاء المرأة من الدورة الشهرية، مع عدم المقاربة الزوجية- هذا هو أول شرط للطلاق. ثم يذكر الحكم الثاني وهو حساب العدة، حيث يقول تعالى: «وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ». «أحصوا»: من مادة «الإحصاء» بمعنى الحساب.

والجدير بالملاحظة هنا أن المخاطب في «حساب العدة» هم الرجال وليس النساء، وذلك لوقوع مسؤوليته «النفقة والسكن» على عاتق الرجال، كما أن «حق الرجوع» عن الطلاق يعود إليهم وليس إلى النساء، وإلا فهن ملزمات أيضاً في إحصاء العدة لتعيين تكليفهن. بعد ذلك يدعو الله تعالى الناس جميعاً إلى التقوى واجتناب المعاصي، حيث يقول تعالى:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ». فهو ربكم الحريص على سعادتكم، فلا تعصوا له أمراً ولا تتركوا له طاعة، وخاصة في «حساب العدة» والتدقيق بها. ثم يذكر الحكم «الثالث» الذي يتعلق بالأزواج والحكم «الرابع» الذي يتعلق بالزوجات. يقول تعالى: «لَمَّا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ».

ورغم أن كثيراً من الجهلة لا يلتزمون بهذا الحكم عند الطلاق، حيث يسمح الرجل لنفسه أن يخرج المرأة بمجرد إجراء صيغة الطلاق، كما تسمح المرأة لنفسها بالخروج من بيت زوجها والرجوع إلى أقاربها بمجرد ذلك. ولكن يبقى لهذا الحكم فلسفته المهمة وحكمته البالغة، فهو بالإضافة إلى إسداء الإحترام إلى المرأة، يهيئ أرضية جيدة للانصراف والإعراض عن الطلاق، ويؤدي إلى تقوية الأواصر الزوجية.

إن عدم الالتزام بهذا الحكم الإسلامي الخطير، الذي جاء في نص القرآن الكريم، يسبب كثيراً من حالات الطلاق التي تؤدي إلى الفراق الدائم، بينما كثيراً ما يؤدي الالتزام بهذا الحكم إلى الرجوع والصلح والعودة إلى الزوجية مجدداً. ولكن قد تقتضى بعض الظروف إخراج المرأة وعدم القدرة على الاحتفاظ بها في البيت،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٩

فيجيب الحكم الخامس الاستثنائي، إذ يقول تعالى: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ».

كأن يكون الزوجان غير منسجمين إطلاقاً، ويكون أحدهما مثلاً سىء الأخلاق إلى الدرجة التي لا يمكن معها البقاء معه في بيت واحد، وإلا ستنشأ مشاكل جديدة وعديدة.

بعد بيان هذه الأحكام يؤكد القرآن الكريم- مرة أخرى- بقوله: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ». لأن الغرض من هذه الأحكام هو اسعاد الناس أنفسهم، والتجاوز على هذه الأحكام- سواء من قبل الرجل أو المرأة- يؤدي إلى توجيه ضربة قوية إلى سعادتهم.

ويقول تعالى في لفته لطيفة إلى فلسفة العدة، والحكمة من تشريعها، وعدم السماح للنساء المعتدات بالخروج من مقرهن الأصلي البيت. يقول: «لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا».

ومع مرور الزمن يهدأ طوفان الغضب والعصبيّة الذي قد يسبب الطلاق، غير أن مرور الزمن وحضور الزوجة إلى جانب زوجها خلال

هذه الفترة في البيت، وإظهار ندم ومحبة كل واحد منهما إلى الآخر، وكذلك التفكير ملياً في عواقب هذا العمل القبيح، خاصة مع وجود الأطفال، كل هذه الأمور قد تهيب أروية صالحة للرجوع عن هذا القرار المشؤوم.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «المطلقة تكتحل وتختضب وتطيب وتلبس ما شاءت من الثياب، لأن الله عز وجل يقول: «لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» لعلها تقع في نفسه فيراجعها».

أبغض الحلال إلى الله الطلاق: إن أصل الطلاق من الضروريات التي لا يمكن إلغاؤها بأى وجه من الوجوه، ولكن ينبغي أن لا يصار إليها إلأى الحالات التي يتعذر فيها مواصلة العلاقة الزوجية والحياة المشتركة. ولهذا نجد أن الطلاق قد ذم في روايات إسلامية عديدة، وذكر على أنه (أبغض الحلال إلى الله).

ففي الكافي عن الإمام الصادق قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... وما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة يعني الطلاق».

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من شيء مما أحله الله عز وجل أبغض إليه من الطلاق».

والطلاق هو السب وراء مأس عديدة تحل بالعوائل والرجال والنساء، وأكثر منهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ٢٣٩

بالأطفال والأولاد.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَمَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) فامسكوهن بمعروف أو فارقهن بمعروف: يشير في الآية مورد البحث، وكاستمرار للأبحاث المرتبطة بالطلاق التي وردت في الآيات السابقة، إلى عدة أحكام أخرى، إذ يقول تعالى في البداية: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

والمراد من عبارة «بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» هو تشرف على الانتهاء، فإن الرجوع بعد نهاية العدة غير جائز، إلا أن يكون إبقاؤهن عن طريق صيغة عقد جديدة.

فإن هذه الآية تطرح أهم الأواصر المرتبطة بالحياة الزوجية وأكثرها نضجاً، وهي: إما أن يعيش الرجل مع المرأة بإحسان ومعروف وتوافق، أو أن ينفصلاً بإحسان.

فالانفصال ينبغي أن يتم بعيداً عن الهياج والعريضة، وعلى اصول صحيحة، ويجب أن تحفظ فيه الحقوق واللباقات لكي تكون أروية صالحة ومهيأة للعودة والرجوع إذا ما قررا الرجوع إلى الحياة المشتركة فيما بعد، فإن العودة إذا تمت في جو مظلم مليء بالخلافات والتعديت، فسوف لا تكون عودة موفقة تستطيع الاستمرار مدة طويلة، هذا إضافة إلى أن الانفصال بالطريقة غير اللائقة قد يترك آثاراً، ليس فقط على الزوج والزوجة، وإنما قد تتعدى إلى عشيرة وأقرباء كل منهما، وتقطع طريق المساعدة لهما في المستقبل.

ثم يذكر القرآن الكريم الحكم الثاني حيث يقول: «وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ».

وذلك لكي لا يستطيع أحد أن ينكر في المستقبل ما جرى.

وفي الحكم الثالث يبين القرآن الكريم وظيفة الشهود، حيث يقول: «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ». حذار أن يكون ميلكم وحبكم لأحد الطرفين مانعاً عن إظهار الحق.

إن تعبير «ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ» دليل على أن الشاهدين يجب أن يكونا مسلمين عادلين ومن الذكور.

ولتأكيد الأحكام السابقة جميعاً، تقول الآية الكريمة: «ذَلِكَمَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠١

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وبسبب المشاكل المعيشية والحياة المستقبلية فإن الزوجين قد ينحرفان عن جادة الصواب عند الطلاق والرجوع، وقد تضغط هذه الظروف على الشاهدين فتمنعنهما عن أداء الشهادة الصحيحة والعادلة، لهذا تؤكد الآية في نهايتها قائلة: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا». ويساعده حتماً على إيجاد الحل لمشكلاته.

«وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». ولا يتصور تحصيله.

«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ». وسيكفيه ما يهمله من اموره.

«إِنَّ اللَّهَ بِالْبَلِغِ أَمْرِهِ». لأن الله عز وجل قادر مطلق، وأمره نافذ في كل شيء وتخضع جميع الكائنات لمشيئته وإرادته ...

ولهذا يحذر النساء والرجال والشهود أن لا يخافوا قول الحق، ويحثهم على الاعتماد عليه واللجوء إليه في تيسير الصعوبات، لأنه قد تعهد بأن يبسر للمتقين أمرهم.

إن تلاوة الآيات السابقة تبعث - أكثر من غيرها - الأمل في النفوس، وتمنح القلب صفاءً خاصاً، وتمزق حجب اليأس والقنوط، إذ تعد كل المتقين بحل مشاكلهم وتسهيل امورهم.

في الدر المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»: «من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، وشدائد يوم القيامة».

وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَيَكُنَّ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيَّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَرِّضُوا لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٢

أحكام النساء المطلقات وحقوقهن: من بين الأحكام المستفادة من الآيات السابقة لزوم إحصاء العدة بعد الطلاق، ولما كانت الآية (٢٢٨) من سورة البقرة قد بينت حكم العدة للنساء اللاتي يرين العادة الشهرية وذلك بأن تعد ثلاث دورات شهرية متتالية وبمشاهدة الثالثة تكون المرأة قد أنهت عدتها، فقد ذكرت الآيات محل البحث حكم النسوة اللواتي لا حيض لديهن لأسباب معينة، أو الحوامل لتكامل بحث العدة. يقول تعالى في بداية الأمر:

«وَالِى يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ».

فإذا شككنكم في وجود الحمل فمدة العدة حينئذ ثلاثة أشهر، وكذلك النسوة اللاتي لم يرين الحيض ولم تحدث لهن العادة الشهرية بعد: «وَالِى لَمْ يَحْضُنَّ».

ثم يشير تعالى إلى ثالث مجموعته حيث يضيف قائلاً: «وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».

وبهذا اتضح حكم المجاميع الثلاثة، مجموعتان يجب أن يحصين عدتهن ثلاثة أشهر، والمجموعة الثالثة - أى النساء الحوامل - تنتهى عدتهن بوضع الحمل، سواء كان بعد ساعة من الطلاق، أو بعد ثمانى أشهر مثلاً.

ومعنى عبارة «إِنْ ارْتَبْتُمْ» هو الشك في وجود «الحمل» بمعنى أنه هناك احتمال حمل بعد سنّ اليأس (خمسون سنة للنساء العاديات، وستون سنة للنساء القرشيات) فمن أجل هذا الاحتمال الضعيف الذى نادراً ما يقع، يجب أن تحتاط النساء فتحصي عدتها ثلاثة أشهر.

وأخيراً يؤكد مرة أخرى في نهاية الآية على التقوى، حيث يقول تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا».

يسر اموره ويسهلها فى هذا العالم، وكذلك فى العالم الآخر، بألطفه سواء فى هذه القضية أى قضية الطلاق أو فى قضايا اخرى. وللتأكيد على أحكام الطلاق والعدة فقد أضاف تعالى فى الآية اللاحقة قائلاً: «ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ». «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا».

وتعطى الآية اللاحقة توضيحاً أوسع وأشمل لحقوق المرأة بعد الطلاق، من حيث «السكن» و «النفقة» وامور اخرى. يقول تعالى فى سكن النساء المطلقات: «أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ». «وجد»: على وزن (حكم)، بمعنى القدرة والتمكن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٣

ومن الطبيعى أنه حينما يكون الإسكان على نفقة الزوج وفى عهده، فإن الامور الاخرى من الإنفاق ستقع هى الاخرى على عاتق الزوج، والشاهد على هذا المدعى ذيل الآية الذى يتحدث عن نفقة النساء الحوامل.

ثم يتطرق تعالى لذكر حكم آخر: «وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ».

حذار أن يغزكم البعض ويزرع بينكم البغض والعداوة والنفور، مما يؤدى إلى إخراجكم عن جادة الحق، فتحرمونهن حقوقهن الطبيعىة فى السكن والنفقة.

يقول تعالى فى ثالث حكم حول النساء الحوامل: «وَإِنْ كُنَّ أُولِي حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».

فما دمن حاملات فهن فى حالة عدة يستحقن النفقة والسكن على الزوج.

ويقول تعالى فى الحكم الرابع حول حقوق النساء المرضعات: «فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ».

اجرة تناسب مع مقدار وزمان الإرضاع، وطبقاً لما هو معروف وشائع عرفاً.

ونظراً لأن الأطفال كثيراً ما يصبحون نقطة للنزاع والخلاف بين الزوج والزوجة بعد الطلاق، فقد أوضح القرآن فى الحكم الخامس هذا الأمر بشكل قاطع ولائق حيث قال:

«وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ». وتشاوروا بينكم فى مصير الأولاد ومستقبلهم.

ويحذر القرآن الكريم من معيئة أن يكون الأطفال ضحية الخلاف الواقع بين الزوج والزوجة، مما يترك عليهم آثاراً واضحة على تكوينهم الجسمى والنفسى، إذ يحرمون من حنان الام والأب وشفقتيهما فينبغى أن يتقى الأيوان الله تعالى ويحفظ حقوق الأطفال فإنهم لا يستطيعون الدفاع عنها.

وفى حالة عدم حصول التوافق والتفاهم بين الزوجين حول مصير الأطفال وقضية إرضاعهم، يقول القرآن فى سادس حكم فى هذا المجال: «وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى .

وتبين الآية اللاحقة سابع - وآخر حكم - فى هذا المجال حيث يقول تعالى: «لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا».

إن هذا الأمر يرتبط بالنساء اللاتى يتعهدن رضاعة أطفالهن بعد الفرقة والطلاق، وأثناء العدة التى اشير إليها فى الآيات السابقة.

وبناءً على هذا لا ينبغى للذين ليس لهم القدرة أن يتشددوا ويعقدوا الامور، كما أن الذين لا يملكون القدرة المالىة غير مأمورين إلا بالقدر الذى تسعه قدرتهم المالىة ولا يحق

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٤

للنساء مطالبتهم بأكثر من ذلك. وفى نهاية المطاف يشهرهم الله تعالى بقوله: «سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا». أى: لا تجزعوا ولا تحزنوا ولا- يكن الضيق فى المعيشة سبباً لخروجكم عن الطريق السوى، فإن الدنيا أحوال متقلبة لا- تبقى على حال، فحذار من أن تقطع المشاكل العابرة والمرحلية حبل صبركم.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَا بِهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا

خُسْرًا (٩) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) العاقبة المؤلمة للعاصيين: في كثير من الموارد يأتي القرآن على ذكر الامم السابقة بعد إيراد سلسله من الأحكام والتكاليف، لكي يرى المسلمون بأعينهم عاقبة كل من (الطاعة والعصيان) في تجارب الماضي وتأخذ القضية طابعاً حسيّاً.

ولم يخرج القرآن الكريم في هذه السورة عن هذا النهج، فبعد ذكر وظائف كل من الرجال والنساء عند الطلاق، يحذّر العاصيين والمتمردين من العواقب الوخيمة التي تنتظرهم بقوله في البداية: «وَكَايُنْ مَنْ قَزَيْهَ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّئِبَهَا عَذَابًا نُكْرًا».

والمقصود بـ «القرية» هو محل اجتماع الناس، وهو أعمّ من المدينة والقرية، والمراد هو أهلها. «عتت»: من مادة «عتو» بمعنى التمرد على الطاعة؛ و «نكر»: يعنى العمل الصعب الذي لم يسبق له مثيل.

«حساباً شديداً» إشارة إلى عاقبة الأقسام السابقة المتمردة العاصية في هذه الدنيا. لذلك يضيف تعالى في الآية اللاحقة: «فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا». وأي خسارة أفدح من خسران رأس المال الذي وهبه الله، والخروج من هذه الدنيا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٥

ليس فقط بعدم شراء المتاع- وإنما بالانتهاز إلى العذاب الإلهي والدمار.

ثم يشير تعالى إلى عقابهم الاخرى بقوله: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا». عذاباً مؤلماً، مخيفاً، مذلاً، فاضحاً، دائماً أعدّه لهم منذ الآن في نار جهنم.

والآن «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا».

إنّ الفكر والتفكير من جهة، والإيمان والآيات الإلهية من جهة اخرى، تحذركم وتدعوكم لملاحظة مصائر الأقسام السابقة المتمردة التي عصت أمر ربّها، والاعتبار بذلك والحذر من أن تكونوا مثلهم.

وبعد ذلك يخاطب الله تعالى المؤمنين الذين يتفكرون في آيات الله بقوله: «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا». وهو الشيء الذي يوجب تذكركم.

وأرسل لكم رسولاً يتلو عليكم آيات الله الواضحة: «رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إنّ «الذكر» يعنى القرآن؛ و «رسولاً» تعنى شخص الرسول؛ ومعنى «الإنزال» هنا هو وجود الرسول صلى الله عليه وآله في الامّة وبعثه فيها من قبل الله تعالى.

إنّ الهدف من إرسال الرسول وإنزال هذا الكتاب السماوي، هو لإخراج الناس من الظلمات والكفر والجهل وإرتكاب الذنوب والمآثم والمفاسد الأخلاقية، إلى نور الإيمان والتوحيد والتقوى.

وفي ختام الآية يشير إلى أجر العاملين المخلصين بقوله: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا».

وأشار بالفعل المضارع «يؤمن» و «يعمل» إلى أنّ إيمانهم وعملهم الصالح ليسا محدودين بحدود الزمان والمكان، وإنّما لهما استمرار وديمومة.

والتعبير بـ (خالدين) دليل على كون الجنة خالدة.

والتعبير بـ «رزقاً» يشمل كل النعم الإلهية في الدنيا والآخرة، لأن الصالحين والملتقين لهم حياتهم الكريمة حتى في الحياة الدنيا. **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)**

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٦

الهدف من خلق العالم: هذه الآية هي آخر آية من سورة الطلاق، وفيها إشارة معبرة وصريحة إلى عظمه وقدره البارىء جل شأنه في خلق السماوات والأرض وبيان الهدف النهائي للخلق. يقول تعالى أولاً: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ». «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ». بمعنى أن الأرضين سبع كما السماوات سبع، وهذه هي الآية الوحيدة التي تشير إلى الأرضين السبع في القرآن الكريم. إن مفهوم هذه الآية مع الإلتفات إلى الآية (٦) من سورة الصافات التي تقول: «إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ». هو أن علم البشر ومعرفته مهما اتسعت فهي محدودة ومتعلقة بالسماوات الأولى التي توجد وراءها ثوابت وسيارات ستها هي عبارة عن العوالم الأخرى التي لا تتسع لها معرفتنا المحدودة ولا ينالها إدراكنا الضيق.

أما الأرضين السبع وما حولها، فربما تكون إشارة إلى طبقات الأرض المختلفة، لأن الأرض تتكوّن من طبقات مختلفة كما ثبت اليوم علمياً، أو لعلها تكون إشارة إلى المناطق السبع التي تقسم بها الأرض في السابق وحالياً. ثم يشير تعالى إلى إدارة هذا العالم الكبير وتديره بقوله جل شأنه: «يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ». وأخيراً يشير تعالى إلى الهدف من وراء هذا الخلق العظيم حيث يقول: «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا».

ومن ثم يجب أن يعلم الإنسان أن الله محيط بكل أسرار وجوده، عالم بكل أعماله ما ظهر منها وما بطن، ثم يجب أن يعلم الإنسان أن وعد الله في البعث والمعاد والثواب والعقاب وحتمية انتصار المؤمنين، كل ذلك غير قابل للتخلف والتأخر.

«نهاية تفسير سورة الطلاق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٧

## ٦٦. سورة التحريم

محتوى السورة: تتكوّن هذه السورة من أربعة أقسام رئيسية:

- ١- يرتبط بقصة الرسول صلى الله عليه وآله مع بعض أزواجه حينما حرم بعض أنواع الطعام على نفسه، فنزلت الآيات من (١-٥).
- ٢- خطاب لكل المؤمنين في شؤون التربية ورعاية العائلة ولزوم التوبة من الذنوب، وهو من الآية (٦-٨).
- ٣- وهو الآية التاسعة التي تتضمن خطاباً إلى الرسول صلى الله عليه وآله بضرورة مجاهدة الكفار والمنافقين.
- ٤- يتضمن توضيحاً للأقسام السابقة بذكر نماذج صالحين للنساء، وهما (مريم العذراء، وزوجة فرعون) ونماذج غير صالحين (زوجة نوح، وزوجة لوط) ويحذر نساء النبي صلى الله عليه وآله من هذين النموذجين الأخيرين ويدعوهم إلى الإقتداء بالنموذجين الأولين من الآية (١٠-١٢).

فضيلة تلاوة السورة: في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الطلاق والتحريم في فريضة أعاده الله من أن يكون يوم القيامة ممن يخاف أو يحزن وعوفى من النار وأدخله الله الجنة بتلاوته إياهما ومحافظة عليهما لأنهما للنبي صلى الله عليه وآله». «آله».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٨

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ

هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنَّ تَتُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَاتِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ تَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)

سبب التزول

عن عائشة: إن النبي صلى الله عليه وآله كان يمكث عند زينب ابنة جحش [إحدى أزواج الرسول ويشرب عندها عسلًا فتواصيت أنا وحفصة ان أتينا دخل عليها النبي صلى الله عليه وآله فلتقل إنني لأجد منك ريح المغافير أكلت المغافير [وهو نوع من الصمغ يترشح من بعض أشجار الحجاز يسمى عرفط ويترك رائحة غير طيبة، علمًا أن الرسول كان يصبر على أن تكون رائحته طيبة دائمًا]، فدخل على إحدهما فقالت له ذلك فقال: «لا بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له». [ولهذا أقسم بأنه سوف لن يتناول ذلك العسل مرة أخرى، خوفًا من أن تكون زنابير العسل هذا قد تغذت على شجر صمغ المغافير وحذرنا أن تنقل ذلك إلى أحد لكي لا يشيع بين الناس أن الرسول قد حرم على نفسه طعامًا حلالًا فيقتدون بالرسول ويحرمونه أو ما يشبهه على أنفسهم، أو خوفًا من أن تسمع زينب وينكسر قلبها وتتألم لذلك. لكنها أفشت السرقتين أخيرًا أن القصة كانت مدروسة ومعدة فتألم الرسول صلى الله عليه وآله لذلك كثيرًا، فنزلت عليه الآيات السابقة لتوضح الأمر وتنتهي من أن يتكرر ذلك مرة أخرى في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله].

(١) صحيح البخارى ١٦٧/٦، والتوضيحات التي ذكرت في استفاد من كتب اخرى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٩

التفسير

التوبيخ لبعض زوجات الرسول: مما لا شك فيه أن رجلاً عظيماً كالرسول صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يهمله أمره وحده دون غيره، بل أمره يهّم المجتمع الإسلامى والبشرية جمعاء، ولهذا يكون التعامل مع أيّة دسيسه حتى لو كانت بسيطة تعاملًا حازماً وقاطعاً لا يسمح بتكررها، لكي لا تتعرض حيثية الرسول واعتباره إلى أى نوع من التصدع والخذش والآيات محل البحث تعتبر تحذيراً من ارتكاب مثل هذه الأعمال حفاظاً على اعتبار الرسول صلى الله عليه وآله. البداية كانت خطاباً إلى الرسول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ».

إنّ هذا التحريم ليس تحريماً شرعياً، بل هو - كما يستفاد من الآيات اللاحقة - قسم من قبل الرسول الكريم، ومن المعروف أن القسم على ترك بعض المباحات ليس ذنباً. وبناءً على هذا فإنّ جملة «لِمَ تُحَرِّمُ» لم تأت كتوبيخ وعتاب، وإنما هي نوع من الإشفاق والعطف.

ثم يضيف فى آخر الآية: «وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ». وهذا العفو والرحمة إنّما هو لمن تاب من زوجات الرسول اللاتي رتبّن ذلك العمل وأعددهن.

ويضيف فى الآية اللاحقة أنّ الله قد أوضح طريق التخلص من مثل هذا القسم: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ». أى: أعط كفارة القسم وتحزّر منه.

ثم يضيف: «وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». فقد أنجاكم من مثل هذه الأقسام ووضع لكم طريق التخلص منها طبقاً لعلمه وحكمته. ويستفاد من بعض الروايات أنّ النبي صلى الله عليه وآله اعتق رقبة بعد هذا القسم وحلّل ما كان قد حرّمه بالقسم.

وفى الآية اللاحقة يتعرض لهذا الحادث بشكل أوسع: «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ

بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ».

إنّ هذا السر يتكوّن من أمرين:

الأوّل: تناول العسل عند زوجته (زينب بنت جحش).

والثاني: تحريم العسل على نفسه في المستقبل.

أمّا الزوجة التي أذاعت السر ولم تحافظ عليه فهي «حفصة» حيث أنّها نقلت ذلك

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٠

الحديث الذي سمعت به إلى عائشة.

وعلى كل حال فإنّه: «فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْحَيُّ».

ويتّضح من مجموع هذه الآيات أنّ بعض زوجات الرسول لم يكتفين بإيذاء النبي صلى الله عليه وآله بكلامهن، بل لا يحفظن سرّه، وحفظ السر من أهمّ صفات الزوجة الصالحة الوفيّة لزوجها. ثم يتحدث القرآن مع زوجتي الرسول اللتين كانتا وراء هذا الحادث بقوله: «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا».

وقد اتّفق المفسرون الشيعة والسنة على أنّ تلك الزوجتين هما «حفصة بنت عمر» و«عائشة بنت أبي بكر».

ثم يضيف تعالى: «وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيْلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ».

ويتّضح من هذا كم تركت هذه الحادثة من أثر مؤلم في قلب الرسول صلى الله عليه وآله وروحه العظيمة، ورغم قدرة الرسول المتكاملة نشاهد أنّ الله يدافع عنه إذ يعلن حماية جبرائيل والمؤمنين له.

مما لا شك فيه أنّ صالح المؤمنين، لها معانٍ واسعة تشمل جميع المؤمنين الصالحين الأتقياء الذين كمل إيمانهم، ولكن ما هو المصداق الأكمل والأتم لهذا المصطلح؟

يستفاد من روايات عديدة أنّ المقصود هو الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام.

في آخر آية من هذه الآيات يخاطب الله تعالى جميع نساء النبي بلهجة لا تخلو من التهديد:

«عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا».

يضع القرآن الكريم عدّة صفات للمرأة الصالحة التي يمكنها أن تكون نموذجاً يقتدى به في انتخاب الزوجة اللائقة.

الأوّل «الإسلام» ثم «الإيمان» أي الاعتقاد الذي ينفذ ويطرّس في أعماق قلب الإنسان، ثم حالة «القنوت» أي التواضع وطاعة الزوج، بعد ذلك «التوبة» ويقصد أنّ الزوجة إذا ما ارتكبت ذنباً بحق زوجها فإنّها سرعان ما تتوب وتعتذر عن ذلك، وتأتي بعد ذلك «العبادة» التي جعلها الله سبحانه ليظهر بها قلب الإنسان وروحه ويصنعها من جديد، ثم «إطاعة أوامر الله» والورع عن محارمه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا: تخاطب الآيات السابقة جميع المؤمنين، وترسم لهم المنهج الصالح لتربية الزوجات والأولاد والأسرة بشكل عام، فهي تقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

وذلك بحفظ النفس من الذنوب وعدم الاستسلام للشهوات والأهواء، وحفظ العائلة من الانحراف بالتعليم والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتهيئة الأجواء الصالحة والمحيط الطاهر من كل رذيلة ونقص.



وينبغي مراعاة هذا البرنامج الإلهي منذ اللحظات الأولى لبناء العائلة، أى منذ أول مقدمات الزواج، ثم مع أول لحظة لولادة الأولاد، ويراعى ويلاحظ بدقة حتى النهاية.

ويضيف القرآن قائلاً: «عَلَيْهَا مَلَكَهٗ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

وبهذا لا يبقى طريق للخلاص والهروب، ولن يؤثر البكاء والإلتماس والجزع والفرع.

فى الآية اللاحقة يخاطب الكفار ويصف وضعهم فى ذلك اليوم العصيب بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

قد جاءت هذه الآية بعد الآية السابقة التى خاطب بها المؤمنين، ليكون واضحاً أن عدم الإلتزام بأوامر الله وعدم الإهتمام بالنساء والأولاد والأهل قد تكون نتيجته وعاقبته كعاقبة الكفار يوم القيامة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٢

ومما يجدر ذكره أن عدم قبول الإعتذار ناتج عن كونه نوعاً من التوبة، والتوبة لا تقبل فى غير هذا العالم، سواء كان قبل دخول النار أو بعد دخولها.

ويلقى القرآن الضوء فى الآية اللاحقة على طريق النجاة من النار حيث يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا».

«نصوح»: من مادة «نصح»، بمعنى طلب الخير بإخلاص، ولذلك يقال للعسل الخالص بأنه (ناصح) وبما أن من يريد الخير واقعاً يجب أن يكون عمله توأماً للإلتقان جاءت كلمة «نصح» أحياناً بهذا المعنى، ولذا يقال للبناء المتين بأنه «نصاح» - على وزن كتاب - ويقال للخياط «نصاح»، وكلا المعنيين - أى الخلوص والتمتأة - يجب توفرهما فى التوبة النصوح.

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله! ما التوبة النصوح؟ قال: «أن يتوب التائب ثم لا يرجع فى ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع».

وبهذا التعبير اللطيف يتضح أن التوبة يجب أن تحدث إنقلاباً فى داخل النفس الإنسانية، وتسدد عليها أى طريق للعودة إلى الذنب، وتجعل من الرجوع أمراً مستحيلًا كما يستحيل إرجاع اللبن إلى الضرع والثدى.

ثم يشير القرآن الكريم إلى آثار التوبة الصادقة النصوح بقوله: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ». «وَيُؤَدِّخِكُمْ بَجَنَاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». «يَوْمَ لَمْ يَخْزِ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ». «نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». ويضئ لهم طريقهم فى المحشر ويوصلهم إلى الجنة.

وهنا يتوجهون إلى الله بطلب العفو: «يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَغُفْرٌ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٣

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةً نُوحٍ وَامْرَأةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَهُدًى وَإِسْلَامًا مُّخْلِصًا وَمَرْيَمَ وَآلِهَا الَّتِى هَدَيْنَا سَبِيلَنَا بِمَا نَدَّبْنَا عَلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْنَا لَهُنَّ جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِيَاتٍ فِيهَا مِنْ حَبِيبَاتٍ لَّا يَمَسُّنَّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذُرِّيَّةٍ ظَالِمَةٍ فَعَبَّرْنَا عَنْهُمْ غَيْظًا وَنَجَّيْنَاهُنَّ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ إِنَّ رَبَّنَا لَكَنَّا هَدِينٌ (١٢) وَمَرْيَمَ الَّتِى هَدَيْنَا سَبِيلَنَا بِمَا نَدَّبْنَا عَلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْنَا لَهُنَّ جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِيَاتٍ فِيهَا مِنْ حَبِيبَاتٍ لَّا يَمَسُّنَّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذُرِّيَّةٍ ظَالِمَةٍ فَعَبَّرْنَا عَنْهُمْ غَيْظًا وَنَجَّيْنَاهُنَّ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ إِنَّ رَبَّنَا لَكَنَّا هَدِينٌ (١٣)

بشكل أوسع، نظراً لكل ذلك فقد خاطب القرآن الكريم الرسول بأن يشدد على المنافقين والكافرين ويغلظ عليهم، حيث يقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

الجهاد ضد الكفار قد يكون مسلحاً أو غير مسلح، أما الجهاد ضد المنافقين فإنه بدون شك جهاد غير مسلح، لأن التاريخ لم يحدثنا

أبدأ عن أن الرسول خاض مرّة معركة مسلحة ضد المنافقين.

إن المراد من الجهاد ضد المنافقين إنما هو توبيخهم وإنذارهم وتحذيرهم، بل وتهديدهم وفضحهم، أو تأليف قلوبهم في بعض الأحيان.

وذلك بعد حياة الرسول صلى الله عليه وآله حدث في خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام حيث خاض ضدهم معركة مسلحة. ومن أجل أن يعطى الله تعالى درساً عملياً حياً إلى زوجات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عاد مرّة أخرى يذكر بالعاقبة السيئة لزوجتين غير تقيتين من زوجات نبين عظيمين من أنبياء

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٤

الله، وكذلك يذكر بالعاقبة الحسنه والمصير الرائع لامرأتين مؤمنتين مضحيتين كانتا في بيتين من بيوت الجابرة، حيث يقول أولاً: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمَهُمَا فَلَمْ يُعَيِّنَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ».

وبناءً على هذا فإن القرآن يحذر زوجتي الرسول اللتين اشتركتا في إذاعة سرّه، بأنكما سوف لن تنجوا من العذاب لمجرد كونكما من أزواج النبي كما فعلت زوجتا نوح ولوط فواجهتا العذاب الإلهي.

كما تتضمن الآيات الشريفة تحذيراً لكل المؤمنين بأن القرب من أولياء الله والإنتساب إليهم لا يكفي لمنع نزول عذاب الله ومجازاته. وعلى أزيه حال فإن هاتين المرأتين خانتا نبين عظيمين من أنبياء الله. والخيانة هنا لا تعنى الانحراف عن جادة العفة والنجابه، لأنهما زوجتا نبين ولا يمكن أن تخون زوجة نبي بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «ما بغت امرأة نبي قط». ثم يذكر القرآن الكريم نموذجين مؤمنين صالحين فيقول: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ».

من المعروف أن اسم زوجة فرعون (آسيه) واسم أبوها (مزاحم) وقد آمنت منذ أن رأت معجزة موسى عليه السلام أمام السحرة، واستقر قلبها على الإيمان، لكنّها حاولت أن تكتم إيمانها، غير أن الإيمان برسالة موسى وحبّ الله ليس شيئاً يسهل كتمانها، وبمجرد أن اطلع فرعون على إيمانها نهاها مرّات عديدة وأصرّ عليها أن تتخلّى عن رسالته موسى وربّه، غير أن هذه المرأة الصالحة رفضت الاستسلام إطلاقاً.

وأخيراً أمر فرعون أن تُثبّت يداها ورجلاها بالمسامير، وتترك تحت أشعة الشمس الحارقة، بعد أن توضع فوق صدرها صخرة كبيرة. وفي تلك اللحظات الأخيرة كانت امرأة فرعون بهذا الدعاء إذ قالت: «رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». وقد استجاب لها ربّها وجعلها من أفضل نساء العالم إذ يذكرها في صفّ مريم.

في الدر المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله، ومريم بنت عمران، وآسيه بنت مزاحم امرأة فرعون».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٥

ثم يضرب الله تعالى مثلاً آخر للنساء المؤمنات الصالحات، حيث يقول جلّ من قائل:

«وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا».

فهى امرأة لا زوج لها أنجبت ولداً صار نبياً من أنبياء الله العظام (من اولى العزم).

ويضيف تعالى قائلاً: «وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُهَا وَمِنَ الصَّالِحِينَ».

كانت فى القميّة من حيث الإيمان، إذ آمنت بجميع الكتب السماوية والتعاليم الإلهية، ثم إنّها كانت قد أخضعت قلبها لله، وحملت قلبها على كفّها وهى على أتم الإستعداد لتنفيذ أوامر البارى جلّ شأنه.

«نهاية تفسير سورة التحريم»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٧

## ٦٧. سورة الملك

محتوى السورة: تسمى سورة الملك أيضاً ب (المنجية)، وكذلك تسمى ب (الواقية) أو (المانعة) بلحاظ أنها تحفظ الإنسان الذي يتلوها من العذاب الإلهي أو عذاب القبر، وهي من السور التي لها فضائل عديدة. وقد طرحت في هذه السورة مسائل قرآنية مختلفة، إلّا أنّ الأصل فيها يدور حول ثلاثة محاور هي:

١- أبحاث حول المبدأ، وصفات الله سبحانه، ونظام الخلق العجيب، خصوصاً خلق السماوات والنجوم والأرض وما فيها من كنوز عظيمة... وكذلك ما يتعلق بخلق الطيور والمياه الجارية والحواس كالأذن والعين، بالإضافة إلى وسائل المعرفة الأخرى.

٢- ثم تتحدث الآيات الكريمة عن المعاد وعذاب الآخرة، والحوار الذي يدور بين ملائكة العذاب الإلهي وأهل جهنم، بالإضافة إلى أمور أخرى في هذا الصدد.

٣- وأخيراً تتحدث عن التهديد والإنذار الإلهي بألوان العذاب الدنيوي والأخروي للكفار والظالمين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «سورة الملك هي المانعة، تمنع من عذاب القبر، وهي مكتوبة في التوراة سورة الملك، ومن قرأها في ليلة فقد أكثر وأطاب ولم يكتب من الغافلين».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٨

ومن الطبيعي أن جميع هذه الآثار العظيمة لا تكون إلّا من خلال التدبر في قراءة آيات هذه السورة والعمل بها، والإستلها من محتوياتها في الممارسات الحياتية المختلفة.

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصِيرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) تبدأ آيات هذه السورة بمسألة مالكية وحاكمية الله سبحانه، وخلود ذاته المقدسة، وهي في الواقع مفتاح جميع أبحاث هذه السورة المباركة. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

«تبارك»: من مادة «بركة» في الأصل من «برك» على وزن (ترك) بمعنى (صدر البعير)، واطلقت كذلك على كل نعمة باقية ودائمة. ثم يشير سبحانه في الآية اللاحقة إلى الهدف من خلق الإنسان وموته وحياته، وهي من شؤون مالكيته وحاكميته تعالى فيقول: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

«الموت»: حقيقته الانتقال من عالم إلى عالم آخر، وهذا الأمر وجودي يمكن أن يكون مخلوقاً، لأنّ الخلق ترتبط بالأمور الوجودية، وهذا هو المقصود من الموت في الآية الشريفة، أمّا الموت بمعنى الفناء والعدم فليس مخلوقاً، لذا فإنّه غير مقصود.

أمّا الهدف من الإمتحان فهو تربية الإنسان كي يجسد الاستقامة والتقوى والطهر في الميدان العملي ليكون لائقاً للقرب من الله سبحانه، وقد بحثنا ذلك مفصلاً فيما سبق.

ومن هنا نعلم أنّ العالم ميدان الإمتحان الكبير لجميع البشر، ووسيلة هذا الإمتحان هو الموت والحياء، والهدف منه هو الوصول إلى حسن العمل الذي مفهومه تكامل المعرفة، وإخلاص التية، وإنجاز كل عمل خير.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٩

وبما أنّ الإنسان يتعرّض لأخطاء كثيرة في مرحلة الإمتحان الكبير الذي يمرّ به، فيجدر به ألا يكون متشائماً ويائساً من عون الله سبحانه ومغفرته له، وذلك من خلال العزم على معالجة أخطائه ونزواته النفسية وإصلاحها، حيث يقول تعالى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ».

وبعد إستعراض نظام الموت والحياء الذى تناولته الآيه السابقة، تتناول الآيه اللاحقه النظام الكلى للعالم، وتدعو الإنسان إلى التأمل فى عالم الوجود، والتهيؤ لمخاض الإمتحان الكبير عن طريق التدبر فى آيات هذا الكون العظيم. يقول تعالى: «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا».

ثم يضيف سبحانه: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَؤُوتٍ».

إن الآيه أعلاه تبين لنا أن عالم الوجود- بكل ما يحيطه من العظمه- قائم وفق نظام مستحكم، وقوانين منسجمه، ومقادير محسوبه، ودقه متناهيه، ولو وقع أى خلل فى جزء من هذا العالم الفسيح لأدى إلى دماره وفناؤه.

ثم يضيف تعالى مؤكداً: «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ».

«فطور»: من مادة «فطر» على وزن (سطر) بمعنى الشق من الطول، كما تأتى بمعنى الكسر (كإفطار الصيام) والخلل والإفساد، وقد جاءت بهذا المعنى فى الآيه مورد البحث.

ويقصد بذلك أن الإنسان كلما دقق وتدبر فى عالم الخلق والوجود، فإنه لا يستطيع أن يرى أى خلل أو اضطراب فيه. لذا يضيف سبحانه مؤكداً هذا المعنى فى الآيه اللاحقه حيث يقول: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ».

«كرتين»: من مادة «كر» على وزن (شر) بمعنى التوجه والرجوع إلى شىء معين.

وبناءً على هذا فإن القرآن الكريم يأمر الناس فى هذه الآيات أن يتطلعوا ويتأملوا ويدققوا النظر فى عالم الوجود ثلاث مرات- كحد أدنى- ويتدبروا أسرار الخلق.

وعندما لا يجد أى خلل أو نقص فى هذا النظام العجيب والمخبر لخلق الكون، فإن ذلك سيؤدى إلى معرفه خالق هذا الوجود العظيم ومدى علمه وقدرته اللامتناهيه، مما يؤدى إلى عمق الإيمان به سبحانه والقرب من حضرته المقدسه.

«خاسىء»: من مادة «خسأ» و «خسوء» على وزن (مدح، وخشوع) وإذا كان مورد إستعمالها العين، فيقصد بهما التعب والعجز، أما إذا استعملت للكلب فيقصد منها طرده وإبعاده؛ و «حسير»: من مادة «حسر»، على وزن (قصر) بمعنى جعل الشىء عارياً، وإذا ما

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٠

فقد الإنسان قدرته واستطاعته بسبب التعب، فإنه يكون عارياً من قواه، لذا فإنها جاءت بمعنى التعب والعجز. وبناءً على هذا فإن كلمتى (خاسىء) و (حسير) اللتين وردتا فى الآيه أعلاه، تعطيان معنى واحداً فى التأكيد على عجز العين، وبيان عدم مقدرتها على مشاهدته أى خلل أو نقص فى نظام عالم الوجود. إن لهذه الآيات دلالة واضحة على دقه النظام الكونى، حيث معناها أن وجود النظام فى كل شىء دليل على وجود العلم والقدرة على خلق ذلك الشىء.

ثم تتناول الآيه التاليه صفحه السماء التى يتجسد فيها الجمال والروع، حيث النجوم المتألئه فى جو السماء، المشعه بضوئها الساحر فى جمال ولطافه، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ».

وتؤكد الآيه الكريمة- مزه اخرى- الحقيقه القائلة بأن جميع النجوم التى نشاهدها ما هى إلا جزء من السماء الاولى، والتى هى أقرب إلينا من أى سماء اخرى من السماوات السبع، لذا اطلق عليها اسم (السماء الدنيا) أى السماء القريبه والتى هى أسفل جميع السماوات الاخرى.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُوهُمْ حَزَنَتْهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) كان الحديث فى الآيات السابقه عن معالم العظمه والقدرة الإلهيه ودلائلها فى عالم الوجود، أما فى الآيات مورد البحث فإنه تعالى يتحدث عن الأشخاص الذين يعرضون ويتكبرون عن أدله الحق، ويكابرون فى تحدى البراهين الدامغه، ويسلكون طريق الكفر والشرك، ويقذفون أنفسهم

كالشياطين في اتون العذاب الإلهي. يقول تعالى في البداية:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَيُسَسِّ الْمَصِيرُ».

ثم يستعرض توضيحاً لهذا اللون من العذاب الرهيب فيقول تعالى: «إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢١

إنهم عندما يلقون فيها بمنتهى الدلّ والحقارة تقتزن حالة إلقائهم بصدور صوت مرعب وشديد من جهنم، حيث يسيطر الرعب والخوف على جميع وجودهم.

ثم يضيف تعالى مستعرضاً شدة غضب (جهنم) وشدة هيجانها وإنزعاجها بقوله تعالى:

«تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ» (١).

إنها حرارة هائلة جداً و نار حارقة مزمجرة كما لو وضعنا إناء كبير على نار محتدمة فإنه لا يلبث أن يفور ويغلي بشكل يكاد فيه أن يتلاشى ويدوب.

ثم يستمرّ تعالى بقوله: «كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ».

فلماذا إذن أوقعتم أنفسكم في هذا المصير البائس، وهذا البلاء العظيم والساعة الرهيبة، إن الملائكة (خزنة جهنم) يستغربون ويكادون أن يصعقوا لما أصابكم وما أوقعتم به أنفسكم، في مثل هذه الداهية مع الوعي الذي حباكم به الله سبحانه وما تفضل به عليكم من

نعمة الرسل الإلهيين والقادة من الأنبياء والمرسلين ... فكيف اخترتم لأنفسكم مقراً كهذا؟

«قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ».

وهكذا يأتي الاعتراف: نعم قد جاءنا الرسل إلّا أننا كذّبناهم ولم نسمع نداءهم المحيي للنفوس بل خالفناهم وعارضناهم واعتبرناهم ضالّين، وأخرجناهم من بين صفوفنا، وأبعدناهم عنا ..

ثم يذكر القرآن الدليل الأصلي على شقائهم وتعاستهم ولكن على لسانهم فيقول:

«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ». أجل هكذا يأتي إعترافهم بذنوبهم بعد فوات الأوان: «فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ».

فمن جهة أعطاهم الله تعالى الاذن السامعة والعقل، ومن جهة اخرى بعث إليهم الرسل والأنبياء بالدلائل الواضحة فلو اقترن هذان الأمران فالنتيجة هي ضمان سعادة الإنسان.

«سحق»: على وزن (قفل) وهي في الأصل بمعنى طحن الشيء وجعله ناعماً كما تطلق على الملابس القديمة، إلّا أنها هنا بمعنى البعد عن رحمة الله. وبناءً على هذا فإن مفهوم قوله تعالى «فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ» هو: فبعداً لأصحاب النار عن رحمة الله، ولأن لعنة وغضب الله تعالى يكون توأمًا مع التجسيد الخارجي له، فإن هذه الجملة بمثابة الدليل على أن هذه المجموعة بعيدة عن رحمة الله بشكل كلي.

(١) «تميّز»: بمعنى التلاشي والتشتت وكانت في الأصل (تتميّز).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٢

ملاحظة

المقام السامي للعقل: ليست هذه هي المرّة الاولى التي يشير فيها القرآن الكريم إلى مقام العقل السامي، كما أنها ليست المرّة الاولى التي يصرّح فيها بأن العامل الأساسي لتعاسة الإنسان ودخوله عوالم الخسران والضياع والعاقبة التعيسة، وسقوطه وفي وحل الذنوب وجهنم ... هو عدم الاستفادة من هذه القوة الإلهية العظيمة، وإغفال هذه القدرة الجبارة، وعدم استثمار هذه الجوهرة والنعمة الربانية.

فإن الإسلام قد وضع أساس معرفته الله تعالى وسلوك طريق السعادة والنجاة، ضمن مسؤوليته العقل.

لذا فإن القرآن الكريم يوجه نداءاته بصورة مستمرة وفي كل مكان إلى (اولوا الألباب) و (اولوا الأبصار) وأصحاب الفكر من العلماء والمتعمقين في شؤون المعرفة.

في الكافي عن الإمام علي عليه السلام قال: «هبط جبرئيل على آدم عليه السلام، فقال: يا آدم! إني امرت أن اختيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع إثنين، فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين. فقال آدم: إني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: إنصرفا ودعاه.

فقالا: يا جبرئيل، إنا امرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج».

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) بعد ما بينا- في الأبحاث التي تناولتها الآيات السابقة- مصير الكفار يوم القيامة، فإن القرآن الكريم يتناول في الآيات مورد البحث حالة المؤمنين وجزاءهم العظيم عند الله سبحانه .. يقول في البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

«الغيب» هنا إشارة لمعرفة الله تعالى غير المرئية، أو الإشارة إلى المعاد غير المشاهد، أو يقصد به الأمان معاً.

كما يحتمل أن يكون إشارة إلى الخوف من الله تعالى بسبب ما عمل الإنسان من خطايا وذنوب في السر، ذلك أن الإنسان إذا لم يقترب ذنوباً في السر، فإنه لن يجزأ عليها في العلانية.

ويحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى خلوص النية في الابتعاد عن الذنوب والمعاصي، والالتزام بالأوامر الإلهية، إذ إن العمل السري يكون أبعد عن الرياء.

كما لا مانع من الجمع بين هذه الآراء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٣

ثم يضيف للتأكيد: «وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وآله فيخبره جبرائيل بما قالوا فيقول بعضهم (أسروا قولكم)، حتى لا يسمع إله محمد. فأنزل الله هذه الآية «١» [ف قيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا به فإن الله يعلمه وأسرار الأقوال واعلانها مستويان عنده تعالى في تعلق علمه .

وتأتى الآية اللاحقة دليلاً وتأكيدياً على ما ورد في الآية السابقة، حيث يقول تعالى: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ».

«اللطيف»: مأخوذ في الأصل من (اللفظ) ويعنى كل موضوع دقيق وظريف، وكل حركة سريعة وجسم لطيف، وبناءً على هذا فإن وصف الله تعالى ب (اللطيف) إشارة إلى علمه عز وجل بالأسرار الدقيقة للخلق.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) بعد الأبحاث التي استعرضناها في الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب النار وأصحاب الجنة، والكافرين والمؤمنين، يشير تعالى في الآيات مورد البحث إلى بعض النعم الإلهية، ثم إلى أنواع من عذابه، وذلك للترغيب والتشويق بالجنة لأهل الطاعة، والإنذار بالنار لأهل المعصية. يقول تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا». «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

«ذلول»: بمعنى (مطيع) وهو أجمل تعبير يمكن أن يطلق على الأرض، لأن هذا المركب السريع السير جداً، مع حركته المتعددة، يلاحظ هادئاً إلى حد يبدو وكأنه ساكناً بصورة مطلقة.

يقول بعض العلماء: إن للأرض أربع عشرة حركة مختلفة، ثلاث منها هي:

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٨ / ٦٠، والتفسير الكبير ٣٠ / ٦٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٤

الاولى: حركتها حول نفسها.

والثانية: حول الشمس.

والثالثة: مع مجموعة المنظومة الشمسية فى وسط المجرة.

هذه الحركات التى تكون سرعتها عظيمة، هى من التناسب والانسجام إلى حدّ لم يكن ليصدق أحد أنّ للأرض حركة لولا إقامة البراهين القطعية على حركتها.

ومن جهة اخرى، فإنّ قشرة الأرض ليست قويّة وقاسية إلى حدّ لا يمكن معه العيش فوقها، ولا ضعيفة لئنه لا قرار لها ولا هدوء، وبذلك فإنّها مناسبة لحياء البشر تماماً.

ومن جهة ثالثة فإنّ بعدها عن الشمس ليس هو بالقرب منها إلى حدّ يؤدى بحرارة الشمس إلى أن تحرق كل شىء على وجهها، ولا هو يبعد عنها بحيث يتجمّد كل شىء على سطحها.

وكذلك بالنسبة لضغط الهواء على الكرة الأرضية، فإنّه متناسب بما يؤدى إلى هدوء الإنسان وراحته.

والأمر نفسه يقال فى الجاذبية الأرضية، هى ليست شديدة إلى حدّ تهشم فيها عظام الإنسان، ولا بالضعيفة التى يكون فيها معلّقاً لا يستطيع الاستقرار فى مكان.

والخلاصة: إنّ الأرض (ذلول) ومطبعة ومسخرة لخدمة الإنسان فى جميع المجالات.

كما تحمل فى نفس الوقت إشارة إلى ضرورة السعى فى الأرض فى طلب الرزق والحصول عليه، وإلّا فسيكون الحرمان نصيب القاعدين والمتخلفين عن السعى.

ويجب الالتفات إلى أنّ هذا ليس هو الهدف الأساس لخلقكم، إذ إنّ كل ذلك وسائل فى طريق (نشوركم) وبعثكم وحياتكم الأبدية. وبعد هذا الترغيب والتشويق يستعرض تعالى اسلوب التهديد والإنذار فيقول سبحانه: «أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ».

إنّ البارئ تعالى إذا أمر أو أراد فإنّ هذه الأرض الذلول الهادئة تكون فى حالة هيجان وطغيان كدابه جموح، تبدأ بالزلازل، وتشقق وتدفنكم وبيوتكم ومدنكم تحت ترابها وحجرها، وتبقى راجفة مضطربة مزمجرة بعد أن تقضى عليكم وعلى مساكنكم التى متّعم فيها برهه من الزمن.

ثم يضيف سبحانه: «أَمْ أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا». فلا يلزم حتماً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٥

حدوث زلزلة لتدميركم، بل يكفى أن نأمر عاصفة رملية لتدفنكم تحت رمالها ... وحينئذ ستعلمون حقيقة إنذارى وتهديدى: «فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ».

إنّ الآيات أعلاه تؤكّد أنّ عذاب العاصين والمجرمين لا ينحصر فى يوم القيامة فقط، حيث يستطيع البارئ عزّ وجل أن يقضى على حياتهم فى هذه الدنيا بحركة بسيطة للأرض، أو بحركة الرياح، وإنّ أفضل دليل على هذه الإمكانية الإلهية هو وقوع مثل هذه الامور فى الامم السابقة.

لذا فإنّ الله تعالى يقول فى آخر آية من هذه الآيات: «وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ» (١).

نعم، فلقد عاقبنا قسماً من هؤلاء بالزلازل المدمّرة، وأقواماً آخرين بالصواعق، وبالطوفان، وبالرياح ... وبقيت مدنهم المدمّرة موضع

درس واعتبار لمن كان له قلب واع.

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) انظروا إلى الطير فوقكم: في الآيات الأولى لهذه السورة كان البحث عن قدرة الله سبحانه ومالكه، وعن السماوات السبع والنجوم والكواكب ... ويستمر هذا اللون من الحديث في أول آية- مورد البحث- وذلك بذكر مفردة أخرى من كائنات هذا الوجود، والتي تبدو في ظاهرها صغيرة ويقول تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ».

هذه الأجسام بالرغم من قانون الجاذبية الأرضية تنطلق من الأرض وتحلق ساعات في السماء بكل راحة، وأحياناً أياماً وأسابيع وشهوراً، وتستمر بحركتها السريعة المرنة وبدون أى مشاكل.

فمن يا ترى خلق أجسام هذه الطيور بهذه الصورة التي جعلها تستطيع السير في الهواء بكل سهولة وراحة؟

(١) «نكير»: بمعنى (الإنكار) وجاءت هنا كناية عن العقوبة، لأن إنكار الله تعالى مقابل أفعال هؤلاء القوم جاءت عن طريق مجازاتهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٤

لذا يقول في ختام الآية: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ».

إنه الله تعالى الذى وضع باختيارها الوسائل والقوى والإمكانات المختلفة للطيران، وحافظ عليها فى السماء، هو بذاته المقدسة يحفظ الأرض والكائنات الأخرى، وعندما يشاء غير ذلك فلن يكون عندئذ للطيور قدرة الطيران ولا للأرض حالة الهدوء والاستقرار. ثم يشير تعالى فى الآية اللاحقة إلى أن الكافرين ليس لهم أى عون أو مدد مقابل قدرة الله عز وجل حيث يقول: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ».

إن هؤلاء الذين هم (جند لكم) ليسوا عاجزين عن مساعدتكم ونصرتكم فحسب، بل إذا شاء الرحمن جعلها سبب عذابكم ودماركم. ألا (إن الكافرين إلا فى غرور). فلقد أعمت عقولهم حجب الجهل والغرور، ولا يعتبرون أو يتعظون بما حصل للأقوام البائدة السابقة، ولا لما يصيب الآخرين فى حياتنا المعاصرة.

ثم يضيف سبحانه مؤكداً ما سبق: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ».

فإذا أمر الله السماء أن تمتنع عن المطر، والأرض عن الإنبات، وأمر الآفات الزراعية بالفتك بالمحاصيل ... فمن القادر غيره أن يطعمكم الطعام؟

وإذا ما قطع الله الرزق المعنوى عنكم والوحى السماوى من الوصول إليكم، فمن القادر غيره على إرشادكم وإنقاذكم من براثن الضلال؟ إنها لحقائق واضحة وأدلة دامغة، إلا أن العناد هو الذى يشكل حجاباً للإدراك وللشعور الحق: «بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ».

السائر سويًا على جادة التوحيد: تعقياً لما ورد فى الآيات السابقة بالنسبة إلى أَمَّنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٧

الكافرين والمؤمنين، فإن الله تعالى يصور لنا- فى أول آية من هذه الآيات- حالة هاتين المجموعتين ضمن تصوير رائع ولطيف، حيث يقول تعالى: «أَمَّنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فهنا شبه المعاندين والمغرورين كمن يسير فى جادة متعرجة غير مستوية كثيرة المنعطفات وقد وقع على وجهه، يحرك يديه ورجليه



للإهداء إلى سبيله، لأنه لا يبصر طريقه جيداً، وليس بقادر على السيطرة على نفسه، ولا بمطلع على العقبات والموانع، وليست لديه القوة للسير سريعاً، وبذلك يتعثّر فى سيره ... يمشى قليلاً ثم يتوقّف حائراً.

كما شبّه المؤمنين برجال منتصبى القامات، يسيرون فى جادّة مستوية ومستقيمة ليس فيها تعرّجات واعوجاج، ويمشون فيها بسرعة ووضوح وقدرة ووعى وعلم وراحة تامّة.

إنّه -حقاً- لتشبيه لطيف فذّ، حيث إنّ آثار هذين السبيلين واضحة تماماً، وإنعكاساتها جليّة فى حياة هذين الفريقين، وذلك ما نلاحظه بأمّ أعيننا.

ثم يوجه الله تعالى الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله فى الآية اللاحقة فيقول: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

إنّ الله تعالى جعل لكم وسيلة للمشاهدة والإبصار (العين) وكذلك وسيلة وقناة للإطلاع على أفكار الآخرين ومعرفة وجهات نظرهم من خلال الاستماع (الاذن) ثم وسيلة أخرى للتفكير والتدبر فى العلوم والمحسوسات واللامحسوسات (القلب).

وخلصه الأمر إنّ الله تعالى قد وضع جميع الوسائل اللازمة لكم لتعرفوا على العلوم العقلية والنقلية، إلّا أنّ القليل من الأشخاص من يدرك هذه النعم العظيمة ويشكر الله المنعم، حيث إنّ شكر النعمة الحقيقية يتجسّد بتوجيه النعمة نحو الهدف الذى خلقت من أجله،

ترى من هو المستفيد من هذه الحواس (العين والاذن والعقل) بصورة صحيحة فى هذا الطريق؟

ثم يخاطب الرسول مرّة أخرى حيث يقول تعالى: «قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

إنّ الآيات أعلاه يؤكّد على أنّ السير يجب أن يكون فى الطريق المستقيم، والصرط الواضح المتمثّل بالإسلام والإيمان، وبذل الجهد للاستفادة من جميع وسائل المعرفة بهذا الإتجاه، والتحرّك نحو الحياة الخالدة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٨

ثم يستعرض سبحانه قول المشركين فى هذا المجال والردّ عليهم، فيقول تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ويجيهم الله سبحانه على تساؤلهم هذا بقوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

ولابدّ أن يكون الجواب بهذه الصورة، حيث إنّ تحديد تاريخ يوم القيامة إن كان بعيداً فإنّ الناس سيغرقون بالغفلة، وإن كان قريباً فإنّهم سيعيشون حالة الهلع والاضطراب، وعلى كل حال فإنّ الأهداف التربوية تتعطل فى الحالتين.

ويضيف فى آخر آية من هذه الآيات بأنّ الكافرين حينما يرون العذاب والوعد الإلهي من قريب تسودّ وجوههم: «فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا». فسيماهم طافحة بآثار الحزن والندم: «وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ».

«تدعون»: من مادة «دعاء» يعنى أنكم كنتم تدعون وتطلبون دائماً أن يجيء يوم القيامة، وها هو قد حان موعده، ولا سبيل للفرار منه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَضْرِبَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) إنّ الآيات أعلاه، التى هى آخر

آيات سورة الملك، تبدأ جميعها بكلمة (قل) مخاطبة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث أنّها تمثّل استمراراً للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة حول الكفار، وتعكس هذه الآيات الكريمة جوانب أخرى من البحث.

يخاطب البارئ عزّ وجلّ - فى البداية- الأشخاص الذين يرتقبون وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، ويتصوّرون أنّ بوفاته سوف يمحي دين الإسلام وينتهى كل شىء، وهذا الشعور كثيراً ما ينتاب الأعداء المخذولين إزاء القيادات القويّة والمؤثّرة. يقول

تعالى مخاطباً إياهم:

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ».

ورد فى بعض الروايات أنّ كفّار مكة، كانوا دائماً يسبّون الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين، وكانوا يتمنّون موته ظلماً منهم أنّ

رحيله سينهى دعوته كذلك، لذا جاءت الآية أعلاه رداً عليهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٩

واستمراراً لهذا البحث، يضيف تعالى: «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وهذا يعنى أننا إذا آمننا بالله، واتخذناه ولياً ووكيلاً لنا، فإن ذلك دليل واضح على أنه الربّ الرحمن، شملت رحمته الواسعة كل شيء،

وغمر فيض لطفه ونعمه الجميع (المؤمن والكافر)، أما الذين تعبدونهم من دون الله فماذا عملوا؟ وماذا صنعوا؟

ويقول تعالى في آخر آية، عارضاً لمصدق من رحمته الواسعة، والتي غفل عنها الكثير من الناس: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَضَيَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ».

جاء في الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد من الآية الأخيرة من هذه السورة هو ظهور الإمام المهدي عليه السلام وعدله الذي سيعمّ العالم.

ومما يجدر الإلتباه له أن هذه الروايات هي من باب (التطبيق).

وبعبارة أخرى: فإن ظاهر الآية مرتبط بالماء الجاري، والذي هو علمه حياة الموجودات الحيّة، أما باطن الآية فإنه يرتبط بوجود الإمام

عليه السلام وعلمه وعدالته التي تشمل العالم، والتي هي الأخرى تكون سبباً لحياة وسعادة المجتمع الإنساني.

«نهاية تفسير سورة الملك»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣١

محتوى السورة: إن نسق السورة ومحتوى آياتها ينسجم تماماً مع السور المكية، لأن المحور الأساسي فيها يدور حول مسألة نبوة رسول

الإسلام صلى الله عليه وآله ومواجهته الأعداء الذين كانوا يعتنونه بالجنون وغيره، والتأكيد على الصبر والاستقامة وتحدي الصعاب،

وإنذار وتهديد المخالفين لهذه الدعوة المباركة بالعذاب الأليم.

وبشكل عام يمكن تلخيص مباحث هذه السورة بسبعة أقسام:

١- في البداية تستعرض السورة بعض الصفات الخاصة لرسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله وخصوصاً أخلاقه البارزة الرفيعة، ولتأكيد هذا الأمر يقسم الباري عز وجل في هذا الصدد.

٢- ثم تتعرض بعض الآيات الواردة في هذه السورة إلى قسم من الصفات السيئة والأخلاق الذميمة لأعدائه.

٣- كما يبين قسم آخر من الآيات الشريفة قصة (أصحاب الجنة) والتي هي بمثابة توجيه إنذار وتهديد للسالكين طريق العناد من المشركين.

٤- ثم ذكرت عدّة أمور حول القيامة والعذاب الأليم للكفار في ذلك اليوم.

٥- كما جاء في آيات أخرى جملة إنذارات وتهديدات للمشركين.

٦- ونلاحظ في آيات أخرى من السورة الأمر الإلهي للرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله بأن يواجه الأعداء بصبر واستقامة وقوة وصلابة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٢

٧- وأخيراً تختتم السورة موضوعاتها بحديث حول عظمة القرآن الكريم، وطبيعة المؤامرات التي كان يحوكمها الأعداء ضد الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

إنتخاب (القلم) اسماً لهذه السورة المباركة، كان بلحاظ ما ورد في أول آية منها.

ويستفاد من بعض الروايات التي وردت في فضيلة هذه السورة أن اسمها «ن والقلم».

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال النبي صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ سورة ن والقلم أعطاه الله ثواب الذين حسن

أخلاقهم».

كما عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة ن والقلم في فريضة أو نافلة، آمنه الله أن يصيبه في حياته فقر أبداً، وأعاده إذا مات من ضمة القبر، إن شاء الله».

وهذا الأجر والجزاء يتناسب تناسباً خاصاً مع محتوى السورة، والهدف من التأكيد على هذا النوع من الأجر من تلاوة السورة هو أن تكون التلاوة مقرونة بالوعى والمعرفة ومن ثم العمل بمحتواها.

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) هذه السورة هي السورة الوحيدة التي تبدأ بحرف (ن) حيث يقول تعالى: «ن». ثم يقسم تعالى بموضوعين يعتبران من أهم المسائل في حياة الإنسان، فيقول تعالى: «وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ».

وقد يتصور أن القسم هنا يتعلق ظاهراً بمواضيع صغيرة، أي قطعة من القصب - أو شيء يشبه ذلك - وبقليل من مادة سوداء، ثم السطور التي تكتب وتخط على صفحة صغيرة من الورق.

إلا أننا حينما نتأمل قليلاً فيه نجد مصدرراً لجميع الحضارات الإنسانية في العالم أجمع، إن تطور وتكامل العلوم والوعى والأفكار وتطور المدارس الدينية والفكرية، وبلورة الكثير من المفاهيم الحياتية... كان بفضل ما كتب من العلوم والمعارف الإنسانية في الحقول المختلفة،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٣

مما كان له الأثر الكبير في يقظة الامم وهداية الإنسان... وكان ذلك بواسطة (القلم).

لقد قسّمت حياة الإنسان إلى عشرين: (عصر التاريخ) و (عصر ما قبل التاريخ) وعصر تاريخ البشر يبدأ منذ أن اخترع الإنسان الخط واستطاع أن يدون قصة حياته وأحداثها على الصفحات.

وتتضح عظمه هذا القسم بصورة أكثر عندما نلاحظ أن هذه الآيات المباركة حينما نزلت لم يكن هنالك كتاب ولا أصحاب قلم، وإذا كان هنالك أشخاص يعرفون القراءة والكتابة، فإن عدددهم في كل مكة - التي تمثل المركز العبادي والسياسي والاقتصادي لأرض الحجاز - لم يتجاوز ال (٢٠) شخصاً، ولذا فإن القسم ب (القلم) في مثل ذلك المحيط له عظمة خاصة.

ثم يتطرق سبحانه لذكر الأمر الذي أقسم من أجله فيقول تعالى: «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ».

إن الذين يتهمون صاحب هذا العقل الجبار بالجنون هم المجانين في الحقيقة، إن إبتعادهم عن دليل الهداية وموجه البشرية لهو الحمق بعينه.

ثم يضيف تعالى بعد ذلك: «وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ». أي غير منقطع.

«ممنون»: من مادة (من) بمعنى (القطع) ويعنى الأجر والجزاء المستمر الذي لا ينقطع أبداً.

وتعرض الآية اللاحقة وصفاً آخر لرسول الله صلى الله عليه وآله وذلك بقوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ».

تلك الأخلاق التي لا نظير لها، ويحار العقل في سموها وعظمتها من صفاء لا يوصف، ولطف منقطع النظير، وصبر واستقامة وتحمل لا مثيل لها، وتجسيد لمبادئ الخير حيث يبدأ بنفسه أولاً فيما يدعو إليه، ثم يطلب من الناس العمل بما دعا إليه والالتزام به.

عندما دعوت - يا رسول الله - الناس لعبادة الله، فقد كنت أعبد الناس جميعاً، وإذ نهيتهم عن سوء أو منكر فإنك الممتنع عنه قبل الجميع، تقابل الأذى بالنصح، والإساءة بالصفح، والتضرع إلى الله بهدايتهم، وهم يؤلمون بدنك الطاهر رميةً بالحجارة، واستهزاءً بالرسالة، وتقابل وضعهم للرماد الحارّ على رأسك الشريف بدعائك لهم بالرشد.

في تفسير مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ المؤمنَ ليدرك بحسن خلقه درجةً قائم الليل وصائم النهار».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٤

«خُلِقَ»: من مادة «الخلق» بمعنى الصفات التي لا تنفك عن الإنسان، وهي ملازمة له، كخلق الإنسان.

فإنَّ تأصل هذا (الخُلُق العظيم) في شخصيَّة الرسول صلى الله عليه وآله هو دليل واضح على رجاحة العقل وجزارة العلم له ونفى جميع التهم التي تنسب من قبل الأعداء إليه.

ثم يضيف سبحانه بقوله: «فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ». «بِأَيْتِكُمُ الْمُفْتُونَ». أى: من منكم هو المجنون.

«مفتون»: اسم مفعول من (الفتنة) بمعنى الإبتلاء، وورد هنا بقصد الإبتلاء بالجنون.

كما أنَّ مواقفك وتحركاتك المستقبلية المقرونة بالتقدم السريع لانتشار الإسلام، ستؤكد بصورة أعمق أنك منبع العلم والعقل الكبيرين، وأنَّ هؤلاء الأقرام الخفافيش هم المجانين، لأنهم تصدوا لمحاربة نور هذه الشمس العظيمة المتمثلة بالحق الإلهي والرسالة المحمديَّة.

ومن الطبيعي فإنَّ هذه الحقائق ستتوضح أمامهم يوم القيامة بصورة دامغة، ويخسر هنالك المبطلون، حيث تتبين الأمور وتظهر الحقيقة. وللتأكيد على المفهوم المتقدم يقول سبحانه مرة أخرى: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

وبلحاظ معرفة الباري عزَّ وجل بسبيل الحق وبمن سلكه ومن جانبه وتخلَّف أو انحرف عنه، فإنه يطمئن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بأنه والمؤمنون في طريق الهداية والرشد، أما أعداؤه فهم في متاه الضلالة والغواية.

فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَسَمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) اجْتَنَبَ أصحاب هذه الصفات: بعد أن تعرَّضت الآيات السابقة إلى الأخلاق السامية لرسول الله صلى الله عليه وآله، تلتها الآيات أعلاه مستعرضة أخلاق أعدائه ليتضح لنا الفرق بين الأخلاقيتين، وذلك من خلال المقارنة بينهما. يقول تعالى في البداية: «فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٥

ثم يشير تعالى إلى جهد هؤلاء المتواصل في إقناع الرسول صلى الله عليه وآله بمصالحتهم والإعراض عن آلهتهم وضلالهم فيقول: «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ».

«يدهنون»: من مادة «مداهنه» مأخوذة في الأصل من (الدهن) وتستعمل الكلمة في مثل هذه الموارد بمعنى إظهار اللين والمرونة، وفي الغالب يستعمل هذا التعبير في مجال إظهار اللين والميل المذموم كما في حالة النفاق.

ثم ينهى سبحانه مرة أخرى عن أتباعهم وطاعتهم، حيث يسرد الصفات الذميمة لهم، والتي كل واحدة منها يمكن أن تكون وحدها سبباً للإبتعاد عنهم والصدود عن الإستجابة لهم. يقول تعالى: «وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ».

تقال كلمة «حلَّاف» على الشخص الكثير الحلف، والذي يحلف على كل صغيرة وكبيرة.

«مهين»: من «المهانة» بمعنى الحقارة والضعف.

ثم يضيف عزَّ وجل: «هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ».

«همَّاز»: من مادة «همز»، (على وزن رمز) ويعنى: الغيبة وإستقصاء عيوب الآخرين.

«مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ» تطلق على الشخص الذي يمشى بين الناس بإيجاد الإفساد والفرقة، وإيجاد الخصومة والعداء فيما بينهم.

ثم يسرد تعالى أوصافاً أخرى لهم، حيث يقول في خامس وسادس وسابع صفة ذميمة لأخلاقهم: «مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ».

ومن صفاتهم أيضاً أنَّهم ليسوا فقط مجانين لعمل الخير، ولا يسعون في سبيله، ولا يساهمون في إشاعته والعون عليه ... بل إنهم يقفون

سداً أمام أى ممارسة تدعو إليه، ويمنعون كل جهد فى الخير للآخرين، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم متجاوزون لكل السنن والحقوق التى منحها الله عزّ وجل لكل إنسان ممّا تطف به من خيرات وبركات عليه.

وفوق هذا فهم مدنسون بالذنوب، محتطبون للآثام، بحيث أصبح الذنب والإثم جزءاً من شخصياتهم وطباعهم التى هى مناعة للخير، معتديّة وآثمة.

وأخيراً يشير إلى ثامن وتاسع صفة لهم حيث يقول تعالى: «عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ».

«عتل»: تطلق على الشخص الذى يأكل كثيراً ويحاول أن يستحوذ على كل شىء، ويمنع الآخرين منه.

وفسر البعض الآخر كلمة (عتل) بمعنى الإنسان السىء الطبع والخلق، الذى تتمثل فيه الخسونة والحقد، أو الإنسان سىء الخلق عديم الحياء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٦

«زним»: تطلق على الشخص المجهول النسب، والذى ينتسب لقوم لا نسبة له معهم.

والتعبير بشكل عام إشارة إلى أنّ هاتين الصفتين هما أشدّ قبحاً وضعه من الصفات السابقة.

وبهذه الصورة يوضح لنا أنّ الأشخاص الذين وقفوا بوجه الإسلام والقرآن، وعارضوا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله كانوا من

أخسّ الناس وأكثرهم كذباً وإنحطاطاً وخسّة، فهم يتبعون عيوب الآخرين، نمامون، معتدون، آثمون، ليس لهم أصل ونسب.

ويحذر سبحانه فى الآية اللاحقة من الإستجابة لهم والتعامل معهم بسبب كثرة أموالهم وأولادهم، بقوله: «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ».

وممّا لا شك فيه أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن ليستسلم لهؤلاء أبداً، وهذه الآيات ما هى إلّا تأكيد على هذا المعنى، كى

يكون خطه الرسالى وطريقته العمليّة واضحة للجميع، ولن تنفع جميع الاغراءات الماديّة فى عدوله عن مهمته الرساليّة.

وتوضح الآية اللاحقة ردود فعل هؤلاء الأشخاص ذوى الصفات الأخلاقيّة المريضة إزاء الآيات الإلهيّة، حيث يقول تعالى: «إِذَا تُلِيَتْ

عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا سَاطِرُ أَوَّلِينَ».

وبهذا المنطق السقيم والحجج الواهيّة يعرض عن آيات الله عزّ وجل.

وتوضح لنا آخر آية- من هذه الآيات- مفردة من مفردات الجزاء الذى سيلاقيه أمثال هؤلاء فيضيف سبحانه: «سَنَسِئُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ».

وهذا التعبير كاشف ومعبّر عن سوء النهاية المدلّة لهؤلاء، إذ جاء التعبير أوّلاً بالخرطوم الذى يستعمل للفيل وللخنزير فقط، وهو دلالة

واضحة فى تحقيرهم.

وثانياً: أنّ الأنف فى لغة العرب غالباً ما يستعمل كناية عن العزّة والعظمة، كما يقال للفارس حين إذلاله: مرّغوا أنفه بالتراب، كناية عن

زوال عزّته.

وثالثاً: أنّ وضع العلامة تكون عادة للحيوانات فقط، بل حتى بالنسبة إلى الحيوانات فإنها لا تعلم فى وجوها- خصوصاً انوفها- أضف

إلى ذلك أنّ الإسلام قد نهى عن مثل هذا العمل.

ومع كل ما تقدّم تأتى الآية الكريمة ببيان معبّر واف وواضح أنّ الله تعالى سيدلّ هؤلاء الطغاة الذين امتلأوا عجباً بذواتهم، المتمادين

فى عنادهم وإصرارهم على الباطل، وتجاوزهم على الرسول والرسالة ... سيدلّهم بتلك الصورة التى تحدثت عنها الآية ويفضحهم على

رؤوس الأشهاد ليكونوا موضع عبرة للجميع.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٧

إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَ لَا يَسْتَنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ

(١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ ائْتُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٢) فَأَنْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ

لَا يَدُخَلْنَهَا يُومٌ عَلَيْكُمْ مِشْكِينٌ (٢٤) وَ غَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) قصة (أصحاب الجنة): فى الآيات أعلاه يستعرض لنا القرآن

الكريم- بما يتناسب مع البحث الذي ورد في الآيات السابقة- قصة أصحاب الجنة ... فالآيات الكريمة تذكر لنا قصة مجموعة من الأغنياء كانت لهم جنة (بستان ثمر) إلا أنهم فقدوها فجأة. يقول تعالى: «إِنَّا بَلَوْنَا هُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ».

وموضوع القصة هو: أن شيخاً مؤمناً طاعناً في السن كان له بستان عامر، يأخذ من ثمره كفايته ويوزع ما فضل من ثمرته للفقراء والمعوزين، وقد ورثه أولاده بعد وفاته، وقالوا:

نحن أحق بحصاد ثمار هذا البستان، لأن لنا عيالاً وأولاداً كثيرين، ولا طاقة لنا بإتباع نفس الاسلوب الذي كان أبونا عليه ... ولهذا فقد صمّموا على أن يستأثروا بثمار البستان جميعاً، ويحرموا المحتاجين من أى عطاء منها، فكانت عاقبتهم كما تحدّثنا الآيات الكريمة عنه ..

يقول تعالى: «إِذِ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُوهَا مُصْبِحِينَ».

«يصرمن» من مادة «صرم» بمعنى حصد الفاكهة، وبمعنى القطع المطلق.

«وَلَا يَسْتَتُونَ». أى: لا يتركون منها شيئاً للمحتاجين.

إن تصميمهم هذا ناشىء عن البخل وضعف الإيمان، لأن الإنسان مهما اشتدت حاجته، فإنه يستطيع أن يترك للفقراء شيئاً مما أعطاه الله.

ثم يضيف تعالى استمراراً لهذا الحديث: «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ».

لقد سلط الله عليها ناراً حارقة، وصاعقه مهلكة، بحيث أن جنتهم صارت متفحمة سوداء: «فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ». ولم يبق منها شىء سوى الرماد.

«طائف»: من مادة «طواف» وهى فى الأصل بمعنى الشخص الذى يدور حول شىء معين، كما تستعمل أحياناً كناية عن البلاء والمصيبة التى تحلّ فى الليل، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٨

«صريم»: من مادة «صرم» بمعنى (القطع) وهنا بمعنى (الليل المظلم) أو (الشجر بدون الثمار) أو (الرماد الأسود). والمقصود بذلك هو: البلاء السماوى الذى تمثّل بصاعقه عظيمة- فيما يبدو- أحالت البستان إلى فحم ورماد أسود.

فإن أصحاب البستان بقوا على تصوّرهم لأشجار جنتهم المملوءة بالثمر، جاهزة للقطف: «فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ».

وقالوا: «أَنْ أَعْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ».

«أعدوا»: من مادة «غدوة» بمعنى بداية اليوم.

وعلى ضوء المقدمات السابقة: «فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ». «أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ».

ويرتقب الفقراء يوم الحصاد بفارغ الصبر فى مثل هذه الأيام، لأنهم تعودوا فى كل سنة أن ينالهم شىء من الفاكهة كما كان يفعل ذلك الشيخ المؤمن، إلا أن تصميم الأبناء البخلاء على حرمان الفقراء من العطاء، والسريّة التى غلفوا بها تحرّكاتهم، لم تدع أحداً يتوقع

أن وقت الحصاد قد حان ... حيث يطّلع الفقراء على الأمر بعد انتهائه، وبهذا تكون النتيجة:

«وَعَدُوا عَلَى حَزْدٍ قَادِرِينَ».

«حرد»: على وزن «فرد» بمعنى الممانعة التى تكون توأمًا مع الشدة والغضب.

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبُحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) الآيات الشريفة- أعلاه- استمرار لقصة أصحاب الجنة. يقول القرآن

الكريم: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ».

ثم أضافوا: «يَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ». أى أردنا أن نحرم الفقراء والمحتاجين من العطاء إلما أننا حرمانا أكثر من الجميع، حرمانا من الرزق المادى، ومن البركات المعنوية التى تحصل عن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٩

طريق الإنفاق فى سبيل الله للفقراء والمحتاجين.

«قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ».

ويستفاد مما تقدم أن أحدهم كان شخصاً مؤمناً ينهاهم عن البخل والحرص، إلما أنهم كانوا لا يسمعون كلامه.

وتستيقظ ضمائرهم فى تلك اللحظة ويعترفون بخطئهم وذنوبهم و «قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

إلما أن المسألة لم تنته إلى هذا الحد، حيث يقول تعالى: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ».

والملاحظ من منطوق الآية أن كل واحد منهم فى الوقت الذى يعترف بذنبه، فإنه يلقى بأصل الذنب على عاتق الآخر، ويوبّخه بشدة.

نعم، هكذا تكون عاقبة كل الظالمين عندما يصبحون فى قبضة العذاب الإلهى، ومع الإقرار بالذنب فإن كلاً منهم يحاول التصل مما

لحق بهم، ويسعى جاهداً لتحويل مسؤولية البؤس والدمار على الآخرين.

ثم يضيف تعالى: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ».

لقد اعترفوا فى المرحلة السابقة بالظلم، وهنا اعترفوا بالطغيان، والطغيان مرحلة أعلى من الظلم.

وأخيراً- بعد عودة الوعى إلى ضمائرهم وشعورهم، بل وإعترافهم بالذنب والإنباء إلى الله- توجهوا إلى البارى عز وجل داعين،

وقالوا: «عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ». فقد توجهنا إليه ونريد منه انقاذنا مما تورطنا فيه ..

ويقول تعالى فى آخر آية من هذه الآيات، بلحاظ الإستفادة من هذا الدرس والإعتبار به: «كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْأَخْرَجُ أَكْبَرُ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ».

وهكذا توجه الآية خطابها إلى كل المغرورين، الذين سحرهم المال وأبترتهم الثروة والإمكانات المادية، وغلب عليهم الحرص

والاستئثار بكل شىء دون المحتاجين ... بأنه لن يكون لكم مصير أفضل من ذلك.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٠

مختصر الامثل ج ٥، ص ٢٨٠

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ

(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَقَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلِّمُوا لَهُمْ فِي ذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠)

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) إِنْ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْكَشْفِ عَنِ الْحَقَائِقِ، واستخلاص المواقف،

تكون من خلال عملية مقارنة يعرضها الله سبحانه فى الآيات الكريمة، وهذا الاسلوب مؤثر جداً من الناحية التربوية ... فمثلاً تستعرض

الآيات الشريفة حياة الصالحين وخصائصهم وميزاتهم ومعاييرهم ... ثم كذلك بالنسبة إلى الطالحين والظالمين، ويجعل كلاً منهما فى

ميزان، ويسلط الأضواء عليهما من خلال عملية مقارنة، للوصول إلى الحقيقة.

وتماشياً مع هذا المنهج وبعد استعراض النهاية المؤلمة ل (أصحاب الجنة) فى الآيات السابقة، يستعرض البارى عز وجل حالة المتقين

فيقول: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

«جَنَّاتٍ»: من «الجنة» حيث كل نعمة متصورة على أفضل صورة لها تكون هناك، بالإضافة إلى النعم التى لم تخطر على البال.

ولأنّ قسماً من المشركين والمترفين كانوا يدعون علو المقام وسموه فى يوم القيامة كما هو عليه فى الدنيا، لذا فإنّ الله يوبّخهم على

هذا الإدعاء بشدة فى الآية اللاحقة، بل يحاكمهم فيقول: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

ثم يضيف تعالى أنه لو لم يحكم العقل بما تدعون، فهل لديكم دليل نقلي ورد في كتبكم يؤيد ما تزعمون: «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْتَرُونَ». أي: ما اخترتم من الرأي... إن توقعكم في أن تكون العناصر المجرمة من أمثالكم مع صفوف المسلمين وعلى مستواهم...، حديث هراء لا يدعمه العقل، ولم يأت في كتاب يعتد به ولا هو موضع اعتبار.

ثم تضيف الآية اللاحقة أنه لو لم يكن لديكم دليل من العقل أو النقل، فهل أخذتم عهداً من الله أنه سيكون معكم إلى الأبد: «أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَهَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤١

وتساءل الآية الكريمة عن هؤلاء مستفسرة عن استطيع الإدعاء منهم بأنه قد أخذ عهداً من الله سبحانه في الاستجابة لميوله وأهوائه. ويضيف سبحانه -استمراراً لهذه التساؤلات- كي يسد عليهم جميع الطرق ومن كل الجهات، فيقول: «سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ». فمن منهم يضمن أن المسلمين والمجرمين سواء، أو يضمن أن الله تعالى سيؤتيه كل ما يريد؟! وفي آخر مرحلة من هذا الاستجواب العجيب يقول تعالى: أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين».

فالآية تطلب من المشركين تقديم الدليل الذي يثبت أن هذه الأصنام المنحوتة من الحجارة، والتي لا قيمة لها ولا شعور، تكون شريكة الله تعالى وتشفع لهم عنده.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَبِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) العجز عن السجود: تعقياً للآيات السابقة التي استجوب الله تعالى فيها المشركين والمجرمين استجواباً موضوعياً، تكشف لنا هذه الآيات جانباً من المصير البائس في يوم القيامة لهذه التلة المغرمة في حبها لذاتها، والمكثرة للدعاءات، هذا المصير المقترن بالحقارة والذلة والهوان. يقول تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَبِيعُونَ».

وفي ذلك اليوم العظيم يدعى الجميع إلى السجود للباريء عز وجل، فيسجد المؤمنون، ويعجز المجرمون عن السجود.

وتعكس الآية اللاحقة صورة جديدة لحالتهم، حيث يقول سبحانه: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ».

هذه الآية الكريمة تصف لنا حقيقة المجرمين عندما يدانون في إجرامهم ويحكم عليهم، حيث نلاحظ الذلّة والهوان تحيط بهم، وتكون رؤوسهم مطأطئة تعبيراً عن هذه الحالة المهينة.

ثم يضيف تعالى: «وَقَدْ كَانُوا يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ». إنهم لن يسجدوا أبداً، لقد صحبوا روح التغطرس والعتوّ والكبر معهم في يوم القيامة فكيف سيسجدون؟

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٢

ثم يوجه الباريء عز وجل الخطاب لنبيه الكريم ويقول: «فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ». وهذه اللهجة تمثل تهديداً شديداً من الواحد القهار لهؤلاء المكذبين المتمردين، حيث يخاطب الرسول صلى الله عليه وآله بقوله: لا تتدخل، واطركني مع هؤلاء، لأعاملهم بما يستحقونه.

ثم يضيف سبحانه: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ».

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا أحدث العبد ذنباً، جدّد له نعمه فيدع الاستغفار فهو الإستدراج».

إذا أذنب عبد فإنه لا يخرج من واحدة من الحالات الثلاث التالية:

إما أن ينتبه ويرجع عن خطئه ويتوب إلى ربه.

أو أن ينزل الله عليه العذاب ليعود إلى رشده.

أو أنه غير أهل للتوبة ولا للعودة للرشد بعد التنبيه له، فيعطيه الله نعمه بدل البلاء وهذا هو: (عذاب الإستدراج). لذا يجب على الإنسان



المؤمن أن يكون يقظاً عند إقبال النعم الإلهية عليه، وليحذر من أن يكون ما يمنحه الله من نعم ظاهرية يمثل في حقيقته (عذاب الإستدراج). ولذلك فإن المسلمين الواعين يفكرون في مثل هذه الامور ويحاسبون أنفسهم باستمرار، ويعيدون تقييم أعمالهم دائماً، كي يكونوا قريبين من طاعة الله، ويؤدّون حق الألفاف والنعم التي وهبها الله لهم.

في الكافي عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني سألت الله عز وجل أن يرزقني مالاً فرزقني، وإني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني، وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً، فقال: «أما - والله - مع الحمد فلا».

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُتَّقِلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْ لِمَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) استمراراً للاستجاب الذي تم في الآيات السابقة للمشركين والمجرمين، يضيف الباري عز وجل سؤالين آخرين، حيث يقول في البداية: «أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُتَّقِلُونَ».

أى: إذا كانت حجبتهم أن الاستجابة لدعوتك تستوجب أجراً مادياً كبيراً، وأنهم غير

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٣

قادرين على الوفاء به، فإنه كذب، حيث أنك لم تطالبهم بأجر، كما لم يطلب أى من رسل الله أجراً.

ثم يضيف واستمراراً للحوار بقوله تعالى: «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ».

ولأن العناد واللامنطقية التي كان عليها أعداء الإسلام تؤلم رسول الله صلى الله عليه وآله وتدفعه إلى أن يدعو الله عليهم، لذا فإنه تعالى أراد أن يخفف شيئاً من آلام رسوله الكريم، فطلب منه الصبر وذلك قوله تعالى: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ». أى انتظر حتى يهوى الله لك ولأعوانك أسباب النصر، ويكسر شوكة أعدائك، واعلم بأن الله مهملهم وغير مهملهم، وما المهلة المعطاة لهم إلا نوع من عذاب الإستدراج.

ثم يضيف تعالى: «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ».

والمقصود من هذا النداء هو ما ورد في قوله تعالى: «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لِي إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

وبذلك فقد اعترف النبي يونس عليه السلام بترك الأولى وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى.

ويضيف سبحانه في الآية اللاحقة: «لَوْلَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ».

إن المقصود من (النعمة) في الآية أعلاه هو توفيق التوبة وشمول الرحمة الإلهية لحاله عليه السلام حسب الظاهر. لذا يقول الباري عز وجل في الآية اللاحقة: «فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وبذلك فقد حمّله الله مسؤوليه هداية قومه مرة أخرى، وعاد إليه يبلغهم رسالته ربه، مما كانت نتيجته أن آمن قومه جميعاً.

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَجَعُوا الذُّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) يريدون قتلك ... لكنهم عاجزون: هاتان الآيتان تشكّلان نهاية سورة القلم، وتتضمّنان تعقياً على ما ورد في بداية السورة من نسبة الجنون إليه صلى الله عليه وآله من قبل الأعداء.

يقول تعالى: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَجَعُوا الذُّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ». «لئلا يزلقونك»: من مادة «زلق» بمعنى التزلق والسقوط على الأرض، وهى كناية عن الهلاك والموت.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٤

إنهم يعجبون ويتأثرون كثيراً عند سماعهم الآيات القرآنية بحيث يكادون أن يصيبوك بالعين (لأن الإصابة بالعين تكون غالباً في الامور التي تثير الإعجاب كثيراً) إلا أنهم في نفس الوقت يتهمونك بالجنون، وهذا يمثل التناقض حقاً، إذ أين الجنون ولغو الكلام وأين هذه الآيات المثيرة للإعجاب والنافذة في القلوب؟

وفي آخر آية يضيف تعالى: «وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

حيث إن معارف القرآن الكريم واضحة، وإنذاراته موقظة، وأمثاله هادفة، وترغيباته وبشائره مرية، وبالتالي فهو عامل وسبب ليقظة النائمين وتذكرو للغافلين، ومع هذا فكيف يمكن أن ينسب الجنون إلى من جاء به؟  
بحث

هل أن إصابة العين لها حقيقة: يعتقد الكثير من الناس أن لبعض العيون آثاراً خاصة عندما تنظر لشيء بإعجاب، إذ ربما يترتب على ذلك الكسر أو التلف، وإذا كان المنظور إنساناً فقد يمرض أو يجنّ ..  
إن هذه المسألة ليست مستحيلة من الناحية العقلية، كما جاء في بعض الروايات الإسلامية- أيضاً- ما يؤيد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالية.

في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: رقى النبي صلى الله عليه وآله حسناً وحسيناً فقال: عيذكما بكلمات الله التامات وأسمائه الحسنى كلها عامه، من شرّ السامة والهامة، ومن شرّ كل عين لامة، ومن شرّ حاسد إذا حسد» ثم التفت النبي صلى الله عليه وآله إلينا فقال: هكذا كان يعوذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق». «نهاية تفسير سورة القلم»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٥

## ٦٩. سورة الحاقة

محتوى السورة: تدور موضوعات سورة الحاقة حول ثلاثة محاور:

الأول: وهو أهم محاور هذه السورة، يرتبط بمسائل يوم القيامة وبيان خصوصياتها، وقد وردت فيه ثلاثة أسماء من أسماء يوم القيامة وهي: (الحاقة) و (القارعة) و (الواقعة).

أما المحور الثاني: فتدور أبحاثه حول مصير الأقسام الكافرين، خصوصاً قوم عاد وثمود وفرعون، وتشتمل على إنذارات شديدة لجميع الكفار ومنكري يوم البعث والنشور.

والمحور الثالث تتحدث حول عظمة القرآن الكريم، ومقام الرسول صلى الله عليه وآله وجزاء المكذبين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حساباً يسيراً».

الحاقة (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَيْخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَيَّجٍ لِيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صِرْعى كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٦

تبدأ هذه السورة بعنوان جديد ليوم القيامة. يقول تعالى: «الْحَاقَّةُ\* مَا الْحَاقَّةُ\* وَمَا أَدْرِيكَ مَا الْحَاقَّةُ». والمراد من الحاقة هو اليوم الذي سيتحقق حتماً.

ذهب أغلب المفسرين إلى أن (الحاقة) اسم من أسماء يوم القيامة، باعتباره قطعي الوقوع، كما هو بالنسبة ل (الواقعة) في سورة (الواقعة).

«ما الحاقة»: تعبير لبيان عظمة ذلك اليوم؛ والتعبير ب «ما أدريكَ ما الحاقة» للتأكيد مرّة أخرى على عظمة الأحداث في ذلك اليوم العظيم حتى أن الباري عز وجل يخاطب رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بأنك لا تعلم ما هو ذلك اليوم.

ثم تستعرض الآيات الكريمة اللاحقة مصير الأقسام الذين أنكروا يوم القيامة، وكذلك نزول العذاب الإلهي في الدنيا، حيث يضيف

تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ\* فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ».

لقد كان (قوم ثمود) يسكنون في منطقة جبلية بين الحجاز والشام، فبعث الله النبي صالح عليه السلام إليهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله ... إلّا أنهم لم يستجيبوا له، بل حاربوه وتحذوه في إنزال العذاب الذي أوعدهم به إن كان صادقاً، وفي هذه الحالة من التمرد الذي هم عليه، سلط الله عليهم (صاعقه مدمرة) أنهت كل وجودهم في لحظات، فخربت بيوتهم وقصورهم المحكمة، وتهاوت أجسادهم على الأرض.

ثم تتطرق الآية اللاحقة لتحديثنا عن مصير (قوم عاد) الذين كانوا يسكنون في أرض الأحقاف الواقعة (في شبه جزيرة العرب أو اليمن) وكانوا ذوى قامات طويلة، وأجساد قوية، ومدن عامرة، وأراض خضراء خصبة، وحدائق نضرة وكان نبيهم (هود) عليه السلام يدعوهم إلى الهدى والإيمان بالله ... إلّا أنهم أصروا على كفرهم وتمادوا في طغيانهم وتمردوا على الحق، فانتقم الله منهم شرّ إنتقام، وأقبرهم تحت الأرض بعد أن سلط عليهم عذاباً شديداً مؤلماً، سنوضح شرحه في الآيات التالية. يقول تعالى: «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصِيرٍ عَائِيَةٍ».

«صرصر»: تقال للرياح الباردة، أو المقترنة بصوت وضوضاء، أو المسمومة، وقد ذكر المفسرون هذه المعاني الثلاث في تفسيرها، والجمع بين جميع هذه المعاني ممكن أيضاً.

«عائية»: من مادة «عتو» بمعنى التمرد على القانون الطبيعي للرياح وليست على أمر الله.

ثم تبين الآية التالية وصفاً آخر لهذه الرياح المدمرة، حيث يقول تعالى: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٧

«حسوماً»: من مادة «حسم» بمعنى إزالة آثار شيء ما، ويقال: (حسم) أحياناً لوضع الشيء الحارّ على الجرح للقضاء عليه من الأساس. لقد حطمت وأفنت هذه الرياح المدمرة في الليالي السبع والأيام الثمانية جميع معالم حياة هؤلاء القوم، والتي كانت تتميز بالابته والجمال، واستأصلتهم من الجذور.

ويصور لنا القرآن الكريم مآل هؤلاء المعاندين بقوله تعالى: «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ».

إنه لتشبيه رائع يصور لنا ضخامة قامتهم التي إقتلعت من الجذور، بالإضافة إلى خواء نفوسهم، حيث إن العذاب الإلهي جعل الريح تتقاذف أجسادهم من جهة إلى أخرى.

«خاوية»: من مادة «خواء» في الأصل بمعنى كون الشيء خالياً، ويطلق هذا التعبير أيضاً على البطون الجائعة، وتطلق كذلك على الجوز الأجوف الفارغ من اللب.

ويضيف في الآية التالية: «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ».

نعم، لم يبق اليوم أى أثر لقوم عاد، بل حتى مدنهم العامرة، وعماراتهم الشامخة ومزارعهم النضرة لم يبق منها شيء يذكر أبداً. وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) أين الآذان الواعية: بعد ما استعرضت الآيات الكريمة السابقة الأحداث التي مرت بقومى عاد و ثمود، وتستمر هذه الآيات فى التحدّث عن الأقوام الأخرى كقوم (نوح) وقوم (لوط) لتكون درساً وعبرة لمن وعى وكان له قلب سليم ... يقول تعالى: «وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ».

ال «خاطئة»: بمعنى الخطأ و (لكليهما معنى مصدرى) والمراد من الخطأ هنا هو الشرك والكفر والظلم والفساد وأنواع الذنوب.

«المؤتفكات»: جمع (مؤتفكة) من مادة (اتنفاك) بمعنى الانقلاب، وهى هنا إشارة إلى ما حصل فى مدن قوم لوط، حيث إنقلبت بزلزلة عظيمة.

والمقصود ب «وَمِن قَبْلِهِ» هم الأقوام الذين كانوا قبل قوم فرعون، وقوم شعيب، وقوم نمرود الذين تناولوا على رسولهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٨

ثم يضيف تعالى: «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَابِيَةً».

لقد خالف الفراعنة (موسى وهارون) عليهما السلام وواجهوهما بمنتهى العنف والتشكيك والملاحقة ... وكذلك كان موقف أهل مدينة (سدوم) من لوط عليه السلام الذى بعث لهدايتهم وإنقاذهم من ضلالهم ... وهكذا كان - أيضاً - موقف أقوام آخرين من رسلهم حيث التطاول، والتشكيك والإعراض والتحدى ..

إن كل مجموعة من هؤلاء الأقوام المتمردين قد إبتلاهم الله بنوع من العذاب، وأنزل عليه رجزاً من السماء بما يستحقون، فالفراعنة أغرقهم الله سبحانه فى وسط النيل الذى كان مصدراً لخيراتهم وبركة بلدتهم وإعمار أراضيهم وديارهم، وقوم لوط سلط الله عليهم (الزلال) الشديد ثم (مطر من الحجارة) مما أدى إلى موتهم وفنائهم من الوجود.

وأخيراً تعرض بإشارة موجزة إلى مصير قوم نوح والعذاب الأليم الذى حل بهم. قال تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ». إن طغيان الماء كان بصورة غطى فيها السحاب، ومن هنا جاء تعبير (طغى) حيث هطل مطر غزير جداً وكأنه السيل ينحدر من السماء، وفاضت عيون الأرض، والتقت مياهها بحيث أصبح كل شىء تحت الماء (القوم وبيوتهم وقصور أكابرهم ومزارعهم وبساتينهم ...) ولم تنج إلا مجموعة المؤمنين التى كانت مع نوح عليه السلام فى سفينته.

جملة (حملناكم) كناية عن حمل وإنقاذ أسلافنا وأجدادنا من الغرق، وإلا فنحن لم نكن فى عالم الوجود حينذاك.

ثم يبين الله سبحانه الغاية والهدف من هذا العقاب، حيث يقول تعالى: «لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ».

إننا لم نرد الانتقام منكم أبداً، بل الهداية والخير والسعادة، كئنا نروم أن تكونوا فى طريق الكمال والنضج التربوى والوصول إلى ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان المكرم.

«تعينها»: من مادة «وعى» فى الأصل بمعنى الإحتفاظ بشىء معين فى القلب، وقد ذكرت هذه الصفة (الوعى) للآذان فى الآيات مورد البحث، وذلك بلحاظ أنها تسمع الحقائق وتحتفظ بها.

تعقيب

فضيلة اخرى من فضائل الإمام على عليه السلام جاء فى كثير من الكتب الإسلامية المعروفة أن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٩

النبى صلى الله عليه وآله قال عند نزول هذه الآية «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»: «سألت ربى أن يجعلها اذن على».

فكان على عليه السلام يقول: «ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً قط فنسيته، إلا وحفظته» (١).

وهذه فضيلة عظيمة لقائد الإسلام العظيم الإمام على عليه السلام حيث يكون موضع أسرار الرسول صلى الله عليه وآله، ووارث علمه، ولهذا السبب فإن الجميع كانوا يرجعون إليه - الموافق له والمخالف - بعد النبى صلى الله عليه وآله وذلك عندما يواجهون المشاكل الاجتماعية والعلمية المختلفة، ويطلبون منه التدخل فى حلها، كما تحدثنا بذلك كتب التواريخ بشكل تفصيلي.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) الصيحة العظيمة: استمراراً لما تعرضت له الآيات الاولى من هذه السورة، والتى كانت تتعلق بمسألة الحشر والقيامة، تعرض لنا هذه الآيات صورة عن الحوادث العظيمة فى ذلك اليوم الرهيب بأسلوب محرّك ومؤثر فى النفوس كى تحيط الإنسان علماً بما ينتظره من حوادث ذات شأن كبير فى ذلك الموقف الرهيب. يقول تعالى فى البداية: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ».

لقد بينا فيما سبق أن مما يستفاد من القرآن الكريم أن نهاية عالم الدنيا وبداية عالم الآخرة تكون بصوت مفاجىء عظيم، وذلك ما عبر عنه ب (نفخة الصور).

نفخة الصور فهي نفختان: (نفخة الموت)، و (نفخة الحياة الجديدة)، لكن المقصود في هذه الآية الكريمة هو (النفخة الاولى) التي تحصل فيها نهاية عالم الدنيا.

ثم يضيف تعالى: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً».

«دك»: بمعنى (الأرض المستوية) ولأن الأرض غير المستوية تحتاج إلى الدك حتى تستوى، لذا استعمل هذا المصطلح في الكثير من الموارد بمعنى «الدق الشديد».

والمقصود في الآية مورد البحث هو الدق الشديد للجبال والأراضي اللامستوية بعضها ببعض بحيث تستوى وتتلاشى فيها جميع التفرجات.

(١) تفسير القرطبي ٢٦٤ / ١٨، وتفسير مجمع البيان ١٠٧ / ١٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٠

ثم يضيف تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ».

في ذلك اليوم العظيم لا- تتلا- شى فيه الأرض والجبال فحسب، بل يقع حدث عظيم آخر، وذلك قوله تعالى: «وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ». وذلك بيان لما تتعرض له الأجرام السماوية العظيمة من انفلاقات وتناثر وتلاشى.

«وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا». «أرجاء»: جمع «رجا» بمعنى جوانب وأطراف شىء معين.

ثم يقول تعالى: «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ».

المقصود ب (العرش) هو (مجموعة عالم الوجود) حيث أنه عرش حكومة الله سبحانه، ويدبر حكومته تعالى من خلاله بواسطة الملائكة الذين هم جاهزون لتنفيذ أمره سبحانه.

وفي تفسير على بن إبراهيم أن حملة العرش ثمانية؛ أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين، فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، والأربعة من الآخرين:

محمد وعلي والحسن والحسين عليهم السلام.

وهذا الحديث من الممكن أن يكون إشارة إلى مقام شفاعتهم للأوليين والآخرين، والشفاعة- عادة- تكون لمن هم أهل لها، وممن لهم لياقة لنيلها، ومع ذلك فإنه يوضح المفهوم الواسع للعرش.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) يَا أَهْلَ الْمَحْشَرِ:

اقرأوا صحيفة أعمالى: قلنا فى تفسير الآيات السابقة أن (نفخ الصور) يحدث مرتين، وكما ذكرنا فإن بداية الآيات تخبرنا عن النفخة الاولى ولم تستعرض تفاصيل النفخة الثانية، واستمراراً للحديث فى هذا الصدد، وخصوصيات العالم الجديد الذى سيكون عند النفخة

الثانية، تحدثنا هذه الآيات عن شىء من ذلك حيث يقول تعالى:

«يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ».

«تعرضون»: من مادة «عرض» بمعنى عرض شىء معين، بضاعة أو غيرها.

ومما لا شك فيه أن جميع ما فى الوجود- بشراً وغيره- هو بين يدى الله سبحانه، سواء فى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥١

هذه الدنيا أو فى عالم الآخرة، إلا أن هذا الأمر يظهر ويتضح بصورة أشد فى يوم القيامة.

فى ذلك اليوم لن يقتصر الوضوح والظهور على أعمال البشر الخفية فحسب، بل على صفات وروحيات وأخلاقيات ونيات الجميع

فإنها هي الاخرى تبرز وتظهر، وهذا أمر عظيم جداً، بل إنه أعظم من إنفجار الأجرام السماوية وتلاشى الجبال- كما يقول البعض- حيث الفضيحة الكبرى للطالحين، والعزة والرفعة للمؤمنين بشكل لا نظير له.

لذا يقول سبحانه بعد ذلك: «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَا أُرْوُوا كِتَابِيهِ».

ثم يعلن بافتخار عظيم فيقول: «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيهِ».

«ظن»: في مثل هذه الموارد تكون بمعنى (اليقين) إنه يريد أن يقول: إن ما تفضل به الله تعالى عليّ كان بسبب إيماني بهذا اليوم، والحقيقة أن الإيمان بالحساب والكتاب يمنح الإنسان روح التقوى، والتعهد والإحساس بالمسؤولية، وهذا من أهم عوامل تربية الإنسان.

ثم يبين الله تعالى في الآيات اللاحقة جانباً من جزاء وأجر هؤلاء الأشخاص حيث يقول: «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ».

وبالرغم من أن الجملة أعلاه تجسد كل ما يستحق أن يقال في هذا الموضوع، إلا أنه سبحانه يضيف للتوضيح الأكثر: «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ».

إن الجنة تكون عالية ورفيعة بشكل لم ير أحد مثلها قط، ولم يسمع بها، ولم يتصور مثلها.

«قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ» (١). حيث لا جهد مكلف ولا مشقة في قطف الثمار، ولا عائق يحول من الإقتراب للأشجار المحملة بالثمار، وجميع هذه النعم في تناول الأيدي بدون إستثناء.

وفي آخر آية- مورد البحث- يوجه البارئ عز وجل خطابه المملوء بالحب والموودة والإعتراز إلى أهل الجنة بقوله: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ».

وهكذا كانت هذه النعمة العظيمة التي منحها الله لهؤلاء المتقين جزاء أعمالهم الصالحة وإن الأعمال الخيرة والمحدودة هي التي أثمرت هذه الثمار الكبيرة حيث ظل الرحمة الإلهية واللفظ الرباني.

والسؤال المطروح هو: هل أن دعوة المؤمنين لأهل المحشر لقراءة كتاب حسابهم وصحيفة أعمالهم- طبقاً لما جاء في الآية الكريمة:

«فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَا أُرْوُوا كِتَابِيهِ»- تعني أن صحيفة أعمالهم خالية من أي ذنب؟

(١) «قُطُوفُ»: جمع «قطف» بمعنى أن الثمر قد اقتطف، و تأتي أحياناً بمعنى الثمار المهينة للاقتطاف أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٢

وفي مقام الجواب يمكن أن نستفيد من بعض الأحاديث منها حديث عن النبي صلى الله عليه وآله حيث يقول: «يدنى الله العبد يوم القيامة، فيقره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك. قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسنة بيمينه» (١).

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) كان الحديث في الآيات السابقة عن (أصحاب اليمين) حيث صحائف أعمالهم بأيديهم اليمنى، ويوجهون نداءهم إلى أهل المحشر بكل فخر للإطلاع على صحيفة أعمالهم وقراءتها، ثم يدخلون جنات الخلد حيث تكون مستقرهم الأبدى. أما هذه الآيات فتستعرض الطرف المقابل لأصحاب اليمين وهم (أصحاب الشمال) وتقدم مقارنة بين المجموعتين، حيث يقول تعالى: «وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ». «وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ».

نعم، في ذلك اليوم العظيم، وعندما يواجهها يبدأ يجأر ويصرخ ويطلق الزفرات الساخنة المتلاحقة من الأعماق على المصير السيء الذي أوصل نفسه إليه، والشّر الذي جلبه عليها، ويتمنى أن يقطع علاقته بماضيه الأسود تماماً، ويتمنى أن يموت ويفنى ويتخلص من هذه الفضيحة الكبيرة المهلكة، ويعتبر عن هذا الشعور قوله تعالى: «وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا» (٢).

ثم يضيف تعالى مستعرضاً إعراف المجرمين بذنوبهم فيقول: «مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيهِ».

فالأموال التي كنت أجمعها في الدنيا لم تنقذني الآن ولم تعني ولم تدفع عني الأهوال أو تحل مشاكلي. «هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ» فليست أموالى لم تسعفنى فى هذه الشدة فحسب، بل إن قدرتى ومقامى وسلطتى هى الاخرى هلكت وزالت عني.

القصة المثيرة: نقلت فى هذا المجال قصص كثيرة تؤكد على المفاهيم العامة التى احتوتها الآيات الكريمة أعلاه، كموضع شاهد وعبرة وتأيد لما ذهب إليه الآيات المباركات،

(١) فى ظلال القرآن ٨ / ٢٥٦.

(٢) سورة النبأ / ٤٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٣

لتكون درساً لأولئك الذين جعلوا (المال والسلطان) همهم الأول، وانغمسوا حتى الأذقان فى الغفلة والغرور والذنوب من أجلهما، ومن جملتها ما يلى:

فى سفينة البحار عن كتاب النصائح لابن ظفر أنه لما اشتد مرض الرشيد بطوس، احضر طبيباً طوسياً فارسياً وأمر أن يعرض عليه مائه مع مياه كثيرة لمرضى وأصحاء فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد فقال: قولوا لصاحب هذه الماء يوصى فإنه قد انحلت قواه وتداعت بنيته فاقم وأمر بالذهاب فذهب ويثس الرشيد من نفسه وتمثل قائلاً:

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع نحب قد أتى

ما للطبيب يموت بالداء الذى قد كان يبرئ مثله فيما مضى

وبلغه أن الناس أرجفوا بموته فاستدعى بحمار وأمر فحمل عليه فاسترخت فخذاه فقال:

انزلونى صدق المرجفون ثم استدعى بأكفان فتخير منها ما أعجبه وأمر فشق له قبر أمام فراشه ثم أطلع فيه فقال: «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهُ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ» فتوفى فى يومه.

خُدُوهُ فَعَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَمَّا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسَكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلِينَ (٣٦) لَمَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) خذوه فغلوه: استمراراً للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن (أصحاب الشمال) الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى، فتنتقل

الآهات والأنات، ويتمى أحدهم الموت، يشير تعالى فى الآيات أعلاه إلى قسم من العذاب الذى يلاقونه يوم القيامة فيقول:

«خُدُوهُ فَعَلُوهُ». «غلوه»: من مادة (غل)، والمراد هو السلسلة التى كانوا يربطون بها أيدي وأرجل المجرمين إلى أعناقهم مقترن بالكثير من المشقة والألم.

«ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ».

«السلسلة»: فى الأصل مأخوذة من مادة «تسلسل» بمعنى الاهتزاز والإرتعاش، لأن حلقات السلسلة الحديدية تهتز وتتحرك.

إن هذه السلاسل الطويلة ليست لشخص واحد، بل لمجاميع يربط كل منها بسلسلة.

«ذراع»: بمعنى الفاصلة بين الساعد ونهاية الأصابع، (وقياسها بحدود نصف متر) وكانت وحدة الطول المستعملة عند العرب، وهى قياس طبيعى.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٤

وقال البعض: إنَّ (الذراع) الوارد في الآية الكريمة هو غير الذراع المتعارف عليه، حيث إنَّ كلَّ وحدة منه تمثل فواصل عظيمة، ويربط بهذا الزنجير جميع أهل جهنم.

وتتطرق الآيتان التاليتان لبيان السبب الرئيسي لهذا العذاب العسير، فيقول تعالى: «إِنَّهُ كَانَ لَآيُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ». وكلما كان الأنبياء والأولياء ورسول الله تعالى يدعون للتوجه إلى (الواحد الأحد) لم يكن ليقبل، ولذا فإنَّ إرتباطه بالخالق كان مقطوعاً بصورة تامة.

«وَلَا يَخُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ».

وبهذا الشكل فإنَّ هؤلاء قد قطعوا علاقتهم مع (الخلق) أيضاً.

ويستفاد من التعبير السابق - بصورة واضحة - أنه يمكن تلخيص أهمِّ الطاعات والعبادات وأوامر الشرع بهذين الأساسين: (الإيمان) و (إطعام المسكين) وهذا يمثل إشارة إلى الأهمية البالغة لهذا العمل الإنساني العظيم.

ثم يضيف تعالى: «فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ». أى: صديق مخلص وحميم.

«وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلِينَ». أى: القيح والدم.

والجدير بالملاحظة هنا هو أنَّ (الجزء) و (العمل) لهؤلاء الجماعة متناسبان تماماً، فبسبب قطع علاقتهم بالله، فليس لهم هنالك من صديق ولا - حميم، كما أنَّ سبب إمتناعهم عن إطعام المحتاجين فإنَّ طعامهم في ذلك اليوم لن يكون إلَّا القيح والدم، لأنهم حرموا المساكين من الإطعام وتركوهم نهباً للجوع والألم في الوقت الذي كانوا يتمتعون لسنين طويلة بالذَّ وأطيب الأطعمة.

ويضيف سبحانه في آخر آية مورد البحث في قوله تعالى للتأكيد: «لَا يَأْكُلُ إِلَّا الْخَاطُونَ».

إنَّ (خاطيء) تقال للشخص الذي يرتكب خطأً عمداً. وبناءً على ما تقدم فإنَّ طعام أهل جهنم خاصٌّ للأشخاص الذين سلكوا درب الشرك والكفر والبخل والطغيان تمرذاً وعصيانياً وعمداً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٥

القرآن كلام الله قطعاً: بعد الأبحاث التي مرّت بنا في الآيات السابقة حول القيامة وما أعدّه الله سبحانه للمؤمنين والكفار، يبيّن البارء عزّ وجل في هذه الآيات بحثاً وافياً حول القرآن والنبوة، ليكون البحثان (النبوة) و (المعاد) كلياً منهما مكتملاً للآخر. يقول تعالى في البداية: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ». وهذه الجملة لها معنى واسع، حيث تشمل كل ما يراه البشر وما لا يراه. وبعبارة أخرى: تشمل كل عالم (الشهود) و (الغيب).

ثم تستعرض الآية اللاحقة جواب هذا القسم العظيم، حيث يقول تعالى بأنَّ هذا القرآن هو قول رسول كريم: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ».

والمقصود من الرسول هنا - بدون شك - هو الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وليس جبرائيل.

والآية ذكرت كلمة «رسول» وهذا يعنى أن كل ما يقوله الرسول فهو قول مرسله.

ثم يضيف تعالى: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ».

تنفى هاتان الآيتان ما نسبته المشركون والمخالفون من تهم باطله لرسول الله صلى الله عليه وآله إذ كانوا يقولون أحياناً: إنَّه (شاعر) وإنَّ هذه الآيات من شعره، كما كانوا يقولون أحياناً: إنَّه (كاهن) وإنَّ الذي يقوله هو (كهانة).

الشعر في الغالب وليد الخيال، ومعبر عن الأحاسيس الجياشة في النفوس، ولهذا فإنَّه يجسّد حالة عدم الإستقرار وعدم التوازن صعوداً ونزولاً، شدّة وإنخفاضاً، في الوقت الذي نلاحظ أن القرآن الكريم، وهو يمثل قمة الروعة والجادبية، فإنَّه كتاب استدلالى ومنطقى في عرضه للمفاهيم، وعقلانى في محتواه، وما فيه من التنبؤ المستقبلى لا يشكّل قاعدة أساسية للقرآن الكريم، بالإضافة إلى أنّها صادقة جميعاً بخلاف ما عليه تنبؤ الكهنة.

ويقول سبحانه في آخر آية - مورد البحث - كتأكيد على هويّة القرآن الربانية: «تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ». وبناءً على هذا فإنَّ القرآن



الكريم ليس بشعر ولا- كهانه، وليس هو إنتاج فكر الرسول، ولا قول جبرائيل ... بل إنه كلام الله سبحانه، حيث نزل بواسطة الوحي على القلب الطاهر لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرُهُ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٦

استمراراً للأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم، تستعرض الآيات التالية دليلاً واضحاً يؤكد يقينيه كون القرآن من الله سبحانه، حيث يقول:

«وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ».

ويذكر سبحانه مرة أخرى في الآية اللاحقة مؤكداً ما سبق عرضه في الآيات السابقة «وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرُهُ لِلْمُتَّقِينَ». إن كتاب الله هذا أنزله للأشخاص الذين يريدون أن يطهروا أنفسهم من الذنوب، ويسيروا في طريق الحق، ويبحثوا عن الحقيقة، ويسعوا للوصول إليها، أما من لم يصل إلى هذا الحد من صفاء النظرة وتقوى النفس، فمن المسلم أنه لن يستطيع أن يستلهم تعاليم القرآن الكريم ويتذوق حلاوة معرفة الحق المبين.

إن التأثير العميق الفذ للقرآن الكريم الذي يحدثه في نفوس سامعيه وقارئيه، هو بحد ذاته علامة على إعجازه وحقانيته.

ثم يضيف تعالى: «وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ».

إن وجود المكذبين المعاندين لم يكن مانعاً أبداً من الدليل على عدم حقانيتهم.

إن المتقين وطلّاب الحق يتعظون به، ويرون فيه سمات الحق، وإنه عون لهم في الوصول إلى طريق الله سبحانه.

ويضيف في الآية اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ».

إن هؤلاء الكفرة الذين يتحدون القرآن الكريم اليوم ويكذبونه، فإنهم غداً حيث (يوم الظهور) و (يوم البروز) وهو في نفس الوقت

(يوم الحسرة) يدركون مدى عظمتها النعمة التي فرطوا بها بسبب لجاجتهم وعنادهم، وما جلبوه لأنفسهم من أليم العذاب.

ولكى لا يتصور أحد أن التكذيب والتشكيك كان بلحاظ غموض وإبهام مفاهيم القرآن الكريم، فيضيف في الآية اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ».

يعنى أن القرآن الكريم هو (يقين خالص). أو بتعبير آخر: أن لليقين مراحل مختلفة، حيث يحصل أحياناً بالدليل العقلي كما في

حصول اليقين بوجود النار من خلال مشاهدة دخان من بعيد، لذا يقال لمثل هذا الأمر (علم اليقين).

وحيثما تقترب أكثر ونرى اشتعال النار بأمعنا، فعند ذلك يصبح اليقين أقوى ويسمى عندئذ ب (عين اليقين).

وعندما يكون اقترابنا أكثر فأكثر ونصبح في محاذة النار أو في داخلها ونلمس حرارتها

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٧

بأيدينا، فإن من المسلم أن هذه أعلى مرحلة من مراحل اليقين، وتسمى ب (حق اليقين).

والآية أعلاه تقول: إن القرآن الكريم في مثل هذه المرحلة من اليقين، ومع هذا فإن عديمي البصيرة ينكرونه ويشككون فيه.

وأخيراً يقول سبحانه في آخر آية من سورة الحاقة: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ».

والجدير بالملاحظة - هنا- أن مضمون هذه الآية والآية السابقة قد جاء بتفاوت يسير مع ما ورد في سورة الواقعة، وهذا التفاوت هو أن

الآية وصفت القرآن الكريم هنا بأنه (حق اليقين) أمّا في نهاية سورة الواقعة (الواقعة) فكان الحديث عن المجاميع المتباينة للصالحين

والطالحين في يوم القيامة.

«نهاية تفسير سورة الحاقة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٩

## ٧٠. سورة المعارج

محتوى السورة: المعروف بين المفسرين هو أن سورة المعارج من السور المكيّة، ولكن بعض آياتها مدنيّة؛ وهناك روايات تدلّ على أن الآيات الاولى من هذه السورة هي آيات مدنيّة. فإنّ لهذه السورة أربعة أقسام:

١- يتحدث عن العذاب السريع الذي حلّ بأحد الأشخاص ممن أنكر أقوال النبي صلى الله عليه وآله وقال: لو كان هذا القول حقاً فلينزل على العذاب. فنزل الآيات (١-٣).

٢- ذكر الكثير من خصوصيات يوم القيامة ومقدماتها وحالات الكفار في ذلك اليوم.

٣- توضّح هذه السورة بعض الصفات الإنسانية الحسنّة والسيئة والتي تعيّن هذا الشخص من أهل الجنان أم من أهل النار.

٤- يشمل إنذارات تخصّ المشركين والمنكرين وتبيان مسألة المعاد وينهى السورة بذلك.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سأل سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون».

من البديهي أنّ الإنسان يحصل على مثل هذا الثواب العظيم إذا كانت قراءته بإيمان وعقيدة، وثم يقترن ذلك بالعمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٠

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: الحاكم أبو القاسم الحسكاني عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «لما نصّب رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام يوم غدِير خم وقال: "من كنت مولاه فعلى مولاه." "طار ذلك في البلاد، فقدم على النبي صلى الله عليه وآله النعمان بن الحرث الفهري فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها. ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال: "والله، الذي لا إله إلا هو إن هذا من الله." فولى النعمان بن الحرث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء! فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

التفسير

العذاب العاجل: من هنا تبدأ سورة المعارج حيث تقول: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

هذا السائل كما قلنا في سبب النزول هو النعمان بن الحرث أو النضر بن الحرث.

ثم يضيف بأنّ هذا العذاب خاص بالكفار ولا يستطيع أحد دفعه عنهم: «لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ».

وتصف الآية الأخرى من ينزل العذاب منه، وهو الله ذي المعارج فتقول الآية: «مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ». أي صاحب السماء التي يعرج إليها الملائكة.

«المعارج»: جمع «معرج» بمعنى المصعد أو المكان الذي منه يصعدون، إذ إنّ الله جعل للملائكة مقامات مختلفة يتوجهون بها إلى قربه بالتدرّج، وقد وصف الله تعالى بذى المعارج.

نعم، الملائكة المأمورون بتعذيب الكفار والمجرمين، والذين هبطوا على إبراهيم عليه السلام، وأخبروه بأنهم قد امروا بإبادة قوم لوط. تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦١

يوم مقداره خمسين ألف سنة: بعد إيراد قصة العذاب الدنيوي الذي أصاب من طلب العذاب، تبحث الآيات أمر المعاد والعذاب الاخرى للمجرمين في ذلك اليوم. في البداية يقول تعالى: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ أَيْ إِلَى اللَّهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

المشهور أن المراد من عروج الملائكة هو العروج الروحي، وليس العروج الجسمي، يعني أنهم يسرعون في التقرب إلى المقام الإلهي وهم مهيبون لإستلام الأوامر في ذلك اليوم الذي يراد به يوم القيامة.

والمراد بالروح هو (الروح الأمين) وهو أكبر الملائكة، وهذا ما اشير إليه أيضاً في سورة القدر، حيث يقول تعالى: «تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ».

وأما المراد بكون (خمسين ألف سنة) هو ذلك اليوم الذي بحيث لو وقع في الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة من سنى الدنيا، وهذا لا ينافي ما جاء في الآية (٥) من سورة السجدة من أن ذلك يوم مقداره ألف سنة، ولأجل ذلك ذكر في الروايات أن في القيامة خمسين موقفاً، وكل موقف مثل ألف سنة مما تعدون «(١)».

فقد كان هذا ما يخص المجرمين والظلمة والكفار. روى أبو سعيد الخدرى قال: قيل يا رسول الله! ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفس محمد بيده! إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا» «(٢)».

ثم يخاطب الله تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله في الآية الاخرى ويقول: «فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا».

المراد ب (الصبر الجميل) هو ما ليس فيه شائبة الجزع والتأوه والشكوى، وفي غير هذا الحال لا يكون جميلاً.

ثم يضيف: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا» وَتَرِيَهُ قَرِيْبًا». إنهم لا يصدقون بوجود مثل ذلك اليوم الذي يحاسب فيه جميع الخلائق حتى أصغر حديث وعمل لهم، وذلك في يوم مقداره خمسون ألف سنة، ولكنهم في الواقع ما عرفوا الله وفي قلوبهم ريب بقدره الله.

(١) أمالي الطوسي / ٣٦.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠ / ١٢٠؛ تفسير القرطبي ١٣ / ٢٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٢

يَوْمٌ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَمَّا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيِّهِ (١١) وَصِيَابِحَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصَّ يَلْتَهُ النَّبِيُّ تُوْبِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى (١٥) نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) تضيف هذا الآيات على البحوث السابقة حول القيامة إيضاحات أكثر، حيث يقول الله تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ». «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ».

«المهل»: على وزن (قفل) وهو المذاب من المعدن كالنحاس والذهب وغيرهما.

«العهن»: مطلق الصوف المصبوغ ألوناً.

في مثل ذلك اليوم تتلاشى السماوات وتذوب، تتدكدك الجبال ثم تتناثر في الهواء كالصوف في مهب الريح، وبما أن الجبال ذات ألوان مختلفة فإنها شبت بالصوف المصبوغ بالألوان، ثم يتحقق عالم جديد وحياء جديدة للبشرية بعد كل هذا الخراب.

وعندما يحل يوم القيامة في ذلك العالم الجديد فسيكون فيه الحساب عسيراً ومرعباً بحيث ينشغل كل بنفسه، ولا يفكر بالآخر حتى لو كان من خلص اصداقائه وأحبائه: «وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا» «(١)».

ولا يعني ذلك أن الأصدقاء والأقرباء ينكر بعضهم بعضاً، بل إنهم يعرفونهم ويقول تعالى: «يُبْصِرُونَهُمْ» غايه الأمر هو أن هول الموقف ووحشته لا يدعه يفكر بغيره.

وإكمالاً للحديث وتوضيحاً لذلك الموقف الموحش، يضيف تعالى: «يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيِّهِ». وليس بينه

فحسب بل، يود أن يفتدى العذاب بزوجه وأخيه أيضاً «وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ». «وَفَصَّةِ يَلْتِيهِ الَّتِي تَوِيهِ». أى عشيرته وأقرباءه الذين كان يأوى إليهم فى الدنيا: «وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنَجِّيهِ». «يود»: من (الود) على وزن (حب) أى يحب ويتمنى

(١) «الحميم»: فى الأصل يعنى الماء المغلى والمحرق، ثم اطلق كذلك على الأصدقاء المخلصين والحقيقيين. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٣

«يفتدى»: من (الفداء) أى حفظ النفس من المصائب والمشاكل بوسيلة تسديد أو دفع شىء ما. «الفصيلىة»: هى العشيرة والعائلة التى انفصل وتولّد منها الإنسان.

«تويه»: من «الإيواء» من الشدائد واللجوء إليها ويأوى إليها فى النسب.

ولكنه يجب على كل هذه الأمانى والآمال فى قوله: «كَلَّا». أى لا تقبل الفديّة والإفداء.

«إِنَّهَا لَطْفَى نَارٍ مَلْتَهَبَةٌ تَحْرَقُ كُلَّ مَنْ بَجَانِبِهَا وَفِي مَسِيرِهَا.

نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى تَقْلَعُ الْيَدَ وَالْقَدَمَ وَجِلْدَ الْوَجْهِ.

«لظى»: تعنى لهيب النار الخالص، وهى اسم من أسماء جهنم أيضاً.

«نزاعة»: أى أنها تقتلع وتفصل بالتوالى

و «شوى»: الأطراف كاليد والرجل، وتأتى أحياناً بمعنى الشواء، ولكن المراد هنا هو المعنى الأول.

ثم يشير إلى من يكون فريسة لمثل هذه النار، فيقول: «تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى .

وبهذا فإنّ هذه النار المحرقة تدعو اولئك المجرمين إلى نفسها سواء بلسان حالها وجاذبيتها الخاصة المودعة فيها تجاه المجرمين، أو

بلسان مقالها الذى أعطاه الله إياها، إنها تدعو اولئك المتصفين بهاتين الصفتين: الإعراض عن الإيمان وعدم طاعة الله ورسوله.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ

(٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِللسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ

مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) أوصاف المؤمنين: بعد ذكر أوصاف الطالحين وجوانب من أنواع العذاب فى يوم

القيامة، يأتى هنا وصف المؤمنين للتعرف عن سبب انقسام الناس إلى صنفين، المعذبون والناجون. يقول أولاً: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٤

«إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا».

ثم تذكر الآيات الكريمة صفات الأشخاص الجيدين على شكل استثناء، وتبين لهم تسع صفات ايجابية بارزة، فيقول تعالى: «إِلَّا

الْمُصَلِّينَ». «الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ».

هذه هى الخصوصية الاولى لهم وأنهم مرتبطين بالله بشكل دائم، وهذه الرابطة تتوثق بالصلاة، الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر،

والصلاة التى تربي روح الإنسان وتذكره دائماً بالله تعالى، والسير بهذا الإتجاه سوف يمنعه من الغفلة والغرور، والغرق فى بحر

الشهوات، والوقوع فى قبضة الشيطان وهوى النفس.

والمراد من الإدامة على الصلاة هو المحافظة على أوقات الصلاة المعينة.

بعد توضيح أهميّة الصلاة وأنها من أهم الأعمال ومن أهم أوصاف المؤمنين تنتقل الآيات إلى ذكر الصفة الثانية فيضيف تعالى:

«وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِللسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ».

وبهذا سوف يحافظون على إرتباطهم بالخالق من جهة، وعلاقتهم بخلق الله من جهة أخرى.

والمراد من الحق المعلوم هو شيء غير الزكاة والذي يجب على الإنسان منحه للمحتاجين.

والفرق بين «السائل» و «المحروم» هو أن السائل يفصح عن حاجته ويسأل، والمحروم هو الذي لا يسأل لتعففه وحيائه.

الآية الأخرى أشارت إلى الخصوصية الثالثة لهم فيضيف: «وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ».

والخصوصية الرابعة هي: «وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ». «إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُّوْنٍ».

وصحيح البخارى أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يقول: «لن يدخل أحداً عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٥

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ ذَكَرْتُ أَرْبَعَةَ أَوْصَافٍ مِنَ الْأَوْصَافِ الْخَاصَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَفِي الْوَصْفِ الْخَامِسَةِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» (١).

لا شك في أن الغريزة الجنسية من غرائز الإنسان الشديدة والطاغية، والكثير من الجرائم الكبيرة سببها هي هذه الغريزة، ولذا كانت السيطرة على هذه الغريزة وحفظ حدودها من العلامات المهمة للتقوى وبهذا ذكرت أهمية السيطرة على هذه الغريزة بعد تبيان أهمية الصلاة وإعانة المحتاجين والإيمان بيوم القيامة والإشفاق من عذاب الله.

وفي الآية الأخرى يؤكد بشكل أكثر على نفس الموضوع فيضيف: «فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ».

وبهذه الطريقة فإن الإسلام يخطط لمجتمع يحافظ على غرائزه الفطرية، ولا يؤدي به إلى الغرق بالفحشاء والفساد الجنسي والمضار الناتجة منه.

عندئذ يشير إلى الصفات السادسة والسابعة، فيقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

من الطبيعي أن للأمانة معنىً واسعاً وليست هي الأمانات المادية المتنوعة للناس فحسب، بل إنها تشمل الأمانات الإلهية وأمانات الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

إن كل نعمه من النعم الإلهية هي من أماناته تعالى، منها المقامات الاجتماعية وبالخصوص المسؤولون في الدولة فإنها تعتبر من أهم الأمانات.

والأهم من ذلك كله هو الدين والشريعة الإلهية وكتاب الله، وهو من الأمانات الكبيرة التي يجب الحفاظ عليها بالسعي.

(١) «فروج»: جمع «فروج» وهو كناية عن الآلة التناسلية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٦

«العهد»: وله مفهوم واسع أيضاً، يشمل العهود الإنسانية وكذلك العهود الإلهية.

ويضيف في الوصف الثامن: «وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ». لأنَّ القيام بالشهادة العادلة وترك كتمانها من أهم بنود إقامة العدل في المجتمع البشرى.

وفي الوصف الأخير، وهو الوصف التاسع من هذه المجموعة، يعود مرّة أخرى إلى موضوع الصلاة، كما كان البدء بالصلاة. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

والصلاة هي المدرسة العالية للتربية، وأهم وسيلة لتهديب النفوس.

ومن الطبيعي أن الوصف الأول كان إشارة إلى المداومة، ولكن الخطاب هنا حول حفظ آداب وشروط الصلاة وخصائصها، والآداب التي تكمن في ظاهر الصلاة والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر من جهة، وتقوى روح الصلاة بحضور القلب من جهة أخرى وتمحو الأخلاق الرذيلة التي تكون كحجر عثره أمام قبولها، ولهذا لا يعتبر ذكرها مرة أخرى من قبيل التكرار.

وفي النهاية تبين الآية الأخيرة عاقبة المتصفين بهذه الأوصاف، كما بينت في الآيات السابقة المسير النهائي للمجرمين، فيقول تعالى: «أُولَئِكَ فِي جَنَاتٍ مُّكْرَمُونَ».

لماذا لا يكونوا مكرمين! وهم ضيوف الله، وقد وفر الله القادر الرحمن لهم جميع وسائل الضيافة.

فَمِمَّا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الِّيمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيْطَمُعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَمَّا أَقْسَمَ رَبُّ الْمَسَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) الطمع الواهي في الجنة: جاء البحث في الآيات السابقة من هذه السورة حول علامات المؤمنين والكفار، ومصير كل من المجموعتين، في الآيات يعود ليوضح أحوال الكفار واستهزاءهم بالمقدسات.

قال البعض: إن هذه الآيات نزلت في جماعة من المشركين فعندما كان الرسول صلى الله عليه وآله يتلو على المسلمين آيات المعاد، كان هؤلاء الكفار يقدمون من كل صوب وحذب ويقولون: إذا كان هناك معاد فإن حالنا في الآخرة أحسن من حال من آمن بك، كما أن حالنا في هذه الدنيا أحسن منهم!

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٧

يقول القرآن الكريم في جوابهم: «فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ». أي: يقبلون نحوك من كل جانب مسرعين.

«عَنِ الِّيمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ». أي جماعات متفرقين.

«أَيْطَمُعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ». بأي إيمان وبأي عمل يستحقون ذلك!؟

«مهطعين»: جمع مهطع، وتعنى الذى يمدّ عنقه مقبلاً على شىء بسرعة للبحث عنه، وأحياناً تأتي - فقط - بمعنى مدّ العنق لاستطلاع الأمر.

«عزين»: جمع عزة، على وزن «هبة» وتعنى جماعات متفرقين.

وهنا يجيبهم القرآن المجيد فيقول: «كَلَّا». ليس الأمر كذلك وليس لهم حق الدخول إلى الجنة: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ».

في الحقيقة أن الله يريد بهذه الجملة أن يحطم غرورهم، لأنه يقول: إنكم تعلمون جيداً مم خلقناكم؟ من نطفة قدرة، من ماء آسن مهين.

ويجيب ثانياً على المستهزئين بالمعاد فيقول: إذا كنتم فى شك من المعاد فتمعنوا فى حال هذه النطفة، وانظروا كيف خلقنا موجوداً بديعاً من قطرة ماء قدرة يتطور فيها الجنين كل يوم يتخذ شكلاً جديداً، ألا يقدر الخالق الإنسان من هذه النطفة أن يعيد إليه الحياة بعد دفنه؟

ثم يقول تعالى مؤكداً ذلك: «فَلَمَّا أَقْسَمَ رَبُّ الْمَسَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ».

لعل هذه الجملة إشارة إلى أننا لسنا قادرين على أن نعيد لهم الحياة بعد الموت فحسب، بل إننا نستطيع أن نبدله إلى أكمل الموجودات وأفضلها، ولا يمنعنا من ذلك شىء.

أو هو إشارة إلى أننا نهلككم جزاء لأعمالكم ولا يمنعنا من ذلك شىء، ونستبدل بكم مؤمنين واعين، ليكونوا أنصاراً للنبي صلى الله عليه وآله ولا يضرنا ذلك شيئاً.

فَدَرَّوهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفُضُونَ (٤٣) حَاشِيَ عَنَّا أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلِكُ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) هذه الآيات وهى آخر آيات سورة المعارج جاءت لتنذر وتهدد

## الكفار المعاندين

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٨

والمستهزئين. يقول سبحانه: «فَدَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ» (١).

لا يلزم الاستدلال والموعظة أكثر من هذا، فإنهم لا يتعضون وليس لهم الاستعداد للاستيقاظ، دعهم يخوضوا في أباطيلهم وأراجيفهم كما يلعب الأطفال حتى يحين يومهم الموعود، يوم البعث ويرون كل شيء بأعينهم.

ثم تبيين الآية التالية اليوم الموعود، وتذكر بعض علامات ذلك اليوم المرعب فيقول تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ».

إن هذا التعبير في الحقيقة استهزاء بعقائدهم التافهة التي كانوا يعتقدون بها في الدنيا.

«الأجداث»: جمع جدث - على وزن (عبث) - وتعنى القبر.

«سراع»: جمع سريع، تعنى الحركة السريعة للشيء أو الإنسان.

«نصب»: جمع نصيب، والمراد منه هو ما ينصب كعلامة، وتطلق على الأصنام الحجرية إذ كانوا ينصبونها في مكان ما ليعبدوها ويُقدّم لها القرابين ثم يلطخون دماءها عليها.

«يوفضون»: من «إفاضة» وتعنى الحركة السريعة المشابهة لحركة الماء المنحدر من العين.

ثم تذكر الآيات حالات اخرى لهؤلاء فتضيف: «حَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ» (٢).

من شدة الهول والوحشة وقد غرقوا في ذلة مهينة.

وفي آخر الآية يتابع قوله: «ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ».

«نهاية تفسير سورة المعارج»

(١) «يخوضوا»: من أصل خوض - على وزن حوض - وتعنى في الأصل الحركة في الماء، ثم جاءت بصيغة الكناية في موارد يغطس فيه الإنسان في الباطل.

(٢) «ترهقهم»: من أصل «رهق» على وزن (سقف) ويراد به غشيان الشيء بقهر.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٩

## ٧١. سورة نوح

محتوى السورة: هذه السورة، كما هو واضح من اسمها، تشير إلى قصة نوح عليه السلام، واشير إلى قصة هذا النبي العظيم كذلك في سور متعددة في القرآن المجيد، منها: سورة الشعراء، والمؤمنون، والأعراف، والأنبياء، وبشكل أوسع في سورة هود.

وما جاء في سورة نوح عن قصته عليه السلام هو مقطع خاص من حياته، وهو أقل مما ذكر في بقية السور، وهذا القسم يرتبط بدعوته المستمرة والمتابعة إلى التوحيد، وترتبط بكيفيتها وعناصرها.

بلحاظ أن هذه السورة نزلت في مكة، وأن النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين القلائل في ذلك الزمان كانوا يعيشون ظروفًا مشابهة لظروف عصر نوح عليه السلام وأعوانه، فإنها تعلمهم أموراً كثيرة، وكانت هذه واحدة من أهداف إيراد هذه القصة، ومنها:

١- أنها تذكرهم كيف يبلغون الرسالة للمشركين عن طريق الاستدلال المنطقي المقترن بالمحبة والمودة، واستخدام كل طريقة تكون مفيدة ومؤثرة في الدعوة.

٢- أنها تعلمهم الثبات والنشاط في طريق الدعوة إلى الله وعدم التكاثر مهمات الأعوام، ومهما وضع الأعداء العوائق.

٣- أنها تعلمهم كيف يرغبونهم ويشجعونهم تارةً، وتكون لديهم عوامل الإنذار

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٠

والرهبة تارةً اخرى والاستفادة من كلا الطريقتين في الدعوة إلى الله جلّ وعلا.

٤- الآيات الأخيرة من هذه السورة هي تحذير للمشركين المعاندين، بأنّ عقابتهم وخيمته إذا لم يستسلموا للحق، وتخلّفوا عن أمر الله. فإنّ هذه السورة ترسم أبعاد الكفاح الدائم بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، ترسم منهج أصحاب الحق الذي يجب عليهم إتباعه. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرّكهم دعوة نوح».

ولا يخفى أنّ الهدف من قراءة السورة هو الإقتباس من منهج وسلوك هذا النبي العظيم، من صبره واستقامته في طريق الدعوة إلى الله تعالى ليدرّكوا دعوة النبي.

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَ أَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّزْكُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قلنا: إن هذه السورة تبين من أحوال نوح عليه السلام وما يرتبط بأمر دعوته، وتبدأ أولاً بذكره في بعثته عليه السلام فيقول تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

من الممكن أن يكون هذا العذاب الأليم هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، والأنسب أن يكون الإثنان معاً، وإن كانت القرائن في آخر آيات هذه السورة تشير إلى أنّ هذا العذاب هو عذاب الدنيا.

نوح عليه السلام الذي كان هو من اولى العزم، وصاحب أول شريعته إلهية، وله دعوة عالمية، جاء إلى قومه بعد صدور هذا الأمر إليه قال: «قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

الهدف هو أن تعبدوا الله الذي لا إله إلا هو، وتركوا من دونه، وتتقوا وتطيعوا أمرى الذي هو أمر الله: «أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا».

ثم ذكر النتائج المهمة المترتبة على استجابتهم الدعوة في جملتين لترغيبهم فقال: «يَغْفِرْ»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧١

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ».

ثم يضيف: «وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

يستفاد جيداً من هذه الآية أنّ «الأجل» وموعد عمر الإنسان قسماً، هما: الأجل المسمى والأجل النهائي. أو بعبارة اخرى: الأجل المعلق، والأجل الحتمى. القسم الأول للأجل قابل للتغير والتبديل، فقد يتدنى ويقل عمر الفرد كثيراً بسبب الذنوب والأعمال السيئة وهذا نوع من أنواع العذاب الإلهي، وبالعكس فإنّ التقوى وحسن العمل والتدبير يمكن أن تكون سبباً لتأخير الأجل، ولكن الأجل النهائي لا يتغير بأى حال من الأحوال.

وفى الروايات الإسلامية أيضاً تأكيد على هذا المعنى، منها ما ورد- فى الأمالى الشيخ الطوسى- عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممّن يعيش بالأعمار».

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا نُجَاتَهُمْ وَأَصْرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِشْرَارًا (٩) استخدام مختلف الوسائل لهدايتهم، ولكن: تتحدث هذا الآيات عن استمرار مهمّة نوح فى دعوته قومه ولكن هذه المرّة جاء الحديث على لسانه مخاطباً ربّه وشاكياً إليه أمره معهم بعبارة مؤثّرة بليغة. خطاب نوح عليه السلام فى هذا الإطار يمكن أن يعيد الطريق لكل



المبلغين الرسالين: «قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا».

وإنني لم أتوانى لحظة واحدة في إرشادهم وإبلاغ الرسالة لهم، ثم يقول: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا».

ومن العجيب أن تكون الدعوة سبباً لفرارهم، ولكن بما أن كل دعوة تحتاج إلى نوع من الاستعداد وصفاء القلب والتجاذب المتبادل فليس عجباً أن يكون هنا أثر معاكس في القلوب الخاملة.

ثم إن نوحاً عليه السلام يضيف: «وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَعْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصَافِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٢

ولكى لا يسمعوا صوت الحق كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم، ويلفون ثيابهم حول أنفسهم أو يضعونها على رؤوسهم لئلا تصل أمواج الصوت إلى أدمغتهم! وربما كانوا يتقنعون لئلا تقع أعينهم على الهيئة الملكوتية لهذا النبي العظيم، وكانوا يصرون على أن تتوقف الآذان عن السماع والعيون عن النظر.

هذه الآية يشير إلى أحد الأسباب المهمة لتعاستهم وهو الغرور والتكبر، فكان هذا الغرور والكبر أحد الموانع المهمة والدائمة في طريق الحق، ونحن نشاهد النتائج المشؤومة لذلك على طول التاريخ في حياة اناس لا إيمان لهم.

واستمر نوح عليه السلام في حديثه عند المقام الإلهي، فيقول: «ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا».

ثم لم أكتفى بهذا: «ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا».

كان صبره عجباً، والأعجب ما فيه رأفته، وكانت همته واستقامته الفريدة رأس ماله في السير في طريق الدعوة إلى دين الحق.

والأعجب من ذلك هو أن طيلة دعوته التي دامت (٩٥٠) عاماً لم يؤمن به إلا ثمانون شخصاً.

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ثمرة الإيمان في الدنيا: يستمر نوح عليه السلام في تبليغه المؤثر لقومه المعاندين العصاة، ويعتمد هذه المرة على عامل الترغيب والتشجيع، ويوعدهم بانفتاح أبواب الرحمة الإلهية من كل جهة إذا ما تابوا من الشرك والخطايا، فيقول: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا».

ولا يظهركم من الذنوب فحسب بل: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» (١).

ثم يضيف: «وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا». وبهذا فإنه وعدهم بنعمة معنوية كبيرة، وبخمس نعم أخرى مادية كبيرة، والنعمة المعنوية الكبيرة هي

(١) «مدراراً»: من أصل «در» وتعني في الأصل انسكاب الحليب من ثديي الام ويعطى معنى هطول الأمطار.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٣

غفران الذنوب والتطهير من درن الكفر والعصيان، وأما النعم المادية فهي هطول الأمطار المفيدة والمباركة في حينها، كثرة الأموال، كثرة الأولاد (الثروات الإنسانية)، الحداثق المباركة والأنهار الجارية.

نعم، إن الإيمان والتقوى يبعثان على عمران الدنيا والآخرة بشهادة القرآن المجيد.

ويعود نوح عليه السلام مرة أخرى لينذرهم، فيقول: «مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» (١). ولا تخافون عقابه وقد خلقكم في مراحل مختلفة. ويقول أيضاً: «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا».

كتم في البداية نطفة لا قيمة لها، ثم صوركم علقة ثم مضغ، ثم وهبكم الشكل الإنساني، ثم ألبسكم لباس الحياة، فوهب لكم الروح والحواس والحركة.

وليست أجسامكم هي المتغيرة فقط بل إن الروح هي أيضاً في تغير مستمر، لكل منكم استعدادة الخاص. وعلى هذا فإنه معكم في كل مكان هو يهديكم في كل خطوة ويشملكم بلطفه وعنايته، فلم كل هذا الكفران والاستهانة.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) كان نوح عليه السلام يبين للمشركين المعاندين حقائق عميقة ومستدلة، إذ كان يأخذ بهم إلى أعماق وجودهم ليشهدوا حقائق هذه الآيات (كما مر في الآيات السابقة) ودعاهم إلى ما خلق الله من علامات في هذا العالم الكبير، فكان يسير بهم إلى تلك الآفاق.

يبدأ أولاً بالسماء فيقول: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا».

«طباقاً»: مصدر من باب (مفاعلة) بمعنى «مطابقة»، وأحياناً تأتي بمعنى وضع الشيء فوق شيء آخر، وتأتي أحياناً أخرى بمعنى مطابقة ومماثلة شيئين أحدهما مع الآخر، والمعنيان يصدقان هنا.

(١) «الوقار»: الثقل والعظمة؛ و «ترجون»: من أصل رجاء بمعنى الأمل وهو ملازم للخوف، ومعنى الآية لماذا لاتخضعون لعظمة الله تعالى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٤

وعلى الإحتمال الثاني فإن القرآن يشير إلى مطابقة وتناسق السماوات السبع في النظم والعظمة والجمال. ثم يضيف: «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا».

التعبير بالسراج للشمس وبالنور للقمر هو أن نور الشمس ينشأ من ذاتها كالسراج، وأما نور القمر فإنه ليس من باطنه بل انعكاس لنور الشمس.

ثم يعود ذلك إلى الإنسان فيقول: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا».

التعبير ب «الإنبات»، في شأن الإنسان لأسباب؛ أولاً: خلق الإنسان الأول من التراب.

ثانياً: إن المواد الغذائية التي يتناولها الإنسان وبها ينمو ويحيا، هي من الأرض، فهو إما يتناول الخضار والحبوب الغذائية أو الفواكه مباشرة، أو بطريق غير مباشر كلحوم الحيوانات.

ثالثاً: هناك تشابه كبير بين الإنسان والنبات، وهناك كثير من القوانين التي يسرى حكمها على نمو وتغذية النباتات هي سارية أيضاً على الإنسان.

ثم يمضي إلى مسألة المعاد والتي كانت من المسائل المعقدة عند المشركين فيقول: «ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا».

كنتم في البدء تراباً، ثم تعودون إلى التراب ثانية، ومن كانت له القدرة على أن يخلقكم من التراب هو قادر على أن يحييكم بعد الموت.

ثم يعود مرة أخرى إلى آيات الآفاق وعلامات التوحيد في هذا العالم الكبير، ويتحدث عن نعم وجود الأرض فيقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا».

ليست هي بتلك الخشونة بحيث لا يمكنكم الانتقال والاستراحة عليها، وليست بتلك النعومة بحيث تغطسون فيها، وتفقدون القدرة على الحركة، مضافاً إلى ذلك فهي كالبساط الواسع الجاهز المتوفر فيه جميع متطلباتكم المعيشية.

وليست الأراضي المسطحة كالبساط الواسع فحسب، بل بما فيها من الجبال والوديان والشقوق المتداخلة بعضها فوق بعض والتي يمكن العبور من خلالها.

«لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا». «فجاج»: على وزن (مزاج)، وهو جمع فج، وبمعنى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٥

الوادي الفسيح بين الجبلين، وقيل الطريق الواسعة.

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسَارًا (٢١) وَ مَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) لطف الله معك: عندما رأى نوح عليه السلام عناد قومه وقد بذل في سبيل هدايتهم منتهى مساعيه التي طالت مئات السنين، وما كانوا يزدادون فيها لإفساداً وضلالاً، يشس منهم وتوجه إلى ربه ليناجيه ويطلب منه أن يعاقب قومه، كما نقرأ في هذه الآيات محل البحث:

«قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسَارًا».

تشير هذه الآية إلى أن رؤساء هؤلاء القوم يمتازون بكثرة الأموال والأولاد، ولكنها لا تستخدم لخدمة الناس بل للفساد والعدوان، ولا يخضعون لله تعالى، وهذه الإمتيازات الكثيرة سببت في طغيانهم وغيهم. ثم يضيف في قوله تعالى: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا».

إنهم كانوا يضعون خططاً شيطانية واسعة لتضليل الناس، ورفض دعوة نوح عليه السلام، ومن المحتمل أن يكون عبادة الأصنام واحدة من هذه الخطط والأساليب، وذلك طبقاً للروايات التي تشير إلى عدم وجود عبادة الأصنام قبل عصر نوح عليه السلام وأن قوم نوح هم الذين أوجدوها.

وتدل الآية الاخرى على هذا الأمر، إذ أنها تضيف بعد الإشارة إلى خفاء هذا المكر في قوله تعالى: «وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ».

ولا- تقبلوا دعوة نوح إلى الله الواحد، وغير المحسوس، وأكدوا بالخصوص على خمسة أصنام، وقالوا: «وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا».

ويستفاد من القرائن أن هذه الأصنام الخمسة لقيت عناية بالغه من القوم الظالمين، ولهذا كان رؤسائهم المستغلون لهم يعتمدون على عبادتهم لها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٦

ثم يضيف عن لسان نوح عليه السلام: «وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا».

المراد من زيادة الضلال للظالمين هو الدعاء بسلب التوفيق الإلهي منهم ليكون سبباً في تعاستهم، أو أنه دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم وظلمهم ويسلبهم نور الإيمان، ولتحل محلهم ظلمة الكفر. وبالتالي فإن الآية الأخيرة في البحث، يقول الله تعالى فيها: «مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا».

تشير الآية إلى ورودهم النار بعد الطوفان، ومما يثير العجب هو دخولهم النار بعد الدخول في الماء! وهذه النار هي نار البرزخ، لأن بعض الناس يعاقبون بعد الموت، وذلك في عالم البرزخ كما هو ظاهر في سياق بعض الآيات القرآنية، وكذا ذكرت الروايات أن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) على الفاسدين والمفسدين أن يرحلوا: هذه الآيات تشير إلى استمرار نوح عليه السلام في حديثه ودعائه عليهم فيقول تبارك وتعالى: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا».

دعا نوح عليه السلام بهذا الدعاء عندما يشس من هدايتهم بعد المشقة والعناء في دعوته إياهم، فلم يؤمن إلا قليل منهم.

والتعبير ب «على الأرض» يشير إلى أن دعوة نوح عليه السلام كانت تشمل العالم، وكذا مجيء الطوفان والعذاب بعده.

ثم يستدل نوح عليه السلام للعهن القوم فيقول: «إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عَنَّا ذَكَرَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا». وهذا يشير إلى أن دعاء الأنبياء ومن بينهم نوح عليه السلام لم يكن ناتجاً عن الغضب والانتقام والحقد، بل إنه على أساس منطقي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٧

«الفاجر»: يراد به من يرتكب ذنباً قبيحاً وشنيعاً.

«كفار»: المبالغ في الكفر.

والإختلاف بين هذين اللفظين هو أن أحدهما يتعلق بالجوانب العملية، والآخر بالجوانب العقائدية.

ثم يدعو نوح عليه السلام، لنفسه ولمن آمن به فيقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا».

طلب المغفرة هذا من نوح عليه السلام كأنه يريد أن يقول إنني وإن دعوت قومي مئات السنين ولقيت ما لقيت من العذاب والإهانة، ولكن يمكن أن يكون قد صدر مني الترك الأولى، فلذا أطلب العفو والمغفرة لا ابريء نفسي أمام الله تعالى.

«نهاية تفسير سورة نوح»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٩

## ٧٢. سورة سورة الجن

محتوى السورة: تتحدث هذه السورة حول نوع من الخلائق المستورين عن حواسنا وهم الجن، كما سميت السورة باسمهم، وأنهم يؤمنون بنبينا الأكرم صلى الله عليه و آله، وعن خضوعهم للقرآن وإيمانهم بالمعاد، وأن فيهم المؤمن والكافر وغير ذلك، وفي هذا القسم من السورة (١٩) آية من (٢٨) آية تصحح ما حُرّف من معتقدات حول الجن.

وهناك قسم آخر من السورة يشير إلى التوحيد والمعاد، والقسم الأخير يتحدث عن العلم الذي لا يعلمه إلا من شاء الله.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أكثر قراءة «قُلْ أُوحِيَ» لم يصبه في الحياة الدنيا شيء من أعين الجن، ولا من نفثهم، ولا من سحرهم، ولا من كيدهم، وكان مع محمد صلى الله عليه و آله فيقول: يا رب، لا اريد بهم بدلاً، ولا أريد بدرجتي حولاً».

وطبعاً التلاوة مقدمة وتمهيد لمعرفة محتوى السورة والتدبر بها، ثم العمل بما فيها.

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٠

سبب النزول

ما جاء في سبب نزول سورة الأحقاف في تفسير الآيات (٢٩-٣٢) مطابق لسبب نزول هذه السورة، ويدل على أن السورتين يتعلقان بحادثه واحدة، ونوضح سبب النزول باختصار كما يلي:

١- إن رسول الله صلى الله عليه و آله خرج من مكة إلى سوق عكاظ ومعه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام، فلم يجبه ولم يجد من يقبله، ثم رجع إلى مكة فلما بلغ موضعاً يقال له وادي مجنة تهجد بالقرآن في جوف الليل فمر به نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه و آله ... فأسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله صلى الله عليه و آله شرائع الإسلام «١».

٢- عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه و آله في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين

وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها، فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو بنخله عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فهناك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا \* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» (٢).

ولكن جاء في سبب نزول هذه السورة ما يخالف هذا المعنى، وهو أن علقمة بن قيس قال: قلت لعبدالله بن المسعود: من كان منكم مع النبي صلى الله عليه وآله ليلة الجن؟ فقال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا: اغتيل رسول الله صلى الله عليه وآله أو استطير. فانطلقنا نطلبه من الشعاب، فلقيناه مقبلاً من نحو حراء، فقلنا: يا رسول الله! اين كنت لقد أشفقنا عليك؟ وقلنا له: بنتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك! فقال لنا: «إنه أتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن» (٣).

(١) تفسير علي بن ابراهيم ٢/ ٢٩٩ و ٣٨٨.

(٢) في ظلال القرآن ٧/ ٤٢٩.

(٣) تفسير مجمع البيان ١٠/ ١٤٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨١

مختصر الامثل ج ٥ ٢٩٩

التفسير

القرآن العجيب: يقول الله تعالى: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا».

يعلم من مفهوم الآية أنّ للجن عقلاً وشعوراً وفهماً وإدراكاً، وأنهم مكلفون ومسؤولون، ولهم المعرفة باللغات ويفرقون بين الكلام الخارق للعادة بين الكلام العادي، وبين المعجز وغير المعجز، ويجدون أنفسهم مكلفين بإيصال الدعوة إلى قومهم، وأنهم هم المخاطبون في القرآن المجيد.

إنّ لهم الحق في أن يحسبوا هذا القرآن عجباً، وللجنة العجيب، ولجاذبية محتواه، ولتأثيره العجيب، ولمن جاء به والذي لم يكن قد درس شيئاً وقد ظهر من بين الاميين.

لقد تحدثوا لقومهم بحديث آخر تبينه السورة في (١٢) آية، وكل منها تبدأ ب (أن) وهي دلالة على التأكيد.

فيقول أولاً بأنهم قالوا: «يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا».

وبعد إظهار الإيمان ونفى الشرك بالله تعالى ينتقل كلامهم إلى تبيان صفات الله تعالى:

«وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا».

«جد»: لها معانٍ كثيرة في اللغة، منها: العظمة، والشدة، والجد، والقسمة، والنصيب. وأما المعنى الحقيقي فهو «القطع»، وتأتي بمعنى

«العظمة» إذا كان هناك كائن عظيم منفصل بذاته عن بقية الكائنات.

ثم قالوا: «وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا». أي أنّ سفهاءنا قالوا: إنّ لله زوجة وأطفالاً، واتخذ لنفسه شريكاً وشبيهاً، وإنه قد انحرف عن الطريق، وكان يقول شططاً.

واحتمل بعض المفسرين أنّ «السفيه» هنا له معنى انفرادي، والمقصود به هو «ابليس» الذي نسب إلى الله نسب ركيكة، وذلك بعد مخالفته لأمر الله.

ولمّا كان ابليس من الجن، وكان قد بدا منه ذلك، اشمأز منه المؤمنون من الجن واعتبروا ذلك منه شططاً، وإن كان عالماً وعباداً.

«شطط»: على وزن وسط، وتعنى الخروج والإبتعاد عن قول الحق.

ثم قالوا: «وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٢

لعل هذا الكلام اشارة إلى التقليد الأعمى للغير، حيث كانوا يشركون بالله وينسبون إليه الزوجه والأولاد، فهم يقولون: لقد كنا نصدقهم بحسن ظننا بهم ونقول بمقاتلتهم الخاطئة، وما كنا نظنهم يتجرؤون على الله بهذه الأكاذيب، ولكننا الآن نخطىء هذا التقليد المزيف لما عرفنا من الحق والإيمان بالقرآن، ونقر بما التبس علينا، بانحراف المشركين من الجن. ثم ذكروا إحدى الإنحرافات للجن والإنس وقالوا: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا».

«رهق»: على وزن (شفق) ويعنى غشيان الشيء بالقهر والغلبة، وفُسر بالضلال والذنب والطغيان والخوف الذى يسيطر على روح الإنسان وقلبه ويغشيه.

فإن للآية مفهوماً واسعاً، يشمل جميع أنواع الإلتجاء إلى الجن، والخرافة المذكورة هى مصداق من مصاديقها، وكان فى أوساط العرب كهنة كثيرين يعتقدون أن الجن باستطاعتهم حل الكثير من المشاكل وإخبارهم بالمستقبل.

يشير سياق الآية إلى استمرار حديث المؤمنين من الجن، وتبيان الدعوة لقومهم، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) ودعوتهم إلى الإسلام بالطرق المختلفة، فيقولون: «وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا».

لذا تبادروا لإنكار القرآن وتكذيب نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكننا عند سماعنا لآيات القرآن أدركنا الحقائق، فلا تكونوا كالإنس وتتخذوا طريق الكفر فتبتلوا بما ابتلوا به.

وهذا تحذير للمشركين ليفيقوا عند سماعهم لكلام الجن وتحكيمهم ولتمسكوا بالقرآن وبالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم يشيرون إلى علامة صدق قولهم وهو ما يدركه الجن فى عالم الطبيعة، فيقولون: «وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا» (١).

(١) «لمسنا»: من لمس، وتعنى هنا الطلب والبحث؛ و«حرس»: على وزن قفص، جمع حارس، وقيل اسم جمع لحارس، وتعنى الشديد الحفاظ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٣

وكنا فى السابق نسترق السمع من السماء ونحصل على أخبار الغيب ونوصلها إلى أصدقائنا من الإنس ولكننا منعنا من ذلك الآن: «وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا». أليس هذا الوضع الجديد دليل على حقيقة التغيير العظيم الحاصل فى العالم عند ظهور الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و كتاب الله السماوى، لماذا كانت لكم القدرة على استراق السمع والآن سلبت منكم هذه القدرة؟ أليس معنى هذا انتهاء عصر الشيطنة والكهانة والخداع، وانتهاء ظلمة الجهل بشروق شمس الوحي والنبوة.

ثم قالوا: «وَأَنَا لَأَنْدَرِي أَشَرُّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا». أى: مع كل هذا فإننا لا ندرى أكان هذا المنع من استراق السمع دليل على مكيدة تراد بأهل الأرض، أم أراد الله بذلك المنع أن يهديهم، وبعبارة أخرى أننا لا ندرى هل هذا هو مقدمه لنزول البلاء والعذاب من الله، أم مقدمه لهديتهم، ولكن لا يخفى على مؤمنى الجن أن المنع من استراق السمع الذى تزامن مع ظهور نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله هو مقدمه لهداية البشرية، وانحلال جهاز الكهانة والخرافات الاخرى، وليس هذا إلا انتهاء لعصر الظلام، وابتداء عصر النور.

ومع هذا، فإن الجن ولعلاقتهم الخاصة بمسألة استراق السمع لم يكونوا يصدقون بما في ذلك المنع من خير وبركة، وإلا فمن الواضح أن الكهنة في العصر الجاهلي كانوا يستغلون هذا العمل في تضليل الناس.

وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَا ظَنْنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) في هذه الآيات يستمر مؤمنو الجن في حديثهم وهم يبلغون قومهم الضالين فيقولون: «وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا».

ويحتمل أن يكون المراد من قولهم هذا هو أن وجود إبليس فيما بينهم قد أوجد شبهة لبعضهم، بأن الجن متطبع على الشر والفساد والشيطنة، ومحال أن يشرق نور الهداية في قلوبهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٤

ولكن مؤمنى الجن يوضحون في قولهم هذا أنهم يملكون الإختيار والحرية، وفيهم الصالح والطالح، وهذا يوفّر لهم الأرضية للهداية. ولهذه الآية تأثير في إصلاح ما اشتبه علينا نحن البشر في عقائدنا حول الجن، لأن كثير من الناس يتصورون أن لفظه الجن تعنى الشيطنة والفساد والضلال والانحراف، وسياق هذه الآية يشير إلى أن الجن فصائل مختلفة، صالحون وطالحون.

وفي إدامه حديثهم يحذرون الآخرين فيقولون: «وَأَنَا ظَنْنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا». وإذا كنتم تتصورون أنكم تستطيعون الفرار من الجراء وتلتجئون إلى زاوية من زوايا الأرض أو نقطة من نقاط السماوات فإنكم في غاية الخطأ.

وأضاف مؤمنو الجن في حديثهم قائلين: «وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ». وإذ ندعوكم لهدى القرآن فإننا ممن عمل بذلك أولاً، ولذا نحن لا ندعو الآخرين إلى أمر لم نكن فاعليه.

ثم بينوا عاقبة الإيمان فقالوا: «فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا».

إن المؤمنين مهما يعملوا من عمل كبيراً كان أو صغيراً فإنهم يستوفون اجور ذلك بلا نقص أو قلة.

وفي الآية الاخرى توضيح أكثر حول عاقبة المؤمنين والكافرين فيقولون: «وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا» (١).

«وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا».

والتعبير ب «تَحَرَّوْا رَشَدًا» يشير إلى أن المؤمنين إنما يتوجهون إلى الهدى بالتحقيق والتوجه الصادق، وجزاءهم الأوفى هو نيلهم الحقائق التي بظلمها ينالون النعم الإلهية.

وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا (١٦) لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا (١٩) الفتنة باغداق النعمة: إن سياق الآيات السابقة يشير إلى ثواب المؤمنين في يوم القيامة،

(١) «القاسط»: من أصل «قسط» وتعنى التقسيم العادل؛ فإن أنت على وزن (أفعال)، (أقسط) فإنها تعنى إجراء العدالة، وإذا استعملت بصورة الثلاثى المجرد كما فى هذه الآية فإنها تعطى معنى الظلم والانحراف عن سبيل الحق؛ و «تحرّوا»: من أصل «تحرى وتعنى توخاه وقصده.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٥

وفي هذه الآيات يتحدث عن ثوابهم الدنيوى فيقول: «وَأَلُو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا».

نزل عليهم مطر رحمتنا، ونذلل لهم منابع وعيون الماء الذى يهب الحياة وبوجود الماء يوجد كل شىء وعلى هذا فإننا نسلمهم بأنواع

النعم.

القرآن المجيد أكد ولعدّة مرات على أنّ الإيمان والتقوى ليست فقط منبعاً للبركات المعنوية، بل تؤدي إلى زيادة الأرزاق والنعم وال عمران، أي (البركة المادية).

الملاحظ حسب هذا البيان أنّ سبب زيادة النعمة هو الإستقامة على الإيمان، وليس أصل الإيمان، لأنّ الإيمان المؤقت لا يستطيع أن يظهر هذه البركات.

والآية الاخرى إشارة إلى حقيقة اخرى بنفس الشأن، فيضيف: «لَنُفِتِنَهُمْ فِيهِ».

ومن هنا يتضح أنّ وفور النعمة من إحدى الأسباب المهمة في الإمتحان الإلهي، وما يتفق عليه هو أنّ الإختبار بالنعمة أكثر صعوبة وتعقيداً من الإختبار بالعذاب، لأنّ طبيعة ازدياد النعم هو الإنحلال والكسل والغفلة، والغرق في الملذات والشهوات، وهذا ما يبعد الإنسان عن الله تعالى ويهيء الأجواء لمكائد الشيطان، والذين يستطيعون أن يتخلصوا من شرك النعم الوافرة هم الذاكرون لله على كل حال، غير الناسين له تعالى.

ولذا يضيف تعقياً على ذلك: «وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا».

«صعد»: على وزن (سفر) وتعنى الصعود إلى الأعلى، وأحياناً الشعب المتعرجة في الجبل، وبما أنّ الصعود من الشباب المتعرجة عمل شاق، فإنّ هذه اللفظة تستعمل بمعنى الامور الشاقة.

ولكن، مع أنّ التعبير أعلاه يبيّن كون هذا العذاب شاقاً شديداً فإنّه يحتمل أن يشير إلى اليوم الطويل، وعلى هذا الأساس فإنّه يبيّن في الآيات أعلاه رابطة الإيمان والتقوى بكثرة النعم من جهة، ورابطة كثرة النعم بالاختبارات الإلهية من جهة اخرى ورابطة الإعراض عن ذكر الله تعالى بالعذاب الشاق الطويل من جهة ثالثة.

وقال مؤمنو الجن في الآية الاخرى وهم يدعون إلى التوحيد: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».

المراد بالمساجد هي المواطن التي يُسجد فيها لله تعالى كالمسجد الحرام وبقية المساجد، وبشكل أعم هي الأرض التي يصلّى فيها ويسجد عليها، وهو مصداق قول الرسول

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٦

الأكرم صلى الله عليه وآله: «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» «١». وهذا ردّ لمن اتّخذ الأصنام والأوثان للعبادة فأشرك بالله، ومن اتّخذ الكعبة معبداً للأصنام، أو انصرف إلى إحياء الطقوس المسيحية حيث (التثليث) أو عبد الأرباب الثلاثة في الكنائس والله تعالى يقول: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».

ويضيف في إدامة الآية بياناً عن التأثير غير العادى للقرآن المجيد وقيام الرسول للدعاء فيقول: «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا». أى: عندما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم للصلاة، فإنّ طائفة من الجن كانوا يجتمعون عليه بشكل متزاحم.

«البد»: على وزن (فعل) وتعنى الأشياء المجتمعة المتراكمة، وهذا التعبير بيان لتعجب الجن ممّا يشاهدونه من عبادته وقراءته صلى الله عليه وآله قرآناً لم يسمعوا كلاماً يماثله.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْخَرُونَ مِمَّنْ أَوْصَفُوا نَاصِرًا وَاقِفًا وَعَدَدًا (٢٤) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَ: «قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا».

وذلك لتقوية قواعد التوحيد، ونفى كل أنواع الشرك، كما مرّ في الآيات السابقة.



ثم يأمره أن: «قُلْ إِنِّي لَأَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا».

ثم يضيف: قل لهم بأنى لو خالفت أمر الله تعالى فسوف يحق بي العذاب أيضاً ولن يستطيع أحد أن ينصرنى أو يدفع عني عذابه: «قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا».

وعلى هذا الأساس لا يستطيع أحد أن يجبرني منه تعالى ولا شيء يمكنه أن يكون لي ملجأ وهذا الخطاب يشير من جهة إلى الإقرار الكامل بالعبودية لله تعالى، وإلى نفى كل أنواع الغلو في شأن النبي صلى الله عليه وآله من جهة أخرى، ويشير من جهة ثالثة إلى أن الأصنام ليس

(١) وسائل الشيعة ٢/ ٩٧٠/ ٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٧

فقط لا- تنفع ولا- تحمي، بل إن نفس الرسول أيضاً مع ما له من العظمة لا يمكنه أن يكون له ملجأ من عذاب الله، وينهى من جهة الذرائع والآمال للمعاندين الذين كانوا يطلبون من النبي صلى الله عليه وآله أن يريهم المعاجز الإلهية، ويثبت أن التوسل والشفاعة أيضاً لا يتحققان إلا بإذنه تعالى.

ويضيف في الآية الأخرى: «إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ».

وقد مر ما يشابه هذا التعبير مراراً في آيات القرآن الكريم، كما في الآية (٩٢) من سورة المائدة: «أَنَّمَا عَلَيَّ رِسُولُنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ». وكذا في الآية (١٨٨) من سورة الأعراف: «قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

ويحذر في نهاية الآية فيقول: «وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا».

الواضح أن المراد فيها ليس كل العصاة، بل المشركون والكافرون لأن مطلق العصاة لا يخلدون في النار.

ثم يضيف: «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا».

إن سياق هذه الآية يشير إلى أن أعداء الإسلام كانوا يتجحون بقدرات جيوشهم وكثرة جنودهم أمام المسلمين ويستضعفونهم، لهذا كان القرآن يواسيهم - المسلمين - ويبرهم بأن العاقبة ستكون بانتصارهم وخسران عدوهم.

قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيُعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) اللَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ: لقد تبين في الآيات السابقة حقيقة أن العصاة يبقون على عنادهم واستهزائهم حتى يأتي وعد الله بالعذاب، وهنا يطرح السؤال، وهو: متى يتحقق وعد الله؟

وقد أجاب القرآن على ذلك فقال: «قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٨

هذا العلم يخص ذاته المقدسة تعالى شأنه، وأراد أن يبقى مكتوماً حتى عن عباده المؤمنين، ليتحقق الاختبار الإلهي للبشرية، وإلا فلن يؤثر الاختبار.

فإننا كثيراً ما نواجه مثل هذه المعاني في آيات القرآن، وعندما يسأل الرسول صلى الله عليه وآله عن يوم القيامة يجيب بأنه ليس له علم بذلك، وأن علمه عند الله. ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد أخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنه فما أعددت لها؟ قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، قال صلى الله عليه وآله: «فأنت مع من أحببت».

قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث «١».

ثم يبين في هذا الحديث قاعده كليه بشأن علم الغيب فيقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا».

ثم يضيف مستثنياً: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ». أى يبلغه ما يشاء عن طريق الوحي الإلهي: «فَأِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا». «رصد»: فى الأصل مصدر، ويراد به الإستعداد للمراقبة من شيء؛ ويراد به هنا الملائكة الذين يبعثهم الله مع الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليحيطوه من كل جانب، ويحفظوا الوحي من شرّ شياطين الجن والإنس ووساوسهم ومن كل شيء يخدش أصالة الوحي، ليوصلوا الرسالات إلى العباد، وهذا هو دليل من الأدلة على عصمة الأنبياء عليهم السلام المحفوظين من الزلات والخطايا بالإمداد الإلهي والقوة الغيبية، والملائكة.

فى بحثنا للآية الأخيرة التى تنهى السورة تبيان لدليل وجود الحراس والمراقبين فيقول:

«لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلَعُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا».

المراد من العلم هنا هو العلم الفعلى، وبعبارة اخرى ليس معنى الآية أنّ الله ما كان يعلم عن أنبيائه شيئاً ثم علم، لأنّ العلم الإلهي أزلّ وأبدى وغير متناه، بل إنّ المراد هو تحقق العلم الإلهي فى الخارج، ويتخذ لنفسه صورة عينيه واضحة، أى ليتحقق إبلاغ الأنبياء ورسالات ربهم ويتمموا الحجة بذلك.

(١) تفسير المراغى ٢٩ / ١٠٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٩

بحثان

١- تحقيق موسّع حول علم الغيب: من خلال التمعن فى الآيات المختلفة للقرآن الكريم يتضح لنا أنّ الآيات المتعلقة بعلم الغيب قسماً:

القسم الأول: ما يتعلق بذاته جلّ شأنه ولا يعلمه إلّا هو، كما فى الآية (٥٩) من سورة الأنعام: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ». والآية (٥٠) من سورة الأنعام: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

القسم الثانى: يطرح بوضوح إطلاع أولياء الله على الغيب، كما فى الآية (١٧٩) من سورة آل عمران: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

ونقرأ فى معجز المسيح عليه السلام كما فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران: «وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ».

والآية السابقة مورد البحث أيضاً تشير إلى أنّ الله تعالى يهب العلم لمن يرتضيه من رسله، ومن جهة اخرى فإنّ الآيات التى تشمل الأخبار الغيبية ليست بقليلة. كآيات (٢-٤) من سورة الروم: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَ يُغْلَبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ».

ومن المعروف أنّ الوحي السماوى الذى يهبط على الرسل هو نوع من الغيب الذى أطلعهم الله عليه، فكيف يمكن أن ننفي إطلاعهم بالغيب فى الوقت الذى يهبط عليهم الوحي.

بالإضافة إلى ذلك كله فإنّ هناك روايات كثيرة تدل على أنّ النبى صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام مطّلعون على الغيب، ويخبرون به أحياناً.

وكذلك إخباره صلى الله عليه وآله بحوادث معركة مؤتة، واستشهاد جعفر الطيار رضى الله عنه وبعض القادة المسلمين، فى الوقت الذى كان الرسول صلى الله عليه وآله يطلع الناس على ذلك فى المدينة «١». والأمثلة على ذلك ليست قليلة فى حياة النبى صلى الله عليه وآله.

وورد في نهج البلاغة أيضاً أخبار كثيرة سابقة لأوانها تشير إلى حوادث مستقبلية، أخبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام، مما يدل على اطلاعه بأسرار الغيب، كما جاء في الخطبة (١٣) في

(١) الكامل في التاريخ ١١٢ / ٢ (ذكر غزوة مؤتة).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٠

ذمه أهل البصرة حيث يقول: «كأنني بمسجدكم كجؤجؤ لسفينته قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها». وما قاله كميل بن زياد للحجاج أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبرني بأنك قاتلي «١». أما كيف نجمع بين هذه الآيات والروايات التي ينفي بعضها علم الغيب لغير الله وإثبات البعض الآخر لغيره تعالى؟ هناك طرق مختلفة للجمع بينها:

١- أشهر طرق الجمع هو أن المراد من اختصاص علم الغيب بالله تعالى هو العلم الذاتي والإستقلالي، ولهذا لا يعلم الغيب إلهو، وما يعلمونه فهو من الله، وذلك بلطفه وعنايته.

٢- أسرار الغيب قسمان: قسم خاص بالله عز وجل لا يعلمه إلهو كقيام الساعة، وغيرها مما يشابه ذلك، والقسم الآخر علمه الأنبياء والأولياء، كما جاء في الخطبة (١٢٨) نهج البلاغة حيث يقول على عليه السلام: «وإنما علم الغيب علم الساعة، وما عدده الله سبحانه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا آتَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِمَا تَأْتِي أَرْضٌ تَمُوتُ» الآية. ثم أضاف الإمام عليه السلام في شرح هذا المعنى:

«فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو انثى وقبيح أو جميل، وسخى أو بخيل، وشقى أو سعيد، ومن يكون في النار حطباً، أو في الجنان للتبئين مرافقاً فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه».

يمكن لبعض الناس أن يعلموا بزمان وضع الحمل أو نزول المطر ومثل ذلك علماً إجمالياً، وأما العلم التفصيلي والتعرف على هذه الامور فهو خاص بذات الله تعالى المقدسة وإن علمنا بشأن يوم القيامة هو علم إجمالي ونجهل جزئيات وخصوصيات يوم القيامة. وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله أو الأئمة المعصومون عليهم السلام قد أخبروا البعض في أحاديثهم عن يولد أو عمن ينقضى عمره، فذلك يتعلق بالعلم الإجمالي.

٣- والطريق الآخر هو أن الله تعالى يعلم بكل أسرار الغيب، وأما الأنبياء والأولياء فإنهم لا يعلمونها كلها، ولكنهم إذا ما شاءوا ذلك أعلمهم الله تعالى بها، وبالطبع هذه الإرادة لا تتم إلا بإذن الله تعالى.

ومحصلة ذلك أن الآيات والروايات التي تقول إنهم لا يعلمون بالغيب هي إشارة إلى

(١) الإصابة لابن حجر ٤٨٦ / ٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩١

عدم المعرفة الفعلية، والتي تقول إنهم يعلمون تشير إلى إمكان معرفتهم لها.

٢- تحقيق حول خلق الجن: الجن كما جاء في المفهوم اللغوي هو نوع من الخلق المستور، وقد ذكرت له مواصفات كثيرة في القرآن؛ منها:

١- إنهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان المخلوق من التراب؛ كما نقرأ في الآية (١٥) من سورة الرحمن: «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ».

٢- إنهم يمتلكون الإدراك والعلم والتمييز بين الحق والباطل والقدرة على المنطق والإستدلال؛ كما هو واضح من آيات سورة

(الجن).

٣- إنهم مكلفون ومسؤولون؛ كما في آيات سورة الجن والرحمن.

٤- وفيهم المؤمنون والصالحون والطالحون؛ كما نقرأ في الآية (١١) من سورة الجن: «وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ».

٥- إنهم يحشرون وينشرون؛ كما نقرأ في الآية (١٥) من سورة الجن: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا».

٦- لهم القدرة على النفوذ في السماوات وأخذ الأخبار واستراق السمع، ولكنهم منعوا من ذلك فيما بعد؛ كما نقرأ في الآية (٩) من سورة الجن: «وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا».

٧- كانوا يوجدون ارتباطاً مع بعض الناس لإغوائهم بما لديهم من العلوم المحدودة التابعة إلى بعض الأسرار الروحية؛ كما نقرأ في الآية (٦) من سورة الجن: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا».

٨- ويوجد فيهم من يتمتع بالقدرة الفائقة، كما هو موجود في أوساط الإنس؛ كما نقرأ في الآية (٣٩) من سورة النمل: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ».

٩- لهم القدرة على قضاء بعض الحوائج التي يحتاجها الإنسان؛ كما نقرأ في الآيات (١٢ و ١٣) من سورة سبأ: «وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ يَعْمَلُونَ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ».

١٠- إن خلقهم كان قبل خلق الإنسان؛ كما نقرأ في الآية (٢٧) من سورة الحجر:

«وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ». ولهم خصائص اخرى.

إلى هنا كان الحديث عن امور تستفاد من القرآن المجيد حول هذا الخلق المستور والخالية

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٢

من كل الخرافات والمسائل غير العلمية، ولكننا نعلم أن السذج والجهلاء ابتدعوا خرافات كثيرة فيما يخص هذا الكائن بما يتنافى مع العقل والمنطق، منها ما نسب إليهم الأشكال الغريبة والعجيبة والمرعبة، وأنهم موجودات سامة وذوات أذنان مؤذية، ومبغضة، سيئة التصرف والسلوك، وأوهام اخرى من هذا القبيل، في حين أن أصل الموضوع إذا تم تطهيره من هذه الخرافات يكون قابلاً للقبول. ومن جهة اخرى، ليس هناك دليل عقلي على عدم وجود الجن، ولهذا لا بد من الإعتقاد بهم، وتجنب الأقوال التي لا تليق بهم كما في خرافات العوام.

ومما يلاحظ أيضاً أن لفظ الجن يطلق أحياناً على مفهوم أوسع يشمل أنواعاً من الكائنات المستورة أعم من الكائنات ذوات العقل والإدراك والفاقده لهما، وحتى مجاميع الحيوانات التي ترى بالعين والمختفية في الأوكار أيضاً، والدليل على ذلك روايات وردت عن النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: «خلق الله الجن خمسة أصناف: صنف كالريح في الهواء، وصنف حيات، وصنف عقارب، وصنف حشرات الأرض، وصنف كبنى آدم عليهم الحساب والعقاب» (١).

«نهاية تفسير سورة الجن»

(١) بحار الأنوار ٦٠ / ٢٦٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٣

## ٧٣. سورة المزمل

محتوى السورة: يمكن أن نقسم مباحث السورة في خمسة أقسام:

١- الآيات الأولى للسورة والتي تأمر النبي صلى الله عليه وآله بقيام الليل والصلاة فيه، ليستعد بذلك لنقل ما سيلقى عليه من القول

الثقيل.

٢- يأمره صلى الله عليه وآله بالصبر والمقاومة ومداراة المخالفين.

٣- بحوث حول المعاد، وإرسال موسى بن عمران إلى فرعون وذكر عذابه الأليم.

٤- فيه تخفيف لما ورد في الآيات الأولى من الأوامر الشديدة عن قيام الليل، وذلك بسبب محنة المسلمين والشدائد المحيطة بهم.

٥- والقسم الأخير من السورة يعود ليدعو إلى تلاوة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإنفاق في سبيل الله والإستغفار.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة المزمل رفع عنه العسر في الدنيا والآخرة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ومن قرأ سورة المزمل في العشاء الآخرة، أو في آخر الليل كان له الليل والنهار شاهدين مع السورة، وأحياه الله حياة طيبة وأماته ميتة طيبة».

ومن الطبيعي أن هذه الفضائل لا بد أن تكون ملازمة مع قيام الليل وقراءة القرآن والصبر والإستقامة والإيثار والإنفاق العملي، وليس بالتلاوة الخالية من العمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٤

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)

يشير سياق الآيات كما بينا إلى دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله للإستقامة والإستعداد لقبول مهمة كبيرة وثقيلة، وهذا لا يتم إلا بالبناء المسبق للذات، فيقول: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا\* نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا\* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» (١). إن هذا ليس زمان التزمل والإنزواء، بل زمان القيام والبناء الذاتي والإستعداد لأداء الرسالة العظيمة.

واختيار الليل لهذا العمل أولاً: لأن أعين الأعداء نائمة؛ وثانياً: تتعطل الأعمال والمكاسب، ولهذا فإن الإنسان يستعد للتفكير ولتربية النفس.

وكذلك اختيار القرآن لأن يكون المادة الأولى في البرنامج العبادي في الليل إنما هو لإقتباس الدروس اللازمة في هذا الباب، وهو يعد من أفضل الوسائل لتقوية الإيمان والإستقامة والتقوى وتربية النفوس.

والتعبير بالترتيل الذي يراد به التنظيم والترتيب الموزون هنا هو القراءة بالتأني والإنتظام اللازم، والأداء الصحيح للحروف، وتبيين الحروف، والتأمل في مفاهيم الآيات، والتفكير في نتائجها. والروايات التي وردت في تفسير الترتيل كلها تشير إلى ضرورة التمعن في كلمات القرآن، والتدبر فيها وتذكر بأن القرآن هو خطاب الله تعالى للإنسان.

ولكن للأسف إن الكثير من المسلمين ابتعدوا عن هذا الواقع، واكتفوا بالتلفظ وغدا همهم ختمه، من دون الإهتمام بمعرفة سبب نزوله ومحتواه! صحيح أن ألفاظ القرآن عظيمة ولقراءتها فضيلة، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه الألفاظ وتلاوتها هي مقدمة لبيان المحتوى.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل الله عز وجل الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار».

ثم يبين الهدف النهائي لهذا الأمر المهم والشاق فيقول: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا».

(١) «مزمل»: أصلها متزمل، وهي من التزمل، وتعني لف الثوب على نفسه، ولهذا جاء لفظ التزمل، أي المصاحب والرفيق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٥

إن ثقل القول يراد به القرآن المجيد بأبعاده المختلفة ... ثقيل بلحاظ المحتوى ومفاهيم الآيات.

ثقل بلحاظ حمل القلوب له لما يقوله القرآن: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» (١).

ثقل بلحاظ التبليغ ومشاكل طريق الدعوة.

وثقل في ميزان العمل وفي عرصه القيامة.

ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه القلائل استطاعوا أن يتغلبوا على كل تلك هذه المشاكل باستمدادهم من تربية القرآن، والإستعانة بصلاة الليل، وبالاستفادة من قربهم من ذات الله المقدسه، واستطاعوا بذلك حمل هذا القول الثقيل والوصول إلى مرادهم.

بحث

فضيلة صلاة الليل: هذه الآيات تبين أهمية إحياء الليل بالعبادة وقراءة القرآن عندما يكون الغافلون نياماً، فإنَّ العبادة في الليل وبالخصوص عند السحر لها الأثر البالغ في تصفية الروح وتهذيب النفوس والتربية المعنوية للإنسان وطهارة القلب وإيقاظه، وكذا في تقوية الإيمان والإرادة، وتوكيد أركان التقوى في الروح والقلب، ويمكن لمس ذلك بمجرد الاختبار مرّة واحدة، وقد أكّدت الروايات على ذلك بالإضافة إلى ما ذكرته الآيات القرآنية. منها ورد- في أمالي الطوسي- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّ من روح الله تعالى ثلاثة: التهجد بالليل، وإفطار الصائم، ولقاء الإخوان».

تأثير الدعاء والمناجاة في أعماق الليل: تستمر هذه الآيات في البحث حول عبادة الليل والتعاليم المعنوية الموجودة قراءة القرآن في الليل، وهي بمنزلة بيان الدليل على ما جاء في الآيات السالفة، فيقول تعالى: «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً».

(١) سورة الحشر / ٢١. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٦

«الناشئة»: من مادة «نشأ» وتعني الحادثة، وقد ذكر هنا ثلاثة تفاسير لما يراد منها.

الأول: المراد به ساعات الليل الحادثة بالتوالي.

والثاني: إنَّ المراد هو إحياء الليل بالصلاة والعبادة وقراءة القرآن.

والثالث: الحالات المعنوية والروحية والنشاط والجذوة الملكوتية التي تحصل في القلب الإنسان وروحه في هذه الساعات الخاصية بالليل، والتي تكون آثارها في روح الإنسان أعمق واستمرارها أكثر، والتفسيران الثاني والثالث متلازمان، ويمكن جمعها في ما يراد بمعنى الآية.

والتعبير ب «أَشَدُّ وَطْأً»: التأثيرات الثابتة والراسخة الحاصلة من شعاع هذه العبادات في روح الإنسان.

«أقوم»: من القيام، ويراد بكونها أثبت للقول وأصوب لحضور القلب.

«قيلًا»: تعني القول، وتشير هنا إلى ذكر الله وقراءة القرآن.

إنَّ هذه الآية من الآيات التي تحتوى على أبلغ الأحاديث حول العبادة الليلية، ورمز إظهار المحبة مع المحبوب في ساعات يختلج فيها الحبيب بحبيبه وأكثر من غيرها.

ويضيف في الآية الاخرى: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا».

أى إنَّك مشغول بهداية الخلق وإبلاغ الرسالة وحل المشاكل المتنوعة، ولا مجال لك بالتوجه التام إلى ربك والإنقطاع إليه بالذکر، فعليك بالليل والعبادة فيه.

وهناك معنى أدق وتفسير يناسب الآيات السابقة أيضاً هو: إنَّك تتحمل في النهار مشاغل ثقيلة ومساعي كثيرة، فعليك بعبادة الليل لتقوى بها روحك وتستعد للفعاليات والنشاطات الكثيرة في النهار.

وبعد الإشارة إلى العبادة الليلية، والإشارة الإجمالية إلى آثارها العميقة يذکر القرآن بخمسة أوامر اخرى مكمله لتلك فيقول: «وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ».

والطبيعي أن المراد ليس ذكر الإسم فحسب، بل التوجه إلى المعنى، لأن الذكر اللفظي مقدمه للذكر القلبي، والذكر القلبي يبعث على صفاء القلب والروح ويروى منه المعرفة والتقوى في القلب.

ويقول في الأمر الثاني: «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا».

«التبتل»: من «البتل» على وزن (حتم)، وتعني في الأصل الإنقطاع، ولهذا سميت «مريم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٧

العذارى عليها السلام» بالبتول، لأنها لم تتخذ لنفسها زوجاً وسميت الزهراء عليها السلام بالبتول لأنها كانت أفضل نساء عصرها في السيرة والسلوك، وكانت بالغة درجة الإنقطاع إلى الله تعالى.

فالتبتل هو التوجه القلبي التام إلى الله تعالى، والإنقطاع عن غيره إليه تعالى، والإتيان بالأعمال الخالصة لله، وكذا الخلوص له تعالى.

ثم ينتهي إلى الأمر الثالث فيقول: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَأ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا».

وهنا تأتي مسألة إيداع الامور إلى الله، وذلك بعد مرحلة ذكر الله والإخلاص، إيداع الامور للرب الذي بيده الحاكمية والربوبية على المشرق والمغرب والمعبود الوحيد المستحق للعبادة، وهذا التعبير في الحقيقة هو بمنزلة الدليل على موضوع التوكل على الله، فكيف لا يتوكل الإنسان عليه، ولا يودعه أعماله، وليس في العالم الواسع من حاكم وآمر ومنعم ومولى ومعبود غيره؟

وبالتالي يقول في الأمر الرابع والخامس: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا».

ويأتي هنا مقام الصبر والهجران، لكثرة إتهامات الأعداء وإيذاءهم له في طريق الدعوة إلى الله، فالفلاح إذا أراد قطف الورد، عليه أن يصبر ويتحمل أذى الأشواك، مضافاً إلى ذلك يلزم الإبتعاد عنهم وهجرانهم أحياناً، وليبقى في مأمن من شرهم، ويعطيهم بذلك درساً بالغا، ولا يعني ذلك قطع سبل التربية والتبليغ والدعوة إلى الله.

يقول الطبرسي رحمه الله في تفسير مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث: وفي هذا دلالة على وجوب الصبر على الأذى لمن يدعو إلى الدين والمعاشرة بأحسن الأخلاق، واستعمال الرفق ليكونوا أقرب إلى الإجابة.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٨

أشارت الآية الأخيرة من الآيات السابقة إلى أقوال المشركين البذيئة، وعدائهم وإيذائهم للنبي صلى الله عليه وآله، أما في هذه الآيات فإن الله تعالى يهددهم بالعذاب الأليم، ويدعوهم إلى ترك ما هم عليه، ويواسى المؤمنين الأوائل، فيقول تعالى شأنه: «وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا». أي دعني وإياهم، واترك عقابهم لي ومهلهم قليلاً. لتتم الحجة عليهم ولتظهر ماهيتهم الحقيقية، ويُثقلوا ظهورهم بالخطايا فعندها يحلّ عليهم غضبي.

ولم يمض كثير حتى ازدادت شوكة المسلمين، ووجهوا ضرباتهم القوية لأعداء الرسالة، وذلك في معارك بدر وحنين والأحزاب، وبالتالي كان العذاب الإلهي ينتظرهم في البرزخ، حتى يخلدوا بعد ذلك في النار في يوم القيامة.

ثم يقول مصرحاً: «إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا».

«الأنكال»: جمع (نكل)، على وزن (فكر) وهي السلاسل الثقالة، وأصلها من نكول الضعف والعجز، أي أن الإنسان يفقد الحركة بتقييد أعضائه بالسلاسل.

نعم، لقد تنعموا في الدنيا وأخذوا حريرتهم المطلقة، ولهذا لابد لهم من القيود والنار.

وكذا يضيف: «وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا».

هذا مصير من كان يتلذذ بالطعام بعكس ما كان طعامهم فى الدنيا الحرام، حيث العذاب الأليم، ولما تمتع به المغرورون والمستكبرون من الراحة غير المشروعة فى هذه الدنيا، والطعام الموصوف بالغصة هو بحد ذاته عذاب أليم، ثم يتبع ذلك بذكر العذاب الأليم على أفراد، وهذا يشير إلى أن أبعاد العذاب الاخرى لا يعلم شدته وعظمته إلا الله تعالى، ولهذا ورد فى حديث أن النبي صلى الله عليه و آله سمع قارئاً يقرأ هذه فصعق «١».

ثم يشرح ما يجرى فى ذلك اليوم الذى يظهر فيه هذا العذاب فيقول: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا». «الكثيب»: يراد به الرمل المتراكم؛ و «المهيل»: من هيل - على وزن كيل - هو صب شىء ناعم كالرمل على شىء، ويراد بالمعنى هنا الرمل الناعم وما لا يستقر، والمعنى أن الجبال تتلاشى بحيث تظهر بهيئة الرمل الناعم، وإذا ما ديست بالأقدام فإنها تطمس فيها. ثم يقارن بين بعثة النبي صلى الله عليه و آله ومخالفة الأشداء العرب، وبين نهوض موسى بن عمران بوجه الفراعنة فيقول تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا».

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/١٦٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٩

إن هدف النبي صلى الله عليه و آله هدايتكم والإشراف على أعمالكم كما كان هدف موسى عليه السلام هداية فرعون وأتباعه والإشراف على أعمالهم.

لم يكن جيش فرعون مانعاً من العذاب الإلهي، ولم تكن سعة مملكتهم وأموالهم و ثراؤهم سبباً لرفع هذا العذاب، ففى النهاية اغرقوا فى أمواج النيل المتلاطمة إذ أنهم كانوا يتباهون بالنيل، فبماذا تفكرون لأنفسكم وأنتم أقل عدده وعداداً من فرعون وأتباعه وأضعف؟ وكيف تغترون بأموالكم وأعدادكم القليلة؟!

«الويل»: من «الويل» ويراد به المطر الشديد والثقيل، وكذا يطلق على كل ما هو شديد وثقيل بالخصوص فى العقوبات، والآية تشير إلى شدة العذاب النازل كالمطر.

ثم وجه الحديث إلى كفار عصر نبي الأكرم صلى الله عليه و آله ويحذرهم بقوله: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا». فى الآية الاخرى يبين وصفاً أدق لذلك اليوم المهول فيضيف: «السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا».

فما حيلة الإنسان الضعيف العاجز عندما يرى تفطر السماوات بعظمتها لشدة ذلك اليوم؟!

وفى النهاية يشير القرآن إلى جميع التحذيرات والإنذارات السابقة فيقول تعالى: «إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ». إنكم مخيرون فى اختيار السبيل «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا». ولا - فضيلة فى اتخاذ الطريق إلى الله بالإجبار والإكراه، بل الفضيلة أن يختار الإنسان السبيل بنفسه وبمحض إرادته.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصِيفَهُ وَتُلْتَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُضَرِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمٌ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمٌ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٠

مختصر الامثل ج ٥ ٣٣٢

فاقرؤوا ما تيسر من القرآن: هذه الآية هى من أطول آيات هذه السورة وتشتمل على مسائل كثيرة، وهى مكمله لمحتوى الآيات



السابقة، فيقول تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

الآية تشير إلى نفس الحكم الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وآله في صدر السورة من قيام الليل والصلاة فيه، وما اضيف في هذه الآية هو اشتراك المؤمنين في العبادة مع النبي صلى الله عليه وآله (بصيغة حكم استجابي أو باحتمال حكم وجوبي)، لأن ظروف صدر الإسلام كانت تتجاوب مع بناء ذواتهم والاستعداد للتبليغ والدفاع عنه بالدروس العقائدية المقتبسة من القرآن المجيد، وكذا بالعمل والأخلاق وقيام الليل، ولكن يستفاد من بعض الروايات أن المؤمنين كانوا قد وقعوا في إشكالات ضبط الوقت للمدة المذكورة (الثلث والنصف والثلثين) ولذا كانوا يحتاطون في ذلك، وكان ذلك يستدعي إستيفاظهم طول الليل والقيام حتى تتورم أقدامهم، ولذا بُني هذا الحكم على التخفيف، فقال: «عَلِمَ أَن لَّنْ نُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ».

ثم يبين دليلاً آخرًا للتخفيف فيضيف تعالى: «عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَصُورُونَ فِي الْبَارِئِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وءَاخِرُونَ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وهذا تخفيف آخر كما قلنا في الحكم، ولذا يكرر قوله: «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

والواضح أن المرض والأسفار والجهاد في سبيل الله ذكرت بعنوان ثلاثة أمثلة للأعذار الموجهة ولا تعني الحصر، والمعنى هو أن الله يعلم أنكم سوف تلاقون كثيراً من المحن والمشاكل الحياتية، وبالتالي تؤدي إلى قطع المنهج الذي امرتم به، فلذا خفف عليكم الحكم.

إن وجوب القراءة في صدر الإسلام لوجود الظروف الخاصة لذلك، واعطى التخفيف بالنسبة للمقدار والحكم، وظهر الإستحباب بالنسبة للمقدار الميسر.

يستفاد من الروايات الإسلامية إن فضائل قراءة القرآن في حسن القراءة والتدبر والتفكير فيها. وفي تفسير مجمع البيان: روى عن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن جده صلى الله عليه وآله قال:

«ما تيسر منه لكم فيه خشوع القلب وصفاء السر».

ثم يشير إلى أربعة أحكام أخرى، وبهذه الطريقة يكمل البناء الروحي للإنسان فيقول:

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَعْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠١

والمراد من «الصلاة» هنا الصلوات الخمس المفروضة، والمراد من «الزكاة» الزكاة المفروضة، ومن إقراض الله تعالى هو إقراض الناس، وهذه من أعظم العبارات المتصورة في هذا الباب، فإن مالك الملك يستقرض بمن لا يملك لنفسه شيئاً، ليرغبهم بهذه الطريقة للإنفاق والإيثار واكتساب الفضائل منها ولتتربى ويتكامل بهذه الطريقة.

وذكر «الإستغفار» في آخر هذه الأوامر يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى: وإني أكرم والغرور إذا ما أنجزتم هذه الطاعات، وبأن تتصوروا بأن لكم حقاً على الله، بل اعتبروا أنفسكم مقصرين على الدوام واعتذروا لله.

«نهاية تفسير سورة المزمل»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٣

## ٧٤. سورة المدثر

محتوى السورة: إن سورة العلق هي أول سورة نزلت في صدر البعثة، والمدثر هي السورة الأولى التي نزلت بعد الدعوة العلنية.

فإن سياق السور المكية التي تشير إلى الدعوة وإلى المبدأ والمعاد ومقارعة الشرك وتهديد المخالفين وإنذارهم بالعذاب الإلهي

واضح الوضوح في هذه السورة.

يدور البحث في هذه السورة حول سبعة محاور، وهي:

- ١- يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله بإعلان الدعوة العلنية، ويأمر أن ينذر المشركين، والتمسك بالصبر والإستقامة في هذا الطريق والإستعداد الكامل لخوض هذا الطريق.
- ٢- تشير إلى المعاد وأوصاف أهل النار الذين واجهوا القرآن بالكذب والإعراض عنه.
- ٣- الإشارة إلى بعض خصوصيات النار مع إنذار الكافرين.
- ٤- التأكيد على المعاد بالأقسام المكررة.
- ٥- إرتباط عاقبة الإنسان بعمله، ونفى كل أنواع التفكير غير المنطقي في هذا الإطار.
- ٦- الإشارة إلى قسم من خصوصيات أهل النار وأهل الجنة وعواقبهما.
- ٧- كيفية فرار الجهلة والمغرورين من الحق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٤

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ في الفريضة سورة المدثر كان حقاً على الله أن يجعله مع محمد صلى الله عليه وآله في درجته، ولا يدركه في حياة الدنيا شقاء أبداً».

وبديهى أن هذه النتائج العظيمة لا تتحقق بمجرد قراءة الألفاظ فحسب، بل لابد من التمعن في معانيها وتطبيقها حرفياً.

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمُنْ بِتَشْتِكِرِ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)

سبب التزول

إنّ نفر الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهم أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وامية بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا: إنّ وفود العرب يجتمعون في أيام الحج ويسألوننا عن أمر محمد، فكل واحد منا يجيب بجواب آخر، فواحد يقول مجنون، وآخر يقول كاهن، وآخر يقول شاعر، فالعرب يستدلون باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلة، فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسم واحد، فقال واحد إنّه شاعر، فقال الوليد: سمعت كلام عبيد بن الأبرص وكلام امية بن أبي الصلت، وكلامه ما يشبه كلامهما، وقال آخر كاهن، قال الوليد ومن الكاهن؟ قالوا اللذى يصدق تارة ويكذب اخرى، قال الوليد ما كذب محمد قط، فقال آخر إنّه مجنون، قال الوليد ومن يكون المجنون؟

قالوا مخيف الناس، فقال الوليد ما أخيف بمحمد أحد قط، ثم قام الوليد وانصرف إلى بيته، فقال الناس صبا الوليد بن المغيرة، فدخل عليه أبو جهل، وقال ما لك يا أبا عبد الشمس؟

هذه قريش تجمع لك شيئاً، زعموا أنّك احتججت وصبأت، فقال الوليد: ما لى إليه حاجة ولكنى فكرت في محمد، فقلت إنّه ساحر، لأنّ الساحر هو الذى يفرق بين الأب وابنه وبين الأخوين، وبين المرأة وزوجها، ثم إنهم اجتمعوا على تلقيب محمد صلى الله عليه وآله بهذا اللقب، ثم إنهم خرجوا فصرخوا بمكة والناس مجتمعون، فقالوا: إنّ محمد لى ساحر، فوقع الضجة في الناس أنّ محمد ساحر، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك اشتد عليه، ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بثوبه،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٥

فأنزل الله تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ» (١).

التفسير

قم وانذر الناس: لا شك من أنّ المخاطب في هذه الآيات هو النبي صلى الله عليه وآله وإن لم يصرح باسمه، ولكن القرائن تشير إلى

ذلك، فيقول أولًا: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ». فلقد ولي زمن النوم والإستراحة، وحان زمن النهوض والتبليغ.

ثم يعطى للنبي صلى الله عليه وآله مهمة بعد الدعوة إلى القيام والإنذار، تعتبر منهاجاً يحتذى به الآخرون، والأمر الأول هو في التوحيد، فيقول: «وَرَبِّكَ فَكْبِرْ».

ذكر كلمه (رب) وتقديمها على (كبر) الذي هو يدل على الحصر، فليس المراد من جملة «فكبر» هو (الله أكبر) فقط، مع أن هذا القول هو من مصاديق التكبير كما ورد في الروايات، بل المراد منه أنسب ربيك إلى الكبرياء والعظمة اعتقاداً وعملاً، قولاً فعلاً وهو تنزيهه تعالى من كل نقص وعيب، ووصفه بأوصاف الجمال، بل هو أكبر من أن يوصف، ولذا ورد في الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في معنى الله أكبر: «الله أكبر من أن يوصف».

ثم صدر الأمر الثاني بعد مسألة التوحيد، ويدور حول الطهارة من الدنس فيضيف:

«وَيَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي آيَاتِنَا وَلِكُلِّ قَوْمٍ مَبْرَأَةٌ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْكُفُوفُ عَنْهُمُ غُفْرَانًا بَلَّغُوا حُدُودَهُمْ جِيئُوا يَوْمَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ بِأَقْبَابٍ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

ويمكن أن يكون المعنى هو اللباس الظاهر، لأن نظافة اللباس دليل على حسن التريئة والثقافة، خصوصاً في عصر الجاهلية حيث كان الإجتنا من النجاسة قليلاً وإن ملابسهم وسخة غالباً، وكان الشائع عندهم تطويل أطراف الملابس بحيث كان يسحل على الأرض، وما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى أنه: «ثيابك فقصر» (٢)، ناظر إلى هذا المعنى.

والحقيقة أن الآية تشير إلى أن القادة الإلهيين يمكنهم إبلاغ الرسالة عند طهارة جوانبهم من الأدران وسلامة تقواهم، ولذا يستتبع أمر إبلاغ الرسالة والقيام بها أمر آخر، هو النقاء والطهارة.

ويبين تعالى الأمر الثالث بقوله: «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ».

(١) التفسير الكبير ٣٠ / ١٨٩.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠ / ١٧٥. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٦.

والأصل أن معنى «الرجز» يطلق على الإضطراب والترنزل، وفي القرآن الكريم غالباً ما استعمل لفظ «الرجز» بمعنى العذاب.

فإن للآية مفهوماً جامعاً، وهو الإنحراف والعمل السيء، وتشمل الأعمال التي لا ترضى الله عز وجل، والباعثة على سخط الله في الدنيا والآخرة، ومن المؤكد أن النبي صلى الله عليه وآله قد هجر واتقى ذلك حتى قبل البعث، وقد جاء هذا الأمر هنا ليكون العنوان الأساس في مسير الدعوة إلى الله، وليكون للناس اسوة حسنة.

ويقول تعالى في الأمر الرابع: «وَلَا تَمُنَّ بِتَسْتَكْبِرُوا».

هنا المتعلق محذوف أيضاً، ويدل على سعة المفهوم وكليته، ويشمل المنية على الله والخلائق، أي فلا تمنن على الله بسعيك واجتهادك.

وبعبارة أخرى: لا تمنن على الله بقيامك بالإنذار ودعوتك إلى التوحيد وتعظيمك لله وتطهيرك ثيابك وهجرك الرجز، ولا تستعظم كل ذلك، بل أعلم أنه لو قدمت خدمة للناس سواء في الجوانب المعنوية كالإرشاد والهداية، أم في الجوانب المادية كالإنفاق والعطاء فلا ينبغي أن تقدمها مقابل منة، أو توقع عوض أكبر مما أعطيت، لأن المنية تحبط الأعمال الصالحة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» (١).

ويشير في الآية الأخرى إلى الأمر الأخير في هذا المجال فيقول: «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ».

أي: اصبر في طريق أداء الرسالة، واصبر على أذى المشركين الجهلاء، واستقم في طريق عبودية الله وطاعته، واصبر في جهاد النفس وميدان الحرب مع الأعداء.

والمعروف أن الصبر هو الثروة الحقيقية لطريق الإبلاغ والهداية.

ثم إن الآيات الشريفة وفي تعقيب لأمر ورد في الآيات السابقة في إطار القيام وإنذار المشركين، تؤكد مرة أخرى على الإنذار والتحذير، فيقول تعالى: «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكِ يَوْمِ عَسِيرٍ \* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ».   
 ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَيَّنَّ شُهوَدًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا (١٧)

(١) سورة البقرة/ ٢٦٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٧

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أن قريشاً اجتمعت في دارالندوة، فقال لهم الوليد: إنكم ذوو أحساب، وذوو أحلام، وإن العرب يأتونكم فينظرون من عندكم، على أمر مختلف. فاجمعوا أمركم على شيء واحد ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: نقول إنه شاعر. فعبس عندها وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا: نقول إنه كاهن. قال: إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما يحدث به الكهنة. قالوا: نقول إنه لمجنون. فقال: إذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً. قالوا: نقول إنه ساحر. قال: وما الساحر؟ فقالوا:

بشر يحبون بين المتباغضين ويبغضون بين المتحابين. قال: فهو ساحر، فخرجوا. فكان لا يلقى أحد منهم النبي صلى الله عليه وآله إلّا قال: يا ساحر، يا ساحر. واشتد عليه ذلك فأنزل الله تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» إلى قوله «إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ».   
 التفسير

الوليد بن المغيرة... الثرى المغرور: تواصل هذه الآيات انذار الكفار والمشركين كما في الآيات السابقة مع فارق، وهو أن الآيات السابقة كانت تنذر الكافرين بشكل عام، وهذه تنذر أفراداً معينين بتعابير قوية وبلغته بأشد الإنذارات، فيقول تعالى: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا». والآيات الآتية نزلت في الوليد بن المغيرة كما قلنا.   
 ثم يضيف تعالى: «وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا».

وقيل: إن أمواله بلغت حدّاً من الكثرة بحيث ملك الإبل والخيول والأراضي الشاسعة ما بين مكة والطائف، وقيل إنه يملك ضياع ومزارع دائمة الحصاد، وله مائة ألف دينار ذهب، وكل هذه المعاني تجتمع في كلمة «الممدود».   
 ثم أشار تعالى إلى قوته في قوله: «وَبَيَّنَّ شُهوَدًا».

إذ كانوا يعينونه على حياته، وحضورهم انس وراحه له، إذ كان له عشرة بنين، كما في الروايات.

ثم يستطرد بذكر النعم التي وهبها له. يقول تعالى: «وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا».

ولم يهبه ما ينفع من المال والأولاد فحسب، بل أغدق عليه ما يريد من جاه وقوة.

«التمهيد»: من «المهد» وهو ما يستخدم لنوم الطفل، ويطلق على ما يتهيأ من وسائل الراحة والمقام وانتظام الامور.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٨

ولكنه كفر بما أنعم الله عليه وهو بذلك يريد المزيد: «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ». وليس هذا منحصراً بالوليد، بل إن عبید الدنيا على هذه الشاكلة أيضاً، فلن يروى عطشهم مطلقاً، ولو أعطوا الأقاليم السبعة لما اكتفوا بذلك.

والآية الأخرى تردع الوليد بشدة، يقول تعالى: «كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا».

ومع أنه كان يعلم أن هذا القرآن ليس من كلام الجن أو الإنس، بل متجذر في الفطرة، وله جاذبية خاصة وأغصان مثمرة، فكان يعاند ويعتبر ذلك سحراً ومظهره ساحراً.

«العنيد»: من «العناد» وقيل هو المخالفة والعناد مع المعرفة، أى أنه يعلم بأحقية الشىء ثم يخالفه عناداً، والوليد مصداق واضح لهذا المعنى.

وأشار فى آخر آية إلى مصيره المؤلم، فيقول تعالى: «سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا».

«سارهقه»: من «الإرهاق» وهو غشيان الشىء بالعنف، وتعنى أيضاً فرض العقوبات الصعبة، جاء بمعنى الإبتلاء بأنواع العذاب، والصعود، إشارة إلى ما سيناله من سوء العذاب، ويستعمل فى العمل الشاق.

ويحتمل أن يراد به العذاب الدنيوى للوليد بن المغيرة. قال مقاتل: ما زال الوليد بعد نزول الآية فى نقص من ماله وولد حتى هلك «١». إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ»: فى هذه الآيات توضيحات كثيرة عمن أعطاه الله المال والبنين وخالف بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله. أى الوليد بن المغيرة. يقول تعالى: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ».

«قَدَّرَ»: من التقدير، وهو التهيؤ لنظم أمر فى الذهن والتصميم على تطبيقه.

ثم يضيف فى مذمته: «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ».

بعدئذ يؤكد ذلك فيضيف: «ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ». وهذا إشارة لما قيل فى سبب النزول حيث كان يرى توحيد الأقوال فيما يقذف به الرسول صلى الله عليه وآله.

فإن تكرار المعنى فى الآيتين دليل على دهاء الوليد فى تفكره الشيطاني، ولذا كانت شدة تفكره سبباً للتعجب.

(١) تفسير المراعى ٢٩ / ١٣١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٩

بعدئذ يضيف الله تعالى: «ثُمَّ نَظَرَ». أى نظر بعد التفكير والتقدير نظرة من يريد أن يقضى فى أمر مهم ليطمئن من استحكامه وانسجامه: «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ\* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ\* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ\* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ».

بهذه الأقوال يظهر عداؤه للقرآن المجيد، وذلك بعد تفكره الشيطاني، ويقول هذا صار يمدح القرآن من حيث لا يدري، إذ أشار إلى جاذبية القرآن الخارقة وتسخيره للقلوب.

على كل حال هو إقرار ضمنى بإعجاز القرآن. وليس للقرآن أى علاقة وتشبيه بأعمال السحرة، فهو كلام رصين عميق المعانى وجذاب لا نظير له كما يقول الوليد، فإنه ليس من كلام البشر، وإن كان كذلك لكانوا قد أتوا بمثله، وهذا ما دعا إليه القرآن كراراً.

سَأُضْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحِئُهُ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) المصير المشؤوم: فى هذه الآيات بيان للعقوبات المؤلمة لمن أنكر القرآن والرسالة، وكذب النبى صلى الله عليه وآله وهو ما أشارت إليه الآيات السابقة فيقول الله تعالى: «سَأُضْلِيهِ سَقَرَ».

«سقر»: فى الأصل من «سقر» على وزن فقر، بمعنى التغير والذوبان من أثر حرارة الشمس، هو من أحد أسماء جهنم، كثير ما ذكر فى القرآن.

ثم يبين عظمه وشدة عذاب النار فيقول: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ». أى إن العذاب يكون شديداً إلى حد يخرج عن دائرة التصور، ولا يخطر على بال أحد، كما هو الحال فى عدم إدراك عظمه النعم الإلهية فى الجنان.

«لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ». قد تكون هذه الآية إشارة إلى أن نار جهنم بخلاف نار الدنيا التى ربما تركت بعض ما ألقى فيها ولم تحرقه، وإذا نالت إنساناً مثلاً نالت جسمه وصفاته الجسمية وتبقى روحه وصفاته الروحية فى أمان منها، وأما «سقر» فلا تدع أحداً ممن ألقى فيها إلا نالته واحتوته بجميع وجوده، فهى نار شاملة تستوعب جميع من ألقى فيها.

ثم ينتقل إلى بيان وصف آخر للنار المحرقة فيضيف: «لَوْاحَةٌ لِلْبَشْرِ».

إنها تجعل الوجه مظلماً أسود أشد سواداً من الليل.

«بشر»: جمع بشرة، وتعني الجلد الظاهر للجسد.

«لَوْاحَةٌ»: من مادة «لوح» وتعني أحياناً الظاهر، وأحياناً بمعنى التغيير، ويكون المعنى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٠

بمقتضى التفسير الأول: (أن جهنم ظاهرة للعيان). كما جاء في الآية (٣٦) من سورة النازعات: «وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى . وبمقتضى

التفسير الثانى يكون المعنى: أنها تغير لون الجلود.

وفي آخر آية من آيات مورد البحث يقول تعالى: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشْرَ».

إنهم ليسوا مأمورين بالرحمة والشفقة، بل إنهم مأمورين بالعذاب والغلظة، وأما الآية الأخرى التى تليها فإنها تشير إلى أن هذا العدد هم ملائكة العذاب.

ومن هنا يتضح ضعف وعجز أفكار اناس من قبيل أبى جهل. فى تفسير مجمع البيان:

قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقریش: ثكلتكم امهاتكم أسمعون ابن أبى كبشہ يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم اللّهم الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فقال أبو الأسد الجمحى: أنا أكفيكم سبعة عشر: عشرة على ظهري وسبعة على بطني فاكفوني أنتم اثنين.

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَشْتَقِقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ (٣١) لِمَ هذا العدد من أصحاب النار: ذكر الله سبحانه وتعالى كما قرأنا فى الآيات السابقة عدد خزنة جهنم ومأموريها وهم تسعة عشر نفراً (أو مجموعة)، وكذا قرأنا أن ذكر هذا العدد صار سبباً للحديث بين أوساط المشركين والكفار، واتخذ بعضهم ذلك سخرية، وظن القليل منهم أن الغلبة على اولئك ليس أمراً صعباً، الآية أعلاه والتى هى أطول آيات هذه السورة تجيب عليهم وتوضح حقائق كثيرة فى هذا الصدد. فيقول تعالى أولاً: «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً» (١). ملائكة أقوياء مقتدرون وكما يعبر القرآن غلاظ، شداد، قساء، فى مقابل المذنبين بجمعهم الغفير وهم ضعفاء عاجزون.

(١) أصحاب النار: ذكرت هذه العبارة فى كثير من آيات القرآن وكلها تعنى الجهنميين، إلأى هذا الموضع فإنها بمعنى خزنة جهنم، وذكر هذه العبارة يشير إلى أن كلمة «سقر» فى الآيات السابقة تعنى جهنم بكاملها وليس قسماً خاصاً منها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١١

ثم يضيف تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

وهذا الإختبار من وجهين:

الأول: لأنهم كانوا يستهزئون بالعدد تسعة عشر، ويتساءلون عن سبب اختيار هذا العدد، فى حين لو وضع عدد آخر لكانوا قد سألو السؤال نفسه.

والوجه الثانى: أنهم كانوا يستقلون هذا العدد ويسخرون من ذلك بقولهم: لكل واحد منهم عشرة منّا، لتكسر شوكتهم.

فى حين أن ملائكة الله وصفوا فى القرآن بأن نفراً منهم يؤمرون بإهلاك قوم لوط عليه السلام ويقبلون عليهم مدينتهم.

ثم يضيف تعالى أيضاً: «لِيَشْتَقِقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ».

وسكوت هؤلاء اليهود وعدم اعتراضهم على هذا الجواب يدل على أنه موافق لما هو مذكور في كتبهم، وهذا مدعاة لإزدياد يقينهم بنبوة النبي صلى الله عليه وآله، وصار قبولهم هذا سبباً في تمسك المؤمنين بإيمانهم وعقائدهم. لذا تضيف الآية في الفقرة الاخرى: «وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا».

ثم تعود مباشرة بعد ذكر هذه الآية إلى التأكيد على تلك الأهداف الثلاثة، إذ يعتمد مجدداً على إيمان أهل الكتاب، ثم المؤمنين، ثم على اختبار الكفار والمشركين، فيقول: «وَلَا يَزَاتُ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا».

عبارة: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أطلقت على جميع الكفار والمعاندين والمحاربين لآيات الحق. ثم يضيف حول كيفية استفادة المؤمنين والكفار والذين في قلوبهم مرض من كلام الله تعالى؛ فيقول تعالى: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ».

إن الجمل السابقة تشير بوضوح إلى أن المشيئة والإرادة الإلهية لهدي البعض واضلال البعض الآخر ليس اعتباطاً، فإن المعاندين والذين في قلوبهم مرض لا يستحقون إلا الضلال، والمؤمنون والمسلمون لأمر الله هم المستحقون للهدى ويقول في نهاية الآية: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ».

فالحديث عن التسعة عشر من خزنة النار، ليس لتحديد ملائكة الله تعالى، بل إنهم مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٢

كثيرون جداً أن الروايات تصنفهم أنهم يملؤون السماوات والأرض. أول خطبة في نهج البلاغة للإمام على عليه السلام حول هذا الموضوع حيث يقول: «ثم فتق ما بين السماوات العلاء فملاهن أطواراً من ملائكته، منهم سجود لا- يركعون، وركوع لا- ينتصبون، وصافون لا يترايلون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان، ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة، وأستار القدرة، لا- يتوهمون ربهم بالتصوير ولا- يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر».

كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لِيَأْخُذُ الْكُفْرَ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) استمراراً للبحث مع المنكرين لنبوة الرسول صلى الله عليه وآله واليوم الآخر تؤكد الآيات التالية في أقسام عديدة على مسألة القيامة والجحيم وعذابها، فيقول تعالى: «كَلَّا وَالْقَمَرَ».

وأقسم بالقمر لأنه إحدى الآيات الإلهية الكبرى، لما فيه من الخلقة والدوران المعظم والنور والجمال والتغيرات التدريجية الحاصلة فيه لتعيين الأيام باعتباره تقوياً حياً كذلك.

ثم يضيف: «وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ» و«وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ» (١).  
والليل وإن كان باعثاً على الهدوء والظلام وعنده سرّ عشاق الليل، ولكن الليل المظلم يكون جميلاً عندما يدبر ويتجه العالم نحو الصبح المضىء وآخر السحر، وطلوع الصبح المنهى لليل المظلم أصفى وأجمل من كل شيء حيث يثير في الإنسان النشاط ويجعله غارقاً في النور والصفاء.

هذه الأقسام الثلاثة تتناسب ضمناً مع نور الهداية (القرآن) واستدبار الظلمات

(١) «أسفر»: من مادة «سفر» على وزن (قفر) ويعنى انجلاء الملابس وانكشاف الحجاب، ولذا يقال للنساء المتبرجات (سافرات) وهذا

التعبير يشمل تشبيهاً جميلاً لطلوع الشمس.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٣١٣

الصباح (التوحيد)، ثم ينتهي إلى تبيان ما أقسم من أجله فيقول تعالى: «إِنَّهَا لَأِخْدَى الْكُبْرِ».

ثم يضيف تعالى: «نَذِيرًا لِلْبَشَرِ». لينذر الجميع ويحذرهم من العذاب الموحش الذي ينتظر الكفار والمذنبين وأعداء الحق. وفي النهاية يؤكد مضيفاً أن هذا العذاب لا يخص جماعة دون جماعة، بل: «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ». فهيناً لمن يتقدم، وتعساً وترحاً لمن يتأخر.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَحْوُصُّ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) لِمَ صرتم من أصحاب الجحيم: إكمالاً للبحث الذي ورد حول النار وأهلها في الآيات السابقة، يضيف تعالى في هذه الآيات: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ».

«رهينة»: من مادة «رهن» وهي وثيقة تعطى عادةً مقابل القرض، وكأن نفس الإنسان محبوسة حتى تؤدي وظائفها وتكاليفها، فإن أدت ما عليها فكت وأطلقت، وإلا فهي باقية رهينة ومحبوسة دائماً. لذا يضيف مباشرة: «إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ».

إنهم حطموا أغلال وسلاسل الحبس بشعاع الإيمان والعمل الصالح ويدخلون الجنة بدون حساب.

وأصحاب اليمين هم الذين يحملون كتبهم بيمينهم، فهم ذوو إيمان وعمل صالح، وإذا كانت لهم ذنوب صغيرة فإنها تمحى بالحسنات وذلك بحكم: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ» (١).

فحينئذ تغطي حسناتهم سيئاتهم أو يدخلون الجنة بلا حساب، وإذا وقفوا للحساب فسيخفف عليهم ذلك ويسهل، كما جاء في الآية (٧ و ٨) من سورة الإنشاق: «فَأَمَّا مَنْ

(١) سورة هود/ ١١٤.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٣١٤

أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا».

في تفسير القرطبي: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون». ثم يضيف مبيناً جانباً من أصحاب اليمين والجماعة المقابلة لهم: «فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ».

يستفاد من هذه الآيات أن الرابطة غير منقطعة بين أهل الجنان وأهل النار، فيمكنهم مشاهدة أحوال أهل النار والتحدث معهم، ولكن ماذا سيجيب المجرومون عن سؤال أصحاب اليمين؟ إنهم يعترفون بأربع خطايا كبيرة كانوا قد ارتكبوها:

الاولى: «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ». لو كنا مصليين لذكرتنا الصلاة بالله تعالى، ونهتينا عن الفحشاء والمنكر ودعتنا إلى صراط الله المستقيم.

والثانية: «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ». وهذه الجملة وإن كانت تعطي معنى إطعام المحتاجين، ولكن الظاهر أنه يراد بها المساعدة والإعانة الضرورية للمحتاجين عموماً بما ترتفع بها حوائجهم كالمأكل والملبس والمسكن وغير ذلك.

وصرح المفسرون أن المراد بها الزكاة المفروضة، لأن ترك الإنفاق المستحب لا يكون سبباً في دخول النار.

والثالثة: «وَكَانُوا نَحْوُصُّ مَعَ الْخَائِضِينَ». «نحوص»: من مادة «خوص» على وزن (حوض)، وتعني في الأصل الغور والحركة في الماء، ويطلق على الدخول والتلوث بالامور، والقرآن غالباً ما يستعمل هذه اللفظة في الإشتغال بالباطل والغور فيه.

(الخوص في الباطل) له معان واسعة فهو يشمل الدخول في المجالس التي تتعرض فيها آيات الله للإستهزاء أو ما تروج فيها البدع، أو



المزاح الوقح، أو التحدث عن المحارم المرتكبة بعنوان الإفتخار والتلذذ بذكرها، وكذلك المشاركة في مجالس الغيبة والإتهام واللغو واللعب وأمثال ذلك، ولكن المعنى الذي انصرفت إليه الآية هو الخوض في مجالس الإستهزاء بالدين والمقدسات وتضعيفها وترويج الكفر والشرك.

وأخيراً يضيف: «وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ».

من الواضح أن إنكار المعاد ويوم الحساب والجزاء يزلزل جميع القيم الإلهية والأخلاقية، ويشجع الإنسان على ارتكاب المحارم. على كل حال فإن ما يستفاد من هذه الآيات أن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٥

الكفار هم مكلفون بفروع الدين، كما هم مكلفون بالاصول، وكذلك تشير إلى أن الأركان الأربعة، أى الصلاة والزكاة وترك مجالس أهل الباطل، والإيمان بالقيامة لها الأثر البالغ في تربية وهداية الإنسان، وبهذا لا يمكن أن يكون الجحيم مكاناً للمصلين الواقعيين، والمؤتئين الزكاة، والتاركين الباطل والمؤمنين بالقيامة.

وفى الآية الأخيرة محل البحث إشارة إلى العاقبة السيئة لهذه الجماعة فيقول تعالى: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ». فلا تنفعهم شفاعته الأنبياء ورسول الله والأئمة، ولا الملائكة والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولأنها تحتاج إلى عوامل مساعده وهؤلاء أبادوا كل هذه العوامل، فالشفاعة كالماء الزلال الذى تسقى به النبتة الفتية، وبديهي إذا ماتت النبتة الفتية، لا يمكن للماء الزلال أن يحييها.

وهذه الآية تؤكد مرة أخرى مسألة الشفاعه وتنوع وتعدد الشفعاء عند الله، وهى جواب قاطع لمن ينكر الشفاعه، وكذلك تؤكد على أن للشفاعة شروطاً وأنها لا تعنى اعطاء الضوء الأخضر لإرتكاب الذنوب، بل هى عامل مساعد لتربية الإنسان وايصاله على الأقل إلى مرحلة تكون له القابلية على التشفع، بحيث لا تنقطع وشائج العلاقة بينه وبين الله تعالى والأولياء.

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَزَتْ مِنْ قَسِدٍ وَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صِخْرَفًا مُّشْرِئًا (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَمَا يَذْكَرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (٥٦) يفرون من الحق كما تفرّ الحمر من الأسد: تتابع هذه الآيات ما ورد فى الآيات السابقة من البحث حول مصير المجرمين وأهل النار، وتعكس أوضح تصوير فى خوف هذه الجماعة المعانده ورعبها من سماع حديث الحق والحقيقة. فيقول الله تعالى أولاً: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ». «كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ» \* فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ».

«حمر»: جمع (حمار) والمراد هنا الحمار الوحشى.

«قسورة»: من مادة «قسر» أى القهر والغلبة، وهى أحد أسماء الأسد.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٦

فإن هذه الآية تعبير بالغ عن خوف المشركين وفرارهم من الآيات القرآنية المربية للروح، فشبههم بالحمار الوحشى لأنهم عديمو العقل والشعور، وكذلك لتوحشهم من كل شىء، فى حين أنه ليس مقابلهم سوى التذكرة.

«بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صِخْرَفًا مُّشْرِئًا». وذلك لتكبرهم وغرورهم الفارغ بحيث يتوقعون من الله تعالى أن ينزل على كل واحد منهم كتاباً.

وهذا نظير ما جاء فى الآية (٩٣) من سورة الإسراء: «وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْبِكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ».

ولذا يضيف فى الآية الأخرى: «كَلَّا». ليس كما يقولون ويزعمون، فإن طلب نزول مثل هذا الكتاب وغيره هى من الحجج الواهية، والحقيقة: «بَلْ لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ».

والحق يقال إن الإيمان بعالم البعث والجزاء وعذاب القيامة يهب للإنسان شخصية جديدة يمكنه أن يغير إنساناً متكبراً ومغروراً وظالماً إلى إنسان مؤمن متواضع ومتقٍ عادل.

ثم يؤكد القرآن على أن ما يفكرون به فيما يخص القرآن هو تفكر خاطيء: «كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ \* فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرَهُ». وفي الوقت نفسه لا يمكن ذلك إلا بتوفيق من الله وبمشيئته تعالى: «وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». يعنى أن الإنسان لا يمكنه الحصول على طريق الهداية إلا بالتوسل بالله تعالى وطلب الموقية منه. وفي النهاية يقول: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ». فهو أهل لأن يخافوا من عقابه وأن يتقوا في اتخاذهم شريكاً له تعالى شأنه، وأن يأملوا مغفرته، وفي الحقيقة، أن هذه الآية إشارة إلى الخوف والرجاء والعذاب والمغفرة الإلهية، وهى تليل لما جاء فى الآية السابقة. وهناك احتمالاً آخر، وهو أن تؤخذ التقوى بمعناها الفاعلى، أى أن الله أهل للتقوى من كل أنواع الظلم والقبح ومن كل ما يخالف الحكمة، وما عند العباد من التقوى هو قبس ضعيف من ما عند الله. إن الآية قد بدأت بالإنذار والتكليف، وانتهت بالدعوة إلى التقوى والوعد بالمغفرة. «نهاية تفسير سورة المدثر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٧

## ٧٥. سورة القيامة

محتوى السورة: كما هو واضح من اسم السورة فإن مباحثها تدور حول مسائل ترتبط بالمعاد ويوم القيامة إلبعض الآيات التى تتحدث حول القرآن والمكذبين، وأما الآيات المرتبطة بيوم القيامة فإنها تجتمع فى أربعة محاور:

- ١- المسائل المرتبطة بأشراط الساعة.
  - ٢- المسائل المتعلقة بأحوال الصالحين والظالمين فى ذلك اليوم.
  - ٣- المسائل المتعلقة باللحظات العسيرة للموت والانتقال إلى العالم الآخر.
  - ٤- الأبحاث المتعلقة بالهدف من خلق الإنسان ورابطة ذلك بمسألة المعاد.
- فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة القيامة شهدت أنا وجبريل له يوم القيامة أنه كان مؤمناً بيوم القيامة، وجاء ووجهه مسفر على وجوه الخلائق يوم القيامة». وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة لا أقسم وكان يعمل بها، بعثها الله يوم القيامة معه فى قبره، فى أحسن صورة تبشر وتضحك فى وجهه حتى يجوز الصراط والميزان». والجدير بالملاحظة أن ما كنا نستوحيه من الروايات الواردة فى فضائل تلاوة السور القرآنية قد صرح بها الإمام هنا فى هذه الرواية حيث يقول: «من أدمن قراءة لا أقسم وكان يعمل بها»، ولذا فإن كل ذلك هو مقدمه لتطبيق المضمون.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٨

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦) قَسماً بيوم القيامة والنفس اللوامة: تبدأ هذه السورة بقسمين غزيرين بالمعاني، فيقول تعالى: «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ \* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ».

وفى العلاقة والرابعة الموجودة بين القسمين؛ الحقيقة أن أحد دلائل وجود «المعاد» هو وجود «محكمة الوجدان» الموجودة فى أعماق الإنسان، التى تنشط وتسرع عند الإقدام لإنجاز عمل صالح، وبهذه الطريقة تثيب صاحبها وتكافئه، وعند ارتكاب الأعمال السيئة والرديلة فإنها سوف تقوم بتقريع صاحبها وتآببه وتعذبه إلى حد أنه قد يقدم على الانتحار للتخلص مما يمر فيه من عذاب الضمير. عندما يكون (العالم الصغير) أى وجود الإنسان محكمة فى قلبه، فكيف يمكن للعالم الكبير أن لا يملك محكمة عدل عظمى فمن هنا نفهم وجود البعث والقيامة بواسطة وجود الضمير الأخلاقى، ومن هنا تتضح الرابطة الظرفية بين القسمين. وبعبارة أخرى: فإن

القسم الثاني هو دليل على القسم الأول.

ثم يستفهم تعالى في الآية الاخرى للتوبيخ فيضيف: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ\* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ».

ويمكن أن يكون ذلك إشارة لطيفة إلى الخطوط الموجودة في أطراف الأصابع والتي نادراً ما تتساوى هذه الخطوط عند شخصين.

وفي الآية الاخرى إشارة إلى أحد العلل الحقيقية لإنكار المعاد فيقول: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». إنهم يريدون أن يكذبوا بالبعث وينكروا المعاد، ليتسنى لهم الظلم وارتكاب المحارم والتنصل عن المسؤولية أمام الخلق.

ثم يضيف بعد ذلك: «يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ».

أجل، إنه يستفهم مستنكراً عن وقوع يوم القيامة ويهرب مما كُلف به لكي يفسح لنفسه طريق الفجور أمامه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٩

بحث

محكمة الضمير أو القيامة الصغرى نستفيد من آيات القرآن المجيد أن للنفس الإنسانية ثلاث مراحل:

١- النفس الأمارة: وهي النفس العاصية التي تدعو الإنسان إلى الرذائل والقبائح باستمرار، وتزين له الشهوات.

٢- النفس اللوامة: وهي ما اشير إليها في الآيات التي ورد البحث فيها، وهي نفس يقظة وواعية نسبياً، فهي تزل أحياناً لعدم حصولها على حصانة كافية مقابل الذنوب، وتقع في شبك الآثام إلا أنها تستيقظ بعد فترة لتتوب وترجع إلى مسير السعادة.

وهذا هو ما يذكرونه تحت عنوان (الضمير الأخلاقي) ويكون هذا قوياً جداً عند بعض الأفراد، وضعيفاً وعاجزاً عند آخرين، ولكن النفس اللوامة لا تموت بكثرة الذنوب عند أي إنسان.

٣- النفس المطمئنة: وهي النفس المتكاملة المنتهية إلى مرحلة الإطمئنان والطاعة والمنتهية إلى مقام التقوى والإحساس بالمسؤولية وليس من السهل انحرافها.

إن النفس اللوامة هي كالقيامة الصغرى في داخل الروح والتي تقوم بحاسبة الإنسان، ولذا تحس أحياناً بالهدوء والإستقرار بعد القيام بالأعمال الصالحة وتمتلىء بالسرور والفرح والنشاط.

هذه المحكمة الداخلية العجيبة لها شبه عجيب بمحكمة القيامة.

(أ) إن القاضي والشاهد والمنفذ للأحكام واحد، كما في يوم القيامة: «عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ» (١).

(ب) إن هذه المحكمة ترفض كل توصية ورشوة وواسطة، كما هو الحال في محكمة يوم القيامة، فيقول تعالى: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَأَ تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (٢).

(ج) إن محكمة الضمير تحقق وتدقق في الملفات المهمة بأقصر مدة وتصدر الحكم بأسرع وقت، وهذا هو ما نقرأه أيضاً في محكمة البعث: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَأَمْعَقَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (٣).

(١) سورة الزمر / ٤٦.

(٢) سورة البقرة / ٢٤٨.

(٣) سورة الرعد / ٤١. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٠

(د) مجازاتها وعقوباتها ليست كعقوبات المحاكم الرسمية العالمية، فإن شرر النيران تنقد في الوهله الاولى في أعماق القلب والروح، ثم تسرى إلى الخارج، فتعذب روح الإنسان أولاً، ثم تظهر آثارها في الجسم وملامح الوجه وطبيعة النوم والأكل، فيعتبر تعالى عن ذلك في قوله:

«نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ\* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (١).

ه) عدم إحتياج هذه المحكمة إلى شهود، بل إن المعلومات التي يعطيها الإنسان المتهم بنفسه والذي يكون شاهداً على نفسه هي التي تقبل منه، نافعة كانت له أم ضارة؛ كما تشهد ذرات وجود الإنسان حتى يداه وجلده على أعماله في محكمة البعث، فيقول تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ» (٢).

وهذا التشبيه العجيب بين المحكمتين دليل آخر على فطرية الاعتقاد بالمعاد، لأنه كيف يمكن أن يكون في الإنسان الذي يعتبر قطرة صغيرة في محيط الوجود العظيم هكذا حساب ومحاكم مليئة بالرموز والأسرار في حين لا- يوجد حساب ومحاكم في هذا العالم الكبير؟ فهذا ما لا يصدق.

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) أنهت الآيات السابقة بسؤال كان قد وجهه المنكرون للبعث يوم القيامة، وهو يوم القيامة متى يأتي ذلك اليوم؟ وهذه الآيات هي التي تجيب عن هذه السؤال.

فتشير أولاً إلى الحوادث السابقة للبعث، أي إلى التحول العظيم وإنعدام القوانين في الأنظمة الكونية فيقول تعالى: «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصِيرُ». بمعنى اضطراب العين ودورانها من شدة الخوف والرعب: «وَخَسَفَ الْقَمَرُ\* وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ». وفي ما يراد بالجمع بين الشمس والقمر، فيحتمل أن ينجذب القمر تدريجياً بواسطة الشمس باتجاهها ثم اجتماعهما معاً بعد ذلك، وينتهي بالتالي ضياؤهما.

(١) سورة الهزلة / ٦ و ٧.

(٢) سورة فصلت / ٢٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢١

فيقول تعالى في سورة التكويد: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». أي إذا أظلمت الشمس، ونعلم أن ضوء القمر من الشمس، وعندما يزول نور الشمس يزول بذلك نور القمر، وبالتالي تدخل الكرة الأرضية في ظلام دامس وعتمة مرعبة. وبهذه الطريقة والتحول العظيم ينتهي العالم، ثم يبدأ بعث البشرية بتحول عظيم آخر (بنفخة الصور الثانية والتي تعتبر نفخة الحياة)، فيقول الإنسان في ذلك اليوم: «يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ».

أجل، الكفرة والمذنبون الذين كذبوا بيوم الدين يبحثون عن ملجأ في ذلك اليوم لشدة خجلهم، ويطلبون سبل الفرار لثقل خطاياهم وخوفهم من العذاب.

ولكن سرعان ما يقال لهم: «كَلَّا لَا وَزَرَ» (١).

فلا ملجأ إلا إلى الله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ».

عندئذ يضيف في إدامه هذا الحديث: «يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ».

والمراد من هاتين العبارتين هو ما قدم من الأعمال في حياته، أو الآثار الباقية منه بعد موته، مما ترك بين الناس من السنن الصالحة والسيئة والتي يعملون ويسرون بها ووصول حسناتها وسيئاتها إليه، أو الكتب والمؤلفات والأبنية القائمة على الخير والشر، والأولاد الصالحين والطلحين التي تصل آثارهم إليه.

في تفسير على بن إبراهيم: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله «يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ» قال: «بما قدم من خير وشر وما أخر مما سن من سنة ليستن بها من بعده فإن كان شراً كان عليه مثل وزرهم، ولا ينقص من وزرهم شيء، وإن كان خيراً كان له مثل اجورهم، ولا ينقص من اجورهم شيء».

ثم يضيف فى الآيه الاخرى ويقول: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُطَلِّعُونَ الْعِبَادَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ كَانَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ نَفْسَهُ وَأَعْضَاءَهُ هُمُ الشُّهُودُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فيقول تعالى: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ\* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ». سياق هذه الآيات هو نفس سياق الآيات التى تشير إلى شهادة الأعضاء على أعمال الإنسان، كالأيه (٢٠) من سورة فصلت، حيث يقول الله تعالى: «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

(١) «وزر»: تعنى فى الأصل الملاجىء الجليله وأمثالها، وتعنى فى هذه الآيه كل نوع من الملجأ والمخبا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٢

وعلى هذا فإن أفضل شاهد على الإنسان فى تلك المحكمه الإلهيه للقيامه هو نفسه، لأنه أعرف بنفسه من غيره. «معاذير»: جمع (معدرة) وتعنى فى الأصل البحث عمّا تمحى به آثار الذنوب، وقد تكون أحياناً أضراراً واقعيه، واخرى صوريه وظاهريه. إن الآيات مفهومها واسع، ولذا فإنها تشمل عالم الدنيا، وتعلم الناس بأحوال أنفسهم وإنه كان فيهم من يكتتم ويغطى وجهه الحقيقى بالكذب والإحتيال والتظاهر والمراء.

لَمَّا تَحَرَّكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ: هذه الآيات بمثابة الجملة الاعتراضيه التى تتداخل أحياناً فى كلام المتحدث، حيث يترك الله تعالى الحديث عن القيامه وأحوال المؤمنين والكفرة مؤقتاً، ليعطى تذكراً مختصره للنبي صلى الله عليه وآله حول القرآن فيقول: «لَأَتُحَرَّكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ». فى تفسير هذه الآيه نقل عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا نزل عليه الوحي ليقراً عليه القرآن، تعجل بقراءته ليحفظه وذلك لحبه الشديد للقرآن، فنهاه الله عن ذلك وقال: «إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ».

ثم يضيف: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ».

وبالتالى لا تقلق على جمع القرآن، نحن نجمله وتلوه عليك بواسطة الوحي.

ثم يقول تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ». ثم يضيف: «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ».

فيكون جمع القرآن وقراءته لك وتبينه وتفصيل معانيه بعهدتنا، فلا تقلق على شىء، فالذى أنزل الوحي هو الذى يحفظه.

وهذه الآيات تبين ضمناً أصالة القرآن، وحفظه من أى تغيير وتحريف، لأن الله تعالى تعهد بجمعه وقراءته وتبينه.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ترجع هذه الآيات مره اخرى لتكمل البحوث المتعلقة بالمعاد، وخصوصيات اخرى من

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٣

القيامه، وكذلك تبين علل إنكار المعاد فيقول تعالى: «كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ». فليس الأمر كما يتصور من أن دلائل المعاد خفيه ولا يمكنكم الاطلاع عليها، بل إنكم عشقتم الدنيا. ولهذا السبب تركتم الآخرة: «وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ».

إن الشك فى قدرة الله تعالى وجمع العظام وهى رميم ليس هو الدافع لإنكار المعاد، بل إن حبكم الشديد للدنيا والشهوات والميول المغريه هى التى تدفعكم إلى رفع الموانع عن طريق ملذاتكم، وبما أن المعاد والشريعه الإلهيه توجد موانع وحدوداً كثيره على هذا الطريق، لذا تتمسكون بإنكار أصل الموضوع، وتتركون الآخرة بتامها.

وهاتان الآيتان تؤكدان ما ورد فى الآيات السابقه والتى قال فيها تعالى شأنه: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». وقال أيضاً: «يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ».

ثم ينتهى إلى تبيان أحوال المؤمنين الصالحين والكفار المسيئين فى ذلك اليوم، فيقول تعالى: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ».

«ناصره»: من ماده «نصره» وتعنى البهجه الخاصه التى يحصل عليها الإنسان عند وفور النعمه والرفاه، ووفورها يلازم السرور والجمال

والنورانية.

هذا من ناحية العطايا المادية، وأما عن العطايا الروحية فيقول تعالى: «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». نظرة بعين القلب وعن طريق شهود الباطن، نظرة تجذبهم إلى الذات الفريدة وإلى ذلك الكمال والجمال المطلقين، وتهبهم اللذة الروحانية والحال الذي لا يوصف.

في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا دخل أهل الجنة، الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟

قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل».

وفي النقطة المقابلة لهذه الجماعة المؤمنة، هناك جماعة تكون وجوههم مقطبة. «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ».

فعندما ينظر الكافرون إلى علامات العذاب وصحائف أعمالهم الخالية من الحسنات والمملوءة بالسيئات، يصيبهم الندم والحسرة والحزن ويعبسون وجوههم لذلك. «تُظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ».

إن هذا التعبير كناية للعقوبات الثقيلة والتي تنتظر هذه الجماعة في جهنم، لكن إن الجماعة السابقة منتظرون لرحمة الله تعالى ومستعدون للقاء المحبوب. هؤلاء لهم أسوأ العذاب.

وأولئك لهم أسمى النعم الجسمانية والمواهب واللذات الروحانية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٤

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّتَمَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) إتماماً للأبحاث المرتبطة بالعالم الآخر ومصير المؤمنين والكفار يأتي الحديث في هذه الآيات عن لحظة الموت المؤلمة والتي تعتبر باباً إلى العالم الآخر فيقول تعالى: «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ». أي كَلَّا إِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى تَصِلَ رُوحُهُ التَّرَاقِي.

هو ذلك اليوم الذي تنفتح فيه عينه البرزخية، وتزال عنها الحجب، ويرى فيها علامات العذاب والجزاء، ويوقف على أعماله، ففي تلك اللحظة يقرّ بالإيمان ولكن إيمانه لا ينفعه ولا يفيد حاله أبداً.

«تراقى»: جمع «ترقوة»، وهي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال، وبلوغ الروح إلى التراقي كناية عن اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان.

وفي هذه الفترة يسعى أهله وأصدقائه مستعجلين قلقين لانقاذه. يقول تعالى: «وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ». أي هل هناك من منقذ يأتي لإنقاذ هذا المريض؟

ويقولون هذا الحديث عن وجه العجز واليأس، والحال أنهم يعلمون أنه قد فات الأوان ولا ينفع معه طبيب.

«راق»: من مادة «رقي» على وزن (نهي) و (رقيه) على وزن (خفيه) وهو الصعود، ولفظة (رقيه) تطلق على الأوراد والأدعية التي تبعث على نجاه المريض.

وفي الآية التالية إشارة إلى اليأس الكامل للمحتضر فيقول تعالى: «وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ».

أي: في هذه الحالة يصاب باليأس من الحياة واليقين بالفراق. ثم: «وَالتَّتَمَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ».

وهذا الالتفاف إما لشدة الأذى لخروج الروح، أو لتوقف عمل اليدين والرجلين وتعطيل الروح منها.

ثم يقول تعالى في آخر آية من آيات البحث: «إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ». أجل، إلى الله تعالى المرجع حيث يحضر الخلائق عند محكمه العدل الإلهية، وهكذا ينتهي المطاف إليه، وهذه الآية أيضاً تأكيد على مسألة المعاد والبعث شامل للعباد، ويمكن أن تكون إشارة إلى الحركة التكاملية للخلائق وهي متجهة نحو الذات المقدسة واللامتناهية.

لحظة الموت المؤلمة: يستفاد من القرآن أن لحظة الموت لحظة صعبة ومؤلمة، والمستفاد

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٥

من الروايات أن هذه اللحظة سهلة على المؤمنين، وصعبة ومؤلمة على فاقدي الإيمان.

في عيون أخبار الرضا عليه السلام عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «قيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت. فقال: للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كله عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشد». فلما صدق ولا صلى (٣١) و لكن كذب وتولى (٣٢) ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣) أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥) أ يحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦) ألم يك نطفة من منى يمئى (٣٧) ثم كان علقه فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر و الأنتى (٣٩) أ ليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (٤٠) استمراراً للبحوث المتعلقة (بالموت) الذى يعتبر الخطوة الأولى فى السفر إلى الآخرة يتحدث القرآن فى هذه الآيات عن خواء أيدى الكفار من الزاد لهذا السفر. فيقول أولاً: «فلا صدق ولا صلى . أى إن هذا الإنسان المنكر للمعاد لم يؤمن اطلاقاً ولم يصدق بآيات الله ولم يصل له. وقال تعالى: «ولكن كذب وتولى .

المراد من جملة «فلا صدق» عدم التصديق بالقيامة والحساب والجزاء والآيات الإلهية والتوحيد ونبوة النبي صلى الله عليه وآله. ويضيف تعالى فى الآية الاخرى: «ثم ذهب إلى أهله يتمطى .

إنه يظن بعدم اهتمامه للنبي صلى الله عليه وآله وتكذيبه إياه وللآيات الإلهية قد حقق نصراً باهراً، إنه كان ثملاً من خمره الغرور، واتجه إلى أهله لينقل لهم كالعادة ما كان قد حدث وليفتخر بما صدر منه، وكان سيره وحركته تشيران إلى الكبر والغرور. «يتمطى: من مادة «مطأ» وأصله الظهر، و (تمطى مد الظهر عن غرور ولا مبالاة، أو عن كسل، والمراد هنا هو المعنى الأول. ثم يخاطب القرآن أفراداً كهؤلاء ويهددهم فيقول تعالى: «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى . فى المجمع: وجاء الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بيد أبى جهل ثم قال له: «أولى لك فأولى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٦

ثم أولى لك فأولى . فقال أبو جهل: بأى شىء تهددنى لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلابى شيئاً، وإنى أعز أهل هذا الوادى، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم ينتهى القرآن فى هذا البحث إلى استدلالين لطيفين حول المعاد وأحدهما عن طريق (الحكمة الإلهية وهدف الخلق)، والآخر عن طريق بيان قدرة الله فى تحول وتكامل نطفة الإنسان فى المراحل المختلفة لعالم الجنين، فيقول تعالى عن المرحلة الأولى: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى». «سدى: على وزن (هدى وهو المهمل الذى لا هدف له.

والمراد من (الإنسان) فى هذه الآية هو المنكر للمعاد والبعث، فيكون معنى الآية: كيف يخلق الله هذا العالم العظيم للإنسان ولا يكون له هدف ما؟ كيف يمكن ذلك والحال أن كل عضو من أعضاء الإنسان خلق لهدف خاص. ولكن يحسب أن لا هدف فى خلق كل ذلك.

ثم إنتهى إلى تبيان الدليل الثانى، فيضيف تعالى: «ألم يك نطفة من منى يمئى . وبعد هذه المرحلة واستقرار المنى فى الرحم يتحول إلى قطعة متخثرة من الدم، وهى العلقه، ثم إن الله تعالى يخلقها بشكل جديد ومتناسب وموزون: «ثم كان علقه فخلق فسوى . ولم يتوقف على ذلك: «فجعل منه الزوجين الذكر والأنتى .

أليس من يخلق النطفة الصغيرة القدره فى ظلمه رحم الام ويجعله خلقاً جديداً كل يوم، ويلبسه من الحياة لباساً جديداً ويهبه شكلاً مستحدثاً ليكون بعد ذلك إنساناً كاملاً ذكراً أو انثى ثم يولد من امه، بقادر على إعادته: «أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى .

وهذا البيان فى الواقع هو لمن ينكر المعاد الجسمانى ويعده محالاً، وينفى العوده إلى الحياة بعد الموت والدفن، ولإثبات ذلك أخذ القرآن بيد الإنسان ليرجعه إلى التفكير ببداية خلقه، والمراحل العجيبة للجنين ليريه تطورات هذه المراحل، وليعلم أن الله قادر على كل شىء.

«نهاية تفسير سورة القيامة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٧

## ٧٦. سورة الإنسان

محتوى السورة: يمكن تقسيم مباحث السورة إلى خمسة أقسام:

- ١- يتحدث عن إيجاد الإنسان وخلق من نطفة أمشاج (مختلطة)، وكذلك عن هدايته وحرية إرادته.
- ٢- يدور الحديث فيه عن جزاء الأبرار والصالحين، وسبب النزول الخاص بأهل البيت عليهم السلام.
- ٣- تكرار الحديث عن دلائل استحقاق الصالحين لذلك الثواب في عبارات مؤثرة.
- ٤- يشير إلى أهمية القرآن وسبيل إجراء أحكامه ومنهج تربية النفس الشاق.
- ٥- جاء الحديث فيه عن حاكمية المشيئة الإلهية (مع حاكمية الإنسان).

ولهذه السورة أسماء عديدة؛ أشهرها: (الإنسان) و (الدهر) و (هل أتى)، وهذه الكلمات وردت في أوائل السورة، وإن كانت الروايات الواردة في فضيلتها والتي سوف يأتي ذكرها، قد ذكرت اسم (هل أتى لهذه السورة). فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريراً».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة هل أتى في كل غداة خميس زوجته الله من الحور العين مائة عذراء وأربعة آلاف ثيب وكان مع محمد صلى الله عليه وآله».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٨

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَيِّئَاتٍ وَأَغْلَابًا وَ سَيِّئَاتٍ (٤) تتحدث الآيات الأولى عن خلق الإنسان بالرغم من أن أكثر بحوث هذه السورة هي حول القيامة ونعم الجنان، فتحدثت في البدء عن خلق الإنسان، لأن التوجه والإلتفات إلى هذا الخلق يهيئ الأرضية للتوجه إلى القيامة والبعث كما شرحنا ذلك سابقاً في تفسير سورة القيامة. فيقول تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا».

والمراد من الإنسان هنا هو نوع الإنسان، ويشمل بذلك عموم البشر.

ثم يأتي خلق الإنسان بعد هذه المرحلة، واعتبار ذكره، فيقول تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا». ولعل ذكر خلق الإنسان من النطفة المختلطة إشارة إلى اختلاط ماء الذكور والإناث، وقد اشير إلى ذلك في روايات المعصومين عليهم السلام بصورة إجمالية؛ أو أنها إشارة إلى القابليات المختلفة الموجودة داخل النطفة من ناحية العوامل الوراثية عن طريق الجينات؛ أو أنها إشارة إلى اختلاط المواد التركيبية المختلفة للنطفة، لأنها تتركب من عشرات المواد المختلفة، أو اختلاط جميع ذلك مع بعضها البعض، والمعنى الأخير أجمع وأوجه.

«نبتليه»: إشارة إلى وصول الإنسان إلى مقام التكليف والتعهد وتحمل المسؤولية والاختبار والإمتحان.

وبما أن الاختبار والتكليف لا يتم إلا بعد الحصول على المعرفة والعلم فقد أشار في آخر الآية إلى وسائل المعرفة، العين والاذن التي أودعها سبحانه وتعالى في الإنسان وسخرها له.

إن اختبار الإنسان بحاجة إلى عاملين آخرين، هما: «الهداية» و «الاختبار» بالإضافة إلى المعرفة ووسائلها، فقد أشارت الآية التالية إلى ذلك: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا». إن للهداية هنا معنى واسعاً، فهي تشمل «الهداية التكوينية» و «الهداية الفطرية»



وكذلك «الهداية التشريعية» وإن كان سياق الآية يؤكد على الهداية التشريعية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٩

وأشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى الذين سلكوا طريق الكفر والكفران فتقول: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَعْلَلًا وَسَعِيرًا».

«سلاسل»: جمع (سلسلة)، وهي القيد الذي يقاد به المجرم؛ و «الأغلال»: جمع (غل)، وهي الحلقة التي توضع حول العنق أو اليدين وبعد ذلك يُقفل بالقيد.

إن ذكر الأغلال والسلاسل ولهيب النيران المحرقة تبيان للعقوبات التي يعاقب بها المجرمون، وهو ما اشير إليه في كثير من آيات القرآن ويشمل ذلك العذاب والذل.

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)

سبب النزول

البرهان العظيم على فضيلة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله: قال ابن عباس: إن الحسن والحسين مرضا فعادهما الرسول صلى الله عليه وآله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما كان معهم شيء، فاستقرض على عليه السلام من شمعون الخبيري اليهودي ثلاث أصواع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوا بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل، فقال: السلام عليكم، أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة عند الغروب، ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ على بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: «ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم». وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها، وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبرئيل وقال: خذها يا محمد، هتأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٠

وقيل: إن الذي نزل من الآيات يبدأ من: «إِنَّ الْأَبْرَارَ» حتى «كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» ومجموعها (١٨) آية.

ما أوردنا هو نص الحديث الذي جاء في كتاب «الغدیر» بشيء من الإختصار كقدر مشترك وهذا الحديث من بين أحاديث كثيرة نقلت في هذا الباب، وذكر في الغدير أن الرواية المذكورة قد نقلت عن طريق (٣٤) عالماً من علماء أهل السنة المشهورين. وعلى هذا، فإن الرواية مشهورة، بل متواترة عند أهل السنة (١).

واتفق علماء الشيعة على أن السورة أو ثمان عشرة آية من السورة قد نزلت في حق علي وفاطمة عليهما السلام، وأوردوا هذه الرواية في كتبهم العديدة واعتبروها من مفاخر الروايات الحاكية عن فضائل أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

التفسير

جزاء الأبرار العظيم: أشارت الآيات السابقة إلى العقوبات التي تنتظر الكافرين بعد تقسيمهم إلى جماعتين وهي «الشكور» و «الكفور»، والآيات في هذا المقطع تتحدث المكافآت التي أنعم الله بها على الأبرار وتذكر بأمور ظريفة في هذا الباب. فيقول تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا».

«الأبرار»: جمع (بر) وأصله الإتساع، واطلق البر على الصحراء لاتساع مساحتها، وتطلق هذه المفردة على الصالحين الذين تكون نتائج

أعمالهم واسعة في المجتمع.

«كافور»: له معان متعددة في اللغة، وأحد معانيها المعروفة الرائحة الطيبة كالنبته الطيبة الرائحة.

فإن الآية تشير إلى أن هذا الشراب الطهور معطر جداً فيلتذ به الإنسان من حيث الذوق والشم.

ثم يشير إلى العين التي يملؤون منها كؤوسهم من الشراب الطهور فيقول: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا».

هذه العين من الشراب الطهور وضعها الله تعالى تحت تصرفهم، فهي تجرى أينما شاءوا، والظريف هو ما نقل - في أمالي الصدوق -

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام إذ قال في وصفها: «هي

(١) نقلت هذه الرواية في كتاب الغدير ٣/ ١٠٧ - ١١١؛ وفي كتاب إحقاق الحق ٣/ ١٥٧ - ١٧١ عن (٣٦) نفر من علماء أهل السنة مع ذكر المأخذ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣١

عين في دار النبي تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين».

نعم، فكما تتفجر عيون العلم والرحمة من بيت النبي صلى الله عليه وآله وتجرى إلى قلوب عباد الله الصالحين، كذلك في الآخرة

حيث التجسم العظيم لهذا المعنى تتفجر عين الشراب الطهور الإلهي من بيت الوحي، وتنحدر فروعها، إلى بيوت المؤمنين!

ثم تتناول الآيات الأخرى ذكر أعمال «الأبرار» و«عباد الله» مع ذكر خمسة صفات توضح سبب استحقاقهم لكل هذه النعم الفريدة

فيقول تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا».

جملة (يوفون) و (يخافون) والجمل التي تليها جاءت بصيغة الفعل المضارع وهذا يشير إلى استمراره وديمومه منهجهم.

وخوفهم من شر ذلك اليوم، وآثار هذا الإيمان ظاهرة في أعمالهم بصورة كاملة.

ثم يتناول الصفة الثالثة لهم فيقول: «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا».

لم يكن مجرد اطعام، بل اطعام مقرون بالإيثار العظيم عند الحاجة الماسية للغذاء، ومن جهة أخرى فهو إطعام في دائرة واسعة حيث

يشمل أصناف المحتاجين من المسكين واليتيم والأسير، ولهذا كانت رحمتهم عامة وخدمتهم واسعة.

فإن ما يستفاد من الآية أن أفضل الأعمال إطعام المحرومين والمعوزين، ولا يقتصر على اطعام الفقراء من المسلمين فحسب بل يشمل

حتى الأسرى المشركين أيضاً وقد اعتبر إطعامهم من الخصال الحميدة للأبرار.

والخصلة الرابعة للأبرار هي الإخلاص، فيقول: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لِأَنرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا».

إن هذا المنهج ليس منحصراً بالإطعام، إذ إن جميع أعمالهم خالصة لوجه الله تعالى، ولا يتوقعون من الناس شكراً وتقديراً. وأساساً

فإن قيمة العمل في الإسلام بخلوص النية وإلا فإن العمل إذا كان بدوافع غير الهية، فليس لذلك ثمن معنوي وإلهي.

ويقول في الوصف الأخير للأبرار: «إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا». (أي الشديد) من المحتمل أن يكون هذا الحديث لسان

حال الأبرار، أو قولهم بألسنتهم.

وجاء التعبير عن يوم القيامة بالعبوس والشديد للإستعارة، إذ أنها تستعمل في وصف

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٢

الإنسان الذي يقبض وجهه وشكله ليؤكد على هول ذلك اليوم، أي أن حوادث ذلك اليوم تكون شديدة إلى درجة أن الإنسان لا

يكون فيه عبوساً فحسب، بل حتى ذلك اليوم يكون عبوساً أيضاً. وأشارت الآية الأخيرة في هذا البحث إلى النتيجة الإجمالية للأعمال

الصالحة والنيات الطاهرة للأبرار فيقول: «فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا».

«نضرة»: بمعنى البهجة وحسن اللون والسرور الخاص الذي يظهر عند وفور النعمة والرفاه على الإنسان. وبما أنهم كانوا يحسون

بالمسؤولية ويخافون من ذلك اليوم الرهيب، فإن الله تعالى سوف يعوضهم بالسرور والبهجة.

وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيِيهِ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُشَقَّقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مَخْلُودُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) مكافئات الجنان العظيمة: بعد الإشارة الإجمالية في الآيات السابقة إلى نجاه الأبرار من العذاب الأليم يوم القيامة، ووصولهم إلى لقاء المحبوب والغرق بالسرور والبهجة، تتناول هذه الآيات شرح هذه المواهب الإلهية في الجنان، وعددها في هذه على الأقل خمسة عشرة نعمة، فتتحدث في البدء عن المسكن والملبس فتقول: «وَجَزَيْتَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا».

وليس فقط في هذه الآية، بل صرح بهذه الحقيقة في آيات أخرى من القرآن، وهو أن مكافآت القيامة إنما تعطى للإنسان لصبره (صبر في الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر عند المصائب). فنجد سلام الملائكة لأهل الجنان في الآية (٢٤) من سورة الرعد: «سَلِّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ».

مختصر الامثل ج ٥ ص ٣٦٩

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٣

ثم يضيف سبحانه في الآية التالية: «مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا».

ولا يعنى هذا انعدام الشمس والقمر في الجنان، بل بسبب ظلال أشجار الجنان لا تكون أشعة الشمس مؤذية.

«زمهير»: من مادة «زمهر» وهو البرد الشديد، أو شدة الغضب أو احمرار العين من أثر الغضب، والمراد هنا هو المعنى الأول.

«أرائك»: جمع «أريكة»، وتطلق في الأصل على الأسرة التي توضع في غرفة العروس، والمراد هنا الأسرة الجميلة والفاخرة.

عن ابن عباس: بينا أهل الجنة في الجنة إذ رأوا ضوءاً كضوء الشمس، وقد أشرقت الجنان به فيقول أهل الجنة يا رضوان ما هذا؟ وقد قال ربنا «لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا»، فيقول لهم رضوان: ليس هذا بشمس، ولا قمر، ولكن على وفاطمة ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ثغريهما (١).

وتضيف الآية الأخرى متممة لهذه النعم: «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا».

ليست هنا من مشكلة لقطف الثمار، ولا شوكة لتدخل في اليد، ولا تحتاج ذلك إلى مشقة أو حركة.

ثم توضح الآية الأخرى كيفية استضافته أصحاب الجنان، وأدوات الضيافة، والمستقبلين لهم، فيقول: «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيِيهِ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا\* قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا».

تحتوى هذه الآية على أنواع الأغذية والأشربة المتعددة الأصناف واللذيذة والباعثة على النشاط، بالقدر الذى يشاؤون ويحبونه، والولدان المخلدون يطوفون عليهم ليعرضوا عليهم الآنية والأكواب المليئة بما وعدهم الله بها.

ثم يضيف تعالى: «وَيُشَقَّقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا».

صرح الكثير من المفسرين بأن عرب الجاهلية كانوا يتلذذون بالشراب الممزوج بالزنجبيل، لأنه كان يعطى قوة خاصة للشراب.

(١) روح المعاني ٢٩ / ١٥٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٤

ويتحدث القرآن هنا عن الشراب الطهور الممزوج بالزنجبيل، ومن البديهي أن الفرق بين هذا الشراب وذلك الشراب كالفرق بين

الدنيا والآخرة.

ثم يضيف تعالى: «عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً».

«سلسيلاً»: هو الشراب الهنيء واللذيذ جداً الذي ينحدر بسهولة في الحلق.

ثم يتحدث عن المستقبلين في هذا الحفل البهيج المقام بجوار الله في النعيم الأعلى فيقول تعالى: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا».

إنهم مخلدون في الجنان، وطراوة شبابهم ونشاطهم خالد أيضاً، وكذا استقبالهم للأبرار، لأن عبارة (مخلدون) وعبارة (يطوف عليهم) من جهة أخرى تبيان لهذه الحقيقة.

«لؤلؤاً منثوراً»: يراد به الإشارة إلى جمالهم وصفائهم وإشراق وجوههم وكذلك حضورهم في كل مكان من المحفل الإلهي والروحاني.

وبما أن من المحال وصف النعم والمواهب للعالم الآخر مهما بلغ الكلام من البيان والبلاغة، ولذا يقول تعالى في الآية الأخرى كلاماً مطلقاً: «وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا».

إلى هنا اشير إلى قسم من نعم الجنان، وحين الآن دور زينة أهل الجنان فيقول تعالى:

«عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ».

«سندس»: ثوب رقيق من الحرير؛ و«الإستبرق»: ثوب غليظ من الحرير.

ثم أضاف تعالى: «وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ».

وهي الفضة الشفافة اللامعة كالبلور وأجمل من الياقوت والدر واللؤلؤ.

«اساور»: جمع «أسورة» وهي بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار)، أو «سوار» على وزن (حوار) وأخذ في الأصل من الكلمة الفارسية، (دستوار) وعند انتقالها إلى العربية تغيرت واختصرت وجاءت بصورة (سوار).

ثم يقول تعالى في نهاية الآية مشيراً إلى آخر نعمة وأهمها من سلسلة النعم: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا».

في المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «يطهرهم عن كل شيء سوى الله».

وفي روضة الكافي روى عن النبي صلى الله عليه وآله حول عين مطهرة مزكية المستقرة على باب الجنة، قال: «فيسقون منها شربة فيطهر الله بها قلوبهم من الحسد، ويسقط من أبشارهم الشعر وذلك قول الله عز وجل: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا»».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٥

وفي آخر آية من آيات البحث يتحدث حديثاً أخيراً في هذا الإطار فيقول: إنه يقال لهم من قبل رب العزة بأن هذه النعم العظيمة ما هي إلّا جزء أعمالكم في الدنيا: «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُورًا». لئلا يتصور أحد أن هذا الجزاء وهذه المواهب

العظيمة تعطى من دون مقابل، إن كل ذلك جزاء السعي والعمل، وثمره الرياضات وجهاد النفس وبناء الذات وترك المعاصي.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) خمسة مبادئ مهمة في تنفيذ حكم الله: شرعت السورة منذ البداية وحتى هذه الآية في

تبيان خلق الإنسان ثم المعاد والبعث، وفي هذه الآيات مورد البحث يتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله باصدار أوامر مؤكدة لهداية الناس والصبر والثبات في هذا الطريق، وفي الواقع إن هذه الآيات تشير إلى أن نيل كل تلك النعم والمواهب الأخرى لا يتم إلّا بالتمسك بالقرآن وإتباع النبي واطاعة أوامره. يقول في البدء: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا».

ثم يأمر النبي صلى الله عليه وآله بأمر خمسة، أولها الدعوة إلى الصبر والإستقامة فيقول: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ». أي لا تخف من المشاكل ومن موانع الطريق وكثرة الأعداء وعنادهم واستقم في سيرك على الصراط المستقيم.

والأمر الثاني الموجه للنبي صلى الله عليه وآله هو تحذيره من أى توافق مع المنحرفين، فيقول تعالى: «وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا».

في الحقيقة أن هذا الحكم هو تأكيد ثان على الحكم الأول، لأن جموع الأعداء كانوا يسعون بطرق مختلفة للتوافق مع النبي وجره إلى طريق الباطل، كما نقل أن عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة قالوا لرسول الله: إن تركت دعوتك، فإننا سنغنيك حتى ترضى، ونزوجهك أجمل بنات العرب، وعروض أخرى من هذا القبيل، فما كان على الرسول صلى الله عليه وآله هنا باعتباره المرشد الحقيقي والعظيم إلا أن يقف أمام هذه الوسوس الشيطانية والتهديدات التي صدرت منهم بعد ذلك، ولا يستسلم للترغيب أو التهيب.

ولكن بما أن الصبر والإستقامة في مقابل هذه المشكلات العظيمة ليس بالأمر اليسير،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٦

كان من الضروري لسلوك هذا الطريق التزود بنوعين من الزاد، لذا يضيف القرآن في الآية الأخرى: «وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا». أى فى كل صباح ومساءً. ويقول تعالى أيضاً: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا». لتوفر لديك فى ظل ذلك الذكر وهذا السجود والتسبيح قوة كافية وقدره معنوية لمواجهة مشاكل هذا الطريق.

فإن هاتين الآيتين تأكيداً لضرورة التوجه الدائم والمستمر لذات الله المقدسة.

ويجب هنا الإلتفات إلى أن الأوامر الخمسة المذكورة فى الآيات أعلاه وإن ذكرت بصورة منهج للنبي صلى الله عليه وآله، فهى فى الحقيقة دستوراً يحتذى به كل من يخطو فى مسير قيادة المجتمع البشرى، إنهم يجب أن يعلموا بعد الإيمان الكامل بأهدافهم ورسالتهم بضرورة احترام الصبر والإستقامة، وأن لا يستوحشوا من كثرة مشاكل الطريق، لأن هداية المجتمع من المشاكل العظيمة.

وفى المرحلة الأخرى يجب الثبات التام أمام الوسوس الشيطانية والتي تعتبر مصداقاً للآثم والكفور، والثبات أمام سعيهم فى حرف القيادة والأئمة بأنواع الحيل والمكائد، وأن لا ينخدعوا بالتطبيع ولا يتأثروا بالتهديد، ويذكروا الله تعالى فى كل المراحل لاكتساب القدرة الروحية وقوة الإرادة والعزم الراسخ، والاستمداد من العبادات الليلية، والمناجات مع الله، فإذا ما روعيت هذه الأمور فالنصر حتمى، وحتى لو عرضت مصيبة أو هزيمة فإنه يمكن إصلاحها من خلال هذه الاصول، ومنهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلوكه فى دعوته نموذج مؤثر لجميع السالكين فى هذا الطريق.

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) تحذير مع بيان السبيل: رأينا فى الآيات السابقة تحذيراً للنبي صلى الله عليه وآله لكى لا يقع تحت تأثير كل آثم أو كفور من المجرمين. الآيات أعلاه عرّفت الأعداء بشكل أكثر وقالت: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٧

لا تتعدى افق أفكارهم دائرة الطعام والنوم والشهوة، وتمثل هذه اللذائذ المادية الرخيصة أسمى غاية لهم فى الحياة. والعجيب أنهم قاسوا روح النبي العظيمة بهذا المقياس.

الآية التالية تحذرهم من الاعتراض بقوتهم وقدرتهم، إذ إن الله الذى أعطاهم إياها قادر على أن يستردها بسرعه متى شاء، فيقول تعالى: «نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا».

هنا يشير القرآن إلى نقطة حساسة، وهى جهاز الأعصاب الصغيرة والكبيرة التى تشد العضلات فيما بينها كالحبال الحديدية وتربط بعضها ببعض الآخر، وحتى المفاصل والعضلات المختلفة وقطع العظام الصغيرة والكبيرة وأعضاء الإنسان بحيث يتكون من مجموع ذلك إنسان كامل الخلقة مهياً للقيام بأية فعالية، وعلى كل حال فهذه الجملة كناية عن القدرة والقوة.

وتوضح هذه الآية ضمناً استغناء ذات الله المقدسة، عنهم، وعن طاعتهم وإيمانهم، ليعلموا أن الإصرار على دعوتهم للإيمان في الحقيقة هو من رحمة الله بهم.

ثم أشار تعالى إلى جميع البحوث الواردة في هذه السورة والتي تشكل مجموعها برنامجاً متكاملًا للحياة السعيدة، فيقول تعالى: «إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا».

إن علينا إيضاح الطريق، لا إجباركم على اختيار الطريق، وعليكم تمييز الحق من الباطل بما لديكم من العقل والإدراك، واتخاذ القرار بإرادتكم واختياركم، وهذا تأكيداً على ما جاء في صدر السورة في قوله: «إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كُفُورًا».

وقد يتوهم بعض السذج من العبارة أعلاه أنها تعني التفويض المطلق للعباد، فجاءت الآية التالية لتنفى هذا التصور وتضيف: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وهذا في الحقيقة إثبات لأصل مشهور هو (الأمر بين الأمرين)، إذ يقول من جهة: «إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ». فعليكم أن تختاروا ما تريدون، ويضيف من جهة أخرى: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». أي ليس لكم الإستقلال الكامل، بل إن قدرتكم واستطاعتكم وحريةكم لا تخرج عن دائرة المشيئة الإلهية، وهو قادر على أن يسلب هذه القدرة والحرية متى شاء.

من هذا يتضح أنه لا جبر ولا تفويض في الأوامر، بل إنها حقيقة دقيقة وظريفة بين

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٨

الأمرين. أو بعبارة أخرى: إنها نوع من الحرية المرتبطة بالمشيئة الإلهية، إذ يمكن سلبها متى يشاء ليتسنى للعباد تحمل ثقل المسؤولية الذي يعتبر رمزاً للتكامل من جهة، ومن جهة أخرى أن لا يتوهموا استغنائهم عن الله تعالى.

ولعل آخر الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا». يشير حكمه إلى هذا المعنى، لأنَّ حكمه الله تستوجب إعطاء الحرية للعباد في سلوك طريق التكامل، وإلّا فإنَّ التكامل الإجباري لا يعدُّ تكاملاً، بالإضافة إلى أنَّ حكمه الله لا تتفق مع فرض الأعمال الخيرة على اناس وفرض الأعمال الشريرة على اناس آخرين، ثم إنه يثيب الجماعة الاولى ويعاقب الثانية.

ثم تشير الآية الاخرى بعد ذلك إلى مصير الصالحين والطالحين، إذ تقول الآية: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

والظريف أن صدر الآية يقول: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ»، ويقول ذيلها:

«وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا»، وهذا يشير إلى أن مشيئته تعالى بعقوبة الإنسان تتبع مشيئته الإنسان للظلم والمعاصي، وبقرينة المقابلة يتضح أن مشيئته تعالى في الرحمة تتبع إرادة الإنسان في الإيمان والعمل الصالح وإقامة العدل، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر إلّا من حكيم.

«نهاية تفسير سورة الإنسان»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٩

## ٧٧. سورة المرسلات

محتوى السورة: إن أكثر محتويات هذه السورة تدور حول المسائل المرتبطة بالقيامة وتهديد وإنذار المشركين والمنكرين، ومن خصائص هذه السورة تكرار الآية: «وَيُلِّئُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» عشر مرّات بعد كل موضوع جديد، وتنبئ السورة بعد ذكر الأقسام عن القيامة والحوادث الصعبة للبعث، ثم تذكر عقب ذلك هذه الآية: «وَيُلِّئُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

وتتحدث السورة أوّلًا عن الوقائع المؤسفة للأقوام المذنبين الأوائل.

ثم تتحدث ثانياً عن جانب من خصوصيات خلق الإنسان.

وفي المرحلة الثالثة عن بعض المواهب الإلهية في الأرض.

وفي الرابعة تشرح السورة جانباً من عذاب المكذبين، وفي كل من هذه المراحل إشارة إلى مواضيع موقظة ومحركة، ثم تأكيد تلك الآية بعد ذكر كل موضوع من هذه المواضيع، وحتى أنه أشار في قسم من ذلك إلى نعم الجنان للمتقين ليمزج الإنذار بالبشارة والترهيب بالترغيب.

فإن هذا التكرار يذكر بتكرار بعض الآيات في سورة الرحمن باختلاف أن الكلام هناك يدور عن النعم، أما في هذه السورة فغالباً ما تتحدث عن عذاب المكذبين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٠

اختيار اسم (المرسلات) لهذه السورة، هو لتناسبه مع الآية الأولى لهذه السورة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأها عَرَفَ الله بينه وبين محمد صلى الله عليه و آله».

لا شك أن الثواب والفضيلة تكون لمن يقرأها ويتفكر ويعمل بها.

في الخصال للصدوق عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله! أسرع إليك الشيب؟ قال صلى الله عليه و آله: «شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون».

والملاحظ أن جميع هذه السور تعكس أحوال القيامة والمسائل المهولة لتلك المحكمة العظيمة، وهذه هي التي تركت أثراً في روح النبي المقدسة.

من البديهي أن القراءة بدون تدبر وتصميم على العمل لا يمكن أن تترك مثل هذا الأثر.

والمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٍ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ (١٠) وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْتَبِهُوا (١١) لِيَوْمِ يُؤْتَى يَوْمَ الْفُضُلِ (١٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفُضُلِ (١٣) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٤) ذَكَرْتُ فِي صَدْرِ السُّورَةِ ابْتِدَاءً خَمْسَةَ أَقْسَامٍ، وَذَلِكَ فِي خَمْسِ آيَاتٍ. وَهَنَّاكَ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي تَفْسِيرِ مَعَانِيهَا. يَقُولُ تَعَالَى: «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» (١). أَيْ قَسَمًا بِالتِّي تُرْسَلُ تَبَاعًا.

«فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا» التي تُسْرِعُ فِي حَرَكَتِهَا كَالْعَاصِفِ.

«وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا» ... التي تُوَسِّعُ وَتُنَشِّرُ مَا وَكَلَّتْ بِهِ.

«فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا» ... التي تَفْرُقُ وَتَفْصِلُ.

«فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا» التي تَلْقَى بِالآيَاتِ الْمَوْقِظَةِ وَالْمَذْكُرَةِ.

«عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» إمَّا لِاتِّمَامِ الْحِجَّةِ أَوْ لِلإِنذَارِ.

القسم الأول والثاني ناظر إلى الرياح والأعاصير، والقسم الثالث والرابع والخامس

(١) «عُرْفًا»: بمعنى متتابعًا، وأصله بمعنى (عرف الفرس) المتساقط بعضها على البعض الآخر، وفُسر أحيانًا بالعمل الحسن والمعروف.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤١

يتعلق بنشر آيات الحق بواسطة الملائكة، ثم فصل الحق عن الباطل، وبعد ذلك إلقاء الذكر والأوامر الإلهية على الأنبياء بقصد إتمام الحجّة والإنذار.

والآن لا بد أن نرى الغرض من هذه الأيمان، الآية التالية ترفع الستار عن هذا المعنى، فتقول: «إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٍ».

إنَّ البعث والشور، والثواب والعقاب والحساب والجزاء كلُّها حق لا ريب فيه.

ثم ينتهى إلى تبيان علامات ذلك اليوم الموعود، فيقول: إذا تحقق ذلك اليوم الموعود فإنَّ النجوم سوف تنطفىء وتمحى «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ». «وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ» أى انشقت.

«وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ». أى زالت وانقلعت من مكانها.

«طمست»: من مادة «طمس» وهو محو وزوال آثار الشيء؛ وهنا إشارة إلى محو نور النجوم.

«نسفت»: من مادة «نسف»- على وزن حذف- وفى الأصل، بمعنى وضع حبوب الغداء فى الغربال وتحريكه لعزل القشور عن الحبوب، ويعنى هنا تفتتت الجبال ثم نسفها فى الريح، ونستوحى من بعض آيات القرآن المجيد أن انقراض العالم يلازم وقوع حوادث مهولة بحيث يتلاشى نظام العالم بكامله، وحلول نظام الآخرة الجديد مكان ذلك النظام.

ثم أشار القرآن بعد ذلك إلى ما يجرى فى البعث، فيضيف: وفى ذلك الوقت يتم تعيين وقت للأنبياء والرسول ليأتوا إلى ساحة المحشر ويدلوا بشهادتهم: «وَإِذَا الرُّسُلُ أُنقُتْ» «١».

وهو كقوله: «فَلَنَسَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» «٢».

ثم يضيف تعالى: «لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ». أى لماذا تم تأخير هذه الشهادة ولأى وقت؟

ثم يقول: «لِيَوْمِ الْفَضْلِ». يوم فصل الحق عن الباطل، فصل صفوف المؤمنين عن الكافرين، والأبرار عن الأشرار، ويوم حكم الله المطلق على الجميع.

ثم يبين عظمه ذلك اليوم أيضاً، فيقول تعالى: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمُ الْفَضْلِ».

إنَّ الرسول صلى الله عليه وآله بعلمه الواسع وبنظرة الحاد الذى كان يرى من خلاله أسرار الغيب لم يكن مطلعاً بصورة كاملة على أبعاد عظمه ذلك اليوم، فكيف بسائر الناس.

(١) «أقنت» أصلها «وقنت» من مادة «وقت»، ويعنى توقيت الوقت لرسول الله تعالى.

(٢) سورة الأعراف / ٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٢

وفى آخر آية من آيات بحثنا هدد الله تعالى المكذبين بيوم القيامة تهديداً شديداً وقال: «وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

«ويل»: قيل هو الهلاك، وقيل المراد به العذاب المتنوع، وقيل هو وادٍ فى جهنم ملئ بالعذاب؛ وتستخدم هذه الكلمة عادة فيما يخص الحوادث المؤسفة، وهنا تحكى الآية عن مصير المكذبين المؤلم فى ذلك اليوم.

المراد بالمكذبين هنا هم المكذبون بيوم القيامة.

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءَ وَأَمْواتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاثَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) هذه الآيات أيضاً تحذّر وبطرق مختلفة المنكرين للبعث، وتوقظهم ببيانات مختلفة من نوم الغفلة العميق؛ فتأخذ بأيديهم أولاً إلى ما مضى من التاريخ لتريهم الأراضي المترامية الأطراف التى كانت ملكاً للأقوام السابقين، فيقول تعالى: «أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ».

إنَّ آثارهم واضحة على صفحات البسيطة. وليس على صفحات التاريخ فحسب.

«ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ». لأنها سنه مستمرة لا- تبعيض فيها ولا- استثناء، وهل يمكن أن يعاقب جماعة لجرم ما، ويقبل ذلك الجرم من

آخرين!؟



ولذا يضيف تعالى فى الآية الاخرى: «كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ».

هذه الآية هى بمنزلة بيان الدليل على هلاك الامم الاولى ويستتبعه هلاك الامم الاخرى، لأن العذاب الإلهى ليس فيه جانب الثأر ولا الإنتقام الشخصى. بل إنه تابع لأصل الإستحقاق ومقتضى الحكمة. ثم يضيف مستنجا: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

«يومئذ»: إشارة إلى يوم البعث الذى يعاقب فيه المكذوبون بالعقوبات الشديدة، والتكرار هو لتأكيد المطلوب.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٣

ثم يمسك القرآن بأيديهم ليأخذهم إلى عالم الجنين ويريههم عظمة الله وقدرته وكثرة مواهبه فى هذا العالم الملىء بالأسرار، ليفهموا قدرة الله تعالى على المعاد والبعث من جهة وأنهم غارقون فى نعمه اللامتناهية من جهة اخرى، فيقول تعالى: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ». أى تافه وحقير: «فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ».

مقرّ فيه ضمان لجميع ظروف الحياة والتربية والنمو والمحافظة على نطفة الإنسان، فهو عجيب وظريف وموزون بحيث يثير إعجاب كل إنسان.

ثم يضيف تعالى: إن بقاء النطفة فى ذلك المكان المكين والمحفوظ إنما هو لمدة معينة: «إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ».

مدة لا يعلمها إلا الله تعالى، مدة مملوءة بالتغيرات والتحويلات الكثيرة بحيث ترتدى النطفة فى كل يوم لباساً جديداً من الحياة يؤدى به إلى التكامل فى داخل ذلك المخبأ.

ثم يستنتج من قدرته تعالى على خلق الإنسان الكامل والشريف من نطفة حقيرة بأن الله تعالى نعم القادر: «فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ». وهذا الدليل اعتمده القرآن مرات عديدة لإثبات مسألة المعاد منها قوله تعالى فى أول سورة الحج: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَّيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ثم يعود فى النهاية ليكرر تلك الآية وهو قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ». الويل لأولئك الذين يرون آثار قدرة الله تعالى ثم ينكرونها.

ثم يقول تعالى: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا \* أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا».

«كفات»: على وزن (كتاب)، و «كفت» على وزن (كشف) هو جمع وضم الشىء للآخر، ويقال أيضاً لسرعة طيران الطيور «كفات» لجمعه لأجنحته حال الطيران السريع حتى يتمكن من شق الهواء والتقدم أسرع.

والمراد هو أن الأرض مقر لجميع البشر، إذ تجمع الأحياء على ظهرها وتهبىء لهم جميع ما يحتاجونه، وتضم أمواتهم فى بطنها، فلو أن الأرض لم تكن مهيبئة لدفن الأموات لسبب العفونة والأمراض الناتجة منها فاجعة لجميع الأحياء.

ثم يشير تعالى إلى إحدى النعم الإلهية العظيمة فى الأرض، فيضيف: «وَجَعَلْنَا فِيهَا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٤

رَوَاسِيَ سَآمِيَاتٍ» (١). هذه الجبال التى قاربت بارتفاعها السماء، واتصلت اصولها بالبعض الآخر قد لزمت الأرض كالدرع من جهة لحفظها من الضغط الداخلى والضغط الخارجى، ومن جهة اخرى تمنع اصطكاك الرياح مع الأرض حيث تمد قبضتها فى الهواء لتحركه حول نفسها وكذلك تنظم حركة الأعاصير والرياح من جهة ثالثة، ولهذا تكون الجبال باعثة على إستقرار أهل الأرض.

وفى آخر الآية إشارة إلى إحدى البركات الاخرى للجبال فيضيف تعالى: «وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَّاءً فُرَاتًا». ماءً سائغاً وباعثاً للحياة، لكم ولحيواناتكم ولبساتينكم.

فإن كثيراً من العيون والقنوات هى من الجبال، ومصدر الأنهار العظيمة هو من الجبلد المتراكم على قمم الجبال، حيث تعتبر من

الذخائر المائئة المهمة للإنسان.

ثم يقول في نهاية هذا القسم: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

اولئك الذين ينكرون كل هذه الآيات وعلامات قدرة الله التي يرونها بأعينهم، وكذلك يشاهدون النعم الإلهية التي غرقوا فيها، ثم ينكرون البعث ومحكمة القيامة التي هي مظهر العدل والحكمة الإلهية.

انطلقوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطلقوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفُضَيْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَئِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) في هذه الآيات تبيان لمصير المكذبين بيوم القيامة، والمنكرين لتلك المحكمة الإلهية العادلة، تبيان يدخل الرعب والرهبه في قلب الإنسان، ويوضح أبعاد الفاجعة. يقول تعالى:

«انطلقوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ». انطلقوا إلى جهنم التي طالما كنتم تستهزئون بها، توجهوا

(١) «رواسي»: جمع راسية، وهي الثابتات؛ و «شامخات»: جمع شامخ، أى عال، وتأتى بعض العبارات كالقول (شامخ بأنفه) كناية عن التكبر (مفردات الراغب).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٥

إلى أنواع العذاب التي هيئتموها بأعمالكم السيئة.

ثم يعمد إلى مزيد من التوضيح حول هذا العذاب، فيقول سبحانه: «انطلقوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ». توجهوا نحو ظل من دخان خانق له ثلاث شعب: شعبة من الأعلى، وشعبة من الجهة اليمنى، وشعبة من الجهة اليسرى، وعلى هذا الأساس فإن دخان النار المميت هذا يحيط بهم من كل جانب ويحاصرهم.

ثم يقول تعالى: «لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ». فليس في هذا الظل راحة، ولا يمنع من الإحترق بالنار لأنه نابع من النار. ثم يضيف وصفاً آخر لتلك النار المحرقة: «إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ». ليس كشر نار هذه الدنيا التي لا تكون أحياناً إلا بمقدار رأس الإبرة.

ثم ينتهى فى الآية الأخرى إلى وصف آخر من أوصاف هذه النار المحرقة، فيقول تعالى:

«كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ».

وإذا كان الشرر هكذا، فكيف بالنار المحرقة نفسها، وما جعل من العذاب الأليم فى تلك النار؟!

ويعود مرة أخرى فى آخر قسم من الآيات ليتبه بذلك التنبيه المكرر، فيقول: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

ثم يبدأ فصلاً آخر من علامات ذلك اليوم المهول، فيضيف تعالى: «هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ».

نعم، إن الله يختم فى ذلك اليوم على أفواه المجرمين والمذنبين كقوله فى الآية (٦٥) من سورة يس: «الْيَوْمَ نَخْتُمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ».

ثم يضيف تعالى فى القول: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ». ليس لهم الرخصة فى الكلام، ولا فى الاعتذار والدفاع عن أنفسهم، لأن الحقائق واضحة هناك، وليس لديهم ما يقولوه، نعم يجب أن يعاقب هذا اللسان الذى أساء الاستفادة من الحرية وسعى فى تكذيب الأنبياء، والإستهزاء بالأولياء، وإبطال الحق وإحقاق الباطل .. يجب أن يعاقب على أعماله بالإقفال والختم، لإبطال مفعوله، وهذا عذاب شديد وأليم بحد ذاته أن لا يتمكن الإنسان هناك من الدفاع عن نفسه أو الاعتذار.

فى روضة الكافى عن حماد بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول فى قول الله تبارك

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٦

وتعالى «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ»: «اللَّهُ أَجَلٌ وَأَعْدَلٌ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِعَبْدِهِ عَذْرٌ لَا يَدْعُهُ يَعْتَدِرُ بِهِ، لَكِنَّهُ فَلَجٌ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَذْرٌ». ثم يكرر تعالى في نهاية هذا المقطع قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

في المقطع الآخر يوجه الخطاب إلى المجرمين ليحكي عما يجري في ذلك اليوم فيقول تعالى: «هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ». جمعنا في هذا اليوم جميع البشر من دون استثناء للحساب، وفصل الخصام في هذه العرصه والمحكمه العظمى.

ويقول: والآن إذا كان لكم قدرة على الفرار من العقاب فاعملوا ما بدا لكم: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا».

هل تستطيعون دفع الفديه لتتحرروا؟

أو هل يمكنكم الهرب من دائرة نفوذ حكومتى؟

أو أن لكم القدرة على أن تخذعوا الملائكة الموكلين بكم وبحسابكم؟

اعملوا ما بدا لكم ولكن اعلموا أنكم لا تستطيعون!

ثم أنه تعالى أعاد تلك الجملة المهدهه والمتبتهه مره اخرى، وقال: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا يَزْكُوعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبَأَى حَيْدِثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) من المعلوم في منهج القرآن أنه يمزج الإنذار بالبشارة، والتهديد

بالتريغيب، وكذلك يذكر مصير المؤمنين في مقابل مصير المجرمين لفهم المسائل بصورة أكثر بقرينه المقابله، وعلى أساس هذه السنه المتبعه في القرآن، فإن هذه الآيات وبعد بيان العقوبات المختلفه للمجرمين في القيامة، أشارت إلى وضع المتقين في ذلك اليوم فيقول تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ». ثم يضيف: «وَفَوَاكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ».

والظريف أنهم في هذا المضيف الإلهي يستضافون بأحسن الوجوه، كما هو الحال في الآيه

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٧

التاليه إذ يقول لهم: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

عبارة «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» إشارة إلى أن هذه المواهب لا تعطى لأى كان من دون عمل، ولا يمكن حصولها بالإدعاء والتخيل والتصور، وإنما يمكن نيلها والحصول عليها بالأعمال الصالحه فقط.

«هنىء»: على وزن (صبيح) هو كل شىء ليست فيه مشقه ولا يستتبعه قلق.

وهذا إشارة إلى أن فواكه الجنة وأغذيتها وأشربتها ليست كأغذيه الدنيا وأشربتها التى تترك أحياناً آثاراً سيئه فى البدن، أو تترك أعراضاً غير مرضيه.

ثم تؤكد الآيه الاخرى على مسأله النعم وأنها لا تمنح اعتباراً فيضيف: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

وفى نهاية هذا المقطع يعيد تلك الآيه: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ». الويل لمن يُحْرَم من كل هذه النعم والألطف، إذ إن عذاب حسرات هذا الحرمان ليس بأقل من نيران الجحيم المحرقه!

وبما أن إحدى عوامل إنكار المعاد الإهتمام بلذات الدنيا الزائله والميل إلى الحريه المطلقه للإنتفاع بهذه اللذات، يتوجه بالحديث فى الآيه التاليه إلى المجرمين بلحن تهديدى فيقول:

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا بِالْمَلذَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ، وَلَكِنْ اَعْلَمُوا أَنَّ الْعَذَابَ الْإِلَهِيَّ يَنْتَظِرُكُمْ، لِأَنَّكُمْ مُجْرِمُونَ: «كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ».

عبارة «إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ» تشير إلى أن مصدر العذاب الإلهي هو عمل الإنسان وذنبه، الناشىء من عدم الإيمان أو الأسر فى قبضه الشهوات.

ثم يكرر التهديد بجملة: «وَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ». هم اولئك الذين غرّروا وخذعوا بزخارف الدنيا ولذاتها وشهواتها واشتروا عذاب الله.

وأشار فى الآية الاخرى إلى عامل آخر من عوامل الانحراف والتعاسة والتلوث، وقال: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُرُوا لآيَاتِكُمْ».

إنهم لم يأبوا الركوع والسجود فحسب، بل إن روح الغرور والكبر هذه كانت منعكسة على جميع أفكارهم وحياتهم، فما كانوا يسلّمون لله، ولا لأوامر النبي صلى الله عليه وآله، ولا يقرّون بحقوق الناس، ولا يتواضعون لله تعالى وللناس. ثم يعيد هذه الآية للمرة العاشرة والأخيرة إذ يقول: «وَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٨

وفى آخر آية من آيات البحث- وهى آخر آية من السورة- يأتى السياق ممزوجاً بالعتاب ومليئاً بالملائمة، فجاءت الآية بصيغة الاستفهام التعجبى، إذ يقول «فَبِأَيِّ حَيْدِثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ». إن من لم يؤمن بالقرآن الذى لو انزل على الجبال لتصدعت وارتجفت، فسوف لن يسلم ولن يؤمن بأى كتاب سماوى، ولا يقبل بأى منطق عقلائى، وهذا يدل على روح العناد والتعصب.

«نهاية تفسير سورة المرسلات»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٩

## ٧٨. سورة النبأ

محتوى السورة: تمتاز أغلب السور القرآنية فى الجزء الأخير من القرآن بأنها نزلت فى مكة، وتؤكد فى مواضيعها على مسألة: المبدأ، المعاد، البشارة والإنذار.

ويمكننا تلخيص محتوى السورة بما يلى:

١- السؤال عن «النبأ العظيم» وهو يوم القيامة كحدث بالغ الخطورة.  
٢- الاستدلال على أمكانية المعاد والقيامة، من خلال الاستدلال بمظاهر القدرة الإلهية فى: السماء، الأرض، الحياة الإنسانية والنعم الربانية.

٣- بيان بعض علامات بدء البعث.

٤- تصوير جوانب من عذاب الطغاة الأليم.

٥- التشويق للجنة، بوصف أجوائها الفياضة بالنعم.

٦- وتختم السورة بالإنذار الشديد من عذاب قريب، بالإضافة لتصوير حال الذين كفروا.

واشتق اسم السورة من الآية (٢)، ويطلق عليها أيضاً اسم سورة (عم) نسبة إلى أول كلمة وردت فى السورة بعد البسملة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة عم يتسائلون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٠

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ عم يتسائلون لم يخرج سنته إذا كان يدمنها فى كل يوم حتى يزور البيت الحرام».

عمّ يَسْأَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) خبر هام: تأتى الآية الاولى لتستفهم بتعجب: «عمّ يَسْأَلُونَ». ودون انتظار للجواب، تجيب الآية الثانية ما سئل عنه فى الآية الاولى: «عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ». ذلك الخبر: «الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ».

أورد المفسرون آراءً متباينة في المقصود من «النبي العظيم»، فمنهم من اعتبره إشارة إلى يوم القيامة، ومنهم من قال بأنه إشارة إلى القرآن الكريم، ومنهم من اعتبره إشارة إلى اصول الدين من التوحيد حتى المعاد.

بنظرة دقيقة إلى مجموع آيات السورة وسياق طرحها، وما ذكرته الآيات اللاحقة من ملامح القدرة الإلهية بعرض بعض مصاديقها في السماء والأرض، وبعد هذا العرض تؤكد إحدى الآيات: «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا». ثم مخالفته وعدم تقبل المشركين لمبدأ «المعاد»، كل ذلك يدعم التفسير الأول القائل: بأن النبي العظيم هو يوم القيامة.

«النبي العظيم» كمفهوم قرآني - مثل سائر المفاهيم القرآنية - له من السعة ما يشمل كل ما ذكر من معان، وإذا كانت قرائن السورة تدل على أن المقصود منه «المعاد»، فهذا لا يمنع من أن تكون له مصاديق أخرى.

ولذا نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام وفي بعض روايات أهل السنة أن «النبي العظيم» بمعنى إمامة أمير المؤمنين على عليه السلام، حيث كانت مثار جدال ونقاش بين جمع من المسلمين، وهناك من فسر «النبي العظيم» بالولاية بشكل عام. ويضيف القرآن قائلاً: «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ». فليس الأمر كما يقولون أو يظنون.

ويجدد التأكيد: «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ».

فسيعلمون في ذلك اليوم الواقع حتماً: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥١

جَنبِ اللَّهِ» (١). يوم ينهال العذاب الإلهي على الكافرين فيقولون بصرخات مستغيثة: «هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ» (٢).

بل وإن طلب العودة إلى الحياة لجبران خطيئاتهم سيطرح في اولى لحظات الموت، حين تزال الحجب عن عين الإنسان فيرى بام عينيه حقيقة عالم الآخرة، فيستيقن حياة البرزخ والمعاد، ولا يبقى عنده إلا أن يقول: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» (٣).

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٤) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٥) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٦) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٧) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا (٨) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٩) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٠) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١١) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٢) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٣) وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا (١٤) كل شيء بأمرك يا رب...: تحجب الآيات المذكورة على أسئلة منكري المعاد والمختلفين في هذا «النبي العظيم» لأنها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون وعالم الوجود الموزون، مع تبيانها لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعال

في حياة الإنسان، وذلك من جهة دليل على قدرة الباري عز وجل المطلقة، ومنها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته.

ومن جهة أخرى إشارة إلى أن الكون وما فيه من دقة تنظيم، لا يمكن أن يُخلق لمجرد العبث واللغو، بل لابد من وجود حكمه بالغه لهذا الخلق. في حين أنه لو كان الموت يعنى نهاية كل شيء، فمعنى ذلك أن وجود العالم عبث وخالٍ من أيّة حكمه.

وبهذا فقد استدل القرآن الكريم على حقيقة «المعاد» بطريقتين:

١- برهان القدرة.

٢- برهان الحكمة.

وقد عرضت الآيات الإحدى عشر، اثنتى عشر نعمة إلهية، بأسلوب ملؤه اللطف والمحبة، مصحوباً بالاستدلال.

(١) سورة الزمر / ٥٤.

(٢) سورة الشورى ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون / ٩٩ و ١٠٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٢

وتشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا».

«المهاد»: المكان الممهّد الموطأ؛ واختيار هذا الوصف للأرض ينم عن مغزى عميق ..

فمن جهة: نجد فى قسم واسع من الأرض الإستواء والسهولة، فتكون مهيبته لبناء المساكن والزراعة.

ومن جهة ثانية: اودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأولية إلى المعادن الثمينه، سواء كان ذلك على سطحها أم فى باطنها.

ومن جهة ثالثة: تحلل الأجساد الميتة التى تودع فيها، وتبيد كل الجراثيم الناشئة عن هذه العملية بما أودع فيها البارى من قدرة على ذلك.

ومن جهة رابعة: ما لحركتها السريعة المنظمة ولدورانها حول الشمس وحول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصة، بما ينجم عنها الليل والنهار والفصول الأربعة.

وبما أن نعمه استواء الأرض وسهولتها قد تهمش نعمه الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبين أهمية الجبال ودورها المهم فى حياة الإنسان: «وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا».

تشكل الجبال آية ربانية زاخرة بالعطاء، وتؤدى وظائف كثيرة، منها أنها تحفظ القشرة الأرضية من الإنهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، وذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض ... وتحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر فى عملية المد والجزر

...

وتشكل جدران الجبال سداً منيعاً للتقليل من آثار الرياح الشديدة والعواصف المدمرة ...

وتقوم بخزن المياه وادخار أنواع المعادن الثمينه فى باطنها ..

بالإضافة لكل ما ذكر، فتوزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود وتعاملاً مع حركة الأرض يعمل على تنظيم حركة الهواء المحيط بالكرة الأرضية بالشكل الذى يؤثر إيجابياً على الحياة فوق الأرض. وفى هذا المجال، يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستويًا كلاً، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض وسكون الغلاف الجوى، ولفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأن استمرار الإحتكاك الحاصل من حركة الأرض الدائمة وسكون الغلاف الجوى سيؤدى بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية مما يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

وبعد أن بين القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهية والآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم البارى على الإنسان من النعم والآيات الأنفسية فقال: «وَحَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٣

«الأزواج»: جمع زوج، المتشكل من الذكر والانثى ويخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، ويستمر وجوده فى الحياة من خلال عملية التناسل التى تساهم فى استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية ولنفسية، كما تشير إلى هذا الآية (٢١) من سورة الروم: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

ويشير بعد ذلك إلى نعمه النوم، فيقول: «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا».

«السبات»: من السبت، بمعنى القطع، ثم استعملت بمعنى (تعطيل العمل) لأجل الإستراحة.

وبالرغم من أن النوم يشكّل ثلث حياة الإنسان، ولكن الإنسان لا زال يجهل الكثير من خفاياه، بل ولا زال الإنسان (منذ القديم وحتى الآن) لا يعرف سبب تعطيل بعض فعاليات الدماغ فى مدة معينة وتغمض العين أجفانها وتسكن جميع أعضاء البدن.

ومع أن ذكر النوم فى الآية قد جاء باعتباره إحدى النعم الإلهية، إلا أن الآية المباركة قد تشير بذلك إلى الموت، لما للنوم من شبه بالموت، والإستيقاظ بالبعث.

وبعد الإنتهاء من ذكر نعمه النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمه الليل، فيقول:

«وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا».

وتضيف الآية التالية مباشرة: «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا».

وشبّهت الآية الليل باللباس والغطاء الذي يُلقى على الأرض ليشمل كل من على الأرض، وليجبر فعاليات الموجودات الحيّة المتعبئة على الأرض بالتعطل عن الحركة وممارسة النشاطات، ويخيم الظلام والسكون ليضفي على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل والمعاناة خلال النهار، وليمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالي لأنّ النوم المريح لا يتيسر للانسان إلاّ في أجواء مظلمة. وبالإضافة لكل ما ذكر، فحلول الليل يعني زوال نور الشمس وإلّا لانعدمت الحياة واحترقت جميع النباتات والحيوانات في حال استمرار شروق الشمس.

وخاتمة المقال: إنّ تعاقب الليل والنهار وما فيهما من نظام دقيق آية بينة من آيات خلقه سبحانه وتعالى، إضافة إلى أنّه تقويم طبيعي لتفصيل الزمن في حياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٤

وتأتى الآية التالية لتقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء حين تقول: «وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا».

قد يراد من العدد المذكور بالآية «الكثرة»، للإشارة إلى كثرة الأجرام السماوية والمنظومات الشمسية والمجرات والعوالم الواسعة لهذا الوجود، والتي تتمتع بخلق محكم وبناء رصين لا-خلل فيه... ويمكن أن يراد منه العدد، للإشارة إلى أنّ الكواكب وما يبدو لنا منها إنّما تعود إلى السماء الاولى، كما أشارت الآية (٦) من سورة الصّافات إلى ذلك: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ بَرِيئَةً الْكَوَاكِبِ». وثمة سماوات ستة وعوالم اخرى وراء السماء الاولى «الدنيا» خارجة عن حدود معرفتنا.

وبعد أن أشار القرآن إجمالاً إلى السماوات، يشير إلى نعمة الشمس، فيقول: «وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا».

«الوهّاج»: من الوهّج، بمعنى النور والحرارة التي تصدر من النار.

وإطلاق هذه الصفة على الشمس، للإشارة إلى نعمتين كبيرتين وهما: (النور) و (الحرارة) ويتفرع عنهما نعم وعطايا كثيرة يزخر بها عالما.

ولا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنيا للإنسان، بل لها أثر كبير في نمو سائر الكائنات الحيّة.

وإضافة لكل ما تقدم، فلحرارة الشمس أثر أساس في: تكوّن الغيوم، حركة الهواء، نزول الأمطار، وسقى الأراضي اليابسة.

ولأشعة الشمس كذلك الأثر البالغ في مكافحة الجراثيم، لاحتوائها على الأشعة ما وراء الحمراء التي تقتل الجراثيم.

وأشعة الشمس في واقعها: نور صحي مجاني دائم، يصلنا بكيفية لا هي بالشيديدة المحرقة، ولا هي بالقليلة العديمة التأثير.

وبعد ذكر نعمة النور والحرارة يتناول القرآن نعمة حياتية اخرى لها إرتباط بأشعة الشمس، ويقول: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا».

«المعصرات»: جمع «معصر»، من العصر بمعنى الضغط.. والكلمة تشير إلى أنّ الغيوم تقوم بعملية وكأنّها تعصر نفسها عصرًا لكي ينهمر منها الماء على شكل أمطار.

«الثجاج»: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، و «ثجاج» صيغة مبالغة، ويراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٥

وبالإضافة لكون المطر منبعاً لكثير من مصادر الخير والبركة، فهو: ملطف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة في الجو، مخفض للحرارة ومعدل للبرودة، مقلل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحاً متجددة ونشاطاً، ومع كل ذلك.. فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد اخرى له: «لَتُنخَّرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا»، «وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا». «ألفافاً»: أى إلْتَفَّ بعضها ببعض لكثرة الشجر.

والآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان والحيوان من المواد الغذائية التي تخرج من الأرض، فالحبوب الغذائية تشكل قسماً مهماً من

المواد الغذائية (حبًا)، والخضر تشكل القسم الآخر (ونباتًا)، وتأتي الفاكهة لتشكيل القسم الثالث (وجنات).  
 إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) سيأتي اليوم الموعود: الآية الاولى من الآيات أعلاه بمثابة نتيجة لما تعرضت له الآيات السابقة ... «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا».

والتعبير بـ «يوم الفصل» يحمل بين ثناياه إشارات كثيرة، فسيحدث في ذلك اليوم:

فصل الحق عن الباطل.

فصل المؤمنين الصالحين عن المجرمين.

فصل الوالدين عن أولادهم، والأخ عن أخيه ...

و «الميقات»: من الوقت، الميعاد من الوعد، بمعنى الوقت المعين والمقرر، وإنما سميت الأماكن التي يحرم منها حجاج بيت الله الحرام بـ «المواقيت» لأن الاجتماع فيها يكون في وقت معين.

ويتناول القرآن الكريم بعض خصائص ذلك اليوم العظيم، فيقول: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا».

ويستفاد من آيات القرآن أن ثمة نفختان عظيمتان ستحدثان باسم (نفخ الصور) .. ففي النفخة الاولى سينهار كل عالم الوجود، ويخز ميتاً كل من في السماوات والأرض، وفي النفخة الثانية يتجدد عالم الوجود وتعود الحياة إلى الأموات مرة اخرى، ليقوم بعدها يوم القيامة وأما ما ورد في الآية فيختص بنفخة الصور الثانية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٦

وتأتي الآية الاخرى لتقول: «وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا». فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة «١».

وتأتي الآية الأخيرة لتخبرنا عن حال الجبال في ذلك اليوم الحق: «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا».

بملاحظة ما جاء في القرآن الكريم بخصوص مصير الجبال ليوم القيامة تظهر لنا أن الجبال ستطويها مراحل متعاقبة، تبدأ حركتها من: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا» «٢».

ثم تُحْمَلُ وَتُدَكُّ: «وَوُحِمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً» «٣».

فتكون تلالاً من الرمال المتراكمة: «وَوُكِّنَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا» «٤».

فتصبح كأصواف منفوشة: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» «٥».

فتتحول غباراً متناثراً في الفضاء: «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا \* فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا» «٦».

ولا يبقى منها أخيراً إلا الأثر، كما أشارت لذلك الآية المبحوثة.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)

جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا

عَذَابًا (٣٠) جهنم ... المرصاد الرهيب: بعد أن بين القرآن الكريم في الآيات السابقة بعض أدلة المعاد وتناول قسمًا من حوادث يوم

القيامة، يذكر في هذه الآيات ما يؤول إليه حال المجرمين، فيقول: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا». وهي: «لِلطَّاغِينَ مَابًا». وأنهم: «لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا».

«المرصاد»: اسم مكان يختفى فيه للمراقبة؛ و «المآب»: هو محل الرجوع، ويأتي أحياناً بمعنى المنزل والمقر، وهو المقصود في هذه الآية.



(٢) سورة طور / ١٠.

(٣) سورة الحاقة / ١٤.

(٤) سورة المزمل / ١٤.

(٥) سورة القارعة / ٥.

(٦) سورة الواقعة / ٥ و ٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٧

و «الأحقاب»: جمع (حقب) على وزن (قفل)، بمعنى برهة زمنية غير معينة.

وتشير الآيات - بعد ذلك - إلى جانب صغير من عذاب جهنم الأليم، بالقول: «لَّا يَدُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا». «إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا»، إلّا ظلّ من الدخان الغليظ الخائق كما أشارت إلى ذلك الآية (٤٣) من سورة الواقعة: «وَوَظِلُّوا مِنْ يَحْمُومٍ». «الحميم»: هو الماء الحار جداً؛ و «الغساق»:

هو ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد والقيح.

في حين أن أهل الجنة يستقيهم ربهم جلّ شأنه بالأشربة الطاهرة، كما جاء في الآية (٢١) من سورة الإنسان: «وَسَيَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا».

ولكن، لِمَ هذا العذاب الأليم؟ فتأتى الآية التالية: إنّما هو: «جَزَاءٌ وَفَاقًا».

ولِمَ لا يكون كذلك .. وقد أحرقوا في دنياهم قلوب المظلومين، وتجاوزوا بتسلطهم وظلمهم وشزهم على رقاب الناس دون أن يعرفوا للرحمة معنى، فجزائهم يناسب ما اقترفوا من ذنوب عظام.

ويذكر القرآن سبب الجزاء فيقول: «إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزُجُونَ حِسَابًا».

وبعبارة أخرى: إنّ عدم الإيمان بالحساب سبب للطغيان، فيكون الطغيان سبباً لذلك الجزاء الأليم.

لأنّهم تناسوا حساب يوم القيامة بالكلية: ولم يفرزوا له مكاناً في كل حياتهم.

ومباشرة يضيف القرآن القول: «وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا كِذَابًا».

فقد أحكمت الأهواء النفسانية قبضتها عليهم حتى جعلتهم يكذبون بآيات الله تكديباً شديداً، وأنكروها إنكاراً قاطعاً ليواصلوا أمانيتهم الإجرامية باتباعهم المفرط لأهوائهم النفسانية ونوازعهم الدنيوية.

ينبه القرآن الطغاة على وجود الموازنة بين الجرم والعقاب في العدل الإلهي، فيقول:

«وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا».

فلا تظنوا أنّ شيئاً من أعمالكم سيقى بلا حساب أو عقاب، ولا تساوركم الشكوك بعدم عدالة العقوبات المقررة لكم.

وفي هذا المجال، يقول القرآن: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ\* وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٨

مُسْتَطْرٌ» «١» .. وفي موضع آخر يقول: «وَنُكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءِثَارَهُمْ» «٢». ولذلك يصرخ المجرمون بالقول: «يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» «٣».

حينما يستلمون كتابهم الحاوي على كل ما فعلوه في الحياة الدنيا. ومما لا شك فيه، أنّ إدراك حقيقة الآيات الربانية بكامل القلب، سوف يدفع الإنسان لأن يكون دقيقاً في جميع أعماله، وسيكون اعتقاده الجازم بمثابة السد المنيع بينه وبين ارتكاب الذنوب، ومن العوامل المهمة والمؤثرة في العملية التربوية.

ويتغيّر لحن الخطاب في الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة، فينتقل من التكلم عن الغائب إلى مخاطبة الحاضر: ويهدد القرآن بنبرات

غاضبة اولئك المجرمين، ويقول: «فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا».

وهذا هو جزاء اولئك الذين يواجهون دعوات الأنبياء الداعية إلى الله والإيمان والتقوى، بقولهم: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ» (٤).

حتى روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار» (٥).

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥) جَزَاءً مِمَّنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) مِمَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ: كان الحديث في الآيات السابقة منصباً حول خاتمة المجرمين والطغاة وما يلاقونه من أليم العذاب وموجباته، وينتقل الحديث في الآيات أعلاه لتفصيل

(١) سورة القمر / ٥٢ و ٥٣.

(٢) سورة يس / ١٢.

(٣) سورة الكهف / ٤٩.

(٤) سورة الشعراء / ١٣٦.

(٥) تفسير الكشاف ٤ / ٢١٠؛ وتفسير الصافي ٥ / ٢٧٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٩

بعض ما وعد الله المؤمنين والمتقين من النعم الخالدة والثواب الجزيل، عسى أن يرعوى الإنسان ويتبع طريق الحق من خلال مقياسه لما يعيشه كل من الفريقين، على ضوء تفكيره بمصيره الأبدى. فيقول مبتدئ الحديث: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا».

ومن مفردات الفوز والسعادة: «حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا».

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله في خصوص العنب أنه قال: «خير فواكهكم العنب».

ويتطرق القرآن إلى نعمة اخرى مما وعد الله به المتقين في الجنة، فيقول: «وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا».

«الكواعب»: جمع «كاعب»، وهي البنت حديثه الثدى، للإشارة إلى شباب زوجات المتقين في الجنة؛ و «الأتراب»: جمع «ترب»، ويطلق على مجموعة الأفراد المتساوين في العمر. قيل: إنها من «الترائب» وهي: اضلاع الصدر، وذلك لما بينهما من شبه من حيث التساوى والتماثل.

وتأتى النعمة الرابعة: «وَكَأْسًا دِهَاقًا».

وهو مُدَّك للعقل، منشط للروح ومنعش للقلب.

ودفعاً لما يتبادر إلى الأذهان من تبعات شراب الدنيا الشيطاني، يقول القرآن: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا».

فالجنة خالية من: الأكاذيب، الهديان، التهم، الإفتراءات، تبرير الباطل، بل وكل ما كان يؤدي قلوب المتقين في الحياة الدنيا .. إنها الجنة! وخير تصوير لها ما جاء في الآية (٦٢) من سورة مريم: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا».

وفي آخر المطاف يذكر القرآن الكريم تلك النعمة المعنوية التي تفوق كل النعم علواً:

«جَزَاءً مِمَّنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا».

وأية بشارة ونعمة أسمى وأجل، من أن أكون وأنا العبد الضعيف، موضع ألطاف وإكرام الله جلّ وعلا.

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة، يضيف: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ».

وبما أن صفة «الرحمن» تشمل رحمة الله العامية لكل خلقه، فيمكن حمل إشارة الآية إلى أن الله تبارك وتعالى يشمل برحمته أهل

السموات والأرض في الحياة الدنيا، إضافة لما وعد به المؤمنين من عطاء دائم في الجنة.

وذيل الآية يقول: «لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٠

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صِيْفًا لِمَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) رأينا في الآيات السابقة أنها تحدث عن بعض عقوبات الظالمين والطواغيت، وبعض المواهب والنعم المتعلقة بالصالحين في يوم القيامة، وتتناول الآيات أعلاه بعض صفات وحوادث يوم القيامة، وتشعر بالقول ب «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صِيْفًا لِمَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا».

وبلا شك فإن قيام الروح والملائكة صفاً يوم القيامة، وعدم تكلمهم إلا بأذنه سبحانه، إنما هو مثولاً للأوامر الإلهية وطاعة، كما هو حالهم قبل قيام القيامة، فهم بأمره يعملون ولكن في يوم القيامة سيتجلى أمتثالهم لله أكثر وبشكل أوضح.

والمراد من «الروح» في الآية المبحوثة هو كونه أحد ملائكة الله العظام، والذي يبدو من بعض الآيات أنه أعظم من جبرائيل وبدلالة ما روى على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل».

وعلى أيه حال، فسواء كان «الروح» من الملائكة أو من غيرهم، فإنه سيقف يوم القيامة مع الملائكة صفاً بانتظار أوامر الخالق سبحانه، وسيكون هول المحشر بشكل بحيث لا يقوى أي من الخلق للتحديث معه.

في تفسير مجمع البيان: روى معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام قال سئل عن هذه الآية، فقال: «نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون».

قال: جعلت فداك ما تقولون؟

قال: «نُجِّد رَبَّنَا، وَنُصَلِّي عَلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَنُشْفَعُ لَشِيعَتِنَا، فَلَا يَرُدُّنَا رَبَّنَا».

ونستفيد من هذه الرواية: أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام سيقفون صفاً يوم القيامة مع الملائكة والروح، وسيكونون من المأذون لهم في الكلام والشفاعة، وسيكون حديثهم منصباً حول الذكر والثناء والتسبيح للباري عز وجل.

ويشير القرآن واصفاً ذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس والملائكة أجمعون يوم الفصل،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦١

يوم عقاب العاصين وثواب المتقين، يشير بقوله: «ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ».

«الحق»: هو الأمر الثابت واقعاً، والذي تحققه قطعي. وهذا المعنى ينطبق تماماً على يوم القيامة، لأنه سيعطى كل إنسان حقه، إرجاع حقوق المظلومين من الظالمين، وتكشاف كل الحقائق التي كانت مخفية على الآخرين.. فإنه بحق: يوم الحق، وبكل ما تحمل الكلمة من معنى.

وإذا ما التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة (حقيقة يوم القيامة) فسيتحرك بدافع قوى نحو الله عز وجل للحصول على رضوانه سبحانه بإمتثال أوامره تعالى.. ولهذا يقول القرآن مباشرة: «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ».

فجميع مستلزمات التوجه والحركة نحو الله متوفرة بعد أن بين طريق الحق وأشار إلى معالم سبل الشيطان، بلغ الله أوامره بواسطة الأنبياء والرسول وبالقدر الكافي، أودع في الإنسان العقل (النبي الباطن)، رغب المتقين بالمفاز، أنذر المجرمين عذاباً أليماً، عيّن يوماً لمحكمة العدل الإلهي بين أسلوب المحاكمة، ولم يبق للإنسان سوى اختيار ما يتخذه إلى ربّه مآباً، وبمحض إرادته.

ثم يؤكد القرآن على مسألة عقاب المجرمين الذين يتوهمون أنه يوم بعيد أو نسيته، يقول القرآن... إن عقاب المجرمين لواقع، ويوم القيامة لقریب: «إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا».

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة (١٠٣) نهج البلاغة: «كل آت قريب دان».

ولم لا- يكون قريباً ما دام الأساس في العذاب الإلهي هو نفس أعمال الإنسان والتي هي معه على الدوام: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» (١).

وبعد أن وجه الإنذار للناس، يشير القرآن إلى حسرة الظالمين والمذنبين في يوم القيامة، حين لا ينفع ندم ولا حسرة، إلا من أتى الله بقلب سليم: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمُرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا». وأساساً فإن تجسّم الأعمال ومرافقتها للإنسان من أفضل المكافآت للمطيعين وأشد عقوبة للعاصيين. نعم، فقد يصل الأمر بالإنسان، وعلى الرغم من كونه أشرف المخلوقات، لأنّ يتمنى أن يكون والجمادات بدرجته واحدة، لما بدر منه من كفر وذنوب.

(١) سورة العنكبوت / ٥٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٢

وتصور لنا الآيات القرآنية أحوال الكافرين والمجرمين، وشدة تأثرهم وتأسفهم وندمهم على ما فعلوا في دنياهم، يوم الفزع الأكبر، فتقول الآية (٥٦) من سورة الزمر: «يَا حَسْرَتَى عَلَيَّ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ». وتقول الآية (١٢) من سورة السجدة: «فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا». أو ما يقوله كل فرد منهم - كما جاء في الآية المبحوثة - : «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا». «نهاية تفسير سورة النبأ»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٣

## ٧٩. سورة النازعات

محتوى السورة: تتلخص مواضيع هذه السورة بستة أقسام:

- ١- التأكيد مراراً على مسألة المعاد وتحققه الحتمي.
  - ٢- الإشارة إلى أهوال يوم القيامة.
  - ٣- عرض سريع لقصة موسى عليه السلام مع الطاغى فرعون، تسلياً للنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وإنذاراً للمشركين الطغاة، وإشارة إلى ما يترتب على إنكار المعاد من سقوط في مستنقع الرذيلة.
  - ٤- طرح بعض النماذج والمظاهر لقدرة البارئ سبحانه في السماء والأرض، للاستدلال على إمكان المعاد والحياة بعد الموت.
  - ٥- تعود الآيات مرة أخرى، لتعرض بعض حوادث اليوم الرهيب، وما سيصيب الطغاة من عقاب وما سينال الصالحون من ثواب.
  - ٦- وفي النهاية، يأتي على خفاء تاريخ وقوع يوم القيامة، والتأكيد على حتمية وقوعه وقربه.
- سميت السورة ب (النازعات) لورود هذه الكلمة في أول آية منها.
- فضيلة تلاوة السورة: في المجمع: ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٤

والنازعات لم يكن حبسه وحسابه يوم القيامة إلا كقدر صلاة مكتوبة حتى يدخل الجنة».

وليس غريباً أن ينال الإنسان بكل ما ذكر جزاءً من عند الله، إذا ما أمعن في محتوى السورة وتدبر إشاراتها الموقظة للنفوس الغافلة، والمعرّفة بوظائف الإنسان في حياته، فمن لم يكتف بترديد ألفاظ السورة، وعمل بها بعد الإمعان والتدبر فحري أن يجزى بما وعد الحق.

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) القسم بالملائكة: جاء القسم القرآنى بخمسة أشياء مهمة، لتبيان حقيقة وحتمية تحقق يوم القيامة (المعاد)، فيقول: «وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا...». «النازعات»: من «الترع»، ونزع الشيء جذبه من مقره.

«الغرق»: هو الرسوب فى الماء، ويأتى كذلك فىمن غمره البلاء؛ والمقصود فى هذه الآية ليس الغرق فى الماء، بل هو القيام بعمل ما إلى أقصى حد ممكن.

«النَّاشِطَاتِ»: من «النشط»، هى العُقد التى يسهل حلها، فىكون المعنى عموماً: هو التحرك بسهولة.

«السابحات»: من «السيح»، وهو الحركة السريعة فى الماء أو الهواء.

«السابقات»: من «السبق»، وهو التقدم فى السير.

«المدبرات»: من «التدبير»، وهو التفكير فى عاقبة الامور، وأرادت الآية القيام بالأعمال على أحسن وجه.

وبعد هذه التعريفات الموجزة نشرع بالتفسير:

إن القسم المذكور يتعلق بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار والمجرمين، ولكون تلك الأرواح قد رفضت التسليم للحق، فىكون فصلها عن أجسادها بشدة.

ويتعلق كذلك، بالملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين برفق ويسر، وسرعة فى إتمام الأمر.

والملائكة التى تسرع فى تنفيذ الأوامر الإلهية.

ثم الملائكة التى تتسابق فى تنفيذ الأوامر الإلهية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٥

وأخيراً، يتعلق القسم بالملائكة التى تدبر شؤون العالم بأمره سبحانه وتعالى.

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يُومِئِدُ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرَةِ (١٠) أِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) صيحة الموت المرعبة: بعد أن أكد القرآن الكريم على حقيقة القيامة وحتمية وقوعها فى الآيات السابقة، تتعرض الآيات أعلاه لبعض ما يصاحب يوم القيامة من علامات وأحداث، فتقول: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ». أى: يوم تحدث الزلزلة العظيمة المهولة.

ثم: «تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ».

«الراجفة»: من «الرجف»، بمعنى الإضطراب والتزلزل.

«الرادفة»: من «الردف»، وهو الشخص أو الشيء الذى يأتى بعد نظيره تتابعاً.

إن «الراجفة» هى الصيحة ونفخة الصور الاولى التى تعلن عن موت جميع الخلائق، و «الرادفة» هى الصيحة ونفخة الصور الثانية التى يبعث فيها الخلق مرة اخرى ليعيشوا يوم القيامة.

وتأتى الآية الاخرى لتقول: «قُلُوبٌ يُومِئِدُ وَاجِفَةٌ».

فقلوب العاصين شديدة الإضطراب خوفاً من الحساب والجزاء.

ويكون التزلزل الداخلى من الشدة بحيث يظهر على وجوه كل المذنبين، ولذا يقول القرآن: «أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ».

فيبدو الإضطراب والخوف ظاهراً على أعين المذنبين، وتتوقف حركتها وكأنها قد فقدت حاسة النظر لما أصابها من خوف شديد.

وفى الآية التالية ينتقل الحديث من أخبار يوم القيامة إلى الحياة الدنيا: «يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرَةِ».

«الحافرة»: من «الحفر» بمعنى شق الأرض، وما ينتج من ذلك يسمى (حفرة).

و «الحافرة»: كناية لمن يُرد من حيث جاء، كما لو سار إنسان على أرض، فيتترك فيها حفراً لتحمل آثار قدمه، ثم يعود إلى نفس تلك

الحفر، فالحافرة: تعنى الحالة الاولى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٦

وتستمر الآية في سرد كلامهم: «أءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً». فهكذا هو حال ودأب منكرى المعاد وعلى الدوام باستفسارهم الدائم حول المعاد، ويقولهم المعروف: كيف للعظام البالية النخرة والتي تحولت إلى ذرات تراب أن تعود مرة اخرى جسماً كاملاً، والأكثر من هذا .. أن تسرى فيه الحياة؟ ولكنهم لم يفقهوا إلى أنهم خلقوا من ذلك التراب، فكيف أصبحوا بهذه الهيئة الحيّة بعد أن لم يكونوا شيئاً؟ ولا يكتفى منكرى المعاد بحال الاعتراض على ما وعدهم به البارى سبحانه، بل وتحولوا إلى حال الإستهزاء بأحد اصول دين الله: «قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ».

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة يعود القرآن الكريم إلى مسألة القيامة، وبلسان قاطع، يقوق: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ\* فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ».

فالأمر ليس بمستصعب على الخالق القادر، فما أن يصدر الأمر الإلهي لنفخه الصور الثانية حتى تعود الحياة ثانية إلى جميع الخلائق، نعم .. فتشرع كل تلك العظام النخرة وما صار منها تراباً للتجمع على الهيئة الاولى، وليخرج الناس من قبورهم بعد أن تسرى فيهم روح الحياة.

«الزجرة»: بمعنى صيحة بشدة وانتهار، ويراد بها: نفخة الصور الثانية.

«الساهرة»: من «السهرة»، وهو الأرق، وقيل: لأرض القيامة «الساهرة» لذهاب النوم عن العيون لما سيصابون به من أهوال مرعبة. هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) يشير القرآن الكريم بهذه المقاطع البيانية إلى بعض مشاهد قصة موسى عليه السلام وفرعون، والتي تتناول عاقبة الطغاة عبر التاريخ، وما حدى بفرعون من مصير أسود، ليستذكر مشركو قريش وطغاتهم تلك الواقعة، وليعلموا أن من كان أقوى منهم لم يتمكن من مقاومة العذاب الإلهي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٧

ويشير البيان القرآني كذلك، إلى المؤمنين بأن لا يخافوا من قوة الأعداء الظاهريه، لأن دمارهم وهلاكهم على الله أسهل من أن يتصور .. فهذا البيان القرآني إذاً، تسلياً لقلوب المؤمنين وترطيباً لخواطرهم.

فيتوجه الحديث إلى النبي صلى الله عليه وآله بصيغته الإستفهام: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . ليشوق السامع وبهيته لاستماع القصة ذات العبر.

ثم يقول: «إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

«طوى»: يمكن أن يكون اسماً لأرض مقدسه، تقع في الشام بين (مدين) و (مصر)، وهو الوادي الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام أول مرة.

ثم أشار القرآن إلى تعليمات الله عز وجل إلى موسى عليه السلام في الواد المقدس: «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وبعد التزكية وتطهير الذات تصبح لائقاً للقاء الله، وسوف أهديك إليه عسى أن تخشع وتترك ما أنت عليه من المنكرات: «وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى .

ولما كانت كل دعوة تحتاج إلى دليل صحتها، يضيف القرآن القول: «فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى .

ولكن، ما الآية الكبرى؟ هل هي عصا موسى عليه السلام التي تحولت إلى أفعى عظيمة، أو إخراج يده بيضاء، أم كليهما؟ وعلى أية حال، فالمهم في المسألة إن موسى عليه السلام استند في بدء دعوته على معجزة «الآية الكبرى».

وتبين لنا هذه الملاحظة: إن من جملة الأهداف المهمة فى حركة الأنبياء هى هداية الطغاة أو مجاهدتهم.

لكن فرعون المتجبر قابل كل تلك المحبة، اللطف، الدعوة بالحسنى والآية الكبرى، قابل كل ذلك بالتجبر الأعمى والغرور الأبله: «فَكَذَّبَ وَعَصَى .

وكما يظهر من الآية المباركة فإنّ التكذيب مقدمة العصيان ومرحلة سابقة له، كما هو حال التصديق والإيمان باعتباره مقدمة للطاعات. وازداد فرعون عتوّاً: «ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى .

وقد هددت معجزة موسى عليه السلام كل وجود فرعون الطاغوتى، مما دعاه لأن يبذل كل ما يملك من قدرة لأجل إبطال مفعول المعجزة، فتراه وقد أمر أتباعه وجنوده لجمع كل سحرة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٨

البلاد- على كثرتهم فى تلك الحقبة الزمنية- ونودى فى الناس بأمره ليشاهدوا مشهد إبطال المعجزة من قبل السحرة، وليظهروا مثلها: «فَحَسَّرَ فَنَادَى . ولم يكتف فرعون بكذبه وعصيانه، ومقاومته لدعوة الحق والوقوف أمامها، بل وتعدى حدود المخلوق بصورة مفرطة جداً، وافترى على الله وعلى نفسه بأقبح ادعاء، حينما ادعى لنفسه الربوبية على شعبه وأمرهم بطاعته: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى .

فادعاه بأنه (الرب الأعلى) قد سرى حكمه حتى على آلهته لتكون من عبيده! .. نعم، فهكذا هو هذيان الطواغيت.

وعلى أئمة حال، فقد حلّ بفرعون منتهى التكبر والطغيان، فأخذه جبار السماوات والأرض سبحانه أخذ عزيز مقتدر: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَةِ وَالْأُولَى .

«النكال»: لغّة: العجز والضعف. ويقال لمن يتخلف عن دفع ما استحق عليه (نكل).

و (النكل)- على وزن فكر- القيد الشديد الذى يعجز معه الإنسان على عمل أى شىء.

و «نكال»: فى الآية يقال للعذاب الإلهى الذى يؤدى إلى عجز الإنسان، ويُخيف الآخرين، فيعجزهم عن ارتكاب الذنب.

«نكال الآخرة»: عذاب جهنم الذى سينال فرعون وأصحابه ومن سار على خطوه؛ و «عذاب الاولى»: إشارة إلى إغراق فرعون وأصحابه فى نهر النيل.

وتقديم «نكال الآخرة» على عذاب الدنيا، لأهميته وشدة بطشه.

وقيل: «الاولى»: تشير إلى كلمة فرعون الاولى فى مسير طغيانه حين ادعى (الالوهية)، كما جاء فى الآية (٣٨) من سورة القصص.

و «الآخرة»: إشارة إلى آخر كلمة نطق بها فرعون حين ادعى (الربوبية العليا)، فعذب الله بالغرق فى الحياة الدنيا نتيجة ادعائه الباطلين.

ويوافق هذا المعنى صيغة الفعل الماضى الواردة فى الآية «أخذ» والذى يفهم منه تنفيذ كل العقاب فى الدنيا، وتعضده الآية التالية التى تعدّ العذاب عبرة للآخرين.

ويستخلص القرآن نتيجة القصة: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى .

فتبين الآية إنّ وسائل سلك طريق الإعتبار مهينة لمن سرى فى قلبه الخوف والخشية من الله، واعتبرته مشاعر الإحساس بالمسؤولية، ومن رأى العبرة بعين معتبرة اعتبر.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٩

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) اللمسات الربانية فى عالم الطبيعة ونظام الكون:

ينتقل البيان القرآنى مرّة اخرى إلى عالم القيامة، بعد ذكر تلك اللمسات البلاغية فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون. وابتدأ الخطاب باستفهام توبيخى (لمنكرى المعاد) هل أن خلقكم (وإعادتكم إلى الحياة بعد الموت) أصعب من خلق السماء: «ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا».

والآية فى واقعها جوابٌ لما ذكر من قولهم فى الآيات السابقة: «أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ»- أى هل يمكن أن نعود إلى حالتنا الاولى- فكل إنسان ومهما بلغت مداركه ومشاعره من مستوى، ليعلم أن خلق السماء وما يسبح فيها من نجوم وكواكب ومجرات، لهو أعقد وأعظم من خلق الإنسان ... وإذا فمن له القدرة على خلق السماء وما فيها من حقائق، أيعقل أن يكون عاجزاً عن إعادة الحياة مرّة اخرى إلى الناس!؟

ويضيف القرآن فى بيان خلق السماء، فيقول شارحاً بتفصيل: «رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا».

وقيل: إن الآية تشير إلى ارتفاع السماء والأجرام السماوية وبعدها الشاسع عن الأرض، بالإضافة لإشارتها للسقف المحفوظ، والغلاف الجوى الذى حفّ وأحاط بالكرة الأرضية.

ثم تنتقل بنا الآية التالية إلى إحدى الأنظمة الحاكمة فى هذا العالم الكبير، (نظام النور والظلمة): «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا».

فلكل من النور والظلمة دور أساس ومهم جداً فى حياة الإنسان وسائر الأحياء من حيوان ونبات، فلا يتمكن الإنسان من الحياة دون النور، لما له من إرتباط وثيق فى حركة وإحساس ورزق وأعمال الإنسان، وكذا لا يتمكن من تكمله مشوار حياته من غير الظلمة، والتي تعتبر رمز الهدوء والسكينة.

«أغطش»: من «الغطش»، بمعنى الظلام.

«الضحى»: إنبساط الشمس وإمتداد النهار.

وتنتقل بنا الآية الاخرى من السماء إلى الأرض، فتقول: «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٠

مختصر الامثل ج ٥ ٣٩٩

«دحاها»: من «الدحو» بمعنى الإنبساط، وفسرها بعضهم بتحريك الشىء و نقله من مكانه. وللمعنيين أصل واحد، لوجود التلازم بينهما. ويقصد بدحو الأرض، إنها كانت فى البداية مغطاة بمياه الأمطار الغزيرة التى انهمرت عليها من مدّة طويلة، ثم استقرت تلك المياه تدريجياً فى منخفضات الأرض، فشكلت البحار والمحيطات، فيما علت اليابسة على أطرافها، وتوسعت تدريجياً، حتى وصلت لما هى عليه الآن من شكل، (وحدث ذلك بعد خلق السماء والأرض).

وبعد دحو الأرض، وإتمام صلاحيتها لسكنى وحياة الإنسان، يأتى الحديث فى الآية التالية عن الماء والنبات معاً: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا».

ويظهر من التعبير القرآنى، إن الماء قد نفذ إلى داخل الأرض بادية ذى بدء، ثم خرج على شكل عيون وأنهار، حتى تشكلت منهما البحيرات والبحار والمحيطات.

«المرعى»: اسم مكان من (الرعى)، وهو حفظ ومراقبة امور الحيوان من حيث التغذية وما شابهها. ولهذا، تستعمل كلمة (المراعاة) بمعنى المحافظة والمراقبة وتدير الامور.

ثم ينتقل البيان القرآنى إلى «الجبال»، حيث ثمة عوامل تلعب الدور المؤثر فى استقرار وسكون الأرض، مثل: الفيضانات، العواصف العاتية، المدّ والجزر، والزلازل .. فكل هذه العوامل تعمل على خلخله استقرار الأرض، فجعل الله عزّ وجل «الجبال» تثبيتاً للأرض، ولهذا تقول الآية: «وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا».

«أرسى»: من «رسو»، بمعنى الثبات، وأرسى: فعل متعد؛ أى، ثبت الجبال فى مواقعها.

وتلخص الآية التالية ما جاء فى الآيات السابقة: «مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

كل ذلك، ليغرف الإنسان من نعم الله.

وما جاء فى الآيات يبرز قدرته سبحانه على المعاد من جهة، ويدلل من جهة اخرى على وجود الله تعالى وعظمه شأنه، ليدفع المخلوق



إلى الإذعان بسلامه سلك طريق معرفة الله وتوحيده.

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧١

التنزه عن الهوى: وتتجه عدسة آيات القرآن الكريم لتعرض لنا جوانباً من صور عالم القيامة، وتبدأ بتصوير تلك الداهية المذهلة التي تصيب من عبد أهواه في الحياة الدنيا: «فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى .

«الطامة»: من «الطم» وهو في الأصل بمعنى ملء الفراغ والحفر، ويطلق بالطامة على كل شيء بلغ حدّه الأعلى، ولهذا فقد اطلقت على الحوادث المزة والصعاب الكبار، وهي في الآية تشير إلى يوم القيامة لما فيها من دواهي تغطي بهولها كل هول، واتبعت ب «الكبرى» زيادة في التأكيد على أهميته وخطورة يوم القيامة.

ويضيف: حال حلول الحدث ... سيستيقظ الجميع من غفلتهم، ويتذكروا ما زرعو لحياتهم: «يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى . وأنى للتذكر بعد فوات الأوان!

وإذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا ويتداركوا الأمر، فسيقربون ب «كلًا».

وإذا ما اعتذروا تائبين، فلا محيص عن ردّهم، بعد أن أوصدت أبواب التوبة بأمر الجبار الحكيم.

نعم، وقد ازيلت الحجب عن قلبه وروحه، سيري الحقائق بعينها شاخصة أمامه، ولا ينسى حينها ما اكتسبت يده من أعمال.

وتتحرك الآية التالية لوصف ما سيقع: «وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى .

فالجحيم موجودة، كما تشير إلى ذلك الآية (٥٤) من سورة العنكبوت: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». ولكن حجب الدنيا تمنعنا من رؤيتها، وأما في يوم الفصل، يوم البروز، فسيبرز كل شيء ولا يستثنى من ذلك جهنم.

وفي الآيات الثلاثة التالية، يشير القرآن إلى حال المجرمين والطغاة يوم القيامة: «فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا\* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى .

والآية الاولى تشير إلى فساد عقائد الطغاة، لأن الطغيان ينشأ من الغرور، والغرور من نتائج عدم معرفة الباري جل شأنه.

وبمعرفة عظمتهم وجلال الله يتصاغر الإنسان حتى يكاد لا يرى لنفسه أثراً، وعندها سوف لن تزل قدمه عن جادة العبودية الحقّة، مادام سلوكه يصب في رافد معرفة الله.

والآية الثانية تشير إلى فسادهم العملي، لأن الطغيان يوقع الإنسان في شراك اللذائذ الوقتية الفانية ذروة الطموح ومنتهى الأمل، فينساق واهماً لأن يجعلها فوق كل شيء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٢

والأمران في واقعهما كالعلمة والمعلول، فالطغيان وفساد العقيدة مفتاح فساد العمل وحب الدنيا المفرط، ولا يجران إلّا إلى سوء عقبي الدار، نار جهنم خالدين فيها أبداً.

ويأتى الدور في الآيتين التاليتين لوصف أهل الجنة: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى .

فالشرط الأول للحصول على نعم الجنة والاستقرار بها هو الخوف من الله من خلال معرفته (معرفة الله والخوف من التمرد والعصيان على أوامره)، والشرط الثاني هو ثمره ونتيجة الشرط الأول أي الخوف والمعرفة ويتمثل في السيطرة على هوى النفس وكبح جماحها، فهوى النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون الله.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ

يَزُورُهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) تتعرض الآيات أعلاه لإجابة المشركين ومنكرى المعاد حول سؤالهم الدائم عن وقت قيام الساعة (يوم القيامة)، فتقول أولاً: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا».

والقرآن في مقام الجواب يسعى إلى إفهامهم بأنه لا أحد يعلم بوقت وقوع القيامة، ويوجه الباري خطابه إلى حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله، بأنك لا تعلم وقت وقوعها، ويقول: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِيهَا».

فما خفى عليك (يا محمد)، فمن باب أولى أن يخفى على الآخرين، والعلم بوقت قيام القيامة من الغيب الذي اختصه الله لنفسه، ولا سبيل لمعرفة ذلك سواه إطلاقاً.

وتقول الآية التالية: «إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا».

ويؤكد القرآن هذا المعنى في الآية (٣٤) من سورة لقمان: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ».

وفي الآية (١٨٧) من سورة الأعراف: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي».

وتسهم الآية التالية في التوضيح: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّحْشَاهَا».

إنما تكليفك هو دعوة الناس إلى الدين الحق، وإنذار من يأبى بعقاب اخروي أليم، وما عليك تعيين وقت قيام الساعة.

وتأتي آخر آية من السورة لتبين أن ما تبقى من الوقت لحلول الوعد الحق ليس بالكثير:

«كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُورُهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا».

«نهاية تفسير سورة النازعات»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٣

## ٨٠. سورة عبس

محتوى السورة: يمكن ادراج محتويات السورة في خمسة مواضيع أساسية:

١- عتاب إلهي شديد لمن واجه الأعمى الباحث عن الحق بأسلوب غير لائق.

٢- أهمية القرآن الكريم.

٣- كفران الإنسان بالنعم والموهب الإلهية.

٤- بيان جانب من النعم الإلهية في مجال تغذية الإنسان والحيوان لاثارة حس الشكر في الإنسان.

٥- الإشارة إلى بعض الحوادث الرهيبة ومصير المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العظيم.

وتسمية السورة ب (عبس) لورود هذه الكلمة في أول آية منها.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك

مستبشر».

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى

(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَنْ يَزَكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٤

سبب التزل

تبيّن الآيات المباركة عتاب الله تعالى بشكل إجمالي، لشخص قدّم المال والمكانة الإجتماعية على طلب الحق ... أمّا من هو المعاتب؟

فقد اختلف فيه المفسرون، لكن المشهور بين عامّة المفسرين وخاصتهم، ما يلي:

إنّها نزلت في عبد الله بن ام مكتوم، وذلك أنّه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يناجى عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام،

والعباس بن عبد المطلب، وابتأ وامتيه إبنى خلف، يدعوهم إلى الله، ويرجو إسلامهم. فقال: يا رسول الله! أقرنتني وعلمني مما علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدرى أنه مشغول مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله لقطعته كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد، إنما أتباعه العميان والعميد، فأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآيات. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يكرمه «١».

والآية لم تدل صراحة على أن المخاطب هو شخص النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وعلى فرض صحة شأن النزول آنفة الذكر، فإن فعل النبي صلى الله عليه وآله والحال هذه لا يخرج من كونه (تركا للأولى)، وهذا ما لا ينافي العصمة.

التفسير

عتاب رباني: بعد أن تحدثنا حول شأن نزول الآيات، ننتقل إلى تفسيرها:

يقول القرآن أولاً: «عَبَسَ وَتَوَلَّى .

لماذا؟: «أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، وَيَطْلُبُ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى وَالتَّزَكِيَّةَ .

«أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، فَإِنْ لَمْ يَحْصِلْ عَلَى التَّقْوَى ، فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ يَتَذَكَّرَ وَيَسْتَيْقِظَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، فَيَنْفَعَهُ ذَلِكَ .

ويستمر العتاب ...: «أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى ، مَنْ عَتَبَ نَفْسَهُ غِنياً وَلَا يَحْتَاجُ لِأَحَدٍ .

«فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ ، وَتَسْعَى فِي هِدَايَتِهِ ، فِي حِينِ أَنَّهُ مَغْرُورٌ لِمَا أَصَابَهُ مِنَ الثَّرْوَةِ ، وَالْمَغْرُورُ يُؤَلِّدُ الطَّغْيَانَ وَالتَّكْبَرَ .

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/٢٦٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٥

«وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . أَى فِي حِينِ لَوْ لَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ التَّقْوَى وَالإِيمَانَ ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ شَىْءٌ .

فوظيفتك البلاغ، سواء آمن السامع أم لم يؤمن، وليس لك أن تهمل الأعمى الذى يطلب الحق، وإن كان هدفك أوسع ويشمل هداية كل اولئك الأغنياء المترفين أيضاً.

ويأتى العتاب مرة أخرى تأكيداً: «وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، فِي طَلْبِ الْهَدَايَةِ ...

«وَهُوَ يَخْشَى . فَخَشِيْتَهُ مِنَ اللَّهِ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ لِلْوَصُولِ إِلَيْكَ ، كَى يَسْتَمِعَ إِلَى الْحَقَائِقِ لِيَزَّكَّى نَفْسَهُ فِيهَا ، وَيَعْمَلُ عَلَى مَقْتَضَاهَا .

«فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى «١» .

فالعتاب سواء كان موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله أو إلى غيره، فقد جاء ليكشف عن اهتمام الإسلام أو القرآن بطالبي الحق، والمستضعفين منهم بالذات.

وعلى العكس من ذلك حدة وصرامة موقف الإسلام والقرآن من الأثرياء المغرورين إلى درجة أن الله لا يرضى بإيذاء رجل مؤمن مستضعف لغرض هدايتهم.

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَى شَىْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) تأتي هذه الآيات المباركة لتشير إلى أهمية القرآن وطهارته وتأثيره فى النفوس، بعد أن تناولت الآيات التى سبقتها موضوع (الإعراض عن الأعمى الذى جاء لطلب الحق)، فتقول: «كَلَّا». فلا ينبغى لك أن تعيد الكرة ثانية.

«إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ». إنما الآيات القرآنية تذكرة للعباد، فلا ينبغى الإعراض عن المستضعفين من ذوى القلوب النقية الصافية والتوجه إلى المستكبرين، اولئك الذين ملأ الغرور نفوسهم المريضة.

ويحتمل أيضاً، كون الآيات «كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ» جواب لجميع التهم الموجهة ضد القرآن من قبل المشركين وأعداء الإسلام.

(١) «التلهي»: من «اللهو» ويأتي هنا بمعنى الغفلة عنه والإستغفال بغيره، ليقف في قبال «التصدى».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٦

تقول الآية: إنَّ الأباطيل والتهم الزائفة التي افترت بها على القرآن من كونه شعر أو سحر أو نوع من الكهان، لا يمتلك من الصحة شيئاً، وإنَّما الآيات القرآنية آيات تذكرة وإيمان، ودليلها فيها. وتشير الآية التالية إلى اختيارية الهداية والتذكُّر: «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ». نعم، فلا إجبار ولا إكراه في تقبل الهدى الرباني، فالآيات القرآنية مطروحة وأسمعت كل الآذان، وما على الإنسان إلَّا أن يستفيد منها أو لا يستفيد.

ثم يضيف: أن هذه الكلمات الإلهية الشريفة مكتوبة في صحف (ألواح وأوراق): «فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ». إنَّ تعبير «الصحف» يوضِّح لنا أن القرآن قد كُتِبَ على ألواح من قبل أن يُنزل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ووصلت إليه بطريق ملائكة الوحي، والألواح بطبيعتها جليئة القدر وعظيمة الشأن. وهذه الصحف المكرمة: «مَرْفُوعَةٌ مُّطَهَّرَةٌ». فهي مرفوعة القدر عند الله، وأجل من أن تمتد إليها أيدي العابثين وممارسات المحرِّفين، ولكونها خالية من فذارة الباطل، فهي أظهر من أن تجد فيها أثراً لأي تناقض أو تضاد أو شك أو شبهة. وهي كذلك: «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ»، سفراء من الملائكة. وهؤلاء السفراء: «كِرَامٌ بَرَرَةٌ».

«سفرة»: جمع (سَافِرٍ) من (سَافَرَ)، ولغته: بمعنى كشف الغطاء عن الشيء، ولذا يطلق على الرسول ما بين الأقوام (السفير) لأنه يزيل ويكشف الوحشة فيما بينهم، ويطلق على الكاتب اسم (السافر)، وعلى الكتاب (سِفر) لما يقوم به من كشف موضوع ما ... فالسفرة هنا، بمعنى:

الملائكة الموكلين بإيصال الوحي الإلهي إلى النبي، أو الكاتبين لآياته.

في تفسير مجمع البيان: روى فضيل بن يسار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة». يجعل الحافظين للقرآن العاملين به في درجة السفرة الكرام البررة، فليسوا هم السفرة بل في مصافهم، لأنَّ جلاله مقام حفظهم وعملهم، يماثل ما يؤديه حملة الوحي الإلهي.

«كرام»: جمع «كريم»، بمعنى العزيز المحترم، وتشير كلمة «كرام» في الآية إلى عظمة ملائكة الوحي عند الله وعلو منزلتهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٧

«بررة»: جمع «بار»، من «البرّ»، بمعنى التوسع، ولذا يطلق على الصحراء الواسعة اسم (البرّ)، كما يطلق على الفرد الصالح اسم (البار) لوسعه خيره وشمول بركاته على الآخرين.

و «البررة»: في الآية، بمعنى إطاعة الأمر الإلهي، والطهارة من الذنوب.

وعلى الرغم من توفير مختلف وسائل الهداية إلى الله، ومنها ما في الصحف المكرمة من تذكير وتوجيه .. ولكن الإنسان يبقى عنيداً متمرداً: «قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ».

«الكفر»: في هذا الموضوع قد يحتمل على ثلاثة معان ... عدم الإيمان، الكفران وعدم الشكر ... جحود الحق وستره بأي غطاء كان وعلى كل المستويات.

«قَتَلَ الْإِنْسَانَ»: كناية عن شدة غضب الباري جلّ وعلا، وزجره لمن يكفر بآياته.

ثم يتعرض البيان القرآني إلى غرور الإنسان الواهي، والذي غالباً ما يوقع صاحبه في هاوية الكفر والجحود السحيقة: «مَنْ أَى شَيْءٍ

خَلَقَهُ».

لقد خلقه من نطفة قدرة حقيرة، ثم صنع منه مخلوقاً موزوناً مستويماً قدر فيه جميع اموره في مختلف مراحل حياته: «مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ».

فالنظرة الفاحصة الممعنة في خلق الإنسان من نطفة قدرة وتحويله إلى هيئته التامة المقدره من كافة الجهات، ومع ما منحه الله من مواهب وإستعدادات... لأفضل دليل يقودنا بيسر إلى معرفته جل اسمه.

«قدره»: من «التقدير»، وهو الحساب في الشيء.

والتقدير بمعنى إيجاد القدرة في هذه النطفة المتناهية في الصغر.

فما أجل الإله الذي جعل في موجود ضعيف كل هذه القدرة والإستطاعة، فترى النطفة بعد أن تتحول إلى الإنسان تسيّر وتتحرك بين أقطار السماوات والأرض، وتغوص في أعماق البحار وقد سخرت لها كل ما يحيط بها من قوى

ويستمر القرآن في مشوار المقال: «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ»... يسر له طريق تكامله حينما كان جنيناً في بطن أمه، يسر له سبيل خروجه إلى الحياة من ذلك العالم المظلم.

ومن عجيب خلق الإنسان أنه قبل خروجه من بطن أمه يكون على الهيئة التالية: رأسه إلى الأعلى ورجليه إلى الأسفل، ووجهه متجهاً صوب ظهر أمه، وما أن تحين ساعة الولادة حتى تنقلب هيئته فيصبح رأسه إلى الأسفل كي تسهل وتيسر ولادته.

وبعد ولادته يمر الإنسان في مرحلة الطفولة التي تتميز بنموه الجسمي، ثم مرحلة نمو

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٨

الغرائز، فالرشد في مسير الهداية الإيمانية والروحية، ويساهم العقل ودعوة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام في تركيز معالم شخصيته وبناء الإنسان روحياً وإيمانياً. وتشير الآية التالية إلى الأمر الحتمي الذي به تطوى آخر صفحات مشوار الحياة الدنيا: «ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ».

وحكم دفن الأموات (بعد الغسل والتكفين والصلاة)، يبين لنا... أنه ينبغي على الإنسان أن يكون طاهراً محترماً في موته، فكيف به يا ترى وهو حي؟!

وينتقل البيان القرآني إلى يوم القيامة: «ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ».

«أنشره»: من «النشر»، بمعنى الإنسباط بعد الجمع، فالكلمة تشير بأسلوب بلاغي رائع إلى جمع كل حياة الإنسان عند الموت لتنتشر في محيط أكبر وأعلى (يوم القيامة).

وتأتي الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة لتبين لنا ما يؤول إليه الإنسان من ضياع في حال عدم اعتباره بكل ما أعطاه الله من المواهب، فبالرغم من حتمية تسلسل حياة الإنسان من نطفة حقيرة، مروراً بما يطويه من صفحات الزمن العابرة، حتى يموت ويقبر، لكنه.. «كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ».

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَحْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فليُنظر الإنسان إلى طعامه: تحدثت الآيات السابقة حول

مسألة المعاد، والآيات القادمة تتناول نفس الموضوع بشكل أوضح، ويبدو أن الآيات المبحوثة - وانسياقاً مع ما قبلها وما بعدها - تتطرق لذات البحث وتبين مفردات قدرة الباري جل شأنه على كل شيء كدليل على إمكان تحقق المعاد، فما يقرب إمكانية القيامة إلى

الأذهان هو إحياء الأراضي الميتة بإزالة المطر عليها، العملية تمثل إحياء بعد موت مختصة بعالم النبات.

ثم إن البيان القرآني في الآيات أعلاه قد طرح بعض مفردات الأغذية التي جعلها الله تحت تصرف الإنسان والحيوان، لتشير عند الإنسان الإحساس بضرورة شكر المنعم الوهاب، وهذا الإحساس بدوره سيدفع الإنسان ليتقرب في معرفة بارئه ومصوره.

وشرعت الآيات بقولها: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»، كيف خلقه الله تعالى؟!

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٩

الغذاء من أقرب الأشياء الخارجية من الإنسان وأحد العوامل الرئيسية في بناء بدنه، ولولاه لتقطعت أنفاس الإنسان وأسدلت ستارة نصيبه من الحياة، ولذلك جاء التأكيد القرآني على الغذاء وبالذات النباتي منه دون بقية العوامل المسخرة لخدمته هذا المخلوق الصغير في حجمه.

ومن الجلي أن «النظر» المأمور به في الآية جاء بصيغته المجاز، واريده به التأمل والتفكير في بناء هذه المواد الغذائية، وما تحويه من تركيبات حياتية، وما لها من تأثيرات مهمة وفاعلة في وجود الإنسان، وصولاً إلى حال التأمل في أمر خالقها جلّ وعلا. وهكذا النظر إلى كيفية حصوله... فهل كان من حلال أم من حرام؟ هل هو مشروع أم غير مشروع؟ أي ينظر إلى طعامه من جانبه الأخلاقي والتشريعي.

وقد ذكر في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إن المراد ب «الطعام» في الآية هو (العلم) لأنه غذاء الروح الإنسانية. في الكافي: زيد الشحام عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» قال: قلت ما طعامه؟ قال: «علمه الذي يأخذه عمن يأخذه».

نعم... ينبغي على الإنسان أن يكون دقيقاً في متابعة مصدر ومنبع علمه ليطمئن لغذائه الروحي، وليأمن بالنتيجة من مدلهجات الخطوب التي تؤدى لمرض الروح أو هلاكها.

ثم يدخل القرآن في شرح تفصيلي لماهية الغذاء ومصدر تشكيله، فيقول «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا».

«الصب»: إراقه الماء من أعلى، وجاء هنا بمعنى هطول المطر. نعم.. فالماء مصدر رئيسي للحياة، وهو على الدوام ينزل من السماء وبغزارة ليجسد لطف الله تعالى على خلقه.

كيف لا، وكل العيون والآبار والقنوات والأنهار قد استمدت أساس وجودها من الأمطار.

وبعد ذكر نعمة الماء وما له من أثر حيوي ومهم في نمو النباتات، ينتقل البيان القرآني إلى الأرض، فيقول: «ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا».

إن الآية تشير إلى عملية شق الأرض بواسطة النباتات التي تبدأ بالظهور على سطح الأرض بعد عملية بذر الحبوب، والعلمية بحد ذاتها مدعاة للتأمل، إذ كيف يمكن لهذا العشب الصغير الناعم أن يفتت سطح التربة مع ما لها من صلابة وخشونة، بل ونرى في

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٠

المناطق الجبلية أن سويقات نباتاتها قد ظهرت من بين حافات صخورها الصلدة. وثمة تفسير اخرى يقول: إن شق الأرض في الآية إشارة إلى تفتت الصخور التي كانت على سطح الأرض.

فالآية تمثل إحدى مفردات الإعجاز العلمي للقرآن، لأنها تناولت موضوع الأمطار وتشقق الأرض لتضحى قابلة للزراعة، بشكل علمي دقيق، والآية لم تتحدث عن شيء قد حدث، بل حدث ولا زال. يبدو أن هذا التفسير ينسجم مع ما تطرحه الآية التالية بخصوص عملية الإنبات.

وبعد ذكر ركنين أساسيين في عملية الإنبات - أي الماء والتراب - ينتقل القرآن بالإشارة إلى ثمانية مصادر لغذاء الإنسان أو الحيوان: «فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا».

تعتبر الحبوب من الأغذية الرئيسية للإنسان والحيوان معاً، وتوضح أهميتها فيما لو عمّ الجفاف - على سبيل المثال - فمدّة عام واحد، حيث يعمّ القحط وتنتشر المجاعة في كل مكان.

ثم يضيف: «وَعَبًّا وَقَضْبًا».

وقد اختارت الآية العنب دون البقية لما اودع فيه من مواد غذائية غنية بالمقويات، حتى قيل عنه بأنه غذاء كامل.

ومع أن «العنب» يطلق على الشجرة والثمرة، وبالرغم من ورود كلا- الإستعمالين فى الآيات القرآنية، لكن المناسب هنا الثمرة دون الشجرة.

«قضباً»: هو الخضراوات التى تؤكل طرية والنباتات الزاحفة وكذا الأرضية.

ثم يضيف: «وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا».

ومن الواضح أن ذكر هاتين الفاكهتين لما لهما من الأهمية الغذائية للإنسان، حيث يعتبر الزيتون والتمر من أهم الأغذية المقوية والصحية والمفيدة للإنسان.

وتأتى المرحلة التالية: «وَحَدَائِقَ غُلْبًا».

«الحدائق»: جمع (حديقة)، وهى الأرض المزروعة والمحاطة بسور يحفظها، وهى فى الأصل بمعنى: قطعة الأرض التى تحتوى على الماء، وسميت حديقة تشبيهاً بحديقة العين من حيث الهيئة وحصول الماء فيها.

ويحتمل إشارة الآية إلى أنواع الفواكه، باعتبار أن الحدائق غالباً ما تزرع بأشجار الفاكهة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨١

«غلب»: على وزن (قفل)، جمع (أغلب) و (غلباء)، بمعنى غليظ الرقبه، فلاية إذن ترمز إلى الأشجار الشاهقة المتينة.

ثم يضيف: «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا».

«الأب»: (بتشديد الباء)، هو المرعى المهيأ للرعى والحصد، وهو فى الأصل بمعنى «التهيؤ»، اطلق على المرعى لما فيه من أعشاب يكون بها مهياً لاستفادة الحيوانات منه.

ويواجهنا سؤال: إذا كانت الآيات السابقة ذكرت بعض أنواع الفاكهة، والآية المبحوثة تناولت الفاكهة بشكل عام، هذا بالإضافة إلى ذكر ال «حدائق» فى الآية السابقة التى قيل أن ظاهرها يشير إلى الفاكهة ... فلم هذا التكرار؟

الجواب: إن تخصيص ذكر العنب والزيتون والتمر (بقريته ذكر النخل)، إنما جاء ذكرها لأهميتها المميزة على بقية الفاكهة.

أما لماذا ذكرت الحدائق بشكل منفصل عن الفاكهة؟ فيمكن حمله على ما للحدائق من منافع خاصة بها، ولا تشترك الفاكهة فيها، كجمالية منظرها وعدوبه نسيما وما شابه ذلك، بالإضافة إلى استعمال أوراق الأشجار وجذورها وقشورها جذوعها كمواد غذائية (كالشاي والزنجبيل وأمثالها)، أما بالنسبة للحيوانات، فأوراق الأشجار المختلفة من أفضل أغذيتها عموماً ... فلايات إذن كانت فى صدد الحديث عن غذاء الإنسان والحيوان.

ولذلك ... جاءت الآية التالية لتوضح هذا المعنى: «مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

و «المتاع»: هو كل ما يستفيد منه الإنسان ويتمتع به.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحَتِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢)

صيحة البعث ...: وينتقل الحديث فى هذه الآيات إلى يوم القيامة وتصوير حوادثه، وما سيؤول إليه أحوال المؤمنين الكافرين، كل بما كسبت يدها وقدم.

فمتاع الحياة الدنيا وإن طال فهو قليل جداً فى حساب حقيقة الزمن، وأن خالق كل شىء لعظيم فى خلقه وشأنه، وأن المعاد حق ولا بد من حتمية وقوعه.

ويقول القرآن الكريم: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٢

«الصَّاحَةُ»: من «صَحَّ» وهو الصوت الشديد الذى يكاد يأخذ بسمع الإنسان، ويشير فى الآية إلى نفخة الصور الثانية، وهى الصيحة

الرهيبه التى تعيد الحياه إلى الموجودات بعد موتها جميعاً ليبدأ منها يوم الحشر.  
ولذا تأتى الآية التالية، ولتقول مباشرة: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ».  
ذلك الأخ الذى ما كان يفارقه وقد ارتبط به بوشائج الاخوة الحقة!  
وكذلك: «وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ».  
حتى: «وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ».

فوحشه ورهبه يوم القيامة لا تُنسى الأخ والام والأب والزوجه والأولاد فحسب، بل وتتعدى إلى الفرار منهم، وعندما ستتقطع كل روابط وعلاقات الإنسان الفرد مع الآخرين.  
ولكن ... لم الفرار؟ ... «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

«يغنيه»: كناية لطيفة عن شدة انشغال الإنسان بنفسه فى ذلك اليوم، ولما سبرى من حادث مذهلة، تأخذه كاملاً، فكراً وقلباً.  
عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال له بعض أهله: يا رسول الله! هل يذكر الرجل يوم القيامة حميمه؟ فقال صلى الله عليه وآله: «ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى ينظر أيثقل ميزانه أم يخف، وعند الصراط حتى ينظر أيجوزه أم لا، وعند الصحف حتى ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشماله، فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا حبيبه ولا قريبه ولا صديقه، ولا بنيه ولا والديه، وذلك قول الله تعالى: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» (١)».

ويتنقل البيان القرآنى ليصور لنا حال العباد بقسميهم فى ذلك اليوم، فتقول:

«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ». أى مشرقة وصبيحة.

«صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ». «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ». «تَرَاهُهَا قَتْرَةٌ». أى تغطيها ظلمات ودخان.

«أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ».

«مسفرة»: من «الأسفار»، بمعنى الظهور بياض الصبح بعد ظلام الليل.

(١) البرهان فى تفسير القرآن ٥/ ٥٨٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٣

«غبرة»: على وزن (غَلْبَةٌ)، من «الغبار».

«قترة»: من «القتار»، وهو شبه دخان يغشى من الكذب.

«الكفرة»: جمع (كافر)، والوصف يشير إلى فاسدى العقيدة.

«الفجرة»: جمع (فاجر)، والوصف يشير إلى فاسدى العمل.

ونستخلص من كل ما تقدم، أن آثار فساد العقيدة لدى الإنسان وأعماله السيئة ستظهر على وجهه يوم القيامة.

وقد اختير الوجه، لأنه أكثر أجزاء الإنسان تعبيراً عما يخالجه من حالات الغبطة والسرور أو الحزن والكآبة.

«نهاية تفسير سورة عبس»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٥

## ٨١. سورة التكويد

محتوى السورة: هذه السورة تدور حول محورين أساسيين:

الأول: هو ما شرعت به السورة من تبيان علائم يوم القيامة، وما يواجهه العالم من تغييرات قبيل يوم القيامة.



الثاني: الحديث عن عظمة القرآن ومن جاء به، وأثره على النفس الإنسانية، بالإضافة إلى تكرار اليمين والقسم في آيات عدة لإيقاظ الإنسان من غفلته.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاده الله تعالى أن يفضحه حين تنشر صحيفته».

وروى أبو بكر قال: قلت لرسول الله: يا رسول الله! أسرع إليك الشيب؟ قال: «شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتسائلون وإذا الشمس كورت».

وتلاوة القرآن المقصودة في الحديث أعلاه، ينبغي أن يكون بشروطها من: التأمل، الإيمان والعمل.

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٦

يوم تطوى الكائنات فيه: نواجه في بداية السورة إشارات قصيرة، مثيرة ومرعبة لما سيجري لنهاية العالم المذهلة، فقد تحدثت هذه الآيات عن ثمانية علائم من ويوم القيامة.

وأول مشهد عرضته عدسة العرض القرآني، هو: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ».

«كورت»: من «التكوير» بمعنى الطي والجمع واللف (مثل لف العمامة على الرأس).

فالمقصود هو: خمود نور الشمس وذهابه، وتغير نظام تكوينها.

وكما بات معلوماً... فالشمس في وضعها الحالي، عبارة عن كرة مشتعلة، على هيئة غازية ملتهبة، وتتفجر الغازات على سطحها بصورة شعلات هائلة محرقة، قد يصل ارتفاعها إلى مئات الآلاف من الكيلو مترات.

ولو قدر وضع الكرة الأرضية وسط شعله منها، فإنها تستحيل فوراً إلى رماد وكتلة من الغازات.

ولكن... عند حلول وقت نهاية العالم، والإقتراب من يوم القيامة، سيخمد ذلك اللهب المروع، وستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، ويصغر حجمها... وهو ما اشير إليه بالتكوير.

وقد أيد العلم الحديث هذه الحقيقة، من خلال اعتقاده وبعد دراسات علمية كثيرة، بأن الشمس تسير تدريجياً نحو الظلام والإنطفاء.

ويأتي المشهد الثاني: «وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ».

«انكدرت»: من «الإنكدار»، بمعنى السقوط والتناثر، واشتق من (الكدورة)، وهي السواد والظلام.

ويمكن جمع المعنيين في الآية، لأن النجوم في يوم القيامة ستفقد إشعاعها وتتناثر وتسقط في هاوية الفناء.

والمشهد الثالث: «وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ».

وقد ذكرنا مراحل فناء الجبال، ابتداءً من السير والحركة وانتهاءً بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية ٢٠ من سورة النبأ).

وتم يأتي دور المشهد الرابع: «وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ».

«العشار»: جمع (عشراء)، وهي الناقة التي مرّ على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعدما امتلأت أثداؤها باللبن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٧

وهي من أحب وأثمن النوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة.

«عطلت»: تركت لا راعي لها. فهول ووحشة القيامة، سينسى الإنسان أحب وأثمن ما يمتلكه.

وينتقل المشهد الخامس إلى الوحوش: «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ».

فالحيوانات الوحشية التي تراها في الحالات العادية تبتعد الواحدة عن الاخرى خوفاً من الإفتراس والبطش، سترها وقد جمعت في

محفل واحد، وكل منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيصاب به من رهبة وأهوال ذلك اليوم الخطير، وكأنها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدة خوفها وفزعها.

ونقول: إذا اضمحلت كل خصائص الوحشية للحيوانات غير الأليفة نتيجة لأهوال يوم القيامة، فما سيكون مصير الإنسان حينئذ؟! وتُصوّر البحار فى المشهد السادس: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

«سُجِّرَتْ»: من «التسجير»، بمعنى إضرام النار.

وإذا خالغ القدماء التعجب والإستغراب لهذا الوصف القرآنى، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصرى الأوكسجين والهيدروجين، القابلات للإشتعال بسرعة، ولا يستبعد أن يوضع الماء- فى إرهاصات يوم القيامة- تحت ضغط شديد ممّا يؤدّى إلى تجزئته وتفكيكه عناصره، وعندها سيتحول إلى كتلة ملتهبة من النار.

ويأتى درو المشهد السابع: «وَإِذَا الْتُفُوسُ زُوِّجَتْ».

فتبدأ المألوفة بخلاف حال الدنيا ... فالصالحون مع الصالحين، والمسئوون مع المسيئين، وأصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركاً، أو تزوج الصالح من غير الصالحة فى الحياة الدنيا، فتصنيف يوم قيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق.

ونصل إلى المشهد الثامن: «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سِلَّتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ».

«الموءودة»: من «الوآد» على وزن (وعد)، بمعنى دفن البنت حية بعد ولادتها.

وأطلق الأئمة الأطهار عليهم السلام مفهوم الوآد، ليشمل كل قطع رحم وقطع مودة ... حينما سئل

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٨

الإمام الباقر عليه السلام عن معنى الآية، قال: «هو من قتل فى مودتنا وولايتنا» «١». ولا شك أن التفسير الأول ينسجم مع ظاهر الآية، ولكن المفهوم والملاك قابلان للتوسع والشمول.

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُجِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ (١٤) يوم يرى الإنسان ما قدّم: فبعد مرحلة الفناء العام، تأتى مرحلة الظهور الجديد للعالم، لتقام محكمة العدل الإلهى، ومن معالم هذه المرحلة: «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ».

فستنشر الصحف التى دوّنت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة وكل سيعرف جزاءه بعد الإطلاع على صحيفه أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (١٤) من سورة الإسراء: «أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا».

وسيكون نشر الصحف أمام الملائكة العام لتقرّ عيون المحسنين سروراً، ويقاسى المسئوون العذاب النفسى.

ثم يضيف: «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ».

«كشطت»: من «الكشط» على وزن (كشف)، بمعنى قلع جلد الناقة.

وما يراد من «كشطت» فى الآية، هو: رفع الحجب الفاصلة بين العالمين الدنيوى والعلوى، التى تمنع رؤية الناس للملائكة أو الجنة والنار، فيرى الإنسان حينها عالم الوجود شاخصاً أمام ناظره شخصاً حقيقياً.

فالآية قد تحدثت عن المرحلة الثانية للقيامة؛ مرحلة ما بعد البعث.

ويتأكد ذلك بوضوح من خلال الآية: «وَإِذَا الْجَحِيمُ سُجِّرَتْ».

فجهنم موجودة فى كل الأوقات، ولكن حجب الدنيا هى المانعة من رؤيتها، فالآية على سياق الآية (٤٩) من سورة التوبة: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». وكما أن جهنم

(١) تفسير على بن إبراهيم ٢/ ٤٠٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٩

موجودة فالجنة كذلك بدلالة آيات قرآنية كثيرة.

ويبين البيان القرآني بذات السياق السابق: «وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ».

وهذا المعنى هو تكرار لما جاء في الآية (٩٠) من سورة الشعراء: «وَأُرْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ».

«ازلفت»: من «زلف» على وزن (حرف) .. و «زلفى : على وزن (كبرى ، بمعنى القرب، فيمكن أن يكون المراد هو: القرب المكاني، أو

القرب الزماني، أو القرب من حيث الأسباب والمقدمات، ويمكن أيضاً أن تحمل الكلمة جميع ما ذكر من معانٍ.

وتأتى الآية الأخيرة- من الآيات المبحوثة- لتتم ما جاء قبلها من جمل، حيث تمثل جزء الشرط للجمل السابقة والتي وردت في (١٢)

آية: «عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتُ».

فستحضر أعمال الإنسان كاملة، ولا من محيص من العلم والإطلاع بها في عالم الشهود والمشاهدة.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرات عديدة في آيات مباركات، منها: الآية (٤٩) من سورة الكهف: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا»،

والآيتان (٧ و ٨) من سورة الزلزلة: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ

ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) بعد أن تناولت الآيات السابقة مواضيع: المعاد، مقدمات يوم القيامة، وحوادث يوم القيامة ... تأتي

الآيات أعلاه لتتحدث عن أحقية القرآن وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله، والآيات في حقيقتها تأكيد على ما جاء في الآيات

السابقة لموضوع «المعاد»، إضافة لذكرها صور بيانية منبهة على هذه الحقيقة.

وتشرع الآيات ب: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ».

«الخُنُوسِ»: جمع (خانوس)، من (خنس) وهو الإنقباض والإختفاء، ويقال للشيطان:

«الخَنَاسِ»، لأنه إذا ذُكر الله تعالى يخنس، وكما ورد في الحديث الشريف: «الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خَنَسَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٠

«الجوار»: جمع (جارية)، وهى الشئ الذى يتحرك بسرعة.

«الكنُوس»: جمع (كانس)، من (كنس)، وهو الإختفاء، و «كناس» الطير والوحش: بيت يتخذه.

والمقصود بهذا القسم كما روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال فى تفسير الآيات المذكورة: «هى خمسة أنجم: زحل،

والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد» (١). والتي يمكن رؤيتها بالعين المجردة.

ونقول توضيحاً: لو تأملنا السماء عدّة ليالٍ، لرأينا أنّ نجوم السماء أو القبة السماوية تظهر وتغيب بشكل جماعى من دون أن تتغير

الفواصل والمسافات فيما بينها، وكأنّها لثالىء خيطة على قطعة قماش داكن اللون، وهذه القطعة تتحرك من المشرق إلى المغرب، إلّا

خمسة كواكب قد خرجت عن هذه القاعدة، فراها تتحرك وليس بينها وبين بقيّة النجوم فواصل ثابتة، وكأنّها لثالىء قد وضعت على

تلك القطعة وضعا، من دون أن تخطب بها.

وهذه الكواكب الخمس هى المقصودة فى هذا التفسير، وما نلاحظه من حركتها إنّما تكون لقربها منا ولا تتمكن من تمييز حركات

بقية النجوم لعظم المسافة فيما بيننا وبينها.

ومن جهة اخرى: ينبغى التنويه إلى أنّ علماء الفلك يطلقون على هذه الكواكب اسم (الكواكب المتحيرة)، لأنّها لا تتحرك على خط

مستقيم ثابت، فراها تسير باتجاه معين من الزمن ثم تعود قليلاً ومن ثم تتابع مسيرها الأول وهكذا ... ولهؤلاء العلماء بحوث علمية

كثيرة في تحليل هذه الظاهرة.

وعليه ... يمكن حمل إشارة الآيات إلى الكواكب السيارة «الجوار»، التي في سيرها لها رجوع «الخنس»، ثم تختفى عند طلوع الفجر وشروق الشمس ... فهي تشبه غزلاً يتصيد طعامه في الليل وما أن يحل النهار حتى يختفى عن أنظار الصيادين والحيوانات المفترسة فيذهب إلى «كناسه»، ولذا وصفت الكواكب بـ «الكنس».

فكأن القرآن الكريم يريد بهذا القسم المليء بالمعاني الممتزجة بنوع من الإبهام، كأنه يريد إثارة الفكر الإنساني، وتوجيهه صوب الكواكب السيارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية، ليتأمل أمرها وقدره وعظمه خالقها سبحانه وتعالى.

(١) تفسير مجمع البيان ١٠ / ٢٨٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩١

ويعرض لنا القرآن لوحة أخرى: «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ».

«عسس»: من «العسوسة»، وهي رقة الظلام في طرفي الليل (أوله وآخره). وبالرغم من اطلاق هذه المفردة على معنيين متفاوتين، ولكن المراد منها في هذه الآية هو آخر الليل فقط بقربنه الآية التالية لها، وهو ما يشابه القسم الوارد في الآية (٣٣) من سورة المدثر: «وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ».

ويأتي القسم الثالث والأخير من الآيات: «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ».

ويأتي هذا الوصف في سياق ما ورد في سورة المدثر، فبعد القسم بإدبار الليل، قال:

«وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ»، فكأن الليل ستارة سوداء قد غطت وجه الصبح، فما أن أدبر الليل حتى رفعت تلك الستارة فبان وجه الصبح مشرقاً، وأسفر للحياة من جديد.

وتجسد الآية التالية جواب القسم للآيات السابقة: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ».

فالجواب موجه لمن أتهم النبي صلى الله عليه وآله باختلاق القرآن ونسبته إلى الباري جل شأنه.

وقد تناولت هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف لأمين وحى الله جبرائيل عليه السلام، وهي الأوصاف التي ينبغي توفرها في كل رسول جامع لشرائط الرسالة ...

فالصفة الأولى: إنه «كريم»: إشارة إلى علو مرتبته وجلاله شأنه.

ومن صفاته أيضاً: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ».

«ذِي الْعَرْشِ»: ذات الله المقدسة.

مع أن الله مالك كل عالم الوجود، فقد وصف «بذِي الْعَرْشِ» لما للعرش من أهمية بالغة على غيره (سواء كان العرش بمعنى عالم ما وراء الطبيعة، أو بمعنى مقام العلم المكنون).

أما وصفه بـ «ذِي قُوَّةٍ» (أى: صاحب قدرة)، لما للقدرة العظيمة والقوة الفائقة من دور مهم وفعال في عملية حمل وإبلاغ الرسالة.

«مَكِينٍ»: صاحب منزلة ومكانة.

والتعبير بـ «عند» هو الحضور المقامي والقرب المعنوي.

وتتناول الآية التالية الصفة الرابعة والخامسة: «مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ».

ويستفاد من الروايات: إن جبرائيل ينزل أحياناً وبصحبته جمع كبير من الملائكة في حال إبلاغه للآيات القرآنية المباركة، وهو ما يوحي بأنه مطاع بينهم، وهو ما ينبغي أن يكون في كل أمة تتبع رسولاً، فلا بد من إطاعتها له.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٢

فى تفسير مجمع البيان: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبرائيل عليه السلام: «ما أحسن ما أثنى عليك ربك! ذى قوة عند العرش مكين، مطاع ثم أمين، فما كانت قوتك وما كانت أمانتك؟ فقال: أما قوتى فإنى بعثت إلى مدائن لوط، وهى أربع مدائن فى كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذرارى، فحملتهن من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج، ونباح الكلاب، ثم هويت بهن فقلبتهن. وأما أمانتى، فإنى لم أوامر بشيء فعدوته إلى غيره».

وينفى القرآن ما نُسب إلى النبى: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ».

«الصاحب»: هو الملازم والرفيق والجليس؛ والوصف هذا مضافاً إلى أنه يحكى عن تواضع النبى صلى الله عليه وآله مع جميع الناس ... فلم يرغب يوماً فى الإستعلاء على أحد منكم، فإنه قد عاش بينكم حقبة طويلة، وجالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله وحسن درايته وأمانته، فكيف تنسبون له الجنون؟!

ويؤكد القرآن على الإرتباط الوثيق ما بين النبى صلى الله عليه وآله وجبرائيل: «وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ». وهو «الأفق الأعلى» الذى تظهر فيه الملائكة، حيث شاهد رسول الله جبرائيل.

وتأتى الصفة الخامسة: «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ».

«ضنين»: من «ضنّة» على وزن (منّة)، أى: البخل بالأشياء الثمينة والنفسية، فالأنبياء عليهم السلام منزّهون عن ذلك، وإذا ما بخل الآخرون بما صار فى حوزتهم من علم محدود، فالتبى فوق ذلك وأنزّه مع ما له من منبع علم إلهى.

وتقول آخر الآيات المبحوثة: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ».

فالآيات القرآنية ليست كحديث الكهنة الذى يأخذه من الشياطين، ودليلها معها، حيث إن حديث الكهنة محشو بالكاذب والتناقضات، ويدور حول محور ميولهم ورغباتهم، فى حين لا يشاهد ذلك فى الآيات القرآنية إطلاقاً.

فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) إلى أين ... أيها الغافلون: أكّدت الآيات السابقة بيان جلى حقيقة كون القرآن كلام الله ... فمحتواه ينطق عن كونه كلاماً رحمانياً وليس شيطانياً، وقد نزل به رسول كريم مقتدر وأمين، وقام بتبليغه النبى الصادق الأمين صلى الله عليه وآله الذى لم يبخل فى البلاغ فى شيء، وما تهاون عن تعليم الناس فيما ارسل به.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٣

فيما توبخ الآيات أعلاه اولئك الذين عادوا القرآن وانحرفوا عن خط سير الرسالة الربانية الهادية، فتقول لهم بصيغة الإستفهام التوبيخى: «فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ».

وتأتى الآية الثانية لتقول: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

فالآية تتحدث بلسان الوعظ والتذكير، عسى أن يستيقظ من تملكه نوم غفلته.

لا يمكن للهداية والتربية أن تؤدى فعلها بوجود المرشد الناحج فقط، بل لابد من توفر عنصر الإستعداد وتقبل الهداية من قبل الطرف الآخر، ولذلك ... فبعد الوعظ والتذكير جاءت الآية التالية لتبين هذه الحقيقة: «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ».

فالآية الاولى قد ذكرت عمومية الفيض الإلهى فى القرآن الكريم، فيما خصصت الآية التالية عملية الإستفادة من هذا الفيض الجزيل وحددته بشرط الإستقامة.

وهذه القاعدة جارية فى جميع النعم والمواهب الإلهية فى العالم، فإنها عامة التمكين، خاصة الإستفادة، فمن لا يملك الإرادة والتصميم على ضوء الهدى القرآنى لا يستحق فيض رحمة الله ونعمه.

ولكى لا يتصور بأن مشيئة وإرادة الإنسان مطلقه فى سيره على الطريق المستقيم، ولكى يربط الإنسان مشيئته بمشيئة وتوفيق الله عز وجل، جاءت الآية التالية لتقول: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

والآيتان السابقتان تبينان فلسفة «أمر بين الأمرين» التي أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام؛ فمن جهة، إن الإرادة والقرار بيدكم، ومن جهة أخرى، يلزم تلك الإرادة وذلك القرار ما يشاء الله رب العالمين... وإن خلقتم أحراراً مختارين، فالحرية والاختيار منه جل اسمه، ولولا إرادته ذلك لما كان.

فالإنسان ليس بمجبور على أعماله مطلقاً، ولا هو بمختار بكل معنى الاختيار، ولكن...

كما روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين». فكل ما للإنسان من: عقل، فهم، قدرة بدنية، وقدرة على اتخاذ القرار، كل ذلك من الله عز وجل، فهو من جهة في حالة الحاجة الدائمة للاتصال به جل شأنه، ولو شاء الله لتوقف كل شيء وانتهى، وهو من جهة أخرى مسؤول عن أعماله لما له من حرية واختيار على تنفيذها.

«نهاية تفسير سورة التكوير»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٥

## ٨٢. سورة الإنفطار

محتوى السورة: لا- تشذ السورة عن سياق سور الجزء الأخير من القرآن الكريم، وتدور حول محور المسائل المتعلقة بيوم القيامة. تتضمن مجموع آياتها المواضيع التالية:

١- أشراف الساعة، وهي الحوادث الهائلة التي سيشهدها العالم أواخر لحظات عمره وعند قيام الساعة.

٢- التذكير بالنعمة الإلهية الداخلة في كل وجود الإنسان، وكسر حالة غرور الإنسان، وتهيئته للمعاد.

٣- الإشارة إلى ملائكة تسجيل أعمال الإنسان.

٤- بيان عاقبة المحسنين والمسيئين في يوم القيامة.

٥- لمحات سريعة عما سيجرى في ذلك اليوم العظيم.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ومن قرأ هاتين السورتين: إذا السماء انفطرت؛ وإذا السماء انشقت، وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة، لم يحجبه من الله حجاب، ولم يحجزه من الله حاجز، ولم يزل ينظر إلى الله وينظر الله إليه حتى يفرغ من حساب الناس».

ولا- شك أن حصول ثواب السورتين إنما يتم لمن وضعهما في أعماق روحه، وبني على أساسهما شخصيته وعمله، وليس لمن يلو كهما في لسانه ولا غير.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٦

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) عندما يحلّ الحدث المروع: تقدم لنا الآيات - مرة أخرى - مشاهداً مروعاً من يوم القيامة، فتخبر عن تفطر السماء من هول الكارثة: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ».

ثم تنتقل إلى ما سيصيب الكواكب ونظامها: «وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ».

فسينهدم العالم العلوي، وستحدث الانفجارات العظيمة المهيبة في كل النجوم السماوية، وسيتخلخل نظام المنظومات الشمسية، فتخرج النجوم من مساراتها لتصطدم الواحدة بالآخرى وتتلاشى فينتهي عمر العالم ويتناثر كل شيء ليبنى على أنقاضه عالم جديد آخر. «انفطرت»: من «الإنفطار»، بمعنى الإنشقاق.

«انتثرت»: من «النثر» على وزن (نصر)، بمعنى نشر الشيء وتفريقه، و«الإنثثار»: هو الإنتشار والتفرق. وباعتبار أن انتشار النجوم يؤدي إلى تفرقها في السماء (كحبات العقد المنفرط) فقد فسرها الكثير من المفسرين ب (سقوط النجوم)، وهو من لوازم معنى الإنثثار.

«الكواكب»: جمع (كوكب)، وله معان كثيرة ولكن أن المعنى الحقيقي هو (النجم المتألىء)، وما دون ذلك معان مجازية استعملت لعلاقة المشابهة.

إن هذه الامور تهدف إلى تعريف الإنسان بما سيحدث بالمستقبل الآت، وتدعوه لخلاص نفسه من أهوالها، وهو الكائن الضعيف وسط تلك الحوادث الجسام.

وينتقل البيان القرآني من السماء إلى الأرض، فيقول: «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ». أى اتصلت.

مع أن البحار متصله فيما بينها قبل حلول ذلك اليوم (ما عدا البحيرات)، لكن اتصالها سيكون بشكل آخر، حيث ستفيض جميعها وتتمزق حدودها وتصير بحراً واحداً لتشمل كل الأرض، بسبب الزلازل المرعبة وتحطم الجبال وسقوطها في البحار ... هذا أحد تفاسير الآية (٦) من سورة التكوير (الأنفة الذكر): «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

وتتناول الآية التالية عرضاً لمرحلة القيامة الثانية، مرحلة تجديد الحياة وإحياء الموتى، فتقول: «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» ... واخرج الموتى للحساب.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٧

وبعد ذكر كل تلك العلامات لما قبل البعث ولما بعده، تأتي النتيجة القاطعة: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ».

نعم، فستتجلى حقائق الوجود، وسيصير كل شيء بارز إنه «يوم البروز» وسيرى الإنسان كل أعماله محضرة بخيرها وشرها، لأنه يوم إزالة الحجب، ورفع مبررات الغرور والغفلة، وعندها ... سيعلم الإنسان ما قدم لآخرته، وما ترك بعده من آثار حسننها وسيئها، مثل: الصدقة الجارية، فعل الخير، عمارة الأبنية، الكتب التي ألفها، ما سن من السنن ... فإن كان ما خلفه خالصاً لله فسينال حسناته، وإن كانت تبتة في أفعاله غير خالصة لله، فسيلاقي لتبعات أعماله.

وهذه نماذج من الأعمال التي ستصل نتائجها إلى الإنسان بعد الموت، وهو: المراد من «وأخرت».

في الكافي عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجزاها في حياته، فهي تجرى بعد موته، وسنة هدى سنّها، فهي يعمل بها بعد موته، أو ولد صالح يدعو له».

وفي أمالي الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ست خصال ينتفع بها المؤمن بعد موته:

ولد صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ منه، وقلب [بئر] يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنة حسنة يؤخذ بها بعده».

فتعكس هذه الآيات والروايات أبعاد مسؤولية الإنسان أمام أعماله، وتبين عظم المسؤولية، فآثار فعل الخيرات أو المنكرات يصل إليه وإن امتدت آلاف السنين بعد موته.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) لا داعى للغرور: تنتقل الآيات أعلاه من المعاد إلى الإنسان، ببيان إيقاظى عسى أن ينتبه الإنسان من غفلة ما فى عنقه من حق وما على عاتقه من مسؤوليات جسام أمام خالقه سبحانه وتعالى، فتخاطب الآية الاولى الإنسان باستفهام توبيخى محاط بالحنان والرافة الربانية: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٨

فبمقتضى ربوبيته هو الحامى والمدبر لأمر تربيته وتكامل الإنسان، وبمقتضى كرمه أجلس الإنسان على مائدة رحمته، ورعاه بما أنعم عليه مادياً ومعنوياً ودون أن يطلب منه أى مقابل، بل ويعفو عن كثير من ذنوب الإنسان بفضل كرمه ...

وفى المجمع: أن النبى صلى الله عليه و آله لما تلا هذه الآية قال: «غره جهله».

ومن هنا يتقرب لنا هدف الآية، فهي تدعو الإنسان لكسر حاجز غروره وتجاوز حالة الغفلة، وذلك بالاستناد على مسألة الربوبية والكرم الإلهي.

وتعرض لنا الآية التالية جانباً من كرم الله ولطفه على الإنسان: «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ».

فالآيات المبحوثة، إضافة لآيات اخرى كثيرة تهدف وبشكل دقيق إلى تعريف الإنسان المغرور بحقيقته، منذ كان نطفة قدرة، مروراً بتصويره وتكامله في رحم امه، حتى في أتم حالات نموه وتكامله، وتؤكد على أن حياة الإنسان في حقيقتها مرهونة بنعم الله، وكل حتى يفعم برحمه الله في كل لحظات حياته، ولا بد لكل حتى ذى لب وبصيرة من أن يترجل من مطية غروره وغفلته، ويضع طوق عبودية المعبود الأحد في رقبته، وإلا فالهلاك الحتمي.

وتتناول الآية التالية منشأ الغرور والغفلة: «كَلَّا بَلْ تُكذَّبُونَ بِالذِّينِ».

فالكرم الإلهي، ولطف البارئ ونعمه ليست بمحفز لغروركم، ولكنكم آليتم على عدم إيمانكم بالقيامة، فوقعتم بتلك الهاوية المظلمة. وتأتي الآيات التالية لتوضح أن حركات وسكنات الإنسان كلها مراقبه ومحسوبة ولا بد من الإيمان بالمعاد وإزالة عوامل الغفلة والغرور، فتقول: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ».

وهؤلاء الحفظة لهم مقام كريم عند الله تعالى ودائين على كتابه أعمالكم: «كِرَامًا كَاتِبِينَ». «يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

و «الحافظين»: هم الملائكة المكلفون بحفظ وتسجيل أعمال الإنسان من خير أو شر، كما سمّتهم الآية (١٨) من سورة (ق) بالرقيب العتيد: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

كما وذكرتهم الآية (١٧) من نفس السورة: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ».

وفي الإحتجاج للشيخ الطبرسي عن الصادق عليه السلام حديث طويل وفيه يقول السائل: فما

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٩

عله الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم ولهم والله عالم السر وما هو أخفى؟

قال: «استعبدهم بذلك، وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة، وعن معصيته أشد انقباضاً، وكم من عبد يهيم بمعصية فذكر مكانهما فارعوى وكف، فيقول ربى يرانى، وحفظتى على بذلك تشهد، وأن الله برأفته ولطفه أيضاً وكلهم بعباده، يذبون عنهم مرده الشيطان، وهوام الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون ياذن الله، إلى أن يجيء أمر الله».

ويستفاد من هذه الرواية أن للملائكة وظائف اخرى إضافة لتسجيلهم لأعمال الإنسان كحفظ الإنسان من الحوادث والآفات ووساوس الشيطان.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) بعد ذكر الآيات السابقة لتسجيل أعمال الإنسان من قبل الملائكة، تأتي الآيات أعلاه لتتطرق إلى نتائج تلك الرقابة، وما سيصل إليه كل من المحسن والمسيء من عاقبه، فتقول الآية الاولى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ».

والثانية: «وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ».

«الأبرار»: جمع (بار) و «برّ» على وزن (حق)، بمعنى: المحسن؛ و «البرّ» بكسر الباء- كل عمل صالح ... والآية تريد العقائد السليمة، والنيات والأعمال الصالحة.

«نعيم»: وهى مفرد بمعنى النعمة، ويراد به هنا «الجنة».

«الفجار»: جمع (فاجر) من (فجر)، وهو الشقّ الواسع، و «الفجور»: شقّ ستر الديانة والعفة، والسير في طريق الذنوب.

«جحيم»: من «الجحمة»، وهى تأجج النار، وتطلق الآيات القرآنية (الجحيم) على جهنم عادة.

ويمكن أن يراد بقوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ». الحال الحاضر، أى: إن الأبرار يعيشون فى نعيم الجنة حالياً،



وإنَّ الفَجَّارَ قابعون فى أودية النار، كما

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ٤٤٠

يفهم من إشارة الآية (٥٤) من سورة العنكبوت: «وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

وتدخل الآية التالية فى تفصيل أكثر لمصير الفَجَّارِ: «يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ».

فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى أنَّ الفَجَّارَ هم فى جهنم حالياً، فسيكون إشارة هذه الآية، إلى أنَّ دخولهم جهنم سيتعمق، وسيحسون بعذاب نارها، بشكل أشد.

«يصلون»: من «صلى» على وزن (سعى)، و «صلى النار»: دخل فيها.

ولزيادة التفصيل، تقول الآية التالية: «وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ».

اعتبر كثير من المفسرين كون الآية دليلاً على خلود الفَجَّارِ فى العذاب، وخلصوا إلى أنَّ المراد ب «الفَجَّارِ» هم «الكفار»، لكون الخلود فى العذاب يختص بهم دون غيرهم.

ف «الفَجَّارِ»: إذن: هم الذين يشقون ستر التقوى والعفة بعدم إيمانهم وتكذيبهم بيوم الدين، ولا يقصد بهم- فى هذه الآيات- أولئك الذى يشقون الستر المذكور بغلبة هوى النفس مع وجود حالة الإيمان عندهم.

وتبين الآية أيضاً: إنَّ عذاب أهل جهنم عذاب دائم ليس له انقطاع، ولا يغيب عنهم ولو للحظة واحدة.

ولأهمية خطب ذلك اليوم العظيم، تقول الآية التالية: «وَمَا أَذْرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ». «تُمْ مَا أَذْرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ».

فإذا كانت وحشة وأهوال ذلك اليوم قد اخفيت عن النبى صلى الله عليه وآله- وهو المخاطب فى الآية- مع كل ما له من علم ب: القيامة، المبدأ، المعاد.. فكيف يا ترى حال الآخرين.

وينتقل البيان القرآنى للتعبير عن إحدى خصائص ذلك اليوم، وبجملة وجيزة، لكنّها متضمنة لحقائق ومعان كثيرة: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ».

فستتجلى حقيقة أنَّ كل شىء فى هذا العالم هو بيد الله العزيز القهار، وستبان حقيقة حاكمية الله المطلقة ومالكته على كل من تنكر لهذه الحقيقة الحققة، وستندم تلك التصورات الساذجة التى حكمت أذهان المغفلين بكون فلان أميراً ورئيساً أو حاكماً، وسينهار أولئك البسطاء الذين اعتبروا أنَّ قدراتهم مستقلة بعد أن أكل الغرور نفوسهم وتكالب التكبر على تصرفاتهم فى الحياة الدنيا الفانية.

«نهاية تفسير سورة الإنفطار»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠١

### ٨٣. سورة المطففين

محتوى السورة: بحوث هذه السورة تدور حول محاور خمس، هى:

١- تحذير وإنذار شديد للمطففين.

٢- الإشارة إلى أنَّ منشأ الذنوب الكبيرة إنما يأتى من عدم رسوخ الإيمان بالبعث والمعاد.

٣- عرض لجوانب من عاقبة «الفَجَّارِ» فى ذلك اليوم العظيم.

٤- عرض لجوانب ما ينتظر المحسنين فى الجنة من نعم إلهية وعطاء ربانى جليل.

٥- الإشارة لآثار استهزاء الكفار بالمؤمنين فى الحياة الدنيا، وانعكاس الحال فى يوم القيامة.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع: ابى بن كعب قال: قال النبى صلى الله عليه وآله: «ومن قرأها سقاه الله من الرحيق المختوم».

وفى ثواب الأعمال روى صفوان الجمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ فى الفريضة ويل للمطففين، أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار، ولم تره، ولا يراها ولم يمر على جسر جهنم ولا يحاسب يوم القيامة».

إن كل هذا الفضيلة والبركة، سينالها من جعل قراءتها مقدمة للعمل على هديها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٢

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَمْ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

سبب النزول

قال ابن عباس: لما قدم نبي الله المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وقيل: كان أهل المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملازمة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقراها عليهم وقال: «خمس بخمس». قيل يا رسول الله، وما خمس بخمس؟

قال: «ما نقض قوم العهد إلاسلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلافشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلافشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلامنعوا النبات واخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلاحبس عنهم المطر» (١).

التفسير

ويل للمطففين: بدأ الحديث فى هذه السورة بتهديد شديد للمطففين: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ».

وتمثل الآية فى حقيقة توجيهاها، إعلان حرب من الله عز وجل على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حق الناس بهذه الطريقة القذرة. «المطففين»: من «التطيف» وأصله من «الطف» وهو جوانب الشيء وأطرافه، و«التطيف»: الشىء النزر، و«التطيف»: البخس فى الكيل والوزن، ونقص المكيال، وهو أن لا تملأه إلى أصباره.

«ويل»: تأتى بمعانى: حلول الشر، الحزن، الهلاك، المشقة من العذاب، وإد مهيب فى نار جهنم، وتستعمل عادة فى اللعن وبيان قبح الشىء، ورغم صغر الكلمة إلاأنها تستبطن

(١) التفسير الكبير ٨٨ / ٣١

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٣

مفاهيم كثيرة.

وفى الكافى عن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال: «ولم يجعل الويل لأحد حتى يسميه كافراً. قال الله عز وجل: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وما نستفيدة من هذه الرواية هو: إن التطيف فيه وجه من الكفر.

وتتطرق الآيتين التاليتين إلى طريقة عمل المطففين، فتقول الآية الاولى: «الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ».

وتقول الآية الثانية: «وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ».

ومما ينبغى الإلتفات إليه ... أن الآيات وإن تحدثت عن التطيف فى الكيل والوزن، ولكن لا ينبغى حصر مفهومها بهما، فالتطيف يشمل حتى العدد، وليس من البعيد أن تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدى من خدمته مقابل أجر، كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنه والحال هذه سيكون فى حظيرة «المطففين» المذمومين بشدة فى الآيات المباركة المذكورة.

ولا تخلوا من مناسبة أن يجعل أى تجاوز لحدود الله، وأى إنقاص أو إخلال فى الروابط الإجتماعية أو إنحلال فى الضوابط الأخلاقية، إنما هو مفردات ومصاديق لهذا المفهوم.

ويهدد القرآن الكريم المطففين، باستفهام توبيخي: «أَلَا يَظُنُّ أَوْلِيكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ». «لِيَوْمٍ عَظِيمٍ».

يوم عظيم في: عذابه، حسابه وأهواله.

«يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». أي: إنهم لو كانوا يعتقدون بالبعث والحساب: وأن أعمالهم مسجلة وستعرض كاملة في محكمة العدل الإلهي بخيرها وشرها، وكبيرها وحقيرها، لو كانوا يعتقدون ذلك، لما ظلموا أحداً، ولأعطوا الناس حقوقهم كاملة.

وفي الكافي عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة عندكم يعتدى كل يوم بكره من القصر، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدرّة على عاتقه وكان لها طرفان وكانت تسمى السبيبة فيقف على أهل كل سوق، فينادي: يا معشر التجار اتقوا الله عز وجل، فإذا سمعوا صوته عليه السلام ألقوا ما بأيديهم، وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بآذانهم، فيقول عليه السلام: قدموا الإستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزبنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فيطوف عليه السلام

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٤

في جميع أسواق الكوفة ثم يرجع فيقعد للناس».

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) وما أدراك ما سجين: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المطففين، وعن إرتباط الذنوب بعدم الإيمان الراسخ بالمعاد ويوم القيامة، تشير الآيات أعلاه إلى ما ستؤول إليه عاقبة المسيئين والفجار يوم حلول اليوم المحتوم، فتقول: «كَلَّا» فليس الأمر كما يظن هؤلاء عن المعاد وأنه ليس هنا حساب وكتاب، بل «إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ». «وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ». «كِتَابٌ مَرْقُومٌ». وتوجد نظرتان في تفسير الآية أعلاه:

الاولى: المراد من «كتاب» هو صحيفة الأعمال، التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، من أفعال الإنسان إلّا وأحصتها.

والمراد ب «سجين»: هو الكتاب الجامع لكل صحائف أعمال الإنسان عموماً.

و «سجين»: من «السجن»، وهو (الحبس). وأطلق عليه هذا الاسم باعتبار أن ما فيه يؤدّى إلى حبس أصحابه في جهنم، أو أن هذا الديوان موجود في قعر جهنم.

على عكس كتاب الأبرار فإنه في أعلى عليين .. في الجنة.

الثانية: إن «سجين» هي «جهنم» ... وهي سجن كبير لجميع المذنبين، أو هي محل شديد من جهنم.

و «كتاب» الفجار، أي: ما قرر لهم من عاقبة ومصير.

فيكون التقدير على ضوء هذا التفسير: إن جهنم هي المصير المقرر للمسيئين.

فلا مانع من الجمع بين التفسيرين، لأن «سجين» حسب التفسير الأول بمعنى الديوان الجامع لكل أعمال المسيئين، وحسب التفسير الثاني بمعنى: «جهنم» أو قعرها، فالأمران على صورة علمه ومعلول، فإذا كانت صحيفة أعمال الإنسان السيئة في ذلك الديوان الجامع، فإن مقام الديوان هو قعر جهنم.

وتأتى الآية التالية لتقول: «وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٥

التكذيب الذي يوقع الإنسان في ألوان من الذنوب، ومنها التطفيف والظلم.

الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بَيُّومِ الدِّينِ (١١) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تُكَذَّبُونَ (١٧) بعدما ذكرت آخر آية من الآيات السابقة مصير المكذبين، تأتي الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول: «الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيُّومَ الدِّينِ»، وهو يوم القيامة.

وتقول أيضاً: «وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ».

فإنكار القيامة لا يستند على المنطق السليم والتفكير الصائب والاستدلال العقلى، بل هو نابع من حب الإعتداء وارتكاب الذنوب والآثام (الصفة المشبهة «أثيم» تدل على استمرار الشخص فى ارتكاب الذنوب).

وتشير الآية التالية للصفة الثالثة لمنكرى المعاد، فتقول: «إِذَا تَثَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

فبالإضافة لكون منكر المعاد معتدٍ وأثيم، فهو من الساخرين والمستهزئين بآيات الله، ويصفها بالخرافات البالية، وما ذلك إلا لمرور واه لتغطية تهربه من مسؤوليه آيات الله عليه.

ولم تختص الآية المذكورة بذكر المبررات الواهية لأولئك الضالين المجرمين فراراً من الاستجابة لنداء الدعوة الربانية، بل ثمة آيات أخرى تناولت ذلك؛ منها الآية (٥) من سورة الفرقان: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فَيَهِى تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

ويعرَى القرآن مرّة أخرى جذر طغيانهم وعنادهم، بالقول: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فازيل عنها ما جعل الله فيها من نور الفطرة الاولى وذهب صفائها، ولذا.. فلا يمكن لتلك القلوب التعسفة من أن تتقبل نفوذ أنوار الوحي الإلهي إلى دواخلها.

«ران»: من «الرين» على وزن (عين)، وهو: الصدأ يعلو الشيء الجليل.

وفى الدر المنثور عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْتَهُ سُودَاءَ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٦

القرآن: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

ويستمر البيان القرآني: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ». وهو أشد ما سيعاقبون به، مثلما منزلة اللقاء بالله ودرجة القرب منه هي من أعظم نعم الأبرار والصالحين وأكثرها لذة واستثناساً. و: «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ».

فدخولهم جهنم نتيجة طبيعية لاحتجابهم عن الله تعالى وأثر لازم له، ومما لا شك فيه إن لهيب الحرمان من لقاء الله أشد إيلاماً وإحراقاً من نار جهنم.

وتقول الآية التالية: «ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ».

يقال لهم ذلك توبيخاً ولوماً لزيادة تعذيبهم روحياً، وهو ما ينتظر كل من عاند الحق وتخبط فى متاهات الضلال.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسَبِّحُونَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِمَّا رَجَعُهُمْ مِنْ نَسِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) عِلِّيُّونَ فِي أَنْتَظَارِ الْأَبْرَارِ: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الفجَار وكتابهم وعاقبه أمرهم، ينتقل الحديث فى هذه الآيات للطرف المقابل لهؤلاء، فتحدثت عن الأبرار الصالحين وما سيؤولون إليه من حسن مآب، ويبدأ الحديث بالقول: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ».

«عليين»: جمع (علئ) على وزن (ملى)، وهو المكان المرتفع، أو الشخص الجالس فى مكان مرتفع، ويطلق أيضاً على ساكنى قمم الجبال.

فما عرضناه بخصوص تفسير «سجين» يصدق على «عليين» أيضاً، بقولين:

الأول: أن المقصود من «كتاب الأبرار» هو صحيفة أعمال الصالحين والمؤمنين، فجميع الأعمال تجمع فى هذا الديوان العام، وهو

ديوان عالي المقام وشريف القدر.

الثاني: أن صحيفه أعمال الأبرار تكون في أشرف مكان، أو في أعلى مكان في الجنة،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٧

وهذا يكشف عن علو شأنهم ورفع كرامتهم عند الله عز وجل.

وذهب قسم من المفسرين إلى أن ال «كتاب» هنا يرمز لمعنى (المصير)، أو (الحكم القطعي الإلهي) بخصوص نيل الصالحين درجات الجنة العلى.

ولا يضمر من الجمع بين التفسيرين، فأعمال الأبرار مجموعة في ديوان عام، ومحل ذلك الديوان في أعلى نقطة من السماء، ويكون الحكم والقضاء الإلهي كذلك مبنى على كونهم في أعلى درجات الجنة.

ولأهمية وعظمة شأن «عليين» .. تأتي الآية التالية لتقول: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا عَلِيُّونَ»؛ إنه مقام من المكانة بحيث يتجاوز حدود التصور والخيال والقياس والظن، بل وحتى أن النبي صلى الله عليه وآله وعلى ما له من علو شأن ومرتبته مرموقه، فلا يستطيع من تصور حجم أبعاد عظمته.

ويبدأ البيان القرآني بتقريب ال «عليين» إلى الأذهان: «كتاب مرقوم».

وهذا على ضوء تفسير «عليين» بالديوان العام لأعمال الأبرار، أما على ضوء التفسير الآخر فسيكون معنى الآية: إنه المصير الحتمي الذي قرره الله وسجله لهم، بأن يكون محلهم في أعلى درجات الجنة.

وكذلك: «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ». أى يشاهدونه، أو عليه يشهدون عليه.

والآيات التالية تظهر بوضوح بأن المقربين، هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرقوم، وبامكانهم مشاهدة صحيفه أعمال الأبرار والصالحين.

فبين الأبرار والمقربين عموم وخصوص مطلق، حيث كل المقربين أبرار، وليس كل الأبرار مقربين.

وينتقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ».

وينقلنا البيان القرآني لجوانب من نعيم الأبرار: «عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ».

ثم يضيف: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ».

إشارة إلى أن ما يبدى على وجوههم من علائم النشاط والسرور والغبطة، إن هو إلّا انعكاس لسعادتهم الحقّة.

وبعد ذكر نعيم: «الأرائك»، «النظر»، «الإطمئنان والسعادة» .. تذكر الآية التالية نعمه شراب الجنة، فتقول: «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٨

إنه ليس كشراب أهل الدنيا الشيطاني، بما يحمل من خبث دافع إلى المعاصي والجنون، بل هو شراب طاهر يذكي العقول ويدب

النشاط والصفاء في شاربته. و «الرحيق» هو الشراب الخالص الذي لا يشوبه أى غش أو تلوث؛ و «مختوم»: إشارة إلى أنه أصلى ويحمل

كل صفاته المميزة عن غيره من الأشربة ولا يجاربه شراب قط، وهذا بحد ذاته تأكيد آخر على خلوص الشراب وطهارته.

وتقول الآية التالية: «خِتَامُهُ مِسْكٌ».

هو شراب طاهر مختوم، وإذا ما فتح ختمه فتفوح رائحة المسك منه.

«وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتِنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ». «التنافس»: تمنى كل واحد من النفسين مثل الشيء النفيس الذي للنفس الاخرى أن يكون له.

وجاء مضمون الآية في الآية (٢١) من سورة الحديد: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

ونصل لآخر وصف شراب الأبرار في الجنة: «وَمَرَّاجُهُ مِّن تَسْنِيمٍ». أى: أنه ممزوج بالتسنيم: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ».

ومن خلال الآيتين أعلاه، يتضح لنا بأن «التسنيم» هو أشرف شراب في الجنة، وموجود في الطبقات العليا من الجنة .. ويجرى في الهواء

فينصب في أواني أهل الجنة و «المقربون» يشربون منه بشكل خالص، فيما يشربه «الأبرار» ممزوجاً بالرحيق المختوم. وتؤكد الأحاديث والروايات على أن تلك الأشربة خالصة لمن تنزه عن الولوغ في خمور الدنيا الخبيثة. ففي وصية النبي صلى الله عليه و آله لأمير المؤمنين عليه السلام: «ومن ترك الخمر لله سقاه الله من الرحيق المختوم» (١). وروى عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «من أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمناً من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم» (٢).

وجاء في حديث آخر: «من صام لله في يوم صائف، سقاه الله على الظمأ من الرحيق

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/ ٢٩٧.

(٢) الكافي ٢/ ٢٠١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٩

المختوم» (١).

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

سبب النزول

ذكر المفسرون سببين لنزول هذه الآيات: الأول: روى أن علياً عليه السلام كرم الله تعالى وجهه وجمعاً من المؤمنين معه مروا بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم فنزلت الآية «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا» قبل أن يصل على عليه السلام كرم الله تعالى وجهه إلى النبي صلى الله عليه و آله.

الثاني: إنها حكاية لبعض قبائح مشركي قريش؛ أبي جهل والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأشياعهم، كانوا يستهزئون بفقراهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من الفقراء (٢).

التفسير

بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين ... أما: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم التي تنتظر الأبرار والصالحين في الحياة الآخرة، تبدأ الآيات أعلاه بتبيان جوانب مما يعانونه من مصائب ومشاكل في الحياة الدنيا بسبب إيمانهم وتقواهم ... فالآيات تنقل لنا أساليب الكفار القذرة التي كانوا يتعاملون بها مع المؤمنين البررة، وقد صنفتها في أربعة أساليب: الاسلوب الأول: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ».

فأصل الطغيان والتكبر والغرور والغفلة الذي زرع في نفوسهم، يدفعهم للضحك على المؤمنين والإستهزاء بهم والنظر إليهم بسخرية واحتقار.

والاسلوب الثاني: «وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ». فحينما يمرّ المشركون على مجموعة من

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/ ٢٩٧.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٧٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٠

المؤمنين يغمزون بأعينهم ويشيرون إليهم بالقول:

انظروا إلى هؤلاء الفقراء المعدمين ... إنهم أصبحوا مقربين عند الله.

انظروا إلى هؤلاء الحفاة العراء ... إنهم يدعون نزول الوحي الإلهي لهم.

انظروا إليهم ... فإنهم يعتقدون بأن العظام البالية ستعود إلى الحياة مرة أخرى! وما شابه ذلك، من الكلمات الرخيصة والموهنة ... ويبدو أن ممارسة الضحك من قبل المشركين يكون حينما يمر المؤمنون من أمامهم وهم متجمعون، في حين يمارسون الاسلوب الثاني وهو الإشارات الساخرة والغمز واللمز حين مرورهم أمام جمع من المؤمنين، لعدم تمكنهم من الضحك العلني أمام جمع المؤمنين.

«يتغامزون»: من «الغمز» وهو الإشارة بالجنف أو اليد مع قصد ما في الطرف الآخر من عيوب، وعبرت الآية بهذا اللفظ «التغامز» للإشارة إلى اشتراكهم جميعاً في ذلك الفعل.

ولكنهم لم يكتفوا بالنيل من المؤمنين في حضورهم من خلال الضحك والتغامز، بل تعدوا إلى حال غيابهم أيضاً، حيث تنقل لنا الآية التالية، الاسلوب الثالث بقولها: «وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ».

وكأنهم في ضحكهم وتغامزهم قد نالوا فتحاً كبيراً! فتأخذهم نشوة تصور الغفلة والجهل لأن يتباهوا فيما قاموا به من فعل قبيح، ويبقون على حالة السخريه والإستهزاء بالمؤمنين رغم غياب المؤمنين عنهم ...

«فكهيين»: جمع (فكه)، وهي صفة مشبهة من (الفكاهة) بمعنى التمازح والضحك، مأخوذة من (الفكاهة)، وكأن لذة الخوض في هكذا حديث وسخريه كلده أكل الفكاهة، كما ويطلق على حديث مفرح اسم (فكاهة).

والاسلوب الرابع: «وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ».

لماذا؟ لأنهم تركوا ما كان شائعاً من عبادة الأصنام، والخرافات التي يعتبرونها هداية! واتجهوا نحو الإيمان بالله والتوحيد الخالص. ولأنهم باعوا لذة الدنيا الحاضرة بنعيم الآخرة الغائبة ...

وغالباً ما لا يكون المؤمنون من أثرياء أو وجهاء القوم، ولذلك يُنظر إليهم باحتقار ويهزأ بدينهم وإيمانهم، في مجتمع يسوده التمايز الطبقي بشكل راسخ وظاهر. فيقول القرآن الكريم في الآية التالية: «وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ».

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٤١١

فجواب نوح عليه السلام عام يشمل حتى اولئك المغرورين في صدر الإسلام ... فما شأنكم وهؤلاء؟! وعليكم أن تنظروا إلى هذا الدين، وإلى النبي الذي جاء بهذا الدين، ولا تنظروا إلى من آمن به واتبعه ...

وتبقى أساليب الذين يعادون الحق محدودة في إطار الحياة الدنيا، ولكن إذا كان يوم القيامة، فستختلف الحال تماماً: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ».

فيوم القيامة، يوم مجازات الأعمال وإجراء العدالة الإلهية، والعدالة تقتضى بأن يستهزأ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحق، والإستهزاء في ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخرة الأليم الذي ينتظر اولئك المغرورين والمستكبرين.

في الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ فِي الدُّنْيَا يَرْفَعُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَابَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ: هَلَمْ هَلَمْ، فِيجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ، فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ، فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ أَنَّهُ لِيَفْتَحَ لَهُ الْبَابَ فَيَقُولُ: هَلَمْ هَلَمْ، فَلَا يَأْتِيهِ مِنْ أَيَّاسِهِ». [وهنا يضحك المؤمنون الذين يطلعون عليه وعلى بقيه الكفار من جنتهم .

وتقول الآية التالية: «عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ».

ماذا ينظرون؟ إنهم ينظرون إلى: نعم الله التي لا توصف ولا تنفذ في الجنة، وإلى كل ما فازوا به من الألفاظ الإلهية والكرامة، وإلى ما أصاب الكفار والمجرمين من العذاب الأليم خاسئين ...

وفي آخر آية السورة يقول القرآن مستفهماً (باستفهام تقريرى): «هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

فهذا القول سواء صدر من الله، أو من الملائكة، أو من المؤمنين، فهو فى كل الحالات يمثل طعناً واستهزاءً بأفكار وادعاءات اولئك المغرورون، الذين كانوا يتصورون أن الله سيثيبهم على أعمالهم القبيحة، ويأتيهم النداء رداً على خطئ تفكيرهم.

«نهاية تفسير سورة المطففين»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٣

## ٨٤. سورة الانشقاق

محتوى السورة: لا- تخرج السورة عن الإطار العام لسور الجزء الأخير من القرآن الكريم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القيامة وما سيحدث من أحداث مروعة فى نهاية العالم وبداية يوم القيامة، ثم تتحدث ثانياً عن القيامة والحساب وما ستؤول إليه عاقبة كل من الصالحين والمجرمين، ثم تعطف السورة فى المرحلة الثالثة لتوضح ماهية الأعمال والعقائد التى تجر الإنسان إلى سخط الله وخلوده بالعذاب مهاناً، وفى الرابعة تنتقل السورة لعرض مراحل سير الإنسان فى حياته (الدنيا والأخرة)، وفى آخر مطاف السورة يدور الحديث خامساً عن جزاء الأعمال الحسنة والسيئة.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة انشقت، أعاده الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره».

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَمَا مِمَّا مَنَ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٤

تبدأ السورة فى ذكرها لأحداث نهاية العالم المهولة بالإشارة إلى السماء فتقول: «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ». (فتلاشت نجومها وأجرامها واختل نظام الكواكب فيها)، كإشارة الآيتين (١ و ٢) من سورة الإنفطار التى أعلنت عن نهاية العالم بخرابه وفنائه: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ \* وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انشَتَرَتْ».

وفى الدر المنثور أخرج ابن أبى حاتم عن على عليه السلام قال: «تنشق السماء من المجرة». فإن النجوم التى نراها فى السماء اليوم، ستفصل عن المجرة، وبها تنشق السماء.

وتحكى الآية التالية حال السماء: «وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ».

فلا يتوهم أن السماء بتلك العظمة بإمكانها اظهار أدنى مقاومة لأمر الله .. بل ستتستجيب لأمر الله خاضعة طائعة، لأن إرادته سبحانه فى خلقه هى الحاكمة، ولا يحق لأى مخلوق أن يعصى أمره جلّ وعلا.

«أذنت»: من «الاذن» على وزن (افق)، وهى آلة السمع وتستعار لمن كثر استماعه، وفى الآية: كناية عن طاعة أمر الأمر والتسليم له.

«حُقَّت»: من «الحق»، أى: وحق لها أن تنقاد لأمر ربها.

وكيف لها لا تسلّم لأمره عزّ وجلّ، وكل وجودها وفى كل لحظة من فيض لطفه، ولو انقطع عنها بأقل من رمشة عين لتلاشت.

وفى المرحلة التالية تمتد الكارثة لتشمل الأرض أيضاً: «وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ».

فالجبال- كما تقول آيات قرآنية اخرى- ستندك وتتلاشى وستستوى الأرض فى كافه بقاعها، لتلم جميع العباد فى عرصتها، كما أشارت الآيات (١٠٥-١٠٧) من سورة طه إلى ذلك: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا \* لَاتَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا».



وفي ثالث مرحلة تقول الآية التالية: «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ».

والمعروف بين المفسرين أن الآية تشير إلى إلقاء الأرض بما فيها من موتى فيخرجون من باطن القبور إلى ظاهر الأرض، مرتدين لباس الحياة من جديد.

وقال بعض المفسرين: إن المعادن والكنوز المودعة في الأرض ستخرج مع الأموات أيضاً. وثمة احتمال آخر في تفسير الآية، يقول: إن المواد المذابة التي في باطن الأرض ستخرج

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٥

نتيجة الزلازل الرهيبة التي تقذفها إلى الخارج، فتملاً الحفر والمنخفضات الموجودة على سطح الأرض، وستهدأ الأرض بعد أن يخلو باطنها من هذه المواد.

و...: «وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ».

فتسليم الموجودات لما سيحدث من كوارث كونية مدمرة ينم عن جملة أمور، فمن جهة:

إن الفناء سيعم الدنيا بكاملها بأرضها وسماؤها وإنسانها وكل شيء آخر، ومن جهة أخرى:

فالفناء المذكور يمثل انعطافه حادة في مسير عالم الخليقة، ومقدمه للدخول في مرحلة وجود جديدة، ومن جهة ثالثة، فكل ما سيجري ينبيء بعظمة قدرة الخالق المطلقة، وخصوصاً في مسألة المعاد.

نعم، فسيرضخ الإنسان، بعد أن يرى بام عينيه وقوع تلك الحوادث العظام، وسيرى حصيلة أعماله الحسنة والسيئة.

وتبين الآية التالية معالم طريق الحياة للإنسان مخاطبة له: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ».

«الكدح»: السعي والعناء الذي يخلق أثراً على الجسم والروح.

والآية تشير إلى أصل أساسى في الحياة البشرية، فالحياة دوماً ممزوجة بالتعب والعناء، وإن كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا،

فكيف والحال إذا كان الهدف منها هو الوصول إلى رضوان الله ونيل حسن مآب الآخرة؟!

فالحياة الدنيا قد جبلت على المشقة والتعب والألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادى.

وما ذكر «لقاء الله» في الآية إلتئبان أن حالة التعب والعناء والكدح حالة مستمرة إلى اليوم الموعود، ولا يتوقف إلبانتهاء عجلة الحياة

الدنيا، ولا فرق في توجيه معنى «اللقاء» سواء كان لقاء يوم القيامة والوصول إلى عرصه حاكمية الله المطلقة، أو بمعنى لقاء جزاء الله

من عقاب أو ثواب، أو بمعنى لقاء ذاته المقدسة عن طريق الشهود الباطنى.

نعم، فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، والراحة الحققة .. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافي جنان الخلد.

واستعمال كلمة «رب» فيه إشارة إلى ثمة إرتباط ما بين سعى وكدح الإنسان من جهة، وذلك البرنامج التربوى الذى أعدّه الخالق

لمخلوقه فى عملية توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة أخرى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٦

وإلى ذلك المطاف، ستفصل البشرية إلى فريقين: «فَأَمَّا مَن أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا \* وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ

مَسْرُورًا».

فالذين ساروا على هدى المخطط الربانى لحركة الإنسان على الأرض، وكان كل عملهم وسعيهم لله دائماً، وكدحوا فى السير للوصول

إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفة أعمالهم يمينهم، للدلالة على صحه إيمانهم وقبول أعمالهم والنجاه من وحشه ذلك اليوم

الرهييب، وهو مدعاة للتفاخر والإعتزاز أمام أهل المحشر.

أما ما المراد من «الحساب اليسير»؟ فذهب بعض إلى أنه العفو عن السيئات والثواب على الحسنات وعدم المداقة فى كتاب الأعمال.

وفى المجمع: «ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنة برحمته». قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: «تعطى من حرمك،

وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك».

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) الذين يستلمون كتبهم من وراء ظهرهم: بعد أن عرضت الآيات السابقة أحوال فريق أصحاب اليمين، تأتي الآيات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفريق الآخر، وتوصف لنا كيفية إعطاء كتاب كل منهم مشرعه لتقديم المشاهد الأخرى: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ» ... فيصرخ وينادي الويل لي لقد هلكت: «فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا». «وَيَصْلَى سَعِيرًا».

وسأخذ أصحاب اليمين كتبهم بافتخار ومباهاة في يدهم اليمنى، وكل منهم يقول:

«هِيَ أَوْمٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً» (١). ولكن المجرمين سيأخذون كتبهم بأيديهم اليسرى وبسرعة ويضعونها وراء ظهورهم خجلًا وذلاً، ولكي لا يطلع أحد على ما فيها، ولكن، هيهات ..

فكل شيء حينئذ بارز، كيف لا وهو «يوم البروز» ...

وتبين الآية التالية علة تلك العاقبة المخزية: «إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا».

سروراً ممتزجاً بالغرور، وغروراً احتوشته الغفلة والجهل برّب الأرباب سبحانه

(١) سورة الحاقة / ١٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٧

وتعالى، فالسرور المقصود في الآية، هو ذلك السرور المرتبط بشدة بالدنيا والمنسى لذكر الآخرة.

ويتقرب لنا المعنى من خلال الآية التالية: «إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ».

فاعتقاده الفاسد وظنه الباطل الدائر على نفى المعاد، مصدر سروره وغروره وهو ما سيوصله إلى الشقاء الأبدى، لأنه ابتعد عن ساحة رضوانه سبحانه وتعالى بعد أن أوقعته شهواته في هاوية الاستهزاء بدعوة الأنبياء عليهم السلام الربانية، حتى أوصلته حالته المرضية تلك لأن يستمر في استهزائه وسخريته حتى في حال عودته إلى أهله، كما أشارت الآية (٣١) من سورة المطففين: «وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ».

ولنفى العقائد الضالة، تقول الآية: «بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا».

فكل أعمال الإنسان تسجل وتحصى عليه لتعرض يوم الحساب في صحيفته.

والآية تشارك الآية السابقة: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ». في كونها دليلاً على المعاد أيضاً. فتأكيد الآيتين على كلمة «رب» يدل على أن الإنسان في سيرة التكامل صوب ربه لا ينتهي بالموت، وأن الحياة الدنيا لا يمكنها أن تكون هدفاً وغاية لهذا الخلق العظيم وهذا المسار التكاملى ...

وكذلك كون الله «بصيراً» بأعمال الإنسان وتسجيلها لا بد من اعتباره مقدماً للحساب والجزاء وإلا لكان عبثاً، وهذا ما لا يكون.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَأ يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) لمزيد من إيضاح ما ورد في الآيات السابقة بخصوص سير الإنسان التكاملى نحو خالقه سبحانه وتعالى .. تأتي الآيات لتقول: «فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ». «وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ». أى: وما جمع.

«وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ». أى: إذا اکتمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٨

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ».

«الشفق»: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس. ف «الشفق» هو وقت الغروب.

فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما في هذه الظاهرة السماوية الجميلة من معان، فمنه تُعلن حالة التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء وجمال، وكونه وقت صلاة المغرب.

وأما القسم بالليل، فلما فيه من آثار كثيرة وأسرار عظيمة (وقد تناولنا ذلك مفصلاً).

«ما وسق»: إشارة إلى عودة الإنسان والحيوانات والطيور إلى مساكنها عند حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق)، فيكون عندها سكناً عاماً للكائنات الحية، وهو من أسرار وآثار الليل المهمة.

وينبغي الالتفات إلى الصلة الموجودة فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، والقمر في حالة البدر) وجميعها موضوعات مترابطة ويكمل بعضها البعض الآخر، وتشكل بمجموعها لوحة فنية طبيعية رائعة، وتحرك عند الإنسان التأمل والتفكير في عظمه ودقته وقدره الخالق في خلقه، ويمكن للإنسان العاقل بتأمل هذه التحولات السريعة من التوجه إلى قدرته جل شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تعبيرات في عالم الوجود.

ثم يأتي جواب القسم الوارد في الآيات أعلاه: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ».

إشارة إلى المراحل والتحوّلات التي يمرّ بها الإنسان في حياته؛ منها:

تلك الحالات المختلفة التي يمرّ بها الإنسان في كدحه وسيره المضنى نحو الله جلّ وعلا، فيبدأ بحالة الدنيا، ثم ينتقل إلى عالم البرزخ ومنه إلى القيامة والآخرة.

ومن كل ما سبق .. يخرج القرآن الكريم بنتيجة: «فَمَا لَهُمْ لَأَيُّومُونَ».

فمع وضوح أدلة الحق؛ مثل أدلة: التوحيد، معرفة الله، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق في آيات، وكذلك الآيات التي في نفس الإنسان.

وينتقل بنا العرض القرآني من كتاب (التكوين) إلى كتاب (التدوين)، فيقول: «وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ».

القرآن تتلألأ- أنوار الإعجاز من بين جنباته، ويشهد محتواه على أنه من الوحي الإلهي وكل منصف يدرك جيداً لدى قراءته له أنه فوق نتاجات عقول البشر ولا يمكن أن يصدر من إنسان مهما كان عالماً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٩

وتأتي الآية التالية لتقول: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ».

والتعبير عن ممارسة تكذيب الكافرين في الآية بصيغة المضارع المستمر، للإشارة إلى تكذيبهم المتعنت المستمر واصرارهم ولجاجتهم وليس تكذيبهم بسبب ضعف أدلة الحق.

وبيان جدى وتهديد جدى، تقول الآية التالية: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ».

فالله تعالى أعلم بدافع وثية وهدف ذلك التكذيب، ومهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلّابما كسبت أيديهم.

ثم ...: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

عادةً ما تستعمل «البشارة» للأخبار السارة، وجاءت هنا لتتم عن نوع من الطعن والتوبيخ.

والحال، إنّ البشارة الحقة للمؤمنين خالصة بما ينتظرهم من نعيم، وما للكاذبين إلّالغرق في بحر من الحسرة والندم، وما هم إلّالفي عذاب جهنم يخلدون.

ويستثنى المؤمنون من تلك البشرية المخزية: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

«ممنون»: من «المنّ» وهو القطع والنقصان، (ومنه «المنون» بمعنى الموت).

وإذا ما جمعنا كل هذه المعاني، فستكون النعم الاخروية على عكس الدنيوية الناقصة والمنقطعة والمقترنة بمنته هذا وذاك، حيث إنّها

لا تنقطع ولا تنقص وليس فيها مئة.

أما الإستثناء الذي ورد في الآية السابقة، ففيه بحث: هل أنه «متصل» أو «منقطع»؟

والأقرب لسياق الآيات أن يكون الإستثناء متصلًا، وفي هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعودة وتشجيعهم على ذلك، لأن الآية تقول: إن العذاب الأليم المذكور في الآية السابقة سوف لا يصيب من يؤمن منهم ويعمل صالحاً وعلاوة على ذلك، سيكون له أجر غير ممنون.

«نهاية تفسير سورة الإنشاق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢١

## ٨٥. سورة البروج

محتوى السورة: بملاحظة كون السورة مكية، فيظهر إنها نزلت لتقوية معنويات المؤمنين لمواجهة تلك الظروف الصعبة، ولترغيبهم على الصمود أمام الصعاب والثبات على الإيمان وترسيخه في القلوب.

وتناولت السورة قصة أصحاب الاخدود، الذين حفروا خندقاً وسجروه بالنيران، وهددوا المؤمنين بإلقائهم في تلك النار إن لم يعودوا إلى كفرهم! وأحرقوا مجموعة منهم بالنار وهم أحياء، ومع ذلك لم يرجعوا عن دينهم ..

وتعد السورة في بعض آياتها بعذاب جهنم الأليم لأولئك الذين يؤذون المؤمنين ويعذبونهم على إيمانهم، وتذمهم ذمًا شديدًا، في حين تبشر المؤمنين الصابرين بالجنة والفوز بنعيمها.

وفي جانب آخر من السورة، تُعرض لنا مقتطفات من قصتي فرعون وثمود وقوميهما الجنة الطغاة، وما آلوا إليه من ذل وهلاك، كل ذلك تذكرياً لكفار مكة الذين هم أضعف قوة وأقل جنداً من أولئك، فعسى أن يرجعوا عما هم فيه من جهة، وتسلياً لقلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله ومن كان معه من المؤمنين من جهة أخرى.

وتختم السورة في آخر مقاطعها بالإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، وإلى الأهمية البالغة لهذا الوحي الإلهي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٢

وسميت بسورة «البروج» بلحاظ ذكر الكلمة في أول آية من السورة بعد ذكر البسملة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير البرهان: روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قرأ هذه السورة أعطاه الله من الأجر بعدد كل من اجتمع في جمعة وكل من اجتمع يوم عرفة عشر حسنات، وقراءتها تنجي من المخاوف والشدائد».

وبملاحظة أن أحد تفاسير «وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ» - من آيات السورة - هو يومى الجمعة وعرفة من جهة، وأن السورة حكاية مقاومة وبسالة المؤمنين السابقين أمام الشدائد والضغوط من جهة أخرى، وبملاحظة ذلك سيوضح لنا التناسب الموجود ما بين هذا الثواب الجزيل

لمن يقرأها وبين محتوى السورة، وأن الأجر والثواب إنما يحصل لمن قرأها بتأمل معانيها، وعمل على ضوء هديها.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتِيلَ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) ابتدأت السورة ب: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ».

والأبراج السماوية: إما أن يكون المراد منها النجوم الزاهرة والكواكب المنيرة في السماء، أو المجموعات من النجوم تتخذ مع بعضها شكل شيء معروف في الأرض، وتسمى ب «الصور الفلكية» وهي اثنا عشر برجاً، وفي كل شهر تحاذى الشمس أحد هذه البروج، (طبعي أن الشمس لا تتحرك تلك الحركة، وإنما الأرض تدور حول الشمس فيبدو لنا تغير موضع الشمس بالنسبة إلى الصور الفلكية أو الأبراج).

وتقول الآية الثانية: «وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ».

اليوم الذى وعد به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والذى تحدثت عنه مئات الآيات القرآنية المباركة. وفى القسم الثالث والرابع يقول: «وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٣

وقد تعرض المفسرون للآية بمعان متباينة، وصلت إلى ثلاثين معنى وأدناه أهم ما ذكر منها:

١- إن «الشاهد»: محمّد صلى الله عليه وآله؛ و «المشهود»: يوم القيامة.

٢- «الشاهد»: ما سيشهد على أعمال الناس، كأعضاء بدنه؛ و «المشهود»: الناس وأعمالهم.

٣- «الشاهد»: يوم الجمعة؛ و «المشهود»: يوم عرفة.

٤- «الشاهد»: عيد الأضحى؛ و «المشهود»: يوم عرفة.

٥- «الشاهد»: الأيام والليالي؛ و «المشهود»: بنو آدم، حيث تشهد على أعمالهم.

٦- «الشاهد»: الملائكة؛ و «المشهود»: القرآن.

٧- «الشاهد»: الحجر الأسود؛ و «المشهود»: الحاج.

٨- «الشاهد»: الخلق؛ و «المشهود»: الحق.

٩- «الشاهد»: هذه الأمة؛ و «المشهود»: سائر الامم.

١٠- «الشاهد»: الأنبياء عليهم السلام؛ و «المشهود»: محمّد صلى الله عليه وآله.

١١- «الشاهد»: النبى صلى الله عليه وآله؛ و «المشهود»: أمير المؤمنين عليه السلام.

وإذا ما أدخلنا الآية فى سياق الآيات السابقة لها، فنصل إلى أنّ «الشاهد» هو كل من سيقوم بالشهادة يوم القيامة؛ كشهادة: النبى صلى الله عليه وآله وكل نبى على أمته، الملائكة، بالإضافة إلى شهادة: أعضاء بدن الإنسان، الليل والنهار ... إلخ؛ و «المشهود»: الناس أو أعمالهم.

وبهذا يدغم الكثير من التفاسير المذكورة مع بعضها لتشكّل مفهوماً واسعاً للآية المباركة، لأنّ «الشاهد» ينطبق على كل من وما يشهد، وكذا «المشهود» ينطبق على كل من وما يشهد عليه، وما ورودهما بصيغة النكرة إلتعظيمهما.

فالسماء وما فيها من بروج تحكى عن نظام وحساب دقيق، و «اليوم الموعود» يوم حساب وكتاب دقيق أيضاً، و «شاهد ومشهود» أيضاً وسيلة للحساب الدقيق على أعمال الإنسان، وكل ذلك لتذكير الظالمين الذين يعذبون المؤمنين، عسى أن يكفوا عن فعلتهم السيئة، ولإعلامهم بأن كل ما يفعله الإنسان يسجل عليه وبحساب دقيق جداً وسيواجه بها فى اليوم الموعود بين عتبات ساحة العدل الإلهي. وبعد هذه الأقسام الأربع، تقول الآية التالية: «قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٤

والمقصود هم الظالمين لا من القى فى النار، فالجملة إنشائية والمراد هو اللعن والدعاء عليهم.

والاخذود ملء بالنار الملتهبة: «النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ».

وكان الظالمون جالسون على حافة الاخذود يشاهدون المعذبين فيها: «إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ». «وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ».

«الاعخذود»: شقّ فى الأرض مستطيل غائص، والجمع أخاديد، وأصل ذلك من «خدّ» الإنسان، وهو تقعر بسيط يكتنف الأنف من اليمين والشمال (وعند البكاء تسيل الدموع من خلاله) ثم اطلق مجازاً على الخنادق والحفر فى الأرض، ثم صار معنى حقيقياً لها.

أما من هم الذين عدّبو المؤمنين؟ ومتى؟ إنهم حفروا خندقاً عظيماً ووجروه بالنيران، وأوقفوا المؤمنين على حافة الخندق وطلبوا منهم

واحداً واحداً بترك إيمانهم والرجوع إلى الكفر، ومن رفض القى بين ألسنة النيران حياً ليذهب إلى ربّه صابراً محتسباً!

«الوقود»: ما يجعل للإشتعال، و «ذات الوقود»: إشارة إلى كثرة ما فيها من الوقود، وشدة اشتعالها، فالنار لا تخلو من وقود، ولعل ما قيل من أن «ذات الوقود» بمعنى ذات اللهب الشديد، يعود للسبب المذكور.

والآيتان: «إذ هم عليها قعودٌ\* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهوداً»، تشيران إلى ذلك الجمع من الناس الذين حضروا الواقعة، وهم ينظرون إلى ما يحدث بكل تلذذ وبرود وفى منتهى قساوة القلب (سادية).

وتقول الآية التالية: «وما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

وذكر «العزیز الحمید» جواب لما اقترفوا من جريمة بشعة، واحتجاج على اولئك الكفرة، إذ كيف يكون الإيمان بالله جرم وذنب؟! وهو أيضاً تهديد لهم بأن يأخذهم الله العزیز الحمید جزاء ما فعلوا، أخذ عزيز مقتدر.

وتأتى الآية الاخرى لتبين صفتين اخرتين للعزیز الحمید: «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

فالصفات الأربعة المذكورة، تمثل رمز معبوديته جلّ وعلا، فالعزیز والحمید .. ذو الكمال المطلق، ومالك السماوات والأرض والشهيد على كل شيء .. أحق أن يُعبد وحده دون غيره، لا شريك له.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٥

إضافه إلى كونها بشاره للمؤمنين، بحضور الله سبحانه وتعالى ورؤيته لصبرهم وثباتهم على الإيمان، فيدفع فيهم الحيوية والنشاط والقوة.

ومن جهة اخرى تهديد للكفار، وإفهامهم بأن عدم منع ارتكاب مثل هذه الجرائم الخبيثة، ليس لعجز أو ضعف منه جلّ شأنه، وإنما ترك العباد يفعلون ما يرونه هم، امتحاناً لهم، وسيرهم فى عاقبة أمرهم جزاء ما فعلوا، وما للظالمين إلا العذاب المهين.

بحث

من هم أصحاب الاخدود؟ إن «الاخدود» هو الشق العظيم فى الأرض، أو الخندق .. وهو فى الآية إشارة إلى تلك الخنادق التى ملأها الكفار ناراً ليردعوا فيها المؤمنین بالتنازل عن إيمانهم والرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال.

وكان سببهم أن الذى هيج الحبشة على غزوة اليمن ذونواس وهو آخر من ملك من حمير (١) تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمى نفسه يوسف، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثم اخبر أن بنجران [شمال اليمن بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى عليه السلام وعلى حكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبدالله بن بريا فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كله، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فخذ لهم اخدوداً جمع فيه الحطب، وأشعل فيه النار، فممنهم من احرق بالنار، ومنهم من قُتل بالسيف، ومثل بهم كل مثله. فبلغ عدد من قُتل واحرق بالنار عشرين ألفاً (٢).

وأضاف بعض آخر: إن رجلاً من نصارى نجران تمكّن من الهرب، فالتحق بالروم وشكا ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إن أرضكم بعيدة، ولكنى سأكتب كتاباً إلى ملك الحبشة النصرانى وأطلب منه مساعدتكم.

ثم كتب رسالته إلى ملك الحبشة، وطلب منه الانتقام لدماء المسيحيين التى اريقت فى

(١) حمير: إحدى قبائل اليمن المعروفة.

(٢) تفسير على بن ابراهيم القمى ٢/ ٤١٣.

فأرسل كتابه إلى اليمن والتقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة «١». إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق (١٠) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير (١١) إن بطش ربك لشديد (١٢) إنه هو يبدئ ويعيد (١٣) وهو الغفور الودود (١٤) ذو العرش المجيد (١٥) فعال لما يريد (١٦) العذاب الإلهي للمجرمين: بعد ذكر عظم جريمه أصحاب الاخدود التي ارتكبت ضد المؤمنين بحرقهم وهم أحياء، يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى ما ينتظر اولئك الجناء من عذاب إلهي شديد، ويشير أيضاً إلى ما أعد للمؤمنين من ثواب ونعيم جراء صبرهم وثباتهم على إيمانهم بالله. فتقول الآية الاولى: «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق».

«فتنوا»: من مادة «فتن» وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وقد استعملت «الفتنة» بمعنى (الاختبار)، وبمعنى (العذاب والبلاء)، وبمعنى (الضلال والشرك) أيضاً؛ وهي في الآية بمعنى (العذاب).

«ثم لم يتوبوا»: تدل على أن باب التوبة مفتوح حتى لأولئك الجناء المجرمين، وتدل أيضاً على مدى لطف الباري جل وعلا على الإنسان حتى وإن كان مذنباً، وفي الجملة تنبيه لأهل مكة ليسارعوا في ترك تعذيب المؤمنين ويتوبوا إلى الله توبة نصوح. وقد ورد في الآية لونين من العذاب الإلهي: «عذاب جهنم» و«عذاب الحريق»، للإشارة إلى أن لعذاب جهنم ألوان عديدة، منها (عذاب النار)، وتعيين «عذاب الحريق»، للإشارة أيضاً إلى أن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار، سوف يجازون بذات أساليبهم، ولكن أين هذه النار من تلك؟!؟

(١) قصص القرآن، للبلاغي / ٢٨٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٧

وتعرض لنا الآية التالية ما سيناله المؤمنون من ثواب: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير».

وأى فوز أرقى وأسمى من الوصول إلى جوار الله، والتمتع في نعيمه الذي لا- يوصف! نعم، فمفتاح ذلك الفوز العظيم هو (الإيمان والعمل الصالح)، وما عداه فروع لهذا الأصل.

ويعود القرآن مرة أخرى لتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين، فيقول: «إن بطش ربك لشديد».

ولا تظنوا بأن القيامة أمر خيالي، أو إن المعاد من الامور التي يشك في صحه تحققها، بل:

«إنه هو يبدئ ويعيد».

«البطش»: تناول الشيء بصولة وقهر، وباعتباره مقدمه للعقاب، فقد استعمل بمعنى العقاب والمجازاة؛ «ربك»: تسليه للنبي صلى الله عليه وآله، وتأکید دعم الله اللامحدود له.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم خمسة أوصاف للباري جل شأنه: «وهو الغفور الودود».

الذي يغفر للتائبين ويحب المؤمنين.

«ذو العرش المجيد». صاحب الحكومة المقتدرة على عالم الوجود وذو المجد والعظمة.

«فعال لما يريد».

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمنته الآيات السابقة من تهديد ووعيد، يبين أن طريق العودة إلى الله سالك وأن باب التوبة مفتوح لكل من ولغ في الذنوب، فالباري جلت عظمتة في الوقت الذي هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضاً.

هل أتاك حديث الجنود (١٧) فوعون وئمود (١٨) يلب الذين كفروا في تكذيب (١٩) والله من وراءهم محيط (٢٠) يلب هو قوآن

مَجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) أَلَمْ تَرَ مَا حَلَّ بِجَيْشِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ: فِيمَا تَعَرَّضْتَ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ لِقُدْرَةِ اللَّهِ الْمَطْلُوقَةَ وَحَاكِمِيَّتِهِ، وَلِتَهْدِيدِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَفْتَنُونَ الْمُؤْمِنِينَ .. تَعَرَّضَ الْآيَاتِ أَعْلَاهُ لَمَا يُؤَكِّدُ هَذَا التَّهْدِيدَ، فَتَخَاطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَائِلَةً: «هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ». تِلْكَ الْكُتَابُ الْجَرَارَةُ الَّتِي وَقَفَتْ بِوَجْهِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بِتَصَوُّرِهَا السَّادِجِ بِأَنَّهَا سَتَقْفُ أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَتَشِيرُ إِلَى نُمُودِجَيْنِ وَاضِحَيْنِ، أَحَدُهُمَا مِنْ غَابِرِ الزَّمَانِ، وَالْآخَرُ فِي زَمَنِ قَرِيبٍ مِنْ صَدْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ: «فِرْعَوْنُ وَثَمُودٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٨

فَأَحَدُهُمَا مَلِكُ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَالْآخَرُ وَصَلَتْ مَدِينَتَهُ لِأَنَّ يَحْفَرُ الْجِبَالَ لِبِنَاءِ الْبُيُوتِ وَالْقُصُورِ الْفَخْمَةِ، وَلَهُمَا مِنَ الْجَبُوتِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ الْوُقُوفِ بِوَجْهِهِمْ، وَلَكِنَّ الْعَزِيزَ الْجَبَّارَ أَهْلَكَهُمْ بِالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ، مَعَ مَا لَهَا تَيْنِ الْمَادَتَيْنِ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمَهْمَةِ الْمَسْتَلْزِمَةِ لِأَسَاسِيَّاتِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ.

وَتَقُولُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ».

فَآيَاتٍ وَدَلَائِلَ الْحَقِّ لَيْسَتْ بِخَافِيَةٍ عَلَى أَحَدٍ، وَلَكِنَّ الْعِنَادَ وَاللَّجَاجَةَ هُمَا اللَّذَانِ يَحْجَبَانِ عَنِ رُؤْيَيْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ. وَكَأَنَّ «بَل» تَشِيرُ إِلَى أَنَّ عِنَادَ وَتَكْذِيبَ أَهْلِ مَكَّةَ أَشَدَّ وَأَكْثَرَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ وَهُمْ مَشْغُولُونَ دَائِمًا بِتَكْذِيبِ الْحَقِّ وَانْكَارِهِ وَيَسْتَعْمِدُونَ كُلَّ وَسِيلَةٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ.

وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا بِقُدْرَةِ اللَّهِ: «وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ».

فَلَا يَدُلُّ الْإِمْهَالَ عَلَى الضَّعْفِ أَوْ الْعِجْزِ، وَلَا يَعْنِي عَدَمَ تَعْجِيلِ إِنْزَالِ الْعُقُوبَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِأَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا عَنِ قُدْرَتِهِ جَلَّ شَأْنُهُ.

وَتَقُولُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ: «بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ». ذُو مَكَانَةٍ سَامِيَةٍ وَمَقَامٍ عَظِيمٍ.

«فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ». لَا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُ الْعَبَثِ، وَالشَّيْطَانِ، وَلَا يَصِيبُهُ أَىِّ تَغْيِيرٍ أَوْ تَبْدِيلٍ، أَوْ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ.

فَلَا تَبْتَسُّ يَا مُحَمَّدٌ بِمَا يَنْسُبُونَهُ إِلَيْكَ افْتِرَاءً، كَأَنَّ يَتَهَمُوكَ بِالشَّعْرِ، السَّحْرِ، الْكُهَانَةِ وَالْجُنُونِ ... فَاصُولِكَ ثَابِتَةٌ، وَطَرِيقُكَ تَبْرُ، وَالْقَادِرُ الْمَتَعَالِ مَعَكَ.

«لَوْحٍ»: هُوَ الصَّفْحَةُ الْعَرِيضَةُ الَّتِي يَكْتُبُ عَلَيْهَا، وَيُرَادُ هُنَا: الصَّفْحَةُ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا الْقُرْآنُ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ كَالْأَلْوَابِ الْمَتَعَارِفَةِ عِنْدَنَا، بَلْ

(وَعَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ): إِنَّ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ طَوَّلَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَعَرَضَهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَيَبْدُو أَنَّ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ، هُوَ «عِلْمُ اللَّهِ» الَّذِي يَمْلَأُ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ، وَمَصَانٍ مِنْ أَىِّ اخْتِلَاقٍ أَوْ تَحْرِيفٍ.

«نَهَايَةُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبُرُوجِ»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٩

## ٨٦. سورة الطارق

محتوى السورة: تدور مواضع السورة حول محورين:

١- المعاد والقيامة.

٢- القرآن الكريم وأهميته القيمة.

تبتدأ السورة بجملة أقسام تبعث على التأمل والتفكير، ثم تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

وتنتقل السورة لإثبات إمكانية المعاد من خلال الإشارة إلى كيفية خلق الإنسان من نطفة. فالقادر على خلق الإنسان من نطفة ننته لقادر على إعادة حياته بعد موته.

وتعرض لنا السورة بعد ذلك معالم المرحلة التالية من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة، ثم تذكر جملة أقسام أخرى للتأكيد على أهمية القرآن، ومن ثم نختم بإنذار الكفار بالعذاب الإلهي.



فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات».

إن التأمل بمحتوى السورة والعمل على ضوئها هو الذى يضمن حصول ثوابها، وحركة اللسان الفارغة عن كل محتوى وتطبيق، لا تغنى عن الحق شيئاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٠

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) تبدأ السورة - كمثيلاً منها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم - بعدة أقسام بليغة تبعث على التأمل، وهى مقدمة لبيان أمر مهم.

«وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ» .. «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ» .. «النَّجْمُ الثَّاقِبُ».

«الطارق»: من (الطرق) وهو الضرب، ولهذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة.

ويفسر القرآن الكريم «الطارق» بقوله: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ». النجم اللامع الذى مع علوه الشاهق وكأنه يريد أن يثقب سقف السماء، وكأن نوره المتشعشع يريد أن يثقب ستار الليل الحالك، فيجلب الأنظار بميزته هذه.

ولنرى لأى شىء كان هذا القسم: «إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ».

يحفظ عليه أعماله، وتسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

فلا تظنوا بأنكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فثمّة عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كل ما يبدر منكم .. وهذا ما له الأثر البالغ فى عملية إصلاح وتربية الإنسان.

ثم يستدل القرآن الكريم على المعاد فى مقابل من يقول باستحالة المعاد: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ».

وبهذا ... أخذ القرآن الكريم بأيدي الجميع وأرجعهم إلى أول خلقهم، مستفهماً عما خلق منه الإنسان.

وبدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: «خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ».

وهو ماء الرجل الذى تسبح فيه الحيامن، ويخرج بدفق.

ويستمر فى تقريب المراد: «يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ».

«الصلب»: الظهر؛ و «الترائب»: جمع (تريبة)، وهى عظام الصدر العليا وضلوعه.

فالأيات تشير إلى ماء الرجل دون المرأة، بقريته «ماء دافق»، وهذا لا يصدق إلا على

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣١

الرجل، وعليه يعود الضمير فى «يخرج».

و «الصلب والترائب» هما ظهر الرجل وقسمه الأمامى، لأن ماء الرجل إنما يخرج من هاتين المنطقتين.

وهذا التفسير واضح، ينسجم مع ما ورد فى كتب اللغة بخصوص المصطلحين.

كما ويمكن أن تكون الآية قد أشارت إلى حقيقة علمية مهمة لم يتوصل إلى اكتشافها بعد، وربما المستقبل سيكشف ما لم يكن بالحسبان.

ونصل مع القرآن إلى نتيجة ما تقدم من الذكر الحكيم: «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ».

فالإنسان تراباً قبل أن يكون نطفة، ثم مرّ بمراحل عديدة مدهشة حتى أصبح إنساناً كاملاً، وليس من الصعوبة بحال على الخالق أن يعيد حياة الإنسان بعد أن نخرت عظامه وصار تراباً، فالذى خلقه من التراب أول مرة قادر على إعادته مرة أخرى.

وتصف لنا الآية التالية ذلك اليوم الذى سيرجع فيه الإنسان: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ».

«تبلى»: من «البلى»، بمعنى الإختبار والإمتحان، وهو هنا الظهور والبروز، لأنَّ الإمتحان يكشف عن حقيقة الأشياء ويظهرها.

«السرائر»: جمع (سريرة)، وهى صفات ونوايا الإنسان الداخلية.

نعم، فأسرار الإنسان الدفينة ستظهر فى ذلك اليوم، يوم البروز ويوم الظهور، فسيظهر على الطبيعة كل من: الإيمان، الكفر، النفاق، نية الخير، نية الشر، الإخلاص، الرياء ...

وسيكون ذلك الظهور مدعاة فخر ومزيد نعمة للمؤمنين، ومدعاة ذلّة ومهانة وحسرة للمجرمين ...

وما أشد ما سيلاقى من قضى وطراً من عمره بين الناس بظاهر حسن ونوايا خبيثة. وما أتعسه حينما تهتك أقنعتة المزيفة فيظهر على حقيقته أمام كل الخلائق.

ولكن أشدّ صعاب ذلك اليوم على الإنسان: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ».

فلا يملك تلك القوة التى تخفى أعماله ونياتة، وليس له ذلك الظهير الذى يعينه عن الخلاص من عذاب الله سبحانه وتعالى.

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضِيلٍ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٢

بعد أن تضمنت الآيات السابقة استدلالاً على المعاد، بطريق توجيه الإنسان إلى بداية خلقه، تعود هذه الآيات إلى المعاد مرة أخرى، لتشير إلى بعض الأدلة الأخرى عليه فتقول:

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ» ... «وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ» ... «إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضِيلٍ» ... «وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ».

«الرجع»: من «الرجوع» بمعنى العود، ويطلق على الأمطار اسم (الرجع) لأنها تبدأ من مياه الأرض والبحار، ثم تعود إليها تارة أخرى عن طريق الغيوم.

فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضى الميتة بالأمطار، وهذا ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم كدليل على إمكانية المعاد، كما فى قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة «ق»:

«وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ».

وتسلى الآيات التالية قلب النبى صلى الله عليه وآله والمؤمنين من جهة، وتتوعد أعداء الإسلام من جهة أخرى: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا». فالكفار يخططون من جهة، وأنا أخطط لإجباط تلك الخطط من جهة أخرى .. «وَأَكِيدُ كَيْدًا». «فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا»، حتى يروا عاقبتهم.

نعم، إنهم دوماً يكيدون فى حربك والحرب ضد دينك.

فتارة بالإستهزاء ...

واخرى بالحصار الإقتصادى ...

ومرة بتعذيب المؤمنين ...

ويقولون عنك: ساحراً، كاهناً، مجنوناً ...

ويقولون لك: أبعد الفقراء والمستضعفين عنك حتى تتبعك

ومراد الآية هو كيد الأعداء، وقد تعرضنا لبعض نماذجه أعلاه.

والمقصود بالكيد الإلهى إنّه تلك الألفاظ الإلهية التى غمرت النبى صلى الله عليه وآله ومن معه من المؤمنين، وما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم وخيبة مساعيهم.

هذه الآية درس للمسلمين فى الكيفية التى ينبغى العمل بها عند مواجهة أعداءهم، وخصوصاً ما إذا كانوا أعداءً أقوياء، فلا بدّ من الصبر

والتأني والدقة في حساب خطوات المواجهة، وينبغي عدم التسرع في العمل، وكذا عدم تنفيذ القرارات غير المدروسة.

«نهاية تفسير سورة الطارق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٣

## ٨٧. سورة الأعلى

محتوى السورة: تحتوي السورة على قسمين من المواضيع:

١- يحوى خطاباً إلى النبي صلى الله عليه وآله، يأمره البارئ سبحانه فيه بالتسبيح وأداء الرسالة، ثم ذكر سبعا من صفات الله عز وجل، لها صلة ربط بالأمر الرباني إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

٢- يتحدث عن المؤمنين الخاشعين، والكافرين الأشقياء، ويتناول باختصار العوامل التي تؤدي إلى كل من السعادة والشقاء الحق. وفي آخر السورة، يأتي التأكيد على أن ما جاء في هذه السورة ليس هو حديث القرآن الكريم فقط، بل وتناولته كتب وصحف الأولين أيضاً، كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان ابى بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأها أعطاه الله من الأجر عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام».

وعن أبى بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سبّح اسم ربك الأعلى في فريضة أو نافله قيل له يوم القيامة: ادخل الجنة من أى أبواب الجنة شئت».

فيبدو أن السورة من الأهمية بحيث روى عن على بن أبى طالب عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب هذه السورة «سبّح اسم ربك الأعلى»».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٤

سبّح اسم ربك الأعلى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) تسبيح الله: تبدأ السورة بخلاصة دعوة الأنبياء عليهم السلام، حيث التسبيح والتقديس أبداً لله الواحد الأحد، فتخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالقول: «سبّح اسم ربك الأعلى».

فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جلّ شأنه في مصاف أسماء الأصنام، ويجب تنزيه ذاته المقدسة من كل عيب ونقص، ومن كل صفات المخلوق وعوارض الجسم، أى أن لا يحد.

«الأعلى»: أى الأعلى من كل: أحد، تصوّر، تخيل، قياس، ظن، وهم، ومن أى شرك بشقيه الجلى والخفى.

«ربك»: إشارة إلى أنه غير ذلك الرب الذى يعتقد به عبدة الأصنام.

وبعد ذكر هاتين الصفتين (الرب والأعلى)، تذكر الآيات التالية خمس صفات تبين ربوبية الله العليا...: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى .

فنظام عالم الخلق، بدءاً من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التى أشارت إليها الآية (٤) من سورة القيامة: «بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوَّى بَنَانَهُ». وانتهاءً بأكبر منظومة سماوية كلّها شواهد ناطقة على ربوبية الله سبحانه وتعالى، وأدلة إثبات قاطعة على وجوده عز وجل.

وبعد ذكر موضوعى الخلق والتنظيم، تنتقل بنا الآية التالية إلى حركة الموجودات نحو الكمال: «وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .

والمراد ب (قدّر)، هو: وضع البرامج، وتقدير مقادير الامور اللازمة للحركة باتجاه الأهداف المرسومة التى ما خلقت الموجودات إلّالأجلها.

والمراد ب (هدى هنا، هو: الهداية الكونية، على شكل غرائز و سنن طبيعية حاكمة على كل موجود (ولا فرق فى الغرائز والدوافع سواء كانت داخلية أم خارجية).

فمثلاً، إنَّ الله خلق ثدى المرأة وجعل فيه اللبن لتغذية الطفل، وفي ذات الوقت جعل عاطفة الامومة شديدة عند المرأة، ومن الطرف الآخر جعل في الطفل ميلاً غريزياً نحو ثدى امه، فكلّ هذه الاستعدادات والدوافع وشدة العلاقة الموجودة بين الام والابن والثدى مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٥

مقدّر بشكل دقيق، كى تكون عملية السير نحو الهدف المطلوب طبيعياً وصحيحةً.

وهذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح فى جميع الكائنات.

وقد اختص الإنسان بهدايةً تشريعيةً إضافةً للهداية التكوينية يتلقاها عن طريق الوحي وإرسال الأنبياء عليهم السلام لتكتمل أمامه معالم الطريق من كافة جوانبه.

وتشير الآية التالية إلى النباتات، وما يخصّ غذاء الحيوانات منها: «وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى .  
ثَم: «فَجَعَلَهُ عُتَّاءً أَلْحَى .

«الغناء»: هو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس على سطح الماء الجارى، ويطلق أيضاً على ما يطفح على سطح القدر عند الطبخ، ويستعمل كناية عن: كل ضائع ومفقود، وجاء فى الآية بمعنى: النبات اليابس المتراكم.  
«ألحى»: من (الحوء) - على زنة قوّة - وهى شدة الخضرة، أو شدة السواد.

فللغناء الألحى منافع كثيرة .. فهو يشير بشكل غير مباشر إلى فناء الدنيا، وكذا غذاء جيد للحيوانات فى الشتاء، ويستعمل كسماد طبيعى للأرض، وكذا يستعمله الإنسان كوقود.

سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَمَّا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْبَى (١٣) فيما كان الحديث فى الآيات السابقة عن ربوبيّة الله وتوحيده جلّ شأنه، والهداية العامّة للموجودات، وكذا عن تسييح الرب الأعلى .. تأتى الآيات أعلاه لتتحدث عن: القرآن والنّبوة، وهداية الإنسان، وكذا البيان القرآنى للتسييح. فتقول الآية الاولى مخاطبةً النبى صلى الله عليه وآله: «سَيَذَكِّرُكَ فَلَا تَنسَى . فلا تتعجل نزول القرآن، ولا تخف من نسيان آياته، فالذى أرسلك بهذه الآيات لهداية البشرية كفيل بحفظها، وبخطها على قلبك الطاهر بما لا يمكن لآفة النسيان من قرض ولو حرف واحد منها أبداً.

وتدخل الآية فى سياق الآية (١١٤) من سورة طه: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٦

يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا». وكذا الآية (١٦ و ١٧) من سورة القيامة: «لَمَّا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتُخْبِرَ بِهِ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنُهُ» تدخل فى سياقهما.

ولإثبات قدرته سبحانه وتعالى، وأن كل خير منه، تقول الآية: «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . ولا يعنى هذا الإستثناء بأن النسيان قد أخذ من النبى صلى الله عليه وآله وطراً، وإنما هو لبيان أن قدره حفظ الآيات هى موهبة منه سبحانه وتعالى، ومشيئته هى الغالبة أبداً، وإلاً لترعزت الثقة بقول النبى صلى الله عليه وآله.

فمن معاجز النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، قابليته على حفظ الآيات والسور الطوال بعد تلاوة واحدة من جبرائيل عليه السلام، دون أن ينسى منها شيئاً أبداً.

وتخاطب الآية التالية النبى الكريم صلى الله عليه وآله مسلياً له: «وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى . أى: إخبار النبى بصعوبة الطريق فى كافة محطاته، من تلقى الوحي وحفظه حتى البلاغ والنشر والتعليم والعمل به، وتطمئنه بالرعاية والعناية الربانية، بتدليل صعبه من خلال تيسيرها له صلى الله عليه وآله.

وبعد أن تبين الآيات العناية الربانية للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله، تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسية:

«فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى .

قيل: الإشارة هنا إلى أن التذكير بحد ذاته نافع، وقليل اولئك الذين لا ينتفعون به، والحد الأدنى للتذكير هو إتمام الحجّة على المنكرين، وهذا بنفسه نفع عظيم.

وتقسم الآيات التالية الناس إلى قسمين، من خلال مواقفهم تجاه الوعد والإنذار الذى مارسه النبي صلى الله عليه وآله...: «سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى .

نعم، فإذا ما فقد الإنسان روح «الخشية» والخوف مما ينبغى أن يخاف منه، وإذا لم تكن فيه روحية طلب الحق - والتي هي من مراتب التقوى - فسوف لا تنفع معه المواعظ الإلهية، ولا حتى تذكيرات الأنبياء ستنفعه، على هذا الأساس كان القرآن «هدى للمتقين». وتذكر الآية التالية القسم الثانى، بقولها: «وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى».

ويعرض لنا القرآن عاقبة القسم الثانى: «الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى .. ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . أى، لا يموت ليخلص من العذاب، ولا يعيش حياة خالية من العذاب، فهو أبداً يتقلقل بالعذاب بين الموت والحياة. إن وصف نار جهنم ب «الكبرى» مقابل (النار الصغرى) فى الحياة الدنيا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٧

فى تفسير على بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام قال: «إن ناركم هذه جزءاً من سبعين جزء من نار جهنم، وقد اطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهب ولو لا ذلك ما استطاع آدمى أن يطفئها».

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) بعد أن عرضت الآيات السابقة صورة العذاب ومعاناه أهله، يأتى الحديث عن الذين نفعهم الذكرى، ممن استمعوا إلى دعوة الهدى فطهروا أنفسهم من المعاصى والآثام، وخشعت قلوبهم لذكر الله .. ويقول القرآن: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى .

فأساس الفلاح بالنجاة من العذاب والفوز بالنعيم الخالد، يعتمد على ثلاثة أركان رئيسية: «التركية»، «ذكر اسم الله» و «الصلاة».

إن «التركية» ذات مداليل واسعة تشمل: تطهير الروح من الشرك، تطهير القلب من الرذائل الأخلاقية، تطهير الأعمال من المحرمات والرياء، تطهير الأموال والأبدان بإعطاء الزكاة والصدقات فى سبيل الله: «حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا».

ويشير البيان القرآنى إلى العامل الأساس فى عملية الإنحراف عن جادة الفلاح: «بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

فى عوالى اللثالى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

وعليه ... فلا سبيل لقطع جذور المعاصى إلا بإخراج حب الدنيا وعشقها من القلب.

ينبغى علينا أن ننظر إلى الدنيا بواقعية وعقلانية، فالدنيا ليست أكثر من مرحلة إنتقالية أو معبر أو مزرعة الآخرة.

وتختم السورة ب: «إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى .. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى .

و «الصحف الأولى»: مقابل «الصحف الأخيرة» التى انزلت على المسيح عليه السلام وعلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ونستدل بالآية الأخيرة بأن لإبراهيم وموسى عليهما السلام كتباً سماوية.

وفى تفسير مجمع البيان عن أبى ذر أنه قال: قلت يا رسول الله! كم الأنبياء؟ فقال: «مائة ألف نبى وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله! كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاثمائة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٨

وثلاثة عشر، وبقيتهم أنبياء». قلت: كان آدم عليه السلام نبياً؟ قال: «نعم، كلمه الله وخلقه بيده. يا أباذر! أربعة من الأنبياء عرب: هود،

وصالح، وشعيب، ونبيك». قلت: يا رسول الله! كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة واربعة كتب، أنزل الله منها على آدم عليه السلام

عشر صحف، وعلى شيت خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

«نهاية تفسير سورة الأعلى»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٩

## ٨٨. سورة الغاشية

محتوى السورة: تدور محتويات السورة على ثلاثة محاور:

١- بحث «المعاد»، وبيان حال المجرمين بما فيه من شقاء وتعاسة، ووصف حال المؤمنين وهم يرفلون بنعيم لا ينضب.

٢- بحث «التوحيد»، ويتناول موضوع خلق السماء والجبال والأرض، ونظر الإنسان إليها.

٣- بحث «النبوة»، مع عرض لبعض وظائف النبي صلى الله عليه وآله.

وعموماً، فالسورة تسير على منهج السور المكية في تقوية اسس الإيمان والإعتقاد.

فضيلة السورة: في تفسير مجمع البيان ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها حاسبه الله حساباً يسيراً».

وأبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة هل أتاك حديث الغاشية في فرائضه أو نوافله، غشاه الله برحمته في الدنيا والآخرة، وأعطاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار».

وبديهى أن الثواب المذكور لا يحصل إلّا لمن تلاها بتأمل وعمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٠

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَنِيَّةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَمَّا يَشِدُّ مِنْ وَ لَمَّا يُغْنَى مِنْ جُوعٍ (٧) المتعبون ... الأخرسون: تبدأ السورة بذكر اسم جديد ليوم القيامة: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ». «الغاشية»: من «الغشاوة» وهى التغطية، وسميت القيامة بذلك لأن حوادثها الرهيبة ستغشى فجاءه كل شىء. وتصف الآيات التالية، حال المجرمين فى يوم القيامة، فتقول أولاً: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ».

لا شك أن الوضع النفسى والروحى، تنعكس آثاره على وجه صاحبه، لذا فسترى تلك الوجوه وقد علتها علائم الخسران والخشوع لما أصابها من ذلّ وخوف ووحشة وهم بانتظار ما سيحل بهم من عذاب مهين أليم.

وتصف حال تلك الوجوه ثانياً: «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ».

فكل ما سعوا وكدوا فيه فى الحياة الدنيا سوف لا يجنون منه إلّا التعب والنصب، وذلك:

لأن أعمالهم غير مقبولة عند الله، وما جمعه من أموال وثروات قد ذهبت لغيرهم، ولا يملكون من ذكر صالح يعقبهم فى الدنيا ولا ولد صالح يدعو ويستغفر الله لهم.

وخاتمة مطاف تلك الوجوه التعب الذليلة أن: «تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً».

ولن يقف عذابهم عند هذا الحد، بل أنهم وبسبب حرارة النيران يصيبهم العطش الشديد وحينئذ: «تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَنِيَّةً».

«آنية»: مؤنث آنى من «الأنى» وهو التأخير، ويستعمل لما يقرب وقته، وجاء فى الآية بمعنى: الماء الحارق الذى بلغ أقصى درجة حرارته؛ وجاء فى الآية (٢٩) من سورة الكهف:

«وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا».

وتحكى لنا الآية التالية عن طعام المجرمين: «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ».

جاء فى الحديث النبوى الشريف: «الضريح شىء يكون فى النار يشبه الشوك، أشد مرارة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤١

مختصر الامثل ج ٥، ص: ٤٩٠

من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سَمَاهُ اللَّهُ ضَرِيحًا.

وتصف لنا الآية التالية ذلك الطعام: «لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ».

فالذين شرهوا في تناول ألد المأكولات في دنياهم، على حساب ظلم الناس والتجاوز على حقوقهم، ومنعوا لقمه العيش عن كثير من المحرومين، فليس في طعام آخرتهم سوى العذاب الأليم.

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَآغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) صور من نعيم الجنة: بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النار، تنتقل عدسة السورة لتنتقل لنا مشاهد رائعة لنعيم أهل الجنة.. ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهي والرحمة الإلهية، وما بين الوعيد والبشارة. فتقول الآية الاولى: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ». على عكس وجوه المذنبين المكسوة بعلائم الذلة والخوف.

«ناعمة»: من «النعمة» وتشير هنا إلى الوجوه الغارقة في نعمة الله، وجوه طرية، مسرورة ونورانية كما في الآية (٢٤) من سورة المطففين: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ».

وترى الوجوه: «لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ».

على عكس أهل جهنم، فوجوههم «عاملة ناصبة»، أما أهل الجنة، فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا في دنياهم، وحصلوا على أحسن ما يتمنون، فتراهم في غاية الرضى والسرور.

وما زرعوا سيتضاعف ناتجه بإذن الله ولطفه أضعافاً مضاعفة، فتارة عشرة أضعاف، واخرى سبعمائة ضعف، وثالثه يجازون على ما عملوا بغير حساب، كما أشارت الآية (١٠) من سورة الزمر إلى ذلك بقولها: «إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

ويدخل البيان القرآني في التفصيل أكثر: «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ».

وكذا...: «لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً».

فهل يوجد مكان أهدأ وأجمل من ذلك؟!

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٢

ولو تأملنا حقيقة مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أن الغالب منها ما كان ناشئاً عن سماع هكذا أحداث، والتي تؤدي إلى عدم الاستقرار النفسي، وإلى تهديم أركان الترابط الاجتماعي فينهار النظام وتشتعل نيران الفتن لتأكل الأخضر واليابس معاً. وبعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنة من نعمة روحية، يبين بعض النعم المادية في الجنة: «فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ».

تلك الأنهار أنها تجري حسب رغبة أهل الجنة فلا داعي معها لشق أرض أو وضع سد.

وينهل أهل الجنة أشربة طاهرة ومتنوعة، فتلك العيون وعلى ما لها من رونق وروعة، فلكل منها شراب معين له مواصفاته الخاصة به.

وينتقل الوصف إلى أسرة الجنة: «فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ». «سرر»: جمع (سرير)، وهو من (السرور)، بمعنى المقاعد التي يجلس عليها في مجالس الانس والسرور.

وجعلت تلك الأسرة من الإرتفاع بحيث يتمكن أهل الجنة من رؤيته كل ما يحيط بها والتمتع بذلك.

ولما كان شرب الشراب يستلزم ما يشرب به، فقد قالت الآية التالية: «وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ».

ومتى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم وقد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا.

«أكواب»: جمع (كوب)، وهو القدح، أو الظرف الذي له عروة.

ويستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنة: «وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ».

«نمارق»: جمع (نمرقة)، وهى الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها.

«مصفوفة»: إشارة إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أن لأهل الجنة جلسات انس جماعية، التى لا يتخللها أى لغو وباطل، ويدور الحديث فيها حول الألفاظ الإلهية ونعمه الخالدة، وعن الفوز الحقيقى الذى أبعدهم عن عذاب الآخرة.

ثم تكون الإشارة إلى فرش الجنة الفاخرة: «وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ».

«زرايبه»: جمع (زرب) أو (زريئة)، وهى الفرش والبسط الفاخرة ذات المتكأ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٣

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) الإبل ... من آيات خلق الله: بعد أن تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنة ونيعمها، تأتى هذه الآيات لتوضح معالم الطريق الموصل إلى الجنة ونيعمها.

مفتاح المعرفة «معرفة الله»، ووصولاً لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعة نماذج لمظاهر القدرة الإلهية وبديع الخلق، داعية الإنسان للتأمل، عسى أن يصل إلى ما ينبغى له أن يصل إليه.

وتشير أيضاً إلى أن قدرة الله المطلقة هى مفتاح درك المعاد ..

فتقول الآية الاولى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ».

إن الآيات فى أول نزولها كانت تخاطب أهل مكة قبل غيرهم، والإبل أهم شىء فى حياة أهل مكة فى ذلك الزمان، فهى معهم ليل نهار وتنجز لهم ضرور الأعمال وتدر عليهم الفوائد الكثيرة. أضف إلى ذلك أن لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرّد بها عن بقية الحيوانات، ويعتبر بحق آية من آيات خلق الله الباهرة.

ولابدّ من التذكير، بأن «النظر» الوارد فى الآية، يراد به النظر الذى يصحبه تأمل ودراسة.

وينتقل بنا البيان القرآنى فى الإبل إلى السماء: «وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ».

فكيف أصبحت تلك الكواكب فى مساراتها المحدودة، وما هو سرّ استقرارها فى أماكنها وبكلّ هذه الدقّة، ولم لم يتغيّر محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها.

مع كل هذا وذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاةً للتأمل والتفكير، والخضوع والتسليم لربوبية الخالق الواحد الأحد؟!

وينقلنا إلى الجبال: «وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٤

الجبال التى تشمخ بتعمق جذورها فى باطن الأرض، وتحيط بالأرض على شكل حلقات وسلاسل لتقلل من شدّة الزلازل الناشئة من ذوبان المواد المعدنية فى باطن الأرض، وكذا ما لها من دور فى حفظ الأرض من عملية المدّ والجزر الناشئة من تأثيرات الشمس والقمر ..

«نصبت»: من «النصب»، وهو التثبيت، وربّما رمز هذا التعبير إلى بداية خلق الجبال أيضاً.

فقد توصل العلم الحديث إلى أن تكون الجبال يعتمد على عوامل عديدة وقسمها إلى عدّة أنواع:

فمنها: ما تكون نتيجة للتراكبات الحاصلة على الأرض.

ومنها: ما تكون من الحمم البركانية.

ومنها: ما تكون نتيجة لتفتت الأرض بواسطة الأمطار.



وكذا منها: ما تكون نتيجة للترسبات الحاصلة فى أعماق البحار ومن بقايا الحيوانات (كالجبال والجزر والمرجانية).

نعم، فالجبال وبكل ما فيها ولها تعدد آية من آيات القدرة الإلهية، لمن رآها بعين بصيرة ولب شغول.

ثم إلى الأرض: «وإلى الأرض كيف سطحت».

فليظن الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسهيل من بعدها محملة الأتربة كى تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحة للزراعة من جهة ومهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة أخرى .. ولو كانت كل الأرض عبارة عن جبال ووديان، فما أصعب الحياة على سطحها والحال هذه.

ولابد لنا من التأمل والتفكير فى من جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماماً لحياة الإنسان؟ ..

إن هذه الأشياء الأربع (الإبل، السماء، الجبال والأرض) تدخل فى حياة الإنسان بشكل رئيسى، حيث من السماء مصدر النور والأمطار والهواء، والأرض مصدر نمو أنواع النباتات

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٥

وما يتغذى به، وكذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات والعلو ففيها مخازن المياه والمواد المعدنية بألوانها المتنوعة، و ما الإبل إلانموذج بارز متكامل لذلك الحيوان الأهلى الذى يقدم مختلف الخدمات للإنسان.

وعليه، فقد تجمعت فى هذه الأشياء الأربع كل مستلزمات «الزراعة» و «الصناعة» و «الثروة الحيوانية»، وحرى بالإنسان والحال هذه أن يتأمل فى هذه النعم المعطاءة، كى يندفع بشكل طبيعى لشكر المنعم سبحانه وتعالى، وبلا شك فإن شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر.

وبعد هذا البحث التوحيدى، يتوجه القرآن الكريم لمخاطبة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ... لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ».

نعم، فخلق السماء والأرض والجبال والحيوانات ينطق بعدم عيشه هذا الوجود، وأن خلق الإنسان إنما هو لهدف ...

فذكرهم بهدف الخلق، وبيّن لهم طريق السلوك الربانى، وكن رائدهم وقدوتهم فى مسيرة التكامل البشرى.

وليس باستطاعتك إجبارهم، وإن حصل ذلك فلا- فائدة منه، لأن شوط الكمال إنما يقطع بالإرادة والاختيار، وليس ثمة من معنى للتكامل الإجبارى.

وفى الآيتين التاليتين يأتى الاستثناء ونتيجته: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» .. «فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ».

ويراد ب «الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ» «عذاب الآخرة» الذى يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعة عذاب الآخرة، بقرينه الآية (٢٦) من سورة الزمر: «فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ».

وكذلك يحتمل إرادة نوع شديد من عذاب الآخرة، لأن عذاب جهنم ليس بمتساو للجميع.

وبحدية قاطعة، تقول آخر آيتين فى السورة: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ» .. «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٦

والآيتان تتضمنان التسليّة لقلب النبى صلى الله عليه وآله فى مواجهته لأساليب المعاندين، لكى لا- يبتئس من أفعالهم، ويستمر فى دعوته.

وهما أيضاً، تهديد عنيف لكل من تسول له نفسه فيقف فى صف الكافرين والمعاندين، فيخبرهم بأن حسابهم سيكون بيد جبار شديد.

بدأت سورة الغاشية بموضوع القيامة وختمت به أيضاً، كما تمت الإشارة فيما بين البدء والختم إلى بحث التوحيد والنبوة، وهما دعامة المعاد.

«نهاية تفسير سورة الغاشية»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٧

## ٨٩. سورة الفجر

محتوى السورة: تقدّم لنا الآيات الاولى أقساماً نادرة في نوعها لتهديد الجبارين بالعذاب الإلهي. وتنقل لنا بعض آياتها ما حلّ ببعض الأقوام السالفة ممن طغوا في الأرض وعاثوا فساداً (قوم عاد، ثمود وفرعون)، وجعلهم عبرة لأولى الأبصار، ودرساً قاسياً لكل من يرى في نفسه القوّة والإقتدار من دون الله.

ثم تشير باختصار إلى الإمتحان الرباني للإنسان، وتلومه على تقصيره في فعل الخيرات ..  
وآخر ما تتحدث عنه السورة هو «المعاد» وما سينتظر المؤمنون ذوى النفوس المطمئنة من ثواب جزيل، وأيضاً ما سينتظر المجرمين والكافرين من عقاب شديد.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأها في ليال عشر، غفر الله له، ومن قرأها سائر الأيام، كانت له نوراً يوم القيامة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم، فإنها سورة الحسين بن على عليه السلام، من قرأها كان مع الحسين بن على عليه السلام يوم القيامة في درجته من الجنة».

يمكن أن يكون وصف السورة بسورة الإمام الحسين عليه السلام بلحاظ أنه أفضل مصاديق ما

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٨

جاء في آخر آياتها، حيث فيما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الأخيرة من السورة: إن «النفوس المطمئنة» هو الحسين بن على عليهما السلام.

وعلى أيّ حال، فتوابها إنّما هو لمن تبصر في قراءتها وعمل على ضوئها.

وَالْفَجْرِ (١) وَ لَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّعْ وَالْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِتَدِي حِجْرِ (٥) بدأت السورة بخمسة أقسام: الأول: «وَالْفَجْرِ» ... والثاني: «وَلَيَالٍ عَشْرٍ».

«الفجر»: بمعنى الشقّ الواسع، وقيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

وقيل: هو كل نور يشع وسط ظلام .. وعليه، فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى صلى الله عليه و آله في ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدي عليه السلام في وسط ظلام العالم (كما جاء في بعض الروايات) «١».

ومن مصاديقه أيضاً، ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بنى امية، وتعريه نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقي أمام الناس.

ويكون من مصاديقه، كل ثورة قامت أو تقوم على الكفر والجهل والظلم على مرّ التاريخ.

وحتى انقذ أول شرارة يقظة في قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

ومما لا شك فيه أنّ المعاني هي توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

والمشهور عن «ليال عشر»: إنهن ليالي أول ذى الحجة، التي تشهد أكبر اجتماع عبادى سياسى لمسلمى العالم من كافة أقطار الأرض.

وقيل: ليالي أول شهر محرم الحرام.

وقيل أيضاً: ليالي آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

والجمع بين كل ما ذكر ممكن جداً.

وذكر في بعض الروايات التي تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو المهدي المنتظر عليه السلام ...

(١) راجع تفسير البرهان ٤/ ٤٥٧ / ١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٩

و «ليال عشر» هم الأئمة العشر قبله عليهم السلام ..؛ و «الشفع»:- في الآية- هما على وفاطمة عليهما السلام. ويأتي القسم الثالث والقسم الرابع: «وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ».

للمفسرين آراء كثيرة فيما يريد ب «الشفع والوتر» حتى ذكر (٣٦) قولاً في ذلك «١». أما سيكون تفسيران من التفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة وقرباً مع مراد الآية، وهما:

الأول: المراد بهما يومى العيد وعرفه، وهذا ما يناسب ذكر الليالى العشر الاولى من شهر ذى الحجة، وفيهما تؤدي أهم فقرات مناسك الحج.

الثانى: أنهما يشيران إلى «الصلاة» (ركعتى الشفع وركعة الوتر فى آخر صلاة الليل)، بقرينه ذكر «الفجر»، وهو وقت السحر ووقت الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل.

وقد ورد هذان التفسيران فى روايات عن أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام.

ونصل هنا إلى القسم الخامس: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَّ».

وكأن الوصف يقول: بأن الليل موجود حسي، له حس وحركة، وهو يخطو فى ظلمته وصولاً لنور النهار.

اختلف المفسرون فى مراد الآية من «الليل»، هل هو مطلق الليل أم ليلة مخصوصة، فإن كانت الألف واللام للتعميم فجميع الليالى، كآية من آيات الله ومظهر من مظاهر الحياة المهمة.

وإن كانت الألف واللام للتعريف، فليلة عيد الأضحى، بلحاظ الآيات السابقة، حيث يتجه حجاج بيت الله الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفة)- المشعر الحرام- ويقضون ليلهم فى ذلك الوادى المقدس، وعند الصبح يتجهون نحو (منى).

(وقد ورد فى هذا روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام) «٢».

فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهو من الضرورات الحياتية فى عالم الوجود. فالليل يكيف حرارة الجو، ويعم على جميع الكائنات الإستقرار والسكون بعد جهد الحركة والتنقل، وفوق هذا وذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء والمناجات مع الله جل وعلا.

(١) نقل ذلك كل من: العلامة الطباطبائي فى تفسير الميزان عن بعض المفسرين فى الجزء ٢٠ / ٢٨٦؛ وفى تفسير روح المعانى عن كتاب التحرير والتحبير ٣٠ / ١٢٠.

(٢) راجع تفسير نور الثقلين ٥ / ٥٧١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٠

وتتجسد تلك العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمس التى أقسم بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيام ذى الحجة ومراسم الحج العظيمة. وفى غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين والتشريع المهمة، والتى تبين جلال وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ثم تأتى الآية التالية لتقول: «هَيْلٌ فِي ذَلِكَ قَسَمَ لِيَذَى حِجْرٍ». «الحجر»: هنا بمعنى العقل، وفى الأصل بمعنى (المنع). اطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِوعُونَ

ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِ الْمُرْصَادِ (١٤) إمهال الظالمين ... والإنتمام: بعد أن تضمنت الآيات الأولى خمسة أقسام حول معاقبة الطغاة، تأتي هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض، وتبين لنا الآيات المباركة ما حلَّ بهم من عاقبة أليمه، محذرة المشركين فى كل عصر ومصر على أن يرعوا ويعودوا إلى رشدهم، لأنهم مهما تمتعوا بقوة وقدره فلن يصلوا لما وصل إليه الأقوام السالفة، وينبغى الإعتاظ بعاقبتهم، وإلا فالهلاك والعذاب الأبدى ولا غير سواه.

وتبتدأ الآيات ب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ».

المراد «بالرؤية» هنا، العلم والمعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهرة بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشيء الكثير وكأنه يراهم بام عينيه.

«عاد»: هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وكانت تعيش فى أرض الأحقاف أو اليمن.

ويضيف القرآن قائلاً: «إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ».

«عماد»: بمعنى العمود تشير إلى عظمة أبنيتهم وعلو قصورهم وما فيها من أعمدة كبيرة.

ولذا تقول الآية التالية: «الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ».

والآية تبين أن المراد ب «إرم» المدينة.

وتذكر الآية التالية جمع آخر من الطغاة السابقين: «وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ».

وصنعوا منها البيوت والقصور.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥١

«تمود»: من أقدم الأقوام، ونبيهم صالح عليه السلام، وكانوا يعيشون فى (وادي القرى) بين المدينة والشام، وكانوا يعيشون حياة مرفهة، ومدنهم عامرة.

«جابوا»: من «الجوبة» - على زنة توبة - وهى الأرض المقطوعة، ثم استعملت فى قطع كل أرض. فمراد الآية: قطع أجزاء الجبال وبناء

البيوت القوية، كما أشارت إلى ذلك الآية (٨٢) من سورة الحجر - حول تمود أنفسهم -: «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ».

«واد»: فى الأصل (وادي)، وهو الموضع الذى يجرى فيه النهر، ومنه سمي المفرج بين الجبلين وادياً، لأن الماء يسيل فيه.

والمعنى الثانى أكثر مناسبة بقرينه ما ورد فى القرآن من آيات تتحدث عن هؤلاء القوم، وما ذكرناه آنفاً يظهر بأنهم كانوا ينحتون بيوتهم فى سفوح الجبال.

وتتحرك الآية التالية لتستعرض قوماً آخرين: «وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ».

أى: ألم تر ما فعل ربك بفرعون الظالم المقتدر؟!

«أوتاد»: جمع (وتد)، وهو ما يثبت به.

ولم وصف فرعون بذي الأوتاد؟ وثمة تفاسير مختلفة:

الأول: لأنه كان يملك جنوداً وكتائباً كثيرة، وكانوا يعيشون فى الخيم المثبتة بالأوتاد.

الثانى: لما كان يستعمل من أساليب تعذيب من يغضب عليهم، حيث غالباً ما كان يدق على أيديهم وأرجلهم بأوتاد ليثبتها على

الأرض، أو يضعهم على خشبة ويثبتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد فى أيديهم وأرجلهم ويتركهم هكذا حتى يموتوا.

وينتقل القرآن لعرض ما كانوا يقومون به من أعمال: «الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ» ..

«فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ».

الفساد الذى يشمل كل أنواع الظلم والإعتداء والانحراف، والذى هو نتيجة طبيعية من نتائج طغيانهم، فكل من يطغى سيؤول أمره إلى

الفساد لا محال.

ويذكر عقابهم الأليم وبعبارة موجزة: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ».

«السوط»: هو الجلد المضفور الذي يُضرب به، وأصل السوط: خلط الشيء بعضه ببعض، وهو هنا كناية عن العذاب، العذاب الذي يخلط لحم الإنسان بدمه فيؤذيه أشد الإيذاء. أما أنسب معاني «السوط» فهو المعروف بين الناس به. «صَبَّ عَلَيْهِمُ»: تستعمل في الأصل لانسكاب الماء، وهنا إشارة إلى شدة واستمرار نزول العذاب.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٢

فعلى إيجاز الآية، لكنّها تشير إلى أنواع العذاب الذي أصابهم، فعاد اصيبوا بريح باردة، كما تقول الآية (٦) من سورة الحاقة: «وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ». واهلك قوم ثمود بصيحة سماوية عظيمة، كما جاء في الآية (٥) من سورة الحاقة أيضاً: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ». والآية (٥٥) من سورة الزخرف تنقل صورة هلاك قوم فرعون: «فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ».

وتحذر الآية التالية كل من سار على خطى اولئك الطواغيت: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ».

«المُرْصَادُ»: من «الرصد» وهو الإستعداد للترقب، وهو في الآية يشير إلى عدم وجود أى ملجأ أو مهرب من رقابة الله وقبضته، فمتى شاء سبحانه أخذ المذنبين بالعقاب والعذاب.

«رَبُّكَ»: إشارة إلى أنّ هذه السنّة الإلهية لم تقف عند حدّ الذين خلوا من الأقسام السالفة، بل هي سارية حتى على الظالمين من امتك يا محمّد صلى الله عليه وآله.. وفي ذلك تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وآله وتطميناً لقلوب المؤمنين، فالوعد الإلهي قد أكد على عدم انفلات الأعداء المعاندين من قبضة القدرة الإلهية أبداً أبداً، وفيه تحذير أيضاً لأولئك الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وآله ويظلمون المؤمنين، تحذير بالكف عن ممارساتهم تلك وإلا سيصيبهم ما أصاب الأكثر منهم قدرة وقوة، وعندها فسوف لن تقوم لهم قائمة إذا ما أتنهم ريح عاصفة أو صيحة مرعبة أو سيل جارف يقطع دابرهم.

في تفسير على بن إبراهيم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية [وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ] [الفجر: ٢٣] سئل رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: بذلك أخبرني الروح الأمين أنّ الله لا إله غيره، إذا أبرز الخلائق وجمع الأولين والآخرين، أتى بجهنم تقاد بألف زمام، مع كل زمام مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد، لها هدة وغضب وزفير، وشهيق، وإنها لتزفر الزفرة، فلولا أنّ الله عزّ وجلّ أخرهم للحساب لأهلك الجميع ثم يخرج منها عنق [أى طائفة منها] فيحيط بالخلائق البر منهم والفاجر فما خلق الله عزّ وجلّ عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً إلا ينادى نفسى نفسى وأنت يا نبي الله تنادى: امتى امتى ثم يوضع عليها الصراط أدق من حدّ السيف، عليها ثلاث قناطر:

أما واحدة فعليها الأمانة والرحم، والثانية فعليها الصلاة، وأما الثالثة فعليها عدل ربّ العالمين لا إله غيره، فيكلفون الممر عليها، فيحبسهم الرحم والأمانة، فإن نجوا منهما حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين عزّ وجلّ، وهو قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٣

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَأَ تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَمَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) موقف الإنسان من تحصيل النعمة وسلبها: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن عقاب الطغاة، وتحذيرهم وإنذارهم، تأتي هذه الآيات لتبين مسألة الإبتلاء والتمحيص وأثرها على الثواب والعقاب الإلهي، وتعتبر مسألة الإبتلاء من المسائل المهمة في حياة الإنسان.

وتشرع الآيات ب: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ».

وكأنه لا يدري بأن الإبتلاء سنّه ربانية تارة يأتي بصورة اليسر والرخاء واخرى بالعسر والضراء.

«وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ».

فيأخذة اليأس، ويظن إن الله قد ابتعد عنه، غافلاً عن سنّه الإبتلاء في عملية التربية الربانية لبنى آدم، والتي تعتبر رمزاً للتكامل الإنساني، فمن خلال نظرة ومعايشة الإنسان للإبتلاء يرسم بيده لوحة عاقبته، فأما النعيم الدائم، وأما العقاب الخالد.

وتأتى الآية (٥١) من سورة فصلت في سياق الآيتين: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بَجانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ». وكذا الآية (٩) من سورة هود: «وَلَيْسَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ».

وتوجه الآيتان التاليتان نظر إلى الإنسان والأعمال التي تؤدى بحق للبعد عن الله، وتوجب عقابه: «كَلَّا». فليس الأمر كما تظنون من أن أموالكم دليل على قربكم من الله، لأن أعمالكم تشهد ببعدهم عنه، «بَلْ لَأَتُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» .. «وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ».

والملاحظ أن الآية لم تخصص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأن الوضع النفسى والعاطفى لليتيم أهم بكثير من مسأله جوعه.

فلا ينبغي لليتيم أن يعيش حالة الإنكسار والذلة بفقدان أبيه، وينبغي الإعتناء به

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٤

وإكرامه لسد الثغرة التي تسببت برحيل أبيه، وقد أولت الأحاديث الشريفة والروايات هذا الجانب أهمية خاصة، وأكدت على ضرورة رعايه وإكرام اليتيم. «تحاضون»: من «الحض» وهو الترغيب، فلا يكفى إطعام المسكين بل يجب على الناس أن يتواصوا ويحث بعضهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنّة التربوية كل المجتمع.

وتعرض الآية التالية ثالث أعمالهم القبيحة: «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا».

مما لا شك فيه أن الإستفادة من الميراث المشروع عمل غير مذموم، ولذا فيمكن أن يكون المذموم فى الآية أحد الامور التالية:

الأول: الجمع بين حق الإنسان وحق الآخرين فى الميراث.

وكانت عادة العرب فى الجاهلية أن يحرموا النساء والأطفال من الإرث لاعتقادهم بأنه نصيب المقاتلين (لأن أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب والإغارة).

الثانى: عدم الإنفاق من الإرث على المحرومين والفقراء من الأقرباء وغيرهم، فإن كنتم تبخلون بهذه الأموال التى وصلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكّدون فى تحصيله، وهذا عيب كبير فيكم.

الثالث: هو أكل إرث اليتامى والتجاوز على حقوق الصغار، وذلك من أقبح الذنوب، لأن فيه استغلال فاحش لحق من لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

والجمع بين هذه التفاسير الثلاث ممكن.

ثم يأتي الذم الرابع: «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا».

فأنتم .. عبدة دنيا، طالبى ثروة، عشاق مال ومتاع .. ومن يكون بهذه الحال فمن الطبيعى أن لا يعتنى فى جمعه للمال، أكان من حلال أم من حرام، ومن الطبيعى أيضاً أن يتجاوز على الحقوق الشرعية المترتبة عليه، بأن لا ينفقها أو ينقص منها .. ومن الطبيعى كذلك إن القلب الذى امتلأ بحب المال والدنيا سوف لا يبقى فيه محل لذكر الله عزّ وجل.

ولذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره لمسأله امتحان الإنسان، يتعرض لأربعة اختبارات يفشل فيها المجرمين.

والملاحظ أن الاختبارات المذكورة إنما تدور حول محور الأموال، للإشارة ما للمال من مطبات مهلكة، ولو تجاوزها الإنسان لسهلت عليه بقية العقبات فى طريقه نحو التكامل والرقى والسمو.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٥

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى

(٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَأُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يوم لا تنفع الذكرى: بعد أن ذمت الآيات السابقة الطغاة وعبداء الدنيا والغاصبين لحقوق الآخرين، تأتي هذه الآيات لتحذره وتهددهم بوجود القيامة والحساب والجزاء. فتقول أولًا: «كَلَّا». فليس الأمر كما تعتقدون بأن لا حساب ولا جزاء، وأن الله قد أعطاكم المال تكريمًا وليس امتحانًا.. «إِذَا ذُكِّتِ الْأَرْضُ ذِكَا ذَكَا».

«الدك»: الأرض اللينة السهلة، ثم استعملت في تسوية الأرض من الإرتفاعات والتعرجات.

فالآية تشير إلى الزلازل والحوادث المرعبة التي تعلن عن نهاية الدنيا وبداية يوم القيامة، حيث تتلاشى الجبال وتستوى الأرض، كما أشارت لذلك الآيات (١٠٥-١٠٧) من سورة طه: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا \* لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا».

وبعد أن تنتهي مرحلة القيامة الأولى (مرحلة الدمار)، تأتي المرحلة الثانية، حيث يعود الناس ثانية للحياة ليحضرُوا في ساحة العدل الإلهي: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا».

نعم، فسيقف الجميع في ذلك المحشر لإجراء الأمر الإلهي وتحقيق العدالة الربانية، وقد بينت لنا الآيات ما لعظمة ذلك اليوم، وكيف أن الإنسان لا سبيل له حينها إلا الرضوخ التام بين قبضة العدل الإلهي. وتقول الآية التالية: «وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى .

وما نستنبطه من الآية، إن جهنم قابلة للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنة للمتقين: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» (١). في تفسير مجمع البيان عن أبي سعيد الخدرى قال: لما نزلت هذه الآية، تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، وعُرف في وجهه، حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله، وانطلق بعضهم إلى

(١) سورة الشعراء / ٩٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٦

على بن أبى طالب عليه السلام فقالوا: يا على! لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي الله صلى الله عليه وآله، فجاء على عليه السلام فاحتضنه من خلفه، وقتل بين عاتقيه، ثم قال: «يا نبي الله بأبى أنت وامى، ما ألمدى حدث اليوم؟ قال: جاء جبرائيل فأقرأنى «وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ». قال فقلت: كيف يجاء بها؟ قال:

يجىء بها سبعون ألف ملك، يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شرده لو تركت لأحرق أهل الجمع، ثم أعرض لجهنم فتقول: ما لى ولك يا محمّد، فقد حرّم الله لحملك علىّ، فلا يبقى أحد إلا قال: نفسى نفسى، وإنّ محمّدًا يقول ربّ أمّتى أمّتى». نعم، فحينما يرى المذنب كل تلك الحوادث تهتز فرائضه ويتزلزل رعبًا، فيستيقظ من غفلته ويعيش حالة الهَمّ والغَمّ، ويتحسر على كل لحظة مرّت من حياته بعد ما يرى ما قدّم يده، ولكن هل للحسرة حينها من فائدة؟! وعندنا ... يصرح بملء كيانه: «يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي».

وتشير الآية التالية إلى شدة العذاب الإلهي: «فَيَوْمَئِذٍ لَأُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ».

نعم، فمن استخدم فى دنياه كل قدرته فى ارتكاب أسوء الجرائم والذنوب، فلا يجنى فى آخرته إلا أشد العذاب ... فيما سينعم المحسنون والصالحون فى أحسن الثواب، ويخلدون بحال ما لا عين رأت ولا اذن سمعت.

وتكمل الآية التالية تصوير شدة العذاب: «وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ».

فوثاقه ليس كوثاق الآخرين، وعذابه كذلك، كل ذلك بما كسبت يده حينما أوثق المظلومين فى الدنيا بأشدّ الوثاق، ومارس معهم التعذيب بكل وحشية، متجرد عن كل ما وهبه الله من إنسانية.

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) الشرف العظيم: وتنتقل السورة في آخر مطافها إلى تلك النفوس المطمئنة ثقة بالله وبهدف الخلق، بالرغم من معاشتها في خضم صحب الحياة الدنيا، فتخاطبهم بكل لطف ولين ومحبة، حيث تقول: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» .. «ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً» .. «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي» .. «وَادْخُلِي جَنَّتِي».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٧

فهل ثمة أجمل وألطف من هذا التعبير ... تعبير يحكى دعوة الله سبحانه وتعالى لتلك النفوس المؤمنة، المخلصة، المحبة والواثقة بوعده جل شأنه.

ويراد بالنفس هنا: الروح الإنسانية.

«المطمئنة»: إشارة إلى الإطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلالة الآية (٢٨) من سورة الرعد: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

ويعود اطمئنان النفس، لإطمئنانها بالوعود الإلهية من جهة، ولإطمئنانها لما اختارت من طريق ..

وهي مطمئنة في الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، ومطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضاً.

أما (الرجوع إلى الله)، فهو رجوع إلى جواره وقربه بمعناه الروحي المعنوي، وليس بمعناه المكاني والجسماني.

«راضية»: لما ترى من تحقق الوعود الإلهية بالثواب والنعيم بأكثر مما كانت تتصور.

«مرضية»: لرضا الله تبارك وتعالى عنها.

في الكافي عن سدير الصيرفي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك يا بن رسول الله! هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: «لا- والله، إنه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا ولي الله، لا تجزع، فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وأنا أبر بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينك فانظر، قال: ويمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفاقك، قال: فيفتح عينه فينظر، فينادى روحه مناد من قبل رب العزة فيقول: "يا أيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (إلى محمداً وأهل بيته) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً (بالولايه) مرضيةً (بالثواب) فادخلي في عبادي (يعني محمداً وأهل بيته) وادخلي جنتي. "فما شيء أحب إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي».

«نهاية تفسير سورة الفجر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٩

## ٩٠. سورة البلد

محتوى السورة: هذه السورة المباركة على قصرها تحمل حقائق كبرى:

١- في بداية هذه السورة، بعد قسم ذي محتوى عميق، تُقرّر الآية أن حياة الإنسان في هذه الدنيا مقرونة بمشاكل وأتاع؛ وبذلك تُعدّ الإنسان من جهة ليصارع العقبات، ومن جهة أخرى تبعده عن طلب الراحة المطلقة في هذا العالم.

٢- ثم تشير إلى أهم النعم الإلهية، ثم ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

٣- وفي آخر هذه السورة تقسيم الناس إلى: «أصحاب الميمنة» و «أصحاب المشئمة».

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان ابي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأها أعطاه الله الأمن من غضبه يوم القيامة».

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالْإِدِ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ



(٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٠

فى مواضع كثيرة يبدأ القرآن بالقسم عند تعرّضه للحقائق الهامة ... بالقسم الذى يؤدى بدوره إلى حركة فى الفكر والعقل .. بالقسم المرتبط إرتباطاً خاصاً بالموضوع المطروح.

وفى هذا الموضوع تبدأ الآية بالقسم: قسماً بهذه المدينة المقدسة مكة: «لَأُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ». لتقرر حقيقة من حقائق حياة الإنسان هى إن هذه الحياة مقرونة بالآلام والأسقام.

«وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ».

أرض مكة مشرفة ومعظمة، لأن فيها أول مركز للتوحيد ولعبادة الله سبحانه، وكان هذا المركز مطاف أنبياء الله العظام ... ولذلك أقسم الله بها ... ولكن السورة تشير إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفاً وكرامة: «وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» ... فالبلد استحق أن يقسم به الله لوجودك أنت أيها النبي الكريم فيه.

«وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ».

إن الوالد إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح.

ونعلم أن إبراهيم وإبنه رفعا القواعد من البيت، وبذلك وضعوا حجر أساس البلد الأمين.

والعرب فى الجاهلية كانوا يجلبون إبراهيم وإبنه ويفخرون فى الإنتساب إليهما.

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ».

إن «كبد» ألم يصيب الكبد، ثم اطلق على كل ألم ومشقة.

هذه طبيعته الحياة، ومن توقع منها غير ذلك خيبت ظنه. يقول الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريد هاصفواً من الأقدار والأقدار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار

وهذه الحالة تشمل كل أبناء البشر دونما استثناء، بمن فيهم أنبياء الله وأوليائه الصالحون.

ثم إذا كان هناك استثناءات مكانية وزمانية محدودة من هذه الحالة العامة فلا ينتقض القانون العام للحياة: «أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ عَلَيْهِ أَحَدٌ».

فما يحيط بالإنسان من مكابدة يدل على ضعف قدرته، هذه الحقيقة ترد على اولئك الذين يمتطون مركب الغرور، ويخالون أنهم فى مأمن من العقاب الإلهي.

«يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا».

إشارة إلى قول الذين يُطلب منهم أن ينفقوا أموالهم فى الخيرات، فيأبون ويقولون بغرور:

إننا أنفقنا فى هذا السبيل كثيراً من الأموال، بينما لم ينفق هؤلاء شيئاً، وإن أعطوا لأحد شيئاً فللرياء ولتحقيق هدف شخصي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦١

وقيل إنها نزلت فى نفر أنفقوا الأموال الطائلة فى معاداة الرسول والرسالة، وتباهوا بذلك.

والجمع بين التفاسير المذكورة جائز، وإن كان التفسير الأول أكثر انسجاماً مع سياق الآيات التالية.

والفعل «أهلكت» يوحى إبادة الأموال وعدم الحصول على عائد منها.

و «لبد»: تعنى الشيء المتراكم، وهنا تعنى المال الوفير.

«أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ». إنه غافل عن هذه الحقيقة ... حقيقة اطلاع البارى تعالى على كل الامور وعلى ظواهر الأعمال، بل على ما

يختلج في أعماق النفس والقلب، وما يدور في الخلد والنية ... عليم بالطريق غير المشروع للحصول على هذه الأموال، وعلیم بأهداف الرياء والذاتية في إنفاق هذه الأموال.

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) نعمة العين واللسان والهداية: استتباعاً للآيات السابقة وما دار فيها من حديث عن الغرور والغفلة في حالات الطاعين، تذكر هذه الآيات الكريمة جانباً من أهم ما أنعم الله به على الإنسان من نعم مادية ومعنوية ... كى تكسر فيه روح الغرور، وتدفعه إلى التفكير في خالق هذه النعم، وتحرك روح الشكر في نفس الكائن البشرى ومن ثم تسوقه إلى معرفة الخالق: «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

ويكفى أن نذكر في النعم السابقة أن:

«العين»: أهم وسيلة لإرتباط الإنسان بالعالم الخارجى، عجائب العين تدفع الإنسان حقاً إلى الخضوع أمام خالقه، الطبقات السبع للعين وهى المسماه بالقرنية، والمشميية، والعنبيية، والجلدية، والزلاية، والزجاجية، والشبكية، لكل منها تركيب عجيب دقيق مدهش، روعيت فيها القوانين الفزيائية والكيميائية المتعلقة بالنور وانعكاساته على أدق وجه، حتى إن أعقد أجهزة التصوير تعتبر تافهه مقارنة بهذا العضو.

لو لم يكن فى الكون سوى الإنسان، ولم يكن من وجود الإنسان سوى العين، لكانت مطالعة هذا العضو كافيه وحدها لمعرفة علم الله الواسع وقدرته الجبارة جلّ وعلا.

و «اللسان»: فهو أهم وسائل إرتباط الإنسان بغيره من أبناء جلدته، ونقل المعلومات وتبادلها بين أبناء البشر فى الجيل الواحد وفى الأجيال المتعاقبة، وبدون هذه الوسيلة الهامة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٢

من وسائل الإرتباط ما كان بإمكان الإنسان اطلاقاً أن يرتقى إلى ما ارتقى إليه فى العلم والمعرفة. و «الشفتان»: تلعبان أولاً دوراً هاماً فى النطق، إذ أنّ الشفتين مخرج لكثير من الحروف، والشفتان تقومان بدور أيضاً فى هضم الطعام والمحافظة على رطوبة الفم، وشرب الماء، ترى لو انعدمت الشفتان فماذا كان وضع الإنسان فى أكله وشربه ونطقه والمحافظة على ماء فمه وحتى جمال وجهه وشكله؟! وحقاً ما قاله أمير المؤمنين على عليه السلام فى نهج البلاغة: «اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من خرم!».

عبارة «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» إضافة لما لها من مدلول على مسألة الإختيار وحرية الإنسان، تدلّ أيضاً على ما يتطلبه طريق الخير من جهد وعناء، لأنّ «النجد» مكان مرتفع وتسلق المكان المرتفع يتطلب كدّاً وسعيّاً وجهداً، غير أنّ طريق الشرّ له مشاكله ومصاعبه أيضاً، فأولى بالإنسان أن يبذل الجهد والسعى على طريق الخير.

مع ذلك، فانتخاب الطريق بيد الإنسان ... الإنسان هو الذى يتحكم فى عينه ولسانه فىم يستعملها ... فى الحلال أو الحرام، وهو الذى يختار إحدى الجادتين «الخير» أو «الشر».

وفى تفسير مجمع البيان عن أبى حازم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا بَنَى آدَمَ! إِنَّ نَازِعَكَ لِسَانَكَ فِيمَا حَرَمْتَ عَلَيْكَ، فَقَدْ أَعْتَمَكَ عَلَيْهِ بِطَبَقَتَيْنِ، فَأُطْبِقْ. وَإِنْ نَازِعَكَ بِصِرْكَ إِلَى بَعْضِ مَا حَرَمْتَ عَلَيْكَ، فَقَدْ أَعْتَمَكَ عَلَيْهِ بِطَبَقَتَيْنِ فَأُطْبِقْ...».

وهذه الهداية يحصل عليها الإنسان من ثلاثة طرق: من الإدراكات العقلية والإستدلال، ومن طريق الفطرة والوجدان دون الحاجة إلى الإستدلال، ومن طريق الوحي وتعاليم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وكل ما يحتاجه البشر ليطوى مسيرة تكامله قد بينه الله سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو فى كثير من الحالات بالطرق الثلاثة معاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٣

العقبة: بعد ذكر النعم الكبيرة في الآيات السابقة، تنحى هذه الآيات باللائمة على اولئك الذين يكفرون بهذه النعم، ولا يسخرونها على طريق النجاة، يقول سبحانه: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ».

وما المقصود من العقبة؟ الآيات التالية تفسرها: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ \* فَكُّ رَقَبَةٍ \* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ \* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ \* أَوْ مَشِيئًا ذَا مَقْرَبَةٍ \*».

من هنا فالعقبة التي لم يتهيا الكافرون لاجتيازها هي: فك رقبه عبد وتحريره من الرق، أو إطعام في يوم الضائقة الاقتصادية والمجاعة، يتيمًا ذا قربي أو فقيرًا قد لصق بالتراب من شدة فقره، العقبة هي مجموعة أعمال الخير التي تتجه لخدمة الناس والأخذ بيد الضعفاء والمعوزين، كما إنها أيضاً مجموعة من المعتقدات الصحيحة الخالصة تشير إليها الآيات التالية. نعم، إن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير لما لأغلب الناس من التصاق بالمال والثروة.

١- «اقتحم»: من «الإقتحام» وهو الدخول في عمل صعب مخيف (مفردات الراغب)، أو الولوج والعبور بشدة ومشقة (تفسير الكشاف) وهذا يعني أن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير، كما أنه تأكيد على ما ورد في أول السورة بشأن ما يكابد الإنسان في حياته: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ».

٢- «المسغبة»: من «سغب» على وزن (غضب) وهو الجوع؛ و «يوم ذي مسغبة» أي وقت المجاعة، والجياح موجودون في المجتمع عادة، والآية إنما تؤكد على إطعامهم في زمان المجاعة لأهمية الموضوع، وإلا فإن اشباع الجياح هو دائماً من أفضل الأعمال.

٣- «المقربة»: بمعنى القرابة والرحم، والتأكيد على الأقرباء من اليتامى في الآية إنما هو لمراعاة الاولوية وللتأكيد على تصاعد المسؤولية تجاههم، لا لحصر الإطعام بهذا القسم من اليتامى.

٤- «المتربة»: مصدر ميمي من «ترب» وساكن التراب من شدة فقره هو ذو المتربة، والتأكيد على هذا النمط من المساكين لأولويتهم أيضاً.

وفي الكافي عن معمر بن خلاد قال: كان أبو الحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أتى بصفحة فتوضع بقرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شيء شيئاً فيضع في تلك الصفحة ثم يأمر بها للمساكين، ثم يتلو هذه الآية: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ». ثم يقول: «علم الله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٤

عز وجل أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة».

ثم تواصل الآية التالية بيان طبيعة هذه العقبة، وسبل اجتيازها فتقول: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ».

فالقادرون على اجتياز هذه العقبة متحلون بالإيمان ومتواصون بالصبر والإستقامة على الطريق، ومتواصون بالرحمة والعطف.

وبهذا السياق القرآني لبيان طبيعة العقبة نفهم أن القادرين على اجتيازها هم المتحلون بالإيمان والخلق الكريم كالتواصي بالصبر والرحمة، وذوو أعمال البرّ والإحسان كتحرير العبيد وإطعام الأيتام والمساكين، إنهم بعبارة اولئك الذين يلجون ميادين الإيمان والأخلاق والعمل ويخرجون منها ظافرين منتصرين.

وفي خاتمة هذه الأوصاف تذكر السورة مكانة المتحلين بها فتقول: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ».

ثم تعرض الآية لتصوير حالة الفاشلين في اجتياز «العقبة» فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ».

و «المشئمة»: من «الشؤم» تقابل «الميمنة» من «اليمن». أي إن هؤلاء الكافرين مشؤومون لا-يمن فيهم ولا-بركة، بل هم عامل شقاء لأنفسهم ولمجتمعهم ثم إن علامة شؤم الفرد يوم القيامة تسلمه صحيفة أعماله بيده اليسرى، ومن هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن «المشئمة» هي اليسار مقابل اليمين. أي إن الذين كفروا بآيات الله الذين يتسلمون صحائف أعمالهم بيدهم اليسرى خاصة وأن مادة «شؤم» جاءت في اللغة بمعنى اليسار أيضاً.

وفى الآية الأخيرة من السورة إشارة قصيرة ذات دلالة عميقة إلى جزء هذه الفئة الأخيرة: «عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ».

و «الإيصاد»: إحكام الغلق، وواضح أن الإنسان - حين يكون في غرفة حارة الجو - يتوق إلى فتح أبوابها، ليهب عليه نسيم يطفئ الهواء، فما بالك إذا كان في محرقة جهنم والأبواب كلها موصدة عليه؟!

«نهاية تفسير سورة البلد»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٥

## ٩١. سورة الشمس

محتوى السورة: هذه السورة هي في الواقع سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب من الأدران، ومعانيها تدور حول هذا الهدف، وفي مقدمتها قسم بأحد عشر مظهراً من مظاهر الخليفة وبذات البارئ سبحانه، من أجل التأكيد على أن فلاح الإنسان يتوقف على تركية نفسه، والسورة فيها من القسم ما لم يجتمع في سورة أخرى.

وفي المقطع الأخير من السورة ذكر لقوم «ثمود» باعتبارهم نموذجاً من أقوام طغت وتمردت، وانحدرت - بسبب ترك تركية نفسها - إلى هاوية الشقاء الأبدى، والعقاب الإلهي الشديد.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر».

ومن المؤكد أن هذه الفضيلة الكبرى لا ينالها إلا من استوعب محتواها بكل وجوده، ووضع مهمة تهذيب النفس نصب عينيه دائماً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٦

و الشمسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) أكبر عدد من القسم القرآني تتضمنه هذه السورة، هو في حساب «أحد عشر»، وفي حساب آخر «سبعة» أقسام ... ويبين أن السورة تتعرض لموضوع خطير هام .. موضوع عظيم كعظمة السماء والأرض والشمس والقمر ... موضوع حياتي مصري.

لنبدأ أولاً بشرح ما جاء في السورة من قسم، لتعرض بعد ذلك إلى موضوع الآية الأولى تقول: «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا».

ولقد ذكرنا آنفاً أن القسم في القرآن يستهدف مقصدين:

الأول: بيان أهميته ما جاء القسم من أجله.

والثاني: أهمية ما أقسم به القرآن، لأن القسم عادة يكون بالمهم من الأمور.

«الشمس»: ذات دور هام وبنّاء جداً في الموجودات الحية على ظهر البسيطة فهي إضافة إلى كونها مصدراً للنور والحرارة - وهما عاملان أساسيان في حياة الإنسان - تعتبر مصدراً لغيرهما من المظاهر الحياتية، حركة الرياح، وهطول الأمطار، ونمو النباتات، وجريان الأنهار والشلالات، بل حتى نشوء مصادر الطاقة مثل النفط والفحم الحجري ... كل واحد منها يرتبط - بنظرة دقيقة - بنور الشمس.

ولو قدر لهذا المصباح الحياتي أن ينطفئ يوماً لساد الظلام والسكوت والموت في كل مكان.

«الضحى»: في الأصل انتشار نور الشمس، وهذا ما يحدث حين يرتفع قرص الشمس عن الأفق ويغمر النور كل مكان، ثم يطلق على

تلك البرهة من اليوم اسم «الضحى».

والقسم الثالث بالقمر: «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا». وهذا التعبير إشارة إلى القمر حين يكتمل ويكون بديراً كاملاً في ليلة الرابع عشر من كل شهر، ففي هذه الليلة يطل القمر من أفق المشرق مترامناً مع غروب الشمس. فيسطع بجماله النير ويهيمن على جو السماء، ولجماله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٧

وبهائه في هذه الليلة أكثر من أية ليلة أخرى جاء القسم به في الآية الكريمة.

والقسم الرابع بالنهار: «وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا» و «التجلية»: هي الإظهار والإبراز.

والقسم بهذه الظاهرة السماوية الهامة، يبين أهميتها الكبرى في حياة البشر وفي جميع الأحياء، فالنهار رمز الحركة والحياة، وكل الفعاليات والنشاطات ومساعي الحياة تتم عادة في ضوء النهار.

والقسم الخامس بالليل: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا».

بالليل بكل ما فيه من بركة وعطاء... إذ هو يخفف من حرارة شمس النهار، ثم هو مبعث راحة جميع الموجودات الحية واستقرارها.

وفي القسمين السادس والسابع تحلق بنا الآية إلى السماوات وخالق السماوات:

«وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا».

أصل خلقه السماوات بما فيها من عظمة مدهشة من أعظم عجائب الخليفة.

وبناء كل هذه الكواكب والأجرام السماوية وما يحكمها من أنظمة أعجوبة أخرى... وأهم من كل ذلك... خالق هذه السماوات.

القسم الثامن والتاسع بالأرض وخالق الأرض: «وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا». بالأرض التي تحتضن حياة الإنسان وجميع الموجودات الحية... الأرض بجميع عجائبها: بجبالها، وبحارها، وسهولها، ووديانها، وغاباتها، وعيونها، وأنهارها، ومناجمها، وذخائرها... وبكل ما فيها من

ظواهر يكفى كل واحد منها لأن يكون آية من آيات الله ودلالة على عظمته.

وأعظم من الأرض وأسمى منها خالقها الذي «طحاها» و «الطحو» بمعنى البسط والفرش، وبمعنى الذهاب بالشئ وإبعاده أيضاً. وهنا

بمعنى «البسط»، لأن الأرض كانت مغمورة بالماء، ثم غاض الماء في منخفضات الأرض، وبرزت اليابسة، وانبسطة، ويعبر عن ذلك أيضاً بدحو الأرض.

وأخيراً القسم الحادي عشر والقسم الثاني عشر بالنفس الإنسانية وبارئها: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيَاهَا».

قيل إن المراد بالنفس هنا روح الإنسان، وقيل إنه جسمه وروحه معاً.

ولو كان المراد من النفس الروح فقط، فإن «سواها» تعني إذن نظمها وعدل قواها ابتداء من الحواس الظاهرة وحتى قوة الإدراك، والذاكرة، والانتقال، والتخيل، والابتكار،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٨

والعشق، والإرادة، والعزم ونظائرها من الظواهر المندرجة في إطار «علم النفس». ولو كان المراد من النفس الروح والجسم معاً، فالتسوية تشمل أيضاً ما في البدن من أنظمة وأجهزة يدرسها علم التشريح وعلم الفسلجة.

وفي القرآن الكريم وردت «نفس» بكلا المعنيين.

والأنسب هنا أن يكون معنى النفس هنا شاملاً للمعنيين لأن قدرة الله سبحانه تتجلى في الإثنين معاً.

الآية التالية تناول أهم ظاهرة في الخليفة وتقول: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا».

إن الله سبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص والعقل، والضمير اليقظ بحيث يستطيع أن يميز بين «الفجور» و «التقوى» عن طريق العقل والفطرة.

نعم، حين اكتملت خلقه الإنسان وتحقق وجوده، علمه الله سبحانه الواجبات والمحظورات. وبذلك أصبح كائناً مزيجاً في خلقته من «الحمأ المسنون» و «نفخه من روح الله»، ومزيجاً في تعليمه من «الفجور» و «التقوى». أصبح بالتالي كائناً يستطيع أن يتسلق سلم الكمال الإنساني ليفوق الملائكة، ومن الممكن أن ينحط لينحدر عن مستوى الأنعام ويبلغ مرحلة «بَلْ هُمْ أَضَلُّ». وهذا يرتبط بالمسير الذي يختاره الإنسان عن إرادته.

«ألهمها»: من الإلهام، وهو في الأصل بمعنى البلع والشرب، ثم استعمل في إلقاء الشئ في روع الإنسان من قبل الله تعالى.

«الفجور»: من مادة «فجر» وتعنى الشق الواسع؛ ولما كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنها سميت بالفجور. المقصود بالفجور فى الآيه طبعاً الأسباب والعوامل والطرق المؤدية إلى الذنوب.

و «التقوى»: من «الوقاية» وهى الحفظ، وتعنى أن يصون الإنسان نفسه من القبائح والآثام والسيئات والذنوب. بعد هذه الأقسام المهمة المتتالية يخلص السياق القرآنى إلى النتيجة فيقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا».

و «التركية»: تعنى النمو، و «الزكاة» فى الأصل بمعنى النمو والبركة؛ ثم استعملت الكلمة بمعنى التطهير، وقد يعود ذلك إلى أن التطهير من الآثام يؤدى إلى النمو والبركة، والآيه الكريمة تحتمل المعنيين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٩

نعم، الفلاح لمن ربى نفسه ونمّاها، وطهرها من التلوث بالخصائل الشيطانية وبالذنوب والكفر والعصيان. والمسألة الأساسية فى حياة الإنسان هى هذه «التركية»، فإن حصلت سعد الإنسان وإلا شقى وكان من البائسين. ثم يعرج السياق القرآنى على المجموعة المخالفة فيقول: «وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا».

«خاب»: من الخيبة، وهى فوت الطلب، كما يقول الراغب فى المفردات والحرمان والخسران. «دسّها»: من مادة «دس» وهى فى الأصل بمعنى إدخال الشيء قسراً.

وبهذا المعيار يتم تمييز الفائزين عن الفاشلين فى ساحة الحياة: «تركية النفس وتنميتها بروح التقوى وطاعة الله» أو «تلوثها بأنواع المعاصى والذنوب».

فى المجمع: وجاءت الرواية عن سعيد بن أبى هلال قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآيه «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا» وقف ثم قال: «اللهم آت نفسى تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكّها وأنت خير من زكّاها».

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) عاقبه مرة للطغاة: عقب التحذير الذى اطلقته الآيه السابقة بشأن عاقبه من ألقى بنفسه فى أحوال العصيان، قدمت هذه الآيات مصداقاً تاريخياً واضحاً لهذه السنّة الإلهية، وتحدثت عن مصير قوم «ثمود» بعبارة قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق.

«الطغوى و «الطغيان» بمعنى واحد وهو تجاوز الحد، وفى الآيه تجاوز الحدود الإلهية والعصيان أمام أوامره.

«قوم ثمود» من أقدم الأقوام التى سكنت منطقة جليلية بين «الحجاز» و «الشام». كانت لهم حياة رغدة مرفهة، وأرض خصبة، وقصور فخمة، غير أنهم لم يؤدوا شكر هذه النعم، بل طغوا وكذبوا نبيهم صالحاً، واستهزأوا بآيات الله، فكان عاقبه أمرهم أن أيبدوا بصاعقة سماوية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٠

ثم تستعرض السورة مقطعاً بارزاً من طغيان القوم وتقول: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا». و «أشقى» ثمود، هو الذى عقر الناقة التى ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم.

وفى المجمع: عن عثمان بن صهيب عن أبىه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى بن أبى طالب عليه السلام: «من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة. قال: صدقت. فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول الله. قال: الذى يضربك على هذه- وأشار إلى يافوخه».

وثمة تشابه بين قاتل ناقة صالح، قدار بن سالف، وقاتل أمير المؤمنين عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم المرادى؛ لم يكن الإثنان يحملان عداءً شخصياً، بل كان هدف الإثنين اطفاء نور الله والقضاء على معجزة وآية من آيات الله.

فى الآيه التالية تفاصيل أكثر عن طغيان قوم ثمود: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا».

المقصود من «رسول الله» نبي قوم ثمود صالح عليه السلام؛ وعبارة «ناقة الله» إشارة إلى أن هذه الناقة لم تكن عادية، بل كانت معجزة، تثبت صدق نبوة صالح، ومن خصائصها- كما في الرواية المشهورة- أنها خرجت من قلب صخرة في جبل لتكون حجة على المنكرين.

الآية التالية تقول: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا». و «العقر»: - على وزن كفر- معناه الأساس والأصل والجذر؛ و «عقر الناقة» قطع أساسها وإهلاكها. ويلاحظ أن قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية بأشفاها، بينما نسب العقر إلى كل طغاة قوم ثمود: «فَعَقَرُوهَا»، وهذا يعنى أن كل هؤلاء القوم كانوا مشاركين في الجريمة.

وعقب هذا التأكيد أنزل الله عليهم العقاب فلم يترك لهم أثراً: «فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّيْهَا».

«دمدم»: تعنى أهلك، وتأتى أحياناً بمعنى عذب وعاقب وأحياناً بمعنى سحق واستأصل، وبمعنى سخط أو أحاط.

و «سواها»: من التسوية وهى تسوية الأبنية بالأرض نتيجة صيحة عظيمة وصاعقة وزلزلة، أو بمعنى إنهاء حالة هؤلاء القوم، أو تسويتهم جميعاً فى العقاب والعذاب، حتى لم يسلم أحد منهم.

ومن الممكن أيضاً الجمع بين هذه المعانى.

وتختتم السورة الحديث عن هؤلاء القوم بتحذير قارع لكل الذين يتجهون فى نفس هذه

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧١

المسيرة المنحرفة فتقول: «وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا».

كثيرون من الحكام قادرين على انزال العقاب لكنهم يخشون من تبعات عملهم، ويخافون ردود الفعل التى قد تحدث نتيجة فعلهم، ولذلك يكفون عن المعاقبة. قدرتهم- إذن- محفوفة بالضعف وعلمهم ممزوج بالجهل. لا يعلمون مدى قدرتهم على مواجهة التبعات. بينما الله سبحانه قادر متعال، علمه محيط بكل الامور وعواقبها، وقدرته على مواجهة النتائج لا يشوبها ضعف، فهو سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها، ولذلك فإن مشيئته فى العقاب نافذة حازمة.

«نهاية تفسير سورة الشمس»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٣

## ٩٢. سورة الليل

محتوى السورة: بعد القسم بثلاث ظواهر فى بداية السورة يأتى تقسيم الناس إلى منفقين متقين، وبخلاء منكرين، وتذكر عاقبة كل مجموعة؛ اليسر والسعادة والهناء للمجموعة الاولى، والعسر والظنك والشقاء للمجموعة الثانية.

وفى مقطع آخر من السورة إشارة إلى أن الهداية من الله سبحانه لعباده هى انذارهم من النار يوم القيامة.

ثم تذكر السورة فى نهايتها من يدخل هذه النار ومن ينجو منها، مع ذكر أوصاف الفريقين.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر».

و اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى (٥) وَ صَدَقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِّيْسُرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى (٨) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِّيْسُرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَ مَيَّا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٤

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان روى عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذى عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر، فربما سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم، فإن وجدها في فئ أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه. فشكا ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه وآله، وأخبره بما يلقي من صاحب النخلة. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «إذهب». ولقى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب النخلة فقال: «تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة». فقال له الرجل: إن لي نخلاً كثيراً، وما فيه نخلة أعجب إليّ تمره منها. قال: ثم ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله صلى الله عليه وآله يا رسول الله! أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: «نعم». فذهب الرجل ولقى صاحب النخلة فساومها منه فقال له: أشعرت أن محمداً أعطاني بها نخلة في الجنة فقلت له: يعجبني تمرتها وإن لي نخلاً كثيراً فما فيه نخلة أعجب إليّ تمره منها. فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أعطى ما لا أظنه أعطى. قال: فما مُناك؟ قال: أربعون نخلة. فقال الرجل: جئت بعظيم، تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة؟! ثم سكت عنه. فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة. فقال له:

أشهد إن كنت صادقاً، فمرّ إلى اناس فدعاهم، فأشهد له بأربعين نخلة، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله! إن النخلة قد صارت في ملكي، فهي لك. فذهب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى صاحب الدار، فقال له: «النخلة لك ولعيالك». فأنزل الله تعالى: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى السَّوْدَةَ وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: اسْمُ الرَّجُلِ (أَبُو الدَّحْدَاحِ).

التفسير

التقوى والإمداد الإلهي: هذه السورة المباركة أيضاً بتبديء بثلاثه أقسام تثير التفكير في المخلوقات وفي الخالق. تقول: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى .

فالقسم الأول بالليل حين يغطى ... يغطى بظلامه نصف الكرة الأرضية ... أو يغطى قرص الشمس، وهذا القسم تأكيد على أهمية الليل ودوره الفاعل في حياة الأفراد، من تعديله لحرارة الشمس، ونشره السكينة على كل الموجودات الحية، وتوفير الجو لعبادة المتجهدين ومناجاة الصالحين.

ويستمر السياق القرآني في القسم بالقول: «وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى .

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٥

والنهار يبدأ من اللحظة التي يطلع فيها الفجر، فيشق قلب ظلام الليل، ثم يمتد ليملاء كل السماء، ويغمر كل شيء بالنور. ثم القسم الأخير في السورة بالخالق المتعال: «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .

فوجود الجنسين في عالم «الإنسان» و «الحيوان» و «النبات» ... والمراحل التي تمرّ بها النطفة منذ انعقادها حتى الولادة ... والخصائص التي يمتاز بها كل جنس متناسبة مع دوره ونشاطه ... والأسرار العميقة المخبوءة في مفهوم الجنسية ... كلها من دلالات وآيات عالم الخليفة الكبير ... وبها يمكن الوقوف على عظمة الخالق.

ثم يأتي الهدف النهائي من كل هذه الأقسام بقوله سبحانه: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى .

اتجاهات سعيتكم مختلفة، ونتائجها مختلفة أيضاً، هذا يعني أن أفراد البشر لا يستقرون في حياتهم على حال ... بل هم في سعي مستمر ... وفي استثمار دائم للطاقة التي أودعها الله في نفوسهم ... فانظر أيها الإنسان في أي مسير تبذل هذه الطاقة التي هي رأس مال وجودك ...

في أي اتجاه ... وفي سبيل أية غاية؟!!

حذار من تبديد كل هذه الطاقات في سبيل نتيجة تافهة ... وحذار من بيعها بثمن بخس!

«شتى : جمع «شتيت» من مادة «شتت» أي فرّق الجمع، وهنا بمعنى التفرق والتشعب في المساعي من حيث الكيفية والهدف والنتيجة.



ثم يأتي تقسيم الناس على قسمين، ويبيّن خصائص كل قسم. يقول سبحانه: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنِيْرُهُ لِيُسْرَىٰ . وَأَسَاسًا أَنْ الْإِيْمَانَ بِالْمَعَادِ وَبِثَوَابِ الْآخِرَةِ يَهْوَنُ الْمَشَاكِلَ وَالصَّعَابَ، وَيَجْعَلُ بَدَلَ الْمَالِ بِلِ الْنَفْسِ مَيْسُورًا، وَيَخْلُقُ الدَّافِعَ نَحْوَ طَلَبِ الشَّهَادَةِ فِي مِيَادِينَ الْجِهَادِ عَنِ رَغْبَةِ مَقْرُونِهِ بِاحْسَاسٍ بِاللَّذَّةِ وَالنَّشْوَةِ. وَفِي الْجِهَةِ الْمَقَابِلَةِ تَقِفُ الْمَجْمُوعَةُ الْآخَرَىٰ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا الْآيَاتُ التَّالِيَةُ: «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنِيْرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ .

«من بخل» في هذه المجموعة مقابل «من أعطى» في تلك.

«استغنى: أي طلب الغنى، قد تكون إشارة إلى ذريعتهم لبخلهم، ووسيلتهم لإكتناز المال.

وهؤلاء البخلاء الخاؤون من الإيمان يشقّ عليهم فعل الخير وخاصة الإنفاق، بينما هو للمجموعة الأولى مقرون باللذة والإنشراح.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٦

ثم يأتي التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآية: «وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى .

لا يستطيع أن يسطح ماله من هذه الدنيا، ولا يستطيع هذا المال - إذا اصطحبه - أن يقيه من السقوط في نار جهنم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَكَسُوفَ يَرْزُقَىٰ (٢١) عقب الآيات الكريمة السابقة التي قسمت الناس على مجموعتين: مؤمنة سخيّة، وعديمة الإيمان بخيلة، وبيّنت مصير كل منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أنّ على الله الهداية لا-الإجبار والإلزام، ويبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار اللازم، وأنّ انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه ولا حاجة لله سبحانه بعمل خير يقدمه الفرد. يقول تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . الهدى عن طريق التكوين (الفطرة والعقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب والسنة) ... فقد بينا ما يلزم وأدينا الأمر حقّه. وبعد: «وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ . فلا حاجة بنا لإيمانكم وطاعتكم، ولا طاعتكم تجدينا نفعاً ولا معصيتكم تصيبنا ضرراً، وكل منهج الهداية لصالحكم أنفسكم.

الإذار والتحذير من سبل الهداية، ولذلك قال سبحانه: «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ .

«تلظى: من اللظى، وهو الشعلة المتوهجة الخالصة والشعلة الخالصة من الدخان ذات حرارة أكبر، وتطلق «لظى» أحياناً على جهنم.

ثم تشير الآية إلى المجموعة التي ترد هذه النار المتلظية الحارقة وتقول: «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ».

وفي وصف الأشقى تقول الآية: «الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

معيار الشقاء والسعادة- إذن- هو الكفر والإيمان وما ينبثق عنهما من موقف عملي، إنّه لشقى حقاً هذا الذي يعرض عن كل معالم

الهداية وعن كل الإمكانيات المتاحة للإيمان والتقوى ... بل إنّه أشقى الناس.

ثم تتحدث السورة عن مجموعة قد جُنبت النار وأبعدت عنها، تقول الآية: «وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٧

ومن هو هذا الأتقى؟ تقول الآية الكريمة: «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ .

وعبارة «يتزكى تشير إلى قصد القربة، وخلوص النية، سواء أريد منها معنى النمو الروحي والمعنوي، أم قصد بها تطهير الأموال، لأنّ

التركية جاءت بمعنى «التنمية»، وبمعنى «التطهير».

وللتأكيد على خلوص النية في إنفاقهم تقول الآية: «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ .

فلا أحد قد أنعم على هذا «الأتقى» ليكون إنفاقه جزاء على هذه النعمة.

بل هدفه رضا الله لا غير: «إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ .

إنّ إنفاق المؤمنين الأتقياء ليس رياء ولا رداً على خدمات سابقة قدمت إليهم، بل دافعها رضا الله لا غير، ومن هنا كان إنفاقهم ذا قيمة كبرى.

وفي خاتمة السورة ذكر بعبارة موجزة لما ينتظر هذه المجموعة من أجر عظيم تقول الآية:  
«وَلَسَوْفَ يَرْضَى .»

نعم، ولسوف يرضى، فهو قد عمل على كسب رضا الله، والله سبحانه سوف يرضيه، إرضاءً واسعاً غير محدود ... إرضاءً عميق المعنى يستوعب كل النعم.

«نهاية تفسير سورة الليل»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٩

### ٩٣. سورة الضحى

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في مكة، وحسب بعض الروايات أنّها نزلت حين كان الرسول صلى الله عليه وآله متألماً بسبب تأخر نزول الوحي، وتقوّل الأعداء نتيجة هذا الإنقطاع المؤقت، نزلت السورة كغيث على قلب النبي صلى الله عليه وآله. هذه السورة تبدأ بقسمين، ثم تبشر النبي بأنّ الله لا يتركه أبداً. ثم تبشّره بعطاء رباني تجعله راضياً.

ثم تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسّد فيها الرحمة الإلهية التي كانت تشملته دائماً وتحميه وتسندة في أشدّ اللحظات.

وفي نهاية السورة تتكرر الأوامر الإلهية برعاية اليتيم والسائل، وبإظهار النعم الإلهية (شكراً لهذه النعم).

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها كان ممن يرضاه الله، ولمحمد صلى الله عليه وآله أن يشفع له، وله عشر حسنات بعدد كل يتيم وسائل».

وفضيلة التلاوة هذه هي طبعاً من نصيب من يقرأ ويعمل بما يقرأ.

جدير بالذكر أنّ الروايات تذكر هذه السورة والسورة التي تليها: (شرح) على أنّها سورة واحدة، ولذلك لا بدّ من قرائتهما معاً بعد سورة الحمد في الصلاة (لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد في الصلاة حسب مذهب أهل البيت عليهم السلام).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٠

وَ الضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَاللَّآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)

سبب النزول

في المجمع: قال ابن عباس: احتبس الوحي عنه صلى الله عليه وآله خمسة عشر يوماً، فقال المشركون:

إنّ محمداً قد ودعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه. فنزلت السورة.

وروى أنّه لما نزلت السورة قال النبي صلى الله عليه وآله لجبرائيل عليه السلام: «ما جئت حتى اشتقت إليك!» فقال جبرائيل: وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً، ولكنني عبد مأمور وما تنتزل إلّابأمر ربك.

التفسير

في بدايه السورة المباركة قسمان: الأول بالنور، والثاني بالظلمة. يقول سبحانه:

«وَالضُّحَى وهو قسم بالنهار - حين تغمر شمس كل مكان.

«وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . أي إذا عمّت سكينته كل مكان.

«الضحى»: يعنى أوائل النهار، أى حين يرتفع قرص الشمس فى كبد السماء، ويعم نورها الأرض، وهو أفضل ساعات النهار.  
«سجى»: من السَّجُو أو السُّجُو، أى سكن وهدأ.

والمهم فى الليل هده وه وسكينته ممَّا يصفى على روح الإنسان واعصابه هده وارتياحاً، ويُعدّه لممارسه نشاط يوم غد، وهو لذلك نعمه مهمه استحققت القسم بها.

بين القسمين ومحتوى السورة تشابه كبير وإرتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النبي صلى الله عليه وآله، والليل كانقطاع الوحي المؤقت، وهو أيضاً ضرورى فى بعض المقاطع الزمنية.  
وبعد القسمين، يأتى جواب القسم، فيقول سبحانه: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى .  
«قلى»: من «قلا» - على وزن صدا - وهو شدة البغض.

فى هذا التعبير سكن لقلب النبي صلى الله عليه وآله وتسل له، ليعلم أن التأخير فى نزول الوحي إنما يحدث لمصلحه يعلمها الله تعالى، وليست - كما يقول الأعداء - لترك الله نبيه أو لسخطه عليه فهو مشمول دائماً بلطف الله وعنايته الخاصه، وهو دائماً فى كنف حماية الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨١

«وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى .

أنت فى هذه الدنيا مشمول بالطف الله تعالى، وفى الآخرة أكثر وأفضل.  
وتأتى البشرى للنبي الكريم لتقول له: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى .

وهذا أعظم أكرام وأسمى احترام من رب العالمين لعبده المصطفى محمد صلى الله عليه وآله. فالعطاء الربانى سيغدق عليه حتى يرضى ... حتى ينتصر على الأعداء ويعم نور الإسلام الخافقين، كما أنه سيكون فى الآخرة أيضاً مشمولاً بأعظم الهبات الإلهية.  
النبي الأعظم صلى الله عليه وآله باعتباره خاتم الأنبياء، وقائد البشرية، لا يمكن أن يتحقق رضاه فى نجاته فحسب، بل إنه سيكون راضياً حين تُقبل منه شفاعته فى امته.

عن حرب بن شريح قال: قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين: جعلت فداك! رأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها بالعراق أحق هى؟ قال: «شفاعة ماذا؟» قلت: شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قال: «حق والله، لحدثنى عمى محمد بن على بن الحنفية عن على بن أبى طالب عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى عز وجل أرضيت يا محمد، فأقول: نعم رضيت». ثم أقبل على عليه السلام فقال: إنكم تقولون يا معشر العراق إن أرحى آية فى كتاب الله «يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية. قلت إننا لنقول ذلك، قال: ولكننا أهل البيت نقول إن أرحى آية فى كتاب الله «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى وهى الشفاعة» (١).

وفى المجمع عن الصادق عليه السلام قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من ثلث الإبل وهى تطحن بيدها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله لما أبصرها، فقال: يا بنتاه! تعجلى مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل الله على «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى».

أ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَ  
أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) الشكر على كل هذه النعم الإلهية: ذكرنا أن هدف هذه السورة المباركة تسليه قلب النبي صلى الله عليه وآله وآله وبيان الطاف الله التى شملته، وهذه الآيات المذكورة أعلاه تجسد للنبي ثلاث هبات من الهبات الخاصية التى أنعم الله بها على النبي، ثم تأمره بثلاثة أوامر.

(١) كنز العمال ١٤ / ٦٣٦؛ المعجم الأوسط، الطبراني ٢ / ٣٠٧؛ وتفسير مجمع البيان ١٠ / ٣٨٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٢

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى .

فقد كنت يا محمد في رحم امك حين توفى والدك فأوتيتك إلى كنف جدك عبد المطلب (سيد مكة).

وكنت في السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكنني زدت حبك في قلب «عبد المطلب».

وكنت في الثامنة حين رحل جدك «عبد المطلب»، فسخرت لك عمك «أبا طالب»، وليحافظ عليك كما يحافظ على روحه.

نعم، كنت يتيمًا فأوتيتك.

ثم يأتي ذكر النعمة الثانية: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .

نعم، لم تكن أيها النبي على علم بالنبوة والرسالة، ونحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدى به الإنسانية، وهذا المعنى ورد في الآية

(٥٢) من سورة الشورى أيضاً: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا».

من هنا فإن المقصود من الضلالة في كلمة «ضالاً» في الآية ليس نفى الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النبي، بل بقرينة الآيات

التي أشرنا إليها تعنى نفى العلم بأسرار النبوة وأحكام الإسلام، وتعنى عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكد على ذلك كثير من

المفسرين.

لكنه صلى الله عليه وآله بعد البعثة اهتدى إلى هذه الامور بعون الله تعالى.

ثم يأتي ذكر النعمة الثالثة: «وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (١)».

لقد جعلناك تستأثر باهتمام «خديجة» هذه المرأة المخلصة الوفية لتضع كل ثروتها تحت تصرفك ومن أجل تحقيق أهدافك، وبعد

ظهور الإسلام رزقك مغنم كثيرة في الحروب ساعدتك في تحقيق أهدافك الرسالية الكبرى.

في الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة ...

والخطاب، وإن كان متجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وآله، فإنه يشمل أيضاً كل المسلمين.

«فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ».

كَأَنَّ اللَّهَ يَخَاطَبُ نَبِيَّهُ قَائِلًا: لقد كنت يتيمًا أيضاً وعانيت من آلام اليتيم، والآن عليك أن

(١) «العائل»: في الأصل كثير العيال، وجاءت أيضاً بمعنى الفقير، وهي في الآية بهذا المعنى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٣

تهتم باليتام كل اهتمام وأن تروى روحهم الظمأى بحبك وعطفك.

وهذا يدل على أن هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص

العاطفي. في المجمع عن عبد الله بن مسعود قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر على يده نور يوم القيامة».

«وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ».

«نَهَرٌ»: بمعنى ردّ بخشونة.

وفي معنى «السائل» عدة تفاسير.

الأول: أنه المتجه بالسؤال حول القضايا العلمية والعقائدية والدينية.

والثاني: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يائساً.

والثالث: أن المعنى يشمل الفقير علمياً والفقير مادياً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين، وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهية لنبية صلى الله عليه وآله، ومع إيوائه حين كان يتيماً.  
«وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ». والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تنم عن غاية الشكر والإمتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، انفاقاً يبين مدى هذه النعمة.  
إن النعمة في الآية شاملاً للنعم المادية والمعنوية. في المجمع: قال الصادق عليه السلام معناه:  
«فحدث بما أعطاك الله، وفضلك، ورزقك، وأحسن إليك وهداك».

«نهاية تفسير سورة الضحى»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٥

## ٩٤. سورة الضحى

محتوى السورة: المعروف أن هذه السورة نزلت بعد سورة «الضحى» ومحتواها يؤيد ذلك، لأنها تسرد أيضاً قسماً من الهبات الإلهية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

في سورة «الضحى» عرض لثلاث هبات إلهية بعضها مادية وبعضها معنوية، وفي هذه السورة ذكر لثلاث هبات أيضاً غير أن جميعها معنوية، وتدور السورة بشكل عام حول ثلاثة محاور: الأول: بيان النعم الثلاث؛ والثاني: تبشير النبي بزوال العقبات أمام دعوته؛ والثالث: الترغيب في عبادة الله الواحد الأحد.

ولذلك ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما يدل أن هاتين السورتين سورة واحدة ووجب قراءتهما معاً في الصلاة لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطى من الأجر كمن لقي محمداً صلى الله عليه وآله مغتماً ففرج عنه».

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٦

نعم إلهية: سياق الآيات ممزوج بالحب والحنان وبالطاف رب العالمين لنبية الكريم.

أهم هبة إلهية تشير إليها الآية الأولى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ».

«الشرح»: في الأصل توسعة قطع اللحم بتحويلها إلى شرائح أرق؛ و«شرح الصدر»:

سعته بنور إلهي وبسكينه واطمئنان من عند الله، ولهذه التوسعة مفهوم واسع، تشمل السعة العلمية للنبي عن طريق الوحي والرسالة، وتشمل أيضاً توسعة قدرة النبي في تحمله واستقامته أمام تعنت الأعداء والمعارضين.

في المجمع: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله؛ قلت: أي رب! إنه قد كان أنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيى الموتى. قال، فقال: ألم أجدك يتيماً فأوتيتك. قال: قلت بلى. قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك. قال: قلت بلى أي رب. قال: ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك قال: قلت:

بلى أي رب».

وهذا يعني أن نعمة شرح الصدر تفوق معجز الأنبياء. والتمتع في دراسة حياة الرسول صلى الله عليه وآله، وما فيها من مظاهر تدل

على شرح عظيم لصدرة تجاه الصعاب والمشاق يدرك بما لا يقبل الشك أن الأمر لم يتأت لرسول الله بشكل عادي، بل إنه حتماً تأييد إلهي رباني.

وبسعة الصدر هذه اجتاز الرسول صلى الله عليه وآله العقبات والحواجز والصعاب على أفضل وجه، وأدى رسالته خير أداء.

ثم يأتي ذكر الموهبة الثانية: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ». أي ألم نضع عنك الحمل الثقيل؟  
«الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ».

وأى حمل وضعه الله عن نبيه؟ القرائن في الآيات تدل على أنه مشاكل الرسالة والنبوة والدعوة إلى التوحيد وتطهير المجتمع من ألوان الفساد، وليس نبي الإسلام وحده بل كل الأنبياء في بداية الدعوة واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى وتغلبوا عليها بالإمداد الإلهي وحده، مع فارق في الظروف، فبينه الدعوة الإسلامية كانت ذات عقبات أكبر ومشاكل ...  
وفي الموهبة الثالثة يقول سبحانه: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ».

فاسمك مع اسم الإسلام والقرآن قد ملأ الآفاق، وأكثر من ذلك اقترن اسمك باسم الله سبحانه في الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. والشهادة برسالتك لا تنفك عن الشهادة بتوحيد الله في الإقرار بالإسلام وقبول الدين الحنيف.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٧

وروى عن الرسول صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية قال: «قال لي جبرائيل قال الله عز وجل: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتُ معي». [وكفى بذلك منزلة].

شاعر النبي «حسان بن ثابت» ضمن معنى الآية الكريمة في أبيات جميلة، وقال:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش «محمود» وهذا «محمد»

الآية التالية تبشّر النبي صلى الله عليه وآله بأعظم بشرى، وتقول: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

ويأتي التأكيد الآخر: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

لا تغتم أيها النبي، فالمشاكل والعقبات لا تبقى على هذه الحالة، ودسائس الأعداء لن تستمر، وشظف العيش وفقير المسلمين سوف لا يظل على هذا المنوال.

إن أسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النبي صلى الله عليه وآله وبزمانه، بل بصورة قاعدة عامة مستنبطة مما سبق، وتبشّر كل البشرية المؤمنة المخلص الكادحة، وتقول لها: كل عسر إلى جانبه يسر.

في من لا يحضره الفقيه بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وإنّ مع العسر يسراً».

«فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ». أي إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهية أخرى، فلا مجال للبطالة والعطل. كن دائماً في سعي مستمر ومجاهدة دائمة، واجعل نهاية أية مهمة بداية لمهمة أخرى.

«وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ». أي فاعتمد على الله في كل الأحوال.

اطلب رضاه، واسع لقربه.

الآيتان - حسب ما ذكرناه - لهما مفهوم واسع عام يقضى بالبدء بمهية جديدة بعد الفراغ من كل مهية. وبالتوجه نحو الله في كل المساعي والجهود.

إنّ هذه السورة تبين بمجموعها عناية رب العالمين الخاصة للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وتسلية قلبه أمام المشاكل، ووعدته بالنصر أمام عقبات الدعوة، وهي في الوقت ذاته تحيي الأمل والحركة والحياة في جميع البشرية المهتدية بهدى القرآن.

«نهاية تفسير سورة الشرح»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٩

## ٩٥. سورة التين

محتوى السورة وفضلتها: هذه السورة تدور آياتها حول حسن خلقه الإنسان ومراحل تكامله ونموه وانحطاطه، وتبدأ بقسم عميق المعنى، تذكر عوامل انتصار الإنسان ونجاته وتنتهى بالتأكيد على مسألة المعاد وحاكمية الله المطلقة.

وفى المجمع عن ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطاه الله خصلتين: العافية واليقين مادام فى دار الدنيا، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة صيام يوم».

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) تبدأ السورة بالقسم أربع مرّات لبيان أمر مهم:

«والتين والزيتون».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٠

«وَطُورِ سِينِينَ» (١).

«وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ».

«التين» و «الزيتون» ثمرتان معروفتان، واختلف المفسرون فى المقصود بالتين وبالزيتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شىء آخر؟ بعضهم ذهب إلى أنّهما الفاكهتان بما لهما من خواص غذائية وعلاجية كبيرة، وبعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان فى مدينتى «دمشق» و «بيت المقدس» لأنّ المكانين متبّق كثير من الرسل والأنبياء .. وبذلك ينسجم هذان القسمان مع ما يليهما من قسمين بأراض مقدسة.

«وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ». والبلد الأمين مكة، الأرض التى كانت فى عصر الجاهلية أيضاً بلداً آمناً وحرماً إلهياً، ولا يحق لأحد فيها أن يتعرض لأحد.

إذا حملنا كلمتى «التين» و «الزيتون» على معناهما الظاهر الإبتدائى، فالقسم بها ذو دلالة عميقة أيضاً، لأنّ «التين» فاكهة ذات مواد غذائية ثرة، ولقمة مغذية ومقوية لمختلف الأعمار، وخالية من القشر والنواة والزوائد.

وفى الكافى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «التين يذهب بالبخر ويشدّ الفم والعظم، وينبت الشعر، ويذهب بالداء، ولا يحتاج معه إلى دواء».

وقال عليه السلام: «التين أشبه شىء نبات الجنة».

وحول الزيتون، فإنّ العلماء الذين قضوا عمرهم فى دراسة خواص النباتات يعيرون أهمية بالغة للزيتون وزيته. ويعتقدون أنّ الفرد إن أراد أن يعيش فى سلامة دائمة فلا بدّ له أن يستفيد من هذا الأكسير الحياتى.

زيت الزيتون صديق حميم لكبد الإنسان، وله تأثير فعال فى معالجة عوارض الكلى، وحصى الصفراء، والتشنجات الكلوية والكبدية، وإزالة الإمساك.

وزيت الزيتون مفعم أيضاً بأنواع الفيتامينات وفيه الفوسفور والكبريت والكلسيوم

(١) قيل: إنّ «سينين» جمع بمعنى شجرة، واحدته «سينة»، فكأنه قيل طور الأشجار. وقيل: إنّ سينين، اسم للبقعة التى فيها الجبل. وعن

عكرمة بزيادة بلسان أهل الحبشة؛ وعن قتادة أنه قال: سنيين مبارك حسن ذو شجر (روح المعاني ٣٠ / ١٧٣).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩١

مختصر الامثل ج ٥ ٥٣٣

والحديد والبوتاسيوم والمنغنيز.

وفى المكارم الأخلاق للطبرسي عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، ويذهب بالبلغم، ويصفي اللون، ويشد العصب، ويذهب بالوصب [المرض والألم والضعف ويطفىء الغضب].»

ثم يأتي جواب القسم: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ».

«تقويم»: يعنى تسوية الشيء بصورة مناسبة، ونظام معتدل وكيفية لائقة، وسعة مفهوم الآية يشير إلى أن الله سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كل الجهات، الجسمية والروحية والعقلية، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، وأعدّه لتسليق سلم السموم، وهو - وإن كان جرماً صغيراً - وضع فيه العالم الأكبر، ومنحه من الكفاءات والطاقات ما جعله لائقاً لوسام: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» (١).

وهذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات، يهبط حين ينحرف عن مسيرة الله إلى «أسفل سافلين».

لذلك تقول الآية التالية: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ».

ولم لا يكون كذلك وهو الموجود الملىء بالكفاءات الثرة التي إن سخرها على طريق الصلاح يبلغ أسمى قمم الفخر وإن استعملها على طريق الفساد يخلق أكبر مفسدة، وينزلق طبعاً إلى «أسفل سافلين».

ولكن الآية التالية تقول: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

«ممنون»: من «المن» وتعنى هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع ولا منقوص، وقيل: إنه خال من المنه، لكن المعنى الأول أنسب.

الآية التالية تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربه والمعرض عن دلائل المعاد وتقول له:

«فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ».

تركيب وجودك من جهة، وبيان هذا العالم الواسع من جهة اخرى يؤكدان أن هذه الحياة الخاطفة لا يمكن أن تكون الهدف النهائى من خلقتك وخلقته هذا العالم الكبير.

هذه كلها مقدمات لعالم أوسع وأكمل، وبالتعبير القرآنى، هذه «النشأة الأولى» تنبىء عن «النشأة الاخرى» فلم لا يتذكر الإنسان! «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» (٢).

(١) سورة الإسراء / ٧٠.

(٢) راجع أدلة المعاد فى تفسير سورة الواقعة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٢

واتضح أيضاً أن المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، و الآية التالية تؤيد ذلك: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ».

فى تفسير مجمع البيان: قال قتادة: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ختم هذه السورة قال: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

«نهاية تفسير سورة التين»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٣



محتوى السورة: المشهور بين المفسرين أنها أول ما نزل من القرآن، ومحتواها يؤيد ذلك أيضاً.

هذه السورة تبدأ بأن تأمر النبي صلى الله عليه وآله بالقراءة، ثم تتحدث عن خلقه الإنسان بكل عظمته من قطعة دم تافهه.

وفي المرحلة التالية تتحدث السورة عن تكامل الإنسان في ظل لطف الله وكرمه، وعن تعليمه وتمكينه من القلم.

ثم تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كل ما توفرت له من هبات إلهية وإكرام رباني.

وتشير بعد ذلك إلى ما ينتظر اولئك الصادقين عن طريق الهداية والمانعين لأعمال الخير من عقاب.

وفي ختام السورة أمر بالسجود والإقتراب من رب العالمين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال:

«من قرأ في يومه أو في ليلته إقرأ باسم ربك ثم مات في يومه أو في ليلته، مات شهيداً وبعثه الله شهيداً، وأحياه كمن ضرب بسيفه في

سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وآله».

هذه السورة المباركة سميت سورة «العلق» و «إقرأ» و «القلم» لمناسبة هذه الكلمات فيها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٤

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

سبب النزول

جاء في الروايات أن محمداً صلى الله عليه وآله كان في غار حراء حين نزل عليه جبرائيل وقال له: إقرأ يا محمّد. قال: ما أنا بقارىء،

فاحتضنه جبرائيل وضغطه وقال له: إقرأ يا محمّد وتكرر الجواب. ثم أعاد جبرائيل عمله ثانية وسمع نفس الجواب. وفي المرة الثالثة

قال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» إلى آخر الآيات الخمس الأولى من السورة.

قال ذلك واختفى عن أنظار النبي صلى الله عليه وآله.

رسول الله أحسّ بتعب شديد بعد هبوط أولى أشعة الوحي عليه فذهب إلى خديجة وقال: «زملوني وذرّوني» (١).

في تفسير مجمع البيان: أكثر المفسرين على أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وأول يوم نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله

صلى الله عليه وآله وهو قائم على حراء، علّمه خمس آيات من أول هذه السورة. وقيل: أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه

و آله فاتحه الكتاب.

رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لخديجة: «إني إذا

خلوت وحدي سمعت نداء». فقالت: ما يفعل الله بك إلا خيراً.

فوالله إنك لتؤدّي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمّ خديجة، فأخبره

رسول الله صلى الله عليه وآله بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول، ثم ائتنى فأخبرني. فلما خلا ناداه يا

محمّد! قل له ذلك. فقال له: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنتك على مثل ناموس موسى، وأنتك نبي مرسل،

وإنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدّ معك. فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدّقني». يعني ورقة.

جدير بالذكر أن في بعض كتب التفسير والتاريخ كلاماً حول حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله،

(١) تفسير روح الجنان ١٢/٩٦؛ وهذا المعنى أوردته كثير من المفسرين بإضافات وزوائد لا يمكن قبول بعضها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٥

في هذه البرهنة الزمنية لا- تتناسب أبداً مع شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وتستند حتماً إلى أحاديث مختلفة أو إلى

اسرائيليات. ويبدو أن أعداء الإسلام دشوا هذه الروايات للطعن فى الإسلام وللحط من شخصية النبى صلى الله عليه وآله.

التفسير

الآية الاولى فيها خطاب للنبى صلى الله عليه وآله تقول له: «أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ».

ويلاحظ هنا قبل كل شىء التركيز على مسألة الربوبية، ونعلم أن «الرب» يعنى «المالك المصلح»، أى الشخص الذى يملك شيئاً، ويتعهد إصلاحه وتربيته أيضاً.

ولإثبات ربوبية الله جاء ذكر الخلق... خلقه الكون، إذ إن أفضل دليل على ربوبيته خالقيته، فالذى يُدبر العالم هو خالقه. وهذا ردّ على مشركى العرب الذين قبلوا خالقيته الله، وأوكلوا الربوبية والتدبير إلى الأوثان، ثم إن ربوبية الله وتدييره لنظام الكون أفضل دليل على إثبات ذاته المقدسة.

ثم اختارت الآية التالية «الإنسان» باعتباره أهم مظاهر الخليقة وقالت: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ».

«العلق»: فى الأصل الإلتصاق بشىء، والنطفة بعد أن تطوى المراحل الجنينية الاولى تتحول إلى قطعة دم متلاصقة هى العلق، وهى مع تفاهتها الظاهرية تعتبر مبدأ خلق الإنسان، والآية تركز على هذه الظاهرة لتبين قدرة الرب العظيمة على خلق هذا الإنسان العجيب من هذه العلقة النافهة.

وقيل: إن العلق فى الآية يعنى الطين الذى خلق منه آدم، وهو أيضاً مادة متلاصقة، وبديهي أن الرب الذى خلق آدم من طين لازب يستحق كل تمجيد وثناء.

وقيل أيضاً: أن العلق يعنى «صاحب العلق»، وفيه إشارة إلى الروح الإجتماعية للإنسان، والعلاقة الموجودة بين أفراد البشر هى أساس تكامل البشر وتطور الحضارات.

وقال آخرون: إن العلق إشارة إلى نطفة الرجل (الحيمن)، وهى تشبه دودة العلق إلى حد كبير، وهذا الموجود المجهرى يسبح فى ماء النطفة، ويتجه إلى بويضة المرأة فى الرحم، ويلقحها ويكون منها النطفة الكاملة للإنسان.

والقرآن الكريم بطرحه هذه المسألة يسجل معجزة علمية اخرى من معجزه، إذ لم تكن هذه الامور معروفة أبداً فى عصر نزوله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٦

ومن بين التفاسير الأربعة، يبدو أن التفسير الأول أوضح، وإن كان الجمع بين التفاسير الأربعة ممكن أيضاً.

وللتأكيد، تقول الآية مرة اخرى: «أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ».

وهذه الآية جواب على قول الرسول صلى الله عليه وآله لجبرائيل: ما أنا بقارىء، وهذه الآية تقول:

إنك قادر على القراءة بكرم الرب وفضله ومنه.

ثم تصف الآيتان التاليتان الرب الأكرم:

«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ»، «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

وهاتان الآيتان أيضاً تتجهان إلى الجواب على قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أنا بقارىء، أى إن الله الذى علم البشر بالقلم وكشف لهم المجاهيل، قادر على أن يعلم عبده الأمين القراءة والتلاوة.

جملة «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» تحتمل معنيين.

الأول: أن الله علم الإنسان الكتابة، وأعطاه هذه القدرة العظيمة التى هى منبثق تاريخ البشر، ومنطلق جميع العلوم والفنون والحضارات.

والثانى: المقصود أن الله علم الإنسان جميع العلوم عن طريق القلم وبوسيلة الكتابة.

وهو تعبير عميق المعنى فى تلك اللحظات الحساسة من بداية نزول الوحي

إن أساس الإسلام أقيم منذ البداية على أساس العلم والقلم... ولذلك استطاع قوم متخلفون أن يتقدموا فى العلم والمعرفة حتى

تأهلوا- باعتراف الأعداء والأصدقاء- لتصدير علومهم إلى العالم! إن علم المسلمين ومعارفهم هو الذي مزق ظلام القرون الوسطى في أوروبا وأدخلها عصر الحضارة. وهذا ما يعترف به علماء أوروبا أنفسهم فيما كتبوه في حقل تاريخ الحضارة الإسلامية وفي تراث الإسلام.

وما أشبع وأفزع أن تكون أخلاق امية كملك تمتلك بين ظهرانيها ديناً كهذا متخلفة في ميادين العلم والمعرفة ومحتاجة إلى الآخرين بل وتابعة لهم.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)  
مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٧

استتباعاً للآيات السابقة التي تحدثت عن النعم المادية والمعنوية الإلهية على الإنسان ... والنعم التي تستلزم شكر الإنسان وتسليمه أمام الله، هذه الآيات تبدأ بالقول: ليست نعم الله تحيي روح الشكر في الإنسان دائماً، بل إنه يطغى:

«كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى . ومتى يكون ذلك؟ فيما لو رأى نفسه مستغنياً وغير محتاج.

«أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى . هذه طبيعة أغلب أفراد البشر ... الأفراد الذين لم يتربوا في مدرسة العقل والوحي، حين يرون أنفسهم مستغنين غير محتاجين يعمدون إلى الطغيان، وينسلخون من عبودية الله، ويرفضون الاعتراف بأحكامه، ويصمّون أذانهم عن نداءه، ولا يراعون حقاً ولا عدلاً.

إن الهدف من الآية الفات نظر الرسول صلى الله عليه وآله بمنعطفات الطبيعة البشرية كي لا يتوقع قولاً سريعاً من الناس لدعوته، وليعد نفسه لإنكار المنكرين ومعارضة الطغاة المستكبرين، وليعلم أن الطريق أمامه وعرة مليء بالمصاعب.

ثم يأتي التهديد لهؤلاء الطغاة المستكبرين وتقول الآية التالية: «إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى .

وهو الذي يعاقب الطغاة على ما اقترفوه، وكما أن رجوع كل شيء إليه، وميراث السماوات والأرض له سبحانه: «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١). فكل شيء في البداية منه، ولا مبرر للإنسان أن يشعر بالاستغناء ويطغى

ثم تتحدث الآيات التالية عن بعض أعمال الطغاة المغرورين، مثل صدهم عباد الله عن السير في طريق الحق.

«أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . «عَبْدًا إِذَا صَلَّى .

وفي تفسير مجمع البيان: فقد جاء في الحديث أن أبا جهل قال: هل يعرف محمد وجهه بين أظهركم قالوا: نعم. قال: فبالذي يحلف به لئن رأيتك يفعل ذلك لأطأن على رقبتك. فقيل له: ها هو ذاك يصلي، فانطلق ليلاً على رقبتك، فما فاجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه. فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً، وأجنحة. وقال نبي الله: «والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». فأنزل الله سبحانه:

«أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى إِلَى آخِر السورة.

(١) سورة آل عمران / ١٨٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٨

الآيات التالية تأكيد على نفس المفاهيم.

«أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . «أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أى رأيت إن كان هذا العبد المصلى على الهدى أو أمر بالتقوى فهل يصح نهيته؟ ألا يستحق من ينهاه النار؟

«أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . ولو كَذَّبَ هذا الطاغيةً بالحق وتولى وأعرض عنه فماذا سيكون مصيره؟

«أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى وَيُثَبِّتُ كُلَّ شَيْءٍ لِيَوْمِ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدُّعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) بعد الحديث في الآيات السابقة عن الطغاة الكافرين الصادين عن سبيل الله، توجه هذه الآيات أشد التهديد لهم وتقول: «كَلَّا» لا يكون ما يتصور (لأنه تصور أن يصد عن عبادة الله بوضعه قدمه على رقبته النبي).

«كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ». نعم، إذا لم ينته من إثمه وطغيانه سنجزه بالقوة من شعر مقدمه رأسه (وهي الناصية)، ثم وصف الناصية هذه بأنها كاذبة خاطئة وهو وصف لصاحبها: «نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ».

«لِنَسْفَعًا»: من السفع، وله معاني متعددة: الجرّ بالشدة، الصفع على الوجه، تسويد الوجه (الأثافي الثلاثة التي يوضع عليها القدر تسمى «سفع» لأنها تسود بالدخان)، ووضع العلامة للإذلال.

والأنسب المعنى الأول، وإن كانت الآية تحتل معاني أخرى أيضاً.

روى أنه لما نزلت سورة الرحمن، علم القرآن ... قال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: «من يقرأها منكم على رؤوساء قريش؟ فتثاقفوا مخافة أذيتهم، فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله.

فأجلسه صلى الله عليه وآله، ثم قال: «من يقرأها عليهم؟» فلم يبق إلا ابن مسعود، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له، وكان صلى الله عليه وآله يبق على رأسه فما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته، ثم إنّه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل فطمه فشقّ أذنه وأدماه، فانصرف وعيناه تدمع، فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله رقى قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل عليه السلام

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٩

يجيء ضاحكاً مستبشراً، فقال: «يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي!» فقال: ستعلم.

فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد، فقال: خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان به رمق فقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى، فإذا أبو جهل مصروع يخور ... فصعد على صدره، فلما رآه أبو جهل قال: يا روي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. فقال أبو جهل: بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلى منه في حياتي، ولا أحد أبغض إلى منه في حال مماتي.

فروى أنه صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك قال: «فرعوني أشد من فرعون موسى فإنه قال آمنت وهو قد زاد عتواً».

ثم قال [أبو جهل لابن مسعود: اقطع رأسى بسيفى هذا، لأنه أحد وأقطع، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله، فراح يجزه على ناصيته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وبذلك تحقق قوله سبحانه:

«لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ» في هذه الدنيا أيضاً «١».

«الناصية»: شعر مقدم الرأس، و (السفع بالناصية) يراد به الإذلال والإرغام، لأن أخذ الشخص بناصرته يفقده كل حركة ويجبره على الإستسلام.

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأن السورة - عدا المقطع الأول منها - قد نزلت في أبي جهل إذ مرّ برسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلى عند المقام فقال (يا محمد ألم أنهك عن هذا؟

وتوعده. فاغظ له رسول الله صلى الله عليه وآله وانتهره ... ولعلها هي التي أخذ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بخناقه وقال له: (أولى لك ثم أولى). فقال: يا محمد بأى شيء تهددنى؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً «٢». وهنا نزلت الآية التالية تقول لأبى جهل: فليدع هذا الجاهل المغرور كل قومه وعشيرته وليستجد بهم: «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ».

ونحن سندع أيضاً زبانية جهنم: «سِنْدُعُ الزَّبَانِيَّةِ». ليعلم هذا الجاهل الغافل أنه عاجز عن فعل أى شىء وإنه فى قبضة خزنة جهنم كقشته فى مهبط الريح.

وفى آخر آية من السورة وهى آية السجدة يقول سبحانه: «كَلَّا». أى ليس الأمر كما

(١) التفسير الكبير ٢٣/٣٢.

(٢) فى ظلال القرآن ٨/٦٢٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٠

يتصور بأنه قادر على أن يمنع سجودك: «لَمَّا تُطِغُهُ وَاسْتَجِدُّ وَاقْتَرِبَ». فأبو جهل أقل من أن يستطيع منع سجودك أو الوقوف بوجه دينك، فتوكل على الله وأعبده واسجد له، وبذلك تقترب منه سبحانه على هذا المسير أكثر فأكثر.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية أن «السجود» عامل اقتراب من الله، ولذا ورد فى الحديث عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً».

وفى روايات أهل البيت عليهم السلام أن القرآن يتضمّن أربعة مواضع فيها سجود واجب وهى فى «السجدة» و «فصلت» و «النجم» وفى هذه السورة «العلق» وبقية المواضع السجدة فيها مستحبة.

«نهاية تفسير سورة العلق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠١

## ٩٧. سورة القدر

محتوى السورة وفضيلتها: محتوى السورة كما هو واضح من اسمها بيان نزول القرآن الكريم فى ليلة القدر، وبيان أهميته هذه الليلة وبركاتهما.

فى المجمع: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».

إنّ هذه الفضائل فى التلاوة لا تعود على من يقرأها دون أن يدرك حقيقتها، بل إنها نصيب من يقرأها ويفهمها ويعمل بها ... من يقدر القرآن حق قدره ويطبق آياته فى حياته.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ (٥) ليلة القدر ليلة نزول القرآن: يستفاد من آيات الذكر الحكيم أن القرآن نزل فى شهر رمضان: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» «١». وظاهر الآية يدل على أن كل القرآن نزل

(١) سورة البقرة / ١٨٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٢

فى هذا الشهر.

والآية الاولى من سورة القدر تقول: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

عبارة «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» فيها إشارة اخرى إلى عظمته هذا الكتاب السماوى، فقد نسب الله نزوله إليه، وبصيغته المتكلم مع الغير أيضاً، وهى صيغة لها مفهوم جمعى وتدل على العظمة.

نزول القرآن فى ليلة «القدر» وهى الليلة التى يقدر فيها مصير البشر وتعين بها مقدراتهم، دليل آخر على الأهمية المصيرية لهذا الكتاب

الساوى (١).

لو جمعنا بين هذه الآية وآية سورة البقرة لاستنتجنا أن «ليلة القدر» هى إحدى لىالى شهر رمضان، ولكنها أئة لىلة؟ القرآن لا ىبئن لنا ذلك، ولكن المشهور فى الرواىات أنها فى العشر الأخيرة من شهر رمضان، وفى اللىلتىن الحادىة والعشرىن أو الثالثة والعشرىن. وثمة رواىات متعددة عن أهل البىت علىهم السلام تركز على اللىلة الثالثة والعشرىن.

فى الكافى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق علىه السلام قال: «التقدير فى لىلة تسع عشرة، والإبرام فى لىلة إحدى وعشرىن، والإمضاء فى لىلة ثلاث وعشرىن».

فى الآئىتىن التالىتىن ىبئن الله تعالى عظمة لىلة القدر وىقول سبحانه:

«وَمَا أَدْرِىكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ». «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ».

والتعبىر هذا ىوضح أن عظمة لىلة القدر كبرىة إلى درجة خفىت على رسول الله صلى الله علىه وآله أىضاً قبل نزول هذه الآىات، مع ما له من علم واسع.

وفى الدر المنثور عن مجاهد أن النبى صلى الله علىه وآله ذكر رجلاً من بنى اسرائىل لبس السلاح فى سبىل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ \* وَمَا أَدْرِىكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ \* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» التى لبس فىها ذلك الرجل السلاح فى سبىل الله ألف شهر.

لماذا كانت خيراً من ألف شهر؟ ... الظاهر لأهمىة العبادة والإحىاء فىها. وما جاء من

(١) هذه المسألة طبعاً لا تتنافى مع حرىة إرادة الإنسان ومسأله الإختىار، لأن التقدير الإلهى عن طرىق الملائكة إنما ىتم حسب لىاقة الأفراد ومیزان إىمانهم وتقواهم وطهر نىتهم وأعمالهم. أى ىقدر كل فرد ما ىلىق له. وبعبارة أخرى: أرضىة التقدير ىوفرها الإنسان نفسه، وهذا لا ىتنافى مع الإختىار بل ىؤكدده.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٣

رواىات بشأن فضىلة لىلة القدر وفضىلة العبادة فىها فى كتب الشىعة وأهل السنّة كثرى، وىؤىد هذا المعنى. أضيف إلى ذلك، فإن نزول القرآن فى هذه اللىلة، ونزول البركات والرحمة الإلهىة فىها ىجعلها خيراً من ألف شهر.

ولمزىد من وصف هذه اللىلة تقول الآىة التالىة: «تَنْزَلُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ فِىهَا ىأذَنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ».

و «تنزل» فعل مضارع ىدل على الإستمرار (والأصل تنزل) ممّا ىدل على أن لىلة القدر لم تكن خاصة بزمن النبى، وبنزول القرآن، بل هى لىلة تتكرر فى كل عام باستمرار.

والمقصود ب «الروح» هو مخلوق عظیم ىفوق الملائكة.

وفى الكافى أن الإمام الصادق علىه السلام سئل عن الروح وهل هو جبرائىل؟ قال: «الروح هو أعظم من جبرئىل، إن جبرئىل من الملائكة، وإن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، ألىس ىقول تبارك وتعالى: تنزل الملائكة والروح».

«مَنْ كُلُّ أَمْرٍ». أى: لكل تقدير وتعىین للمصائر، ولكل خىر وبركة، فالهدف من نزول الملائكة فى هذه اللىلة إذن هو لهذه الامور.

«سَلَّمَ هِىَ حَتَّى مَطَّلَعَ الْفَجْرِ».

والآىة الأخيرة هذه تصف اللىلة بأنها مفعمة بالخىر والسلامة والرحمة حتى الصباح.

القرآن نزل فىها، وعبادتها تعادل عبادة ألف شهر، وفىها تنزل الخىرات والبركات، وبها ىحظى العباد برحمة خاصة، كما إن الملائكة والروح تنزل فىها ... فهى إذن لىلة مفعمة بالسلامة من بدایتها حتى مطلع فجرها. والرواىات تذكر أن الشىطان ىكبل بالسلاسل هذه اللىلة فهى لىلة سالمة مقرونة بالسلامة.

«نهاية تفسير سورة القدر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٥

## ٩٨ سورة البينة

محتوى السورة: هذه السورة تناولت رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وما فيها من دلائل بينة.

وفى مقطع آخر من السورة بيان عن مواقف أهل الكتاب والمشركين تجاه الإسلام ...

بعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شر البرية.

هذه السورة أطلق عليها لمناسبة الفاظها اسماء متعددة أشهرها: «البينة» و «لم يكن» و «القيمة».

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو يعلم الناس ما فى (لم يكن) لعطلوا الأهل والمال وتعلموها». فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول الله؟ فقال: «لا يقرأها منافق أبداً ولا عبد فى قلبه شك فى الله عز وجل. والله إن الملائكة المقربين ليقرؤونها منذ خلق الله السماوات والأرض لا يفترون عن قراءتها، وما من عبد يقرأها بليل إلا باعث الله ملائكة يحفظونه فى دينه ودنياه ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإن قرأها نهاراً اعطى عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار وأظلم عليه الليل».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٦

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) فى بداية السورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومشركى العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدعون أنهم غير منفكين عن دينهم إلا بدليل واضح قاطع.

«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ».

و «البينة»: التى أرادوها: رسول من الله يتلو عليهم كتاباً مطهراً من رب العالمين: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً».

وهذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح وثابت وذو قيمة: «فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ».

كان هذا ادعاءهم قبل ظهور الإسلام، وحينما ظهر ونزل آياته تغير هؤلاء، واختلفوا وتفرقوا، وما تفرقوا إلا بعد أن جاءهم الدليل الواضح والنبي الصادق بالحق.

«وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ».

وهذا المعنى يشبه ما جاء فى الآية (٨٩) من سورة البقرة: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

نعلم أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون مثل هذا الظهور، ولا بد أن يكون مشركو العرب مشاركين لأهل الكتاب فى هذا الإنتظار لما كانوا يرون فيهم من علم ومعرفة، ولكن حين تحققت آمالهم غيرهم وغيروا مسيرهم والتحقوا باعداء الدعوة.

«البينة»: فى الآية هى الدليل الواضح، ومصادقها حسب الآية الثانية شخص «رسول الله» وهو يتلو عليهم القرآن.

«صحف»: جمع «صحيفة»، وتعنى ما يكتب عليه من الورق، والمقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لم يكن يتلو شيئاً عليهم من الأوراق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٧

و «مطهرة»: أى طاهرة من كل ألوان الشرك والباطل، ومن تلاعب شياطين الجن والإنس، كما جاء فى الآية (٤٢) من سورة فصلت: «لَأَيُّتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ».

ثم يتوالى التفرغ لأهل الكتاب، ومن بعدهم للمشركين، لأنهم اختلفوا فى الدين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر، بينما: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ».

ثم تضيف الآية القول: «وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ».

والمقصود هو: إن دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه أمور معروفة فلماذا يعرضون عنها.

المقصود ب «الدين» هو مجموع الدين والشريعة، أى إنهم امرؤا أن يعبدوا الله وأن يخلصوا له الدين والتشريع فى جميع المجالات. جملة «وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» إشارة إلى أن الاصول المذكورة فى الآية وهى: التوحيد الخالص، والصلاة (الإرتباط بالله) والزكاة (الإرتباط بالناس) من الاصول الثابتة الخالدة فى جميع الأديان، بل إنها قائمة فى أعماق فطرة الإنسان، ذلك لأن مصير الإنسان يرتبط

بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثم إن الروح الإجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ (٨) خير البرية وشرها: الآيات السابقة تحدثت عن انتظار أهل الكتاب والمشركين لبيئته تأتيمهم من الله، لكنهم تفرقوا من بعدما جاءتهم البيئته.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من الناس مختلفتين فى موقفهما من الدعوة «كافرة» و «مؤمنة» تذكر الكافرين أولاً بالقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٨

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ».

وعبارة «أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» عبارة قارعة مثيرة، تعنى أنه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أفضل واسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق وإتمام الحجّة، وساروا فى طريق الضلال.

تقديم ذكر «أهل الكتاب» على «المشركين» فى هذه الآية أيضاً، قد يعود إلى ما عندهم من كتاب سماوى وعلماء ومن صفات صريحة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله فى كتبهم، لذلك كانت معارضتهم أفظع وأسوأ.

الآية التالية تذكر المجموعة الثانية، وهم المؤمنون وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ».

والآية التى بعدها تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من ثوبة: «جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ».

عبارة «أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» تبين بجلاء أن الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء والآيات الاخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» (١).

إنهم راضون عن الله لأن الله أعطاهم ما أرادوه، والله راض عنهم لأنهم أدوا ما أرادهم منهم، وإن كانت هناك زلة فقد غفرها بلطفه وكرمه، وأية لذة أعظم من أن يشعر الإنسان أنه نال رضا المحبوب ووصاله ولقائه.

نعم، نعيم جسد الإنسان جنات الخلد، ونعيم روحه رضا الله ولقاؤه، لأن هذه الخشية دافع للحركة صوب كل طاعة وتقوى وعمل صالح.

بحث



على عليه السلام وشيعته خير البرية: ثم روايات كثيرة بطرق أهل السنة في مصادرهم الحديثية المعروفة، وهكذا في المصادر الشيعية، فسرت الآية: «أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» بأنهم على بن أبي طالب عليه السلام وشيعته.

(١) سورة الإسراء / ٧٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٩

في الدر المنثور عن ابن عباس قال: لما نزلت «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين».

وأخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: ألم تسمع قول الله «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جئت الامم للحساب تدعون غزاً محجلين». هذا الحديث من الأحاديث المعروفة المشهورة المقبولة لدى أكثر علماء الإسلام، وفيه بيان لفضيلة كبرى من فضائل علي عليه السلام وأتباعه.

وهذه الروايات تدل ضمناً أن كلمة «الشيعه» باعتبارها اسماً لأتباع علي عليه السلام كانت قد شاعت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بين المسلمين على لسان الرسول نفسه. واولئك الذين يخالون أن الكلمة هذه ظهرت في عصور متأخرة في خطأ كبير.

«نهاية تفسير سورة البيئه»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١١

## ٩٩. سورة الزلزله

محتوى السورة: هذه السورة تدور مفاهيمها حول ثلاثة محاور: تتحدث أولاً: عن علامات البعث ويوم القيامة؛ و ثانياً: عن شهادة الأرض على جميع أعمال العباد؛ و ثالثاً: تقسم الناس إلى مجموعتين صالحه وطالحه، وتبين أن كل مجموعه ترى ثمار عملها. فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها فكأنما قرأ البقره واعطى من الأجر كمن قرأ ريع القرآن».

وفي الكافي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «لا تملوا من قراءة إذا زلزلت الأرض زلزالها فإنه من كانت قراءته بها في نوافله لم يصبه الله عز وجل بزلزله أبداً، ولم يمت بها ولا بصاعقه ولا بأفاه من آفات الدنيا حتى يموت».

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٢

هذه السورة تبدأ ببيان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التي ترافق نهاية هذا العالم وبدء البعث والنشور. تقول: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا». «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا».

عبارة «زلزالها» تعني أن الأرض بأجمعها تهتز في ذلك اليوم (خلافاً للزلازل العادية الموضوعية عادة) أو أنها إشارة إلى الزلزلة المعهودة، أي زلزلة يوم القيامة.

و «الأثقال» - جمع ثقل، بمعنى الحمل - ذكر لها المفسرون معاني متعددة. قيل: إنها البشر الذين يخرجون من أجدانهم على أثر الزلزال؛ كما جاء في الآية (٤) من سورة الإنشاق:

«وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ».

وقيل إنَّها الكنوز المخبوءة التي ترمى إلى الخارج، وتبعث الحسرة في قلوب عبّاد الدنيا.

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة في باطن الأرض، وهو ما يحدث أثناء البراكين والزلازل، فإنَّ الأرض في نهاية عمرها تدفع ما في أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم. ويمكن الجمع بين هذه التفاسير.

في ذلك الجو المليء بالرهبة والفرع، تصيب الإنسان دهشة ما بعدها دهشة فيقول في ذعر: ما لهذه الأرض تتزلزل وتلقى ما في باطنها؟ «وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا».

إنَّ الإنسان هنا له معنى عام يشمل كل أفراد البشر. فالدهشة من وضع الأرض في ذلك اليوم لا يختص بالكافرين.

هذا السؤال التعجبي يرتبط بالنفخة الاولى، حيث تحدث الزلزلة الكبرى وينتهي فيها هذا العالم.

وفي هذه الحالة يكون المقصود من أثقال الأرض معادنها وكنوزها والمواد المذابة فيها.

وأهم من ذلك أنَّ الأرض: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا».

تحدّث بالصالح والطالح، وبأعمال الخير والشر، مما وقع على ظهرها، وهذه الأرض واحد من أهم الشهود على أعمال الإنسان في ذلك اليوم، وهي إذن رقيبته على ما نفعه عليها.

وفي المجمع: جاء في الحديث أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا، وكذا وهذا أخبارها».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٣

«بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا».

فما فعلته الأرض إنَّما كان بوحى ربها، وهي لا تتوانى في تنفيذ أمر الرب.

وعبارة «أوحى» إنَّما هي لبيان أنَّ حديث الأرض خلاف طبيعتها، ولا يتيسر ذلك سوى عن طريق الوحي الإلهي.

«يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرًا أَعْمَالَهُمْ».

«أشتات»: جمع «شت» وهو المتفرق والمبعثر، أي أنَّ الناس يردون ساحة المحشر متفرقين مبعثرين، وقد يكون التفرق والتبعثر لورود أهل كل دين منفصلين عن الآخرين.

أو قد يكون لورود أهل كل نقطة من نقاط الأرض بشكل منفصل.

أو قد يكون لورود جماعة بأشكال جميلة مستبشرة، وجماعته بوجوه عبوسة مكفهرة إلى المحشر.

أو أنَّ كل أمة ترد مع إمامها وقائدها؛ كما في الآية (٧١) من سورة الإسراء: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ».

أو أنَّ يحشر المؤمنون مع المؤمنين والكافرون مع الكافرين.

الجمع بين هذه التفاسير ممكن تماماً لأنَّ مفهوم الآية واسع.

«يصدر»: من الصدور، وهو خروج الإبل من بركة الماء مجتمعته هائجة، وعكسه الورود.

وهي هنا كناية عن خروج الأقوام من القبور وورودهم على المحشر للحساب.

المقصود من عبارة «لَّيْرًا أَعْمَالَهُمْ» هو: «تجسم الأعمال» ورؤية الأعمال نفسها.

وهذه الآية أوضح الآيات الدالة على تجسم الأعمال، حيث تتخذ الأعمال في ذلك اليوم أشكالاً تتناسب مع طبيعتها وتتنصب أمام صاحبها، وتكون رفقتها سروراً وانشراحاً أو عذاباً وبلاءً.

ثم ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنة والكافرة، الصالحة والطالحة.

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ». «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

ظاهر الآية يدل أيضاً على مسألة «تجسم الأعمال» ومشاهدة العمل نفسه، صالحاً أم طالحاً، يوم القيامة، حتى إذا عمل ما وزنه ذرة من الذرات يره مجسماً يوم القيامة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٤

«مقال»: في اللغة بمعنى الثقل، وبمعنى الميزان الذي يقاس به الثقل؛ والمعنى الأول هو المقصود في الآية.

و «الذرة»: ذكروا لها معاني متعددة من ذلك، فهو هنا أصغر وزن.

الآيتان المذكورتان وآيات أخرى مشابهة تدل دلالة واضحة على الدقة المتناهية في تحري الأعمال وفي المحاسبة يوم القيامة، كقوله سبحانه: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» (١).

هذه التعابير القرآنية تدل على أن أصغر الأعمال يحاسب عليها في تلك المحاسبة الكبرى، وهذه الآيات تحذر أيضاً من استصغار الذنوب الصغيرة، أو التهاون في أعمال الخير والصغيرة. فما يحاسب عليه الله سبحانه - مهما كان - ليس بقليل الأهمية. وحقاً، لو تدبر الإنسان في محتوى هذه الآية تكفيه دافعاً إلى طريق الخير ونهاياً عن طريق الفساد والانحراف. «نهاية تفسير سورة الزلزلة»

(١) سورة لقمان / ١٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٥

## ١٠٠. سورة العاديات

محتوى السورة وفضيلتها: هذه السورة تبدأ بالقسم بأمور محفزة محرّكة، ثم تتناول بعض مظاهر الضعف البشري كالكفر والبخل وحب الدنيا، ثم تشير السورة إلى مسألة المعاد وإحاطة الله بعباده.

في المجمع ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة، وشهد جمعاً».

وعن الإمام الصادق صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ والعاديات وأدمن قراءتها بعثه الله مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم القيامة خاصة، وكان في حجره ورفقائه».

إن هذه الفضائل إنما هي نصيب من جعل السورة منهاجاً لحياته وآمن بكل محتواها وعمل بها.

و العاديات ضبجاً (١) فالموريات قدحاً (٢) فالمغيرات ضبجاً (٣) فأثزن به نفعاً (٤) فوسطن به جمعاً (٥) إن الإنسان لرببه لكتود (٦) وإنه على ذلك لشهيد (٧) وإنه لحب الخير لشديد (٨) أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور (٩) وحصل ما في الصدور (١٠) إن ربهم بهم يومئذ لخبير (١١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٦

سبب النزول

في المجمع: قيل: نزلت السورة لما بعث النبي صلى الله عليه وآله علماً إلى ذات السلاسل فأوقع بهم. وذلك بعد أن بعث عليهم مراراً غيره من الصحابة فرجع كل منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو المروى عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنه أسر منهم، وقتل وسبي وشد أسراهم في الجبال مكتفين كأنهم في السلاسل. ولما نزلت السورة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الناس، فصلى بهم الغداة وقرأ «والعاديات» فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم

نعرفها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نعم إن علياً ظفر بأعداء الله وبشّرني بذلك جبرائيل عليه السلام في هذه الليلة». فقدم على عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأسارى.

التفسير

قَسَمًا بالمجاهدين الواعين: قلنا إن هذه السورة تبدأ بالقسم بأمر محفّزه متبّهة، تقسم أولاً بالخيول الجارية المندفعة (إلى ميدان الجهاد) وهي تحمحم وتنفس بشدة: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا».

ويمكن أن يكون القسم هذا يابل الحجاج المتجهه من عرفات إلى المشعر الحرام، ومن المشعر الحرام إلى منى وهي تنفس بشدة.

وهذا التفسير أنسب من عدة جهات، وورد في روايات المعصومين عليهم السلام أيضاً.

«العاديات»: جمع عادية، من «العدو» وهو المغادرة والإبتعاد بالقلب. فتكون «العداوة» أو بالحركة الخارجية فيكون (العدو) وهو الركض، أو بالمعاملات فيسمى (العدوان).

و «العاديات» فى الآية هى الجاريات بسرعة.

«الضبح»: صوت الخيل وهي تنفس بشدة عند الجرى.

ثم يأتي القسم التالى بهذه العاديات التى تورى النيران بحوافرها:

«فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا».

وهى خيل المجاهدين التى تجرى بسرعة فائقة فى ميدان القتال، بحيث تنقدح النار من تحت أرجلها جزاء احتكاك حوافرها بصخور الأرض.

أو هى الإبل التى تجرى بين مواقف الحج، فتتطاير الحصى والحجارة من تحت أرجلها وترطم بحصى وحجارة اخرى فتندح النيران.

«الموريات»: جمع «مورية» والإبراء يعنى أضرار النار.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٧

«القدح»: ضرب الحجارة أو الخشب أو الحديد بما يشبه لتوليد النار.

والقسم الثالث بالتى تغيير صباحاً على الأعداء: «فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا».

«المغيرات»: جمع «مغيرة» والإغارة: الهجوم على العدو، وقيل إن الكلمة تتضمن معنى الهجوم بالخيول.

ثم تشير الآية التالیه إلى سرعة هذه العاديات فى هجومها، وذلك بإثارتها الغبار فى كل جانب: «فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا».

أو أن الغبار يثور من كل صوب نتيجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام على منى.

«أثرن»: من الإثارة، وهى نشر الغبار والدخان فى الجو.

وفى آخر خصائص هذه «المغيرات» تذكر الآية أنها ظهرت بين الإعداء فى الفجر:

«فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا».

هجومها كان مباغتاً خاطفاً بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف العدو وتشن حملتها فى قلبه، وتشتت جمعه. وهذا نتيجة ما تتحلّى به من سرعة ويقظة وإستعداد وشهامة وشجاعة.

أو إنها إشارة إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

من هنا يتضح أن الجهاد له منزلة عظيمة حتى أن أنفاس خيل المجاهدين استحقت أن يقسم بها ... وهكذا الشرر المتطاير من حوافر هذه الخيول ... والغبار الذى تثيره فى الجو ...

نعم حتى غبار ساحة الجهاد له قيمة وعظمة.

ثم يأتى جواب القسم، ويقول سبحانه: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ».

نعم، الإنسان البعيد عن التريية الصحيحة ... والذي لم تشرق في قلبه أنوار المعارف الإلهية وتعاليم الأنبياء ... الإنسان الخاضع لأهوائه وشهواته الجامحة هو حتماً كفور بالنعمة وبخييل ... إنه لكنود.

و «كنود»: اسم للأرض التي لا تثبت، وتطلق على الإنسان الكفور والبخييل أيضاً.

كلمة (الإنسان) في مثل هذه الاستعمالات القرآنية تعنى الأفراد المتطبعين على الشر والشهوات الجامحة والطغيان.

«وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ». فهو بصير بنفسه، وإن استطاع أن يخفى سريره فلا يستطيع أن يخفيها عن الله وعن ضميره، اعترف بهذه الحقيقة أم لم يعترف.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٨

«وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ». أى أنه شديد الحب للمال والمتاع.

إطلاق «الخير» على المال في الآية يعود إلى أن المال في حد ذاته شيء حسن، ويستطيع أن يكون وسيلة لأنواع الخيرات، لكن الإنسان الكنود يصرفه عن هدفه الأصلي، وينفقه في طريق ذاتياته وأهوائه.

وفي استفهام استنكارى يقول سبحانه: «أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ». «وَحُصِّلَ مَيَا فِي الصُّدُورِ». وانكشف ما في نفسه من كفر وإيمان، ورياء واخلاص وغرور وتواضع وسائر نيات الخير والشر.

«إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ». نعم، فهو عليم بأعمالهم ونياتهم وسيجازيهم وفقها.

«بعثر»: من «البعثرة» وهى البعث والإثارة والإخراج وبعثرة ما فى القبور، بعث الموتى واخراجهم من القبور.

«حُصِّلَ»: من التحصيل، وهو فى الأصل يعنى إخراج اللب من القشر، وكذلك تصفية المعادن، واستخراج الذهب وأمثاله من الخامات. ثم استعملت لمطلق الإستخراج والفصل.

والكلمة فى الآية تعنى فصل الخير عن الشر فى القلوب ... الإيمان عن الكفر، أو الصفات الحسنه عن الصفات السيئه ... أو النوايا الحسنه عن الخبيئه ... تُفصل فى ذلك اليوم وتظهر، وينال كل فرد حسب ذلك جزاؤه.

والتعبير بكلمة «يومئذ» يعنى أن الله (فى ذلك اليوم) خير بأعمال العباد وسرائرهم.

ونعلم أن الله سبحانه عليم دائماً بذات الصدور. فالتعبير «يومئذ» هو لأن ذلك اليوم يوم الجزاء، والله يجازيهم على أعمالهم وعقائدهم.

نعم، الله سبحانه عليم وخبير بأسرارنا وما تنطوى عليه نفوسنا كاملاً، لكن أثر هذا العلم سيكون أظهر وأوضح عند الجزاء، وهذا التحذير لو دخل دائرة إيمان البشر لكان سداً منيعاً بينهم وبين الذنوب.

«نهاية تفسير سورة العاديات»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٩

## ١٠١. سورة القارعة

محتوى السورة وفضيلتها: تتناول هذه السورة بشكل عام، المعاد، ومقدماته، حيث تُصنّف الناس يوم القيامة، إلى صنفين أو جماعتين: الجماعة التى تكون أعمالها ثقيلة فى ميزان العدل الإلهي، فتحظى جزاءً بذلك، حياة راضية سعيدة فى جوار الرحمة الإلهية، وجماعة أعمالها خفيفة الوزن، فتعيش فى نار جهنم الحارّة المحرقة.

وقد اشتق اسم هذه السورة، أى (القارعة) من الآية الاولى فيها.

فى المجمع عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ القارعة آمنه الله من فتنة الدجال أن يؤمن به، ومن قبح جهنم يوم القيامة».

القَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعُفُوسِ (٥)

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهَوَّ فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةً (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأَمَّهُ هَاوِيَةً (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٠

الحادثة القارعة: هذه الآيات تصف القيامة وتقول: «الْقَارِعَةُ» \* مَا الْقَارِعَةُ».

«القارعة»: من القرع، وهو طرق الشيء بالشيء مع إحداث صوت شديد، وسميت كل حادثة هائلة صعبة بالقارعة. (تاء التأنيث قد تكون إشارة للتأكيد).

الآية الثالثة تخاطب حتى النبي صلى الله عليه وآله وتقول له: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ». وهذا يدل على أن عظمة هذه الحادثة القارعة إلى درجة لا تخطر على فكر أحد.

أكثر المفسرين ذكروا أن «القارعة» أحد أسماء القيامة، ولكن لم يوضحوا هل أنه اسم لمقدمات القيامة إذ تفرع هذه الدنيا. أو أنه اسم للمرحلة التالية .. أي مرحلة احياء الموتى، وظهور عالم جديد، وتسميتها «القارعة»- في هذه الحالة- لما تبعته من خوف وذعر في القلوب ..

ولكن الإحتمال الأول أنسب، وإن ذكرت الحادثتان كلاهما في هذه الآيات متتابعين.

وفي وصف ذلك اليوم العجيب يقول سبحانه: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ».

والتشبيه بالفراش قد يكون لأن هذه الحشرات تلقى بنفسها بشكل جنوني في النار، وهذا ما يفعله أهل السيئات إذ يلقون بأنفسهم في جهنم.

ثم تذكر الآية التالية وصفاً آخر لذلك اليوم وتقول: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ».

و «العهن»: هو الصوف المصبوغ.

و «المنفوش»: هو المنشور ويتم ذلك عادة بآلة الحلج الخاصة.

سبق أن ذكرنا أن القرآن الكريم في مواضع متعددة يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنها تتحرك أولاً، ثم تدك وتتلاشى وأخيراً تصبح بشكل غبار متطاير في السماء. وهذه الحالة الأخيرة تشبهها الآية بالصوف الملون المحلوج ... الصوف المتطاير في مهبّ الريح، لم يبق منه إلّا ألوان ... وهذه آخر مراحل انهدام الجبال.

ثم تتطرق الآيات التالية إلى الحشر والنشر وإحياء الموتى وتقسيمهم إلى مجموعتين:

«فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ». أي إن ميزان عمله ثقيل. «فَهَوَّ فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةً» \* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأَمَّهُ هَاوِيَةً \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ» (١).

«موازين»: جمع ميزان، وهو وسيلة للوزن، تستعمل في وزن الأجسام، ثم استعملت في المعايير المعنوية.

(١) «ماهيه»: أصلها «ما هي»، والهاء الحقت بها للسكت.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢١

وليس من الضروري أن يكون الميزان هو الآلة المعروفة ذات الكفتين، بل هو كل وسيلة لتقويم الوزن، كما ورد في الحديث: «إن أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين» (١).

وفي احتجاج الطبرسي عن الصادق عليه السلام حين سئل عن معنى الميزان قال: «العدل».

وبهذا نفهم أن أولياء الله وقوانين العدل الإلهي هي موازين يعرض عليها الناس وأعمالهم ويتم قياس الوزن على مقدار الشبه والمطابقة.

واضح أن المقصود بثقل الموازين وخفتها هو ثقل الأشياء التي توزن بها وخفة تلك الأشياء.  
كلمة «ام» في قوله: «فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ» تعنى المأوى والملجأ، لأن «الام» هى مأوى ابنائها وملاذهم، ويكون معنى الآية: إن هؤلاء المذنبين الذين خفت موازينهم لا ملاذ لهم سوى جهنم، وويل لمن كان ملجؤه جهنم.  
«نهاية تفسير سورة القارعة»

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد/ ١١٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٣

## ١٠٢. سورة التكاثر

محتوى السورة: هذه السورة تتناول في مجموعها تفاخر الأفراد على بعضهم استناداً إلى مسائل موهومة، وتذم ذلك وتلوم عليه، ثم تحذرهم من حساب المعاد وعذاب جهنم ومما سيسألون يوم ذاك عن النعم التي من الله بها عليهم.  
وقد اشتق اسم هذه السورة، أى (التكاثر) من الآية الاولى فيها.  
فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها لم يحاسبه الله بالنعيم الذى أنعم عليه فى دار الدنيا، واعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية».

إن كل هذا الثواب إنما هو لمن يقرأها ولمن يطبقها فى برنامج حياته ويتفاعل معها روحياً ونفسياً.  
أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سِوَفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سِوَفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)  
مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٤

سبب التزل

المفسرون يعتقدون أن السورة نزلت فى قبائل كانت تتفاخر على بعضها بكثرة الأموال والأنفس حتى أنها كانت تذهب إلى المقابر وتعد موتاهم لترفع احصائية أفراد القبيلة.  
سبب النزول - مهما كان - فهو لا يحد قطعاً معنى الآية.

التفسير

بلاء التكاثر والتفاخر: الآيات الاولى توجه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين وتقول:

«أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ». فى الأنفس والأموال.

حتى إنكم ذهبتم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم: «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ».

«ألهاكم»: من «اللهو» وهو الإنشغال بالأعمال الصغيرة والإنصراف عن المهام الكبيرة؛ و «التكاثر»: يعنى التفاخر والمباهاة.

«زرتم»: من الزيارة و «زور» (على وزن قول) فى الأصل بمعنى أعلى الصدر، ثم استعمل للقاء والمواجهة؛ «المقابر»: جمع مقبرة، وهى مكان دفن الميت. وزيارة المقابر إما أن تكون كناية عن الموت، أو بمعنى الذهاب إلى المقابر وإحصاء الموتى بهدف التكاثر فى الأنفس والتفاخر بالعدد (حسب التفسير المشهور).

والمعنى الثانى أصح، وأحد شواهد كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام - فى الخطبة (٢٢١) نهج البلاغة - قاله بعد تلاوته: «أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» «يا له مرأماً أبعده! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفضعه! لقد استخلوا منهم أى مدكر وتناوشوهم من مكان بعيد! أقبصارع آباءهم يفخرون! أم بعديد الهلكى يتكاثرون! يرتجعون منهم أجساداً خوت، وحركات سكنت. ولأن يكونوا

عبراً أحق من أن يكونوا مفتخرًا.

الآيات التالية فيها تهديد شديد لهؤلاء المتكاثرين، تقول: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ».

فليس الأمر كما ترون، وبه تتفاخرون، بل سوف تعلمون عاجلاً نتيجة هذا التكاثر الموهوم.

لمزيد من التأكيد يقول سبحانه: «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وفى المجمع عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر، إلى قوله: كَلَّا سوف

تعلمون، يريد في القبر، ثم كَلَّا سوف تعلمون، بعد البعث».

«كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ». كَلَّا ليس الأمر كما تظنون أيها المتفاخرون المتكاثرون.

فلو أنكم تعلمون الآخرة علم اليقين، لما اتجهتم إلى التفاخر والمباهاة بهذه المسائل الباطلة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٥

ولمزيد من التأكيد والإنذار تقول لهم الآيات التالية:

«لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ». «ثُمَّ لَتَسْلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ».

في ذلك اليوم عليكم أن توضحوا كيف انفقتم تلك النعم الإلهية؛ وهل استخدمتموها في طاعة الله أم في معصيته، أم أنكم ضيعتم

النعمة ولم تؤدوا حقها.

إنّ النعم له معنى واسع جداً يشمل كل المواهب الإلهية المعنوية منها مثل: الدين والإيمان والإسلام والقرآن والولاية، وأنواع النعم

المادية الفردية منها والاجتماعية. بيد أنّ النعم التي لها أهمية أكبر مثل: نعمه «الإيمان والولاية» يُسأل عنها أكثر، هل أدى الإنسان حقها

أم لا؟

بحثان

١- منبع التفاخر والتكاثر: من آيات السورة يتبين أنّ أحد العوامل الأساسية للتفاخر والتكاثر والمباهاة، هو الجهل بجزاء الآخرة وعدم

الإيمان بالمعاد.

كما أنّ جهل الإنسان بضعفه ومسكنته ... ببدايته ونهايته ... من العوامل الاخرى الباعثة على الكبر والغرور والتفاخر.

ثم عامل آخر لهذه الظاهرة هو الإحساس بالضعف وعقدة الحقارة الناتجة عن الفشل.

والأفراد الفاشلون من أجل أن يغطوا على فشلهم يلجأون إلى الفخر والمباهاة، ولذلك في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما من رجل تكبر أو تجبر إلّا لدله وجدها في نفسه».

٢- اليقين ومراحله: «اليقين» يقابل «الشك». ويستفاد من الروايات أنّ اليقين هو أعلى مراحل الإيمان، وهي ثلاثة:

(أ) علم اليقين: وهو الذي يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخاناً فيعلم علم اليقين أن هناك ناراً.

(ب) عين اليقين: وهو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأن يرى بعينه مثلاً النار.

(ج) حق اليقين: وهو كأن يدخل الإنسان النار بنفسه ويحس بحرقتها، ويتصف بصفاتهما.

وهذه أعلى مراحل اليقين؛ وهو في الحقيقة مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم والعلم بأنّ خلاف ذلك العلم محال.

«نهاية تفسير سورة التكاثر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٧

### ١٠٣. سورة العصر

محتوى السورة: شمولية هذه السورة تبلغ درجة حدت ببعض المفسرين إلى أن يرى فيها خلاصة كل مفاهيم القرآن وأهدافه.



تبدأ السورة من قسم عميق المحتوى بالعصر. ثم تتحدث عن خسران كل أبناء البشر خسراناً قائماً فى طبيعته حياتهم التدريجية، ثم تستثنى مجموعة واحدة من هذا الأصل العام، وهى التى لها منهج ذو أربع مواد:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، وهذه الاصول الأربعة هى فى الواقع المنهج العقائدى والعملى الفردى والإجتماعى للإسلام.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ والعصر فى نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقاً وجهه، ضاحكاً سنه، قريرة عينه، حتى يدخل الجنة».

إن هذه الفضائل وهذه البشرى نصيب من طَبَقِ الاصول الأربعة المذكورة فى حياته، لا أن يقنع فقط بقراءتها. وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣) مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٨

فى بدايه هذه السورة نواجه قسماً قرآنياً جديداً. يقول سبحانه: «وَالْعَصْرِ».

«العصر»: فى الأصل الضغط، وإنما اطلق على وقت معين من النهار لأن الأعمال فيه مضغوطة. ثم اطلقت الكلمة على مطلق الزمان ومراحل تاريخ البشرية، أو مقطع زمانى معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام.

قيل: إنه كل الزمان وتاريخ البشرية المملوء بدروس العبرة، والأحداث الجسيمة. وهو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهى.

بعضهم قال: إنه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثة النبوية المباركة، أو عصر قيام المهدي المنتظر عليه السلام، وهى مقاطع زمنية ذات خصائص متميزة وعظمة فائقة فى تاريخ البشر.

والقسم فى الآية إنما هو بتلك الأزمنة الخاصة.

ولكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان وتاريخ البشرية، لأن القسم القرآنى - كما ذكرنا مراراً - يتناسب مع الموضوع الذى أقسم الله من أجله ومن المؤكد أن خسران الإنسان فى الحياة ناتج عن تصرّم عمره، أو أنه عصر بعثته الرسول صلى الله عليه وآله، لأن المنهج ذا المواد الأربع فى ذيل هذه السورة نزل فى هذا العصر.

الآية التالية تحمل الموضوع الذى جاء القسم من أجله. يقول سبحانه: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ».

الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى. تمرّ الساعات والأيام والأشهر والأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية والمعنوية، تتناقص قدرته باستمرار.

القلب له قدرة معينة على الضربان، وحين تنفذ هذه القدرة يتوقف القلب تلقائياً دون علة من عيب أو مرض، هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض، وهكذا سائر الأجهزة الوجودية للإنسان، وثروات قدراته المختلفة.

إن الدنيا فى المنظور الإسلامى سوق تجارة، كما يقول الإمام على بن محمّد الهادى عليه السلام:

«الدنيا سوق، ربح فيها قوم وخسر آخرون» (١).

الآية الكريمة التى نحن بصددتها تقول: كل الناس فى هذه السوق الكبرى خاسرون إلا مجموعة تسير على المنهج الذى تبينه الآية التالية.

(١) تحف العقول / ٤٨٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٩

نعم، هناك طريق واحد لا غير لتفادى هذا الخسران العظيم القهرى الإجبارى، وهو الذى تبينه آخر آيات هذه السورة.

«إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ».

## بحث

منهج السعادة ذو المواد الأربع: من المهم أن نقف ولو قليلاً عند المنهج الذي وضعه القرآن الكريم للنجاة من ذلك الخسران ... إنه منهج يتكون من أربعة اصول هي:

الأصل الأول: «الإيمان» وهو البناء التحتي لكل نشاطات الإنسان، لأنّ فعاليات الإنسان العملية تنطلق من اسس فكره واعتقاده، لا كالحوانات المدفوعة في حركاتها بدافع غريزي.

بعبارة اخرى: أعمال الإنسان بلورة لعقائده وأفكاره، ومن هنا فإنّ جميع الأنبياء بدأوا قبل كل شيء باصلاح الاسس الاعتقادية للامم والشعوب، وحاربوا الشرك بشكل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل والشقاوة والتمزق الإجتماعي.

الأصل الثاني: «العمل الصالح» وهو ثمرة دوحه الإيمان. تقول الآية: «وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ» لا العبادات فحسب، ولا الإنفاق في سبيل الله وحده، ولا الجهاد في سبيل الله فقط، ولا الإكتفاء بطلب العلم ... بل كل الصالحات التي من شأنها أن تدفع إلى تكامل النفوس وتربية الأخلاق والقرب من الله، وتقدم المجتمع الإنساني.

ولما كان الإيمان والعمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلّا في ظل حركة اجتماعية تستهدف الدعوة إلى الحق ومعرفته من جهة، والدعوة إلى الصبر والإستقامة على طريق النهوض باعباء الرسالة، فإنّ هذين الأصلين تبعهما أصلان آخران هما في الحقيقة ضمان لتنفيذ أصلي «الإيمان» و «العمل الصالح».

الأصل الثالث: «التواصي بالحق» أي الدعوة العامة إلى الحق، ليميز كل أفراد المجتمع الحق من الباطل، ويضعوه نصب أعينهم، ولا ينحرفون عنه في مسيرتهم الحياتية.

الأصل الرابع: «التواصي بالصبر» والاستقامة، إذ بعد الإيمان والحركة في المسيرة الإيمانية تبرز في الطريق العوائق والموانع والسرور وبدون الاستقامة والصبر لا يمكن المواصلة في إحقاق الحق والعمل الصالح والثبات على الإيمان.

نعم، إحقاق الحق في المجتمع لا يمكن من دون حركة عامه وعزم اجتماعي، ومن دون

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٠

الإستقامة والوقوف بوجه ألوان التحديات.

«الصبر» هنا يحمل مفهوماً واسعاً يشمل الصبر على الطاعة، والصبر على دوافع المعصية، والصبر إزاء المصائب والحوادث المرّة، وفقدان الإمكانات والثروة والثمرات.

والمسلمون اليوم إذا طبقوا هذه الاصول الأربعة في حياتهم الفردية والاجتماعية لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل وتدهور وتخلف، ولبدلوا ضعفهم وهزيمتهم انتصاراً، ولاقتلعوا شرّ الأشرار من على ظهر الأرض.

«نهاية تفسير سورة العصر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣١

## ١٠٤. سورة الهمزة

محتوى السورة: هذه السورة تتحدث عن اناس كرسوا كل همهم لجمع المال، وحصروا كل قيم الإنسان الوجودية في هذا الجمع. ثم هم يسخرون من الذين لا يملكون المال وبهم يستهزئون.

السورة تتحدث في النهاية عن المصير المؤلم الذي ينتظر هؤلاء، وكيف أنّهم يلقون في جهنم صاغرين، وأنّ نار جهنم تتجه بلظاها أولاً إلى قلوبهم المليئة بالكبر والغرور، وتحرقها بالنار، بنار مستمرة.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من

استهزأ بمحمد وأصحابه».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ ويل لكل همزة في فريضته من فرائضه، نفت عنه الفقر وجلبت عليه الرزق وتدفع عنه ميتة السوء».

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٢

سبب النزول

في المجمع: قيل: إن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي صلى الله عليه وآله من ورائه صلى الله عليه وآله و آلهم و يطعن عليه في وجهه.

وقيل: نزلت في الأحنس بن شريق الثقفي، وكان يلزم الناس ويغتابهم.

ولكن، إن قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفي ذلك شمولية مفاهيم الآيات، بل إنها تستوعب كل الذين يحملون هذه الصفات.

التفسير

الويل للهمزاتين واللمزتين: تبدأ هذه السورة بتهديد قارع وتقول: «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» ... لكل من يستهزئ بالآخرين، ويعيبهم، ويغتابهم، ويطعن بهم، بلسانه وحر كاته وبيده، وعينه وحاجبه.

«الهمزة» و «اللمزة»: صيغتا مبالغة. من مجموع آراء اللغويين في الكلمتين يستفاد أنهما بمعنى واحد، ولهما مفهوم واسع يشمل كل ألوان إصاق العيوب بالناس وغيبتهم والظعن والإستهزاء بهم، باللسان والإشارة والنميمة والذم.

أساساً، الإسلام ينظر إلى شخصية الإنسان وكرامته باحترام بالغ، ويعد أي عمل يؤدي إلى إهانته الآخرين ذنباً كبيراً. وفي أمالي الصدوق عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أذل الناس من أهان الناس».

وفي عوالي اللثالي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «رأيت ليلة الإسراء قوماً يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه، ويقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أحيكم. فقلت: يا جبرئيل من هؤلاء؟

فقال: هؤلاء الهمازون من امتك اللمازون».

ثم تذكر الآية التالية منبع ظاهرة اللمز والهمز في الأفراد، وترى أنها تنشأ غالباً من كبر وغرور ناشئين بدورهما من تراكم الثروة لدى هؤلاء الأفراد، وتقول: «الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» بطريق مشروع أو غير مشروع.

فهو انشد بالمال انشداداً جعله منشغلاً دائماً بعد المال والإلتذاذ بيريح الدرهم والدينار.

تحول الدرهم والدينار عنده إلى وثن ويرى فيه شخصيته وينظر من خلاله أيضاً إلى شخصية الآخرين، ومن الطبيعي أن يكون تعامل مثل هذا الإنسان الضال الأبله بالسخرية والإستهزاء مع المؤمنين الفقراء.

«عدده»: من (عد) بمعنى حسب. هذه الآية تقصد الذين يدخرون الأموال ولا ينظرون

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٣

إليها باعتبارها وسيلة بل هدفاً، ولا يحدهم قيد أو شرط في جمعها، حتى ولو كان من طريق الحرام والإعتداء على حقوق الآخرين وارتكاب كل دنيئة ورذيلة، ويعتبرون ذلك دليلاً على عظمتهم وشخصيتهم.

هؤلاء لا يريدون المال لسد حاجاتهم الحياتية، ولذلك يزداد حرصهم على جمع المال كلما كثرت أموالهم، وإلا فإن المال في الحدود المعقولة ومن الطرق المشروعة ليس بمذموم، بل إن القرآن الكريم عبر عنه في موضع بأنه «فضل الله»؛ حيث يقول تعالى في الآية (١٠) من سورة الجمعة: «وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ».

وفي موضع آخر يسميه خيراً، كقوله سبحانه في الآية (١٨٠) من سورة البقرة: «كَتَبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ».

مثل هذا المال ليس بالتأكيد مبعث طغيان، ولا وسيلة تفاخر، ولا دافع سخريه بالآخرين، لكن المال الذي يصبح معبوداً وهدفاً نهائياً، ويدعو أصحابه من أمثال «قارون» إلى الطغيان، هو العار والذلة والمأساة ومبعث البعد عن الله والخلود في النار.

ومثل هذا المال لا يمكن جمعه وعدّه إلا بالسقوط في أحوال الحرام. في الخصال عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «لا يجتمع المال إلا بخصال خمس: ببخل شديد، وأمل طويل، وحرص غالب، وقطيعة الرحم، وإيثار الدنيا على الآخرة». في الآية التالية يقول سبحانه: «يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ».

ما أنفه هذا التفكير! قارون بكل ما كان يملكه من كنوز لا تستطيع العصبه أولو القوه أن تحمل مفاتها، لم يستطع أن يستخدم أمواله لتأخير مصيره الأسود ساعة واحدة:

«فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ» (١).

الأموال التي كان يمتلكها الفراعنة: «مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ» (٢)، تحولت في ساعة إلى غيرهم: «كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ» (٣).

لذلك فإن هؤلاء اللاهين بأموالهم، حين تزول من أمام أعينهم الحجب والأستار يوم القيامة يرفعون عقيرتهم بالقول: «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً» (٤).

من هنا يتبين أن الظن بقدره المال على الإخلاق، هو الذي يدفع إلى جمع المال، وجمع المال

(١) سورة القصص / ٨١.

(٢) سورة الدخان / ٢٥-٢٧.

(٣) سورة الدخان / ٢٨.

(٤) سورة الحاقة / ٢٨ و ٢٩.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٥٣٤

مختصر الامثال ج ٥، ص: ٥٧٥

أيضاً عامل على الإستهزاء والسخرية بالآخرين عند هؤلاء الغافلين.

القرآن الكريم يرد على هؤلاء ويقول: «كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ». كلاً، ليس الأمر كما يتصور، فسرعان ما يقذف باحتقار وذلة في نار محطمة «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ\* نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ\* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئَةِ».

«لينبذن»: من نبذ، أى رمى الشيء لتفاهة قيمته.

أى إن الله سبحانه يرمى هؤلاء المغرورين المتعاليين يوم القيامة في نار جهنم كموجودات تافهة لا قيمة لها، ليروا نتيجة كبرهم وغرورهم.

«الخطمة»: صيغة مبالغة من «حطم» أى هشم. وهذا يعنى أن نار جهنم تهشم أعضاء هؤلاء.

عبارة «نار الله» دليل على عظمة هذه النار؛ و«الموقدة» تعنى استعارها المستمر.

والعجيب أن هذه النار ليست مثل نار الدنيا التي تحرق الجلد أولاً ثم تنفذ إلى الداخل، بل هي تبعث بلهبها أولاً إلى القلب، وتحرق الداخل وتبدأ أولاً بالقلب ثم بما يحيطه، ثم تنفذ إلى الخارج.

لماذا لا تكون كذلك، وقلوب هؤلاء الطاغين مركز للكفر والكبر والغرور، وبؤرة حب الدنيا والثروة والمال!؟

إِنَّهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَحْرَقُوا قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِسَخَرِيَّتِهِمْ وَهَمَزِهِمْ وَلَمَزِهِمْ! الْعَدَالَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَقْتَضِي أَنْ يَرَى هَؤُلَاءِ جَزَاءَ شَيْبِهِ أَعْمَالِهِمْ. الْآيَاتُ الْآخِرَةُ مِنَ السُّورَةِ تَقُولُ: «إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ\* فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ».

و «مؤصدة»: من الإيصاد، بمعنى الأحكام في غلق الباب.

هؤلاء يقبعون في غرف تعذيب مغلقة الأبواب لا طريق للخلاص منها، كما كانوا يجمعون أموالهم في الخزانات المغلقة الموصدة. جمع من المفسرين قال: إنها الأوتاد الحديدية العظيمة التي تغلق بها أبواب جهنم حتى لم يعد هناك طريق للخروج منها أبداً، وهي بذلك تأكيد على الآية السابقة التي تقول: «إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ».

«نهاية تفسير سورة الهمة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٥

## ١٠٥. سورة الفيل

محتوى السورة: هذه السورة - كما يظهر من اسمها - تشير إلى الحادثة التاريخية التي اقترنت بولادة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيها نجى الله سبحانه الكعبة من شر جيش كافر كبير تجهز من اليمن ممتطياً الفيل.

التذكير بهذه القصة فيه تحذير للكفار المغرورين المعاندين، كي يفهموا ضعفهم تجاه قدرة الله تعالى الذي أباد جيشاً عظيماً بطير أبابيل تحمل حجارة من سجيل، وهو سبحانه إذن قادر على أن يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع: أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ في الفريضة «لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» شهد له يوم القيامة كل سهل وجبل ومدبر بأنه كان من المصلين، وينادي يوم القيامة مناد: صدقتم على عبدى، قبلت شهادتكم له، أو عليه. أدخلوا عبدى الجنة، ولا تحاسبوه فإنه ممن احبته واحب عمله».

إن هذه الفضائل وهذا الثواب لمن كانت قراءته باعثاً على انكسار روح الغرور في نفسه، وعلى السير في طريق رضا الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٦

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَزِمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) قصة أصحاب الفيل: ذكر المفسرون والمؤرخون: إن «ذو نواس» ملك اليمن اضطهد نصارى نجران قرب اليمن كي يتخلوا عن دينهم (ذكر القرآن قصة هذا الإضطهاد في موضوع أصحاب الأخدود في سورة البروج).

بعد هذه الجريمة نجا من بين النصارى رجل اسمه (دوس) وتوجه إلى قيصر الروم الذي كان على دين المسيح، وشرح له ما جرى. ولما كانت المسافة بين الروم واليمن بعيدة، كتب القيصر إلى النجاشي (حاكم الحبشة) لينتقم من (ذو نواس) لنصارى نجران، وارسل الكتاب بيد القاصد نفسه.

جهز النجاشي جيشاً عظيماً يبلغ سبعين ألف محارب بقيادة (أرياط) ووجهه إلى اليمن، وكان (أبرهة) أيضاً من قواد ذلك الجيش. اندحر (ذو نواس) وأصبح (أرياط) حاكماً على اليمن، وبعد مدة ثار عليه أبرهة وأزاله من الحكم وجلس في مكانه. بلغ ذلك النجاشي، فقرر أن يقمع (أبرهة). لكن أبرهة أعلن استسلامه الكامل للنجاشي ووفاءه له. حين رأى النجاشي منه ذلك عفا عنه وأبقاه في مكانه.

و (أبرهة) من أجل أن يثبت ولاءه، بنى كنيسة ضخمة جميلة غاية الجمال، لا يوجد على ظهر الأرض مثلها آنذاك، وقرر أن يدعو أهل الجزيرة العربية لأن يحجوا إليها بدل (الكعبة)، وينقل مكانة الكعبة إلى أرض اليمن. أرسل أبرهة الوفود والدعاة إلى قبائل العرب في أرض الحجاز، يدعونهم إلى حج كنيسة اليمن.

تذكر بعض الروايات أن مجموعة من العرب جاؤوا خفية وأضرموا النار في الكنيسة، وقيل إنهم لوثوها بالقاذورات، ليعبروا عن

اعتراضهم على فعل أبرهه ويهينوا معبده.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٧

غضب أبرهه وقرر أن يهدم الكعبة هدماً كاملاً، للانتقام ولتوجيه أنظار العرب إلى المعبد الجديد، فجهز جيشاً عظيماً كان بعض أفراده يمتطي الفيل، واتجه نحو مكة.

عند اقترابه من مكة بعث من ينهب أموال أهل مكة، وكان بين النهب مائتا بعير لعبد المطلب.

بعث (أبرهه) قاصداً إلى مكة. جاء رسول أبرهه إلى مكة ويحث عن شريفها فدلوه على عبد المطلب، فحدثه بحديث أبرهه، فقال عبد المطلب، نحن لا طاقة لنا بحربكم، ولليبت ربّ يحميه.

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهه أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه [فنزّل أبرهه عن سريره فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك فقال له ذلك الترجمان فقال: حاجتي أن يرد على الملك مئتي بعير أصابها لي فلما قال ذلك قال أبرهه لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آباءك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!

قال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربّ سيمعنه ... فرد أبرهه على عبد المطلب الإبل التي أصاب له.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال، والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمّ إنّ العبد يمنع رحله فامنع حلالك لا يغلبن صليبيهم ومحالهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبيلتنا فأمر ما بدا لك

قال ابن اسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهه فاعل بمكة إذا دخلها.

فلما أصبح أبرهه تهيأ لدخول مكة، وهياً فيه وعبي جيشه وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهه مجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب [الخثعمي حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ باذنه فقال: أبرك محمود، أو ارجع راشداً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٨

من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل اذنه، فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشدد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين [ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلّاهلك.

وقيل: إنّ الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه ويخرج من الجانب الآخر.

(أبرهه) أصيب بحجر، وجرح، فاعيد إلى صنعاء عاصمة ملكه، وهناك فارق الحياة.

وقيل: إنّ مرض الحصبة والجدرى شوهد لأول مرّة في أرض العرب في تلك السنة.

وفي هذا العام ولد رسول الله صلى الله عليه وآله حسب الرواية المشهورة، وقيل إنّ بين الحادثتين إرتباطاً.

إن أهمية هذه الحادثة الكبرى بلغت درجة تسمية ذلك العام بعام الفيل، وأصبح مبدأ تاريخ العرب «١».

التفسير

كيد أبرهه: يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وآله في الآية الأولى من السورة ويقول له: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ». «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ». لقد استهدفوا الكعبة ليهدموها وليقيموا بدلها كعبة اليمن، وليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد الجديد، لكنّه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبة شهرة وعظمته بعد أن ذاع نأ أصحاب الفيل فى جزيرة العرب، وأصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذى قبل، وأسبغ على هذه الديار مزيداً من الأمن.

كيدهم إذن صار فى تضليل، أى فى ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم.

ثم تشرح الآيات التالية بعض جوانب الواقعة: «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ».

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وآله لابن هشام الحميرى ١/ ٢٨؛ وبحار الأنوار ١٥/ ٧٠ و ١٣٠؛ ومجمع البيان ١٠/ ٤٤٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٩

عبارة «طيراً أبابيل» تعنى طيراً على شكل مجموعات، والمشهور أن هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر فى اتجاه أصحاب الفيل.

«تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ» (١).

«فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ».

و «العصف»: هو النبات الجاف المتهشم، أى هو (التبن) بعبارة اخرى.

وتعبير «مأكول» إشارة إلى أن هذا التبن قد سحق مرّة اخرى بأسنان الحيوان، ثم هشم ثلثه فى معدته، وهذا يعنى أن أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجاره عليهم.

وفى هذا السورة تحذير وإنذار لكل الطغاة والمستكبرين فى العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدرة الله سبحانه.

«نهاية تفسير سورة الفيل»

(١) «سجّيل»: كلمه فارسيه مأخوذة من دمج كلمتين هما «سنگ» و «گل»؛ وتعنى الطين المتحجر.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤١

## ١٠٦. سورة قريش

محتوى السورة: هذه السورة مكمله لسورة الفيل، وآياتها تدل على ذلك. تتضمن هذه السورة بيان نعمه الله على قريش ولطفه لهم

ومحبته له، كى يحرك فيهم دافع الشكر ويحثهم على عبادة ربّ هذا البيت العظيم الذى يستمدون منه كل مفاخرهم وشرفهم.

وكما إن سورة «الضحى» وسورة «الشرح» تعتبران سورة واحدة كذلك سورة «الفيل» وسورة «قريش» هما سورة واحدة، وإرتباط موضوعهما يدل على ذلك أيضاً.

ولذلك وجب قراءتهما معاً فى الصلاة لمن يرى وجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها».

هذه الفضيلة دون شك لمن عبد ربّ البيت حق عبادته، وصان حرمة البيت كما يجب، وتشربت نفسه برسالة هذا المركز التوحيدى.

لِيَلْفِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)  
مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٢

في سورة الفيل جاء ذكر إبادة أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة وهذه السورة التي تعتبر امتداداً للسورة السابقة تقول: نحن جعلنا أصحاب الفيل كعصف مأكول:

«لِيَلْفِ قُرَيْشٍ». أى لكى تأتلف قريش فى هذه الأرض المقدسة وتتهياً بذلك مقدمات ظهور نبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

«إيلاف»: مصدر آلف، و «آلفه» أى جعله يألف، أى جعله يجتمع اجتماعاً مقروناً بالانسجام والانس والإلتيام.

والمقصود إيجاد الالفه بين قريش وهذه الأرض المقدسة وهى مكة والبيت العتيق، لأنهم وكل أهل مكة إختاروا السكن فى هذه الأرض لمكانتها وأمنها. كثير من أهل الحجاز كانوا يحجون البيت كل سنة، ويقترون حجهم بنشاط أدبى واقتصادى فى هذا البلد الأمين.

كل ذلك كان يحدث فى ظل الجو الآمن، ولو أن هذا الأمن قد انعدم أو أن الكعبة قد انهدمت بفعل هجوم أبرهه وأمثاله لما كان لأحد الفئه بهذه الأرض.

«إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ».

مكة تقع فى وادٍ غير ذى زرع، والرعى فيها قليل، لذلك كانت عائدات أهل مكة غالباً من قوافل التجارة، فى فصل الشتاء يتجهون إلى أرض اليمن فى الجنوب حيث الهواء معتدل، وفى فصل الصيف إلى أرض الشام فى الشمال حيث الجو لطيف. والشام واليمن كانا من مراكز التجارة آنئذ، ومكة والمدينة حلقتا اتصال بينهما.

هذه هى رحلة الشتاء ... ورحلة الصيف.

والمقصود ب «إيلافهم» فى الآية أعلاه قد يكون جعلهم يألفون الأرض المقدسة خلال رحلاتهم وينشدون إليها لما فيها من أمن، كى لا تغريهم أرض اليمن والشام، فيسكنون فيها ويهجرون مكة.

وقد يكون المقصود إيجاد الالفه بينهم وبين سائر القبائل طوال مدة الرحلتين، لأنّ الناس بدأوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام ويعيرونها أهمية خاصة بعد قصة اندحار جيش أبرهه.

قريش لم تكن طبعاً مستحقة لكل هذا اللطف الإلهى لما كانت تقترفه من آثام، لكن الله لطف بهم لما كان مقدرًا للإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن يظهر من هذه القبيلة وتلك الأرض المقدسة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٣

الآية الاخيرة تقول: إن هذه النعم الإلهية التى أغدقت على قريش ببركة الكعبة يجب أن تدفعهم إلى عبادة رب البيت لا الأوثان. «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ». «الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» ... الذى جعل تجارتهم رائجة مريحة ومربحة، ودفع عنهم الخوف والضرر، كل ذلك باندحار جيش أبرهه، وبفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام مؤسس الكعبة. لكنهم لم يقدرُوا هذه النعمة، فبدلوا البيت المقدس بيت للأوثان، وذاقوا فى النهاية وبال أمرهم.

«نهاية تفسير سورة قريش»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٥

## ١٠٧. سورة الماعون

محتوى السورة: هذه السورة بشكل عام تذكر صفات وأعمال منكرى القيامة فى خمس مراحل، فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا ينفقون فى سبيل الله وعلى طريق مساعدة اليتامى والمساكين، ثم هم يتساهلون فى الصلاة، ويعرضون عن مساعدة المحتاجين.



وفى المجمع: قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب كان ينحرف في كل أسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصاه. فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن الباقر عليه السلام قال: «من قرأ «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ» فى فرائضه ونوافله قبل الله صلته وصيامه، ولم يحاسبه بما كان منه فى الحياة الدنيا».

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٦

إنكار المعاد وآثاره المشؤومة: هذه السورة المباركة تبدأ بسؤال موجه للنبي صلى الله عليه وآله عن الآثار المشؤومة لإنكار المعاد وتقول: «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ».

وتجيب عن السؤال: «فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ».

«الدين» هنا «الجزاء» أو يوم الجزاء، وإنكار يوم الجزاء له عواقبه الوخيمة وانعكاسات على أعمال الإنسان، وفى هذه السورة ذكرت خمسة آثار لهذا الإنكار منها: «طرد اليتيم، وعدم الحث على إطعام المسكين»، أى إن الشخص المنكر للمعاد لا يطعم المساكين، ولا يدعو الآخرين إلى إطعامهم.

«يدع»: أى يدفع دفعاً شديداً، ويطرد بخشونة.

و «يحض»: أى يحرض ويرغب الآخرين على شىء.

ويتواصل وصف هؤلاء المكذبين بالدين فتقول الآيات التالية: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ».

لا يقيمون للصلاة وزناً، ولا يهتمون بأوقاتها، ولا يراعون أركانها وشروطها وآدابها.

الصفة الرابعة والخامسة للمكذبين بالدين تذكرها الآيتان الأخيرتان: «الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ».

المجتمع الذى يتعود على الرياء لا يتعدى مجموعة من المظاهر، وإنها لمأساة أن يكون مصير الفرد ومصير المجتمع بهذا الشكل. فارغة خالية المحتوى، لا تتعدى مجموعة من المظاهر، وإنها لمأساة أن يكون مصير الفرد ومصير المجتمع بهذا الشكل.

من المؤكد أن أحد عوامل التظاهر والرياء عدم الإيمان بيوم القيامة، وعدم الرغبة بالثواب الإلهي. وإلا كيف يمكن للإنسان أن يترك ثوبه الله ويتجه إلى الناس ليتزلف إليهم.

«الماعون»: من «المعن» وهو الشىء القليل. وكثير من المفسرين قالوا: إن المقصود من «الماعون» الأشياء البسيطة التى يستعيرها أو يقتنيها الناس وخاصة الجيران من بعضهم، مثل حفنة الملح، والماء، والنار (الثقاب)، والأواني وأمثالها.

واضح أن الذى يبخل فى إعطاء مثل هذه الأشياء إلى غيره إنسان دنىء عديم الإيمان.

أى إنه بخيل إلى درجة الإباء عن إعطاء مثل هذه الأشياء.

فى أمالى الصدوق عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من منع الماعون جاره منعه الله خيره يوم القيامة، ووكله إلى نفسه، ومن وكله إلى نفسه فما أسوأ حاله».

«نهاية تفسير سورة الماعون»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٧

## ١٠٨. سورة الكوثر

سبب نزول السورة: فى المجمع قيل: نزلت السورة فى العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من المسجد، فالتقى عند باب بنى سهم، وتحدثا، واناس من صناديد قريش جلوس فى المسجد. فلما دخل العاص قالوا: من الذى كنت

تتحدث معه؟

قال: ذلك الأبر. وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو من خديجة. وكانوا يسمون من ليس له ابن، أبر. فسَمَّته قريش عند موت ابنه أبر وصنبوراً.

[فتزلت السورة تبشر النبي بالنعمة الوافرة والكوثر وتصف عدوه بالأبر].

ولمزيد من التوضيح نذكر أن النبي صلى الله عليه وآله كان له ولدان من ام المؤمنين خديجة عليها السلام أحدهما «القاسم» والآخر «الطاهر» ويسمى أيضاً عبد الله. وتوفي كلاهما في مكة، وأصبح النبي صلى الله عليه وآله من دون ولد. هذه المسألة وفرت للأعداء فرصة الطعن بالنبي فسَمَّوه الأبر «١».

والعرب حسب تقاليدها كانت تعير أهميةً بالغه للولد، وتعتبره امتداداً لمهام الأب. بعد وفاة عبد الله خال الأعداء أن الرسالة سوف تنتهي بوفاء الرسول صلى الله عليه وآله.

(١) كان للرسول صلى الله عليه وآله ابن آخر من «ماریة القبطية» اسمه إبراهيم، ولد في الثامنة للهجرة بالمدينة، ولكنه توفي أيضاً قبل بلوغ الثانية من عمره، وحزن عليه الرسول كثيراً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٨

السورة نزلت لترد على هؤلاء الأعداء بشكل إعجازي ولتقول لهم: إن عدو الرسول هو الأبر، وأن الرسالة سوف تستمر وتتواصل وهذه البشرية بددت من جهة آمال الأعداء وطيب خاطر النبي صلى الله عليه وآله بعد أن اغتم من لمز الأعداء وتآمرهم.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها سقاه الله من أنهار الجنة، واعطى من الأجر بعدد كل قربان قربه العباد في يوم عيد، ويقربون من أهل الكتاب والمشركين».

اسم هذه السورة (الكوثر) مأخوذة من أول آية فيها.

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) أعطيناك الخير العميم: الحديث في كل هذه السورة موجه إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (مثل سورة الضحى، وسورة الشرح)، وأحد أهداف هذه السور تسليئة قلب النبي إزاء ركاب الأحداث المؤلمة وطعون الأعداء. تقول له أولاً: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ».

و «الكوثر»: من الكثرة، وبمعنى الخير الكثير، ويسمى الفرد السخي كوثرًا. وفي معنى الكوثر: قال ابن عباس: لما نزلت «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ» صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر، فقرأها على الناس، فلما نزل قالوا: يا رسول الله! ما هذا الذي أعطاك الله؟ قال: «نهر في الجنة، أشد بياضاً من اللبن، وأشد استقامة من القدرح، حافته قباب الدر والياقوت».

وقيل: هو النبوة والكتاب، وقيل: هو القرآن. وقيل: هو كثرة الأصحاب والأشياء.

وقيل: هو كثرة النسل والذرية، وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة عليها السلام، حتى لا يحصى عددهم، واتصل إلى يوم القيامة مددهم. وقيل هو الشفاعة. روه عن الصادق عليه السلام.

ولكن هذه التفاسير تبين غالباً المصاديق البارزة لمعناها الواسع وهو «الخير الكثير».

إن كل الهبات الإلهية لرسول الله صلى الله عليه وآله في كل المجالات تدخل في إطار هذا الخير الكثير، ومن ذلك انتصاراته على الأعداء في الغزوات، بل حتى علماء امته الذين يحملون مشعل الإسلام والقرآن في كل زمان ومكان.

ولا ننسى أن كلام الله سبحانه تعالى لنبيه في هذه السورة كان قبل ظهور الخير الكثير،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٩

فهو إخبار بالمستقبل القريب والبعيد، إخبار إعجازي يشكل دليلاً آخر على صدق دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

هذا الخير الكثير يستوجب شكراً عظيماً، وإن كان المخلوق لا يستطيع أداء حق نعمة الخالق أبداً، إذ إن توفيق الشكر نعمة أخرى منه سبحانه، ولذا يقول سبحانه لنبيه: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ».

نعم، واهب النعم هو سبحانه. لذلك ليس ثمة معنى للعبادات إن كانت لغيره.

والأمر بالصلاة والنحر للربّ مقابل ما كان يفعله المشركون من سجودهم للأصنام ونحرهم لها، بينما كانوا يرون نعمهم من الله. وتعبير (لرّبك) دليل واضح على وجوب قصد القربة في العبادات.

وفي آخر آية يقول الله سبحانه لنبيه ردّاً على ما وصّاه به المشركون: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ». «الشانيء»: هو المعادى من «الشان» - على وزن ضربان - وهو العدا والحق.

و «أبتر»: في الأصل هو الحيوان المقطوع الذنب. وصدر هذا التعبير من أعداء الإسلام لإنتهاك الحرمه والإهانة. وكلمة (شانيء) فيها إيحاء بأنّ عدوك لا يراعى أيّة حرمة ولا يلتزم بأى أدب. أى أنّ عداوته مقرونة بالفظاظة والدناءة. والقرآن يقول لهؤلاء الأعداء في الواقع: إنكم أنتم تحملون صفة الأبتر لا رسول الله.

بحث

فاطمة عليها السلام والكوثر: قلنا إنّ «الكوثر» له معنى واسع يشمل كل خير وهبه الله لنبيه صلى الله عليه وآله، ومصاديقه كثيرة، لكن كثيراً من علماء الشيعة ذهبوا إلى أنّ «فاطمة الزهراء عليها السلام» من أوضح مصاديق الكوثر، لأنّ رواية سبب النزول تقول: إنّ المشركين وسموا النبي بالأبتر، أى بالشخص المعدوم العقب، وجاءت الآية لتقول: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ».

ومن هنا نستنتج أنّ الخير الكثير أو الكوثر هو فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنّ نسل الرسول صلى الله عليه وآله انتشر في العالم بواسطة هذه البنت الكريمة... وذريّة الرسول صلى الله عليه وآله من فاطمة عليها السلام لم يكونوا امتداداً جسمى للرسول فحسب، بل كانوا امتداداً رسالياً صانوا الإسلام وضحووا من أجل المحافظة عليه وكان منهم أئمة الدين الإثنى عشر، أو الخلفاء الإثنى عشر بعد النبي كما أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله في الأحاديث المتواترة بين السنّة والشيعة.

والفخر الرازى في استعراضه لتفاسير معنى الكوثر، يقول:

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٠

القول الثالث: «الكوثر» أولاده، قالوا لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه صلى الله عليه وآله بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مّر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يبق من بنى امية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم «١».

«نهاية تفسير سورة الكوثر»

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ١٢٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥١

## ١٠٩. سورة الكافرون

محتوى السورة: من لحن السورة نفهم أنّها نزلت في زمان كان المسلمون في أقلية والكفار في أكثرية، والنبي صلى الله عليه وآله يعانى من الضغوط التي تطلب منه أن يهادن المشركين، وأمام هذه الضغوط كان النبي يعلن صموده وإصراره على المبدأ، دون أن يصطدم بهم.

وفي هذا درس عبرة لكل المسلمين أن لا يساوموا أعداء الإسلام في مبادئ الدين مهما كانت الظروف، وأن يعيشوا اليأس في قلوبهم

متى ما بادروا إلى هذه المساومة.

فضيلة تلاوة السورة: في حديث ابى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ يا أيها الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر».

وشعيب الحداد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان أبى يقول: (قل يا أيها الكافرون) ربع القرآن، وكان إذا فرغ منها قال: أعبد الله وحده، أعبد الله وحده».

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٢

سبب النزول

في المجمع: نزلت السورة في نفر من قريش منهم الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن أبى وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب بن الأسد، وأميه بن خلف قالوا: هلم يا محمد فاتبع ديننا نتبع دينك، ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنه، ونعبد آلهتك سنه، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يديك كنت قد شركتنا فى أمرنا، وأخذت بحظك منه.

فقال صلى الله عليه وآله: «معاذ الله أن أشرك به غيره».

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك.

فقال: «حتى انظر ما يأتى من عند ربى».

فتزل «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»- السورة. فعدل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المسجد الحرام، وفيه المأذنة من قريش، فقام على رؤوسهم، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة. فأيسوا عند ذلك، فأذوه وآذوا أصحابه.

التفسير

لا- أهادن الكافرين: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ». والخطاب إلى قوم مخصوصين من الكافرين كما ذكر كثير من المفسرين، والألف واللام للعهد، وإنما ذهب المفسرون إلى ذلك لأن الآيات التالية تنفى أن يعبد الكافرون ما يعبده المسلمون وهو الله سبحانه فى الماضى والحال والمستقبل، والمجموعة المخاطبة بهذه الآيات بقيت بالفعل على كفرها وشركها حتى آخر عمرها، بينما دخل كثير من المشركين بعد فتح مكة فى دين الله أفواجاً.

«لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ». فهذه مسألة مبدئية لا تقبل المساومة والمهادنة والمداهنة.

«وَلَمَّا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ». لما تأصل فيكم من لجاج وعناد وتقليد أعمى لآبائكم، ولما تجدونه فى الدعوة من تهديد لمصالحكم وللأموال التى تدر عليكم من عبدة الأصنام.

ولمزيد من التأكيد وبث اليأس فى قلوب الكافرين، ولبيان حقيقة الفصل الحاسم بين منهج الإسلام ومنهج الشرك قال سبحانه: «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ». فعلى هذا لا معنى لإصراركم على المصالحة والمهادنة معى حول مسألة عبادة الأوثان فإنه أمر محال «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٣

لحن الآيات يوضح بجلاء أنها نوع من التحقير والتهديد، أى دعكم ودينكم فسترون قريباً وبال أمركم، تماماً مثل ما ورد فى الآية (٥٥) من سورة القصص: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ».

«نهاية تفسير سورة الكافرون»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٥

## ١١٠. سورة النصر

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في المدينة بعد الهجرة، وفيها بشرى النصر العظيم ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وتدعو النبي صلى الله عليه وآله أن يسبح الله ويحمده ويستغفره شكراً على هذه النعمة. في الإسلام فتوحات كثيرة، ولكن فتحاً بالمواسفات المذكورة في السورة ما كان سوى «فتح مكة» (١)، خاصة وأن العرب - كما جاء في الروايات - كانت تعتقد أن نبي الخاتم صلى الله عليه وآله لا يستطيع أن يفتح مكة إلا إذا كان على حق ... ولو لم يكن على حق فرب البيت يمنعه كما منع جيش أبرهه، ولذلك دخل العرب في دين الله بعد فتح مكة أفواجاً. قيل: إن هذه السورة نزلت بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، وقبل عامين من فتح مكة. ومن أسماء هذه السورة «التوديع» لأنها تتضمن خبر وفاة النبي صلى الله عليه وآله. في المجمع: قال مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها صلى الله عليه وآله على أصحابه ففرحوا واستبشروا، وسمعها العباس فبكى، فقال صلى الله عليه وآله: «ما يبكيك يا عم؟» فقال: أظن أنه قد نعت إليك نفسك يا

(١) فتح مكة فتح صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، ودحر الأعداء بعد عشرين عاماً من المقاومة، وتطهرت أرض الجزيرة العربية من الشرك والأوثان، والإسلام تأهب لدعوة بقيته أصقاع العالم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٦

رسول الله. فقال: «إنه لكما تقول». فعاش بعدها سنتين ما رؤى فيهما ضاحكاً متبشراً. فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها فكأنما شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فتح مكة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» في نافله أو فريضة نصره الله على جميع أعدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق، قد أخرج الله من جوف قبره، فيه أمان من حر جهنم ومن النار، ومن زفير جهنم، يسمعه باذنيه، فلا يمر على شيء يوم القيامة إلا بشّره، وأخبره بكل خير حتى يدخل الجنة».

إن هذه الفضائل لمن قرأ هذه السورة فسلوك مسلك رسول الله وعمل بسيرته وسنته.

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣) عند انبلاج فجر النصر: في هذه السورة دار الحديث عن نصره الله، ثم عن «الفتح» والانتصار، وبعدها عن اتساع رقعة الإسلام ودخول الناس في دين الله زرافات ووحداً.

نعم، لا بد من إعداد القوة للغلبة على العدو، لكن الإنسان الموحد يؤمن أن النصر من عند الله وحده، ولذلك لا يغتر بالنصر، بل يتجه إلى شكر الله وحده.

وبين هذه الثلاثة إرتباط علو ومعول، فبنصر الله يتحقق الفتح، وبالفتح تزال الموانع من الطريق ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

بعد هذه المراحل الثلاث - التي يشكل كل منها نعمة كبرى - تحل المرحلة الرابعة وهي مرحلة الشكر والحمد.

من جهة أخرى نصر الله والفتح هدفهما النهائي دخول الناس في دين الله وهدايته البشرية.

«التسبيح»: تنزيه الله من كل عيب ونقص.

و«الحمد»: لوصف الله بالصفات الكمالية.

و «الإستغفار»: إزاء تقصير العبد.

هذا الفتح العظيم ينبغي أن لا يؤدى بالإنسان إلى الظن بأن الله يترك أنصاره وحدهم (ولذلك جاء أمر التسييح لتزويه من هذا النقص) و أن يعلم المؤمنون بأن وعده الحق (موصوف بهذا الكمال)، وأن يعترف العباد بنقصهم أمام عظمة الله.

«نهاية تفسير سورة النصر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٧

## ١١١. سورة المسد

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في أوائل الدعوة العلية. وهى السورة الوحيدة التى تحمل هجوماً شديداً بالاسم على أحد أعداء الإسلام والنبي صلى الله عليه و آله آنذاك وهو أبولهب. ومن السورة يتضح أنه كان يحمل عداً خاصاً للنبي ويمارس هو وزوجه كل أنواع الأذى بحقه.

القرآن يصرح بأنهما أهل جهنم، وليس لهما طريق للنجاة، وتحققت هذه النبوءة القرآنية، وكلاهما مات على الكفر. فضيلة تلاوة السورة: فى حديث ابى عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبى لهب فى دار واحدة».

إن هذه الفضيلة نصيب من بقراءتها يفصل مسيرته عن مسيرة أبى لهب، لا من يقرأها بلسانه ويعمل عمل أبى لهب فى أفعاله.

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ (٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٨

سبب النزول

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه و آله ذات يوم الصفا فقال: «يا صباحاه!» فأقبلت إليه قريش، فقالوا له: ما لك؟ فقال: «أرايتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقونى». قالوا: بلى. قال: «فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

فقال أبولهب: تبا لك! ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله هذه السورة.

ويروى عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لما نزلت هذه السورة، أقبلت العوراء ام جميل بنت حرب، ولها ولولؤه وفى يدها فهر، وهى تقول: مذمماً أئينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

والنبي صلى الله عليه و آله جالس فى المسجد ومعه أبوبكر. فلما رآها أبوبكر قال: يا رسول الله! قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، قال رسول الله صلى الله عليه و آله «إنها لن ترانى». وقرأ قرآناً فاعتصم به، كما قال:

«وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا» [الإسراء:

٤٥] فوفقت على أبى بكر، ولم تر رسول الله صلى الله عليه و آله فقالت: يا أبابكر! أخبرت أن صاحبك هجانى. فقال: لا ورب البيت ما هجاك. فولت وهى تقول: قريش تعلم أنى بنت سيدها.

التفسير

هذه السورة- كما ذكرنا فى سبب نزولها- ترد على بذات أبى لهب عم النبي صلى الله عليه و آله وابن عبد المطلب. وكان من ألد أعداء الإسلام، وحين صدح النبي صلى الله عليه و آله بدعوته واعلنها على قريش وأنذرهم بالعذاب الإلهى قال: تبا لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟!

والقرآن يرد على هذا الإنسان البذء ويقول له: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ».

في المجمع: قال طارق المحاربي: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول: «يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس! إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد، يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبولهب يزعم أنه كذاب «١».

وفي رواية أخرى: وكان من عظيم خطر أبي لهب ضد الدعوة الإسلامية أنه كلما جاء وفد إلى النبي صلى الله عليه وآله يسألون عنه عمه أبالهب - اعتباراً بكبره وقرابته وأهميته - كان يقول لهم:

إنه ساحر، فيرجعون ولا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إننا لم نزل

(١) مجمع البيان ١٠ / ٥٥٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٩

نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً «١».

من هذه الروايات نفهم بوضوح أن أبالهب كان يتبع النبي صلى الله عليه وآله غالباً كالظل، وما كان يرى سبيلاً لإيذائه إلا سلكه، وكان يقذعه بأفظع الألفاظ، ومن هنا كان أشد أعداء الرسول والرسالة، ولذلك جاءت هذه السورة لترد على أبي لهب وامرأته بصراحة وقوة.

«مَا أَعْنَى عَنَّهُ مَالَهُ وَمَا كَسَبَ»، فليس بإمكان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الإلهي «سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ».

من الآية الأولى نفهم أنه كان ثرياً ينفق أمواله في محاربة النبي صلى الله عليه وآله.

وأبولهب ناره ذات لهب يصلها يوم القيامة، وقيل: يصلها في الدنيا قبل الآخرة.

و«لهب» جاءت بصيغة النكرة لتدل على عظمه لهب تلك النار.

لا أبالهب ولا أي واحد من الكافرين والمنحرفين تغنيه أمواله ومكانته الاجتماعية من عذاب الله، كما يقول سبحانه: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» «٢».

بل لم تغنه في الدنيا من سوء المصير.

في تفسير مجمع البيان: قال بكرم، قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم وكان يكتنم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبولهب عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك صنعوا لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً.

فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قریش كبتة الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، قال: وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح أنحتها في حجره زمزم، فوالله إنني لجالس فيها أنحت القداح وعندى أم الفضل جالساً، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبولهب، يجزّ رجله حتى جلس على طنب الحجر، فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان ابن حرث بن عبد المطلب، وقد قدم. فقال أبو لهب، هلم إلي يا ابن أخي فعندك الخبر. فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي!

(١) تفسير الفرقان ٣٠ / ٥٠٣.

(٢) سورة الشعراء / ٨٨ و ٨٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٠

أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله إن كان إلّا أن لقيناهم فمحنناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، بين السماء والأرض، ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طرف الحجر بيدي، ثم قلت: تلك الملائكة. قال: فرغ أبو لهب يده وضرب وجهي ضربة شديدة، فشاورته واحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك على يضر بني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجر، فأخذته فضربته ضربة فلقت رأسه شجّة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلّا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة، فقتله.

ولقد تركه أبناء ليلتين أو ثلاثاً ما يدفناه حتى أنتن في بيته وكانت قريش تتقى العدسة كما يتقى الناس الطاعون، حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان إن أباكما قد أنتن في بيته لا تغيبان؟ فقالا: إننا نخشى هذه القرحة. قال: فانطلقا فأنا معكما، فما غسلوه إلّا قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يسمونه، ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه بالحجارة، حتى واروه.

«وَأَمْرًا أَنَّهُ حَمَالَةٌ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ».

الآيتان تتحدثان عن أم جميل امرأة أبي لهب، وأخت أبي سفيان، وعمّة معاوية، وتصفانها بأنّها تحمل الحطب كثيراً، وفي عنقها جبل من ليف.

ولماذا وصفها القرآن بأنّها حمالة الحطب؟

قيل: لأنّها كانت تأخذ الحطب المملوء بالشوك وتضعه على طريق رسول الله صلى الله عليه وآله لتدمي قدماء.

«نهاية تفسير سورة المسد»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦١

## ١١٢. سورة الاخلاص

محتوى السورة: هذه السورة تركز على توحيد الله.

في الكافي في نزول السورة عن محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن اليهود سألو رسول الله فقالوا: أنسب لنا ربك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم. ثم نزلت قل هو الله أحد إلى آخرها».

وفي الإحتجاج عن العسكري عليه السلام إن السائل عبد الله بن سوريا اليهودي. وفي بعض روايات أهل السنة إن السائل عبد الله بن سلام سأله صلى الله عليه وآله ذلك بمكة ثم آمن وكنتم إيماناً. وفي بعضها أن أناساً من اليهود سألوه ذلك وفي غير واحد من رواياتهم أن مشركي مكة سألوه ذلك.

فضيلة تلاوة السورة: وردت في فضيلة هذه السورة نصوص كثيرة تدل على مكانة هذه السورة بين سور القرآن. في المجمع عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ قلت: يا رسول الله! ومن يطيق ذلك؟ قال: «أقرأوا قل هو الله أحد».

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن النبي صلى الله عليه وآله صلى على سعد بن معاذ. فقال: لقد وافى من الملائكة سبعون ألفاً ملكك، وفيهم جبرئيل عليه السلام يصلون عليه فقلت: يا جبرئيل بما يستحق صلاتكم عليه؟ قال: بقراءته قل هو الله أحد قائماً، وقاعداً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٢

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: «من مضى به يوم واحد فصلّى فيه الخمس صلوات ولم يقرأ فيها بقل هو الله



أحد، قيل له: يا عبد الله لست من المصلين».

وفى المجمع عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فشكا إليه الفقر، وضيق المعاش. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا دخلت بيتك، فسلم إن كان فيه أحد، وإن كان لم يكن فيه أحد، فسلم واقرأ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» مرة واحدة».

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) جواباً عن الأسئلة المكررة التي طرحت من قبل الأفراد والجماعات بشأن أوصاف الله سبحانه تقول الآية: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ».

الضمير (هو) في الآية للمفرد الغائب ويحكي عن مفهوم مبهم، وهو في الواقع يرمز إلى أن ذاته المقدسة في نهاية الخفاء، ولا تنالها أفكار الإنسان المحدودة وإن كانت آثاره أظهر من أي شيء آخر، كما ورد في الآية (٥٣) من سورة فصلت: «سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

ثم بعد الضمير تكشف الآية عن هذه الحقيقة الغامضة وتقول: «اللَّهُ الصَّمَدُ».

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر بليته، فقلت له: علمني شيئاً أنصر به على الأعداء. فقال: قل: يا هو، يا من لا هو إله هو. فلما أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي: يا على علمت الإسم الأعظم، فكان على لساني يوم بدر».

«... كان على عليه السلام يقول ذلك يوم صفين وهو يطارد، فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: اسم الله الأعظم وعماد التوحيد لله لا إله إلا هو...» (١).

«الله» اسم علم للبارئ سبحانه وتعالى. ومفهوم كلام الإمام على عليه السلام أن جميع صفات الجلال والجمال الإلهية اشير إليها بهذه الكلمة، ومن هنا سميت باسم الله الأعظم.

(١) التوحيد للشيخ الصدوق / ٨٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٣

هذا الإسم لا يطلق على غير الله، بينما أسماء الله الأخرى تشير عادة إلى واحدة من صفات جماله وجلاله مثل: العالم والخالق والرازق، وتطلق غالباً على غيره أيضاً مثل: (رحيم، وكريم، وعالم، وقادر...).

هذا الإسم المقدس تكرر أكثر من «ألف مرة» في القرآن الكريم، ولم يبلغه أي اسم من الأسماء المقدسة في مقدار تكراره. وهو اسم ينير القلب، ويبعث في الإنسان الطاقة والطمأنينة، ويغمر وجوده صفاءً ونوراً.

«أحد»: يعنى الله أحد وواحد، لا بمعنى الواحد العددي أو النوعي أو الجنسي، بل بمعنى الوحدة الذاتية. بعبارة أوضح: وحدانيته تعنى عدم وجود المثل والشبيه والنظير.

الدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهية من كل جهة، ومن المسلم أنه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهيتين من كل جهة، إذ لو كان ثمة ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، ولما كان لكل واحدة منهما كمالات الأخرى (تأمل بدقة).

«اللَّهُ الصَّمَدُ». وهو وصف آخر لذاته المقدسة.

وفى جامع الأخبار: سئل ابن الحنفية عن الصمد، فقال: قال على عليه السلام: «تأويل الصمد لا اسم ولا جسم، ولا مثل ولا شبه، ولا صورة ولا تمثال، ولا حد ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمة، ولا ملاً ولا خلاً، ولا قيام ولا قعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلماني ولا نوراني، ولا روحاني ولا نفساني، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع، ولا على لون، ولا على خطر

قلب، ولا على شَم رائحة، منفي عنه هذه الأشياء».

هذه الرواية توضّح أنّ «الصمد» له مفهوم واسع ينفي كل صفات المخلوقين عن ساحته المقدسة.

الآية التالية تردّ على معتقدات اليهود والنصارى ومشركي العرب وتقول: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ».

إنّها ترد على المؤمنين بالتثليث (الربّ الأب، والربّ الإبن، وروح القدس).

النصارى تعتقد أنّ المسيح ابن الله، واليهود ذهبت إلى أنّ العزيز ابن الله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ

ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٤

كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (١).

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله: «وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (٢).

ثم تبلغ الآية الأخيرة غايه الكمال في أوصاف الله تعالى: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». أي ليس له شبيهه ومثل اطلاقاً.

«الكفو»: هو الكفاء في المقام والمنزلة والقدر، ثم اطلقت الكلمه على كل شبيهه ومثيل.

استناداً إلى هذه الآية، الله سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين وصفات الموجودات وكل نقص ومحدودية، وهذا هو التوحيد الذاتي

والصفاتى، مقابل التوحيد العددي.

من هنا فهو تبارك وتعالى لا شبيهه له في ذاته، ولا نظير له في صفاته، ولا مثيل له في أفعاله، وهو متفرد لا نظير له من كل الجهات.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول في الخطبة (١٨٦) نهج البلاغه: «لم يلد فيكون مولوداً، ولم يولد فيصير محدوداً ... ولا كفاء له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه».

هذا التفسير الرائع يكشف عن أسمى معاني التوحيد وأدقها.

بحوث

الأول: التوحيد: التوحيد يعني وحدانية ذات الله تعالى ونفى أى شبيهه ومثيل له، وإضافة إلى الدليل النقلى المتمثل في النصوص الدينية ثمة دلائل عقلية كثيرة أيضاً تثبت ذلك نذكر قسماً منها باختصار:

١- برهان صرف الوجود: وملخصه أنّ الله سبحانه وجود مطلق لا يحده قيد ولا شرط، ومثل هذا الوجود سيكون غير محدود دون شك، فلو كان محدوداً لمُنَى بالعدم، والذات المقدسة التى ينطلق منها الوجود لا يمكن أن يعترضها العدم والفناء، وليس فى الخارج شىء يفرض عليه العدم، ولذلك لا يحده حدّ.

(١) سورة التوبة / ٣٠.

(٢) سورة الأنعام / ١٠٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٥

من جهة اخرى لا يمكن تصوّر وجودين غير محدودين فى العالم، إذ لو كان ثمة وجودان لكان كل واحد منهما فاقداً حتماً لكمالات الآخر، أى لا يملك كمالاته، ومن هنا فكلاهما محدودان، وهذا دليل واضح على وحدانية ذات واجب الوجود (تأمل بدقّة).

٢- البرهان العلمى: عندما ننظر إلى الكون الذى يحيط بنا، نلاحظ فى البدايه موجودات متفرقة ... الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات والحيوانات، وكلّما ازددنا إمعاناً فى النظر الفينا مزيداً من الترابط والانسجام بين أجزاء هذا العالم وذراته، وظهر لنا أنّه مجموعة واحدة تتحكم فيها جميعاً قوانين واحدة.

هذه الوحدة فى نظام الوجود، والقوانين الحاكمة عليه، والانسجام التام بين أجزائه كلّها ظواهر تشهد على وحدانية الخالق.

٣- برهان التمانع: (الدليل العلمي الفلسفي)، وهو دليل آخر على إثبات وحدانية الله، مستلهم من قوله سبحانه: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَهًا لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» (١).

٤- دعوة الأنبياء إلى الله الواحد الأحد: وهو دليل آخر على وحدانية الله، إذ لو كان هناك خالقان كل واحد منهما واجب الوجود في العالم، لاستلزم أن يكون كل واحد منهما منبعاً للفيض، فلا يمكن لوجود ذي كمال مطلق أن ييخل في الإفاضة لأن عدم الفيض نقص بالنسبة للوجود الكامل، وحكمته تستوجب أن يشمل الجميع بفيضه.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول لإبنيه الحسن المجتبي عليه السلام وهو يوصيه: «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه» (٢).

الثاني: فروع دوحه التوحيد: تذكر للتوحيد عادة أربعة فروع:

١- توحيد الذات: (وهو ما شرحناه أعلاه).

٢- توحيد الصفات: أي إن صفات الله ليست زائدة على ذاته، وليست منفصلة عن بعضها، بل هو وجود كله علم، وكله قدرة، وكله أزلية وأبدية.

ولو لم يكن ذلك لاستلزم التركيب، وإن كان مركباً لاحتاج إلى الأجزاء والمحتاج لا يكون واجباً للوجود.

(١) سورة الأنبياء / ٢٢.

(٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٦

٣- التوحيد الأفعالي: ويعنى أن كل وجود وكل حركة وكل فعل في العالم يعود إلى ذاته المقدسة، حتى الأفعال التي تصدر منا هي في أحد المعاني صادرة عنه، فهو الذي منحنا القدرة والاختيار وحرية الإرادة، ومع أننا نفعل الأفعال بأنفسنا، وأنا مسؤولون تجاهها. فالفاعل من جهة هو الله سبحانه لأن كل ما عندنا يعود إليه: (لا مؤثر في الوجود إلا الله).

٤- التوحيد في العبادة: أي تجب عبادته وحده دون سواه، ولا يستحق العبادة غيره، لأن العبادة يجب أن تكون لمن هو كمال مطلق، ومطلق الكمال، لمن هو غني عن الآخرين، ولمن هو واهب النعم وخالق كل الموجودات وهذه صفات لا تجتمع إلا في ذات الله سبحانه.

الثالث: التوحيد الأفعالي: توحيد الأفعال له بدوره فروع كثيرة نشير إلى ستة من أهمها:

١- توحيد الخالقية: والقرآن الكريم يقول في الآية (١٦) من سورة الرعد: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ».

ودليله واضح، فحين ثبت بالأدلة السابقة أن واجب الوجود واحد، وكل ما عداه ممكن الوجود، يترتب على ذلك أن خالق كل الموجودات واحد أيضاً.

٢- توحيد الربوبية: أي إن الله وحده هو مدبر العالم ومربيه ومنظمه؛ كما جاء في الآية (١٦٤) من سورة الأنعام: «قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أُنْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ».

دليل ذلك أيضاً وحده واجب الوجود، وتوحيد الخالق في عالم الكون.

٣- التوحيد في التقنين والتشريع: يقول سبحانه في الآية (٤٤) من سورة المائدة:

«وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

لما ثبت أنه سبحانه هو المدير والمدبر، فليس لأحد غيره حتماً صلاحية التقنين. إذ لا سهم لغيره في تدبير العالم كي يستطيع أن يضع قوانين منسجمة مع نظام التكوين.

٤- التوحيد في المالكية: سواء «الملكية الحقيقية» أي السلطة التكوينية على الشيء، أم «الملكية الحقيقية» وهي السلطة القانونية على الشيء، فهي له سبحانه؛ كما في الآية (١٨٩) من سورة آل عمران يقول تعالى: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». وفي الآية (٧) من سورة الحديد يقول سبحانه: «وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلْنَا لَكُم مَّسْتَحْلِفِينَ فِيهِ».

والدليل على ذلك هو نفس الدليل على توحيد الخالق، وحين يكون هو سبحانه خالق كل شيء فهو مالك كل شيء أيضاً، فكل ملكية يجب أن تستمد وجودها من مالكيته.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٧

٥- توحيد الحاكمية: لا بد للمجتمع البشري من حكومة، لأن الحياة الاجتماعية تتطلب ذلك، فلا يمكن بدون حكومة أن تقسم المسؤوليات، وتنظم المشاريع، ويحال دون التعدي والتجاوز.

ومن جهة أخرى، مبدأ الحرية يقرر أن لا أحد له حق الحكومة على أحد، إلا إذا سمح بذلك المالك الأصلي والصاحب الحقيقي. من هنا فالإسلام يرفض كل حكومة لا تنتهي إلى الحكومة الإلهية ومن هنا أيضاً نرى شرعية الحكم للنبي صلى الله عليه وآله وللأنبياء المعصومين عليهم السلام ثم للفقهاء الجامع للشرائط بعدهم.

ومن الممكن أن يجيز الناس أحداً ليحكمهم، ولكن اتفاق الناس بأجمعهم غير ممكن في مجتمع عادة، ولذلك لا يمكن إقامة مثل هذه الحكومة عملياً (١).

٦- توحيد الطاعة: الله سبحانه هو وحده «واجب الإطاعة» في هذا الكون، وهو تعالى مصدر مشروعية إطاعة غيره، أي إن إطاعة غيره يجب أن تعدّ إطاعة له.

دليل ذلك واضح أيضاً، حين تكون الحاكمية له دون سواه فيجب أن يكون هو المطاع دون غيره، ولذلك نحن نعتبر إطاعتنا للأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن ينوب عنهم هي انعكاس عن طاعتنا لله؛ كما في الآية (٥٩) من سورة النساء يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». وفي الآية (٨٠) من نفس السورة يقول تعالى: «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ».

«نهاية تفسير سورة الإخلاص»

(١) لذلك إذا تعينت حكومة عن طريق الانتخابات وبأكثرية الأصوات، فلا بد من تنفيذ الفقيه الجامع للشرائط كي تكون لها شرعية إلهية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٩

### ١١٣. سورة الفلق

محتوى السورة: تتضمن السورة تعاليم للنبي صلى الله عليه وآله خاصة، وللناس عامة تقضى أن يستعينوا بالله من شر كل الأشرار، وأن يوكلوا أمرهم إليه، ويأمنوا من كل شر في اللجوء إليه.

فضيلة السورة: عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «انزلت عليّ آيات لم ينزل مثلهنّ المعوذتان». وأبو عبيدة الحذاء عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين، وقل هو الله أحد، قيل له: يا عبد الله! أبشر فقد قبل الله وترك».

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا عقبه! ألا اعلمك سورتين هما أفضل القرآن، أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله. فعلمني المعوذتين، ثم قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي: «إقرأهما كلما قمت ونمت».

إن هذه الفضائل نصيب من جعل روحه وعقيدته وعمله منسجماً مع محتوى السورة.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٠

ربّ الفلق أعوذ: يخاطب الله سبحانه نبيّه باعتباره الاسوء والقذوة، ويقول له: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ».

«الفلق»: من «فلق» أى شقّ وفصل؛ وسمى طلوع الصبح بالفلق لأنّ ضوء الصبح يشق ظلمة الليل؛ ومثله الفجر، اطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبة.

وقيل: إنّ الفلق يعنى ولادة كل الموجودات الحيّة، بشريه كانت أم حيوانيه أم نباتيه.

فولادة هذه الموجودات تقترن بفلق حبتها أو بيضتها، والولادة من أعجب مراحل وجود هذه الأحياء.

وقيل: إنّ الفلق له معنى واسع يشمل كل خلق، لأنّ الخلق، هو شقّ ستار العدم لسطع نور الوجود.

وكل واحد من هذه المعاني الثلاثة (طلوع الصبح- وولادة الموجودات الحيّة- وخلق كل موجود) ظاهرة عجيبة تدل على عظمة البارئ والخالق والمدبّر، ووصف الله بذلك له مفهوم عميق.

«مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» ... من كل موجود شرّير من الإنس والجن والحيوان وحوادث الشرّ والنفس الأمارة بالسوء، وهذا لا يعنى أنّ الخلق الإلهي ينطوي في ذاته على شرّ، لأنّ الخلق هو الإيجاد، والإيجاد خير محض. يقول سبحانه: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» (١).

بل الشرّ يعرض المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلقة، وتنسلخ عن المسير المعين لها، على سبيل المثال، أنياب الحيوانات وسيلة دفاعية تستخدمها أمام الأعداء، كما نستخدم نحن السلاح للدفاع مقابل العدو، فلو أنّ هذا السلاح استخدم في محله فهو خير، وإن لم يستعمل في محله كأن صوّب تجاه صديق فهو شرّ.

وجدير بالذكر أنّ كثيراً من الامور نحسبها شرّاً وفي باطنها خير كثير، مثل الحوادث والبلايا التي تنفض عن الإنسان غبار الغفلة وتدفعه إلى التوجه نحو الله هذه ليس من الشرّ حتماً.

«وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ». «غاسق»: من الغسق، وهو شدة ظلمة الليل في منتصفه.

«غاسق»: تعنى إذن في الآية: الفرد المهاجم، أو الموجود الشرّير الذي يتستر بظلام الليل لشنّ هجومه.

«وقب»: من الوقب، وهو الحفرة، ثم استعمل الفعل «وقب» للدخول في الحفرة؛ وكأنّ

(١) سورة السجدة / ٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧١

هذه الموجودات الشريرة المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضارة لتحقيق مقاصدها الخبيثة، وقد يكون الفعل يعنى: نفدّ وتوغّل. «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ».

«النفثات»: من «النفث» وهو البصق القليل؛ ولما كان البصق مقروناً بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنى نفخ أيضاً.

كثير من المفسرين قالوا إنّ «النفثات» هي النساء الساحرات، وهي صيغة جمع للمؤنث ومبالغة من نفث، وهذه النسوة كن يقرأن الأوراد وينفخن في عقد، وبذلك يعملن السحر، وقيل: إنّها إشارة للنساء اللاتي كن يوسوسن في اذن الرجال وخاصة الأزواج ليتنوهم عن عزمهم وليوهنوا إرادتهم في أداء المهام الكبرى.

الفخر الرازي يقول أنّ النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة (١).

وهذا المعنى في عصرنا أظهر من أى وقت آخر، إذ إن إحدى أهم وسائل نفوذ الجواسيس في أجهزة السياسة العالمية استخدام النساء، اللاتي يفتحن في العقد، فتفتح مغاليق الأسرار في القلوب ويحصلن على أدق الأسرار.

وقيل: إن النفثات هي النفوس الشريرة، أو الجماعات المشككة التي تبعث بوساوسها عن طريق وسائل إعلامها لتوهن عزيمة الجماعات والشعوب.

ولا يستبعد أن تكون الآية ذات مفهوم عام جامع يشمل كل اولئك ويشمل أيضاً النمامين والذين يهدمون بنیان المحبة بين الأفراد. «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ».

هذه الآية تبين أن الحسد أسوأ الصفات الرذيلة وأخطرها، لأن القرآن وضعه في مستوى أعمال الحيوانات المتوحشة والثعابين اللاسعة والشياطين الماكرة.

«الحسد»: خصلة سيئة شيطانية تظهر في الإنسان نتيجة عوامل مختلفة؛ مثل: ضعف الإيمان، وضيق النظر، والبخل. وهو يعنى طلب وتمنى زوال النعمة من شخص آخر.

الحسد منبع لكثير من الذنوب الكبيرة.

في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب».

«نهاية تفسير سورة الفلق»

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ١٩٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٣

## ١١٤. سورة الناس

محتوى السورة: الإنسان معرض دائماً لوساوس الشيطان، وشياطين الجن والانس يسعون دائماً للنفوذ في قلبه وروحه، ومقام الإنسان في العلم مهما ارتفع، ومكانته في المجتمع مهما سمت يزداد تعرضه لوساوس الشياطين ليعدهه عن جادة الحق. وليبيدوا العالم بفساد العالم.

هذه السورة تأمر النبي صلى الله عليه وآله باعتباره القدوة والاسوة أن يستعيد بالله من شر الموسوسين.

محتوى هذه السورة شبيه بمحتوى سورة الفلق، فكلاهما يدوران حول الإستعاذة بالله من الشرور والآفات، مع فارق أن سورة الفلق تتعرض لأنواع الشرور، وهذه السورة تركز على شرّ (الوساوس الخناس).

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع عن الفضل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله اشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأناه جبرائيل وميكائيل عليهما السلام، فقعد جبرائيل عليه السلام عند رأسه وميكائيل عند رجليه، فعوذ جبرائيل بقل أعوذ برب الفلق وميكائيل بقل أعوذ برب الناس».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٤

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) بِرَبِّ النَّاسِ أَعُوذُ: في هذه السورة يتجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله باعتباره الاسوة والقدوة: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ».

يلاحظ أن الآيات ركزت على ثلاث من صفات الله سبحانه هي (الربوبية والمالكية والالوهية) وترتبط كلها ارتباطاً مباشراً بتربية الإنسان ونجاته من براثن الموسوسين.

المقصود من الإستعاذة بالله ليس طبعاً ترديد الإستعاذة باللسان فقط، بل على الإنسان أن يلجأ إليه جلاً وعلا في الفكر والعقيدة والعمل أيضاً، مبتعداً عن الطرق الشيطانية والأفكار المضللة الشيطانية، والمناهج والمسالك الشيطانية والمجالس والمحافل الشيطانية، وبتجهاً على طريق المسيرة الرحمانية، وإلماً فإن الإنسان الذي أرخى عنان نفسه تجاه وساوس الشيطان لا تكفيه قراءة هذه السورة ولا تكرار الفاظ الإستعاذة باللسان.

على المستعيز الحقيقي أن يقرن قوله «رب الناس» بالإعتراف بربوبية الله تعالى، وبالإنضواء تحت تربيته؛ وأن يقرن قوله «ملك الناس» بالخضوع لمالكه، وبالطاعة التامة لأوامره؛ وأن يقرن قوله: «إله الناس» بالسير على طريق عبوديته، وتجنب عبادة غيره.

ومن كان مؤمناً بهذه الصفات الثلاث؛ وجعل سلوكه منطلقاً من هذا الإيمان فهو دون شك سيكون في مأمن من شرّ الموسوسين.

هذه الأوصاف الثلاثة تشكل في الواقع ثلاثة دروس تربوية هامة ... ثلاث سبل وقاية ...

وثلاث طرق نجاه من شرّ الموسوسين، إنها تؤمن على مسيرة الإنسان من الأخطار.

«مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ».

«الوسواس»: أصلها- كما يقول الراغب في المفردات- صوت الحلي (اصطكاك حلية بحلية)، ثم اطلق على أى صوت خافت، ثم على ما يخطر في القلب من أفكار وتصورات سيئة، لأنها تشبه الصوت الباهت الذي يوسوس في الاذن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٥

«الوسواس»: مصدر، ويأتى بمعنى اسم الفاعل بمعنى الوسوس، وهى فى الآية بهذا المعنى.

«الخناس»: صيغة مبالغة من الخنوس وهو التراجع، لأن الشياطين تتراجع عند ذكر اسم الله؛ والخنوس له معنى الإختفاء أيضاً، لأن التراجع يعقبه الإختفاء عادة.

فقوله سبحانه: «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ». أى: أعوذ بالله من شرّ الوسوس ذى الصفة الشيطانية الذى يهرب ويختفى من ذكر اسم الله.

عمل الشيطان هو التزيين، واخفاء الباطل تحت طلاء الحق، والكذب فى قشر من الصدق، والذنب فى لباس العبادة، والضلال خلف ستار الهداية.

وبإيجاز، الموسوسون متسترون، وطرقهم خفية، وفى هذا تحذير لكل سالكى طريق الله أن لا يتوقعوا رؤية الشياطين فى صورتهم الأصلية، أو رؤية مسلكهم على شكله المنحرف.

أبدأ ... فهم موسوسون خناسون ... وعملهم الحيلة والمكر والخداع والتظاهر والرياء وإخفاء الحقيقة.

جمله «مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ» تنبيه على حقيقة هامة هى إن «الوسواس الخناس» لا ينحصر وجوده فى مجموعة معينة، ولا فى فئة خاصة، بل هو موجود فى الجن والإنس ... فى كل جماعة وفى كل ملبس، فلا بد من الحذر منه أينما كان، والإستعاذة بالله منه فى كل أشكاله وصوره.

أصدقاء السوء، والجلساء المنحرفون، وأئمة الظلم والضلال، والولاء الجبارة الطواغيت، والكتاب والخطباء الفاسدون، والمدارس الإلحادية والإلتقاطية المخادعة، ووسائل الإعلام المزورة الملققة، كلها هى وأمثالها تدرج ضمن المفهوم الواسع للوسواس الخناس وتتطلب من الإنسان أن يستعيز بالله منها.

فى أمالى للشيخ الصدوق عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» [آل عمران: ١٣٥] صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية، فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين، فقال: أنا لها بكذا وكذا. قال: لست لها. فقام

آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها. فقال الوسواس الخناس:

أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٦

الإستغفار، فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة».

«نهاية تفسير سورة الناس»

اللهم! احفظنا من شر كل وسواس خناس.

ربنا! التآمر دقيق، والعدو متربص، والمخططات خفية رهيبه، ولا نجاه منها إلا بلطفك وفضلك.

يا كريم! بفضلك وبمنك وبعمتك استطعت بعد ثلاثة عاماً أن نهى هذا التفسير.

يا غفور ويا رحيم! تعلم أننا في هذه اللحظات مغمورون بفرحة ممزوجة بالشكر فنبتهل إليك ونتضرع أن تغفر لنا زلاتنا فإنك أرحم

الراحمين.

وتقبل منا يا رب هذا الجهد المتواضع بكرمك، واجعله لنا ذخراً يوم نلقاك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قم - الحوزة العلميّة

أحمد - على بابائي

١٣ رجب ١٤٢٧

### تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رجم الله عبداً أحمياً أمرنا... يتعلم علومنا ويعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن

كلامنا لأتبعونا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ

الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصبهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رحمه الله - كان أحداً من جهابذة هذه

المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و

بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره ودرايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠

الهجرية القمرية)، مؤسسة وطريقة لم ينطفي مصباحها، بل تتبّع بأقوى وأحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحرّي الحاسوبي - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة وطلاب

الجوامع، بالليل والنهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية وعلمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة وتبسيط ثقافة الثقلين (كتاب الله واهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و

عموم الناس إلى التحرّي الأدقّ للمسائل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئة - في المحاميل

(=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافية على أساس معارف القرآن و اهل البيت

-عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم

الإسلامية، إناله منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات -



في آكناف البلد - و نشر الثقافة الاسلاميه و الايرانيه - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي " القائمية www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخر

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كمشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد

جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسه " الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفترق" و فائى/ "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسيه (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكوميه، و غير ربحيه، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافى الحجم

المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحاليه و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى

بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم

- في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

